

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية أصول الدين والشريعة

والحضارة الإسلامية

قسم العقيدة ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

# التصير وموقفه من النهضة

## الحضارية المعاصرة في الجزائر

\* القسم الأول \*

رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه الدولة في العقيدة

إشراف:

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي

الأستاذ الدكتور محمد زرمان

إعداد:

اسعيد عليوان

لجنة المناقشة:

-1

-2

-3

-4

السنة الجامعية 2001/2000

## التمهيد

### التبشير والاستعمار

موضوع بحثنا يقتضي منا - لما له من الأهمية - أن نمهد له بالحديث عن الاستعمار والتبشير ، وذلك لأن نشأة التبشير في الجزائر مرتبطة أساسا بدخول الاستعمار الفرنسي . ولكي نبين العلاقة بين التبشير والاستعمار ارتأينا أن يكون التمهيد مبينا لثلاث قضايا جوهرية:

- 1- أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية والثقافية قبل الاستعمار الفرنسي ، وذلك لكي تبرز لنا أهمية الجزائر بالنسبة لأهداف المبشرين ، وأهداف الاستعمار من الاحتلال ، كما يتبين من خلالها الظروف التي أدت إلى الاستعمار .
- 2- العلاقة بين التبشير والاستعمار في الجزائر : وذلك لكي تبرز لنا علاقة التلازم بين الاستعمار والتبشير ، وكيف تحقق ذلك واقعا ، وكيف مكن كل منهما للآخر ، لخدمة غاية واحدة قد تظهر بوجوه مختلفة ، وهي محو الإسلام واسترجاع المسيحية لما أخذه منها ، وهيمنة الحضارة الغربية على المسلمين ، وأخذ فرنسا للجزائر بصفة أبدية .
- 3- تحديد المفاهيم . وذلك لأنها هي مفتاح البحث ، ومن خلالها تحدد معالمه ، وتتضح أهدافه .

## فهرست الموضوعات

أ	..... مقدمة
1	..... تمهيد : التبشير والاستعمار
2	..... موقع الجغرافي للجزائر
	- أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية والثقافية قبل الاستعمار الفرنسي
4	..... - الأوضاع السياسية
27	..... - الأوضاع الاجتماعية
51	..... - الأوضاع الثقافية
100	..... - العلاقة بين التبشير والاستعمار في الجزائر
102	..... - تدمير العمران
102	..... - تدمير المؤسسات الدينية أو تدميرها
103	..... - المساجد والزوايا والمدارس
104	..... - مصادرة الأوقاف والأموال الأخرى
105	..... - القضاء على التعليم العربي الإسلامي ونهج سياسة الفرنسة
105	..... - إزالة القضاء الإسلامي وتعويضه بالفرنسي
106	..... - بث النزعة العنصرية وسط السكان
106	..... - سياسة التصدير
	- الغزو الثقافي:
108	..... - تأسيس المكتبة الوطنية بالجزائر
108	..... - إنشاء الطباعة والصحافة بالجزائر
109	..... - تأسيس المدارس الفرنسية
109	..... - إنشاء لجنة علمية سنة 1837م
109	..... - استخدام الفنانين والبغايا
109	..... - رجال الاستكشاف والاستعمار والتبشير
112	..... 3- تحديد المفاهيم
112	..... - تعريف التصدير
113	..... - تحديد مفهوم التبشير
123	..... - نشأة التبشير

- 125 ..... تجديد التبشير .....
- 125 ..... معنى النهضة .....
- 133 ..... لهم الأول : مؤسسو التبشير في الجزائر .....
- 134 ..... لهم الأول : فرانسوا بورغاد .....
- 135 ..... لهم الأول : حياته وأفكاره ومنهجه التنصيري (الجانب الكنسي) .....
- 135 ..... حياته .....
- 136 ..... منهج بورغاد التنصيري (الجانب الكنسي) .....
- 137 ..... تعليم .....
- 137 ..... التطبيب .....
- 138 ..... إحياء النزعة انعرفية بالدعوة إلى البربرية .....
- 138 ..... الاستعانة بالمسلمين في التنصير .....
- 138 ..... أ- استمالة الحكام وتسخيرهم لخدمتهم .....
- 139 ..... ب- استمالة المتقين المسلمين وتسخيرهم لخدمتهم .....
- 140 ..... لهم الثاني : الأسس النظرية للتبشير (الجانب الاستشراقي الكنسي) .....
- 140 ..... ثالث بورغاد .....
- 142 ..... أفكار بورغاد ذات الطابع الاستشراقي الكنسي .....
- 142 ..... ظلم الإسلام للمرأة أو تحطيم قانون (الأسرة) الأحوال الشخصية الإسلامي: .....
- 142 ..... المرأة في القرآن والإنجيل .....
- 143 ..... قضية الطلاق .....
- 144 ..... تعدد الزوجات .....
- 145 ..... الطعن في العبادات : .....
- 145 ..... الصوم .....
- 145 ..... مناسك الحج وثنية .....
- 146 ..... عيد الأضحى من وضع عمر .....
- 146 ..... الطعن في الحدود والقصاص .....
- 146 ..... الرق .....
- 147 ..... الطعن في النبي ﷺ من حيث نسبه وسيرته ونبوته .....
- 148 ..... الإسلام والسيف .....
- 149 ..... الهجوم على القرآن الكريم .....
- 149 ..... اتهام الإسلام بأنه ليس فيه نظام سياسي .....
- 150 ..... إنكار حقائق الإسلام الأخرى .....

- 150 ..... الفارقليط، أو البارقليط
- 151 ..... آيات عقيدة التثليث
- 152 ..... الرهينة
- 152 ..... تحريض المسلمين على الانغماس في الأخلاق الخريبة (الخمير، الخنزير، الزنا)
- 153 ..... تحبيب الأهالي في الاستعمار
- 153 ..... العمل على تحويل قبلة المسلمين من مكة إلى روما
- 156 ..... الباب الثاني : تقييم أعمال بورغاد ومنهجه
- 158 ..... الفصل الأول : الشريعة: تنفيذ اتهامات بورغاد للشريعة الإسلامية
- 158 ..... تهافت إدعاء ظلم الإسلام للمرأة وإحصاف النصرانية لها
- 158 ..... الكتاب المقدس: يعتبر المرأة هي سبب الخطيئة الأولى الكبرى التي تعاني منها البشرية
- 169 ..... أما النطافة
- 172 ..... وأما الزعم بأن المسلمة لا تذهب إلى الجامع
- 173 ..... وأما قضية الطلاق
- 181 ..... وأما القوامة والمهر
- 186 ..... وأما قضية الميراث
- 188 ..... وأما قضية الضرب
- 192 ..... وأما قضية التعدد
- 203 ..... الطعن في العبادات
- 203 ..... وأما الطعن في الصيام
- 210 ..... وأما الزعم بأن مناسك الحج وثنية
- 221 ..... وأما قضية تحويل القبلة
- 228 ..... وأما الزعم بأن عمر هو الذي وضع عيد الأضحى ليكمل ما نقص من دين محمد ﷺ
- 229 ..... وأما الطعن في الحدود والقصاص
- 235 ..... خطورة جريمة الزنا تستلزم العقوبة الرادعة
- 238 ..... أسباب الوقاية :
- 238 ..... 1- العقيدة السليمة
- 239 ..... 2- العبادات
- 239 ..... 3- تربية الفرد المسلم بمختلف القيم والفضائل النبيلة
- 239 ..... 4- تكوين رأي عام فاضل لا يظهر فيه الشر
- 239 ..... 5- النظام الاجتماعي الإسلامي
- 240 ..... لميزات الجهورية في الشريعة الإسلامية :

- 240 ..... 1- الكمال، 2 - سمو 3 الدوام ..... 240
- 241 ..... مقاصد الشريعة الإسلامية الضرورية : ..... 241
- 241 ..... 1- حماية الدين أو المحافظة عليه ..... 241
- 241 ..... 2- المحافظة على النفس ..... 241
- 242 ..... 3- المحافظة على العقل ..... 242
- 242 ..... 4- المحافظة على النسل (العرض) ..... 242
- 242 ..... 5- المحافظة على المال ..... 242
- 246 ..... الفصل الثاني : الأناجيل ..... 246
- 246 ..... - الأناجيل ومصدرها ..... 246
- 249 ..... - بولس ..... 249
- 252 ..... - أقوال بولس وأعماله : ..... 252
- 253 ..... - مخالفة بولس لتعاليم المسيح : ..... 253
- 253 ..... أ- بولس والناموس ..... 253
- 253 ..... ب- نوال البر بين الإيمان والعمل ..... 253
- 253 ..... ج- إلغاء الختان وانطهارة والمحرم وإباحة شرب الخمر ..... 253
- 254 ..... د- تحليله أكل ذبيحة الصنم والدم والمخنوق ..... 254
- 255 ..... - الخطيئة والصلب والوهية المسيح ..... 255
- 256 ..... - كيفية وصول بولس إلى عقيدة الخطيئة والصلب (وجهة نظر التحليل النفسي) ..... 256
- 260 ..... - ظهور الأناجيل ..... 260
- 267 ..... اختيار الأناجيل - كتابتها، تناقضاتها ..... 267
- 270 ..... إنجيل متى ..... 270
- 274 ..... إنجيل مرقس ..... 274
- 276 ..... إنجيل لوقا ..... 276
- 280 ..... إنجيل يوحنا ..... 280
- 284 ..... - مصادر الأناجيل، ومن صنفها ؟ ..... 284
- 288 ..... - مشكلة الترجمة ..... 288
- 290 ..... - تناقضات الأناجيل، وتناقضها مع معطيات العلم الحديث ..... 290
- 305 ..... - القرآن الكريم ..... 305
- 315 ..... الفصل الثالث : العقيدة النصرانية ونقدها ..... 315
- 315 ..... الأثرية ..... 315
- 315 ..... الإله في العهد القديم ..... 315

- 319 ..... الإله في العهد الجديد
- 323 ..... موقف النصارى مما سبق
- 324 ..... إدخال ألوهية المسيح إلى النصرانية
- 325 ..... مصدر عقيدة ألوهية المسيح البوئسية أو أصول عقيدة التجسد
- 328 ..... المجامع
- 329 ..... مجمع نيقية سنة 325م
- 332 ..... مجمع القسطنطينية الأول عام 381م
- 333 ..... مجمع طليطلة سنة 589م
- 334 ..... مجمع أفسس الأول سنة 431م
- 335 ..... عبادة الإيقونات
- 337 ..... مصدر عقيدة التثليث أو أثر الديانات القديمة والفلسفات في النصرانية
- 339 ..... الثالوث البرهمي
- 341 ..... الثالوث البوذي
- 343 ..... كيفية وصول المؤثرات الشرقية إلى النصرانية
- 346 ..... أثر الغنوصية في النصرانية
- 347 ..... أثر الغنوصية في فيلون وأثر فيلون في النصرانية
- 349 ..... أثر الفلسفة اليونانية في النصرانية
- 350 ..... أثر الأفلاطونية المحدثة في النصرانية
- 357 ..... نقد قانون إيمان نيقية 325م أو بطلان مساواة المسيح لله وتحطيم الثالوث
- 361 ..... إبطال المساواة بين أقتوم الأب وأقتوم الإبن
- 364 ..... إبطال الحلول والاتحاد
- 366 ..... إبطال بنوة المسيح لله وإبطال ألوهيته ببعض حالاته
- 370 ..... الموت الصليبي وكفارة الخطيئة الجوهرية
- 372 ..... مسألة قيامة المسيح
- 377 ..... الفصل الرابع : الأنبياء في الكتاب المقدس أو الكتاب المقدس أساس الرذيلة في المجتمع  
الكتاب المقدس يقوم على الحط... من الله والإنسان والأنبياء :
- 377 ..... - الحط من الله والإنسان
- 379 ..... - الحط من الأنبياء :
- 379 ..... انتشار فاحشة الزنا والديوث والخمر في الأنبياء وأسرهم
- 380 ..... - نوح (السكر) عليه السلام
- 381 ..... - إبراهيم عليه السلام - ديوث، زان بمحارمه

- 382 ..... إسحاق عليه السلام، ابن زنا، ديوث، كذاب، سكير .....
- 383 ..... يعقوب عليه السلام، المتصارع مع الله المجبر له على منحه لقب إسرائيل والنبوة .....
- 384 ..... يعقوب يأخذ النبوة ... بالاحتتيال و النصب و السرقة و الكذب .....
- ..... يعقوب أسرته بيت دعاة :
- 385 ..... أ- يعقوب يجمع بين الأختين .....
- 386 ..... ب- ابنة يعقوب "دينة" تزني .....
- ..... ج- يهوذا الإبن الرابع ليعقوب زنا بثامار زوجة ابنه، ورأوبين الإبن البكر ليعقوب زنا بامرأة
- 387 ..... ليه يعقوب .....
- 389 ..... أسرة يعقوب عبدة أصنام في بيته .....
- 390 ..... لوط عليه السلام: ديوث، سكير، زنا بابنتيه .....
- 392 ..... سيدنا هارون عليه السلام يصنع الأصنام ويعبدها .....
- ..... داود عليه السلام:
- 393 ..... داود فتح من زنا المحارم .....
- ..... داود عليه السلام يجمع بين الزنا بحليلة جاره والتسكير لنسب ولد الزنا لغير أبيه والاحتيال، وأحد
- ..... أبناء يزني بأخته وينصر داود الإبن الزاني على المدافع عن الشرف والإبن الآخر يزني بجميع
- 394 ..... سراري أبيه .....
- 397 ..... موقف داود المخزي .....
- ..... سليمان عليه السلام :
- 400 ..... سليمان ابن زانية .....
- 401 ..... نشيد الإنشاد .....
- 403 ..... سليمان يكفر ويعبد الأصنام ويبني لها المعابد إرضاء لنسائه الوثنيات .....
- 408 ..... قضية زينب بنت جحش رضي الله عنها .....
- 412 ..... شمشون الرسول .....
- 415 ..... الأختان المومنان : أهولة وأهوليبة .....
- ..... المسيح عليه السلام :
- 416 ..... أصله من زنا المحارم، بعض أجداده كان يعبد الأصنام .....
- 417 ..... بعض أخلاق المسيح :
- 417 ..... - المسيح كذاب .....
- 417 ..... - المسيح عاص لأمه .....
- 417 ..... - المسيح له مواقف مشينة مع شيوخ قومه .....
- 417 ..... - المسيح يستخدم العنف ويدعو إليه .....



- 418 ..... - أول معجزات المسيح : تحويل الماء خمرًا .....  
 429 ..... الفصل الخامس : النسب الشريف، أو معجزة نسب النبي ﷺ .....  
 431 ..... - نسب النبي محمد ﷺ .....  
 431 ..... - النسب الشريف من جهة الأب .....  
 433 ..... - النسب الشريف من جهة الأم .....  
 436 ..... الفصل السادس : الاختلافات بين المسلمين والاختلافات بين النصارى .....  
 436 ..... 1- الاختلافات بين المسلمين والنظام السياسي الذي أقامه الرسول ﷺ وورثه عنه الخلفاء الراشدون .....  
 442 ..... 2- الاختلافات بين النصارى وأكذوبة العصمة البابوية .....  
 443 ..... - خيانة تلاميذ المسيح للمسيح وخلافهم له واختلافهم فيما بينهم .....  
 443 ..... خيانة تلاميذ المسيح له في حياته : .....  
 443 ..... أ- الخيانة الجماعية للمسيح ليلة القبض عليه .....  
 444 ..... ب- الخيانة الفردية .....  
 446 ..... - مخالفة تلاميذ المسيح للمسيح : .....  
 447 ..... - اختلاف بولس مع يسوع في قضية الناموس .....  
 447 ..... - اختلاف تلاميذ المسيح فيما بينهم وتصارعهم .....  
 449 ..... - المجامع والصراع والاختلاف .....  
 453 ..... - بعض مناعب البابوية وفضائعها .....  
 453 ..... - الشره للمال .....  
 454 ..... - السيمونية .....  
 454 ..... - بدعة صكوك الغفران .....  
 455 ..... - انتشار التسري والزواج بين رجال الإكليروس .....  
 456 ..... - صراع البابوات على البابوية .....  
 464 ..... الفصل السابع : النصرانية والسيف .....  
 464 ..... 1- السيف أو العنف في الكتاب المقدس .....  
 464 ..... أ- العهد القديم .....  
 468 ..... ب- العهد الجديد .....  
 468 ..... - المسيح والسيف أو العنف : .....  
 468 ..... المسيح نفسه كان يستعمل العنف ظلما .....  
 468 ..... نصوص الأناجيل تأمر بالسيف والعنف .....  
 470 ..... 2- السيف أو العنف بين النصارى ضد أنفسهم قديما وحديثا .....  
 471 ..... القديس أوغسطين .....  
 471

473	نشأة المذهب البروتستانتي و السيف
476	الثورة الفرنسية
478	الحروب السياسية بين الدول النصرانية
481	- السيف أو العنف النصراني ضد المسلمين
481	- الحروب الصليبية
484	- ما سمي بحروب الاسترداد
484	- بعض جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر
489	الفصل الثامن: تهمة محاربة الإسلام للعلم و حرق مكتبة الإسكندرية
490	- موقف النصرانية من العلم
496	- تأثير الفكر الإسلامي في الفكر الغربي
498	- محاكم التفتيش ومراقبة المطبوعات
499	- الصفات العامة لمحاكم التفتيش
501	- تهمة حرق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية
508	الفصل التاسع : الفارقليط أو البارقليط
509	مفهوم المصطلح وما صدقه
522	الفصل العاشر : معجزات النبي محمد ﷺ
524	أولاً: المعجزات الحسية لخاتم الأنبياء ﷺ
526	معجزة الإسراء والمعراج
532	ثانياً : المعجزة الكبرى: القرآن الكريم
534	التحدي أو دليل الإعجاز البياني
537	فشل العرب في التحدي
542	مظهر جلال الربوبية في القرآن الكريم أحد وجوه إعجازه
545	الإعجاز بالغيبيات :
545	1- تحقق النبوءات في الأنجيل وفي القرآن الكريم
545	1- نبوءات الأنجيل
547	2- تنبوءات القرآن الكريم
554	II - الإعجاز العلمي في القرآن عكس الكتاب المقدس
560	III - الإعجاز القصصي (... ) أو تنفيذ الزعم بأن محمداً أخذ القرآن عن الكتاب المقدس
580	- لم، ولا، ولن يوجد في البشرية جمعاء من يصلح أن يكون أستاذاً لمحمد ﷺ
583	- لا شيء في الكتاب المقدس يصلح لأخذ محمد ﷺ منه
586	الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم

598	.....	الباب الثالث : لافيجري و القضية البربرية
598	.....	الفصل الأول : لافيجري ومشروعه التنصيري
598	.....	لافيجري
599	.....	تعيين لافيجري أسقفا على الجزائر
600	.....	أول أعمال لافيجري في الجزائر
601	.....	مشروع لافيجري التنصيري :
601	.....	1- الإحسان واستغلال الظروف
602	.....	2- إنشاء ملاجئ الأطفال
607	.....	3- إنشاء جمعية مبشري إفريقيا المعروفة بـ الأباء البيض
608	.....	إطلاق عميات تبشير الأباء البيض من بسكرة
609	.....	منظمة الأخوة البيض
609	.....	محاربة الرق أو تحطيم النظام الاجتماعي الإسلامي أساس لتنصير إفريقيا
612	.....	الفصل الثاني : التعليم عند لافيجري
612	.....	أهداف التعليم عند لافيجري :
613	.....	1- محاربة القرآن الكريم
615	.....	2- محاربة اللغة العربية
615	.....	: الفرنسة والإدماج
616	.....	4- إشعار السكان بأنهم من أصل روماني أو غالي - لا عربي - واعتبار العصور الإسلامية عصورا
616	.....	مظلمة
618	.....	5- مسح آثار التدمير والبطش الفرنسي
620	.....	6- تكوين مبشرين من الأهالي
623	.....	الفصل الثالث : القضية البربرية
623	.....	بداية اهتمام فرنسا بالقضية البربرية
632	.....	الفصل الرابع : تقييم لافيجري (آثار مشروعه التنصيري)
633	.....	- نشاط لافيجري كان دينيا وسياسيا
634	.....	- جعل الجزائر مركزا ومنطلقا للتبشير في إفريقيا وآسيا
634	.....	- منهج لافيجري في التنصير منهج شمولي
637	.....	- فرقة الأباء البيض تعد أهم ما أنشأه لافيجري
638	.....	- التعليم
642	.....	لمنح التعليم التبشيري في الجزائر :
642	.....	1- التعليم المهني (الحرفي)

642	أ- التعليم المهني الموجه للذكور
642	ب- التعليم المهني الموجه للإناث
642	ج- تعليم الكبار
643	2- التعليم العام أو تطور جهاز التعليم بعد لافيغري
643	هندسة مدارس التبشير
643	الأساتذة المدرسون
644	مواد التدريس
645	مراحل التدريس :
645	- رياض الأطفال
645	- المدارس الابتدائية
645	- المدارس المتوسطة والثانوية
647	تعليم البنات
651	الباب الرابع : شارل دوفوكو واللغة القبايلية
651	الفصل الأول : حياته ومشربه (رجال فرنسا الذين تأثر بهم)
651	حياته
652	مشربه
658	الفصل الثاني : الأدوار التي قام بها دوفوكو
658	أولاً: الاشتغال بالجوسسة والاستكشاف للتمكين للاستعمار (رحلاته)
658	- رحلته إلى المغرب وعودته إلى الجزائر
660	- منهجه في الرحلة
663	ثانياً: دوره العسكري
667	ثالثاً : دوره التصيري ومنهجيته واستراتيجيته في ذلك
668	فناعة دوفوكو واستراتيجيته
669	منهج دوفوكو وخطته
669	1- تحطيم البنية الثقافية والاجتماعية والنفوذ منها
671	2- استخدام الأطفال للوصول إلى أوليائهم
676	مراحل التبشير عند دوفوكو
678	الفصل الثالث : السياسة البربرية
678	التيفناغ
680	1- مقاومة المحاكم الشرعية وإحياء ما يدعونه من أعراف قبلية كيفما كان أمرها
680	2- القضاء على اللغة العربية واتباع سياسة الفرنسية

- 680 ..... 1- المنع المباشر لتعلم اللغة العربية
- 681 ..... 2- خلق ضرورة اللغة العربية
- 681 ..... 3- سياسة الفرنسية المباشرة
- 681 ..... أ- سياسة التجنيس
- 682 ..... ب- سياسة السيطرة على أفكار الأمازيغيين
- 683 ..... ج- التحول من اتصال سكان الجبال والمناطق النائية بالفقهاء
- 687 ..... القسم الثاني : الحركة البربرية
- 687 ..... الباب الأول : نشأة الحركة البربرية وتطورها
- 687 ..... الفصل الأول : ظهور الحركة البربرية
- 687 ..... معنى كلمة بربر
- 689 ..... معنى النزعة البربرية
- 691 ..... ظهور الحركة - النزعة - البربرية على المستوى الجزائري
- 696 ..... حزب الشعب البربري أو مؤامرة النزعة البربرية في الأربعينيات
- 712 ..... الفصل الثاني : إنشاء فرنسا إذاعة القبائلية بالجزائر
- 716 ..... الفصل الثالث : تأسيس الجبهة الشعبية للقوات الاشتراكية (FES) سنة 1963م
- 722 ..... نتائج وملاحظات
- 725 ..... الفصل الرابع : إنشاء الأكاديمية البربرية بباريس سنة 1967م
- ..... علاقة الحكومة الفرنسية ومخابراتها بالأكاديمية والحركة البربرية في الجزائر والتدخل في الشؤون  
داخلية للجزائر.
- 728 ..... طروحات الأكاديمية البربرية
- 732 ..... الفصل الخامس: أحداث تيزي وزو الأولى 1980م أو الربيع الأمازيغي
- 737 ..... أسبابها
- 737 ..... أهدافها
- 738 ..... نتائج أحداث تيزي وزو الأولى 1980م
- 749 ..... الفصل السادس: أحداث أكتوبر 1988 م
- 753 ..... ما قبل المؤامرة
- 753 ..... محتوى الأحداث
- 757 ..... أسبابها وأهدافها
- 762 ..... نتائج أحداث أكتوبر 1988م
- 762 ..... محركوها
- 768 ..... مقارنة بين ما بعد 1830م وما بعد أكتوبر 1988م
- 769

772	مكاسب الحركة البربرية بعد أحداث أكتوبر 1988م .....
772	تدريس القبائلية .....
772	إنشاء الأحزاب البربرية الرسمية .....
772	منع وجود الأحزاب ذات التوجه العربي الإسلامي .....
773	تقوية إذاعة القبائلية .....
774	نشرة التلفزيون بالقبائلية .....
777	تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية .....
778	ثأوثية الهوية الوطنية الجديد .....
784	العلاقة بين أحداث تيزي وزو الأولى وأحداث أكتوبر .....
786	علاقة ما سبق بالتبشير .....
787	الفصل السابع : تأسيس "حزب التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية R.C.D" .....
787	ظروف تأسيسه ومؤتمره الأول .....
790	المرجعيات الأساسية لـ R.C.D .....
792	تقييم مرجعيات سعدي .....
801	الفصل الثامن : أحداث تيزي وزو الثانية 1998م .....
801	- سببها المباشر .....
803	- السبب الحقيقي لأحداث تيزي وزو الثانية .....
803	- محتوى الأحداث .....
819	- موقف فرنسا .....
821	- موقف الحكومة الجزائرية .....
824	- نتائج الأحداث .....
831	الباب الثاني : التبشير من خلال الحركة البربرية .....
832	الفصل الأول : العلمانية (اللانكية) .....
832	المبحث الأول: تحديد المفهوم .....
835	المبحث الثاني : نشأة العلمانية في أوروبا .....
835	- كيفية النشأة .....
840	- تطور مفهوم اللانكية في أوروبا .....
842	المبحث الثالث : ظهور اللانكية في العالم العربي والإسلامي .....
842	- مصر .....
848	- إلغاء الخلافة الإسلامية سنة 1924 م وعلمنة الدولة قهرا .....

- 861 ..... المبحث الرابع: ظهور العلمانية في الجزائر
- 862 ..... المطلب الأول : كيفية إجبار الجزائريين على اللانكية
- 872 ..... المطلب الثاني : موقف الجزائريين من مصادرة فرنسا لدينهم
- 891 ..... المطلب الثالث : دعاة الاندماج والتجنيس
- 891 ..... - فرض سياسة التجنيس
- 891 ..... - اشتداد دعوة التجنيس
- 892 ..... - دعاة الاندماج والتجنيس أو جماعة النخبة
- 893 ..... - تشكيلة دعاة الاندماج والتجنيس
- 895 ..... - موقف مالك بن نبي من دعاة الاندماج والتجنيس
- 900 ..... - موقف الجزائريين من التجنيس :
- 900 ..... - موقف سكان بلاد القبائل من التجنيس والمتجنسين
- 900 ..... - موقف الفرنسيين ..... من المتجنسين
- 901 ..... - موقف جمعية العلماء ..... وكيفية مقاومتها لدعاة تلك السياسة
- 902 ..... - نص الفتوى
- 905 ..... المطلب الرابع : اللانكية عند دعاة الحركة البربرية
- 906 ..... 1- منع قيام الدولة الإسلامية
- 909 ..... 2- إقامة الدولة اللانكية
- 910 ..... موقف R.C.D من سلمان رشدي
- 910 ..... 3- إلغاء قانون الأسرة الإسلامي
- 914 ..... قضية المرأة الجزائرية
- 915 ..... موقفنا من دعوة إلغاء قانون الأسرة
- 916 ..... أولاً: الدعوة إلى رفض قانون الأسرة الإسلامي قضية فرنسية محضنة
- 918 ..... ثانياً : القضايا المعترض بها على قانون الأسرة قضايا مفتعلة
- 920 ..... - الأمهات العازبات
- 921 ..... - البعد الاقتصادي ..... الاجتماعي والنفسي ..... الحضاري والمستقبلي للدولة
- 924 ..... علاقة قضية المرأة بالاستعمار والتبشير
- 925 ..... المبحث الخامس : التنظير للعلمانية : أركان نموذجاً
- 925 ..... 1- الإسلاميات التطبيقية
- 928 ..... 2- مثال مزدوج للعلمنة: تركيا ولبنان
- 930 ..... 3- الخلافة: الأصل التاريخي وعملية التسويغ أو التبرير.
- 943 ..... 4- النظرية الشيعية للسلطة

- 948 ..... النص الفراني
- 959 ..... انبثاق العلمنة وإلحاحها
- 964 ..... نحو ممارسة علمانية للإسلام
- 973 ..... خاتمة: قوة الظاهرة الفرانية
- 975 ..... المبحث السادس : تقييم عام
- 990 ..... الفصل الثاني : الفرנקفونية
- 990 ..... ظهور المصطلح ومفهومه
- 994 ..... المبحث الأول : محاربة اللغة العربية بانتهاج سياسة الفرنسية
- 994 ..... المطلب الأول : الفرنسية من بداية الاحتلال إلى ثورة 1954م.
- 994 ..... معنى الفرنسية
- 996 ..... عناصر الفرنسية الشاملة
- 999 ..... الخطة أو الخطوط العامة لسياسة الفرنسية
- 999 ..... تحطيم المؤسسات الثقافية العربية الإسلامية
- 999 ..... نهج سياسة التجهيل
- 1001 ..... ملحق مؤرخ في 17 ماي 1851م يمنع على الجزائريين تعليم أي شيء في المساجد له علاقة بالعلوم  
العصرية
- 1001 ..... قانون جول فيري الشهير
- 1003 ..... قانون 1892 م الذي يمنع الأهالي من تأسيس أي مدرسة خاصة
- 1003 ..... قانون فتح المدارس إلا برخصة
- 1005 ..... حظر استعمال اللغة العربية في المجال الرسمي حظرا مطلقا
- 1005 ..... فرض حصار محكم على المجتمع الجزائري وغلق جميع النوافذ المشرقية
- 1005 ..... موقف السلطات الفرنسية العليا من قضية اللغة
- 1006 ..... التركيز على فرنسة وتعليم منطقة القبائل الكبرى
- 1007 ..... تأسيس المدارس الإسلامية الثلاث
- 1011 ..... قانون اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر
- 1011 ..... 1- احتفال فرنسا بمرور 100 عام على احتلال الجزائر
- 1012 ..... 2- تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ماي 1931م
- 1013 ..... 3- انعقاد المؤتمر الأفخارستي في الجزائر في سنة 1936م.
- 1013 ..... قانون 8 مارس 1938م أو قانون اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر
- 1017 ..... نتائج الفرنسية



- المطلب الثاني : الفرنسية أثناء الثورة 1020
- انتحاق خرجي المدرسة الفرنسية بالثورة 1020
- خطة الجنرال ديغول (برو موسيون لأكوست) (58-1962م) 1021
- اتفاقيات إيفيان 1024
- استمرارية الوجود الثقافي الفرنسي في الجزائر 1028
- المطلب الثالث : الفرنسية بعد الاستقلال 1030
- 1- المنرسية، 2الاتفاقيات، 3- المراكز الثقافية الفرنسية، 4- الإدارة بعد الاستقلال، 5- المدرسة الوطنية للإدارة. 1030-1037
- المبحث الثاني : محاربة اللغة العربية بالدعوة لإحياء اللهجات العامية واستبدالها بها 1039
- المطلب الأول : السبب وصياغة التراث العربي الإسلامي صياغة نصرانية 1039
- إعادة صياغة اللغة العربية 1042
- المطران جرمانوس فرحات 1042
- المطلب الثاني : الدعوة إلى العامية في العالم العربي مصر وبلاد الشام (لبنان) نموذجاً. 1049
- أولاً: الدعوة إلى العامية في مصر: وليم ولكوكس، سيلدون ولمور، كارل فولرس، سلامة موسى 1049-1054
- تطور الدعوة إلى العامية. 1061
- ثانياً : الدعوة إلى العامية في بلاد الشام (لبنان) الدكتور أنيس فريحة نموذجاً. 1065
- المطلب الثالث: الدعوة إلى العامية في الجزائر 1077
- التنفيذ الفعلي للفكرة 1078
- استمرار فكرة الدعوة إلى العامية إلى اليوم وتبني دعاة الحركة البربرية لها 1080
- علاقة الدعوة إلى العامية بالتبشير 1085
- تحليل نموذج من الكتب الدراسية العامية لتبيين أهداف الاستعمار والتبشير. 1086
- موقفنا من الدعوة إلى العامية. 1100
- المبحث الثالث: محاربة اللغة العربية بالدعوة لإحياء اللهجة القبائلية المكتوبة بالفرنسية محل العربية الفصحى. 1105
- أكذوبة أصل السكان 1105
- هل البربرية هي أول ما تكلم به سكان شمال إفريقيا؟ 1107
- اللغة البربرية 1107
- علاقة البربرية باللغة العربية 1110
- مجهودات الأكاديمية البربرية في باريس لخلق لغة قبائلية تحمل اسم الأمازيغية. 1114
- الأبجدية البربرية 1116
- البربرية والخط اللاتيني (الفرنسي) 1119

- 1121 ..... أهداف كتابة القبانلية بالفرنسية
- 1122 ..... تقييم عملية كناية القبانلية بالحرف اللاتيني (الفرنسي)
- 1130 ..... العروبة والإسلام.
- 1130 ..... فكرة حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط
- 1132 ..... مفهوم الفكرة
- 1134 ..... وسائل نشر الفكرة :
- 1134 ..... 1- نشر الفكرة تحت شعار الجانب العلمي :
- 1134 ..... أ- الملتقيات العلمية
- 1138 ..... ب- فكرة حوض البحر المتوسط والمستشرقون
- 1142 ..... 2- الاحتفال بالآثار الرومانية
- 1146 ..... 3- الجهود السياسية
- 1147 ..... 4- نشر الفكرة بواسطة التوجيه غير المباشر
- 1148 ..... نتائج الفكرة وتقييمها
- 1151 ..... الخاتمة
- 1161 ..... الملاحق
- 1169 ..... فهرست الآيات
- 1178 ..... فهرست الأحاديث وتخرجها
- 1180 ..... فهرست الأعلام
- 1198 ..... فهرست المصادر والمراجع
- 1234 ..... فهرست الموضوعات

## بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

### مقدمة

منذ الفتح الإسلامي أصبحت الجزائر عقبة كؤوداً أما ظلم شمال البحر الأبيض المتوسط لجنوبه. ذلك أنه بفتح المسلمين للجزائر وقع التوازن لأول مرة في التاريخ بين شمال المتوسط الظالم و جنوبه المظلوم، فمن الجزائر انطلق الفاتحون لفتح الأندلس، و إليها فر الأندلسيون أثناء ما سمي بحروب الاسترداد و محاكم التفتيش . و منها أوقفت الهجومات الأسبالية و البرتغالية على العالم الإسلامي . و لولا الجزائر كان الإسلام حتى في العالم العربي في وضع آخر، و هو ما جعل الصليبيين و على رأسهم فرنسا يفسكرون و يضعون المخططات لاستعمارها و تنصيرها و تمزيقها شر ممزق.

و على رأس هؤلاء الصليبيين فرنسا التي فكرت في استعمار الجزائر على الأقل منذ الحملة الصليبية الثامنة على تونس سنة 669 هـ / 1271 م التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع و قتل بها، و التي شارك الجيش الجزائري في رد عدوانها و أبلى بلاء حسناً (1).

كما فكرت في إرسال المبشرين و بناء الكنائس بغرض الاستعمار والتنصير منذ زمن بعيد، فيذكر ابن هادوش في رحلته أنه في سنة 1157 هـ / 1744 م رفض النصارى - بيدو الأسيان - فداء المسلمين . فقرر ابراهيم باشا كرد فعل أن لا تبقى كنيستهم في الجزائر، و كانت لهم كنيسة عظيمة، فأغلقت، فذهب بعض النصارى و بقي من بقي في دار قسيس القرلسيين (2) .

و معنى هذا أن الفرنسيين كانت لهم في الجزائر دار قسيس و كنيسة عظيمة، مما يعني الاشتغال بالتبشير و الجوسسة بغرض الاستعمار والتنصير، و هو ما يبين اهتمام فرنسا المبكر بالتبشير في الجزائر و بناء الكنائس لذلك الغرض .

---

(1) المهدي البوعدي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي و بعده، الملتقى 7 للتعرف على الفكر الإسلامي ، بنزوي زرو (10-22 جهادي الثاني، 1393 هـ / 10-22 يوليو 1973 م) . وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر، 1973 م، 3، ص 1325 .

(2) عبد الرزاق بن هادوش، رحلة ابن هادوش المسماة << لسان المقال في النبا عن النسب والحساب والحال >> تحقيق أبي القاسم سعد الله، د. ط. ش. و. ن. ت. الجزائر . 1983 م، ص 119 .

و إذا كان ما ذكره ابن حمادوش وقع في سنة 1157 م / 1744 م، فإننا نجد فرنسا بدأت في استخدام المبشرين قبل هذا التاريخ بكثير للغرضين السابق ذكرهما . حيث استخدمتهم قنصلة، و من هؤلاء المبشرين القنصلة الراهب لوفاشي، و ذلك في عهد الحاج حسين باشا ميزو مورتو ( 1683 م - 1688 م ) الذي أدرك أهدافه و مخططاته، فاقمه بالخيانة في الوساطة بين الجزائر و فرنسا فحكم بإعدامه بقذيفة مدفع<sup>(1)</sup> و معنى هذا أن فرنسا كانت تخطط على الأقل منذ هذه الفترة . و إلا ما هي الحكمة من أن تجعل قنصلها راهبا، و هي تعتقد بحكم دينها أن الراهب من انقطع للعبادة و زهد في كل أمور الدنيا بما في ذلك الزواج، و عندما نعلم أن هذه الطريقة ما زالت فرنسا تتبعها في الجزائر إلى الآن بتعيين بعض الملحقين الثقافيين من رجال الإكليروس لدرك الهدف

و أما التفكير في إنشاء التزعة العنصرية والعمل من خلالها على التفريق بين الجزائريين لأغراض استعمارية فقد شرعت فيه فرنسا و أخذت تخطط لذلك على الأقل منذ سنة 1788 م عندما أرفدت دي بارادي إلى الجزائر لهذا الغرض .

و لقد تزعمت فرنسا العمل على تحطيم الجزائر كقوة إسلامية بحسب لها حسابها لصالح النصرانية بعد فشل إسبانيا في تحقيق ذلك . و لقد أدرك الفرنسيون أن سكان الجزائر يختلفون عن غيرهم في شدة التمسك بالإسلام والاستماتة في النفود عنه بدليل أنه لا دولة من دول المغرب العربي واجهت الصليبيين و دافعت عن الإسلام مثلما فعلت الجزائر . و لقد أدركت فرنسا خلال تلك الصراعات أن هناك حاجزا كبيرا بينها و بين الجزائر . صدها عنها حتى بعد سقوطها سنة 1830 م - سقوطا عدته فرنسا انتصارا للصلب على الهلال - و حتى أثناء الاحتلال، بل و هو الذي أخرجها كرها بعد 132 سنة من الاحتلال . هذا الحاجز ليس هو البحر، بل الإسلام . أدركت فرنسا إذن أن تحطيم الجزائر لا يتم إلا بكسر هذا الحاجز الذي لا تجدي القوى العسكرية و حدها لكسره . و لا سيما بعد أن جعلت استعمارها للجزائر يختلف عن استعمارها لجميع مستعمراتها الأخرى التي تركتها بسهولة و دون مقاومة تذكر كما فعلت في تونس و المغرب، بل أعطت 13 دولة أفريقية استقلالها في يوم واحد لتفرغ للجزائر .

أما الجزائر فلم تخرج منها إلا بعد أن قتلت منها مليوناً و نصفاً<sup>مليوناً</sup> خلال سبع سنوات، و رغم هذا القتل و التدمير أخرجت . لأن القوى العسكرية العاشمة حطمت البنية السياسية للمجتمع سنة 1830 م، و لكن البنيتين الثقافية والاجتماعية ظلنا تصنعان المجاهدين .

و لما كانت فرنسا قد أدركت ما سبق كما ذكرنا قبلا، فإنها وجهت عنايتها الشديدة لتحطيم هذه البنى قبل الاحتلال العسكري بكثير كما ذكرنا . و كان الذي سخرته لتحطيم هذه البنى تحطيمًا يؤتى أكله بعد حين، و لا تظهر آثار بطشه و تدميره للعيان إلا بعد عقود من السنين هم المشرون . و لهذا الفرض فقد استقدمت فرنسا مع حملتها على الجزائر في 27 جوان 1827 م، 16 قسيسا أحدهم سوري الجنسية و جعلت أحدهم قائدا روحيا للحملة، و أخذت في أعمال التصير القسري والإرادي بمجرد الاحتلال، ضاربة عرض الحائط بينود وثيقة الاستسلام، و سخرت لذلك أعظم رجال فـكـرـها و دينها، و هم الثلاثة المشهورين الذين تعرضنا لهم بالدراسة و التحليل: بورغالند، ولافيجـري، و دوفوكو و كل واحد من هؤلاء الثلاثة له في البنية الاستعمارية مقام معلوم . مما نجعلنا نستطيع القول : بأن التبشير الحقيقي بدأ بالحملة الفرنسية على الجزائر. و وضع أسسه و معاله و مخططاته و رسم استراتيجته آباء الكنيسة الثلاثة السابق ذكرهم، بحيث يمكن القول بأن كل مجهودات المبشرين الذي أتوا بعدهم إنما ساروا على منوالهم متقنين مخططاتهم و مواصلين مشاريعهم، و هو ما جعلنا نخصص القسم الأول من بحثنا لدراساتهم و ذلك لأنهم يمثلون روح الاستعمار الفرنسي إذ على مجهوداتهم و نظيرهم بنى سياسته الاستعمارية لأنه مسيحي بالطبع مما جعله يولي المبشرين المكانة العظمى، بحيث لا نجد حركة تبشيرية إلا وجدناه وراءها يحميها و ينشئ ظروف التشارها . بل بلغت مكانة المبشرين إلى حد كما يقول الإبراهيمي >> أن الحاكم المدني العام في الجزائر لرهن بإشارة من إشارات رئيس الكنيسة الكاثوليكية، بل إن هذا الرئيس المسيحي هو الحاكم في الحقيقة << (1) و ذلك لأهميتهم كما ذكرنا في البنية الاستعمارية .

و لما خرج الاستعمار الفرنسي ظل المبشرون في قواعدهم يواصلون مشاريعهم التصيرية . بحيث يمكن القول بأنهم يمثلون الاستعمار الجديد المتمثل في ذهاب الجيش والعلم . و بقاء الأفكار و المخططات الإستراتيجية . و لا أدل على هذا من أن ما نشاهده اليوم من آثار التبشير في الجزائر إنما هو قديم قديم الاستعمار الفرنسي ذاته . و مبني على ما سبقه . و قد توصلنا إلى هذا من خلال تتبعنا التاريخي لما نعيشه

(1) محمد البشير الإبراهيمي - آثار محمد البشير الإبراهيمي، ط1، ش.و.ن.ت. الجزائر .. 1978 م ج 4 ص 237 .

اليوم من أفكار و طروحات تبشيرية استعمارية كالزعة العرقية و ما تقوم عليه . و على ذكر الزعة العرقية، فإن الاستعمار الفرنسي درس جيدا بنية المجتمع الثقافية و الاجتماعية، فوج من خلالها باكلروسه و ساسته و عسكريه و مستشقيه و ذلك ليحطم المجتمع من الداخل فأتت مجهودات كل هؤلاء حركة بربرية تعد أكبر وسائل التنصير اليوم مما جعلنا نخصص لها القسم الثاني من البحث . و قد ركز الإستعمار في هذه الزعة على منطقة القبائل لمجموعة من الأسباب منها :

- منطقة القبائل يشكل قاطنوها كثافة سكانية ضخمة و يعيشون في تجمعات كبيرة في قسم الجبال و المناطق الوعرة تعسر الوصول إليها و هو ما جعلهم يشكلون صعوبات هائلة لجيش الاحتلال مما يعني تنصيرهم القضاء على أكبر عقبة أمام هذا الجيش و ضمان الاحتلال النهائي للجزائر .

- سكانها يكونون شريطا قويا جدا بين البحر و التل، يمتاز بالمقاومة المستميتة للاستعمار و التمسك بالإسلام . و كسر هذا الشريط يقضي نهائيا على عنصر المقاومة في الشمال . و تحويل سكانه بعد التنصير إلى جسر يمر عليه الاستعمار ليكتسح الصحراء الكبرى و يتحكم في كل إفريقيا و جعل بلادهم امتدادا طبيعيا لفرنسا، لأن الحاجز الحقيقي بينها و بين الجزائر ليس البحر، بل الإسلام كما ذكرنا قبل .

- يمتاز سكانها بالترابط الاجتماعي و التكافل التام، بحيث تكون القرية وحدة متكاملة، لها نظام يسمى نظام الجماعة، يشرف عليه مجلس يسير شؤون القرية و يفض مشكلاتها و نزاعاتها، و يلتزم الجميع بقراراته مما يمكن الاستعمار من تحويل هذا الترابط و التكافل لنشر النصرانية و خدمة الإستعمار إن تمكن من تنصيرهم .

- عزلة جبالها و بعدها عن المدن الحضارية جعل الاستعمار يعتقد خطأ سهولة تأثير المبشرين عليهم و استمالتهم .

- لساهم البربري جعل الاستعمار يعتقد إمكانية فصلهم عن بقية السكان فيشكل منهم مجموعة ذات امتيازات ضد الأغلبية من السكان فيمزق المجتمع و يضمن تناحراته . و يدل على هذا الأعمال العمرانية التي قام الاستعمار ببلاد القبائل مثل شق الطرقات و إيصال الكهرباء و قنوات المياه و البناء بالإسمنت و المدرسة الفرنسية و التبشيرية، و من أهدافه لما سبق، ضمان الوصول إليهم بسهولة للتحكم في أصدانهم و عقولهم، وهو ما جعله يزرع المبشرين بقرى بلاد القبائل كما يزرع القبل في الأرض .

و مهما يكن من أمر، فقد أثمرت جهود الاستعمار و مبشره إيجاد الحركة البربرية و التبشير من خلالها، و نذكر هنا أن بحضا هذا لا تقصد به القبائل لا من قريب و لا من بعيد، لأننا نعتقد أنهم نحن، و نحن هم، و إنما نقصد به الحركة البربرية و فئة دعاؤها . و هؤلاء ليسوا جميعا قبائل بل فيهم من ليس قبائلها ككاتب ياسين، و لكن جمعت بينهم الفكرة و المشرب .

كما أن الإسلام رسالة عالمية بدأ ديننا و دولة، والدولة مطالبة بالقوامة على الدين و نشره، و النصرانية منذ توثين قسطنطين لها في القرن 4 م أصبحت لها دولة، و عندما ظهر الإسلام أحست بخطرته عليها بتحرير الشعوب المستعمرة من طرفها، فأخذت تحاربه .

بعبارة أخرى ما سبق جعل الكنيسة و الدولة النصرانية على السواء يعملان على تحطيم القرآن الكريم، و أكبر وسائل هذا التحطيم : التبشير ( التصير )، و هنا تكمن أهمية بحثنا الذي يعد في نظرنا مساهمة في الدفاع عن ديننا آمليين أن يكون عاملا لإزالة الغشاوة عن أبناء ملتنا الذين أصبح قسم منهم لقمة سائغة للمبشرين والمستعمرين الجدد، و هذا ما جعلنا نعالج مشكلات تعد من صميم الواقع الذي يعيشه الإنسان المسلم اليوم في الجزائر أثرت بغرض تدمير الإسلام و تحطيم البنية الثقافية و الاجتماعية للمجتمع، بل و تحطيم نفسية الإنسان المسلم و جعله بلا هوية، بلا دين، بلا هدف في الحياة، بل جعله معول مدمم لتحطيم ذاته بذاته، مما يجعل بحثنا مساهمة في العمل على إزالة الغشاوة عن الأعين بهدف حماية الذات و الوطن، و هذا يقودنا إلى أسباب اختيار الموضوع .

إن الأمانة العلمية تقتضي منا القول بأن اختيار هذا الموضوع يعود إلى أستاذنا التونسي الفاضل المرحوم محسن العابد . و قبلناه على مضض، و لكننا بعد ذلك شغفنا به حبا، لأننا أدركنا داء فتاكاً ينخر المجتمع الجزائري من الداخل ليميته في هدوء دون أن يحس به كثير من الناس، فأردنا إبرازه، و لما شرعنا في دراسة الظاهرة وجدناه أخطر مما نتصور، و أفنك مما كنا نعتقد، و أنها من الصعوبة بإقافها و حماية المجتمع منها بمجهودات فردية، و إن لم يتكاتف الجميع شعبا و سلطة، فإن الجزائر مهددة بالتصير و الطائفية، و أنها ليست أبعد مما أحدثت في ليجريا و ألدونيسيا و غيرها من إنشاء أقليات نصرانية تتحرك بإيعاز من الدول الغربية - و لا سيما فرنسا بما يتعلق بالجزائر - تعمل على الانفصال و الصراع و إيقاد نار الحروب الأهلية الضروس، إن لم يحصل هذا عاجلا فإنه واقع آجلا لا محالة . و هو ما جعلنا ندرس ظاهرة التبشير ( التصير ) في الجزائر و هي الظاهرة التي استفحل أمرها بعد 1980 م، بحيث يمكن القول بأن ما حققه المبشرين في العشرين سنة الأخيرة لم يحققوه منذ 1830 م، و هم يمارسون نشاطهم الآن بكل حرية، لا رقيب يراقبهم، و لا رادع يردعهم، بل و تغدق عليهم المساعدات الهائلة من الجزائريين أنفسهم، و هم ينشطون تحت غطاءات مختلفة كغطاء الخدمات الاجتماعية المختلفة و المراكز الثقافية الفرنسية المنتشرة عبر الوطن و مكاتب المبشرين و كمناسهم، و تحت غطاء الفناء و الجون، و في مراكز الطفولة المسعفة و اليتامسى و المعوقين و الشيخوخة و التطبيب و التمريض و التعليم و الشركات و المؤسسات الوطنية و تحت غطاء المساعدات الفنية و الاستثمار و هلم جرا، و قد ظهرت آثارهم حتى في الميدان المعماري حيث تبنى مبانى ضخمة تبنى على شكل صليب ناهيك عن البلاط و الفسيفساء، و حتى ملابس النساء المزركشة

بالصليان، و نجدهم ينشطون حتى على مستوى السلطة، و في مختلف وسائل الإعلام حتى في القنوات الرسمية، مثل تقديم قداس العام الجديد من الكاتدرائية مباشرة في الإذاعة الجزائرية، و نجد التلفزيون الجزائري نفسه يساهم في التبشير حتى على مستوى الأفلام المقدمة للأطفال و هي من الخطورة بمكان، و منها على سبيل المثال مسلسل " دبدروب الحبوب " الذي عرضت فيه بعض الحلقات تبشيرية محضة، أما الأفلام التي يقدمها للكبار فإن أغلبها تصيري . ناهيك عن أفلام الفيديو المصنوعة في فرنسا و المديج بعضها هناك إلى القبائلية، و هي أفلام تبشيرية محضة صنعها المشرون، و يوجد لدينا شريط عنوانه " حياة سيدنا عيسى " مدته ثلاث ساعات كاملة و كذا الأشرطة السمعية والنشرية و الرحلات .

و أصبح في بلاد القبائل يتم أولا إقناع الإنسان بأنه غير عربي، و من خلال ذلك يعمل على تنصيره أو على الأقل تشويش عقيدته، كما يستغل في ذلك كل النظريات الإلحادية من دار وينيصة و ماركسية و غيرها، و يركز على كل الشبهات التي أثارها المشرون و المستشرقون تجاه الإسلام لخلخلة إيمان الإنسان المسلم، و هي الشبهات التي أفاض يورغاد في إثارتها . و لقد تكاثرت عدد الجزائريين المنصرين، و رسم بعضهم قساوسة، و أصبحوا يعقدون المؤتمرات الخاصة بالمرتدين على مرأى و مسمع من الدولة الجزائرية، كالملتقى الذي عقد بـ " واضياس " ببلاد القبائل في الفترة 12-16 جويلية 1999 م و اعتبر أول لقاء للشبية المسيحية الجزائرية الذي ضم 150 مرتدا جاءوا من سطيف و باتنة و بجاية و تيزي وزو و الجلفة، و بعضهم حضر الملتقى في إطار عائلي . مما يعني أن هناك عائلات بكاملها ارتدت إلى النصرانية (1) كل هذا بركة الحركة البربرية، كما أخذوا في تشكيل أسر نصرانية محضة عن طريق تزواج المرتدين بالمرتدات، و هنا نتقل إلى إبراز إشكالية البحث .

إن إشكالية بحثنا ذات شطرين . أولهما : ما هو التبشير ( التنصير ) ؟ و ما هي أهداف المبرشرين ؟ و هل تختلف عن أهداف الاستعمار ؟ و ما علاقتهم به ؟ و من هم كبار المبرشرين في الجزائر ؟ و ما هي خططهم و مناهجهم و استراتيجيتهم ؟ و هل نجحوا أم فشلوا ؟ و ما هي أسئلتهم ؟ و هذا ينتقل إلى الشق الثاني من الإشكالية، و هو :

- إذا كانت الحركة البربرية أهم وسائلهم فمتى نشأت ؟ و كيف تطورت ؟ و ما هي أركانها ؟ أو كيف يتم التبشير من خلالها ؟ و ما هو مشروعها ؟ و هل حققت أهدافها ؟ .



و لكي نجيب على شطري الإشكالية فقد قسمنا البحث إلى قسمين مهدينا لهما بتمهيد طويل، جعلنا القسم الأول محاولة للجواب على الشطر الأول من الإشكالية، والقسم الثاني محاولة للجواب على شطرها الثاني .

و أما الصعوبات التي واجهتنا فإنها كثيرة جدا، منها :

- صعوبة الموضوع في حد ذاته، بحيث أن الذي يتطرق إليه لا بد أن يكون متضلعا في علمــــــــــــــــوم و معارف متنوعة، من عقائد و ملل و نحل و شرائع و فلسفة و تاريخ و لغة و صراع حضــــــــــــــــاري، و الضرورة هي التي جعلتنا نخوض غماره .

- الوضع الأمني الذي عاشته الجزائر في هذه العشرية بحيث يتعسر على الباحث التقل في أماكن تواجد المبشرين و لا سيما في قرى بلاد القبائل و محاوراتهم و تتبع نشاطهم، و قد حاولنا الاتصال ببعض من لهم دراية بالموضوع، و لكننا لم نجد يد المساعدة، و هو ما جعلنا لا نركز في بحثنا على الجانب الميداني الذي يحتاج أن تقدم فيه رسائل متنوعة لأهميته .

- قلة الدراسات المتعلقة بموضوع البحث .

- تشابك عناصر الموضوع و تداخلها، و تعدد الأطراف المؤثرة و الفاعلة، و يكفي أن نعرف أن جميع المذاهب المسيحية تمارس التبشير حاليا في الجزائر، و لكن أقواها تأثيرا و أشدها خطرا الكاثوليك الموجهون أساسا من الحكومة الفرنسية بحيث يمكن القول بأن جل ما يصنع اليوم في الجزائر من نشاط تبشيري إنما هو من إنتاجهم و تحت أعينهم و هو ما جعلنا نقصر بحثنا على دراسة ثلاثة مبشرين هم أكبر المبشرين الفرنسيين في الجزائر و أشدهم خطرا بورغاد و لافيغري و دوفوكو .

و أما المنهج الذي اتبعناه في هذه الدراسة، فهو المنهج التاريخي في الجوانب المقتضية ذلك كحياة المبشرين الثلاثة و نشاطهم و نشأة الحركة البربرية و تطورها و تتبع القضايا التبشيرية من نشأتها إلى الآن، كدراستنا للاتكية و الفرنسية و الدعوة إلى العامة و ما إلى ذلك . كما اتبعنا كذلك منهجا استقرانيا تحليليا تركيبيا فيما يقتضي ذلك و أيضا المنهج التحليلي النقدي و منهج المقارنة و المنهج الجدلي ( المناظري ) في الجوانب المقتضية لذلك كعرضنا للعقيدة النصرانية و الأناجيل و مقارنة شريعة القرآن بشريعة النصارى، و مناقشة شبهات بورغاد، و اقتضت طبيعة الموضوع في تصورنا تقسيمه إلى قسمين .

**القسم الأول :** أخذ فيه بورغاد حصة الأسد و ذلك لما لأفكاره من تأثير و تواجد على الساحة الجزائرية الآن حيث أن شبهاته كلها هي المطروحة اليوم في سوق التبشير في الجزائر، و هي أهم دعائم الحركة البربرية و أكبر طروحاتها المعترضة بما على الإسلام مما يجعل كل ما كتبناه في تقسيم بورغاد إنما هو تعظيم لتلك الطروحات و دفاع عن الإسلام .

و هكذا فلما كان لبورغاد طابعان أحدهما تنصيري و الآخر استشراقي، و أفكاره الاستشراقية لا زالت هي المادة الأساسية التي ينطلق منها المشرون و دعاة الحركة البربرية. و لما كان موضوع بحثنا ذا طابع دفاعي عن خاتم الأنبياء و دينه الخاتم، و كان المشرون في هجومهم على الإسلام و نشرهم للنصرانية لا ينطلقون من شرح العقيدة النصرانية و كتابهم المقدس و شرائعهم و لا يجادلون مناقشة كل ما يتعلق بعقيدتهم، بل يخفون كل ما يتعلق بما يغطى الخدمات من جهة، و إثارة الثغرات و الإقليمية و توجيه السموم إلى الإسلام بإثارة الشبهات البورغادية كلها من جهة أخرى، فقد رأينا أن يكون منهجنا في دراسة بورغاد، أننا بدل أن ندافع مباشرة عن العقيدة الإسلامية و شريعتها و نبيها و قرآنها كما فعل كثير من المفكرين المسلمين. التجأنا إلى طريقة أخرى رأيناها أكثر جدوى و أجدى نفعاً، لا تغفل هذا، و لكنها تركز كثيراً على إظهار المغطى من حقائق النصرانية عقيدة و شريعة و كتاباً مقدساً و تاريخاً و تصوراً و حضارة، و من الأمثلة على ذلك كما هو مبين في البحث، أن بورغاد هاجم العقيدة الإسلامية، فنحن بدل أن نبدأ الدفاع عن عقيدتنا مباشرة، بدأنا بعرض العقيدة النصرانية، و ما وقع فيها و كيف نشأت و تطورت. و هو ما فعلناه فيما يتعلق بالأنجيل و النبوة و الشريعة و هلم جرا، و ذلك لأن هذا هو الذي يجعل الإنسان المطلع على بحثنا يكتشف الخبوء من كل ذلك و عندما يطلع على كل هذا ينتقل مباشرة إلى كل ما أوردناه فيما يتعلق بكل ما يقابل ذلك في الإسلام، حيث أنه عندما يقرأ العقيدة النصرانية مما كتبه، يكتشف عظمة عقيدة الإسلام و صحتها، و عندما يقرأ كيفية تشكيل الأنجيل ينتقل مباشرة إلى كيفية تدوين القرآن الكريم و عندما يقرأ النبوة و الأنبياء في الكتاب المقدس يدرك قيمتها و مكانتهم في القرآن الكريم. و قبل أن يقرأ ما أمر به الإسلام من العلم و التعلم و البحث العلمي يقرأ موقف النصرانية من العلم و العلماء الخ... و هكذا نكون قد قدمنا صفحة مهمة للقارئ عما وقع في أصول النصرانية ذاتها. سواء فيما يتعلق بالعقيدة أو الكتاب المقدس أو النبوة أو الشريعة أو الموقف من العلم و العلماء، أو الانقسامات و الصراعات و الحروب و التطاحن الخ. و قد استندنا في كل ذلك إلى النصوص المعتمدة لدى النصارى من الكتاب المقدس و الإنجيل و رجال الإكليروس، و بهذه الطريقة اكتشفنا العجب العجاب في النصرانية مما لم يكن يختر و جوده بيانياً، و بذلك يطلع المرء على مكنوناتها الخبوءة التي يغطيها المشرون و لا يسمحون بإظهارها فيكشف زيف كل ذلك. و نجد أنه يمجج ذوق المرء السليم و ينفر منه العقل الحصيف ليرتمي طوعاً في أحضان الإسلام. فيجد فيه صحة العقيدة و العبادة و الشريعة. و صحة الكتاب و إعجازه و إعجاز شريعته و مكانة النبوة و الأنبياء العظيمة و قوة العقل و شدة العاطفة و لا محدودية الوجدان و دفء الإحساس، فيرتفع به من الانتقال إلى الأرض إلى عالم الملكوت ليزداد على

مر الأيام طهارة و نقاوة، باطنا و ظاهرا، روحا و جسدا، فيتم به و ترداد سعادته على مر الأيام و أكبر من ذلك فرحه بلقاء ربه يوم يلاقه .

و إذا كان بورغاد قد أخذ حصة الأسد، فإننا لم نهمل كبار من أتى بعده من المبشرين، و أهمهم لافيغري و دوفوكو، و قد تناولناهما بمنهج مخالف حيث اتبعنا مع كل واحد منهما منهجا خاصا به يلانم طبيعة دوره التبشيري و طبيعة نشاطه . فلا فيغري بينا موافقه و أسس التبشير عنده و ما أنتجه و قمنا بالرد عليه فيما يتعلق بقضية الرق . و دوفوكو شرحنا مجهوداته التبشيرية و بينا علاقة ذلك بالحركة البربرية الحالية و لم نركز على نقده . و هكذا ركزنا على نشاطهما التبشيري التصيري مشيرين إلى ما قاما به في هذا المجال و لم نركز على نقدهما مكتفين بما أوردناه في تقسيم بورغاد، و ذلك لأن غرضنا إبراز جهودهما لتربط حاضر التبشير بماضيه فنعرف اصول الواقع مما يمكننا من فهم أسلوب العلاج .

**و أما القسم الثاني :** فإنه يمكن اعتباره نتيجة للقسم الأول، لأنه ثمار المبشرين و ما أنتجوه و لا يزالون

و في كل ما سبق لم نهمل دور الاستعمار التبشيري و دور المبشرين الاستعماري، و هو ما يجعل بحثنا منسجما تمام الانسجام مع تعريفنا للتبشير الذي أوردناه في تحديد المفاهيم .

و قد اتبعنا - لتحقيق هذا - خطة استقيناها من مؤلفات أقطاب التبشير الثلاثة و موافقهم و أعمالهم و استراتيجيتهم و ما كتب عنهم، و كذلك من الواقع المعاش الذي يعج بما أنتجته مخططاتهم و استراتيجيتهم من أفكار و مواقف و طروحات و سلوكيات . و قد قسمنا البحث إلى قسمين كما ذكرنا قبلا و طأنا لهما بتمهيد تعرضنا فيه إلى أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية والثقافية، و التبشير والاستعمار في الجزائر، و تحديد المفاهيم . هذان القسمان هما :

القسم الأول : مؤسسوا التبشير في الجزائر و قسمناه إلى أربعة أبواب .

الباب الأول : فرانشو بورغاد و الأسس النظرية للتبشير، و قسمناه إلى فصلين قصيرين لأنهما تلخيص لحياته و أهم أفكاره، هما : حياته و أفكاره و منهجه التصيري، و الأسس النظرية للتبشير .

الباب الثاني : تقييم أعمال بورغاد و منهجه، و قسمناه إلى عشرة فصول كاملة مختلفة الحجم بسبب المادة العلمية التي توفرت لنا في كل فصل، و كذا طبيعة الفصل ذاته التي قد تحتاج إلى الإيجاز أو الإطناب .

و جاءت فصوله على الشكل الآتي :

الشريعة، الأناجيل، العقيدة النصرانية و نقدها، الأنبياء في الكتاب المقدس، معجزة نسيب النبي - صلى الله عليه و سلم -، الاختلافات بين المسلمين والاختلافات بين النصارى، النصرانية والسيف، قمة محاربة الإسلام للعلم و حرق مكتبة الإسكندرية، الغار قليط، معجزات النبي صلى الله عليه و سلم .

الباب الثالث : لافييجري والقضية البربرية . و قسمناه إلى أربعة فصول قصيرة هي :

لافييجري و مشروعه التصري، التعليم عند لافييجري، القضية البربرية، تقسيم لافييجري .

الباب الرابع : شارل دوفوكو و اللهجة القبائلية، و قسمناه . إلى ثلاثة فصول قصيرة هي :

حياته و مشربه، الأدوار التي قام بها، السياسة البربرية .

القسم الثاني : الحركة البربرية، و قسمناه إلى بابين :

الباب الأول : نشأة الحركة البربرية و تطورها، و قسمناه إلى ثمانية فصول، هي :

ظهور الحركة البربرية، إنشاء فرنسا إذاعة القبائلية بالجزائر، تأسيس FFS في 1963 م . إنشاء الأكاديمية

البربرية بباريس سنة 1967 م، أحداث تيزي وزر الأولى 1980 م . أحداث أكتوبر 1988 م . تأسيس

R.C.D . أحداث تيزي وزر الثانية 1998 .

الباب الثاني : التبشير من خلال الحركة البربرية . و قسمناه إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : العلمانية : و يتكون من 6 مباحث .

الفصل الثاني : الفرنكفونية : و يتكون من ثلاثة مباحث .

الفصل الثالث : تغيير الإنماء الحضاري .....

و هذا القسم أيضا تختلف أبوابه و فصوله و مباحثه و مطالبه حجما بسبب المادة العلمية المتوفرة

و كذا طبيعة القضية ذاتها التي قد تحتاج إلى الإيجاز أو الإطناب .

و يمكن تلخيص الخطة كلها في محورين، الأول مؤسسو التبشير في الجزائر، والثاني أهم ثمارهم

و هي الحركة البربرية، و اقتصارنا عليها لا يعني أنها وحدها مجال التبشير و المبشرين، و لا يعني كذلك أن

المبشرين قصرنا جهودهم على منطقة القبائل وحدها، و لكننا ركزنا عليها لأنها أخطر ما أنتجه المبشرون،

و أخطر ما يهدد الإسلام و لغته و وطنه الجزائري اليوم .

هذا و لقد بذلنا في هذه الرسالة أقصى ما يمكن من قدرتنا العقلية حتى تصورنا أنها عقل محض،

و أقصى ما يمكن من طاقنا العاطفية حتى نخيل إلينا أنها عاطفة خالصة، و لسنا ندري هل وفقنا في منهجنا

هذا فأصينا، أم عثرنا فأخطانا، و حسينا إخلاص النية لله و حب خاتم الأنبياء صلى الله عليه و سلم

و عسى غيرنا أن يكمل ما قصرنا فيه . و لا يسعنا في ختام هذه المقدمة إلا أن نرحم على أستاذنا

التولسي، أ.د. محسن العابد - مدير المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية - بجامعة الزيتونة بتونس الذي كان

له الفضل في اختيار الموضوع و وضع خطته الأولية و تصحيح القسم الأكبر من التمهيدي، و لكن المنية

عجلت به فرحمه الله برحمته الواسعة وأسكنه مسكنه فسيح جناته .

كما لا يسعنا إلا أن نقدم شكرنا الجزيل لأستاذنا الفاضل أ.د. عبد الرحمن عمر الماحي الذي واصل الإشراف على هذا الموضوع رغم بعد المسافة . و استفقدنا كثيرا من توجيهاته القيمة و لصانحه السيدة و كان له الفضل الأكبر في إنجاز هذا البحث .

والله ولي التوفيق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الموقع الجغرافي للجزائر

تقع الجزائر على ضفاف البحر المتوسط الذي نشأت حوله الحضارات ، وتمثل قلب شمال إفريقيا <sup>(1)</sup> ، وبوابتها إلى جنوب الصحراء <sup>(2)</sup> ، تمتد أراضيها في أقصى اتساع لها إلى 2100 كلم من الشرق إلى الغرب . و 1900 كلم من الشمال إلى الجنوب ، تحتل مساحة 2381741 كلم<sup>2</sup> من القارة الإفريقية . أي 8% من مساحتها الكلية . وتأتي في المرتبة الثانية بعد السودان . تقع بين خطي عرض 19 و 37 شمالا وخطي طول 12 شرقا و 9 غربا و هو ما يجعل الفارق الزمني بين القالة وتندوف أكثر من ساعة ، بتنوع مناخها من المعتدل إلى الصحراوي . وتتنوع تضاريسها إلى :

1- إقليم الشواطئ الذي يجعل الجزائر على أبواب الغرب المسيحي بشاطئ طوله 1200 كلم من غرب الغزوات إلى شرق القالة <sup>(3)</sup> ، مما جعلها تتعرض باستمرار للعنوان السافر بقصد التوسع <sup>(4)</sup> .

ويوجد بهذا الإقليم ميناء المرسى الكبير ذو الأهمية الاستراتيجية . كما يمتاز الساحل الجزائري بالرؤوس والخلجان مما يسهل منها مراقبة التحركات البحرية في البحر المتوسط .

2- إقليم الأطلس التلي ، والأطلس الصحراوي ، وهو ما يجعل الجزائر غنية بسهولها ، وغاباتها . أي بثرواتها النباتية والحيوانية . وكذلك ثرواتها البحرية ، كالمرجان .

ولقد كانت الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط تمثل الخط الأمامي في الدفاع عن الإسلام ضد المهاجمين الصليبيين ، كما كانت الصحراء - عبر التاريخ - تمثل خط الدفاع الخلفي ، ومن هنا فإن الجزائر كانت : " هي الحامي للإسلام ، والساد لمنافذ الصحراء من وصول الاستعمار

(1) - أحمد توفيق المنفي ، جغرافية القطر الجزائري ، ط1 ، مطبعة الشريف ، تونس ، 1948 ، ص4 .

(2) - Ben youcef Ben Khedda . les origines du 1<sup>er</sup> Novembre , 1954 , Editions Dahlab , Alger , 1989 . P39

(3) - Dictionnaire Quillet , P. A

أيضا : بسام العسلي ، الله أكبر وانطلقت ثورة الجزائر ، ط2 ، دار النفائس ، بيروت ، 1986 ، ص 52 ، 64 - 87 .

أيضا : إدريس لخضر وآخرون ، الجغرافيا ، ط1 ، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية ، وزارة التربية ، الجزائر ، 1991 ، ص35 .

(4) - مصطفى الأثرف ، الجزائر الأمة والمجتمع ، ترجمة حنفي بن عيسى ، ط1 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص8 .

الأوروبي إليها " (1) . وقد امتاز سكانها بالتمسك بالإسلام ، وشدة مقاومة الغربيين الصليبيين ، فواقفوا المئين الأسباني والبرتغالي من مواصلة احتلال أراضي المسلمين ، بل أرجعوهم على أدبارهم خاسئين (2) ، مما جعل الأوروبيين يسموننا أجيالا طويلة بالمتعصبين . كما جعل رجال دينهم يحثون دولهم على إسقاط الجزائر ليفسح الطريق أمامهم ، وقد عبر عن هذا لافيحري (3) " la veerie " أدق تعبير بقوله : " إن الجزائر باب مفتوح بيد العناية الإلهية على قارة متوحشة... " (4) .

ولا أدل على هذا من أنه بعد سقوط الجزائر في سنة 1830م انفتح الطريق أمام الأوروبيين فابتلعوا إفريقيا بكاملها ، كما فتح الطريق أمام مبشريهم عامة ، والفرنسيين خاصة . ومن هنا ، فلأهمية هذا البلد ، في هذا الموقع ، استعمرته فرنسا ، وأنشأت به التبشير الذي ستبينه في دراستنا هذه .

(1) و(2) - إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى وشواطئها ، ط . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص 110 .

(3) - سيدي قنوين به مفصلا

(4) - إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 110 .

# 1- أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية والثقافية قبل الاستعمار الفرنسي

## الأوضاع السياسية

قبل استعمار فرنسا للجزائر في 14 محرم 1264هـ/الموافق 5 جويلية 1830م كانت الجزائر تابعة - إسميا - (1) للخلافة العثمانية منذ سنة 922هـ/1516م . وسبب ذلك أنه بعد طرد المسلمين من الأندلس والتكثير بهم ، قرر الأسبان والبرتغاليون تتبع المسلمين واحتلال إفريقيا كلها للقضاء على الإسلام نهائيا . وقد وقع الأسبان والبرتغاليون اتفاقية تورد يسيلياس " tofdesillas " يوم 7 نوفمبر 1494م ، والتي ياركها البابا يوليوس الثاني (2) "Julius" لتحقيق هذا الغرض . وأدت تلك المتابعة إلى ثلاث نتائج هامة هي :

1- احتلال قسم كبير من الأراضي الإسلامية ؛ إذ في سنة 1497م احتلت أسبانيا سبتة ومليلة في المغرب .

وفي 23 أكتوبر 1505م احتلت المرسى الكبير عندنا ، ثم وهران وأرزويو في 18 مايو 1509م ، ثم مستغانم ، وتونس ، ونلس ، وشرشال والجزائر العاصمة وبجاية . وتونس التي ربطوا حميرهم فيها بجامع الزيتونة ، وطرابلس ، ووصلوا حتى القليين (3) ، ولولا قوة العثمانيين لكان المشرق الإسلامي في وضع آخر .

2- تسليح مهاجري الأندلس ضد الأسبان ، ودفاعهم عن وطنهم الجديد ، وبناء السفن والمعدات الحربية للجهاد ، ومواصلة هجومات الأسبان على الأندلسيين والجزائريين .

3- دخول الدولة العثمانية الحرب رسميا ضد أسبانيا (4) .

(1) - سبب هذا . ومن الغربيين الذين يقرون به ، المؤرخ الأمريكي أروين :

Rayw , Irwin : The Diplomatic Relations of the united states with the Barbary powers ( 1776 - 1816 ) The univ . of North carolina ( U . S . A ) 1937 .

وقد أخذنا المرجع من : مولود قاسم ، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830 ، ط 1 ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1985 ، ج 1 ، ص 84 .

(2) - يوليوس II ( 1443 - 1513م ) . أعلن بابا في سنة 1503 . عزز سلطة البابوات الزمنية ، وبالحرب الشاملة على الإسلام وأراضيه عند المجمع للاتراني الخامس ، ( بانييل عكولة وآخرون ، المنجد في اللغة والأعلام ، ط 26 ، دار المشرق ، بيروت ، دت ، ص 757 . ) .

(3) - والذي وضع تلك الخطة الواسعة لمهاجمة سواحل إفريقيا المتوسطية ، هو الكاردينال خيمينس ، مستنلا الفوضى العامة التي كانت تعيشها هذه البلدان . وهو أكبر دليل على الروح الصليبية . ( لفرديبال . الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دط ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ، ليبيا ، 1969 ، ص 419 ، 420 ) .

(4) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ط 1 ، ش.و.ن، ت ، الجزائر ، 1981 ، ج 1 ص 136 . أيضا عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ط 1 ، المطبعة العربية ، الجزائر ، 1955 ، ج 2 ، ص 291 ، 292 . أيضا السعيد الورشالكي ، الجزائر الثائرة ، دط ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 1992 ، ص 42 . أيضا : تقسيم أحمد قورق الحنفي ، مذكرات نقب الأشراف ، ط 2 ، ش و ن ت الجزائر ، 1980 ، ص 6 .



في هذا الإطار ، وخلال تلك السلسلة من الماسي ، جاء أربعة إخوة ، كنههم بحزارة مهرة ، من جزيرة مدلين<sup>(1)</sup> في اليونان لإنقاذ ومساعدة اللاجئين الأتنتسيين ، ومواجهة القرصنة الصنيبية في البحر المتوسط ، وهم عروج ، وخير الدين ، ومحمد إلياس ، وإسحاق . وصنوا إلى خلق الوادي بتوتس وعسكروا بقاربهم ، فاتصل بهم علماء بجاية وأعيانها يستصرخونهم لإنقاذها وتحريرها من الاستعمار الأسباني<sup>(2)</sup> . فلبوا النداء ، فاستشهد محمد إلياس وجرح عروج ، ولكنهم حرروا بجاية . أما الجزائر العاصمة فكان يحكمها الثعالبة برئاسة سنيم التومي . وكان قسم كبير منها مستعمرا . فاتصل وفد الثعالبة بالآخوة الثلاثة فلبوا النداء ، واستقبلهم السكان بفرح وحماس كبير . وسلموا القصبة لتكون مقرا لهم<sup>(3)</sup> . طهروا الجزائر من الأسبان وبعثوا ما سموه : " دولة الجزائريين " " L'état des algériens " في سنة 922هـ/1516م .

تمكن الإخوة الثلاثة من نحر الأسبان وعملائهم في مختلف المناطق ، إلى أن استشهد إسحاق في قلعة بني راشد ، ثم عروج في سنة 924هـ/1518م في الوادي المالح ، أو في بني بزناس . وبقي خير الدين الذي قضى على رؤساء الطويفات التي كانت نحو 20 دولة ، والتي ظلت تتصارع طوال قرن كامل ، والبلاد في حالة من الفوضى ؛ مما سهل للأسبان عمليات الاحتلال .

وبهذا تكونت الدولة الجزائرية التي غيرت مجرى التاريخ الإفريقي<sup>(4)</sup> ، والتي كانت مبنية على مبادئ الإسلام ، غرضها الأساسي مقاومة المد الصليبي وإيقافه ، وكان نظامها السياسي مبنيا على ثلاث سلطات ، هي :

1- السلطة المدنية : يرأسها شيخ المدينة بمساعدة مجلس بلدي ، ومن اختصاصاته : المحافظة

(1) - تسمى باليونانية : " Mytilène " ويتلفظ بها الأتراك : " Midilli " . ( هامش أحمد بن أبي

الضيف ، إتحاق أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تحقيق لجنة من كبار كتابة النولة للشؤون الثقافية والأخبار ، ط . كتابة النولة للشؤون الثقافية والأخبار ، تونس ، 1963 ، ج 2 ، ص 9 .

(2) - أحمد بن أبي الضيف ، المصدر نفسه ، ص 9 ، 10 . أيضا : عطاء الله دهبنة وآخرون ، الجزائر

في التاريخ ( العهد الإسلامي ) ، ط . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ، ص 456 .

وقد علق مولود قاسم على هذا ، بأن الشعب هو الذي أتى بعروج وإخوته لإنقاذ البلاد ، لا الحكام الذين كانوا يتطاحنون على كراسي لا وجود لها ، وذلك أن ملك بجاية عبد الله كان في شقاق مع عمه عبد

الرحمان ، وكان كلاهما مستندا إلى الأسبان المحتلين لبجاية . ( مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 58 ،

61 ) .

(3) - يذكر أبو القاسم سعد الله أن الجزائريين كانوا يستنجون بالجيش العثماني ( القرصان ) ، منذ أواخر

لقرن 9 هـ ، حين عجزوا عن صد الأسبان ، وضم خير الدين القطر الجزائري إلى الدولة العثمانية ، كان بدون شك لصالح القضية الإسلامية لصد الزحف الأسباني . ( أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص

134 ) .

(4) - مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 62 . أيضا عبد الحميد بن أشنهور ، الدور الذي لعبته الجزائر في

لقرن 16 بالبحر المتوسط ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ماي ، جوان ، 1972 ،

السلة 2 ، ع 8 ، ص 295 ، 303 .

على الأمن والنظافة والجمارك ، وجمع الضرائب التي كانت بسيطة وعائلة ، وموافقة لمبادئ الإسلام وتتفق في الصالح العام <sup>(1)</sup> .

ولكي يتم التحكم في البربر والعرب ، فقد جعل في كل مدينة حاكما آخر يسمى " نقيب الأشراف " ، يختار من المرابطين ، وذو سلطة أوسع من سلطة شيخ المدينة ، وكلما حدث أمر ذو بال يجتمع في بيته شيخ المدينة وأماؤه لاتخاذ اللازم <sup>(2)</sup> .

2- السلطة القضائية : وتمثلها محكمتان ، حنفية ومالكية . ولكن الرئاسة للمفتي الحنفي اعتبارا لمذهب الخلافة العثمانية ، وهو الذي يعين الرئيس ، وقصر الرئاسة هو المحكمة العليا . وتنتظر المحكمتان في مختلف القضايا وتتميزان باستقلاليتهما وتطبيقهما للشريعة الإسلامية <sup>(3)</sup> .

3- السلطة التنفيذية : تسهر على تنفيذ ما تصدره السلطان القضائية والتشريعية من أحكام وفقا للشريعة الإسلامية . وكذا جمع المدخولات العمومية ، وإدارتها في الصالح العام ، كبناء الجسور ، والحصون ، وشق الطرقات ، وصيانتها ، والمحافظة على الغابات ، ودفع أجور الموظفين ، والاعتناء بالفقراء والأيتام <sup>(4)</sup> . وهو اعتناء لم تكن أوروبا قد عرفتة .

هذه السلطة التنفيذية يرأسها حاكم منتخب ، وقد مرت بخمس مراحل :

- 1- عصر بابا عروج وخير الدين (1512م/1546م) .
- 2- مرحلة باي البايات (1546م/1587م) .
- 3- مرحلة الباشوات الثلاثين ، وكان كل باشا يحكم ثلاث سنوات فقط (1587م/ 1659م) . دامت 72 عاما .
- 4- مرحلة الأشوات (1659م/1671م) دامت 12 عاما .
- 5- مرحلة الدايات (1671م/1830م) . دامت 160 عاما <sup>(5)</sup> فمجموع الحكم العثماني 319 عاما .

(1) - من أراد التوسع في قضية الضرائب هذه ، والتي كانت تقام على أساس إسلامي فليرجع إلى : حمدان خوجة ، المرأة ، ترجمة العربي الزبيدي ، ط 1 ، ش، و ، ن ، ت ، الجزائر 1975 ، ص . أيضا : أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا " داي الجزائر 1766 - 1971 " ، نط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ص 14 ، 15 .

(2) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 109 ، 125 .

(3) وهذا هو السبب - في نظرنا - الذي جعل المؤرخين الغربيين يهاجمونها ويتهمونها بالظلم والإجحاف . ومنهم هايدو " HAEDO " :

HAEDO ( Fray diego de ) Histoire des Rois d' Alger , Epitome de los Reyes de Argel vu et Annotée , H , D . de Grammont . A . jourdan , Alger , 1881 , p219 .

(4) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 107 - 111 .

(5) - أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 23 . أيضا : ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ( 1800 - 1830 ) نط ، ش، و ، ن ، ت ، الجزائر ، 1979 ، ص 23 ، 24 . وقد اعتقد أن حكم باي البايات بدأ في سنة 1518 م ، وهو سهو منه ، وقد علق أبو القاسم سعد الله بأن هذه المراحل الخمس هي تسميات لا معنى لها لأنها كانت تعني بعض التغيير في علاقات الولاة بالسلطان ، لا علاقة الولاة بالجزائريين ، ( أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، هامش ص 133 ) .

عندما يموت الداي يجتمع الديوان وفقا للقوانين المنظمة لذلك . ثم يرشح من تتوفر فيه الشروط الضرورية . ويوافق أعيان البلد على هذا الاختيار . ويشهدون على مقدرته فينتخب بمبايعة أهل الحل والعقد له (1) . ويعلن باشا أو دايا . فبرندي فغطان الداي الراحل ، وبودي اليمين القانونية ويحتفل بتعيينه .

بعد انتهاء مراسيم التصيب ، يرسل مبعوثا إلى الباب العالي ليخبر بما حدث ، حاملا معه رسالة تحمل إمضاءات وأختام أعضاء الديوان ، ولاسيما القاضي والمفتي وتقيب الأشراف . موضع فيها ما سبق (2) .

وهذا يعني أن حاكم الجزائر لا يعين من قبل الباب العالي ، بل ينتخب في الجزائر ، مما يجعل موافقة الباب العالي مجرد عملية شكلية وهذا ما يجعل نظام الحكم في الجزائر ليس وراثيا ولا عسكريا (3) . كما لا يجعل الجزائر مجرد ولاية عثمانية . ونستطيع القول : " بأن الجزائريين - في العهد العثماني - اختاروا مبادئ الحكم الجمهوري ، والداي هو رئيس الجمهورية " (4) .

والواقع أن الأدلة على استقلال الجزائر عن الباب العالي كثيرة جدا (5) . منها :

- معاهدات الجزائر مع غيرها ، إنما كانت باسم " جمهورية الجزائر " . نون أن تشير ؛ لا إلى الباب العالي ولا إلى غيره (6) . ومعنى هذا أنها كانت تتعامل مع الدول الأجنبية باسمها الخاص ، وبكل استقلالية ، مما جعل قنصلية الدول الأجنبية يقيمون بالجزائر . وقد بلغت تلك الاتفاقيات والمعاهدات حدا من الكثرة يجعل من المستحيل إقامتها لدولة غير مستقلة ، فقد عقدت

(1) - أحمد وفق المدني ، محمد علي باشا ، ص 130 .

(2) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 132 .

(3) - يرى أبو القاسم سعد الله : أن النظام السياسي هذا " كان نظاما جمهوريا عسكريا مغلقا " لأن الحاكم عسكري ، ومن الوجود ، ولكنه منتخب ، ( أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 138 ) . ولكن هناك حكاما غير عسكريين تولوا الحكم ، مثل حسين خوجة الشريف ( 1705 - 1707 م ) ، ومحمد بقطاش ( 1707 - 1710 م ) . وكان هذا الأخير من كبار العلماء والأبياء . وكانا إداريين . ( أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 138 . أيضا : أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 47 ) .

(4) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 127 .

(5) - ومن أولاد التوسع فليرجع إلى :

أبي القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 140 . أيضا : المهدي بوعبدلي ، ناصر الدين سعيدوني ، الجزائر في التاريخ . ( العهد العثماني ) . مط ، وزارة الثقافة والسياحة ، م و ك . الجزائر 1984 ، ص 14 . أيضا : مولود قاسم ، المصدر السابق . أيضا : أحمد توفيق المدني ، المصدر السابق ، ص 32 ، 56

(6) - وبذلك أصبح لدايات يعتبرون أنفسهم كخلفاء للباب العالي لا ولايته ، ومصالحة الجزائر قبل مصالحة تركيا Serres ( j. ) la politique turque en Afrique du nord sous la mounarchie de juillet , Goutheser , Paris , 1925 . PP 9.10

مع فرنسا وحدها 70 معاهدة ، ومع هولندا 11 معاهدة ، ومع إنجلترا 18 معاهدة (1) . . . وهذا دليل على القوة من جهة ، والاستقلال التام من جهة أخرى (2) .

- رفض وساطة الخليفة العثماني لصالح الغربيين إذا تعارضت مع سياسة الجزائر ومصالحها . وعلى سبيل المثال ، فقد رفضت الجزائر وساطة السلطان محمود الثاني (3) لاسترداد باخرة روسية ، وكذا إطلاق سراح بعض الأسرى اليوغسلافيين . بل كان يعبر عن استنكار وساطة الخليفة العثماني بقبلة سفينة وفد وساطته كناية عن شدة الرفض (4) .

- إلغاء منصب الباشا الذي فرضه السلاطين العثمانيون على الدايات . وذلك في سنة 1711م منع مبعوثي السلطان العثماني من دخول الجزائر عندما تقضي مصلحة الجزائر ذلك ، ومن الأمثلة على هذا ، فإن الداوي علي شاولس (5) منع إبراهيم باشا مبعوث السلطان العثماني من دخول الجزائر بحجة الخوف من تسببه في إثارة الفتن (6) .

- أراد الخليفة العثماني في سنة 1582م منع الجهاد البحري الجزائري ضد السفن الفرنسية وإرجاع المراكب المغتمة إليهم ، فأخفق ، لأن الجزائريين اعتبروا أنفسهم في حرب مع فرنسا ما لم تتعاقد معهم رأسا (7) . وهذا دليل على الاستقلال التام ، وإلا ما كان لهم أن يستطيعوا فعل ذلك ، بل وصل الأمر بالجزائريين في الفترة (1805م/1808م) أن نشطوا بقوة الجهاد البحري ضد الفرنسيين ، لأنهم اصططحوا مع الباب العالي ولم يعقدوا صلحا خاصا مع الجزائر (8) .

- الاستقلال السياسي : الجزائر أول من اعترف باستقلال الولايات المتحدة في سنة 1776م ،

(1) - وقد أورد مولود قاسم كثيرا من صور تلك المعاهدات الأصلية في كتابه : شخصية الجزائر ، فمن أراد الاطلاع عليها فليرجع إليه .

(2) - مولود قاسم شخصية الجزائر ، ج 1 ، ص 13 ، 14 . أيضا : ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدي ، الجزائر في التاريخ ، ص 15 .

(3) - ولد في سنة 1784 ، وتوفي في سنة 1839م ، عين خليفة في سنة 1808م إلى وفاته . قاوم التوسع الروسي على الدانوب . في عهد انفصل اليونان ، أمر بقتل الانكشارية في سنة 1826م . ( ياسيل عكولة ، المنجد ، ص 640 ) .

(4) - عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، ( 1816 - 1871 م ) ، ط 1 ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1972 ، ص 247 ، 248 .

(5) - حكم الجزائر من سنة 1710م إلى وفاته في سنة 1718م . أخذ الفتنة التي أثارها دالي إبراهيم باغتياله في سنة 1710م الداوي العلامة لمجاهد محمد بقطاش محرر وهران وأرزويو من الأسبان ، وذلك بالقضاء على رؤوس مهبجي تلك الفتنة ، وكانت حجتة في رفض باشا السلطان أن الداوي يمثل السلطان والسلطة لجزائرية معا ، فافتتح السلطان بنظرية الديون هذه ، وأصبح الداوي هو الباشا . ( أحمد توفيق المنني ، محمد عثمان ص 48 ) .

(6) - ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 23 . وقد اعتمد على :

Serres ( j. ) la politique turque en Afrique du nord , P 194

( 7 ، 8 ) - أحمد توفيق المنني ، محمد عثمان ، ص 32 ، 56 .

وليس الباب العالي ، وهذا دليل على الاستقلال التام<sup>(1)</sup> ، وإلا هل كان يمكن للجزائر أن تعترف باستقلال أي دولة أثناء الاستعمار الفرنسي لنا 19 .

- الاستقلال الاقتصادي والمالي للجزائر : ولا أدل على هذا من سك النقود الجزائرية الصرفة ، واستقلال الخزينة الجزائرية عن الباب العالي استقلالاً تاماً<sup>(2)</sup> .

- الأسطول الجزائري كان أقوى من الأسطول العثماني<sup>(3)</sup> . وكان كثير من رياسه العظماء جزائريون ، والأتراك الذين كانوا يجاهدون على منته ، إنما كانوا باسم الجزائر المجاهدة لا باسم تركيا . وأصبحت الجزائر سيدة البحار بلا منازع طيلة ثلاثة قرون كاملة ، مما جعل مكانتها الدولية عظيمة .

- وإضافة لما سبق ، فإنه في العهد العثماني تحددت الحدود السياسية للقطر الجزائري في الحدود الحالية<sup>(4)</sup> ، وخضعت لسلطة مركزية واحدة إلى الآن<sup>(5)</sup> .

وتجدر الإشارة إلى أنه - رغم هذا الاستقلال - فإنه عندما تشد الخطوب تلتحم الجزائر ودولة الخلافة ليصبح كتلة واحدة في مواجهة الصليبيين .

بعد أن بينا كيفية انتخاب الداوي " رئيس الجمهورية " وبرهنا على الاستقلال التام للجزائر ، نكمل ذلك ببيان التقسيم الإداري لها .

(1) - مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 29 ، 30 ، ومن أراد التوسع فليرجع إلى :

Kuran E . ( La letter du dernier Dey d' Alger au grand vizir de l' empire ottman )  
Revue Africaine ( 1952 ) . P 194 .

أيضاً : عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائقه ، ص 145 ، وقد نشر مقتطفات من رسالة الداوي عمر باشا إلى السلطان العثماني يبين له فيها رفض الداوي السابق الحاج علي أوامر الخليفة ، كما يبرر له هو أيضاً عدم الامتثال لأوامره .

(2) - من أراد التوسع فليرجع إلى : ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 127 - 189 .

(3) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 141 .

(4) - وقد ادعى - اقراء - بعض المؤرخين الفرنسيين : أن مساحة الجزائر لم تكن تتعدى 6/1 شمالها الحالي ، وهو اقراء مغرض . انظر :

Esquer (G) les commencements d un empire , la prise d alger , la rouses , Paris , 929  
p1  
أيضاً :

Rinn (L.) . ( Le royaume d' Alger sous le dernier Dey ) Revue Africaine . 897.p137

والحقيقة أن حدود الجزائر كانت محددة تحديداً دقيقاً منذ 1515م ومعترف بها دولياً ، وأكبر دليل على هذا هو اعتراف فرنسا بهذه الحدود ، فمن الناحية الشرقية تجد الغرفة التجارية لمرسيليا التمتت من داي الجزائر السماح لها بإنشاء مركز تجاري بالقلعة ، وكذا لصطيد المرجان ، وبقي هذا المركز إلى استعمار فرنسا للجزائر ، وهذا اعتراف فرنسي بأن تلك المنطقة تابعة للجزائر . أما من الناحية الغربية فحكفي برهانا على وجود الحدود : النزاع الذي نشأ بين المغرب وفرنسا بسبب اختراق الأمير عبد القادر لحدود الجزائر الغربية في نظر فرنسا ، ومن البديهي عدم اختراق حدود لا وجود لها ، وبقيت تلك الحدود إلى الآن ، وهو ما بين تهافت الادعاءات السابقة .

- Ferhat Abbas , La Nuit coloniale , René Julliard , Paris , 1962 . P 48 .

(5) - أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، ص 8 . أيضاً : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 132 .

كانت الجزائر مقسمة إداريا وسياسيا إلى أربعة أقاليم هي :

- 1- دار السلطان ، وتمثل منطقة الوسط ، وتخضع مباشرة للداي .
- 2- بايلك الشرق : ومركزه قسنطينة، ويخضع له الشرقي الجزائري والصحراء
- 3- بايلك الغرب : وكان مركزه مازونة ، ثم معسكر ، ثم وهران بعد تحريرها من الأسبان في سنة 1792م وكان ذا صبغة حربية لأسباب منها : الحروب المستمرة مع الأسبان .
- 4- بايلك الشيطري : ومركزه المدية (1) .

وكل إقليم يحكمه وال ، يسمى باي يعينه الداي ، ويشترط فيه أن يكون صهرا لشيوخ القبائل . أو من الكراغلة ، وأن يكون مطلقا على عادات وتقاليد إقليمه . ولم يكن الدايات يعزلون إلا نادرا ، اللهم إلا بعد تدهور النظام السياسي وظهور الجشع عند بعض الدايات ، فكثر العزل الذي أضرب بالشعب ، وبالحكومة على السواء (2) .

### عوامل ازدهار الدولة الجزائرية في العهد العثماني

بعد دخول العثمانيين للجزائر ، فهموا طبائع الشعب الجزائري ونفسيته ، فذابوا فيه وذاب فيهم ، حيث ربطوا مصيرهم بمصيره ، فخاضوا مع الحروب الضروس ضد الصليبيين ؛ أحيانا قوادا ، وأحيانا مقودين من الجزائريين أمثال الرايس حميدو (3) ، ويحي أغا (4) . كما تحالفوا معا في الداخل لتوطيد الأمن والاستقرار ، وتقديم التجارة والسفر (5) . فتأسست بذلك أعظم دولة في الجزائر على مر العصور . أما أسباب ذلك التلاحم والانسجام فهي :

- 1- تمسك العثمانيين بالإسلام والذود عنه : وذلك بداية من تأسيس دولة الخلافة العثمانية في

(1) - ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 29 ، 30 .

(2) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 137 ، 138 ، 141 . أيضا :

- Ferhat Abbas , La Nuit coloniale , PP 49 . 50 .

(3) - سيأتي التعريف به .

(4) - هو جزائري من أصل بربري ، جعله الداي حسين قائدا عاما للقوات المسلحة ، بعد أكفا قائد عسكري تولى قيادة للجيش في عهد الأغوات والدايات . وصاحب نظرية " التدريب المستمر " له فضل على أحمد باي في توطيد أركانه في الشرق ، عزل وقتل نتيجة مؤامرة دبرها الخرناجي - صهر الداي - وزمرته ، وقدموا بذلك وثائق مزورة تثبت تأمره مع رؤساء القبائل والعرب للاستيلاء على المنطقة ، عين ببله إبراهيم أغا الجاهل بفنون الحرب . ولو بقي لما استعمرت فرنسا الجزائر . فكان قتله الخطأ الاستراتيجي الوحيد الذي ارتكبه الداي حسين . ( حمدان خوجة ، المرأة ، ص 178 ، 179 . العربي لزبيري ، هامش المرأة ، ص 188 . ) . وقد عبر نقيب الأشراف عن هذا بمرارة قائلا : " يحي أغا هذا ، هو أحسن رجال تلك الدولة عقلا ومعرفة . . . والذي تولى بعده ، مثله مثل الحمار ، لا يعرف إلا الأكل والنكاح لعنة الله عليه " . ( أحمد الشريف الزمار ، نقب أشراف الجزائر ، مذكرات ، تحقيق أحمد توفيق المدني ، ط 2 ، ش. م. ن ، ت الجزائر ، 1980 ، ص 163 ) .

(5) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 135 .

سنة 699هـ / 1300 م ولا أدل على هذا من أن فتح محمد الفاتح <sup>(1)</sup> للقسطنطينية كان رد فعل على الصليبيين الذين أخذوا الأندلس ، كما أن قدومهم إلى الجزائر ذاتها ، كان لحمايتها كمنطقة إسلامية من الصليبيين الإسبان كما مر سابقا والتمسك بالإسلام طبيعة أصلية في الجزائريين ، فكان الإسلام العامل الأساسي الذي مزج العثمانيين بالجزائريين ، فوحد قلوبهم ، وصفى نفوسهم ، ليحققوا هدفا عظيما ، تمثل في تكوين أعظم دولة جزائرية ، ذات أكبر قوة بحرية <sup>(2)</sup> ، تواجه بها الصليبيين الغربيين ، وتحمي الإسلام وأراضيه لمدة تزيد على الثلاثة قرون <sup>(3)</sup> .

2- التزام العثمانيين في الجزائر بتطبيق العدالة ، وسياسة المجتمع بالحسنى <sup>(4)</sup> : ويظهر هذا جليا في لينهم مع القبائل المتمردة فلم يكونوا يلجأون إلى العنف إلا عند الضرورة ، ودون انتقام . وبعد الإخضاع يكرمون رؤساءها ، ويعيدون لها ما أخذ منها ، فنتج عن هذه السياسة طاعة الأهالي ، وأمن الطرقات ، كما مدنت القبائل بإشراكها في النشاط البحري من جهاد وتجارة ، فتوحد العثمانيون مع الأهالي الذين ظهر فيهم الأبطال نوا الشهرة العالمية ، مثل الرئيس حميدو الذي دوخ أساطيل أوربا وأمريكا . والذي استشهد في معركة بحرية مع الأسطول الأمريكي في سنة 1815م <sup>(5)</sup> .

3 - تقديس المرابطين أحياء وأمواتا : إلى حد أن الهارب الذي يلجأ إلى ضريح المرابط لا يتابع . وسبب هذا أنهم وجدوا مكانة عظيمة للمرابطين في الجزائر ، فاستخدموهم في التحكم في الشعب وفي السهر على أمن الطرقات <sup>(6)</sup> . وجعلوا لتقيب الأشراف مكانة عظيمة في النظام السياسي . و كان هؤلاء المرابطون عاملا إيجابيا في التحكم في الشعب ، وحل مشكلاته الأمنية والاجتماعية ، و تحقيق الانسجام بين الزراعي و الرعي .

ولكنهم كانوا من - ناحية أخرى - عاملا سلبيا في تخدير العقول و جمودها كما سنبين .

4 - كفاءة وتدين وورع أغلب الديات : وتفانيهم في خدمة الإسلام والجزائر . ومن هؤلاء على سبيل المثال :

(1) - هو ابن السلطان محمد الأول ، ولد في سنة 1429م ، ت 1481م . أصبح سلطانا في سنة 1444م . فتح القسطنطينية في سنة 1453م وعمره 24 سنة ، وبذلك قضى على الدولة البيزنطية ، وطرد أركان الخلافة بالفتوحات والتنظيم الإداري وتشييد المساجد . ( ياسيل عكولة ، المنجد ، ص 638 ) .

(2) - من أراد التوسع في معرفة هذه القوى البحرية فليرجع إلى :  
Moulay Belhamissi , Histoire de la marine Algérienne ( 1516 , 1830 ) , E. N. A. L.  
, Alger . 1983 .

(3) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 110 ، 112 .

(4) - أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 14 .

(5) - حمدان خوجة ، ص 115 . أيضا : مولود قاسم ، المصنر السابق ، ص 236 .

(6) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 110 - 112 . أيضا : لغزديل ، الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا

الداي محمد عثمان باشا<sup>(1)</sup> : الذي حكم الجزائر من سنة 1766م إلى 1791م .  
 فلقد كان عادلا ، عارفا بقوانين الملك ، ملتزما بأحكام الشريعة محبا للجهاد ، زاهدا عابدا ،  
 وقعت في عهده حروب كثيرة انتصر في جميعها ، تبرع بكل ماله للخزينة<sup>(2)</sup> ، مشروطا  
 تخصيصه للجهاد . وكانت قيمته : مائتا ألف سكة جزائرية<sup>(3)</sup> . اهتم بالجانب العمراني ، وبناء  
 الحصون والأبراج للجهاد . وأول من صنع اللنجور<sup>(4)</sup> ، وجاهد به الأسبان . كما اهتم ببناء  
 المساجد ، وشق قنوات المياه وإيصالها إليها ، وكذا إلى الثكنات العسكرية ، والحصون ، وأزقة  
 البلاد، لينتفع بها الناس وقد تمكن الرئيس الحاج محمد قبطان في عهده أن يأسر 24000 أسير  
 نصراني ، توفي ليلة العاشر من ذي القعدة 1205هـ . الموافق 11 يوليو 1790م<sup>(5)</sup> .

### مكانة الجزائر واستراتيجيتها خلال العهد العثماني

جعلت السياسة السابقة للجزائر دولة عظمى ؛ ذات مكانة لم تبلغها لا قبلها ولا بعدها ،  
 فهيمنت على القوة الصليبية قاطبة لمدة ثلاثة قرون متوالية ، مما جعل تلك القوى الكبرى تخضع  
 للجزائر ، وتدفع لها الضرائب ، وتنفذ قراراتها ، وتعقد معها المعاهدات . ولم يجدها نكتلها<sup>(6)</sup>  
 ومؤامراتها ، وحتى استنجاها بالخليفة العثماني الذي كانت ترفض وساطته ، وتقبل سفينة  
 وسيطه ، إنذار له كي لا يعود .<sup>(7)</sup>

وقد بلغت هذه القوة للجزائر إلى حد جعل ما يعقد بينها وبين تلك القوى الصليبية من  
 معاهدات يذبل باسم " الجزائر المجاهدة " و " الجزائر المحروسة " ، و " الجزائر القاهرة " <sup>(8)</sup> .

(1) - نكتفي هنا بالإشارة إلى هذا الداوي كنموذج . ومن أراد معرفة كل دايات الجزائر ، وما وقع في أيامهم من جهود جبارة في الجهاد ، وخدمة الجزائر وتعميرها ، فليرجع إلى : أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، وكذا مذكرات نقيب الأشراف .

(2) - أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 80 . أيضا : ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 25 .

(3) - *Venture de paradis , Alger au xviii siècle , Edité par Mr , F Fagnon , Alger , 1868 , P 101 .*

(4) - نوع من السفن لها مهارة كبيرة في القتال والمناورة ، وبصنعها ودخولها الحرب ، استطاعت أن تمنع سفن الغزاة من إيصال قنابلها إلى عمران البلاد . ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 137 ) .

(5) - أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 80 ، 97 ، 129 . ومما جاء في وصف فونتير دي برلادي : " *Venture de paradis* " لهذا الداوي الذي عاشه سنتين : " . . . والعيب للوحيد الذي فيه أنه كثير الاقتصاد ، شحيح بالمال ، بحيث لا هم له إلا توفير المال في خزينة الدولة ، وليس لأصعب على نفسه من إخراج المال من تلك الخزينة . . . " . أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 163 . ويا حيدا ونسم حكامنا اليوم بهذه الصفة .

(6) - من أراد معرفة تلك التكتلات والأحلاف بين أمريكا وأوروبا ضد الجزائر ، وظروف وقوعها ، فليرجع إلى : مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 13 ، 14 . . . .

(7,8) - مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 42 ، 46 ، 47 . وقد أشرنا قبلا إلى حدد هذه المعاهدات والقول فتبي عقلت معها بالجزائر ، ومن أراد معرفة لتفاصيل والاطلاع على النصوص الأساسية ، فليرجع إلى كتاب مولود قاسم السابق ، ج 2 . أما من أراد التوسع في معرفة مكانة الجزائر لمطوية فليرجع إلى



هذه القوة هي التي جعلت ملوك فرنسا من لويس 14 " Louis 14 " (1)، إلى شارل 10 "

Charles 10 (2)، يعنونون رسائهم إلى دايات الجزائر ، هكذا .

" إلى السادة الأمجاد العظام " (3) . وأضاف إلى هذه الديباجة لويس 16 " Louis 16 " (4)،

وقادة الثورة الفرنسية ، والجمهورية الأولى ، إضافتين مهمتين هما: " إلى سيدي حسن الصديق الحليف للأمة الفرنسية " (5) . هذا الإطراء والتقدير نتيجة لعظمة الجزائر ، وأيضا لما قدمته لفرنسا من مساعدات عسكرية ومالية وغذائية ، فلجزائر ديون قمحية وعينية لم تسدد إلى اليوم ، ذلك أنها أقرضت حكومة الثورة الفرنسية مبلغ 5 مليون ف. ذهبي ، بدون فائدة . وأنقذتها من المجاعة أيام حروب الثورة ، ثم أثناء حروب نابليون (6) Napoléon بقرض اخر لشراء القمح من الجزائر ، وبدون فائدة (7) . كما حمتها من الغزو الخارجي ، ومن التمزق الداخلي مرارا بنجذات عسكرية مستمرة في مختلف عهود فرنسا (8) .

والواقع أن بروز الجزائر قوة هائلة في العالم ، لا يمكن وضعه وتفسيره ؛ إلا في إطار استراتيجية العالم الإسلامي لمجابهة الزحف الصليبي الغربي ، وإيقافه . وقد بينا أن نشأة هذه الدولة أساسا ، كان لوقف تقدم الاستعمار الصليبي الأسباني والبرتغالي الذي استفحل . ولا أدل على هذا من كثرة الغارات الأوربية على الجزائر ، ابتداء من غارة الأسبان على المرسى الكبير في سنة 1505م ، حتى غارة 27 جوان 1827م التي انتهت باحتلال فرنسا للجزائر في 5

(1) - هو ابن لويس 13 ، وحنة النمساوية ، ولد في سنة 1638م . ملك من سنة 1643م إلى وفاته في سنة 1715م . كان مستبدا بطريقة لم يسبق لها مثيل ، أعلن إلغاء الحرية الذاتية ، بضطهد البروتستانت ببشاعة فهرب حوالي 200 ألف إلى خارج فرنسا . خاض حروبا طويلة ، من سنة 1668 إلى 1714م ، كانت فرنسا هي الخاسر فيها ، حيث خارت قواها ، ولم تتوسع حدودها عكس الدول المجاورة لها . ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، هامش ص 44 ، 45 ، 48 ، ياسيل عكولة ، المنجد ، ص 618 ) .

(2) - ولد في فرساي Versailles سنة 1757م . ملك في سنة 1824م إلى 1830م . جهز الحملة على الجزائر في 27 جوان والت احتلت بها الجزائر و ( المنجد ، ص 381 )

(3) - " Illustre et magnifique seigneur Dey de la ville et du royaume d' Alger "

(4) - ولد في فرساي في سنة 1754م . ملك من سنة 1774م إلى 1792م . تزوج ماري أنطوانيت النمساوية ، فدفعته للوقوف في وجه الثورة ، قتل في سنة 1793م ( ياسيل عكولة ، المنجد ، ص 618 ، 627 ) .

(5) - " Ancien Ami et Allié de la nation Française "

(6) - ولد في سنة 1769م ، ت 1821م . من عائلة بونايرت الإيطالية ، أصبح امبراطورا لفرنسا في سنة 1804م ، اشتهر بانتصاراته ، وبحملته على إيطاليا في سنتي 1794م ، 1796م . استعمر مصر في سنة 1798م . عزل في سنة 1814م . لجزيرة " البيا " عاد إلى باريس فتحالفت أوروبا ضده ليهزم في معركة " واترلو " في سنة 1815م . نفى إلى جزيرة هيلانة ليتوفى بها ، ( ياسيل عكولة ، المنجد ، ص 703 ) .

(7) - يلاحظ الفرق الجوهرى في معاملتنا لهم ، وفي معاملتهم لنا . فهم الآن يقرضوننا بالأرباح لياهضة ، مستغلين احتياجنا . بينما كنا نحن نسد احتياجاتهم ونساعدهم في أحلك ظروفهم دون ربح ، وعندما سئحت لهم الفرصة لتقوضوا علينا فاستمرونا ، وهذا يدفعنا إلى إعادة النظر في فكرة التسامح التي بالغنا فيها كثيرا لنضبطها .

جويلية 1830م . وقد اتفقت ضدنا جميع المذاهب النصرانية - رغم صراعاتها فيما بينها - وجميع دول أوروبا التي انضمت إليها أمريكا بعد استقلالها مباشرة في سنة 1776م . وكل ذلك بمباركة البابا ، وبوحي منه ومساعدة . وبلغت غاراتهم علينا مئات الغارات . نكتفي بالإشارة إلى واحدة منها ، لنعرف الخطورة التي كانت محدقة بنا ، وهي : تلك الغارة التي شنّها علينا شارلكان " Charles Quint " (1) : إمبراطور ألمانيا ، وملك أسبانيا وصقليا وجزء كبير من إيطاليا وفرنسا ، وأمريكا اللاتينية - عدا البرازيل وأمير بلجيكا وهولندا . وذلك يوم 29 جمادى الآخرة 948هـ ، الموافق 25 أكتوبر 1541م . وقد جند فيها كل أوروبا وأمريكا اللاتينية ، ولا سيما أنه كان متوجا من البابا . كما أنه الحفيد المباشر لفرديناندو " Ferdinand " ، وإيزابيلا " Isabella " (2) ، كما تمت هذه الغارة بالإشراف الفعلي من الكاردينال الشنيع : فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسفروس " Francisco ximenez de Cisneros " . وحفيد البابا : كاميل كالونا (3) .

وقد قاد المعركة من الجانب الجزائري الادي حسان آغا (4) . وكانت هزيمة الصليبيين نكراء (5) ، ولكن الذي يهمننا هنا ، أن أوروبا كلها بإضافة أمريكا اللاتينية توحدت كلها رغم اختلاف مذاهبها ومشاربها في حملة على الجزائر ، على أساس صليبي محض . ولا أدل على هذا من الأمر البابوي الذي نشر في أوروبا كلها ، والذي أعلن فيه البابا أن هذه الحملة ؛ إنما هي حملة صليبية ، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح ، مخلص للنصرانية ، أن ينضم إليها في محاربة

(1) وقد أجراء على هذه الحملة ، عتسهاد عروج وانتصار الإسبان في وقعة الوادي المالح ، فاستيقنو النصر النهائي علينا ، فجهز شارلكان هذه الحملة للقضاء على العثمانيين نهائيا بالجزائر ( عبد الرحمان الجلاي ، تاريخ الجزائر العام ، ج2 ، ص298 ، 299 ) .

(2) - هو فرديناند II ( 1452 - 1516م ) . ملك أراغون ، تزوج بإيزابيلا ( 1451 - 1505م ) ملكة قشتالة فتوحدت بهذا الزواج الدولة الأسبانية تحت سلطته مما أدى إلى سقوط غرناطة في سنة 1492م . لقبها بالكاتوليكيين لتعصبهما ، اشتهرا بمحاكم التفتيش التي أقاموها لقمع المسلمين ، في عهده اكتشف كريستوف كولمبس أمريكا . ( ياسول عكولة ، المنجد ، ص101 . 523 ) .

(3) - أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ( 1492 - 1772م ) ، بط ، ش ، بو ، ن ، ت ، الجزائر ، نت ، ص283 .

(4) - بدأ الحكم في سنة 1533م ، واستمر إلى وفاته في سنة 1544م . في عهده احتل الأسبان تونس ، وارتكبوا فيها فضائع لا توصف عام 1535م . ثم غاب في سنة 1536م ، واتجهوا نحو قسنطينة ، فهاجم خير الدين " ماهون " بأسبانيا واحتلها . قرر شارلكان القضاء على الإسلام نهائيا في شمال إفريقيا ، فجهز حملته تلك ، فهزم ، فامتد نفوذ الادي حسان إلى الصحراء الجزائرية ، ثم جهز شاركان حملة ثانية على تلمسان فمحقت بإشراف لادي حسان آغا في شعبة اللحم ، بعين تيموشنت عام 1543م . ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص26 ، 27 ) .

(5) - تمثل في تعظيم 250 سفينة من بين 510 سفينة ، و 12000 قتيل من بين 25 ألف جندي . وكانت هذه الهزيمة ، إضافة إلى هزيمة عين تيموشنت سببا أساسيا في تنازل شارلكان عن العرش في سنة 1565م مما أدى إلى تقسيم إمبراطوريته - التي كانت تضم كل أوروبا وأمريكا اللاتينية - إلى شطرين ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص26 ، 28 )

الكافرين<sup>(1)</sup> . ومن هنا ، فإن الجزائر وجدت نفسها بين :

- رد غارات أوروبا ، وغزوها في عقر دارها ، وتحطيم شوكتها ، وفرض الضرائب عليها بعد أن حرمتها من تحقيق حلمها في أخذ الثأر من انتصار صلاح الدين<sup>(2)</sup> عليها في القدس الشريف وحطيم<sup>(3)</sup> .

سريـف ومـسـير .

- أو : الاستسلام والخضوع ، وهو ما يؤدي إلى زوال الإسلام ، وتغيير خريطة العالم الإسلامي النفسية .

وقد اختارت الجزائر الأمر الأول ، ونتيجة لموقعها الجغرافي ، ومقابلة العالم الصليبي لها في الضفة الأخرى ، وطول سواحلها إلى 1200 كلم ، فكان لا بد لها من قوة بحرية هائلة تحقق بها أهدافها واستراتيجيتها . ومن هنا ، فلا يمكن فهم تلك الدولة الجزائرية القوية ، ذات النظام السياسي المحكم ، وهيمتها على البحار ؛ إلا إذا أشرنا إلى بحريتها .

يجمع المؤرخون الأوروبيون والأمريكان ، على أن البحرية الجزائرية كانت منظمة أحسن تنظيم<sup>(4)</sup> ، زيادة على شجاعة أهلها ، وكانت الجزائر تستخدم تفوقها البحري للدفاع عن الأمن والسلام في مختلف البحار ، مدافعة عن الضعفاء ضد الأقوياء ، وقد أعطت الجزائر الأهمية الكبرى للبحرية ، لمواجهة الأساطيل الصليبية وقراصنتها ، ذلك أن أساس نشأة هذه البحرية ، هو : إنقاذ مسلمي الأندلس ، ورد العدوان الأسباني الذي أتانا من البحر ، ثم الوقوف في وجه أوروبا الصليبية ، عدا التي تدخل في اتفاق سلمي معنا<sup>(5)</sup> . وكذا الموقع الجغرافي الذي بيناه قبالا ، ولموقع البحر المتوسط من حيث الصراع الديني والحضاري بين ضفتيه<sup>(6)</sup> ، كما أنه كان يعج بسفن القراصنة الصليبيين ، فكان من اللازم إيجاد قوى بحرية إسلامية تجابه المد الصليبي البحري ، وتحمي المسلمين وأراضيهم . وقد تمثلت هذه القوى البحرية الجزائرية التي عبر عنها

(1) - أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة ، ص 280 ، 281 .

(2) - هو يوسف بن أيوب ، ولد بتكريت في العراق في سنة 532هـ / 1138م . وتوفي بدمشق سنة 589هـ / 1193م ، أكبر ملوك المسلمين أيام الصليبيين ، عزل الخليفة الفاطمي ووحّد بلاد الشام والعراق ومصر ، خاض حروبا طاحنة ضد الصليبيين ، انتصر عليهم وهزمهم هزيمة نكراء في حطين سنة 1187م . كما حرر بيت المقدس وأسر ملكها المعين من قبلهم . ( ياسين عكولة ، المنجد : ص 425 ) .

(3) - مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 57 - 66 . أيضا: عبد الرحمان الجليلي ، المرجع السابق ، ص 299 .

(4) - ومن أراد التوسع في معرفة هذه البحرية فليرجع إلى :

(5) - Moulay Belhamissi , Histoire de la marine Algérienne ( 1516 , 1830 ) .

(6) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 135 .

(7) - الصراع بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط صراع قديم ، وما زال مستمرا إلى اليوم . وهو ما يدحض فكرة دعاء " حضارة حوض البحر المتوسط ، وإنسان البحر المتوسط " . إذ بالإضافة إلى الصراع التقليدي التاريخي بين ضفتيه ، نلاحظ اختلاف الإنسان أيضا بين تلك الضفتين ، فزيولوجيا ، اختلاف في السمات والمناخ ، وطريقة التفكير ، والمزاج ، والبشرة ، والدين ، والحضارة ، . . . ، وهذا نلّ على تهافت تلك النظرية الاستعمارية " نظرية حضارة حوض البحر المتوسط ، وإنسان البحر المتوسط " .

” المؤرخ الفرنسي دوغرامون ” De Grammont ” قائلا :

تقد أخذت جراءة الرياس الجزائريين تتطور وتتزايد باطراد . وهكذا حجزوا على عباب المحيط الأطلسي السفن الأسبانية المسلحة تسليحا ثقيلًا ، والمحملة بالذهب والفضة والبضائع الفاخرة ، وهي راجعة من أمريكا اللاتينية ؛ كما فاجأوا . . . سكان شواطئ غسكونيا ، وسواحل بحر المانش ، وبحار إنجلترا ، فمن ضفاف ماديرا ” Madera ” على الأطلسي ، إلى صخور الجليد في أيسلندا ” Island ” . ما كان أحد يستطيع أن ينجو من ملاحقتهم ” (1) . فكان البحارة ينزلون في السواحل الأوربية ، ويتوغلون في داخل البلاد ، يحققون أغراضهم ثم يعودون ، مما جعل سكان الشواطئ الأوربية يعيشون في قلق دائم . أي في نفس الوضعية التي جعلوا عليها سواحلنا لسنين طويلة . وهكذا لم يترك الجزائريون ، لا البحر المتوسط الذي أصبح كله مياها إقليمية إسلامية ، ولا المحيط الأطلسي ، ولا بحري الشمال والمانش ، لا طريق الهند ، ولا طريق أمريكا . كل هذا دفاعا عن الإسلام والمسلمين ضد النصرانية ، مما أدى إلى تولها بالتجمع ضدنا .

وقد عبر عن هذا التجمع النصراني المؤرخ الألماني يوري سيمونوف ” Semionov ” بقوله : ” ليس الفرنسيون فقط هم الذين كافحوا القراصنة الجزائريين ؛ بل جميع الأمم - الصليبية - بدون استثناء ، كافحت هذا الوباء البحري ... ولكن كفاحهم ظل بدون جدوى ” (2) ، مما جعل تلك الدول الأوربية وأمريكا تخضع إلى دفع الضرائب السنوية ، مقابل السماح لها بحرية العبور في البحار . ” لقد كانت الدول البحرية النصرانية التي أعلنت عليها الجزائر بصفتها شارع الجهاد ” (3) ” Le boulevard du djihad ” الحرب الدائمة ، تظن نفسها ملزمة باشتراء الهدنة . . . من عند الجزائريين ” (4) .

هذه هي المكانة التي بلغت الجزائر في العهد العثماني ، وذلك نتيجة لعلاقة خاصة بين العثمانيين والسكان الأصليين . وهذا يدفعنا إلى تبين هذه العلاقة .

### علاقة الجزائريين بالعثمانيين

لقد بينا سبب مجيء العثمانيين للجزائر ، كما بينا عوامل ازدهار الدولة الجزائرية ، في ذلك العهد ، وتبين لنا التلاحم والانسجام التامان بين الجزائريين والعثمانيين ، وهو ما أنتج تلك الدولة

(1) - Grammont ( H . D . de ) Histoire d ' Alger sous la domination turque , 1515 , 1830 - E VEROUX , Paris , 1887 , P 129 .

(2) - مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 73 .

(3) - كانت الجزائر العاصمة خلال العهد العثماني تسمى ” دار جهاد ” كما كان أحد أبوابها يسمى ” باب جهاد ” ، ولكن الاستعمار الفرنسي نزع هذه التسمية منه .

(4) - Henri Garrot , Histoire générale de l ' Alger . PP . 380 , 384

العظيمة ، كما تبين لنا أن أساس ذلك هو الإسلام الذي أذاب بعضهم في بعض .  
غير أن كثيرا من المؤرخين الغربيين عامة ، والفرنسيين خاصة ، ثم من حذى حذوهم من العرب ، يذهبون مذهباً معاكساً لهذا ، ويزعمون أن الجزائريين كانوا يكرهون الأتراك كراهة لا مثيل لها (1) وذلك نتيجة لصليبية الصراع بيننا وبينهم ، ولأن جميع الذين كتبوا عنا في تلك الفترة ، إنما كانوا من الأسرى والقساوسة ، حتى ولو كانوا كتابا ومؤرخين كبارا ، مثل هايدو (2) المتعصب دينيا ، ومرمول " Marmol " وثرافانتيس " Cervantes " من أسبانيا ورينيار " Regnard " من فرنسا ، وغيرهم ، أو من القناصل ، أو من الجواسيس من مختلف الجنسيات (3) .

وهذا يعني أن المصادر الغربية متأثرة " بالدعايات الدينية والسياسية الواسعة النطاق التي انتشرت في أوروبا ضد الإسلام عامة ، وضد هذه الأقطاب الإسلامية بصفة أخص لفائدة الكنيسة أو لفائدة الدولة الطامعة في امتلاك البلاد (4) .  
والواقع أن هذه الفرية هي ما ادعته فرنسا في احتلالها للجزائر ، فأصدرت بيانا بأنها أتت لتخلص العرب من الاستعمار التركي ، ثم تعود (5) . وفي هذا الإطار اختلقت فرنسا التهمة التي طردت بسببها المفتي الجزائري ابن العنابي (6) . وما زال المؤرخون الفرنسيون إلى اليوم في

- (1) - Haedo ( Fray diégode ) , Histoire des Rois d Alger , P219 .  
(2) - هايدو و Haedo : مؤرخ ، وقسيس أسباني كان أسيرا في الجزائر . ( مولود قاسم ، شخصية الجزائر ، ج 2 ، ص 329 ) .  
(3) - مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص 57-66 . أيضا أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ق 1 ، ص 16 .  
(4) - أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 7 .  
(5) - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ط 1 ، م . و . ك ، الجزائر ، 1992 ، ج 1 ، ق 1 ، ص 16 .  
(6) - هو محمد بن محمود ، أعظم شخصية إسلامية في الجزائر آنذاك ، تجول - قبل الاستعمار - في العالم الإسلامي ، وتعرف على مشكلاته ، وقاداته . تولى التدريس بالأزهر عدة سنوات ، كان يدعو إلى النهوض الإسلامي وتقليد الغرب في التقدم التكنولوجي ، وفي الأسلحة الجديدة . نادى الناس بالجهاد بعد هزيمة سطاوالي ، وكان ينتقد كلوزيل في همجيته ، اتهم بأنه كان على اتصال بزعماء القبائل الريفية لإنشاء جيش يحرر الجزائر - وقد كان فعلا - . دبرت له مؤامرة سجن على إثرها وأهينت أسرته ، ثم طرد إلى الإسكندرية ، وتمثل في أن تاه ترجمان جيش الاحتلال وأخبره أن كلوزيل قرر العودة ، فهل يمكنك تنظيم جيش لتسيير البلاد ، فأجاب بأنه يستطيع إنشاء 30 ألف جندي فاعتبره الفرنسيون خطرا عليهم لوقع له ما وقع . ( حمدان هوجة ، المرأة ، ص 259 ، 261 . أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 1 ، ق 1 ، ص 114 ، 115 . المهدي البرعيلي ، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ماي ، جوان ، 1972 ، ص 2 ، ج 8 ، ص 308 .

- غيهم بعمهون فيشوهون العهد العثماني مدعين : " أنه عهد سيطرة تركية ، (1) وحكم أجنبي جاؤا ، هم لتحريرنا منه " (2) وقد وقع في هذا الخطأ المفروض كثير من باحثينا الذين اعتمدوا المصادر الفرنسية ، وبنوا استنتاجاتهم على تلك الفرية (3) .
- والواقع أنه يستحيل إلا أن تكون العلاقات بين الجزائريين والعثمانيين قائمة على المحبة والإخلاص ووحدة الهدف والأدلة على هذا كثيرة ، منها :
- العظمة التي وصلتها الجزائر ، فقد أصبحت قوة عسكرية واقتصادية هائلة ، فلو كان الشعب في واد و الدايات في واد آخر ؛ ولو كانت البلاد تعج بالفتن الداخلية والتمردات . فكيف تقوم تلك الدولة التي ظلت تقارع أوروبا الصليبية والأمريكتين 19 ، وقد بين هذه الحقيقة المؤرخ الأمريكي سبنسر " Spenser " بقوله : " وقد أظهرت الوقائع الثابتة أن مختلف الحملات الأوروبية ضد الجزائر قد أثبتت عجز السياسة الأوروبية ( بالمعنى الجماعي ) حينما جوبهت بأمة قوية في الداخل مصممة متحدة " (4) .
  - اعتراف الأمير عبد القادر (5) بعهد الدايات والإشادة به واعتبار نفسه مجددا لعهدهم . وذلك في نص صريح واضح (6) وهو ما يدحض ادعاءات الفرنسيين وأتباعهم بعدم اعتراف الأمير عبد القادر بذلك العهد .
  - اعترافه كذلك بالخليفة العثماني كخليفة للمسلمين وإقراره بأنه أحد رعاياه وذلك في إحدى

- 
- (1) - من الخطأ -- كما يذكر أبو القاسم سعد الله - إطلاق اسم " الأتراك " على الوجود وأهل السلطة خلال العهد العثماني في الجزائر ، لأن كليهما يتكون من أجناس مختلفة اللسان ، والعرق ، والجغرافيا ، ولكنها جميعا تتفق في الولاء للإسلام والسلطان . كما أن الرابطة بين هذه العناصر من جهة ، ثم بينها وبين الجزائريين من جهة أخرى هي الإسلام والخلافة . ويجمع بين هذين المبدئين الرابطة العثمانية " . ولذا فالصفة الموحدة هي العثمانية لا التركية . ( أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، ص133 ، 134 ) .
- (2) - مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص12 . أيضا : أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ص16 .
- (3) - ومنهم ناصر الدين سعيدوني في كتابه " النظام المالي للجزائر " ص25 .
- (4) - سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة عبد القادر زبانية ، ص151 .
- (5) - هو عبد القادر بن محي الدين الحسيني ، ( 1222هـ-1300هـ / 1807 ، 1883م ) . شاعر واديب وصوفي ، ولد بالغرب الجزائري ، تجول في العالم الإسلامي ، بايعه الشعب الجزائري في سنة 1833م ليصبح أميرا وبطلا للجهاد ، سلك نقودا سماها " المحمدية " ، وهي تعبير جهادي ، كما أنشأ مصانع الأسلحة وغيرها ، حارب الفرنسيين 17 عاما ، انتصر عليهم في عدة معارك وحاصرهم ، لكن تقدم فرنسا العربي وخذلان سلطان المغرب له عبد الرحمان بن هشام أضعفه واضطره إلى الاستسلام في 21 ديسمبر 1847م . نقضت فرنسا شروط الاستسلام وسجنته بفرنسا 7 سنوات ، ثم أخلي سبيله بكتابة الخليفة العثماني عبد المجيد ، ليستقر بدمشق إلى وفاته ، له مؤلفات منها " المقررات الحاد " . ( عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، ط2 ، مؤسسة نويهض الثقافية ، بيروت ، 1980 ، ص103 ، 104 ) .
- (6) - وقد أورد مولود قاسم النص الأصلي في كتابه " شخصية لجزائر ، ج2 ، ص325 . كما أوردته مجلة

انتعلة - لجزائرية - بمناسبة الذكرى المئوية لوفاء الأمير عبد القادر ، وبذلك يزول الادعاء ، وتظهر

رسائله إليه ومما قاله له : " وأنا من عيالِك والله سائلِك عنا . . . " (1) وقد رد السلطان العثماني على الأمير عبد القادر ومما جاء في الرد :

" ... قد أطعتم رضى الباري ورسوله وكذلك الباب العالي ... أما نحن فسوف لن نتردد في مكافآتكم لما تستحقونه من الرعاية ... " (2) . فقول الخليفة العثماني " وكذلك الباب العالي " دليل واضح على صحة ما ذكرنا .

- عندما انهزم الأمير ووقع وثيقة الاستسلام - المشؤومة - يوم 23 ديسمبر 1847م فإنه طلب من الدوق دومال " Le Duc d'Aumale " (3) أن ينقل إلى :

1 - استنبول أو - 2 - عكا ، أو - 3 - الإسكندرية ( بهذا الترتيب ) ، ولكن الدوق دومال رفض له استنبول (4) ، مما جعلها لا تذكر في الاتفاقية ، واقتصر فيها على " عكا " و " الإسكندرية " (5) ، وهذا دليل على دحض تلك الافتراء ؛ إذ لو كان حاقدا على الأتراك وغير معترف بهم لما اختار استنبول على غيرها .

يضاف إلى هذا ، أن نابليون الثالث " Napoléon " (6) لم يسرح الأمير عبد القادر من الأسر بعد سبع سنوات إلا بكفالة السلطان عبد المجيد (7) بتدخل من شيخ الإسلام العثماني " عارف حكمت " (8) على إثر مجلس خاص عقده الخليفة لإنتقاد الأمير من الأسر وقد عبر الأمير

(2,1) - نشر المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي مراسلات الأمير عبد القادر للخليفة العثماني ، وكذا رد الباب العالي على تلك المراسلات ، وهي من الأهمية بحيث غيرت الاعتقاد السائد بمعاداة الأمير للباب العالي ، فمن أراد المزيد فليرجع إلى الوثيقة رقم 14 ، والرد عليها في الوثيقة رقم 17 . ( عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر وتونس وليبيا ، 1816 - 1871 . ط2 ، مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني ، زغوان ، تونس ، 1985 ، ص55 ، 136 ، 140 .

(3) - الدوق دومال " Le duc d'Aumale " هو ابن الملك لويس فيليب ، وكان الحاكم العام للفرنسي بالجزائر " Gouverneur Général de l'Algerie "

(4) - Philippe d'Estimoteur, chunteraine : Abdelkader , L. Europe et l. Islam au xixe siècle . P241 , 242 , j. B. Janin ( collection d'ctudes l'Historiques , Roue de Fortune , Janin , Etiteur , Paris . 1947 .

وقد نقلناه عن مولود قاسم ، المصدر السابق ، ص376 .

(5) - مولود قاسم ، المصدر نفسه ، ص276 .

(6) - ولد في باريس سنة 1808 . وتوفي بإنجلترا سنة 1873م بعد خلعها عن العرش بسبب فشله في الحرب ضد ألمانيا سنة 1870م . ( ياسين عكولة ، المنجد ، ص703 ) .

(7) - هو السلطان عبد المجيد 1 . ( 1823 - 1861م ) ، خلف أباه محمود 2 ، وقعت في عهده حرب القرم ( 1853م ) ، ( المنجد ، ص453 ) .

(8) - شاعر تركي ، ولد في سنة 1786م ، وتوفي في سنة 1859م . أصبح شيخ الإسلام في زمن السلطان عبد المجيد ، نشأ في استنبول مكتبة جمعت 5540 مجلدا ، له ديوان بالعربية والتركية والفارسية ، يعد من أهم مجموعات الشعر التقليدي الأخيرة ، ( المنجد ، ص444 ) .

عن هذا لدى وصوله إلى بروسة بتركيا لواليتها ، صهر الخليفة بقوله : " لولا كفالة مولانا المعظم السلطان لدى نابليون الثالث ما خرجنا من قبضة الأسر .." (1) ولم ينتقل من تركيا إلى دمشق إلا بعد زلزال أصابها .

ويلاحظ في النص استخدام كلمتي : مولانا و المعظم وهو داللتان كبيرتان على الولاء والتقدير مما يدحض شبه المبطلين .

يضاف إلى هذا مدح الأمير للخليفة العثماني بقصائد عصماء . (2)  
وإذا كان رأي الأمير عبد القادر له وزنه وقيمته بسبب الأمير ذاته ؛ فإن هناك رأيا آخر لا يقل أهمية عن رأي الأمير وهو رأي عبد الحميد ابن باديس (3) .

- لقد أشاد ابن باديس بعهد الدايات ، واعتبرهم نموذجا للجهاد والإخلاص ، ويرى أن الجزائر شوه تاريخها وصور - خصوصا في العهد العثماني - بأقبح الصور في الكتب التي تدرس في المكاتب الفرنسية للجزائريين ومجد الوجود العثماني وبين ما كانت عليه الجزائر في عهدهم من القوة والعمران ، وما كانت تتمتع به من حرية في مختلف الميادين . ثم بين ما حل بها من نكبات بعد الاستعمار الفرنسي (4) . وقد كتب هذا في سنتي 1937 ، 1938م ، أي في قمة نزوجه الفكري ، فلو كان يعد العثمانيين أجنب مستعمرين لنا كالفرنسيين ، وأن الجزائريين كانوا يكرهونهم ؛ لندد بهم خاصة بعد غيابهم (5) .

(1) - محمد بن الأمير عبد القادر ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، شرح وتعليق ممدوح حقي ، ط2 ، دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، 1964 ، ج2 ، ص577 ، 578 ، 581 ، 594 .

(2) - ومما قاله في مدح الخليفة عندما زاره بدار الخلافة في 28 ربيع الأول 1269هـ / 01-08-1853م :  
أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن  
قد أكمل الله فيه الدين إكمالا  
عبد المجيد، جوى مجدا وعزا على  
وجلّ قسرا، كما قد تم أقبالا  
كهف الخلافة، كافيها وكافلها  
من لا عهدنا له - في القرن - أمثالا  
... (تحفة الزائر ج2 ، ص 575) .

(3) - ينتهي نسبه إلى قبيلة صنهاجة البربرية ، ولد في قسنطينة في سنة 1889م في أسرة علم وثراء وجاء ، تعلم بقسنطينة ثم بالزيتونة ليتخرج بشهادة التطويح في سنة 1912م . بدأ التدريس بقسنطينة بجامعة الكبير ، فحكيت له المؤامرات فرحل إلى البقاع المقدسة ليحتك بالعلماء ، خطط هناك مع الشيخ الإبراهيمي لإنشاء جمعية العلماء التي رأسها ابن باديس من نشأتها في سنة 1931م إلى وفاته في 16 أبريل 1940م . رجع إلى الجزائر في سنة 1913م وبدأ التدريس في الجامع الأخضر بقسنطينة ، وإصدار مجموعة من المجلات والجرائد تدعو إلى النهوض ومواجهة الاستعمار ، فصوررت . أنشأت جمعية العلماء المدارس في مختلف القطر لنشر العلم ، واعتنت بتعليم البنات ، فوصل عدد الإناث إلى أكثر من 13 ألف بنت ، يعد من كبار رجال الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي ، والزعيم الروحي للثورة الجزائرية ، ( عادل نويهض ، المرجع السابق ، ص28 ، 29 ) .

(4) - عبد الحميد بن باديس ، مجلة لشهاب ، قسنطينة ، 1937 ، م13 ، ج7 ، ص319 ، 321 . أيضا : المصدر نفسه ، 1938 ، م14 ، ج4 ، ص203 ، 204 .

(5) - بولود المسم ، المصدر السابق ، ص7 ، 8 ، 25 .



- يضاف إلى هذا ما بيناه قبلا من أن سبب وجود العثمانيين هو استقدام الجزائريين لهم ،  
لمبررات ذكرناها . وعندما نعلم أن تلك المبررات لم تنزل إلى غاية استعمار فرنسا لنا ندرك أن  
العلاقة كانت علاقة تلاحم لا تصادم .

ومن الأدلة على بقاء تلك المبررات أنه في سنة 1818م تحالفت ضد الجزائر ست عشرة  
دولة أوروبية وأن الجزائر تعرضت خلال العهد العثماني إلى أكثر من 100 غارة صليبية ،  
آخرها غارة فرنسا في سنة 1827م والتي احتلت بها الجزائر في سنة 1830م .

ومن هنا فإن اهتمام الجميع كان منصبا على الجهاد ، وحماية العالم الإسلامي ، ولا أدل على  
هذا من أنه عندما احتل نابليون مصر في سنة 1798م أعلن مصطفى باشا (1) - داي الجزائر  
الحرب على فرنسا فسجن ففصلها مع موظفيه ، وخرب المركز التجاري الفرنسي وأسر به 98  
عاملا ، كما أعلن الأسطول الجزائري الحرب على السفن الفرنسية ، ولم تضع هذه الحرب  
أوزارها حتى بعد خروج نابليون من مصر (2) . وتحتّم براهين الحرب والتلاحم بما ذكره حمدان  
خوجة (3) من أنه إذا تردت قبيلة ما فإن القبائل

القبائل الأخرى تنظم للعثمانيين لمحاربتها وإخضاعها (4) ناهيك أن تلك التمردات لم يكن لها أي  
طابع وطني أو هدف تحرري بل كانت مجرد رد فعل على سياسة الداي أو الباي التي يرونها  
جائرة ، عكس الثورات التي وقعت أثناء الاستعمار الفرنسي ، فقد كان لها طابع وطني تحرري  
، رغم جهوية بعضها (5) .

البراهين السابقة وغيرها (6) تدحض افتراءات المغرضين ، وهي براهين لها قيمتها

(1) - هو داي الجزائر في الفترة ( 1798 - 1805م ) . أعلن الحرب على فرنسا بعد احتلال نابليون مصر ،  
اشتهر في عهده الريس حميدو شهرة واسعة ونشط الجهاد البحري . تمرد عليه رجال الطرق الصوفية ، أحمد  
التجاني بين ماضي ، والشريف الدرقاوي بالغرب ، وأحمد بن الأحرش بالشرق ، اختلفت بريطانيا مع الجزائر  
بسبب اليهوديين بوخرص و بوشناق الذين اتسك نفوذهما في عهده ، فاحتكر الحبوب ، فوقعت فتنة ضده وضد  
نفوذ اليهود ، فقتل الجيش بوشناق ، ثم الباشا بعد خمسة أيام . ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 56 ) .

(2) - أحمد توفيق لمني ، المرجع نفسه ، ص 56 .

(3) - ولد بالجزائر العاصمة في سنة 1773م من أسرة جزائرية عريقة ، ذات علم وثروة وجاء . برع في  
العلوم الدينية والفلسفية ، وتبحر في اللغات ، تجول كثيرا في الخارج . عاش بدايات الاحتلال ، فبذل جهودا  
جبارة في الجهاد العسكري بتكليف من الداي حسين ، وبعد احتلال العاصمة التحق بأحمد باي مستشارا له  
ومجاهدا . كما بذل جهودا جبارة في الجهاد السياسي ، فهو أول من قال : " لجزائر للجزائريين " . سافر إلى  
باريس ، شرح القضية الجزائرية وتبين فضائح وفضائل فرنسا في الجزائر ، فاتصل بالملك الفرنسي وجيره  
مساعيه أنتجت اللجنة الإفريقية للتحقيق في جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر في 7 جويلية 1833 ، ثم اتصل  
بالخليفة محرضا له على تحرير الجزائر . توفي في القسطنطينية ما بين 1840 ، 1845م ( العربي لزبيري ،  
تعليم للمرأة ، ص 19 - 43 ) .

(4) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 112 .

(5) - ناصر الدين سعيدوني ، السعدي بوعنلي : الجزائر في التاريخ ، ص 36 .

(6) - منها الكتاب للجزائريين حول أحمد باي بعد دخول فرنسا للجزائر .

التاريخية والعلمية ، لأنها تعبير عن مواقف أصحاب الاتجاه الإسلامي الوطني الأصيل من الوجود العثماني بالجزائر ، وهو الاتجاه الذي صنع التاريخ الجزائري ، ناهيك أن بعضهم عايش ذلك الوجود فابتداء من حمدان خوجة ونقيب الأشراف (1) والأمير عبد القادر من المتقدمين ، إلى ابن باديس ، وأحمد توفيق المدني ، ومولود قاسم ، وغيرهم من المتأخرين كلهم يتبنون الموقف ذاته . وإذا كان هؤلاء يشكلون خطأ يربط الخلف السلف وكانوا هم الذين حافظوا على هوية الجزائر العربية الإسلامية عبر تاريخها وكانوا رمز المقاومة والجهاد ، وهم الذين حرروا الجزائر من الاستعمار الفرنسي ، وحمل ما بقي منهم لواء الأصالة والمعاصرة بعد طرد الفرنسيين :

اقتننا بصحة موقفهم وتبنيناه ورفضنا ما عاداه وأنكرنا مغالطات دعاة الاندماج والتمزق الحضاري .

ولكن إذا كانت تلك العلاقة كما ذكرنا من الحب والتلاحم مما أنتج تلك الدولة القوية ، فإن هذه الدولة نب إليها الضعف والانحطاط . وهذا يقودنا إلى معرفة أسباب ذلك .

### أسباب انحطاط الدولة الجزائرية

بعد أن بينا نشأة هذه الدولة ونظامها السياسي ومكانتها الدولية وعلاقة الجزائريين بالعثمانيين . نبين أسباب تدهورها وسقوطها ، وذلك لكي نعرف العوامل التي جعلت الصليبيين ينتصرون علينا ويحطمون نظامنا السياسي ويعملون بلا هوادة على تدمير بنيتنا الثقافية وهو ما مهد لسياسة تبشيرية خطيرة كما سنبين .

ويمكن حصر أسباب ذلك التدهور في أربعة عوامل هي :

1- تغيير طريقة التجنيد : الدولة الجزائرية لم يكن يجند فيها - سواء من العثمانيين ، أو من الجزائريين - إلا الرجال الملتزمون بالإسلام وقيمه . ثم فتح الباب على مصراعيه لنوي السوابق العنلية والأجانب : كاليهود ، واليونانيين الذين ختنوا أنفسهم ، وانضموا إلى الإنكشارية ، وصاروا يظلمون الأهالي مما أدى إلى إشعال الفتن . كما تحكروا في النظام السياسي ، فالغوا نظام الشورى في تعيين الداي ليعينوا من شاعوا دايا ، وإذا لم يلب رغباتهم قتلوه ، فأضحى

(1) - هو الحاج أحمد الشريف الزهار بن علي النقيب ، ولد حوالي 1781م بمدينة الجزائر وتعلم بها . خلف والده في نقابة الأشراف ، كان كاتباً في الديوان ، وبعد الاحتلال نفي ، فرحل إلى تونس وفتح دارما بالزيتونة . ثم التحق بأحمد باي في سلطنة كاتباً بديوته ، ثم بالأمير عبد القادر إلى أن سقطت الزمالة ففر إلى المغرب ، ثم عاد إلى الجزائر وتوفي بها في سنة 1872م . له كتابان مهمان ، أحدهما لفص في التاريخ العثماني بالجزائر ، متعرضاً لكل دلائله ، والثاني ضمنه حوادث أحمد باي . ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان ، ص 77 ، 78 ) .

الدايات وحاشيتهم مثالا للبطش والظلم كالداي أحمد خوجة<sup>(1)</sup> الذي قتل وعزل بايات ، رغبة في الاستيلاء على أملاكهم واتخذ حاشية سوء لا تعرف تقاليد الأهالي ولا علاقة لها بشيوخهم . وهكذا فقد وجد من الدايات من لا هم له سوى إفراغ الخزينة من الأموال ليسرف في إنفاقها على رفاهية أسرته<sup>(2)</sup> .

ونتيجة لتحكم الجيش في النظام السياسي صار منصبا الدايات والبايات يباعان ويشتريان بالمال ، وأصبحت الميليشيات العسكرية التي لا دين لها ولا أخلاق ، هي الحاكم الحقيقي ، فكثر الفتن والمؤامرات السياسية مما نتج عنه عدم الاستقرار<sup>(3)</sup> إذ في الفترة (1798-1830م) قتل ستة دايات من بين الثمانية الذين حكموا فيها<sup>(4)</sup> وهكذا فابتداء من سنة 1791م بدأت تجاوزات الأتراك وكذا الفوضى الناتجة عن عزل البايات واستمرت إلى غاية 1818م وهي الفترة التي وصل فيها حسين باشا<sup>(5)</sup> إلى الحكم ، ورغم ثقافته وأصله الكريم ونزاهته ، إلا أن الفساد كان قد عم ، فلم يتمكن من إصلاح الوضع ، فكان الاستعمار الفرنسي<sup>(6)</sup> .

(1) - كان كاتباً من الكتاب الأربعة الذين بيدهم نفقات العسكر ، ومداخيل الخزينة ، فغضب عليه الدايات مصطفى باشا وعزله ، فدير عليه مؤامرة ليقته الجيش ويعينه بنده ، كان سفاكاً لنماء المسلمين من غير شرع . ثارت عليه البحرية وقتلوه رمياً بالرصاص في 15 رمضان 1223هـ / 1808م ، ( مذكرات نقيب الأشراف ، ص 82 - 101 ) وينكر العربي الزبيري أنه مات في إحدى المعارك سنة 1806 بعد أن حكم عاماً واحداً . ( العربي الزبيري ، هامش المرأة ، ص 150 ) .

(2) - Ben Achanhou , (A) . L'Etat Algerien à 1830 Alger . S N E D , P 29  
(3) - حمدان خوجة ، المرأة ص 149 - 154 . وقد بين الأمير عبد القادر في مراسلاته للسلطان العثماني عبد المجيد أن ما حل بالجزائر من استعمار فرنسا ، إنما هو نتيجة لذلك الفساد ، ( عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق ، وثيقة رقم 14 ، ص 136 ) . أيضا :

- Shaw (D.) , Voyage dans la régence d'Alger ou description géographique philosophique ect . de cet tra . de L. Anglais Avec de nombreuses augmentation de carthy (J. Mac) . Paris , 1830 , P155

(4) - Moulay Bellhamissi , Histoire de la marine Algerienne , P 164  
(5) - آخر دايات الجزائر ( 1818 - 1830م ) ، أعاد الهدوء إلى كامل البلاد بإخماد كل الفتن ، كفتنة أولاد أحمد التجاني بعين ماضي ، أعاد بناء البويدة بعد أن حطمها الزلزال في عام 1825م . تناقم الخلاف بين الجزائر وفرنسا في مسألة الديون التي لبوشناق وبوخريص ، وكانت فرنسا تبحث عن مبرر لاستعمارنا ، فافتعلت حادثة المروحة بعد إهانة فنصلها ، وقال للداي حسين في حقلة العيد التي دعي إليها ، بقوله جواباً عن استفسار الدايات : " إن حكومتني لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم " ، وكان الاستعمار ، فغادر الدايات الجزائر إلى فرنسا ثم إيطاليا ، محاولاً الرجوع لتنظيم المقاومة ، فلم يفلح . وصل إلى الإسكندرية وتوفي بها في سنة 1838 م . ( أحمد توفيق المنني ، محمد عثمان ، ص 59 - 61 ) .

(6) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 173 ، 174 . ولكن أيا القاسم سعد الله يذهب مذهباً مخالفاً لهذا ، فيرى أن حسين باشا لم يكن يحسن إحساساً وطنياً بانتمائه للجزائر ، ولا إحساساً للحاكم البطل الذي يقدر دوره في التاريخ ، ولا الحاكم المسلم الذي يفهم معنى الجهاد ، بل كان مجرد حاكم ، مثل حكام الوطن العربي والإسلامي الحاليين ، لا يثبتون أمام أية عاصفة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، ماداموا يعيشون فارغين من القيم الدينية والوطنية والبطولية ، ( أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ص 19 ) . ونحن نؤيده في هذا الرأي إذ لو كان يفكر فعلاً في الرجوع إلى الجزائر لتنظيم المقاومة ، لماذا خرج منها ؟ . وعندما نعلم أنه بنى حارة بالجزائر العاصمة للعبادة لممارسة البغي كما بين نقيب الأشراف ، يزداد اقتناعنا بما ذكره أبو القاسم سعد الله ، ( نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 144 ) .

2- الاستبداد : إن الاستبداد نتيجة طبيعية ومنطقية لنحكم الجيش في السلطة ، وذلك لاختلاف طبيعة الحكم - التي تقتضي بعد النظر وإدراك طبائع الأشياء واتباع سياسة النين مع الحزم ، والامتثال للشورى ، وفهم الواقع ، ونفسية المحكومين ... الخ - عن طبيعة الجيش التي تقتضي القوة والارتباط بالسلاح ، بدل الارتباط بالأفكار ، والقيام على لغة " الأمر للأمر " بدل " الشورى " ، ومن هنا فما من بلد يحكمه الجيش إلا عمّ فيه الفساد وكثر به القهر ، ووهنت فيه الأخلاق ، وهذا ما وقع في الجزائر ، حيث أصبحت السلطة مطلقة بيد الباشاوات ، ووجد الديوان من قواه وسلطاته وصار شكليا رغم أنه أنشئ أساسا لمراقبة الباشاوات ومساعدة الحكومة .

ونتيجة لهذا اشتد شره البايات المال ، فكثر الطغيان ، وانتشر الظلم <sup>(1)</sup> ، ووهنت الأخلاق في نفوس الحكام <sup>(2)</sup> ، فنشب الصراع الداخلي بين مختلف الأطراف ، فأضعفت البلاد في مختلف الميادين ، ومن أطراف هذا الصراع :

3 - الصراع بين الكراغلة وأباثهم : يعود الصراع بين الكراغلة والأثراك إلى حوالي سنة 1630م <sup>(3)</sup> حين فكر الكراغلة في انقلاب على أباثهم ، لكن المحاولة أبطت ، فطردوا من البلاط <sup>(4)</sup> ، ومنعوا من الاشتغال بالسياسة <sup>(5)</sup> ، وسلطت عليهم الرقابة ، فقضت على بذور الكفاءة عند الجزائريين ، فأدى هذا إلى تسلط الولاة ، دون أن يجدوا من الأهالي من يملك الشجاعة لنقدتهم والتشهير بتعسفهم أمام الجمهور ، أبان شدة القمع السياسي أدت إلى الإحباط النفسي ونقشي روح اللامبالاة وتكوين الإنسان المليئة نفسه بالخوف والجبن فزالت حرية الرأي ، مما قضى على الديوان ، وعلى الشورى في الأمور <sup>(6)</sup> فكان السقوط .

4 - تغلغل اليهود وتحطيمهم للنظامين السياسي والاقتصادي : <sup>(7)</sup> بناء على احتراز الحكام

(1) -- الأمير عبد القادر ، رسالته إلى الخليفة العثماني ، أرسلت يوم 25 شوال 1257 هـ / 10 ديسمبر 1841 . وقد نشرها عبد الجليل التميمي في كتابه " بحوث ووثائق " ص 138 .

(2) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 154 . أيضا : Moulay Belhamissi , Histoire ... P 163 .

(3) - يذكر عبد الرحمان الجيلالي ، أن محاولة الانقلاب هذه كانت في سنة 1039 هـ / 1629م حين اتحد الكراغلة مع الرياس ضد الحكومة المركزية ، ابتغاء المزاحمة في الحكم ، فأوقدوا النار في خزينة البارود فانفجرت ومات 6 آلاف نسمة ، وتهدم بالمدينة ما يقرب من 500 منزل ، ولم تسجل لهم مع ذلك نتيجة . ( عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج 2 ، ص 372 ) .

(4) - من أراد للتوسع في معرفة ما يتعلق بالكراغلة ، فليرجع إلى :

- Boyer (P) , le problème Kouloughli dans la Régence d'Alger , Revue d'Occident Musulman et Méditerranée , N° Spécial , 1970 , P87 .

(5) - ولكن هذا المنع لم يطبق حرفيا ، حيث وصل الكراغلة إلى مناصب الباي ، مثل أحمد ولد محمد الشريف ، باي قسنطينة ، ( 1826 - 1837م ) ، ومصطفى العمر ، باي الغرب ( 1636 - 1648م ) ، ومحمد النباح باي الشيطري ( 1608 - 1671م ) .

(6) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 154 - 158 ، 188 .

(7) - سنتكلم عن تحطيمهم للنظام الاقتصادي أثناء الحديث عن الجانب الاقتصادي والأوضاع الاجتماعية .

الأثر، من الكرامة وضجوا تقديهم في اليهود واتخذوهم مستشارين لهم لأنهم لا يخشون منهم استيلاء على الحكم ، فكان اليهود يسدون إلى هؤلاء الحكام نصائح العنبر التي ساهمت في تزايد طغيانهم وتعسفهم ، ولا أدل على نفوذ اليهود الكبير من السلطة المطلقة التي أعطاهم الـداي مصطفى باشا لليهودي بوشناق<sup>(1)</sup> فأصبح يتصرف في الجزائر كيفما شاء ، مما جعل المؤرخين الغربيين وكذا الإنكشارية يسمونه ملك الجزائر<sup>(2)</sup> .

إن النتيجة التي نستخلصها مما سبق ، أن الفساد السياسي بلغ منتهاه ، ولا أدل على هذا من الصراع الذي نشب بين البايات بعد استعمار فرنسا للجزائر العاصمة ، إذ بدل أن يتكاتفوا كما كان يفعل أسلافهم لدحر الغزاة تصارعوا على كرسي وهمية أو خانوا ، فباي وهران أعلن ولاءه للفرنسيين ، وباي التيطري نصب نفسه دايا طالبا من البايات الاعتراف به ، ويتعسف ويظلم إلى حد جعل سكان المدينة يتصلون بالجنرال كلوزيل<sup>(3)</sup> يطلبون منه إنقاذهم من تعسفه وبطشه<sup>(4)</sup> . كل هذا والبلاد كلها مهددة بالدمار والتمسيح .

هذا هو النظام السياسي بما له من إيجابيات و سلبيات انعكست على الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وقد ان تعرض لهذه الأوضاع فإننا نخلص إلى نتيجة مهمة هي : أن الوجود العثماني في الجزائر وتكوين تلك الدولة الجزائرية القوية يدخل ضمن استراتيجية العالم الإسلامي لمقاومة الصليبيين وحماية المسلمين من التصير القصري وحفظ أراضيهم من الاستعمار ، وقد حققت تلك الدولة غرضين أساسيين :

(1) - هو نفتالي بوشناق ، أحد أحفاد بن زرقوط الذين احتكروا التجارة الخارجية ، استطاع بدهائه ومكره كسب ثقة الـداي ليصبح مستشارا له ، ذا نفوذ لا نظير له حتى سمته المصادر الغربية " ملك الجزائر " . ونتيجة لتعسفته ضد الأهالي تطوع أحد الإنكشارية وقتله رميا بالرصاص قائلا له متهمكا : " سلام عليك يا ملك الجزائر " . وذلك صباح يوم 28 جوان 1805م ، وقد قتل وهو خارج من عند الـداي مصطفى باشا .

أيضا : ( العربي الزبيري ، هامش المرأة ، ص 178 ) .  
(2) - من أراد التوسع في معرفة نور اليهود الخطير ، وتتمر الأهالي منهم فليرجع إلى :  
- Eisein Bth (M.) les juifs et en tunisie à l époque turque (1516 - 1830) , Revue Africaine , 96 , 1952, PP 134 , 146 .

(3) - هو الكونت كلوزيل ، ولد في سنة 1772م ، وتوفي في سنة 1842م . تولى قيادة الجيش الفرنسي في الحملة على الجزائر مرتين . من أوت 1830م إلى فبراير 1831م . ومن جويلية 1835 إلى فوفري 1837 . عزل لفضله في الحملة على قسنطينة ، ولهزائم أخرى . ثم التحق بمجلس النواب . امتاز عهده بالغطرسة والقمع الرهيب ، ارتكب أشنع الجرائم ، لتهديم المساجد ، وتحويل بعضها إلى كنائس ، والاستيلاء على المؤسسات الخيرية والزوايا ، ونهب الأموال ، وتهديم القيصرية ، وهي أضخم مكان للنماخ ، وكذا تهديم الأسواق والمصانع والمراحيض والبيوت والحدائق . . . الخ . وتجريد السكان من ممتلكاتهم وتشريدهم ، وارتكاب المجازر الرهيبة ، كقطع الرضع على صدور أمهاتهم في المدينة . . . ولقد بلغ به الحد والجشع إلى اقتراح إبادة جميع الجزائريين بعد أن نفاهم وجردهم من جميع ممتلكاتهم ، لأن إيمانهم هي إيادة للإسلام في تصوره . ( أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 1 ، ص 33 ، 34 . حمدان خوجة ، المرأة ، ص 234 - 300 ، تقديم العربي الزبيري للمرأة ، ص 37 ، 38 ) .

(4) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 299 ، 300 .

1 - إيقاف حروب الاسترداد ، وذلك بمنع استمرار متابعة الأسبان للمسلمين ، وتحرير ما استعمروه من بلاد الجزائر وغيرها ، وإرجاعهم على أديارهم ، مما ساهم مساهمة فعالة في تقويض الإمبراطورية الإسبانية .

2 - أصبحت الجزائر حاملة لواء الجهاد ضد الهجومات الصليبية ، وأصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية ، كما تم التحكم في البحار الأخرى وتهديد الدول الصليبية في عقر دارها ، وإحاق الضربات بها .

وهذان العاملان أدبا إلى نكث الدول الأوروبية على أماس صمبدي وبإشراف البابا ووجهه وتوجيهه ، وذلك بغية تحطيم الجزائر التي أصبحت عقبة كؤود ، وفي هذا الإطار يدخل استعمار فرنسا للجزائر ، وفيه يدخل أيضا استراتيجية التمسيح التي اتبعتها فرنسا بعد الاستعمار .

ومن خلال هذا نخلص إلى أن المرحلة العثمانية في الجزائر امتازت كلها بالحنر والترقب ، إذ خلال 319 عاما كلها كانت حالة الجزائر إما غازية وإما مغزوة وهذا كان له أكبر الأثر في الأوضاع الاجتماعية و الثقافية ، وهنا يحسن أن نتعرض لهذه الجوانب بالبحث .

## الأوضاع الاجتماعية

الأوضاع السياسية لأي بلد تؤثر إيجابا وسلبا في أوضاعه الاجتماعية والثقافية .  
والجزائر أصيبت إلى أوضاعها السياسية السائدة في مرحلتها الإيجابية والسلبية عوامل خارجية أثرت في تلك الأوضاع ، هي :

1- هجرت الأندلسيين : وذلك بسبب ما حل بهم ، فاستوطنوا الجزائر ليصبحوا من أهلها (1) .  
وأثروا في الحياة الاجتماعية بإدخال عنصرين رئيسين ، هما :

أ- مضاعفة جهاد الأسبان .  
ب- نشر أنماط حضارتهم في الجزائر ، مما جعلهم يؤثرون في مختلف مناحي الحضارة ، كالعمارة ، والصنائع ، والزراعة ، والتعليم ، والطب ، والموسيقى ، وما إلى ذلك ، وقد واجهوا في البداية مشاكل اجتماعية ، أهمها الفقر ، فأنشأ الأهالي أحباسا خاصة بهم مما حل أزمته المالية .

2- الوجود العثماني : وذلك أن العثمانيين ربطوا المجتمع الجزائري بالمجتمع الشرقي بالوسائل الحضارية التي أتوا بها . فأدخلوا المذهب الحنفي للبلاد ، وبعض الطرق الصوفية ، كما أثروا في الجانب العمراني من مساجد وأضرحة ومنشآت عسكرية ، وأنشأوا الأحباس التي من أشهرها أحباس : سبل الخيرات وقد ساهمت في خدمة الأغراض الاجتماعية والعلمية (2) .

3- الوجود المسيحي واليهودي : هذا العامل أقل تأثيرا من سابقه ، ولكنه مهم ، وقد عرف الوجود المسيحي نتيجة الصراع الطويل مع المسيحيين والاحتكاك بهم ، فتبادل الجزائريون معهم التجارب والمهارات العسكرية ، يضاف إلى هذا التجار الأوربيون الذين كانوا في الجزائر وكانت لهم محاكم ومستشفيات وكنائس ومخازن وعمال جزائريون ، وكذا قناصل الدول والأسرى الكثيرون الذين اعتنق كثير منهم الإسلام وارتقى إلى مراكز النفوذ ، فأثر هؤلاء في الحياة الاجتماعية ، كل حسب تغلغله وإمكاناته في التأثير .

أما الجالية اليهودية ، فقد كانت قوية ، زاد عضدها يهود الأندلس الفارون من محاكم التفتيش ، وكانت متمركزة في أهم المدن ، مشغولة بالصناعات الدقيقة والثمينة كالصياغة والصرافة ، واختبار العملة الرسمية مما جعلها في خزينة الدولة ، كما استخدم اليهود تراجمه

(1)- حمدان خوجة ، المرأة ، ص 101 .

(2)- أبو القاسم سمد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 142 - 144 .

، فاطلعوا على أسرار الدولة ، ووصلوا إلى مراكز التأثير السياسي وتبوأوا بعض المراكز العليا ، كالوزارة والقنصلية ، والاستشارة (1) . كما سيطروا على النشاط الاقتصادي ومارسوا ظلما بشعا على الأهالي ، مما جعل سخط الأهالي يتحول أحيانا إلى ثورات انتقامية على اليهود في سنوات 1801 و 1804 و 1805 و 1815 م (2) .

ومن أهم هذه الثورات ، ثورة 1219/1804م . وذلك لخطورتها ونتائجها على اليهود والجزائريين (3) .

وقد بدأت بقتل أحد الجنود لليهودي بوشناق الذي كان محتكرا التجارة الخارجية للحبوب فارتفعت أسعارها . وكان متحكما في الداي والخز ناجي . فطغى وعاث في الأرض فسادا مع أبناء جلدته ، فثار الناس وقتلوا حوالي 200 من بني جلدته ، ونهبوا أموالهم ، وذلك تعويضا لما نهبه اليهود منهم . فأصدر الخز ناجي أمرا بإلقاء القبض على كل الناهبين من مدنيين وعسكريين ، وصاب عشرة منهم كل يوم ، فأصبح كبير الحرس يتقي القبض على كل من وجده يتشاجر مع صاحبه ليكمل به عدد المصلبين ، وبقيت الفتنة أياما ، فتذمر الجيش وأعدم كلا من الداي مصطفى باشا في سنة 1805 والخز ناجي (4) ، وبذلك أخمدت الفتنة .

وبلاحظ بأن هذا العامل الأخير إذ لم يتمكن من التأثير سلبا على المجتمع الجزائري في مجال القيم ؛ لأنه ظل مترابطا محتفظا بوحدته الدينية ولغته وعاداته ؛ فإنه تمكن من المساهمة سلبا في إفساد العلاقة بين الرعاة والرعية ، ولاسيما في مرحلة تدهور النظام السياسي كما بينا في الأوضاع السياسية ، مما نتج عنه الاضطرابات والفتن التي أضعفت المجتمع .

#### البنية القنوية (5) للمجتمع :

بعد أن بينا العوامل الخارجية المؤثرة في المجتمع ، يليق بنا التعرض لبنية الاجتماعية المكونة من الفئات الآتية :

1- العثمانيون : هم قمة الهرم الاجتماعي باحتكارهم السلطة . اتموا بالعدل والإنصاف في مرحلة الازدهار ، وبالفساد والطغيان في مرحلة التدهور ، وأصبح جمع الأموال عن طريق الرشوة أساس العلاقات فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الأهالي ، فانتج ذلك كثرة

(1) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 146 .

(2) - ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 47 .

(3) - Eisembth (M) les juifs en Algérie et en Tunisie a l'époque turque

pp 134-146

(4) - نقيب الإشراف ، مذكرات ، ص 87-89 . أيضا ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 41 . أيضا أحمد توفيق المنني ، محمد عثمان باشا ، ص 55 ، 56 .

(5) - استعملنا لفظ " القنوية " إبعادا لمصطلح " الطبقة " الذي لا يصنف على المجتمع الجزائري .



الاضطرابات والفنن كما سنبيين .

2- الكراغلة : كانوا يطمحون بحكم النسب للصعود إلى المرتبة الأولى فمنعهم أباؤهم . ورغم ما ذكرناه من صراع بينهما فإنهم كانوا يأتون بعد آباؤهم مباشرة في المرتبة .

3- الحضر : هم سكان المدن ، وكان منهم العلماء وأصحاب الحرف والصنائع ، وكان لهذه الفئة تأثير روحي من العلماء والقضاة والمفتين والمرابطين ، وتأثير اقتصادي من كبار التجار ، وأمناء الحرف والصنائع (1) .

4- أهل الريف : أو سكان الصحراء والبادية ، فسكان الصحراء من أصل عربي ، عددهم كبير ، والقيادة فيهم متوارثة ، يتصرف كل قائد في حوالي 10 آلاف خيمة ، وبأي قسنطينة هو الذي يعين مشائخهم . حياتهم مبنية على الترحال و تربية الماشية ، أهم غذائهم التمر وخبث النوق ، وهم أكثر قوة ونشاطا من المزارعين الذين يتقايضون معهم بالحبوب والقماش (2) .

أما سكان البادية ، فهم بربر ، ويسكنون أعالي الجبال ، وعرب ، ويسكنون السهول والصحراء ، ويمكن تقسيم هؤلاء من حيث وظائفهم إلى قسمين : أحدهما كان مستقرا بالريف مشغلا بالزراعة والرعي وبعض الحرف ، وثانيهما كان يتردد على المدن ليزودها باليد العاملة في مختلف المجالات ، ثم يعود بماله ليستثمره في الريف ، ويلاحظ شيان :

أ - الفرق الشاسع بين مجتمع المدن ومجتمع الريف ، لأن النظام الاقتصادي السائد جعل الفلاح سواء كان مالكا أو خماسا في مزارع الحضر وأصحاب السلطة في اخر السلم الاجتماعي كما كان محل استغلال من بعض رجال الطرق الصوفية (3) ، وشيوخ القبائل الذين دعم العثمانيون بهم سلطتهم الدينية والزمنية في الريف .

وتحكموا بهم في القبائل القوية (4) . كما كان التمايز بينهما كبيرا في المجال العلمي فنجد مستوى أهل الريف ضعيفا بسبب قلة الشيوخ والمراجع وقناعتهم بالقليل منه عكس أهل الحضر الذين كانوا أشد بحثا وأغزر علما لتهيأ المآخذ من كتب ومشايخ (5) .

(1) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 147-152 . أيضا : picquet (v) , les civilisation s de l'afrique du nord , a golin , Paris 1909 ,P 257

(2) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 75 ، 76 .

(3) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 147 ، 152 .

(4) - masqueray (e) note concernant les aoulad , daoud de mont aurés Alger A.jourdan , 1879 . A26

(5) - عبد الرزاق بن حمدوش ، رحلة ابن حمدوش ، المصممة " لسان المقال في النبا عن النسب والصنب والحل " تحقيق أبي القاسم سعد الله ، ش و ن ت ، الجزائر 1983 م ص 147 .

بها رباط العشيرة في الريف هو أساس شبكة العلاقات الاجتماعية ، وهو رباط له مبرراته الاقتصادية والأمنية ، وبشأ عنه ما يسمى بفكرة الصف أي ظهور الأحلاف العشائرية . ولباط العشيرة جوانب سلبية ، وأخرى إيجابية .

فالجوانب السلبية تتمثل في التعصب للعشيرة على حساب الغير ، مما يؤدي إلى الصراع بين العشائر واللصوصية التي أصبحت تقوم بها القبيلة بكاملها <sup>(1)</sup> .

كما كان يفعل النمامشة بمنطقة الأوراس ، وتعرضهم لركب الحجيج في سنة 1164هـ ، 1750 ، 1751 <sup>(2)</sup> .

وقد اتبع العثمانيون سياسة حكيمة في تحويل هذه الظاهرة لصالحهم ، وذلك باستقطابهم لهذه العشائر ، واستخدامها في الحفاظ على الأمن وبذلك حولت العشائر من قوة إخلال بالأمن العام إلى قوة محافظة عليه . غير أن هذا كان في مرحلة قوة الدولة ، أما في مرحلة ضعفها فقد أصبحت من أهم عوامل عدم الاستقرار <sup>(3)</sup> .

أما الجوانب الإيجابية فتتمثل في حماية القبيلة من الاعتداءات الخارجية والتعاون القائم بين أفرادها في السراء والضراء <sup>(4)</sup> . كما أن شعور الإنسان بانتمائه إلى عشيرة إسلامية جعله في اللاشعور الفردي والجمعي برفض الأجنبي الدخيل المذائف له في الدين واللغة والجنس ، وقد تمكنت العشيرة من جعل إنسانها - رغم جهله في مرحلة الاستعمار - يرفض انفصاله عنها حضاريا وتبديل دينه ، وكان الذي ينحرف إلى النصرانية تسلط عليه أقصى العقوبات ، بداية بالتبرؤ منه وطرده من العشيرة ونبذة ، ومن هذه الحثيثة استطاعت العشيرة مقاومة التبشير .

وقد أدرك المبشرون هذه القيمة الاجتماعية لرباط العشيرة فعملوا على تكسيه ، بتحريفه عن وجهته إلى الجانب السلبي ، كما عملوا على تكسير فكرة الانتماء ، بمحاولة إدخال قيم جديدة محل القيم الأصلية كما سنعرف .

5- الزنوج والأسرى : كان الزنوج يعملون أجراء عند الدولة بعد تحرير مالكيهم لهم ، وعددهم متغير تبعاً لحجم التجارة بين الجزائر وإفريقيا السوداء .

أما الأسرى فكان عددهم يصل أحيانا إلى 30 ألف أسير ، وكانوا يقومون أثناء فترة الأسر

(1) - ناصر الدين سعيدوني ، الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، أوت /سبتمبر 1987 ، ع60/61 ، ص 130 .

(2) - ابن أبي الضويف ، إتخاف أهل الزمان ، ج2 ، ص 162 ، 163 .

(3) - ناصر الدين سعيدوني ، الإنسان الأوراسي ، 132 .

(4) - Marqueray , Voyage dans L'Aurès , Etudes Historiques un bulletin de la société de Géographie , juillet . 1876 , P15 .

بأعمال مختلفة<sup>(1)</sup>، وكثير منهم كان يعتنق الإسلام فبندمج في المجتمع . هذه هي البنية الفئوية للمجتمع نستنتج منها شيئين :

أ - رغم هذا التنوع في الفئات الاجتماعية ، وظروفها إلا أنها كانت تشكل وحدة متماسكة في عاداتها وحضارتها وتمسكها بالإسلام<sup>(2)</sup> . وقد زادت مقاومتها وقوة : العدو المشترك ، والحذر الدائم منه .

ب - التصنيف السابق للمجتمع الجزائري بين انعدام أي صراع اجتماعي على أساس عرقي ، وهذا دليل قاطع على أن النزعة العرقية في الجزائر هي بنت فرنسا ومبشرها كما سنعرف .  
عدد السكان : الفئات الاجتماعية السابقة تكون مجموع سكان الجزائر ، وقد اختلفت الروايات في تحديد عددهم ، ولاسيما قبيل الاستعمار . فالبعض يقدرهم بمليون نسمة<sup>(3)</sup> ، في حين يذهب حمدان خوجة إلى أن عددهم 10 ملايين نسمة . ونحن نعتمد رواية حمدان خوجة لمجموعة من الاعتبارات ، هي :

1 - الغربيون لم يكونوا اكتشفوا سوى بعض المدن الساحلية<sup>(4)</sup> ، أما أعماق القطر الجزائري فلم يكتشفوه إلا بعد الاستعمار<sup>(5)</sup> بعقود من السنين . ومن هنا فلا يمكن الاعتماد على ما أورده .

2 - أغلب سكان الجزائر كانوا متمركزين في الصحاري والأرياف ، ولم يكن سكان المدن يشكلون سوى 5% من مجموع السكان بينما 95% تعيش في البوادي والأرياف<sup>(6)</sup> ، وهؤلاء يصعب حصرهم .

3 - المدن الصحراوية كانت كبيرة وكثيرة السكان . فورجلة على سبيل المثال كان لها سبعة أبواب ، ومساحتها نصف فرسخ في مثله ، كما أن بسكرة كانت كثيرة السكان كذلك ، إلى حد أن الوباء الذي حل بها في سنة 1060هـ/1650م أهلك بها نحو من 70 ألفا ، وهذا دليل على

(1) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 150 ، 151 .

(2) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 101 .

(3) - Shaler (w) , Tisquisse de l'état , d'Alger , tra , de L'Anglais et enrichi de Notes par Bianchi ( x ) , ladvocat , Paris , 1830 , P22 .

- Aperçu Historique , statistique et topographique sur L'état d'Alger , Paris , 1830 .

وقد اعتمدنا في هذا على هامش ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 41 .

(3) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 302 ، 303 .

(4) - من أراد بحث هذه القضية فليرجع إلى : اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، الفصل 4 ، 5 .

(5) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعدلى ، الجزائر في التاريخ ( العهد العثماني ) ، ص 111 .

كثرة سكانها (1).

وإذا كانت مدن الصحراء كبيرة ، كثيرة السكان ، فكذلك كانت قرانا ، وقرى نواوة وحدها تصل إلى ألف قرية (2) ، ناهيك عن العرب الرحل .

4 - الحالة الصحية الجيدة التي كانت عليها الجزائر ، ولم تكن الأوبئة تصادفهم إلا نادرا .

5 - حمدان خوجة اعتمد منهجية علمية في إحصائه للسكان ، وتتمثل فيما يأتي :

قام بزيارة داخل البلاد مع مجموعة من مساعديه ، واتصل بالمرابطين وشيوخ القبائل لمعرفة عدد الأسر في كل مكان ، كما اتصل بالجباة واستفاد منهم في معرفة عدد سكان المدن والعشائر لئيتجنب الأخطاء والمبالغة . والجباة عندهم معرفة دقيقة بعدد الذين يجمعون منهم الضرائب .

وبهذه المنهجية توصل إلى أن عدد سكان الجزائر 10 مليون نسمة ، كما نقد الغربيين واتهمهم بالجهل حتى بالجزء الساحلي من الوطن ناهيك عن المناطق الداخلية (3) .

#### القيم الخلقية السائدة في المجتمع :

المجتمع الجزائري بمختلف فئاته السابقة كان ملتزما بالقيم الإسلامية ، كالصراحة ، وشفاء النفس ، ونقاء السريرة ، والكرم ، واحترام الجار مع الإحسان إليه ، والبساطة في الحياة ، والنظافة في المنازل ، وعدم نغلب المزاج عشوائيا بحيث إذا وضع الناس ثقتهم في شخص فالى الأبد ، وإن خدعوا حذرنا من خادعهم إلى الأبد . وكذلك الشجاعة ، وتربية الأبناء على الفضيلة ، والصدق في المعاملة والوفاء بالعهود ، مما جعل معظم المعاملات التجارية تتم بدون عقود أو شهود .

ومع ذلك فإن الناس ينفذون التزاماتهم بكل أمانة . كما كان يتسم إعارة التحلي والجواهر الثمينة في المناسبات وتعاد إلى أصحابها دون نزاع أو سرقة ، ولا يشترط أي دليل لإثبات ما أغير لأن كل شيء يقوم على الثقة .

وقد نتج عن التمسك بهذه القيم استتباب الأمن في المدن ، وانعدام الجرائم والجح (4) .

مكتبة المرأة : المرأة سواء كانت حضرية أو ريفية ، كان لها دورها في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، مما جعل دورها في بناء المجتمع مواز لدور الرجل إن لم

(1)،(2) - أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي ، رحلة العياشي المسمى ، " ماء الموائد " ،

طبعة حجرية ، دار الطباعة ، فاس ، 1316 هـ ، ج2 ، ص412 .

(3) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص302 ، 303 .

(4) - المصدر نفسه ، ص105 ، 75 ، 101 ، 102 .

يكن أخطر منه .

وهكذا ، فالمرأة الريفية كانت تقوم بما يخص الرجال من أعمال ، كالاستراخ في الحروب ، والحرث ، والسقي ، والحصاد ، وتربية الماشية ، إضافة إلى نسج الزرابي والخيام وغيرها ، والاعتناء بتربية الأبناء وشؤون البيت ، مما يجعلها لا تكاد تتوقف عن الشغل (1) .

أما المرأة الحضرية التي لم تكن تخرج إلا متحجبة ولا تختلط بالرجال الأبعد ؛ فقد كانت تشتغل - إضافة إلى تربية الأطفال ، والاعتناء بشؤون بيتها الذي كان يضرب به المثل في النظافة - بممارسة التجارة ، سواء عن طريق تأجير البحارة للحصول على غنائم البحر وبيعها في أسواق الجزائر ، أو غير ذلك .

وكانت توفقت الأوقاف على المحتاجين ، والكتب ونحوها على المساجد ومراكز التعليم ، وكانت متعلمة عابدة ، قوامه على الطرق الصوفية مما جعلها مساوية الرجل فيها .

أما السياسة ؛ فإن لم تشتغل بها مباشرة ، فإنها كثيرا ما كانت تتدخل في اتخاذ القرارات وتوجيهها وذلك بالتأثير على أزواجهن (2) .

ولا أدل على مكانة المرأة المرموقة من تزعم لالا فاطمة نسومر (3) حركة الجهاد على الفرنسيين في بلاد القبائل . فلو لم يكن للمرأة مكانتها اللاتقة في نفوس الرجال ما استطاعت أن تقومهم ، وما كانوا يرضخون لها وينقادون .

وإذا كانت للمرأة هذه المكانة ؛ فإن النزاهة العلمية تقتضي منا أن نشير إلى أن امرأة كانت مهضومة الحقوق في بعض المناطق ، كما كانت مجرد متاع في منطقة أخرى ، إما بأمر من رجال الطرق الصوفية المنحرفين الذين كان أتباعهم يخضعون لهم خضوعا أعمى ، أو لأسباب

(1) - المصدر نفسه ، ص 74 . أيضا : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 157 .  
 (2) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 74 ، أيضا : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 157 ، 159 . ومن الأمثلة على هذا أن زوجة الداي حسين باشا ( 1205 هـ / 1790 م - 1212 هـ / 1797 م ) كانت السبب في قتل باي قسنطينة الفذ صالح باي ظلما وعدوانا ، ثارا لأبيها الخزناجي حسن ، لأنه هو الذي أخبر الداي محمد عثمان باشا ( 1179 هـ / 1766 م - 1205 هـ / 1791 م ) بتآمر أبيها الخزناجي مع اليهوديين بوثناق و بوخريص ( باكري ) على الاقتصاد الجزائري بتصدير الحبوب والأبقار إلى فرنسا من وراء ظهر الداي الذي منع ذلك تروكا منه لخطورة العملية ، فلما أخبر الداي أصدر أمرا بقتل الخزناجي ونفذه حسن زوجها ، ولما أصبح هذا الأخير دايًا نفذ لها رغبتها . ( نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 49 - 64 ) .

(3) - هي بنت الشيخ الطيب المشرف على زاوية ورجة الرحمانية ، ولدت حوالي 1830 م ، فكانت بنت حسب ودين ، امتازت بالعلم والأدب والجمال والذكاء ، قادت ثورة أهل زاوية ببلاد القبائل بين 1855 ، 1857 م ، جعلت زاويتها مركزا قويا للجهاد بتشجيع الحاج عمر رئيس الطريقة الرحمانية . استمرت الثورة في أنحاء جرجرة تحت تأثيرها ، وبعد خوضها عدة معارك أسرت في 11 يوليو 1857 م وهي مرتدية ثيابا حمراء رمزا للدم والمقاومة والجهاد والحرية . سجنّت بمسجن تابلان إلى وفاتها في سنة 1863 م . ( أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 1 ، ق 1 ، ص 369 ، 370 ) . ومن أراد التوسع فليرجع إلى :

إلى : Tahar oussedik , Ila Fat' Ma N' soumeur , E N A L , Alger , 1986 .

نجهلها ، ونشير إلى :

أ - منع المرأة من الميراث في قرية " بني يعلى " التابعة لبيجاية ، وذلك أن الولي " سيدي " محمد بن علي المؤيد من حاكم بجاية جعل الميراث خاصا بالرجال دون النساء بسبب أن المنطقة كانت في أيدي الخوارج فحاربهم الرجال وأجنوهم منها ، فكافأهم بأن جعل الميراث من نصيب الرجال دون النساء . وعندما احتج عليه الفقيه " سيدي " محمد بن مصباح بأن هذا سيقى إلى قيام الساعة ، أجابه قائلا : " الذي قاتل هم الرجال ، فالآن لهم . ويكون بعد على فرائض الله " (1) . وقد صدق توقع الشيخ ابن مصباح ، فبذل أن يصلح الوضع ويعود للمرأة حقها الشرعي انتشرت الظاهرة إلى مناطق أخرى كابين ورتبلان التي أعادت فيها الدولة ذلك الحق للمرأة بالقوة (2) .

والمواقع أن الأثر النفسي السلبي الناتج عن هذه الظاهرة - في تصورنا - أكثر من الأثر المادي ، لأن منع المرأة من حق طبيعي لها ، وجعله - ظلما - من نصيب الرجل يجعلها تشعر بالدونية تجاهه ، مما أدى إلى تدهور وضعية المرأة ، وبالتالي تدهور المجتمع ككل . وقد استغل الاستعمار هذه الظاهرة أبشع استغلال ، إذ في حين جعلها المبشرون من أهم الركائز التي انطلقوا منها في التبشير ؛ نجد القانون الفرنسي الصادر في سنة 1874م يكرس منع المرأة من الميراث ويعمم ذلك على بلاد القبائل كلها (3) ، رغم معارضة سكان القبائل واحتجاجهم (4) ، وهو ما بين طبيعة الاستعمار ، وتهافت شعاراته التي يعمل ضدها .

ب - أما بسكرة ، فأضيف فيها إلى منع المرأة من الميراث ، أن الرجل إذا مات ورث أخوه ماله وزوجته كما كان في الجاهلية ، وقد نشأ عن هذا كثرة الجرائم ، لأن الإنسان أصبح إذا رأى قريبه ذا مال قتلته وأخذ ماله وزوجته (5) .

والمواقع أن هذه المعاملة للمرأة تجعلها مجرد متاع ، ينتقل بالميراث كما تنتقل الأشياء المادية ، وهذا - في نظرنا - راجع إلى تعصب الرجل لعشيرته ، لأنه يرفض نقل ميراث أبناء

(1) و (2) الحسين بن محمد الورثي ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيانية ، ط1 المطبعة الثعالبية والمكتبة الأدبية ، رندوسي قنور بن مراد التركي ، مطبعة بيبير فونتانا الشرقية ، الجزائر ، 1326 هـ / 1908 م ، ص 76 ، 4 .

(3) - أحمد توفيق المدني ، جغرافية القطر الجزائري ، ص 85 ، 86 .

(4) - وقد بعث وجهاء زاووة وعلماؤها ورجال زواياها عريضة احتجاج ممضاة من طرفهم إلى الحكومة الفرنسية يطلبون فيها إلغاء القوانين الخاصة بذلك والرجوع إلى الشريعة الإسلامية في الميراث وبإني الأحوال الشخصية ، ولكن فرنسا رفضت ذلك ، وبقي المنع إلى الاستقلال ، ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى : محمد البشير الإبراهيمي ، موجة جديدة ، جريدة البصائر ، 1948 ، ع 42 . وكذلك محمد البشير الإبراهيمي ، زواوة الكبرى تستعصم بعروة الإسلام الوثقى وتطلب الرجوع إلى الأصل ، جريدة البصائر ، 1948 ، ع 59 .

(5) - الحسين بن محمد الورثي ، الرحلة الورثيانية ، ص 112 .

العشيرة للأجنبي ، وهذا ناشئ عن الجهل بأمور الدين ، وقد أصبح أرضية خصبة لرجال التبشير كما سيظهر لنا .

### القضاء :

أثرتنا في الأوضاع السياسية إلى السلطة القضائية ، ونضيف إليها أن القضاء كان متطورا وعادلا ونزيها مما جعل بعض النزهاء الغربيين <sup>(1)</sup> يعجبون بعدالة ونزاهة قضائه ، وكان للقاضي إذا سار كائنا متعاونون ، وسخاؤون محاضرات الجلسات ، ويعدون الوثائق الخاصة بالعقود وغيرها ، وينصحون القاضي فيما يستشكل عليه من المسائل ، مما يدل على سعة اطلاعهم ، وارتفاع مستواهم العلمي <sup>(2)</sup> .

وكان بكل بايلك مجلس شورى غير مستبد ، كما أن مجلس الشورى والقاضي يمكنهما أن يتراجعا في الأحكام التي أصدروها عندما يظهر الخطأ ، ومستند ذلك الشرع <sup>(3)</sup> .

أما سير الجلسات القضائية ، فكانت تعطي الحرية التامة للمتخاصمين إلى حد الترشق بالكلمات ، والقاضي يتابع ذلك بهدوء مستجوبا للمتخاصمين ، عند الضرورة ، مستنطقا بالشهود ، ثم يصدر حكمه بكل رزانة ووقار ، فيقبل حكمه دون معارضة أي من المتخاصمين ، مما يدل على اقتناعهما بحكمه . ويلاحظ على هذه المحاكم نبرة الحكم فيها بالإعدام <sup>(4)</sup> ، مما يدل على الحس الحضاري الذي بلغه السكان .

ونشير إلى أن أهل الذمة كانت لهم محاكمهم الخاصة يحاكمون فيها ما لم تكن جرائمهم متعلقة بأمن الدولة ، أو متصلة بالمسلمين <sup>(5)</sup> ، مما يدل على تسامحنا .

أما البوادي والأرياف ، فكانت تخضع قضائيا لمرابطتها وشيوخها ، لأنه لم تكن بها

(1) - مثل موريس فاغزر وهو رحالة ألماني عاش في الجزائر سنتي 1836 ، 1838 وشارك في الحملة على قسنطينة ، ألف كتابا سماه " رحلات في ولاية الجزائر " عام 1841 ومما ورد فيه وصف للحياة الاجتماعية ومن ضمنها القضاء ( أبو العيد دونو ، الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر إبان الاحتلال ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ماي 1972 م ع 8 ص 38 ) .

(2) - أبو العيد دونو ، المرجع نفسه ، ص 38 ، 39 ، 40 .

(3) - ومن الأمثلة على ذلك ، قضية المختار اليهودي الذي أسلم ثم سب النبي صلى الله عليه وسلم فأفتى الفكون الجد ( ت 988 هـ / 1580 ) بقتله ، فعارض ذلك الباي ومجلس الشورى ، والجيش الذي هدد بالاستقالة ، فأقنعهم الفكون الجد شرعا بخطئهم وصحة فتواه فتراجعوا وقرروا موقفه . ( عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، تحقيق أبي القاسم سعد الله ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1987 ، ص 64 - 67 ) . وهذا دليل على تهافت اتهام السلطة القضائية بقسوة أحكامها ، ( على سبيل المثال ، ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 51 ) .

(4) - أبو العيد دونو ، المرجع السابق ، ص 38 - 40 .

(5) - ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، ص 51 .

محكمات من النوع السابق (1) .

ولكن جهاز القضاء - كغيره - دب إليه الفساد في المرحلة الأخيرة من النظام ، وأضحى بعض القضاة يجارون الحكام في إصدار أحكام تتماشى ورغباتهم ، وبغضون الطرف عن مظلالمهم وما أحدثوه من مفاسد ، كالتخمرات الحكومية (2) ، وامتتهان الدعارة (3) .

كما أصبحت مناصب القضاء والفتيا في مختلف الجهات لا تتولى إلا بالإعطاء للحكام وارتشاتهم (4) . فنبأ منصب القضاء والإفتاء أميون جهلة ، ومن أحط الناس خلقا (5) ، ومن هؤلاء محمد بن نعمون (6) الذي تصدر منصب الفتيا ، وقد وصفه الفكون (7) بقوله : " ... أما العلم فهو أجهل ممن رأيت ، وأحمق ممن لاقيت ، ... كان جادا في طريقة الإذابة والنكاية ، والإغراء بين المسلمين والغواية " (8) . ومن أكبر مساوئه وهتكه للشرع ، هو هتك حرمة الأحياس والإغراء على بيعها ، وقد بلغ ما هتك حرمة منها 35 حبسا ببيعها مقابل ربع المبيع يأخذه لنفسه (9) . يضاف إلى هذا الصراع المرير على هذه المناصب ، واستعانة كل طرف بأحد الولاة على صاحبه كما هو الحال بين المفتي أبي العباس حميدة (ت 1030هـ) ونائبه عبد اللطيف بركات (ت 1031هـ) (10) .

إن القضاء هو وجه المجتمع الحقيقي ، فصلاحه دليل على صلاح المجتمع ومؤسساته وفساده دليل على أن المجتمع بلغ درجة الردى من التردى . وإذا عبرنا بلغة الحضارة قلنا : بفساد جهاز القضاء يكون المجتمع الجزائري قد تجاوز مرحلتي الروح والعقل ، وهوى إلى مرحلة الغريزة التي أدت به إلى السقوط ، وهذا يدفعنا إلى معرفة مميزات هذه المرحلة الأخيرة التي نتج عنها الاستعمار .

- (1) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعللي ، الجزائر في التاريخ ، ص 23 ، 24 .
- (2) - المرجع نفسه ، ص 23 ، 24 .
- (3) - نقيب الأشراف ، منكرات ، ص 144 .
- (4) - لورثيلاي ، الرحلة الوريثانية ، ص 110 .
- (5) - المهدي بوعللي ، عبد الرحمان الأخضرى وأطوار السلفية بالجزائر ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، جانفي ، 1978 ، ع 53 ، ص 29 .
- (6) - عاش في القرن 11 هـ ، مجهول الولادة والوفاء ، وكان معاصرا للفكون الحفيد .
- (7) - سيأتي التعريف به .
- (8) ، (9) ، (10) - عبد الكريم الفكون ، منشور الهدية ، ص 87 ، 88 . وقد لكتفينا بهذه النماذج ، ومن أراد معرفة كثيرين منها ، فليرجع إلى : عبد الكريم الفكون ، منشور الهدية ، الفصل 2 .



مميزات مرحلة ما قبل الاستعمار الفرنسي :

لقد بينا في الحياة السياسية مكانة الجزائر الدولية وتماسك المجتمع ، كما بينا الانهيار السياسي الذي نتج عن تسلط الجيش - الذي نخره الفساد - وتحكمه في السلطة ، وما إلى ذلك من الأسباب . وقد نتج عن الانهيار السياسي تصدع في شبكة العلاقات الاجتماعية في مختلف مستوياتها ، بليل تدهور جهاز القضاء كما بينا آنفا .

ويمكن حصر هذه المرحلة في ثلاثة مستويات :

1 - المستوى الأخلاقي ، 2- مستوى العلاقات الاجتماعية ، 3- مستوى المجتمع ككل .

1 - المستوى الأخلاقي : القيم الختقية هي أساس بناء الحضارات ، وهي الرباط الذي يجعل الناس سعداء أو أشقياء وفقا لمدى تمسكهم أو استهذارهم بها . وكل ضعف فيها يؤدي إلى تدهور العلاقات بين أفراد المجتمع مما يؤدي في النهاية بالمجتمع إلى التفكك والانحلال ، وهو ما ينقله من مرحلة الحضارة إلى مرحلة الانهيار . والمجتمع الجزائري تدهورت قيمه ، ويمكن ذكر نماذج لذلك .

أ - انتشار شرب الخمر على مستوى العامة ، وعلى مستوى الطبقة الحاكمة ،

- فعلى مستوى العامة ، أصبح بالجزائر العاصمة وحدها ثلاث حانات حكومية (1) يضاف إليها ما كان يملكه القطاع الخاص ، ومعنى هذا أن معاقرة الخمر لم تعد جريمة يعاقب عليها القانون مما يدل على تحول في مجال القيم ، وكل مجتمع فقد قيمه سيفقد حتما القدرة على مواجهة القيم المناقضة له . وقد وضحنا قبلا أن البنية الاجتماعية للجزائر مبنية على الطابع الديني في مواجهة الغرب ، وشيوع معاقرة الخمر دليل على ضعف ذلك الطابع الديني ، أي ضعف عامل المواجهة الروحي في مواجهة الآخر ، مما يعني انهيار الذات أمامه، وهذا ما وقع للجزائر .

- أما على المستوى الرسمي ؛ فلم يكن أقل انتشارا ، وهذا أوزن حسن (2) ، صهر الداوي

محمد بكداش (3) ، كان قبل مصاهرته الداوي مدمنا على معاقرة الخمر ، ولكنه تاب بعد

(1) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 24 .

(2) - هو صهر الداوي العربي العلامة محمد بقطاش (1707 - 1710 م) . أرسله صهره الداوي على رأس قوة كبيرة لمساعدة باي الغرب مصطفى بوشلاغم (ت 1736 م) ، تمكنا من تحرير وهران والمرسى الكبير بعد شهر من حصار الأسبان بهما ، وعاد أوزن حسن إلى الجزائر العاصمة يقود ألفين من الأسرى الأسبان ، وأصبحت بذلك وهران هي مركز بايلك الغرب . ( أحمد توفيق المنني ، محمد عثمان باشا ، ص 47 ) .

(3) - حكم الجزائر في الفترة (1707 - 1710 م) قرشي النسب ، عربي الأصل ، نكداني الدار والمنشأ والولاء ، كان من كبار العلماء والأنباء ، وجه كل عنايته لاسترجاع وهران والمرسى الكبير من الأسبان ، أرسل صهره أوزن حسن لمساعدة باي الغرب المجاهد مصطفى بوشلاغم (ت 1736 م) لتحقيق ذلك -

تلك رغم محاولات إغرائه (1) .

ب - انتشار البغاء واللواط : وذلك وسط العامة والجيش ، وهاهو الشيخ إبراهيم بن بوعزيز الحناشي (2) الفاز من باي قسنطينة كان متزوجا بآنثتي عشرة امرأة (3)

أما بغايا الجزائر العاصمة فقد تجاوزن ثلاثة آلاف بغي، وقد بنى الداوي حسين لهن حارة خاصة بهن في الجزائر العاصمة (4) وقد برر توفيق المدني هذه الفعلة الشنعاء بتفشي اللواط بين الجنود الأتراك (5) .

والواقع أن هذا تبيين لمرض اجتماعي آخر أكثر مما هو تبرير نوضعية وهنا نتساءل : إذا كان هذا الجند هو الذي يتحكم في السياسة ، وبالتالي يتحكم في الثقافة و الاقتصاد والمجتمع . وكان هذا الجند قد وصل إلى هذه الدرجة من الفساد فكيف يكون حال البلاد ؟

إن العلاقة بين الأوضاع العسكرية للبلاد والأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية مترابطة متشابكة ، وأن استمرار القدرة العسكرية للبلاد مرهون بالقوة الداخلية ، وقد وضحنا سابقا أن الإسلام هو أساس تلك القوة ، فعندما تنهار قيمة سينهار المجتمع .

ج- انتشار الآفات الاجتماعية المختلفة : كالرشوة التي أصبحت أساس التعامل سواء بين الطبقة الحاكمة ، أو بينها وبين مختلف الفئات الاجتماعية ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل مال الأوقاف ، وانتشار النفاق الاجتماعي عند عامة الناس وعلمائهم (6) ، وأضحى القضاة والمفتون كما بينا قبلا أداة طيعة في يد الحكام الظلمة يستخدمونهم في تحقيق أغراضهم وإشباع نهمهم الذي لا يشبع ، فنشأ الفتور ثم التمر، والصراع والتفكك ، وهذا يدفعنا إلى الحديث عن المستوى الثاني ، وهو :

## 2 - مستوى العلاقات الاجتماعية :

ذكرنا قبلا أن شبكة العلاقات الاجتماعية أصابها التصدع بسبب ما ذكرنا ، وتصدعها أدى إلى تفكك الروابط الاجتماعية ، سواء منها ما يربط أطراف السلطة ، أو ما يربط الشعب

- وقد تم تحريرهما بعد شهر من الحصار ، اغتاله الجند بأمر من دالي إبراهيم ليأخذ مكانه ، ولكنه اغتيل هو أيضا بعد شهر فقط من طرف الجند لتهدا الفتنة . ( محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة لمرضية في الدولة البكداشية في الجزائر المحمية ، تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط2 ش و ن ت ، الجزائر 1981 ، هامش ص 114 ) . أيضا : ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، ص 74 ، 48 ) .

(1) - محمد بن ميمون ، التحفة لمرضية ، ص 145 .

(2) - كان حيا في سنة 1179 هـ وقد قابله الورثياني أثناء زيارته للبحر قرب توزر . ( الورثياني ، الرحلة ، ص 126 ) .

(3) - الورثياني ، الرحلة ، ص 126 .

(4) - نقيب الأشراف ، منكرات ، ص 144 .

(5) - أحمد توفيق المدني ، منكرات نقيب الأشراف ، هامش 6 ، ص 183 .

(6) - ومن أراد التوسع فليرجع إلى الفصل الثاني من منشور الهداية للفكون .

بالسلطة ، أو ما يربط الشعب بعضه بعضا .

أ- فبالنسبة لأطراف السلطة : نجد الفترة الأخيرة امتازت - كما وضعنا في الأوضاع السياسية - بشدة الصراع غير الشريف على السلطة وكثرة الظلم<sup>(1)</sup> والأخطاء وضعف الوازع الديني فنشأ عدم الاستقرار<sup>(2)</sup> ، فكثر الاغتيالات . والانقلابات الفاشلة والناجحة<sup>(3)</sup> . مما أضعف السلطة وأطمع فيها أعداءها ، فكثر التمردات والثورات والفتن . ونكتفي بمثال يبين لنا هذا بوضوح ، وهو الداوي مصطفى باشا ( 1797-1807م ) .

نقد تعرض هذا الداوي لأربع محاولات انقلاب من الأتراك ، فشلت الثلاث الأولى ، ونجحت الرابعة التي دبرها أحمد خوجة بعية الوصول إلى السلطة ، مستغلا تذمر الجيش بسبب ما فعله بقار ، خزناجي الداوي من انتقامه من الجنود والأهالي الذين نهبوا محلات اليهود فأثخنهم ظلما عدوانا ، لأنه كان محبا لليهود ، كارها للعرب كما بين نقيب الأشراف<sup>(4)</sup> ، فثار الناس ولم يهدموا إلا بالقضاء عليه وعلى الداوي مصطفى باشا .

والخزناجي هذا هو الذي كان السبب في محاولة هروب عثمان باي وهران لكثرة إيذائه له . كما أنه هو من دابه والذي رخص لليهود باحتكار تصدير الحبوب إلى فرنسا ، والتي كانت السبب المباشر للاستعمار<sup>(5)</sup> .

ب- أما بالنسبة لما يربط الشعب بالسلطة ؛ فقد امتازت تلك الفترة بكثرة التمردات والثورات ، ونذكر منها :

- ثورة عبد القادر بن الشريف الدرقاوي في الغرب الجزائري . ذهب ابن الشريف إلى المغرب للدراسة ، فلقى به شيخ الطريقة الدرقاوية محمد العربي الدرقاوي ( ت 1223هـ/1808 ) فلقنه مبادئ طريقته ، وعينه مقدما في الجزائر ، وبعد رجوعه ادعى لنفسه القطبية<sup>(6)</sup> ، وأخذ في

(1) - محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية ، ص 144 ، 145 .

(2) - Shaw ( D ) . Voyagee dans la Régence d'Alger . P155 .

(3) - Moulay Belhamissi , Histoire de la Marine Algérienne , PP163 , 164 .

(4) ، (5) - نقيب الأشراف ، منكرات ، ص 81 ، 82 ، 83 ، 87 ، . أيضا : أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، ص 56 .

(6) - القطب في اصطلاح المتصوفة : " عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان . . . وقد يسمى غوثا باعتبار التجاء الملهوف إليه " ، ولذلك " فهو رأس العارفين ، ولا يمكن أن يساويه أحد في المعرفة حتى يموت فيبورت مقامه لأخر من أهل العرفان ، لأن جناب الحق جل أن يكون شرعة لكل وارد ، لو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد " ( الجرجاني ، علي بن محمد ، التعريفات ، نط ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1971 ، ص 131 . ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، نط ، دار العودة ، بيروت ، دت ، ص 375 ) . والذي شجع ابن الشريف على هذا الادعاء هو حالة المجتمع العقلية التي سنينها ، والتي تقل مثل هذا الرجل .

تحريض شيوخ القبائل على العثمانيين فساندوه ، كما دعمه ملك المغرب بحيش ، وألحق الهزيمة بباي وهران ، فاضطر الداوي مصطفى باشا لإرسال جيش لنقصاء على الدرقاوي . فوصل ذلك الجيش إلى الغرب بصعوبة كبيرة لكثرة الثائرين في الطريق ، وبعد مشقة عظيمة أخذت الفتنة وفر الدرقاوي إلى المغرب (1) .

ويلاحظ على هذه الثورة أن طابعها الديني كان مجرد غطاء ، ذلك أن ابن الشريف لم يكن سوى أداة مغربية لتنفيذ خطة سياسية ضد النظام العثماني ، بليل أن الأوضاع لم تهدأ تماما إلا بعد إجراء اتصالات سياسية رسمية بين الجزائر وملك المغرب (2) .

- ثورة محمد بن الأحرش المغربي : شارك ابن الأحرش في أحداث مصر أيام احتلال نابليون لها في 1798م . ثم دخل إلى الشرق الجزائري عن طريق تونس (3) ، وادعى الدرقاوية أيضا ، وأخذ ينشرها كذلك لتغطية أغراضه السياسية ، اتصل بشيوخ القبائل وأقنعهم بمحاربة الأتراك ، وتمكن من قتل باي قسنطينة وأخذ أمواله وعتاده وضرب الحصار على مدينة قسنطينة ، ولكن أهلها - عربا وتركيا - استماتوا في الدفاع عنها إلى حين وصول الباي الجديد عبد الله " قائد الخشنة " فدحر ابن الأحرش ، وفر إلى الغرب الجزائري لينضم إلى ابن الشريف الدرقاوي ، ولكن هذا الأخير قتله (4) لأسباب نجهلها قد تكون خشية من منافسته له .

ونستنتج من هاتين الثورتين : أن ثورة درقاوة غطت مناطق واسعة من البلاد ، وهددت الوجود العثماني ، لأنها وجدت تدمرا شعبيا واسع النطاق (5) مما يدل على صحة ادعائنا بتصاعد شبكة العلاقات الاجتماعية ، كما يلاحظ يد المغرب فيهما ، فابن الشريف أيد بحيش مغربي وابن الأحرش هو ذاته مغربي ، والطريقة التي اتخذها مغربية .

(1) - نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 84 ، 85 ، 87 ، أيضا : أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، ص 56 ، أيضا : سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 218 .

(2) - سعد الله ، المرجع السابق ، ص 219 .

(3) - ينكر نقيب الأشراف أن باي تونس حمودة باشا هو الذي استنقم ابن الأحرش من مصر وروس له بأخذ الجزائر وطرد الترك منها ، فوافقه على ذلك . (نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 85) ، ولكن الذي يبدو لنا أنها مؤامرة مغربية أكثر مما هي تونسية .

(4)،(5) - نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 86 ، 87 ، أيضا : أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، ص 56 ، أيضا : سعد الله ، المرجع السابق ، ص 220 .

- ثورة أحمد التجاني بعين ماضي : أما أحمد التجاني شيخ الطريقة التجانية (1) فقد نزع كذلك بعين ماضي إلى العصيان ، فهاجمه باي الغرب ، ففر كذلك إلى المغرب (!) وغرّم أهل عين ماضي (2) بسبب مساندتهم له .

هذه الأحداث العظام وقعت كلها خلال عشر سنوات فقط ، وهذا دليل على صحة ما ذهبنا إليه .

ج - أما بالنسبة لما يربط الشعب بعضه بعضا :

فإن المجتمع الجزائري كان - كما بينا - يحكمه رباط العشيرة ، مما جعل السلطة الزمنية بيد شيوخ القبائل ، والسلطة الروحية بيد رجال الطرق الصوفية ، وبيننا أن العثمانيين كانوا يحكمون الجزائريين بطريق غير مباشر بواسطة شيوخ القبائل ورجال الطرق الصوفية ، فلما ظهر الفساد السياسي وضعف النظام وكثر ظلمه ، كرهه الناس وأخذوا في العودة إلى الحياة الهمجية ، كما أخذ شيوخ القبائل في التمرد لأن الدولة لم يعد لديها ما تعطيه إياه نقلة غنائم البحر وكثرة أعدائها .

كما أن ضعف الجانب الأخلاقي وانحطاط القيم عند كثير من العلماء ساهم كذلك في تمزيق المجتمع وإثارة فتنه ، لأنه أدى إلى كثرة ادعاء التصوف من الدجاجة والمشعورين ، والذين كان بعضهم في أصله لصا يسرق أموال الناس ، فأضاف إلى ذلك سرقة أرواحهم وسلب عقولهم . ولمكانة رجال التصوف من النظام ؛ فقد اضطر الناس لحماية أنفسهم إلى صناعة ادعاء من رجالهم ، كذبا وبهتاناً .

ولكنه نظرا إلى أن أولئك الذين صنعوا ادعاء تصوف كانوا على انحطاط من الخلق ، صاروا هم أنفسهم أداة ظلم على صانعيهم ، مثل المدعي الدجال قاسم ابن أم هانئ القسنطيني (3) ، وسبب ادعائه أن جماعته بالعلمة - كما بينوا بأنفسهم في شكواهم للفكون - أرادوا التحصن به من الظلمة ، والتستر به ، فعظموه ورفعوه ونسبوا له كثيرا من كرامات وغيرها كذبا وزورا ، فلما كثرت أتباعه ، وطارت شهرته انقلب على صانعيه ، فاعتدى على أموالهم وسلط اللصوص عليهم (4) .

وهكذا وصل المجتمع إلى الحضيض ، فكثرت في أرجائه اللصوصية وقطعت الطرقات والفتن ،

(1) - سيأتي الحديث عن الطريقة للتجانية وغيرها .

(2) - نقيب الأشراف ، ملكرات ، ص 89 .

(3) - كان معاصرا للفكون الحفيد .

(4) - عبد الكرين الفكون ، منشور الهدية ، ص 133 ، وقد أورد الفكون كثيرا من هذا الصنف ، فمن أراد التوسع للرجوع إلى الفصل الثالث من " منشور الهدية " .

وماهي نماذج تبين ذلك .

لفي منطقة توات (1) اضطر عربها أولاد محمد إلى دفن مناهل أوديتهم خوفا من إشارة عتوهم ابن سعيد (2) ، وفي المنصف (3) أغار أولاد صولة على نزلة لبعض الأشراف وأخذوهم ، فتهبوا كل ما لديهم ، وقد رأى العياشي (4) مأساة رجالهم ونسائهم من أثر ذلك ، فعبر عن تأثره وركبه بذلك فقال : " وفتنوا أكبادنا وهم قوم من الأشراف صحح نسبهم " (5) .

كما أن العياشي ذاته تعرض وركبه من الحجيج أثناء عودتهم لهجوم من أولاد نصر بأعلى واد سيدي خالد حيث مكث المعترضون على حافتي الطريق ، وبهم نحو من 300 فارس ، وخطتهم ، إذا توسطهم الركب وثبوا عليه رجالا ونساء وأطفالا ، ولكن الركب نجى منهم بتغيير الطريق واتخاذ دليل عينه لهم سكان المنطقة الأخيار بعد أن بلغ الخوف في نفس الركب مأخذه (6) .

وبسكرة : " اجتمعت عليها غارات العرب من خارج ، وظلم الترك من داخل (7) : . . . ظلمها كثير . . . لا يسكن اضطرابها " (8) ولقد لخص الورثياني (9) الوضعية التي أضحت عليها البلاد من الفتن بقوله :

(1) - منطقة توات تقع في جنوب غرب صحراء الجزائر ، وتبعد أقرب نقطة منها عن العاصمة ب 1500 كلم ، وكانت تشمل على عدد من الواحات والمدن والقصور ، وهي حاليا منطقة أدرار ، ( فرج محمد فرج ، إقليم توات خلال القرنين 18 ، 19 ، ص 1 ، م ، و ، ك ، الجزائر 1971 ، ص 1 .

(2) - العياشي ، ماء الموائد ، ج 1 ، ص 40 .

(3) - المنصف ، هو نصف الطريق بين الزاب وسيدي عقبة ( العياشي ، ماء الموائد ، ج 2 ، ص 410 ) .

(4) - هو أبو سالم العياشي ، ولد بفاس سنة 1037 هـ ، 1627 م ، درس بفاس على مجموعة منهم عمته ومجيزه عبد القادر الفاسي ، وميارة وغيرهما ، له ثلاث رحلات إلى الديار المقدسة ، الأولى في سنة 1059 هـ ، والثانية في سنة 1064 هـ ، وحج فيها مع عبد الكريم الفكون وتلمذ عليه ، والثالثة في سنة 1074 هـ / 1663 م ، وتلمذ فيها على الشيخ عاشور القسنطيني بطرابلس ، وللعياشي مؤلفات منها : " الحكم بالعدل والإنصاف " ، " منظومة البيوع " و " شرحها " ، ورحلته المسماة " ماء الموائد " وغيرها ، توفي عام 1090 هـ / 1679 م . ( العياشي ، ماء الموائد ، ج 1 ، ص 1 ، 4 - 6 ، ج 2 ، ص 382 ، 396 ) .

(5) - العياشي ، ماء الموائد ، ج 2 ، ص 410 .

(6) - العياشي ، المصدر نفسه ، ص 410 .

(7) - المصدر نفسه ، ص 411 ، أيضا : الورثياني ، الرحلة الورثيانية ، ص 89 .

(8) - الورثياني ، الرحلة الورثيانية ، ص 386 ، 689 .

(9) - هو الحسين بن محمد السعيد ، ولد في سنة 1125 هـ / 1713 م بقبيلة بني ورثيان البربرية قرب بجاية ، أخذ العلم عن والده وغيره ، أصبح رحالة ومؤرخا وقهرا ومتصوفا ، له مؤلفات منها : " شرح القديسة " للأخضري في التصوف ، " حاشية على صغرى السنوسي " في التوحيد و " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " الشهير بـ : " الرحلة الورثيانية " وهو وصف لرحلته إلى الديار المقدسة في سنة 1179 هـ / 1765 م . أصبح مدرسا بالأزهر بعض عقائد السنوسي ، توفي في سنة 1193 هـ / 1779 م . ( علل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، ص 340 ، أيضا : الرحلة الورثيانية ،

ص 285 )

" إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير ، والفتنة بينهم قل أن ترتفع ... وحكم السلطان غير نافذ فيهم ، إذ لا يقدر عليهم وإن كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال " (1) .

ويضاف إلى ما سبق من الفتن الصراع المسلح بين رجال الطرق الصوفية بغية اكتساب مزيد من المريدين والاستحواذ على مناطق جديدة ، ومن ذلك اعتداء طلبة أحمد بن إدريس على سيدي الهادي وأولاده ، فحرقوا قريته ، وقتلوا ولده ، وقطعوا شجره ، وأوشكوا على قتل الشيخ لولا فراره منهم (2) .

وعندما نعلم أن رجال الطرق الصوفية هم الذين كانوا مكلفين رسميا بتأمين الطرقات ، ندرك الخطورة الناتجة عن تصارعهم .

وإذا كان العثمانيون قد شجعوا التصوف لأنهم كانوا مؤمنين به فقد كثر أذعياؤه قبل مجيئهم وازدادوا معهم .

وبناء على هذا فإذا أردنا أن نعرف القاسم المشترك بين جميع الناس حكاما ومحكومين ظلما ومظلومين ، علماء وعامة ، نجد أنه " التصوف " فإنه هو الذي استحوذ على أرواح الناس وسلب عقولهم ، وهذا يدفعنا إلى التعرض إلى المستوى الثالث من مميزات مرحلة ما قبل الاستعمار ، وهو :

### 3 - مستوى المجتمع ككل :

نقصد بمستوى المجتمع ككل : القاسم المشترك بين جميع أفرادها كما ذكرنا ، وهو التصوف الذي استحوذ على عقول الجميع ، ولكن في صورته السلبية ، ذلك أنه نتيجة لفساد الأخلاق وتفكك المجتمع وكثرة الظلم ، انحاز الناس إلى الهروب من الواقع الاجتماعي المتعفن ، والانقطاع للخلوة والعبادة فظهر كثير من أذعياء التصوف ، وكان كثير منهم محتالا ، وأصبح كل درويش <sup>درويش</sup> مخفلا يعتبر وليا وصاحب كرامات ، وكل مستغل للعامة باسم الدين ، ومتقرب للنظام باسم الطريقة يعد قطبا تأتيه الجبايات ، ويقصده الناس بالرشا والقرابين ، ويقصده الحكام بالهدايا والعطايا (3) .

ونوافق هنا مالك بن نبي الذي يرى أن الجزائر التي شيدت المعابد للدراويش المتصرفين في الكون أصبحت " - على الرغم من إسلامها - تنين بالوثنية التي قامت نصبها في الزوايا ، هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة لالتماس البركات ، ولاقتناء الحروز ذات الخوارق

(1) - الورثيلاني ، الرحلة ، ص 8 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 12 ، 13 .

(3) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 482 .

والمعجزات " (1) وأملهم دخول الجنة التي وعدوها من طرف الشيوخ بلا كد ولا عمل ، إلا ما يلتصون من رضى شيوخهم ودعواتهم (2) ، وهم الذين قال فيهم عبد الرحمن الأخصري ( ت 953هـ / 1546 ) :

وزنتهم بالشرع فهو ناتي  
وزنتهم بمنهج الحقيقة  
منهم كمثل الأرض والسماء  
فلم أجد لهم منها دقيقة  
بل هتكوا محارم الشرع القويم  
فتكبوا على الصراط المستقيم (3)

وقد كثرت النراويز والدجاجلة فأصبحوا مهديين للحياة العقلية في البلاد بأسرها وخسروا المجتمع ومزقوه ، مما هدد وجود الإسلام ونفته ، فكان هذا من أهم مداخل التبشير والاستعمار كما سيظهر لنا في البحث لأن تحطيم البنية العقلية لمجتمع ما ، يجعله قابلا لكل وارد عليه . وقد كثرت المؤلفات في العهد العثماني التي تركز هذه الوضعية المزرية وتبين لنا مدى العقلية الخرافية التي كانت عند كثير من العلماء ، وهم الذين كان يجب أن يصححوا الأوضاع بالدعوة إلى الاستقامة وإعادة الاعتبار للعقل الذي هو ميزة الإنسان ، ومناط تكليفه ، وأساس رقيه ومسئوليته .

ومن هذه المؤلفات : " البستان " لابن مريم (كان حيا في القرن 11هـ) و " مطلب الفوز " لعيسى البيطوي (كان حيا في القرن 11هـ) ، و " كعبة الطائفين " لمحمد بن سليمان ، (كان حيا في القرن 11هـ) . و " الرحلة الوثيلانية " للورثيلاني . وناتي بمثالين ليوضحا هذه الحقيقة ، الأول من " البستان " ، والثاني من " الرحلة الوثيلانية " .

فما ورد في " البستان " من كرامات الأولياء : أن أبا مدين الغوث (ت 594هـ/1197م) كانت الناس تجتمع عليه أثناء وعظه من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلم فتقف لتسمع ، وربما مات بعضها تأثرا ، وكثيرا ما يموت أهل الحب بمجلسه وكان وهو في ضواحي فاس تأتيه غزاة تأوي إليه وتؤانسه ، وقد أمر أحد تلاميذه بالدخول في فرن خبار ، فدخل ومكث فيه مدة والنار تضطرم يرذا وسلاما ، وقد أسره العدو يوما وجعلوه في سفينة فيها جماعة من

(1) - مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، ط3 ، دار الفكر بيروت ، 1969 ، ص 37 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 37 .

(3) - أحمد بن داود ، العقد الجوهري في تعريف الشيخ عبد الرحمان الشهير بالأخصري ، ص 7 ، رقم 8481 دار الكتب الوطنية ، تونس ، ورقة 7 .



أسارى المسلمين فتوقفت حتى أطلق سراح الجميع (1) .

أما الورثياني ، فمما أورده عن نفسه : " وتوجهت لزيارة من في الجبل - ببجاية - وقد قيل فيه 12 ألف قطب وأنه ينيخ بأهله كما ينيخ البعير بحمله ... من وقف على القنطرة وتوجه للجبل فسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه " (2) .

نستنتج مما سبق أن الناس بسبب الظروف السابقة مالوا إلى الانعزال فازدهر التصوف ، ولكنه تحول من العلم إلى الخرافة ، ومن الولاية إلى الشعوذة ، ومن تربية النفس وتهذيبها إلى إفسادها ، فساد التخلف وكثر المدعون بالدعوات الضالة ،

المضرة بالمصلحة العامة ، لم يقفوا عند حدهم . فمارسوا نشاطهم بكل حرية ، فطغوا وعاثوا في الأرض فسادا ، فانتشرت الفوضى الدينية وكثرت الخرافات ، وحل السحر محل العلم ، وازدهرت التمام بدل الطب (3) ونشأ صراع كبير بين المدعين للولاية ، - وما أكثرهم - بسبب جمع المال وادعاء الولاية ، فاشتد الصراع بينهم ، وانتشر ذلك إلى أتباعهم الذين قامت بينهم الحروب و المشاحنات (4) .

و يلخص هذه الوضعية الاجتماعية المزرية ما أورده القاضي أبو عبد الله المقرئ (ت 795 هـ/1392م) ، رغم سبقه لعصرنا ، ورغم ما فيه من مبالغة - بقوله : " لولا انقطاع الوحي ، لنزل فينا أكثر مما نزل في اليهود والنصارى ؛ لأننا أتينا أكثر مما أتوا " (5) .  
وهاهي نماذج لهذا :

- هاهو الشيخ طراد العنابي الذي كان لص الظاهر فأصبح لص الظاهر والباطن ، وكان يشن الغارات والحروب على الذين لم يدخلوا تحت طاعته ويستحل أموالهم ، ويأخذ المحصنات ولا يبالي بعدة نوات العدد (6) .

- وهذا محمد ساسي البوني تلميذه يزعم أنه عرج به إلى السماء ، وكشف له عن أحوال الملكوت (7) .

- وهذا " سيدي " المجلس القسنطيني ، كان كثير السفه ، مدمنا على المخدرات ومجبرا أتباعه

(1) - ابن مريم محمد بن أحمد ، البستان في نكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ط ، بيروت للطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 ، ص 108 ، 109 ، 112 .

(2) - الورثياني ، الرحلة لورثيانية ، ص 21 .

(3) ، (4) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 488 ، 492 .

(5) - عبد الرزاق قسوم ، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف ، ط 1 ، ش ، و ، ن ، ت . الجزائر ، 1978 ، ص 19 .

(6) - عبد الكريم الفكون ، منشور الهدية ، ص 161 ، 162 .

(7) - المصدر نفسه ، ص 164 ، 165 .

على تعاطيها ، وكان مغرماً بتربية الققط ، وعندما مات له أحدها جعل له كفناً ومدفناً ، وأتاه خاصة البلد وعامتها لجنارته ، وكان حوله في هذه الجنازة هران فقال للحاضرين بأن أحد الهرين جبريل والآخر ميكائيل ، وعندما سأله أحد الحاضرين قائلاً : وأنت ؟ فأجابته متبسحاً : " أنا الباري " ، أي الله ، وكان يعالج مرضاه بانبراز والبول (1) .

- وهذا عبد الله بوكلب يدعي الولاية والقضية فيكثر أتباعه خصوصاً النساء رغم أنه كان لا يتوضأ ولا يصلي ويأكل أموال الناس بالباطل ، وقد افترض أمره بأن تعلقت به امرأة وتعلق بها ، فكان يخلو بها ليلاً ونهاراً إلى أن حملت منه سفاحاً ، وعندما سئلت أجابت : " إن الأولياء أعطوني له " ، ورغم هذه الفضيحة فقد ضل أناس على اعتقادهم أن الأولياء أمرؤه وأعطوه المرأة (2) .

نستنتج مما سبق عدة نتائج لها أهميتها اجتماعياً ، منها :

- أخلاق النوع السابق من أدعياء التصوف مناقضة لمفهمي الصوفي والتصوف ، ذلك أن الصوفي في اصطلاح المتصوفة : " هو الذي صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والندر (3) ... " (4) . ويكون التصوف " مأخوذاً من الصفا وهو صفاء المعاملة مع الله وأصله التفرغ عن الدنيا " (5) ، " والوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً " (6) . وهو أيضاً " الأخذ بالحقائق ، والكلام بالدقائق ، والإياس مما في أيدي الخلاق " (7) .

أما أخلاقهم فمن ميزاتهما :

- 1 - ارتكاب المحرمات ، ونصب الفخوخ لاصطياد الأتباع .
- 2 - كثرة الأتباع والخدم ، وهو نتيجة للميزة الأولى .
- 3 - القسوة والجلفة والتعصب حتى أداهم ذلك إلى إباحة عرض من خالفهم والتسبب في إضراره بقدر إمكانهم ، مما جعلهم يستعينون باللصوص لتحقيق أغراضهم (8) .

(1) - المصدر نفسه ، ص 154 - 159 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 177 .

(3) - منتر : طين لزج متماسك ، واحدته منتر ، ( المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المعجم العربي الأساسي ، ص 125 ) .

(4) - انتهاري محمد أعلي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، نط . شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت ، لبنان . دت ، ج 4 ، ص 40 .

(5) - المصدر نفسه ، ص 841 .

(6) - الجرجاني ، التعريفات ، ص 143 .

(7) - المصدر نفسه ، ص 32 .

(8) - عبد الكريم الكون ، منشور الهدية ، ص 138 ، 140 .

4 - حرصهم على كثرة الأتباع أدى إلى نقشي روح العداوة والصراع والحروب بينهم ، وتكفير بعضهم بعضا (1) .

5 - استحسان أحوالهم والرضى عن نفوسهم ، ورؤية الفضل لها على من سواهم ، والتكبر والغرور ، وهذا عين الجهل (2) .

- تصديق الناس لكل ناعقة من أدياء الولاية يدل على مدى التأخر الفكري الذي بلغته عقول المجتمع ، وقد أدرك رجال الطرق هذه الوضعية فاستغلوا ما أبشع استغلال في تخدير المجتمع ونهبه وتمزيقه وإشاعة الفواحش بين أبنائه ، ولقد بلغ استخفافهم بعقول الناس أن بعضهم كان يقول : إنني أرسلني الأولياء أحفظ هذا المكان ، وبعضهم يقول : أنا شاوس - شرطي - الصالحين ، وبعضهم يقول : تنازعت أنا وفلان صاحب هذه المدينة أو هذا القطر فغلبته وأخرجته منه وأنا الآن مولاه ، أي أنه غلب وليا آخر وأخرجه عن تملكه لهذا البلد أو الناحية . وقد علق الفكون على هذا قائلاً : " فانظر هذا التلاعب العظيم ... والكفر لمُدعي هذا أقرب من الإيمان " (3) .

- أدرك الطريقون قيمتهم الاجتماعية ، فبالغوا ، فأدى ذلك إلى تحطيم العقل مما حطم البنية الفكرية للمجتمع ، فأضحى في قدرية مفرطة مثبطة ، ومصنفا لكل ناعقة ، ولا أدل على هذا من أن الداوي حسين يدل أن يبحث عن الأسباب والوسائل الموضوعية التي تمنع الحملة الفرنسية من الإنزال ، ذهب إلى أهل البدع ليَقصوا عليه ما رأوه في منامهم بشأن الحملة الفرنسية وتدميرها (4) .

وقد كانت هذه الوضعية المزرية للعقل أرضية متينة انطلق منها الاستعمار الفرنسي لتحطيم ما بقي من البنى الثقافية والنفسية ، وإدخال قيم ومعتقدات جديدة بوسائل كثيرة من أهمها التبشير .

- لم يكن كل رجال التصوف من النوع السابق ، بل كان الملتزم بالإسلام وأخلاقه ، وقام هذا النوع بدور إيجابي في الحياة الاجتماعية ، كبناء الزوايا والتعليم وإيواء الأيتام ، وإطعام الفقراء والأرامل ، وفض النزاعات بين الخصوم وما إلى ذلك ، كما أنهم هم الذين أعلنوا الجهاد على المستعمرين إذ ما من ثورة وقعت على الاستعمار الفرنسي إلا وكان منطلقها هؤلاء الرجال ، وهذا يدفعنا إلى التعرض للأوضاع الثقافية .

(1)، (2) - لورثيانى ، لرحلة لورثيانية ، ص 700 ، الفكون ، منشور الهداية ، ص 140 ، 141 .

(3) - عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية ، ص 138 ، 139 .

(4) - نقب الأشراف ، مذكرات ، ص 168 .

ولكننا قبل ذلك نختم حديثنا عن الأوضاع الاجتماعية بالإشارة إلى الاقتصاد الذي لم يكن مستواه أدنى من مستوى اقتصاد الدول الغربية (1) ، وخاصة في مرحلة قوة النظام السياسي ، مما جعل دي بارادي " de paradis " يقول : " لم توجد في التاريخ أية دولة أشد حرصا على مالها من حكومة الجزائر ، إن بيت المال يدبر بنزاهة وأمانة لا مزيد عنهما " (2) ، مما جعل الأموال الطائلة تكس في بيت المال ، حيث بلغت ثروات الخزينة التي نقلت من قصر الجنيبة إلى صحون القصبة عام 1817م 76 حمولة ذهباً ، و 140 حمولة فضة ، كل حمولة تزن 3 قناطر ، إضافة إلى الجواهر والحلي (3) . وهو ما جعل قائد الحملة الفرنسية بعد الاحتلال يكون لجنة خاصة لضبط خزائن العاصمة التي وجدت بها أموال طائلة (4) .

وكان النشاط الاقتصادي يقوم على الزراعة والصناعة والتجارة (5) إضافة لغنائم البحر والإتاوات التي كانت تدفعها الدول الغربية مقابل السماح لها بالعبور في البحر المتوسط وغيره .

فالزراعة تجرنا إلى الحديث عن أنواع الملكية ، وهي الملكية الخاصة ، وملكية الدولة ، والأراضي المشاعة التابعة للقبيلة ، والأراضي الموات ، وأراضي الأوقاف التي كانت تزداد باستمرار لأسباب دينية فبلغت في آخر العهد العثماني ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة . أما المحاصيل الزراعية فكانت متنوعة من أشجار مثمرة ، وزراعات صناعية كالقطن والكتان والحبوب التي كانت تزرع للاستهلاك والتصدير (6) ، وكذلك الثروة الغابية والحيوانية اللتان كانتا كذلك يصدر بعضها إلى الخارج كبريطانيا (7) وفرنسا .

وأما الصناعة ، فكانت تشمل المهن التقليدية والحرف التي كانت منتشرة في العالم آنذاك ، وكان أصحابها منظمين في نقابات مهنية ، إضافة إلى صناعة السفن الحربية والتجارية ، وصناعة الأسلحة والصناعات التحويلية كالحديد والفضة وغيرها ، والصناعات الغذائية ،

(1) - سعيدوني ، البوعبلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 49 ، 83 .

(2) - Ferhat ABBAS , La Nuit Coloniale . P49 .

(3) - Merle ( J,T ) , Anecdotes historiques et politiques pour servir à L'histoire de conquête d'Alger en 1830 , Paris , 1831 , PP 291,292 .

(4) - ومن أراد التوسع فليرجع إلى : مولاي بلحميسي ، مدينة الجزائر من خلال النصوص العربية والأجنبية ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ماي ، جوان ، 1972 ، ع 8 ، ص 66 .  
أيضا : محمد العربي الزبيري ، هامش المرأة ، ص 6 .

(5) - سعيدوني ، النظام المالي ، ص 49 .

(6) - سعيدوني ، البوعبلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 53 .

(7) - Baudi cour (L.) La colonisation de L'Algérie J. le coffre , Paris . 1856 . P 53-

والنسيجية مثل الزرابي و الحرير والأقمشة وغيرها مما كان يصدر إلى إفريقيا واسيا (1) ، وكذلك صناعة الجلود ثم صناعة الحظي التي احتكرها اليهود إضافة إلى اشتغالهم بصك النقود في دار العملة (2) . وأما التجارة فقد كانت مزدهرة كذلك نتيجة لازدهار الزراعة والصناعة ، وغنائم البحر وإتاواته (3) . وكانت التجارة الخارجية تتم بين الجزائر ومختلف الدول الغربية والإسلامية ، مما جعل الدول الغربية تتنافس على إبرام العقود مع الجزائر ، كالتنافس بين فرنسا وأسبانيا على شراء القمح الجزائري (4) .

ولكن ما نلاحظه أنه بفساد النظام السياسي دب الفساد إلى الاقتصاد فساهم في اضطراب الأوضاع الاجتماعية ، ومن الأمثلة على هذا تغيير نظام الضرائب الذي كان يتم بطريقة عادية على أساس الشريعة الإسلامية (5) ، فصار نهبا لأموال المسلمين بالحديد والنار ، " وما وقع هذا حتى صار الناس فجارا والأمراء ظالمين " (6) ، وقد زاد الأمر خطورة تحكم اليهود في التجارة الخارجية واحتكارهم لها دون المسلمين (7) ، وذلك بسبب استلابهم لبعض القادة السياسيين ، فحاولوا الاقتصاد لخدمة الدول الأوروبية على حساب الأهالي فكان ذلك يؤدي أحيانا إلى المجاعات بسبب تصدير كامل الإنتاج من الحبوب ، كمجاعة 1184هـ/1770م ، ومجاعة 1800 م مما كان يؤدي إلى الارتفاع المهول للأسعار (8) . وكانوا السبب المباشر للاستعمار بتسببهم في قضية الديون التي كانت نتيجة بيع كميات هائلة من القمح إلى فرنسا ، من الشرق والغرب والوسط ، بلغت قيمتها في سنة واحدة 3 ملايين ، و 750 ألف ف (9) .

نستطيع القول بناء على هذا وغيره ، أن اليهود أصبحوا يشكلون " لوبي " احتكر التجارة الخارجية فحطم اقتصاد البلاد ، وتقرب للحكام فخرّب النظام السياسي ، ومن الأذنة على أنهم كانوا يشكلون شبكة على مستوى الوطن ، منظمة تنظيميا دقيقا ، ومنسقة العمل فيما بينها ، ولها أهداف محددة يعملون جميعا لتحقيقها ، هو كيف يصدر قمح الجزائر بتلك الكمية كلها - المقدره

(1) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 104 ، 105 .

(2) - ومن أراد التوسع في هذا ومعرفة أنواع العملات التي كانت تصك في دار العملة فليرجع إلى : سعيدوني ، النظام المالي ، الفصل 5 ، وملحق ص 265 - 269 .

(3) - العربي الزبيري ، هامش المرأة ، ص 6 .

(4) - مولود قاسم ، شخصية الجزائر ، ج 1 ، ص 181 .

(5) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 96 ، أيضا : نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 35 .

(6) - نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 35 .

(7) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 158 ، 160 .

(8) - أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، ص 105 . أيضا حمدان خوجة ، المرأة ، ص 158 ، 160 .

(9) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 158 ، 160 .

بـ 96 شحنة من ميناء عنابة ، و 240 ألف صاع من وهران وكمية أخرى من الجزائر العاصمة - وفي نفس الوقت ، والمصدرون كلهم يهود ، وكله إلى فرنسا ؟ ثم يكون ذلك القمح سببا مباشرا للاستعمار؟ إننا بناء على ما سبق نستطيع القول بأن اليهود كانوا يهيئون لذلك الاستعمار ويخططون له ، ولا أدل على هذا من المكانة المرموقة التي حظوا بها عند الفرنسيين بعد الاستعمار مباشرة (1) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الأوضاع الثقافية

لقد بينا أوضاع الجزائر السياسية والاجتماعية ، ورأينا أن المرحلة الأخيرة من العهد العثماني كانت مرحلة انحطاط سياسي واجتماعي ، وهذا من دون شك سيكون له أثره البالغ على سير الثقافة ، ذلك أن روح العصر تلعب دورا أساسيا في تحديد ثقافة المجتمع وفكره ، وما دامت المرحلة الأخيرة قد اتسمت بما ذكرناه في الأوضاع السياسية والاجتماعية ؛ فإن الثقافة قد تأثرت بهذا ، مما أدى إلى انتشار الشعوذة والسحر وكثرة انطرق الصوفية المنحرفة .

ولكن كل هذا لم يمنع من وجود حياة ثقافية معينة ، رغم تأثرها بروح العصر ، وظهر عدد معتبر من علماء الأصول والتفسير والتوحيد والعلوم اللسانية والرياضية ، وغيرها ، ويرجع ذلك إلى عوامل منها :

- لامبالاة الحكام بالتعصب لمذهب معين أو فرضه بالقوة ، فكان الناس أحرارا في ذلك .  
- كثرة مراكز التدريس في المدن والقرى ، وفي المساجد والمدارس ، وتوفر المكتبات التي كان الطلبة يستفيدون منها ، كما أن التعليم لم يكن حكرا على فئة معينة<sup>(1)</sup> .

- مساعدة الحكام للعلم في كثير من مراحل الفترة العثمانية .

- كثرة الحبوس ، واستخدامها في نشر العلم<sup>(2)</sup> .

وقد امتازت هذه الثقافة رغم عيوبها التي سنبينها بأنها ثقافة متاعرة ، لأنها ظلت دائما على الثغور ، واقفة في وجه المستعمر ومعتقداته وثقافته ، متمسكة بالإسلام والعروبة<sup>(3)</sup> ، وقد طبعت هذه الثقافة خلال العهد العثماني بطابعين أثرا عليها وأصبحت سمة بارزة بها ، هما : المظهر العسكري الجهادي للجزائر ، واستمرار التهديد الأجنبي<sup>(4)</sup> . مما جعل هذه الثقافة غداة الاستعمار الفرنسي للجزائر ثقافة عربية إسلامية أصيلة بلامينية على أصول من العلم والدين والأخلاق والقومية جميعا ، وهذه عوامل يصعب مغالبتها والتضاء عليها في فترة تاريخية محدودة من الاستعمار مهما كانت طويلة الأمد<sup>(5)</sup> . وهنا يجب أن نشير إلى قضية

(1) - جمال الدين بوقلي حسن ، الإمام ابن يوسف السنوسي وعلم التوحيد ، نط ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ، ص 45 ، 46 .

(2) - وسنوضح هذه القضايا فيما يأتي .

(3) - عثمان الكعاك ، أصالة الثقافة الجزائرية في القديم والحاضر والمستقبل ، ومدى انتشارها وتأثيرها في العالم الخارجي ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، ماي ، جوان 1972 ، ع 8 ، ص 196 .

(4) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ص 137 .

(5) - عبد الملك مرتاض ، أصالة الشخصية الجزائرية ، مجلة الأصالة ، ع 8 ، ص 221 .

مهمة ، تتمثل في اتهام كثير من الباحثين - عن قصد ، وعن غير قصد - العثمانيين بأنهم كانوا دعاة حرب دفاعا عن الإسلام ، لا دعاة ثقافة ، وفاقد الشيء لا يعطيه (1) ، ويستتلون على هذا بأنه لم يكن للتعليم إدارة أو وزارة لا في الجزائر ولا في تركيا (2) .

ولكن الحقيقة أن التعليم يوم ذاك لم يكن من شؤون الحكومة ، بل كان من شؤون المجتمع مما جعل الأمة بأسرها مسؤولة عنه ، وفي هذا الإطار ، فإن العثمانيين حكاما وجنودا وكراغلة اشتركوا في إقامة مؤسسات التعليم المختلفة التي سنتحدث عنها ، وأنشأوا لذلك الأحباس ، ووفروا الكتب ، وعينوا المدرسين ، ورتبوا لهم الرواتب (3) . ومن الأمثلة على ذلك: تشجيع الباي محمد بن عثمان الفاتح (4) للعلم والعلماء . فقد جعل العلامة محمد الجيلالي (5) رئيسا لمجلس الشورى ، وبنى له المدرسة المحمدية التي كانت بمثابة مدرسة عليا ورتب لها أوقافا ومدرسين ، وبنى إلى جانبها مكتبة مملأها بنفائس الكتب وحبسها على المدرسة (6) كما ولى محمد الجيلالي رئاسة الرباط الذي حاصر مدينة وهران تمهيدا لاسترجاعها ، كما شجع حركة التأليف والجهاد (7) وقد اهتم كذلك بثلمسان ، ولاسيما بمدرستها الشهيرة ، فجدد بناءها ، وعين لها المدرسين وأظهر أوقافها ، وأضاف لها أوقافا جديدة ، وتركها تعج بالطلبة ورجال العلم (8) وهو يدل على عكس ما اتهم به العثمانيون وما يقال عن هذا الباي؛ يقال كذلك على باي قسنطينة صالح بن مصطفى (9)

(1) - محمد بن عبد الكريم ، تقديم كتاب ابن ميمون ، " التحفة المرضية " ، ص 46 ، 47 .

(2) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 188 .

(3) - المرجع السابق ، ص 188 ، وقد بين حمدان خوجة أن الدولة هي التي كانت تنفع أجور الأساتذة وتساعد المؤلفين ، والطلبة المعدمين . ( حمدان خوجة ، المرأة ، ص 135 ) .

(4) - هو باي الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكردي ، كان متضلعا في علوم العربية ، متبحرا في علوم الدين والطب والصيدلة ، مشتهرا بالعدل والاستقامة ، شارك في دحر الأسبان عن الجزائر العاصمة . وقد قام بأعمال عظيمة ، منها إنشاء المطامير لتخزين الحبوب تقاديا للمجاعات ، وإقامة الجسور وبناء المدارس والمساجد وإيقاف الأوقاف عليها ، وإنشاء المكتبات وملئها بنفائس الكتب ليستفيد منها الطلبة . أكبر مآثره تحرير وهران نهائيا في 29 فيفري 1792 م . وبذلك أصبحت مركز بابلك الغرب . وظل في تعميرها إلى أن توفي في سنة 1796 م . ( أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ، ص 140 ، 141 ، 142 ) .

(5) - سيأتي التعريف به .

(6) - أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا ص 140 ، 141 .

(7) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعليل ، الجزائر في التاريخ ، ص 152 .

(8) - أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 141 .

(9) - ولد صالح باي بأزمير سنة 1725م من عائلة متوسطة ، حل بالجزائر جنديا وترقى ليصبح بايا على قسنطينة في سنة 1771 م . ذاع صيته في مختلف البلاد ، وكان عهده كله عهد نهضة ورخاء بمقاطعته . شارك في دحر الأسبان عن الجزائر العاصمة ، وكان له دور كبير في توحيد القطر الجزائري ولاسيما في الجنوب بسفة نهائية . ومن أعماله : بناء مسجد جامع عنابة ، وبناء مسجد سيدي الكتاني والمدرسة الملاصقة له بقسنطينة ، إضافة إلى المدرسة التي تكلمنا عنها آنفا ، والتي تخرج منها كبار العلماء أمثال -



الذي نشر فيرو « véroux »<sup>(1)</sup> وثيقة هامة تبين إحياءه ما اندرس من المساجد، وإعادة تنظيمه الأوقاف، وجعلها في خدمة العلم والعلماء، ومن ذلك إنشاءه لمدرسة عليا متخصصة لتخريج كبار العلماء وذلك بجوار مسجد سيدي لخضر بقسنطينة سنة 1789م وجعل بها النظام الداخلي لطلبتها الذين كانوا يدرسون بها بعد حفظهم القرآن الكريم 10 سنوات وفقا لنظام دقيق وصارم، ومن لم يظهر نبوغه من طالباتها استبدل بغيره، ولم يكن يشترط في الانتماء إلى هذه المدرسة سوى حفظ القرآن الكريم والعزوبية، ولا يشترط بعد ذلك أي شرط آخر.<sup>(2)</sup>

وإذا كان هذا حال البنات؛ فإن الدايات لم يكونوا أقل منهم في تشجيع العلم والعلماء، وقد أنفقوا الأموال الباهظة لهذا الغرض.<sup>(3)</sup> ومن ذلك ما أوقفه الداي محمد بقطاش - محرر وهران للمرة الأولى من الأسبان سنة 1119هـ/1708م على مدرسة مازونة التي أصبحت لها مكانة معتبرة، مما جعل الأمير عبد القادر يجدد ذلك الوقف، ويستعمل عبارة " وجددنا لهم حكم أوامر المتقدمين " (4).

إذا كان هذا على المستوى الرسمي مما يدحض شبهة المتهمين؛ فإن الأهالي لم يكونوا أقل اهتماما - من العثمانيين - بالعلماء والعلم ومؤسساته. وهذا يدفعنا للحديث عن المؤسسات الثقافية.

### المؤسسات الثقافية

وتتمثل في الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا والرباطات والمكتبات العامة والخاصة<sup>(5)</sup>، يضاف إليها الذكاكين التجارية التي كانت تستخدم لئلا للمسامرات الأدبية، والأندية المنزلية<sup>(6)</sup>.

- الشيخ عبد القادر الرشدي المفتي الحنفي والشيخ العباسي قاضي المالكية . قتل نتيجة مؤامرة نيرت له بعد 22 سنة من إدارته بايلك الشرق ، وذلك أنه هو الذي نبه الداي محمد عثمان باشا إلى تأمر الخز ناجي مع بوخريص و بوشناق على الإقتصاد الجزائري كما بينا في الأوضاع الاجتماعية . ( أحمد توفيق المنني المرجع السابق ، ص 133 . . 136 ) . أيضا ( نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 64 ) .

(1) - فيرو véroux : رائد في الجيش الفرنسي . كان مترجما استولى بحكم وظيفته على عدة وثائق هامة ، يتعلق بعضها بمجهودات صالح باي في إصلاح الأوقاف والحبوس وتنظيمها والسهر عليها . ترجمتها إلى الفرنسية ونشرها بالمجلة الإفريقية R . africaine سنة 1868 م . وقد ترجمها سعيدوني و البوعبدلي في كتابهما " الجزائر في التاريخ " ، ص 143 ، 144 . فمن أراد الإطلاع عليها فليرجع إليه .

(2) - أحمد توفيق المنني ، المرجع السابق ، ص 134 ، 135 . أيضا سعيدوني ، البوعبدلي المرجع السابق ، ص 143 ، 144 .

(3) - من أراد التوسع في هذا فليرجع إلى مذكرات نقيب الأشراف . وكذا أحمد توفيق المنني ، محمد عثمان باشا ، ومولود قاسم ، شخصية الجزائر الدولية ، ج 2 .

(4) - مولود قاسم ، شخصية الجزائر ، ج 2 ، ص 323 .

(5) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ص 223 .

(6) - محمد بن عبد الكريم ، تقديم كتاب " التحفة المرضية " ، ص 58 . . . 61 .

وأكبر مؤسسة كانت تموّن المؤسسات الثقافية هي الأوقاف، لذلك يجب البدء بالإشارة إليها<sup>(1)</sup>.

## 1- الأوقاف : الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو تعبير عن إرادة الخير في

الإنسان المسلم، وعن التضامن العميق مع المجتمع الإسلامي، وقد تطور وتعددت أوجهه وأغراضه في الجزائر العثمانية، وأصبح من أهم وظائفه خدمة الدين والتعليم. فكانت الأوقاف وراء بناء المساجد للعبادة والتدريس، وكذلك المؤسسات التعليمية الأخرى.<sup>(2)</sup> وقد تكاثرت إلى حد أن أصبحت ثلثا أملاك الجزائر العاصمة تابعة لها. وقد ذكرنا قبلا أن صالح باي نظم أوقاف قسنطينة وجعلها في خدمة المساجد والتعليم. وكان يشتري بما يفضل على نفقاتها أحباسا أخرى تستخدم في نفس الغرض.

وما فعله صالح باي بقسنطينة فعنه أيضا مفتي الجزائر سعيد قدورة<sup>(3)</sup> المكلف رسميا من الداي بتنظيمها وترشيدها. فكان ينفق ريع الأوقاف المخصصة لخدمة العلم على شؤون المساجد والتعليم، وما بقي منه تشتري به أوقاف أخرى تستخدم للغرض نفسه، من دفع مرتبات الأساتذة، وبناء المدارس الجديدة واقتناء الكتب وما إلى ذلك.<sup>(4)</sup> ومما يدل على كثرة الأوقاف المخصصة لما ذكرنا أن الجامع الكبير بالجزائر العاصمة كان له وحده ثلاثة وكلاء لأوقافه<sup>(5)</sup>.

وقد زاد أهمية الأوقاف ومساهمتها الفعالة في خدمة العلم، ترك الحكام للمالكين التصرف التام في ريع أحباسهم<sup>(6)</sup>.

## 2- المساجد : العناية بالمساجد ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري قديما وحديثا، فالمسجد قلب القرية والمدينة، والرابطة بينهما، تنتشر حوله الكتائب القرآنية، وهو مقر المفتي، به المركز القضائي الذي ينعقد به مجلس الفتوى الأسبوعي، كما ينعقد به المجلس الشرعي الأسبوعي الذي يضم المفتين المالكي والحنفي، والقاضيين المالكي والحنفي، وكبار العلماء والقضاة، وكذلك الداي أو نائبه عند الضرورة. وكان هذا المجلس يفصل في القضايا الفقهية

(1) - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 223.

(2) - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 223، 224.

(3) - هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم قدورة، التونسي الأصل، الجزائري المنشأ. كان مفتيا للجزائر، له مؤلفات منها: "شرح صغير السنوسي" و"شرح السلم المروني في المنطق للأخضري"، توفي سنة 1066هـ / 1655م. (محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349هـ، ج1، ص309).

(4) - ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ص 167، 168.

(5) - عبد الرحمان الجيلالي، الجامع الكبير معماریا وتاريخيا، مجلة الأصالة، ع8، ص 114، 127.

(6) - سعيدوني، بوعبدلي، المرجع السابق، ص 167، 168، وقد أورد المؤلفان وثيقة أصلية ذات أهمية تثبت ما ذكرناه، فمن لراد التوسع فليرجع إليها.

الشائكة ، أو التي يختلف فيها القضاة عند التنفيذ . كما كان مقرا للمناظرات بين العلماء في المسائل الخلافية العامة (1).

وقد بلغت المساجد حدًا من الكثرة في مختلف جهات القطر الجزائري ، مما يدل على شدة تمسك الجزائريين بالإسلام كما بينا في الأوضاع السياسية والاجتماعية، كما يدل على أهميتها ودورها في نشر الثقافة والعلم.

ومن الأمثلة على تلك الكثرة، أن مدينة الجزائر وحدها بلغ بها عدد المساجد - حسب ما ذكره دوفولكس (devoulx) (2) في سنة 1830م، 13 مسجدا كبيرا ، و109 مسجد صغير (3) . من بينها الجامع الكبير الذي بلغ عدد موظفيه 67 شخصا ، وهو الذي كان ينعقد به المجلس الشرعي السابق ذكره ، وقد حمل هذا المسجد رسالة الإسلام قرابة ألف عام ، فتخرج منه جمهور من العلماء والأدباء والقادة الذين حملوا مشعل الثقافة الإسلامية (4) .

أما مدينة قسنطينة فقد بلغ عدد مساجدها 82 مسجدا (5) . وعناية 37 مسجدا وتلمسان 50 مسجدا (6) وما يقال عن هذه المدن يقال عن المدن الأخرى.

وقد كانت المساجد تؤدي رسالة حضارية هائلة ، سواء من داخلها حيث كانت تستخدم في الدروس اليومية والحلقات ، خاصة بالأماكن التي ليست بها زوايا (7) . أو من ملحقاتها وهي :

أ- المكتاتيب القرآنية : وكانت من أهم ما يلحق بالجوامع ، لتحفيظ القرآن الكريم للأطفال وتعليمهم الكتابة وبعض مبادئ العلوم .

ب- المكتبات : وكانت بمعظم الجوامع ، وهي موقوفة على العلماء والمتعلمين ، وتختلف كتبها كثرة وتنوعا ، فبعضها مقتصر على ما هو ديني، بينما بعضها الآخر تتنوع كتبه بين الطب والرياضيات والفلك والتاريخ وغيرها (8) . ومما يدل على أهمية هذه المكتبات وضخامتها

(1) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 244 ، 247 .

(2) - دوفولكس Devoulx كاتب فرنسي تولى إدارة الأملاك بالجزائر إثر الاحتلال ، وجمع أكثر من 500 وثيقة تتعلق بأحباس المساجد والمعاهد والزوايا والمكتاتيب ، أفرد لها تأليفا سماه : " المؤسسات الدينية بالجزائر " . ونشر فصولا منه بالمجلة الإفريقية " Revue Africaine " التي كانت تصدر بمدينة الجزائر في عددها المؤرخ سنة 1861م . ( ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبلي ، المرجع السابق ، ص 142 ) .

(3) - A- Devoulx , Notes Historiques sur les mosquée et Revue Africaine . Alger , 1861 , P370

(4) - عبد الرحمان الجبالي ، الجامع الكبير ، مجلة الأصالة ، ع 8 ، ص 114 ، 127 .

(5) - Véroux , Revue Africaine , 1868 , P 130 .

وجاء في التقرير الذي أعده "روسو" غداة احتلال قسنطينة في سنة 1837م أنه كان بها حوالي 100 مسجد ( سعد الله ، هـ . المرجع السابق ص 246 ) .

(6) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 246 ، 248 .

(7) - محمد بن عبد الكريم ، تقديم كتاب " لتحفة لمرضية " ، ص 58 . . . 61 .

(8) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 254 .

أن نقل كتب مكتبة الجامع الكبير بالجزائر إلى برج موسى استغرق ثلاثة أيام كاملة ، وذلك عندما تصدعت بعض جدران المسجد من قصف الأسطول الإنجليزي ، وهذا يدل كما قلنا على ضخامة هذه المكتبة ، كما يدل على ارتباط الثقافة بالمسجد حيث كانت من ضمن مهامه (1) .

3- الزوايا والرباطات : بنعت الزوايا حدًا من انكثرة (2) جعلها متقاربة مع عدد المساجد ، وذلك نتيجة لازدهار الطرق الصوفية .

وإذا كانت هذه الزوايا منتشرة عبر التراب الجزائري برمته، فإن بلاد القبائل ولاسيما زاوية وبجاية كانت من أغنى المناطق بها ، بحيث وصلت إلى 50 زاوية مثل زاوية سيدي راشد الذائعة الصيت التي تخرج منها محمد الغريبا المشهور بالذباح الذي تولى منصب باي التيطري ، وزاوية الأزهرى بايت إسماعيل، وزاوية ابن علي الشريف بأقبو، وزاوية سيدي منصور بايت جناد ، وزاوية عبد الرحمن البيلولي وأبي القاسم بوجليل ، وابن أبي داود ، ومحمد السعدي الواقعة نواحي تنس ، إضافة إلى الزاوية الزروقية، وزاوية أحمد بن يوسف وغيرها (3) .

وكانت هذه الزوايا تعمل من أملاك الأوقاف ، وتبرعات المواطنين . والزوايا تحتوي على مسجد وقبة الشيخ المرابط ، ومبيت الطلبة الداخلين ، ومسكن للغرباء والفقراء . ومن هنا كانت تقوم بدور مهم في التعليم ، فإلى جانب تحفيظ القرآن الكريم كانت تدرّس بها العلوم المختلفة ، كما أنها كانت مرحلة أعلى تستقبل خريجي الكتاتيب مما جعلها شبيهة بالمراكز الثقافية النشطة التي تؤهل الطالب للالتحاق بالقرويبين أو الزيتونة أو الأزهر، ثم يعودون إلى الجزائر ليتبوخوا المناصب الهامة في الدولة (4) . وهكذا كان للزوايا وظيفة دينية روحية ، ووظيفة تربوية تعليمية باعتبارها معاهد لتعليم الشبان ، وتنوير العامة ، وقد زاد أهميتها احتواؤها على مكتبات معتبرة جعلها تلعب دورا بارزا في الحياة الثقافية ، ولاسيما أنها كانت تقوم على النظام الداخلي (5) مما يجعل الطالب يمكث بها مدة أطول ، يتلقى خلالها - إضافة للعلم - التربية الروحية التي يقوم بها شيخه ، كما كان للزوايا دور اجتماعي مهم يتمثل في إيواء العجزة والأيتام والأرامل والفقراء والغرباء ، وأبناء السبيل وإطعامهم (6) ،

(1) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدلي ، المرجع السابق ، ص 169 .

(2) - وصل عندها إلى 250 ألف زاوية ، ( عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، أضواء على الطرق الصوفية في لقارة الإفريقية ، سط ، مكتبة مندوبوني ، القاهرة ، 1989 ، ص 20 .

(3) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 262 ، 265 .

(4) - عبد الملك مرتاض ، أصالة الشخصية الجزائرية ، مجلة الأصالة ، ع 8 ، ص 221 ، 222 .

(5) - محمد بن عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص 58 . . . 61 .

(6) - العياشي أبو سالم ، ماء الموائد ، ج 1 ، ص 20 .

وإصلاح ذات اليبين كما ذكرنا في الأوضاع الاجتماعية ، وذلك إضافة إلى دورها السياسي كما بينا في الأوضاع السياسية ، ومن ذلك أنها كانت ملجأ للفارين من العقاب ، فمن دخل بعض الزوايا والأضرحة لن يمس بسوء حتى لو كان غريمه السلطان، وذلك ناشئ من اعتقاد الناس حكاما ومحكومين في صلاح الأولياء وتسلط غضبهم على من يهين حماهم<sup>(1)</sup>. وهكذا كان للزوايا دور متكامل مما جعلها تطبع المجتمع بطابعها الخاص كما سنبين .

4 - الرباطات : أما الرباطات ، فهي مؤسسات تشبه الزوايا فيما سبق ، ولكنها أسست لخدمة الجهاد وتحرير البلاد بالدرجة الأولى ، ولذلك كانت منتشرة على طول السواحل التي كانت مستعمرة أو مهددة ، وبعد تطهير السواحل انحصرت في المغرب الجزائري تقوم بدور معتبر في تحرير وهران الأول سنة 1119هـ/1708م . والثاني في سنة 1205هـ/1792م فكانت قلاعا من جهة ، وزوايا ومدارس متنقلة من جهة أخرى ، وبذلك كان طلبتها جنودا وطلابا وعلماء في الوقت ذاته ، وكان المجاهدون يجتمعون بها ، وينطلقون منها ويأوون إليها للزاد والسكن<sup>(2)</sup> ، وهو ما يدل على ارتباط تحررنا بالدين .

5 - المدارس والمعاهد العليا : بلغت المدارس حدا من الكثرة مما أدى إلى تعميم التعليم وانتشاره في المدن والقرى ، وفي أقصى مناطق الصحراء وبين القبائل الرحل<sup>(3)</sup> . فكان لكل طفل بين سن السادسة والثانية عشر مقعد بيداغوجي مما جعل نسبة الأمية في الجزائر أقل منها في فرنسا التي بلغت بها نسبة الأمية 40 % .<sup>(4)</sup>

ومن الأمثلة على كثرة هذه المدارس غداة الاستعمار، أن تلمسان وحدها كان بها 50 مدرسة ابتدائية ومدرستان للتعليم الثانوي والعالي<sup>(5)</sup> . وكان بقسنطينة 90 مدرسة ابتدائية . و7 مدارس للتعليم الثانوي والعالي . أما الجزائر العاصمة فقد كان بها أكثر من 100 مدرسة ابتدائية وثلاث مدارس عليا<sup>(6)</sup> .  
ومن تلك المدارس على سبيل المثال :

أ- مدرسة مازونة : كانت هذه المدرسة متخصصة في الفقه المالكي الذي لعبت دورا بارزا في نشره في الجزائر والمغرب الأقصى وغيرهما ، إضافة إلى غيره من العلوم . وقد

(1) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص110 ، 112 . أيضا أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص267 ، 270 .

(2) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص272 .

(3) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص274 ، 276 .

(4) - Ferhat Abbas , La Nuit Coloniale , P50 .

(5) - نصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدلي ، المرجع السابق ، ص144 .

(6) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص274 - 276 .

اشتهرت في العهد العثماني ، فكان خريجوها يتولون وظائف القضاء في الجزائر والمغرب ، وكان منهجها الدراسي يقوم على تدريس متن خليل منطوقا ومفهوما من طرف أستاذ متخصص فيبين للطلبة إشكالاته وغموضه ، وذلك بعد أن يكثُر من مطالعة الشروح والحواشي، وتخصص له أربعون يوما من فصل الخريف بمعدل تدرسين في اليوم أحدهما يبدأ من بعد الفجر إلى قرب الزوال ، والآخر من صلاة الظهر إلى قبيل المغرب . ويسمون ذلك سردا . أما النحو، فيدرسون فيه الألفية كاملة خلال عشرة أيام ، ويخصص باقي السنة لدراسة الشروح والحواشي والعلوم المختلفة ليتسع آفاق العالم والمتعلم (1) .

وبهذه الطريقة كان المتخرج من مدرسة مازونة يحفظ متن خليل ، مما يؤهله لإصدار الفتاوى والأحكام راسا دون الرجوع إلى أي كتاب ، فيهرع المتخاصمون إليه بدلا من زميله خريج القرويين الذي لا يصدر الأحكام في النوازل والتركات إلا بعد مراجعة النصوص (2) . وقد أثرت هذه المدرسة تأثيرا كبيرا بالفقه والتوحيد في الجزائر والمغرب وغيرها ، فجعلت بلاد الراشدية ( أم عسكر ) تتبوأ مكانة هامة في الفقه المالكي ، كما أصبحت منبع علم التوحيد الذي أوصله إليها تلاميذ السنوسي (3) باعتراف الذين ألفوا فيه من علماء تلمسان على سبيل المثال ، كأحمد المقرئ ( ت 1041هـ/1631م ) ، وعلماء المغرب كعيسى السكتاني ( ت 1062هـ/1651م ) قاضي ومفتي مدينة مراكش الذي قال في حاشيته على " الصغرى " : إن سنده في هذا الفن يتصل بعلماء الراشدية . ووصف الراشدية بأنها منبع علم التوحيد (4) .

(1) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بو عبدلي ، المرجع السابق ، ص 201 ، 202 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 198 .

(3) - هو محمد بن يوسف السنوسي التلمساني ، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولد بتلمسان بين سنتي 838 ، 839 هـ / 1434 ، 1435 م . وبها نشأ . تتلمذ على كبار العلماء كعلي بن محمد القلصادي المتوفى سنة 891 هـ / 1486 م ، وعبد الرحمان الثعالبي المتوفى سنة 875 هـ / 1470 م ، وغيرهما . ألف وأبدع في مختلف علوم عصره . بلغت تأليفه في علم التوحيد وحده 17 مؤلفا منها : " الكبرى " و " الوسطى " و " الصغرى " ، و " صغرى الصغرى " . وشروحا . سيطرت مؤلفاته على العالم الإسلامي وخاصة في المنطق والتوحيد الذي أصبح لا يكاد يعرف في الجزائر إلا من خلالها ، توفي بتلمسان سنة 895 هـ / 1489 م . ( محمد بن عمر الملاي ، المواهب القلمية في المناقب السنوسية ، مخ دار الكتب الوطنية ، تونس ، رقم ، 6253 ، ورقة 112 / 1 ، 15 / 22 / ب ) . أيضا : أحمد بابا التتكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج . ط 1 ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، 1989 م ، ص 563 . . . 572 .

(4) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بو عبدلي ، المرجع السابق ، ص 169 ، . . . 171

وقد تخرج من هذه المدرسة أنثى كان بها نظام الدراسة داخليا علماء كبار، مثل المحافظ محمد المصطفى الرماصي ( ت 1137هـ/1627م ) فقيه بلاد الراشدية، ومحمد بن عني السنوسي<sup>(1)</sup> مؤسس الطريقة السنوسية التي كان لها دور بارز في محاربة الاستعمار والتبشير. وقد حاربت فرنسا هذه المدرسة بمنع خريجيها من نيل وظائف الدولة التي خصصتها لخريجي مدارسها الرسمية لتصبغهم بصبغتها، ومع ذلك ظلت هذه المدرسة إلى أن لفظت أنفاسها في بداية الحرب العالمية الثانية بعد أن منعت فرنسا تمويلها<sup>(2)</sup>.

ب- معهد القيطنة : هو المعهد الذي تخرج منه الأمير عبد القادر . وقد أسسه العلامة مصطفى بن المختار<sup>(3)</sup> جد الأمير عبد القادر، وأسند إدارته لأستاذه العلامة عبد القادر بن عبد الله المشرفي ( ت 1192هـ/1778م ) الملقب بإمام الراشدية، لغزارة علمه ، وأهمية مؤلفاته ، ولاسيما كتابه : " بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الأسبان من الأعراب كبنى عامر " . الذي خصصه لعملاء الأسبان طيلة احتلالهم لوهران<sup>(4)</sup> .

وقد جدد بناء هذا المعهد تلميذ العلامة مصطفى بن المختار، الباي محمد بن عثمان الفاتح سنة 1206هـ/1791م . أما الإشراف عليه بعد وفاة ابن المختار، فقد أصبح من نصيب ابنه محي الدين ( ت 1249هـ/1833م ) واند الأمير عبد القادر . وكانت تدرس بهذا المعهد العلوم الشرعية والتلغوية وغيرها<sup>(5)</sup> .

يضاف إلى هذا : المسجد الكبير بالجزائر العاصمة وتلمسان و قسنطينة ، والتي كان مستوى التعليم بها لا يقل عن مستوى الأزهر والقرويين والزيتونة<sup>(6)</sup>، وكذلك المدارس العليا الأخرى ، كالمدرسة التي أسسها صالح باي بقسنطينة والتي كانت متخصصة لتخريج العلماء النابغين<sup>(7)</sup> .

(1) - سيأتي التعريف به .

(2) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعليلي ، المرجع السابق ، ص 169 ، 196 ، 198 .

(3) - وقد توفي في سنة 1212 هـ / 1797 م ببرقة أثناء رجوعه من الحج . وقد اختلفت الروايات حول تأسيسه لهذا المعهد ، فالمصادر الأجنبية ، وابن الأمير عبد القادر في : " تحفة الزائر " والنصب التذكاري الموجود حاليا بساحة الأمير عبد القادر هناك يبين أنه أسس في سنة 1206 هـ / 1791 م . ولكن سعيدوني والبوعبلي فندا هذا وأثبتا أنه أسس في أواخر القرن 12 هـ . وذلك أن المؤرخ محمد آبا راس الناصري ( ت 1237 هـ / 1821 م ) وصفه وصفا مسهبا في رحلته ، وتعرض لمسيره الشيخ المشرفي ( ت 1192 هـ / 1778 م ) مما يعني أن المعهد كان موجودا قبل هذا التاريخ . (ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعليلي ، المرجع السابق ، ص 227 ، 228 ) .

(4) ، (5) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعليلي ، المرجع السابق ، ص 230 .

(6) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 274 .

(7) - أحمد توفيق العذني ، محمد عثمان باشا ، ص 133 . . . 136 .

وبناء على ما سبق نستطيع القول : بأن التعليم في العهد العثماني لم يكن في مجمله يختلف عن التعليم في بقية البلاد الإسلامية عامة<sup>(1)</sup> ، والمغرب العربي خاصة ، ولا أدلّ على هذا من أن كثيرا من مؤلفات العلماء الجزائريين كانت تدرس بثك الجامعات ، كمؤلفات السنوسي والأخضري والرماصي وغيرهم . كما أن الطرق الصوفية الجزائرية ساهمت مساهمة فعالة في نشر الثقافة والعلم في الدول الإسلامية الأخرى ، ومن الأمثلة على هذا الطريقة ، السنوسية التي بلغت زواياها في الحجاز وحدها 12 زاوية ، إضافة إلى عدد كبير من زواياها العظيمة في مصر: في سيوة والواحات الداخلية والفيوم ، إضافة إلى السودان والدول الإفريقية ، وسط وغرب كالداهومي وغيرها ، ناهيك بليبيا التي كانت منطلق هذه الطريقة<sup>(2)</sup> . وقد بلغت زواياها بالآلاف ، تنتشر منها العلم والمعرفة وتؤلب الناس على الاستعمار الغربي ، مما جعلنا نقول : بأن الطرق الصوفية هي التي واجهت الاستعمار الغربي الفرنسي والإنجليزي والإيطالي في إفريقيا<sup>(3)</sup> . كما أحبطت مخططات التبشير .

وهاهو أبو زيد عبد الرحمن الجامعي الفاسي<sup>(4)</sup> يصف حالة العلم في الجزائر أثناء زيارته لها فيقول : " وأما مدينة الجزائر فأول بلد لقيت بها مثل من فارقت من أبناء بلدي ... فهي والحمد لله إلى الآن دار الجوهر الفرد في الأدب ، وعلم العقل والنقل ، وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل ... وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء ، وعلماء أبناء ، وأعلام خطباء ، مساجدهم بالتدريس معمورة ، ومكاتب أطفالهم بالقراء مشحونة ، ومشهورة ... " <sup>(5)</sup> . وقد زاد أهمية هذا التعليم وتطوره تبادل الأساتذة مع البلدان الإسلامية ، حيث سمح للعلماء غير الجزائريين باستيطان الجزائر والتدريس بها ، كما سمح لعلماء الجزائر وطلبتها بالتدريس والدراسة خارج الجزائر، بل سمح حتى بنقل مذاهب صوفية معارضة للنظام الحاكم ، كتعليم الطريقة الدرقاوية، وذلك بسبب عقيدة العثمانيين في الدين ورجاله<sup>(6)</sup> .

(1) - Ferhat Abbas , La Nuit Coloniale , P50

(2) - شكيب أرسلان ، السنوسية ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة حجاج نويهض ، نط، البائلي الحلبي ، القاهرة ، 1352هـ ، م2 ، ص141 .

(3) - المصدر نفسه ، ص143 .

(4) - هو عبد الرحمان بن محمد الجامعي الفاسي ، ولد في سنة 1087 هـ / 1676م . درس بفاس ثم بقسنطينة على العلامة أحمد البيوني ، تصدر للتدريس بتونس ، اشتهر بالعلم والأدب ، له مؤلفات بعضها في فتح قلعة وهران ، و " شرح على خطبة السعد " والرحلة المسماة " الدرر المنجية في الدولة الحسينية " . (محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور ، ج1 ، ص351) .

(5) - أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، ط1 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، المكتبة العتيقة ، تونس ، 1982 ، ق1 ، ص419 - 421 .

(6) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، ص322 ، 323 .



ولكنه - رغم هذا - فإن طريقة تثقيف العلوم كانت تقوم في جملتها على حفظ الملخصات وتطويرها بالحواشي ، وكانت هذه الطريقة هي المتبعة في جميع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي وعالي (1) ، بينما كان يجب أن يكون لكل مرحلة منهاجها المناسب معها . وهكذا فالتعليم الثانوي والعالي كانت تعقد له حلقات في صحن المسجد أو براحه . أما التعليم الابتدائي فتخصص له بيوت من مرافق المسجد تسمى "الكتاتيب" أو "المسجد" ، وكان المشرف على هذا التعليم إمام المسجد ، ويأشره نخبة من حفظة القرآن الكريم ، تراعى فيهم مقاييس خلقية صارمة . وكان لهذا التعليم نظام داخلي تحدد فيه بدقة أوقات العمل والعطل ، وأجرة المعلمين (2) .

أما مواد التعليم ، فكان مدارها حفظ القرآن الكريم ثم علومه ، والقراءات ، والتفسير ، والحديث وعلومه ، والفقه ، والتوحيد ، وأصول الفقه ، والتصوف ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، وفقه اللغة ، والعروض ، والخط ، والسير ، والمنطق ، والحساب ، والفرائض ، والوثائق ، وعلم الوضع ، وعلم الفلك ، والطب ، والصيدلة (3) . وغيرها . وقد كان هذا التعليم منتشرا - كما ذكرنا قبلا - في المدن والقرى والأرياف ، وفي الصحراء من أقصاها إلى أقصاها كتقورت وتكوران (4) ، وورقلة وبسكرة ، وبلاد فجيح ، وغيرها ، وكذا بين البدو الرحل (5) ، وبهذا فإن التعليم كان منتشرا بين جميع السكان ، وبين جميع الفئات الاجتماعية (6) . والنتيجة التي نستخلصها مما سبق ، أن العلم والتعليم كانا معتبرين في الجزائر العثمانية أيما اعتبار ، وقد أنجب ذلك التعليم كثيرا من العلماء ، كونوا ثقافة أنجبت حصانة ذاتية في الإنسان الجزائري تقيه من التصير الذي سنتعرض له ، وقد عمل المستعمر بعد ذلك على تحطيم هذه البنية الثقافية ، مستغلا بعض النواقص التي ميزتها ، والتي سنتعرض لها في تقييمنا للأوضاع الثقافية .

6 - المكتبات : امتازت الجزائر بكثرة المكتبات والكتب التي كانت تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ ، أو تجلب من الخارج ، وقد تميز كثيرا بغنى محتواها ، وتنوع موادها ،

(1) - سعيدوني ، البوعينلي ، المرجع السابق ، ص 203 .

(2) - سعيدوني ، البوعينلي ، المرجع السابق ، ص 204 .

(3) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 357 ، 358 .

(4) - ومن العلماء الكبار الذين كانوا في الصحراء العلامة محمد بن إسماعيل (ت 1064 هـ / 1653م ) بتكوران ، وقد لقبه العياشي ورأى مكتبته النفيسة التي كانت تحتوي على حوالي 1500 تأليف ، ( العياشي ، ماء الموائد ، ج 1 ، ص 40 ، 41 ) .

(5) - من أراد التوسع فليرجع إلى العياشي ، ماء الموائد ، ج 1 ، ص 2 . وكذا : لورثيلاني ، الرحلة الورثيلانية .

Ferhat Abbas , La Nuit Coloniale , P50

(6) -

فكثرت بذلك المكتبات العامة والخاصة، وانتشرت عبر الوطن<sup>(1)</sup> . ومن الأمثلة على ذلك: -  
مكتبة القيصرية بالجزائر العاصمة : وهي أضخم مكتبة . وأكثر مكان يشتهل به التسامح ؛ لأن  
الطباعة لم تكن معروفة في إفريقيا<sup>(2)</sup> . وقد هدمها الجنرال كلوزيل بعد الاحتلال ، وكان بها  
يومئذ أكثر من 200 ألف مخطوط<sup>(3)</sup> ، مما يدل على أهميتها .

- مكتبة الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة : وكانت تحتوي على كم هائل من الكتب ،  
استغرق نقله ثلاثة أيام كاملة كما ذكرنا قبلا<sup>(4)</sup> ، وقد امتازت تلك الكتب بتنوع محتواها ،  
وقيمتها العلمية<sup>(5)</sup> .

يضاف إلى هذا مكتبات بجاية و قسنطينة و وهران ، ولأسيما مكتبات البايات .  
وكذلك مكتبات الزوايا والمدارس والمساجد ، ومكتبات الجنوب الجزائري التي كان من  
أهمها مكتبة العلامة محمد بن إسماعيل ( ت 1064هـ/1653م ) بنكوران التي كانت تحتوي  
على نحو من 1500 عنوان ، من الكتب النفيسة جدا كما بين العياشي ، اقتنى أكثرها لما كان  
بمدينة استنبول<sup>(6)</sup> ، وكذلك مكتبات ميزاب وتوات وغيرها<sup>(7)</sup> من المكتبات التي كانت  
منتشرة حتى في القرى والمناطق النائية مما يسدل على انتشار الثقافة وعموميتها  
لجميع فئات المجتمع .

المؤسسات الثقافية السابقة يمكن أن نضيف إليها :

- الأندية المنزلية ، المتمثلة في منازل ذوي النفوذ والأعيان كالداي و الباي . وكانت تلقى  
بها مختلف العلوم .

- منازل العلماء : وكانت تقوم بدور اجتماعي كإصلاح ذات البين ، وعلمي كالإفتاء والتعليم .

- الدكاكين التجارية : وهي التي كانت تستخدم نهارا للتجارة ، وليلا للمسامرات الأدبية<sup>(8)</sup> .

(1) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 286 .

(2) - وكذلك الصحافة لم تكن معروفة عندها ، وهذا من سلبياتنا وتأخرنا في هذا المجال .

(3) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 277 .

(4) - وقد أورد ابن أبي شنتب فهرسة ما بقي في خزنة مكتبة الجامع الأعظم بعد الاحتلال ، وهي قليلة ،  
لأن أغلب كتبها نقلت إلى برج موسى قبل الاحتلال كما ذكرنا . ومن أراد التوسع فليرجع إلى : ( سعيدوني  
، البوعبلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 169 ) .

(5) - وقد وجدت بعض العناوين في وثيقة أصلية كتبها في كنانة ناظر الأحباس مفتي وقاضي المالكية  
بالجزائر العلامة حميدة العمالي ، وهي عناوين كتب اشتراها العلامة سعيد قنورة بما بقي من ريع أحباس  
المسجد الأعظم ، وضمها إلى تلك المكتبة . ونشر هذه الوثيقة سعيدوني و البوعبلي في كتابهما السابق ،  
ص 167 ، 168 .

(6) - العياشي ، ماء الموائد ، ج 1 ، ص 41 ، 47 .

(7) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 313 .

(8) - محمد بن عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص 58 ، . . . 61 .

هذه هي المؤسسات الثقافية ، بتنوعها وكثرتها مما جعلها تؤدي إلى تعميم التعليم وانتشاره في المدن والقرى والصحراء وبين البدو الرحل (1) .  
ولكن هذا التعليم نشأ في مجتمه في أحضان رجال الطرق الصوفية ، وقد تبين لنا من خلال الأوضاع الاجتماعية أن التصوف كان مستحوذا على عقول العامة والخاصة ، وبشكل فإنه كان الطابع المميز للثقافة التي كانت سائدة في المجتمع ، ومن هنا فإننا قبل أن نقيم التعليم والأوضاع الثقافية بصفة عامة فلا بد أن نتعرض لخريطة الجزائر الصوفية .

### الخريطة الصوفية للجزائر العثمانية

كانت الجزائر غنية بالمرابطين والطرق الصوفية ، قبل وجود العثمانيين ، وأثناءه ، وبعدهم ، ولكن كثيرا من مرابطيها ابتعدوا تدريجيا عن العلم والتدين الصحيح لينغمسوا في الدجل ، وقليل منهم سلك طريق التصوف الحقيقي ، وعاش لدينه وعلمه (2) ، كما بينا في الأوضاع الاجتماعية .

كما أن معظم الطرق كانت نسخا مكررة لبعضها ، ولم تنبع من ظروف معينة استوجبت ظهورها محليا ، ولكنه رغم هذا فإنها لعبت دورا بارزا في الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية للبلاد . فقد كان كثير من الولاة الظلمة يخشون بأسها وثورتها (3) ، وكثير من الأشعار والتأليف في المناقب والتصوف والسير ظهرت في أحضانهم ، كما كانت زواياهم مراكز للتعليم ومخازن للكتب مما جعل التعليم والثقافة عامة مصطبغين بصيغتهم . وعندما احتلت الجزائر كان رجال الطرق الصوفية وراء إشعال جميع الثورات ، في جميع أنحاء القطر تحت راية الجهاد، وأضحت واجهة الدفاع عن الإسلام المهتد ، والمسلمين المضطهدين (4) .

ولكنه إذا كان رجال الطرق الصوفية وراء كل الثورات التي أعلنت على الاستعمار الفرنسي ؛ فإن بعضهم كانوا مساندين له .  
وما دام هذا الاستعمار أكبر عامل خلخل بنيقنا الحضارية برمته ، فإننا سنصنف تلك الطرق بناء على موقفها منه . ولن نتعرض لجميعها ، لأن ذلك يجب أن يفرد له بحث خاص ، وإنما نتعرض إلى أهمها ، ولنبدأ بالطرق المحاربة للاستعمار الفرنسي .

(1) - وتتبع رحلة العياشي - ماء الموائد - يبين بجلاء أن التعليم كان منتشرا في الصحراء من أقصاها إلى أقصاها .

(2) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 532 ، 533 .

(3) - لمرجع نفسه ، ص 532 ، 533 .

(4) - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 301 .

1 - الطريقة المحاربة للاستعمار : المقاومة الجزائرية خلال القرن 19، وبداية القرن العشرين سارت كلها تحت قيادة الطرق الصوفية ، ومن هذه الطرق :

أ- الطريقة القادرية : تنسب هذه الطريقة إلى القطب أبي محمد عبد القادر الجيلاني (1) (2) الذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما (4). وقد تأثر كثيرا بمنهج الغزالي (4) في التصوف من حيث ربطه له بالكتاب والسنة ، كما أنه يشبّهه من حيث فقهه وعلمه بالأصول والفروع (5) ، مما أهله للإفتاء على مذهبي الشافعية والحنابلة على السواء (6) . وتقوم هذه الطريقة على ربط التصوف بالكتاب والسنة ، ورفض إسقاط التكاليف (7) ، ومنهجها خفي في أساسه (8)، يقوم على اتحاد الظاهر والباطن ، والقول والفعل . والإخلاص ، وموافقة الكتاب والسنة في كل نفس وخطرة ، والتواضع للفقراء والعزلة أمام الأعيان والوجهاء . " وكانت طريقته التوحيد وصفا وحكما وحالا وتحقيقه الشرع ظاهرا وباطنا " (9). " وكان لا يقوم قط لأحد من العظماء ولا أعيان الدولة. ولا ألم قط بباب وزير ولا سلطان " (10) .

وتعد هذه الطريقة أول طريقة منظمة دخلت المغرب الإسلامي من خلال القطب أبي مدين الغوث ( ت 594 هـ / 1197 م ) (11) الذي قابت مؤسسها ببغداد بعد أداء كل منهما فريضة الحج (12) ، وقد استقر ببجاية ومات بالعباد بلمسان (13) ، فانتشرت منها الطريقة القادرية

- 
- (1) - العياشي ، ماء الموائد ، ج 2 ، ص 219 .  
(2) - ولد الشيخ عبد القادر الجيلاني ( أو الجيلي ) في جيلان سنة 470 هـ / 1077 م ، وانتقل إلى بغداد بعد ثماني سنوات من ميلاده ليدرس الفقه الحنبلي ويتصوف ، ثم يشتغل بالوعظ سنة 521 هـ ويصبح من كبار العلماء . وقد نشر تلاميذه طريقته في مختلف أقطار العالم الإسلامي قبل وفاته سنة 561 هـ / 1165 م ودفنه ببغداد . وبعد وفاته إلى يومنا هذا . ( أبو الوفاء الغيمي التفتزاني ، منخل إلى التصوف الإسلامي ، ط 3 ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1988 ، ص 236 ، 237 ) .  
(3) - عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى ، ط ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، نت ، ج 1 ، ص 108 .  
(4) - هو حجة الإسلام ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، صاحب الاتجاه العملي في التصوف الذي يقوم على تربية النفس و تقوية صلتها بالله ، له من كتاباته مصنف ، منها : " إحياء علوم الدين " و " تهافت الفلاسفة " و " ميزان العمل " و " المنقذ من الضلال " و " المستصفى " و " محك النظر " وغيرها ، وند في قصبة طوس بخراسان سنة 450 هـ / 1058 م ، وتوفي بها سنة 505 هـ / 1111 م . ( الزركلي ، الاعلام ، ج 7 ، ص 246 ) . أيضا ( عبد الرزاق قسوم ، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف ، ص 56 ) .  
(5) - أبو الوفاء التفتزاني ، المرجع السابق ، ص 237 .  
(6)،(7) - عبد الوهاب الشعراني ، الطبقات الكبرى ، ج 1 ، ص 109 .  
(8) - أبو الوفاء التفتزاني ، المرجع السابق ، ص 237 .  
(9)،(10) - عبد الوهاب الشعراني ، المرجع السابق ، ص 110 .  
(11) - وقد سمي العياشي طريقة أبي منين بالمدينية ، ولكنه لقر بأنها شعبة من القادرية . ( العياشي ، ماء الموائد ، ج 2 ، ص 219 ) .  
(12) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ، ص 36 .  
(13) - ابن مريم ، لبستان ، ص 114 .

إلى منطقة توات بالجنوب الجزائري بواسطة العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي<sup>(1)</sup> الذي نقلها كذلك إلى بلاد السودان . حيث يعد أول ناشر لها في غرب إفريقيا<sup>(2)</sup> ، وقد أثر تأثيرا كبيرا على حكامها وعلماؤها وشعوبها<sup>(3)</sup> . بحيث " تم يخذ التاريخ أثرًا لعالم عربي غربي أو شرقي مثل ما خنده للإمام المغيلي في غرب إفريقيا عموما، وفي نيجيريا خصوصا " <sup>(4)</sup> .

وأول زاوية خاصة بهذه الطريقة في العهد العثماني أسسها العلامة مصطفى الغريسي في أواخر القرن 12هـ / 18م<sup>(5)</sup> ، وهي التي أصبحت تعرف بمعهد القبطنة الواقع على وادي الحمام قرب معسكر، وقد تحدثنا عنه سابقا . وكان مؤسسه من علماء الوقت وصلاحه ، حج أربع مرات، وفي إحداها عرج على بغداد لزيارة الشيخ عبد القادر الجبري، ثم رجع قادريا، عاقدا العزم على تأسيس زاوية تكون مركزا للتعليم، وبعثا للطريقة القادرية، ومن هنا يظهر لنا مدى مساهمة الطريقة في نشر العلم وتوجيهه - وبعد وفاة مؤسسها في سنة 1212هـ/ 1797م تولى إدارتها ابنه محي الدين وأند الأمير عبد القادر كما ذكرنا قبلا ، وكان من كبار علماء عصره ، فأصبح يلقن الأوراد للمريدين، والعلم للمتعلمين، كما كانت هذه الزاوية تقوم بدور اجتماعي معتبر كإيواء الزائرين والغرباء والفقراء ، مما جعل الناس يتسابقون في الإنفاق عليها.

وبعد وفاة الشيخ محي الدين سنة 1250هـ/ 1834م تولى إدارتها ابنه وتلميذه عبد القادر الذي أخذت المقاومة كل وقته فأصبح رمزا لجمع الكلمة وتوحيد الشعب تحت راية الإسلام والوطنية لا مرابطا يلقن الأوراد للمريدين ، وبهذا فإنه كما أصبحت مركزا لنشر العلم أصبحت كذلك مركزا لمحاربة الاستعمار، وقامت بدور جبار تمثل في حمل المشعل من العثمانيين

(1) - هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، علامة في الفقه والحديث والتفسير والمنطق وغيرها ، اشتهر بمواقفه العظيمة كموقفه من يهود توات . حاج السيوطي في تحريمه للمنطق ، له مؤلفات منها : " البدر المنير في علوم التفسير " و " شرح جمل الخونجي في المنطق " و " مقدمة في المنطق " و " منظومة فيه سماها " منح الوهاب " ، وله عليها ثلاثة شروح و " مصباح الأرواح في أصول الفلاح " وغيرها ، ( ت 909هـ / 1503م ) ، ( ابن مريم ، البستان ، ص 253 - 257 . )

(2) - لم عبد الله الأوربي ، الإمام المغيلي وأثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا ، ط 1 ، مصطفى أبيبى الحلبي ، مصر ، 1974 ، ص 12 .

(3) - من أراد التوسع في هذا فليرجع إلى محمد بن عبد الكريم المغيلي ، أسئلة الأسئلة وأجوبة المغيلي ، تحقيق عبد القادر زبانية ، بط ، ش ، و ، ن ، ت ، الجزائر ، 1974 . وكذا : " فيما يجب على الأمير من حسن الذية للإمارة " للمؤلف نفسه ، وهو مخطوط توجد نسخة منه بحوزتنا صورناها من أدرار ، وكذا كتاب الأوربي السابق .

(4) - لم عبد الله الأوربي ، المرجع السابق ، ص 31 .

(5) - سعيدوني ، البوعبدلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 230 .

وإنشاء نولة جزائرية قاومت الاستعمار أكثر من 17 عاما تحت قيادة الأمير عبد القادر (1) ، ثم قاومته بعده في الجزائر وفي إفريقيا السوداء (2) ، من غربها إلى شرقها ، وفي أعماقها ، وذلك لأنها كانت قد انتشرت من الجزائر. ثم من غيرها في تلك الأصقاع ، كالتيجر ، ومالي ، ونيجريا ، والسنغال ، وبنين ، وسيراليون ، والسودان (3) ، وأثيوبيا ، والصومال ، وإثريا ، وزنجبار ، وتنجانقا ، والكونغو ، وغيرها . وصارت من أكبر الطرق التي انتشرت في طول إفريقيا وعرضها (4) .

ولقد نشرت القادرية الإسلام في إفريقيا بحماس فياض . وبطرق سلمية ، بواسطة التجار ، والتعليم بفتح الزوايا والكتاتيب في المدن وانقرى لتعليم الصغار الإسلام ، وإرسال النجباء منهم على نفقة الزوايا إلى طرابلس والقيروان والقرويين والأزهر لمواصلة التعليم ، فيخرجون ثم يعودون أساتذة لعشر الإسلام في بلدانهم ، فأدخلوا الناس في دين الله أفواجا بعد أن طهروا ذهنياتهم من خرافات إفريقيا وثبتها ، فاستطاعت القادرية بذلك أن تكون خطا دفاعيا ثانيا بالأفارقة يقاوم التبشير المسيحي ويقود حركات الجهاد ضد الغزاة الأوروبيين (5) .

وبهذا نستطيع القول :

- إن القادرية تجاوزت كونها طريقة صوفية لتصبح حركة وطنية تقود الجهاد الوطني ضد الغزاة الفرنسيين ، وينضوي تحت لوائها طرق أخرى لتحقيق هذا الغرض ، كالطريقة الرحمانية التي قاد الأمير عبد القادر باتباعها من بلاد القبائل آخر هجوم له على الجزائر العاصمة سنة 1846م (6) ، وبذلك أصبحت رمزا للمقاومة والجهاد .

- كما استطاعت أن تكون لها قاعدة خلفية في إفريقيا السوداء لمواصلة منهاجها في الدعوة إلى الإسلام ونشر العلم وقيادة حملات الجهاد ضد التوغل الأوروبي في تلك البلدان ، وبهذا استطاعت القادرية مواصلة مشروعها في الدفاع عن الإسلام وأراضي المسلمين .

(1) - لجبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 520 ، 522 .

(2) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية ، ص 49 ، 50 .

(3) - لوثرروب ستودلوت ، حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة عادل نويهض ، تعليق وإضافات شكيب أرسلان ، مط ، عيسى الباي الحلبي ، القاهرة ، 1352 هـ ، م 2 ، ص 396 .

(4) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 37 ، 51 ، 55 ، - 57 .

(5) - لوثرروب ستودلوت ، المرجع السابق ، ص 396 .

(6) - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 271 .

ب - الطريقة الرحمانية : أسسها عبد الرحمان الجرجري الزواوي الأزهرى ، الذي ينحدر من قبيلة آيت إسماعيل من عرش قشطلوثة، وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما (1) .  
 ولد بين 1127هـ ، 1142هـ الموافق 1715م ، 1729م . وتوفي بمدينة الجزائر سنة 1208هـ / 1793م ، ودفن بقبرة الحامة التي سميت باسمه (2) .

وكان محمد بن عبد الرحمن قد تعلم بزواوية الشيخ الصديق بن عراب، بـ " آيت إيراثن " ، ثم توجه إلى المشرق ليملك به ربع قرن ، تعلم خلال تلك الفترة بالأزهر ، وتجول في المشرق الإسلامي ليعود حوالي سنة 1177هـ / 1763م إلى قرية " آيت إسماعيل " ليؤسس بها زاويته ، وذلك بعد تلقيه تعاليم الطريقة الخلوتية (3) بالقاهرة ، أو بمكة . مما جعل طريقته تتأثر بها كثيرا (4) .

وقد انتشرت الطريقة الرحمانية في وسط الجزائر وشرقها ، وكل بلاد القبائل ، وامتدت إلى الجنوب والزاب (5) . وساهمت مساهمة فعالة في نشر التعليم ، وتعريب اللسان البربري ، وأصبح لها أتباع كثر عشية الاحتلال الفرنسي (6) الذي قاومته مقاومة منقطعة النظير تحت لواء الأمير عبد القادر الذي قاد بزعمائها ومريديها هجومه الأخير على العاصمة بغية استردادها في سنة 1846م (7) . وبعد سقوط الأمير تزعمت حركة الجهاد على المستعمرين، ومن أبطالها في ذلك : لآلا فاطمة نسومر والمقراني (8) وصهره

(1) - أبو القاسم الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج2 ، ص457 .

(2) - رايح بونار ، مدينة الجزائر ، تاريخها وحياتها الثقافية ، مجلة الأصالة ، وزارة لشؤون الدينية ، الجزائر ، ماي ، جوان ، 1972 ، ع8 ، ص87 .

(3) - الطريقة الخلوتية طريقة فارسية في سنها ، نشرها بمصر كمال الدين البكري ( ت 1162 هـ / 1748 م ) ، ويرد في إسنادها أبو نجيب السهروردي ( ت 563 هـ / 1162 م ) مؤسس السهروردية ، وتلميذه شهاب الدين السهروردي الشهير ( قتل سنة 587 هـ / 1191 م ) . وتقوم على الذكر بالكلمة الطيبة بكيفية مخصوصة ، ثم الاستغفار بذكر الجلالة ، ثم تذكر هذه الأسماء العشرة على الترتيب : هو ، حق ، حي ، قهار ، وهاب ، فتاح ، واحد ، أحد ، صمد ، قيوم ، إلخ . وقد تأثرت الطريقة الرحمانية بهذا وبغيره من هذه الطريقة . ( أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني ، مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص245 ، أيضا : الشعراني ، الطبقات ، ج1 ، ص120 ، 121 ، أيضا : العياشي ، ماء الموائد ، ج2 ، ص218 . أيضا : الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج2 ، ص461 ) .

(4) - ومن أراد التوسع في معرفة مدى تأثير الطريقة الرحمانية بالخلوتية ، ومعرفة أورد الطريقة الرحمانية فليرجع إلى : الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج2 ، ص457 - 474 .

(5) - ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بوعبدلي ، الجزائر في التاريخ ، ص188 .

(6) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، ص514 ، 515 .

(7) - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق1 ، ج1 ، ص271 .

(8) - ينتهي نسب أسرته التي استوطنت " مجانة " إلى فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وقد شاركت في المقاومة مع أحمد باي ، وبعد انكساره ، عينت فرنسا محمد المقراني باشاعا على مجانة ، ولكنها أحست بخطرته ، فضابطته فتكثرت من ذلك ، كما تكثرت من قانون تجنيس اليهود وإطلاق يد لافرجري في التبشير ، فقرر الجهاد لتحرير البلاد وقد نجح في استمالة الشيخ الحداد وأتباعه الرحمانيين فأعطى بذلك لثورته طابعها الشعبي والديني، وهو الذي كان يكاتب رؤساء القبائل والباشغوات قائلا: " لقد فتحت أبواب الجهاد -

ابن الحداد<sup>(1)</sup> صاحباً ثورة 1871م الشهيرة، وقد خاض الرحمانيون تحت قيادتها 340 معركة كبيرة، إضافة إلى المعارك الصغيرة، ووصل عدد الثوار إلى 200 ألف مجاهد، في مقابل 800 ألف جندي من الفرنسيين والعملاء. وقد انطلقت هذه الثورة من بجاية يوم 16 ماي 1871م<sup>(2)</sup>، وصدوق يوم 8 أبريل 1871م وتوسع لتشمل نصف البلاد، وقد تمكن الرحمانيون بعد إعلان الجهاد المقدس من ندى الشيخ الحداد يوم 8 أبريل 1871م وتسليمه علم الجهاد لأتباعه<sup>(3)</sup>، من أن يجمعوا أكثر من 120 ألف مجاهد ينتمون إلى 250 قبيلة خلال نصف شهر فقط، بينما لم يتمكن المقراني قبل الاتصال بهم من أن يجند أكثر من 25 ألف مجاهد<sup>(4)</sup>، وهو ما أعطى للثورة طابعها الشعبي، وبذلك تعد هذه الثورة التي دامت أكثر من سنة أشهر ثورة بعد حرب الأمير عبد القادر<sup>(5)</sup> مما جعل الفرنسيين يتهمون حركة الرحمانيين هذه بكونها حرباً دينية مبنية على التعصب الديني والعرقى، واتهموهم بالعمالة للخارج، وزعموا أن رجال الطرق الصوفية يشكلون خطراً كبيراً على الفرنسيين

- في سبيل الله، ويجب عدم تقويت هذه الفرصة، والإسراع بالانضمام إلى المجاهدين". "وبعد: فتوكلوا على الله... وتقدموا للجهاد لنصرة دينكم عزماً...". وجاهد المقراني حتى استشهد في معركة واد سفلات يوم 5 ماي 1871م، فخلفه أخوه بومرزاق في قيادة الثورة حتى أسر يوم 20 جانفي 1872م بواحة الرويسات قرب ورقلة فانتهت بذلك ثورة المقراني. (يحي بوعزيز، ثورة الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1980، ص202، أيضاً: بسام العسلي، محمد المقراني و ثورة 1871م الجزائرية، ط2، دار النفائس، بيروت، 1986م، ص120 - 135

(1) - هو محمد أمزيان بن علي بن محمد الحداد، ولد ونشأ بقرية "صدوق" من ولاية بجاية، فتعلم بمدرسة أبيه، ثم بزواوية الشيخ ابن اعراب بزواوة، فانخرط في الطريقة الرحمانية وعاد إلى "صدوق" فأسس بها مسجداً وزاوية، ليتوافد عليه الطلبة والمريدون<sup>(1)</sup> ويصبح رئيساً للطريقة الرحمانية، فاتصل به المقراني في أواخر مارس 1871 ليضمه إلى ثورته، فوافق رغم طعنه في السن، وأعلن الجهاد المقدس على المستعمرين بعد استشارة مقدمي طريقته وإصرار والديه "سي" محمد الذي كان من قادة الثائر بويغلة عام 1851م، وكان يشغل منصب قاضي "بني عبدل، وريغة". "و" سي "عزير الذي كان "قائد" عموشة وكان يرغب في قيادة الطريقة بعد أبيه<sup>(2)</sup>. وقد تمكن الثوار من إلحاق ضربات كبيرة بالمستعمرين<sup>(3)</sup>، ولكن الثورة فشلت بعد عام لأسباب مختلفة، فاستسلم الشيخ الحداد وابنه عزير، وأسّر "محمد" في 2 جويلية 1872م. فسجن الشيخ الحداد بقسنطينة ونفى بها يوم 29 أبريل 1873م وعمره 83 سنة<sup>(4)</sup>. ونفي إبنائه إلى جزيرة "كاليدونيا" بالمحيط الهادي مع بومرزاق، وتوفي عزير مسموماً بفرنسا بعد 1890م، وأما أخوه "محمد" و"بومرزاق" فلم يعثر لهما على أثر<sup>(5)</sup>

[ (1) - عزير بن الشيخ الحداد، عريضة المهتم من كتاب وصايا الشيخ الحداد، ومذكرات ابن سي عزير، ترجمة، يحي بوعزيز، ط.م، و، ك، الجزائر، 1989م، ص140 - 142.

(2) - يحي بوعزيز، تقديم كتاب "وصايا الشيخ الحداد"، ص16، 41.

(3) - يحي بوعزيز، ثورة الجزائر في القرنين 19، 20، ص211.

(4) - عزير بن الشيخ الحداد، الوثيقة الثالثة، ص62، 63.

(5) - يحي بوعزيز، تقديم: "وصايا الشيخ الحداد" ص49، 50. ]

(2) - بسام العسلي، محمد المقراني، ص11.

(3) - يحي بوعزيز، تقديم: "وصايا الشيخ الحداد" ص17.

(4) - يحي بوعزيز، ثورة الجزائر، ص202. ومن أراد التوسع فليرجع إلى: Victor piquet - *Lalgerie Française, un siècle de colonization, 1830, 1930, Constantine, 1930, P230.*

(5) - لفضيل الورثياني، الجزائر الثائرة، ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1992، ص44.



وأن زواياهم تحولت إلى مراكز للثورة للقضاء على المسيحيين ، واعتبروا الرحمانيين بزعامة الشيخ الحداد رأس هؤلاء بسبب تأثيرهم الروحي والسياسي وارتباطهم بالقاعدة الشعبية ارتباطا وثيقا .<sup>(1)</sup> وقد عبر عن هذا صراحة محضر قسنطينة عندما أكد أن ثورة الحداد وإخوانه لا تمثل إلا مظهرا للتعصب الديني<sup>(2)</sup> . وقد نسي هؤلاء أنهم استعمروا بلد الشيخ الحداد وإخوانه الجزائريين<sup>(3)</sup> . وإذا كانت هذه الطريقة قد اهتمت بالتعليم ومقاومة الاستعمار ، فإنها اهتمت كذلك بقضية أخرى لا تقل أهمية، وهي محاربة البدع والخرافات التي علفت بالنين، والتي كانت منتشرة وسط العامة والخاصة ، كما بينا في الأوضاع الاجتماعية ، وفي هذا الإطار، فقد ألف صهر المقراني ابن الحداد كتابا خاصا في محاربة البدع التي كانت منتشرة في عهده . ولكنه مع ذلك ، ظلت بعض البدع منتشرة بين مريديها . فاستغلت فرنسا هذا ، وشرعت في القيام بحملة ضدها بعد ثورة المقراني ، وجعلت مركزها نادي صالح باي بقسنطينة ، واستخدمت المولود بن الموهوب<sup>(4)</sup> لتحقيق هذا الغرض ، فألقى سلسلة من المحاضرات في مهاجمتها ، مدعيا منافستها للسلفية ، وقام بترجمتها إلى الفرنسية ونشرها الشريف بن حبيلس القاضي الموثق ، والنائب السابق في البرلمان الفرنسي . وقد كشف النقاب عن هذه الخطة الفرنسية التي استخدمت فيها السلفية لتحطيم الطريقة الرحمانية ، أحد أعضاء لجنة البرلمان الفرنسي التي أرسلت إلى الجزائر تحت رئاسة الوزير الفرنسي جول فيري . وقد بين ذلك العضو أن الغرض من ذلك هو مقاومة التعصب الديني الذي كانت تشخصه الطريقة الرحمانية، وهو ما اضطر فرنسا للاستعانة بالموظفين الدينيين بالجزائر - يقصد ابن الموهوب - لتحقيق ذلك الغرض<sup>(5)</sup> .

ورغم محاربة فرنسا لهذه الطريقة، فإنها استطاعت أن تكون حصانة معتبرة ، ولا سيما

- Simian (Marcel) , Les conferies Islamiques on Algérie . Rahmania Tidjania (1) Alger , 1910 , P56 , 65 .

- Fautier ; L'autonomie Algérienne , Le république et Fédérale , ( Constantine , Marl , 1871 , pp 3- 8 .

- Cour d'appel d'Alger , chambres en scuration ; 29 Août 1872 (2)

- Le procureur générale contre A bderrahmane ben messaoud et 96 autres Affaire de L'alma et palestro , Alger , 1872 , pp 2 , 28 , 29 .

(3) - من أراد التوسع فليرجع إلى : يحيى بوعزيز ، وصايا لشيخ الحداد ، ص 20 .

(4) - واد في سنة 1866 م . نشأ وتعلم بقسنطينة ، وأصبح مفتيها في المذهب المالكي ابتداء من سنة 1908م ، أسس في تلمسان نادي " صالح باي " للتقالي سنة 1908 ، وأصبح يلقي فيه محاضراته التكاليفي ، له مؤلفات منها : " منظومة أدب الطريق " في التصوف ، حمل فيه على البدع وأصحابها ، توفي سنة 1939 م . ( عائل نويهنس ، معجم أعلام الجزائر ، ص 324 ) .

(5) - المهدي بوعبدلي ، مجلة الأصالة ، ع 53 ، ص 30 ، 31 .

في بلاد القبائل ، تحطمت دونها جهود المبشرين الفرنسيين ، وخاصة في النصف الأخير من القرن 19 ، واستمر تأثيرها إلى غاية ثورة 1954 .

ج - الطريقة الدرقاوية: هذه الطريقة متفرعة عن الشاذلية (1) ، (2) ، وقد أسسها بالمغرب محمد العربي الدرقاوي ( ت 1223/هـ 1808م ) . ونقلها إلى الجزائر عبد القادر بن الشريف الذي ذهب إلى المغرب للدراسة ، فقابل مؤسسها هناك ، فلقنه مبادئها ، وعين مقدمها في الجزائر ، وبعد رجوعه ادعى القطبية (3) ، وأخذ في نشرها ابتداء من الناحية الغربية ، كما عمل " البودالي " ابن الأحرش على نشرها من الناحية الشرقية ، وذلك قبل أن يُتَمَرَّدَ على النظام الحاكم الذي كبح جماحها رغم ضعفه (4) ، فتضررت الطريقة من ذلك كما ذكرنا في الأوضاع الاجتماعية ، وتقوم تعاليم هذه الطريقة على محاولة تعليم الناس طريق العودة إلى الإسلام ، فتكشف أصحابها ، وأرسلوا شعورهم ، ولبسوا المرقعات والخرق ، لهم سبوح وأوراد وحلقات ذكر ، وطرق للاجتماع والانتخاب (5) . ورغم ما في هذه الطريقة إلا أن دورها غداة الاستعمار الفرنسي كان مشرفا ، ومن رجالها الذين أعلنوا الجهاد ، واستماتوا في الدفاع عن البلاد :

(1) - محمد بن الحبيب الدرقاوي ، ديوان بغية المریدین السائرين وتحفة السالكين العارفين ، مطبوع في المغرب ، 1368 هـ ، ص 2 .

(2) - الطريقة الشاذلية أسسها تقي الدين أبو الحسن بن عبد الله . . . بن الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولد بقرية " غمارة " قرب " سينة " بالمغرب الأقصى (1) سنة 593 هـ / 1196 م ، وتوفي بمصر سنة 656 هـ / 1258 م (2) . عرف بالشاذلي نسبة إلى بلدة " شاذلة " بتونس التي استقر بها بعد أن درس بفاس وعزز علمه وأخذ بها الطريقة عن عبد السلام بن مشيش ( ت 625 هـ / 1227 م ) (3) التي ينتهي سندها إلى الحسن رضي الله عنه (4) . ولكن مضايقات حكام تونس ومحاكمتهم له بسبب أفكاره جعلته يفر إلى مصر (5) مع جملة من مریديه ليستوطنوا الأسكندرية حوالي سنة 642 هـ / 1244 م ، ويكونوا مدرسة صوفية بعد اشتهار وسط العامة والعلماء ، وكان من أبرز شخصياتها بعده ، خليفته أحمد أبو العباس المرسي ( ت 686 هـ / 1287 م ) ، وتاج الدين بن عطاء الله السكندري (6) ( ت 707 هـ / 1307 م ) . والشاذلية متأثرة كثيرا بالغزالي ( ت 505 هـ / 1111 م ) إلى حد تصح الشاذلي لمریديه بأنهم إذا عرضت لهم إلى الله حاجة فليتوسلوا إليه بابي حامد الغزالي (7) .

(1) - ابن عطاء الله السكندري ، لطائف العنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن الشاذلي ، ط الأخيرة ، مكتبة القاهرة ، 1979 ، ص 71 .

(2) - علي سالم عمار ، أبو الحسن الشاذلي ، ط 1 ، دار التأليف ، مصر ، 1951 ، ص 31 ، 33 .

(3) - الفردبال ، الفرق الإسلامية ، ص 405 .

(4) - ابن عطاء الله السكندري ، المصدر السابق ، ص 92 .

(5) - عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، أضواء على الطرق للصوفية ، ص 137 .

(6) - أبو الوفاء الغنيمي ، ابن عطاء الله السكندري وتصوفه ، ط 2 ، مكتبة الأجلو المصرية ، القاهرة ، 1969 ، ص 59 . أيضا : عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 137 .

(7) - علي سالم عمار ، المرجع السابق ، ص 164 .

(3) - نقيب الأشراف ، مذكرات ، ص 84 ، وهامش ص 50 و 92 .

(4) - أحمد توفيق العنني ، محمد عثمان باشا ، ص 56 ، 57 . أيضا : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 524 - 626 .

(5) - ومن أرك معرفة تلك الأوراد ، وأوقاتها ، وكيفيةاتها ، وغير ذلك مما يتعلق بهذه الطريقة ، فليرجع إلى : محمد بن الحبيب الدرقاوي ، ديوان بغية المریدین .

1- الحاج موسى الدرقاوي الذي جاهد في المدينة وشرشال والجنوب ، ثم استقر ببلاد القبائل ، إلى أن نشبت ثورة الزعاطشة فالتحق بها ، واستشهد إلى جانب زعيمها بوزيان سنة 1849م .

2- عبد الرحمن العامري الطوطي: وكان مقدم الطريقة الدرقاوية في سيدي بلعباس ونواحيها ، فثار بمريديه يوم السوق في سيدي بلعباس لينال الشهادة معهم سنة 1261هـ/1845م .

3 - ابن عودة المختاري: كان مع قومه " أولاد مختار " في جنوب إقليم المدينة من أشد الناس مقاومة للاستعمار، وقد انضم في سنة 1837م إلى الأمير عبد القادر ليصبح من أشد الناس حماسا له ، وللجهاد<sup>(1)</sup> . وقد برهن على هذا حين اهتز جنوب إقليم المدينة ضد العدو في سنة 1843م . وقد ظل وفيا في كفاحه إلى أن انتلعت ثورة أولاد سيدي الشيخ في سنة 1864م ، فباركها وانخرط فيها بقومه ، رغم كبر سنه<sup>(2)</sup> .

د- السنوسية: أسسها محمد بن علي السنوسي الذي ولد بمستغانم سنة 1202هـ/1787م في أسرة دين وحسب<sup>(3)</sup> ، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما . وينتهي إلى قبيلة بني سنوس<sup>(4)</sup> التابعة لولاية تلمسان ، وإليها نسب ، كما نسبت إليها طريقته ، تخرج من مدرسة مازونة ، ودرس بفاس وتركيا ومصر ومكة ، فأتقن علوم عصره كعلوم الشريعة والمنطق والرياضيات والفلك والطب وأصول قواعد الموسيقى وغيرها<sup>(5)</sup> . عمدته في التصوف أبو العباس أحمد بن إدريس<sup>(6)(7)</sup> ، وإليه ينتسب كذلك<sup>(8)</sup> ، تجول في العالم الإسلامي ليطلع على أحوال المسلمين ويدرس نفسياتهم ، ويلم بالقوى المؤثرة عليهم ، أسس أول زاوية له بجبل أبي قبيس بمكة المكرمة ، ثم استقر بليبيا سنة 1257هـ/1841م ليؤسس الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر ، ويقم بواحة جنجوب إلى وفاته سنة 1276هـ/1859م . وقد ترك مؤلفات كثيرة أهلته للوصول إلى درجة الاجتهاد ، منها : " إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن " ، و " نزهة

(1) ، (2) - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق1 ، ج1 ، ص283 ، 284 .

(3) - عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، ص179 .

(4) - بطرس البستاني ، دائرة المعارف ، نط ، دار المعرفة ، بيروت ، ص10 ، ص146 .

(5) - شكيب أرسلان ، السنوسية ، حاضر العالم الإسلامي ، ج1 ، ص401 ، وقد ذكر أرسلان كل العلوم التي درسها السنوسي ، نقلها عن مخطوط ألفه حفيد السنوسي أحمد الشريف بين فيه شيوخ السنوسي والعلوم التي أخذها عنهم .

(6) - ولد بالقرب من فاس التي درس بها وأخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ عبد الوهاب النازي ( ت 1206 هـ ) وفي سنة 1213 هـ رحل من فاس إلى مصر للدراسة ، ثم التجول في الأقطار الإسلامية ، له مؤلفات منها : " العقد النفيس في جواهر التدريس " . توفي باليمن سنة 1353 هـ (محمد محمد مخلوف ، شجرة نور ، ج1 ، ص396) .

(7) - اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين ، نط ، وكالة المعارف ، استنبول ، 1955 م ، ج2 ، ص400 ، 401 .

(8) - الكفائي محمد ، فهرس قفهارس ، نط ، المطبعة الجديدة ، الطاعة ، المغرب ، 1347 هـ ، ج2 ، ص374 .

الجنان في أوصاف مفسر القرآن " ، و " تحف المحاضرة في آداب التفهم والتفهيم والمنظرة " (1) .

ولكن أهم عمل قام به السنوسي - في نظرنا - هو تأسيسه للطريقة السنوسية ، انطلاقاً من واحة جغيوب لتنتشر في العالم الإسلامي والعربي وتصبح من أكبر الطرق الصوفية و أهمها ، معتمدة في ذلك على بناء الزوايا والتعليم بها ، والانتشار عبر ذلك كما سنذكر .

وتقوم هذه الطريقة على مجموعة من المبادئ منها :

- التقيد بالكتاب والسنة ، ونبذ البدع التي علفت بالدين ومناقشة أصحابها في ذلك .
- رفض فكرة الوساطة بين الله والإنسان ، والاتصال مباشرة بالرسول صلى الله عليه وسلم .
- فتح باب الاجتهاد ، واعتبار إغلاقه سبباً في دخول البدع في الدين (2) . وقد جرت عليه هذه القضية غضب علماء الأزهر عندما نقد بعض مبادئ التعليم هناك، ولما رأوه فيه من استقلال الفكر والنزوع إلى الاجتهاد(3) ، ومن أولئك العلماء الشيخ عيش (1802-1881م) الذي جعل الأزهر يصدر قراراً باتهام السنوسي بمخالفة الشرع بفتح باب الاجتهاد على مصراعيه (4) ، وهدف السنوسية من هذا هو تخلص الإسلام من النفوذ الأجنبي ، وإعادة الخلافة الإسلامية كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين . وهذا لا يتحقق إلا بالإصلاح الحضاري الشامل الذي يتطلب نيل التقليد الأعمى وفتح باب الاجتهاد والدعوة إلى الدين الصحيح وتوسيع دائرة الإجماع(5) ، ولقد ضحى السنوسي وأبناؤه وخلفاؤه تضحية كاملة مجردة عن الأهداف الدنيوية، فسخروا كل حياتهم ، علماء ومحاربين من أجل بعث المجتمع الإسلامي بعثاً روحياً وحضارياً ، وتحقيق استقلاله السياسي (6) .

ولكي يحقق السنوسيون هذا الغرض النبيل ، فقد نظموا طريقتهم تنظيمًا محكمًا ، كما

سيأتي:

(1) - الزركلي ، الأعلام ، م7 ، ص192 . أيضا عباس محمود العقاد ، الإسلام في القرن العشرين

حاضرهم ومستقبله ، ط2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1969 ، ص131 .

(2) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، أضواء على الطرق الصوفية ، ص92 - 99 .

(3) - لوثرروب متودارات ، حاضر العالم الإسلامي ، ج1 ، ص399 . وقد علق أرسلان في الهامش بقوله : " لعله يشير إلى الشيخ طرش الذي بلغه أشياء لم يقف على حقيقتها ، فأصدر فتوى بحق الشيخ السنوسي . وقيل إنه لما فهم جلوية الأمر رجع عنها " .

(4) - المناداة بفتح باب الاجتهاد آنذاك كانت من الأهمية بمكان ، لأن العقول تجمدت وتحجرت في دراسة علوم القرون السابقة ، فتجاوزها الزمن كثيرا ، فتقدم الغرب ، وبقينا نحن في مكاننا ، ندرس العلوم الحديثة من مؤلفات القرون الوسطى . ومن هنا فإن المناداة بفتح باب الاجتهاد تنل على أن اليقظة بدأت في المغرب الإسلامي قبل مشرقه .

(5) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، المرجع السابق ، ص94 .

(6) - محمد أسد ، الطريق إلى الإسلام ، ترجمة عفيف البعلبكي ، ط6 ، دار العلم للملايين ، بيروت ،

1980 م ، ص331 ، 333 .

- 1- شيخ الطريقة ، وهو الرئيس الأعلى .
- 2 - مجلس الخواص ، وهو بمثابة مجلس الشورى ، مما يجعل السنوسية شبيهة بالدولة إن لم تكن أكثر تنظيماً منها ، ويتألف هذا المجلس من أشخاص لا ينتمون إلى البيت السنوسي ، ومن مهامه مساعدة شيخ الطريقة في تعيين شيوخ الزوايا .
- 3- شيوخ الزوايا ، ومهمتهم الدعوة إلى الله. وضم الناس إلى الطريقة (1) . ويكفي لمن أراد الانخراط فيها : قراءة الفاتحة على العهد ، - ورغم درجات منخراطيتها الثلاث : الخواص ، فالإخوان ، فالمنتسبون - إلا أنها مجرد درجات تفاوتت في العلم والتقوى والولاء ، مما جعلها لا تشترط في درجاتها العليا الانتماء إلى البيت السنوسي ، كما لا تشترط على أتباعها تقليد مذهب معين رغم قيامها على مذهب مالك (2) .

ويبدو أن اعتدال صاحبها هو الذي جعل كثيراً من العلماء المخالفين لمذهب مالك يتخرجون على يده ، كالشيخ الجمال الحنفي المكي ، مفتي الحنفية بمكة ، وعبد الله بن حميد الشركي مفتي الحنابلة بمكة ، ومصطفى إلياس المدني ، مفتي الحنفية بالمدينة ، وغيرهم كثير (3) . ولقد وضعت السنوسية استراتيجية لتحقيق هدفها بناء على دراسة متأنية لأوضاع العالم الإسلامي والعربي والغربي، فتشعبت بأفكار الشرق ، فاستفادت من الإصلاح الوهابي دون أن تقلده ، ومن إصلاحات محمد علي بمصر ، والسلاطين العثمانيين ، وتعقيدات المسألة الشرقية (4) ، والطرق الصوفية المغربية والمشرقية (5) في جانبها الإيجابي (6) وكذا من الفكر الغربي " واستفادت من كل ذلك في طرح بديل في التصوف الإسلامي عموماً ، واستعمال التصوف سلاحاً سياسياً وعسكرياً ضد خصوم الإسلام من الغربيين الذين تدخلوا بطريقة سافرة وهجومية في شؤون العالم الإسلامي " (7) .

ويمكن أن نلخص استراتيجية السنوسية في ثلاثة أسس جوهرية ، هي : التعليم ، الجهاد ، العمل الصناعي والزراعي ، أو التعمير .

1- التعليم : ذكرنا أن السنوسي المؤسس درس كل علوم عصره ، بما في ذلك الموسيقى ، وقد أدرك أن تغيير المجتمع وإخراجه من سباته العميق لا يتم إلا بالتعليم ، ولهذا الغرض ؛ فإن أول

(1) - عبد الله عبد الرزق إبراهيم ، المرجع السابق ص 93 .

(2) - عباس محمود العقاد ، الإسلام في القرن العشرين ، ص 129 ، 130 .

(3) - الكتاني ، فهرس الفهارس ، ج 2 ص 376 .

(4) - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 373 .

(5) - الكتاني ، فهرس الفهارس ، ج 2 ص 375 .

(6) - محمد محمد مخلوف ، شجرة النور ، ج 1 ، ص 400 .

(7) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 400 .

ما بدأت به السنوسية في تغييرها للمجتمع ومواجهة تزحف الغربي هو بناء الزوايا ، والتعليم بها ، والانتشار عبر ذلك ، وأول زاوية أسسها محمد بن علي السنوسي كانت بجبل أبي قبيس بمكة المكرمة (1) ، ثم عاد إلى الجزائر فممنعته فرنسا من دخولها (2) فاستقر آخر الأمر بجغوب بين برقة ومصر ، فانتشرت من هناك رسالته كانبوق في جميع أنحاء ليبيا وخارجها ، وما إن أتت سنة 1859م حتى كان السنوسيون يسيطرون على دولة (3) واسعة ، تمتد من شواطئ البحر المتوسط إلى إفريقيا الاستوائية ، وإلى بلاد الطوارق في صحراء الجزائر . وقد بلغت الزوايا السنوسية في هذه الأصقاع حدا من الكثرة ، وقد ذكر بيرتشارد pritchard 146 مدينة وقرية بها زوايا السنوسية التي كان شيوخها مرجعا لأتباعهم في أمورهم الدينية والدنيوية (4) .

وما يجب الإشارة إليه أن أبناء السنوسي وأحفاده واصلوا نهجه بإخلاص ، مما جعل عدد الزوايا يتضاعف أربع مرات في عهد ابنه الأكبر المهدي (ت 1902م) الذي ربطها بشبكة ممتازة من الطرق الجيدة ، وعمل على توحيد الطرق الصوفية كخطوة أولى نحو توحيد المسلمين (5) ، وقد انتشرت هذه الزوايا بكثرة عبر مساحات شاسعة ، وذكر لوثرروب ستودارت أن عدد الزوايا المقيدة عنده 130 زاوية ، ثم قال : " ولا تزال زوايا كثيرة في المغرب والسودان والحبشة والصومال مجهولة " (6) . وأورد 120 زاوية بأماكنها وأسماء شيوخها (7) . وبين شكيب أرسلان (8) أن مجموع الزوايا السنوسية بلغت في وقته 300 زاوية (9) ، اثنتان بالجزائر ، إحداهما بتوات بأدرار ، والأخرى بمستغانم . و 17 في الحجاز ، و 31 في مصر ، والأخرى موزعة بين ليبيا وبلاد السودان القديم (10) .

(1) - محمد أسد ، الطريق إلى الإسلام ، ص 333 .

(2) - يحي بوعزيز ، ثورة الجزائر في القرنين 19 ، 20 ، ص 123 .

(3) - وقد علق محمد أسد على هذا بأن " لفظة - النولة - لا تصف بالضبط هذا الإبداع الفذ ، ذلك أن إمام السنوسية لم يهدف مطلقا إلى إقامة حكم شخصي لنفسه أو لأولاده وأحفاده من بعده ، بل إن ما أرادته كان أن يعدّ أساسا نظاميا لبعث الإسلام بعنأ أدبيا اجتماعيا سياسيا . ( محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 333 ) .

(4) - عباس محمود العقاد ، الإسلام في القرن العشرين ، ص 131 .

(5) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، أضواء على الطرق الصوفية ، ص 97 .

(6) ، (7) - لوثرروب ستودارت ، حاضر العالم الإسلامي ، م 2 ، ص 402 - 407 .

(8) - سواتي التعريف به .

(9) - شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، م 2 ، هامش ص 400 .

(10) - لوثرروب ستودارت ، المرجع السابق ، ص 402 ، 407 ، أيضا : أرسلان ، المصدر السابق ، ص 141 . أيضا : عبد الله عبد الرزاق ، المرجع السابق ، ص 100 ، 101 ، ولكن نوفريبي " Duveyrier " يرى أنها بلغت 121 زاوية ، 17 في مصر ، وواحدة في استنبول ، و 2 في الحجاز ، و 66 في طرابلس وبرقة ، و 10 في تونس ، و 5 في المغرب ، و 12 في السودان الأفريقي . -

طريقة بناء الزوايا السنوسية : كانت الزاوية تشتمل على عدد من المباني ، أهمها المدرسة والمسجد ، ومضافة واسعة لإيواء التجار والمسافرين ، كما تبنى بها مساكن الأساتذة وطواحين الغلال، ويضرب سور حول الزاوية ذو أبراج عالية لحماتها من الغزو الخارجي (1) . وكانت الزاوية البيضاء أول زاوية للسنوسية في إفريقيا . وفي سنة 1855م أسس السنوسي مركز طريقته في جغبوب ، " وصارت أعظم مدرسة لمبشري الإسلام في إفريقيا ، وبذلك نشروا طريقته في وادي والباقيري وبورنو، وتبعوا نهر بينوي إلى أن بلغوا النيجر الأدنى، فهدوا تلك القبائل إلى الإسلام ، وبواسطة السنوسية صارت نواحي بحيرة تشاد ، هي مركز الإسلام العام في أواسط إفريقيا" (2) . وقد امتاز السنوسي - بخلاف أغلب شيوخ الطرق الصوفية- بكونه خبيراً بأحوال السياسة العالمية ، وبوضع استراتيجية خطيرة لنشر دعوته ، وهو ما جعله يرحل من الزاوية البيضاء إلى واحة جغبوب ، بعد شعوره

بقرب احتلال الأجانب لها، فاختار التوغل نحو الجنوب ، والإقامة بالصحراء لنشر طريقته بعيداً عن أعين الاستعمار، كما رحل ابنه محمد المهدي ( ت 24 صفر 1320هـ / 2 جوان 1902م ) من جغبوب إلى الكفرة لينشر طريقته بعيداً عن

الإيطاليين الذين توقع هجومهم عليها (3) . كما كان يهدف كذلك إلى القرب من السودان ويعث دعوته في أقطاره ونشر الإسلام في أواسط إفريقيا وغربها ، وكذلك البعد عن أعين السلطات الرسمية التي أخذت تراقبه ، وقد بنى في الكفرة زاوية عظيمة سماها التاج ، وجعلها مقره (4) ، وبنى غيرها من الزوايا ، ويلاحظ أنه ما من زاوية تبنى إلا وتسبب عمران تلك المنطقة ، فيزداد عرسها ، وتزدهي فلاحتها، وتربي عقول أهلها، وقد توغل السنوسي من الكفرة إلى ناحية قرو، وهي على أبواب السودان ليبعد عن مركز السلطة الرسمية ، والخروج من مناطق تأثير الدول الاستعمارية ، ويستقر في أماكن ما زال أهلها على الفطرة ، لم تعدهم الحضارة الغربية ، ويبدو في هذا تأثره باختيار الله العرب ليعث فيهم خاتم النبيين لأنهم كانوا لا يزالون على الفطرة . وهكذا ، انقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلاباً حير العقول ، ومن هناك تغلغلت

- Duveyrier , H . La confrerie Musulmane de sidi Moh Ben Ali Essenoussi . Paris 1886 , P57 .

ولا تتناقض بين هذا ، وما ذكر قبل ، لأن عدد الزوايا تضاعف كثيراً بعد وفاة مؤسس الطريقة .

(1) - عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 86 .

(2) - لوثرروب ستودارت ، المصدر السابق ، ص 400 .

(3) - شكيب أرسلان ، السنوسية ، حاضرم العالم الإسلامي ، م 2 ، ص 142 .

(4) - ويبدو أنه كان يقصد من هذه التسمية التيمن بعودة مجد الإسلام التليد .

السنوسية في أذغال إفريقيا وأطرافها (1) ، وقد تمكنت من وضع قاعدة خلفية للإسلام هناك لمقاومة الزحف الغربي الذي بدأت جمعياته التبشيرية في غزو إفريقيا منذ القرن 18 ، وتضاعف عدد مبشريها من بروستانت ، وكاثوليك وغيرهم وبدأت تتصارع على إفريقيا لتتصيرها ، وعضد قوتها أهواء حكام أوروبا السياسية ، فكان لابد أن ينتبه الإسلام لمقاومة النصرانية ، ويشند الصراع بينه وبينها ، وكان الذي تحمل عبء هذه الرسالة رجال الطرق الصوفية ، ومن أهمهم السنوسية التي أرعبت أوروبا ، وشغلت أفكار الدول الاستعمارية. ولا سيما فرنسا وإيطاليا (2) وبريطانيا واليونان (3) ، ولقد عبر عن هذه الحقيقة لوثرروب ستودارت بقوله: «السنوسية همراة لغيرهم من الأوربيين... وقاعدتهم الجهادية الكفارية وجمع كلمة المسلمين على العدو العام» (4). وهكذا أدرك الأوربيون خطورتها على توسعهم في إفريقيا فضغطت الدول الكبرى على السلطان العثماني من أجل استدعاء أحمد السنوسي (ت 1933م) إلى الأستانة وإجباره على الإقامة بها ليخلو الجو للأوربيين في تقسيم إفريقيا وكسر شوكة الإسلام فيها (5) . وهو ما وقع فعلا ، ذلك أن الأتراك أنفسهم كانوا يخشون - آنذاك - أن يحاول العرب المستيقظون يوما ما أن يستعيدوا مرة ثانية الزعامة على العالم الإسلامي ، وانتصار السنوسي كان من شأنه أن يبشر بالضرورة بمثل هذا الانبعاث العربي ، وأن يجعل من إمام السنوسية - آنذاك أحمد السنوسي - الذي كانت شهرته قد أصبحت عظيمة حتى في تركيا أنفسهم؛ وريث الخلافة ، ولم يخفف من شكوك الباب العالي أنه هو نفسه لم تكن له مثل تلك المطامح (6) . ولكن السنوسية لم تنتها الصعاب ، وواجهت الموقف الذي يحتوي على ثلاث قضايا جوهرية ، التبشير، والتخلف والغزو العسكري .

أما التبشير فقد واجهته بطريقتين :

1- بث الدعاة في أواسط إفريقيا : وذلك ليتجولوا وسط السكان وينشرون الإسلام، ومن هؤلاء الدعاة الشيخ محمد بن عبد الله السني، والشيخ حمودة المقعاوي ، والشيخ طاهر الدغماوي ، وغيرهم ، يضاف إلى هذا نشر الزوايا وتعمير الأرض وغير ذلك ، فكان المهدي السنوسي هو المزاحم الأكبر لجمعيات التبشير المنتشرة في إفريقيا كلها ، وبسبب دعوته اعتنق الإسلام ملايين الزوج (7) .

(1) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 162 .

(2) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 143 .

(3) - محمد أسد ، الطريق إلى الإسلام ، ص 339 .

(4) - لوثرروب ستودارت ، المرجع السابق ، ص 398 .

(5) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 162 .

(6) - محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 339 .

(7) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 162 ، 163 .



2- شراء الأرقاء وتحويلهم إلى دعاة : كان السنوسيون يشترون الأرقاء الصغار من السودان ، كما كانوا يتعرضون نقوافل بيع الرقيق ببرقة وغيرها لشراء الأطفال الصغار ، فيربونهم ويعلمونهم في زواياهم المختلفة ، ومنى بلغوا أشدهم ، وأكملوا تحصيل العلوم الدينية والعصرية أعتقوهم وأرسلوهم إلى أطراف السودان لهدية أبناء جلدتهم وذويهم ، فكان يرحل في كل سنة مئات من مبشري السنوسية للدعوة إلى الإسلام في جميع إفريقيا الداخلية، من سواحل الصومال شرقا إلى سواحل السنغامية غربا ، وبالإجمال ، فإن مريدي السنوسية وغيرهم هم الذين نشروا الإسلام ووقفوا إليه في إفريقيا ، أحيانا بهينة تجار ، وأحيانا أخرى بهينة دعاة . يهدون الناس إلى الإسلام ، ويبنون الزوايا الجديدة في أقطار إفريقيا الواسعة من شمالها إلى أقاصي السودان ، وأحيانا يؤسسون الممالك مثل سلطنة رايح ، وأحمد ، وساموري (1) . فلهذا نجد جمعيات المبشرين كلها تبث حزنها من نجاح الإسلام في أواسط إفريقيا ، كالنيجر والكونغو والكاميرون ، وديار بحيرة تشاد ، وتوجه أكبر شكواها من الطريقة السنوسية (2) ، ومن أهم المشتكين الكاردينال لافيجري الذي صرخ صرخته المشهورة وهو على فراش الموت معترفا بأن السنوسية هي التي حطمت مشروعه التصيري الخطير الذي استغل فيه مسغبة 1867م التي هلك فيها حوالي 300 ألف نسمة لينصر الأطفال (3) الجزائريين كما سنعرف ، وذلك لأنها استخدمت طريقته ، ولكن بكيفية معاكسة.

وأما التخلف : فقد واجهته السنوسية بنشر العلم والعمل . أما العلم ، فإن الزوايا السنوسية كانت - عكس أغلب الطرق - تجمع في تدريسها بين العلوم الشرعية والعصرية (4) ، وهو ما كان يعطي للمتخرج منها تعمقا في الدين ، وفهما للعصر ، مما يمكنه من مجابهة رجال التبشير المسيحي .

وأما العمل : فإن السنوسية لا تقنع بالعبادة دونه . وكان يوم الخميس يخصص دائما للشغل بالأيدي ، فيتفرغ الطلبة فيه لأنواع المهن ، كالبناء والنجارة والحدادة ، والنسيج ، والصحافة ، وغير ذلك ، وكان السيد المهدي نفسه يعمل بيده معهم لبيث فيهم روح النشاط ، والسنوسية تهتم كثيرا بالزراعة والغرس ، ولا أدل على هذا من الزوايا التي شيدها ، والجنان التي نسقوها

- 
- (1) - لوثرروب ستودارت ، المصدر السابق ، ص 403 . أيضا : سعيدوني ، ابو عبدلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 129 . أرسلان ، المصدر السابق ، ص 400 ، 401 .  
(2) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 162 ، 163 .  
(3) - سعيدوني ، ابو عبدلي ، المرجع السابق ، ص 129 .  
(4) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 400 ، 401 .

بحوارها ، فلا يجد المرء زاوية إلا ولها بستان أو بساتين ، وقد جلبوا إلى بلادهم أصناف الأشجار الغربية من أقاصي البلاد ، وأدخلوا في الكفرة و جغبوب وغيرهما زراعات وأغراسا لم يكن لأحد عهد بها ، وكان السيد المهدي يحث الطلبة والمريدين على تعلم الصناعات والحرف (1) ، وقد تفوقت على جميع الحركات الأخرى في تطبيق المبادئ الإسلامية على مواد واهتمامات الحياة اليومية ، ونستطيع أن نذكر بفخر أن الحركة السنوسية كانت مهتمة بتزويد وتصنيع الأسلحة ، واستصلاح وتخصيب الأراضي الزراعية ، بقدر اهتمامها بالشؤون الدينية والتعليمية ، ولقد حاولت الحركة السنوسية تحسين الزراعة ونوعية الماشية قبل العالم الغربي بوقت طويل (2) .

”والخلاصة : أن هذه الفرقة عملية لا تعتمد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل والسير، فهي تجمع بين العمل الشرعي بحذافيره ، والتجرد الصوفي إلى أقصى درجاته ، وتنظم بين الظاهر والباطن نظما لم يوفق إليه غيرها ، وكان مؤسسو هذه الطريقة من محمد السنوسي وولديه المهدي والشريف وأعاونهم على أخلاق عظيمة“ (3) .

وأما الجهاد والقوى المادية : كان السيد المهدي يهدي هدي الصحابة والتابعين ، لا يقنع بالعبادة دون العمل ، ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى السلطان، فكان يبيث في المريدين روح الألفة والنشاط ، ويحملهم على الطراد والرماية والجلاد ، ويعظم فيهم فضيلة الجهاد ، وقد أخبر السيد أحمد الشريف ( ت 1351هـ/1933م ) أن عمه السيد المهدي كان يملك 50 بندقية ، ينظفها بنفسه ليقتدي به الناس ، ويحتفلوا بأمر الجهاد ، وعدته وعتاده ، وقد خصص السنوسيون يوم الجمعة للتدريب العسكري الذي كان يشرف عليه السنوسي بنفسه ، مما جعل أكثر الطلبة والمريدين فرسانا ورماة ، وكان يجيز المتفوقين في فنون القتال ترغيبا لهم في فضائل الجهاد (4) . وقد أثبتت السنوسية في مواقع كثيرة كالحرب الطرابلسية وغيرها ، أن لهم قوة مادية تصارع أعظم الدول جبروتا ، وقد حاربت أربع دول كبرى في عدة جبهات :

- الفرنسيون : في مملكة كانم ، ومملكة واداي من السودان ، استمرت من سنة 1319هـ إلى 1332هـ (5) . ومن المعارك الشهيرة ضد الفرنسيين معركة عين كلك التي قصدها الفرنسيون

(1) - المصدر نفسه ، ص 163 ، 164 .

(2) - إسماعيل الفاروقي ، النهضة الإسلامية في المجتمع المعاصر ، مجلة المسلم المعاصر ، أكتوبر - ديسمبر ، 1981 ، ع 28 ، ص 62 .

(3) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 164

(4) - المصدر نفسه ، ص 163 .

(5) - المصدر نفسه ، ص 163 .

من واداني (1) ، وقد شارك السيد أحمد السنوسي في محاربة الفرنسيين فيما سمي بإفريقيا الاستوائية الفرنسية (2) .

وكان للسنوسيين دور بارز في محاربة الفرنسيين في الجزائر، وخاصة في الجنوب الذي تمكنت السنوسية من أن تجعله كله ثورة عارمة لعقود ، ومن رجالها في تلك الشريفة محمد بن عبد الله (3) ، وابن ناصر بن شهرة (4) اللذين نظما وشاركوا في ثورات الجنوب استجابة لأمر السنوسي الذي كان هو المفكر لثورات الجنوب ، والشريف هو المنفذ ، وذلك بعد تعلمته عليه في مكة ، واتصاله به في ليبيا ، وأصبحت ليبيا بيت السنوسية ، نقطة ارتكاز للثورات الجزائرية خلال النصف الثاني من القرن 19. وقد استطاع الشريف أن يجعل الصحراء الجزائرية كلها تعج تحت قيادته ضد الفرنسيين ابتداء من ثورة الزعاطشة سنة 1849م إلى اعتقاله سنة 1876م . وقد عضد قوته ناصر بن شهرة الذي يعد من الشهداء على أحداث القرن 19 في الجزائر، فقد بدأ جهاده في صفوف الأمير ولم يغمد سيفه إلى أن شارك في ثورة بوعامة.

(1) - المصدر نفسه ، ص 143 . أيضا : لوثرود ستودارت ، المصدر السابق ، ص 403 .

(2) - محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 335 .

(3) - اسمه الحقيقي : إبراهيم بن أبي فارس ، عينه الفرنسيون خليفة على تلمسان عام 1842 م ثم نفوه إلى الحج عام 1845 م فاتصل هناك بالسنوسي وتلمذ عليه ، وحضر المجلس الذي طرحت فيه فتوى ليون روش بوقف الجهاد ، وأخبره السنوسي بها ، رجع إلى الجزائر بمباركة السنوسي والحاكم العثماني بطرابلس ( عزت باشا ) واستقر بورقلة (1) التي بايعه سكانها سلطانا عليهم في أوت 1851 م . خاض كثيرا من المعارك ضد الفرنسيين وأعدائهم واسترجع منها هامة كتوقرت والأغواط ، وغنم غنائم كثيرة (2) ، ولاسيما بعد اتصاله بابين شهرة في فيفري 1853 م ، اعتقل عام 1861 م ، ثم ظهر ليشارك في ثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864 م ، والمقراني عام 1871 م ، سجنه باي تونس عام 1876 م (3) ، وتوفي عام 1895 م (4)

(1) - سعد الله ، المرجع السابق ، ص 372 - ، 374 .

(2) - Henri Gorrot : Histoire de L'Algerie . Alger . 1910 , P890 , 891 .

(3) - Louis Rinaud , Histoire de L'insurrection en Algerie de 1871 . Alger , 1891

p p 616 , 626 .

(4) - يحي بوعزيز ، ثورة الجزائر ، ص 124 - 132 .

(4) - ولد عام 1804 قرب ورقلة ، وأصبح قادريا (1) ، اعتقل بعد تمرد عام 1851 م ، ووضع تحت الإقامة الجبرية بمعسكر (2) ، فر يوم 5 سبتمبر 1851 م ، فلحقه عدد من الجنود ، فجردهم من الأسلحة والملابس واتصل بالشريف محمد لينسق معه الجهاد ، شارك في ثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864 م ، وشارك في كل المعارك وتسلم راية المقرانيين بعد اعتقال بومزراق في 1872 م وأصبح يناوش الفرنسيين من تونس ففناه بابها يوم 2 جوان 1875 م ، التحق بالأمير عبد القادر وتوفي بدمشق عام 1884 م (3) .

(1) - أحمد بن أبي زيد قصيبة ، ابن ناصر بن شهرة ، أحد أبطال ثورة 1871 م ، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر ، جانفي ، 1972 م ع 6 ، ص 56 ، 57 .

(2) - Louis Rinaud , Histoire de L'insurrection P663 , 664 .

(3) - يحي بوعزيز ، ثورة الجزائر ، ص 177 - 181 .

- وإضافة لهذا ، فإن رسائل السنوسي إلى السكان حاثا إياهم على الجهاد ، وتعاون السنوسية مع الرحمانية ورفض السنوسي لفتوى ليون روش<sup>(1)</sup> بوقف الجهاد ومناقضته له بفتواه بوجوب استمرار الجهاد وعدم التعايش مع النصاري كان له أثره الفعال في جهاد المستعمرين الفرنسيين<sup>(2)</sup>.

- أما حربها للإيطاليين ، فهو أشهر من نار على علم . وقد أبلت فيها بلاء حسنا أدهش الشرق والغرب ، وأثبت أن السنوسية تملك من الوسائل الحربية ما لا تملكه كثير من الدول<sup>(3)</sup> ، وقد استمرت في تلك الجهاد بقيادة أحمد الشريف (ت 1933) إلى الحرب العالمية الأولى بعد مفاوضات الإنجليز والإيطاليين مع ابن عمه إدريس بن المهدي ، فقبل نتائج تلك المفاوضات على مريض حافظا على طريقته من الانقسام<sup>(4)</sup> بعد قتال 30 عاما<sup>(5)</sup> . وهكذا كتب لأحمد الشريف أن يقضي الفترة الأولى ابتداء من تسلمه قيادة الطريقة في سنة 1902 في صراع مع الفرنسيين ، والفترة الثانية في صراع مع الإيطاليين<sup>(6)</sup>.

- وأما الإنجليز ، فقد حاربهم السنوسيون استجابة لنداء الخليفة العثماني الذي دخل الحرب العالمية الأولى مساندا لألمانيا ، فلبى أحمد الشريف نداءه باعتباره خليفة للمسلمين ، رغم افتقاره بأن محاربة الإنجليز يعني القضاء على السنوسية نهائيا ، وقد حقق السنوسيون انتصارات على الإنجليز، ولكن قواتهم تشتت ، وأصبح أحمد الشريف يحارب على ثلاث جبهات : في الشمال ضد الإيطاليين ، وفي الجنوب الغربي ضد الفرنسيين ، وفي الشرق ضد الإنجليز<sup>(7)</sup> ، فدارت الدائرة عليه ، وذلك لأن الإنجليز فصلوا بينه وبين مصر التي كانت قاعدته الخفية فحوصر داخل حدود ليبيا مما مكن الإيطاليين من الانتصار<sup>(8)</sup>.

- وأما حربها لليونان ، فكان عندما استقدم السنوسي إلى تركيا استجابة لضغط الدول الكبرى كما قلنا ، وقد وضع أحمد الشريف نفوذه الروحي والأدبي، سبعا احتلال الكلفاء لتركيا سنة 1918م - إلى جانب الكماليين ، وأخذ يتنقل بين مدن الأناضول وقراه في حث للناس على الجهاد ، أولئك الذين كانت الكلمات القومية لا تعني شيئا بالنسبة إليهم ، لأنهم ظلوا عبر أجيال

(1) - سيأتي التعريف به .

(2) - سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 372 - 378 ، 404 .

(3) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 143 .

(4) - المصدر نفسه ، ص 144 ، أيضا : عبد الله عبد الرزاق ، أضواء على الطرق الصوفية ، ص 98 .

(5) - محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 332 ، 336 ، 337 .

(6) - عبد الرحمان عبر الماخي ، الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل ، ط 1 ، ديوان

المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1992 ، ص 231 - 233 .

(7)،(8) - محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 332 ، 336 ، 337 ، 339 ، 340 .

لا تحصى يعتبرون الشهادة في سبيل الله شرفاً لهم (1) ، ولكن ما إن انتصر الكماليون حتى انكروا جميله واستنقلوا بقاءه (2) ، ورغم كثرة أتباعه هبّاك ، إلا أنه اضطر لمغادرة تركيا إلى سوريا ، ليعمل على إعادة الوحدة بينها وبين الأتراك (3) رغم الصعوبات التي كانت تعترض ذلك ، ولكن الفرنسيين ، طاردوه ، فتمكن من الخروج . وذهب إلى العراق لإصلاح ذات البين بين الأكراد المقاتلين ، وتنقل في ديار بكر ، وهو يعمل جاهداً لإعادة الوحدة بين المسلمين (4) . وهكذا كانت السنوسية شعلة أوشكت أن تعيد الخلافة الإسلامية من جديد ، لولا ظروف اعتراضها ، وقد شهد للسنوسية بالعظمة كبار المفكرين المسلمين ، ولنقتصر على ثلاثة منهم ، هم : شكيب أرسلان (5) ومحمد أسد (6) ، اللذين تعرفا على شيوخ السنوسية وشاركوا في جهادها ، ثم عبد الحميد بن باديس . فما قاله شكيب أرسلان عن السنوسي وهدفه : " ... أما النظام الحديث للطرق الشيخية فقد أنشئ حوالي منتصف القرن 19 ، وأهم الطرق الحديثة هي الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التي أنشأها محمد السنوسي المولود ... في بيت عريق في المجد الإسلامي والشرف العربي ، وحسبه مجداً أنه منحدر من السلالة النبوية الطاهرة ... كان شديد الهيبة ، بعيد التهمة ، عظيم الاقتدار على التنظيم والإصلاح ... ابن السنوسي جاد جاد غير منقطع الوسائل والذرائع الكفيلة بالإصلاح الديني والتهذيب النفساني والحلقي ، فخطته التي ينوي إعداد ما يستطيعه من بها ... هي افتتاح جميع البلاد الإفريقية ، ثم سائر الأقطار الإسلامية ، ثم جعل القيام في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه مملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد ... على أن السنوسي لموقف حق الإيقان أن تحرير المسلمين ... ( من الاستعمار ) يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحي والدعوة الأخلاقية في المسلمين » (7) .

(1) (2) - المصدر نفسه ، ص 339 ، 340 . أيضاً : عبد الحميد بن باديس ، مجلة السنة ، السنة 1 ، ع 6 ، الإثنين ، 20 محرم ، 1352 هـ / 1 ماي 1933 م ، ص 1 ، 2 ، نقل عن : عمار طائبي ، ابن باديس حياته وأثاره ، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 ، ج 3 ، ص 49 .

(3) - أرسلان ، المصدر السابق ، ص 157 .

(4) - محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 339 ، 340 .

(5) - هو أمير البيان ، ولد بالشويفات ببلدان عام 1869 م ، في أسرة عريقة ، أتقن العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية ، بدأت رحلاته عام 1889 ليطلع على أوضاع المسلمين ، ويتعرف على كبار رجال الفكر والإصلاح ، ويصبح من أكبر دعاة النهضة والتحرر ، تعرف على زعماء السنوسية وجاهد معهم في ليبيا ، له مؤلفات منها : " لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم " . توفي ببلدان عام 1946 م . ( شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، ط ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، 1989 ، ص 8 - 11 ) .

(6) - مفكر إسلامي معاصر ، أصله من النمسا ، اعتنق الإسلام عام 1926 م بعد دراسة وترحال ، كان يسمى ليوبولد فايس ، اشتغل بالصحافة ولمع فيها ، تجول في العالم الإسلامي ، تعرف على زعماء السنوسية وشارك في الجهاد معهم ، أصبح وزيراً مفوضاً لباكستان في الأمم المتحدة إلى غاية 1952 م . له مؤلفات منها : " الإسلام على مفترق الطرق " و " الطريق إلى الإسلام " ، وترجمة معاني القرآن ، وصحیح البخاري إلى الإنجليزية . ( محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ت عمر فروخ ، ط 8 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1974 ، ص 12 - 14 ) .

(7) - شكيب أرسلان ، الجامعة الإسلامية ، حاضر العالم الإسلامي ، م 1 ، ص 295 ، 299 .

وأما محمد أسد ، فمما قاله عن السنوسية : "وتم يكن اهتمامي البالغ بمصير السنوسيين ناشئا عن إعجابي ببطولتهم المتناهية في قضية عادلة فحسب ، بل إن ما كان يهمني أكثر من ذلك ، هو ما كان يمكن أن يحدثه انتشار السنوسيين من تأثير على العالم العربي بأكمله ، إذ إنني لم أستطع أن أرى في العائيم الإسلامي كله إلا حركة واحدة كانت تسعى صادقاً إلى تحقيق المجتمع الإسلامي المثالي : الحركة السنوسية ... " (1) .

- وأما ابن باديس ، فقد كتب مقالاً في جريدة السنة عن أحمد الشريف السنوسي ، عنوانه : "الصوفي السني بين الحكومة السنية والحكومة الطرقية" ، ومما قاله عنه : "فقد كان على جانب عظيم من التمسك بالكتاب والسنة ، والتخلق بأخلاق أسلاف الصالح ، وكانت دعوته إلى الله وإرشاده للعباد بهدائيهما ، وكانت تربيته لأتباعه مبنية على التفقه في الدين والتزام العمل به ، والزهد والصبر وحفظ الكرامة" (2) . وقد اعتبره ابن باديس إماماً عظيماً (3) . وقد حققت السنوسية نتائج مهمة ، منها :

- رجال الطرق الصوفية - وعلى رأسهم السنوسية - تم على أيديهم إسلام القسم الأعظم من مسلمي أواسط إفريقيا ، وهم الذين أوقدوا الحمية الدينية بعد أن كادت تفتت وأدخلوا معظم السودان في الإسلام بالإرشاد والتعليم والتجارة (4) ، وقد أشرنا إلى انتشار السنوسية السريع في وسط إفريقيا وأطرافها وكيف دخل الوثنيون والإحيائيون في دين الله أفواجا ، فأحدث ذلك نقلة نوعية ، فحلت الأخوة بين الأفارقة بعد الصراع والحروب ، واستقر السكان بعد حياة الترحال ، وعمرت الأرض زراعة وصناعة بعد فقرها ، وحلت العقيدة الصحيحة محل المعتقدات الفاسدة ، وأعيد للعقل اعتباره بفتح باب الاجتهاد ، وتطورت الزراعة والصناعة وال عمران ، وانتشر العلم ، كل هذا بفضل السنوسية التي نجحت في إصلاح المجتمع البدوي وأقامت سلطة دينية ودينية تولت الإشراف على الفرد والمجتمع ، وسيطرت على قوافل التجارة وأمنت الطرق (5) . وبذلك استطاعت أن تكون قاعدة خلفية لمقاومة التبشير والاستعمار وأن تكسب

(1) - محمد أسد ، الطريق إلى الإسلام ، ص 347 .

(2)،(3) - عبد الحميد بن باديس ، السنة ، ص 1. 20 محرم 1352 هـ ، 1 ماي 1933 م ، ج 6 ، ص 1 ،

2 . نقلاً عن عمار طالبي ، ابن باديس حياته وأثاره ، ج 3 ، ص 48 .

(4) - شكيب أرسلان ، الإسلام في إفريقيا ، حاضر العالم الإسلامي ، م 2 ، ص 368 .

(5) - علي عبد الرازق إبراهيم ، أضواء على الطرق الصوفية ، ص 104 ، 105 .

حصانة ذاتية في الإنسان الإفريقي . " والحقيقة أنه منذ عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يسبق أن ظهرت في أي مكان في اشعالم الإسلامي حركة واسعة النطاق ، قريبة من طريق الحياة الإسلامية كحركة السنوسي<sup>(1)</sup> ، ولقد أصبحت السنوسية اسماً مشهوراً في طول العالم الإسلامي وعرضه ، لوماً من اسم آخر أفضل مضاعج الاستعماريين ذلك العدد الكبير من الليالي في شمال إفريقيا ، حتى اسم عبد القادر الجزائري في القرن 19 ... الذي كان شوكة قوية جداً في جانب الفرنسيين ... لم يكن له إلا معنى سياسي ، في حين أن السيد أحمد - السنوسي وطريقته - كانت خلال سبعين عاماً إلى ذلك قوة روحية عظيمة<sup>(2)</sup> . ولولا خطأ استراتيجي ارتكبه السنوسيون ، وهو محاربة الإنجليز الذين كان من مصلحتهم إيقاف الزحف الإيطالي المنافس لهم لكان العالم الإسلامي اليوم في حالة غير التي هو عليها . وقد عبر عن هذا الخطأ السيد أحمد السنوسي قائلاً : " . . . يخيل إلي أحياناً أنني أخطأت عندما بليت ببناء استنبول ذلك منذ سبع عشرة سنة . . . ألم يكن ذلك بداية النهاية . . . بالنسبة إلى السنوسيين جميعاً " <sup>(3)</sup> . " ولكن كيف كان يتسنى لي أن أفعل خلاف ذلك عندما سألتني خليفة المسلمين المعونة " <sup>(4)</sup> . وقد أضيف إلى هذا خيانة الأتراك وتخليبهم عن السنوسي ، وموقف ملك مصر الذي لم يسمح حتى بدخول السنوسي إلى بلاده للمعالجة بعد أن أعياه المرض <sup>(5)</sup> .

(1) - محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 335 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 332 ، ومن أراد التوسع في معرفة ما حققته السنوسية من نجاح فليرجع إلى

استانلاد / عبد الرحمان عمر الماحي ، المرجع السابق ، ص 233 .

(3)،(4) - محمد أسد ، المصدر السابق ، ص 336 ، 337 ، 370 .

(5) - عبد الحميد بن باديس ، المرجع السابق ، ص 1 ، 2 .

## 2 - الطريقة الموالية للاستعمار:

نقتصر على الطريقة التجانية ، لأنها أهمها .

**الطريقة التجانية:** (1) أسسها أحمد بن محمد بن المختار التجاني المولود بعين ماضي سنة

1150هـ/1737م . ودرس التجاني بعين ماضي (2) وفاس وزواوة وتونس ومصر . تأثر

ببعض الطرق الصوفية ، كالتجانية وغيرها ثم استقر بأبي سمغون (3) التي يزعم أن الفتح

الأكبر جاءه بها ، حيث رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقظة فلقد نهى الطريقة التجانية

برمتها (4) ، وأذن له في تلقين الخلق بعد فراره منهم مما جعله في غنى عن غيره من العلماء ،

لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو سنده الحقيقي في التصوف (5) .

بعد هذا الفتح الذي يزعمه يبعث التجاني برسالة إلى العلامة محمد بن عبد الله الجليلي (6)

أمير رباط وهران وزميله في الدراسة يخبره فيها بهذا الفتح الذي فتح به عليه بما لم يفتح على

أحد قبله (7) وملخص هذه الرسالة : أنه من آخر عصر الصحابة إلى يوم يفتح في الصور ما

قاربه ولي من أولياء الله فيما أعطاه الله من اتساع العلم (8) وقد شرح طريقته الجديدة للعلامة

الجليلي ، فردّ عليه رداً أفحمه (9) ، ووجهه وخره ونصحه وبين له خطورة ما يدعيه على

(1) - سميت بالتجانية نسبة إلى "تجان" بالمغرب ، وهو المكان الذي أقام به مؤسسها . (العقاد ، الإسلام

في القرن العشرين ، ص 135 ، ولكن صاحب الفتح الرباني يرى أن تجان قبيلة معروفة بعين ماضي .

( محمد بن عبد الله التجاني ، الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرید التجاني ، نط ، دار الكتاب ، المغرب ،

نك ، ص 6 ) .

(2) - محمد محمد مخلوف ، شجرة النور ، ج 1 ، ص 378 . وعين ماضي تقع غرب مدينة الأغواط على

مسافة 28 كلم . ( اسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص 227 ) .

(3) - سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 518 .

(4) - محمد بن عبد الله التجاني ، الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرید التجاني ، ص 12 . أيضا : سعد الله

، المرجع السابق ، ص 219 .

(5) - محمد بن عبد الله التجاني ، المصدر السابق ، ص 7 .

(6) - كان من أكبر علماء عصره ، درس في الجزائر وغيرها على كبار العلماء فأجيز وأجاز غيره ،

عين رئيس مجلس لشورى ببلاط الباي محمد بن عثمان الفاتح ورئيس الرباط الذي حاصر وهران شهيدا

لاسترجاعها عام 1206 هـ - كان زميلا للتجاني في الدراسة مما يجعله يعرفه معرفة جيدة . وكان كاتبه هو

العلامة محمد بن حواء المسكري الذي حضر بيعة الأمير عبد القادر الثانية بمسجد المباشرة عام 1248

هـ ، وهو ما يدل على أن الأمير كان مجددا لعهد العثمانيين ، ومواصلا لجهادهم ، وإلا كيف نفسر التغاف

علماء البلاط السابقين حوله . ( سعيدوني ، البوعبلي الجزائري في العهد العثماني ، ص 152 ، 153 .

(7)،(8) - محمد بن عبد الله لتجاني ، المصدر السابق ص 15 . أيضا: المهدي البوعبلي ، مجلة الأصالة،

ع 53، ص 30 .

(9) - كتب ذلك الرد العلامة الكاتب بخلف بن حواء بإملاء العلامة محمد الجليلي ، ونشر هذه الوثيقة

لمهمة لأول مرة سعيدوني والبوعبلي في كتابهما السابق ، " الجزائر في التاريخ " ص 186 ، 187 . فمن

لراد للتوسع فليرجع إليه .



حرية الفكر واليقظة (1) . ومما رث به عليه :

" ما هو مرادك ... بهذا العلم الذي فقت به جميع أولياء هذه الأمة ، حتى ... ومحمد أباقر وجعفر الصادق .. إلى غير ذلك من أقطاب هذه الأمة ... كمالك والشافعي ... وغيرهم من المجتهدين ... هل هو علم المعارف والحقائق الباطنة الذي أنفرد أهل التجريد والتفريد والذوق الكشفي ، أو هو علم الأحكام الظاهرة التي يعرف بها الحلال والحرام ، وصحة الصلاة والزكاة ... أو المراد العلمان معا ؟! . فإن أردت الأول فأين أنت من ابن عربي ؟! ، وإن أردت الثاني فلماذا تقلد مالكا مع أنك أكثر منه علما ؟! ، وإن قلت بالثالث - الجمع بين علمي الظاهر والباطن - فهذه مرتبة للقطبانية والشيخوخة الكاملة . لكن القطبانية لها شروط وعلامات يقصر عن دركها أفهم ، ولا يحيط بها الوهم ، ... إن القطب هو الذي يحزن المشكلات والمعضلات ، ويشرح الكلمات التي حارت فيها عقول كثير من الخواص ، فضلا عن العوام ... " وختم جوابه متحديا للتجاني بقوله : " ... لتخبرني أين أنت من هؤلاء الأقطاب الكبار ، والأخبار الربانيين ... أفندي يرحمك الله بأنموذج من علمك الذي لم يقاربك فيه على تظاهرهم وكثرة عددهم ... " ثم تحداه بأن يشرح تصفية الشيخ عبد القادر الجيلالي ، ونصها : " اللهم صل وسلم على طلعة الذات المطلسم ، والغيث المظمطم ، الكمال المكلم ، لهوت الجمال و ناسوت الوصال وطلعة الحق هوية كنز إنسان عين الأزل في نشر طي من لم يزل من أقيمت به نواصيت الفرق ، في قالب نسوت الوصال الأقرب إلى طريق الحق ، فصل اللهم من به فيه عليه وسلم تسليما " (2) .

نستنتج من هذا تضلع محمد الجيلالي ومكانته في علم التصوف ، وجهل التجاني ، والدليل على هذا ، هذا التحدي الذي لم يرد عليه . والواقع أن ثقافة التجاني كانت محدودة ، لا تتعدى حفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث ، ومبادئ الطرق الصوفية ، وربما هذا ما جعله يذهب مذهبا معاكسا للطرق الصوفية بتحريمه للتعليم لذهاب شرطه ، وهو في نظره الامتثال ، وتطهير الباطن كالظاهر . وهذا ما جعل التجانية لم تؤسس أي مدرسة للتعليم (3) ، كما أن التجاني لم يتصدر التدريس ، وربما بسبب جهله ، إذ فاقد الشيء لا يعطيه (4) ، ونحن لو قبلنا الأخذ برأيه هذا لانقرض العلم .

ويمكننا تلخيص أفكار التجانية فيما يأتي :

- (1) - المهدي بوعبدلي ، الأصالة ، ع53 ، ص30 .
- (2) - سعيدوني ، البوعبدلي ، الجزائر في التاريخ ، ص186 ، 187 .
- (3) - ولكن التجانيين الآن تخلوا عن تلك الفكرة ، وأصبحوا يؤسسون المدارس للتعليم .
- (4) - سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1 ، ص519 .

- التقى التجاني بالنبي - صلى الله عليه وسلم - لقاء حسيا ماديا بأبي سمغون سنة 1200د/ وكلمه مشافهة بقطعة ، ولقنه الطريقة التجانية بكاملها، وكان هذا هو الفتح الأكبر، وبعد أربعة عشر سنة من تلك حلَّ التجاني محل القطبانية الغوثية (1) . وزعم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبره تصريحاً مشافهة بقطعة أنه هو القطب المكتوم ، والبرزخ المختوم ، والخاتم المحمدي المعلوم ، والمكتوم ، هو الذي كتبه الله عن جميع خلقه حتى الملائكة ، ما عدا سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - الذي أخبره الله بذلك (2) ، وأخبر أن له صفات ما اجتمعت في أحد قبله أو بعده إلا في سيد الوجود ، فهو سيد الأولياء كما أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سيد الأنبياء (3) ، ومقامه عند الله لا يصله أحد من الأولياء من عصر الصحابة إلى النفخ في الصور ، وهو أحسن من التابعين ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - خصه بعلوم بينه وبينه ، منه إليه بلا واسطة لا يعلمها إلا الله عز وجل . وزعم أنه لا يشرب ولي ولا يسقى إلا من بحره من نشأة العالم إلى النفخ في الصور ، وقال عن النبي - صلى الله عليه وسلم - :  
روحى وروحه هكذا مشيراً بأصبعيه السبابة والنوسطى ، روحه تمد الرسل والأنبياء ، وروحي تمد الأقطاب والعارفين والأولياء من الأزل إلى الأبد ، ومن هنا زعم " قدامي هاتان على رقبة كل ولي لله من لدن آدم إلى النفخ في الصور " (4) ، وأخبره النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه من الأمنين مع أصحابه ، وكل من أخذ وردده فهو محرر من النار (5) . ومن رآه دخل الجنة بغير حساب ولا عقاب ، وقد أعطي الشفاعة العظمى في أهل عصره من حين ولادته إلى حين وفاته ، وزيادة عشرين سنة بعد وفاته (6) . ومما منَّ الله به على التجاني ومريديه :

- صلاة الفاتح لما أغلق : ويزعم التجاني أن الملك أناه بها مكتوبة في صحيفة من نور (7) ، وهي من كلام الله القديم ، ولا يترتب عليها ثوابها إلا ممن اعتقد ذلك (8) ، والمرة الواحدة منها

(1) - الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج2 ، ص40 ، 41 .

(2) - محمد عبد الله التجاني ، الفتح الرباني ، ص19 .

(3) - أحمد للتجاني الشنقيطي ، الفتوحات الربانية في الطريقة الأحمدية التجانية ، نط ، دار الكتاب ، المغرب ، نت ، ص97 .

(4) - محمد عبد الله التجاني ، المصدر السابق ، ص15 .

(5) - محمد علوان الجوسقي ، النفحة القدسية في السيرة الأحمدية التجانية ، نط ، دار الكتاب ، المغرب ، نت ، ص114 .

(6) - الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج2 ، ص40 ، 41 . أيضا : مبارك الميلي ، رسالة الشرك ومظاهره ، ط3 ، دار البعث ، فسنطينة ، 1982 ، ص277 .

(7) - أحمد للتجاني الشنقيطي ، الفتوحات الربانية ، ص79 .

(8) - ابن باديس ، الشهاب ، ج3 ، م2 ، نقلا عن عمار طالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، ج3 ، ص142 ، 143 .

تعادل ستة آلاف حكمة من القرآن الكريم (٦) ، ومن كل تسبيح وقع في تكرون . بل هي أفضل من مجموع جميع الأثكار والأدعية والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - : لمدة مائة ألف عام يعند مائة ألف مرة في اليوم ، وخاصيتها أمر إلهي لا نخل للعقول فيه (٧) .

❖ **جوهرة الكمال** : وأما جوهرة الكمال ، فقد زعم التجاني أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذكر له خواصها منها :

المرارة الواحدة<sup>٨</sup> فيها تعادل تسبيح العالم ثلاث مرات ، ولا تجوز قراءتها بالتيمم :

بل لا بد لها من تطهارة المائبة ، لأن لها سرا لا يحصل إلا بها ، ومن كان فرضه التيمم قرأ بنها صلاة الفاتح 20 مرة ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الأربعة يحضرون قراءتها عند المرة السابعة وما بعدها مدة ذكرها ، ومن قرأها 12 مرة بشروطها

لتجاني حصل له مثل ما حصل لمن زار النبي - صلى الله عليه وسلم - في روضته المشرفة

وزار جميع الأنبياء والمرسلين والأقطاب والأولياء وسائر أهل الكمال (٩) .

أما مريدو التجاني : فقد ضمن لهم أشياء كثيرة منها :

الموت على الإيمان ودخول الجنة مع نبيهم بغير حساب ولا عقاب مع التمرة الأولى من كبار الصحابة ، ويكونون في الفردوس الأعلى مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوق جميع الناس ، ولهم برزخ وخدمهم يستظلون به على الدوام ولا يحضرون المرقف يوم القيامة ، بل يكونون مع الأمنين عند باب الجنة ليدخلوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وأن المرید لا تأكله النار حتى ولو قتل سبعين روحا إذا تاب ، وكل واحد من المریدين أعلى مرتبة من أكابر الأقطاب (١٠) .

وأما شروطها ، فنكتفي بذكر واحد منها ، وهو : مجانية منتقدي الشيخ التجاني (١١) .

هذا ملخص أفكار التجاني ، وقد أخذناه من مصادر تجانية في الأساس ، ويظهر لنا جليا مخالفتها لمبادئ الإسلام جملة وتفصيلا مما جعل كبار العلماء يبنون تهافتها ، ومفهم عبد الحميد بن باديس الذي نقدها نقدا علميا ، منه :

- (١) - محمد بن عبد الله التجاني ، الفتح الرباني ، ص 16 .
- (٢) - أحمد لتجاني الشنقيطي ، المصدر السابق ، ص 78 ، 79 .
- (٣) - محمد علوان الجوسقي ، المصدر السابق ، ص 87 - 95 . أيضا : محمد عبد الله التجاني ، المصدر السابق ، ص 11 .
- (٤) - أحمد التجاني الشنقيطي ، المصدر السابق ، ص 96 . أيضا : محمد علوان الجوسقي ، المصدر السابق ، ص 113 - 125 .
- (٥) - أحمد التجاني الشنقيطي ، المصدر السابق ، ص 91 .

القران كلام الله وصلوة الفاتح كلام المخلوق ، والأفضلية إما في الذات أو في النفع ، فأما في الذات فالاعتقاد بأفضلية كلام المخلوق على كلام الخائق كفر ، وأما في النفع : فالأدلة النظرية والأثرية قاضية بأفضلية القران على جميع الأذكار ، وهو مذهب الأئمة من السلف والخلف .

- القلوب تعتربها الغفلة والنقصوة والشكوك والأوهام والجهالات والذنوب و هلم جرا ، والقران الكريم هو الذي يشفيها من أمراضها وينطفئها من كل ما سبق ، قال تعالى : ﴿ ونزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (1) ، ﴿ وإن اتلوا القران ﴾ (2) ، وقد بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - (( أن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، قاتوا : يا رسول الله فما جلاؤها ؟ قال : تلاوة القران )) (3) .

- الوعيد والترهيب ثبتا في نسيان القران بعد تعلمه وحفظه ، فقد روى البخاري مرفوعا : « واستذكروا القران فإنه أشد تفصيلا من صدور الرجال من النعم » .

- كلام الله بالإجماع ، هو القران فمن اعتقد أن صلاة الفاتح من كلام الله فقد خالف الإجماع في أمر ضروري من الدين ، وذلك موجب للتكفير .

- الله لم يأخذ نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلا بعد أن أدى الرسالة كاملة، وبموته انقطع الوحي ، فمن زعم أنه - صلى الله عليه وسلم - مات وقد بقي شيء لم يبلغه في حياته وبلغه للتجاني ، كان مقتضى هذا القدر في تبليغ الرسالة ، وذلك كفر . وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة سألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - كيف يصلون ، فانتظر الوحي وعلمهم الصلاة الإبراهيمية التي تواترت في الأمة وأجمع الناس على مشروعيتها في التشهد ، ومقتضى زعم التجاني بصلاة الفاتح أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كتم عن خيار أمته ما هو الأفضل ، وحرّم منه أمته قرونا ، وهو الوصي على تبليغ الوحي وهداية الخلق ، فيستحيل أن لا يبلغ أمته تلك الصلاة لو كانت .

- لا تثبت الأفضلية الشرعية إلا بدليل شرعي ، وقد أجمعت الأمة على تفضيل القرون للمشهود لها بالخيرية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فاعتقاد أفضلية التجاني تزكية على الله بغير دليل شرعي ، وخرق لإجماع الأمة، ولذلك فإن زعمه موجب للتبنيع والتضليل .

(1) - الإسراء / 82 .

(2) - النمل / 94 .

(3) - رواه البيهقي في " الشعب " والقرطبي في " التذكار " .

- عقيدة الحساب والجزاء على الأعمال قطعية الثبوت ، ضرورية العلم فمن اعتقد أنه يدخل الجنة بغير حساب فقد كفر (1) .

"... لهذا ولغيره نقول : إن الطريقة التجانية ليست كسائر الطرق في بدعها. . . ودعنا من الحديث عن ماضيها بما فيه ، بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام - تحت اسم الإسلام " (2) .

- أصبحت التجانية بمثابة مسجد انحرار ، فأنه يقول في نبيه " خاتم النبيين " (3) ، وهم يقولون : التجاني هو الختم ، وإذا سمعوا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أفضل النبيين ، قالوا : إن رجل التجاني على رقبة كل ولي لله بهذه العبارة الجافة عن كل أدب الجارحة لعواطف كل مسلم لأن الولي في عرفهم يشمل النبي حيث ولاية النبي أفضل من نبوته ، ولا يباهون أن يكون أصحابهم أفضل من أبي بكر وعمر والعشرة المبشرين بالجنة الذين كانوا يخافون الحساب ولا يأمنون العقاب إذ ﴿ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ (4) . وهي دعوة إلى الكسل والتراخي لأن عقيدة ضمان الشيخ دخول الجنة بلا حساب هادمة لدعوة الإسلام إلى الجد ومحاسبة النفس والعمل والخوف والرجاء ، وهلم جرا .

ونستطيع تلخيص كل ما سبق في القول بأنها دعوة إلى نبذ القرآن وشريعته ، واعتقاد أفضلية التجاني على جميع المسلمين وحتى الأنبياء ، وأنها تخاف من النقد لذلك حرمت على مرديها الاستماع إلى منتقديها كما أنها دعوة إلى الجهل لأن الذي يدعو إلى نبذ القرآن ماذا يبقى نه من العلم بالإسلام؟! بل ماذا يبقى من الإسلام عندما يهجر القرآن!؟

إن أفكار التجانية الخطيرة جعلت العثمانيين يضيقون عليها الخناق ، وقد علموا - إضافة لذلك - علاقتها الحميمة بملك المغرب ، وتأمرها معه على الجزائر ، فاضطر للحاق به ، فأكرم وفادته ، " ومنحه دارا غاية في الاحتفال وجرية نبهية " (5) ، ومكث هناك إلى وفاته سنة 1230هـ/1814م .

ونلاحظ بأنه رغم ادعاء التجانية مهادنة الأنظمة الحاكمة والبعد عن السياسة (6) إلا أنها استخدمت سياسيا وعسكريا من لدن سلاطين المغرب ضد الجزائر ، ولا أدل على هذه العلاقة الحميمة التي كانت بين التجاني وسلطان المغرب من إعلانه الثورة على العثمانيين في الجزائر ، ثم الفرار إلى ملك المغرب الذي كان يحارب العثمانيين كذلك (7) .

(1)،(2)،(3)،(4) - ابن باديس ، الشهاب ، ج4 ، م5 ، ج7 ، م14 ، نقلا عن عمار طالبي ، ابن باديس حياته وآثاره ، ج3 ، ص142 - 151 .

(5) - محمد محمد مخلوف ، شجرة النور ، ج1 ، ص378 .

(6) - عباس محمود العقاد ، الإسلام في القرن العشرين ، ص135 .

(7) - وقد تمكن باي الغرب من نجر التجانية ، والقضاء على نجل التجاني "محمد" سنة 1242 هـ / 1826 م ، ومن أراد لتوسيع التبرجج إلى منكرات نقيب الأشراف ، ص159 ، 160 .

وإذا كان يمكن إيجاد بعض التمريرات لموقفها السلبى من العثمانيين ، فإنه لا يمكن إيجاد أي مبرر لموقفها السلبى من الأمير عبد القادر ومساعدتها للفرنسيين في استعمار الجزائر ، ومن هذه الناحية ، فإن هذه الطريقة كانت غير وطنية ضارية عرض الحائط ما يقتضيه الإسلام من جهاد المستعمرين. ومن هنا فإن زعماء هذه الطريقة لم يهتموا دور الطرق الصوفية في التاريخ الإسلامى ، الذي هو دور إيجابى زمن الأزمات ، وروحي زمن الازدهار الإسلامى . وقد كانت الجزائر خلال العقدين الأوليين من الاحتلال في أعنف الأزمة ، فتحركت معظم الطرق في الاتجاه التاريخى المذكور، وتوقفت التجانية مدعية أنها حركة روحية لا علاقة لها بالسياسة . ولكن الواقع بين أن هذا الادعاء مغالطة وغطاء (1) ، وهو ما تبين للأمير عبد القادر الذى عمل على انضمام محمد التجانى إليه في سنة 1836م فسلك التجانى طريق السراوغة في رده على الأمير معتذرا بما سبق من أن دعوته روحية لا علاقة لها بالسياسة، ولكن تبين للأمير أن زاويته كانت على اتصال سرا بالفرنسيين لتمهد لهم الطريق لاحتلال المنطقسة ، فاضطر الأمير لمهاجمة عين

ماضى لصد الفرنسيين عنها (2) ، فمنعه محمد التجانى وتابعه أحمد بن سالم من دخولها وحاربوه ، فاقتحمها الأمير سنة 1838م بعد حصار دام ثمانية أشهر، وبعد نداءات متعددة وجهها الأمير للتجاني لحقق نداء المسلمين، ولكن التجاني كان واقفا من مناعة حصنه، فاستكبر وتجبر، وتحمل حصارا شديدا دام ثمانية أشهر (3) . وهنا نسجل بأنه لو سخر هذه القوة لصالح الجزائر لتغير وضع فرنسا فيها ، كما أنه يدل أن يتفرغ الأمير لمحاربة فرنسا شغفته بأذيالها ، فعطلوه وشتتوا قوته . ورغم حلم الأمير الذي سمح له بالنجاة بحياته والخروج بما خف حمته إلى الأغواط ؛ إلا أنه ما أن خرج منيا حتى أعاد الاتصال بالفرنسيين ليصبح حليفا صريحا لهم فأمدوه بالمساعدات المادية والمعنوية في حربه ضد الأمير (4) ، وكونوا جيشا مشتركا تمكن من إخراج الأمير من الأغواط سنة 1844م ونصبوا أحمد بن سالم التجانى خليفة لهم عليها (5) . و لا يمكن تبرير موقف التجاني بالصراع بين التجانية و القادرية لأن المقاومة تجاوزت يومئذ كونها حركة تقودها القادرية بنليل تعاون الرحمانية والسنوسية معها .

(1) - سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق1 ، ج1 ، ص301 ، 302 .

(2) - اسماعيل العربى ، الصحراء الكبرى وشواطئها ، ص228 .

(3) - المرجع نفسه ، ص228 ، 229 .

(4) - المرجع نفسه ، ص229 .

(5) - سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق1 ، ج1 ، ص301 ، 302 .

ومن هنا فإن موقف التجاني وسنوكه هذا رفض للجهاد وحيية لبلاد ، هذه ناحية سي وصلت إلى حد إصدار فتوى بتحريم الجهاد ضد المستعمرين الفرنسيين ، وهي الفتوى التي اشترك في تحريرها التجاني و ليون روش (1) . وتنادي المحاضرين " نسعوا سنحتكم ضد في لاسلامي ، وإذا تغلب العدو الكافر على المسلمين فإنه لا يجوز مجاهدته ، ولا يجوز باج لاسلام ولا مشايعة أي مجاهد يعلن أنه جاء نظرد الكافرين " (2) . وكان لهذه الفتوى أثرها نحسب مما حدى بأحد الباحثين الفرنسيين إلى القول : " وقد أنت هذه الفتوى هي وقتها كسر حسنة تأسيس احتلالنا للجزائر " (3) .

وهكذا ارتبطت هذه الطريقة بالاستعمار الفرنسي ، وازدادت أهميتها اجتماعيا وسياسيا ، وأنزكت فرنسا خطورة الطرق الصوفية من خلال محاربة القادرية وشرحمانية وشرقية ولسنوسية ، كما أدركت فوائد الطرق عندما تتمكن من استيلائها لتجعلها وسيلة لسيطرة نفوذها . وفي هذا السياق ، فقد أوحى فرنسا إلى " سي أحمد التجاني " حفيد المؤسس أن يتزوج غربية . هي ابنة لأحد رجال الدرك (4) من اللوران ، فتم الزواج ، وباركه الكرنيت لافجري بحضوره فأضفى عليه طابع الشرعية ، وهو ما يجعلنا نعتقد بصحة كلامنا السابق . ننت أن لافجري كان يحلم ويخطط لتتصير إفريقيا بكاملها (5) ، وعندما ينتج هذا الزواج ، فإن فرنسا الفرنسية هم الذين سيقودون هذه الطريقة ، ويبدو جليا أن لافجري ومن ورائه فرنسا كانوا يهدفون إلى استخدام هذه الطريقة في تخدير الشعب ، وتحطيم روحه الجهادية وشمعويه مما يسمح للكنيسة بتمسيحه ، كما يدل على مدى العلاقة الحسنة والتعاون بين رجال التبشير ورجال الاستعمار عامة والطريقة التجانية .

ومما يؤكد وجهة نظرنا في أن هذا الزواج كان مخططا له ، أن فرنسا أنزكت أن عنطق القوة وحده لا يكفي في السيطرة على الشعب ، ففكرت في السيطرة عليه أيضا من خلال

(1) - هو جاسوس فرنسي ، انضم في جيش الأمير بعد أن أعلن إسلامه فترة من الزمن ، وكان من أتباع الجنرال بوجو . وبأمرة لصدر مع التجاني تلك الفتوى وأخذها إلى الحرمين لإقناع العلماء بها ، ولكن السنوسي رفضها وأفتى بوجوب استمرار الجهاد وعدم التعايش مع التصاري . وقد تغلب ليون روش بعد ذلك في عدة وظائف سامية ، منها قنصل فرنسا بتونس ابتداء من ثرة جويلية 1855 م . وكان يحسن العربية نطقا وكتابة ويستشهد بالقرآن والحديث . ( سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 373 . أيضا : ابن أبي الضياف ، إتخاف أهل الزمان . ج 4 ، ص 216 ، 217 ) .

(2) - سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 276 .

(3) - المرجع السابق ، ص 276 ، وقد نقلها سعد الله عن ديون وكبولاني ، لطرق الصوفية الإسلامية ، ص 37 .

(4) - وقد امتاز رجال الدرك الفرنسيون بوحشيتهم ضد الجزائريين .

(5) - لساعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 229 .

احتوائها للطرق الصوفية التي كانت المحرك الأساسي للشعب في الثورة على الاستعمار . ولا أدل على هذا من أنه عندما توفي أحمد التيجاني السابق تزوج تلك الفرنسية أخوه ، مما يجعلنا نعتقد أنه لا معنى لتداول أخوين على امرأة واحدة فرنسية سوى ما ذكرناه آنفا .

مما سبق نستنتج أن التجانية كانت مطية للاستعمار الفرنسي في الجزائر امتزجت به و امتزج بها ، ولكن الأمانة العلمية تقتضي منا القول بأن التجانية التي انتشرت في مختلف مناطق إفريقيا السوداء من السنغال إلى تمبوكتو إلى الأقيانوس الأطلنטיكي وغير ذلك . كانت حركة إيجابية في نشر الإسلام بين الوثنيين ومقاومة الاستعمار الفرنسي، وقد تمكنت من إنشاء ممالك إسلامية ساهمت <sup>(1)</sup> مساهمة فعالة في مقاومة رجال التبشير والغزو الاستعماري ، فكانت بذلك حصانة ذاتية لمقاومة الدخيل الأجنبي الغربي . ومن الأمثلة على هذا عمر بن سعيد بن عثمان الغوتي السنغالي الذي ولد في سنة 1797م ودرس بالأزهر ثم حج ورجع إلى بلاده لنشر الإسلام الصحيح بين الوثنيين <sup>(2)</sup> الذين أدخل أعدادا كبيرة منهم في الإسلام ، ووصل إلى الغابون وغينيا والنيجر ونيجيريا وغيرها ، توفي عام 1865م وقد خلف للتجانية سلطنة إسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج الفتيشيين ، وبعد وفاته خلفه ابن أخيه وأحد مريديه، فوسعوا فتوحاته وحاربوا الاستعمار الفرنسي في السنغال وفي غيره ، مما جعل الغربيين يعتبرون وجود التجانية في تلك الأقطار خطرا عظيما على سيادتهم <sup>(3)</sup> .

هذه هي أهم الطرق الصوفية التي كانت منتشرة بالجزائر العثمانية ، وقبل أن نقيمها تقييما عاما ارتأينا أن نشير إلى تراجم نماذج من علماء العهد العثماني ، وذلك لتكتمل رؤيتنا للأوضاع الثقافية ، ثم نقيم الأوضاع الثقافية بصفة عامة.

العلوم الإسلامية

- (1) - لوثرروب ستودارت ، حاضر العالم الإسلامي ، م 2 ، ص 397 .
- (2) - عبد الله الأمين ، دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة ، ط 2 ، دار الحقيقة ، بيروت ، 1991 م ، ص 400 .
- (3) - لوثرروب ستودارت ، المصدر السابق ، ص 398 . والتعبير له مع أنه أمريكي مما يدل على أن الغربيين رغم اختلافاتهم إلا أنهم يتسمون بنظرة حضارية واحدة .



## نماذج من علماء الجزائر في العهد العثماني

- عبد الرحمن الأخضرى : هو عبد الرحمن بن محمد الصغير الأخضرى ، ولد ببنيطوس جنوب غربى بسكرة سنة 920هـ / 1514م فى أسرة علم وأدب<sup>(1)</sup> . ينتهى نسبه حسب ما ذكر<sup>(2)</sup> إلى الصحابى عباس ابن مرداس<sup>(3)</sup> . وقد استقرت أسرته فى منطقة بسكرة بعد ترحال إلى المشرق<sup>(4)</sup> . درس الأخضرى بأسرته ثم على كل من محمد بن على الخروبى ( ت 963 هـ / 1555م ) ، والفقير عمر الوزان ( ت 960هـ / 1552 ) بقسنطينة ، فنشأ سليم العقل والفكر ، بعيدا عن انحرافات . ثم رحل إلى الزيتونة لمواصلة الدراسة والعودة إلى زاوية بنيطوس ليدرس بها ، فذاع صيته . وكثر طلابه<sup>(5)</sup> ، ورغم انتمائه للطريقة الشاذلية<sup>(6)</sup> ، فقد أدرك الوضعية المزرية التى آلت إليها عقول المسلمين ، ففضى حياته محاربا للمنحرفين من أدياء التصوف محاولا إصلاح العقل وإعادة المجتمع إلى الطريق السوي ، وأنف فى ذلك قدسيته الشهيرة المحتوية على 348 بيتا ، ومما قاله فى متصوفة عصره :

وزنتهم بالشرع فهو نائى	منهم كمثل الأرض والسماء
وزنتهم بمنهج الحقيقة	فلم أجد لهم منها دقيقة
بل هتكوا محارم الشرع القويم	فنكبوا على الصراط المستقيم <sup>(7)</sup>

وقد وصف العياشى هذه القدسية بقوله : "... رائعة النظم ، فائقة الحسن ، حلوة ، ملسة " <sup>(8)</sup> .

ولقد أثر الأخضرى بمنهجه الإصلاحى فى الذين أتوا بعده كعبد الكريم الفكون وغيره . ولكن العصر كان أقوى منه ، فكان الانحطاط الذى أعقبه الاستعمار . وقد توفي الأخضرى سنة 953هـ / 1584م<sup>(9)</sup> ليترك مؤلفات مهمة فى مختلف الفنون أقبل عليها العلماء بعده شرقا وغربا

- (1) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافى ، ج 1 ، ص 507 .
- (2) - عبد الرحمن الأخضرى ، شرح السلم المرونق ، مخ المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم 144 ، ورقة 1 / 10 .
- (3) - هو ابن أبى عامر السلمى المضرى ، أمه الخنساء الشاعرة ، أسلم قبل فتح مكة ، وكان من المؤلفه قلوبهم ، ومن اعترض على النبى صلى الله عليه وسلم فى تقسيم غنائم حنين ، وكان شاعرا وفارسا من سادات قومه ، توفي حوالى سنة 18 هـ / 639 م . ( الزركلى ، الأعلام ، ج 4 ، ص 9 ) .
- (4) - Abderrahman El Akhdari , Le soullam , traduit de L'Arabe Par J . D . Luciani , Ancienne Maison Bastide Jourdan , 1921 , P12
- (5) - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 508 .
- (6) - أحمد بن داود ، العقد الجوهري ، ورقة 7 / ب ، 8 / أ .
- (7) - عبد الرحمن الأخضرى ، القنوية ، مخ المكتبة الوطنية ، الجزائر ، رقم ، 946 ، ورقة 44 / أ .
- (8) - العياشى ، ماء الموائد ، ج 2 ، ص 413 ، 414 .
- (9) - أحمد بن داود ، المصدر السابق ، ورقة 8 / أ .

، منها: " الدرّة البيضاء " و" الجواهر المكنون " و" السراج " و" السلم المروتنق في المنطق " و غيرها (1) .

**عبد الكريم الفكون** : ولد بقسنطينة سنة 988هـ/1580م في أسرة عريقة تنتمي إلى قبيلة تميم العربية ، وقد اشتهرت بتعلم والجهاد ، أيدت أسرته العثمانيين على الحفصيين بقسنطينة فكوفنت بمشيخة الإسلام وقيادة ركب الحجيج (2) ، وأصبحت ذات نفوذ روحي كبير إلى حد أن الهارب إليها لا يمسه أحكام مهما كان خطوه (3) . درس عن والده محمد بن عبد الكريم وغيره (4) ، تأثر كثيرا بمنهج الأخصري في الإصلاح ، فتأثر على أدياء الولاية و المشعوذين الذين حولوا التصوف إلى حضرة للرقص ، وسلب الأموال ، وتخدير العقول ، و ارتكاب الفواحش ، مما أدى إلى الوباء الذي أصاب المسلمين ، وقد ألف في هذا كتابه " منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية " (5) . قال عنه العياشي : " كان إماما يقتدى به ، وله في كثير من العلوم تأليف شهد له فيها بالتقدم أهل عصره " (6) . توفي سنة 1073هـ/1662م ، وترك مؤلفات منها: " مجرد السنان في نخور إخوان الدخان " (7)

- **عبد الرزاق بن حمادوش** : وُلِدَ في مدينة الجزائر سنة 1107هـ/1695م وتعلم بها كما تعلم خارج الجزائر عن طريق الرحلات . اهتم بالمنطق والطب (8) والصيدلة والكيمياء وعلم البحار، والصناعة الحربية وغيرها ، توفي بين سنة 1197هـ/1200م بعد أن تجاوز التسعين. وقد كان مختلفا عن علماء عصره باهتمامه الكبير بالجانب العلمي الدقيق ومحاولة تطبيق ما قرأه وإجراء التجارب عليه، وقد ترك مؤلفات منها : تأليف في الأعشاب ، وآخر في الإسطرلاب، وآخر في القوس لرصد الشمس ، وآخر في صورة الكرة الأرضية ، وآخر في معرفة الطرق البحرية ، وآخر في صناعة القنابل التي كان يصنعها ويجربها في جبال الجزائر

- (1) - دراستنا عن الأخصري : عبد الرحمان الأخصري وكتابه السلم المروتنق في المنطق ، ص 8-13 .
- (2) - سعيدوني ، البوعينلي ، الجزائر في التاريخ ، ص 153 .
- (3) - أبو القاسم سعد الله ، تقديم كتاب " منشور الهداية " ص 7 .
- (4) - محمد محمد مخلوف ، شجرة النور ، ج 1 ، ص 310 .
- (5) - أبو القاسم سعد الله ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية ، ط 1 ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986 ، ص 113 .
- (6) ، (7) - العياشي ، ماء الموائد ، ج 2 ، ص 390 ، 391 .
- (8) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 438 ، 442 . وقد كتب د غبريال كولان رسالة دكتوراه في الطب عن ابن حمادوش ، هي ترجمة ودراسة وتحليل لكتاب ابن حمادوش ، " الجواهر المكنون من بحر لقانون " ، وذلك سنة 1905 في جامعة الجزائر ، وطبعت في نفس السنة .
- (9) أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ط 2 ، ش و ن ت ، الجزائر 1981 ، ق 1 ، ص 222 . أيضا : تاريخ الجزائر الثقافي ، ط 2 ، م و ك ، الجزائر 1985 ج 2 ، ص 445 .

العاصمة (1) . ويعد من العلماء القلائد الذين تسببوا إلى خطورة إهمال المسلمين للعلوم الدقيقة وما ينتج عن ذلك من خطورة (2) .

- **محمد المصطفى الرماصي** : الرماصي نسبة إلى إحدى قرى مستغانم ، درس بجازونة ومصر ، امتاز بمكانته الدينية والاجتماعية ، أشهر مؤلفاته : حاشيته على شرح شمس الدين العدواني التتائي على متن خليل (3) لقبه عبد الرحمان الجامعي الفاسي ، ( وند سنة 1087هـ / 1676م ) بحامل راية الفقه المالكي في عصره ومصره (4) . امتاز بتفقه للفقهاء السابقين وتأثيره في العلماء شرقا وغربا ، اشتهر برده على مرسلات كبار العلماء من مختلف الأقطار في القضايا الشائكة ، توفي سنة 1137 هـ / 1724م (5) .

- **محمد أبو راس المعسكري** : نبغ في العلوم العقلية والنقلية ، والتاريخ نقب بـ " الحافظ " لقوة حفظه ، له مؤلفات مهمة ، منها : " رحلته " للمشرق والمغرب ، و " حاشيته على الخرشي على الزرقاني " و " شرح المقامات الحريرية " و " ذيل القرطاس في ملوك بني وطان " ، و " تفسير القرآن " و " تحاوي الجامع بين التوحيد والتصوف والفتاوى " وغير ذلك ، توفي سنة 1238 هـ / 1822 بمعسكر بعد أن جاوز التسعين (6) .

- **محمد بن إسماعيل** : قال عنه العياشي عندما قابله سنة 1064هـ بفجيج : " وبالجملة فهذا الرجل كان أعجوبة زمانه ، وناصرة وقته ، سخام ، وذكاء ، ودهاء ، و نجدة وعلو همة ، وعبادة " (7) . تجول بأقطار العالم الإسلامي فأدرك ما يحق به من أخطار وفسائس ، فقال قولته المشهورة : " إني جلت جوانب الأرض فلم أجد من يبكي للإسلام بالعين التي أبكي بها " (8) . انتمى إلى الطريقة القادرية ، وادعى المهديّة بالسودان رغبة في الإمارة التي كانت عيبه الذي ندم عليه . توفي بتكوران (9) سنة 1064هـ / 1653م (10) . هؤلاء بعض علماء الجزائر في

- (1) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص 441 . ومن أراد التوسع في تلك الكتب وغيرها ، والجديد الذي أضفاه إليها ابن حمادوش فليرجع إلى المرجع السابق ، ص 438 - 450 .
- (2) - عبد الرزاق بن حمادوش ، رحلة ابن حمادوش ، ص 71 .
- (3) - الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج 1 ، ص 578 ، 579 .
- (4) - عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، ص 152 .
- (5) - سعيدوني ، البوعبدلي ، المرجع السابق ، ص 171 ، 172 . وقد توسعا كثيرا فمن أراد التفاصيل فليرجع إلى كتابهما .
- (6) - الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج 2 ، ص 341 ، 342 . أيضا : عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر ، ص 306 ، 307 .
- (7) - العياشي ، ماء الموائد ، ج 1 ، ص 43 ، 42 .
- (8) - تكوران وفجيج تقع بين توقرت وورقلة ، ( العياشي ، المصدر السابق ، ص 40 - 43 ) .
- (9) - المصدر نفسه ، ص 42 .
- (10) - المصدر نفسه ، ص 42 .

العهد العثماني ، يضاف إليهم الذين ترجمنا لهم في الهوامش كأمين المناوي وحمدان خوجية وغيرهم ، وهم ينتمون إلى مختلف جهات القطر مما يعطي فكرة عن الحركة العلمية آنذاك. بعد هذا لننتقل إلى تقييم الأوضاع الثقافية.

## تقييم الأوضاع الثقافية

ما سبق كان عرضاً موجزاً للأوضاع الثقافية للجزائر أيام العثمانيين، ولا سيما في المرحلة الأخيرة ، ولا نزعم أنها كانت متقدمة أو متأخرة . وإنما وضعيتها هي وضعية العثم الإسلامي برمته ، ومن الأدلة على هذا ما أوردته كل من ابن حمدوش وأبي زيد الجامعي رغم اختلاف نظرتهم، فنجد ابن حمدوش ينظر إلى الواقع الثقافي نظرة ناقد ، مدركاً للتأخر الناتج عن إهمال العلوم الدقيقة فيقول عن رحلته في تطوان سنة 1156هـ/1743م : " وسألت عن علم الفلك فلم يكن له متقن ... وأما في الحساب والطب والهندسة فلم أر من يبحث عنها ، فضلاً عن من يتقنها " (1) ، وما يقال عن تطوان يقال عن المغرب العربي ككل . وأما الجامعي فإنه ينظر إلى الواقع ذاته ، ولكن بنظرة أديب متفائل ، فيقول : " وأما مدينة الجزائر فأول بلد لقيت بها مثل من فارقت من أبناء بلدي ... وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء أبناء ، وأعلام خطباء " (2) الخ.

ومعنى هذا أن أغلب العلماء اهتموا بفقهاء الفروع على حساب العلوم الدقيقة، مما جعل ثقافتنا قادرة من جهة على حماية الذات من الدوبان ، ولكنها قاصرة من ناحية أخرى على حمايتها من الغزو ، لأنها اهتمت بالأصالة وإن كانت بطريقة مشوهة في كثير من الأحيان بسبب سيطرة التصوف السلبي ، وأهملت المعاصرة . ومع هذا فإن هذه الأصالة رغم نقائصها ، كان لها نور بارز في منع تصدع المجتمع ثقافياً أمام مخاطر الغزو والتبشير ، وخاصة في النصف الأول من مرحلة الاستعمار .

غير أن افتقارها لجانب المعاصرة جعلها تكاد تحتضر ، فنتج عن ذلك تأخرنا و تقدم أوروبا علمياً ، وهو ما مكنها من غزونا .

كما يلاحظ أن الطرق الصوفية — باستثناء التجانية وبعض الطرق الصغيرة — كانت هي الدرع المتين، رغم عيوبها أمام الاستعمار ، فما من انتفاضة إلا وكان محركها رجال الزوايا

(1) - عبد الرزاق بن حمدوش ، رحلة ابن حمدوش ، ص 71 .

(2) - الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج 2 ، ص 419 ، 421 .

الذين التف حولهم الشعب بحكم كونهم قاداته الروحيين ، ومع ذلك فإن رجال التصوف السني هم الذين أشاعوا بين الناس العقلية التفرقة السلبية ، فاتحرفوا بمفهوم التوكل إلى إلغاء الحرية فنتج عن تلك التواكل والتراخي التام ، وعدم الاهتمام بمزيد من تحسين الحال (1) . وتقبل الواقع كما هو باعتباره قدرا من الله ، فاستغل الاستعمار هذا إلى أبعد الحدود لتوطيد أركانه .

ورغم أن بعض الطرق الصوفية كالتوسية والرحمانية حاربت البدع ، إلا أن التيار المنحرف من دعاة التصوف كان جارفا لعمقه التاريخي ، حيث نشأت العقلية الخرافية قبل الموحدين الذين عملوا على إرجاع الناس إلى الفهم الصحيح للدين وإعادة الاعتبار للعقل ، ولكن التيار المنحرف بقي جارفا وتدعم أكثر في العهد العثماني (2) رغم محاولة بعض العلماء إصلاح الأوضاع كالأخضري والفكون وغيرهما ، بل لم يتج حتى هؤلاء من نسبة الخرافات لهم (3) وهكذا اقتنع الناس بهجرة العلوم العقلية والدقيقة ، ولا أدل على هذا من أهل " الخنقة " الذين قال عنهم الورتيلاني : " وأما علم الكلام والمنطق فمنعدم في محلهم رأسا " (4) ناهيك عن العلوم الكونية ، وقد سيطرت العقلية الخرافية على الناس علماء وعامة ، ولا أدل على هذا من الورتيلاني الذي كان يعتقد أن الأولياء يمتلكون بعض الأقطار ، وينظرون إلى اللوح المحفوظ ليتأكدوا من الغالب ومن المغلوب في المجادلات العقيمة (5) ، وعندما يختلفون في تحديد القبلة يأمررون الجبال بالانخفاض فتتخفض لتظهر لهم الكعبة وراها (6) ، فإذا كانت هذه عقلية العلماء فكيف تكون عقلية العامة ؟ وما يجب الإشارة إليه أن هذه العقلية لم تكن قاصرة على الجزائر وحدها ، ولا أدل على ذلك من اعتقاد العياشي بأن الأخضري اكتشف قبر النبي خالد بن سنان ، وعلق على هذا قائلا : " فإن كان اطلع على ذلك من كشفه فيسلم له فإنه أهل لذلك " (7) ، وقد بين العياشي أن هذه العقلية موجودة كذلك في المشرق بقوله : " وقد رأينا وسمعنا في بلاد المشرق بمشاهد متعددة من قبور الأنبياء والأولياء أظهرها أهل الكشف انصاف " (8) . إن عقلية العياشي تصدق تلك الدعوة بالاطلاع الأخضري على ذلك من كشفه ، كما تبين أن ظاهرة تلك الادعاءات والأوهام كانت منتشرة في المشرق الإسلامي ، والناس - ومنهم

(1) - الفريال ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص 409 .

(2) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 181 .

(3) - ومن أراد الأمثلة فليرجع إلى مقامة لوسباتي في ترجمته للسلم :

Luciani , Abderrahman El Akhdari , Le soullam

(4) - الورتيلاني ، الرحلة الورتيلانية ، ص 117 ، 118 .

(5) - المصدر نفسه ، ص 8 ، 9 .

(6) - المصدر نفسه ، ص 9 .

(7)،(8) - العياشي ، ماء العوائد ، ج 2 ، ص 414 .

العياشي - يصدقونها وهذا يعني أن التخلف العقلي لم يكن خاصا بجزائري ، و لا مرتبطا بالعثمانيين وحدهم ، بل هو تخلف عقلي في العاثم الإسلامي طرا . عكس ما كان عليه الاتجاه في أوروبا ، فكنا نحن في انحياز حضاري وكان الغرب في صعود ، فكنا أهلا لنسقوط . وقد استغل أهل النجل هذه الوضعية أحسن استغلال لتحقيق مآربهم ، وإلا كيف يمكن لتجانبي مثلا أن يدعي ما ادعاه ويشيع طريقته لو لم يكن الوضع الثقافي للمجتمع يقبل مثل ذلك الزعم . ومن هنا فإن المجتمع بسبب هذا الانحطاط العقلي والديني كان أهلا لينال منه أعداؤه ، وقد نالوا ، فاستعمرت الجزائر ووضعنا خطط جهنمية لتنصيرها .

والعامل الأساسي - في نظرنا - الذي كان يمكنه أن يحل هذه المشكلة المعقدة هو التعليم الذي يعيد للعقل اعتباره ، ولكنه لم يكن قادرا لأسباب متعددة منها :

- خلو الجزائر العثمانية من مؤسسة للتعليم العالي توحد نظم التعليم وترفع من مستواه باقتراح البرامج ، وتجديدها تبعا لتطور العلوم والتكنولوجيا وتراقب مستواه وتنقي أساتذته .
- خلو الجزائر كذلك من جامعة إسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة . ورغم أن دروس جوامعها الكبرى لم يكن مستواها أقل من تلك الجامعات إلا أنها كانت حبيسة الارتباط بعلماء معينين في أوقات معينة ، ولم تكن مبنية على برامج مخططة ومدرسة بطريقة دقيقة (1) .
- ارتباط التعليم برجال التصوف الذين كان هدف أغلبهم تكوين مریدين لا علماء مبدعين ، يضاف إلى هذا أن الطريقة في أساسها مبنية على التقليد وتكريسه ، ومن هنا فإنها قتل لمملكة الإبداع والتجديد فتجعل مریدها يسير في حركة عكس اتجاه التاريخ والحضارة والتطور ، وبذلك فإن الإنسان الطرقي كلما تقدم به الزمن كلما ازداد تأخرا وتأخيرا لمجتمعه فيؤدي بالمجتمع إلى الجمود والركود ، فيقع فريسة للمتقدمين وذلك لأن المرید لا يحق له استخدام عقله حتى في قراءة القرآن وفهمه . بل يجب الرجوع إلى فهم الشيخ المقدس ، والشيخ يرجع إلى شيخه ، وهكذا (2) يتحول المجتمع في سيره إلى الوراء ، ومن هنا فإن انحطاط الطريقة أضر به ، وكان من أهم أسباب انحطاطه (3) ، مما جعل التعليم المعطى في المرحلة الأخيرة من العهد العثماني في جامعات ومساجد الشمال الإفريقي لا يختلف كثيرا عن التعليم الذي كان يعطى فيها في القرن 16 . وهذا يعني أن الانحطاط لم يمس العلوم العقلية والدقيقة وحدها ، بل حتى العلوم الشرعية واللغوية جمدت (4) . وقد أدى هذا إلى جمود البرامج الدراسية على دراسة المختصرات

(1) - أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 160 .  
 (2) - يستثنى من هذا السنوسية التي اهتمت بالعلوم الحديثة ، وحاربت للتقليد والجمود ، ولكن ظهورها متأخرة ، وفي فترة الاستعمار الفرنسي لم تتمكن من تحقيق أهدافها الحضارية في الجزائر .  
 (3) ، (4) - الفريديال ، المرجع السابق ، ص 409 ، 416 .

المختصرات وتطريزها بالحواشي وحواشي الحواشي دون إبداع يذكر ، حتى في العلوم الدينية المحضة فتوقفت عندها العقول ولم تتمكن من اجتياز مؤلفات القرن 9 و8 هـ . مما جعل المجتمع الجزائري والمجتمع الغربي يسيران في اتجاهين متعاكسين كما قلنا ، أحدهما اتجهت جهود مفكره لتفجير طاقات الإنسان العقلية وتحقيق ما تفتقت عنه عبقريته في مجال الواقع ، فنتج عنه اكتشافات جغرافية وعلمية أنت إلى قوة اقتصادية وعسكرية أخذت تبحث في التوسع والانتشار عبر الآخرين واسترجاع ما أخذه منها الإسلام .

ومجتمع آخر في حالة جمود حضاري ونكوص ، ظل يبحث عن اكتشاف المجهول من خلال كرامات الطيارين من الأولياء مما جعلنا مؤهلين للاستعمار بمختلف أشكاله ، وقد زاد الطين بلة أن أغلب تلك المختصرات والمتون ، كانت في الغالب مقتصرة على مختصر خليل الذي استحوذ على عقول الفقهاء فأنتج ذلك ضيق الأفق ، والتعصب للمذهب ، وعدم الإحاطة بالواقع المتجدد ولا يمكن أن يكون ما يتناهى ضابطا لما لا يتناهى ، وقد ساهم هذا أيضا في تأخر المجتمع في مجال التشريع ، عكس أوروبا التي كانت تتبلور فيها المدارس الفقهية لتساير الواقع وتضبطه ، بينما لا نكاد نجد أي أثر عندنا للفقه الدستوري ، والفقه السياسي ، والفقه الاقتصادي ، بل والفقه المقارن أيضا الذي يجعل التشريع سليما ومحيطا بأوضاع المجتمع الذي لا يمكن لمدرسة فقهية واحدة أن تستوعبه وتحتويه .

وهكذا كان التخلف شاملا للعلوم العقلية والشرعية والحديثة ، ولم تعرف الجزائر لا الطباعة ولا الصحافة ولم يستيقظ الجزائريون إلا على وقع الحملة الفرنسية التي دكتهم نكاحا، رغم تنبه ابن العنابي لهذا ودعوته الملحة لتقليد الأوروبيين ومجاراتهم فيما ابتدعوه من الصناعات والعلوم<sup>(1)</sup> .

**والخلاصة :**

أن فرنسا لم يكن بمقدورها احتلال الجزائر لو لم يكن المجتمع الجزائري على هذا النحو<sup>(2)</sup> الذي امتاز بفساد الأوضاع السياسية من استبداد وظلم وفوضى وتغيير طريقة التجنيد وتحطيم الأسطول الجزائري. وفساد الأوضاع الاجتماعية بانتشار الطرق الصوفية السلبية وتخدير المجتمع ، وانتشار الخرافات ، وفساد القيم وتحكم اليهود في الاقتصاد واحتكارهم للتجارة الخارجية وتسببهم في مشكلة الديون ، إلخ ... وفساد الأوضاع الثقافية التي أدت إلى الجمود والركود ، فكانت النتيجة من كل ما سبق سقوط الجزائر عام 1830م وهذا يدعونا إلى الحديث عن التبشير والاستعمار .

### العلاقة بين التبشير والاستعمار في الجزائر

لقد تبين لنا في الأوضاع السياسية الصراع بين الجزائر والعثمانيين المسيحي الغربي ، وتبين لنا أن الجزائر بمساندة العثمانيين هي التي أوقنت الزحف الأسباني على بلدان المغرب العربي والعالم الإسلامي وأصبحت المدافع الأكبر عن الإسلام ، فتعرضت لكثير من الحملات الصليبية الغربية بسعي الفاتيكان وتخطيطه ، باعتبارها حاملة راية الجهاد ، واستمرت تلك الحملات إلى غاية الحملة الفرنسية على الجزائر ابتداء من 27 جوان 1827م . وهي الحملة التي شجعتها البابوية تشجيعا حثيثا (1) بعد أن شاركت في التخطيط لها ، إلى حد أن تصرف فنصن فرنسا دو فال " Duval " مع الداوي حسين ، كان بإشارة من الفاتيكان (2) الذي اعتبر استعمار فرنسا للجزائر عملا مقدسا ، وكان وراء وزير الشؤون الدينية الفرنسية الأستاذ فريسنوس " Fresnos " الذي أثر على قرار شارل 10 لصالح غزو الجزائر (3) . الذي كان العامل التيني فيه من أهم أسبابه ، وهو ما جعل البابا بيوس 8 " Pious " (4) يتكرم على الملك نويش فيليب " Luis Philly " بمنحه لقب " الملك الشديد المسيحية " بسبب اعتماده على الدين وتدعيمه له بالجزائر إلى حد قوله بمجلس وزرائه : " يجب أن يكون هناك حسن تدبير في العمل على تنصير العرب الذين لا يمكن أن يكونوا فرنسيين إلا إذا تنصروا " (5) . وهذا ما كان يرغب فيه الفاتيكان الذي كان على يقين من أن استعمار فرنسا للجزائر هو استرجاع لمجد روما بعد 13 قرنا من الفتح الإسلامي (6) . وهذا دليل على التعاون التام بين رجال الدين ورجال الاستعمار لتحقيق الغرض نفسه (7) . ويتأكد هذا من خلال أهداف الحملة الفرنسية المتمثلة في شيئين جوهريين مترابطين هما :

- 1- الرغبة في تأسيس إمبراطورية استعمارية قريبة من فرنسا لتسهيل السيطرة عليها .
  - 2- تلبية رغبة الكنيسة بشن حروب صليبية جديدة على بلاد الإسلام التي أخذ الضعف ينخر جسمها (8) وإعادة إحياء الكنيسة الإفريقية (9) .
- وقد بدأ ملوك فرنسا يخططون لهذا - على الأقل - منذ 1270م ، ولكن قوة الجزائر حالت دون ذلك ، وما أن ضعفت حتى انقضوا على الجزائر لتحقيق الهدفين السابقين ، باعتبارهم بذلك صراحة

(1) - مولود قاسم ، شخصية الجزائر ، ج 1 ، ص 85 ، 86 .  
 (2) - Michal Habart , histoire d'un parjure , paris . 1960 , p 170 .  
 (3) - IBID , P 173  
 (4) - تولي شؤون البابوية من سنة 1829 إلى 1830م . ( خديجة بقطاش ، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر ، ( 1871 - 1830م ) ، ط 1 ، مطبعة بحلب ، 1992 ، هامش ص 72 .  
 (5,6,7) - خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 40 ، 34 .  
 (8) - محمد العربي الزبيري ، تقديم لكتاب المرأة ، ص 5 .  
 (9) - Gabriel Esquer , correspondance du duc de rovig0 (1831 - 1833) . Alger , 1920 , Tome 2 , P 338 .  
 نظرا عن بقطاش ، المرجع السابق ، ص 34 .



في وثيقة رسمية مخصصة لجيش العدوان عام 1830م ، صادرة بأمر من وزير انحراب الفرنسي ، ومطبوعة بطابع الملك ، ومستقاة من تقرير ثرائد العسكري المهندس بوتان " Bouton " الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر عام 1808م بغرض الإعداد لاحتلالها ، ومما ورد في تلك الوثيقة :

" وما الحاجة إلى تخصيص الشكاوى والمظالم التي كانت لنا في المدة الأخيرة <sup>(1)</sup> ، بينما مجرد وجود الجزائر ذاته مظلمة وشكوى كافية ، ومبرر عادل دائم لتخريب هذا الوكر للقرصان وقطاع البحر <sup>(2)</sup> ، فمنذ مدة طويلة ، والفلسفة والسياسة والإنسانية والدين : كل هذا يتطلب منا إعادة دولة تمثل جميع مفاهيمها [ أي الإسلام ] خرقا دائما لكل مبدأ أخلاقي ، وتشكل مساسا بكل حضارة " <sup>(3)</sup> . ومن هنا فإن السبب الحقيقي لعدوان 1827م هو الفئدة المبيته منذ قرون بخصوص " الدين والحضارة " . أي الاستعمار والتنصير ، وهما السببان بالضبط اللذان دفعا بجد شارل 10 ، نويس 9 ( القديس لويس ) إلى مهاجمة بلدان المغرب بدءا من مورتوس سنة 1270م ، حيث مات بالوباء <sup>(4)</sup> ، وهما السببان - كذلك - اللذان برر بهما وزير الحربية الفرنسي كليمون تونير Clement tonnerre في التقرير الذي قدمه لشارل 10 يوم 14 أكتوبر 1827م : الفائدة من استعمار الجزائر ، " تمدن الأهالي ، وجعلهم مسيحيين " <sup>(5)</sup> . وهذا ما أدى لشارل 10 إلى جمع كل أساقفة فرنسا ليطلب منهم إقامة صلوات خاصة بهذا الغرض ، في كل انكناس لدعوة الرب بحماية الراية ونصرهم <sup>(6)</sup> . وهو ما عمل له أقطاب التبشير الثلاث لافيغري ، و بورغاد ، و دوفوكو كما سيظهر لنا جليا أثناء دراستنا لهم . ومن السهولة بمكان إدراك العلاقة بين التبشير والاستعمار ، من خلال تركيبة الحملة ، ومن خلال التصريحات ، والأعمال الأساسية التي قام بها جيش العدوان بعد الاحتلال والمخطط الذي أعده ، وتركيبة الحملة شملت كل الهيئة الأيديولوجية من العسكري إلى القسيس إلى رجل الفكر والاستشراق ، إلى المعمر والرسام . . . . كلهم يتعاونون . وقد خصص القسيس كولان " Colon " ليكون رئيسا للمرشدين العسكريين <sup>(7)</sup> ، وقائدا روحيا للحملة ، إضافة لـ 15 قسيسا ، أحدهم سوري الجنسية جعل مترجما في الإدارة العامة <sup>(8)</sup> .

(1) - ومن تلك المظالم - في نظره - قضية المروحة .

(2) - وهذا تعبير دقيق عن الدافع الصليبي للاستعمار ، لأن القرصنة كانت مبنية على أساس ديني .

(3) - مولود قاسم ، المرجع السابق ، ص 20 ، وقد أورد مولود قاسم نص هذه الوثيقة الأصلي في ص 22 ، 23 ، شكل ج ، د .

(4) - مولود قاسم ، المرجع السابق ، ص 21 ، 24 .

(5) - Grusseneyer Mgr . vingt cinq Années d 'épiscopat en France et en Afrique , Alger , 1882, tome : 1 , P 173  
فلا عن بطاش ص 18 .

(6) - عن بطاش ، ص 18 Jean Garnier , charles x, le roi le proscrit , Paris , 1967 , P 149

(7) - خديجة بداش ، المرجع السابق ، ص 20 ، هامش ص 37 ، وقد اعتمدت في معرفة عدد القسس على :

Gabriel Esquer , la prise d 'Alger , paris , 1921 , P 320 .

أما ما يتعلق بأعمال وتصريحات جيش العدوان ، والمخطط الذي أعد ، فإننا نلاحظ وجود عناصر جوهرية ، تكافئت كلها لتستيق هدف مشترك . هو التبشير والاستعمار . وتتمثل هذه العناصر في الجيش ورجال الدين ، والفكر والاستشراق ، ورواد الاستكشاف واليهود ، ويمكن فهم هذا من خلال ما يأتي :

لقد أقام الفرنسيون في أول أحد بعد احتلال مدينة الجزائر احتفالا دينيا ضخما في الساحة الرئيسية للقصبة ، يتصدره بورمون ، وبين أحد الفرنسيين جو الاحتفال ولماذائية كونه في القصبة فقال : " إن الاحتفال الضخم جرى في القصبة التي بناها أبناء محمد (ص) لمواجهة أبناء عيسى . وقد رثوا آيات الإنجيل بأصوات عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت مينة ، والتي كانت تغطي كل الجدران " (1) . وهكذا فإن الفرنسيين فهموا أن سقوط الجزائر يعني سقوط قنعة إسلامية ، وعودة المسيحية إلى ديارها ، وقد بدءوا أعمالهم التنصيرية بما يأتي :

1- تمسيح العمران : وذلك بمحو الطابع الإسلامي المميز لمدينة الجزائر ، ومن تلك اختيارهم لجامع كتشاوة لتحويله إلى كاتدرائية ، لأنه كان أحسن المساجد موقعا وبناء ، كما أسسوا أسقفية الجزائر في سنة 1838م " تتويجا للفكر المسيحي في قلب الإسلام " حسب قول بوجولا " Poujoulat " (2) الذي اعتبر ذلك " حدث العصر " لأنه اتصلت به السلسلة الذهبية التي صنعها سيبيريان (3) وأغوسطين (4) . والتي انقطعت في - نظره - نتيجة 14 قرنا من الوحشية (5) .

وإضافة لهذا فقد أخذوا في الحفريات حول بعض المساجد ، كالجامع الأعظم ، زاعمين أنها بنيت على أنقاض هياكل دينية مسيحية (6) . ومن أغراض هذه العمليات ، إعطاء المنطقة طابعا مسيحيا .

2- تمسيح المؤسسات الدينية أو تدميرها :

أخذ جيش الاحتلال من أول وهلة في العمل على تمسيح المؤسسات الدينية ، وتدمير ما لم يمسح ، أو تحويله لأغراض أخرى ، ومن تلك المؤسسات :

- (1) - المونيتور بونيفرسال عدد 20 أبريل 1834 ، نقلا عن : سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق1 ، ج1 ، ص72 .
- (2) - أحد العلماء الفرنسيين الذين كانوا مقربين لبوجو والمرافقين للجيش الفرنسي . له مؤلفات منها : " دراسات إفريقية " .
- (3) - سيبيريان ( ت 258م ) أفريقي ، في عهده ضاهت كنيسة قرطاج روما ، يعده النصرى من ضحايا العقيدة والمبدأ ، حكم عليه امبراطور روما فلريان ( Valerien ) بالإعدام . مكته أنصاره من الفرار فامتنع وظل في سجنه حتى أعدم ( المهدي البوعبدلي ، آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ويعده ، الملتقى 7 للتعرف على الفكر الإسلامي ، تيزي وزو ( 10 - 22 يوليو 1973م ) ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر ، 1975م ، ص3 ، ص1325 ، 1326 ) .
- (4) - سيأتي التعريف به .
- (5) - بوجولا ، دراسات إفريقية ، ج1 ، ص45 . نقلا عن سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق1 ، ج1 ، ص73 .
- (6) - وهذا ما فعله اليهود حاليا بالمسجد الأقصى ، بحجة أنه بني على أنقاض هيكل سليمان عليه السلام .

- المساجد والزوايا والمدارس : ذكرنا في الأوضاع الثقافية أنه كان بمدينة الجزائر وحدها 122 مسجداً (1) ، فلم يبق منها في سنة 1899م سوى 5 مساجد ، والأخرى كلها هدمت ، أو أمتت ، أو حولت إلى كنائس ، وقد عبر عن هاته المأساة ، الحاكم المدني بيتشو " Pichon " في تقريره إلى رئيس الحكومة الفرنسية ، ومما ورد فيه : " إبتني بمجرد وصولي ... سمعت أن اللجنة المكلفة بالمحلات العسكرية لم تهتم بشيء مثل اهتمامها بالاستيلاء على بقية المساجد . . . فهم يريدون - أي جيش الاحتلال - القضاء على بقية المساجد ، وعلى الدين الإسلامي " (2) . وهذا من أروضح البراهين على التكامل ، ووحدة الهدف بين التبشير والاستعمار . وما يجب الإشارة إليه ، أن القضاء على المساجد لم يكن يهدف إلى القضاء على بيوت العبادة فحسب ، بل يهدف أيضا إلى القضاء على مراكز العلم والتوجيه العام ، وخزائن الكتب ، والأحباس التي كان التعليم يمول منها ، وبذلك فإن القضاء على المساجد يعني القضاء على القاعدة الثقافية للشعب الجزائري لضرب الإسلام في الصميم .

وإذا كان رجال الحملة هم الذين فعلوا هذا ، فهذا يعني أن بواشر التبشير الأولى في الجزائر هم الذين أسسوها ، ولا أدل على هذا من أن دورو فيغو (3) ، - قائد جيش الاحتلال - هو الذي أسس لجنة اختيار أحسن مسجد لتحويله إلى كنيسة ، وعندما اختارت جامع كتشاوة ، فإن جيشه هو الذي احتل الجامع من معتمديه ، وقتل المتظاهرين المحتجين على ذلك ، وسلاح هندسته هو الذي حولته إلى كنيسة (4) .

وما وقع للمساجد ، وقع للمدارس والزوايا بحجة تحريضها على الثورة (5) ، كما قتل العلماء ونكل بهم ، مثل ابن العنابي الذي اتهمه الماريشال دوبورمون بمحاولة التمرد والدعوة إلى الثورة ، فجرد من أملاكه ونفي (6) ، وأبطلت المواسم الإسلامية ، وأرغم الأئمة على إنقاء خطب الجمعة باسم الملك الفرنسي (7) ، كل هذا بغرض القضاء على الطابع الإسلامي للجزائر وتعويضه بالمسيحية (8) .

(1) - ونكر دابر الهولندي أن عددها كان في القرن 17 : 700 مسجد ، وقد اعترف بوجودها بهذا العدد ، (معد الله ، المرجع السابق ، ص 74 - 98) .

(2) - المهدي البوعبلي ، الاحتلال الفرنسي ومقاومة الشعب في الميدان الروحي ، مجلة الأصالة ، ع 8 ، ص 307 .

(3) - اللوق دوروفيتو ، سياسي وجزرال فرنسي ، ولد في سنة 1774م ، وتوفي في سنة 1833 . عين في سنة 1831م قائدا أعلى للجيش الفرنسية في الجزائر ، (محمد العربي الزبيري ، هامش المرأة ، ص 60) .

(4) - سعد الله ، المرجع السابق ، ص 76 - 78 .

(5) - حمدن خوجة ، المرأة ، ص 288 .

(6) - المصدر نفسه ، ص 159 - 261 . أيضا : البوعبلي ، الاحتلال الفرنسي للجزائر ، مجلة الأصالة ، ع 8 ، ص 308 .

(7) - خديجة بقداش ، الحركة التبشيرية ، ص 31 .

(8) - عبد الملك مرتاض ، أصالة الشخصية الجزائرية ، مجلة الأصالة ، ع 8 ، ص 225 ، 226 .

- مصادرة الأوقاف والأموال الأخرى : كانت الأملاك في الجزائر أربعة أصناف :

- أملاك الدولة ، وأملاك بيت المال ، والأملاك الخاصة ، وأملاك الأوقاف التي كانت أضخم وأخطر الأملاك ، وأنواع الأوقاف هي :

-أوقاف مكة والمدينة ، أوقاف المساجد والزوايا والتقاصب ، أوقاف الأندلس ، أوقاف الأشراف ، أوقاف الإنكشارية ، أوقاف سبل الخيرات ، وأوقاف المياه والطرق (1) . صودرت كل الأملاك السابقة ، بما فيها الأوقاف التي صادرها كلوزيل بقرارين مؤرخين في 10 جوان ، و8 سبتمبر 1831م (2) . وكان ربع الأوقاف يوزع كل يوم خميس على المحتاجين مما يؤدي إلى تخفيف الأهم ، وانحد من ظاهرة الإجرام (3) . ومن هنا فلتقد كان من أغراض مصادرة الأوقاف ، زيادة ألام الناس ونشر الحرية بينهم (4) ليصبحوا فريسة سهلة للمبشرين ، ذلك أن رجل الاستعمار يجرّد الناس مما يملكون نيأتي المبشر ، فيستغل ذلك في تنصيرهم ، وبهذا يبدو التكامل بين التبشير والاستعمار ، وإلا كيف نفسر تجريد الجزائريين من أملاكهم ومنحها للأوروبيين — غير الفرنسيين — بسخاء ! والسبب أنهم نصارى ، والجزائريون مسلمون (5) .

ويمكننا القول بأن مصادرة كل الأملاك السابقة أدى إلى نتائج خطيرة ، منها :

- تحطيم اقتصاد البلاد ، وتحويله من الحبوب والغلّال إلى الخمر ، وتحويل السكان من ملاك أغنياء إلى أجراء فقراء مما أدى إلى الفقر والأمراض والآفات الاجتماعية التي هي مصادم المبشرين يرتاعون فيها لتتصيرنا ، ذلك أن القضاء على الاقتصاد ، يعني القضاء على الأساس المادي للإسلام ، وإضعافه في النفوس . ومن هنا فإن تحويل المساجد إلى كنائس ، وتهديم باقيها ، ومصادرة الأوقاف ، من بالديانة الإسلامية في الصميم ، وهو تنصير مقنع (6) ، قام به رجال الاستعمار لا رجال التبشير المتخصصون بمفردهم . وما يجب الإشارة إليه أن المرسوم القاضي بمصادرة تلك الأملاك قدم مبرره : " فلا يمكننا أن نترك إدارة حسابات بهذه الأهمية لرجال دين يحق لنا الارتياح في موقفهم منا " (7) . وبذلك يبدو التكامل بين الاستعمار والتبشير جنيا ، أكد هذا — إضافة لما سبق — تصريح جانتي دوبيسي ( Genty de Bussy ) (8) أمام الملأ — بعد استيلاء كلوزيل على عدد من

(1) - سعد الله ، المرجع السابق ، ص 66 ، 67 . أيضا : بقطاش ، المرجع السابق ، ص 24 .

(2) - المهدي البوعبدي ، الاحتلال الفرنسي للجزائر ، مجلة الأصالة ، ع 8 ، ص 309 .

(3) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 274 .

(4) - المصدر نفسه ، ص 274 .

(5) - المصدر نفسه ، ص 250 .

(6) - بقطاش ، المرجع السابق ، ص 31 .

(7) - عبد الحكيم الأريدي ، المحاولات الاستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر ، مجلة كلية الدعوة ، ليبيا ، 1988 ، ع 5 ، ص 360 .

(8) - عين معتمدا مدنيا للجزائر ، ( عبد الحكيم الأريدي ، المرجع نفسه ، ص 360 ) .

المساجد - بأن كل المساجد والمؤسسات الخيرية تابعة لأحكام الدولة . والإدارة العامة هي التي تستغلها كما يحلو لها . إن إعطاء رئيس الوزراء أوامر بما سبق ، وتصريحه بغنحية أمام الملا بينه السيد بيثون بتاريخ 11 ماي 1832م كما بين وجود مسؤولين يعملون على زيادة اديانة الإسلامية وأصحابها (1) .

- القضاء على التعليم العربي الإسلامي ونهج سياسة الفرنسية : وذلك بتدمير مؤسسات التعليم والقضاء على مصادر تمويلها . بحجة تورطها في كل الانتفاضات ضد المستعمرين ، فهي بؤر تامر عند الجنرال بلانجيني . وملاحق لغلاة الدين والمتعصبين في رأي الجنرال بيدو " pidou " وبؤر تمرد ، في رأي دوق دومال ( Doc d Aumale ) وحاكم الجزائر (2) .

أما المعلم العربي فهو لا يعرف تدريس سوى كره كل ما هو فرنسي ، ولهذا فقد منع تدريس اللغة العربية بعد الاحتلال مباشرة (3) . واعتبرت بعد ذلك لغة أجنبية كما سوف نبين ، واتبعت سياسة التجهيل ؛ لأن العرب كلما جهلوا قل تعصبهم وسهلت قيادتهم (4) . ثم أخذ الاستعمار في سياسة الفرنسية لجعل الشعب يتقاد له عبر التربية (5) ، لأنها تحول الشباب لا شعوريا من كراهة المستعمر إلى النويان فيه (6) . وبهذا فإن محاربة اللغة العربية وإحلال الفرنسية محلها إلى قدر معين ، يعد جزءا من سياسة الاندماج التي يزيد بها قوة ، إلغاء القضاء الاسلامي (7) .

- إزالة القضاء الاسلامي وتعويضه بالفرنسي : وقد بدأ كلوزيل هذا بالغائه المحكمة الحنفية بالجزائر وإجبار المسلمين على التقاضي أمام القانون الفرنسي تمهيدا لإدماجهم ، باعتبار الجزائر إقليما فرنسيا ، رغم تناقض هذا مع بنود وثيقة الاستسلام التي تنص على تقاضي المسلمين أمام قاضيهم الإسلامي طبقا للشريعة الإسلامية .

فاصدر قرار 22 أكتوبر 1830م الذي تنص المادة الأولى منه على تقاضي المسلمين أمام القاضي المالكي دون الحنفي (8) ، مما يجعل هذه الممارسة نوعا من الارتداد التدريجي الاجباري

(1) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 281 ، 282 .

(2) - Turin , y- AFFrontements culturels dans L' Algerie coloniale , Paris , 1971 , PP 137 , 208 .

(3) - سعد الدين بن أبي شنب ، النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن 14هـ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الجزائر ، 1964 ، السنة 1 ، ع 1 ، ص 33 .

(4) - Turin , PP 210 , 211

(5) - L' Asnier , B. Le siècle de revolution, tunis , 1967 , P343 .

(6) - أحمد بن نعمان ، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر ( الخلفيات ، الأهداف ، الوسائل ، البدائل ) ، مط ، مطبعة نخلب ، الجزائر ، 1991 ، ص 84 - 89 .

(7) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 241 - 243 .

(8) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 241 - 243 .

عن الاسلام (1) . وإلا لماذا لم ينفذ هذا على محاكم اليهود (2) .

- بث النزعة العنصرية وسط السكان : فكرت فرنسا قبل الاحتلال في تنظيم حملة نفسية تسبق الحملة العسكرية وتمهد لها ، فكلف نوبرمون بكتابة ثلاثة بيانات بلغة عربية قريبة من العامية الجزائرية ، وأشرف عليها بارون دوبويسيك (3) .

البيان الأول موجه إلى السكان يدعوهم للتعاون مع فرنسا لطرد الأتراك الذين أتت لتخليص السكان منهم ثم تعود .

والثاني موجه إلى الجنود الأتراك يدعوهم إلى عدم المقاومة .

والثالث موجه إلى القبائل في داخل البلاد ، يدعوها إلى التعايش مع فرنسا بعد الاحتلال وعدم مقاومتها (4) . وفي هذا الإطار ، عملت فرنسا على التفريق بين العرب والبربر الذين أخذت في إيهامهم بأنهم ليسوا عربا ، وأن العرب استعمروهم وفرضوا عليهم لغتهم (5) . وقد تعاون في هذا رجال الاستعمار والاستشراق والتشهير كما سيظهر جليا في ثنايا البحث ، مما يدل على وحدة الهدف ، والتعاون في تحقيقه بين مختلف الأطراف .

- سياسة التنصير :

وجد الفرنسيون أن العائق الأساسي أمام الاستعمار هو الدين الاسلامي الذي وحد الجزائريين ، وجعلهم أمة واحدة ، فاتبعوا سياسة التنصير لتحطيمه ، وقد بين لوفيفر - سكرتير المارشال بيجر - في تصريح له سنة 1838م جدوى سياسة التنصير في خدمة الاستعمار بقوله : " إن العرب لا يقبلون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين ، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين " (6) .  
ومن الأمثلة الكثيرة على هذه السياسة :

- أمرت الحكومة الفرنسية في عهد كلوزيل بأن يعتنق المسلمون النصرانية قصرا ، وقد حمل هذا الأمر إلى الجزائر البريد الفرنسي الصادر بتاريخ 20 جوان 1933م ، واطلع عليه السكان المسلمون ، ونصه : " إن الذي لن يفاجأ به الجمهور ، هو أن رئيس الوزراء الحقيقي منذ ثورة جويليت والى عهد قريب جدا ، كان قد كتب إلى المقتصد المدني في الجزائر ، يوصيه بتمسيح الإيالة " (7) . وهذا

(1) - أحمد بن نعمان ، المرجع السابق ، ص 84 - 89 .

(2) - حمدان خوجة ، للمرأة ، ص 241 - 243 .

(3) - هو رئيس شرطة بونابرت ، ورئيس شرطة مدينة الجزائر بعد الاحتلال ، ( ميشال هابار ، ص 22 ، من تقديم محمد العربي الزبيري لكتاب المرأة ، ص 8 ) .

(4) - المرجع نفسه ، ص 8 .

(5) - أحمد بن نعمان ، فرنسا والأطروحة البربرية ، ص 84 - 86 .

(6) - يونس درمونة ، المغرب العربي في خطر ، دار الطباعة الحديثة ، 1956 ، ص 30 . نقلا عن ابن نعمان ، المرجع السابق ، ص 92 .

(7) - حمدان خوجة ، المرأة ، ص 281 ، 282 .

يعني أن مشروع تمسيح الجزائر وجد في أذهان المسؤولين الفرنسيين على أعلى مستوى .  
 — كلوزيل هو أول من فكر في أخذ الأندال الجزائريين إلى فرنسا لتعليمهم الفرنسية وتنصيرهم (1) ،  
 وهذا يبين العلاقة بين الفرنسية والتنصير .

— ولقد بين ، — الغرض التنصيري — الجنرال دوبرومون (2) عندما خاطب جنوده بعد استيلائه على  
 مدينة الجزائر قائلا : " لقد جئتم عهد الصليبيين " (3) .

كل ما سبق ، يبين الطابع التنصيري في الحملة ، والحقد الصليبي الذي وصل بالفرنسيين إلى  
 التنصير القصري ، — رغم أنف السكان — ومن ذلك قصة تنصير عائشة بنت محمد في سنة 1834م  
 التي هزت المجتمع الجزائري ، وأدت إلى استقالة المفتي والقاضي احتجاجا ، وقادت إلى مظاهرات  
 شعبية ومحاكمات ، ولكن الفرنسيين استعملوا كل وسائل التحدي لإبقاء المرأة على النصرانية . ثم  
 هربوا إلى فرنسا ، وذلك بالتنسيق التام بين كل من رجال الدين والجيش والسياسة (4) .

وأحسن مثال للعلاقة بين التبشير والاستعمار — في نظرنا — هو أوغسطين دوفيلار (5) الذي كان  
 أول معمر بالجزائر ، وكانت أخته إميلي دوفيلار أول مبشرة بالجزائر ، فكان هذا الرجل وأخته من  
 أكبر وسائل الربط بين الاستعمار والتبشير في الجزائر ، وقد أتى أغسطس يوم 12 جانفي في سنة  
 1832م ليكون أول معمر كبير يحل بها ويشجع الحركة الاستيطانية التي دعا إليها كلوزيل ، فاشترى  
 أراضي كثيرة ، وأنشأ مركزا طبيا في مارس 1835م ، وأيده في مشروعه الحاكم العام الكونت  
 درلون (Dérion) ، وذلك لأنهما أدركا ما للأعمال الخيرية من دور فعال في نشر المسيحية وتقبل  
 الاستعمار ، ولكي يجمع الأموال اللازمة لتمثل هذه الأعمال ذهب إلى باريس ووجه نداء إلى السكان ،  
 فكان أول المليون الملك لويس فيليب وزوجته اللذان تبرعا بمنع 1500 ألف . لفائدة المرضى .

ولما كان المرضى في حاجة إلى من يعالجهم ، فقد اختار أخته إميلي دوفيلار لذلك ، فاستحسن  
 تلك المجلس البلدي للجزائر الذي كان هو أحد أعضائه ، وبهذا حلت أخته بالجزائر يوم 10 أوت  
 1835م مع مجموعة من الراهبات ، وحدث أن انتشر داء الكوليرا — بسبب ما حل بالسكان من  
 وبائات ومجاعات — فبقيت إميلي في المستشفى المثني بالجزائر ، وأنفقت حوالي 20 ألف ف شراء

(1) — المصدر نفسه ، ص 252 ، 254 .

(2) — هو قائد الحملة للفرنسية على الجزائر ، ولد في سنة 1773م ، وتوفي في سنة 1846م ، كان من جنرالات  
 الإمبراطورية ، ثم انضم إلى لويس 18 . هو الذي وقع على وثيقة الاستسلام ، وأول من نكث للعهد الذي عقده مع  
 الجزائريين باسم الأمة الفرنسية ، ( محمد العربي الزبيري ، هامش المرأة ، ص 102 ) .

(3) — مصطفى الأشراف ، الجزائر الأمة والمجتمع ، دط ، م و ك ، الجزائر ، 1983 ، ص 51 .

(4) — سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 73 ، 74 .

(5) — هو حفيد البارون نويرتال طبيب لويس 18 ، وشارل 10 . كان أبوه البارون دوفيلار إقطاعيا كبيرا في منطقة  
 اللانغدوك بفرنسا . ( بقطاش ، هامش الحركة التبشيرية ، ص 72 ) .

السكر والليمون للتخفيف عن المرضى ، فأعجب بها كلوزيل ، ووعدها بالمساعدة ، فاستمرت في نشر رسالتها الإنجيلية ووسيلتها التطبيب والخدمات الخيرية ، فأعجب بها فنصل الفاتيكان بالجزائر ، فكتب أسقف مدينة - فاياك - في أكتوبر 1835م يخبره عن ارتياحه لهذا النشاط ، كما قدر أعمالها المارشال بيجو " Bugeaud " لأنها سهلت الاتصال بين الوطن وبين الأهالي ، لأن المبشرين في نظره يعملون وبنجنية لنجاح رسالته (1) . وهو ما جعله يمد المبشرين بالأموان اللازمة لإنشاء ملاجئ للأطفال بغية تنصيرهم .

وهكذا أجمع المسؤولون الكبار ، وكبار انجترالات الذين دعموا المبشرين على حتمية التبشير لكي ينجح استعمار الجزائر ، أي أن استعمار الجزائر لن ينجح بدون تمسيحها (2) ، وتمسيحها لن ينجح بدون استعمار .

ولتحقيق ما سبق ، فقد رأى رجال الاستعمار أن يضيفوا إليه الغزو الثقافي . وأن يستعينوا برجال الاستكشاف لتمهيد الطريق أمامهم . وهذا يدعونا إلى الإشارة للغزو الثقافي للحملة ، ورجال الاستكشاف .

**الغزو الثقافي :** أدرك رجال الاستعمار أهمية مجهودات العلماء والمفكرين في تثبيت أقدامهم فاستقدموهم مع الحملة ، وقد تمخضت جهودهم فيما يأتي :

- تأسيس المكتبة الوطنية بالجزائر :

بعد أن عاث جيش الاحتلال فسادا في المخطوطات والوثائق ، حرقا وإتلفا ، (3) ، تنبه الفرنسيون إلى أهمية ما بقي منها بإشارة من برومر الذي كان يرافق الجيش مع غيره من الباحثين إلى القرى والمدن ، ليجمعوا ما يجدونه من وثائق ومخطوطات في البيوت والزوايا والمساجد . ليهربوا معظمها إلى فرنسا ، وما بقي أسسوا به المكتبة الوطنية في سنة 1835م بأمر من كلوزيل . ليجد فيها ضباط الجيش ورجال الاستشراق أنوات العمل اللازمة لمهمتهم بالجزائر (4) .

- إنشاء الطباعة والمصاحفة بالجزائر : أدخلت أول مطبعة إلى الجزائر مع بورمون ، وأنشئت جريدة " الاسطافيت دالجي " بعد أربعة أيام من نزول جيش العنوان في سيدي فرج . وكانت تاريخية وسياسية وعسكرية ، سميت مطبعتها " بالأفريقية " واحتفل بها الجنود على أنها " مطبعة فرنسية في

(2,1) - خديجة بقطاش ، المرجع السابق ، ص 44 - 63 .

(3) - ومن ذلك القيصرية التي كانت أضخم مكتبة وأكبر مكان يشتغل فيه النساخ ، دمرها الجنرال كلوزيل وأتلف فيها ما يزيد على 200 ألف مخطوط . ( حمدان خوجة ، المرأة ، ص 277 ) .

(4) - سعد الله ، الحركة الوطنية ، ق 1 ، ج 1 ، ص 81 ، 82 .



بلاد البنو وظلت تخدم الاستعمار إلى فاتح القرن الحالي " (1) .

- تأسيس المدارس الفرنسية : ومنها المدرسة العربية الفرنسية التي أسست في سنة 1836م ، وقد أدرك الجزائريون الأوائل خطورتها الدينية والفكرية على أبنائهم فقاطعوها مقاطعة أخذت تخف تدريجيا مع استمرار الاحتلال (2) .

- إنشاء لجنة علمية سنة 1837م : " وقد ضمت هذه اللجنة متخصصين في شؤون المستعمرات ومستشرقين وعلماء ، أرسلوا إلى الجزائر ليبحثوا ، كل في مجل تخصصه عما فيها من إمكانات تفيد فرنسا ، على أن تقدم نتائج أبحاثها إلى المعنيين وإلى الرأي العام على التوالي ، في عمل يشبه ما قامت به اللجنة العلمية الفرنسية في مصر أثناء الحملة هناك ، وقد أصدرت هذه اللجنة عدة مجلدات " (3) .

- استخدام الفنانيين والبيغايا : رافق الحملة عدد من الفنانين ولا سيما بعض الرسامين " لإعلاء مكانة الأمة الفرنسية بتخليد صور المعارك والحروب التي خاضها الجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري " (4) .

ومن أشهر الرسامين أوجين دي لاكروا الذي تعد لوحته " نساء الجزائر " من أشهر أعماله الفنية ، وقد قام الرسامون بدور كبير في رسم لوحات تحلل المجتمع الجزائري اجتماعيا وثقافيا ودينيا ، وتوظيف ذلك لخدمة الاستعمار والتبشير كإظهار الفوارق العرقية بين المسلمين ، وتصوير المرأة في صور قهر بسبب الإسلام ، وغير ذلك .

ومن أشهر اللوحات التي تعبر عن هذا ، لوحة " نساء الجزائر " التي تمكن دي لاكروا من رسمها بعد دخوله لأول مرة إلى عائلة جزائرية مسلمة وتصوير نساؤها ، وهو ما لم يتح لغيره من الفنانين الفرنسيين (5) .

أما البيغايا فقد استفدهم الفرنسيون (6) لتدمير الأخلاق وإذابة المجتمع في الرذيلة لإضعاف الوازع الديني ، والتمكن من القضاء عليه بعد ذلك .

- رجال الاستكشاف والاستعمار والتبشير :

وهناك عامل آخر ، متداخل مع التبشير والجوسسة ، ورجال الجيش والاستشراق ، لا يقل خطورة

(3,2,1) - سعد الله ، المرجع السابق ، ص 83 ، 84 .

(4) - زينبات بيطار ، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ، سلسلة عالم المعرفة ، نط ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1992 ، ص 226 .

(5) - ومما ترمز إليه تلك اللوحة التي رسم فيها ثلاث نساء ، صورة الحزن البادي عليهن بسبب إقرارهن في البيوت في نظره ، وله لوحات أخرى ، منها لوحة " زفاف مغربي " ولوحة " مشهد الجلد في طنجة " ، وهذا دليل على صحة ما ذكرنا ، وخاصة عندما نعرف أنه تجول في العالم الإسلامي ، وكانت رسوماته تخدم الغرض الاستشراقي ، ( زينبات بيطار ، المرجع السابق ، ص 226 ، 237 - 248 ) .

(6) - سعد الله ، المرجع السابق ، ص 84 .

عن العوامل السابقة ، وهو رجال الاستكشاف الذين كان الرجل منهم يمكن أن يكون عسكريا ومباشرا في الوقت ذاته .

ولا جرم أن أهداف الاستكشاف الغزو التجاري ، والتبشير الديني " للمتموحشين" وتطبيق المخطط الاستعماري لتمزيق أوصال المناطق الواقعة جنوب الصحراء ، وبسط السيطرة الأوربية على إفريقيا كلها ، كما بين المخطط الاستعماري في مؤتمر برلين المشهور سنة 1884م<sup>(1)</sup> . ولذلك فالمستكشفون فتحوا الطريق أمام الاستعمار والتبشير ، ذلك أن التوسع الأوربي في إفريقيا واجهته عقبتان أساسيتان ، قوة الجزائر البحرية وصعوبة مسالك الصحراء التي كانوا يجهلونها . ومن هنا اضطر الاستعمار إلى استخدام المستكشفين ليمهدوا له الطريق ، مما جعل الدول الأوربية - رغم نزاعاتها - تتعاقد في العمل الاستكشافي الذي يخدمها جميعا ، فأسست الجمعيات الخاصة به في بريطانيا وفرنسا وغيرهما<sup>(2)</sup> . وذلك لمعرفة الصحراء من جميع النواحي الجغرافية ، وطبيعة السكان ودياناتهم ، وعاداتهم ، أي معرفة الخريطة النفسية والخريطة الطبوغرافية للصحراء لتحقيق ما سبق<sup>(3)</sup> . وما يهمنا هنا هو فرنسا التي وضعت مخططا للوصول إلى تمبكتو عن طريق السنغال في عهد لويس 14 . ولكنه لم ينفذ إلا بعد ثلاثة قرون<sup>(4)</sup> . ومن المستكشفين الفرنسيين :

- رولي كاييه : ( R Caillié ) : قام برحلتين إلى السنغال ، بغرض الوصول إلى تمبكتو ، الأولى في سنة 1818م . والثانية في سنة 1824م . ساعده كل من حاكم سيراليون الإنجليزي والجمعية الجغرافية الفرنسية ، وصل إلى تمبكتو مرورا بنهر النيجر في 20 أبريل 1828م ، فكافأته فرنسا بمنحه جوقة الشرف ، ومعاشرين قدرهما 6000 ف<sup>(5)</sup> .

- هنري دوفيري ( H Duveyrier ) : وسياتي الحديث عنه عندما نتعرض للرجال الذين تأثر بهم أو تعاون معهم دوفوكو .

- شارل دوفوكو ( Charles de Foucauld ) وسياتي الحديث عنه بالتفصيل ، وهو الذي جمع بين كونه من رجال الاستكشاف ، وبين الجوسسة<sup>(6)</sup> ، وبين كونه ضابطا في الجيش برتبة رائد ، وبين

(1) - ومما قرره هذا المؤتمر " ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني ، وذلك بحجة أن نمو نروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات ، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمانة إدخال الدين المسيحي في البلاد المستعمرة ، لأن هذا هو الشرط الجوهري للحصول على الأمانة المنشودة ، حتى من الوجهة الاقتصادية " . ( أ . ل . شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي ، ط3 ، دار السعودية للنشر والتوزيع 1980 ، ص79 ) .

(2) - من أراد التوسع في هذا فليرجع إلى : إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى ، ص63 . . . . .

(3) - إسماعيل العربي ، المرجع نفسه ، ص66 .

(4,5) - المرجع نفسه ، ص68 - 80 .

(6) - بلقاسم لحاشي ، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19 ، تقديم عبد الجليل العمري ، دط ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية ، . . زغوان ، تونس ، 1989 ، ص86 .

كونه قسيما ، وضع أول معجم للأمازيغية كما سنبين أثناء حديثنا عنه .

ومن هنا نجد أنه لا فرق بين العسكري ، والراهب ، والمستكشف ، والعالم وغيرهم . فكان الرجل الواحد يجتمع فيه كل هؤلاء . كما هو حال دوفوكو . فالجندي يتحول إلى مبشر ، والمبشر يتحول إلى جندي ، والمستشرق يمد الجميع بالمعلومات ، والمستكشف يرسم طريق الاستعمار ويمهد له ، بل نجد أن القضايا ذاتها التي يعتمد عليها رجال التبشير هي نفسها التي يعتمد عليها رجال الاستعمار ، مثل التفريقة العنصرية ومحاربة اللغة العربية وتهديم المساجد إلى آخر ما ذكرنا ، مما يجعلنا نصل إلى نتيجة مهمة - في نظرنا - هي : " أن التبشير سياسة من سياسات الاستعمار ، وأن الاستعمار هدف من أهداف المبشرين ، يمهدون له ويفتحون الطريق أمامه " (1) ، وهذا يدفعنا إلى تحديد مفهوم التبشير .

مفهوم الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

### 3- تحديد المفاهيم

#### التنصير والتبشير

##### تعريف التنصير :

- لغة : المعنى الدقيق لكلمة التنصير أنها من نصرَ ينصِرُ تنصيرا ، فنصَرَ الشخصَ : جعله نصرانيا . " فأبواه يهودانه ، وينصرانه ويمجسانه . . . " (1) . ومنه : تنصَّرَ يتنصَّرُ تنصيرا : تنصَّرَ الشخصُ ، أي دخل في النصرانية (2) . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ (3) ولما كان " النصارى " مصطلحا قرانيا ، وأصبح النصارى يطلقون على أنفسهم مصطلح " المسيحيين " بدله ، ولأنه مصطلح فاضح للنوايا بذاته ، فإننا نجد كلمة التنصير مأخوذة لغة من " كلمة : بشر أي أخبر ما بفرح غيره . بشره به ، أي أخبره به بفرح ، ومنه البشارة : الفرح والخبر الصادق ، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخبر ، وإنما تكون بالبشر إذا كانت مقيدة به . ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (4) . وحامل البشارة أو المخبر بها هو المنصِرُ ، والإخبار بها : التنصير ، والمعنى العرُفي للبشارة هو الخبر الصادق السار الذي ليس عند المختبر به علمه ، منه قوله تعالى : ﴿ وبشرناه بغلام حنيم ﴾ (5) . [وهو مأخوذ من معنى الإنجيل ] .

- اصطلاحا : ترادف كلمة " التنصير " كلمة " Mission " أي إرسالية ( دينية ) تنصيرية أو العمل في حقل التنصير .

- وكلمة Missionary تعني المنصِرُ أو مجموعة من الناس يؤدون وظائف معينة تتمثل في دعوة الناس بصورة أو بأخرى إلى النصرانية . ومن منلولات التنصير الاصطلاحية :

- 1- الجهود المنظمة والمقصودة والمدعومة من قبل حكومات أو هيئات لنشر النصرانية في العالم .
- 2- حمل الناس بصورة أو بأخرى ، أفرادا أو جماعات من عقيدة غير نصرانية سواء كانت إسلامية أو وثنية أو غيرها إلى العقيدة النصرانية .
- 3 - اتجاه الكنيسة في الدعوة والعمل المنظم في بلدان كثيرة لتحويل الناس فكريا وعقائديا أو سلوكيا إلى النصرانية .

(1) - رواه الشيخان .

(2) - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المعجم العربي الأساسي ، ( لاروس ) ، د م ط ، 1989 ، مادة نصر ، ص 1199 .

(3) - المائدة / 84 .

(4) - الانشقاق / 24 .

(5) - الصافات / 101 .

ومع أن المتداول الأخير هو الأثق — على ما يبدو — إلا أن مصطلح "التنصير" في البحث يتناول الجميع ، ويلاحظ ذلك من السياقات (1) .

ولما كان مصطلح التنصير مصطلحا إسلاميا يقصد به ما ذكرناه ، وهو نصر الشخص جعله نصرانيا وتصر الشخص أي دخل في النصرانية . فإن المصطلح المتداول كنسيا وإعلاميا وحضاريا وحتى تنصيريا هو مصطلح "التبشير" . وذلك لإخفاء طابعه الحقيقي بغية الخداع من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المفهوم لدى الكنيسة خاصة والغرب عامة تطور ، فلم يعد يهدف إلى التنصير فحسب ، بل يكفي جعل الشخص مستلبا حضاريا حتى ولو لم ينصر ، وهذا يدعونا إلى تحديد مفهوم التبشير .

### تحديد مفهوم التبشير

#### المعنى اللغوي :

أصل التبشير مادة بَشِرَ يَبْشِرُ "بالفتح" ، ومعناه الفرح والسرور ، والبِشْرُ الطلاقة ، يقال : بشرني فلان بوجه حسن ، أي لقيني وهو حسن البشر "بالكسر" ، أي : طلق الوجه ... وبشْرُهُ وأبشْرُهُ فَبَشِرَ به ، أي فرح ، وأصل هذا أن بشرة الإنسان تنبسط عند السرور .

والتبشير يكون بالخير بمعنى وعد ، كقوله تعالى : ﴿ يَبْشِرُهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (2) . ويكون بالشر بمعنى توعد ، كقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (3) ، (4) .

والقرآن الكريم وصف خاتم الأنبياء بأنه مبشر ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (5) ، هذه الآية وصفت محمدا — صلى الله عليه وسلم — بخمس صفات منها :

" مبشرا " ، بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران ، ومن فضل وتكريم ، وأن يكون " نذيرا "

- 
- (1) — إسماعيل إبراهيم كروما ، التنصير في سيراليون خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ، طرابلس ، 1992 ، ع9 ، ص310 ، 311 .
  - (2) — للتوبة / 21 .
  - (3) — للتوبة / 03 .
  - (4) — ( ابن منظور ) جمال الدين ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين ، نط ، دار المعارف ، مصر ، دت ، ص286 ، 288 .
  - (5) — الأحزاب / 46 .

للغافلين بما ينتظر المسيئين من عذاب ونكال ، فلا يؤخذوا على غرة ، ولا يعذبوا إلا بعد إنذار (1) .  
 مما يعني أنه بشير للمؤمنين بحزبيل الثواب ، ونذير للكافرين من وبيل العقاب . وقد روى الطبراني  
 عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه لما نزلت هذه الآية ، وكان - صلى الله عليه وسلم - قد  
 أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن فقال : « انطلقا ، فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد  
 أنزل عليّ : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ . أي شاهدا على أمتك ، ومبشرا  
 بالجنة ، ونذيرا من النار ، و﴿ داعيا ﴾ إلى شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ بإذنه وسراجا منيرا ﴾  
 بالقرآن (2) .

والحديث استخدم التبشير هنا مقابلا للتفسير ، مما يعني اللطف والظرافة والطلاقة والتحبیب  
 والوعد بالخير (3) .

وبهذا تكون الإشارة (Annonce Message évangile) (4) ما بُشِّرَتْ به من أخبار سارة (5) .

#### المعنى الاصطلاحي :

التبشير (évangélisation) مأخوذ من كلمة (évangile) وهي كلمة إغريقية مأخوذة من كلمة  
 (euaggelion) . أما أصلها اللاتيني فهو كلمة (evan gelium) ، ومعناها الخبر أو النبا السار ،  
 والبشارة (6) ، وبهذا تكون البشارة هي معنى الإنجيل اللغوي (7) .

وللإنجيل مجموعة من المعاني ، منها :

- عقيدة المسيح (الخبر السعيد أو النبا السار) .
- هو دين (مجمل الأفكار المستوحاة من الكلمة) .

(1) - سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ط 12 ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، 1986 ، ج 5 ، ص 2872 .

(2) - ( ابن كثير ) إسماعيل ، تفسير القرآن العظيم ، ط 1 ، دار الفكر ، دم ن ، دت ، ج 3 ، ص 497 .

(3) - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المعجم العربي الأساسي ، (لاروس) ، ص 156 .

(4) - Daniel Reig . La Rousse A ssabil , libraire la Rousse , Paris , 1986 , P455 .

(5) - ( ابن منظور ) جمال الدين ، لسان العرب ، ج 1 ، ص 286 ، 288 ، أيضا : المعجم العربي الأساسي ، ص  
 156 .

(6) - Dictionnaire Quillet de la langue Française , libraire Aristide Quillet , Paris , 1975 ,

Tome D - J . P : E .

- Dictionnaire Encyclopédique Quillet . Libraire Aristide Quillet , Paris 1977 , P : 2376 .

(7) - لويس معلوف وآخرون ، المنجد في اللغة والأعلام ، ط 26 ، دار المشرق ، بيروت ، 1986 ، ص 38 .

- محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ط 2 ، دار المعرفة ، بيروت ، دت ، م 3 ، ص 158 .

الكتب الأربعة التي تحتويها (1) ، مضافا إليها أعمال الرسل ( الحواريين ) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورويا يوحنا (2) .

ومن هنا فإن التبشير عرف تعاريف عديدة ، ولكنها مرتبطة كلها بهذا المعنى ، ومن تلك التعاريف للتبشير ( évangélisation )

- التبشير بالإنجيل خارج العالم المسيحي ، مثل التبشير في إفريقيا (3) .
  - هو تلقين الإنجيل مثل تنصير (تسيح) إفريقيا (4)، وتنظيم لنشر المسيحية في العالم عن طريق الدعاية لبث الإيمان (5) .
  - القيام بالتنصير خارج العالم المسيحي (6) .
  - عمل كنسي لتوسيع آفاق الإشعاع المسيحي ، واستجابة لرغبة المسيح (7) .
- ويلاحظ على هذه التعاريف الفرنسية للتبشير أنها غير جامعة لحقيقته ، حيث جعلته مقتصرًا على الدافع الديني مخفية أغراضه الأخرى (8) كالدافع الاستعماري (9) ، والدافع السياسي ، والدافع الثقافي ، ودافع الجوسسة ، إلخ ، بل نلاحظ أن هذه الجوانب هي الغالبة على التبشير ، وأن العامل الديني كثيرا ما يكون أمرا ثانويا .
- والأدلة على هذا لا تحصى لكثرتها ، ومنها :

-فرنسا التي هي دولة لاثنية في بلادها تحمي رجال الدين في الخارج ، فانيسوعيون المطرودون منها ، هم خصومها في الداخل ، وأصدقائها الحميمون في مستعمراتها .

- *أبغابا ابن حزن أبابا ني الفاتيكان وأعلنت عمادها للكنيسة كانت بين سياستها الاستعمارية*

(1) - Dictionnaire Quillet , Tome D - J . P : E . Petite Larousse Illustré , Larousse , Paris 1991 , P 396 .

(2) - محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، م 3 ، ص 158 .

(3) - Dictionnaire Encyclopedique, Quillet , P 2376 .

(4) - يلاحظ على المعاجم والموسوعات الفرنسية التمثيل كثيرا بإفريقيا ، وعندما نخضعها لعلم النفس التحليلي نجد أنها تعبّر عن اللاشعور الجمعي المكون في البنية النفسية للإنسان الفرنسي عن مدى الرغبة في إخضاع إفريقيا إخضاعا حضاريا دينيا .

(5) - Dictionnaire Pratique Quillet , Librairie Aristide Quillet , Paris , 1974 , P 997 .

(6) - Dictionnaire Quillet de la langue Française , Tome D - J . P : E .

(7) - Dictionnaire de Théologie catholique , x , 2 Partie ( Mess , Mys ) / , vacant E . Mangéot et E . A MONN .

(8) - وقد وقع في هذا الخطأ بعض المفكرين المسلمين مثل محمد عبد الرحمان عوض الذي عرف التبشير بأنه : " نشر المسيحية بين غير المسيحيين والعمل على جذبهم إليها " (محمد عبد الرحمان عوض ، أخطار التبشير في ديار المسلمين ، سط ، دار الأنصار ' للقاهرة ، نت ، ص 9) .

(9) - ومن دعاء هذا الاتجاه : روجر بيكون ( 1214م - 1294م ) الذي كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحي ، وقد اقترح ثلاثة شروط لتحقيق هذا الغرض هي : معرفة اللغات الضرورية ، ودراسة أنواع الكفر ، وكذا الحجج المضادة لدينهما ( نظير ، سائرن ، نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى ، ترجمة على فهمي حشيم وصلاح الدين حسني ، سط ، مكتبة الفكر ، طرابلس ، ليبيا ، 1975 ، ص

على حصول الرضبان ،

- قتل الاستعمار لباتريسي لوموبا في عام 1961م ، مع أنه تنصّر بفعل المبشرين ، وسبب قتله حرصه على استقلال الكونغو استقلالاً حقيقياً .

- وقوف الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1963م مع البوذيين في فيتنام ضد حكومة الفيتنام المسيحية . (1) مع أن 60% من المبشرين في العالم أمريكيان .

وإضافة لما سبق ، فإن التبشير ، كما قرر حقيقته رجاله الكبار ، وعلى رأسهم د / زويمر في سنة 1910م في مؤتمر التبشير العالمي بإنجلترا : لا يهدف إلى جعل المسلم يعتقد المسيحية ، - لأن هذا يكاد يكون مستحيلاً ، ولا يعتنقها إلا المنبوذون الذين لا فائدة ترحى منهم - بقدر ما يهدف إلى خلخلة العقيدة الإسلامية في نفسية المسلم ، وجعله إنساناً بلا دين (2) .

هذه الأدلة وغيرها تبين بجلاء عامل التضليل في تلك التعاريف الفرنسية للتبشير .

وقد اقتصر في تعريف التبشير على الجانب الديني كثير من المفكرين المسلمين ، منهم شوقي أبو خليل الذي يعرفه بأنه : " الجهود المنظمة المدعومة من قبل حكومات التي هيأت لإرساليات تنشر ديانتها بين الشعوب التي لا تدين بها ، وأطلق التبشير على الإرساليات المسيحية خاصة ، ويقابله في المنظور الإسلامي مصطلح الدعوة " (3) .

ويبدو أن ما سبق من تعاريف تقتصر على الجانب الديني ، هو الذي جعل أنور الجندي يعرفه بأنه : " حركة ينتقل بها مجموعة من المرسلين إلى بلاد الشرق حيث ينشئون المدارس أو المستشفيات أو المعاهد التي تجذب أبناء البلاد وفق منهج مرسوم لتبشير المسيحية بينهم ... وهو ( أي التبشير ) قوام حركة الغزو الثقافي الغربي إلى العالم العربي وفق مخطط مدروس على أساس استغلال الطلاب والمرضى وتحويل عقائدهم والتأثير على مفاهيمهم وتحطيم معنوياتهم وتنشئة أجيال ممسوخة مبدلة العقائد مضطربة الثقافة منكورة لقيمتها وتراثها ولغتها وتاريخها ... " (4) .

ويتبين من هذا أن " خطة التبشير ليست خطة دينية خالصة تستهدف إخراج المسلم من دينه وإدخاله في دين آخر ، ولكنها عملية ثقافية واسعة ، تستهدف إخراج المسلم من المفاهيم والقيم

(1) - من أراد المزيد من هذه الأدلة فليرجع إلى : " مصطفى خالدي ، وعمر فروخ ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، نط ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1986 ، ص 2 ، 34 " .  
وكذا " حسن الوراكلي ، الإسلام والغرب ، من كتاب : واقع الإسلام وتحديات العصر ، نط ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، الجامعة التونسية ، تونس ، 1986 ، ص 160 .

(2) - أنور الجندي ، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة ، نط ، دار الأنصار ، القاهرة ، ص 35 .

(3) - شوقي أبو خليل ، بين داع ومبشر ، مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، ليبيا ، 1987 ، ع 4 ، ص 94 .

(4) - أنور الجندي ، الفكر العربي المعاصر ، ص 42 .



الإسلامية ، وإدخاله في دوامة الفكر البشري ، وصهره في مفاهيم الوثنية والمادية والعنصرية والامية ، وفتح الطريق أمام فكره ليقبل كل ما تطرحه أعاصير الليبرالية والماركسية والشمودية والوجودية... المهم ، هو إخراج المسلم من الإسلام دون إدخاله في دين آخر ، وحبسه في الدائرة المظلمة المفرغة : دائرة التيه الذي لا تجعل منه قوة صالحة للتوجه إلى الاتجاه الصحيح " (1) .

ورغم أهمية التعريف السابق وإشارته لبعض وسائل التبشير وأهدافه ، إلا أنه يغلب عليه انطباع الأدبي والتكرار ، وعدم الإحاطة بأغراض التبشير ، كما أن اقتصاره لحركة الغزو الثقافي الغربي على العالم العربي فيه قصور .

وقد عرفه عرفان عبد الحميد فتاح (2) بأنه : غزو المنطقة العربية ثقافيا بمنظومة فكرية قصد بها : " قتل المعنويات واغتيال المنطقة العربية روحيا وثقافيا ، رجاء ربطها بالغرب ودوائره الفكرية ومصالحه الاقتصادية ومخططاته السياسية ، والعمل من أجل تنشئة جيل من المثقفين المغتربين عن العروبة و الإسلام ، يشكلون في معتقداتهم و أفكارهم امتدادا سرطانيا خبيثا للسياسات الغربية و برامجها في الهيمنة والسيطرة والاستعباد " (3) .

و الواقع أن هذا التعريف له أهميته الأكاديمية بإشارته لأغراض التبشير ، وللغته العنصرية ، ولكنه جعل التبشير قاصرا على العالم العربي ، ويبدو أن قصر التبشير عليه ليس ناشئا عن جهل . بل لأن العالم العربي هو قلب العالم الإسلامي ، فهو مركز النقل ، وقد أشار إلى روح العالم العربي ، هو الإسلام ، فالإسلام هو الحاجز الأساسي أمام التسلل الغربي ، وقد عبر عن هذا السيد " بلس " (4) : " إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقيا ، والمسلم وحده هو العدو اللدود لنا ، لأن انتشار الإنجيل لا يجد معارضا ، لا من جهل السكان ولا من وثنيهم " (5) . وهذا ما جعل كثيرا من المفكرين المسلمين يعرفون التبشير تعريفا قاصرا على العالم العربي والإسلامي ، وذلك لأن :

- 1- نشأة التبشير الحقيقية أتت بعد الحروب الصليبية التي استهدفت قلب العالم العربي والإسلامي ، وأن رجال الحملات الصليبية هم الذين أنشأوه كما سنبين ، ولنفس أهداف الحروب الصليبية .
- 2- اعتراف بعض كبار المستشرقين بهذه الحقيقة ، ومنهم " رودى بارث Rudi Paret " (6) الذي

(1) - أنور الجندي ، التبشير والاستشراق ، ص 5 .

(2) - دكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبردج ، وأستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة بغداد .

(3) - عرفان عبد الحميد فتاح ، دراسات في الفكر العربي الإسلامي ، ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، 1991 ، ص 109 .

(4) - هو : دنيا بلس ، أول رئيس للجامعة الأمريكية في بيروت ، وهو ضابط سابق في الجيش الأمريكي ، ( عمر فروخ ، التبشير والاستعمار ، ص 23 ) .

(5) - محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، ط 1 ، مطبعة المنار ، مصر القديمة ، 1330 هـ ، م 15 ، ص 266 .

(6) - مستشرق ألماني معاصر ، وصاحب أحدث ترجمة ألمانية لمعاني القرآن الكريم ، نظير هامش " محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، - سلسلة كتاب الأمة - ط 2 ، رئاسة المحاكم الشرعية -

عرف التبشير بأنه : " إقناع المسلمين بلغتهم ببطان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصراني " (1).

3 - أتركيز في المؤتمرات التبشيرية على العالم الإسلامي ، بل خصصت بعض المؤتمرات التبشيرية العالمية للتخطيط لتنصير انعام الإسلامي ، مثل المؤتمر التبشيري العالمي الذي عقد في مدينة جلين أيري بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية في سنة 1978م ، وجعل عنوانه " انتصير " أغزو العالم الإسلامي " the gosfel and islam A 1978 com pendium .

هذه الاعترافات في نظرنا هي التي جعلت محمد حسين علي الصغير يتبنى تعريف رودري بارث السابق (2) .

وذهب مذهبه في الاقتصاد على نيار الإسلام حسن الوراكلي ، فعرف التبشير بأنه : " حركة الإرساليات الكنسية التي كرس رجالها جهودهم لتنصير المسلمين بعد إثارة الشكوك والدعوى حول عقيدتهم " (3) ، ونجاح المبشر لا يتحقق - فقط - بتنصير المسلم ، بل يعد المبشر ناجحاً إذا استطاع نذبنة العقيدة الإسلامية في نفسية المسلم (4) . كما بينا من قبل .

وبناء على كل ما سبق يمكننا الوصول إلى تعريف للتبشير يمكن أن يكون جامعاً مانعاً فنقول :

" هو العمل التعاوني المنظم لإحلال الحضارة الغربية المسيحية محل غيرها من الحضارات عامة ، والإسلامية خاصة ، مع الحرص على عدم المساواة بينها وبين تلك الحضارات ، بحيث تكون الحضارة الغربية مستعبدة وما عاها مستعبد " .

وبهذا نكون قد عرفنا التبشير ، ومن خلال تعريفه ، وتعريف التنصير السابق نذكر وحدة المصدر ووحدة الوسائل ووحدة الهدف ، وهو ما جعلنا في بحثنا هذا نستخدم المصطلحين " التنصير " و" التبشير " بمعنى الترادف .

بعد أن حددنا مفهوم التنصير والتبشير نستكمل ذلك بإشارة مقتضية إلى تاريخ التبشير ، وذلك لمعرفة أسبابه وأهدافه ليكون ذلك أحد مفاتيح بحثنا هذا .

### تاريخ التبشير :

يرجع تاريخ التبشير إلى حواربي عيسى عليه السلام المسمو بالرسول ، والذين أنتشروا في

- قطر ، 1404 هـ ، ص 20 .

(1) - رودري بارث ، الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ، ترجمة مصطفى ماهر ، نط ، القاهرة ، 1967 ، ص 9 .

(2) - محمد حسين علي الصغير ، المستشرقون والدراسات القرآنية ، ط2 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1986 ، ص 15 .

(3) - حسن لوراكلي ، الإسلام والغرب ، ص 160 .

(4) - عبد الحلیم محمود علي ، الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر ، ط1 ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، 1979 ، ص 167 .

الأرض بعده يدعون إلى المسيحية مستنثين بقوله في إنجيل يوحنا ومتى : " كما أرسلني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم (1) " ، " اذهبوا فاعلموا الأمم قاطبة وعموهم باسم الأب والابن والروح القدس ... وسأكون معكم مدى الدهر " (2)، (3) .

وهكذا بدأت المسيحية تنتشر بواسطة الرسل في آسيا الصغرى وبلاد الإغريق في أوائل القرن الأول المسيحي ، ثم وصلت في القرون الموالية إلى مختلف الأصقاع الأوربية (4) . ولكن التبشير ظل عملاً يسير بطريقة عشوائية دون تحضير سابق أو تخطيط ودون تأسيس هيكل خاصة بذلك (5) إلى أن دخل أباطرة الرومان في المسيحية ، فأصبح عمل المبشرين عملاً رسمياً ، إذ أضحى الأباطرة يرسلون المبشرين سفراء لدى الملوك " المتوحشين " لدعوتهم للنصرانية باسم الإمبراطور الروماني وباسم المسيح معا (6) .

وكان المبشرون - رغم هذا - مبعثرين ، كل طائفة تتبع كنيسة تنتمي إليها حتى القرن العاشر ، حيث اجتمعوا إلى رئيس عام ، هو بابا الكنيسة الرومانية .  
الحروب الصليبية والتبشير (7) :

تعد الحروب الصليبية التي شنها علينا الأوروبيون ابتداء من تاريخ 1095م دعوة للنصرانية بالحديد والنار ، وقد أحدث الباباوات - لتتصيرنا - من التعذيب ما يشيب له الولدان . ومنها بثوا مبشريهم إلى أرجاء العالم ليوسعوا نطاق المسيحية ، وقبل أن نبين ما يهنا من نتائج الحروب الصليبية التي بدأت ولم تنته إلى اليوم ، نبين أسباب الصراع بيننا وبينهم ، لأن هذه الأسباب هي التي أدت إلى الاستعمار والتبشير ، وهذا نشير إلى ملاحظة بالغة الأهمية ، وهي أنه لم يقع أي صراع بيننا وبين المسيحية كدين سماوي نزل من عند الله ، وإنما الصراع الذي حدث ، إنما وقع بيننا وبين الكنيسة المسيحية - المسيية - .

وأول صراع فكري نشأ بيننا وبينهم إنما يتمثل في قدوم وفد نصاري نجران بقيادة أسقفهم

(1) - الكتاب المقدس ، إنجيل يوحنا ، الإصحاح 17 ، فقرة 19 ، ، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ، جامعة كامبردج ، بريطانيا

(2) - الكتاب المقدس ، إنجيل متى ، الإصحاح 28 ، فقرة 20 .

(3) - هذا يتناقض مع ما ورد في إنجيل متى ذاته حينما وصى الحواريين قائلاً : " إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بني إسرائيل الضالة " ( متى ، الإصحاح 10 ، الفقرة 6 ) ، وكذا قوله : " لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة " ، ( متى ، الإصحاح 15 ، الفقرة 25 ) .

(4) - من أراد التوسع في هذا فليرجع إلى : " محمد فريد وجدي ، دائرة معارف القرن العشرين ، نط ، دار الفكر ، بيروت ، نت ، م 2 ، ص 205 . . . "

(5) - Memo La Rousse Encyclopédie , P 316 .

(6) - محمد فريد وجدي ، دائرة معارف ، ص 206 .

(7) - أطلنا الحديث عن الحروب الصليبية لأهميتها ، ولأن من أهداف الصليبيين الاستيلاء على المغرب الإسلامي ، ولا أقل على هذا من حملة لويس التاسع على تونس ، والتي قتل فيها ، ولأن الحروب الصليبية مفتاح لفهم الصراع الحالي بيننا وبين الغرب .

ومناظرتهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتحديه لهم بالمباهلة وخرقهم منها وانتهاكها بزيارتهم جميعا ، ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب . . . الكاذبين ﴾ (1) . (2)

أما أول صراع حربي فهو هجومهم علينا في مؤتة (3) ، إذ ما الذي أتى بهم من القسطنطينية بقيادة هرقل إلى بلاد العرب في مؤتة غير حقدهم على الإسلام ومحاولتهم القضاء عليه لصالح توسعهم ! .

### أسباب الصراع :

جوهر الصراع بيننا وبين النصارى هو القرآن الكريم ، وذلك لأنه الكتاب الوحيد الذي يبين عقائدهم وتحريفهم لها ، وتاريخهم الديني ، ويحلل نفسياتهم تحليلا دقيقا ، ويكشف انحرافات رجال دينهم الأخلاقية والاجتماعية ، ويقدم البديل الصحيح عن تلك العقائد ، ومن هنا فلن يهدأ لهم بال إلا بالقضاء على القرآن الكريم ، هذا العامل مهم في معرفة أسباب نشأة التبشير والاستشراق، و... إلخ . ومن خلال هذه الحقيقة الجوهرية نخلص إلى بعض الحقائق التي تجعل الصراع عنيقا بيننا وبينهم ، وهي :

- 1- الإسلام رسالة عالمية ، بدأ دينا ودولة ، والدولة مطابقة بالقوامة على الدين ونشره ودعمه ، والنصرانية رغم أنها في أساسها دعوة دينية مسالمة ليست لها دولة ؛ إلا أنها أصبحت لها دولة بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين للنصرانية ، وتوثيقه لها في أوائل القرن 4 م . وعندما ظهر الإسلام أحسن البيزنطيون بخطرهم الحضاري على دولتهم وحضارتهم فبدأ الصراع على الانتشار ابتداء من هجوماتهم علينا كما بينا من قبل .
- 2- وقد قوى الشعور بخطر الإسلام عليهم انتشاره السريع .
- 3- مسائل العقيدة المسيحية التي أبطلها القرآن وبين زيفها ، كالتثليث والوهية عيسى وصبه (4) ... إلخ .

(1) - آل عمران / 59-61 .

(2) - سعد غراب ، الإسلام والنصرانية من الصدام إلى الحوار ، ( من كتاب : واقع الإسلام وتحديات العصر ) ، نط ، الجامعة التونسية ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ، 1986 ، ص75 .

(3) - هي قرية تقع الآن على بعد 12 كلم جنوب الكرك في الأردن ، وسببها قتل شرحبيل بن عمرو الغساني ، حاكم " بصرى " فتابع لقصر ملك الروم لرمول النبي - صلى الله عليه وسلم - الحارث بن عمير الأزدي الذي بعث برسالة إليه ( أبو الحسن الندوي ، السيرة النبوية ، ط5 ، دار الشروق ، جدة ، 1983 ، ص277 ) .

(4) - سعد غراب ، المرجع نفسه ، ص76 - 78 .

## نتائج الحروب الصليبية :

إن الحقد الصليبي لا يعود بالضرورة إلى تدين النصارى كما يبدو لأول وهلة ، بل ما ذكر أنفا ، إضافة إلى وجود المسلمين كتجمع بشري لا يتبع ملتهم ، ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ (1) .

وقد أخذ الصراع معنا طابعا خاصا في الحروب الصليبية ، ذلك أنه أول صراع بيننا وبين أوروبا المتحدة ، وقد تزامن هذا الصراع مع بزوغ فجر المدنية الأوروبية ، وهي مدنية كانت لا تزال على اتصال بالكنيسة في مختلف مناحي الحياة ، ومعنى هذا أن أوروبا كانت في مرحلة تشكل العقل الأوربي الجديد ، ومرحلة تشكل هاتمة نشأت في أحضان الحروب الصليبية مما يمكن من القول بأن الحروب الصليبية هي التي شكلت وعي أوروبا الثقافي الجديد ، وهي التي جعلت أوروبا تترك هويتها المسيحية ووحنتها الثقافية لأول مرة في تاريخها ، وهي التي حددت موقف أوروبا من الإسلام إلى الآن ، فأحدثت الحروب الصليبية أثرا من أعماق الآثار وأبقاها في نفسية أوروبا ، بحيث أصبح الحقد على الإسلام والمسلمين جزءا من البنية النفسية والاجتماعية لأوروبا على مستوى الفرد ، والجماعة ، والدولة ، وفي أثناء هذه الحروب الصليبية ولدت فكرة "المدنية الغربية" ، وأضحت هدفا واحدا تسعى إليه جميع الشعوب الأوروبية على السواء ، وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام (2) . وقد نتج عن هذه الحروب نتائج كثيرة منها :

- 1- تسميم العقل الأوربي تجاه الإسلام بسبب تشويه قادة الأوربيين ورجال دينهم ومفكريهم لتعاليمه .
- 2- توحيد أوروبا ثقافيا ، وذلك لأول مرة في تاريخها ، فتشكل العقل الأوربي الحديث في هذا الجو ، مما جعلها تترك انتماءها لحضارة واحدة هي : "المدنية الغربية" ، وكلها ضدنا رغم اختلاف أجناسها ولغاتها ، وعداواتها . وأصبح الحقد علينا كامنا في لا شعور الإنسان الغربي الذي يرضعه من ثدي أمه ، وهو حقد وكره عميق الجذور ، ليس عقليا فحسب ؛ بل يصطبغ بصبغة عاطفية قوية ، وهو ما يفسر بعد كثير من دارسيهم للإسلام عن المنهج العلمي الموضوعي (3) .
- 3- الاكتشافات الجغرافية : وذلك بغية الالتفاف حول إفريقيا للوصول إلى الشرق من ناحية الجنوب للقضاء بأساطيل البرتغال خاصة على القوى الإسلامية في المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي تمهيدا للسيطرة على البلاد الإسلامية الواقعة على سواحل هذه البحار (4) ، ولا سيما بعد ظهور الخلافة العثمانية وسيطرتها على الطرق المؤدية إلى بيت المقدس وتوغلها في شرق أوروبا بقوة كاسحة

(1) - البقرة / 120 .

(2) - محمد أسد ، الإسلام على مفترق الطرق ، ص 56 .

(3) - المصدر نفسه ، ص 53 ، 54 ، 58 ، وبهذا نستطيع أن نفهم جيدا ما يجري الآن في البوسنة والمهرسك والشيشان و . . .

(4) - عبد المنعم النمر ، هذا ما فعلوه لماذا فعلنا ، مجلة الأمة ، قطر ، النوحة ، أوت 1981 ، م 1 ، ص 1 ، ع 10 ، ص 46 .

تكتسح الأرض والعقيدة المسيحية ذاتها بخول عشرات الآلاف سنويا من المسيحيين في الإسلام منذ أحال على الغربيين الوصول إلى بيت المقدس من جديد .

وكان محمد - صلى الله عليه وسلم - هو التحدي الوحيد للحضارة الغربية الذي واجهته في تاريخها كله ، وكان في كلا الميدانين الحربي والعقدي ، وكان من القوة بمكان . بحيث فتت المسيحية دفعة واحدة أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية إلى أن سقطت نهائيا القسطنطينية في يد المسلمين سنة 1453م ، وحوصرت فينا سنة 1529م (1) .

وكان الانتصار ساحقا كذلك في عالم القيم والأفكار ، " فقد كان الهجوم الإسلامي موجها إلى عند النظريات كما هو موجه إلى عالم الواقع ، وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسي للعقيدة المسيحية التي كانت بالنسبة لأوروبا العقيدة السامية التي أخذت - في بطن - تبني حولها حضارتها . وكان التهديد الإسلامي موجها بقوة وعنف ، وكان نجاحا مكتسحا في نصف العالم المسيحي تقريبا . والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التي انتزعت من المسيحيين أناسا دخلوا في الدين الجديد وأمنوا به ... بعشرات الملايين " (2) .

فبعد عجز الصليبيين على اختراق الحاجز العثماني في الشرق اتجهوا إلى الالتفاف حول العالم الإسلامي من جهة الغرب ، ولا سيما بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي كان العامل الصليبي من أهم العوامل التي جعلت الغرب يقتحم البحار المجهولة ، وذلك بتشجيع البابوية لمتابعة المسلمين والاستيلاء على بلدانهم بعد طردهم من الأندلس ، إضافة إلى حرص الصليبيين على إنتزاع السيطرة التجارية العالمية من المسلمين لإخضاعهم من جهة ، والتقوي على حربهم من جهة أخرى (3) .

ولا أدل على هذا من أنه بعد سقوط غرناطة سنة 1492/897م وتسلم الملكة الكاثوليكية المتعصبة إيزابيلا (Isabella) (4) مفاتيح المدينة استولت على ثروتها لتمول بها رحلة كولومبس (Colombs) (5) ، وبذلك حاصرت الصليبية كل الطرق التجارية التقليدية - التي كان يسيطر عليها المسلمون - باكتشافها لطرق جديدة (6) .

(1) - يمكن القول أن هذا رد فعل على ما فعله الغربيون بالمسلمين في الأندلس من محاكم التفتيش التي يشيب لها لونها لوتدان .

(2) - ولفرد كانتول سميت ، الإسلام في التاريخ الحديث ، ط4 ، 1966 ، ص106 ، ( من كتاب : محمد قطب ، واقعا المعاصر ، ط2 ، مكتبة رحاب ، الجزائر ، 1989 ، ص188 ) .

(3) - محمد قطب ، واقعا المعاصر ، ص188 .

(4) - إيزابيلا دي كاستيلا ( 1451 - 1504م ) ملكة قشتالا ، لقبّت بالكاثوليكية ، تزوجت فرديناند ملك أراغون ، فتوحدت بذلك الزواج الدولة الأسبانية ، وأدى ذلك إلى سقوط غرناطة ، في أيام ملكها اكتشف كولومبس أمريكا .

(5) - لويس مطوف ، المنجد ، قسم الأعلام ، ص101 .

(6) - كريستوف كولومبس ( ت 1506م ) بحار ، ولد في جنوة ( إيطاليا ) وتوفي بأسبانيا ، مكتشف أمريكا ( لويس مطوف ، المنجد ، ص599 ، 600 ) .

(6) - دراسة مركز أبحاث " العربي " ، رحلة كريستوف كولومبس بداية الحلم . . . لم نزوة المسألة ، مجلة العربي الكويت ، مارس ، 1992 ، ص400 ، ص146 .

وقد بين فاسكو دي جاما<sup>(1)</sup> ( Vasco de Gama ) الهدف الحقيقي من رحلته حول رأس الرجاء الصالح بقوله : " الآن طوقنا رقبة الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل فيخنتق ويموت " <sup>(2)</sup> وكذا رحلة ماجلان ( Magellan ) <sup>(3)</sup> التي كان هدفها الاستيلاء على الأرض الإسلامية في الفلبين وإخضاعها لحكم الصليبيين .

ورغم أنها تدرس بأنها كانت استكشافية ، فإنها كذلك بالنسبة للأوروبيين ، أما نحن فلم تكن أرضنا مجهولة حتى يكتشفها لنا ما جلان الذي كتب إلى البابا عدة مرات قبل رحلته يستأذنه في إعداد رحلة للفلبين لإخضاع الكفار " المسلمين " لحكم الصليب ، فأذن له البابا ، ولما وصل إلى الفلبين حاول رفع الصليب على الأرض الإسلامية فقتله المسلمون — ونحن ندرس في مدارسنا أن المتبربرين قتلوه ، لأنهم لم يقدروا قيمة الرحلة الاستكشافية العظيمة <sup>(4)</sup> ...

### نشأة التبشير :

بعد هزيمة قائد الحملة الصليبية الثامنة لويس التاسع <sup>(5)</sup> ( L.ouis 9 ) في المنصورة واعتقاله فكر في خطته التي جعلته يهزم ويعتقل ، وكتب فيها مذكرة خطيرة حدد فيها الموقف من العالم الإسلامي ، وبين فيها استحالة السيطرة على المسلمين بواسطة القوة ؛ لأن دينهم يحتوي على عامل حاسم هو عامل المواجهة والجهاد يمكنهم يوماً انطلاقاً من عقيدتهم من المقاومة ودحر العدو الذي يغزوهم . ومن هنا فإنه لا بد من إيجاد سبيل آخر يزيف مفهوم الجهاد عندهم حتى يميع فتسقط خطورته واندفاعاته ، وهذا لا يتم إلا بتخريب الفكر الإسلامي من الداخل ، مما يعني أن المعركة مع المسلمين يجب أن تبدأ أولاً من تزيف العقيدة الإسلامية التي تحمل طابع الجهاد والمقاومة ، والتي تدفع المسلمين إلى الجهاد والاستشهاد ، مما يؤدي إلى ميوعة الأخلاق وسيطرة الغرائز ، ثم تحطيم فكرة الخلافة الإسلامية مما يؤدي إلى تمزيق وحدة المسلمين وعدم شعورهم بوجود دولة تحمي دينهم

- (1) - فاسكو دي جاما ( 1469 - 1524 م ) ، بحار برتغالي ، اكتشف طريق الهند عن رأس الرجاء الصالح ، بواسطة العرب . ( لويس معلوف ، المنجد ، ص 517 ) .
  - (2) - محمد قطب ، واقعنا المعاصر ، ص 189 .
  - (3) - ماجلان ( فرنان دي ) ، ( 1480 - 1521 م ) ، بحار برتغالي اكتشف المضيق المعروف باسمه في سنة 1520م . قام بأول دورة حول العالم ، قتل في الفلبين ( لويس معلوف ، المنجد ، ص 625 ) .
  - (4) - محمد قطب ، واقعنا المعاصر ، ص 189 . ومما يدل على الطابع التبشيري للرحلات الاستكشافية هو مرافقة أعداد كبيرة من المبشرين للمستكشفين ثم تهافتل الطوائف المسيحية للتبشيرية على تلك الأراضي بعد الاستكشاف ( محمد فريد وجدي ، دائرة معارف ، ص 607 ) .
  - (5) - لويس 9 : ( 1214 - 1270 م ) ، أحد ملوك فرنسا ، قاد الحملتين الصليبيتين 7 ، 8 .
- وصل إلى نهايته في سنة 1249م . لُسر في معركة المنصورة ، قتل في الحملة الصليبية التاسعة على تونس ( عبد العظيم الديب ، فضيع جهل ما يجري ، مجلة الأمة ، الدوحة ، قطر ، أكتوبر 1982 ، م 2 ، ص 2 ، ع 24 ، ص 96 ) . وقد ذكر لويس معلوف أنه مات بالطاعون في تونس ، ( لويس معلوف ، المنجد ، ص 618 ) .

تمهيدا لإقناعهم بأن الإسلام دين عادي كالمسيحية لا علاقة فيه بين الدين والدولة وإبهارهم بالتقويم الغربية مما يجعلهم يستسلمون لها ، وهو ما يؤدي إلى إيقاف توسع الإسلام ومحاصرته من ناحية ، واحتوائه من ناحية أخرى (1) .

ولتحقيق هذا الغرض ، فقد نصت وصية لويس التاسع على تجديد المبشرين الغربيين في معركة سلمية لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا ، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعركة أعظم جنود الغرب " (2) .

وقد وضعت خطة لويس 9 موضع التنفيذ بعد هزيمته وقتله في الحملة الصليبية التاسعة على تونس ، ابتداء من عام 515 هـ / 1121 م . وذلك على مستويين :

- مستوى العالم الإسلامي : بتأسيس المؤسسات التبشيرية كرهبانية الكرمل بالغرب من حيفا في سنة 1157م ، ومؤسسات الفرنسيسكان والدومينيكان في أوائل القرن 13 م (3) .

- ومستوى الغرب ، وذلك ببدء حركة أوربا المعروفة إلى ترجمة القرآن الكريم والتعرف على الإسلام ، فظهرت نواة التبشير والاستشراق في المعاهد الأوربية في دراسات علوم الإسلام المختلفة من منطلق الدفاع عن المسيحية والرد والانتفاص وإثارة الشبهات .

وأول محاولة لترجمة القرآن الكريم كانت بطليطلة بإشراف رئيس أساقفتها "Pierre de cluny" ، وقد اكتشفت M<sup>me</sup> d'Alvernay الوثائق المتعلقة بهذه الترجمة ، ومما ورد فيها : " أنا الفقير بيير رئيس دير كلوني المقدس أشرت بترجمة هذا المذهب المخالف لدين وحياة صاحبه (الحقيرة) (4) من العربية إلى اللاتينية (5) ... وقد بدأت هذه الترجمة في سنة 1141م (6) .

وإذا كان " Pierre de cluny " رئيس أساقفة طليطلة السابق أول من بدأ العمل التبشيري الحديث من الناحية النظرية ، فإن الكاهن ريمون لول الأسباني (ت 1315م) يعد أول من تولي التبشير عمليا بعد فشل الحروب الصليبية الأولى ، فتعلم اللغة العربية ، وساح في العالم الإسلامي مناقشا

(1) - أنور الجندي ، التبشير ، ص 2 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 3 .

(3) - عبد المنعم النمر ، هذا ما فعلوه ، مجلة الأمة ، ص 48 ، وقد اعتمد في هذا على فيليب حتي ، " موجز تاريخ الشرق الأدنى ، ص 224 " ، وقد بين هذا فيليب حتي كذلك في كتابه : " تاريخ سوريا ، ج 2 " . انظر عبد العظيم النديب ، فضيع جهل ما يجري ، مجلة الأمة ، الدوحة ، قطر ، أكتوبر 1982 ، م 2 ، ص 2 ، ع 24 ، ص 96 .

(4) - هذا التعبير يعبر عن مدى الحقد الذي يكنونه لنا ، وعن البعد عن الروح العلمية التي يتبنون بها .

(5) - Mme d'Alvernay , Deux Traduction latine du couran au moyen Agé , Archives

d'hist Lat - doct , et lett , du , Moyen - Agé , Années 1947 - 1948

(6) - le saint coran traduction intégrale et Notes , Par Muhammed Hamidullah , Berouth ,

1973 , P L X III .

- ومن أراد للتوسع فليرجع إلى : " عمار طالبي ، أثر الفكر الإسلامي في الفكر الغربي ، مجلة العلوم الإسلامية ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر ، أبريل ، 1986 ، ع 1 ، ص 3 .



علماءنا في أقطار كثيرة (1) .

تجديد التبشير :

اكتشاف عوالم جديدة خلال الكشوف الجغرافية أدى إلى إنشاء مؤسسات ذات طابع ديني في روما ، مثل الفرانسيسكان ، والدومينيكان ، واليسوعيين ، وذلك لبث الدعوة المسيحية في تلك الأقطار المكتشفة عقب الحروب التي كانت تشن على سكانها ، لأن المسيحية هي العامل الأساسي الذي يذوبهم في الغرب ويمكن من السيطرة عليهم .

وهناك عامل آخر ، وهو أن تعوض البابوية ما خسرت من النفوذ من جهة البروتستانتية ، وجاء البابا غريغوار 15 (1554-1623م) فأسس للتبشير مدرسة خاصة يدخلها الشبان من مختلف الأمم ليمنوا على التبشير ، وأسس لهم مطبعة خاصة تطبع بخمسين لغة وذلك في سنة 1622م . كما أصدر مرسوماً قرر فيه قداسة التبشير ، وأتبعه بإرسال وثيقة تأمر بنشر المسيحية في العالم (2) .

ومن هذه المرحلة انطلق التبشير انطلاقاً جديدة ، وغزا مختلف مناطق العالم (3) .

- أما إفريقيا ، فقد دخلها المبشرون الكاثوليك منذ القرن 15م ، أي في أثناء الكشوف الجغرافية البرتغالية ، ثم أخذت ترد إليها الإرساليات الأخرى المتعددة المثل والجنسيات (4) .

- ولكنه رغم كل هذا فإن التبشير لم يأخذ طابعه الجوهري إلا في القرن 19م ، وذلك بتأثير الاستعمار ، فتعددت وتوعدت الهيئات التبشيرية المختلفة الاتجاهات (5) . وفي هذا الإطار ظهر التبشير في الجزائر .

### معنى النهضة

النهضة تعني اليقظة والنشاط ، والقيام بسرعة ، والارتفاع ، والمكان المرتفع ، وغير ذلك (6) .

وقد أطلق هذا المصطلح الذي يرجع إلى كلمة (Renaissance) الفرنسية بمعنى الانبعاث ، أو

الولادة من جديد ، " أو التغيير الجذري الكلي إلى حد ظهور كائن جديد في تلك العملية " (7) : على

(1) - محمد رشيد رضا ، مجلة المنار ، م 15 ، ص 264 . - أ . ل . شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، ص 22 .

أيضا ، عيد العظيم للديب ، فضيع جهل ما يجري ، مجلة الأمة ، ص 96 .

(2) - بلقاسم الحناشي ، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19 ، ص 38 .

(3) - من أراد التوسع فليرجع إلى : محمد فريد وجدي ، دائرة معارف ، ص 208 ، وكذا : أنور الجندي ، التبشير ، ص 18 .

(4) - أ . ل . شاتليه ، الغارة على العالم الإسلامي ، ص 26 .

(5) - Memo La Rousse Encyclopédie , P 316 .

(6) - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المعجم العربي الأساسي ، ص 1236 .

(7) - اسماعيل الفاروق ، النهضة الإسلامية في المجتمع المعاصر ، مجلة المسلم المعاصر ، أكتوبر ، ديسمبر ،

1981 ، ص 28 ، ص 51 .

التجديد الأدبي والفني والعلمي الذي ولد في إيطاليا في منتصف القرن 14 . واستمر إلى بداية القرن 17 (1) .

ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى أوروبا الغربية . ومن مميزات هذا العصر ظهور مفهوم الدولة الذي يعد أهم خصيصة له ، والأخذ في تطبيق القانون الروماني بدل الكنسي ، وظهور الاكتشافات التقنية والفنية ، كالرسم والنحت وازدهار الهندسة المعمارية الجديدة ، وظهور فلسفات جديدة ، ومذاهب إصلاحية متنوعة (2) .

وقد انتقل مصطلح النهضة ، حضاريا - إلى الشرق - في نهاية القرن 19 (3) . نتيجة الاتصالات والتصادمات المختلفة مع الغرب ، وانقسم المفكرون حياله إلى قسمين :

**القسم الأول :** ويمثله النصارى الذين كانوا يهدفون إلى التخلص من الخلافة العثمانية، والعلمانيون . ويرون أن النهضة العربية بدأت باحتلال نابليون لمصر في سنة 1798م (4) وتعززت عن طريق البعثات إلى أوروبا ومنها (5) .

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن النهضة تتمثل في التنصل كليا من الماضي الشرقي وتبني الحضارة الغربية برمتها بحجة التحديث والعصرنة أو على الأقل تعديل الإسلام ليلائم الحضارة الغربية ويخرج المجتمع من الركود والتخلف (6) . ومن الممثلين لهذا الاتجاه طه حسين (1889-1973م) ولطفي السيد (1872-1963م) وشبلي شميل (1850-1917م) وسلامة موسى (1887-1958م) وغيرهم (7) .

ويلاحظ أن هذا الاتجاه أنشأ المستشرقون والقساوسة ولقنوه للطلبة المسلمين المبتعثين إلى أوروبا لينشروه بين ذويهم ويقنعوهم بأن المسيحية هي سر تقدم الغرب ، وأن الإسلام سر تأخر الشرق مما يمكن للاستعمار (8) وقد بين المستشرق الفرنسي (هانوتو) أهمية هذا العمل ، وحث الدول الأوروبية لتعاون فيما بينها " . . . لدفع الخطر الإسلامي الكامن ضمن الوحدة الإسلامية الفكرية والروحية

(1) - Larousse universel en 2 volumes , Tome second , Paris , Libraire Larousse . 1923 , P 766 .

(2) - Hachette , le dictionnaire Français , Edition Algérienne , 92 , P 1403 .

(3) - سلامة موسى ، ماهي النهضة ومختارات أخرى ، تقديم مصطفى ماضي ، ط2 ، موقم للنشر ، الجزائر ، 1990 ، ص XI .

(4) - وقد أقر رئيس جمهورية مصر ، جمال عبد الناصر ( 1918 - 1970 م ) بالدور الإيجابي لغزو نابليون لمصر ، وذلك في الميثاق الذي قدمه إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، يوم 21 مايو 1962م . ( القاهرة ، الاتحاد الاشتراكي العربي ، 1962 ، ص 140 ) . وهيض نظمي ، ملامح من الفكر العربي في عصر اليقظة وعلاقته بفكرة القومية العربية : دراسات في القومية العربية والوحدة ، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1984 ، هامش ص 105 .

(5) - وهيض نظمي ، المرجع السابق ، ص 105 .

(6) - محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ط1 ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1985 ، ص 7 .

(7) - سلامة موسى ، ماهي النهضة ، تقديم مصطفى ماضي ، ص XI .

(8) - محمد البهي ، المرجع السابق ، ص 16 - 18 .

والغائية" (1) . وقد عكس وجهه النظر هذه التخلف الذي حل بالعالم الإسلامي ، متزامنا مع التقدم الغربي مما جعل كثيرا من المفكرين العرب يعتقدون أن الحضارة الغربية هي " الحضارة الوحيدة للعصر" ، وما عداها أصبح " في تاريخ ما لفظه اتاريخ " (2) .

وإذا كانت البعثات قد أنعمت في أبناء المسلمين ما ذكرنا ؛ فإن النصارى العرب لم يكونوا في حاجة إلى هذه البعثات ليتبينوا مفهومها للنهضة مناقضا لتصورنا ، تلك أنهم يعتبرون الخلافة العثمانية استعمارا أتى الغربيون لتحريرهم منه ، كما أنهم يحسبون بانتمائهم الحضاري إلى أوروبا المسيحية ، لا إلى الشرق المسلم . ومن أكبر الأثمة على هذا سلامة موسى الذي نكتفي بالإشارة إليه ممثلا نهنا الاتجاه التغريبي .

سلامة موسى يشيد بغزو نابليون لمصر ، ويعتبره أساس نهضتنا ، فقد جلب المعلمين لمصر ، وأحل قانونه محل الشريعة الإسلامية ، ونشر مبادئ الثورة الفرنسية والتضحية والتضامن (3) ، ومن هنا فلا بد من الكفر بالشرق والذوبان في أوروبا ويجعل معنى " النهضة " أن نغرس في أذان جميع العرب ... أنهم أوروبيون . سلالة ، وثقافة ، وحضارة ، وعليهم أن يسيروا مع أرقى الشعوب الأوروبية ، يتأقنوا بثقافتهم ، ويتعودون بعاداتهم (4) .

فالنهضة هي التنصل الكلي من الحضارة الشرقية ، والتبني الكلي للنموذج الغربي الجاهز ، أي الذوبان في أوروبا ، ولو باستعمال الكذب لتحقيق ذلك . " هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي ... فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب " (5) . وهنا يتناسى أبناء جلسته الذين يعملون بلا هوادة لتكريس هويتهم المسيحية وسط المسلمين ، لأن ذلك يتوافق مع طموحه الهادف إلى إبادة الإسلام ، والذوبان في المسيحية التي هي دين أوروبا . ولكي يصل إلى هدفه يقرر أن التقدم هو الغرب ، والتخلف هو المشرق ، هو التمحور حول الماضي وبعث التراث (6) ، ومن هنا فإن النهضة هي رفض الماضي برمته ، والاتجاه نحو المستقبل (7) ، أي قطع الأمة عن ماضيها وتغيير هويتها الحضارية ، وهنا يتناسى أن أوروبا التي يطلب هذا الذوبان فيها لم ترفض ماضيها ، فقد بعثت من جديد تراثها اليوناني ، واستغادت منه في تحديد هويتها الثقافية . ومن هنا يطرح سؤال جوهرى هو : كيف يكون المستقبل هو أوروبا ، وهي لم ترفض ماضيها ؟ وهنا يجب علينا كذلك أن نتبنى ماضيها برمته ! وهنا يطرح سؤال مهم هو :

(1) - محمد البهي ، المرجع السابق ، ص 27 .

(2) - محمد عمارة ، العلمانية ونهضتنا الحديثة ، ط 2 ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، 1986 ، ص 10 .

(3) - سلامة موسى ، ماهي النهضة ، ص 184 - 187 .

(4) - سلامة موسى ، ماهي النهضة ، تقديم مصطفى ماضي ، ص XI ، XII .

(5) - المرجع نفسه ، ص XI ، XII .

(6) - المرجع نفسه ، ص XI ، XII .

(7) - سلامة موسى ، ماهي النهضة ، ص 6 - 9 .

هل عندما نفعل ذلك نصيح أوربيين ، ونصل إلى مستوى أوربا العلمي ؟ . إن تطور الأحداث بين أن ذلك أدى إلى الاستلاب لا إلى النهضة . وهو ما كان يهدف إليه دعاة هذا الاتجاه من النصارى إلى حد أن سلامة موسى جعل الإيمان بالله والدار الآخرة والعمل بمقتضاها هو الانحطاط (1) . مما يجعل كلمة النهضة مرادفة لكلمة الكفر . ويرى أنها : " تحرير الشخصية البشرية من التقاليد والغيبيات ... وأنها فصل الدين عن الدولة ، وأنها دعوة للإنسان كي يأخذ مصيره في يده ، ويتسلح على القدر بدلا من أن يخضع للقدر " (2) .

هذه بعض آراء سلامة موسى في النهضة ، ولكن ما يلاحظ عليه أنه في حين يعيب علينا النصارى ، ويدعونا إلى الكفر صراحة بشيد بحركة لوثر " المصلح الألماني " في نظره ، ويعتبر حركته " نهضة " أنت إلى نهضات أخرى ، اجتماعية وسياسية ودينية ونفسية . فهي : " أحييت نفوس أوربا ، وحققت لها حرية الذهن ، وحرية الضمير ، وتقرير مصير النفس الإنسانية ، وأدت إلى حرية الضمير التي نولاهما لما أمكن العلماء أن يكتشفوا ما اكتشفوا من حقائق علمية " (3) .

ما سبق يبين بوضوح اعتباره التخلف هو الإسلام ، والنهضة هو المسيحية ، وإلا كيف يرى أن النهضة لا تتحقق عندنا إلا بالكفر بالدين ، بينما الدين في أوربا هو أساس النهضة العلمية الحالية حيث وصلت أوربا إلى ما وصلت إليه بفضل " لوثر " وهذا رغم مغالطته ، فهو دعوة لنا لتغيير ديننا ونعتقد دين لوثر . وهي النظرة التي أنشأها رجال الاستشراق والكنيسة لتكريس الهيمنة الغربية على عالمنا كما ذكرنا قبلا مما يجعله منسجما مع النظرة الغربية للاستعمار في أنه أتى إلى بلادنا ليحضر الشعوب المستعمرة . كما رأينا في علاقة التبشير بالاستعمار . وبذلك فإن هذا الموقف استعماري غرضه تحييب الاستعمار للمستعمرين ليوطد أركانه ويستمر إلى الأبد . وهذا ما عمل له سلامة موسى وأنصار اتجاهه ، مما جعلنا نرفض هذا المفهوم للنهضة لما سبق ، ولأسباب أخرى ، منها :

- أنه ثبت بالاستقراء أنه ما من بلد إسلامي دخله الاستعمار إلا وحل به التخلف والخراب . فالاستعمار نفسه أحد أكبر عوامل التخلف ، والدليل على هذا الجزائر ، التي حول الاستعمار شعبها من العلم إلى الأمية ، ومن ملاكين إلى خماسين ، ومن مصترين إلى مستورنين ، ومن دائنين إلى مدنين ، وهكذا فما " أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي ... حتى ابتداء يعمل على تخلف المسلمين ، وعلى تنفيس الحقد الصليبي " (4) .

- الحضارة العربية الإسلامية أساسها الدين ، فقبل الإسلام لم يكن العرب شيئا ينكر ، وبه سادوا

(1) - المصدر نفسه ، ص 19 ، 22 .

(2) - المصدر نفسه ، ص 22 .

(3) - المصدر نفسه ، ص 144 ، 45 .

(4) - محمد أبيه ، الفكر الإسلامي الحديث ، ص 16 .

العالم خلال (40 سنة ، في حين نجد أوروبا لم تنهض إلا بعد وضع الكنيسة في حدود معينة مما يجعل أساس كل حضارة متضادا مع الآخر . كما أن التحليل التاريخي للحضارة الإسلامية يبين أن نهضة المسلمين كانت مترامنة طرديا مع تمسكهم بالإسلام ، وهيمنة شريعته على دولتهم ، وكان انحطاطهم مرتبطا بضعفه في نفوسهم وانحراقهم عن شريعته ، ومن هنا فإن كل المحن التي حلت بالمسلمين لم يجدوا لها من حل سوى بالرجوع إلى الإسلام<sup>(1)</sup> ، فكان ملاذهم الوحيد عبر التاريخ . وهذا عكس أوروبا التي ارتكزت نهضتها على العلمانية بعد أن كان انحطاطها مقترنا بهيمنة الكنيسة على الدولة والمجتمع<sup>(2)</sup> . ومن هنا فإن طبيعة الحضارة الإسلامية والغربية على طرفي نقيض ، " فلقد أثمر خروجهم من سلطان الدين نهضتهم العملاقة ... بينما كان خروجنا من سلطان الشريعة بداية الجمود والانحطاط "<sup>(3)</sup> .

ما سبق يوصلنا إلى نتيجة هي : " إن ما يسمى بعصر النهضة وهم زرع الغرب في عقول العرب ، ليحصدوا الخيبة فيما بعد ، ... فأين هي النهضة ؟ وأين نتائجها ونتائجها ؟ "<sup>(4)</sup> . إن هذه المرحلة تعد أهم مرحلة ازدهر فيها استلاب الغرب للشرق ، فازداد تمزقا وتخلفا ، وهذا برهان واقعي يندحض وجهة النظر الاستعمارية السابقة التي تبناها النصارى واللاتكيون الذين استخدموا مصطلح النهضة بالمفهوم الغربي الذي يعني التغيير الجذري الكلي الذي يتوافق مع تطلعاتهم<sup>(5)</sup> ، بينما هو لا ينطبق علينا ، لأن الإسلام بداخلنا لن يتغير ، وإلا انتهينا كأمة ، ولذلك قدينا مفهوم النهضة بـ " الحضارية " لإخراجها من دائرة التصور الغربي والتغريبي ، وربطها بالتصور الإسلامي ، وهو ما يتوافق تماما مع الاشتقاق العربي لكلمة " النهضة " الذي يعني الارتفاع ، أو المكان المرتفع ، لأن الشيء المرتفع يبقى كما هو ، ونقصد بذلك ، أن المجتمع كان في مرحلة ما غير فعال وغير قادر على تطبيق قدراته الكامنة لحل ما يواجهه من صعاب ، وفي إطار النهضة تفجرت طاقاته الكامنة فيه ، وصار قادرا على استخدام قدراته الكامنة<sup>(6)</sup> .

وبهذا فإن النهضة تعني : " تطبيق القدرات الكامنة في الإنسان المسلم على الحياة الواقعية ، مع بقاء الأمة وديانتها - وهي الإسلام - كما هي . وهذا يعني أن قدرات الأمة الكامنة كانت في وقت ما

- 
- (1) - ومن الأمثلة على هذا جهاد الجزائريين للاستعمار الفرنسي ، فكل انتفاضاتهم ضده كان منطلقها الدين ، ولم توجد أي ثورة ضده كان أساسها اللاتكية .  
(2) - محمد عمارة ، العلمانية ونهضتنا الحديثة ، ص 29 .  
(3) - المرجع نفسه ، ص 31 .  
(4) - عبد الحميد جيدة ، الأصالة والحداثة في تكوين الفكر العربي النقدي الحديث ، نط ، دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع ، طرابلس ، لبنان ، 1985 ، ص 87 .  
(5) - سماعيل الفاروقي ، النهضة الإسلامية في المجتمع المعاصر ، ص 51 .  
(6) - المرجع نفسه ، ص 53 .

غير فعالة ، ثم أدركت الأمة قدراتها الكامنة ، وأخذت تطبقها في حل مشكلاتها " (1) . ومعنى هذا أن النهضة تتحقق ببعث الإسلام من جديد ، أي الانطلاق من الأصالة وتحقيق المعاصرة ، وهذا يدعونا للإشارة إلى القسم الثاني .

### القسم الثاني :

هذا القسم هو الذي يتبنى الموقف الذي وصلنا إليه ، المتمثل في الجمع بين الأصالة والمعاصرة ، وقد ظهر هذا الاتجاه على مستوى العالم الإسلامي مع الحركة السنوسية التي : " تفوقت على جميع الحركات الأخرى في تطبيق المبادئ الإسلامية على مواد واهتمامات الحياة اليومية " (2) . كما عملت على أن تكون في مستوى عصرها (3) وإعادة الإسلام مجده الشيد كما بينا أثناء الحديث عنها ، ثم بعد ذلك تطور هذا الاتجاه مع الأفغاني (4) ، (ت 1897م) ، ونلميذه محمد عبده (ت 1905م) ، الذين وصل تأثيرهما إلى الجزائر بطرق مختلفة ، وهذا يدفعنا إلى الحديث عن بداية النهضة المعاصرة في الجزائر .

بدأت هذه المرحلة التي سميهاها بـ " المعاصرة " في الفترة (1900 - 1914م) ، وتقتصد بـ " المعاصرة " المرحلة التي حول الجزائريون فيها جهودهم من المقاومة الحربية للاستعمار إلى الإعداد النفسي والاجتماعي والثقافي لمواجهته ، والانبعاث من جديد . وذلك لأننا نعتبر أن النهضة لم تنقطع ، كما نعتبر مقاومة الجزائريين للاستعمار بالسلاح نهضة ، ولكن الجزائريين في هذه الفترة غيروا سبيل المقاومة من السلاح إلى الفكر ، فأطلقنا مصطلح " المعاصرة " تمييزاً لها عن المراحل السابقة .

وقد بدأت هذه المرحلة عندما أنشأ الجزائريون في سنة 1900م صحافة وطنية للتعريف بهويتهم ، وخدمة قضيتهم بعد أن ظلوا راكعين لصحافة المستعمرين ، كما أخذوا في إنشاء النوادي والجمعيات الإصلاحية ، وكتابة تاريخ أجدادهم وإحياء لغتهم (5) ، وذلك بعد أن هبت من المشرق العربي الأفكار الإصلاحية التي وصلت إلى الجزائر بوسائل مختلفة ، كالجرائد والمجلات التي كشفت للجزائريين ظروف إخوانهم المشاركة السياسية والاجتماعية والدينية . ومن أهم تلك الجرائد ، " المؤيد " (6) التي كانت تدعو إلى اليقظة وإصلاح المفاصل المنفصلة بين العرب ، وبعث حب الحرية ، والثورة على

(1) - المرجع نفسه ، ص 53 .

(2) - المرجع نفسه ، ص 62 .

(3) - المرجع نفسه ، ص 62 .

(4) - أغلب المفكرين يعتبرون النهضة قد بدأت مع الأفغاني ومحمد عبده ، مغفلين دور السنوسية التي سبقتهما والتي قامت بدور كبير في نهضة المسلمين ومحاربة الاستعمار ، وقد أشرنا إلى بعض هذا في الأوضاع الثقافية .

(5) - أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ط 3 ، ش و ن ت ، الجزائر ، 1983 ، ج 2 ، ص 139 .

(6) - أسماها الشيخ علي يوسف (ت 1913م) ، وكان دعامة الصحافيين ، وزعيم النهضة الإسلامية في مصر ، (سعد الدين بن أبي شنب ، النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن 19هـ ، ص 43) .

الاستعداد الاستعماري . وكانت تلك الجرائد تصل مباشرة ، أو بواسطة الحجاج ، أو غير ذلك (1) .  
كما أن إنشاء المكتبة الثعالبية ومطبعتها بالجزائر في سنة 1896م كان له أثره البارز في نشر  
الثقافة الإسلامية الزاخر واستيراد ما جدد من كتب في المشرق . كما أصبحت نانيا يلتقي به  
المفكرون (2) .

يضاف إلى هذا زيارة محمد عبده إلى الجزائر في سنة 1903م ، والنقاؤه بعلمائها خلال 10 أيام .  
كان له أثر طيب ، وكانت خلاصة نصابه لجلسائه : " الجد في تحصيل العلوم الدينية و  
الدينية " (3) .

ولكن ما يجب الإشارة إليه ، أن الجزائر كالمشرق ، لم تخل من دعاة التغريب الذين برزوا إلى  
الوجود في الفترة التي ظهر فيها الاتجاه الإصلاحية ، وسموا أنفسهم بـ : " النخبة " ، التي عرفنا  
أحد أعضائها بأنها : " ثريات الشباب المتخرجين من الجامعات الفرنسية ، القادرين بأعمالهم أن  
يصعدوا فوق الجماهير ، وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقية " (4) .

وما يجب الإشارة إليه ، أن هذه النخبة رغم قلة عددها الذي لم يزد على 450 فردا في سنة  
1907م ، فإنهم " كانوا يعتبرون أنفسهم أقلية ممتازة ، منفصلة عن أغلبية ناقصة تتكون من فلاحين  
جهلة ، ومرابطين خرافيين ، وعلماء رجعيين ... " (5) . وقد تبنت هذه النخبة أفكار الفرنسيين  
وطريقة عيشهم . وأخذوا يعملون على تغريب المجتمع ومحوه من الوجود ، وأضحوا يشعرون بسبب  
تعليمهم الفرنسي بأنهم قطعوا من بقية المجتمع الذي كان غريبا عنهم ، ففقدوا لغتهم وانتماءهم  
الحضاري واتجهوا نحو - أهم - فرنسا ، فتزوج كثيرهم بناتهن ، وتكلموا لغتها ، وعتما أبناءهم  
في مدارسها ، فضاغوا وضيعوا ، وتعقدوا بإحساسهم بأنهم فوق الجزائريين وتحت الفرنسيين (6) ،  
وانتهى بهم الأمر إلى الدعوة للاندماج والتجنيس .

والنتيجة التي نصل إليها ، أن هذه النخبة تحمل نفس أفكار النصارى واللاتكيبين المشاركة ، وقد  
بيننا قبلا ، أن مفهومهم للنهضة استلاب ومسح ، لأن النهضة الحقة ، هي التي تربط مستقبلنا بماضيها  
وليست التي تفصل بينهما .

ومن هنا فإننا نعتبر النهضة الحضارية المعاصرة (7) في الجزائر هي التي بدأت عندما أخذ ابن

(1) - المرجع نفسه ، ص 40 ، 41 .

(2,3) - المرجع نفسه ، ص 41 - 43 .

(4,5) - سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج 2 ، ص 167 ، 168 .

(6) - ومن أراد التوسع فليرجع إلى : سعد الله ، المرجع السابق ، ص 167 - 170 .

(7) - التقسيم الغربي لعصور التاريخ الأربعة مبني على أسس حضارية خاصة به ، ولذلك لم نقيد به .

بأنيس في التعليم في سنة 1913م (1) ، لأنها هي التي قومت الاستعمار والتبشير ، وثبتت المفهوم الصحيح للنهضة ، كما نعتبر ما قام به مالك بن نبي من فكر وعمل من صميم النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر ، وكذلك بعض الزوايا الصالحة التي يمكن انضواؤها تحت مفهوم « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » . ويكمل هذا ويتكامل معه ما قام به حزب الشعب الجزائري وصارت قمة نضوجه جبهة التحرير الوطني التي حررت البلاد من الفرنسيين ، وبذلك تنحصر النهضة الحضارية المعاصرة في تصورنا فيما قام به كل من : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ومالك بن نبي ، وجبهة التحرير الوطني (2) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- 
- (1) - نحن لا نذكر الإرهابيات التي سبقتها ولكنها قامت في نظرنا بأعظم عمل حضاري هو المجتمع الجزائري نحو الأبحاث من جديد .  
 (2) - ومن الأكلة على هذا أن كل هؤلاء قاوموا الاستعمار الفرنسي وكلهم قاوموا الفزعة البربرية في الأربعينيات وقبلها وبعدها ، وهي كما سنبين أخطر أعمال المبشرين .



## القسم الأول

### مؤسسو التبشير في الجزائر

اقتصرنا في هذا القسم على أقطاب التبشير الثلاثة بورغاد ولافيجيري ودوفوكو، وذلك لأن هؤلاء الثلاثة كان لهم أكبر الأثر في تحديد إتجاهه ومفاهيمه وخططه واستراتيجيته. وهم انذين لازال لهم أكبر التأثير إلى يومنا هذا، ولقد رتبناهم وفقاً لتواريخ ميلادهم ودخولهم إلى الجزائر، حيث كان بورغاد أول من وصل إليها ثم لافيجيري ثم دوفوكو.

وقد قسمنا هذا القسم إلى أربعة أبواب جعلنا البابين الأولين في بورغاد، والباب الثالث في لافيجيري، والرابع في دوفوكو. ولتبدأ بالبواب الأول.

## السبب الأول

فرانسوا بورغاد (François Bourgade)

(1806 - 1866م) والأسس النظرية للتبشير

ذكرنا في العلاقة بين التبشير والإستعمار أن أول راهبة حلت بالجزائر بغرض التصير هي إميليا دوفيلار، وذلك بتاريخ 10 أوت 1835 م، قرأت أن تتخذ قسيسا مرشدا لفرقتها ( فرقة القديس يوسف)، وكان هذا القسيس هو الأب فرانسوا بورغاد (F. Bourgade)<sup>(1)</sup> الذي تعرفت عليه بفرنسا وأشرفت على تكوينه اللاهوتي في مدينته<sup>(2)</sup> فوصل إلى الجزائر سنة 1838م بناء على طلبها بعدما أذن له بذلك كل من وزير الحربية بباريس، والوكيل المدني بالجزائر<sup>(3)</sup>. فمن هو بورغاد؟ وما هو منهجه في التبشير؟

عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، ص48.

(2) عمر محمد الخرفي، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية (1830م - 1881م) الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، تونس، ص25 (رسالة جامعية غير منشورة).

(3) خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص48 ، 49.

## الفصل الأول

### حياته وأفكاره ومنهجه التنصيري ( الجانب الكنسي )

#### حياته :

ولد بمدينة نانسي سنة 1806م، وتعلم بها المرحلة الابتدائية، ثم شرع في التعليم الثانوي، ولكنه لم يتمه ليلتحق بالمدرسة اللاهوتية التي كانت له رغبة كبيرة فيها، وفور تخرجه منها طفق يمارس المهام الكنسية، ثم استقدمته فليار إلى الجزائر<sup>(1)</sup> بغرض التصير ومواصلة بناء صرح الاستعمار الفرنسي والتمكين له، وما أن وصل إلى الجزائر حتى فتح مركزا خيرا جديدا بمدينة يوفاريك، وسلمه المارشال فالتي (Valée) مسجدا صغيرا قابعا لمستشفى الذي ليقيم فيه تعبيراً عن تقديره له. وقد بلغت به وفليار البجاجة واللاإنسانية اغتنام الظروف الحرجة للمرضى بالكوليرا ليعمنوهم ساعة الاحتضار<sup>(2)</sup>.

ولكن بورغاد - الذي يعد من ألمع المبشرين في كل من الجزائر وتونس - غادر الجزائر إلى تونس سنة 1840م رفقة فليار و " أخوات الصفاء الساعيات في مصالح الفقراء والمرضى إسعاء مرضاة الله". وذلك بعد خلافهما - الظاهري - مع أسقف الجزائر ديبش (Antoine Adolphe Dupuch)<sup>(3)</sup>، وسبب ذلك أن فرقة فليار (فرقة القديس يوسف) لم تكن تابعة له، فأراد أن يتأس عليها فرقتها فرفضت<sup>(4)</sup>. وغادرا الجزائر إلى تونس رغم مساعدة كل من المارشال بيجو (Bugcaud)، والأسقف مارينو بمرسيليا، والقسيس برجيس (Burgés)<sup>(5)</sup>.

ولكن السبب الحقيقي - في نظرنا - لمغادرة الجزائر إلى تونس هو تقاسم الأدوار، ذلك أن فرنسا كانت في حاجة ماسة إلى رهبان وراهبات من نوع بورغاد وفليار تمهد بهم لإحتلال تونس التي لم يكن بها عدد كافي من المنصرين والمنصرات عكس الجزائر التي أصبحت تعج بهم. والدليل على هذا أن نقله لتونس لم يتم إلا بعد اتصال فليار بزوجة سفير فرنسا بتونس " دلقو" (Delgou) التي بينت حاجة الجالية المسيحية والكنيسة الفرنسية بتونس إلى قساوسة فرنسيين من نوع بورغاد، وأن زوجها " دلقو" يبحث عن قسيس فرنسي ليقوم بمهام كنيسة "سان لوي" بقراطاج. فاتصلت فليار بدلقو فلبى طلبها، فسافرت إلى فرنسا لتتبع وزير خارجيتها فيزو (Guizou) بالدور الذي سيلعبه بورغاد في تونس لصالح فرنسا. فنتج عن هذا الاتصال المكثف لفليار بين تونس والجزائر وفرنسا عملية نقل بورغاد إلى تونس سنة 1840م<sup>(6)</sup>.

(1) عمر محمد الحربي، المرجع السابق، ص26.

(2) Pans Mgr, La Nouvelle église d'Algérie, d'Afrique, Tunis, 1930, Page 113. وهو ما سيفعله لافيجري كما سنذكر أثناء

تعرضنا له.

(3) الحبيب الخنجان، حركة التطور والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19، الملتقى 7 للتعرف على الفكر الإسلامي (تيزي وزو) وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1973، م3، ص1060.

(4) (5) صديحة بقطاش، المرجع السابق، ص 49، هامش ص26، ص73.

(6) عمر محمد الحربي، المرجع السابق، ص26، 49، 50.

يضاف إلى هذا ، معارضة "دييش" مغادرة قننار و بور غاد إلى تونس لإحتياجه إليهما بسبب ما يمتازان به من نشاط، ولكنه في النهاية سمح لهما، وبعد ذهابهما إلى تونس بقيا على اتصال مستمر وتسيق دقيق معه<sup>(1)</sup>. ثم مع خلفه "باي" مما يدل على صحة وجهة نظرنا.

وهكذا وصل بور غاد إلى تونس، وما أن وصلها حتى أنشأ معهد "سان لويس"، وذلك سنة 1841م وأقام به أول قدامس. وذلك أنه بعد سقوط الجزائر في سنة 1830م فرضت فرنسا ميثاقا ميثاقا لبيس (Mathiende Lesseps) على باي تونس معاهد في 17 صفر 1246 هـ الموافق 8 أوت 1830م، ينص فصل سري منها على التنازل الأبدي لفائدة فرنسا عن ريو "بيزصا" قصد إنشاء معهد تخليدا لذكرى ملك فرنسا لويس 9 (Saint Louis) المتوفى في ذلك الموضوع سنة 1270م<sup>(2)</sup>. ولكن بور غاد يرى بأن فرنسا لم تستفد من هذا التنازل حتى تتوسي لعدة أسباب، منها جهاد الجزائريين الاستعمار الفرنسي ولا سيما الأمير عبد القادر<sup>(3)</sup>. فقرر الاستفادة من تلك المعاهدة ابتداء بإنشاء ذلك المعهد.

وتعددت نشاطه بتونس، فإضافة إلى المعهد، فقد أسس معهد "سان لويس"، ومستشفى، ومطبعة حجرية، وألف كتابا في اللغة الفينيقية<sup>(4)</sup>. وآخر في الرد على رينان (Renan) في كتاب "حياة عيسى"<sup>(5)</sup>. وأنشأ جريدة البرجس (Le Birgys) بباريس<sup>(6)</sup> سنة 1863م. كما ألف ثلوثه الشهير، وهو "مسامرة قرطاجنة" (Soirée du Carthage) في سنة 1847م، و"مفتاح القرآن" (La Clef du Coran)، و"المرور من القرآن إلى الإنجيل" (Passage du Coran à L'evangile) سنة 1855م.

كما أسس سنة 1847م "جمعية سان لويس"، أو حملة صليبية هدفها نشر الحضارة المسيحية، بين المسلمين بواسطة مؤلفات مكتوبة في لغتهم أو مترجمة إليها<sup>(7)</sup>. وقد توفي بباريس سنة 1866م بعد أن اعترفت الدولة الفرنسية بدوره الفعال في خدمة سياستها في أقطار المغرب العربي، فقلدته وسام الشرف الفرنسي<sup>(8)</sup>.

### منهج بور غاد التنصيري ( الجانب الكنسي ) :

لقد تبين لبور غاد وهو بالجزائر فشل الطريقة التي كان يقوم عليها التنصير، وهي الإحسان، فقرر إحداث فلسفة جديدة لا تهمله، ولكنها تصيف إليه وسائل أخرى تكون أكثر نجاعة وفعالية، هي :

(1) عمر محمد الحري، المرجع السابق، ص 26، 49، 50.

(2) عبد المجيد الشرقي، الحركة التنصيرية، في تونس في القرن 19، حوليات الجامعة التونسية، تونس 1971م، ج 8، ص 134.

(3) ومن أراد معرفة كل الأسباب التي ذكرها بور غاد، فليرجع إلى :

Abbé F. Bourgade, Association de saint Louis, Paris S.D. 31, P 22 . نقلا عن عبد المجيد الشرقي، المرجع السابق، ص 134.

(4) Toison dor de la langue phénicienne, Tunis, 1866.

(5) lettre à M.E. Renan à l'occasion de son ouvrage intitulé vie et jésus, Paris, 1864

(6) عبد المجيد الشرقي، المرجع السابق، ص 134

(7) المرجع نفسه، ص 134-136.

(8) المحبب الجتجان، حركة التبشير، الملتقى، 7، 3م، ص 1061.

التعليم، التطبيب، إحياء النزعة العرقية بتقسيم المجتمع إلى عرب وبربر، الاستعانة بالمستعدين أنفسهم في التصير، إنشاء الجمعيات التصيرية، الكتب والنشريات.

**التعليم** : و نه ثلاثة أهداف جوهرية، هي : الفرنسية والتغريب والتتصير. ولذلك يعتبر بورغاد المدرسة وسيلة جوهرية لتحقيق أهدافه هذه، فيقول : " ... إن التعليم والدين يبدآن مبكرا في نفوس الأطفال، وإن العقيدة تغرس في نفس الطفل المسلم منذ الصغر، في البيت أولا، وفي المدرسة ثانيا. فعلى أن نبدأ من حيث بدأ الإسلام"<sup>(1)</sup>. ولتحقيق هذا الغرض، فقد أسس مدرسة ومعهد سان لويس، كما أسس سنة 1846 م روضة للأطفال بتونس، أدارها بنفسه وأعد لها البرامج، وكانت تجمع بين 40 و 50 طفلا سنويا<sup>(2)</sup> من أبناء المسلمين، وكان هو ذاته يشتغل بالتدريس بجانب فليار، فكانا يدرسان في الصباح ويشغلان بالتمريض في المساء"<sup>(3)</sup>.

ولأهمية ما قام به بورغاد في ميدان التعليم خدمة لفرنسا والنصرانية، فقد وردت إليه رسالة شكر وتأييد من أسقف الجزائر بافي (Pavy) باسم سوتار (Souter)<sup>(4)</sup> أسقف تونس، فورد فيها : " ... إن الأب بورغاد يعد مبشر الإنجيل بحق، إذ تمكن بفضل مواهبه وحسن توجيهه لموارد الإحسان والصدقة أن يشيد بتونس معاهد يلتقي فيها المسيحيون والعرب المسلمون واليهود يتكلمون فيها لغتنا، والمبادئ الأولية لمعرفة أسس حضارتنا... استطاع أن يكون النواة الأولى للتصير في أنفسهم... هل نعرف أجلى وأنفع وأنجع من هذه الطريقة لنشر الإنجيل في تونس؟! "<sup>(5)</sup>.

هذا النص يبين بجلاء أن الفرنسية والتغريب هما القاعدة الجوهرية أو البنية الأساسية للتصير، وهو ما قرره "بافي" فمدح بورغاد على تأسيسه المدارس التي تحقق هذا، ونحن نعلم أن هاتين القضيتين: الفرنسية والانبهار بالحضارة الغربية قاعدتان أساسيتان من قواعد الحركة البربرية، ويسمون القاعدة الثانية بـ "العصرنة" و " الحداثة"، وذلك لذر الرماد في العيون.

**التطبيب** : اعتبره بورغاد من أهم وسائل التأثير والتتصير؛ لأنه "حيثما وجد بشر وجد المرض، وحيثما يوجد المرض تكون الحاجة الملحة إلى الطبيب، وهي فرصة ذهبية لإدخال المرضى إلى الحضيرة النصرانية المقدسة"<sup>(6)</sup>. وتكمن أهميته في أنه " يمكن للطبيب المبشر.. أن يخاطب المسلمين بكلام يبين لهم فيه أهمية المسيح وقدرته على إنقاذهم من المرض والفقر والضعف إذا ما سلموا أنفسهم له وتتصروا... لو سمع هؤلاء المرضى... هذا الكلام في سكان غير المستشفى ومن شخص غير الطبيب لامتلأوا غضباً وغضباً، وقاموا برد فعل عنيف ضد النصرانية والمنصرين تكون عاقبته وخيمة على العمل

<sup>(1)</sup> Ar Noulet, La penetration intellectuelle en Tunisie Avant le pretererat, Paris, 1954, p 75

<sup>(2)</sup> ST. Maria, Revue, Africaine vision Intellectuelle, Tunis, 1954 , p 144

عن عمر محمد الخري، المرجع السابق، ص 55

<sup>(3)</sup> عمر محمد الخري، المرجع السابق، ص 49.

<sup>(4)</sup> هو راهب إيطالي، تولى النيابة البابوية بتونس منذ 1830م إلى عهد لاجبجري، ( عمر الخري، المرجع السابق، ص 30).

<sup>(5)</sup> D. Ar Noulet, Association de Saint Louis, page 159.

<sup>(6)</sup> فرانسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة - المقدمة - طبعة باريس 1847م، ( نقلا عن الخري، المرجع السابق، ص 47)

التصويري"<sup>(1)</sup>. ولهذه الأهمية، فقد أسس المستشفى الذي أطلق عليه اسم "سان لويس"<sup>(2)</sup>، وكان يمارس التطبيب بنفسه كما ذكرنا قبلاً.

**إحياء النزعة العرقية بالدعوة إلى البربرية:** أو إحياء تاريخ ما قبل الإسلام بغرض إضعاف الإسلام في نفوس المسلمين وضرب الوحدة الوطنية في الصميم وإرجاع الأهالي إلى الجاهلية النصرانية. وذلك بتحويل وجهة الناس، حكاما ومحكومين، إلى القوميات بغرض نبذ الإسلام وراءهم ظهرياً. وهذا ما تقوم به الحركة البربرية حالياً، وهو أحد مرتكزاتها - وقد بين أهمية هذا العمل في التصوير بقوله: "... تحدثوا لهم عن تاريخهم... اعطوهم فكرة عن كانوا في الماضي في هذه الربوع قبل الفتح الإسلامي، إن احترامكم لتراثهم هو وسيلة فعالة تجعلهم يحترمون تراثنا النصراني ويتقبلونه"<sup>(3)</sup>. وذلك لأنهم سيقنعون، بأنهم كانوا نصاري فيحنون إلى النصرانية ويقعون في الشرك. وبهذا فإن الدعوة إلى إحياء البربرية بغرض تجديد الحضارة النصرانية السابقة في المنطقة، غرضه بث البلبلة، وتشكيك المسلمين في دينهم، وإرجاع للمسيحية ما فقدته بمجئ الإسلام. ومن أجل هذا الغرض:

- طمس الحضارة الإسلامية ومسح المسلمين وتمزيق وحدتهم - ألف كتابه السالف الذكر " اللغة الفينيقية - طمس الحضارة الإسلامية ومسح المسلمين وتمزيق وحدتهم - ألف كتابه السالف الذكر " اللغة الفينيقية ( Vision d'ore de la langue phinicienne ) سنة 1856م. أراد من خلاله تجديد الروح البربرية، لادراكه بأنها ثغرة مهمة يمكن من خلال الغزف على أوتارها تشتيت المسلمين، وتمزيق وحدتهم شر ممزق مما يذهب ريحهم ويمكن فرنسا من رقابهم، فيتسنى لها السيطرة والاستقرار في المنطقة"<sup>(4)</sup>. وقد بين بورغاد هذه المعاني صراحة في الرسالة التي أرسلها إلى البابا موضحاً له فيها غرضه من تأليف كتاب " اللغة الفينيقية"، فذكر أنه "تقسيم الشعب العربي المسلم إلى بربر وعرب، وطمس رسالة الإسلام، والرجوع إلى الحضارة المسيحية ما قبل الإسلام"<sup>(5)</sup>. وما يجب ملاحظته أن هذا العامل يتفق فيه مؤسس التبشير الثلاثة، بورغاد ولافيجيري ونوفوكسو، وهو قاعدة جوهرية من قواعد الحركة البربرية.

**الاستعانة بالمسلمين في التنصير:** وذلك كما يأتي :

أ- **استئانة الحكام وتسخيرهم لخدمتهم:** أي الاتصال بالطبقة الحاكمة وكسب ودها وتسخيرها. ويتمثل هذا جلياً في اتصالهم بأحمد باي -باي تونس- وتسخيرهم له لخدمة أغراضهم، وهذه الطريقة متبعة اليوم مع الأنظمة العربية وحكام المسلمين الآخرين. ومن طرق استيلائهم: اتباع منهجية المصح لهم والتعظيم والنخ فيهم ليعتقدوا أنهم كذلك فعلاً ويقعون في شركهم، وهو ما بينه بورغاد بقوله :

(1) M.G.R. Agons, Nouvelle église d'Afrique, Tunis, 1930, page 220

(2) هذا الاسم في حد ذاته بين وحدة الهدف بين السياسيين والمبشرين، وإلا كيف يسمى الرهبان المستشفى باسم ملك فرنسا ويطلقون عليه لقب "القدوس"؟.

(3) D. Ar Noulet : Association de Saint Louis, page 1-2.

(4) عمر محمد الخري، المرجع السابق، ص56.

(5) أ.د.ت. ملف 755، صندوق 64، ( عن الخري، المرجع السابق، ص56).

"... امدحوا كبارهم، ارفعوا معنوياتهم، تلك وظيفة لاضفاء النكاء على الناس وجعلهم أكثر إستعدادا لقبول آراء الغير..."<sup>(1)</sup>.

ولما كان هذا التأثير لا يتم بجهود المبشرين وحدهم، فكان رجال السياسة<sup>(2)</sup> يتدخلون بالضغط والمساومات وغير ذلك من الوسائل، وهو ما أثمر في أحمد باي - باي تونس - فتنازل عن أراضي المسلمين للمنصرين، ثم كافأ المنصرين على تنصيرهم للمسلمين.

ب- استمالة المثقفين المسلمين وتسخيرهم لخدمتهم: وفي هذا الإطار فقد إستخدم بورغاد أحد خريجي الزيتونة، وهو سليمان الحرابري<sup>(3)</sup> ليحقق أهدافه المتمثلة في التبشير والاستعمار.

إنشاء الجمعيات التنصيرية: وأهمها الجمعية التي أنشأها سنة 1847م وسماها "جمعية سان لويس أو حملة صليبية هدفها نشر الحضارة المسيحية بين المسلمين بواسطة مؤلفات مكتوبة في لغتهم أو مترجمة إليها"<sup>(4)</sup>. وقد حدد بورغاد بنفسه الهدف من هذه المؤسسات في الرسالة التي أرسلها إلى وزير خارجية بلاده قائلا: "... إن كل مؤسساتنا تعمل على تحقير الحضارة الإسلامية في هذا البلد - تونس - وضمه أكثر فأكثر للجزائر..."<sup>(5)</sup>. أي التبشير والاستعمار؛ لأن تونس لم تكن مسعمرة.

ولكن ماهي الطريقة والأفكار التي يعتمد عليها المبشرون لإمرار رسالتهم إلى المسلمين وإقناعهم بها؟ أي ما هو الأساس النظري - الفلسفي - الذي يحقق ذبيك الهدفين : التبشير والاستعمار؟.

(1) ArNoulet : Association de Saint Louis, page 1, 2 .

(2) عمر محمد الحري، المرجع السابق، ص 56.

(3) هو سليمان بن علي الحرابري، ولد بتونس سنة 1824م، تخرج من الزيتونة أستاذا في الرياضيات، أدرك بورغاد حسنه فاستماله إليه وقدمه إلى القنصلية الفرنسية بتونس، ساعد كثيرا البعثات التنصيرية فكوفي بتعبه في عدة مهام منها تدريس اللغة العربية لموظفي القنصلية، عمل مستشارا في القنصلية في فهم النصوص والأحكام الفقهية والعقود، وكتابها، كما عينه بورغاد مدرسا للغة العربية في معاهد التبشير كمعهد سان لويس، تخرج على يده أكثر مبشر مارس التبشير والسياسة معا في تونس، وهو ليون روش، إنتقل في سنة 1856م إلى باريس رفقة بورغاد ليساعده في إدارة جريدة البرنس التبشيرية، ولينولى رلاستها بعد وفاة بورغاد، ترجم "مسامرة قرطاجنة" إلى العربية في سنة 1859م، توفي بباريس سنة 1877م، ودفن بمقبرة الأب لاشاز بباريس ( الطيب العناني، جريدة الصباح التونسية، 17 فيفري 1972، أيضا : عمر الحري، المرجع السابق، ص 31، أيضا : الجنحان، المرجع السابق، ص 1061، أيضا الشرف، المرجع السابق، ص 135). ولكن الجنحان والشرفي ذكرا أنه تخرج من معهد "سان لويس"، ويمكن التوفيق بين كونه زيتونيا ومتخرجها من سان لويس بأن تعلم في ذلك المعهد الفرنسية ووسائل التبشير.

(4) عبد المهيد الشرفي، المرجع السابق، ص 134.

(5) Grapons, Nouvelle église d'Afrique , Tunis 1930, p 229.

## الفصل الثاني

### الأسس النظرية للتبشير ( الجانب الاستشراقي الكنسي )

من أجل التبشير أسس بورغاد جمعية "سان لويس" السالفة الذكر، وقد بين هدفه منها كما ذكرنا. أما أسباب تأسيس هذه الجمعية فقد وضعها بدقة في النشرة التي تحمل عنوانها قائلاً: "إن المسلمين يقسرون على النصارى وربما أكثر منهم تقاني أخوات الإحسان وحب القريب في الله، ولكن الأخوات لن يتوصلن أبدا بكل إخلاصهن وتقانيهن إلى أن يفعلن بين الأهالي أفضل مما فعله المسيح بمعجزاته<sup>(1)</sup> وأنواع الإحسان الأخرى التي رافقت خطاه، على أن المسيح لم يكن يكتفي بكسب القلوب، بل كان يستفيد من الاستعداد الأدبي الذي يحدثه في الذين يرد إليهم العاقية أو الحياة، فيحدثهم عن صحة الروح ويتركهم مؤمنين أو على طريق الحق"<sup>(2)</sup>.

وهكذا أدرك بورغاد أن الهجوم المباشر على الإسلام لا يحدث الأثر المطلوب، وأن أفضل وسيلة لتحقيق أهدافه تتمثل في إقناع المسلمين بالردة وإعتناق النصرانية<sup>(3)</sup>، وذلك بواسطة نشر كتب التبشير بينهم، وفي لغتهم. فعمل في هذه الكتب على اقحام المسلمين في محاورات وهمية خيالية، ذكية بسيطة الأسلوب، مضفيا عليها آداب الجدل المزيف، مظهرها نفسه وكأنه لا يرغب فيها، وبعيدا عن أي تفكير في الدعوة لدينه، ومثما بالموضوعية المطلقة، متبعا منهج التشكيك في الإسلام وحضارته وتاريخه، مبرزاً أن الغرب تقدم بالنصرانية وأن الشرق تأخر بالإسلام ليوصل المسلمين في هذه المحاورات إلى أنهم إذا أرادوا أن يتقدموا فما عليهم إلا أن يتصرفوا<sup>(4)</sup>. وقد أدى به هذا الأمر إلى تأليف ثلوثه الشهير.

### ثالث بورغاد

1- مسامرة قرطاجنة : (Soirée du Carthage): طبع بالفرنسية أولا بباريس سنة 1847م ثم ترجمه بورغاد بمساعدة سليمان الحريري وطبع طبعة حجرية بتونس سنة 1850م تحت عنوان : "مسامرة قرطاجنة، محادثات بين مفت وقاض وراهب نصراني"<sup>(5)</sup>. وقد صدر في جزئين، ج 1، به 119 ص، وج 2 به 127 ص. ثم أعيد طبع الترجمة العربية في جزء واحد في 173 ص، بباريس سنة 1859م

<sup>(1)</sup> وفي هذا المضمار كانت إحدى الراهبات تعالج مريضة ببلاد القبائل وتعيها بما فأحبتها وعبرت لها بذلك، فطمعت الراهبة في تصغيرها وأرادت أن تفصحها بذلك، ولكن تلك المريضة أكملت كلامها للراهبة قائلة: "ولكنك تفصك شيء واحد لو أكملت لصرحت أحب الناس إلى قلبي، فقالت لها على العز: وما هو؟ فأجبتها: النطق بالشهادتين. فذعرت الراهبة وهتت، وعلمت أن جهودها ذهبت هباء منثورا.

<sup>(2)</sup> F.Bourgade, Association de Saint Louis, page 5.

<sup>(3)</sup> عبد الحميد الشري، المرجع السابق، ص 135.

<sup>(4)</sup> عمر الخزي، المرجع السابق، ص 34.

<sup>(5)</sup> الحبيب الجنحان، المرجع السابق، ص 106، ونلاحظ أن بورغاد استخدم كلمة نصران ولم يستعمل كلمة مسيحي مع أن النصارى يرفضونه، لأنه هو المتداول وسط المسلمين آنذاك، وذلك لأن الذي يهيم هو الهدف وليس الجانب الشكلي.



بعنوان: "مسامرة قرصاجنة، وهي مناظرة في القرآن والإنجيل بين قاض ومفت وراهب". وكانت لغاية الترجمة مبسطة، قريبة من العامية ومخطوطة بيضا. كما أعيد طبع النسخة الفرنسية بباريس سنة 1882م<sup>(1)</sup>.

2- **مفتاح القرآن** : (La Clef du Coran) : طبع بالفرنسية فقط في سنة 1852م، ويحتوي على 17 محاوره، في 184 ص<sup>(2)</sup>.

3- **المرور من القرآن إلى الإنجيل** : (Passage du Coran à l'Évangile) : طبع بالفرنسية بباريس سنة 1855م في 235ص، ويحتوي على 18 محاوره، وكان بورغاد ينوي تسميته "قبة القرآن" (Dôme du Coran) كما بين ذلك في "مفتاح القرآن" حيث قال: "سيكون الغرض من المجلد الثالث صهر بعض الآيات القرآنية التي فيها فكرة الكثير من عقائدنا، وحتى من أسرارنا المقدسة مع الإنجيل". ولكن وصلته من أسقف الجزائر بافي (Pavy) رسالة مطولة مؤرخة في 28 جويلية 1852م إثر صدور كتابه "مفتاح القرآن"، ورد في آخرها: "... على أنني قد أود أن تعيد في كتابك القادم إلى الإنجيل بكل وضوح كل ما أخذه منه القرآن، وأن تنبه إلى التحريفات<sup>(3)</sup> العديدة التي توجد فيه من الإنجيل ومن كتبنا المقدسة الأخرى عوض أن تقدم ما سميت به بإدماج الإنجيل والقرآن"<sup>(4)</sup>. وهكذا أخذ بنصائح "بافي" وطبع كتابه الثالث سنة 1855م بعنوان "المرور من القرآن إلى الإنجيل". وهو ما يدل على التنسيق التام بين من في تونس ومن في الجزائر لتحقيق نفس الأهداف.

وهي أفكار بورغاد ذات الطابع الاستشراقي الكنسي.

<sup>(1)</sup> عبد الحميد الشرق، المرجع السابق، ص135.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص136، عمر الحزبي، المرجع السابق، ص33.

<sup>(3)</sup> التعبير الصحيح - في نظرنا - هو التصحيحات المعهدة التي صحح بها القرآن الإنجيل.

<sup>(4)</sup> P.Gabent, un oublié, l'Abbé Bourgade, Auch, 1905, p 35, 36.

## أفكار بورغاد ذات الطابع الاستشراقي الكنسي

تقد استقنيا هذه الأفكار من أهم كتاب لبورغاد، وهو "مسامرة قرطاجنة"، الذي كتب بمنهجية المحاورات وطبع في جزعين، الأول يحتوي على 8 محاورات، والثاني يحتوي على الباقي، ومجموع المحاورات 15 محاوراً. وشخصيات الحوار الأساسية هي: مفتي وقاض، وراهب. أما شخصياته الثانوية، فهي أخت من الأخوات المنصرات تبدأ المحاورات الأولى مع المفتي ثم تحينه إلى الراهب، وولي حضر المحاورات 10 كشاهد، لتجري المحاورات 11 بينه وبين الراهب. وبهذا شارك في الحوار من المسلمين القاضي والمفتي والولي، وكانت كل المحاورات تقوم أساساً على التحقير من شأن هؤلاء وتبيان جهلهم وحمقهم لغرض مهم، هو إقناع المسلمين بأنه إذا كان هؤلاء الثلاثة هم قمة المسلمين باعتبارهم يمثلون سلطاتهم الروحية والتشريعية والتنفيذية فهذا دليل على بطلان القرآن الكريم وصحة النصرانية، وهو ما يؤدي إلى ردة العامة بعد ردة خاصتها، وفي هذا السياق كذلك إظهار علو رجال الكهنوت عن علماء المسلمين لغرض زعزعة ثقة الجماهير بهم. وقد تبين لنا في الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية أهمية الولي مثلاً في التركيبة الاجتماعية للمجتمع الجزائري. وتحطيم البنية النفسية والاجتماعية للمجتمع له دلالاته وأهميته في التبشير وترسيخ أركان الاستعمار. ولهذا فقد وجه الكتاب العامة، يدل على ذلك بساطة لغته وقربها من العامة وخلطها بها أحياناً. وذلك لتأكده من استحالة ردة المتقين.

أما المحور الأكبر الذي بني الكتاب على أساسه فهو: إثبات أن القرآن ليس من عند الله وأن محمداً ليس نبياً وكل ما ورد في القرآن باطل. وقد اتبع - لتحقيق هذا الهدف - منهج التشكيك وإثارة الشبهات. وهو يستهدف الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة. وكثير مما أورده يكون أركان الحركة البربرية حالياً. ولنبدأ بعرض أهم ما ورد من أفكار ثم نعلق عليها.

### ظلم الإسلام للمرأة أو تحطيم قانون (الأسرة) الأحوال الشخصية الإسلامي :

بعد إشادة بورغاد بالراهبة التي ضحّت بكل شيء وإختارت العزوبية، وسخرت حياتها لخدمة البؤساء والمرضى يتوصل إلى نتيجة خطيرة جداً، وهي أنها أفضل من نساء المسلمين ورجالهم أيضاً<sup>(1)</sup>. ثم يبدأ المقارنة بين وضعية المرأة في كل من القرآن والإنجيل كما يأتي :

المرأة في القرآن والإنجيل : يزعم أن المسمنة تمنع من التعليم وتسمن كالحيوان قبل الزواج، تذهب كثيراً إلى الحمام، ولا تذهب إلى الجامع. ونتيجة لهذا فهي تتجب جيلاً مربى على الفواحش. أما المرأة

(1) فرانسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة، محادثات بين مفتي وقاض وراهب نصراني، ترجمة المؤلف (فرانسوا بورغاد) وسليمان الخرايري، طبعة حجرية، تونس، 1850م، ج1، ص7.

النصرانية المتزوجة فقد رباها الإنجيل، فهي مدرسة تربي أبناءها على الفضيلة وتساعد زوجها الخبير وتصلح الشرير<sup>(1)</sup>.

**قضية الطلاق** : إباحة القرآن الكريم للطلاق ظلم كبير للمرأة في نظره، ومساوى الطلاق هي : جعل المتزوجة معذبة نفسياً خشية طلاقها، وإنحرافها بعد الطلاق<sup>(2)</sup>. كما أنها لا تستطيع الزواج مرة أخرى عندما لا يكون لها بيت، وانطلاق يدعو المرأة إلى الزنا<sup>(3)</sup>، ومن هنا ينتقل إلى الهجرم على قضية الحدود في الإسلام.

أما آثاره على الأولاد، فهو إنحرافهم. فالبنات إلى الدعارة والأولاد إلى الإجرام، بسبب فقدانهم للحنان وانعدام من يربيهم على الفضائل، ليتوصل إلى الأفضل وهو منع الطلاق الذي حرمه الإنجيل وقال عنه "لا يفرق الإنسان ما أمر الله بجمعه"<sup>(4)</sup> بينما أباحه القرآن، وينتهز هذه الفرصة ليمدح الإنجيل على لسان الراهبة فيعرض عليها المفتي بأن الإنجيل محرف، فتجيبه بأن مهمتها معرفة ما يصلح حالها، وما تعلمه للصبيان. أما مناقشة قضية تحريف الإنجيل فلا يجوز لها مناقشته؛ لأنه مما "لا يقلد فيه السوان"<sup>(5)</sup>، وإن أراد مناقشة ذلك فما عليه إلا أن يتصل بالراهب<sup>(6)</sup>.

ثم ينتقل من هذه القضية إلى بيان مزايا النصرانية على السمنة، وأن منشأ الاختلاف إنما هو "اختلاف القرآن الكريم والإنجيل في أحكام النساء". ويؤكد على القوامسة والمهر والميراث والضرب وتعدد الزوجات.

ففي القرآن الكريم: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾<sup>(7)</sup>. وبهذا فالمرأة في القرآن أسفل من الرجل بسبب دفعه المهر. أما النصرانية فالرجل والمرأة فيها متساويان، وهي التي تدفع المهر ليكون سبباً في شرفها. أما الميراث، فالقرآن الكريم جعل للذكر مثل حظ الأنثيين مما يعني انحطاط المرأة، بينما غالبية النصارى يساؤون في الميراث بين الذكر والأنثى.

وأما الضرب، ففي القرآن الكريم: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن﴾<sup>(8)</sup>. أما النصرانية فالمرأة لا تضرب فيها أبداً، وإذا فصررت خاطبوا قلبها فتعود إلى صوابها<sup>(9)</sup>.

(1) فرانسوا بورغاد، المصدر السابق، ص 7، 8.

(2) المصدر نفسه، ص 24.

(3) المصدر نفسه، ص 48.

(4) المصدر نفسه، ص 11.

(5) المصدر نفسه، ص 24، 12.

(6) النساء / 34

(7) النساء/34.

(8) المصدر نفسه، ص 24.

**تعدد الزوجات** : يعيب على القرآن الكريم إباحة التعدد بأربعة و اتخاذ الجوارى، وكان التوراة لا تبيح ذلك. ويتهم المسلمين بسجن النساء وتقييد الجوارى بالسلاسل. ويختلق سببا غريبا وسخيفا في تبرير المسلمين للتعدد، نيبطله بسخافة أيضا. فيزعم أن المسلمين يعددون ليكثروا من نسلهم، ليتوصل إلى أنه كلما وجد التعدد قل الإنجاب وكثر العقم. وبرهانه على صحة كلامه هو ارتفاع سكان فرنسا التي لا تعدد من 24 مليوناً إلى 34 مليوناً خلال أربعين سنة فقط، أي من 1810 إلى 1850 م، وكذا تناقص سكان المسلمين عبر الأقاليم إلى حد أنهم سائررون إلى الفناء، وسبب النقص هو تعدد الزوجات<sup>(1)</sup>. ثم يستدل ببراهين أخرى على فساد التعدد، مستخدماً الآيات القرآنية ولكن على غير وجه استدلالها، فيرى:

- القرآن أخبر ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾<sup>(2)</sup>. فالتعدد مخالف للقرآن<sup>(3)</sup>.  
- القرآن أخبر ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾<sup>(4)</sup>. وبهذا فالرجل لا يستطيع أن يحب إلا امرأة واحدة، والباقيات يكرههن<sup>(5)</sup>.

- التعدد يؤدي إلى الغيرة والغضب والحقق، وكل هذا يؤدي إلى العقم. ويستند على صحة نظريته المتمثلة في أن التعدد يسبب العقم أن النبي ﷺ تزوج بخمسة عشر امرأة و 11 جارية ولم ينجب جميعهن سوى 5 ذكور و 4 بنات، ليتوصل إلى أن النصرانية معدن ولاداتها 8، وهي تلد أكثر من أربع مسلمات. وحتى لو كانت المسلمات تلدن كثيراً فأى دار تنتج لتربية أبنائهن وتوفير العيش لهم؟ ولذلك أصبحت المسلمات في نظره عقيمات لتناسب أمورهن الطبيعة<sup>(6)</sup>.

ويختم بورغاد براهينه على فساد التعدد وظلم الإسلام للمرأة، مستدلاً بفتح معاملة أحمد باي - باي قسطنطينية - مع نسائه، ويستخدم - للتعبير عن هذه الحادثة - تعبيراً مزدوجاً بالفائدة بالنسبة إليه، فهو يهدف من جهة إلى إقناع المسلمين بالتقديرية السلبيية ليستكينوا للاستعمار ويرضخوا له باعتباره قدراً من الله لا مفر منه، ومن حاول الثورة خالف قدر الله. ومن جهة أخرى يهدف إلى التشهير بأحمد باي، هذا البطل المسلم العظيم الذي حارب المعتدين واستمات في ذلك فأحب الناس وأحبوه، فيقولون: "لما أراد الله أن يدخل الفرنسيين إلى هذه المدينة - قسطنطينية - وجدوا في قصر الباي من هؤلاء النساء من في جلودهن

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 37-40.

<sup>(2)</sup> أناريات / 49.

<sup>(3)</sup> هذه الآية لا علاقة لها بالتعدد، وإنما تحدث عن أن الطبيعة في الأشياء مهما كان نوعها إنما هي الذكورة والأنوثة، وتعد هذه الآية من إعجاز القرآن الكريم العلمي.

<sup>(4)</sup> الأحزاب / 4.

<sup>(5)</sup> هذه الآية لا علاقة لها بالحب ولا بالتعدد، وإنما بالمعصر الداخلي المادي الذي هو القلب، وقد نزلت هذه الآية في رجل من قرهش يدعى " ذا القلبين " كان يقول " إن لي حورين قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد " فبنت كذبه وبينت استحالة اجتماع قلبين في شخص واحد، ( محمد على الصابون، صفوة التفاسير، ط4، دار القرآن الكريم، بيروت، 1981، م2، ص 511.

<sup>(6)</sup> أنانسوا بورغاده المصدر نفسه، ص 39-42.

أثر ضرب السيف<sup>(1)</sup>. وكان أحمد باي لم يكن له ساعة اقتحام الفرنسيين قسنطينة شيئا يعنه سوى ضرب زوجاته بالسيف. ونحن نتساءل هنا: أي دين هذا الذي يقوم على الكذب والتزوير؟ وأي رجال دين هؤلاء الذين يعملون على تحقيق أطماعهم بالكذب والتزوير؟ ولتخنها النصرانية. فلا يستغرب ذلك من رجالها ونسائها.

المهم أن بورغاد لا يتوقف عند الهجوم على أحمد باي، بل يذيل كلامه على لسان المقتي بمدح الفرنسيين المستعمرين، فهو من جهة يكره الأتالي في أبطاله كأحمد باي وغيره، ومن جهة أخرى يعمل على مسيء قلوبهم بحبب المستعمرين ليركنوا إليهم، فيقول: "فإن الفرنسيين منزهون على أن يقولوا جميع المسلمين يفعلون هكذا"<sup>(2)</sup>.

والواقع أن أثر الضرب في جلود النساء إنما هو من سيوف جيش الاحتلال. أما قوله "منزهون"، فمن هم الفرنسيون، هل هم أنبياء أم ملائكة حتى أصبحوا معيارا وقد تبين لنا فيما سبق وحشيتهم وبشاعتهم. بورغاد قبل أن يتم حديثه عن التعدد يقوم بموازنة بين المسلمين وبين النصارى، فيذكر أن هناك فرقا بين أمور النصارى وأمور المسلمين، وعلوم النصارى وعلوم المسلمين ونساء النصارى ونساء المسلمين... والسبب في ذلك كله - في نظره - هو القرآن الذي أباح التعدد فأدى إلى الخراب. ومن مضار هذا التعدد ولادة أطفال ضعفاء ومرضى<sup>(3)</sup>.

هذه هي النتيجة التي يصل إليها من كل ما سبق. وهي نتيجة متهافئة، وأبسط ما يثبتتهاقتها، هو: لماذا كان المسلمون الفاتحون أقوىاء، ففتحوا العالم خلال 40 سنة مع أنهم كان عندهم نظام التعدد؟

### الطعن في العبادات :

**الصوم :** ينطلق بورغاد من مفاضلة صوم الأريعيين عندهم على صوم رمضان عند المسلمين، فيبين أنه الكف عن أكل اللحم والشحم، والأكل مرتين فقط في النهار مع إطالة الصلاة، وأنه ليس واجبا على الشيخ والحبلى والمرضع والمريض والعامل في شيء صعب، لأن أكل الخبز من عرق الجبين هو الواجب الأول الذي كلفهم الله به. وأما المسلمون فإنهم يأكلون في رمضان كثيرا بدليل إرتقاج الأسعار، كما تسوء أخلاقهم فيه كثيرا فيكثرون من القسق والمذات ويتكاسلون عن العمل، حكاهم شديدو الغضب وقتيلو التفكير، وقضاتهم لا يثبتون في إصدار الأحكام، كما أن الصيام واجب على جميع الناس ماعدا المسافر والمريض ويجب عليهما القضاء، وهذا مناقض لرحمة الله<sup>(4)</sup>.

**مناسك الحج وثنية:** ينطلق بورغاد من النصرانية زاعما أن العبادة الدينية لا تكون إلا في الجامع والجامع يكون محرابه متجها إلى مكة لأن بها القبلة (الكعبة)، وبعد أن بين سبب احترام المسلمين لها، ينطرق إلى مناسك الحج، فيعتبرها وثنية؛ لأن الكعبة في نظره هي هيكل الأصنام، وكان كل منها في

<sup>(1)</sup>فرانوا بورغاد، المصدر السابق، ص 53 ، 54 .

<sup>(2)</sup>المصدر نفسه، ص 54 .

<sup>(3)</sup>المصدر نفسه، ص 56 - 58 .

<sup>(4)</sup>المصدر نفسه، ص 60 - 65 .

مكان محدد مثل الحجر الأسود. ولكن محمدا رمى بها وأوجب احترامها، وهذا الاحترام هو نفس مناسك الحج، وجميع المساجد ليس لها احترام إلا من الكعبة. واحترام الكعبة أصله من المشركين. وإن فصلت المسلمين ومناسكهم مملوءة بعبادة الأصنام والتي ثبتت مناسك الحج. والفرق الوحيد بين المشركين ومحمد ﷺ في نظره أنهم كانوا يتجردون من كل ملابسهم، أما هو فقد استعمل الإزارات<sup>(1)</sup>.

ثم ينتقل إلى الحديث عن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة، فيرى بأنه لما رأى أن مشركي العرب أبوا أن يتركوا الكعبة غير قبته إليها. ويتوصل من هذا إلى الطعن في خاتم الأنبياء -صلى الله عليه وسلم- فيتهمه بأنه "إذا اشتهى شيئا عمل به وسهله سواء كان مليحا أو قبيحا"<sup>(2)</sup>.

عيد الأضحى من وضع عمر : يزعم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - هو الذي أسس عيد الأضحى ليكمل ما نقص من دين محمد. وهذا - في نظره - دليل على أن عمر أعظم من محمد ولكن من سوء حظه لم يوح إليه<sup>(3)</sup>. وأما كون هذا العيد يوم 10 ذي الحجة أي يوم الفراغ من الحج، فهو تثبيت للعيد الذي كان في الجاهلية، وعمه عمر على جميع المسلمين<sup>(4)</sup>.

### الطعن في الحدود والقصاص :

الحدود : ينطلق بورغاد في اعتبار الحدود ظلما للمحدود ليعفو الزانية من المسؤولية باعتبار هذه الجريمة نكحة عن سوء التربية، وعن الطلاق. والحل في نظره منع الطلاق. فيه يقضى على الزنا. ومن قضية الحدود ينتقل إلى الطعن في قضية القصاص.

القصاص : يرى أن القصاص يتناقض مع أسماء الله الحسنى، فمن جهة يسمى الله عند المسلمين الرحمن الرحيم، ومن جهة أخرى له شريعة غاية في الصعوبة كما في القصاص: النفس بالنفس والنعين بالنعين والأنف بالأنف. وينطلق في اتهام المسلمين بأنهم يسمون الله "التدوس" وينسبون له آيات تعين النبي ﷺ على تحقيق هواه. ويسمونه "الكبير"، ويدخلونه في قضية النساء ليرتب أمورهم، بل ليسانة محمدا مراده وهواه. ويسمونه "الحكيم"، وينسبون له أنه بعث نبيا من غير دليل ولا معجزة. ويتوصل إلى أن محمدا ﷺ أتى ليغير الحرية التي في الإنجيل بالعبودية، وبهذا يحرف المسلمون معنى الحكيم<sup>(5)</sup>.

البرق : القرآن في نظر بورغاد أحله، والمسيح حرر العبيد كلهم<sup>(6)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 79 - 86 .

(2) المصدر نفسه، ص 88.

(3) المصدر نفسه، ص 88، 89 .

(4) المصدر نفسه، ص 89.

(5) المصدر نفسه، ج 2، ص 49، 50 .

(6) المصدر نفسه، ص 45، 46، ونلاحظ هنا أنه لم يفصل في هذه القضية، واعتبر النصارى الذين يعملون بالبرق مخالفين للإنجيل ( المصدر نفسه،

## الطعن في النبي ﷺ من حيث نسبه وسيرته ونبوته:

أ- الطعن في نسب المصطفى ﷺ : ويمثل هذا الطعن في أن أجداد النبي ﷺ كانوا مشركين منذ أنعي عام، وهذا عكس عيسى -عليه السلام-، فإن نسبه من حيث كونه ناسوتا، أمه خرجت من مؤمنين بأسمه وحده، ومن سيدنا إبراهيم، وأبوه روح القدس الذي نفخ في مريم فحبلت به. وأما من حيث كونه كلمة الله فإن نسبه قديم كما في إنجيل يوحنا في البدء كان الكلمة والكلمة كانت عند الله والكلمة أخذت جسداً.

كل هذا ليتوصل إلى أن نسب عيسى أحسن من نسب محمد ﷺ (1).

ب- الطعن في سيرة المصطفى ﷺ : ويمثل في أنه أباح الزواج بأربعة وما ملكت الإيمان بينما تزوج بـ 15 امرأة وكثير من الرقيق، فخالف بذلك الشريعة التي وضعها، ولكي يبرر فعله هذا - في نظر بورغاد- اختلق آيات ﴿ يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك التي أتيت أجورهن ... من دون المؤمنين ﴾ (2). ويتوصل من هذا إلى أن محمد ﷺ كان رجلاً شهواتياً جنسياً، ولكي لا يقدح الناس فيه ممن صحبته للذة النساء أتى بهذه الآية ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي... تسليماً ﴾ (3). ولما غضبت تساؤده من كثرة الضرائر أتى بأية مخالفة للأولى، وهي ﴿ لا يحل لك النساء... حسنهن ﴾ (4). ولكي يسكتهن ولا يفكرن في غيره من الرجال ولا يطالبن بالطلاق أتى بهذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي... عظيماء ﴾ (5).

يضيف إلى ما سبق الزعم بأن النبي ﷺ فتن بجمال امرأة زيد فأخبرت زينب زوجها بذلك فتركها زيد ليتزوج بها محمد، - وهذا في نظر بورغاد-، ضد الشرع والعادة، ولما وقع الهرج بين الناس في هذا أتى بهذه الآية ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ... مفعولاً ﴾ (6).

ويتوصل إلى نتيجة خطيرة هي : استحالة كون القرآن من عند الله واستحالة كون محمد ﷺ نبياً، وإثبات أن القرآن كلامه وليس كلام الله، حيث لا يمكن الوحي إلى رجل مولع ومفتتن بالنساء. فهو في نظر بورغاد رجل شهواني أحق (7). - تعالى رسول الله ﷺ عن كل هذا علواً كبيراً-.

ج- الطعن في نبوة المصطفى ﷺ : يضيف بورغاد إلى ما سبق إفتراءات ومغالطات أخرى ليطعن في نبوة محمد ﷺ وإثبات ألوهية عيسى أو الثالوث النصراني. فيتهم النبي ﷺ بأن الوحدانية التي علمها للقبائل العربية إنما تعلمها من اليهود والنصارى في سفره للمتجر، ولكنه تعلم النصرانية المخلوطة بالشرك بسبب

(1) انصدر نفسه، ص 30 - 32 .

(2) الأحزاب / 50 .

(3) الأحزاب / 56 .

(4) الأحزاب / 52 .

(5) الأحزاب / 53 .

(6) الأحزاب / 37 .

(7) انصروا بورغاد، للمصدر نفسه، ص 32 - 41 .

بعد الذين علموه إياها عن مجلس روما. فعندما تعلم منهم محمد ﷺ تعلم منهم أيضا ذلك الشرك، ومحمد نقص في الإنجيل و زاد فخربه. ثم يلجأ بورغان كعادته إلى الشتم فيقول: "محمد وأتباعه نفوسهم عكسرة كطود العبيد"<sup>(1)</sup>. وفي هذا - بعض النظر عن موقفنا منه، فإنه يتهم مباشرة الكنيسة الشرقية بعدما عن النصرانية، وتحريفها لها، والسبب في هذا بسبب، وهو أنها لم تكن مرتبطة بالفاتيكان، وهنا يقع فيما اتهم به الإسلام وهو إنقسام أتباعه إلى فرق، بينما هو يرى النصرانية أمامه منقسمة إلى فرق يتهم هو المخالفين له بالشرك، والمخالفون له يتهمونه بالشرك. ونحن نتساءل: من هم النصاري الذين على صواب؟!

بعد هذا يواصل كلامه ليبرهن على عدم نبوة محمد ﷺ منطلقا مما قرره علماء الإسلام من أن الأنبياء يجب أن يكونوا معصومين ليقرر أن محمدا ليس نبيا لأنه ليس معصوما في نظره. ويستدل كعادته بما ورد في القرآن مخرجا الآيات عن معناها ليحقق هواه، فيقول: قيل له في سورة المدثر ﴿والرجز فأهجر﴾<sup>(2)</sup>. وقيل له: ﴿ألم نشرح لك صدرك... ظهرك﴾<sup>(3)</sup>. وقيل له: ﴿إنا فتحنا لك... وما تلخر﴾<sup>(4)</sup>. وهنا يتوصل إلى فكرة غريبة عجيبة تفننت عنها عقريته، وهي التفريق بين النبي والرسول. فالرسول في نظره آلة الله يعمل بها أمرا عظيما ولا يلزمه الوحي<sup>(5)</sup>، عكس الأنبياء الذين لا بد لهم من الوحي، ويقرر أن محمدا ﷺ كان رسولا ولم يكن نبيا، مثله في ذلك كمثل نابليون بونابرت، فكلاهما عظيم ومحمد أقل عظمة منه. وسبب ادعاء محمد النبوة أنه أراد جمع العرب الوثنيين في دين واحد، فرأى أن وسيلة ذلك ادعاء النبوة بعد أن تعلم شيئا من النصرانية واليهودية، ومكث مدة منعزلا في جبل حراء ثم قال أوحى إلي بواسطة جبريل وادعى النبوة<sup>(6)</sup>. وهنا ينتقل إلى إتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف.

الإسلام والسيف: يزعم بورغان أن محمدا لم يستعمل السيف لنشر دعوته في البداية، لأنه لم يعرف أهميته آنذاك، ولما أدرك أهميته أخذ في استعماله لتثبيت ملكه ودينه، ووعد أصحابه بالجنة إن ماتوا دفاعا عن ذلك<sup>(7)</sup>. وبالعرف انتشر الإسلام. هذا العنف مبني في نظره على دعامين أساسيين هما:

الغنائم التي هي سرقة في نظره، ولذلك فإن أبطال ومثوك أوروبا لا يجيزونها، لأن السارق عدو الله. والوعد بالجنة التي فيها الخمر والماء. وأبطال أوروبا لا يعدون بهذا، لأنهم يعرفون أنه لا خمر ولا ماء في الجنة<sup>(8)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 43، 44، ويلاحظ هنا احتفاره للعبيد ودمه ثم وهو الذي يزعم عكس ذلك.

(2) المدثر / 5.

(3) الشرح / 1 - 3.

(4) الفتح / 1، 2.

(5) المصدر نفسه، ص 113.

(6) المصدر نفسه، ص 114، 115.

(7) المصدر نفسه، ص 115، 116.

(8) ونحن نستغرب كيف يكون الدين دينا وليس فيه دار آخرة، وليس فيها متع مختلفة؟ فلماذا يتعب الناس أنفسهم في العبادة إذن والأعمال الصالحة.



أما الوسيلة الأساسية التي استعملها محمد لجعل هذا ينحطلي على أتباعه فهي الجهل، فجهل المسلمين هو الذي جعلهم يتبعونه. أما عسكر النصرى فيهم في نظره لا يسرتون ولا يقتنون، وإن قتلوا إنما لتوصلوا للعاقبة لا للسرقه، ولا يجيزون أخذ الأموال إلا إذا لزم<sup>(1)</sup>. ونحن نسنا ندري متى لا يلزم. كما أن هذا الموقف يجعل تناقضا صارخا بين إِدْعائه وبين ما فعله أبناء جلدته في المسلمين. ويتوصل إلى أن النصرانية لا تستخدم العنف وإنما تقوم على الوعظ والصلاة وهذا دليل على صحتها وعدم نبوة محمد. ويورغاد هنا يقع في تناقض، فهو من جهة يرفض رسالة ﷺ متهما إياه بالأمية، ومن جهة أخرى يمدح الحواريين بأنهم كانوا خوافين جهالا ليتوصل إلى أنهم إذا فعلوا أمرا مهما فلا شك أنه جاءهم من عند الله<sup>(2)</sup>. ومحمد كان أميا فلماذا لا يقر بأن ما أتى به من عند الله؟. فإما أن يقر للطرفين أو يرفض ما عند الطرفين. وهذا دليل على البعد عن المنهج العلمي.

ويتوصل من خلال ما سبق إلى " عيسى لم يستعمل السلاح بل دائما قوة الله... ومحمد دائما يستعمل السلاح مجردا ولم يستعمل قدرة الله أبدا"<sup>(3)</sup>. والنتيجة التي يصل إليها هي : عيسى بن الله ومحمد مجرد بطل مصلح لأمر العرب لم يبرهن على رسالته بالمعجزات ولا بسيرته ولا بعظيم علمه<sup>(4)</sup>. ويختتم كلامه بالتهكم بالنبي ﷺ ، وينتقل إلى الهجوم على القرآن الكريم.

**الهجوم على القرآن الكريم:** يزعم أن القرآن الكريم لا يظهر منه تور، وسبب بقائه هو ستر وتغطية أخطائه وتناقضاته، فالجهل هو الضامن الذي تركه محمد وخلفاؤه من بعده لحفظ القرآن، ولهذا فإن الإسلام يحرم العلم. والدليل على ذلك حرق عمرو بن العاص مكتبة الأسكندرية مما جعل المسلمين يجهلون العظماء الذين وضعوا الشرائع ولا يعرفون إلا القرآن مما جعلهم يصدقونه من غير برهان. ويذكر أن سبب حرقه لخزانة كتب المكتبة أنه قال: " إذا لم يكن فيها إلا ما في القرآن فيمي عبث، وإن كان فيها أكثر مما فيه فهي تعارضه ويجب علينا حرقها. وهكذا نفع القرآن وحماه بالجهل ولم ينفع الحق"<sup>(5)</sup>. وهكذا ساد المسلمون بالجهل، وكلما انتشر العلم كفر الناس بالإسلام. ويتوصل إلى أنه سيزول الإسلام من الوجود ليبقى فقط دين عيسى<sup>(6)</sup>.

**اتهام الإسلام بأنه ليس فيه نظام سياسي:** وذلك لأن محمدا ﷺ لم يبين كيفية إختيار الأئمة مما أدى إلى الصراع الدموي بين المسلمين على الخلافة، كل واحد يدعي الخلافة لنفسه، بينما عدوه يعتبره على باطل. ويتوصل إلى أن الخلفاء الراشدين سفاكون للدماء الأجنبية ودماء بعضهم بعضا. ويسمي أبا بكر "أبوكم" تهكما. ويخلص إلى أن الإسلام دين مشتت، والوحدانية فيه ليس لها أصل، وأصل الخلاف

(1) المصدر نفسه، ص 116 ، 117 .

(2) المصدر نفسه، ص 73 - 76 .

(3) المصدر نفسه، ص 77 .

(4) المصدر نفسه، ص 78 .

(5) المصدر نفسه، ص 53 ، 54 .

(6) المصدر نفسه، ص 120 .

موجود في أصل الدين<sup>(1)</sup>. وبهذا فالإسلام في نظره ليس فيه وحدانية الله بدليل افتراق المسلمين إلى فرق مختلفة في الاعتقادات. فالصراعات الموجودة بينها والإختلافات تدل على انعدام الوحدانية، وليس فيه وحدانية العلم بدليل وجود ثلاث وسبعين مذمبا<sup>(2)</sup>.

**إنكار حقائق الإسلام الأخرى:** فهو ينكر العذاب في الدار الآخرة وينكر سؤال منكر وتكبير، لأن هذا يتناقض مع كون الله رحمانا رحيمًا حكيمًا، فإنه لا يظلم الناس ولا يعذبهم ولا يحكم إلا على شهادة الضمير كما أخبر بؤس لعنه الله، وجهل محمد صلى الله عليه وسلم في نظره هو الذي جعله يدعي هذا، وينكر كذلك نعيم الجنة وحورها، كما ينكر الإسراء والمعراج بحجة أن كلا من التاريخ ومعاوية وعائشة ينكره، كما ينكر يقية المعجزات الحسية الأخرى وينكر القضاء<sup>(3)</sup> والقدر إلخ. ثم ينتقل من حديث ليثبت بحجج مزيفة ويكلام صيباني أن الإنجيل وكتب النصارى لم تحرف، وأن محمدًا ﷺ ليس نبيًا لأنه لم يرد ذكره في كتب النصارى. وهنا يفيض في الحديث عن الفارقليط.

**الفارقليط: أو البارقليط:** معناه في تفسير بورغاد "المسلمي" وقد وعد به المسيح وقال: هذا هو الرعد الذي سمعتم من فمي، ويفيض بورغاد في الحديث عن معنى الفارقليط ليثبت عبثًا أن المقصود به ليس محمدًا صلى الله عليه وسلم وقد وقع في نظره زمن الحواريين، ويفسره بأنه "لما تمت الخمسون يوسا - بعد قيام عيسى وإرتفاعه إلى السماء - اجتمعوا كلهم في بيت المقدس... فسمعوا صوتًا عظيمًا... فاجتمع الشعب كله من ذوي تلك الصيحة وصار كل واحد منهم يسمع كلامًا بلغته... من يهود وعرب وفراعنة وغيرهم حتى القيروان، وروما... فما أعظم هذه المعجزة، وهذه أكبر شهادة على نبوة عيسى الله، وهذا هو البارقليط<sup>(4)</sup>."

(1) المصدر نفسه، ص 109، 110، 96 - 98.

(2) المصدر نفسه، ص (90-94)، 110.

(3) وأما قضية القضاء والقدر التي يهتم بها الإسلام فإنها لا تعني الجبر، ومع ذلك فإن بولس يقول لها، بل يعد أب القدرية. وهي من المسائل التي حاس فيها النصارى "... والصورة الكبرى التي اعترضتهم هي التوفيق بين "القدر" و"العناية"، بين الحرة والسفرة والواجب. وقد اشتعل اللاهوتيون المسيحيون بهذا التعارض على مدى القرون"<sup>1</sup>، ومن ذلك، فإن بلاجيوس كان يتكلم في مسائل الجبر والاحيار في بيزنطة، فيتعلم منه الزنطليون ذلك، ثم انتقل منهم إلى المسلمون<sup>2</sup>. وما يهمنا هنا أن السبب الذي جعل بورغاد يهاجم القضاء والقدر هو نفسه الذي جعل البروتستانت وعلى رأسهم لوتر ينادون بما لأها:

- تلغي المطهر الذي به يمكن لنفوس الموتى أن تنجو بالقداس.

- تلغي نظرية الغفران التي كان يعتمد عليها جزء من الدعل البابوي والتي يقول بها الكاثوليك إلى الآن - ومنهم بورغاد- حيث يعفر القسوس جميع الذنوب. فأصبح بنظرية القضاء والقدر مصير النفس بعد الموت مستغلا تماما عن أعمال القسوس، وهذا يهدم جزءا أساسيا من النصارية الكاثوليكية، وهو ما جعل بورغاد يصب على هذه النظرية التي ساعدت البروتستانت في صراعهم مع البابا، جام غضبه.

1- جورج سارتون تاريخ العلم، ترجمة لقيف من العلماء بإشراف لجنة مؤلفة من الدكتور إبراهيم بيومي مذکور وفسططين زريق ومحمد مصطفى زيادة ومحمد مرسى أحمد، دط، دار المعارف، مصر، 1970 ج4، ص 300.

2- هلي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط8، دار المعارف، مصر، (1981م، ج1، ص 100).

3- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة الحديثة، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م، ص 53، 54.

(4) المصدر نفسه، ص 28-30، 67-69. ونحن لا نعلق على هذا الزعم إلا بقوله تعالى: "كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا".

والواقع أن إفاضته في الحديث عن الفارقليط لا معنى له هنا، لأن العامة الذين كتب لهم، "مسامرة قرطاجنة" لا يعرفونه، مما قد يؤدي بهم إلى التساؤل حوله وهو ما يخرج كتابه عن رسالته التي كتب من أجلها وهي إقناعهم بالنصرانية لا تشكيكهم فيها، وهذا يجعلنا نعتقد أن بورغاد كان في قرارة نفسه متيقنا من أن المقصود به فعلا هو محمد ﷺ، ولذلك حاول في الإفاضة في براهينه على إنكار أن المقصود به محمد ﷺ أن يقنع نفسه عبثا، ولكن حجته السابقة كانت صبيانية لا يخفى على عاقل زيفها.

**إثبات عقيدة التثليث** : يبدأ الحديث عنها بشرح الصلاة عندهم فيبين أن الفاتحة عندهم هي "باسم الإبن والأب والروح القدس الله واحداً<sup>(1)</sup> . وهي أوجز من فاتحة المسلمين<sup>(2)</sup> . ويأخذ في شرح الثالوث مستدلا بالآيات القرآنية ولكن بعد إخراجها عن معناها الحقيقي والمجازي لتناسب هواه. ويعتبر اليهود قتلوا الجسد الحيواني ولم يقتلوا كلمة الله، والمسلمون يعتقدون أن الذي صلب شبيهه وليس هو، وهم في نظره مخطئون، ويشرح معنى الصليب والتماثيل الموجودة في الكنائس ليبين أنهم لا يعبدونها بل ليذكروا أصحابها مثلما يفعل المسلمون بالآيات القرآنية في المساجد، ويسفه فهم المسلمين ويتهمم بالضلال ويدين أن النصارى ليسوا ببداءة. وأما الآيات القرآنية التي تبطل التثليث وتعتبر المثليين كفارا صراحة، فلما لم يسغ له تأويلها كقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خیر لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾<sup>(3)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾<sup>(4)</sup> . فيبين - مستندا إلى بعض كتب التفسير كتفسير السيوطي - أن التوبيخ الوارد هنا خاص بفرقة من فرق النصارى دون غيرها كانت تقول بهذا زمن محمد ﷺ<sup>(5)</sup> ، وهو تبرير سخيف، فهو من جهة يعترف بوجود فرق متعددة في النصرانية مما جعل اتهام الإسلام بانعدام الوحدانية بسبب فرق المسلمين متهافتا، ومن جهة أخرى فإن تلك الآيات تصدق على كل من يقول بالتثليث في أي مكان وفي أي زمان مما يجعلها تصدق على بورغاد. ويوصل بورغاد من هذا إلى نتيجة خطيرة جدا هي أن المسلمين يظلمون النصارى بسبب كثرة التجسس التي عندهم على الدين، فهي التي تبعدهم عن الحق، والعارفون منهم ساكتون عن هذا لخبثهم<sup>(6)</sup> ، فهو إذن يقرر شيئين خطيرين :

1- إطلاق يد المنصرين في العبث بالإسلام وتصوير المسلمين دون مراقبتهم ومعرفة ما يكيدون للمسلمين، ومن حاول تتبع ذلك اعتبر متجسسا عليهم، أي لا يجوز للمسلم حماية دينه وليستسلم لدينهم.

<sup>(1)</sup> كيف يمكن أن تكون هذه فاتحة وقسمها الأول يناقض قسمها الآخر، إذ بدايتها: الله ثلاثة ولهايتها: الله واحد.

<sup>(2)</sup> كلمة سورة الفاتحة عندنا ليس في إنجازها، وإنما في عجزها وشكلها.

<sup>(3)</sup> النساء / 171 .

<sup>(4)</sup> البقرة / 73 .

<sup>(5)</sup> المصدر نفسه، ص 83 - 105 .

<sup>(6)</sup> المصدر نفسه، ص 111 .

2- تقسيم المسلمين إلى عامة جهلة وعلماء خبيثاء<sup>(1)</sup>، وبهذا فإن الإسلام فشل - في نظره - في بناء الإنسان المسلم. وبالمقابل: النصارى طيبون، علماء، إنسانيون، دينهم حق، إلى آخر ما ورد ليتوصل إلى إلزامنا أن نعتزف بأن المسلمين في ضلال بعيد، ويظلمون النصارى حيث يعتقدون أنهم كافرون<sup>(2)</sup>. وكلمة كافرون هنا لها أهميتها، لأنها مصطلح حضاري واجه به المسلمون النصرانية فأراد أن يحرمه من قاموسهم.

**الرهبنة:** ينتقل إلى الحديث عن الرهبنة ليبين فضل الراهبات وينزههن عن الولد ليتوصل إلى رفض الزواج بالحوار العيين في الجنة ويستند في ذلك كعادته إلى الآيات القرآنية ليستدل بها وفق ما يخدم هواه فيجدها لذلك من المعنى الحقيقي والمجازي معا ليتوصل إلى أن كل ما في الجنة هو النظر إلى جمال الله وعظمته، وذلك في نظره حسن جزائنا<sup>(3)</sup>. وغرضه من كل هذا: التشكيك في حقيقة الدار الآخرة وما بينه القرآن الكريم فيها ليتوصل إلى رفضه، أما ما يتعلق بالرهبنة فيبينه على مغالطة، وهي أن القرآن رفع درجات أصحاب البكارة على غيرهن، فمريم بكارتها استعظفت نظر الله إليها مستدلا بقوله تعالى: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم... العالمين﴾<sup>(4)</sup>. وهو يعلم أن تكريم مريم ليس لبكارتها بدليل أن امرأة فرعون استعظفت نظر الله إليها مع أنها لم تكن بكرًا ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون... الظالمين﴾<sup>(5)</sup>. بل نجد القرآن الكريم ذكر في سورة التحريم امرأة فرعون قبل مريم.

**تحريض المسلمين على الانغماس في الأخلاق الغربية:** وذلك من خلال دعوته لهم إلى معاقرة الخمر وأكل لحم الخنزير، وإعفاء الزانيات من المسؤولية.

**الخمر:** يزعم أنها ليست محرمة من حيث ذاتها، بدليل شربها في الجنة كما بين القرآن<sup>(6)</sup>. وإنما هي محرمة من حيث نتائجها، وبهذا فشرب القليل منها ليس حراما بل يمنع سرعة الشيب، ولذلك يجب أن يشربه العقلاء بقدر الحاجة دون الحمقى، والغرض أن يصبح الجميع حمقى ولا يبقى عاقل في البلد.

**الخنزير:** لحم الخنزير مع أنه عسير الهضم وخصوصا في المناطق الحارة إلا أن أكل القليل منه للأقرباء لا يضر. ولذا فليس محرما. والمسيح والحواريون أباحوا أكله لحكمة إنسانية، ومحمد حرمه نسي البداية ثم أحله في حجة الوداع بدليل قوله: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾<sup>(7)(8)</sup>.

(1) كلمة الخبيث هنا أوردتها بورغاد بنصها .

(2) المصدر نفسه، ص 118.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 36.

(4) آل عمران، / 42.

(5) التحريم / 11.

(6) بورغاد يتناقض مع نفسه، فهو قبل رفض كل نعيم الجنة مستدلا بالقرآن كالحور المون، والماء والخمر، والآن يستدل بشرها في الجنة معتمدا أيضا على القرآن الكريم.

(7) المائدة / 5

(8) المصدر نفسه، ج 1، ص 65 - 74.

**الزنا:** وأما الزنا فهو يدعو إليه من خلال الهجوم على حد الزنا في الإسلام وإعفاء الزانية من أي مسؤولية.

ولم ينس بورغاد خلال كل هذا أن يدعو إلى القدارة والوساخة، وذلك من خلال ما ورد في إنجيل يوحنا "أن يوحنا بن زكريا أظهر الناس بالماء وأما أنتم تطهرون بروح القدس"<sup>(1)</sup>.

**تحييب الأهالي في الإستعمار:** وذلك بتبينه أن تقدم الغرب وتفوقه إنما حصل بالنصرانية، وأن النصارى يحكمون بالعدل ولا يظلمون الأمم الأخرى، وهم ليسوا كفارا لأنهم إنتصروا. والقرآن يقول "والله لا ينصر القوم الكافرين"<sup>(2)</sup>. وبذلك فهم على الحق. وهم متقون متعبدون. وإذا فتحوا مدينة فذلك بقدرة الله، وبهذا فإن النتيجة المنطقية هي الرضوخ لهم والإستكانة، وإلا خالف المسلمون قدر الله. ويكمل هذه الفكرة بالدعوى إلى حب جميع الناس؛ لأن المسيح أتى لخلاص الجميع وواجب على أن أحب الجميع لأن الناس إخوة<sup>(3)</sup>. وبهذا يجب على الخروف أن يحب الجزار. ولما كان هذا لا يكفي، فرأى بأنه لابد من تكريه الأهالي في عظمتهم. ولتحقيق هذا الغرض فقد خصص فصلا طويلا في نطاق المحاوراة الأولى من كتابه الثاني "مفتاح القرآن" عرض فيه مشاريع الحكومة الفرنسية الرامية إلى تحسين حالة الأهالي في الجزائر والتشجيع على الأمير عبد القادر وأتباعه، مبينا أن سلوك الأمير - الجهاد - يضر بمصالح العرب والإسلام أكثر مما ينفعهما<sup>(4)</sup>. كما حرص الأهالي على ترك التعصب<sup>(5)</sup>.

**العمل على تحويل قبيلة المسلمين من مكة إلى روما:** بعدما نقد القرآن وسب النبي ﷺ وبين أنه ليس نبيا واتهم الخلفاء وأنكر كل ما ورد في القرآن وجه أنظار المسلمين إلى روما باعتبار ما يأتي منها لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ويعتمد في هذا على برهان تافه مضمونه أن روبرير - غلام الراهب - يتعلم من القسيس الذي عنده كتاب ألفه، هذا الكتاب صحيح ويستحيل أن يكون به خطأ، لأنه يأتيه دائما خبر ما يفعل من روما، وروما بها التوراة والإنجيل والزبور وسنن عيسى، وعيسى وعد بروح القدس ينزل على الحواريين أو من يقوم مقامهم ليوضح لهم الصواب وفهم الكتاب المقدس - أي يوحى إليهم - وبهذا فرجال الكهنوت النصارى يفهمون الكتاب المقدس فهما حقيقيا صحيحا لا خطأ فيه، لأن روح القدس يعلمهم<sup>(6)</sup>.

إن كل ما سبق هو الأساس النظري للتصير، ويقوم على كل العناصر السابقة، وهي في مجملها تهدف إلى إثارة شك المسلمين في قضايا دينهم المختلفة ويقدم البديل النصراني مستخدما الآيات القرآنية - بعد إخراجها عن معناها - كأدلة على صحة ما يريد، وعندما ينتهي المرء الغير محصن من قراءة الكتاب

(1) المصدر نفسه، ج2، ص65.

(2) هنا ليس قرآنا.

(3) بورغاد، المصدر نفسه، ج 1، ص 12، 13، ج2، ص 100.

(4) F.Bourgade . la clef du coran, pp 3- 25 .

(5) عهد المهدي الشرقي، المرجع نفسه، حوليات، ص 60.

(6) بورغاد "مسامرة قرطاجنة"، ج2، ص 101 - 105.

يُجد نَقْطَ الإستفهام قد كثرت عن الإسلام في تصور بورغاد، وهو ما جعله يترجمه إلى العربية دون غيره من الكتب.

ولما كان هذا الكتاب 'مسامرة قرطاجنة' هو الأساس النظري فقد نسج على منواله كتابين آخرين بمنهجية مختلفة أحدهما "مفتاح القرآن" وهذا الكتاب لا نجد فيه دور الكاهن بارزا عكس الكتاب السابق، بحيث لا يشارك إلا في المحاور الأولى، وذلك ليترك مخاطبيه يستخلصون بأنفسهم النتائج المترتبة عن اقتناعهم بالمبادئ والمقدمات التي رسمها في الكتاب السابق، ثم يحضر في آخر محاوره كي يشاهدون تدخل نتائج عمله حسب الرواية، ولكنه في هذا الكتاب يقحم في الحوار شخصا آخر - إضافة للمفتي والقاضي - جعله من الأعيان الجزائريين المتعمقين في المذهب المالكي ليقبه بـ "الذريزي" هاجر إلى تونس، إتخذة وسيلة لتخصيص فصل طويل في نطاق المحاور الأولى<sup>(1)</sup>، حيث عرض مشاريع حكومة بلاده وهاجم الأمير عبد القادر بشراسة ودعى السكان إلى ترك التعصب، ثم ينتقل إلى الفصول الأخرى ليبرهن على نفي المعجزات عن محمد صلى الله عليه وسلم، مستخدما الآيات القرآنية في غير استدلالاتها كعادته، ثم يسخر من المعراج.

وفي المحاور الخمسة ينضم "الذريزي" إلى الشاكين في الإسلام. وهذه المحاور تمثل حجر الزاوية في الكتاب؛ حيث يعرض بورغاد حسب زعمه الحل الذي يمكن المتحاورين من الخروج من المأزق الذي أوقعهم فيه، وهو المفتاح الذي يمكن من تفسير القرآن وفهم متناقضاته، ويتمثل هذا المفتاح - الذي تفتقت عنه عقيرته الملوثة - في اعتبار أن الإسلام التجأ إلى وسيلة الكذب لإقناع الناس بما ورد فيه، وهو ما جعل علماء المسلمين يرغبون في هذه الوسيلة للدفاع عن الإسلام<sup>(2)</sup>، وباقى الكتاب تطبيق لهذا المذهب واستعمال لهذا المفتاح في الآيات القرآنية والسنة النبوية ثم استخلاص نتائج هذا التطبيق فيما يتعلق بالله والدار الآخرة والأخلاق والحياة الاجتماعية<sup>(3)</sup>.

أما الكتاب الآخر فهو "المرور من القرآن إلى الإنجيل" وهو الكتاب الأخير في الثالوث البورغادي، فهو امتداد طبيعي لسابقه كما يقول الشرفي<sup>(4)</sup>. إذ بعد أن زرع الشك في نفوس محاوريه أخذ يوجههم نحو النصرانية وذلك بتعرضه للقضايا المختلف فيها بين الإسلام والنصرانية مبطلا ما ورد في الإسلام ومثبنا ما ورد عندهم مستخدما نفس الحجج التي استخدمها سابقوه، محاولا أن يجد في القرآن الكريم ما يدعم به انحرافاته، مما جعله يقع في تناقض كبير. فهو من جهة يتهم محمدا بإختلاق القرآن، ويتهم القرآن بالتناقض والبطلان. ومن جهة أخرى يستدل به في إثبات انحرافاته ليتوصل إلى أن المسألة تتعلق بحسن

<sup>(1)</sup> F. Bourgade, la clef du coran, pp 3-25 .

<sup>(2)</sup> Ibid . pp 54 - 60 .

<sup>(3)</sup> Ibid . pp 165 - 180 .

فهم القرآن وتكميله إذا لزم الأمر<sup>(1)</sup>. وكان المسلمين لم يفهموا القرآن، وبورغاد وحده الذي فهمه، لذا يجب عليهم أن يرجعوا إلى تفسيراته الغربية ليفهموا قرآن ربهم.

وقبل تقييم ما سبق نشير إلى أن دارث بورغاد إسم بطرانة التقديم، ألف في قالب مسرحية ذهنية تقوم على الحوار بين أشخاص رئيسيين كما ذكرنا قبلا، هم الراهب والمفتي والقاضي والذريسي، وأشخاص ثانويين مثل الراهبة وكاتب جزائري وطفل مسلم وآخر نصراني والولي وبعض البدو والخدم. تتسم بالتكلف، وأحيانا بالتهريج، وقد حرص المؤلف على تبسيط اللغة والمفاهيم، لأن غرضه نشر ثلوثه في الأوساط الشعبية، حيث يجهل الناس دينهم، مما يجعلهم - في اعتقاده - قابلين للتأثر أكثر من غيرهم كما صرح بذلك في نشرته "جمعية سان لويس"، داعيا إلى جمع الأموال لتحقيق مشروعه. وقد كتب ثانوته في وضع يتسم بالتأثير العميق لاحتلال فرنسا للجزائر وبضعف السلطة السياسية في تونس مما جعله يجسروا على شتم الرسول ﷺ ويتهمه بالحقق وغير ذلك. وقد كوفئ على هذا بأن قلده باني تونس وسام الإفتخار<sup>(2)</sup>.

ويمكن أن نختم كل ما قلناه سابقا بأن بورغاد كان يهدف من كل هذا إلى خدمة الاستعمار والتنصير.

عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) المرجع نفسه، ص 140.

(2) المرجع نفسه، ص 141، 142.

## الباب الثاني

### تقييم أعمال بورغاد ومنهجه

يمكن تقييم أعمال بورغاد ومنهجه بعدة مناهج، منها :

- منهج بورغاد ذاته، وذلك بالإطلاق مباشرة من أن القرآن الكريم حق - كما ينطلق هو من أن الإنجيل وألوهية المسيح حق - دون مناقشة، فيرفض مبادئ الخصم جملة وتفصيلا، ويعتبر مبادئه هو حجة لا تحتاج إلى مناقشة، فيلزم الخصم بقبولها والتسليم بها تسليما، وهذا هو التعصب الأعمى. ونحن من جهتنا لنا المشروعية الكاملة أن نرد عليه بالمثل، فنعتبر سيادتنا حجة لا تقبل النقاش، رغم أن ديننا يقوم على الحجج والبرهان، فنحكم بذلك على الأناجيل الحالية والعقيدة النصرانية الحالية وغيرها من مبادئ النصارى من خلال مبادئنا، فيتضح لنا تحريف ما عندهم وتزييفه، ولو فعلنا هذا لكانا مصيبين.

- المنهج التحليلي النقدي، ومنهج المقارنة، وهو إخضاع ماورد في الكتاب المقدس وكذا ما ورد في القرآن الكريم - في القضايا موضوع التهمة والشبهة الموردة - للعلم والعقل والتاريخ والواقع، فيتضح لنا بجلاء تزييف ليس ما في الكتاب المقدس فحسب، بل الكتاب المقدس ذاته. وصحة القرآن الكريم ومحتواه. ويجب أن نذكر بأننا من حيث عقيدتنا نبنى المنهج الأول، والفرق بيننا وبين بورغاد أن عقيدتنا لم نعتقها في الأساس إلا بعد إقتناع عقلي مما يجعلنا لا نضطر إلى الشك فيها في كل وقت، عكس عقيدته التي تفتقد إلى الأساس العقلي كما سنبين في ردنا عليه. ولكننا من حيث المنهج نبنى المنهج الثاني. وهنا نشير إلى أن أعمال بورغاد كما قدمناها قبلا يمكن تقسيمها إلى قسمين:

أحدهما :

**القسم التبشيري:** وهو ما عنوانه بـ: "منهج بورغاد التصيري"، وهذا لا يحتاج إلى رد، حيث سننقله بحثا إن شاء الله أثناء حديثنا عن الحركة البربرية.

**القسم الثاني:** وهو ذو طابع استشرافي، وهذا من الخطورة بمكان؛ لأنه هو الباقي من بورغاد إلى الآن، هو الأساس الذي يقوم عليه التبشير اليوم من حيث الجانب النظري المتمثل في العمل على تحطيم الإسلام، وبه يغطي على التبشير الذي يقوم بالفعل اليوم أيضا على ما وضعه بورغاد في منهجه التصيري.

ومن هنا فإن تنفيذ هذا القسم الثاني يعد من الأهمية بمكان، وهو ما يجعلنا نقدم عنه دراسة مستفيضة؛ لأننا بتحطيم هذا القسم أو هذا الأساس، -نعقد- أننا نكون قد قدمنا لأجيالنا قاعدة يحتمون بها من الهجمة التصيرية الحالية التي لم يسبق لها مثيل من قبل - من حيث تأثيرها - حتى في أيام الاحتلال المباشر. فساهم في تصفية عقول شبابنا وقلوبهم، كما نفتح لهم نافذة في الوقت نفسه على القرآن الكريم، ونبيه الخاتم، وتاريخه وعقيدته وشرعيته وعبادته، مما يحصنهم أكثر. وسنحاول قدر المستطاع احترام السرتيب البورغادي لشبهه، وقد اتبعنا في ذلك منهجا يتكون من أساسين:



الأساس الأول : تبين ما في النصرانية في القضية موضوع التهمة، و الأساس الثاني: تبين ما في الإسلام كما هو بالفعل لا كما يوهم بورغاد وغيره من رجال الاستشراق والتبشير.

وغرضنا من هذا، إطلاع الإنسان على ما في النصرانية في القضية موضوع التهمة: لأن رجال التبشير يعمدون دائما إلى تغطية ما في دينهم وإظهاره عموها بطابع براق، وتزييف الإسلام كذبا وبهتاناً. ونحن في منهجنا هذا نعتمد إلى تعرية ذلك المغطى، فإذا اضلع عليه المرء كان ذلك كافياً لتزهيده، فإذا قدم له البديل - الإسلام - كان ذلك كافياً لهدايته.

وقبل بداية هذا التقييم الذي نسأل الله أن يوفقنا فيه وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم نشير إلى تناقض بورغاد مع نفسه في منهجه في مهاجمة الإسلام. فهو من جهة يرفض رسالة محمد ﷺ ويرفض كون القرآن الكريم من عند الله، ولكنه من جهة أخرى يبني استدلالاته على ما ورد فيه بشأن الإيمان بالمسيح عليه السلام.

كما أنه من جهة يتبنى ما سبق، ومن جهة أخرى يرفض ما ورد فيه بشأن المسيح مما يدحض مبادئه، كإنكار بنوته لله وألوهيته وتحريف الإنجيل. وهذا مرفوض منطقياً، فهو إما أن يرفض نبوة محمد ورسالته، ويرفض كون القرآن من عند الله، وبذلك لا يعتمد عليه في إثبات أو نفي أي شيء يتعلق بالنصرانية أو بغيرها، وإما أن يؤمن بكل ما ورد في القرآن الكريم، وفي هذه الحالة يصبح مسلماً. وقد ركزنا على ماله أهمية أكبر مما أورده بورغاد سواء فيما يتعلق بدعوته وتربيته، وبرهنته على ما يتعلق بدينه، كالأناجيل والتثليث والعقيدة النصرانية ودعوة النصرانية إلى العلم حسب زعمه، وتفسيره للفارقليط إلخ، أو ما يتعلق بهجمه على الإسلام قرآناً ونبياً وعقيدة وشريعة وتاريخاً، وإتهامه بالعنف ومحاربة العلم واختلاف أصحابه إلخ، وقد جعلنا دراستنا لكل هذه القضايا مرتبة كما يأتي :

- الشريعة، وقد بدأنا بها احتراماً للترتيب البورغادي، ولا سيما أنها اليوم حصان طروادة الذي يخفي بداخله المبشرون لبث سمومهم. واقتراءات بورغاد وشبهاته حولها هي من أهم أركان الحركة البربرية في صد الناس عن الإسلام والإساءة إليه.

- الأناجيل - القرآن الكريم.

- العقيدة النصرانية ، ألوهية ونبوة .

- معجزة نسب النبي ﷺ .

- الاختلافات بين المسلمين والاختلافات بين النصارى.

- النصرانية والسيف.

- تهمة محاربة الإسلام للعلم وحرق مكتبة الإسكندرية.

- الفارقليط

- معجزات النبي ﷺ .

بعد هذا العرض لقضية المنهج نبدأ بتزييف اتهامات بورغاد وأقوابله.

## الفصل الأول

### الشريعة

#### تفنيد اتهامات بورغاد للشريعة الإسلامية

ونبدأ الحديث فيها بقضية المرأة.

#### تهافت ادعاء ظلم الإسلام للمرأة وإنصاف النصرانية لها

بادئ ذي بدء نقول : من الإجحاف والتطرف اتهام دين بظلم النساء يقول كتابه ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾<sup>(1)</sup>.

وقبل أن نبين تهافت مزاعم بورغاد، نشير بإيجاز إلى مكانة المرأة في كتابه المقدس ليظهر جليا وضعها المزري فيه، أي عنده وعند أبناء ملته.

**الكتاب المقدس** : يعتبر المرأة هي سبب الخطيئة الأولى الكبرى التي تعاني منها البشرية، والتي قدم يسوع - حسب ادعائهم - نفسه قربانا فصلب تكفيرا عن تلك الخطيئة المتمثلة في الأكل من الشجرة التي نهى آدم وحواء عن الأكل منها. ولكن حواء أكلت وأغوت آدم فأكل هو أيضا، يقول الكتاب المقدس : "وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسأه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة - حواء - أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمارها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل، فأنفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان..."<sup>(2)</sup>. فأحتج آدم " فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت..."<sup>(3)</sup>. فعاقبهما الله ' وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك بالرجوع لتدين أولادا، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عنيك"<sup>(4)</sup>، وبهذا فإن حواء استهلت " حياتها بالغواية والإغراء، وفيها تبدو الأنثى الأولى أم الأدمية أداة طبيعة لإبليس على الشر، ووسيلة إلى التسلط على آدم وإغرائه بعصيان خالقه والأكل من الشجرة المحرمة"<sup>(5)</sup>. وهو ما يثبت العهد الجديد الذي اعتمدت أسفاره على النص السابق، فقد ورد فيه<sup>(6)</sup> : " ولكني أخاف أنه كما خدعت الحية

(1) البقرة / 226 .

(2) سفر التكوين، إصحاح 3، فقرات 2 - 7 .

(3) سفر التكوين، إصحاح 3، فقرات 12 - 16 .

(4) سفر التكوين، إصحاح 3، فقرات 16 - 17 .

(5) هالشة عبد الرحمن ( بنت الشاطي) القرآن وقضايا الإنسان، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، ص 43.

(6) هلمى محمد العقاد، المرأة في القرآن، ( سلسلة الإسلاميات -4)، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1975، م8، ص29.

حواء بمكرها هكذا تفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح<sup>(1)</sup>. وورد فيه أيضا " وأدم لم يغو، ولكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي"<sup>(2)</sup>.

هذه الحكاية الغربية المتمثلة في إغراء حواء لأدم بالأكل من الشجرة المحرمة فأخرجته من الجنة لا وجود لها في القرآن الكريم، بل الموجود فيه أن حواء كانت مكلفة كادم بالابتعاد عن الأكل من تلك الشجرة، فأكلا منها معا بوسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿وإيا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان... ومنها تخرجون﴾<sup>(3)</sup>. وقال تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها... الرحيم﴾<sup>(4)</sup>.

" وقد كان العهد لأدم وهو الذي نسي وغوى وإيفيس تعرض له مباشرة بالوسوسة والإغواء دون أن يسلط عليه زوجه أو يتوسل إليه بها"<sup>(5)</sup>، ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما... فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها... وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتياه ربه فتأب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا...﴾<sup>(6)</sup>.

والرواية القرآنية تبين أن آدم نسي. فوسوس إليه الشيطان. فأكلا من الشجرة، فتأب الله عليهما. ولهذا فليست هناك خطيئة أبدية تتابع البشر دون ذنب إقترفوه، وهو ما يتوافق مع ما توصلت إليه الأنظمة التشريعية في العالم التي تعتبر المسؤولية فريدة فلا يعاقب الإنسان بجريمة غيره إلا في المجتمعات التي يطبق فيها قانون الغاب.

وإذا كان ما سبق حال حواء وأدم، فإن آدم في التوراة بأكله من الشجرة طاعة لحواء جعل اللعنة تحل حتى بالأرض. وهاهو حاله "وقال لأدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قللا لا تأكل منها : منعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها أيام حياتك، وشوكا وحسكا تثبت لك، وتأكل عشيب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب، وإلى تراب تعود"<sup>(7)</sup>.

ويستفاد من هذا النص والنص الذي سبقه من سفر التكوين قضايا خطيرة، منها :

1- لعنة الخطيئة أصابت آدم من امرأته، فهي المسؤولية عن خروجه من الجنة إلى الأرض ليشتقى. والقرآن الكريم يؤكد براءة المرأة، ويبين أن آدم هو الذي نسي وضعف فخالف الأمر الإلهي، ولكنه تساب فتأب الله عليه.

<sup>(1)</sup> بولس، كورنثوس II ، إصحاح 11، فقرة 3 ، 4

<sup>(2)</sup> بولس تيموثوس، إصحاح 11، فقرة 13-15 .

<sup>(3)</sup> الأعراف / 18 - 24 .

<sup>(4)</sup> البقرة / 34 - 36 .

<sup>(5)</sup> عائشة عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 43.

<sup>(6)</sup> طه / 112 - 120.

<sup>(7)</sup> التكوين، إصحاح 3، فقرات 17-19.

2- حواء عوقبت جزاء ما فعلت بتسلط الرجل عليها إلى الأبد، والقرآن الكريم يبين أنه لا تسنط، بل قوامة من الرجل على بيته الذي يتبادل فيه الحقوق والواجبات... ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة<sup>(1)</sup>.

3- لعنة الخطيئة تورث، فتنتقل من الآباء إلى الأبناء، ومن الأسلاف إلى الأخلاف. والقرآن الكريم يؤكد أن الخطيئة لا تورث ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾<sup>(2)</sup>.

4- الأرض ملعونة في الكتاب المقدس بسبب خطيئة آدم كما ذكرنا قبلاً. والقرآن الكريم يصف الأرض فيقول: ﴿... وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾<sup>(3)</sup>. وهذا ما يتوقف مع التحضر والحضارات. فلو كانت ملعونة ما أقيمت عليها الحضارات. وينظر القرآن الكريم إلى زرعها وثمارها فيجعلها وليدة ملاء مبارك، ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾<sup>(4)</sup>. ويجعل النظر في هذه الزروع عبادة، ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾<sup>(5)</sup>.

وهكذا "شتان بين حياة تحفها اللعنات، ويتقاسم الجنسان معا شرورها- وتكون المرأة هي المسؤولة الأولى عن هذا- وبين الحياة التي يجعلها القرآن ميدان سباق عادل، فمن استغل نعماءها في مرضاة الله نجح وإلا هلك وهو الجاني على نفسه"<sup>(6)</sup>.

وإذا كان القرآن الكريم قد حمل آدم مسؤولية الأكل من الشجرة نيس عمدا ولكن سهوا، ولم ينسب ذلك إلى حواء، فهذا ليس من باب التكريم للمرأة فحسب، وهو تكريم ما بعده تكريم، بل من باب الإنصاف والتقدير الحقائق. ولزيادة هذا التكريم فإن القرآن الكريم عكس التواراة لم يشر إلى خلق حواء من ضلع آدم<sup>(7)</sup>، وإنما ورد فيه أنها زوج آدم خلقهما الله من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها... رقيقا﴾<sup>(8)(9)</sup>، وبهذا "وأعظم من جميع الحقوق الشرعية التي كسبتها المرأة من القرآن الكريم لأول مرة، أنه رفع عنها لعنة الخطيئة الأبدية ووصمة الجسد المردول"<sup>(10)</sup>. وجعلنا سكنا للرجل. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم

(1) البقرة / 228.

(2) الأنعام / 164.

(3) فصلت / 10.

(4) ق/ 9.

(5) الأنعام / 99.

(6) محمد الغزالي، صحيحة تحذير من دعاة التنصير، ط1، دار الانتفاضة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1992، ص 126، 127.

(7) ونس التوراة: " فأوقع الرب الإله سبانا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملا مكانها خما وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأما من امرء خلقت... وكانا كلاما عريانين آدم وامرأته وما لا ينعلان " (التكوين، إصحاح 2، فقرات 21 - 25).

(8) النساء / 1.

(9) عائشة عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 42.

(10) هيلس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ص 63.

مودة ورحمة<sup>(1)</sup>، والسكن هو مكان الطمانينة والهدوء والإقبال عليه بجميع الفؤاد من الطرفين<sup>(2)</sup>. وبهذا يصبح الزوجان في تناسق لا تنافر بينهما.

**وفي النصرانية** : لما كانت المرأة أساس الخطيئة بامت بلغتها مما جعل الابتعاد منها حسنة مأثورة فشغلت اللاهوتيين إلى القرن 5 م وما بعده - فبحثوا جادين في جبهة المرأة وتساءلوا في مجمع " مآكون" هل هي جثمان بحت أو هي جسد ذو روح يناط بها الخلاص والهلاك؟ واقنعوا بأنها خالية من الروح الناجية عدا مريم العذراء. وظل كثير من النساك يعتبرون الرهبانية ابتعادا من حبال الشيطان التي أولها المرأة<sup>(3)</sup>. ناسين أن الرهبنة إيذاء للمرأة بحرمانها من حق طبيعي ومن استمرار الحياة. وهكذا فإن آباء الكنيسة هم الذين يعتبرون امرأة رمزاً للبشر والحقارة، يقول جيروم<sup>(4)</sup> في شرحه لرسالة بولس " بما أن المرأة خلقت لولادة الأطفال فهي مختلفة عن الرجل كما يختلف الجسد عن الروح، وعندما ترغب في خدمة المسيح ... يجب أن تكلف عن أن تكون امرأة وستسمى رجلاً" - أي بعد رهبانيتها.

ويقول القديس " إمبروز " : تلك التي لا تؤمن إنما هي امرأة، ويجب أن تصنف مع جنسها الأنثوي. أما تلك التي تؤمن - أي تتربص - فهي تتقدم نحو الرجولة الكاملة، وأذاك تتخلى عن جنسها الأنثوي".

فخلاص المرأة أن تطرح عنها أنوثتها وتصير إنساناً كاملاً بالغاً سن الرشد، أي تصير ذكراً<sup>(5)</sup>.

هذا الخزي والاحتقار للمرأة من طرف رجال الكهنوت النصارى هو الذي جعل كريستين دي بيزان<sup>(6)</sup> تتساءل في كتابها " مدينة السيدات" بعد عرضها للأحكام الصادرة ضد المرأة من القديس توما الأكويني<sup>(7)</sup>، وأغسطين وسائر آباء الكنيسة... هل الإله الصالح العادل يحكم على نصف البشر بهذا الهوان والأذى. ثم تصيح : واحسرتاه يا إلهي لماذا لم تجعلني أولاد في هذه الدنيا رجلاً<sup>(8)</sup>.

وقد ألف الراهب يعقوب شبرنجر كتاباً يبرهن فيه على أن النساء أصلاً مخلوقات فاسدات، ولذلك فهن أسير للغواية وشيطنتها إنما تتبع من تحرقها الشهواني الذي لا يشبع، حسب ما قاله الكتاب المقدس ثلاثة لا تشبعن وأربعة لا تقول كفى، من ذلك فم الرحم أو الرحم العقيم<sup>(9)</sup>، ويتوصل الراهب من هذا إلى حكم عام يتمثل في أن النساء مستعدات لمعاشرة حتى الشيطان، مما جعله يشكر الله على أن الرجال متحررون من

<sup>(1)</sup> الروم / 20.

<sup>(2)</sup> عباس محمود العقاد، المرجع نفسه، ص 35.

<sup>(3)</sup> المرجع نفسه، ص 60.

<sup>(4)</sup> سيان التعريف به.

<sup>(5)</sup> محمد الغزالي، صيغة تحذير من دعاة التصير، ص 130 ، 131.

<sup>(6)</sup> أدبية مرهفة الحس، عاشت في القرن 15، تبنت آلام جنسها وشرحت معاناتها من بغض وإزدراء آباء الكنيسة لها في كتابها "مدينة السيدات"

محمد الغزالي، المرجع نفسه، ص 131.

<sup>(7)</sup> سيان التعريف به.

<sup>(8)</sup> محمد الغزالي، صيغة تحذير من دعاة التصير، ص 131.

<sup>(9)</sup> سفر الأمثال، أصحاح 30، آية 15، 16.

تلك الشهوة الجنسية الملعونة، ومما يدعو إلى الدهشة أن البرلمان الفرنسي في القرن 16 كان يعتقد أفكار هذا الراهب. وقد عرضت على هذا البرلمان قضايا عن اتصال النساء بالشياطين<sup>(1)</sup>.

ومع هذا يزعم بورغان أن انصرازية هي التي أنصفت المرأة، وهو يعلم أن كنيسة كانت تعتبرها ينبوع المعاصي ومصدر الفجور، وهي للرجل تعد بابا من أبواب جهنم لأنها هي مصدر غوايته وحملته على المعاصي، ومنها انجست المصائب كلها فيكفيها ندامة وخجلا كونها امرأة وهي أخطر أسلحة أبليس مما يوجب عليها التكفير طول حياتها لأنها سبب مصائب الأرض وأهلها.

وها هو ترويليان (Tertullian) - الذي أشاد به بورغان ولافيجري وغيرهما - أحد أقطاب النصرانية الأول محندا نظره النصرانية إلى المرأة " بأنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وأنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوهة لصورة الله - أي الرجل -"<sup>(2)</sup>، وها هو كراي سوستام (Chry Sostem) أحد كبار النصرانية يقول عن المرأة:

" هي شر لا بد منه، ووسوسة جبيلة، وافة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت ومحبوبة فتاكة ورزء مطلي مموه"<sup>(3)</sup>. وكانت الكنيسة في القرون الوسطى تلقن الأطفال: "أن الوحشية صفة التين، وأن المكر صفة الأنثى، وأن المرأة جمعت بين الصفتين"<sup>(4)</sup>. وكان من أهم الموضوعات التي يتدارسها الإكليروس هل للمرأة أن تعبد الله كما يعبد الرجل؟ وهل تتخل الجنة؟ وهل هي إنسان له روح خالدة أم روحها فانية؟<sup>(5)</sup>. وقد نتج عن كل هذا احتقار النصارى للمرأة، وبالغوا في ذلك الاحتقار وعدم الثقة بها أن وضعوا لها قفلا من حديد سمود قفل العفة، وكلما غاب الزوج عن البيت قفل فرجها به. فهل هناك احتقار للمرأة أكبر من هذا، وهل وصل عدم الثقة بها في دين من الأديان هذا الحد الذي بلغ في النصرانية؟!.

إننا لا نستغرب عندما نعلم أنه في القرن 11 سنت المحاكم الكنسية قانونا يبيح لنزوح إغارة زوجته لرجل آخر لمدة يتفقان عليها ويحددها الرجل المعارة إليه.. وكان من حق النبيل ( الحاكم) سواء كان روحانيا أو زنيا الاستمتاع بامرأة الفلاح إلى مدة 24 ساعة بعد عقد زواجها على ذلك الفلاح<sup>(6)</sup>، كما كان من حق سيد الأرض ( الإقطاعي) قضاء الليلة الأولى مع بنات الفلاحين عند زواجهن وهذا أمام عين الكنيسة وبرضاها<sup>(7)</sup>.

(1) محمد الغزالي، المرجع السابق، ص 133، 134.

(2) أبو الأعلى المردودي، المحجاب، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت، دت، ص 21، 22.

(3) مجلة الإثن والدين، 12 أبريل 1943م، ع 461، القاهرة، موضوع المرأة

(4) أمل دهرامه جي، مكانة المرأة في الإسلام، ( سلسلة الدراسات الإسلامية 10 " أشغال ملتقى " واقع الإسلام وتحديات العصر، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 12-16 نوفمبر 1984، ص 141، 142.

(5) محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، دط، دار الثقافة، الجزائر، دت، ص 53.

(6) محمد دوبرار، مقدمة في الاقتصاد السياسي، المكتب المصري الحديث ( سلسلة المطبوعات الجامعية)، دط، الإسكندرية، 1972م، هامش ص 91.

وكان القانون الإنجليزي يبيح للرجل أن يبيع زوجته، وكل ما فعله أنه حدد سعر البيع حتى يمنع المغالاة<sup>(1)</sup>، ولم يُلغ هذا القانون إلا في سنة 1805م، ومع صدور قانون المنع إلا أن بيع الزوجات استمر بعد ذلك، ومن الأمثلة على هذا أن إنجليزيا باع زوجته لجارته؛ ولما قدم للمحاكمة احتج محاميه على إقامة الدعوى بحجة أن القانون الإنجليزي كان يبيح ذلك، وأن سعر الزوجة بلغ في سنة 1801م ست بنمات. فرد عليه القاضي بالحكم على موكله بخمس سنوات مع الأشغال الشاقة، ذكرا في حيثياته أن تسعيرة الزوجات التي أشار إليها المحامي ألغيت في سنة 1805م<sup>(2)</sup>. ومع هذا فإن بيع الزوجات ظل موجودا في الريف الإنجليزي إلى وقت رشيد رضا الذي ذكر قائلا: "من الغرائب التي نقلت عن بعض صحف إنجلترا في هذه الأيام أنه لا يزال يوجد في بلاد الأرياف الإنجليزية رجال يبيعون نساءهم بثمن بخس جدا كتلائين شلنا وقد ذكرت أسماء بعضهم"<sup>(3)</sup>.

ويكفي أن نعرف بأن الكتاب المقدس يبيح للرجل بيع ابنته الحرة أمة، وعندما يشبع منها المشتري يحق له أن يسلمها لابنه ليستمع بها أيضا<sup>(4)</sup>، وعلى ذكر الكتاب المقدس فإن المرأة في الشريعة اليهودية تجرد من معظم حقوقها المدنية وتجعل تحت وصاية الأب المطلقة قبل الزواج، ووصاية الزوج المطلقة بعده، وتعهد في منزلة الرقيق<sup>(5)</sup>، بل تجيز التوراة استرقاقها كما ذكرنا آنفا. وعلى ذكر الحقوق المدنية نشير إلى أن البرلمان الإسكوتلاندي أصدر قرارا في سنة 1567م يتمثل في أن المرأة لا يجوز أن تمنح أي سلطة على أي شيء من الأشياء<sup>(6)</sup>.

أما بلد بورغاد-فرنسا- فقد كانت المرأة فيها زمنه أمته بالرق المدني كما يقول علي عبد الواحد وافي، لأن القانون المدني جردها من معظم حقوقها المدنية كما تنص على ذلك المادة 217 منه، فتقرر: "أن المرأة المتزوجة حتى ولو كان زوجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكيتها زوجها لا يجوز لها أن تبيع ولا أن تهب ولا أن ترهن، ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض وبدون اشراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية"<sup>(7)</sup>. ورغم التعديلات التي أدخلت على هذه المادة فقد ظلت المرأة المتزوجة تعاني قانونيا من آثارها إلى الآن. وهذا في حين نجد الإسلام يجعل المرأة في كل هذا حرة حرة تامة،

(1) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والرافدة، ط4، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1992، ص 205، أيضا مجلة الإثن، المرجع السابق، (ع 461).

(2) مجلة الإثن، المرجع السابق، ع 461.

(3) محمد رشيد رضا، المرجع نفسه، ص 53.

(4) سفر الخروج، إصحاح 21، فقرة 8 - 11.

(5) علي عبد الواحد والي، المرأة والأسرة في الإسلام، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية الجزائرية، نوفمبر 1977م، ع 51، ص 111.

(6) محمد رشيد رضا، حقوق النساء، ص 53.

(7) علي عبد الواحد والي، المرجع السابق، ص 112.

حيث سوى الإسلام بينها وبين الرجل في كل ما سبق، فالزواج لا يفقد المرأة المسمومة أي حق من حقوقها المدنية عكس النصرانية<sup>(1)</sup>.

وهكذا فإذا كانت المرأة المسمومة تظل محافظة بعد الزواج على جميع حقوقها المالية، ومباشرتها بنفسها ولا يحل للزوج أن ينوب عنها في ذلك أو يأخذ شيئاً من مالها إلا إذا أذنت له. «فإن ظن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً»<sup>(2)</sup>. فإن المرأة النصرانية لا تستطيع بعد الزواج أن تحتفظ حتى باسمها واسم أسرتها، وتجبر على حمل لقب زوجها مما ينوب شخصيتها جبراً في شخصيته فيصبح الممثل لها في جميع الشؤون. بينما المرأة في الإسلام تحاط بسياج من الحماية والاحترام، فتحافظ على لقبها وشخصيتها مهما كانت مكانة الزوج عظيمة. ولا أدل على هذا من زوجات خاتم الأنبياء ﷺ اللاتي ظلن يحملن ألقابهن<sup>(3)</sup>.

وهكذا فقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة إلا فيما تقتضي طبيعة كل منهما عدم ذلك، وذلك لمصلحة المرأة. وذلك أن عدم إلغاء تمايز الجنسين - رغم تلك المساواة في الحقوق والتواجبات - في الطبيعة والإختصاص حفظ لإنسانية المرأة، بل عدم إلغاء التمايز هو عنصر من عناصر إنسانيتها الذي تحقق به المساواة بينها وبين الرجال<sup>(4)</sup>.

ولنشر إلى بعض عناصر المساواة بينهما على سبيل المثال لا الحصر:

التسوية بينهما في القيمة الإنسانية المشتركة باعتبارهما من طبيعة واحدة وعنصر واحد، فليس لأحدهما من المقومات الإنسانية أكثر مما للآخر. «... خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها... ونساء»<sup>(5)</sup>. وهذا يناهض ما ذكرناه قبلاً من زعم الكتاب المقدس أن حواء خلقت من ضلع آدم الخ. كما يناهض ما شاع في البيئة الإسلامية مما هو قريب من هذا.

وبهذا فالرجال والنساء من أصل واحد ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى بعضهم من بعض﴾<sup>(6)</sup>. بمعنى أن الذكور من الإناث والإناث من الذكور وإذن لا فرق بينهما في جوهر الطبيعة، وهو ما نتج عنه التسوية بينهما في شؤون المسؤولية والجزاء في الدنيا والآخرة. «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن... يعملون»<sup>(7)</sup>. وبهذا رفع القرآن الكريم المرأة المؤمنة مثل امرأة فرعون رغم أنوثتها، فقال عنها: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون... الظالمين﴾<sup>(8)</sup>. كما رفع

(1) فقدان المرأة الفرنسية لحق التصرف في ما لها كان معروفاً عند الجزائريين الذين كانوا يعملون عند المعمرين، وكانوا رغم أمتهم يستغربون على أي أسس يفقد عقد الزواج حقوق تصرف المرأة في مالها وهو أحد العوامل التي جعلتهم يدركون - رغم جهلهم - مكانة المرأة في الإسلام.

(2) النساء / 4.

(3) علي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص 112.

(4) محمد عمارة، الإسلام والمستقبل، ط2، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1986م، ص 204، 205.

(5) النساء / 1.

(6) آل عمران / 195.

(7) النحل / 97.

(8) التحريم / 11.



غيرها من المؤمنات. وخفض فرعون رغام ذكوره لهصيانه وكفره، فقال عنه: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾<sup>(1)</sup>.

وهكذا سوى الإسلام بين المرأة والرجل في الحقوق المدنية بمختلف أنواعها ورفعها إلى مكانة لم تبلغها في غيره لا قبله ولا بعده. وقد أدركت المرأة هذه المكانة السامقة التي بوأها فيها القرآن الكريم، وهي أدري بمصلحتها- فكانت أول من آمن بمحمد ﷺ، وأول من أزره ونفى عنه الهواجن وأخذ بيده إلى ورقة بن نوفل (12 ق.هـ/ 611 م) الذي طمأنه ﷺ بأن ما نزل به إنما هو الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام، ويتمثل هذا في شخص أمنا خديجة رضي الله عنها التي سخرت حياتها ومالها لدعم النبي ﷺ والإسلام والصحابة المستضعفين دعما لا يعرف الحدود. " ولا أدل على مكانتها في الإسلام أن موتها كان حدثا جليلا هز المسلمين هذا عنيقا حتى سمي رسول الله ﷺ العام الذي توفيت فيه عام الحزن"<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت المرأة أول من آمن بالإسلام، فإنها كانت كذلك أول من قدم نفسه فداء له، ويتمثل هذا في شخص السيدة سمية رضي الله عنها زوجة سيدنا ياسر. وهنا نتساءل: هل يمكن للمرأة أن تقدم كل هذا لو لم تدرك أن هذا الدين لصالحها أتى ليجعلها إنسانا كامل الحقوق.

ومن ضمن هذه الحقوق، المساهمة في السياسة. حيث كانت المرأة ضمن ما يمكن تسميته بالمصطلحات السياسية الحالية " الجمعية التأسيسية" التي قررت إقامة سلطة خاتم الأنبياء ودولة الإسلام بالمدينة المنورة عندما يصلها مهاجرا، وذلك في بيعة العقبة التي شاركت فيها امرأتان<sup>(3)</sup> من بين 75 مبايعا من أوس وخزرج، فساهمتا في هذا الحدث السياسي التاريخي وبايعتا خاتم الأنبياء كما بايعه الرجال سواء بسواء. وهذا لم يحدث في النصرانية التي لا نجد فيها امرأة واحدة ضمن الحواريين.

وما يزيد المرأة تشريفا: أنه لم يحدث أن إكتفى النبي ببيعة الرجال عن بيعة النساء ولا أن أخرج الرجال النساء، وبهذا " فالأمة - الجماعة- التي ملكت سلطان تأسيس الدولة وسلطان التعاقد مع الرسول على إقامتها، هذه "الأمة" مصدر هذه السلطة، قد ضمت النساء والرجال على قدم المساواة"<sup>(4)</sup>.

وبعد تأسيس الدولة الإسلامية استمرت المرأة جزءا أصيلا وفعالا في الجماعة والأمة السياسية والجيش المقاتل لحماية الدولة الإسلامية، وتدعيم أركانها. ومن الأمثلة على هذا، فقد كانت المرأة ضمن مبايعي بيعة الرضوان في صلح الحديبية على الحرب والقتال، وكان من ضمن المبايعات أم عمارة السابق ذكرها، وعلى ذكر البيعة فإن المرأة عندما تقرر اعتناق الإسلام كانت تضيف إلى النطق بالشهادتين مبايعة النبي ﷺ كالرجال .

(1) القصص / 7.

(2) محمد عمارة، المرجع نفسه، ص 205 ، 206.

(3) أم عمارة نسية بنت كعب الأنصارية (13هـ/634م) وأم سبيع أسماء بنت عمرو بن عدي الأنصارية ( محمد عمارة، المرجع نفسه، ص 209)، ومن لوان المرجع في هذا المرجع إلى ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط2، الباب الخلفي، مصر،

﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك... رحيم ﴾ (1) (2). وإضافة لما سبق وبناء عليه فإن المرأة المسلمة كانت تشارك في القتال مع النبي وفي عصر الخلفاء الراشدين وبعده، ضد الوثنيين واليهود والمرتكبين والفرس والبيزنطيين والفرنسيين. ولقد أبلت نسيبة بنت كعب الأنصارية بلاء حسنا يوم أحد ذلك أنه لما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ فقامت تباشير القتال وتذب عنه بالسيف وترمى عن القوس حتى جرحت جراحات كثيرة أحدها عميق خطير أصابها به ابن قمنة لعنه الله، وذلك أنه لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا. فاعترضت له نسيبة ومصعب بن عمير وآخرون من الثابتين فضربها بتلك الضربة، وقد ضربته هي ضربات (3) وقد أبصرت وهي في هذا الطرف العصيب والجروح الخطيرة، جراح ابنها عبد الله النازفة بشدة فعصبتها ثم طلبت منه النهوض لمواصلة الجهاد فنظر إليها النبي معجبا قائلا: "ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة"، وقد جرحت 13 جرحا وهي تقول للنبي ﷺ يا رسول الله: ادع الله أن نرافقك في الجنة. فقال: **اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة.** فقالت ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا (4).

ولقد روى أبو داود عن خروج النساء في غزوة خيبر، "نغزل الشعر ونعين به في سبيل الله ومعنا دواء للجرحى وتناول السهام ونسقي السويق فقال "فمن" حتى إذا فتح الله عليه خيبر أسهم لنا كما أسهم للرجال"، فكان إذن يخرجون للقتال مع الرجال للمساهمة بما سبق.

وفي يوم اليمامة خاضت نسيبة أيضا غمار القتال مع الرجال فقطع مسيلمة الكذاب يدها وأصابها 11 جرحا.

وها هي أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (30 هـ/650م) نقلت يوم اليرموك تسعة من السروم (5). والأمثلة كثيرة جدا في التاريخ الإسلامي، نختتمها بفاطمة نسومر التي يعرفها بورغاد جيدا، وقد أشرنا إليها في الأوضاع الثقافية، وقد جمعت بين الجهاد والعلم والتعليم.

وهنا نسأل بورغاد: هل المرأة النصرانية أفضل من نساء المسلمين ورجالهم؟! .  
بعدها سبق نأخذ في مناقشة ما أورده بورغاد:

ينطلق بورغاد في تهجمه على الإسلام باعتباره يمنع المرأة من التعليم، ونحن نرى أن هذا الشيء عجائب، إذ كيف يتهم دين بهذا وأول كلمة نزلت في كتابه هي "اقرأ". ومما ورد في هذا الكتاب (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (6).

أما رسول الإسلام فقد أعطى أهمية كبيرة لتعليم المرأة نقتصر في حديثنا عنه على بعض ما أورده البخاري.

(1) المنتحة / 12 .

(2) محمد عمارة، المرجع السابق، ص 210.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، م 2، ص 82.

(4) محمد هشارفة، المرجع السابق، ص 224 - 226.

(5) المرجع نفسه ص 210 - 218.

قال رسول الله ﷺ " ثلاثة لهم أجران، رجل من أهل الكتاب آمن بنبية وأمن بمحمد ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران"<sup>(1)</sup>. هذا الحديث يبين لنا أمر الإسلام بتعليم المرأة وفضل ذلك كما يبين لنا أهمية تحرير العبيد.

- الرسول ﷺ خصص يوماً في الأسبوع لتعليم النساء<sup>(2)</sup>.

- وقالت عائشة رضي الله عنها " نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين"<sup>(3)</sup>.

- ولقد ضرب الرسول ﷺ أروع مثل في الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجته حفصة بنت عمر بن الخطاب التي تعلمت القراءة والكتابة عن الشفاء العدوية<sup>(4)</sup> قبل زواجها بالرسول، فلما تزوجها طلب من الشفاء العدوية متابعة تعليمها وتثقيفها، وأن تعلمها تحسين الخط وتميقه كما علمتها أصول الكتابة<sup>(5)</sup>.

والشواهد التاريخية الكثيرة تبين أن أبواب التعليم كانت مفتوحة على مصراعها للمرأة في جميع عصور الإسلام الزاهية، ونبغ عدد معتبر منهن في مختلف العلوم، وتخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام، ومن الأمثلة على هذا فإن الإمام الشافعي (ت 204هـ/820م) أخذ فن الحديث عن السيدة نفيسة بمصر<sup>(6)</sup>.

يضاف إلى هذا شيء انفرد به الإسلام وفقد في النصرانية مما يدل على مكانة المرأة في كلتا الديانتين. هو أن المرأة في الإسلام عنصر أساسي في السند الديني ونكتفي للتدليل على هذا بمثالين هما :

- السيدة عائشة زوج النبي ووصلتنا عن طريقها عن النبي ﷺ آلاف الأحاديث الصحيحة رواها البخاري ومسلم وباقي الصحاح، لا يستقيم الإسلام بدونها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على المكانة التي بسوا الإسلام فيه المرأة، بحيث لا يستطيع المسلمون فهم دينهم بدونها. بينما لا نجد للمرأة أي أثر في سند الأناجيل أو روايتها إن كان للأناجيل سند، بل لا مكانة لها في الإكليروس إلا راهبة مطيعة منفذة لإرادة القسوس.

(1) رواه البخاري في باب العلم من محمد بن سلام عن البخاري عن صالح بن حيان قال : قال عامر الشعبي حدثني أبو بوردة عن أبيه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ....

(2) رواه البخاري في باب العلم عن آدم بن شعبة عن ابن الأصبهان عن أبي صالح ذكران عن أبي سعيد الخدري.

(3) رواه البخاري في باب العلم.

(4) هي سيدة من بني عدي رهنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه - كانت كاتبة في الجاهلية وكانت تعلم الفتيات القراءة والكتابة (البلاذري، فتوح البلدان، نقله عن علي بن عبد الواحد وإني، المرجع السابق، ص 113).

(5) المرجع نفسه، ص 113.

(6) المرجع نفسه، ص 114.

- أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (30 هـ / 650 م) وقد ذكرنا قبلاً أنها قتلت يوم اليرموك لا من الروم فكانت من أبرز المقاتلات، وكذلك كانت من أبرز الخطيبات في عصرها. وما يثبت هذا أنها كانت من رواة الأحاديث عن النبي ﷺ، وتُشغّل أحاديثها (10 صفحات في مسند الإمام أحمد<sup>(1)</sup>).

بينما لا نجد في النصرانية أي أثر للمرأة في السند الديني، وإن كان العهد الجديد سمح لها بأن تتعدى بيتها منع عنها أن تعلم " لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع. ولكن لست أدن للمرأة أن تعبد ولا تتسند على الرجل، بل تكون في سكوت - والعلة في ذلك - لأن آدم حبل أول ثم حواء، وأدم لم يغسو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي"<sup>(2)</sup>. وهذا ماجعل التيارات المعادية لتعليم المرأة ظلت مهيمنة على تعريب حتى أواخر القرن 19. ولا أدل على هذا من أن بسمارك<sup>(3)</sup> (Bismarck) حدد للمرأة الألمانية ثلاث مجالات لا تتعداها: تربية أولادها، ومطبخها، وأداء الطقوس في الكنيسة<sup>(4)</sup>.

ومارتين لوثر - مؤسس المذهب البروتستانتي - قرر حرمانها من الثقافة، لأنه لا أضر بالمرأة من محاولة التقه.

أما هنري 8<sup>(5)</sup> ملك إنجلترا فقد أصدر أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء<sup>(6)</sup>. وأصدر البرلمان الإنجليزي في عهده قراراً يحرم فيه على النساء قراءة العهد الجديد. فأين هذا من وضع نرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً من مصحفه في بيت السيدة حفصة أم المؤمنين. ووضع الصحابة المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر عندها، ثم كتابة نسخ المصاحف التي وزعت على الأنصار في خلافة سيدنا عثمان عن ذلك المصحف. فهل هناك دين يعطي للمرأة قيمة أكبر من انتماها على كتابه الديني الذي هو أساس ذلك الدين؟! .

و الواقع أنه لم تخل البلاد الإسلامية من نساء يحفظن القرآن الكريم كله من عصر الصحابة إلى عصرنا<sup>(7)</sup>. وبورغاد يعرف جيداً "للا" فاطمة تسومر. والواقع أن ما ذكرناه قبلاً من منع النصرانية والنصارى تعلم المرأة كما يعرف بورغاد لا يستغرب. فلقد بلغ إحتقارهم للمرأة أن تلاميذ يسوع إستغربوا كلامه مع امرأة، " وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة"<sup>(8)</sup>. في حين ينزل القرآن الكريم على الرسول ﷺ من فوق سبع سموات لإتصاف

(1) محمد عمارة، الإسلام والمستقبل ط2، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1986م، ص 218 .

(2) تيموثاوس، إصحاح 2، فقرة 11 - 15 .

(3) بسمارك (أوتوفون) (Bismarck) (1815 - 1898م) وحيد ألمانيا وأصبح مستشار الإمبراطورية بعد الانتصار على فرنسا سنة 1870م، جعل من بلاده قوة أوروبية ودولة إستعمارية ( المنجد، ص 128).

(4) هلي عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص 115.

(5) هنري 8 ( 1491 - 1547م) ملك إنجلترا إبتداء من سنة 1509م، إنتصر على الفرنسيين سنة 1513م، انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية سنة

1535م، تزوج ست نساء، من بينهن كاترينا الأرغونية وآن بولين ( المنجد، ص 599).

(6) مجلة الإتهن والدين، ع 461.

(7) محمد رشيد رضا، حقوق النساء، ص 53 ، 54.

(8) إنجيل يوحنا، إصحاح 4، آية 28

امرأة مظلومة، وتسمى سورة كاملة في القرآن بـ "المجادلة" تبينا لإنصافها، فيكون ذلك من أعظم مظاهر التكريم، في حين منع بورغاد عن المرأة النصرانية المجادلة؛ لأن ذلك في دينه من اختصاص الرجال. وهنا يظهر جليا احتقار النصرانية للمرأة، فهي عند بورغاد لا تناظر المفتي لأنها ليست مؤهلة والسبب : لأنها امرأة، أي أوثنها، وهنا يبدو وقاء بورغاد نكتابه المقدس فيما يتعلق باحتقار المرأة، فمهمتها عند بورغاد منحصرة فيما يصلح حالها في تقديم العلاج والخدمات والتعليم. أما المناظرة أي المجادلة، أي استخدام العقل وتكوين الحجج البخ فهذا من اختصاص الراهب الرجل وحده<sup>(1)</sup>. ومن هنا فلين هذا من قيمة المرأة في القرآن التي كانت تناظر وتجادل خاتم الأنبياء وخلفاءه من بعده ويسمع الله جدالها وينزل القرآن لصالحتها منصفا لها: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ... وتلك حدود الله ... أليم ﴾<sup>(2)</sup>، وتسمى سورة كاملة في القرآن الكريم باسم المجادلة تكريما للمرأة وإظهارا لمكانتها في الإسلام. والواقع أننا عندما نخضع بورغاد لمنهج التحليل النفسي نجد أن عامل الرقابة النفسية قد خف ففلت منه من اللاشعور إلى الشعور موقفه الصحيح من المرأة التي هي صاحبة الخطيئة الكبرى الأساسية، فقرر عدم أهليتها بسبب أوثنها للمناظرة.

ويكفي المرأة في الإسلام مكانة أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ من تدليله لزوجاته - يعني المرأة - أن حرم على نفسه بعض المباحات إرضاء لهن حتى نزل قوله تعالى: ﴿ يا أيها النبيء لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾<sup>(3)</sup>، ولما لم يجد بورغاد ما يقوله هنا إتهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان يخضع لنساته. وهو تناقض صارخ، حيث إنه من جهة يتهم محمدا باحتقار المرأة، ومن جهة أخرى يتهمه بالخضوع لها.

والواقع أننا من خلال ما سبق يتبين لنا بجلاء بأن شخصية المرأة ولدت مع مجئ الرسالة الإسلامية<sup>(4)</sup> التي أنزل الله في القرآن الكريم سورة كاملة من أكبر السور سماها "سورة النساء" تبين ما للمرأة وما عليها، وهل هناك تكريم أكبر من هذا؟.

**أما النظافة :** فإننا نتساءل : أي دين هذا الذي يقوم على القذارة ويدعو إليها؟! وكيف يقارن بورغاد ما وصل إليه الغرب من تقدم بتأخر المسلمين وفي الوقت ذاته يعيب على المرأة المسلمة كثرة الذهاب إلى الحمام؟! فهل التقدم العلمي الذي وصلت إليه أوروبا اكتشف أسرار القذارة في القرب من الله والتقوى، فجعله ذلك يدعو إليها؟ ولكننا لا نستغرب هذا من رجال يفتخرون بأن أحدهم لم يغسل رجليه منذ أربعين سنة. ذلك أن النصراني يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح، ويتأثمون من غسل الأعضاء. فألقى الناس أوغظهم في النجاسات وأبعدهم عن الطهارة. ولقد صرح الراهب (أتوينس) أن الراهب (أتوني) لم يقترف إثم غسل الرجلين طول عمره. أما الراهب (ابراهام) فلم يمس الماء وجهه

(1) فرانسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة، ج1، ص 7.

(2) المجادلة / 1، 2، 3، 4.

(3) البقرة / 1.

(4) محمد الغزالي، مستطبات في طريق حياة المسلمة (كتاب الأمانة) مطبوع، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، 1402هـ، ص 68، 69.

ورجله خمسين سنة - ويسأل المرء هنا كيف تصبح نائفة؟ - أما الراهب الإسكندري فقد صرح " مثلها؛ وأسفاه، لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراما، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات" (1).

إن أبسط قواعد الرعاية الصحية تدعو إلى النظافة، ولكن العهد الجديد يدعو إلى عكس ذلك. وما هو إنجيل متى يبين هذا عندما سئل يسوع "ماذا يتعدى تلاميذك تقليد الشيوخ فإنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا" (2) - وهذا يعني أن الحواريين كانوا قنزين حسب هذا النص - وبعد حوار ونصائح أجابهم: " إن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج. وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر، وذلك ينجس الإنسان... وأما الأكل بأيدي غير مغسولة فلا ينجس الإنسان" (3). وعلى هذا يعتمد النصاري في رفض الطهارة بالماء كما يعتمدون - وهو ما استند إليه يورغاند - على ما ورد في إنجيل مرقس على لسان يوحنا المعمدان: "أنا عمدتكم بالماء، وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس" (4).

يضاف إلى هذا ما ورد مفصلا في رفض النظافة والدعوة إلى القذارة والوساخة في إنجيل مرقس " واجتمع إليه الفريسيون وقوم من الكتبة... ولما رأوا بعضا من تلاميذه يأكلون خبزا بأيدي دنسة أي غير مغسولة لاموا. لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتراف لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ، ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون، وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس وأباريق وأنية نحاس وأسرة. ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزا بأيدي غير مغسولة، فأجاب وقال لهم: ... تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس، غسل الأباريق والكؤوس وأمور أخر كثيرة مثل هذه تفعلون... رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم... ثم دعا كل الجمع وقال لهم: اسمعوا مني كلكم وافهموا... أما تفهمون أن كل ما يدخل الإنسان من خارج لا يقدر أن ينجسه، لأنه لا يدخل إلى قلبه بل إلى الجوف ثم يخرج إلى الخلاء، وذلك يطهر كل الأظعمة" (5).

ويبدو أن موقف النصاري من النظافة مرتبط بتصويرهم لأصل الوجود الإنساني الموسوم بطابع الخطيئة الأبدية مما يوجب معاقبة المرء لجسده تكفيرا عنها. ومن وسائل تلك المعاقبة القذارة والوساخة، فيعيش الإنسان رهينا بها (6). وهذا هو السر في نظرنا الذي جعل الإنسان الغربي رغم وصوله إلى القمر لم يكتشف بعد كيف يظهر جسمه من قاذورات البراز والبول وما زال إلى الآن يكتفي بالورق ليمسح به غائطه، محرما الماء على نفسه وهو السر الذي يجعل كل البيوت في الغرب وكل الفنادق حتى أقمعها

(1) أبو الحسن الندوي، ماذا عسر العالم باخطاط المسلمين، ط8، دار الكتاب العربي، بيروت 1984م، ص 168.

(2) إنجيل متى، إصحاح 15، فقرة 1 - 3.

(3) إنجيل متى، إصحاح 15، فقرة 17-20.

(4) إنجيل مرقس، إصحاح 1، فقرة 8.

(5) إنجيل مرقس، إصحاح 7، فقرة 1-20.

(6) محمد الغزالي، محلق المسلم، ط8، دار الشهاب، بانه، 1985م، ص 148.

جعلت الوسائل الحديثة لتنظيف المراحيض بكميات من الماء كافية، ولكنها لم تجعل أي وسيلة فعالة لتنظيف الإنسان ذاته بعد قضاء حاجته غير الورق الذي يزيد الإنسان قذارة على قذارته.

أما الإسلام فليس فيه خطيئة أبدية، ومبدأ النظافة فيه يقوم على أساس عظمة الله عز وجل، لعباده يجب أن يكونوا أظهاراً روحاً وبدناً، ليس في حياتهم فحسب بل حتى عندما يكونون يجب أن يغسلوا وهو ما يتوافق مع الفطرة، فالإنسان بطبيعته **يُوجِبُ** أن يكون نظيف البدن والمكان ولا يحتمل القاذورات في نفسه. فكيف به عندما **يُوجِبُ** إلى الله؟! وقد بين خاتم الأنبياء أن الحريص على نظافة بدنه يبعث على حاله تلك نظيفاً، وذلك عندما سئل: "كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: أرايت لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دهم بهم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء"<sup>(1)</sup>. وقد بين خاتم الأنبياء أهمية الوضوء في تطهير الإنسان من الذنوب وهو عكس ما تذهب إليه النصرانية من أن القذارة هي التي تطهره، فقال **ﷺ**: "إذا توضأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه، خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب"<sup>(2)</sup>.

"إن صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التي اعتبرها الإسلام من صميم رسالته، ولن يكون للشخص قيمة عند الله ما لم يكن نظيفاً في مطعمه ومشربه وهنئه، وللنظافة أثر عميق في تركية النفس"<sup>(3)</sup>، وهي من باب تكريم الإسلام للبدن مما جعل شهارته الثامة شرطاً لصحة الصلاة التي تتكرر خمس مرات في اليوم كما أوجب على المسلم غسل جميع بدنه غسلًا جيداً في حالات كثيرة تلازمه<sup>(4)</sup> **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم... وإن كنتم جنبا فاطمئنوا... طيباً﴾**<sup>(5)</sup>. وإذا كانت النصرانية تأمر بعدم غسل الأيدي قبل الأكل كما مر قبلاً، فإن الإسلام أمر بغسلها قبل الأكل وبعده، إضافة إلى تنقية الفم من بقايا الطعام، قال رسول الله **ﷺ**: "بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده"<sup>(6)</sup>. وقال أيضاً: "تخللوا فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة"<sup>(7)</sup>. والتخليل هو طهارة الفم وتنقية ما بين الأسنان، وهذا لا نظير له في وصايا الصحة القديمة والحديثة، وهو يبين لنا أهمية النظافة في الإسلام، بحيث لا يدخل الجنة إلا نظيف ولهذا الغرض فقد وردت أحاديث كثيرة في السواك وذلك لحماية الإنسان من أمراض الفم واللثة والأسنان وغيرها.

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(2) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(3) محمد الغزالي، حلق المسلم، ص 149.

(4) المادة / 6.

(5) رواه أبو داود .

(6) رواه الطبراني .

وإذا كان المسلمون قد أمروا بطهارة أبدانهم، فإنهم أمروا أيضا بطهارة بيوتهم ومطرفتهم وأفتية بيوتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفئديكم ولا تشبهوا باليهود"<sup>(1)(2)</sup>.

وتختم حديثنا عن النظافة بالقول بأنها وصف لأمتنا وخاصة مميزة لها، فنحن أمة النظافة، ولا أدل على هذا من أننا عندما نفتح أي كتاب فقهي نجد بابه الأول هو باب الطهارة، بل دراسة حتى أنواع المياه وجعل أظهرها فقط هو الذي تجب به الطهارة.

ونسأل بورغاد في الختام، هل جاء يسوع لينسخ الطهارة التي أتت بها التوراة ويأمرنا بالفدارة؟ إننا نحن المسلمين ننزه المسيح عليه السلام عن هذا.

وأما الزعم بأن المسلمة لا تذهب إلى الجامع: فهو كذب وبهتان، ذلك أن النساء كن يشهدن الصلوات الخمس مع النبي صلى الله عليه وسلم بطيلة حياته، وقد جعل صلى الله عليه وسلم لهن بابا خاصا يدخلن منه إلى المسجد، وجعلن في الصفوف المؤخرة صونا لهن من الركوع والسجود وزجر الرجال الذين يقتربون من صفوفهن وكذا النساء اللاتي يقتربن من صفوف الرجال، وكان يقصر صلاة الفجر على سورتين قصيرتين عندما يسمع بكاء رضيع حتى لا يشغل قلب أمه، ونهى عن منع النساء من الصلاة في المساجد فقال: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"، وظل الحال هكذا أيام الخلافة الراشدة<sup>(3)</sup>، ورغم تراجع المرأة عن الصلوات في المساجد في عهود الإنحطاط كعصر بورغاد، فإن عدد المسلمات اللاتي يصلين في المساجد أكبر من عدد النصرانيات اللاتي يرتدن الكنائس، وبهذا رغم الظروف السيئة التي عاشها المجتمع الإسلامي برجاله ونسائه فإن المسلمة أنجبت رجالا كالأمير عبد القادر الذي صلب عليه بورغاد جام غضبه وشن عليه حملة شعواء بسبب جهاده الفرنسيين المعتدين، كما أنجبت السنوسي وغيرهما من الرجال الذين أعادوا لمجتمعهم الوعي بذاته.

أما ما يعزوه إلى النصرانية من تربية جيلها على الفضيلة فإن المرء يتساءل: عن أية فضيلة يتحدث بورغاد؟ هل فضيلة شرب الخمر التي يدعو إليها، أم فاحشة الزنا التي حرمها حتى الإنجيل الذي يريد أن يجعله بديلا عن القرآن الكريم، فقد ورد في إنجيل متى قد سمعتم أنه قيل للقديما لا تزنا، وأما أنا فأقول لكمنة: إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنا بها في قلبه<sup>(4)</sup>، أليست هذه المرأة هي التي أنجبت جيل الإستعمار الذي أهلك الحرث والنسل أينما حل، مناقضا ما يزعمون من دعوة المسيح إلى التسامح، أليست هي التي أنجبت الجيل الذي يتعامل بالربا الفاحش إلخ. أهذه المرأة هي التي رباها الإنجيل، أليس

(1) رواه الترمذي

(2) ومن أراد التوسع في كيفية النظافة في الإسلام وأنواعها وأهميتها فليرجع إلى محمد الغزالي علق المسلم، ص 151، 152.

(3) محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ط5، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1989م، ص 53، 55.

(4) إنجيل متى، إصحاح 5، فقرة 27 - 29.



من التناقض الزعم بأنه رباها الإنجيل وبين قوله تصح التبرير! إذ كيف يوجد تبرير مع الإنجيل! أي تساهلت هذا وأية أكاذيب! ولكن الذي يزعم أن الله ولدا لا يستغرب منه هذا.

وأما قضية الطلاق، فيجب أن نبدأ فيها بالإشارة إلى أن الزواج في الإسلام عبادة، وهو سبب إمتداد الحياة إلى قيام الساعة، ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات﴾<sup>(1)</sup>. وبهذا فالزواج عبادة، والتمتع الجنسية في ظله عبادة، وفي الحديث "من أراد أن يبقى الله طاهرا مظهرا فليتزوج انحرثه"<sup>(2)</sup>، وثلثك شرع عقد الزواج ليكون مؤبدا، فإن وجد ما ينزل على توقيته أثناء عقده كان العقد باطلا<sup>(3)</sup>. بل لمن عقد الزواج في الإسلام يمتد إلى الدار الآخرة فيجعل الحياة الزوجية فيها باقية ﴿انخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾<sup>(4)</sup>. وثلثك "أحاط الإسلام عقد الزواج بسياج من القدسية وأضفى عليه من الجدال ما يميزه عن سائر العقود ويسمو به فرق ما يرتبط به الناس في شؤون حياتهم من إلتزامات وبنزله في النفوس منزلة المهابة والإكبار، ولذلك وصفه القرآن بما لم يصف به أي عقد آخر، فسماه بالميثاق الغليظ. قال تعالى ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾<sup>(5)</sup>، وثلثك بغض الإسلام الطلاق وصوره في أشنع صورة أمرا تركه ما استطاع المرء إلى ذلك سبيلا فقال ﷺ "أبغض انحلال إلى الله الطلاق"<sup>(6)</sup>، وقال "تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن"<sup>(7)</sup>. ولقد بنيت الأسرة في الإسلام على أسس حميها من الطلاق ما لم ترد أسباب قاهرة.

فقرر أنه لا يصح الإلتجاء إلى الطلاق لما يمكن علاجه إذا أو مستقبلا، حتى ولو كان السبب كراهة زوج لزوجته لأنه إن بغض فيها خلقا قد يرضى منها آخر. ﴿وإنك لعشرهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾<sup>(8)</sup>. ولقد طبق عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية عندما أتاه رجلا يستشير به في طلاق امرأته التي أصبح لها كارها، فنهاه عن ذلك قائلا: "ويحك ألم تبين النبوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم؟"<sup>(9)</sup>.

(1) المحل / 72

(2) رواه ابن ماجه وفيه ضعف.

(3) محمد الغزالي، فصاها ناراة، ص 102.

(4) محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، 1965م، ص 89.

(5) الزحرف / 70.

(6) النساء / 21.

(7) علي عيد الواحد واتي، الأسرة والمجتمع، ط2، مكتبة لخصه مصر، القاهرة، 1966، ص 155-156.

(8) رواه أبو داود والحاكم وصححه.

(9) ذكره الكسائي في "بدائع الصنائع" في باب الطلاق (علي عبد الواحد واتي، الأسرة والمجتمع، هامش ص 156).

(10) النساء / 19.

(11) أي التخرج من أن يصبح الرجل مصدرا لتفريق شمل بيته وشقوة أولاده وما إلى ذلك (علي عبد الواحد واتي، الأسرة والمجتمع، ص 157).

ومما قرره الإسلام لترك الطلاق أمره الزوجين بالمصالحة إن حدث بينهما سوء تفاهم، أي حل المشكل بإثارة دواعي الرحمة والوئام لا بالانفصال. قال تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو اعتراضاً فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا، واصلح خيراً﴾<sup>(1)</sup>.

وهكذا يقرر الإسلام أن الصلح أفضل من انطلاق وهذا عامل مهم يجعل النفوس المسلمة تهبو إلى الصلح لكسب رضا الله عز وجل، ولكن إن فشل في حل ما بينهما بأنفسهما فإن الشرع أمرهما برفع قضيتيهما إلى مجلس عائلي يتكون من أهل الزوجين معاً، لأنهما أحرص على حل المشكل وأكثر لأسرار الزوجية، ولقد أمر الشرع باللجوء، إلى هذا المجلس عند مجرد الخوف من وقوع المشكل. ﴿وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدنا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾<sup>(2)</sup>.

ومما قرره الإسلام أيضاً للبعد عن الطلاق أنه رتب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة يتحملها الزوج مما يدفعه إلى الإحجام عنه، هي دفع مؤجل المصدق والنفقة والسكن أثناء العدة وجعل الحضانة للأم وقريباتها من بعدها حتى يكبروا، والأب هو الذي كلف بالنفقة عليهم وعلى حضانتهم حتى ولو كانت أمهم هي حاضنتهم ﴿فإن ارضعن نكح فأتوهن أجورهن﴾<sup>(3)</sup>.

فإذا فشلت كل الحلول السابقة في حل المشكل كان ذلك دليلاً على أنه الحياة الزوجية أصبحت مستحينة بسبب مشكل خطير مما يجعل الإبقاء على الأسرة خطراً على الزوجين وعلى الأولاد، وفي هذه الحالة يجيز الإسلام الطلاق لمصلحة الأسرة نفسها وللصالح العام<sup>(4)</sup>. وحتى في هذه الحالة فإن الطلاق في الإسلام هو "وقف مؤقت لعلاقة تحتاج إلى إعادة نظر، وليست حسماً صارماً لهذه العلاقة"<sup>(5)</sup>، ذلك أن الإسلام وضع للطلاق نظاماً يتيح للزوجين أثناء إجراءات الطلاق فرصة طويلة لمراجعة النفس والعقول عن الطلاق<sup>(6)</sup>. فأوجب الإسلام أن يكون الطلاق مقيداً بما يأتي:

- 1- لا تطلق المرأة إلا طلقة واحدة، رجعية إن دخل بها، وله مراجعتها أثناء العدة<sup>(7)</sup>، فإن لم يراجعها أثناءها رغم طولها كان ذلك دليلاً على صعوبة الحياة مع بعض.
- 2- أن لا يطلقها في حيض لأنها تكون في حالة غير طبيعية وكذا لأنه لا يكون من الرجل إقبال عليها، فإن طلقت في هذه الحالة كان ذلك الطلاق بدون مبررات موضوعية.
- 3- أن لا يطلقها في طهر ووطنها فيه .

(1) النساء / 28.

(2) النساء / 35.

(3) الطلاق / 6.

(4) هلى عبد الواحد والى، الأسرة والمصح، ص 159.

(5) المرجع نفسه، ص 159.

(6) المرجع نفسه، ص 159.

(7) من أراد معرفة أنواع العدة ومدتها وكل ما يتعلق بها، فليرجع إلى كتب الفقه.

فإذا فعل ما سبق وتركها حتى انتهت عدتها ولم يراجعها كان ذلك دليلاً على استحكام النفقة<sup>(1)</sup>، وهو ما جعل ابن تيمية (ت 728هـ/1328م) وابن القيم (ت 751هـ/1350م) وفقهاء الشيعة يقررون أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان مقيداً بكل ما سبق، وبعده يقع طلاقاً واحدة فقط حتى ولو كان مقترناً بالتعدد، وذلك لقوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾<sup>(2)(3)</sup>.

"وهنا أباح الإسلام الطلاق لأنه دين يشرع للحياة الواقعية التي يضطرب فيها الإنسان، ولأنه كثيراً ما يحدث في هذه الحياة ما يقتضي الطلاق، بل ما يجعله ضرورة لازمة، ووسيلة متعينة للاستقرار العائلي والاجتماعي"<sup>(4)</sup>.

**حماية الإسلام للمطلقة:** لقد أحاط الإسلام المطلقة بالرعاية التامة فحفظ حقوقها وحماها من الإضرار بها، بنظمه الرشيدة في النفقة والحضانة والعدة والإرضاع وطرق إيقاع الطلاق وزمنه<sup>(5)</sup>، والمتعة وما إلى ذلك.

ولو فرضنا بأنه وقع طارئ ما جعل الأبواب تسد نونها، فإن السلطان في الإسلام ولي من لا ولي له<sup>(6)</sup>. ومن هنا فإن النتائج التي يرى بورغاد حصولها في المجتمع الإسلامي بسبب إباحة الإسلام للطلاق لا وجود لها في الواقع، لأنه ظهر لنا بجلاء أن الإسلام كما يحمي المطلقة التي يزعم بورغاد أنها إن لم يكن لها بيت لا تتزوج، - ولسنا ندري من أين أتى بهذا؟ - يحمي كذلك الأولاد بإجبار الأب على الإنفاق عليهم، ويجعلهم في حضانة الأم لأنها أكثر عطفاً عليهم، ونعتقد أن أكبر حماية للمطلقة هو حقها في

<sup>(1)</sup> عمدة أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص 90، 91.

<sup>(2)</sup> البقرة / 227.

<sup>(3)</sup> هذا الرأي عارض لبعض المذاهب الفقهية كالمالكية التي ترى مثلاً أن الطلاق المقترن بالتعدد يقع بالتعدد، وقد خالف هذا ابن تيمية وابن القيم والشيعة وأبو زهرة، وهو ما يراه محمد الغزالي، وأدلة هؤلاء قوية جداً، منها أن القرآن الكريم قرر أن "الطلاق مرتان" وذيل هذا بقوله "تلك حدود الله فلا تعدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون" (البقرة / 227)، وقد تكررت حدود الله ست مرات في آيتين من آيات الطلاق، حتمنا بقوله تعالى: "وتلك حدود الله بينما تقوم يعلمون" (البقرة / 230)، وقد علق محمد الغزالي على هذا بقوله: "وأحب المستعملين لا يعني هذه الكلمة ولا يسري كسب تكررت، ولا لم تكررت، ويبدو أنهم قوم لا يعلمون"، (محمد العراقي، نهر تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ط 1، دار الشروق، القاهرة، بيروت 1992م، الأجزاء العشرة الأولى، ص 21)، ولاهية الأسرة فأفضل ما يفعل تضييق الخناق على الصلح لأن الله عز وجل يقول: "الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان"، هناك ثلاثة إمساكات بمعروف، وهناك ثلاثة تسريحات بإحسان، والتسريح الأخير هو الخامس لعلاقة الزوجية، وكسب مرحلة من هذه المراحل تأخذ وقتاً طويلاً مما يعطى فرصة للزوجين للتراجع، وإما إمضاء الثلاث بلفظ واحد، في وقت واحد فلون من اللعب بتعيين الله، ولذلك كان ابن تيمية أولى من غيره بالحق، وأبصر بمصلحة الأمة، وهو ما يتوافق مع الحديث المرسل "أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - عمن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال: أبلغ بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟ فقام رجل فقال يا رسول الله ألا أقتله؟". وهذا ما جعل محمد الغزالي بشيد بابن تيمية في هذه القضية ويوافقه (محمد الغزالي، قضايا المرأة، ص 181، 182)، وهو ما تأخذ به مصر في أحكامها (محمد

أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص 91).

وما يجب الإشارة إليه أنه سبق الفقهاء الذين يفرون الطلاق الثلاث بلفظ واحد فإنهم يعتبرون هذا الطلاق خلافاً بدعياً ويسمونه كذلك، تميزه عن الطلاق السني، وهو الذي ذكرنا كيفيته قبلاً.

<sup>(4)</sup> علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص 155.

<sup>(5)</sup> المرجع نفسه، ص 160.

<sup>(6)</sup> ومن أراد التوسع في هذه القضايا فليرجع إلى كتب الفقه.

الزواج من جديد، وكم من زوجين أختلفا فتطلقا فتزوج كل منهما غيره فتجرح الأزواج. وإن يتفرقا بغض الله كلا من سعته<sup>(1)</sup>. ونحن نطرح على بورغاد السؤال الآتي :

عندما تصبح الحياة مستحيلة بين الزوجين، فما قيمة أن تبقى الأسرة موجودة على الورق ولا ظل لها في الواقع؟<sup>(2)</sup>.

وبهذا فليس من مصلحة المرأة ولا الرجل ولا الأسرة ولا المجتمع إجبار زوجين على العيش معا يحكمهم القانون وليس بحكم المودة والرحمة. وإلا نشأت أسرة شرسة متعاندّة متعارضة متصارعة، وفي ظلها ينشأ الجيل ليرى البغض من الأب ومن الأم فيوجد هذا البغض في نفوس الأسرة كلها، وبذلك تكون هذه الخلية كلها من الأسرة خلية فاسدة لا تصلح أن تبنى منها أمة<sup>(3)</sup>. ولو عاش بورغاد مدة بعد وفاته لأدرك أبناء ملته ورأهم رأي العين وهم يظنون زوجاتهم.

و الواقع أن المغالطة التي يقيمها بورغاد قائمة على أساس المقارنة بين الأطفال الذين يعيشون في أسر سوية مع أطفال ما بعد الطلاق، ولكن المقارنة يجب أن تتم بين أولاد ما بعد الطلاق والأولاد الذين يعيشون في أسر مشحونة بالخصومات المستمرة وإنحراف كل من الأبوين نكايّة في الآخر الذي اقتنع باستحالة العيش معه. ومهما يكن من ظروف أولاد ما بعد الطلاق في الشريعة الإسلامية فلو عاش بورغاد إلى اليوم لعلم ولرأى أبناء ملته في مصر تطالب نساؤهم بتطبيق الشريعة الإسلامية عليهن فيما يتعلق بالحضانة بمختلف طوائفهن من أقباط أرثوذكس وضوائف الروم والسريان والكاثوليك والبروتستانت؛ لأنهن وجدن في الشريعة الإسلامية ما يستجيب لظرفتهن كأمهات ويؤكد حقهن الطبيعي في رعاية أبنائهن في حالة الطلاق. ولقد رفعت هذه المطالبة إلى الأنبا شنودة في مصر (بابا الأقباط) فوافق عليها وكتب رسالة إلى المحكمة الدستورية المصرية يطلب فيها منها تطبيق شريعة القرآن على المسيحيات فيما يتعلق بالحضانة، ومما ذكره فيها: "إنه لا مانع من تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الخاصة بحضانة الأطفال، لأن الشريعة المسيحية لم تنص على شيء من هذا الشأن"<sup>(4)</sup>. وهكذا أصبحت الشريعة الإسلامية تطبق على نساء الأقباط والكاثوليك والبروتستانت في مصر بناء على طلبهن<sup>(5)</sup>.

وهنا نتوصل إلى السؤال الآتي :

ما دام النصراني يحبون المرأة كل ذلك الحب إلى حد أن حرم الإنجيل الطلاق فلماذا يحرم الإنجيل على المتوفي عنها زوجها الزواج من جديد؟ فلماذا تحرم من حق طبيعي فطري؟ وهل عدم الزواج ثانية لا يؤدي بها إلى الإنحراف؟.

(1) النساء / 129.

(2) محمد الغزالي، الحق المر، دةء مكة التراث الإسلامي، القاهرة، دار الشهاب، تاتة، الجزائر، 1987م، ص 68.

(3) محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، دةء، دار العودة، بيروت، 1982م، ص 36.

(4) اثبه ( بدون توقيع) رسالة الأطلس، 17 - 23 أوت 1998م، ع 202 ، ص 5.

(5) بن عطاه الله المرجع السابق ( رسالة الأطلس)، ص 24.

إن كل النتائج السيئة المترتبة على الطلاق تتركب كذلك على منع المتوفي عنها زوجها من الزواج ثانية، بل قد تكون أخطر، لأن المطلقة قد لا تميل إلى الرجال بسبب ما يمكن قد حصل لها من معاملة سيئة من طليقها، بينما المتوفي عنها زوجها ليست لها تلك النظرة عن الرجال بسبب الذكرى الطيبة عن زوجها مما يدفعها إلى الإنحراف طلباً للتعويض.

وهذا يدفعنا إلى الإشارة إلى الطلاق عند النصارى لتتسنى لنا المقارنة بعد ذلك، إننا في حين نجد الزواج في الإسلام عبادة كما ذكرنا، نجد العزوبية والعزوف عن الزواج في النصرانية هو العبادة. وبهذا تتلخص الفسفتان اللتان بنى علي أساسهما الزواج والطلاق في كلتا الديانتين، ويكون الطلاق في الإسلام مخالفاً للعبادة مما يجعل المسلمين أحرص على إبقاء العبادة (العلاقة الزوجية). بينما نجد في النصرانية أن العزوبية هي العبادة أي أن الإسلام يهدف إلى جعل جميع الرجال والنساء متزوجين، بينما تهدف النصرانية إلى إبقاء الجميع عزاباً، وبهذا يقع النصارى في التناقض عندما يحرمون الطلاق، لأنه بالطلاق يكون المرء قد رجع إلى العزوبية. وهم في كل هذا مخالفون للفطرة ونطباع الأشياء مما أنتج الفساد والإفساد.

ويستند النصارى في تحريم الطلاق على ما ورد في أنجيلهم، فقد ورد في إنجيل متى "وقيل : من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعدة الزنا، يجعلها تزني، ومن تزوج مطلقة فإنه يزني"<sup>(1)</sup>.

هذا النص يبين بوضوح شيئين أساسيين :

أ- لا طلاق إلا بسبب الخيانة الزوجية.

ب- تحريم الزواج من جديد على المطلقة.

وورد في هذا الإنجيل أيضاً :

"وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب فأجاب... فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان، قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق، قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم، ولكن من البدء لم يكن هكذا، وأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني، والذي يتزوج بمطلقة يزني. قال له تلاميذه إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج"<sup>(2)</sup>.

هذا النص يقرر الشيئين السابقين ويضاف إليهما :

- التشجيع على الذي يتزوج بمطلقة باعتبار ذلك زناً بالنسبة إليه.

- إقرار تلاميذ المسيح بصعوبة هذا الأمر ومخالفته للطبيعة الإنسانية.

(1) إنجيل متى، إصحاح 8، فقرة 31، 32.

(2) إنجيل متى، إصحاح 19، فقرة 3 - 11.

وجاء في إنجيل مرقس " من طلق امرأته وتزوج أخرى يزني عليها، وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بأخر تزني"<sup>(1)</sup>.

هذه النصوص كانت الملهم لبورغاد في التمسك بهذه الأحكام المخالفة للطبيعة لمهاجمة ما قرره الإسلام الموافق للطبيعة والنطرة، وقد تغافل نصوصاً أخرى تبيح التفريق بين الزوجين إعتد عليها كثير من البروتستانت، ومن أهمها نص لبونس في رسالة كورنثوس الأولى تبيح التفريق بين الزوجين إذا طال هجر الرجل لامرأته، ومما ورد في هذه الرسالة: "... أقول للمتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا - أي العزوبية- ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا، لأن الزواج أصلح من التحرق، وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا، بل الرب أن لا تفارق المرأة زوجها، وإن فارقت فلتنبث غير متزوجة، أو لتصلح رجليها، ولا يترك الرجل امرأته. وأما الذين فاقول لهم: أنا لا الرب إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضي أن تسكن معه فلا يتركها والمرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه، لأن الرجل غير المؤمن مقدس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدسة في الرجل، وإلا فسأولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدسون. ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق ليس الأخ أو الأخت مستعبداً في مثل هذه الأحوال"<sup>(2)</sup>. ما يهمننا من هذا النص:

- تفضيل العزوبية على الزواج.

- إباحة التفريق للضرورة غير ضرورة الزنا، ولكن التي تفارق زوجها لا يحق لها التزوج ثانية.

- إذا كان أحد الزوجين غير نصراني، وانعدمت الألفة بين الزوجين وتهاجرا جاز التفريق بينهما<sup>(3)</sup>.

- التمييز بين الله والمسيح.

وعلى كل فإن منع الطلاق في النصرانية أدى إلى تفاقم الوضع الاجتماعي، وتوصل كثير من النصارى في الغرب إلى نظام قانوني يجيز ثلاثة أحوال في حكم الطلاق وهي:

إلغاء عقد الزواج، والتفريق بين الزوجين، والفصل بينهما مع بقاء الصفة الشرعية للزواج وتحرير كل من الزوجين من سلطة الآخر باستثناء الخيانة الزوجية<sup>(4)</sup>.

ويستطيع كل من الزوجين الحصول على الحكم بإلغاء عقد الزواج إذا ثبت أن إتفاقيهما على الزواج بني على خداع أو تزوير. أي لما صعب الطلاق سهلوا للناس الاحتيال. ولسنا ندري أي فرق من الناحية العملية بين الطلاق وبين إلغاء عقد الزواج، ولا سيما عندما ينجب الزوجان بنين وبنات؟! بل نجد هذا أخطر بكثير من الطلاق لأنه يعني أن الزوجين لم يتزوجا أصلاً، وأن ما كان بينهما هو علاقة غير

(1) إنجيل مرقس، إصحاح 10، فقرة 12.

(2) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، إصحاح 7، فقرة 8 - 15.

(3) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ص 104.

(4) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة 1966، ص 117.

شرعية، وأن الأطفال الذين أنجبوا أبناء زنا<sup>(1)</sup>. وهنا نسأل: كيف يقارن هذا بأطفال ما بعد الطلاق نسي الإسلام؟.

أما حصول الطلاق فيتم بإثبات حصول الزنا. وأضيف إليه في أمريكا الشمالية وقوع انغيبية المنقطعة من الزوج أو الزوجة.

وقد أصبح الطلاق الآن يختلف من دولة غربية إلى أخرى، ولكن معظم الدول الغربية حافظت على أصول حكم الطلاق في الكتب الدينية وربطت بينه وبين قوانينها المدنية، وكل ما فعلته أنها توسعت نسي تفسيره وقياس بعض الحالات على ما يشبهها مما أباحه العهد الجديد<sup>(2)</sup>.

هذا هو الطلاق في النصرانية. وتعقيده ومنعه أدى إلى كوارث أخلاقية رهيبية فانتشر الزنا بين مئات الملايين من النصارى وهذا لا يحتاج إلى برهان، كما أن منعه أدى إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية والتوترات النفسية، وقد نتج عن منعه ما يأتي :

1- انتشار الخيانة الزوجية، وذلك أنه لما كانت هي أهم مبرر للطلاق عند النصارى، فإن كل من يريد الطلاق سواء كان زوجا أو زوجة إلتجأ إليها لإيجاد مبرره الأساسي حتى ولو كان عفيفا، وذلك ليسترج من عشرة زوجية مستحيلة، وبهذا فإن منع الطلاق تشجيع للزنا. وهذا يحطم أكبر البراهين التي اعتمدها بورغاد في نقده لنظام الطلاق في الإسلام حيث زعم أن الطلاق يؤدي إلى الزنا، بينما الذي ثبت لنا هنا أن منع الطلاق هو الذي يؤدي إلى الزنا، وذلك لأن كلا من الرجل والمرأة إذا أراد الطلاق لسبب ما أجبر على إتهام رفيقه بالزنا أو إقراره، ويثبت هذا في المحكمة علنية لأنها وحدها التي لها حق التطبيق، ففتح هذا القانون باب الزنا على مصراعيه، وجعل المحاكم فناء لعرض سوءات المجتمع ونشر ملبسه القسرة وتحولت المحاكم إلى وسيلة لإشاعة الفواحش كما علم هذا القانون (منع الطلاق إلا بإثبات الزنا) الأزواج اللديت والقوادة؛ لأنه أعطى الرجل الحق في أن يأخذ من خدن امرأته - إذا أراد - تعويضا، والتعويض معناه أجر عصمة الزوجة وشرفها، وثمن المتعة الحرام الذي يدر دخلا على القوادين<sup>(3)</sup>.

2- منع الطلاق جعل الدول الغربية تقر نظاما جديدا في العلاقات الجنسية نراه عند هؤلاء الذين رباهم الإنجيل حسب تعبير بورغاد، يتمثل في عيش الرجال مع النساء حياة جنسية عادية وينجبان الأطفال ولكن دون عقد ليتسنى لهما الانفصال متى شاءا دون أن يتحملات تبعات الطلاق وتعقيده<sup>(4)</sup> التي لا تنتهي.

<sup>(1)</sup> أبو الأعلى المودودي، حقوق الزوجين، دراسة نقدية لقانون الأحوال الشخصية، تعريب أحمد إدريس، دة، نذار العمودية للنشر والتوزيع - جدة، 1985، ص 162.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 104 ، 105.

<sup>(3)</sup> أبو الأعلى المودودي، حقوق الزوجين، دراسة نقدية لقانون الأحوال الشخصية، ص 167 ، 168.

<sup>(4)</sup> هذه التعقيدهات جعلت المجتمعات النصرانية تعيش فوق برميل من البارود، فاضرت إلى إجماع الاستفتاءات حوله، وآخر ما علمناه ما أورده التلفزيون الجزائري في نشرة الثامنة مساء في يومي 25 و 26 نوفمبر 1995 أن أيرلندا أقرت إستفتاء حول توسيع الطلاق أو تضييفه، وكانت نتيجة الإستفتاء أن أكثر من 51% صوتوا لصالح توسيع الطلاق وهذا يعني عدم صلاحية تعاليم الأنجيل لحل هذا المشكل، كما أنه يعني أن المجتمعات الإسلامية المحكومة لانكيا تسير في اتجاه معاكس للتخضر، فهم يوسعون الطلاق لأهم أدر كوا خطورة منعه، واللاتكون في بلدان المسلمين يعملون على منعه.

بينما هذه الظاهرة لا وجود لها عند الذين رباحم القرآن الكريم، وذلك بسبب إياحة الإسلام للطلاق كسما ذكرنا قبلا. بينما نجد ملايين الغربيين يعيشون تحت الحياة، أي حياة الزنا الرسمي. وهنا نتساءل: هل واجب الأديان محاربة الزنا أم الدعوة إليه وتسهيله وتيسيره ولا سيما أن المسيح نسب إليه قوله: "قد سمعتم أنه قيل للقديس لا تزن، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنا بها في قلبه"<sup>(1)</sup>. وبهذا فإن منع الطلاق هو الذي أدى إلى الزنا مما يعني أن الطلاق يؤدي إلى العفة، وهذا عكس ما زعمه بورغاد.

3- منع المطلقة وكذا المتوفي عنها زوجها - كما ورد قبلا - من الزواج ثانية يؤدي إلى الزنا، وهنا يظهر تناقض بورغاد مع نفسه، فهو من جهة يعتبر الطلاق وسيلة لإفساد المرأة وانحرافها، ومن جهة أخرى يقرر منعها من الزواج ثانية. إن الذي يؤدي بالمرأة إلى الزنا ليس الطلاق في حد ذاته، بل منع المطلقة من الزواج ثانية وممارسة حقها الطبيعي والفطري في الحياة، فإذا حرمت من ممارستها في الحلال التجأت إلى الحرام، ولا سيما أنه في النصرانية ميسر سهل، إذ يكفيها أن تفعل العجب العجيب ثم تذهب إلى القسيس تعترف له فيكمل هو نفسه عليها ولا سيما إذا كانت ذات جمال ثم يقول لها: "عفرت لك". ومن هنا فإن الزواج هو الحامي الأساسي للمرأة من الزنا ولا سيما المطلقة، وهو ما قرره الإسلام الذي أمر بالزواج بهن. ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾<sup>(2)</sup>.

4- هناك تناقض بين تحريم الطلاق والدعوة إلى الرهينة، إذ ما المانع من إباحته وترك المطلقة تختار نظام الرهينة بعد فشل زواجها، وبأي حق تحرم من التبث والزهد في الرجال ولا سيما أن ماضي الراهبات شبيه جدا بماضي المطلقة، إذ كل راهبة لها قصة حب فاشلة. بل التاريخ ذاته يبين لنا أن الرهينة ذاتها عامل جوهري من عوامل الزنا بل وحتى الشذوذ الجنسي لأنها تخالف الفطرة والإنسانية. وهكذا لا الرهينة ولا منع الطلاق حل مشكلة المرأة النصرانية، بل كل هذه الأشياء تزيد قضيتها تعقيدا.

والخلاصة مما سبق في قضية الطلاق: أنه لا موازنة بين مغالاة النصرانية ومخالفتها للفطرة والطبيعة الإنسانية، وبين شريعة القرآن التي هي "شريعة دين ودين، وكل ما اشتملت عليه من حرمة الدين تابع لمذرع له الزواج من المصلحة النوعية والمصلحة الاجتماعية... وفي هذه الشريعة القرآنية تتوافر جميع الرخص المفيدة التي لجأت إليها أمم الحضارة لتيسير العلاقة بين الزوجين مع المحافظة على الآداب الاجتماعية"<sup>(3)</sup>. فهي "شريعة إنسانية تنظر إلى طبائع الرجال والنساء، وتتجنب التشديد الذي لا يجدي شيئا في المحافظة على قداسة الزواج، ولكنه يلجئ الزوجين إلى الحيلة للتخلص منه أمام القانون"<sup>(4)</sup>. فليس من الحكمة، ولا من المنطق إجبار زوجين على العيش معا وقد بلغ كره أحدهما للأخر حدا لا يطاق، فإذا كلن عقد شركة تجارية يحكم بفضه عندما تسوء نية الشريكين ويشدد تنافرهما، فأولى بذلك فسخ عقد زواج

(1) إنجيل متى، إصحاح 5، فقرة 27 - 29.

(2) النور / 32.

(3) عيسى عمود العقاد، المرجع السابق، ص 105.

(4) المرجع نفسه، ص 106.



أصبح زواجه لا يطيقان بعضهما بعضاً، وإلا عاشا بنيسين إلى الأبد، فتحرير الطلاق لا يؤدي إلى المحبة بين الزوجين ولا إلى الوفاق بينهما، بل إلى اليأس والقنوط والخيانة - كما هو ظاهر في بلد بورغاد - ويؤدي إلى تمرد الإنسان على الدين. والذي يذهب إلى الغرب لا يجد صعوبة في إدراتك هذا، والمآسي التي أدت إليها منع الطلاق جعلت الدول النصرانية تتراخى فيه وتبيحه ولو بطريقة معينة، والدليل على فشل : منع الطلاق في تحقيق السعادة أن أبناء جلدة بورغاد - الفرنسيين - أباحوه، ونحن نتساءل: هل هم يجهلون نتائج الخطيرة على المطلقة والأولاد؟ ربما يقول : إنهم انحرفوا. ونحن نرد عليه بمنطقه قائلون: "كيف يكونون نصارى وينحرفون، ومجلس روما موجود لحمايتهم من الانحراف؟!". فإذن يجب على بورغاد أن يتنحى النصارى أولاً بتحرير الطلاق ثم يعيب على المسلمين نظامهم الإجتماعي فيه.

ثم إذا كان الطلاق بتلك الخطورة والإسلام ظلم المرأة به، لماذا أباحه مجلس روما؟! . فإذن مجلس روما غير مقدس، ويخطئ. وإذا كان يخطئ فما الضامن لحماية الإنجيل من التحريف؟ ثم كيف يخطئ مجلس روما ويصيب بورغاد الذي يقرر أن مجلس روما لا يخطئ أبداً، والذي يستلهم مبادئه وتعاليمه من ذلك المجلس؟!.

لقد تجرأت روما - حيث الفاتيكان وبياباه - وأعلنت إباحة الطلاق لأنهم وجدوا الفساد بتحريره أكثر من الفساد بإباحتهم، وهذا يعني أنهم عندما يرغبون في الإرتقاء بتشريعاتهم يخطون خطوة نحو مبادئ الإسلام<sup>(1)</sup>. وهذا دليل آخر على أن ما عندنا أفضل مما عندهم، وهو ما يجعل إتهام بورغاد متهاافتاً. وبهذا نتوصل إلى أن ما أتى به محمد ﷺ في قضايا الطلاق إنما هو في حد ذاته إعجاز ودليل على نبوته، إذ يستحيل أن يأتي بما أتى به من عنده وهو ليس على نظام سابق، إذ لا عهد للعرب في الجاهلية بما أتى به الإسلام في قضايا الطلاق والنفقة والمتعة والحضانة إلى غير ذلك. كما أنه يبين استحالة أخذه من الكتاب المقدس خلال رحلتيه إلى الشام.

إذ لو كان محمد صلى الله عليه وسلم تأثر بالعهد الجديد لماذا لا نجد أثر ذلك في هذه القضايا: الطلاق والميراث والمهر إلخ، كما أنه لو تأثر بالعهد القديم لوجدنا أثر ذلك فيما سبق، ذلك أن التوراة جعلت باب الطلاق مفتوحاً ولم تقيد إلا بقيد واه هو كتابة الطلاق أمام القاضي<sup>(2)</sup>.

وهكذا أتى محمد ﷺ بنظام بديع ودقيق لم يسبق إليه، ولم يتأثر فيه بمن قبله ولم يستطع انبشُر أن يأتي بمثله بعده، وبهذا كان ما أتى به إعجازاً تشريعياً أثبت نبوته ورسالته. وبهذا كان بورغاد خاسئنا وهو حسير .

**وأما القوامية والمهر:** فمن السخافة أن يتبناها بورغاد في مجتمعه ودينه ويعيبها على الإسلام، فحريده أن يتأسس في النصرانية رجالها، وفي الإسلام نساؤه، فهو من جهة يرفضها للرجل ويجعلها عيباً في القرآن، ومن جهة أخرى يقول بها في بناء الأسرة النصرانية، فيقرر أن " الرجل في الدار كالرأس المدير للجسد،

(1) محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، ص 35.

(2) محمد أبو زهرة، شريعة القرآن (سلسلة الثقافة الإسلامية، 31 المجموعة الرابعة) دار الثقافة العربية للكتاب، القاهرة، سبتمبر 1961، يوليو 1962، ص

والمرأة كالروح التي بها الحياة<sup>(1)</sup>. ونشير هنا إلى أن قوامة الرجل ورئاسته للأسرة هو ما تسيير عليه قوانين فرنسا في عهد بورغاد وبعده، بحيث تكاد تكون المادتان 213 و 214 من القانون المدني الفرنسي ترجمة لقول الله عز وجل: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾<sup>(2)</sup>.

فتقرر المادة الأولى " أن الزوج يجب عليه صيانة زوجته، وأن الزوجة يجب عليها طاعة زوجها". وأما المادة الثانية فتقرر " أن الزوجة ملزمة أن تسكن مع زوجها وأن تنتقل معه إلى أي مكان يؤثر الإقامة فيه، والزوج منزله أن يعاشرها وأن يقدم لها كل ما هو ضروري لحاجات الحياة في حدود مقدراته وحالته"<sup>(3)</sup>. غير أن القوامة في الإسلام لا تنخص من شخصية المرأة المدنية كما هو شأن النصاري حيث تفقد المرأة - في عصر بورغاد وبعده - اسمها وشخصيتها المدنية وأهليتها في التعاقد إلى آخر ما ذكرنا قبلاً، وما زالت القوامة إلى الرجل، ومن مظاهرها حالياً: نسب الأولاد لأبائهم لا لأمهاتهم<sup>(4)</sup>. وهذا ما يجعل المرأة في الإسلام في مكانة لم تصلها قبته ولن تصلها في غيره، ونستطيع القول بأن قوامة الرجال على النساء هي حقيقة في كل مكان في البلاد الإسلامية والنصرانية والملحدة، ليس في مجال الأسرة فحسب، بل في كل مجالات الحياة، ففي موسكو مثلاً أيام القيصريّة والشيوعية والأرثوذكسية الحكام رجال، "وفي فرنسا الحكام رجال... وفي كل مكان من الأرض الرجال هم الذين يحكمون ويشرعون ويخترعون، وجميع الأنبياء كانوا رجالاً، وجميع الفلاسفة كانوا رجالاً، حتى الملحنين مع أن التلحين صنعة خيال لا يحتاج إلى عضلات - رجال... حتى صنعة الطهي والحياسة والموضنة، وهي تخصصات نسائية تفوق فيها الرجال ثم انفردوا بها"<sup>(5)</sup>. فهذه ظواهر لا دخل للتشريعة فيها، لأنها عامة في الكون تبين قوامة الرجال على النساء بحكم الطبيعة التي خص الله بها الرجال، ولذلك عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بـ ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾<sup>(6)</sup>. وبهذا فإن الإسلام لم يفعل أكثر من أنه سجل هذه القاعدة<sup>(7)</sup>.

وواقع أن القرآن الكريم عندما قال: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾<sup>(8)</sup>. بين أن سبب التفضيل سببان أحدهما فطري، والآخر كسبي، فالفطري يتمش في أن

(1) فرانسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة، ج1، ص 8.

(2) النساء / 34.

(3) علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص 143، 144، 145.

(5) مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد، ط1، دار العودة، بيروت، 1974، ص 50.

(6) النساء / 34.

(7) مصطفى محمود، المرجع نفسه، ص 50.

(8) النساء / 34.

الله فضل الرجال على النساء في أصل الخلقة، وأعطاهم ما لم يعطين من الحول والقوة، فكانت التفاوت في التكاليف والأحكام أثر التفاوت في الفطرة والإستعداد، وتم سبب آخر كسبي، يدعم السبب الفطري وهو ما أنفق الرجال على النساء من أموالهم فإن المهرز تعويض للنساء وسدافاة لهن على دخولهن بعقد الزوجية تحت رئاسة الرجال، فالشريعة كرمت المرأة إذ فرضت لها مكافأة عن أمر تقتضية الفطرة ونظام المعيشة، وهو أن يكون زوجها قيما عليها... كأن المرأة تنازلت بإختيارها عن المساواة التامة وسمحت بأن يكون للرجل عليها درجة واحدة، هي درجة القوامة والرياسة، ورضيت بعوض مالي عليها - هو المهر - وكذا النفقة - لتجعل قريرة العين. ولا يقال إن الفطرة لا تجبر المرأة على قبول عقد يجعلها مرؤوسة للرجل بغير عوض<sup>(1)</sup>، والدليل على ذلك ما ذكره بورغاد نفسه من أن المرأة هي التي تدفع المهر في النصرانية ليكون سببا في شرفها<sup>(2)</sup> أي تدفع المهر للرجل لتكون تحت سلطته، لأن القوامة عندهم ديناً وقانوناً للرجل كما ذكرنا قبلاً، وعندما تحلل كلام بورغاد هنا نجد هراء، لأنه يجعل القضية معكوسة ولا يؤدي إلى المساواة التي يزعمها، وهنا مادام أحد الطرفين هو الذي يدفع المهر، فلماذا يعيب على الرجل دفعه وهو ما يتوافق مع الفطرة الطبيعية - هل يريد أن لا ينال الرجل الشرف الذي تناله المرأة بدفع المهر؟ وهنا يكون الظلم قد حل بالرجل. وهو مناقض لفكرة المساواة؛ لأنه بمقتضى كلامه يجعل المرأة أعلى من الرجل وأرفع بسبب دفعها المهر. فهل المرأة النصرانية أعلى من الرجل فعلاً؟ فلماذا يحرمونها من حقوقها المدنية، حتى من اسم عائلتها واسمها كما ذكرنا قبلاً؟. ولماذا يحرمونها من المناصب الدينية؟. ولماذا يحرمونها من حق الدفاع عن الأناجيل باستخدام العقل كما نص على هذا بورغاد صراحة عندما أثار المفتي قضية تحريف الإنجيل مع الراهبة، فرفضت مناقشة قضية تحريف الإنجيل ووجهت المفتي إلى الراهب لمناقشة هذه القضية لأن هذا حسب ما نص عليه بورغاد حرفياً " لا يفقد فيه النسوان"<sup>(3)</sup>. ومن هنا نلاحظ تناقض بورغاد مع نفسه، إذ في حين يذكر للمرأة النصرانية كل تلك المزايا يجردها هنا من أعظم قيمة للإنسان وهي عقله وقدرته على استخدامه والبرهنة به على ما هو مقتنع به، ويجعل هذا الحق - حق استخدام العقل فيما سبق - من نصيب الرجل وحده.

والواقع أن اللاشعور هو الذي جعله يعبر عن هذه الحقيقة التي تقضده، وتبين أن المرأة عندهم ليس لها الحق في استخدام عقلها، وأن هذا الحق من نصيب الرجل وحده، وهو بهذا يمحو كل ما جعله سابقاً للمرأة النصرانية من مميزات.

ثم بأي حق تقوم المرأة بتربية الأبناء وتعليمهم الفضائل، وتحافظ على البيت، وهي التي تدفع المهر، هل يصبح دور الرجل منحصر في إرواء غرائزه منها؟ وهنا يمكن أن نتساءل: أي قيمة أصبحت للمرأة ولا سيما أننا ذكرنا قبلاً ما تفقده من حقوقها المدنية بعد عقد الزواج؟ فهل الذي يسلط كل هذه الوسائل على المرأة يحق له بعد ذلك أن يزعم بأنها تحظى بمكانة عنده؟.

(1) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهر بتفسير المنار، ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1973، م5، ص 67، 68.

(2) فرانسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة، ج1، ص 12، 13.

(3) المصدر نفسه، ص 24.

إن النظر في وضعية المرأة النصرانية يجد أنه انصاري لم يحرموا عليها المناصب الدينية وحق الدفاع العقلي عن الأناجيل فحسب، بل حرموا عليها أيضا المناصب الدنيوية وجعلوها حكرا على الرجل إلا ماتر، وعندما نلاحظ والتعميم إلى الآن نجد أن رؤساء الدول رجال، ورؤساء الحكومات رجال، وقائدات الجيوش رجال، وهكذا دواليك كل هذا يبين واحدا من إثتين.

إما أن المرأة عندهم مضطهدة لم تعط حقوقها إلى الآن، وبهذا كان يجب على بورغاد أن يبدأ بحل مشكلة المرأة في بلده قبل أن يلتفت إلى غيره.

وإما أن الغرب النصراني أدرك أن مواهبها وفطرتها لا تؤهلها في الغالب إلى تلك المناصب، وإذا كان ذلك كذلك فلماذا يعيرون علينا ما هم مقتنعون به؟ إننا لا نجد لهذا تفسيرا سوى الحقد على الإسلام والتعصب الأعمى وإلا لو كان يعطي المرأة أدنى قيمة لما اعتبرها أساس الخطيئة التي ملأت الكون، إنه يعرف هذا جيدا ولكنه لا مانع عنده من أن يكذب ويزيف ليحقق أهدافه ويخدع المغفلين، ويصدق عليه قول الله عز وجل " قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر"<sup>(1)</sup>.

وقبل أن نختم حديثنا عن قضية المهر نشير إلى أن :

دفع المرأة المهر لزوجها لا علاقة له بالنصرانية، وإنما كان موجودا عند قدماء اليونان والرومان وكانوا يطلقون عليه اسم " الدوتة" (Dote) حيث كان الفارق الحقيقي بين الزواج الصحيح والتسري، وكان يصل أحيانا إلى عشر ثروة أب الزوجة وأصبح هذا النظام عند الرومان أقوى بحيث أصبح والد البنت هو الذي يدفع مهر إبنته وقد تطور من كونه عرفا إلى كونه واجبا على الأب مهما كانت الطبقة التي ينتمي إليها، فلما جاء قانون جوستينيان (Justinien) جعل وجوبه خاصا بالطبقات الراقية، ولكنه ظل يطبق على الجميع، فجاءت قوانين أخرى نسخت قانون جوستينيان وألزمت مهر البنت على أبيها مهما كانت طبقتهم، وظل هذا سائدا في معظم الشعوب الغربية من يهود ونصارى في العصر الحاضر، ومع أن القانون المدني الفرنسي وكثيرا من قوانين الغرب الحديثة تقرر عدم وجوب " الدوتة" إلا أن العرف في جميع البلاد اللاتينية الأصل لازال يعتبرها واجبا أساسيا على الوالد لإبنته"<sup>(2)</sup>.

وبهذا فإن دفع المرأة المهر لزوجها لا علاقة له بالنصرانية، وتحدى بورغاد أن يأتيه بنص من كتابه المنقوس يبين فيه أمره المرأة بدفع المهر لزوجها، ومن هنا فإن عمله هذا يتناقض مع المنهج العلمي الذي يقوم من جهة على حياذ الباحث، ومن جهة أخرى يقوم على تقديم النصوص كبراهين عندما تكون القضية قضية مقارنة، فهو من ناحية الإسلام يأتي بالنصوص ومع ذلك يؤولها كما يحلو له ليخدم بها غرضه، ولكنه من ناحية الأناجيل لا يأتي بالنصوص إلا ما ندر، سواء في قضية القوامة أو المهر أو غيرها في كثير من القضايا، ويكتفي بالقول " وفي الإنجيل". وهذا يتناقض كلياً مع المنهج العلمي الذي يقوم على النزاهة والتجرد والموضوعية، وهذا ما يفنقر إليه رجال الكهنوت النصارى.

<sup>(1)</sup> آل عمران / 118.

<sup>(2)</sup> علي عبد الواحد وان، الأسرة والمجتمع، ص 140، 141.

وبناء على ما سبق في قضية المهر، فإننا نعتقد أن بورغاد لم يكن يهيمه الدفاع عن النصرانية بقدر ما يهيمه الدفاع عن النظام الاجتماعي الغربي الذي إختلظت فيه انلاكية بالنصرانية. وهذا يتناقض مع طبيعة اندين ذاته الذي يجب أن يكون أصحابه مثالا لتطير النفسي والفكري والخلقي، وإن كان هذا لا يستغرب من الذين يزعمون أن لله ولدا.

مما سبق نستطيع القول بأن القوامة تعني الرياسة التي يتصرف فيها المرووس بإرادته واختياره لا أن يكون مقهورا مسلوب الإرادة<sup>(1)</sup>، وقد بين القرآن الكريم هذا بدقة بقوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة ﴾<sup>(2)</sup>. وقال ﴿ ولا تتموا ما فضل الله به بعضكم ﴾<sup>(3)</sup> على بعض<sup>(4)</sup>.

فهذه الآية الأخيرة بينت أن المرأة من الرجال وهو منها، بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فلا ينبغي للرجل ظلم المرأة لقوته ولا للمرأة إنكار فضله واعتباره حاجب لقدرتها، فإنه كما يقول صاحب المنار لا عار على الشخص إن كان رأسه أفضل من يديه وقببه أشرف من معدته، فتفضيل بعض أعضاء البدن على بعض إنما هو لمصلحة البدن كله لا ضرر في ذلك على عضو ما، ونستطيع القول : " كذلك مضت الحكمة في فضل الرجل على المرأة في القوة والقدرة على الكسب والحماية، وذلك هو الذي يتيسر لها به القيام بوظيفتها الفطرية، وهي الحمل والولادة وتربية الأضفال، وهي أمانة في سربها، مكفية ما يهيمها من أمر رزقها"<sup>(5)</sup>.

ولما كان البيت مؤسسة تربية، أو شركة اقتصادية كان لا بد له من رئيس<sup>(6)</sup>. ونيس معقولا أن تكون الزوجة هي الرئيس للأسرة في جميع الأوقات بسبب عجزها على الأقل في بعض الأوقات غير قادرة على إستئناف مسؤوليتها حين نساء، وقد راعى الإسلام الفوارق الطبيعية بين الجنسين فأدخلها في حساب الشريعة عند تقرير الحقوق والواجبات بين الزوجين<sup>(7)</sup>.

هذه القوامة لا تلغي الشورى ولا التفاهم مما يجعلها لا تعني الإستبداد والقيهر لأنه يوجد داخل البيت المسلم ما يسمى بحدود الله حيث حددت الشريعة لكل أحد من أفراد الأسرة حتى الأبناء ماله وما عليه<sup>(8)</sup>.

وبذلك تصبح القوامة مجرد رياسة، والرياسة موجودة في كل المؤسسات الحضارية وغير الحضارية، فالشركة لها رئيس لا رئيسان، والوزارة لها وزير لا وزيران، والدولة لها رئيس لا رئيسان، وهكذا كل المؤسسات التي منها الأسرة وبذلك كان لها رئيس، ولما كان الرجل هو الأكثر تأهلا لمنصب الرئاسة في

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م، ص 68.

(2) البقرة / 226.

(3) هذا التفضيل إنما هو للجنس على الجنس لا بجميع أفراد الرجال على جميع أفراد النساء - وهو ما يسمى في المنطق بالكل المجموعي - إذ كل من امرأة تفضل زوجها في العلم والعمل وقوة البنية والقدرة على الكسب ( محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م، ص 67، 68).

(4) النساء / 32.

(5) المرجع نفسه، ص 67، 68.

(6) محمد الغزالي، قضايا المرأة، ص 155.

(7) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ص 75.

(8) محمد الغزالي، المرجع نفسه، ص 154، 155.

الأسرة فقد رعت الشريعة هذا ونصبتة رئيساً لهذا المنصب الخطير، ولما كان هو الرئيس كان مسؤولاً، ولما كان مسؤولاً أوجب عليه الإسلام دفع مهر للمرأة التي سيكون بعقد شرعي رئيساً عليها.

وأما قضية الميراث: فيزعم بورغاد أن غالبية انصارى يساؤون فيه بين ذكورهم وإناثهم عكس الإسلام الذي يجعل للذكر مثل حظ الأنثيين فيظل الميراث للمرأة. والواقع أن هذا كذب وبهتان، ذلك أنه لا يوجد نظام مجحف مثل نظام انصارى في الميراث، وهو لم يستقر إلى الآن، ويختلف من مجتمع إلى آخر، فهناك من يجعل الميراث للابن الأكبر وحده نون بقوة إخوته، وهذا ظلم ما بعده ظلم وهو ما كانت تعمل به فرنسا زمن بورغاد وبعده، وأغلب حالات الميراث عند الغرب إنما تقوم على الوصية، وهي ظلم كذلك ما بعده ظلم، وقد أصبحنا نقرأ عن من أوصى بميراثه للكلاب وحرم أبناءه منه. ولو فرضنا أن نظام الميراث عند انصارى يقوم بالفعل على المساواة بين الجنسين، فإنه ليست كل مساواة عدلاً، بل تكون المساواة أحياناً نوعاً من الظلم في مواطن كثيرة، ومنها المساواة المطلقة في الميراث بين الذكور والإناث، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾<sup>(1)</sup>. والتمعن الدقيق في هذه الآية يبين أن فيها إشعاراً بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء، ولذلك جعل الله توريثهن هو الأصل مقرراً معروفاً، وأخير أن للذكر ضعفه، أي جعل الله توريثهن هو الأصل في التشريع، وجعل إرث الذكر محمولاً عليه، يعرف بالإضافة إليه، ولولا ذلك لقال: للأنثى نصف حظ الذكر<sup>(2)</sup>.

والحكمة في جعل نصيب الذكر كنصيب الأنثيين هو أنه يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجته لأن القوامة له، والقوامة توجب المسؤولية، فكان له سهمان<sup>(3)</sup>. أما الأنثى فقد أوجب الله نفقتها قبل الزواج على وليها، وبعد الزواج على زوجها بل وحتى بعد وفاته تأخذ نصيبها مما ترك. وبهذا فالمرأة مكفية المؤونة قبل الزواج وبعده، فإذا أخذ أخوها الثلثين من التركة وأخذت هي الثلث كانت القسمة دقيقة وعادلة رياضياً<sup>(4)</sup>، مثال ذلك:

لو ورث أخ وأخت، وأخذ ضعفها ثم تزوجا، فإنه يجب عليه أن يدفع مهراً، وهي يجب أن تأخذ مهراً. وبهذا فإنه يكون قد أنفق من ميراثه وهي أضافت إلى ميراثها.

كما أنه يجب عليه النفقة بعد الزواج وتعفى هي منها، وبهذا نجد انسجاماً بين القوامة والمهر والميراث، كما يظهر بجلاء أن الشريعة أخذت بعين الاعتبار حالة كل منهما. ومن هنا فمن الظلم أن تسقط الشريعة المهر والنفقة على المرأة وتكلف بهما الرجل وحده ثم تساوي بينهما في هذه الحالة في الميراث، وبهذا تظهر الحكمة الإلهية والعدل المطلق في جعل "للذكر مثل حظ الأنثيين".

(1) النساء / 11.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 4م، ص 405.

(3) عبد الجواد الطيب، تشريع الميراث في الإسلام، مجلة منار الإسلام، الإمارات العربية المتحدة، سبتمبر 1989، ع2، ص 33، 34.

(4) محمد متولي الشعراوي، كيف فهم الإسلام، ص 37، 38.

والدليل على هذا أنه عندما لا توجد المبررات السابقة، فإن الشريعة تغير نظام توزيع التركة بين الذكور والإناث إلى الكيفية التي تحقق العدل، ومن ذلك:

مسواة المرأة بالرجل في الميراث، ومن الأمثلة على هذا: توريث أو لاد الأم، أي الإخوة والأخوات من الأمهات. فقد سوى الإسلام بين نصيب الذكر ونصيب الأنثى، قال تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث ثلاثة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾<sup>(1)</sup>. وهذا شرط توريث الإخوة لأم، فلكل واحد منهما السدس ذكراً كان أو أنثى. وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث يقسمونه كذلك بالسوية<sup>(2)</sup>.

- وكذلك يتساوى الأبوان أي الرجل والمرأة في ميراث ابنيهما الميت الذي يترك كذلك ولداً، فيأخذ كل من الأبوين السدس بالسوية ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد﴾<sup>(3)(4)</sup>.  
- وهنا حالات أخرى:

نصيب المرأة فيها من الميراث أكبر من نصيب الرجل، مثل البنت مع الأب المشارك لها في الميراث. وهنا نلاحظ شيئاً بالغ الأهمية، هو أن الإسلام:

- قرر للمرأة الشخصية المالية المستقلة فسبق بذلك كل حضارات الدنيا بأسرها<sup>(5)</sup>. وهذا في الوقت الذي كانت المرأة انصرانية هي وما تملك ملكاً لزوجها.

- " الشريعة الإسلامية أتت بنظام في الميراث لم تسبق بمثله ولم يصل إليه من بعد لاحق، ولا يزال إلى اليوم أدق الموازين في توزيع التركات، وأحكمها في تحقيق العدالة بين الوارثين"<sup>(6)</sup>.  
- تنوع نظام التوريث بحيث يخصص لكل حالة نظام التوزيع الذي يحقق العدل والمصلحة بين الوارثين ولهم، وهذا ما ظهر بجلاء في مقدار نصيب المرأة في الحالات السابقة.

ونذيل كلامنا بالعودة إلى بورغاد، فنرى أن ادعاءه بأن أغلب الأمم النصرانية تسوي بين الذكور والإناث عكس الإسلام الذي جعل للذكر مثل حظ الأنثيين: مناقض للمنهج العلمي، ذلك أن المنهج العلمي يقتضي مقارنة نصوص بنصوص لا مقارنة نصوص بواقع قد لا نعرف أساسه النظري - بل مقارنة نصوص بشيء لا وجود له في الواقع - ونحن نتحداه مع أبناء منته أن يأتوا لنا بأي نص من العهد الجديد يتحدث عن الميراث. ومن هنا فإن الواقع قد يكون خاطئاً ويتضمن ظلماً واجحافاً فمتى كان الواقع الذي عليه الناس حكماً عدلاً على النصوص المنزلة؟ بل نجد أن الأنبياء ما بعثوا إلا ليعيروا واقع الناس الفاسد.

(1) النساء / 12 .

(2) عبد الجواد الطيب، المرجع السابق، ص 33، 34.

(3) النساء / 11.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 4م، ص 415.

(5) محمد عمارة، الإسلام والمستقبل، ص 213.

(6) محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 45.

- مادامت المرأة هي التي تنفع المهر عندهم فإن مساواتها في الميراث مع الرجل فنتم لها، لأن العدل يقتضي أن تأخذ هي الثلثين وتأخذ هو الثلث، ولكن الواقع القانوني عندهم كما مر سابقاً يجردها بعد الزواج من جميع حقوقها وممتلكاتها ويُلغى شخصيتها المالية تماماً، وهنا فحتى لو أخذت نصف الميراث فإن القانون ينزعها منيها ليعطيها لزوجها، وبذلك فهي عملياً لا تأخذ النصف ولا حتى العشر، وهنا نتساءل: أي عدل هذا؟! إن بورغاد باعتباره رجل دين كان يجب عليه - في نظرنا - أن يتجه إلى أوضاع بنسبته ملته الفاسدة ليصلحها، فيساهم بذلك في رفع قيمة المرأة، ولكنه بدل أن يفعل ذلك إتجه إلى النصوص الإسلامية المقدسة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ليضع فيها، ويصرف الناس عن عدالتها، فتجرد بذلك ليس من النزاهة العلمية فحسب، بل من إنسانية الإنسان، ونتساءل هنا: أي دين هذا الذي رجاله هكذا؟! . وأي شعب هذا الذي يوجه روحه وضميره هذا النوع من رجال الدين؟!.

- لو كان يدافع عن المرأة حقاً ويرى أن إعطاءها الثلث إنقاص من حقها، لماذا لم يدافع عن المرأة الجزائرية في بلاد القبائل التي حرّمها الاستعمار الفرنسي - أبناء جلدته - حتى من ذلك الثلث، بل ومن الميراث مطلقاً بدعوى إرجاع السكان إلى عاداتهم الجاهلية قبل الإسلام؟.

وأخيراً لو سوى الإسلام بين الذكر والأنثى مطلقاً في الميراث لعابوا عليه تلك المساواة وكانوا: كيف يسوي الإسلام بين ما ليسا بمتساويين، ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع سنتهم، قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ (1).

وأما قضية الضرب: فقبل أن نعرض موقف الإسلام الدقيق منه نتساءل: هل النصارى لا يضربون زوجاتهم؟. والجواب أنهم يضربون زوجاتهم قبل بورغاد وأتساءله وإلى الآن، فلماذا لا يتبع منهجه السابق في مقارنة نصوص مقدسة - القرآن - بواقع معيشة عند النصارى، أي إن القرآن الكريم أباح الضرب في حدود وبشروط كما سنذكر، والنصارى يضربون زوجاتهم. والنصارى حسب زعمه لا يخطنون لأن مجلس روما يصوبهم باستمرار. فما الفرق بين موقف القرآن الكريم وسلوك النصارى في هذه القضية؟. وبهذا فإن نقده للقرآن الكريم ليست له أي مشروعية علمية أو منطقية؛ لأنه مرة يجعل سلوك النصارى حجة على القرآن - في الميراث مثلاً - ومرة أخرى لا يجعله حجة - الضرب مثلاً - والمنطق والمنهج العلمي والنزاهة تقتضي أن المقدمات الواحدة تؤدي إلى نفس النتائج، وأن النتائج يجب أن تتسق مع مقدماتها، وهنا لا يحق له أن يتكلم على الضرب في القرآن، لأن أبناء ملته يضربون نساءهم، يضاف إلى هذا ما ذكرناه قبلاً من وجوب المقارنة بين النصوص، ونحن نتحداه أن يأتينا بنص من الأناجيل يحرم الضرب، وحتى لو أتانا بنص، فهل منع الضرب منطقي ويحقق المصلحة الاجتماعية في بناء الأسرة؟. هذا ما تناقشه الآن ياديين بالقول بأن :



الله عز وجل قبل أن يبين أن الضرب طريقة من طرق التأديب قال : قالصالحات قانتات حافظات للغريب بما حفظ الله<sup>(1)</sup>. وبهذا فإن المتزوجات قسان : صالحات وغير صالحات، ومن صفة الصالحات الفسرت والسكون والطاعة لله وكذا لأزواجهن بالمعروف وحفظ الغيب، وهن اللاتي ورد فيهن حديث النبي ﷺ خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غيبت عنها حفظتك في مالك ونفسك<sup>(2)</sup>. " هذا القسم من النساء ليس للرجال عنيهن شيء من سلطان التأديب، وإنما سلطانهم على القسم الثاني الذي بينه وبين حكمه بقوله عز وجل : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ﴾<sup>(3)</sup>. وبهذا فإن الضرب خاص بالمرأة الناشز، والنشوز في الأصل بمعنى الارتفاع. فالمرأة التي تخرج عن حقوق الرجل قد ترفعت عليه وحاولت أن تكون فوق رئيسها، بل ترفعت أيضاً عن طبيعتها وما يقتضيه نظام الفطرة في التعامل، فتكون كالناشز من الأرض الذي خرج عن الاستواء<sup>(4)</sup>. والقرآن الكريم لم يقل " واللاتي ينشزن" بل قال ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن ﴾ مما يعني أن الأصل الذي يريد الله أن تقوم عليه الحياة الزوجية هو السودة والرحمة والمحبة مصداقاً لقوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾<sup>(5)</sup>. وذلك لم يسند النشوز إلى النساء على أنه واقع بالفعل، بل على أنه قد يقع، وهذا في حد ذاته تكريم للمرأة بأنها أهل للمسؤولية مما يجب على الرجل إكرامها والنطف بها<sup>(6)</sup>. ولكن إن نشزت عولج نشوزها بالوعظ لا بالضرب، وهو يختلف باختلاف حال المرأة. فمنهم من تتأثر بالتخويف من الله ومنهم من تتأثر بالوعيد، فإن لم يجد الوعظ وجب النجوة إلى الوسيلة الموائمة، وهي :

**الهجر في المضجع:** وهو نوع من التأديب لمن تحب زوجها، وذلك لأن المضجع هو المكان الذي يهيج شعور الزوجية فيميل كل من الزوجين فيه إلى صاحبه وتهدأ نفسه، فإن هجرها فيه كان ذلك داعياً محاورة زوجها والإقلاع عن سبب ذلك، فإن لم يجد الهجر نفعاً، كانت الوسيلة الموائمة وهي :

**الضرب:** ويشترط فيه أن لا يكون مبرحاً، روى ذلك ابن جرير مرفوعاً إلى النبي ﷺ وروى عن ابن عباس رضي الله عنه تفسيره بالضرب بالسواك ونحوه<sup>(7)</sup>. ومع هذا فقد وردت أحاديث كثيرة في تبيحه والتفجير منه، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم"<sup>(8)</sup>. ومن هنا فإن الأخيار لا يضربون نساءهم وإن أتيح لهم ذلك للضرورة. فقد روى البيهقي من حديث أم

(1) النساء / 34.

(2) رواه ابن جرير والبيهقي من حديث أبي هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : "....."

(3) النساء / 34.

(4) عمد رشيد رضا، تفسير المنار، م5، ص 72.

(5) الروم / 21 .

(6) وقد نص على هذا كثير من الأحاديث النبوية، ومن أراد معرفتها فليرجع إلى كتب الصحاح.

(7) عمد رشيد رضا، تفسير المنار، م5، ص 73 ، 74 .

(8) رواه الشيخان عن عبد الله بن زعنة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ....

كلثوم بنت الصديق رضي الله عنها قالت: " كان الرجال نهوا عن ضرب النساء ثم شكوهن إلى رسول الله ﷺ بأنهن تمردن عليهم حتى قال عمر يا رسول الله قد ذثر النساء على أزواجهن - أي تمردن وعتبن في الشوز والجرأة-، فخلي بينهم وبين ضربهن، ثم قال: ولن يضرب خياركم". وقد علق محمد رشيد رضا على هذا بقوله: " فما أشبه هذه الرخصة بالحظر، وجهة القول أن الضرب علاج مَرءٍ، قد يستغني عنه الخير الحر، ولكنه لا يزول من البيوت بكل حال، أو يعم التهذيب النساء ورجالهن"<sup>(1)</sup>.

أما مصطفى محمود فقد علق على الضرب والهجر في المضاجع بأنه من معجزات القرآن في فهم الشوز، وهو يتفق مع أحدث ما وصل إليه علم النفس العصري في فهم المسلك المرضي للمرأة حيث يقسمه إلى قسمين:

المسلك الخضوعي (Masochism) وهو تلك الحالة المرضية التي تلتذذ بها المرأة بأن تضرب وتعذب<sup>(2)</sup>. وتكون الطرف الخاضع، وهذه علاجها هو الضرب، والنوع الثاني هو:

المسلك التحكمي (Sadism) وهو تلك الحالة المرضية التي تلتذذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط، وتؤدي الغير، وهذه حلها في كسر سلاحها الذي تجبر به وهو أنوثتها، وذلك بهجرها، في المضجع، ومن هنا كانت كلمة القرآن الكريم ﴿واهزروهن في المضاجع واضربوهن﴾<sup>(3)</sup> إجازا علميا وتلخيصا في كلمتين لكل ما أتى به علم النفس في مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها<sup>(4)</sup>، ومع كل هذا فإن المرأة لا تعاقب بالضرب إلا إذا كانت مرتكبة إحدى جريمتين<sup>(5)</sup>.

أولهما إدخال شخص غريب في بيت الزوجية يكره الزوج وجوده لسبب ما. لأن ذلك شبيهة تزلزل العلاقة الزوجية وتجعلها مضغعة في الأفواه<sup>(6)</sup>.

وثانيهما رقصها العشرة الزوجية ترفعا وكرها<sup>(7)</sup>، لأنها بهذا تهدم غاية من أهم أهداف الزواج وهو التحصين مما يجعلها مساهمة في هبوط الأخلاق وإنتهاك الأعراض التي تعد حمايتها مقصدا أساسيا من مقاصد الشريعة الإسلامية.

(1) محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، ص 47.

(2) وبعض النساء لا تلتذذ جنسيا أثناء الجماع إلا بعد أن تضرب.

(3) النساء / 34.

(4) مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد، ص 47، 48.

(5) جاء في تفسير أبي الفضل شهاب الدين عمود الأوكوسي (ت 1270هـ) "روح المعاني": "... وقد نص بعض أصحابنا أن للزوج أن يضرب المرأة على أربع محصال، وما هو في معنى الأربع: ترك الزينة والزوج يريدها، وترك الإجابة إذا دعاها لفراشه، وترك الصلاة - في رواية والعسل - والخروج من البيت إلا لعذر شرعي. (نقلا عن العقاد، المرأة في القرآن، ص 145).

(6) محمد الغزالي، قضايا المرأة، ص 175.

(7) محمد الغزالي، صبيحة تحذر من دعاة التصير، ص 128.

ومع كل ما سبق، فإن الإسلام منع الضرب إلا بعد فشل الوسائل السابقة عليه، «فإن أظعنكم فلا تغيروا عليهن سبيلاً»<sup>(1)</sup>، أي إن أظعنكم بواحدة من هذه الخصال التأنيبية فلا تغيروا يتجاوزها إلى غيرها طريقاً، ولذلك يجب البدء بما بدأ الله به وهو الوعظ، فإن لم يجد فالهجر، فإن لم يقد فالضرب غير المبرح، فإذا لم يجد تأتي الوسيلة الرابعة وهي التحكيم، وهذا كله في الناشز لا في غيرها من الصالحات القانتات اللاتي لا سبيل عليهن حتى في الوعظ والنصح ناهيك عن الهجر والضرب.

وقد ذلت الآية بما يحفظ للمرأة كرامتها، وهي قوله تعالى: "إن الله كان علياً كبيراً"<sup>(2)</sup>، أي سلطانه عليكم فوق سلطانكم على تسائلكم، فإن ظلمتموهن عاقبكم وإن تجاوزتم عن أخطائهن تجاوز عنكم. وقد قال الله هذا بعد النهي عن البغي لأن الرجل يظلم المرأة بما يدركه في نفسه من القدرة عليها فذكره الله بقدرته عليه ليتقي الله فيها<sup>(3)</sup>.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق، أن الضرب لا يكون إلا لنشوز لم يفلح معه ما سبق، ومع ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضرب أو يشتم امرأة له قط. ولم يعرف ذلك عن الصحابة فيما صح من الأخبار.

وهنا يجب أن نشير إلى أن المرأة بالمقابل لها الحق في أن تطالب من القاضي تأديب زوجها إذا لم يعاملها بالمعروف، والقاضي يعظه، فإن لم يجد الوعظ أمر لها بالنفقة دون أن يأمر له بالطاعة وقتنا ما لتأديبه، فإن لم يجد ذلك كان له أن يعاقبه بالضرب بالعصا كما هو الحال في مذهب مالك<sup>(4)</sup>.

هذا هو موقف الإسلام من قضية الضرب، وهو ينسجم مع نظامه الاجتماعي القائم على قوامه الرجل على بيته كما ينسجم مع الفطرة، ولا سيما في حال فساد البيئة وغيبة الأخلاق الفاسدة<sup>(5)</sup>. ويلاحظ فيه المساواة التامة بين الرجل والمرأة في قضية الضرب. كل ما في الأمر أن المرأة ليست هي التي تباشر الضرب، لأن في ذلك قضاء على القوامه وتمرد للرعية على رئيس البيت مما يهدم البيت من الأركان، وإنما يباشره القاضي مما يحفظ للرجل كرامته وللبيت وجوده. وبهذا فإن استنكار بورغاد على هذا المنهج غير منطقي، فهو - كما يقول صاحب تفسير المنار على الإفرنج ومقلداتهم - "يستنكر مشروعية ضرب المرأة الناشز، ولا يستنكر أن تترفع وتنشز عن زوجها فتجعله وهو رئيس البيت مرؤوساً، بل محتكراً، وتصر على نشوزها حتى لا تلين لوعظه ونصحه، ولا تبالي بإعراضه وهجره، ولا أندري ببحر يعالجون هؤلاء الناشز وبهم يشيرون على أزواجهن أن يعاملوهن به. إن الواقع يبين أن كثيراً من أئمة الإفرنج يضربون نساءهم العالمات المهذبات، الكاسيات العاريات، المائلات المميلات، فعل هذا حكماؤهم وعلماؤهم وملوكهم

(1) النساء / 34.

(2) النساء / 34.

(3) محمد رشيد رضا، حقوق النساء، ص 47، 48.

(4) وقد حلق أبو زهرة على هذا بقوله: "وحذا لو عمل به في عصرنا منعنا لشطط بعض الرجال" (محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ص 79).

(5) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م 5، ص 75.

وأمرؤهم، فهو ضرورة لا يستغني عنها الغائبون في تكريم النساء المتعلمات، فكيف تستنكر إباحته للضرورة في دين عام للبدو و الحضر من جميع أصناف البشر<sup>(1)</sup>. ولقد تبين لنا قبلا أن النصارى لم يكونوا يضربون نساءهم فحسب، بل كانوا يبيعون نساءهم، فكيف يعاب على من يضرب ناشزا ولا يعاب على من يبيع زوجة قد تكون طيبة عفيفة مقابل دريهمات لا تسمن ولا تغني من جوع؟!

الواقع ببين أن طبيعة الحياة تجعل المرأة كالرجل، ليسا ملاكين، فلو فرضنا أن امرأة ضربت زوجها - وهو كثيرا ما يحدث في الواقع -<sup>(2)</sup>. فماذا يفعل الزوج؟ هل يريد بورغاد من القرآن الكريم أن يقول له لا يجوز لك أن ترد عليها، وأن ترضخ للإهانة والاحتقار؟! ولو حدث هذا لاتهم الإسلام بأنه دين يسلط النساء على الرجال مما يربي في نفوسهم روح الذل والمهانة. وهنا نتساءل: كيف يكون حال البيت الذي تضرب فيه المرأة زوجها القيم عليها والمسؤول عنها وعن بيتها؟ هل تبقى لهذا البيت شخصيته؟ وهل يستطيع القيام بواجباته الحضارية؟ إن كل مسؤول يجب أن تكون له سلطة على مرؤسه، وإلا حل بتلك المؤسسة الفوضى والخراب، ومثل رب الأسرة في بيته كمثل رئيس الدولة في دولته، فإذا أصبح من حق الموظفين المرؤوسين ضرب رئيسهم أو إهانته ولم يكن من حقه تأديبهم فعلى تلك المؤسسة أو الدولة السلام، والأسرة هكذا سواء يسواء.

#### وأما قضية التعدد

فإننا قبل أن نبين موقف الإسلام منها نشير إضافة لما سبق إلى كذب بورغاد وتهافت انتقاداته وتشكيكاته. فالمسلمون لا يسجنون نساءهم ولا يقيدون جوارهم بالسلاسل، وما ذكرناه قبلا في مكانة المرأة في الإسلام يدحض كل ما أورده.

وأما زعمه بأن التعدد يؤدي إلى العقم فهذا مرفوض علميا، ومتهافت واقعا، ولا يصح الاستدلال على ما زعم بنقصان عدد المسلمين الذي حصل بالفعل في بعض الأقاليم الإسلامية كالجزائر مثلا؛ لأن هذا راجع أساسا إلى الاستعمار لا إلى التعدد. فسكان الجزائر مثلا تناقصوا خلال الأربعين سنة الأولى من الاحتلال بما لا يقل عن مليون نسمة، وذلك لأسباب من أهمها الإبادة الجماعية. ويكفي أن نعرف بأن الأسبان غرقوا في مضيق جبل طارق وحده أكثر من 3.5 مليون مسلم، كما كان التناقص بسبب ما حل بالمسلمين من أوبئة وأمراض مهلكة نتيجة البؤس الاقتصادي الذي سلطه الاستعمار عليهم، ويكفي دليلا على هذا مسغبة 1867 التي هلك بها أكثر من 300 ألف نسمة، كما سنبين أثناء حديثنا عن لافيجري. ومن هنا فإن التناقص إنما حصل بسبب إبادة النصارى للمسلمين لا بسبب التعدد، ونستطيع الزعم بأن التعدد كان له فضل كبير في رفع العدد بسرعة وتعويض الهالكين، ولا يمكن الاستدلال هنا كذلك بقلة أبناء الرسول ﷺ مع كثرة نسائه، فذاك راجع لأمرين:

(1) المرجع نفسه، ص 75.

(2) وقد روي رأي العين نساء يضربن أزواجهن ويشتمهن خارج الجزائر.

أحدهما إلهي وهو الأصل، ويتمثل في قوله تعالى: ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (1).

وثانيهما طبيعي، وهو أن أغلب نساء النبي تزوجن بعد سن اليأس لأسباب سنعرضها أثناء ردنا على افتراءات بورغاد فيها. ونشير هنا إلى أن نساء النبي وإماته ليس كما ذكر بورغاد. 15 زوجة و 11 جارية، وإنما هن 11 زوجة و جارتان، وهن: خديجة بنت خويلد، وبعد وفاتها تزوج سودة بنت زمعة ثم عائشة بنت الصديق وهي البكر الوحيدة، ثم حفصة بنت عمر بن الخطاب ثم زينب بنت خزيمة وتوفيت عنده بعد شهرين ثم أم سلمة هند بنت أبي أمية خديجة بن المغيرة، وهي آخر نسائه موتاً، ثم زينب بنت جحش، وهي ابنة عمته أميمة ثم جويرية بنت الحارث المصطلقية ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ثم صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج بها، وتوفي صلى الله عليه وسلم عن تسع زوجات، وهن ما ذكر عدا خديجة وزينب بنت خزيمة اللتين توفيتا في حياته.

وأما السريتان - فقد توفي صلى الله عليه وسلم عنهما - فهما مارية بنت شمعون القبطية وريحانة بنت زيد من بني النضير التي أسلمت فأعتقها ثم تزوجها (2). وبهذا فإن استدلال بورغاد بكثرة نساء النبي ﷺ على أن التعدد يؤدي إلى العقم ما أنزل الله به من سلطان كما يظهر بجلاء كيف يكذب بورغاد ويזור الحقائق يجعل هذا التعدد طعناً في نبوة محمد ﷺ، ونسناً ندرى لماذا لا يكون زواج سليمان عليه السلام - سبعمائة حرة والتسري بثلاثمائة جارية طعناً في نبوته (3). ولم يجعل بورغاد يتهمه أو يطعن في الكتاب المقدس الذي أباح له ذلك؟.

وأما كثرة النصارى بالنسبة إلى المسلمين فهذا راجع إلى وجود النصرانية قبل الإسلام بـ 6 قرون ولكن كثرة النصارى لا تعني بالضرورة صحة ديانتهم، ونسي بورغاد هنا أنه مع هذا فإن أغلب أراضي المسلمين إنما كانت نصرانية وكان أهلها نصارى دخلوا في الإسلام أفواجا وهذا يبطل دعواه، لأنه لا يعقل أن المرأة عندما كانت نصرانية كانت تكثر كثيرا وعندما أسلمت أصبحت عقيماً، لأن هذا يؤدي إلى القول بأن مجرد اعتناق الإسلام يؤدي إلى العقم، ومجرد اعتناق النصرانية يؤدي إلى كثرة الولادات، والذي يقول هذا أحقق لا عقل له.

وأما زعمه بصعوبة العيش في بيت واحد حال التعدد، وأن ذلك يؤدي إلى بؤس الأطفال، فقد أغفل بورغاد أن أحد شروط التعدد هو القدرة على النفقة وعلى العدل المادي، كما أغفل أن الإسلام لم يأت بالتعدد وإنما وجدته قائماً، وكل ما فعله أنه حدده بأربعة وشرط لذلك شروطاً قاسية إلى حد قوله: " فإن

(1) الأحزاب / 40. ومن فوائد هذا في المجتمع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عدم وجود نظام وراثي لأن ابن الرسول سينظر الناس إليه نظرة خاصة، وقد يكون طامحاً كما هو حال أبناء سيدنا نوح فيؤدي ذلك إلى خراب المجتمع.

(2) أبو الحسن علي الحسيني الندوي، السيرة النبوية، ط5، دار الشروق، جدة 1983م، ص 357، 358.

(3) وسنعود إلى الحديث عن هذه القضية أثناء ردنا على بورغاد في إتهام النبي صلى الله عليه وسلم بالوانع الجنسي الشهوان.

خفتم أن لا تعدلوا فواحدة<sup>(1)</sup>، وبذلك يحرم التعدد ليس فقط عندما يتأكد المرء من عجزه عن العدل، بل بمجرد خوفه من العجز عن العدل.

وأما زعمه بزيادة سكان فرنسا التي لا تعدد فإن الإحصائيات تبين لنا عكس هذا الزعم وتبين تناقص السكان، وقد أجريت دراسة إحصائية فكانت النتائج كما يأتي :

السنة	الأطفال دون 10 سنوات	الشباب من 10 إلى 19 سنة	الأشخاص من 50 إلى 64 سنة	الشيخوخ فوق 64 سنة
1880	18,3 %	17,1 %	14,5 %	8,0 %
1950	14,1 %	15,7 %	16,4 %	11,0 %

كما تبين الإحصائيات أن نسبة المواليد تناقصت بين سنة 1876 م إلى سنة 1939 م كما يأتي بالنسبة لكل ألف شخص.

1876	1901	1913	1926	1934	1939
26,2	22,0	19,0	18,8	17,3	15,1

وفي الفترة 1920 - 1926 هبطت نسبة المواليد بـ 28,2 % رغم ارتفاع نسبة الزواج بـ 7,6 %، ووصل الأمر أن أصبح سكان فرنسا عام 1921 م<sup>(2)</sup> أقل مما كان عليه سنة 1911 بمليونين وألف نسمة<sup>(3)</sup>.

وهكذا فقد إنخفضت نسبة المواليد في الأربعين سنة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، -أي في حياة بورغاد- انخفاضاً كبيراً مستمراً فأصبحت 67 مقاطعة من بين 87، نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد، بلغ الفرق في بعض المقاطعات بين 130 و 170 وفيه إزاء كل 100 مولود.

ولم ينتبه الفرنسيون لهذا الخطر إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى.

ولما كان التعدد عندهم محرماً فقد قرروا - حكومة وجمعيات أسست لهذا الغرض وغيرهما - بضرورة التكاثر من النسل لزيادة عدد السكان بأي طريقة من الطرق. وأخذت الدعوة إلى الإباحية تشق طريقها بسهولة على المستوى الرسمي والشعبي، المهم إنجاب الأطفال خدمة للوطن، وما دام الزنا يحقق هذا فإن الزنا محبب، بل إنجاب الأطفال من طريقة فضيلة، وأخذ دعاة الإباحية في التنظير ليس إلى الزنا فحسب، بل إلى عدم الحياء من أمراضه الجنسية كالزهري وغيره ليصل الأمر إلى الافتخار بهذه الأمراض وأخذ المفكرون في رفع السفاح إلى درجة الفضيلة في مجال الأخلاق ليحطوا من النكاح ويجعلوه عساراً، بل دعوا إلى جعل السفاح الطريق الوحيد للاتصال الجنسي، وقد عبر عن هذه الدرجة التي وصل إليها المجتمع الفرنسي من الانحلال الزعيم المالتوسي الفرنسي (بول روبين Paul Robin) قائلًا: "من

(1) النساء / 3.

(2) رغم أن الحرب العالمية الأولى كان لها دور في تقليص عدد السكان إلا أنها ليست هي السبب الحاسم؛ لأن فرنسا كانت تحارب رجال مستعمراتها الذين تجعلهم في الخطوط الأولى، أي خطوط الإحتمام - أكثر مما تحارب بأبنائها.

(3) أبو الأعلى المودودي، حركة تجديد النسل، دط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1975، ص 24، 41، 42، 43، 58.

المفتتح أننا قد بلغنا من النجاح في مساعيها لمدة ربع القرن الماضي - في حياة بورغاد - أنه قد أصبح ولد الزنا في منزلة أولاد الحلال، فلا ينبغي بعد هذا إلا أن يكون أولادنا جميعا من هذا النوع الأول فقط حتى نستريح من هذه الموازنة بين النوعين من الأولاد<sup>(1)</sup>.

وبهذا فقدت العفة واحتلت غشاء البكارة، وأصبحت الفتاة تحكي لزوجها ليلة الدخول عن مغامراتها الجنسية قبل زواجها به وهو يستحسن ذلك ويتلذذ لسماعه، بل كثيرا ما يكون ليلة دخوله بها عارفا بأخذاتها السابقين، وأصبح للمومس مكانة الزوجة ووجودها الشرعي. يجري ذكرها في البرلمان وتحافظك الحكومة على مصالحها، ولمومسة الجندي القدر من النفقة ما للزوجة وإن ماتت مومسته ما تقاله الزوجة من راتب التقاعد، وأصبحت البغايا يصحب الجيش في الحروب ليتزاحم أفراد الجيش عليهن<sup>(2)</sup> وبذلك لم يعد الزنا عيبا خلقيا في كل من المجتمع الفرنسي وقانونه وحكومته.

ونتيجة لما سبق فقد انتشر الزنا حتى بين الأقارب في النسب كالأب والبنات والأخ والأخت، وأصبح البغاء تجارة لها وكالاتها ومؤسساتها ونظامها الخاص بها، يعمل بها المفكرون والناشرون والخطباء والأطباء والقائلات وهلم جرا، وتجاوز أماكنه الخاصة ليغزو الفنادق والمقاهي والمطاعم. بلغت الوحشية فيه إلى حد تدخل مثلا - رئيس بلدية في شرقي فرنسا سنة 1912 م لإنقاذ فتاة إستقبلت 47 واردا وكان غيرهم على بابها ينتظرون.

ولما جاءت الحرب العالمية الأولى ابتدعت بدعة البغاء المتطوع علاوة على البغاء التجاري المعروف، فعظم شأن هؤلاء المتطوعات اللاتي خدمن - بفروجهن - الأبطال المدافعين عن أرض فرنسا وأنجين من البغاء فلقب أولئك المولودون بلقب أمهات زمن الحرب (War-God Mother) (الخ<sup>(3)</sup>).

إن شيوع الزنا بفرنسا حل بنظامها الإجتماعي دمارا وخرابا يمكن تلخيصه فيما يأتي :

- انتشار الأمراض الجنسية الخطيرة والأوبئة، مما جعل حكام الجيش الفرنسي من أوائل القرن العشرين يخفّضون باستمرار من مستوى القوة والصحة البدنية للمنخرطين في الجيش.

- فساد النظام العائلي :

أ- وذلك لأن الغرض من العلاقة الجنسية بين الجنسين أصبح يتمثل بل ينحصر في قضاء الشهوة الحيوانية. فكثر الذواقون وعزف الناس عن الزواج لتتحدد نسبته إلى 7 أو 8 في الألف. وأغلب هؤلاء لا يتزوجون للتحصين، بل لغيره كتخلييل ولد السفاح أو الزواج بمومس بعد الملل من الفجور مما أدى إلى ارتفاع نسبة الطلاق عكس ما يزعم بورغاد. ورغم النصرانية المحرمة له - كما ذكرنا - إلى حد أن

<sup>(1)</sup> المودودي، الحجاب، ص 60 - 66.

<sup>(2)</sup> وقد خلق المودودي على هذا بقوله: " وقد يقدر القارئ أن جنبا هذه حاله الخلقية، إذا دخل قاتما قطرا... فأني فجيعة عسى أن تصاب بها الأمة المغتربة في عفتها وطمهارتها ونزاهتها على أيدي، هذا طرف المقياس الخلفي في الجنود، يقابله طرف آخر من المقياس الذي يعرضه القرآن بقوله: " الذين إن مكأهم في الأرض أفاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر" (الحج/41) -. فجانبنا جندي يمشي في الأرض كالجمل الهائج المغتلم، ويحباب آخر جندي يخرج في أرض الله مستميتا في سبيل المحافظة على الأخلاق الإنسانية ودعوة أهل الأرض إلى الطهارة والصلاح، أقد بلغ من عمى الإنسان أن لا يدرك الفرق بين هذا وذاك؟! ( المودودي، الحجاب، هامش ص 79).

<sup>(3)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى المودودي، الحجاب، ص 80 - 83.

محكمة الحقوق بمدينة (سين) بسخت 29/4 نكاحا في يوم واحد، ووقع في سنة 1841م التي قررت فيها قانون الطلاق الجديد أربعة آلاف حالة طلاق<sup>(1)</sup> وإن المرء هنا ليندهش كيف يعرف بورغاد هذا ويخفيه؟ أهذه طبيعة رجل الدين؟!

ب- **وَأد النسل** : لما كانت تربية الأطفال من الصعوبة بمكان، وكان الغرض من انعلاقة الجنسية مجرد إزواء الغرائز، فقد تكفّق الفرنسيون وأبدعوا في معرفة موانع الحمل وشيوئها، مما أدى إلى قلة الولادات. كما تفننوا في الإجهاض وذلك عندما تقع أخطاء في المتع فيقع الحمل، وقد كثر الإجهاض إلى حد إسقاط 400 ألف جنين سنويا ليصبح الإجهاض حقا من حقوق المرأة، فيسرت تدابيرها ونشرت مما جعل معظم النساء يباشرته بأنفسهن<sup>(2)</sup> (3). وأصبحت فرنسا من أهم دول العالم المصنّدة للنسل. وهنا نطرح الاعتراضات الآتية على بورغاد فيما يتعلق بالتعدد وما يتبعه من قلة الولادات، فنقول :

هل كثرة الأولاد ظاهرة إيجابية أم سلبية؟ والجواب : أنه يعتبرها إيجابية بدليل افتخاره بالمرأة النصرانية من حيث أن معدل ما تلده 6 أو 7 أولاد عكس المسلمة التي لا تلد بسبب التعدد. إذا كانت كثرة الأولاد ظاهرة إيجابية لماذا لجأت بلده إلى تحديد النسل ابتداء من سنة 1876م؟ لجوء بلده إلى تحديده يدل على واحد من اثنين:

إما أن كثرة الأولاد مضرّة، وبذلك فإن التعدد علاج طبيعي لهذه الكثرة بدلا من الأدوية والوسائل الأخرى التي لها مضاعفات جانبية كثيرا ما تضر بالمرأة، وبهذا يكون بورغاد مخطأ في رفض علاج طبيعي ألي يضع بدله علاجا كيميائيا مضرًا بالمرأة، وهو الذي يزعم أن دينه هو الوحيد الذي بوأها مكانتها اللائقة بها.

وإما أن فرنسا أخطأت عندما لجأت إلى تحديد النسل، وهنا نتساءل : كيف يخطئ النصراني الذين يساهم الإنجيل والذين يوجد مجلس روما لتصويبهم حسب زعمه؟ وهنا نجد "نصارى مثل بورغاد يشيدون بزيادة الولادات، ونصارى آخرون يشيدون بقلة الولادات إلى حد منعه، وكلاهما نصراني. نكنسهما متناقضان. وهنا نتساءل : أين هي النصرانية التي وحدت وتوحد؟ ومن هو المصيب من الضرفين ومن هو المخطئ؟ وهنا نصل إلى النتيجة المنطقية الآتية:

تعدد الزوجات يؤدي إلى قلة الولادات وهي ظاهرة سلبية، وكثرة الولادات ظاهرة سلبية بدليل تحديد النسل.

وهذا تناقض

وإن قلة الولادات ظاهرة إيجابية، وإذن التعدد مفيد للمجتمع، لأنه ينظمه طبيعيا.

(1) البرودي، الحجاب، ص 94، 95.

(2) المرجع نفسه، ص 96، 97.

(3) تعدد النسل في فرنسا أنتج مشكلة كبيرة في موارد دفع أحمور المتقاعدین تعقد باستمرار، حيث يقدر الفرنسيون أن نسبة المتقاعدين سنة 2000 ستبلغ 60% من الشعب الفرنسي، وهذا سيؤدي إلى مشكلة كبيرة في دفع مستحقاقهم لأنه سيصبح 40% من العمال مولون 60% وهذا رغم تشجيعات زيادة النسل.



ج- مسخ عاطفة الأمومية : من خرج من الأطفال إلى الوجود أصبح نتيجة لما سبق منغصاً لحياة أبيهم يشدان المتعة الجنسية، لايهمهما تحمل مسؤولية التربية والصبر والمعاناة في ذلك، فانتشر قتل الأمهات لإطفالهن والتفنن في ذلك والمعاملة القاسية. ونكتفي بالإشارة إلى حادثة تتمثل في قضية رفعت إلى محكمة (سين) في سنة 1918 م تتمش في راقصة حاولت نزع لسان وندها من حلقه ثم حطمت رأسه لتقطع منه الوتين، ورغم هذا فإن المحكمة الموقرة لم تجرم هذه المرأة<sup>(1)</sup>.

وهنا نتساءل : لماذا لم يخجل بورغاد من نفسه عندما اعتبر أطفال انطلاق ينحرفون بسبب الطلاق ويحصل لهم ما نكر، وأن التعدد يؤدي إلى قلة النسل وضياع الأطفال. أي الأطفال ضائعون؟ أطفال المسلمين أم أطفالهم؟! إن الأطفال في الإسلام كأهياتهم يعدون قرة العين في جميع الظروف الجيدة والسيئة<sup>(2)</sup> "والذين يقولون ربنا هب لنا من زوجنا ودرياتنا قرة أعين"<sup>(2)</sup>. بهذا يبدو جلياً تهافت مزاعم بورغاد.

بقي أن نشير هنا إلى قضية مهمة هي أن مازعمه بورغاد من زيادة سكان فرنسا في فترته ليس راجعاً إلى كثرة الولادات الفرنسية، بل هو ناتج عن ضم أقطار جديدة إلى فرنسا بسبب الاستعمار واعتبار تلك الأقطار جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، ومن تلك الأقطار الجزائر. ولقد بلغت به الجسارة أن اعتبر أن سكان فرنسا زادوا من سنة 1810 م إلى سنة 1850 م بعشرة ملايين. هذه العشرة ملايين هم سكان الجزائر في سنة 1830 م كما بينا في أوضاع الجزائر قبل الاحتلال.

وقبل أن نبين أن التعدد كان - ولا يزال - ظاهرة عالمية، نشير إلى حقد بورغاد وكراهيته للقرآن. وبعده ليس عن المنهج العلمي فحسب، بل حتى عن آداب رجل الدين الذي يفترض فيه أن يكون قدوة للأخرين، ويتمثل هذا في إقحامه إساءة كبرى للقرآن العظيم في ثنايا نقده للتعدد عند المسلمين فيقول: "آيات القرآن نغفس فوقها"<sup>(3)</sup>، أي يضع المصحف الشريف تحت أرجله ويعفسه. قد بدت البغضاء من أفواههم وما نخفي صدورهم أكبر.

ومهما يكن من أمر، فإن بورغاد يأتي في قضية التعدد - ليتوصل إلى النتيجة الواقعية في نظره، وهي نقصان عدد المسلمين وسيراتهم إلى الفناء وزيادة عدد النصارى - بنظرية استعمارية تبرر الاستعمار الفرنسي لأقاليم المسلمين، وتتمثل في أنه عندما يقتنع المسلمون بأنهم يتناقصون بيولوجياً بسبب الإسلام، ومتخلفون بسبب الإسلام. والفرنسيون يتزايدون بسبب منع التعدد الذي أمرت به النصرانية، ومتقدمون بسبب النصرانية، فهذا يعني إقناع المسلمين بالتخلي عن دينهم الذي حلت بسببه عليهم تلك الويلات: التناقص والتخلف والرضوخ للفرنسيين ولدينهم اليوم قبل الغد، لأنه لا أمل لهم في المستقبل للتحرر والتقدم، فتتكسر نفوسهم وينشأ فيها ما يسمى بـ القابلية للاستعمار أو القابلية للمركوبية، وبهذا يتحقق هدف بورغاد الديني وهدفه الاستعماري معاً.

(1) المرودي، الحجاب، ص 97، 98.

(2) الفرقان / 74.

(3) فرانسوا بورغاد، مسامرة فرطاحنة، ج 1، ص 47.

## التعدد ظاهرة عالمية :

بعد هذا نشير إلى أن التعدد لم يأت به الإسلام، وإنما كان ظاهرة عالمية<sup>(1)</sup>، فهو لم ينشئه ولم يوجبه ونم يستحسنه، ولكنه أباحه في حالات يشترط فيها العدل والكفاية.

ذلك أن اليهودية أباحت التعدد والتسري دون قيد إلى حد الجمع بين مئات النساء كداود وسليمان عليهما السلام- ورغم هذا فإن بورغاد لم يوجه أي نقد لليهودية- رغم أن التوأمة تبين هذا التعدد صراحة، ورغم غياب العدل بين الزوجات إلى الحد الذي كانت الزوجة تلد وتحرم من نسبة مولودها إليه وينسب إلى صرتها<sup>(2)</sup>، وكان التعدد كذلك موجودا في الحضارة اليونانية وأيضا في الحضارة الرومانية إلى أن ألغاه جوستينيان، ومع ذلك ظل موجودا كما كان موجودا عند الجرمان. وبعد تنصّر أوروبا ظل أيضا. وقد أباحه بعض البابوات لبعض الملوك كشرلمان ملك فرنسا<sup>(3)</sup> الذي كانت له زوجتان وكثير من السراري. وكان القساوسة اللوثريون يعتقدونه بأنفسهم في ألمانيا. وفي سنة 1650م أصدر مجلس الفرنكيين بنورمبرج قرارا بجزء فيه التعدد. بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى وجوبه مثل "اللامعمدانيون" في مونستر، بل اعتبره "المورمون" نظاما إلهيا مقدسا. وكما كان التعدد موجودا كان كذلك نظام التسري الذي نصح به قديسهم لاجتناب الطلاق في حالة العقم كما ورد في الفصل 15 من كتاب الزواج الأمثل للقديس (أوغسطين). وهكذا بقي التعدد مباحا في العالم النصراني إلى القرن 16<sup>(4)</sup> وبعده.

ولكنه رغم كون التعدد موجودا، فإن نظام الزوجة الواحدة كان موجودا كذلك قبل تنصّر أوروبا وبعده تنصّرها، متأثرين بالقانون الروماني الذي منعه. وبذلك فإن تحريم النصارى له ليس بسبب موقف للنصرانية منه، بل لأن تقاليد البلدان الغربية التي تنصّرت كان فيها نظام الزوجة الواحدة غالبا، فضلت بعد التنصّر وفيه لتقاليد الآباء الوثنيين لتستقر الأوضاع الكنيسية بعد ذلك على التحريم<sup>(5)</sup> الموافق لفكرة الرهبة، أي ليس من باب التكريم للمرأة، ولا سيما أن أوروبا أخذت منذ القرن 16 تعويض تعدد الزوجات بتعدد الخليقات.

مما سبق نتوصل إلى أن التعدد نظام عالمي ولا يزال. وأن أوروبا التي منعت قانونا أباحت بدله التعدد اللاشعري بما شاء الرجل من النساء، عشرات أو مئات.

وبهذا فإن التعدد لم ينشئه الإسلام، بل وجده فقيده وحدد شروطا قاسية له، وهو لا يكره المرأة على قبول من لا ترتضيه زوجا<sup>(6)</sup>. بل ضيق فيه أشد الضيق كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح للمضطر

(1) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى : علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص 80-86.

(2) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ص 84-86.

(3) محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، ص 52.

(4) عباس محمود العقاد، المرجع نفسه، ص 87، 86.

(5) علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص 87.

(6) عباس محمود العقاد، المرأة في القرآن، ص 89، 90.

تريضة السقن من العدل والقدرة، ومن فوائده في نشر الإسلام صلة السند والتمهير السذي تسمى فيه العصبية<sup>(1)</sup> وهنا نساءل : ماهي وظائف التعدد؟

### وظائف التعدد :

للتعدد وظائف اجتماعية مهمة في المجتمعات التي عدد نساؤها أكبر من رجالها، وفي المجتمعات المعرضة للحروب حيث يختل فيها التوازن بين الذكور والإناث، وفي حالات أخرى يصبح المجتمع فيها مخيراً يبين التعدد أو الرذيلة<sup>(2)</sup>. وبذلك فقد أيج للضرورة، ويمكن التطرق إلى هذه الضرورات لتطهير وظائفه الاجتماعية.

- في حالة العقم : فهل المنطق يقتضي تطبيق التعقيم ليحقق رغبة الوند الطبيعية في السراء أم يأتي بأخرى دون أن يضيع الأولى، ولا سيما إن كانت بينهما محبة. الواقع يبين أنه كثيراً ما وقع التعدد في هذه الحالة وعاش الجميع سعيداً.

- عندما ننظر إلى طبيعة الرجل والمرأة فيما يتعلق بسعنى الزوجية وفي عدد الرجال والنساء في المجتمعات وفي مسألة المعيشة والكفالة أو الإستقلال نجد :

- طبيعة الرجال أكثر طلباً للأثني منها لهم، ولو لا غرام المرأة بأن تكون محظية عند الرجل لزهدت أغلب النساء في الزواج لولا الرغبة النظرية في إنجاب الولد. والنتيجة أن داعية النسل في الرجل أقوى منها في المرأة.

- الحكمة الإلهية في ميل كل من الجنسين إلى بعضهما هو التناسل الذي يحفظ به النوع. والمرأة مستعدة للنسل نصف العمر الطبيعي للإنسان (50 سنة) في الغالب. فإذا منع التعدد حرم الرجل من النسل نصف عمره الطبيعي، لأنه يستطيع التناسل كل عمره الطبيعي ولا أول على هذا من أننا إذا تركنا رجلاً واحداً مع 100 امرأة سنة واحدة أمكن أن ينجب 100 واد. ولو تركنا امرأة مع 100 رجل مثله فلا ينجب إلا واحداً، وفي الغالب لا تنتج أصلاً، لأن كل واحد يند حرث الآخر.

- في العالم أجمع عدد النساء أكبر، كما أن الموت يقتضي بسبب الحروب على الرجال أكثر، فإذا منع التعدد حرمت كثير من النساء من حقها الطبيعي في إنجاب الوند والتمتع الجنسي الحلال وتكوين أسرة والمساهمة في بقاء النوع الإنساني. فتنتشر العنوسة والسفاح فتنتج الأمراض البدنية والعقلية. وهنا نساءل : بأي عدل يمنع من العيش حياة طبيعية في ظل الزواج وينجب الأولاد؟ أيهما أفضل للسراء: التعدد

فيكون لها بيت وقيم وأطفال، أم العنوسة والسفاح فيخطفين الموت والمحن والشوارع؟!

- تاريخ النشوء البشري يبين أن الرجل لم يكن يكتفي بواحدة، والإدعاء بأن الإقتصار على واحدة - كنا يزعم بورغاد- يحقق سعادة المرأة والمجتمع هراء، فهو لا يحل الأزمة أمام النكبات التي تضطر الرجل الواحد إلى كفالة عدة نساء لمصلحتهن ومصلحة المجتمع وقدرته على ذلك. ويقول محمد رشيد رضا

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م4، ص349.

(2) علي عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع، ص85.

موضحاً ومبرهنها على هذا " وليخبرونا هل رضي الرجال ... بالزواج الفردي في أمة من الأمم إلى اليوم؟ يوجد في أوروبا في كل مائة ألف رجل رجل واحد لا يزني؟ كلا. إن الرجل بمقتضى طبيعته ... لا يكتفي بواحدة بسبب ظروف المرأة الطبيعية من الحيض والتفاس والرضاع مما يجعلها تسي كثير من الأحيان غير قادرة على العيشان عكس الرجل، وهذا ما يفسر أن اكتفاء المرأة برجل واحد لا مانع منه في طبيعتها ولا لمصلحة النسل، بل هو الموافق لذلك. ومما يدل على أهمية التعدد أن انزنا استبيح في البلاد التي يمنع فيها التعدد بالمرأة"<sup>(1)</sup>.

والواقع أن الأصل في السعادة البيئية أن يقتصر الرجل على واحدة، ولكن الضرورة قد تضطر إلى التعدد ويكون لمصلحة الأفراد من الجنسين، كأن يتزوج بعقيم فيضطر للتعدد بغية الولد ويبقى معها سعيدين، وقد لا تكفي امرأة لتحصيله فيختار ثانياً لا زانية، وقد تكون زوجته تكره العيشان، وهو يحبها وتحبه فيبقيها ويحمن نفسه بغيرها.

وقد يكون التعدد لمصلحة الأمة، كأن تكثر فيها النساء كثرة كبيرة عن الرجال بسبب الحروب أو غيرها، وهنا فإما التعدد، وإما السفاح وما ينتج عنه من لقطاع وإجرام بسبب ذلك<sup>(2)</sup>، ولغات بمثاليين على هذا: أحدهما الولايات المتحدة: الإحصاءات تبين أن هناك مشكلة خطيرة تتمثل في أن عدد النساء أكبر من عدد الرجال بـ 7,8 مليون امرأة. فلو تزوج كل رجل واحدة لبقيت 7,8 مليون امرأة بدون زواج. والتحل الوحيد لهذه المشكلة هو تعدد الزوجات. ولكن الذي وقع هو محاربة التعدد، والتحفيز الجنسي على قدم وساق، إلى تقنين السحاق والواط. فالرجال الراشدون يتم تزويجهم بعضهم إلى بعض في الكنيسة، وبلغ حوالي ثلث القوى العاملة من الممارسين للواط<sup>(3)</sup>.

ثانيهما: ألمانيا النصرانية بعد الحرب العالمية الثانية أباحت التعدد، لأنها وجدت فيه علاجاً لكثرة نسلها وقلة رجالها، ووسيلة فعالة لإكثار نسلها حفاظاً لها من الفناء<sup>(4)</sup>، عكس ما يدعيه بورغاد من أن التعدد يؤدي إلى قلة النسل.

ولقد صدق صاحب المنار في رده على (لورد كرومر) في هذه القضية بقوله: "وأما تعدد الزوجات فقد تعرض الضرورة له، فيكون من مصلحة النساء أنفسهن كأن تغتال الحرب كثيراً من الرجال فيكثر من لا كافل له من النساء، فيكون الخير لهن أن يكن ضرائر ولا يكن فواجر يأكلن بأعراضهن ويعرضن أنفسهن بذلك لمصائب تزوجهن أفعالها"<sup>(5)</sup>.

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م4، ص 353-356.

(2) المرجع نفسه، ص 357، 358.

(3) أحمد ديدات، هل المسيح هو الله وحجاب الإنجيل عن ذلك، ترجمة محمد عثمان، ط1، دار الهدى، عين منيلة، الجزائر، 1991، ص 17، 18.

(4) محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص30.

(5) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م4، ص 359.

مما سبق نستطيع القول بأن التعدد الذي أباحه الإسلام لصالح المرأة، فوجوده دليل على وجود فائض نفسي عدد النساء عن الرجال، وإلا ما وجد الرجال بمن يعددون، وهو قضية المرأة قبل أن يكون قضية الرجل، لأنه لا يعدد إلا بامرأة أخرى تكون راضية، ورضاها دليل على إدراكها أن مصلحتها موجودة فهي بهذا الزواج، وإلا ما رضيت. وليس هناك أذى بمصلحته من الشخص صاحب الأمر ذاته<sup>(1)</sup>. وبهذا ندرك أن التعدد في القرآن جزء من إعجازه التشريعي، فلم يوجب، ولم يحرمه، بل أباحه بقيود دقيقة.

ولما كانت شريعة القرآن لكل البشر، وكان البشر يختلفون في ظروفهم وبيئاتهم، كان ما شرعه صالحاً للجميع. فمن اعتاد من الأمم واحدة لم يجبر على التعدد، ومن اعتاد منها على التعدد لم ينزح بالاكتمال بواحدة ولكن قيد بأربعة مع اشتراط - القدرة - والعدل وعدم الخوف من العجز عن تحقيقه<sup>(2)</sup>، وهو ما جعل التعدد بشروطه من أسباب انتشار الإسلام في هذه الأمم كإفريقيا وغيرها<sup>(3)</sup>. وهل هناك دليل أكبر من إعتاق الناس لدين بسبب ما ورد فيه من التعدد وعنه. فكيف يعاب إذن على شريعة ما، ما كان سبب إعتاق الناس لها؟! وعلى كل فإننا نختم حديثنا عن التعدد بالإشارة إلى نتائج منعه في أوروبا:

#### نتائج منع التعدد في أوروبا :

حيوانية وهمجية في العلاقات الجنسية، وإباحة الزنا واللواط والسحاق بقوانين أضفت عليها نابع الشرعية<sup>(4)</sup>، فوصل الأمر بمجلس العموم ومجلس اللوردات البريطاني أن أقر اللواط، وأصبحت الأعراض كلاً مباحاً، وتكاد البكارة تختفي في العقد الثاني، واتصال الرجل الواحد بعشرات النساء حقيقة واضحة. والبابا يلاحظ هذا ويضرب الصمت<sup>(5)</sup>.

بل وصل الأمر بقساوسة في فرنسا وبريطانيا أن عقدوا زواجا بين رجلين، وكبار رجال كهنوتهم يصرحون في شاشات بلدانهم معترفين بنسوقهم وشذوذهم الجنسي وتنهال عليهم بعد ذلك السهواً تقديراً لصراحتهم وصدقهم، وتصدر الكنيسة بيانا تدين فيه تقانيهم في خدمة الكنيسة لتذيل أن ممارستهم لشذوذ لا يتناقض مع واجباتهم الكنسية، وأصبح البابا ذاته الذي أقر السحاق واللواط يؤثر الخلال على التحلل، ويستقبل اللقطاء ببشاشة لتجعلهم الكنيسة من أهم مراتعها للتصير، ويرفض البابا في الوقت ذاته أن يكون للرجل أولاد شرعيون من صلبه إذا كانوا من زوجة أخرى<sup>(6)</sup>. وهكذا اختلطت في الغرب النصرانية الأنساب واضطربت، وتبولت الزيجات سرا وعلنا، وأضرب عن الزواج حتى بواحدة، لأن الجنس أصبح مشاعا، فلماذا يتزوج الرجل ليمنع عن تطليق من رآها غير صالحة؟ ولماذا يتحمل تبعات الأبناء؟ أليس

<sup>(1)</sup> محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، ص 33، 34.

<sup>(2)</sup> محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 29، 30.

<sup>(3)</sup> محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 4م، ص 363.

<sup>(4)</sup> توفيق محمد شاهين، هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في تكوين الأسرة، الملتقى 16 لتعرف على الفكر الإسلامي، تسلمان - وزارة الشؤون

الدينية، الجزائر، 1982م، ص 24.

<sup>(5)</sup> محمد الغزالي، الحق المرء، ص 69.

<sup>(6)</sup> المرجع نفسه، ص 69.

الأفضل له أن يبول كل يوم في مرحاض جديد دون أن يتحمل نتيجة ما يحدثه بوله من آثار<sup>(1)</sup>. ناهيك عن الميوعة والتخثت والديوثة. وهكذا أصبح الإنسان حيوانا، بل أضل؛ لأن الحيوان يحتضن صغاره ويغار على أنثاه، وهذا عكس الإنسان<sup>(2)</sup>.

ويمكن أن تشير إشارة خفيفة إلى تلك النتائج المذهلة الناتجة عن منع التعدد وإباحة الزنا. لقد بلغ في بريطانيا في سنة 1946م أكثر من 100 ألف حمل من السفاح، وبلغ عدد أولاد الزنا  $\frac{1}{3}$  المواليد. أما سن الحاملات سفاحا فكان 40% أقل من 20 سنة، و30% 20 سنة، و20% 21 سنة. هذه الإحصائية إنما هي لوقائع الزنا التي وقع فيها خطأ في وسائل منع الحمل، مما يجعل هذه الإحصائية التي قدمها الدكتور أوزوالد سوارز (Oswald Scharz) لا تبين إلى جزءا يسيرا من الكارثة<sup>(3)</sup>.

وما يقال عن بريطانيا يصدق على غيرها من الدول النصرانية. أما إحصائيات الجرائم ولا سيما الجنسية، فحدث عنها ولا حرج، وأما انتشار الأمراض المتولدة من انقوضى الجنسية فقد أصبحت تفك بالصحة فتكا، كالزهري والسيلان<sup>(4)</sup> وأخرها مرض السيدا. وهكذا نختم حديثنا بالإشارة إلى أن التعدد اللاشعري أنتج - إضافة إلى الأمراض المزمنة والجرائم - أطفالا لا شرعيين يعدون بالملايين، وهذا نتساءل مندهشين:

أين هي دموع التماسيح التي ذرفها بورغاد على الأضال في حالة الطلاق؟ أي الفريغين أحق بالبكاء عليه، أطفال ما بعد الطلاق الذين قرر الإسلام بدقة كفاتهم ونفقتهم وحضانتهم<sup>(5)</sup>، أم اللقطاء؟ إن أكبر عقدة يعانيها الطفل وتلازمه طوال حياته إدراكه أنه ولد نتيجة الخطيئة ولا أب له ينتسب إليه، ولا أم تدفنه بحنانها. والأغرب من هذا أن الإنجيل لم يبح الزنا كما ذكرنا قبلا، ولكن بورغاد يدعو إليه غير مبالي بمخالفته للعقيدة التي يزعم أنه ينتسب إليها ويدعو لها؛ لأن غرضه هو تحطيم القيم الإسلامية التي أنتجتها شريعة القرآن. ولا أدل على هذا من مراقبة البغايا لجيش الحملة على الجزائر كما ذكرنا في العلاقة بين التبشير والاستعمار، فقد كن جنبا إلى جنب مع القساوسة ورجال الكهنوت ليحطم كل من جهته ما يجده من قيم في المجتمع الإسلامي، وذلك لأن المجتمع لا يزول إلا بزوال قيمه.

والنتيجة النهائية مما سبق، أن التعدد عندما ننظر إليه نظرة (سوسيوولوجيا) مجردة نجده ظاهرة عالمية موجودة عند كل الأجناس والملل من مسلمين ونصارى وغيرهم، ويكمن الفرق في التعدد بين المسلمين والنصارى فيما يأتي :

(1) توفيق محمد شاهين، المرجع السابق، ص 24.

(2) أبو الأعلى المودودي، حركة تجديد النسل، ص 27.

(3) ومن أراد التوسع فليرجع إلى المودودي، المرجع نفسه، ص 30-33.

(4) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتب الفقه الإسلامي المختلفة.

التعدد عند النصارى	التعدد عند المسلمين
غير محدد	محدد بأربعة وبشروط دقيقة صعبة
الرجال والنساء يعددون	الرجال فقط يعددون
الأطفال نقمة	الأطفال نعمة
الرجل غير مسؤول	الرجل مسؤول تترتب عليه واجبات
انتشار الأمراض الجنسية	السلامة من الأمراض الجنسية
البح	البح

ورغم هذه البشاعة والشناعة التي أنتجها التعدد اللاشعري عند النصارى، فكان الواجب على الكنيسة أن تعيد النظر في الأمر لعلها تهتدي إلى الصواب، ولكنها كما ذكرنا ظلت في غيها وعمه، فإضافة لما ذكرناه من تشجيع البابا له وللقطاء، هاهي الكنيسة الكاثوليكية في أيرلندا تطلب من المدرسين إسقاط كلمتي " أب وأم" من البرامج والدروس التعليمية لكثرة اللقطاء، واقترحت عليهم أن يستخدموا بدلها مصطلحات أخرى مثل " الراشدون الذين يعيشون في منزلكم"، أو " الناس الذين يعتنون بكم"، وغيرها من المصطلحات الجديدة التي نحتتها الكنيسة وأصبحت تستخدمها في برامجها التربوية للأطفال في (بنفاست) عاصمة أيرلندا، بل وصل الأمر بالكنيسة إلى تنظيم حملة لهذا الغرض، عبر أحد منظمي الحملة عن هذا التبديل قائلاً: " في الماضي كان هناك أب وأم لكل عائلة، أما اليوم فلم نعد نقول هذا النوع من الأشياء"<sup>(1)</sup>، فهل يوجد هذا عند المسلمين الذين يعددون ويطلقون؟.

### الطعن في العبادات

وأما الطعن في الصيام: " فينطلق فيه بورغاد كعادته من اتهام القرآن يجعل واقع بعض الناس الفاسد حجة عليه ليتوصل من خلاله إلى أن صيام النصارى هو الأفضل. وقيل أن نيين أهمية الصيام في الإسلام نفند افتراءاته، فهو يعمل على تشويه الإسلام وتزويق النصرانية باستخدام المغالطات والكذب والتزييف إلى حد السخافة المفرطة، ومن ذلك قوله إن النصارى يصومون في الليل والمسلمون في النهار، فإذن لا فرق".

والواقع أن المنهج العلمي كما ذكرنا قبلاً يقتضي أن يكون النص حجة على السلوك وليس السلوك حجة على النص، فكان على بورغاد أن يستعرض النصوص الإسلامية التي تأمر بالصيام وتبين آثاره في الفرد والمجتمع، يحللها ثم ينتقدها، ولكنه لم يفعل ذلك ولن يفعله؛ لأنه لن يجد فيه ضالته. كما أن الدراسة الاجتماعية للمجتمع تقتضي - عندما نريد أن نبين أثر ظاهرة ما من ظواهره عليه - أخذ عينات مختلفة ونخضعها للدراسة، بينما بورغاد لم يختار - ليبرهن به على فساد الصيام في الإسلام - سوى العينة الفاسدة وترك عينات أخرى يحدث الصوم فيها آثاراً إيجابية. ونحن نستطيع من خلال تطبيق

<sup>(1)</sup> صحيفة "الأندينت" من جريدة الخبر، الجزائر، الثلاثاء، 28 أكتوبر 1997، ص 11.

هذا المنهج على النصرانية أن تثبت فساد يسوع<sup>(1)</sup>، من خلال فساد الحواريين. أليس أحد الحواريين هو الذي وشي به ليصلب؟، ومن هنا فإما أن يكون فساد بعض الحواريين دليلاً على فساد يسوع ذاته، وبهذا يكون طعنه في الصيام صحيحاً. ولكن بورغاد لا يسلم بهذا. فإذن فساد بعض المسلمين ليس دليلاً على فساد الصيام. وبعبارة أخرى، فإما أن يسلم بالفصل بين المبادئ والسلوك، وإما أن يسلم بفساد النصرانية.

والواقع أن بورغاد بحكم نصرانيته لم يجرب الصيام الحقيقي يوماً واحداً في حياته. ذلك أن تبديل ضعام بطعام ليس صياماً<sup>(2)</sup>، وإنما لتستغرب كيف يعد صائماً من يأكل في اليوم مرتين كاملتين! . ومن هنا فإِنَّه بحكم عدم تجربته له لم يعرف حلاوته وأثره الكبير في تركية النفس وزيادة الإيمان وسمو الأخلاق ورفع الصائم إلى عالم الملكوت. ولم يجد ما ينتقد به هذه العبادة الركن من أركان الإسلام سوى رؤيته لبعض السفلة من الذين لا يعرفون حقيقته، ومتى كان السفلة حجة على المبادئ العظيمة؟!.

وأما زعمه بأن الصوم يؤدي إلى الكسل؛ فإن الواقع التاريخي للمسلمين، بين عكس ذلك. بل يبين كيف يربي الصيام الصائمين على تحمل المشاق والصبر في ذلك لتحقيق ما لم يتحقق في حالة الإفطار، حيث كان المسلمون أنشط ما يكونون في رمضان، والدليل على ذلك أن المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي كانت في رمضان، ومن الأمثلة على هذا :

معركة بدر الكبرى وقعت يوم الجمعة 17 رمضان<sup>(3)</sup> سنة 2 هـ ، وفتح مكة تم في رمضان صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت منه، سنة 8 هـ<sup>(4)</sup>، وفتح الأندلس تم في رمضان حيث وقعت معركة وادي لكة الفاصلة في 28 رمضان 92 هـ الموافق 19 جويلية 711 م<sup>(5)</sup>، وفتح عمورية تم في 17 رمضان 223 هـ / 12 أوت 838م، ومعركة عين جالوت الشهيرة التي أرجعت التتار على أديارهم ليدوبوا في الإسلام تم في 25 رمضان 658 هـ / 3 سبتمبر 1260 م، وتحرير صحرة الجزائر من الأسبان تم في رمضان 936 هـ / ماي 1529م<sup>(6)</sup> إلخ، ويلاحظ على هذه المعارك ملاحظات ثلاث، هي :

1- وقوعها في رمضان، وإذا كانت الحرب بطبيعتها متعبة وشاقة، فإنه يمكننا أن نتصور المشقة أضعافاً مضاعفة لمن يقوم بها وهو فاقد لبعض ما يقويه عليها كالأكل والشرب. وهذه الحال لا توجد إلا عند جيوش المسلمين حيث خاضت عبر التاريخ معارك طاحنة وهم صائمون إنتهت بانتصارهم على

(1) نحن نؤمن بأن المسيح عبد الله ورسوله، والكلام الذي أوردناه هنا هو من باب إخصاع الخصم لمهجه، ولذلك استخدمنا "يسوع" ولم نستخدم لفظ المسيح عليه السلام.

(2) عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، الإسلاميات (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه)، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974، ص5، ص112.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص626.

(4) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص291.

(5) شوقي أبو خليل، فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد، ط3، دار الفكر، دمشق، 1980، ص47.

(6) محمد الهادي الحسيني، شهر الجهاد والانتصارات، جريدة الشعب، الجزائر، الثلاثاء، 16 رمضان 1403 هـ / 28 جوان 1983، ص. في رحاب



اعدائهم<sup>(1)</sup> المفطرين. -ومن أولئك الأعداء أهداف بورغاد- وعيرت وجه التاريخ الإنساني، وهو ما يدحض ادعاء أن رمضان شهر الكسب وغير ذلك.

2- هذه المعارك كلها هجومية، مما يعني أن المجاهدين بذلوا جهوداً أكبر مما لو كانت دفاعية<sup>(2)</sup>.

3- هذه المعارك وقعت في أكثر الشهور حرارة، وهي: ماي، جويلية، أوت ثم سبتمبر. ومعنى هذا أن المجاهدين تحملوا في هذه المعارك ثلاث مشقات كل منها تكفي لهزيمتهم هي، كونهم صائمين ومهاجمين وفي وقت شديد الحر<sup>(3)</sup>.

ومن هنا نعتقد أن أحد أهداف بورغاد من هجومه على الصيام إنما هو حرمانهم من تلك الطاقة الروحية التي لو أرادوا بها قلع الجبال لقلعوها، فيحرمهم بذلك من أهم سلاح يحمون به أنفسهم من غزو بلده لسببهم، وإلا لماذا لم يهاجم اليهود في صيامهم مع أن أحد أنواع الصوم عندهم هو الإمساك من الغروب إلى الغروب<sup>(4)</sup>.

والمواقع أن من فوائد الصيام أنه عامل وحدة للمسلمين، فهو أحد الأركان الإسلامية المتفق عليها بين جميع فرقهم في مدته وكيفية، وصيامه واجب بنص القرآن الكريم شهراً كاملاً معلوماً هو شهر رمضان "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن... فمن شهد منكم الشهر فليصمه... ولعلكم تشكرون"<sup>(5)</sup>، كما هو ثابت بالسنة<sup>(6)</sup>.

وهذا في حين نتحدى بورغاد أن يأتينا بنص من الأناجيل يبين فيه كيفية الصيام أو مدته، وذلك لأنه ليس في الأناجيل المعروفة نص في فريضة الصيام، واكتفت بذكره ومدحه واعتباره عبادة، وأشهر صومهم وأقمنه الصوم الكبير الذي قبل عيد الفصح ( عيد القيامة أي قيامة المسيح من الأموات حسب زعمهم ) وهو الذي صنمه موسى وكان يصومه عيسى عليهما السلام والحواريون<sup>(7)</sup>. ولم يرد عن السيد المسيح أنه

(1) المرجع نفسه، ص نفسها.

(2) ولا أدل على هذا ما تفرره استراتيجية الغروب الحديثة من أن الفاصلة لحد على الجماعة، وانكافة حجم على الصفحة، أي أن عدد المهاجمين يجب أن يكون ثلاثة أضعاف المنافعين مما يدل على صعوبة الهجوم مقارنة بالانتفاع.

(3) محمد الهادي الحسني، المرجع والصفحة نفسه.

(4) الصيام عند اليهود ثلاثة أنواع : يوم كامل، ونهار كامل، ونصف نهار، فيصومون يوم الكفارة (يوم عاشوراء)، وهو اليوم العاشر من شهر نشرين من السنة المعبرية وليس يوم عشرة من محرم كما قد يتوهم)، ويوم ذكرى أفبكل من الغروب إلى الغروب، ويصومون أياماً غير هذين اليومين من مشرك الشمس إلى مغربها، ويصومون كثيراً من الشروق إلى الظهر، وهو صوم نصف النهار، وكل الصيام عندهم إمساك عن الطعام والشراب. (غياض عمود العقاد، الموسوعة الكاملة، الإسلاميات 2، الإسلام دعوى عالية، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974م، ص6، ص39، ص40).

(5) البقرة / 185.

(6) وسنذكر بعض الأحاديث لاحقاً.

(7) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط2، دار المعرفة، بيروت، دت، ص2، ص144.

أمر بالتصوم في وقت معين<sup>(1)</sup>. ثم وضع رؤساء الكنيسة ضروباً أخرى من الصيام، وفيها خلاف كبير بين مذاهبهم وظوائفهم<sup>(2)</sup>.

فمنهم من جعل الصيام إمساكاً عن الطعام كله، ومنهم من جعله إمساكاً عن بعض ألوانه، ومنهم من جعله يوماً عند منتصف الليل<sup>(3)</sup>.

ومنهم من جعله كصيام بورغاد: إمساكاً عن اللحم واكتفاءً بوجبتين كاملتين في اليوم لمدة 40 يوماً، وكان يذبح طعام بطعام صياماً، ومن قلة الأدب أن يتهم بورغاد المسلمين بالاختلاف وهم موحدون في صيامهم، ويصنف النصراني بالاختلاف وهم متفقون في صيامهم. ولما كان الصيام في أساسه فرض على من قبلنا، بين الله عز وجل هذا عندما أمرنا بالصيام فقال تعالَى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون"<sup>(4)</sup>.

مما سبق نستطيع القول: "إن الصيام الإسلامي هو الفريضة المثلَى بين ألوان الصيام الدينية، لأنها تجيء في شهر معلوم، فيشمل العالم الإسلامي كله، وتصبح هذه العبادة فيه عبادة فردية وعبادة إنسانية عامة في وقت واحد، وهي تجيء في شهر قمري واحد يختلف موقعه من فصول السنة، فتعم هذه العبادة كل فصول السنة، ولا يملك المرء إرجاءها كسلاً أو تسويفاً إيثاراً لوقت على آخر، أو لحالة على أخرى"<sup>(5)</sup>، وهو في الشرع "الإمساك عن شهوتي البطن والفرج أو ما يقوم مقامهما"<sup>(6)</sup> يوماً كاملاً بنية التقرب - إلى الله عز وجل"<sup>(7)</sup>.

ومن أهم فوائده: إستدامة شرف الشعور بعبودية التكليف من حيث تحريمه في رمضان ما أحل في بقية العام، ذلك أن المسلم يعرف الحلال فيأتيه، والحرام فيجتنبه طيلة العام فيمرور الزمن يصبح هذا الأمر كالعادة، مما يفقد الإنسان الإحساس بلذة الشعور بالعبادة، ولما يحرم على المسلم في شهر رمضان ما كان حلالاً في أصله يتجدد إيمانه وتصفو نفسه لترتقي إلى عالم الملكوت ويصبح أصفى ما يكون عبودية لله عز وجل في منهجه في شهر رمضان، ولذلك إختراه الله عز وجل

(1) العقاد، الإسلام دعوى علمية، ص 40.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م 2، ص 144.

(3) العقاد، المرجع نفسه، ص 40.

(4) البقرة / 183.

(5) العقاد، المرجع نفسه، ص 40.

(6) قوله ما يقوم مقامهما: الذي يقوم مقام الفم الأنف والأذن والعين، فإن الواصل من ذلك للجوف أو الخلق مقطر، ويقوم مقام الفرج الشمس للوجع للقطر (محمد بن محمد بن عبد الله بن المبارك الفتحى المراكشي، الحبل المتين على نظم المرشد المعين على الضروري من علوم الدين في مذهب الإمام مالك، دط، ددن، دم ن، 1343 هـ، ص 57.

(7) المرجع نفسه، ص 57.

لينزل فيه منهجه للناس " القرآن الكريم" وكل مسلم يصوم رمضان يحس بأن هناك تغيير وسمو وإصغاء (1) (2).

ومن فوائده أيضا أنه مدرسة لتعلم ضبط النفس ومراقبتها، ذلك أنه عبادة لا يتكرب بها بشر لبشر، بل لله الذي مراقبته وحده تمنع المسلم من الإفطار عندما يكون في خلوة، ولذلك قال الله تعالى في حديث قدسي: «كن عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» (3) وفيه تتجلى العبودية الكاملة لله عز وجل (5)، ولذلك كان للصيام آثار نفسية واجتماعية لها أهميتها في حياة الصائم.

فمن آثاره النفسية: إزالة آثار الشح والبخل والكبر والخلاء، وتربية الفضائل وتنويع العزائم، والصد عن الفحشاء والمنكر والإبتعاد عن معاصي القلوب.

ومن آثاره الاجتماعية وفوائده المساواة بين الأغنياء والفقراء والعاسة والخاصة في الجوع، وهو رمز لتوحدة الإسلامية، وتنظيم للأمة في معيشتها، فجميع المسلمين يسكنون في وقت واحد ويفطرون في وقت واحد - من طلوع الفجر إلى غروب الشمس شرعا - لمدة شهر كامل، وتنبه لعاطفة التراحم والتكافل من حيث إنه إعلام للغني بحال الفقير وإشعار الطاعم الكاسي بحال الجائع العاري (4)، وهو فرصة للسمّ شمل الأسرة على مائدة الإفطار.

الصوم تحرير للإنسان من سلطان الغرائز. والغرائز كما هو معلوم هي أساس المعاصي، ومنها ظلم الإنسان للإنسان. فالصوم يحرر الإنسان منها ليربطه بعالم المنكوت، ذلك أن الإنسان جسد وروح، وكل منهما له متطلباته، وكلاهما يتجاذب الإنسان؛ فالجسد يجذبه إلى عالم الشهوات، أي الانتقال إلى الأرض إلى العنصر الترابي، والروح تجذبه إلى عالم الملائكة، ذلك أن "لنفس الاتصال جهتا أعلو والسفل. هي متصلة بالبين من أسفل منها، ومكتسبة به المدارك الحسية... ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة، ومكتسبة به المدارك العلمية والغيبية" (7). والصيام هو الذي يحرر الإنسان من غرائزه وشهواته ويرتقي به إلى عالم الملائكة الذين تشبه بهم وارتبطت بهم أنفسهم لأنهم صائمون دائما، وهكذا يرتقي المسلم بصيامه إلى درجة كبرى من الصفاء، فكان لذلك من الذين لا ترد دعوتهم "ثلاثة لا ترد دعوتهم، الصائم حتى

(1) محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، ص 294، 295.

(2) والواقع أن كل صائم يحس في رمضان بقتل الرقابة وتجديد الإيمان وتغير الحياة وتجديدها، وهذه ميزة ربانية فضل الله لها أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أمة بورعاد.

(3) رواه ابن خزيمة في صحيحه، وتكملة الحديث: "... يدع صيامه من أجله ويدع شرابه من أجله، ويدع لذته من أجله، ويدع زوجته من أجله".

(4) محمد متولي الشعراوي، المرجع السابق، ص 295.

(5) يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص 278.

(6) محمد محمود الصواف، الصيام في الإسلام، سلسلة رسائل الفكرة الإسلامية، دة، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1981، ص 13، 14.

(7) عبد الرحمن بن مخلدون، المقدمة، دة، دار العودة، بيروت، دة، ص 77.

يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم...<sup>(1)</sup> ومن هنا فإن أعظم فوائد الصيام تكمن في الفائدة الروحية التعبدية المقصودة بالذات، وهي أن يصوم لوجه الله تعالى<sup>(2)</sup>، وبهذا كان الصيام يقوي الروح ولا يضعف البدن بل يقويه، لأن كثيراً من الأمراض تنشأ عن كثرة الأكل " ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكيات يمتن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه"<sup>(3)</sup>، فكان من فوائده تطهير البدن من المواد الراسبة فيه ولا سيما عند المترفين أو نبي النهم قليلي العمل، ويجفف الرطوبات الضارة، ويظهر الأمعاء من السموم التي تحدثها البطنة<sup>(4)</sup> إلخ، فهو فرصة تستريح فيها المعدة ويتخلص الجسم من كثير من فضلاته الضارة<sup>(5)</sup>، ولذلك قال رسول الله ﷺ " صوموا تصحوا"<sup>(6)</sup>. وإضافة لهذه الفوائد الصحية، فإن الصوم تربية للإرادة وتقوية لها على الصبر ومراقبة النفس، فهو يجوع ولا يأكل، ويعطش ولا يشرب، ويقف وبجانبه زوجته، يتكرر هذا طيلة شهر كامل، وليس كمن يزعم الصيام بالاعتصار على وجبتين كاملتين في اليوم أو بتبديل طعام بطعام، " فأني مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصيام، ولذلك كان زكاة للجسد، وكان نصف الصبر " لكل شيء زكاة وزكاة الجسد الصوم، والصوم نصف الصبر"<sup>(8)</sup>، والصبر هو أول عدة للجهاد. فمن لم يجاهد نفسه لا يستطيع أن يجاهد عدوه<sup>(9)</sup>.

والنتيجة مما سبق: أننا نستطيع القول بأن الصوم " هو كف الجوارح عن الآثام"<sup>(10)</sup>، وتمامه بسنة أمور :

(1) رواه الترمذي وحسنه وأحمد وابن ماجة وابن حنبل وابن حبان في صحيحهما.

(2) يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، ص 274، 275.

(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج 2، ص 148.

(4) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجة بلفظ مقارب، وابن حبان في صحيحهما.

(5) محمد رشيد رضا، المرجع نفسه، ص 148.

(6) يوسف القرضاوي، المرجع نفسه، ص 275.

(7) رواه الطبراني بإسناد رواه ثقات كما في " الترغيب " للمعتمدري، ورواه ابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة وأشار في الجامع الصحيح إلى حسنه.

(8) رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي والبرار، ورجالهم رجال الصحيح.

(9) يوسف القرضاوي، المرجع نفسه، ص 275، 276.

(10) هذا أحد أنواع الصوم عند الغزالي حيث يقسمه إلى ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم مخصوص الخصوص، أما صوم العموم

فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام، وصوم مخصوص الخصوص، هو صوم القلب عن اضمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الأمر... وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين (أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط 1، دار الفكر، د.م، 1975، ج 1، ص 38، ج 3، ص 38).

1- غض البصر عن كل ما يذم، وعن كل ما يثقل القلب ويثني عن ذكر الله. قال تعالى " قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن.. " (1).

2- حفظ اللسان عن التهذيان والكذب والغيبة والنميمة والنفحش والجفاء والخصومة والمرءة، ووجوب الإشتغال بذكر الله تعالى وقراءة القرآن الكريم، قال صلى الله عليه وسلم " إنما الصوم جنبه، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقلل إني صائم إني صائم (2)، وقوله أيضاً: " إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقلل إني صائم (3).

كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه، وقد سوى الله عز وجل بين المستمع إلى الحرام وأكل السحت. فقال تعالى " سماعون للكذب آكانون للسحت (4). وقال صلى الله عليه وسلم " المغتاب والمستمع شريكان في الإثم (5). قال تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ (6).

4- كف بقية الجوارح عن الآثام، حيث لا معنى للصوم عن الحلال والإفطار عن الحرام، ومثل هذا كمن يئتي قصرًا ويهدم مصرًا، والذي لا يكف جوارحه عن الآثام هو الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم (7): "كم من صائم ليس له من صومه إلى الجوع والعطش (8). وذلك لأن الصوم عبادة بدنية، وما دام الإنسان صائماً فهو في حالة عبادة وطاعة، ولا يجوز للعباد أن يخالف ما تقتضيه العبادة من السكون والهدوء، والحنم والوقار، والطاعة والاستغفار والخشوع، فلا يجوز له أن يطعن أو يلعن، ولا يصخب ولا يغضب، ولا يفعل ما يغضب الرب عز وجل من الغيبة والنميمة والكذب والخيانة، وغمط حقوق الناس واحتقارهم (9)، وكذا الخمول والتكاسل في العمل، وغير ذلك مما تعامى عنه بورغاد.

5- عدم الاستكثار من الطعام الحلال وقت الإفطار، وقد بينا قبلاً أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإقلال من الطعام وهو ما يبين بجلاء تهافت مزاعم بورغاد من أن المسلمين يأكلون في رمضان كثيراً فالأكل الكثير مخالف لأداب الصيام، ورغم ذلك فلو فرضنا أن بعض الصائمين يأكلون كثيراً في رمضان فهم

(1) التور / 30.

(2) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(3) متفق عليه عن أبي هريرة.

(4) المائدة / 42.

(5) حديث غريب، وللطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف "كفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الإستماع إلى الغيبة".

(6) الإسراء / 36.

(7) أبو حامد الغزالي، المرجع نفسه، ص 38-40.

(8) رواه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(9) محمد محمود الصراف، الصيام في الإسلام، ص 17.

يأكلون من ثمرات بلادهم وعرق جبينهم، ولستنا ندري من هو الأكون: أهؤلاء أم أبناء جلدة بورغاد الذين ابتلعوا ما في بلادهم - فرنسا - وجموا على المسلمين لينزعوا منهم خيرات بلادهم وثمراتها. ويزعم بعد ذلك دون خجل أن أكل الخبز من عرق الجبين هو الواجب الأول في النصرانية، فهل هؤلاء هم الذين رباهم الإنجيل؟ وأي إنجيل إذن هذا الذي يربي أتباعه على تحطيم الشعوب وإفكارها والاستحواد على كل ما تملكه؟! .

6- أن يكون القلب بعد الإنطار معتقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء، إذ لا يدري المرء هل قبل صومه فيكون من المقربين، أو لم يقبل فيكون من الممقوتين<sup>(1)</sup>. وهذا لا يستطيع بورغاد وأبناء جلدته الوصول إليه أو إدراك معناه.

ونختم حديثنا هذا بالقول إن الصيام عبادة من أعظم العبادات التي تميز الشخصية الإسلامية وتحافظ عليه، ذلك أنه في أسوأ الحالات التي بلغها انحراف المسلمين عن الإسلام ظلوا متمسكين به. بل ما أن يصل رمضان حتى يقلعوا عن فسادهم ويشعروا بالرجوع إلى رشدهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، فكان العقبة الكورود التي خلخلت أبناء ملة بورغاد في إستعمارهم لبلدان المسلمين، وهو ما يجعله بتلك الأقاليم يريد أن يفتح المستضعفين من المسلمين بالتخلي عن الصيام، وهكذا يكون الصيام من أعظم جوانب رحمة الله بالمسلمين عكس ما يزعمه بورغاد من أنه مناقض لها، ذلك أن رحمة الله لا تكتب للفاسق والمجرمين والكفرة، بل تكتب للتائبين المطيعين المؤمنين، ولذلك جعل الله الصيام وسيلة للتقوى، وجعل التقوى وسيلة لرحمته تعالى، فقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾<sup>(2)</sup>، وقال أيضاً: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون...﴾<sup>(3)</sup>.

### وأما الزعم بأن مناسك الحج وثنية:

فإن بورغاد بعد الطعن في الركن الرابع من أركان الإسلام إنتقل إلى الطعن في الركن الخامس المتمثل في الزعم بأن مناسك الحج وثنية، ومدفه الظاهري تحطيم هذا الركن وتبنياسة نفوس الناس لتركها، فيعزلون ثقافياً وحضارياً عن إخوانهم المسلمين ويصبحون كالشاة القاصية لتقتربها فرنسا وهي أمنة مطمئنة، ولكنه يهدف - رغم هذا - في عمقه إلى تحطيم الكعبة رمز التوحيد في نفوس المسلمين مما يجعل هجومه على مناسك الحج هجوماً في الأساس على الكعبة، ولا أدل على هذا من أنه أعقب طعنه في مناسك الحج طعناً آخر في قضية تحويل القبلة مما يؤدي - لو أفلح بورغاد - إلى إلزائها نهائياً ويزوالها في النفوس يزول الإسلام برمته، وهنا ندرك خطورة هذه المطاعن.

والواقع أن هجوم بورغاد على الكعبة ليس جديداً، ذلك أن هجوم النصارى على الكعبة المشرفة بدأ قبل الإسلام.

(1) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص3، ص40، 41.

(2) البقرة/183.

(3) الأعراف/156.

وأول من فكر فيه من النصارى - في حدود علمنا - هو تيان أسعد أبو كرب (تبع) ملك اليمن السدي مر بالمدينة المنورة يريد هلاكها فأذاه جبران من بني قريظة وأقنعه بالعدول عن ذلك بترهيبه سن عاجل العقوبة والعجز عن إهلاكها مبررين ذلك بأنها ستكون دار نبي مهاجر إليها من الحرم من قريش في آخر الزمان. فانصرف عن المدينة<sup>(1)</sup>، ليتجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن، فلقيه رهط من هذيل بن سدرسة فأغروه بتدمير الكعبة مبررين له ذلك بأنها مملوءة بالؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة، وهدفهم تدمير تبع لا البيت؛ لأنهم علموا من هلاك من أراد من الملوك وبقي عنده، ولكنه قبل إقدامه على ذلك أرسل إلى الحبريين اليهوديين فسألتهما عن ذلك فقالا له: "ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك، ما نعلم بيتاً لله اتخذ في الأرض نفسه غيره، ولئن فعلت ما دعوك إليه تهلكن وليهلكن من معك جميعاً"<sup>(2)</sup> وأمره بتعظيم البيت كالعرب، من طواف وتعظيم وتكريم وحلق وتذلل، وأخبراه بعد يمينا أنه بيت أبيهما إبراهيم. وقد فعل بنصيحتهما<sup>(3)</sup>.

ولكن الحدث الخطير هو الذي قام به أبرهة الأشرم ملك اليمن من قبل النجاشي ملك الحبشة، وقد قام بخطة محكمة للقضاء على الكعبة تتكون من مرحلتين:

- المرحلة الأولى: تتمثل في تأسيس كنيسة باليمن رائعة الجمال سماها القليس ودعا العرب للحج إليها بدل الكعبة<sup>(4)</sup>.

وكان هذا بمثابة تهينة نفوس العرب لشيين، أحدهما النصرانية، وثانيهما الرضا بتهديم الكعبة. ولما لم يفلح في صرف العرب إلى القليس وتنصيرهم استعجل تنفيذ:

- المرحلة الثانية: المتمثلة في تهديم الكعبة، ولخطورة هذا الحدث وهوله فقد نزلت سورة كاملة من قصار المفصل تبين هذه الحادثة ونتائجها، وهي سورة الفيل.

وما يهمنا هنا أن هجوم النصرانية المحرفة على التوحيد بدأ قبل البعثة، وأكبر مثال له حادثة الفيل، فهي هجوم نصراني على العرب المنتفين بالكعبة رمز التوحيد، ذلك أن أبرهة الأشرم كان نصرانياً، وقد بنى كنيسة القليس في صنعاء باليمن لغرض صرف الحجاج من الكعبة إليها كما ذكرنا، وكما عبر هو بنفسه في رسالته إلى النجاشي ملك الحبشة. فأدرك العرب كل هذا، فذهب أحد العرب من ذوي الشجاعة والمسورة والعزة فتغوط فيها. وقد ناسب ذلك حفل زفاف أبرهة الأشرم في القليس، وبسبب الغرض النصراني أمر النجاشي الحبشة فتهيأت وتجهزت ليمد أبرهة بجيش كبير وفيلة<sup>(5)</sup> لتدمير الكعبة إنتصاراً للنصرانية

(1) ابن هشام، السورة النبوية، م، ج 1، ص 21، 22.

(2) المصدر نفسه، ص 23.

(3) المصدر نفسه، ص 23، 24، وهذه الواقعة من الأهمية بمكان لأنها تبين لنا علم أهل الكتاب بأن الله لم يتخذ لنفسه في الأرض بيتاً له سوى الكعبة، وكذلك تبين لنا أنهم كانوا يعرفون عمداً صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم فهو قرشي مهاجر من الحرم إلى المدينة المنورة ليتخذها داراً وقراره.

(4) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتب السورة، كسورة ابن هشام، م، ج 1، ص 43-62.

(5) ابن هشام، المصدر نفسه، ص 45.

وجعلها الدين الأوحى، ولا أنزل على هذا الحقد الصليبي من أنه بعد ما مات أبرهة اعتبره التجاشي قدسيا وأمر بإقامة الصلوات عليه في كل الكنائس<sup>(1)</sup>.

وعندما نعلم أن العرب كانوا يعرفون ويعتقدون أن البيت بناء<sup>(2)</sup> سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويعتقدون أناسيم متبعون له، وأنها كانت رمز التوحيد، وعندما نعلم أن كثيرا من العرب كانوا يؤمنون بإنشاء الواحد ويعتقدون أنهم يتقربون إليه بعبادة الأصنام « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »<sup>(3)</sup>. ندرك أن غزو أبرهة الأشرم للكعبة إنما كان صراعا بين التوحيد والتثليث، بل الحقيقة أن التجاشي ملك الحبشة هو الذي كان متحمسا للقضاء على الكعبة لتصوير العرب ولمنع وجود أي دين غير النصرانية بين مملكة التجاشي والإمبراطورية الرومانية<sup>(4)</sup>، وبذلك يملكون الحجاز كما ملكوا اليمن، وأن ينشروا النصرانية بالحجاز كما نشروها في اليمن<sup>(5)</sup>، ويتم لهم بذلك ربط اليمن ببلاد الشام والاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن إلى الشام، ومن ثم الاستيلاء على تجارة المشرق كلها من شواطئ اليمن إلى مشارف الشام، وتوسيع حكم النصرانية وتفوذها في الجزيرة العربية. وهذا لصالح الروم والحبش وهم نصارى على السواء. ويبسود - جليا - أن الروم كانوا هم المحرضين لأبرهة على إحتلال مكة لمأربهم - الدينية - والسياسية وذلك يحقق لهم إضافة لما سبق : إضعاف نفوس الفرس المنافس الوحيد للنفوذ الرومي على بلاد العرب<sup>(6)</sup>. وهذا يحقق مصلحة الحبشة والروم معاً، فالحبشة كانت تخشى نفوذ الفرس في اليمن وكان الروم يساعدها في مقاتلة التابعين اليمانيين، وكانت تحذر دولة الروم التي كان يمكنها الوصول إليها من وادي النيل، كما كان الروم يملكون طريق البحر الأحمر في نهايته القصوى. فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأريسط

(1) طه حسين، الوعد الحق، مسلسل تلفزيوني، الحلقة 6.

(2) البيت سنة الملائكة ورفع قواعد بعد أن قدم لظول العهد سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حيث بهم من قوله تعالى "وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل" (البقرة/127) أن قواعد البيت كانت موجودة قبلهما، ولكن عوامل التعرية غطتها فأظهرها الله لسيدنا إبراهيم في طفولة إسماعيل، بديل قوله تعالى: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة" (إبراهيم/37)، وقد بين الله له مكان البيت على التحديد. بديل قوله تعالى "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للمتقين والقائمين والركع السجود" (الحج/26). ثم جاء طور رفع القواعد فتعاون فيه السبيان "وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل" (البقرة/127). هذا كله يدل على أن ميلاد البيت لم يكن على يد إبراهيم عليه السلام، أما ميلاده فكان "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة" (آل عمران/96)، هذا النص يحتوي على كلمة "وضع" أي ما لم يسم فاعله و"الناس" المرشحة أصلاً لشمل أفراد الجنس. ومادام البيت وضع للناس موضع غير الناس، وهذا فاعله عز وجل جعل بيته باختياره. فاعله اعتراف مكانة وأعلم ملاحظته بمحدوده فحدوده تحديدا ماديا، ذلك أن مدلول كلمة "الناس" يشمل كل أفراد الجنس من آدم إلى قيام الساعة، بما يعني أن وجود البيت لم يتأخر إلى عهد سيدنا إبراهيم وأن الذين قبل سيدنا إبراهيم كانوا يتوجهون إليه في الصلاة، وأن الذي بناه ليس من البشر. (محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، ص178، 179).

(3) الزمر/3.

(4) طه حسين، الوعد الحق، مسلسل تلفزيوني، الحلقة 6.

(5) طه حسين، مرآة الإسلام (المجموعة الكاملة - إسلاميات) دط، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1982م، ص160.

(6) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، هامش ص69، أيضا : عباس محمود العقاد، مطلع النور أو طالع البعثة المحمدية (المجموعة الكاملة - الإسلامية3)،

ط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974م، ص319.



تدمير الكعبة المشرفة كانت الروم من وراء ذلك. وقد أدرك العرب أن الصراع هو صراع بين التوحيد والصلب، ويتجلى هذا في الشعر الذي قاله عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم عندما أخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون أنه ويستتصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لأهلم إن العبيد	يمنع رحله فامنع جلاك
لا يغلبن صليبهم	ومخالهم غنوا محالك
إن كنت تراكمهم وقبيلتنا	فأمر ما بسداك
وانصر على آل الصليب	وعابديه اليوم أنك <sup>(1)</sup>

وهكذا فقد أدرك العرب خطورة النصرانية عليهم فأخذوا يفكرون في التحرر من الأحباش، ولم يمضى على وقعة الغيل خمس سنوات حتى طهر العرب اليمن من حكمهم، فتطهرت الجزيرة العربية من آثار النفوذ النصراني والاستعمار الحبشي في وقت واحد، وذلك إثر قيام حركة وطنية في دولة حمير استتجد فيها سيف بن ذي يزن بكسرى فأمدته بحملة سنة 575م بقيادة وهرز، فانتصر على الأحباش في اليمن<sup>(2)</sup>.  
ومما يدل أيضا على الغرض الصليبي من تدمير الكعبة وعلى صحة ما ذكرنا من تورط حتى الروم فسي ذلك أنه لما فشلت محاولة أبرهة الأشرم العسكرية في تهديم الكعبة المشرفة فكر الروم في محاولة سياسية تحقق لهم ذلك، تتمثل في العمل على تمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم. أي إختيار عميل عربي تصبح مكة بموجبه تابعة لهم. وكان هذا العميل هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى الذي اختاره ملك الروم لينصبه ملكا على مكة بعد أن تنصرت عنده وقربه إليه، وكتب له رسائل ليلبغها قومه في ذلك، فجمع القوم إليه وأخذ يسعى، ولكن المحاولة فشلت كسالفاتها العسكرية<sup>(3)</sup>، لأن قومه أنفوا أن يدينوا لملك<sup>(4)</sup>.

هذه المحاولات كلها تبين نية الروم في تهديم الكعبة وتنصير أهلها، وبذلك لا يبقى شيء أمام الصليب. وبعد البعثة المحمدية كانت النصرانية عسكريا هي العدو الأكبر الذي حارب الإسلام إضافة إلى الحرب الفكرية.

وفي هذا السياق صب بورغاد جام غضبه على مناسك الحج وتحويل القبلة، وقد انطلق من مقدمة خاطئة متأثرا بالنصرانية تتمثل في أن العبادة الدينية لا تكون إلا في الجامع، بينما جميع الأرض في الإسلام جامع. وهذا من مميزات الإسلام وامتيازته عن غيره من الرسالات السابقة كما بين ذلك الرسول بقوله ﷺ: " أعطيت خسما لم يعطهن أحد قبلي ... وجعلت لي الأرض مسجدا وظهورا"<sup>(5)</sup>. وهو ما يتوافق مع

<sup>(1)</sup> ابن هشام، السيرة النبوية، 1م، ج1، ص51،50، وهامش رقم6، ص51.

<sup>(2)</sup> أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص71.

<sup>(3)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى العقاد، مطلع النور، (المراجع السابق)، ص319، 320، أيضا ابن هشام، السيرة النبوية، 1م، ج1، ص224.

<sup>(4)</sup> ابن هشام، السيرة النبوية، 1م، ج1، هامش رقم 2 ص 224.

<sup>(5)</sup> رواه الشيخان.

صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وكون الإسلام ديناً عملياً لا يعتمد المسلم عن مصالحه الدنيوية، فحينئذ وصل وقت الصلاة صلى في مكانه واستمر في عمله فلا يضيع وقته، بينما لو اشترط عليه أن لا يصلي إلا في المسجد فإنه لا يطيق ذلك وسيغرض في دينه أو دنياه، وهذا ما يتوافق مع كون الشريعة وسطاً، وأنها أتت لرفع الحرج.

وأما ما ذكره من سبب احترام المسلمين للكعبة فلا أساس له في الإسلام، بل أساس احترام المسلمين للكعبة هو أمر الله لهم بذلك، ﴿قَوْلٌ وَجِهَتِ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ (1)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (2). فسر قداسة الكعبة وحرمتها " أنها بيت الله باختيار الله" (3)، بينما المساجد الأخرى كلها هي بيوت الله باختيار عباد الله، ومن هنا "تعرف حكمة التوجه إليها في الصلاة، ويعرف أن التقرب في بيت الله الذي اختاره هو، يفوق التقرب إليه في بيوته التي اختارها عباده، وكلتا العبادتين تقرب إلى الله" (4). ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٍ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (5)، ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ (6).

أما كون القضايا الأربع التي ذكرها وهي: بنز زمزم والحجر الأسود والحجر الأبيض وبيت الله (7) فلا أساس له من الصحة، ذلك أن بنز زمزم ليس مقدساً بدليل جواز الإستنجاء منه والحجر الأسود جزء من الكعبة وإنما تقييده مستحب لحكمة يعلمها الله، وقد بين هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قيل له بقوله: "أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولو لا آتي رأيت رسول الله ﷺ يقول: "يقبلك ما قبلك، ثم دنا فقيله" (8). والحديث يبين أن الحجر الأسود لا مزية له في ذاته، فهو كسائر الحجارة، وإنما استلامه أمر تعبدية في معنى استقبال القبلة وجعل التوجه إليها توجهاً لله الذي لا يحده مكان ولا تحصره جهة من الجهات، ولا يمكن القول لماذا خصص الحجر الأسود بالتقبيل دون غيره، لأن كل مشعر من تلك المشاعر خص بمزية تثير شعوراً دينياً خاصاً يليق به، فلا يقال مثلاً لماذا كان الوقوف بعرفة إلخ (9). ثم متى كان تقبيل الشيء عبادة له؟! إني أقبل صديقي وأبنائي وبناتي وشيوخي وزوجتي فهل هذا يعني أنني أعبد كل

(1) البقرة / 144.

(2) البقرة / 125.

(3) عند متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، ص 174.

(4) المرجع نفسه، ص 174.

(5) آل عمران / 96، 97.

(6) لئلا / 97.

(7) فرانسوا بورغاد، مسامرة فرطاحنة، ج 2، ص 79-82.

(8) رواه أبو بكر بن أبي شيبة والإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم من عدة طرق.

(9) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م 1، ص 467، 468.

هؤلاء؟ لا والله. ولقد بين عمر بن الخطاب قبلا بأنه حجر لا يضر ولا ينفع فكيف يقول عمر هذا لو كان الحجر الأسود مقدسا؟.

ثم لماذا نلام على تقبيل الحجر الأسود الذي حمه نبينا صلى الله عليه وسلم في ثوبه وقبيله؟ لا وثنية نسي ذلك إطلاقا، لأننا لا نتجه بمناسك العبادة نحو الحجارة ذاتها، وإنما نحو المعاني العميقة والرموز والذكريات<sup>(1)</sup>. ثم إذا كان يرى بورغاد أن هذا وثنية لماذا نجد كل الكنائس تعجج بالصور والتمثيلات والإيقونات بحيث تعد تلك جزءا أساسيا من الكنيسة، فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم الذي طهر الكعبة من جميع الأصنام وثني فكيف الذي لا يبني الكنيسة إلا بعد أن يعد لها الأوثان المناسبة لها لا يعد وثنية؟! يجب بورغاد بأنهم يضعونها في الكنائس لا لعبادتها بل لتذكر أصحابها<sup>(2)</sup>. وهل مجرد التذكر يقتضي ذلك؟ إن من يكون مكان عبادته مملوءا بالأوثان لا يحق له نقد غيره ولا سيما إن كان ذلك الغسير وهو محمد صلى الله عليه وسلم قضى كل حياته في محاربة الأوثان وحل به وبأصحابه من الأذى ما يجعل الولدان شبيبا، وهو الذي لم يسجد لصنم قط، وكتابه المعجز ( القرآن الكريم ) كله هجوم على الوثنية لتخليص الناس منها، وهو ما قد حصل.

ثم كيف يزعم بورغاد أنهم لا يعبدونها بل لتذكر أصحابها وهو يعلم أنها تعبد بالفعل لذاتها وأن مجامع متعددة عقدت لدراسة مشكلة الإيقونات هل تعبد أم لا، كما سنشير أثناء حديثنا عن ذلك .

وأما الحجر الأبيض فلا نعرفه بهذا الاسم، ويقصد به مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، والأمانة العنصرية تقتضي أن يذكره صراحة، ولكنه لم يفعل لغرض خسيس، حيث لو عبر عنه تصريحاً لفقد الشبهة التي أثارها، لأنه يعني أن تعظيم الكعبة ومناسك الحج ليست مرتبطة بمشركي العرب، ولا علاقة لها بهم ابتداء، بل تعود إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي يؤمن به النصارى أيضا، وبذلك يحطم بورغاد كل استدلاله الوهمية، ونحن لا نستغرب هذا من رجل دين ينسب لله الولد ويعمل على تحطيم المظنومين خدمة للظالمين.

وأما الزعم بأن احترام الكعبة أصله من المشركين وهي هيكل الأصنام إلخ فباطل لما سبق ذكره من أمر القرآن بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة إلخ ما ذكرناه، ونضيف إلى ما ذكرناه قبلا لإثبات أن ما ذكره بورغاد أنفا باطل، وما بني على باطل كان باطلا، أن الأساس المهم الذي قامت عليه مكانة البيت ( الكعبة ) أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة - عند العرب الوثنيين - غير منظور إلى الأوثان والأصنام التي إشتهل عليها، وربما إشتهل على الوثن المعظم تقديسه قبائل وتزديده أخرى، ولكن المعظمين والمزدرين يتفقون في مكانة البيت، وإختلفت الشعائر والدعاوى التي يدعيها كل فريق لصنمه، ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته<sup>(3)</sup> " فكانت قداسة البيت هي القداسة التي لا خلاف عليها بين

(1) مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد، ص 67.

(2) بورغاد، مسامرة فرطاحنة، ج 1، ص 83-100.

(3) العباد، مطلع النور، ص 320، 321.

أهل مكة وأهل البادية<sup>(1)</sup>. وعلى هذا كان يجتمع حول البيت في موسم الحج أناس من العرب مختلفوا الإعتقادات، فهذا مجوسي وذاتك يدين باليهودية وآخر بالنصرانية وغير ذلك من عبادات الأمم المختلفة. كل هؤلاء رغم اختلافهم يجمعهم تقديس الكعبة، وهو الذي جمعهم. لا الأصنام التي حولها. بل إن عرب الجاهلية عرفوا الفرائض المختلفة كالصلاة والصوم والزكاة والظهارة، واعتقدوا أنها حسنة عند الله (رب البيت)، وكانوا يقومون ببعضها إرضاء له، كما كانوا يعرفون إليها أعظم من سائر الآلهة، وهو الذي يتوجهون إليه بالدعاء، وهي حقيقة لا شك فيها، وإلا لماذا كانوا يسمون عبد الله، ولماذا كانوا يقولون في التلبية اللهم ليبيك، ولا يدعون أحدا من الأصنام "رب البيت"، فإذا تلفظوا "رب البيت" قصدوا به ربا فوق جميع الأرباب<sup>(2)</sup>.

ولا أدل على هذه الحقيقة من الحوار الذي جرى بين عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم وأبرهة الأشرم، وخلاصته " وإن للبيت ربا سيمنعه"<sup>(3)</sup>. وما يؤكد هذا، أن أبرهة لم يأت لهدم الأصنام بل البيت. ويظهر هذا جليا في قوله لعبد المطلب: " اتكلمني في ما نبي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين أبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه"<sup>(4)</sup>. ولا ننسى بقاء الحنفية دين سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد كان العرب يعرفونه ويعرفون سيدنا إسماعيل عليهما السلام، ونسبهم إليهما وإعتزازهم بذلك، ويعرفون أيضا أن مناسك الحج إنما هي اتباع لهما. ولكنه نتيجة لطول العهد فقد حرقوا مناسك الحج. فأتى خاتم الأنبياء لإصلاح ما حرقوا.

ولنسأل بورغاد: لماذا لا تبني الكنائس إلا بعد أن يهدمها من الأصنام والأوثان ما يملأ داخلها وساحتها وشكلها وجدرانها داخلا وخارجا، أليست هذه هي الوثنية؟ يجيب بأنهم يفعلون ذلك ليس لعبادتها بل لتذكر أصحابها<sup>(5)</sup>. وهنا، هل الذي طهر الكعبة من كل الأصنام وثني والذي لا يعبد الله ( الثلاثة التي تساوي الواحد) إلا يحضرة الأصنام ليس وثنيا؟ المعروف كما قلنا أن عبادة الإيقونات جزء من العقيدة النصرانية ومع ذلك ينكر بورغاد أن يكون ذلك وثنية.

والواقع أن المسلمين لا يعبدون لا الحجر الأسود ولا البيت، وإنما يعبدون الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وعبادة الله لا تصح إلا بما أمر، وكيف أمر. ولنا ندري كيف يتهم خاتم الأنبياء بالوثنية وهو الذي لم يسجد لصنم قط، بل قضى حياته كلها في محاربة الوثنية إلى أن ظهر بلاد العرب منها نهائيا.

(1) المرجع نفسه، ص 321.

(2) المرجع نفسه، ص 321، 322.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، م 1، ج 1، ص 50.

(4) المصدر نفسه، ص 50.

(5) بورغاد، المصدر السابق، ص 83-100.

بورغاد يدرك جيدا علاقة النصرانية بالوثنية؛ لأن أبناء ملته لم يتمكنوا من قطع دابرهما، بل اختلطت مبادئ الوثنية بالنصرانية فنشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء... " هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية، إذ قضى الإسلام على منافسه ( الوثنية ) قضاء باتا ونشر عقائده بغير غش" (1)(2).

ثم ما هو العيب في أن يبقى الإسلام ما صلح من تقاليد العرب وشرائعهم التي ورثوها من دين سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهل عيب أن يصل الإسلام بين القديم والجديد في تاريخ الإيمان ويقرر وحدة الدين عند الله<sup>(3)</sup>. أليس السعي بين الصفا والمروة هو تذكار لتلك المعاناة التي عانتها أمنا هاجر، وهي تسعى بينهما سبعة أشواط بحثا عن الماء لجدنا، جد خاتم الأنبياء إسماعيل، ثم يكرمها الله بماء زمزم الذي بقي شاهدا إلى الآن. ومن هنا يأتي حبنا لماء ذلك البئر الذي سقى جدنا إسماعيل فأنقذه من الهلاك. فهل تذكارة هذا التاريخ المجيد وذلك الربط الحضاري الإيمان يعد من الوثنية؟.

إن الحج هو إعادة لقصة سيدنا إبراهيم وجدنا إسماعيل وأمنا هاجر، وتمثيلها في الحج. ومن هنا فإن الروح المستحوذة على مناسك الحج - ليس الوثنية- بل الحب والهيام والتفاني اقتداء بسيدنا إبراهيم، فحينما طواف الحب والهيام حول البيت<sup>(4)</sup> " وهو رمز لإرتباط الإنسان الضعيف بالله الأكبر، وهو ليس من الوثنية في شيء اللهم إلا إذا كانت قوانين المادة التي تبين أن الأصغر يطوف حول الأكبر، الإلكترون في الذرة يدور حول النواة، والقمر حول الأرض والأرض حول الشمس والشمس حول المجرة، والمجرة حول مجرة أكبر إلى أن يصل إلى الأكبر مطلقا" وهو الله الأكبر من كل شيء وهنا حسب القانون العلمي يجب أن يطوف حوله كل شيء - وبورغاد نفسه- يطوف حوله ضمن مجموعتنا الشمسية رغم أنه. هذا هو قانون الأصغر والأكبر في الفيزياء. فهل يمكن إتهام قانون الكون هذا بالوثنية؟. فإذا اختصر المسلم كل هذا وطاف مباشرة حول بيت الله عز وجل بإرادته فما علاقة هذا بالوثنية<sup>(5)</sup>؟! اللسهم إلا إذا كانت قوانين الفيزياء السابقة وثنية.

وأما السعي: فهو تقليد للأمم الحنون هاجر وهي تبحث عن الماء لصغيرها الذي قرر الله أن يكون من نسله خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم الذي أحيا الله موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء تكريما لهم ليؤمنوا به وليصلوا وراءه<sup>(6)</sup>. فسعت سبعة أشواط بين الصفا والمروة فكان السعي إحياء وتقليدا لها حتى في تؤنتها

(1) أبو الحسن الندوي، ماذا عسر العالم بالخطا المسلمين، ص 166، 167.

(2) علاقة النصرانية بالوثنية متروضاها أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية.

ووقارها، وفي جريها وهرولتها<sup>(1)</sup>. فخلد الله هذه الحركة الإضطرارية التي وقعت من امرأة مؤمنة مخلصه، فكان السعي ريباً لحاضرنا بماضينا وحباً لأبياتنا واقتداءً بهم، يعمنه البسطاء وأعضام الملوك والعظماء، وأكبر العقلاء والفلاسفة في كل عصر وجيل<sup>(2)</sup>.

ولما شب إسماعيل أمر إبراهيم ذو القلب أنسليم خليل الرحمن بذبح ولده وحده الذي رزق به في شيخوخته من أمنا هاجر، ويعترض إبليس الغلام بغية إخوانه، ولكن الغلام يصبر ويثبت وينتبه إبراهيم إلى إبليس فيرجمه: ﴿ فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ... بذبح عظيم ﴾<sup>(3)</sup>، فصبر الابن والأب ورضيا بأمر الله رغم وسوسة الشيطان للغلام. فكانت المكافأة ثواباً عظيماً وقداء الغلام بذبح عظيم. فخلد الله تمثيل قصة الشيطان معهما وجعل رجمه بالحصى في الأمكنة التي اعترض فيها إبراهيم بنهاه ويصرفه. فرجم الشيطان إذن هو تمثيل لهذا وإظهاراً لتتمرد عليه<sup>(4)</sup>. وهنا، فهل رجم رمز انضلال وإشفاء الغليل ممن تسبب في خروج آدم وحواء من الجنة يعد من الوثنية؟ وهل الذبح يعد ذلك إحياء لسنة سيدنا إبراهيم وتذكارا لما أمر به من ذبح فلذة كبده وقداء الله له يعد من الوثنية؟ " ولا سيما أن الذبح لا يكون إلا جبراً لتقصير أو شكراً على توفيق أو حمداً على نعمة القداء التي رحم الله بها الأبناء أن يتقربوا إليه بذبح الأبناء<sup>(5)</sup>. كل هذا بنية التقرب إلى الله، فأين الوثنية هنا؟.

وأما الوقوف بعرفة: فإنه يعيد الحجاج إلى " إحرام جامع ويخلع عليهم بياض الفطرة وهندام المساواة، ويجعلهم ضاحجين لا تعزلهم بيوت ولا تفرقهم مساكن، تزيدهم غبرتهم جمالا وسعائتهم وقاراً، مع الزحام في سلام، نشيدهم لبيك وسعديك، ضجيجهم ضراعة، وسيماهم خشوع، فهم في وحدة الربي منظر ما أروع، وفي وحدة التخشع مظهر ما أروع، وهم مع تلون الدعاء على كلمة سواء، تجمعهم " يا رب " حين يستمدون " يا الله " حين يستغفرون، وحسبهم أن ينظر إليهم ربهم وليس في بالهم سواء ولا على ألسنتهم غيره...<sup>(6)</sup>.

إذن الحج تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية الذي سمانا المسلمين ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾<sup>(7)(8)</sup>. وقد عرف في التاريخ بأنه عدو الشرك، ومحطم الأوثان ورمز التوحيد. فهل تجديد

(1) الندوي، وأذن في الناس بالحج، ص30، أيضا محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، ص181.

(2) المرجع نفسه، ص35.

(3) والصفات/101-107

(4) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، م1، ج3، ص101، أيضا الندوي، وأذن في الناس بالحج، ص36-38.

(5) محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام، ص182.

(6) المرجع نفسه، ص181.

(7) الحج/78.

(8) الندوي، وأذن في الناس بالحج، ص29،30.

الصلة به عليه السلام يعد وثنية وهو محظومها؟! الواقع أن الذي يعيظ بورعاد وأبناء ملته أنه ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ﴾<sup>(1)</sup>.

في ظل هذه المعاني والمشاعر والروابط التي تربط المسلمين بالبيت الحرام وبانيه الأول إبراهيم فرض الله الحج على المسلمين<sup>(2)</sup>.

وهو من هنا تغيير قيادة البشرية من بيت المقدس إلى مكة. وهذا أيضا من معاني تحويل القبلة كما سنذكر، أي تجاوز موسى وعيسى إلى إبراهيم. وهذا له خطره الديني والسياسي والحضاري على اليهود والنصارى، وهو ما جعل بورعاد يتقد غيظا ويشتمل الأما.

ومن فوائد الحج " أنه تجسيد للوحدة الإسلامية : وحدة في المشاعر والشعائر والهدف والعمل والقول، لا إقليمية ولا عنصرية ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة - يعني تحطيم كل مقولات المبشرين - ... بسرب واحد يؤمنون وبيت واحد يطوفون ولكتاب واحد يقرأون، ولرسول واحد يتبعون ولأعمال واحدة يؤدون، فأي وحدة أعمق من هذه وأبعد غورا"<sup>(3)</sup>؟! وما يزيد بورعاد غيظا أن جميع الفرق الإسلامية موحدة في هذا، فأين نصرانية بورعاد منه؟! وهل هناك شيء مثله هذا - الحج - يجمع الفرق النصرانية المتناحرة ويوحدها مثلما وحد الحج المسلمين؟!.

ثم إن الحج أعظم مؤتمر إسلامي عالمي سنوي ما دعا إليه ملك أو هيئة، بل الله عز وجل. فيجد المسلم نفسه فيه مع إخوان له اختلفت ألسنتهم وألوانهم وبلدانهم ولكن توحدت قلوبهم مما يوحى إلى المسلم باللقوة، فيتجدد إيمانه ويطلع على مشكلات إخوانه ويعرفون مشكلاته فتبعث الهممة في نفوس المسلمين ويشاركون بعضهم بعضا في آمالهم وآلامهم، فيعودون إلى بلدانهم بعزائم أقوى وآمال أكبر<sup>(4)</sup>. ولقد أدرك المبشرون هذا فهاجموه لينفروا المسمنين منه بسبب ما ذكرنا، ولقد عبر عن هذه الحقيقة أحد المبشرين في تقريره عن جدوى التبشير في البلاد الإسلامية وخاصة في مصر، ومما قال : " سيظل الإسلام صخرة عاتية تتحطم عليها سفن التبشير النصراني ما دام للإسلام هذه الدعائم الأربع: القرآن والأزهر واجتماع الجمعة الأسبوعي ومؤتمر الحج السنوي"<sup>(5)</sup>.

إن الحج ميزة فريدة في الإسلام لا توجد في أي دين آخر، ولأهميته إحتج لأيجري على حكومته - كما سنذكر أثناء حديثنا عنه - على حكومته بالسماح للمسلمين بأداء فريضة الحج، ولأهميته قررت فرنسا طيلة

(1) آل عمران/67، 68.

(2) يوسف القرضاوي، المادة في الإسلام، ص282.

(3) المرجع نفسه، ص290، 291.

(4) المرجع نفسه، ص292.

(5) المرجع نفسه، ص294.

العهد الإستعماري أن تشرف هي بنفسها على الحجج الجزائريين وتبعث من عملاتها كل سنة من يأتيها بأخبارهم.

إن ما أفلق بورغاد يتينه باستحالة دخول حب الفاتيكان إلى من ملئ قلبه بحب الكعبة، وإلا هل الحج موجود فقط في الإسلام؟ والجواب أنه موجود بمعنى ما في الديانات القديمة، وكل ديانة لها مناسك حجها<sup>(1)</sup>. ومن تلك الديانات اليهودية التي تكرر الحج إلى بيت المقدس في ثلاثة أعياد. عيد الحصاد وعيد الفصح وعيد المظال<sup>(2)</sup>. ويكتنف الحج عند اليهود غرض كبير واضطراب عارم، ذلك أن مواسم الحج اليهودية كلها مواسم زرع وحصاد وفي جميعها تؤدي الإتاوات للكهان مما يجعل الحج عندهم وسيلة لتدعيم سلطان الهيكل وكهانه. فأهم مناسكه فرصة لتزويد الكهان بالضرائب والإتاوات والقرايين هذه القرايين التي تقدم حتى للشيطان حيث يأتون يوم الكفارة بجديين أحدهما إلى الله والأخر للشيطان، ويتصورون الذبيحة طعاما لله زاعمين أنه يتنعم منها رائحة الرضا وأنها سرور له ومتاع<sup>(3)</sup>.

بورغاد لا يعتقد اليهود في هذا ولكنه يعيب على الإسلام الذي لم يجعل الحج للكعبة تعريزا لسلطان الكهان أو تقديم القرايين والإتاوات لهم. بل قضى على الكهانة نهائيا. إن الحج في الإسلام فريضة تعلن فيها الأمم الإسلامية وحدتها والمساواة بين كبيرها وصغيرها أمام الله وعند بيته مما يكون لذلك أثره المحمود. وأما التضحية في الإسلام فلا يقصد بها إطعام الله، أو الكهان فهم لا وجود لهم؛ لأن الإسلام قطع دابرهم. ولكنها صدقة للقانع والمعتز، فهي إذن رحمة عامة غرضها إسعاد المعوزين، فهل هذا عيب؟.

ويمتاز الحج بدلالاته الروحية التي لا ترتبط بمواسم الزرع والحصاد فيأتي في جميع الفصول لأنه علاقة سماوية روحية تناسب مقصدها الأسمى من تحقيق الرابطة بين المسلمين على تباعد مواقعهم، فهو رابطة من روابط السماء تؤمن بها أمم وحدتها العقيدة السماوية وإن فرقت بينها شتى الأقاليم<sup>(4)</sup>.

إن حقد بورغاد ينبع من غيرته من هذه المنة الكبرى التي من الله بها على المسلمين دون سواهم من الأمم والتي لا يوجد مثلها لا عند اليهود ولا عند النصارى، لأن هيكل بيت المقدس تهدم منذ القرن 1 م. ولم يرد في الأناجيل نص على مكان مقدس مفروض على النصارى أن يحجوا إليه، فأصبح الحج عندهم مربوطا بالأطماع السياسية<sup>(5)</sup>. ولم يظهر إلا في القرن 3 م، وتتوعد أماكنه بين روما وبيت المقدس وغيرهما، وكلها مربوطة بالشرك والأطماع السياسية<sup>(6)</sup>.

(1) ومن تلك الديانات البرهمية، ومن أراد التوسع فيها فليرجع إلى العقاد، المجموعة الكاملة للإسلاميات 4، الإسلام والحضارة الإنسانية، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1975، م 8، ص 254.

(2) الندوي، وأذن في الناس بالحج، ص 76، 77.

(3) العقاد، الإسلام والحضارة الإنسانية، ص 255.

(4) المرجع نفسه، ص 255، 256.

(5) المرجع نفسه، ص 257.

(6) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الندوي، وأذن، ص 79-82.



## وأما قضية تحويل القبلة

فإنها أشد وقعا على أهل الكتاب وأخطر أثرا، وذلك لأنها تزعت القيادة منهم إلى الأبد وحولتها إلى «أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين»<sup>(1)</sup>، وبذلك تجاوز الإسلام اليهودية والنصرانية المتناقضتين المتصارعتين إلى الارتباط بإبراهيم عليه السلام، فإمتاز بالاستقلالية المطلقة عنهما. هذا الاستقلال التام عن أهل الكتاب وتجاوزهم وجعل القيادة له لا لهم هو ما بينه القرآن الكريم ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾<sup>(2)</sup>.

وهذا ما جعل بورغان لا شعوريا يربط بين هجومه على مناسك الحج وهجومه على تحويل القبلة، لأن محور الموضوعين واحد، هو بيت الله مركز التوحيد ورمز الوجدانية. ولكثره ردود فعل أهل الكتاب وغيرهم من هذا الأمر الجلل، فقد بين القرآن الكريم قبل أن يصدر الأمر بتحويل القبلة موقفهم واستنكارهم والغم الذي سيصيبهم من ذلك، وسماهم سفهاء.

وقبل مواصلة حديثنا عن تحويل القبلة، نشير إلى قضية مهمة في نظرنا تتمثل في أن اليهود بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ضاقوا به ذرعا ففكروا بالمكر به في إقناعه بالجلاء عن المدينة كمد أجلاه أذى قريش عن مكة، ميرزين له أن الرسل السابقين ذهبوا جميعا إلى بيت المقدس واتخذوها مقامهم، فإن كان رسولا حقا فعل مثلهم وجعل المدينة وسطا في هجرته بين مكة وبيت المقدس. ولكن خاتم الأنبياء أدرك لتوه مكرهم، وأوحى الله إليه يؤمذ على رأس 16 شهرا من الهجرة أن يجعل قبلته إلى المسجد الحرام<sup>(3)</sup>. وهكذا أمر خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بالتوجه إلى بيت الله الكعبة في رجب على رأس 16 شهرا بعد الهجرة، قبل موقعة بدر بشهرين<sup>(4)</sup>. فأنكر اليهود<sup>(5)</sup> عنيه ذلك وأتوا إليه لمساومته بسائتراجع عن الكعبة إلى بيت المقدس مقابل إبتاعهم له معرضين قنته عن دينه. فأنزل الله فيهم: ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها... ﴾<sup>(6)</sup>.

وقبل أن نبين ردود فعل أهل الكتاب من تحويل القبلة نشير إلى أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يصلون إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك الرسول ﷺ والمسلمون. وكان وهو بمكة يجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس، حيث يجعل الكعبة بينه وبينها فيصل في جهة الجنوب مستقبلا للشمال، فلما هاجر إلى المدينة

(1) آل عمران / 96.

(2) البقرة / 143.

(3) محمد حسين هيكل، حياة محمد، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1968، ص273، وقد ذكر أن تحويل القبلة تم على رأس 17 شهرا، والواقع أن تحويلها في الشهر 16 أو 17 عشر.

(4) ابن القيم الجوزي، زاد المعاد في هدي حور العباد، مطبوع دار الكتاب العربي، بيروت، دت، م1، ج2، ص57.

(5) وعن اليهود الذين أتوا لمساومته صلى الله عليه وسلم في ذلك: رفاعة بن فيس، ومردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف وغيرهم (ابن هشام، السيرة النبوية، م1، ص550).

(6) البقرة/142.

استحال ذلك فبقي يصلي إلى صخرة بيت المقدس وحدها، ويتشوف لاستقبال الكعبة المشرفة بدلها<sup>(1)</sup>. فأمره الله عز وجل بتحويل القبلة إلى الكعبة وبين أن هذا لا ينسخ أبدا كما سنشير. ولما كان أمر القبلة عظيما مهد الله سبحانه وتعالى لتحويلها ببيان النسخ وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن لم يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم، ثم بين اختلاف اليهود والنصارى وكفر كليهما بعقيدة الآخر، وحذر من اتباع أهوائهم ثم ذكر كفرهم وشركهم به وزعمهم أن الله ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب وأينما ولي عباده وجوههم فثم وجهه عز وجل ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتبعونه ثم ذكر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوفهم من بأسه يوم القيامة، ثم ذكر خليله باني البيت الحرام وأنتى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماما للناس، ثم ذكر بيت الحرام وبناء خليله له. وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس فكذا البيت الذي ينام إمام لهم. ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتوا به صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم وإلى سائر النبيين، ثم رد على من قال إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هودا أو نصارى، وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة<sup>(2)</sup>.

ولأهمية الحدث فإننا نشير إلى ثلاثة ملاحظات تتعلق بتحويل القبلة، هي :

- 1- نزل عدد كبير من الآيات تبين سائيات من شبهات، وتبين أهمية تحويل القبلة. بحيث تبدأ هذه الآيات من الآية 143 إلى الآية 151 من سورة البقرة.
- 2- تحويل القبلة أتى في سياق تشريح نفسيات أهل الكتاب وتبيين طبيعتهم وأنهم أحرص الناس على حيلة، ورادا عليهم ما كانوا يثرونه من المشكلات أو يطرحون على النبي من أسئلة بغرض إحراجهم وقطع حجته فيفهمهم ويلزمهم الحجة<sup>(3)</sup>. وفي كل هذا كان الرفق بهم، ولكنه بذغ السيل الزبي، فقرر الله أن يفضحهم ويكشف خباياهم، فكان هذا في قضية تحويل القبلة<sup>(4)</sup>.
- 3- ولأهمية الحدث، فإن الله عز وجل قبل أن يصدر أمره بتحويل القبلة بين ما ستثبته القضية من رد فعل، وسمى الذين يقومون برد الفعل سفهاء، وبين لئيبه وللمؤمنين الحجة البالغة والحكمة السديدة في تحويل القبلة<sup>(5)</sup>، ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلاتهم التي كانوا عليها﴾<sup>(6)</sup>. إنهم سفهاء لأن صخرة بيت المقدس مثل بقية الصخور الأخرى تماما بتمام، وهيكل سليمان هو حجر وطن كفسيره من الأبنية، وكذلك يقال في الكعبة. ولكن السفهاء يعتقدون أن القبلة أصل في الدين من حيث هي صخرة بيت

(1) ابن القيم، زاد المعاد، 1، ج 2، ص 57.

(2) ابن القيم، زاد المعاد، 1، ج 2، ص 57.

(3) طه حسين، مرآة الإسلام، ص 194.

(4) المرجع نفسه، ص 195.

(5) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، 2، ص 3.

(6) البقرة/142.

المقدس، ولذلك كانت الحجة التي لفتها الله لنبيه في الرد على السفهاء الجاهلين لهذه الحكمة ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾<sup>(1)</sup>. أي الجهات كنيا لله، فله عز وجل أن يخصص ما يشاء منها فيجعله قبلة لمن يشاء. فالعبارة ليست في المكان بل في إتباع الوحي في توجه الوجود والقلوب<sup>(2)</sup>.

## الأمة الإسلامية هي الخاند الأوحى للبشرية إلى قيام الساعة

### والأمة القيادية للبشرية لا بد لها من قبلة خاصة بها :

بعد أن بين القرآن الكريم ما سبق ذكره من العبارة بإتباع الوحي لا في المكان، بين قضية هي من الجلال والمكانة ما تجعل أهل الكتاب لا يرضون بها أبداً، وتقتضي أن يكون للمسلمين قبلة خاصة، تتمثل في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾<sup>(3)</sup>. وقد جعل الله عز وجل هذه المنحة الجليلة في شأنا الكلام عن القبلة ولم يأت بها ابتداء لعلمه بأن الفتنة بمسألة القبلة ستكون عظيمة، ومما سيقول السفهاء - ومنهم بورغاد وأهل الكتاب والمنافقون - لو كان الله هو الذي أمره بالصلاة إلى بيت المقدس لما نياه عنه ثانية وصرفه عن قبلة الأنبياء، ثم لما غلب عليه حب وطنه وتعظيمه عاد إلى استقبال الكعبة المشرفة فهو مضطرب في دينه<sup>(4)</sup>. وهذا ما زعمه بورغاد والغرض من هذا هو تشكيك المسلمين في دينهم، ولذلك بدأ الله بإخبار المسلمين بما سيكون بعد تحويل القبلة من رد فعل أعداء الإسلام. فلقد المسلمين الحجة وبين لهم ما في تحويل القبلة من الحكمة، وبين لهم منزلتهم من سائر الأمم، وهي أنهم أمة وسط لا تغلو في شيء، وأنهم شهداء على الناس وحجة عليهم بالإعتدال في كل شيء، وفهمهم لحقائق الدين وأسراره ومن أهمها أن القبلة التي يتوجه إليها لا شأن لها في ذاتها كما ذكرنا، فالمغرب والمشرق كسائر الجهات، لله عز وجل أن يخصص منها ما يشاء فيجعلها قبلة لمن يشاء وبيان لمكانة الأمة المحمدية التي أعطيت كل أصل ديني بديلته وحكمته فلا يليق بها أن تبالي بانتقاد السفهاء<sup>(5)</sup>.

ومن هنا يظهر لنا بجلاء أن المقصود بالآية السابقة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا... ﴾ أن يبين الله لهذه الأمة حقيقتها الكبيرة في هذا الكون، وعن وظيفتها الضخمة في هذه الأرض، وعن مكانها العظيم في هذه البشرية، وعن دورها الأساسي في حياة الناس مما يقتضي أن تكون لها قبلة خاصة، وشخصيتها الخاصة، وأن لا تسمع لأحد إلا لربها الذي اصطفاهم لهذا الأمر العظيم<sup>(6)</sup>، فهي الأمة التي اصطفاهم الله

(1) البقرة/142.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م2، ص4.

(3) البقرة/143.

(4) محمد رشيد رضا، المرجع نفسه، ص6.

(5) المرجع نفسه، ص6،7.

(6) سيد قطب، في ظلال القرآن، ط12، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1986م، م1، ص130، 131.

لقيادة البشرية، ولذا يجب أن تكون لها قبيلتها الخاصة. والأمة التي جعل الله وظيفتها قيادة البشرية جديدة بالتضحية وسفقت وتبلي لتؤكد إخلاصها لله وإستعدادها لتضاعة المطلقة والقيادة الرائدة. والجماعة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تترك معنى هذا الإتجاه. إن القبلة هي رمز للتتميز والاختصاص - في التصور - والشخصية والهدف والإهتمامات والكيان<sup>(1)</sup>.

### السرفى تحويل القبلة :

بعد أن بين الله عز وجل أن الأمة الإسلامية جعلها الله لقيادة البشرية قاطبة وإلى قيام الساعة مما يقتضي حتمية أن تكون لها قبيلتها الخاصة بها التي توحد عبادتها وأهدافها وقلوب أتباعها الخ. أخذ يبين سببية جعل بيت المقدس قبلة للمسلمين من قبل، فقال :

﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾<sup>(2)</sup>. هذه الآية تبين عكس ما ذهب إليه بورغاد. ذلك أنه زعم أن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم حول القبلة لما رأى أن مشركي العرب أبوا ترك الكعبة، لكن الواقع التاريخي - وهذا دليل تاريخي - يبين العكس، وهو أن تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة هو الذي أثار زوبعة وسط أهل الكتاب والمشركين والمنافقين<sup>(3)</sup>. وهو المجموع الذي سماه القرآن الكريم بـ "السفهاء". وقد بين هذه الحقيقة ما كملت به الآية السابقة، وهي قوله تعالى ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾<sup>(4)</sup>. والمهتدون بالطبع هم المسلمون الذين قالوا سمعنا وأطعنا<sup>(5)</sup>. ولقد قال المشركون يومها ذاك " كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا. وأما اليهود فقد قالوا : " خائف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيا لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء"<sup>(6)</sup>. فمحمد ليس على بينة من ربه، لأنه لو كان الله هو الذي أمره بالصلاة إلى بيت المقدس لما نهاه عنه ثانيا<sup>(7)</sup>. ومن هنا اقتضت حكمة القرآن - قبل أن يبين هذا الأمر - التمهيد له ببيان إمكانية النسخ وفائدته<sup>(8)</sup>. وأما المنافقون فقالوا: صلى إلى بيت المقدس أو لا استمالة لأهل الكتاب ومداينة لهم، ثم غلب عليه حب وطنه فعاد إلى استقبال الكعبة،

(1) المرجع نفسه، ص 132، 129.

(2) البقرة / 143.

(3) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتب السيرة النبوية كسيرة ابن هشام، م 1، ص 550، وزاد المعاد لابن القيم، م 1، ج 2، ص 57.

(4) البقرة / 143.

(5) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص 179.

(6) ابن القيم الجوزي، زاد المعاد، م 1، ج 2، ص 57.

(7) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م 2، ص 6.

(8) ابن القيم، المرجع السابق، ص 57.

فهو مضطرب في دينه<sup>(1)</sup> ولما ندرى أين يتوجه محمد، إن كانت الأولى حقا فقد تركينا، وإن كانت الثانية هي الحق فقد كان علي باطلا<sup>(2)</sup>.

والنتيجة التي يمكن أن نستخلصها من هذا، أن مصلحة محمد صلى الله عليه وسلم الشخصية تتمثل في أنه لو لم يكن نبيا لما رضي أن يحول القبلة إلى مكة اتقاء لتلك الزوابع الكبرى التي أثرت بسبب ذلك حتى ولو كان في قرارة نفسه يحب التحول إلى مكة، لأن الغاية تبرر الوسيلة. ولكنه لما كان نبيا ورسولا لم يكن يتصرف من بنات أفكاره، بل ما يأمره به ربه حتى ولو كان ذلك الأمر بسبب له متاعب، ومن هنا نستطيع استنتاج أن :

جعل القبلة صخرة بيت المقدس ابتداء إنما هو لتحطيم الوثنية العربية التي كانت مرتبطة بعالم الأشياء - الأوثان - ذلك أن الإسلام هو دين التجريد والتنزيه، وكانت الكعبة مركزا للأصنام، وهي محل تقديس جميع العرب كما قلنا. فأمر المسلمون بالتوجه إلى بيت المقدس ليرتبطوا بعالم الأفكار والروح والتفكير لا بعالم الأشياء والمادة، ولما تحطمت الوثنية في النفوس وزال أثرها من العقول أمر المسلمون بالعودة إلى الأصن، وهو أول بيت وضع للناس بيعة مباركا وهدى للعالمين، وفي هذا حكم جليلة، منها : تجاوز اليهودية والنصرانية المتصارعتين المنحرفتين - كما ذكرنا قبلا - والارتباط بإبراهيم الذي يتفق الجميع على إمامته.

كذلك جعل الأمة الإسلامية متحررة تحررا مطلقا من التبعية لأي ديانة سابقة، وجعلها قطبا حضاريا جديدا كلف هو بأن يقود البشرية كلها لا أن ينفاد لها، وهو ما ينهم من قوله تعالى تعقبا على الأمر بتحويل القبلة : ﴿ ولأنتم نعمتي عليكم ﴾<sup>(3)</sup>، وهو كما عبر محمد رشيد رضا تفسيرا لهذه الآية " ولأنتم نعمتي عليكم" باستقلال قبلكم في بيت ربكم الذي بناه جدكم وجعل الأمم فيها تبعاً لكم"<sup>(4)</sup>. ذلك ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾<sup>(5)</sup>. فالكعبة إذن هي أول بيت وضع معبدا للناس رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأجل العبادة خاصة، ثم بني المسجد الأقصى ببيت المقدس بعسده بعدة قرون، بناه سليمان بن داود عليهما السلام. فصح أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم ملة إبراهيم ويتوجه بعبادته إلى حيث كان يتوجه إبراهيم وولده إسماعيل<sup>(6)</sup>، وبهذا وقعت الإستغالية المطلقة عن أهل الكتاب، وأمروا هم أنفسهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقبيلته.

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م2، ص6.

(2) ابن القيم، المرجع السابق، ص57.

(3) البقرة/ 150.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م2، ص25.

(5) آل عمران/ 96.

(6) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، م4، ص6.

كذلك أمر العرب بالتوجه إلى بيت المقدس بشن الكعبة التي كانوا يقدسونها أصلاً: يعني أن العرب يصعب عليهم ذلك بسبب العادة والتعصب والتقليد. وبذلك فلا يتبع النبي ﷺ إلا أقوىاء النفوس والإيمان فيتكون منهم جيل عظيم يستطيع التغاضي في خدمة الإسلام، ويكون مؤهلاً لقيادة البشرية قاطبة، فلما تكون ذلك الجيل وكون الدولة الإسلامية في المدينة وطهرت البيت من الأصنام التي كانت بها بعد أن أزيلت من النفوس زال السبب فزال معه المنسب فأمر المسلمون بالتحول إلى الكعبة لتكون قبلتهم إلى الأبد.

ومن هنا يظهر جلياً تهافت زعم بورغاد، لأن الناس كانوا قد دخلوا في دين الله أفواجا بدليل أن أصبحت للإسلام دولة كاملة إسلامية بمؤسساتها الروحية والمادية، بدستورها وجيشها إلخ.

ما سبق نستطيع القول إن الرسول صلى الله عليه وسلم أدرك أهمية أن تكون الكعبة قبلته قبل أن يأمره الله عز وجل بذلك، وهو بهذا طبيعي، فمن الطبيعي أن يتمنى تحويل القبلة إلى مكة إنفصالاً عن اليهود أولئك الذين وصفهم الله عز وجل بما وصفهم به في آيات كثيرة جداً من القرآن الكريم ولا تكاد تخلو سورة من سوره من تبيين طبيعتهم وضميرهم في العناد والجحود إلى غير غاية<sup>(1)</sup>. وكل من كان سليم النظر، نقي الذهن، مرهف الإحساس، إنساني النزعة، يتمنى أن لا يسير في طريقهم وأن لا يتقاسم لهم وأن يتميزهم ويتميز عنهم. فكيف إذا كان هذا الذي تتوفر فيه هذه الصفات قد إصطفاه الله لقيادة البشرية قاطبة؟ إنه من غير الطبيعي أن لا يتمنى ذلك، بل نستطيع القول: إن تمنيه ذلك دليل على نبوته، فوافق ذلك التمني مراد الله عز وجل فأنزل عليه ﴿قد نرى قلبك وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجهكم شطره﴾<sup>(2)</sup>. وهكذا بينت هذه الآية قلب وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وتردده المرة بعد المرة في السماء مصدر الوحي إنتظرا لما يرجوه من نزول الأمر بتحويل القبلة وهذا يحدث ما زعمه بورغاد.

بعد ذلك بين الله عز وجل حقيقة أهل الكتاب ساخراً منهم<sup>(3)</sup> - وهذا في نظرنا من أكبر أسباب حقد بورغاد على الإسلام وجعله يقول ما تقوله في هذا القضية- ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾<sup>(4)</sup>. "إنهم لن يقتنعوا بدليل، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل، إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى والإستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه"<sup>(5)</sup>.

وهذا يصدق تماماً على بورغاد الذي يعلم في قرارة نفسه أن النصارى لم يتفقوا على شيء، وأنهم في صراع مستمر وعداوة دائمة، وأن الدين عندهم مجرد طقوس، والكتاب المقدس أوهاج، وأن الإسلام حق،

<sup>(1)</sup> طه حسين، مرآة الإسلام، ص 194.

<sup>(2)</sup> البقرة/144.

<sup>(3)</sup> طه حسين، مرآة الإسلام، ص 195.

<sup>(4)</sup> البقرة/145، 146.

<sup>(5)</sup> سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 1، ص 134.

وأن قبلة النصارى هي الشرق، وقبلة اليهود صخرة بيت المقدس، فأى فائدة ترجى من موافقة النبي ﷺ لأهل الكتاب في قبلاتهم - ونيس في قبيلتهم - هل يوافق قبلة اليهود أم قبلة النصارى؟! لقد اختلفنا في قبيلتهم فالأجدد بخاتم الأنبياء أن تكون له قبلة غير قبيلتيهما توحد ولا تفرق<sup>(1)</sup>. ومن هنا فإن التعيسة تعد عاملاً جوهرياً من عوامل توحيد المسلمين يفتقد إلى مثله بورغاد، وقد بينت الآية السابقة أن أهل الكتاب يعرفون هذا ويعرفون خاتم الأنبياء قبل ميلاده كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يكتُمون ذلك إلا من رحم ربك ﴿كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾<sup>(2)</sup>. وهكذا لأهمية الكعبة، فقد جعلها الله قبلة أبدية للمسلمين لا تتسخ أبداً فقال تعالى: ﴿وإنه للحق من ربك﴾<sup>(3)</sup>. وبعد ذلك حذرنا الله من السفهاء، بورغاد وأمثاله "فلا تخشوهم" لأنهم لا يستندون إلى برهان عقلي، ولا إلى هدي سماوي، وإنما هي أحقاد وأضام وتقليد أعمى "واخشوني" ولا يعقل أن نطيع بورغاد ونخشاه ولا نخشى الله، وإلا كنا أسفه من السفهاء. ذلك أن المنطق العقلي يقتضي أن صاحب الحق هو الذي يخشى جانبه لا صاحب الباطل<sup>(4)</sup>. ﴿فلا تخشوهم واخشوني ولأنتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾<sup>(5)</sup>. والنتيجة التي نتوصل إليها من قضية مناسك الحج وتحويل القبلة أن الهجوم على الكعبة المشرفة سببه أنها حتى قبل الإسلام كانت تشكل نمطاً حضارياً حنيفياً في أساسه، غير تابع للروم دينا وحضارة، أو اليهود وبقيت كذلك بعد مجئ الإسلام في نفوس العرب، ولا سيما بعد تحويل القبلة إليها مما يعني التحرر التام والانفصال الكلي عن اليهودية والنصرانية، بل تجاوزهما للارتباط بأصل الحنيفية إبراهيم عليه السلام. وبتعبير اليوم نقول:

إن تحويل القبلة أنتج نمطاً حضارياً مستقلاً استقلالاً كلياً، غير خاضع للنمط الغربي، وغير تابع له أو متأثر به، بل مشرح لعيوبه الداخلية والذاتية وكشف خبايا تهاوته، وبهذا فهو تحدي حضاري ومستقبلي أبدي للغرب المنحرف بيهوده ونصاراه، ومن هنا جاءت عداوة بورغاد لخاتم الأنبياء والمرسلين وتهجمه عليه في قضية مناسك الحج وتحويل القبلة، مع أن الذي وضع مناسك الحج وأمر بتحويل القبلة إلى البيت الحرام ليس محمداً صلى الله عليه وسلم، بل الله عز وجل، وهو بهذا يهدف إلى زرع اليأس والتسكيت العوام لهدفين جوهريين أحدهما استعماري توسعي، وثانيهما ديني تنصيري، وهي الأهداف ذاتها التي سعى إلى تحقيقها قبلاً فيصر الروم في حادثة القبل وترويج ابن الحويرث.

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج2، ص17.

(2) البقرة/109.

(3) البقرة/149.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج2، ص24، 25.

(5) البقرة/150.

وأما الزعم بأن عمر رضي الله عنه هو الذي وضع عيد الأضحى ليكمل ما نقص من دين محمد صلى الله عليه وسلم:

فإنه كذب وبهتان، لأن دين محمد صلى الله عليه وسلم تم في حياة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾<sup>(1)</sup>. وبهذا يفهار ما بناه بورغاد على تلك المقدمة الكاذبة - من أن عمر أعظم من محمد - والحقيقة أنه لو لا محمد ما كان عمرَ عمر، ولو لم يوجد عمر ما كان ذلك يؤثر في عظمة محمد، لأن مصدر عظمته ليس مكتسباً بل هو الوحي، وبهذا فإن محمداً هو الذي أوجد عمر وليس عمر هو الذي أوجد محمداً صلى الله عليه وسلم، وبورغاد - هنا - يقرر شيئاً مهماً يعبر عن قناعته الداخلية، وذلك في مرحلة ضعف الرقيب النفسي فتكنت تلك الرغبة من الإفلات من اللا شعور أو الشعور الداخلي المكبوت قصداً إلى اللسان والكتابة، وهي يقينه الداخلي بنبوته محمد ورسالته، نستشف هذا من تعبيره الآتي: "عمر أعظم من محمد، ولكن من سوء حظه لم يوح إليه"<sup>(2)</sup>. معنى هذا أن الفرق بين محمد وعمر هو الوحي، حيث أوحى إلى محمد ولم يوح إلى عمر، كما نستشف شيئاً آخر وهو تأثيره بمفهوم الوحي والنبوة في الكتاب المقدس، حيث تأخذ النبوة عنوة وتسرقت ويحتال لأخذها كما حدث بين يعقوب وأخيه عيسو، حيث كان العهد لعيسو ولكن أم يعقوب دبرت على ابنها يعقوب فلبس جلد عنزة وضلل أباه حيث اعتقد أنه عيسو فأعطاه النبوة<sup>(3)</sup>، وبهذا "يكون يعقوب شخصاً محتالاً سرق النبوة من أخيه البكر بطريقة منحطة"<sup>(4)</sup>. ويعقوب نفسه لم يأخذ لقب إسرائيل إلا بعد معركة حامية الوطيس مع الله عز وجل - تعالى الله عن هذا علواً كبيراً - استمرت ليلاً كاملاً، ولم يتمكن الله من التغلب على يعقوب<sup>(5)</sup>. ولما طلع الفجر أمسك يعقوب بالله فقال له الله: "أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال " لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له ما اسمك" - يعني الله يجهل ولا يعمل - فقال يعقوب، فقال " لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت... وباركه هناك"<sup>(6)</sup>. إن الأشياء من معادنها لا تستغرب، فالذي يقول هذا على الأنبياء الذين يؤمن بهم لا يستغرب منه أن يسقط هذه القناعة على خاتم النبوة والرسالة ويعمم هذا المنهج للنبوة.

وأما ما زعمه بعد ذلك، فإن المعروف عند المسلمين بنصوص دينية وبأدلة تاريخية أن عيد الأضحى شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة الأولى للهجرة مع عيد الفطر قبل أن يفرض على المسلمين الحج بسنين طوال، وهذا معروف بالتواتر عند المسلمين ومعروف حتى المكان الذي كان يصلي فيه الرسول صلى الله عليه وسلم صلاة العيدين بالمسلمين ومن النصوص الدينية التي ثبت ما ذكرنا ما رواه

<sup>(1)</sup> البقرة/3.

<sup>(2)</sup> فرانسوا بورغاد، مسامرة فرطاحة، ج2، ص88، 89.

<sup>(3)</sup> سفر التكوين، الإصحاح 27، فقرات 1-29.

<sup>(4)</sup> محمد الغزالي، فذائف الحق، دط، شركة الشهاب، الجزائر، دت، ص27.

<sup>(6)</sup> سفر التكوين، إصحاح 32، فقرة 24-29.



أبو داود عن أنس قال: "قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقلت: "ما هذان اليومان، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقلت رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قد أبدلكما خيرا منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر"<sup>(1)</sup>. وكان النبي ﷺ كما قال بريدة: "كان النبي ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ولا يئكل يوم الأضحى حتى يرجع"<sup>(2)</sup>. وقد شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في العيدين خروج الصبيان والنساء لتمصلي من غير فرق بين الذكر والأنثى والشابة والعجوز والحائض، لحديث أم عطية قالت: "أمرنا أن نخرج العواتق والحائض في العيدين يشهدان الخبز ودعوة المسلمين ويعتزل الحائض المصلي"<sup>(3)</sup>.

وأما المكان الذي كان يصلي فيه الرسول ﷺ العيدين بالمسلمين فهو المصلي<sup>(4)</sup>، ولم يصل صلى الله عليه وسلم العيدين في المسجد إلا مرة واحدة بسبب المضر<sup>(5)</sup>، لأن العيدين عبارة عن إحتفال ديني عظيم للمسلمين، فعن أبي هريرة "أنهم أصابهم مطر في يوم عيد فصلى بهم النبي ﷺ صلاة العيد في المسجد"<sup>(6)(7)</sup>. وهنا نتساءل: هل كان يورغاد يجهل كل هذا؟ ونعتقد أنه يعرفه جيدا وبذلك يبدو جليا هدفه، وهو التشكيك وبسط التلبلة وسط العامة، وليس هذا غريبا من رجل يعتقد أن الله خرج من فرج امرأة، فإذا كانت هذه عقيدته في دينه فإن الأشياء من معادنها لا تسفرب.

### وأما الطعن في الحدود<sup>(8)</sup> والقصاص<sup>(9)</sup>

فإنه ينطلق في تهجمه على الشريعة الإسلامية من خلالهما من مغالطات وأكاذيب يدركها جيدا، ولكنه لما كانت الغاية عنده تبرير الوساطة فإنه يستخدم كل وسيلة لتفضيل العامة وإثارة الشبهات وتشكيكهم في دينهم، ولنبدأ حديثنا في الردود عليه بقضية الحدود.

<sup>(1)</sup> رواه أبو داود عن أنس.

<sup>(2)</sup> رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد عن بريدة.

<sup>(3)</sup> متفق عليه عن أم عطية.

<sup>(4)</sup> هو موضع باب المدينة الشرقي.

<sup>(5)</sup> ابن القيم الجوزي، زاد المعاد، م، ج، 1، ص 121.

<sup>(6)</sup> رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة وفي إسناده مجهول / وسير هنا إلى أن هنا الحديث الذي في سننه مجهول وغيره من الأحاديث لضعيفة يعد الاستدلال بها هنا في منتهى القوة، لأنها بصدد ماطرة نصران كتابه المقدس أصعب منها بكثير، بل لا مقارنة بينه وبينها البتة، لأنه لا أصل له كما سنذكر.

<sup>(7)</sup> وقد ورد أحاديث كثيرة في بيان وقتها وإحياء ليلتهما بالعبادة وأدبهما إرخ، ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتب فقه مثل سيد سابق، فقه السنة، دط، دار الكتاب العربي، بيروت، م، ج، 1، ص 317، 318.

<sup>(8)</sup> الحدود جمع حد، وهو في اللغة النع، وفي الشرع: "هي عقوبة مقدرة وحيث حقا لله تعالى"<sup>(1)</sup> ولما كانت حقا لله تعالى كان العقاب فيها لا يشبه الجريمة المعاقب عليها، فإجلد غير الزنا<sup>(2)</sup> [1] الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، دط، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971، ص 44. (2) محمد فتح الله الزيايدي، فلسفة العقوبة في الإسلام، مجلة كلية الدعوى الإسلامية، ليبيا، 1992، ع9، ص 265. [.

<sup>(9)</sup> انقصاص: هو "أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل"<sup>(1)</sup>، وبذلك يستوي فيه العقاب مع الجريمة، فمن قتل يقتل، ومن قطع طرفا يقطع طرفه المماثل إرخ، مما يجعله يمتق أعلى درجات العدالة والمساواة ويمتق الأمن والطمأنينة<sup>(2)</sup> [1] الجرجاني، التعريفات، ص 93. (2) محمد فتح الله الزيايدي، فلسفة العقوبة في الإسلام، ص 265.]

## الطعن في الحدود والقصاص :

قضية الحدود التي يكتفي فيها بالتهجم على موقف الإسلام من الزنا نجد موقفه فيها متهاقاً كذلك، ذلك أنه يجعل سببه الوحيد هو الطلاق، وقد بينا قبلاً تهافت ذلك بما حصن به الإسلام المطلقة من الإنحراف، بما في ذلك الزواج من جديد، وهو ما تفتقر إليه النصرانية التي تمنع المتوفى عنها زوجها وكذلك المطلقة من الزواج، وهذا يجعل موقف بورغاد كما ذكرنا في غاية الغرابة، ذلك أنه مادام الطلاق يؤدي إلى الدعارة فلماذا يحرمون على المتوفى عنها زوجها وكذا المطلقة الزواج ثانية؟ هل عندما تبقى بسدون زواج وفي ظروف أسوأ من التي ذكرها عن المطلقة لا تتحرف؟ أم يأتي يسوع ليحفظها؟ والواقع بين ما تتخبط فيه مجتمعات بورغاد من آثار الفاحشة، في عصره وقبله وبعده، واستدلالاته بشأن يسوع مع المرأة التي كلن أهلها يرحمونها فنهى عن ذلك وتركت لثأنها<sup>(1)</sup> ما أنزل الله به من سلطان، فهو من جهة استدلال مغالطي، ومن جهة أخرى تنقصه الدقة العلمية<sup>(2)</sup>، مما يدل على بعده عن المنهج العلمي الدقيق.

ووجه مغالطته أن الحدود من اختصاص الدولة، لأنها تشريع، والتشريع تنفذه الدولة في جميع المجتمعات وليس من اختصاص الأفراد مهما عظمت مكانتهم، والمسيح لم يؤسس دولة، ولم يأت بشريعة جديدة، فهو كان يعيش في ظل الدولة الرومانية، ومن هنا فلا يحق له تنفيذ الحدود، وإلا أصبح المجتمع فوضى عرمة. ولما كان هذا معروفاً لدى جميع الناس، فإن اليهود أرادوا أن يوقعوا به ليصبح بين خيارين أحلاهما مر، فأتوه بامرأة إستحقت الرجم وقالوا له ما رأيك في هذه؟ وغرضهم أنه إما ينكر حكم التوراة فيضل فيتخلصون منه نهائياً، وإما ينطق بحكم التوراة وهو الرجم - وهي التي يؤمن بها بورغاد ونكتته يتم الإسلام دونها - فيعارض بذلك القانون الروماني، أي القوانين السارية المفعول في الدولة التي يعيش في كنفها فيتعرض للقتل من الساهرين على تطبيق القانون<sup>(3)</sup>. ولكن المسيح عليه السلام كان ذكياً لأنه رسول يوحى إليه، فقال لهم مجيباً: من كان منكم بلاخطيئة فليرمها أولاً بحجر، ونص الإنجيل واضح في أن عيسى عليه السلام لم يرفض الحكم الشرعي، وواضح أيضاً أن غرض اليهود الذين أتوه بها هو توريثه. يقول النص: " قالوا له يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل، وموسى في التاموس أوصانا أن مثل هذه ترحم، فماذا تقول أنت : قالوا هذا يُجرى به ليكون لهم ما يشكون به عليه ... قال لهم : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر ... وقال لها : اذهبي ولا تخطني أيضاً"<sup>(4)</sup>.

(1) فرانسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة، ج2، ص48.

(2) ذلك أن أهل المرأة لم يبدأوا برجمها، وليسوا هم الذين سألوا المسيح عن الحكم فيها بل غيرهم.

(3) وهذا هو المعمول به في جميع الدول، بما فيها فرنسا التي لو قام فيها شخص ما حتى ولو كان ديكرت بتنفيذ حكم على عرم خارج إطار المؤسسات المعمول لها ذلك، وكان الحكم يخالف للنصوص عليه في قوانينها مع سبق الإصرار، فإن ذلك حتماً سوف يثير زوبعة تنتهي بعقوبة ذلك الشخص.

(4) إنجيل يوحنا، إصحاح8، ققرة 3، 11، 8، 11، ومعنى النص حسب زعم النصارى أن المسيح ألغى حد الزنا التوراتي مكثفاً بأخذ العهد على مقترفه أن لا يعود إليه مرة أخرى يلهي عبد الواحد واليه الأسفار المقدسة في الأدب السابغة للإسلام، ط1، مكتبة حفصة مصر، القاهرة، 1964م، ص72.

هذا الموقف لا يعني إلغاء حكم الرجم، بل المسيح عليه السلام كان يعرف انغماس أولئك اليهود الذين أرادوا توريطه في الرذيلة، وكان يعرف هدفهم جيدا فأنتقد نفسه من أذاهم بالشرط الذي إشتراطه في الذي يتولى الرجم، ولما كانوا جميعا مجرمين فقد انصرفوا جميعا ليتركوه مع المرأة فوعظها بما سبق ذكره. بعد ما سبق طرح السؤال الآتي على بورغاد:

هل الزنا جريمة أم ليس بجريمة؟ إن كان جريمة فما هي العقوبة التي قررها الإنجيل لإراحة المجتمع منها؟ والجواب أنه لم يقرر شيئا، وإن لم يكن جريمة فلماذا شنع المسيح على الزناة وقال: "قد سمعتم أنه قيل للقضاء لا تزن، أما أنا فأقول لكم إن من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنا بها في قلبه، فإن كانت عينك اليسرى تعثرك فاقطعها وألقها عنك خير من أن يلقى جسدي كله في جهنم"<sup>(1)</sup>. وإذا كان موقف الإسلام ليس سليما فكيف نريح المجتمع من هذه الجريمة الشنعاء؟ هل التربية وحدها تكفي؟ وإذن ماذا أثمرت تربية النصارى في فرنسا مثلا؟ وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا وضع نابليون القانون الذي إشتهر به وهو الذي كان نصرانيا جدا حسب زعم بورغاد نفسه، وكان مثابرا على قراءة رسائل بولس؟! وبهذا فإما أن يكون نابليون منحرفا عن النصرانية ومخالفا لها ومخطئا، وهذا يتناقض مع المقدمة الكبرى التي إنطلق منها بورغاد في تعظيم نابليون وجعله أحسن من خاتم الأنبياء (2) ﷺ وبذلك يتحطم كل البناء البورغادي.

وإما أن وضع القوانين ضروري لتحقيق سعادة الإنسان، وهو ما بينه تطور القوانين وإختلاف نظرات الفقهاء إلى الجريمة بغية القضاء عليها، وهو ما يبين صواب الشريعة الإسلامية، وبهذا يتحطم أيضا البناء البورغادي.

ثم عندما هاجم بورغاد الشريعة الإسلامية متهما إياها بالقسوة، هل كان ذلك بغرض الدفاع عن شريعة الإنجيل أم عن القوانين الوضعية التي كانت بلده قد أخذت تستبدل بها بعض ما كانت تعتبره الكنيسة مقدسا كإباحة الطلاق مثلا لغير سبب الزنا؟ فإذا كان الغرض الدفاع عن شريعة الإنجيل فما هو البديل الذي قدمته تلك الشريعة في عقوبة الزنا؟ هل يمكن القول: إنه إعفاء الزناة من المسؤولية نهائيا وكذا عدم عقوبة السارق والقاتل والقاذف وغيرهم؟ وبهذا لا يكون في الإنجيل أي شريعة، وهنا ألا يخجل من مهاجمة شريعة لا يوجد في دينه بديل عنها؟ كما نستغرب هنا أيضا: كيف تكون النصرانية دينا بدون شريعة؟ أي كيف يكون الدين دينا بلا شريعة؟ أما إذا كان بغرض الدفاع عن القوانين الوضعية، فهذه أكبر من أختها، لأنه كيف يكون رجل دين ويدافع عن اللادين ضد الدين؟!

ثم مادام ضد شريعة القرآن لأنها قاسية حسب زعمه، لماذا لم يحارب التعذيب الذي يمارسه أبناء ملته أثناء إستتطاق المجرمين أو حتى المتهمين زورا؟! إنه لمن العجيب أن يعذب المجرم العذاب الأليم لبطلاني بأقوال تكون عقوبة القانون عليها أخف بكثير من ذلك. إذ كيف مثلا: تمزق الأوصال ويحرق الإنسان

(1) إنجيل متى، ص 5، فقرات 27-29

(2) اناسوا بورغاد، مسامرة لمرطاحنة، ج 2، ص 109.

بالنار ويكوى بالصدمات الكهربائية وغير ذلك ليعترف بفعل قد تكون عقوبته القانونية أياما معدودات فسي السجن. هل هناك إهانة للإنسان وقسوة عليه أشد من هذا؟ لماذا لم ينتقد أبناء ملته الذين كانوا يرقمون السجناء كيا بالنار ل يبقى ذلك سيمات لهم إلى الأبد، ويكفي الإسلام فخرا أن الباستيل لم ينشئه أبناؤه بل أجداد بورغاد.

إن بورغاد في حين يعيب على الإسلام الحدود والقصاص لأنه في نظره قسوة يغض النظر عن جرائم (دورفيقو) في العوفية و(كلوزيل) في البليدة وغيرهما. أليس ذلك أفسى من القسوة؟ بل يذهب إلى حد تسويغ تلك الجرائم في حق الإنسانية باعتبارها ضرورية<sup>(1)</sup> للتوطين للاستعمار. كيف يدافع عن الذي يبيع أساور النساء في معاصمهن بعد قطع المعاصم والقتل، وقراط النساء في آذانهن بعد قطعها ظلما عدوانيا أثناء التمثيل بأصحابها ويهاجم شريعة أتت لتحمي الضعيف من المتجبر، وتنصف المظلوم من الظالم، فتحمي المجرم من نفسه، وتكف عن المجتمع أذاه فيعيش المجتمع في أمن وسلام ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب ﴾<sup>(2)</sup>.

إنه لمن العجيب أن يهاجم شريعة القرآن متبها إياها بالقسوة، ولا يهاجم شريعة التوراة وهي تقرر ما قررت شريعة القرآن، بل هي التي يمكن وصفها بالقسوة، لأنها هي التي تقرر أن مجرد شتم الأب والأم يوجب القتل<sup>(3)</sup>. وأن السارق يرحم مع أبنائه بالحجارة<sup>(4)</sup>، وقد ورد فيها أيضا: "... نفسا بنفس وعينا بعين وسنا بسن ويذا بيد ورجلا برجل، وكيا بكيا، وجرحا بجرح، ورضا برض... إلخ"<sup>(5)</sup>.

ولقد وصلت به البجاجة إلى تحديد "لنفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف" في شريعة القرآن وهو ما ورد في التوراة بنصه.

والواقع أن حكم التوراة هو حكم الإنجيل، لأن ما ثبت فيها هو شريعته لأنهما عهدان لكتاب واحد، وهو ما يؤمن به بورغاد. وأما ما ورد في الإنجيل من بعض الدعوة للتسامح فلا علاقة له بالتشريع<sup>(6)</sup>، بل هو مرتبط بالجانب الأخلاقي.

وما يجب أن نشير إليه هنا هو: لماذا كانت بلاده وأوروبا - وهي البلاد النصرانية التي يوجد بها مجلس روما الذي يحمي النصرانية من التحريف حسب زعمه - حتى أواخر القرن 18 م تنظر إلى المجرم نظوة تفيض عنفا وقسوة؟. فلقد كان أساس العقوبات المبالغة في الإرهاب والانتقام والتشهير، وكان من العقوبات المقررة المعترف بها قانونا: الحرق والصلب ونقطيع الأوصال وصلم الأذان وقطع الشفاه واللسان

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 117.

<sup>(2)</sup> البقرة/179.

<sup>(3)</sup> سفر الخروج، إصحاح 21، فقرة 12.

<sup>(4)</sup> سفر يسوع، إصحاح 7، فقرة

<sup>(5)</sup> سفر الخروج، إصحاح 21، فقرة 12.

<sup>(6)</sup> محمد فتح الله الزاهد، المرجع السابق، ص 268.

والوشم بأداة محمأة في النار<sup>(1)</sup> وليس أطواق من الحديد والنفي والجلد والحبس<sup>(2)</sup>. وكان كل هذا يُشرفه الكنييسة ومباركتها. ومن تنسى محاكم التفتيش التي كانت بلد بورغاد آخر بلاد ألغيت بها، بل رأها بورغاد رأي العين.

ونلاحظ أن هذه القسوة تتناسب مع ما هو بالتوراة مما يدل على تمسك النصارى بحكمها رغم هاته القسوة، حيث إن أغلب العقوبات لم تكن متناسبة مع أهمية الجرائم المقررة لها، وبهذا لا يستطيع بورغاد أن يبرر موقفه ولاسيما أن عقوبة الإعدام كانت جزاء لكثير من الجرائم البسيطة، وظل القانون الإنجليزي مثلا حتى آخر القرن 18 يعاقب على 200 جريمة بالإعدام، منها سرقة أكثر من سُلن. وكان القانون الفرنسي يعاقب بالإعدام على 215 جريمة، معظمها جرائم بسيطة<sup>(3)</sup>. أما روسيا فجعلت عقوبة الإعدام لكل من ينشر غسيله على شرفات الطرق الرئيسية<sup>(4)</sup>.

ونحن نستغرب: كيف لا يهاجم بورغاد كل هذا ويهاجم شريعة ليس بها من العقاب بالقتل سوى ثلاث جرائم، يتهمها رغم ذلك بالقسوة.

إن الأساس الذي كانت تقوم عليه العقوبة في البلاد النصرانية هو الانتقام من المجرم وإرهاب غيره وهو ما سوغ التمثيل بالمجرم وتشويه جسمه، وسوغ محاكمة الأحياء والأموات والحيوانات والجماد<sup>(5)</sup> بل حتى الأطفال في بطون أسهاتهم<sup>(6)</sup>، وما ظهر بعد ذلك من بعض التخفيف على الجاني فلم يكن من رجال الكهوت، بل من المفكرين الذين شقوا طريقا آخر. ورغم ذلك فإن نظريات هؤلاء المفكرين ظلت مضطربة -قلقة كأصحابها- بين من ينادي بتسليط أقصى العقوبات، وبين من ينادي بإعفاء المجرم من المسؤولية باعتبار الظروف الاجتماعية أو البيولوجية هي التي دفعته لذلك<sup>(7)</sup>، ولكن مهما يكن من أمر، فإن جميع تلك النظريات لم تحل مشكلة الإجرام، ومازالت عقوبة الإعدام سارية المفعول إلى يومنا هذا.

وهذا عكس ما وقع في المجتمع الإسلامي أثناء تطبيقه للإسلام ويظهر بجلاء أن ما جعل بورغاد يهاجم الشريعة الإسلامية أن اليهود وأهل ملته تفلتوا من التشريع الإلهي وخضعوا لهواهم فلم يرقسه المسلمون الذين كانوا لا يزالون يتعمون بعدالة التشريع الإلهي - بل كانت الشريعة تميزهم عن النصارى وتحميهم

(1) وقد أفوض في تفاصيل هذا التعذيب وكى المسجونين بالنار الأديب الفرنسي فيكتور هيغو في البرساء وغيره.

(2) عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي، مقارنا بالقانون الوضعي، ط6، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، ج1، ص621، 622.

(3) المرجع نفسه، ص 622.

(4) شوقي أبو خليل، آراء يهدمها الإسلام، ط2، دار الفكر، دمشق، 1980، ص62.

(5) عبد القادر عودة، المرجع السابق، ص622.

(6) ومن الأمثلة على هذا فقد حكم على طفل جزائري وهو في بطن أمه بخمس سنوات سجنا نافذا وذلك أيام ثورة التحرير الكبرى 54-1962 بتهمته المشاركة في الثورة وهو في بطن أمه. أما أمه التي ولدتها في الرزانة وهي تحت التعذيب الشديد فقد قطعوا يديها ولازالت حية إلى الآن، (محمد تظاري - عضو لجانة الولاية الخامسة أثناء الثورة - ملفي الإمام السنوسي، بن سنوس، تلمسان، ماي 1993).

(7) عبد القادر عودة، المرجع السابق، ص622-625.

منهم بالتحصن بها- وهل يعاب على شريعة السماء صرامتها بهدف تطهير الأرض من الجرائم الخلقية وصيانة الأموال والدماء والأعراض بأسلوب حاسم<sup>(1)</sup>.

ونستطيع القول بأن القصاص الذي يعني معاقبة المجرم بمثل فعله فيقتل كما قتل ويجرح كما جرح ليس في العالم قديمه وحديثه عقوبة تفضله فهو أعدل العقوبات؛ لأنه لا يجازي المجرم إلا بمثل فعله، وهو أفضل العقوبات للأمن والنظام، لأن المجرم عندما يعلم أنه سيجزى بمثل فعله سيرتدع فسي الغالب لأن الذي يدفعه إلى الإجرام هو تنازع البقاء وشهوة التغلب والاستعلاء، فإذا علم أنه لن يبقى بعد فريسته أبقي على نفسه بإبقائه على فريسته، وإذا علم أنه مغلوب بعد الغلبة فلن يتطلع إلى التغلب عن طريق الجريمة. والواقع يبين هذا، فالرجل الشرير يكون أبعد عن الشر إذا رأى خصمه أقوى منه وأقدر على رد الاعتداء، بل يتحدى من يراه أقل منه قوة. تلك " هي طبيعة البشر وضعت الشريعة على أساسها عقوبة القصاص، فكل دافع نفسي يدعو إلى الجريمة يواجه من عقوبة القصاص دافعا نفسيا مضادا يصرف عن الجريمة، وذلك ما يتفق تمام الاتفاق مع علم النفس الحديث"<sup>(2)</sup>.

وهكذا نجد نظرية القصاص في الإسلام تقوم على تمام العدل من جهة فينال المجرم جزاءه المساوي لفعله، وتقوم من جهة أخرى على حماية الإنسان، بل حماية المجرم ذاته، لأن مجرد وجود القصاص يكف الراضب في الإجرام عنه بسببه. فيكون الإسلام بذلك قد حمى المجرم ذاته كما حمى المجتمع، وهو ما يؤدي إلى توفير الأمن والاستقرار للجميع، وهو ما يتوافق مع مقاصد الشريعة الإسلامية التي من ضمنها حماية النفس.

وهنا نتساءل: إذا كنا لا نعاقب المجرم بمثل فعله فكيف تحمي أنفس الأبرياء منه؟ فهل المنطق والعقل ومصالح المجتمع تقتضي الرحمة بالمجرم والقسوة بالبريء؟ إن نظرية القصاص في الشريعة الإسلامية ولا سيما في الجرائم التي يكون فيها حق الأشخاص غالبا على حق المجتمع تقوم على شيتين أساسيين يجعلها تقتضي على دابر الجريمة، هما:

- المساواة الدقيقة بين الجريمة والعقوبة - كما ذكرنا - ما لم يتعذر ذلك كما في بعض الجروح، فمن قتل عدوا قتل.

- شفاء غيظ المجني عليه، وذلك بتسليط العقوبة على الجاني بالذات، وهذا ينتج عنه ثلاث نتائج.

أ- تقيّة الأنفس، لأن مصلحة أهل المجني عليه تحققت بالعقوبة المساوية للجناية، وأما أهل الجاني فلا يبقى لهم شيء في ذمة عائلة المجني عليه، لأن الذي أوقع العقوبة القاضي ( الدولة ) لا العائلة المجني عليه.

ب- ردع كل من تسول له نفسه إقتراف جريمة القتل أو غيرها.

<sup>(1)</sup> محمد التزولي، كلام من الغرب، ط3، دار الإحصاء، القاهرة، 1979، ص169.

<sup>(2)</sup> عبد القادر حودة، المرجع السابق، ص664، 665.

ج- حماية المجتمع من جرائم مستقبلية قد يرتكبها الجاني الأول، وبذلك فإن القصاص من الجاني هو حياة المجتمع بكامله، وأعظم تعبير عن<sup>(1)</sup> هذا قوله تعالى ﴿ ولکم فی القصاص حياة یا أولی الألباب ﴾<sup>(2)</sup>. ثم " إن عنصر القسوة من حيث ذاتها تمثل الركن الأساسي لمعنى العقوبة، فلو فقدت القسوة فقدت معها العقوبة"<sup>(3)</sup>، ودرجة القسوة يحددها تصور مدى خطورة الجريمة التي تستلزمها، وهو ما يتفق عليه جميع علماء الشرائع والقوانين مهما اختلفوا في تحليل فلسفة العقاب. ومن هنا فإن العقوبات في الإسلام إنما هي نتيجة لتقويمها الدقيق لمدى خطورة الجرائم التي استلزمها، وهو ما يميزها عن غيرها، كما أنها متنسقة مع فلسفتها التي تنظر بها إلى السلوك والكون والحياة، وهو ما جعلها تتميز عن غيرها، لأن كل أمة تسن ثوابها وفقاً لفلسفتها المعينة في الكون والحياة. وهو ما جعل بعض الأمم تعتبر ارتكاب فاحشة على قارة الطريق لاشيء فيه بينما تحكم بالإعدام من أجل كلمة بسيطة خرجت سهواً من فم إنسان<sup>(4)</sup>.

### خطورة جريمة الزنا تستلزم العقوبة الرادعة:

ونشر على سبيل المثال إلى خطورة جريمة الزنا ليتبين جلياً ما ذكرناه. لقد وصف القرآن الكريم الزنا بصفتين جوهريتين: ﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾<sup>(5)</sup>. والواقع والعلم يفسران لنا لِمَ كان فاحشة، ولِمَ كان ساء سبيلاً. - فهو قتل للجنين قبل التخلق أو بعده، وإن ترك للحياة، ترك حياة شريفة أو مهينة، وبرغاد والمعارضون للطلاق عند تعذر الحياة الزوجية يعللون رفضهم له بسوء حالة الأطفال بعده، وعجبا له- ولهم. فهم أنفسهم ينسون أن حالة اللقطاء في الملاجئ أكثر سوءاً<sup>(6)</sup>. ومع هذا فقد بلغت الوقاحة ببورغاد الدعوة إلى الزنا ونسي دموع التماسيح التي ذرفها على أطفال ما بعد الطلاق، فهل حالة اللقطاء أحسن منهم؟، فالواجب- ولا سيما عندما يتعلق الأمر برجل الدين - والمنطق والعقل يقتضي محاربة الزنا لا الدعوة له وتبرير وقوعه وإعفاء أصحابه من المسؤولية، وذلك بما له من خطورة على الأطفال الذين يبين الواقع أن أغلبهم يعيشون بؤساء معقدين نفسياً ناقمين على المجتمع الذي يعدونه مسؤولاً عن حالتهم البئيسة.

(1) محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، العقوبة، دط، دار الفكر العربي، 1365هـ / 1946م، ص 47، 48.

(2) البقرة / 179.

(3) محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام رسم لهاج وحل لمشكلات، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة القاراي، دمشق، 1982، ص 103.

(4) المرجع نفسه، ص 104.

(5) الإسراء / 32.

(6) شوكتي أبو خليل، آراء يهدمها الإسلام، ص 59.

- الزنا تحطيم للأسرة، لأن قضاء الشهوة بواسطته يجعل الأسرة لا مبرر لوجودها ولا داعي، وعلم الإجتماع يقرر أنها المحضن الصالح للناشئة. فلا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيها، فما ذنب اللقطاء عندما يجرمون من هذا المحضن الصالح<sup>(1)</sup>؟!.

ومن هنا فما من أمة إنتشر فيها الزنا إلا وأصبح مصير شعبها إلى الفناء<sup>(2)</sup>؛ لأنه يهدف إلى إرواء الغرائز لا تحمل مسؤوليات الحمل والإنجاب والتربية بعد ذلك والإنفاق، لذا نجد الزانية تحول دون الحمل بأي وسيلة، وإن وقع سرعان ما يتم الإجهاض أو قتل المولود أو رميه بالمستشفيات. وهذا له خطره على صحة المرأة، وعلى الأجيال، وعلى مستقبل الدولة، ومناف للقيم والأخلاق والحق والعدل والرحمة وظلم للأطفال<sup>(3)</sup>.

وبهذا نستطيع القول بأن الحدود هي أكبر حماية للعلاقة الزوجية. فانذي يخون الآخر يرحم لا أن يطلق ويبقى ليفسد الآخرين. وهنا يجب أن نبين بأن شريعة بورغاد غير متسقة، بل متناقضة عكس الشريعة الإسلامية. ذلك أنها تبيح الطلاق بسبب الزنا، بل تجعله السبب الوحيد للطلاق كما مر قبلا، ومن جهة أخرى تعفي المطلقة من المسؤولية وتبيح لها الزنا، وهنا نتساءل:

عندما تزني المرأة وتطلق بسبب الزنا، فماذا تفعل بعد الطلاق؟ هل هذا انطلاق يؤدي بها إلى العفة؟ وما مصير أطفالها هنا عندما يعلمون أن أمهم زانية وطلقت بسبب الزنا، وعندما يرون أمهم بعد الطلاق تتقلب في أحضان الفساق، كيف يكون أثر هذا على نفسياتهم، وكيف يكون آثار ذلك عليهم في محيطهم ولا سيما عندما يصبح أقرانهم يعيرونهم بهذه الجريمة الشنعاء؟! ومن يتكفل بنفقاتهم وحضانتهم بعد الطلاق؟ مساهي قوانين الإنجيل لحمايتهم ونفقتهم وحضانتهم؟ ماذا أعد بورغاد لحماية هؤلاء الأطفال التعمساء؟ ثم ماذا يكون أثر هذه الزانية وأثر الزوج الزاني على المجتمع؟ إن الزاني بعد أن خان قرينة سيعمل - ولا سيما بعد تحرره من الزواج - بطبعه على نشر هذه الفاحشة، فتنتهك الأعراض ويكثر الطلاق. وذلك أن الرجل الزاني سيظل يغري النساء وكل من وقعت في حباله تطلق أو يصبح زوجها دبوئا إن كانت متزوجة فتكثر المطلقات بسبب الزنا ويكثر الفساد في الأرض. ومن هنا فإن أكبر حامي للأسرة والأطفال والمجتمع والدولة والإنسان نفسه هو الحدود.

- انتشار الزنا " يعني تحويل الحب والعلاقات الجسدية إلى صفقات تجارية، وانتشار البغاء يعني تراخي العلاقات والروابط التي تجمع بين المحبين، فتسود الإباحية ويكثر اللقطاء"<sup>(4)</sup>.

(1) المرجع نفسه، ص 60.

(2) أولف هتلر، كفاحي، دم، دط، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، دت، ص 88.

(3) عبد البالي رمضون، خطر التفرج والإحتلاط، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1974، ص 98، 99.

(4) أولف هتلر، كفاحي، ص 88، ويستدل هتلر بمثال واقعي على صحة رأيه فيقول: " ويكفي أن نلقي نظرة على أبناء النبلاء والبورجوازيين لنفهم

خطورة الخطورة التي سخطها أمنا بحر الإلتهار بإنتشار داء الزهري هذا الداء الرئيل عن طريق علاقاتهم الجنسية مع الموظفات اليهوديات في المهلات التجارية والأندية، وكانت النتيجة أولاداً مخطاه مشوهين " ( هتلر، المرجع نفسه، ص 88).



- انتشار الأمراض الجنسية الخبيثة كالسيلان والزهري - والسيدا - التي تنتج أساساً عن البغاء<sup>(1)</sup>،<sup>(2)</sup> وتستطيع بغني واحدة جعل هذا الداء الفتاك يفتك بمات من الزناة الذين سينقلونه إلى غيرهم أيضاً<sup>(3)</sup>.
- وبهذا فإن هذه الفاحشة ليست قضية شخصية أو مسألة فردية، بل يمتد أثرها إلى المجتمع بكامله، بل الذي أصيب به إن تزوج فقد تظل الأمراض الجنسية في نسله إلى أربعة أجيال كما يقرر الأطباء.
- انتشار الزنا يؤدي إلى شيوع البرود الجنسي مما يؤدي إلى انتشار الشذوذ الجنسي، - وهو ما يشاهد اليوم في مجتمعات أبناء ملة بورغاد-.
- البغي لا تضر نفسها فحسب، بل تضر العفيفات اللاتي فظرن على حب تكوين أسرة طيبة تكون محضنا لأطفال أسوياء<sup>(4)</sup>، وذلك بصرف الرجال عن الزواج بسبب الإشباع الجنسي بالبغايا، كما يؤدي البغاء إلى انتشار الخيانة الزوجية؛ لأن الرجل الذي اعتاد الأكل من مراعي كثيرة مجانية يصعب عليه الرعي في مزعة واحدة.
- عزوف الشباب عن الزواج وتهجينهم الجنسي المبكر والبحث عن الإشباع مما يؤدي إلى كثرة الأمراض والمشكلات الاجتماعية والإضرار بالمجتمع ككل.
- الزنا يقطع الأرحام ويضيع الأنساب ويفك الروابط بين أفراد المجتمع.
- الزنا يسيئ الخلق ويعلم الوقاحة والسفاحة والخيانة والخديعة، ويجعل الفرد عبداً لفرجه<sup>(5)</sup>.
- والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق، أن الزنا نكسة حيوانية تحطم الفرد والمجتمع وإنسانية الإنسان وقيمه وصحته وأطفاله. فهو كارثة على الفرد والأسرة والمجتمع والبشرية جمعاء، وعلى الصحة والقيم، إنه يقضي على إنسانية الإنسان ويقطع دابره من الوجود. وبذلك فهو ليس قضية شخصية كما ذكرنا، ومن هنا كانت عقوبة الإسلام لهذه الجريمة الشنعاء صارمة ليجنب المجمع كل المآسي السابقة. فهل الشريعة التي تكون صارمة لحماية الإنسان والمجتمع والدولة والقيم من المخاطر السابقة تعد قاسية ولا سيما أن الإسلام يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة<sup>(6)</sup>.

(1) المرجع نفسه، ص 88.

(2) هناك 11 مرضاً على الأقل ينتج عن البغاء، هي :

1- السيلان، 2- الزهري (الإفوني) ويسمى الإفوني عند العامة لصدوره عن المجتمعات الإفريقية - أي مجتمعات بورغاد-، 3- مرض القرحة الجنسية، 4- مرض القرح اللين، 5- مرض النمو الحبيبي الإلتهابي المعيني، 6- مرض الإمتافيلوكوك، 7- مرض قبيء الصباح، 8- مرض النفور من الأنوثة، 9- مرض الشذوذ الجنسي (الواط والسحاق) 10 - مرض طغيان الشهوة والغريزة، 11- مرض اموس الجنسي.

ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى عبد الباقي رمضون، خطر التبرج والاختلاط، ص 120-125.

(3) عبد الباقي رمضون، المرجع السابق، ص 99.

(4) شوقي أبو عليل، آراء بهنمها الإسلام، ص 61.

(5) عبد الباقي رمضون، المرجع السابق، ص 100.

(6) شوقي أبو عليل، المرجع السابق، ص 62.

## أسباب الوقاية :

لقد بنى الإسلام أسباب العقوبة على قوانين في النكاح والطلاق والحجاب، وعلى تعاليمه في الأخلاق الجنسية، فجعل الزواج عبادة كما بينا قبلاً، وسهله وحث عليه في سن مبكرة<sup>(1)</sup>، وحرّم التبرج والإختلاط إلخ .

ومجتمع تطبق فيه أحكام الإسلام للفسخ والطلاق والخلع إلخ على أكمل وجوهها يقتضي هذا المجتمع بدافع فطرته تنفيذ عقوبات صارمة للمحافظة على نظامه المتزن، مما يجعل تلك العقوبات الصارمة عين العدل؛ لأن المجتمع بني على أساس تسهيل الإشباع الجنسي بطرق مشروعة وتنظيف الحياة الاجتماعية من كل ما يؤدي إلى الزنا مما يؤدي إلى الكف التفتائي عنه فلا يلجأ إليه إلا ممسوخ الفطرة مما يوجب رده به بقوة. وهكذا نجد المجتمع الإسلامي يبحث بدقة في ما يؤدي إلى ارتكاب الجرائم فيعمل على محوه، وإلى جانب ذلك توضع للجرائم عقوبات صارمة تردع الجاني وكل من تسول له نفسه الاقتداء به. وبهذا كانت عقوبات الإسلام متوافقة مع فلسفته لمعنى الكون والإنسان والحياة<sup>(2)</sup>.

والواقع أن اتهام الشريعة الإسلامية بالقسوة ناتج عن الجهل بطبيعتها أو عن أن الناظر إليها ينظر بعقلية ونفسية مجرم محترف لا يريد أن يردع عن إجرامه، ذلك أنها أسلوب تربيوي وقائي فريد من نوعه لا عملاً إنتقامياً<sup>(3)</sup>. ولا يمكن فهمها أو تقييمها إلا من خلال النظرة الشمولية التكاملية إلى التشريع القرآني بعامته، وهو التشريع الذي يستهدف في الأساس والغاية إقامة مجتمع بلا حدود وبلا قصاص، بحيث لا يلجأ إليهما إلا بعد فشل كل وسائل الحماية التي حصن الإسلام بها الفرد من ارتكاب الجرائم<sup>(4)</sup>.

وتتمثل هذه الوسائل فيما يأتي :

1- العقيدة السليمة : فهي اللبنة الأولى في بناء نفسية الإنسان المسلم، بها يتربى خوف الله ومراقبته مما يكف المسلم عن ارتكاب الفواحش. ويبدو جلياً هنا أهمية الدار الآخرة في التهذيب والتربية بما تتضمنه من ترغيب وترهيب وهو ما جعل بورغاد يتهجم عليها. ذلك أن المسلم عندما يعلم أنه إن ارتكب جريمة عوقب بالنار ارتدع وطابت نفسه وتهذبت أخلاقه.

(1) وهنا ما حث عليه الذين بحثوا هذه القضية براهمة، وأرادوا تخليص مجتمعاتهم مما حل بها من وبلاط وفي مقدمتهم هتلر الذي يقول: "إن القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة-البغاء- يتطلب خطوات عملية وجرئة، فالزواج المبكر في مقدمة الأسباب التي تحد من انتشار البغاء، فالزواج يهدف إلى غاية سامية: هي حفظ النوع والخس، ومن حسنات الزواج المبكر أنه يعطي للأمة أولاداً أقوياء البنية" (هتلر، كعاشي، ص88، 89).

(2) أبو الأعلى المودودي، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، تعريب خليل أحمد الخامدي، ط4، دار القلم، الكويت، 1980، ص216، 217، 220.

(3) المرجع نفسه، ص105.

(4) وفي هذه الحالة فإن مظهر رحمة الله بالمرم يتمثل في قاعدة "درء الحدود بالشبهات" التي ضيقت دائرة تطبيق الحدود تضييقاً كبيراً جداً، بحيث جعلتها أمراً عسواً لا يلجأ إليها إلا إذا بلغ الإحرام حداً أصبح يهدد كيان المجتمع وأفراده. والشبهات منها ما يتعلق بدافع الجريمة، ومنها ما يتعلق بطرق إثباتها التي يجب أن تكون بينة محتمة، وقد قال صلى الله عليه وسلم "ادرجوا الحدود بالشبهات، فإن كان له مخرج فاعطوا سبيله، فإن الإمام إن عطى في العفر عوم من أن عطى في العفورة" رواه الترمذي في باب الحدود (محمد فضلي الزبدي، فلسفة العقوبة في الإسلام، ص270، 271، 276، 277).

2- العبادات: لقد هذب الإسلام النفس - إضافة للعقيدة - بالعبادات التي قررها من صلاة وصيام وزكاة وحج إلخ فكلها تنهي عن الفحشاء والمنكر، وهو ما جعل بورغاد أيضاً يتهمج عليها، فتجعل الإنسان يسمو بنفسه إلى عالم الملكوت ويرتفع فوق الأنانية والأعراق والألوان، وهكذا فبالعقيدة والعبادات يتطهر الإنسان من الداخل ويتخلص من معاصي القلوب ويكون في أعماقه عاطفة مراقبة الله عز وجل فيستربي الضمير الذي يعد الأساس الأول في منع الجريمة<sup>(1)</sup>، وهذا ما تقتضيه النصرانية.

3- تربية الفرد المسلم بمختلف القيم والفضائل النبيلة: وأساسها القرآن الكريم الذي يجعل الفرد يسمو بروحه فيرتبط بعالم الملكوت، فتصفو نفسه وترتفع عن عالم الغرائز والشهوات لتعيش في رحاب الله عز وجل. ولا أدل على هذا من المجتمع الذي أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة والذي يعد أحسن تجمع بشري في التاريخ الإنساني بكامله، ويكفي أن نعرف أنه خلال قرنين كاملين لم تقع سوى خمس حوادث سرقة، وهذا دليل قاطع على أن هذه المثالية في المجتمع ليست ناتجة عن العقوبة الصارمة بقدر ما هي ناتجة عن القيم التي بنى عليها المجمع، ومن أهمها قيمة الحياة التي هي جزء من الإيمان والتي تصبح علاجاً ناجحاً في صد الفرد عن الجريمة هذه القيمة<sup>(2)</sup> لا توجد في غير الإسلام.

ونتيجة كل ما سبق - العقيدة والعبادات والقيم - الربط بين الإيمان والسلوك مما يحصن الفرد من الانحراف<sup>(3)</sup>، ويؤدي إلى نوع جديد من الحصانة هو :

4- تكوين رأي عام فاضل لا يظهر فيه الشر؛ ويكون فيه الخير بينا واضحا، يقوم مجتمعه على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبر الإسلام البرئ مسؤولاً عن السقيم، إن رأى فيه إوجاجاً قومه وأوجب أن يكون من الأمة من ينصب لهذا « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »<sup>(4)</sup>. وهذا من أكبر عوامل منع الجريمة من الوقوع<sup>(5)</sup>.

5- النظام الاجتماعي الإسلامي: والمقصود به سيادة الدولة بكل مظاهرها، فتوفر العدالة والمساواة وتنفيذ أوامر الله وتعمل على اجتناب نواهيهِ. فينشأ مجتمع إسلامي يحقق ما يقرره الإسلام. وبعبارة أخرى، فإن الدولة الإسلامية تعمل بكل الوسائل الشرعية على منع الحرام وتيسير الحلال، فتقضي على كل أسباب الجريمة وتربي الأُنفس بما قرره الإسلام من وسائل التربية فينشأ الأفراد تنشئة سوية فيقتضي بذلك على كل أسباب الجريمة، سواء كانت نفسية أو اجتماعية. وهذا هو الذي يقلق النصارى؛ لأن حبالهم لا يسقط فيها إلا الشواذ الغير صالحين المنحطى الأخلاق الذين يبيعون دينهم ووطنهم بعرض من الدنيا، وعندما يوجد المجتمع الإسلامي فإن هذا النوع من الناس سيندر وقوعه بسبب قيم الإسلام.

<sup>(1)</sup> محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي، العقوبة، ص 25، 26.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 26، 27.

<sup>(3)</sup> محمد فتح الله الزبادي، المرجع السابق، ص 272.

<sup>(4)</sup> آل عمران/104.

<sup>(5)</sup> أبو زهرة، العقوبة، ص 26.

ونستطيع القول بعبارة أخرى إن الإسلام ينشئ مجتمعا أفرادَه قضاءً على أنفسهم<sup>(1)</sup>. وصل الأمر بمن يخطئ منهم أن يأتي بنفسه طائبا تنفيذ الحد عليه<sup>(2)</sup>. وهذا الميزات جوهرية لا توجد في غير الشريعة الإسلامية.

**الميزات الجوهرية في الشريعة الإسلامية : هي :**

- 1- الكمال : أي أنها استكملت كل ما تحتاجه الشريعة الكاملة من مبادئ وقواعد ونظريات، مما يجعلها قادرة على حل مشكلات الإنسان مهما كانت معقدة في الحاضر والمستقبل.
- 2- السمو : حيث أن قواعدها ومبادئها أسمى دائما من مستوى الجماعة.
- 3- الدوام : أي الثبات والاستقرار، لأن نصوصها لا تقبل التعديل والتبديل مهما طال الزمن وتظل مع ذلك حافظة لصلاحيتها في كل زمان ومكان<sup>(3)</sup>.

هذه الميزات ناشئة عن كون مصدرها هو الله عز وجل، ومن ثم تمتاز عن غيرها بميزة أكثر جوهرية، هي أنها بحكم هذا المصدر تحمل طابع القداسة في نفسية المسلمين وهذا هو السر الذي يجعلهم يلتزمون بها تلقائيا بسبب مراقبة الضمير الذي ينشئه تعظيم الله والخوف منه ورجاء النعيم في الجنة والخوف من النار، وهذا السر هو الذي جعل المجتمع الإسلامي لا يقع فيه خلال قرنين كاملين سوى خمس حوادث سرقة.

ولكنه لما كان يوجد بعض الأفراد الذين لا يرتدعون بما سبق، وكان المجتمع في حاجة إلى حماية ليحقق الرسالة الوجودية التي وجد من أجلها، فقد جعلت الشريعة الحدود والقصاص ذريعة لمنع الجريمة، فسهي ردع للجاني، وزجر لغيره ومنع لتكرار وقوع الجريمة، مما يجعل الغاية من العقاب أمران أساسيان حماية الفضيلة، وحماية المجتمع من أن تتحكم فيه الرذيلة<sup>(4)</sup>. وهو ما يتوافق مع طبيعة المجتمع الإسلامي المبني أساسا على القيم مما جعله، يذ جميع المجتمعات البشرية.

(1) وهذا ما جعل عمر بن الخطاب يطلب من أبي بكر عزله من منصب القضاء الذي ولاه إياه، وكانت حجة أخذ سنة ونصف من التعيين "ما أخاحة لأن يكون عمر قاضيا على هؤلاء، وكنهم قضاء على أنفسهم" ومن أراد التوسع في معرفة مثالية المجتمع الإسلامي فليرجع إلى كتب السيرة.

(2) ومن أحسن الأمثلة على هذا سيدنا ماعز الأسلمي، الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه تنفيذ حد الزنا عليه، وظل يكرر ذلك قائلا: "يا رسول الله إن زني فطهرني" والرسول صلى الله عليه وسلم يعرض عنه لعله يتراجع في إفراره فلا يجد، ولما تبين الرسول صلى الله عليه وسلم سلامة عقله وإصراره نفذ فيه الحكم وقال صلى الله عليه وسلم عنه لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم "ومثل ماعز المرأة الغامدية التي أتت النبي صلى الله عليه وسلم قائلة مثل ماعز، وكذلك أبو محسن الثقفي الذي سجنه سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم القادسية بسبب شربه الخمر لتنفيذ الحد عليه، فطلب من زوجة سعد أن تفك قيده ليشارك في المعركة وتعهدها بالعودة إن سلم فأطلقتته وأبلى بلاء حسنا ثم عاد إلى السجن، بإرادته الحرة ووضع القيد في رجليه بنفسه منتظرا تنفيذ الحد عليه (المردودي، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، ص 222-224).

(3) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى عبد القادر عودة، المرجع السابق، ج 1، ص 24 وما بعدها.

(4) محمد أبو زهرة، النظرية، ص 28.

وأما الأمر الثاني، فهو المنفعة العامة أو المصلحة، والفضيلة والمصلحة متلازمان " فالفضيلة ترتب عليها المصلحة الإنسانية العامة، وهي في ذاتها أعلى المصالح وأسماها، فلا مصلحة في الرذيلة. ولا فضيلة إلا ومعها مصلحة"<sup>(1)</sup>.

والمصالح التي جاءت الشريعة لحمايتها ومنع أي إعتداء عليها بتقرير العقاب الصارم لمن يمس بها<sup>(2)</sup>؛ الدين والنفس والعقل والنسل والمال. وهي المقاصد الضرورية<sup>(3)</sup>، أي التي تتوقف عليها حياة الناس الدينية والدنيوية بحيث لو فقدت إختلت الحياة في الدنيا<sup>(4)</sup>، واضطربت مصالح الناس وعمت فيهم الفوضى والمفاسد. ولاستحالة حياة الناس دون الحفاظ على هذه الأمور الخمسة، فقد شرع الإسلام لكل واحد منها أحكاما تكفل إيجاده وتكوينه، وأحكاما تكفل حفظه وصيانته، وبهذين النوعين من الأحكام حقق للناس ضرورياتهم<sup>(5)</sup>، وهذا يدعونا إلى الإشارة بإيجاز شديد إلى هذه المقاصد.

### مقاصد الشريعة الإسلامية الضرورية:

1- حماية الدين أو المحافظة عليه : وهو من باب تكريم الإنسان؛ لأنه خاصة به، ولذا فلا بد أن تتوفر له حرية الاعتقاد<sup>(6)</sup> « لا إكراه في الدين »<sup>(7)</sup>. وقد شرعت أصول العبادات من الإيمان والنطق بالشهادتين والصلاة والصيام والحج وما إلى ذلك لإقامة الدين<sup>(8)</sup>، وشرع الجهاد لحفظه وكفالة بقائه وحمايته من العدوان عليه وعقوبة الردة والإبتداع فيه<sup>(9)</sup>. وهذا ما جعل بورغاد يهاجم كل هذه الأركان بغية تحطيمه.

2- المحافظة على النفس : أي المحافظة على حق الحياة الكريمة، بالحفاظ على كل أجزاء الجسم وعلى الأمور المعنوية كالمحافظة على الكرامة وتوفير الحرية ومنع الإعتداء عليها وعلى أي أمر يتعلق بها كحرية العمل وحرية الفكر وحرية الإقامة وغير ذلك<sup>(10)</sup>. وشرعت لإقامة النفس والعقل العادات من تناول المأكول والمشرب والملبس والمسكن<sup>(11)</sup>، والسعي في طلب الرزق والمعاملات بين الناس، وشرع للحفاظ

(1) المرجع نفسه، ص 28، 29.

(2) المرجع نفسه، ص 34، 35.

(3) وهناك مقاصد أخرى أتت الشريعة لحمايتها تسمى المقاصد الحاجية، ومقاصد أخرى تسمى المقاصد التحسينية، وبكل هذا كانت الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، ومن أراد معرفة هذه المقاصد فليرجع إلى كتب أصول الفقه مثل : على حسب الله، أصول الشريعة الإسلامية، ط 6، دار المشرق العربي، القاهرة، 1982، ص 335، وما بعدها.

(4) على حسب الله المرجع نفسه، ص 334.

(5) عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، ط 8، دار القلم، د.م.ن، دت، ص 199، 200.

(6) أبو زهرة، الفقهية، ص 35.

(7) البقرة/ 256.

(8) على حسب الله المرجع السابق، ص 334.

(9) عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 201.

(10) أبو زهرة، الفقهية، ص 35.

(11) على حسب الله المرجع السابق، ص 334.

عليها ودرء الضرر عنها القصاص والديات وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة وإيجاب دفع الضرر عنها. وشرع لإيجاد النفس الزواج للتوالد والتناسل وبقاء النوع على أكمل وجوه البقاء<sup>(1)</sup>. وعلى ذكر إيجاد النفس فإن النصرانية شرعت للرهبنة بدل الزواج وذلك لوأدها.

3- المحافظة على العقل : أي المحافظة عليه من أن تناله أفة تجعل صاحبه عبئا على المجتمع ومصدر شر وأذى فيه، وشرع حد شرب الخمر وكل مسكر لدرء الضرر عنه، لأن في شربه إضعاف للعقل وإتلاف له<sup>(2)</sup>.

4- المحافظة على النسل (العرض) : وهي المحافظة على النوع الإنساني بحيث يكون كل مولود يستربي في أحضان أبويه ويكون له من يحميه، وهو ما اقتضى تنظيم الزواج واقتضى منع الاعتداء على الحياة الزوجية، ومنع العلاقات غير الشرعية أيا كان نوعها، وعلى أي صفة كانت، بل اقتضى منع قذف البرينات والبراءة بالزنا. كل هذا لإيجاد النسل الصالح مما يمنع فناء الجنس البشري ويجعله يعيش حياة هينة سهلة، ولا يتم هذا إلا بالعلاقة الشرعية وحدها، وإلا أصبح الإنسان حيوانا. ولحماية النسل (العرض) شرعت عقوبة حد الزنا وحد القذف وغيرهما<sup>(3)</sup>.

5- المحافظة على المال : وتكون بمنع الإعتداء عليه بالسرقة أو الغضب أو نحوهما، وبالعامل على تمتينه ووضعها في الأيدي التي تصونه وترعاه<sup>(4)</sup>. فشرع لتحصيله إيجاب السعي للرزق وإياحة المعاملات المختلفة، وشرع لحفظه وحمايته تحريم السرقة وحد السارق والسارقة، وتحريم الغش والربا<sup>(5)</sup> إلخ. وخلاصة ما سبق : "إن العقوبات شرعت لدرء الخلل الواقع أو المتوقع في جميع ما سبق، فشرع الجهاد وعقوبة الردة وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعته لدرء الضرر عن الدين، وشرع القصاص والديات لدرء الضرر عن النفس، وشرع حد الشرب لدرء الضرر عن العقل، وشرع حد الزنا لدفع الضرر عن النسل، وشرع تضمين قيم الأموال وقطع اليد لدرء الضرر عن المال وهكذا"<sup>(6)</sup>. وبهذا نجد أن عقوبات الحدود والقصاص قليلة جدا تتعلق بأهات الجرائم والانحرافات التي قد تشيع في المجتمع، وهي لا تخلو من أن تكون انتهاكا لكلي من حقوق الله عز وجل، أو لكلي من حقوق الإنسان، أو انتهاكا لقيم أخلاقية ذات خطورة اجتماعية وأثار هامة، وبتعبير آخر : هي الجرائم التي تعد انتهاكا مباشرا للضروريات المتعلقة بكليات المصالح الخمس التي قامت شرعة الإسلام لتحقيقها وحمايتها. فكان من مقتضى خطورتها هذه أن

(1) عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 201.

(2) أبو زهرة، العقوبة، ص 35، 36، أيضا على حسب الله المرجع السابق، ص 334.

(3) أبو زهرة، العقوبة، ص 36.

(4) المرجع نفسه، ص 36، 37.

(5) عبد الوهاب خلاف، المرجع السابق، ص 201.

(6) على حسب الله المرجع السابق، ص 334.

أناط الله بها عقوبات محددة بنصوص صريحة واضحة، وأن لا يدع أمر النظر فيها عائدا إلى إجتهاادات العلماء والحاكمين تحسبا للأخطاء الاجتهادية من جانب، وسدا لسبيل التهاون في أمرها من جانب آخر<sup>(1)</sup>. وهنا نسأل بورغاد: ماذا أعد الإنجيل لحماية الأمور الخمسة السابقة؟ ماذا أعد الإنجيل لمحاربة الزنا وتطهير المجتمع منه، هل أعد الرهينة؟ وماذا أعد لإراحة المجتمع من جرائم القتل والسرقة وغيرها؟ هل أعد حماية مقترفيها؟ وماذا أعد لحماية ضحاياهم؟ ومن الذي يحتاج الحماية، الضحية أم الجاني؟! يكفي الضحية أنه كان ضحية، لو كان بورغاد تزيبها لفكر في التطهير لحماية هذه المقاصد ليجد ما يقارن به مع الشريعة الإسلامية على الأقل؛ لأن الإنجيل لا يحتوي على أي شيء لحمايتها.

ولو كان أكثر نزاهة لكفاه ما وجده من حماية الإسلام للإنسانية بقوانينه الصارمة ليعتق الإسلام، ذلك أن ما أعده الإسلام لحماية المقاصد السابقة إنما هو فريد من نوعه لم يتمكن العقل البشري من الاقتراب من الإتيان بمثله إلى الآن.

الواقع يقول " إن بين أيدينا اثنين، قاتلا ومقتولا... وهاتك عرض وأصحاب أعراض مهتوكة، ووراء ذلك جماعة يجب أن يسودها الأمن ولا تشيع فيها الفاحشة. فإذا أراد ذو عقل أن يخصص برحمته أحد الفريقين، أخص برحمته من اعتدى وجنى وأزعج الأمنين وهتك الأعراض وأشاع الرذيلة وفتح باب الفوضى على مصراعيه، أم يخصص برحمته من اعتدى عليه. والجماعة التي يجب أن يبذل خوفها أمنا وتسودها الفضيلة وتختفي فيها الرذيلة. إن قانون العقل يقول: إن الرحمة يجب أن تكون بمن وقعت عليهم الجريمة، وهم الأحاد والجماعة، والنكال الشديد بمن وقعت منه الجريمة، وإن النكال بهذا هو الرحمة بهؤلاء"<sup>(2)</sup>.

من كل ما سبق نكون حسب تصورنا قد فندنا ما زعمه بورغاد، وتوصل إلى أنه لا تناقض بين أسماء الله الحسنى التي من بينها الرحمن الرحيم وبين شريعة القصاص عكس ما يدعي، بل نستطيع القول بأنه لو لم تكن شريعة القصاص غير ماوردت في القرآن الكريم لكان ذلك تناقضا بينها وبين أسماء الله الحسنى التي من بينها<sup>(3)</sup> الرحمن الرحيم، إذ لا قيمة لنظام تشريعي يرحم المجرمين ويسهل لهم وسائل الإجرام بدل أن يقضي على أسباب الجريمة، ويقسو بشدة على الأبرياء. ومن هنا فإن عقاب المجرم بصرامة يعد رحمة بالضحية وبالمجتمع وبالمجرم نفسه؛ لأنه ينقذه من عذاب الله عز وجل يوم القيامة، فيكون بذلك كالمرريض الذي يجبر على تجرع الدواء المر لاستئصال المرض الخطير الذي لولا ذلك الدواء لأودى بحياته، وإذا كان من أسماء الله الحسنى الرحمن الرحيم فإنه من أسمائه الحسنى العدل.

(1) محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام، ص 108.

(2) محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 74، 75.

(3) بورغاد يهتم أيضا مفهوم الله في الإسلام بالقسوة، لأنه يرمى الكفار في النار يوم القيامة، ولكنه في الوقت ذاته يعطي هذه القسوة للمجتمع ورجال الكفر، في طلبة الحرمات وغيرها، فالجميع محرم وتقرر العقوبة مثلا حرقا بالنار حيا والقتل بجرم والبابا محرم، وهم أنفسهم المنظرون أي ينفذ الحكم بالطريقة ذاتها التي يدالب الله بها الكفار يوم القيامة: الحرق بالنار. وهماكم الفعش خير شاهد كما سميت، والحرمات معناه طرد الإنسان من الناحية عالميا ورميه في المحيط مهما تاب، وعصيب أمر التصاري محجرون على الله معاقبة العصاة ويعطون لأنفسهم حق معاقبة من يخالف هواهم أو كبتهم أو رفض إعطاء ماله لأحد لسببهم: حرقا بالنار حيا في الدنيا، ولقد بلغت قسوة الكنيسة أنها قررت أن لا يدخل الجنة إلى من اشترى صلح غفران، فكلما بلغ من التقوى ظل يدخل الجنة بل النار هي مصيره المحتوم.

وبهذا نتوصل إلى أن شريعة القرآن إنما تقوم إلى جانب الرحمة والأخوة والمحبة، على العدل -  
والمساواة بين الناس في القضاء حكما ومحكومين- ومن ثم يفترق أساس حضارة الإسلام عن كثير من  
سائر الحضارات<sup>(1)</sup>.

كما نتوصل إلى أن موقف بورغاد من هذه الشريعة السمة إنما هو ناتج عن نظرتة إليها بعقلية ونفسية  
مجرم محترف لا يريد أن يردع عن إجرامه، أو يوضع حد لسطوته أو يصد شيء عن الإجرام. لا يفكر  
بنفسية إنسان صالح يخدم نفسه وغيره والبشرية جمعاء التي يزعم أن يسوع جاء ليخلصها من الشر  
والآثام. وإلا لماذا لم يدافع عن الصالحين الذين يخدمون المجتمع والإنسانية فيفكر في حمايتهم والدفاع  
عنهم لماذا لا يفكر في العمل على القضاء على الجريمة نهائيا من المجتمع لتحقيق سعادة الإنسان وأمنه؟  
ليس هناك تناقض أكبر من هذا وهو أنه من جهة رجل دين مبشر يزعم أنه يدعو إلى ما يحقق سعادة  
الإنسان، ومن جهة أخرى يصب جام غضبه على الشريعة التي أتت بقوانين دقيقة لتوفير الإطمئنان  
والسعادة لهذا الإنسان؟ كيف يعقل أن رجل دين بدل أن يحارب الجريمة ينصب نفسه مدافعا عن  
المجرمين ويختلق لهم المبررات وهم الذين يقضون على سعادة الأبرياء بجعلهم في رعب دائم. ونشأ عن  
هل يعث يسوع لتشجيع الإجرام و المجرمين أم الإراحة المجتمع منهم؟!.

إن دفاعه عن المجرمين له سببان في نظرنا:

أحدهما استغلال عطفهم لجرهم إلى ديانتة وذلك لإثراكه استحالة استمالة الأسوياء من المسلمين، فهم  
بحكم طابعهم الإجرامي يمكن أن ينقادوا له فيسخرهم لخدمته وتوجيههم إلى إفساد المجتمع بالزنا والقتل  
وما إلى ذلك. وهنا يظهر التكامل والتسويق بين ما فعلته بلده من استخدام البغايا للجزائر في جيش الحملة،  
وبين دعوة بورغاد إلى الزنا وتشجيع الإجرام ليكثر من العملاء و "الحركة" لخدمة بلاده ضد بلادهم.

وثانيهما وهو متكامل مع السبب الأول: تقرير شريعة جديدة تقوم على أساس القوي يأكل الضعيف وجعل  
البلدان الإسلامية تعيش في فوضى عارمة مما يلهيها عن محاربة الإستعمار الجاثم فوق أرضها، وهو  
بذلك ينظر للاستعمار ويرر جرائمه مما يهئ نفوس الناس لتقبله، ويجعل المجتمعات الإسلامية وهي التي  
ألفت العدل تنتقل إلى قوانين الفوضى والتشهي والأهواء والانغماس في معاصي القلوب والجوارح، فتتورب  
شخصيتهم ليصطادهم أهل ملته، ولا أدل على هذا من أن النسق البورغادي كان متكاملا، فهو يجعل هدفه  
الأساسي تحطيم القرآن ولكنه يهاجم الشريعة بما فيها من حدود وقصاص، كما يهاجم العبادات بما فيها من  
صيام وحج كما يدعو إلى الخمر والزنا وأكل لحم الخنزير كل هذا ببساطة لا مثيل لها.

والواقع أنه إضافة لما سبق من الأسباب، فإن هناك عامل آخر لا يقل أهمية عما سبق وهو " أن أهل  
الكتاب فقدوا الارتباط بالوحي الإلهي، فلم يعد أي مكان عندهم للوصايا العشر والناموس الذي قرر عيسى  
أنه لم يهين لنقضه والذي أوجب القصاص والرجم وحارب الفساد والفوضى وبمثل أن يحيي هؤلاء -

(1) محمد حسين فوكل، حياة محمد، ص 231.



ومنهم بورغاد- أمر الله الذي أماتوه صاروا يطلبون من المسلمين مشاركتهم في الإثم، والتواطؤ معهم على إبعاد حكم الله لعباده<sup>(1)</sup>.

ولما كان الهدف واضحا فإن بورغاد لا يهيمه أصواب ما يدعو إليه أم خطأ، وهو ما يجعله يستخدم في نقده للإسلام التضليل فيكون بذلك الدافعان التضليلي والحقدي دافعان أساسيان في نقده للإسلام، وهو ما جعله ينتقد الإسلام في بعض القضايا التي يوجد لها شبيه أو مثيل في النصرانية، ومن ذلك النصائح المتعلقة بالحدود والقصاص في الأنجيل، فكيف يؤمن بورغاد بهما وينتقد الإسلام؟ وهما قول المسيح عليه السلام :

"سمعت أنه قيل للقديس لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم، وأما أنا فأقول لكم : إن من يغضب علي أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم، ومن قال لأخيه يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم".  
 " سمعت أنه قيل للقديس: لا تزن، أما أنا فأقول لكم، وإن من ينظر إلى امرأة يشتهيها فقد زنا بها في قلبه، فإن كانت عينك اليسرى تعثر فاقطعها وألقها عنك خير من أن يلقى جسدك كله في جهنم".  
 "فهل هذه النصوص تهانن الإجرام وتشيع بين الناس الفاحشة على النحو الذي تسيح فيه أوروبا"<sup>(2)</sup> والذي يدعو إليه بورغاد؟. « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »<sup>(3)</sup>.

وبهذا نتوصل إلى أن شريعة القصاص والحدود في الإسلام إنما هي عين الرحمة، وأن التناقض مع كون الله رحمن رحيم يكون لو لم تكن شريعة القصاص والحدود كما هي .

(1) محمد الغزالي، قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة والرافدة، ص 202.

(2) محمد الغزالي، ظلام من الغرب، ص 186.

(3) الكهف، الآية 5.

## الفصل الثاني

### الأناجيل

نبدأ الحديث عنها بالسؤال الآتي :

هل الله أنزل على المسيح عليه السلام إنجيلا واحدا أم أربعة؟ وما الحاجة لأربعة أناجيل؟ وهل الأناجيل المعتمدة عند النصارى هي كلام الله؟ وهل تتضمن العقيدة الإلهية؟ وما هو محتوى تلك العقيدة؟ وما مصدرها؟ هذا السؤال الكبير يكمن صياغته في إشكاليتين هما :

هل المسيح أتى بإنجيل أم بأناجيل؟ وهل الأناجيل المعتمدة تعبر عنه؟ وما هو مصدرها؟.

2- هل العقيدة النصرانية مصدرها المسيح أم ظهرت بعد غيابه؟ وإن فما هو مصدرها؟ وهل هي عقيدة صحيحة؟ وإذا لم تكن كذلك فما هو الحل؟.

ولنبداً بمناقشة الإشكالية الأولى في هذا الفصل، وأما الإشكالية الثانية فسنناقشها في الفصل الخاص بالعقيدة النصرانية.

### الأناجيل ومصدرها

الأناجيل كتبت بعد غياب المسيح عليه السلام بفترة معتبرة من الزمن، وبعد اختلاف بين تلاميذه<sup>(1)</sup>، والذين كتبوها لم يعيشوا مع المسيح أو يقابلوه<sup>(2)</sup>، وكتبت في أثناء الصراع الحاد الذي دام أكثر من قرن بين المسيحية البولسية والمسيحية اليهودية<sup>(3)</sup>، وزاد القضية تعقيدا إهمال اليهود للمسيح في كتبهم كأنه لم يكن، فلم يذكره أصلا<sup>(4)</sup>. وقصته في وثائق روما لا أثر لها، وأنكر وجوده نهائيا رجال من كبار الباحثين<sup>(5)</sup>. واعتبره بعض المفكرين الغربيين مجرد خيال لم يوجد أصلا في الواقع<sup>(6)</sup>.

<sup>(1)</sup> علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط8، دار المعارف، مصر، 1981، ج1، ص90.

<sup>(2)</sup> ولقد أخطأ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (479-548هـ) حين قال: "إن أربعة من الحواريين اجتمعوا وجمع كل واحد منهم جمعا سماه الإنجيل، وهم متى ولوقا ومرقس ويوحنا. وذلك لأن هؤلاء الأربعة يستحيل أن يكونوا حواريين كما سنبين (الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1975، ج1، ص221).

<sup>(3)</sup> موريس بيكاي، القرآن الكريم والثورة والإنجيل والعلم، دط، دار المعارف، مصر، 1982، ص64.

<sup>(4)</sup> اكتشفت وثائق البحر الميت عام 1947، بينت بوضوح مصادر المسيحية الأولى، وقد كتب النشار كتابا عنها بالإنجليزية.

<sup>(5)</sup> علي سامي النشار، المرجع السابق، ص90. أيضا: ول ديورانت، قصة الحضارة - تقصير والمسيح ترجمة محمد بدران، دط، دار الجليل بيروت، المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلم، تونس، 1988، م3، ج3 (11)، ص202، 204.

<sup>(6)</sup> هانس غموند الحقاد، المجموعة الكاملة، المقالات والمناهب، حياة المسيح، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1978، ج11، ص242.

إن الصعوبة الحقة تكمن في أن المسيح عليه السلام لم يَمُنَّ الإنجيل السندي نزل عليه أبداً حتى رفع إلى السماء فكتب بعض أتباعه ذكرياتهم عنه ككتب السيرة النبوية<sup>(1)</sup>، وسمى كل مؤلف هذه السيرة باسم الإنجيل، وهذه القضية في منتهى الخطورة، فهي تعني بكل وضوح أنه لا أثر للإنجيل الذي أتى به المسيح، كما أن عدد الأناجيل بلغ حداً من الكثرة تحير العقل، فيوجد أكثر من 70 إنجيلاً لا تعترف الكنيسة إلا بأربعة منها<sup>(2)</sup>، وهي إنجيل متى، ومرقس، ويوحنا، ونوقا. وهذا في حد ذاته ي طرح مشكلة الاختيار، إذ على أي أساس تم اختيار هذه الأربعة دون غيرها<sup>(3)</sup>، كما أن وجود أربعة هو في حد ذاته ي طرح مشكلة عويصة، لأنه من منا يستطيع أن يعتقد أن الله أراد أن يقص سيرة المسيح وأن يبلغه للبشر أربع مرات؟ ذلك أنه لا ينبغي أن تستنتج بأنه يجب معرفة كل ما يرويها كتاب الأناجيل الأربعة وأن الله اختارهم كتاباً ليُعرف الناس سيرة المسيح على نحو أفضل، وسبب ذلك أن مقارنة الأناجيل تبين أنه بالإمكان شطب عدد من نصوصها دون أن يؤثر ذلك على وضوح السيرة<sup>(4)</sup>، بل إن كون هذه الأناجيل أربعة عقد القضية أكثر وزاد حياة المسيح غموضاً بسبب غموض كثير من نصوص الأناجيل من جهة وتناقضها من جهة أخرى<sup>(5)</sup>، وهو ما جعل الأب روجي<sup>(6)</sup> (R.P.Roguet) يقر بأن كثيراً من قراء الأناجيل يحارون ويتحرجون عندما يتأملون بعض رواياتها أو يقارنون رواياتها لحدث واحد كرر فيها. ومن الأمثلة على هذا: قضية صعود المسيح عليه، فمتى ويوحنا أسقطاه ووقا حدده في إنجيله بيوم القيامة، ويعدّه بأربعين يوماً في أعمال الرسل التي تنسب إليه، أما مرقس فقد أشار إليه دون تحديد تاريخه. وذلك في خاتمة أثبت رجال الكهنوت الآن عدم صحتها.

(1) المقصود بالمشاهدة هنا: هر قصة كل منهما حياة نبي، وإلا فلا مقارنة البتة، لأن السيرة النبوية تستند على قاعدة صحيحة هي القراء للكرام والسيرة الصحيحة، إذ أساس ما ورد فيها ورد فيهما، وهما مصدران لا يتطرق إليهما الشك، بينما تفتقد الأناجيل إلى مثل هذا، كما أن السيرة النبوية معروفة السند ورواياتها غير متناقضة، وهذا ما تفتقده الأناجيل كذلك.

(2) محمد حميد الله، التاريخ انفقار للقرآن الكريم والصحف السماوية الأخرى، مجلة الأمة، قطر، رمضان 1402هـ، م2، ص2، ع21، ص43.

(3) وهنا ما جعل فولتر يؤكد أن القسيسين جمعوا مرة جميع الأناجيل للمؤلفين المختلفين على طاولة القرابين في كنيسة ثم حركوها، فما بقي على الطاولة اعتروه صحيحة، وما سقط اعتروه مزيفاً. (المرجع نفسه، ص43).

(4) باروخ اسينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقدم حسن حنفي، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص344.

(5) موريس بيكاي، المرجع السابق، ص64، 65.

(6) الأب روجي يمد من ألمع رجال الكهنوت الفرنسيين قدم الملاحظة السابقة في كتابه مقدمة إلى الإنجيل (Initiation à l'Évangile) وقد توصل إليها من خلال ترجمته الطويلة في رده على قراء الأناجيل الذين تمهروهم نصوصها، وكان أولئك القراء ينتصرون إلى مختلف الفئات الاحتمالية، وذلك في حريدة أسبوعية كاثوليكية، وقد خلق موريس بيكاي على هذا بأن قراءة النصوص الكاملة للأناجيل تلبس قراءها التمساري لشدة تناقضها، مما جعلهم لا يقدرون منها لأبناء مذهبهم إلا مقاطع مختارة تملق بالقدس أو الموعظة، بل حتى كتب التعليم الديني عندهم لا تحتوي إلا على مقاطع مختارة فقط إلى حد أن بيكاي أثناء دراسته النظرية بأحدى المناسبات الكاثوليكية لم تقع يده أبداً على العهد الجديد كاملاً، (موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص65).

عجز رجال الكهنوت عن حل هذه المعضلة وعلى رأسهم الأب روجي في كتابه السابق (مقدمة إلى الإنجيل طبعة 1973) هو ما جعل الأب كانينجيسر (R.P. Kannengiesser)<sup>(1)</sup>، يقر بأنه "لم يعد واجبا الأخذ بحرفية" الأحداث الواردة عن المسيح في الأناجيل، فهي "كتابات ظرفية" أو "خصامية" "يذكر" كتابها "أقوال جماعة كل منهم عن المسيح".

وأما ما يتعلق بـ"قيامه المسيح" وهو موضوع كتابه، فقد أقر باستحالة أن يكون أي واحد من كتاب الأناجيل شاهد عيان وهو ما ينطبق على كل حياة المسيح<sup>(2)</sup>.

هذه الملاحظة ذات أهمية قصوى، فهي تبين أن كتاب الأناجيل الأربعة لم يعيشوا مع المسيح أو يشاهدوه وبذلك فهم ليسوا من الحواريين، يضاف إليها ما ذكرناه قبلا من أنها كتبت أثناء الصراع بين الطوائف الذي استمر على أشده أكثر من قرن، بين المسيحية البولسية والمسيحية اليهودية، وهو ما اعترف به الكاردينال دانيلو (Danielou)<sup>(3)</sup>. وملخص كلامه أن مجموعة الحواريين كونت طائفة يهودية تحفظ تعاليم المسيح، ولما ظهر بولس رفضته وخونته واصطدمت به وعادته ونفس الموقف منه اتخذته أسرة المسيح بزعامه جاك (Jacques)، فرفضوا تنازلاته للوثنيين الذين تنصروا والتي تمت في مجمع القسوس عام 49 م، المتمثلة في إلغاء الطهارة<sup>(4)</sup>، واختان<sup>(5)</sup>، والأركان اليهودية الأخرى، وظلت المسيحية اليهودية هي المسيطرة حتى عام 70 م وكانت لهم أنجيل خاصة بهم. ولكن بولس انتصر بعد ذلك وكون المسيحية أو أنشأها على حساب هؤلاء الذين جمعهم المسيح من حوله لنشر تعاليمه.

ولقد انتصر بولس بعد وفاته، ومن عام 70 إلى 110 م نتجت الأناجيل الأربعة. ولكنها لم تكن الوثائق الأولى للمسيحية، لأن رسائل بولس سابقة عليها، حيث كتب رسالته مثلا إلى أهل تسالونيكي عام 50م<sup>(6)</sup>.

(1) هو أستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس، ذكر ما سبق في كتابه "الإيمان بالقيامة وبعث المسيح"، ونصه بالفرنسية:

Foi en la résurrection Ré surrection de la Foi. Beauchesne collection « le point Théologique » 1974.

من بيكاي، المرجع السابق، هامش ص 68.

(2) بيكاي، المرجع السابق، ص 68، والمرء يتساءل هنا: لماذا يؤمن بورغاد بصعود المسيح وينكر صعود محمد صلى الله عليه وسلم؟ فالقضية واحدة، هي، ورواية عائشة رضي الله عنها التي اعتمدها بورغاد هي أراء، بينما الإسراء والمعراج ورد بنص القرآن الكريم في سورين "الإسراء" و"النجم"، ولا يمكن نسخ حديث الأحاد لما في القرآن. كما أن الإسراء والمعراج حادثة تاريخية ولا نسخ أصلا في الأحداث التاريخية في القرآن، ولو لم تقع لما وقع التكذيب بها.

(3) وذلك في المقال الذي نشره بمجلة دراسات "Etudes" في ديسمبر 1967 (بيكاي)، المرجع السابق، ص 71.

(4) بيكاي، المرجع نفسه، ص 71.

(5) محمد رجب الشهيوي، الجامعات المسيحية وأثرها في النصرانية، دط، مطبعة التقدم، القاهرة، 1987، ص 98.

(6) يظن ول ديورانت في هذا التاريخ وكذلك في الرسائل التي تزخر بها 64م، فهو يرى أنها كتبت بعد 64م، وهذا يريد قضية الأناجيل تعقيدا، كما يظن في نسبتها إلى بولس، فجزى أن بعض رسائله لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة (ول ديورانت، قصة الحضارة قيسر والمسيح، م 3، ج 3، ص 206).

بينما ظهر إنجيل مرقس بعد وفاته<sup>(1)</sup>، وهذا يطرح مشكلة أخرى لا تقل تعقيدا وخطورة عن سابقتها، وهي : كيف تكون رسائل بولس سابقة على الأناجيل<sup>(2)</sup>.  
وهذا يدعونا إلى الحديث عن بولس ليظهر لنا بجلاء مصادر المسيحية.

## بولس

يزعم بورغاد وكثيرون غيره من رجال الكهنوت أن بولس كان أحد رسل المسيح أي من الحواريين، وهو ما جعل بورغاد يشيد به ويعتبره سيده، ويشيد بيونابرت بسبب مداومته قراءة رسائل بولس، ويعتبره لا ينطق عن الهوى<sup>(3)</sup>.

والواقع أن بولس رغم أنه لم يعرف المسيح في حياته<sup>(4)</sup>، إلا أنه يعد أكبر مؤثر في النصرانية بل أتى بمسيحية جديدة مبتدئا بنسخ شريعة الختان إلى أن وصل إلى تأليه الإنسان والقول بتعدد الآلهة<sup>(5)</sup>. ومع كل هذا فإن شخصيته غامضة. فقد ورد في سفر أعمال الرسل قوله : "أنا رجل يهودي ولدت في طرطوس كيليكية ولكن ربيت في هذه المدينة"<sup>(6)</sup> (أورشليم) وأن اسمه الأصلي شاول. وجاء فيه أيضا أنه قريسي<sup>(7)</sup> لا صدوقي<sup>(8)</sup>، أي يؤمن بقيامة الأموات<sup>(9)</sup>. ولكن جاء أيضا في سفر أعمال الرسل أيضا أنه

(1) ييكاي، المرجع السابق، ص 71.

(2) وتضع لنا خطورة هذا مثال من عندنا، وهو : لـ فرضنا أن الأحاديث النبوية كتبت أولا ثم ظهر القرآن الكريم بعد ذلك، فكيف يكون حاله؟ بل هي نفسها كيف يكون حالها؟.

(3) بورغاد، مسامرة قرطاجنة، ج 1، ص 114، 115.

(4) ييكاي، المرجع السابق، ص 37، أيضا عماد رجب شتيوي المرجع السابق، ص 100.

(5) عماد رجب شتيوي، المرجع السابق، ص 38.

(6) أعمال الرسل، إصحاح 22، فقرة 3.

(7) فريسي نسبة إلى طائفة الفريسيين، واسمها عبراني يعني "الفرز" وهي منافضة لطائفة الصدوقيين وأقوى منها عددا وانتشارا وسمعة وفوة المبادئ.

ويعتازون بثورهم على السلطان الرسمي ويتكروا استبداد الكهان بالشعائر والمراسم، يرفضون عادات الأجانب-الرومان- والمنشبهين بهم محاكاة للحكام والمستلطين، كانوا منشبهين بالشريعة إلى حد الموت، رفضوا التضحية بالخنائير بسبب تحريم التوراة لها رغم النكال بهم، يؤمنون بالبعث عكس الصدوقيين، ويرجح المؤرخون أن معلمي السيد المسيح في صباه كانوا منهم. خصومهم الصدوقيون يطلقون عليهم لقب الفريسيين لمكنا واحتقارا بحجة أنهم فرزوا أنفسهم عن السلف واعتزلوا طريق الجماعة الأولى، أما هم فيقتصدون بإطلاق لقبهم على أساس خطاب الله لبي إسرائيل في الإصحاح 20 من سفر اللاويين "وقد ميزتكم عن الشعوب لتكونوا لي" كان بعضهم هدفا لحملة السيد المسيح تديدا بما يظهرونه من الثقة والكبرياء (العقاد، حياة المسيح، ص 244-246).

(8) صدوقي: هم أتباع "صدوق" وأسرته الذين كانوا يتولون الكهانة في عهد داود وسليمان عليهما السلام، وكانت طاقتهم مهمة بما كثر أصحابها، يحافظون أثرها، يؤمنون سلطان الهيكل والكهان، يأخذون بكتب موسى في التوراة دون غيرها، يأخذون بالحضارة اليونانية وعادات الميثسة في البيت الرومانية، وكان بعضهم يدين بمذهب أبيقور، وأدعوا الحكام اليونان والرومان ليحافظوا على امتيازاتهم، يتكروا بحيلة الأحرار، ناد حلتهم على السيد المسيح الكاهنان: "حنانيا" و"قيلما" (العقاد، حياة المسيح، ص 243).

(9) أعمال الرسل، إصحاح 23.

روماني، وذلك عندما أراد جلده " أيجوز لكم أن تجلدوا إنسانا رومانيا غير مقضى عليه". ولما علموا برومانيته " نتحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه و إحتشى الأمير لما علم أنه روماني لأنه قيده"<sup>(1)</sup>. هذان النصان المتعارضان ( اليهودية والرومانية) يؤديان إلى صعوبة كبيرة في فهم أصله، ولا يمكن تبرير ادعائه الرومانية للنجاة من العقاب، لأن ذلك يساوي تبرير ادعائه لليهودية؛ لأنه كان يخاطب جمعا يهودي عمل للقبض عليه. ويؤيد هذا أن سبب ادعائه الفريسية هو إيقاع الخلاف بين الصدوقيين والفريسيين، وقد تم له ما أراد، فاختلفوا وجرى بينهم نزاع شديد<sup>(2)</sup>. وهذا يعني ببساطة أنه كذاب، فهل الرسل يكذبون؟!.

وهكذا فإن بولس مجهول الجنس في نظرنا رغم زعم فرويد<sup>(3)</sup> بأنه يهودي<sup>(4)</sup>. ولكن ميزته الجوهرية أنه اشتغل بقمع الحواريين والنصارى في عصره، وهو ما سجله سفر أعمال الرسل" وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالا ونساء ويسلمهم إلى السجن"<sup>(5)</sup>. وأقد أئخنسهم قتلًا وسجنا وكلف من رئيس الكهنة بطلب منه أن يذهب إلى دمشق لاضطهاد نصاراهما وجلبهم إلى أورشليم لتعذيبهم " أما شاول فكان لم يزل ينفث تهددا وقتلا على تلاميذ الرب، فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا في الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موتقين إلى أورشليم"<sup>(6)</sup>. وهنا نتساءل: من الذي خول له كل هذه السلطة؟ والجواب التلقائي الطبيعي المنطقي الواقعي: أنهم الحكام الرومانيون الوثنيون. وقد اعترف هو بنفسه باضطهاده للنصارى قائلا: " واضطهدت هذا الطريق حتى الموت مقيدا ومسلما إلى السجن رجالا ونساء، كما يشهد لي أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين إذا أخذت منهم رسائل للاخوة إلى دمشق، ذهبت لأتي بالذين هناك إلى أورشليم مقيدين لكي يعاقبوا"<sup>(7)</sup>. وهكذا خول له الحكام الرومان الوثنيون كل هذه السلطة، وبتعبير اليوم نقول: فإن الإدارة الاستعمارية الرومانية هي التي خولت له كل تلك السلطة وهو ما يجعلنا نرجح رومانيته ولا سيما أنه كان يحمل لقب " مواطن روماني" وراثه عن أبيه، وأنه ولد في مدينة طرطوس اليونانية في سيليفيا<sup>(8)</sup>. وكان يتكلم اليونانية ويكتبها

(1) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 22، الفقرة الأخيرة.

(2) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 23، أيضا أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ط3، دار الفكر العربي، القاهرة، 1966، ص71، 72.

(3) هو سيجموند فرويد (1856-1939) طبيب نمساوي - من أصل يهودي - مؤسس علم التحليل النفسي، درس أهمية الدوافع والعواطف، اهتم كثيرا بالاشعور والعوامل الجنسية من مؤلفاته "موسى والتوحيد"، "ثلاث أممات في الجنس" (المجلد، ص413).

(4) فهو يهودي في نظره يسمى شاول الطرطوسي تسمى بولس عندما صار مواطنا رومانيا (سيجموند فرويد، التي موسى ورسالة التوحيد، ترجمة ودراسة عبد المنعم الحفني، ط1، دار الرشد، القاهرة، 1991، ص155).

(5) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 8.

(6) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 9، فقرة 1.

(7) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 22.

(8) طرطوس كانت مدينة نشطة تقع على حماية حدود إقليم سيليفيا وتحتل موقعا استراتيجيا هاما، فهي حلقة الاتصال بين الشام وآسيا الصغرى وأوروبا (محمد الطراري، الختان في اليهودية والمسيحية والإسلام، ط1، دار المنان للطباعة والنشر، القاهرة، 1987، هامش ص74).

منذ نشأته الأولى، وكان معدا إعدادا خاصا لإدراك وتفهم التطلعات الدينية لليهود وتلامذتهم من الطوائف الدينية المختلفة<sup>(1)</sup>، وهو ما جعل السلطات الرومانية تكلفه باضطهادهم.

التحول المفاجئ المزعوم

لما كان بولس لم يعرف المسيح في حياته، ولما كانت سمعته سيئة جدا إلى حد " ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ"<sup>(2)</sup>، برر لشرعية رسالته بأن أكد أن المسيح ظهر له بعد قيامته على طريق دمشق<sup>(3)</sup>. وقد بين هذا بدقة سفر أعمال الرسل الذي كتبه لوقا: " في ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغته أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا: " شاول، شاول: لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت يا سيد؟ فقال الرب أنا يسوع ... وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين: يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدا"<sup>(4)</sup>.

لكن العجيب العجيب أن هذا السفر يعود ليروي هذه الحادثة مرة أخرى على لسان شاول نفسه فيقول: " حدث لي وأنا ذاهب ومقترب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار بغته أبرق حولي من السماء نور عظيم فسقطت على الأرض وسمعت صوتا قائلا لي: " شاول، شاول: لماذا تضطهدني؟ فأجبت: من أنت يا سيد؟ فقال لي: أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده، والذين كانوا معي: نظروا النور وارتقبوا، ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني"<sup>(5)</sup>.

"إن تناقض الشهادتين واضح، ذلك أن المسافرين مع شاول:

في الشهادة الأولى، سمعوا - ولم ينظروا.

وفي الشهادة الثانية، نظروا - ولم يسمعوا.

إن تقديم شهادتين مثل هاتين أمام محكمة ابتدائية في أي قضية مهما كانت بسيطة لكفيل برفضهما معا، فملا بالنا إذا كانت القضية تتعلق بعقيدة يتوقف عليها المصير الأبدي للملايين من البشر"<sup>(6)</sup>.  
إن ما سبق يجعلنا لا نستغرب ما عمله بولس بعد ذلك، فهو ما أن أعلن تحوله السابق إلى النصرانية حتى أخذ يوجج نار الصراع بين الحواريين، ومع أن برنابا هو الذي أحضره إلى الرسل<sup>(7)</sup>، -حسب زعم لوقا- فقد تشاجر معه بمجرد أن توطد مركزه في مجتمع التلاميذ، وهو الرجل الصالح - برنابا - الممثلة من

(1) المرجع نفسه، ص 74.

(2) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 9، فقرات 26، 27.

(3) لواء أحمد عبد الروهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة في المسيحية، ط 1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1987، ص 92.

(4) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 9، فقرة 3-7.

(5) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 22، فقرة 6-9.

(6) لواء أحمد عبد الروهاب، المرجع السابق، ص 103، ولقد علق لواء أحمد عبد الروهاب بعد هذا قائلا: "... إذن لقد كان بولس ضد المسيح"، ونحن نعلق قائلا: إن هذا ما حدده علماء الإسلام من ضوابط للسند والمن إخ، إننا نستطيع أن نقول بكل فخر " إن الأحاديث الموضوعة عندنا أصح من ما يسموه النصارى اليوم "الكتاب المقدس".

(7) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 9، فقرة 26، 27.

الروح القدس والإيمان<sup>(1)</sup>، "فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر"<sup>(2)</sup>. هذا هو السبب الذي جعل اسم برنابا يختفي من سفر أعمال الرسل، وكذا جهوده في الدعوة. والشيء ذاته وقع مع بطرس الذي عينه المسيح راعيا لتلاميذه - حسب زعم النصارى- فانقطع ذكره منذ الإصحاح 12 من سفر أعمال الرسل حيث تشاجر معه بولس كذلك<sup>(3)</sup>. وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى أقوال بولس وأعماله ليتبين لنا من خلالها بجلاء أنه لم يوح إليه، وأن ما ظهر له في طريق دمشق كذب وبهتان<sup>(4)</sup>، وأنه لم يتحول إلى النصرانية الحقة، بل جعلها وسيلة لأغراضه وأن النصرانية الحالية إنما هي نصرانيته في جوهرها.

### أقوال بولس وأعماله :

أقوال بولس : أسلوب رسائل بولس وكذا الأناجيل، تبين بجلاء أن كتبها لم يكتبوها بتفويض من الله أو إلهام منه، بل هي تعبير عن وجهات نظرهم وأهدافهم، ويظهر فيها تفكيرهم الشخصي وقصورهم بوضوح، وهو ما يختلف عن أسلوب الأنبياء - أو أسلوب القرآن الكريم- فبولس مثلا نجد في فقرات كثيرة من كلامه طرقا في الكلام تتم عن نفس مزعومة مضطربة، تبين بجلاء أنه يتحدث وقفا لتفكيره الخاص، ومن ذلك قوله<sup>(5)</sup>: "لأننا نحسب ... وإنتي أحسب"<sup>(6)</sup>. وكذلك قوله: "وأنا إنما أقول الحق ذلك على سبيل الإباحة لا على سبيل الأمر... فليس فيها عندي وصية من الرب لكني أفيدكم"<sup>(7)</sup>. وكذلك طريقة حديثه وأسلوبه في المناقشة - وكذا الحواريون الآخرون- تدل بوضوح تام على أن تلك الكتابات لم تصدر عن وحي وتنفويض إلهي، بل هي مجرد أحكام شخصية وطبيعية لمؤلفيها. كما هو واضح في ذلك الاعتذار الذي يقدمه بولس: "لقد اجترأت قليلا فيما قلت لكم"<sup>(8)</sup>. وهذا مناقض تماما للطريقة التي يعبر بها النبي عن سلطته<sup>(9)</sup>. كما أنه يستخدم مصطلح "وأظن"<sup>(10)</sup>. وكذلك مصطلح "سيأتي إذا تيسر له الوقت"<sup>(11)</sup>. هذه المصطلحات ولا سيما مصطلح اجترأت يستحيل أن تكون صادرة عن نبي فضلا عن أن تكون صادرة عن الله عز وجل .

(1) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 11، فقرة 24.

(2) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 15، فقرة 39.

(3) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 91.

(4) وهذا إضافة إلى الطعن السابق في شهادته كما ذكرنا.

(5) باروخ أسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 328.

(6) بولس، رسالة إلى أهل رومية، إصحاح 3، فقرة 28 وإصحاح 8، فقرة 18.

(7) بولس، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة، إصحاح 2، فقرة 7، 6، وإصحاح 7، فقرة 25.

(8) بولس، رسالة إلى أهل رومية، إصحاح 15، فقرة 15.

(9) أسبينوزا، المرجع السابق، ص 330.

(10) بولس، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة، إصحاح 7، فقرة 40.

(11) للهدر نفسه، الإصحاح الأخير، فقرة 12.



## مخالفة بولس لتعاليم المسيح:

تعاليم بولس تخالف وتتناقض تعاليم المسيح التي وردت في الأناجيل ورسائل الرسل في نقاط هامة وأساسية، نشير منها إلى :

موقفه من الناموس، وتعاليمه في نوال البر والمغفرة وإنعائه الختان والطهارة والمحرم وإباحة شرب الخمر، وتحليله أكل ذبيحة الصنم والدم والمخنوق.

**أ- بولس والناموس:** قال المسيح في بدء دعوته: " لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل"<sup>(1)</sup>. وفي ختام دعوته " خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلاً: على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه..."<sup>(2)</sup>.

لكن بولس نقض هذا وعلم الناس ببجاجة إبطال الناموس<sup>(3)</sup>: "بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما ... جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة..."<sup>(4)</sup>.

**ب- نوال البر بين الإيمان والعمل:** دعا المسيح إلى العمل وبين أن الإيمان وحده لا يكفي<sup>(5)</sup>، وهو ما تنبأه يعقوب في رسالته<sup>(6)</sup>.

أما بولس فقد أسقط العمل نهائياً وجعل نوال البر والخلاص رهنا على الإيمان وحده<sup>(7)</sup>. " نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح، أمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح لننتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس"<sup>(8)</sup>.

**ج- إلغاء الختان والطهارة والمحرم وإباحة شرب الخمر:** إذا كان مجمع أورشليم المنعقد عام 50-51 م قد أحل النصارى من الختان، فإن بولس هو الذي دعا إلى ذلك قبل هذا المجمع إرضاء للوثنيين الذين تنصروا انتصاراً لهم على النصارى اليهود، ورغم هذا فإن بولس ما أن انتهى المجمع حتى أخذ التلميذ تيموثاوس وختته بنفسه لينطلق معه<sup>(9)</sup>. وقد برر بولس عمله هذا - بكل وقاحة- أنه يتلون في الدعوة أطمع المدعويين ليحقق أهدافه الشخصية قائلاً: " استعبدت نفسي للجميع لأربح كثيرين فصرت لليهود كي-يهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا نساموس

(1) إنجيل متى، إصحاح 5، فقرة 17-19.

(2) إنجيل متى، إصحاح 23، فقرة 1-3.

(3) لواء أحمد عبد الرهاب، المرجع السابق، ص 93.

(4) رسالة بولس إلى أهل غلاطية، إصحاح 2 فقرة 16، وإصحاح 3، فقرة 10، وإصحاح 5، فقرة 4.

(5) إنجيل لوقا، إصحاح 6، فقرة 47-49.

(6) رسالة يعقوب، إصحاح 2، فقرة 14-24، وإصحاح 1، فقرة 27.

(7) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 94.

(8) بولس الرسالة إلى أهل غلاطية، إصحاح 2، فقرة 16، أيضاً رومية، 22/3، 28.

(9) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 16، فقرة 3.

كأني بلا ناموس... لأربح الذين بلا ناموس»<sup>(1)</sup>. ونحن نتساءل هنا: هل هذا يصح أن يكون رسولا يتصرف ويتكلم وفقا للنوحي الإلهي؟ إن هذا لشيء عجاب. المهم عنده أن يحقق أهدافه لا أن يلتزم بالدين، إنه لا يهيمه شيء حتى المسيح ذاته. وهذا يتناقض مع طبيعة الرسول الذي بعث ليعمل على رفع المجتمع من الرذيلة إلى الفضيلة لا أن يتظاهر بالفضيلة مع أهلها، ويتغمس في الرذيلة مع أهلها ليربحهم. فهذا عمل السياسي للأخلاقي لا عمل الرسول الذي يبعث لبناء القيم وتصحيح العقائد والمفاهيم والسلوك مما يدعونا إلى التساؤل أي أخلاق وأي مبادئ تأتي بعد ذلك من بولس؟! إن انحطاط أخلاقه هو الذي جعله يخالف شريعة المسيح برمتها، ومن ضمنها الختان، ذلك أن المسيح عليه السلام ختن كما ورد في إنجيل لوقا<sup>(2)</sup>. ولكن بولس ألغاه ليوافق البيئة الوثنية زاعما " أن الختان هو ختان القلب وليس الختان ما كان ظاهرا في اللحم"<sup>(3)</sup>. وهو ما يتناقض تماما مع ما ورد في التوراة التي يقرأها النصارى إلى اليوم من أن الختان الذي ما كان ظاهرا في اللحم سيظل شريعة إلى الأبد "وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي، أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك:

يختن منكم كل ذكر فتختنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم... فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا. وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي"<sup>(4)</sup>.

وبهذا يظهر لنا أن بولس بحكم نشأته وثقافته ومولده كان مهيبا لأن يلعب هذا الدور، فقد كان والده مواطنا رومانيا ورث عنه بولس هذا الحق الثمين فكان يعيش بين اليهود بهذا الامتياز<sup>(5)</sup>. وإذا كان قد ألغى الختان فإنه ألغى كذلك الطهارة وألغى النجاسة والمحرم وأباح شرب الخمر وأمر بها<sup>(6)</sup>.

**د- تحليله أكل ذبيحة الصنم والدم والمخنوق:** لقد نسخ الحواريون - حسب الباب الخامس عشر من أعمال الرسل - جميع الأحكام العملية المندرجة في التوراة إلا أربعة أحكام هي: "حرمة ذبيحة الصنم، وحرمة الدم، وحرمة المخنوق، وحرمة الزنا. وكتبوا بذلك كتابا إلى جميع الكنائس<sup>(7)</sup>، وبذلك نسخوا ما قرره المسيح. ثم نسخ بولس من هذه الأربعة أيضا الثلاثة الأولى بفتوى الإباحة العامة، أي أباح أكل ذبيحة الصنم وأباح الدم والمخنوق، وذلك في رسالته إلى أهل رومية، إصحاح 14 فقرة 14، ورسالته إلى

(1) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، إصحاح 9، فقرة 19-22.

(2) إنجيل لوقا، إصحاح 2، فقرة 21، ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى محمد رجب شتيوي، المرجع السابق، ص 98، وما بعدها.

(3) بولس، رسالة إلى أهل رومية، إصحاح 2، فقرة 25-29.

(4) سفر التكوين، إصحاح 17، فقرة 9-14.

(5) محمد رجب شتيوي، المرجع السابق، ص 102، 103.

(6) عهد الصنم الحظي، موسوعة للاسفة ومنصوغة اليهودية، دط، مكتبة مندوبولي، القاهرة، دت، ص 85.

(7) أعمال الرسل، إصحاح 15.

طيطوس، إصحاح 1، فقرة 15. وهكذا نسخ الحواريون أحكام التوراة، ونسخ مقدسهم بولس أحكام الحواريين<sup>(1)</sup>.

وبهذه المواقف المتعددة لبولس تمكن من عزل المسيح عن اليهود ليستطيع أن يجعل منه الإله الذي تجسد ثم صلب من أجل خلاص العالم لا من أجل خلاص اليهود. وبهذا استطاع أن يضمن لدعوته مجالاً يتحرك فيه في الإمبراطورية الرومانية بين الرومان والشعوب الخاضعة لهم<sup>(2)</sup>. وهذا كله يتناقض مع حقيقة الدين وطبيعته وحقيقة الرسول، ذلك أن الرسول يعمل بما ينزل عليه من وحي على تغيير الواقع الإنساني الفاسد إلى الصلاح والسمو النفسي والقيمي والاجتماعي، لا أن يسائر الانحراف.

ومع كل ما سبق، فإن أخطر ما أتى به بولس : القول بالخطيئة والصلب والوهية المسيح.

### الخطيئة والصلب والوهية المسيح :

أخطر ما قاله بولس ورسمه هو جعله كل الناس مشتركين في خطيئة آدم، وأنها سبب الموت الذي يحل بالإنسان " كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع ... قد ملك الموت من آدم إلى موسى وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم<sup>(3)</sup>. ولسنا ندري ما بال الحيوان والطيور والنبات يموت؟ هل أخطأ جده الأول<sup>(4)</sup>؟ ربما !! . وهكذا فالناس توارثوا خطيئة أبيهم آدم. والمشروع الذي اقترحه بولس للصفح عن تلك الخطيئة هي قتل المسيح - رغماً عنه - وسفك دمه على الصليب لكي تتم المصالحة بين الله والناس " ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه<sup>(5)</sup>. " يسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة<sup>(6)</sup>.

وانتهى المطاف ببولس أن جعل المسيح لعنة<sup>(7)</sup> " المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة من أجلنا، لأنه مكتوب: ملعون من علق على خشبة<sup>(8)</sup>، وما قصده هنا هو ما تقوله التوراة بلعن المصلوبين<sup>(9)</sup><sup>(10)</sup>.

(1) رحمة الله خليل الرحمن الهندي، إظهار الحق، ط1، مكتبة التضافة الدينية، القاهرة، 1986، ج1، ص18، 19.

(2) محمد رجب شتيوي، المرجع السابق، ص102، 103.

(3) بولس، الرسالة إلى رومية، إصحاح 5، فقرة 12-14.

(4) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص95.

(5) بولس، الرسالة إلى رومية، إصحاح 5، فقرة 10.

(6) بولس، الرسالة إلى رومية، إصحاح 3، فقرة 25.

(7) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص97.

(8) بولس الرسالة إلى أهل غلاطية 3 : 13.

(9) تثنية، 21 : 22، 23.

(10) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص97.

وهنا نتساءل باستغراب: " كيف يصبح الله لعنة؟ ومن الذي سلط عليه اللعنة؟ وهل هناك مساواة بين اللاعن والملعون؟ وهل يمكن عقلا ودينا أن يحل اللاعن في الملعون؟ إن هذا شيء عجاب. ولكي يقنع بولس الناس بهذه القضية قرر مسبقا أن لا يعلم عن المسيح وتعاليمه سوى ذلك: " إني لم أعزم أن أعرف شيئا بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصنوبا"<sup>(1)</sup>. والواقع أن بولس كان على علم بديانات وفلسفات زمانه، كالفلسفة اليونانية ولا سيما الرواقية التي عرفها في باكورة حياته في مسقط رأسه طرطوس التي كانت مركزا من مراكزها وأصبحت هذه التأثيرات في كثير من تعبيراته التي أصبحت مبادئ مسيحية<sup>(2)</sup>. حيث نقل كثيرا من تلك الديانات والفلسفات إلى النصرانية وأصبغها بها، ومن ذلك فكرة التضحية، أي أن موت عيسى كان تضحية مثل مئات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة في الحضارات القديمة من أجل خلاص البشرية. فنقلها إلى النصرانية كما نقل كثيرا غيرها مثل: تقديم النذور والشموع والهيكل والتماثيل والتراتيل. وبث بولس أن عيسى مثل أوزوريس كان ربا مات ليبعث حيا ويمنح الناس الخلود، وتوصل إلى القول بالوهية المسيح في عقول أولئك الذين لهم معرفة بالفلسفات والاتجاهات ما قبل المسيح<sup>(3)</sup>. وذلك بعد أن ابتدع القول بأن يسوع هو ابن الله<sup>(4)</sup>. وعندما نعلم ما كان مثلا يعتقد اليونان في الآلهة والرومان في الأوثان ندرك كيف وثن بولس النصرانية. ولقد بين ول ديورانت هذا بدقة قائلا: " ومن حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية الرواقية انتقلت من البيئة المدرسية في طرطوس إلى مسيحية بولس، فهو يستعمل اللفظ الرواقي نيوما (Neuma) أي النفس للدلالة على المعنى الذي يستعمل فيه مترجمون الإنجليز لفظ ( Spirit - الروح )، وكان في طرطوس كما كان في معظم المدن اليونانية أتباع للأفريقية وغيرها من العقائد الخفية يعتقدون أن الله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم، ثم قام من قبره، وأنه إذا دعى بإيمان حق وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم وأشركهم معه في موهبة الحياة الخالدة. وهذه الأديان الغامضة الخفية هي التي أعدت اليونان لاستقبال بولس وأعدت بولس لدعوة اليونان"<sup>(5)</sup>.

### كيفية وصول بولس إلى عقيدة الخطيئة والصلب

#### ( وجهة نظر التحليل النفسي )

قام فرويد باستخدام التحليل النفسي ليبين كيف توصل بولس إلى عقيدة الخطيئة والصلب والفداء، وقد انطلق في ذلك من فكرة "الطوطم" ليربطها بما توصل إليه التحليل النفسي من اكتشافات. فيرى أن البشر قبلا كانوا يعيشون في عشائر صغيرة يحكم كل واحدة بالقوة أكبر ذكورها سنا، مستحوذا على نساها مبيدا

(1) كورنثوس، 2: 2.

(2) عهد المنعم الحفني، موسوعة فلاسفة ومنصوفة اليهودية، ص 85.

(3) محمد رجب فتوي، المرجع السابق، ص 36، 37.

(4) لوقا، أعمال الرسل، إصحاح 9، من الحفني، المرجع نفسه، ص 85.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة - تيمر وفلسف، ج 3، ص 249، 250.

صغار ذكورها بما في ذلك أبناء، مما أنتج تمرد الأبناء على الأب وأكلوا جسمه ليتطوروا إلى عشيرة أخوية طوطمية تبذرت فيها سلطة الأب ليصبح التنظيم الأسري أمويا. غير أنه ظل لدى الأبناء إحساسان متناقضان تجاه الأب، ظلا يسيطران عليهم على مدى التطور اللاحق، وأعلن عن قيام طوطم مقدس من حيوان تحتفل العشيرة به كل عام فيقطع ويؤكل وذلك بدلا من الأب. وكان هذا تكرارا مقدسا لاغيثال الأب. ثم حدث تطور آخر هو " عودة بطينة للمكبوت"<sup>(1)</sup>. ومرت العودة بالمراحل الآتية:

صار الأب من جديد زعيم الأسرة، ولكنه بدون السلطة السابقة في العشيرة البدائية، وطرد الإله الحيوان الطوطمي ليحل محله، ولكنه في شكل إنساني تطور أيضا من حمله رأس حيوان إلى نفس الحيوان ليصير الحيوان مقدسا ورفيقا له إلى تقديس الآلهة إلى كبير الآلهة ثم إلى عبادة الإله الواحد، وحينئذ فقط أعيد مجد الأب البدائي. ولما جاءت التوراة كرست هذا بفكرة الإله الواحد أي الإله الأب، وأعجب اليهود فيها بمكانتهم عنده. وكان اقتناع الابن العاجز المرعوب من سلطة الأب التي لا راد لها في القبيلة والخضوع لإرادته كاملا... وهكذا تحدد اتجاه هذه الديانة الأبوية إلى الأبد، ولكن تطورها لم يتوقف، فتكافؤ الضدين ينتمي إلى جوهر علاقة الأب بالابن، فكان يحدث أن تثار عبر الزمن العداوة التي دفعت الأبناء إلى ذبح أبيهم الذي يكون له في أنفسهم الإعجاب به والخشية منه.

وفي ديانة موسى نفسها لا يوجد فيها أي مجال للتعبير المباشر عن الكراهية القاتلة للأب، فإدى ذلك إلى رد فعل قوي لهذه الكراهية<sup>(2)</sup>: " الشعور بالذنب بسبب تلك الكراهية وتأييب الضمير لأن صاحبه قد أثم في حق الإله واستمر في إتيان الإثم، هذا الشعور بالذنب أبغاه الأنبياء حيا باستمرار فصار جزءا لا يتجزأ من النظام الديني نفسه"<sup>(3)</sup>.

كما أن الأوقات العصيبة التي مرت باليهود وفئة طاعتهم لله أدى إلى تلاشي اعتقادهم بأنهم شعب الله المختار، مما جعل رغبتهم في البقاء سعداء بسبب كثرة أخطائهم تقوم على الشعور بالذنب الذي يبرر قسوة الإله الذي الأفضل لهم أن يعاقبهم هو بسبب عصيانهم.

ولكن التطور اللاحق تجاوز اليهودية ليصبح الشعور بالذنب يتملك كل شعوب البحر الأبيض كشعور غامض، يقلقهم دون أن يعرفوا سببه.

وجاء تخفيف ذلك الضيف على يد عقلية يهودية هي شاول<sup>(4)</sup> الطرسوسي الذي تسمى بيولس عندما صار مواطنا رومانيا - رغم أن فكرة التخفيف هذه كانت مستوحاة من مصادر مختلفة<sup>(5)</sup> - حيث قال: " لأننا

(1) فرويد بصرح أنه لا يستخدم اصطلاح مكبوت عمناه التقني، ويقصد به هنا أنه شيء ماضٍ اختفى وأمكن التغلب عليه في حياة الشعب، وهو؟ بساوي المادة المكونة في الحياة العقلية للفرد (سيجموند فرويد، النبي موسى ورسالة التوحيد، ص 150).

(2) المرجع نفسه، ص 149-152.

(3) المرجع نفسه، ص 152.

(4) فمن رحمتنا رومانيتي ولكن فرويد يجعله يهوديا، وقد يكون مصيبا وقد يكون هادفا إلى تبيان سيطرة اليهود على النصرانية وشعوبها، ولكن الذي يهمنا هنا هو اعترافه بطابع هذه الديانة البشري لا الإلهي.

(5) وهنا تأكيد لما سبقه من أن مصادر النصرانية كثيرة، من ثقافات غنوصية وهندية وفلسفية إلخ.

قتلنا الله الأب فإننا في غاية التعاسة" ولكنه اعتبر ذلك تحقيقًا للسعادة حيث يقول: "لقد تخلصنا من كل ذنب منذ أن وهب واحد منا حياته ليكفر عن ذنوبنا". ورغم أن هذه الصيغة لم يرد فيها مقتل الإله إلا أن الجريمة التي يقتضي التكفير عنها بالموت الكفاري لا يمكن إلا أن تكون جريمة قتل.

"وعلاوة على ذلك، فإن الارتباط بين هذا التصور وبين الحقيقة التاريخية قد تم عقده بتأكيد أن الأضحية الكفارية هي ابن الإله... وحلت عقيدة تقوم على إخراج غامض نوعا ما للخطيئة الأصلية محل الجريمة التي ما كان أحد يجرؤ على ذكرها.

وصارت الخطيئة الأصلية والخلص بالموت الكفاري أساس الديانة الجديدة التي أرس بولس قواعدها<sup>(1)</sup>. "وهكذا فبعد أن فجر المذهب المسيحي أسوار اليهودية فإنه استدخل مكونات أخرى من مصادر أخرى كثيرة، ونبت الكثير من سمات التوحيد الخالص، واقتبس في تفاصيل كثيرة الطقوس الدينية لشعوب البحر الأبيض الأخرى... وإن الطريقة التي توصلت بها الديانة الجديدة إلى التوافق بين الصفتين المتعارضتين والمتكافئتين القديمتين اللتين تتصف بها علاقة الأب - الابن لجديرة بالملاحظة. وكان المبدأ الأساسي الذي تبشر به هذه الديانة هو التأكيد على مصالحة الإله الأب والتكفير عن الجريمة التي ارتكبت في حقه. ولكن الجانب الآخر من العلاقة أبان عن نفسه في الابن الذي حمل الذنب على كتفيه، فصار إلها هو نفسه إلى جانب الأب. وفي الحقيقة في مكان الأب، وتحولت المسيحية - وهي أصلا ديانة أب - إلى ديانة ابن، ولم يكن في وسعها أن تفلت من قدرها في الإحلال محل الأب"<sup>(2)</sup>.

وهكذا توصل بولس إلى فكرة الخلاص. ويبدو أن جوهر الخلاص هو ما أضافه بولس إلى مذهب النصرانية واستطاع من خلالها تجاوز الشعور بالذنب والتخلي عن فكرة شعب الله المختار، وعن الختان علامة أنه مختار، ليخرج النصرانية من اليهودية إلى العالمية<sup>(3)</sup> "دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة دخل الموت... وبواحد سيكون الخلاص هو يسوع. وإذا كان بزلة واحدة كان على جميع الناس القضاء، كذلك بئر واحد يكون لجميع الناس تبرير الحياة"<sup>(4)</sup>. "قال المسيح بذل نفسه لأجل خطايانا ومات عنا"<sup>(5)</sup> (6).

مما سبق نستطيع القول بأن بولس هو مؤسس النصرانية الحالية، فهو صاحب فكرة الخطيئة الأولى، وهو الذي أباح كل الطعوم وألغى الطهارة والختان وأباح الذبح للأصنام وأكل الدم، وهو الذي خالف تعاليم المسيح جهارا، وهو الذي كتب إنجيلا جديدا يخالف ما أتى به المسيح، وهو الذي جعل المسيح إلها ووضع بذرة الحديث عن لاهوت وناسوت، وما شاكل ذلك من أفكار هيلينسية زخرت بها أساطير الإغريق

(1) فرويد، المرجع السابق، ص 154.

(2) المرجع نفسه، ص 154.

(3) عبد المنعم الحفني، موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ص 88.

(4) بولس، الرسالة إلى أهل رومية، إصحاح 5.

(5) بولس، الرسالة إلى أهل غلاطية، إصحاح 1.

(6) عبد المنعم الحفني، المرجع نفسه، ص 87.

والديانات الشرقية - كما سنيين أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية- وذلك في رسائله التي كتبت وانتشرت قبل كتابة أقدم الأناجيل بأكثر من 20 عاماً<sup>(1)</sup>. وهذا شيء غريب وعجيب، إذ كيف يكتب الفرع قبل الأصل، وقول التابع قبل قول المتبوع؟! والسبب واضح، هو التحريف للأناجيل، ذلك أن نشر رسائله قبل الأناجيل يعني تهينة الأرضية وتهينة النفوس لقبول إنجيل محرف، وتم ذلك برسائله، وأكبر شاهد على هذا هو تأليهه للمسيح، فهو القائل: "المسيح... انكائن على الكل إليها مباركا إلى الأبد"<sup>(2)</sup>، "فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً"<sup>(3)</sup>. وهو الذي حول المسيحية من ديانة خاصة باليهود كما ذكرنا إلى ديانة عالمية<sup>(4)</sup>.

وفي ختام كلامنا عن بولس نقول: لقد صارت النصرانية الحاضرة مطبوعة بطابعه منسوبة إليه، وهنا يتساءل المرء: كيف ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين واضطهاد معتقيه إلى الرسائل في ذلك الدين الذي كفر به وناوأه وعاداه طغرة واحدة؟! إن هذا ليس له نظير ولا شبيه ولم يعهد ذلك في أبناء ورسول قط. وهاهي التوراة التي يؤمن بها النصارى فليأتوا بمثال واحد منها يثبت أن رسولا بعث من غير أن يكون في حياته الأولى استعداد لتلقي الوحي، وصفاء نفس يجعله أهلاً للإلهام ولا يجعل الاتهام والتكذيب يغلبان على رسالته، وأنه إذا لم يكن للرسالة إرهابات قبل تلقيها، لا يكون على الأقل قبلها ما يناقضها ويناقضها. ولكن بولس تمكن بدهائه أن يفرض على النصارى نسيان العقل عندما يدرسونه وأقواله وتعاليمه<sup>(5)</sup>.

ما سبق يجعلنا متأسفين للوصول إلى النتيجة الآتية:

بولس كان مكلفاً من قبل السلطة الاستعمارية الرومانية الحاكمة بالقضاء على النصرانية قتل واضطهد، وهدم الكنائس ونهب، وذلك لأن اليهود المعتنقين لها كانوا رافضين للاستعمار الروماني. ولما فشل في تحطيمها من الخارج بوسائل القمع والبطش غيروا الخطة، وأخذ يعمل على تحطيمها من الداخل لجعلها متوافقة مع وثية الرومان مما يمكن النظام السياسي الاستعماري من الاستقرار ومواصلة الاستعمار، فأدخل إليها وثنيات الرومان وشرائعهم المختلفة مثلاً في عبادة الإيقونات والأصنام وتأليه الإنسان ومنع الختان وأكل الميتة إلخ.

ولكي يخدم النظام السياسي أكثر حول النصرانية من ديانة خاصة باليهود إلى عالمية لتصبح الدولة هي التي تشرف عليها وتوجهها. ولا أدل على هذا ما ظهر من بعد في مجمع نيقية 325م بما سمي بالتقليد العلماني الذي يعني تحكم السياسي في الديني. وكانت الحيلة التي استخدمها زعمه بما وقع له في طريق دمشق المشهور.

(1) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 101.

(2) بولس، رسالة إلى أهل رومية، إصحاح 9، فقرة 5.

(3) بولس، كولوسي، 9/2.

(4) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 75.

(5) محمد الحواري، الختان في اليهودية والمسيحية والإسلام، ص 77.

وعمله هذا يقضي على اليهود كجماعة متماسكة لها ديانة وعبادة تخالف الديانة والعبادة الرسمية للدولة، وهذا هو أساس الصراع بينه وبين برنابا وبطرس وغيرهما من الحواريين أو التلاميذ، إذ يعد جزءاً من خطة تهديم النصرانية الحقبة لتوثيقها، وإلا كيف احتضنوه رغم شك بعضهم فيه وهو خدعهم، وفرقهم لينقلب عليهم وأزالهم في النهاية من طريقه، وقد تمكن من إثارة الخلاف والشقاق والجدل حول العقيدة النصرانية الأصلية، وحول الأناجيل.

### ظهور الأناجيل

بعد أن بينا دور بولس في تحريف النصرانية نسجل بكل ألم وحسرة أن الأناجيل لم تظهر إلا بعد ظهور مؤلفات بولس بفترة طويلة جداً، وقد بينت مقدمة الترجمة المسكونية للعهد الجديد المنشورة عام 1972<sup>(1)</sup> أنه لم يكن يوجد قبل عام 140 م بأي شكل، أي تقرير يمكن أن يتعرف المرء من خلاله على مجموعة من الكتابات الإنجيلية<sup>(2)</sup>. وأن الأناجيل الأربعة لم تكسب صفة الأدب الكنسي إلا في عام 170م. وكتابها لم يكونوا رسلاً، بل فقط من ذوي الخبرة<sup>(3)</sup>. أما تحرير الأناجيل فقد تم باستثناء إنجيل مرقس بعد سنة 70م<sup>(4)</sup>. ولم تدون أسفار العهدين القديم والجديد بتفويض خاص في عصر واحد، بل جاء تدوينها مصادفة، وقصد بها أناس معينون بحيث تلائم مقتضيات العصر والتكوين الشخصي لأولئك الناس، وقد اختيرت من بين أسفار أخرى كثيرة بواسطة بعض المجامع، واعتبرت الأسفار المرفوضة عديمة القيمة مع أن كثيراً من الناس كانوا يقدسونها<sup>(5)</sup>، ومع ذلك فإن الجدول التام للأناجيل لم يستقر إلا على نحو تدريجي<sup>(6)</sup> حيث ظل النصارى متقلبين من خلال مجامعهم؛ لأنه كانت تعتبر بعض المجامع بعض الأناجيل قانونية مقدسة، وتحكم على أناجيل أخرى بالزيف، ثم تعقد مجامع أخرى لتخلط الأوراق من جديد<sup>(7)</sup>. وظل الأمر كذلك ولم يحسم إلا خلال القرن 4م<sup>(8)</sup>، بل ظل عدم الاتفاق على بعض الأسفار موجوداً إلى الآن.

وهنا نتساءل: إذا لم يكن كتابة الأناجيل الأربعة من الحواريين فما هو أصلها. معلقوا الترجمة المسكونية يقولون بأن أصلها شينان:

(1) وهذه الترجمة مهمة جداً لأنها عمل جماعي اشترك فيه أكثر من 100 شخص من الكاثوليك والبروتستانت (بيكاي، القرآن الكريم والنوراة والإنجيل والعلم، ص 75).

(2) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب المقدسة، ترجمة مكتبة التربية العربي لدول الخليج، ط1، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، 1985م، ص 156.

(3) اسينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 343.

(4) بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 76.

(5) اسينوزا، المرجع السابق، ص 343، 344.

(6) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 80، 81.

(7) رحمة الله المفندي، إظهار الحق، ج 1، ص 57.

(8) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 80، 81.



التراث الشفهي الذي تشكل بتأثير تبشير الحواريين وغيرهم، حيث كانت الأناجيل كما بينه أو. كولمان (O.Culmann)<sup>(1)</sup> تقتصر في وجودها على روايات شفوية فقط. نقلت أقوالاً فقط وأغفلت القصص<sup>(2)</sup>.

بعض الكتابات التي وجدت عن أقوال المسيح وآلامه وبعض تحديدات الإيمان.

ومن هذين المصدرين كتب المبشرون نصوصاً "تتكيف مع مختلف الأوساط، وتستجيب لاحتياجات الكنائس وتعبير عن تأمل في الكتاب المقدس وتصحيح الأخطاء... بهذا الشكل جمع، ودون المبشرون كل بحسب وجهة نظره ما قد أعطتهم إياه الأقوال المتوارثة"<sup>(3)</sup>.

والواقع أن هذا الموقف من معلق الترجمة المسكونية الذين يزيد عددهم على 100 من كاثوليك وبروتستانت يتناقض مع ما ادعاه مجمع الفاتيكان الأول عام 1869 - 1870 الذي أعلن أن الكتب القانونية التي يشتمل عليها الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد كتبت بإلهام من الروح القدس مؤلفها الله، وأعطيت هكذا للكنيسة<sup>(4)</sup><sup>(5)</sup>. كما أنه يتناقض مع ما ادعاه مجمع الفاتيكان الثاني المنعقد في الفترة 1962 - 1965 م، من أن الأناجيل الأربعة كتبت بإلهام من الروح القدس، فهي "شهادة حقيقية عن حياة وتعاليم الكلمة المجسدة - أي منفذنا... فقد نقلوا إلينا... وتأثير من الوحي الإلهي للروح كتابات هي أساس الإيمان، ونعني الإنجيل المربع حسب متى ومرقس ولوقا ويحنا، إن كنيسة الأم المقدسة قالت وتقول بجزم وثبات دائمين: أن هذه الأناجيل الأربعة، التي تؤكد أصلها الرسولي دون أي تردد تتقل بشكل أمين فعلاً أقوال وأفعال المسيح طيلة حياته بين البشر لخلاصهم الأبدي وإلى أن رفع إلى السماء"<sup>(6)</sup><sup>(7)</sup>.

ولكن هذا الزعم يتناقض مثلاً مع ورد في إنجيل يوحنا من أنه سجل من ذلك بعضاً فقط "وآيات آخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح

(1) وذلك في كتابه العهد الجديد (Le Nouveau Testament).

(2) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 156.

(3) بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 77.

(4) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 61.

(5) من الملاحظ أن معتويات العهد القديم ليست واحد في التوراة العبرية أو في الترجمة السبعينية أو في الترجمة اللاتينية أو غيرها من ترجمات التوراة، وكذلك يختلف الإنجيليون عن الكاثوليك في هذه القضية، حيث أن بعض الأسفار المقدسة عند البعض تعد أبوكريفية عند الآخرين، والأبوكريفية عند البعض تعد مقدسة عند الآخرين (جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة لنيف من العلماء بإشراف لجنة منها إبراهيم بيومي مذكور، قسطنطين زريق، دط، دار المعارف مصر، 1971م، ج 5، هامش رقم 10، ص 67)، ولنا ندري من هي التوراة التي ألفها الله، ومن حماقة القول بأن الأبوكريفية والمقدسة كلاهما مقدس.

(6) محمد السعدي، حول موثوقية الأناجيل، ط 1، منشورات رسالة الجهاد، طرابلس، ليبيا، 1985م، ص 26، أيضاً بيكاي، القرآن و...، ص 78.

(7) سبين أن هذا الزعم باطل، ومع ذلك فإن قرار المجمع الفاتيكان هذا يعزى على جانب إيماني يتحمل في اعترافه بتحرير التوراة، حيث اعترف بأن الأسفار التي تكونها تحتوي على شواهد وشيئا من البطلان" (بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 78).

ابن الله<sup>(1)</sup>. ونسأل: لماذا لم تكتب؟ وأين هي؟ فإذن ضاعت، وإذن ضاع قسم كبير من الأناجيل باعتراف يوحنا نفسه.

وإضافة لما ذكره يوحنا فإن فكرة الوحي في النصرانية مستحيلة لأنه يقتضي وجود طرفين هما: الموحى والموحى إليه، الأول أعلى من الثاني. بينما نجد في النصرانية الموحى هو الموحى إليه، والموحى إليه هو الموحى؛ لأن الله حل في المسيح في تصورهم، فأصبح المسيح هو الله. وهذا يجعل عملية الوحي مستحيلة من جهة، وعديمة المعنى من جهة أخرى. إذ ما الفائدة منها! كما أن ما يقرره دستور الإيمان من مساواة الابن للأب يجعل عملية الوحي كذلك عديمة المعنى، بل مستحيلة؛ لانعدام الطرفين الأعلى والأدنى. كما أنها أي عملية الوحي يترتب عليها أن لا يكون الإله إلهًا؛ لأنه يقتضي الجهل قبل المعرفة ثم طرأت المعرفة المتمثلة في الوحي. ثم مادام المسيح هو الله والله هو المسيح ما هي الحاجة إلى الوحي؟ ومهما يكن من أمر فإن الأناجيل كتبت بعد الاستعمار الروماني لفلسطين وأثناء الصراع بين قطبي النصرانية آنذاك: قطب بيت المقدس بزعامة يعقوب أخي المسيح حسب زعمهم، وقطب بولس وأنصاره. ومركزه خارج بيت المقدس.

وكانت الرئاسة على العالم النصرانية من نصيب قطب بيت المقدس المحافظ على شعائر التوراة المؤمن برسالة المسيح الخاصة لليهود، إلى أن تهدم الهيكل وتفوضت مدينة بيت المقدس وتشتت هذه الجماعة في الأصقاع، فألت قيادة الدعوى النصرانية إلى بولس وجماعته، فرأى أن العالم في حاجة إلى صفات إلهية في الرسول المخلص يقبلها الأمميون دون تقييد بالشروط الموجودة في الناموس، وكانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هدم الهيكل وتمزق قطب بيت المقدس<sup>(2)</sup>.

وفي هذه المرحلة كان بولس ينشط على قدم وساق، ساعده في ذلك جو الاستعمار الروماني الذي كان بولس أحد رجاله - كما ذكرنا - والعاملين على التمكين له، وهو ما جعله يكتب إنجيلا لا علاقة له بإنجيل المسيح ويقوم سرا بالدعوة له، والافراد برجال الدين وحدانا ليقتنعهم بتقبله ونشره. وهو ما صرح به في رسالته إلى أهل غلاطية قائلا: "ثم بعد أربع عشرة سنة صعدت أيضا إلى أورشليم مع برنابا أخذًا معي تيطس، وإنما صعدت بموجب إعلان، وعرضت عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم، ولكن بالانفراد على المعتبرين لئلا أكون أسعى، أو قد سعيت باطلا"<sup>(3)</sup>.

هذا النص يبين أنه كان يصعد بين الفينة والأخرى إلى أورشليم. وهذه المرة أخذ معه تيطس اليوناني الغير مختون<sup>(4)</sup>. وهذه مهمة جدا تسلط الضوء على سبب ذهابه إليها وعلى ما يعرضه سرا على رجال الدين بها، ومنها إلغاء الختان وعالمية النصرانية لا يهوديتها.

(1) إنجيل يوحنا، 31/20.

(2) عباس عمرد العقاد، حياة المسيح، ص 223.

(3) رسالة بولس إلى أهل غلاطية، إصحاح 2، فقرة 2، 3.

(4) المعمدان نفسه، إصحاح 2، فقرة 43.

ولتحقيق هذا أتاهاهم بإنجيل جديد لم يألفوه ولم يعرفوه وهم أتباع المسيح وحواريوه. وبين أنه كان يبشر بهذا الإنجيل بين الأمم. وهو ما اقتضى السرية التامة أثناء العرض، وأن يتم ذلك على أفراد حتى لا تذهب جهوده هباء منثورا.

ونجد في هذه الرسالة إشارة بولس إلى قضية مهمة، هي انتشار كتابة الأناجيل المزورة في نظره. التي يقوم بها آخرون. وقد تمكنوا من التأثير في الناس مما جعلهم يعزفون عنه فيقول: "إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر، ليس هو آخر، غير أنه يوجد قوم يزعمونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح"<sup>(1)</sup>. هذا النص يشير إلى شيتين خطيرين، أحدهما: أن الإنجيل الذي يعمل بولس على نشره هو في نظر الناس ليس إنجيل المسيح، بل إنجيل آخر، وهو يعمل على إقناعهم بأنه هو إنجيل المسيح. وثانيهما: يشير إلى وجود معارضة قوية لبولس صعبت مهمته، وهو ما جعله يصعد مرارا إلى أورشليم وعرض إنجيله على رجال الدين فرادى. ولا نستبعد استخدامه للترهيب والغواية في حالة الرفض، وفي هذا السياق يشير بولس إلى أن الحواريين لم يكونوا مستقيمين مما يبطل دعوى أن الأناجيل كتبت بإلهام. **يقول عن بطرس وبرنابا**: "... لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل"<sup>(2)</sup>، -تلك المعارضة القوية هم قطب بيت المقدس مما يؤكد ما ذكرناه قبلا-.

وبولس لا يخشى من التصريح بأن الإنجيل الذي يبشر به ليس الذي تركه المسيح، بل إنجيل جديد تلقاه بإلهام من المسيح بعد رفعه<sup>(3)</sup>. فيقول: "وأعرفكم أيها الاخوة الإنجيل الذي بشرت به، أنه ليس بحسب إنسان، لأنني لم أقبله من عند إنسان، ولا علمته، بل بإعلان يسوع المسيح"<sup>(4)</sup>. وهذا يعني ببساطة أن هذا الإنجيل من تأليفه هو. فهو لم يقدم له من أي إنسان ولم يتعلمه، وبذلك فهو يخالف كل المخالفة إنجيل المسيح. ولكي يقنع الناس الذين كانوا منحطين في الوثنيات، زعم أنه ألهمه من طرف المسيح الذي كان قد غاب منذ زمن بعيد.

(1) المصدر نفسه، إصحاح 1، فقرة 7،6.

(2) المصدر نفسه، إصحاح 2، فقرة 14.

(3) أحمد مجازي السقا، تعليق على شفاء العليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، ط 1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978، ص 69.

(4) رسالة بولس إلى أهل غلاطية، إصحاح 1، فقرة 11، 12.

ونحن لسنا ندرى هل هذا الإنجيل البولسي الجديد هو أحد الأناجيل الأربعة أم كلها أم غيرها<sup>(1)</sup>؟! كما أننا لا نستطيع أن نوفق بين ما ورد هنا من أن الإنجيل الذي كان يبشر به بولس ألهمه إياه المسيح بعد رفعه - لأنه لم يره في حياته- وبين ما قرره المجمع الفاتيكاني الثاني السابق الذكر من أن الأناجيل الأربعة تبين أقوال المسيح وأفعاله إلى أن رفع إلى السماء، أي أن المجمع الفاتيكاني الثاني يرى بأن الأناجيل قبل أن يرفع إلى السماء. وبولس : بعد أن رفع إلى السماء. وإن العقل لعاجز أن يوفق بين نص بولس وقرار مجمع الفاتيكاني.

هذه الصعوبات والتناقضات دعت الباحثين إلى البحث عن أصل الأناجيل، وقد كان لاكتشاف وثائق البحر الميت سنة 1947 م أمل كبير في الوصول إلى أصلها، وهو ما يدعونا إلى الإشارة لهذه الوثائق. وثائق البحر الميت :

في ربيع 1947 م وقع مصادفة اكتشاف يعد من أعظم اكتشافات العصر على يد غلام بدوي، حيث عثر في كهف عند سفح رابية من روابي البحر الميت في الجهة الشمالية الغربية من الشاطئ على عدد من الجرار الخزفية تحتوي على أدراج باللغة العبرية. أثار خبر اكتشاف هذه الوثائق ضجة عظيمة في القدس وفي غيرها عند المشتغلين بالدراسات المتعلقة بالتوراة، وقام بدراسة تلك الكهوف التي وجدت فيها الأدراج، ج . لانكستر هارننج الموظف في إدارة الآثار بالمملكة الأردنية، والأب الدومينيكي رولاند دي فو من معهد الكتاب المقدس في القدس، فدرسا أكثر من 267 كهفا في الروابي الغربية على شاطئ البحر الميت ، وعثروا على آلاف من الوثائق التاريخية ترجع كتابتها إلى ما قبل الميلاد<sup>(2)</sup>، بل

<sup>(1)</sup> ولسنا ندرى أين إنجيل بولس ولكن ما هو موجود البرم رسائل بولس Epîtres de saint Paul وعددها 14 رسالة كتبت كلها باليونانية في عصور مختلفة ابتداء من سنة 45م إلى سنة 65 م منها 10 رسائل إلى بعض البلاد وبعض الشعوب، وأربع رسائل إلى بعض تلاميذه. هذه الرسائل هي :

رسالة إلى الرومان، ورسالتان إلى أهل كورنثوس (Corinthiens) ورسالة إلى أهل غلاطية Galates ورسالة إلى أهل أفسوس Ephésiens ورسالة إلى أهل فيليبي Philippiens ورسالة إلى أهل كولوس Colossiens ورسالتان إلى أهل تسالونيكي Thessaloniens ورسالة إلى العبرانيين. هذه رسائله إلى البلدان والشعوب.

أما رسائله الأربع إلى تلاميذه فهي :

رسالتان إلى تلميذه تيموثاوس Timothée ورسالة إلى تلميذه تيطس Tile ورسالة إلى تلميذه فيليمون Philémon.

هذه الرسائل تشغل أكبر حيز من العهد الجديد، بحيث تستغرق وحدها ثلثه، وهي تعرض بالتفصيل عقائد النصرانية وشرائعها وعباداتها وأخلاقيتها، وتركز كثيرا على شرح العقيدة النصرانية وتقرير الرهبة المسيح وبنوته لله ومبدأ التثليث.

La Trinité : Les trois Hypostases : le Père, le Fils, et le Saint Esprit.

بحسب صحتها موضوعها الأصلي وعلقتها في صورة مفصلة واضحة ومن أجل هذا فإن النصرانية تعتمد على رسائل بولس أكثر من اعتمادها على غيرها من العهد الجديد، وتنسب النصرانية إلى بولس أكثر مما تنسب إلى غيره إلى حد أن كلمة "الرسول" إذا أطلقت عندهم كان هو المقصود بها وحده<sup>(3)</sup> (1) على عبد الواحد والي، الأسفار المقدسة في الأدیان السابقة للإسلام، ص[91،92،93].

(3) جورج سارتون: المرجع السابق، ج 3، ص 54.

تتراوح تقديرات الزمن بين القرن 5 ق.م والقرن الأول الميلادي<sup>(1)</sup>. كما أنهما قاما أيضا بأعمال التنقيب عن دير من أديرة الآسينيين<sup>(2)</sup>، في خربة قمران القريبة من تلك الكهوف<sup>(3)</sup>. وقد ترجم من هذه الأدراج والوثائق أمور كثيرة من التوراة، منها نسخة كاملة من كتاب أشعيا<sup>(4)</sup>، بينت ضرورة إدخال بعض التغييرات على النسخة العبرية الحديثة في سفر أشعيا<sup>(5)</sup>. هذا إلى جانب أمور أخرى لا نجدها في التوراة، مثل " ترانيم الشكر " وعددها ثلاثون، وتعليق وشرح على سفر حبقوق<sup>(6)</sup>. وهذه النسخة وجدت سليمة بعض السلامة، ويمكن قراءتها بسهولة<sup>(7)</sup>، ومقطوعة بشكل " رؤيا"، وكتاب " حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام"، وشذرات من تفسير كتاب "ميخا"، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة، ونسخة آرامية من كتاب غير معتمد بين كتب التوراة، وقصاصات من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم، و"كتاب السلوك"<sup>(8)</sup>. وهو عبارة عن نسخة مفصلة لأداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمنا بصومعة وادي القمران<sup>(9)</sup>، ومحتويات هذا الكتاب تشبه التعاليم النصرانية كما نجدها عند الرسل " أو في تعاليم الإثني عشر رسولا، أي وصايا الآباء الإثني عشر" أي أولاد يعقوب، كناية عن ترنيمتين الأولى منهما " رؤيا" والثاني نبوءة عن مقدم المسيح المنتظر، وهذا السفر من أروع ما كتب في عهد يوحنا

(1) العقاد، حياة المسيح، ص 215.

(2) الآسينيون: هي طائفة يهودية مأخوذة اسمها من كلمة "آسى" بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الآرامية، وهي تفيد هذا المعنى في اللغة العربية، ازدهرت هذه الطائفة اليهودية التي كانت منظمة على شكل أخوية أو رهبنة بين القرن 2 ق.م إلى العصور الميلادية الأولى، كان نظامهم شيعيا أي كل شيء كانوا يملكونه كجماعة، كانوا متشغفين زهادا شغوفين بالمعرفة، فأسسوا لهم مكتبة كبيرة ودير خربة قمران حوالي 136 - 106 ق.م، وظلوا به إلى سنة 68 ب.م، كانت مستقلة في شعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها عن غيرها من الطوائف، علاقتها باهيكل تنحصر في تقريب القرابين فيه، تنكر ذبح الحيوان، قرابينها نباتية. كانوا يعاطون طب الروح ويزعمون إبراء المرضى بالصلوات والأوراد والعلم بخصائص العقاقير، وهو ما جعلهم يسمون بالآسين، متأثرة بمدارس الإسكندرية في أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية كمذهب فيثاغوث الذي يحرم ذبح الحيوان ويدعو إلى التقشف، كانت الرهبانية غالبية عليهم إلا من أذن له بالزواج ويعفى من قبود النسك والبتولة، ينظفون من الحدث ويصلون عند الفجر ويستريحون يوم السبت. ليس بينهم رئاسة ولا سيادة، والرق عندهم حرام. وعملهم المفضل الزراعة والصناعة اليدوية، يذمون حمل السلاح للقتال، والمال عندهم مصدر الشر كله. يؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح (جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 5، ص 59، العقاد، ميلاد المسيح، ص 246، 247).

(3) جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 5، ص 52.

(4) العقاد، حياة المسيح، ص 215.

(5) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 20.

(6) جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 52.

(7) العقاد، المرجع نفسه، ص 215.

(8) جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 52.

(9) العقاد، المرجع السابق، ص 215.

هرقانوس (134 - 104 ق.م) رئيس الكهنة والملك اليهودي غير المتزوج. وهذه الوصايا تشبه العظة التي ألقاها السيد المسيح على الجبل شبيها شديدا، وقد يكون لهذا السفر أيضا أثر في كتابة العهد الجديد<sup>(1)</sup>. وما يجب الإشارة إليه أن ديرخرية قمران أسس حوالي 136 - 106 ق.م وظل مأهولا يقيم فيه الآسيريون حتى سنة 68 ب.م. ومن الراجح أن تكون الأدراج والوثائق التي وجدت في الكهوف المجاورة للدير من بقايا مكتبهم الكبيرة التي تسمى الآن " مكتبة البحر الميت".

أما الكتب والمؤلفات التي كانت تحتويها مكتبة الآسيريين فإنها من نوع التأليف التي تشكل حلقة وصل بين العهد القديم والعهد الجديد، أي أنها تمثل فترة انتقال من اليهودية إلى النصرانية<sup>(2)</sup>. وما يجب الإشارة إليه أن اكتشاف هذه الوثائق جعل كثيرا من الباحثين يعتقدون أن زمرة وادي القمران الآسيرية كانت عقيدتها أرقى عقائد النحل اليهودية وأقفاها، وأن صومعتهم كانت هي البرية التي يلوذ بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان، وأنها كانت بالطبع مُوَحَّدة. وأن حقائق الرسالة المسيحية تتمثل في أن المسيح بعث موحدا، حيث تبين تلك الوثائق فضل الدعوة المسيحية في إصلاح عقائد القوم كما وجدت على أرقاها وأقفاها بين أتباع النحل اليهودية قبل عصر الميلاد<sup>(3)</sup>، يعرض هذا ما بينه علي سامي النشار من أن وثائق البحر الميت بينت بوضوح مصادر المسيحية الأولى<sup>(4)</sup>.

ورغم ما كتب عن هذه الوثائق بمختلف اللغات وترجمة ما أمكن منها، إلا أن الوثائق التي وجدت في تلك الكهوف عددها كبير جدا وقراءتها صعبة، وتعريفها تاريخيا ليس بالأمر اليسير، إذ ينبغي أن يمر زمن طويل قبل أن يتمكن العلماء من جمع القطع التي تؤول سفرا واحدا، وأن ذلك يستغرق مدة 30 سنة أو أكثر، وما توصل إليه العلماء من نتائج تعد مؤقتة<sup>(5)(6)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإن ما علم من وثائق البحر الميت، - كما ذكرنا قبلا - زاد قضية الأناجيل الحالية وكذا معتقدات النصرانية تعقيدا؛ لأن تلك الوثائق تتجه إلى التوحيد عكس ما هي عليه النصرانية اليوم.

(1) جورج سارتون، المرجع نفسه، هامش رقم 19، ص 68.

(2) المرجع نفسه، ص 53.

(3) العقاد، المرجع نفسه، ص 217.

(4) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، هامش ص 90، وقد ألف النشار كتابا خاصا عن وثائق البحر الميت بالإنجليزية.

(5) جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 53.

(6) ونشير إلى أن مجموعة الجامعة العبرية المنحلة في سفر أشعيا النبي، ومزامير الخمد والشكر، وسفر حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام، نشر نصها

فوتوغرافيا في مجلدين مع حواشي وتعليقات البعازر سوكتيك بالاشتراك مع ابنه والجنرال بيحائيل يادين والدكتور أيجاد:

Jerusalem : Bialik Institute and Hebrew University, 1955.

وقد ترجم نصوص هذين المجلدين إلى الإنجليزية :

Eleazar Lipa Sukenik : The Dead Scroths of the Hebrew University (44pp with 116 plotes ; Jerusalem Magnes, press 1955).

كما كتب عنها كتب عديدة تبين عطف المشكلات والمتناقضات التي أثارها والتي مشروها كلما تقدمت البحوث، منها :

- Andre Dupont - Sommer : Aperçus préliminaires sur les MSS de la Mer Morte (paris, Maisonneuve, 1950).
- Nouveaux opperçus (Ibid, 1952).
- Harold Henry Roubey : The Zadokite Fragments and the Dead Sea Scrolls (Oxford, Blok Well, 1952)

## اختيار الأناجيل - كتابها، تناقضاتها

تتفق المصادر النصرانية على أنه كان يوجد عدد كبير من الأناجيل، بعضها ينسب إلى بعض الجماعات أي الطوائف الدينية، مثل إنجيل المصريين وإنجيل العبريين وإنجيل الناصريين، وكان عدد الأناجيل يزيد على المائة<sup>(1)</sup>. وقد بين لوقا ذاته أن كثيرين ألفوا أناجيل<sup>(2)</sup>، كما بين يولس ذاته أنه له إنجيل يختلف عما كان موجودا ألفه بالهام من المسيح كما ذكرنا قبلا. ويجب أن نشير هنا إلى أن الأناجيل لم تشكل بمجرد تحريرها: الكتب المقدسة للنصرانية. فقد سبقتها في الظهور رسائل يولس بعشرات السنين كما ذكرنا قبلا، وإلى عام 140 م لم تكن قد ظهرت، والكتاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادي لا ينقلون أي شيء عن العهد الجديد، ولا توجد إشارة لإنجيل ما، قبل عام 150 م باستثناء ما كتبه بيباس Papias علم 135 قائلا إن "يوحنا الأكبر" وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها - قال إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس. ولم تكتسب صفة الأدب المعترف به كنسيا إلا في عام 170 م<sup>(3)</sup>، يلي يذكر بعض المؤرخين أن أول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أريتيوس في سنة 209 م<sup>(4)</sup>. وقد أخذت الاعتماد الرسمي لها يتم في عهد الإمبراطور قسطنطين لما صارت النصرانية هي الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية<sup>(5)</sup>. فكان لا بد إذن من إنجيل أو أناجيل رسمية تتمكن الدولة بها من التحكم التام في هذه الديانة لتحقيق بها أطماعها السياسية والإستعمارية، ولهذا السبب ظلت الناس تملك عددا كبيرا من الأناجيل تعتمد عليها. بحيث كان لكل فرقة إنجيلها المعتمد. وكل إنجيل يخالف غيره<sup>(6)</sup>. ولذلك فإنه لما وقع الاختيار في مجمع نيقية سنة 325 م على الأناجيل الأربعة، إنما اختيرت من بين أكثر من مائة إنجيل، أي حذفت الكنيسة أو المجمع مائة إنجيل أو أكثر واحتفظت بأربعة فقط لتعتبرها هي الرسمية<sup>(7)</sup>.

ثم هذا إذن في مجمع نيقية الأول سنة 325 م<sup>(8)</sup>، وعندما تعرف أسباب انعقاد هذا المجمع ندرك أساس عملية الاختيار وأهدافها.

(1) محمد السعدي، حول موثوقية الأناجيل، ص 33.

(2) إنجيل لوقا، إصحاح 1، فقرة 1.

(3) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 98.

(4) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 41.

(5) أحمد حجازي السقا، مقدمتنا المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت، دط، مكتبة زهران، القاهرة، 1989، ص 15.

(6) ومن أراد معرفة أسماء بعض هذه الأناجيل وأسماء فرقها فليرجع إلى أبي زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 40، 41.

(7) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 99.

(8) بعد مجمع نيقية الأول أهم مجمع في تاريخ النصرانية، لأنه أول مجمع قرر ألوهية المسيح وحدد القسم الأول مما يسمى عند النصارى بالأمانة أو قانون أو دستور الإيمان النصراني (م.ب. تشارلزوث، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبده جرجس، مراجعة محمد صفر خلفا، دط، دار الفكر العربي، بيروت، 1961 م، ص 216.

لقد عقد هذا المجمع سنة 325م بعد صراع مزير بين الطوائف النصرانية التي كان لكل طائفة منها إنجيلها. وقد انعقد لسببين:

أحدهما ديني، وهو إيقاف مذهب أريوس<sup>(1)</sup> المصري التوحيدي الذي عم أغلب أجزاء الإمبراطورية الرومانية، والانتصار لاثناسيوس<sup>(2)</sup> القائل بمذهب بولس في ألوهية المسيح. وقد بدأت المناقشة في المجمع الذي حضره 2048 رجل كهوت بمناظرة بين أريوس زعيم الموحدين واثناسيوس القائل بمذهب بولس في ألوهية المسيح.

وكانت نتيجة المناظرة: فوضى كبيرة بين الحاضرين انقسموا على إثرها إلى قسمين: القائلين بالتوحيد، أي بمذهب أريوس، وعندهم 1730 رجل دين، والقائلين بمذهب اثناسيوس أي بألوهية المسيح، وعندهم 318<sup>(3)</sup> رجل دين.

ولكن الإمبراطور انتصر للمؤلهين للمسيح وأكرمهم، لأن عبادة رجل بشري أقرب إلى وثنية الرومان من عبادة إله واحد ليس كمثلته شيء<sup>(4)</sup>، كما سنعرف.

أما السبب الثاني فهو سياسي، وهو استخدام النصرانية ورجال كهوتها ليثبت قسطنطين سلطانه ويوحد إمبراطوريته.

ولما قرر المجمع ألوهية المسيح، فكان من الطبيعي أن يختار من الأناجيل فقط ما يناسب هذه العقيدة. وهنا يجب أن نشير إلى أن قضية الاختيار لا تدل بالضرورة على صحة ما اختير، بل تدل وتبين بدقة إيديولوجية الذين اختاروا. فهي إذن تعكس وجهة نظرهم لا صواب ما اختاروا. ولا سيما إذا علمنا أن أغلب الحاضرين رفضوا تأليه المسيح، وبذلك رفضوا ما يبنى عليه وهو ما جعلهم يرفضون قرارات مجمع نيقية برمتها، ويعتدون مجمعا آخر مضادا له هو مجمع صور عام 334م<sup>(5)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإنه كان من قرارات مجمع نيقية الأول:

- حرق الكتب المقدسة التي تخالف رأيه والغرض من ذلك منع أن يصل إلى علم الناس علم بأي أمر من الأمور التي تخالف رأيه. وتتبع المجمع الكتب المخالفة له في كل مكان وحث الناس على تركها بعد أن

(1) كان أسقفا على الإسكندرية، (ت 336م) وقد قال بأن المسيح ليس بآله، وهو مخلوق من "لاشي" (ولكن في الزمن، وليس أزليا)، (عمر مروخ، تجديد في المسلمين لا في الإسلام، ص 183).

(2) ولد بحمص نحو سنة 295م، تنبع بثقافة عصره ومزجها بالنصرانية، رسم شماسا إنجيليا سنة 318م وأميناً على أسرار بطريرك الإسكندرية ليخلفه بعد مرته كأسقف وطريرك على الإسكندرية سنة 328م، ليستمر في هذا المنصب 45 عاما. سخر حياته لتكريس عقيدة ألوهية المسيح وعبادة الأبروسيين، توفي سنة 373م. بعده النصارى قديسا. (لويس غردية، ج قنوان، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ت صحى الصالح والأب فريسد حبر، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ج2، ص 363-365م).

(3) لجنة التاريخ القبطي، تاريخ الأمة القبطية، ط2، المطبعة الحديثة، القاهرة، 1932، ج2، ص 115، 116.

(4) محمد رجب شتيوي، المذاهب المسيحية، ص 136-139، ونلاحظ أن انخياز الإمبراطور لرأي اثناسيوس الشبي رأي بولس يؤكد اعتقادنا السابق بأن بولس كان يقوم بمهمة رسمية كلف لها من طرف النظام الاستعماري الرومان يحتل في إفساد النصرانية وتطويرها لهم.

(5) محمد رجب شتيوي، المرجع نفسه، ص 167.



حرم قراءتها وتوعد المخالفين بالتفني والحرمان، وعلى إثر هذا القرار قامت الكنيسة بحذف عدد كبير من الأسفار، واحتفظت فقط بما أقره هذا المجمع<sup>(1)</sup>، وهي الأنجيل الأربعة، وقد اختيرت من بين ما يزيد على 50<sup>(2)</sup> إنجيلا، و21 رسالة، من رسائل لا تحصى ولا تعد<sup>(3)</sup>.

ويجب أن نشير هنا إلى أن بعض ما حرمه مجمع نيقية هذا من الكتب، اعتبرته المجامع التي تلتها، ويعود الآن قانونيا، ومن الأمثلة على هذا فإن كتاب "أستير" من العهد القديم، ورسالة يعقوب، والرسالة الثانية لبطرس، والرسالتين الثانية والثالثة ليوحنا، ورسالة يهوذا، ورسالة بولس إلى العبرانيين، كلها حرمتها المجمع النيقية. ثم لما عقد مجلس لوديسيا عام 364 م اعتمدوا سبعة كتب واعتبروها مقدسة واجبة التسليم هي:

كتاب أستير، رسالة يعقوب، الرسالة الثانية لبطرس، الرسالتين 2 و 3 ليوحنا، رسالة يهوذا، رسالة بولس إلى العبرانيين. وبقي كتاب "مشاهدات يوحنا" محرما، ثم أتى مجلس كارتيج سنة 397 م فأقر باعتماد كتاب "مشاهدات يوحنا"<sup>(4)</sup>.

وبهذا فالمجمع النيقية الأول حرم كتباً من العهدين القديم والجديد والمجامع من بعده أقرتها<sup>(5)</sup>. ويجب أن نشير أخيرا في هذا السياق إلى أن هناك أنجيل أخرى ظلت في القائمة الرسمية إلى مجمع هييون سنة 393م، وقرطاجنة سنة 397م ثم شطبت، وقد اعترف الأب بومار باختفاء كم ضخم من الكتب التي اعتبرتها الكنيسة مزورة والتي ظلت حتى نهاية القرن 4م<sup>(6)</sup>. وبهذا فإن القائمة الرسمية للكتب المقدسة لم تسقط إلا في نهاية القرن 4م<sup>(7)</sup>. ولنبدأ الآن الحديث عن الأنجيل الأربعة وأصحابها.

(1) إن من يتصرف تصرفا كهذا لا يحق له أن يدين الناس، ذلك أن معرفة تلك الأنجيل التي حرمت ومعرفة ما كانت تشتمل عليه مما كسان سببا في رفضها وحمل الناس على تركها وخصوصا إذا كانت راحة، وأخذ بها طوائف من النصارى وبنديون النصرانية على مقتضاها: الإطلاع عليها يمكن من معرفة اعتقاد الناس في المسيح وكيف كان، خصوصا بين أولئك الذين قاربوا عصره وأدركوا زعمائه وأقربا تلاميذه وعلوا من متاهلهم. فليس كانت موجودة لعرفنا سبب رفض الكنيسة لها، وحجة الرفض لتكون دليلا للكنيسة على أنها لم تعبر ديانة المسيح، ولكن الكنيسة ضنت علينا لهذا - فلا يحق لأصحابها بعد هذا، الحديث عن حرية الفكر والعقيدة والرأي بل عن صحة عقائدهم - (أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 41).

(2) ذكرنا قبلا أن تلك الأنجيل تزيد على المائة وذكرنا هنا أنها تزيد على خمسين، والواقع لا تناقض لأنها لم تعددها بمائة أو خمسين، بل قلنا يزيد.

(3) رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج 1، ص 56، 57، أيضا محمد رحب شتيوي، المرجع السابق، ص 155-157.

(4) رحمة الله الهندي، المرجع نفسه، ص 57، 58.

(5) محمد رحب شتيوي، المرجع نفسه، ص 155-157.

(6) موريس بيكاي، القرآن الكريم، و.ب، ص 100، 101.

(7) هذا ما يطلق بالإنجيل، ومع ذلك فإن الخلاف لم يحسم ومازال النقاد من رجال الكهنوت أنفسهم إلى يومنا هذا يكتشفون كثيرا من النصوص المدسوسة حتى في تلك الأنجيل الأربعة، مثل قضية التلث كما سنرى. أما أسفار التوراة فإن الخلاف حولها كبير جدا بين المناهضين النصرانية من كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس، ومازال إلى الآن، وصدق الله إذ يقول عن القرآن الكريم "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا" (النساء/81). ومن أراد التوسع في هذه القضية ومعرفة العدد الهائل من التضارب والتناقضات بين أسفار الكتاب المقدس، فليرجع إلى عهد المنعجم الحظي، موسوعة فلاسفة ومصوفة اليهودية، ص 92-106.

## إنجيل متى

يحتل هذا الإنجيل المرتبة الأولى في ترتيب أسفار العهد الجديد؛ لأنه يعد امتداداً - بشكل ما - للعهد القديم. فيثبت أن المسيح " يكمل تاريخ إسرائيل" كما يقول المعلقون على الترجمة المسكونية، ولكي يحقق متى هذا الغرض، فإنه يستشهد دائماً بفقرات من العهد القديم ليبين أن المسيح يتصرف كالمسيح الذي ينتظره اليهود.

ويبدأ هذا الإنجيل يشجرة نسب المسيح، ويجعله ينتسب إلى إبراهيم عن طريق داود<sup>(1)</sup>. ويبين موقف المسيح الموافق للشرعة الموسوية من صلاة وصوم الخ، ويحدد رسالته حاثاً الحواريين بما يأتي: "إلى طريق الوثنيين لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بني إسرائيل الضالة"<sup>(2)</sup> و "ولم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"<sup>(3)</sup>.

ولكن متى يذيل إنجيله بما يناقض هذا يجعله المسيح يعطي الأمر الآتي: " فإذهبوا وتلمذوا جميع الأمم"<sup>(4)</sup>. ومع هذا التذليل، فإن إنجيل متى لا يمكن أن يصنف إلا ضمن الجماعة اليهودية المسيحية، فهو مطبوع بطابعها رغم يونانية ثوبه، وهنا نتساءل:

من هو متى؟ وما هي شخصيته؟ واللغة التي كتب بها؟

يقول موريس بيكاي ناقلاً عن الترجمة المسكونية: لم يعد مقبولاً اليوم الزعم بأنه أحد حوارى المسيح عليه السلام، ويصعب معرفة شخصيته سوى الإتفاق بأنه يهودي، وليس صحيحاً ما زعمه مرقس ولوقا - اللذان يطلقان على لوقا اسم "ليني" - من أنه كان موظفاً بيروقراطياً بكفر ناحوم، وأنه كان أحد حوارى المسيح الإثني عشر<sup>(5)</sup>. وقد وقع في هذه المغالطة كثير من المفكرين المسلمين الذين يعتبرونه أحد الحواريين الإثني عشر وأن وظيفته كانت جمع الضرائب، وأنه هو الذي اختاره المسيح تلميذاً من تلاميذه كما جاء في إنجيل متى " وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية واسمه متى، فقال له اتبعني، فقام وتبعه، وبينما هو متكئ في البيت إذا عشارون وخطاة

(1) وعلق موريس بيكاي على هذا قائلاً: " وهذا خطأ سكت عليه المعلقون كما سنين " (موريس بيكاي، القرآن الكريم، ... ص 179).

(2) إنجيل متى، إصحاح 10، فقرة 6، 5.

(3) إنجيل متى، إصحاح 15، فقرة 24.

(4) إنجيل متى، إصحاح 28، فقرة 19، وهذه فقرة أتت من بعد دون شك لأن فكرن التثليث وعالمية الدعوة النصرانية لم تكونا ناشئتين في عهد الحواريين (محمد السعدي، حول مؤثفة الأناجيل، ص 16، 17).

(5) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 81.

كثيرون قد جاءوا واتكفوا مع المسيح<sup>(1)</sup>. وسبب المغالطة أن متى كاتب الإنجيل هو شخصية أخرى غير متى الحوارية<sup>(2)</sup>.

والسبب في رفض الزعم بأنه أحد الحواريين هو أننا عندما نحلل إنجيله، نجد أن :

- مفردات كتابه قسطنطينية، أما التحرير فيوناني<sup>(3)</sup>. وهنا نساءل : أين النص الأصلي؟

- لا نعثر في هذا الإنجيل على أي شاهد يشير إلى أن متى الحوارية هو مؤلفه، بل نجد العكس، لأنه يتحدث بصيغة الغائب لا بصيغة المتكلم، فليس في الكتاب سمع ولا رأيت ولا كنت<sup>(4)</sup>.

- كاتب هذا الإنجيل يبدو مثقفاً ومتبحراً في الكتاب المقدس والتراث اليهودي، ومعلماً حاذقاً، ماهراً في العرض والإقناع، ولذلك لا يعقل أن يكون مجرد موظف جمارك لحساب الرومان كما كان متى حوارية المسيح<sup>(5)</sup>.

- يتفق الجميع على الاعتقاد بأن متى كتب إنجيله اعتماداً على مصادر مشتركة بينه وبين مرقس ولوقا من جهة، كما اعتمد على إنجيل مرقس أول الأناجيل تأليفاً بنسبة كبيرة، حيث يحتوي محتوى إنجيله على 90% من إنجيل مرقس من جهة أخرى. وهذه القضية الأخيرة مهمة جداً تطرح السؤال الآتي : كيف يعتمد متى - وهو الحوارية صاحب المسيح المباشر له - على إنجيل كتبه مرقس، وهو تلميذ الحوارية بطرس.

أي من الصف الثاني من أتباع المسيح أو ما يسمى بالمصطلح الإسلامي من التابعين، فكيف يعتمد صحابي على تابعي في كتابة القرآن الكريم مثلاً، كيف يعتمد شاهد العيان المستمع مشافهة من المسيح على من لم يشاهد المسيح ولم يسمع منه مشافهة<sup>(6)</sup>. بل هو تلميذ حوارية ليس له إنجيل؟!.

- تحدث عن قضايا يستحيل تصديقها كما يقول الأب كاتينجر<sup>(7)</sup>، مثل حكاية حراس القبر العسكريين، " هؤلاء الجنود الوثنيين الذين يذهبون بتقريرهم ليس إلى رؤسائهم الوظيفيين، بل إلى كبار الكهنة الذين يرشونهم ليكذبوا"<sup>(8)</sup>. ومثل ما يرويه في سرده للأحداث التي واكبت موت المسيح - حسب زعمهم - فيقول : " وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت والصخور

(1) إنجيل متى، إصحاح 9.

(2) ومن هؤلاء الذين أخطأوا في هذا : الشهرستاني في الملل والنحل، ج 1، ص 221، وأبو زهرة في محاضرات في انصارية، ص 42، وأن الغرض من نص متى هذا هو تبيض وجه الاستعمار الروماني وتحجيب عذامه في أعين الأهالي لإزالة الحاجز النفسي بينهم وبين الاستعمار.

(3) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 81.

(4) محمد السعدي، حول موثوقية الأناجيل، ص 14.

(5) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 81.

(6) محمد السعدي، المرجع نفسه، ص 16.

(7) شهادة الأب كاتينجر لها وزنها، فهو عالم لاهوتي كبير وأستاذ بالمعهد الكاثوليكي بباريس (بيكاي، المرجع نفسه، ص 82).

(8) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 82.

انشقت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد الصديقين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين<sup>(1)</sup>.

وهنا نتساءل :

1- كيف استطاعت أجساد القديسين أن تقوم عند موت المسيح أي قبل يوم السبت كما تقول الأناجيل ولا تخرج من قبورها إلا بعد قيامة عيسى، أي غداة السبت حسب الأناجيل ذاتها<sup>(2)</sup>؟! .

2- ليس للفقرة السابقة من إنجيل متى أي مثيل في الأناجيل الأخرى، والسؤال هو : كيف كان كتاب الأناجيل شهود عيان ولا يروون حادثة مهمة كهذه؟ في حين رووا جميعا حكايات لا وزن لها مثل ركوب المسيح الحمار في القدس كما سنذكر.

هذه الملاحظات جعلت الموسوعة البريطانية تصل إلى الشك في أن متى الحواري هو كاتب هذا الإنجيل " لكن كون متى هو مؤلف الإنجيل أمر مشكوك فيه بجد"<sup>(3)</sup>.

### لغة كتابة إنجيل متى وتاريخ تدوينه :

بقي أن نتساءل الآن : ما هي لغة كتابة هذا الإنجيل وما هو تاريخ تدوينه ؟:

يتفق قداماء النصرانية وغير المحصورين من المتأخرين أنه كتب باللسان العبراني<sup>(4)</sup>.

كما يتفقون على أن أقدم نسخة عرفت كانت باليونانية<sup>(5)</sup>، أي أنه كتب بالعبرية ولم يعرف إلا باليونانية. وهنا نتساءل : أين النسخة الأصلية التي كتبها متى<sup>(6)</sup>؟ وحتى لو وجدت فإن المسيح وتلاميذه كانوا يتكلمون اللغة الآرامية. فأصلها إذن كتب بغير اللغة التي كان يتكلمها المسيح. فهي إذن مجرد ترجمة، لا للإنجيل. بل للانطباع حول سيرة المسيح. ثم إن المنهج العلمي يقتضي أن أعرف المترجم لأعرف مدى أمانته العلمية، ولماذا ترجم. وذلك قيل أن اعتقد أن الرومان واليونان - وهم كانوا أعداء المسيح - حرفوا

(1) إنجيل متى، إصحاح 27، قفرة 51-53.

(2) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 83.

(3) الموسوعة البريطانية، ج 6، ص 697، طبعة 1983، نقلا عن محمد السعدي، المرجع السابق، ص 15.

(4) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 79، ومن أولئك القدماء: بابياس (Papias) أسقف هيرابوليس (Hieropolis) (ت 130م)، (الموسوعة البريطانية (Micropulidia) ج 6، ص 697، نقلا عن محمد السعدي، المرجع السابق، ص 15).

(5) أبو زهرة، محاضرة في النصرانية، ص 43.

(6) إن السؤال المنطقي هو أن نسأل عن النسخة الأصلية التي تركها المسيح لا ما كتبه متى. ومن هنا فإن مجرد التساؤل عن النسخة الأصلية التي كتبها متى يكون دليلا قاطعا على ضياع الإنجيل الحقيقي. ويمكن أن توضح هذه القضية بمثال من عندنا فنقول : ما علاقة نسخة سيرة ابن إسحاق أو ابن هشام بصحة القرآن الكريم؟ إن السيرة شيء والقرآن شيء آخر. فصحة نسخة سيرة ابن هشام مثلا لا علاقة لها بصحة القرآن الكريم أو عدم صحته. فكذلك بالنسبة للإنجيل. والتساؤل السابق يعني أن إنجيل المسيح ضاع إل للأبد وأصبحنا نتساءل : عن صحة ما كتب في سيرته. فأين هنا مما عندنا وهو تسهيل القرآن الكريم كله زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وحفظه عن ظهر قلب والتعبد به وتلاوته، ووصله إلنا متواترا، وتسجيل القرآن فأنسه أنه كان يكتب بحرفه، ولم يتمكن الكفار من تكذيب ذلك إلخ.

الكلم بعد أن ترجموا - انطباعات متى - إلى لغاتهم؛ لأنه يصعب علينا أن نتلقى تعاليم شخص من أعدائه بعد أن ذهب بمدة طويلة<sup>(1)</sup>.

وهكذا فالنسخة الأصلية لا وجود لها، والأغرب من هذا أن النسخة المترجمة عن الأصلية لا وجود لها، ولا نعرف العصر الذي تمت فيه عملية الترجمة<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت النسخة الأصلية مفقودة ومجهولة والنسخة المترجمة عنها لا وجود لها، وترجمتها مجهول صاحبها؛ فإن تاريخ تدوين هذا الإنجيل محل خلاف كبير بين رجال الكهنوت، ولم تحسم القضية إلى اليوم، فبعضهم يقول بتأريجه بين سنة 37 و 65 م<sup>(3)</sup>. وبعضهم يحدده بمنتصف القرن 1م<sup>(4)</sup>. وكثيرون يجعلون تاريخ كتابته بين السنة 80، 90م. وقد علق المترجم المسكونية على هذا بأنه: "لا يمكن الوصول إلى يقين كامل في هذا الموضوع"<sup>(5)</sup>. وما يزيد القضية تعقيدا أن كاتب هذا الإنجيل اعتمد بنسبة 90% على إنجيل مرقس، كما ذكرنا، وإنجيل مرقس ذاته محل خلاف في تاريخ تدوينه وإن كان كولمان يرجح أنه كتب حوالي سنة 70 م.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق:

- مؤلف هذا الإنجيل ليس متى الحواري، بل هو مؤلف مجهول، وهو ما اعترف به المعلقون على الترجمة المسكونية<sup>(6)</sup>. وكذا الموسوعة البريطانية كما ذكرنا قبلا.

- تاريخ تدوينه مجهول، وكذا المكان الذي كتب فيه، وهو ما جعل المعلقين على الترجمة المسكونية يقولون بأنه "يقدر غالبا بأنه كتب بسوريا وربما بانتاكيا... أو بفينيقيا. ففي هذه المناطق كان يعيش عدد كبير من اليهود"<sup>(7)</sup>.

- المترجم مجهول، والمنهج العلمي يقتضي معرفة النص الأصلي وترجمته، ومعرفة المترجم لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل أم فيها إنحراف، ولنعرف أفهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها؟ وهل هو أمين وثقة؟ فقيه في النصرانية حجة فيها، وهل هو عارف باللغتين؟<sup>(8)</sup>.

(1) إبراهيم محمود جوب، تعقيب على الكعك، الملحق 7 لتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو (10-22 يوليو 1973م)، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، م3، ص 1200، 1201.

(2) ولقد علق أبو زهرة على هذا في أن جمهرة المؤرخين لم يعرفوا من هو المترجم وفي أي عصر ترجم، رغم أن ابن بطريق يذكر أن يوحنا هو الذي ترجمه إلى اليونانية، ولكن لا نجد أحدا من المؤرخين أبده؛ بل إن الكثيرين يقولون: "إنه لم يعرف المترجم". (أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 45).

(3) أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 45.

(4) العقاد، ميلاد المسيح، ص 375.

(5) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 81.

(6) المرجع نفسه، ص 81.

(7) المرجع نفسه، ص 81.

(8) إبراهيم محمود جوب، المرجع السابق، ص 1200، 1201.

وهكذا تكاملت السلسلة في هذا الإنجيل، فسؤلفه مجهول، وأصله مجهول، ومترجمه مجهول، والنسخة المترجمة عن النسخة الأصلية مجهولة، وتاريخ التأليف والترجمة مجهولان. ورغم كل هذا يسمى كتابا مقدسا؟! .

### إنجيل مرقس

يعد أقصر الأناجيل الأربعة وأقدمها، ولكنه ليس كتاب أحد الحواريين. وقد اعترف (أ.كولمان) بأن مرقس ليس تلميذا للمسيح، ولا يمكن الاستدلال بما ورد في العهد الجديد من إشارات تتحدث عن رجل اسمه يوحنا، ويلقب بمرقس؛ لأنه لا تذكر أنه مؤلف إنجيل، وحتى نص مرقس نفسه لا يشير إلى أي مؤلف، وكثير من تراكيب الجمل توحى بأن مؤلفه يهودي الأصل، ولكن صبغته بالطابع اللغوي اللاتيني يوحى بأنه كتب من روما. كما أنه يخاطب نصارى غير فلسطينيين ويعتني بشرح التعبيرات الأرامية التي يستخدمها في خطابه إليهم<sup>(1)</sup>. ولا يتحفظ في سرد الأخبار الإلهية التي كانت تحول بين المحافظين من اليهود والإيمان بالإلهية المسيح<sup>(2)</sup>. وهذا يجعلنا نعتقد تأثره باتجاه بولس الوثني.

التراث النصراني يزعم أن مرقس كان تلميذا لبطرس الرسول اعتمادا على نهاية رسالة بطرس الأولى<sup>(3)</sup>. ولكنهم اختلفوا في الكاتب الحقيقي لهذا الإنجيل، فابن البطريك مثلا يرى أن كاتبه هو بطرس رئيس الحواريين ولكن كتبه عن مرقس في مدينة روما ونسبه إلى مرقس. وهذا أغرب من الخيال. حيث يزيد القضية تعقيدا، لأنه يجعل بطرس مجرد راوي لمرقس مع أن بطرس رئيس الحواريين - كما يقر ابن البطريك - ومرقس تلميذه. وهذا يقلب الحقائق، فيجعل الأستاذ تلميذا لتلميذه.

بينما يذهب الكاتب القديم أرينيوس إلى: "أن مرقس كتب إنجيله بعد موت بطرس وبولس"<sup>(4)</sup>.

هذا الاختلاف في شخص كاتب هذا الإنجيل خطير، فابن البطريك وهو من المؤرخين النصارى الشرقيين يقرر أن كاتبه هو بطرس عن مرقس ونسبه إليه، وأرينيوس يقرر أن كاتبه هو مرقس من غير تدبير بطرس لأنه كتبه بعد موته. فمن الكاتب إذن؟<sup>(5)</sup>. هذه الاعتبارات جعلت الموسوعة البريطانية تشكك كذلك في صحة نسبة هذا الإنجيل لمرقس. فتقول: "بالرغم من أن مؤلف إنجيل مرقس غير معروف على الأرجح، فإن قيمة هذا الكتاب وسلطته مستمدة تقليديا من علاقة مؤلفه المفترضة بالحواري بطرس"<sup>(6)</sup>. ما سبق يجعلنا نوافق ما ذهب إليه (كولمان) من أن مؤلف هذا الإنجيل ليس تلميذا للمسيح ولا لأحد حواريين، بل هو يفترض فقط أن يكون يهوديا<sup>(7)</sup>.

<sup>(1)</sup> موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص84، والكلام لكولمان.

<sup>(2)</sup> العقاد، ميلاد المسيح، ص375.

<sup>(3)</sup> وقد علق بيكاي على هذا بقوله: "إذا ما كان هذا الأخير هو كاتبها فعلا"، (بيكاي، المرجع نفسه، ص85).

<sup>(4)</sup> أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص46، 47.

<sup>(5)</sup> المرجع نفسه، ص47.

<sup>(6)</sup> الموسوعة البريطانية، 2، ص951، نقلا عن عماد السعدي، المرجع السابق، ص17.

<sup>(7)</sup> موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص84، 85.

وجهل الكاتب يؤدي إلى الجهل بمكان الكتابة، ولذلك فإننا نستبعد أن يكون قد كتب في روما. وأما لغة كتابة هذا الإنجيل، فقد كانت اليونانية<sup>(1)</sup>. وهذا يطرح إشكالية أخرى تزيد القضية تعقيدا، هي: كيف تكون أول كتابة له باليونانية بينما المسيح عليه السلام وحواريوه كانت لغتهم الآرامية؟! . وأما تاريخ كتابته، فهو أيضا محل خلاف شديد بين رجال الكهنوت، فهو حسب الترجمة المسكونية كتب بين سنة 65 م و 70 م، وحسب كولمان حوالي سنة 70 م.

وعندما نحلل محتوى هذا الإنجيل، نجد هذا الإنجيل يُظهر في ذاته عيبا رئيسيا لا جدال فيه، يتمثل في عدم الاهتمام بالتعاقب الزمني للأحداث، فبدأ من حكاية الصيادين الأربعة الذين يدعوهم المسيح لإتباعه في حين أنهم لا يعرفونه<sup>(2)</sup>. ويقول عنه (الأب روجي) إن مرقس كاتب غير حاذق، وأكثر المبشرين ابتداء، فهو لا يعرف أبدا كيف يحرر حكاية<sup>(3)</sup>، وحكاياته مستحيلة التصديق ومتناقضة مع الأنجيل الأخرى، ومن ذلك:

عندما طلب منه الفريسيون آية من السماء، أجابهم " لماذا يطلب هذا الجيل آية ... الحق أقول لكم، لن يعطي هذا الجيل آية"<sup>(4)</sup>. هذا يعني ببساطة أن المسيح لن يقدم أي معجزة. بينما لوقا أعلن بأن المسيح لن يعطي إلا آية واحدة، هي آية يونس، هذا يتناقض تناقضا مطلقا مع المعجزات التي يقدمها المسيح نفسه، كما ورد في إصحاحات إنجيل لوقا<sup>(5)</sup>.

هذا وقد شك كثير من رجال الكهنوت في إصحاحات كاملة من هذا الإنجيل واعتبروها مضافة، ومنهم جيروم<sup>(6)</sup> الذي اعترف أن بعض علمائهم المتقدمين شكوا في نسبة الباب الأخير إلى هذا الإنجيل، أي اعتبروه مضافا، وكذا في البابين الأوليين منه<sup>(7)</sup>، وغير ذلك كثير<sup>(8)</sup>. والمحدثون يعدون خاتمة إنجيل

(1) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 46.

(2) والسؤال المنطقي هنا: أين هي حياة المسيح عليه السلام قبل لقائه بالصيادين؟.

(3) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 85.

(4) إنجيل مرقس، الإصحاح 8، فقرة 11، 12.

(5) إنجيل لوقا، الإصحاح 7، فقرة 22، والإصحاح 11، فقرة 20. (بيكاي، المرجع نفسه، ص 86، 87).

(6) هو يوسبيوس هيرونيموس سفرونوس (Eusebius Hieronymus Sophronius)، أي "الحكيم المجلد صاحب الاسم المقدس"، ولد حوالي عام 340م في استريدو (Strido) قرب أكوليا، درس في تريور وروما. كان شديد التمسك بالنصرانية، دخل ديرا قرب أنطاكية سنة 374م ثم غادره.

تأثر بقرجيل وشيشرون، يعد من أشد دعاة الرهبة، وكان يسخر من القسيسون الذين يستقظون قبل مطلع الفجر لزيارة النساء قبل أن يقمن من فرشهن، ويندد بزواج القساوسة وبشذوذهم الجنسي، رسم قيسيا في أنطاكية. وفي سنة 382م، أصبح أمينا عاما للبابا دماسوس في روما الذي كلفه بترجمة العهد الجديد إلى اللاتينية. ظل في منصبه إلى وفاة دماسوس سنة 384م، ولما لم يجد خلفه تعيين جيروم أمينا لسره غادر روما سنة 385م متاهيا ليوسس في بيت لحم ديرا للرهبان ترأسه وآخر للرهبات وكنيسة محتلطة ومضيفة للحجاج الأراضى المقدسة. ألف نحو 50 كتابا في المشكلات الدينية وفي تفسير الكتاب المقدس، وترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية، وكان هجاء لاذعا عنيفا فأدانه البابا أنستاسيوس سنة 400م. (ول ديوارنت، قصة الحضارة، قيسر والمسيح، م 3، ج 3(12)، ص 106-113).

(7) رحمة الله الهندي، المرجع نفسه، ص 80.

(8) الموسوعة البريطانية، (Micro paedia)، م 6، ص 633، عن محمد السعدي، المرجع السابق، ص 17، 18.

مرقس ( الإصحاح 16، فقرة 9-20) مضافة كما بينت الترجمة المسكونية، وهذه الخاتمة غيير موجودة في أقدم مخطوطتين كاملتين للأناجيل المعروفتين باسمي Codex Sinaiticus, Codex Raticanus اللتين يرجع تاريخهما إلى القرن 4م.

وقد علق الأب كاتينجر على هذه الخاتمة بأنه قد حدث حذف لل فقرات الأخيرة، ولا متى ولا لوقا ولا يوحنا عرفوا هذا الجزء المحذوف، وبعد أن جرت بين الأيدي الكتابات المتشابهة لمتى ولوقا ويوحنا تم تأليف خاتمة لمرقس بالاستعانة من عناصر من هنا وهناك لدى المبشرين الآخرين<sup>(1)</sup>.

وقد علق بيكاي على تعليق (الأب كاتينجر) قائلاً: "يا له من اعتراف صريح بوجود التعديلات التي قام بها البشر على النصوص المقدسة، ياله من اعتراف ذلك الذي تقدمه لنا تأملات هذا العالم اللاهوتي الكبير"<sup>(2)</sup>.

والنتيجة من كل ما سبق : أن هذا الإنجيل كسابقه، مجهول المؤلف ومكان التأليف وسنة التأليف، ولا يعرف عنه سوى كتابته باللغة اليونانية، وقد كُتِبَ مفكك المعاني والجمل مما يدل على ضعف المستوى العلمي لكتابه، ناهيك عنه أنه كتب بغير لغة المسيح وحوارييه، وقد أتى مليئاً بالتناقضات، فهل مع كل هذا بعد هذا الكتاب مقدساً؟! .

### تحصيل لوقا

نبدأ حديثنا عن هذا الإنجيل بالتساؤلات الآتية : من هو لوقا؟ وأين ولد؟ وما موطنه ومهنته؟ وما هي اللغة التي كتب بها إنجيله؟ ولمن كتب؟.

والجواب على هذا أن رجال الإكليروس مختلفون في هذا، فابن البطريق يزعم أنه ولد في إنطاكية، وكان طبيباً ولم يكن يهودياً - ولكنه لم يبين أهو روماني أم يوناني؟- ويزعم أنه رافق بولس في أسفاره وأعماله اعتماداً على بعض ما ورد في بعض رسائل بولس من إشارة إلى ذلك كرسالته إلى أهل كولوسي<sup>(3)</sup>، ورسالته الثانية إلى أهل تيموثاوس<sup>(4)</sup>. ولكن الدكتور بوست يقرر أنه لم يكن أنطاكياً، وأن الذين اعتقدوا بأنطاكيته إنما توهموا ذلك من اشتباهه بلوكيوس. ويزعم بوست أنه كان رومانياً نشأ بإيطاليا<sup>(5)</sup>.

(1) مورس ص ٤٤

(2) رسالة بولس إلى أهل كولوسي، الإصحاح 4.

(3) رسالة بولس إلى أهل تيموثاوس، الإصحاح 4.

(4) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 17، 48



وكما اختلفوا في مولده وموطنه، اختلفوا في مهنته، ففي حين ذكر ابن البطريق أنه كان طبيباً يذكر غيره من بعض رجال الكهنوت أنه كان مصوراً لا طبيباً<sup>(1)</sup>.

والواقع أن شخصية لوقا تبقى مجهولة رغم زعم بعض رجال الكهنوت بأنه كان طبيباً ورافق بولس فسفي رحلاته؛ لأنه ليس هناك ما يثبت أن لوقا الذي رافق بولس هو نفسه كاتب هذا الإنجيل<sup>(2)</sup>.

وإذا كانوا قد اختلفوا فيما سبق، فإنهم اختلفوا أيضاً في القوم الذين كتب إليهم هذا الإنجيل. فالفلس إبراهيم سعيد يزعم أنه كتب لليونان، بينما ابن البطريق يزعم أنه كتب إلى الرومان، لأن ثاوفيلس الذي كتب لوقا له هذا الإنجيل رجل شريف من علماء الروم، بينما هناك من يرى أن ثاوفيلس هذا كان مصرياً، وبذلك فإن هذا الإنجيل يكون قد كتب للمصريين لا للروم ولا لليونانيين<sup>(3)</sup>.

وقد اختلفوا أيضاً في تاريخ تأليف هذا الإنجيل، فبعضهم مثل د/ بوست في تاريخه يذهب إلى أنه كتب قبل خراب أورشليم وقبل الأعمال، أي في حياة بولس، وبعضهم يظنون أنه كتب قبل ذلك.

ولكن اعتماد لوقا على إنجيل متى ومرقس يبين بجلاء أنه كتب بعد موت بطرس وبولس، ويبدو أنه عايش حصار القدس وتدميرها من طرف جيوش تيتوس عام 70م، وذلك اعتماداً على ما ورد في إنجيله على لسان المسيح في مخاطبته إلى أورشليم باكياً قائلاً: "... ولكن الآن قد أخفي عن عينيك فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعدائك... ويحاصرونك من كل جهة ويهدمونك..."<sup>(4)</sup>، وكذلك ما ورد في هذا الإنجيل ذاته " ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش فحينئذ أعلموا أنه قد اقترب خرابها... وويل للحبالي والمرضعات في تلك الأيام، لأنه يكون ضيق عظيم على الأرض وسخط على هذا الشعب ويقعون بغم السيف ويسبون إلى جميع الأمم وتكونون أورشليم مدوسمة من الأمم"<sup>(5)</sup>.

وعنى ذلك تكون كتابة هذا الإنجيل بعد ذلك، أي ما بين سنة 80 و90م<sup>(6)</sup>.

وبهذا فإن الباحثين النصاري اختلفوا في شخصية كاتب هذا الإنجيل ومهنته والقوم الذين كتب إليهم، وتاريخ تدوينه؛ ولم يتفقوا إلا على أنه ليس من تلاميذ المسيح ولا تلاميذ تلاميذه، وإلا على أنه كتب باليونانية<sup>(7)</sup>.

وعندما ننظر إلى محتوى هذا الإنجيل نجد أنه يؤكد هذه النتائج التي توصلنا إليها، فلوفا نفسه يبين في نبياجة

(1) المرجع نفسه، ص 48.

(2) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 88.

(3) أبو زهرة، معاضرات في النصارية، ص 48، 49.

(4) إنجيل متى، الإصحاح 19، فقرة 41-44.

(5) إنجيل متى، الإصحاح 21، فقرة 20-24، وقد نبهنا إلى هذين النصين لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 85، 86.

(6) المرجع نفسه، ص 88، أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 49.

(7) أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 49.

إتجيله الموجه إلى ثاوفيلس أنه بعد الآخرين الذين أثنأوا قصصا عن المسيح سينشئ هو بدوره قصة عن نفس الأحداث، مستخدما تلك التقصص والشهود المعايين، وهذا إقرار منه لا مجال للشك فيه بأنه ليس من الشهود المعايين، كما هو إقرار بوجود كثير من الأناجيل آنذاك<sup>(1)</sup>. " إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها لنا الذين كانوا منذ البدء معايين وخداما للكلمة، رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق، أن أكتب على التوالي إليك، أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي علمت به<sup>(2)</sup>. إن لوقا يريد أن يقدم عمله - في كتابة إنجيل - كنتيجة لاستقصاء حقيقي، يتألف من المعلومات التي جمعها وأيضا التي ينوي أن يبينها<sup>(3)</sup>. غير أن كلامه هذا يفتقد إلى عنصر جوهري في البحث العلمي، هو السند<sup>(4)</sup>. فمن هم الذين نقلوا إليه ما سمعوه وراءه عن المسيح والذين كانوا شهودا معايين وخداما للكلمة؟! إنه لم يذكر أي واحد منهم، ولم يذكر كذلك الذين كانوا واسطة بينه وبينهم إن لم يأخذ منهم مباشرة: " ثم أين ما يثبت به أنه روى عن شهود عاينوا، ومن هم هؤلاء الذين عاينوا وأخبروه؟ ولماذا لم يتولوا هم التدوين وهم أولى بذلك وكلامهم أحرى بالتصديق؟! فلا جواب عنه بلا ريب<sup>(5)</sup>. يضاف إلى هذا: أين سند هذا الإنجيل حتى لوقا، قبل أن نتعرف النسبة بين لوقا والمسيح؟. إن إنجيل لوقا كتب في العقد السابع بعد المسيح كما يزعم النصارى من غير أن يعينوا الزمن تعيينا دقيقا، ولكن لم يرد في التاريخ ولا على السنة الرؤساء والتقسيسين أي ذكر لهذا الإنجيل إلى سنة 200 م، ثم ذكرت الأناجيل الأربعة على لسان اثنين من العلماء فقط من سنة 200م إلى سنة 325 م، ولم نعرف هذه الأناجيل الحالية هي التي جاء ذكرها على لسان دينك العالمين في فترة من التاريخ قدرها 325م، وهي فترة طويلة<sup>(6)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإنه يبدو من خلال هذا الإنجيل أن كاتبه - لوقا - أديب وثني تنصر. له موقف من اليهود جعله يحذف من إتجيله أكثر الفقرات اليهودية عند مرقس، ويبرز كلمات المسيح في

(1) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 87.

(2) إنجيل لوقا، الإصحاح 1، فقرة 1-4.

(3) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 157.

(4) وقضية السند هي نقطة خلاف جوهري بين علماء الإسلام ورجال الكهنوت، إذ في حين نجد رجال الكهنوت لم يعيروا لها اهتماما كما هو حال لوقا ههنا، نجد علماء الإسلام يدقون فيها تدقيقا لا يضاهاى، وقد نشأ هذا الغرض علم الرواية والدرابة الذي يعد من أهم العلوم التي ظهرت في الأمة الإسلامية وهذا لا يدل إلا على الحرص الشديد على سلامة النصوص خوفا من المزيف والتريف، وهو دليل على أصالة الإسلام وصحته، ونحسب أن الأنجيل الأربعة.

(5) أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 93.

(6) المرجع نفسه، ص 93، 94.

مواجهة كفر اليهود، كما يبرر علاقاته الطيبة مع السامريين<sup>(1)</sup> الذين يمتقنهم اليهود - وهذه قضية مهمة جدا- لأنها دليل دقيق على أن كتاب الأناجيل كانوا يضعون على لسان المسيح ما يتناسب مع وجهات نظرهم الشخصية ويخدم وجهة نظر الطوائف التي ينتمون إليها. وهذا دليل قاطع على أن الأناجيل، هي كتابات " خصامية وظرفية"<sup>(2)</sup>.

ولا أدل على هذا من تناقض روايات كتاب الأناجيل الأربعة، وهو التناقض الذي اعترفت به الترجمة المسكونية ( ص 181 وما بعدها).

ومنه ما ذكره (أ. كولمان) في كتابه "العهد الجديد ص 18"، من أنه يوجد في إنجيل لوقا روايات لا توجد في غيره.

ومن ذلك :

روايته عن طفولة المسيح، فهي خاصة به، بينما متى يقصها بشكل يختلف عن لوقا. أما مرقس فلا يقول عنها أي كلمة. وهنا نتساءل: كيف يكون هؤلاء شهود عيان ؟ استحيل ذلك.

ومن ذلك :

الاختلاف في نسب المسيح عليه السلام، والتناقض بينهما صارخ. والسبب في ذلك على ما يبدو أن متى يتوجه بخطابه إلى اليهود فبدأ شجرة نسب المسيح بإبراهيم وجعلها تمر بداود، بينما لوقا الوثني المتصنر يهتم بأن يمد جذور هذه الشجرة إلى أبعد من ذلك، والاثنتان يتناقضان ابتداء من داود عليه السلام<sup>(3)</sup>. كما أن لوقا لكي يحقق هدفه رجع إلى معلومات العهد القديم حيث يجد فيها سلالة تشير إلى ذرية السلف من آدم حتى إبراهيم ثم يواصل لوقا كلماته ليزودنا بمعلومات عن الزمن الذي ظهر فيه الإنسان لأول مرة على ظهر الأرض، ولكن معلوماته خاطئة في كلا الأمرين<sup>(4)</sup>.

ومن ذلك:

رسالة المسيح، فإنها معروضة بشكل مختلف وفي نقاط كثيرة لدى كل من متى ومرقس ولوقا، فمثلا بعد أن تأسس سر القربان المقدس رغم أهميته القصوى في النصرانية يختلف عند كل من لوقا ومتى ومرقس، وهو ما اعترف به (الأب روجي) في كتابه: "مقدمة إلى الإنجيل، ص 75"، حيث يوجد تقارب

(1) هم طائفة سميت بالسامريين نسبة إلى منطقة السامرة التي كانت عاصمة مملكة اليهود التي انشقت بعد وفاة سليمان، تنحدر من خليط من شعوب يهودية، وغير يهودية، جاءت مع الآشوريين بعد سنة 722 ق.م، واستقرت بفلسطين. اعتنقت اليهودية، تعتبر كتابها المقدس كتب موسى الخمسة (التوراة) ويشوع، ويعتقدون أن التوراة هي وحدها التي تشتعل على الشريعة ولا يعترفون بغير نبوة موسى ويعتبرون اليهود ضالين ولا يتزاحون معهم. يؤمنون بالقيامة والحساب وعمحي، المسيح، ولكن اليهود يحترقونهم ويسموهم كوثيم (أي سكان مدينة "كوث" الوثنية) محمد بحر عبد الحميد، Dictionnaire Encyclopédique du judaïsme édition Française de la Librairie Armand Colin، دط، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1978م، ص 141، أيضا Refondue et augmentée sous la direction de Sylvie Anne Goldberg les éditions du Cerf, 1993..

(2) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 88.

(3) المرجع نفسه، ص 88، 89.

(4) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 157/158.

بين متى ومرقس. أما رواية لوقا فتتقارب مع رواية بولس في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثة<sup>(1)</sup>.  
ومن ذلك :

أن لوقا أورد في إنجيله عن صعود المسيح قولاً يناقض ما أوردته في أعمال الرسل التي سلم المتخصصون منذ القدم أنه هو كاتبها؛ لأن ديباجة كتاب أعمال الرسل موجهة أيضاً إلى ثاوفيلس<sup>(2)</sup>، حيث يحدد في إنجيله تاريخ الصعود بيوم الفصح، بينما يحددها في أعمال الرسل بأنها بعد يوم الفصح بأربعين يوماً، وهذا هو الأصل في تحديد العيد المسيحي للصعود بأربعين يوماً بعد الفصح وحيث يحتفل بالقيامة، ولا سيما أنه لا يوجد نص إنجيلي آخر يبرر هذا التحديد التاريخي، وخاصة أن متى ويوحنا لا يشيران إليه، وهذه مشكلة أخرى.

والواقع أن ما ذكرناه أنفاً دليل قاطع على كذب هذه الروايات<sup>(3)</sup>.  
والنتيجة من كل ما سبق، أن هذا الإنجيل كغيره ألفه مؤلف مجهول<sup>(4)</sup>. فلا نعرف اسم مؤلفه، ولا موطنه ولا سند روايته، وهو متناقض مع الأناجيل الأخرى، ومتناقض مع ما توصل إليه العلم الحديث، ومؤلفه يستحيل أن يكون أحد الحواريين، كما يجهل الذين ألف إليهم هذا الإنجيل. فهل يمكن بعد كل هذا الزعم أن هذا الإنجيل أملاه الله على الحواريين لوقا؟! إن هذا شيء عجاب.

### إنجيل يوحنا

يعد هذا الإنجيل أخطر الأناجيل وأكثرها شأناً، لأنه الإنجيل الذي نكر صراحة ألوهية المسيح<sup>(5)</sup> عليه السلام، وكان عمدة أصحاب مجمع نيقية سنة 325م في صياغة ما سموه بالأمانة<sup>(6)</sup>. ومما ورد فيه :  
" ابن الله الوحيد"<sup>(7)</sup>، " الأب في وأنا فيه"<sup>(8)</sup>، "أنا والأب واحد"<sup>(9)</sup>، "... أني أنا في الأب والأب في ... الأب

(1) فaron إنجيل لوقا، إصحاح 22، فقرة 19-24 مع إنجيل متى، إصحاح 26، فقرة 26-29، ومرقس، إصحاح 14، فقرة 22-24، ورسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثة، إصحاح 11، فقرة 23-25. (موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 89).

(2) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 85، 86.

(3) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 89.

(4) الموسوعة البريطانية، م 2، ص 954، عن محمد السعدي، المرجع السابق، ص 19.

(5) أبو زهرة، محاضرات في التصانية، ص 49.

(6) محمد رجب غنوي، الجامع المسيحية، ص 144.

(7) إنجيل يوحنا، إصحاح 3، فقرة 19.

(8) إنجيل يوحنا، إصحاح 10، فقرة 38، وتعني الفقرة حلول اللاهوت في الناسوت والناسوت في اللاهوت.

(9) إنجيل يوحنا، إصحاح 10 فقرة 31.

الحال في ... صدقوني أنني في الأب والأب في<sup>(1)</sup>.

وبهذا فإن هذا الإنجيل يعد عمدة في مخالفة ديانات التوحيد<sup>(3)</sup>، كما أنه كما يقول (أ. كولمان): يختلف عن الأناجيل الثلاثة السابقة اختلافا جذريا في اختيار الموضوعات وترتيبها، وكذا الروايات والأسلوب والجغرافيا والتعاقب الزمني للأحداث، وفي الآفاق اللاهوتية<sup>(4)</sup>. وهذا يدعونا إلى التسؤل عن مؤلف هذا الإنجيل.

يزعم جمهور النصارى ومنهم (أ. تريكو) و(الأب روجي) أن مؤلف هذا الإنجيل هو الحواري يوحنا بن زبيدي الصياد الذي كان يحبه المسيح عليه السلام. ولكن الحقيقة من هذه المجموعة من الأدلة الموضوعية تبين أن كاتبه يوحنا آخر غير السابق ذكره، ولا علاقة تربطه به، بل قد يكون اسمه مستعارا. ومن هذه الأدلة:

- المحققون من النصارى أنكروا في القرن 2م أن يكون يوحنا الصياد هو كاتب هذا الإنجيل، وكان بينهم أرينيوس تلميذ بوليكارب تلميذ يوحنا الحواري، ولم يرد على المتكرين عندما شاع إنكارهم أنه سمع من أستاذه صحة تلك النسبة. فلو كانت هذه النسبة صحيحة لعلم بها بوليكارب وأخبر أرينيوس بها. ولا يعقل أن يسمع أرينيوس الأشياء الخفية من بوليكارب مرارا وينقلها، ولا يسمع منه صحة هذه النسبة. ولا يمكن الزعم بأنه سمع ونسي؛ لأنه كان يعطي مكانة عظيمة للرواية الشفهية ويحفظها جيدا حسب زعمهم<sup>(5)</sup>.

- دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها 500 من علماء النصارى أوردت ما نصه: "أما إنجيل يوحنا، فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان يوحنا ومتى، وقد ادعى هذا الكاتب الممرور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ووضعت اسمه على الكتاب نصا، مع أن صاحبه غير يوحنا يقينا"<sup>(6)</sup>.

(1) إنجيل يوحنا، إصحاح 14، فقرة 11، 12.

(2) ونسجل هنا بأن هذا الإنجيل ورد فيه أيضا ما يدل على مخالفة الإنس لله عز وجل، ومن ذلك قوله: "أنا أعظم مني" (يوحنا 14-29)، وهذا يتناقض مع الحلول لأن نص الحلول يعني المساواة والاتحاد بينما هذا النص يبين التفاضل. والواقع أن هذا الإنجيل كثير التناقض بين الوجدانية والوثنية. ومما يبيد عبودية المسيح لله لا الربوبية، قوله في هذا الإنجيل: "... إن من يسمع كلامي ويلزم بالذي أرسلني فله حياة أبدية" (يوحنا، 25/5)، فالمسيح هنا يقر بأنه مرسل من غيره فهو عبد لله أرسله. وقوله: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا كما أسمع أدين، ودينوني عادلة لأن لا أطلب مشيقي، بل مشيئة الأب الذي أرسلني" (يوحنا، 31/5). فكيف يكون لها ولا يقدر أن يدين 14. ثم يقر بأن المشيئة ليست له بل للأب. فهذا اعتراف بأنه بشر فقط. ومن أوضح النصوص الدالة على إنسيته الصراحة قوله: "وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله" (يوحنا، 41/8)، فهذا النص يبيد صراحة أنه ينسب أرحى إليه، لا غير.

(3) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 49.

(4) أ. كولمان، عن موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 49.

(5) رحمة الله المفندي، المرجع السابق، ص 81.

(6) عن أبي زهرة، المرجع السابق، ص 50.

ويزيد الأمر تحقياً لما ذكرناه، اختلاف رجال الكهنوت في تاريخ تدوين هذا الإنجيل يبسن السنوات 68 و 98 م<sup>(1)</sup>، وتبينهم السبب الذي ألف من أجله.

ولكن الحقيقة أن هذا الإنجيل هو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة، ويبدو أن كاتبه يوحنا آخر، كان في أفسس ولم ير المسيح أصلاً، لأن يوحنا تلميذ المسيح هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف في سنة 96 م حسب زعمهم، ولا يمكن الاعتقاد بأن مؤلفاً واحداً يؤلف كتابين في وقت واحد بينهما مثل ذلك التبائن في المنهج والفحوى<sup>(2)</sup>.

يضاف إلى هذا أن محتوى هذا الإنجيل ذاته يثبت أنه كتب متأخراً عن الأناجيل الأخرى، حيث فصل بعض ما أجملته، وتوسع في شرح العقائد التي أتى بها بولس، كما توسع في التعبيرات الفلسفية، مما يدل على تضلع كاتبه في الفلسفة والديانات، مما يدل أيضاً على أن محتوى هذا الإنجيل ليس بإمكان صياد كتابته، بل كتبه شخص متضلع في فلسفات اليونان حيث غلبت عليه فكرة الفلسفة وبدأه بالكلام عن الكلمة (Logos)، ووصف فيه التجسد الإلهي على النحو الذي يآلفه اليونان ومن تطبع بطبعهم في ذلك<sup>(3)</sup>.

ولكنه من ناحية أخرى نجده ناقص الحيك والترتيب، يجري كل شيء وكأن المؤلف لم يشعر قط بأنه وصل إلى النهاية، وهو ما جعل مقرداته غير مرتبة<sup>(4)</sup>.

ويزيد قضية هذا الإنجيل تعقيداً - وبالمقابل إظهاراً للحقيقة - الغرض الذي كتب من أجله، وهو أن كثيراً من فرق الشرق كانت تعتقد بعدم ألوهية المسيح، فطلب البعض - ممن يؤلهونه - من يوحنا هذا أن يؤلف لهم إنجيلاً يتضمن بيان هذه الألوهية. فألف هذا الإنجيل، ومن القائلين بهذا :

جرجس زوين اللبناني، ويوسف الدبس الخوري اللذان بيئا أنه في سنة 98 م اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا، وطلبوا منه أن يكتب عن المسيح ويؤلف إنجيلاً مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون، وأن يكتب بنوع خصوصي لاهوت المسيح<sup>(5)</sup>، وهو ما اعترف به أ. كولمان حين يبسن أن أهداف يوحنا اللاهوتية تختلف عن الأهداف اللاهوتية للمبشرين الآخرين<sup>(6)</sup>.

والواقع أن هذا الكلام خطير جداً، لأنه يبين أنه كان يمكن أن لا يكتب هذا الإنجيل لولا إلحاح بعض الناس، وهو يدل أيضاً على أن الأناجيل إن هي إلا عبارة عن كتابات ظرفية خصامية تهدف إلى تقوية الطائفة التي ينتمي إليها الكاتب. يضاف إلى هذا عدة أشياء أخرى مهمة هي : أن كتاب النصارى،

(1) أبو زهرة، المرجع السابق، ص 50، 51.

(2) العقاد، ميلاد المسيح، ص 374.

(3) المرجع نفسه، ص 374، 375.

(4) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 87.

(5) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 53.

(6) موريس بوكاي، القرآن الكريم و.....، ص 91.

يجمعون على أن هذا الإنجيل كتب لإثبات ألوهية المسيح التي اختلفوا في شأنها، لعدم وجود نص في الأناجيل الثلاثة يثبت ألوهيته، أو كانت كذلك قبل تدوين هذا الإنجيل.

وهذه القضية تعد في منتهى الأهمية والخطورة، فهي تبين أن النصارى مكثت أناجيلهم نحو قرن من الزمان ليس فيها نص على ألوهية المسيح، كما تبين بجلاء أن أولئك الأساقفة اعتقدوا ألوهية المسيح قبل وجود الإنجيل الذي يدل عليها ويصرح بها. وهذه القضية لا تقل خطورة عن السابقة لأن الكتاب المقدس هو الذي يجب أن يحدد العقيدة ويبينها لا العقيدة هي التي تحده.

كما يتبين بجلاء صعوبة أخرى في العلاقة بين الأناجيل والرسائل، لأن الشائع أن الرسائل كتبت قبل الأناجيل، وهي تتضمن ألوهية المسيح، فهل يعني هذا أن تاريخ كتابة الرسائل جاء متأخرا عن كتابة الأناجيل وأن تلك الرسائل كتبت لتؤيد الألوهية التي يتضمنها هذا الإنجيل (1)؟! وحتى لو فرضنا صحة الرأي الشائع بأن الرسائل كتبت قبل الأناجيل فإن هذا في حد ذاته مشكلة. إذ كيف يكتب الفرع قبل الأصل؟! إن هذا الشيء العجيب يحير أولي الألباب .

ومهما يكن من أمر، فإن الصيغة النهائية لهذا الإنجيل حررت في نحو نهاية القرن الأول م، وكل شيء يوحي بأن هذا الإنجيل كتبه مجموعة من الكتاب وليس واحدا، وقد أضيفت له كثير من الفقرات على مر العصور، ومنها رواية المرأة الزانية التي يتفق الكل على الاعتراف بأنها نص مجهول الأصل أضيف فيما بعد (2) رغم إصرار الكنيسة على عدم حذفه.

كما أنه يحتوي على كثير من التناقضات والتفردات التي تثير الدهشة ومنها :

- القربان المقدس الذي يجعل المرء يتساءل : كيف يمكن تصور أن يوحنا وهو المبشر المفكر المتأمل - بكل معنى الكلمة - حسب زعمهم لا يتحدث عن الحدث الرئيسي في النصرانية الذي يعد من أهم أركان الطقوس الكنيسية، أي القداس، ويكتفي فقط في سرده لهذا العشاء الذي يسبق الآلام: بوصف غسل أقدام الحواريين والتنبؤ بخيانة يهوذا الإسخريوطي وإنكار بطرس؟! (3).

- اختلافات مهمة جدا بين إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى، مثل الاختلاف الخاص بالفترة الزمنية لبعثة المسيح. فيحددها مرقس ولوقا ومتى بعام واحد، أما يوحنا فيحددها بأكثر من عامين، وهو ما بينه (أكولمان)، وكذا الترجمة المسكونية. فمن يجب أن نصدق يا ترى: متى ومرقس ولوقا، أم يوحنا (4)؟! وهل يمكن اعتبار هؤلاء شهود عيان؟! .

(1) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 54.

(2) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 90، 91.

(3) المرجع نفسه، ص 92.

(4) المرجع نفسه، ص 92، 93.

النتيجة مما سبق : أن هذا الإنجيل كغيره مجهول الكاتب وتاريخ الكتابة ومكانها، مما جعل البعض يتركون تسمية المؤلف فيصفونه بأنه مسيحي كتب باليونانية في أواخر القرن الأول في كنيسة من كنائس آسيا، حيث كانت تتلاطم التيارات الفكرية بين العالم اليهودي والشرق الذي اعتنق الحضارة اليونانية<sup>(1)</sup>.  
ما سبق من حديث عن الأناجيل يجعلنا نتساءل من جديد، ما هي مصادر الأناجيل؟ ومن صنفها؟.

### مصادر الأناجيل ومن صنفها ؟

المقارنات السابقة للأناجيل بينت أنها مجهولة المؤلفين وتاريخ التأليف ومكانه، وأنه لا واحد منها كتب باللغة التي كان يتكلم بها سيدنا عيسى عليه السلام وحواريوه، ولقد صدق فاستس<sup>(2)</sup> عندما صاح منذ القرن 4م قائلاً: " إن العهد الجديد ما صنفه المسيح ولا الحواريون، بل صنفه رجل مجهول الاسم، ونسب إلى الحواريين ورفقاء الحواريين ليعتبره الناس، وأدى المريدين لعيسى إيذاء بليغا بأن ألف الكتب التي فيها الأغلاط والتناقضات"<sup>(3)</sup>.

كما أنها، محتواها يبين أنها مفككة متناقضة يستحيل التوفيق بين تناقضاتها كما يقول أصحاب الترجمة المسكونية مما يبقى السؤال الجوهرى مطروحا، وهو :  
ما هي المصادر التي اعتمدها كتاب الأناجيل في كتابتها؟ والجواب على هذا السؤال، أنه في العصر الحديث أدرك البعض أن كل مبشر أنشأ رواية خاصة حسب وجهة نظره الشخصية معتمدا على ما وجدته من تراث شفهي للطوائف الأصلية، وعلى مصدر أرامي مشترك مفقود<sup>(4)</sup>، يشيرون إليه بحرف ك، اختصارا لكلمة كويل (Quelle) بمعنى الأصل<sup>(5)</sup>، ويبدو أن هذا هو الذي قاد المفكرين إلى النظرية الحديثة المسماة بمصدرى هولتزمان (Holtzmann) (1863)، ومضمونها حسب أ. كولمان والترجمة المسكونية: أن متى ولوقا استلهما مرقس من ناحية، ووثيقة مشتركة مفقودة اليوم من ناحية أخرى، إضافة إلى أن كلا منهما كان يملك مصدرا خاصا به، غير أن أ. كولمان يقدم ملاحظة مهمة جدا هي أن مؤلف مرقس الذي استلهمه متى ولوقا ليس إنجيله، بل مؤلف سابق على إنجيله، كما أن أ. كولمان لا يعطي أهمية للتراث الشفهي، وهذه المعضلة جعلت الأبحاث تتواصل.

(1) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 86، 87.

(2) فاستس بعد من أكبر علماء فرقة مان كير، عاش في القرن 4م، (رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 81).

(3) المرجع نفسه، ص 81، 82.

(4) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 94.

(5) الطهطاوي، ميلاد المسيح، ص 373.



وأحدث أبحاث نقد النصوص الخاصة بمصادر الأناجيل إنما وردت في طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة :  
 "Synopse des quatres Evangiles" للابن بينوا "P.P. Benoit" ويومار "Boismard"<sup>(1)</sup>، وقد بينا  
 أن تطور النصوص مر بمراحل متعددة تتوازي مع تطورات روايات<sup>(2)</sup> التراث.

بمعنى أن التراث الشفهي الذي اعتمدوا عليه لم يدون كما كان، بل كما أصبح. مما يعني مخالفته للأصل.  
 كما أن الذين دونوها أجروا عليها تعديلات وضحها الأب يومار في رسم بياني شديد التعقيد يوضح به  
 نظرية المصدرين، ويتوصل بعد مقارنات وفحوص دقيقة للنصوص إلى أن هناك أربعة وثائق أساسية  
 هي: أ، وب، وج، وق. تمثل المصادر الأصلية للأناجيل.

الوثيقة أ. يهودية الأصل اعتمد عليها متى ومرقس، والوثيقة ب هي تفسير لـ أ استخدمتها الكنائس الوثنية  
 النصرانية اعتمد عليها كل المبشرين باستثناء متى ومرقس، وج : اعتمد عليها مرقس ولوقا ويوحنا، وق:  
 الوثيقة المشتركة في نظرية المصدرين بين متى ولوقا.

ولكن هذه الوثائق الأساسية ليست هي أساس الأناجيل الأربعة الحالية. وإنما توجد بينها وبين التحرير  
 النهائي للأناجيل تأليف وسيطة خاصة بكل إنجيل هي التي أدت إلى الصيغة النهائية للأناجيل الأربعة<sup>(3)</sup>.  
 أي أن هذه الوثيقة الوسيطة أثرت على النسخة النهائية للأناجيل. وهذا يعني أن هناك تعديلات أخرى  
 أجريت على الأناجيل في مرحلة الوثائق الوسيطة. وهو ما يفسر سبب بعض التناقضات الموجودة<sup>(4)</sup>  
 بينها. ولقد صدق الأب بنوا (Benoit) عندما اعترف : "بأن بعض أقوال المسيح ورواياته الرمزية وتنبؤه  
 بمصيره لم يتم التعبير عنها بالطريقة التي نقرأها اليوم، ولكنها تغيرت وعدلت بواسطة أولئك الذين نقلوها  
 إلينا... قد يكون هنا مدعاة للدهشة وربما للفضيحة بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا هذا اللون من  
 الاستقصاء التاريخي"<sup>(5)</sup>. وبهذا فإن عمل مدرسة الكتاب المقدس بالقدس يفند زعم مجمع الفاتيكان II من  
 أن الأناجيل الحالية تنزيل إلهي<sup>(6)</sup>.

ما سبق يجعلنا نتوصل إلى النتيجة المؤسفة الآتية : مع كل هذا يضاف عامل آخر هو أنه حتى الأناجيل  
 الأربعة لم يعثر على نسخها الأصلية. علما أن هذه الأناجيل الأربعة لم تصبح رسمية إلا في القرن 4م،  
 أي في مجمع نيقية سنة 325 م، وظلت معها أناجيل أخرى في القائمة الرسمية إلى مجع هيبيون سنة  
 343 م وقرطاجنة سنة 397 م ثم شطبت لتبقى الأناجيل الأربعة كما ذكرنا قبلًا .  
 وأقدم المخطوطات الكاملة لها، مخطوطتان من الرق مكتوبتان باليونانية في القرن 4 م.

(1) وهما أستاذان بمعهد الكتاب المقدس بالقدس، وطبع كتابهما المذكور أعلاه سنة 1972-1973، (موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص96).

(2) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟ ص157.

(3) موريس بيكاي، القرآن الكريم، و...، ص96-98.

(4) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص157.

(5) المرجع نفسه، ص157.

(6) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص98.

أجلهما المجلد الفاتيكانى. ومكان اكتشافه مجهول وهو بالفاتيكان، ويسمى "Codex Vaticanus" وينقصه الرسالة إلى العبرانيين 14/9 - 25/13 والرسالتان الأولى والثانية، إلى طيموثاوس، والرسالة إلى طيطس، والرسالة إلى فيلمون والرؤيا<sup>(1)</sup>. ورغم أن هذا المجلد هو أجل المخطوطات عند الكنيسة إلا أنه إضافة لنقصه فلا يمكن اعتماده علمياً وهو ما بينته الطبعة المطابقة للأصل التي أصدرها الفاتيكان سنة 1965 م، حيث نبه الفاتيكان فيها إلى أنه: "بعد مرور قرون عدة على النسخة أعاد خطاط كتابة كل الحروف بالحبر ما عدا تلك التي رأى أنها خطأ- وهذا الخطاط مجهول فلا نعرف أمانته وديانته إلخ - ولا تزال عبارات من النص ما تزال أحرفها الأولى ذات اللون الأسمر واضحة وتتناقض مع بقية النص المكتوب بحبر بني غامق، ولا شيء يسمح بتأكيد أن هذا التصحيح كان أميناً". وأضاف التعليق الفاتيكانى ما يأتي: "لم نتمكن حتى الآن من أن نميز بشكل نهائي مختلف الأيدي التي صححت المخطوطة ووضعت عليها الحواشي عبر القرون، ولا شك أن عدداً من التصحيحات قد عمل ساعة تحرير النص"<sup>(2)</sup>. ويكفي دليلاً شهادة الفاتيكان هذه التي أقر فيها أن بعض الأيدي المجهولة حرقت النص الأصلي بعد ذلك بقرون كثيرة. وقد علق بيكاي على هذا بقوله: "ومع ذلك فإن كل كتب التعليم الدينى تقدم هذه النسخة على أنها نسخة من القرن 4"<sup>(3)</sup>

وأما المخطوطة الثانية، فقد اكتشفت، بجبل سيناء بدير القديسة كاترينا، ولذلك يسمى المجلد السينائي (4)<sup>(4)</sup>، وهي محفوظة بالمتحف البريطانى، وتضم مؤلفين غير معترف بهما كنسياً<sup>(5)</sup>. وهما: إنجيل برنابا، وجزء من الراعى لهرمس<sup>(6)</sup>، وهذا يضيف مشكلة أخرى، هي: ما هو المعيار الذي نميز به فى مخطوطة واحدة بين نص نعتبره مقدساً، وآخر نعتبره مزيفاً؟! يضاف إلى هذا أن النساخ كانوا يسمحون لأنفسهم بتعديل ما يرونه مناسباً لهوهم، وهذا ما يصدق على المخطوطة الأكثر احتراماً بعد المخطوطتين السابقتين، وهي:

"Codex Bezae Contabrigieusis" التي ترجع إلى القرن 6م، فإن الناسخ بعد أن تأكد من الاختلاف فى نسب عيسى بين إنجيلي لوقا ومتى فقد سجل فى نسخته لإنجيل لوقا النسب الموجود فى متى، ولما كان إنجيل متى يحتوي على عدد أقل من الأسماء، فقد ضخها بأسماء إضافية دون أن يراعى إعادة التوازن. كل هذا اعتراف به (أ. كولمان) وأصحاب الترجمة المسكونية وغيرهم. وبذلك فقد شهد شاهد من أهلها<sup>(7)</sup>.

(1) لواء أحمد عبد الرهاب، المرجع السابق، ص 24، 25.

(2) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 101.

(3) لواء أحمد عبد الرهاب، المرجع السابق، ص 24. أيضاً: بيكاي، المرجع نفسه، ص 101.

(4) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 101.

(5) لواء أحمد عبد الرهاب، المرجع السابق، ص 24.

(6) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 99-103.

وإضافة لما سبق، فإن جميع النسخ الأصلية للعهد الجديد التي كتبت بيد مؤلفيها إختفت. والعامل الزمني بين أحداث العهد الجديد وتاريخ كتابة مخطوطاته الموجودة حالياً لا يقل عن 200 أو 300 سنة. يضاف إلى هذا ما ذكرناه من تدخل النساخ في إعادة صياغتها وفقاً لهواهم، ولهذا فقد وردت اختلافات كبيرة جداً بين نسخ الأناجيل يستحيل معه الوصول إلى نص واحد متفق<sup>(1)</sup>. وهذه الاختلافات ليست قائمة بين مخطوطات العهد الجديد بشكل عام فحسب، بل أيضاً بين النسخ المختلفة للإنجيل الواحد، وهو ما اعترف به أصحاب الترجمة المسكونية الذين بينوا بأنه يوجد في العالم 250 مخطوطة رقيقة أخرى معروفة، وأخرها يرجع إلى القرن 11م، ولكن: "كل نسخ العهد الجديد التي وصلت إلينا ليست متطابقة، بل بينها اختلافات تمس معاني فقرات بأكملها"<sup>(2)</sup>. وقد وصلت هذه الاختلافات حداً من الكثرة وصل إلى أكثر من 150 ألف اختلاف بين النصوص<sup>(3)</sup>، وقد أكد هذا ما قام به بعض كبار قسيسي ألمانيا في القرن 19 من جمع مخطوطات الإنجيل باليونانية - وهو الأصل عندهم - من العالم كله، وقارنوا بين مختلف النسخ فوجدوا ما يقارب 200 ألف اختلاف في الروايات<sup>(4)</sup>. وهذا ما جعل "العلامة" الفرنسي "شارل جنيير"<sup>(5)</sup>، يقرر أن: "أغلب الفقرات التي يظهر فيها أنها من الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محرري الأناجيل لا عن عيسى. أما تلك التي يرجح أنها مبنية على حديث صحيح فلا تعدد الأربع أو الخمس فقرات، ولا يمكن أن نصفها بأقل من أنها خاطئة أساساً في ترجمتها للنص الأصلي"<sup>(6)</sup>. وهذا يقودنا إلى الحديث عن صعوبة أخرى لا تقل عن سابقتها، وهي مشكلة الترجمة.

(1) محمد السعدي، المرجع السابق، ص 34 - 36.

(2) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 100، 101.

(3) الموسوعة البريطانية، م 2، ص 941، نقلاً عن محمد السعدي، المرجع السابق، ص 36.

(4) وهذا ما جعلهم يؤسسون معهد البحوث القرآنية في جامعة ميونيخ ويجمعون نسخ القرآن الكريم من جميع أنحاء العالم لثلاثة أجيال متوالية، وفي سنة 1933-1934، ذهب ثلث المديرين للمعهد إلى السربون، وهو الأستاذ برنستل لتصوير مخطوطات القرآن الكريم، ولا سيما أنه يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس نسخة من القرن 2هـ. فقابله د/حميد الله فأخبره قائلاً: "عندما في هذا الوقت 42 ألفاً من مخطوطات القرآن الكريم كاملة وحزينة، وعمل المقارنة حار" وقبيل الحرب العالمية II نشروا تقريراً مؤقتاً قالوا فيه: "لم نجد إلى الآن أي اختلاف في الرواية". (حميد الله، التاريخ المقارن للقرآن الكريم والصحف المسماة، مجلة الأمة، قطر، رمضان 1402 هـ، يوليو 1982م، م 2، ص 2، ع 21، ص 44).

(5) هو رئيس قسم مقارنة الأدب من جامعة باريس (رؤوف شلي، آلهة في الأسوار، دراسة في النحل والأهواء القديمة في الشرق)، ط 3، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، المنصورة، مصر 1984م، ص 31.

(6) رؤوف شلي، ندرج نضغه، ص 31.

## مشكلة الترجمة

لقد تبين لنا مما سبق، أنه لا أثر للإنجيل الذي نزل على المسيح عليه السلام، وأن الأناجيل الأربعة الرسمية لا علاقة لها بالحواريين، وأنها مجهولة المؤلفين ومكان التأليف وتاريخه؛ مما يجعلنا نرجح أن الذين كتبوها إنما كتبوها بغرض التحريف وتوثيق النصرانية، كما تبين لنا أن المسيح عليه السلام وتلاميذه تكلموا الآرامية<sup>(1)</sup>. بينما وجدنا الأناجيل الأربعة كلها مكتوبة باليونانية<sup>(2)</sup> على مخطوطات بالية تختلف نصوصها اختلافا كبيرا وليس فيها أي إنجيل بخط مؤلفه<sup>(3)</sup>. وهذا في حد ذاته يثير صعوبة أخرى أمام النصرانية تتمثل في عملية الترجمة. ذلك أن الترجمة تقتضي أن أعرف النسخة الأصلية التي يجب أن تكون باللغة التي استعملها المسيح، لنعرف أكانت الترجمة طبق الأصل أم فيها تحريف، ولنعرف أفهم المترجم مرامي العبارات ومعانيها<sup>(4)</sup>، وأن نعرف من هم المترجمون لأعرف مدى أمانتهم العلمية، ولماذا ترجموا<sup>(5)</sup> - أو لماذا لم يكتبوا الإنجيل بلغته - وذلك لنعرف مدى أمانتهم العلمية، ومدى مكانتهم في النصرانية، هل هم حجة فيها أم من أعدائها؟ وهل هم عارفون باللغتين : الأصل والترجمة؟ ولكن الأصل جهل، والمترجم جهل.

وهكذا اجتمع في الأناجيل إضافة لما سبق، جهل النسخة الأصلية و جهل المترجم وحاله من صلاح أو غيره، و جهل بالدين الذي ينتمي إليه ومدى علمه أو جهله باللغتين التي ترجم عنها والتي ترجم إليها، إضافة إلى الجهل بتاريخ التدوين وتاريخ الترجمة وملابساتها<sup>(6)</sup>، ولم تكن نماذج طيبة في النحو أو في الصقل الأدبي<sup>(7)</sup>. إضافة إلى أن كل هذا تم في بيئة معادية للمسيح عليه السلام، هي البيئة اليونانية التي جاءت الأناجيل الأربعة مكتوبة بها، والبيئة الرومانية التي كان أبناؤها ألد أعداء المسيح - وقد بينا كيف كان بولس مكلفا من طرفهم باضطهاد أتباع المسيح - ولا يمكن أن يتلقى المرء تعاليم شخص من أعدائه<sup>(8)</sup>. يضاف إلى هذا تحريم الكنيسة لترجمة الكتاب المقدس من اليونانية إلى اللغات الأخرى.

(1) الآرامية هي شكل قديم من أشكال السورانية، وكانت منتشرة في الإمبراطورية الفارسية، وكان استعمالها شائعا في الشرق الأدنى على السنة اليهود وغيرهم (جورج سارتون، تاريخ العلم، ج4، هامش رقم 37، ص309.

(2) ويذكر ول ديورانت أنها كتبت كلها باليونانية النارجة (ول ديورانت قصة الحضارة، فصر والمسيح، م3، ج3، ص207) وهو ما يزيدنا انحطاطا في القيمة العلمية.

(3) وقد تبين لنا أن الأناجيل الأربعة لم تكتب بلغة الإنجيل الأصلية.

(4) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص45.

(5) إبراهيم محمود جوب، تطلب على الكماك، الملتقى 7 للتعرف على الفكر الإسلامي، م3، ص1200، 1201.

(6) محمد أبو زهرة، المرجع نفسه، ص45.

(7) ول ديورانت، المرجع السابق، ص207.

(8) إبراهيم محمود جوب، المرجع نفسه، ص1200، 1201.

وأول ترجمة مطبوعة قام بها وليام تندال فأعدم لهذا السبب حرقاً بالشد على الخازوق في أكتوبر 1536م على رؤوس الأشهاد، كما أمر بإحراق ما ترجم واعتباره زائفاً متعمداً إفساد نص الكتاب المقدس. ومع ذلك فقد اعتبرت ترجمته أساساً لما أتى بعدها من ترجمات إنجليزية إلى أن عملت نسخة الملك جيمس<sup>(1)</sup>. فقد اعتمد مترجموها على التراجم السابقة ولا سيما ترجمة "تندال" وأصبحت نسخة الملك جيمس هي النسخة المعتمدة للشعوب الناطقة بالإنجليزية<sup>(2)</sup>. ومع هذا فقد اكتشفت بها أخطاء كثيرة في منتصف القرن 19 بعد اكتشاف مخطوطات كثيرة أقدم من التي اعتمدت عليها ترجمة الملك جيمس، وذلك بعد مقارنتها بها، وهي من الكثرة والخطورة مما استدعى تنقيحها<sup>(3)</sup>. ومع كل هذا فقد اعتبر رجال الكهنوت الناطقون بلغة الملك جيمس أن نسخته كلام الله. وتحتوي على 66 سفراً، ونشرت لأول مرة عام 1611 بأمره، والذي لا زال اسمه موجوداً عليها<sup>(4)</sup>. هذه النسخة أي نسخة الملك جيمس يقول عنها مراجعوا النسخة القياسية - وهم اثنان وثلاثون من أكبر رجال الكليروس يساندونهم خمسون من الطوائف المسيحية - بأنها أعظم الآثار الأدبية في النشر الإنجليزي. ولقد عبر مناقشوها عام 1881 م عن إعجابهم بسهولة وجلالتها... ولقد أثرت كما لم يؤثر أي كتاب آخر في صبغة الشخصية الذاتية والمؤسسات العامة لدى الشعوب الناطقة بالإنجليزية، وقيل عنها: نحن مدينون لها بديون لا تحصى. ورغم كل هذا فإن في نسخة الملك جيمس كما يقول هؤلاء - أي 32 من أكبر رجال الكليروس وخمسون من الطوائف المسيحية المساندون لهم - عيوباً خطيرة جداً وكثيرة جداً تستدعي مراجعة وتنقيح الترجمة الإنجليزية. وقد نقحوها<sup>(5)</sup>. وظهرت عدة تنقيحات منها:

الترجمة الإنجليزية المراجعة "Revised English Version" في الأعوام 1881 م و 1885 م - يعني أثناء حياة بورغاد، مما يجعلنا نعتقد أنه كان يؤمن في قرارة نفسه بفساد كتابه المقدس وتحريفه - ومنها:

(1) نسخة الملك جيمس هي كلمة الله عند البروتستانت، وتحتري على العهدين القديم والجديد، ولكنها ليست كلمة الله عند الكاثوليك، كما أن كلام الله عند الكاثوليك ليس هو كلام الله عند البروتستانت، وذلك لأن الكتاب المقدس الكاثوليكي يحتوي على 73 سفراً بينما البروتستانت يسقطون منسبه سبعة أسفار، هي: طوياء، يهوديت، تنمة استير، الحكمة، يشوع بن سوراخ، باروخ، تنمة دانيال، المكابيين الأول، المكابيين الثاني - إضافة إلى بعض الاختلافات في الأسفار المتفق عليها - ويعتبرونها "أبركريفا"، أي مشكوك في أمره أو ضعيف أو ليس أهلاً لأن يوضع في كتاب الله - وهنا تسأل: أين كلام الله الحقيقي؟ (أحمد ديدات، مناظرة القيس سوجارت بنوان المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان، جمع وترتيب أحمد حجازي السقا، تقدم الشيخ محمد الغزالي، ط1، مكتبة زهران، القاهرة، 1988م، ص129، 130، هامش ص129).

(2) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص4.

(3) اكتشاف مخطوطات أقدم لا يردى بالضرورة إلى حل المشكلة، لأنه يمكن أن تكون النسخة الأحدث أقل أخطاء، وذلك يتوقف على مجموعة من العوامل معروفة في منهج تحقيق المخطوطات، وإنما الذي يحل المشكلة هنا هو اكتشاف النسخة الأصلية، وهو ضرب من المستحيل.

(4) وقد طرقت ديدات على هذا بقوله: "هذه هي النسخة المعتمدة، معتمدة ممن؟ ليس من الله تعالى، معتمدة من الملك جيمس، إنه هو الذي اعتمدها وليس الله تعالى" (أحمد ديدات، المناظرة الحديثة، ص130).

(5) أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص132، 133.

الترجمة القياسية الأمريكية " American Standard Version " في عام 1901 م. وظلت عملية تنقيح الترجمة ومراجعتها مستمرة إلى أن صدرت الترجمة القياسية المراجعة " Revised Standard Version " في عام 1952 م. وأما أهل بورغاد فقد أخرجوا بالفرنسية الترجمة المسكونية للكتاب المقدس : (1) Traduction Ecuménique de la Bible . وقد اشترك في تحريرها أكثر من مائة من رجال الكهنوت من مختلف الطوائف كاثوليك وبروتستانت، وفيها اعترافات صريحة بكثير مما وقع في الأناجيل (2). والنتيجة التي نستخلصها مما سبق: هو أن أخطاء الترجمات الخطيرة هي التي تستدعي إعادة النظر والتعديل المناسب. وهي عملية مستمرة مازالت إلى يومنا هذا (3). وهذا يبين بجلاء استحالة الوصول إلى النص الأصلي. كما يبين استحالة الوصول إلى التيقن؛ لأن النص الأصلي الذي يحتكم إليه مفقود. وبهذا فإن العهد الجديد الحالي هو عهد جديد مؤقت. فهو معرض للتغيير والتبديل حسبما تأتي به الأيام (4). ولقد صدق أصحاب الترجمة المسكونية عندما أعلنوا قائلين " فلا مجال مطلقاً للأمل في الوصول إلى النص الأصلي نفسه" (5). ويصدق على الإنجيل المثل الذي يقول " كيفما تضرب الأقرع يسيل دمه".

### تناقضات الأناجيل وتناقضها مع معطيات العلم الحديث

بعد أن بينا الصعوبة التي أضافتها الترجمات إلى ما يعترض الكتاب المقدس من صعوبات ذكرناها قبلاً نشير هنا إكمالاً للموضوع إلى قضية أخرى لا تقل خطورة عما سبق، تبين استحالة أن يكون كتاب الأناجيل كتبها بإلهام، كما تبين استحالة كونها كلام الله. والمقصود بهذا: التناقضات الموجودة بين الأناجيل، ولن نشير إلى كلها، بل نكتفي بالإشارة إلى بعضها (6)، ومنها:

#### 1- الاختلاف في نسب المسيح عليه السلام :

يجب أن نشير في البداية إلى أنه لم يتعرض لسلسلة نسب سيدنا عيسى عليه السلام سوى متى ولوقا في إنجيليهما. ولسنا ندري السبب الذي جعل مرقس ويوحنا لا يشيران إلى هذا النسب. ولسنا ندري أيضاً ما

(1) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 4، 5.

(2) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، إنشاء من ص 77.

(3) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى: أحمد ديدات، المناظرة الحديثة، ص 130-138.

(4) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 26.

(5) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 103.

(6) ومن أراد التوسع في معرفة تلك التناقضات فليرجع إلى رحمة الله الخندي، فقد بين أكثر من 100 اختلاف واحد ما مناظره من النصارى فأحدهم (رحمة الله الخندي، المرجع السابق، إنشاء من ص 9).

هو ميرر ذلك. ذلك أنه لا يقتنعنا القول بأن ورود هذا النسب في إنجيلين يكفي<sup>(1)</sup>، لأنه لا يعقل أن يلهم الله كتاب الأنجيل الأربعة، جميعاً أن ابنه - تعالى عن ذلك - كان يركب الحمار في القدس في الوقت الذي كان فيه كل من هب ودب يركب الحمار في القدس، ولا يلهمهم أن يذكروا - أربعتهم - نسب ابنه :

وأول ملاحظة ذات أهمية قصوى نلاحظها، أننا نجد في إنجيلي متى ولوقا 66 أبا وجدا للمسيح ولكنّه لا يوجد من بين هؤلاء الـ 66 أبا وجدا اسمان متشابهان في الإنجيلين فيما عدا اسم واحد. وفي قوائم منفصلة نجد أن الأسماء مختلفة وليس بينها والد المسيح الذي يزعم يورغاد أنه الله تعالى وهو ما جعله يعتبر نسب المسيح أرفع من نسب محمد صلى الله عليه وسلم لأن آباء محمد صلى الله عليه وسلم كانوا كفاراً، بينما أب المسيح هو الله، تعالى الله عن هذا علواً كبيراً. وهنا نسأل تساؤلاً منطقياً وواقعياً، هو:

هل يمكن تصور أن الله عز وجل، يملئ أنساب - ابنه - تعالى الله وتتره عن هذا - ومع ذلك يستبعد اسمه وينحرف عن الطريق؟ كيف يعقل أن الله يملئ سلسلة أنساب تضم 66 اسماً وهو ليس ضمنها ولا موجوداً فيها؟! . ما الذي يحاول أن يقوله النصارى حين لا يكون اسمه موجوداً؟ شخص بدون أنساب يعطيه النصارى 66 أبا وجدا ثم يقولون - هذا ابن الله، وهذا ما أملاه الله تعالى<sup>(2)</sup>؟! . ولنبداً بتحليل ما ورد في نسب المسيح فنقول بأنه لا يمكن قبول الإدعاء بأن الله أوحى بنص أقر فيه 20 جيلاً فقط بين أول إنسان - آدم عليه السلام - وإبراهيم، وهو ما زعمه لوقا في إنجيله<sup>(3)</sup>، وهو ما يتعارض مع معطيات العلوم الحديثة، وهو مما يجعل سلسلة نسب المسيح في الإنجيلين مرفوضة عقلاً، ومتناقضة مع المعطيات العلمية وتبين زيف الإنجيلين وتخرج المعلقين النصارى إخراجاً شديداً.

والأغرب من كل هذا أن هذا النسب ليس من جهة الأم، بل من جهة الأب مما يجعله عديم المعنى، إذ ليس للمسيح أب بيولوجي، والأسوأ من كل هذا أنهم جعلوا نسبه ينتهي إلى يوسف خطيب أمه<sup>(4)</sup>.

والواقع أن سلالة النسب التي تربط عيسى بآدم عن طريق يوسف غير منطقية على الإطلاق لأنه لا أثر بيولوجي إطلاقاً ليوسف في ميلاد المسيح، وهكذا فإن إنجيل لوقا يعطينا السلالة المفترضة ليوسف بينما الأصل المنطقي - البيولوجي - الوحيد للمسيح إنما هو من خلال أمه مريم عليها السلام<sup>(5)</sup>.

إن جعل نسب المسيح من جهة يوسف النجار لا يمكن فهمه إلا إذا اعتبر المسيح عليه السلام لقباً، وهو ما اتهمت به مريم عليها السلام، وقد برأها القرآن الكريم الذي بين بدقة تلك التهمة، كما أبطلها أيضاً بدقة ﴿ فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جننت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهدي صبياً قال إنسي عبد الله آتاني الكتاب

(1) ونحن هنا فإنه يزيد القضية تعقيداً لأن الإنجيليين متضاربين كما ذكرنا في الأسماء مما يجعل ذلك عامل شك فيهما معاً.

(2) أحد دهنات، المناظرة الحديثة، ص 154.

(3) إنجيل لوقا، إصحاح 3، فقرات 23-28.

(4) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 105.

(5) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 148، 149.

وجعلني نبينا وجعلني مباركا»<sup>(1)</sup>. وذلك بعد أن بين طريقة حملها المعجزة «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت انسي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت انى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا»<sup>(2)</sup>.

ولقد زاد إنجيل متى الطين بلة حين قال: "... ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا وقالوا: من أين لهذا هذه الحكمة والقوات، أليس هذا ابن النجار أليست أمه تدعى مريم واخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا أوليست أخواته جميعهن عندنا فمن أين لهذا هذه كلها، فكانوا يعترضون به...»<sup>(3)</sup>. والسؤال الذي يطرح بناء على هذا النص هو: لماذا كانوا يعترضون به؟. والجواب في نظرنا: اعتقادهم أنه أتى من سفاح. ومن هنا يبدو لنا أن هذين الإنجيليين كتبا تحت تأثير هذه النظرة الخاطئة عن نسب سيدنا عيسى عليه السلام.

ويمكن استنتاج نتيجة أخرى وإن كانت ضعيفة، وهي أن هذا الإنجيل كتبه روماني لأن الرومان كان عندهم نظام التبني، والذي يجعل هذه النتيجة ضعيفة أن المتبنى لم يكن يعتر به عندهم، كما أن القرآن الكريم وهو المصدر الوحيد الصحيح عن ميلاد المسيح وحياته لا يشير إطلاقا إلى أي علاقة بين مريم ويوسف النجار، بل لا وجود له أصلا في القصص القرآني، بل القرآن أثبت أن مريم كفلها زكرياء «وكفلها زكرياء»<sup>(4)</sup>. ومن هنا فإنه إضافة لما سبق، فلا بد من إخضاع نصي متى ولوقا للدراسة النقدية وفق متطلبات العلوم الحديثة، وعندما نقوم بذلك نجد ما يأتي:

- النقطة المشتركة الجوهرية في الإنجيليين فيما يتعلق بشجرة نسب المسيح عليه السلام هي المسرور بإبراهيم وداود عليهما السلام.

وتقسم مجموع الأسماء لتسيير الدراسة إلى ثلاث فترات: من آدم إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى داود ومن داود إلى المسيح.

أ- الفترة من آدم إلى إبراهيم: لا يتعرض لها سوى لوقا، ويعطي 20 اسما، 19 منهم بسفر التكوين<sup>(5)</sup>. وهذا يستحيل قبوله، لأنه يقرر أنه لم يكن بين إبراهيم وآدم سوى 19 أو 20 جيلا فقط. وخطأ لوقا ناتج عن أخذه قضية الأنساب والخلق من التوراة، حيث تقرر أن خلق الكون والإنسان تم في أسبوع واحد

(1) مزم 27/31.

(2) مزم 16/21.

(3) إنجيل متى، إصحاح 12، 46-49، وإصحاح 13، 54-57.

(4) آل عمران/37.

(5) سفر التكوين، إصحاح 4، 5، 11.



ويكون الخلق بناء على التوراة قد حدث منذ 5742 سنة<sup>(1)</sup>. وهو ما ينطبق أيضا على الإنسان. وهذا يناقض الحقيقة بوضوح، ذلك أننا نستطيع الوصول إلى تقدير في منتهى الدقة للزمن بين آدم وإبراهيم باستخدام النص التوراتي كمصدر وحيد وواضعين في الحساب الفترة التي عاش فيها إبراهيم، فنستطيع معرفة تاريخ ظهور الإنسان الأول على الأرض. ذلك أن سفر التكوين يقدم لنا معلومات سلائية دقيقة تتعلق بكل فرد من أجداد إبراهيم في تسلسل مباشر حتى آدم عليه السلام وذلك في الإصحاحات 4 ، 5 ، 11 ، 21 ، 25 . وبهذا لا يمكن لرجال الكهنوت الزعم بأن لوقا اختصر السجلات، لأن ذلك ضرب من المستحيل.

كما تعطينا تلك المعلومات أيضا - من سفر التكوين - الفترة الزمنية التي عاشها كل شخص، وعمر الأب عند ميلاد الابن. وهكذا نجد من السهل التحقق من تاريخ ميلاد ووفاة كل جد نسبة إلى خلق آدم. فنجد أن إبراهيم بعد أجداده الـ 19 حسب النتيجة المستقاة من التوراة يكون قد عاش في القرن 18 أو 19 ق.م. ويكون آدم قد عاش في فترة تقرب من القرن 38 ق.م<sup>(2)</sup>. ويتوافق هذا التقدير تماما مع المعلومات التي يتضمنها التقويم التوراتي، وبذلك فإن ظهور أول إنسان في اليوم السادس للخلق تم خلال هذه الفترة (القرن 37 أو 38 ق.م) أي منذ 57 أو 58 قرنا من الآن.

إذن يقرر سفر التكوين أن خلق الكون والإنسان تم في أسبوع واحد، أي منذ حوالي 57 أو 58 قرنا<sup>(3)</sup>. عندما نقارن هذا مع ما توصل إليه العلم نجد العلم يقرر بأنه من الصعوبة بمكان أن نعرف بدقة الفترة التي تم فيها خلق الكون، ولكن العلم توصل فيما يتعلق بالنظام الشمسي إلى تقدير عمر الأرض بحوالي 4.5 بليون سنة. أما ظهور أول إنسان على الأرض فقد وجد على الأقل منذ 40 ألف سنة وقد اكتشفت أشكال إنسانية أقل تطورا من الإنسان الحالي تعود إلى حوالي أكثر من 4 بلايين سنة. ومهما يكن من أمر، فإن علم الاحاث أثبت أن البشر من ذوي العقول المتطورة تماما كانوا موجودين بالفعل في فترة أقدم بكثير من التي حددتها التوراة<sup>(4)</sup>.

وهكذا كما يقول بيكاي: استلهم لوقا التوراة فوقع في نفس أخطائها، ولا يمكن تبرير جريمته هاته بالزعم أنه أسقط بعض الأسماء عن عمد، لأن غرضه وضع العناصر الجوهرية لنسب المسيح بالاعتماد على النواقع التاريخية، وذلك لأن نصوص الأنساب تعين بالتحديد أن فلانا قد ولد فلانا، وإضافة لهذا، فإن لوقا نهل - كما قلنا - من العهد القديم للفترة السابقة على إبراهيم، والعهد القديم يعرض الأنساب على الوجه الآتي:

(1) وقد علق موريس بيكاي على هذا بأن الحساب يبدأ من الثلث الأخير لعام 1981م (بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص169).

(2) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص169، 170.

(3) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى سفر التكوين لعهد العجب العجاب.

(4) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص170، 171.

س... في سن كذا أنجب ص، وعاش ص كما من الأعوام، وأنجب ع... إذن ليس هناك انقطاع في التسلسل .

وعلى هذا، فإن الجزء السابق على إبراهيم من نسب المسيح حسب إنجيل لوقا يعد مرفوضاً في ضوء المعارف الحديثة<sup>(1)</sup>.

ب- الفترة من إبراهيم إلى داود : تختلف شجرة النسب بفرق يبلغ اسمين<sup>(2)</sup> وهنا نسجل ملاحظة في منتهى الخطورة تتمثل في أن أحد أجداد المسيح في هذه الفترة نتج من زنا المحارم، وهو فارص بن يهوذا، الجد التاسع لداود، ذلك أن يهوذا زنا بكننته ثامار فحبلت منه وأنجبت توأمين أحدهما فارص بن يهوذا<sup>(3)</sup>، هذا ما تصرح به أنجيلهم<sup>(4)</sup>. وبذلك فإنه لا يدخل في جماعة السرب، حتى يمضي عليه 10 أحقاب وبقا لما ورد في سفر الاستثناء<sup>(5)</sup>، وداود هو اليطن التاسع من فارص كما ذكرنا قبلاً. هذا نسب من يزعمون أنه ابن الله. فهل يعقل أن الله يجعل ابنه الوحيد ناتجاً عن زنا المحارم؟.

ج- الفترة التالية لداود : يختلف الإجيلان في تحديد أسلاف المسيح بعد داود اختلافاً بينا في عدد الأسلاف، بل والأسماء كذلك مختلفة اختلافاً كبيراً، فتحتوي شجرة نسب المسيح عند لوقا على 41 اسماً بين داود والمسيح، بينما تحتوي عند متى على 26 اسماً فقط<sup>(1)</sup> وهما هي شجرة أسلافه حسب كل إنجيل منهما:

(1) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 112، 113.

(2) المرجع نفسه، ص 113.

(3) سفر التكوين، إصحاح 38، فقرات 1-30.

(4) إنجيل متى، إصحاح 1، فقرة 1-7، إنجيل لوقا، إصحاح 3، فقرات 23-28.

(5) سفر الاستثناء، إصحاح 23.

(1) كل هذه المفارقات وكذلك شجرة النسب تمت بين الوثيقتين المقدستين عند النصارى، وهما : Codex Vaticanus و Codex sinaiticus راجع بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 114، وكذا ما أصل الإنسان؟، ص 172، وستورد في الملحق القائمة الكاملة لشجرة النسب للإجماعين لينضح الاختلاف بين الأسماء، وذلك عن موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 108، 110.

شجرة نسب المسيح عند متى	عند لوقا	عند متى	عند لوقا
14 داود	داود	25 منسى	يونان
15 سليمان	ناتان	26 أمون	يوسف
16 رحبعام	متاتا	27 يوشيا	يهوذا
17 أيا	منا	28 يكتيا <sup>(1)</sup>	شمعون
18 آسا	مليا	النفى إلى بابل	
19 بوشافاط	ألياقيم	29 شالتثيل	لاوي
20 بورام	يونان	30 زربابل	مات
21 عزيا	يوسف	31 أبيهود	يوريم
22 يوتام	يهوذا	32 ألياقيم	عازر
23 أجاز	شمعون	33 عازور	يوسى
24 حزقيا	لاوي	34 صادق	عير
35 أكيم	المودام		نجاي
36 اليهود	قوسام		حسلي
37 العازار	أذي		ناحوم
38 متان	ملكي		عاموس
39 يعقوب	نيزي		متيا
40 يوسف	شالتثيل		يوسف
41 عيسى	زربابل		ينا
	ريسا		ملكي
	يوحنا		لاوي
	يهوذا		مات
	يوسف		عالي
	شمعي		يوسف
	متيا		عيسى
	مات		

إن هذا الشيء عجاب.

(1) ومن الاختلافات بين متى ولوقا أيضا أن متى يذكر أن جميع أسلاف المسيح من داود إلى جلاء سابل ملكوك مشهورون (انجيل متى، إصحاح 17/1-1)، بينما لوقا يذكر أنه ليس منهم من الملوك المشهورين سوى داود وناتان (انجيل لوقا، إصحاح 3/23-28) (علي عبد الواحد وان، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص73).

لكن الأعراب من هذا أن متى يقول لنا بأنه قد اكتشف أن أسلاف المسيح ينقسمون ابتداء من إبراهيم إلى ثلاث مجموعات يحتوي كل منهما على 14 اسما.

الأولى من إبراهيم إلى داود، والثانية من داود حتى النبي إلى بابل، والثالثة من المنفى ببابل حتى عيسى عليه السلام. ولكن المجموعة الأخيرة لا تحتوي إلا على 13 اسما فقط. كيف يفسر هذا؟ وكيف يفسر سكوت رجال الكهنوت عن هذا الخطأ الجسيم<sup>(1)</sup>؟! وأخيرا حرف متى نص العهد القديم ليحصل على 14 اسما في المجموعة الثانية. ذلك أن أسماء ذرية داود الستة الأوائل من 15 إلى 20<sup>(2)</sup> متطابقة مع معطيات العهد القديم، ولكنه حذف - بمهارة - اسم ذرية "يورام" (رقم 20) الثلاثة، وهم حسب النص التوراتي: "أخازياش ويواس، وأماسيا، كما أن يكنيا (رقم 28) جعله متى ابن يوشيا (رقم 27) بينما كتاب الملوك الثاني يبين أنه الياقيم، ومكانه بين يوشيا وكنيا"<sup>(3)</sup>.

وهكذا حرف متى سلسلة النسب الموجودة في التوراة ليقدّم سلسلة مصطنعة من 14 اسما بين داود والمنفى إلى بابل<sup>(4)</sup>، وحتى مع هذا التحريف فقد جاءت هذه السلسلة من 13 اسما فقط. وهكذا فإن عقد مقارنة بين الأسماء التي تظهر في نص لوقا والمعلومات التي تتضمنها التوراة تبيّن أن قائمة لوقا - في أمثلة عديدة - لا تتفق مع ما ورد في نسخ التوراة الأكثر قدما. فقد أضاف لوقا أسماء ليملاً الفراغات بين مجموعات الذين انحدروا حقيقة من داود - والمذكورة في العهد القديم - وبين يوسف، ونجد أسماء متناثرة خلال نص لوقا تتطابق مع أولئك الذين انحدروا من سلالة داود والتي تظهر في نص متى. ويذكر متى في تلك الفترة - كما بينا قبلا - 26 اسما بينما يشير لوقا إلى 41 اسما وقد استخدم كلاهما مصادره بهدف واضح هو إظهار أن المسيح كان من سلالة إبراهيم وداود، ومما يدعو للأسف أن لوقا ذهب إلى أبعد من ذلك، لأن جميع أجياله الـ 76 بين المسيح وآدم غير قابلة للتصديق على الإطلاق<sup>(5)</sup>. وقد علق بيكاي بعد كل هذا قائلا :

"نسب المسيح في الأناجيل موضوع دفع المعلقين النصارى إلى بهلوانيات جدلية متميزة صارخة، تكافئ الوهم والهوى عند كل من لوقا ومتى"<sup>(6)</sup>.

وهكذا تبيّن بجلاء التناقض الصارخ بين الأناجيل، ومع كل هذا فإن هذه الأنساب لا علاقة لها البتة بالمسيح عليه السلام، فهي نسب يوسف النجار. وقد علق إمام

<sup>(1)</sup> موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 114.

<sup>(2)</sup> هذا الترتيب هو وفق التسلسل الموجود في هذا الإنجيل لأجداد المسيح ابتداء من إبراهيم.

<sup>(3)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتاب الملوك الثاني.

<sup>(4)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 114، 115، وما أصل الإنسان؟، ص 172.

<sup>(5)</sup> موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 172.

<sup>(6)</sup> موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 115.

الحرمين<sup>(1)</sup> على هذا قائلًا: " هذا نسب يوسف ساقه "لوقا" هذا المساق، وذكر أباه شخصًا شخصًا منه إلسي آدم، وقد سمعت حديث صاحبه " متى" وما سلف منه من الميانية، فإن كانا صادقين لزم أن يكون ليوسف أبوان محبلان لأمه. وكذلك الكلام في كرجد من أجداده. وإن كانا كاذبين: جاز وقوع التبديل منهما إما عمدا أو غفلة، وحينئذ تسقط الثقة بما نقله معتقدين أنه الحق. ثم نقول: كيف يصدر الكذب ممن يعتقد فيهما: أنهما معصومان بروح القدس حين حلت عليهما؟.

وإن كان أحدهما صادقًا والآخر كاذبًا عادت الحالة حين فرضا كاذبين<sup>(2)</sup>.

وهكذا نستطيع أن نستنتج مما سبق عدة نتائج منها:

- أن هذا النسب لا علاقة له بالمسيح أصلاً، فهو نسب يوسف النجار؛ لأن نسب المسيح يجب أن يكون من جهة أمه.

- لما لم تكن هذه الأناجيل مشهورة إلى القرن 2 م لم يطلع أحد المحرفين على تحرير الآخر فوقعوا في الاختلاف والتضارب<sup>(3)</sup>. ولو فرضنا أن إنجيل متى دون فعلاً قبل إنجيل لوقا - كما يزعمون - فإن هذا يعني واحداً من أمرين:

إما أن لوقا كان يعرفه واطلع على حديث النسب فيه وخالفه على بينة لأنه لم يصدقه، وعلى هذا لا يكون لوقا معترفاً برسالة متى.

وإما أن لا يكون لوقا قد عرفه، وذلك يقتضي أن لا يكون موجوداً<sup>(4)</sup>، أو غير معروف عند لوقا. واطلع لوقا على مصدر آخر يختلف عن متى فنهل منه، وهذا يقتضي الآن على النصارى تصحيح هذا الإنجيل ليصبح متوافقاً مع متى، أو تغير متى ليوافق لوقا، ولكنه للأسف تبين لنا قبلاً أن كلا منهما غلط.

ونختم حديثنا عن نسب المسيح بالإشارة إلى قضية عجيبة وغريبة ختم بها لوقا نسب المسيح وهي "... بن شيت بن آدم، ابن الله"<sup>(5)</sup> وهذا يعني أن الله أنجب - تعالى الله وتزه عن هذا - آدم، وأدم أنجب شيث وهكذا إلى أن نصل إلى يوسف فيكون يوسف أنجب المسيح.

ومن كل ما سبق يتبين لنا بجلاء أن النسب الحقيقي الوحيد للمسيح أنه عيسى بن مريم كما بيّن القرآن الكريم، كما يتبين لنا بجلاء استحالة كون هذين الإنجيليين من عند الله عز وجل.

(1) هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، ولد سنة 419هـ - أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، تفنن في العلوم من الأصول والفروع والأدب، له مؤلفات كثيرة منها: "الكافية في الجدل"، و"الشامل في أصول الدين" و"شفاء الغليل...". توفي بقرية من أعمال نيسابور سنة 478هـ (ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دط، دار صادر، دار الثقافة، بيروت، دت، ج3، ص167).

(2) إمام الحرمين عبد الملك الجويني، شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، تفهيم وتحقيق وتعليق أحمد حجازي السقاء ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978، ص46.

(3) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص103.

(4) أبو زهرة، محاضرات في النصراية، ص85.

(5) إنجيل لوقا، إصحاح3، فقرة38.

## 2- الاختلاف في مكان إقامة (والدي) المسيح :

عند مقابلة الإصحاح 2 من إنجيل متى بالإصحاح 2 من إنجيل لوقا نجد اختلافا كبيرا بين استحالة كون كل منهما إلهاما.

يعلم من كلام متى أن (أبوي) المسيح بعد ولادته كانا يقيمان في بيت لحم واستمرا بها إلى ما يقارب حولين وجاء المجوس إلى هناك فذهبا إلى مصر وأقاما بها مدة حياة هيرودس ورجعا بعد موته وأقاما فسي ناصرة.

ويعلم من كلام لوقا أن (أبوي) المسيح بعد ما تمت مدة نفاس مريم ذهبا مباشرة إلى أورشليم وبعد تقديم الذبيحة رجعا إلى الإقامة في ناصرة، وكانا يذهبان منها إلى أورشليم كل سنة في أيام العيد، وأقام المسيح في السنة 12 ثلاثة أيام في أورشليم وحده، وعلى هذا فلا سبيل لمجيء المجوس في بيت لحم، بل لو فرض مجيئهم يكون في ناصرة لأن مجيئهم في أثناء الطريق أيضا بعيد، وكذا لا سبيل لذهاب (أبويه) إلى مصر وإقامتهما فيها لأنه صريح في أن يوسف لم يسافر قط من أرض اليهود لا إلى مصر ولا إلى غيرها<sup>(1)</sup>.

## 3- الاختلاف في وقت مباحثة اليهود للمسيح :

كتب مرقس في الإصحاح 11 أن مباحثة اليهود مع المسيح كانت في اليوم 3 من وصوله إلى أورشليم. وكتب متى في الباب 21 أنها كانت في اليوم 2، فأحدهما على الأقل خطأ<sup>(2)</sup>. ولما كان لا سبيل إلى التحقق منهما فيثبت الشك في الروايتين<sup>(3)</sup>.

وهنا قبل مواصلة الإشارة إلى بعض التناقضات الأخرى نشير إلى قضية مهمة، هي أن كلا من الأناجيل الأربعة تحتوي على عدد هام من الروايات التي تسرد أحداثا قد تكون مذكورة في إنجيل واحد، أو في بعضها أو في كلها، فإن كانت في واحد فقط فإنها تطرح مشكلات هامة عندما يكون الحادث مهما، إذ كيف كان مهما ولم يذكره إلا واحد فقط. ومثاله صعود المسيح إلى السماء يوم القيامة<sup>(4)</sup>، وأحيانا يسرد الحادث بشكل مختلف جدا لدى اثنين أو أكثر من الأناجيل، فكيف يفسر النصارى هذه التناقضات بين الأناجيل إذا كان كتابها شهود عيان للأحداث التي أخبروا بها<sup>(5)</sup>. كما أن بعض القضايا ذات الأهمية القصوى في العقيدة النصرانية لا نجد لها ذكرا في أي إنجيل من الأناجيل الأربعة، وهذا يشكل صعوبة كبيرة ويزيد القضية تعقيدا، ذلك أن الكتاب المنزل يجب أن يحدد قبل كل شيء العقيدة، فإذا لم يحددها فمن أين نحددها ونعرفها؟ وأكبر مثال لهذا هو قضية التثليث، فإننا لا نجد لها أي إشارة أو ذكر في أي

(1) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 104، 105.

(2) المصدر نفسه، ص 106.

(3) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 87.

(4) يذكر ول ديوارت أن فكرة "انتقال" القديس بمسحه وحياته إلى السماء كانت من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود، فقد روها عسبن موسى،

وأصحوخ وإلشع، وإشعبار ول ديوارت، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، م 3، ج 3، (11)، ص 240.

(5) موريس بيكابه، القرآن الكريم و...، ص 117.

إنجيل من الأناجيل الأربعة، وقد وجدت فقط في رسالة يوحنا الأولى الإصحاح 5 فقرة 7، ونصه: "فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب والكنمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد"<sup>(1)</sup>، وهنا تتساءل: كيف يمكن إغفال هذه القضية من الأناجيل وهي جوهر العقيدة في النصرانية؟ وهل يمكن الإيمان بأناجيل يخبرنا كل واحد من أربعتها أن المسيح ركب الحمار في القدس، مما يعني أن الله لم ينس أن يسجل هذا الحادث وهو ركوب ابنه - حسب زعمهم - الحمار في<sup>(2)</sup> القدس في الوقت الذي كان فيه كل من هب وذب يركب الحمار في القدس - ولكن التثليث لا يذكره ولا مرة واحدة<sup>(3)</sup>؟. ونشير إلى أنه اشتد الاحتجاج من طرف رجال الكهنوت أنفسهم على هذا النص واعتبروه مزيفاً أضيف في نهاية القرن 4 م بعد أن قررت عقيدة التثليث، وأصبحت التراجم الحديثة للكتاب المقدس تحذفها باعتبارها نصاً دخيلاً أضافه كاتب مجهول، ويستدلون على هذا بأنه طوال القرون 13 الأولى للميلاد لم تشتمل أية مخطوطة يونانية على ذلك النص، وتوجد في ترجمة الملك جيمس فقط<sup>(4)</sup>. وقد جذفت الآن من التراجم الحديثة للكتاب المقدس - باستثناء الترجمة العربية وبعض اللغات الأخرى ولاسيما لغات العالم الثالث - بإشراف 32 من أكبر علماء النصرانية يساندتهم 50 من

(1) رسالة يوحنا الأولى، الإصحاح 5، فقرة 7.

(2) قضية ركوب يسوع الحمار في القدس لا تفهم لها أي معنى سوى التأكيد على انطباع البشري للمسيح، لأن الله عز وجل لا يركب الحمار، وهنا نسأل النصارى:

هل الذي كان يركب الحمار في القدس هو الجانب البشري فقط في يسوع أم الجانبين البشري والإلهي معاً، أي هل ناسوته فقط أم ناسوته ولاهوته؟ وإذا قيل ناسوته فقط لمأين ذهب لاهوته؟ هل فارقه؟ وإذن يسوع لم يكن إلهاً دائماً وإنما في حالات خاصة فقط، فهو إله عندما يحمل فيه اللاهوت وينسب فقط حين يفارقه. وهنا تتساءل: ألا يعني هذا أن يسوع عبارة عن جسد أحرف يحمل به اللاهوت متى شاء، ويفارقه متى شاء؟! ولما كان يسوع يمكنه أن يركب الحمار ألف مرة في اليوم فإن هذا يعني أن الله يحمل فيه ألف مرة ويفارقه ألفاً كذلك، وهنا كأن الله لا يعمل له سوى الحلول في يسوع والخروج منه، وهذا منتهى العيش، ولما كان يسوع لا يفارق الأحوال والظواهر البشرية، فإنه لا يمكن إلا أن يكون ناسوتاً فقط، ذلك أنه إما أن يركب الحمار وإما أن يمشي وينام ويأكل ويمشي في الأسواق ويقضي حاجته البشرية من غائط وبول ويتخاصم مع الناس ويفرح ويحزن، ولا يوجد في حبل لا يكون فيها هكذا. وكل هذا، الله عز وجل معه عنه.

ثم تتساءل من جديد: إذا كان اللاهوت حل في يسوع فما هي طبيعة هذا الحل؟ هل هو اتحاد وامتزاج أم تناخل وشماز؟ وإذا كان اتحاداً أو تناخلاً، فما هي عناصر اللاهوت وما هي عناصر الناسوت؟ وما هي نسبة كل منهما إلى الآخر؟ وما هي كميته؟ ومن قرر هذا الاتحاد؟ وما هي مصلحته في ذلك؟ ووجود المصلحة بمن امتناع الألوهية؟ لأن الله لا يحتاج. ويُحتاج إليه فقط. ثم كيف يتم الاتحاد والحلول؟ أبناء على طلب اللاهوت أم الناسوت؟ وهل هو عمل تلقائي أم معطط له؟ وما هي الحكمة من دخول الله في يسوع وخروجه منه؟ وهل الخروج إن حصل يتم بناء على رغبة اللاهوت أم الناسوت؟ وهل الله هو المحتاج إلى الحل أم يسوع؟..... الخ.

(3) أحمد ديدات، المناظرة الحديثة، ص 139.

(4) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 41.

الطوائف الدينية، وذلك باعتبارها تليقًا وتحريفًا<sup>(1)</sup>. كما حذفت من الترجمة الفرنسية المسكونية والترجمة القياسية الإنجليزية، ولكنها لا تزال في الترجمة العربية للكتاب المقدس للبروتستانت<sup>(2)</sup>(3). ورغم كثرة تناقضات الأناجيل إلا أن هذه التناقضات بارزة أكثر في الأحداث الأخيرة التي ميزت حياة المسيح، ومنها :

#### 4- تعيين عيد الفصح بالنسبة إلى عشاء المسيح الأخير مع الحواريين :

يوحنا يقول بوقوع هذا العشاء قبل عيد الفصح، أما الأناجيل الثلاثة الأخرى فتقول بوقوعه أثناءه، هذا التضارب يُعَيِّن عدم معقولية ما أوردت واستحالة كونها من عند الله؛ لأنه لا يعقل أن الله يوحى ليوحنا بأن هذا العشاء وقع قبل عيد الفصح ويوحى للثلاثة الآخرين بأن هذا العشاء وقع أثناءه، ونذكر خطورة هذا التضارب عندما نعلم أهمية عيد الفصح في الطقوس اليهودية، والأهمية التي اكتسبها هذا العشاء الذي ودَّع فيه المسيح حواريه، فكيف يمكن نسيان وقت هذا العشاء بالنسبة إلى عيد الفصح<sup>(4)</sup>؟! والتضارب كما قلنا يشكك في إحدى الروايتين دون تعيين مما يعني الشك في كلها.

#### 5- اختلاف روايات الآلام في الأناجيل :

تختلف روايات الآلام في الأناجيل عامة، والثلاثة الأولى ويوحنا خاصة، فالعشاء الأخير للمسيح والآلام تحتلان مساحة كبيرة في إنجيل يوحنا تبلغ ضعف المساحة عند كل من مرقس ولوقا، ومرة ونصف على نص متى، كما أن يوحنا يسرد خطبة طويلة للمسيح نحو حواريين في أربع إصحاحات كاملة<sup>(5)</sup> يعطيهم آخر إرشاداته ويسلمهم وصيته الروحية، ولكنه لا أثر لهذه الخطبة في الأناجيل الأخرى، فيوحنا هو الوحيد الذي سرد ما حدث في نهاية العشاء الأخير للمسيح مع الحواريين قبل القبض عليه، أي آخر حديثه مع الحواريين، وينتهي هذا الحدث بخطبة طويلة في أربع إصحاحات كما قلنا، تعالج مسائل أساسية في رؤى المستقبل ذات أهمية بالغة في النصرانية، معروضة بأسلوب فخم وإطار من الجلال يميزان هذا المشهد لوداع المسيح لحواريه، ومع كل هذا فلا أثر لهذه الخطبة في الأناجيل الثلاثة، وهنا : كيف يمكن أن نشرح عدم وجود رواية هذا الوداع المؤثر الذي يحتوي على الوصية الروحية للمسيح في الأناجيل الثلاثة؟ هل كان النص عندهم ثم حذف؟ ولماذا؟ إنه لا جواب.

(1) أحمد ديدات، المناظرة الحديثة، ص 137.

(2) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 41.

(3) وستكلم عن قضية التليث أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية.

(4) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 117.

(5) إيهل يوحنا، الإصحاحات 14، 15، 16، 17.



إن هذه ثغرة كبرى في رواية الأناجيل<sup>(1)</sup>، ولا سيما أن تلك الخطبة احتوت على خبر بالغ الأهمية انفرد بإيراده يوحنا في سرده لتلك الخطبة، هو البارقليط<sup>(2)</sup>.  
 وإذا كان متى ولوقا ومرقس لم يشيروا إطلاقاً إلى ما ذكرناه، فإنهم على العكس من ذلك سردوا هم الثلاثة صلاة المسيح في حديقة الزيتون التي لم يتكلم عنها يوحنا أبداً<sup>(3)</sup>.  
 وهنا نقسم: كيف كانوا شهود عيان ولا يروون تلك الخطبة المهمة، وكيف كانوا ملهمين ويختلفون في كل هذا؟.

#### 6- غياب رواية تأسيس القربان المقدس (تأسيس الأفخارستيا) من إنجيل يوحنا :

وهذا رغم أهمية القربان المقدس عند النصارى، ورغم أن أعظم المصورين صور الاجتماع الأخير، وفيه يجلس يوحنا هذا إلى جانب المسيح. وهذا دليل قاطع على أن يوحنا لم يكن من الحواريين، وإلا كيف يكون منهم ولا يشير إلى تأسيس القربان المقدس في أثناء عشاء المسيح الأخير مع الحواريين رغم أهمية هذا العشاء في الطقوس النصرانية، حيث أن تقديس الخبز والخمر<sup>(4)</sup> اللذين يصبحان جسد ودم المسيح هو الفعل الطقسي الكنسي الجوهرى للمسيحية. كيف لا يقول عنه يوحنا كلمة واحدة؟! ولا سيما أن إنجيل يوحنا وحده هو الذي يسرد غسل المسيح لأقدام تلاميذه في بداية العشاء، وهو مع متى يذكر أن يهوذا الاسخريوطي باسمه. كيف يمكن تفسير هذه الثغرة في هذا الإنجيل، هل هو ضياع الفقرة التي تتعلق بتأسيس المسيح للقربان المقدس من إنجيل يوحنا أم أن ما ذكره المبشرون الثلاثة بشأنه نخيل أضيف فيما بعد؟ وهذا يضيف إشكالا جديدا. هو: ما أساس تأسيس القربان المقدس أو الأفخارستيا؟. النصارى لا يعترفون بهذا الضياع. إذن كما يقول موريس بيكاي: ندهش لصمت يوحنا على ما ذكره المبشرون الثلاثة الآخرون، وندهش لصمتهم هم على ما أعلن المسيح عنه في قول يوحنا<sup>(5)</sup>.

#### 7- الاختلاف في ظهور المسيح بعد قيامته ( أي بعد بعثه من الموت ) :

الأحداث التي تلت قيامة المسيح من الموت حسب زعمهم كانت مادة خصبة لروايات متناقضة وغريبة عند كل كتاب الأناجيل، ومن الأمثلة على هذا .

عدم تطابق الأناجيل الثلاثة المتوافقة في قائمة النساء الآتين إلى القبر، ففي إنجيل يوحنا امرأة واحدة هي مريم المجدلية، ولكنها تتحدث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات، أما في متى فملاك هو الذي يخبر النساء بأنهن سيرين المسيح بالجليل، ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهن بالقرب من القبر. أما لوقا فلا

(1) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 125.

(2) وستكلم على هذا في موضوع خاص به في الرد على بورغاد.

(3) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 118.

(4) وهنا من الاعتقالات الجوهرية بين الإسلام والنصرانية، فالخمر في الإسلام بعد كبره من الكبار، بينما هو في النصرانية من أهم المبادات.

(5) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 119.

يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته. بينما يقول يوحنا : إنه ظهر مرتين بين الظهور الأول والثاني 8 أيام، بمجمع بيت المقدس، وظهر في السرة الثالثة بالبحيرة بالجليل. بينما متى يتحدث عن ظهوره مرة واحدة بالجليل. هذا ما ذكره (الأب روجي) في كتابه "مقدمة الإنجيل، ص 182" وقد استبعد من هذه الدراسة خاتمة إنجيل مرقس التي تتحدث عن ظهور المسيح لأنه يعتقد أنها " قد كتبت بقلم آخر ". وكل هذه الأمور تتناقض مع ما ورد من ظهور المسيح في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس<sup>(1)</sup> حيث يقول : إن المسيح ظهر لأكثر من 500 شخص في وقت واحد، ولجاءه ولكل الحواريين دون أن ينسى بولس نفسه<sup>(2)</sup>. كما يوجد تناقض آخر بين رواية "أعمال الرسل" - وهي من تأليف لوقا صاحب الإنجيل- عن ظهور المسيح لبولس، وبين ما يقوله بولس عن ذلك وهو ما جعل (الأب كانيجس) يعلن<sup>(3)</sup> أن بولس هو الشاهد المعين الوحيد على قيامة المسيح... لكنه لا يتحدث أبدا عن مقابله الشخصية مع المسيح بعد قيامته. وهكذا نجد التناقض واضحا بين بولس وهو الشاهد المعين الوحيد ولكنه مشكوك فيه، وبين الأناجيل<sup>(4)</sup> كما أن التناقض واضح بين كل الأناجيل.

#### 8- الاختلاف في رواية الصلب :

أ- الاختلاف في حادث القبض على المسيح : متى يقول بأن يهوذا الاسخريوطي هو الذي أعلمهم بالمسيح بالعلامة التي اتفق معهم عليها وهي تقيينه<sup>(5)</sup>، ويوحنا يقول بأن المسيح هو الذي قدم نفسه وكفى يهوذا مهمة التعريف به<sup>(6)</sup>.

والاختلاف البين في رواية واحدة يجعل إحداهما كاذبة على الأقل من غير تعيين، والشك في إحداهما شك فيهما معا<sup>(7)</sup>. ثم كيف نفسر عدم إشارة كل من لوقا ومرقس إلى هذه الحادثة؟! .

ب- الاختلاف في حالة المسيح حين الصلب : ذكر متى في إنجيله أن المسيح حين صلب وأسلم الروح " فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح، وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل، والأرض تزلزلت والصخور تشقق، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد الصديقين الراقنين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين. وأما قائد المائة والذين كانوا معه يحرسون يسوع، فلما رأوا الزلزلة، وما كان، خافوا جدا، وقالوا: حقا كان هذا ابن الله"<sup>(8)</sup>.

(1) رسالة بولس إلى أهل كورنثوس، 75/15.

(2) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 121.

(3) وذلك في كتابه "الإيمان بالقيامة". Foi en la résurrection resurrection de la foi 1947 عن موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 122.

(4) موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 122.

(5) إنجيل متى، إصحاح 26، فقرات 47-50.

(6) إنجيل يوحنا، إصحاح 18، فقرات 1-9.

(7) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 86، 87.

(8) إنجيل متى، الإصحاح 27، فقرات 51-55.

هذه حادثة عظيمة لو صحت لدونها التاريخ انعام الذي لم يشر إلى المسيح بكلمة واحدة، ولأن أيضا الرومان واليهود، لأنه لا يعقل أن الصخور تتشقق، والأرض تزلزل، والأموات ينشرون ويسيروا على الأرض وفيهم كثير من الصديقين، ويراهم الكثيرون ويبقى بعد ذلك مساع لإنكار. ولكن لم ترد أخبار بايمان أحد من اليهود أو الرومان على إثر تلك الينبات الباهرات كما يقول أبو زهرة<sup>(1)</sup>.

والأغرب من هذه القضية المبدعة في الغرابة التي لو وقعت لكانت من الخوارق والغرائب التي تتوفر الدواعي على نقلها ويحيط بها علما كل قاص ودان: هو إهمال الأناجيل الثلاثة الأخرى لها<sup>(2)</sup>، وهم الذين لم ينسوا أن المسيح ليس إكليلا من الشوك وثوبا مصبوغا إلخ. وكأن لبس الإكليل من الشوك والثوب المصبوغ أثناء الصلب أهم من هذه الحادثة. ولا يمكن الادعاء بأنهم اكتفوا بذكر متى لها، ذلك أن الذين لا يكتفون بذكر أحدهم لإكليل الشوك الذي لبسه وأوردوه جميعا لا يمكنهم أن يزعموا ما سبق. اللهم إلا إذا كان لبس إكليل الشوك أهم من ذكر ما أورده متى.

إن ما سبق دليل على كذب متى أو تخلف أصحاب الأناجيل الثلاثة الأخرى<sup>(3)</sup>. فهل يمكن بعد كل هذا الزعم بأن كتاب الأناجيل كانوا شهود عيان؟ كيف يمكن لشاهد تلك الحادثة أن لا يسجلها ويكتفي بتسجيل إكليل الشوك؟ وهل يمكن الزعم بأنهم كتبوا أناجيلهم بإلهام؟ وكيف يمكن ليوحنا وهو الشاهد الوحيد لحادثة الصلب المزعومة ويسكت كلياً عن هذه الحادثة المعجزة!؟

ثم كيف يصدق بورغاد بهذه الحادثة ولا يصدق بحادثة الإسراء والمعراج؟.

### 9- الاختلاف في موت يهوذا الإسخريوطي :

اختلف في موت يهوذا الإسخريوطي الذي خان المسيح حسب زعمهم. متى يقول: "إنه خلق نفسه ومات"<sup>(4)</sup>، أي انتحر. ولوقا يقول في سفر الأعمال: أنه خر على وجهه وانشق بطنه فانسكبت أحشاؤه كلها ومات"<sup>(4)</sup>. والموت بالخلق غير الموت بشق البطن<sup>(5)</sup>. فمن نصدق<sup>(6)</sup>؟!

علق موريس بيكاي على هذه التناقضات بأن كتاب الأناجيل الأربعة وبولس استطاعوا أن يسوردوا بإخلاص تام وعلى غير علم منهم كل الأقوال الموروثة لطوائفهم في قوالب روائية.

(1) أبو زهرة، المرجع نفسه، ص88.

(2) مرقس ذكر فقط أن حجاب الهيكل قد انشق فقط (مرقس 15/38) بينما لوقا ذكر أن الشمس أظلمت وانشق حجاب الهيكل قبل وفاة عيسى، فقط (لوقا 23/45) وبذلك خالف متى، كما حاله أيضا لأنه أورد قبل وفاة عيسى، أما يوحنا فلم يذكر شيئا رغم أنه الشاهد الوحيد للصلب من بين كبة الأناجيل (عمد السعدي، حول موثوقية الأناجيل، ص81) ولذلك يصدق عليه عنوان مسرحية للممثل المصري عادل إمام "شاهد ماشافش حاجه".

(3) الجوهني، شفاء الغليل، ص55، 56.

(4) إنجيل متى، الإصحاح 27 فقرة 5. (\*4) لوقا: أعمال الرسل، إصحاح 1، فقرة 18.

(5) أبو زهرة، محاضرات في التصانية، ص88.

(6) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج 1 في الفصل المتعلق بهذا، حيث ذكر أكثر من 100 اختلاف وكذلك أبو زهرة للمرجع السابق، وشفاء الغليل للسوري، وكذلك الأناجيل والرسائل ليقارن بينها وأيضاً عماد السعدي، حول موثوقية الأناجيل، ص66-85.

وهنا كيف يمكن مواجهة هذه الكثرة من التناقضات والأمور المستحيلة في رواية الأحداث<sup>(1)</sup>؟! ولقد صدق ول ديورانت عندما قال: "وملاك تقول أن ثمة تناقضا كثيرا بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأن فيها نقاطا تاريخية مشكوكا في صحتها، وكثيرا من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين. وكثيرا من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم، وقررات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساسي تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها ... ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح"<sup>(2)</sup>.

والنتيجة الخطيرة التي تترتب عن هذا: أن هذه الأناجيل لما كان من المستحيل أن تكون إلهامية، ولما كان كتابها مجهولين وأصولها مجهولة ولغاتها الأساسية ومكان كتابتها والذين كتبت لهم مجهولين، وكانت مليئة بالتناقضات والأخطاء: استحال أن تكون من عند الله. ومن هنا فإن كل ما بني عليها خطأ<sup>(3)</sup>. ومن ذلك العقيدة والشريعة. ونختم كلامنا هذا بما بينه اسبينوزا من أن كتاب الأناجيل إنما كتبوها انطلاقا من تفكيرهم الخاص أو ما يسميه اسبينوزا "المعرفة الطبيعية"، وهو ما جعله يطرح السؤال الآتي بناء على تلك النتيجة، هو: كيف استطاع كتاب الأناجيل بالمعرفة الطبيعية وحدها أن يبشروا بما لا يدخل في نطاقها<sup>(4)</sup>؟! ولقد صدق عندما قال ناقدنا رجال الكهنوت: "إن الناس ليظنون أن التقوى هي أن لا يثق المرء بعقله وبحكمه على الإطلاق، أما الشك في إيمان من نقلوا إلينا الكتب المقدسة فهو الفجور في نظرهم. ولكن مثل هذا السلوك ليس من التقوى في شيء، وإنما هو جنون محض"<sup>(5)</sup>.

ونختم حديثنا هذا عن الأناجيل بقول الله عز وجل: ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾<sup>(6)</sup>.

وتوصل من كل ما سبق إلى أن المصدر الوحيد عن حياة المسيح وعقيدته وشريعته إنما هو القرآن الكريم.

هذا ما يتعلق بالأناجيل. ومنها ننقل إلى الحديث عن القرآن الكريم على سبيل المقارنة، وذلك ليتضح الغرض من الحديث عنها، وهو الرد على بورغاد الذي يتهم القرآن الكريم بما ذكرناه قبلا.

(1) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 123.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، قصر المسيح، م 3، ج 3، ص 210.

(3) محمد السعدي، المرجع السابق، ص 84.

(4) اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 332.

(5) هواد زكريا، اسبينوزا، ط 2، دار التحرير للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص 185.

(6) البقرة / 79.

## القرآن الكريم

ما سبق من حديث عن الأناجيل يجعل لا مجال للمقارنة بين القرآن الكريم وبينها متنا وسندا، فمن حيث المتن " لا موضع البتة للمقارنة بين وحي إلهي منزل، وبين كلام إنساني مؤلف". ومن حيث السند " لا موضع البتة للمقارنة بين ما تواتر نقله، وتلقاه جمهور من العدول الموثقين عن جمهور مثله، وبين أشياء يرويها أفراد، لو أن كل واحد منهم ثقة ما بلغ حديثه درجة اليقين الجازم"<sup>(1)</sup>. فكيف وقد تبين لنا أنه لا علاقة البتة بين المسيح عليه السلام وكتبة تلك الأناجيل، وأنها مجهولة الأصل والترجمة والمترجم إلخ. ولا بأس في معرض ردنا على بورغاد فيما يتعلق بالقرآن الكريم أن نبين بإيجاز شديد كيفية وصوله إلينا واستمراره كما هو، ليس إلى قيام الساعة فحسب بل وأيضا بقاؤه يتلى في الدار الآخرة كما تتلوه نحن اليوم وكما كان يتلوه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم فنقول بأننا :

نحن المسلمون وحدنا الذين نملك الوحي الإلهي كاملا. فمصحفنا اليوم هو ذاته مصحف محمد صلى الله عليه وسلم، لم يزد حرفا ولم ينقص. " نقله جبريل عن الله بأمانة، ونقله كذلك محمد عن جبريل ونقله الصحابة عن محمد ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تتقله عبر القرون حتى بلغت إلينا مثلما نزل قبل أربعة عشر قرنا، وسنورثه نحن غيرنا بهذه الهيئة المكتملة المصونة، وسيظل الحفظة يرددونه للأعصار المقبلة إلى يوم القيامة. لا. بل سيظل القرآن في العالم الآخر باقيا يتلوه أهله على النحو الذي نزل به أمين الوحي لأول مرة. وفي الحديث<sup>(2)</sup> " يقال لقارئ القرآن : اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن مستزك عند آخر آية تقرأها"<sup>(3)</sup>.

وقد وصل إلينا بطريقتين كل واحدة منهما كافية وحدها لحفظه من التحريف، هما المشافهة والكتابة. الطريق الأول: التلقي بالمشافهة على سبيل التواتر والاستفاضة: إن الطريق الأول في أخذ القرآن عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم انتشاره بين الناس بعد ذلك إنما تم بهذه الطريقة، حيث كان صلى الله عليه وسلم يقرأ ما ينزل عليه من قرآن والصحابة يسمعون فيعرفون حقيقة النظم القرآني وأسلوب أدائه معا كأنواع المدود ومخارج الحروف وما إلى ذلك. هذه الطريقة في التلقي لم تكن فقط عند النزول بل يستمر تكرارها بعد ذلك، فالرسول صلى الله عليه وسلم يحفظ ما نزل عليه وكذلك الصحابة الآخذون عنه، يتكرر هذا المحفوظ في الصلوات فهي لا تصح إلا به، فالرسول يقرأ والصحابة يستمعون. وجعلت تلاوته عبادة، وكتابته عبادة، والتهجده به في جوف الليل عبادة. وأصبح من تغنى يتغنى به، ومن يخطب خطب

(1) محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ط6، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1986، ص49.

(2) المرجع نفسه، ص26.

(3) رواه أبو داود والترمذي.

به، ومن درس اعتمد عليه. ظل الأمر هكذا ربع قرن من الزمان ما أن ينزل شيء حتى تستوعبه الصدور ثم تردده في كل أفق. لا مع رجل واحد أو قبيلة واحدة، بل بين الألوف المؤلفة من الناس، وإذا جاء رمضان قرئ كله من الصدور لا من السطور. ظل الناس هكذا ابتداء من خاتم الأنبياء إلى يومنا هذا وإلى قيام الساعة بل وفي الدار الآخرة.

" وبهذا التواتر الرائع ثبت القرآن الكريم ثبوتاً لا مجال فيه لظنون أو أوهام<sup>(1)</sup>. وهذه الطريقة هي وحدها المرجع في علوم التجويد والأداء. والأمة كما هي متعبدة بفهم معاني القرآن وأحكامه متعبدة بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتقاة من الأئمة القراء، وهي الصفة المتصلة بالحضرة النبوية<sup>(2)</sup>. وهو ما جعل المؤلفات الكثيرة تظهر في علوم التجويد وضبط المصحف<sup>(3)</sup>، وما إلى ذلك. وهذا لا وجود له لا في توراة ولا في الإنجيل ولا لأي كتاب للمتقدمين ولا للمتأخرين. ولقد ساعد على حفظه، نزوله منجماً خلال 23 سنة. وهو ما يسهل حفظه عن ظهر قلب. وهو ما تم فعلاً، حيث حفظه كثرة هائلة عن كثرة هائلة، وذلك عكس ما لو نزل جملة واحدة. وبهنا هنا أن نذكر أن طريقة حفظ القرآن عن ظهر قلب لم تتوقف يوماً، من النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصره إلى اليوم<sup>(4)</sup> وعن شيوخ حفاظ وهم أخذوه عن شيوخ حفاظ، وهكذا يستمر السند إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وتتحدى أي إنسان يثبت أن انقطاعاً وقع في هذه الطريقة حتى في أحلك الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية. وهذه الطريقة ذات فائدة مزدوجة فيما يتعلق بالبحث العلمي، فهي تعطينا متناً صحيحاً يستحيل أن يدخل عليه أي تحريف مهما كان ضئيلاً، وتعطينا كذلك السند المستمر من الشيخ الذي نقرأ عنه إلى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وهناك شيء آخر له أهميته في هذه الطريقة، وهو طبيعة النص القرآني ذاته، فهو أقصر بكثير من نصوص العهد القديم وأطول قليلاً من العهد الجديد، وحيث نزل على مدار 23 سنة فكان من السهل على الصحابة حفظه عن ظهر قلب، سورة سورة<sup>(5)</sup>. يضاف إلى هذا بنيته الأدبية والروحية مما يجعل القارئ له لا يمل من سماعه ولا يمل من قراءته ولا يريد التوقف أثناء القراءة، والتجربة الشخصية جعلتني أقرر هذا. ذلك أنني كثيراً ما أقرر قبل قراءة القرآن التوقف عند آية معينة، ولكنني عندما أصل إليها أجد رغبة هائلة في نفسي في مواصلة قراءة الآية اللاحقة وهكذا إلى نهاية السورة، وعند نهاية السورة أحس بارتباطها العضوي والنفسي والروحي بالتي تليها فأندفع لقراءتها، وهذا كله عمل مهم في حفظ النصوص دون تحريف، وهو ما يفتقده العهدان القديم والجديد. وهكذا ظهر الحفاظ الذين كانوا وسيظلون يحفظون القرآن الكريم كله وينشرونه<sup>(6)</sup>.

(2x1) محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص 27، 28.

(3) ومن أهم ما كتب في ضبط المصحف كتاب الحفاظ النسي اللسان "الطراز على الخراز" في ضبط المصحف.

(4) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 181.

(5) المرجع نفسه، ص 181.

(6) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 155.

**الطريق الثاني : طريق الكتابة :** القرآن الكريم كما استوعبته الصدور، استوعبته السطور. فكانت الآيات ما تكاد تنزل حتى يبادر الكتابة إلى تسجيلها بدقة، بإشراف النبي صلى الله عليه وسلم ومراجعته وتصحيحه، وبهذا فإن القرآن الكريم يتمتع منذ البداية بعنصري الصحة : الكتابة والحفظ مع التلاوة<sup>(1)</sup>، الذين لا يتمتع بهما لا العهد القديم ولا العهد الجديد، وظل الأمر هكذا حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وفي عصر لا يستطيع فيه الكل أن يكتب وإن كان يستطيع أن يحفظ عن ظهر قلب تصبح التلاوة ذات فائدة لا تقدر في حفظ النص وحمايته من التحريف<sup>(2)</sup>. وعندما تضاف الكتابة الدقيقة إلى التلاوة والحفظ ندرك القيمة العظيمة لهذه العملية المزدوجة.

وفيما يتعلق بالكتابة، فقد ظهرت صحف القرآن الكريم منذ بدأت الدعوة في الفترة السرية، ومعروف في حادثة إسلام عمر بن الخطاب ما دار بينه وبين أخته وزوجها بشأن الصحيفة التي كانت معهما والتي تحتوي على سورة "طه"، والأمر واضح للغاية، فإن اسم " الكتاب " علم مرادف للقرآن، وقد عرف في المكي والمدني، ففي القرآن المكي مثلاً قوله تعالى: ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾<sup>(3)</sup>، وفي المدني مثلاً ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾<sup>(4)</sup>.

وقد ورد التنويه كذلك بشأن الصحف التي تحمل الوحي وتسهل للناس الإطلاع عليه في المكي والمدني معا أيضاً، فمن المكي قوله تعالى: ﴿ كلا إنها تذكرة، فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾<sup>(5)</sup>، ومن المدني قوله تعالى: ﴿ رسول من الله يتلوا صحفا مطهرة فيها كتب قيمة ﴾<sup>(6)</sup>.

وهنا نشير إلى إظهار المدى الواسع الذي انتشرت فيه صحف الوحي، فإن القرآن المكتوب كان متداولاً في مساحة شاسعة وفي كثير من البيوت التي يعرف أصحابها الكتابة، وقد شرعت له أحكام فقهية خاصة به منها أن لا يمسه جنب، وأن لا يسافر به إلى أرض العدو المحارب مخافة امتهانه<sup>(7)</sup>.

وهنا نشير إلى قضية مهمة جداً هي : أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل " للوحي كتاباً مخصوصين أشبه بالموظفين المنقطعين له يؤدون له واجب التدوين في السفر والإقامة، ويملي عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينزل به الملك، ذاك عدا الذين يكتبون لأنفسهم ما يحفظونه أو ما ينقلونه<sup>(8)</sup>.

(1) وفائدة التلاوة إضافة إلى الحفظ : تعليم القراءة الصحيحة وضمان عدم الخطأ في النص تلاوة وكتابة.

(2) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص152.

(3) الخاتمة /1، 2.

(4) البقرة /1، 2.

(5) عيسى /11-16.

(6) البينة /2.

(7) حمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص32-34.

(8) المرجع نفسه، ص32-34.

وهكذا فبمجرد نزول الآية أو الآيات، كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر كتبه بكتابتها كما كان الصحابة يحفظونها عن ظهر قلب ويبلغونها إلى غيرهم، وهكذا حتى كمل نزول القرآن الكريم كله على خاتم الأنبياء<sup>(1)</sup>. وقد كان القرآن الكريم كتب كله في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(2)</sup>، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى كان القرآن الكريم كله محفوظا في الصدور وكان كذلك مثبتا في السطور<sup>(3)</sup>. كما كان كثير من الصحابة يحفظونه عن ظهر قلب.

وعندما توفي الرسول صلى الله عليه وسلم كانت الصحف التي كتب فيها القرآن الكريم كله موجودة وهي التي كتبت بأمره صلى الله عليه وسلم وكانت تراجع بإشرافه أثناء كتابتها<sup>(4)</sup>.

وفيما يتعلق بالكتابة، فإن القرآن الكريم ذاته - مكي ومدني - يبين هذه الحقيقة، ويستحيل أن يزعم محمد ﷺ هذا لو لم يكن النص القرآني يكتب فور نزوله، لأن الواقع سوف يكذبه، وبذلك تتحطم رسالته من أساسها. ذلك أنه من المعروف أن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه من حوله قد اعتادوا تلاوة النص المنزل، بل هو أساس دعوة النبي ﷺ، فمن غير المعقول أن يشير القرآن الكريم إلى أمور لا تنفق مع الواقع، أي أن الناس سيحتجون عليه قائلين له: «أرنا كتابة هذا القرآن. وهناك أربع سور مكية تشير إلى تسجيل القرآن قبل الهجرة، هي: سورة "عيس" و"البروج"، و"الواقعة" و"الفرقان"، كما توجد سور مدنية تشير إلى كتابة القرآن بعد الهجرة، ونشير طلبا للاختصار - وقد أشرنا قبلا إلى آيات مكية وأخرى مدنية في هذا الشأن - إلى ما ورد في سور "الفرقان"، « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا »<sup>(5)</sup>. هذه الآية تبين أن المشركين اتهموا النبي ﷺ بالكذب والادعاء. فقد كانوا يشيعون أساطير الأولين كانت تملى عليه، وأنه كان يكتبها، وهذا يعني بصراحة أن محمد صلى الله عليه وسلم كان يأمر الكتبة بكتابة كل ما ينزل عليه من قرآن فور نزوله، أي في وقته صباحا ومساء، ويستحيل أن يورد محمد هذا في القرآن لو لم يكن يسجل القرآن فعلا في وقته، لأن الواقع سيكذبه. وما يزيد القضيـب صدقا أن أعداء محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين أثبتوا هذه الحقيقة، حقيقة كتابة القرآن الكريم<sup>(6)</sup> بمجرد نزوله.

وأما ما ورد بعد الهجرة في القرآن الكريم يبين كتابته فقد أشرنا قبلا إلى قوله تعالى: ﴿ رسول من الله يتلى صحفا مطهرة فيها كتب قيمة ﴾<sup>(7)</sup>.

(1) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 181.

(2) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دط، دار المعرفة، بيروت، دت، ج 1، ص 76.

(3) محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص 34.

(4) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 152.

(5) الفرقان / 5.

(6) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 153، 154.

(7) السنة / 2، 3.



وأما طريقة الكتابة، فتجمع المصادر أن النبي ﷺ كان يدعو الكتبة من خيرة أصحابه كلما نزل جزء من القرآن الكريم يمليه ويحدد في الوقت نفسه مكان ذلك الجزء في مجموع ما نزل عليه قبلا. ثم يطلب من الكتبة قراءة ما كتبوا بعد الإعلاء ليصحح ما قد يكون ناقصا، وأنه كان يتلوا أمام جبريل في رمضان كل عام القرآن الذي نزل عليه إلى حين ذلك، وأن جبريل قد استقرأ النبي ﷺ القرآن الكريم كله مرتين في شهر رمضان السابق على وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، أي استظهره أمام جبريل مرتين من "الفاتحة" إلى "الناس" بحالته التي هو عليها اليوم، كما أن المسلمين كانوا في عصر النبي ﷺ يعتادون على صلاة التراويح يسمعون القرآن الكريم كله فيها، وهي السنة التي مازلنا نواظب عليها إلى اليوم، وهكذا ظهر الحفاظ الذين يحفظون القرآن الكريم كله وينشرونه، ولقد اتضحت القيمة الثمينة لذلك المنهج المزدوج في حفظ النص بالكتابة وبالذاكرة<sup>(1)</sup>.

ويجب أن نشير هنا إلى أن كتابة القرآن الكريم يعد في حد ذاته معجزة، ذلك أن الأمة العربية كانت أمة شفوية تعتمد على الرواية، أي الحفظ لا على الكتابة، ويظهر ذلك جليا في الشعر، حيث كان الشاعر يتخذ رواية له<sup>(2)</sup>، ولأول مرة أضيف إلى الحفظ الكتابة الدقيقة المصححة من لدن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وهو ما جعل القرآن الكريم يظل كاملا محفوظا دون إضافات بشرية أو نقصان، وهذا يدعونا إلى الحديث عن جمعه بعد أن تحدثنا عن كتابه.

**جمع القرآن الكريم** : لقد جمع القرآن الكريم ثلاث مرات، الأولى بحضرة النبي ﷺ كما ذكرنا قبلا والثانية في عهد أبي بكر، والثالثة في عهد عثمان<sup>(3)</sup>. وذلك لاقْتِضَاء طبيعة الحضارة التي اقتضت كتابته مثلا من الأكتاف والعسب مثلا إلى الرق، كما اقتضت طبيعة الحضارة بعد ذلك كتابته من الرق إلى الورق.

ذكرنا قبلا أن القرآن الكريم كتب كله في عهد رسول الله ﷺ بإشرافه وتصحيحه وأنه عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى تركه محفوظا كله في الصدور، مكتوبا كله في السطور. ونضيف إلى هذا قضية ذات أهمية قصوى هي أن الرسول لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد نجاح مطلق في رسالته، فأداها كما ينبغي وترك للإسلام دولة قائمة ودعوة واضحة وقوة مهيبه وسلطان يعصم دماء المؤمنين وأموالهم، ويرد نزوات السفهاء عنها، وقضية الدولة لها أهميتها القصوى في حفظ القرآن وحفظ الإسلام - وهو ما لم يتوفر للمسيح عليه السلام الذي عاش مضطهدا وغاب مضطهدا هو وأتباعه - ولقد كان لهذه الدولة مَسَلْحَة واسعة من أقصى اليمن إلى أطراف الشام ومن الخليج الفارسي إلى شواطئ البحر الأحمر، وهو ما مكن من التمكين للقرآن لا للتمكن منه بتحريفه. "ويجب أن نشير هنا إلى أن القرآن الكريم في فترة كفاح الدعوة وضغط الوثنية كان يتلى ويكتب دون مصادرة تتال من أصله، والغريب - كما يقول محمد

(1) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 154، 155.

(2) موريس بيكاي، ما أصل الإنسان؟، ص 181.

(3) جلال الدين السيوطي، الإيمان، ج 1، ص 78.

الغزالي - أن معلمي القرآن - الحفاظ القراء - وصلوا إلى حد من الكثرة تستحق التأمل خصوصا في هذه الفترة المكافحة العصبية، انظر كيف قتل سبعون قارنا في معركة بئر معونة، ومع هذه الخسارة الفادحة فإن معلمي القرآن في صحراء الجزيرة لم تقع بينهم أزمة بن ظلت وفودهم تتساب هنا وهناك من غير انقطاع، فإذا كانت هذه حال القرآن أيام غربته وهو يشق طريقه بين الخصومات والعقبات، فكيف تكون حاله بعد ما رست دعائمه ووضحت معالمه وتكونت له دولة تأخذ لربها ولنفسها ما تشاء<sup>(1)</sup>. ولقد ذيل محمد الغزالي هذا بقوله: "الحق أن الوجود الإنساني منذ الأزل لم يعرف كتابا توفرت له ضمانات الحفظ، وتظاهرت حوله أسباب العصمة مثل ما عرف لهذا القرآن الكريم. إن التواتر القوي يشد أسانيده من كسل ناحية، جماهير كثيفة تروي عن جماهير كثيفة وتبلغ في الاستقصاء أن تحصي كلمات السور، بل تعد حروف الهجاء الموجودة بها حرفا حرفا، وهذا على نقيض ما وقع للتصرائية"<sup>(2)</sup>، وهذا يدعونا إلى الحديث عن جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر.

**جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر رضي الله عنه** : إن القرآن الكريم كما ذكرنا قبلا، نزل كله، وكتب كله وحفظ كله في حضرة خاتم الأنبياء فلما أصبح أبو بكر خليفة قام بجمع كل الوثائق التي كان القرآن الكريم مسجلا بها بأمر الرسول ﷺ في مصحف واحد تحفظه الدولة لديها لأن المستقبل قد يتطلبه وإن كان الحاضر لم يتطلبه<sup>(3)</sup>. والسبب المباشر الذي جعل أبا بكر يقوم بجمع القرآن الكريم من وثائقه المكتوبة هو توجسه مع عمر بن الخطاب خيفة لاستشهاد عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة باليمامة، فخشي المسلمون أن يموت عدد آخر من الحفاظ في المعارك المتوقعة بينهم وبين أهل الباطل فيؤدي ذلك إلى ضياع بعض من القرآن<sup>(4)</sup> (5). فقد روى البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن أنجمه، فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح

(1) محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص35.

(2) المرجع نفسه، ص36.

(3) جلال الدين السيوطي، الإتقان، ج1، ص77،78، أيضا محمد الغزالي، المرجع نفسه، ص37.

(4) جلال الدين السيوطي، الإتقان، ج1، ص78.

(5) ولقد علق محمد الغزالي على هذا بأن ما استشهد في حروب الردة لم يضر بالقرآن الكريم، وإن كان الواقع قد بين أن الحفاظ الراعين كلما حصدت المعارك منهم تقرا نبت مكالم مثلهم أو ضعفهم، ومع ذلك فإن فكرة جمع القرآن المكتوب وتنفيذها فكرة رائعة (محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص38).

الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، ووجدت آخر سورة "التوبة" مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجد لها مع غيره - لقد جاءكم رسول - حتى خاتم براءة فألحقتها بسورتها فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله. ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر<sup>(1)</sup>. وهكذا جمع القرآن كله في مكان واحد، ذلك أنه كما ذكرنا كان مكتوبا كله في عهد النبي ﷺ ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب، فأمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشرا فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء، وهكذا كان القرآن الكريم في الأديم والعسب أو لا قبل أن يجمع في عهد أبي بكر ثم جمع في الصحف في عهد أبي بكر كما كتبت عليه الأخبار الصحيحة المتواترة<sup>(2)</sup>. وهذا يعني بوضوح تام أن ما قام به أبو بكر يتمثل في جمع القرآن الكريم كله في الصحف بعد أن كان مكتوبا في الأديم والعسب، ووضع هذا المصحف وحفظه في خزانة الدولة، وخلاصة هذا العمل.

أن زيدا كلف بجمع النصوص المتناثرة المكتوبة بأمر رسول الله وتسيق رقاعها في ترتيب يوافق المحفوظ في صدور الرجال وذلك بدقة متناهية وتحري لا مثيل له، هذا الترتيب ليس مستحدا، وإنما هو بتوقيف من الرسول ﷺ نفسه الذي كان يأمر الكتابة كلما نزل وحي جديد أن يكتبوه في المكان الذي ينكر فيه بين القرآن النازل قبلا.

ومهمة زيد - والحالة هذه - لا تعدو ضم ما تفرق هنا وهناك على نسق معهود له ولغيره من جمهور الحفظة، وماذا صنع رئيس الدولة أبو بكر بهذا المصحف الذي جمعه زيد؟ احتفظ به عنده، ثم انتقل إلى عمر بعد وفاته كما قلنا، ثم إلى حفصة ابنته وزوجة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة أبيها<sup>(3)</sup>. وهذا يدعونا إلى الحديث عن الجمع الثالث وهو الذي تم في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه.

**جمع القرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان:** لما توسعت الدولة الإسلامية كثيرا في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه واعتق ملايين العجم الإسلام أخذ يظهر بعض اللحن في القراءة لا في النص أو الكتابة، كما روى البخاري عن أنس بن مالك " أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال لعثمان: أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها إليه حفصة فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما

(1) رواه البخاري عن زيد بن ثابت، (عن جلال الدين السوطي، الإتهان، ج 1، ص 39)، و"فألحقتها بسورتها" أخذناه عن القرظي، نظرات في القرآن، ص 38.

(2) جلال الدين السوطي، الإتهان، ج 1، ص 78.

(3) محمد الخزازي، نظرات في القرآن، ص 38، 39.

جامعة الأمير  
عبد القادر للعلوم الإسلامية

نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق...<sup>(1)</sup>. وهنا نسجل ملاحظة مهمة جداً، هي أن سيدنا عثمان لم يأمر بحرق مصحف النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخذ من عند حفصة زوج النبي ﷺ ونقل منه المصاحف، بل نقل منه ولما أكملوا نسخ القرآن الكريم منه أعاده إليها وأمر بحرق ما عدا مصحف النبي صلى الله عليه وسلم ومصحفه الذي نقله منه، وهذا عمل عظيم قام به، بل لا نظير له، فهو أولاً يجعل مصحفه هو نفسه مصحف الرسول صلى الله عليه وسلم وإذن فمصحفه ليس جديداً، ثم إن هذا العمل حسم به سيدنا عثمان رضي الله عنه ما قد ينجم عن اختلاف الحروف من منازعات وبيلة، وجمع الناس على وجه واحد صحيح أفضل من تركهم مختلفين بين عدة وجوه ولو صححت كلها<sup>(2)</sup>. وقد تمت كتابة مصحف سيدنا عثمان سنة 25 هـ<sup>(3)</sup>.

وخلاصة المرات الثلاثة التي جمع فيها القرآن الكريم أن الجمع الأول في زمن النبي ﷺ إنما كان في الأديم والعسب أولاً، قبل أن يجمع في عهد أبي بكر، ثم جمع في المصحف في عهد أبي بكر، والجمع الثالث هو ترتيب السور في زمن عثمان<sup>(4)</sup>. علماً أن ترتيب الآيات وكذا السور إنما هو توقيفي لا شبهة في ذلك حيث يوجد الإجماع والنصوص المتواترة على ذلك<sup>(5)</sup>. ولذلك فإن ما فعله سيدنا عثمان إنما هو وفقاً لما كان عليه القرآن قبلاً، وكل ما فعله أنه وضعه في مصحف متكامل، وفقاً للعرضة الأخيرة للنبي ﷺ للقرآن على جبريل حيث كان يعرضه عليه في كل سنة مرة، وعرضه عليه كله في السنة التي توفي بها صلى الله عليه وسلم مرتين<sup>(6)</sup>. وبهذا فإن مصحف عثمان هو نفسه مصحف محمد ﷺ.

وهكذا وصل القرآن الكريم إلينا كتابة ورواية، وظلت هذه الطريقة متبعة إلى يومنا هذا المتمثلة في كتابة النص عن شيخ حافظ وتصحيحه قبل الحفظ من طرف الشيخ ثم حفظه. فوصل القرآن الكريم إلينا بهذه الطريقة وبواسطة أعداد هائلة إلى أعداد هائلة من النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وهذه العملية لم تتوقف أبداً. وتتحدى أي شخص يثبت انقطاعاً حتى في أحلك الظروف التي مر بها المسلمون. وبذلك فإن القرآن الكريم الموجود اليوم هو ذاته الذي نزل على محمد دون زيادة أو نقصان أي شيء منه مهما كان ضئيلاً، بل حتى طريقة قراءته فإننا نقرأه اليوم كما كان يقرأه محمد ﷺ.

ونشير هنا إلى أنه توجد اليوم بطشقند واسطنبول نسخ تنسب إلى سيدنا عثمان، كما توجد نسخ أخرى قديمة مثلاً بالمكتبة الوطنية بباريس يرجع تاريخها حسب تقدير الخبراء إلى القرنين 2 و 3 هـ، كما

(1) رواه البخاري عن أنس بن مالك، (عن جلال الدين السيوطي، الإتيان، ص 78، 79).

(2) محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص 41، 42.

(3) جلال الدين السيوطي، الإتيان، ج 1، ص 79.

(4) المصدر نفسه، ص 78.

(5) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس، وأورده السيوطي في الإتيان، ج 1، ص 80.

(6) جلال الدين السيوطي، الإتيان، ج 1، ص 82، 83.

توجد مخطوطات أخرى كثيرة جداً، ولكن كل هذا الحشد من النصوص القديمة المعروفة متطابق كله مع بعضه ومع النسخ المكتوبة اليوم<sup>(1)</sup>. وقد أشرنا قبلاً إلى ما قام به القسم الألماني من جمع مخطوطات القرآن من كل مكان فوجدوها متطابقة تماماً .

والنتيجة التي نتوصل إليها من كل ما سبق أن: " صحة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص مكانة خاصة بين كتب التنزيل، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا العهد الجديد"<sup>(2)</sup>، وذلك لأن الله تكفل بحفظ القرآن ولم يتكفل بحفظها ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾<sup>(3)</sup>. بل إن الله عز وجل لم يتكفل بحفظه فحسب، بل تكفل أيضاً بجمعه، قال تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾<sup>(4)</sup>. أي أن الله عز وجل تكفل بجمعه وحفظه من التحريف وحمايته من الضياع، وعدم التقريط في أي حرف منه، بل والتكفل بحفظ قراءته من التحريف، وهكذا تكفل الله عز وجل فيما يتعلق بالقرآن الكريم بأربع حالات: الأولى جمعه في صدر النبي ﷺ والثانية تلاوته على الطريقة الصحيحة وحفظها من التحريف والثالثة تفسيره لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم<sup>(5)</sup>، والرابعة حفظه إلى قيام الساعة ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾<sup>(6)</sup>. وهكذا فإن القرآن الموجود اليوم هو نفسه الذي أتى به محمد، وأنه يقرأ بنفس الكيفية التي كان محمد ﷺ يقرأ بها، فأين هذا من العهدين القديم والجديد؟.

(1) موريس بيكاي، القرآن الكريم و...، ص 156.

(2) المرجع نفسه، ص 151.

(3) الحجر/9.

(4) الفيلمة/16-19.

(5) ابن كثير، إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، طه، دار الفكر، د.م.ن.د.ت، ج 4، ص 449.

(6) الحجر/9.

## الفصل الثالث

### العقيدة النصرانية ونقدها

#### - الألوهية -

بعد أن تحدثنا عن الأناجيل وبيننا نشأتها وتطورها واعتمادها لدى النصارى، وتبين لنا أنها لا علاقة لـو بإنجيل سيدنا عيسى عليه السلام، وأنها كلها متهافئة عكس القرآن الكريم الذي لم يطرأ عليه أي تبديل أو تغيير بحيث أن القرآن الكريم الموجود بين أيدينا اليوم هو نفسه الذي نزل على محمد ﷺ دون زيادة أو نقصان وهو ما يدحض افتراءات بورغاد فيما يتعلق بالأناجيل من جهة، وفي مطاعنه عنى القرآن الكريم من جهة أخرى.

ننتقل في نفس السياق ولنفس الغرض للحديث عن العقيدة النصرانية. فنشير بادئ ذي بدء إلى أن العقيدة النصرانية المثلثة لم تتكون طفرة واحدة، وإنما ظلت تتكون أربعة قرون كاملة لتستقر في التثليث. انطلقت من التوحيد، وفي عهد بولس وصلت إلى تأليه المسيح، وفي نهاية القرن 4م استقرت في التثليث، والتأليه والتثليث لم يقررا إلا بأمر سياسي، وكان انتصارا للرأي الأقلية كما سنبين. وهذه القضية لا ينكرها أحد من النصارى، وهي تطرح إشكالية خطيرة تتمثل في أن مقتضى المنطق، ومقتضى الوحي والعقل أن يقرر صاحب الرسالة العقيدة التي أتى بها، وبعد ذلك لا يحق لأحد أن يغيرها أو يضيف إليها أو ينقص منها<sup>(1)</sup>، كما أن المنطق والعقل يقتضي أن يقرر محتوى تلك العقيدة الكتاب الذي أتى به صاحبها<sup>(2)</sup>. وهذا يدعونا إلى النظر للكتاب المقدس لمعرفة هل هو الذي قرر تلك العقيدة؟ وما هو محتواها؟ وإذا لم يقررها هو، فما هو مصدرها؟.

الكتاب المقدس يحتوي على العهد القديم والجديد، وهنا يجب أن نشير بأن إله العهد القديم ليس هو إله العهد الجديد، فالفرق بينهما واسع إلى حد التناقض، وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى بعض صفات الإله في العهد القديم لننتقل بعد ذلك إلى العهد الجديد، فأنمين بنفس العمل لنقرر ما يترتب على ذلك.

#### الإله في العهد القديم

أسفار العهد القديم تقرر أن الله واحد<sup>(3)</sup>، وهو الإله يهوه، وهو إله محلي، ولكنه الإله الوحيد، واليهود هم شعبه الوحيد، ولكنه يتصف بكل صفات القبح البشرية وكل صفات النقص، كما يتسم بأنه في غاية التجسيم والشكل والأعضاء<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> ولوضع مثال على هذه العقيدة الإسلامية التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم. فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي بين محتواها كاملا، ولم يغير ذلك المحتوى أبدا.

<sup>(2)</sup> ولوضع مثال على هذا العقيدة الإسلامية، لأن القرآن الكريم هو الذي حدد محتواها كاملا.

<sup>(3)</sup> رحمة الله المندي، إظهار الحق، ج 1، ص 371.

<sup>(4)</sup> علي سامي الشهاب، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، ص 65، 371.

ومن أمثلة اتصاف الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - بكل صفات القبح البشرية والشكل والأعضاء ما يأتي:

الله يتعب ويستريح: "وفرغ الله في الثيوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقده، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا"<sup>(1)</sup>.

الله يكذب: قال لآدم: "وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت"<sup>(2)</sup>. والكذب يتمثل في أن آدم أكل منها ولم يمت.

الله يمشي وله صوت ويجعل مكان آدم، وسمع آدم وحواء صوته: "وسمعا صوت الإله الرب ماشيا في الجنة... فننادى الرب... آدم وقال له أين أنت؟ فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاخترت"<sup>(3)</sup>.

الله يصنع لآدم وامرأته أقمصا من جلد ويلبسهما إياها: "وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصا من جلد وألبسهما"<sup>(4)</sup>. ولسنا ندري من أي جلد؟! .

الله يخاف منافسة آدم له، ويجعل المستقبل ويحل بالمكان: "وقال الإله الرب هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا، عارفا للخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن... فطرد الإنسان [أي الله طرد آدم] وأقام [أي الله] شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة"<sup>(5)</sup>.

الله يحزن ويأسف على أفعاله، أي خلقه آدم وباقي المخلوقات وله قلب: "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض... فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنني حزنت أني عملتهم"<sup>(6)</sup>.

الله هو الذي أغلق أبواب السفينة على نوح ومن معه: "وأغلق الرب عليه"<sup>(7)</sup>.

(1) سفر التكوين، إسحاح 2، فقرات 1-4.

(2) سفر التكوين، إسحاح 3، فقرات 17-18.

(3) سفر التكوين، إسحاح 3، فقرات 8-10.

(4) سفر التكوين، إسحاح 3، فقرة 20.

(5) التكوين، إسحاح 3، فقرات 22-24.

(6) التكوين، إسحاح 6، فقرات 5-7.

(7) التكوين، إسحاح 7، فقرات 16-17.



الله يندم وينسى ويتذكر بوضع علامة تذكره : فانه لما أهلك قوم نوح بانطوفان ندم على ذلك وقسور أن لا يهلك البشر بالطوفان أبداً، فكلم نوحاً وبنيه معه وبين لهم أنه أقام ميثاقاً معهم ومع نسلهم بذلك، وعلامة هذا الميثاق هو أن الله وضع قوسه - الذي هو قوس قزح - في السحاب، وذلك عندما ينزل المطر كثيراً يظهر قوس قزح في السحاب فيتذكر الله ميثاقه الأبدي الذي أعطاه لنوح وبنيه ونسلهم فيتوقف سقوط المطر<sup>(1)</sup>.

الله ليس معصوماً من الخطأ وأشنع خطأ وقع فيه هو خلق الإنسان مما جعله يندم بعد فوات الأوان علم خلقه آدم، وهو إله شره غضوب متعطش للدماء، متقلب الأطوار نزقاً نكداً كثير الكلام، وهو حي ' يسمح للناس أن يروا منه إلا ظهره<sup>(2)</sup>.

الله ينزل إلى الأرض لينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم بينونهما ويخاف من وحدة البشر: ولما رآهم كذلك " قال الرب... هلم ننزل وقبيل هناك لسانهم... فيكدهم الرب من هناك على وجه الأرض فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعي اسمها بابل... " وذلك لكي لا يبقوا متوحدين، "لأنهم بالوحدة يستطيعون عمل كل ما يريدون"<sup>(3)</sup>.

الله يظهر لإبراهيم عند بلوطات حمراء فيستقبله إبراهيم فيغسل الله رجليه مع مرافقيه ويتكئ تحت الشجرة ويعطيهم إبراهيم كسرة فيأكلونها، ويذبح لهم عجلاً ويحضره مع لوازمه من الخبز والزبد والبن فيأكل الله مع الملكين المرافقين له تحت الشجرة، ويقول لإبراهيم إن سارة ستحمل فتضحك سارة فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة... هل يستحيل على الرب شيء... فأكرت سارة الضحك فقال لها الله لا، بل ضحكت ثم قاموا من هناك نحو سدوم وكان إبراهيم ماشياً معهم نيشيعهم فقال الرب هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله... وقال الرب... إن صراخ سدوم وعمورة قد كثرت وخطيتهم قد عظمت جداً، أنزل الأذى وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إلي وإلا فأعلم<sup>(4)</sup>. ولنتصور الله إذا كان يأكل فإنه أيضاً لا بد له من قضاء الحاجة. وقد ختم النص كما هو واضح بأن الله لم يتأكد من الحقيقة فأراد أن يتحقق بالزيارة الميدانية، وهذا يعني بكل وضوح أن الله بشر 100%.

الله ينزل لإبراهيم عدة مرات ليكلمه ثم يصعد مثلاً<sup>(5)</sup> الله كلم زوجة إسحاق وقال لها في بطنك

(1) التكوين، إسحاح 9، فقرات 8-17.

(2) ول «بورانت»، قصة الحضارة، ج 1، م 1، ص 340.

(3) التكوين، إسحاح 11، فقرات 5-9.

(4) التكوين، إسحاح 18، فقرات 1-22.

(5) التكوين، إسحاح 22/17، 23، 22/18 و 32.

أمتان<sup>(1)</sup>... وظهر الرب لإسحاق ورآه اناس معه<sup>(2)</sup>

ومن هذه النصوص الأخيرة المجسمة تنتقل إلى الإشارة عن التجسيم، فنجد أن الله في العهد القديم يظهر في منتهى التجسيم والشكل والأعضاء، ومن الأمثلة على ذلك:

إثبات الشكل والصورة لله<sup>(3)</sup>، وإثبات الرأس<sup>(4)</sup> والشعر<sup>(5)</sup>، والوجه والقفأ<sup>(6)</sup>، والعينين والأفجان<sup>(7)</sup> والأذن والرجل والأنف والنفس والفم<sup>(8)</sup>، والشفة واللسان<sup>(9)</sup>، واليد والرجل<sup>(10)</sup> والأصابع<sup>(11)</sup>، والبطن والقلب<sup>(12)</sup> والنظر<sup>(13)</sup> والفرج<sup>(14)</sup>.

وأما إثبات المكان لله ورؤية الناس له في الأرض وحديثهم معه، بل وحتى صراعهم معه وعجزه عن غلبتهم فكثير جدا<sup>(15)</sup>، ومنه بعض النصوص السابق ذكرها<sup>(16)</sup>. تعالى الله عن كل هذا علوا كبيرا وتنزه وتقدس.

وبهذا نستطيع القول بأن الله في التوراة واحد، ولكنه يتصف بكل صفات البشر القبيحة وأنه في غاية التجسيم، وعندما نخضع ما سبق إلى منهج التحليل النفسي فإنه يعطينا صورة صادقة عن كاتب تلك النصوص بأنه إنسان كان غارقا في وحل المادية والانحراف والقصور العقلي فأنت تصوراته وفقا لذلك، فأنزل الله عز وجل من علياته ليغمسه في وحل البشرية المنحرفة ويصفه بأقبح أوصافها. وهنا نسأل: هل هذا هو تصور الإله في العهد الجديد؟ وهو ما يدعونا إلى الحديث عن الألوهية في العهد الجديد.

(1) التكوين 22/25، 23.

(2) التكوين 24/26-29.

(3) التكوين 1/27، 26/1 و 6/9.

(4) أسماء 17/9.

(5) دانيال 9/7.

(6) الخروج 23، 22/33.

(7) مزمور 4/11.

(8) مزمور 17/6-8، 9، 15.

(9) أسماء 27/30.

(10) الإِسْتِشَاءُ/33.

(11) الخروج 18/13.

(12) زمرية 19/4.

(13) أسماء 3/21.

(14) مزمور 7/2، والنص الذي وجدناه على لسان الله: "قال لي انت ابني أنا البرم ولدتك".

(15) ومن أراد التوسع في هذا الموضوع على سبيل المثال إلى سفر الخروج إصحاحات 25، 45، 46 وسفر الإِسْتِشَاءُ، إصحاح 26، بل ليقرا العهد القديم كله ليحد نفسه المحسب أصحاب، وقد استفدنا كثيرا في معرفة هذه الصفات من رحمة الله العبدى، المرجع السابق، ص 371-373.

(16) والأمر في هذا يختلف تماما عندما ننظر إلى صفات الله في التوراة فإننا لا نجد فيها أي أثر للطابع البشري.

## الإله في العهد الجديد

مفهوم الإله في العهد الجديد مضطرب كماضطرب كنبه الأناجيل وما كتبه أو أشد. فهو من جهة يأمر بالوحدانية، ومن جهة أخرى الإيهام بتأليه المسيح، ولنبدأ بالإشارة إلى ما يفيد الوحدانية ثم إلى ما يؤهم تأليه المسيح.

أ- الأمر بالوحدانية : قلنا نجد العهد الجديد يأمر من جهة بالوحدانية، حيث نجد أول الوصايا التي أمر بها المسيح عليه السلام هي التوحيد، فقد أورد مرقس أن عيسى كان يعلم اليهود فسئل: أي الوصايا هي أول الكل؟ أجاب يسوع: "إن أول كل الوصايا... الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى... فقال له الكاتب جيداً يا معلم، بالحق قلت، لأنه الله واحد وليس آخر" (1).

وكان جواب المسيح على سائل يسأله: "أيها المعلم الصالح ماذا أفعل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له يسوع لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله" (2). وهو ما أورده لوقا بنصه أيضاً (3)، وأورد متى في إنجيله قول المسيح للشيطان: "أذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبده" (4). وفي إنجيل يوحنا ورد قول المسيح عن نفسه: "أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة، لأنني لا أطلب مشيئتي، بل مشيئة الأب الذي أرسلني" (5). وهنا كيف يكون إلهها ولا يقدر أن يدين؟ إنه إقرار منه بعبوديته لله عز وجل، بل يصرح المسيح أنه لا مساواة بينه وبين الله، وهذا ما يتناقض مع دستور الإيمان الذي قرره مجمع نيقيا والذي ينص على أن جوهر الابن مساو لجوهر الأب. فيقول المسيح: "أبي أعظم مني" (6). كما يتناقض مع فكرة الحلول، لأن الحلول يعني المساواة واتحاد بين الحال والحلول فيه، بينما النص السابق يعني الأفضلية والتفاضل بين الأب والابن كما يبين المسيح بأنه لا يستطيع أن يعمل أي شيء من نفسه إلا بأمر الله، والذي يكون هذا حاله يستحيل أن يكون إلهها (7)، فيقول: "لا أستطيع أن أعمل من نفسي شيئاً كما أسمع أحكم وحكمي عادل، لأنني لست أطلب مشيئتي، بل مشيئة الأب الذي أرسلني وهذه الأعمال بعينها التي أعملها تشهد لي بأن الأب أرسلني، والأب الذي أرسلني هو شهد لي أنني أتيت باسم أبي" (8).

(1) إنجيل مرقس، إصحاح 12، فقرات 29-32.

(2) إنجيل مرقس، إصحاح 10، فقرة 17، 18.

(3) إنجيل لوقا، إصحاح 18، فقرة 18، 19.

(4) إنجيل متى، إصحاح 4، فقرة 10.

(5) إنجيل يوحنا، إصحاح 5، فقرة 30.

(6) إنجيل يوحنا، إصحاح 14، فقرة 29.

(7) محمد رجب شعوي، المذاهب المسيحية وأثرها في النصرانية، ص 19، 20.

(8) إنجيل يوحنا، إصحاح 5، فقرات 30، 37، 43.

الأناجيل تبين أن المسيح عليه السلام كان يعبد الله ويمضي نه ويتوسل إليه، شأنه في ذلك شأن المخلوق مع الخالق، وأنه تطراً عليه جميع الأعراض البشرية من الخوف والحزن والأكل والنوم إلخ<sup>(1)</sup>. من ذلك ما يروي مرقس أن المسيح قام باكراً جداً في الليل وخرج وذهب إلى مكان وكان يصلي<sup>(2)</sup>، وقال لهم أيضاً "إن نفسي حزينة حتى الموت... ثم تباعد قليلاً، وخر على الأرض وكان يصلي"<sup>(3)</sup>.

ومن الحمافة أن يزعم مدعي أنه كان يصلي لنفسه، أي كان يعبد نفسه، وإذن فإن صلاته قطعاً كانت لمن هو أعظم وأعلى منه، ولقد صرح المسيح بآتيسته ورسالته قائلاً: "وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله"<sup>(4)</sup>. كما أمر قائلاً: "ولا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات، ولا تدعوا معلمين، لأن معلمكم واحد المسيح"<sup>(5)</sup>. وبهذا فإن المسيح ليس أكثر من معلم.

كما تذكر الأناجيل أن المسيح عليه السلام أطم وضرب وتصق في وجهه متحدثين له "حينئذ بصقوا في وجهه ولكموه، وآخرون لطموه قائلين تتباً لنا أيها المسيح من ضربك"<sup>(6)</sup>. ونحن نتساءل: هل يمكن للإنسان أن يبصق في وجه الله ويضربه؟! ولو كان إلهاً هل كان يمكن لأولئك أن يتجروا عليه ويضربونه؟! إن هذا الشيء عجائب.

ومما يدل على الوجدانية قوله: "فلا يعظم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الإين إلا الأب"<sup>(7)</sup>. بل في آخر لحظة من حياة المسيح حسب رواية مرقس أثناء صليبه "صرخ بصوت عظيم قائلاً: أوبي أوبي لَمَا شَبَقْتَنِي، الذي تفسيره إلهي إلهي لماذا تركتني"<sup>(8)</sup>. وورد كثيراً في الأناجيل تسمية المسيح ابن الإنسان. من ذلك: (لوقا 10/12).

والواقع أن الأناجيل تصرح في 80 موضعاً أن المسيح عبد الله ورسوله<sup>(9)</sup>.

ب- ما يفيد التآليه: إذا كان ما سبق يفيد الوجدانية فإننا نجد من جهة أخرى فقرات توهم بتآليه المسيح، منها ما ورد في إنجيل يوحنا: "أنا والأب واحد"<sup>(4)</sup>. وقوله: "كفي تعرفوا وتؤمنوا أن الأب في وأنا فيسه"<sup>(10)</sup>.

(1) محمد رجب شتيوي، المرجع السابق، ص 19، 20.

(2) إنجيل مرقس، إصحاح 1، فقرة 35.

(3) إنجيل مرقس، إصحاح 6، فقرة 46.

(4) إنجيل يوحنا، إصحاح 6، فقرة 41.

(5) إنجيل متى، إصحاح 23، فقرة 10، 9.

(6) إنجيل متى، إصحاح 26، فقرة 67، 68.

(7) إنجيل مرقس، إصحاح 13، فقرة 22.

(8) إنجيل مرقس، إصحاح 15، فقرة 34.

(9) ومن أراد التوسع في هذا المرجع إلى محمد رجب شتيوي، المرجع السابق، ابتداء من ص 18، وكذلك الأناجيل الأربعة.

(10) إنجيل يوحنا، إصحاح 10، فقرة 31.

(11) إنجيل يوحنا، إصحاح 10، فقرة 38.

"... أني أنا في الأب والأب في، الكلام الذي أكلّمكم به ليست أكلّم به من نفسي، لكن الأب الحال في هو يعمل الأعمال، صدقوني أني في الأب والأب في"<sup>(1)</sup>. وهذه النصوص تعني في ظاهرها وحدة الوجود. كما ورد على أن المسيح ابن الله<sup>(2)</sup>، وعند عماده وتجنّبه على الجبل شهد له الله من السماء بصوت مسموع - في زعمهم - قائلاً<sup>(3)</sup>: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"<sup>(4)</sup>... الخ. وهنا نقدم ملاحظتين مهمتين:

الأولى: البتة الله لم ترد قاصرة على المسيح وحده، بل وردت صادقة على غيره، وقد وردت في مواضع متعددة في العهد القديم. فجاء في سفر التكوين أن الملائكة أبناء الله<sup>(5)</sup> "وأن أبناء الله رأوا بنات الناس حسنات فاتخذوا منهن زوجات"<sup>(6)</sup>، وورد في كلام موسى أن بني إسرائيل جميعاً أبناء الله، وفي سفر التثنية: "أنتم أبناء الله"<sup>(7)</sup>، وأشير إلى الشعب كله بأنهم أبناء وبناته<sup>(8)</sup>. وفي المزامير "قدموا للرب يا أبناء الله"<sup>(9)</sup>، و "من يشبه الرب بين أبناء الله"<sup>(10)</sup> الخ<sup>(11)</sup>. بل ورد في سفر الخروج: "يقول الرب: إسرائيل ابني البكر"<sup>(12)</sup>. وهذا يحطم ادعاء النصارى في مجمع نيقية أن يسوع ابن الله المولود غير المخلوق، إذ مسهما كان يسوع قديماً فإن إسرائيل أقدم منه.

أما العهد الجديد فمخاطبة الله باسم الأب وردت في الصلاة التي تبتدئ بدعاء الله "أبانا الذي في السموات" وحيث قال المسيح للتلاميذ "إن أباكم واحد هو الذي في السموات"، وحيث تكلم عن ولادة الروح وولادة الجسد، وكل ولادة للروح فهي بنوة لله<sup>(13)</sup>. ومما قاله العهد الجديد عن ذلك: "... لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله..."<sup>(14)</sup>. وهذا يعني أن العهد الجديد يفسر ابن الله بأنه لفظ مجازي كما هو الحال في العهد القديم<sup>(15)</sup> وهذه هي الملاحظة الثانية.

(1) إنجيل يوحنا، إصحاح 14، آية 11، 12.

(2) إنجيل متى، إصحاح 5، آية 7.

(3) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 104.

(4) إنجيل متى، إصحاح 3، آية 17، 18.

(5) جيس محمود العقاد، حياة المسيح، ص 383.

(6) التكوين، إصحاح 6.

(7) تثنية، إصحاح 14.

(8) تثنية، إصحاح 32.

(9) مزَامِير، إصحاح 29.

(10) مزَامِير، إصحاح 89.

(11) جيس محمود العقاد، حياة المسيح، ص 383.

(12) سفر الخروج، إصحاح 4، آية 22.

(13) جيس محمود العقاد، حياة المسيح، ص 383.

(14) بولس، الرسالة إلى أهل رومية، إصحاح 8، آية 14.

(15) أحمد ديدات، المسلم في الصلاة، مقارنة بين صلاة المسلمين وصلاة أهل الكتاب، ترجمة علي عثمان، دط، دار الهدى، عين مليحة، الجزائر، 1991، ص 23.

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة المتمثلة في الملاحظتين السابقتين أدق تعبير، ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾<sup>(1)</sup>. وفي هذه الحالة، إما أن نعتبر الجميع أبناء الله ولا نخص المسيح وحده بالبنوة، وفي هذه الحالة يكون المسيح عليه السلام من حيث خلقه "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن..."<sup>(2)</sup>. ومن حيث رسالته: "إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد"<sup>(3)</sup>. وبهذا يكون عبدا لله أو ابن الإنسان كما ورد في الأناجيل وكما بينا قبلا أوحى إليه، وبذلك يكون معنى البنوة مجازيا.

ويدعم هذا ويعضده أن الرومان كان عندهم نظام التبني<sup>(4)</sup>، وواقعيا الابن بالتبني ليس ابنا حقيقيا، والأناجيل كما بينا قبلا كتبت كلها في عهدهم، وفي هذه الحالة، فعندما تورد الأناجيل بنوة المسيح لله فلا يمكن إلا أن يكون المقصود البنوة المجازية أو البنوة بالتبني، وهذا على افتراض صحة الأناجيل، ولكنها ظهر لنا فيها ما ذكرناه قبلا.

ويسند ما ذكرناه آنفا، ما بيناه قبلا من أن من ألقب المسيح في الأناجيل إضافة إلى ابن الله : ابن الإنسان التي تكررت كثيرا في متى<sup>(5)</sup> ولوقا<sup>(6)</sup> وغيرها<sup>(7)</sup>. ولا أدل على هذا من أن العهد القديم أطلق اسم الآلهة وأبناء الله حتى على العوام فضلا عن الخواص<sup>(8)</sup>. ومن ذلك ما ورد في المزمور 82 "الله قائم في مجمع الله في وسط الآلهة يقضى ... قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم لكن مثل الناس تموتون"<sup>(9)</sup>. بل بلغ الأمر ببولس أن أورد إطلاق الإله على الشيطان - والعياذ بالله - قائلا: "ولكن إن كان إنجيلنا مكتوما فإنما هو مكتوم في الهالكين الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله"<sup>(10)</sup>. والمراد بإله الدهر: الشيطان على ما زعم علماء بروتستانت. وهكذا أطلق لفظ الإله على الشيطان على زعمهم فضلا عن الإنسان<sup>(11)</sup>.

وبهذا نتوصل إلى أن كل الذين أطلق عليهم لفظ الإله أو ابن الله هم آلهة وأبناء الله، ويكون المسيح أحدهم. وهذا لا يقبل به النصراني رغم تصريح كتابهم المقدس به. وبهذا لا يمكن الحكم من خلال محتوى الأناجيل على كون المسيح ابن الله دون سواه ولا سيما أنه ورد بها أن كلمة الرب تعني السيد. فقد ورد

<sup>(1)</sup> المائدة/20.

<sup>(2)</sup> آل عمران/59.

<sup>(3)</sup> الصف/6.

<sup>(4)</sup> وهو عندهم كان "بوجدنسا وبجت حنوقا ويلزم بواجبات" (محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص21).

<sup>(5)</sup> إنجيل متى، إصحاح 13، 16.

<sup>(6)</sup> إنجيل لوقا، إصحاح 13.

<sup>(7)</sup> صليح محمود العلاء، حياة المسيح، ص384.

<sup>(8)</sup> رحمة الله للعبي، المربع السابق، ص381.

<sup>(9)</sup> مزمور، مزمور 82، فقرات 1-7.

<sup>(10)</sup> رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس، إصحاح 4، فقرات 3-5.

<sup>(11)</sup> رحمة الله للعبي، المربع السابق، ص381، 382.

في إنجيل يوحنا "فقالا ربي الذي تفسيره يا معلم"<sup>(1)</sup>، وذلك نداء للمسيح الذي سأتهما "ماذا تطلبان؟". وبذلك لا يمكن التوصل من خلال محتوى الأناجيل إلى ألوهيته أو بنوته لله عز وجل.

### موقف النصارى مما سبق :

يزعم النصارى - رغم ما سبق - أن المسيح هو ابن الله الوحيد، وهو مولود غير مخلوق. ويستندون في ذلك على ما أورده يوحنا في إنجيله<sup>(2)</sup> حيث يقول: "لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية، لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم، الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد"<sup>(3)</sup> وبسبب هذا - حسب زعمهم - فإن المسيح هو الابن الوحيد المولود لله غير المخلوق<sup>(4)</sup>. أي الابن الوحيد الذي ولده الله، ولكنه مولود ليس مخلوقاً<sup>(5)</sup>.

والواقع أن هذا لا يقبله عقل أو ضمير أو دين. ذلك "أن الولادة بطبيعتها عمل حيواني ينتمي إلى أحوط الوظائف الحيوانية، وهي الجنس، وهذا ما لا يمكن أن ننسبه إلى الله على النحو الذي يسورده النصارى؛ لأن المسيح عندهم هو الابن الوحيد الذي ولده الله وأنه مولود وليس مخلوقاً"<sup>(6)</sup>. ولم يستطع أحد من النصارى أن يشرح كيفية كون المسيح ولد ولم يخلق<sup>(7)</sup>. ولقد صدق سبينوزا عندما قال معبراً عن استحالة هذا: "لقد أشرت صراحة إلى أنني لا أفهم المقصود منها؛ بل إن هذا القول لا يبدو لي أقل امتناعاً من القول بأن الدائرة قد اتخذت صورة المربع"<sup>(8)</sup>.

ونحن نستغرب أن يكون المرء مولود غير مخلوق، كما لا يمكن قبول فكرة: خروج الإله من فرج امرأة؛ لأن هذا يطرح مشكلات أخلاقية ونفسية وميتافيزيقية. ولكن الذي يهمنا الآن هو أن القول بكون المسيح "ولد ولم يخلق" هو عقيدة تتفق فيها المذاهب النصرانية من كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس<sup>(9)</sup>... الخ، وهذا يدعونا إلى البحث عن الذي أدخل هذه العقيدة إلى النصرانية وعن مصدرها، ومن خلال ذلك نتوصل إلى الحديث عن عقيدة التثليث ومصدرها ونتوصل من خلال كل ذلك إلى بيان تهافت مزاعم بورشاد وإثبات صحة العقيدة الإسلامية.

(1) إنجيل يوحنا، إصحاح 1، فقرة 38.

(2) أحمد ديدات، الناظرة الحديثة، ص 133.

(3) إنجيل يوحنا، إصحاح 3، فقرات 16-19.

(4) ذكر أحمد ديدات أن كلمة "المولود" عندنا مراجع النسخة القياسية المنقحة. وهم 32 من كبار رجال الكهنوت، يساندونهم 50 من الطوائف النصرانية لأنهم اكتشفوا أن كلمة "المولود" عندنا (أحمد ديدات، الناظرة الحديثة، ص 133، 134).

(5) المرجع نفسه، ص 115.

(6) المرجع نفسه، ص 134.

(7) ويذكر أحمد ديدات أنه خلال 40 عاماً لم يستطع إنجليزي واحد أن يشرح له "مولود غير مخلوق" (المرجع نفسه، ص 135).

(8) فؤاد زكريا، سبينوزا، ط 2، دار التصوير للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص 182.

(9) أحمد ديدات، الناظرة الحديثة، ص 135.

## إدخال ألوهية المسيح إلى النصرانية

لقد ذكرنا قبلاً أن النصرانية الحالية ليست ما أتى به المسيح، بل هي ما ابتدعه بولس، وبيننا كيف قضى بولس على شريعة المسيح ابتداءً من إلغاء الختان والطهارة والنجاسة إلخ، كما بينا أنه أول من ابتدع قضية الخطيئة والصلب والخلاص، وقلنا بأن ذلك كان شائعاً في عصره وقبل عصره، كما بينا أنه أول من ألهم المسيح ووضع بذرة الحديث عن لاهوت وناسوت متأثراً بأفكار عصره كما أن رسائله انتشرت قبل الأناجيل فأثرت فيها، وكانت رسائله تعج بما ورد في أساطير الإغريق والديانات الشرقية، من ذلك تأليه البشر كما سنشير.

وهكذا فقد ألهم بولس المسيح فأنت رسائله تعج بهذا التأليه كقوله: "المسيح ... الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد"<sup>(1)</sup>، وقوله "فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً"<sup>(2)</sup>. وقوله "ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه"<sup>(3)</sup>، وهنا نتساءل:

ما مصدر عقيدة ألوهية المسيح التي أتى بها بولس، أو ما هي أصول عقيدة التجسد؟

(1) رومية، إسحاح 9، آية 5.

(2) كورنثوس، إسحاح 2، آية 9.

(3) رومية، إسحاح 5، آية 10.



## مصدر عقيدة ألوهية المسيح البولسية

أو

### أصول عقيدة التجسد

عقيدة تأليه البشر كانت جزءاً من التراث الثقافي لعهد<sup>(1)</sup> بولس، حيث شاعت عبادة الإله القومي فسي مختلف الأقاليم وبلغت أوجها في التنظيم في عهد الرومان، أما اليونان فكان عندهم عبادة الأبطال والحكام أمراً عادياً.

وكان البطالمة الذين حكموا مصر يؤلهون بعد موتهم، ثم صاروا يؤلهون أحياء، وبعد موت الذي كان يؤله في حياته يصبح بعد مماته "الإله المتجلي" أو الإله الحي - وقد انتقلت هذه الفكرة إلى النصرانية. فاعتبر المسيح الإله المتجلي بعد قيامته - وبعد بطليموس الخامس الذي حكم من سنة 205 إلى 180 ق.م أول من لقب نفسه "الإله المتجلي" (EPIPHANES) كما أله يومينيس الثاني (EUMENES) حاكم برجاتنة من 197 إلى 160 ق.م وعبد. وكان انطيوخس الرابع الملك السلوقي (175 - 163 ق.م) يلقب أيضاً بـ "المتجلي"، في حين كان انطيوخس الثاني السلوقي (261 - 247 ق.م) وبطليموس 12 في مصر (80 - 51 ق.م) يلقبان بلقب الإله "THEOS"<sup>(2)</sup>، وهكذا شاع في مصر مصطلح "الملك الإله"، أي الملك الذي يعتبر إلهاً ويعبد كإله<sup>(3)</sup>. وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة عن فرعون موسى الذي قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾<sup>(4)</sup>، وبين القرآن الكريم أن اليهود كانوا له عابدين ﴿وقومهما لنا عابدون﴾<sup>(5)</sup>.

ونجد في مصر الملكة حتشيسوت زوجة تحوتمس الثاني التي حكمت مصر عقدين كاملين، وقد حكمت بحجة أن كهنة الإله آمون - رع والإله نفسه قضوا بأن تتوج ملكة، ولكي تثبت سلطتها بنت المعبد الذي دفنت فيه في منطقة "دير البحري"، ومما سجل فيه ولادتها غير الطبيعية حيث أن الإله آمون - رع تنكسر بهيئة والد حتشيسوت وجامع أمها فحملت بها.

وبهذا فإنها تعتبر الابنة الجسدية لملك الآلهة. وقد كان هذا في الفترة (1551 و 1085 ق.م). وهذه الفكرة قريبة جداً مما يعتقد النصارى في المسيح. ولقد سادت المعتقدات السابقة لدى كل الشعوب الناطقة باللغات السامية كالبابليين والآشوريين والكنعانيين والعبرانيين والفينيقيين<sup>(6)</sup> إلخ.

(1) جون ملك، أسطورة تجسد الإله في المسيح، تعريب وعرض نيل صبيح الطويل "كتاب في مقال"، مجلة الأمة، قطر، ربيع الثاني 1401هـ - فبراير 1981م، ص 1، 4، 57-49.

(2) جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 5، ص 64.

(3) ولهم ورد، الفكر السياسي القديم، النظرية السياسية وتطبيقها في مصر القديمة، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية "الفكر العربي" معهد الإنماء العربي، بيروت، الهيئة القومية للبحوث العلمي طرابلس ليبيا، السنة 3، سبتمبر، أكتوبر 1981، ع 22، ص 166.

(4) انفازعات / 24.

(5) للوسون / 47.

(6) ولهم ورد، المرجع نفسه، ص 170-172، 178.

وعلى كل فلقد انتقلت تلك البدعة الخطيرة، أي تأليه الحاكم إلى الرومان. ومن أكبر من نقلوا ذلك الخطيب الشهير شيشرون<sup>(1)</sup>، وبين ذلك في تأبينه لسكيبو (حوالي 51 ق.م) فنذكر أن العظماء يصبحون بعد مماتهم آلهة. وكان قيصر يخاطب في السنة الأخيرة من حكمه (45 - 44 ق.م) على أنه إله<sup>(2)</sup>.

وأصبح تأليه الملوك في العالم الهلنستي مرتبطا بوظيفتهم، فالملك المؤله أصبح مؤسسة عالمية في البلاد الشرقية. وهذا هو الذي نقله الرومان إلى إمبراطوريتهم<sup>(3)</sup>، فقد كان أغسطس يعد حاكما إلهيا، وكان من ألقابه الرومانية الرسمية لقب "ابن الإله" وبعد مماته أله وأدمجت عبادته بعبادة الإلهة روما (ROMA) بل حتى لقب أغسطس فإنه يعني الممجد أو صاحب الجلالة، وهي جميعها ألقاب للآلهة.

هذه العبادات أصبحت على مر الزمن من الواجبات الوطنية المفروضة على كل مواطن وهي أحد أسباب الوقعة بين اليهود والرومان<sup>(4)</sup>.

ويجب أن نشير هنا أيضا إلى أن الإسكندر المقدوني<sup>(5)</sup> عندما احتل مصر زار واحة "سيوة" حيث يوجد هيكل الإله "أمون" فحياه الكاهن على أنه "ابن الإله أمون"، كما أن الإسكندر لُقنته أمه "أوليمبيا" أنه ابن الإله "زفس"، وكان يعتبر أن "أمون" هو "زفس"، وكان الفرس الذين احتل أرضهم يسجدون له. أما المدن اليونانية (الهانية) التي أنشأها وعمرها بجنوده المقدونيين واليونانيين فقد ألهمته، ذلك أن تأليه الملك عند هؤلاء كان مألوفًا مما جعلهم يؤلهونه في حياته (سنة 324 ق.م)<sup>(6)</sup>.

وبهذا نستطيع القول بأن المسيح بعث في هذه البيئة ليحرر عقول بعض أهلها من تأليه البشر، ولكن رسالته كانت قاصرة. فما أن غاب حتى اعتبر كما اعتبر عظماء أولئك الأقوام إليها وابن إله. وهذا فرق جوهرى بين الإسلام والنصرانية، إذ في حين تمكن محمد صلى الله عليه وسلم من استئصال الشرك والوثنية في حياته من البيئة العربية ومن نفوس العرب، وبذلك ضمن للعقيدة الإسلامية النقاء والسلامة، نجد المسيح عليه السلام لم يتمكن من ذلك. مما أدى إلى الانحراف الخطير في العقيدة التي أتى بسببها بعد غيابه مباشرة.

وهكذا فرغم أن اليونان ومن بعدهم الرومان أخضعوا آسيا ومصر، فإن أساطيرهم وطقوس عباداتهم اصطبغت تدريجيا بألوان شرقية، وذلك بسيطرة آلهة الشرقيين عليهما ولا سيما في الفترة التي أصبحت

(1) هو ماركوس توليوس شيشرون، ولد في أرينوم سنة 106 ق.م، تعلد على أبقوريين ورواقيين في روما وغيرها، بعد أعظم خطيب روماني ومن أعظم الكتاب اللاتين، كما كان محاميا عظيما، اغتيل بأمر من الحكومة الثلاثية في 7 ديسمبر سنة 43 ق.م، في فورميا على خليج كانيا، ترك مؤلفات منها "في طبيعة الآلهة" في ثلاثة أجزاء و"في الكهانة" استطاع أن يوفق بين تشكيكه وبين اعتناق ديانة الدولة الرومانية الرسمية (جورج سارتون، تاريخ العلم، ج5، ص 80-87).

(2) المرجع نفسه، ص 64، 68.

(3) نقولا زيادة، الحكم السلوقي في بلاد الشام أسسه وأساليبه، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية (الفكر العربي)، معهد الإنماء العربي، بيروت، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، ليبيا، السنة 3، سبتمبر، أكتوبر 1981، ع 22، ص 201.

(4) جورج سارتون، المرجع السابق، ج 5، ص 64، 65.

(5) هو الاسكندر الكبير (356-323 ق.م) بعد من أشهر الفيلة الاستعماريين، هو ابن فيليس ملك مقدونيا خلف والده سنة 336 ق.م، احتاج إمبراطورية العرس واحتل مصر وأسس الإسكندرية سنة 332 ق.م، مات بالحمى في بابل، تقاسم لورته قواده أنتيوخوس وبطليموس وسنوفس، غشبات الممالك الهلنستية (المتحد، ص 45).

(6) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 187، 188.

فيها الحضارة اليونانية شرقية في جوهرها، بحيث استولت الأساطير والخرافات الدينية الشرقية على عقول العامة في الأقاليم الخاضعة لليونان أو الرومان. أما الخاصة فكانوا إضافة إلى اصطباغ معتقداتهم بالأسطورة والخرافة يقوم دينهم على نوع من وحدة الوجود وتجلي الله في الوجود، وهذا ما وجد بعد ذلك في النصرانية.

وما يهمنا هنا أن ديانة اليونان التي كانت تقوم على الميثولوجيا القديمة وغيرها، أضيف إليها آلهة شرقية مختلفة مثل إيزيس وأوزيريس وساراييس وميثرا والإلهة الأم العظيمة سيباله (Cybelé)<sup>(1)</sup> إلهة بلاد الأناضول وغيرها من الآلهة الشرقية، وأخطر من كل هذا أصبح العامة من اليونانيين يتجهون في صلواتهم وتعبداتهم إلى آلهة المصريين القدامى وغيرها من الآلهة الشرقية<sup>(2)</sup>.

وإذا كان لكل ما سبق أثره في قضية تأليه المسيح والتجسد؛ فإنه كان أيضا لطوائف السامريين تأثير لا يستهان به في تأليه المسيح، فهم كانوا يؤمنون بفكرة الثنائية. ويذكر ميكائيل غولدر<sup>(3)</sup> أن بولس حصل على فكرة تجسيد الله في المسيح في سياق جدله مع الدعاة السامريين في "كورنثيا" و"أفسوس" بين عامي 50 و 51 م، وقد وصلت فكرة التجسد إلى بيانها الكلاسيكي في إنجيل يوحنا. ويذكر غولدر أنه حوالي العام 100 م ذهب يوحنا وهو عضو كنيسة السامريين إلى آخر المدى، وهكذا كان إنجيله هو الذي أرسى الأرثوذكسية المسيحية وأعطى لموضوع التجسد قيمة "الحقيقة المنزلة". وبهذا فإن العمل الكامل في تأليه يسوع - في نظر غولدر - يقع عبئه على كتف يوحنا<sup>(4)</sup>.

والنتيجة التي نستخلصها من كل ما سبق: أن ثقافة الناس في الإمبراطورية الرومانية والتي كان من أجزائها مصر واليونان وبلاد الشام وقسم من بلاد الفرس<sup>(5)</sup>، كانت تتقبل فكرة آلهة بشكل إنسان أو تحول إنسان إلى إله، وهي كلها مستلهمة من الوثنية.

هذه البيئة بعث المسيح عليه السلام لهداية بعض سكانها وهم بنو جدته، ولما غاب أخذ حواريسوه في مواصلة نشر عقيدته، ولكن البيئة كانت أقوى منهم فوقع الصراع بين أتباعه الموحدين وبين المؤلهين، أي بين الموحدين وأنصار بولس، واشتد الصراع بينهما. ولما كان الرومان وثنيين أدركوا أن التوحيد لا يخدم أطماعهم فقرروا الانتصار للطرف الذي يخدم الاستعمار، أي بين أتباع المسيح المحافظين وأنصار بولس الذي عمل به الاستعمار الروماني على تحطيم عقيدة المسيح من الداخل بعد أن فشل التحطيم الخارجي العنفي الذي كان بولس أيضا أحد أدوات الرومان فيه.

ولكن القضية لم تحسم فنكل الرومان الوثنيون بأتباع المسيح - وكان بولس أحد أدواتهم في ذلك كما ذكرنا - ومزقهم شر ممزق، ولكنهم مع ذلك لم يحسموا القضية لصالحهم وأحدث ذلك اضطرابا في الإمبراطورية الرومانية الشاسعة الأطراف والتي يخضع لها شعوب ليست موحدة بالنوع، بل تنتمي إلى

(1) وقد نقل ناطقا إلى روما سنة 205 ق.م، (جورج سارتون، تاريخ العلم، ج5، هامش رقم 2، ص66).

(2) المرجع نفسه، ص38، 40.

(3) هو أستاذ محاضر في اللاهوت في جامعة برمنجهام (بيل صبيح الطويل: أسطورة تجسد الإله في المسيح "كتاب في مقال" مجلة الأمة (مراجع سابق) ص49-57).

(4) ميكائيل غولدر، أسطورة تجسد الإله في المسيح، ص49-57.

(5) وذلك لأنه كما هو معلوم، كانت الحروب مستمرة بين الروم والفرس، وهي بينهما ساحال.

ثقافات وديانات متناقضة، وأدرك الرومان أهمية الجانب الروحي والثقافي في توحيد الشعوب وإخضاعها الإرادي التلقائي لهم وتسهيل حكمهم لتلك الأقطار الشاسعة، فأرادوا حسم القضية وفقا لما يخدم مصالحهم، وهو تأليه المسيح، ثم جعله ثالث ثلاثة، ولكن كيف يتمكنون من ذلك؟. هنا ابتكرت خطة جهنمية هي ما يسمونه بـ "المجامع".

وبهذا نتوصل إلى أن العقيدة النصرانية ليس مصدرها الأناجيل، وهو ما اعترف به يوحنا الدمشقي<sup>(1)</sup> حين رد على القائلين بأن الإيقونات<sup>(2)</sup> ليست في الكتب المقدسة ولكنه أضاف: "لن تجدوا أيضا في الكتب المقدسة التثليث<sup>(3)</sup>، وثنائية الطبيعة للمسيح... ولكن نعلم أن هذه العقائد صحيحة"<sup>(4)</sup>. وبهذا فإن مصدر النصرانية شيان الأول بولس، وقد بينا ذلك، والثاني المجامع، وهذا ما يدعونا إلى الحديث عن دورها في نشأة العقيدة النصرانية.

## المجامع

المجامع لم يأمر بها المسيح ولا عقدها وكذا حواريوه<sup>(5)</sup>، وبناء على هذا فإن هذه المجامع لم تقم على سند، وكانت قراراتها معارضة بعضها بعضا وغير ملزمة للنصارى ومخالفة لأصول دين المسيح، وكان الصراع بين هذه المجامع يبلغ أشده حتى يصل إلى اللعن والحرمان والتكفير وتحريق المخالفين<sup>(6)</sup>. ومع كل هذا فإن هذه المجامع هي أحد أصول النصرانية، بل هي التي صنعت العقيدة النصرانية في حين كان يجب أن يصنعها الكتاب المقدس. ذلك أن الذي يضمن سلامة الدين وصحته ليس وجود أو إنشاء المجامع التي تزعم حمايته وتصحيحه، وهو ما زعمه بورغاد من أن مجلس روما هو الذي يحافظ على سلامة الدين النصراني من التحريف؛ لأن رجاله ملهون معصومون، بل الذي يحمي الدين هو سلامة نصوصه من التبدل بعد أن تكون صادرة عن الله عز وجل، ذلك أن النصوص الصحيحة تؤدي إلى وجود الرجال الذين يحمونها وينشرونها، لكن وجود الرجال مهما كانت نياتهم سليمة، لا يضمن صحة الدين أو تصحيحه عندما تكون نصوصه محرفة.

<sup>(1)</sup> يوحنا الدمشقي (675-749م) كان طيب يزيد الأموي. أسقف. أول من أخذ يولف الكتب لهاجمة الإسلام، وأول من أثار قضية أمتنا زيب بت حجتى. وقد علق دون كويت (عيد كلية عمانويل بجامعة كامبردج) عليه قائلا: "ومن السخرية أن حربه في الدفاع عن الإيقونات كانت بسبب حماية المسلمين له وهو يعيش بينهم، فكان قادرا على الدفاع عنها من داخل بلاد الإسلام في وقت لم يكن يوحنا أمتنا لاخذ مثل هذا الموقف في الإمبراطورية المسيحية". وقد علق على هذا التعليق نبيل صبحي الطويل قائلا: "هذا هو عدل الإسلام الشامل وحماته لأهل الكتاب والتي لا نظير لها في أية عقيدة أخرى" (محمد على أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ج2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1973م، ص139. محمد أبو زهرة، المعجزة القرآنية، ص. دون كويت أسطورة نجسد الله في المسيح (من كتاب في مقال مجلة الأمة، مرجع سابق، ص56، 57، وهاينس ص57).

<sup>(2)</sup> الإيقونات: التماثيل. وكان للطلاء صور كثيرة يسميها اليونانيون "إيقونة" (محمد شويبي، المجمع، ص298).

<sup>(3)</sup> وهذا أحد الأدلة على أن نص التثليث السابق ذكره أثناء حديثنا عن الأناجيل أصح مما بعد، وهذا الدليل بين أنه إلى وقت يوحنا الدمشقي لم يكن قد انبسط، أي إلى غاية 749م، أي منتصف قرن 8م.

<sup>(4)</sup> دون كويت، أسطورة نجسد الله في المسيح، ص43-57.

<sup>(5)</sup> كلمة مجمع التي وردت في الكتاب المقدس يقصد بها مكان العبادة ومركزها، وهي مرادفة لكلمة كنيسة (محمد رجب شويبي، المجمع، ص57).

<sup>(6)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى محمد رجب شويبي، المجمع، ابتداء من ص59.

كما أن كثرة هذه المجامع تبين تطور العقيدة النصرانية وعدم ثباتها، وهذا دليل على بطلانها، لأن العقيدة الدينية يجب أن تكون محددة بدقة من المسيح لا أن تتطور بعده في أشكال متعددة ولعدة قرون، وهذه نقطة خلاف جوهرية بين النصرانية والإسلام، إذ في حين نجد النصرانية كما ذكرنا ونذكر .

نجد الإسلام قد حددت عقيدته بدقة في القرآن الكريم زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فهو وحده الذي حددها بدقة ولم يحدث لها أي تغيير أو تبديل مثلما لم يحدث أي تغيير أو تبديل في القرآن الكريم، وقد نتج عن هذا وضوح مطلق في العقيدة الإسلامية، يجمع بين البساطة المطلقة والتعمق المطلق، يقابل هذا غموض مطلق مطبق في النصرانية التي لم ينتزع لأصحابها حقيقة المسيح إلى الآن، وهو ما جعل صراعاتهم لا تنتهي وفرقهم ومجامعهم يكفر بعضها بعضا ويلعن بعضهم بعضا حتى أصبحت فرقهم وكأنها أديان متباعدة لا تحل في دين واحد، كل هذا جعلهم يلغون العقل من أسس الإيمان فأصبحت النصرانية تعتمد على الإيمان بدون برهان " أعقد وأنت أعمى " أو " أغمض عينيك واتبعني " بخلاف قضية التوحيد عندنا فهي تستند إلى العقل وتعتمد على البرهان، يقول القرآن الكريم للمشركين<sup>(1)</sup> ﴿ أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾<sup>(2)</sup>.

وهكذا نجد المجامع هي التي قررت مفهوم العقيدة النصرانية، ويعرف النصارى هذه المجامع بأنها : " هيئات شورية في الكنيسة المسيحية رسم الرسل نظامها في حياتهم، إذ عقدوا المجمع الأول في أورشليم سنة 51 م بزعامة أسقفها يعقوب الرسول للنظر في مسألة الختان - ختام الأمم - ومن ثم نسجت الكنيسة بعد ذلك على منوالهم"<sup>(3)</sup>.

وما يهمنا نحن من هذه المجامع هو تقرير العقيدة النصرانية وتطورها؛ لأنه لا الأناجيل ولا رسائل الرسل تجيبنا على هذا، بل المجامع وحدها، ومن هنا فإننا نتعرض من هذه المجامع إلى ما يهمنا، وهو معرفة كيف قررت عقيدة ألوهية المسيح وكيف تطورت إلى التثليث، ونبدأ ذلك من مجمع نيقية.

### مجمع نيقية<sup>(4)</sup> سنة 325 م :

يعد أول مجمع مسكوني وأخطر مجمع، لأنه أول مجمع قرر ألوهية المسيح وقرر قانون الإيمان النصراني المسمى عندهم بـ " الأمانة". وقد انعقد هذا المجمع لسببين أحدهما ديني والآخر سياسي، فالسبب الديني يتمثل في العمل على إيقاف مذهب أريوس التوحيد الذي عمّ أغلب أجزاء الإمبراطورية الرومانية، وكان مخالفا لدين الدولة الرسمي المتمثل في الوثنية، وبعد فشل أسقف الأسكندرية أسكندر<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> المرجع نفسه، ص 225، 226.

<sup>(2)</sup> النمل/64.

<sup>(3)</sup> زكي شنودة، موسوعة تاريخ الأقباط، ط2، مطابع البلاغ، القاهرة، 1968م، ج1، ص170.

<sup>(4)</sup> نيقية مدينة في آسيا الصغرى ببلاد الأناضول تسمى اليوم بـ "إزنيك" (لويس غرديج وج لوان، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج2، ص274.

<sup>(5)</sup> تولى أسكندر أسقفية الإسكندرية عام 313م وحدث صراع كبير بينه وبين أريوس الذي عمّ مذهبه في التوحيد أجزاء كثيرة في مصر وحتى في الإسكندرية نفسها ومنغولية وفلسطين والسفلى وغيرها. ولقد وجد التوحيد عند طوائف نصرانية سبقت أريوس فأثرت عليه ولكن تأثيرها عليه لم يكن شديدا مثل تأثيره (محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص123، أيضا لواء أحمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، ص105-107).

وأما السبب السياسي فيتمثل في استخدام رجال الإكليروس فسي تثبت سلطان الإمبراطور وتوحيد الإمبراطورية الرومانية وضمها تماسكها<sup>(1)</sup>، واستقرارها وتركيب الشعوب المطهدة تحت رايته، وذلك لأن الرومان كما قلنا سابقا أدركوا أهمية العامل الروحي في تقريب وجهات نظر الشعوب المتنافرة الخاضعة لهم مما يمكنها من الركوع التلقائي لاستعمارهم لها.

عقد المجمع بأمر الإمبراطور الروماني الوثني قسطنطين<sup>(2)</sup>، وقد حضره 2048<sup>(3)</sup> أسقفا ورجل كهنوت<sup>(4)</sup>. بدأت أشغال المجمع بمناظرة بين أريوس زعيم الموحدين الذي يلخص مذهبه في "إن الله واحد فرد غير مولود، لا يشاركه شيء في ذاته تعالى، فكل ما كان خارجا عن الله الأحد إنما هو مخلوق من لا شيء بإرادة الله ومشيئته. أما "الكلمة" فهو وسط بين الله والعالم (أي رسول). كان ولم يكن زمان لكنه غير أزلي ولا قديم، بل كانت مدة لم يكن فيها "الكلمة" موجودا. "الكلمة" مخلوق، بل إنه مصنوع، وإذا قيل إنه "مولود" فبمعنى أن الله "تبناه"، ويؤدي ذلك إلى أن "الكلمة" غير معصوم طبعاً. ولكن استقفا منه حفظته من كل خطأ وزلل. فهو دون الله مقاما ولو كان معجزة الأكوان، خلقا بلغ من الكمال ما يستحيل معه خلق شيء أكمل من رتبة وحالاً"<sup>(5)</sup>.

وثاناسيوس أمين سر اسكندر أسقف الإسكندرية ورئيس شمامسته ثم أسقف اسكندرية، القائل بمذهب بولس في ألوهية المسيح. وكانت نتيجة المناظرة فوضى كبيرة بين الحاضرين انقسموا على إثرها إلى قسمين: المخالفين لمذهب بولس وعددهم 1700<sup>(6)</sup><sup>(7)</sup> والقائلين بمذهبه، وعددهم 318 رجلاً<sup>(8)</sup>، وكان المنطق يقتضي أن تكون نتائج المجمع إقرار التوحيد؛ لأن أغلبية الحاضرين اقتنعت بذلك، ولكن الإمبراطور تدخل لينتصر للمؤلهين، وذلك لأن عبادة رجل بشري أقرب إلى وثنية الرومان الذين كانوا يؤلهون الأبطال والملوك والأوثان كما ذكرنا قبلا من عبادة إله واحد ليس كمثل شيء. وهكذا قرر الإمبراطور

(1) ولقد عبر تسطنطين عن هذا الهدف صراحة في كلمة افتتاح المجمع قائلا: "لقد اقترحت أن أرى جميع الناس في الله إلى صورة واحدة، لأن قومي الاعتقاد بأن إذا استطعت أن أؤحد أراهم في هذا الموضوع سهل علي كثيرا نصريف الشؤون العامة." (ول ديورانت، قصة الحضارة، قصر والمسيح، ج3، ص3، ج1، ص393).

(2) ولدي نايسس (Naissus) إما غير شرعي للقصر قسطنطينوس (306م) من محيطه الشرعية هلبا، خادمة إحدى الخانات في بيبيا، ثقافته شهودية، كان توجهه عسكريا، أصبح قيصرا سنة 306م وأغسطس سنة 307م، وإمبراطورا وحيدا على الدولة الرومانية سنة 323م، بعد حروب طويلة انتصر فيها. أعلن اعتناك النصرانية ليحذها وسيلة لا غاية، أحاط نفسه في بلاطه بالعلماء والفلاسفة الوثنيين، دعا إلى مجمع نيقة ومولده وترأسه -قرر نتائج- نوي سنة 337م، ولم يعد إلا بعد أن اشتد عليه المرض في أحراب أبياسه (ول ديورانت، قصة الحضارة، قصر والمسيح، ج3، ص3، ج11)، ص382، 383، 387، 402.

(3) ول ديورانت لم يحدد العدد بالضبط واكتفى بالقول 318 أسقف يصحبهم حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة رفض اثنان من 318، إضافة إلى أريوس التوقيع على الوثيقة (قصة الحضارة، قصر والمسيح، ج5، ص3، ج11)، ص394، 395) أما لويس غردية وج. فنوان فاكتفيا بالقول: لم يرفض التوقيع على الوثيقة سوى أسقفين بقا مع أريوس (لفسفة الفكر الديني، ج2، ص288) والواقع أن هذين الأسقفين من عدد الذين فروا بالوثيقة لا من عدد الحاضرين.

(4) علي عبد الواحد والي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، ص102.

(5) لويس غردية وج. فنوان، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج2، ص287.

(6) ذكر لويس غردية وجورج فنوان مضللان للقرائ أن أجمع الآباء في نيقة على أن المسيح إله وأنه متساو مع الأب في الذات والموهر وكثروا جميعا أريوس، ولم يشذ عن هذا سوى أسقفين فلبيا مع أريوس بسبب رفضها فكرة ألوهية المسيح (لويس غردية وج. فنوان، المرجع السابق، ص288)، والواقع يخالف هذا كما هو مبين أعلاه.

(7) وهؤلاء أي 1700 ينتمون إلى نحل متعددة أكثرهم عددا أتباع أريوس، حيث أحرزوا على أكثر من 700 شعص، وكان المطلق يقتضي أن يقرر المجمع عقيدتهم بسبب أغلبيتهم (محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص126).

(8) وكفي شهودية، موسوعة تاريخ الأقباط، ج1، ص180.

ألوهية المسيح وأخذ القسس الـ 318 فآكرمهم و عظمهم و عقد بهم مجلساً<sup>(1)</sup> خاصاً كما بين ابن البطريق<sup>(2)</sup>. وفي هذا المجمع الخاص المكون من هؤلاء - المنحرفين - قرروا عقيدة ألوهية المسيح<sup>(3)</sup> حيث أصدروا قراراً رسمياً كتبوه في وثيقة وقّعوا عليها سموها بـ "الأمانة" أو "دستور الإيمان" تدين بها الكنائس. وهذا هو نصها:

" نؤمن بإله واحد ضابط الكل - ما يرى وما لا يرى - ونؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور - نور من نور - إله حق من إله حق - مولود غير مخلوق - مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء - هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء تأنس - و صلب على عهد بيلاطي النبطي<sup>(4)</sup>، وتأنم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، وأيضا يأتي ليدين الأحياء والأموات الذي ليس لملكه انقضاء"<sup>(5)</sup>.

هذا هو نص قانون الإيمان النيقاوي الذي فرضه الإمبراطور، ووافقت عليه الأقلية، وأصبح من جرائه القول بألوهية المسيح، أي أن المسيح إله وأنه " هَمُؤُوسِيُوس " أي متساو مع الأب " في الذات والجوهر"<sup>(6)</sup> هو عقيدة الملك فرضت بالقوة والقهر وأصبح معتقوها يطلق عليهم "الملكانيين".

وقد أضيف بعد ذلك إلى دستور الإيمان النيقاوي عبادة الإيقونات (الثماثيل) والصور، وذلك لما ذهبته "هيلانة" أم الإمبراطور قسطنطين إلى أورشليم فعادت بقطعة من الخشب زعموا أنها من الصليب الذي صلب عليه المسيح، وبهذا قررت عبادة الأصنام رسمياً فوثقت المسيحية بذلك<sup>(7)</sup>.

ومع هذا فإن العقيدة النصرانية لم تكتمل بعد. وعقدت مجامع ضد مجمع نيقية، واستمر الصراع بين المجامع كل مجمع يلعن الآخر، فكان :

(1) علي عبد الواحد وان، الأسفار المقدسة، ص 102.

(2) أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 125.

(3) محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 113، 141.

(4) بيلاطي النبطي أو بيلاطس Pilate الروال من قبل الدولة الرومانية على فلسطين، حينئذ (علي عبد الواحد وان، الأسفار المقدسة، هامش ص 104).

(5) كيرلس الطرون، عصر المجمع، ط 1، الطبعة التجارية الحديثة بالسكاكيني، 1962م، ص 64، 65، أيضا محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 141، أيضا بولس بن سمسة الله بن جرجس، سوسة سليمان/ عن علي عبد الواحد وان، الأسفار المقدسة، ص 104.

(6) لويس غردية وجورج تنوان، المرجع السابق، ص 287، وقد بين المؤلفان أن كلمة هَمُؤُوسِيُوس يونانية لم ترد في الكتاب المقدس، وهذا أحد الأدلة على نأثر العقيدة النصرانية بالفلسفة اليونانية.

(7) وكان من نتائج هذا المجمع :

القرار بجرمان أريوس جماعة وحرق مكتبته ونفيه. ولكن الإمبراطور قسطنطين استدعاه تحت ضغط أصحابه وأعاد له الاعتبار.

كما كان من نتائج هذا المجمع ما يسمى بالتقليد العلماني وهو تحكم السياسي في الدين وبذلك يمكن القول بأن العلمانية نشأت من هذا المجمع، كما كان في جدول هذا المجمع التمييز بين الصحيح والزيف من الأناجيل والرسائل كما أسرفنا قبلاه كما أن المعارضة القديسة أصبحت تنفذ المجمع. وهكذا أصبحت كل فرقة تلحق غيرها وتقرر حرمانها (زكي شتودة، موسوعة تاريخ الأقباط، ج 1، ص 173)، ولقد عقد الأريوسيون عهداً من المجمع منها مجمع إنطاكية سنة 329م، ومجمع صور الذي قرر الإمبراطور نفسه عقده سنة 335م ومجمع إنطاكية II عام 340م ومجمع أنطاكية III عام 341م حضره 597 أسقفاً شرقياً، ومجمع أرتس بفرنسا عام 353م وذلك بعد انتصار ابن الإمبراطور قسطنطين. ومجمع ميلانو بإيطاليا سنة 355م بأمر الإمبراطور، حضره 300 أسقف جلهم أريوسيون، ومجمع صرميوم في جنوبي فرنسا سنة 357م حضره ابن الإمبراطور (الإمبراطور قسطنطينوس) إغ وكل منه المجمع الأريوسية كانت تقرر عدم مسالمة الابن للأب في الجوهر أي تقرر التوحيد، (لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 108، 109).

### مجمع القسطنطينية الأول عام 381 م :

وهو المجمع المسكوني 11 وأخطر قرار اتخذته هذا المجمع، هو قرار ألوهية الروح القدس، وبذلك وصلت النصرانية إلى القول بالتثليث وزادوا في الأمانة التي وضعها الـ 318 أسقف بنيقية سنة 325 م: "وبروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن مسجود له ومعجد"<sup>(1)</sup>، أي تجب عبادته مع الأب والابن. وبهذا وصلت النصرانية إلى الصيغة الكاملة للتالوث "إن الله واحد في ثلاثة أقانيم"<sup>(2)</sup>. وهكذا ثبتوا أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه وثلاثة خواص، ووحدة في تثليث وتثليث في وحدة، كيان واحد في ثلاثة أقانيم، إله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة. وبهذا أصبح الروح القدس خالقا غير مخلوق، إلها حقا من طبيعة الأب والابن جوهر واحد، وطبيعة واحدة<sup>(3)</sup>. وبهذا اكتملت فكرة التثليث عقيدة للنصرانية بعد جدال عنيف بين الطوائف ولم تقرر إلا تحت عصا الإمبراطور وليس بأغلبية الطوائف.

والإمبراطور الذي أمر بعقد هذا المجمع هو : ثيودوسيوس (379 م - 395 م) الذي كان وثنيا، وذلك للحفاظ على إمبراطوريته من التمزق بسبب كثرة المعارضين لمذهب الدولة الرسمي وعلى رأسهم مقدونيوس الأريوسي الذي عين بطريكا للقسطنطينية عام 343 م وكان ينكر ألوهية الروح القدس ويعتبره مخلوقا كسائر المخلوقات، وكذلك للحفاظ على وثنيته، حيث كان أول إمبراطور يعمد على مذهب التثليث. ولا أدل على أن التثليث فرض بالقوة أنه أصدر مرسوما عاما في 28 فبراير 380 م يأمر فيه الجميع أن ينضموا إلى الإيمان بالتالوث الأقدس<sup>(4)</sup>. ولا أدل على صحة هذا من العدد القليل من رجال الإكليروس الذين حضروا هذا المجمع، فكانوا 150 أسقفا<sup>(5)</sup>، كما أن هذا المجمع كان أول الأمر مجمعا محليا، ثم صار مسكونيا بعد موافقة بابا روما على ما قرر فيه<sup>(6)</sup>، وذلك لأنه وافق هواه، وقد كان هذا المجمع رد فعل ضد الأريوسيين وقد كان زعيم التثليث في هذا المجمع هو بطريرك الإسكندرية ثيموثاوس، فرغم أن رئاسة المجمع كانت لأسقف القسطنطينية، إلا أن بطريرك الإسكندرية كان هو المقدم في المناقشة وتقرير الرأي الذي قرره المجمع بعد ذلك المتمثل في إلهية الروح القدس<sup>(7)</sup>.

وبهذا فإن القول بألوهية المسيح انطلق من الإسكندرية ليقرره مجمع نيقا سنة 325 م والقول بالتثليث انطلق أيضا من الإسكندرية ليقرره هذا المجمع، وبهذا نذكر جيدا أثر

(1) تاريخ ابن بطريرك، ص 145، وما بعدها، والألوهية النبوية في شرح طقوس ومعاني الكنيسة، ج 1، ص 391، عن محمد رجب شنيوي، الجامع، ص 197.

(2) لويس غرديج وج. لوان، المرجع السابق، ص 289.

(3) تاريخ ابن بطريرك، ص 145، وما بعدها، والألوهية النبوية، ج 1، ص 391، عن محمد رجب شنيوي، الجامع، ص 197.

(4) موريس بقادين، تاريخ الكنيسة، ج 2، ص 121، عن محمد رجب شنيوي، الجامع، ص 189-196.

(5) علي عبد الواحد وان، الأسفار المقدسة، ص 102.

(6) لويس غرديج وج. لوان، المرجع السابق، ص 289.

(7) محمد أبو زهره، محاضرات في النصرانية، ص 133.



جامعة الأمير  
عبد القادر للعالم الإسلامي

كانوا مجتمعين ... فامتلاؤا كلهم من الروح القدس وطقوا يتكلمون بلغات أخرى كما أتاهم الروح أن ينطقوا<sup>(1)</sup>.

ومهما يكن من أمر. فإن من نتائج هذا المجمع انقسام الكنيسة إلى قسمين كبيرين هي: الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، أذكى هذا الانقسام الصراع بين الأتباع كما أذكاه قبلة مجمع القسطنطينية الأول سنة 381م الذي أدى إلى عقد مجمع آخر هو :

### مجمع أفسس الأول سنة 431 م :

قرر هذا المجمع زيادة في تفسير مفهوم الإبن، فبين أن الإبن وهو الله له طبيعتان واحدة لاهوتية والأخرى ناسوتية<sup>(2)</sup> ( بشرية). بينهما اتحاد - ولفظة اتحاد تدل على " الوحدة الأقمومية" الحقيقية بين الطبيعتين<sup>(3)</sup> - وسبب القول بالطبيعتين حسب زعمهم أنه إبن الله وإبن الإنسان معاً، وكونه إبن الإنسان لأنه جاء من مريم ومريم من البشر<sup>(4)</sup>. والذي يهمننا هنا أنهم زادوا في دستور الإيمان النيقاوي، وقد تبنى الكاثوليك هذا وأضافوا إليه أن لكل طبيعة مشيئة خاصة، وقرروا هذا في المجمع الخلقوني سنة 451م<sup>(5)</sup>، وذلك رداً على مجمع أفسس II عام 449م الذي قرر أن للمسيح طبيعة واحدة وأقنوم واحد، ولعن كل من يقول بطبيعتين في المسيح.

وهكذا اشتد الصراع وظلت قضية الطبيعة الواحدة للمسيح أو الطبيعتان تعقد من أجلها المجامع إلى مجمع القسطنطينية الثالث عام 680، 681م الذي قرر أن المسيح طبيعتان ومشيتان وعلان، وذلك كرد فعل عنيف على مجمع القسطنطينية الثاني عام 553م، الذي قرر الطبيعة الواحدة للمسيح. ولم تحسم القضية، بل ظلت محل خلاف وشقاق. كما أن مشكلة انبثاق الروح القدس من الأب فقط أو من الأب والإبن ظلت محل شقاق إلى المجمع المسكوني الثامن الذي ينضوي تحته مجمعان هما :

أ- مجمع القسطنطينية الرابع سنة 869م ويطلق عليه " المجمع الغربي اللاتيني"، ومن قراراته : انبثاق الروح القدس من الأب والإبن معاً، ويدين بهذا الكاثوليك.

(1) أعمال الرسل، إسحاح 2، قرات 1-4، والواقع أن هذا الكلام ما أنزل الله به من سلطان، وما يدل على إبطاله مثلاً، أنه أثناء مقابلة البابا لرئيس الولايات المتحدة إيرهارد عام 1959م قرأ البابا أمامه نية مكتوبة بالإنجليزية، وعلقت الأخبار أنه بدأ يتكلم بالإنجليزية حديثاً، ولذلك كانت نية قصيرة ومكثرة. وهنا تتساءل : بناء على نص لوقا السابق وما يزعم رجال الإكلوس : لماذا لم يعلم الروح القدس البابا الإنجليزية كما يزعم لوقا؟ وكذلك البابا أخالي البولندي يوحنا بولس II. بعد تعيينه بابا تلقى كلمة في الحضور المختشدة لصيحه من الإيطاليين فقال فيها: إنه أتى من بلاد بعيدة جداً، وأنه لا يستطيع أن يعبر عن نفسه جيداً باللغة الإيطالية، وطالب من الإيطاليين تصحيحه إذا أخطأ (صحيفة الأهرام القاهرة، العدد 33548، 17 أكتوبر 1978م، ص 1 عن محمد رجب شنبوي، الخامع، ص 213)، وهنا تتساءل: أين الروح القدس ليعلم الأب الروحي للكنيسة اللغة الإيطالية حتى يستطيع أن يعبر عن نفسه وهو الذي علم في لحظات كما يقول لوقا أولئك الرسل لغات لم يكونوا يعرفونها؟! كذبوا وهددوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين.

(2) زكي شنودة، المرجع السابق، ص 165، وقد أدى هذا إلى ظهور منعب جنيد في النصرانية هو منعب اليعانية، نسبة إلى يعقوب البرادعي الذين قالوا إن للمسيح طبيعة واحدة ومشية واحدة (محمد رجب شنبوي، الخامع، ص 246، 247). واليهامية عرفوا بهذا الاسم في بلاد الشام، عرفوا في مصر بالأقباط - لويس غرودة وج. فنواي، المرجع السابق، ص 275).

(3) لويس غرودة وج. فنواي، المرجع السابق، ص 315.

(4) علي عبد الواحد وان، الأسفار المقدسة، ص 108.

(5) زكي شنودة، المرجع السابق، ص 165.

ب- مجمع القسطنطينية الخامس سنة 879م ويطلق عليه " المجمع الشرقي اليوناني"، ومن قراراته: انشقاق الروح القدس من الأب فقط، ويدرر بهذا الأرثوذكس.

ومن هذين المجمعين أصبحت النصرانية تدين بمذهبين: الكاثوليكي والأرثوذكسي<sup>(1)</sup>. وكلا المجمعين لعن الذي يقول بعكس ما يراه هو<sup>(2)</sup>. وهكذا ظل الصراع إلى يومنا هذا. وفي كل مرحلة يقع انشقاق كبير<sup>(3)</sup>.

### عبادة الإيقونات<sup>(4)</sup> :

لقد ذكرنا أن مجمع نيقية سنة 325 م قرر عبادة الصور والتماثيل والأوثان، ولكن قضية عبادتها ظلت تثار بين الفينة والأخرى إلى المجمع المسكوني السابع، وهو مجمع نيقية الثاني سنة 787 م التي أثيرت فيه من جديد وبشدة. وسبب إثارتها، هو احتكاك النصارى بالإسلام الذي حرّمها. فانقسموا حيالها إلى قسمين. أحدهما يرى متأثراً بالإسلام أن عبادة الأوثان والأصنام خرافة وأخذوا يعتقدون المجمع لتحطيمها، والآخر يرى بضرورة عبادتها، ومن الأمثلة على هذا .

فإن مجمع القسطنطينية عام 753 م - 754 م كان من قراراته تحريم تصوير المسيح وتحريم عبادة القديسين، لأنها ضرب من الوثنية، وتحريم طلب الشفاعة من مريم العذراء. فأتى المجمع المسكوني السابع ( نيقية الثاني 787 م) وكان من قراراته:

- تعظيم الصور المقدسة لا عبادتها لذاتها.

- تقديس صور المسيح والقديسين.

- وضع الصور في الكنائس والبيوت والشوارع وفي الأسوار والأواني والحلل والملابس؛ لأن النظر

إلى الإيقونات - المسيح والعذراء والرسول والقديسين - يبعث إلى التفكير في عناصرها الأصلية.

- إكراما للإيقونات يقدم لها البخور وتوقد المصابيح كما جرت العادة مثل ذلك للصليب.

- أمر المجمع وحدد بأن "الإيقونات" يسجد لها وتقبل<sup>(5)</sup>، يعني تعبد.

ثم جاء مجمع فرنكفورت سنة 794 م فرفض قرارات المجمع المسكوني السابع، ولكن الصراع ظل قائماً، بل ما عقد مجمع لحسم صراع إلا وكانت نتيجة ذلك صراعا أشد.

وبورغاد من الذين يعبدون ما سبق، وبتحدهاء في ادعائه بأن إيقوناتهم وصورهم ... مثل الصور الموجودة

في المساجد، بأن ننزع جميع الصور الموجودة في المساجد - وهذا على افتراض وجودها لأنه لا وجود

لها بالفعل ولسنا ندري من أين أتى بهذا الادعاء- وأن ينزعوا هم جميع التماثيل والأوثان والصليبان مسن

(1) محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 324، 325.

(2) المرجع نفسه، ص 325.

(3) وليس غرضنا تتبع صومات الكنيسة لأن ذلك موضوع متكامل بملئه، ولذلك لم نذكر إلا ما دعت الضرورة لذكره، ومن الأمثلة على هذا فإن مسألة انشقاق الروح القدس: هل من الأب فقط كما يعتقد الشرقيون أم من الأب والأب معاً، كما يعتقد الغربيون ظلت حل صراع وتوقفت في مجمل قرارات فلورنسا سنة 1438م و1442م (المجمع المسكوني 18) محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 433.

(4) الإيقونات : التماثيل. وكان للملءاء صور كثيرة يسمونها اليونانيون "إيقونة" محمد شتيوي، المجمع، ص 298.

(5) إدوارد جيون، انتمحلال الإمبراطورية الرومانية ومقطوعها، ترجمة محمد علي أبو ذرة، دط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بيروت، 1969م، ج 2، ص 582، 583. أيضا

محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 315، 317.

كنائسهم، نحن نزرعها - وهذا على افتراض وجودها- وتظل المساجد هي هي ، أما هم فلا. إن عبادتهم للصور قررها كما ذكرنا قبلا مجمع نيقية سنة 325 م وفي عهد قسطنطين لم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب، بل حتى خشية الصليب المزعومة عظمت<sup>(1)</sup>. والحركة التي قامت وسط النصارى تنادي بتحطيم الصور والتماثيل ورفض عبادتها إنما كان ذلك بتأثير الإسلام الذي احتكوا به كما ذكرنا قبلا.

ولكن حركة رفض عبادة الصور والتماثيل والأصنام لم تلبث أن خدمت - باستثناء البروتستانت الذين يحرمون ما تشير عليه الكنائس الأخرى من عبادة الإيقونات ( الصور والتماثيل)<sup>(2)</sup> - وسبب ذلك في نظرنا شيان:

أحدهما تكالب النصارى على الإسلام مما جعلهم يتمسكون بما يتناقض معه .  
وثانيهما طبيعة العقيدة النصرانية ذاتها، التي هي عقيدة وثنية كما ذكرنا، ولا يمكن الفصل بينها وبين أصولها، وإلا فإن عبادة الإيقونات التي يعتقها بورغاد وأبناء ملته إنما هي محرمة بنص التوراة التي يقول أحد نصوصها: " لا تجعل لك تماثلا منحوتا يمثل شيئا ما من ظواهر السماء من فوق أو مما في الأرض من أسفل أو مما في الماء من تحت الأرض، ولا تسجد لهن ولا تعبدن، فإنني أنا إلهك الباقي إله غير أعاقب الأولاد بظلم الآباء حتى الجيل الثالث والرابع، وأسبغ نعمتي على من يخلصون لي ويتبعون أوامري وعلى نريتهم من بعدهم إلى ألف جيل"<sup>(3)</sup>.

وتتوصل مما سبق إلى النتيجة الآتية :

تتفق جميع الطوائف النصرانية في عقيدة " التثليث والوهية المسيح وبنوته لله وصلبته وقيامته ورفعته وحسابه للعالم يوم القيامة، وبأنه صلب لتكفير الخطيئة الأولى الأزلية التي ارتكبها آدم وعلقت بجميع نسله..."<sup>(4)</sup> إلخ ويختلفون في قضايا عقدية أخرى مثل انبثاق الروح القدس من الأب والإبن أم من هما معا، وهل للمسيح طبيعة واحد أم طبيعتان، وهل له مشيئة واحدة أم مشيئتان؟ وعبادة الإيقونات. وما يهمنا هنا أن بورغاد والكاثوليك يعبدونها.

والجدير بالذكر أن عقيدة التثليث والوهية المسيح وعبادة الإيقونات ... إنما هو نتاج للبيئة التي كان يسيطر عليها الرومان، وقد قررت هذه العقيدة من طرف بولس والمجامع تحت عصا الأباطرة رغم الصراع المرير بين الطوائف النصرانية إلى اليوم، وبقي لنا سؤال نكمل بالجواب عنه بحث هذه المسألة، وهو : ما مصدر عقيدة التثليث؟ أو أثر الديانات القديمة والفلسفات في النصرانية.

(1) محمد رجب شعوي، المجمع، ص 317.

(2) علي عبد الواحد وان، الأسفار للقدسة، ص 133.

(3) سفر تثنية، إسحاح 5، آيات 8-10.

(4) علي عبد الواحد وان، المرجع نفسه، ص 121، 122.

## مصدر عقيدة التثليث

أو

### أثر الديانات القديمة والفلسفات في النصرانية

إن صيغة التثليث لا توجد في أي من الأناجيل الأربعة ولا رسائل الرسل، سوى ما أورده يوحنا في رسالته الأولى حيث يقول: "فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة، الروح والماء والدم والثلاثة هم في واحد"<sup>(1)</sup>. ولكن التراجم الحديثة للكتاب المقدس كما ذكرنا قبلا حذف هذا النص باعتباره دخيلا أقمه كاتب مجهول منذ قرون<sup>(2)</sup>، وهذا النص إلى عهد يوحنا الدمشقي (675 - 749 م) أي في القرن 8 م لم يكن أضيف. والدليل على ذلك أنه أثناء دفاعه عن عبادة الإيقونات اعترف بعدم وجود نص في الأناجيل يتعلق بالتثليث، ذلك أن رافضي عبادة الإيقونات احتجوا عليه بأنها ليست في الكتب المقدسة، فاعترف بهذه الحقيقة، ولكنه أضاف قائلا: "لن تجدوا أيضا في الكتب المقدسة التثليث وثنائية الطبيعة للمسيح... ولكن نعلم أن هذه العقائد صحيحة"<sup>(3)</sup>.

وقد اعترف (بافاندر) في المناظرة الكبرى الشفهية بينه وبين رحمة الله الهندي بأن النص السابق لا أساس له من الصحة<sup>(4)</sup>، كما أنه لا يوجد في المخطوطات اليونانية التي كتبت قبل القرن 16 ولا في النسخ اللاتينية الأكثر قدما<sup>(5)</sup>، وترجمة حريصة العربية حذفته من المتن، ولا توجد صيغة التثليث إلا في ترجمة الملك جيمس فقط. وقد حذف في الترجمة الفرنسية المسكونية، وكذا التراجم الفرنسية الحديثة والتراجم الكاثوليكية العربية الحديثة والترجمة القياسية الإنجليزية<sup>(6)</sup>. كما حذف من النسخة القياسية المنقحة التي هي تنقيح لنسخة الملك جيمس. وقد أقر حذف ذلك النص 32 رجلا من أبرز علماء الإنجيل يسانداهم في ذلك 50 من الطوائف الدينية، حيث اعتبروا تلك الزيادة تحريفا<sup>(7)</sup>. وقد نبه على هذا التحريف كل من ترجمة الكتاب المقدس للبروتستانت وترجمة العهد الجديد للكاثوليك<sup>(8)(9)</sup>. وهنا نطرح سؤالا بالغ الأهمية هو :

(1) رسالة يوحنا الأول، إصحاح 5، آية 7، 8.

(2) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 39.

(3) دون كويت، أسطورة تجسد الإله في المسيح، ص 49-57.

(4) أحمد سحازي السنا، تعليق على المناظرة الحديثة بين أحمد ديدات و(الفيسس) سواحارت، هامش ص 137.

(5) المرجع نفسه، هامش ص 137.

(6) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 41.

(7) أحمد ديدات وجمعي سواحارت، المناظرة الحديثة، ص 132، 137.

(8) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 41.

(9) ولكن النص السابق مازال في الترجمة العربية للكتاب المقدس للبروتستانت، وهي الترجمة التي اعتمدنا عليها في بحثنا وهذا يعني أن الترجمة الإنجليزية التي هي أصل الترجمة العربية حذف النص السابق باعتباره تحريفا، بينما النسخة العربية مازالت لم تحذفه بعد، كما أنه لم يهذف من لغات الشعوب المختلفة.

## ما هو مصدر التثليث في النصرانية ؟

لقد ذكرنا قبلاً أثناء حديثنا عن مصدر عقيدة ألوهية المسيح البولسية أن الآلهة المصرية نقلها اليونانيون إلى بلادهم كما نقلها أيضاً الرومانيون إلى غربي المتوسط، مما جعل الثالوث المصري يحل بمعبود ديلوس، وهو الثالوث المتكون من سارايبس وإيزيس وأنوبيس<sup>(1)</sup>.

ولكن الثالوث المصري الأشهر هو أوزوريس سارايبس، وزوجته إيزيس، وابنه حورس ( هاربوكراتيس)، ولقد عظمت مكانة إيزيس في عالم البحر المتوسط فتطلعت إليها بالتدريج جميع المطامع الدينية كما هو مبين من ألقابها وأسمائها التي لا حصر لها، وكان الناس في السراء والضراء لا يتطلعون إلى منقذ فحسب، بل كانت نفوسهم تهفو إلى أم سماوية تمنحهم العون والتأييد ( Paracleta)<sup>(2)</sup> . وقد علق جورج سارتون على هذا بقوله: " إن طقوس عبادة إيزيس المتقنة الرهيبة قد مهدت السبيل إلى طقوس سيدتنا مريم العذراء"<sup>(3)</sup>. وكان هذا في القرن 3 ق.م.

ولا أدل على صدق جورج سارتون من أن رسوم إيزيس الشديدة التعقيد كعبادتها انتشرت في كل الأماكن وظلت حتى القرن 4م<sup>(4)</sup> . وهو القرن الذي توج بالتثليث في النصرانية، مما يعني انتقال عقيدة التثليث من المثلث المصري السابق إلى مثلث الابن والأب والروح القدس.

والدليل على صحة هذا الرأي أنه في سنة 391 م قام الأسقف ثيوفيلوس بهدم سارايبون الإسكندرية<sup>(5)</sup>. وقد بينا قبلاً أن التثليث النصراني قرره مجمع القسطنطينية الأول عام 381 م مما يعني أن النصراني قرروا إحلال ثالوثهم الجديد محل الثالوث المصري الذي تأثروا به، فهدموا سارايبون الإسكندرية بعد 10 سنوات فقط من تقريرهم عقيدة التثليث. ويزيد هذا تأكيداً، أن هذا التهديم النهائي للسرايبون تم في زمن الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الكبير، هذا الإمبراطور هو الذي أصدر أمر مجمع القسطنطينية الأول عام 381 م وهو أول إمبراطور عمّد على مذهب التثليث، وكان قد أصدر مرسوماً إمبراطورياً قبل المجمع بسنة كاملة يقرر فيه عقيدة التثليث رسمياً باعتبارها الدين الرسمي للإمبراطورية بعد أن كانت الأريوسية هي المذهب الرسمي في الإمبراطورية من سنة 337 م إلى 380 م<sup>(6)</sup>. وهكذا فإن الثالوث الفرعوني المكون من الآلهة: ازوريس سارايبس الأب، وإيزيس الأم، وحورس الابن، يعد أحد مصادر التثليث في النصرانية، هذا التثليث الذي كان منتشرًا كما قلنا في مصر<sup>(7)</sup>، حيث تأسس في الإسكندرية، ومنها وصل إلى بلاد اليونان والرومان وآسيا الصغرى، فأصبح في أثينا وبومبي وروما

(1) أنوبيس هو إله الموتى بهم بدفهم وانقسام لل العالم الأسر ن أمان، وكان اليونانيون يعتبرونه هو هرمس (هرماتوبيس)، (جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 4، هامش رقم 26، ص 309).

(2) المرجع نفسه، ص 301، 302، وهذه الشهادة من جورج سارتون لها وزنها لمكانته العلمية ولأنه شاهد من كملها.

(3) المرجع نفسه، ص 287، وهاش 36، ص 309.

(4) المرجع نفسه، ص 282، وهاش 32، ص 286.

(7) محمد رجب شكري، المجمع، ص 222.

وبعض موانئ آسيا، وأصبحت تماثيل إيزيس وهي تحمل ابنتها حورس رمزا في الكنائس الأولى للعسذراء مريم وابنتها المسيح<sup>(1)</sup>.

ولكن الثالوث الأكثر تأثيرا في النصرانية هو الثالوث البرهمي و الثالوث البوذي.

### الثالوث البرهمي :

البرهمية هي الهندوسية وسميت بالبرهمية نسبة إلى الإله براهما، ويسمى كهنتها، البراهمة، لها كتاب مقدس يسمى الفيدا Veda يشتمل على أربعة كتب في الطقوس والشعائر والأناشيد والأدعية، تجمع بين التوحيد والتعدد<sup>(2)</sup>، وصلت آلهتهم إلى 33 إلهاء، جمعت في القرن 9 ق.م كلها في إله واحد ذي ثلاثة أقانيم وصفته بثلاثة أسماء فهو:

1- براهما أو براهمان أي الإله الخالق أو الموجد.

2- سيفا أو سيوا : وهو الإله المهلك المكني.

3- فشنو أو بيشن : أي الحافظ وقد حل في المخلوقات ليقى العالم الفناء التام<sup>(3)</sup>.

وبراهمان هو الله باللغة السنسكريتية أو الروح العام، ويقابله أتما ATMA أو الروح الفردية، وهي قبس من الروح العام وتحل في الإنسان، ولذلك فإن روح الإنسان مثلثة كالروح العام، فهي براهمان عندما تخلق، وسيفا عندما تهلك وفشنو عندما تسعى للحفاظ على ما تخلق<sup>(4)</sup>، هذه الآلهة الثلاثة هي أقانيم لإله واحد، هو الروح الأعظم<sup>(5)</sup>.

ويعتقد البراهمة أن آلهتهم حلت في إنسان اسمه كرشنة، فحل اللاهوت في الناسوت في كرشنة كما يقول النصراني في المسيح، ويقولون بأن كرشنة قدم شخصه قداء للخليفة عن ذنبها الأول، وهو ما يقول به النصراني.

(1) عامر محمود العقاد، المجموعة الكاملة، الفلسفة الإسلامية، الله، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1978م، ص9، ص151، ص155.

(2) عبد النعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، ط1، دار ابن زيدون بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، دت، ص503.

(3) محمد أبو زهرة، مقارنات الأديان، الديانات القديمة، دط، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص23. أيضا عبد الله الأمين، دراسات في العرق والمذاهب القديمة المعاصرة، ط2، دار الحقيقة، بيروت، 1991م، ص465.

(4) عبد النعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، ص503، ص504.

(5) والبراهمة لا يؤمنون بوجود حنة ولا نار، ويؤمنون بتناسخ الأرواح، وسبب التناسخ هو استيفاء الدين التي على النفس في علائها بالآخرين وكذا استكمال شهواتها المادية، ويتم ذلك بملوها في حيوانات أخرى، وهكذا نخل الروح الجوفية تنقل من جسم إلى آخر فيتكرر للولد لل حين اكتمال الميول واستيفاء شهواته ولم يرتكب الإنسان، إنما أو حسنة، أعت روجه وتخلصت من تكرار المولد وامتزجت بالبراهما، وهكذا فالتناسخ يعني حلول الروح وحسابها ولكن الحساب يتم في الدنيا لا في الآخرة، يجمع المندوس على تقديس البقرة وتقوم البرهمية على نظام الطبقات، وهي 1- البراهمة: هم الصلوة، عتلقهم الإله براهما من فمه منهم المعلم والكاهن والقاضي، هم المتحكمون في المجتمع فالزواج والوفاة وتقديم القرابين لا يتم إلا بحضورهم 2- الكاشتر: وهم المخطوبون من ذراعي الإله، يتعلمون ويقدمون القرابين ويكونون جنودا. 3- الويش: وهم المخلوقون من فخذ الإله، منهم التجار والفلاحون. 4- للشودر: وهم المخلوقون من رجلي الإله، وهم مع الزوج الأصليين يشكلون طبقة البوذيين وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث الأعلى الشريفة، ويمتهنون المهن الحفوة والقذرة، وهم أسط من الهامم وأذل من الكلاب (الحفني)، الموسوعة الفلسفية، ص503، ص504. أيضا علي عبد الفتاح المغربي، الترق الكلامية الإسلامية، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1986، ص66، عبد الله الأمين، المرجع السابق، ص467.

(6) محمد أبو زهرة، مقارنات الأديان، الديانات القديمة، ص24.

ويعتقدون أن الإله فشنو الإبن وثاني الأقانيم قد حل فيه، ويذكرون من الأساطير حول " كرشنة" ما يتطابق مع ما جاء في الأناجيل عن المسيح، فكرشنة ولد من عذراء مخطوبة اسمها ديفاكي ويعتبرونه إلهًا، كما يقولون بأن ولادته أحيطت بعجائب، ويعتقد البراهمة في كرشنة ما يعتقد النصارى في المسيح إلى حد التطابق بين البراهمة والنصارى.

وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية كان ذلك دليلاً على تأثير السابق في اللاحق، وها هي نماذج مما يقوله كل منهما في صاحبه<sup>(1)</sup>.

أقوال البراهمة في كرشنة ابن الله	أقوال النصارى في يسوع ابن الله
- كرشنة " هو المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله ، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الأب والإبن وروح القدس	يسوع المسيح هو " المخلص والفادي والمعزي والراعي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الأب والإبن والروح القدس
- عرف الناس ولادة كرشنة من نجمة الذي ظهر في السماء <sup>(1)</sup>	لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمة في المشرق، وبواسطة ظهور نجمة عرف الناس ولادته <sup>(1)</sup>
- لما ولد كرشنة سبحت الأرض وأنارها القمر بنوره وترنمت الأرض وهامت ملائكة السماء فرحاً وطرباً ورتل السحاب بأنغام مطربة <sup>(2)</sup>	لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحاً وسروراً وظهر من السحاب أنغام مطربة <sup>(2)</sup>
كان كرشنة من سلالة ملكونية ولكنه ولد في غار بحال الذل والفقر <sup>(3)</sup>	كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه "ملك اليهود" ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار <sup>(3)</sup>
وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له <sup>(4)</sup>	وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له <sup>(4)</sup>
وأمن الناس بكرشنة وإعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب <sup>(5)</sup>	وأمن الناس بيسوع وقالوا بلاهوته وأعطوه هدايا من طيب ومر <sup>(5)</sup>
<sup>(1)</sup> كتاب تاريخ الهند، م، ص 317، 367.	<sup>(1)</sup> إنجيل متى، إصحاح 2، فقرة 3.
<sup>(2)</sup> كتاب فشنو بورانا، ص 502.	<sup>(2)</sup> إنجيل لوقا، إصحاح 2، فقرة 13.
<sup>(3)</sup> كتاب دواك، ص 297.	<sup>(3)</sup> إنجيل ولادة يسوع المسيح الإصحاح 12، فقرة 13.
<sup>(4)</sup> المرجع نفسه، ص 279.	<sup>(4)</sup> إنجيل متى، إصحاح 2، فقرة 2.
<sup>(5)</sup> كتابات الديانات الشرقية، ص 500، وكتاب الديانات القديمة م، ص 350.	<sup>(5)</sup> إنجيل متى، إصحاح 2، فقرة 2.

والواقع أن التطابق تام، فكلاهما صلب وقام من الأموات إلى آخر ما هنالك في الأناجيل. وقد نقلنا المقارنة السابقة حرفياً من مقارنة مطولة أوردها محمد أبو زهرة في 12 صفحة في كتابه "مقارنة الأديان، الديانات القديمة" تبين التطابق التام بين البرهمية والنصرانية بما لا يبقى معه أي مجال للشك في تأثير النصرانية بالبرهمية، ونستطيع القول بأن ما يقوله البراهمة في كرشنة يعد مصدراً أساسياً استلهمه كتاب الأناجيل الأربعة، وهو ما يظهر جلياً من المقارنة التي أوردها<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> هذه المقارنات أصلها سرنيا من محمد أن زهرة، المرجع نفسه، ص 25.

<sup>(2)</sup> ومن أراد التوسع في هذا المرجع لي: محمد أبو زهرة، مقارنات الأديان، الديانات القديمة، ص 25-36.



### الثالث: البوذية (1) :

إن تأثير البوذية على النصرانية كبير إلى درجة التطابق مثلما رأينا تأثير البرهمية عليها، ومن ذلك أن "غوثاما" الإنسان أصبح التفكير فيه على أنه التجسيد لبوذا الإله المتسامي الذي وجد منذ الأزل، وكذا "يسوع" الإنسان صار يفكر فيه على أنه تجسيد للذات الإلهية (اللوغوس Logos) الموجودة أبداً أو ابن الله.

في "الماهايانية" بوذا المتسامي هو الوحيد المطلق، وكذا في النصرانية "ابن الله" هو مع الإله الأب، لذلك كان "غوثاما" الـ "دهارما" أي الحقيقة التي أصبحت جسداً، و"يسوع" كان بـ"الكلمة" التي أصبحت جسداً. وبالفعل فإن الترجمة البورمية - نسبة لدولة بورما- للأناجيل تعتبر الـ "دهارما" هو "اللوغوس" أو الكلمة" حتى أن أول جملة في إنجيل يوحنا باللغة البورمية هكذا: "في البدء كان دهارما"، كما أن غوثاما الإنسان رفع فأصبح كائنًا خالداً كوني الأهمية، وهذا الزعم لبوذا دعم فكرياً بعبقيرة ميتافيزيقية معقدة في التثليث مما جعل وضع "الماهايانية" في البوذية البدائية لا يختلف عن وضع إنجيل يوحنا بالنسبة لإنجيل متى، وعندما نلاحظ تطور البوذية الماهايانية نراها مرت بمراحل حدثت بعد ذلك أيضاً في النصرانية إلى حد أن الأناجيل ذاتها تشبه كثيراً ما كتب عن بوذا.

فكما أن بوذا لم يترك كتاباً وإنما ألف أتباعه سيرة حياته، كذلك المسيح لم يترك إنجيله للتلاميذ. وما كتب عنه إنما هو وجهات نظر الذين أتوا بعده - وقد قيمناها قبلاً- وتحدثوا عنه بتعابير لم يستعملها هو أدت إلى فهمه بواسطة عقائد معقدة نشأت تدريجياً بواسطة الأجيال المتعاقبة من أتباعه. وفي كليهما رفع الكلنن البشري إلى مرتبة الألوهية(2).

وفي البوذية(3) نجد في عقيدة "الماهايانا" الأجسام الثلاثة لبوذا:

- تريكاييا: أي الأرضي أو المتجسد.

- نرفانا كايا : هو بشر أصبح بوذا "وعلم الآخرين أين الطريق بـ "غوثاما"

- الساميهوئاما كايا : هو بوذا سماوي ... كائن إلهي توجه إليه الصلوات .

(1) البوذية ديانة عالمية نشأت بالتحول من الألم عن طريق ترك الرغبة وتحقيق التنوير الأعلى (النيرفانا)، نشأت بالحد في القرن (ق.م)، كرد فعل على طبقة البرهمية وطغوسها المعقدة في عبادة الآلهة والنسجيات لها(1)، وقد أسسها بوذا (نحو 563-483 ق.م) ومعنى بوذا الفرد المستنير، واسمه الحقيقي سيدهارتا Sid-Harta ويسمونه الساكياموني Sakyamuni أي حاكم عشيرة ساكيا، واسمه العائلي جوثاما Guatama، ولد نبيلاً وحسب أمراً وفي التاسعة والعشرين من عمره سلك طريق الزهد والتسكك بنشد الخلاص، نعايته فكرة الدارما Dharma بمثابة الاستارة Bodhi وتحقق بالطريق الثمان المتكون من الرأي والطموح والقول والسلوك والتكسب والجهد والعقل والتفكير هذه الثماني عندما تكون سديدة تحقق الصفاء النفسي والفكري فيبلغ صاحبها النرفانا Nirvana أي الانطفاء، فيذوب الفرد ويتلاشى في الحقيقة الكامنة وراء الظواهر المحسوسة. ويتم له ذلك بمقاومة عملية الكارما Karma، وبمعي الاضغاد في الكارما أن الإنسان يولد من جديد ليواصل الحياة، ولا يتنجح في قطع هذا الاتصال والامتزاج بالمطلق إلا البوذي، وتقوم أخلاق البوذيين على المحاذير الخمسة وهي القتل بما في ذلك الحيوان والسرقة والزنا والكذب والخمر، وهي تنتشر الآن بعد أن تطورت عما كانت عليه في جنوب شرقي آسيا(2). (الجنة من العلماء والأكاديميين السوفيتين، بإشراف م. روزنتال، وب. بودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط4، دار الطليعة، بيروت، 1981م، ص91. (2) عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، ص116)

(2) جون هيك، أسطورة تجسد الإله في المسيح يسوع والديانات العالمية، مجلة الأمانة القطرية، (مرجع سابق) ص49-57.

(3) يزعم بعض الباحثين - ومنهم أصحاب الموسوعة الفلسفية السوفيتية أن بوذا أنكر وجود الله الخالق (الموسوعة الفلسفية السوفيتية، ص91)، والحقيقة غير ذلك، وربما كان ذلك أثناء سيرته وهو هائم في الأحرار طلباً للحقيقة. ولا أدل على هذا من أن أهل ملته جميعاً كانوا يؤمنون بقوة مسيطرة على العالم، ولم يتهموا ذلك من أن يجمعوا بين حيلهم ومفاهيمهم وحسد لهم زهرة، مقالات الأفيان - ديانات القديمة، ص57، 58.

ومجموعة بوذا الأرضي هي تجسيد لبوذا الإلهي... ولكن مجموعة بوذا السماوي مع مجموعة بوذا الأرضي هي في النهاية واحدة في جسم "دهارما" - دارما كايا، أي الحقيقة المطلقة<sup>(1)</sup>. وهكذا فإن البوذيين يعتقدون أن بوذا هو ابن الله، وهو المخلص للبشرية<sup>(2)</sup>، وقد قدم نفسه فداء لخطاياهم<sup>(3)</sup>، فهو يتحملها عنهم، وكان تجسده بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا. وقد صعد إلى السماء، وسيعود ثانية إلى الأرض<sup>(4)</sup>، وهاهي بعض المقارنات بين البوذية والنصرانية دليلاً على وجه التطابق بينهما<sup>(5)</sup>، مما يدل على تأثير النصرانية بها.

أقوال البوذيين في بوذا	أقوال النصراني في المسيح
- كان تجسيد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا	- كان تجسيد يسوع المسيح بواسطة حلول روح القدس على العذراء مريم
- وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر في أفق السماء ويدعونه "نجم بوذا"	- وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر في المشرق وقتل داوود من الواجبات أن يدعى "نجم المسيح"
- وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة	- وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومر
- كان بوذا ولدا مخيفاً وقد سعى الملك بميسارا وراء قتله لما أخبروه أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حياً	- كان يسوع ولدا مخيفاً سعى الملك هيرونوس وراء قتله كيلا ينزع الملك من يده.
- لما أرسل بوذا إلى المدرسة أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل، وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسية... إلخ	- لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدهش أستاذه داخوس وقال لأبيه يوسف "لقد أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم".
- لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية "أي بقوة إلهية"	- لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة إلهية
- وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض	- وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد صليبه لما أكمل عمله في الأرض
- وسوف يأتي بوذا مرة ثانية إلى الأرض... وسيدين الأموات	- وسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض... وسيدين الأموات

(1) جون هيك، المرجع السابق، ص 49-57.

(2) عبد الله الأمين، المرجع السابق، ص 459، 460.

(3) محمد أبو زهرة، مقارنات الأديان، الطبعة الثانية، ص 46.

(4) عبد الله الأمين، المرجع السابق، ص 459، 460.

(5) هذه المقارنات اخترناها حرفياً مما لودوه محمد أبو زهرة في كتابه مقارنات الأديان - الطبعة الثانية، في عشر صفحات وقد اعتمد فيما يعلق بالمسيح على الأناجيل ولما يتعلق بالبوذية على مراجع مصفحة، ومن أراد التوسع فليرجع إلى هذا الكتاب من ص 47 إلى ص 56.

ما سبق لا يبقى أي شك في تأثير النصرانية بالبوذية<sup>(1)</sup>. وبذلك فإن العقيدة النصرانية ما هي إلا تقليد أعمى لعقائد السابقين الوثنية من تأليه البشر إلى التثليث الفرعوني والهندي، وهو ما بينه القرآن الكريم بدقة<sup>(2)</sup> ﴿يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يوفكون﴾<sup>(3)</sup>. وهذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم، لأنه من علم محمدا ﷺ عقائد الفراعنة والهنود الوثنية، وعلمه أن النصارى تأثروا بها ونقلوها واعتنقوها، لولا الله عز وجل.

وهنا نتساءل: كيف وصل التأثير البرهمي والبوذي إلى النصرانية؟ أو كيف وصلت المؤثرات الشرقية إلى النصرانية؟.

### كيفية وصول المؤثرات الشرقية إلى النصرانية

لقد كان للأسكندر المقدوني الدور الأكبر في وصول المؤثرات الشرقية إلى النصرانية، ذلك أنه استطاع أن يحتل جزءا كبيرا من العالم المعروف آنذاك مدة 12 عاما، من سنة 334 إلى سنة 323 ق.م. فأخضع شعوبا كثيرة تختلف في الجنس واللون واللغة والدين، فتأثر جنوده بتقافات وديانات مصر وآسيا، فصبغوا بالصبغة الشرقية، زادهم تأثيرا زوجاتهم وأمهاتهم الآسيويات فتشبعوا بالمعتقدات الموروثة والدين، وبذلك صبغت إمبراطورية الإسكندر شرق أوروبا بالصبغة المصرية والآسيوية.

ولما مات الإسكندر انقسمت إمبراطوريته إلى ثلاثة أقسام :

مقدونيا وبلاد اليونان تحت حكم الانتيجونيين، وغرب آسيا تحت حكم السلوكيين، ومصر تحت حكم البطالمة. فتأثر البطالمة بالديانات المصرية الفرعونية القديمة، كما تأثر السلوكيون بالمعارف والطقوس الدينية البابلية وأحيوها، كما كانت التأثيرات الإيرانية كبيرة على الممالك الهلنستية بسبب انتشار حكماء الفرس وتجارتها في البلاد اليونانية ولا سيما أثناء الاستعمار اليوناني لآسيا، كما كانت كل من بابل ومصر ولايتان فارسيتان خلال قرنين كاملين إلى استعمار الإسكندر لهما سنة 332 ق.م مما جعل الثقافة اليونانية تتأثر بما عند الفرس.

كما اتصلت اليونان بالهند عن طريق الاستعمار والعلاقات التجارية المتبادلة، وكذا قيام الحكماء الهنود بزيارة بلاد اليونان لعرض حكمتهم على اليونانيين أو الاستفادة منهم. ولما غزا الإسكندر آسيا حدثت اتصالات على نطاق واسع، حيث وصل إلى نهر السند ليوصل اليونانيون بعده بقرون غزوهم الجزء الشمالي من الهند ليؤسسوا ممالك ومستعمرات، فأثروا وتأثروا.

كما جاء الهنود إلى مصر تجارا ومبشرين بالبوذية ولا سيما في عهد الملك أشوكا ملك ماوديا (273 - 232 ق.م) وكان أشوكا على اتصال بببليموس فيلاديلفوس ملك مصر، وإنطيوخس II ملك سوريا،

(1) عبد الله الأمين، لرمح السابق، ص 462.

(2) محمد رجب شعوي، المذاهب، ص 222، 223.

(3) النوبة / 30.

وإنتيجونوس ملك مقدونيا. وكان هناك تبادل ثقافي وتجاري، وأصبحت مصر في عهد البطالمة أهم بقعة يختلط فيها الشرق بالغرب بسبب اتساعها، حيث شملت مصر وليبيا وأجزاء من إثيوبيا وقيبيصيا وجنوب سوريا وقبرص وغيرها، وأصبح يعيش في مصر كثير من اليهود والمقدونيين واليونانيين والسوريين والعرب وأبناء بلاد ما بين النهرين، وفارسيون وهنود وإفريقيون إلخ، وكانت الأمم الهلنستية مرحبة بالعلماء الأجانب من حكماء الفرس وفلاسفة الهند وغيرهما لشعور الأمم الهلنستية بالجوع الروحي ولتشبع تلك الأمم بالمعرفة الروحية. فأخذ اليونانيون في الشرق بعبادة الآلهة المصرية ولا سيما إيزيس وأوزيريس، زادهم تأثيرا زوجاتهم الشرقيات، مما أدى إلى ظهور عملية التوفيق بين مختلف العقائد الدينية.<sup>(1)</sup>

### ظهور عملية التوفيق بين مختلف العقائد الدينية:

أخذت عملية التوفيق بين مختلف العقائد تظهر بقوة ولا سيما في مصر منذ 331 ق.م حين زار الإسكندر الأكبر معبد أمون في واحة سيوة<sup>(2)</sup>، فأعلن كاهن المعبد الأكبر أن الإسكندر ابن للإله زيوس أمون. وقد ذكرنا قبلا أن المصريين كانوا يقدسون حكمهم ويؤلهونهم، فكان طبيعيا أن يدعي ملوك البطالمة الألوهية ويطلبوا لأنفسهم العبادة والقداسة ويستجيب لهم الناس. ولقد تبني البطالمة جميع العادات الفرعونية مثل زواج الملوك من أخواتهم، كما وجد البطالمة أنه ما من أسرة ملكت في مصر إلا وعبدت إليها قديما أو أدخلت إليها جديدا، فدعاهم ذلك إلى الاتجاه نحو الإله ساراييس الذي أنتجوه من دمج عبادة أوزيريس ندرجيا في عبادة العجل المقدس أبيس<sup>(3)</sup>، وصار أوزيريس وأبيس معا يعبدان في معبد السراييون في بلدة ممفيس (سقارة)<sup>(4)</sup>، وكانت عبادة ساراييس هلنستية محضة، لأنها جمعت بين عناصر مصرية وعناصر يونانية، وقد أنشأ هذه العبادة الجديدة ما نيتون (النصف 1 من ق 3 ق.م) وهو كاهن من كهنة معبد هليوبوليس (عين شمس) بالاشتراك مع تيموثيوس، وهو من كهنة معبد ديمتير اليوناني وديميريوس الفاليري، وقد وقع التوحيد بين الإله الروماني زيوس والإله ساراييس، أي أنه صار هناك إله واحد اسمه زيوس ساراييس - وهو في أصله إذن ثلاث آلهة، هي: أوزيريس + أبيس = ساراييس، وزيوس + ساراييس = إله واحد. وهذه هي النصرانية، الثلاثة = واحدا.

وأقدم ساراييون هو معبد أوزوراييس بسقارة، ويحتوي على مقابر تحت سطح الأرض لعجول أبيس يرجع تاريخ أقدمها إلى منحوتب III (1411 - 1375 ق.م)، وهو ما يدل على قدم عبادة أوزوراييس واستمرارها.

(1) جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 4، ص 29-36، 47، 48.

(2) تقع واحة سيوة في أقصى غرب الواحات المصرية على مسافة 400 ميل جنوب غرب الإسكندرية، وكان معبد أمون معروفا لدى اليونانيين منذ القرن 7 ق.م، وكان لكاهنه الأعظم مكانة كبيرة، فأدرك الإسكندر أهمية السياسة لاستشارته (جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 4، هامش 36، ص 66).

(3) هذا المعجل الميت أبيس مع الإله أوزيريس وصار معبودة باعتبارها أحد آله العالم الأسفل، وبذلك يطابق أوزيريس أو بقابل هاديس أو بلوتون عند اليونان (جورج سارتون، المرجع نفسه، هامش 38، ص 67). ويبدو أن أبيس أصله عجل قمامري.

(4) الاسم (ساراييس) مشتق من كلمتين أوزيريس وأبيس أو أوزوراييس، ويلاحظ أن ساراييس وسارايون اسمان يونانيان، أما ساراييس وسراييوم فهما صيغتان لاتينيتان (المرجع نفسه، هامش 39، ص 67).

وقد أقيمت المعابد السيرابية خلال العصر الهلنستي في مختلف المدن المصرية، أهمها سارابيون الأسكندرية بالربوة التي لا يزال " عمود بومبي (1) " قائما عليها، وقد هدمه ثيوفيلوس أسقف الأسكندرية ( من 385 - 412 م )، وذلك في سنة 391 م كما ذكرنا قبلا، وذلك ليفسح المجال أمام الثالوث النصراني المتأثر بهذا الثالوث الفرعوني.

هذا، ولقد أخذت عبادة سارابيس آنذاك في الزوال وهي عبادة بطلمية ليحل محلها في العصور الرومانية عبادة إيزيس على نطاق واسع (2).

### وصول المعتقدات الهندية إلى بلاد النصارى:

بعد وقوع الصلح بين خلفاء الاسكندر والهنود حوالي النصف 1 من ق 3 ق.م، أرسل الملوك السلوقيون والبطالمة سفراءهم إلى الأباطرة الثلاث الأوائل من الأسرة المورية لمعرفة الهند ودياناتها من هندوسية وبوذية وغيرهما، فتأثروا، ولاسيما أنهم خدموا في بلاط ملوك الهند ولاسيما في عهد أشوكا (3) ( ت حوالي 332 ق.م ) الذي بلغت إمبراطوريته أوجها شساعة وتنظيما حوالي 250 ق.م، والتي كانت تصل إلى بلوخستان وأفغانستان وكشمير ونيبال. كانت جدة أشوكا سلوقية، فهي بنت ساليوكس نيكاتور السلوقي الذي عقد صلحا مع جد شوكا: شاندرنا جوبتا ( 322 - 298 ق.م )، وذلك حوالي 302 ق.م، كما أن شاندرنا جوبتا كان له وزير يسمى توطيليا أوكاناكيا شرح سياسة الإدارة المورية في الرسالة المحكمة أرتها شياسترا (Arthasastra) وهي في بعض أجزاءها مأخوذة من " الفيدا الرابع " أي من الكتاب المقدس للهندوس. فتأثر بهذه الرسالة ميغاستينيس سفير السلوقيين إلى شاندرنا جوبتا، وظهر هذا التأثير في كتاباته (4). ونشير هنا إلى بيت القصيد، وهو أن شاندرنا جوبتا كان هندوسيا إلى أخريات حياته، ثم لما توفي ابنه استخلف إمبراطورا حفيده أشوكا سنة 273 ق.م، ليستمر في الحكم 40 سنة. نشأ أشوكا هندوسيا ثم تحول إلى البوذية بحماس، وبفضله خرجت البوذية من المحلية إلى العالمية. وقد أصاب أشوكا التدمر بسبب جرمه في حرب كالجاء، عبر عنه أحد النقوش، وهو أطول منشور صخري فريد في الأدب العالمي.

ومما جاء فيه :

- مسحه بالزيت.

(1) سمي بهذا الاسم لما أصبح في العصور الوسطى أنه نصب على مقبرة بومبي العظيم وهو القائد الرومان (106-48 ق.م) الذي قتل حيث كان يزل إلى الشاطئ المصري (المرجع نفسه، هامش 41، ص 67).

(2) جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 48-50.

(3) أشوكا هو اسم لشخصي، أما اسم الملك فهو ديفانام - برهادا رشي (ذو الوجه الحسن) راجا (ملك) (Devanani priya priyadarsi Raja) ( جورج سارتون، المرجع نفسه، هامش 9، ص 380).

(جورج سارتون، المرجع نفسه، هامش 9، ص 380).

(4) المرجع نفسه، ص 356.

- ذكره لأسماء أربعة من ملوك اليونان، وهم ملك سوريا وملك مصر وملك مقدونيا وملك بربقا. هؤلاء الأربعة الهلنستيين كانوا معاصرين له.

- فكرة التسامح، وقد وصل فيها أشوكا إلى الدهشة إلى حد امتداح الطوائف الأخرى غير نحلته.

ونشير إلى أن أشوكا أرسل بعثات تبشير بالبوذية داخل إمبراطوريته وخارجها، ومنها البلاد الغربية.

ونختم حديثنا عن أشوكا بالإشارة إلى أن المجامع موجودة في البوذية، ومن ذلك فإنه في عام 240 ق.م جمع أشوكا مجمعا بوذيا في عاصمته بتاليبوترا. وكان هذا المجمع هو المجمع الثالث، وقد اجتمع المجمع السادس في رانجون عام 1954 - 1956م<sup>(1)</sup>.

وكل هذا أخذت به النصرانية.

هذا ما يتعلق بكيفية وصول المعتقدات الهندية إلى بلاد النصارى.

ولما كان حديثنا يتعلق بالموثرات الشرقية في النصرانية يجدر بنا أن نشير إلى مؤثر شرقي آخر له وزنه في النصرانية، ومن خلاله نتوصل إلى مؤثر آخر له وزنه كذلك، هو الفلسفة اليونانية. هذا المؤثر الشرقي هو الغنوصية.

### أثر الغنوصية في النصرانية

الغنوصية لفظ يوناني ( Gnosis ) معناه العلم بلا واسطة<sup>(2)</sup>، وهي مذهب تلفيقي يجمع بين الفلسفات والديانات والأساطير، ويقوم على فكرة الصدور<sup>(3)</sup>، غايتها معرفة الله بالحدس لا بالعقل، وبالوجود لا بالاستدلال<sup>(4)</sup>. هي اسم علم على المذاهب الباطنية<sup>(5)</sup>، وأصبحت تعني اصطلاحيا: التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أي تذوقها مباشرة بأن تلقى في النفس إلقاء دون استناد إلى استدلال أو برهنة عقلية. ويزعم أصحابها أنها أقدم وحي من الله يظل في الانتقال من طبقة غنوصية إلى أخرى احتفظ به مجموعة من الكهان والسحرة يزعمون أن بيدهم مفاتيح " الأسرار الإلهية " و " أسرار القدس الأعلى "، وأن " بالغنوص " الخلاص الأبدي؛ لأنه الوحي المتجدد والفيض الذي ينبعث دائما من الملائكة الأعلى مخطط الوجود، قمته الله، وهو وجود معقول مفارق للمادة غير مدرك. ومنه صدرت الأيونات متتابعة في نسق زوجي ذكر وأنثى، كلما ابتعدت عن الوجود الأول ازدادت كثافة واقتارنا بالمادة. ولكن أيونا أراد الصعود إلى الله دون أن يطهر نفسه بالغنوص فطرده من مكانه فصدرت عنه أيونات شريرة مثله صدر عنها العالم المادي وما فيه من الأجسام، فحلت النفوس في الأجسام وهي مارة في هذا العالم المادي فسجنها بها هذا الأيون الخاطيء، فتحاول الخلاص والصعود إلى عالمها الأول، وهنا يحدث الصراع بين قوى الخير وقوى

<sup>(1)</sup> المرجع نفسه، ص 354، هامس 6، ص 379، ص 363-365.

<sup>(2)</sup> يوسف كرم ورملة وهبة ويوسف سلامة، المعجم الفلسفي، ط 2، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1971م، ص 156.

<sup>(3)</sup> مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، المعجم الفلسفي، دة، الهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983م، ص 133.

<sup>(4)</sup> عبد النعم الحلبي، المعجم الفلسفي، ط 1، دار ابن زيدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1992م، ص 189.

<sup>(5)</sup> عبد النعم الحلبي، الموسوعة الفلسفية، ط 1، دار ابن زيدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، دة، ص 296.

النور، فمن كان فيه طبيعة الغنوص صار إلهيا، وعكسه يظل في العالم المادي. ولكن إذا كان الله خيرا محضا ووجودا مفارقا غير مادي فكيف صدر عنه شر محض ووجود غير مفارق ومادي؟ حل حكماء الفرس القدامى هذه الإشكالية بالقول بأصلين للوجود، أي إلهين، إله خير هو النور وإله شرير هو الظلام<sup>(1)</sup>.

ولقد ظهر الغنوص أول ما ظهر في الأديان الفارسية (المجوسية)<sup>(2)</sup> وأصبحت الثنائية بين الله والمادة عنوانا على الغنوصية. ولما كانت الشقة بين الله والمادة بعيدة جدا فكان لابد أن تملأ بوسطاء بأزواج من الأيونات تزداد كثافة كلما بعدت عن الله و" على النفس أن تجتاز كل الأيونات أو العوالم أو الأراكنة كما يسمون أحيانا، تفعل هذا بالغنوص أو " بالكلمة" أو "بروح القدس" حتى تعود ثانية إلى الله<sup>(3)</sup>. ودخل الغنوص أعماق اليهودية لا زالت آثاره في التلمود، وذلك من خلال مجاوراتهم للفرس وهم في مفاهيم في بابل، ثم التحم الغنوص بيهود الاسكندرية ثم بيهود فلسطين، ومن أحسن الممثلين لهذا، فيلون<sup>(4)</sup>.

### أثر الغنوصية في فيلون وأثر فيلون في النصرانية :

ولد فيلون بالاسكندرية سنة 30 ق.م، وتوفي سنة 50م. ألم بعلوم عصره وحكمته من جميع أطرافها. فقد كان محيطا بالثقافة اليهودية بحكم يهوديته، ومحيطا بمذاهب الفلسفة اليونانية ومتأثر ببعضها، والتراث الديني المصري بحكم مصريته المتمرجة بالعقائد السرية الأخرى في بلاد اليونان والرومان وآسيا الصغرى، وأهمها ثلوث أوزيريس سرابيس وايزيس وابنهما حورس<sup>(5)</sup>، كما تأثر كثيرا بالغنوصية. ومن الأمثلة على ذلك فإن الموجد الإلهي عنده هو الكمال المطلق الذي لا يمكن إدراكه بواسطة العقل مما جعله يؤول كل ما ورد في التوراة من تجسيم وتشبيه، وأن الله عنده هو الموجود حقا، وهو العلة الأولى، وأبو العالم وملكه ونفسه وروحه. أما العالم من حيث خلقه فهو عمل قوى متوسطة تشارك في الماهية الإلهية يتجلى الله في الوجود بواسطتها كما تتجلى آثار الشمس في أضوائها. وبهذه الوسيلة فإنه موجود دائم في كل شيء فعال فيما يفيض منه من أشياء دون أن يفعل<sup>(6)</sup> - وهذه غنوصية - .

ولما كانت النفس لا تستطيع الوصول إلى الله دفعة واحدة فكان لابد لها من وسطاء وهم طبقات، الوسط الأول هو "اللوغوس" أو الكلمة ابن الله نموذج العالم<sup>(7)</sup>، ويليه الحكمة ثم رجل الله أو آدم ثم الملائكة<sup>(8)</sup>...

(1) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص186.

(2) عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الفلسفية، ص296.

(3) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي، في الإسلام، ج1، ص74، 75.

(4) وسيلان الحديث عنه.

(5) عباس محمود العقاد، الله، ص150، 151.

(6) علي سامي النشار، المرجع السابق، ص74، 75.

(7) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ط1، دار القلم، بيروت، ص250.

(8) علي سامي النشار، المرجع السابق، ص75.

هؤلاء الوسطاء هم وجهات مختلفة للعلية الإلهية<sup>(1)</sup>. ويجب أن نشير بأن أقواله عن " اللوغوس " لها أثرها الواضح في إنجيل يوحنا، وهو يعطيه أوصافاً مختلفة. فمرة يعتبره الوسيط الذي به خلق الله العالم، ومرة أخرى ابن الله البكر... ومرة أخرى يسمى " الكلمة " (اللوغوس) إليها<sup>(2)</sup>.

وهكذا كان فيلون أحد مؤسسي النصرانية الحقيقيين، أخذ أقواله القديس يوحنا الإنجيلي وصاغها متلائمة مع عقيدته في المسيح، ولا سيما أن فيلون كان قريباً العهد من يوحنا. وثبت أنه قرأ أعمال فيلون وتأثر بها كما تأثر به بولس الذي كانت ثقافته أيضاً فيلونية. ومن هنا يمكن القول بأن الغنوصية أثرت في فيلون، وفيلون مهد لظهور العقيدة النصرانية وقد أثر أكبر الأثر في يوحنا الإنجيلي إلى حد أن كثيراً مما ذكره يوحنا إنما أخذه عن فيلون، والمسيحية نفسها دين غنوصي، ولكنها تقصر الغنوص على المسيح وحده، فالإتحاد المطلق بين العارف والمعروف، سواء في العرفان أو في المادة إنما كان بين الله والمسيح فقط.

ولقد كان لفيلون أثر قوي في القرون الأولى للميلاد، حيث استخدم كثير من رجال الكهنوت كتبه وحاكوا منهجه في شرح الكتب المقدسة<sup>(3)</sup>، تشير إلى ثلاثة منهم ظهوراً في القرن 2 م يعدون من كبار الغنوصيين النصاري هم :

باسيليدس بالاسكندرية ( بين 120 و 140 م )، وفالنتين المصري الذي أقام بروما 30 سنة ( 136 - 165 م ) وكون شيعة خاصة به، ومرفيون الذي نزح من آسيا الصغرى إلى روما حوالي 140 م وأنشأ بها كنيسة انتشرت بسرعة كبيرة في النصرانية دامت إلى آخر القرن 4م<sup>(4)</sup>.

وفكرة هؤلاء العامة القول بالهين، إله العهد القديم وهو قاس جبار إلخ. وإله العهد الجديد وهو إله طيب خير إلخ. الأول رئيس الملائكة الأشرار عكس الثاني. الأول صانع العالم المحسوس، والثاني : العالم المنعقول. وقرروا أن هذا هو الحل الوحيد لتفسير التعارض الكبير بين التوراة والإنجيل إلخ مذهبهم الغنوصي. يتفقون في إنكار بعث الأجسام - وهو ما يقول به بورغاد إلخ -.

والخلاصة أن فلسفة فيلون فلسفة انتقائية أو مجمعة. فإضافة إلى صبغتها اليونانية نفذت إليها من خلال التراث اليهودي الحكمة البابلية، ثم عناصر كثيرة من الفلسفة الهندية، دون أن ننسى التراث الفرعوني. وقد انعكست هذه الفلسفة الانتقائية في فلسفة أفلوطين ومدرسة الاسكندرية من جهة، والنصرانية من جهة أخرى. وقد تأثرت الأفلاطونية المحدثة بجوهر فلسفة فيلون، أي نظرتها الوجودية ( القول بوحدة الوجود). أما النصرانية فأخذت بنظرتها الحلونية، أي القول بحلول اللاهوت في الناسوت، ويقولها باللوغوس وصبغت كل من الأفلاطونية المحدثة والنصرانية بالمذهب الفيلوني، كل من وجهة نظره

(1) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 250.

(2) المرجع نفسه، ص 252.

(3) المرجع نفسه، ص 252.

(4) المرجع نفسه، ص 256.



الخاصة<sup>(1)</sup>. وهذا يدعو إلى الحديث عن أثر الفلسفة اليونانية في النصرانية، مركزين على الأفلاطونية المحدثة.

### أثر الفلسفة اليونانية في النصرانية :

يكفي دليلاً على أثر الفلسفة اليونانية في النصرانية أن العهد الجديد كله، بل الكتاب المقدس كله جاء مكتوباً فقط باللغة اليونانية، وهي إلى الآن توجد بها أقدم المخطوطات كما ذكرنا قبلاً. ومن الذين كانوا واسطة في هذا التأثير المفكرون اليهود الذين كانت عقائدهم قد توثقت، وكانوا لا يقرأون التوراة إلا في الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية<sup>(2)</sup>. ومن أشهر الفلاسفة اليهود الذين مزجوا بين اليهودية والفلسفة اليونانية وأدخلوا - الغنوصية - والفلسفة اليونانية إلى النصرانية فيلون الذي تحدثنا عنه أنفاً. ولا أدل على تأثر النصرانية بالفلسفة اليونانية من أن الحواريين لما أخذوا يبشرون بالنصرانية - حسب يوسف كرم - اصطنعوا هم وتلاميذهم اللغة اليونانية في الخطابة والكتابة، في فلسطين وسوريا ومصر وآسيا الصغرى وشبه جزيرة اليونان. وبالْيونانية حسب يوسف كرم كتب بولس رسالته إلى الرومانيين ثم كتب بها في روما رسائل عدة إلى الكنائس الشرقية. وكذلك كانت اليونانية لغة النصارى في الغرب وفي شمال إفريقيا وقد استخدمتها الكنائس، ومنها كنيسة روما، ولم تحل اللاتينية محلها في الكتابة والعبادة والوعظ إلا في منتصف القرن 3<sup>(3)</sup>. ولقد ذكرنا قبلاً أنه حتى كلمة مساواة الابن بالأب في الذات والجوهر التي قررها مجمع القسطنطينية الأول سنة 381 م، إنما كانت يونانية، ولا وجود لها في أي إنجيل. وهي كلمة "هُمُؤُوسْيُوس" أي المتساوي في الذات والجوهر<sup>(4)</sup>.

وواقع أن النصرانية لم تتأثر فقط بالجانب اللغوي، بل تأثرت كذلك بالمذاهب الفلسفية اليونانية الكبرى، ومنها الأفلاطونية التي كانت المذهب المفضل عند النصارى، عرفوها من عدة طرق خاصة من فيلون. ومما كان يعجبهم فيها القول بعالم معقول فوق العالم المحسوس وبنفس روحية هابطة من العالم المعقول تائقة للعودة إليه، وبتحقير الجسم والتطهير والخلود والاتحاد بالله. وظلوا يعتسرون الأفلاطونية أسمى المذاهب اليونانية وأقر بها إلى النصرانية حتى إذا ما جددتها مدرسة الاسكندرية في القرن 3 انبهروا بالأفلاطونية المحدثة<sup>(5)</sup>. وهذا يدعو إلى تبين أثرها في النصرانية.

(1) على سمي النشار، المرجع السابق، ص 188، 75.

(2) هي أقدم الترجمات وأشهرها قام بها في القرن 3 م تلبية لدعوة بطليموس فيلادلف 72 عالماً بمصر، وهذا العدد هو أصل التسمية (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، هامس من 247).

(3) المرجع نفسه، ص 253.

(4) لويس خردية وج. فنون، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج 2، ص 288.

(5) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 254، 255. ويواصل يوسف كرم كلامه ليعين أنها تأثرت أيضاً بالرواية، ولكن النصارى نهلوا الأرسطية والأبيقورية لعارضتهما للنصرانية، ولهذا فإن ترحبهم كان عكس توجه المسلمين الذين ركزوا اهتمامهم على الأرسطية.

## أثر الإفلاطونية المحدثّة في النصرانية :

الإفلاطونية المحدثّة صاحبها افلوطين. ولد حوالي 204 أو 205م في أواسط مصر، تآقت نفسه أن يزّداد علما بحكمة الشرق وفلسفة الفرس والهنود، فانضم وهو في 39 من عمره إلى حملة الإمبراطور جورديان على الفرس في عام 242 م. ولكن الإمبراطور قتل في العراق ففشلت الحملة ونجا افلوطين بصعوبة، ففر إلى أنطاكية ثم إلى روما سنة 244 م ليظل بها 10 سنوات، قبل أن يتوفى سنة 270م<sup>(1)</sup>. وهو ينتمي في أساسه إلى مدرسة الاسكندرية الفلسفية التي كانت حلقة وصل بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية، وأصبحت مهمة هذه المدرسة بعد الاستعمار الروماني للاسكندرية "الجمع بين كل معتقدات وآراء العالم اليوناني والروماني والشرقي وتوحيدها في مذهب واحد يصلح لروح العصر الذي لم يعد يقنع بالبحث العلمي الخاص"<sup>(2)</sup>.

ونستطيع القول بنجاح هذه المدرسة في مسعاها هذا، حيث أن تأليه المسيح انطلق منها، والتثليث انطلق منها. وهو ما يتوافق مع مصلحة الاستعمار الروماني السياسية كما ذكرنا قبلا. ولقد قام افلوطين بهذه المهمة خير قيام. ومن الذين تأثر بهم كثيرا.

**الغنوصية :** كانت الغنوصية سائدة في القرنين 2 و 3 م، وبينها وبين الافلاطونية المحدثّة كثير من التشابه، وخاصة في ثلاث مسائل:

- 1- مسألة "الواحد" بوصفه مفارقا كل المفارقة ولا يمكن أن ينعت بأي صفة .
- 2- مسألة "الصدور".
- 3- مسألة "الهيولي" أو المادة بوصفها مشتقة من الواحد<sup>(3)</sup>.

**فيلون :** لقد كان الاتجاه العام لفيلون اليهودي هو المزج بين عقيدة العهد القديم والفلسفة اليونانية، وهو يرى، كما يرى افلوطين المتأثر به: أن المبدأ الأول فوق العقل، يليه "اللوغوس" الذي يتوسط بين الإله الأعلى وبين العالم المادي، وينطوي على المتل أو المبادئ التي يكون منها العالم المحسوس<sup>(4)</sup>. كما تأثر به في فكرة الوسائط بين المبدع الأول أو الله وبين بقية الموجود، والمفارقة المطلقة بين الله وبين بقية الموجود<sup>(5)</sup>. ولقد ذكرنا قبلا أن فيلون كان غنوصيا.

(1) افلوطين، التسامية الرابعة لافلوطين في النفس، دراسة وترجمة فؤاد زكريا، مراجعة محمد سليم سالم، دط، وزارة الثقافة المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ب الإشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، (1970م)، ص34،35 (من دراسة فؤاد زكريا).

(2) فؤاد زكريا، التسامية الرابعة لافلوطين في النفس، ص25،26.

(3) عبد الرحمن بلوي، موسوعة الفلسفة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984م، ج1، ص195.

(4) فؤاد زكريا، المرجع نفسه، ص18.

(5) عبد الرحمن بلوي، موسوعة الفلسفة، ج1، ص192.

**افلاطون** : ومما تأثر به عالم المثل وهبوط النفس منه. حيث فسّر افلاطون هبوط النفس على أساس فكرة الخطيئة<sup>(1)</sup>؛ لأن النفس لا يمكن أن تهبط إلى مقر مذموم إلا إذا كانت قد أخطأت ووقعت على خطئها. وقد تأثر افلوطين بهذا. فهو من جهة يعترف بأن النفس قد أخطأت، وبأن هبوطها إلى هذا العالم إنما هو عقاب لها على خطيئة اقترفتها. وهذا له أثره في ظهور فكرة " الخطيئة الأولى" فيما بعد عند النصراني. إذ يرى أن حالة هبوط النفس ذاتها هي عقاب لها على الخطيئة الأولى التي تتميز عن الخطايا الأخرى التي ترتكبها النفس بعد هبوطها إلى هذا العالم<sup>(2)</sup>.

**نومينيوس "Numenius"** : الذي عاش في حوالي النصف 2 من القرن 2م. ومن آرائه أن للوجود ثلاث درجات، يحتل أوسطها الإله الثاني الذي يربط بين الإله الأعلى وعالم الظواهر، ويرى أن الإله الثاني يرتبط بالعالم الروحي بماهيته وبالعالم الظاهري بفاعليته. وهو ما تبناه افلوطين - وهو ما نجده عند النصراني تقريبا في قضية الأقانيم الثلاثة، وفي القول بالطبيعة المزدوجة للمسيح اللاهوتية والناسوتية. وتأثر افلوطين به لا جدل فيه، حيث كانت نصوصه تقرأ وتشرح في مدرسة افلوطين إلى حد اتهامه بانتحال آرائه. وقد عاش كلاهما في بيئة الاسكندرية العقلية، وكان كلاهما يرمي بتعاليمه إلى تحقيق نفس الهدف، وهو طمأنينة الروح قبل اقتناع العقل، وهو ما تقوله النصرانية بعد ذلك. ولا ننسى أستاذ افلوطين المباشر :

**أمونيوس ساكاس (AMMONIUS SACCAS)** : الذي استخدم نيميوس (NEMESIUS) النصراني أفكاره ليثبت بها فكرة وحدة الطبيعة الإلهية والإنسانية في شخص المسيح<sup>(3)</sup>. وهو ما ستقول به بعض الفرق النصرانية متأثرة به.

**الفلسفات الشرقية** : يمكن القول بأن فلسفة افلوطين إنما هي فلسفة شرقية في جوهرها. ذلك أن الطابع الذي يميزها هو التجربة الدينية المفهومة على نحو صوفي، وهذا لا وجود له في الفلسفة اليونانية الحقيقية، كما نجد كثيرا من الأفكار التي كانت منتشرة في البيئة الهندية الفارسية أثرت بعمق في فلسفته، ففكرة الملائكة أو الوسائط أو العقول المتوسطة، ثم فكرة "الصدور" خصوصا التي تلعب أخطر دور في فلسفته وتكون الفكرة السائدة في كل أجزائها فكرة شرقية مأخوذة عن المذاهب الهندية والفارسية التي كانت منتشرة في القرون الثلاث الأولى للميلاد بوجه خاص في مصر وغيرها<sup>(4)</sup>. وقد بينا قبلا كيفية وصول المؤثرات الشرقية إلى تلك المناطق.

(1) افلاطون نفسه تأثر في هذه القضية وفي غيرها بالفكر الشرقي، لأن الفيثاغورية والأروية كان لهما دور كبير في تكوين المذهب الافلاطوني والصلة بين هاتين المدرستين وبين التفكير الشرقي واضحة (فواد زكريا، التسامية الرابعة، ص 26، 27).

(2) افلوطين، التسامية الرابعة في النفس، ص 328-331، فواد زكريا دراسة تسامية الرابعة، ص 111، 112.

(3) فواد زكريا، التسامية الرابعة لافلوطين، ص 20، 21.

(4) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 1، ص 193، 194.

كذلك حديثه عن قضاء الله والجزاء والعقاب والمعاد. يقول افلوطين: "فأين تذهب النفس بعد أن تفارق البدن؟... ولما كان ثمت مجال عديدة فلا بد أن يتباين المحل الذي توجد فيه النفس تبعاً لميولها الباطنية، ووفقاً للعدالة التي تسود الموجودات. فما من أحد يقلت من العقوبة التي ينبغي عليه تحملها نتيجة لسلوك جائر. وقضاء الله لا يرد، وهو ينطوي في ذاته على القدرة التي تمكنه من تحقيق ما قضى به. وهكذا يحمل الإثم دون أن يشعر، إلى حيث ينبغي أن ينال عقوبته... ويحدد القانون الإلهي (الشريعة) مدى العقاب وزمنه. فإذا ما انتهى العقاب أمكنه أن يترك مكان الجزاء تبعاً لما يقضي به الانسجام الذي يسود كل الأشياء"<sup>(1)</sup>. كذلك نجده يؤمن بتناسخ الأرواح<sup>(2)</sup>. ووحدة الوجود، فيقول: "ولكن كيف يكون المنظم ذاته في هوية مع النظام"<sup>(3)</sup>. وهذه سيكون لها تأثيرها في النصرانية. كما يؤمن بتسخير الجن<sup>(4)</sup>، والسحر<sup>(5)</sup> إلخ. وكل هذه الأفكار إنما هي أفكار شرقية.

**تأثير في النصرانية:** يمكن اعتبار افلوطين واسطة في نقل الغنوصية إلى النصرانية. تلك الغنوصية التي أخذها من فيلون ومن التراث الشرقي، كما كان له أثره في فكرة الخطيئة الأساسية التي تقول بها النصرانية. ولكن أهم تأثير له في النصرانية هو الثالوث، أو الأقانيم الثلاثة. وهذا يدعونا إلى الإشارة للثالوث الافلوطيني.

**الثالوث الافلوطيني:** نجده مبثوثاً في كتابيه "الإثولوجيا"<sup>(6)</sup> و"الإساعيات". ففي كتاب الإثولوجيا يضع افلوطين الثالوث هكذا: الواحد (الله)، الكلمة الإلهية، العقل. وقد أكد في هذا الكتاب الارتباط الوثيق بين الكلمة الإلهية وبين الله أو الواحد، وكاد أن يجعلهما حقيقة واحدة. وأورد في هذا الكتاب ترتيب المبادئ كما يأتي: الله، ثم الكلمة، ثم العقل، وتليه النفس الكونية والطبيعة. وأحياناً أخرى يرتبها على النحو الآتي: الله، العقل، النفس الكونية، الطبيعة. أي أحياناً يضع الكلمة الإلهية ضمن المبادئ وأحياناً أخرى يغفلها، بمعنى أنه أحياناً يجعل الكلمة في هوية مع الله وأحياناً يفصلها عنها<sup>(7)</sup>.

ولكن ما هو الله عند افلوطين؟ الله عند افلوطين كما قالت به النصرانية من بعد بوجه خاص<sup>(8)</sup>. فهو موجود لا متناهي، وهو الواحد أو المبدأ الأول<sup>(9)</sup>. وهو ليس عقلاً، بل ماهية. هذا المبدأ الأول يسميه كما

(1) افلوطين، إساعيات الرابعة في النفس، ص 207.

(2) المصدر نفسه، ص 213.

(3) المصدر نفسه، ص 236.

(4) المصدر نفسه، ص 257.

(5) المصدر نفسه، ص 257.

(6) هناك من يشك في نسبة كتاب "الإثولوجيا" لافلوطين، ولكن فؤاد زكريا برهن على أنه لافلوطين فعلاً في دراسته الإساعيات الرابعة لافلوطين ابتداءً من ص 156، وذلك بمسند مقارنة الكتاب بإساعيات اللوطين فتوصل إلى هذه النتيجة.

(7) فؤاد زكريا، الإساعيات الرابعة لافلوطين في النفس، ص 155، 156.

(8) المرجع نفسه، ص 48.

(9) افلوطين، المصدر السابق، ص 187.

قلنا بالواحد، أو الخير. وأحيانا يسميه الله<sup>(1)</sup>.

أما العقل، فهو المبدأ الثاني<sup>(2)</sup>. وأما النفس فهي المبدأ الثالث<sup>(3)</sup>. هذا هو الثالث افلوطيني : الواحد أو الله، العقل ، النفس ، هذا هو الإله عند افلوطين إنه ثلوث من الوحدة (Bens) والفكر (العقل) (Nous) والنفس (Psyche)<sup>(4)</sup>.

ويزيد هذا وضوحا تفسيره لصفات الله فيقول : " كل ما كان بعد الأول، فهو من الأول اضطرارا. إلا أنه إما أن يكون منه سواء بلا توسط وإما أن يكون منه بتوسط أشياء أخر. هي بينه وبين الأول؛ فيكون إذن للأشياء نظام وشرح. وذلك أن منها ما هو ثان بعد الأول. ومنها ثالث؛ أما الثاني فيضاف إلى الأول؛ وأما الثالث فيضاف إلى الثاني ( أي يرد) ...<sup>(5)</sup>. وهذا يعني بوضوح ما يقوله النصارى من أن الابن انبثق من الأب والروح القدس انبثق من الأب والابن أو من الأب فقط على خلاف بين النصارى. ويزيد هذا توضيحا مواصلة افلوطين شرح صفات الواحد فيبين، بأنه مادام الأول وصف بأنه الواحد، فمن الطبيعي أن يكون الصادر عن هذا الأول ليس متميزا بميزة الوحدة، وإنما فيه ثنائية - وهذا ما يقوله النصارى في المسيح من أن له طبيعتان- وهذا هو الفارق الأكبر بين الأول والثاني، ولكنه ليس فارقا حادا، لأنه يجب أن ينظر إلى الثنائية في داخل الثاني على أساس أنها تقوم بالوحدة، أعني أنه لا بد أن يكون الابن شبيها بالأب وهذا الشبه سيكون في الطابع الأصلي للأب. وهذا الطابع هنا هو الوحدة فالواحد الأول يطبع ابنه أي الثاني، بطابع الواحد على الرغم من وجود ثنائية في الثاني... وهذا الثاني يكون عقلا وعاقلا وتعقلا، والكل بمعنى واحد ... والثاني يتقوم بالأول"<sup>(6)</sup> إلخ .

والواقع أن هذا ما يقوله النصارى في الثلوث. فالثلوث افلوطيني الواحد أو الله والعقل والنفس هي الأقسام الثلاثة في الثلوث النصراني، وذلك لأنها عند النصارى ثلاث صفات من صفات الله، هي الوجود والعلم والحياة. وعبروا عن الوجود بالأب، وعن العلم بالكلمة وعن الحياة بروح القدس<sup>(7)</sup>. ولقد عبر عن هذا التأثير التام جميل صليبا - وهو شاهد من أهلها- بقوله : " الأقسام: الأصل والجوهر والشخص، والأقسام الثلاثة عند المسيحيين هي الأب والابن والروح القدس، وعند الاسكندرانيين هي النفس الكلية والعقل والواحد. وقيل : " إن افلوطين أول من أدخل هذا اللفظ في اللغة الفلسفية ثم استعمله كتاب عصره

(1) هواد زكروبا، المرجع نفسه، ص 48، 49.

(2) افلوطين، المصدر السابق، ص 193.

(3) المصدر نفسه، ص 192.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، ليمر والمسيح، ج 3، ص 3، ج 11، ص 302.

(5) افلوطين، المصدر السابق، ص 156-162.

(6) من عبد الرحمن بلوي، موسوعة الفلسفة، ج 1، ص 202.

(7) شهناوي المولوي محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون، دة، مطبعة عجاية، بيروت، دة، ج 5، ص 1225.

من المسيحيين وأطلقوه على الأب والابن والروح القدس من جهة كونهم جواهر وأقانيم متميزة بعضها عن بعض<sup>(1)</sup>.

ونختم حديثنا عن افلوطين بإيراد اعترافات بعض رجال الإكليروس بمدى تأثيره في النصرانية، منهم :

**اعتراف القديس يوستينوس (Justin) :** قال : إن الافلاطونية المحدثة موجودة بأكملها في الفقرات الأولى من إنجيل يوحنا. في هذا الإنجيل نجد " الكلمة" هي المسيح. لأن "الكلمة" هي الله والمسيح هو الله. كما نجد أيضا أن "الكلمة" تلقي نورها على الإنسان لمجرد ولادته سواء أكان ذلك بعد المسيحية أم قبلها. " فالكلمة" إذن ظهرت قبل أن تتجسد وتأتي في صورة المسيح<sup>(2)</sup>.

**اعتراف القديس أوغسطين :** أعجب بأفكار افلوطين لما وجده من علاقة بين تعاليمه وما جاء في إنجيل يوحنا من تعاليم، كالتوافق بأن الله روح لا مادة. ولقد عبر إعجابه بالافلاطونية المحدثة في كتابه الشهير " الاعترافات " ولا سيما في الجزء 10 والجزء 20، حيث يوضح إعجابه وتأثره بأفكار افلوطين<sup>(3)</sup>، ورأى أن الافلاطونية المحدثة تتفق تماما مع النصرانية ولا سيما ما يتعلق بفكرة "اللوعوس" التي يتفق استهلال إنجيل يوحنا معها، وكذلك مع فكرة النور. مما جعله يؤمن بالافلاطونية المحدثة إلى حد حمله على الفلاسفة ليس باعتبارهم فلاسفة، بل باعتبارهم لا يمثلون النصرانية في ثوب أفلاطوني محدث. ولقد كتب - متأثرا به - كتاب " التثليث"<sup>(4)</sup> (De trinitate) . ولقد زعم أوغسطين أنه لما قرى رسائل افلوطين وجد فيها العقائد المسيحية كلها، وأنها قادتته إلى حل مشكلات عقلية كانت تحول بينه وبين النصرانية<sup>(5)</sup>. ويكفي أوغسطين شاهدا على تأثر النصرانية بالافلاطونية المحدثة. ويكفي هذا الكلام صدقا أن يكون منقولا عن يوسف كرم.

هذه هي مصادر النصرانية، ويمكن أن نلخص كل ما سبق فيما أورده العقاد فيما يأتي :

كل شعيرة في النصرانية كانت معروفة في ديانات كثيرة سبقتها. حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الألام قبل الصلب المزعوم. فـ 25 ديسمبر الذي يحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس<sup>(6)</sup> في العبادة المصرية. وهو ما جعل الكنيسة الشرقية تغير عيد الميلاد إلى 6 جانفي حيث " تعمد" المسيح. وحتى هذا اليوم كان عيد الإله ديونيسيس عند اليونان وبعض سكان آسيا الصغرى. وكان قبل ذلك أوزيريس عند المصريين، ولا يزال في العادات المصرية باقيا إلى اليوم. ففي 11 من شهر طوبة - وكان

(1) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1971م، ج1، ص112.

(2) عبد الرحمن بنوي، فلسفة المصور الوسطى، ط3، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، 1979م، ص9.

(3) نزال الصراف الصانع، المرجع في الفكر الفلسفي، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، ص133.

(4) عبد الرحمن بنوي، فلسفة المصور الوسطى، ص19، 20، 21.

(5) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ط1، دار القلم، بيروت، 1979م، ص21.

(6) كانوا يعبرون -سقط- أنه يوم الانقلاب الشمسي بدلا من يوم 21 في الحساب الحديث (العقاد، الله، ص154)

يوافق 6 جانفي في التاريخ القديم- كان المصريون يحتفلون بعيد إلههم القديم، ولا يزالون إلى اليوم يحتفلون به باسم عيد الغطاس.

وجعل النصارى 25 مارس تذكارا لآلام المسيح قبل الصلب. وهو الموعد نفسه الذي اتخذته الرومان قبل المسيح لتذكارة آلام الإله اتياس إله الرعاة المولود من نانا العذراء دون أن يلمسها بشر. والذي جب نفسه في هذا الموعد ونزف دمه في جذور شجرة الصنوبر المقدسة<sup>(1)</sup>. وكان اسم العذراء مريم بصيغته المختلفة اسما مختارا لأمهات كثير من الآلهة والقديسين مثل أدونيس ابن ميرة ... وبودا ابن مايا إلخ .  
ومما يجري في هذا المجري أن تماثيل إيزيس وهي تحمل ابنها حورس كانت رمزا في الكنائس الأولى للعذراء مريم وإبنها المسيح ... وقال فلوطرخس في رسالته عن إيزيس وأوزوريس أن الحمل يحصل في هذه الأحوال من الأذن، وهو ما يفسر صورة العذراء في القرون الوسطى، حيث كانوا يرسمونها وشعاع من النور يتجه إلى إحدى أذنيها، وقال ترتوليان إن شعاعا سماويا هبط على العذراء فحملت بالسيد المسيح.

والعشاء الرباني كان معروفا في عبادة "مترا" مثلما عرف في النصرانية تماما، بل الخبز الذي يتناوله عباد مترا في ذلك العشاء يصنع على شكل الصليب، والمعجزة الأولى للمسيح هي تحويل الماء خمرا، معروفة في عبادة ديونيس إله الخمر وإله الشمس، ومن حيواناته المقدسة الحمل والحمار. وعلى الحمار كان ركوب المسيح حتى قيل إنه كان له حماران، فجعلهما نجمين في السماء، وبهذا الرمز يرمز البابليون إلى مدار السرطان.

فالخلط بين المسيح وديونيس في ركوب الأتان وتحويل الماء خمرا موضع نظر، ومثله الخلط بينهما حتى في المذود الذي وضعا فيه عند الولادة، حيث أورد لوقا في إنجيله أن المسيح وضع في المذود عند الولادة<sup>(2)</sup>.

يضاف إلى هذا ما ذكرناه من التأثير الكبير للثقافة الفرعونية في التآليه والتثليث، وكذلك الثقافة الشرقية بعامة من غنوصية وبوذية وهندوسية، وما كان شائعا في البيئة اليونانية الرومانية والفلسفة اليونانية. وهكذا فبدل أن تقضي المسيحية على الوثنية تبنيتها<sup>(3)</sup>.

وهنا يمكننا قبل أن نتقدم مفهوم العقيدة النصرانية أن نسجل النتائج الآتية:

- مادامت العقيدة والشريعة التي دعا إليها المسيح هي نفسها التي كانت سائدة في عهده وقيله لماذا أتى إذن ؟ وما هو وجه الحاجة إليه؟. والجواب: أنه بناء على ما سبق، لا حاجة إليه. ولكنه حسب القرآن الكريم أتى ليغير العقيدة في نفوس جزء من سكان العالم آنذاك وهم أبناء ملته لما كان فيها من شرك وتآليه للإنسان وتصور الله في صورة بشر ملئ بالعيوب كما ذكرنا قبلا. كما أتى ليلطف شريعة التوراة.

<sup>(1)</sup> المرجع نفسه، ص 154، 155.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 155، 156.

<sup>(3)</sup> ومن أراد التفصيل أكثر فالرجع إلى "ديونات، قصة الحضارة، قهرم والمسيح، م، 3، ج، 3، ص 275، 276.

ومن هنا يستحيل أن تكون العقيدة أو الشريعة التي أتى بها هي ذاتها التي كانت سائدة قبله وفي عهده، وإلا كانت رسالته عبثاً.

ومن هنا فإن المصدر الوحيد الذي يعرفنا بحقيقة المسيح، أي العقيدة النصرانية الحقيقية إنما هو القرآن الكريم. وما يذكره عن المسيح إنما هو عين المنطق والصواب. وإذن فهو من عند الله.

- أفضلية محمد على المسيح، ذلك أن كليهما وجد في مجتمع وثني، ولكن المسيح لم يتمكن من اقتلاع جذور الوثنية، بل هو نفسه أصبح بعد غيابه وثناً في تصور النصارى، بينما تمكن محمد صلى الله عليه وسلم من اقتلاع الوثنية وتقديم عقيدة التوحيد الدقيقة النقية الصافية البسيطة والعميقة في أن واحد. خلاصتها " قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد" (1).

ومما يؤسف له أن عدواً للمسيح ومحمداً كان الرومان، فهم الذين وثنوا النصرانية من الداخل وقهروا النصارى الحقيقيين بالسيف، وهم الذين حاربوا محمداً صلى الله عليه وسلم ولكن الإسلام كان أقوى منهم.

- تبين بجلاء أن مصادر النصرانية هي بولس والمجامع، وأن مصادر بولس والمجامع هو التراث الشرقي من هندي وفارسي ومصري، وكذلك التراث اليوناني الروماني. وهكذا فلا وجود للأناجيل في تكوين ونشأة العقيدة النصرانية. والدليل على هذا ما سبق، مضافاً إليه ما يأتي:

1- الأناجيل الأربعة وبعض الرسائل اعتمدت في نفس المجمع (نيقية 325 م) الذي قرر دستور الإيمان؛ أي أنها كانت موضع نقاش من حيث صحتها وعدم صحتها، وعلى هذا الأساس فلا يمكن أن تكون هي مصدر العقيدة التي قررت في نفس المجلس، وذلك لأن المجمع عالج مشكلة: ما هي الأناجيل الصحيحة من المزيفة، ومشكلة ما هي العقيدة النصرانية؟. بمعنى أن كلام الأناجيل والعقيدة كانا في جدول أعمال المجمع، ولا يمكن أن تكون الأناجيل مشكلة في حد ذاتها وفي الوقت ذاته مصدراً لحل مشكلة أخرى معقدة مطروحة في نفس المجمع.

2- الأناجيل والرسائل: بعضها رفض في مجمع نيقية ولم يعتمد إلا بعد اعتماد العقيدة، كما أن بعضاً مما قبل من أناجيل ورسائل في مجمع نيقية رفضته مجامع لاحقة كما ذكرنا أثناء حديثنا عن الأناجيل. ومن هنا نستطيع القول بطريقة عكسية تماماً، وهي:

إن اعتقاد العقيدة النصرانية هو الذي أثر في عملية اختيار الأناجيل والرسائل واعتماد ما يتلاءم معها وليس العكس. وهذا يعني أن كليهما هوى؛ لأن الكتاب المقدس هو الذي يجب أن يحدد محتوى العقيدة ومفهومها وكذا أصول الشريعة، وليس العكس. ومع هذا فإننا سنقيم هذه العقيدة في بعض الجوانب من الأناجيل لكونها جزءاً من الكتاب المقدس للنصارى، ومن هنا نتوصل إلى نقد قانون إيمان نيقية 325 م.



## نقد قانون إيمان نيقة 325 م

أو

### بطلان مساواة المسيح لله وتحطيم الثالوث

ويمكن أن يتم هذا من خلال ثلاث قضايا أساسية:

#### القضية الأولى:

وتتمثل في النتيجة التي توصلنا إليها وذكرها العقاد، وهي أن كل ما في النصرانية إنما كان موجودا قبل المسيح عليه السلام. وما دام ذلك كذلك، فإنه يطرح سؤال منطقي هو: لماذا أتى المسيح؟ لماذا بعث؟ ما هي الفائدة من بعثته؟ لا شيء. إذن إرساله عبث. ولكننا نحن المسلمين ننزه الله عز وجل عن العبث، وإذن فإن المسيح عليه السلام لم يتمكن من تحقيق رسالته. وهنا لا بد أن يبعث غيره ليخلص البشرية من عبثها الذي وجدها المسيح عليه وتركها عليه، وهذا المبعوث بعده هو محمد صلى الله عليه وسلم كما سنبين في مناقشة قضية "الفارقليط".

#### القضية الثانية:

ما دام النصارى يقررون المساواة بين الله والمسيح أو بين الأب والإبن على حد تعبيرهم واعتقادهم، فإنه من الناحية الرياضية نستطيع إحلال أي منهما محل الآخر وتبقى المعادلة أو الجملة صحيحة، ولنقم بهذه العملية داخل الأناجيل وننظر، هل يمكن قبول المساواة بين الأب والإبن أم لا، ولن نضع كل النصوص محل اختبار، بل نقتصر على بعضها<sup>(1)</sup>. وسنكتشف أن القول بأن يسوع هو الله ليس فقط استهزاء بالألوهية، بل هو أيضا كفر بواح، وسب وشتم للذكاء الإنساني<sup>(2)</sup>. ولنبدأ العملية:

- "الله خلق من نسل داود" عن إبنه - الله - الذي صار من نسل داود من جهة الجسد<sup>(3)</sup>.

- أسلاف "الله" سلسلة نسب يسوع: "كتاب ميلاد" الله" ابن داود بن إبراهيم<sup>(4)</sup>.

- "الله" ختن". ولما تمت ثمانية أيام ليختتوا الصبي سمي "الله"<sup>(5)</sup>.

(1) ومن أراد التوسع لما عليه إلا أن يرجع إلى الأناجيل، وكلما وجد لفظ يسوع يضع بدله لفظ الجلجلة "الله" وينظر هل يستقيم المعنى وهل يقبل النصارى ذلك؟.

(2) أحمد ديدات، هل المسيح هو الله، وحوار الإنجيل عن ذلك، ترجمة محمد مختار، ط1، دار الهدى عين مليلة الجزائر، 1991، ص11.

(3) الرسالة إلى أهل رومية، 3:1.

(4) إنجيل متى، 1:1.

(5) إنجيل لوقا، 2:21.

- مريم حملت بـ "الله" وولدتته مثل أي امرأة أخرى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد<sup>(1)</sup> . وهذا يعني أنها مرت بجميع مراحل الحمل الطبيعية وكانت ولادتها عادية كأى امرأة أخرى " وهي حبلت تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد"<sup>(2)</sup> .
- "الله" رضع من ثدي امرأة . وفيما هو (الله) يتكلم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له ( أي لله) طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما<sup>(3)</sup> .
- "الله" يركب على الجحش ليتنقل " ووجد "الله" جحشا فجلس عليه"<sup>(4)</sup> .
- " الله" يشرب الخمر وأكول" جاء ابن الإنسان- أي الله- يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان "الله" أكول وشرب خمر"<sup>(5)</sup> .
- كان "الله" يهوديا متعبدا "وفي الصباح باكرا جدا قام -أي الله- وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك"<sup>(6)</sup> .
- كان "الله" وعيا مخلصا . "الله" كان مواطنا صالحا مخلصا لقيصر وقال " أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله"<sup>(7)</sup> . كان "الله" يدفع الضريبة بانتظام<sup>(8)</sup> . " ولا الملائكة الذين في السماء ولا "الله" إلا الأب"<sup>(9)</sup> . وهنا نتساءل : أيقبل العقل والمنطق كل ما سبق؟! إنه لا مساواة. وإلا تحطمت كل النصوص السابقة.
- "الله" يجهل الموسم و يجوع " وفي الغد لما خرجوا من بيت عنيا جاع "الله" فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئا فلما جاء إليها لم يجد إلا ورقا، لم يكن وقت التين<sup>(10)</sup> - ولسنا ندري هل المسيح أي الله يجهل وقت نضوج التين؟ ولماذا لم يأت بمعجزة فيجعل التين في غير أوانه؟! .
- الشيطان جرب "الله" مدة 40 يوما "ولوقت أخرجه الروح- أي الروح أخرج الله- إلى البرية وكان هناك في البرية 40 يوما يجرب من الشيطان"<sup>(11)</sup> .
- "الله" الذي ليس مثل الإله.

(1) إنجيل لوقا 6:2.

(2) رؤيا يوحنا: 2:12.

(3) إنجيل لوقا: 27:11.

(4) إنجيل يوحنا: 14:12.

(5) إنجيل متى: 19:11، لوقا 7:34.

(6) إنجيل مرقس: 1:35.

(7) متى: 22:21.

(8) متى 17: 24-27.

(9) مرقس 13:32.

(10) مرقس: 11: 12، 13.

(11) مرقس 1: 12-13.

- الله يصوم ويجوع. وهنا نتساءل : هل الصوم خاص بالإله الإبن أم أن الإله الأب يصوم كذلك؟  
 "قبعد ما صام أي "الله" 40 نهارا و 40 ليلة جاع أخيرا"<sup>(1)</sup>.
- "الله" يعطش "قال الله" أنا عطشان"<sup>(2)</sup>. "الله" ينام " وكان "الله" في المؤخر على وسادة نانما"<sup>(3)</sup>.
- "الله" يبكي "بكي" الله"<sup>(4)</sup> - الله يحزن ويكتئب " وابتدأ "الله" يحزن ويكتئب"<sup>(5)</sup>. فقال لهم نفسي حزينة جدا حتى الموت"<sup>(6)</sup> - "الله" ضعيف يحتاج إلى مقوي "وظهر له ملاك من السماء يقويه"<sup>(7)</sup>.
- "الله" يهرب، يصاب بالذعر، ويمشي خائفا بين اليهود ويفر "فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه - أي الله- فلم يكن "الله" أيضا يمشي بين اليهود علانية"<sup>(8)</sup>. "فطلبوا أيضا أن يمسكوه فخرج من أيديهم"<sup>(9)</sup>. "الله" يؤسر ويقيد " ألقى القبض على "الله" وأوثق ومضي به "ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على "الله" وأوثقوه ومضوا به"<sup>(10)</sup>. "الله" أهين وضرب وبصق في وجهه إلخ " الرجال الذين كانوا ضابطين "الله" كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه وغطوه وكانوا يضربون وجهه"<sup>(11)</sup>. " حينئذ بصقوا في وجهه ولكموه"<sup>(12)</sup>.
- حكم على "الله" بالموت "فالجميع حكموا عليه - أي على الله- أنه مستوجب الموت"<sup>(13)</sup>.
- "الله" كالأنعام" مثل شاة سيق إلى الذبح ومثل خروف صامت أمام الذي يجزه هكذا لم يفتح فاه"<sup>(14)</sup>. - نهاية "الله" المفترضة " الله يموت " فصرخ "الله" بصوت عظيم وأسلم الروح"<sup>(15)</sup>. " لأن "الله" إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المعين"<sup>(16)</sup>.

(1) مرقس: 12:11.

(2) يوحنا 28:19.

(3) مرقس 4:38.

(4) إنجيل يوحنا 35:11.

(5) متى 37:26.

(6) متى 38:26.

(7) لوقا 43:22.

(8) إنجيل يوحنا 54:53.

(9) إنجيل يوحنا 39:10.

(10) إنجيل يوحنا 13:12، 13.

(11) لوقا 22:63، 64.

(12) متى 67:26.

(13) مرقس 14-64.

(14) أعمال الرسل 8:32.

(15) مرقس: 37:15.

(16) رومية 6:5.

نستنتج من كل ما سبق استحالة كون المسيح إلهًا، واستحالة كونه مساو لله. وكل من زعم ألوهيته أو مساواته لله كان مشركًا مؤمنًا بتعدد الآلهة<sup>(1)</sup>.

### القضية الثالثة :

نصوص الأناجيل تبين حرفيا عدم المساواة بين الله والمسيح، أي تبين استحالة التثليث وتبطل القول بألوهية المسيح .

ولقد أشرنا قبلا إلى بعض النصوص الدالة على هذا تحت عنوان الأمر بالوحدانية في " الإله في العهد الجديد" ، ونشير الآن إلى نصوص تدل دلالة دقيقة على محتوى العنوان ، منها :

- قول المسيح عليه السلام مخاطبا الله عز وجل " وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته"<sup>(2)</sup> ! أي أن الحياة الأبدية هي أن يعرف الناس أن الله واحد حقيقي لا شريك له وأن عيسى رسوله، ولم يقل إن الحياة الأبدية أن يعرف الناس أن الله ثلاثة أقانيم متساوية وأن عيسى إله وإنسان إلخ.

و كون المسيح رسولا غير كونه إلهًا؛ لأن التباين بين المرسل والمرسل ضروري ولازم<sup>(3)</sup>.

- جواب المسيح لأحد الكتبة الذي سأله أية وصية هي أول الكل "فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى ... فقال له الكاتب جيدا يا معلم بالحق قلت لأنه - أي الله - واحد وليس آخر سواء ومحبه من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة ... فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل قال له : لست بعيدا عن ملكوت الله"<sup>(4)</sup>. وبعد بيان هذا الحكم وحكم آخر يتعلق بحب القريب عتب عليهما بما يأتي : " بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس والأنبياء"<sup>(5)</sup>. فبين أن أول الوصايا المصرح بها في التوراة وفي جميع كتب الأنبياء وأنها هي الحق وسبب القرب من الملكوت أن يعتقد المرء أن الله واحد لا إله غيره، ولو كان اعتقاد التثليث هو مدار النجاة لكان هو المبين في التوراة وفي جميع كتب الأنبياء، وكان هو أول الوصايا، وقال عيسى إن أول الوصايا الرب واحد ذو ثلاثة أقانيم إلخ، لكنه لم يبين هذا في أي كتاب من كتب الأنبياء ولم يقل به عيسى. فلم يكن التثليث مدار النجاة. وثبت أن مدارها هو اعتقاد التوحيد الحقيقي لا اعتقاد التثليث، وإلا لبيته أنبياء بني إسرائيل بوضوح كما بينوا

(1) أحد دينات، هل المسيح هو الله، ص 30.

(2) إنجيل يوحنا، 3:17.

(3) رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج 1، ص 407.

(4) مرقس، إصحاح 12، فقرات 28-34.

(5) إنجيل متى، إصحاح 22.

التوحيد الذي يدل عليه<sup>(1)</sup>. "ليعلم الذين هم من مشرق الشمس والذين هم من المغرب أنه ليس غييري أنا الرب وليس آخر"<sup>(2)</sup>. وقوله: "أنا هو الرب وليس غييري وليس دوني إله شددتك ولم تعرفني"<sup>(3)</sup>.

### إبطال المساواة بين أقنوم الأب وأقنوم الإبن :

من ذلك قول المسيح عليه السلام عن يوم القيامة "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الإبن إلا الأب"<sup>(4)</sup>. وهذا القول يحطم قانون الإيمان النيقاوي الذي قرر المساواة بين الإبن والأب، وهو دليل على صحة ما ذكرناه قبلا من أن الذين وضعوا قانون الإيمان النيقاوي لم يعتمدوا فيه على الأنجيل وإلا ما وقع هذا التناقض، ولا يمكن أبدا الإدعاء هنا بأن المقصود هو الجانب الناسوتي لأنه يتعلق بالفكر، بالروح، بالعلم؛ لأن الكلمة وأقنوم الإبن عبارتان عن علم الله. ولما لم يكن العلم من صفات الجسد، وكان المسيح قد قرر جهله، كبقية الناس الآخرين بيوم القيامة؛ فإنه سوى بين نفسه وبين جميع المخلوقات في الجهل بذلك اليوم ونفى عن نفسه وعنهم العلم به وخصص علم يوم القيامة بالله وحده. وهذا يبين استحالة كونه إلهًا، إذ لو كان كذلك لعلم الإبن مثل ما علم الأب<sup>(5)</sup>.

المسيح يرفض حتى أن يوصف بـ "الصالح". "وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية فقال له : لماذا تدعونني صالحا، ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله"<sup>(6)</sup>. فهذا القول يقلع أصل التثليث. إذ رفض المسيح حتى أن يطلق عليه لفظ "الصالح"، ولو كان إلهًا لما كان لقوله معنى، ولكان عليه أن يبين أن لا صالح إلا الأب والإبن وروح القدس، وإذا كان لا يرضى حتى مجرد الوصف بـ "الصالح" فكيف يرضى بأقوال أهل التثليث<sup>(7)</sup>؟!.

- موت يسوع: "ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا إيلي إيلي لما شئبتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني"<sup>(8)</sup>. و"فصرخ يسوع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح"<sup>(9)</sup>. و"ونادى يسوع بصوت عظيم وقال يا أبتاه في يدك أستودع روحي"<sup>(10)</sup>. وكل هذا ينفي ألوهية المسيح؛ لأنه لو كان إلهًا لما

(1) رحمة الله المندي، المرجع نفسه، ص 408، 409.

(2) أشعيا، إصحاح 45 فقرة 6.

(3) أشعيا، إصحاح 45، فقرة 5.

(4) إنجيل مرقس، إصحاح 13، فقرة 32.

(5) رحمة الله المندي، المرجع السابق، ص 409، 411.

(6) إنجيل متى، إصحاح 29 فقرات 16، 17.

(7) رحمة الله المندي، المرجع السابق، ص 410.

(8) إنجيل متى، إصحاح 27 فقرة 46.

(9) إنجيل متى، إصحاح 27، فقرة 50.

(10) إنجيل لوقا، إصحاح 23، فقرة 46.

استغاث بإله آخر، ولا تمتنع عليه العجز والموت والاستغاثة<sup>(1)</sup>. ولا يمكن الزعم بأن الذي صرخ واستغاث هو الجانب الناسوتي وليس اللاهوتي. لأنه لو كان كذلك لاستغاث بلاهوته هو، بل القول بأن للمسيح جانبان أو طبيعتان لاهوتي وناسوتي، يكون إبطالا للمساواة بين أقتوم الإين وأقتوم الأب؛ لأن الأب في زعمهم له جانب لاهوتي فقط. بينما الإين له جانبان لاهوتي وناسوتي. وهذا يبين التمايز، والتمايز دليل المفاضلة، والمفاضلة نقيض المساواة.

كما أنه يدل على التركيب، فأقتوم الإين مركب من طبيعتين لاهوتية وناسوتية. والتركيب دليل على نقسي الألوهية، بل استحالتها؛ لأنه لو كان الإله مركبا لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملة التسي هي ذاته. وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة. فيكون وجود جملة محتاجا إلى وجود غيره<sup>(2)</sup>. وكل ما كان محتاجا في وجوده إلى غيره استحاله كونه إلهيا.

وإضافة لهذا، فإن ما سبق من نصي متي ونص لوقا يتناقض مع ما ورد في سفر أشعيا الذي يؤمن به النصارى "أما عرفت أو ما سمعت إله سرمدى الرب الذي خلق أطراف الأرض لن يضعف ولن يتعب وليس مخصا عن حكمته"<sup>(3)</sup>. "أما الرب هو إله حق، هو إله حي وملك سرمدى"<sup>(4)</sup>. "يا رب إلهي قدوس لا تموت"<sup>(5)</sup>. فكيف يعجز ويموت الذي هو إله سرمدى منزه عن الضعف والتعب حي قدوس لا يموت ولا إله غيره... أكون الفاني العاجز إلهيا؟! مستحيل. إن الإله الحقيقي هو الذي كان المسيح يستغيث به في هذا الوقت على زعمهم<sup>(6)</sup>، وليس الذي كان يستغيث. والغريب أنهم لم يكتبوا بما سبق، وهو موت إلههم المسيح، بل زانوا على ذلك بالاعتقاد فيه أنه صار ملعونا، وهو ما قرره بولس كما ذكرنا قبلا أثناء حديثنا عن بولس "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة من أجلنا، لأنه مكتوب: ملعون من علق على خشبة"<sup>(7)</sup>.

- قول المسيح لمريم المجدالية: "لا تلمسيني لأنى لم أضع بعد إلى أبي، ولكن اذهبي إلى اخوتي وقولي لهم إني أضع إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم"<sup>(8)</sup>. فالمسيح سوى هنا بينه وبين الناس وذلك لكي لا يتقولوا عليه أنه إله أو ابن الله. ولما كان هذا القول بعد قيام عيسى من الأموات حسب زعمهم وقبل الصعود إلى

(1) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 411.

(2) محمد عبده، رسالة التوحيد، ط 2، دار إحياء العلوم، بيروت، 1977، ص 58.

(3) أشعيا، إصحاح 40، فقرة 38.

(4) إرميا، إصحاح 10، فقرة 10.

(5) حبقوق، إصحاح 1، فقرة 12.

(6) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 411.

(7) غلاطية، إصحاح 3، فقرة 13.

(8) يوحنا، إصحاح 20، فقرة 17.

السماء بقليل، ثبت أنه كان يصرخ بأنه عبد الله إلى زمان الصعود. وهو يطابق ما ورد في القرآن الكريم<sup>(1)</sup>. ( ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبد الله ربي وربكم )<sup>(2)</sup>.

- قوله : "... لأن أبي أعظم مني"<sup>(3)</sup>. وهذا يتناقض مع دستور نيقا الذي قرر المساواة بين الله عز وجل والمسيح عليه السلام. وهنا إما أن يكون ما ورد في إنجيل يوحنا هذا هو الصواب، فيكون أصحاب نيقا على ضلال شركيين، وإما أن يكونوا على صواب فيكون إنجيل يوحنا مزوراً، ولا يمكن الجمع بينهما.

- ما أورده يوحنا أيضا " فخرت أمام رجليه لأسجد له، فقال لي أنظر. لا تفعل أنا عبد معك ومع اخوتك الذين عندهم شهادة يسوع، اسجد لله"<sup>(4)</sup>.

- " لأنني لم أتكلم من نفسي. لكن الأب الذي أرسلني هو أعطاني وحيه. ماذا أقول وبماذا أتكلم"<sup>(5)</sup>.

- " أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة، لأنني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الأب الذي أرسلني، إن كنت أشهد نفسي فشهادتي ليست حقا"<sup>(6)</sup>.

- " الحق الحق أقول لكم أنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله"<sup>(7)</sup>.

- إثبات العجز التام للمسيح من طرف الأنجيل<sup>(8)</sup>. ومن ذلك ما ورد " ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قسوة واحدة"<sup>(9)</sup>. أين هذا من قول الله عز وجل عن ذاته العلية ﴿ فَعَالٌ لَمَّا يَرِيدُ ﴾<sup>(10)</sup>.

### وأما عدم المساواة بين المسيح وبين الروح القدس :

قد قررها المسيح عليه السلام قائلا : " ومن قال كلمة على ابن الإنسان - يسوع - يغفر له، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي"<sup>(11)</sup>.

(1) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 415.

(2) الأنعام/117.

(3) يوحنا، إصحاح 14، فقرة 28.

(4) يوحنا، إصحاح 19، فقرة 10.

(5) يوحنا، إصحاح 12، فقرة 49.

(6) يوحنا، إصحاح 30، فقرة 31.

(7) يوحنا، إصحاح 13، فقرة 16.

(8) لواء أحمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، ص 115، 116.

(9) مرقس، إصحاح 6 فقرة 4، 5، ومن أراد المزيد فليرجع إلى رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 407-417. وكذلك أحمد ديدات، المسلم في

الصلاة مقارنة بين صلاة المسلمين وصلاة أهل الكتاب، ترجمة علي عثمان، دط، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، 1991، ص 37-39.

(10) البروج/16.

(11) متى، إصحاح 12، فقرة 32.

## إبطال الحلول والاتحاد :

لقد ذكرنا قبلاً أنه ورد في إنجيل يوحنا " أنا والآب واحد"<sup>(1)</sup>. ويزعمون أن هذا دليل على الاتحاد بالله، ولكن يبطله ما ورد في هذا الإنجيل ذاته في حق الحواريين "يكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيضاً الآب في وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني"<sup>(2)</sup>. وقوله: " وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد"<sup>(3)</sup>. وقوله: " أنا فيهم وأنت في ليكونوا مكملين إلى واحد"<sup>(4)</sup>. وقوله: " ليكون الجميع واحداً". وقوله: " ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحداً". وقوله: " ليكونوا مكملين إلى واحد". كل هذه النصوص تدل على اتحادهم أيضاً مع الله. وسوي في القول الثاني بين اتحاده بالله وبين اتحاده فيهم. وهنا إما أن نعتبر اتحادهم بالله ليس حقيقياً وكذا اتحاده بالله. وبذلك فإن الفقرات السابقة لا تفيد الحلول وإنما تفيد طاعة الله وعبادته<sup>(5)</sup>.

وهذا يقلع فكرة الاتحاد والحلول بين الله والمسيح من أساسها. وإما أن نعتبر أن الاتحاد حقيقي بين الله والمسيح وبين الله والحواريين، وهذا لا يقبله النصارى ولكن ليس لهم دليل. وهذا يحطم فكرة الحلول من أساسها أيضاً؛ لأنه لا يوجد أي مبرر منطقي أو واقعي يجعلها خاصة بالمسيح دون الحواريين، ماعدا حالة واحدة فقط، هي أن يقرر النصارى بأن هذه النصوص التي تجعل الحواريين متحدين بالله مزيفة. وحتى في هذه الحالة تتحطم فكرة الحلول والاتحاد؛ لأن الشك في كل هذه النصوص واعتبارها مزيفة هو أيضاً شك فيما يوهم اتحاد الله بالمسيح واعتباره مزيفاً مثلها.

ولكن نصوصهم بينت أن الاتحاد هو الطاعة والعبادة، لا وحدة الوجود. والغريب أن يوحنا ذاته هو الذي بين هذا بقوله: " وهذا هو الخبر الذي سمعناه منه، وتخبركم به أن الله نور وليس ظلمة البتة"<sup>(6)</sup>. " إن قلنا أن لنا شركة معه وسلطنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق"<sup>(7)</sup>. " ولكن إن سلطنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض"<sup>(8)</sup>. والفقرة السادسة والسابعة في التراجم الفارسية للكتاب المقدس ورد فيها لفظ الاتحاد بدل لفظ الشركة، فيكون بهذا لفظ الاتحاد بالله أو الشركة به عبارة عما قلنا<sup>(9)</sup>. وأما قوله: " الذي رأيته فقد رأى الآب فكيف تقول أنت أننا الآب"<sup>(10)</sup>. " أأنت تؤمن أنني آبي الآب والآب في، الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحال في هو يعمل الأعمال"<sup>(11)</sup>. فإن هذا باطل من وجوه.

- أحدها ما ذكرناه قبلاً من النصوص التي تفيد الحلول في الحواريين وغيرهم.

(1) إنجيل يوحنا، إصحاح 10 فقرة 30.

(2) إنجيل يوحنا، إصحاح 17 فقرات 21، 22، 23.

(3) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 425، 426.

(4) إنجيل يوحنا، الرسالة الأولى، إصحاح 1، فقرات 5، 6، 7، ورقم (2) تظهر فيه الغنوصية بوضوح (إله النور وإله الظلام).

(5) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 426.

(6) إنجيل يوحنا، إصحاح 14، فقرات 9، 10.



- رؤية الله في الدنيا غير ممكنة عندهم ولذلك يؤولونها بالمعرفة، ومعرفة المسيح باعتبار الجسمية لا معنى لها لأنها لا تفيد الاتحاد. فيزعمون أن المراد به الاتحاد الباطني. وهذا يدحضه ما ورد في نفس الإنجيل عن الحواريين. فيقول يوحنا: "في ذلك اليوم تعلمون أنني أنا في أبي وأنتم في وأني فيكم"<sup>(1)</sup>. وهذا النص يفيد معنى جديدا يتمثل في حلول المسيح في الله وليس العكس، كما يجعل الحواريين أيضا قد حلل الله فيهم. وهذا يفيد ما ذهبنا إليه وهو: إما أن نعتبر الحلول بمعنى العبادة والطاعة، وهذا يناقض مزاعم النصارى، أو نعتبر الحلول الحقيقي، وهذا يجعل الله حالا أيضا في الحواريين، وفي كلتا الحالتين إبطال لفكرة الاتحاد والحلول التي يزعمها النصارى.

والمواقع أن كثيرا من النصوص يفيد ظاهرها حلول الله إما في الحواريين أو في أهل منطقة بكاملها، ومن هذه النصوص:

"- أم لستم تعلمون أن جسديكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستم لأنفسكم"<sup>(2)</sup>. يعني أن الروح القدس قد حل في جميع سكان كورينثوس.

"- وأية موافقة مع الأوثان، فأنتم هيكل الله الحي"<sup>(3)</sup>. أي جميع سكان كورينثوس.

"- إله وأب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم"<sup>(4)</sup>. أي جميع أهل أفسس. فلو كان الحلول مشعرا بالاتحاد ومثبتا للألوهية لزم أن يكون الحواريون، بل جميع أهل كورينثوس وكذا جميع أهل أفسس آلهة<sup>(5)</sup>.

كذلك يرد على النصارى في هذه القضية بما يأتي:

إما أن يقال بأن الإله هو شخص المسيح الجسماني المشاهد، أو يقال حل الإله بكليته فيه، أو حل بعض الإله وجزء منه فيه. والأقسام الثلاثة باطلة.

أما الأول، فلأن إله الكون لو كان هو ذلك الجسم فحين قتله اليهود - حسب زعمهم - كان ذلك يعني أن اليهود قتلوا إله الكون. فكيف بقي الكون بعد ذلك من غير إله؟ وهل الإله يتمكن من قتله أشد الناس دناءة وذلا وهم اليهود؟ اللهم إلا إذا كان إلهها في غاية العجز والقصور. ومن كانت هذه خصائصه استحاله كونه إلهها.

وأما الثاني، وهو أن الإله بكليته حل في جسم المسيح، فهو أيضا في غاية الفساد. لأن الإله إن لم يكن جسما ولا عرضا امتنع واستحال حلوله في الجسم، وإن كان جسما كان حلوله في جسم آخر عبارة عن اختلاط أجزائه بأجزاء ذلك الجسم. وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله. وإن كان عرضا كان محتاجا إلى المحل، فكان الإله محتاجا إلى غيره. وكل ذلك سخيف.

(1) إنجيل يوحنا، إصحاح 14، فقرة 20.

(2) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، إصحاح 6 فقرة 19.

(3) الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس، إصحاح 6 فقرة 16.

(4) الرسالة إلى أهل أفسس، إصحاح 4، فقرة 6.

(5) رحمة الله العلي، المرجع السابق، ص 427.

وأما الثالث، وهو أنه حل فيه بعض من أبعاض الإله وجزء من أجزائه فذلك أيضا محال. لأن ذلك الجزء إن كان معتبرا في الإلهية فعند انفصاله عن الإله وجب أن لا يبقى الإله إليها، وإن لم يكن معتبرا في تحقق الإلهية لم يكن جزءا من الإله.

فثبت فساد هذه الأقسام. فكان قول النصارى باطلا<sup>(1)</sup>.

### إبطال بنوة المسيح لله، وإبطال ألوهيته ببعض حالاته :

قال لوقا في بيان نسب المسيح أنه ابن يوسف، وأدم ابن الله<sup>(2)</sup>، والواقع أن أدم عليه السلام ليس ابنا لله بالمعنى الحقيقي ولا إليها. لكن لما ولد بلا أبوين نسيه لوقا إلى الله، وقد علق رحمة الله الهندي على هذا بقوله: "ولله در لوقا، لقد أجاد ما هنا، لأنه لما كان أدم عليه السلام مولودا بلا أبوين نسيه إلى الله"<sup>(3)</sup>. وقد أفضنا الحديث في قضية البنوة، ولا يصبح لها معنى إلا بالمجاز، لأنها أطلقت في التوراة والإنجيل على عديدين، والمنطق يقتضي أن نعتبر كل الذين أطلقت عليهم جميعا أبناء الله دون أفراد المسيح بهذه النسبة وحده. ولكن النصارى لا يقبلون بهذا، وإما أن نعتبرها نسبة مجازية ولا خيار آخر لنساء؛ لأنه لا تفسير آخر لمشكلة البنوة رغم رفض النصارى لهذا التفسير.

- من أدلتهم على ألوهية المسيح كونه ولد بلا أب، وهذا الاستدلال متهافت :

لأنهم يعتقدون أن كل المخلوقات من السموات والأرض والشمس والقمر والجماد والنبات والحيوان وأدم خلق كل هذا في أسبوع واحد، وخلق بلا أب ولا أم، فكل هذا إذن يشارك المسيح في كونه مخلوقا بلا أب، ويفوقه في كونه بلا أم. مما يجعل كل هذه المخلوقات أولى من المسيح بالألوهية والبنوة لله<sup>(4)</sup>.

- آدم أولى بالبنوة من عيسى<sup>(5)</sup> لكونه لا من أب ولا من أم. ولكن النصارى لا يقرون ببنوة آدم لله. فإذن لا يمكن قبول بنوة عيسى. وقد يحتج النصارى بحجة تافهة مضمونها أن أدم خلق من تراب الأرض بينما عيسى تولد بلا دنس في رحم مريم. ولكنه حتى حسب هذا المقياس الخاطيء فإنه يوجد في الكتاب المقدس شخص أعظم من عيسى وفوق البشر مما يجعله وفقا لمنطقهم ليس ابنا لله فحسب، بل هو الله. إنه ملكي صادق كاهن الله العلي.

- يعتقد النصارى أن ملكي صادق الكاهن الذي كان معاصرا لسيدنا إبراهيم عليه السلام بلا أب. بلا أم. بلا نسب. لا بداية أيام له ولا نهاية حياة. وهاهو النص "لأن ملكي صادق هذا ملك سألهم كاهن الله العلي

(1) القهر الرازي، تفسير قوله تعالى: "لمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم... (آل عمران / ) عن رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 431، 432.

(2) إنجيل لوقا، إصحاح 32.

(3) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 422.

(4) المرجع نفسه، ص 428.

(5) يسوع نفسه يعلن أن يوحنا المعمدان أفضل منه "ابتدا يسوع يقول للجموع عن يوحنا... لكن ماذا خرجتم لتظنوا... أنيا. نعم أقول لكم وأفضل من نبي. لأن هذا هو الذي كتب عنه ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك. الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان" (إنجيل متى، إصحاح 11، فقرات 7-11). وهذا النص يعني أنه أفضل من يسوع، لأن يسوع ولدته امرأة أيضا.

الذي استقبل إبراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركه... بلا أب. بلا أم. بلا نسب. لا بداية أيام له ولا نهاية حياة. بل هو مشبه بابن الله هذا يبقى كاهنا إلى الأبد<sup>(1)</sup>. إن الذي يملك هذه الصفات هو الله القدير وحده. فإدم كانت له بداية في الجنة، وعيسى كانت له بداية في الإسطبل أو المذود، وآدم كانت له نهاية، وعيسى كذلك فيما يزعم النصارى عندما أسلم الروح. ولكن أين هو ملكي صادق؟ الذي يفوق المسيح في كونه بلا أم، وفي كونه لا بداية له<sup>(2)</sup> ولا نهاية له وبلا نسب. والمهم جدا أن المصدر الذي ذكر فيه لا يمكن للنصارى أن يطعنوا فيه؛ لأن مصدره هو بولس وذلك في رسالته إلى العبرانيين والذي نصب نفسه الحوارى الثالث<sup>(3)</sup>. وهكذا فإن من كان بخصائص ملكي صادق لا يكون إلا إلهًا. وبذلك فهو أولسى من المسيح بالألوهية. ولكنه مع كل هذا فإنه ليس إلهًا عند النصارى، والمسيح إله. إن هذا لشيء عجاب.

- ومن أدلتهم على ألوهيته: معجزاته، ومن أعظمها إحياء الموتى. ولكنها حسب أنجيلهم فإنه لم يحي إلى زمن الصلب المزعوم سوى ثلاثة أشخاص. بينما حزقيال أحيا أوفاء، كما هو مصرح به في سفر حزقيال<sup>(4)</sup>. وبهذا فإن حزقيال أولى بالألوهية من المسيح. كما أن إيليا أحيا ميتا<sup>(5)</sup>. واليسع أحيا كذلك ميتا<sup>(6)</sup>. كما أن ميتا آخر ألقى في قبر اليسع بعد موته فحيي<sup>(7)</sup>. وأبرأ اليسع الأبرص من برصه<sup>(8)</sup>. وبهذا فإما أن يكون كل من إيليا واليسع إلهين مثل المسيح، وإما أن يكون المسيح ليس إلهًا. لكنهما -حتى في اعتقاد النصارى - ليسا بإلهين، فالمسيح إذن ليس بإله.

- موسى أعظم من عيسى؛ لأنه أعاد الحياة لعصا ميتة وحولها من مملكة النباتات إلى مملكة الحيوان، بأن جعل منها حية تسعى<sup>(9)</sup>. ومع هذا فالنصارى لا يؤلهون موسى.

يضاف إلى هذا قضية لها أهميتها القصوى تبين تناقض النصارى في عقيدتهم وأنها لا منطقية ولا عقلية. أنهم من جهة يعتبرون المعجزات ومنها معجزة إحياء الموتى دليل على ألوهية المسيح، ومن جهة أخرى يرون أنها لا تثبت حتى النبوة وليست دليلا على وجودها.

وإذن عدم إثباتها للألوهية أولى. يقول المسيح: "لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا"<sup>(10)</sup>. فإذا كان بإمكان الأنبياء الكذبة والمسحاء

(1) بولس، رسالة إلى العبرانيين، إصحاح 7، فقرات 1-3.

(2) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 429.

(3) أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، ترجمة وتعليق محمد مختار، دط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1991، ص 87-89.

(4) حزقيال، إصحاح 37.

(5) سفر الملوك الأول، إصحاح 17.

(6) سفر الملوك الثاني، إصحاح 4.

(7) سفر الملوك الثاني، إصحاح 13، فقرة 21.

(8) سفر الملوك الثاني، إصحاح 15.

(9) سفر الخروج، إصحاح 7، فقرة 10.

(10) إنجيل متى، إصحاح 24، فقرة 24.

الكذبة أن يصنعوا معجزة، فهذه العجائب أو المعجزات لا تثبت حتى صدق نبي أو عدم صدقه. ناهيك عن إثباتها ألوهية البشر.

وإن فالمعجزات ليست مقياسا للتمييز بين الحق والباطل<sup>(1)</sup>.

ومع كل هذا فإن بورغاد - والنصارى - يصر في صبيانية مفرطة على أن عيسى ابن الله، وعلى أن عيسى إله؛ لأنه أعاد للميت الحياة. فهل إحياء الآخرين للموتى يجعل منهم آلهة أيضا؟! هذه المسألة تحسير بورغاد والنصارى الذين حجبوا عقولهم عن معجزات الآخرين الذين برزوا وتفوقوا على عيسى في كتابهم المقدس. حيث نجد أنهم حسب مقياس بورغاد النصراني الزائف أفضل من المسيح.

وقد يبرر النصارى موقفهم بأن الله هو الذي عمل تلك المعجزات مستخدما أولئك الأنبياء. بينما عيسى صنع تلك المعجزات بواسطة سلطانه الخاص، ولكن سيدنا عيسى عليه السلام يجيب:

"أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا"<sup>(2)</sup>، "أنا بروح الله أخرج الشيطان"<sup>(3)</sup> (4).

وأحسن دليل على ما نقول: هو ما يزعمه النصارى من أن أعظم معجزات عيسى هي معجزة إحياء لعازر الذي كان قد مات منذ أربعة أيام، فطلب من عيسى إحياءه، وبعد أن رفع الحجر نظر عيسى تجاه السماء وقال: "أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقع ليؤمنوا أنك أرسلتني"<sup>(5)</sup>. والنص لا يحتاج إلى تعليق.

يضاف إلى ما سبق أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته. وهذا يعني أنه يجب أن لا يكون جسما ولا متحيزا ولا عرضا - ولا حالا في مكان - والمسيح عبارة عن شخص بشري جسماني، وجد بعد أن كان معدوما، وقتل في زعم النصارى بعد أن كان حيا، وكان طفلا ثم شابا ثم كهلا، وكان يأكل ويشرب ويحدث وينام ويستيقظ، وقد تقرر في بدهة العقول أن المحدث لا يكون قديما، والمحتاج لا يكون غنيا، والممكن لا يكون واجبا، والمتغير لا يكون دائما<sup>(6)</sup>.

وأما قضية الأقانيم الثلاثة، فقد أثبتنا قبلا مصدرها البشري، وقد اعترف بهذا لويس غردية وجورج قنوا تي من حيث لا يشعرون، حين أثبتنا أن مفهوم التثليث كان معروفا عند النصارى وكانوا قد ألفوه وفهموه - حسب زعمهما - فهما صحيحا<sup>(7)</sup>. ولقد أثبتنا قبلا عدم المساواة بين الإبن والأب كما أثبتنا عدم المساواة بين الإبن وروح القدس. وإثبات عدم المساواة هو تحطيم للتثليث. كما أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقبل العقل مفهوم عقيدة لم يقرر إلا بعد أربعة قرون كاملة من غياب صاحبها، وأن الذي قررها ليس

(1) أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، ص 145، 146.

(2) إنجيل يوحنا، إصحاح 5، فقرة 30.

(3) إنجيل متى، إصحاح 12، فقرة 28.

(4) أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، ص 147، 148.

(5) إنجيل يوحنا، إصحاح 11، فقرة 41، 42.

(6) الفخر الرازي، تفسير قوله تعالى: "لمن حاجتك فيه من بعد ما جاءك من العلم..." (آل عمران / 4).

(7) لويس غردية، ج 1، المسألة الفكرية في الإسلام والمسيحية، ج 2، ص 288، 289.

الكتاب المقدس، بل الكتاب المقدس هو الذي تأثر بها، وأن تقريرها إنما تم بالعصا الغليظة لا بقوة الإقناع والافتتاح إلى آخر ما ذكرناه قبلاً.

نضيف إلى ما سبق أن الثلاثة أقانيم تتطلب ثلاثة جواهر، وبالتالي ثلاثة ألوهة. ونظام الكون يتطلب مصدرًا واحدًا للتسيير والتنظيم. ولا أدل على هذا من أننا عندما نقيم أي مؤسسة لا نضع لها إلا مديرًا واحدًا. وهكذا، فالمدرسة لها مدير، والشركة لها مدير، والوزارة لها وزير، والجيش له قائد عام واحد، والدولة لها رئيس أو ملك واحد. فإذا كانت هذه المؤسسات البسيطة - بالنسبة إلى الكون ككل - أثبتنا نحن البشر استحالة تسييرها بأكثر من قائد واحد في نفس المستوى، فكيف يمكن أن يسيّر هذا الكون ثلاثة أقانيم متساوية قديمة غير مخلوقة هم إلى الآن في نزاع شديد بين طبيعة يسوع، أله طبيعة واحدة أم طبيعتان ومشيئة واحدة أم مشيئتان. وطبيعة الروح القدس، هل انبثق من الأب وحده أم من الإبن والأب معًا. وبهذا فإن عقيدة التثليث تفتقد أي قيمة علمية أو دينية.

ونضيف إلى ما سبق أن يسوع لم يفكر في نفسه كإله، بل كزعيم ديني، وبالمثل اعتقد تلاميذه أنه مجرد إنسان. ذلك أنه لو كان عند أي من بطرس أو يهوذا أية فكرة عن كونه إلهًا لما كان هناك أي تفسير معقول لإنكار بطرس له، وما كان هناك تبرير لخيانة يهوذا الإسخريوطي. ذلك أن الإنسان لا يمكنه أن ينكر أو يخون كائنا إلهيًا له كل القوى<sup>(1)</sup> ويكون موجودًا أمامه يراه رأي العين.

كما أنه لو كان إلهًا لما كان أي قيمة للمثل الذي ضربه لأتباعه بعيشته الفاضلة؛ لأنه يمتلك قوى لا يملكونها، لأن الإنسان لا يستطيع تقليد الإله<sup>(2)</sup>.

ثم ما هي الحكمة من أن يخلق الله مريم ليحل في بطنها ثم يخرج من فرجها؟ وجوده قبلها بلا بها دليل على عدم احتياجه إلهًا، ولو كان محتاجًا إليها لما كان إلهًا، لأنه يحتاج، والمحتاج مفترق إلى من إليه الحاجة. وهذا يتناقض مع طبيعة الإله. ولكن النصارى يقولون أنه هو الذي خلق مريم. فلا يمكن أن يخلقها ثم يحتاج إلى أن يحل فيها ليخرج من فرجها بعد أن يمكث في بطنها ما يمكث عادة الجنين، فهي إذن المحتاجة إليه ليعطيها الوجود ويعطيها استمرار الوجود لا أن تعطيه هي ذلك. ثم من الذي كان يسيّر الكون أثناء وجوده في بطنها؟ لا يمكن القول إن الجانب الناسوتي هو الذي كان في بطنها؛ لأن الناسوت بدون لاهوت لا وزن له. فالمرحلة التي استغرقها في بطنها تفيد أن العالم كان في تلك الفترة كلها بلا مسير، لأنه لا يمكنه أن يسيّر الكون كله من بطن مريم عليها السلام.

بعد كل ما سبق عن العقيدة النصرانية نشير إلى قضية أخرى جوهرية تمثل الأساس الذي أقيم عليه بنسأء النصرانية المتهاقت هو: الموت الصليبي وكفارة الخطيئة الجوهرية.

<sup>(1)</sup> لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 111.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 111.

## الموت الصليبي وكفارة الخطيئة الجوهرية

**الصليب** : يتفق النصارى على أن المسيح عليه السلام قتل وصلب. قتله اليهود. ولكنهم اختلفوا: هل القتل وقع على الجزء اللاهوتي أم الناسوتي أم عليهما معا، ثم قام في زعمهم من الأموات- في اليوم الثالث - وصعد إلى السماء الخ... وقد قتل تكفيرا عن خطيئة آدم باعتباره الإبن الوحيد لله. فبه غفرت زلّة آدم، وهو الذي يحاسب الخلق<sup>(1)</sup>. ذلك أن المراد بالزلة أو الذنب على زعمهم هو الذنب الأصلي الذي ارتكبه آدم عليه السلام لا الذنوب التي يقترفها أبناؤه. وهذا لا يمكن قبوله. لأنه لا يجوز أن يعاقب أولاد آدم على ذنبه الأصلي؛ لأن الأبناء لا يؤخذون بذنوب الآباء ولا بالعكس، وهو مناقض لما ورد في سفر حزقيال<sup>(2)</sup> " النفس التي تخطئ فهي تموت والإبن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الإبن وعدل العادل يكون عليه ونفاق المنافق يكون عليه"<sup>(3)</sup>.

والواقع أن ما يزعمه النصارى من تكفير المسيح عن خطيئة آدم إنما هو تحطيم للمسؤولية الفردية ولكل القوانين والنظم. ذلك أن كل إنسان مسؤول عن عمله. وهو ما تقرره جميع الشرائع الحديثة، ولا يخلص الإنسان الفردي فداء عام أو تضحية كلية. إن الصليب يؤدي إلى انفكاك المسؤولية الفردية<sup>(4)</sup>. كما أن الزعم بأن يسوع مات من أجل خطايانا فوقانا لعنة الله، إنما هو مرفوض قطعاً؛ لأن الله يجب أن لا يعرف عن طريق اللعنة، بل عن طريق اللحم والمحبة. وبذلك فإن الموت الدموي على الصليب من أجل إطفاء لعنة الله أمر مناقض للحلم الإلهي والمحبة التي لا نهاية لها<sup>(5)</sup>. وهو يناقض تماماً زعمهم بأن الله محبة. والغريب أن بورغاد يعيب على الإسلام تقريره تعذيب الكفار في النار، والحدود، لأن هذا في زعمه عين القسوة، ويتناقض مع الأسماء الحسنى في الإسلام التي منها الرحمن الرحيم، ولا يعيب على نفسه الاعتقاد بأن الله ذبح ابنه عقوبة، أي تكفيرا عن خطيئة آدم، أي على جريمة لم يرتكبها هو ولم يأمر بها.

إن قضية الصليب هذه تحطم العقيدة النصرانية من أساسها، لأنه إذا كان المسيح إلها فهل هو خالق السموات والأرض... فإذا كان خالق السموات والأرض هو المقتول على الصليب فمن كان يدبر العالم بعد ما قتل خالقه؟! بل كيف يبقى العالم بعد أن ذهب موجدّه، والعالم إنما يبقى لأنه يستمد وجوده لحظة بعد أخرى من الله عز وجل. وهل يعقل أن البشر نفذوا حكم الإعدام في الله، وكيف يمكن أن يكون إلها هذا الذي قهره البشر وأعدموه؟! . ثم ما قيمة مبرر الإعدام؟ فهل انقطعت الآلام بعد الصليب المزعموم أم ظلت تتجدد على اختلاف الزمان والمكان؟. والواقع أنها بقيت تتجدد. إذن ما مبرر إعدام الله؟. ثم ما هي درجة السلطة التي يمتلكها هذا الإله- المقتول- في العالم، وما ذنبه حتى يتحمل مسؤولية المأسى

(1) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص95.

(2) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص414.

(3) سفر حزقيال، إسحاح 18، فقرة 20.

(4) علي سامي النشار، المرجع السابق، ص91.

(5) لواء أحمد عبد الوهاب، المرجع السابق، ص111.

العالمية؟ ثم إذا كان الصلب لفداء الخطايا فهل يتناول هذا الفداء صانعي الشرور والآثام والمظالم أم يتجاوزهم؟ أم هو لتصبير الضحايا على ما ينزل بها؟ أي لتخديرها<sup>(1)</sup>.

إن فكرة الصلب والفداء هي عقيدة اخترعها الظلمة الأقوياء لتسخير الضعفاء، وهو ما يخدم الاستعمار الروماني الباطش الظالم الذي كان يزهد الأرواح وينتهك الأعراض ويسلب الأموال ويتقل كاهل الضعفاء بالضرائب التي يعجزون عن تسديدها ليستعبدتهم إلى الأبد. فعندما ينشر قبيهم ويقنعهم بعقيدة الخطيئة والفداء يكون قد ضمن استسلامهم إلى الأبد؛ لأنه بذلك يسيطر على عقولهم وأرواحهم بعد أن يسيطر على أرضهم وممتلكاتهم. وإلا فإن العقاب يجب أن يسلط على المجرم الحقيقي لحدده عن الإجرام، ولاتعاط المجرمين. ويكون ذلك أكبر رحمة للعالمين. أما أن الظلمة يظلمون والأبرياء الأخيار الأظهار يعاقبون بدلهم، فهذا عين الظلم. ونتساءل هنا: هل الله ظالم إلى هذا الحد المتمثل في ترك المجرم دون عقاب ومعاقبة البريء بدله؟! بل معاقبة ابنه - على حد زعمهم - البريء الطاهر الطيب؟. وهنا ما جدوى العقاب؟. إن العقاب من أهدافه ردع الجاني وطمأنة البريء وإنصاف المظلوم. فإذا كان العقاب لا ينال الجاني فلا جدوى منه، بل يكون ظلما آخر، أضيف إلى ظلم الجاني. ويمكننا أن نبين تهاقت عقيدة الصلب والفداء بمثل هو: عندما ألبس ثوبا أبيض إذا وقعت عليه نقطة حبر أتزول إذا غسل صديقي ثوبه؟ إذن فلن يزول خطني إذا اعتذر عنه آخر. عندما ألوث نفسي بخطأ أنا المسؤول عنه، أغسل أنا نفسي منه، ألتجئ أنا إلى الله وأستغفره وأطلب منه العفو. فإذا عوقب غيري بدلي ستكون الجريمة مزدوجة، فلا أنا كفرت عن خطئي، والذي عوقب بدلا عني ظلم.

ولذلك فبدل أن تزول الجريمة تكررت. ثم كيف يمكن - عقلا ودينا - قبول ما يزعمه النصارى من أن الله "الإبن" صلب، لكنهم يقولون كذلك أن الأب هو الإبن - هما - والروح القدس - جميعا شيء واحد، وهذا يعني أن القاتل هو القاتل. أي أن "الله قتل الله لإرضاء الله".

ثم كيف يقتل الله ابنه الوحيد البريء من أجل ذنوب الآخرين؟ لو فرضنا أن هذا الإله رب أسرة فهل يعقل أن يقوم بقتل أحد أبنائه أو أبنائه جميعا الأبرياء تكفيرا عن جرائم أناس آخرين؟.

إن عقيدة الصلب والفداء هي تشجيع للجريمة والمجرمين، وإعفانهم من المسؤولية، لأنه ما دام هناك من ضحى عنهم فما الذي يصدهم عن الجريمة؟. إن فكرة التضحية يمكن أن تقبل عندما تكون من أجل أبرياء أبرار أطهار أختيار لجعلهم يحيون لنشر الخير والمحبة والفضيلة والأمن وسط المجتمع. ولكن لا يمكن أبدا قبولها أن تكون من أجل أشرار.

إن المنطق السليم والعدل يقتضي أن يقول هذا الإله للمذنبين تطهروا من أخطائكم، وتوبوا إلي أقبلكم. وهذا ما أتى به الإسلام وبذلك أرسى قواعد العلاقة الصحيحة بين الله وعباده<sup>(2)</sup>. ﴿ومن يعمل سوءا أو

<sup>(1)</sup> محمد الغزالي، فذائف الحق، ص 38-40.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 41، 42. أيضا محمد الغزالي، الملتقى 7 للتحرف على الفكر الإسلامي، تزي وزو، ص 3، ص 1191.

يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا»<sup>(1)</sup>. «ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاناً وإثما مبينا»<sup>(2)</sup>.

وبهذا فإن هذه نقطة فاصلة بين الإسلام والنصرانية، وهو ما جعل بورغاد يصب جام غضبه على خاتم الأنبياء.

ثم نتساءل: إذا كان المسيح إلها لماذا كان يستغيث عندما قال إلهي إلهي لماذا تركتني، كما ذكرنا قبلا؟ وهل المنادي المستغيث في الأرض - المسيح - هو المنادي المستغيث به في السماء لأن الأب والإبن شيء واحد كما يزعمون؟ ثم كيف يمكن هضم أن رب المشارق والمغرب ظهر في إهاب "بشر" لسيراه الناس، ثم من فرط رحمته بهم "ينتحر" من أجلهم، إذن ما قيمة عقولنا؟ لم كرمنا الله بالعقل إذا كان مقروضا علينا أن نطرحه ظهريا عندما نختار أهم شيء في الحياة وهو الإيمان والسلوك؟ كيف نمنع أعظم ما في الإنسان وهو عقله عن البحث في أعظم ما في الوجود وهو العقيدة والدين؟! إن العقل يجزم بأن عيسى بشر وحسب، أوحى إليه كما أوحى إلى غيره من الأنبياء، ويرفض أن يكون إلها "ابنا" مع إله "أب" متساويان - ومثى ساوى الإبن أباه- مع إله آخر هو روح القدس، وثلاثتهم واحد مع تعددهم، وتعددهم حتم لأن أحدهم ترك الآخر يصلب<sup>(3)</sup>. «وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون»<sup>(4)</sup>.

ونختتم حديثنا هذا بالتعرض إلى قضية مرتبطة بقضية الصلب والفداء، هي مسألة قيامة المسيح.

### مسألة قيامة المسيح :

يعتقد النصارى أن المسيح بعد أن صلب ودفن خرج أو قام من قبره بعد ثلاثة أيام من صلبه وصعد إلى السماء. وقد بينا اختلاف روايات الأناجيل في هذه الحادثة وما رافقها أثناء حديثنا عن الأناجيل. وما يهمنا هنا هو التحقق من صحة أو عدم صحة الصلب والدفن من خلال ما ورد في مسألة قيامته. ونبدأ حديثنا عن هذه المسألة من اليهود - الكتبية<sup>(5)</sup> والفريسيين - الذين جاءوا إلى يسوع وسألوه "يا معلم نريد أن نرى منك آية"<sup>(6)</sup>. وذلك ليختبروه ويعرفون هل هو المسيح الذي وعدوا به أم لا<sup>(7)</sup>.

(1) النساء/110.

(2) النساء/112.

(3) عهد التوراة، فنائف الحق، ص 41-46.

(4) العنكبوت/ 12، 13.

(5) الكتبة جمع كاتب، وهو المفسر والمعلم للشريعة الموسوية. (قاموس تشيخرز للقرن العشرين، هامش أحمد دينات، هل المسيح هو الله، ص 36).

(6) إنجيل متى، إصحاح 12، فقرة 38.

(7) أحمد دينات، هل المسيح هو الله، ص 33-37.



فيجيبهم يسوع في غضب المحق: "جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تعطى له آية (أي معجزة)، إلا آية يونان النبي، لأنه كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال"<sup>(1)</sup>.

قال يسوع: لا تعطى له آية، إلا آية واحدة، هي آية يونان، أي سيدنا يونس عليه السلام. ومن هنا فإن إدعاء يسوع بأنه المسيح يكون رهنا بتحقيق الآية الوحيدة التي كان على استعداد لتقديمها. فهل حقق الآية الوحيدة التي قدمها<sup>(2)</sup>؟. يجيب النصارى جميعا: نعم. ولكن ما هي معجزة يونان؟. والجواب من العهد القديم أن الله أرسله إلى نينوى لينذر أهلها فكره ذلك وذهب إلى يافا بدلا منها، وأخذ سفينة ليقر من أمر ربه. وبينما هم في البحر اضطرب وأوشكوا على الغرق فاعتقد الركاب أن اضطرابها ناتج عن شخص معهم هارب من أمر سيده فاقترعوا لمعرفته وقرروا رمي من تقع عليه القرعة في البحر ليسكن اضطرابه. فوقع القرعة على يونان.

ويتفق جميع النصارى بأنه طرح في البحر حيا فسكنت العاصفة، وابتلعه الحوت حيا، وصلى في بطن الحوت حيا. وظل في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال حيا. وألقى به الحوت على الشاطئ في اليوم الثالث حيا.

والآن نتساءل: ما هي نبوءة يسوع التي تنبأ بها عن نفسه؟ قال يسوع: "كما كان يونان ... هكذا يكون ابن الإنسان" أي مثل يونان، ويونان ظل حيا مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. وهذا ما يقرر به جميع النصارى<sup>(3)</sup>. وإذن يجب أن يكون يسوع أيضا حيا في قبره كما سبق وتنبأ بنفسه.

ولكنه لما كان غرض النصارى أن يثبتوا "موت" يسوع من أجل خدمة فكرة الخلاص، قرروا أن يسوع كان ميتا لثلاثة أيام وثلاث ليال. والتناقض واضح بين ما تفوه به يسوع (بخصوص النبوة محل النقاش مع اليهود)، وبين ما تحقق منها في زعم المسيحية. حيث أن يونان ظل حيا مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. وأما يسوع فقد كان ميتا مدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. وهذا ما يعتقده النصارى. ولكن يسوع قال كما كان يونان ولم يقل مخالف ليونان، وبهذا المقياس الذي حدده المسيح بنفسه دلالة على نبوته فليس هو مسيح اليهود الحقيقي، وهذا يعني واحدا من اثنين، إما أن الإنجيل مزور وإما أنه ليس المسيح الحقيقي مما جعل اليهود يرفضونه<sup>(4)</sup>.

ولكن النصارى يتهربون من هذا التناقض زاعمين أن المقصود فقط هو عامل الزمان لا الكيفية. فكما كلن يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا يسوع سيمضي في القبر المدة ذاتها.

(1) إنجيل متى، إصحاح 12، قرة 39، 40.

(2) احمد ديدات، هل المسيح هو الله، ص 38، 39.

(3) المرجع نفسه، ص 38-47.

(4) المرجع نفسه، ص 48، 49.

وهذا يدعونا إلى التساؤل الآتي : هل حقق يسوع أيضا هذا الجانب من وعده الذي أعطاه لليهود وهو : 3 أيام + 3 ليال، أي 72 ساعة ؟. يجيب النصارى : نعم<sup>(1)</sup>. ولكن متى صلب؟. يجيبون يوم الجمعة<sup>(2)</sup>. ويستخلص من سجلات الأناجيل أن اليهود كانوا يستعجلون التخلص منه، ومن ثم تمت محاكمة نصف الليل. ثم إرسالهم يسوع صباحا إلى بيلاطس ومنه إلى هيرودوس ثم العودة به ثانية إلى بيلاطس. ولكن بقدر استعجالهم تعليقه على الصليب كانوا أكثر استعجالا من إنزاله منه قبل غروب شمس يوم الجمعة بسبب يوم السبت المقدس عندهم. ذلك أن السبت يبدأ عندهم حوالي الساعة 6 مساء يوم الجمعة، واليهود أنذروا في " سفر التثنية"<sup>(3)</sup> من بيان جثة المصلوب وبقائها على خشبة الصليب، وبضرورة دفنه في ذلك اليوم حتى لا تتجس أرض الله. ويزداد هذا أهمية إذا صادف يوم السبت المقدس حتى لا ينجسه، وهكذا وضعوا الجسد المكفن في القبر قبل هبوط الليل<sup>(4)</sup>.

ما سبق محل إجماع النصارى، وعليه يفترض أن يسوع كان في القبر مساء الجمعة بعد السادسة مساء ونهار السبت.

ولكن الشيء المهم هنا أن تحديد وقت خروج يسوع من القبر بالضبط لا وجود له في الأناجيل. وهنا نتساءل : هل أمضى يسوع في القبر 3 أيام و 3 ليال، أي 72 ساعة؟. والجواب هو :

في القبر		أسبوع الفصح
أيام	ليال	
صفر	ليلة واحدة	الجمعة: وضع في القبر قبل غروب الشمس مباشرة
صباح يوم واحد	ليلة واحدة	السبت : يفترض أن يكون في القبر
صفر	صفر	الأحد : مفتح قبل شروق الشمس
صباح يوم واحد	ليلتان اثنتان	المجموع

وبهذا فإن المجموع الكلي لبقائه في القبر هو صباح يوم واحد وليلتان اثنتان، وليس ثلاثة أيام وثلاث ليال<sup>(5)</sup>. وهذا يناقض ما ورد في قانون الإيمان النيقاوي.

وبهذا فإن هذه هي المرة الثانية التي يخفق فيها يسوع في إثبات النبوءات. فالمرة الأولى أخفق في مماثلة يونان؛ لأن يونان ظل المدة المقررة حيا بينما المسيح كان ميتا ثم قام من الأموات حسب زعمهم. والمرة الثانية أخفق في تحقيق عامل الزمن، حيث ظل يونان 3 أيام و 3 ليال بينما المسيح لم يظل إلا ليلتان ونهار واحد.

(1) المرجع نفسه، ص 50، 51.

(2) وهذا ما جعل الدول النصرانية تجعل عطلة رسمية يوم الجمعة الذي يسبق عيد الفصح، ويسمونها الجمعة الطيبة. (أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص 52، 53).

(3) سفر التثنية، إصحاح 21، فقرة 23.

(4) (5) أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص 52-59. والجدول نقل حرفيا من ديدات.

والدليل على أن المسيح لم يمض أكثر من ليلتين ونهار واحد هو الأناجيل ذاتها. حيث تبين صراحة أن مريم المجدلية ذهبت قبل شروق شمس صباح الأحد إلى قبر يسوع فوجدته فارغا<sup>(1)</sup>. وهو ما قرره ول ديورانت قائلا: "وبعد يومين من هذا الحادث - حادث الصلب - زارت مريم المجدلية... قدير المسيح مع مريم أم يعقوب وسالومة فوجدته فارغا"<sup>(2)</sup>. ولم يقل بعد ثلاثة أيام .  
وهنا نتساءل : هل المسيح قتل فعلا وقام من الأموات؟.

يزعم النصارى ذلك. وأنه عندما قام من الأموات " وقال لهم - أي لتلاميذه - سلام عليكم"<sup>(3)</sup>، " ففرح تلاميذه عندما شاهدوه لأنهم حسب تفسيرات النصارى اعتقدوا أنه شبح، والسبب في ذلك، يلبور في السؤال الآتي : هل هناك شهود عيان على حادثة الصلب؟.

والجواب يكون بـ"لا". ذلك أن تلاميذ المسيح لم يكونوا شهود عيان أو شهود استماع عن الوقائع خلال الأيام الثلاثة السابقة على الصلب المزعوم. وقد صرح مرقس بذلك، حيث بين أنه عند أخطر المواقف وأكثرها حرجا في حياة يسوع " فتركه الجميع وهربوا"<sup>(4)</sup>. وقال متى : " حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا"<sup>(5)</sup>.

وبهذا فإن معلومات كل تلاميذه فيما يتعلق (بما جرى) لسيدهم من تعليقه على الصلب وموته ودفنه لثلاثة أيام وثلاث ليال إنما كان من الشائعات<sup>(6)</sup>. ولكنهم صدقوها. ولذلك عندما رأوه دُشِّهوا ودُعِرُوا واعتقدوا أنهم ينظرون إلى شبح. فأدرك يسوع ذلك فقال لهم : " انظروا يدي ورجلي إني أنا هو : جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون"<sup>(7)</sup>. ومن هنا فإن هذا الجسد الذي طلب يسوع من تلاميذه أن يجسوه لا يمكن أن يكون جسدا مقاما من الأموات، لأن الجسد المقام من الأموات هو جسد روحاني في تصور النصارى، لأن يسوع صرح " أن الأجساد المقامة من الموت تتحول إلى طبيعة روحية مثل الملائكة : لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة"<sup>(8)</sup>.

(1) المرجع نفسه، ص 59، 60. وذلك لأن المسيح لم يدفن فيه أصلا، وقد بينا أثناء حديثنا عن الأناجيل اضطراب الأناجيل وتناقضها في هذه القضية، ومع ذلك فما ذكرناه هنا أقر به يوحنا، فقد بين أنه وصلت الساعة السادسة وكان لم يصلب بعد، وأنه صلب مع اثنين جعل وسطهما، وأن اليهود طلبوا أن يرفعوا حتى لا تبقى أحسادهم على الصليب في السبت؛ لأن سبت ذلك اليوم كان عظيما. وقد حدثت. والعسكر كسروا ساقبي الأول والآخر، ولم يكسروا ساقبي يسوع، لأنهم رأوه قد مات (تظاهر بالموت). لكن واحدا من العسكر طعن جنبه بخرقة وللوقت خرج دم وماء - وهذا يعني أنه كان حيا، لأن الميت لا يخرج منه دم، لأن دمه ينحدر بعد الموت - وفي أول الأسبوع أي يوم الأحد، جاءت مريم المجدلية إلى القبر باكرا والظلام باق فوجدت القبر فارغا - لأنه لم يمض ولم يدفن - (إنجيل يوحنا، إصحاح 19، فقرات 14-37، وإصحاح 20 فقرات 1-17).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، قيسر والمسيح، م3، ج3، ص239.

(3) إنجيل لوقا، إصحاح 24، فقرة 36.

(4) إنجيل مرقس، إصحاح 14، فقرة 50.

(5) إنجيل متى، إصحاح 26، فقرة 56.

(6) أحمد دهنات، المرجع نفسه، ص82، 83.

(7) إنجيل لوقا، إصحاح 24، فقرة 39.

(8) إنجيل لوقا، إصحاح 20، فقرة 36.

كما أنهم لا يستطيعون أن يموتوا<sup>(1)</sup>، أي لن يكونوا عرضة للموت ثانية ولا للجوع ولا للعطش ولا للنصب. بينما يسوع عندما قام من الموت ظهر لمريم المجدلية فلم تعرفه، لأنه كان متخفياً فحسبته البستاني، وظهر للتلاميذ وغيرهم بهيئة أخرى. فقد كان يتعين أن لا يخاف من الموت لأنه حسب الأناجيل لا يستطيع أن يموت ثانية.

فما هو المبرر الحقيقي للتخفي والحذر إذن؟.

ولا جواب سوى القول بأنه لم يموت أصلاً. وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ﴾<sup>(2)</sup>.

ولذلك فإنه لكي يؤكد يسوع عدم موته أصلاً برهن لتلاميذه على ذلك بإثبات حقيقة المادية الطبيعية فسألهم " أعندكم ها هنا طعام؟" - يعني شيئاً ليأكله- " فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل فأخذ وأكل قدامهم"<sup>(3)</sup>.

وتحن نتساءل هنا : ماذا كان يسوع يحاول إثباته بكل ما أظهره من رغبة في أن تلمس يده وقدماه، وفي أن يمضغ السمك المشوي وشهد العسل أمامهم؟ والجواب: ليثبت لهم أنه ليس روحاً، أي لم يتحول إلى الطبيعة الروحانية، وأنه ليس مقاماً من الموت. ومع هذا فإن النصارى يعتقدون أنه أقيم من الموت، أي تحول إلى طبيعة روحانية. وهكذا : يقول يسوع : لا عن قيامته من الموت، والنصارى يقولون جميعاً : نعم<sup>(4)</sup>.

" وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم سلام لكم، فجزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحاً، فقال لهم : ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم، انظروا يدي ورجلي إني أنا هو. جسوني وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي وحين قال لهم هذا أراهم يديه ورجليه، وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم أعندكم ها هنا طعام، فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل فأخذ وأكل قدامهم"<sup>(5)</sup>.

(1) إنجيل لوقا، إصحاح 20، لقرة 26.

(2) النساء/ 157.

(3) إنجيل لوقا، إصحاح 24، فقرات 41-43.

(4) أحمد هيدات، المرجع نفسه، ص 84-93.

(5) إنجيل لوقا، إصحاح 24، فقرات 36-43.

## الفصل الرابع

### الأنبياء في الكتاب المقدس

أو

### الكتاب المقدس أساس الرذيلة<sup>(1)</sup> في المجتمع

الكتاب المقدس يقوم على الحط بما لا يتصور من الله والإنسان والأنبياء.

#### الحط من الله والإنسان

لقد تبين لنا أثناء حديثنا عن المرأة في الإسلام والنصرانية أن النصرانية تجعل أساس الحياة هو الخطيئة الأصلية<sup>(2)</sup> حسب زعمهم التي ظلت البشرية تكفر عنها، وحدث نزول الإنسان إلى الأرض ليعذب بسببها إلى أن أتى يسوع حسب زعمهم ليكفر عن تلك الخطيئة الأصلية، خطيئة حواء وأدم. وقد نتج عن هذا احتقار الجسد والدعوة إلى الوساخة والقتارة كما ذكرنا قبلا وغير ذلك، وهذا في حين نجد القرآن الكريم لا يعترف بخطيئة أصلية للبشر، ويكرم الإنسان إلى حد أن الله قرر قبل أن يخلقه، بأن يخلقه ليحمله خليفة له في الأرض « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة<sup>(3)</sup>، وأن خطيئة آدم إنما كانت بسبب نسيان لا بسبب عمد « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي<sup>(4)</sup>، ومع هذا فما أن أدرك خطاه حتى تاب فتاب الله عليه، بل لم يتب عليه بعد الأكل من الشجرة فحسب، بل اجتباه « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى<sup>(5)</sup>، « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم<sup>(6)</sup>، وإذن لا خطيئة أصلية للإنسان.

وبعد النزول إلى الأرض ظل هذا التكريم « ولقد كرّمنا بني آدم<sup>(7)</sup>».

أما الكتاب المقدس، فإنه يتكلم عن آدم وحواء ليبين من خلال ذلك أن الله عز وجل جاهل، يقع في كونه مالا علم له به، يندم، يحزن، وهو في منتهى التجسيم والتجسيد كما بينا أثناء حديثنا عن الإله في العهد القديم، وهاهو وصف آدم وزوجته بعد أكلهما من الشجرة.

<sup>(1)</sup> لا يجوز أن يفهم من هذا العنوان أننا نقصد به ما نزل من عند الله، بل نقصد به العهدين القديم والجديد المتداولين اليوم لدى العساري.

<sup>(2)</sup> الخطيئة الأولى عندنا هي خطيئة إبليس لأنها كانت عمدا وإقرار إبليس التحدي وعدم التوبة، ولأنه بظل يفوي الناس إلى قيام الساعة، يعني استمرار عطيته، أما الإنسان فلم يكن كذلك، وهنا يعني رفع مكانة الإنسان في الإسلام عكس النصرانية التي تجعله مجرما بطبعه.

<sup>(3)</sup> البقرة/30.

<sup>(4)</sup> طه/115.

<sup>(5)</sup> طه/122.

<sup>(6)</sup> البقرة/37.

<sup>(7)</sup> الإسراء/70.

" وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة ... فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أي أنت - أي أن الله لم يعرف مكانه - فقال : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت فقال : من أعلمك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟<sup>(1)</sup> وهكذا الإله يتمشى في الجنة، يجهل ما حدث، ثم يعرف تدريجيا أن آدم أكل من الشجرة المحرمة<sup>(2)</sup>. فأين هذا من وصف الله عز وجل لنفسه في القرآن الكريم : ﴿ وتقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾<sup>(3)</sup>، ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾<sup>(4)</sup>. ويضيف العهد القديم بأن الله - الجاهل - قلق كثيرا بعد أكل آدم من الشجرة - شجرة المعرفة - لأنه ارتفع بهذا العصيان إلى مصاف الآلهة. وهكذا فعصيان الله يرفع مستوى الإنسان إلى أعلى لا أن يحط به - عكس ما يقرره الإسلام - وهنا نستطيع القول بأن هذا تشجيع للجريمة والإجرام بل تحطيم للقيم الخلقية من أساسها لأنه يجعل الجريمة أساس الرقي الخلقى والاجتماعي، مما ينتج عنه أن الفضيلة أساس الانحدار. ذلك أن عصيان آدم جعله يرتقي كما قلنا إلى مصاف الآلهة، لأنه أدرك بتلك المعصية الخير والشر. والخير والشر مفهومان قيميان، أي أخلاقيان وميتافيزيقيان أيضا.

ويواصل العهد القديم الرواية بتبيين ازدياد خوف الله من آدم أن يزداد تمردا ويأكل من شجرة الخلد فيظفرو بالخلود وحينئذ ينازع الله حقه<sup>(5)</sup>. " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا، ويأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن... ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة<sup>(6)</sup> ". وكان الله لا يستطيع منع آدم إلا بهذه الوسيلة.

وآدم وأبناؤه بعد نزولهم إلى الأرض كانت سيرتهم سيئة، ولم يعرف الله حين خلقه أنه سيكون شريرا إلى هذا الحد، فحزن وتأسف على خلقه لآدم وأبناؤه.

(1) التكوين، اصحاح 3.

(2) محمد الغزالي، فذائف الحق، ص 20.

(3) قى 16/.

(4) يونس 61/.

(5) المرجع نفسه، ص 20.

(6) التكوين، اصحاح 3.

" فحزن الرب أنه عمل الإنسان، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته ... الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنني حزنت أني عملتهم"(1).

إن الإله في هذه النصوص، إنما هو ضعيف متقلب خانف يمشي إلخ، وإن المرأ ليستغرق في الضحك عندما يسمع مدع يزعم أن هذا الكلام وحي من الله، لأنه أي كائن أبله هذا الذي ينزل وحيًا يصف فيه نفسه بالجهل والضعف والطيش والندم(2). وهذا في حين نجد أن كتبة الأناجيل ومفكري النصارى لا يصفون أنفسهم إلا بكل مظاهر العظمة إلى حد اعتقاد العصمة البابوية. فالبابا في تصورهم لا يخطئ. فهل هو أعظم من الله؟. ولو فرضنا أنه لا يتكلم إلا بما يوحى إليه فإن كلامه أخطاء في أخطاء، لأن مصدر الوحي وهو الله، في نظرهم في الحال الذي ذكرت من الجهل والندم والضعف والقصور. وهو ما جعل من أوصافه عندهم أنه إنسان يأكل ويجلس مع البشر، وهاهو إبراهيم عليه السلام يحرص على أن ينال شرف أن يأكل الله في بيته فيلبي الله الدعوى إلخ ما ذكرناه قبلا في الإله في العهد القديم، بل يتصارع مع البشر ولا ينتصر عليهم ويجبرونه على منحهم النبوة، وذلك مثلما حدث له مع يعقوب كما سنشير أثناء حديثنا عنه.

### الحط من الأنبياء :

بعد أن أشرنا إلى ما يتعلق بالحط من الله عز وجل والإنسان، نبدأ حديثنا مطولا عما يتعلق بالحط من النبوة والأنبياء، ونبدأ بالإشارة إلى أن النصارى يرون أن الأنبياء معصومون فقط في تبليغ الوحي، وأي وحي مثل الذي أشرنا إليه آنفا - وأما في غير التبليغ فليسوا معصومين لا قبل النبوة ولا بعدها - وهذه عقيدة فاصلة بين الإسلام والنصرانية. فيصدر عن الأنبياء في تصور النصارى بعد النبوة جميع المعاصي عمدا وخطأ ونسيانا، فيصدر عنهم الزنا بالمحارم فضلا عن غيرهن، وعبادة الأوثان وبناء المعابد لها. ولا يوجد في الكتاب المقدس نبي من إبراهيم إلى يحيى - وعيسى - لا يكون زانيا أو ابن زنا(3) أو ديوثا. أما الأخطاء الأخرى فحدث عنها ولا حرج ابتداء من آدم الذي أذنب عمدا ولم يعترف بذنبه لما طلبه الله، ولم يتب إلى آخر حياته ولم يستغفر الله ولو مرة واحدة(4). كما أن النبوة تؤخذ بالاحتيال والنصب والسرقه إلخ. وهذا عكس ما ورد في القرآن الكريم كما ذكرنا قبلا. ونبدأ حديثنا عن الأنبياء ابتداء بنوح عليه السلام وانتهاء بعيسى عليه السلام(5)، وذلك تحت عنوان :

### انتشار فاحشة الزنا والديوثه والخمر في الأنبياء وأسره

(1) التكرين، إصحاح 6.

(2) محمد الغزالي، فذائف الحق، ص 21.

(3) رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج 2، ص 257.

(4) المرجع نفسه، ص 258.

(5) لن نعرض لجميع الأنبياء ولا لجميع المساوي، بل نكتفي بنماذج ولكننا نكثر منها لإظهار حقيقة ما يسمى الكتاب المقدس وإظهار عفاة النصارى، وذلك حتى يتمايز مفهوم النبوة في كل من القرآن الكريم والكتاب المقدس.

## نوح ( السكير ) عليه السلام

" كان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله"<sup>(1)</sup>. ولكنه أفرط في شرب الخمر فسكر ثم استلقى على الأرض كاشفا سواته فغطاه أبناءه فلما أفاق من سكره علم بما وقع له، لم يخجل من نفسه وتبذله، بل استنزل لعنة الله على غير الذي سخر منه، ولسنا ندري كيف يكون بارا كاملا في أجياله ويسكر إلى حد التعري أمام أبنائه ثم ينزل لعنة الله على غير الذي سخر منه، وهاهو النص " وشرب نوح- من الخمر فسكر وتعوى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه... وأخبر أخويه خارجا فأخذ سام وياقت الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الورا وسترأ عورة أبيهما... فلما استيقظ نوح من خمرة علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال : ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاختوته، وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم، ليفتح الله لياقت فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبد لهم..."<sup>(2)</sup>.

إننا هنا، لا نتساءل : أكلام الله هذا؟، لأنه ليس كلام الله بداهة، ولكن نتساءل: لم كتب؟. والسبب في نظرنا أن اليهود شعب عنصري يكرهون العرب، ولا بد أن ينظروا لهذه الكراهة لتصبح دينا لتستمر عبر الأجيال، فبنوها على أساس ديني، والواقع أننا إذا حكمنا المنطق في النص السابق الذي نؤمن بزيفه نجد أن نوح كان يجب أن يصب اللعنة على ابنه حام المخطئ، لا على حفيده كنعان البرئ، ولكن ذلك لا يحقق الغرض، لأن الكنعانيين هم المقصودون بأعيانهم، لأنهم أصحاب فلسطين الأولين التي لبث اليهود دهورا يحلمون بها. والغاية عندهم تبرر الوسطة، حتى ولو كان ذلك يتناقض مع النصوص المقدسة. كما هو واضح هنا، حيث أن المذنب بالنظر إلى عورة أبيه هو حام أبو كنعان والذي عوقب باللعنة ابنه كنعان، وأخذ الابن بذنب الأب خلاف العدل عندهم، حيث ورد في سفر حزقيال " النفس التي تخطئ فهي تموت، والابن لا يحمل إثم الأب والأب لا يحمل إثم الابن، وعدل العادل يكون عليه، ونفاق المنافق يكون عليه"<sup>(3)</sup>. ولا أدل على صحة ما ذهبنا إليه من قصد العرب بالخصوص أن حام كان له أربعة أبناء هم كوش ومصرايم وفوط وكنعان<sup>(4)</sup>. فلماذا اختير كنعان غير المذنب من دون اخوته؟. إن مؤلف التوراة يهمة تركية اليهود ورفعهم والخط من خصومهم، ولو كان ذلك على حساب كرامة نبي ومكانته وأخلاقه، وعلى حساب نصوص يسمونها مقدسة. المهم أن الكنعانيين أصبحوا جنسا ملعونا، لأن دعوى السكران مستجابة<sup>(5)</sup>. يقولون كل هذا في هذا النبي الذي لبث في قومه يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأوثان

(1) التكوين، إصحاح 6، فقرات 9، 10.

(2) التكوين، إصحاح 9، فقرات 21-27.

(3) حزقيال، إصحاح 18، فقرة 20.

(4) أسماء أبناء نوح ذكرهم القسيس البروتستانتي في كتابه طريق الأولياء بالأوردو، طبعة مرزابور، الهند، 1848م. الباب 10، ص 74 نقلا عن رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ج2، ص 259.

(5) محمد الغزالي، فذائف الحق، ص 24، 25.



والفسوق والعصيان ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم ليلاً ونهاراً سرا وعلناً، ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴾<sup>(1)</sup>، ﴿ قال رب إنني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ... ثم إنني دعوتهم جهاراً ثم إنني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ... ﴾<sup>(2)</sup>.

### إبراهيم عليه السلام - ديوث ، زان بمحارمه

يذكر العهد القديم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قدم زوجته سارة مرتين لمضاجعتها، الأولى لملك مصر، والثانية إلى أبيمالك ملك جرار، وذلك مقابل منافع مادية من حمير وأذن وغيرها، وهذا بعد أن أغراها إبراهيم بما سيحصل لهما بعد المضاجعة من منافع مادية مقابل عرضها<sup>(3)</sup>.  
فأما تقديمها لفرعون مصر :

"... وحدث لما قرب - أي إبراهيم - إلى مصر أنه قال لساراي امرأته: إنني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: " هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك. قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحبي نفسي من أجلك، فحدث لما دخل إبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ورأها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأذن وجمال... "<sup>(4)</sup>.  
وأما تقديمها إلى أبيمالك ملك جرار :

" وانتقل إبراهيم إلى أرض الجنوب ... وتغرب في جرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة فجاء الله إلى أبيمالك في حلم الليل وقال له هاأنت ميت من أجل المرأة التي أخذتها فإنها متزوجة ببعل... فقال يا سيد ... ألم يقل هو لي إنها أختي وهي أيضا نفسها قالت هو أخي ... فخاف الرجل جدا ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطيئة عظيمة، أصملاً لا تعمل عملت بي ... فقال إبراهيم إنني قلت ليس في هذا الموضع خوف الله البتة فيقتلونني لأجل امرأتي، وبالحقيقة أيضا هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست ابنة أمي فصارت لي زوجة وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أنني قلت لها هذا معروفك الذي تصنعين إلي، في كل مكان نأتني إليه قولي عني هو أخي"<sup>(5)</sup>، يعني كان متزوجاً بأخته، وأنه ديوث بطبعه.

(1) العنكبوت / 14.

(2) توح / 5-9.

(3) المرجع نفسه، ص 26.

(4) التكوين، إصحاح 12، فقرات 11-20.

(5) التكوين، إصحاح 20، فقرات 1-13.

إن المرء يتساءل باندعاش واستغراب: هل يعقل أن يكون أبو الأنبياء ديوثاً يقدم زوجته مرتين كاملتين بكل بساطة، وكان الشرف عنده لا وزن له، بل يطلب من زوجته تكرير الفعلة الشنعاء في كل مرة؟، وهل يعقل زواجه من أخته لأب؟ فهل كان زواج الأخوات لأب جائزاً؟. يجيبنا العهد القديم نفسه من قول موسى في التوراة " أي رجل تزوج أخته ابنة أبيه أو أخته ابنة أمه ورأى عورتها ورأت عورته فهذا عار شديد فيقتلان أمام شعبهما، وذلك أنه كشف عورة أخته فيكون إثمهما في رأسهما" وكذلك قوله: " يكون ملعوناً من يضاجع أخته من أبيه أو أمه".

وعلى هذا فليزِم أن يكون إبراهيم زانياً قبل النبوة وبعدها، وبزنا المحارم، ويكون أولاده من سارة كلهم أولاد زنا، وعلى هذا الأساس يفضل ابن هاجر على أبناء سارة لأنه كان شرعياً وأولاده شرعيون<sup>(1)</sup>. كما يلزم عنه أن أبا الأنبياء كان كذاباً وزانياً من أول عمره إلى آخره كما كان ديوثاً، ومع هذا كان خليل الله، أيكون خليل الله مثله<sup>(2)</sup>؟!

أين هذا من مكانة إبراهيم في القرآن الكريم؟: إن إبراهيم في القرآن الكريم أمة ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾<sup>(3)</sup>، وفي سبيل الله حارب الوثنية وحطم الأصنام وتعرض للنيران وربى جيلاً من الموحدين الحراص على مرضاة الله<sup>(4)</sup>، أطهاراً مطهرين: ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾<sup>(5)</sup>.

### إسحاق عليه السلام - ابن زنا، ديوث، كذاب، مكبر

ونفس العملية السابقة من إبراهيم تتكرر من ابنه إسحاق الذي كانت امرأته جميلة جداً، وسأله عنسها أهل المكان الذي نزل فيه وهو جرار، فقال: هي أختي ولم يقل امرأتي، لأنه لعل أهل المكان يقتلونه من أجلها، وهاهو النص:

" وكان في الأرض جوع ... فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار ... وسأله أهل المكان عن امرأته، فقال: هي أختي، لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلونني من أجل رققة لأنها كانت حسنة المنظر، وحدث إذ طال له الأيام هناك أن أبيمالك ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحاق يلعب رققة امرأته فدعا أبيمالك إسحاق وقال إنما هي امرأتك فكيف قلت هي أختي، فقال له

(1) ولسا ندري كيف لم يتنه أهل الكتاب إلى هذا فبلوثوا سمعة سيدنا إسماعيل بما بلوث سمعة حمام الأنبياء، والواقع أن نقاء وطهارة إسماعيل إنما يرد به على بورغاد في المفاضلة التي أقمها بين أجداد المسيح وأجداد محمد صلى الله عليه وسلم.

(2) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ج2، ص261.

(3) النحل / 120 - 122.

(4) حمد الغزالي، كذائف الحق، ص26.

(5) البقرة / 130.

إسحاق لأني قلت لعلي أموت بسببها فقال أيمالك ما هذا الذي فعلت بنا، لولا قليل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك... (1).

إنه العجب العجائب، وهل يعقل أن يقدم كل من الأب والابن زوجتيهما إلى نفس الملك؟ كيف يقبل أن يكون بيت إبراهيم وبيت ابنه إسحاق بيتي دعارة بزوجتيهما؟ استغفر الله. وهل يعقل أن ملك فلسطين أيمالك لا شغل له سوى النظر من الكوة إلى ما يفعله إسحاق مع زوجته فرأه يلاعبها؟ وهل الأنبياء يلاعبون زوجاتهم دون ستر ودون احتياطات؟ وهل يعقل أن غريبا يجاور القصر الملكي ويكون قريبا منه إلى الحد الذي يجعل الملك يرى من كوة مخدعه ما يدور داخل بيت ذلك الغريب؟!.

ولكنها العقلية اليهودية التي جعلت هذه الأكاذيب على الأنبياء الذين هم أفضل الخلق وسيلة لإثبات الحق التاريخي في فلسطين. ذلك أنه في هذه القصة المفتراة من تقديم إسحاق لزوجته، أن مملكة أيمالك من فلسطين إلى جرار سيعطيها الرب كلها لليهود " وظهر له الرب وقال " لا تنزل إلى مصر، اسكن في الأرض التي أقول لك تغرب (2) في هذه الأرض فأكون معك وأباركك، لأنني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك وأكثر نسلك كنجوم السماء، وأعط نسلك جميع هذه البلاد وتبارك في نسلك جميع أمم الأرض... فأقام إسحاق في جرار" (3).

وهكذا جمع إسحاق بين كونه ابن زنا - من زنا المحارم، وديوثا وكذابا، كما وافق على الاحتيال في تحويل النبوة من عيسو إلى يعقوب، ولم ينس كاتب العهد القديم أن يبين أن إسحاق لم يعط العهد ليعقوب المحتال بدل عيسو المستحق لها إلا بعد أن سكر.

والأغرب من هذا أنه لا أثر في الكتاب المقدس للنبوة والدعوة إلى الله والجانب الروحاني. كل حديثهم عن الماشية والتملك والزواج والإنجاب والسبي والزنا والحروب والصراع والسكر. ولكن لا غرابة فيما يخرج من اليهود.

**يعقوب عليه السلام**

**يعقوب المتصارع مع الله المجبر له على منحه لقب إسرائيل والنبوة**

هذه القضية من أفجر وأغرب ما اختلقه كتاب العهد القديم، ومحتواها مصارعة بين الله عز وجل - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - وبين عبده يعقوب، دامت المصارعة ليلا كاملا، كاد يعقوب أن يتغلب فيها على الله الذي اضطر إلى حيلة يتخلص بها من لكمات يعقوب القوية تتمثل في ضرب جق فخذة ثم يفر هاربا (4) من يعقوب بعد أن أجبره يعقوب على منحه لقب " إسرائيل". ولسنا ندري أي انحطاط فكري وخلقي هذا الذي يصور الله عز وجل بهذا؟. ولكن اليهود يريدون أن يرفعوا مكانة جدهم الأعلى ويثبتوا له من القوة

(1) التكوين، إسحاق 26، فترات 1-10.

(2) مصطلح "تغرب" مهم جدا لأنه يبين أن اليهود ليسوا هم السابقين إلى فلسطين، وهذا نص ديني يحطم مقولة "الحق التاريخي" اليهودية.

(3) التكوين، إسحاق 26، فترات 1-6.

(4) التكوين، إسحاق 18، فترات 1-14.

والبطش ما أعجز الإله وكاد يوقع به الهزيمة<sup>(1)</sup> ويثبتون القوة لأنفسهم حتى في لقبهم. وهما هو النص: " ... فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فأنخلع حق فخذ يعقوب في مصارعه معه وقال أطلقتني لأنه قد طلع الفجر - وكان الله يخاف من الضوء - فقال : لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له ما اسمك ؟ - وكان الله لا يعرف عبده يعقوب - فقال: يعقوب ، فقال : لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت، وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك فقال : لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك، فدعا يعقوب اسم المكان فننيل قائلا: لأنني نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسي، وأشرقت له الشمس إذ عبر فنونيل وهو يجمع على فخذه لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النساء<sup>(2)</sup>. وهنا نتساءل : هل هذا الإله الجاهل العاجز الخائف من الضوء يُخشى بأسه ويُخاف من ناره؟.

### يعقوب يأخذ النبوة ( أو النبوة تؤخذ ) بالاحتتيال والنصب والسرقة والكذب :

وهما يعقوب الذي أجبر الله على منحه لقب إسرائيل ومباركته يظهره العهد القديم شخصا محتالا سرق النبوة من أخيه البكر بطريقة منحطة. وهكذا فإن النبوة في الكتاب المقدس ميراث دنيوي يمكن الاستيلاء عليه بالتآمر والنصب والاحتتيال، وليس هبة عليا يمن بها الله على من يشاء ممن يصطفهم من الأطهار، وحتى الميراث الدنيوي فإن له ضوابطه. وعلى كل فإن اليهود كانوا يخصون الابن الأكبر بالتركة، وكان "عيسو" هو الابن الأكبر لإسحاق مما يؤهله لميراث أبيه، ولكن أم يعقوب تفاهمت مع ولدها على غير هذا وانتهزت أن "عيسو" خرج ليحضر الطعام لأبيه المكفوف ثم نفذت خطتها وذلك بعد أن كانت قد تجسست وعلمت أن عيسو هو الذي خص بالنبوة وهماي تفاصيل سرقة نبوة.

" ... وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد... وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إنني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا : انتني بصيد واصنع لسي أطعمة لأكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي، فالآن يا بني اسمع لقولي فيما أنا أمرك به اذهب إلى الغنم وخذ لسي من هناك جديين جديين من المعزي فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته، فقال يعقوب لرفقة أمه هو ذا عيسو أخي رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة، فقالت له أمه ... اسمع لقولي فقط ... وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الفاخرة التي كانت عندها في البيت، وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه وملاسه عنقه جلود جديي المعزي... فدخل إلى أبيه وقال : يا أبي فقال : ها أنذا. من أنت يا بني؟ - وكان الكفيف لا يميز الأصوات وهذا ما لم ينتبه له كاتب السيناريو - فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو برك - يعني يكذب- قد فعلت كما كلمتني، قم أجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك ... فقال إسحاق

(1) عهد العرالي، تاليف الحق، ص 23، 24.

(2) الكرون، إسحاق 32، طرات 24 - 31.

ليعقوب : تقدم لأجسك يا ابني ... أنت هو ابني عيسو أم لا ... فجسته وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليد يد عيسو ... فباركه فقدم له فأكل وأحضر له خمرا فشرِب... وقال : فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر لتستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل. كن سيدا لأخوتك وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعتوك ملعونين ومباركون مباركين<sup>(1)</sup>. ولما وصل عيسو وجد أن القطار قد اجتازه، فقال له أبوه : " قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك"<sup>(2)</sup>. والغريب أنه قبل سرقة يعقوب هذه النبوة من عيسو، فإن عيسو كان قد باعها له مقابل غذاء من الخبز والعدس " فباع بكوريته ليعقوب، فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى واحترق عيسو البكورية"<sup>(3)</sup>.

وهكذا تمت سرقة رسالة سماوية. إن المرء يفهم اختطاف الطائرات في الجو واغتصاب المناصب في الأرض، أما أن يفرض شخص نفسه على الله ويحول رسالة سماوية إليه بطريق النصب والاحتيال فهذا هو العجب العجيب<sup>(4)</sup>.

وأعجب من هذا من يزعم أن الكتاب المقدس أملاه الله على كتيبه المعصومين. والأغرب من الكل أن المباركة لا تتم إلا في أحضان الخمر والسكر.

والغريب أن النصارى اليوم إذا ثبت لهم أن أحد رؤسائهم زور في الانتخابات عزلوه وعاقبوه. ولا أدل على هذا مما سمي بفضيحة ووترغيت، بينما يقبلون بالأنبياء المحتالين " المزورين" للوصول إلى النبوة، بل نستشف من النص السابق بجلاء ووضوح أن النبوة تسرق وتؤخذ بالاحتيال والتأمّر، والله لا يابه لذلك ويعتبر الأخذ لها بتلك الطريقة نبيا، بينما السرقة مدانة في جميع أنظمة البشر. وهكذا فإذا كان ما يمتلكه الشخص بواسطة السرقة والاحتيال يعتبر ملكا غير شرعي في جميع أنظمة البشر بما فيها الأمم النصرانية، فكيف تتم النبوة بهذه الطريقة؟ وكيف تعتبر شرعية؟ وكيف يقبلها الله ويوحى إلى اللصوص ويؤكلهم بأرواح الناس وأرزاقهم؟ أيعقل أن الدول النصرانية عندما تختار رؤساءها تختار أفضل ما عندها من الكفاءات بينما الله لا يختار من الأنبياء لقيادة البشر سوى اللصوص والزناة واللقطاء وسفاكي الدماء والديوثيين؟ ولكن الذي يزعم أن الله ولدا لا يستغرب منه هذا؟.

### يعقوب أسرته بيت دعارة :

أ- يعقوب يجمع بين الأختين - بين أن يدخل بالكبرى وهو عاقد على الصغرى : سيدنا يعقوب عليه السلام حسب زعمهم فإنه إضافة إلى إجباره الله على منحه لقب إسرائيل والنبوة بالقوة بعد صراع مرير وعراك دام ليلة كاملة، وأخذ النبوة بالاحتيال والنصب وخداع أبيه، فإنه :

(1) التكوين، إصحاح 27، فقرات 1-29.

(2) التكوين، إصحاح 27، فقرة 35.

(3) التكوين، إصحاح 25، أنظر عباس محمود العقاد، الموسوعة الكاملة، الإسلاميات (1)، التفكير فريضة إسلامية، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974، ص 372، 373.

(4) محمد الغزالي، قلانس الحق، ص 27، 28.

جمع بين الأختين في وقت واحد، وهما ابنتا خاله (لابان بن ناحور) كما أن خاله لابان خدعه بأن اتفق معه على تزويجه بابنته الصغرى راحيل التي كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر والتي عشقها يعقوب، مقابل خدمته سبع سنين، ولكنه في مساء الدخول بها أخذ خاله ابنته الصغرى ليئة وأتى بها إليه، فلما دخل بها وجدها ليئة. فاحتج في الصباح على خاله لابان بأنه اتفق معه على راحيل وقدم له مهرها سبع ستين خدمة، فلماذا خدعه؟ فعلل خاله ذلك بأن عاداتهم تقتضي تزويج الكبرى قبل الصغرى - وهذا يعني أن معاشرته لابنة خاله الكبرى ليئة كانت سفاحا، لأن العقد تم على راحيل، والمهر كان بسببها - وطلب منه أن يكمل أسبوعا مع ليئة فيعطيه راحيل أيضا بخدمة سبع سنين أخرى، ولكنها تكون هذه المرة بعد الدخول بالصغرى راحيل بأسبوع، وهكذا " فدخل على راحيل أيضا وأحب أيضا راحيل أكثر من ليئة"<sup>(1)</sup>. وبهذا فإن خال يعقوب يخدع يعقوب فيزوجه بالصغرى ويدخله على الكبرى، ثم يصحح الموقف بأن يجعله يجمع بين الأختين، ويعقوب عندما دخل بليئة عرفها لأنها كان بعينها استرخاء مما يعني أن معرفته الجيدة بها لم تمنعه من معاشرتها جنسيا رغم أنه لم يكن عاقدا عليها، وهذا زنا واضح.

وهكذا يعقوب خدع أباه في قضية النبوة، وخاله خدعه في الزواج<sup>(2)</sup>، وكان حل هذه الجريمة بجريمة أكبر هي الجمع بين الأختين، والجمع بين الأختين حرام قطعا على حد قول موسى، فأحد النكاحين باطل، والمرأة التي كان نكاحها باطلا يلزم أن يكون أولادها وأولاد أولادها أولاد الزنا. فليزوم أن يكون كثير من الأنبياء الإسرائيليين أولاد الزنا<sup>(3)</sup>. وهذا مستحيل. ولما كانت راحيل هي الثانية فإن نكاحها باطل مما ينتج عنه أن ابنها يوسف عليه السلام ابن زنا - ونحن المسلمين ننزله عن هذا - .

ولما كان عقده الأول على راحيل، ولكنه دخل بليئة فهي أجنبية عنه. وبذلك فمعاشرته لها زنا. فيكون أولادها منه أولاد زنا.

ب- ابنة يعقوب " دينة" تزني :

وهي قصة زنا أخرى وقعت لابنة يعقوب " دينة" وما أكثر قصص الزنا التي تقع في بيوت الأنبياء كما يفترى هؤلاء الأفاكون<sup>(4)</sup>. هذه الفتاة هي ابنة يعقوب من زوجته ليئة<sup>(5)</sup>، أعجب بها رئيس المدينة المجاورة واتصل بها جنسيا ثم أراد أن يجعل علاقتهما مشروعة، فلاطف الفتاة وقرر الزواج منها وكلم أبسأه كسي بمضي إجراءات العقد، وذهب رئيس القبيلة يعرض على يعقوب مصاهرته فقبل. ولكن أبناءه اشترطوا بمكر على أصهارهم الجدد الاختتان فوافقوا، وفي اليوم الثالث من إجرائه على ذكور المدينة أغار أولاد يعقوب عليها وهي آمنة، فقتلوا كل ذكورها وسبوا كل أطفالها ونسائها، ونهبوا ما وجدوه من ثروات،

<sup>(1)</sup> التكوين، إصحاح 29، فقرات 11-29، ولم نورد النص طلبا للاختصار.

<sup>(2)</sup> رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج 2، ص 267، 268.

<sup>(4)</sup> محمد الغزالي، فتاوى الحق، ص 28.

<sup>(5)</sup> هذه الحكاية ذات طابع أسطوري، لأنها متسقة مع كراهة يعقوب لزوجته ليئة.

وسباق النص يفهم منه موافقة يعقوب على هذه الجريمة<sup>(1)</sup>. ولم يعترض إلا بالخوف من أن الكنعانيين والفرزيين يبيدونه وأهله بسبب أنهم نفر قليل.

" وخرجت " دينة" ابنة لينة التي ولدتها ليعقوب ... فراها شكيم ابن حمور الحوي رئيس الأرض واضطجع معها وأذلها، وتعلقت نفسه بدينة ابنة يعقوب وأحب الفتاة ولاطف الفتاة، فكلم شكيم حمور أباه قائلاً خذ لي هذه الصبية زوجة، وسمع يعقوب أنه نجس دينة ابنته ... فسكت حتى جاءوا - أي أبناؤه - ثم بعد أن عرض عليهم حمور مصاهرته - ... فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر ...، فقالوا لهما لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر، أن نعطي أختنا لرجل أغلف ... إن صرتم مثلنا بختكم كل ذكر نعطيكم بناتنا وتأخذ لنا بناتكم... واختن كل ذكر... فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين - بسبب الاختتان - أن ابني يعقوب : شمعون ولاوي أخوي دينة أخذوا كل واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم بحد السيف ونهبوا المدينة وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت... «(2).

وهنا نتساءل : أين شرف المعاملة من هذه الروايات المليئة بالفسق وسفك الدم؟ وكيف ضاع عرض ابنة نبي على هذا النحو الغامض؟ وإذا كان غلام أثير اغتصبها كرماً فلم لم يعاقب وحده؟ مع أن النص لا يشير إلى الإكراه. وإذا كان أبناء يعقوب وأبوهم قد قبلوا إصلاح الخطأ بإتمام الزواج فلماذا غادروا وأغاروا على المدينة واستباحوها وأزهقوا أرواح أبنائها واسترقوا أطفالها ونساءها<sup>(3)</sup>؟ ثم كيف نفسر تعليق يعقوب النهائي على الواقعة وهو قوله لابنيه : " كذرتماني بتكريهكما إياي عند سكان الأرض الكنعانيين والفرزيين وأنا نفر قليل فيجتمعون علي ويضربونني فأبيد أنا وبيتي «(4)؟.

إنه لم يعلق بخوف الله مما فعل أبناؤه ومن عقاب الله، ولم يعلق بأنه صاحب رسالة سماوية أرسله الله رحمة للناس لا نقمة عليهم، بل كل ما علق به خوفه من أن يباد وأسرته. وهنا يستحيل على المرء أن يفهم الحكمة من إرسال الله عز وجل لهذا النبي؟! ولكن النتائج متسقة مع مقدماتها. فماذا ينتظر من إنسان خدع أباه وسرق النبوة واستولى عليها بالمكر والاحتيال؟.

جـ - يهوذا الابن الرابع ليعقوب زنا بثامار زوجة ابنه، وأو بين الابن البكر ليعقوب زنا بامرأة أبيه يعقوب<sup>(5)</sup>.

وهاهو النص : " وأخذ يهوذا زوجة ليعير بكره اسمها ثامار، وكان عير بكر يهوذا شريراً في عيني الرب فأماته الرب ... ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جراز غنمه إلى بئنة ... فأخبرت ثامار ... فخلعت عنها ثياب

(1) محمد الغزالي، فتاوى الحق، ص 28، 29.

(2) التكوين، إصحاح 34، فقرات 1-31.

(3) محمد الغزالي، المرجع نفسه، ص 29.

(4) التكوين، إصحاح 34، فقرة 30.

(5) أحمد حمازي السقا، تعليق على المناظرة الحديثة بين دهنات وسواجرات، هامش ص 141.

ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمثة... فنظرها يهوذا وحسبها زانية... فقال إليها على الطريق وقال : هاتي أدخل عليك لأنه لم يعلم أنها كنته<sup>(1)</sup>، وبعد أن أخذت خاتمته وعصابتها وعصاه رهنا حتى يرسل لها جدي معز من الغنم مقابل زناه بها، ضاجعها وحبلت منه : " ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له قد زنت ثامار كنتك وهاهي حبلتي أيضا من الزنا"<sup>(2)</sup>. ولم ينس معلق هذا الكلام الهابط أن يذكر بأنها أنجبت من هذا الزنا توأمان. " وفي وقت ولادتها إذا في بطنها توأمان"<sup>(3)</sup> إلخ.

وأما النص المتعلق بزنا رؤبين بامرأة أبيه يعقوب، فهذا هو : " وحدث إذ كان إسرائيل سساكنا في تلك الأرض أن رؤبين بكر يعقوب ذهب واضطجع مع بلهة سريّة أبيه وسمع إسرائيل"<sup>(4)</sup>.

وهذان الأخيران أي زنا يهوذا ورؤبين من زنا المحارم، والأغرب أن يعقوب بعد علمه بما وقع لم يحرك ساكنا ولم يطبق حد الزنا على هؤلاء الزناة<sup>(5)</sup>، اكتفى بزم رؤبين وشمعون ولاوي على ما صدر منهم، أما يهوذا فلم يذمه على ما صدر منه، بل مدحه مدحا بليغا ودعا له دعاء كاملا ورجحه على اخوته<sup>(6)</sup>. وأكثر غرابة من هذا أن ثامار شهد في حقها حموها هذا الذي زنا بها بشدة البر. وقد علق رحمة الله الهندي على هذا بقوله : " فسبحان الله نعم البار ونعمت البارة الفاتقة في البر من البار المذكور. كيف لا تكون بارة شديدة حيث لم تكشف عورتها إلا لأب زوجها، ومازنت إلا بحميها وحصلت منسه بهذا الزنا الواحد ابنين كاملين"<sup>(7)</sup>. أحدهما فارص<sup>(8)</sup>. وما يجب الإشارة إليه أن داود وسليمان وعيسى عليهم السلام كلهم في أولاد فارص هذا الذي نتج عن زنا المحارم كما هو مصرح به في إنجيل متى<sup>(9)</sup>.

وهنا نلاحظ أن هذا النبي وفقا لتصورات القوم كان جامعا بين الأختين وسرق النبوة من أخيه عيسو واستعمل وسائل النصب والاحتيال وأجبر الله على منحه لقب إسرائيل بعد معركة بينهما حامية الوطيس استمرت ليلة كاملة، وأن ابنته زانية وابتاه ارتكبا فاحشة زنا المحارم. ويلاحظ على هذه القصة المشينة طابع الأسطورة الشعبية أو ما يسمى عندنا في الأدب الشعبي بـ "المحاجيات" ذلك أنه جعل الابنة الزانية هي ابنة ليئة التي لم يكن يحبها يعقوب والتي زوجها بطريق الاحتيال من خاله، وليست ابنة راحيل التي

(1) التكوين، إصحاح 38، فقرات 6-27، ويفهم من هذا النص أن الأعراض كانت كالأباحتها وأن المجتمع كان إباحتها.

(2) التكوين، إصحاح 38، فقرات 21-23.

(3) رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج1، ص 271.

(4) التكوين، إصحاح 35، فقرات 21-23.

(5) رحمة الله الهندي، المرجع نفسه، ص 271.

(6) التكوين، إصحاح 49، فقرات 8-17.

(7) رحمة الله الهندي، المرجع نفسه، ص 273.

(8) التكوين، إصحاح 38، فقرة 29.

(9) إنجيل متى، إصحاح 1.



كان يعشقها قبل الزواج، ويواصل كاتب العهد القديم الرواية في هذا السياق ليبين بعد ذلك أن يوسف وبنيامين كانا ابني يعقوب من راحيل، لذلك كان يفضلهما على أبنائه الآخرين الذين هم من لينة. وهكذا ضاع الدين وتحول إلى أساطير من أجل أهداف خسيمة ( فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون )<sup>(1)</sup>.

### أسرة يعقوب عبدة أصنام في بيته برضاء :

ينص الكتاب المقدس على أن أهل بيت سيدنا يعقوب كانوا عبدة الأصنام، وكانت الأصنام تعبد في بيته. ذلك أن خاله صهره كان وثنيا يعبد الأصنام، ولما قرر يعقوب الهرب سرا مع أسرته، فإن زوجته المحبوبة راحيل سرقت أصنام أبيها - يعني أم سيدنا يوسف كانت وثنية - وقد حاول خاله إرجاع تلك الأصنام لشدة تعلقه بها، ولكن راحيل أخفتها في مكان لا يصل إليه، حيث خبأتها تحت حداجة جمل وجلست عليها وأنكرت سرقتها وتعللت بأنها لا تستطيع النهوض عندما طلب منها ذلك لأنها حائض، فانطلت الحيلة على أبيها<sup>(2)</sup>. وهكذا جمعت راحيل بين السرقة والكذب وعبادة الأصنام، هذه المرأة التي كانت وظلت معشوقة يعقوب، وأم يوسف الصديق عليه السلام كانت وثنية ومن بيت وثني، هو بيت خال يعقوب، هذا الخال المحتال أيضا الوثني، ومع ذلك تزوجها يعقوب بعد أن عشقها، والغريب أن الكتاب المقدس يبين أن يعقوب ظل أهل بيته من زوجته وأطفاله وعبده يعبدون الأصنام إلى حد أن قال لأهله وجميع من معه "اعزلوا الآلهة الغرباء من بيئكم وتطهروا .... فدفعوا إليه جميع الآلهة الغرباء التي كانت في أيديهم..."<sup>(3)</sup>. ومعنى هذا أن الآلهة المحلية ظلت بينهم يعبدونها، هذا هو سيدنا يعقوب، وهؤلاء هم أبناؤه وبناته.<sup>(4)</sup>

والواقع أن المحك في معرفة حقيقة هذا النبي إنما هو القرآن الكريم وحده الذي يبين أنه من المصطفين الأخيار الأتقياء، فهو في الإسلام نبي عظيم بلغ رسالة ربه فما قصر. قال تعالى : " أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا تعبد إلهك وإله أبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون )<sup>(5)</sup>. وقال أيضا : ( وأوصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون )<sup>(6)</sup>. وقال عنه على لسان ابنه يوسف ( واتبعته ملة

<sup>(1)</sup> البقرة / 79.

<sup>(2)</sup> ومن أراد لراءة القصة كاملة فليرجع إلى الكتاب المقدس، سفر التكوين، إصحاح 31، فقرات 19-35.

<sup>(3)</sup> التكوين، إصحاح 35، فقرات 2-4.

<sup>(4)</sup> رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج2، ص269.

<sup>(5)</sup> البقرة / 133.

<sup>(6)</sup> البقرة / 132.

أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء»<sup>(1)</sup>. وأن ابنه يوسف عندما خُير بين فاحشة الزنا أو السجن اختار السجن. ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾<sup>(2)</sup>.

### لوط عليه السلام

يهوي، سكير، زنا بابنتيه :

أما الديوثة فهي أنه قدم ابنتيه البكرتين إلى قومه الذين أحاطوا بداره وقال لهم: " هو ذلي ابنتان لم تعرفا رجلا أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم"<sup>(3)</sup>.

وأما زناه بابنتيه فقد بين العهد القديم أنهما أسكرتا ليزني بهما وحبلتا منه وولدتا ابنتين من ذلك السفاح أحدهما أب الموابيين والآخر أب بني عمون، وها هو النص :

" وصعد لوط من صوغر... فسكن في المغارة هوة وابنتاه وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحي من أبينا نسلا، فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها - أي كان فاقدا وعيه كليا من شدة السكر - وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إنني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمرا الليلة أيضا، فأدخلي اضطجعي معه فنحي من أبينا نسلا، فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مواب، وهو أبو الموابيين إلى اليوم، والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بَنَ عَمِّي، وهو أبو بني عمون إلى اليوم"<sup>(4)</sup>. وهذا يعني ببساطة أن ابنتيه كانتا فاسقتين، كما أنه كان سكيरा مدمنا على الشراب إلى درجة أنه يسكر في كل ليلة حتى يفقد وعيه مما جعلهما تخططان للزنا بأبيهما بتسكيره. وهنا يتساءل المرء: كيف كان يبلغ رسالة ربه وهو لا يصحو من السكر؟ وماذا كان يبلغ لقومه من أخلاق وقيم وعقيدة وشريعة وعبادة وهو ديوث سكير وابنتاه فاسقتان؟! .

والواقع أن اتهام سيدنا لوط عليه السلام بالسكر والزنا بمحارمه أي ابنتيه، واتهام ابنتيه بالفسق يدل على ما بلغه كتاب العهد القديم من الانحطاط الديني والخلقي. ومن أهدافهم اليهودية الإساءة إلى شعبي مواب وبني عمون اللذين عرفا بالشجاعة وقوة الشخصية والمروءة، وما فتئا منذ القدم يحاريبان اليهود ويدحرانهم. فرأى كتاب العهد القديم أن يسلقونهم بالسنة حداد بنهش أعراضهما وجعلهما ناتجين عن سفاح محارم، ولكي يلصقوا هذا بأعدائهم فلا مانع عندهم من أن يكون ضحية أغراضهم الخسيسة نيسي طاهر مطهر له ابنتان طاهرتان مطهرتان إلى حد شهادة الكفار بهذه الطهارة واعتبارها رذيلة

(1) يوسف / 38.

(2) يوسف / 33.

(3) التكوين، إصحاح 19، فقرة 8.

(4) التكوين، إصحاح 19، فقرات 30-38.

أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون»<sup>(1)</sup>. ولما كان غرض اليهود تثبيت هذه الإساءة في المستقبل إلى هذين الشعبين قرروا وضعها في نص ديني يلقنونه لأبنائهم على مر السنين والقرون لتكون أرسخ وأثبت.

ولكنه من ناحية أخرى فإنه نتج عن زنا لوط المزعوم بابنتيه وإنجاب كل منهما نتائج خطيرة جدا تمس اليهود والنصارى على السواء، ذلك أن راعوث أم عبيد حد داود كانت مؤابية<sup>(2)</sup>، ولذلك فهي من جسدات داود وسليمان وعيسى، وداود ابن الله البكر، وسليمان ابن الله أيضا وعيسى ابن الله الوحيد، بل الله في زعم النصارى. ومعنى هذا أن أصل هؤلاء جميعا من الزنا، بل من زنا المحارم؛ لأن جدتهم الأولى هي ابنة سيدنا لوط الكبرى التي أنجبت ابنها مؤاب من زناها بأبيها.

وكذلك رحبعام بن سليمان من أجداد عيسى<sup>(3)</sup>، وأمه كانت عمونية أي من أولاد عمون. وعمون هو ابن بنت سيدنا لوط الصغرى الذي أنجبت من زناها بأبيها. وعلى هذا فإن نسب المسيح يؤول أيضا إلى زنا المحارم؛ لأن جدته أم رحبعام عمونية وهي مشرفة لأنها جدة ابن الله، بل الله!!! .

ولقد زاد المؤابيين والعمونيين - أبناء زنا المحارم - التشريف والتكريم في سفر الاستثناء هكذا: "وتدنسو إلى قرب بني عمان أحذر ثقالتهم ولا تحترك إلى محاربتهم، فإني لا أعطيك شيئا من أرض بني عمان إني أعطيتها بني لوط ميراثا"<sup>(4)</sup>. يعني مكافأة لهم لأنهم أبناء زنا المحارم. فهل هناك تشجيع للرذيلة مثل هذا؟! إن هذا وغيره جعلنا نعتبر الكتاب المقدس أساس الرذيلة في المجمع.

وهكذا فأي شرف لمؤاب وعمان ولدي زنا المحارم أزيد من أن بعض بنات الأول صارت جدة معظمة لأبناء الله بل الله على زعمهم، وبعض بنات الثاني صارت جدة لابن الله الوحيد بل الله على زعمهم، وأن الله منع بني إسرائيل الذين كانوا أبناء الله بنص التوراة عن توريث أرض أولاده<sup>(5)</sup>.

وعلى ذكر المسيح فهناك ملاحظة مهمة جدا هي أنه إذا وصل نسب المسيح باعتبار هاتين الجدتين المعظمتين إلى مؤاب وعمان، صار مؤابيا وعمانيا، والمؤابيون والعمانيون ممنوعون من الدخول إلى جماعة الرب إلى الأبد. لأن سفر الاستثناء يقول: "والعمانيون والمؤابيون بعد عشرة أحقاب أيضا لا يدخلون جماعة الرب إلى الأبد"<sup>(6)</sup>. وهنا كيف دخل عيسى جماعة الرب بل صار رئيسهم، بل ابن الله على زعمهم. ولا يمكن اعتبار النسب بالأباء لا بالأمهاتما يجعل عيسى لا عمانيا ولا مؤابيا لأن هذا يجعله

(1) الأعراف/82.

(2) إنجيل متى، إصحاح 1.

(3) إنجيل متى، إصحاح 1.

(4) الاستثناء، إصحاح 2، فقرة 19.

(5) رحمة الله اللطيف، إظهار الحق، ج 2، ص 262، 263.

(6) الاستثناء، إصحاح 23، فقرة 3.

أيضا لا إسرائيليا يهوديا داووديا سليمانيا؛ لأن حصول هذه الأوصاف له أيضا من جانب الأم لا الأب<sup>(1)</sup>. ثم إن المسيح ليس له أب بيولوجي، مما يجعل - منطقيا - نسب الأم هو الثابت وحده. وأخيرا : كيف يمكن تصديق أن لوط يسكر إلى أن يفقد وعيه ثم يزني بابنتيه ليلتين متتاليتين؟! إن هذه الشناعة لم يسمع مثلها في الأرائل الذين يكونون مخمورين أكثر الأوقات لأنهم يميزون في حالة السكر بناتهم عن الأجنبية، وإذا سقطت القدرة على التمييز بين البنات وغيرها لشدة السكر فإنه لا يبقى للسكران في هذه الحالة قابلية للجماع كما شهد به المولعون بشرب الخمر، ومع هذا إذا كان الخمر موصلا إلى هذه الرتبة يقول رحمة الله الهندي: "قوا أسفي على نصارى أوربا كيف يرجى نجاه أمهاتهم وبناتهم وأخواتهم من أيدي الأبناء والآباء والأخوة، لأنهم في أغلب الأوقات يكونون سكرانيين رجالهم ونساءهم سيما إذا قسنا الحال بالنسبة إلى أرذلهم. إن هذا لو وقع لبعض أحاد الناس تضيق عليه الأرض بما رحبت فكيف بنبي مرسل<sup>(2)</sup>؟! « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »<sup>(3)</sup>. وهنا نتساءل : هل لهذا يدعو بورغاد المسلمين إلى معاقرة الخمر؟! .

### سيدنا هارون عليه السلام

#### يصنع الأصنام ويعبدها

ونكتفي هنا بذكر نص الكتاب المقدس: " ورأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنياتكم وأتوني بها فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال : غدا عيد الرب. فبكرروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة، وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك ... صنعوا له عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر"<sup>(4)</sup>. وهارون نبي من أنبياء بني إسرائيل كما بينت ذلك نصوص

(1) رحمة الله الهندي، المرجع نفسه، ص 263.

(2) المرجع نفسه، ص 264.

(3) الكهف / 5.

(4) الخروج، إصحاح 32، فقرات 1-8.

الكتاب المقدس<sup>(1)</sup>، وبين سفر الخروج أن أكثر المعجزات التي تحدي بها فرعون إنما تمت على يد هارون<sup>(2)</sup>.

وعندما نذهب إلى النص القرآني نجد شيئين جوهريين في هذه القضية:

الأولى أن نزعة عبادة الأصنام لم تمنح من نفوس قوم سيدنا موسى عليه السلام رغم ما رأوا من معجزات، وأنهم بمجرد الخروج من البحر رأوا قوما يعبدون الأصنام فقالوا لموسى ﴿ اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾<sup>(3)</sup>.

الثانية أن الذي صنع العجل هو السامري وليس هارون ﴿ ... فكَذَلِكَ أَتَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَمَسُوا بِهِ ﴾<sup>(4)</sup>. وأن هارون عليه السلام قاوم ذلك الكفر ولكنه لم يفلح وكادوا يقتلونه بسبب تلك المقاومة ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يبسما خلفتموني من بعدي... قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾<sup>(5)</sup>. وقال أيضا ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾<sup>(6)</sup>.  
والنص القرآني بدهاء هو الصواب، وهو المتوافق مع طبيعة النبوة.

### داود عليه السلام

داود نتج من زنا المحارم : ذلك أن جده فارص نتج عن زنا يهوذا - الابن الرابع ليعقوب - بزوجة ابنه ثامار التي ولدت توأمين من هذا الزنا أحدهما فارص، أحد أجداد داود وسليمان وعيسى كما ذكرنا أثناء حديثنا عن سيدنا يعقوب عليه السلام.

كما أن راعوث أم عبيد جد داود كانت مؤابية كما ذكرنا أثناء حديثنا عن سيدنا لوط، والمؤابيون نتجوا عن زنا المحارم، زنا لوط بابنته الكبرى حيث أنجبت مؤاب جد المؤابيين، كما أن رحبعام بن سليمان من أجداد عيسى، أي من أجداد داود وسليمان وكانت أمه عمونية. وبنو عمون نتجوا كذلك من زنا المحارم كما ذكرنا، حيث نتجوا من زنا لوط المزعوم بابنته الصغرى. وهكذا. وكان الله لم يجد من يختاره لهداية

(1) منها: الخروج، أصحاح 4، فقرة 27، والعدد أصحاح 18، فقرات 1-8، وكذا الإصحاحات 2، 4، 14، 16، 19 ... الخ.

(2) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ج 2، ص 274، 275.

(3) الأعراف/138.

(4) طه/ 87-88.

(5) الأعراف/150.

(6) طه/ 90، 91.

عبادة سوى من نتج من زنا المحارم. وعلى هذا فإن داود لا يدخل في جماعة الرب في تصورهم حيث ورد في الإصحاح 23 من سفر تثية.

" لا يدخل ابن زنا في جماعة الرب حتى الجيل العاشر"<sup>(1)</sup>. وهذا يعني أن لا يدخل داود ولا أباه إلى فارص بن يهوذا جماعة الرب، لأن فارص ولد الزنا، بل نتج من زنا المحارم كما هو مبين في الإصحاح 28 من سفر التكوين، لأن يهوذا زنا بكنته ثمار فحبلت منه وأنجبت توأمين أحدهما فارص بن يهوذا<sup>(2)</sup>، كما ذكرنا قبلا. وداود هو البطن التاسع من فارص بن يهوذا حسب إنجيل متى<sup>(3)</sup>، والبطن العاشر من فارص بن يهوذا حسب إنجيل لوقا<sup>(4)</sup>. مع أن داود رئيس الجماعة والولد البكر لله حسب ما ورد في الزبور<sup>(5)</sup>.

داود عليه السلام يجمع بين الزنا بحليلة جاره والتسكير لنسب ولد الزنا لغير أبيه والاعتقال، وأحد أبنائه يزني بأخته وينصر داود الابن الزاني على المدافع عن الشرف، والابن الآخر يزني بجميع سراري أبيه: يذكر العهد القديم أن داود رأى بتشبع بنت أليعام زوجة أوريا الحثي من على سطح بيت الملك وهي تستحم، وكانت جميلة جدا، فطلب إحضارها فأحضرت فزنا بها فحبلت منه<sup>(6)</sup>. ولما أخبرته بذلك أرسل إلى زوجها ليعود من جهة الجهاد، وطلب منه الذهاب إلى زوجته بتشبع ليبيت عندها ويتعم بها، وذلك ليغطي على جريمته فينسب الحمل له. ولكن الرجل لتدينه رفض ذلك بحجة البقاء في الجهاد رغم إصرار داود على الذهاب، ففكر داود في وسيلة أخرى تجعله يذهب إلى زوجته تتمثل في إطعامه وإسكاره، ثم طلب منه أن يذهب إلى زوجته الجميلة ليقم عندها مدة، فرفض أوريا الحثي لأن الجهاد أهم، فهو لتدينه قرر أن يبيت مرابطا في سبيل الله لا في أحضان زوجته. كل هذا ليغطي أوريا على جريمة داود فينسب الولد إلى أوريا. ولما فشلت هذه المحاولات قرر داود اغتياله، وذلك بأن طلب أن يجعل في

(1) تثية، إصحاح 23، فقرة 2.

(2) التكوين، إصحاح 38، فقرات 1-30.

(3) إنجيل متى، إصحاح 1، فقرة 1-7.

(4) إنجيل لوقا، إصحاح 3، فقرات 23-28، وهذا حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد، أما الترجمة العربية للكتاب المقدس السني أترجمها جمعيات الكتاب المقدس المتحدة والتي نعتمد عليها نحن في دراستنا، فإن داود هو البطن التاسع لفارص، والأحداد من داود، إلى فارص هم أنفسهم ويبدأ الاختلاف بين الإنجيليين من الجد الأول من داود، فهو حسب لوقا ناثان بن داود (لوقا، 31/3)، وحسب متى سليمان بن داود (متى 6/1)، وقد رجعتنا إلى الحوي، "شفاء الغليل" الذي أورد نسب المسيح حسب الإنجيليين بغية التحقيق فوجدنا أنه يورد في إنجيل لوقا نفس النسب الذي أوردته الترجمة العربية التي نعتمد عليها نحن. وهذا يكشف لنا عن قضية أخرى خطيرة، تتمثل في اختلاف إنجيل لوقا البروتستانتي (نسخة الملك جيمس التي هي أصل الترجمة العربية التي اعتمدنا عليها) عن إنجيل لوقا في الترجمة المسكونية للعهد الجديد. وصدق الله إذ يقول عن القرآن الكريم: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" (النساء/ 82).

(5) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 67، 68.

(6) أية هفلية منحطة هاته التي تصور نيا هذه البذاءة والفسوق، ينظر من قصره إلى امرأة في بيتها، كانت تستحم -ويبدو أن استحمامها كان في العراء - فيحسب بمعاملا وفي التبر يطلب إحضارها ليزني بها وكل الناس تعرف هذا ولا أحد استكر أو حرك ساكنا.

وجه الحرب الشديدة وينسحب الجيش من ورائه ليقتله الأعداء بسهولة وقد حصل، ثم تزوج داود رسمياً بزوجة أوريا بتشبع، فأنجبت له سليمان الذي أحبه الرب، وهاهو النص :

" وأما داود فأقام في أورشليم وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت جميلة المنظر جدا، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلا وأخذها فنخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إنني حبلت فأرسل داود إلى يوباب يقول أرسل إلي أوريا الحثي فأرسل يوباب أوريا إلى داود... وقال داود لأوريا انزل إلى بيتك واغسل رجلك، فخرج أوريا من بيت الملك - أي البيت الذي زنى فيه بامرأته- ... ونام أوريا على باب بيت الملك ... ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريا إلى بيته، فقال داود لأوريا أما جئت من السفر فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود إن التابوت وإسرائيل ويسهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوباب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء وأنا أتت إلى بيتي لأكل وأشرب واضطجع مع امرأتي، وحياتك وحياتك لا أفعل هذا الأمر. فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وعده ودعا داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوباب وأرسله بيد أوريا في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت، وكان في محاصرة يوباب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوباب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضا ... فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجّلها نديت بعلمها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا<sup>(1)</sup>. " وعزى داود بتشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها فولدت ابنا فدعا اسمه سليمان والرب أحبه<sup>(2)</sup>. وربما لأنه ابن زانية حسب رواية القوم.

هذا ما يقوله النصارى عن هذا النبي العظيم، وعندما نحله نجد سيدنا داود عليه السلام حسب الرواية السابقة ارتكب ثمانية أخطاء كاملة، هي:

- 1 - نظر إلى أجنبية شهوة، وقد قال يسوع : كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنا بها في قلبه<sup>(3)</sup>.
- 2 - لم يكتف بنظر الشهوة، بل أكمل ذلك بالزنا، والزنا محرم قطعا ومن الأحكام العشرة المشهورة. فقد قال الله في التوراة لا تزني، كما أن الأناجيل تحرمه كما ذكرنا قبلا.
- 3 - زنا بحليلة جاره وهو أشد أنواع الزنا كما ورد في الأحكام العشرة المشهورة.
- 4 - لم يوقع حد الزنا لا على نفسه ولا على بتشبع التي لم يرد في النص أنها عارضته، والفقرة 10 من الإصحاح 20 من سفر الأحبار تقول : " ومن زنا بامرأة صاحبه أو زنا بامرأة لها رجل فليقتل الزاني و

(1) صموئيل الثانى، إصحاح 1، فقرات 1-26.

(2) صموئيل الثانى، إصحاح 12، فقرة 24.

(3) إنجيل من، إصحاح 5.

الزانية" ، وكذا الفقرة 22 من الإصحاح 22 من سفر الاستثناء التي تقول: " إن اضطجع رجل مع امرأة غيره فكلاهما يموتان الزاني والزانية وارفع الشر من إسرائيل".

داود طلب أوريا من جبهة القتال بعد علمه بأن يتشبع حامل من سفاحه بها، وهدفه نسب الحمل إلى أوريا. ولما رفض أوريا الذهاب إلى زوجته لقوة دينه وقرر أن يظل مرابطا، قرر داود أن يطعمه ويسكره ثم يطلب منه الذهاب إلى بيته وهو سكران، أي سكره ليحتال عليه في الذهاب إلى بيته حتى يكون الولد منسوباً إليه. لكنه رفض رغم سكره وحالة لا وعيه. وذلك بسبب شدة تدينه رغم جمال زوجته الجائزة له عقلاً وشرعاً والتي تهفو لها النفوس بسبب ذلك الجمال. وقد علق على هذا رحمة الله الهندي قائلاً: " فسيحان الله العزيز حال ديانة العوام عند أهل الكتاب في ترك الأمر الجائز لأجل الديانة هكذا. وحالة ديانة الأنبياء الإسرائيلية في ارتكاب الفواحش هكذا"<sup>(1)</sup>.

لما فشل داود في الاحتيال على أوريا بالملاطفة والتسكير قرر قتله بسيف بني عمون، أي بسيف أعدائه كما هو في النص، وهذا مخالف لأحكام التوراة. فقد ورد في الفقرة 7 إصحاح 23 من سفر الخروج " لا تقتل البار الزكي".

مع كل ما سبق لم ينتبه داود لأخطائه<sup>(2)</sup>، ولم ينتب رغم معاتبة ناثان النبي<sup>(3)</sup> له.

بلغه حكم الله بأن ابن الزنا من يتشبع سيموت عقوبة لداود ومع هذا دعا لأجل عافيته وصام وبات على الأرض<sup>(4)</sup><sup>(5)</sup>.

وهكذا ارتكب داود عليه السلام حسب الكتاب المقدس ثمانية جرائم. فماذا كانت عقوبة الله له عليها؟

يجيب الكتاب المقدس جواباً غريباً لا يقبله عقل: أن الله عاقبه بعقوبتين إحداهما إماتة ابن الزنا ذاك، والثانية تسليط ابن داود ليزني بنساء أبيه أمام الملأ. يعني العقوبة هي زنا المحارم وهاهو النص :

فما يتعلق بولد الزنا " وضرب الرب الولد الذي ولدته امرأة أوريا لداود ... أن الولد مات "<sup>(6)</sup> هذه العقوبة تبين لنا أن البيئة التي كتب فيها النص كانت تسوي بين الابن الشرعي وابن الزنا مما يدل على أن أعراض الناس كانت كلاً مباحاً. وإلا كيف يمكن للعقل أن يقبل بأن قتل ابن الزنا عقوبة للزاني؟.

وأما العقوبة الأخطر والتي لا يستسيغها دين أو عقل، فهي: " ... هكذا قال الرب ها أنا أقبح عليك الشر من بيتك وأخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقربيك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس، لأنك أنت فعلت بالسر، وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس"<sup>(7)</sup>. وقد حصل هذا بالفعل. وهاهي الرواية من بدايتها:

<sup>(1)</sup> رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج 2، ص 280.

<sup>(2)</sup> ويستحيل أن يوجد نبي أو رجل صالح بهذه النفسية.

<sup>(3)</sup> وقد ورد هنا مفصلاً في صموئيل الثاني، إصحاح 12.

<sup>(4)</sup> صموئيل الثاني، إصحاح 12، فقرة 25.

<sup>(5)</sup> رحمة الله الهندي، المرجع نفسه، ص 280.

<sup>(6)</sup> صموئيل الثاني، إصحاح 12، فقرة 16-18.

<sup>(7)</sup> صموئيل الثاني، إصحاح 12، فقرتا 11-12.



### زنا المحارم في أسرة داود ، ومواقف مخزية لداود :

إن زنا المحارم منتشر حسب العهد القديم في أسر الأنبياء بمعدلات وبائية. ولسنا ندري كيف يكون حال الأسر العادية، ومنه:

**أمنون بن داود يزني بأخته ثامار بنت داود :** وتذهب رواية العهد القديم إلى أن ثامار بنت داود أحبها أخوها أمنون بن داود، بل تتيم بها إلى حد السقم، فشكا ذلك إلى صديقه يوناداب بن شمعون أخي داود، فنصحه بأن يضطجع على سريرته ويتمارض ويطلب من أبيه داود أن يرسل إليه أخته ثامار لتعمل أمامه الطعام ويأكل من يدها. ولما أتت إليه استدرجها إلى مخدعه فتمكن منها وقهرها واضطجع معها، أي اغتصب أخته قهراً. ولم ينس كاتب الرواية أن يذكر بأنه بعد أن شبع منها انقلب حبه لها إلى كراهة، ولسنا ندري كيف ؟. ومهما يكن من أمر فإن لهذه الأخت المغتصبة أخ آخر لها لم يعجبه ما صنع بها أخوها أمنون، وهو أبشالوم بن داود، فقرر قتل أمنون بعد تسكيره. وذلك ما حصل بالفعل، ولم ينس كاتب هذه البذاءات التوسع فيها وتصويرها بما يدعو إلى تهيج الغريزة وكثرة التفاصيل المملة<sup>(1)</sup>، كاتقلاب حبه إلى كراهة وما نتج عن الاغتصاب .. الخ. والحادثة كما رويت تبين أن ملفقها لم يدرك شيئين مهمين:

أحدهما أن التتيم الذي يصل بصاحبه إلى حد السقم، يجعله لا يفكر أبداً ولا يرضى بانتهاك عرض محبوبه، بل يفكر في حمايته وصيانتته. ولو جرب الكاتب حبا حقيقياً لأدرك أن حبا كهذا يجعل صاحبه يسمو بحبه ولا يريد أن ينزل به إلى درجة البهيمية الوحشية، ذلك أن انتهاك العرض لا يدل أبداً على الحب، بل على سيطرة الغريزة الشهوية الجنسية. وبعبارة أخرى، فإن انتهاك العرض دليل على تحكم الفرج في صاحبه، بينما الحب الذي يوصل إلى السقم إنما يدل على تحكم القلب والوجدان.

وأما الأمر الثاني، فإن ملفق الرواية لا يدرك أن هناك حاجزاً فطرياً بين الأخ وأخته، مما يجعله لا يفكر في انتهاك عرضها بل في حمايتها. وهو ما نشاهده في الواقع. ومن هنا فحتى لو وقع أخ مع أخته في المحظور، وهذا نادراً ما يقع، فإن ذلك لا يكون ناتجاً عن حب، بل عن انحطاط خلقي وفكري.

### موقف داود المخزي :

تري ماذا كان موقف داود من اغتيال ابنه أمنون الزاني بأخته ؟ والجواب : " وناح داود على ابنه الأيام كلها"<sup>(2)</sup>. وهامى التفاصيل باختصار :

لما زنا أمنون الولد الأكبر لداود بأخته ثامار طردها، فلما أتت أمر خادمه فأخرجها قهراً وأغلق الباب خلفها، فخرجت صارخة. وسمع داود هذه الأمور وشقت عليه، لكنه لم يقل لأمنون شيئاً لمحبتته له ولا لثامار. وكانت ثامار هذه أختاً لأبشالوم بن داود يقينا، ولذلك بغض أبشالوم أمنون وقتله<sup>(3)</sup>. فلما سمع داود

(1) وقد تركنا النص لطلوه، فهو إصحاح كامل في صموئيل الثاني، إصحاح 13.

(2) صموئيل الثاني، إصحاح 13، طرة 38.

(3) صموئيل الثاني، إصحاح 13.

أن ابنه أمنون الزاني بأخته قتل بكى بكاء عظيما جدا... وناح على ابنه الأيام كلها<sup>(1)</sup>، وقرر الانتقام له من ابشالوم.

**ابشالوم يزني بجميع سراري أبيه داود** : وقعت حرب عظيمة بين الأب داود دفاعا عن ابنه الزاني بأخته، وابنه ابشالوم المدافع عن عرض أخته. فانتصر الابن في البداية على أبيه داود، فزنا أبشالوم بجميع سراري أبيه داود أمام الملأ " فنصبوا لأبشالوم خيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سراري أبيه أمام جميع إسرائيل<sup>(2)</sup>، ثم حارب أبشالوم أباه داود حتى قتل في معركة واحدة في تلك المحاربة 20 ألف من بني إسرائيل<sup>(3)</sup>.

وعلى هذا فإن أبشالوم ابن داود فاق روبييل الولد الأكبر ليعقوب بثلاثة مميزات.

1- أنه زنا بجميع سراري أبيه بخلاف روبييل الذي زنا بسرية واحدة.

2- زناه تم أمام جميع إسرائيل جهارا بخلاف زنا روبييل الذي كان خفية، مما يعني أن جميع تلك السراري كن مومسات من الطراز الهابط جدا، ذلك أن أغلب البغايا لا يزنين جهارا، ما عدا اللاتي بلغن الدرجة القصوى من الهبوط أمثال الممثلات الحاليت في أفلام الجنس، وحتى هؤلاء فإن الزنا يتم أمام عدد محدود من الممثلين والمصورين الخ وليس أمام الملأ عكس ما فعله أبشالوم بجميع سراري أبيه أمام جميع بني إسرائيل.

3- أنه حارب أباه حتى قتل 20 ألفا من بني إسرائيل في معركة واحدة.

ورغم صدور كل هذه الأمور من ابنه أبشالوم، فإن داود كان قد وصى قادة الجيش أن لا يقتلوه. لكن يوبأ خالف أمره هذا وقتل أبشالوم، فبكى داود بكاء شديدا بعد سماعه بمقتله وحزن عليه<sup>(4)</sup>، وقال: " ليتني مت عوضا عنك يا أبشالوم ابني يا ابني"<sup>(5)</sup>، " وصارت مناحة في ذلك اليوم عند جميع الشعب"<sup>(6)</sup>.

وقد علق رحمة الله الهندي على هذا بقوله: " وأنا لا أتعجب من هذه الأمور، لأن أمثالها لو صدرت عن أولاد الأنبياء، بل الأنبياء ليست عجيبة على حكم كتبهم المقدسة، بل أتعجب أن زناه بسراري أبيه كان يعدل الرب. وهو كان هيج هذا الزاني لأنه كان وعده على لسان ناتان النبي لما زنا داود بامرأة أوريا في الإصحاح 12 من صموئيل الثاني هكذا: " هكذا قال الرب ها أنذا أقيم عليك الشر من بيتك وأخذ نساءك

(1) صموئيل الثان، إصحاح 13، فقرة 36، 37.

(2) صموئيل الثان، إصحاح 16، فقرة 23، وعدد السراري المزن من 10، تركهن داود لحفظ البيت بعد خروجه فرارا من ابنه بشالوم (صموئيل الثان، إصحاح 15، فقرة 16).

(3) صموئيل الثان، إصحاح 16، فقرة 23، 24.

(4) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى صموئيل الثان ابتداء من الإصحاح 12.

(5) صموئيل الثان، إصحاح 18، فقرة 33.

(6) صموئيل الثان، إصحاح 19، فقرة 1.

أمام عينيك وأعطيهن لتقريبك فيضطجع مع نسانك في عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس" فوفى الله بما وعد<sup>(1)</sup>.

هذا ما يتعلق بانتشار الرذيلة في داود وأسرته، ولم ينس كاتب العهد القديم أن ينسب إلى داود في أخريات أيامه أمرا في منتهى الغرابة نكتفي بإيراد نصه دون التعليق عليه، لأنه لا يحتاج إلى تعليق " وشاخ الملك داود تقدم في الأيام وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنه فیدفأ سيدنا الملك. ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أبيضج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك، وكانت الفتاة جميلة جدا، فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه<sup>(2)</sup>. وبهذه الغذراء الصغيرة الجميلة ختم كاتب العهد القديم مغامرات داود الجنسية.

وخلاصة داود : أنه نتج عن زنا المحارم من فارص وكذا المؤابيين وبني عمون. زنا بحليلة جاره مع الترصد وسبق الإسرار، وقرر نسبة ابنه غير الشرعي منها لزوجها. ولما لم تتحل الحيلة دبر له مكيدة إغتيال، ثم تزوجها وهي أم ابنه سليمان. وأن ابنه أمنون زنا بأخته بنت داود ثامار مع الترصد وسبق الإسرار. وأن ابنه أبشالوم زنا بجميع سراري أبيه داود وعددهن عشرة. وهكذا صح لنا أن نطلق على أسرته وبيته بأنها أسرة وبيت دعارة.

مما سبق نجد أن زنا المحارم انتشر وسط الأنبياء وأبنائهم وبناتهم ونسائهم بمعدلات وبائية، وقد اعترف القسيس جيمي سوغارت أن الإنجيل - وحده - يحتوي على 10 حالات من زنا المحارم<sup>(3)</sup>. ومرض الكتاب من هذا الدس واضح، وهو أنهم يريدون من خلال ما سبق أن يشكلوا نوع العقلية التي سيكون عليها قراء هذه اليزاءات، ولا سيما أنها مطبوعة بطابع القداسة. وبذلك فقد تمكنوا من إنتاج التفكير الإباحي في مجتمعاتهم على مستوى الأفكار وعلى مستوى السلوك، ذلك أن أولى نتائجها إزالة الحياء بين الذكر والأنثى، بين الأخ وأخته، بين الأب وبناته أثناء قراءة هذه النصوص الدينية. وأول ما ينطبع في أذهانهم أن الزنا بأنواعه إنما هو ظاهرة طبيعية، إذ ما دام الأنبياء الذين بعثوا لقيادة الأمم روحيا وزمانيا برفع أخلاقها وتقويم عقائدها وسلوكها انغمسوا فيه، فكيف يكون حال العامة التي لا يليق بها إلا الإقتداء بالقدوة؟.

وبهذا نستطيع القول إن الإباحية المنتشرة في الغرب النصراني ليست ناتجة عن المجتمع الرأسمالي بقدر ما هي ناتجة عن ما يسمونه " الكتاب المقدس". ولسنا ندري - غير هذا - ما غرض الرب العظيم كي ينحرف في كتابه المقدس ليوحى إلى النصاري بعشر حالات من زنا المحارم<sup>(4)</sup>.

(1) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ج 2، ص 281.

(2) الملوك الأول، إصحاح 1، فقرات 1-4.

(3) أحمد ديدات، وجمي سوغارت، المناظرة الحديثة، ص 141.

(4) المرجع نفسه، ص 141، 142.

إن ما سبق يستحيل أن يكون كلام الله، ويستحيل أن يكون الأنبياء السابقون كما هو موجود في الكتاب المقدس.

وبهذا، فإن المصدر الوحيد لمعرفة حياة الأنبياء وسيرهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بهم إنما هو القرآن الكريم، الذي يبين أن سيدنا داود كان من أعظم الأنبياء ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾<sup>(1)</sup>، ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾<sup>(2)</sup>، وأنه كان كثير العبادة والتسبيح، وأن الجبال والطير كانت تسبح معه حين يسبح وتردد تسبيحه ﴿ ولقد آتينا داودنا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ﴾<sup>(3)</sup>. ويقول القرآن عن اختلاف القصص القرآني عن ما سبق من أكاذيب الكتاب المقدس ﴿ إن هذا ليهو القصص الحق وما من اله إلا الله وإن الله ليهو العزيز الحكيم ﴾<sup>(4)</sup>. وهكذا أتى محمد ليصحح أخطاء الكتاب المقدس.

ونتساءل هنا: من هو المعجز؟، الذي يصف الأنبياء خير البشر بكل ما سبق من قذى، أم الذي بيئهم مكانتهم اللانفة بهم من العفة والطهارة والصدق والتقوى والدعوة إلى الله ومكارم الأخلاق...؟!.

### سليمان عليه السلام

ابن زانية، كافر وعابد أصنام وباني لها المعابد إرضاء لنسائه الوثنيات اللاتي نهاده الله عن الزواج بهن وخالف نهيه رغم ظهوره له مرتين. نشيد الإنشاد أو الإباحية في الفن والأدب في الكتاب المقدس سليمان ابن زانية :

ينطلق كتاب العهد القديم من اعتبار سيدنا سليمان ابن الزانية بتسبيح بنت أليعام التي زنا بها أبوه داود وحبلت منه، ولما قتل زوجها أوريا الحثي بأمر داود ضمها داود إلى نسائه فأنجبت له سليمان. وهكذا أضيف كونه ابن زانية إلى نسبه الناتج عن زنا المحارم كما بينا أثناء حديثنا عن أبيه داود. "وعزى داود بتسبيح امرأته ودخل إليها واضطجع معها، فولدت أبنا فدعى اسمه سليمان والرب أحبه"<sup>(5)</sup>. والواقع أن هذا طعن في هذا النبي العظيم الذي قال عنه القرآن الكريم ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾<sup>(6)</sup>. والآية غنية عن التعليق.

ونشير هنا إلى قضية خطيرة جداً، تضاف إلى ما سبق، وهي أن العهد القديم ينسب لسيدنا سليمان "نشيد الإنشاد" وهو من الأدب المبالغ في الإباحية إلى حد التقرز. ونشير إلى فقرات منه على سبيل المثال بعد تبين أثره في الانحراف.

<sup>(1)</sup> ص/25.

<sup>(2)</sup> البقرة/251.

<sup>(3)</sup> سبأ/10.

<sup>(4)</sup> آل عمران/62.

<sup>(5)</sup> صبرائيل الثاني، إصحاح 12، فقرة 24.

<sup>(6)</sup> ص/30.

**نشيد الإنشاد** : يعترف الفسيس سوغارت بأن الإباحية في الفن والأدب تعمل عمل المخدر كالأفيون والهيرويين في قارنها أو مشاهدها، وينشأ في المرء تفاعل كيماوي: ذلك أنك عندما تقرأ عن الإباحية قد يتعود ذهنك على ذلك وتتصاعد الأمور وتتحل القيم وتجد نفسك بعد ذلك مدفوعاً إلى الانغماس فيها والخضوع لها، هذه هي الطريقة التي يسيطر بها هذا المرض وهذا الداء على الإنسان<sup>(1)</sup>. وتظهر هذه الإباحية المفرطة في نشيد الإنشاد، ويتكون من 8 إصحاحات كاملة، كلها إباحية وميوعة وقلّة حياء، وأي دولة تحترم القيم وتدعو إلى الأخلاق ستمنع تداوله.

ومما ورد فيه " بعد قوله : نشيد الإنشاد الذي لسليمان : ليقبلني بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر... اسمك دهن مهراق، لذلك أحببتك العذاري، اجذبني وراءك فنجري...<sup>(2)</sup> لقد شبهتك يا حبيبي بفرس في مركبات فرعون، ما أجمل خديك بسموط وعنقك بقلاند... صرّة المرّ حبيبي لي، بين ثديي بيت... ها أنت جميلة يا حبيبي ها أنت جميلة، عينك حمامتان ها أنت جميل يا حبيبي وحلو، وسريرنا أخضر<sup>(3)</sup>... كالمسوّنة بين الشوك كذلك حبيبي بين البنات .

كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي. أدخلني إلى بيت الخمر، وعلمه فوقي محبة، أسندوني بأقراص الزبيب، أتعشوني بالتفاح فإني مريضة حبا، شماله تحت رأسي، ويمينه تعانقتي أحلفكن يا بنات أورشليم بالطباء وبأياتل الحقل ألا تيقظن ولا تتيهن الحبيب حتى يشاء....

... هو ذا واقف وراء حائطنا يتطلع من الكوى بوصول من الشبايبك، أجاوب حبيبي وقال لي : قومي يا حبيبي ويا جميلتي وتعالى ... يا حمامتي... أريني وجهك اسمعيني صوتك لأن صوتك لطيف ووجهك جميل<sup>(4)</sup>.

... في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته، إني أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي ... حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته ولم أرضه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بي، أحلفكن يا بنات أورشليم بالطباء وبأياتل الحقل ألا تيقظن ولا تتيهن الحبيب حتى يشاء<sup>(5)</sup>. ها أنت جميلة يا حبيبي، ها أنت جميلة، عينك حمامتان من تحت نقابك شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد، أسنانك كقطيع الجزائر الصادرة من الغسل... شفّاتك كسيلكة من القرمز، وفمك حلو، خدك كقلفة رمانة تحت نقابك، عنقك كبرج داود المبني للأسلحة... ثدياك كخشفتي ظبية توأمين برعيان بين السوسن... كلك جميل يا حبيبي...

(1) أحمد ديدات، وحيي سوغارت، المناظرة الكبرى، ص 145، 147.

(2) نشيد الإنشاد، إصحاح 1، فقرات 1-3.

(3) نشيد الإنشاد، إصحاح 1، فقرات 9-16.

(4) نشيد الإنشاد، إصحاح 2، فقرات 2-14.

(5) نشيد الإنشاد، إصحاح 3، فقرات 1-5.

شفتاك يا عروس تقطران شهدا، تحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان ... استيقظي يا ريح الشمال وتعالى يا ريح الجنوب، هبي على جنتي فتقطر أطيابها، ليأت حبيبي إلى جنته ويأكل ثمره النفيس<sup>(1)</sup>.

قد دخلت جنتي يا أختي العروس، قطفت مري مع طيبي أكلت شهدي مع عسلي، شربت خمري مع لبني... أنا نائمة وقلبي مستيقظ، صوت حبيبي قارعا، افتحي لي يا أختي، يا حبيبتي يا حمامتي، يا كاملتي...

قد خلعت ثوبي فكيف أنبسه، قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما، حبيبي مد يده من الكوة فأنت عليه أحشائي، قمت لأفتح لحبيبي ويدي تقطران مرا وأصابعي مر قاطر على مقبض القفل فتحت لحبيبي، لكن حبيبي تحول وعبر. نفسي خرجت عندما أدير، طلبته فما وجدته، دعوته فما أجابني، وجدني الحرس الطائف في المدينة، ضربوني، جرحوني، حفظة الأسوار رفعوا إزارني عني، أحلفكن يا بنات أورشليم، إن وجدتن حبيبي أن تخبرنه بأني مريضة حبا<sup>(2)</sup>.

أين ذهب حبيبي أيتها الجميلة بين النساء، أين توجه حبيبي فنطلبه معك. حبيبي نزل إلى جنته، إلى خمائل الطيب ليرعى في الجنات ويجمع السوسن، أنا لحبيبي وحبيبي لي... أنت جميلة يا حبيبتي كبرصنة حسنة كأورشليم مرهبة كجيش بالوية حوالي عني عينيك فابهما قد غلبتاني، شعرك كقطع المعز الرابض في جمعاد، أسنانك تقطع نعاج... ككفلة رمانة خذك تحت نقابك هن ستون ملكة وثمانون سريرة وعذارى بلا عدد. واحدة هي حمامتي كاملتي، الوحيدة لأمها... رأتها البنات فطوبئنها، الملكات والسواري فمدحنها<sup>(3)</sup>...

ما أجمل رجلك بالنعلين يا بنت الكريم، دوائر فخذيك مثل الحلبي صنعة يدي صناع، سرتك كأس مدورة لا يغوزها شراب ممزوج، بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن، ثدياك كخشفتين توأمي ظيية، عنقك كبرج من عاج، عيناك كالبرك في حشيون عند باب بث ريم أنفك كبرج لبنان الناظر تجاه دمشق، رأسك عليك مثل الكرمل وشعر رأسك كارجوان، ملك قد أسر بالخصل، ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة بلذات، قامتك هذه شبيهة بالنحلة وثدياك بالعناقيد، قلت إنني أصعد إلى النحلة وأمسك بعنوقها، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ورائحة أنفك كالنفايح، وحنكك كأجود الخمر... لحبيبي السائغة المرققة السائحة على شفاه النايمين، أنا لحبيبي وإلى اشتياقه. تعال يا حبيبي لنخرج إلى الحقل ولنبت في القرى لنبكرن إلى الكروم لننظر هل أزه الكرم، هل تفتح القعال هل نور الرمان هنالك أعطيك حبي النفايح يفوح رائحة وعند أبواننا كل النفائس من جديدة وقديمة دخرتها لك يا حبيبي<sup>(4)</sup>.

(1) نشيد الأنشاء، إصحاح 4، فقرات 1-16.

(2) نشيد الأنشاء، إصحاح 5، فقرات 1-8.

(3) نشيد الأنشاء، إصحاح 6، فقرات 1-9.

(4) نشيد الأنشاء، إصحاح 7، فقرات 1-13.

ليتك كآخ لي الراضع ثديي أمي فأجدك في الخارج وأقبلك ولا يخزونني وأقودك وأدخل بك بيت أمي وهي تعلمني فأسقيك من الخمر الممزوجة من سلاف رماني، شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني، أحلفكن يد بنات أورشليم ألا تيقظن ولا تتبهن الحبيب حتى يشاء.

من هذه الطالعة من البرية مستندة على حبيبها، تحت شجرة التفاح شوقتك هناك اجعلني كخاتم على قلبك، كخاتم على ساعدك، لأن المحبة قوية كالموت، الغيرة قاسية كالهوائية، لهيبها لهيب نار لظى الرب، مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفى المحبة والسيول لا تغمرها...<sup>(1)</sup>.  
ولكن الأخطر من هذا .

سليمان يكفر ويعبد الأصنام ويبني لها المعابد إرضاء لنسائه الوثنيات اللاتي نهاه الله عن الزواج بهن فخالفه : أو : سليمان يقع في الغرام إلى حد عبادته الأصنام رغم نهي الله له عن ذلك : وهامو النص : " وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهو لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاثة مائة من الشراري فأمالت نساؤه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نسائه أعلن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشق تورت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين - يعني عبد هذين الصنمين - وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لِكَمْوُش رجس<sup>(2)</sup> الموابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولموآك رجس<sup>(3)</sup> بني عمون. وهكذا فعل لجميع نساؤه الغربيات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين<sup>(4)</sup> وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب"<sup>(5)</sup>.

وهكذا فإنه حسب النص السابق من مخالفة سليمان لأمر الله يكون قد صدر عنه خمس خطيئات، هي :  
1- وهي أعظمها أنه ارتد في آخر عمره الذي كان يجب أن يزداد فيه تقوى، وجزاء المرتد في الشريعة الموسوية الرجم حتى ولو كان نبيا كما ورد في سفر الاستثناء<sup>(6)</sup>. والمرتد في التوراة لا تقبل توبته حتى ولو تاب. وهو ما جعل موسى يقتل عبدة العجل حتى قتل 23 ألفاً<sup>(7)</sup>.

<sup>(1)</sup> نشيد الأنشاده، إصحاح 8، فقرات 1-7.

<sup>(2)</sup> كموش هو صنم الموابيين، واستبدل المترجم إلى العربية كلمة صنم بكلمة رجس ليصبح المعنى غامضاً.

<sup>(3)</sup> مولك هو صنم بني عمون، وقد استبدل المترجم إلى العربية كلمة صنم بكلمة رجس ليصبح المعنى غامضاً، ولكن النص الذي ذيل به هنا واضح حيث بين "وأوصاه- الرد في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى فلم يحفظ ما أوصى به الرب" (الملوك الأول، إصحاح 2، ققرة 10).

<sup>(4)</sup> ولنا ندري أي الربوب ظهر له، أم الإله الأب أم الإله الابن أم الإله الروح القدس، أم ظهر له الثلاثة في واحد أم الواحد في ثلاثة...

<sup>(5)</sup> الملوك الأول، إصحاح 11، فقرات 1-10.

<sup>(6)</sup> سفر الإستثناء، إصحاح 13، 17.

<sup>(7)</sup> رحمة الله المندي، إظهار الحق، ج 2، ص 282.

- 2- بنى المعابد للأصنام في الجبل قدام اورشليم وظلت مئات السنين إلى أن نجسها وكسر أصنامها يوسنا بن أمون ملك يهوذا بعد موت سليمان بأكثر من 330 سنة كما ورد في سفر الملوك<sup>(1)</sup> الثاني .
- 3- تزوج نساء من الشعوب التي كان الله قد منع الزواج منها في سفر الاستثناء هكذا: " ولا تجعل معهم زيجة، فلا تعط ابنتك لابنه ولا تتخذ ابنته لابنك"<sup>(2)</sup>.
- 4- تزوج ألف امرأة. وكانت كثرة الزيجات محرمة على ملوك بني إسرائيل كما ورد في سفر الاستثناء " ولا تكثر نساؤه لئلا يخدعن نفسه"<sup>(3)</sup>.
- 5- نساؤه كن يبخرن ويذبحن للأوثان. وقد ورد في سفر الخروج " من يذبح للأوثان فليقتل"<sup>(4)</sup> فكان قتلهن واجبا، وأيضا أغوين قلبه، فكان رجمهن واجبا، كما ورد في سفر الاستثناء<sup>(5)</sup>، وهو لم يقم عليهن الحدود إلى وفاته<sup>(6)</sup>. وقد علق رحمة الله الهندي على هذا قائلا: " فالعجيب أن داود وسليمان عليهما السلام ما أجريا حدود التوراة على أنفسهما ولا على أهل بيتهما فأية مداينة أزيد من هذا. أهذه الحدود فرضها الله للإجراء على المساكين ... فقط. ولم تثبت توبة سليمان عليه السلام من موضع من مواضع العهد العتيق. بل الظاهر عدم توبته، لأنه لو تاب لهدم المعابد التي بناها وكسر الأصنام التي وضعها في تلك المعابد ورجم تلك النساء المغويات على أن توبته ما كانت نافعة لأن حكم المرتد في التوراة ليس إلا الرجم"<sup>(7)</sup>.
- والغريب أن كل هذا الجرائم حسب ما سبق والتي تصل إلى حد الكفر من أجل الغرام بالنساء أن العقوبة عليها لم تسلط على سليمان بل على ابنه، وحتى مع هذا فإن العقوبة لم تكن قاسية، وهامو النص: " فقال الرب لسليمان من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي وفرائضي التي أوصيتك بها فإني أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيتها لعبدك، إلا أنني لا أفعل ذلك في أيامك من أجل داود أبينا"<sup>(8)</sup> بل من يد ابنك أمزقها. على أنني لا أمزق منك المملكة كلها، بل أعطي سيطا واحدا لابنك لأجل داود عبدي ولأجل اورشليم التي اخترتها"<sup>(9)</sup>. وهنا نلاحظ عدة ملاحظات هي :

(1) سفر الملوك الثاني، إصحاح 23.

(2) سفر الاستثناء، إصحاح 7.

(3) سفر الاستثناء، إصحاح 17، فقرة 17.

(4) سفر الخروج، إصحاح 22.

(5) سفر الاستثناء، إصحاح 13.

(6) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ص 282، 283.

(7) المرجع نفسه، ص 283.

(8) وهذا رغم جرائم داود في تصور الكتاب المقدس، والذي يصوره إضافة لما ذكرناه بأنه كان سفاكا للدماء، ولو قمنا بعملية إحصاء الذين قتلهم له سفرى الملوك الأول والثاني وصموئيل الأول والثاني لوحدنا عددهم لا يحصى ولا يعد، ناهيك عن سبي النساء والأطفال واتسهاك الأعراض والحسب الأموال.

(9) للملوك الأول، إصحاح 11، فقرات 11-13.



- سليمان وقع في عشق كثير من النساء كما مر قبلا إلى حد عبادته الأصنام إرضاء لهن فكفر ومات كافرا رغم نهي الله له عن ذلك. ولكنه أصر على فعله ولم يرتدع، فكانت العقوبة، ولكنها عقوبة مضحكة، فهي لم تسلط على سليمان المخطئ الكافر، بل سلطت على ابنه. وهنا يلاحظ غياب العدل الإلهي وإن كان ذلك لا يستغرب بسبب التصور الخاطئ للإله في العهد القديم كما بينا قبلا لأن العدل يقتضي تسليط العقوبة على المجرم لا على ابنه البرئ، وهو ما وقع أيضا حسب زعم النصاري للمسيح مع آدم، فأدم أخطأ وعيسى دفع الثمن.

- هذه العقوبة كانت خفيفة من أجل شينين، داود وأورشليم. وإن كنا نفهم سبب إقحام أورشليم فهو لغرض جوهري يتمثل في التمسك بأرض الميعاد، وإلا ما علاقة المكان بتخفيف العقوبة؟ المنطق يقتضي أن قد يكون للمكان علاقة بتغليظ العقوبة لا بتخفيفها كما إذا كان المكان مقدسا. وأما إقحام داود فلا معنى له اللهم إلا إذا كانت عند الله مكانة رفيعة للزناة الظلمة السفاكين للدماء.

- بورغاد ورجال الإكليروس لا يتهمون سليمان بالشهوانية رغم كفره حسب زعمهم إرضاء لزوجاته الكافرات اللاتي خالف أمر الله في الزواج بهن ورغم أن عدد نساته بلغ ألفا<sup>(1)</sup> كما ورد في النص، ويتهمون خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بالشهوانية لأن عدد نساته بلغ 11 امرأة أغلبهن عجائز. إن هذا لشيء عجاب. يضاف إليه أن الواقع يبين استحالة زواجه بهن لغرض جنسي لأسباب كثيرة منها :

- أن القوة الجنسية إنما تكون في سن الشباب، بينما محمد ظل مقتصرًا على أمانة خديجة إلى أن توفيت وقضى معها كل سنين شبابه وكهولته ( أكثر من 30 سنة) ولم يتزوج إلا بعد أن تجاوز سنه 55 سنة.

- قوي الرغبة الجنسية إنما هو الأكل للحوم والشحوم وما إليها ليقوي غريزته. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظل الشهر والشهرين لا يوقد في بيته نار.

- الذي يندفع للجنس إنما يختار العذارى صغيرات السن ليتمتع بهن لا اللاتي يثن من المحيض لأن فطرة الإنسان الجنسية تدفعه لذلك، وقد وردت أحاديث تبين فضل البكر على الشيب في الزواج، ولو أراد الرسول صلى الله عليه وسلم العذارى لتزوج بما يشاء منهن في حدود شريعة الإسلام. إذ من تلك التي لا تثبله زوجا؟! ولكنه لم يفعل. ويكفي دليلا على فضل العذراء الصغيرة على العجوز في النكاح ما ورد في الكتاب المقدس عن سيدنا داود عندما شاخ وأصبح يبرد في الليل، كما ذكرنا قبلا، فنصحه حكما بني إسرائيل بأن يختار عذراء صغيرة السن تضطجع في حضنه فيدفئ بها عظامه، وقد حدث حسب روايتهم، وكانت تلك الفتاة العذراء الصغيرة الجميلة جدا أيشج الشونمية. وهكذا فعدم اختيار محمد للعذارى الصغيرات واختياره للاتي يثن من المحيض كان ذلك دليلا على أن الدافع للزواج بهن أمر الله عز وجل لحكم متنوعة، منها من كان زواجه بها سببا لدخول جميع قومها في الإسلام كما هو حال أمانة جورجية بنت الحارث المصطلقية.

(1) ومعنى هذا أن كل زوجة لها الحق في ليلة واحدة كل سنتين و74 يوما، أي حوالي ليلة واحدة كل ثلاث سنوات وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار الحروب والأسفار التي كان يقوم بها سليمان، وكذلك حالة الزوجة من حين ونفس ومرض، مما يعني تمش حياة زوجية 10 أيام خلال 30 سنة.

- وقت محمد ﷺ كان مخصصا كله للدعوة والجهاد، إذ ما كان ينتهي من حرب حتى يأخذ في الإعداد لأخرى، ناهيك عن استقبال الوفود والرسول والحكم بين الناس ونزول الوحي إلى آخره، ومن كان هذا حاله ظل يعيش في رحاب الله الذي لذته تغنيه عن كل لذة.

- بورغاد لا يتهم سيدنا سليمان بما سبق مع أنه يؤمن في قرارة نفسه - أو على الأقل يفترض أن يؤمن - بأن ما سبق عن سليمان أملاه الله، وإذن فهو صحيح. ولكنه يتهم محمدا ﷺ بأنه كان يتبع أهواء نساءه مستنجا ذلك من سورة التحريم ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك... ﴾ (1). والحقيقة أن ما فعله النبي ﷺ إنما هو من باب تكريم محمد للمرأة وعدم إغضابها، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على مكانة المرأة في الإسلام، هذه المكانة التي لم تبلغها لا قبل الإسلام ولا بعده في غيره، لا في دين سماوي ولا في فكر وضعي. فهو الدين الوحيد الذي يجعلها قررة العين، وتتحدى أي رجل دين أو مفكر أن يأتيها بنص من دينه أو فقرة من فكره تجعل المرأة قررة العين. ولكن هاهو نص القرآن الكريم: ﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا ونرياتنا قررة أعين ﴾ (2). فهل يعاب على محمد جعله المرأة قررة العين، وكيف تكون كذلك ولا يجبر بخاطرها ويعمل على إرضائها حتى ولو كان ذلك يمنع شيء عن نفسه محبب إليه ما لم يكن انتهاكا لمحرّم.

ولنفترض أن تهمة بورغاد هذه صحيحة، ترى ما هي القضية التي اتبع فيها محمد صلى الله عليه وسلم هوى نساءه؟ هي أنه صلى الله عليه وسلم قرر أن لا يأكل أكلا معيناً حلالاً إرضاءً لهن وتطيباً لخواطرهن، وهذا لا شيء فيه. فهل أمرنه بعبادة الأصنام ووافق؟ هل أمرنه بترك الصلاة ووافق؟ لا. وتتحدى بورغاد أن يثبت شيئاً من هذا. فلماذا يعيب بورغاد على خاتم الأنبياء ترك أكل معين إرضاءً لأزواجه ولو لم يتركه لانتقده بورغاد أيضاً بحجة أنه لا يراعي نفسيات زوجاته.

كيف لا يعيب على سليمان لهته وراء نساءه إلى حد أن الله نهاه عن الزواج بهن وخالفه وإلى حد انحرافه عن النبوة والدين إلى عبادة الأصنام إرضاءً لهن، بل إلى بناء المعابد للأصنام إرضاءً لهن؟ ويعيب على خاتم الأنبياء ترك أكل العسل (3)، لأن بعض زوجاته لا تعجبهن رائحته؟! فأبي منطق هذا الذي يعيب على رجل يحب زوجاته فيترك أكل معيناً إرضاءً لخواطرهن، ولا يعيب على رجل يكفر بالله ويشرك معه لهة أخرى إرضاءً لزوجاته الكافرات عشقا وهياما؟!، ومن الأغرب أن الوقاحة بلغت بهم الزعم بأن لعقوبة التي قررها الرب جزاء لسليمان على ذلك لم تسلط عليه رغم إجرامه، بل سلطت على ابنه

(1) التحريم / 1.

(2) الفرقان / 74.

(3) وقد نزلت سورة التحريم لما حرم الرسول صلى الله عليه وسلم على نفسه العسل كما قال البخاري عن سب نزول سورة التحريم "عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أن يدخل عليها فلتقل له: أكلت مغالير، إن أحد منك ربح مغالير، قال: "لا ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا" (بتنفي مرضاة أزواجك)، رواه البخاري بروايتين إحداهما أوردها مسلم كذلك بنصها في كتاب الطلاق والبخاري في كتاب الإيمان والنور، والمغالير إحدى مطفوف شبيه بالصمغ يكون في الرلت فيه حلاوة، والرقت مرعى من مراعي الإبل وهو من الحمض (ابن كثير أبي الغداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دة، دار الفكر، د.م.د، دة، ج 4، ص 387).

البريء، وكانت عقوبة خفيفة أيضا بسبب مكانة الجد الزاني السفاك للدماء - حسب كتابهم المقدس - عند الله، (كبرت كلمة تخرج من افواههم إن يقولون إلا كذبا) (1).

خطيئة بورغاد في هذا المجال أنه ينظر إلى دينه الذي يمنع التعدد ثم يحاكم به محمدا صلى الله عليه وسلم، مما جعلنا نتساءل: لماذا لم يحاكم دينه في منع التعدد بما ورد في العهد القديم من إباحته؟ إما أن يخضع لمنهج محاكمة دين بناء على ما ورد في الدين السابق، فيحكم العهد القديم في العهد الجديد، فيجد ما في العهد الجديد لا أساس له من الصحة. وإما أن يحكم الدين الجديد في القديم فيجد أن ما ورد في العهد الجديد الأنجيل لا أساس له من الصحة أيضا أو على الأقل نسخ. والمنطق يقتضي تحكيم اللاحق في السابق لا العكس، مما يعنى تحكيم القرآن في العهد الجديد.

وإما أن يتبع منهجا آخر للدراسة، وهو أن يدرس الدين من خلال نصوصه هو، ويقرر بناء على ذلك ما هو إثم وما هو ليس كذلك، ما هو صواب وما هو باطل. وهذا ما فعلناه نحن مثلا في دراستنا لشريعة العهد الجديد، أثناء ردنا على بورغاد في تهجمه على شريعة القرآن ودعوته إلى الزنا، وكذلك في دراستنا للعقيدة النصرانية.

ومن هذه الحيثية، فعندما ننظر إلى أزواج خاتم الأنبياء أو زواجه بأمانا زينب بنت جحش فإننا نقيم ذلك من خلال القرآن الكريم ذاته، فهو وحده الذي يبين لنا ما هو الإثم وما هو ليس بإثم. وعندما نقيم نلسك من خلال القرآن الكريم نجد أن ذلك ليس إثما ولا جريمة. ذلك أننا نجد الله عز وجل أقر رسوله صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب على زواجه من كل من تزوج بهن، وبين أنه عز وجل اختص رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بحكم في الزواج لم يجه لعامة الناس من دونه، وقال له يصدد كل ذلك بصريح القول: (يا أيها النبي انا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ... وكان الله على كل شيء رقيبا) (2). إن الله عز وجل اختص محمدا صلى الله عليه وسلم بمجموعة من الأحكام دون غيره، فقد فرض عليه مثلا التهج في الليل دون غيره، وحرّم عليه أخذ الزكاة والصدقات دون غيره، ومنع ورثته من ميراثه بعد وفاته دون غيره، وأباح زواج من تزوجهن ولم يجز لغيره أكثر من أربعة، وحرّم على الناس نكاح أزواجه من بعده دون غيره. فأي إشكال في أن يختص الله بشيء من أحكامه أحدا من عباده (3)؟!

والغريب أن بورغاد نفسه يؤمن بأن الله خص يسوع بأن جعله ابنه دون بقية الخلق. وهنا نتساءل: لماذا لم ينظر بورغاد إلى الواجبات السابقة وغيرها التي فرضت على النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره كوجوب قيام الليل مثلا، وهو ما يصعب على النفس عمله، وينظر إلى تعدد زوجاته وزواجه بزینب بنت جحش؟! ومع هذا فلا إشكال. لا في التعدد ولا في الزواج بزینب، ذلك أن الإشكال يكون

(1) الكهف/5.

(2) الأحزاب/50-52.

(3) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى الميقاتيات الكونية، وجمود الخلق ووظيفة المعلق، ط5، دار الفكر، 1397هـ، ص220 - 222.

قائما لو وجد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على أنه كان شهوانيا ضحى بشيء من القيم والواجبات في سبيل ذلك كما فعل أنبياء الكتاب المقدس حسب زعمهم والذين مع ذلك لم ينتقدهم بورغاد.

إن كل يوم في حياة محمد وكل لحظة من ميلاده إلى وفاته ينطق بتزوه النبي صلى الله عليه وسلم أتم التنزيه عن كل ما يتهمه به بورغاد.

إن الرجل الشهواني لا يظل إلى سن 25 سنة من عمره عفيفا في مجتمع تموج فيه الرذيلة وتستجيب لمن شاء بئس زهيد من الرغبة فقط، وإذا تزوج بعد ذلك فلا يتزوج من امرأة تقارب ضعف عمره وقد تزوجت من قبله مرتين، ولو شاء لوجد كما ذكرنا قبلا ما شاء من الأبيكار والعداري. والرجل الشهواني لا يظل حبيسا على عجوز حتى يتجاوز الخمسين وحتى تفارق الحياة. والرجل الشهواني لا يجرد زوجاته عن أبسط الزينة ولا يحرمهن من أقل ما تتمتع به أترابهن من منع الحياة.

هل نظر محمد إلى امرأة فأعجبه جمالها، فطلب من أتباعه إحضارها ليفترق الفاحشة وتحمل منه فيأمر زوجها بالذهاب إليها لينسب له الحمل ويحتال عليه في ذلك فلما رفض أمر بقتله فقتل ثم تزوجها؟! وهل تزوج محمد صلى الله عليه وسلم نساء وثنيات كن يعبدن الأصنام في بيته رغم نهى الرب له عن ذلك ولم ينته، بل انزلق هو ذاته إلى عبادة الأصنام؟! هذا وغيره كثير كما بيننا قبلا، وما لم نبينه هو ما يقوله النصارى في أنبيائهم، وهو مبثوث في كتابهم المقدس الذي أكثرنا نصوصا منه، ومع كل هذا فإنهم لا ينتقدون أنبياءهم رغم كل هذه الموبقات ويأتون إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذي لم يخالف أوامر الرب أبدا، ويقولون عليه الإقرب والبهتان.

ورغم كل هذا فإنهم لم يقولوا عليه ما يقولونه على أنبيائهم، وبذلك فإنهم يقررون - لا شعوريا - بعظمته وأفضليته على أنبيائهم؛ لأن الذي لم يزن أفضل من الزاني، والذي تزوج بـ 11 امرأة أفضل من الذي تزوج بألف، والذي تزوج بالمعائن أفضل من الذي تزوج في شيخوخته بعذراء صغيرة جميلة جدا تنام في أحضانه ليدفن بها عظامه في الليل البارد.

والنتيجة التي نتوصل إليها: أن ما يقوله بورغاد وأبناء ملته إنما هو ناتج عن أناس "امتلاّت نفوسهم حقدا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى نبوته، وعلى ما أثمرته دعوته من ثمار السعادة للإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، فهو يبحث في مطعمه هذا عن متنفس لحقده السابق الذي لا علاقة له في الحقيقة بشيء من الزواج وأمره"<sup>(1)</sup>. وهنا نشير إلى :

قضية زينب بنت جحش رضي الله عنها :

لو فرضنا أن تهمة بورغاد صحيحة وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم أحب أمنا زينب بنت جحش فطلب من مولاة أن يطلقها ليتزوجها. فطلقها زيد وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم فماذا فهي هذا؟.

إنه قضية عادية، ذلك أن محمد صلى الله عليه وسلم لم يفعل ما فعله داود حسب كتاب بورغاد المقدس، وهو أنه أعجب بزوجة أوريا الحثي فزنا بها وأحبها ثم قتل زوجها ليخلو له الجو بها، أليس هذا ما فعله داود حسب الكتاب المقدس، فماذا كان موقف الرب منه؟! نجد صموئيل 1، 2 مملوعين ثناء عليه، وعد من الأبرار الأطهار إلى حد أن سليمان رغم فعله ما ذكرنا قبلاً إلا أنه إكراماً لداود فإن العقوبة سلطت على ابنه بدله، وكانت مع ذلك خفيفة ولم يحكم عليه بالحرمان من الجنان. فالمنطق السليم والفكر التزيه يقارن هذا بذلك ليقرر الحكم في النهاية، وعندما نقارن لا نجد أي مجال للمقارنة، إذ كيف نقارن من أعجب بجمال امرأة فطلب من زوجها أن يطلقها وبعد الطلاق وانتهاه العدة تزوجها مع من نظر من شرفة قصره فرأى جارتها المتزوجة فطلب من أتباعه إحضارها فأحضروها دون أن يستكروا وزنى بها ثم استقدم زوجها لينسب إليه ولد السفاح، ولما رفض بعد احتيال قتل ثم تزوجها! . ومع كل هذا يقول كتاب بورغاد المقدس الذي أورد هذا الكلام، أن قلب داود كان كاملاً مع الرب<sup>(1)</sup>.

والواقع أن القضية ليست كما ذكر بورغاد ومن تأثر بهم، والنص القرآني واضح وقد بين القضية كاملة، وهي أن العشرة بين أمانا زينب وزوجها سيدنا زيد أصبحت مستحيلة، وذلك بسبب انعدام الكفاءة، حيث أنها تزوجته على أنه ابن محمد - بالتبني - فلما بطل التبني أصبح ابن حارثة فأخذت تشعر بأنه لم يعد كفواً لها، وكان زيد يشكوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان النبي صلى الله عليه وسلم العالم بخفايا النفوس يعلم باستحالة العشرة بينهما ولكنه - لأنه نبي - لا يريد أن يباعد بفصم علاقة زوجية؛ لأن الزواج - كما بينا أثناء حديثنا عن الطلاق - عبادة، والطلاق قطع لها. ولكن الله عز وجل أراد أن يبطل بفعل قوي عادة التبني القوية، فأمر الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقبل طلاق زيد لزينب، وأن يتزوجها. والنص القرآني واضح " فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له " (2). وهكذا فإن النص القرآني يبين بجلاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بشيئين، أولهما قبول تطليق زيد لزينب، وثانيهما زواجه بها بعد ذلك التطليق، ليس لأن محمداً أحبها فأراد أن يضمها إلى نسائه، بل " لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً " (3).

ولا يمكن فهم " وتخفي في نفسك ما الله مبديه " أنه حبه لها؛ لأن هذا الفهم سفيه وسقيم. ذلك أنه لو كان يحبها فعلاً لتزوجها بكراً، ولا سيما أنه يعرفها جيداً، فهي بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمه

(1) الملوك الأول، إصحاح 11، لفرة 5.

(2) الأحزاب / 37، 38.

(3) الأحزاب/37.

النبي صلى الله عليه وسلم، وأن النبي هو الذي زوجها من عتيقه " زيد" ليرفع عنه ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين أكرم أهله<sup>(1)</sup>.

أما الزعم بأن حبها وقع في قلبه بعد زواجها من زيد، فهذا أسقم من الأول لمخالفته طبائع النفوس، ذلك أن المرأة تحب للزواج بكراً، فإن تزوجت شخصاً آخر زهدت فيها النفوس.

وهنا نشير إلى أن هذه القضية كان أول من ابتدعها ولقها رجال الإكليروس، ذلك أنها من ابتكار يوحنا الدمشقي<sup>(2)</sup>، وسبب إثارتها الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم والعمل على إرجاع هذه العادة الجاهلية؛ لأنها كانت من ضمن النظام الاجتماعي الروماني، بمعنى أنها تنتمي إلى حضارة، فأنت حضارة أخرى فأبطلتها. ومن الطبيعي أن يدافع الجامدون المستزمتون الحاقدون، عن حضارتهم المنهارة. وسبب إبطال الإسلام لها في نظرها : هو تناقضها مع النظام الاجتماعي الإسلامي عامة، ونظام الأسرة خاصة. ذلك أن الأسرة في الإسلام ونظامه الاجتماعي، مبني على الفضيلة والعفة إلى حد أن مات دون عرضه فهو شهيد، واعتبر حفظ العرض من مقاصد الشريعة الإسلامية الكلية، والأخ البيولوجي يجد في نفسه حاجزاً فطرياً تجاه أخته فلا ينتهك عرضها، بل يجد في نفسه غريزة الدفاع عنه، بينما الأخ بالتبني لا يوجد في نفسه هذا الحاجز الفطري البيولوجي، بل يوجد في نفسه ما يناقضه، وهو الميل إليها. والأخوة والأخوات يجمعهم سقف بيت واحد فيختلي كل منهما بالآخر، فيكون ذلك فرصة لانتهاك الأعراض بسبب ذلك الميل، وهو ما جعل الإسلام يغلق هذا المنفذ تجاه هذه الفاحشة.

بينما نجد المجتمع النصراني الروماني هو مجتمع الرذيلة، وقد ذكرنا قبلاً أنه حتى الإمبراطور قسطنطين كان ابناً غير شرعي. ومن هنا فلا حرج عندهم من انتهاك الأعراض، إن كانت عندهم أعراض. يضاف إلى هذا أن الإسلام يعطي أهمية خاصة للرابط البيولوجي بين الأفراد، لأن ذلك يؤدي إلى ترابط الأسرة وتماسكها، ولذلك قرر الميراث كرابط قوي لأفراد الأسرة لا يخرج إلى غيرهم، كما قرر الاشتراك في تحمل التبعات التي يحدثها أحد أفراد الأسرة بسبب جرم، كالقتل الخطأ مثلاً، وهو ما يسمى بـ "العائلة" التي تتحمل الدية مجتمعة، وذلك لأن أسرة قوية متماسكة تساوي مجتمعاً قوياً متماسكاً. كما أن الانتماء البيولوجي دافع فطري في الإنسان، والإسلام لا يحارب الفطرية، بل هو دينها.

وهكذا فلما "كان التبني عادة شائعة في المجتمع الجاهلي، وكان له عندهم من النتائج والثمرات نفس ما للبنوة الحقيقية، وكان مشيناً جداً أن يتزوج الرجل مطلقة متبناه. كانوا ينظرون إلى ذلك نفس النظرة التي ينظرونها إلى من يتزوج من بنته"<sup>(3)</sup>. فبين الله عز وجل أولاً أن الابن بالتبني ليس ابناً حقيقياً "

(1) عباس عمود المقاد، المجموعة الكاملة، الإسلاميات (2) الإسلام دهرى عالمية، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974، م6، ص195.

(2) هو الذي أثار قضية الطلاق وتمدد الزوجات، وهو الذي اخترع أكثوبة عشق النبي صلى الله عليه وسلم لزيب بنت جحش (محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص19).

(3) محمد سعد رمضان البرطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص224.

« ادعواهم لأبائهم هو أقسط عند الله... رحيماً<sup>(1)</sup>، وأن اعتباره ابناً إنما هو خطأ لا يجوز العودة إليه، وذلك لأن الإسلام إضافة لما ذكرناه قبلاً يحافظ على عدم اختلاط الأنساب. وما يترتب عن هذا أن مطلقة الابن بالتبني ليست بنتاً. ومن هنا فلا مناص من إلغاء هذا العرف الجاهلي القديم بكل تبعاته، والسبيل الذي شاء الله أن يتم به ذلك، هو أن يتعكر صفو الحياة بين زيد وزوجته فيطلقها، وأن يقذف في قلب محمد استعداداً للزواج منها، ثم يوحى إليه الأمر بتزوجها في آية واضحة صريحة من القرآن الكريم فيتزوجها، فتشيع القصة في العرب، وتشيع معها الآية التي تبلغ حكم الله بإبطال هذا العرف الجاهلي نهائياً<sup>(2)</sup>. وما يزيد القضية وضوحاً وأهمية أن الطلاق لم يسمح به النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقدم على زواجها إلا بعد نزول الآية.

ولو فرضنا غير هذا لتساءلنا: ما هي الضرورة التي تدعو محمداً صلى الله عليه وسلم للمغامرة بتحطيم عادة من أهم العادات العربية فيتزوج مطلقةً متبناه غير مبال بأقاويل الناس عنه لولا أن الله أمره بذلك.

أي ضرورة كما يقول محمد سعيد رمضان البوطي تدعو محمداً صلى الله عليه وسلم إلى إدراج هذه الآية في القرآن فيقرأها الناس كلهم، وهي من أول حرف فيها إلى آخر حرف عتاباً للرسول صلى الله عليه وسلم شديد وكثيف عما يخفيه في نفسه من معرفة أنه سيتزوج زينب بعد تطليق زيد لها<sup>(3)</sup>، ويعلن لما يخشاه من كلام قومه إذا تزوجها وإيضاح لحكم الله الذي يجب تنفيذه.

وهنا نتساءل: ما هي الضرورة التي تدعو سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إلى إدراج هذه الآية في القرآن لو لم يكن هذا القرآن كلام الله الذي لا يسع محمداً إخفاء حرف واحد منه، ما هي الفائدة التي تجعل محمداً يؤلف آية يعاتب فيها نفسه لتقرأها البشرية جمعاء على مر العصور؟ إن مصلحة محمد صلى الله عليه وسلم الشخصية لو لم يكن نبياً تقتضي حذف هذه الآية لو وجدت، لا تأليفها ووضعها في القرآن الكريم. ولقد صدقت أمنا عائشة عندما قالت فيما يرويه مسلم وغيره: "لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتباً شيناً من الوحي لكتّم هذه الآية". وقد علق محمد سعيد رمضان البوطي على هذا قائلاً: "وأنا فلعمرى ما وجدت في حوادث السيرة النبوية أدل على نبوته صلى الله عليه وسلم من هذه الحادثة، وما وجدت آية في القرآن أدل على أن القرآن كلام الله الذي لا يدخل لمحمد صلى الله عليه وسلم".

(1) الأحزاب / 5.

(2) محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 224.

(3) تذكر بعض الروايات السقيمة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أبصر زينب خلال الإخلاف بينها وبينه وشكوى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم فتحرك قلبه نحوها فأشاح بوجهه فلا بينه وبين نفسه - ولنا ندري كيف سمعوه - سبحانه مقلب القلوب - والرواية لصحيحة ما روي عن علي بن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى إليه أن زيداً يطلق زينب وأنه يتزوجها بزواج الله إياها فلما اشتكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خلق زينب وأما لا تطعمه وأحلته أنه يريد طلاقها قال له علي رحمه الأديب والروضة "إن الله في قولك وأمسك عليك زوجك" (محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص 225).

وسلم في حرف واحد منه، من الآية التي نزلت بسبب هذه الحادثة<sup>(1)</sup>. وبهذا نتوصل إلى نتيجة عكس ما أراده بورغاد. فهو أراد بإثارة هذه الحادثة الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم وإثبات أن القرآن الكريم من عنده، ونحن توصلنا من خلالها إلى إثبات استحالة أن يكون القرآن الكريم إلا من عند الله. وإنه لغريب أن الذي يعيب على محمد صلى الله عليه وسلم زواجه من زينب لا يعيب على يعقوب الجمع بين الأختين ولا على ما سبق من حديث عن الأنبياء في كتابه المقدس.

ونختم حديثنا عن سيدنا سليمان عليه السلام بأن كل ما ذكر عنه في الكتاب المقدس من كونه ابن زانية ونسبة تشيد الإنشاد إليه وزواجه بألف وكفره وعبادته الأصنام إنما كله محض افتراء، والمصدر الوحيد لمعرفة حياته عليه السلام إنما هو القرآن الكريم الذي يقول عما نسب إليه من كفر: ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾<sup>(2)</sup>. ويقول عنه: ﴿ روهنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾<sup>(3)</sup>. وقد سخر الله له الريح تجري بأمره رخاء والسياطين ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والسياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد ... وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾<sup>(4)</sup> إلخ.

### شمشون الرسول

محتوى حياة هذا الرسول لا يختلف عن السابقين الذين تحدثنا عنهم، فهو حسب رواية الكتاب المقدس يقضي ليله ونهاره متقلبا في أحضان الزانيات، وكان ذلك هو الرسالة التي كلفه الله بها، فيذكر الكتاب المقدس أنه زنا بموسى من غزة، ثم عشق مومسا أخرى اسمها دليلة من وادي سوري وتقيم بها، وكان يكثر من زيارتها بغرض الجماع، فطلب منها كفار فلسطين - ربما نفاعا عن موسمهم التي هجرها بسبب تميمه بدليلة- أن تستفسر منه : كيف يمكن للفلسطينيين أن يقدروا عليه وعلى وثاقه ولا يتمكن من كسر الوثاق، مقابل عطية معتبرة من الفضة. فسألته، فكذب عليها ثلاث مرات فقالت له بدلال: كيف تزعم حبي وقلبك ليس معي، وقد كذبتني ثلاث مرات ٢. وضيقته عليه بكلامها أياما كثيرة مدعية خصامه وهجرانه، فلم يطق عنها صبورا فأطلعها على سر قوته قائلا : إن حلقوا شعر رأسي زالت عني قوتي، وصرت كغيري من البشر. فلما أدركت صدق لهجته دعت رؤساء أهل فلسطين وأنامته على ركبته - وربما بعد جلسة رومانتيكية - ودعت الحلاق فحلق خصال شعر رأسه السبع فزالت عنه قوته وأسرره وقلعوا عينيه وسجنوه بسلاسل من نحاس، وجعلوه طحانا في السجن، ولكن شعر رأسه أخذ ينبت هناك وأقام أقطاب الفلسطينيين ذبيحة عظيمة لإلههم داجون، وبينما هم مجتمعون مع شعبيهم

(1) المرجع نفسه، ص 225، 226، 227.

(2) البقرة / 102.

(3) ص 30.

(4) ص 36-40.



يفرحون إذا بشمشون يدعو الله أن يرد إليه قوته ليهلكهم ويستشهد، فيستجيب الله له ويقع مراده فيموت آلاف من الفلسطينيين أعداءه<sup>(1)</sup>.

وشمشون هذا نبي بنص الكتاب المقدس، دل على نبوته سفر القضاة<sup>(2)</sup>، والرسالة إلى العبرانيين<sup>(3)</sup>(4). ولسنا ندري أي نبوة هذه التي يكون صاحبها يتقلب في أحضان البغايا الواحدة بعد الأخرى، ويكذب وتتيمة بزانية جعله يبيح لها عن سر قوته. ولسنا ندري كيف تكون قوته في شعير رأسه؟ وما هي الرسالة التي كلف بها إذا كان يتقلب في أحضان البغايا، وما هو مبرر سفكه للدماء الفلسطينية؟ وما هو النص: " ثم ذهب شمشون إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخّل إليها ... فاضطجع شمشون إلى نصف الليل ثم قام ... وكان بعد ذلك أنه أحب امرأة في وادي سورق اسمها دليلة، فصعد إليها أقطاب الفلسطينيين - الذين كانوا في حرب معه - وقالوا لها : تملقيه وانظري بماذا قوته العظيمة، وبماذا تتمكن منه لكي نوثقه لإذلاله فنعطيك كل واحد ألفا ومائة شاقل فضة، فقالت دليلة لشمشون اخبرني بماذا قوتك العظيمة وبماذا توثق لإذلالك، فقال لها شمشون إذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تجف أضعف وأصير كواحد من الناس، فأصعد لها أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها، والكمين لا بث عندها في الحجرة، فقالت له الفلسطينيون عليك يا شمشون فقطع الأوتار كما يقطع فسل المشاقة إذا شم النار، ولم تعلم قوته، فقالت دليلة لشمشون ها قد ختلتني وكلمتني بالكذب<sup>(5)</sup>. فأخبرني الآن بماذا توثق، فقال لها إذا أوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس، فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها<sup>(6)</sup>، وقالت له : الفلسطينيون عليك يا شمشون والكمين لا بث في الحجرة فقطعها عن ذراعيه كخيوط، فقالت دليلة لشمشون حتى الآن ختلتني وكلمتني بالكذب فأخبرني بماذا توثق فقال لها : إذا ضفرت سبع خصل رأسي مع السدى، فمكنتها بالوتد وقالت له الفلسطينيون عليك يا شمشون، فانتبه من نومه وقلع وتد التسيح والسدى فقالت له : كيف تقول أحبك وقلبك ليس معي هو ذا ثلاث مرات قد ختلتني ولم تخبرني بماذا قوتك العظيمة، ولما كانت تضايقه بكلامها كل يوم - يعني لا يفارقها ولم يتغظ بمكانتها له - وألحت عليه ضاقت نفسه إلى الموت - لأنه متيم بها ولا يريد إغضابها ولا يطيق هجرانها رغم أنها مومس - فكشف لها كل قلبه وقال لها : لم يعل موسى رأسي لأنني نذير الله من بطن أمي، فإن حلقت تفارقني قوتي وأضعف وأصير كأحد الناس. ولما رأت دليلة أنه قد أخبرها بكل ما في قلبه أرسلت فدعت أقطاب الفلسطينيين وقالت اصعدوا

(1) سفر القضاة، إصحاح 16، لقرات 1-31.

(2) سفر القضاة، إصحاح 13، لقرات 5 و25، وإصحاح 14، لقرات 6 و19، وإصحاح 15، لقرات 14-19.

(3) الرسالة إلى العبرانيين، إصحاح 11، فقرة 32.

(4) رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج 2، ص 277.

(5) آية جملة هذه 19 عرف ألما غدرت به وأنت بأعدائه لقتله ومع ذلك لم يؤنبها وظل ملازما لها.

(6) لم يبن نص الطريقة التي تمكنت بها دليلة من وثاله إنسكوره أم بـ ..... 14.

هذه المرة فإنه قد كشف لي كل قلبه، فصعد إليها أقطاب الفلسطينيين وأصعدوا الفضة بيدهم وأنامته على ركبته<sup>(1)</sup> ودعت رجلا وحلقت سبع خصل رأسه وابتدأت بإذلاله وفارقتة قوته، وقالت : الفلسطينيون عليك يا شمشون فانتبه من نومك وقال اخرج حسب كل مرة وأنتفض، ولم يعلم أن الرب قد فارقه<sup>(2)</sup>، فأخذوا الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به إلى غزة وأوقفوه بسلاسل نحاس، وكان يطحن في بيت السجن، وابتدأ شعر رأسه ينبت بعد أن حلق. وأما أقطاب الفلسطينيين فاجتمعوا ليذبحوا ذبيحة عظيمة لداجون إلههم ويفرحوا وقالوا : قد دفع إلينا لدينا شمشون عدونا، ولما رآه الشعب مجدوا إلههم لأنهم قالوا قد دفع إلينا لدينا عدونا الذي خرب أرضنا وكثر قتلانا. وكان لما طابت قلوبهم أنهم قالوا ادعوا شمشون ليلعب لنا، فدعوا شمشون من بيت السجن فلعب أمامهم وأوقفوه بين الأعمدة، فقال شمشون للغلام الماسك بيده دعني ألمس الأعمدة التي البيت قائم عليها لأستند عليها، وكان البيت مملوءا رجالا ونساء، وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة ينظرون لعب شمشون<sup>(3)</sup>، فدعا شمشون الرب وقال يا سيدي الرب انكرني وشددني يا الله هذه المرة فقط. فانتقم نعمة واحدة عن عيني من الفلسطينيين وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائما عليهما واستند عليهما الواحد بيمينه والآخر بيساره، وقال شمشون لتمت نفسي مع الفلسطينيين وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذي فيه، فكان الموتى الذين أماتهم في موته في حياته، فنزل اخوته وكل بيت أبيه وحملوه وصعدوا به ودفنوه بين صرعة وأشتاول في قبر منوح أبيه، وهو قضى لإسرائيل عشرين سنة<sup>(4)(5)</sup>.

النص لا يحتاج إلى تعليق، سوى الإشارة إلى أن من أهدافه زرع الحقد في نفوس أطفال اليهود على الفلسطينيين، لأنه لا عاقل يصدق هذه الرواية. ولكنها في نفوس الأطفال لها أثرها النفسي في زرع الحقد والبغضاء تجاه الفلسطينيين، وهذا هو السبب الأساسي في نظرنا لإدراج هذا النص اللامعقول ضمن الكتاب المقدس، كما يهدف في الوقت ذاته إلى زرع روح التضحية في نفسية اليهودي طفلا ورجلا من أجل الهدف والمبدأ وجعل كراهة الفلسطينيين ديننا مقدسا لدى اليهود على مر الأجيال.

(1) كيف يكون نيا وهو حاله هكذا؟ وكأنه بحث ليزن ويتقلب في أحضان الغايا : "كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا" (الكهف / 5 )

(2) سفر القضاة، إصحاح 16، فقرات 1-31.

(3) يعني أنه تحول من الثوبة إلى المسرح.

(4) سفر القضاة، إصحاح 16، فقرات 1-31.

(5) ومن أراد معرفة المزيد من هذه الفضائح فليرجع إلى الكتاب المقدس وإلى عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية ضمن المجموعة الكاملة، ص 375، وما بعدها.

## الأختان المومسان : أهولة<sup>(1)</sup> وأهولية<sup>2</sup>

ورد فيهما إصحاح كامل من أكبر الإصحاحات، وهو الإصحاح 23 من سفر حزقيال، ويحتوي على 49 فقرة. وهو نص داعر، يحكي بالتفصيل الممل الشراة التي كانت هاتان الأختان تمارسان بها الدعارة، وقد تحدى أحمد ديدات القسيس الأمريكي جيمي سواغات في المناظرة الشهيرة بينهما في الولايات المتحدة الأمريكية بقراءته مقابل ألف دولار، وقال عنه ديدات في تلك المناظرة لسواغات "إني أتحدى أيا من الكهنة أن يقرأه على أحد من جماعته في الكنيسة، أتحدى أي مبشر أن يقرأه على أمه أو أخته أو ابنته أو حتى على خطيبته إن كانت امرأة فاضلة"<sup>(2)</sup>. ولغته فاسقة إلى حد لا يتصور مما جعل حكومة جنوب إفريقيا تحظر تداوله، وكان من ضمن هيئة الرقابة التي منعت تداوله قسيسان يمثلان الكنيسة، لكنهم لم يعرفوا أنهم حظروا جزءا من الكتاب المقدس، وظل الحظر لمدة 20 سنة، ولكنهم لما علموا أنه جزء من كتابهم المقدس رفعوا الحظر<sup>(3)</sup>. وسبب ذلك أنه إباضي إلى درجة لا تتصور كما ذكرنا.

وإذا كان الخطيب لا يستطيع أن يقرأه على خطيبته لشدة بذاة وفسق لغته وشناعة وبشاعة محتواه، فيستحيل أن يكون من عند الله. وإن المرء يتساءل باستغراب واندعاش: ألم يجد الله ما يتحدث به إلى عباده سوى الحديث المفصل عن "مومسين" تمارسان البغاء بشراة وشراسة، ويصف ذلك بالتفصيل الممل؟! إذا كنا نحن نستحي أن نقرأه أمام من نحترمهم، فكيف ننسب ذلك إلى الله عز وجل؟! ثم ما هي الحكمة من الحديث بتلك التفاصيل عن الأختين "المومسين"؟! إننا لم نتمكن أن نفهم إلا غرضا واحدا أساسيا، هو إثارة الغريزة الجنسية للقارئ وتهيجه ليندفع إلى الفسوق والعصيان. ومن هنا فعندما يعطى نص كهذا طابع القداسة يكون له مفعوله السحري في انحراف المجتمع ولا سيما الشباب، ويظهر لنا أن هذا هو غرض الكاتب الأساسي. وهاهي فقرات مطولة من هذا النص :

" وكان إلي كلام الرب قائلا : يا ابن آدم، كان امرأتان ابنتا أم واحدة، وزنتا بمصر، في صباهما زنتا، هناك دغدغتُ بديهما، وهناك تزغزغتُ ترائب عذرتهما، واسمهما أهولة الكبيرة وأهولية أختها، وكانت لي، وولدنا بنين وبنات، واسماهما السامرة أهولة وأورشليم أهولية، وزنت أهولة من تحتي وعشقت محبيها أشور الأبطال اللابسين الأسمانجوني ولآة وشحنا كلهم شبان شهوة فرسان راكبون الخيل، فدفعت لهم عقرها لمختاري بني أشور كلهم وتتجست بكل من عشقتهم بكل أصنامهم، ولم تترك زناها من مصر أيضا لأنهم ضاجعوها في صباها وزغزغوا ترائب عذرتها وسكبوا عليها زناهم.

(1) رواية هاتين الأختين لا علاقة لها بالنبوة، ولكن لها علاقة وثيقة بنشر الرذيلة وهو ما يتوافق مع العنوان "الكتاب المقدس أساس الرذيلة في المجتمع"، ومن جهة أخرى فلما في نفس سياق حياة الأنبياء كما يرويه الكتاب المقدس من الفسوق والرذيلة، وكل هذا دليل قاطع على أنه ليس من عند الله.

(2) أحمد ديدات، المناظرة الحديثة، ص 147.

(3) المرجع نفسه، ص 147، 148.

عشاقها ليد بني آشور الذين عشقتهم. هم كشفوا عورتها، أخذوا بنيتها وبناتها وذبحوها بالسيف فصارت عبرة للنساء وأجرؤا عليها حكما.

فلما رأت أختها أهولية ذلك أفسدت في عشقها أكثر منها، وفي زناها أكثر من زنا أختها، عشقت بني آشور الولاة والشحن الأبطال اللابسين أفخر لباس فرسانا راكبين الخيل كلهم شبان شهوة، فرأيت أنها قد تتجست ولكلتيهما طريق واحدة، وزادت زناها ولما نظرت إلى رجال مصثورين على الحائط صور الكلدانيين مصورة بمغرة، منطقتين بمناطق على أحقانهم، عما تمهم مسدولة على رؤوسهم، كلهم في المنظر رؤساء مركبات شينة بني بابل الكلدانيين أرض ميلادهم، عشقتهم عند لمح عينيها إياهم، وأرسلت إليهم رسلا إلى أرض الكلدانيين، فأتاها بنو بابل في مضجع الحب ونجسوها بزناهم، فتجست بهم وجفتهم نفسها، وكشفت زناها وكشفت عورتها فجفتها نفسي كما جفت نفسي أختها، وأكثرت زناها بذكرها أيام صباها التي فيها زنت بأرض مصر، وعشقت معشوقهم الذين لحمهم كلحم الحمير ومنيهم كمني الخيل، وأفتقدت رذيلة صباك بزغزة المصريين ترائبك لأجل نذبي صباك...» (1).

ولا أعلق على هذا النص بأكثر من القول بأنه معجز في البذاءة والفحش، لم أقرأ مثله لأي كاتب إياحي، وهو يعبر أحسن تعبير عن البيئة التي كتب فيها وعن طبيعة الكاتب وأخلاقه ونفسيته، ورغم هذا يزعم النصارى أنه كلام الله أوحاه إلى قديسيهم.

### المسيح عليه السلام

أصله من زنا المحارم، بعض أجداده كان يعبد الأصنام :  
 ذكرنا أثناء حديثنا عن أجداد المسيح أن أحد أجداده نتج عن زنا المحارم، وهو فارص بن يهوذا السذي أنجبته ثامار من زناها بيهوذا، الابن الرابع ليعقوب - وهي زوجة ابنه (2).  
 فأنجبت توأمين أحدهما فارص الذي أتى منه أجداد المسيح عليه السلام هذا من جهة الأب. كما أنه نتج من جهة الأم عن زنا المحارم حيث ينتهي نسبه إلى داود، وداود إضافة إلى أن جده فارص من جهة الأب، فإنه من جهة الأم كانت راعوث أم عبيد جد داود مؤابية، والمؤابيون نتجوا عن زنا لوط بابنته الكبرى، كما ذكرنا أن رحبعام بن سليمان من أجداد داود وسليمان، أي من أجداد عيسى. وكانت أمه عمونية، وبنوعمون نتجوا كذلك من زنا المحارم كما ذكرنا من زنا لوط بابنته الصغرى. وهذا يعني ببساطة أن الله في تصور النصارى ابن زنا المحارم من الأب - يوسف النجار - والأم. ولما كان نسبه ينتهي إلى جدتيه المؤابية والعمونية فهذا يعني أنه صار مؤابيا وعمونيا، والمؤابيون والعمونيون ممنوعون من الدخول إلى جماعة الرب إلى الأبد كما ذكرنا أثناء حديثنا عن لوط عليه السلام وفقا لما ورد في سفر الاستثناء (إصحاح 23، فقرة 13). وهنا نتساءل: كيف دخل عيسى جماعة الرب، بل

(1) حزقيال، إصحاح 23، فقرات 1-31.

(2) التكوين، إصحاح 36، فقرات 1-30.

صار رئيسهم، بل ابن الله على زعمهم؟! وإذا كان بحكم جدتيه المؤابية والعمونية ممنوعا من الدخول إلى جماعة الرب إلى الأبد، فإنه يعد أيضا ابن زنى المحارم من جهتيهما.

وأما ما يتعلق بعبادة الأصنام فيكفي أن نعرف أن جده سليمان بن داود كان يعبد الأصنام ويبني لها المعابد كما ذكرنا قبلا، كما كانت أسرة يعقوب وخاله يعبدون الأصنام المحلية والأجنبية بمن فيهم أم يوسف عليه السلام ثم طهر البيت من الأصنام الأجنبية لتبقى الأصنام المحلية تعبد وحدها كل هذا برضى يعقوب. فهل هؤلاء الأجداد أفضل من أجداد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم كما زعم بورغاد؟ .

### بعض أخلاق المسيح

المسيح كذاب : رغم زعم النصارى بأنه إله ابن إله إلا أنهم لا يخلون من أن ينسبوا إليه الكذب، وذلك عندما طلب منه اخوته الذهاب إلى عيد المظال اليهودي، فقال لهم : اذهبوا أنتم أما أنها فلسنت أصعد بعد إلى هذا العيد، ثم صعد خفية<sup>(1)</sup>.

المسيح عاص لأمه : وكان قاسيا عليها بعض القسوة<sup>(2)</sup>، إلى حد أن يسلك تجاهها سلوكا وقحا، ومن الأمثلة على ذلك فإنها عندما طالبت بمعجزة تحويل الماء إلى خمر ناداها قائلا " يا امرأة"<sup>(3)</sup> وإثارة المزيد من السخط أسبق ذلك بقوله لها : ما لي ولك<sup>(4)</sup>؟! . أي : أية صلة تربط بيني وبينك ؟ لا تتدخل في شؤوني الخاصة، احذري إلخ . ولسنا ندري أنسي أن هذه المرأة هي أمه التي تحملت بسببه إهانات لا نهاية لها.

المسيح له مواقف مشينة مع شيوخ قومه : حيث يذكر الكتاب المقدس أنه كان دائما يذم شيوخ قومه متلفها للصدام العلني معهم، ومن نعوته لهم : " يا منافقون " ، " جيل شرير فاسق " . " أيها القبول المبيضة " " جيل من الأفاعي " ، ولم يسلم من هذا الأذى حتى والدته كما ذكرنا<sup>(5)</sup> . وهكذا فإنه حسب الكتاب المقدس كان يسوع فظا غليظ القلب عاص لأمه كارها لرؤساء قومه وغيرهم.

المسيح يستخدم العنف ويدعو إليه : ومن الأمثلة على هذا ضربه لقومه في الهيكل بالسوط وتقليب مناضد الصيارفة وتجار الحمام وبعثرة نقودهم على الأرض وإخراج التجار من ساحة الهيكل بالضرب بالعصي<sup>(6)</sup>، والإخبار بأنه أتى بالسيف لا بالسلم<sup>(7)</sup> إلخ.

<sup>(1)</sup> يوحنا، إصحاح 7، فقرات 3-11.

<sup>(2)</sup> ول ديورانت، قصة الحضارة، قصر المسيح، م3، ج3(11)، ص219.

<sup>(3)</sup> إنجيل يوحنا، إصحاح 2، فقرات 1-11.

<sup>(4)</sup> إحد دهنات، المسيح في الإسلام، ص67-68.

<sup>(5)</sup> ول ديورانت، المرجع نفسه، ص234.

<sup>(6)</sup> وسننن بمصر في الأناجيل أثناء حديثنا عن العنف في النصرانية في معرض ردنا على بورغاد.

### أول معجزات المسيح: تحويل الماء خمرًا:

أورد يوحنا أن أول معجزات المسيح عليه السلام إنما وقعت عندما تجاوز الثلاثين من عمره. وتتمثل في تحويل الماء خمرًا، وذلك في عرس، وها هو النص: "وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل، وكانت أم يسوع هناك ودعى أيضا يسوع وتلاميذه إلى العرس، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له ليس لهم خمر فقال لها يسوع :

مالي ولك يا امرأة؟ لم تأت ساعتى بعد ! ! . قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه، وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة، قال لهم يسوع : املأوا الأجران ماء فملئوها إلى فوق ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ، فقدموا. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرًا ولم يكن يعلم من أين هي، لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا رئيس المتكأ العريس وقال له : كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكرُوا فحينئذ اللون. أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن. هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به تلاميذه<sup>(1)</sup>.

هذه هي أول معجزة للمسيح، معجزة تحويل الماء إلى خمر حسب إنجيل يوحنا، وقد ظهر فيها بجلاء عصيانه لأمه كما ذكرنا، وذيّل النص بأنه نتج عن هذه المعجزة إيمان تلاميذه به، وكانهم لم يكونوا به مؤمنين ولسنا ندري إذن كيف كانوا تلاميذه.

كما نلاحظ الوصف الرومانتيكي للجلسة الخمرية التي لها رئيس وجلس وسقاة الخمر، وهكذا تحولت النصرانية من عبادة الله إلى عبادة الخمر، ولا غرو. فإن من خصائص المسيح في الأناجيل، أنه كان "أكول وشريب خمر"<sup>(2)</sup>، أي كثير الأكل وكثير شرب الخمر، أي مدمن، فهل هذا هو الذي جعله الله ابنه وقدمه قربانًا عن الخطيئة الأصلية؟!.

النص السابق المتعلق بأول معجزة للمسيح يدعونا إلى التساؤل باندهاش واستغراب عن الحكمة من انتظار المسيح أكثر من 30 سنة ولا يأتي بمعجزة، وتكون أول معجزاته بعد هذه الفترة تحويل الماء إلى خمر؟.

إن المسيح في حاجة ماسة إلى معجزة - ليس تحويل الماء إلى الخمر - بل ثبوتة والدته، بل قبل ذلك زرع الثقة في نفسها وتشجيعها وإخراجها من حيرتها بسبب الحمل الذي أصبح في بطنها وهي الطاهرة الصديقة ولكنها لم تجد من يصدقها، وكيف تصدق إلا بمعجزة، بل هو نفسه في حاجة إلى معجزة غير تحويل الماء إلى خمر لإيجاد مكانة له في المجتمع وهو الذي كانوا يستعرون به كما ذكرنا أثناء حديثنا عنه في العقيدة النصرانية.

(1) إنجيل يوحنا، إصحاح 2، فقرات 1-11.

(2) متى، 11 : 19، ولوقا : 7 : 34.

وهنا نتساءل : رادين على بورغاد وأبناء ملته ما قيمة هذه المعجزة؟ إنها دلالة على أن كاتب الإنجيل كان سكيراً متعشفاً الخمر وعابداً لها، أما المعجزة المنطقية التي يحتاجها المسيح فهي لإثبات براءة أمه وإثبات مكانته في المجتمع، وهنا نستطيع القول بكبرياء: إن المصدر الوحيد لمعرفة المسيح وأمه وتكريمه وتكريمها وجعلهما في المكانة اللائقة بهما إنما هو القرآن الكريم، فما هي أول معجزة للمسيح عليه السلام في القرآن الكريم؟.

إنها معجزة الكلام في المهد لزرع الثقة في نفسية أمه وإنحام المجتمع الذي اتهمها بالسفاح. ولقد بين القرآن الكريم قبل ذلك الحالة النفسية التعيسة التي كانت عليها مريم عليها السلام بسبب حملها ولا سيما في مرحلة المخاض، مما يبين نوع المعجزة التي تحتاجها، وبين المعجزة التي كانت علاجاً لنفسيتها وزرعها للثقة في نفسها وإفحاماً للمتقولين عليها ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ (1). ومن هنا فإنها في حاجة ماسة في هذه اللحظة بالذات إلى ما يرفع معنوياتها ويظهر براءتها لقومها، وهو ما بينه القرآن الكريم. فإن القرآن الكريم بين أن أول معجزات عيسى عليه السلام هي الكلام في المهد، أي في اللحظة ذاتها التي خرج فيها من بطن أمه دفاعاً عن أمه وتبرئتها من افتراءات أعدائها وتقريضهم الخطير بها. (2) وهكذا يقول القرآن الكريم بأن أول معجزة للمسيح إنما هي الكلام في المهد بمجرد خروجه من بطن أمه لرفع معنويات أمه وإثبات براءتها، بل أعطاها حتى الدليل المادي وعلمها كيف مستجيب قوماً، ولما قابلها قوماً كلمهم وأفحمهم قائلاً لهم ﴿ إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً... ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ (3).

ويقول الإنجيل إن أول معجزات المسيح هي تحويل الماء إلى خمر ومتى ؟ بعد أن تجاوز الثلاثين. والواقع أن هذه المقارنة تعطينا فكرة مهمة عن إعجاز القرآن الكريم وعدم إعجاز الأناجيل عكس ما زعمه بورغاد، ذلك أن ما يذكره القرآن عن أول معجزة للمسيح إنما هو في منتهى المنطقية؛ لأن ما كانت أمه في أمس الحاجة إليه وهو أيضاً: إنما هو تبرئة أمه. أما أن يظل أكثر من 30 سنة بدون معجزة وأمه في أمس الحاجة إلى إثبات براءتها ويصبح هو معرفة بين الناس طيلة هذه الفترة بسبب ذلك ثم تكون أول معجزة له بعد كل هذه الفترة تحويل الماء خمر، عيب ما بعده عيب. إن ما ورد في الإنجيل هنا يعطينا فكرة صادقة ودقيقة عن وساخة الذين كتبوه وانغماسهم في عالم الرذيلة، كما يبين لنا بدقة استحالة أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذ من الكتاب المقدس عكس ما زعمه بورغاد؛ لأنه لا يمكنه أن يأخذ منه ويتجنب أخطائه بل يصححه بالقلم الأحمر. وهل يمكن أن يكون

(1) مريم/22، 23.

(2) أحد هدات، المسيح في الإسلام، ص 61.

(3) مريم/ 30 - 31.

التزوير والتقليد أفضل من الأصل<sup>(1)</sup>. وهنا نضيف شيئا مهما فيما يتعلق بحديث كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم عن المسيح وأمه.

إذ في حين نجد ما سبق عن المسيح في الكتاب المقدس من كونه ناتجا عن زنا المحارم، كذابا، عصيا لأمه جبارا يستخدم العنف ويؤذي كبار القوم إلخ نجد القرآن الكريم يرفع المسيح وأمه مكانا عاليا رغم أنه وأمه من اليهود، أي أشد أعداء محمد صلى الله عليه وسلم بنص القرآن الكريم ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾<sup>(2)</sup>. ومع ذلك فإن محمدا الذي كان يخاطب في بداية دعوته عربا أخبرهم في أسنى الأساليب المؤثرة الواصلة إلى أعماق النفوس أن مريم أم عيسى اليهودية اصطفت على نساء العالمين، لم يقل لقومه إن التي اصطفت إنما هي أمه أو زوجته أو ابنته رغم أن هذا هو الذي يخدم مصلحته الشخصية، لأن كل واحد يريد أن تكون أمه وزوجته وابنته قبل نساء العالمين. فما الذي يدعو محمدا أن يكرم امرأة من أشد معارضيه وأعدائه وهم اليهود؟. إن المصلحة تقتضي الحط منهم لا رفعهم. ولكن كتابه يقول: ﴿ وإن قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾<sup>(3)</sup>. ولقد وصل هذا التكريم لمريم إلى حد أن سميت سورة كاملة في القرآن الكريم من طوال المفصل باسمها، وهي سورة مريم<sup>(4)</sup>. بينما لا نجد أي إنجيل، بل حتى إصحاح يسمى إنجيل أو إصحاح مريم.

أما المسيح فقد أفاض القرآن الكريم في تبيين رسالته وخلقته وفضله ومعجزاته وبشريته، وفي حين يقول عنه الإنجيل بأنه كان عاقا لوالدته مستخدما العنف ضد قومه. يقول عن القرآن الكريم ﴿ ويرأى بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ﴾<sup>(5)</sup>.

والنتائج التي يمكن التوصل إليها مما سبق في العهدين القديم والجديد عن النبوة والأنبياء: أن الله بشر غير سوي تعالى الله عن هذا، وأن أساس الحياة هو الخطيئة التي وجد الإنسان في الأرض ليتعذب بسببها، وأن الأنبياء هم أحط خلق الله سيرة وتفكيراً وتسيراً، من إبراهيم إلى المسيح الذي يؤلهونه، والقاسم المشترك بينهم جميعاً هو الديوثة، زنا المحارم، أسرهم وبيوتهم أسر وبيوت دعارة، إدمان الخمر، الكذب، أخذ النبوة بالاحتيال والنصب وقهر الله عز وجل لتؤخذ منه الألقاب عنوة بعد معركة حامية الوطيس معه، بل وصل الحد إلى عبادة الأنبياء للأصنام، يضاف إلى هذا تشويه الله عز وجل بما فيه من إباحية وحديث مستفيض عما يسمى اليوم بأقلام الجنس وهو ما نجده بوضوح فيما ورد من

(1) أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، ص 84.

(2) المائدة / 82.

(3) آل عمران / 42.

(4) أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص 35.

(5) مريم / 32.



حديث عن الأختين الزانيتين أهولة وأهوليبة، وهو ما يستحيل أن يصدر عن من يحترم نفسه فضلا عن الله عز وجل .

وإذا كان القاسم المشترك بينهم هو الزنا وما يتعلق به، فإن هناك قاسما آخر مشترك بين الأنبياء هو الخمر التي كانوا يشربونها بشراهة ويكثرون منها إلى حد الإدمان كما رأينا، ولم يكن مجلس من مجالس الأنبياء حسب الكتاب المقدس يخلو منها إلى حد فقدان الوعي التام والوقوع في زنا المحارم وإلى حد أن يوسف لما استقبل اخوته بمصر، فبعد أن تغدوا شربوا حتى سسكروا<sup>(1)</sup>. وهذا يتناقض تناقضا كليا مع طبيعة الرسالة التي توجب العصمة للرسول من كل الدنيايا. فيستحيل أن يكون الرسول زانيا أو ديوثا إلخ، كما يجب أن يكون ويظل في تمام وعيه حتى يتمكن من تبليغ الرسالة، وهذا يتناقض مع السكر. كما أنه لا يعقل أن يذهب الرسول إلى قومه فيدعوهم إلى ترك عبادة الأوثان والزنا والتخلي بمكارم الأخلاق، ثم لا يلبثون أن يجدوه بعد قليل يترنج من السكر، يسهذي ويعرهد، يتكلم الفاحش البذيء ويبيح بالأسرار الزوجية يبول في ثيابه أمام الملاء وقد يتغوط فيها ويقع على ابنتيه فينتهك عرضيهما وتحملان منه سفاحا... فإلم يدعو الناس إذن؟ وهكذا فالخمر قاسم مشترك بين الأنبياء حسب زعم ما يسمى بالكتاب المقدس، والديوثة والزنا والكذب وسفك الدماء والاحتيال وما إلى ذلك ظاهرة عامة وسط الأنبياء، أي الصفوة التي اختارها الله لقيادة البشرية. وعندما نخضع كل هذا لمنهج التحليل النفسي نكتشف شخصية الذين كتبوا هذا، المعقدة المريضة المنغمسة في الرذيلة، كما يعطينا ذلك فكرة عن البيئة التي كتبت فيها هذه النصوص، وبهذا فإن محرري الكتاب المقدس كانوا ممنين ما جنين يعبدون الخمر ويعشقونها إلى حد التصور أن الله لا يستجيب لدعاء العبد إلا إذا كان سكران. وقد ظهر هذا في النصرانية بجلاء، ذلك أن الخمر فيها عبادة، والعشاء الرباني معروف ما يفعلون فيه. كما أن البيئة والعصر الذي كتب فيه الكتاب المقدس كان فيه أو فيها أعراض الناس كالأباحا، وكان فيه زنا المحارم منتشرا انتشارا لا يتصور، كما كان فيه الجمع بين الأختين شبانعا، وأن ذلك العصر لم تكن تطبق فيه أي حدود أو قيود على الزنا والزناة إلى حد أنه كان من حق المرأة أن تخرج إلى قارة الطريق لتمارس الفاحشة.

لا نجد أي أثر للجانب الروحاني في حياة الأنبياء، فحياتهم في الكتاب المقدس كلها كما ذكرنا زنا وخمر وزواج وولادة وحروب ونفاق إلخ. وهذا لا يمكن فهمه، ولا سيما أنهم القادة الروحيون للبشرية، كما لا نجد فيه أي أثر للدعوة إلى الله. وهذا ما يتناقض مع طبيعة الرسالة والغاية منها. وكل هذا يتناقض مع طبيعة النبوة والأنبياء في القرآن الكريم، فهم أفضل الخلق، أطهار أختيار صادقون، عابدون لله، محاربون للأصنام والظلم إلى آخره. وهو ما يتوافق مع المنطق السليم، إذ لا يمكن أن يسيء الله اختيار سفرائه إلى خلقه بالقيم والأخلاق، فلا يقع إلا على السكارى والمنحرفين. وهذا يدعونا إلى

(1) سفر التكوين، إصحاح 43، فقرة 34، ونصه: "وشربوا منه حتى سسكروا".

التساؤل عن أهداف أولئك المشوهين للأنبياء من كتبة الكتاب المقدس، والجواب في نظرنا أنهم كتبوه لأغراض متنوعة، منها :

- نشر الرذيلة في المجتمع كما قلنا، لأن الذي يقرأ ما كتب عن الأنبياء يجعله يعتقد بأنه الانحراف هو الطريق السليم، إذ ما دام جميع الأنبياء زناة، فكيف يكون حال الإنسان العادي مثلاً؟! والذي يقرأ نشيد الإنشاد أو رواية الأختين أهولة وأهولية سيخرج من عالم الواقع ليسبح في عالم الأحلام بين أفخاض النساء وفروجهن... وتكون الخطورة أكبر عندما يعتقد القارئ أنه يقرأ الكتاب المقدس، أي يعبد الله بقراءة نشيد الإنشاد ودعارة الأختين. وتتصور كيف يكون حال المراهقين والمراهقات الذين يقرءون ذلك، بل وحتى غير المراهقين. ومن نتائج ذلك إزالة الحياء والحشمة بين الذكر والأنثى، بل حتى داخل أفراد العائلة؛ لأن المنطق يقتضي أن يجمع الأب - أو الأم - أبناءه وبناته ويتعبدون بقراءة ما سبق، فتهيج الغرائز الجنسية وتتحطم القيم وينغمس الناس في الرذيلة. وهكذا تتحطم الأسرة - وقد تحطمت اليوم في الغرب - والمجتمع. وبهذا نستطيع القول بأن أساس الرذيلة في المجتمعات النصرانية الغربية، ومنها بلد بورغاد، ليست في أساسها ناتجة عن تطور المجتمع الرأسمالي الغربي الصناعي وغيره، بل هي ناتجة عن الكتاب المقدس. ويكفي هنا أن نعرف أن البابا ذاته كان يقدم له عشائه 12 فتاة عارية. ومن هنا نشأ حقد النصارى على الإسلام الذي جعل من مقاصد شريعته حماية الأعراض التي هي عند النصارى كلاً مباح بثمن بخس وبغير ثمن.

- الغرض اليهودي واضح في تشويه صورة الأنبياء. ومن أغراضهم تحقير الأمم الأخرى وإرخاص حقوقها، وإلحاق أشتع الأوصاف بها وبأنبيائها وقاداتها. ويظهر هذا مثلاً بجلاء في قصتي نوح ولوط عليهما السلام، وإبراز اليهود على أنهم محور العالم، وأكسير الحياة وغاية الوجود، فهم الشعب المختار للسيادة والقيادة ولا يجوز أن ينازعوا في ذلك<sup>(1)</sup>. وهذا في نظرنا هو الذي جعلهم لا يتكلمون على سيدنا إسماعيل عليه السلام إلا حديثاً مقتضياً جداً، ويناقضون أنفسهم في العهد القديم ليثبتوا أن الذبيح إسحاق، ولا يذكرون شيئاً عن استقراره بمكة، وبنائه مع أبيه سيدنا إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق، واعتبار أمه هاجر أمة لسارة أم إسحاق، مع أنها أميرة مصرية<sup>(2)</sup> حرة. كل هذا لغرض الجط من العرب والرفع من مكانتهم<sup>(3)</sup>.

(1) محمد الغزالي، قتال الحق، ص 21.

(2) حيث بين أحمد ديدات أن أمنا هاجر لم تكن أمة لسارة، بل أميرة مصرية، وقد أثبت ديدات بطريقة مقنعة وحاسمة أنه وفقاً لعلم تحسين النسل وفقاً للديانة اليهودية ووفقاً للفطرة السليمة فإن ذرية هاجر أرفع مقاماً ومترلة من ذرية سارة، وذلك في كتابه "العرب وإسرائيل"، صراع أم مصالحة. (أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، هامش ص 43)، والواقع أن أمنا هاجر يستحيل أن تكون أمة، وإلا ما كان إسماعيل نبياً، لأنه لا يمكن الجمع بين النبوة والرق، ذلك أن الابن يتبع أباه دينا وأمه عبودية وحرية، ومن صفات الأنبياء الكمال والتبره عن كل نقص، وشرف المعدن. ولما كان الرق يناقض النبوة وكان إسماعيل نبياً ورسولاً، استحال كون أمه أمة. وما يؤسف له أن ديدات غير العربي يرفع من قدر العرب والعرب يحطون من قدرهم ويتكبرون لأصلهم.

(3) أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص 43.

وعلى نكر سيدنا إسماعيل عليه السلام، فقد تعجبنا عندما لم نجد في الكتاب المقدس أي طعن يمسه أو يمس أمه، باستثناء أن أمه أمة، وإن كان هذا لا يعد في نظرنا طعنا.

وهم بهذا من حيث لا يشعرون جعلوا طريقين للنبوّة، أحدهما إبراهيم، إسحاق إلى عيسى. وهذا هو الطريق الذي تحدثنا عنه. وكله ديوثة، زنا وزنا المحارم، سكر إلخ. وثانيهما إبراهيم إسماعيل بواسطة هاجر إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وهذا لا أثر لأي قدح فيه. فهاجر لا نجد أنها زانية، وإسماعيل لا نجد أنه زان أو ديوث أو سكير إلخ. وهذا الطريق الثاني هو الذي أتى منه محمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك فهو خيار من خيار ... عكس أجداد المسيح حسب الكتاب المقدس. وهذا عكس ما زعمه بورغاد من أفضلية أجداد المسيح على أجداد محمد.

وهذا اعتراف منه بأفضلية محمد صلى الله عليه وسلم ليس على المسيح فحسب، بل على جميع الأنبياء. ذلك أن أقوالهم في محمد صلى الله عليه وسلم رغم شناعتها إلا أنها لم تصل إلى خطورة ما يقولونه في أنبيائهم، فلم يقولوا عنه أنه زنى كما قالوا في أنبيائهم، ولم يقولوا عنه ديوث أو ابن زنا كما قالوا في أنبيائهم، ولم يقولوا عنه أنه عابد أصنام كما قالوا في أنبيائهم. بل قالوا عنه: مبالغ في التوحيد إلخ. وهذا اعتراف منهم لا شعوري ولا إرادي بأفضلية نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء.

- يلاحظ التناقض الصارخ بين صفات الله وكذا صفات الأنبياء السابق ذكرها في الكتاب المقدس، وبين الزعم بالعصمة البابوية؛ لأنه إذا كان جميع الأنبياء كما ذكر، فكيف لا يكونون معصومين ويكون البابا معصوماً؟! . كيف يكون المسيح كذابا ويكون البابا صادقا؟! . كيف يكون المسيح عاقا لوادته جبارا ويكون البابا خيرا؟! . بل كيف يكون الله بالصفات السابق ذكرها من الندم والخوف والنسيان ومصارعته للبشر والعجز عن التغلب عليهم إلخ ويكون البابا منزها عن هذه الأوصاف؟ ولا سيما أن العصمة البابوية مبنية على الزعم بالتلقي المباشر عن الله، وهو الذي يوجه البابا فلا يخطئ. فكيف يمكن التوفيق بين وقوع الله في الأخطاء وعدم وقوع البابا فيها وهو المرسل والبابا هو المستقبل؟! . لا يمكن فهم هذه المعضلة إلا في حالة واحدة، هي أن يكون البابا هو الإله والإله هو البشر. وإلا لا يمكن فهم أن يكون المليم مخطئا والملهم مصيبا. ولكن هذا لا يستغرب ممن ينسب إلى الله الولد.

- كما يلاحظ التناقض الصارخ بين سلوك الأنبياء في الكتاب المقدس وبين الزعم بالرهينة والدعوة إليها، ويمكن أن نبين هذا من خلال العناصر الآتية:

- من جهة يزعم النصارى ويعتقدون أن جميع الأنبياء زناة، ومن جهة أخرى يزعمون الرهينة ويدعون إليها. ورأينا كيف تبجح بها بورغاد. وتتساءل: أيهما أقرب إلى الله وأكثر تقوى: الأنبياء أم الراهبات والرهبان؟ والجواب المنطقي هو الأنبياء. فإذا كان جميع الأنبياء لم يتمكنوا حسب الكتاب المقدس من التحكم في الغريزة الجنسية، بل لم يكتفوا ليس بزوجة واحدة، بل بزوجاتهم. وانحرفوا إلى الزنا. فهل يمكن للراهبة أن تتحكم في غريزتها الجنسية وتقطع فقط للعبادة؟! .

- مريم أم المسيح تزوجت وأنجبت أولادا. وهاهو النص " وفيما هو - أي يسوع - يكلم الجموع إذا أمه واخوته قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلموه فقال له واحد هو ذا أمك واخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك... " (1). فهل الراهبات أفضل من مريم - أم الله حسب زعمهم - وأكثر قدرة على التحكم في الغريزة الجنسية ؟ وهل هن أكثر تقوى منها؟!

- فساد رجال الكهنوت وانتشار الرذيلة وسطهم من شذوذ جنسي وزنا إلخ. ولقد ذكرنا أن البابا كان يقدم له عشاءه 12 فتاة عارية، وكان من نتائج الرهبة انتشار الفسق والفجور بين رجال الكنيسة ونسائها، حتى لقد كان القسس والرهبان يتصلون جنسيا بالراهبات أنفسهن، ويبررون ذلك بأنه ضرب من "المساكنة الروحية" (2). ولقد ندد جيروم - وهو من أكبر رجال الكنيسة - بالقسيسين الذين يستيقظون قبل طلوع الفجر ليزوروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن، وندد بزواج القساوسة وشذوذهم الجنسي (3). وهذا يعني أن زنا رجال الإكليروس وشذوذهم ليس مرضا طارئا، بل متأصل وطبيعي، لأن جيروم عاش في القرن 4م، ولقد عبر عن هذه المأساة بدقة القديس برناردوس قائلا: "نزعوا من الكنيسة الزواج المكرم والمضجع الذي هو بلا نفس فملؤها بالزنا في المضاجع مع الذكور والأمهات والأخوات، وبكل أنواع الأدناس". ويقول الفاروس بيلاجيوس أسقف سلفا في بلاد البرتغال سنة 1300م: "ياليت أن الإكليروسيين لم يكونوا نذروا العفة، ولا سيما إكليروس إسبانيا، لأن أبناء الرعية هناك أكثر عددا بيسير من أبناء الكهنوت. أما يوحنا أسقف سالتزيرج في القرن 15 م فقد كتب أنه وجد قسوسا قلائل غير معتادين على نجاسة متكاثرة مع النساء، وأن أديرة الراهبات متدنسة مثل البيوت المخصصة للزنا" (4)، يعني أن أديرة الراهبات بيوت دعارة.

ونختم حديثنا هذا عن الرهبة بدليل مادي كبرهان على صحة ما نقول هو :

- الإمبراطور قسطنطين صاحب مجمع نيقية 325 م كان ابن زنا، وأمه كانت محضية لأبيه عاملة بإحدى الحانات.

- أكبر عالم ورجل دين نصراني وهو القديس أوغسطين كانت له ابنة غير شرعية من عشيقته القرطاجنية .

- أكبر فيلسوف فرنسي وهو ديكارت كانت له ابنة غير شرعية.

- هرقل ملك الروم الذي أعاد مجد الدولة البيزنطية باسترجاع ما أخذه الفرس منها كما سنبين في نبوءات القرآن الكريم كان متزوجا بنت أخته رغم تحريم النصرانية لهذا.

وهكذا نجد الدعوة إلى الرهبة - أو الرهبة في حد ذاتها- تعني فقط العزوف عن الزواج. وهو عزوف له مبرره الموضوعي، إذ ما الذي يجعل المرء يتزوج ويتحمل مسؤوليات الزوجات والأولاد

(1) إيجيل موت، إصحاح 12، فقرة 46، 47.

(2) علي عبد الواحد وال، الأسفار المقدسة في الأدهان السابقة للإسلام، ص 119.

(3) أول ديورات، قصة الحضارة، قيصر والمسيح، ج 3، ج 3 (12)، ص 119.

(4) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ج 2، ص 44.

وهو بإمكانه أن يرتع ما يشاء فيمن يشاء من النساء دون رقيب أو عتيد. وهكذا، ففي الوقت الذي يزعم فيه بورغاد أن الرهينة أفضل من الزواج لأنها انقطاع للعبادة، يؤمن بأن جميع الأنبياء زناة ولقطاء. فهل الراهبة أفضل من الأنبياء ومن مريم، أم أن المهم محاربة الزواج وليقع بعد ذلك ما يقع من الزنا؟.

ونختم كلامنا هنا عن الرهينة بأن نتحدى النصارى أن يأتونا بأي راهبة نعرضها على طبيبة نساء لتأكد من سلامة غشاء بكرتها. ولن نجد لها، ويبدو أنها هي التي كان يبحث عنها سقراط بالشمعة وسط النهار.

- كل ما ذكر عن الأنبياء في الكتاب المقدس لا ينسجم مع المنطق السليم والعقل الصحيح. والذي ينسجم هو فقط ما قرره محمد صلى الله عليه وسلم من أوصاف الأنبياء وأخلاقهم، ومما قرره:

1- النبوة ليست أمراً خاضعاً للاكتساب أو الجهد الشخصي أو المباشرة الذاتية، بل هي هبة من الله عز وجل، يهبها لمن يشاء من عباده بعد اصطفاء، وذلك لخطورتها وأهميتها. فالرسول هو الواسطة بين الله والعباد، وهو القائد الروحي والزمني لأمة يوحى إليه بعقائد وشرائع وأخلاق وعبادات يغير بها الواقع ليسمو بالمجتمع إلى عالم القيم والروح. ولذلك فلا يعقل عقلاً أن الله يكفل بهذا من يعلم أنه سيكون فاشلاً فيما كلف به، ولذلك: فإن الممكن الوحيد في هذا والمقبول الوحيد الذي لا بديل سواه، أن الله يختبر من يكلفه بالنيابة عنه ويدربه ليكون في مستوى ما كلف به. ولهذا فالنبوة ليست خاضعة لقانون الصدفة والهوى، بل للتدبير المحكم والعلم المحيط والعناية التي لا تخطئ: "فالنبي على العموم في أي أمة كان وإلى أي شعب أرسل، تختاره العناية الإلهية بدقة، فيربي تربية خاصة، بحيث يكون في جميع أطواره مملوفاً بالرعاية، محفوظاً بالعناية، ومن الأمثلة على هذا، ففي موسى يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَقْبَتَ عَلَيْكَ مَحَبَّةَ مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾<sup>(1)</sup>. أي حبيبك إلى عبادي وتربي بعين الله<sup>(2)</sup>. وبهذا " فالأنبياء هم خيرة الله في خلقه، وحجة الله على عباده، والوسائل إليه وأبواب رحمته، وأسباب نعمته، ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾<sup>(3)</sup>، ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وإبراهيم وآل عمران على العالمين﴾<sup>(4)</sup>. فكما يصطفى من الملائكة والرسالة والنبوة يصطفى من الملائكة وآل عمران على العالمين، ونقاء الجوهر، وصفاء العنصر، وطيب الأخلاق وكرم الأعراق، فيرقيهم مرتبة مرتبة حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وكملت قوته النفسانية وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً<sup>(5)</sup>.

(1) طه / 39.

(2) طه الدسوقي، نظرية النبوة في الإسلام، دط، دار الهدى للطباعة، القاهرة، 1981، ص 8، 7.

(3) الحجج / 75.

(4) آل عمران / 33.

(5) السور سجان، غاية الإنعام في علم الكلام، ص 463، عن طه الدسوقي، المرجع السابق، ص 10.

والخلاصة من هذا أن النبوة هبة من الله لمن يصطفيه من عباده ويصنعه على عينيه ليكون محل تكليف بشرع منبثق عن عقيدة، وهي اختيارها من واهبها، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، قال تعالى : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ﴾<sup>(1)</sup>، وقال : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾<sup>(2)</sup>.

وليس لأحد أن يجبر الله على منحه النبوة أو يحتال عليه في أخذها، أو يتصارع معه لأخذها، وإلا ما كان الإله إلهاً، وإذا لم يكن الإله إلهاً، فإن الذي أجبره على منحه النبوة يستحيل أن يكون نبياً<sup>(3)</sup>.  
2- النبي الذي وهبه الله النبوة يقرر القرآن الكريم أنه معصوم<sup>(4)</sup>، أي لا يقع في الذنوب. ولما كانت الذنوب تختلف في الخطورة، فإن أخطرها وهو الكفر، فهم معصومون عنه قبل البعثة وبعدها بالإجماع. ومعصومون عن تعدد ارتكاب الكبائر قبل البعثة وبعدها بالإجماع، وكذا معصومون عن الصغائر التي لا تذل بالمروءة ولا تستلزم خسة على رأي الجمهور<sup>(5)</sup>.

وتظهر العصمة قبل البعثة في فطرتهم على التقزّه عن المذمومات وكرهيتها وجلبتهم على مكارم الأخلاق والعمل بها، فيتزهون عن المعاصي<sup>(6)</sup>، رغم أنها إنما تكون بعد تقرير الشرع، حيث لا يعلم كون الفعل معصية إلا من الشرع<sup>(7)</sup>.

أما بعد البعثة، فإن الوحي يصبح موجههم مباشرة في كل ما يقومون به من أعمال، وهما هي أدلة العصمة من القرآن الكريم :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾<sup>(8)</sup>، أي اختارهم ونزهمهم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغيرها وكبيرها : ﴿ وما كان لنبيء أن يغل ﴾<sup>(9)</sup>، وحلّاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة والتفاني في الحق وأداء الواجب، فمنهم الصديق ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيئاً ﴾<sup>(10)</sup>، ومنهم من اصطنعه الله لنفسه ﴿ فلبثت سنين في أهل مدين... ﴾

(1) يونس/16.

(2) الأنعام/124.

(3) طه الدسوقي، المرجع السابق، ص11.

(4) العصمة هي أهم لا يتركوا واجبا ولا يفعلون محرما ولا يترفون ما يتناق مع اخلاق الكريم (السيد سابق، العقائد الإسلامية، ط3، مطبعة حسان، القاهرة، 1976، هامش ص175.

(5) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيّات الكونية، ص217، 218.

(6) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ص74.

(7) محمد بن يوسف السنوسي، شرح السنوسية الكبرى المسمى عمدة أهل التوفيق والتسديد، تحقيق عبد الفتاح عبد الله بركة، ط1. دار القلم، الكويت، 1982م، ص370.

(8) آل عمران/33.

(9) آل عمران/161.

(10) مريم/41.

واصطنعتك لنفسى) (1)، ومنهم من هو بعين الله (واصبر لحكم ربك فانك باعيننا) (2). وبعد أن ذكر الله جملة من الأنبياء في سورة مريم قال: (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح... وبكيا) (3)، وقال عن الأنبياء: (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة... أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) (4)، وقال: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) (5)، وقال: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) (6)(7).

وتكمن أهمية العصمة في أن الناس أمروا بالإقتداء بهم أمرا ونهيا، وأنهم أمروا بتبليغ رسالات ربهم للناس، فيلزم أن يكونوا معصومين من كل ما يشوه السيرة البشرية مما يجعل علو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في أقوالهم وأمانتهم في تبليغ رسالات ربهم أمرا مقضيا بديها(8). وإلا فما قيمة رسالاتهم إذا كانوا زناة عابدي أصنام سكارى كذابين الخ .  
وهنا نتوصل إلى النتيجة الآتية :

محمد صلى الله عليه وسلم وحده هو الذي أعاد الاعتبار للنبوة والأنبياء، وهذا ينتج عنه شيان :

أ- استحالة تأثره بالكتاب المقدس. إذ لو أخذ منه لوقع في أخطائه الفاضحة السابقة وغيرها.

ب- استحيل على محمد أن يعرف الأنبياء ويصفهم بما وصفهم به لو لم يكن عن وحى تلقاه، وإذن القرآن من عند الله. ذلك أن المصدر الوحيد الذي كان عن النبوة والأنبياء قبل نزول القرآن الكريم إنما هو الكتاب المقدس وحده، وقد وصفهم بما ذكرنا. فمن أين لمحمد الأمي الذي لم يدخل المدرسة قط والذي كانت أمته أمية أن يعرف أولئك الأنبياء ويبنوهم المكانة اللائقة بهم المناقضة لما ورد في الكتاب المقدس؟ ليس له إلا سبيل واحد لمعرفةهم على حقيقتهم، هو الوحي. وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم. إنه ثبت بالاستقراء التام أن الطابع العام الذي طبع به كلام محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو استحواذ الطابع الأخلاقي والروحي عليه. وهنا نتساءل: من أين لمحمد ذلك الطابع الروحي والارتباط الكلي بالله عز وجل؟ ومن أين له تلك الأخلاق قولا وفعلًا لو لم يكن ذلك من عند الله؟ ومن أين له أن يقدم لنا الصورة الحقيقية عن الأنبياء لو لم يكن الله هو الذي أخبره بحقيقتهم (نحن نقص

(1) طه /41،40.

(2) الطور /48.

(3) مريم /58.

(4) الأنعام /90.

(5) الأنبياء /72.

(6) الأنبياء /90.

(7) السيد سابق، المرجع السابق، ص 175، 176، 77، 78.

(8) محمد عبده، رسالة الوحيد، ط2، دار إحياء العلوم، بيروت، 1977م، ص 88، 89.

عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين<sup>(1)</sup>. وصدق الله وصدق حبيبه وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم وكذب بورغاد وأتباعه ومتبعوه. ونختم حديثنا هذا قائلين لبورغاد وأبناء ملته ما قاله العقاد: "وقد صدقت أمم ببعض الأنبياء وكذبت بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ولا حجة تجيب بها من يسألها إلا أن تقول: إننا صدقنا بهؤلاء الأنبياء لأنهم أنبياؤنا ولم نصدق بمحمد لأنه ليس بنبي عندنا، فهم لا يفرقون بين الأنبياء بقداسة السيرة ولا بعظمة الأثر، ولا بشيوع الهداية وكثرة المهتدين بها، ولا بفضيلة الهداية في أدائها ومعانيها. إذ ما من فارق من هذه الفواق يعتمدونه في تقديرهم هو خليق أن يسوغ لهم تكذيب محمد عليه السلام مع من صدقوه كما وصفوهم وتحدثوا عنهم في الكتب التي يعولون عليها"<sup>(2)</sup>.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) يوسف / 3.

(2) هباس عمود العقاد، الفكر لريضة إسلامية، ص 371، 372.



## الفصل الخامس

### النسب الشريف، أو معجزة نسب النبي ﷺ

ينطلق بورغاد في طعنه في نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم من أن أجداده كانوا مشركين منذ ألفي عام وهذا عكس عيسى، فإن نسبه من حيث كونه ناسوتاً أمه خرجت من مؤمنين بالله وحده ومن سيدنا إبراهيم وأبوه روح القدس الذي نفخ في مريم فحبلت به.

وأما من حيث كونه كلمة الله، فإن نسبه قديم كما في إنجيل يوحنا " في البدء كان الكلمة والكلمة كانت عند الله، والكلمة أخذت جسداً". وبناء على هذا فإن نسب عيسى أحسن من نسب محمد صلى الله عليه وسلم حسب زعمه<sup>(1)</sup>.

ونبدأ ردنا على بورغاد من نص يوحنا الذي أورده للدلالة على قدم نسب المسيح، فهو من الناحية المنهجية والعلمية لا وزن له، لأن كل صاحب عقيدة يستدل من كتابه المقدس على صحة عقيدته، وهذا عقيدة وليس استدلالاً، وبناء عليه فإن جميع العقائد صحيحة بالنسبة إلى أصحابها، ومع هذا فإن النص السابق ليس كما أورده بورغاد، فقد حرفه ليوافق هواه، والنص هو " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان"<sup>(2)</sup>. وإن أين تجسد الكلمة في النص؟ لا وجود له. ثم إذا نظرنا إلى هذا النص نستطيع أن نفهم منه الوحدانية لا التجسد، ذلك أنه من قوله: "في البدء كان الله" إلى قوله "وكان الكلمة الله" ذلت بقوله: " هذا كان في البدء عند الله"، وإن فالكلمة ليست شيئاً آخر غير "كن فيكون".

وحتى مع هذا، فقد تبين لنا أثناء دراستنا للأناجيل تهافت هذا الإنجيل وعلاقته بالفلسفة اليونانية وجهد صاحبه ومترجمه إلى آخر ما ذكرنا عنه أثناء حديثنا عنه.

وأما الزعم بأن روح القدس هو أب المسيح، فإنه يدل على واحد من اثنين. إما أن بورغاد كافر بالوهمية المسيح، وإما أن جميع النصارى كافرون بهذه الألوهية. ذلك أننا لم نجد أحداً من النصارى زعم أن الروح القدس هو أب المسيح حتى من حيث كونه ناسوتاً. وإنما الذي وقع، هو اختلاقهم هل الروح القدس انبثق من الأب فقط أم من الابن والأب معاً. وهذا هو أساس الاختلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية كما بينا في العقيدة النصرانية وكما بينا كذلك في الاختلافات بين النصارى، وبورغاد من الذين يزعمون بانبثاق الروح القدس منهما معاً.

وأما الزعم بأن أمه خرجت من مؤمنين بالله وحده ومن سيدنا إبراهيم، فإن هذه مغالطة كبرى. ذلك أنه لا يعرف نسب مريم منها إلى إبراهيم حتى يحكم بأنها خرجت فقط من مؤمنين بالله وحده. وكيف يقول بالله وحده والله عنده ثلاثة! . والواقع إذا خرجت من إبراهيم، نتماعل: أمن هاجر أم من سارة؟

(1) فرانسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة، ج2، ص30-32.

(2) إنجيل يوحنا، إصحاح 1، آيات 1-3.

والجواب : من سارة، وهنا تكون الكارثة حسب كتاب بورغاد المقدس، لأن سارة هي أخت إبراهيم حسب الكتاب المقدس، وإبراهيم كان إنن متزوجا بأخته، وهذا لم يكن جائزا. وقد بينا هذا أثناء حديثنا عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، كما تبين لنا حسب كتابهم المقدس أيضا أن إبراهيم كان نبوتًا؛ لأنه قدم سارة مرتين لمضاجعتها إحداهما لملك مصر والأخرى لملك جرار، ولا داعي لأن نكمل سلسلة النسب مكتفين بما نكرناه في " الأنبياء في الكتاب المقدس".

وأما الزعم بأن المسيح كلمة الله أو ابن الله مما يجعله أفضل من محمد الذي كان أجداده مشركين. فإن بورغاد بنى ادعاءاته كلها على هذه المقدمة الخاطئة، هي كون المسيح ابن الله. وما بني على خطأ لا يكون صوابًا، لأن المقدمات الكاذبة لا تنتج نتائج صادقة. وتبريره لتلك المقدمة هي كونه من دون أب. ولقد أثبتنا تهافت هذه العقيدة أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية. ثم هل بورغاد يؤمن بالإنجيل الأربعة أم لا؟ والجواب أنه يؤمن بها، ولكن هذه الإنجيل لم يتعرض منها إلى نسب المسيح سوى اثنين فقط، هما متى ولوقا<sup>(1)</sup>، وهما معا لم يوردا اسم الله في شجرة أجداد المسيح كما مر أثناء حديثنا عن بعض التناقضات الموجودة في الإنجيل، وبورغاد مثل غيره من النصاري يزعم أن متى ولوقا كتب إنجيليهما بإلهام من الله، فهل يعقل أن الله يلهمهما سلسلة أجداد المسيح وينسى اسمه أو يسقطه عمدا منها؟، وإن ما دامت الإنجيل لم تثبت ذلك فقد بطل كل ما ادعاه بورغاد. وعلى ذكر هذه السلسلة في الإنجيلين، فإننا إضافة لما بيناه أثناء دراستنا لها نجد في قائمة الأسماء 66 كثيرا من أجداد المسيح كانوا كفارا، بل الأخطر من هذا نجد أن بعض أجداد المسيح كان متزوجا بأخته وديوثا كما هو حال سيدنا إبراهيم، وبعضهم نتج عن زنا المحارم كما هو حال فارص بن يهوذا الذي نتج عن زنا يهوذا بزوجة ابنه ثامار، فأنجبت توأمين أحدهما فارص، مما يجعل فارص لا يدخل في جماعة الرب. ولما كان فارص هو الجد التاسع لداود أو العاشر فإن داود أيضا لا يدخل في جماعة الرب كما بينا في " الأنبياء في الكتاب المقدس". وقد توصلنا إلى أن المسيح نتج عن زنا المحارم من الأبوين؛ لأن نسب داود من جهة الأم ينتهي إلى ما أنجبتة ابنتنا سيدنا لوط من زناهما بأبيهما وهما بني عمون والمؤابيون.

وأما الزعم بأن أجداد محمد كانوا مشركين بينما أجداد المسيح كانوا مؤمنين، فإن القاعدة المعروفة في العالم أجمع أن من أبطا به عمله لم يسرع به نسبه. والغريب أن بورغاد يخالف كتابه المقدس في هذه القضية، ذلك أن الكتاب المقدس يقرر " النفس التي تخطئ فهي تموت، والابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن، وعدل العادل يكون عليه ونفاق المنافق يكون عليه"<sup>(2)</sup>. وبناء على هذا، فإننا لو افترضنا صحة مقولة بورغاد فإن ذلك لا يطعن في نسب النبي صلى الله عليه وسلم.

ومع هذا، فإن كل أجداد المسيح حسب الكتاب المقدس كانوا إما ديوثين أو زناة زنا عادي أو زنا المحارم كما بينا في " الأنبياء في الكتاب المقدس"، ومع كل هذه المخازي فإن بعضهم كان مشركا حيث كان يعبد الأصنام ويبني لها المعابد، ومنهم سليمان بن داود الذي هو أحد أجداد المسيح حسب

(1) أحد دينات، المسيح في الإسلام، ص 87-89.

(2) حرقبال، اصحاح 18، لفر 20.

الأناجيل، وقد أضيف إلى كونه عابد أصنام وباني المعابد لها أن أمه زانية، وهي بتشيع بنيت أليعام زوجة أوريا الحثي التي زنا بها أبوه داود وأحبها<sup>(1)</sup>. كل هذا حسب الكتاب المقدس.

هذا حال أجداد المسيح حسب الكتاب المقدس، وإضافة لكل هذا فمن أين لبورغاد أن يحكم بأن كل أجداد محمد خلال ألفي عام كانوا مشركين وهو يعلم أن الحنيفية كانت موجودة عند العرب، وحتى مع شركهم، فقد كانوا يؤمنون بالله الذي خلق كل شيء. والحقيقة أن الذي يطعن في نسب الشخص، ليس كون أبويه أو أحدهما كافرا، لأن الكفر لا يتعدى من الأب إلى الابن، أو من الأم إلى الابن. ولكن الذي يطعن في نسبه هو كيفية خروجه إلى الوجود. هل أتى إلى الحياة بطريق شرعي أم عن طريق الزنا؟ . والمسيح كما مر أتى عن طريق الزنا وكل أبائه الكبار كما ذكرنا كانوا غارقين في الرذيلة. وهنا تظهر معجزة نسب النبي صلى الله عليه وسلم. ذلك أننا عندما ننظر إلى شجرة الأنساب من إبراهيم إلى كل من المسيح ومحمد، نجد شجرتين إحداهما تبدأ من سارة وإبراهيم ومنها نسب المسيح وهي الشجرة التي أوردتها متى ولوقا، وكل كبارها أي أنبيائها كما ذكرنا من الزنا والديوثة وزنسا المحارم والكذب وأخذ النبوة بالاحتيال إلى عبادة الأصنام كما هو حال سليمان إلى الانغماس في الرذيلة والقتل إلخ ما ذكرنا. هؤلاء هم أجداد المسيح كما ذكرنا الكتاب المقدس.

وأما الشجرة الأخرى فهي تبدأ من هاجر وإبراهيم، وهي شجرة طاهرة نقية، لم يتمكن أعداء محمد الأعداء الذين يقولون في أنبيائهم ما ذكرنا أن يمسوها بسوء، فلم يذكروا أن هاجر كانت يغيثا أو أن إبراهيم قدمها لغيره، ولم يذكروا أن إسماعيل كان فاسقا أو سكيثا. هذه الشجرة هي شجرة نسب خاتم الأنبياء، وهنا نتساءل: كيف غفل أعداء محمد من يهود ونصارى عن تلويثها كما لوثوا الشجرة الأخرى؟ كيف يمكن قبول أن يقولوا في أنبيائهم ما ذكرنا ولا يستطيعون أن يمسوا شجرة محمد صلى الله عليه وسلم بسوء؟. إننا لا نجد لذلك أي تفسير سوى القول بأن ذلك معجزة. وهاهو نسب محمد صلى الله عليه وسلم من جهتي الأب والأم.

### نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

النسب الشريف لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم معروف من جهة أبيه وأمه كما أن نسب أبيه معروف كذلك من جهتي الأب والأم، وكذلك نسب أمه أيضا فإنه معروف من جهتي الأب والأم. وهاهو النسب الشريف من جهة الأب ثم من جهة الأم.

### النسب الشريف من جهة الأب :

هو محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وينتهي نسب عدنان إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما

(1) ومن أراد التوسع في هذا الموضوع إلى ما كتبته في "الأنبياء في الكتاب المقدس"

السلام<sup>(1)</sup>. هذا النسب الشريف لا خلاف فيه البتة وإن كان كتاب السير اختلفوا بعد ذلك في بعض أسماء أجداده<sup>(2)</sup> فإن ذلك منطقي، راجع لطول العهد والأمد، ولكن الاتفاق مطلق في أن جده عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، كما أن الله اختاره من أزكى القبائل وأفضل البيوت وأظهر الأصلاب. فما تسلك شيء من أدبران الجاهلية إلى شيء من نسبه، روى مسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى هاشما من قريش، واصطفاني من بني هاشم"<sup>(3)(4)</sup>.

ويزيد القضية تأكيداً أن محمداً صلى الله عليه وسلم ولد في نفس المكان الذي عاش فيه جده إسماعيل عليه السلام، والذي يثبت حياة جده إسماعيل بمكة أربعة براهين لا يمكن أن يتطرق إليها الشك أبداً، هي:

- البيت الذي بناه مع جدنا إبراهيم، ومقام أبيه إبراهيم بالبيت، وحجر سيدنا إسماعيل، وبعض مناسك الحج التي ظل العرب يقومون بها رغم شركهم إحياء لذكراه واعترافاً بفضلته وارتباطاً به، وما زال المسلمون يقومون بها إلى الآن كالسعي والتحرر رمزاً عن فدائه بذبح عظيم<sup>(5)</sup>. وهذا في حين نجد

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 1، ص 2.

(2) المرجع نفسه، هامش رقم 2، ص 2.

(3) رواه مسلم.

(4) محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دط، دار الشهاب، للطباعة والنشر، باتنة، 1985، ص 59.

(5) زعم أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل، والحقيقة أن الذي يقرأ نص التوراة تأمل يدرك جيداً أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق، لأن النص يقول - والخطاب من الله - "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق" (1) ثم كررت القضية بدون إسحاق، فيقول "فلم تمسك غنك وحيدك عني" (2)، ويقول: "ولم تمسك ابنك وحيدك" (3) والنص التوراتي يثبت أيضاً أن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم من هاجر، وعندما ولد كان سن سيدنا إبراهيم 86 سنة (4)، وأما إسحاق فقد كان سن أبيه عند ميلاده 100 سنة (5)، وبذلك يكره إسماعيل إسحاق - 14 عاماً، ولذلك أضافوا اسم إسحاق إلى النص السابق ليزعموا أنه هو المقصود، ولو كان هو المقصود لكان النص: خذ ابنك وحيدك - أي من سارة - الذي تحبه إسحاق. كما يزعمون أيضاً للتضليل أن إبراهيم أخذ هاجر وابنها إلى بئر سبع، وهذا متناقض مع الرواية القرآنية "ربنا إن أسكنت من ذريع بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم" (6) والواقع بين صحة الرواية القرآنية ونهايات رواية الكتاب المقدس وذلك لأن الآثار المادية والمعنوية الدالة على صحة الرواية القرآنية مازالت موجودة إلى يومنا هذا، فالآثار المادية هي بناء البيت ومقام سيدنا إبراهيم وحجر سيدنا إسماعيل كما ذكرنا وبئر زمزم، والمعنوية تتمثل في مناسك الحج، إذ من المؤكد أننا نسعى في نفس المكان الذي سعت فيه هاجر بين الصفا والمروة للبحث عن الماء لرضيعها، ونحج في عيد الأضحية رمزاً لفداء سيدنا إسماعيل إله ما يفعله الحاج. والجدير بالذكر أن مناسك الحج ظلت مستمرة من عهد سيدنا إبراهيم وإسماعيل إلى يومنا هذا، ورغم إدخال المشركين لكثير من عاداتهم الوثنية إلا أن أصلها ظل مستمراً موجوداً، وهل هناك أدلة أكبر من هذا؟ وقد خلق ابن القيم على هذا قالاً: "فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه، فبئسما اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الذي اشترك في بناه إبراهيم وإسماعيل، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وإسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبيح بالهام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لكانت القرابين والنحر بالهام لا بمكة" (7) وعندما نرجع إلى النص القرآني نجد فيه شبهة، أولها أن التبشير بإسحاق تم بعد الفداء أي أنه عندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح ابنه لم يكن إسحاق قد ولد، وبهذا يمكن أن نفهم أن التبشير بإسحاق إنما هو من من الله على إبراهيم مكافأة له على صبره وامتناله الأمر الإلهي بذبح إسماعيل، وثانيها أن زوجته سارة عندما بشرت بإسحاق بشرت أيضاً في البشري ذاتها أنه يأتي منه يعقوب، ويستحيل أن ينشر بأن إسحاق سيأتي منه يعقوب ثم تفاجأ بأن يطلب منها نوح إسحاق وهو طفل صغير. اللهم إلا إذا كان هذا الإله متقلب المزاج، وهو ما يتناقض مع طبيعة الألوهية ذاتها -

اختلاف الأنجيل في مكان إقامة والدي المسيح كما ذكرنا، وكذا في المكان الذي ولد به وبعضهم يجعله في المذود أو الإسطبل، ولقد ذكرنا أثناء ردنا على بورغاد في تهجمه على مناسك الحج أن من أسباب تهجمه عليها هو ارتباطها بإسماعيل وإبراهيم عليهما السلام مما يعني تحويل قيادة البشرية من بيت المقدس إلى مكة، والعرب كما هو معروف نسبة ظلت تحافظ على الأسباب وتعتز بها وتفتخر. ومن أراد التحقق من هذا فليرجع إلى أشعار العرب وتاريخهم في الجاهلية ليعرف ذلك.

وأجداد النبي صلى الله عليه وسلم كما بين هو صلى الله عليه وسلم خيار من خيار. فهم أشرف العرب شرقا ونسبا. وإذا كان ما سبق نسب عبد الله من جهة أبيه، فإن نسب عبد الله من جهة أمه هو كذلك شرقا ورفعته، فإن أمه هي فاطمة بنت عمر بن عائد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب<sup>(1)</sup> ... ومن هنا فإنها تلتقي مع ابنها عبد الله ومع خاتم الأنبياء في جددهم مرة بن كعب. وبهذا ينتهي نسب والد النبي صلى الله عليه وسلم إلى سيدنا إسماعيل من جهتي الأب والأم.

#### النسب الشريف من جهة الأم :

وأما نسب أمه أمنة، فهي من جهة أبيها : بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب

= وهكذا فإن الذبيح هو إسماعيل نص الكتاب المقدس ونص القرآن الكريم، وهما نص القرآن الكريم المبين لذلك، "وقال إن ذاهب إلى رب سيهدين رب هب لي من الصالحين فيشرناه بسلام حلیم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إن أرى في المنام أن أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت اعمل ما تؤمر متحدياً إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للبحين ونادياه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا هو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم... وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين (8). وقوله تعالى: "وامرأته قائمة فضحكت فيشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب" (9). هذان النصان يبينان بدقة لا تحتمل الشك أبداً أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق لأنهما يبينان المرحلة التاريخية التي ولد فيها كل منهما، والمرحلة التاريخية التي تم فيها الأمر بالذبح. فإسماعيل وفقاً للنص القرآن ولد مباشرة بعد بأس إبراهيم من قومه فخرج منهم، وأثناء خروجه "وقال إن ذاهب إلى رب سيهدين رب هب لي من الصالحين ... بذبح عظيم" (10). ففي هذه المرحلة رزق بإسماعيل وكلف بذبحه بعد أن بلغ معه السعي وتم فئاؤه. وكان من الذين آمنوا به لوط عليه السلام "فأمن له لوط" (11). وأما إسحاق فقد ولد بعد أن بعث لوط إلى قومه ومكث فيهم مدة معترة من الزمن يدعوهم إلى الله. ولما يش منهم وأراد الله إهلاكهم وكان في هذه المرحلة التاريخية لإسماعيل الذبيح قد أصبح رجلاً يقين أرسل الله الملائكة لتدمير قوم لوط فمروا بسيدنا إبراهيم ليشيره بإسحاق ومنه يعقوب، فما لبث أن جاءهم بعجل حينئذ... وأخبروه بأنهم جاءوا فلاك قوم لوط وبشره بإسحاق ومنه يعقوب "ولقد جاءت رسالتنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حينئذ، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلناك قبلاً لوط وامرأته قائمة فضحكت فيشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب" (12).

والواقع أن أول من أثار إسرائيلية أن الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل هو كعب الأخبار اليهودي بعد إعلانه الإسلام في خلافة سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، ووضعت بعد ذلك كثير من الأحاديث الموضوعية لتكريس هذه الإسرائيليية (13).

[1] التكوين، 22 / 2. (2) التكوين، 22/22. (3) التكوين، 17/22. (4) التكوين، 16/16. (5) التكوين، 5/21. (6) إبراهيم / 37. (7) ابن القيم المحمدي، زاد المعاد، ج1، ص16. (8) الصافات / 99-112. (9) هود / 71. (10) الصافات / 99-112. (11) العنكبوت / 26. (12) هود / 69-71. (13) ومن أراد التوسع في هذا الموضوع إلى ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج4، ص 14-19.

<sup>(14)</sup> ابن هشام السيرة النبوية، ج1، ص109.

ابن مرة<sup>(1)</sup> ... ومن هنا فإنها تلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في جددهما كلاب بن مرة. وأبوها كان سيد بني زهرة نسيا وشرفا، وأمنة هي أفضل امرأة في قريش نسيا وموضعا<sup>(2)</sup>. وأما نسبها من جهة أمها، فإن أمها هي " لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار ابن قصي بن كلاب<sup>(3)</sup>... ومن هنا فهي تلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في جددهما قصي بن كلاب. وبهذا ينتهي نسب أمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم إلى سيدنا إسماعيل من جهتي الأب والأم.

وبهذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم ينتسب انتسابا مطلقا إلى جده إسماعيل إلى أبيه إبراهيم؛ لأن أباه عبد الله ينتسب إلى سيدنا إسماعيل من جهتي الأب والأم، وأمه أمنة تنتسب كذلك إلى سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم من جهتي الأب والأم. فهو كما قال : خيار من خيار. ولقد ثبتت هذه النسبة لإبراهيم في مصدر لا يتطرق إليه الشك أبدا وهو القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ... ﴾<sup>(4)</sup>.

وبناء على ما سبق نستطيع القول بكل فخر أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خير أهل الأرض نسيا على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى نروة. وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ومنهم عدوه اللدود إذ ذلك أبو سفيان بين يدي ملك الروم، وأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيلته وأشرف الأفضاد فخذة<sup>(5)</sup>.

بعد هذا نرجع إلى بورغاد من جديد، فنجد أن النسب الذي ورد في الأناجيل للمسيح هو نسب يوسف النجار خطيب أمه حسب زعمهم. ولسنا ندري ما هي العلاقة بين المسيح وخطيب أمه.

كما نجد أنه لم يرد في نسب المسيح أنه ابن الله. ولا يمكن شئ عز وجل كما قلنا سابقا أن يسرد لنا أجداد ابنه من آدم أو من إبراهيم إلى يوسف النجار ويسقط اسمه سهوا أو عمدا.

ثم نقول لبورغاد: هل أجداد المسيح هم حسب متى أم حسب لوقا؟ هات لنا أجداد المسيح بدقة واكتف بالعشرة الأقرب للمسيح ثم بعد ذلك قارن نسبه بنسب خاتم الأنبياء. ولكنه لا يستطيع أن يفعل هذا لأن فاقد الشيء لا يعطيه. إن بورغاد ينطلق من قضية هو نفسه قد لا يؤمن بها ولا توجد إلا في ذهنه، ثم يبني عليها نتائج يطلب من الآخرين أن يسلموا بها تسليما، ومن ذلك زعمه هنا في ميدان المفاضلة بين المسيح ومحمد من حيث النسب، فينطلق من أن المسيح كلمة الله وإذن هو أفضل من محمد، وهو كلمة الله لأنه لا أب بيولوجي له. وبهذا المقياس نجد آدم أشرف نسيا من المسيح؛ لأن آدم لا أب بيولوجي له ولا أم بيولوجية. ولكن بورغاد ينكر هذا مع أن لوقا نص في إنجيله على أن آدم ابن الله<sup>(6)</sup>، وذلك في

(321) المصدر نفسه، ص156.

(4) الحج/78.

(5) ابن القيم الجوزي، المرجع السابق، ص15.

(6) إنجيل لوقا، اصحاح 3، آية 28.

عرضه لأجداد المسيح. كما نجد أن ملكي صادق أشرف نسبا من كليهما؛ لأنه لا أب له مثل المسيح ولا أم له مثل آدم، ولا بداية له ولا نهاية، وهو ما يجعله يبدؤهما معا.

ثم كيف يوفق بورغاد بين مزاعمه السابقة وبين كون المسيح ابن امرأة، أي ابن صاحبة الخطيئة الكبرى وفقا لكتاب المقدس، أي هي أساس الشر في الوجود. فكيف يكون المسيح إذن ابن امرأة ويكون نسبه شريفا من جهتها؟ ولماذا تستثنى مريم من بين جميع النساء؟. بورغاد يغالط هنا فيعتمد على القرآن الكريم، وهو ما يجعله متناقضا. فهو من جهة يعمل بلا هوادة لتحطيم القرآن والطمع فيه، ومن جهة أخرى يعتمد عليه في تفضيل مريم على العالمين. والواقع أن تفضيلها على العالمين المقصود به أنها المرأة الوحيدة التي حملت بدون التقاء جنسي، ولكن القرآن الكريم لا يؤلهاها، بل يعتبرها بشرا تأكل الطعام. ولما كان بورغاد مغرما بالاستدلال من نصوص الإسلام بما يخدم هواه فقط، فتمنينا لو بين أثناء حديثه عن تفضيل القرآن لمريم أن بعض الأحاديث النبوية تذكر أنها ستكرم بأنها ستكون زوجة لمحمد صلى الله عليه وسلم في الجنة.

## الفصل السادس

### الاختلافات بين المسلمين والاختلافات بين النصارى

#### 1- الاختلافات بين المسلمين والنظام السياسي الذي أقامه الرسول

##### صلى الله عليه وسلم وورثه عنه الخلفاء الراشدون

يزعم بورغاد أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يترك نظاما سياسيا لأتباعه ولذلك اختلفوا .  
والجواب على هذا، أن محمدا صلى الله عليه وسلم ترك نظاما سياسيا لأتباعه، كما ترك لهم دولة مبنية على الأسس التي تقوم عليها الدولة الحديثة المتكونة من الإقليم والشعب والسلطة.  
وأول دولة إسلامية أقيمت في المدينة المنورة عقب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها مباشرة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول رئيس لها، أما أسس النظام السياسي الذي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم فهي :

#### 1- البيعة :

قلنا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أسس أول دولة إسلامية بالمدينة المنورة عقب هجرته إليها، وكان صلى الله عليه وسلم أول رئيس لها، وتمت رئاسته لها بالبيعة التي تمت بينه وبين المهاجرين أولا، ثم الأنصار ثانيا، ثم بينه وبين كل من كانوا يعتنقون الإسلام تباعا. وبهذا فإن تلك البيعة كانت عقدا تضمن قبول السمع والطاعة له صلى الله عليه وسلم بوصفه رئيسا للدولة وإماما للمسلمين. ولا أدل على هذا من أن صيغة المبايعة "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه"<sup>(1)</sup>. فهذه صيغة تتضمن المسؤوليات والتبعات التي من شأن رئيس الدولة أن يحملها رعيته من سمع وطاعة وانصياع لكل ما يدعوهم إليه<sup>(2)</sup>.

وقد بين القرآن الكريم كيف تمت هذه البيعة للنبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما ﴾<sup>(3)</sup>، وقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يعصينك في

<sup>(1)</sup> رواه البخاري عن عبادة بن الصامت

<sup>(2)</sup> محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام ورمح لهاج وحل المشكلات، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة الفارابي دمشق،

1982، ص43.

<sup>(3)</sup> الفتح/10



معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) (1) (2)، وهكذا أقام الرسول صلى الله عليه وسلم الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة، وأنشئت على ثلاث أسس هي :

المسجد، والمواخاة<sup>(3)</sup>، ودستور، والذي تهمننا الإشارة إليه هذا الأخير، الذي يعد أول وثيقة دستورية في التاريخ - في حدود علمنا - صيغت كأحدث ما تصاغ به الدساتير الحديثة اليوم، قام وجودها على فكرة "الأمة الواحدة" التي جاءت حديثاً طارئاً على أذهان العرب ومشاعرهم جميعاً في ذلك العصر، والتي عبرت عنها تلك الوثيقة الدستورية في أول بند من بنودها<sup>(4)</sup>، وهو " هذا كتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قریش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس...<sup>(5)</sup> .

وإذا كانت هذه الوثيقة التي هي عبارة عن أول دستور في التاريخ قد حددت علاقات المسلمين بعضهم بعضاً في الحرب والسلام وأنهم أمة من دون الناس، فإنها حددت أيضاً علاقات المسلمين مع أهل الكتاب في الحرب والسلام، وكذا علاقات المسلمين مع المشركين<sup>(6)</sup> .

وقد قررت ترتيبات إدارية كثيرة نجدها مقررّة اليوم في مختلف الحكومات وإن كانت مختلفة عنها شكلاً، ويكفيها أنها قامت على أسس وقواعد دستورية كالعدل والشورى والحرية والمساواة، وقد ظهرت بوضوح تام في منهج الحكم وتبدير الأمور، وكانت دعائم راسخة لأوطد حكم عرفه التاريخ<sup>(7)</sup> .

وهكذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أول رئيس للدولة الإسلامية، وأن رئاسته تمت بالبيعة، أي بالانتخاب الحر الناتج عن الوعي التام للناخبين، وأن هذه البيعة هي الطريقة التي اتبعت وتم بها اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة، واستمرت بعد ذلك وإن كان قد وقع فيها تعديل<sup>(8)</sup> .

وبهذا، فإن الشرط الأول الذي يشترطه الجمهور لاختيار الخليفة هو المبايعة من أهل الحل والعقد والجنود وجماهير المسلمين، أي يعطي كل هؤلاء الخليفة عهداً على السمع والطاعة في المنشط والمكروه ما لم تكن معصية، ويعطيهم العهد على أن يقيم الإسلام بكل ما فيه، أي حراسة دينهم وسياسة دنياهم.

(1) المنحة/ 12.

(2) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والقضائى وتاريخ المذاهب الفقهية، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص83.

(3) وهنا يفهم حيناً أن الأحرار والمحبة إنما هي من مفومات الدولة الإسلامية ولذا فالمسلمون ليسوا حجة على الإسلام إن خالفوا هذا المبدأ.

(4) محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام، ص44.

(5) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط5، دار النفائس، بيروت، 1985، ص59.

(6) ومن أراد الإطلاع على هذا الدستور كاملاً فليرجع إلى محمد حميد الله، المرجع نفسه، ص59-62.

(7) محمد سعيد رمضان البوطي، المرجع نفسه، ص44، 45.

(8) إهنا الحديث عن القرشية إنما موضح اختلاف وإن كان الخلفاء الأربعة جميعاً قرشيين.

2- الشورى : أي يكون اختيار الخليفة بشورى بين المسلمين، وذلك لأن الحكم الإسلامي في أصل وضعه شورى، لقوله تعالى: " وأمرهم شورى بينهم"<sup>(1)</sup>، ولقوله تعالى أمرا النبي صلى الله عليه وسلم " وشاورهم في الأمر"<sup>(2)</sup>. وهو ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يلتزم بالشورى في كافة الأمور التي تهم المسلمين ولم ينزل فيها وحى، كالحروب ونتاجها وشؤون الحكم<sup>(3)</sup> إلخ، وهو ما كان يقوم به خلفاؤه الراشدون الأربعة. ولما كان الحكم الإسلامي في أصله شوريا أوجب ذلك أن يكون اختيار الخليفة شوريا، لأنه لا يمكن التوفيق بين كون الحكم شوريا وكون الخليفة مفروضا بحكم الوراثة، وهو ما بينه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أي وجوب أن تكون البيعة عن شورى " من بايع رجلا بغير مشورة المسلمين فلا يبائع هـو، ولا الذي يبائع هـ". وبهذا فإن الشورى شرط لا بد منه، والبيعة تكون بمشورة المسلمين وهذا بنص القرآن الذي أمر بالشورى وبين بيعة المسلمين للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد التزمها السنة. ولكن لم تبين طريقة الشورى ولا من هم أهلها، وترك للناس تنظيمها وتعريف طريقتها، وذلك لأنها تختلف باختلاف الجماعات والأصناف والعصور. فما يصلح عن قوم قد لا يصلح عن غيرهم، وما يصلح في عصر قد لا يصلح في غيره. ولذلك فانه عز وجل أمر بالشورى كما أمر بالعدل، وترك للناس ترتيب أمثل طريق لتحقيقهما<sup>(4)</sup>.

وقد اتبع المسلمون ثلاث طرق في الشورى في اختيار الخلفاء الراشدين

الأولى : اختيار حر عن مشورة من غير عهد من أحد، ويتمثل هذا في أبي بكر الذي اختير اختيارا حرا من غير عهد.

الثانية : أن يعهد خليفة لمن يليه لا تجتمع به قرابة، وهذا هو الذي كان في عهد بكر إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. وهنا نشير إلى أن العهد كان بمثابة اقتراح من أبي بكر، ولم يكن فيه إلزام. وقد بايعه المسلمون طائعين مختارين بعد اقتراح أبي بكر له ومناقشتهم لأبي بكر في ذلك الاختيار، ولما أدركوا صواب رأيه اختاروه راضين.

الثالثة : طريقة العهد إلى أكثر من واحد يكونون أفضل الناس. وهو ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد رأى عمر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد إلى أحد، ورأى أبا بكر قد عهد إليه<sup>(5)</sup> ، فقال : " إن تركت فقد ترك من هو خير مني، وإن عهدت فقد عهد من هو خير مني فتوسط في الأمر وجعل الأمر شورى إلى ستة يختارون من بينهم، فاختاروا عثمان رضي الله عنه فبايعه الناس، فكانت الشورى في هذه السنة شورى اقتراح لا شورى تعيين، ولو أن المسلمين لم يبايعوا ما كان عثمان

<sup>(1)</sup> الشورى/38.

<sup>(2)</sup> آل عمران/159.

<sup>(3)</sup> وكان (ص) يعزل عند رأي أصحابه، وأحيانا كان يرى غير ذلك الرأي ولكنه يعزل عليه حتى لا يكسر الشورى ومثال ذلك الخروج لأحد فقد كان رأي النبي صلى الله عليه وسلم عدم الخروج، ولكنه نزل عند رأي أغلبية أصحابه.

<sup>(4)</sup> محمد أبو زهرة، تاريخ الملوك الإسلامية، ص85،86.

خليفة، لأن مجرد الاقتراح لا يكون به إماماً، بل الإمامة تثبت بالمبايعة التي كانت مظهر الاختيار الحر الصحيح، والذي تتم به الولاية ويتحقق معنى الإمامة<sup>(1)</sup>.

وما قيل عن خلافة عثمان يقال كذلك عن خلافة أبي بكر وعمر، فالذي جعلهما خليفين هو بيعة المسلمين لا اقتراح أحدهما للآخر. وهنا يجب أن نميز بين العهد والبيعة، فالعهد هو مجرد ترشيح ومن حق المسلمين المبايعة أو عدمها دون إكراه. ولأهمية الشورى في الإسلام فقد سميت بها سورة كاملة يقارب حجمها الحزب، هي سورة الشورى.

3- العدالة : وهي جوهر الخلافة ولبها، ولذلك أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم كما أمر بها أتباعه، قال تعالى: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾<sup>(2)</sup>. وتشمل كل أنواع العدالة، بحيث يجب أن يكون الخليفة عادلاً في ذاته، لا يؤثر قرابة ولا يقدم أحداً لهوى تطبيقاً لقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين... خبيراً﴾<sup>(3)</sup>. وعدالة الخليفة توجب عليه تولية الأمور من يصلح لها، فيختار العدل الرفقاء، حيث شدد النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار الولاية، ومما قاله في ذلك " من ولي من أمر أمتي شيئاً فأمراً أحداً محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً"<sup>(4)</sup>، وقال أيضاً: " من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله فقتل خزان الله ورسوله والمؤمنين"<sup>(5)</sup>. هذه العدالة مطلقة، فيجب على الإمام أن يعامل بها أعداءه أيضاً " ولا يجرمكم شئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى"<sup>(6)</sup>. كما يجب أن تشمل العدالة القانونية، بحيث يطبق الحكم على الجميع بما في ذلك الخليفة نفسه. ولقد قرر الفقهاء أجمعون أن الخليفة ذاته لو ارتكب جنابة اقتص منه، ولو ارتكب حداً وجب إقامة الحد عليه، كما يجب أن تشمل العدالة الإجتماعية بحيث توزع موارد الدولة على جميع الناس بالعدل وينظم التكافل الإجتماعي والعدالة الإقتصادية ومنع جعل المال دولة بين الأغنياء، وهو ما جعل عمر بن الخطاب يمتنع عن تملك أراضي العراق ومصر والشام للفتاحين لكي لا يكون دولة بين الأغنياء، كما تشمل العدالة الإدارية التي توجب خضوع الولاية للعدل وعدم تسليطهم على رقاب المسلمين<sup>(7)</sup> إلخ.

(1) المرجع نفسه، ص 86، 87.

(2) الشورى/15.

(3) النساء/135.

(4) رواه الحاكم في المستدرک في کتاب الأحكام مع بعض التغير وقال بأنه حديث صحيح الإسناد.

(5) رواه الحاكم في المستدرک في کتاب الأحكام مع بعض التغير وقال بأنه حديث صحيح الإسناد.

(6) المائدة/8

(7) محمد أبو زهرة، تاريخ المذهب الإسلامية، ص 90، 91، 93.

وهنا نجيب بورغاد بأن ما سبق هو أساس النظام السياسي الذي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم لأتباعه، ونطرح عليه السؤال الآتي: "ما هو النظام السياسي الذي تركه يسوع لأتباعه؟! والجواب معروف وهو: لا شيء. وهنا بأي حق يعترض بورغاد على محمد صلى الله عليه وسلم في شسئيء لم يشر إليه يسوع لا من قريب ولا من بعيد؟! إن اعتراضه على خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون منطقياً لو أن دين بورغاد حل مشكلة ما، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يقدم حلاً لها. أما أن العكس هو الصحيح، فإن الغرض من الاعتراض واضح، هو تشويش أفكار العامة وتشكيكهم في الدين الصحيح. وهذا لا يلجأ إليه رجل دين نزيه، لأن رجل الدين يجب أن يكون مثالا لطهارة النفس ونقاوة القلب وسلامة الضمير مما يجبره أن يبتعد عن الكذب والتزوير والتدليس، وللأسف فإن كل هذه المسلوىء تمثلها بورغاد أحسن تمثيل.

ومهما يكن من أمر، فإننا يجب أن نشير إلى أن المسلمين لم يختلفوا هل لابد من تعيين الإمام أم لا، ولكنهم اختلفوا فيمن هو الشخص الأصح للإمامة، لم يختلفوا هل يعين بالبيعة أم بالوراثة لأنسبهم اتفقوا جميعاً على البيعة حتى في حالة كون الحكم وراثياً. لم يختلفوا في المواصفات الأساسية التي يجب أن تتوفر في الإمام وإنما اختلفوا في الشخص الذي تتوفر فيه تلك المواصفات كما أن الاختلافات التي وقعت بين المسلمين لم تتناول لب الدين وجوهره، فلم يكن الاختلاف في وحدانية الله وشهادة أن محمداً رسول الله ولا في أن القرآن نزل من عند الله وأنه معجزة النبي الكبرى، ولا في أنه يروى بطريق التواتر نقلته الأجيال الإسلامية كلها جيلاً بعد جيل<sup>(1)</sup> كتابة وحفظاً، وأن المصحف الموجود بيننا اليوم هو التدوين الكامل للقرآن الكريم حسب ترتيب العرصة الأخيرة للرسول (ص) على جبريل عليه السلام وهو النص المدون بإملاء النبي صلى الله عليه وسلم وتصحيحه، وهو الذي جمع في عهد أبي بكر الصديق وقام بتدوينه سيدنا عثمان<sup>(2)</sup>. هذا المصحف لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، بحيث نجد أن أي مصحف من مصاحف المسلمين اليوم فسي أي مكان في العالم الإسلامي هو نفسه مصحف النبي (ص) يحتوي على القرآن كله دون زيادة حرف أو نقصان، بل ولا حتى حركة.

وبهذا فرغم اختلاف المسلمين إلى فرق إلا أنه "لم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا"<sup>(3)</sup>. وهذا في حين نجد النصارى لكل طائفة كتابها المقدس الخالص بها، المناقض لكتاب الفرقة المختلفة معها، وكذا عقائد كل فرقة تناقض عقائد الأخرى وهكذا. كما أنه لا يوجد اختلاف بين الفرق الإسلامية في أصول الفرائض كالصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم، أي

(1) المرجع نفسه، ص 11.

(2) محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن، ترجمة محمد عبد العظيم علي، مراجعة السيد محمد بدوي، دط، دار القلم، الكويت، دت، ص 41.

(3) المرجع نفسه، ص 40.

أن الخلاف لم يكن في ركن من أركان الإسلام، ولا في أمر علم من الدين بالضرورة كتحريرم الخمس والخنزير وأكل الميتة، والزواج والقواعد العامة للميراث، وإنما الاختلاف في أمور لا تمس الأركان ولا الأصول العامة<sup>(1)</sup>.

هذا هو النظام السياسي في مجمله الذي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا هو حال الاختلاف بين المسلمين.

ولكن ما هو حال أبناء ملة بورغاد النصارى، هل توجد اختلافات بينهم أو بين فرقهم؟ وإذا كانت موجودة، فما مداها، أهى أقل خطرا وضررا من الاختلافات الموجودة بين الفرق الإسلامية، أم أنها أشد خطرا وأكبر ضررا؟ وإذا كان هذا الوصف الأخير هو حالها، فإن تهجم بورغاد على الرسول صلى الله عليه وسلم واتهامه بأنه لم يترك نظاما سياسيا وأن أصحابه اختلفوا بعده يصح عديم المعنى لأنبه كمن يرمى قلعة محصنة بالحجارة وبيته من زجاج، وهذا ما يدعونا إلى النظر في الاختلافات الموجودة بين النصارى.

الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) محمد أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 11.

## 2- الاختلافات بين النصارى وأكذوبة العصمة البابوية

لا توجد ملة من الملل انقسم أصحابها وتناحروا واختلفوا وتصارعوا مثل النصرانية، ولقد ذكر ول ديورانت أن أتباع المسيح في القرون الثلاثة الأولى من ظهوره انقسموا إلى مائة عقيدة وعقيدة<sup>(1)</sup> - بينما ظل أتباع محمد صلى الله عليه وسلم معتقدين عقيدة واحدة هي التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم - ، ولقد بينا قبلا أن كل ما في النصرانية من عقائد وطقوس كان موجودا قبلها، مما جعل ول ديورانت يقرر بحق أن اتفاق النصارى لو حدث إنما يكون غريبا " لو أن عادات وعقائد مختلفة متناقضة لم تنشأ في مراكز المسيحية المتعددة المستقلة بعضها عن بعض إلى حد ما والخاضعة إلى تقاليد وبيئات مختلفة لو أن هذا لم يحدث لكان عدم حدوثه أمرا شديدا غرابا"<sup>(2)</sup>.

ومن الاختلافات الموجودة بينهم :

- اختلاف أنجيلهم وتناقضها الصارخ كما بينا قبلا .

- اختلافهم حول تلك الأنجيل، وما زال إلى يومنا هذا الكتاب المقدس للكاتوليك يختلف عن الكتاب المقدس للبروتستانت، وكلا هذين الكتابيين يختلف عن الكتاب المقدس للأرثوذكس، حيث نجد مجموع أسفار الكتاب المقدس للكاتوليك  $46 + 27 = 73$  سفرا، أما مجموع أسفار الكتاب المقدس للبروتستانت فهو  $39 + 27 = 66$  سفرا، ويسقطون سبعة أسفار يعتبرونها مزيفة هي : طوبيا ، يهوديت، الحكمة، إيكليزيا إستيكس، ، باروخ، المكابيين الأول ، المكابيين الثاني. وأما الأرثوذكس فمجموع أسفار كتابهم المقدس 70 سفرا، حيث يسقطون ثلاثة أسفار يعتبرونها مزيفة، هي : باروخ، المكابيين الأول والمكابيين الثاني<sup>(3)</sup>، وذلك إضافة إلى الاختلافات الموجودة في محتوى الأسفار المتفق حولها. وهنا يتساءل المرء : من المعصوم من هذه الفرق الثلاثة التي يستحيل اعتبار جميعها مصيبا، واختلافها يدل على أن اثنين منها على الأقل ضال، وما دام لا يمكن تعيين المصيب من المخطئ لإدعاء كل منها الصواب لنفسه وتخطيء الآخر، فإن العصمة تستحيل في حق الفرق الثلاث. وهنا نتساءل : لماذا لم ينزل الروح القدس على هذه الفرق ويوحى إليها بالصواب فتتحد كلمتها حول كتابها المقدس؟.

- اختلاف النصارى حول العقيدة النصرانية منذ نشأتها إلى يومنا هذا كما بينا قبلا. ويمكن أن نبلور الاختلافات بين النصارى من خلال ما يأتي :

<sup>(1)</sup> ول ديورانت، قصة الحضارة لهر والمسيح، م3، ج3، (11)، ص291.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص290.

<sup>(3)</sup> محمد عبد الله الخرفلوي، في مقارنة الأديان (بحوث ودراسات)، ط1، دار المنابة، مصر 1986، ص36، 37.

## حياتة تلاميذ المسيح للمسيح وخلافهم له واختلافهم فيما بينهم

حياتة تلاميذ المسيح له في حياتة :

لقد اتهم يورغاد كما ذكرنا قبلا محمدا صلى الله عليه وسلم بأن أصحابه اختلفوا بعد وفاته وتصارعوا، واعتبر ذلك دليلا على عدم نبوته، وتتاسى أن أصحاب المسيح لم يختلفوا ويتصارعوا بعد غياب المسيح فحسب، بل في حياتة وحضرته أيضا، بل تخلوا عنه جميعا في حالة الشدة وهربوا وخانوا وتكبروا له، وذلك وفقا لما هو موجود في الأناجيل، ويمكن أن نقسم هذا إلى قسمين : الخيانة الجماعية، الخيانة والتكبر الفردي.

أ- الخيانة الجماعية للمسيح ليلة القبض عليه :

وتتمثل في شك جميع الحواريين قاطبة في المسيح ليلة القبض عليه، وتخليهم عنه في حالة الشدة وفرارهم عنه، رغم إخباره لهم بكل هذا قبلا، فوعده بأنه إن يحصل حتى لو اضطروا أن يموتوا معه. ولكنهم تخلوا عنه وتركوه في أيدي أعدائه، بل ما ترويه الأناجيل يبين بوضوح أنه لم يكونوا لا دينيين فحسب، بل لم يكونوا أيضا ذوي مروءة. ذلك أن عيسى ليلة القبض عليه كان عالما بما سيحصل له، لذلك كان في غاية الاضطراب والحزن والخوف، وقال لهم إن نفسي حزينة جدا حتى الموت، امكثوا هنا واسهروا معي، ثم تقدم قليلا وأخذ يصلي ثم جاء إليهم فوجدهم نياما، فقال لبطرس مؤنبا للجميع أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا. فمضى ثانية للصلاة ثم جاء فوجدهم نياما كالسابق، فتركهم ومضى للصلاة ثم عاد إليهم قائلا : " ناموا واستريحوا". ولما أقبل الذين يريدون القبض عليه مع دليلهم يهوذا الإسخريوطي حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا. وهاهو النص : " حينئذ قال لهم يسوع كلكم تشكون في هذه الليلة لأنه مكتوب أنني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية... فأجاب بطرس وقال له وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبدا، قال له يسوع : الحق أقول لك، إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تتكرني ثلاث مرات، قال له بطرس ولو اضطرت أن أموت معك لا أنكر، هكذا قال أيضا جميع التلاميذ... فقال للتلاميذ اجلسوا هنا حتى أمضي وأصلي هناك، ثم أخذ معه بطرس وابن زبدي وابتدا يحزن ويكتب فقال لهم نفسي حزينة جدا حتى الموت. امكثوا هنا واسهروا معي... ثم جاء إلى التلاميذ - عاد إليهم - فوجدهم نياما فقال لبطرس أهكذا ما قدرتم أن تسهروا معي ساعة واحدة، اسهروا وصلوا لتلا تدخلوا في تجربة... فمضى أيضا ثانية وصلّى... ثم جاءهم فوجدهم أيضا نياما إذ كانت أعينهم ثقيلة، فتركهم ومضى أيضا وصلّى الثالثة... ثم جاء إلى تلاميذه وقال لهم: ناموا الآن واستريحوا هو ذا الساعة قد اقتربت... وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحد من الإثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب... حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا<sup>(1)</sup>.

ما سبق يبين أنه لم تكن أية محبة في قلوبهم للمسيح، وإلا ما فعلوا هذا. ذلك أنه حتى العصاة من أهل الدنيا إذا كان مقتداهم أو أحد أقربائهم في شدة مرض أو شدة اضطراب في ليلة ما لا ينامون فيها ولو

(1) إنجيل متى، ص 26 لترات 31-36.

كانوا أفسق الناس، بل يسهرون معه مزاعة لحاله وقيامه على شؤونه وتخفيفا عنه وتفكيراً في حل معضلته<sup>(1)</sup>. فكيف بمن يزعم أن الروح القدس ينزل عليهم ليتكلموا بلسانه، وأين هي عصمتهم وهم الذين بلغ بهم الأمر أن يشكوا جميعاً في المسيح ويعدون بالوفاء والثبات ثم يخذعونه جميعاً بدون استثناء؟. وأين هو ورعهم وتقواهم وسيدهم يقوم إلى الصلاة وهم يغطون في نوم ثقيل، وهو يتردد عليهم لإيقاظهم للصلاة ولكنهم لا يصلون بل يعودون إلى النوم من جديد؟! . وأبسط ما نفسر به هذا أنه لم يكن في نفوسهم أي حزن أو خوف على زعيمهم الذي سيقتل حسب زعمهم؛ لأن الحزين والخائف لا ينام، بل يحدث له اضطراب معوي من إسهال وآلام في البطن وذهاب النعاس عن أجهالته، وكل هذا لم يحدث للتلاميذ الذين بلغت بهم الأناثية وحب الذات وضعف الإيمان وعدم الإخلاص ليسوع أن تركوه جميعاً وهربوا، وهذا في الوقت الذي كان فيه أصحاب محمد ينامون في فراشه فداء له ليموتوا ليحيا.

ب- الخيانة الفردية : ونكتفي بذكر نماذج منها :

- يهوذا الإسخريوطي : هو أحد الحواريين، كان حسب زعمهم مستقيماً بروح القدس، وممثلها عنه، صاحب كرامات، حيث كان يشفي المرضى ويظهر البرص ويقيم الموتى ويخرج الشياطين مثل بقية الحواريين<sup>(2)</sup>، ومع كل هذا فإنه :

- كان سارقاً، وكان الكيس عنده وكان يسرق ما يوضع فيه، وقد اعترض على المرأة التي دهنت قدمي يسوع بطيب غالي جداً قائلاً : " لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطى للفقراء، قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء، بل لأنه كان سارقاً، وكان الصدوق عنده وكان يحمل ما يلقى فيه"<sup>(3)</sup>.

- خان المسيح ودل أعداء المسيح على مخبئه ورافقهم في إلقاء القبض عليه، فكانت بذلك نهاية المسيح حسب زعمهم، وكان المسيح قد تنبأ بهذا وأخبر تلاميذه قائلاً : " ... الحق أقول لكم، إن واحداً منكم سيسلمني... هو ذلك الذي أغمس أنا اللقمة وأعطيه، فغمس اللقمة وأعطاهم ليهوذا سمعان الإسخريوطي"<sup>(4)</sup>. وقد حدث ذلك بالفعل حيث سلمه يهوذا الإسخريوطي إلى قاتليه. وهاهو النص يوضح الخيانة والغدر بجلاء : " وخرج - يسوع - مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون حيث كان بستان دخله هو وتلاميذه، وكان يهوذا مُسَلِّمُهُ يعرف الموضع، لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه، فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصاييح وسلاح، فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه وقال لهم من تطلبون، أجابوه يسوع الناصري... وكان يهوذا مسلماً أيضاً واقفاً معهم"<sup>(5)</sup>. ولقد خان يهوذا يسوع، وباع دينه بديناه بثمن بخس هي، 30 من الفضة. وهاهو النص " حينئذ

<sup>(1)</sup> رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج2، ص 285.

<sup>(2)</sup> إنجيل متى، ص ح 10 فقرات 2، 8، 21.

<sup>(3)</sup> إنجيل يوحنا، ص ح 12، فقرات 3-6.

<sup>(4)</sup> إنجيل يوحنا، ص ح 13، فقرات 21 - 26.

<sup>(5)</sup> إنجيل يوحنا، ص ح 18، فقرات 1-5.



ذهب ... يهوذا الإسخريوطي إلى رؤساء الكهنة وقال : ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم، فجعلوا له ثلاثين من الفضة، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه<sup>(1)</sup>.

هذه الخيانة لا ينكرها أحد من النصارى، ولكنهم بدل تحليلهم للموقف يذهبون إلى تفسيره تفسيرات يهلوانية كالزعم بأن يهوذا الإسخريوطي عقوبة له على هذا مات ميتة شنيعة بتفتق بطنه وخروج أمعائه<sup>(2)</sup>.

تلميذ المسيح المدلل سمعان بطرس: أو بطرس: هو رئيس الحواريين عند الكاثوليك وخليفة المسيح، ومؤسس كنيسة روما حسب زعمهم، ولذلك فإنه من ضمن مسمياتها "الكنيسة البطرسية أو كنيسة بطرس"<sup>(3)</sup>. أنكر المسيح ليلة إلقاء القبض عليه، وقد تنبأ يسوع بهذا الإنكار والتكر أمام تلاميذه بمن فيهم بطرس، ولكن بطرس قال للمسيح لن أنكر " ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكر"<sup>(4)</sup>. ولكنه تنكر له وتخلّى عنه في أخرج اللحظات وأشدها على يسوع الذي تنبأ بذلك وأخبره أنه سينكره ثلاث مبررات قبل صباح الديك " قال له سمعان بطرس يا سيد إلى أين تذهب، أجابه يسوع حيث أذهب لا تقدر الآن أن تتبعتني ولكنك ستتبعني أخيراً، قال له بطرس يا سيد لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن، إني أضع نفسي عنك، أجابه يسوع أتضع نفسك عني، الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تتكرني ثلاث مرات"<sup>(5)</sup>. وقد حدث ذلك بالفعل<sup>(6)</sup>. ولكنه يختلف عن بقية الحواريين رغم اجتماعهم في التنكر ليسوع وفرارهم عنه أنه لما أخذ يسوع تتبعه من بعيد إلى دار رئيس الكهنة، فجلس خارج الدار أو داخلها<sup>(7)</sup>، فجاءت جارية قائلة له : أنت كنت مع يسوع الجليلي فأنكر قدام الجميع، ثم رآته أخرى وقالت للذين هناك : هذا كان مع يسوع الناصري فأنكر أيضا وأقسم بأنه لا يعرف يسوع. وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس أنت أيضا منهم، فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف أي لا أعرف هذا الرجل وللوقت صاح الديك فتذكر بطرس كلام يسوع أنك قبل أن يصيح الديك تتكرني ثلاث مرات. وهاهو النص المتي<sup>(8)</sup> " أما بطرس فكان جالسا خارجا في الدار، فجاءت إليه جارية قائلة وأنت كنت مع يسوع الجليلي فأنكر قدام الجميع قائلا : " لست أدري ما تقولين، ثم

<sup>(1)</sup> إنجيل متى، إصح ح 26، فقرات 14-16.

<sup>(2)</sup> وأغرب من هذا التفسير ما ذهب إليه لويس غردية وج فنوان فيما يتعلق بأريوس المتطرف المغالي حسب زعمها، فقد مات أيضا عقوبة لسه علسي التوحيد هذه المنة الشنيعة "لقد مات من اندلاق أحشائه" لويس غردية وج فنوان، فلسفة المكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج 2، ص 286. والواقع أن يهوذا اختلف في موته، إذ في حين يذكر إنجيل يوحنا أنه مات تلك المنة نجد من يذكر أنه مات متحررا حتى نفسه (إنجيل متى إصح ح 27 فقرة 5).

<sup>(3)</sup> هلي عبد الواحد واني، الأسفار المقدسة، ص 113.

<sup>(4)</sup> إنجيل متى، إصح ح 26، فقرة 35.

<sup>(5)</sup> إنجيل يوحنا، إصح ح 13، فقرات 36-38.

<sup>(6)</sup> إنجيل يوحنا، إصح ح 18، فقرات 17-27.

<sup>(7)</sup> يلاحظ اختلاف رواية يوحنا عن رواية متى، فيوحنا يقول: "وأما بطرس فكان واقفا عند الباب خارجا، فخرج التلميذ الآخر الذي كان معروفا عند رئيس الكهنة وكلم البراهة فأدخل بطرس (إنجيل يوحنا، إصح ح 18، فقرة 16) وأما متى فيقول : " كان جالسا خارجا في الدار ثم خرج إلى الدهليز " (إنجيل متى، إصح ح 26، فقرات 69-71) ولستا ندرى من هو المعصوم منهما؟.

<sup>(8)</sup> رحمة الله الخندي، إظهار الحق، ج 2، ص 285، 286.

إذ خرج إلى الدهليز رآته أخرى فقالت للذين هناك وهذا كان مع يسوع الناصري فأنكر أيضا بتسم إنني لست أعرف الرجل وبعد قليل جاء القيام وقالوا لبطرس حقا أنت أيضا منهم فإن لفتك تظهرك فابتدأ حينئذ يلعن ويحلف إنني لا أعرف الرجل وللوقت صاح الديك فتذكر بطرس كلام يسوع الذي قال له : إنك قبل أن يصيح الديك تتكرني ثلاث مرات<sup>(٢)</sup>.

وهنا تقدم ملاحظة لها أهميتها حول بطرس هذا، صاحب الكنيسة الكاثوليكية كما يزعمون، تتمثل في موقف المسيح منه حيث قال له : " اذهب عني يا شيطان، أنت معثرة لي، لأنك لا تهتم بما لله لكه بما للناس"<sup>(٣)</sup> وإن المرء ليحترق فيمن يقول بالعصمة لهذا الذي سماه يسوع -ابن الله أو الله حسب زعمهم- شيطاناً واعتبره معثرة له، وأنه لا يهتمه الدين، بل السمعة والرياء والمنفعة المادية. ومن لم يقتنع بكلام يسوع السابق في بطرس، فما هو ما يقوله فيه بولس : " ولكن لما أتى بطرس إلى إنطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً، لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم، ولكن لما أتوا كان يؤخر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان، وراعى - من الرياء - معه باقي اليهود أيضا حتى إن برنابا أيضا انتقاد إلى رياتهم، لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس قدام الجميع إن كنت وأنت يهودي تعيش أمميا لا يهوديا فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا"<sup>(٤)</sup>.

وعجيب أمر من يزعم الإلهام لهؤلاء، أين الروح القدس الذي ينزل عليهم فلا يخطئون، ويعلمهم ما يقولون فلا يتلعثمون ويقولون صوابا. وهاهو الدليل على قول الصواب، إنه بطرس الذي كان في بعض الأحيان لا يدري ما يقول " وهو لا يعلم ما يقول"<sup>(٥)</sup> كما بين لوقا في إنجيله.

وهذا يعني أن يسوع فشل في بناء تلاميذه. فكيف يعتقد بورغاد هذا ويتهم محمد صلى الله عليه وسلم بأنه لم يكون رجالا متقين وهو يعلم جيدا أن أصحاب محمد لم يعصوه أو يخالفوه أبدا أو يقدموه لأعدائه، وأنهم كانوا يقدمون أنفسهم فداء له. ونكتفي بذكر مثالين<sup>(٦)</sup> لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على هذا : - أحدهما الإمام علي بن أبي طالب الذي نام في مخدع خاتم الأنبياء ليلة الهجرة إلى المدينة فداء للنبي صلى الله عليه وسلم وأبو دجانة الذي وضع جسده ترسا للنبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد فأصيب بما لا يحصى من النبال والسهام دون أن يصاب خاتم الأنبياء، وهكذا في حين نجد بطرس ينكر يسوع في أشد الظروف وأحلكها، ويهوذا الإسخريوطي يسلمه بنفسه إلى جلاديه وقائله، نجد أصحاب محمد يقدونهم بأنفسهم ويموتون ليحيا، لا يحيوا ليموت. فهل يبقى بعد هذا مقارنة بين أصحاب هذا وأصحاب ذلك؟!.

**مخالفة تلاميذ المسيح للمسيح : لقد خالف تلاميذ المسيح عليه السلام ومن ذلك**

<sup>(٢)</sup> إنجيل متى، إصح ح 26، فقرات 69-75، وقد أورد بورحنا هذه الرواية ولكن بدون هذه التفاصيل (إنجيل يوحنا، إصح ح 18 فقرات 17-27).

<sup>(٣)</sup> إنجيل متى، إصح ح 16، فقرة 23.

<sup>(٤)</sup> رسالة بولس إلى أهل غلاطية، إصح ح 2، فقرات 11 - 14.

<sup>(٥)</sup> إنجيل لوقا، إصح ح 9، فقرة 33.

<sup>(٦)</sup> ومن أراد معرفة المزيد من هذه النماذج فليرجع إلى كتب السيرة يجد أن تقدم أصحاب محمد أنفسهم فداء له كان عقيدة لدى جميع أصحابه رجالا ونساء ولقد أشرنا أثناء حديثنا عن المرأة في الإسلام إلى ما لعمته نسبة من جهاد وجلاد وما تحمته دفاعا عن محمد (ص).

اختلاف بولس<sup>(1)</sup> مع يسوع في قضية الناموس: فلقد قال يسوع في بدء دعوته: "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل"<sup>(2)</sup>. وفي ختام دعوته: "خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا: "على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه..."<sup>(3)</sup>.

لكن بولس نقض كل هذا وعلم الناس إبطال الناموس " بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما... جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة... قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس، سقطتم من النعمة"<sup>(4)</sup>،<sup>(5)</sup> وهنا لو فرضنا أن ما قاله بولس إلهام، فما الحكمة من أن يقرر المسيح شيئا ذا أهمية وخطورة يتمثل في إكمال الناموس لا إلغائه ثم يلهم بولس إلغاء الناموس. المنطق يقرر إما أن المسيح أخطأ وصحح بولس الخطأ، وهذا مستحيل حتى في نظرهم؛ لأنه حسب زعمهم إله، اللهم إلا إذا كان هذا التصور للإله هو نفسه إله العهد القديم الذي يخطئ ويتدم ويجهل إلخ ما ذكرنا. وإما أن بولس مدعى كذاب. وهنا نتساءل: من المعصوم منهما يسوع أم بولس أم كليهما؟ الواقع أن بولس لم يكتف بهذا بل صرح جهارا بمخالفته يسوع وألغى ما أتى به المسيح من ختان وطهارة ونجاسة وأباح أكل الميتة إلى آخر ما ذكرنا أثناء حديثنا عن بولس. وقد توصلنا قبلا إلى أن بولس أتى بنصرانية جديدة تتناقض كلياً مع نصرانية المسيح عليه السلام، وبيننا كيف كان يضطهد تلاميذ المسيح الحقيقيين<sup>(6)</sup>.

وإذا كان بولس قد خالف المسيح كما ذكرنا، فقد خالف المسيح أيضا القديس بطرس - خليفة المسيح كما يزعمون - فقد غير كثيرا من تعاليم النصرانية ودادا للوثنيين، ومن الأمثلة على ذلك فهو الذي أباح للنصارى أكل لحم الخنزير؛ لأن الرومان واليونان كانوا يأكلونها، كما أباح لهم أيضا كافة السهام والحشرات كما بينا أثناء حديثنا عن دعوة بورغاد المسلمين إلى أكل لحم الخنزير.

اختلاف تلاميذ المسيح فيما بينهم وتصارعهم: ومن ذلك اختلاف بولس مع يعقوب كما بينا قبلا، ومن ضمن ذلك الاختلاف، قضية الإيمان والعمل، فهل يبرر الإنسان بإيمانه فقط أم لابد من العمل؟ ففي حين سقط بولس الأعمال نهائيا ويرى أنها لا تنقذ أحدا وإنما الإيمان وحده فقط هو المنقذ أو المبرر، ولذا فلا

(1) بولس ليس تلميذا للمسيح ولم يره ولكن النصارى يعتقدون تلمذته بناء على حديث دمشق المشهور المزعوم.

(2) إنجيل متى، إصح ح 5 فقرات 17-19.

(3) إنجيل متى، إصح ح 23 فقرات 1-3.

(4) فلاطية، إصح ح 2 بقرة 16 وإصح ح 3 بقرة 10. وإصح ح 5 بقرة 4.

(5) لواء أحمد عبد الرهاب، المرجع السابق، ص 93.

(6) ومن أراد التوسع في هذا الموضوع إلى ما كتبناه عن بولس أثناء حديثنا عن الأناجيل.

يحق لأحد أن يتفاخر بأعماله بل بإيمانه فقط<sup>(1)</sup>. نجد يعقوب على العكس من ذلك، يرى أن خلاص الإنسان يتم بأعماله لا بالإيمان وحده<sup>(2)</sup>.

وإذا كان بولس قد اختلف مع التلميذ يعقوب، فإنه اختلف كذلك مع التلميذ برنابا، مع أن برنابا هو الذي أحضره إلى الرسل، واختلفا بسبب ذلك الصراع<sup>(3)</sup>. كما تشاجر بولس أيضا مع بطرس الذي عينه المسيح راعيا لتلاميذه حسب زعمهم، فانقطع ذكره - بسبب تلك المشاجرة نتيجة لهيمنة بولس على النصرانية - منذ الإصحاح 12 من سفر أعمال الرسل<sup>(4)</sup>.

وهنا نتساءل: من المعصوم من هؤلاء، وكيف يمكن الزعم أن كل واحد منهم كالم الآخرين بلغات لم يكن يعرفها وإنما أوحاها له الروح القدس، فهل الروح القدس هو الذي أوحى لهم هذا التناقض والصراع؟ وهل يمكن القول أن الإله الأب هو الذي أوحى إلى بولس أن الخلاص بالإيمان وحده، وأن الإله الابن هو الذي أوحى إلى يعقوب عدم كفاية الإيمان دون العمل، وأن الإله الروح القدس هو الذي أوحى إلى برنابا الاختلاف مع بولس<sup>(5)</sup>.

وهكذا نجد كل حوارى اختلف مع غيره، ليس في الشكل فحسب، بل حتى في الأساس الذي بنى عليه تصويره للدين الذي أتى به المسيح، بل اختلفوا حتى في الأنجيل كما بين بولس نفسه. وهذا يعني بوضوح أن أول من خان المسيح وغدر به وخالفه هم تلاميذه، والدليل على صحة ما نقول: أنه لو أن جميع الحواريين أقاموا دين المسيح على نفس الأساس لما استطاع بولس أن يصف الأساس الذي يرتكز عليه حوارى آخر بأنه "أساس غيره"؛ لأن جميع الحواريين يكون لهم عندئذ نفس الأساس. وهكذا كان كل حوارى يقيم النصرانية على أساس مختلف عن غيره، وأن هذا الاختلاف في الأسس التي يقيم عليها الحواريون النصرانية كان سببا لكثير من المنازعات والانقسامات التي ما زالت تعاني منها الكنيسة منذ زمن الحواريين، ولا شك أنها ستظل تعاني منها إلى الأبد<sup>(6)</sup>.

والواقع أن هؤلاء التلاميذ لم يختلفوا مع بعضهم فحسب، بل تطاولوا حتى على المسيح، ليس في مخالفته فحسب، بل زعموا أن الروح القدس يتجلى لهم كما يتجلى للمسيح، وأنه جعلهم رسلا مثله تماما. وهاهو بطرس يصرح بهذا قائلا: "والله العارف بالقلوب، يشهد لهم - يعني الأنبياء - معطيا لهم روح القدس كما لنا أيضا، ولم يميز بيننا وبينهم بشيء"<sup>(7)</sup>. وهو ما يتناقض حتى مع زعمهم بأنهم تلاميذ المسيح ما داموا مساوين له، والمسيح يقول: "ليس تلميذ أفضل من معلمه"<sup>(8)(3)</sup>.

(1) رومية، إص ح 3 فقرات 27، 28، غلاطية، إص ح 2 فقرة 16 و 3 فقرة 10 و 5 فقرة 4.

(2) رسالة يعقوب، إص ح 2، فقرة 24، وإص ح 2 فقرات 14-24 و 1 فقرة 27.

(3) أعمال الرسل، إص ح 9، فقرات 26، 27.

(4) أعمال الرسل، إص ح 11، فقرة 24.

(5) باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 335.

(6) أعمال الرسل، إص ح 15، فقرة 8، 9.

(7) إنجيل لوقا، إص ح 6، فقرة 40.

(8) محمد رجب شنيوي، الجامع، ص 106، 107.

وهنا نطرح السؤالين الآتيين على بورغاد :

س (1) لماذا هاجم بورغاد الفرق الإسلامية بسبب اختلافها وهو يعلم أنها لم تختلف في الأسس. فجميع المسلمين من عصر الصحابة إلى اليوم متفقون جميعا على أساس العقيدة من توحيد وتزيه وإيمان بالرسول والمعاد إلخ، وحتى الذي اختلفوا حوله في الفرعات فقد اختلف فيه قبلا أبناء ملة بورغاد ومن ذلك قضية القضاء والقدر التي يعد بولس صاحب عقيدة القدرية كلها؟<sup>(1)</sup> (2) .

س (2) من هو المعصوم من هؤلاء التلاميذ المتناقضين ومن هو المعصوم من الفرق النصرانية المتناقضة والمتأثرة بهم؟

### المجامع والصراع والاختلاف :

إن الميزة الأساسية للمجامع هي الصراع بينها والاختلاف والخلاف ولعن بعضها البعض، حتى أصبح كل مجمع يلعن مخالفيه ويكفرهم ويحرمهم ويصادر كتبهم ويأمر بحرقها، وانقسمت الكنائس حول هذه المجامع إلى اتجاهات، فبعضها يعترف بقرارات مجامع معينة وأخرى ترفضها لتعترف بقرارات مجامع أخرى يرفضها غيرها، وهكذا. ومن الأمثلة على هذا فإن الكنائس القبطية الأرثوذكسية لا تعترف إلا بالمجامع المسكونية الأربعة الأولى من الثمانية مجامع المسكونية الأولى، ومع هذا فإنها تقرر أن أحكام جميع المجامع المسكونية غير معصومة، وأنها غطت أشياء كثيرة<sup>(3)</sup>، وهذا ما لا يراه غيرها.

وهكذا نجد مجمع نيقية 325 م اختلف أصحابه وتناقضوا وانقسموا إلى اتجاهات في العقيدة، ولكن الأقلية بعضا الإمبراطور قسطنطين هي التي قررت العقيدة المؤهلة للمسيح واختارت أسفار الكتاب المقدس. ولكن المجامع اللاحقة، بعضها نقض تلك العقيدة وبعضها الآخر قرر قداسة أسفار رفضها النيقاويون وألغى أسفارها النيقاويون، كما أنه قرر لعن أريوس وصادر كتبه. فجاء مجمع صور 334 م ليلعن مجمع نيقية ويلغي قراراته وأحكامه ويقرر عقيدة أريوس التوحيدية ويؤثر أصحابه على الإمبراطور قسطنطين نفسه وخلفائه فيعيد الاعتبار لأريوس ويضطهدون معارضيه وتصبح الأريوسية هي العقيدة الرسمية بدل عقيدة تاليه المسيح<sup>(4)</sup>.

ولكن مجمع القسطنطينية الأول سنة 381 م ( المسكوني الثاني) رجع إلى ما قرره النيقاويون من ألوهية المسيح ليضيف إليها ألوهية الروح القدس. فتكتمل صيغة التثليث بذلك، ضاربا قرارات مجمع صور 334 م عرض الحائط لإيقاف مذهب أريوس التوحيدي، وهذا أيضا تم تحت عصا الإمبراطور ثيودوسيوس (379 م - 395 م) .

<sup>(1)</sup> باروخ اسينوزا، المرجع السابق، ص 335.

<sup>(2)</sup> ومن أراد التحقق من هذا فليرجع إلى رسالة بولس إلى أهل رومية اصح 3 فقرات 27، 28.

<sup>(3)</sup> نقولا اموازي باتياء، كو التفاضل في الحاد الكنائس، تعريب الحوري يوحنا حبرون، دط، مطبعة جمعية التوفيق المركزية، القاهرة، 1904م، ص 192.

<sup>(4)</sup> محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 145، أيضا محمد رجب شتيوي، المجامع، ص 70.

وهكذا، لا أساس لبناء العقيدة. فقانون الإيمان لم يكن موجودا فأوجده مجمع نيقية، ولكنه لم يكتمل فأكمله مجمع القسطنطينية، ومع ذلك فالعقيدة لم تكتمل، والكل في صراعه العقدي ولا دليل عنده. وظل هذا الاختلاف في العقيدة يتطور حتى ثورة التصحيح اللوثرية التي لم تحسم أيضا الصراع والخلاف.

وهكذا فرغم اكتمال فكرة التثليث تحت عصا الإمبراطور إلا أنه لم يتفق النصارى حول طبيعة المسيح الإنسانية والإلهية، وكيف تجتمعان، كما اختلفوا بعد أن قرروا ألوهية الروح القدس هل هو منبثق من الأب فقط أم من الابن أيضا، واشتد الصراع إلى أن عقد مجمع طليطلة سنة 589م ليقرر أنه منبثق من الابن أيضا، وزيد هذا في قانون الإيمان. وبذلك خالف مجمع طليطلة قرارات المجمعين المسكونيين 1، 2، وأدت هذه الزيادة إلى اختلاف كبير بين الكنائس الشرقية التي أصرت على رفض زيادة "انبثاق الروح القدس من الابن أيضا". والكنائس الغربية التي اختلفت فيما بينها، وما زالت كلمة "ومن الابن" موضع خلاف بين الكنيسة اليونانية التي تؤمن بها، والكنيسة القبطية المصرية التي ترفضها<sup>(1)</sup>.

وهنا نتساءل: كيف اختلفوا ولم يتفقوا وهم جميعا يزعمون أن الروح القدس ينزل على الآباء والقديسين بالكنيسة يرشدهم ويعلمهم<sup>(2)</sup>، ومن هو المعصوم من كل السابقين: المسيح أم بطرس أم بولس أم يعقوب أم برنابا؟ وهل أصحاب مجمع نيقية أم صور؟ وهل الموحدون أم المثلثون؟، وهل القائلون بانبثاق الروح القدس من الأب فقط أم القائلون بانبثاقه من الابن والأب معا؟!.

وهكذا ظل الصراع محتدما والعقيدة لم تكتمل. فأتى مجمع أفسس الأول المسكوني 431م ليزيد في تفسير مفهوم الابن، فيقرر أن الابن وهو الله له طبيعتان، إحداهما لاهوتية والأخرى ناسوتية وزيد هذا في دستور الإيمان، وكان هذا ضد مذهب<sup>(3)</sup> نسطور الذي ما زال إلى يومنا هذا، والذي يذهب إلى القول بأن مريم ليست أم الله<sup>(4)</sup>؛ لأنها لم تلد الإله بل ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأقنوم الثاني اتحاد مجازيا، لأن الإله وهبه المحبة والنعمة فصار بمنزلة الابن. وهكذا ينكر مذهب نسطور ألوهية المسيح من أصلها رغم قوله بالأقنيم الثلاثة<sup>(5)</sup>.

نتج عن هذا انقسام الكنائس، فالكاثوليك قالوا بالطبيعتين للمسيح، وزادوا على ذلك بأن لكل طبيعة مشيئة خاصة، وهو ما قرروه في المجمع الخلدوني عام 451م فأدى ذلك إلى ظهور مذهب جديد مناقض، هو

(1) زكي شنودة، موسوعة تاريخ الأقباط، ج1، ص275، 277.

(2) أعمال الرسل، إص ح 2، فقرات 1-4.

(3) نسطور ولد في بلدة مراش بتركيا، درس إنطاكية ثم التحق بدير مجاور لها، عيه الإمبراطور أسقفا على قسطنطينية سنة 428م، وفي هذه السنة ظهر تعليمه الجديد للتمثل في أن العذراء ليست أم الله، وأن حلول "الكلمة" في المسيح ليست بالجواهر ولا بالذات بل ولا حتى بالقوة، بل بالأنس والرضوان مثلما هي سكنى الله في الأبرار. عقد مجمع أفسس الأول 431م ليكفره ويعزل من منصبه ويمنع من نشر آرائه وينفي إلى البطراء سنة 435م ثم إلى صحراء مصر ليؤم بها سنة 451م بعد أن وضع مؤلفه الأخير بعنوان "هير فليدس الدمشقي" بلور فيه آراءه، (لويس غردية دج فتوان المرجع نفسه، ج2، ص302، 303).

(4) لويس غردية وج فتوان، المرجع السابق، ج2، ص304، 306.

(5) علي عبد الواحد وإي، الأسفار المقدسة، ص110. أيضا لويس غردية وج فتوان، المرجع نفسه، ص304...

مذهب اليعاقبة، أصحاب يعقوب البرادعي الذين قالوا : إن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وهذا أدى بدوره إلى ظهور مذهب أوطاخي أوفتشيوس المنادي بأن طبيعتي الابن الإلهوتية والناسوتية اتحدتا فصارتا طبيعة واحدة وأقنوما واحدا، أي أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيه اللاهوت بالناسوت. وهو ما قرره مجمع أفسس الثاني عام 449 م وأصدر قرارا يلعب كل من يقول بطبيعتين في المسيح. وقد أطلقت الكنيسة الكاثوليكية على هذا المجمع " مجمع اللصوص" وعقدت المجمع الخلقدونى<sup>(1)</sup> عام 451 م لإبطال القول باتحاد الطبيعتين<sup>(2)</sup>، وقرروا أن يسوع إله وإنسان " إن مريم العذراء ولدت إليها ربنا يسوع المسيح الذي مع أبيه في الطبيعة الإلهية ومع الناس في الطبيعة الإنسانية وأشهدوا أن المسيح طبيعتان وأقنوم واحد ووجه واحد" وقرروا لعن، وإبطال قرارات مجمع أفسس الثاني<sup>(3)</sup>. ومن نتائج هذا المجمع انفصال الكنيسة القبطية المصرية عن الكنيسة الغربية أي كنيسة روما نهائيا، حيث يعتقد الأقباط أن الابن المتجسد من الروح القدس طبيعة واحدة عن طبيعتين ومشيئة واحدة<sup>(4)</sup> ، ويرفضون زيادة انبثاق الروح القدس من " الابن أيضا"<sup>(5)</sup>.

ثم جاء مجمع القسطنطينية الثاني عام 553 م لينتصر من جديد لأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة ، أي يعقوب البرادعي أسقف الرها، فشجعهم ذلك على إقامة كنيسة منفصلة حتى اليوم، هي الكنيسة اليعقوبية وأصبحت مذهباً جديداً في النصرانية<sup>(6)</sup>.

وقد عقد هذا المجمع في عهد جوستيان الذي صار على مذهب الطبيعة الواحدة، وقد عجز عن التوفيق بين الولايات الشرقية والغربية، وكانت زوجته تيودورا يعقوبية المذهب، وقد لعبت دورا كبيرا في تسيير شؤون الإمبراطورية السياسية والدينية، وكانت عاهرا ابنة مدرب دببة أصبحت ممثلة ومومس تشير مشاعر أهل القسطنطينية وتروح عن أنفسهم بتمثيل المسرحيات الخليعة، أجهضت عدة مرات، لبها ابن غير شرعي، صاحبها جوستيان فاتخذها عشيقه ثم تزوجها وجعلها ملكة، وذلك بعد أن هجرها عشيقها السوري، جمعت بين العهر والمروق، بلغت مكانتها في البلاط أن أصبحت تنصب البسابوات والبطارقة وتخلعهم، اعتنقت في آخر حياتها مذهب اليعاقبة وشجعت خفية قيام كنيسة يعقوبية مستقلة في الشرق<sup>(1)</sup>، وهو ما أنتج المجمع السابق ذكره.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق، أننا عندما ننظر إلى العهد الذهبي للنصرانية من قسطنطين والمجمع النيقاوي الأول 325 م إلى هذا المجمع عام 553 م فإننا نجد حياة النصرانية تقع بين

<sup>(1)</sup> نسبة إلى مدينة خلقدونية على ضفاف البسفور.

<sup>(2)</sup> زكي شودة، المرجع السابق، ج1، ص165. أيضا نقولا اميرازي باتينا، كبر النعاس في اتحاد الكنائس، ص108.

<sup>(3)</sup> ادوارد جيون، اضلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو درة، ط2، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969م، ج2، ص518.

<sup>(4)</sup> زكي شودة، المرجع السابق، ج1، ص277، أيضا محمد رجب شتري، المجمع، ص212، 264، 270.

<sup>(5)</sup> محمد رجب شتري، المجمع، ص281.

<sup>(6)</sup> ول ديورانت، قصة الحضارة، قصر والمسيح، م3، ج3، (11) ص213 - 216.

إمبراطورية لقيط أي ابن غير شرعي من مومس تعمل في حانة هي هيلانسا، وهو قسطنطين، وبين إمبراطورة عاهر، لها من الصفات ما تشمئز منها النفوس هي ثيودورا<sup>(2)</sup>.

ونسأل هنا : متى كان أبناء الزنا والمومسات حماة للأديان؟ هؤلاء هم الذين يزعم بورغاد لهم العصمة. وبدل أن يعمل على تصحيح عقيدته يوجه سهامه للنيل من خاتم الأنبياء وأناي له ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإنه لما كانت طبيعة النصارى كلما دخلت أمة لعنت أختها فقد عقد مجمع القسطنطينية الثالث (680 - 681 م) قرر فعل على نتائج مجمع القسطنطينية الثاني السابق ذكره. وسبب انعقاده المباشر ظهور الأسقف يوحنا مارون سنة 667م الذي يقول بأن للمسيح طبيعتان ومشينة واحدة لالتقائهما في أفتوم واحد، فأزعج بذلك أصحاب المذهب القائل بالطبيعتين والمشينتين. ومن نتائج تقرير مذهب أصحاب القول بالطبيعتين والمشينتين ولعن وطرد مارون وكذا أصحاب مذهب القول بالطبيعة الواحدة والمشينة الواحدة<sup>(1)</sup>. كما نتج عنه أيضا ظهور مذهب جديد هو المذهب الماروني وكنيسته والتجاء أصحابه إلى دير القديس يوحنا مارون في جبل لبنان، وظل أسقفا لهذه الطائفة حتى عام 685 م واتجاههم في أساسه كاثوليكي شرقي<sup>(2)</sup>.

ثم جاء المجمع المسكوني 7، أي مجمع نيقية الثاني عام 787 م ليعيد النظر في عقيدة عبادة الصور والتماثيل التي قررها مجمع نيقية الأول عام 325 م، ولكنه لم يحسمها. فظلت المجمع تعقد لدراستها، وكل مجمع يلعن سابقه ويحرمه مما زاد الهوة بين الطوائف واشتد الصراع وسط النصارى<sup>(3)</sup>، مما جعلهم يعتقدون المجمع المسكوني الثامن الذي يندرج تحت عنوانه مجمعان، وذلك لدراسة مشكلة انبثاق الروح القدس.

أ- مجمع القسطنطينية الرابع في سنة 869م، ويطلق عليه المجمع الغربي اللاتيني وقرر بشأن روح القدس منبثق من الأب والابن معا.  
ب- مجمع القسطنطينية الخامس في سنة 879 م، ويطلق عليه المجمع الشرقي اليوناني وقرر أن روح القدس منبثق من الأب وحده<sup>(4)</sup>.

وقد نتج عن هذين المجمعين انقسام الكنائس إلى كنيستين رئيسيتين:

- إحداهما الكنيسة الشرقية اليونانية وتسمى أيضا " الكنيسة الشرقية " و"كنيسة الروم الأرثوذكس" وتعتقد أن روح القدس منبثق من الأب وحده<sup>(1)</sup>.

(2) محمد رجب شنيوي، المجمع، ص 287.

(1) تقولا اميرازي باتيا، كثر التفاس في اتحاد الكنائس، ص 117، أيضا محمد أبو زهرة محاضرات في النصرانية، ص 162.

(2) محمد رجب شنيوي، المجمع، ص 294، 295.

(3) المرجع نفسه، ص 320.

(4) علي عبد الواحد والي، الأسفار المقدسة، ص 112.

(1) وأكر أتباعها في الشرق، في اليونان وروسيا والصرب وتركيا ولهم أربعة بطارقة أولهم بطريرك القسطنطينية وهم كبيرهم يليه بطريرك الإسكندرية للروم الأرثوذكس ثم بطريرك انطاكية ثم بطريرك أورشليم، وثمان مناطق تخضع للكنيسة الشرقية وتخضع لمجمع وأسقفيات مستقلة كالمجمع الروسي وأسقفية أثينا وأسقفية قرص (علي عبد الواحد والي، الأسفار المقدسة، ص 112، 113).



- وثانيهما الكنيسة الغربية اللاتينية، وتسمى أيضا "الكنيسة الغربية" و"كنيسة روما" و"الكنيسة الكاثوليكية"، و"الكنيسة البطرسيّة" إلخ، لأن أتباعها يعتقدون أن مؤسسها هو الرسول بطرس كبير الحواريين وأن بابواتها خلفاؤه من بعده، وتعتقد أن روح القدس منبثق عن الأب والابن معا<sup>(1)</sup>.  
والخلاصة مما سبق، أن الكنيسة الأرثوذكسية في مصر والحبشة والكنيستات الأرثوذكسيتين الأرمنية والسيرانية انفصلت عن بقية الكنائس لقولها بالطبيعة الواحدة للمسيح (طبيعة واحدة إلهية)، وكنيسة المارونيين بلبنان انفصلت عن بقية الكنائس لقولها بالمشيئة الواحدة، أي أن للمسيح طبيعتان ومشيئة واحدة هي المشيئة الإلهية، وبقية الطوائف الأخرى تقول بالمشيئتين والطبيعتين وهم القسم الأكبر، ولكنهم مع الاتفاق في القول بالطبيعتين والمشيئتين اختلفوا فيما يتعلق بالأقنوم الذي انبثق منه روح القدس. فانقسموا لذلك إلى كنيستين: الكنيسة الشرقية اليونانية أو كنيسة الروم الأرثوذكس، وتقول بانبثاق روح القدس عن الأب وحده. والكنيسة الغربية اللاتينية التي تقول بانبثاق روح القدس عن الأب والابن معا<sup>(2)</sup>.  
وما يهمنا هنا، أنه إلى غاية 879 م مازالت العقيدة النصرانية لم تستقر بعد والصراع يزداد اشتعالا والاختلاف يزداد توسعا، ويكفي أن نعرف أن:

البابا نيقولاوس مات محروما سنة 867م<sup>(3)</sup>. وهنا يطرح على بورغاد وأبناء ملته التساؤل الآتي:

كيف يكون البابا معصوما ويموت محروما؟! وهل الذين أصدروا قرارا حرمانه معصومون؟! وفي هذه الحالة، كيف يمكن التوفيق؟! وإذا لم نقرر التوفيق، على أي أساس نقرر المعصوم منهما؟ ثم لماذا حرم؟ ومن يتجرأ على نائب الله فيحرمه؟! إن قرار الحرمان بغض النظر عن صوابه أو خطئه دليل على نفي العصمة البابوية؛ لأنها لو كانت موجودة بالفعل ما تجرأ الذين حرموه على إصدار قرار حرمانه - وإن كان حتى العصمة لا معنى لها، لأنه إذا كان الله غير معصوم كما رأينا في العهد القديم وحتى في العهد الجديد، فما قيمة عصمة البابا؟- وهذا يدعونا إلى الإشارة لبعض متاعب البابوية وفضائحها.

### بعض متاعب البابوية وفضائحها

فضائح البابوية - المعصومة - لا تعد ولا تحصى، منها:

- الشره للمال: لقد أصبح نتيجة لما سبق من صراعات وانحرافات وتحكم الأهواء في الدين وتوثينه أن صار أغلب القساوسة من الأشرار الذين لا هم لهم سوى المزيد من الثروة، وكذبوا منها حتى أصبح ربع الأراضي ملكا للكنيسة في كثير من بلدان أوروبا. فنشأ بسبب ذلك الصراع بين رجال الدين وبين الملوك الذين لم يرقهم نقل أملاكهم إلى القساوسة. كما أدى ذلك الشره إلى مرض من أخطر الأمراض التي حلت بالكنيسة وهي:

(1) وأكثر أتباعها في الغرب في إيطاليا وفرنسا وبلجيكا وإسبانيا والبرتغال وأمريكا الجنوبية. ولكثرة أتباع كنيسة روما ولما أحبط به رئيسها من تقدس بين أتباعه وكنا الملوك والرؤساء تعرف له الكنيسة الشرقية بالثقدم لا بالسلطان (على عبد الواحد والي، الأسفار المقدسة، ص 113، 114).

(2) المرجع نفسه، ص 114.

(3) - معمد رجب شتيوي. الجامع، ص 325. نقل عن كنز القنايس في اتحاد الكنائس، ص 24.

- السيمونية<sup>(1)</sup> : هي لفظ كنسي معناه شراء الوظائف الدينية بالمال، وذلك لمن يدفع أكثر. أي أن تعيين رجال الدين في الوظائف الكنسية أصبح يتم بطريقة بيع هذه الوظائف في أغلب الأحيان لمن يدفع فيها أكثر، مما أساء إلى سمعة البابوات والكنيسة الكاثوليكية<sup>(2)</sup>، كنيسة بورغاد. وبهذا يتبين بجلاء أن مجمع روما الذي يتشدد بورغاد باعتباره حامي النصرانية من التحريف - بينما الإسلام ليس به هذا المجمع مما يجعله يحرف- والمصحح لمبادئها باستمرار، كان أعضاؤه ورجاله يشترون عضويتهم بالمال ليجمعون منه أكثر مما دفعوا، مما جعلهم يتنافسون في الدفع أكثر للحصول على المنصب، مما جعل المناصب الأساسية لا تعطى للمؤهلين، بل للذين يدفعون أكثر. وهكذا أصبح منصب أسقف لا يشتري بسعر منصب قسيس، ومنصب قسيس لا يشتري بسعر منصب شماس، وهكذا دواليك، وهنا يطرح سؤال منطقي هو : كيف يكون المشتري لمنصب ديني بغية نهب أموال الناس بالباطل معصوماً؟. ولكن الأشياء من معادنها لا تستغرب.

فالذي يؤمن انطلاقاً من الكتاب المقدس أن يعقوب أخذ النبوة بالنصب والاحتيال، لا يستغرب منه شراء المنصب الديني بالمال ليعيش في بذخ على جماجم البؤساء. وهنا تسأل بورغاد : هل هؤلاء هم الذين رباهم الإنجيل؟ إن الفرق واضح بين من رباة القرآن الكريم ومن ربه الأناجيل. وعلى كل، فإن رجال الإكليروس بعد أن أصيبوا بداء الشره للمال وصاروا يشترون وظائفهم به وتتافسوا وتصارعوا في ذلك، فكروا في وسائل جهنمية لسلب أموال الناس واستيلائهم عليها طوعاً دينياً، من أهم هذه الوسائل:

بدعة صكوك الغفران : صكوك الغفران تبيح لمن يشتريها أن يضمن لنفسه ولمن مات من أقاربه وأصدقائه مساحة في الجنة تحدد بمقتضى عقد بإمضاء البابا<sup>(3)</sup> - المعصوم - وأصبحت الكنيسة تبيع هذه الصكوك بواسطة الرسل الذين يبعثهم البابا، فيشتريها المذنبون كل حسب قدرته. فتتأسف الناس في شرائها بسبب نفسي الجهل، حتى صاروا يشترونها لتخفيف عذاب موتاهم وغفران ما تقدم وما تأخر من ذنوبهم. وظل الحال هكذا حتى أصدر البابا (ليو العاشر) في مارس 1517م أشهر صك غفران بسبب احتياجه إلى المال لبناء كنيسة القديس بطرس بروما<sup>(4)</sup> (5).

(1) يقول فشر: "السيمونية لفظ مشتق من اسم سيمون الساحر الذي أراد الحصول على بركة الروح القدس من أحد الرسل أتباع المسيح بحال قدمه لذلك الغرض ليقوم هو على بيع هذه البركة بمن معلوم للراغبين في اعتناق النصرانية كما جاء في أعمال الرسل (اصحاح 8 فقرات 9-25)... وفيه أن بطرس قال لسيمون: لتذهب فضتك معك إلى الهلاك لأنك ظننت أن موهبة الله تقنى بالنفود فلا حصة لك ولا نصيب في هذا الأمر، (فشر، أوربا العصور الوسطى، ج1، ص86 عن محمد رجب شتيوي، المجمع، هامش ص 351).

(2) محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 351.

(3) المرجع نفسه، المجمع، ص 375.

(4) ول دورنت، قصة الحضارة، 6، ج3، (24)، ص3.

(5) ومن أراد الإطلاع على نصه للرجوع إلى محمد رجب شتيوي، المجمع، هامش ص 375، 376.

وقد نتج عن صكوك الغفران هذه تمرد كثير من رجال الإكليروس على البابوية، فعقدت المجامع لحرمانهم. ومن هؤلاء بطرس ولدو الذي ظهر بفرنسا سنة 170م وأخذ ينادي ببطلائها، فعقدت المجامع على ضده وضد جماعته، ومن هذه المجامع :

- مجمع اللاتران<sup>(1)</sup> الثالث ( المسكوني 11) الذي عقده البابا الإسكندر الثالث سنة 179م

- مجمع اللاتران الرابع ( المسكوني 12) الذي عقده البابا أنوست الثالث سنة 1215م

ومما قرره هذا الأخير : أن الكنيسة البابوية تملك حق الغفران وتمنحه لمن تشاء، وأن الغشاء الرباني يتحول إلى جسد ودم المسيح، وكل من يخالف ذلك يعدم ويلعن.

وبهذا المجمع أعطي للبابا حق غفران الذنوب، وأصبحت البابوية كل شيء. فأدى ذلك إلى تدمير كبير ضد الكنيسة وأخذ بعض رجال الدين ينادون بتطهير النصرانية ويستكرونها ما يجري في الكنيسة الغربية من أسرار وطقوس، فأخذت الكنيسة في قمعهم والبطش بهم. ولما فشلت حملة البابا أنوست الثالث ابتداء من سنة 1209 - أي قبل عقد المجمع - من استئصالهم أنشأ البابا جريجوري التاسع سنة 1233م محاكم التفتيش للقضاء على مخالفي الكنيسة البابوية أو الراضين لأوامرها البابوية<sup>(2)</sup>، وذلك بعد أن كان قد أسسها " دومنيك" سنة 1210م مؤسس نظام الرهبان الدومنيكان<sup>(3)</sup> (4).

انتشار التسري والزواج بين رجال الإكليروس: لقد انتشر نظام التسري والزواج<sup>(5)</sup>، بين رجال الإكليروس الغرب، وأصبح من الكثرة إلى حد عقد مجمع اللاتران المحلي بروما سنة 1059م بهامر من البابا نيقولاوس الثاني، وأصدر قرارا بحرمان كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية، ثم عقد مجمع روما المحلي 1074م الذي عرض في جدول

أعماله مشكلة زواج وتسري<sup>(6)</sup> القسس. وهكذا يتسرى رجال الإكليروس في الوقت الذي يصبون فيه جام غضبهم على الرق في الإسلام.

وهكذا فسد رجال الإكليروس من البابا إلى الشماس وعاثوا في الأرض فسادا إلى حد أن أحرار مفكري عصر النهضة هال معظمهم ما كان عليه اليايوات المعاصرون من شر... ولقد كتب جويكشيارديني

(1) معنى اللاتران: القصر الأول أو القصر البابوي القديم في روما (محمد رجب شتيوي، المجمع هامش ص 342).

(2) برتران رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1957م، ج 2، ص 228 عن محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 382، 383.

(3) محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 382، 483.

(4) رستحدثت عن محاكم التفتيش أثناء حديثنا عن الهام بورغاد للإسلام بمحاربة العلم.

(5) الزواج مشكلة بالنصرانية لأنها تقوم على الرهبة، وانتشاره وسط الإكليروس دليل على مخالفة النصرانية للطبيعة البشرية، ودليل صادق على أنها مجرد غطاء للزنا.

(6) الكاثوليك ممنعون زواج رجال الدين لأن زواجهم إثم، أما الأرثوذكس فيحرمونه على الرهبان والأساقفة والمطارنة ويبيحونه للقسس والقمامسة شرطة أن يكون قبا. سيامتهم أي تعيينهم في الوظيفة (محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 354).

( Guicciardini ) المؤرخ سنة 1529م: " لم يكن هنالك إنسان أشد اشمزازا مني من طموح القسس وشحهم، وخلاعتهم، ليس فقط لأن كلا من هذه الرذائل مكروه لدي، ولكن لأن كلا منها وجميعها غير لائق إلى أقصى حد من أولئك الذين يعلنون أنفسهم رجالا لهم صلوات خاصة بالله، وأيضا لأن رذائل تعارض الواحدة منها الأخرى، بحيث أنها يمكن أن توجد معا فقط في طبائع فريدة للغاية - شاذة - وأيضا ما كان فإن وظيفتي في بلاط بابوات عديدين اضطررتي أن أروم لهم المجد من أجل مصلحتي الخاصة، ولكن لو لم يكن ذلك كذلك لكنت أجبث " ما رثن لوثر كنج" حبي لنفسي لا لكي أتحرر من القوانين التي تقرضها المسيحية، كما هي مفهومة ومفسرة بوجه عام، علينا، بل لكي رأى هذا الحشد من الأندال يعادون إلى مكانهم المناسب لهم، بحيث يكون في الوسع إجبارهم، إما أن يعيشوا بدون رذائل أو بدون سلطان"<sup>(1)</sup>، وهذا يدعونا إلى الحديث عن صراع البابوات على البابوية.

### صراع البابوات على البابوية

اشتد الصراع على الكرسي البابوي ولا سيما في الفترة (1305 - 1377 م) التي أقامتها البابوية في أفينون بفرنسا أسيرة لملكها، فتعددت البابوية في هذه الفترة واشتد النزاع والصراع بين البابوات حتى رجوع البابا جريجوري 11 إلى روما عام 1377م، ولكنه مات سنة 1378م فاختر كرادلة تحت ضغط الأهالي - بابا إيطالي هو أريان السادس سنة 1378م - 1379 م، ولكن كرادلة آخرين اعتبروا انتخابه باطلا، ليقتخبوا بدله كلمنت 7 في السنة نفسها 1378 - ليظل إلى سنة 1394 م - بابا. على أن يقيم في أفينون<sup>(2)</sup>، وهكذا اشتد الصراع في الكنيسة الغربية بين الطرفين حتى سميت هذه الفترة بعهد " الانشقاق الديني الأكبر" لوجود سلسلة من البابوات في أفينون وفي روما على السواء مما جعل العالم العربي ينقسم إلى معسكرين أحدهما على رأسه فرنسا يناصر بابا أفينون كالمينث السابع والآخر على رأسه إنجلترا يناصر أريان السادس.

وكد نتج عن هذا الانقسام خطر آخر هو فقدان الإجماع على أحد البابوات في أي بلد من مراكز البابوية - أفينون وروما - ولا سيما بعد لجوء كل بابا إلى تعيين أتباعه في الوظائف الدينية المختلفة واستغلال كافة الوسائل الغير مشروعة لجمع الأموال لنفسه دون خصمه، وأخذ كل حزب يفضح الآخر ويكشف مساوئه ورذائله التي لا تحصى<sup>(3)</sup>، حتى غدت النصرانية آنذاك ملعونة بأجمعها<sup>(4)</sup>. فأضطر الإكليروس كعادتهم لعقد المجامع لحل المشكلات البابوية، ومن ضمن ما عقده: مجمع بيزا سنة 1409 م ومجمع

(1) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية (الفلسفة الحديثة)، ترجمة محمد فتحي الشبلي، دط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977م، الكتاب الثالث، ج1، ص20، 21.

(2) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج2، ص278، 279. عن محمد رجب شتوي، المجمع، ص400، 401.

(3) (4) محمد رجب شتوي، المجمع، ص400، 401.

كونستانس سنة 1413 م، ومن ضمن ما قرره المجمع الأول : خلع كل من بابا روما وبابا أفينون باعتبارهما أساس الانشقاق واختار الكراندلة في بيزا الإسكندر الخامس بابا. ولكن المنية عجلت به فخلفه البابا يوحنا 23، سنة 1410 - 1415م، ولكن كلا من بابا روما وبابا أفينون قررا عدم ترك منصبيهما فاحتدم الصراع أكثر، وصار للكنيسة الغربية ثلاثة بابوات.

1- بابا روما ، 2- بابا أفينون ، 3- بابا بيزا.

وهكذا أصبح على رأس الكنيسة الغربية الكاثوليكية ثلاثة بابوات في كل من روما وأفينون وبيزا، وتعددت الأمور أكثر من السابق<sup>(1)</sup>. وهنا نسأل بورغاد وأبناء ملته:

من هو البابا المعصوم من هؤلاء، ومن هما الغير معصومين؟ من هو البابا المصيب ومن هما المخطئان؟ هل يمكن القول بأن الثلاثة معصومين؟! وإذا كان ذلك مستحيلا بسبب تناقضهم وتطاحنهم وصراعاتهم، فمن هو المعصوم منهم؟ وعلى أي أساس تقرر عصمته؟! وما موقف البابوين الآخرين وأتباعهما من الحكم بعصمته؟ ولا سيما أن كل بابا وأتباعه يزعمون عصمته هو، ثم هل يمكن أن يتخذ الله له ثلاث بابوات (نواب) معصومين كلهم ولكنهم يسفهون بعضهم بعضا ويستخدمون أموال الشعب والكنيسة لتحطيم بعضهم البعض؟!.

ويبقى السؤال مطروحا على أحفاد بورغاد.

ولما سبق، فلا نستغرب ما نجده من قيام حركات دينية ضد الكنيسة والبابوية، ومن ذلك ما نجده من مبادئ حنا وكلف<sup>(2)</sup>، وحنا هس<sup>(3)</sup>. ومن مبادئ " حنا وكلف" إنكار التحول في العشاء الرباني، وإنكار قدسية البابا ورجال الدين وصكوك الغفران ومغفرة رجال الدين للذنوب ونيابة البابا للمسيح وفكرة الحرمان إلخ. مما جعل البابا غريغوري 11 يحبسه ويطرده من أكسفورد ليعتزل بقية حياته حتى مات سنة 1383 م. أما " حنا هس" فإضافة لهذه المبادئ يقرر أن البابا لا علاقة له بالمسيح ولا بالعصمة، بل هو لص، وإذا لعن أحدا أو حرمه ارتدا على رأسه. وهو ما جعلهم يعدمونه حرقا سنة 1415م<sup>(4)</sup>.

ولخطورتهما حاولت الكنيسة الغربية الاتحاد مع الكنيسة الشرقية وعقدت المجمع لذلك، منها :

- مجمع كونستانس (سويسرا) 16 المسكوني ( 1414 - 1418 م)

- مجمع بازال 17 المسكوني ( 1431 م).

- مجمع فرارا وفلورانس 18 المسكوني ( 1442 - 1448 م)<sup>(5)</sup>.

(1) محمد رجب شكري، المجمع، ص 400، 401.

(2) حنا وكلف ولد سنة 1323م في إنجلترا ودرس في أكسفورد وعين رئيسا للكلية حتى توفي عام 1384م (محمد رجب شكري، المجمع، ص 407).

(3) حنا هس ولد عام 1369م، ونشأ في برهميا جمع بين تعليم الإنجيل وتعليم أرسطو، أصبح أستاذ اللاهوت في جامعة براغ وفي سنة 1404م شرع في نشر تعليم أستاذه "وكلف" وسط الخاصة والعامه. قرر مجمع كونستانس إعدامه حرقا عام 1415م (محمد رجب شكري، المجمع، ص 407، 408).

(4)، (5) المرجع نفسه، ص 407-409، 412-414.

وكان من قرارات مجمع كونستانس : نبش قبر حنا وكلف وإخراج عظامه وحرقتها<sup>(1)</sup>، وإحراق حنا هس كما ذكرنا، ومناصره جيروم البراغي.

كما كان من قرارات مجمع كونستانس أيضا :

- إدانة بابا بيزا يوحنا 23 وعزله من منصبه سنة 1415 م
- حمل بابا روما غريغوري 12 على الاستقالة وقبولها
- عزل بابا أفينون بندلت 13 الذي أظهر تمسكه بمنصبه بعد زوال منافسيه من الطريق، وذلك في سنة 1417م.

والذي يهتما من هذا المجمع، أنه أوقد نوار الصراع بدل إطفائها. فكان مجمع بازال 1431 م (المسكوني 17)، وكان من قراراته:

إقالة البابا يوجين 4 سنة 1439 م وتعيين بدله فلкс الخامس، وحرمان البابا من حق تعيين الأساقفة، ومنعه من التدخل في المسائل المختلف عليها في المجمع.

والمرء يتساءل هنا : أين هي العصمة البابوية ؟ وكيف يعزلون معصوماً؟ وهل الذين قرروا عزله معصومون؟ وكيف يحددون صلاحيات معصوم؟. وأيهما أكثر عصمة، البابا أم المجمع؟. وإذا كان المجمع فكيف نفسر لعن المجامع لبعضها البعض وحرمانها؟. وكيف نفسر عقد البابا لها؟.

وهكذا كان من نتائج هذا المجمع زيادة الصراعات والتصدع وظهور بابوات مضادين<sup>(2)</sup>، وبلغ الفساد منتهاه. وقد علق على هذا الفساد بعد حديثه عن مجعني بازال 1431 م، ومجمع فرارا وقلورنسا (1438 - 1442م) صاحب اضمحلال الإمبراطورية الرومانية قائلا : " وهكذا نسي آباء الكنائس تعاليم المسيح ... فيها هو مجمع بازال... الذي أسماء الآباء في فلورنسا " جمعية الشياطين": رمى البابا بجرائم الاتجار بالمقدسات والحنث والطغيان والهرطقة والانشقاق، وأعلن أن مساوئه غير قابلة للإصلاح، وأنه غير لائق، وغير قادر على تولي أي منصب كنسي... وجاء المجمع الثاني في فلورنسا فحظي هذا البابا نفسه " يو جنينوس الرابع" بالتبجيل والإجلال بوصفه الممثل الحقيقي المقدس للمسيح...<sup>(3)</sup>.

وهكذا ظل القوم في شقاق وعراك، والمجامع (كلما دخلت أمة لعنت أختها)<sup>(4)</sup>. فأدى ذلك إلى انشقاق أكبر، تمثل في ميلاد الكنيسة

(1) وقد قام بتفيذ هذه المهمة الغير نبيلة أحسن قيام الأسقف فلنج سنة 1428م، بأمر من البابا مارتن الخامس وهو البابا الذي عينه مجمع كونستانس سنة 1417م، واستمر إلى 1431م، بعد فرار المجمع بعزل بابا أفينون (المرجع نفسه، ص 414).

(2) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج2، ص 320، عماد رجب الشيتوي، المجامع، ص 418-422.

(3) ادوارد جيون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد علي أبو حرة، دط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1969، ج3، ص 320.

(4) الأعراف/38.

البروتستانتية<sup>(1)</sup>، ولم يتمكن الكاثوليك من القضاء عليها رغم عندهم المجامع لذلك. ونحن لا يهمنا هنا الحديث عن هذه الكنيسة في حد ذاتها، وإنما يهمنا الإشارة إلى فضائح البابوية والكاثوليكية مما أدى إلى إيجاد هذه الكنيسة، ومن تلك الفضائح :

- صكوك الغفران

- العشاء الرباني

- تحريم زواج القساوسة، مما أفسد الحياة الكنسية، بإنشاء الأديرة والرهينة التي أفسدت رجال الدين، وهو ما جعل - كما يقول لوثر<sup>(2)</sup> - البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين، وأن 12 فتاة عارية كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوي وقت العشاء<sup>(3)</sup>.

- الصراع بين البابوات ولعن وحرمان بعضهم بعضا.

- محاكم التفتيش التي أنشأها البابا غريغوري 9 للقضاء على كل من يخالف الكنيسة البابوية.

- ما قرره مجمع كونستانس 1414م من قرارات ضد ما سماه بالهرطقة<sup>(4)</sup>، وإحراق حنا هس وزميله جيروم وإخراج عظام وكلف من القبر وحرقتها... إلخ.

كل هذا وغيره جعل المناداة بالإصلاح تنطلق من كل مكان حتى من إيطاليا نفسها<sup>(5)</sup>.

وما يهمنا هنا، أن صراعا مريرا حدث بين اللوثرية والبابوية، وعقدت المجامع<sup>(6)</sup> لإدانة لوثر واللوثريين وحرمانهم وإهدار دمهم وحرق مؤلفاتهم وتحريم قراءاتها<sup>(7)</sup>، واشتد الصراع بين الطرفين. وكانت نتيجة ذلك، انشطار الكنيسة الغربية كما قلنا إلى شطرين عدوين لدودين: الكاثوليك والبروتستانت، وأغرق ذلك أوروبا في حروب دينية زادت الكراهية والحقد بين الشطرين، وظلت المجامع يلعن بعضها بعضا إلى انعقاد المجمع المسكوني العشرين (1869 - 1870 م).

<sup>(1)</sup> سبب تسميتهم بروتستانت أنه لما قرر مجمع أسير سنة 1529م تنفيذ قرار مجمع ورمس ضد اللوثرين، وكان أنصار لوثر أقلية في المجمع فقدموا احتجاجا ضد القرار فعرفوا من ذلك الوقت بـ "المحتجين" أو البروتستانت (نقولا امبرازي باتينا، كثر النفائس في اتحاد الكنائس، ص50).

<sup>(2)</sup> هو مارتن لوثر، ولد لأبوين فقيرين في بلدة "إيسيلين" بألمانيا عام 1483م، درس القانون ثم دخل جامعة "أفوررت" وبعد تخرجه التحق بأحد أديرة القديس أوغسطين سنة 1505م، وفي ماي 1507م رسم قسيسا بعد تدرسه بجامعة فيترج فينجر في اللاهوت وأطلع على رسالة لـ "هس" فتأثر به، ارتقى لمنصب نائب أسقف في طائفته وأصبح معاضرا في الكتاب المقدس، وفي عام 1520م زار روما فارتجح من فساد رجال دينها وسوء سمعة بابواها ورأى هناك ما لم يكن يتصوره من العهر والفساد والفجور في الكنيسة البابوية فعاد من روما وقلبه مغمم بالسخط على رجال إكليروسها مما جعله يؤلف كتابا سماه "تخريض الأمراء" يخرضهم فيه على التخلص من البابا وتحريم الكنائس الجرمانية منه (ول ديورنت، قصة الحضارة، م6، ج3 (24)، ص 10، 13، 14. أيضا نقولا امبرازي، كثر النفائس، ص48).

<sup>(3)</sup> ول ديورنت، قصة الحضارة، م6، ج3، (24)، ص15.

<sup>(4)</sup> الهرطقة: أطلق هذا المصطلح على كل من ينكر ألوهية المسيح، وهو مخالفة، لأن معنى الكلمة الإنعراف، والذين انحرفوا حقا هم الذين آمنوا لأن حقيقته إنسان بشر رسول (محمد رجب شنيوي، المجمع، هامش ص39). «ما للمسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (المائدة/75).

<sup>(5)</sup> ول ديورنت، قصة الحضارة، م6، ج6، (27)، ص185.

<sup>(6)</sup> ومن تلك المجمع: مجمع ورمز سنة 1521م، ومجمعي أسير سنة 1526م و 1529م، ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى ول ديورنت، قصة الحضارة، م6، ج3، (24) ص38. وكذلك محمد رجب شنيوي، المجمع، ابتداء من ص446.

<sup>(7)</sup> محمد رجب شنيوي، المجمع، ص446، 447.

المجمع المسكوني الضرون (1869 - 1870م): وهو المجمع الفاتيكاني المنعقد بروما في الفترة (1869 - 1870 م)، وتكمن أهمية هذا المجمع بالنسبة إلى بحثنا، أنه عقد في حياة بورغاد. وسبب انعقاده، مسألة العصمة البابوية التي أرادها البابا لنفسه. وعلى إثر قرار العصمة الذي أقره المجمع، قام أكابر اللاهوتيين الألمان كميثيل، ودولنجو، وكذلك الآباء الفرنسيون والإيطاليون، وكثير من الغربيين برفض هذه العصمة، وهجروا الكنيسة البابوية، ولقبوا أنفسهم كاثوليك قداماء. أي محافظون على النصرانية الصحيحة، رافضون البدع الجديدة كبدعة " معتقد عصمة البابا". وعقدوا المجمع لذلك كمجمع ميونيخ سنة 1871 م - في حيلة بورغاد أيضا - ومجمع كولونيا سنة 1872 م - في حياة بورغاد أيضا - ، ومجمع قسطنطينيا سنة 1887م - في حياة بورغاد أيضا -، ونادوا في هذه المجمع كلها التي كان بورغاد على علم بها - ولا سيما أن الآباء الفرنسيين كانوا من الرافضين للعصمة البابوية - أن العقيدة البابوية مضادة للإنجيل<sup>(1)</sup>.

هذا يعني بوضوح، أن الصراع بين الطوائف النصرانية كان على أشده في حياة بورغاد، ولكنسه غطاء واتهمنا نحن المسلمين.

ونحن نتساءل: أي النصارى على حق؟ وأي الكاثوليك على حق؟. وهل بورغاد أكثر نصرانية من أولئك الذين رفضوا عصمة البابا؟. وكيف يمكن قبول عقيدة لم تحسم بعد غياب صاحبها بـ 19 قرنا كاملة؟. وهي عقيدة العصمة البابوية. ولا أدل على هذا من بقاء مشكلة العصمة البابوية مطروحة مما يعني أنها لم تحسم بعد، وبهذا فإنه كان يجب على بورغاد قبل أن يزعم للمسلمين العصمة البابوية ليبرهن بها على سلامة الأناجيل من التحريف، كان عليه أن يفتح أولئك الأعداد الهائلة من أبناء ملتبه الرافضين لها، بها. ثم يخاطب المسلمين. ويمكننا أن نتوصل مما سبق إلى النتائج الآتية:

- المجمع التي هي في حد ذاتها دليل على الخلاف والصراع لم تزل الخلافات<sup>(2)</sup>، بل زادت حدة وتعمقا، لأن قراراتها بنيت على الهوى والأطماع، فأخفت النصرانية الحقة وأنتجت نصرانية محرفة وثنية جعلت أصحابها في صراعات لا تنتهي، نشأ عنها عدد من الكنائس الكبرى والصغرى المتناقضة المتناحرة، لكل منها مبادئها ومذاهبها وعقائدها الخاصة بها المعارضة لعقائد غيرها من الكنائس كما رأينا. ثم انقسمت كل كنيسة من هذه الكنائس على نفسها، وصارت النصرانية تلد كل يوم مولودا جديدا بمذهب جديد وكنيسة جديدة<sup>(3)</sup>. وهذا إضافة إلى ما تم قبلا من انشقاق الأقباط واليعاقبة والنسطوريين والمارونيين. وهكذا فتحت المجمع باب الفرقة والاختلاف بفتحها الباب على مصراعيه للخصومة والشتاق بين النصارى في البلاد المختلفة وقمع حرية الفكر. ولا أدل على هذا من تعدد

(1) نقولا امرازي باتينا، المرجع السابق، ص 119، 120.

(2) وما يرد به على بورغاد إضافة لما ذكر، تناقض قرارات مجمع روما نفسه - المعصوم في زعم بورغاد - في القضية الواحدة، فمثلا بابا روما (بابا الحروب الصليبية) أريان الثان أعلن منذ 9 قرون أن المسلمين كفار وطلب فرسان أوروبا باحتلال أراضيهم، بينما مجمع الفاتيكاني الثاني (1962 - 1965م) أعلن ما بأن: "ولنعاقق أولا المسلمين الذين يعبدون إلها واحدا، والذين هم أقرب إلينا في المعنى الديني وفي علاقات ثقافية إنسانية واسعة" (لواء أحمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس، ص 62).

(3) وأصبح لكل كنيسة مجامعها الخاصة، ومن الأمثلة على ذلك، فإن الكنيسة المارونية ببلدان عقدت 17 مجعما ابتداء من سنة 1557 م، (محمد رجب شتيوي، المرجع السابق، ص 472).



المجامع وكثرتها وتضاربيها في قراراتها ولعن كل مجمع للآخر، وتكفير المجامع لبعضها البعض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبنهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ (1).

- الاتهام بالهرطقة والأمر بالقتل والإحراق وتنفيذهما على كل من يخالف قرارات تلك المجامع، والأمر بتحريف الكتب المقدسة المخالفة لقراراتها، ومنع الناس من تداولها، والحكم بالحرم والقتل والحرق على كل من يقرأ كتابا مخالفا لما قرره المجمع. وقد رأينا كيف حرم أريوس وغيره (2)، وكيف أحرقت عظام " وكلف" وأحرق " هس". وهذا دليل قاطع على اعتقاد أصحاب تلك المجامع بفساد عقيدتهم وأفكارهم - وكيف لا، وهم الذين كانوا يشترطون تلك المناصب لأطماع دنيوية- وإلا ما قرروا هذا، لأن الفكرة الصحيحة لا تخاف من العقل، والعقيدة الصحيحة لا تضاده، بل هو سلاحها، وهو المخاطب بها. ومن هنا، فما من بلد حرم الناس فيه من التعبير عن أفكارهم بحرية إلا كان ذلك دليلا على اقتناع قامعيهم بفساد أفكارهم، وإلا ما خافوا عليها من الآخرين. وهكذا فلما فشلت الكنيسة بالحجة والبرهان التجأت لتحقيق أطماعها إلى اختراع بدعة محاكم التفتيش.

- أكل أموال الناس بالباطل، ومن الوسائل التي قررتها الكنيسة لتحقيق ذلك بدعة صكوك الغفران (3). ويصدق على الكنيسة قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ (4). ولما أصبحت المناصب الدينية من أهم وسائل الرفاهية، فقد أصبحت تشتري بالمال كما ذكرنا، وهو ما أنتج فسادا زاد على فساد رجال الإكليروس السابق، فبانحطت أخلاق رجال الدين، وانغمسوا في معاصي الجوارح والقلوب. فانتشرت الرذيلة في وسطهم بسبب فسادهم، من شذوذ جنسي وزنا. ويكفي دليلا على هذا، ما ذكرناه قبلا من أن البابا كان يقدم له عشاءه مع كرادلته 12 فتاة عارية، ناهيك عن تفشي اللواط والسحاق.

أنتج كل ما سبق وغيره خلافات شديدة وفوضى دينية وانحراف كلي عن الدين الصحيح وتعدد المذاهب وتطاحنها، فأنتج ذلك كله نصرانيات جديدة لا علاقة لها بسيدنا عيسى عليه السلام (5). وهنا نتوصل إلى ما يأتي :

- زعم بورغاد من أن وجود مجلس روما يحمي النصرانية ويحفظها من التفسيرات الخاطئة لأنه مقدس عكس الإسلام الذي لا يوجد به مثل ذلك المجلس مما يجعله يحرف، إنما هو هراء؛ لأن ما ذكرناه من تاريخ النصرانية ومجامعها أنفا بين أن هذا المجلس لا يحمي النصرانية ولا يحفظها، بدليل ظهور

(1) للامة / 14.

(2) محمد رجب شتوي، المجامع، ص 540.

(3) المرجع نفسه، ص 541.

(4) التوبة / 34.

(5) محمد رجب شتوي، المجامع، ص 541.

البروتستانت التي تعتبر نفسها حركة إصلاح للنصرانية، وكذا وجود الأرثوذكس، بل الصراعات البابوية ذاتها أكبر دليل على عدم عصمة مجلس روما وعلى أخطائه وانحرافه. والدليل على هذا تعدد النصرانيات كما ذكرنا قبلا. ويكفي دليلا على هذا، أن مجلس روما لم يتمكن حتى أن يجمع النصارى على الاتفاق على الكتاب المقدس، حيث نجد الكتاب المقدس للكاثوليك يختلف عن كتاب البروتستانت المقدس، وكليهما يختلف عن الكتاب المقدس للأرثوذكس. بورغاد يعرف هذا جيدا. وهنا نقسامل : ما هو هدف بورغاد إذن من الغفلة عن كل هذا وتوجيه سهامه إلى نحر الإسلام؟. والجواب في نظرنا: لأنه رجل استعمار من جهة ، ولكن الأكثر من هذا، أنه ربّته الكنيسة التي رأينا حالها من انحراف وشذوذ وسيمونية وكذب إلخ. ولذلك فإننا لا نستغرب أخلاقه الفاسدة القائمة على الكذب والخداع والتلفيق والتضليل، بل الذي يستغرب، لو وجد مودبا موضوعيا نزيها تقيا، لأنه تبين لنا مما سبق أن الكنيسة لا تنتج هذا النوع من الرجال كما بين ول ديورنت قبلا<sup>(1)</sup>. وإنما ينتج المسجد. وهو ما جعل بورغاد يصب عليه جام غضبه، ولم يسلم من ذلك حتى الآيات القرآنية المكتوبة ببعض المساجد، وهو ما جعل بعد ذلك خلفه لافيغري يطلب من حكومة بلاده تدمير المساجد كما سنذكر أثناء حديثنا<sup>(2)</sup> عن لافيغري.

إننا عندما ننظر إلى التاريخ الإسلامي نجد الرجال الذين رباهم القرآن أو رباهم محمد بالقرآن كانوا أفضل تجمع بشري على وجه الأرض ديننا<sup>(1)</sup> وأخلاقا. ونحن لا ننكر أن بعضهم اختلفوا، وبعضهم تقائلوا، وذلك بحكم الطبيعة البشرية. ولكنه لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين والأشاعرة مع الاختلاف بينهما، ولا بين هذين الفريقين والمعتزلة مع الاختلاف بينهما، كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها. إن ما وقع من حروب بين الخليفة علي والمنشقين عليه من الأمويين، أو بينهما وبين الخوارج وما إلى ذلك. لم يكن مثير هذه الحروب الخلاف في العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة - الفرعية - ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة<sup>(2)</sup> <sup>(3)</sup>. ورغم هذا، فإن طرفي النزاع، بل الأطراف الإسلامية كلها لم يحرفوا عقيدتهم - كما حدث للنصارى - فما زالت العقيدة الإسلامية القائمة على الوحدانية الصرفة الموجودة اليوم هي هي نفسها التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يحرفوا القرآن الكريم، فهو هو نفسه عند جميع أطراف النزاع، وما زال القرآن الكريم الموجود اليوم هو هو نفسه الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

وإن اختلف المسلمون أو بعض فرقهم حول الصفات مثلا هل هي عين الذات أم صفة زائدة عليها، فإنهم لم يختلفوا حول وحدانية الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بذاته، ناهيك عن أن الاختلاف حول الصفات ليس

<sup>(1)</sup> ول ديورنت قصة الحضارة، قصر والمسيح، 3، ج 32، (11)، ص 291. وهو ما بيناه في حديثنا عن الاختلافات بين النصارى.

<sup>(2)</sup> ولدينا أثناء حديثنا عن أوضاع الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي ما حل بالمساجد والمؤسسات الدينية من تدبير وتخريب على يد جيش الاحتلال الفرنسي.

<sup>(1)</sup> ونستطيع أن نقول اليوم بأن عامة المسلمين أفضل ديننا وأخلاقا من رجال الإكلوس.

<sup>(2)</sup> محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 30.

<sup>(3)</sup> وهذا الاختلاف ليس ناهيا عن غموض النظام السياسي في الإسلام، فهو واضح كما ذكرناه في موضوعه ولكنه ناتج عن انشقاق على خليفة شرعي.

من أصول الدين ولا من فروعه، لأنه لم يرد عند خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. وإن اختلفوا حول القرآن الكريم أهو قديم أم مخلوق، فإنهم لم يختلفوا في أنه كلام الله نزل به الأمين جبريل على محمد بلفظه ومعناه ولقنه إياه في صورته الملكية مشافهة بقطعة، وأنه لم يطرأ عليه أي تبديل أو تغيير ولو بحرف أو صوت، وصدق من قال :

هيهات لا يعتري القرآن تبديل	وإن تبدل توراة وإنجيل
ماذا تقولون في أي مفصلة	يزينها من فم الأيام ترتيل
ماذا تقولون في سفر صحائفه	هدي من الله معض فيه جبريل
آياته يهدي الإسلام ما برحت	تهدي الممالك جيلا بعده جيل
فاية ملؤها ذكرى وتبصرة	وأية ملؤها حكم وتصيل

وهذا في حين نجد ما ذكرنا من اختلافات وصراعات بين النصارى وحروب طاحنة بين فرقها، فلا عقيدة واحدة تجمع الجميع، ولا كتاب مقدس واحد يوحدهم.

وهكذا يصدق قوله تعالى: "ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق"<sup>(1)</sup>.

ونختم تحليلنا هذا قائلين ليورغاد وأهل ملته :

إن مجامع النصارى وبيابهم وصراعاتهم واختلافاتهم حول العقيدة والأنجيل والمسيح جعلهم يدخلون في دين الله أفواجا بعد أن احتكوا بالإسلام واطلعوا على القرآن، فرأوا فيه عقيدة واحدة واضحة، ورأوا فيه مسيحا واحدا في صورة بسيطة تخلصه من كل اختلافاتهم فأمنوا بالإسلام<sup>(2)</sup>.

ونعتقد أن اختلافاتهم السابقة كان من أهم أسبابها الأنجيل التي تبين نصوصها بجلاء أن المسيح أتى ليفرق وينشر البغض والحقد والكراهية بين الناس، بل حتى مع الإنسان ضد نفسه. ولا يمكن الزعم بتلويل تلك النصوص وإلا ألغى كل شيء وزال كل اتهام، حتى اتهاماتهم ضدنا. ومن نصوص تلك الأنجيل المبنية لما ذكرنا، قول يسوع: "إذ أتيت لأفرق بين الولد وأبيه، والبنات وأمه، وبين

زوجة الإبن وأمه"<sup>(1)</sup>. وقوله: "إن كان أحد يأتي ولا يبغض أباه وأمه وإخوانه وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لي تلميذا"<sup>(2)</sup>. ومع كل هذا، يزعمون أن الله محبة.

والنتيجة من كل ما سبق: - لا اتفاق بين النصارى

- لا عصمة بابوية

- لا الله محبة

وهذا في الوقت الذي نجد فيه المسلمين مجمعين على عقيدتهم وقرآنهم.

<sup>(1)</sup> البقرة/103.

<sup>(2)</sup> علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص92.

<sup>(1)</sup> إنجيل متى، إصح ح 10، فقرة 15.

<sup>(2)</sup> إنجيل لوقا، إصح 14، فقرة 26.

## الفصل السابع النصرانية والسيف

يتهم بورغاد الإسلام بأنه انتشر بالسيف، بينما النصرانية تقوم حسب زعمه على: "الله محبة والتسامح وعدم العنف"، ليتوصل إلى أن النصرانية أحسن من الإسلام.

ونحن لكي ندرس هذه التهمة، ارتأينا أن لا نلجأ إلى تحليل الإسلام كي نبين تهاقت زعم بورغاد كما يفعل كثير من المفكرين المسلمين، ولا سيما أننا بينا أثناء حديثنا عن نشأة التبشير كيف وقع الهجوم النصراني على الإسلام والمسلمين، مما جعل كل حروبيهم ضد النصارى دفاعا عن الذات الإسلامية. وإنما التجأنا إلى تحليل ظاهرة السيف أو العنف في النصرانية معتمدين المنهج التاريخي من جهة، والمنهج الاستراتيجي<sup>(1)</sup> من جهة أخرى. وذلك وفق الخطة الآتية:

1- السيف أو العنف في الكتاب المقدس.

أ- العهد القديم.

ب- العهد الجديد: المسيح والسيف أو العنف.

2- السيف أو العنف بين النصارى ضد أنفسهم قديما وحديثا.

3- السيف أو العنف النصراني ضد المسلمين.

وبعد ذلك نتوصل إما إلى تأكيد<sup>(2)</sup> تهمة بورغاد للإسلام، وإما إلى إثبات تهاقتها.

1- السيف أو العنف في الكتاب المقدس:

أ- العهد القديم : عندما ننظر إلى العهد القديم نجد أنه ورد فيه من القسوة في أحكام الحرب والتقتيل والإبادة الجماعية ما لم يرد في غيره، فورد فيه أن الأنبياء السابقين قتلوا الكفار، - بل حتى مخالفيهم- وسبوا نساءهم وأطفالهم ونهبوا أموالهم، ومن ذلك ما ورد في سفر التثنية مخاطبا لموسى<sup>(3)</sup> "حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بسل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إليك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إليك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء

(1) ونكتفي بالاستقراء الناقص؛ لأن غرضنا الاكفاء بإيراد نماذج تبين حقيقة السيف أو اللامسيف في النصرانية، أما الاستقراء الكامل فإنه لا تكفي مجلدات.

(2) هذا الافتراض "تأكيد التهمة" إنما هو افتراض منهجي لا واقعي.

(3) محمد رشيد رضا، العنف في الكتاب المقدس، مجلة المنار، ط1، مطبعة المنار، مصر القديمة. 1330 هـ. ج1، م15، ص38.

الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً<sup>(1)</sup>، الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك<sup>(2)</sup>.

ومعنى النص السابق، أن الله أمر في حق القبائل الست : الحثانيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين أن يقتل بحد السيف كل حي منهم ذكورهم وإناثهم وأطفالهم، أي يبادوا عن بكرة أبيهم -الإبادة الجماعية- وأمر فيما عداهم أن يدعوا إلى الصلح، فإن رضوا به وقبلوا الإطاعة استعبدوا جميعاً وسخروا جميعاً له ودفعوا الجزية<sup>(3)</sup>، وإلا حاربوا. فإن وقع عليهم الانتصار وجب قتل كل ذكورهم بحد السيف، ووجب سبي نساءهم وأطفالهم ونهب أموالهم ودوابهم وكل ما في المدينة، وتقسيمها على أصحابه. وهكذا يجب أن يفعل بكل القرى التي هي بعيدة من قرى الأمم الست<sup>(4)</sup>.

وقوله أيضاً في سفر التثنية: "متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة منه أمامك الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنهم تحرمهم - تبيدهم - لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ... وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك، لا تشفق عيناك عليهم ... والزنايين أيضاً يرسلها الرب إلهك عليهم حتى يفنى الباقون والمختفون من أمامك ... ويدفعهم الرب إلهك أمامك ويوقع بهم اضطراباً عظيماً حتى يفنوا ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحو اسمهم من تحت السماء. لا يقف إنسان في وجهك حتى تفنيهم..."<sup>(5)</sup>. هذا النص يبين بوضوح تام أن الله أمر بإبادة كل ذي حياة من هذه الأمم السبع ومنع الرحمة بهم والمعاهدة معهم، بل سلب عليهم لأجل إيادتهم وإبادة كل ملوكهم حتى الزنايين. وقد بين النص السابق أن هذه الأمم المطلوب إيادتها أكثر عدداً من بني إسرائيل، وعدد بني إسرائيل حسب ما ورد في سفر العدد أن القادرين منهم على الحرب وخدمهم وهم أبناء 20 سنة وما فوقها، 600 ألف و 3 آلاف وخمسمائة وخمسين رجلاً<sup>(6)</sup>، وأن اللاويين ذكورا وإناثاً وكذا إناث سائر الأسباط الإحدى عشر، وكذا ذكورهم دون العشرين خارجون عن هذا العدد. ومجموع القادرين على الحرب مع غير القادرين لا يقل عن 2,5 مليون نسمة. ولما كان حسب النص السابق عدد الأمم السبع أكثر من هذا

(1) أي تبيدها (رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج2، ص 289، 290.

(2) سفر تثنية | ص ح 20، فقرات 1-17.

(3) الإسلام لا يحارب إلا من حاربه، وفي حالة الحرب والصلح يكفي منهم بدفع الجزية دون استعباد أو تسخير وفي مقابل الجزية يضمن لهم حماية أنفسهم وأموالهم، أي يضمن لهم الأمن العام في كل شيء. وشتان بين شريعة القرآن وشريعة ما يسمى الكتاب المنقوس.

(4) رحمة الله الهندي، إظهار الحق، ج2، ص 289، 290.

(5) سفر تثنية، | ص ح 7، فقرات: 1-4، 16، 20، 23، 24.

(6) سفر العدد، | ص ح 1، فقرة 46.

العدد، فإن الذي طلب الرب من موسى إبادته أكثر من 2.5 مليون نسمة<sup>(1)</sup>.

إن من يملك هذه النصوص وغيرها ويقول بقداستها، كيف لا يخجل من اتهام الآخرين باستعمال العنف؟! إن الآخرين يجب أن يتهموا ويدانوا إذا لم يستعملوا العنف لحماية أنفسهم من أصحاب هذه النصوص. وهكذا فأمر النصارى غريب، يملكون هذه النصوص ويعيبون على الإسلام الجهاد الذي لولا وجوده، لكان عدم وجوده هو المطعون في الإسلام، وهو يعد من جوانب عظمة الإسلام؛ لأنه تقع به الحماية من بطش أصحاب هذه النصوص.

وإذا كانت النصوص السابقة تلك فيها من العنف والوحشية ما تشيب له الولدان، فإن الذي خوطب بها وهو موسى عليه السلام حسب عقيدة الكتاب المقدس كان يمثلها ويمثلها، فهو لا يوصف إلا بأنه قاس جبار، لا رحمة له ولا شفقة معه، فهو جبار عنيف، يقتل ويقاتل، يقتل من يشاء من غير اليهود ولا تحركه غير عاطفة اليهود ولا يتجه إلا إلى اليهود، سفاح، يقتل من يشاء ويذبح من يشاء، ويخادع من يشاء لبني إسرائيل، سائرا في التيه أربعين عاما، يزمجر للكون ويرعد ويهدد أعداء بني إسرائيل بالفناء<sup>(2)(3)</sup>. ومن الأمثلة على هذا، ما ورد في سفر العدد أن موسى عليه السلام لما أرسل فينحاس بن العازار في 12 ألف رجل لمحاربة أهل مديان، فانتصر الجيش وقتل كل الذكور وملوكلهم الخمسة، وبلغام بن بعور وسبوا نساءهم وأطفالهم، ونهبوا مواشيهم كلها وكل ما يملكون، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. فلما رجعوا غضب عليهم موسى غضبا شديدا لأنهم لم يقتلوا النساء، ثم أمر بقتل كل طفل ذكر، وكل امرأة ثيب، وإبقاء الأبقار. ففعلوا كما أمر.

وكانت الغنائم من الغنم 675 ألفا، ومن البقر 72 ألفا، ومن الحمير 61 ألفا، ومن الفتيات الأبقار 32 ألفا، وكان لكل مقاتل ما نهب من غير الدواب والأبقار. وقد بين مقدارها في هذا الإصحاح. غير أن رؤساء الألوفا والمئين أعطوا الذهب لموسى والعازار 36 ألفا<sup>(2)</sup>. وهنا نتساءل: كم يكون عدد المقتولين من الذكور شيوخا وشبانا وصبيانا، ومن النساء الثيبات<sup>(3)</sup>؟.

(1) وقد ترصل رحمة الله الهندي بناء على ما ورد في كتاب الفيس دقر كيث الذي ترجمه إلى الفارسية الفيس هريك وعنوانه "كنسف الأنار في قصص أنبياء بني اسرائيل" وطبعت الترجمة في أدن برغ سنة 1846م أن البلاد اليهودية كان بها قبل 550 سنة من الهجرة 80 مليون نسمة، فاستتج من هنا رحمة الله الهندي أن هذه البلاد في عهد موسى كانت معمورة مثلها أو أكثر، فأمر الله موسى بقتل 80 مليون نسمة أو أكثر (رحمة الله الهندي، المرجع نفسه، ج2، ص291، 292).

(2) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج1، ص66.

(3) أما القرآن الكريم فيصف سيدنا موسى عليه السلام بأجمل المعاني النفسية والروحية إلى حد أن قصته في القرآن الكريم ألمست كثيرا من المعاني الصوفية، "كقطع النملين في الوادي المقدس" و"النار المقدسة" و"جبل الطور" و"الحضر و موسى" [مثلا لماذا قتلت نفسك زاكيسة بغير نفسك...]. "موسى الكليم" و"مقام لن تراني"، أثارت أجمل النظريات الصوفية إلى حد أن الحلاج وقد قطعت رجلاه وذراعاه بسيف الشرع - ينادي بأية موسى القرآنية "وعطت إليك ربي لترضى" (طه/82) وهكذا فموسى القرآن غير موسى التوراة. لقد وضعه القرآن في نسق الأنبياء الإنسانيين الذين تتبثق منهم أختيات الروح بينما وضعه اليهود منذ القدم وحسب الآن قاتلا جبارا... جعله الإسلام روحا وجعله اليهود مادة (علي سامي النشار المرجع السابق، ص66). وهكذا يظهر جليا الفرق بين القرآن الكريم وبين العهد القديم، أو بين كلام الرحمن وكلام الإنسان.

(2) سفر العدد، | ص ح 31، فقرات 1-36.

(3) رحمة الله الهندي، المرجع السابق، ج2، ص294.

وقد عمل بنو إسرائيل بهذه الأوامر، وغيرها، وهاهو خليفة موسى - يشوع - ينفذ تلك القسوة والإبادة، " وضربهم يشوع بعد ذلك، وقتلهم وعلقهم على خمس خشب، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء"<sup>(1)</sup>. " وضربوا كل نفس بها بحد السيف حرّموهم -أبادوهم- ولم يبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار، فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك، وجميع ملكها وضربهم بحد السيف، حرّمهم - أبادهم - كما أمر موسى عبد الرب ... وكل غنيمة تلك المدن والبيهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم، وأما الرجال فضربوهم جميعا بحد السيف حتى أبادوهم لم يبقوا نسمة"<sup>(2)</sup>.

والواقع أن قضية السيف ليست خاصة بموسى ويشوع، بل هي ظاهرة عامة في العهد القديم كله، ومن ذلك ما جاء في سفر صموئيل الثاني أن داود النبي " أخرج الشعب الذي فيها - أي رتبة - ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرهم ( أي جعلهم) في أتون الأجر، وهكذا صنع بجميع مدن بني عمون"<sup>(3)</sup>.

وجاء في سفر أخبار الأيام الأول " فضرب يواب رتبة وهدمها، وأخذ داود تاج ملكهم ... وأخرج غنيمة المدينة وكانت كثيرة جدا وأخرج الشعب الذين بها ونشرهم بمناشير ونوارج حديد وفؤوس وهكذا صنع داود لكل مدن بني عمون"<sup>(4)</sup>، أي أبيد جميع شعب بني عمون بطريقة وحشية بشعة تشمئز منها النفوس وتتشعر لها الأبدان ناهيك عن أخذ كل ما يملكون. ويجب أن نشير هنا بأنه لم يرد في كتابهم المقدس أن الله أنكر على داود ذلك أو زجره عن فعله هذا القضيع، أو عاقبه عليه، بل الكتاب المقدس كله مملوء بالثناء عليه وعدّه من الأبرار الأطهار<sup>(5)</sup>. بل نجد أن أمر القتل والتدمير الشامل كان ينفذه داود بأمر الإله<sup>(6)</sup>. وعندما ندرس من صموئيل 1 و 2 إلى أخبار الأيام الأول والثاني نجد أن ما قتله داود وحده من الفلسطينيين وبني عمون وغيرهم يعد بالملايين، إضافة إلى التحريق والتدمير والتهب والسلب والأسر وقتل الأسرى بطرق بشعة والتسري. كل ذلك بأمر الرب<sup>(7)</sup>. ولنشر إلى حادثة على سبيل المثال تبين شدة القتل والتدمير، هي ما وقع من الحروب الشديدة المدمرة بين داود دفاعا عن ابنه الزانبي بأخته، وابنّه أبشالوم دفاعا عن عرض أخته، كما ذكرنا أثناء حديثنا عن النبوة في الكتاب المقدس، ولقد اضطر داود إلى الفرار من وجه ابنه، وسب داود ومست كرامته، وقد قتل في معركة واحدة بين داود وابنه أبشالوم

(1) سفر يشوع، | ص ح 10، فقرة 26.

(2) سفر يشوع، | ص ح 11، فقرات 11-14.

(3) صموئيل الثاني، | ص ح 12، فقرة 31.

(4) أخبار الأيام الأول، | ص ح 20، فقرات 1-3.

(5) محمد توفيق صدقي، بشائر حيسى ومحمد في المهددين العتيق والجديد، مجلة المنار 1912م، ج 10، م 15، ص 755، وهذا رغم ما فعله بزوجته أوربا الحثي، وبه، وما إلى ذلك مما ذكرناه عنه في النبوة في الكتاب المقدس.

(6) ومن الأمثلة على هذا ما ورد في صموئيل الثاني، | ص ح 5، فقرة 19.

(7) ومن أراد التوسع فليرجع إلى تلك الأسفار، وساعتد يجد ما تشبّه له بالولدان.

20 ألفا من بني إسرائيل، بل وصل الأمر أن زنا الابن أبشالوم بعشرة من نساء أبيه علانية أمام الملأ كما ذكرنا<sup>(1)</sup>.

ومن يقرأ العهد القديم، يجده مملوفاً بالقسوة والقتل وسفك الدماء بدون حدود أو قيود، والأسر والاستعباد والتسخير إلى غير ذلك، ولا يمكن القول بأن المسيح نسخ هذا، لأن القضية ليست قضية نسخ أو عدمه، بل قضية مشروعية ذلك في عهد أنبياء بني إسرائيل أو عدم مشروعيتها، والعهد القديم لا يبين أن ذلك مشروعاً فحسب، بل يعتبره من أعظم الأعمال. وهنا لو فرضنا أن المسيح نسخ هذا وأتى بالسلم والغنى الحرب، فما الذي يمنع من إرسال نبي آخر بعد المسيح يعيد للسيف نوره. فهل يقبل عقلاً أن ما فعله أنبياء بني إسرائيل من سفك الدماء وما إليه عمل جميل لا يلامون عليه، أما ما ورد في الإسلام من جهاد دفاعاً عن الإسلام منوم<sup>(2)</sup>؟ ترى لماذا يشتمز النصارى من ذكر القتال في القرآن ولا يشتمزون مما ذكر وما لم يذكر في العهد القديم<sup>(2)</sup>؟ السبب واضح هو أنهم يريدون أن تطلق أيديهم في البشر يقتلون ويشربون، وفي أتباع محمد ينبحون ويحرقون ويبيدون. وفي المقابل، يقول محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه: اتركوا النصارى ينبحون رجالكم وأطفالكم وينتهكون أعراضكم ويسلبونكم أرضكم وكل أملاككم ولا يجوز لكم أن تدافعوا عن أنفسكم. وقبل أن نعلق تنتقل إلى قضية العهد الجديد:

ب- العهد الجديد :

- المسيح والسيف أو العنف :

المسيح نفسه كان يستعمل العنف ظلماً: وأنجيلهم تبين هذا " ولما دخل الهيكل ابتداء يخرج الذين كانوا يبيعون ويشترون"<sup>(3)</sup>، " وكان فصح اليهود قريباً فصعد يسوع إلى أورشليم ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيافف جلوساً. فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل، الغنم والبقر وكباً دراهم الصيافف وقلب موائدهم"<sup>(4)</sup>. وذلك على إثر نوبة من الغضب الشديد انتابته هو وأتباعه دفعتهم إلى قلب مناضد الصياففة وتجار الحمام وبعثرة نقودهم على الأرض وإخراج التجار من ساحة الهيكل بضرب العصي<sup>(4)</sup>. ولسنا ندري أين الله محبة، وأين التسامح؟.

- نصوص الأنجيل تأمر بالسيف والعنف: عندما ننظر إلى الأنجيل نجد فيها من النصوص القاسية

الأمرة بالعنف والتدمير والقتل إلخ ما لا يوجد في غيرها. ومن ذلك ما يرويه لوقا عن المسيح<sup>(5)</sup>:

(1) صموئيل الثاني مختلف الإصحاحات ولا سيما 15-18.

(2) محمد توفيق صليبي، المرجع السابق، ص 745 - 764.

(3) إنجيل لوقا، 1 ص ح 19، فقرة 45.

(4) إنجيل يوحنا، 1 ص ح 2، فقرات 13-15.

(5) ول ديورانت، قصة الحضارة عصر المسيح، ج 3، ح 3 (11) ص 234.

(6) محمد رشيد رضا، العنق في الكتاب المقدس، مجلة المنار، ج 1، ص 15، ص 38.



أما أعدائي الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأثروا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي"<sup>(1)</sup>. ومن تلك النصوص أيضا:

- المسيح يخبر أنه أتى بالسيف لا بالسلام: " لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما بل سيفا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والآبنة ضد أمها، والكنيسة ضد حمايتها، وأعداء الإنسان أهل بيته"<sup>(2)</sup>. وهنا نتساءل: هل قال محمد صلى الله عليه وسلم هذا؟ أبدا.  
وقال أيضا: " ولا تظنوا أنني جئت لأنشر السلام على الأرض، إنني لم أت أحمل السلام، وإنما السيف"<sup>(1)</sup>.  
وقال أيضا: " ومن ليس له فليبيع ثوبه ويشتري سيفا"<sup>(2)</sup>. وقال أيضا: " إني جئت لألقي النار على الأرض وماذا أريد من ذلك إلا اشتعالها"<sup>(3)</sup>.

وهنا نتساءل: لو بلغ يسوع من القوة والسلطان ما بلغه موسى وداود ومحمد عليهم السلام، فماذا تكون أقواله وأفعاله؟! إنه مع تأويل النصارى لهذه النصوص -الغير قابلة للتأويل - وقت الجدل الديني وذرقت دموع التماسيح، لا نجد أمة من أمم الأرض ارتكبت ما ارتكبهوه من المظالم والحروب وسفك الدماء وقتل الأبرياء، واضطهاد الناس في دينهم وإكراههم على النصرانية وإجراقتهم بالنيران وتمزيق أجسادهم، وغير ذلك من الفضائع التي تشيب لها الولدان، ولا ينكرها تاريخ من تواريخهم منذ زمن قسطنطين، حيث صارت لهم دولة إلى اليوم. فلا نجد في الغالب زمنا خاليا من تعديهم على الضعفاء وتقتيلهم للأبرياء، وتفنتهم في اختراع الآلات المدمرة. وكان ذلك في أغلب الأوقات برضا الإكليروس وإقراره وأمره<sup>(4)</sup>.

وهنا يجب أن نشير إلى موقف يحسم هذا الأمر ويبين توجه النصارى دينيا نحو السيف، وهو موقف بولس: " وماذا أقول أيضا لأنه يُعوزني الوقت إن أخبرتك عن جدعون وبازان وشمشون<sup>(5)</sup> ويفتاح وداود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك، صنعوا براء، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود، أطفأوا قسوة النار، نجوا من حد السيف، تقوّوا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرياع"<sup>(1)</sup>. وبهذا يظهر جليا من كلام مقدسهم بولس، أن قهر هؤلاء الأنبياء ممالك وإطفاءهم النار ونجاتهم من حد السيف وحروبهم الكفار وهزمهم بجيوشهم، كان من جنس البر لا من جنس الإثم، وكان منشأها قوة الإيمان ونيل مواعد الرحمن - وإن كان أفعال بعضهم في صورة أشد أنواع الظلم سيما في قتل الصغار<sup>(2)</sup> -.

(1) إنجيل لوقا، إصح ح 19، فقرة 27.

(2) إنجيل متى، إصح ح 10، فقرات 34-36.

(3) إنجيل متى، إصح ح 10، فقرة 34.

(4) إنجيل لوقا، إصح ح 22، فقرة 36.

(5) إنجيل لوقا، إصح ح 12، فقرة 49.

(6) محمد توفيق صغفي، المرجع السابق، هامش ص 755، 756.

(7) شمشون حسب ما ورد، ولوردناه في "الكتاب المقدس أساس الرذيلة في المجتمع" أنه امتاز بشيئين جوهريين سفكه لدماء الفلسطينيين أممارة، وتقلبه في أحضان الهياكل لئلا يمارا، ومع هذا نجد الشاه عليه، وسباق نص بولس يدل على قوة إيمانه وشدة بطشه، وعجب أمر النصارى، فالذي جعل بولس يمدحه هنا هو حدة سفكه للدماء.

(8) الرسالة إلى العبرانيين، إصح ح 11، فقرات 32-34.

(9) راحة الله المظنون، إظهار الحق، ج 2، ص 297.

وهنا تنتقل إلى القضية التالية ، وهي :

## 2- السيف أو العنف بين النصارى ضد أنفسهم قديما وحديثا:

لقد اختلف النصارى أول ما اختلفوا على شخصية المسيح، فنشأت بينهم أحزاب أو طوائف مختلفة<sup>(1)</sup> لم يقتصر الخلاف بينها على العقائد والطقوس، بل تعداه إلى فتن دموية قامت بين الأحزاب أو الطوائف، ليصبح السيف ميزة الأمم النصرانية ضد بعضهم بعضا وضد غيرهم، منذ زمن قسطنطين إلى اليوم. والواقع أن الأشياء من معانها لا تستغرب، ذلك أنه : " ما أهون الدم على من يمثل في عبادته أكل السدم، وعلى من يعتقد أن خلاص العالم الإنساني من الخطيئة إنما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الأثيم"<sup>(2)</sup>. والنصوص السابقة خير دليل على ملازمة النصرانية للعنف، أو على علاقة التلازم بينه وبينها.

ونستطيع القول بأن العنف ضد الآخرين بدأه يسوع نفسه حسب اعتقادهم كما ذكرنا قبلا من سلوكه ونصوصه، ثم بولس الذي قضى وقتا كبيرا من حياته في اضطهاد أتباع المسيح قتلا وتعذيبا، ولما لم يُجد ذلك نفعا ادعى التحول المزعوم، وبعد ذلك التحول رأينا نصه السابق في ضرورة استخدام السيف والإشادة بمستخدميه واعتبار ذلك من أهم أعمال البر. وأقد أشرنا إلى الاختلافات بين تلاميذ المسيح أثناء حديثنا عن الاختلافات بين النصارى، وظل لم يحسم بين تلاميذه وكذا بين أتباعه، وظلوا يتطاحنون إلى مجمع نيقيا سنة 325 م. وقد رأينا أن عقيدة مجمع نيقية قررتها عصا الإمبراطور قسطنطين الغليظة، فأجبر الأغلبية على إتباع الأقلية، فكان لهذا المجمع أثره في اتخاذ السيف لقطع رؤوس المخالفين، وبهذا فإن سيف الإمبراطور ورهبته وبطشه كان له الدور الأساسي في تكوين رأي الذين رأوا ألوهية المسيح، فسلطوا سيوفهم على الأكثرية المعارضة من آريوسيين وغيرهم وأجبر الناس على تلك العقيدة بقوة السيف<sup>(3)</sup>، وظل الصراع والتطاحن، والمجامع الكل ضد الآخر، ومن كانت له قوة، بطش بالمعارض له. مما يمكن القول معه، بأنه ما من عقيدة ظهرت في النصرانية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق إلا وسالت لها الدماء. ولما كانت العقيدة النصرانية قد ظلت تتكون لقرون طوال كما بينا أثناء حديثنا عن الاختلافات بين النصارى، فإن السيف كان الطابع المميز لعلاقات النصارى مع بعضهم بعضا، ومن ذلك ما وقع في مصر عندما أريد تقرير عقيدة عبادة العذراء واتخاذها لله أما<sup>(4)</sup> تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ومن الفضائع التي تشيب لها الولدان ما فعله الرومان الملكانيون بالأقباط اليعاقبة إثر استرداد هرقل لمصر من الفرس بعد رفض الأقباط محاولته إخضاعهم لمذهبه الملكاني، فلجأ الرومان إلى القوة والبطش بالسجن والجلد حتى الموت، وظل القساوسة المصريون يفتلون ويشردون عشرين حولا كاملة مما اضطر المصريين إلى إظهار ما لا يبطنون. ويمكننا أن نتصور ما في قلوب الفريقين من حقد من خلال تأمل هذه

(1) أحمد محمد سليمان، القرآن والعلم، ط5، دار العودة، بيروت، 1981م، ص133.

(2) محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص62.

(3) محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص144.

(4) محمد عبده، المرجع نفسه، ص49.

الحادثة التاريخية، وهي أنه لما اتفق الروم مع المسلمين على تسليم حصن بابلون، أعطاهم المسلمون مهلة ثلاثة أيام لإخلاء الحصن، وكان آخر أيامهم في الحصن هو يوم عيد الفصح، ولكن نكبتهم وحرمة ذلك اليوم عندهم لم تمنعهم من إرواء غليلهم بالتكليل بأسرى الأقباط الذين سجنوهم في الحصن قبلاً، فسحبوهم من سجونهم وجلدوهم وقطعوا أيديهم. فأى فضاة أشد من هذه الفضاة، وأي قسوة أبلغ من هذه القسوة (1) (2)؟!

وإذا كان الأقباط في مصر اضطهدوا من الرومان، فإن النصارى النسطوريين اضطهدوا أيضاً من الرومان في آسيا الصغرى والشام وفلسطين، مما كان سبباً في التجاء علمانهم إلى العراق وفارس (3). وما يقال عن النساطرة يقال على اليعاقبة في بلاد الشام الذين احتموا بالإسلام من أبناء ملتهم، وقد أشرنا قبلاً إلى يوحنا الدمشقي.

والواقع أن السيف متأصل في النصرانية ولد معها، وظل ملازماً لها، ليس على مستوى التنفيذ فحسب، بل على مستوى التنظير أيضاً. ومن الذين نظروا له، فيلسوف النصرانية الأكبر بلا منازع: **القدس أوغسطين:**

اشتهر أوغسطين بالخدمات الكبيرة التي قدمها للكنيسة النصرانية - الملكانية - وبعمالته التي لا تضاهى للاستعمار الروماني. فبذل جهوداً جبارة لنشر النصرانية - دين المستعمر - في إفريقيا الشمالية المستعمرة بالرومان، بالفكر والعمل بين أبناء قومه (4). ذلك أن النصرانية انتقلت من المشرق إلى الرومان بإيطاليا، ومنها إلى إفريقيا الشمالية بزعامة القديس سيبريان فاعتنقها بعض البربر من سكان المدن ليؤاخوا الروم في العقيدة فيكفون عن اضطهادهم، ولكنها لم تجدهم تفعاء، فلم يلبثوا أن نبذوها يسوم أن جعلها الرومان دينهم الرسمي في عهد قسطنطين (5). ولم يبق لها من وجود إلا بين أفراد الطبقة الأرستقراطية في المدن دون القرى، وذلك حفاظاً على مصالحها المادية التي جعلتها تتحالف مع الكنيسة الرسمية لحمايتها النظام الاستعماري الروماني من حركة الثوار المناهضة للنظاميين الاجتماعي والاستعماري الروماني. وهي الحركة التي ضمت المعتمدين من الأهالي الذين التفوا حول النحلة الدوناتوسية (6)، وهي نحلة نصرانية انمقتت عن الكنيسة الرسمية تحت شعار "دوناتيسم" نسبة إلى راهب قرية برية يسمى "دونات" (Donat).

(1) أحمد محمد سليمان، القرآن والعلم، ص 133، 134.

(2) هنا أحد العوامل الأساسية في انتشار الإسلام، فإنه انتشر بعدله ورحمته ورأفته لاسبغفه، وهو يبين لنا سر دخول الأقباط في دين الله أفواجا وتسطيع أن تقارن هذه الهن التي حلت بالأقباط النصارى من طرف الروم النصارى بالحادثة التي يرويها التاريخ عن تسابن ابن عمرو بن العاص مع أحد الأقباط وهو -أساير المصري-، ولما سبق القبطي ضربه ابن الوالي عمرو عنحا عليه أتسبب ابن الأكرمين 19 وبلغ ذلك مسامع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستدعى الطرفين وأعطى الدرّة للقبطي وقال له: اضرب ابن الأكرمين، وتم هذا بحضور الوالي عمرو بن العاص، فكان نتيجة هذا اعتناق القبطي للإسلام، فهل تبقى بعد هذا مقارنة بين الإسلام الحربي والنصرانية السلمية 119.

(3) أحمد محمد سليمان، القرآن والعلم، ص 134.

(4) هشام الصلدي، نحو رعي أفضل لتاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ع 8، ص 174، 176.

(5) محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والحارج، دط، ش. و. ن. ت. الجزائر، 1983، ص 54، 55.

(6) هشام الصلدي، المرجع السابق، ص 174-176.

وقد اعتنق هذا المذهب جل بربر المدن لأغراض سياسية تتمم في مقاومة ظلم الرومان، دون سكان الجبال الذين ظلوا وثنيين إلى مجيء الإسلام ليعتقه الجميع<sup>(1)</sup> سكان المدن والأرياف. وهنا يجب أن نشير إلى أن المذهب الدوناتى كان وطنيا مقاوما للاستعمار الرومانى، مما حدا بالأهالى إلى الالتفاف حوله، عكس المذهب النصرانى الرسمى (الكاثوليكي) الذي كان يعمل لتمكين للاستعمار، هذا الاستعمار فإنه لكي يتمكن من رقاب الجميع أنشأ وأذكى صراعا طبقيًا واجتماعيًا حادا بين المعدمين في الريف من جهة، وسكان المدن من جهة أخرى. وسخرت السلطات الرومانية الاستعمارية جيوشها وقواتها لقمع الثائرين، فاتخذت المقاومة الوطنية لنفسها صبغة اجتماعية أخرى إضافة إلى المذهب الدوناتى تتمثل في حركة الدوارين<sup>(2)</sup> الذين أعلنوا أنهم " جاعوا ليملأوا الأرض عدلا" وينادوا " العبيد لتحرر"، ومن جديد اشتركت الجيوش الرومانية مع الكنيسة في قمع الثورة فبطشوا بالدوارين والدوناتوسيين بكل قوه، ولما لم يجد الحركة الوطنية نفعا ما سبق لجأت بعض الفئات في جبال الأوراس مثل قبيلة جراوة إلى اليهودية، وذلك مغالطة للرومان ومعاكسة لهم<sup>(4)</sup>.

في هذه الظروف الاجتماعية المتردية والقمع الوحشي الرومانى يظهر أوغسطين على مسرح الأحداث، ولكن لخدمة الاستعمار الرومانى لا لخدمة أبناء جلدته<sup>(5)</sup>. وقد استغل نفوذه ومكانته كأسقف لمدينة عنابة منذ عام 395م وصديق حميم لأسقف قرطاجنة. سخر مواهبه ونفوذه لخدمة الكنيسة النصرانية المستعمرة ضد أبناء وطنه المسحوقين، ذلك أن الذي كان يعين على نشر النصرانية الرسمية في هذه الفترة كبار الملاك الذين كانوا يعمدون إلى تصير خدمهم - تحت زعم - توطيد الوحدة الدينية في أراضيهم بنوميديا<sup>(6)</sup> - وهو ما يتوافق مع ما ذكرناه قبلا أثناء حديثنا عن توثين قسطنطين للنصرانية من إدراك الرومان لأهمية العامل الروحي في السيطرة على شعوب متنافرة ثقافيا ودينيا - وذلك لأن التصهير كان

(1) محمد الطمار، المرجع السابق، ص 55، 54.

(2) الدوارون: هم المعدمون الذين كانوا يدورون حول مخازن القمح لسرقة فوطهم، يضاف إليهم الفلاحون البائسون في الريف ( هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 174).

(3) هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 174.

(4) محمد الطمار: المرجع السابق، ص 55.

(5) وتختلف هنا مع محمد الطمار الذي يعتبره أحد رواد الفكر وزعماء الوطنية في الجزائر، وذلك أثناء تعليقه على الحوادث التي وقعت بين الرومانى على إفريقيا (يونيفاس) والوندال سنة 422م حيث كافح أوغسطين حسب اعتقاده إلى جانب يونيفاس مدة 14 شهرا إلى أن توفي في 27 أوت 430م، فكفاح أوغسطين إلى جانب يونيفاس دليل على وطنيته، ونحن نرى أن كفاحه هذا دليل على عمالته وحياته لوطنه، فهو ليس إلا "حركيا" من الطراز الخطير، فهو إضافة إلى اختراعه وسائل قمع الجزائريين وطرق تنفيذ ذلك القمع لصالح الاستعمار الرومانى، فإنه هنا كافح إلى جانب المستعمرين الرومان ضد المستعمرين الجدد (الوندال) كما كافح كثير من الجزائريين في الحربين العالميتين 1، 2، إلى جانب فرنسا المستعمرة لبلدهم ضد الألمان، فهل يجرؤ أحد أن يقول عنهم إنهم وطنيون لأنهم كافحوا إلى جانب فرنسا متطوعين ضد الألمان وإلا لماذا لا نقيم النصب التذكارية لتخليدهم؟!! (أنظر محمد الطمار، المرجع السابق، ص 64-68).

(6) جوليان أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب مزالي سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1969، ص 307.

بالنسبة للأسياذ ضمنا لصد طبقة المعدمين السابق ذكرها.<sup>(1)</sup> وهنا شمر أو غسطين عن ساعديه، فتمكن من عقد مجمع كنسي بقرطاج، أفتع هذا المجمع الإمبراطور بأن يعلن عام 405 م أن النحلة الدوناتوسية خارجة عن قوانين الدولة، وأتبع ذلك بقمع وبطش رهيب. ولكن حركة الثوار في نوميديا من دوارين ودوناتوسيين صمدت وقاومت بضراوة مما اضطر الإمبراطور إلى التراجع ويعلن فجأة عن حرية العقيدة، فيتحرك أوغسطين من جديد ليمارس براعته ومواهبه ونفوذه في الدعوة لعقد مجمع ديني آخر بهدف "إعادة الوحدة الدينية" إلى الكنيسة، وتم عقد المجمع الذي تمنينا لو جعل الهدف من عقده العمل على تحرير بلاده من ظلم الرومان واستعمارهم ويطشهم وقمعهم، ولكنه للأسف الشديد كان هدف أوغسطين من عقده قمع مواطني بلده المستعمرين. ذلك أنه بسبب الضغط والشكاوى التي أرسلها المجمع إلى الإمبراطور تم سحب مرسوم "حرية العقيدة المتسامح" وصدر حكم إمبراطوري على الدوناتيين والدوارين بإجبارهم على العودة إلى الكنيسة الرسمية تحت طائلة التعذيب والنفي ومصادرة الأموال. وهكذا بفضل أوغسطين انتصر الكاثوليك على خصومهم مما زاد اشتعال حقد المواطنين على الإمبراطورية الرومانية الاستعمارية وعلى الكنيسة ذاتها، وعلى حلفائها الأرستوقراطيين ملاك الأراضي. ولقد اعتمد أوغسطين في نشر المذهب الكاثوليكي بين قومه مثلما اعتمد في مقاومتهم، على مبدأ من وضعه هو "مبدأ الإرهاب المجدي" الذي أصبحت تمارسه السلطة استجابة له ضد الأهالي الخارجين على كنيستها الرسمية. وهكذا انحاز إلى الحكام المستعمرين متخلياً عن شعبه من فلاحين ومعلمين. ولسنا ندري، أهذه أخلاق المسيح أم وحي أوحى به إلى أوغسطين؟! ويجب أن نذكر بأن "هذا الانحياز الكنسي إلى الحكام المستعمرين الظالمين، هو الذي جعل الاستعمار الروماني والكنيسة والطبقة الأرستوقراطية من جهة، والشعب من جهة أخرى، وعندما تهوى الإمبراطورية الرومانية في شمال إفريقيا لم يبق في الدين المسيحي سوى الأساقفة وحدهم"<sup>(2)</sup>.

وهنا نقول لبورغاد، إما أن النصرانية تقوم على السيف، ومن أدلة ذلك الإرهاب المجدي الأوغسطيني. وإما أن أوغسطين منحرف عن النصرانية. ولكن بورغاد لا يقر بانحرافه لأن تصرفه صادر عن وحي، **«كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا»**<sup>(3)</sup>.

**نشأة المذهب البروتستانتي و السيف :** لقد كانت حركة الإصلاح الديني في النصرانية فيما بين القرنين 15 و 17 م أعنف حركة دينية شهدتها التاريخ، حيث أدت الخلافات الدينية إلى حروب طويلة الأمد لم يشهد لها التاريخ من قبل مثيلاً، وإلى اضطهادات ومشاحنات وأحقاد تعد أعنف ما عرف من نوعها في تاريخ الأديان<sup>(4)</sup>. ولقد اعترف بهذه

(1) هشام الصغدي، المرجع السابق، ص175، وهذا يعني بيساطة أن النصرانية تقوم على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وظل هنا ملازماً لمساعمة العصور، وكان أحد الأسباب الرئيسية للثورة الماركسية.

(2) هشام الصغدي، المرجع السابق، ص176.

(3) الكهف/5.

(4) أحمد محمد سليمان، القرآن والعلم، ص135، 136.

الحقيقة يوسف كرم<sup>(1)</sup> قائلا: "قام لوثر (1483 - 1546م) وزفنجل (1484 - 1531م) وكلفان (1509 - 1564م) يزعزعون العقيدة السلفية وينشئون الكنائس المستقلة، وقام هنري 8 (1509 - 1547م) يقهر الإنجليز على إنكار الكتلكة، وقام غيره من الملوك يناصرون المبتدعة<sup>(2)</sup> قضاء لعارهم الخاصة، فكان القرن 16 - في أوروبا - من أكثر القرون اضطرابا وفوضى، انحلت فيه الروابط الدينية والعائلية والاجتماعية، وعنفت الأهواء القومية فنشبت الحروب من أجل الدين والسياسة جميعا واستبيح فيها كل محرم<sup>(3)</sup>، وهكذا حل الاضطهاد والتكيد بالمخالفين، بل ولم يسلم منه حتى أطفالهم، وهاهو - المعصوم - البابا أنوثان الثالث يفضح نفسه وأهل ملته أثناء كلامه في مصادرة أملاك المخالفين للعقيدة الكاثوليكية قائلا: "لا يجوز أن يترك لأولاد الجاهدين سوى الحياة، وترك الحياة لهم من وإحسان<sup>(4)</sup>، فلم يقصر العقوبة على الجاهدين، بل عدها إلى أولادهم، واعتبر ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضرب من الإحسان عليهم، لأنهم لا حق لهم في الحياة وقد جحد أبائهم<sup>(5)</sup>، ولنشر إلى بعض نماذج من ذلك التضاحن واستعمال السيف النصراني ضد النصارى أنفسهم.

- لما نشأ المذهب البروتستانتي رسميا سنة 1520م وقطع علاقة المصلحين النصارى بكنيسة روما وثار لوثر على فضائح البابوية وأحرز نجاحا كبيرا في البلاد الجرمانية، حوكم كنسيا بالإحراق، ولكنه اختفى، ثم خرج من مخبئه ليجهز بدعوته بعد أن أكثر أتباعه، فوقع من الفضائح بينهم وبين الكاثوليك وحتى غيرهم ما تشيب له الودان. ونكتفي بالإشارة إلى بعض ما وقع في فرنسا بلد بورغاد من مذابح بين البروتستانت والكاثوليك، بداية من إصدار البرلمان الفرنسي أمرا باضطهاد اللوثرين ما لم يعودوا إلى الكتلكية، ومن لم يتب حكم عليه بالإحراق حيا ما لم تكن له واسطة، وإلا خنق قبل الإحراق كي لا يذوق عذاب النار الأليم، وكانوا يقطعون لسان البروتستانت قبل وضعه فوق المحرقة.

وفي أول مارس 1562م، وقعت معركة فاسي الشهيرة في فرنسا، وسببها أن الملكة كاترين دي مديسي سمحت للبروتستانت في 17 جانفي من نفس السنة بممارسة طقوسهم، وكان جند النوق دويز مارا بهذه المدينة فوقعت بينه وبينهم مناوشات مات فيها نحو 30 من البروتستانت، ومن هنا ابتداء عهد الحرب الأهلية بين الكاثوليك والبروتستانت.

لما ابتدأت الحرب الأولى استجدت فرنسا بإسبانيا واستجدت البروتستانت بإنجلترا، ولم تضع الحرب أوزارها إلا بعد فضائح تشيب لها الودان، ولتعود الحرب بين الطرفين بعد أربعة أعوام لتستمر ثلاثة

(1) يوسف كرم (1885 - 1959م) "مفكر" فلسفي لبناني الأصل، ولد في طنطا ودرس في باريس وعلم في جامعتي القاهرة والإسكندرية من كبار "المفكرين الفيلسوفين" العرب المعاصرين "شديد التمسك بالنصرانية - من مؤلفاته "العقل والوجود" الطبيعة وما بعد الطبيعة" "المعجم الفلسفي" (المنحد، ص 461).

(2) يوسف كرم يطلق على المخالفين لمذهبه اسم "المبتدعة" وهذا من التعصب وضيق الأفق، والغريب أن كل هذا موجود فيما بينهم ولكنهم يلقبون بالهبة على المسلمين.

(3) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص 7.

(4) محمد عبده، الإسلام والتعصبات، ص 50.

(5) المرجع نفسه، ص 50.

أخرى (1567 - 1570 م) ثم توقفت سنتين لتشتغل بضراوة أكبر ابتداء من 24 أوت 1572 م حيث دبرت كاترين دي مديسي مذبحة سانت باولتيمي الشهيرة ضد البروتستانت أو الهيجونوت كما كانوا يسمون في فرنسا، وذلك للتخلص من زعيم البروتستانت الأميرال كوليني أحد وزراء ملك فرنسا شارل 9. وقد بدأت المجزرة من بلاط الملك، حيث كان رجال البلاط مجتمعين عنده في مأدبة حافلة، فأعطى أمرا بقتل البروتستانت كلهم تنفيذا لإرادة أمه، وبإشارة من الملكة انتفض رجالها على زعمائهم وذبحهم وتعقبوا البروتستانت في بيوتهم بعد أن كانوا قد علموها فذبحهم في ديارهم وفي البلاط الملكي بعدما كانوا يشاطرونه طعامه وبعضهم ذبح تحت أنظار الملك شارل 9 الذي كان يشرف على المذبحة من نافذة قصره، وكان من أعيان من ذبحوا: الأميرال كوليني ولافاروان والفيلسوف راموس والمؤرخ لابلاس. استمرت المذبحة العظيمة الفضيعة المروعة عدة أيام مات فيها عدد هائل من الرجال والنساء والأطفال، وخضبت فرنسا كلها بالدماء، وجرت شوارع باريس بدماء الهيجونوت أنهارا.

وبهذه المذبحة كان ابتداء الحرب الدينية الخامسة بفرنسا التي انتهت باستقلال البروتستانت في مدينة لاروشيل التي أصبحت عاصمتهم الدينية<sup>(1)</sup>.

وفي جويلية 1585 م أصدر الملك هنري الثالث أمرا بمنع الديانة البروتستانتية من فرنسا بعد أن أصبح البروتستانت شبه دولة قوية بجيشهم وأتباعهم، فاشتعلت الحرب الأهلية الدينية من جديد - وكانت الحرب الثامنة - ولم يحسم الصراع لأن بطلها الكاثوليكي الدوق دو كيز بعد أن دمر البروتستانت صار هو السلطان المطاع، فقرر الملك هنري الثالث اغتياله وهو في حجرة الملك فثار الشعب، ففر الملك وتحالف مع نافار زعيم البروتستانت وهاجما باريس فقتل هنري الثالث فأصبح نافار والذي كان واليا للعهد ملكا على فرنسا باسم هنري الرابع فعاد للكاثوليكية من جديد ليخضع له الشعب وأعلن الحرية الشاملة للبروتستانت في إقامة دينهم<sup>(2)</sup>.

وفي سنة 1625 م، ألغى ملك فرنسا باقتراح وزيره الكاردينال ريشيليو حرية البروتستانت الدينية وحاصر الكاردينال ريشيليو قلعة لاروشيل فاستعانوا بالإنجليز فساعدوهم، ولكن ذلك لم يغتهم. وبعد 14 شهرا من الحصار استسلمت بعد هلاك 15 ألفا من أهلها جوعا، فدخلها الملك وكانت جثث موتاهم تغطي الطرقات، ورغم ذلك لم تتعفن، لأن أهلها كما اعترف ريشيلو - الكاردينال الرحيم جدا، والمسالم جدا - جفوا من الجوع قبل موتهم.

وفي سنة 1634، تقام أمر الضرائب واشتد البؤس بالفرنسيين فثاروا في مختلف الجهات، ومن أهم ثوراتهم، ثورة "حفاة الأقدام" فأثخنهم الكاردينال بوحشية لا نظير لها، فمات مغضوبا عليه من الجميع سنة 1642م. ولا غرو فإنه كاردينال يدعو إلى التسامح والسلام!!.

(1) البير مالي، الصور الحديثة، من أحد تولين المدن، محمد عثمان باشاهاي الجزائر، هامش رقم 1، ص 27، هامش رقم 1، ص 38، أيضا: أحمد محمد سليمان، القرآن والعلم، ص 136، 137.

(2) البير مالي، الصور الحديثة، من أحد تولين المدن، المرجع السابق، هامش ص 32.

وفيما بين 1670 و 1675 م قام أهل البادية الفرنسيين بثورات عنيفة بسبب الفقر وشدة الضرائب فلخّمدت ببشاعة، ولا أدل على هذا من أن مقاطعة بروتانيا كما قال واليها، كانت أشجارها تكاد تلامس الأرض من ثقل الذين يشنون عليها.

وفي سنة 1685م، عاد القمع الكاثوليكي للبروتستانت من جديد، حيث أعلن ملك فرنسا لويس 14 إلغاء الحرية الدينية للبروتستانت وأثخنهم وحطم كنائسهم ونفى رهبانهم وعمد أبناءهم قسرا، وقد دعمه في هذا كبار الكتاب والأعيان أمثال راسين وبوسوي ولافونتيني إلخ، فكان البروتستانت يجرى على الكتلعة ويمنع من الهجرة. ولما كثرت فرارهم سرا أعلن الملك عام 1689 م أن كل من يهاجر يعدم. ولكن الهجرة استمرت ليصل عدد الفارين 200 ألف من رجال العلم والأدب والصناعة وغيرهم، فعمروا إنجلترا وألمانيا وكانوا نواة مدينة برلين، وازدادت كراهة البروتستانت في كل أوروبا لفرنسا<sup>(1)</sup>.

الثورة الفرنسية : قررت يوم 5 ماي 1789 م حين اجتمع المجلس العمومي الذي كان أعضاؤه متأثرين بالأفكار الحرة الحديثة، ولا سيما الواردة من الولايات المتحدة<sup>(2)</sup> الأمريكية، وكانوا متبرمين من استعباد كل من الملك والنبلاء ورجال الدين للشعب الفرنسي، فأقسم ممثلو الشعب منهم بيمين التضحية وسموا أنفسهم " الجمعية التأسيسية لسن دستور لفرنسا"، تهيج الشعب فهاجم يوم 14 جويلية 1779م قلعة الباستيل وهدمها وقتل حراسها وحرر سجناءها، فكان ذلك نصرا هائلا للشعب على النظام الملكي المستبد. والذي يهمننا من نجاحها وتطور أحداثها، أنه أثناء هذه الثورة خشي الجمهوريون أن تضعيف السلطة من أيديهم فشكّلوا حكومة متطرفة مستبدة، هي حكومة الإرهاب التي أسندت رئاستها إلى مارا روبسيير. ظلت هذه الحكومة تفكك بالفرنسيين فتكا ذريعا لأكثر من سنة، من 31 ماي 1793 م إلى 27 جويلية 1794م. وأصدرت قانون المشبوهين الذي يخول لها الحكم بالإعدام على كل من يشك في ولائه للجمهورية. فارتكبت في كل جهات فرنسا مذابح فضيحة ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الأبرياء ورجال الفكر والأدب ومن مؤسسي الثورة نفسها، أمثال دانتون وديمولان. وأصبح بعض أوباش فرنسا يتحكمون في رقاب الأمة فيجمعون الآلاف من الناس ويعدمونهم دفعة واحدة برمي المدافع كما وقع في مدينة ليون. ولم ينج من هذا الإرهاب حتى روبسيير الذي أعلن المجلس إسقاطه ومحاكمته، فأعدم مع بعض أنصاره.

وكان من نتائج هذه الثورة وصول الجنرال بوناپرت إلى الحكم، وما يهمننا منه أنه قضى حياته كلها في الحروب، ذلك أن مجلس المديرية الذي شكله أصحاب الثورة الفرنسية بعد إعدام روبسيير جعل على رأسه بوناپرت، فحاربت الجمهورية ألمانيا وإيطاليا وانتصرت عليهما، ثم احتل نابليون مصر سنة 1778م، وقد ترقى إلى أن قام بالانقلاب النهائي يوم 18 ماي 1804 م ليصبح إمبراطورا ويطرد نواب

(1) المرجع نفسه، هامش ص 44، 45.

(2) مبادئ الثورة الفرنسية التي يتشدد بها الفرنسيون وأذبلهم إنما هي في أساسها أمريكية، ذلك أنه في سنة 1774م وقعت الثورة الكبرى في أمريكا ضد الإنجليز، وفي يوم 4 جويلية 1776م، أعلن جورج واشنطن استقلال أمريكا، وأعلن مع الاستقلال حقوق الإنسان: المساواة التامة، الأمة مصدر السلطات، حرية القول والنشر والمؤسسات وغير ذلك من المبادئ التي قررها من بعد 10 أعوام الثورة الفرنسية، وهذا كانت ثورة أمريكا من أكبر العوامل على إيقاد نار الثورة الفرنسية لأن الفرنسيين شاركوا في ثورة أمريكا. ثم رجعوا إلى فرنسا يحملون إعلان حقوق الإنسان ونشروا ذلك فيها فتشبعت به الأفكار المتعطشة للحرية (المرجع نفسه، هامش ص 51).



الشعب بالقوة ويقم فرنسا في حروب خارجية لا نهاية لها. فاحتل في البداية إيطاليا وألمانيا ومعظم النمسا، ووصل إلى أسوار موسكو ثم انسحب. وكانت إنجلترا وراءه أينما حل وإرتحل، فأخذ الجيش الفرنسي ونضب مال فرنسا لكثرة الحروب، فدارت الدائرة على نابليون في معركة واترلو، فاستسلم للإنجليز الذين نفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة حيث مات بها سنة 1814 م وترك فرنسا أضعف وأقل عددا ومنعة، وأصغر مساحة مما أخذها<sup>(1)</sup>.

وعلى ذكر نابليون، فإنه يظهر لنا من خلاله تناقض بورغاد وظهور سوء نيته وأفكاره المسبقة التي لا تهدف إلى الكشف عن الحقيقة، بل إلى طمسها وتشويه الخصم ظلما وعدوانا. وهذا يتناقض مع طبيعة الدين، ومع أخلاق رجل الدين الذي يفترض فيه تحري الصدق والابتعاد عن الكذب؛ لأن علاقته مربوطة أساسا بالله عز وجل، ولكننا لم نجد هذا البتة في بورغاد، بل وجدنا كذابا مزورا للحقائق مشيرا للشبهات هو أكثر الناس يقينا من أنها لا تعدو عن أن تكون شبهات، ومنها :

اتهامه للإسلام بأنه يقوم على السيف بينما النصرانية تدعو وتقوم على السلم لا الحرب. ولكنه يمدح نابليون بأنه كان معه كتاب سيده بولس وكان ملازما لقراءته مما جعله نصرانيا جدا، كما يمدحه من جهة أخرى لفتحته من الأراضي أكبر بكثير مما فتحه محمد صلى الله عليه وسلم. ويتوصل لهذا السبب إلى أنه أعظم من محمد صلى الله عليه وسلم. وهنا يظهر تناقضه الصارخ، فهو يذم الإسلام لأنه يقوم على الحرب، ويمدح نابليون لأنه توسع كثيرا بالحرب. وهكذا يظهر الهدف جليا، وهو تكسير فكرة الجهاد في نفوس المسلمين ليقعوا فريسة للسيف الفرنسي، لأن الجهاد هو العائق الذي اصطدمت فيه جيوشهم المترحشة. ولا يمكنه أن يبرر موقفه هذا بأن نابليون كان منحرفا عن النصرانية؛ لأنه أثبت تمسكه بها وبملازمته لقراءة كتاب سيده بولس، ولأنه أيضا مدحه بسبب استعمال السيف لتوسيع فرنسا.

وأما ما يعقده من مقارنة وتفاضل بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين بونايرت، فإنها مبنية على أوهمام لا حقائق، ويظهر فيها تفوق محمد صلى الله عليه وسلم ليس على نابليون فحسب، بل على المسيح أيضا، ذلك أن مقارنة لتاريخ كل منهما الحربي، تبين أن بونايرت ترك مساحة فرنسا - رغم أن حياته كلها حروب وإيادة لشعوب وظلم واعتداء - أقل بكثير مما وجدها عليها كما ذكرنا، وأن أتباعه استمروا بعده في حروب داخلية وخارجية، وكانت من ضحايا ذلك الجزائر.

أما محمد صلى الله عليه وسلم، فقد وجد العرب قبائل متناحرة، فتركهم أمة ودولة موحدة، والدولة توسعت في عهده وواصل أتباعه - رغم اختلاف بعضهم - توسيعها، وخلال 40 سنة فتحوا أكثر من نصف العالم.

وعلى كل، فإننا لا نستغرب الأكاذيب وطمس الحقائق من رجل يزعم أو يعتقد أن الإنسان يفعل ما يشاء من الأخطاء حتى ولو أفتى البشرية جمعا، ثم يذهب إلى القسيس فيعترف له بذلك فيقول له: غفرت لك فيخرج فقط بذلك من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

(1) المرجع نفسه، هامش ص 53، 54.

ومهما يكن من أمر، فإنه بعد موت بونابرت فرضت الدولة الأوروبية على فرنسا خضوعها لملوك بوربون، فاستولى لويس 18 على العرش لتقع حوادث الإرهاب الأبيض التي قام بها الملكيون أكثر من الملك ضد الجمهوريين فأثخنوهم، ثم استولى شارل العاشر على العرش سنة 1824 م فاستبد ومحق الحريات وأراد مع ذلك اتقاء الثورة فقام بعملية احتلال الجزائر، لكن ذلك لم يغن عنه شيئاً، فقامت الثورة ضده وأسقطته سنة 1830م<sup>(1)</sup>.

هذا باختصار بعض ما وقع من استعمال السيف في فرنسا بين المواقف الدينية خاصة إلا ما ندر، وقد اكتفينا بالإشارة السابقة إلى بلد بورغاد طلباً للاختصار<sup>(2)</sup>. وما نستغربه أنه كيف يتكلم بورغاد على سفك المسلمين لدماء بعضهم بعضاً، ويتناسى كل ما سبق، وخاصة أن ما سبق إنما وقع فسي مجمله بسبب الصراع الديني، أي بين أتباع يسوع. ولسان ندرى من المصيب منهم ومن هو المخطئ؟. ومن هو المسؤول عن دماء الملايين<sup>(3)</sup> التي أهدرت بسبب ذلك الصراع؟. ومن هو المعصوم منهم؟. ولماذا لم ينزل الروح القدس على رجال الكهنوت أولئك - مع زعمهم أنه ينزل عليهم - لإصلاح ذات البين بينهم، وبين المصيب منهم عن المخطئ ويوحد عقيدتهم وهم الذين بلغ الحقد ضد بعضهم بعضاً حدا جعل بعضهم يؤسس ما يسمى بمجلس الدم<sup>(4)</sup>، وذلك لكثرة ما أراقه وينزوي إراقتة من الدماء، واقترب من الفضائع ما يندر وجود مثله في التاريخ.

كل ما سبق يعرفه بورغاد ويعرف أكثر منه، في حين أنه كان يعلم علم اليقين بأنه لم تسقط قطرة دم واحدة بين الفرق الإسلامية، وما وقع إنما حدث لأسباب سياسية، والحروب السياسية بين الدول النصرانية لا تعد ولا تحصى كثرة، وهذا يدعونا إلى الإشارة لبعض تلك الحروب.

الحروب السياسية بين الدول النصرانية: النزاع الديني بين النصارى يعطينا نصف الصورة عسناً شدة الحقد والبغضاء بين النصارى، وتكتمل هذه الصورة في كثرة الحروب بينهم والتي تزداد اشتعالاً مع مر الأيام، والتي لم يحدث مثلها بين غير النصارى. وسببها التكاليف على الدنيا وشدة الجشع والقسوة في القلوب، فاندحروا إلى هوة من الوحشية لا نظير لها في الوجود.

(1) المرجع نفسه، هامش ص 54، 55.

(2) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الكتب التي تتعلق بتاريخ أوروبا في هذه الفترات.

(3) ذكر الملايين لا قصد به المبالغة بل الحقيقة، ومن الأمثلة على ذلك فإنه قتل من التشيك في نضالهم ضد الألمان في أوائل القرن 17 حوالي 3 ملايين (المرجع السابق، هامش ص 35).

(4) مجلس الدم كون عندما اعتنق كثير من سكان الأراضي المنخفضة مذهب "كلفن" فأقام شارل محاكم التفتيش مما فأحرقت عدداً هائلاً من البروتستانت ولما خلفه ابنه ملك إسبانيا استمر في سياسة الإضطهاد الديني فقام الأهالي بالثورة وانقضوا على الكنائس الكاثوليكية، وكسروا ما فيها من تماثيل وصور لما كان من فليب إلا أن أرسل "دوت ألفا" على رأس جيش حرار من الأسبان لمعاقبة الثوار فتكون المجلس المعروف بمجلس الدم لكثرة ما أراقه من الدماء (أحمد محمد سليمان القرآن والعلم، ص 137، 138).

لقد قضى نابليون حياته في إيقاد نار الحرب بين فرنسا النصرانية جدا والدول الأخرى النصرانية لتشمل حروبه كل أوروبا من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، ولم تضع حروبه أوزارها إلا بعد انكساره في واترلو. وكان المنطق السليم يقتضي من بورغاد أن يلتقي باللائمة عليه لأنه تسبب في هلاك أعداد هائلة من النصارى الذين يقوم دينهم على الله محبة وعلى السلم والتسامح!، ولكنه بدل هذا، مدحه واعتبره أفضل من خاتم الأنبياء بسبب تلك الحروب التي هي أساس عظمته في نظره، علما أن ما تسبب فيه نابليون وحده من قتلى في تلك الحروب أكبر مما قتل في جميع حروب المسلمين مع بعضهم ومع أعدائهم خلال تاريخهم كله، أي خلال 14 قرنا كاملة.

لماذا يتكلم بورغاد على سفك المسلمين للدماء ويتغافل عما سفك من دماء في الحرب الأوروبية الكبرى التي أثارها لويس 14 ضد إسبانيا وألمانيا وهولاندا وغيرها بإعانة الإنجليز، هذه الحروب التي دامت مسن سنة 1668 إلى 1714 م. حيث قسمت إلى أربعة حروب، بين الواحدة والأخرى فترة تـتراوح بين 3 و 10 أعوام، وكانت فرنسا هي الخاسرة فيها<sup>(1)</sup>. والذي يهمنا هنا ليس الخاسر أو الرابح، وإنما الدماء الهائلة التي سالت أنهارا بين من يزعمون أن الله محبة وأن دينهم يقوم على التسامح لا على السيف.

لماذا يتكلم بورغاد على سفك المسلمين للدماء وينسى حرب المائة سنة بين بلده وبين إنجلترا، والتي هلك فيها من النصارى ما لا يعد ولا يحصى؟. هذه الحرب التي ابتدأت سنة 1338 واستمرت مستعيرة ما يزيد على قرن من الزمان. بورغاد يعرف هذا جيدا، ويعرف غيره مما وقع بين أبناء ملته من حروب طاحنة، ولكن لا إنسانيته جعلته يمدح المتسببين في هذه المآسي؛ لأنه ينظر بعين الحقد الدفين، والبغض الأليم، والكراهية المتقدة. ولكن كيف لا يكون هكذا وهو نصراني تربي في أحضان العهدين القديم والجديد، وفي أحضان الكنيسة ذات الفضائح والفضائح. لقد عايش بورغاد حرب 1871م بين بلده وبين ألمانيا، أي بين النصارى ضد بعضهم بعضا، ورأى أهوالها وفضائعها. ولكننا لا نجد لذلك في نفسه أي أثر، بل لا نجد أي أثر لنفسه من جميع المآسي السابق ذكرها. والتحليل النفسي يبين لنا، بأن ذلك ناتج عن كون تلك الفضائح متأصلة في نفسه وكأنها فطرية ولدت مع ميلاده، والأشياء من معاندتها لا تستغرب.

والواقع أن العنف والكراهية والبغضاء واستعمال السيف، إنما هو طبيعة الأمم النصرانية وخاصة من مميزاتا منذ قسطنطين، بل وقبله وإلى بورغاد وبعده، لم يتوقف هذا الطبع ولن يتوقف. وبكتفي منه بالإشارة إلى أنه خلال ثلاثين سنة من هذا القرن، حدثت في أوروبا الحروب المدمرة والمروعة الآتية: الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918م) وقد قتل فيها أكثر من 9 ملايين نسمة<sup>(2)</sup>، وليس المسلمون هم الذين أوقدوا نارها بل النصارى.

الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م) وقد بلغ مجموع ضحاياها أكثر من 50 مليون قتيل، و80

(1) أحمد توفيق المرن، المرجع السابق، هامش ص 48.

(2) أحمد محمد سليمان، المرجع السابق، ص 142، 144.

مليون جريح وبلغ وزن القنابل التي أقيمت على مدينة برلين وحدها حتى 24 آذار 1944م : 44845 طناً<sup>(1)</sup>.

وقد وقع بين الحربين العالميتين:

- الحرب الإسبانية الأهلية التي اشترك فيها دول نصرانية متعددة.

- الحرب اليونانية الإيطالية.

وأما بعد الحرب العالمية الثانية :

فقد وقعت الحرب الروسية الفنلندية<sup>(2)</sup>، واستمرت الحروب بعد ذلك، وكان بعضها في إطار الصراع بين الشيوعيين النصارى والرأسماليين النصارى مثلما وقع في المجر وتشيكوسلوفاكيا حيث دكت الدبابت الروسية الأرثوذكسية ما لا يعد ولا يحصى من البشر، وما زالت الحروب بين النصارى إلى يومنا هذا، ومنها الحرب بين الصرب الأرثوذكس والكروات الكاثوليك في يوغوسلافيا سابقاً - والصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية التي استعمرتها إنجلترا لحماية للبروتستانت.

والواقع أنه، حيثما حل النصارى اشتعلت نار الحرب ضد بعضهم بعضاً وضد غيرهم. ومما وقع ضد بعضهم بعضاً مثلاً، ما وقع من حروب في الولايات المتحدة الأمريكية، حروب الاستقلال التي أدت إلى استقلالها والحروب التي وقعت بين شمالها وجنوبها، دون أن ننسى ما قام به رعاة البقر من تقتيل وتدمير، ناهيك عما فعل بالهنود الحمر، وأما أمريكا الجنوبية فالحروب التي وقعت بين دولها أو بين شعوب الدولة الواحدة منها منذ استقرار النصرانية بها، فحدث عنها ولا حرج.

والنتيجة مما سبق، أن ما وقع في هذه الحروب من الفضائع ولا سيما الحرب العالمية الثانية وحتى غيرها لم يحدث مثله في التاريخ غير النصراني، ولا يفكر في الإقدام عليها حتى من لا دين له ولا ضمير. وكيف يقدم ذو ضمير على تلك الفضائع التي ظهرت في معسكرات الاعتقال ومات فيها حوالي 20 مليوناً، والتي تعد صورة مكبرة لما فعله الملكانيون باليعاقبة الأقباط في حصن بسابلون السابق ذكره، فأحيت معسكرات الاعتقال تلك الفضائع بصورة أشد وأنكى، من غرف الغاز إلى أفران الاحتراق إلى التمثيل، إلى القسوة التي لم تعهد حتى في الوحوش الكاسرة<sup>(3)</sup>، وما ذلك إلا لأن أصحابها نصارى - يحبون السلم والله محبة عندهم - . ولكن، لا عجب. فإن يسوع يقول في أناجيلهم: "إني جئت لألقي النار على الأرض وما أريد من ذلك إلا اشتعالها"<sup>(4)</sup>.

(1) أدولف هتلر، كفاخي، (تخليق دار المعرفة للطباعة والنشر) ص 277.

(2) أحمد محمد سليمان، المرجع السابق، ص 140.

(3) وبكفي ذلك دلالة القنابلان الذريتان اللتان قذفت بهما الولايات المتحدة الأمريكية مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين سنة 1945م، فدمرت المنطقتان كلياً وتسلل في شوان ملايين اليابانيين وبكثرت هذا المثال للدلالة على استعمال النصارى السيف ضد حتى غير المسلمين مما يجعل السيف النصراني لم يسلم منه أحد لا نصراني ولا مسلم ولا غير مسلم، وهل هناك وحشية كهذه!؟

(4) انجيل لوقا، (ص 12، قرة 49. وقد أهرنا لبلال لوصف كثيرة من العهد الجديد في هذا المضمار.

وبهذا، يمكن القول بأن الميزة الجوهرية التي تطبع تاريخ الأمم النصرانية كله منذ اعتناقها النصرانية إلى اليوم والتي لم تتخلف أبداً، ولا تكاد تخلو سنة منها إلى اليوم، إنما هي استعمال السيف ضد بعضهم بعضاً، وضد غيرهم<sup>(1)</sup>، وضد المسلمين. وهنا نتنقل إلى الحديث عن :

3- السيف أو العنف النصراني ضد المسلمين: لقد ذكرنا قبلاً أن النصارى ثاروا ضد التوحيد وقرروا القضاء عليه من خلال ما قام به أبرهة الأشرم - الذي كان حسب اعتقادنا بأمر من هرقل - من الخروج بجيشه لتدمير الكعبة المشرفة. ولما نزل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم قرروا تحطيم الإسلام فكرباً، ويتمثل هذا في وفد نصارى نجران. ولكن المباشرة أفحمتهم. قرروا تحطيم الإسلام عسكرياً، وكان ذلك في مؤتة وتبوك ففشلوا. فكان دورهم البارز في حروب الردة، ولما فشل كل ما سبق، قرروا التحطيم السريع للإسلام لإيادته نهائياً. ويظهر هذا واضحا في الأعداد الهائلة من الجنود التي رموا بها الإسلام في اليرموك، والتي تقدر بما لا يقل عن 300 ألف، والإسلام فسي كل هذا يجد نفسه مضطرا للدفاع عن نفسه والدفاع عن الشعوب المضطهدة المستعبدة التي احتتمت به من الروم النصارى الذين ساموها ويلات العذاب، وكانت لهم مستعمرة بالقهر والضغيان. ونشر إلى بعض النماذج على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، بادئين من الحروب الصليبية.

الحروب الصليبية : أول حرب صليبية انطلقت شرارتها من فرنسا - بلد بورغاد سنة 489 هـ - 1096م، وكان البابا الذي دعا إليها وأفتى بوجوبها هو إيربان الثاني (Urbain II) الفرنسي، أما منفسذ خطتها فهو الراهب بيير لرميت (Pierre L'ermite) الفرنسي أيضا، وجل المشاركون فيها ودعاتها فرنسيون<sup>(2)</sup>. ولكي يعطيها هذا البابا طابع القداسة أكثر، فقد عقد مجمع كليرمون (Clermont) بمدينة كليرمون بفرنسا سنة 1095م ليعلن منه الحروب الصليبية<sup>(3)</sup>، ويوجه منه دعوة إلى النصارى لحمل السلاح دفاعا عن الأراضي المقدسة ضد المسلمين الكفار، قائلا للحاضرين من الرهبان والأرستقراطيين: " فأجيئوا داعي دينكم واذهبوا إلى القدس تتفرج عنكم الأزمة"<sup>(4)</sup>. وعلق البابا إشارة الصليب على ذراع كل منهم. وبذلك أصبح الصليب شعار هذه الحروب<sup>(5)</sup>.

(1) النصارى استخدموا السيف كذلك ضد غير المسلمين وبشراة لا تثل لها كذلك مما يدل على أن استعمال السيف لغهر الأخرين وعظمتهم إنما هو حيلة فيهم، ولقد أشرنا فلا في الهامس لى ما فعل باليابانيين في هروشيما ونيكاغازي ونشر هنا لى مثال آخر نكتفي به بتعلقنا بقوله النصارى الأروبيون في هجومهم بأمریکا، ومثالا هو حريرة سان دو نيك. فلقد كان عدد سكانها عند اكتشاف كولومبوس لها سنة 1492م نحو مليون نسمة لم يبق منهم بعد 17 عاما من الاحتلال سوى 40 ألفا. والناجون أصدوا بأهيك عسك القمبح والتسخير والاستعباد (الر مال)، العصور الحديثة، عن أحمد توفيق الدين، محمد عثمان باشا، هامش ص 22.

(2) المهدي أبو عبدل، آثار التبشم المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، الملحق السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، تسيزي وزو (10 - 22 جمادى الثانية 1393هـ / 10-22 يوليو 1973م) وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1973م، ص 3، ص 1323.

(3) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، ج 2، ص 201 وما بعدها.

(4) المهدي أبو عبدل، آثار التبشم المسيحي في الجزائر، ص 1323.

(5) محمد رجب ختيري، الهامح، ص 359.

وإذا كانت الحرب الصليبية الأولى فرنسية في أساسها، فإن الحروب السبعة الأخرى التي تلتها والتي كانت نهايتها سنة 664 هـ كان أغلب قادتها وجيوشها فرنسيون كما يأتي :

الحرب الصليبية الثانية : دعا إليها القديس سان بيرنار ST Bernard والملوك الفرنسي لويس 7 (Louis VII) وغيرهما، وذلك ما بين 542 و 544 هـ / 1147م/1149م.

الحرب الصليبية الثالثة : أعلنها فيليب أوغست (P hylippe Auguste) ملك فرنسا وفردريك الأول (Frédéric I) ملك ألمانيا وريتشارد (Richard) قلب الأسد ملك إنجلترا، وذلك بين سنوات 585 و 588 هـ / 1189 و 1192م<sup>(1)</sup>. ونلاحظ في هذه الحرب الثالثة، بأنه رغم طابع القداسة لهذه الحروب في زعمهم لأنها موجهة ضد عدو واحد هو المسلمون، إلا أن استقراء ما جرى فيها يدل بوضوح على التعديم الإخلاص بين النصارى مع بعضهم. ونتيجة لذلك، فقد اشتد الخلاف بين قلب الأسد وفيليب أغسطس مما جعل هذا الأخير يعود إلى فرنسا تاركًا ريتشارد يحارب صلاح الدين وحده، بل أضيف إلى هذا أن فيليب يدس الدسائس لقلب الأسد بالاستعانة ببعض ملوك أوروبا، كما أن أخ ريتشارد أخذ يعمل في غياب أخيه لاغتصاب عرش إنجلترا منه، مما جعل قلب الأسد يضطر للعودة. ورغم كونه كان يقوم بحرب مقدسة حسب زعمهم، إلا أنه لقي من النصارى جزاء سنمار، فبدلاً من أن يكرموا قبضوا عليه وسجنوه في الطريق، حيث أسره أثناء عودته إلى إنجلترا براً، ليؤبلا، دوق النمسا. وسلمه إلى الإمبراطور هنري السادس الذي رفض إطلاق سراحه إلا بعد أن دفع له فدية كبيرة<sup>(2)</sup>.

كما نشير إلى قضية أخرى في هذه تدل على البغضاء الكامنة في قلب النصارى ضد بعضهم البعض، رغم وحدة هدفهم في القضاء على المسلمين ورغم الحماس الديني الذي كان ملتهباً في أوروبا آنذاك ضد المسلمين. هذه القضية هي تحرير إمبراطور القسطنطينية بحملة بطرس الناسك وعمله على التخلص منها لإثقالها كاهله بالتموين والنفقات، ولما كان سيلازم بقاء 300 ألف محارب من اختلال الأمن في عاصمة ملكه، فسهل لهم العبور إلى الضفة الأخرى من البسفور ليكونوا لقمه سائفة للسلجوقيين مما مكنتهم من إيادة الحملة عن بكرة أبيها. وهنا بماذا نفسر عمل الإمبراطور الذي أخذ يستغيث بنصراني أوروبا لإنقاذه من السلاجقة المسلمين حتى إذا خفوا لنجدته عمل على التخلص منهم فكان من أسباب هلاكهم. ليس هناك من تفسير لهذا، إلا الخيانة والغدر<sup>(3)</sup>، أو استيقاظ الضمير. فهل هذه هي تربية الإنجيل التي يتشدد بها بورغاد؟.

الحرب الرابعة : وقعت بين 599 هـ و 601 هـ / 1203 و 1205م أشرف عليها البابا اينوصان الثالث (Innocent 3) بواسطة الراهب فولك Foulque قسيس مدينة نوي (Neully) وكان أغلب جنودها إيطاليين وفرنسيين.

(1) المهدي البوهلي، المرجع نفسه، ص 1323، 1324.

(2) أحمد محمد سليمان، القرآن والعلم، ص 135.

(3) المرجع نفسه، ص 134.

الحرب الخامسة : بين 614 هـ و 619 هـ / 1218م و 1223م، قادها فريديريك الثاني من ألمانيا.

الحرب السادسة : بين 626 هـ و 627 هـ / 1229م-1230م، وكان المتسبب فيها ملك فرنسا لويس 9 المشهور بـ سان لويس ( St. Louis ) .

الحرب السابعة : بين 646 هـ و 647 هـ / 1248م، 1249م، قام بها ملك فرنسا لويس 9، قصد مصر فأسر بها.

الحرب الثامنة : سنة 669 هـ / 1271م، ترأسها الملك الفرنسي لويس 9 قصد بها تونس، وشارك الجيش الجزائري فلقى رد العدوان وأبلى بلاء حسنا، فقتل بها هذا الملك أي لويس 9<sup>(1)</sup>.

ونلاحظ من خلال الهجوم على مصر وعلى تونس بأن النصارى لم يعد يهتمهم الأرض المقدسة كما زعموا قبلا، بل الهجوم على المسلمين أينما كانوا، وكان فشلهم الذريع في هذه الحروب التي كان ختامها مسكا، هي القضاء على لويس 9.

هذا الملخص المقتضب للحروب الصليبية يجعلنا نتوصل إلى مجموعة من الملاحظات تدحض مزاعم بورغاد، هي :

تهافت إدعاء قيام النصرانية على التسامح والمسالمة لا على العنف، وتهافت إدعاء العصمة لمجلس روما الذي تكون عصمته دليلا على سلامة النصرانية من التحريف. وذلك إما أن النصرانية تقوم على السيف لا على المحبة، وإما أن مجلس روما (الفاتيكان والبابا والمجامع) الذي خطط وأعلن ونفذ الحروب الصليبية السابقة كلها أخطأ، مما ينفي عصمته. وإذا كان مجلس روما أخطأ في شن الحروب الصليبية، فما المانع من أن يخطئ في غيرها؟. وإذا أخطأ، لماذا لم يصدر بيانا يعلن فيه خطأه؟.

وبعبارة أخرى، إما أن تكون النصرانية دين حرب، وهذا يتناقض مع زعم بورغاد من أنها تقوم على التسامح لا على العنف عكس الإسلام، وإما أن البابا ومجلس روما والمجامع غير معصوم أي منهم. وهذا يتناقض مع مزاعم بورغاد أيضا، ويستحيل الجمع بين الطرفين.

- أغلب دعاة الحروب الصليبية وقاداتها فرنسيون، وهذا يدل على وحشية الفرنسيين وهمجيتهم أكثر ممن غيرهم من الأمم النصرانية<sup>(2)</sup>. فهل هؤلاء هم الذين رباهم الإنجيل؟.

- أثناء هذه الحروب رغم وحدة هدف النصارى وعدوهم، إلا أنهم لم يسلموا من أذى بعضهم بعضا، وقد رأينا ما فعل بيطرس الناسك وقلب الأسد. فهل هؤلاء هم الذين رباهم الإنجيل، وأنهم خرافة، وأنهم وحدهم الذين يدخلون عالم الملكوت؟!

- أهمية الجهاد في الإسلام لرد العدوان وعزة أصحابه، إذ لولاه ما رجع الصليبيون على أديبارهم خاسئين. وهذا هو سر تكالب النصارى عليه بغية محقة من نفوس المسلمين ليصبحوا لهم فريسة سهلة ينقضون عليها كما يشاءون ومتى يريدون.

<sup>(1)</sup> المهدي أبو عبدل، آثار البشور المسيحي في الجزائر، ص 1324، 1325.

<sup>(2)</sup> وعلة الوحشية تظهر جليا في المقارنة بين الاستعمار الفرنسي للشعوب وبين غيره من المستعمرين الآخرين، وهذا لا يعني براهم غير أنهم لم يصلوا إل بشاعة.

ما سمي بحروب الاسترداد: لا أحد يجهل ما وقع للمسلمين في الأندلس، ولن نخوض في التفصيل، بل نكتفي بإشارة خفيفة لتحقيق الغرض:

لقد قامت محاكم التفتيش بدورها كما ينبغي في تحريق المسلمين وإياداة من بقي منهم. وقد حرقت محاكم التفتيش في إسبيليا وحدها 800 مسلم دفعة واحدة، ومن تمكن من الفرار وجد في عرض البحر مراكز القرصان الإسبان فكانت نكبة المسلمين في هذا العهد من أكبر نكبات التاريخ<sup>(1)</sup>، ويكفي دليلا على هذا أن ما غرق من المسلمين في مضيق جبل طارق وحده أكثر من 3 مليون مسلم، وعندما نعلم ما تضمنه الأمم الصادر من محاكم التفتيش في فبراير 1502 م حول مسلمي إسبيليا وما حولها ندرك مدى إهدار النصارى للدماء وظلمهم وعدوانهم وقساوة قلوبهم. لقد تضمن ذلك الأمر أن كل مسلم رفض التعميد - التصير - يجب عليه مغادرة إسبانيا قبل شهر أبريل 1502 م (أي يغادرها حالا) ولا يجوز له أن يذهب أثناء المغادرة في طريق يؤدي إلى بلاد إسلامية. ولا يجوز لمن كان يملك عقارا أو منقولا أن يقبض فسي يبعه ذهباً ولا فضة، وإنما عروضاً وحالات - يعني لا يجوز لهم أن يبيعوا لأنه من الذي يشتري اليوم بثمن ما يأخذه غداً بلا ثمن؟. ثم ما حاجتهم بغير الذهب والفضة وهم مغادرون؟. ولا يجوز لأحد من سكان إسبانيا أن يساعدهم في أمر من أمورهم، ومن رجع منهم قتل. ومن خالف أي بند من بنود هذا الأمر قتل. وكانت النتيجة أن جزاء المسلمين الأندلسيين القتل، إن لم يكن قتل العقاب عند الرجوع كان القتل الناتج عن التعب مع العري والجوع<sup>(2)</sup>، وهكذا. ولن نستعرض كل ما وقع، بل نقفز مباشرة لنشير باختصار شديد إلى بعض ما فعله أبناء جلدة بورغاد وملته على مرأى ومسمع وتأييد منه في الجزائريين.

#### بعض جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر :

إنه لجدير بالإشارة أن نقول بأنه في الوقت الذي كان فيه بورغاد يؤلف كتابه " مسامرة قرطاجنة " ويتشدد بما تشدد به من أن الله محبة وأن النصرانية تقوم على السلم وتدعو إليه عكس الإسلام الحربي، كان أبناء جلدته وملته، بجيوشهم وقسوسهم ومفكرهم يذبحون الجزائريين ويدمرونهم تدميراً. ولقد ذكرنا قبلاً في العلاقة بين التبشير والاستعمار أن الجزائر تعرضت لكثير من الحملات الصليبية الغربية بسعي من الفاتيكان وتخطيطه، وأن حملة فرنسا على الجزائر في 27 جوان 1827 م شجعتهما البابوية بعد أن شاركت في التخطيط لها إلى حد أن تصرف قنصل فرنسا دوفال (D uval) مع الداوي حسين، إنما كان بإشارة من الفاتيكان الذي اعتبر استعمار فرنسا للجزائر عملاً مقدساً. كما أن البابا بيوس 8 تكرم على الملك الفرنسي لويس فيليب بمنحه لقب " الملك الشديد المسيحية " بسبب اعتماده على الدين وتدعيمه له في الجزائر، كما ذكرنا أنه ورد في وثيقة رسمية مخصصة لجيش العدوان عام 1830م صادرة بأمر وزير الحربية الفرنسي ومطبوعة بطابع الملك، ومستقاة من تقرير الرائد - العسكري - المهندس بوتكان الذي أرسله بونابرت إلى الجزائر عام 1808 م بغرض الإعداد لاحتلالها. ومما ورد في تلك الوثيقة، النص على وجوب إياداة الدولة الجزائرية، كما أن الملك الفرنسي شارل العاشر جمع كل أساقفة فرنسها ليطالب

(1) البير مال، الصور الحديثة، من تولى المدن، المرحع السابق، هامس، ص 30.

(2) ضد عهد، الإسلام والنصرانية، ص 56.



منهم إقامة صلوات خاصة في كل الكنائس لدعوة الرب بنصر جيش الحملة على الجزائر، كما ذكرنا أنه خصص القسيس كولان ليكون رئيساً للمرشدين العسكريين وقائداً روحياً للحملة إضافة لـ 15 قسيساً آخرين، وقد تعاون في تحطيم الجزائر وإيادتها سكانها كل من الجيش والساسنة ورجال الدين والفكر والاستشراق ورواد الاستكشاف واليهود، بل وحتى البغايا. وقد قام جيش الاحتلال كما ذكرنا قبلاً بتمسيح العمران وتحطيم المؤسسات الدينية والثقافية وتمسيح ما بقي، كما صادر الأوقاف وحطم اقتصاد البلاد وجعل أهلها فقراء بعد أن كانوا أغنياء، ومرضى بعد أن كانوا أصحاء، وأزال المؤسسات الإسلامية وعوضها بالفرنسية، ومن ذلك القضاء الإسلامي. وقضى على التعليم العربي الإسلامي، ونهج سياسة الفرنسة، وبث النزعة العنصرية وسط السكان، والتنصير القصري والإبادة الجماعية للسكان، ونكتفي بالإشارة إلى :

- التتكيل بالعلماء ومنهم ابن العنابي.
- قام الجنرال كلوزيل بالدعوة إلى تطبيق سياسة الإبادة والاستئصال، ومن جملة ما قام به :
- الاستحواذ على المساجد لتهديمها أو تحويلها إلى كنائس، فاستحوذ على أكثر من ثلثي مساجد مدينة الجزائر.

- الاستيلاء على جميع المؤسسات الخيرية بقرار أصدره يوم 8 سبتمبر 1830م.
- تهديم القيصرية وسوق المقاييس والصباغين والفرارية<sup>(1)</sup>، والسوق الكبيرة<sup>(2)</sup>، والمراحيض وتهديم مصانع الحرير ومحلات صائدي الأسماك.

- القيام بأعمال وحشية في البلدة، وإحداث مجزرة رهيبية لم ينج منها لا رجال ولا نساء ولا أطفال، وتم تقطيع بعض الرضع على صدور أمهاتهم، وشملت هذه المجزرة حتى الذين لم يكونوا يفكرون في معاداة الفرنسيين أو عدم الولاء لهم، فإن عدداً كبيراً منهم أيضاً تم تقتليه، وما بقي من سكان البلدة على قيد الحياة، فإنه تحول من الغنى إلى التسول<sup>(3)</sup> وخاصة أن الجيش الفرنسي أوقع النهب في كل مكان. ولا غرو، فقد رباها الإنجيل.

- وفي عهد هذا الجنرال (كلوزيل) نهب حتى الأموات من قبورهم، وسمح بالإتجار بعظامهم التي استخدمتها فرنسا في تبييض السكر بمرسيليا، وبيعت حجارة المقابر واستولت على أجرها ولقد وصل به الحقد والجشع بعد قتله لما لا يعد ولا يحصى واستيلائه على كل ما أعجبه، أن اقترح إبادة الجزائريين بعد أن أخضعهم ونفاهم وجردهم بأقيهم من جميع ممتلكاتهم<sup>(4)</sup>. ومع كل هذا يعيب بورغاد على المسلمين أخذ الغنائم.

(1) هي محلات صناعة وصقل الأدوات الحديدية المستعملة في الحياة اليومية كالمفاتيح وغيرها (حمدان خوجة المرأة، ص 278).

(2) وكانت مخصصة لبيع الكنان والملابس المنسوجة (حمدان خوجة المرأة، ص 272).

(3) ومن هؤلاء زوجة الإسكان المسالم محمد بن سغطة الذي رغم عدم معادته للفرنسيين وعدم حيازته على أي سلاح إلا أنه فرسج بمجنون الاحتلال يدفون ماله فخرج إليهم صحبة زوجته لقتل مع طفله بيت العامين وكسروا ذراع زوجته وتركوها تن دون علاج ولجأوا دلهها كلها، فوجدت المسكينة نفسها وبعد كسر ذراعها بدون مورد ولكي تبيل أبنائها الثلاثة لم تجد وسيلة لذلك غير التسول (حمدان خوجة، المرأة، ص 248، 249).

(4) للصبر نفسه، ص 292-300.

- إبادة قبيلة العوفية : وهي قبيلة كانت تسكن ناحية الحراش. نظم النور دوروفيكو<sup>(1)</sup> حملة ضدها، فباغتها ليلة 07 أبريل 1832م فقتل جميع أفرادها إلا من كان غائبا وبيعت أملاكه كغنائم في باب عزون، ومن جملة ما رأى حمدان خوجة أساور ما تزال مشدودة إلى زنود مقطوعة وقراطا دامية<sup>(2)</sup> . وما وقع للعوفية والبليدة وقع لغيرها من المناطق التي كان جيش الاحتلال يستعمرها أو يتحكم في سكانها. وهكذا، فبدل إداة هذه الأعمال والسعي للتخلي عنها، فإن جميع الأعمال التعسفية كانت تشجع وانطمست مبادئ العدالة كلها في أذهان الحكام<sup>(3)</sup>، وإن كان كل هذا يمكن إيجاد مبرر له عند من لم يتلقى تربية روحية، فإنه لا مبرر له عند رجال الدين. وهو ما يجعلنا نتساءل : أين رجال الله محبة والتسامح؟ أين كان بورغاد؟ إنه بدل أن يدين هذه الأعمال الابادية والإجرامية نجده يعمل على محو آثارها السيئة في أذهان ضحاياها ويعمل بشتى الوسائل على تحبيب أولئك الطغاة العطاش للدماء البرينة، بل ويمدحهم على تلك الوحشية. وبنس متدين يكون هذا شأنه، وبنس دين يربي أتباعه على هذه الوحشية.

إن بورغاد رجل الدين، بدل أن يلوم جيش الاحتلال ويعمل على رده انطلاقا من " الله محبة " والسلم والتسامح" المتشدد به، فإنه صب جام غضبه على الأمير عبد القادر وخصص للتهجم عليه حصاة الأسد من كتابه : " مفتاح القرآن"، واعتبره أكبر مجرم؛ لأنه ثار لحماية المستضعفين من الظلمة المستكبرين المستعمرين في نفس الكتاب الذي يمدح فيه جيش الاحتلال.

وهكذا نجد العسكري يقتل ويدمر وينهب ويحول الأغنياء إلى فقراء ويفسح المجال للتيسيس الذي يستغل ذلك للتصير، أي أن العسكري يوفر التربة الخصبة والقميس يكمل ذلك بزرعها سموما.

والخلاصة أننا لو تتبعنا آثار البطش والسيف الذي استعمله الفرنسيون ضد الجزائريين<sup>(4)</sup>، لكتبتنا كتابا كاملا عن كل قرية دخلوها، بل عن كل إنسان قتلوه أو عذبوه أو نهبوا ممتلكاته، لم يقتصر الأمر على رجال جيشهم أو سياسيتهم، بل تعداه إلى رجال دينهم وسنذكر أثناء حديثنا عن لافيجيري أنه أنشأ جيشا من الإكليروس<sup>الزيت</sup> من الفضائع ما يشيب له الولدان، وأنه اقترح على حكومة بلاده عندما استعصى عليها أمر الصحراء الجزائرية أن يقوم جيشه باحتلالها.

والواقع أن النصرانية منذ بولس إلى يومنا هذا، ظلت متلازمة مع السيف لا ينفك عنها ولا تفارقه، نرى عنفها وسيفها، حتى في هندسة الكنائس، ذلك أننا لا نجد كنيسة ماء مبنية بناء عاديا، فالكنائس كلها دهاليز وسراديب وممرات سرية وسلالم سرية إضافة لسلاخيمها العادية، وأنفاق وتحصينات سرية وأقبية إلخ. مما يجعل الكنيسة قلعة حربية وحصون مشيدة ومخابئ مجهولة، الكنائس القديمة والجديدة. وهذا عكس هندسة

(1) هو ميلسي وجنرال فرنسي، اسمه الكامل: أن جان ماري روجن هافري، ولد في سنة 1774م، وتوفي سنة 1833م، حلف موشي بوزارة الشرطة سنة 1810م، كان من أنصار نابليون، وبعد هزيمة واترلو ألقي عليه القبض في جزيرة مالطا ثم فر من السجن إلى مدينة أزمور سنة 1816م -أي احتسب بالمسلمين من أبناء ملته بالتحالف إليهم ولم يلتحق إلى العساري مما يدل على رحمة الإسلام بالعساري وكتاب النصراري على بعضهم، ولكنه رغم التحاته إلى المسلمين تحسانته من سي ملته إلا أنه كانا المسلمين إبادة قبيلة العوفية - وبعد لجوئه إلى أزمور بثلاث سنوات توجه إلى لندن ومن هناك استطاع أن يحصل على عفو الحكومة الفرنسية واسترجاع رتبته العسكرية، وفي سنة 1831م عين قائدا أعلى للجيش الفرنسي في الجزائر له مذكرات كتبها سنة 1828م (محمد العربي الزبيري، تقدم المرأة، هامش ص 60).

(2)، (3) حمدان خوجة، المرأة، ص 80، 81 أيضا محمد العربي الزبيري، تقدم المرأة، هامش ص 80.

(4) ومعلوم لهم قتلوا من الجزائريين 45 ألفا في ثلاثة أيام، ومليون ونصف في سبعة أعوام وأكثر من 10 ملايين خلال 132 عاما.

المساجد التي لا أثر فيها لأي شيء منها، وعندما تكون البيوت المخصصة للعبادة ههنية لغرض عسكري، يكفي ذلك دليلاً على نوع تفكير أصحابها وتبيان لاتجاههم الحربي لا الله محبة ولا سلم ولا تسامح. إن السيف النصراني سلط على كل شيء، فلم يسلم من عنفهم الشيع حتى الحيوان<sup>(1)</sup>، ابتداء من ترقيم الحيوانات كذا بالنار إلى قطع ذبول الأغنام بهدف تسميتها لإشباع شرهم ونهمهم الذي لا يشبع - ولنا ندرى أين الرهينة والتسك الذي يتشدقون به - إلى مصارعة الثيران، حيث يقوم البطل المصارع برشق الثور بالسهم بين كتفيه بعد تهيجه بإزار أحمر وإعيائه، والدماء تسيل منه إلى أن تخور قواه فيسقط الثور فيجهز عليه نهائياً بسهم آخر يرشقه في مقتل من مفاتله، وعشرات الآلاف من النصاري في الملعب المخصص لذلك التعذيب، يتفرجون ويصفقون لبطلم النصراني تحية له لانتصاره على الثور، فأين هذا مما بينه محمد صلى الله عليه وسلم من أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت، وأن رجلاً دخل الجنة لأنه سقى كلباً من شدة ظمأ، وكيف لا يكون بين محمد صلى الله عليه وسلم هكذا وكتابه المقدس ( القرآن الكريم ) تسمى بعض سورته بأسماء حيوانات أو كائنات حية كالبقرة والأنعام والنحل والنمل؟!

بعد هذا العرض للنصرانية والسيف، نتوصل إلى النتائج الآتية :

- العنف أو السيف صفة ملازمة للنصرانية وخاصة من خواصها لا تفارقها في عصر أو مصر، ولا تعيش بدونها، ولقد رأينا استعمال السيف في العهد القديم ببشاعة لا نظير لها، والدعوة إلى استعماله في العهد الجديد واعتباره جزءاً لا يتجزأ من النصرانية قضية بديهية لا نكير لها، ولقد رأينا أن يسوع استعمل العنف ظلماً للآخرين، ورأينا كيف تدعو نصوص العهد الجديد إلى الفرقة والحقد والكراهية والإبادة، ورأينا موقف بولس من السيف ودعوته لاستعماله، وكيف أثبت على الذين استعملوه واعتبر ذلك من علامات إيمانهم.

ونتيجة لكل هذا، فإن الدماء ظلت تسيل أنهاراً بين رجال الإكليروس ضد بعضهم بعضاً، وبينهم وبين سياسيين، وبين السياسيين النصاري صراعاً على السلطة في دولهم، وضد الدول الأخرى من ملتهم، والإكليروس ضد المخالفين له ولهم، والجميع ضد غيرهم من الملل والديانات الأخرى. ورأينا أن ما وقع من سيف ويقع بين الأمم النصرانية لم يقع مثله أبداً في التاريخ الإنساني في الملل والديانات الأخرى، وأن الكراهية والبغضاء بين النصاري لا مثل لها في التاريخ الإنساني. وأنا عندما نقارن ما وقع من صراع بين المسلمين فيما بينهم مع ما وقع بين النصاري لا نجد أي وجه للمقارنة، ذلك أنه من جهة لم تقع أي حرب بين المسلمين بسبب الاختلاف في العقيدة وهو ما يدحض مزاعم بورغاد من اختلاف المسلمين، وإنما وقعت حروب بسبب السياسة. وأن جميع ما قتل في تلك الحروب يضاف إليه جميع ما قتل من أعداء المسلمين في الفتوحات الإسلامية خلال التاريخ الإسلامي كله هو أقل بكثير جداً مما قتله الكاثوليك من بروتستانت في فرنسا وحدها، كما أنه أقل بكثير جداً مما قتله نابليون وحده من أبناء ملته. وهذا دليل

(1) أول من نهى إلى أن النصاري يعذبون الحيوانات ولا يرحمونها ويعاملون معها كمادة حامدة أحد الشيوخ الكبار حيث قضى حياته يعمل عند أحد

كافي يبين الدين الذي يقوم على السلم والأخوة والمحبة، والدين الذي يقوم على العنف والإكراه والقمع والإبادة، وهو ما ظهر لنا جليا فيما ذكرناه عن الصراع بين النصراني وضد غيرهم، وهما دليل مادي بين سلم الإسلام وعنف النصرانية.

وهو الجزائر ذاتها. ولقد أشرنا إلى بعض ما فعله السيف النصراني بسكانها. وأما الإسلام فلو انتشر فيها بالسيف لرحل عند استعمار فرنسا النصرانية لها. ذلك أن النصرانية سبقته إلى الجزائر، فلما جاء الفرنسيون كان مقتضى كون الإسلام استعمارا أجبروا على اعتناقه أن يتحلوا منه ويتصرفون. ولكن الذي وقع هو العكس، فقد دافع الجزائريون عن الإسلام منذ دخول الاستعمار الفرنسي في سنة 1830 م حتى أخرجوا هذا الاستعمار سنة 1962م، لم يهدأ جهادهم خلال الـ 132 عاما، ولقد وجنتهم فرنسا مسلمين وتركتهم مسلمين، ولو كان انتشر بالسيف لماذا فشل السيف الفرنسي في تصيرهم رغم 132 عاما من الاستعمار، ورغم ما بذل من جهود للتصير، وعمل بورغاد هذا الذي نرد عليه خير شاهد على ذلك.

وقد يقال بأن فرنسا لم تمكث في الجزائر كما مكث الإسلام. ويجاب عنه بأن النصرانية سبقت الإسلام إلى الجزائر بقرون، وأن الذين فتحوا الأندلس جزائريون فتحوها بعد الفتح الإسلامي للجزائر مباشرة، فهذا دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، بل انتصر على السيف، وأن اعتناق الناس له إنما راجع لطبيعته، ونفور الناس من النصرانية إنما راجع أيضا لطبيعتها. وقد ذكرنا قبلا أنه عندما حل الإسلام بشمال إفريقيا كلها، دخله الناس أفواجا، ولم يبق في النصرانية سوى الأساقفة وحدهم.

ونختم تحليلنا هذا قائلين لبورغاد وأبناء ملته: تعالوا نسأل مقابرنا ومقابرهم. من قتل موتانا ومن قتل موتاكم؟

سيجيب مئات الملايين من موتاهم: إنها النصرانية ورجالها وساساتها، ورجال دينها، قمعا وحروبا واضطهادا وتعديبا.

وسيجيب مئات الملايين من موتانا: إنها النصرانية ورجالها وساساتها ورجال دينها قمعا وحروبا واضطهادا وتعديبا.

والنتيجة إذن: جواب مقابرهم وجواب مقابرنا واحد: إنها النصرانية.

فليس في الوجود إذن أوحش من أممها ولا أكثر سفكا للدماء منهم. وهل يوجد في الوجود من أطلق على الأكثر سفكا لدماء الأبرياء ألقاب القديسين بسبب ذلك السفك؟ وهماو المثال:

لويس 9 أطلقوا عليه لقب قديس، لكثرة سفكه للدماء وتعطشه لدماء المسلمين، فأصبح يسمى: "القديس لويس" (St Louis).

والجنرال (أرنو) الذي قتل آلاف الجزائريين، أطلقوا عليه لذلك لقب القديس فأصبح يسمى: "القديس أرنو" (St Arnon) ولكي يخادوه بسبب ذلك السفك أطلقوا اسمه "المقدس" على المدن<sup>(1)</sup>.

<sup>(1)</sup> ومن ذلك مدينة الطسة بولاية سطيف التي سماها الفرنسيون قبل الاستقلال سانت أرنو، تحليلا له.

## الفصل الثامن

### تهمة محاربة الإسلام للعلم وحرق مكتبة الإسكندرية

يتهم بورغاد الإسلام بمحاربة العلم، وبرهانه في ذلك هو حرق عمرو بن العاص طمكتبة الإسكندرية حسب زعمه. هذه التهمة البورغادية في نظرنا مفتنة، ذلك أننا نعتقد أنه متأكد في قرارة نفسه عدم صحتها، كما أنه متأكد من أن النصرانية هي التي تحارب العلم، وأن رجالها هم الذين حرقوا مكتبة الإسكندرية وأن ما يفخر به من تقدم علمي في أوروبا لم يكن أي فضل فيه للكنيسة، بل للرجال الذين ثاروا عليها بفضل ما وصلهم من علوم المسلمين ومازلت آثارهم شاهدة إلى يومنا هذا من تيارات سينوية ورشدية. وكان جزاؤهم التتكيل والتحريق من محاكم التفتيش، ويكفي دليلاً على صحة وجهة نظرنا بورغاد نفسه الذي شاهد تلك المحاكم، لأنها لم تلغ بهانيا من بلده إلا في سنة 1834م.

وقبل التعرض لموقف النصرانية من العلم والإشارة إلى تأثير الفكر الإسلامي في الفكر الغربي وموقف الكنيسة من ذلك لننتوصل إلى مكتبة الإسكندرية نذكر بأننا نستغرب كيف يتهم القرآن بمحاربة العلم، وأول كلمة نزلت في أول آية نزلت هي كلمة « اقرأ » وبصيغة الأمر. والأمر يقتضي في أساسه الوجوب. كما ذكرت في هذه الآية الأولى كلمة القراءة مرتين، وكلمة العلم ومشتقاتها ثلاث مرات وذكرت وسيلة القراءة وهي « القلم » وربط ذلك بالألوهية. ووجه النظر إلى البحث عن كيفية خلق الإنسان من علق، وهو ما لم يكن أحد من أهل العلم يعرفه ( اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم )<sup>(1)</sup>.

إن تقديس الإسلام للعلم يظهر جلياً في قسم الله عز وجل به ( فعوالقلم وما يسطرون )<sup>(2)</sup>. وبين الله أن أكثر الناس خوفاً وخشية منه هم العلماء ( إنما يخشى الله من عباده العلماء )<sup>(3)</sup>. وبين فضل العلماء على غيرهم فقال: ( قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون )<sup>(4)</sup>.

هذا في حين كانت الكنيسة تعتبر العلماء هرطقة يستحقون الإضطهاد والحرمان<sup>(5)</sup>. وبين أن علم الله واسع، فمهما تعلم الإنسان فلن يصل إلى كماله مما يجعله دائم البحث ( ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله )<sup>(6)</sup>. وقال: ( قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً )<sup>(7)</sup>. إن القرآن هو الذي

1 - لعلق/ 1-5.

2 - لقلم/ 1.

3 - فاطر/ 28.

4 - لزمز/ 9.

5 - أحمد محمد سليمان، قرآن والعلم، ص 12.

6 - لقمان/ 27.

7 - كهف/ 109.

يقول نبيه: « طلب العلم فريضة على كل مسلم »<sup>(1)</sup>، فكيف يتهم نبي بمحاربة العلم وهو يجعله فريضة على أتباعه؟! ولكن كيف حال العلم مع النصرانية؟

### موقف النصرانية من العلم

لكي نعرف موقف النصرانية من العلم ننظر للأصول التي تقوم عليها فنجد أن جميع تلك الأصول مناقضة للعلم ومضادة له، وهي :

**1 - قيام النصرانية على خوارق العادات لاعلى البحث في الأسباب والمسببات :** أول أصل قامت عليه النصرانية وأخطره هو خوارق العادات حيث لا نجد للمسيح في الأناجيل دليلا على صدقه سوى ما كان يصنع من الخوارق، فاعتبر ذلك دليلا على صحة النصرانية<sup>(2)</sup>. وبهذا لم يبق عند المتدينين بها ناموس يعرف له حكم مخصوص، يضاف إلى هذا ما نقرأه في الأناجيل من كفاية الإيمان مهما كان ضئيلا لخرق قوانين الطبيعة « فالحق أقول لكم، لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم »<sup>(3)</sup>. « لأني أقول لكم: إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقوله يكون، فمهما قال يكون له، لذلك أقول لكم: كل ما تطلبونه حينما تصلون فأمنوا أن تتلوه فيكون لكم »<sup>(4)</sup>.

وبناء على هذا فإن كل بحث يؤدي أن للكون شرانغ ثابتة وأن هناك علل ومعلولات. وأن المعلولات مرتبطة بعلاها وجودا وعدما: كان مضادا لهذا الأصل الأول، ولما كانت كل العلوم الكونية تقوم على هذه العلاقة بين العلل والمعلولات كانت كل العلوم مضادة لذلك الأصل - الخوارق - ناهيك أن المؤمن بهذا الأصل في غنى عن البحث في الأسباب والمسببات لأن إيمانه يكفي لت تحقيق ما يريد. ولذا كان غنيا عن العلم وكان العلم عدوا لما يعتقد<sup>(5)</sup>. وهذا عكس ما يقوم عليه الإسلام الذي يتجه إلى العقل فيخاطبه ليقتنعه ويوجهه إلى مواضيع العلوم المختلفة ليتخذها دليلا للهداية ( أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت... سطحت )<sup>(6)</sup>. ( سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق )<sup>(7)</sup>. بل نجد معجزة محمد ﷺ الأساسية معجزة عقلية. وهكذا يأمر القرآن الكريم الناس بالتوجه بالبحث العلمي إلى إدراك العلل والربط بينها وبين المعلولات، وهذا هو أساس البحث العلمي. ولذلك كانت أول كلمة في أول آية نزلت هي كلمة « اقرأ » كما ذكرنا.

1 - رواه مسلم، في باب العلم.

2 - والغريب أن هناك نصوصا أخرى تبين أن الخوارق ليست دليلا على النبوة.

3 - إنجيل متى، إصح ح 17. فقرة 10. ولواقع أن هذا النص يثبت أن جميع للنصارى كفار في لا يوجد في قلب أي منهم حبة خردل من إيمان، لأنه لا أحد حقق مضمون هذا النص.

4 - إنجيل مرقس، إصح ح 11. فقرات 23، 24. ويلاحظ ركائكة النص وضعف بنيائه اللغوية.

5 - محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 40، 41.

6 - الغاشية / 17-20.

7 - صافات / 52.

2 - سلطة الرؤساء على المرء وسين في العقائد ومكونات الضمائر : إلى حد أنه إذا قال الرئيس الكهنوتي لأحد مرؤسيه أنه ليس بنصراني صار كذلك في زعمهم وإذا قال له أنه نصراني فاز بها فليبدأ الرئيس غفران الذنوب والحرمان ومن هنا فإن المعتقد ليس حراً في اعتقاده يتصرف في معارفه كما يرشده عقله، بل مربوط بقرار رئيسه<sup>(1)</sup> وفهمه. ولما كان خضوع العقل إرادياً لا ينأى لهم اختلفوا فكرة عصمة الإكليروس، التي قال بها بوغاد، وذلك ليسوا غوا لأنفسهم تحطيم كل من تسول له نفسه فتح الباب لإجتهاده وليضمنوا مراكزهم وطقوسهم الإستمرار والإستقرار.

3 - ترك الدنيا أو النسك إلى حد الرهبنة : التجرد من الدنيا وكل ماله علاقة بها والانتطاع إلى الملكوت هو ما يزعم النصراني أنه من أصول ديانتهم، وهو ما يعني رفض العلم جملة وتفصيلاً لعدم جدواه، لأن ملكوت السموات أنيط أمره بالإيمان المجرد عن العقل. والدنيا مذمومة فإذن لا داعي للبحث العلمي ومحاولة فهم أسرار الكون، ذلك أن فهم أسرارها إنما يكون لهدف ديني أو دنيوي أو هما معاً، والهدف الديني أي الإيمان إنما هو من اختصاص الإكليروس والعقل محرم فيه والهدف الدنيوي معدوم لأن الدنيا مذمومة. وإذن فما على المرء إلا الإلتصاف بكلية إلى العبادة وحدها، وهي ليست سوى الإيمان والصلاة، والتفكير في الكون ليس منها<sup>(2)</sup>.

وهذا عكس الإسلام الذي يجعل التفكير في حد ذاته عبادة (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب) <sup>(3)</sup>. وجعل طلب الآخرة وحده مذموم (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) <sup>(4)</sup>.

4 - الإيمان بغير المعقول : ومزاده أن الإيمان منحة لا دخل للعقل فيها، وأن من الدين ما يتسامى على العقل أي يناقض أحكامه ومع ذلك مما يجب الإيمان به. وقد بين هذا الدين بوضوح القديس أنسلم<sup>(5)</sup> بقوله: « يجب أن تعتقد أولاً بما يعرض على قلبك بدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت »<sup>(6)</sup>. والواقع أن أعظم ما في الإنسان عقله، وأعظم ما في الوجود العقيدة، فالذي يمنع أعظم ما في الإنسان من التأمل والتفكير في أعظم ما في الوجود إنما يكون فعله هذا أكبر جريمة على طلاق، وكان ذلك دليلاً على إيقانه بفساد عقيدته وإلا ما خاف من العقل إذا تأملها، وهكذا حرم النظر العقلي مما يجعل الإيمان وهو الوسيلة الوحيدة إلى النجاة في غنى عن النظر العقلي والويل

1 - محمد عبدة، الإسلام والنصرانية، ص 42، 41.

2 - المرجع نفسه، ص 43، 42.

3 - آل عمران/190.

4 - لقصص/77.

5 - القديس أنسلم (1033-1109م) إيطالي الأصل ولد في لومستا، صار رئيس أساقفة كنتربيري (إنكلترا) بعد أحد

مؤسسي لفلسفة المدرسية (المنجذبة للغة والأعلام، ص 76)

6 - محمد عبده، المرجع نفسه، ص 44.

لنصراني الذي يؤدي به اجتهاده إلى شيء يخالف ما تعلق به إيمانه<sup>(1)</sup>، وهذا يتناقض مع الإسلام الذي يقوم على الحجة والبرهان والتحدي « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »<sup>(2)</sup>.

5 - الكتاب المقدس يشتمل على كل ما يحتاجه النصارى في المعاش والمعاد : ومن زعمائهم الذين قرروا هذا تيرتوليان<sup>(3)</sup> (Terullianus) قائلا: « إن أساس كل علم هو الكتاب المقدس، وتقاليد الكنيسة، وأن الله لم يقصر تعليمنا بوحى على الهداية إلى الدين فقط. بل عنمنا بالوحى كل ما أراد أن نعلمه من الكون، فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر أن ينالوه »<sup>(4)</sup>. وهكذا فجميع ما جاء في الكتاب المقدس من وصف السماء والأرض وما فيها، وتاريخ الأمم إنح يجب الإيمان به وعدم مخالفته مهما تناقض مع العقل أو خالف ما توصل إليه العلم أو ما شهد به الحس. فعلى الناس أن يؤمنوا به أولا ثم يجتهدون في حمل أنفسهم على فهمه أي التسليم به<sup>(5)</sup>.

6 - التفريق بين النصارى وغيرهم حتى الأقربين : هذا الأصل ينتظم الأصول السابقة كلها وأساسه ما ورد في إنجيل متى « لا تظنوا أنني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما، بل سييفا، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والإبنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته »<sup>(6)</sup>. ولقد طغى هذا النص على النصارى فوقع ما وقع. وهنالك بعض نتائج ما سبق.

#### بعض نتائج الأصول السابقة :

- إعراض النصارى عن العلوم الكونية والعقلية وحبسوا أنفسهم في الكتاب المقدس وفقا لفهم رؤسائهم الدينيين. ومن خالف طبقت عليه القاعدة السادسة « السيف » وكل من تجرأ على مخالفة ما ورد في الكتاب المقدس حتى ولو بين العلم بطلانه عوقب بقسوة فاقنتع النصارى بأن السلامة في ترك الفكر والأخذ بالتسليم وقرروا قاعدة « إن الجهالة أم التقوى » فحصر التعليم في الإكليروس وحالت الكنيسة دون نشره فعم الجهل وظل النصارى في أوروبا حتى القرون الوسطى<sup>(7)</sup>. يعتقدون أن المطر ينزل من خزان موجود في السماء وأن قعره غشاء من جلد رقيق، ولما وقع الطوفان زمن سيدنا نوح

1 - المرجع نفسه، ص 44.

2 - النمل/64.

3 - تيرتوليان (نحو 155-222م) قرطاجي يعد من كبار الكتبة المحامين عن المسيحية ضد الوثنية رسم كاهنا، تضلع في اليونانية واللاتينية، تعد مؤلفاته أولى الكتب المسيحية باللاتينية، احتج على اضطهاد الرومان للمسيحين ماجم الفلسفة فلما منه أنها عدوة للدين كما ماجم منهجها باعتباره عقيدا. له مؤلفات منها شهادة النفس المسيحية طبعا. رد على - من اعتبرهم - مبتدعة من المسيحيين قبل أن ينظم إلى شيعة نصرانية من أغرب الشيع (المنجد في اللغة والإعلام، ص 170). أيضا: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، دط. دار القلم: بيروت، 1679، ص 16، 17.

4 - محمد عبده، المرجع نفسه، ص 44، 46.

5 - المرجع نفسه، ص 45.

6 - إنجيل متى، إص ح 102، فرك 34-36.

7 - لقرون الوسطى الفلسفية بين القرى 9 و 14 أو 15م (عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ط3. وكالة المطبوعات. الكويت، دار القلم. بيروت، 1979، ص 140).



كان ذلك نتيجة تمزقه. وأن الله وضع قوس قزح ليذكر كمية نزول المطر التي نزلت حتى لا يهلك الناس بسبب ندمه على إغراق قوم نوح بالطوفان، وأن المريض بثحمي كان يعالج بأكل كلب مسلوق البخ.

وهكذا عم<sup>(1)</sup> الجهل إلى حد أنه لما ظهر مذنب هتي سنة 1682م اضلرربت أوروبا كلها لظهوره ولجأوا إلى البابا ليطرده لهم من الجو فولى المذنب مذعورا من نعمة البابا - حسب زعمهم - ولم يعد إلا بعد 75 سنة.

ولقد بلغ قهر الكنيسة للفكر أنه لم يكن يسمح لأحد بإبداء رأيه في أي قضية إلى حد أن بلاج لما أعلن أن الموت كان يوجد قبل آدم - أي أن الحيوانات كان يتركها الموت قبل أن يخطيء آدم - أحدث ذلك ضوضاء كبرى وانتهى الأمر بصدور أمر إمبراطوري بقتل كل من يعتقد ذلك مما يعني أن الاعتقاد بوجود الموت قبل خطيئة آدم عد جريمة على الملك<sup>(2)</sup>.

وهكذا خضعت المعرفة بمختلف فروعها للدين، وأصبحت لغاية لا هوتية بحثة إلى حد أن هذه المرحلة أطلق عليها معرفيا « فلسفة آباء الكنيسة » حيث لم يكن يسمح بتعليم غير اللاهوت إلا لبعض آراء الفلاسفة التي تخدم النصرانية.

وأما المرحلة التي أعقبت هذه، فيطلقون عليها اسم « الفلسفة المدرسية » وتتميز بشيوع دراسة العلوم والفلسفة وتأسيس المدارس لذلك ولكن في الكنائس. وقد عرف الغرب في هذه المرحلة: أرسطو وأخذوا في ترجمة كتبه عن العربية<sup>(3)</sup>. ومع هذا فقد ظلت الكنيسة تتبع العلماء وتعقد المجامع لإصدار قرارات حرمانهم وحرقتهم، ومن ذلك ففي القرآن 13 أنكر مجمع كنسي عقد بباريس سنة 1210م كتب أرسطو وشروحها في الفلسفة الطبيعية وحرمت تدريسها. وفي سنة 1215م نشرت لائحة جامعة باريس المؤكدة لتحريم كتب أرسطو الطبيعية وشروحها، وتحرم تدريس كتاب ما بعد الطبيعة وشروحه<sup>(4)</sup>. ولقد صدق فرانسوا غريغوار عندما قال :

« ليس من شك في أن المسيحية لم تقدم شيئا للتطور العلمي... بل عاكسته... إن محاكمة العالم غاليليه جرت في الحقيقة باسم ميتافيزيقا اعتبرت (عن خطأ) ضرورية لتماسك العقيدة الكاثوليكية في مجموعها »<sup>(5)</sup>.

إن المرحلة المدرسية رغم أن التدريس فيها كان تحت إشراف الإكليروس إلا أنها كانت مرحلة فاصلة بين عهدين : سيطرة الكنيسة، والتحرر النسبي منها، وهناك نتساءل :

1 - رغم تعصب يوسف كرم الأبناء ملته إلا أنه لم ينكر أن العصر الوسيط كان عصر جهل وظلام، ولكنه يبرر ذلك بأنه لم يكن مقصودا بالذات، وإنما سببه غزوات البرابرة التي أوقعت أوروبا في الخراب والفقر، والفتوحات الإسلامية التي زادت من ضنكا بحصر البحر المتوسط، وينكر أي أثر للحضارة الإسلامية في إخراج أوروبا من الجهل (يوسف كرم تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص 5، 6).

2 - محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 48.

3 - عبد الرحمن بدوي، فلسفة المصور الوسطى، ص 43، 44.

4 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص 123.

5 - فرانسوا غريغوار، المشكلات الميتافيزيقية الكبرى، ترجمة نهاد رضا، د. ط. دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 22.

كيف وقع التغير في العصر المدرسي ومنه إلى الحديث ؟ : والجواب أنه وقعت تطورات وعوامل فسي تاريخ الشريعة بنيت تعقل الأروبي أنه سجين اللاهوت النصراني وأن التصورات الكهنوتية النصرانية لا قيمة لها في نظر تعقل والتعلم الصحيح. هذه العوامل هي:

تصال أوروبا بالعالم الإسلامي واطلاع الأروبيين على ما فيه : وذلك عبر أماكن متعددة نذكر منها :

- الحروب الصليبية (1095-1270م) فتعتبر الخط الحقيقي الذي يفصل بين العصور الوسطى والعصر الحديث حيث اتصل المحاربون النصارى أثناء إقامتهم في المشرق العربي بأنماط حضارية عريقة وبألوان ثقافية لا يمكن أن تقاس بها ثقافتهم البدائية. لم يجدوا أثرا لسيطرة رجال الدين ولا حجر على حرية الفكر، بل ولا إكليروس. وانتابهم العجب من انتقاء فكرة أن لا رجل الدين هو الواسطة بين الفرد وربه في جميع أمور الروحية والمادية. بل وجدوا أن رجال الدين الإسلامي مجرد علماء لا فرق بينهم وبين أي مسلم سوى في درجة العلم والتقوى وأن أي مسلم يتبع عاقل يمكنه أن يؤم الناس في الصلاة أو يصلي فذا دون الاستعانة برجل دين<sup>(1)</sup>.

فلما عاد الصليبيون إلى أوروبا رجعوا بغير العقيدة التي ذهبوا بها ورأوا من حرية الفكر والمعتقد والبحث العلمي ما لم يكن يخطر لهم ببال. فنقلوا كل ذلك إلى مواطنيهم كما نقله زوار بيت المقدس والشام والعراق وسوريا من تجار وغيرهم فذهلوا لما شاهدوه من حرية البحث العلمي والتسامح اللتين المبالغ فيه. كما نقلوا كميات هائلة من الورق من مصر حيث وجدوه يباع بثمن بخس وهو ما سهل نشر العلم في أوروبا ولا سيما بعد ظهور الطباعة بالصين واستجلاب النصارى لها إلى أوروبا<sup>(2)</sup>.

- الأندلس: كان اليهود والنصارى يتلاقون في جامعاتها تحت ظلال الأمن والحرية وأصبح كثير من العلماء الغربيين كإنجلترا وغيرها يأتون إلى الأندلس لتلقي العلوم الفلكية والرياضية وغيرها. ومهما كان البلد الذي يفدون منه فقد كانوا يجدون فيها كل وسائل الإقامة الطيبة والتحصيل الجيد. وكان قصر الخليفة نفسه يشبه أن يكون مصنعا للكتب نسخا وتذهيبا وتجليدا إلخ وكان من بين الوافدين بعض البابوات، فانتقلت الفلسفة الإسلامية وعلوم الإسلام المتنوعة من هناك إلى أوروبا كالفلسفة ابن رشد وغيره فأخذت تغير العقول فوفقت لها الكنيسة بالمرصاد وشغلت محاكم التفتيش بحجة مخالفة الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة<sup>(3)</sup>.

- فواد محمد شبل، الفكر السياسي دراسات مقارنة للمذاهب السياسية والاجتماعية دط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ج 1، ص 330.  
2 - المرجع نفسه، ص 330.  
3 - مصدر عهد، الإسلام والنصرانية، ص 51، 52.

وما زالت مكتبة الأسكوريال شاهدة على ما توصل إليه المسلمون من علوم وعلى تفديسهم اتعلم والعلماء<sup>(1)</sup>.

- **بجاية**: وقد سماها الغربيون بوجي (Bougie) أي الشمعة، وورد في قاموس لاروس أن بجاية معناه انور، وقد أطلق عليها الغربيون هذا الاسم بسبب استفادتهم منها، ومن أهم ما استفادوه أخذهم الأرقام العربية (0،1،2،...). وقد أخذها الرياضي الإيطالي ليوناردو ألبيشي (Leonardo Fibonacci Pisanus) المولود حوالي 1180م في مدينة بيشا (Pise) الذي أتى به والده إليها حيث كان أبوه رئيس البعثة التجارية البيشية (الإيطالية) في بجاية، وتعلم بالعربية الرياضيات والهندسة والكسور والصفير إنخ في مدرسة عربية ثم بترينص<sup>تار</sup> لدى الجمارك في ميناء بجاية مع تجار الفرو والجلود، وبتكتب التي أنفها في ذلك بعد عودته إلى إيطاليا أحدث الثورة الكبرى في أوروبا كلها، ذلك أنه انذاك لم تكن أوروبا تحسب إلا بالأرقام الرومانية التي لا يمكن إجراء عمليات الضرب والقسمة بها، ولا تعرف الكسور ولا الصفير. ولا تصلح إلا لإجراء عمليات ذهنية بسيطة جدا، وفي الجمع والطرح لا غير. ولأهمية ما قام به ليوناردو ألبيشي في هذا النقل يقول عنه قاموس الأعلام الفرنسي الضخم «إنه أبرز العلماء الرياضيين في أوروبا القرون الوسطى»<sup>(2)</sup>. ويجب أن نشير هنا إلى أن الكنيسة حاربت تلك الأرقام وكمنعت تداولها. ولكن للتجار هم الذين نشروها في أوروبا؛ لأنها سهلت لهم العمليات التجارية المختلفة. ومن هؤلاء التجار، ناقلها من بجاية ليوناردو ألبيشي<sup>(3)</sup>.

وهكذا استفادت أوروبا من بجاية كثيرا، ولكن الاستفادة اكبرى كما ذكرنا في ميدان الرياضيات ومنهجيتها بالدرجة الأولى، ووسائلها التي هي أرقامها التي لا تزال تسمى حتى اليوم «الأرقام العربية»<sup>(4)</sup>. وقبل أن نغادر بجاية فإننا نشير على سبيل المثال أيضا إلى أنه مما يدل على أهميتها في الميدان العلمي واستفادة أوروبا منها أن الفيلسوف اللاهوتي الإسباني رامون لول: (Raymond Lulle) جاء إليها للتعلم في الدراسات العربية الإسلامية<sup>(5)</sup>.

وبناء على ما سبق، فإننا نستطيع القول بأن الآراء الإسلامية هي الركيزة الروحية لحركتي النهضة والإصلاح في أوروبا<sup>(6)</sup>، وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى الأثير الفكري الإسلامي في الفكر الغربي.

1 - ومما يوسف له أن هذه المكتبة قزخرة بالمخطوطات العربية النفسية والنادرة يشرف عليها أربعة قس كل واحد يملك أحد مفاتيحها الأربعة. بذلك فلا يمكن فتح بابها إلا بحضور القس الأربع، ومن النادر أن يجتمعوا كلهم، والخرض من هذا منع العرب من الإطلاع على ثرائهم. فهل بعد هذا مازال من يعتبر النصرانية دين سامح؟!.

2 - مولود فاسم نابت بلقاسم، بجاية الإسلام لقتت أوبة للرياضيات بلغة العروبة. مجلة الثقافة، وزارة للثقافة والسباحة، الجزائر، سبتمبر، أكتوبر، 1985، السنة 15. ع 89، ص 38، 39.

3 - ومن أراد فتوسع في هذا فليرجع إلى: زيفريد مونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة وتحقيق فؤاد حسنين علي، ط. مكتبة رحاب، الجزائر، 1986، ص 61...

4 - مولود فاسم، المرجع نفسه، ص 39.

5 - المرجع نفسه، ص 39.

6 - أولاد محمد شبل، المرجع لسابق، ص 330.

تأثير الفكر الإسلامي في الفكر الغربي : لقد تأثر الفكر الأوروبي بالفكر الإسلامي تأثراً كبيراً، إذ منذ حوالي 1130م بدأت ترجمة الفكر الإسلامي إلى اللاتينية. ولقد كان لهذه الترجمة، أو ما أسماه يوسف كرم لغة الكتب اليونانية والعربية - أكبر الأثر في نمو تهيئة شعبية حسب تعبير يوسف كرم نفسه وقد ظهر هذا الأثر بقوة أواخر القرن 12 وأوائل القرن 13 (1).

بدأ هذه الترجمة ريموند (Raymond) رئيس أساقفة طليطنة من 1130: 1150 (20 سنة) ثم رئيساً لأساقفة إسبانيا. وذلك أنه أسس مجعماً للمترجمين عهد برناسته إلى دومينيك جوند يستافني (Dominic Gondisalvi) وأسند إليه مهمة إعداد ترجمات لاتينية لأهم الكتب العربية في الفلسفة والعلوم وكانت هذه الترجمات أساس الفلسفة المدرسية ثم الحديثة.

وفي عام 1249م أسس الإمبراطور فريدريك الثاني جامعة نابولي، وجعل منها أكاديمية لإدخال العلوم العربية لأوروبا. وفي هذه الجامعة تلقى القديس توما الإكويني (2)، تعليمه قبل دخوله سلك الرهبنة مما جعله يتأثر بآراء ابن رشد تأثراً لا نظير له إلى حد أنه أخذ نظرية المعرفة عند ابن رشد وتبناها كما هي بإدخال بعض التعديلات البسيطة حيث استغل الفكرة الرئيسية في نظرية المعرفة الرشدية واستغلها إلى أبعد حد استطاع الوصول إليه إلى حد أن عدد المشاكل التي عرض لها ابن رشد في نظرية المعرفة مساو تقريبا ومطابق لما عرض له الإكويني أيضاً (3). بل « هناك اتحاد يقجا النظر فيما يتصل بآراء هذين المفكرين، إذ أن المشاكل قد حددت لدى كل منهما بنفس العبارات على وجه التقريب، كما أنهما بهتديان إلى نفس الحلول على نحو يثير الدهشة » (4). ومن الأمثلة على هذا التأثير فلقد سلم الإكويني بنظرية ابن رشد في العلم الإلهي وأخذها بجميع تفاصيلها وتعرجاتها لكي يجد حلاً لجميع المشكلات الدينية الفلسفية التي ترتبط بمسألة علم الله لذاته.

وللأسباب الأخرى، وتلك النظرية هي التي ادعاها الإكويني لنفسه وعبر عنها بقوله: Scientia (divina est Causa Rerum) (5). والواقع أن الإكويني هو تلميذ لابن رشد (6)، الذي لم يقتصر تأثيره على الإكويني فحسب، بل أصبح تياراً كاملاً هو تيار الرشدية (Averroism). ونكتفي بالإشارة إلى أن هذا التيار ما أن حل منتصف القرن 13م حتى كانت جميع مؤلفات ابن رشد تقريباً قد ترجمت إلى اللاتينية بوقام التيار الرشدي بدور كبير في تحطيم الفكر المدرسي بما كان يدعو إليه من حرية فكرية.

1 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص 91-92. وإعتراف يوسف كرم له أهميته لأنه شاهد من أهلها وهو ما يحض إفتراءات بورغاد.

2 - توما الإكويني (1225-1274). قديس وراهب دومينيكاني. ولد في إيطاليا ودرس في جامعة باريس، يعد معلم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية، اطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد. له مؤلفاته منها "الخلاصة فلاهوتية" و"الخلاصة ضد الأمم" (المنجد في اللغة والأعلام، ص 184).

3 - محمود قاسم، نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى طوماس الإكويني، دط. مكتبة الأجلو المصرية. دت. ص 15.

4 - المرجع نفسه، ص 15.

5 - المرجع نفسه، ص 271، 272.

6 - المرجع نفسه، ص 35.

حيث كان يدعو إلى تحرير العقل وإعطاء مفاهيم وتصورات عن الإنسان وتكون تخالف الكنيسة. فتشع المفكرون بأفكاره وظهرت مدرسة فلسفية أوروبية كبيرة تسمى «جماعة الرشديين اللاتين» في باريس وغيرها وتأثر بهم كثير من المفكرين، منهم توما الإكويني كما ذكرنا قبلاً. وحين دو قرسي (1249م) نعرسي الذي يعد أول كبار مفكري القرن حسب يوسف أكرم. عرف فلاسفة الإسلام وعلماء معرفة وإهبة واستفاد منهم. ومن أولئك العلماء اللاتين وأبوسعتر والخوارزمي وعلي بن عباس الهادي والطبري والفرغاني والحسن بن الهيثم. وقد أحال كثيرا إلى القرآن وذكر أقوال الفارابي وابن سينا في العن الفعل بذكر ابن سينا حوالي (4) مرة. وأخذ عنه بعض التعريفات وبعض الأمثلة وكثيرا من الآراء وترتيب العلوم، وهو الذي أدخله إلى الجامعة، وذكر الغزالي وكان يظن أن كتابه «مقاصد الفلاسفة» عرض لأرائه، وذكر ابن رشد مرتين ونعته بالفيلسوف الشريف جدا<sup>(1)</sup>. والواقع أنه تأثير ابن رشد استمر يؤثر في أوروبا حتى العصر الحديث، ولا أدل من تأثيره أن كثيرا من كتبه توجد الآن باللاتينية ولا توجد أصولها العربية. وذلك أن الأوربيين بعد أن ترجموها إلى اللاتينية أحرقوا أصولها العربية<sup>(2)</sup>، وغيروا اسمه من ابن رشد إلى «أفيسان» حتى لا يعتقد أنه عربي مسلم. وهنا نتساءل: ما موقف الكنيسة من هذه المدرسة «مدرسة الرشديين اللاتين» والجواب هو الإضطهاد وعقد المجامع لإصدار قرارات حرمانهم وتحريقهم. وهو ما اعترف به يوسف أكرم. ولكنه للأسف سار في ذلك التيار المتطرف الذي اضطهدهم حيث اعتبر أن حركة الفلاسفة الرشديين اللاتين وتكثيرهم رغم الأحكام الصادرة ضد مذهبهم أدى إلى الإلحاد في أوروبا مما جعل القرن 14 سلبيا هداما للماضي. ولا سيما أن بعضهم تعصب لأرسطو وابن رشد إلى حد لا يتصور<sup>(3)</sup>. وذلك لأن الكنيسة اعتبرت أن ابن رشد مسؤول عن جميع ضروب الإلحاد التي مني بها العالم الأوربي<sup>(4)</sup>، ومن تلاميذ ابن رشد الذين أصيبوا بأذى الكنيسة الفيلسوف الإنجليزي روجر بيكون (1214-1292م) الذي يعد من أشهر العلماء في القرون الوسطى وهو أول من دعا في أوروبا إلى الطريقة التجريبية واتخاذ الرياضيات أساسا لكل بحث في العلوم الطبيعية. ولقد أبعده من جامعة أكسفورد سنة 1257م بتهمة الإلحاد وعاش في باريس مدة تحت الرقابة وورد ذكر اسمه مع سيجر دو برابانت ضمن الأساتذة الذين اتهمهم أسقف باريس بتدريس تعاليم ابن رشد الإلحادية<sup>(5) (6)</sup>.

1 - يوسف أكرم، تاريخ فلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 133.

2 - جورج قنوني، مؤتمر ابن رشد، 4-9 نوفمبر 1978م. نادي الصنوبر الجزائر العاصمة.

3 - يوسف أكرم، تاريخ لفلسفة الأوربيين في العصر الوسيط، ص 7.

4 - محمود قاسم، نظرية لمعرفة عند ابن رشد وتأريخها لدى طوماس الإكويني، ص 14.

5 - محمد كامل عواد. تأثير ابن رشد على مر العصور، مؤتمر ابن رشد. دط. ش و ن ت، الجزائر، 1983، ج 2، ص 401، 400.

6 - تأثير ابن رشد لم يقتصر فقط على الفلسفة بل أترك ذلك في ميادين الطب والعلوم وترجمت مؤلفاته فيها إلى اللاتينية وأصبحت تدرس في الجامعات (لراجع نفسه، ص 403).

وإذا كان لابن رشد القيار السابق، فإنه كان أيضا لكل من ابن سينا والغزالي والفسارابي وغيرهم مقاربات فكرية لاتينية حيث كانت مؤلفات هؤلاء تحمل غذاء سما مع أنها تشير فتنه شعواء حسب تعبير يوسف كرم بسبب ما تضمنته من قضايا لأرسطو ولأفلاطونية الجديدة مخالفة للدين<sup>(1)</sup> النصراني، نكتفي بالإشارة إلى أننا نجد أيضا اتجاها خاصا في الفلسفة - والعنوم - هو التيار السينوي الذي كان يسمى بـ السينائية (Avinnism). وقد ترجمت كتب ابن سينا ولا سيما القانون في الطب الذي ظهر أول مرة في ميلانو في فبراير 1473م لِقَتَوُا إلى طبعاته بعد ذلك. وفي سنة 1500م ظهرت طبعته 16. وفي القرن 16 وصلت إلى العشرين. وكان هذا الكتاب أكثر الكتب الطبية انتشارا ودراسة. أما شروحه فلا تعد ولا تحصى<sup>(2)</sup>. وقد سيطر على جامعات أوروبا عدة قرون<sup>(3)</sup>.

والنتيجة التي نستخلصها: أن تأثير الحضارة الإسلامية على أوروبا هو الذي أدى بالفكر فيها إلى الانتقال من العصر الوسيط (ق 9-14) إلى العصر الحديث عبر عصر النهضة الذي ابتدأ مع بداية القرن 14 واستمر إلى القرن 16.

وهنا نتساءل: ما موقف كنيسة بورغاد؟ والجواب أنها عملت المستحيل لإخماد ثورة العقل وقمع التطور العلمي وقررت التفرغ في قمعهم أخطاء الكتاب المقدس. ولما كثرت الثورات عليها من المفكرين المتأثرين بالفكر الإسلامي وعلوم المسلمين اخترعت الوسائل الجهنمية نصدهم، ومن أهم تلك الوسائل :

**محاكم التفتيش ومراقبة المطبوعات :** أنشئت هذه المحاكم كرد فعل عنيف ضد الفكر العربي الإسلامي الذي تغلغل في أوروبا رساد في القرن 12م عندما ترجمت أهم مؤلفات العرب والإغريق (من نسخها العربية إلى اللاتينية) تمت هذه الترجمات في إسبانيا وإيطاليا وصقلية وغيرها، فاعتبرت الكنيسة ذلك بدعة في الفكر وقررت القضاء على هذا الفكر بالعنف. فوضع أسس هذه المحاكم المجلس الكنيسي في فيرونا (Verone) في سنة 1183م. وقد احتفظت بأجراءاتها الداخلية في سرية لا يمكن اختراقها. وفي عام 1233م أنشأ البابا جريجوري التاسع (Gregoire) محكمة خاصة أوكلت إلى الرهبان الدومنيكان لمحاربة انتشار ما سمي « البدعة الألبية »<sup>(4)</sup>. ثم ما لبثت أعمال هذه المحاكم أن انتشرت لتغطي كل العالم النصراني ولتسود المسرح الفكري خاصة في إيطاليا حيث كانت أكثر تطورا من أي

1 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ص 3.

2 - زيغريد هوتكه، شمس العرب تنطق على المغرب، ص 231، 232.

3 - ولنا في حاجة أن نشير إلى أن العرب هم أول من إكتشف الدورة الدووية الصغرى (المرجع نفسه، ص 232) ودوران الأرض حول الشمس وما إلى ذلك حتى لا يخرج بحثنا عن إطاره.

4 - نسبة إلى جماعة الألبين (Albigenses ; Albgeois Cathares) وهم أفراد طائفة دينية نشأت في جنوب فرنسا حول مدينة ألبى (Albi) أعلنت عليهم الحرب يأمر أصدره البابا ثونست الثالث Amnoncent III في سنة 1209 واستمرت حتى 1229م. (محمد دويدار، مقدمة في الإقتصاد السياسي، دة، المكتب المصري الحديث، الإسكندرية 1972م، هامش ص 101.

مكان آخر في أوروبا، وفي إسبانيا حيث أثر الفكر العربي والإغريقي أكبر ما يكون في القرن 13<sup>(1)</sup>. وهكذا أنشئت هذه المحاكم لمقاومة العلم والفلسفة التي تنبأها تلاميذ ابن رشد وتلاميذهم ولا سيما في جنوب فرنسا وإيطاليا، أما :

الصفات العامة لمحاكم التفتيش : فإنها محاكم بابوية محضة، تستمد سلطاتها من البابا مباشرة، والحكومات تقوم فقط بتنفيذ أحكامها، قضاتها رجال دين متعصبون للكاثوليكية، المحاكمة سرية، ومن واجبات هذه المحاكم مراقبة المطبوعات والمدارس، وتقرير الكتب التي يسمح بتداولها وإحراق ما يتناقض مع المذهب الكاثوليكي . وحتم على كل مؤلف أو طابع أن يعرض بضاعته على القسيس أو المجلس الذي عين للمراقبة. ومن وظيفة هذه المحاكم التجسس بكل الطرق على من يشبه في عقيدتهم والقبض عليهم ومحاكمتهم في جلسات سرية وتعذيبهم بمختلف الطرق القاسية حتى يكرهون على الإقرار بالهرطقة وساعتد يوقع عليهم العقاب بالإحراق أو السجن المؤبد وبمصادرة أملاكهم حتى الثائبون منهم كانوا يسجنون إلى موتهم تطهيرا لهم من جريمة الهرطقة. وليس للمتهمين في هذه المحاكم بعد عام 1254م حق الاستعانة بمحامى. وليس للسلطة الزمنية إيقاف تنفيذ حكم هذه المحاكم وإلا تعرض رجالها أنفسهم للوقوف أمامها متهمين، ولقد توسعت هذه المحاكم التي قضاتها ومتهمو المحاكمين بها ومنفذو أحكامها رجال دين لتشمل غير النصارى. وأصبح كل من يبغض البابا أو بعض رجال الإكليروس ينسب إليه الإبتداع في الدين فيعرض أمره لمحكمة « الفحص الشريف » أي محاكم التفتيش. وكانت النار معدة في كل وقت لحرق الأبرياء المتهمين بالإبتداع ومصادرة أملاكهم بغضالهم أو طمعا فيها.

وكان من أفزع ما يفعله قضاتها، أنهم يختبرون المتهم بحديد محمى بالنار زاعمين أن من لم يحترق كان بريئا، ومن احترق كان مجرما. فكانوا يطرحونه فوراً في أتون النار<sup>(2)</sup>. ولقد قامت هذه المحاكم الفضيعة بواجبها أحسن قيام، ففي مدة 18 سنة (1481-1499م) حكمت على 10 آلاف و 220 شخصا بالحرق أحياء فأحرقوا. وعلى 6 آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد الشهبير فشهروا وشنقوا، وعلى 97023 شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت.

وكانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة المقدسة أن يحبس المتهم ويسلط عليه أنواع العذاب بالآت التعذيب المتنوعة إلى أن يعترف بما نسب إليه. وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه والتنفيذ<sup>(3)</sup>.

ولقد ركزت هذه المحاكم على طلاب العلم، فتبعتهم أينما حلوا وحيثما وجدوا، في البيوت والسراديب والمغارات والغابات، متمثلة القاعدة الجلييلة « ما جنت لألقى سلاما بل سيفا » . لم يسلم شرها حتى رجال الإكليروس أنفسهم، فكان الرهبان يؤخذون من صوامعهم والقسوس من كنائسهم والأشراف من قصورهم والتجار من بين بضائعهم والصناع من مصانعهم والعامة من بيوتهم

1 - المرجع نفسه، هامش ص 101.

2 - محمد رجب شتيوي، المجامع، ص 383-385.

3 - محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 53، 54.

ومزارعهم، وحينما وجدوا، لتصدر الأحكام وتتخذ عليهم يوم اتهامهم. ونما أصبح الناس شديدي التكتف بسبب ما حل بأثرائهم من بطش وتدمير قرر مجمع « لاتران » المنعقد في سنة 1502م<sup>(1)</sup>، أن يكون من وسائل الإطلاع على أفكار الناس الإعتراف الواجب أدائه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة. أي الإعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها. وعندما يعترف المذنب ليغفر له فإنه كان مما يسأل: عقيدة أقاربه. وفتات لسانه في بيته وما يظهر في أعماله بين أهله فإذا رأى القسيس المعترف أمامه شيئا من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه أو توهم بذلك. رفع أمره إلى محكمة « الفحص الشريف » لتقوم بواجبها المقدس من تعذيب وحرق دون حاجة إلى دليل مادي لأثبات التهمة.

وهكذا استغلت الكنيسة عواطف الناس الدينية لتدمرهم فأوقعت هذه المحاكم الرعب في قلوب النصراني حتى أصبح الإنسان يخاف من خياله ونفسه وأهل بيته وأقرب الناس إليه. لأن السلاسل والأغلال والحرق حيا أسبق إلى عنقه ويده من ورود الفكرة العلمية إليه.

ولقد حكمت هذه المحاكم من سنة 1481م إلى سنة 1808م على 340 ألف نسمة، فمنهم نحو 200 ألف أحرقوا بالنار أحياء<sup>(2)</sup>. ويجب أن نشير هنا إلى أن فرنسا بلد بورغاد هي آخر دولة ألغيت فيها نظام المحاكم في حدود علمنا، حيث ألغيت سنة 1808م. ثم أعيد نظام هذه المحاكم في الفترة من 1814م إلى 1834م<sup>(3)</sup>. وبذلك فإن بورغاد عاصر هذه المحاكم في بلده. ومع ذلك فإنه وأبناء ملته يتشددون بأن النصرانية تدعو إلى العلم والإسلام يحاربه، وهو الدين الذي لم يقتل فيه شخص واحد من أجل أفكاره. ولم يعرف تاريخ الإسلام حتى في أحلك الظروف التي مر بها المسلمون إنشاء مثل هذه المحاكم التي رغم إلغائها في فرنسا إلا أن نظام العمل بها مازال مستمرا إلى الآن في مراقبة المطبوعات الذي أوكل إلى المحاكم العادية، بحيث لا يجوز في فرنسا بلد الثورة الفرنسية إصدار أي مطبوع يبين حقيقة اليهود. ومحكمات الفيلسوف الفرنسي رجاء غارودي خير شاهد.

وهاهي بعض النماذج تبين محاربة الكنيسة للعلم والعلماء عكس الإسلام :

- ظهر القول بكروية الأرض في أول خلافة بني العباس ولم تحرك له شعرة في بدن. وظهر في أوربا، فقامت الكنيسة ولم تقعد.

- اكتشف طريقة الحقن تحت الجلد عند المسلمين في الأسنان ثم نقلتها إلى أوربا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة 1721م فقامت قياصة القسوس لو لا تدخل ملك إنجلترا. وقامت تلك القيامة من جديد عندما إكتشفت طريقة تطعيم الجدري.

1 - ولم ينس هذا المجمع أن يقرر من جديد لعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد واعتبر الدومينيكان أن لعنه ولعن من ينظر في فلسفته عبادة (محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 54).

2 - لمرجع نفسه، ص 54، 55.

3 - محمد دويدر، لمرجع السابق، هامش، ص 101.



- مقاومة الكنيسة عملية تسهيل الولادة: لما اكتشف الأمريكيان طريقة تخدير المرأة عند الولادة تخفيفاً لآلام الوضع قامت أيضاً قيامة القس متذرعين بحجة أن ذلك يخلصها من لعنة العقوبة التي كتبت عليها بسبب الخطيئة الكبرى المتمثلة في غوايتها لأدم وذلك امتثالاً لما جاء في سفر التكوين « وقال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعب حملك بالرجع تليدين » (1) (2).

ونختم حديثنا بالإشارة إلى مقاومة الكنيسة لحرية الاعتقاد. ذلك أن اليابا - المعصوم - نشر منشوراً سنة 1864م أي في حياة بورغاد. ينص على لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية<sup>(3)</sup>. أو جواز أن يفسر أحد شينا من الكتاب المقدس على غير ما ترى الكنيسة أو يعتقد أن المرء حر فيما يعتقد ويدين به. وأصدر منشوراً آخر في سنة 1868م أن المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بأرواحهم وأموالهم. وأن ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم ولم يقتصر هذا الأمر على الكاثوليك. بل طلب المنشور من الأرثوذكس والبروتستانت الخضوع للكنيسة الرومانية أيضاً على هذا الوجه<sup>(4)</sup>. ويكفي الكنيسة الكاثوليكية خزيها أنها هي التي ابتكرت القتل بالخازوق لإرهاب ذوي الأفكار الحرة المستتيرة. وأن ضحايا محاكم التفتيش والإضطهاد الكنسي بلغ 12 مليوناً<sup>(5)</sup>.

وهكذا نجد التناقض بين حقيقة الإسلام وحقيقة النصرانية الكنيمية، إذ بقدر سيطرة الكنيسة كان القمع والجهل وبقدر تحرر الناس منها كانت الحرية والعلم، بينما في الإسلام نجد أنه بقدر تمسك الناس بالدين (القرآن الكريم) كانت الحرية والعلم، وبقدر بعدهم عنه كان القمع والجهل. كل هذا بفضل القرآن الكريم، إذ من أين للعرب ما ذكرناه لولاه. إنه معجزة تحويل أمة من بدو رعاة إلى مالكين للعالم، ومن أميين إلى علماء مؤثرين. كل هذا عكس ما زعمه بورغاد ومنه ننتقل إلى فحص البرهان الذي استدل به وهو تهمة حرق عمرو بن العاص رضي الله عنه لمكتبة الإسكندرية.

### تهمة حرق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية

نشأتها : تعد مكتبة الإسكندرية أشهر المكتبات قديماً، أمر بتأسيسها وتنظيمها على نفقته بطليموس الأول (سوتر) وأكمل عمله خلفه بطليموس الثاني (فيلا دلفوس) أما جامع نواتها (المؤسس المنفذ) فهو ديمتريوس القاليري اليوناني وهو في بلاد اليونان، وكان ذلك حوالي 284 ق م<sup>(6)</sup>.

1 - سفرة التكوين، إ ص ح 3.

2 - محمد عبده، الإسلام والصرافية، ص 57، 58.

3 - أين هي للاتكية إن؟.

4 - محمد عبده، لمرجع نفسه، ص 59.

5 - أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية. ص 327. وقرأ اعتماد على :

- JOHN Davenport: Apology for Muhammad and Quran.

DAV.....

6 - جورج سارتون، تاريخ العلم، ج 4، ص 257، 259.

أما أول أمين للمكتبة فهو زينودوتوس الأفيسي<sup>(1)</sup>، وآخر أمين لها معروف فهو أريستارخوس الساموثراقي وذلك في الفترة 160-145 ق م. وبهذا تنتهي قائمة أمنائها بانتهاء النصف الأول من القرن 2 ق م. ولا توجد أية إشارة في أي مصدر من المصادر إلى أمين لهذه المكتبة بعد هذا التاريخ مما يعني أن العصر الذهبي لهذه المكتبة لم يدم سوى قرن ونصف لأنه ليس من المعقول أن تزدهر مكتبة دون أن يكون لها أمناء معروفون<sup>(2)</sup>.

ويجب أن نشير إلى أنه بفضل كل من ديمتريوس ثم زينودوتوس الأفيسي (أي الفترة 284-260 ق م) نمت المكتبة بسرعة كبيرة فضاقت مبناها الأصلي في منتصف القرن 3 ق م فأنشئ ملحق لها في السارابيون. وكانت غنية جدا بحيث احتوت على كثير من المؤلفات التي لم يعد لها وجود<sup>(3)</sup>.

تدهورها وتدميرها : ولقد تدهورت هذه المكتبة زمن بطليموس 6 و7 و8. وخيم عليها الإهمال مما جعل أمينها الأخير أريستارخوس الساموثراقي يضطر إلى الرحيل إلى قبرص سنة 145 ق م ليتوفى بعد ذلك بسنين معدودة. ومما يدل على تدهور أحوال هذه المكتبة بعد منتصف القرن 2 ق م أنه لا يعرف أي أمين بعد أريستارخوس الساموثراقي. ولما حاصر يوليوس<sup>(4)</sup> قيصر مدينة الإسكندرية سنة 48 ق م أمر بإحراق الأسطول المصري كي لا تستخدم ضده فامتدت السنة النيران إلى أرصفة الميناء لتتحرق<sup>(5)</sup>، جزءا من المكتبة ويبدو أن ما أحرق هو كمية من المؤلفات حملت إلى الميناء لنقلها إلى روما ؛ لأن السارابيون كان بعيدا جدا عن الميناء، وفوق تل ملارتفع<sup>(6)</sup>. ونعتقد أن حرقها في عهد يوليوس قيصر كان عملا لا علاقة له بالأسطول المصري. وذلك لقمع أي فكر حر<sup>(7)</sup>. والذي يؤكد هذا هو ازدياد تدهورها في العهد الروماني مما يجعلنا نعتقد أن الرومان أز الوها، والدليل على صحة هذا أن المؤرخ بوسيسفوس فلافيوس (في النصف الثاني من القرن 1 ق م) كتب عن المكتبة كأنها لم تكن

1 - المقصود بالأمين هنا المدير، وذلك تمييزا له عن مؤسسها ديمتريوس الفاليري، وعاش زينودوتوس الأفيسي (حوالي 325- حوالي 234 ق م) وبدأ عمله أمينا للمكتبة في أول حكم بطليموس فيلادلفوس (285-247 ق م) (جورج سارتون، المرجع نفسه، هامش رقم 23، ص 285).

2 - المرجع نفسه، ص 260، 259.

3 - المرجع نفسه، ص 260، 263. ومن أراد التوسع فليرجع إلى الفصل العاشر من المرجع نفسه.

4 - يوليوس قيصر Caesar (101-44 ق م) يعد من كبار رجال الدولة والقواد في روما والعالم. فتح غالبا 58-51 وعاد إلى روما ففرض حكمه الفرد عليها رغم الحرب الأهلية. عشق كليونباترة ملكة مصر ورزق منها ولدا. أعاد تنظيم الإدارة الرومانية. تأمرت عليه الطبقة الأرستقراطية في مجلس الشيوخ فاغتيل. (المنجد في اللغة والإعلام، ص 445).

5 - ويذكر جورج سارتون أن عملية الحرق هذه مختلف فيها (المرجع نفسه، ص 280، 281) بمعنى هل حرقت قبل تنصر روما لم بعدها لأن مصادر غربية أخرى تبين أن النصراني هم الذين أحرقوها في أوائل القرن كم. وهو ما أكدته بنك المعلومات في حصة تلفزيونية حول حضارة شعب العماليق. تعليق أسماء الجراح وإنتاج المركز العربي للخدمات السمعية البصرية، توزيع لوكالة الدولية للتوزيع بالتعاون مع E.T.B. Near. S.A. إنتاج بسام حجازي وإخراج بكر قباني.

قدمها تلفزيون الجزائر يوم 1997/09/13 في الساعة 12،45 زوالا.

6 - جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 280، 281.

7 - محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 49.

موجودة في زمنه، وذلك لأن القسم الأكبر من البروخيون<sup>(1)</sup>. تلف في عهد الإمبراطور الروماني أورليان (Aurelien) مما يعني بوضوح أن المكتبة الرئيسية تلفت معه وإن ظل السيرابيون قائما<sup>(2)</sup>؛ لأن السيرابيون كان به فقط ملحق للمكتبة.

وما يهمنا هنا أكثر ما بينه جورج سارتون، وهو « أن أعظم أعداء المكتبة لم يكونوا من الرومان الوثنيين، بل من المسيحيين، وازداد تدهور المكتبة بازدياد نفوذ الأساقفة المسيحيين على مدينة الإسكندرية... وفي أواخر القرن 4م كانت الوثنية في طريقها نهائيا إلى الزوال<sup>(3)</sup>، من الإسكندرية حيث كان الموسيون<sup>(4)</sup> والسيرابيون آخر المعامل الوثنية بها، على فرض أنهما كانتا باقيتين وقتذاك. ومن المعروف أن أوائل المسيحيين وتلاميذهم كرهوا المكتبة أشد الكره، لأنها كانت في نظرهم معقل الكفر والخلاعة، ولهذا كانت موضع الهجوم الصامت حتى آل إليها الخراب<sup>(5)</sup>. وكانت المكتبة في السيرابيون، والمعروف أن السيرابيون تهدم نهائيا في زمن الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الكبير، وذلك بأمر البطريك ثيوفيلوس (Theophile) (385-412م) وأصبحت المكتبة في خير كان تقريبا سنة 416م. وذلك نقلا عن المؤرخ أوروسيوس<sup>(6)</sup>، الذي بين أن ثيوفيلوس (تيوفيل) دمرها بعد أن أفتق الإمبراطور بإصدار أمر إمبراطوري بذلك، وقد تم له ما أراد<sup>(7)</sup>. ويؤكد هذا ما ذكرناه في مصدر التلث في النصرانية أن الأسقف ثيوفيلوس هدم سنة 391م سارابيون الإسكندرية لأنه كان به الثالوث المصري. وأن ثيودوسيوس هو الذي أصدر أمر مجمع القسطنطينية عام 381م وهو أول إمبراطور عمد على مذهب التلث. ويزيد هذا تأكيدا أن بولس أروز - تلميذ ماري أوغستان وماري

1 - البروخيون هو الحي الأرستقراطي في مدينة الإسكندرية القديمة، ويمتد من جنوبي الميناء الكبير إلى رأس لوخياس شرقي الميناء، وكان البروخيون يشتمل على القصور الملكية ومصالح الحكومة ودور السادة من المقدونيين واليونانيين، فضلا عن الضريح الملكي والموسيون والمكتبة. (جورج سارتون، المرجع نفسه، هامش 1، ص 283).

2 - المرجع نفسه، ص 281، 282.

3 - وهذا بعد توثن النصرانية.

4 - الموسيون كان هو معهد العلوم ومركز البحوث العلمية. أما المكتبة فكانت مركز الدراسات الإنسانية، وكانت قسما أساسيا من أقسام معهد العلوم، وكان كل من الموسيون والمكتبة في البروخيون (البروكيون) وهو الحي المقدوني اليوناني في الإسكندرية (جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 257).

5 - المرجع نفسه، ص 281، 282. وهذه الشهادة من جورج سارتون لها وزنها.

6 - جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 281، 282.

7 - وجاء بعد ثيوفيلوس (تيوفيل) ابن أخته سيريل، وكان خطيبا مصقعا، وكان بالإسكندرية رياضية تسمى هيباتي تهتم بالعلوم والفلسفة يجتمع إليها كثير من أهل النظر. ومما كانت تتساعل حوله: من أنا؟ وإلى أين أذهب، وماذا يمكنني أن أعلم؟ فلم يطق ذلك (القديس) سيريل. رغم أنها لم تكن نصرانية فأنار النوغاء ضدها فقبضوا عليها وهي سائرة إلى دار ندوتها لجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوا هناك، ثم قطعوا جسمها وجردها اللحم عن العظم، وما بقي منها لقي في النار (محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 49). هذه هي آلهة محبة. وهذا هو موقف النصرانية من العلم والعلماء. والأشيا من معانها لا تستغرب.

جبروم لم يجد أي أثر للمكتبة حين مروره بالإسكندرية سنة 1011م. أي قبل دخول عمرو بن العاصم بلاد مصر بأكثر من قرنين<sup>(1)</sup>.

والخلاصة أن مكتبة الإسكندرية تعرضت للتلف بالحرق عدة مرات، أولها عام 48 ق م. عندما أراد يوليوس قيصر نقلها إلى روما، والثانية عام 272م في حكم الإمبراطور ثورليان. وعام 391م بأمر الراهب ثيوفيل<sup>(2)</sup>، الذي أزالها نهائياً من الوجود وأصبحت في خيبر كان.

وقد علق جورج سارتون على تهمة النصارى لعمرو بن العاصم بحرقها - وهو ما اتهمه به بورغاد أيضاً - تعليقا راتعا فقال: « وكثيرا ما تواترت قصة تزعم بأن الفانحين المسلمين دمروا المكتبة حين فتحوا الإسكندرية سنتي 640 و 645م. غير أن هذه القصة كنها يعوزها التأييد، لأنه لم تكن توجد مؤلفات قليلة أو كثيرة من المكتبة وقتذاك لتدميرها، ثم إن المتعصبين من المسيحيين الأولين ناقشوا هذه المسألة سابقا، وفضلا عن ذلك فإن المؤلفات الوثنية كانت أشد خطرا على المسيحيين لأن كثيرا منهم كانوا أكثر استطاعة لقراءتها من المسلمين »<sup>(3)</sup>.

والنتيجة من كل هذا أن المكتبة الأصلية وهرعها أُلغيت قبل دخول المسلمين الإسكندرية. بأكثر من قرنين، بل حتى قبل وجود الإسلام نفسه وبذلك لا يمكن لسيدنا عمرو بن العاصم رضي الله عنه أن يحرق مكتبة لا وجود لها. ولو كان المسلمون يفكرون في حرق المكتبة فإن المنطق يقتضي قبل التفكير في حرقها أن يدمروا ما وجوده من آثار الفراعنة كالأهرامات والتماثيل وغير ذلك، لأنها تمثل حالة وثنية. ولكن المسلمين لم يفعلوا ذلك وما زالت تلك الآثار إلى الآن شاهدة على صحة ما نقول عكس ما يزعمه بورغاد. وهنا نتساءل: ما هو مصدر هذه التهمة التي اتهم بها بورغاد سيدنا عمرو بن العاصم؟ مصدر تهمة حرق عمرو لمكتبة الإسكندرية: هذه التهمة لم يذكرها أحد من المؤرخين لافي زمن عمرو ولا بعده، لامن النصارى ولا من غيرهم. ولم تظهر إلا في القرن 13م، أي زمن الصراع المرير بيننا وبين النصارى أيام الصليبيين وبعد تقريرهم استخدام الفكر لتحطيم الإسلام بعد اقتناعهم بفشل الحرب في تحطيمه كما بينا أثناء حديثنا عن نشأة التبشير، وقد ظهرت عن كتاب ينسب إلى أبي الفرج بطريق حلب. ولكنه بعد التحقيق بالرجوع إلى كتابي أبي الفرج وهما « تاريخ مختصر الدول » المطبوع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة 1890م المؤلف أصلا باللغة العربية وكتاب آخر له مكتوب بالسريانية، لم يوجد أي أثر لهذه التهمة. مع أن شبلي أفندي النعماني ذكر أن التهمة إنها جاءت في تاريخ مختصر الدول ». وقد قام رفيق بك العظم بالتحقيق في القضية بالرجوع إلى كتاب « تاريخ مختصر الدول » فلم يجد لها أثرا.

وقد ذكر جبون أن التهمة جاءت في ترجمة تاريخه اللاتينية. ونحن لا نعرف هل هذه الترجمة اللاتينية لكتابه السابق بالعربية - وهو لا توجد به التهمة - أم لتاريخه السرياني؟. وقد تحقق من القضية

1 - رفيق بك العظم، كتاب لشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، ط6. دار الرائد العربي، بيروت، 1983، ج 3، ص 599، 600.

2 - لهيرة حلمي مطر، فلسفة عند اليونان، ط2. دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1968م، ص 12.

3 - جورج سارتون، المرجع نفسه، ص 282. وشهادة جورج سارتون لها وزنها العلمي.

رفيق بك العظم أيضا بالرجوع إلى النسخة السريانية وهي مكتوبة بخط الكلداني الذي تصعب قراءته على من لا يعرفه جيدا. فاستعان بأحد أصدقائه الذي كان يعرف اللغة وانحط الكلداني جيدا فقرأ فيه الخبر عل فتح الإسكندرية فلم يجد فيه حكاية حرق عمرو بن العاص نمكتيتها<sup>(1)</sup>.

والنتيجة من كل ما سبق، قضية حرق عمرو نمكتية الإسكندرية إنما هو محض افتراء اختلقه القسوس النصارى. وأن الذي دمرها كما ذكرنا قبلا إنما هم رجال الدين النصارى الذين تضاربت رواياتهم كما ذكرنا قبلا في حرقها وانحصر تحقيقهم في أنه وقع قبل الإسلام لأنه كان كذلك. ولا يمكن لعمرو أن يحرق مكتبة لا وجود لها<sup>(2)</sup>.

وهنا نستطيع القول بأن أصحاب هذه التهمة من مستشرقين ورجال دين وعلى رأسهم بورغاد ارتكبوا عدة جرائم في هذه القضية، هي :

1 - دمروا أعظم مكتبة في العالم القديم كانت تحتوي على كثير من المؤلفات التي ضاعت بسبب ذلك التدمير، فجعلنا ذلك جهل كثيرا مما توصل إليه الأقدمون في مختلف العلوم والفنون والرقي الحضاري.

2 - ارتكاب الجريمة ثم نسبتها إلى أبرياء أول كلمة في أول آية نزلت في كتابهم تقدر العلماء والعلم وتأمربه. وهي كلمة " اقرأ " .

3 - التفتيش من قيمة أولئك الأبرياء بالصادق التهمة بهم ثم تعييرهم بها رغم التأكد من براءتهم.

4 - رجل الدين يجب أن يكون في قمة القيم الأخلاقية حيث يمكن أن نتصور الكذب من العوام ورجال السياسة والعسكريين وغيرهم من مختلف الفئات الإجتماعية، ويبرر ذلك بضعف وازعم الديني أو بعدم تلقيهم تربية دينية خلقية تجعلهم يفتنون الكذب ويترفعون عنه.

أما رجل الدين فلا يمكن أن يعذر في الكذب أبدا ولا سيما من يزعم أنه وهب حياته لخدمة الرب وترفع عن المذات إلى حد العزوبية لقهر النفس والسمو بها إلى عالم الملكوت. وهل يمكن السمو إلى عالم الملكوت بالكذب والبهتان؟! وهذا ما يصدق على بورغاد الذي نعتقد أنه علم علم اليقين أن أبناء ملته هم الذين دمروا تلك المكتبة وجعلوا الإسكندرية منها قاعا صافصفا. وذلك لأن حرق الكتب والمكتبات وتدميرها وتحريق أصحابها إنما هو دينهم وطبعهم. ومن الأمثلة على هذا:

- ما قرره الجامع النصرانية المتعددة من تحريق الكتب والعلماء. ومن هذه المجامع على سبيل المثال: - مجمع نيقية سنة 325م الذي كان من نتائجه: قرار تحريق مكتبة أريوس<sup>(3)</sup>، ومنع الناس من تداولها. والحكم بالحرم والقطع على كل من يقرأ كتابا مخالفا لما قرره المجمع<sup>(4)</sup>.

1 - رافيق بك العظم، المرجع السابق، ص 599، 600.

2 - المرجع نفسه، ص 598-600.

3 - لوارد جييون، اضحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ج1، ص 627.

4 - محمد رجب شاكوي، للمجامع، ص 539.

- مجمع ورمز سنة 1521م الذي عقد ضد لوثر، وكان من قراراته: إحراق مؤلفاته وتحريم قراءتها<sup>(1)</sup>.

- ما فعله التيار أثناء اجتياحهم لبغداد، حيث جعلوا الكتب جسرا عبروا فوقه نهر دجلة، وكان هولاء كما هو معروف متزوجا بنصرانية، وكان قائد جيشه العام نصرانيا.

- ما فعله النصارى بمكتبات الأندلس، ومنها مكتبات غرناطة إذ ما أن احتل أبناء ملّة بورغاد غرناطة سنة 1491/1492م حتى هرعوا إلى مكتباتها فجمعوا ما فيها من كتب لا تعد ولا تحصى كبيرة ونوعية. وألقوها بساحة غرناطة وحرقوها وجماهيرهم تصفق إبتهاجا بهذا العمل الجليل، وكيف لا يكون جليلا وهو يتم بأمر الكنيسة وإشرافها وتنفيذها، بورغاد يعلم هذا ويعلم أن « الكاردينال أكسيمس أحرق في غرناطة 8 آلاف كتاب بخط القلم، فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء أوروبا لذلك العهد »<sup>(2)</sup>.

- ما فعله الأسبان بتراث شعب المايا بأمريكا اللاتينية، حيث حرقوا كل ما وجدوه من كتب هذا الشعب رغم كثرتها أثناء استعمارهم لتلك المناطق<sup>(3)</sup>.

- ما فعلته محاكم التفتيش لإجبار الناس على الكفّة أي العقيدة الخاطئة. فكانت تحكم بالإعدام حرقا على كل من يظن أنه يتوجه أو يحاول التوجه لتفسير شيء في الكون بعيدا عن الكنيسة كما ذكرنا قبلا. ويقدر علماء مقارنة الأديان أن عدد العلماء الذين سلطت عليهم الكنيسة عقابها بالإعدام عن طريق هذه المحاكم بلغ 300 ألف، أحرق منهم 32 ألفا وهم أحياء، ومن بينهم العالم الطبيعي الشهير "غاليليو" و"برونو" مما أنتج ثورة العلماء على الكنيسة في أوروبا<sup>(4)</sup>.

- ما فعله جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر الذي كان بورغاد شاهد عيان عليه. ولكن حقه الصليبي وتطرفه جعله بغض الطرف عن ذلك بل يزينه مما جعل نقده للإسلام والمسلمين لا موضوعيا ولا نزيها، ولا حياديا، فهو لا ينقد بعقلية عالم نزيه هدفه معرفة الحقيقة، بل بعقلية سفاك مدمر، يكذب ويلفق ويؤزف ويזור ويغطي الحقائق، وذلك ليتمكن للإستعمار الظالم المعتدي بتفسير الأملالي من دينهم وتحبيهم في دينه للذي ظهر لنا جليا أنه ليس بدين.

ومما فعله جيش الاحتلال:

- تدمير المخطوطات والكتب التي يجدها في طريقه حرقا وتمزيقا. ولقد بلغ الأمر بالعسكري الفرنسي أنه كان يجد الوثيقة التي لا تقدر بثمن لنفاستها فيشغل بها غليونه<sup>(5)</sup>، ويمسح بها دبره من الغائط لأن دينه لم يعلمه الإستجاء.

1 - لمرجع نفسه، ص 447.

2 - محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص 60.

3 - بنك للمعلومات، حضارة شعب المايا (حصة تلفزيونية. مرجع لسابق).

4 - رموف شبلي، آلهة في الأمواق، ط3. دار الإسلامية للطباعة والنشر، لمنصورة. مصر، 1984، ص 32، 33.

5 - ومن أراد التوسع في هذا المبرجع إلى أبي القاسم سعد الله. الحركة الوطنية، ق1، ج1. ص 81، 82.

- ما فعله الجنرال كلوزيل قائد جيش الإحتلال بعد برموز من تهديم محلات القيصرية كما ذكرنا قبلاً وهي محلات نسخ وبيع الكتب. فدمر بها أكثر من 200 ألف مخطوطاً<sup>(1)</sup>.  
 فهل مع كل هذا وغيره كثير يليق ببورغاد أن يتشذق كذبا وبهتاناً متهما أصحاب الدين الذي يقول كتابه { يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات }<sup>(2)</sup>، بمحاربة العلم والعلماء؟  
 ولكن الذي ينسب لله الولد لا يستغرب منه أن ينسب للمسلمين حرق مكتبة لا وجود لها، لأن أسلافه حرقوها ودمروها قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرنين كاملين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - حمدان خوجة، المرأة، ص 277.

2 - المجادلة/11.

## الفصل التاسع

### الفارقليط أو البارقليط

مصطلح الفارقليط أو البارقليط انفراد بذكره يوحنا، وأورده أربع مرات كاملة في إنجيله أثناء سرده خطبة يسوع خلال عشائه الأخير مع التلاميذ. كما أورده مرة واحدة في رسالته الأولى (1،2) (1)، ومحتوى الرواية التي ورد فيها: تبين المسيح لمستقبل البشرية بعد غيابه مجدداً بشكل نهائي المرشد (الرسول) الذي يجب على البشرية أن تتبعه مرشداً لتلاميذه خاصة والبشرية عامة باتتباع هذا المرشد الجديد.

وقد سمي إنجيل يوحنا هذا المرشد باسم يوناني هو: « Parakletos » ليصبح بالفرنسية « Paraclet » وهما هي الفقرات الجوهرية من تلك الخطبة حسب الترجمة المسكونية :

- «إذا كنتم تحبونني فستعملون على اتباع أوامري. وسأصلي لأب الذي سيعطيكم Paraclet آخر» (2)، وفسرت ( Paraclet ) في إنجيل يوحنا بأنه « الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم » (3). وهو التفسير الذي يأخذ به بورغاد (4).

- « رحيلي فائدة لكم، لأنني إذا لم أرحل فال « Paraclet » لن يأتي إليكم، وعلى العكس، فإذا رحلت فسأبعث به إليكم، وهو بمجيئه سينذهل العالم فيما يخص الخطيئة والعدن والحكم » (5).

- « عندما سيأتي روح الحقيقة فسيجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها، لأنه لن يتكلم بإرادته، وإنما سيقول ما يسمع وسيعرفكم بكل ما سيأتي وسيمجدني... » (6).

1 - موريس بيكاي، القرآن الكريم... ص 126، 127.

2 - إنجيل يوحنا، إص ح 14 فقرات 15، 16. ونص النسخة العربية « لن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي... وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزيا آخر» وفي النص العربي ترجمت (Paraclet) بـ «المعزي» كما يوجد فرق آخر بين الترجمة المسكونية «سأصلي للأب» وبين النسخة العربية نسخة الملك جيمس «لنا أطلب من الأب».

3 - إنجيل يوحنا، إص ح 14. فقرات 26.

4 - فرنسوا بورغاد، مسامرة قرطاجنة، ج2، ص72.

5 - إنجيل يوحنا، إص ح 16 فقرات 7، 8. ونص النسخة العربية: « ... لكنني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذلك بيئت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطيئة فلايتهم لا يؤمنون بي، -هل يقصد اليهود؟ فهو كان يخاطب اليهود ويتكلم عليهم في المستقبل- وأما على بر فلايتي ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً، وأما على دينونة، فلأن رئيس هذا العالم قد تبين » (إص ح 16 فقرات 8-12).

6 - إنجيل يوحنا، إص ح 16 فقرات 13، 14. ونص النسخة العربية: « إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع [الوحي] يتكلم به ويخبركم بأمر آتية [مثلاً للحرب بين فرس والروم] ذلك، بمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم كل ما للأب هو لي، لهذا مكث أنه يأخذ مما لي ويخبركم ». (إنجيل يوحنا، إص ح 16، فقرات 13-16).



مفهوم المصطلح بارقليط وما صدقه :

رجال الإكليروس ومنهم بورغاد يزعمون أن المقصود بـ "Paraclet" هو الروح القدس. وبذلك يجعلونه المرشد النهائي للبشر بعد اختفاء المسيح. وهنا يجب الرجوع إلى النص اليوناني الأصلي للثبوت من لقضية<sup>(1)</sup>.

ذلك أننا لا نعرف اللفظ الذي نكلم به المسيح ولا نعرف ما بنا كانت (Paraclet) ترجمة صحيحة له أم لا<sup>(2)</sup>. ونبدأ من النظر إلى الفعل يسمع. ويتكلم أو يتحدث تذييل وردا في النص الأخير ليوحنا (16/13-16) فنجد أن دالتهما المحددة بتطبيق على كل مخطومات إنجيل يوحنا<sup>(3)</sup>.

فعل يسمع "Entendre" هو فعل "Akouo" باليونانية ومعناه استقبال أصوات، ومنه اشتقت الكلمة الفرنسية "Acoustique" وتعني علم الأصوات.

أما فعل يتكلم أو يتحدث "Parle" فهو فعل "La Leo" باليونانية، ومعناه انعام إصدار أصوات، وخاصة صوت الكلام. ولقد تكرر هذا الفعل كثيرا في النص اليوناني أثناء الإشارة إلى التصريح الجليل للمسيح في أثناء وعظه، وبهذا فإن الإتصال بالناس المقصود هنا لا يكمن مطلقا في إلهام من عمل الروح القدس. بل هو اتصال ذو طباع مادي واضح، وذلك بسبب مفهوم إصدار الصوت، وهو المفهوم المرتبط بالكلمة اليونانية التي حددته.

ولما كان الفعلان اليونانيان "Akouo" و "Laleo" يعنيان فعلين ماديين فإنهما لا يمكن أن يخصا إلا كائنا يتمتع بجهاز للسمع وآخر للكلام. وبهذا فإن تطبيق هذين الفعلين على الروح القدس مستحيل. وبهذا فإن النص السابق الذي ورد فيه الفعلان السابقان يتناقض مع كون Paraclet هو الروح القدس كما ورد في الفقرة 26 من الإصحاح 14 من إنجيل يوحنا، وهي الفقرة الوحيدة التي ورد فيها Paraclet بمعنى الروح القدس. وعندما نحذف "الروح القدس" من تلك الفقرة فإن النص يقدم دلالة شديدة الوضوح ذات طباع مادي على أن المقصود بـ « Paraclet » هو محمد ﷺ. وهو ما بينه نص آخر ليوحنا في رسالته الأولى حيث استخدم كلمة « Paraclet » إشارة إلى المسيح باعتبارها الوسيط عند الله. وعندما يقول المسيح حسب إنجيل يوحنا (16-14) « سأصلي لئله وسيُرسل لكم « Paraclet » آخر ». يعني أنه سيرسل إلى البشر وسيطا آخر كما كان هو وسيطا بين الله والبشر أثناء حياته على الأرض، وهذا يعني ببساطة وبمنتهى المنطق أن الـ « Paraclet » هو كائن بشري مثل المسيح يتمتع بحاستي السمع والكلام. وهما الحاستان اللتان يتضمّنهما نص يوحنا بشكل قاطع. وبهذا فإن النص يفيد أن المسيح

1 - موريس بيكاي، القرآن الكريم و... ص 125، 126.

2 - محمد توفيق صنفسي، بشائر عيسى ومحمد في المهدين العتيق والجديد، مجلة المنار، ط1. مصر القديمة، 1330هـ، ج10، م15. ص 748، 749.

3 - اعتمدنا في هذا على دراسة موريس بيكاي في القرآن الكريم، وهو أشار إلى أن النص اليوناني الذي اعتمده في البحث، هو نص:

صرح أثناء عشائه الأخير - أو بعده - حسب رواية الأناجيل: أن الله سيرسل بعد المسيح كائنًا بشريا آخر على هذه الأرض ليؤدي الرسالة التي عرفها يوحنا، ونفرد باختصار: إنه دور نبي يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته. ذلك هو التفسير المنطقي لنص يوحنا، إذ أعطينا الكلمات معناها الفعلي<sup>(1)</sup>.

وهذا يجعلنا نعتقد أن كلمة "الروح القدس" في النص الموجود حثيا إضيفت إلى النص الأصلي لخمس ما أخبر به المسيح من مجيء نبي آخر بعده لأن وجود هذا النبي يتناقض مع تعاليم الكنيسة التي أرادت أي يكون المسيح آخر المرسلين<sup>(2)</sup>.

ونشير هنا إلى أن « Paraclet » ترجمت في النص العربي للأناجيل كما أوردنا في الهامش بـ "المعزي" ويتضمن معنى "المحاج" أيضا كما قال پوست في قاموسه، وهذا (ينطبق أيضا على محمد ﷺ فهو معز للمؤمنين على عدم إيمان الكافرين وعلى وجود شر في الكون بإعتباره لحكمة يعلمها الله، ومعز أيضا للمصابين والبؤساء وغيرهم بالدار الآخرة، وهو كان يحتاج الكفار والمشركين وأهل الكتاب وهو شهير مجيد عظيم. بل نجد أن « Paraclet » لا ينطبق إلا على محمد ﷺ وحده<sup>(3)</sup>. ذلك أن النصوص السابقة ليوحنا يبين فيها المسيح عليه السلام أنه لا يستطيع أن يحل المشكلات التي يتخبط فيها النصارى ومنها الكتب الأبوكريفية<sup>(4)</sup> من غيرها، والتي تعد من أكبر المشكلات التي يتخبط النصارى بشأنها، والدليل على هذا هو نص الفارقليط ذاته الذي قال فيه يوحنا: « إن لي أمورًا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن. وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه. بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية<sup>(5)</sup>». ولا يصح حمل هذه العبارة على "روح القدس" كما زعم بورغاد، لأن روح القدس هو عين الله حسب زعمهم، ولا معنى حينئذ لقول المسيح « لأنه لا يتكلم من نفسه. بل كل ما يسمع يتكلم به » ولم يأتهم روح القدس بشيء لم يكن في زمن عيسى أو يخفف عنهم بعض ما كان شاقا عليهم، ونجد محمدا ﷺ هو الذي يتكلم بما يسمع من وحي الله « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى »<sup>(6)</sup>. وهو الذي بين للناس الحق من الباطل في أسفار العهدين القديم والجديد. فقال قرآنه: ( فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون )<sup>(7)</sup>. وقال: ( يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد

1/2/3 - موريس بيكاي، المرجع نفسه، ص 129.

4 - ومن الأدلة على هذا، الاختلاف في أسفار الكتاب المقدس بين كل من الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس إلى يومنا هذا، فما هو أبوكريفي عند طائفة مقدس عند غيرها والعكس صحيح كما بينا أثناء حديثنا عن الأناجيل.

5 - إنجيا يوحنا، اصحاح 16، آية 13.

6 - النجم / 4،3.

7 - البقرة / 71.

جاءكم من الله نور وكتاب مبين<sup>(1)</sup>. وشرع للناس شرائع كثيرة ولما علم عيسى أن الكتاب المقدس سيحل محله القرآن الكريم الذي قرب مجيئه وجاء مبشرا به وأن الكتاب المقدس بعينيه ليس يثق إلى الأبد بل سيستعاض عنه بالقرآن الكريم الذي سيبين أمره لم يهتم المسيح كثيرا بتبيين صحيح الكتاب المقدس من فاسده<sup>(2)</sup>.

وبهذا يبطل ادعاء النصارى تفسير "Paraclet" بالروح القدس.

يضاف إلى ما سبق - وهذا في نظرنا من أهم الأدلة على صحة اعتقادنا - أن الروح القدس هو الأكنوم الثالث في الثالوث وهو في اعتقادهم متحد بالأب والابن. وقد كان له وجود قبل كلام المسيح عن "Paraclet" والتعبير يدل على أن "Paraclet" ثان لأول كان قبله، وأنه لم يكن في حياة المسيح. بل إنما يوجد بعد ذهاب المسيح عن أصحابه، وهم يزعمون أن الثلاثة تشكل واحدا منذ الأزل، وبهذا يستحيل أن يكون معنى "Paraclet" هو الروح القدس.

إلى البشرية

ويصبح المعنى الصحيح، أن المسيح بشرٌ يَبْشُرُ بخلق فيما بعد وبعث برسالة إلى البشرية وأنهم

يتحقق هذا إلا في محمد ﷺ لأنه لا نبي بعد المسيح سوى محمد ﷺ.

ويزعم النصارى ومنهم بورغاد<sup>(3)</sup> من جهة أخرى أن Paraclet منحه المسيح لتلاميذه وحل فيهم

فعلا. وهذا يثير مشكلة إضافية للنصرانية تتمثل فيما يأتي :

هل روح القدس الذي يزعمون واحد أو متعدد؟ فإن كان واحدا، ففيم حل من التلاميذ؟

فمن حل فيه كان هو الآخر، وكان غيره مدعيا، وإن كان متعددًا فقد خرجت عقيدتهم من التلايث.

إلى ما هو أضعاف ذلك، وكان يجب أن يقول: فأراقليطات لأفراقليط آخر<sup>(4)</sup>. ثم أيهما أوجد

الآخر؟ هل الروح القدس هو الذي أوجد المسيح أم العكس؟ وهنا كيف يتحول الموجد إلى موجد لموجده

أو المعطى إلى معطي للمعطي؟ هذا يجعل عملية إرسال يسوع للروح القدس ضربا من المستحيل.

يضاف إلى ما سبق: أن النص احتوى على "ليمكث معكم إلى الأبد". ويزعم النصارى أنه

الروح القدس الذي حل في التلاميذ كما ذكرنا قبلا، وأنه يحل في غيرهم من القساوسة<sup>(5)</sup>.

والسؤال المنطقي المطروح هو:

إذا كان الأكنوم الثالث -الروح القدس- مقيما معهم في الكنيسة، ويحل في القساوسة لحمايتهم

من الخطأ وعصمتهم وأنه يوحى إليهم كما زعم بورغاد لمجلس روما، فماذا فعل تجاه خلافت النصارى

1 - المائدة / 15

2 - محمد توفيق صدقي، بشارت عيسى ومحمد في العهدين... ج8، م15. هامش ص 587، 588. أيضا المرجع نفسه، ج 10 م15 ص 748، 749.

3 - فرنسوا بورغاد. معامرة قرطاجنة، ج2 ص 67، 69-67.

4- (الحبر الأعظم) إسرائيل بن شموئيل الأورشليمي، الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية، تقديم وتعليق عبد الوهاب طويلة، ط1. دار القلم، بيروت، 1989. هامش ص 50.

5 - ويزعم رجال التبشير في الجزائر أثناء اضطهادهم للخالفين أنه يوحى إليهم. وهو ما زعمه جيمي سواغات أثناء مناظرته مع أحمد ديدات من أن الله لو المسيح لوحي له بحب ديدات، وهذا كذب وبهتان.

مع بعضهم بعض؟!، وتجاه تعدد أناجيلهم واضطرابها واختلافها الكبير فيما بينها؟ ولماذا أحتجيب عن بعض المجامع فرفضوا بعض الكتب ثم ظهر لمن بعدهم فقبضوا وجعلوها قانونية؟ بل ماذا فعل تجاه خلافتهم في الأكتام واتباقها من بعضها وتميزها عن بعضها، وتعدد إرادة كل أقنوم ومشيئته، وكونها متساوية تماما أو بعضها أرجح من بعض؟ بل ماذا فعل في مشكلة اثباته هو نفسه؟ ماذا فعل تجاه ذلك كله وغيره مما كفر به بعضهم بعضا ولعن بعضهم بعضا إبان المجامع المقدسة وبعدها، بل وحتى قبلها؟! ماذا فعل عندما كان للنصرانية ثلاثة بابوات منصارعين متطاحنين أذهبهم في نيس والآخر في روما والثالث في سويسرا والحروب بينهم مشتعلة وكلهم يفكر بعضهم بعضا وكل حزب بما لديهم فرحون؟!.

ما سبق يجعلنا نجزم بأن المعنى الصحيح للفارقليط أن المسيح بشر برسول من البشر يأتي بعده، معه شرع يؤخذ من كتاب أنزل عليه، ويبقى شرعه وأمره ببقاء الكتاب الذي أنزل عليه صحيحا سليما إلى يوم القيامة<sup>(1)</sup>. ويؤكد ما ذكرناه أنفا ما ورد في إنجيل يوحنا « وقد قلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون »<sup>(2)</sup>. وهذا دليل قاطع على أن "Paraclet" غير الروح القدس الألقوم الثالث كما يزعمون لأنه كان موجودا بينهم آنذاك و متحدًا بالأب وهو أزلني في زعمهم كما ذكرنا، فكيف تصدق عليه عبارة « قبل أن يكون »؟! ويؤكد هذا ما أورده يوحنا « لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط »<sup>(3)</sup>. وهذا يعني بوضوح أن مجيء الفارقليط متوقف على ذهاب المسيح مما يعني استحالة اجتماعها في وقت واحد. بينما الروح القدس حسب زعمهم كان مع المسيح قبل الرسالة وبعدها لأنه القنوم الثالث كما ذكرنا . فاجتماعها معا بديهي، وإلا بطلت الوجدانية النصرانية المتكونة من الثلاثة تساوي واحدا.

يضاف إلى هذا أن الروح القدس حسب زعمهم كان ملازما للتلاميذ منذ آمنوا لأنه ما كثر معهم ويكون فيهم<sup>(4)</sup>، لأنه حل فيهم بحضور المسيح وأصبح هو المتكلم إذ تكلموا لا هم « ... فمتى ساقوكم يسلموكم فلا تعتوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا، بل مهما أعطيتكم في تلك الساعة فبذلك تكلموا، لأن لستم أنتم المتكلمون بل الروح القدس »<sup>(5)</sup>. «ومتى قدموكم إلى المجامع والرؤساء والسلاطين فلا تهتموا كيف أو بما تحتجون أو بما تقولون، لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه»<sup>(6)</sup>.

1 - عبد الوهاب طويلة تعليق على لرسالة السيوطي، هامش ص 51، 50.

2 - إنجيل يوحنا، إ ص ح 14 فقرة 29.

3 - إنجيل يوحنا، إ ص ح 16 فقرة 7.

4 - إنجيل يوحنا، إ ص ح 14 فقرة 17.

5 - إنجيل مرقس، إ ص ح 13 فقرة 11.

6 - إنجيل لوقا، إ ص ح 12 فقرة 11، 12.

وهذا كله يناقض ما دل عليه النص من أن مجيء الـ "Paraclet" مشروط بذهاب المسيح من الأرض<sup>(1)</sup>، وإذن فيستحيل أن يكون الـ "Paraclet" هو الروح القدس. بل محمد ﷺ ويؤكد هذا ما أورده يوحنا في نصه عنه « ومتى جاء الفارقليط... فهو يشهد لي »<sup>(2)</sup>. فوصفه بأنه يشهد له ويصدقه، وهذا لا قيمة له إلا إذا كانت هذه الشهادة يسمعا عامة الناس وهذا لا يتحقق إلا من بشر يتكلم ويسمع ويرى. وهذه صفات ذكرت للفارقليط كما ذكرنا قبلا ويستحيل أن يكون المراد بالكلام شعورا أو حيا يقذف في قلب بعض الناس.

ولم يشهد للمسيح شهادة يسمعا عامة الناس إلا محمد ﷺ، فهو التوحيد الذي بين أمر المسيح على حقيقته، فشهد له بالحق والنبوة، وبرأه مما نسب إليه النصارى من الألوهية مغالاة ومن الصلب كذبا، كما برأ أمه من تهمة الزنا التي ألصقها بها اليهود<sup>(3)</sup>، في حين أن الأناجيل لم تبرئها بل ذكرت ما يؤيدها كما ذكرنا قبلا وأن قومه بسبب ذلك كانوا به يستعرون.

ويذكر عبد الوهاب النجار أنه سأل المستشرق الإيطالي الكبير الدكتور كارلونيونو<sup>(4)</sup> عن معنى "Paraclet" فيقول: « وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة 1311 هـ خرجنا بعد المحاضرة وسرنا... ثم قلت له: ما معنى بارا كليتوس Paracletos؟ فأجابني: القسس يقولون: معناها المعزي، قلت: إني أسأل الدكتور كارلونيونو الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة، وأسأل أسأل قسا، فقال: معناها الذي له حمد كثير، فقلت: هل يوافق ذلك أفضل التفضيل من فعل حمد؟ فقال: نعم، فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد. فقال: يا أخي أنت تحفظ كثيرا، ثم افترقا<sup>(5)</sup>.

وهذا يوافق قول الله عز وجل: (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)<sup>(6)</sup>.

وإذا كانت هذه بشارة الإنجيل بمحمد ﷺ وهي التي أفاض بورغاد في الحديث عنها محاولا طمسها وقلنا بأن لا شعوره بل وشعوره الداخلي أيضا المصدق بصدقها على محمد ﷺ هو الذي دفعه إلى ذلك، لأنه لم يكن له أي مبرر لإثارتها لأن كتابه "مسامرة قرطاجنة" موجه للعامة وهم لا علم لهم بهذا عكس ما لو كان كتابه موجه إلى العلماء، وإذن فإنه كان يحاول إبطال قناعته الذاتية بأن Paraclet هو محمد ﷺ ولكنه رجع خاسئا وهو حسير.

1 - عبد الوهاب طويلة، تعليق على الرسالة السبعية، هامش ص 55-57.

2 - إنجيل يوحنا إص ح 15 آية 26.

3 - عبد الوهاب طويلة، المرجع السابق، هامش ص 56.

4 - وذلك أثناء دراستهما معا بدار العلوم سنة 1894م حيث كانا يجلسان بجانب بعضهما أثناء درس اللغة العربية الذي كان يحضره هذا المستشرق بتوصية من الحكومة الإيطالية فالتقت بينهما لواصل الصداقة المتينة (عبد الوهاب النجار، قصص الأثبياء، ط3، مكتبة النهضة العربية، دم.ن.د.ت.ص 397، 398).

5 - عبد الوهاب النجار، المصدر نفسه. ص 397، 398.

6 - الصف/6.

فإن هناك بشرى أخرى في العهد القديم تجعل القارئين هو محمد ﷺ. فقد ورد في سفر التثنية ما نصه: «أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك، وأجعل كلامي في فهمهم فيكلمهم بكل ما أوصيته به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به [انقران الكريم] باسمي أنا أطايبه»<sup>(1)</sup>.

ورغم محاولة النصارى جعل المقصود بهذا النص هو المسيح مستنلين بكلمتي "وسط إخوانهم" و"مثلك" الواردين فيه على أساس أن كلا من موسى وعيسى يهودي ونبي، إلا أنه يستحيل أن يكون عيسى هو المقصود لأن المعيارين السابقين يصدقان على أي نبي من أهل الكتاب بعد موسى كسليمان مثلا ويحنا المعمدان وغيرهما لأنهما من اليهود "من وسط إخوانهم" وأنبياء "مثلك". ولذلك فلا يقبل أن تطبق تلك النبوة على يسوع فقط وسنبطل دعواهم بما يأتي :

1 - عدم المماثلة بين موسى ويسوع. ووجود المماثلة بين موسى ومحمد : والواقع أن هناك حسب العقيدة النصرانية ثلاثة أمور جوهرية غير متشابهة بين موسى والمسيح تجعل إستحالة أن يكون يسوع هو المقصود في النص السابق، هي :

- يسوع هو الإله المتجسد حسب زعمهم بينما موسى لم يكن إلهًا.
- يسوع مات من أجل خطايا العالم، بينما موسى لم يميت من أجل ذلك.
- ذهب يسوع إلى الحجيم ثلاثة أيام، بينما موسى لم يكلف بالذهاب إليها.
- وإذن فإن يسوع لا يشابه موسى وإذن فإن يسوع ليس هو المقصود في النص السابق.

أما مشابهة محمد ﷺ لموسى عليه السلام فكثيرة، منها :

- كلاهما ولد من أب وأم عكس المسيح الذي لم يولد من أب. وإذن يسوع لا يشابه موسى.
- كلاهما ولد ولادة طبيعية عادية نتيجة اقتران طبيعي شرعي بين الرجل والمرأة. أما المسيح فليس كذلك. وإذن فيسوع لا يشابه موسى مما يجعله ليس مثله. ولكن محمدا ﷺ مثل موسى وهو ما يتطابق تماما مع "مثلك" الواردة في النص السابق. فإذا كان محمد مثل موسى<sup>(2)</sup>.
- كلاهما تزوج وأنجب، بينما يسوع ظل أعزب وإذن فليس مثل موسى. ولكن محمدا مثل موسى.

- كلاهما أقر قومه بنبوته رغم المعاناة الشديدة التي سببت لكليهما من قومهما، فاليهود سببوا لموسى معاناة لا حد لها، ولكنهم كأمة اعترفوا بأنه رسول الله إليهم. وهاجر بهم، وحادثه الخروج من مصر ظلت المعجزة الدائمة التي يذكرهم بها الله بنجاتهم، منها « أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»<sup>(3)</sup>.

1 - تثنية: إص ح 18، فقرة: 18، 19.

2 - أحمد ديدات، ماذا يقول لكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم. دط، دار الهدى عين مليلة الجزئيات، ص 14-17.

3 - الخروج، إص ح 20، فقرة 2، 3.

والمشركون العرب سببوا معاناة محمد ﷺ لا حد لها فظل في جحيم الإضطهاد 11 سنة في مكة ثم اضطر إلى الهجرة مع أصحابه من أحب بلاد الله إلى المدينة المنورة. ولكنه قبل وفاته كانت أمة العرب (قومه) كلها قد آمنت برسالته.

ولكن يسوع بمقتضى الكتاب المقدس لم يكن مثل موسى لأنه « إلى خاصته جاء. وخاصيته لم تقبله»<sup>(1)</sup>، وإلى الآن فإن خاصته وهم اليهود ما زالوا رافضين له. وإذن فيسوع ليس مثل موسى، ولكن محمدا ﷺ مثل موسى.

\* كلاهما كانت رسالته ديناً ودولة. فكلاهما كان يطبق الحدود ويجهز الجيوش ويحكم ويربي الخ. بينما المسيح كان له دين ولكنه لم يَمِمْ دولة مثل موسى ومحمد. وهو ما يؤكد الإنجيل الذي بين أنهم عندما سحبوا المقبوض عليه حيث كان يظن أنه يسوع وقدموه إلى الوالي الروماني بيلاطس النبطي بتهمة التمرد أكد يسوع على موضوع مقنع في دفاعه أفض به التهمة الباطلة ضده « أجاب يسوع :

مملكتي ليست من هذا العالم، ولو كانت مملكتي من هذا العالم لكان خدامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود، ولكن الآن ليست مملكتي من هنا»<sup>(2)</sup>، هذا الدفاع أفض بيلاطس الوثني بعدم خطورة يسوع على نظام الحكم لأن نبوته دين لا دولة. وإذن فيسوع ليس مثل موسى، ولكن محمدا ﷺ مثل موسى<sup>(3)</sup>.

\* كلاهما أتى بشريعة جديدة لشعوبهما، أما المسيح فيصرح قائلاً: « لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد من الناموس حتى يكون الكل»<sup>(4)</sup>. وواقع المسيح في حياته يبين هذا ذلك أنه لم يتمكن اليهود أن يوجهوا له تهمة مخالفة الشريعة وإنما كانوا يوجهون تلك لتلاميذه، فلم يقولوا له مثلاً لماذا لا تصوم أو لماذا لا تعمل يدك قبل الأكل أو قبل تكسير الخبز الخ. وإنما كانوا يوجهون هذه التهم لتلاميذه، والسبب واضح هو أنه حافظ على الشريعة السابقة. وبهذا فإنه لم ينشئ ديناً جديداً ولا أتى بشريعة جديدة، مثل موسى ومحمد، وإذن فإن يسوع ليس مثل موسى، ولكن محمدا ﷺ مثل موسى

\* كلاهما مات موتة طبيعية، بينما المسيح وفقاً للعقيدة النصرانية فقد مات بقتله لله على الصليب، وبهذا فإن يسوع ليس مثل موسى، ولكن محمدا ﷺ مثل موسى<sup>(5)</sup>.

1 - إنجيل يوحنا، إص ح 1. ققرة 10.

2 - إنجيل يوحنا، إص ح 18. ققرة 36.

3 - أحمد ديدات، ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد (ص) ص 21-23.

4 - إنجيل متى، إص 52، ققرة 17، 18. ونحن نرى قوله حتى يكون لكل يقصد به شريعة محمد (ص) لأنه لا يكون لكل إلا بواسطة نبي، وما دام هذا النبي ليس عيسى فإن نبي آخر يأتي بشريعة كاملة متكاملة تشمل الكل (وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه) (المائدة/ 48)

5 - أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص 24-27.

\* كلاهما يرقد في قبره على الأرض. أما يسوع فإنه وفقا لتعقيد، النصرانية يجلس» عن يعين

قوة الله» (1). وبهذا فإن يسوع ليس مثل موسى، ولكن محمداً ﷺ مثل موسى (2).  
هذا ما يتعلق بالبرهنة على تحقيق العبارة، «متك» من النبوة.

2 - النبي المقام من وسط إخوة بني إسرائيل هو محمد (ص) :

وأما الجانب الآخر من تلك النبوة فهو : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم » متك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. فإن القول « من وسط إخوانهم » هو خطاب موجه لموسى وشعبه من اليهود كخبيش وبذلك فإن كلمة من « إخوانهم » تعني العرب يبين ذلك أن جدهم إسماعيل وخذ اليهود إسحاق، وإسماعيل وإسحاق أخوان لأب هو سيدنا إبراهيم عليه السلام وذلك فإبناء أحدهما إخوة لأبناء الآخر، وهو ما يؤكد الكتاب المقدس « وأمام جميع إخوته بسكن » (3). وتؤكد التوراة هذه الحقيقة في ذكرها وفاة إسماعيل « وهذه سنو حياة إسماعيل 137 سنة. وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه وسكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجئ نحو أشور، أما جميع إخوته نزل » (4).

وهكذا فالمراد من «إخوانهم» أبناء العمومة، لقول التوراة « وأوصى الشعب قائلا: أنتم مارون بتخم إخوانكم بني عيسو الساكنين في سعير » (5)، وأيضا: «وأرسل موسى رسلا من قادش إلى ملك أدوم، هكذا يقول أخوك إسرائيل قد عرفت كل المشقة التي أصابتنا » (6) (7).

وبهذا فإنه ليس المراد بني إسرائيل الذين يقام لهم النبي من وسط إخوانهم بعضهم المخصوص لاشتراك جميعهم في الانتساب إلى بني إسرائيل، وإنما المراد: أن جميع بني إسرائيل الموجودين بعد موسى سيبعث الله لهم نبيا من وسط إخوانهم، وهنا تورد ثلاثة احتمالات :

إما أن يكون هذا النبي من قوم يشاركون بني إسرائيل في أبيهم إسرائيل، أو من قوم يشاركونهم في أب آخر فوهم كإبراهيم، أو لأب دون إسرائيل، والأول والثالث باطلان، لأن بني إسرائيل المذكورين في التوراة عام. والعام كلية، ومعنى هذا أن هذا النبي سيبعث إلى كل واحد من بني إسرائيل وهو من وسط إخوة إسرائيل.

فيعين القسم الثاني، وهو أن هذا النبي من إخوة بني إسرائيل، بمعنى أنه من قوم شاركوا بني إسرائيل في الإنتساب إلى أب فوق إسرائيل. ولم نجد بالاستقراء التام انقطاعي نبيا بعثه الله بعد موسى بجميع بني إسرائيل كما بعث لغيرهم من الجن والإنس وهو من قوم يشاركون بني إسرائيل

1 - إنجيل لوقا، إص ح 22، فقرة 69.

2 - أحمد بدات، المرجع نفسه، ص 28.

3 - لتكوين، إص ح 16. فقرة 12.

4 - لتكوين، إص ح 25، فقرة 17، 18.

5 - تثنية، إص ح 2 في فقرة 4.

6 - عدد. إص ح 20، فقرة 14.

7 - أحمد بدات، ماذا يقول الكتاب المقدس محمد (ص)، ص 28-30، وهامش ص 30.



في الانتساب إلى أب لهم فوق إسرائيل غير محمد ﷺ. لأنه من أبناء إسماعيل الذين هم إخوة بني إسرائيل لمشاركتهم لهم في الانتساب إلى أب أكبر هو إبراهيم عليه السلام.

وأما ما بعث إلى اليهود من أنبياء بعد موسى كداود وسليمان فإنهم من جملة بني إسرائيل لا من وسط إخوة جميع بني إسرائيل. فليسوا هم المقصودين إثن نص التوراة.

ومثار المغالطة - اليهود والنصارى - هو توهم عدم العموم في بني إسرائيل المقام لهم النبي لأن هذا النبي سيبعث لجميع بني إسرائيل، وفي جميع الأوقات، وهذا يقتضي أن يكون خاتم النبيين، ولم يتحقق هذا إلا لمحمد ﷺ الذي بعث للإنس والجن لمن هو حاضر ومن سيولد من الأجيال، أي أن بعثته متجددة باستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وحكمة العدول في نص التوراة عن أن يقال: « نبياً من بني عمهم » إلى قوله: « نبياً من وسط إخوتهم »، تسكين حميتهم واستعطافهم لقبول ما جاء به نبينا محمد ﷺ، لأنه حينئذ جعل من أبناء إخوتهم، فمن لازمهم أنهم أعمام له، والعم أب كما قال تعالى: « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله أبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحداً ونحن له مسلمون » (١). فسمى أبناء يعقوب إسماعيل أي ليعقوب مع أنه عم له. وهكذا يصبح معنى

النص التوراتي السابق: أنه يجب على بني إسرائيل اتباع محمد ﷺ وقد بعث لهم، وهو ﷺ في مقام ولدهم. إذ هو من وسط (بني) إخوتهم. وهم أبائهم لأنهم أعمامه، والعم صنو الأب. والإنسان لا يأنف من رياسة ولده ولا يكرهها، ولا يأنف من اتباع ولده واهتدائه به. ولو قال « من بني عمهم » لتحركت أنفسهم واشتعلت عصبيتهم لأن ابن العم يأنف من ترئيس ابن العم عليه واتباعه له. فهذا سر التعبير في نص التوراة ببني الإخوة دون العم (٢).

وبهذا يصبح جلياً أن النبي الآتي الذي هو مثل موسى والذي سيظهره الله ليس من « أبناء بني إسرائيل » ولا من « بين أنفسهم » ولكن « من وسط إخوتهم » فيتعين أن المقصود هو محمد ﷺ وحده لأنه هو وحده الذي من وسط إخوتهم (٣).

3 - النبي المقام يجعل الله كلامه في فمه فيكلمهم بكل ما يوصيه به: وأما الموضوع الآخر من هذه النبوة، فهو « وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به » (٤). إن قوله: « أجعل كلامي في فمه » يعني أنه سيجعل في فمه كلاماً لا معرفة له به قبلاً، وإلا ما قيل:

1 - البقرة / 132.

2 - محمد بن يوسف السنوسي، نقلاً عن محمد بن عمر الملاي، المواهب القديسة في المناقب السنوسية، مخ دار الكتب الوطنية، تونس، رقم 6253، ورقة 47/أب، 48/أ. وقد بين السنوسي ما ذكرناه في مناظرة يهودي تمكن السنوسي من إقحامه، والمناظرة أوردتها تلميذه - الملاي - كاملة. فمن أراد الإطلاع عليها فليرجع إلى المواهب القديسة ورقة 47/أب و 48/أ.

3 - أحمد نيدات، ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد (ص)، ص 30.

4 - تكتبة، إس ح 18،قرة 18.

«أجعل في فمه» كما أنه يقتضى وجود من يجعل نك الكلام في فمه، وهذا يصدق على محمد ﷺ الذي كان جبريل عليه السلام يجعل كلام الله - القرآن الكريم - في فمه وحيا، وبهذا فإن حادثة نزول الوحي ابتداء من غار حراء ومعاناة النبي ﷺ في ذلك تصديق لـ «أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»

وبهذا نستطيع القول: «إن القرآن الكريم هو في الحقيقة إنجاز لنبوة موسى عليه السلام» وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، إنه الرسول النبي الأمي، وضع جبريل الملاك القرآن الكريم في فمه باللفظ والمعنى واستظهره رسول الله كما نزل» (1).

ومن خلال ما سبق يتوصل أحمد ديدات إلى أن معجزة المعجزات هو الفقرة 19 من الإصحاح 18 من سفر التثنية، ذلك أنه يوجد إنجاز للنبوة تطبق بحذافيرها على محمد ﷺ. ولنلاحظ الكلمات «أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه» (2). وعندما نفتح المصحف الشريف نجد جميع سورته باستثناء سورة التوبة تفتتح بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» من الفاتحة إلى الناس، إنها نفس الديباجة «وماذا تطلب النبوة»؟.

«فيكلمهم بكل ما أوصيه به... يتكلم به باسمي. وباسم من كان يتكلم محمد ﷺ؟ والجواب أنه كان يتكلم «بسم الله الرحمن الرحيم» إنها النبوة تطبق حرفيا على محمد رسول الله ﷺ. إن ديباجة كل سورة من القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم، والمسلم يبدأ حياته الشرعية اليومية بالديباجة ذاتها «بسم الله الرحمن الرحيم» ولكن النصارى يبدأون بديباجة أخرى هي «باسم الأب والإبن والروح القدس» وهذه الديباجة هي التي تبجح بها بورغاد معتبرا أنها أفضل من سورة الفاتحة عند المسلمين لأنها أقصر منها. وما يهمنا هنا أن الأب ليس اسم الله عزوجل» (3). وبهذا لا تصدق نبوة موسى إلا على محمد ﷺ وحده.

4 - برهان آخر من العهد القديم يثبت نبوة محمد ﷺ : وهنا نضيف برهانا آخر ورد في العهد القديم يثبت نبوة محمد ﷺ ويبين دلالة القرآن الكريم ( يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ) (4)، هذا البرهان ورد في سفر أشعيا ونصه :

« أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له اقرأ هذا فيقول: لا أعرف الكتابة» (5).

1- أحمد ديدات، المرجع نفسه، ص 31-34.

2 - تثنية، إصحاح 18. فقرة 18، 19.

3 - أحمد ديدات، المرجع السابق، ص 37، 38.

4 - البقرة / 146.

5 - أشعيا، ص 29. فقرة 12.

وهذا لا يصدق إلا على محمد ﷺ وقصة بداية نزول الوحي عليه في غار حراء وأميته ﷺ لا ينكرها أحد» اقرأ، ماأنا بقارئ... » وبهذا تنطبق هذه الدعوة على محمد ﷺ تمام الانطباق، وعليه وحده<sup>(1)</sup>.

والواقع أن النصوص السابقة جعلت اليهود يظنون يترقبون ظهور ذلك النبي الذي مثل موسى إلى عصر المسيح، وبخبرنا العهد الجديد بهذا، حيث بين يوحنا<sup>(2)</sup>، أنه حينما ظهر يوحنا المعمدان أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين<sup>(3)</sup>، ليسألوه: من أنت؟ هل أنت المسيح؟ فاعترف بأنه ليس هو، فسألوه أنت إيليا؟ فأجاب بأنه ليس هو، فسألوه: هل أنت النبي؟ فأجاب لا. فقالوا له من أنت إذن. لنعطي جوابا للذين أرسلونا. فأجابهم « أنا صوت صارخ في البرية... فسألوه مستغربين ومستفسرين « ما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ وما هو نص يوحنا: » وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر: إني لست أنا المسيح، فسألوه إذاً ماذا. إيليا أنت. فقال: لست أنا<sup>(4)</sup>، أنتبي أنت، فأجاب لا. فقالوا له من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا، ماذا تقول عن نفسك، قال: أنا صوت صارخ في البرية. قوموا طريق الرب كما قال إشعيا النبي، وكان المرسلون من القريسيين فسألوه وقالوا له فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي »<sup>(5)</sup>.

1 - أحمد ديدات، المرجع السابق، ص 34-36.

2 - إنجيل يوحنا، إص ح 1، فقرات 19-25.

3 - اللاويون نسبة إلى لاوي بن يعقوب حيث خرج من سبط الكهنة أو اللاويون (المجد في اللغة والأعلام، ص 49).

4 - هذا النص يتناقض تماما مع ما أورده المسيح عن يوحنا المعمدان، ذلك أن يوحنا أجاب هنا بأنه ليس هو إيليا. والمسيح أجاب عن يوحنا المعمدان بأنه هو إيليا. وبهذا فإن يوحنا المعمدان يكذب يسوع ويسوع يكذب يوحنا المعمدان. ولابد أن يكون أحدهما على الأقل كاذبا، وما هو نص يسوع الذي يثبت فيه أن يوحنا المعمدان هو إيليا، وذلك بعد دعائه أنه مسيا اليهود الذين كانت لديهم نبوءة تتنبأ بمجيئ إيليا قبل المسيح وردت في سفر ملاخي « ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيئ يوم الرب اليوم العظيم والمخوف. فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم... » (ملاخي، إصحاح 4 فقرة 5، 6) ونص يسوع الذي أثبت فيه عقيدة اليهود السابقة المتمثلة في مجيئ إيليا أولا ثم يأتي بعده المسيح وأن يوحنا المعمدان هو إيليا «... فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتي أولا ويرد كل شيء. ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضا سوف يتألم منهم. حينئذ فهم للتلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان » (إنجيل متى، إص ح 17 فقرات 9-13). وتشير في هذا السياق أن يسوع شهد ليوحنا المعمدان بأنه أفضل أنبياء بني إسرائيل «فبدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا... لكن ماذا خرجتم لتتظروا... أنبياء، نعم أقول لكم وأفضل من نبي. فإن هذا هو الذي كتب عنه ها لنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهين طريقك قدامك. الحق أقول لكم لم يتم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » (إنجيل متى، إص ح 11 فقرات 7-11) وهذا يطرح مشكلة جديدة تضاف إلى الصعوبات التي تثبت تزييف العهد القديم والجديد، لأنه يستحيل أن يكذب سيدنا يحيى كما يستحيل أن يكذب سيدنا عيسى. كما أنه يضيف مشكلة أخرى في العقيدة النصرانية تتمثل في إثباته أن يوحنا المعمدان أفضل من عيسى لأن عيسى من ضمن المولودين من النساء.

5 - إنجيل حنا، إص ح 1، فقرات 19-25.

هذا النص يبين أن اليهود طرحوا على يوحنا المعمدان ثلاثة أسئلة مختلفة ومتمايزة، فأجاب عنها بإجابة تأكيدية "لا" وهي :

- هل أنت المسيح؟ - هل أنت إيليا؟ - هل أنت النبي؟

وهذا يعني أنه كان في أذهان اليهود قطعاً ثلاث نبوءات منفصلة أثناء استفسارهم من يوحنا المعمدان كانوا ينتظرون تحققها، وهي مرتبة كالآتي :

المسيح ثم إيليا ثم النبي. ويوحنا المعمدان نفى هذه الثلاثة عن نفسه مما جعل سائله يستفسرون منه « فما بالك تعمد » إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي<sup>(1)</sup>.

وهنا نتساءل: ماذا تعني كلمة النبي؟ والجواب أن كتاب المقدس المحمّس أو المحتوي على فهرس للكلمات يبين فيه رجال الإكليروس أن كلمة "النبي" تشير إلى النبوة الواردة في سفر التثنية الواردة على لسان موسى « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثي له تسمعون »<sup>(2)</sup>. والواردة في كلام الله لموسى « قال لي الرب قد أحسنوا في ما تكلموا أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمهم فيكلمهم بكل ما أوصيه به »<sup>(3)</sup>.

وذاك النبي الذي يشابه موسى كما جاء في النص "مثلك" قد تبين بوضوح تام أنه محمد ﷺ فتلك النبوة إذن إنما تتبأ عن محمد ﷺ لا عن يسوع ولا الروح القدس<sup>(4)</sup>.

وبناء على ما سبق، فإن الله عز وجل حذر الذين لا يتبعون هذا النبي، فذيل النص السابق بهذه الخاتمة « ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه »<sup>(5)</sup>. والنتيجة التي نستخلصها من كل ما سبق :

أن محمد ﷺ بشر به في التوراة والإنجيل، ومما ورد من بشرى به في التوراة، النصوص السابقة، ومما ورد من بشرى به في الإنجيل ما ذكرناه عن الـ Paraclet.

وصدق الله إذ يقول: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون )<sup>(6)</sup>. وقد بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون النبي محمدا ﷺ كما يعرفون أبناءهم ( يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون )<sup>(7)</sup>.

1 - أحمد ديدات، المرجع السابق، ص 39-43.

2 - تثنية، أص ح 18، فقرة 15.

3 - تثنية، أص ح 18 فقرات 17، 18.

4 - أحمد ديدات، ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد (ص)، ص 43.

5 - تثنية، أص ح 18، فقرة 19.

6 - الأعراف /157.

7 - البقرة /146.

وقال أيضا: { الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون } (1). وهذه الآيات كان يجعل بها النبي ﷺ أسماخ اليهود في المدينة ولم يتجرأوا أن يكذبوه، وهو الذي كان يتحداهم بقوله { قل فأتوا بتوراة فاتوها إن كنتم صادقين } (2)، ويستحيل أن يفوت اليهود فرصة عظيمة كهذه يحطون بها من شأن محمد وبناتون تزيف نبوته مما يحطمه نهائيا لو لم يكونوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فعلا، وذلك من خلال التوراة التي كانوا يمنكونها انداك (3).

وما يقال عن اليهود يقال كذلك على النصارى. وتعتقد أن يورغاد كان متيقنا من أن Paraclet هو محمد ﷺ وتحليلنا النفسي لما كتبه يبين هذه الحقيقة كما ذكرنا قبلا.

1 - الأنعام / 20.

2 - آل عمران / 93.

3 - ونعتقد أن كثيرا من النصوص التي كانت موجودة في المعهدين القديم والجديد المتعلقة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وختمه للرسالات حذفت، وذلك لأن أسفار المعهدين معا ظلت محل أخذ ورد إلى ما بعد البعثة المحمدية وبكفيينا دلولا على هذا شطب الكنيسة لإتجيل برنابا. ونعتقد أن ما كان بها من بشرى بسيدنا محمد كان سببا في دخول النصارى في دين الله لولجا، لأنهم وجدوا تطابقا بين شخصه صلى الله عليه وسلم وبين ما عندهم من أوصافه إلى حد يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فعلم رجال الإكليروس من خلال المجامع وغيرها إلى طمس ذلك، ورغم هذا فقد بقي بالمعهدين ما كما بينا ما يبين نبوة ورسله محمد صلى الله عليه وسلم.

## الفصل العاشر

### معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم

إذا أردنا أن نلخص كل ما كتبه بورغاد بجملة واحدة، قنا: «إنها تهجوم على القرآن الكريم وعلى صاحبه ﷺ». فمحمد ﷺ حسب زعمه بدون معجزة، وأن القرآن الكريم من تأليفه، ألفه نقلًا عن أهل الكتاب الذين التقى بهم في المتجر في بلاد الشام، وأن القرآن الكريم يتناقض مع أسماء الله الحسنى عند المسلمين أنفسهم. ومثال ذلك "القدوس" يتناقض مع الآيات التي تعين محمدًا - حسب زعمه، على تحقيق هواه و"الكبير" يتناقض مع إدخال الله في قضية النساء ليرتب أمورهم ويساعد محمدًا في تحقيق هواه و"الحكيم" يتناقض مع ما نسب إليه من أنه بعث محمدًا من غير دليل ولا بمعجزة إلى آخر ما ذكره في مختلف مؤلفاته.

ومن هنا فإن إثبات استحالة تأليف محمد ﷺ للقرآن الكريم وإثبات استحالة كونه من عند غير الله يحيطم كل تهجمات بورغاد بكل أنواعها، لأنه عندما نثبت أن القرآن من عند الله يكون ذلك - تلقائيًا - إثباتًا لنبوة محمد ﷺ وإثبات نبوة محمد إثبات: أن كل ما جاء به إنما هو من عند الله عز وجل وعندما يثبت أنه كل ما جاء به من عند الله لا يبقى أي مجال لنقده، ويصبح عدم الإيمان به كفرًا بواحا.

ومن هنا فلا بد للتعرض لمعجزات محمد ﷺ عامة، والمعجزة الكبرى له خاصة لأنها عليها تبنى كل رسالته.

وقبل البدء في الحديث عن معجزات خاتم الأنبياء ﷺ نشير إلى القضايا الآتية :

- الأولى : أنه لم يرد في القرآن الكريم ما يساعد محمدًا على تحقيق هواه، بل ورد فيه ما يعاتبه وسبب هذا في حينه، كما نلاحظ هنا أن بورغاد يريد أن يحجر على الله عز وجل، لأنه إذا كان الله لا يرتب أمور النساء فمن غيره يرتبها؟ ليس من حق امرأة أن يبين لها الله مالها وما عليها أم أنها لا ترقى إلى هذا المستوى؟

والواقع أن ذلك من باب التكريم لهذه المرأة لا من باب الإهانة وإذاً الله لا يتدخل في شؤونها ليرتبها فما ذلك الإدعاء إلا لتبقى لقمة سائغة لرجال الإكليروس للعبث بها، إن رجل الدين الحقيقي هو الذي يتحمس ليدخل الدين، في شؤون الحياة لا ليخرجه منها.

- الثانية : القرآن الكريم الذي يهاجمه بورغاد هو الذي أثبت المعجزات الحقيقية للمسيح، بل هو الذي أثبت وجود المسيح الحقيقي ولولاه لكان المسيح ذاته، لا يزيد عن كونه أسطورة، وهذا وحده دليل كافي على نبوة محمد وكون القرآن من عند الله لأنه يستحيل لمحمد أن يشيد بالمسيح ويبين حقيقته ويرفعه إلى مصاف الأنبياء الكبار وهو من المعارضة الخطيرة في تصور النصراني.

والنصارى هم أحد أعداء الإسلام في الواقع وفي القرآن « وئس ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع منتهم » (1).

ولا يوجد عاقل يقع في هذا لأن طبيعة العداوة تجعل كل واحد من الطرفين يعمل على تحلِيم الآخر، والدليل على هذا بورغادر نفسه. فهو وأبناء منته يعملون بلا هوادة لتحطيم الإسلام في الوقت الذي رفع فيه القرآن الكريم المسيح إلى مصاف الأنبياء العظام. وبهذا كانت مكانة المسيح العظيمة في القرآن دليلاً على أنه من عند الله وعلى نبوة محمد ﷺ.

- الثالثة : تناقض النصرانية ذاتها فيما يتعلق بالمعجزة، فهي من جهة تقوم على خوارق العادات كما بينا في « موقف النصارى من العلم » ومن جهة أخرى فإن المعجزات عند النصارى لا تثبت النبوات أو ما إذا كان الإنسان صادقاً أو كاذباً فيما يدعيه وهو ما ورد على لسان يسوع ذاته « لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يظنوا لو أمكن المختارين أيضاً» (2)، فإذا كان بإمكان الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة صناعة معجزات أو عجائب، فإن هذه المعجزات، أو العجائب لا تثبت صدق نبي أو عدم صدقه.

والدليل على هذا أن يوحنا المعمدان حسب الكتاب المقدس أعظم أنبياء نبي إسرائيل حسب ما روى عن عيسى نفسه، فهو أعظم من موسى وداود وجميع الأنبياء ولم يستثن عيسى نفسه، فقد قال : «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان...» (3).

ولما كان عيسى ولد من امرأة فهو لم يستثن وإن يوحنا المعمدان أعظم من عيسى. وبهذا : فإن يوحنا المعمدان أعظم من جميع أنبياء بني إسرائيل بما في ذلك عيسى مع أنه لم يصنع معجزة واحدة. وإن فالمعجزات ليست مقياساً للتمييز بين الحق والباطل (4).

وهنا نتساءل : إذا كانت المعجزات ليست دليلاً على النبوة الحقة فما هو دليها؟ هل عدم المعجزة؟

وإن فإن كون محمد ﷺ بدون معجزة - لو كان كذلك - لا يطعن في نبوته إن لم يكن ذلك دليلاً على نبوته حسب منطق بورغادر المقلوب. وبهذا ندرك أن موقف بورغادر متهافت . ولكنه من ناحية أخرى، فإن الزعم بأن المعجزة ليست دليلاً على النبوة، فإنه كذلك متهافت لأنه ما الذي يثبت نبوة النبي إن لم تكن المعجزة؟

ومع ما سبق فإن بورغادر يصر في صبيانية على أن عيسى أفضل من محمد، لأن عيسى أتى بمعجزات ومحمد ليست له معجزة واحدة، وعسى ابن الله أو الله عكس محمد الذي أجدها مشركون لأنه أعاد للميت الحياة مما يعني أن إحياء الآخرين للموتى يجعل منهم آلهة أيضاً.

1 - البقرة / 120.

2 - إنجيل متى، إص ح 24، قرة 24.

3 - إنجيل متى، إص ح 11، قرة 11.

4 - أحمد بدات، المسيح في الإسلام، ص 145، 146.

هذه المسألة تحير بورغاد والنصارى الذين حجبوا عقولهم عن معجزات الآخرين الذين تفوقوا على عيسى، في كتابهم المقدس، فمثلاً حسب مقياس بورغاد النصارى ثرائف، أن :

• موسى أعظم من عيسى، لأنه أعاد الحياة لعصامينة وحولها من مملكة ثنات إلى مملكة الحيوان بأن جعل منها حية تمشي على الأرض<sup>(1)</sup>.

• اليشع (يهشوع) أعظم من عيسى، لأنه عظامه النخرة أعادت رجلاً للحياة بمجرد تلامسها مع جثمانه<sup>(2)</sup>.

يرد النصارى على هذا وغيره بأن الله هو الذي عمل تلك المعجزات بواسطة أنبيائه بينما عيسى صنعها بسلطانه الخاص، ولكن عيسى يكذبهم قائلاً: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً»<sup>(3)</sup>. «أنا بروح الله أخرج الشيطان»<sup>(4)</sup>.

وأحسن دليل على ما نقول: هو ما يزعمه النصارى من أن أعظم معجزات عيسى هي معجزة إحياء «طعازر»، الذي كان قد مات منذ أربعة أيام فطلب من عيسى إحياءه. ولكن عيسى بعد أن رفع الحجر نظر تجاه السماء وقال:

«أيها الأب، اشكرك، لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقع ليؤمنوا أنك أرسلتني»<sup>(5)</sup> (6).

والنص لا يحتاج إلى تعليق، ومنه نتقل إلى الحديث عن معجزات محمد ﷺ بقسميها :

المعجزات الحسية و المعجزة الكبرى.

### أولاً : المعجزات الحسية لخاتم الأنبياء (صلى الله عليه وسلم) :

لقد أيد الله نبينا محمداً ﷺ بمعجزات حسية تبتد كثيرا مجموعة معجزات الأنبياء السابقين المعروفين، وهي معجزات لامناص من قبولها، لوصولها إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة المفيدة لليقين<sup>(7)</sup>. وذلك منذ أعلن أنه نبي مرسل من عند الله إلى العالمين بل منذ ولادته، بل وقبيلها، وكانت هذه المعجزات الحسية من جنس معجزات الأنبياء السابقين عليه وقد أيدته الله بهذه المعجزات المادية لإلزام الشهود الحجة وإقناعهم بصديق ما أعلنه من النبوة والرسالة<sup>(8)</sup>.

1 - الخرج، 1 ص ح 2، فقرة 10.

2 - الملوك الثاني، 1 ص ح 13، فقرة 21.

3 - إنجيل يوحنا، 1 ص ح، فقرة 30.

4 - إنجيل متى، 1 ص ح 12، فقرة 28.

5 - إنجيل يوحنا، 1 ص ح 11، فقرة 40، 41.

6 - أحمد ديدات، المسيح في الإسلام، ص 147، 148.

7 - محمد سعيد رمضان البوطي، لغة السيرة، ط 8، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1985، ص 149.

8 - طه الدسوقي، نظرية النبوة في الإسلام، ط 1، دار الهدى، القاهرة، 1981، ص 124.



من هذه المعجزات: أنشقاق القمر، وكلام الجمادات، وشهادة الشجرة والشاب له بالنبوة ونبع الماء من بين أصابعه وحنين الجذع إليه وإشباع الخلق الكثير من انضمام القطن وما كان في ذاته مثل النور الذي كان ينتقل من ظهر إلى بطن إلى ظهر إلى أن جاء ﷺ وحاتم النبوة الذي كان بين كتفيه وتسليم الشجر والحيال عليه. وما حدث لسراقة بن جشم وفرسه وهو يلحق برسول الله ﷺ وخروجه من بيته أثناء الهجرة والكفار محييطون بداره متربصون به ليفشوه وعلمه بعزمرة بني النضير في الغدر به وقصة المشرك الذي أخذ سيف النبي ﷺ وهو نائم يريد قتله في غزوة ذات الرقاع، ويصق النبي في عين علي بن أبي طالب في غزوة خيبر فبرأت في الوقت ذاته وعلمه بأمر الشاة المسومة، وكذا علمه بالكتاب الذي أرسله حاطب بن أبي بلتعة إلى وثنى مكة قبل الفتح (1).

ومنها ما حدث حالة مولده مباشرة مثل: سق إيوان كسرى وخمدت نار فارس وفاضت بحيرة ساوة. كما دمر أبرهة الأشرم وجيشه في عام ميلاد النبي ﷺ. وغير ذلك كثير، ونحن طلبنا للإختصار لن نتعرض من كل هذه المعجزات الحسية وغيرها بالتفصيل الموجز إلا لمعجزة واحدة، هي معجزة الإسراء والمعراج وذلك لأنها محل طعن من بوغداد، وقيل التحدث عنها نسجل بعض الملاحظات حول هذه المعجزات، هي :

\* معجزات النبي محمد ﷺ هي من الكثرة، ولم تختص بمكان دون مكان، لأن من جملتها إنشقاق القمر وهو يعم الأرض... وذلك لأن نبوة محمد عامة لا تختص بقطر دون آخر. وفاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط إيوان كسرى في قطر، وأنهت الكنيسة بالروم، إعلاناً بأنه سيكون أمر عام (2).

\* هذه المعجزات وردت بأسانيد صحيحة وصل أكثرها إلى التواتر الفعلي أو المعنوي، وأضعفها سنداً أصح ليس من معجزات يسوع من خلال العهد الجديد فحسب، بل من العهد الجديد نفسه الذي يفتقر إلى الصحة كما بينا أثناء حديثنا عن الأنجيل، وهذا يكفي في الرد على بورغاد الذي إتهم خاتم الأنبياء ﷺ بأنه نبي بدون معجزة. ونحن نعتقد أن بورغاد كان يعرف على الأقل بعضاً من هذه المعجزات، كما نعتقد أيضاً أنه كان في قرارة نفسه مفتعاً بوقوعها، ومع ذلك فقد هاجم خاتم الأنبياء لحاجة في نفسه هي تشكيك المسلمين في نبيهم ليتمكن من إصطيادهم أو على الأقل تشويش فكرهم ليتمكن للإستعمار الفرنسي في بلاد المسلمين. وإن كنا نحن المسلمين نستغرب: كيف يكون المرء رجل دين ويعتمد الكذب إلا أنه إذا ظهر السبب انتفى العجب، فالذي يكذب على الله

1 - ومن أراد معرفة هذه المعجزات وغيرها بالتفصيل والأدلة فليرجع إلى كتب السيرة النبوية وكتب الصحاح والتامير.

2 - تفسير الفخر الرازي، م 12، ح 25، ص 80، عن محمد الأنور حامد عيسى، قضايا عقيدة، ط 1، شركة الصفا للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة، 1988، ص 122.

وينسب له الولد ليس مستبعدا منه أن يكذب على النبي الحاتم الذي أرسله الله والذي يبين هذا النبي حقيقة بأنه { لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد }<sup>(1)</sup>. وهذا أحد الأسرار التي جعلته يهاجم كفر أن الكريم.

بعد هذا ننتقل إلى الحديث عن معجزة الإسراء والمعراج.

### معجزة الإسراء والمعراج

حادثة الإسراء والمعراج ورد بشأنها حديث الإسراء والمعراج، وهو متفق عليه لا تنكر قطعية ثبوته. وهو بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته <sup>صحيحة</sup> (2). رغم أنف بورغاد الذي أنكر الإسراء والمعراج والغريب أنه استند في هذا الإنكار إلى حديث عائشة الذي سنشير إليه. والحقيقة أن النص القرآني يبين ويتبث أن الإسراء والمعراج قد تم بالفعل بقظة لا مناما ذلك أنه يبدأ بقوله تعالى: { سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله } (3).

والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام. فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شيء وإذن لم يكن مستعظما. ولو كان مجرد منام ما بادر كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم، كما أن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وليس ما يقع في المنام وقد قال تعالى: { أسرى بعبده } كما أن الإسراء لغة هو السير بالليل، وهو لا توصف به الروح، بل يوصف به الإنسان كاملا بروحه وجسده إذا سار ليلا من مكان إلى آخر ولما كان هذا معنى الإسراء. فإن تأكيده بـ «ليلا» له دلالة وأهميته.

وقال تعالى: { وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس } (4). قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم (5). وقال تعالى: { ما زاغ البصر وما طغى } (6). والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضا فإنه <sup>محمل</sup> حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براق لها لمعان، وهذا يكون للبدن لا للروح لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه (7).

1 - الإخلاص / 4،3.

2 - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ص 150.

3 - الإسراء / 1

4 - الإسراء / 60

5 - رواه البخاري.

6 - النجم / 17.

7 - ين كتيد إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص 23.

كما أن النصل منسوب إلى الله عز وجل، فهو يقول: (أسرى بعينه)، أي الفاعل هو الله وليس محمداً، وإنما محمد ﷺ وقع عليه الفعل، فمحمد ﷺ قال: أسرى به لا هو الذي أسرى بنفسه وهنا فإن من الحماسة والبلاهة أن نستغرب ذلك على الله . ومن الأمثلة الموضحة لهذا طو قلت صعدت بابني الرضيع قمة جبل هيمالايا أيقول محنون لي: كيف يصعد ابنك الرضيع قمة جبل هيمالايا؟ لا يقول لي أحد هذا، والذي يقول هذا يكون عقله مختلاً، إنما يقول لي: «كيف صعدت أنت؟» وعندما يكون الله عز وجل هو الذي أسرى بمحمد فإن الحادثة تعد طبيعية بالنسبة إلى الله عز وجل لأنه على كل شيء قدير لا يخضع لقانون البشر ولا الزمان ولا المكان....<sup>(1)</sup>

ومن الأدلة أيضاً على أنه كان بالجسد والروح يفضة لا مناما أن الكفار عندما كذبوا النبي ﷺ في ذلك . أتاهم بدليل مادي قوي ويتمثل ذلك في قوله ميرنا لهم على صدقه في رواية الإسراء «آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأفرهم حس الدابة -البراق- فنذ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام -التوجه بالفعل وبالجسم لا بالروح وحدها مناما- ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان<sup>(2)</sup>، مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب<sup>(3)</sup>، من البيضاء<sup>(4)</sup>، ثنية التتعيم<sup>(5)</sup>، يقدمها جمل أورق<sup>(6)</sup>، عليه تمراتان إحداهما سوداء، والأخرى برقاء<sup>(7)</sup>. قالت -أم هاني- : فابتدر القوم الثنية فلم يلقيهم أول من<sup>(8)</sup>، الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين وهم بككة فقالوا : لصدق والله، لقد أنفنا في الوادي الذي ذكر، ونذ لنا بعير فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه»<sup>(9)</sup>.

1 - محمد متولي الشعراوي، الإسراء، والمعراج، تقديم أحمد فراج، وط، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1981، ص 36,35.

2 - ضجنان (بالتحريك) جبل بناحية تهامة على بريد من مكة، وقال الواقدي ضجنان ومكة 25 ميلا (مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شبلي، السيرة، النبوية لابن هشام، م 1، هامش 5، ص 402).

3 - يصوب : ينزل من يمل (للمرجع نفسه، هامش 1، ص 403).

4 - البيضاء : عقبة بمكة تهبطك إلى فح وأنت مقبل من المدينة تريد مكة، أسفل مكة من قبل ذي طوى (المرجع نفسه، هامش 2 ص 403).

5 - لتتعيم : موضع بمكة في الجبل، وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة (المرجع نفسه، هامش 3 ص 403).

6 - الأورق : الذي لونه بين الخيرة والسوداء (المرجع نفسه، هامش 4، ص 403).

7 - البرقاء : التي فيها ألوان مختلفة، (المرجع نفسه، هامش 5، ص 403).

8 - يريد أن الجمل كان أول من لقيهم (المرجع نفسه، هامش 6، ص 403).

9 - ابن هشام السيرة للنبوية، م 1 . ص 402-403.

يضاف إلى ما سبق فإنه لأهمية الحدث، فقد سميت به سورة كاملة في القرآن الكريم من طوال المفصل تحتوي على أكثر من حزب و ثمن. فلو كانت حادثة الإسراء والمعراج مجرد رؤيا في المنام ما احتاجت إلى أن تخلد بأن تسمى بها سورة كاملة من طوال المفصل.

وبهذا فإنه لا يمكن -في اعتقادنا- الإعتداد برواية عائشة رضي الله عنها التي تذكر فيها أن الإسراء تم بالروح فقط وهو ما استند إليه بورغاد، وذلك لأنها خلاف ما بينه القرآن الكريم كما بينا آنفاً، كما أن تلك الرواية تنقصها الدقة المتطلبية في معرفة الرواة، وما هي الرواية « قال ابن إسحاق : وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن أسرى بروحه » (1).

فيجب أن يحدد هذا البعض، ويزيدنا اقتناعاً بما سبق ذكره أن عائشة رضي الله عنها روت حادثة الإسراء إلى المسجد الأقصى باتفعل وبيئت في حديثها إرتداد بعض ضعاف الإيمان بسبب ذلك، وتصديق أبي بكر رضي الله عنه للحادثة إلى آخر الحديث وهذا الحديث رواه البيهقي بسند يصل إلى الزهري عن عروة عن عائشة (2).

ولا يمكن لعائشة أن تروي روايتين متناقضتين، ولما كانت هذه الثانية هي المتوافقة مع نصوص القرآن الكريم فإنه يجب الأخذ بها.

وهنا نتوصل إلى التساؤل عن الأسباب التي جعلت بورغاد يطعن في حادثة الإسراء والمعراج. فمن أهم تلك الأسباب :

أنه ورد فيها أن الرسول ﷺ أم الأنبياء في بيت المقدس بعد رجوعه إليه من المعراج، لأنه ﷺ لما مر بهم في منازلهم في السماء جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا وهو يخبره بهم، وهو ما علق عليه ابن كثير قائلا: « وهذا هو اللائق، لأنه كان أولا مطنوبا إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ومنهم المسيح عليه السلام - ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك » (3).

1 - المصدر نفسه، م 1 ، ص 399.

2 - ابن كثير إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص 21.

3 - المصدر نفسه، ج 3، ص 23.

وهذا هو - في نظرنا - أحد أسرار حقد بورعاد وتكتمه لهذه الحادثة لأنها تبين نغية المسيح

لمحمد عليهما السلام، وتفضيل<sup>(1)</sup> محمد ﷺ على المسيح وعلى سائر الأنبياء وبورعاد يعمل بسلا  
هوادة على طمس دين محمد ليثبت أن نصرانية بولس وقسطنطين هي الدين الخاتم . وهذا يتوصل إلى  
السبب الآخر الذي جعل بورعاد يكن كل ذلك الحقد على خاتم الأنبياء هي أن:

إمامة خاتم الأنبياء للأنبياء في بيت المقدس، إنما هي إقرار مبين بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى  
تمامها  
خلقه أخذت كما لها على يد محمد ﷺ (2).

1 - الواقع أن تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ورد في أحاديث صحيحة منها «أعطيت خمسا لم  
يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أمة عامة وأسود. وأحلت لي الفئام ولم تحل لأحد  
قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا. فليما رجل أركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين  
يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة». رواه الشيخان: وقوله (ص): «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» رواه أحمد  
في مسنده والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد وهو حسن. ومعنى الحديث: أنا لا أقول ذلك فخرا بنفسي، بل تحدثنا  
بنعمة ربي (رشدي محمد عليان، قحطان عبد الرحمن الدوري، أصول الدين الإسلامي ط 4 وزارة التعليم العالي  
والبحث العلمي، جامعة بغداد. 1990م، ص 380، 381).

والقرآن الكريم فضله على سائر الأنبياء، ومن ذلك:

- الخطاب: فحين يخاطب الله جميع الرسل بما يخاطبهم بأسمانهم مباشرة، فيقول « يا آدم هذا عدو لك ولزوجك... »  
(طه/117).

ويقول: « يا نوح اهبط بسلام منا » (هود/48) . ويقول: (يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من  
دون الله... ) (المائدة / 116).

ولكنه حينما يتوجه بالخطاب إلى حبيبه الأعظم محمد (ص) لم يقل له يا محمد. ولا بأحمد. وإنما قدم بين يدي تدانته  
قوله: ( يا أيها النبي).

ذلك أمر يضع رسول الله (ص) في رفعة إلى أقرب المكانات من ربه.

- القسم : حين يقسم الله عز وجل على أشياء ليؤكد ما فإنه يقسم بأشياء كثيرة من أجناس شتى، فيقسم بالجماد، وبالنباتات  
وبالحيوان وبالملائكة. ولكنه لم يقسم ببشر مطلقا إلا برسوله محمد (ص) حيث يقول: «بمرك إنهم لفي سكرتهم  
بعمهون» (الحجر / 72). أي وحياتك يا محمد.

وبهذا فإن عمر رسول الله وحياته أمر له مقامه عند الله (محمد متولي الشعراوي، معجزات الرسول (ص) إعداد  
وتقديم أحمد فراح، نط، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1981، ص 74، 75).

- جعل أمته أفضل الأمم ( كنتم خير أمة أخرجت للناس... وتؤمنون بالله ) (آل عمران/110)، وذلك تابع لأفضل نبيها  
(رشدي محمد عليان و قحطان عبد الرحمن الدوري. المرجع السابق، ص 381).

- الصلاة: الله عم الأنبياء بالسلام ومنهم محمد (ص) وخص دونهم بالصلاة. فقال تعالى عن يحيى (وسلام عليه يوم  
ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) (مريم/14). وقال عن عيسى -وهو بيت القصيد- (والسلام على يوم ولدت ويوم  
أموت ويوم أبعث حيا) (مريم/32) . وقال عن محمد بن الله وملائكته يصلون على النبي: يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه  
وسلموا تسليما ( الأحزاب/56) فهو الوحيد الذي خص بالصلاة من الله والملائكة والمؤمنين إلخ.

2 - محمد الغزالي، فقه السيرة، نط، دار لشهاب للطباعة والنشر بآتة، الجزائر، نط، ص 138.

وأن إسرائه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس بعد بعثته إذ حال ست المقدس في مقدسات دينه الجديد. وهذه العملية توضح وتبين أن دينه مهيم على كل البقع وكل مقدسات البقع ولا سيما أننا اتجهنا إليه أولاً. وبذلك فلا يستطيع أحد أن يقول: أنتم لكم دينكم ونحن لنا ديننا. صحيح أن ديننا جاء في مكة، لكنه مهيم على سائر الكتب، ورسولنا مهيم على مقدساتهم، وهذه المقدسات داخلة أيضاً في مقدساتنا. وبالإسراء والمعراج إذن أصبح بيت المقدس في مقدساتنا لأنه صار منتهى مسرى النبي وبداية معراجه ﷺ<sup>(1)</sup>. وهذا هو السر الذي يوجب علينا نحن المسلمين تحرير كل فلسطين من اليهود المستعمرين وجعلهم يولون الأدبار خاسنين حاسرين، وهو السر نفسه الذي جعل رحلت التبشير في الجزائر اليوم يعملون بلا هوادة ليرسخوا في أذهان المتحذرين من التحررانيين أن فلسطين أرض اليهود التاريخية ولذلك فلا يجوز إخراجهم منها.

ويضاف إلى السببين السابقين أنه مما ورد في حديث الإسراء والمعراج برواية البخاري أن النبي ﷺ صعد حتى السماء الثانية فاستفتح فوجد فيها يحيى وعيسى عليهما السلام فسلم عليهما فردا السلام ورحبا به ﷺ، ثم صعد به إلى السموات التي فوقهما. وبورغاد لا يعجبه أن يسمع محمداً ﷺ أن علا فوق المسيح ووصل إلى ما لم يصل إليه المسيح عليه السلام، وإذا عبرنا بتعبير النصارى قلنا: بورغاد لا يعجبه أن يسمع أن محمداً صعد فوق رب بورغاد يسوع.

والخلاصة مما سبق، أن الإسراء والمعراج وقعا بالفعل، روحاً وجسداً، وقد أشار القرآن الكريم إلى كلتا الرحلتين في سورتين مختلفتين:

• ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله: { سبحان الذي أسرى بعبء ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير }<sup>(2)</sup>.

• فتعليل الإسراء كما نصت عليه الآية أن الله يريد أن يري عبده محمداً ﷺ بعض آياته<sup>(3)</sup>.

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله: «...ولقد رآه -يعني جبريل- نزلة أخرى عند سدرة المنتهى... لقد رأى من آيات ربه الكبرى»<sup>(4)</sup>. فأوضحت آيات المعراج أن الرسول ﷺ شهد -بالفعل- بعض هذه الآيات الكبرى<sup>(5)</sup>.

1 - محمد متولي الشعراوي، الإسراء والمعراج، ص 45-46.

2 - الإسراء / 1.

3 - ومن أراد معرفة ما رأى من آيات في الإسراء والمعراج فليرجع إلى تفسير ابن كثير، ج3، ص 2-24، فقد أورد لروايات كثيرة لحديث الإسراء والمعراج، وكذا سيرة ابن هشام، م1، ص403. وفقه السيرة للبرطوي، ص150... والإسراء والمعراج لمحمد متولي الشعراوي وفقه السيرة لمحمد الغزالي وغير ذلك من كتب السيرة النبوية وكذا كتب الصحاح.

4 - النجم / 18.

5 - محمد الغزالي، فقه السيرة، ص134، 135.

وتذييل آية الإسراء بقوله تعالى: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (1)، فإنه يبين العلة الحقيقية التي جعلت الله عز وجل يسري برسوله ﷺ فقد سمع الله الإيذاء الذي أودى به رسوله ﷺ وقد رأى الله ما تعرض له محمد ﷺ من الجفاء والإستهزاء والسحرية والإهانة، كل ذلك بمرأى ومسمع من الله، فحين رأى الله ذلك وسمع أرك أن يرى حبيبه محمداً ﷺ الآيات، فأسرى به (2).

وهكذا فإن حادثة الإسراء والمعراج وردت بنص القرآن الكريم وتواترت الأحاديث الصحيحة التي رواها مختلف الرواة من البخاري ومسلم وغيرهما بطرق مختلفة بلغت من الصحة درجة التقطع، وهي بإجماع جماهير المسلمين من أبرز معجزاته ﷺ (3).

ونختم حديثاً عن هذه المعجزة بالقول: «إن -بورغاد- ينكر ذهاب النبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلاً وصعوده إلى السماء وعودته إلى مكة في ليلة واحدة، ولكن -بورغاد- يؤمن بما هو أعجب من هذا، وهو إيمانه بأن المسيح صلب وقتل ودفن ثم قام من الأموات وصعد إلى السماء وجلس على يمين الله» (4). وهذا رغم تناقض الأنجيل وتهافتها في هذه القضية وغيرها.

ونختم حديثاً عن المعجزات الحسية للنبي ﷺ بالقول بأنه رغم كثرة المعجزات الحسية للنبي ﷺ إلا أن معجزته الأساسية هي القرآن الكريم. وبذلك نستطيع القول أن معجزات السابقين قصد بها فخر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة، فهي تدعيم لهم أمام اتهام الخصوم لهم بالادعاء، وسيرة محمد ﷺ فوق هذا المستوى، فقد تكفل القرآن الكريم بإقناع أولى النهي من أول يوم، وجاءت الخوارق في طريق الرسول ﷺ نوعاً من التكريم لشخصه وإيناسه لا معكزة ولا معطلة للمنهج العقلي العادي الذي اشتدعه القرآن الكريم (5).

ونستطيع القول أيضاً:

إن رسول الله ﷺ أعطاه الله المعجزات الكونية التي أعطاها للرسل السابقين، ثم ميزه بمعجزة أخرى باقية وبذلك فإن إجراء المعجزات الكونية على يده ﷺ هو تسوية له بإخوانه من الرسل، وكانت تمييزاً ليقين الصحابة آنذاك. ومجئ المعجزة الباقية إنما هو زيادة لمكانته ومقامه على الرسل (6). هذه المعجزة لم تكن مادة تفرع، ولا أمراً حسياً ترى العيون إعجازه رأي العيان، بل كانت

1 - الإسراء / 1.

2 - محمد متولي لشعراوي، الإسراء والمعراج، تقديم أحمد فراج، ص 34.

3 - محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ص 150.

4 - عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، ط 3. مكتبة النهضة العربية، دم ن - نت، هامش ص 398.

5 - محمد لقزالي، فقه السيرة، ص 140.

6 - محمد متولي لشعراوي، معجزات الرسول (ص)، ص 92، 93.

أمرا معنويا تتأمله العقول والأفهام، وتتعرفه المدارك السموية في كل الأزمان، ولم يفقد حجته، ولم يزل إعجازه كراغدة ومرالعشي<sup>(1)</sup>. وهذا ينقلنا إلى الحديث عن المعجزة الكبرى لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم.

### ثانيا : المعجزة الكبرى : القرآن الكريم

نبدأ الحديث عن المعجزة الكبرى بالسؤال الآتي :

لماذا كانت معجزة محمد الكبرى أمرا معنويا ومعجزات السابقين أمرا حسيا؟ أو لماذا كانت معجزته الكبرى كلاما متلو ومعجزات غيره وقائع مادية؟  
والجواب مشتق من رسالته، فلما كانت رسالته أبدية، وعامة للتقلين في مختلف البيئات والأصقاع والأجناس والألوان والثقافات والإيديولوجيات لزم استمرار إعجازها وتجده الأبدى وإلا كانت كمعجزات السابقين قد ينهر بها من يعاينها ثم لا تلبث أن تنسى فلا تكون حجة الله القائمة مع استمرار الأجيال والأزمان.

- القرآن الكريم معجزة تتناسب العصر الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم وما يأتي بعده إلى الأبد، وبذلك فهو من جهة يقع في سياق معجزات السابقين لأن كل نبي بعث بمعجزة أو معجزات تعجز عقول معاصريه عن الإتيان بعثها مناسبة لعصرها، فمعجزة موسى عليه السلام كانت في بلد أتقن السحر فجاءت من جنسه<sup>(2)</sup>. ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم كانت في عصر أتقن أهله البلاغة والبيان فكانت معجزة لهم من هذا الجانب.

- ولكن معجزة محمد الكبرى تزيد على هذا، بأن جعل الله عز وجل القرآن الكريم مكان تجدد النبوة عند السابقين، حيث أن الله كان يبعث بين الفينة والأخرى للناس رسلا يجددون لهم دينهم ويخرجونهم من غيهم، ولكن الله عز وجل لما ختم الرسالات بمحمد صلى الله عليه وسلم أوكل هذه المهمة إلى القرآن الكريم بأن جعله معجزة مستمرة متجددة إلى قيام الساعة. وكلما تطور العقل الإنساني وتقدمت العلوم إلا واكتشف في القرآن الكريم ما يعجزه ويثبت له نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وختمه للرسالات.

ولما كانت معجزات السابقين المطلوب منها إعجاز معاصري نبيهم وكانت معجزة خاتم الأنبياء المطلوب منها إعجاز معاصري خاتم الأنبياء وكذا كل النقلين إلى الأبد كانت كما يقول ابن خلدون : «فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقها، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتر إلى دليل

1 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن من دلائل إعجازه، ص 7.

2 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن من دلائل إعجازه، ص 6-8.



مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الشليل والمعنول فيه، وهذا معني قوله ﷺ (1) « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما أمته آمن عنه بشره، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (2). ويمكن أن نوضح هذا بقول بأن كتاب موسى (الوحي) هو التوراة ومعجزاته العصا واليد البيضاء... وفلق البحر، وكتاب عيسى (الوحي) هو الإنجيل، ومعجزاته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله... وبهذا فإن الوحي شئ والمعجزة شئ آخر، بل نجد الوحي ذاته في حاجة إلى المعجزة لتؤمن الناس به فهو ليس معجزة في حد ذاته. فلكي يقنع موسى الناس بأن التوراة من عند الله استخدم العصا واليد البيضاء الخ. ولكي يقنع عيسى اليهود بأن الإنجيل من عند الله استخدم إبراء الأكمه والأبرص الخ.

أما محمد ﷺ فإن الوحي هو المعجزة والمعجزة هي الوحي، وهو ما يجعل المعجزة الكبرى أكثر وضوحا وقوة دلالة.

وهو ما جعلنا نفهم من الحديث النبوي السابق «أن المعجزة، كما يقول ابن خلدون، متى كانت بهذه العتابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر، نوضحها فكثير المصدق والمؤمن، وهو التابع والأمة» (3).

ولما كانت رسالة محمد ﷺ إلى الناس كافة وإلى الأبد، فلا بد من تجدد إعجازها لمعجز كل عصر ومصر وجميع الأقطار والأجناس. وهو ما نلاحظه في القرآن الكريم (4). فإنه كما يمتد إعجازه في المستقبل اللانهائي فإنه يمتد كذلك في الماضي اللانهائي، إذ لولا القرآن الكريم لكتنا نعتبر ما يقال عن معجزات السابقين بما في ذلك معجزات عيسى بن مريم. بل النبوة ذاتها والأنبياء مجرد أساطير وخرافات، وذلك لأن القرآن الكريم هو المصدر العلمي الوحيد الذي يثبت لنا تلك المعجزات والرسالات على نحو لا يتطرق إليه الشك أبدا.

وأما ما يتعلق بالحاضر والمستقبل اللانهائي فإن القرآن الكريم جاء معجزا من وجوه مختلفة بعضها خاص بالعرب الذين يعرفون لغته ويتذوقون بلاغته، وما كان حجة عليهم كان حجة على غيرهم. وبعضها الآخر عام يدركه العقلاء.

فأما «ما يخص الوب فهو بديع نظمه وعجيب تأليفه وسموه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز الخلق عن الإتيان بمثله وإعجاز القرآن من هذا الوجه حجة على العرب. لأنهم هم الذين يدركون هذا المعنى فيه» (5).

1 - ابن خلدون عبد الرحمن، لمقدمة، ص 76.

2 - رواه مسلم والنسائي، ورواه البخاري بلفظ مقارب جدا.

3 - ابن خلدون عبد الرحمن، لمقدمة، ص 76.

4 - طه لنسوقي، نظرية النبوة في الإسلام، ص 131، 132.

5 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روافع القرآن، طد مكتبة الفارابي، دمشق، 1977، ص 152، 153.

والعرب حجة على انبثورية جمعاء لأنها إذا رأت أرباب لغة القرآن قد عجزوا عن الإتيان بمثله كان إعجازه لما سواهم بدهاءة فيتركون أنه معجز وأنه ليس مما يفدر عليه البشر، وجعلنا لهذا عنوانا هو: التحدي أو دليل الإعجاز النبوي . وأما ما يدركه من وجود إعجازه الناس كلهم، فهو :

.....

- مظهر جلال الربوبية، وهذا المبحث يعد مظهرا من مظاهر الإعجاز الشفوي.

- الإعجاز بالغيبيات وتعرض فيه إلى :

I - تحقق النبوءات في الأناجيل وفي القرآن الكريم.

II - الإعجاز العلمي في القرآن الكريم عكس الكتاب المقدس.

III - الإعجاز القصصي.

(1)

- الإعجاز بالتشريع أو الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم .

.....

### التحدي أو دليل الإعجاز البياني :

مما يميز القرآن الكريم تحديه الصريح للناس كافة، بل والجن أيضا منذ 14 قرنا، ولم يستطع أحد من العاقرة أن يرد التحدي إلى الآن، لقد أعلن القرآن الكريم تحديه *«إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»* (2).

« إنه أغرب تحد في التاريخ وأكثره إثارة للدهشة، فلم يجز أحد من الكتاب في التاريخ الإنساني - وهو بكامل عقله ووعيه - أن يقدم تحديا مماثلا، فإن مؤلفا ما لا يمكن أن يضع كتابا يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله أو خيرا منه، فمن الممكن إصدار مثل من أي عمل إنساني في أي مجال، ولكن حين يدعي أن هناك كلاما ليس في إمكان البشر الإتيان بمثله ثم تخفق البشرية على مدى التاريخ في مواجهة هذا التحدي، حينئذ يثبت تلقائيا أنه كلام غير إنساني، وأنها كلمات صدرت عن صميم المنبع الإلهي، وكل ما يخرج من المنبع الإلهي لا يمكن مواجهة تحدياته» (3).

ولو تساملنا: من أين ثبت أن القرآن معجز؟ وما الدليل الملموس على إعجازه للبشر أن يأتوا بمثله؟ فإن الجواب :

أن العرب لما سألوا محمدا ﷺ أن يأتيهم بآية - معجزة - تدل على صدق رسالته أخبرهم الله عزوجل أن هذا القرآن هو أعظم آية ودليل على ما يريدون :

1 - المرجع نفسه، ص 153، 187.

2 - البقرة / 23.

3 - وهدي الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 123، 124.

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. لو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب ينشئ عليهم إن في تلك لرحمة وذكرى لعوم يؤمنون: (1) (2)»

ولكن الكافرين ظلوا في عنادهم وحمولهم وأنكروا أن يكون في شيء من أي القرآن ما يدل على صدق محمد ودعوته وأعرضوا عنه فأتيت: « قد سمعنا لو نشاء لفتنا مثل هذا إن هذا إلا الأساطير الأولين » (3).

وحينئذ تحداهم الله عز وجل أن يأتوا بسورة من مثله، وأفرغ هذا التحدي في قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب وأنهضهم إلى ذلك بالتفريع والتحميس ومختلف أشكال التحدي. فقال لهم مرة في سياق التأييد والتفريع: (أم يقولون نقولنا بل لا يؤمنون، فيأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) (4).

ولما عجزوا قال لهم مرة أخرى: (أم يقولون افتراء، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) (5).

« فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلا على أنه منه، ودليلا على وحدانيته » (6).

وإذن لما فشلوا في الإتيان بمثل القرآن الكريم خفف عليهم في التحدي فتحداهم أن يأتوا فقط بعشر سور مثله - ومفتريات - وليدعو من يشاؤون لمساعدتهم ولكنهم لا يستطيعون.

فإذن إعجاز القرآن دليل على وجود الله ووحدانيته. وعلى أنه هو الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ. ولما عجزوا : قال لهم :

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) (7) (8).

وفي هذه الآية أخير الله أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله آنذاك وأنهم أيضا عاجزون في المستقبل ليس عن الإتيان بمثله فحسب، بل حتى عن الإتيان بسورة واحدة من مثله. وبهذا أثبتت هذه الآية تحديين أحدهما العجز عن الإتيان حتى ولو بسورة واحدة من مثله، والثاني الجزم باستمرار عجزهم في المستقبل الأبدى عن الإتيان حتى بسورة واحدة من مثله، بل بين أنه لو اجتمعت الإنس والجن معا وتعاونوا ونسقوا لعجزوا أيضا :

1 - العنكبوت / 50-51.

2 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 161.

3 - الأنفال / 31.

4 - الطور / 33، 34.

5 - هود / 13، 14.

6 - أبو بكر الباكستاني، إعجاز القرآن، ج 1، ص 28.

7 - البقرة / 23، 24.

8 - أبو بكر الباكستاني، المرجع نفسه، ص 29. أيضا محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 161، 162.

أقل ثمن اجتمعت الإنس والجن على أن يكونوا يمثل هذا القرآن لا يكون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (1).

وبهذا بين القرآن الكريم أن تحديه وبعثه ليس لتعرب وخدمهم، بل للعالمين إنسهم وجنهم، كما أنه رسالة عالمية: إيتارك الذي نزل ليعرف على عبده ليكون للعالمين نذيراً (2). وهكذا ظل القرآن الكريم في تحديهم وكنما نسوا ذكرهم وحرصهم وفيهم الفحول من الفصحاء والشعراء وأصحاب المعاني (3).

إنه أغرب تحد في التاريخ للعقل الإنساني . فقد فتح آيات أمامهم وطالبهم أن يكذبوه . واستمر في تحديهم، وكلما نسوا ذكرهم وحرصهم، وهم أهل حمية يحملون السيف لأتفه الأسباب فلم يستطع أي واحد منهم أن يعارض، ولو عارض لظهرت المعارضة لتوفر ادواعي (4) ... والذي يدل على عجزهم عن الإتيان بمثله أنه تحداهم كما قلنا حتى طال التحدي وجعه دلالة على صدقه وثبوته، وتضمن أحكامه استباحة دماهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعّلوا وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهلهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم. وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال وإكثار المراء والجدال . وعن الجلاء عن الأوطان وعن تسليم الأهل والذرية للسبي، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم عنم (5) أنهم عاجزون عنها، يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكائد لا سيما مع استعظامه ما أبدعه بالمجيب من خلق آلهته وتسفيه رأيه في ديانته... وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته والتعرف على حكم إرادته وللعدول عن ألفه وعادته. والإنخراط في سلك الاتباع بعد أن كان متبوعاً... وتحكيم الغير في ماله وتسليطه إياه على جملة أحواله والدخول تحت تكاليف شاقة وعبادات متعبة بقوله: وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه. هذا والحمية حميتهم والهمم الكبيرة همهم، وقد بذلوا له السيف وأخطروا بنفوسهم وأموالهم، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه حيين أو يشتغل به خاطر، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به مع بلوغهم في الفصاحة النهائية التي ليس وراءها مطلع والرتبة التي ليس وراءها منزل. ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله وتفريق جمعه وتشتيت أسبابه، وكان من صدق به يرجع على أعقابهم ولكنهم لم يفعلوا مع طول المدة ووقوع الفسحة وقد أخبر الله أنهم قوم خصمون، وقال: (وتنذر به قوماً لدا) (6) (7) وهكذا توصلنا إلى:

1 - الإسراء / 88.

2 - الفرقان / 1.

3 - محمد الأثر حامد عيسى، وأحمد أبو السمعات، في رياض العقيدة الإسلامية، ص 171.

4 - محمد الأثر حامد عيسى، قضايا عقدية، ص 114.

5 - في الأصل "على".

6 - مريم / 97.

7 - أبو بكر الباقلي، إعجاز القرآن، ج 1، ص 32-35.

## فشل الوب في التحدي :

فلما أعجزهم تحدي القرآن عن الإتيان بسورة من مثله حتى ولو كانت من قصار سورة، تحولوا عن قولهم السابق: (لو شاء لقلب مثل هذا) إلى الزعم بأن محمدا ﷺ إنما يأتيهم بسحر أو كهانة، أو أن محمدا مسحور وأنه شعر فريد. (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنما به كافرون) (1). وهذا القول «جانه سحر» يدل على أنه سب عقولهم وأثر على حواسهم كما يفعل الساحر بمسحوره، وهو دليل على إنبهارهم به وعجزهم عن مواجعة تحديه (2). وقالوا أيضا: «أنا لتاركوا ألهتنا لشاعر مجنون» (3). وقالوا أيضا: «إن تتبعون إلا رجلا مسحورا» (4). وكل هذا لا معنى له سوى التعنت مع الإقتناع بخطأ. وجهة النظر المتعنت لها لأن الخصم عدنا يلزم بالحجة ويعجز عن تنفيذها يتجه إلى الاتهام والتشويه، وهنا نسجل بأن العرب وصل بهم الأمر إلى أنهم أقرروا في نفوسهم إعجاز القرآن الكريم وأنه من عند الله. ولكنهم لم يعجبهم شئ واحد، هو نزوله على محمد ﷺ اليتيم، (وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (5). وإذن فلا اعتراض لهم على القرآن لأنه قد أخذ بألبابهم وأفكارهم (6)، إلى حد أنهم كانوا يحيطون ببيت النبي ﷺ ليلا لسماع القرآن وعندما يكمل يتفرقون فيلتقون مع بعضهم بعضا ويتعاهدون على عدم العودة ويعودون (7)، وهو ما بينه القرآن الكريم :

(نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى) (8).

وإنما الخلاف فقط أو الاعتراض في: لماذا هذا الرسول بالذات؟ وبهذا فقد نقلوا الموضوع عن أصله، لأن الموضوع أنه تحداهم بالقرآن، فماداموا قد قالوا: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (9). فكان الخلاف في: أو الاعتراض على: من جاء - من يده القرآن الكريم (10).

ولا أدل على هذا من أن الوليد بن المغيرة ذاته - لشدة انبهاره بالقرآن - احتار فيما يصفه به بعد اجتماعه بنفر من قريش ليبيتوا ضد النبي ﷺ في موسم الحج فينتقون على قول واحد يصفون به

محمدا ﷺ لزوار البيت لتفجيرهم منه. ودار بينه وبينهم الحوار الآتي :

1 - الزخرف / 30.

2 - أبو بكر الباقلائي، المرجع نفسه، ص 35.

3 - الصافات / 36

4 - الإسراء / 47

5 / 9 - الزخرف / 31.

6 - محمد متولي الشعرلوي، إعجاز القرآن، ص 109.

7 - ابن كثير لسماويل، تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص 44.

8 - الإسراء / 47.

10 - محمد متولي الشعرلوي، إعجاز القرآن، ص 109.

« ... قال: بل أنتم تقولوا اسمع، قالوا: يقول كاهن؛ قال: لا، والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمنة<sup>(1)</sup> الكاهن ولا سمعه؛ قالوا: يقول: مجنون؛ قال: ما هو مجنون؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخاتحه ولا وسوسته؛ قالوا: يقول: شاعر؛ قال: ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه... فما هو بالشعر؛ قالوا: يقول: ساحر؛ قال: ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفتهم ولا عقدهم<sup>(2)</sup>؛ قالوا: فما يقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لثندق<sup>(3)</sup>، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بفائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل....<sup>(4)</sup> »

وها هو عتبة بن ربيعة يكلم الرسول ﷺ في ترك الإسلام، فلما أتم كلامه قال له النبي ﷺ: « أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني؛ قال: أفعل، فقل: سم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربياقوم يعمنون... وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه...<sup>(5)</sup> »

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك. فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم... قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم<sup>(6)</sup> ».

هذه الشهادات إنما هي من ألد أعداء محمد ﷺ وهي من أكثر الناس فصاحة وبلاغة وبياناً، وأصحابها ينتمون إلى أمة أطلقت على غيرها العجم اعترازاً بفصاحتها وبلاغتها، وهي من دون

1 - الزمزمة: الكلام الخفي الذي لا يسمع.

2 - إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه. ومنه قوله تعالى: (ومن شر الفأثات في العقد) (العلق/4).

3 - لثندق: (بالفتح) النخلة، يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذ جنى وتطلق أيضاً على المال الكثير، ومنه يقال غديق الرجل إذا كثرت بصاله. وكان أحد أجداد النبي (ص) يسمى الغديق لكثرة عطائه (1، 2، 3) (ابن هشام لسيرة النبوية م 1، هامش ص 270).

4 - ابن هشام لسيرة النبوية، م 1. ص 270.

5 - فصلت / 1-36.

6 - ابن هشام، لسيرة النبوية، م 1، ص 293، 294.

الناس جميعاً أقامت الأسواق لأشعارها فتحدثت من حسن لغتها فمحرت في رد التحدي واعترفت بعجزها، ولكنهم مما قالوا: « وقلوا إن نتبع تهدي معك نتخطف من أرضنا <sup>والبراري</sup> » (1).

ومهما يكن من أمر، فإن آيات التحدي منسقة متممة، مسجلة في القرآن الكريم تفرع أذان الأدباء والشعراء والبلغاء على اختلاف نحلهم ومذاهبهم في كل عصر. فما استطاع أحد مهتما كانت عظمته أن يرد على هذا التحدي بعمل يصح أنه يقال عنه أنه عارض به القرآن فأتى بشيء حسن « فهذا من أجلى الدلالة المادية الملموسة على ثبوت وصف الإعجاز للقرآن، إذ هو دلالة الواقع خلال التاريخ والقرون » (2).

ويزيد هذا الإعجاز بياناً ووضوحاً ما حاولته البعض ممن كانوا فصحاء بلغاء من الإتيان بشيء مثل القرآن الكريم في بلاغته وسمو أسلوبه ونكهته في تلك المحاولات هبطوا حتى عن المستوى الذي كانوا يقدرون عليه وجاءوا بكلام مضحك محيف، ومن هؤلاء مسنمة الكذاب الذي تنبأ بالقيامه في أواخر حياة النبي ﷺ وكان صنيعة فارسية ورومية فزعم أن له قرآناً يوحى إليه من السماء، ومما جاء فيه :

« يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تتقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين »، وقوله أيضاً: « والخايزات خبزا والثارذات ثردا واللاقمات لقمأ أهالة وسمنا لقد فضلتم على أهل الوبير وما سبقكم أهل المدر. ريفكم فاصنعوه والمعتر فأووه، والباغي فتأونوه » (3). والواقع أن هذا ليس من المعارضة في شيء بل هو المحاكاة (4) والإفساد. ولا يمكن وصفه إلا بعيب صبياني بهرفون بما لا يعرفون، وهو يعني بوضوح أن مسيئة لم يرد معارضة القرآن الكريم من حيث الصناعة البيانية نفعاته التامة بأنه لا يمكن أن ينتبس عليه أمرها أو يستطيع تلبيسها على أحد من العرب.

وإنما أراد أن يجعل كلامه السابق وسيلة إلى استهواء قومه من ناحية ظنهم أسهل عليه وأقرب تأثيراً في نفوس أتباعه، هي سجع الكهان بسبب تعظيم العرب لهذا السجع في الجاهلية، ومع ذلك فشل، لأن أكثر أتباعه يعرفونه بالكذب والحماقة ويقرون بأنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقاً، ولا في دعواه النبوة صادقاً. وإنما كان أتباعهم إياه كما قال قائلهم: « كذاب ربيعة أحب إلينا عن صادق مضر » (5).

1 - لقصص / 57.

2 - محمد سعيد رمضان لبوطي، من روائع القرآن، ص 163.

3 - لمرجع نفسه، ص 164.

4 - يلاحظ غياب مسيئة في زعمه أن معجزته هي مازعه من قرآنه لأن للقرآن هو معجزه محمد (ص) ولا نبي من الأنبياء له نفس معجزة نبي آخر يوكان المنطق يقتضي أن يدعي معجزة من جنس آخر، ولكن أتى له ذلك وهو لا يملك من البضاعة سوى سجع الكهان المضحك.

5 - محمد عبد الله دراز، أنبا العظيم، هامش ص 82، 83.

وهكذا لم يستطع أحد مواجهة تحدي القرآن في جميع العصور، وأن القلائل الذين حاولوا باؤوا بالخزي والهوان، وصاروا نمسا منسيا. وقد سجل القرآن تكريم هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن الذي كان أزهى عصور النبل العربي بحيث لم تنل المعامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في تلك العصر من العناية بعلمها حتى بلغت هذه اللغة أشدها وأقام العرب -دون غيرهم من الأمم- لهذه اللغة أسواقا تعرض صناعة شعر والخطابة يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها والمفاخرة بها، ويتنافسون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونسأؤهم. «فما هو إلا أن جاء القرآن... وإذا الأسواق<sup>(1)</sup> قد انقضت إلا منه، وإذا الأندية قد صغرت إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يحاربه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى، تلك على أنه لم يسد باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادا أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى متهمكا بهم منتزلا معهم إلى الأخف فالأخف»<sup>(2)</sup>. من الإتيان بمثله إلى عشر سور مثله إلى سورة واحدة من مثله وحتمهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاعوا ثم رماهم وانعالم كله بالعجز في غير موارد فقال:

{لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا} <sup>(3)</sup>. وقال: {فإن لم تفعلوا... الناس والحجارة} <sup>(4)</sup>.

فانظر -كما يقول دراز- أي إلهاب وأي إستفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: {ولن تفعلوا} ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار فلو كانوا قادرين على مواجهة التحدي لما صبروا وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، فلما استياسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم التجأوا إلى التعذيب والسيف بدل الحرف، ومضى عصر نزول القرآن والتحدي قائم إلى الآن فكان اللاحقون أشد عجزا من السابقين. فاتخذوا كل وسيلة لمقاومة محمد ﷺ باللطف وبالغضب، كالمساومة بالمسال

1 - ومن الأمثلة على هذا فإن الشاعر لبيد بن ربيعة الشهير ببلاغة منطجه وفصاحة لسانه ورصانة شعره عندما سمع أن محمدا (ص) يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات ردا على ما سمع وعلقها على باب الكعبة وكان التعليق على باب الكعبة امتيازاً لا يناله إلا لكبر الشعراء. وحين رأى أحد المسلمين هذا كتب بعض الأبيات وعلقها على جوار أبيات لبيد، ومر لبيد في اليوم التالي ولم يكن قد أسلم، فأذهلته الأبيات القرآنية حتى أنه صرخ من فوره قائلاً: والله ما هذا بقول بشر وأنا من المسلمين. وبعد إسلامه هجر الشعر منبهراً ببلاغة القرآن، وقد قال له عمر بن الخطاب ذات يوم يا أبا عقيل: أتشدني شيئاً من شعرك، فقرأ سورة البقرة وقال: «ما كنت لأقول شعرا بعد إذ عنمني الله سورة البقرة وأل عمران» (وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 124، 125).

2 - محمد عبد الله دراز، لتباً المعظم، ص 83، 84.

3 - الإمراء / 82.

4 - البقرة / 24.



والمعنى، والتعذيب والحصار والقتال، والشبهات والمطاعن، وكان حرصهم شديداً على منع وصول القرآن إلى أبنائهم وإلى غيرهم (1).

ولا يزال تحدي القرآن الكريم قائماً ومستمر على مر القرون والأجيال، منذ نزوله إلى اليوم، بل إلى الأبد، ومن أراد أن يجرب حظه في رد التحدي فينصّل.

وهكذا فإن التحدي القرآني خاصة عظيمة تثبت دور شك أو نيس أنه كلام من هو فوق الطبيعة، وأي إنسان يستخدم عقله بموضوعية وبراہمة ويفكر في هذا التحدي وذلك الإبداع المعجز يكفيه ذلك ليؤمن بهذا الكتاب.

ومما لا شك فيه أن العرب - وهم الذين لم يعرف لهم مثل في التاريخ في الفصاحة والبيان كما ذكرنا حتى أطلقوا على غيرهم اسم "العجم" نسبة اعتزازهم بفصاحتهم وبيانهم - قد اضطروا أن يركعوا أمام القرآن معترفين بعجزهم عن الأتيان ولو سورة واحدة من مثله فنزمتهم بذلك الحجة (2) (3) كما لزمتم الإنس والجن فأمن به العرب جميعاً، وهم حجة على من سواهم .

وبهذا نتوصل إلى أن القرآن كلام الله ومحمد نبي رسول ﷺ.

ومن هنا نتقل إلى الحديث عن ظهر جلال الربوبية في القرآن الكريم.

1 - محمد عبد الله درز، النبا العظيم، ص 89-87.

2 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 126.

3 - لم نتعرض إلى مظاهر الإعجاز اللغوي، ومن أراد الإطلاع عليه فليرجع إلى الباقلاني، إعجاز القرآن ومحمد عبد الله درز، النبا العظيم والبولطي من روائع القرآن ومصطفى صادق الرافعي إعجاز القرآن وغيرهم من القدامى والمحدثين.

## مظهر جلال الربوبية في القرآن الكريم

### أحد وجوه إعجازه

مظهر جلال الربوبية في القرآن الكريم هو أمر شبيء تدور فيه. وهنا نجد أنفسنا أمام إعجاز آخر لا تحول دون فهمه عجمة أو أمية، للعرب والعجم ولجميع الناس، وتبين هذا، أن هناك قانون نفسي مضمونه أن طبيعة المتكلم تتراءى في مرآة لا نظير لها، هي كلامه، فإذا تكلم كثيراً عرفنا نفسيته أو طبيعته «الكلام صفة المتكلم ... من مظاهر ذلك أن تخرج الذي يعيش في هذا العصر وتطبع بهذا القرن لا يستطيع أن يقلد أسلوب الجاحظ (ت868م) وعند الحميد الكاتب (ت750م) ورجل طبيعته الجدة والعمق في النظر لا يستطيع أن يكتب طبع الهزل، وكنتك انعكس، فالعقاد (ت1964م) لا يمكن أن يكون المازني (ت1949م) والعكس صحيح.

نطبق ما سبق على القرآن الكريم فنقرأ منه الآيات الذاتية، أي التي يتحدث فيها الله عن ذاته، ولنفرض أن هذا القرآن الكريم كلام بشر، وأن إنساناً صاعقه، وقد عرفنا أن الإنسان لا ينطبع إلا بما فيه فلنصغ إلى الآيات الذاتية، وننصص صفة البشرية فيها. هل يمكن أن نجد شيئاً من صفات البشرية؟

عندما نقرأ قوله عز وجل<sup>(1)</sup>: «نبيي عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم»<sup>(2)</sup>. «إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة أتتكم أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى»<sup>(3)</sup>. «ويقول الإنسان أنذا مامت لسوف أخرج حياً أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكن شيئاً، فورك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جيشاً... عتياً»<sup>(4)</sup>. «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»<sup>(5)</sup>. «إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيداً»<sup>(6)</sup>.

«وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم... الخلافة العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون... ترجعون»<sup>(7)</sup>

1 - محمد سعيد رمضان قبطي، المظاهر الجديدة في اعجاز القرآن الكريم، محاضرة ألقىتها بدار القرآن وأكلفت بحجراته، دار إمام

2 - الحجر / 49، 50.

3 - طه / 14، 15.

4 - مريم / 66-69.

5 - ق / 16.

6 - ق / 43-45.

7 - يس / 78-83.

عندما نسمع هذا الكلام ننتبه إلى ما ينشره في نفوسنا من عظمة الأثوية الدالعة<sup>(1)</sup>، ونأمل كيف تنزل معانيها من علو عظيم، وكيف تغمرنا بصورة نفوة التي لا تحد ولهبية التي ليست مما يتصف به البشر . *«وان كأدوا ليفتوتوك عن الذي أوحينا نبيك تنفتري علينا غيره وإيا لا تخدوك خليلا بولولا أن ثبتناك لقد كنت تركزن إليهم شيئا قليلا إذا لأضعنك ضعف الحياة وضعف المعاة ثم لا تجد لك علينا نصيرا .... ولا تجد لستنا تحويلا»*<sup>(2)</sup>.

« أفنجد مثل هذا الكلام مما يمكن للنشر أن يصطنعه اصطناعا وأن ينطق به تمثيلا، وأن يتحلى به تزويرا؟ »<sup>(3)</sup>.

فلنتأمل ولنفكر :

- أين هي مَكَاهيُ البشرية في أقل مظاهرها في الآيات السابقة؟ كيف نستطيع أن أفرض أن بشرا من الناس وفي أي عصر جلس في مكبته وتصور كيف يكون الإله ويتحلى عن بشريته؟ لا يمكن، لأنه إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقلد أسلوب أخيه الإنسان على الرغم من القاسم المشترك بينهما وتتغلب الفوارق، إذا كان ذلك كذلك، كيف يزعم هذا الإنسان أنه إله؟ .

إنه لا يستطيع أن يتكلم بهذا. لأنه مهما بلغ الإنسان من القدرة على التمثيل والتمويه والمحاكاة لا يمكنه أن يبلغ حد الإزدواج المتناقض في مجال الطبيعة والنفوس، بمعنى أنه لا يتأتى لإنسان ما أن ينطبع في جانب من نفسه على البشرية بخصائصها المعروفة وينطبع في جانب آخر منها على الأثوية بخصائصها المعروفة أيضا.

وإذا كان هذا غير ممكن، فمن المستحيل لإنسان ما أن يصوغ كلاما ينشر من حوله جيروت الأثوية وتضع منه رهبة الربوبية وكبرياؤها في صياغة لا تكلف فيها ولا تمثيل، لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن تتخلى عنه لحظة من لحظات حياته، وبذلك تعوقه عن القدرة على هذا الأمر. ولو حاول أن يجرب يجرب عن طريق التقمص والتمثيل فلن يأتي إلا بكلام متهافت يثبت ما أقامه في نفسه من إزدواج مصطنع كاذب في الطبع والشعور<sup>(4)</sup>.

ولقد جسد القرآن الكريم هذا عندما حدثنا عن فرعون. فرعون ادعى الربوبية ولكنه لم يستطع أن يتخلص من مظاهر البشرية. كان يجلس على عرش الملك ويدعي الربوبية، ولكن بشريته تكذبه، *«وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين»*<sup>(5)</sup>. كيف بفرعون يدعي الربوبية ويصعد إلى السماء ليقتضي على إله موسى، ولكنه لا يستطيع إلا بالإستعانة بالطين، بالتراب، لماذا يستعسسين

1 - محمد سعيد رمضان البوطي، لمظاهر الجديدة في إعجاز القرآن الكريم.

2 - الإسراء / 71-77.

3 - محمد سعيد رمضان البوطي، من رواقع القرآن، ص 189.

4 - لرجع نفسه، ص 188.

5 - القصص / 38.

بغيره؟ لقد كذبه لسانه أقرب شئ لذاته، إنه لا يستطيع أن يحقق ما يريد إلا بالإسعانة بغيره، ثم يقول: «لعلني» أي لا يتأكد هل يستطيع أم لا. وليس متأكدًا هل موسى صادق في القول بوجود إله آخر أم لا، إني لأظنه أن كل هذا من مظاهر ضعف البشرية، فإلزامه لا يقول لعلني، لأنه قادر<sup>(1)</sup> (وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عندنا خبيراً)<sup>(2)</sup> ولا يظن لأن علمه وسع هكل شيء خيراً «والله بكل شيء عليم»<sup>(3)</sup>.

وإذا ظهر لنا من خلال ما سبق مظهر جلال الربوبية في الآيات الذاتية وكذب ادعاء الأتوهية للمدعين من البشر ولكن ذاتهم وتعبيرهم فضحهم.

فلنقارن -ليكتمل الموضوع- مظهر جلال الربوبية وكبرياء اتوهية في القرآن الكريم بما ورد فيما يسمى «الكتاب المقدس».

فأله عزوجل في تصور أهل الكتاب، كما بينا أثناء حديثنا عن الأتوهية في الكتاب المقدس تعالى عن كل ما يصفونه به علواً كبيراً: أنه يتعب ويكذب ويمشي ويشس الملابس الجذبية ويخاف منافسة آدم له ويحزن ويأسف ويندم وينسى ويتذكر، يخاف من وحدة البشر ينزل إلى الأرض لينظر المدينة والبرج يتغذى عند إبراهيم بلحم العجل والخبز ويغسل رجليه ويتكىء تحت شجرة نائماً، له صورة ورأس وشعر ووجه وقفا وعين وأجفان وأذن وأنف ورجل وفم ونفس وشفة ولسان ويد ورجل وأصابع وبطن وقلب وظهر وفرج ومكان. يتصارع مع يعقوب ويعجز في التغلب عليه، بل حتى في إنقاذ نفسه منه<sup>(4)</sup>، إلخ.

وخالصة هذا أن الله عند أهل الكتاب يتصف بكل صفات البشر القبيحة وأنه في غاية التجسيم.

إذن هذه الصفات تبين لنا وفقاً للقانون النفسي السابق ذكره «الكلام صفة المتكلم» صفة الذين كتبوها، وإذن فهم بشر قدرون يتصفون بكل تلك الصفات، فهم يتحدثون عن أنفسهم لا عن الله. وإذن فالكتاب المقدس محرف، ليس كلام الله، وإذن يستحيل أن يكون القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ لأنه لو كان من تأليفه لوجدنا فيه صفات محمد لا صفات الله. ولكننا لا نجد أي أثر للذات المحمدية في كتابة القرآن الكريم. ولقد مرت سنون بمحمد ﷺ لو كان من تأليفه لبتها فيه. ومن أهمها عام الحزن، ولكننا لا نجد أي أثر لنفسية محمد بل نجد عتاباً، ولا يمكن أن يولف الإنسان كتاباً لمعابرة نفسه.

والآيات الذاتية إذن لا وجود فيها لأي طابع بشري، وإذن صاحبها يستحيل أن يكون بشراً، لأن البشر يستحيل أن يتجردوا كما رأينا من طبيعتهم البشرية، وإذن فإن مظهر جلال الربوبية

1 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة في اعجاز القرآن الكريم.

2 - فاطر / 45.

3 - لتخابن / 11.

4 - ومن أولاد التوسع في هذا فليرجع إلى ما كتبناه عن الأتوهية في العقيدة النصرانية.

وكبرياء الألوهية في القرآن الكريم أحد أهم وجوه اعجاز القرآن الكريم. وإذن فالقرآن **كلام الله**.  
ومحمد نبيه ورسوله.

### الإعجاز بالغيبيات

#### I - تحقق النبوءات في الأنجيل وفي القرآن الكريم

من جوانب إعجاز القرآن الكريم نبوءاته المختلفة والكثيرة التي ثبتت صحتها فيما بعد بطرق عجيبة بل إن بعضا منها جاء في مجال التحدي كما سنذكر.

لقد جرز عدد كبير من الأذكىاء والعباقرة والقادة على التنبؤ عن غيرهم أو عن أنفسهم وخاصة أن بعضهم ساعدهم على النجاح التباهر في البداية كثرة الأعوان، والكفاءات والأنصار فأوشكوا أن يحققوا ما تنبأوا به ولكن الزمان أبطل دعاوهم وكذبها دائما<sup>(1)</sup>. وليس غرضنا هنا التعرض لتلك التنبؤات بل هدفنا التعرض لنبوءات الأنجيل ونبوءات القرآن الكريم لنعرف مدى ما تحقق أو لم يتحقق في كليهما وسنجد عدم تحقق نبوءات الأنجيل بينما نجد نبوءات القرآن الكريم قد تحققت. وهو ما يثبت بشرية الأولى، وإلهية القرآن الكريم.

#### I 1 - تنبوءات الأنجيل :

لقد تنبأت الأنجيل بنبؤات كثيرة لم يتحقق منها شيء.. منها:

- **التنبؤ بوقوع يوم القيامة قبل فناء الجيل المعاصر ليسوع :** يذكر متى في إنجيله أن

المسيح أخير تلاميذه، أن يوم القيامة وشيكه الوقوع، وسيقع قبل فناء الجيل المعاصر ليسوع الذي سيأتي لمحاسبة العالم<sup>(2)</sup> « وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه... وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء، وحينئذ تتوح جميع قبائل الأرض، ويبصرون ابن الإنسان آتيا على السحاب بقوة ومجد كبير، فيرسل ملائكة بوق عظيم الصوت، فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السماوات إلى أقصاها... الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله »<sup>(3)</sup>. « فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله. الحق أقول لكم أن من القيام ها هنا قوما لا يدوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا من ملكوته »<sup>(4)</sup>.

وهذا لم يحدث، فلا القيامة قامت، ولا يسوع عاد رغم مرور 20 قرنا على فناء الجيل المعاصر له<sup>(5)</sup>.

1 - ومن ذلك نابليون بونابرت معبود بورغاد الذي أصبح يعتقد بعدما حققه من إبتصارات أنه سيكون ندا للإسكندر المقدوني، وزعم أنه لم يكتب في قدره غير القهر المطلق لكل من في الأرض، ولكنه مات أسيرا في جزيرة هيلان المهجورة جنوب الأطلنطي في 5 ماي 1821م (وحيد للنين خان، الإسلام يتحدى، ص127).

2 - محمد السعدي، حول موثوقيه الأنجيل، ص45.

3 - إنجيل متى، ل ص ح 24، فقرات 29-34.

4 - إنجيل متى إ ص ح 6 فقرة 27، 28.

5 - محمد السعدي المرجع لسابق، ص45.

- التنبؤ بتعويض مئة ضعف في الدنيا حتى الزوجة لمن ترك شيئاً لأهل يسوع : وهو أورده مرقس :

« فأجاب يسوع وقال: اتحق أقول لكم ليس أحد ترك بيتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا لأحلى ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مئة ضعف الآن في هذا الزمان بيوتا وإخوة وأخوات وأمهات وأولادا وحقولا مع إصطهدات، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية»<sup>(1)</sup>.

وهذه النبوءة لم تتحقق حتى لتلاميذ أنفسهم. وهذا خطأ نفس، ومن أسباب ذلك أن الإنسان إذا ترك امرأة لأجل يسوع أو الإنجيل فلا يمكنه الحصول على 100 امرأة في الدنيا لأن النصرانية تمنع التعدد<sup>(2)</sup>، اللهم إلا إذا كان المقصود بذلك الزنا.

- التنبؤ بتملك المسيح لكرسي داود وللكون : وهو ما أورده لوقا من أن الملاك الذي بشر مريم بميلاد يسوع قال لها: «لا تخافي يا مريم، لأنك وجدت نعمة عند الله، وها أنت سنجلبين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع، هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب إلهه كرسى داود أبيه، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لمملكته نهاية»<sup>(3)</sup>.

والحقيقة التي يعرفها الجميع أن المسيح لا تملك على اليهود ولا حكم كآبيه داود. وهذا في حين نجد القرآن الكريم قد تنبأ بتمكين المسلمين في الأرض وتمكنوا فعلاً كما سنذكر.

- التنبؤ بمكوث يسوع مثل يونان : وهو ما بيناه قبلاً في الموت الصليبي من قضية الآية التي طلبت من يسوع وأجاب بأنه لن تعطي لهم إلا آية يونان... وهي مكوث يسوع في بطن الأرض ثلاثة أيام و ثلاث ليال<sup>(4)</sup>. وقد بينا قبلاً عدم تحقق هذه النبوءة. وأن يسوع، حسب ما ورد في الأناجيل دفن ليلة السبت وغادر القبر فجر الأحد، فمكث في القبر يوماً واحداً هو السبت وليلتين هما ليلتنا السبت والأحد<sup>(5)</sup>.

وقد توصلنا إلى أنه لم يصلب ولم يدفن. وذلك من خلال الأناجيل ذاتها.

- التنبؤ لمحاكمي يسوع برؤيتهم له جالسا عن يمين القوة... : وهو ما أورده متى من أنه قال لليهود وهم يحاكمونه: « أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا عن يمين القوة، وأتيا على سحب السماء »<sup>(6)</sup>، ولم يحدث شيء من هذا كله، وكل ما رآه اليهود هو إنسان مصلوب حسبوه المسيح عليه السلام<sup>(7)</sup>.

1 - إنجيل مرقس، اص ح 10، فقرة 29، 30.

2 - محمد السعدي، المرجع لسابق، ص 46.

3 - إنجيل لوقا، اص ح 1، فقرات 30-33.

4 - إنجيل متى، اص ح 12، فقرات 38-40.

5 - أحمد نيدات، هل المسيح هو الله، ص 59، 60 أيضاً: محمد السعدي، المرجع لسابق، ص 47، 48.

ومن أراد التحقق من هذا فليرجع إلى إنجيل يوحنا، اص ح 19، فقرات 14-37، و اص ح 20 فقرات 1-17.

6 - إنجيل متى، اص ح 26، فقرة 64.

7 - محمد السعدي، المرجع لسابق، ص 48-49.

إذا كان ماسبق هو حال نبوءات الأنبياء، فما هو حال نبوءات القرآن الكريم؟ والجواب أنها جميعاً تحققت وبدقة متناهية رغم أن الظروف التي نزلت فيها بعض النبوءات كانت تشير إلى استحالة تحقيقها، وهاهي بعض نبوءات القرآن الكريم :

- التنبؤ بما يتعلق بمستقبل الإسلام في ذاته أو في كتابه ونبيه :

- التنبؤ ببقاء الإسلام وخلوده : لقد بين القرآن الكريم أن الله كتب البقاء والخلود للإسلام، ومن ذلك قوله تعالى : { كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فمكث في الأرض } (1). { ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طينة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها } (2).

- بيان ضمان حفظ القرآن الكريم وصيافته : { إن نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون } (3).

هذه الآيات كلها مكية ومن سور مكية، ولما كانت المرحلة تمكينية كلها عرض من قوم محمد عن الإستماع للقرآن الكريم وصد لغيرهم واضطهاد وتعذيب ومقاطعة وحصار إقتصادي ومؤامرات سرية وعلنية على قتل خاتم الأنبياء فهل يمكن لمحمد ﷺ في هذه الظروف القاهرة أن يصدر أحكاماً قاطعة ببقاء الإسلام وخلوده وحفظ القرآن من التحريف هذا البقاء للإسلام والخلود وهذا الحفظ للقرآن من التحريف هو ما شاهدته اليوم بعد 14 قرناً (4). رغم تنكر الدهر لدول الإسلام وتسلب الفجار على معتقبيه فأخنوهم وأكروها أما منهم على الكفر بعد أن حرقوا كتبهم وهدموا مساجدهم، وهو ما فعله أبناء ملّة بورغاد بالجزائر وما عمله هو نفسه من تشويه وتشكيك وطمس ولكن الإسلام مازال هو الإسلام، والقرآن مازال هو هو كما نزل على محمد ﷺ.

إننا لا نملك أي جواب منطقي سوى القول: بأن القرآن الكريم من عند الله.

- بيان حماية النبي (ص) حتى يكمل الرسالة : لقد بين القرآن الكريم أن الله عز وجل يحمي

شخص حبيبه فلا تصل إليه يد بالإغتيال: { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك... والله يعصمك من الناس } (5). وهنا نتساءل: من ذا الذي يستطيع أن يضمن عدم وصول أيدي أعداء محمد الكثيرة إليه للبطش به مهما كانت حراسته شديدة، وقد رأينا كثيراً من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد القبيلة وهم في مواكبهم في حرس شديد من كل حذب وصوب. بينما كان خاتم الأنبياء يعيش في ثقة وأمان دون حراسة سوى حراسة الذي أنزل عليه القرآن رغم كثرة المتربصين به في مكة والمدينة من وثنيين

1 - الرعد / 17.

2 - إبراهيم / 24.

3 - الحجر / 9.

4 - محمد عبد الله درويش، أنبياء العظماء نظرت جديدة في القرآن، دط، دار القلم، الكويت، 1984م، ص 42-43.

5 - المائدة / 67.

عرب ويهود ونصاري بعد ذلك. ولقد بلغ من ثقة رسول الله ﷺ بهذا الوعد الحق كما روى الترمذي والحاكم عن عائشة وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قتل: « كان النبي ﷺ يحرس بأثليل، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » وقد تحققت هذه النبوءة فلم تتمكن يد الغدر من الوصول إليه رغم كثرة المحاولات<sup>(1)</sup>. فلم يقصه الله إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وحتى أنزل عليه قوله تعالى: ﴿ السوم أكملت لكم دينكم واتممت عنكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾<sup>(2)</sup> (3). وحتى كمل عليه نزول القرآن كنه فكملت بذلك رسالته كلها.

### - تقرير التمكين للإسلام والمسلمين وإظهار الإسلام على

جميع الملك والنحل، أو قيام دولة الإسلام<sup>(4)</sup>: ما أن هاجر المسلمون إلى المدينة فراراً من أذى المشركين وبطشهم حتى هاجمتهم الحروب من كل حدب وصوب فانطلقوا من خوف إلى رعب حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً، وحتى قتل المشركون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. في هذه الظروف العصيبة بينهم تفرق بما سيكون لهم من الخلافة والملك والتمكين للإسلام والأمن والإطمئنان وعدم القرآن بهذا وعداً لا يمينهم بل جعل وعده مؤكداً بالقسم. ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ﴾<sup>(5)</sup>. ولقد تحققت هذه النبوءة بأوسع معانيها كالبرق الخاطف، في عصر الصحابة أنفسهم الذين كانوا لا يبيتون إلا خائفين، فبدلوا من بعد خوفهم أمناً لا خوف فيه واستخلفوا في أقطار الأرض قورثوا مشارقها ومغاربها<sup>(6)</sup>.

1 - منها ما حدث لسراقه بن جعشم وفرسه وهو بلحق برسول الله (ص) بغية تسليمه للكفار. وقد اتفق أئمة الحديث على صحة هذه الرواية ونقلها وفي مقدمتهم البخاري ومسلم. وقصة خروجه من بيته أثناء الهجرة والكفار محيطون بداره يتربصون به ليقتلوه فخرج من بين أظهرهم بعد أن ملأ رؤوسهم تراباً سخرية بهم. وعلمه بمؤامرة بني النضير في الغدر به بأن يقوم عمر وبن جحاش النظري بطرح صخرة على رسول الله (ص) من فوق بيت من بيوت بني النضير. وعلمه بأمر نشأة المسمومة المصلية التي أهدتها له زينب بنت الحارث الخبيزية يوم خيبر بعد فتح المسلمين لها كما بين الشيخان، إلخ. ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الصحيحين وفقه السيرة للبيهقي ص 330، 331، 338، 259، 261 والسيرة النبوية لابن هشام والتفاسير وغيرها.

2 - المائدة / 3.

3 - محمد عبد الله دراز، انبأ العظيم، ص 45، 46.

4 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن ترجمة محمد عبد العظيم علي، نط، دار القلم، الكويت، ص 178.

5 - النور / 55.

6 - محمد عبد الله دراز، انبأ العظيم، ص 47، 48.



وهاهو قوله تعالى أيضا في سياق حديثه عن اليهود والنصارى وكفرهم ومؤامراتهم وكذا المشركين قبلهم: **«يريدون أن يطفئوا نور الله بأهوائهم وأبى الله إلا أن يشعل نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»** (1). ولقد تحقق كل هذا بحيث لم تمض على هذه البشري مدة طويلة حتى وجد المسلمون الجزيرة العربية كلها تحت أقدامهم (2)، ولم يمض عهد الخلفاء الراشدين حتى أزال المسلمون ملك كسرى كله، ووصلوا إلى بلخ والهند وفتحوا الشام والأردن وفلسطين ومصر (3)، وصارت الإمبراطورية الرومية محصورة في عاصمتها ولا سيما بعد فتح المسلمين في العهد الأموي شمال إفريقيا والأندلس ثم أزال العثمانيون الدولة البيزنطية نهائيا وتوغلوا في قلب أوروبا ووصلوا إلى فيينا. وما زال الإسلام إلى الآن رغم أنه لم يتعرض أي دين للإضطهاد والتشكيك منه (4).

وليس بوسعنا تفسير هذه النبوءات إلا أن نسلم بأن صاحب هذه الأخبار بالغيب لم يأت بها من عند نفسه (5).

- **الوعد بفتح مكة وتحقيقه خلال سنتين فقط** : ونصه: **«فقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام... لا تخافن... فتحا قريبا»** (6). وكان ذلك يوم الحديبية عندما أصر الكفار على منع المسلمين من دخول مكة وغضب المسلمون من ذلك. وقد تحقق ما وعد به القرآن الكريم حيث فتحت مكة بعد ذلك بسنتين فقط.

وهذا كله ليس في مقدور بشر أن يعلمه مسبقا ويخبر به فكان ذلك دليلا على أنه من عند الله عزوجل (7). فإين هذا مما ذكرناه عن تنبؤات الأنجيل ومنها الذي يعد فيه يسوع بأن الرب سيعطيه كرسي داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية. فهامي نبوءات الأنجيل بالتمكين للمسيح لم تتحقق، ونبوءات القرآن بالتمكين للمسلمين تحققت. ونقول ليورغاد بناء على ما سبق، من هو النبي الذي بدون معجزة؟ هل محمد أم غيره؟!

1 - فتوة / 33432.

2 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 130.

3 - البالغاني القاضي أبو بكر، إعجاز القرآن (المطبوع بأسفل الإتيقان للبوطنى) نط دار المعرفة، بيروت دت ج1 ص 58-60.

4 - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع على سبيل المثال إلى محمد الغزالي، كفاح دين ط6، مكتبة رحاب الجزائر 1988 وكذا كتب لتاريخ الإسلامى والمسير لصراع الفكرى.

5 - وحيد الدين خان، المرجع نفسه، ص 130.

6 - لفتح / 27.

7 - محمد سعيد رمضان البوطى، من رواق القرآن، ص 153.

- حديث القرآن الكريم عن مصير أمم بأعيانها :

أخبر القرآن الكريم عن أمم بأعيانها، عن مصائرهم و نتائج التي تنتهي إليها، وكان ما حاق بهذه الأمم هو ما أخبر الله عنه، ومن ذلك :

أ - الحرب بين الفرس والروم : كل من مشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة فأنزل لهم: إن الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المحوس<sup>(1)</sup>، وأنتم يرعون أنكم ستعلموننا بالكتاب الذي أنزل عليكم، فسغلبكم كما غلبت فارس الروم، هزل قوله تعالى: ثم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين<sup>(2)</sup>، ثم الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم<sup>(3)</sup>.

لقد كان الإخبار بهذا النصر، ويوقعه في وقت معين إخباراً بأمرين كليهما لا يمكن توقعه. ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفي أنها هزمت في بلادها كما قال تعالى: (إنى الأرض) وفقدت مصر والشام والعراق وفلسطين وأسيا الصغرى وتفصلت في عاصمتها<sup>(4)</sup>، فلم يكن أحد يظن أنها ستقوم لها بعد ذلك قائمة، فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر<sup>(5)</sup> وهو وقت قصير جداً، بضع سنين، وهو ما جعل المشركين يكذبونه ويراءون<sup>(6)</sup> على تكذيبه.

ورغم ما سبق فإن القرآن الكريم لم يكتف بهذين الوعدتين، بل عززهما بثالث وهو :

و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وذلك إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه ما هنا نصر للمسلمين على المشركين.

وإذا كان كل واحد من النصيرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس أشد الاستبعاد فكيف القول

بوقوعهما معا مقترنين في يوم؟ لذلك أكده الله عز وجل أعظم التأكيد بقوله :

1 - وذلك في الحرب التي وقعت بينهما فهزم الروم شر هزيمة وتقلصت الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها وضرب عليها الحصار الاقتصادي بمد جميع طرفها وأصبح سكان عاصمتها يتوقعون احتلال الفرس لها (وحيد الدين خان، المرجع السابق)  
2 - البضع بين 3 و9، والتعبير به هنا في منتهى الدقة، لأن الناس في اصطلاحهم الحسابي لا يتبعون طريقة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب بالقمر، ومنهم من يكمل الكسور ومنهم من يلفيها، فكان مقتضى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير ليكون لقطع لكل شبهة ولبعد عن كل جدل، ثم إنه ربما يتراخي الأمر بين بشأن النصر ووقائعه الفاصلة، فيقطع اختلاف الحاسبين في تعيين الوقت الذي يضاف إليه النصر والغلبة ولذا حسن التعبير بلفظ في "بضع" دون أن يقال "بعد بضع"، (محمد عبد الله دراز، لنبا العظيم، ص50).

3 - الروم / 1-5.

4 - وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص132.

5 - محمد عبد الله دراز، لنبا العظيم، ص49.

6 - ولقد وردت أحاديث كثيرة حول الحرب بين الفرس والروم وتراهن أبي بكر مع الكفار بعد نزول الآية. رواها الترميذي والنسائي وغيرهما وقد ورد فيها أن أبا بكر أتفق مع المشركين على زيادة مدة الرهان إلى 9 سنين وزيادة قيمة الرهان بأمر النبي (ص) وذلك قبل تحريم الرهان، وكانت الغلبة لأبي بكر، ومن أراد معرفة هذه الأحاديث فليرجع إلى تفسير ابن كثير م3. ص422، 423.

« وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (1)

ولقد صدق الله وعده، فاختصر الروم على الفرس بإجماع المؤرخين في أقل من 9 سنين، وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى كما رواه الترمذي عن أبي سعيد ورواه تطري عن ابن عباس وغيره وقال به طائفة كبيرة من العلماء كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم (2). وقد أسلم بذلك ناس كثير.

والمواقع أننا عندما نتطرق إلى ذلك الوقت حين تنبأ القرآن الكريم بهذه النبوءة نجد أنه لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن الإثنتي عشرة سنة الأولى من حكم هرقل الذي انتصر بعد ذلك على الفرس كانت تنبئ بنهاية الإمبراطورية الرومانية، ولكنه ما لبث حيريل بنزل بشرى إنتصار الروم على الفرس في بضع سنين حتى أخذاً <sup>انقلاب</sup> يظهر على واجهة الإمبراطورية الرومانية، فيتحول هذا الإمبراطور انكسول الغارق في الملذات إلى بطل عظيم فيبحر جميع مذاته بما في ذلك ابنة أخته "مارتينا" التي تزوجها لتتيمه بها رغم تحريمها عليه، ويخوض 06 حروب كاملة يرجع فيها كل ما أخذه الفرس قبلاً بل ويصبح مهدداً لعاصمتهم. حاص هذا الإمبراطور آخر حرب ضد الفرس في ديسمبر 627 م فر فيها كسرى من أمامه ثم عاد هذا الإمبراطور إلى عاصمته القسطنطينية في مارس عام 628 م في إحتفال بهيج لينغمس من جديد في لهوه ومحوته (3).

وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن الكريم عن غلبة الروم، وفي العدة المقررة بضع سنين وتم ذلك في اليوم الذي إنتصر فيه المسلمون على المشركين في بدر « وعد الله لا يخلف له وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (4).

2 - إخبار القرآن الكريم باستمرار الانقسام والصراع بين النصارى إلى يوم القيامة : كان الناس فيما مضى لا يعلمون أيضاً الدهر ما يخبر به القرآن الكريم أم يكذبه، ولكن ما نحن وقد عشنا في هذا العصر المتأخر من الزمن ننظر إلى الوراء، بأكثر من 14 قرناً فنجد أن ما أخبر به القرآن الكريم صادق (5)، ومن ذلك تقريره أن النصارى سيظنون منقسمين متصارعين متحاربين يأكل بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة. قال تعالى: « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فقسوا <sup>حلقاً</sup> حلقاً مما ذكرنا به فأخربنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » (6). وهكذا حدد القرآن الكريم منذ أكثر من 14 قرناً

1 - الروم / 6.

2 - ابن كثير أبو الفدا إسماعيل تفسير القرآن العظيم، م 3، ص 426.

3 - وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص 135-137.

4 - الروم / 6.

5 - وحيد الدين خان، المرجع السابق، ص 135. (6) - المائدة / 14

6 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة في إعجاز القرآن الكريم. (محاضرة أقيمت بقاعة الموقار وأكملت بمسجد إد باديس، الجزائر العاصمة يوم الثلاثاء، 22 / 05 / 1984م.

مستقبل النصارى المتمثل في الإنشقاق والاختلاف إلى يوم القيامة<sup>(1)</sup>. وعكفي نشلا على هذا ما أشربنا إليه مما وقع بين النصارى من اختلافات واشتقاقات وشذوعات وحروب. ونشك أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية والاختلافات بين النصارى والنصرانية والسيف. وسيل نكك بمشك واحد على سبيل الإشارة لا الحصر، هو أنه أثناء اقتحام القوات الروسية لمدنية برلين في الحرب العالمية الثانية سنة 1945م قتل في ذلك الاقتحام أكثر من مليون أورثوذكسي روسي ناهيك عما قتل من الألمان البروتستانت<sup>(2)</sup>.

3- إخبار القرآن الكريم بحالة اليهود إلى يوم القيامة: بين القرآن الكريم تشتت بني إسرائيل في أقطار الأرض والإضطهاد الذي مسيق عليهم في كل مكان حتى نهاية تعتم وحاجتهم الدائمة إلى الحيف<sup>(3)</sup>. فما يتعلق بالحيف قوله تعالى: **أَضْرَبْتُ عَنْهُمْ الذِّمَّةَ أَيَّمَا تَفْعُولِ لِلْأَحْيَاءِ مِنَ اللَّهِ وَحِيلَ مِنَ النَّاسِ**<sup>(4)</sup>.

- يقول عنهم القرآن الكريم: **أَوْقَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ** <sup>(5)</sup>.

- ويقول: **وَإِذْ تَأْتِيَنَّكَ مِنْكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَوْمِهِمْ سُوءَ الْعَذَابِ** <sup>(6)</sup>. ويقول:

**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتَلْسُنُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ... ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرْسِيَّ عَلَيْهِمْ... وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ... وَإِنْ عَدْتُمْ عَدَّتْ** <sup>(7)</sup>.

- فقوله تعالى مثلا: **وَإِذْ تَأْتِيَنَّكَ مِنْكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَوْمِهِمْ سُوءَ الْعَذَابِ** وقوله مثلا: **أَوْقَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا**. نجد رغم أنه رغم أنهم استطاعوا أن يتلاعبوا بخيوط السياسة عبر العالم وأن يتلاعبوا بالإقتصاد وبالذهب. وأن يختفوا خلف كثير من سياسات العالم وقياداته بوجهون ويخططون. يثيرون الفتن ويوقدون نار الحروب، ولكنهم رغم هذا كله نجدهم ممزقين شر ممزق في كل دولة يعيشون في حارات اليهود، وإذا تجمعوا في مكان فإنهم لا يتجمعون إلا ليأخذوا ضربات قاسية يتشتتون خلالها عبر العالم من جديد. وهكذا إلى قيام الساعة. كان الناس فيما مضى لا يعلمون أصدق الدهر ما يخبر به القرآن الكريم أم يكذب، ولكن ما نحن وقد عشنا في هذا العصر المتأخر من الزمن ننظر إلى الوراء بأكثر من 14 قرنا فنجد أن ما أخبر به القرآن الكريم صادق<sup>(8)</sup>. ضربوا قبل الإسلام، ومما وقع

1 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 178.

2 - روميا السنوات الضائعة شريط تلفزيوني سبتمبر 1997.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 178.

4 - آل عمران / 112.

5 - الأعراف / 168.

6 - الأعراف / 167.

7 - الإسراء / 4-8.

8 محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة في إعجاز القرآن الكريم. أيضا محمد سعيد رمضان البوطي، من

رواقع القرآن ص 154-155.

لهم ما يسمى السبي الترابلي أي جميعهم أصبحوا عبيدا، فعل بهم تحصنر<sup>(1)</sup>، ما فعل، وفعل بهم نيرون<sup>(2)</sup> في الدولة الرومانية ما فعل. ومحكم التفتش في لأشس هووثر في تحرت لعائمة الثانية وهكذا. ونحن نتساءل: من الذي علم محمدا أنه سيطر تيهد هك إبي فام الساعة؟ شبي واحد فقط هو الوحي، هو القرآن الكريم، فالقرآن إذن معجزة ومحمد ﷺ سي .

- إخبار القرآن الكريم عن مصير أشخاص بأعبتهم : أي يشي عن مصيرهم ويكشف حكم الله المبرم في شأنهم، وقد أثنى أولئك الأشخاص إلى ما أخبر الله عنهم، ومنهم :

- الوليد بن المغيرة : حيث حدثنا الله عز وجل عنه في أول المدثر فقال: (أفرني ومن خلقت وحيدا... سارقه صعورا... ساصليه سقر. وما ادراك ما سقر. لا يعي ولا ينفر :<sup>(3)</sup> إن هذا الإخبار الغيبي «سارقه صعورا... ساصليه سقر» ليس مما يتحرأ إنسان عليه، لأنه ليس مطلعا على ما قد يأتي به الغد أو على ما قد يتطور إليه فكر هذا الإنسان. فلا يعرف إن الاحتمالات المختلفة للزمن ولا الأطوار المفاجئة العجيبة للإنسان<sup>(4)</sup>. فلنقف إذن هنا، ولنفرض أن شدي يقول تلك الكلام بشر، فمن ذا الذي يستطيع أن يجزم بأن الوليد بن المغيرة لن يدخل الإسلام، وقد دخله من كان أشرمه. ولو دخل في الإسلام لتحطم ما أورده القرآن في حقه مما يحطم القرآن و يحطم محمدا ﷺ. أي بشر يزعم أنه يقول هذا ولا يسلم الوليد بن المغيرة! لا يمكن لأي إنسان أن يجزم بأن فلانا سيموت كافرا ويدخل النار<sup>(5)</sup>. وكان يمكن أن يعلن إسلامه، ليس حبا في الإسلام، بل ليكذب محمدا عدوه اللدود وليفضحه. ولكنه لم يفعل.

إذن الله هو الذي نزل القرآن على محمد. فالقرآن كلام الله و محمد نبيه ﷺ.

- حديث القرآن عن أبي لهب زوجته :

(تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلي نارا ذات لهب وامراته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد )<sup>(6)</sup>؛ تأمل هذه الآيات يجعلنا نعلم أن أحدا من الناس لا يملك أن يطلق هذا الوعيد ويسجله في عنق الزمن وعلى صفحة الدهر، فما الذي يدري هذا الإنسان أن أبا لهب سيثبت على كفره إلى الموت؟ وما هي ضمانات أنه لن يؤمن كما آمن كثير ممن هم أشد منه كفرا وأقسى عنادا؟ بل ما الذي يطمئنه أن أبا لهب لن ينهض به دافع التحدي عندما يسمع هذا الوعيد

1 - هو ملك بابل 605-562 ق م. خرب أورشليم وسبي ليهود سنة 586 ق م (المنجد، ص 571).

2 - نيرون Nero (37-68م) هو ابن كلوديوس بالتبني، أصبح إمبراطورا في الفترة 54-68م يقال بأنه كان طاغية اضطهد النصارى وتهم بإحراق روما مات منتحرا. (المنجد، ص 583).

3 - المدثر / 12-28.

4 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 156.

5 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة، في إعجاز القرآن الكريم.

6 - المدد / 1-5.

المسجل في حقه إلى أن يسلم أمام الملأ ليمحو بذلك أسباب شقاوته، أو ليثبت أن إخبار القرآن عنه ليس دقيقاً ولا صادقاً، أي كان يمكن أن يعلن إسلامه ليحطم إخبار القرآن عنه بأنه لن يؤمن. ولو فعل ذلك لحطم محمداً لأنه يكون قد أثبت كذبه. ولكنه لم يفعل...

« إن بشراً من الناس لن يستوثق من تقلبات الزمن وما قد يطراً من الأحوال والأفكار الجديدة على أبي لهب وأمثاله . وبالتالي فلن يجد من الجرأة ما يستند إليه في إطلاق مثل هذا الخبر الغيبي المخبوء في تلافيف المستقبل. ولكنه إخبار الإله العليم الحكيم الذي بيده مفاتيح الغيب، يكشف عن بعض ما أحاط به علمه وقضى به أمره»<sup>(1)</sup>.

## II - الإعجاز العلمي في القرآن عكس الكتاب المقدس

لقد وردت آيات كثيرة تعلن في بيانات حاسمة قاطعة عن قوانين كونية لا يمكن أن تتبدل أو تتغير. وتخبر عن أنها ستظل قوانين نافذة حاكمة على الناس كلهم وعلى الطاقات العلمية كلها مهما تقدمت وتتنوعت. من هذه الآيات : قوله تعالى :

{ ومن نعمه نكسه في الخلق أفلا تعقلون }<sup>(2)</sup>. { قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم }<sup>(3)</sup>  
 { كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإينا ترجعون }<sup>(4)</sup>. { ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا }<sup>(5)</sup>. { ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا }<sup>(6)</sup>.  
 فقوله: { ومن نعمه نكسه في الخلق } . نفرض أن القائل بشر وهو طبيب ويبحث عن العقاقير التي تخلص الإنسان من الشيب والعجز، ويعجز، هل يستطيع أن يقول بأن الإنسان لا يمكن تخليصه من الشيب؟ لا يستطيع أن يحكم على المستقبل، لأن العلم يتطور دائماً، قد يحكم الإنسان على الماضي. لكن كيف يمكن لإنسان كان يعيش في شبه الجزيرة العربية بلد الجهل فيتحدى التاريخ والمستقبل والتطور العلمي؟ لا يمكن أن يقول الإنسان هذا، وإذن القرآن من عند الله.

- كيف يمكن لإنسان أن يقرر بأن الموت لا يمكن القضاء عليه مستقبلاً، ولا يمكن العثور على علاج له؟ لا يمكن لإنسان أن يقول هذا لأن الغيب محجوب وقد يموت الإنسان بسبب جهله بالأدوية التي قد يكتشفها غيره في المستقبل فيقضي على الموت. إذن الإنسان لا يمكن أن يحكم. ولكن: { إنا تكونوا يدرككم الموت }<sup>(7)</sup>.

1 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 155-156.

2 - ص / 68.

3 - الجمعة / 8.

4 - الأنبياء / 35.

5 - الإسراء / 85.

6 - المرسلات / 25, 26.

7 - النساء / 78.

- كيف يمكن لإنسان أن يقرر «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» «إسدال الستار عن حقيقة الحياة»؟ إنه هنا لا يتحدث عن مظاهر الحياة ولكن عن جوهرها وهو الروح، وأنه يحكم بأن الإنسان لا يمكنه أن يعرف حقيقة الروح، وكل الأزمنة التي توالى كانت مصدقة لهذه التحديات القرآنية، إذ رغم التقدم العلمي والطبي لم تعرف حقيقة الروح. وإذن فإن: { ويسألونك عن الروح... قليلا } كلام الله. والآن: أيمن أن يقول هذا الكلام إنسان عاش قديما في شبه الجزيرة العربية؟ للزمان إذن صدق قرار الله عز وجل<sup>(1)</sup>.

وأما قوله: { ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا }<sup>(2)</sup>. فإن الكفت بمعنى الجذب، «كفاتا» أي جاذبة إليكم. الرجل العربي الذي عاش في صدر الإسلام قد يعجب من القول بجذب الأشياء إليها، ولعله يفهم أن الإنسان عندما يموت يجعل له باطن الأرض وعاء، فاستطرد القرآن { كفاتا أحياء وأمواتا } أي وكذلك في حالة الحياة، فهي جاذبة للإنسان حياة وموتاً. يونس بن قرة (ت منذ 700 سنة) تحدث عنه العضد الأيجي في كتاب «المواقف» ناقلا عنه بأن الله أورث الأرض طاقة بحيث تجذب الإنسان إليها جذبا رفيعا حتى يعيش فيها ولا ينكفي، وقد قال بأن الله جعل الأرض كروية فجاذبيتها الرفيعة تجعل الإنسان لا يسقط من جانبها، فلو كانت جاذبيتها أقوى لمات الإنسان ولو كانت أقل ما صلحت، وهكذا اكتشف يونس بن قرة جاذبية الأرض وكرويتها من القرآن الكريم منذ 7 قرون<sup>(3)</sup>. أي قبل نيوتن بقرون كثيرة. وهنا نتساءل: هل يمكن لمحمد ﷺ أن يعرف هذا؟ إنه لا هو ولا قومه ولا البشرية جمعاء في عصره كانت تعرف هذا. فمن أين أتى به محمد ﷺ؟ والجواب: من عند الله فهو معجزة ومحمد نبي.

وهنا يجب أن نشير قبل مواصلة الحديث في هذا السياق إلى قضية مهمة هي أن القرآن الكريم ليس معجم علوم أو رياضيات أو طب إلخ، وإنما هو كتاب دين ولكنه مما يبذ به التوراة والإنجيل أنه في دعوته للإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة لا بغرض فهمها ودراستها فحسب، وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير. هذه الحقائق التي يقدمها تمتاز باتفاقها القام مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث<sup>(4)</sup>. بل إن بعضها يعتمد على أحدث ما توصلت إليه وسائل البحث العلمي الحديث كالتصوير بالأشعة وغيره مما يجعل استحالة أن يعرفه أمي أو قومه الأميون أو البشرية جمعاء في عصره وبعد عصره. ولم تتم معرفته علميا إلا بعد اكتشاف وسائل البحث العلمي الحديثة وتطور العلوم تطورها للمذهل، وهو يرهان على أن القرآن من عند الله ومن أمثلتها:

1- من سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة...

2- المرسلات / 25، 26

3- محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة...

4- محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 175/176

• المنبع الخفي الذي يخرج منه العنصر التحسسي للاسنان الخلق من ماء نافع يخرج من بين الصلب والترائب (1).

- المراحل التي يمر بها الجنين وهو في بطن أمه : فإب خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة (2). وعدد التحويلات المنظمة التي يتم الخلق بداخلها (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث (3).

- المنشأ المائي لجميع الكائنات الحية (وجعلنا من الماء كل شيء حي (4). وتكوين المطر (اللّه الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى السودق يخرج من خلاله (5).

هذا ما بينه القرآن عن تكوين المطر. في حين يذكر الكتاب المقدس -كتاب يورغاد- أنها تنزل من السماء وأن الطوفان عندما حدث انفتحت طاقات السماء (6) ليخرج منها المطر وعندما هلك الجميع انسدت طاقات السماء (7). ولما أهلك الله قوم نوح بالطوفان ندم. فوضع قوسه قزح في السحاب ليكون علامة ميثاق بينه وبين الأرض، فيكون متى نشر الله سحابا على الأرض وتظهر القوس في السحاب يتذكر الله ميثاقه الذي بينه وبين البشر والكائنات الحية بعد أن يبصر ذلك القوس، وقد أخبر نوحا بأن قوس قزح هو علامة ذلك الميثاق الذي أقامه الله بينه وبين كل الكائنات الحية (8).

- دائرية السماء والأرض (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل (9). وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب (أفلا يرون أنا تأتي الأرض تنقصها من أطرافها (10).  
- تعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم (11). ووصف حياة النحل بصفة خاصة (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا (12).

1 - الطارق / 7,6.

2 - الحج / 5.

3 - الزمر / 6.

4 - الأنبياء / 30.

5 - الروم / 48.

6 - تكوين، 1 ص ح 7 فقرة 11.

7 - تكوين، 1 ص ح 8، فقرة 2.

8 - تكوين، 1 ص ح 9 فقرات، 11-17.

9 - الزمر / 5.

10 - الأنبياء / 44.

11 - الأنعام / 38.

12 - النحل / 68-69.



- ثنائية النباتات والمخلوقات الأخرى، وهي حفيفة عنيفة كان يحفظها عصر الرسول ﷺ  
 اسبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، من أعينها، وما لا تعلمون (1)، والنتقيح  
 بواسطة الرياح (وأرسلنا الرياح لواقع) (2) (3).

- الأغذية وعلم الفلك. وعلم طبقات الأرض (4) إنج. وسكنفي بعد هذا تذيي ذكرنا بالإشارة  
 إلى الأغذية وذلك لما لها من علاقة بدعوة نورغاد المسلمين إلى أكل لحم الخنزير.

• علم الأغذية : يحرم القرآن الكريم مجموعة من الأغذية ؛ حرمت عليكم الميتة والدم  
 ولحم الخنزير... (5) ، وسنقتصر على الإشارة إلى الدم والميتة ولحم الخنزير.

فما يتعلق بالدم والميتة، فإن التحليلات التي أجريت تدمر سنت أن تحريمه مبني على أهمية  
 خاصة لحفظ الصحة. ذلك أن الدم يحتوي على كمية كبيرة من حمض اليوريك : Uric Acid، وهو مادة  
 سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء. وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها الإسلام في  
 ذبح الحيوانات ليخرج الدم من جسم الحيوان وهي قطع شوريد الرئسي في العنق وحده دون قلع  
 الأوردة الأخرى لكي تستمر علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان وذلك حتى لا يكون سبب الموت  
 هو الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضائه الرئيسة كالدماغ أو القلب أو الكبد. وذلك أن الدماء  
 تتجمد في العروق وتسري إلى أجزاء الجسم لومات الحيوان في الحال -على إثر صدمة عنيفة، فيتسمم  
 اللحم كله نتيجة سريان "حمض اليوريك" في أنحائه، وهذا ما جعل الإسلام يحرم الدم. كما يحرم الميتة.  
 وقد أصبح اليوم معروفا أن الدم نفسه إضافة لما سبق يحتوي على كثير من الأمراض الخطيرة ومنها  
 مرض السيدا.

وأما تحريم لحم الخنزير، فإنه في الماضي لم يكن الإنسان يعرف شيئا عن أسرار هذا  
 التحريم. ولكن المعروف اليوم أن لحمه يسبب أمراضا خطيرة، لأنه يحتوي على أكبر كمية من حمض  
 اليوريك بالنسبة إلى باقي الحيوانات التي تفرز هذه المادة باستمرار عن طريق البول دونه. وجسم  
 الإنسان مثلا يفرز 90% من هذه المادة بمساعدة الكلتيين. بينما الخنزير لا يفرز من حمض اليوريك  
 إلا 02% والكمية المتبقية كلها تصبح جزءا من لحمه، وهو ما يجعله يشكو من آلام المفاصل كما  
 يشكو منها ومن الروماتيزم والأمراض المعاملة أكلو لحمه(6).

1 - يس / 36.

2 - الحجر / 22.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص176 وهولمشها.

4 - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى موريس بيكاي، القرآن الكريم و... وكذا مأسل الإنسان؟ وأيضا وحيد الدين  
 خان، الإسلام يتحدى، الباب السابع يتداء من ص123. وأيضا بشير التركي، لله العليم، ط1، د ت ن، تونس 1979.

5 - المائدة / 3.

6 - وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ص 151-152.

يضاف إلى ما سبق أنه في أساسه حيوان قدر يأكل الحشرات<sup>(1)</sup>، والديدان، ويفصل العيش في مياه المجاري والقنورات.

وبلاحظ شين آخر على الخنزير يتعلق بحالته تحسني فهو لا يعار على أنثاه والغيرة كما هو ملاحظ فطرة في الإنسان والحيوان. وهو ما يلاحظ من تصارع ذكور الحيوانات على إناثها وتكون الأنثى في النهاية من نصيب الأقوى. أما ذكور الخنازير فلا تصارع على إناثها لأنها لا توجد عندها هذه الغيرة. وأكل لحم الخنزير قد تتأثر طبيعته بهذا وهو ما يلاحظ عند تعريبين أكل الخنازير فإن الديوثة عندهم صارت طبيعة وطبعها. ومع كل هذه التعريفات في أكله فإن بورغاد يدعو المسلمين إلى أكله لا لسبب سوى أن سيده بطرس أباحه بعد أن كان محرماً بنص التوراة. ولا زال اليهود إلى الآن يحرمون، وهو يعلم أن الرومان لأمر سياسي حاولوا إباحتها وبحثوا ليهود على أكله - لأنه كان من مأكولاتهم - قبل ميلاد المسيح. وذلك عندما أمر الملك أنطيوخس أن يصحى في مديح الهيكل بأورشليم بالخنازير سنة 168 ق م. فقامت طائفة الفريسيين قيامة رجل واحد، وعرضوا أنفسهم للموت بالألاف كراهة لهذه البدعة النجسة<sup>(2)</sup> وها هو نص التحريم من العهد القديم: «والخنزير لأنه يشق الغنفل لكنه لا يجتر فهو نجس لكم، فمن لحمها لا تأكلوا وجثتها لا تلمسوا»<sup>(3)</sup>.

ولما بعث المسيح عليه السلام لم يلع هذا الحكم، ولكن الخنازير كانت من الحيوانات التي يرببها الرومان واليونان ويأكلون لحومها فأباحها لهم بطرس هي وكافة الهوام والحشرات من أجل استمالتهم إلى النصرانية، وذلك على إثر رؤية منامية حسب زعمهم تقيد تحليل لحم الخنزير وكافة دواب الأرض والحشرات والزواحف والطيور والوحوش. وها هو النص المزعوم «... صعد بطرس على السطح ليصلي... فجاء كثيراً واشتهى أن يأكل. وبينما هم يهيؤون له وقعت عليه غيبته، فرأى السماء مفتوحة وإناء نازل عليه مثل ملاءة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومُدلاة على الأرض، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزخافات وطيور السماء، وصار إليه صوت قم يا بطرس اذبح وكل، فقال بطرس كلا يارب لأنني لم أكل قط شيئاً دنساً أو نجساً. ثم أكمل كسط سكتنا فصارت نجساً، فصار إليه أيضاً صوت ثانية ما طهره الله لا تدنسه أنت، وكان هذا على ثلاث مرات ثم ارتفع الإناء أيضاً إلى السماء»<sup>(4)</sup> (5).

والنتيجة أن بطرس أباحه لأن الرومان الوثنيين كانوا يأكلونه لا بسبب هذه الرؤيا المزعومة التي لا يصدقها العقل.

1 - المرجع نفسه، المراجع، هامش 152.

2 - عباس محمود العقاد. حياة المسيح. ص 244.

3 - تثنية، 1 ص ح 14. فقرة 8.

4 - أعمال الرسل. 1 ص ح 10، فقرات 9-16.

5 - ومن أراد التوسع فليرجع إلى محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 135، أيضاً محمد رجب شتيوي، المجمع، ص 104، 105.

والنتائج المستخلصة من كل ما سبق هي :

الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها سواء مما ذكرناه في التنبؤات أو مما ذكرناه في الإعجاز العلمي، وهي دليل قطعي على أن القرآن الكريم من عند الله. والقرآن ذاته يبين هذه الحقيقة منبريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق<sup>(1)</sup>. ذلك أن القرآن الكريم نزل في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا قليلا. فقد كانت معلومات عصر محمد ولا سيما معلومات الكتاب المقدس تعتبر المطر ينزل من السماء وأن الأرض مستوية والنجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء أو قناديل معلقة في الفضاء وأن الأرض ساكنة والشمس تدور حولها، ثم أخذ العلم يتطور فغير معلوماتنا عن كل أجزاء الجسم وشعب العلم المختلفة <sup>منها</sup> يدل على أنه لا وجود لكلام إنساني يتوهم صحته كليا، لتأثر المتكلم بما هو معروف في عصره من معتقدات وعلوم فيقوم بسرده وهو ما جعلنا لا نجد كتابا مضى عليه زمن خال من الأخطاء نظرا إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين.

«ولكن القرآن الكريم يختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية فهو حق وصادق في كل ما قال. كما كان في القرون الغابرة. ولم يطرأ على مقاله أي تغيير رغم مضي قرون وعصور طويلة. وهذا في نفسه دليل على أن منبعه يحيط بالأزل وبالأبد علما، وهو يعلم سائر الحقائق في صورتها النهائية والحقيقية. ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال، ولو كان القرآن الكريم من عند محمد أو أي عبقرى لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة كما يحدث لكل كلام إنساني في مستقبله»<sup>(2)</sup>.

ونختم حديثنا هنا بما ختم به موريس بيكاي «إن القرآن... يظهر أيضا لكل من يشرع في دراسته بموضوعية وعلى ضوء العلوم - طابعه الخاص، وهو التوافق مع المعطيات العلمية الحديثة، بل أكثر من ذلك... يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنسانا في عصر محمد <sup>ﷺ</sup> قد استطاع أن يؤلفها، وعلى هذا فالمعارف العلمية الحديثة تسمح بفهم بعض الآيات القرآنية التي كانت بلا تفسير صحيح حتى الآن. إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علميا، وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماما مع المعطيات الحديثة... ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد <sup>ﷺ</sup> لذا فمن الواجب أن ينظر إلى القرآن على أنه وحي من الله وأن تعطى له مكانة خاصة جدا، حيث إن صحته

أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث احتواءه على المعطيات العلمية المتدروسة في عصرنا كأنها تتحدى أي تفسير وضعي...»<sup>(1)</sup>.

وهذا فإن القرآن من عند الله ومحمد نبي. وما سبق إضافة لهذه النتيجة المبطللة لهجوم بورغاد على القرآن وصاحبه فإنه يبين لنا تنوع مناحي إعجاز القرآن الكريم وظهور مناحي إعجاز جديدة فيه باستمرار أي بطريقة طردية مع تقدم العقل الإنساني وتقدم العلوم. وكل جانب من إعجازه يكفي دليلا على أنه من عند الله وبذلك تظهر نبوة محمد ورسالته بجلاء وهذا عكس الكتاب المقدس الذي كلما تقدم العقل وتقدمت العلوم زادت أخطاؤه وخطايا أصحابه.

### III - الإعجاز القصصي (إخبار القرآن الكريم عن الماضي السحيق)

نور

#### تفنيد الزعم بأن محمدا (ص) أخذ القرآن عن الكتاب المقدس

بعد قصص القرآن أحد أهم موضوعاته، ولقد ورد ما يشبه هذا القصص في ما يسمى الكتاب المقدس. والتساؤل المطروح هو: مامصدر هذا القصص القرآني؟ رجال الإستشراق و الإكليروس يتهمون الرسول ﷺ بأنه أخذ كما أخذ غيره من الكتاب المقدس، ومنهم بورغاد الذي اتهم خاتم الأنبياء بأنه أخذ كل شئ من اليهود والنصارى بما في ذلك الوجدانية التي علمها للقبائل العربية ولكنه علمها للعرب مخلوطة بالمشرك عكس العقيدة النصرانية الموحدة! . وقد تعلم كل هذا أثناء سفره للمتجر<sup>(2)</sup> إلخ.

والواقع أن قصص القرآن بعد أحد جوانب إعجازه ذلك أن ما اشتمل عليه من قصص صادقة لم يعرفها محمد ﷺ إلا عن طريق الوحي لأنه لم يجلس إلى معلم ليتعلم منه ولم يغادر بطحاء مكة إلا مرتين إحداهما في الثانية عشرة. والأخرى في نحو الخامسة والعشرين، فصدقها مع هذه الأمية دليل على أنها من عند الله<sup>(3)</sup>. هذا ما نؤمن به نحن المسلمين ونعتبره بديها ولنبدأ مناقشة هذه القضية من قصة بحيرا الراهب.

\* قصة بحيرا الراهب : تذكر هذه القصة أن محمدا ﷺ قابله وهو في الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب في سفره إلى سوريا. فيزعم رجال الإكليروس والاستشراق أنه لقنه القرآن خلال هذه المقابلة. والصواب بمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرا لتعليم محمد ﷺ

1 - موريس بيكاي، القرآن الكريم و... من 285، 286.

2 - فرانسوا بورغاد. مسامرة قرطاجية، ج 2، من 43، 44.

3 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، من 9.

لأنها، إما أنها لم تحدث أصلاً وهو ما ذهب إليه كثير من المفكرين، أو يجب علينا أن نأخذ كل الوقائع التي تنوِّكها في الاعتبار، وسنجد أن القصة تذكر أن المقابلة تمت في حضور جميع أفراد القافلة وأن الرسول ﷺ كان مسؤولاً لا مستمعاً أي أن بحيرا كان يسأل النبي ﷺ بحبيب وبحيرى يسمع وليس العكس، والذي يأخذ هو المستمع لا المجيب. وتذكر القصة أنه بانتهاء الاستجواب تيقن الراهب من أن محمداً هذا هو الرسول الخاتم وبهذا فإن الفكرة تغند نفسها<sup>(1)</sup>. إذ مما ورد فيها أيضاً أن بحيراً لم يكن يصنع لهم طعاماً، وقد صنعه خصيصاً لما رأى علامات النبوة في خاتم الأنبياء، منها السحابة التي تظله والشجرة التي جلس تحتها فارتخت أغصانها<sup>لتنظله</sup>، ولما تخلف رسول الله ﷺ عن الذهاب إلى طعام بحيرا. أصر بحيرا على إحضاره، ولما حضر اختيره عن اللات والعزى فتأكد من أنه النبي، فأخذ يسأله عما يعرف من أوصافه من خلال الكتاب المقدس، وختم ذلك الاختبار برويته لخاتم النبوة بين كتفيه ﷺ ثم وجه أسئلته لعلم النبي ﷺ وختمها بأن طلب منه الرجوع بأبن أخيه ﷺ خوفاً من قتل اليهود له الخ القصة<sup>(2)</sup>. يضاف إلى هذا دليل آخر له أهميته القصوى هو سن النبي ﷺ الذي كان بين 9 و 12 سنة<sup>(3)</sup>. وهذه السن لا تسمح لمحمد ﷺ بتلقي القرآن الكريم من بحيرا الذي لو كان عنده القرآن لنسبه لنفسه وما أعطاه لمحمد ﷺ. ذلك أننا عندما نتنظر إلى القرآن، لو فرضنا جزافاً أنه ليس من عند الله فإننا مقتنعون -حتى أعداء محمد ﷺ أيضاً- بأن الذي أنتجه عبقرى، والذي يفتح القرآن ولا ينسبه لنفسه ويعطيه لغيره يكون عمله هذا في منتهى الحماسة والغباء -وهو ما يتناقض مع أصل الافتراض- إذ ينسبه لنفسه ليرفعها به، والذي نجده عند العظماء والمفكرين أن كثيرين منهم يسطون على إنتاج غيرهم ليرفعوا به أنفسهم لا أن يفرطوا فيما تقتقت به عبقريتهم ويعطونه للآخرين ليرفعوا به شأنهم ويدخلون به للتاريخ من باب الواسع، وهكذا :

### القرآن دليل عبقرية من أتى به

#### والعبقرى لا ينسب عبقرية لغيره ويبقى مغموراً مغموراً.

إنه يستحيل أن يكون بشر علم محمداً ﷺ القرآن الكريم.

وهل يمكن تعلم القرآن الكريم أو تعلم كل ما ورد في الكتاب المقدس من بحيرا خلال تلك

الجلسة القصيرة التي لم تزد على الوقت المخصص لتناول الطعام الذي أعده لهم بحيرا؟

1 - وهو ما اعترف به هولز الذي كتب مقالا "بالجريدة الأسبوعية" عدد يوليو أغسطس 1904 بعنوان "مصدر جديد للقرآن" حيث ورد بالخاتمة ما يأتي: «لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن ترى في الدور المستند إلى هذا الراهب السوري (إلا مجرد قصة من نسج الخيال) (محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، هامش ص 134).

2 - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى سيرة ابن هشام، ج 1، ص 180، 183. وكذلك ابن القيم الجوزي، زاد المعاد في هدى خير العباد، ج 1، ص 17.

3 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 57.

• ورقة بن نوفل<sup>(1)</sup> : وما يقال عن بحيرا الراهب يقال كذلك عن ورقة بن نوفل: ذلك أن الرواية التاريخية التي تبين اتصال محمد ﷺ به إما تذكر أنه بعد نزول الوحي عليه<sup>(2)</sup>. وذلك بعد أن أخبرته أمنا خديجة بما ذكر لها علامها مسيرة أنه أثناء رحلتها إلى الشام للإتجار بعائها كان إذا حلت للهاجرة واشتد لحر يرى ملكين يظلمان الرسول ﷺ من حر الشمس وهو يسير على بعيره وأيضا ما قلله الراهب الذي نزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبا من صومعته بعد أن استفسر من مسيرة عنه فقال ذلك الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، فلما أخبرت خديجة ورقة بكل ذلك قال لها ورقة : «لئن كان هذا حقا ياخديجة إن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه»<sup>(3)</sup>. بل يخبرنا التاريخ أن ورقة كان يستطيع الأمر ويقول: حتى متى؟ ولما بدأ نزول الوحي على رسول الله ﷺ انطلقت خديجة إلى ورقة وأخبرته بما حدث، فقال لها: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده... لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له: فليثبت فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك، فلما تلاقها أثناء الطواف بالكعبة قال ورقة لمحمد ﷺ: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرت الله نصرا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخة<sup>(4)</sup> (وسط رأسه) إلخ. ويذكر التاريخ أن ورقة هذا آمن بمحمد ﷺ قبل بعثته<sup>(5)</sup> ونقول عن ورقة ما قلناه عن بحيرا، وهو: لو كان عنده القرآن لنسبه لنفسه.

ومهما يكن من أمر. فإن مقابلة رسول الله ﷺ لكل من بحيرا وورقة لم تكن سرا، بل كان في كل منهما شهود، ولنسألهم، فإنهم يجيبون بها يثبت نبوة محمد ﷺ لا بما يوهم الأخذ منهما<sup>(6)</sup>.

1 - هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها. كان متحصرا، أمه هي هند بنت أبي كبير بن عبد بن قصي، ولا عقب لورقة. وهو أحد من آمن بالنبي (ص) قبل البعثة وبعد الرسالة (ابن هشام، السيرة النبوية، م 1 ص 191، 238، وهامش رقم 2، 191)

2 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 57.

3 / 4 - ابن هشام، السيرة النبوية، م 1. ص 188، 191، 238.

5 - المصدر نفسه، هامش رقم 1، ص 191.

6 - محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص 57.

- وجود بعض الزوج الأحباش وبعض الرومانيين في ضواحي مكة يعملون في الحانات :

هناك احتمال آخر بورده رجال الإسترقاق والإكثيروس، هو أنه كان يوجد في ضواحي مكة بعض أفراد من المعاصرين الرومان أو تزوج الأحباش "اتعمون لتتبيد" أي يعملون في الحانات أو "كادحون" يسكنون الأحياء المتردية، ويقال أيضا: إن الإنجيز درس في الحانات لعقليات خام<sup>(1)</sup>. فهل تأثر محمد بالكتاب المقدس في هذه الأماكن؟ إنهم لم يقدموا وثيقة واحدة عن علاقات طفلة لمحمد ﷺ من هذا النوع. والواقع أن هناك أدلة كثيرة تثبت استحالة مثل هذه العلاقات وحدثها مرتين تهافت الدعوى، منها:

1 - شواغل الرسول ﷺ قبل بعثته كانت معروفة ومحددة، إذ يؤكد لنا التاريخ الثابت المؤكد أن حركته ﷺ كانت على التوالي في أماكن ثلاثة، إما في الخلاء لرعي الغنم، وإما في التجارة مسافرا مع القوافل<sup>(2)</sup>. وهذا لم يحدث إلا مرة واحدة عندما ذهب بمال خديجة إلى الشام في سن 25. فوصل إلى بصرى من أرض الشام<sup>(3)</sup>، وهذه الرحلة كانت لتجارة، ويستحيل أن تكون كافية لأن يتعلم فيها محمد ﷺ من أهل الكتاب كل أو بعض ما ورد في الكتاب المقدس لقصرها، ولأسباب أخرى سنذكرها.

أما مجال تحركه الثابت فهو المجتمع العام مع رؤساء القبائل. وهكذا فلا خلق محمد ولا مولده ولا مشاغله تجعلنا نتصور ترده على تلك البيئة الهابطة.

2 - لا فائدة لمحمد ﷺ من العلاقات مع أولئك بانعي النبيذ ويستحيل تعلمه منهم. ذلك أن هؤلاء المطمورين - أهل الكتاب النصارى - لم يكونوا يجهلون دينهم فحسب ولكن بصفة خاصة - وهنا تتركز حجة القرآن الكريم - كانت لغتهم الأجنبية حاجزا طبيعيا أمام النبي<sup>(4)</sup> ﷺ « لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين »<sup>(5)</sup>.

3 - يضاف إلى ما سبق، تقديس أهل مكة وغيرهم من العرب للكعبة وحفظهم لأسابهم واعتبار أنفسهم - وهم كذلك بالفعل - من نسل إبراهيم وإسماعيل. ونحن لا نعرف شعبا آخر له مثل ما للعرب من شغف بعلم الأسباب حيث يحرسون على الإحتفاظ في ذكرتهم بسلسلة أجدادهم حتى وصلوا إلى الجيل العشرين، وظل وجود الكعبة المشرفة وبعض الأماكن المعروفة التي تحمل اسم إبراهيم

1 - انظر مقال مولرت السابق، ص 131 / عن محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 134.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 134.

3 - ابن القيم الجوزي، المرجع السابق، ص 17.

4 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 134، 135.

5 - النحل / 103.

واسماعيل يعرفهم ويذكرهم بعلاقتهم بهذه الأسماء المجيدة<sup>(1)</sup>. وهكذا كان العرب - كما ذكرنا - نسبة إلى حد أن الإنسان كان يعرف 20 جدا من أجداده، أي يعرف من أجداده ما يغطي حوالي 10 قرون، ولقد بلغ من تقدير أهل مكة للكعبة أن فرروا، أن لا يدخل مكة كتابي إلا أن يكون أجيرا لا يتحدث بشيء من أمر دينه ومن أمر كتابه، ولذلك لم تكن بمكة جاليات من اليهود - كما كانت بيثرب، ولا من النصارى كما كانت بنجران<sup>(2)</sup>.

4 - وكذلك كانت مكة مستقلة سياسيا، ولم تخضع قط لفرس أو روم<sup>(3)</sup>، أو أي قبيلة أخرى من القبائل العربية<sup>(4)</sup>.

5 - وقد زاد من كراهية أهل مكة خاصة والعرب عامة للنصرانية أولا واليهودية ثانيا ونفورهم من هاتين الديانتين ما فعله أبرهة الأشرم النصراني من إقدام على هدم الكعبة المشرفة خدمة للنصرانية وتحويل حج العرب إلى كنيسه "القليص"، بدلا عنها. وعندما نعم أن عام الفيل هو العام الذي ولد فيه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، وأن جده كان زعيما لقريش المواجهة لأبرهة ندرك جيدا أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يعرف حادثة الفيل جيدا، وكان كثير من أقاربه خاصة والقريشيين عامة الذين عايشوا الحدث وهم يرون الطير الأبايل ترمي نصارى أبرهة الأشرم المعتدين بحجارة من سجيل فتجعلهم كعصف مأكول يظفوا أحياء إلى ما بعد البعثة. وعندما نعلم دور جد محمد صلى الله عليه وسلم في مقابلة أبرهة ومادار بينهما من حوار، وندرك ما انطبع في أذهان قريش المعظمين للبيت وهي ترى رأي العين الطير الأبايل ترمي جيش أبرهة بحجارة من سجيل فتجعله كعصف مأكول من عقيدة حول عظمة الكعبة واحتقار وكراهية العاملين على تدميرها، ندرك جيدا استحالة أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذ عن أهل الكتاب.

6 - وأخيرا إذا كان هذا المصدر - الحثالات النصرانية في مكة - صالحا بالفعل للأخذ عنه

ألم يكن طبيعيا وفي متناول أعدائه كآبي جهل وغيره أن يلجأوا إليه ويحطموها به نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟

1 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 157.

2 - محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص 103، 104.

3 - وهذا رغم حرص هرقل على إخضاع مكة له سياسيا ودينيا، ويتمثل ذلك في حادثة الفيل التي فشلت كملمشير وكذلك المحاولة الثانية التي قام بها القيصر على هذا الإخضاع ولكنها هذه المرة كانت بطريقة سيئة لأنه لقتع بفشل الحسم العسكري بعد حادثة الفيل وذلك بواسطة عثمان بن الحويرث الذي قدم على قيصر الروم وتناصر عنده فمظمت منزله عنده فتوجه أميرا على مكة، فلما جاء المكين بذلك أنفوا من أن يدينوا الملك، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى صحبته المشهورة: ألا إن مكة حي لقاح لا تكبن لملك. فلم يتحقق مراد القيصر، وكان يقال لعثمان هذا: بطريق، ولا عقب له، ومات بالشام مسموما، سمه عمر. ومن حفة لقصاني لملك. راجع الروض الأثف. عن ابن هشام، لسيرة النبوة، م 1، ص 224، هامش رقم 2، ص 224.

4 - محمد حسين هيكل، المرجع السابق، ص 237.



وبفضحونه بدلا من أن يكلفوا أنفسهم عناء السفر إلى بثر بحتا عن أسلحة علمية بوجهونها ضده<sup>(1)</sup> من طرف اليهود.

\* محمد (ص) وبيئة أهل الكتاب الأوسع : بعد تعييننا لنتم السابقة ننقل إلى الحديث عن بيئة أوسع دائرة، وثقافة أخصى يمكن أن تكون أفكارها الدينية وطقوسها قد ساهمت في تكوين الإسلام. وتقوم التهمة على أن محمدا صلى الله عليه وسلم سافر في شبابه بين الفينة<sup>(2)</sup>، والأخرى إلى سوريا وربما إلى اليمن للتجارة، وعندما نعلم أن الغساسنة بسوريا وبني الحارث بنجران في اليمن كانوا قد تنصروا، فضلا عن وجود القبائل اليهودية بالمدينة وخيبر التي لم يتصل بها محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعد الهجرة فلماذا لا يكون محمد بما عرف عنه من دقة الملاحظة والاهتمام الفطري بالمسائل الأخلاقية قد تأثر بأفكار وأخلاق هذه المجتمعات التي تبتذ سموا ورقة أخلاق قومه الخسنة التي كانت تثير حنقه؟ هذا هو رأي غولد سيهر<sup>(3)</sup> الذي زعم أن مقارنة محمد صلى الله عليه وسلم لحياة قومه وتقليدهم بانطباعاته الحية التي اكتسبها من رحلاته العديدة قد أوجدت عنده الدفعة الأولى لنظامه الإصلاحى<sup>(4)</sup>.

وزاد بوغارد على هذا بأن الوجدانية التي علمها محمد صلى الله عليه وسلم للقبائل العربية تعلمها من اليهود والنصارى في سفره للمتجر، ولكنه تعلم النصرانية المخلوطة بالشرك، بسبب بعد الذين علموه إياها عن مجلس روما، أي أن النصارى الذين تعلم منهم محمد صلى الله عليه وسلم كانت نصرانيتهم مخلوطة بالشرك بسبب بعدهم عن الفاتيكان فتعلم منهم محمد أيضا ذلك الشرك.

والواقع أن بوغارد ذاته متأكد من نهافت هذه التهمة، ذلك أنه تبين لنا خلال تحليلنا للعقيدة النصرانية أنها عقيدة وثنية محضة قوامها الشرك. والعقيدة الإسلامية تقوم على التوحيد المطلق والتتزيه الصرف، تتناقض تناقضا كلياً مع عقيدة بوغارد. حددت بدقة، لا إختلاف في أصولها بين جميع الفرق الإسلامية، حددتها سورة الإخلاص بدقة لا مثيل لها (قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد)<sup>(5)</sup>.

بل إن ما عاب عليه القرآن الكريم النصارى هو شركهم ونسبتهم الولد لله عز وجل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وبينهم أنهم كفار بذلك (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم)<sup>(6)</sup>.

1 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 135.

2 - لقد ثبتنا قبلاً أنه (ص) لم يغادر بطحاء مكة إلا مرتين وللغمام فقط، إحداهما في سن 9 و الأخرى في سن 25.

3 - غولد سيهر (Gold Zihher) ينهاس (1850-1921م) مستشرق يهودي-مجري: زار بعض الأقطار العربية اهتم بدراسة الفرق الإسلامية والإسلام ولفقه والأدب العربي له تصانيف بالألمانية والإنجليزية والفرنسية في الإسلام ولفقه والأدب العربي، منها "العقيدة والشريعة في الإسلام" (المنجد، ص 397).

4 -

- GOLD ZIHER . le dogme et la loi de l'Islam. page 4

من محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 136.

5 - الإخلاص / 1-4.

6 - المائدة / 17.

بل وبين أيضا كفر بوغارد وأصحاب منته المثلثين نصا: لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد (1). وهذا دليل قاطع على عدم نأثر محمد ﷺ بالنصرانية إذ لو تأثر بها لأخذ عقيدتها، لأن العقيدة هي أساس الدين. هذا وإن المرء ليستغرب اتهام العقيدة الإسلامية بالشرك اللهم إلا إذا كان الذي لا يؤله بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويقضي حاجته البشرية يعد مشركا، كما نلاحظ شيئين آخرين على تهمة بوغارد هما :

- لماذا لم يخبرنا بوغارد بالسمر الذي جعل محمدا يتعلم النصرانية ولا يتعلم اليهودية؟.

- اعتبار بوغارد للمذاهب النصرانية الشرقية كلها منحرفة لبعدها عن مجلس روما. وأصحاب هذه المذاهب يعتبرون مجلس روما منحرفا، وتتساءل نحن: عند من توجد النصرانية النصرانية (2)؟.

بعد هذا نتساءل: هل دخل محمد ﷺ في الأراضي النصرانية الحقيقية؟ والجواب أنه لم يدخل، وذلك لعدم إشارة القرآن الكريم إطلاقا للمظاهر الخارجية للنصرانية بينما تكلم بتوسع عن أعماق روح النصرانية مما يتناقض تماما مع مسلك الشعراء العرب المعاصرين للرسول ﷺ الذين زاروا تلك البلاد (2)، كما يتناقض مع الاعتقاد بأن هذا المتكلم عن النصرانية إنما تكلم عنها بعد رؤيته لرجالها واختلاطه بهم.

لأن الواصف مهما كان مبالغاً في التجريد فلا يمكنه التخلص التام من الوصف الخارجي لأنه من خلاله يمكن أن ينفذ إلى الأعماق. بينما نجد القرآن الكريم قد تكلم بتوسع عن أعماق روح النصرانية وجوهرها دون أن يشير أية إشارة إلى وصف مظاهرها الخارجية، وهذا دليل على أن مصدر معرفة محمد لذلك إنما هو الوحي.

ويزيد موقفنا هذا تأكيدا ما يؤكدته كثير من الكتاب من أن رحلات القوافل التجارية التي صاحبها الرسول ﷺ لم تقده إلى أبعد من سوق "حباشا" بتهامة وعراش باليمن (3)، ولنفرض أنه اتصل بالفعل بالنصرانية آنذاك، فهل كان مسجد فيها ما يسموه؟ أو ما يأخذه منها؟ لقد تبين لنا أثناء حديثنا عن العقيدة النصرانية والأنجيل أن تلك المرحلة كان الصراع فيها بين الطوائف النصرانية على أشده، وكانت جدالاتهم لا تنتهي، ومجامعهم المقدسة تعقد الواحد تلو الآخر، كل مجمع يعلن الذي سبقه ويحكم على حاضريه باللعن والحرمان وعلى كتبهم بالحرق، وكل طائفة تلعن الأخرى. وتبين لنا كيف ظهرت بين رجال الإكليريوس الأمراض التي لا علاج لها من سيمونية وأكل أموال الناس بالباطل وسفك الدماء والشذوذ الجنسي والمساكنة الروحية وما إلى ذلك، وأنه منذ مجمع نيقية الأول بل وقبله

1 - المائدة / 73.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 135، 136.

3 - ومن هؤلاء سبرنجر (Spranger) نكره هورث في المقال السابق، ص 128.

-Spranger, cité par Huart, une Nouvelle source de Koran p. 128.

من محمد عبد الله دراز، مدخل، هامش ص 136.

والعالم النصراني يزداد تمزقا، وكل يوم يظهر مذهب ديني جديد ضد المذاهب السابقة واللاحقة، كل قادر على الآخر بضطهده وبيدمره. كل الأمر على حله إلى أن جاء الإسلام فأصبحت المذاهب النصرانية تحتفي به من المذاهب النصرانية المضطهدة نها، وقد نتج عن ذلك فساد رجال الدين النصراني ومساكنهم وعلمتهم وخلصتهم. وقد صدق تاييلور عندما قال: « إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه... لم يكن إلا خرافات منفرة ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة وطقوسا دينية ضحلة وصيبانية، بحيث شعر العرب نوو العقول الفيرة بأنهم من قبل الله مكلفين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد... »<sup>(1)</sup>. وتوصل تاييلور إلى أن النصرانية الحقيقية في القرن 7 م كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة، حتى أنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها<sup>(2)</sup>. ولقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة التي اعترف بها تاييلور وجميع مؤرخي النصرانية في قوله تعالى: « ومن الذين قالوا إنا نصراني أخذنا ميثاقهم فنصروا حظا مما ذكرنا به فأخربنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »<sup>(3)</sup>. ذلك أن هذه الآية تبين الانفصال واللاتجانس الذي كان بين النصرانية والنصارى في عهد محمد ﷺ وتعلن أن الصراع بين النصارى الناتج عن انفصالهم عن النصرانية سيمتد إلى يوم القيامة<sup>(4)</sup>.

وهنا نسجل اعجازا آخر في القرآن الكريم، ذلك أننا الآن بعد نزول هذه الآية بأربعة عشر قرنا ونرى العداوة والبغضاء بين النصارى واستمرار الصراع والإقتال بينهم وبعدهم جميعا عن النصرانية الحقة. وهل يوجد في النصرانية ما يأخذه منها محمد ﷺ؟

ومع هذا نواصل النقضي فنتساءل: هل يمكن أن يكون محمد ﷺ قد تأثر بتعرب المنتصرين؟ ولكننا نجد:

\* حالة العرب المنتصرين أسوأ من النصارى السابقين : فنصيغ القضية كما يأتي :

إذا كان ما سبق حال النصرانية والنصارى، فهل كان سلوك العرب المنتصرين أحسن حالا من النصارى الأصليين السابق ذكرهم؟ والجواب، لا. ذلك أنه رغم تنصير بعض قبائل العرب في الجاهلية بموريا (الغساسنة) إلا أنهم ظلوا ملازمين لعاداتهم وتقاليدهم الوثنية القديمة إلى حد أن التغالبة

1 - تاييلور، المسيحية القديمة م 1، ص 266. عن محمد عبد الله دراز، مدخل 137.

2 - اسحاق تاييلور، ذكره د/سكلير سمدال في مصادر القرآن بالإنجليزية، ص 136، 137.

- Taylor, cité par Dr Sinclair Tisdall sources of the Koran.

عن محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 138

3 - المائدة / 14.

4 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 137، 139.

لم يأخذوا من النصرانية سوى شرب الخمر. ولقد أقر بهذا الأبا لامانس<sup>(1)</sup>، -الذي عزي- انعدام تأثير النصرانية إلى بعد معتقها العرب عن الرعية المناسبة للكنيسة<sup>(2)</sup>. ولقد اعترف هوارت<sup>(3)</sup>، "Huart" في النهاية بأنه « مهما كان إجراء الفكرة التي تقول بأن تفكير... محمد قد تأثر بقوة عندما شاهد تطبيق الديانة المسيحية بسوريا فإنه يتحتم استبعادها، نظرا لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة<sup>(4)</sup> ».

ولقد علق دراز على ما سبق بقوله: « هذا ابن هو المشهد الحي الذي يمتد أمام نظير المشاهد فحينما اتجه وجد ضللا يحتاج إلى هداية، وانحرافا يتطلب التوفيم، ولن يجد أبدا نموذجا أخلاقيا وأديبا يصلح لأن ينقله محمد أو يبني عليه نظامه الإصلاحية، فلا شك أن المواد التي صادفها حتى الآن قد تجمعت في بناء يصلح للهدم، ولم يكن فيها ما يصلح لتقييم عليه بناءه الجديد<sup>(5)</sup> ». فهل يمكن أن يكون قد أخذ مباشرة من الكتاب المقدس؟

\* محمد والإطلاع المباشر للكتاب المقدس : بعد تنفيذ كل المزاعم السابقة، بقي احتمال آخر هو: ألا يمكن أن يكون محمد ﷺ قد استنبط الإسلام من خلال مطالعته المباشرة للكتب المقدسة القديمة يهودية أو نصرانية أو غيرها؟ ولكي يتوقع هذا الاحتمال فإنه يتطلب أن يكون محمد يعرف القراءة والكتابة، ولكن القرآن الكريم أجاب بأميته بل برهن بأميته على ربانية تعليمه. إنه لا يقرر فحسب أنه أمي من شعب أمي « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي... »<sup>(6)</sup>. « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم<sup>(7)</sup> ». بل يؤكد أنه لم يسبق له أن قرأ كتابا قبل القرآن الكريم أو كتب بيده « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتلون<sup>(8)</sup> »<sup>(9)</sup>.

ولقد كان معارضوه ﷺ يعرفون فيه هذه الأمية جيدا لأنهم عندما أرادوا تحليل المصدر الذي تلقى عنه حسب زعمهم أساطير الأولين لم يجروا أن يقولوا كتبها وإنما قالوا: «اكتتبها» أي كتبها

1 - الأب هنري لامانس (Lammens) (1862-1937): مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي، اشتهر بأبحاثه عن عرب الجاهلية والمعهد الأموي من مؤلفاته: « مهد الإسلام » و « مكة قبل الهجرة » و « الإسلام ». «خلافه معاوية» و تاريخ سوريا. دار مجلة «المشرق» (المنجد، ص 490).

2 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، مط، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص 310، 311.

3 - هوارت كليمان (Huart) (1854-1927م) مستشرق فرنسي نشر «البدء والتاريخ» لمطهر المقصبي، ألف تاريخ الأدب العربية (المنجد ص 600)

4 / 5 - محمد عبد الله دراز، ندخل، ص 137-139.

6 - الأعراف / 157.

7 - الجمعة / 2.

8 - العنكبوت / 48.

9 - البقرة، إعجاز القرآن، ج 1، ص 62، 63.

له غيره، «وقالوا لسلطير الأولين أكتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلا»<sup>(1)</sup>. وهنا يجب الإشارة إلى قضية في منتهى الأهمية، هي أنه يستحيل أن يكون محمد غير أمي، وإلا فإن الواقع يكذبه وسلاح محمد ﷺ الفعال هو الصدق، فكأن - لو لم يكن أميا - أن الكفار باتون إليه متهمكين مسرورين قائلين له: نعرف أنك لست أميا، فأنت كذاب. ولكنهم لم يفعلوا، بل أثبت القرآن الكريم الأمية لهم أيضا. ولم يحرروا أن يكذبوا محمدا ﷺ في ذلك، فهم أيضا إن أمبرون بالفعل، ولو كانوا غير ذلك فإن دعوة محمد ﷺ كلها تتحطم.

يضاف إلى ما سبق دليل آخر يبين استحالة تأثر محمد ﷺ بالتوراة والإنجيل وهو أن عصره لم تكن قد وجدت به توراة وإنجيل باللغة العربية<sup>(2)</sup>، بل الكتاب المقدس ذاته كان إلى ذلك الوقت لم يكتمل بعد، وكان محل أخذ ورد بين الطوائف النصرانية. وعدم وجود توراة وإنجيل بالعربية دليل قاطع على عدم تغلغل الفكرة اليهودية والنصرانية إذ لو كانت قد تغلغلت حقا في الثقافة والبيئة الجاهلية فمن غير المعقول والمفهوم أنه لا توجد ترجمة عربية للكتاب المقدس، وهناك حدث مؤكد فيما يتعلق بالعهد الجديد (الأنجيل) وهو أنه حتى القرن 4 هـ لم تكن قد وضعت له ترجمة عربية، وقد عرفنا هذا من مصادر الغزالي (ت 505هـ - 1111م) الذي اضطر أن يلجأ إلى مخطوط قبطي ليكتب رده على النصراني المتمثل في كتاب «الرد على من ادعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل»<sup>(3)</sup>.

ولقد ذكر (الأب) شدياق الذي اضطر إلى البحث في كل جهة عن المصادر الإنجيلية التي استخدمها الغزالي في كتابه السابق الذكر حين كان يريد ترجمة كتاب الغزالي السابق ذكره، وذكر أن أول نص نصراني ترجم إلى العربية كان مخطوطا ومحفوظا بمكتبة القديس بطرسبرج. كتب حوالي عام 1060م بيد رجل يدعى ابن الصال<sup>(4)</sup> (5). وقد اعترف بهذه الحقيقة (الدكتور) جراف<sup>(6)</sup> الذي بين أن الكتاب المقدس المعرب لم يظهر إلا في القرن 9 أو 10. لأنه لم تكن حاجة لإنجيل معرب إلا في هذه الفترة<sup>(7)</sup>.

1 - الفرقان / 5.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 138-141.

3 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 311.

4- هو أبو إسحاق بن فخر الدولة أبو الفضل بن الصال. ولد ونشأ بمصر بنتهي نسبه إلى رجل قبطي أرثوذكسي اشتهر بإبن الصال عند النصراني. حضر المجمع الكنيسي الذي عقد بالإسكندرية سنة 1239م. وقد توفي بعد هذا المجمع (يوسف إيلان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة نط. مطبعة سركيس. مصر. 1928. ج 1. ص 183، 184).

5 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 311.

6 - هو جورج غراف (GRAF) (1875م - 1955م) مستشرق ألماني. له بالألمانية تاريخ الأدب العربية لمسيحية و"الأدب السريانية العربية" (المعجم، ص 388).

7 - محمد عبد الله دراز، مدخل، هامش ص 141

وهكذا لم تكن توجد ترجمة عربية للإنجيل في عصر الفزالي، فمن باب أولى عدم وجودها في العصر الجاهلي. يؤكد أيضا عدم تأثر محمد ﷺ بالكتاب المقدس أنه لم يثبت أن كان بمكة أو ضواحيها أي مركز ثقافي ديني يقوم بنشر فكرة الكتاب المقدس التي عبر عنها القرآن الكريم<sup>(1)</sup>. ومع أن الكتاب المقدس بناء على ما سبق، كان حكرا على اللغات الأجنبية ولم يكن قد اكتمل بعد كما بينا أثناء حديثنا عن الأناجيل، فإنه كان أيضا حكرا لبعض العلماء الذين كانوا يعرفون تلك اللغات المكتوب بها، وكانوا لا يتنازلون عن بعض أوراق من التوراة إلا مع حرصهم على إخفاء الجزء الأكبر، ولقد وصفهم القرآن الكريم بالبخيل بما عندهم منها « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا »<sup>(2)</sup>.

والآن توصلنا إلى أنه لم تكن توجد أي ترجمة عربية للكتاب المقدس عامة والأناجيل خاصة في العصر الجاهلي، فهل يمكن أن توجد بصفة خاصة ترجمة للمعهد القديم للتوراة؟ إن القرآن الكريم الذي يذكر لنا صدى ما دار من المجادلة بين النبي ﷺ وبعض الحبار اليهود بالمدينة يتحداهم قائلا :  
 ﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾<sup>(3)</sup>. فهذا دليل قاطع على أنه لم يكن يوجد من العرب من يقرأ العبرية وأيضا على أنه لم تكن توجد ترجمة عربية للتوراة<sup>(4)</sup>. وأيضا على إخفاء اليهود لما عندهم، مما جعل على محمد استحالة تأثره بالكتاب المقدس، لأن المرء لا يمكنه أن يتأثر بكتاب لم يره، بل نجد القرآن الكريم يذهب إلى أبعد من هذا، وهو تحديه لليهود ﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾<sup>(5)</sup> فلو تأثر بهم ما ترددوا لحظة في فضحه واتهامه بأنه ينقل منهم ويبينون هذا للناس فيحطمون بذلك دعوته، وهم الذين كانوا يبحثون عن كل وسيلة لتعطيمه. ولكنه لم يثبت تاريخيا أنهم أثاروا قضية كهذه، فلو أخذ منهم ما ترددوا لحظة في فضحه وكشفه أيام أتباعه. ولكنهم لم يفعلوا، بل نجد محمدا ﷺ تحداهم بأكثر من هذا بعد أن شبههم بالحمير. وهو المباهلة، ولكنهم خافوا فرفضوها ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا... قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾<sup>(6)</sup>.

1 - مالك بن نبي، الظاهر القرآنية، ص 310-312.

2 - الأنعام / 91.

3 - آل عمران / 93.

4 - مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 312.

5 - آل عمران / 93.

6 - الجمعة / 5-7.

بل نجد القرآن الكريم يذهب إلى أبعد من المعاينة فيبين أنه أتى لبني إسرائيل أنفسهم ليبين لهم وجه الصواب فيما هم مختلفون فيه (في هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) (1).

الآن ثبت لنا أن محمد ﷺ لم يتأثر لا باليهودية ولا بالنصرانية، لا بواسطة التقى المباشر، ولا غير المباشر.

• محمد وبعض الشعراء العرب المتأثرون بأهل الكتاب : بعد أن تحققنا مما ذكرناه آنفا نتساءل: هل يمكن أن يكون محمد ﷺ قد تأثر ببعض الشعراء العرب المتأثرين باليهودية أو النصرانية أو ما شابههم؟ والجواب: أننا نلاحظ :

• أولا أن القرآن الكريم يبين لنا أن الشعر بالنسبة للرسول ﷺ لهو لا يليق بشخصه (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) (2).

• وثانيا نتساءل: ماذا يمكن لمحمد ﷺ أن يتعلم من الشعر وأشعراء أو الأدب والأدباء؟ وهنا نجد إتجاهين في الأدب الجاهلي.

الأول وهو أن بعض الشعراء مثل الأعشى كان يهتم بوصف التقاليد والطقوس الكنسية وهو ما لا نجد له أي أثر في القرآن كما قلنا قبلا، كما نجد اهتمام هؤلاء الشعراء منصبيا أكثر على شرب الخمر الذي سيوجه إليه القرآن الكريم ضربته للقاضية بدلا من تحبيذه. وهذه نقطة فاصلة بين الإسلام الذي يحرمه ويجعله من الكبائر والنصرانية التي تجعله من أقرب القربات إلى الله كما بينا في العشاء الرباني. وإذن فإن القرآن الكريم لا ينتمي إلى هذه الفئة.

وأما النوع الثاني من الشعراء فيكاد يتخصص في الأفكار الدينية، وأفضل نموذج لهذا النوع قصائد أمية بن أبي السلط. حيث يصف للدار الآخرة والقصص التوراتي وفي بعض المواضيع بنفس عبارات القرآن الكريم. فهل يمكن أن يكون خاتم الأنبياء تأثر به؟

ولكي يناقش هذا الافتراض فلا بد من إثبات أسبقية شعر أمية تاريخيا للقرآن. ولكن هذا

يستحيل إثباته لأن محمدا ﷺ وأميه عاشا متعاصرين وكانا في نفس العمر تقريبا. فضلا عن أن أمية عاش واستمر في قرض الشعر ما يقرب من 8 سنوات بعد نزول آخر آية من السور المكية التي يوجد تشابه بينها وبين شعر أمية مما يجعل ادعاء سبق هذا الشعر للقرآن تاريخيا، متهافتا. يؤكد هذا أن أمية لم يدع أصالة ولا إلهاما، بل إنه كثيرا ما عبر عن خيبة أمله وأسفه في هذا الشأن، مما يجعلنا نعتقد أنه هو الذي اندفع إلى التقليد لا محمد ﷺ بدليل أنه لم يجرؤ أحد من الكفار أن يتحدى محمدا ﷺ بشعر أمية عندما تحداهم للقرآن أن يأتوا بمثله أو حتى بمسورة واحدة من مثله ولو مكتوبة. وعلى عكس ذلك.

لقد أعلن محمد ﷺ على مسمع من جميع معاصريه بأنه لم يتلق علمه من بشر، (إن هو إلا وحي يوحى) (1).

وكان خصومه دائما على بقطة تامة لأقل شعرة يتفنون من خلالها ليوجهاوا ضربتهم القاضية إلى دعوته. ألم يكن من الأيسر لهم أن يضعوا يده على مسروقاته المفضوحة من شعامية الذي لم يكن قد جف مداده بدلا من أن يوجهوا حججهم في كل اتجاه وأن ينحاروا إلى كل افتراض. وصل إلى حد وصم الرسول ﷺ بالجنون لتفسير ظاهرة القرآن العجيبة (2).

وأين هو أمية هذا الذي يسرق محمد من شعره ولا يحرك ساكنا، ولا يثور ضده ويفضحه؟ لماذا لم يدع أنه هو الذي علم محمدا ﷺ. ومادام عنده ذلك لماذا لم ينسب القرآن لنفسه؟ كيف يكون هو الذي ألهم محمدا القرآن الكريم ولا ينسب نفسه فيخلد به نفسه؟

إننا نخلص إلى نتيجة مؤكدة، هي أن القرآن الكريم هو الذي كان أساس الإنتاج الأدبي في عصر نزوله، كما كان يقينا أساسه في العصور التالية (3).

ولقد أكد هذه النتيجة ما قام به الأباء اليسوعيون في مستهل القرن 19م حيث قاموا بأبحاث مهمة جدا في هذا الموضوع لكي يبينوا مدى مساهمة شعراء النصرانية في اجاهلية. وقد انتهت أبحاثهم بمحصول أدبي عظيم ليس له من النصرانية سوى العنوان المذكور. وكان لهذا العمل العظيم نتيجة مفاجئة ذات مغزى، هي أنه قد برهن على عكس ما كان يريد مؤلفوه (4). وبهذا فإذا كانت النصرانية لم تؤثر حتى في الشعر الجاهلي فكيف تؤثر في القرآن الكريم؟

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق. هي انعدام أي مصدر لمحمد ﷺ يمكن أن يتأثر به (5)، خلال الفترة المكية كلها أي الثلاثة عشر سنة الأولى من بعثته ومن ميلاده إلى بعثته. ولم يبق إلا شئ واحد فقط أخذ منه محمد ﷺ القرآن كله هو الوحي.

• محمد ويهود المدينة : بعد إشارتنا لكل ما سبق. بقي لنا شئ آخر ننظره هو يهود المدينة، فهل يمكن أن يكون محمد ﷺ قد تأثر بهم بعد هجرته؟ ومع أن هذه القضية لا وزن لها علميا، لأن بعثته ﷺ كانت قد حدثت قبل ذلك بثلاثة عشر سنة. وأن المرحلة المكية كانت مرحلة البناء العقدي والعبادات والأخلاق إلخ. وفيها - وهذه القضية من الأهمية بمكان - نزل القصص القرآني الأساسي.

1 - لنجم / 4.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل. ص 142-144.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل. ص 142-144.

4 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 310.

5 - محمد عبد الله دراز، مدخل. ص 150.



مما يعني بوضوح استحالة نثره ﷺ بما كان عند اليهود. ومع هذا فلا بد من الإجابة على التساؤل، ولكي نجيب عليه، فلا بد من الإشارة إلى موقف القرآن الكريم<sup>(1)</sup> من اليهود لئلا نرى ما إذا كان القرآن الكريم يعتبر مجتمعهم مثلا صادقا للفضيلة الثمينة من عند الله مما يجعله حديرا بالإتباع أم أنه على النقيض من ذلك؟ كما أنه لا بد من الإشارة إلى موقفهم من محمد ﷺ ورسالته. ومن خلال هذا نتوصل إلى الجواب الدقيق على التساؤل المطروح.

لقد أعلن اليهود عداوتهم لخاتم الأنبياء وأخذوا يكيدون له منذ كان في مكة المكرمة، فإليهم كان مشركو مكة يشدون الرحال لكي يرشدوهم إلى ما يعيبون به على النبي ﷺ، وكان لهم دور خطير في الحروب التي وقعت بين محمد ﷺ والمشركين ولا سيما في غزوة الأحزاب كما وقعت حروب كثيرة بينه ﷺ وبين اليهود مباشرة مع بني قينقاع وبني قريظة وبني المنظير وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء<sup>(2)</sup>.

والقرآن الكريم لا نكاد نجد فيه سورة من مكته ومكذبه، لا تشير إليهم إن بطريق أو بآخر بتفضيهم تبين ماضيهم السيئ وحاضرهم المقرف، موافقهم مع أنبيائهم، عصيانهم لله عز وجل، اتخذوا عزير إلهًا، عبدوا العجل، يأكلون الربا، مجرمون، كذابون يعتقدون أنهم ليس عليهم حساب بشأن الطوائف الأخرى إلخ. وبعد الهجرة لم يغير القرآن الكريم موقفه تجاههم، وظل يبين ماضيهم السيئ وحاضرهم المقرف. فهم لا يراعون أحكام التوراة بإخلاص، يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، يأخذون الربا وقد نهوا عنه، يأكلون أموال الناس بالباطل، يقولون ليس علينا في الأميين سبيل. يقولون على الله الكذب وهم يعلمون. ليسوا عدولا في معاملاتهم. يقتلون الأنبياء، اتخذوا أجبارهم أربابا من دون الله. حملوا التوراة ثم لم يحملوها فهم مثل الحمير الحاملة للأسفار إلخ.

وهنا ليس من العجيب أن نفترض أن هؤلاء الذين يقف القرآن منهم هذا الموقف ويصدر عليهم تلك الأحكام الصارمة يمكن أن يكونوا نموذجا لمحمد ﷺ بقّدي به ويتخذهم مصدرا لتعاليمه؟ ورغم اقتناعنا باستحالة هذا إلا أننا نناقش القضية لإبطال التهمة محل الإبطال. ينطلق رجال الاكثيروس والامستراق من الاعتماد في البرهنة على ادعائهم السابق بالقصص القرآني زاعمين أن محمدا ﷺ أعلنه في المدينة لا في مكة<sup>(3)</sup>.

1 - ما لوردناه في الموقف، بعضه لخناء عن درز، مدخل، ص 150، 151. وبعضه الآخر اقتبسناه من القرآن الكريم مباشرة. وقد اكتفينا بالإشارة إلى بعض النماذج. ومن لرد المزيد فليرجع إلى كتاب الله عز وجل.

2 - ومن لرد التوسع في معرفة هذه الحروب مع اليهود فليرجع إلى أبي الحسن الندوي. لسيرة النبوية، ص 266-274.

3 - محمد عبد الله درز، مدخل، ص 151، 156.

والواقع أننا عندما نرجع إلى النص القرآني ذاته، نجد خطأ هذه الملاحظة التي ينطلقون منها لأنه ثبت لنا العكس، فالمسور المكية هي التي تعرض أطوار القصص بتفاصيلها الدقيقة - مع الفرق الشاسع بين قصص القرآن وقصص الكتاب المقدس كما بينا أثناء حديثنا عن النبوة والأنبياء في الكتاب المقدس - ولم يترك للمسور المدينة سوى فرصة استخلاص الدروس منها وغالبا في تلميحات موجزة. ومع هذا فإنه يوجد كما ذكرنا فروق جوهرية بين قصص القرآن الكريم وقصص التوراة تؤكد توافق قصص القرآن مع العقل ومع معطيات العلم الحديث عكس قصص التوراة الذي يتناقض معهما تناقضا صارخا، وهو ما يثير مشكلة مستحيلة الحل، ولكن ليس بالنسبة لقصص القرآن، بل لقصص التوراة. وقبل أن نشير إلى بعض تلك الفروق فإننا نرد على من زعم بأن محمدا ﷺ أخذ عن يهود المدينة. إن نتحدثهم بأن يذكروا لنا اسم الشخص أو الأشخاص الذين تلقى محمد ﷺ منهم العلم. لم يتجرأ أي مؤرخ يقدر مسؤولية العلمية أن يرد هذا التحدي. وهنا نشير إلى :

- موقف اليهود من محمد صلى الله عليه وسلم : لقد انقسم اليهود اتجاه محمد ﷺ إلى قسمين :

1 - **لغالبية العظمى** : وهذه هي التي يهمننا موقفها بسبب ذلك الموقف. كانت تعادي الإسلام قبل الهجرة وبعدها، أخذت علمها عنه حاولت خداعه وقتله، بثت المكائد في طريقه. وكانوا يطرحون عليه أسئلة محرجة بواسطة إخوانهم المشركين عن الروح وعن بعض الألفاظ التاريخية كأصحاب الكهف، كما كانوا ينكرون أحيانا نصوصا أكد الرسول ﷺ وجودها في كتبهم ولا يقرون بها إلا بعد تحديقهم وإثبات غشهم (كل الطعام كان حلالا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتوها إن كنتم صادقين، فمن... قل صدق الله) (1). وهنا من أطم محمدا ﷺ هذه الحقيقة؟ لماذا لم يحتجوا عليه قائلين: لقد أخذت هذه المعلومة من التوراة؟ ولكن كيف يحتجون والآية ذيلت بما لا يدع مجالاً لشك أو لبس أن مصدر تلك المعلومة هو الوحي، والواقع التاريخي يبين أنهم كانوا بالفعل يحنون رؤوسهم انهزاما واعترافا رغم الجحود أمام هذا النص وغيره. ولقد بلغت بهم السفاهة أن طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم من السماء كتابا مدونا (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرننا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) (2) (3). وظل الصراع بين خاتم الأنبياء ﷺ وبينهم ولم يقتصر الصراع على الجانب الفكري بل تعداه إلى تدبيرهم المؤامرات الواحدة تلو

1 - آل عمران / 93-95.

2 - النساء / 153.

3 - محمد عبد الله دراز مدخل، ص 162.

الأخرى للقضاء على الرسول ﷺ وعلى الإسلام . حمدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق» (1). وظل القرآن الكريم يفضحهم ويحطل نسيبتهم ويكشف خباياها (قد بنت اليغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) (2). وهكذا كان اليهود يعبدون كل البعد عن موقف الملقن المتصف بالترحيب (3).

وهنا نقدم ملاحظات تتمثل فيما يأتي :

طلية الفترة المدنية وحتى قبل الهجرة، لم يزعم اليهود أن محمدا ﷺ أخذ عنهم، أو أن أحدهم علمه، وقد تبين لنا أن الصراع بينه وبينهم كان وظل على أشده من بعثته إلى وفاته، فلو أخذ عنهم فكيف يغلون عن فرصة ذهبية يحطمونه بها تحطيمًا نهائيًا وهي إثبات أنهم أساتذته، أو أنه سرق منهم، ولكن الذي ثبت هو تحدي محمد ﷺ لهم بأن يستلوا على صدقه وصدق رسالته من التوراة ذاتها (قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) (4)، بل بين القرآن ليس هذا فحسب، بل (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختفون) (5). بل وصل الأمر بالقرآن الكريم أن تحداهم بعد أن شنع عليهم وحط من قدرهم بسبب فسادهم وكفرهم وإنكارهم نبوة محمد ﷺ فقال :

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين قل يا أيها الذين آمنوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) (6). وما يهمننا هنا أكثر هو (قل يا أيها الذين آمنوا... صادقين) (7). أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى وأن محمدا ﷺ وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفتنين إن كنتم صادقين فيما تزعمونه. قال تعالى: (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) (8). أي بما يعمنون لهم من الكفر والظلم والفجور (9).

والواقع أن هذه مباهلة بين النبي ﷺ واليهود. وقد بين القرآن الكريم أنهم - ليس في تلك اللحظة، لحظة المباهلة فحسب - بل في المستقبل الأبدى أيضا : لن يتمنوا الموت، ولذلك رفضوا المباهلة. لماذا رفضوها؟ لماذا رفضوا أن يدعوا على أنفسهم بالموت؟. يجيب القرآن الكريم :

1 - البقرة / 109.

2 - آل عمران / 118.

3 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 162.

4 - آل عمران / 93.

5 - النمل / 76.

6 - الجمعة / 5-7.

7 - الجمعة / 6.

8 - الجمعة / 7.

9 - ابن كثير اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج 4 ص 364.

«... بما قدموا أيديهم» (1). أي بما أسفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد ﷺ (2). وفي الحديث «والذي نفسي بيده لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات» (3). وهذا يعني بكل وضوح أنهم كانوا متأكدين من نبوة محمد ﷺ وإلا ما رفضوا المباحة التي كانت بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء ما لهم بعد الموت ولهذا قال تعالى: «ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليهم بالظالمين ولتجنبنهم أحرف الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة» (4). فهم أحرف على الحياة حتى من المشركين الذين لا كتب لهم أي على طول العمر لما يعملون من عاقبتهم الخاسرة عند الله. ولكن ما يحاذرون منه واقع لا محالة «وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر» (5) (6). والنتيجة من هذا:

إقامة الحجة عليهم، لأنهم رفضوا المباحة، والذي يرفض يكون رفضه دليلاً على يقينه من فساد زعمه وصواب ما عند خصمه ولو كان النبي ﷺ أخذ عنهم ما ترددوا في المباحة وما ترددوا في فضحه وبيان سرقاته منهم أو تبين علمانهم الذين لقنوه، بل ما كانت المباحة أصلاً لأن الذي دعا إليها وتحدثها بها هو القرآن الكريم وليس هم، بل هم رفضوها كما ذكرنا. وفي هذا السياق، فإنه كما رفض اليهود المباحة بوهي دليل مادي ومعنوي على صدق الرسول ﷺ وإثبات نبوته وأنهم لم يكونوا أساتذته وأن كل ما قاله القرآن الكريم عنهم صحيح. رفض كذلك النصارى المباحة، ويتمثل ذلك في وفد نصارى نجران الذين أتوا رسول الله ﷺ في المدينة. فلما أقام الحجة عليهم مناظرة عندوا فدعاهم بأمر القرآن إلى المباحة «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناعكم ونساءنا ونسأكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتل فنجعل لعنة الله على الكاذبين» (7). فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض «والله لئن باهلتكم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم وبنلوا الجزية وبعث معهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أميناً» (8).

1 - الجمعة / 7.

2 - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط 4. دار القرآن الكريم، بيروت. 1981 م. 3 ص. 380.

3 - تفسير القرطبي 96/18 نقلاً عن محمد الصابوني، المرجع السابق، ص 380. وقد روي الحديث بطرق مختلفة والألفاظ متقاربة منها قوله (ص): «... ولو أن اليهود تمنوا الموت لعنتوا ورأوا مقاعد من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله (ص) لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا ماله» رواه البخاري والترمذي والنسائي وأحمد.

4 - البقرة / 96، 95.

5 - البقرة / 96.

6 - ابن كثير لسماويل، تفسير القرآن العظيم، م 1 ص 127.

7 - آل عمران / 61.

8 - ابن كثير لسماويل، تفسير القرآن العظيم م 1 ص 127.

وملخص هذه المباحلة أن رؤساء الوفد المكون من 60 راكبا من نجران قموا المدينة وجعلوا يحاجون خاتم الأنبياء: ﷺ في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فحاجهم النبي ﷺ ودعا حبري الوفد إلى الإسلام فقالوا قد آمننا. قال ﷺ إنكما لم تسلما فأسلما، قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك قال ﷺ: «كذبتما بمنعكما من الإسلام ادعواكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير» قالوا: فمن أبوه يا محمدا؟ - يقصدون عيسى - فصمت رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها... فلما أتى رسول الله ﷺ الخبير من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك أي بالمباحلة. فقالوا: يا أبا القاسم: دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بـ "العاقب" وكان ذا رأي فيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمدا نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خير صاحبكم - المسيح عليه السلام - ولقد علمتم أنه مألوع قوم نبياً قط ما بقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للإستصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا النبي ﷺ وكان قد أتى بأهل بيته للملاعة - فقالوا: «يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ونرجع على ديننا»<sup>(1)</sup>، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالها فإنكم عندنا رضا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه<sup>(2)</sup>. وما يهنا هنا: أن النبي ﷺ تحدى وفد نصارى نجران بالمباحلة كما تحدى اليهود بها، فخاف النصارى

أيضا ورفضوا بل ارتضوا دفع الجزية على كثرتهم حيث كانت نجران تتكون من 73 قرية و 120 ألف مقاتل<sup>(3)</sup>، بل ارتضوا أن يبعث النبي ﷺ معهم أحد أصحابه ليحكموه فيما اختلفوا فيه، أي فضلوا أصحاب محمد على رؤسائهم الدينيين والزمانيين. وهذا له دلالة.

- لم يحتجوا على محمد بأنه أخذ عن الكتاب المقدس أو علمه نصراني. ولو كان كذلك لما فوتوا هذا وهم يبحثون عن شتى الوسائل لتعطيمه وتحطيم رسالته وقد تجشموا أتعاب السفر من نجران إلى المدينة المنورة سنة 9 هـ.

#### لملأوا

1 - قال رسول الله (ص) عن اليهود والنصارى الذين تحداهم بالمباحلة «... ولو أن اليهود تمنوا الموت وأولوا بالصلوات مقادهم من النار. ولو خرج الذين يهاولون رسول الله (ص) لرجموا لا يجنون مالا ولا أهلا» رواه النجار البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به، وقال الترمذي حسن صحيح. ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقي عن مرة عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن هكرمة عن ابن عباس (ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 369).

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 368.

- المرجع نفسه، ص 370.

- القرآن الكريم أثبت أن هناك قصصا عن عيسى عند النصارى ولكنه غير صحيح. وأما القصة الصحيحة فهو الذي أورده القرآن في أمر عيسى وفي غيره. وقد أورد هذا في معرض تحدي نصارى نجران بالمباهلة. وهذا يعني أن محمدا ﷺ أتى ليصحح أخطاء الكتاب المقدس لا ليستلهمه. وما هو النص القرآني (فمن حاجك فيه من بعد ما حاك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم،... إن هذا لهم للقصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهم العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) (1): أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد، وأنه لا إله إلا الله، وأن من عدل عن هذا القصص أو هذا المفهوم للألوهية فإن تولوا فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على نك شر الجزاء (2) الخ.

وهكذا تحدى محمد ﷺ أهل الكتاب جميعا يهودا ونصارى، ومن أهم ما تحداهم به المباهلة، وقد رفضاها، كلاما، ويستحيل أن يأخذ عنهما ثم يتحداهما بالمباهلة لأنها القاسمة، ورفضهما معا لها دليل على عدم تأثره بهما. وهنا نضيف قليلا له أهميته القصوى يفند مزاعهما أيضا هو أنه ﷺ أعلن من مكة ثم من المدينة أيضا أنه مبعوث للناس كافة بما في ذلك اليهود والنصارى، فكيف يقبل العقل أن يستلهم من لليهود والنصارى ثم يقول لهما إني رسول الله إليكما؟ حتما كانوا سيقولون له: بماذا أنت رسول الله إينا؟ أبما أخذته منا من ألوهية وتشريع وقصص وأخلاق وتبذ بالمستقبل الخ. إنك تلميذنا ونحن أساتنتك. ولكن الذي وقع أنه لا أحد منهما اعترض بهذا، بل الذي وقع أن أغلب النصارى دخلوا في الإسلام أفواجا في الشام ومصر وبلاد المغرب العربي وغيرها وتحولت هذه الملايين من الكيلومترات المربعة من نصرانية إلى إسلامية وتحول ملايين سكانها من نصارى إلى مسلمين بل أصبحوا من أكبر الناشرين للإسلام ومن الفاتحين وهكذا صدق تنبؤ وتحدي القرآن ( هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ) (3).

وإذا كان أغلب أولئك النصارى أسلموا فكان إسلامهم دليلا صادقا على فساد التهمة، فإن بعض أكبر أحبار اليهود أسلموا أيضا. وهذا يدعونا إلى الإشارة للقسم الآخر من اليهود رغم قلته.

ب - الأقلية من اليهود : ويمثلون فريقا من علماء بني إسرائيل ضاقوا ذرعا بادعاءات اليهود العنصرية وبغورهم الذاتي شعب الله المختار فجاجعوا إلى الرسول ﷺ ليستمعوا إلى تعاليمه ويتحققوا من شخصه بناء على صفاته الموجودة في كتبهم فعرفوه لأنهم كانوا ( يعرفونه كما يعرفون آبائهم) (4). فأمنوا به وقد بين القرآن الكريم حال هؤلاء بقوله: (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته

1 - آل عمران / 61-63.

2 - ابن كثير إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج 1، ص 371.

3 - الفتح / 28.

4 - البقرة / 146.

أولئك يؤمنون به<sup>(1)</sup>، وأشهر شخصية في هذا الفريق سيدنا عبد الله بن سلام رضي الله عنه بالظروف التي أعلن فيها إسلامه لها دلالة عظيمة، لأن اليهود كانوا يعتبرونه أوسعهم علما وأحسنهم خلقا، وذلك قبل إعلان إسلامه مباشرة. فما أعلن إسلامه أنكروا عليه كل ذلك بعد اتخاذه قراره مباشرة وفي نفس الجلسة<sup>(2)</sup> (3). وهو ما يعطينا فكرة جيدة عن طبائع اليهود.

وقبل أن نختم حديثنا هذا عن يهود المدينة فإبنا نشير إلى قضية لها أهميتها القصوى في نظرنا تبين استحالة تأثر محمد ﷺ بهم في القصص - وذلك إضافة لما ذكرناه قبلا - هو أن القصص عن الأنبياء السابقين إنما كان بمكة كما نكرنا قبلا، والآيات الغنية أو حتى الكثيرة التي نزلت بالمدينة تتعلق في أغلبها بالحقائق الدينية النصرانية التي ينكرها اليهود تماما.

• وبعبارة أخرى: قصص القرآن المتعلق بالتوراة وبالعهد القديم الذي يؤمن به اليهود مكي أي نزل على محمد ﷺ قبل هجرته إلى المدينة. وقصص القرآن المتعلق بالمسيح الذي لا يؤمن باليهود نزل بالمدينة.

وهكذا فمهما حاول رجال الإكليريوس والإستشراق أن يثبتوا تأثر محمد ﷺ بالكتاب المقدس مستكئين على ذلك ببعض نقاط التشابه بين ما ورد في القرآن وما ورد بكتبهم فإن جهودهم هذه هباء منثور، وجهد ضائع، لأنهم اصطنعوا أسلحة تقيد منها المبادئ القرآنية التي يبين القرآن أنها موجودة في الكتب المنزلة السابقة (وإنه لفي زبر الأولين)<sup>(4)</sup> (5) ولكنها حرقت فأتى محمد لتصحيحها.

1 - البقرة / 121.

2 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 163.

3 - قصة إسلامه أنه كان حيرا يعرف صفات النبي (ص) واسمه وزمانه. وكان كاتما هذا حتى قدم رسول الله (ص) للمدينة، وكان عبد الله بن سلام في رأس نخلة له يحمل فيها وعمته خالدة بنت الحارث تحته جالسة، فلما سمع خبر قدم رسول الله (ص) كبر فقالت له عمته حين سمعت تكبيره: خبيك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمة ما زدت قال: فقلت لها: أي عمه. هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به... فقالت: فذاك إذن، قال: ثم خرجت إلى رسول الله (ص) فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا. وأسلمت عمته خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها، وكنم إسلامه من اليهود ثم ذهب إلى رسول الله (ص) وقال له: يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت [ قبيح: باطل ] وبني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتعيني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يطعوا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني، ففعل رسول الله ذلك ودخل عليه اليهود... ثم قال لهم: أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحيرونا وعالمنا، فخرج عليهم وأخبرهم بإسلامه وقال لهم: يا مشر يهود: تقوا الله وقولوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون بأنه لرسول الله (ص) تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته... قالوا: كذبت ثم وقعوا به، قال: فقلت لرسول الله (ص): لم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل عذر وكنب وفجور قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها: (إن هشام، السورة النبوية، م 1، ص 516-517).

4 - الشعراء / 169.

5 - محمد عبد الله دراز، مدخل، ص 164.

لم ، ولا، ولن يوجد ، في البشرية جمعاء من يصلح أن يكون أستاذا  
لمحمد صلى الله عليه وسلم

بناء على كل ما سبق نطرح السؤال الموضوعي الآتي: هل كان في البشرية جمعاء -يهودا ونصارى وغيرهم- من يصلح أن يكون مغنا لمحمد ﷺ؟

ننظر إلى القرآن الكريم. فماذا يقول في علماء عصره من يهود ونصارى؟ لينظر بورغاد وأهل ملته في البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاوراة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتواريخ والأحكام، أو ليقروا ما شاعوا من السور المكية والمدنية التي نتحدث عن أهل الكتاب، ولينظروا بأي لسان يتكلم عنهم القرآن، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات، وأعمالهم بأنها الجرائم والمكرات<sup>(1)</sup>.

وهاهي نماذج من وصفهم وتفنيد أغلاطهم ومفانطهم التاريخية:

{ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون... فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون }<sup>(2)</sup>. { أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله... وما الله بغافل عما تعملون }<sup>(3)</sup>. { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة }<sup>(4)</sup>. { كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل... من قبل أن تنزل التوراة، قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين }<sup>(5)</sup>.

وهاهي بعض من وصفه وتفنيد خرافاتهم الدينية: { وما مسلمان لغوب }<sup>(6)</sup>. { وما كفر سليمان }<sup>(7)</sup>. { لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء }<sup>(8)</sup>. { وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا }<sup>(9)</sup>.

1 - محمد عبد الله دراز، النبا العظيم، ص 59.

2 - آل عمران / 65، 66.

3 - البقرة / 140.

4 - آل عمران / 96. وهي جواب عن قولهم: قبلتنا قبل قبلكم (محمد عبد الله دراز، النبا العظيم، هامش رقم 4، ص 59).

5 - آل عمران / 93، وهي رد لدعواهم أن الإبل كانت محرمة على إبراهيم (المرجع نفسه، هامش 5 ص 59).

6 - ق / 38، وهي تكذيب لقولهم إن الله بعد أن خلق الخلق في ستة أيام استراح في اليوم السابع (المرجع نفسه، هامش 6، ص 59).

7 - البقرة / 102، وهي تبرئة له من زعمهم أنه كان يعبد الأصنام ويبني لها المعابد وهو ما بيناه قبل أثناء حديثنا عن النبوة والأنبياء في الكتاب المقدس.

8 - آل عمران / 181.

9 - مائدة / 64.



- (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله<sup>(1)</sup>). (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحببوه... بل أنتم بشر ممن خلق... لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم... لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)<sup>(2)</sup>. (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم إن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله)<sup>(3)</sup>.

وهكذا صور القرآن الكريم علماء الدين في زمنه ولا سيما علماء النصارى في قمة الإنحراف والكفر والشرك ولقد كان طابع الشرك في ديانتهم لا يخفى على أحد حتى إن الأميين فطنوا له فاتخذوا منه عزاء لهم في شركهم (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا اللهمنا خير أم هو)<sup>(4)</sup>. بل اتخذوا منه حجة على أن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن بدع في الدين لم يسبق إليه، فقالوا «ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة»<sup>(5)</sup>، يعنون ملة النصرانية<sup>(6)</sup>، وهذا إبطال لدعوى بورغاد أن النبي ﷺ تعلم التوحيد النصراني المخلوط بالشرك حيث تعلمه من القبائل العربية إلخ، بل الشرك كان موجودا في ملة بورغاد بهذه الشهادة التاريخية للعرب الوثنيين والتي لا تقدر بثمن لنفسها، ولقد أثبتت عكس ما زعمه بوغاد، فهي أثبتت الوحدانية الصرفة المطلقة في الإسلام والشرك في النصرانية، وهكذا يظل القرآن حجة يفحم أعداءه عبر العصور.

وهاهي سلسلة أخرى من جرائمهم يسردها القرآن الكريم متواصلة الحلقات :

- (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا و بكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه... وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل)<sup>(7)</sup>.

«فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يتلقى عنهم صاحب القرآن علومه أم بالعكس ترى منه معلما يصحح أغلاطهم وينعي عليهم سوء حالهم. لا ننكر أنه كان في أهل الكتاب قليل من العلماء الراسخين، لكن الراسخون في العلم منهم آمنوا بالقرآن ونبي القرآن (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب)<sup>(8)</sup>. فلو كانوا له معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أنه يؤمنوا به»<sup>(9)</sup>.

1 - التوبة / 30.

2 - المائدة / 18، 72، 73.

3 - آل عمران / 64.

4 - الزخرف / 57.

5 - ص / 7.

6 - محمد عبد الله دراز، انبأ العظيم، ص 58-60.

7 - النساء / 155-161.

8 - الرعد / 43.

9 - محمد عبد الله دراز، انبأ العظيم، ص 60-61.

ثم ما هو حال علمائهم مع كتبهم؟ يقول القرآن عنهم بأنهم كانوا تارة: { يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا }<sup>(1)</sup>. وتارة: { يئوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون }<sup>(2)</sup>. وتارة { يحرفون الكلم عن مواضعه }<sup>(3)</sup>. وتارة يبترون الكتب فيظهرون بعضها ويخفون البعض الآخر { قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى... تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا }<sup>(4)</sup>. وتارة يحتاجون بمحفوظهم، فإذا قيل لهم { فاتوا بالتوراة فاتوها إن كنتم صادقين }<sup>(5)</sup>. بهتوا ولم يجيبوا، وأحيانا يتون بها فيقرعون ما قبل للشاهد وما بعده ويسترون بكفهم مكان النص المجادل فيه كما وقع في قصة الرجم.

فجاء القرآن يرميهم علنا باللبس والكنعان { يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون }<sup>(6)</sup>. بل جاء كاشفا لما ستروه مبينا لما كتموه حاكما فيما اختلفوا فيه { يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب }<sup>(7)</sup>. { إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين }<sup>(8)</sup>. { تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم... وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون }<sup>(9)</sup>.

ولقد علق دراز على هاتين الآيتين ما نصه: « انظر إلى هذه الآيات من سورتي النحل والنمل المكييتين كيف جعلت من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب، بل جعلته أول تلك

1 - البقرة / 79.

2 - آل عمران / 78.

3 - المائدة / 13.

4 - الأعمام / 91.

5 - آل عمران / 93.

6 - آل عمران / 71.

7 - المائدة / 15.

8 - النمل / 76، 77.

9 - النحل / 63، 64.

المقاصد حيث بدأت به وثقت بالهدى والرحمة للمؤمنين<sup>(1)</sup>. ويواصل دراز كلامه قائلا :  
 « ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمداً كان بطمه بشر : قل لنا: ما اسم هذا المعلم؟ ومن ذا  
 الذي رآه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟<sup>(2)</sup>».

### • لا شيء في الكتاب المقدس يصلح لأخذ محمد (ص) منه

والآن: نتساءل مندهشين ومتعجبين: ماذا يوجد في الكتاب المقدس حتى يأخذ منه محمد ﷺ؟  
 لقد ذكرنا قبلاً أنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد من البشر أوحى من الجن من يصلح أن  
 يتلمذ عليه محمد ﷺ. ونضيف إلى ذلك بأنه لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد أي كتاب بشري أو حتى  
 جنى يصلح أن يأخذ منه محمد ﷺ.  
 ولا يوجد أي شيء في الكتاب المقدس يصلح أن يأخذه محمد، وتصيغ هذا بعبارة أخرى  
 فنقول: ماذا يوجد في الكتاب المقدس حتى يأخذ منه محمد ﷺ؟

- هل يأخذ العقيدة. عقيدة محمد أساسها التوحيد الصرف، والتنزيه المحض والتجريد المطلق  
 تخلصها سورة الإخلاص، وعقيدة الكتاب المقدس لا تقوم إلا على الحط من الله عز وجل ووصفه  
 بجميع الأوصاف البشرية للقيحة. فهل يأخذ عقيدة عهده القديم فيأخذ منه أن الله عز وجل لم يعرف  
 مكان آدم في الجنة وأن الله قلق كثيراً بعد أكل آدم من شجرة المعرفة فأنزله إلى الأرض خوفاً من أن  
 يأكل من شجرة الخلد فيظفر بالخلود؟.

هل يأخذ منه أن الله تغذى عند إبراهيم بعجل وسمن وخبز ثم نام ليستربح، وأنه تصارع مع  
 يعقوب ولم يتمكن منه فاضطر للرضوخ لإرادته ومنحه لقب إسرائيل؟ هل يأخذ منه ما ذكرناه من  
 أوصاف هذا الإله العاجز المجدد إلخ كما بينا في الأوهية في العهد القديم؟

2/1 - محمد عبد الله دراز، أنبا العظيم، ص 62، 63. ونشير هنا إلى أن الوثنيين المكيين تهموا النبي (ص) بأنه  
 كان بطمه بشر، وسبب هذه التهمة لوحد أن يدروا عن أنفسهم معرفة لمسكوت والإفهام بأي صورة تتفق صدقا أو  
 كذبا. ولكن هذا البشر رلوا أنه يجب أن يتوفر فيه شرطان أحدهما أن لا يكون منهم لقناعتهم بأنهم كانوا أجهل من أن  
 يعلموا رجلا - هو محمد (ص) - جاءهم بها لم يعرفوه هم و لبلادهم ويمكن أن يقولوا: إن عند هذا البشر علم ما لم  
 يعلموا. وثانيتها أن يكون من سكان مكة ليروجوا دعوة أنه يلاقيه ويُطلي عليه بكرة وأصيلا. ووجدوا ضاللتهم في حداد  
 رومي نصراني كان علمي الفؤاد، أعجمي اللسان لا تحو قرآنته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه لا  
 مكاة له بين علماء النصارى واليهود ولم تكن متفرغا لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخلها. بل كان متفرغا  
 للحدادة. وقد بين القرآن الكريم تهافت هذا الإدعاء<sup>1</sup> وقد نظم لهم يقولون بما يعلم فبشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي  
 وهذا لسان عربي مبين<sup>2</sup> (النحل / 103). (دراز، المرجع نفسه، ص 64) وهكذا يكون القول بفكرة الحداد لرومي  
 لصحوة كما تزيغ وإلا لماذا لم ينسب القرآن لنفسه وأصطاء لمحمد صلى الله عليه وسلم؟ .

أم يأخذ منه إله العهد الجديد، فيأخذ عقيدة أن الله (الإن) مولود غير مخلوق وأن الله قتلته اليهود وضرب وبعق في وجهه وكان يرتجف خوفا من الصلب ويقول إن نفسي حزينة حتى الموت واختفى خوفا ودل عليه تلميذه وفر منه جميع تلاميذه. وأنه نتج عن رسا المحارم وأنه ابن يوسف النجار؟ وهل يأخذ عقيدة الأفياط أم الكاثوليك أم الأرثوذكس أم البرونستانت أم المارونيين. هل يأخذ منه أن الله ثلاثة وأن الثلاث تساوى واحدا؟

إن كل هذا يتناقض تناقضا مطلقا مع العقيدة التي أتى بها محمد ﷺ والتي لا تصف الله عز وجل إلا بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه، ولقد بينا قبلا أن النصرانية هي التي تأثرت بالإسلام، وأشرنا قبلا إلى قضية عبادة الثمانيات والمجامع التي عقدت بشأنها، وكيف كان الإسلام ملاذ ملايين النصارى. الذين دخلوا فيه أفواجا لأنهم وجدوا به صلاتهم وحمائيتهم حتى من بعضهم البعض.

ولما كان محمد ﷺ لم يأخذ عقيدة لا من اليهود ولا من النصارى، وكانت العقيدة هي لب الدين وروحه فإن تأثر محمد باليهودية أو النصرانية قضية مستحيلة الوقوع.

- وهل يأخذ الشريعة؟ لقد تبين لنا أثناء ردنا على بورغاد في اتهامه لشريعة القرآن بأن محمدا ﷺ أتى بشريعة صالحة لكل زمان ومكان وأنها وحدها التي حلت مشكلة الإنسان وقادرة على حلها أنا ومستقبلا وأنها تختلف اختلافا جذريا عن اليهودية والنصرانية وسنبيين في الإعجاز التشريعي أنها الشريعة الوحيدة في الوجود التي لم تتأثر بالقانون الروماني و لا بما كان يوجد في الكون زمن البعثة وسيظهر لنا أنها تبدأ مطلقا كل شرائع الوجود السابقة عليها والمعاصرة لها والتي أتت بعدها إلى الأبد. وأن هذه الشريعة إلى الآن رغم حالة المسلمين السيئة إلا أنها جعلتهم أقل الناس إجراما.

- وهل تأثر محمد ﷺ بأخلاق اليهود والنصارى؟ لقد تبين لنا قبلا أخلاق اليهود من خلال ما وقع بينهم وبين النبي ﷺ وكيف حل القرآن نفسياتهم وكشف بواطنهم ومكونات نفوسهم هم والنصارى على السواء وبيننا الصراعات التي كانت موجودة داخل الأكليروس وتشفي الأمراض التي لا حل لها كالكاسيمونية والشنوذ والزنا وما إلى ذلك. ولكن محمدا ﷺ كان هو نفسه الخلق، فهم إذن ليسوا قدوة، والتطور التاريخي يبين هذا، فهم الذين اعتنقوا الإسلام بالملايين وليس العكس.

- وهل تأثر بقصص الكتاب المقدس؟ وماذا يوجد فيه حتى يتأثر به محمد ﷺ؟ هل يأخذ منه إبراهيم الديوث والمتزوج بأخته، أم لوط السكرير الزاني بابنتيه أم سليمان العابد للأصنام أم قصة شمشون ودليلة أم قصة أهولة وأهلية أم نسب المسيح؟ أم ماذا؟.

لقد تبين لنا أثناء حديثنا عن النبوة والأنبياء في الكتاب المقدس أن محمدا ﷺ هو الذي أعاد الاعتبار للنبوة والأنبياء، وبوأ الأنبياء مكانتهم اللائقة بهم باعتبارهم رسل الله إلى البشرية لتبصيرها بالدين الصحيح. ولما كان اليهود والنصارى المعارضين والمحاربين لمحمد ﷺ من بعثته إلى وفاته

إلى الآن، فإن مصلحته الشخصية - وهي منطق المعارضة والصراع - لو لم يكن نبيا - هي أبرز ما يقوله الكتاب المقدس بعهديه في أنبياء بني إسرائيل وهم كما بينا: لقطاء، زناة، كذابون سفاكون للدماء عبدة أصنام... منطق المعارضة يقتضي إبراز هذه الصفات القبيحة و التوسع فيها ونشرها ليحطم بها معارضته.

ولكنه ﷺ بدل هذا عمل ضد ما يمكن اعتباره مصلحته الشخصية وبوأ أنبياء بني إسرائيل مكانتهم الحقيقية، فهل يمكن لمعارض أن يعمل على الرفع من قيمة معارضيه أم يعمل على تحطيمهم لتبقى الساحة له وحده فيحقق أغراضه؟ ولكن محمدا ﷺ شذ عن القاعدة لسبب واحد هو أن مقاله عن أنبيائهم إنما هو وحي أوحى إليه من الله عز وجل.

وإن فإن القرآن معجز، وهذا أحد جوانب إعجازه ومحمد نبي رسول ﷺ، وإلا من أين لمحمد الأُمِّي المبعوث في الأميين أن لا يعرف القصة فحسب، بل يصحح أخطاءها ويضعها في سياقها الإلهي. ولو نقل عن العهد القديم أو الجديد لوقع في أخطائهما لأنه لا يمكن أن يكون التقليد أصح من الأصل، ولكن الذي تبين لنا قبلا أن محمدا ﷺ كان بمثابة الأستاذ الذي يأخذ القلم الأحمر ويصحح الكتاب المقدس.

وهكذا لم يبق لنا إلا مصدر واحد لمعرفة مصدر القصص القرآني والقرآن ومحتواه كله، هذا المصدر هو الوحي، هو القرآن ذاته. وهو الذي يبين عن هذا القصص: {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين} (1). ويقول مثلا عن مريم: {ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} (2). ويقول عن قصة نوح: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا} (3). ويقول عن قصة يوسف: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ جمعوا أمرهم وهم يمكرون} (4). ويقول عن موسى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثابورا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون} (5).

وهكذا يبين القرآن الكريم أنه لا محمد ولا قومه كانوا يعرفون هذا القصص. ويستحيل أن يكون محمد عارفا به أو قومه. وإلا تحطمت رسالته كلها لأن الواقع سيكذبه حيث يأتيه قومه محتجين

1 - يوسف / 3.

2 - آل عمران / 44.

3 - هود / 49.

4 - يوسف / 102.

5 - القصص / 44-46.

قائلين له أنت تكذب لأننا نعرف هذا القصص وأنت تعرفه. ولكنهم لم يفعلوا وهم الذين كانوا يبحثون عن أي دليل يحطمونه به فكيف يجدون دليلا ماديا قويا يحطمون به محمدا ﷺ ولا يستخدمونه؟ ولكنهم كانوا يريدون عليه قائلين « وقلوا ما هذا إلا أساطير الأولين » وكما لم يحتج العرب لم يحتج اليهود والنصارى، وبهذا يتبين لنا بجلاء:

أن مصدر هذا القصص هو الله عزوجل وهو أحد جوانب إعجاز القرآن تكريم وأنه صحيح عكس قصص الكتاب المقدس { إن هذا لهو القصص الحق } (1).  
كإذن فالقرآن معجز ومحمد نبي رسول.

### الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم

لقد تضمن القرآن الكريم تشريعا دقيقا متكاملا لكل شئون الحياة أعجز علماء التشريع والقانون مما جعلهم يعتقدون المذتمرات الفقهية في أنحاء مختلفة من أوروبا ذاتها. وأجمع علماء الفقه والقانون على اختلاف نحلهم وملهم على أهمية لفقه الإسلامي وروعه وضرورة دراسته والإستفادة منه (2).  
الفقه الذي يقال عنه هذا في هذا الزمن إنما يعود مصدره إلى ما قبل 14 قرنا وأنه ظهر بين أناس يعيشون حياة بدائية لا ثقافة لهم تعقد حياتهم أو تولف منهم تركيبا اجتماعيا يحتاج إلى قانون، وإن وقعت مشكلة احتكموا إلى أعراف قبيلتهم المساندة، عندما نتأمل هذا ندرك أن التشريع القرآني من أهم مناجى إعجاز القرآن الكريم (3) لأنه لا مصدر بشري لمحمد ﷺ سوى أعراف قبيلته وثقافته، وحالها ما سبق، أو القوانين العالمية في عصره، وهذا يدعونا إلى المقارنة بين شريعة القرآن بتلك القوانين من جهة ليظهر لنا عدم تأثر شريعة القرآن بل وتفوقها، كما نقارن شريعة القرآن أيضا بالقوانين الوضعية الحالية ليظهر لنا تفوقها أيضا وهو ما يثبت أن القرآن من عند الله وأن محمدا نبي.

إن الشرع الذي اقترن بظهور محمد ﷺ هو القانون الروماني الذي كان مسيطرا في التطبيقات العلمية والقضائية في مصر والشام وغيرها من البلدان المجاورة للبلاد العربية والمحيطه بها من الغرب والشمال، هذا القانون الروماني يقول عنه علماء القانون اليوم بأنه من أكمل الشرائع التي تفتق عنها العقل البشري. وكل القوانين الحالية اليوم - ما عدا الإسلامية - تفرعت عن أصوله وقامت على دعائمه. ولذلك فإن من أراد معرفة منزلة الشريعة الإسلامية وأنها فوق مستوى العقل البشري

1 - آل عمران / 62.

2 - ومن ذلك المؤتمر الذي عقدته شعبة حقوق لشرقية من "المجمع الدولي للحقوق لمقارنة" في كلية الحقوق بجامعة باريس للبحث في لفقه الإسلامي، وذلك في عام 1951 م وقرر المؤتمر في نهايته بالإجماع أن مبادئ لفقه الإسلامي لها أهمية حقوقية تشريعية لا يمارى فيها، كما أعلنوا عن رغبتهم في أن يظل لسبوع لفقه الإسلامي يتابع أعماله سنة لسنة، وفي أن تولف لجنة لوضع مذهب لفقه الإسلامي لتيسير الرجوع إلى مؤلفاته وتكوين موسوعة فقهية أيضا لتسهيل معرفة أحكام الشريعة ومبادئها (محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، هامش ص 159).

3 - لمرجع نفسه، ص 158، 159.

فليقرن بينها وبينه<sup>(1)</sup> وقبل المقارنة ننظر: كيف تطور قانون الروماني؟ وذلك لأن هذه النظرة هي التي تبين أهمته وتبين كذلك قيمة من تفرق عليه.

- كيف تطور القانون الروماني؟ : لقد تطور هذا القانون وبلغ كماله في عهد جوستيان 533م وهو صفوة القوانين السابقة عليه وعلاج لعيوبها من يوم تأسيس روما عام 744 ق م إلى عام 533م أي أنه ثمرة تجارب قانونية لنحو 13 قرناً ظهرت فيها الفلسفة اليونانية وبلغت أوجها. وقد استعانوا بتلك التجارب القانونية بقوانين سولون لأثينا، وقوانين ليكورغ لاسبارطة والنظم اليونانية عامة، وكذلك المناهج النظامية والفلسفية التي أنتجها فلاسفة اليونان لبيان أفضل النظم التي يقوم عليها المجتمع الفاضل كالذي جاء في كتاب "الجمهورية" لأفلاطون، وكتاب «السياسة» لأرسطو وغيرها من ثمرات عقول الفلاسفة والعلماء في عهدي اليونان والرومان. فهو إذن خلاصة ما وصل إليه العقل البشري في مدى 13 قرناً في تنظيم الحقوق والواجبات موكل القوانين تأثرت به ماعدا الشريعة الإسلامية.

فإذا قرنا ووازننا بينه وبين ما جاء به محمد ﷺ النبي الأمي وأنتجت الموازنة أن العدل فيما أتى به محمد ﷺ كان ذلك دليلاً على أن القرآن الكريم من عند الله<sup>(2)</sup> وأن محمدًا نبي رسول لأنه لا يمكن لأمر من بينة أمية وفي خلال 23 سنة فقط أن يأتي بقانون أنتجه أكبر عباقرة الوجود وفلاسفته خلال 13 قرناً كاملة وهو ينقح ويعدل. إلا إذا كان ذلك القانون من مصدر غير بشري، أي من الله. ولنبدأ المقارنة.

- المقارنة والموازنة بين شريعة القرآن وشريعة الرومان وأطفالهم : في أي جانب اخترنا الموازنة بين شريعة القرآن وما اشتمل عليه القانون الروماني أو ما أتى بعده إلى الآن نجد الفرق بين السمو الروحي القرآني والأخلاق الأرضية، ولننشر إلى بعض الجوانب كنماذج على سبيل المثال لا الحصر.

1 - المساواة القانونية : القرآن الكريم وصل إلى أعلى درجاتها (يا أيها الناس إنا خلقناكم من نكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)<sup>(3)</sup>. بينما القوانين التي سبقته وعاصرته لم تعترف بأصلها. وكذلك التي أتت بعده إلى الآن لم تعرف تلك المساواة بين الأجناس والألوان. بل لم تعرف المساواة بين أحدا الأمة الواحدة<sup>(4)</sup>. فنجد الشرائع الوضعية إلى يومنا هذا تقوم على التفرقة العنصرية داخل الدولة الواحدة، ولا أدل على هذا من وضعية السود في الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا فقد برئ الإسلام من العصبية القبلية والعنصرية إلى جانب برامته من عصبية النسب والأسرة فبلغ بذلك مستوى لم تصل إليه "الحضارة" الغربية إلى يومنا هذا مما يعني بوضوح أن شريعة القرآن لم تتفرق على شرائع عصرها المتأثرة بالقانون الروماني وغيره فحسب بل على ما تفتق عنه

1 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن من دلائل اجزائه، ص 10، 11.

2 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 11-12.

3 - الحجرت / 13.

4 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 11-12.

الذهن الإنساني إلى اليوم، وكيف لا، وهذه الحضارة إلى اليوم تتيح للضمير الأمريكي إغناء عنصر الهنود الحمر إغناء منظما تحت سمع الدول وبصرها، كما تتيح له تلك التفرقة التكددة بين البيض والسود، وتتيح لحكومات روسيا والهند وبيوغوسلافيا وغيرها إغناء المسلمين وإبادتهم<sup>(1)</sup> على مرأى ومسمع من الدول المتحضرة أيضا.

ويبقى دائما فرق الكل - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وما يزيد نظرية المساواة أهمية وقيمة، أنها نزلت على الرسول ﷺ وهو يعيش في قوم أساس حياتهم وقوامها التفاضل، بالمال والجاه والشرف واللون، والتفاخر بالأباء والأمهات والقبائل والأجناس<sup>(2)</sup>. فوجد عدم المساواة حتى داخل القبيلة العربية ذاتها التي لم تكن تحنكم إلى القانون الروماني بل إلى عرف القبيلة. وما يزيد نظرية المساواة القانونية في الإسلام عظمة، أنها طبقت فعلا، ويمكن القول بأن أحد مظاهرها تمثل جليا في المواخاة بين المهاجرين والأنصار حيث صار الاعتبار لمكانة الشخص تنقوى والعمل الصالح وزال من النفوس الشعور بالفوقية وأصبح الجميع أمام القانون سواء. وبذلك حقق الإسلام المساواة التامة بين الناس إلى حد أن أصبح بلال الجيش الأسود مؤذن النبي ﷺ وهي مكانة ما بعدها مكانة، وهنا نتساءل :

كيف استطاع محمد ﷺ الذي ظهر في القرن 6 م أن يحل مشكلات القرن العشرين التي لم تتمكن الحضارة الغربية رغم ما وصلت إليه من تقدم علمي أن تحلها؟ إنه في الوقت الذي جاء فيه الإسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير والمحيا والممات والحقوق والواجبات أمام القانون وأمام الله في الدنيا والآخرة لا فضل إلا للعمل الصالح، ولا كرامة إلا للأتقى - كما بينت الآية السابقة - كانت كل المجتمعات البشرية تقوم على عكس هذه القاعدة المطلقة. فبعضهم كان يدعي ويصدق أنه من نسل الآلهة، وبعضهم الآخر يدعي ويصدق أن الدماء التي تجري في عروقه ليست كدماء الآخرين مما يجعله فوقهم، وبعض الملل والنحل كانت تفرق الشعوب إلى طبقات تعتقد أن بعضها خلق من رأس الإله مما يجعلها مقدسة. وخلق بعضها من قدميه مما يجعلها منبوذة، وكان يباح فيه للسيد أن يقتل عبده ويغذّبهم لأنهم من نوع آخر غير نوع السادة فجاء القرآن الكريم وحطم كل هذه التصورات والزعامات التي كانت تعج في الكون ويعج بها، فقرر مبدأ المساواة المطلقة وبين أن جميع الناس عبيد لله { إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا }<sup>(3)</sup>. وأنه ليس هناك دم عادي وآخر غير عادي. وما خلق أحد من رأس وآخر من قدم، بل كل الناس خلقوا كما ياتي: { والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً

1 - سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ط5، دار الشروق بيروت، القاهرة، 1978، ص 58.

2 - عبد القادر عوده، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ج1 ص 26.

3 - مريم / 93-95.



وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعنه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب  
إن ذلك على الله يسير (1).

وهكذا فجميع الناس من تراب ثم من نطفة، ففرز نلأسن وحدة أصله: تجسس البشري كله  
من تراب. والفرد: كل فرد من ماء مهين، والأصلية تنتفوي وتعمل الصالح لا غير (2).

2 - الرق : كان الرق حقيقة مقررّة ثابتة، أقر فلاسفة اليونان نظامه واعتبروه نظاما  
عادلا ولم تستكره شريعة من الشرائع بما في ذلك النصرانية التي أوردنا بعض نصوصها في ذلك  
أثناء ردنا على لا فيجيري، وقد أقر افلاطون نظامه واعتبره هو الطبيعة في المجتمع والأصل، وأنه  
ضرورة لا بد منها لاستقرار المجتمع وقرر أرسطو أنه هو نظام الفطرة، لأن بعض الناس لا يمكن أن  
يعيشوا إلا أرقاء وآخرين لا يكونون إلا أحرارا، فجاء النبي الأمي وقال: «الناس سواسية كأسنان  
المشط» وقال: «كلكم لأدم وأدم من تراب». ولم يسجل القرآن الكريم الرق في محكم آياته بل سجل  
العتق، ولم يرد في القرآن نص قط يبيح الرق، بل نصوصه كلها توجب العتق حتى أنه في حرب  
الإسلام العادلة (الجهاد)، لم يذكر القرآن رق الأسرى، بل قال: «حتى إذا آخضتموهم فشدوا الوثاق  
فأما منا بعد، وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها» (3). فلم يذكر في الأسرى إلا المن عليهم بإطلاقهم  
أو فدانهم بالمال إن كان في قومهم قدرة على الفداء، بل جعل إطعامهم في حالة الأسر من أفضل  
القربات إلى الله عزوجل (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا  
نريد منكم جزاء ولا شكورا) (4). ولقد وسع القرآن الكريم في أسباب العتق وفتح باب الحرية الإنسانية  
على مصراعيه واعتبره قربة عظيمة إلى الله ولو كان الرقيق غير مسلم فقال: (فلا تجتحم العقبة وما  
أدراك ما العقبة فك رقبة) (5). فجعل من أفضل القربات إلى الله التي تتخذ الإنسان من جهنم يوم القيامة  
عتق رقبة. وأوجب على من يفطر في رمضان عامدا من غير عتق رقبة، ومن يحلف وينحث  
عتق رقبة، ومن يظاهر زوجته عتق رقبة، ومن يقتل مؤمنا خطأ عتق رقبة، ومن طلب أن يكاتب، كاتبه  
سيده وتركه ليكسب ثمنه، ومن ضرب عبده ظلما فكفارته عتقه... وهكذا تعددت أسباب العتق حتى  
أنها لو نفذت كلها لا يبقى رقيق في دار الإسلام أكثر من سنة واحدة، كل هذا في زمن لم تكن تعرف  
فيه حقوق الإنسان (6)، إلى حد أن بلنتيانس «Plantianus» رئيس الحرس البيزنطي في روما تنصها أمر  
بإخصاء مائة غلام قدمهم هدية إلى البنت بمناسبة زواجها (7).

1 - فاطر / 11.

2 - سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص 56، 57.

3 - محمد / 4.

4 - الإنسان / 8.

5 - البلد / 11-13.

6 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 15، 16.

7 - ول ديورانت، قصة الحضارة، قيسر والمسيح، م 3، ج 3 (11)، ص 406.

وهكذا قضى الإسلام على جميع أساليب لرقق باستثناء باب أسرى الحرب لأنه خارج عن نطاقه، ومع ذلك فقد أمر بما ذكرنا من معاملة الأسرى، ومما يريد التراقيق تكريماً في شريعة القرآن عكس شريعة الإسلام أن :

- شريعة القرآن تخلف عقوبة الأرقاء : فَيَجْهَلُ عَقُوبَتَهُمْ نِصْفَ عَقُوبَةِ الْحُرِّ، بينما القانون الروماني يضاعف عقوبة للضعفاء، فالقرآن يقول في الإمام: (فَإِذَا أَحْصَيْتَ فَيَنْتِزِعُ بِنَاحِضَةٍ مَعْلُومَةٍ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ) (1). وكذا تعدد إن أتى بفاحشة فعقوبته نصف عقوبة الحر.

أما القانون الروماني فإنه يقول: « ومن يستهوي أرملة مستقيمة - يعني إباحة الزنا - أو عذراء فعقوبته إن كان من بيعة كريمة مصادرة نصف ماله. وإن كان من بيعة ذليلة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض » (2). النظر العادل يقر بالبداية نظر شريعة القرآن، لأن العقوبات يجب أن تسير بنسبة تصاعديّة مع الأشخاص لا نسبة عكسية، فنكسر جريمة الكبير وتصغر عقوبة الصغير. لأنه إذا هانت النفس على صاحبها سهل عليه الوقوع في الجرائم فكان التخفيف وإذا كبرت قيمة الرجل في أعين الناس كانت عليه تبعات بمقدار عظيمة. وكانت صفاته كياناً وتضاعفت العقوبة. فالجاء والثروة وغيرهما ليست متعا خالصة بل عليها تبعات بقدرها. وأن القوانين التي تسير عكسا لا طردا كالقانون الروماني قوانين ظالمة لأنها تستمد منطلقها من القوة، فكما كان الشخص من ذوي الجاه ضعفت عقوبته. وكما كان من الضعفاء زادت عقوبته، فهو يحمي الشريف ولا يحمي الضعيف، وقد سمي القرآن الكريم ذلك: حكم الجاهلية ولذلك قال في حق اليهود: وعندما طلبوا أن يحكم النبي ﷺ على الشريف الزاني بغير العقوبة المقررة :

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (3). ولقد وصلت شريعة القرآن إلى المساواة المطلقة بجعل جميع الناس أمامها سواء مهما كانت مكانتهم الاجتماعية وهو ما جعلها تبيد جميع الشرائع السابقة والمعاصرة والاحقة والحالية لأنه حتى الشرائع الحالية في كل دول العالم تجعل لبعض ذوي المناصب العليا العفو عن المجرمين وإعفاءهم من العقوبة مهما كانت أنواع الجرائم التي اقترفوها كالسرقة والقتل والزنا وغيرها. بينما محمد ﷺ يقرر عندما طلب منه إسقاط حد السرقة عن امرأة بسبب شرفها في قومها. وهي المرأة المخزومية فقال رافضاً ذلك رافضاً مطلقاً: (إِنَّمَا أَهْلُكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ، وَإِيمَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (4). وهكذا تبيد شريعة القرآن جميع شرائع الإنسان.

1 - النساء / 25.

2 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 12-13.

3 - المائدة / 52.

4 - محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 13-14.

3 - حملة الضعفاء إقتصاديا : كان لضعف ماكولا ضائعا والفقير بانسا جانما حتى جاء الإسلام فشرع قانون الزكاة وجعلها حقا مطونا في مال فغنى لا يخلص له إلا بعد إعطائها، ولم يعتبرها الإسلام إحصانا مذلا بل أوجبها على الأغنياء بقصها ولي الأمر بثيابة على الفقراء ويوزعها عليهم بمقدار حاجتهم<sup>(1)</sup>.

وهنا نسجل بأن الإسلام أول دين وأن نظامه السياسي أول نظام في الوجود حارب الأغنياء حماية للضعفاء، ويتمثل هذا في محاربة أبي بكر رضي الله عنه لما نعى الزكاة. ونستطيع القول بأن النظام الإقتصادي الذي أنت به شريعة القرآن أفضل نظام إقتصادي عرفه البشر في الوجود أزلا وأبدا جمع خير ما في المذهبين المتنازعين الرأسمالية والشيوعية وتتره عن مساوئهما<sup>(2)</sup>. فإذا كانت الملكية الخاصة هي المبدأ الوحيد للتملك في النظام الرأسمالي والملكية الاشتراكية (العامة) القائمة على التأميم هي المبدأ الوحيد للتملك في النظام الشيوعي أو الاشتراكي فإن النظام الإقتصادي الإسلامي يختلف عن هذين النظامين فيقوم على الملكية ذات الأشكال متنوعة بدلا من الشكل الواحد، فهو يقوم على الملكية الخاصة والملكية العامة وملكية الدولة. وكل شكل من هذه الأشكال له مجاله الخاص في المجتمع ولا يجوز إلغاؤه<sup>(3)</sup>. ودون أن نخوض في التفاصيل التي قد تخرجنا عن إطار البحث نشير. إلى قيام هذا الإقتصاد على مبدأ الحرية على مبدأ الحرية الإقتصادية في نطاق محدود وكذا مبدأ العدالة الإجتماعية الذي يحتوي على مبدئين لكل منهما خطوطه وتفصيلاته. أحدهما مبدأ التكافل الاجتماعي الذي طبقه الرسول ﷺ أثناء المواخاة بين المهاجرين والأنصار ويعد من مميزات المجتمع الإسلامي، وثانيهما مبدأ التوازن الاجتماعي وخالصة أركان الإقتصاد الإسلامي الأساسية هي :

1 - ملكية ذات أشكال متنوعة، يتحدد التوزيع في ضونها.

2 - حرية محدودة بالقيم الإسلامية في مجالات الإنتاج والتبادل والاستهلاك.

3 - عدالة اجتماعية تكفل للمجتمع سعاده، قوامها التكافل والتوازن.

ونشير إلى أن هذا الإقتصاد مرتبط بما يبثه الإسلام في البيئة الإسلامية من عواطف وأحاسيس قائمة على أساس مفاهيمه الخاصة، كعاطفة الأخوة التي تفجر في قلب كل مسلم ينبوعا من الحب للآخرين والمشاركة لهم في آلامهم وأفرحهم. هذه العواطف والمشاعر تلعب دورا خطيرا في تكيف الحياة الإقتصادية وتساند المذهب فيما يستهدفه من غايات<sup>(4)</sup>.

1- المرجع نفسه، ص 14.

2- يوسف القرضاوي، بينات لحل الإسلامي وشبهات لعمانين والمتغربين، ط 2. مكتبة رحاب الجزائر، 1989م، ص 155.

3 - محمد باقر الصدر، إحصانا بط، دار الكتب اللبناني، بيروت، دار الكتب المصري، القاهرة، 1977، ص 260.

4 - المرجع نفسه ص 260، 264-266.

ولكي يحمى الضعيف فإن الإسلام يمنع منعاً مطلقاً أن يصبح المال دولة بين الأغنياء دون سواهم (كمن لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (1)، ونشير إلى مثال واحد من مبادئ هذا الاقتصاد في مشكلة تعد مشكلة العصر الكبرى، هي قضية المديونية :

- قضية المديونية : القانون الروماني في بعض أنواعه يجعل الدائن يسترق المدين إن عجز عن الوفاء. والحضارة الغربية النصرانية الحالية تكبذ المدين مقابل إعطائه قرض بالربا الفاحش الذي يجعله عاجزاً، ليس عن سداد الدين <sup>فحسب</sup>، بل حتى عن سداد <sup>بموجب</sup> تضاعف خدمات الديون فيسدد أصل دينه أضعافاً مضاعفة وبهذا فإن الحضارة رغم تقدمها العلمي إلا أنها تستغل ضعف الضعيف - لأنه هو الذي يحتاج إلى الديون مظلماً - لتسبغ نهم الغني في حين يجب مساعدة الضعيف للأسباب الإنسانية. وهو ما أدى إلى كوارث جلت ببلدان كثيرة منها الجزائر مما حول الدول المستدينة إلى عبودية جديدة من شكل آخر.

وإذا كان هذا حال القوانين الوضعية، فإن كتاب -بورغاد المقدس يبيح الربا مع غير اليهودي وما هو النص « لا تقرض أخاك برّياً ربا فضة أوربا طعام أوربا شين ما مما يقرض بالربا. للأجنبي تقرض بالربا ولكن لأخيك لا تقرض برّياً » (2).

وهكذا نجد شريعة القرآن هي الوحيدة التي تقرر أن الدولة تسدد ديون المدين العاجز عن الوفاء إذا لم تكن الاستدانة لإسراف والغارمين (3)، كما أنه لا يجوز في أي حال من الأحوال القرض برّياً (وأحل الله البيع وحرم الربا ... وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون) (4). ويعد من حسنات الغني إذا تنازل عن دينه لمدين معسر هذا لم يصل إليه أي نظام أو دين إلى يومنا هذا، ولم يصل إليه أي قانون من قوانين البشر، فإذا كان الذي جاء بهذا أمياً ومن أمة أمية كان هذا دليلاً على أن ما جاء به إنما هو من عند الله عز وجل (5).

والواقع «أن ما اشتمل عليه القرآن من أحكام إذا وزن بما كان عليه الناس وقت نزول القرآن كان وحده دليلاً على أن القرآن من عند الله، بل إن أحكامه لا تزال جديدة إذا ووزنت بما عليه الناس اليوم، إذ بالموازنة يتبين أنها سبقت سبقاً بعيداً، وأن الناس مهما تتفق عقولهم عن شرائع قد وصلوا إليها بتجارب قضائية وتجارب عملية، وبالإستعانة بشعرات العقول وما أنتجت الفلسفة والعلم، فلن يصلوا

#### 1- المحشر / 2

2- تبتة، اص ح 23، قرات 20، 19.

3- لقبة / 60.

4- البقرة / 275-279.

5- محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 14، 15، 17.

5- محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، ص 14، 15، 17.

إلى ما جاء على لسان النبي الأمي محمد ﷺ... وفي أي جانب اخترت الموازنة تنتهي بالحكم الجازم بسوق النبي ﷺ وعدم بلوغ أحد ما قرره وشهه (1) (2).

- الشريعة الإسلامية وبناء الإنسان من الداخل : إنه ليحب الإنشزة إلى أن شريعة القرآن لا تبذ كل شرائع البشر قبل نزول القرآن وبعد نزوله إلى اليوم في محل عدالة التقنين فحسب، بل تزيد على هذا مميزة فريدة تجعل الناس إراديا يلتزمون بتطبيق مبادئ هذه شريعة ولا يخرجون عنها، وذلك لأنها مرتبطة بالمعقيدة وبالقيم التي يبثها الإسلام في أتباعه، ولذلك فإنها مطبوعة بطابع القداسة، وهو ما يجعل أتباعها يلتزمون بتنفيذ مبادئها.

ومن هنا فإنها تأخذ بالإنسان من جانبيين، أحدهما داخلي، وهو النفس والضمير، فتكون فيه مراقبة الله وخوفه منه فيرتدع تلقائيا، بل تكون في نفسه ملكة كراهة الجريمة والظلم بأنواعه المختلفة وملكة حب العدل والنظام والانضباط. وعندما يوجد بعض الشواذ الذين لم تربى نفوسهم فإنه يوقع عليهم عقاب خارجي زاجر ليرتدعوا وليكفوا أذاهم عن غيرهم. ويكفي أن نعرف أن وجود العدل في حد ذاته أحد أكبر دواعي ترك الجريمة، ولنأت بمثال يبين لنا أهمية العامل الداخلي في التخلص الإرادي عن الجريمة ويبين لنا في الوقت ذاته كيف تبذ شريعة القرآن شريعة الدولة الأولى في العالم اليوم. هذا المثال هو قضية تحريم الخمر في الدولة الإسلامية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية.

تعد تجربة الولايات المتحدة الأمريكية في تحريم الخمر أكبر تجربة جر بها الإنسان لإصلاح الأخلاق والسلوك الاجتماعي بقوة القانون، حيث صدر في 1919 م قانون التحريم (Prohibition Law) الذي نص على منع بيع الخمر وشراؤها وصنعها وتصديرها واستيرادها وجاء هذا القانون نتويجا لحملة واسعة النطاق ضد الخمر وقامت الرابطة المحاربة لوجود الحانات (Anti-Saloon League) بجهد عظيم في تبيين مضر الخمر بإلقاء الخطب وتكليف الرسائل والكتب وعرض المسرحيات والأفلام لعشرات السنين، وأنفق في ذلك أموال طائلة بلغت سنة 1925 م تكاليف النشر والإذاعة 65 مليون دولار. وكتب 9 آلاف مليون صفحة في تبيين مضر الخمر والتزهيد فيها، ولكن كل هذا وغيره ذهب أدراج الرياح واضطرت الدولة في أوائل ديسمبر 1933م إلى إلغاء قانون التحريم بعد أن ظل ساري المفعول لمدة 14 عاما.

وقد تحملت الدولة خلال هذه الـ 14 عاما نفقات باهظة لتنفيذ قانون التحريم قدرت بـ 4.5 مليون جنيه. وأذاع ديوان القضاء الأمريكي للفترة الواقعة بين جانفي 1920 وأكتوبر 1933 (فترة التحريم) أنه قتل في سبيل تنفيذ القانون 200 نسمة وسجن نصف مليون وغرم المخالفون بأكثر من

2/1 - وقد اشترنا أثناء ردينا على بورغاد في مطاعنه في الشريعة إلى قضايا متنوعة مقارنة بما عند الغرب من شريعات، منها ميراث لذي لم يوجد نظام في الوجود لا قبل الإسلام ولا بعده في دقته وعلته رغم ألف طاعنين في الإسلام بسبب ذلك، ومنها النظافة بحيث أن الإنسان الغربي نتيجة لتكبله بتقود التصرفية، تمكن طميا من معرفة القضاء ولكنه لم يظن بعد إلى كيفية تنظيف نفسه من لملل.

مليون ونصف جنيه وصور من الأملاك ما قيمته 400 مليون جنيه، كل هذا كابدته الولايات المتحدة لهدف واحد، هو «تلقين الأمة الأمريكية المتحضرة» معالم الحمر وتبيين مضارها المتنوعة ولكن كل ذلك قبل التحريم وأثناءه ذهب هباء منثورا فاضطرت تدولة إلى الإباحة بعد 14 سنة من التحريم لا بسبب أنها اكتشفت منافع في الخمر ولكن لأنه ما كانت تغلق الحانات العنينة حتى فتحت غيرها من الحانات السرية بالآلاف. وبلغ من طغيان نشوة الخمر على أصحابها أن أصبحت دلالة رجل لأخر على حانة سرية أو على كلمة سرها (Pass-word) بعد من جلائل أصناف البير والإحسان فغشلت الحكومة في الرقابة لكثرة الحانات والتفنن في إخفائها فازداد الضرر بصحة الإنسان والمجتمع لأن الخمر أصبحت أردأ وروادها أكثر. ومن الأمثلة على صحة هذا فإن المصانع قبل التحريم كان حوالي 400 مصنع وبعد 7 سنوات من التحريم اكتشفوا حوالي 80 ألف مصنع وأكثر من 90 ألف أتون لصنع الخمر فتضاعف عدد المرضى والموتى بسبب رداءة تلك الخمر وكثرة مدمنيها، فقد كان في سنة 1918 (قبل التحريم) 3741 مريضا و250 هالكا وبلغ العدد في سنة 1927م (أثناء التحريم) 11 ألف مريض و7500 هالك كما ازدادت نسبة الجرائم ولا سيما وسط الأحداث والشباب، وزال من النفوس حرمة القانون ونشأت نزعة التمرد عليه في جميع الأوساط الإجتماعية. وكانت نتيجة التحريم عكسية رغم أن أكثرية هائلة اتفقت على ضرورة التحريم فلم يصدر القانون إلا بعد أن زكته 46 ولاية وصادق عليه كل من مجلس النواب (Congress) ومجلس الأعيان (Senate) ورغم أن دولة جبارة هي أمريكا هي صاحبة ارادة التحريم ولكنها بعد 14 سنة اضطرت أمريكا أن ترخص للخمارين و تبيع لهم شربها رغم اقتناع حتى شاربها بخطرها وضررها<sup>(1)</sup>.

عندما نقارن هذا بقطر كان يعد قبل 14 قرنا أهمل أقطار الأرض لا علم فيه ولا تمدن، أهله عشاق خمر مقيمون بها، يوجد لها في لغتهم نحو 250 اسما مما لا نظير له ذي أي لغة أخرى، وأشعارهم خير دليل على شغفهم بها مما يخيل لقارئها أنهم وضعوها من ألبان أمهاتهم. هؤلاء الذين هذه حالتهم نجد أن كلمة «فاجتنبوه»<sup>(2)</sup>. وحدها كانت كافية لتركهم لها إلى الأبد. والسرف في هذا أن شريعة القرآن تعالج الإنسان من الداخل والخارج كما نكرنا، فهي قبل أن تنهي الإنسان عن الخمر أو غيرها إنما تدعوه أولا أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر الخ وقبول الإنسان لهذا موقف على رضاه { فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر }<sup>(3)</sup>. ولكنه متى أمن انصاع لكتاب الله. وبهذا فإن الشريعة الإسلامية تكون في الإنسان أولا ملكة الإيمان بالله وخوفه ومراقبته، فإذا أمن الإنسان ولكن انحرف تأتي مرحلة أخرى من شريعة القرآن هي تنفيذ الحد و العقوبة المناسبة للجريمة<sup>(4)</sup>.

1 - أبو الأعلى المورودي، نحن والحضارة الغربية، مط - دار الفكر، دم.ن. و.ت . ص 52-60.

2 - المائدة / 92.

3 - كهف / 29.

4 - أبو الأعلى المورودي، نحن والحضارة الغربية، ص 63-67-68.

وهذا هو السر الذي جعل كلمة قاجتبه<sup>(1)</sup>، تقع هذه الجريمة من شفرس وتزيلها من المجتمع. و14 عاما من التحريم في أمريكا بعد ما ذكرنا من تهينة النفوس لمتعنة بضرر الخمر والأموال الباهضة التي أنفقت والأرواح التي أزهقت... لم تفتح إلا في زيادة الإيمان وتكثير المدمنين لأن القوانين الوضعية لا تأخذ الإيمان إلا من لزوية تعارضية مما يجعل الإنسان لا يحترمها بناء على دوافع ذاتية بل خوفا من المراقبة مما يجعله يند أن يرتدع بعمل على الإحتياك عليها والإغماس في المحظور.

وما يزيد شريعة القرآن إعجازا أنها تختلف في نشأتها عن جميع للقوانين الوضعية التي نشأت قبلها أو بعدها، ذلك أنها ولدت كاملة متكاملة شاملة جامعة مانعة لا ترى فيها عوجا ولا تشهد فيها نقصا، أنزلها الله من سمائه على قلب رسوله محمد ﷺ في فترة بدأت بيعة محمد ﷺ واكتملت يوم نزول قول الله عزوجل {اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (2)

جاءت للناس كافة، لا لقبيلة أو جماعة، كاملة لا نقص فيها، جامعة تحكم كل تحالفة مانعة لا تخرج عن حكمها حالة، شاملة لأموال الأفراد والجماعات والدول، فهي تنظم الأحوال الشخصية والمعاملات وكل ما يتعلق بالأفراد، وتنظم شؤون الحكم والإدارة والسياسة وغير ذلك مما يتعلق بالجماعة، كما تنظم علاقات الدول بعضها ببعض الآخر في الحرب والسلم، جاءت صالحة لكل زمان ومكان (3). إن ينبوع الإعجاز القرآني في الجانب التشريعي هو: أن علماء الاجتماع متفقون على أن الأمة عندما تستيقظ من سباتها وتندرج في سلم الرقي فتبدأ سلمها الحضاري بما يأتي: التحرر من الأمية ازياد الثقافة، التعمق في الاقتصاد والمعيشة ثم شيئا فشيئا يتعمق تركيبها الاجتماعي. فإذا انتبعت إلى تعقدها اضطرت إلى قانون ليحكمها، ولذا تلجأ الأمة إلى صياغة لترجة تاريخها الاجتماعي لقانون، فالقانون يكون في سلم الرقي، ذلك أن من الأمور البديهية عند علماء القانون والاجتماع أن آخر ما يتوج به تقدم أي أمة من الأمم هو تكامل البنية القانونية والتشريعية في حياتها. فظهور قانون متكامل في الأمة يعد الثمرة العليا لتقدمها الحضاري وليس العكس. إذ أن الأمة التي لم تتقدم حضاريا بعد، والتي لا تزال تعيش في عهد البداوة وفي ظل الأعراف القبلية، ليس في حياتها الاجتماعية من التعقيد ما يشعرها بالحاجة إلى سن قانون ووضع تشريع. ولكنها تشعر بذلك كلما تقدمت حضاريا وازداد تركيبها الاجتماعي تعقيدا.

ولنفرض أن القرآن كلام بشر عاش في الجزيرة العربية قبل 14 قرنا، كيف يمكن أن نوفق

بين هذه الفرضية وما يقرره علم الاجتماع والقانون؟

1 - المادة / 92.

2 - المادة / 4.

3 - عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ج 1، ص 15، 16.

أمة كانت تعيش في حياة البداوة لا تشعر بحاجة إلى قانون، إن اختلفوا فسيح لقبيلة ولم يشعروا يوماً ما بمشكلة. وفجأة نجد أن هذه الأمة البدوية المتخفة فيها قانون تام متكامل في كل شيء، سد الذرائع، الميراث... الخ. فهل يمكن للأمة العربية أن توجد قانوناً متكاملاً عجيباً قبل أن تحتاج إلى هذا القانون؟ وهي أمة بدوية؟ مستحيل، وإن فإن هذا التشريع ليس تشريع بشر، ولتقرأ مثلاً آية المدائنة :

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِشَيْءٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ... وَلْتَكُن مِمَّا تَعْمَلُونَ عَقِيمًا <sup>(1)</sup> ). فنجد أن كلمة الكتابة والكتاب قد تكررت 10 مرات. يخيل إلينا أن الأمة التي قيل فيها هذا الكلام كل أهلها كتابة ومتفنون، لكن الحقيقة ليست كذلك. إن هذا القانون أنزله الله عز وجل، فهو مؤونة تدهر كلها. أنزلها الله عز وجل، فقد يكون الوب غير محتاجين إليها آنذاك. ولكن تدهر يحتاج إلى هذا القانون المتكامل <sup>(2)</sup>.

وهكذا فإن الذي ظهر في الجزيرة العربية قبل 14 قرناً هو عكس القانون البدهي السابق التحرر من الأمية، ازباد الثقافة... ثم القانون فقد ظهر فجأة بين تلك الجماعات الأمية من رجال الجزيرة العربية قانون متكامل يتناول الحقوق المدنية والأحوال الشخصية ويرسم العلاقات الدولية ويضع نظام الحرب والسلام ويضبط آثارهما ولما تتعلم تلك الجماعات بعد شيئاً عن معنى المجتمع الذي يحتاج إلى قانون ولم يأخذ بعد بنصيب من العلم أو الحضارة أو الثقافة مما يعد خطوات أساسية لا بد من اجتيازها في طريق الوصول إلى المستوى الذي يوضع عنده التشريع والقانون، وهنا نتساءل :

كيف يمكن حل الأعجوبة التي لا يقبلها عقل أي مفكر، وهي: «أن تؤلف قبائل تظلمها حياة البداوة البدائية البسيطة قانوناً خالداً تعقد لدراسته بعد 14 قرناً المؤتمرات الفقهية وأسابع الفقه الإسلامي من قبل أساطين الفقه والقانون، ثم تجتمع كلمتهم جميعاً على اختلاف ملابهم ومذاهبهم وعلى الأهمية البالغة لهذا الفقه، وعلى ضرورة دراسته والإفادة منه في الدراسات القانونية المختلفة» <sup>(3)</sup>.

إننا لا نجد أي تفسير لهذا اللغز سوى القول: بأنه وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم <sup>(4)</sup>. وإلا كيف يمكن لشريعة أتى بها فرد واحد وأمي وفي أمة أمية، وفي مدة 23 سنة أن تتفوق على كل شرائع الكون قبل عصرها وفيه وبعده والتي أنتجها عباقرة الوجود خلال الوجود الإنسان كله، ناهيك أن هذه الشريعة وجدت متكاملة قبل احتياج المجتمع إليها وكانت أعدل حل لجميع المشكلات التي ظهرت. لا نستطيع القول إلا أن القرآن كلام الله وأن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين.

1 - البقرة / 281-282.

2 - محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة في إعجاز القرآن الكريم.

3 - محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 159، 160.

4 - المرجع نفسه، ص 160.



والنتيجة النهائية من إعجاز القرآن الكريم تلخصها فيما يأتي :

- إثبات نبوة محمد ورسالته صلى الله عليه وسلم.
- إثبات المعجزات لمحمد ﷺ عامة والمعجزة الكبرى خاصة.
- القرآن الكريم هو وحده الذي يحتوي على الحقيقة، وعلى الحقيقة الكاملة، وهو معيار صدق وكذب التوراة والإنجيل، بمعنى هو الحكم عليها وليس العكس.
- كل ما ورد في القرآن الكريم صحيح من :  
 عقيدة كالوحدانية والدار الآخرة وما فيها من نعيم في الجنان وتعذيب بالنيران الخ.  
 وعبادة كالصلاة والصيام والزكاة والحج الخ. لا يقلل الله أن يعبد إلا بها.
- وشريعة كأحكام الميراث والطلاق والزواج والحدود والفصااص إلخ أي كل الأحكام التي وردت وهي أفضل ما في الوجود من تشريعات.
- أي : أن الله لا يقبل عمل أي متدين ما لم يكن وفقا للشرعية الإسلامية. ولا يقبل الله عقيدة أي متدين ما لم تكن نابعة من القرآن الكريم كما بلغها خاتم الأنبياء. ولا يقبل الله أن يعبد إلا بما شرع القرآن الكريم كما بلغ خاتم الأنبياء.
- وجوب تبليغ هذا للنصارى.
- وبهذا نكون قد أبطنا جميع شبهات بورغاد فيما يتعلق بالعقيدة، والشرعية والعبادة.

## الباب الثالث

### لافيجيري (Lavigerie) (1825-1892م)

#### والقضية البربرية

احتلال الجزائر في سنة 1830م اعتبر إنتصارا للنصرانية على الإسلام، ففتح عهدا جديدا للتبشير والمبشرين الذين أمدهم المستعمرون بكل الإمكانيات، فتجاوزوا آثار كل من فلسفات القرن 18، والثورة الفرنسية<sup>(1)</sup>. وقررت فرنسا جعل الجزائر مركزا ينطلقون منه لتبشير إفريقيا وإعادة مجد روما النصراني، ولهذا الغرض، فقد بعث لافيجيري إلى الجزائر<sup>(2)</sup>. فمن هو لافيجيري؟ وما هو مشروعه في التبشير؟ وما هي آثار ذلك؟

### الفصل الأول

#### لافيجيري ومشروعه التنصيري

- **لافيجيري (Lavigerie):** هو شارل مارسين ألمان لافيجيري، قسيس فرنسي من أسرة غنية، ولد بمدينة بايون (Bayonne)<sup>(2)</sup>، شمال شرقي فرنسا في 1825/10/31م. أكمل تعليمه الثانوي بمدينته<sup>(3)</sup>، ودرس الآداب اللاتينية بمعهد الدراسات العليا للأباء الكرملين، ثم التاريخ الإكليريكي بكلية اللاهوت بالسربون (1854 - 1856م). تحصل على الدكتوراه وأصبح الرأس المفكر لبايا روما، تمكن بدهائه وثقافته الواسعة وإتقانه لعدة لغات قديمة وحديثة أن يثقل ما يعترضه من صعاب<sup>(4)</sup>. وقد اتسم فيما يتعلق بالإسلام بوضوح النظرة، بسبب تكوينه النصراني في سان سوليبس (Saint Sulpice) والجو الثقافي الذي عاش فيه، ولكن العامل الحاسم الذي أثر فيه تأثيرا عميقا ودائما، هو إتصاله في سنة 1860م بمعلمي بلاد الشام والأمير عبد القادر، واحتكاكه بنصارها بإعتباره مديرا لمؤسسة مدارس الشرق<sup>(5)</sup>. وذلك عندما أرسلته فرنسا ليستعمل الإعانات المالية التي جمعت في أوروبا

1 - عثمان كعك، التبشير والتخطيط التبشيري، ملتقى المساجد للتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1973، م3، ص1150.

2 - المرجع نفسه، ص1150.

3 - عمر محمد الخري، التبشير وعلاقتة باستعمار البلاد التونسية (1830م - 1881م)، لكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، تونس، ص57. (رسالة جامعية غير منشورة).

4 - المهدي البوعدي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وبعده، ملتقى المساجد للتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1973، م3، ص1340.

5 - هذه المدارس أسسها لافيجيري لمناصرة البعثات التنصيرية بالشرق، وكان مديرها وأحد أساتذتها. (عثمان كعك، التبشير والتخطيط التبشيري، ص1150).

للنصارى<sup>(1)</sup> الذين أوقدوا نار الحرب الطائفة على الدروز المسلمين<sup>(2)</sup>، إستجابة لرغبة لغرب الذي كان يبحث عن مبررات للتدخل في شؤون فرجاء المرير<sup>(3)</sup>.

وقد التقى في هذه السفر بالأمير عبد القادر بدمشق، فكان ذلك أول احتكاكه المباشر بالمسلمين فأنطبع في ذهنه بعد إتصاله بالمشرق، ومقابته للأمير عبد القادر الذي دافع عن النصارى يومها ذاك. أن الإسلام هو أخطر أعداء النصرانية، وأنه -في نظره- دين التعصب الأعمى، ومن ثم يجب البحث عن وسائل تخليص المسلمين منه، وتصويرهم ليؤمنوا بأوار الإنجيل<sup>(4)</sup>، حسب زعمه ولهذا الغرض فقد مر أثناء رجوعه من بلاد الشام إلى فرنسا ببابا العانيكان، ليلفت إنتباهه إلى أهمية مناصرة حركات التصير في العالم الإسلامي<sup>(5)</sup>.

وقد استطاع لافيجري أن يجمع بين العمل السياسي والعمل التصيري، وهو ما جعل بلده تعترف بدوره في خدمة سياستها في العالم الإسلامي، فكرمته بوسام الشرف الفرنسي في 1861/02/08م<sup>(6)</sup>، كما اعترفت الكنيسة بفضله أيضا في خدمة التصير، فعينته قسيسا على مدينة نانسي (Nancy) في سنة 1863م. وبهذا تعرف على المارشال ما كما هون (Mac Mahon) حاكم الجزائر العام الذي عينه بعد ذلك أسقفا على الجزائر<sup>(7)</sup>، سنة 1867م ليكون كبير أساقفتها<sup>(8)</sup>، خلفا للأسقف باقى (Pavy).

- تعيين لافيجري أسقفا على الجزائر : ارتبط تعيينه أسقفا على الجزائر من طرف ما كما هون بأسطورة سبقت ذلك، وهي رؤيته في المنام رسالة أتته من الله تأمره بتقيام بعمل مسيحي جبار في أفريقيا ليعيد لها مجدها المسيحي الروماني، ولما وصل إلى الجزائر في 15 ماي 1867م وضع نصب عينيه ما يأتي :

1 - عبد المجيد الشرفي، حركة التبشيرية في تونس في القرن 19، حوليات الجامعة التونسية تونس، 1971، ع8، ص143، 144.

2 - بنكر الشرفي أنه ذهب لتوزيع الإعانات على النصارى الذين اضطهدهم الدروز المسلمون وقتلهم (الشرفي المرجع السابق، ص143، 144).

ونحن نرى أن ذلك الصراع إنما كان سببه الدول الأوروبية، فهي التي أنارت لإيجاد مبررات للتدخل لمواصلتة الإجهاز النهائي على لرجل المرير، وهو ما بينه الحبيب الجنعاني، (الحبيب الجنعاني، حركة التبشير والسياسة الإستعمارية في المغرب العربي في القرن 19، الملتقى 7 للتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو، وزارة التعليم الأصلي والثورون الدينية لجزائر، 1973. م3، ص1062).

3 - الحبيب الجناعي، المرجع السابق، ص1062.

4 - عبد المجيد الشرفي، المرجع السابق، ص146.

5 - الحبيب الجنعاني، المرجع السابق، ص1062.

6 - المرجع نفسه، ص1062.

7 - الحبيب الجنعاني، المرجع السابق، ص1062، لكلمة، المرجع السابق، ص1150.

8 - الشرفي، المرجع السابق، ص146.

- 1 - إحياء الماضي الاستعماري النصراني الروماني، باعتباره وارث كرسي لتقديس سبيران.
- 2 - جعل الجزائر للمركز الأساسي لتصوير إفريقيا كلها.
- 3 - اعتبار التصوير ركنا أساسيا في البناء الاستعماري الذي ترعّب فيه فرنسا التي اتحدت مع الكنيسة لتحقيق ما سبق مما جعل لافيجري يكتب إلى رهبان الجزائر يوم 5 ماي 1867م. قائلا: «سأتيكم إخواني الأعزاء في ساعة مشهورة في تاريخ إفريقيا المسيحية... الكنيسة وفرنسا متحدتان لإحياء أمجاد الماضي»<sup>(1)</sup>.

### أول أعمال لافيجري في الجزائر :

كان أول عمل قام به هو إزالة ما كان من جفوة بين الكنيسة والحكومة لاحتياج كل منهما للأخرى<sup>(2)</sup>. ذلك أن سياسة فرنسا اقتضت منذ الاحتلال عدم مصادمة الشعور الديني للأهالي خوفا من انقراضهم<sup>(3)</sup> رغم معارضة سلفي لافيجري ديبش (Dupuch) وباقي (Pavy) لهذه السياسة<sup>(4)</sup>. ولهذا فإن المستعمرين كانوا يفضلون التوغل ببطء للقضاء على الإسلام وتصوير الأهالي، وهو ما جعلهم يتظاهرون بعدم محاربة الإسلام في ترك الأهالي يقومون ببعض الأعمال الدينية التي بينها لافيجري منتقدا بلده في السماح بها، فيقول: « وفي نفس الوقت الذي كان فيه سلفاي محرومين من كل حرية فإنهما كان يشاهدان ارتفاع المساجد غير النافعة... وتشجيع المدارس والاجتماعات الدينية التي تنكّي تعصب الأهالي... وتسهيل الحج إلى مكة... وأخيرا، وهو أمر لا يتصور حقا: نشر تعليم القرآن باسم فرنسا حتى بين الذين لم يعرفوه قط كسكان بلاد القبائل»<sup>(5)</sup>.

نستشف من هذا النص الذي انتقد فيه حكومة بلاده أن منهجه التصيري يقوم على منع بناء المساجد والتعليم، والاجتماعات الدينية: كالمصلوات الخمس والأعياد والجنائز وغيرها، ومنع أداء

- 1 - لحبيب الجنحاني، المرجع السابق، ص 1062.
- 2 - لمهدي فيوعبلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ص 1340.
- 3 - يبدو أن رجال الاستعمار أدركوا خطورة ما تقدموا عليه - من تهديم المساجد وإتلاف الأوقاف وإزالة لقضاء الإسلامي وغير ذلك مما يبناه قبلا - من رد فعل الأهالي تجاههم، فأرادوا أن لا يضيفوا لذلك لتصوير القصري بأخذ لبناتهم وتصويرهم رغما عنهم لأن ذلك سيؤدي إلى توهج حماسهم الديني الذي كانت فرنسا تعمل على إخماده، وهو ما لم يهضمه رجال التصوير بسبب حقدهم للدين، ونحن لا نوافق هنا لتعبير الذي استخدمه لشرقي، لأن فرنسا صدمت الشعور الديني منذ بداية الاحتلال بتحطيم المؤسسات الدينية وغيرها كما ذكرنا قبلا، (عبد المجيد لشرقي، المرجع السابق، ص 146).
- 4 - عبد المجيد لشرقي، المرجع السابق، ص 146.
- 5 - Lettre au Rédacteur du Moniteur de l'Algérie.

في الأثر المختارة، ج 1 ص 170 (نقلا عن لشرقي، المرجع السابق، ص 147، 148).

فريضة الحج<sup>(1)</sup>، ومنع تعليم القرآن الذي جعله - كما سير - عبوة للشود، لأنه بهذا ينأى له منع الناس من تعليم دينهم وفهمه فبمهل له ابتلاعهم، كما نستشف كذلك إعتباره سكان بلاد القبائل لا يعرفون القرآن، ومن ثمة يجب التركيز عليهم في التنصير لأنهم سب جهنم لقرآن أسهل من العرب في تقبل النصرانية والإرتداد عن دينهم، فيمكن إستخدامهم في التنصير، كما يمكن بذلك خلق جالية نصرانية تحركها فرنسا متى شاء.

ونحن نرى أنه يستحيل أن يجهل لافيجري معرفتهم بالقرآن، ولكنه كان يمهّد لاتخاذ الخرائع لإطلاق يده في تنصيرهم وفصلهم عن بقية الأممي فيصيف بذلك حبشاً جديداً يساعد فرنسا ويمكنها من الإستمرار اللانهائي في البلاد.

### مشروع لافيجري التنصيري

يقوم مشروعه التنصيري على مايلي :

1 - الإحصان وإستغلال الظروف : عندما وصل لافيجري إلى الجزائر وحد بها مجاعة كبرى، نتجت عن عدة نكبات حلت بالبلاد بين سنتي 1867، 1868م، منها: زلزال البليلة والجراد والجفاف، ووباء الكوليرا والتيفوس<sup>(2)</sup>، وكذا طرد السكان من أراضيهم الخصبة إلى الجبال والصحاري وإعطائها للمعمرين<sup>(3)</sup>، وتدمير الجيش الفرنسي للمطامر. فنتج عن كل هذا المسغبة الشديدة التي أطلق عليها السكان « عام الشر » فأكلوا جذور الأشجار والأعشاب، وتزاحموا على قممات المدن وأصبحوا يغدون إلى المراكز الأوربية منهوكي القوى، عراة. وقد غابت عنهم الصورة البشرية، إذ أصبحوا هياكل عظمية<sup>(4)</sup>. وغضت الشوارع بالسانثين، وكثرت الاعتداءات بغرض دخول السجون كي يضمّنوا قوتهم فيها<sup>(5)</sup>.

1 - وقد منعت سلطات الإحتلال سكان جرجرة بالفعل من أداء فريضة الحج بعد ثورة المقراني، ولما سمحت لهم سنة 1876 بأداء هذه الفريضة احتج لافيجري لدى سلطات بلاده على ذلك السماح (أرشيف ما وراء البحار، أكس نبروفانس: AOM Dossier 4317) فرنسا، وقد ذهب لأداء فريضة الحج في سنة (1876م) 83 حاجاً من دائرة الأربعاء ناث إرثاً وحدها، وفي سنة 1879 قدم 118 طلب رخصة لنفس الغرض (محمد الطاهر وعلي، التعميم التبشيري في الجزائر من 1839 إلى 1904 دراسة تاريخية تحليلية نط منشورات دهب الجزائر، 1997م، ص 68 وهامش ص 68).

2 - خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، ص 105.

3 - يرى بشير بومعزة (من قماء الحركة الوطنية وقماء المجامدين، رئيس جمعية مجازر 8 مارس 45، ورئيس مجلس الأمة حالياً) أن تحطيم النمط الاقتصادي والاجتماعي الجزائري المتمثل في طرد السكان من أراضيهم الخصبة وإعطائها للمعمرين هو أحد العوامل السابقة لخطورة، وقد نتج عن مجموع تلك العوامل هلاك 26% من السكان الجزائريين (بشير بومعزة، مجازر ماي 1945، محاضرة بجامعة الأمير عبد القادر لسنطينة الثلاثاء، 6 ماي 1997 من الساعة 15 - 17.15).

4 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 107، والنص للأندب برزي الذي كان قسوماً على مدينة الشبلي بمتوجة.

5 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 107.

وقد تمخضت هذه المسغبة عن هلاك أكثر من 300 ألف جزائري<sup>(1)</sup>. فاستطاع لافيغري أن يفتح استغلال لينصر الأهلي، فطلق يجمع التبرعات ويوزعها على المتضررين، ولا سيما الأرملة واليتامى<sup>(2)</sup>. وقد عبر عن أهمية هذا في التصير بقوله :

« إنني حين أعين الأرملة والأطفال بما أستطيع، فأبدا أعين السكان المسلمين لأزدي واجبي كإنسان وكمسيحي وكأسقف، وليس لي من طموح سوى أن أظهر مرة أخرى الخصائص الإلهية لدين - وهو النصرانية- بأمر بحب كل الناس وإسعادهم مهما كانوا ولو كل ذلك بالمخاطرة بالنفس<sup>(3)</sup>. وهكذا استغل هذه الظروف القاسية، والتقط نحو 1753 طفلا ما بين سن 8 و15<sup>(4)</sup>. وجمع تبرعات من أوروبا والفاثيكان<sup>(5)</sup>، والجزائر بدعوى إنقاذهم من المسغبة، فجمع أكثر من مليون فرنك<sup>(6)</sup>، وأخذ في إنشاء المؤسسات التي تحقق له أهدافه التصيرية، وهي :

2 - إنشاء ملاجئ الأطفال : أخذ في إنشاء ملاجئ الأطفال وفرر أن يبدأها بتأسيس مركز في منطقة مات جل سكانها بسبب المسغبة، وهي سهول الشلف الشرقية شاحية العطف. فأسس بها ضريحا رمزيا يتمثل في قبة فوقها صليب، أسان سيبريان (S. Cyprien)<sup>(7)</sup>، وجعل بقربه مستشفى سماه باسمه أيضا<sup>(8)</sup>، وأسس قرية للتصير الأطفال سماها: 'سانت مونيك'<sup>(9)</sup>، كما أنشأ ملاجئ أو قرى أخرى للأطفال في بوزريعة وبولوجين وابن عكنون والأبيار والقبة وبوفاريك والعاظمة قصد المعالجة والتصير<sup>(10)</sup>، ولكي يحقق أهدافه، لم يتورع حتى عن اختلاق قصص خيالية ليبين ثمار تشيخته للأطفال المسلمين. ومن ذلك قصته الوهمية مع شارل عمر بن سعيد وهو شاب في العاشرة حسنت الرواية التقى به لافيغري في سنة 1867م فوجده يتيم الأب، نصحته أمه بالذهاب إلى ملاجئ لافيغري ليجد

1 - المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، 1972... ع 8 ص 312.

2 - اليتامى والأرملة كانت لهم مؤسسات الأوقاف يتمولون منها، فلما احتلت الجزائر قضى على مصدر رزقهم ليتلقفهم المنصرون، وهكذا يبدو جلنا التعاون بين الاستعمار ورجال التبشير، فالأولون يفترون الشعوب والآخرين يستغلون بؤسها لتصيرها.

3 - Lettre Annonçant la Prochaine Ouverture de l'Asile destiné aux vieillards des deux sexes de la colonie européenne du diocèse d'alger oeuvres choisies de son eminence le cardinal lavigerie, 2v paris, 1884, tom 1. p. 138.

4 - المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر، مجلة الأصالة وزارة شؤون الدينية الجزائر ماي، جوان 1972 ع 8 ص 312.

5 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 113.

6 - المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 312.

7 - هو قرطاجني، تنصر ومات ضحية عقيدته، (البوعبدلي، المرجع نفسه، ص 312).

8 - وما زال لضريح والمتشفى إلى يومنا هذا. (البوعبدلي، المرجع نفسه، ص 312).

9 - هي وادة القديس أوصططين (البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي، ص 1342).

10 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 112.

الخبر، وبين هذا الشاب أنه لم يذهب إلى شبح زاوية، لأن شيوخ تزوايا طردوه، فيقنه لافيجري ويسميه شارل، ويرفض الرجوع إلى والدته، لأنه حسب ثروية وجد لنا - هو لافيجري - أحسن من والدته<sup>(1)</sup>.

نستنتج من هذه الرواية شيئين مهمين هما :

أ - أن لافيجري لا مانع عنده من الكذب ليصل إلى ما يريد، وهذا ما رأيناه عند بورغاد الذي يستخدم الكذب في محاوراته ليصل إلى غرضه، ونحن نتساءل هنا: أي دين هذا الذي يكذب رجاله؟ لجلب الناس إليه؟.

ب - حقد لافيجري الدين على شيوخ تزوايا، لأنهم هم الذين وقفوا حجرة كزود في وجهه وحموا المجتمع من التصير والاستعمار كما ذكرنا قبلًا.

وهكذا استخدم لافيجري كل الوسائل ليصل إلى أغراضه، فحصر فرقًا دينية من رهبان وراهبات لمعالجة الأطفال المصابين بالكوليرا والتيفوس والتجدي، ولذين هلك كثير منهم، فاعتم لافيجري موتهم ليعمدهم ساعة الإحتضار<sup>(2)</sup>، وهو ما يدل على وحشية لم تعرف البشرية لها مثيلًا، فأدركت كثير من العائلات خطورته على أطفالها فطالبت بإسترجاعهم، كما فر ممن تمكن من الفرار، ولم يبق بالملاحي سوى 378 طفلًا، ( 242 بنتًا) قرر الإحتفاظ بهم بدعوى أنه المنقذ لحياتهم.

والسبب الذي جعله يركز على الصغار اعتقاده استحالة تصير الكبار، وهو ما اقتنع به قبلًا كلوزيل وغيره من رجال الجيش، لأن الكبار في نظرهم يستحيل أن تزحزح عقيدتهم، أما الأطفال ولا سيما اليتامى فإنهم في مرحلة تمكنه من أن يزرع فيهم بذور النصرانية بالإحصان والتعليم وفتح مراكز الصناعة اليدوية، وهو ما تم بالفعل في الملاحي، فأعلن يوم 6 أبريل، في رسالة مطولة نشرت بمختلف الجرائد عن تبنيه للأطفال اليتامى بغرض الوصول إلى الإدماج السريع، وقرر إبقاء من كان يابن عكنون لتكوينهم في ميدان الفلاحة، وتسليم البنات نراهيات لتكوينهن في الأعمال المنزلية، وهدفه مما سبق :

خلق نواة خصبة من العرب المتصيرين يمكنون للإستعمار الفرنسي، ويكونون نواة التبشير الجماعي والعائلة النصرانية بالجزائر<sup>(3)</sup>. أي التصير والإدماج، وهو ما عبر عنه لافيجري في الرسالة التي وجهها إلى مدير مؤسسة مدارس للشرق التي كانت تموله ليمول مشاريع ضحايا المسغبة، وذلك في أبريل 1868. وما ورد في تلك الرسالة اعتباره تلك الأموال لإنقاذ الشعب الجزائري من الإسلام

1 - ومن أراد معرفة هذه الرواية كاملة، فليرجع إلى: الحبيب الجعفاني، حركة التبشير والسياسة الإستعمارية، ص 1065، 1066.

2 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 114، 115.

3 - المرجع نفسه، ص 115.

وقذف أنوار الإيمان النصراني في قلبه « لتتفي فيه بنز تعصبه الشعور بالمسؤولية وطاقة الواجب...»<sup>(1)</sup>.

وهكذا فالجزائريون في نظره متعصبون لأنهم يدافعون عن وطنهم ضد بلده المعتدي، أي أن المتطرف هو الذي يرد الإعتداء وليس المعتدي، وبهذا تنشو علاقة جنبة بين انتشار الاستعمار. ثم يعبر صراحة عن هدف مشروعه فيقول عنه: « مشروع الذي يؤدي حتماً في وقت لاحق إلى إدماج الجزائر بسرعة إن روعي باستمرار وقدم على غيره ونمي، إنما هو مشروع تربية الأطفال، وفي هذه الفترة تربية اليتامى »<sup>(2)</sup>.

وهنا يتبين لنا أن لافجيرى هو أحد أصحاب سياسة الإدماج التي تبنتها نخبة من الأهلالي بعد ذلك، مما يضيف عليها الصبغة الكنسية والاستعمارية في الآن ذاته، ولأهمية هذا المشروع، فقد أنشأ له العلاجىء أو القرى وأنشأ أباء البيض لمواصلته ورعايته وتطويره، ثم يواصل حديثه ليبيّن أهمية هذا المشروع في خدمة الاستعمار فيقول: « وإذا وقعت المواظبة على هذا المشروع... فستكون لنا في بضع سنوات مشكلة من العمال النافعين المؤيدين لإستعمارنا الفرنسي والأصدقاء له، ولنقلها بوضوح: من العرب المسيحيين، إن هؤلاء الأطفال المساكين الجاهلين غاية الجهل بكل شىء سواء بأمور دينهم أو بغيرها، ليس لهم حتى من هذه الوجة أي رأي مسبق، وأي نفور منا، ولا شك في أن الكثير منهم متى إستفادوا من أقوالنا ومن أفعالنا سيطلبون بأنفسهم يوماً ما التعميد، وسيكون ذلك بداية تجدد هذا الشعب »<sup>(3)</sup>.

ولكن ما هو العائق الأكبر أمام هذا المشروع الذي يهدف إلى الإدماج وتكريس الاستعمار؟ إنه القرآن الكريم كما سنبين، فيقول مواصلاً كلامه: « وهذا الإدماج الحقيقي الذي يبحث عنه لكن بدون طائل، لأن البحث عنه قد كان إلى حد الآن مع القرآن، وسوف تكون مع القرآن بعد ألف سنة كما نحن اليوم كلاباً من المسيحيين، وسيكون ذبحنا وإلقاؤنا في البحر عملاً مقنناً يثاب عليه صاحبه »<sup>(4)</sup>. ثم يتوصل إلى ما يأتي :

« يجب انقاذ هذا الشعب -من القرآن ليسهل تجنيه ودمجه وتصديره وتسخيره للإستعمار - ينبغي الإعراض عن أخطاء الماضي، لا بد من انكف عن حصره في قرآنه كما وقع ذلك في مدة طالت أكثر من اللازم<sup>(5)</sup>، وكما يراد فعله الآن بواسطة مملكة عربية مزعومة، يجب أن نلهمه عن طريق أبنائه على الأقل، أحاسيس أخرى، ومبادئ أخرى، وينبغي أن تقدم له فرنسا، بل أن مخطيء، تسمح بأن

1 - عن لشرفي، الحركة التبشيرية، ص 145، 149.

مصادر

-Oeuvres Choiesies de Son Eminence. Le Cardinal Lvigerie Tom 1. Page 158.

-Ibid. P 160-162

-Ibid. p. 126

-Ibid. p 162

5 - لافجيرى يتقد هنا حكومة بلاده التي سمحت بنظم قرآن الكريم.



تقدم له مبادئ الإنجيل بإشراكه أخيراً في حياتنا أو أن تطرده في الصحارى بعيداً عن العالم المتمدن»<sup>(1)</sup>.

نلاحظ من الفقرة الأخيرة شيئين :

أ - جعل الناس مخيرين بين الإصباح بحصاري فرنسا أو التفتي إلى الصحارى، ونحن نتساءل هنا، هل النصرانية دين تصامح<sup>(2)</sup>.

ب - يقرر أن من وسائل التنصير تحطيم أخلاق المجتمع، فجعل الجزائريين يسكرون ويزنون ويقامرون وما إلى ذلك مما هو شائع عند الفرنسيين بعد أداة فعالة لتحطيم القيم، وقد قرر لافيجري هذا، لأنه رأى أن من أسباب نفور الناس من نصرانية رؤيتهم لرجال كهنوتها يسكرون ويعربدون، فكانوا يهزءون منهم ويستغربون ذلك، لأنهم لم يتعودوا أن <sup>يسوا</sup> ذلك في علماء المسلمين، ومن هنا فعندما يتحول المجتمع إلى سكارى وزناة ومقامرين يصبح لا فرق أخلاقي بينهم وبين الفرنسيين، فيزول ذلك الحاجز النفسي ويسهل استلابهم، وهنا نتساءل :

هل هناك عنف ووحشية أكبر من هذا، وهو إجبار السكان على التنصير والتبصيح القسري، أي دمجهم كرها في مجتمع فرنسي يتناقض معهم كل التناقض، أورميتهم في الصحارى، ونستنتج من هنا أن لافيجري بعد أبا روجبا لسياسة الإدماج التي قررتا فرنسا وتبنتها النخبة فيما بعد. وهو ما أكده لويس برتراند (L. Bertrand) عضو الأكاديمية الفرنسية وأحد كبار المتحمسين لسياسة الإدماج في تصريح له في الذكرى المئوية لميلاد لافيجري فقال: « ما أشد دهشتي وأنا ألتهم بنهم مؤلفات لافيجري المختارة، لقد اكتشفت في كل صفحة تقريباً تفكيرى الذاتى، ونظرياتي الأفرقية الشخصية»<sup>(3)</sup>.

ولخطورة هذه الرسالة، وخاصة فقرتها الأخيرة، فقد أشارت ردود فعل عنيفة في الصحافة والإدارة الفرنسية بالجزائر حيث اتهمه رئيسها ماكماهون بأنه: « يريد أن يدفع أولئك العرب المساكين ثمن الخبز الذي يوزعه عليهم بالتضحية بدينهم»<sup>(4)</sup>، وهي تهمة لا شك في صحتها، لأنها من رجال الاستعمار الفرنسيين، وقد برر لافيجري تهمة ماكماهون وغيره من الناقدين له، بأنه يهدف إلى ثلاثة أهداف هي :

- التنصير.

- إظهار عظمة فرنسا ورجالها عند الناس وعند الله.

- تكريه الناس في الخلافة العثمانية<sup>(5)</sup>.

-Ibid. p 165-166

- 1

2 - وقد بينا هذه القضية بتوسع أثناء ردنا على بورهاد تحت عنوان "العنف في النصرانية".

-Louis Pertrend, le Centenaire du Cardinal la vigerie à la sorbonne, page 600.

- 3

من الشرفى، الحركة التبشيرية، ص 147.

-Œuvres choisies de son Eminence le cardinal Lavigerie tom 1 page 176.

- 4

du...

(عن المحلى، الملتقى 7، ص 1064).

-Ibid p. 177.

- 5

وما يجب الإشارة إليه أن حقدَه على أخلاقه العثمانية راجع إلى كونها - رغم ضعفها آنذاك - تمثل القيادة الروحية للمسلمين وترمز إلى وحنثهم النسبية، وهي تقلل التفاتك الذي يمثل ذلك عند النصارى، فإذا كرهها الأهالي أصبحوا شتتاً لا رابط روحى يجمعهم فيسهل تدجينهم واستيلائهم وتصيرهم.

ونكى يحقق الأغراض السابقة، فقد رفض إرجاع أولئك أسماء إلى ما تبقى من أفراد أسرهم، بدعوى بئراً منها كل دين، وهي: «إنهم لي، إذ أنا الذي حافظ لهم على حياتهم»<sup>(1)</sup>. رغم معارضة الولي العام للجزائر ماك ماهاون (Mac - Mahon) فرفعت القضية إلى نابلون 3، ولكن مساندة وزير الحرب المارشال Niel للايجري جعلهم يطلبون منه الاحتياط في عمليات التصير، ويسوغون له تأسيس الملاجئ، وفصل من التقطهم عن ذويهم فحسروا اتعتن<sup>(2)</sup>. وظلوا بسان سيبريان، وسانت مونيك، حيث قاطعهم أهلهم وسموهم بـ «المطورنين». كما قاطعهم الفرنسيون واعتبروهم دخلاء لأن أوائهم ليست كأوائهم، وكذا أسماؤهم وأجسامهم الموشومة. رغم مساعي لافيجري وخلفائه لمنحهم أراضي إستعمارية، فظلوا منبوذين يحملون مثلاً أسماء روبرت بن عبد القادر، وجوزيف بن عبد الله، إلى أن انقرض أغلبهم، وما بقي من سلاتهم رحل مع المعمرين في سنة 1962<sup>(3)</sup>.

إثر هذه المأساة عين نابلون 3 لجنة برلمانية في ماي 1869 للتحقيق في قضيتي المسغبة والتصير وبعد رجوعها إلى باريس قررت الحكومة تطبيق القوانين السابقة عن المسغبة، كقانون 14 جويلية 1865م الذي منح للجزائريين حق الجنسية الفرنسية بمجرد تقديم طلب لينالوا حقوق الفرنسيين ويخضعوا للمختلف أحكامهم، وقانون 13 ديسمبر 1866م الذي يبيح لهم التحاكم مباشرة لدى المحاكم الفرنسية، أو جعلها محكمة عليا لنقض ما تبنت فيه المحاكم الإسلامية<sup>(4)</sup>. وبهذين القانونين تكون فرنسا قد تبنت سياسة الإدماج التي عمل من أجلها لافيجري بفتحها باب التجنيس على مصراعيه وتوجيه الأهالي للقضاء الفرنسي بدل الإسلامي، كما يعدان أول عمل لعننة المجتمع الجزائري قهراً. وبهذا يبدو جلياً تلازم القانونيين السابقين لتحقيق أغراض لافيجري التي هي أغراض بلاده أيضاً، ولقد عبر عن هذه الحقيقة البايبيوم 9 (Pie IX) في رسالته إلى الكاردينال لافيجيري بشأن أولئك الأطفال الذين جلبهم إلى ملاجئهم فأيده وباركه وبين أنه من صميم الرسالة النصرانية كما بين أهميته في التمكين للإستعمار وأن التبشير والإستعمار وجهان لعملة واحدة.

1 - المهدي لبوعبدلي، آثار لتبشير، ص 1342، ونص كلامه:

'Ils m'appartiennent, parce que la vie qui les anime encore c'est moi qui la leur ai conservée, c'est donc la force seule, qui les arrachera de leurs asiles'

عن لبوعبدلي، الإحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، ص 313.

2 - المهدي لبوعبدلي، الإحتلال الفرنسي، مجلة الأصالة، ص 313.

3 - المرجع نفسه، ص 313.

4 - المهدي لبوعبدلي، الإحتلال الفرنسي للجزائر، ص 313، 314.

وهكذا فقد بين البابا أن العقبة تكوود فني واحبت فرسيين في إستعمار الجزائر وتنصيرها إنما هي الديانة الإسلامية . إنه بدون شك حسب لحكم الإلهي تطلق بحث أن يلقن الإنجيل لشعبكم - أي الشعب الجزائري - مثل جميع الشعوب. ولكن تبقى عاداته ونيانته وثوراته ضد أمته عقبة ضد التنصير لا يمكن تجاوزها.

ولإزالة هذه العقبة، فإن إله الرحمن أراد أن يحدد شعوب تنصير أمت بهم التماسي بواسطة الأعمال الخيرية المسيحية للفرنسيين . .

ثم بين أن أولئك الأطفال سيقربون أهليهم للتصيرية و الإستعمار معا. « أما بالنسبة للأطفال الذين إنتر عتموهم من مخالاب الموت وئذين تطعمونهم وتكسونهم، وتعلمونهم العادات الصالحة والعمل في الحقول، فكيف لا يحنون الأمة والديانة - الإستعمار والتبشير - اللتين هم مدينون لها في كل شيء حتى في وجودهم نفسه؟ كيف وهم الذين أصبحوا بواسطة العمل يتكفون بعائلاتهم، لا يستطيعون أن يقربوا بحضورهم وخدماتهم وأحاديثهم ذهنيات أهليهم من ديانة وشعب - التنصير والإستعمار - اللذين قدما لهم هذا العدد الكبير من الفضائل .»

ثم بين البابا بدقة العلاقة بين التبشير والإستعمار، وأن كلاهما هو الآخر، كما بين بدقة أهمية التبشير في توطين الإستعمار بقوله: « لايتعلق الأمر إن باديانة فقط، ولكن بفرنسا التي تخدمونها أنتم وأتباعكم بواسطة خدمات الإحسان المسيحي المؤثرة، فتم بلا شك بجذب النفوس إليها - أي فرنسا - الأمر الذي لا يمكن القيام به بواسطة وديان من الدماء، وبمصارييف باهظة، وبجهد سنين عديدة من العمل...»<sup>(1)</sup>.

3 - إنشاء جمعية مبشري إفريقيا : ( Société des Missionnaires d' Afrique ) المعروفة بد : الأباء البيض ( Les Pères Blancs ) :

الظروف السابقة من مسغبة و أوبئة و طرد السكان من أراضيهم وتدمير الجيش للمطامر و... واستغلال لافيجري لذلك بإنشاء ملاحىء التيامى جعلته يفكر بجدية في تلك الرعاية ليتسنى له القضاء نهائيا على القرآن الكريم الذي كان الحاجز الأكبر أمام أطماعه، واختمرت الفكرة في ذهنه بإنشاء جمعية الأباء البيض<sup>(2)</sup>، التي تعد أشهر الجمعيات التبشيرية في إفريقيا عامة، وشمالها خاصة، كما تعد أعظم أعمال لافيجري التبشيرية، فعمت إفريقيا الشمالية بمؤسساتها وخلاياها ومنشوراتها<sup>(3)</sup>. أسس هذه

1 - محمد الصالح وطي، تعليم لتبشيري في الجزائر، ص254 نقلا عن

- Lavigerie (cardinal) notice sur la société des missionnaires d'afrique, dilé pères. blancs maison carrée (Alger) sant date.

ومنشور رسالة البابا إلى لافيجري في ملاحق.

2 - عبد المجيد شرقي، من ملاحق لفكر لتبشيري عند المسؤولين لفرنسيين في القرن 19 في الجزائر، ص145.

3 - عثمان الكعك، التبشير والتخطيط لتبشيري، ص1115، 1151.

للمنظمة الآباء البيض في سنة 1872م، ومن الشروط التي اشترطها في أعينها :

1 - شري بئري الجزائري المتمثل في شخص شيوخ الطرق الصوفية تيرنس الأبيض والثانية<sup>(1)</sup>، وذلك بسبب ما لرجال الطرق من مكانة في المجتمع - كما رأينا في الأوصاف الثقافية والاجتماعية- فاختيار تناسم بعضهم لا يفتقر انشاءً للناس إلى شيء جديد قد يفرون منه، ويلجأ لهم احترام المجتمع فيؤثروا فيه مثل رجل طرق.

2 - الثقافة الواسعة، وذلك زيادة على علوم التنبيه والتفسيمة و الثعاع الأحدثية كالعربية والنهجات كثريريرة والعلوم الإسلامية والأثر والرحلات<sup>(2)</sup>.

3 - معرفة الوسط من حيث لغات الإجتماعية والأقليات بمختلف منحدراتها وأصولها.

4 - معرفة الفرق الإسلامية وطرق الصوفية والاحتكاك برحلتها لمعرفة مواطن الضعف للنسئل من حللتها، ذلك أن المشر بعد معرفته بفرق والطرق و تنهجات والأعراق يمكنه أن يفتح ثغرة يفت منها سمومه بإبراز الخلاف وتضحيته بين شيوخ طرق وأصحاب الفرق<sup>(3)</sup> لتحقيق سياسة الاستعمار الشهيرة فرق تمدد وتقسيم أولئك في عيون العامة فيسهل إصطيادهم.

5 - وأخيرا اتباع سياسة اللبقة والطفافة والحلوة بالمسلم لتبليغ أفكاره وتصويره<sup>(4)</sup>.

وقبل أن يبدأ الآباء البيض بعمليّة التصير زار بهم تبابا بيوس التاسع (Pie 9) فاستقبلهم مستبشرا، قائلا: ما هذا؟، ففي الوقت الذي توالت فيه الضربات على الكنيسة من كل الجهات في أوروبا جاءتنا هذه البشارة من بلاد إفريقيا - يعني الجزائر - التي كانت منذ أربعين سنة فقط مسلمة<sup>(5)</sup>. فأجابته لافيجري :

« أياها الأب المقدس، هذه مقدمة لمنظمة الإرسالية التبشيرية أقدمها لكم، فبعد رجوعهم سيذهبون إلى داخل إفريقيا، باركوهم ليشرحوا ويتحملوا الأثبات في سبيل العقيدة، وإذا اقتضى الحال فسيهبون لها رؤوسهم، فقاطعه البابا وردت معه رؤوسهم. وقتئذ حقيقة، ففي زماننا هذا لا ينبغي أن يحافظ الرأس كثيرا على الجسد إذا أردنا أن نقوم بواجبنا نحو الإله كاملا غير منقوص<sup>(6)</sup>».

تطابق عمليات تبشير الآباء البيض من بسكرة : وذلك بغية التوغل السريع في إفريقيا، وقد أقيم رمزا لهذا، تمثال للافيجري في إحدى ساحات بسكرة وهو متوج بأتاج اللاهوتي، حاملا عصا الأسقفية ذات الصليبين، متظاهرا برميها جهة الصحراء.

وقد تعهد للافيجري الحكام المسكريون بتسهيل مهمة هذه الفرقة مما يؤكد ما بيناه قبلا في تحديد مفهوم التبشير من أنه عمل تعاوني.

1 - عمر الخري، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية، ص 65.

2 - لمهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ص 1342.

3 - عمر الخري، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية، ص 65، 66.

4 - المرجع نفسه، ص 66.

5 / 6 - لمهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ص 1342، 1343.

ونكن السكان أدرکوا مقصدهم فقتلوا خیرات هذه العرقة. ففرر لاهیجری مع ممثلی الحكومة والقادة العسكريين بإنشاء منظمة مسلحة خاصة بحماية الأباء تسمى، هي منظمة تحرس المصلح التي سميت باسم :

### منظمة الإخوة البيض :

وجعل جن أفرادها من شباب العربي وأصبحت قواتها العسكرية - تشكل خطراً حتى على الجيش الفرنسي ذاته، مما جعل فرنسا تحبها في نوفمبر 1892م. وألست المباشرة في حلها، أن لاهیجری - وهو عنى فرانس الموت - زاره لولي العام حول كامبون (Jules Cambon) برفقة الوزير جول فيري (Jules Ferry)، وكانت واقعة توات بأدوار الشمس المتاعل تحكومة، فاستشاره الوزير، فأشار عليه لاهیجری باحتلال المنطقة بتمساح فاستصعب الوزير نتيك، فعرض عليهما أن يقوم هو باحتلال المنطقة بواسطة فرق "الإخوة البيض" فهو عدوه بدرس القصبة، وما أن وصل الوزير إلى باريس حتى أمر الوالي كامبون بحل هذه المنظمة وتحرير أفرادها من السلاح، إذ هتتم أمرها، وقد كان عسكريو الصحراء يخفون عن الحكومة حقيقتها رغم ارتكابها أشع الجرائم، لأنها كانت تخدمهم وتمهد لهم السبيل<sup>(1)</sup>.

ونحن نتساءل هنا: هل لاهیجری رجل دين أم رجل استعمار؟ وأين هو الدين الحقيقي؟ والواقع أن لاهیجری كان ذا دين إحداهما تبطن وتدمر، والأخرى تحاوت تعطية أثار التبطن والتدمير، مما يجعلنا نتوصل إلى البديهة الأتية: للتبشير استعمار، والاستعمار تبشير ..

ومهما يكن من أمر، فقد تمكن لاهیجری من أحداث 10 أسقفيات بإفريقيا، وولايتين دينيتين (Prefecture Apostolique) ب660 مرشداً من الأباء البيض، و50 مرشداً إفريقيا و350 من الأخوات البيض كلهم يعلمون لصالح فرنسا والمسيح كما عبر عنهم لاهیجری، وقد تمكنوا من تصدير 400 ألف إفريقي<sup>(2)</sup>. وذلك تحت غطاء :

محاربة الرق. أو تحطيم النظام الإجتماعي الإسلامي أساساً لتتصير إفريقيا :

لما أراد الشروع في خطته بالأباء البيض لتتصير إفريقيا واستعمارها، اختلق قضية مقاومة الرق بها، لينفر الأهالي من الإسلام بإعتباره السبب الوحيد لنظام الرق، فشن عليه حملة ضخمة في عواصمهم<sup>(3)</sup> أوروبا، وألقى الخطب، وكتب الرسائل، وذلك ابتداء من سنة 1888م، فشجع ذلك بمؤتمر بروكسل سنة 1890م.

والواقع أن هذه الحملة تدخل ضمن نشاطه التبصيري الذي يهدف إلى تصير إفريقيا كلها

واستعمارها، وقد عبر قلنا :

1 - لمهدي البوعبلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ص 1344 - 1347.

2 - لمرجع نفسه، ص 1344.

3 - لمرجع نفسه، ص 1342.

« عندما قدمت إلى هذه البلاد - الجزائر - رأيت من الضروري التوجه إلى داخل إفريقيا بإزاء توثيق<sup>(1)</sup>، وسبب ذلك اهتمامه بال - تمدن الإسلاميه بكاد يتعمر اقتحام الإبحان لها<sup>(2)</sup> (3) وحثته التي استعملها لاجلب الأنصار لعمته هذه، فمها على نسبين :

أ - اعتبارات إنسانية تقوم على معنطة هي : تحريش الأفرقة مما يتعرضون له من عذاب أثناء بيعهم ونقلهم إلى ملاكهم الجدد.

ب - اعتبارات سياسة واقتصادية مرتبطة بالتمكين للاستعمار والتغريب، كما بين في إحدى محاضراته عن الرق قائلا: « ... إنه القضاء التميرم عاجلا على سكان إفريقيا، وانغلاق وسطها دون أوروبا، وإبعاد ثرواتها ومعادن ذهبها وفضتها وفحمها وأراضيها الخصبة ومياهها المتدفقة، وجعل سهولة العالية عن التمنن وحطها غير نافعة لتقية العثم في نفس ثبوم الذي عرفنا فيه وجودها<sup>(4)</sup> والغريب أنه كان يحمل المسلمين وحدهم مسؤولية الإسترقاق<sup>(5)</sup>.

والأغرب من هذا أنه يحارب الرق في الإسلام لسرق أفريقيا كلها، وهو ما جلب له معارضة شديدة من المسلمين ومن غيرهم.

فمن المسلمين نسجل أنه من بين الصنف المهمة حضور تكتات المصري أحمد شفيق باشا إحدى الخطب التي ألقاها لافيغري بكنيسة سان سيس (St Suplice) بباريس، فنشر تلك الخطبة بنصها، ونقضا جملة وتفصيلا تحت عنوان : « الرق في الإسلام أو رد مسلم على الكاردينال لافيغري<sup>(6)</sup> ».

أما أبناء جلدته فتقوده في تبجحه بعمل الكنيسة على إيصال الإسترقاق، لأن الفضل في إيظاته -في نظرهم- يرجع إلى الثورة الفرنسية<sup>(7)</sup>.

كما تقوده بإظهار عدم نظافته الأخلاقية وعدم نزاهته، وكانت جريدة الصباح الباريسية منبرا لذلك، فاتهم بأنه كان يبدد ما يجمعه من التبرعات في مصاريفه الشخصية التي كانت تصل إلى 200 ألف فرنك سنويا. كما أظهروا وثيقة كتبها سنة 1884م إلى الكونت دي شامبور "De chambord" تثبت موافقته الحكومة على إصدار قوانين تمنع الدين النصراني في الصميم.

- Lavigerie: Documents sur la fondation de l'oeuvre antiesclavagiste p89

عن الشرقي، الحركة التبشيرية، ص 153.

3 - هذا اعتراف منه من أن السكان كانوا معتفين للإسلام عن طواعية، عكس ما ادعاه من أنهم أجبروا عليه، وإلا لماذا لم يرتدوا بعد أن أتى التصاري لتخلصهم منه!؟

4 - الآثار المختارة، ج 2، ص 386، 387.

5 - عبد المجيد لشرقي، الحركة التبشيرية في تونس، ص 153.

6 - ولد قام بتعريب المقال والرد عليه أحمد زكي باشا، وطبع عدة مرات. الأولى سنة 1892م. وعزز ذلك بترجمة مسهبة للكويجري وما قاله فيه نصاره وشانوه. (المهدي البوعبلي، آثار التبشير المسيحي، ص 1346 أيضا: لشرقي الحركة التبشيرية، هاشم ص 153). أنظر كذلك الإفتاحيات و الفصول التي كتبها علي بوشوشة في جريدة العاصرة 1889م، 1890، وخاصة

الأهداء: 71، 72، 73، 82، 96، 98، ( لشرقي المرجع نفسه هاشم ص 153)

7 - المرجع نفسه، ص 153.

ومن الذين ساهموا في هذه الحملة سالونى الإيطالى تذي كل بنرس بمعهد ايطالى  
بالتاهرة، الذي اتهمه بتفجور واستيلائه على أحاسر نصارى العاصمة بوقفة الكابيمان (Capitans)  
بتونس.

وقد اعترف لافيجري بأن هذه الحملة من حصومه فشله. إذ حثت أنصاره مثل البابا يشكون  
في موافقه، وبدلا من أن يدافعوا عنه أمره التما ترك قصبه ثرق، كما قطعت عنه بعض المنظمات  
مددها، فأصيب بالفالج ولزم بيته تارة يسكرة. وتارة شعاصمة إلى أن توفي في ديسمبر 1892م  
بمدينة الجزائر ودفن بها<sup>(1)</sup>.

ومع هذا فإننا نعتقد أن لافيجري كان يعرف ماذا يفعل، فهو لا يجهل نظام ثرق في النصرانية،  
وأن الكتاب المقدس يوجد فيه ما يدعو إلى الحبل<sup>(2)</sup>، وأن منوك أوربا كانوا رؤساء اتخاسين، ويعرف  
حالة زنوج أمريكا الذين سرقهم النصارى من إفريقيا ليسترقوهم، ويعرف جيدا ما وقع لهم في  
الطريق، وبعد الوصول، ويعرف كذلك أن الاستعمار العربى أكر سترقاق لشعوب عبر التاريخ، ولكنه  
كان يهدف إلى استرقاق إفريقيا وجعلها كلها تتقبل الاستعمار العربى الذي كان دعائه يزعمون أنهم  
يستعبدون الشعوب لتحضيرها.

ومن هنا فإن قناعته الخاصة رغم انتقادات معارضيه تمثل في أن انقضاء على الاسترقاق في  
إفريقيا يعنى في الوقت ذاته: انقضاء على الإسلام كنظام اجتماعى. - كما يبدو تلك من الوثائق التي  
نشرها بمناسبة هذه الحملة<sup>(3)</sup> - وإيقاف انتشار الإسلام لتسريح في إفريقيا آنذاك - خاصة بواسطة  
الطرق الصوفية كالسنوسية والقادرية والتجانية كما بينا في الأوضاع الثقافية - وذلك حتى لا تصبح  
إفريقيا في نظره: « فريسة لأعداء أوربا منذ خلقوا ». - وهم الجزائريون - وضحية الدين الإسلامى  
الذي هو بالنسبة إليه: « راحة روح الشر، لأنه يرضى بعض الإرضاء أعمق حاجات قلب الإنسان  
والحاجات الدينية بالقسط الذي يحتفظ به من الحقيقة، ويفتح في نفس الوقت للأهواء كل الحواجز  
ويكسب فوضى الحواس صبغة شرعية، ويؤله القوة العاشمة »<sup>(4)</sup>.

وإذا كان لافيجري قد اعتمد على الرق كسائر لتحطيم النظام الاجتماعى في الإسلام، فإنه اعتمد  
كذلك على وسيلة أفك من هذه وهي: التعليم.

1 - المهدي البوعبلى، آثار التبشير المسيحى، ص 1346، 1347.

2 - وسنشير إلى بعض ذلك أثناء تقييمنا لنشاط لافيجري.

3 - نظر: -Laviigerie. Documents Sur La Fondation ,

3- نظر:

وخاصة : ص : 295, 252, 249; 162; 161; 52, 51, L III, XX III, XX II . (عن الشرفى، الحركة التبشيرية، هامس م 54

4 - الأثار المغترة : ج 2، ص 55، 56.

## الفصل الثاني

### التعليم عند لافيجري

نستطيع القول دون مبالغة أن التعليم الذي تكفل به لواء ليصل بعد أهم ركن في مشروع لافيجري للتصوير، وقد أخذ يشتمل به منذ سنة 1867م عندما أسس ملاحى ليناى ومراكز الطفولة. وقد بين أهميته بقوله: « سيكون لنا في بضع سنين مشكلة من أعمال النافعين المناصرين لاستعمارنا ولنقلها صراحة، من العرب المسيحيين، إن هؤلاء الجاهلين غاية الجهل - لأنهم صغار السن - سواء بأمور دينهم أو بغيره ليس لهم من هذه التوجه أي نظرة مسبقة علينا وأي نفور منا، ولا شك في أن الكثير منهم متى استقلوا من أفعالنا وأقوالنا سوف يطلب منا يوماً ما التعميد، وسيكون ذلك بداية تجدد هذا الشعب، وهذا هو الإنماج الحقيقي الذي نبحث عنه<sup>(1)</sup>. نستنتج من هذا النص الذي يبين فيه أهمية التركيز على الأطفال عدة نتائج منها:

- تقريره استقلال الجاهلين لئيل على قناعته بأن ما عنده بصناعة مزجاجة، وإلا لما خشي عليها من ذوي العلم.
- سياسة التجهيل التي اتبعتها فرنسا في الجزائر كانت من إيحائه وتفسيره، والغرض منها ما سبق.
- الإنماج الحقيقي لا يتم إلا عن طريق التصوير.

وهكذا فالتعليم بذوَب الأهالي في فرنسا، وتحويلون من معادين إلى مناصرين، وبذلك يتسنى لفرنسا الاستقرار في الجزائر إلى الأبد، ولما كان هذا العمل الجبار لا يتم إلا عن طريق الأطفال الصغار الذين مازالوا عجيبة يتأني له تشكيلها كما يشاء، فقد وضع لتعشيرين أهمية ذلك بقوله: « علينا أن نلهم هذا الشعب المسلم عن طريق أولاده أحاسيس ومبادئ النصرانية بتقديم الإنجيل إليهم بصورة مبسطة وإشراكه أخيراً في حياتنا اليومية، وإن لم نستطع علينا أن نطردهم بعيداً عن العالم المتمدن<sup>(2)</sup>. إنه يركّز على الناشئة ليحطم عقيدتهم ونفسياتهم، فيخلق بذلك هوة بين الآباء والأبناء ويوقد نار الفتنة في أرحام المسلمين ولأنه لما كان لا يمكن تصفير الكبار، فإنه يمكن الوصول إلى قلوبهم بواسطة أطفالهم<sup>(3)</sup>. وهذا يدعونا إلى إيضاح أهداف التعليم عنده.

أهداف التعليم عند لافيجري: غرض لافيجري التصوير والاحتلال الكاملين للجزائر، وجعلها مهداً للمسيحية ومنطلقاً جديداً لتصوير إفريقيا واستعمارها، أي تصفير واحتلال الأراضي التي اكتسحها الإسلام من النصرانية، ثم التوغل في إفريقيا لتصويرها ونهب خيراتها بواسطة فرنسا ورثة الدولسة

1 - La vigerie oeuvres choisies de sonimunence, pars 1884, page 158

2 - الآثار المختارة، ص 165، 166.

3 - G.R Goyou lavigerie echos et ses leçons, Alger, 1927, page 101.

لضاً: صر الخري، لتبشير وعلاقتة باستعمار البلاد التونسية، ص 68.



الرومانية القديمة، كما بين ذلك في رسالته الشهيرة في رهن الجزائر حيث قال: « إنني سميت لتحقيق  
تفتح معكم، ولجعل الأرض الجزائرية مهداً لأمة عظيمة سحيمة، صرايعة، فرنسا أخرى، وفي كلمة  
واحدة: نشر من حولنا الأتوار الحقيقية لحصارة يكون فيها لا حول نوسع والقنون، وحمل هذه الأتوار  
إلى... قلب هذه القارة الكبرى الساححة في التوحشية، ونشك هو تمصير الذي اختاره لنا الإله»<sup>(1)</sup>.  
والتصميم هو الجهاز الكفيل بتحقيق ذلك، ويجب أن نغسى برنامجاً على ما يأتي:

1 - محاربة القرآن الكريم: أدرك أن أكبر عائق له هو القرآن الكريم، فهو الذي اكتسح  
مناطق النصرانية وهو الذي يقف سداً مبيحاً أمام مشروعه التميميري، وهو الذي يقاوم الإستعمار  
الفرنسي، ومن هنا كانت كراهته الشديدة له كما عبر عن ذلك في عدة مناسبات، كالمحاضرة التي ألقاها  
في البيت المربع على الأبناء تبصص، ومما فقه فيها: «... غايتنا الحثولة ما بين المسلمين  
والقرآن وسنبقى مسيحيين كلاباً مادام هذا الكتاب -القرآن تكريم- متواجداً في منطقة شمال إفريقيا»<sup>(2)</sup>.  
ولذلك كان من ضمن استراتيجته لحكومة بئده هو سماحها بتجزئيين بتعلم القرآن الكريم وبناء المساجد  
وأداء فريضة الحج، لأنه يجب في نظره الإيفاء بقوري نكل نك<sup>(3)</sup>، وهو ما نفذه فعلاً حاكم الجزائر  
العام الأدميرال فيدون (Gueydon) بعد سقوط العسكريين وتولي المدنيين السلطة في الجزائر بعد ثورة  
1871م. فقيده حرية تنقل رجال الطروق ومنع زيارتهم وصرح بمنع أداء فريضة الحج وتبني رسمياً  
سياسة التتمصير فاطلق عليه المعمرون الفرنسيون لذلك: الأدميران كاردسيال<sup>(4)</sup>. وهكذا أخذ رجال  
الاستعمار بنصائح لافيغري في محاربة القرآن، فمنعوا -بعضاً أخذوا في تطبيق برنامج- تفسير آيات  
الجهاد في المساجد التابعة لفرنسا لغاية الإستقلال<sup>(5)</sup>.  
ومن تصريحاته أيضاً:

«... فأول واجب تقوم به في هذا الميدان، هو التحينولة بينهم -أي الأهالي- وبين القرآن، ينبغي  
لنا على الأقل أن نهتم بالصبيان، وندخل في عقولهم تعاليم الإنجيل، وبعد هذا يمكننا أن نخالطهم، وإلا  
فلنبعدهم إلى الصحراء بعيدين عن الشعب المتمدن»<sup>(6)</sup>. «... إن التاريخ والإنجيل يؤكدان لنا أنه من  
العار على فرنسا أن تترك الأهالي في حظيرة القرآن»<sup>(7)</sup>.  
هذان النصان وغيرهما يثبتان أن لافيغري صاحب نظرية التتمصير القصري، «وهنا نتساءل:  
هل هناك تعصب أشد من هذا؟ وأين ما يتشدقون به من دعوى التسامح؟

1 - M.G.R. Bounard le cardinal lavigerie paris 1896 tome 1 p164 165

2 - GR Goyon vision d'afrique, paris 1890 page 6

3 - المهدي لبوعبدلي، آثار التبشير لمسيحي في الجزائر، ص 1344.

4 - عبد الجليل التميمي، من ملامح التفكير التبشيري عند المسؤولين الفرنسيين في القرن 19 في  
الجزائر، الملتقى 7 عتزي وزوا، وزارة التعليم الأصلي، الجزائر، 1973، م 3، ص 1004.

5 - محمد عزوي، تعقيب على محاضرة عثمان لكملك "التبشير والتخطيط التبشيري" الملتقى 7، م 3، ص 1206.

6 / 7 - المهدي لبوعبدلي، آثار التبشير لمسيحي في الجزائر، ص 1344.

والواقع أن لافيجري بين أن من أسبب عدوانه للقرآن تكريم أنه هو الذي اعترض الاحتلال النهائي للفرنسي للجزائري، وذلك في توجيهه لأبناء شيبس: « إن ما يعترض سببنا للاحتلال النهائي للمنطقة هي في الواقع مسألة دين كما قناه مرزا (1)». كما سير في كثير من مناسبات قلعه من القرآن الكريم لأنه أحسن بتمسك الجزائريين به منذ اعتناقهم له وإنهم دائما يحتمون به فيحتمون، ومن ذلك قوله: « إن هذه الجهود التي بذنتها الحركة الصليبية في مختلف أشكالها ومظاهرها، كانت دائما مع القرآن... ومامنا على هذه الحالة، فلما عاجزون عن الوصول إلى أية غاية يولون كل ذلك بعد ألف سنة، وسوف تبقى كلابا نصارى، وسيكون دحنا وإقلاونا في البحر عملا مقدسا يثاب عليه فاعله ما دام القرآن مرجعه ومصنره (2)».

إن حقه السابق جعله يتهم القرآن تكريم بأنه شريعة عمياء مسببة على تكذب سيطرت على الجزائريين بدون حجة (3).

هذه النصوص وغيرها، عندما نخضعها لتلخيص النفسى تكشف لنا عن نفسية معقدة، ذات طبيعة سادية تكذب وتزيف، وتبطل وتدمر من أجل إشباع غرائها التي لا تشبع، ذلك أن لافيجري بدل أن يتجه بعقله إلى فهم محتوى القرآن ودراسته دراسة واعية موضوعية وفقا للمنهج العلمي الذي توصل إليه أبناء جلدته نجده يعمل بلا هوادة لصرف الناس عن القرآن وإبعادهم عنه. أي العمل على طمس الحقيقة النورانية وطمس أعين الناس عنها كذلك، وهذا دليل على تخوفه منه، كما هو دليل على تيقنه من أن المشروع الاستعماري الذي كان يعمل للتمكين له هو استبعاد شعب لشعب لأغراض دنيوية شهوية. ومن هنا فمن الطبيعي أن يحقد على القرآن تكريم، لأن محتواه يحلل النفسية والديانة النصرانية من الداخل يبين ما تتطوي عليه مبادئها وكذا نفسيات معتقبيها من عقد وأمراض نفسية خطيرة بوتهافت على الدنيا بالبغي والعدوان، ويشرح ذلك ويشرحها تشریحا دقيقا، ويكشف تهافت النصرانية وتحريفها وتزييفها، ومن هنا يستحيل على النصارى أن يحتالوا على المنتسب به، ولا تتطلي عليه حيلهم وكيدهم ومكرهم، وبذلك فإن نجاحهم الدنيوي مرهون بإزاحة القرآن من سبيلهم.

ولكي يزاح القرآن فلا بد من إزاحة المدارس القرآنية التي تتعلم فيها الناشئة، وإلا ذهبت جهوده أدراج الرياح. ذلك أن تلك المدارس تحتضن الناشئة الذين يحفظون القرآن الكريم في سن مبكرة، فتتكون فيهم حصانة ذاتية به، فلا تجد النصرانية بعد ذلك إلى نفوسهم سبيلا، فتيقن أن الأرض التي يريد أن يثيد عليها عمارة النصرانية في نفوس الناشئة هي أرض مسلحة بالقرآن (4). ومن هنا كان حقه على تلك المدارس، وكانت نعمته على القرآن وعلى الطرق الصوفية التي كانت تعمله وتجاهد به أعداءها كالمسوسة وغيرها كما بينا في الأوضاع الثقافية، وكان راضيا كل الرضا عن التجانية التي كسانت

1 - الأثر المختارة، ص 236.

2 - الأثر المختارة، ص 160، 162.

3 - Abde Felix kelein cardinal la vigerie et ses oeuvres d'afrigue, paris, 1897, page 4.

4 - صر الغربي، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية، ص 79.

تحرم التعليم، وبذلك فلا تشكل أي خطر على مشروع، بل تكون مساعدة له بتشجيعها للجهل لبائتي المبشرون ويستغلون ذلك كما مر سابقا.

2 - محاربة اللغة العربية : ونشك لأنها لغة القرآن الكريم، فمن جهلها جهنم، والقضاء عليها قضاء عليه، وقد بدى باعتبارها لهجة من لهجات إفريقيا تفكورية وتطورت الفكرة عند الأباء البيض لتصبح دعوة إلى العالمية بدل الفصحى وازدهرت بعد الحرب العالمية الأولى لصرب الحركة الوطنية في الجزائر<sup>(1)</sup>. وأصبحت عند دعاة الحركة البربرية قاعدة أساسية من قواعد حركتهم<sup>(2)</sup>. كما سنبين وهو ما يبين الأساس التصيري لأولئك الدعاة.

نستشف من هذا أن لافيجري لم يقتصر على تهجوم على القرآن الكريم، بل تعداه لتهينة كل الوسائل الضرورية لمحوه من الوجود، ومن أهم تلك الوسائل، القضاء على اللغة التي نزل بها وأضحى محاربة اللغة العربية قاعدة مشتركة بين جميع مبشري العالم ومستشرقيه والمواطنين معهم كما سنبين أثناء حديثنا عن الدعوة إلى العالمية.

3 - الفرنسية والإمماج : وهما مترابطان، وقد ذكرنا قداما ما يتعلق بالإمماج الذي لا يتحقق إلا عن طريق التصير، أما الفرنسية فيقرر لافيجري: «... وعلى فرنسا أن تعمل على فرنسة مليون بربري دون العرب»<sup>(3)</sup>. أي العمل على تمزيق وحدة الشعب الجزائري بتقسيمه إلى بربر يجب أن يفرنسوا ليعودوا إلى أصلهم الخالي، وعرب يجب أن يُجهلوا بحرمانهم من تعلم القرآن الكريم وإبعادهم عن شيوخ الطرق الذين كانوا يطمون للشعب أمور دينه وديناه ومنعهم من تعلم اللغة العربية، وبهذا يستطيع أن يخلق صراعا حادا بين العربي المسلم الذي جُهِل، والبربري المسلم الذي فُرنس، وتنتشر هذه الفكرة الخطيرة داخل المؤسسات التعليمية ومؤسسات الإحسان، وتنفذ عن طريق الفرنسية، أي فرنسة البربر دون العرب<sup>(4)</sup>. وبهذا فإن المؤسسات التعليمية التي أنشأها لافيجري جعل من أهدافها الكبرى تقسيم المجتمع الجزائري إلى بربر مفرنسين يقومون في المستقبل بنفس الدور الذي يقوم به رجال الاستعمار المتمثل في التصير وتثبيت الاستعمار، وعرب يكونون أقل مواطنة منهم.

وقد أصبحت الفرنسية قاعدة أساسية من قواعد الحركة البربرية<sup>(5)</sup>. ولكي يثبتها لافيجري أضف إليها عاملا آخر يكملها في تمزيق وحدة الشعب ويحقق غايته من ذلك وهو:

1 - محمد عزوي، تعقب على كمالك، ص 1206، 1207.

2 - سنبين هذا في محله.

3 - الأثار المختارة، ج 2، ص 520، 521.

4 - عمر الخيري، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية، ص 63.

5 - ولقد وصل حد دعاة هذه الحركة على اللغة العربية إلى الإضراب عن الدراسة في قسم الاقتصاد بجامعة تيزي وزو في شهر ديسمبر 1995م. وذلك للمطالبة بفرنسة الاقتصاد، وهذا تمهيد لفرنسة المواد الأدبية من جديد في التعليم الثانوي والمتوسط ثم فرنسا لتطمح الإبتكالي بعد أن إستجاب لهم الحكومة بجعل اللهجة القبائلية لغة تحت ستار الأمازيغية.

#### 4 - إشعار السكان بأنهم من أصل روماني أو غالي - لا عربي - وإعتراف العصور الإسلامية

عصوراً مقلنة<sup>(1)</sup> الو :

استخدام التاريخ وتزويره من أجل التصدير والإستعمار<sup>(2)</sup>: برغم لافجوري أن السيرير كانوا نصاري، لأن بلادهم كانت تابعة لروما، والإسلام أن هو الإلهين عليهم فهراء. ولذالك يجب محوه ومحقه وإرجاعهم إلى أصلهم النصراني<sup>(3)</sup>. ولتحقيق هذا الغرض، فقد أخذ بنقث بكثرة عن تاريخ الكنيسة الإفريقية وقد بسبها، واستعان بنخبة من المتخصصين، واعتبر نفسه محي أمجادها ووارث كرسي القديس سيريرين، وظهر آثار هذا في خطبه ورسائله. كما كان يوصي المبشرين بأن يركزوا على تذكير الأهالي بأن أجدادهم كانوا نصاري دخلوا في الإسلام فهراء، ولذا يجب أن يعودوا إلى أصلهم النصراني، ففي محاضرة ألقاها على الأباء البيض في البيت المربع بالجزائر.

وجعل عنوانها: « كيف انتشر الإسلام في منطقة شمال إفريقيا ». قال فيها: « منذ 13 قرناً والإسلام يعيش في هذه المنطقة بعد إزاحتها هبة الإمبراطورية الرومانية عن هذه الربوع، واستطاع أن ينجح دون أي قاعدة شرعية ولا برهان ديني، وما هيئته على هذه المنطقة إلا نتيجة تركيزه على العاطفة والقوة والتفهم، وعليكم أن تعلموا أن هذه الأرض ساحرات صليبية الأصل، مسيحية التعقيدة والحضارة... علينا واجب تطهيرها من أدران الشرك الموجودة الإسلام<sup>(4)</sup>، وعندما ذهب إلى تونس طلب من بابها منحه قطعة أرض بجانب معهد سان نويس لإقامة مكتبة للتراث النصراني في تونس قبل الإسلام، ولقد وصل به استغلال العامل التاريخي إلى نشر قبور ما قبل الإسلام بحثاً عن الآثار النصرانية لإثبات نصرانية المنطقة. وذلك للربط بين الإستعمار الروماني المنصرم للمنطقة والإستعمار الفرنسي الحالي، كما يمكنه ذلك -في تصوره- من تحويل إعتزاز الناس بالإسلام إلى العمل على إحياء تراث ما قبل الإسلام والإعتزاز به مما يمكنه من القضاء على العائق الأكبر أمام أطماعه -الإسلام-<sup>(5)</sup>

1 - محمد عزوي، المرجع السابق، ص 1207.

2 - بعد الأستاذ ديبش (Antoine Adolphe dupuch) - أول أسقف الجزائر بعد أحداث لسقفيتها في 8 أوت 1838م - من أبرز الذين كرسوا جهودهم لإثبات ماضي الجزائر النصراني، وذلك بتأليف كتاب الجزائر المسيحية لرومانية الفرنسية، حاول فيه إيجاد ماضي النصرانية بإفريقيا واستمراريته، وتحقيق هذا الغرض، فإن أول عمل قام به بعد تعيينه أسقفاً على الجزائر هو سعيه في نقل جثمان سانت لو لوجستان من مدينة بافي (Pavie) الإيطالية إلى عنابة لمشاركة الحكومة الفرنسية بصفة رسمية، في هذا أرسلت باخرة حربية لنقله. بالقرار من وزير جريبتها سولت (Souls) كما شاركت لجالية الفرنسية بالجزائر وكذا ممثلو جميع السلطات في المهرجانات التي أقيمت بالبلاد لهذه المناسبة (خديجة بقطاش، المرجع السابق، هامش ص 73، 47. أيضاً: أبو عبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر ص 1340).

3 - صر الغريبي، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية، ص 52، 53.

4 - عبد المجيد شرقي، الحركة التبشيرية في تونس، ص 151.

وهو ما جعله بصريح بمجرد ما وطنت قدماء أرض تونس لغتلا :

« جنت لإحياء الماضي المجد - يعنى بعث الحضارية وتجنيد الإستعمار - وكنيسة تونس هي كنيسة قرطاج، وقرطاج هي مهد المسيحية الأول في إفريقيا، وهيا كرسى لجانثوق (Primar) المشرف على 700 كنيسة أسقفية، وهي مدينة تعبد من شهداء وشمعاء والمدارى المقدسات، هي مدينة ترثيليان (Tertullien) وسبيريان (Cyprien) و... ومدينة تلك المحامع الشهيرة التي كانت نبث لمدة طويلة نور العالم المسيحي<sup>(1)</sup>. ويمكن أن نلخص ما سبق في ثلاث نقاط جوهرية هي :

أ - تذكير الأهلى بأن أجدادهم كانوا نصارى، تنصرت على وتر عاطفة لتصويرهم والتمكين للإستعمار.

ب - الإعتناء بالبحث عن تاريخ الكنيسة الإفريقية لإنشأت عدم شرعية الإسلام في المنطقة.

ج - اعتبار البربر - وإقتناعهم - بأنهم من أصل أوريبي، لأعربا. استعمرهم العرب بالإسلام وابتكر الفرنسيون من رجال كهنوت وعلماء وساسة نظريات كثيرة حول أصل البربر، تتفق كلها على اعتبار العرب مستعمرين للمنطقة بالإسلام مما يوجب طردهم<sup>(2)</sup>. وإرجاع المنطقة إلى سابق عهدها، لكن ليس عن طريق روما، بل فرنسا.

ومن هنا نفوصل إلى أن استغلال التاريخ والعمل على إرجاع الاعتزاز بما قبل الإسلام نقطة اتفق عليها جميع رجال التبشير، وهي قاعدة جوهرية من قواعد الحركة البربرية الآن.

وما يجب ملاحظته أن هذه القضية طورت بعد ذلك وربطت بفكرة التجنيس، فجاء غوبينو (Gobineau) وأعلن أن البربر لبصوا عربا، وجاء شانتير وبرتولون (Chantres et Bertholon) وأعلن أن الأقيسة الأنتروبولوجية تفيد أن الدماغ البربري والدماغ العربي مختلفان، وجاء لاروس مونيكس وأعلن أن الجنس الأصلي في الجزائر هو جنس يطابق تمام للتطابق الجنس الغالى، أي الجنس الفرنسي القديم، وجاء دولاروشمو نتيكس (De la Rochemontex) وأعلن أنهم غاليون (Gaulois). ولما كان البربر غاليين، وكان الغاليون هم الفرنسيين الآن، فقد وجب أن يصيروا فرنسيين<sup>(3)</sup>. وحينئذ فلا بد من التجنيس حتى يرجع هؤلاء الغاليون - البربر - الذين فصلهم العرب عن فرنسا، إلى أصلهم الفرنسي<sup>(4)</sup>.

ولتحقيق هذا الغرض فقد إهتموا بالبربرية - القبائلية - باعتبارها لغة هؤلاء الغاليين - أي السكان الأصليين<sup>(5)</sup> - واعتبروا أن لها أدبا وشعرا ومسرحا وفصصا وفصاحة وبلاغة.

ومن هنا يبدو جليا :

1 - الأثر لمختارة، ج 2، ص 393.

2 - ولواقع أن هذه وجهة نظر الماركسيين أيضا، فقد رأى هذا قرأى كارل ماركس في كتابه "الإستعمار".

3 - عثمان لكعك، التبشير والتخطيط لتبشيري، ص 1143.

4 - عثمان لكعك، رد على المحققين، الملتقى 7 لتعرف على الفكر الإسلامي، م 3، ص 1234.

5 - ربط القبائلية بالغالية مناهات، لأنه لا علاقة قهنة بين اللغة الفرنسية قبل الإحتلال والقبائلية وبذلك فإن الزعم بالأصل الغالى للقبائل إنما هو توحيد ماليين ولعدا لإلتنوع ولا بالجنس ولا بالطبع.

تقرير لافيجري بفرنسة مليون بربري دون تعرب كما مر سابقا، فهو إذن لو هذه الفكرة الخطيرة التي تجعل تحويل البربر إلى أصلهم الفرنسي - حسب رأيهم - مرحلة جوهرية لتصويرهم بعد ذلك، فتصير شمال إفريقيا بلادا نصرانية<sup>(1)</sup>، ولتحقيق هذا تعربس فقد ركز الآباء البيض على بلاد القبائل تركيزا منقطع للتصوير، ويظهر هذا جليا في رسالة تني وجهها عميل عمالة الجزائر إلى تحاكم العام للجزائر، والمؤرخة في: 9 جويلية 1880 م. ونصها:

« أظن أنه من المفيد أن أخطركم عن الأفعال تكديري التي ينجزها حاليا الآباء البيض الموجودون في تلموننت أو عزوز (دوار - بني محمود - بنية يسر المختلطة)، إن التماهي التي شيدتها هؤلاء المبشرون يمكن أن تغدو بمبلغ أربعين ألف فرنك<sup>(2)</sup>.

وهنا يبدو جليا العلاقة بين اعتبار السكان من أصل عربي (فرنسي) والتقييب عن الآثار بالفرنسة والإدماج والتصوير والاستعمار.

5 - مسح آثار التدمير والبطش الفرنسي : وثقت بتحييب الناس في رجال الإستعمار الذين حطموهم وحطموا بنيتهم الحضارية لإبقاء الإستعمار إلى الأبد، وقد بين لافيجري الحالة المزرية التي آل إليها أمر الأهالي من آثار التدمير المادي والمعنوي، ثم بين ما يجب أن يعمل المبشرون لإزالة آثار ذلك واستغلال نفسية الجزائريين للمحطمة، فذكر في رسالة إلى أحد نواب الجزائر في سنة 1874 م أي بعد الدمار الذي حل بالبلاد بعد فشل ثورة المقراني:

« لقد حرم المجتمع العربي من كبار رؤسائه، وفقد أقبائليون جماعاتهم العتيقة، وأزيل القضاة المسلمون في كل مكان، وتغيرت الملكية. وانتقلت الأراضي إلى أيدي المعمرين... »<sup>(3)</sup>.  
كلامه هذا تقرير صادق عن جرائم الإستعمار تفرنسي من أحد كبرائه، يبين فيه تحطيم الإستعمار للبنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وهنا يأتي دور الكنيسة لتقوم بعمل ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، لتصل إلى نتيجة أخطر، وهي :

تحييب الناس في أولئك الذين دمروهم ودمروا دينهم، ويتمثل ذلك العمل في « الإحسان المسيحي لجمع أشلاء أولئك السكان المحكوم عليهم بالهلاك »<sup>(4)</sup>. أي أن رجال الجيش يبطشون ويدمرون، ويأتي المبشرون وراءهم لمحو آثار تلك، فيوازن الأهالي بين إبليس والشيطان، فيعتقدون أن الشيطان أرحم، فيقعون في الفخ الذي نصبه الإستعمار والمبشرون معا. وقد فضح لافيجري نفسه

1 - عثمان لكاه، رد على لمعتين، ص 1234.

2 - أرشيف ما وراء البحار لكس تيرولانس (فرنسا)، ملف 50، عن محمد الطاهر وعلي، لتعليم التبشيري في الجزائر ملحق رقم 5، ص 257.

3 - الآثار المختارة، ج 1، ص 259، 260.

4 - الآثار المختارة، ج 1، ص 259، 260.

باعتباره الجنود مبشرين، وبقريره استخدام العنف<sup>(1)</sup> للتصير. هائل :

« إن المبشر الحق الوحيد الذي له جنوى في هذا الضرف، هو عمل الأحداث التي تغير  
الوضعية السياسية لهذه الربوع، فحكمانا وحنودنا هم إن... أعوان هذه الرسالة الجديدة، إنهم يمثلون  
القوة. والقوة عند المسلمين هي الله ذاته، وعندما يرون إعلانها من أيديهم إلى الأبد فإنهم يضطربون  
وتشوش عقيدتهم، وهو ما نلاحظه بعد بوضوح في الجزائر، حيث تفكك كل شيء حتى ديبهم دون أي  
عمل ظاهر، ورجال الكنيسة... فقد كانوا برسالة سنية. ونكها... لا ينبغي لها أن تفلح أحدا، فبينما  
يسلب الأهالي قدرتهم وأسلحتهم وتقاليدهم الموروثة منذ قرون، فإننا نحث عن تهدئة تلك القلوب  
الساخطة بإرجاعها إلى الحادة بممارسة التفاني والإحسان<sup>(2)</sup>. ومعنى كلامه هذا ما ذكرناه آنفا، وهو  
أن الجندي يبطش، والتقسيم يغطي آثار البطش ويحجب المقتول في قاتله.

ولايجري يقرر هنا قضية خطيرة، وهي أن ما يهدف إليه بهذه الطريقة ليس بالضرورة  
التصير، بل يكفي الخروج من الإسلام، أي اضطراب العقيدة وتشويشها. «... وإن ما نحصل عليه  
بهذه الطريقة ليس بدون شك دخولا سريعا ومنهورا في الدين النصراني. لن يكون إذ ذاك إلا تهينة  
للخروج منه - أي من الإسلام - وإنما هو خير أكثر دواما وتمهيد ثابت بدون هزات وبدون أخطار  
لتغيير العالم الإفريقي<sup>(3)</sup>. ما يهم لافيجري هنا هو تحطيم عامل المقاومة والعائق الأكبر أمام أطماع  
الاستعمار وهو الإسلام، فيدونه يصبح الأهمي بدون حامي، أي فريسة سهلة، ولا يهم بعد ذلك تتصروا  
أم لم يتصروا، ولأهمية تشويش العقيدة في نفوس المسلم فقد كان إباء البيض يدرسون نظريات الإلحاد  
المختلفة في مدارسهم.

1 - وقد بلغت النجبية والوحشية والحوانية بلاهجري في خطابه المورخ في 25 نيسان 1875م في كاتدرائية  
الجزائر (جامع كيتاوة قبلا وبعدا) إلى الزعم بأن الله اختار الجيش الفرنسي بسبب عمله لمقدس في تمير المسلمين  
الجزائريين ليكون مع لرسول، وما هو نصه لا يحتاج إلى تعليق: «... وكذلك لكي يعيد إلى الأرض الشهيرة أرض أمثال  
ترتوليان... وغيرهم من الرجال العظام، فقد إختار (الله) جيشا هو الجيش الفرنسي. لا تعجبوا من هذا الاختيار من  
قبل العناية الإلهية، إن رجال الحرب هم مع لرسول، رسل الحقيقة، لولئك الذي أشركهم الله بصورة منطوية تماما، في  
عمله في الدنيا، فقد لولى لرسول عزائم رحمته ولولى الآخرين أحكام عدالته... عندما تتلج أمة من الأمم من أجل رخصمة  
كبرى مهمات الإنسانية والعدالة، وعندما تحمل معها النور واسم يسوع المسيح حتى إلى المناطق البربرية  
(الإسلامية) بوعدنا تعرض على نفسها إحصانا وفيها منها بالواجب، لتضحية بكنوزها وبدنها لكي تقبل شعبا من  
الموت [ الإسلام ] ... وإذا كانت فرنسا قد تلقت رسالة من أعلى [ أي الله هو الذي أمرها باستعمار الجزائر ] فهل  
لوكذ من هذا وثبت، (الكاردينال لافيجري، جيش ومهمة فرنسا في إفريقيا، ص 5-7 هامش علي مراد، شارل دي  
لوكو في نظر الإسلام)، ترجمة علي مقلد، طب. المطبعة البولسية، جونية، 1980، ص 79، 80).

2 - Goyau le second acte de la conquête (Turisienne) promenade.

- 2

3 - الأثر المختارة، ج 2، ص 520، 521.

وما يجب الإشارة إليه أن ما قرره لاهجري هنا هو تدي قرره من بعد روبر كما بينا في تحديد مفهوم التبشير<sup>(1)</sup>، مما بين بل تبشير مخطط عثمى هذه الأسس محو الإسلام من الوجود لتكتب الغلبة للغرب.

6 - تكوين مبشرين من الأهالي : وتغلب من نك بعورها لاهجري صراحة بقوله: « إن لهؤلاء الأطفال أهمية كبرى، فبدونهم لا نستتب لنا الديمومة والاستقرار في المنطقة، لأن المبشرين الأوربيين لا يستطيعون الثبات أمام التقنيات الطبيعية، كما أن هناك صعوبة في الاتصال بالناس، وإتقان لهجاتهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأكلهم ولباسهم، وكل المعاملات التي تتم بينهم، فمن الصعب على الراهب الفرنسي أن يتقن ذلك. إذ هو متميز بلباسه وأسلوبه ونعته وحتى في بشرته، فهو مكشوف عندما يقوم بحركة، فواجب الفرنسيين إذن السهر والرعاية التامة لهذه المشتة، وعينهم إعدادها على أحسن وجه، يكون ذلك بالمواظبة والديمومة، عندها تجد فرنسا قد أعدت مبشرين أفارقة دما ولحما، بلغة وجنسا»<sup>(2)</sup>. هذا النص يعد من الأهمية بمكان فهو يتضمن الأسباب التي جعلته يركز على تكوين هذا النوع من المبشرين وهي :

- ضمان ديمومة الاستعمار، وضمان استمرارية التبشير، يضاف إلى هذا أن تبشير الإفريقي للإفريقي أنجح من تبشير الفرنسي للإفريقي، حيث لا حاجز عسي بين الأهالي، كما أن تكاليف التبشير سوف تضحل، لأن الإفريقي هو الذي يصبح معولا وليس فرنسا، وبذلك يصح الإفريقي المستعمر يخدم الفرنسي المستعمر مجانا، كما أن هذه العملية تحول الصراع الذي كان بين الأهالي والفرنسيين إلى الصراع بين الأهالي مع أنفسهم، ويومئذ يعمل الإستعمار على إنكفاء نار الصراع<sup>(3)</sup>. ليستفيد ويستمر إلى الأبد. وبهذا تصبح القضية هنا قضية استعمار أكثر منها قضية دين، ولذلك فإن التعبير الذي استخدمه لاهجري هو قوله: «فواجب على الفرنسيين» - ونم يقل « فواجب على الكنيسة » وهنا نتساءل: ما هو الدور الذي يبقى للمبشرين الفرنسيين؟ ويجب لاهجري بأنه إنشاء قاعدة التبشير وتوجيهه والتخطيط له، والأهالي هم الذين ينفذون ويستمررون في ذلك إلى الأبد، ولهذا الغرض يجب على الأهالي المبشرين أنه يحافظوا على مظاهرهم الإفريقية لتحقيق ما ذكر قبلنا، « على المبشرين أن يكونوا بالخصوص مهدين لانتشار المبادئ المسيحية، أما العمل الدائم فينبغي أن يقوم به الأفارقة أنفسهم حين يصبحون مسيحيين ودعاة، لا حين يصبحون فرنسيين وأوروبيين... فيجب إذن... خدمة باطنهم لجهل مسيحيًا، وعلى العكس من ذلك يجب الحفاظ لهم على كل المظاهر الخارجية الأهلية من لباس وفراش وأكل، وعلى اللغة بالأخص»<sup>(4)</sup>.

1 - ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى: ثور العندي، التبشير والإستراق والدمرات الهدامة، ص 35.

2 - Cardinal Lavignac, Ecrits d' Afrique Recueillis et Présentés par A. Hamman, Paris Grassat, 1966, Page 126

3 - ولتحقيق هذه الغاية كان المبشرون يعمدون إلى بعض المثلثات الإفريقية فيصرون بعضها ويتكون البعض الآخر مسلما لتزيق العائلة وإنكفاء نار الفتنة بينها، ومن الأمثلة على هذا ليرولد سنغور رئيس السنغال السابق، فقد نصرَ وبقي إخوته على إسلامهم، ومن منا لا يعرف الخدمات الجليلة التي قدمها لفرنكافونية 12.

-Cardinal Lavignac Ecrits d' Afrique, Page 129



وما يجب الإشارة إليه لهذا المصنف من التلاميذ الذين بعدهم ليصبحوا مشيرين، يجب أن لا يكونوا من اليتامى الذين تربوا في أحضان المشيرين، أما يسمى فيسمى أن يكون مطهرهم الخارجي أوروبيا، ليكون حاجزا أمام المبعوث قتي ترددهم إلى فكر "الإسلام" (1). وبهذا نستطيع القول أن لاهيجري كان يهدف إلى تكوين نوعين من التلاميذ :

\* النوع الأول: هم الذين يعدون ليصبحوا مشيرين بين أمثليهم، وهؤلاء يجب أن يحافظوا على مظهرهم المحلي كما ذكرنا آنفا.

\* النوع الثاني: هم الذين يعدون ليصبحوا نصارى فرنسيين قنا وقلبا، ويتبع في تربيتهم ما سبق مع النوع الأول، غير أن مظهرهم الخارجي يجب أن يكون أوروبيا، ويجب أن يكون من اليتامى. وذلك حتى لا يبقى أي أمل في الرجوع إلى ذوبهم بعد وصولهم إلى سن الترشد، فيقول: « على فرنسا أن تربيتهم وتعددهم إعدادا فرنسيا... ليصبحوا كئناهم فرنسا يذودون عنها، عقيدة واستعمارا، لهذا يجب أن يكون خارجهم فرنسيا حتى يحميهم من الأثر لاق في أبناء العرب الشرايرة المتوحشين » (2). وما يؤسف له أن هذه الفكرة تجسدت فيما بعد عندما سمي بالنجبة قتي أصبحت تعتقد أنها دون الفرنسيين ولكنها فوق الأهالي كما بينا في العلاقة بين التبشير والاستعمار مع أنه يعتبر أصلهم برايرة متوحشين وبهذا فالمتوحش ليس الذي يعتدي ويستعمر، بل الذي يدافع عن عرضه وبلده ودينه، وهنا نقمائل :

أي دين هذا الذي يحمي الظلم وينصره ويخطط له ويفهر المظلوم ويستعبده؟

ولكنه الكاردينال لاهيجري الذي كان ينظر للإستعمار الفرنسي، وأراد بتقسيمه السابق تكوين شرائح مختلفة متعددة المظاهر، متحدة الهوية لذلك صرح مجتمع الإسلامى بخلق عناصر هدامة من طبيئته تعمل على تفجيرها من الداخل بالتصادم بين المرتد الذي تطفئ عليه المصلحة الخاصة وحب فرنسا، والمسلم الملتزم الذي يقع بين فكي رحى، ضغط الاستعمار من الخارج، والمرتدين من الداخل وهكذا يتحول الصراع المباشر بين المسلم والنصراني الفرنسي إلى صراع بين المرتد، "الأهلي" والمسلم الوطني، فتتور رحى الحرب بين الأهالي وما على الفرنسيين سوى إدارة أزرارها وإذكائها (3).

وما يجب ملاحظته أن هذا التنوع، لتقاسم الأنوار، فهناك الذي يكون ليصبح قسيسا، وهناك الذي يكون ليصير مشوش العقيدة، مضطرب الفكر لا تكي الإتجاه، وهذا ما آل إليه ماسمي بالنجبة كما ذكرنا في العلاقة بين التبشير والاستعمار، وكل صنف يؤدي الدور الذي كلف به ولو بطريقة لا شعورية، ومن هنا فإن من أغراض التعليم تكوين لانكبين، ومن الأثماء قتي يجب أن يلتحق هؤلاء المعلمون الحقد على الخلافة العثمانية وسلطانها (4) (5).

- Cardinal Javigerie, écrits d'Afrique, page 129

- 1

- Ibid page 30.

- 2

3 - صر العربي، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية، ص 64.

- V. Guerin, la France catholique en Tunisie édition, Paris, 1890; page 42.

- 4

5 - وبهذا ندرك أن سقوط الخلافة العثمانية، في سنة 1924م كان نتيجة مزامرة صليبية ويهودية عالمية خطط لها منذ أكثر من قرن، وكان أحد المخططين لذلك لاهيجري.

وواقع أن كراهة العلاقة العثمانية وسلطتها وحما فرنسا هو اللاتكبة التي نعددها عند دعاة الحركة البربرية ذلك أن كراهة العلاقة العثمانية بحسب تنحني عن فكرة لدولة الإسلامية، بحجة العنصرية والعداثة كما سنبين مما بحسب تنحني عن القرآن تكريم لعنوا الأكراد للاهجري والحامي الوحيد لعصوننا. ومن هنا تبدو العلاقة جنبة بين الدعوة إلى سد العلاقة الإسلامية - التي كانت رغم ضعفها - ترمز إلى وحدة المسلمين الروحية في مغنر الفاتكان الذي يرمز إلى وحدة النصاري الروحية مما ينتج عنها من نبد القرآن تكريم - الإسلام - مما يحطم التنية الثقافية والنفسية للمجتمع الذي يصبح بدون هوية فيتمزق شر ممزق وبصير بين خيارين كليهما أمر من الأخر، هما التصوير أو اللاتكبة التي تؤول إلى التصوير، وبذلك تبقى فرنسا إلى الأبد.

وأخيرا نشير إلى أن هذا التعليم لكي يكون منمرا فقد صم إليه لاهجري التبشير عن طريق الإحسان وذلك لإغواء الفقراء والضعفاء باستدراجهم فيتمزق بشك مثل الإسلام الذي لا يقطع، الحائل بين لاهجري وأولئك البؤساء، فيقول: "علينا أن نمزق هذا التستار - الإسلام - الذي لا يقطع والحائل بيننا وبين الفقراء والضعفاء منهم حتى نبين روح الرب الأثرية، ونتمكن من أنفسهم".<sup>(1)</sup>

هذه هي أهداف التعليم عند لاهجري، وقد رأينا اثنين منها يتعلقان مباشرة بالحركة البربرية وهما الفرنسية والإنماج، وإشعل السكان بأنهم من أصل روماني وهو ما يدعونا إلى تبين بعض ما فعله لاهجري في القضية البربرية مما يسلط الأضواء على نشأة هذه الحركة ومعرفة تطورها وأهدافها

القادر للعلوم الإسلامية

## الفصل الثالث

### القضية البربرية

بدلية اهتمام فرنسا بالقضية البربرية :

يعود اهتمام فرنسا بالقضية البربرية على الأقل إلى سنة 1788م. وذلك عندما أوفدت فونتير دي بارادي<sup>(1)</sup> إلى الجزائر لتسوية خلافات نشبت بين الطرفين. فقام سنتين بالجزائر العاصمة درس خلالها بنية البلاد الثقافية والاجتماعية والسياسية. ثم درس الشهجة القبائلية دراسة واسعة، وألف في ذلك قاموسا ثلاثيا بالفرنسية والقبائلية والعربية عنى هذا النمط:

(2)

Français	Berbère	ARABE	
Chaundron	Ibselt Tadourt	ثمنت	قدرة
Chauve	Amzout	تقنورت امزوط	اقرع

وظل اهتمام فرنسا بهذه القضية إلى يومنا هذا، ولكن العمل الأساسي بدأ بعد الاحتلال<sup>(3)</sup>، بحيث كان للسلطات الفرنسية سياسة خاصة تجاه منطقة القبائل لأظهارها كبتها منفصلا ومنتعزا عن باقي السكان، كي تخلق منه طائفة تستخدمها في تحقيق أطماعها بعد إتمامها في المجتمع الفرنسي<sup>(4)</sup>. وقد تعاون في هذا الشأن العسكريون، ورجال الدين والسياسيون، فمن العسكريين الجنرال دوماس الذي زعم أن أصول البربر مسيحية، أسلموا ظاهرا دون أن يؤثر القرآن في قوانينهم المنافية له<sup>(5)</sup>.

1 - ولد بمرسيليا سنة 1739م. تعلم اللغات الشرقية كالعربية والتركية. أرسل إلى إسطنبول لمعاونة ممثل فرنسا بها، ثم صار مساعدا لرئيس الترجمة الفرنسيين بمصر، ثم ممثلا لفرنسا ببلاط المغرب الأقصى. ثم رئيسا لديوان الترجمة بتونس، ثم رقي في عهد لويس 16 إلى منصب مترجم اللغات الشرقية في وزارة الخارجية ثم أوفد إلى الجزائر، ثم وظف بالمفارة الفرنسية بإسطنبول، ومنها دعاه بونابرت لمشاركته في استعمار مصر ليصبح لسانه، فتمكن من ضم كثير من القبائل العربية حول بونابرت، وبقي معاوننا له حتى مرض ومات في حصار عكا سنة 1799م. ترك عدة مؤلفات منها ترجمة لتاريخ الخلفاء والملوك بمصر ليويس المعنسي، وكثيرا من الكتب العربية النادرة، وقد ترجم أحمد توفيق المعنسي بعضها من منكرته في كتابه محمد عثمان باشا (أحمد توفيق المعنسي، محمد عثمان باشا ص 161، 162).

2 - المرجع نفسه، ص 161، 162.

3 - وقد أشرنا قبلا إلى البيان الذي وزعه جيش الاحتلال قبل احتلال مدينة الجزائر على سكان القبائل يفرضهم من العثمانيين ويحثهم على الخضوع له باعتبارهم يختلفون عن بقية السكان.

4 - خديجة بقطش، الحركة القبطية الفرنسية في الجزائر، ص 139.

5 - ومن أولئك فتوسع في هذا المرجع إلى خديجة بقطش، المرجع السابق، ص 140، وهامش ص 158.

ومن السياسيين الذين نادوا بتصوير البربر وعنفوا على خلق الكيان قبائلي للكثور  
وارنيهم عن أنهم السكان الأصليون للحران، وأن أصلهم وتاريخهم وحضارتهم قريب جدا من حضارة  
الفرنسيين مما يمكن إدماجهم في المجتمع الفرنسي<sup>(1)</sup>. ولما أعينه الأئمة ثلاث رعمه استند إلى ظاهرة  
الوشم التي كانت منتشرة كثيرا وسط السكان، وكانت على شكل صليب فوق العنقه وتوجنتين والأذرع  
والأرجل، وهو الدليل ذاته الذي استند إليه الأب دولا الذي اعتقد إمكانية فرسة القبائل وتصويرهم عن  
طريق التنظيم.

والحقيقة أن ظاهرة الوشم على شكل صليب لا علاقة لها بالصرانية في بلدان شمال إفريقيا،  
والإلماذ لم يستعملها الفرنسيون<sup>(2)</sup> ولكنها مرتبطة من جهة بالهجرات العربية القديمة إلى هذه  
المنطقة، ومن جهة أخرى لها علاقة بالظاهرة الاستعمارية الرومانية لهذه البلدان.

فأما ما يتطرق بالهجرات العربية القديمة إلى شمال إفريقيا، فإنه يجب التنبيه إلى أن اسم الصليب  
ليس لاتينيا، بل دخل على اللاتينية، واسمه الأصلي (لابارن)، وهي كلمة كلدانية حمورابية، ومعناها  
الأزلية والخلود، وكانت عادة ملوك بابل أن يتخذوا شعارا صليب على صدورهم كلما عين الملك أملا  
أن يخلد في الحكم، ويطول عمره، وعندما انقسمت دولة روما الشرقية إلى قسمين الغربية والشرقية  
أخذت تتألفها عن دول بابل، ومما أخذت عنها شعار الصليب، فوضعت على الأعلام، وذلك قبل أن  
تعتنق روما النصرانية بالآلاف العنين، ولما كان الكنعانيون والكنوزانيون على صلات كثيرة. فلما انتشر  
الكلدانيون في شمال إفريقيا حملوا هذه الشارة معهم، وأصبحوا عندما يولد لهم المولود يضعون عليه  
وشم شارة الصليب أملا بظول البقاء وعدم الموت. وبهذا فإنه لا علاقة بظاهرة الوشم بأي شكل من  
الاشكال مع تاريخ الكنيسة والصليبية. بل هو دليل جديد على الهجرات العربية القديمة إلى شمال  
إفريقيا<sup>(3)</sup>. وهو ما يدحض وجهة النظر الفرنسية التي تنكر الأصل العربي للبربر. ومما يؤكد وجوده  
عند العرب. ورود أحاديث نبوية في تحريمه، وبهذا فالوشم الموجود في شمال إفريقيا والذي هو على  
هيئة صليب لا علاقة له بالصليب النصراني، بل هو دليل جديد على الهجرة العربية القديمة إلى هذه  
البلاد من عهد البابليين والكنعانيين القدامى، أي قبل 5000 آلاف سنة، وبذلك فإن ظاهرة الوشم  
على شكل صليب وجدت قبل النصرانية بأكثر من ثلاثة آلاف سنة، وهي تدل على الدعاء للمولود بالبقاء  
والخلود<sup>(4)</sup>، ثم أصبحت أيام الاستعمار الفرنسي - وربما قبله - نوعا من أنواع التجميل عند النساء لا  
علاقة لها بالنصرانية أصلا.

1 - خديجة بقطاش، المرجع نفسه، مامش من 159.

2 - المرجع نفسه، ص 140، 141.

3 - محمد معروف الدواليبي، تعقيب على كعكك، الملتقى 7م3، ص 1238، 1239. وقد اعتمد الدواليبي على أحداث  
ما توصل إليه علماء الأثر.

4 - المرجع نفسه، ص 1238، 1239.

أما ما يتعلق بعلاقة التوشم بالظاهرة الاستعمارية فثرومغية لنذال شمال إفريقيا، فهو أن الرومان عندما استعمروا المنطقة وجدوا الظاهرة موجودة، فأحبروا القسطنطيني على استخدامه ليمسح لهم التمييز بينها، فمثلاً تجبر قبيلة على وشم الصليب المسيحي، وأخرى على وشم الصليب الروماني، وهلم جرا بهذه الطريقة يتمكن الرومان من معرفة أي شخص، ومعرفة القبيلة التي ينتمي إليها بسهولة بمساعدته ذلك كثيراً في مراقبة الأهالي والتحكم بهم<sup>(1)</sup>.

ورغم ما ذكرناه في الدكتور ولسي رعم رعمه استبق حاجة في نفس يعقوب، فبربر جرجرة في نظره مستعدون لينصروا<sup>(2)</sup>، ولكي يحقق غرضه، فقد نسق عنه هذا مع الأسقف (باقي) الذي كان أيضاً من دعاة تصوير البربر<sup>(3)</sup>. وذلك ليصيف شحنة قوبة للمستعمرة هي (4)، وهو ما جعله يوفد (الأب كروزا) (Creuzat) إلى بلاد قفطنل سنة 1863م ككاهن بكنيسة صغيرة بحصين نابليون لينصر أهلها، وبذلك بعد كروزا أول رجل كهنوت يدخل المنطقة بغرض التصدير. وقد استعد لهذه المهمة الخطيرة بتعلمه العربية والقبائلية وعادات المنطقة. فتح مدرسة بمائة متلاً لعشرين يتيماً وأخذ يوزع بعض المواد الغذائية ويقوم بالخدمات الطبية بمختلف القرى، ولما أحس باطمئنان الناس إليه أخذ ينفث سمومه النصرانية، مركزاً على قرية بني فراح، فضجر منه أهلها وقرروا وضع حد لنشاطه التصديري، فهبأوا له المكان الذي يجلس عليه، وذلك بوضع العائط فوقه، وتغطيته بأوراق الأشجار، فلما رأى المكان مهياً اعتقد أن الدنيا ضحكت له، ولكنه لما قام، قام ملوثاً، فضحك الحاضرون وسخروا منه<sup>(5)</sup>.

ولكن حادثة كهذه لا تمر دون معاقبة، فقرر (الكولونيل ما رتقان)<sup>(6)</sup>، معاقبتهم - وهذا يبين كما قلنا مراراً بأنه لا فرق بين السياسي والعسكري ورجل الدين - فنصم السكان وتجمعوا بقيادة أمين القرية، الحاج لونيس نابت علي عمر بمحضر الكولونيل مارتان، فخاطب الحاج لونيس سكان القرية قائلاً: « هل ترغبون اعتناق الديانة المسيحية؟، وهل تسمحون لهذا الأب البقاء بينكم؟.

فصكت الحاضرون وبكت عيونهم كثيراً... و... أجابوا بكلمة واحدة قاطعة: لن نترك ديننا أبداً وإن أجبرتنا السلطة على ذلك فإننا نطلب منها أن ترشدنا إلى طريق لمغادرة البلاد، وإذا لم نجد لذلك سبيلاً فضلنا الموت بدلاً من اعتناق المسيحية، أما بشأن أن يقيم بيننا راهب، فألله يحفظنا من قبول ذلك، اللهم إلا إذا أجبرتنا الحكومة عليه، وفي هذه الحالة لن نقيم معه أبداً<sup>(7)</sup>. فانسحب (كروزا)

1 - عثمان الكمال، رد على أسئلة الطلبة، الملتقى 7، م3، ص1236، 1237.

2 - Warnier, l'algerie de vant, l'empereur, paris, 1865, page 15

3 -

3 - وكل رجال الكهنوت يتبنون الفكرة ذاتها.

4 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص141.

5 - خديجة بقطاش، المرجع نفسه، ص142، 143.

6 - هو الضابط الأعلى لحصن نابلون، (بقطاش، المرجع نفسه، هامش 18، ص159).

7 - عن رسالة احتجاج من جماعة بني فراح، مؤرخة في سنة 1865م. (ص بقطاش، المرجع السابق، هامش 20، ص

إلى قرية (بني بني) ليشيء بها مركزا دينيا، ولكن سكانها رفضوه أيضا، وأعضوا للحاكم العسكري للمنطقة أن «تلاذئ تعرف هدوءا إذا جاءها رجال دين»<sup>(1)</sup>.

وهكذا أظهر شكل التمكيد بنسبهم ورفضوا أن يصروا، بحيث لم يصر أي شخص رعم جهود (كروزا) المستمينة لمدة خمس سنوات<sup>(2)</sup>.

في هذه الفترة وصل لاهيجري إلى الجزائر، وكانت بلاد القبائل أهم المناطق التي ركز عليها جهوده التنصيرية، مستفيدا من كتبات العسكريين السابقة تراجمة بالأصل مسيحية لقبائل ويضعف إيمانهم وجهلهم بالقرآن الذوق لولا فرنسا مستعموها<sup>(3)</sup>. هتسى ضرورتهم، وما أن وطنت قدماء أرض الجزائر حتى أخذ في نقد حكومة بلاده في سماحها لتسريب بقراءة القرآن الكريم وتعليمه، فكتب إلى إحدى الصحف الفرنسية الصادرة بالجزائر آنذاك. ومما قاله: «... وأخيرا، وهو أمر لا يتصور حقا نشر تعليم القرآن باسم فرنسا حتى بين الذين لم يعرفوه قط، سكان بلاد القبائل»<sup>(4)</sup>.

وبهذا فالأمر الخطير جدا في نظره، وتذي لا يمكن تصوره، هو عدم الفصل بين البربر والقرآن الكريم ومن هنا يجب الحيلولة بينهما واعتبار التسرب لا يعرفه، ونلتك يجب التركيز عليهم في التنصير، لأنهم بسبب جهلهم نه أسهل من العرب في الإزدياد عن دينهم، ثم إستخدامهم في تنصير العرب، أو - على الأقل - جعلهم طابورا خامسا لخدمة بلده، وحق جائية مسيحية في الجزائر تحركها فرنسا متى تشاء، ولم يجد لاهيجري أفضل من الأب كروزا لتحقيق مشروعه، فكفه برواصلة عمليات التنصير ببلاد القبائل رعم معارضة العسكريين لتلك، لأنه من شأنه إشعال نار الثورة ضدهم، فكانوا يفضلون التوغل ببطء بواسطة التعليم، بينما كان لاهيجري يريد أن تطلق يده في العيث ببلاد القبائل وتنصيرهم قسرا.

هذا الاختلاف في وجهات النظر بينه وبين عسكري بلاده جعل صراعا حادا ينشب بينه وبينهم، فقرر السفر إلى باريس في شهر ديسمبر 1867م ليقابل الإمبراطور نابليون III ويستأذنه في فتح عدة مراكز تنصيرية في بلاد القبائل ويمولها من حساباته الخاص، ولما كانت معارضة مكماهون لهذا الموقف لها وزنها، وكانت وجهة نظره تقوم على فتح تمدارس للأهالي بدل الضرب المباشر للإسلام فقد أصدر تعليماته إلى الضباط بإنشاء تمدارس لهذا الغرض، ولكن المجلس البلدي المتواطئ مع الكاردينال فهم خطأ أن هذا الأمر يستهدف إلغاء ملاحى لاهيجري، فاتفق هذا المجلس مع الكاردينال بكتابة منشور سري إلى رجال الكهنوت ضد مكماهون والمكاتب العربية يعلن فيه رغبة القبائل في استقبال المبشرين. فشر في جريدة الأخبار بتاريخ 31 ماي 1868م رسالة مغادها أن أهل حسصن

1 - أ. ب. ف. 80 1746 - عن منشور سري رقم 22 من الجنرال مكماهون إلى قادة عسكريين بالجزائر، (عن بقطاش، المرجع السابق، عايش 21 ص 159).

2 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 146.

3 - المرجع نفسه، ص 146.

4 - لاهيجري، الآثار المختارة، ج 1، ص 179، 180.

نائبون كاتبوه راغبين في قدوم المشررين إليهم، فذهبوا لكونون هانوتو لهذا الغرض، ولكن يبرهن للكاردينال عن خطئه سمح للأب مستيف<sup>(1)</sup>. والأب جنين والأب دوفكون بزيارة ثلثة نترات بنني بودراع لمعرفة آراء السكان حول النشاط التصيري، وتيسر لهم معرفة التي يجيبها السكان من ذلك، ولكنهم قربوا بالرفض لقاطع<sup>(2)</sup>. في هذه الغربة وفي غيرها، ورغم هذا ترفض فقد بقي لافيجري مصمما على تصير المنطقة.

وبزيارة أخرى، فإن لافيجري أراد أن يثبت المشررين لتصير قبائل الحاضعة للسلطة العسكرية، وأن يتكفل الجيش بحماية المشررين، ولكن العسكريين وعلى رأسهم المارشال "ماك ماهون" كانوا يخشون رد فعل السكان واندلاع ثورات جديدة ضدهم، وهو ما كانت تراه أيضا الحكومة الفرنسية آنذاك، والتي كانت تفكر في إنشاء مملكة عربية في الجزائر حاضعة لها، فشور لافيجري على الجميع ويرى أن القضية ليست قضية بحث مملكة عربية، بل قضية إدماج عن طريق التصير. وينتصر لافيجري في النهاية رغم ذلك، ورغم تكهف الإمبراطور نابليون الثالث ونصحته للكاردينال باتباع سياسة لبقية وحنرة، وتصيح فرنسا بتبنى سياسة الإدماج كما سوضح<sup>(3)</sup>.

وقد اختار بلاد القبائل الكبرى بصفة خاصة لتطبيق بها خطته التصيرية وبث الشقاق بين العرب والبربر معتدا على خرافة قديمة مفادها أن هناك جذورا للتصيرية واليهودية، وذلك ليبين أن البربر كانوا نصارى، وأن العرب هم الذين أدخلوهم في الإسلام قسرا، والغرض من هذا واضح، وهو ربط التصير بالنزعة الاستعمارية<sup>(4)</sup>. وأخذ لافيجري يجسد هذا فعلا بالعمل على بث الشقاق بين العرب والبربر. وأخذ مرصوله إلى بلاد القبائل كروزات (Crozat) يعمل في هذا الإتجاه ليمزق وحدة الشعب، ونحن نتساءل هنا: أي دين هذا الذي يعمل على تمزيق الشعوب التي تعيش جميعا في مملكة الله كما يزعمون؟

وما يجب الإشارة إليه هنا أنه لم مثلت الوسائل السوية في التصير عمدوا إلى تصير الأطفال قسرا، وهو ما يتوافق مع منهج لافيجري. ومن ذلك فقد حاولت ربيعة إحدى الفرق التصيرية بميشلي أخذ الطفلة "عشوشة" من أمها كرها، وإرسالها إلى ملجأ للكاردينال بمدينة الجزائر<sup>(5)</sup>.

وقد أدت خطة لافيجري هذه إلى اضطراب الوضع في بلاد القبائل، حيث اعترف الكولونيل هانوتو (Hanoteau) في تقاريره باضطراب الوضع في المناطق التي نشط فيها (كروزا) وبرد فعل السكان، الأمر الذي أدى إلى قلق السلطات العسكرية وخشيتها من الانتفاضات. وهو ما حدث فعلا

1 - هو الذي خلف كروزا (بطلان)، المرجع السابق، ص 149.

2 - خديجة بطلان، المرجع نفسه، ص 146... 149.

3 - لصوب لجناني، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19 الملتقى 7، ص 1065.

4 - المرجع نفسه، ص 1096.

5 - خديجة بطلان، المرجع السابق، ص 151.

فقد كان عمل لافيجري لتصويري سداد لفضل أحد الأسباب الرئيسية لاندلاع ثورة المقراني<sup>(1)</sup> بالمصاف كل بلاد تفتت وغيرها حولها والتحول في حرب شامنة ضد اثنين أرادوا أي بدلتوا لهم دينهم. ذلك أنه إضافة لهذا فقد أصدر المجلس البلدي بمدينة الجزائر قراراً آخر في جانفي 1871م بإيقاف الإعانات المالية للأديين، وكان المتصور الوحيد هو تهيئة إسلامية، فإذ هذا القرار الطين بنة، فلم يجد السكان بداً من الانتفاخ حول الطريقة الرحمانية فبحروا عن رفضهم لمطلق للتشهير ونصرفات المجلس البلدي التبشيرية<sup>(2)</sup>. ذلك أن الثورة اندلعت في منطقة لم نصبها المعجزة مما يعني تعامل الإقتصادي في تفسيرها، وإذا كانت رسائل قادة هذه الثورة لا تشير صراحة إلى التصبير، فإن الوسائل التي استعملوها لتغيير هو أثر سياسته<sup>(3)</sup>.

ومن ذلك رسالة المقراني إلى الشيخ ابن كانة وكراه فرقة بوجليل بني عباس التي قال فيها: «... وبعد أن تتوكلوا على الله ورسوله تقدموا إلى الجهاد لنصرة دينكم عزماً<sup>(4)</sup>». وهذا ما جعل فيكونت كوليفي (Viconte de Colleville) يصفها بقوله: «تصارع فيها... الإخوان ضد الأبناء»<sup>(5)</sup>.

من أهم نتائج هذه الثورة إبطال المقولات الفرنسية عامة، ومقولات رجال كهنتهم - ولاسيما لافيجري - خاصة بزعم مسيحية القبائل وقربهم إلى الإنمحاء وضعف دينهم وانعدام تعصبهم... ولكن لافيجري فسرها تفسيراً خاصاً ينسجم مع مشروعه، فيرى بأنها نتجت عن سياسة فرنسا - الخاطئة - بالجزائر التي وضعت القرآن فوق الإنجيل ولم تمنع الأهالي من تعلمه فإذ ذلك من تعصبهم<sup>(6)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فيقدر ما بينت هذه الثورة إفلاس مشروع لافيجري وتزييف دعاواه، فقد سخر نتائجها لتحقيق مشروعه فطلق يجمع التبرعات من الأوربيين في أوروبا لاستعادة قواه، كما أن القمع والبطش الذي سلط على سكان القبائل ضيق الهوة بينه وبين دعاة التأثير البطيئ. وذلك بانصياعهم لوجهة نظره، فعوقب سكان بلاد القبائل بغرامات مالية باهضة<sup>(7)</sup>. كما صودرت كثير من أراضيهم ووزعت على الفارين من الإلزام والثوربين بعد حرب فرنسا مع ألمانيا سنة 1871م، وأخذ الإستعمار في توطين الأوربيين ببلاد القبائل ليسهل اندماج سكانها بهم<sup>(8)</sup>.

وكان من أكبر دعاة الإنمحاء هذه الأميرال توغيدون، ووسيلة الإنمحاء في نظره هي النصرانية. وقد أصبح على رأس إدارة النظام المدني بعد ثورة 1871م، فجهل همه الأساسي الدفاع عن لافيجري

1 - لحبيب لمجاني، المرجع السابق، ص 1066.

2 - A. T. Lamy, Recherche des causes de l'insurrection Indigène en 1871, Alger, 1871, page 19 -  
3 - يحي بوعزيز، دور عاتلي المقراني والحداد في ثورة 1871. م. ب. ن. ت. الجزائر 1975، ص 78. نقلاً عن: أ. ب. ف. 1704.

4 - يحي بوعزيز المرجع نفسه، نقلاً عن أرشيف وزارة حربية، رقم لسنونق 375، رسالة رقم 8.

5 - Le viconte de colleville, les gffandag hommes de l'épée au 19e siècle, paris 1905. page 101. -

6 - Cussac, le cardinal la vigerie. pari, 1940, page 55. -

7 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، هامش رقم 61، ص 161.

8 - Charles robert ageron, les algériens musulmans et la france, paris, 1968, tome 1, page 179. -



والتصوير، مما جعل الحركة للتصويرية تزدهر في عهده أيضا لزهتر، متبينا منهجية لاهيجري فيها برمتها، ولا سيما أن لاهيجري ألقمه بالكثرة عن سكان بلاد القبائل - المعطوفة - كأصلهم النصراني الذي يموون الرجوع إليه<sup>(1)</sup>، وما إلى ذلك. كما ألقمه على الاستعمار الحقيقي لجزائر ثم يتم إلا بفرنسة الملبونيين من تدبير المكربين<sup>(2)</sup>، نون العرب<sup>(3)</sup>، وهو ما حظه بقر ما سبق قائلا: إن الهدف الذي يرمي إليه المبشرون، هو نفس الهدف الذي أريد أن أصل إليه، إنه إيماع سكان منطقة القبائل في المجتمع الفرنسي<sup>(4)</sup>، وتمنى لو كانت فرى لاهيجري بتصويرية بلاد القبائل بدل العطف، لأن سكانها أقرب إلى الفرنسيين من العرب الشديدي تعصب شديدي<sup>(5)</sup>.

وهكذا انتصر لاهيجري على خصومه وأطلقت يده في التصوير.

وأصبح الأدميرال دوغيدون يشجع التصوير وتمصرين تشجيعا مطلقا، فركز لاهيجري أكثر على بلاد القبائل، ولا سيما بعد إيجاد الوسيلة الفعالة لتحقيق أهدافه، وهي فرقة الأبناء البيض، وقرر أن الوصول إلى هدفه يجب أن يتم عبر إنشاء لبنان إقليمي في الجزائر (بنية الجزائر) في لبنان الذي تخلت عنه أوروبا فانتشرت معلم النصرانية فيه<sup>(6)</sup>.

وهكذا شبه لاهيجري مركز سكان بلاد القبائل في الجبال بنصارى بلاد الشام الذين لجأوا إلى الجبال في نظره فرارا من الغزو الإسلامي، وبواسطة الأبناء البيض سيرجع (ماروني) بلاد القبائل إلى دينهم الأصلية<sup>(7)</sup>، النصرانية.

هذه المقارنة بين ماروني لبنان وسكان بلاد القبائل تدل على استفادة الكاردينال من زيارته لبلاد الشام واستثماره لها، ووجد وجه الشبه - حسب زعمه - بين النصارى هناك وسكان بلاد القبائل الكبرى هنا، التجاء كل منهما إلى الجبال فرارا من الغزو الإسلامي، ولكن القياس هنا قياس مع الفارق، إذ في حين مازال النصارى هناك على منتهم وتعصبيهم نجد سكان بلاد القبائل اعتنقوا الإسلام ولم يرضوا به بدلا، ولا أدل على تهاقت وجهة نظره من ثورة المقراني التي ثار فيها هؤلاء - ليس على الإسلام الذي إستمرهم به للعرب حسب زعمه. بل - على النصارى والنصرانية التي بنت رجال كهنتها لإردادهم عن دينهم، والكاردينال يعرف هذا جيدا، كما يعرف أن سبب معانقتهم لقيم الجبال

1 - Ibid. page 273

2 - Dominique, L. C un gouverneur Général de l'Algerie, l'amiral de gueydon, alger, 1908, page 541

3 - الآثار المغارة، ج2 ص521، 520.

4 - Lasicotière rapport fait au nom de la commission de la défense nationale, versaille, 1875, page 197

عن بقطاش، ص 154.

5 - Ibid page 197.

6 - Grusseumeyer Mgr vingt cinq années d'épiscopat en france en afrique, document bibliographique sur le

Cardinal lavigerie, alger 1882, tome 1 , page 336.

عن بقطاش، ص 115.

-Ibid page 336.

هو احتمالهم بها من الإستعمار الروماني الذي ساء به نساء جنسه لبلاد والمعاد وبذات التعذيب ولكن العناية هذه تبرز بواسطة.

وهكذا فهتجميع الأميران نوعين اسبق لاهجري بالنصير بطلاقة كبرى في بلاد القبائل وغيرها مستفيدا من تجاربه وتحارب أفرانه تسعة فوضع حصة جديدة للتصير في بلاد القبائل تقوم على التصير الجماعي تقوية أو المنفعة بكاملها، بل التصير الفردي الذي فشل، وهو ماقرره شارفوريك الذي زار بلاد القبائل بعد 16 عاما من وجود الأناء لبعض بها قتلا: « يستحيل التصير الفردي، وما يمكن الاعتماد عليه هو التصير الجماعي »<sup>(1)</sup>.

والسبب في ذلك هو الروابط التي تربط الفرد بمجتمعه وفريقه، والتي تجعله عربيا منبوذا إن ارتد عن دينه<sup>(2)</sup>. ولهذا العرض نقتت ذهنية لاهجري وأنشاعه عن الأفكار التي يشترك فيها الضمير الجمعي للقوية أو المنطقة بكاملها، والعرف على أوتارها، ومن خلالها يتم تسريب الأفكار التصيرية. ولم يجد المنصرون ورجال الإستعمار أصل من العرف على نشر العرقية والجهوية. وهذا ما أثمر الحركة البربرية.

ولتحقيق هذا فلا بد من تحطيم النعة العربية أولا لأنها الحصم، فهي لغة القرآن، ولا يمكن تمرير أفكارهم العرقية بواسطة، ومن هنا فلا بد من العرسة، إذ بواسطة يمكنهم نشر ديانتهم<sup>(3)</sup>. وما يريدون من أفكار، كما أنه لا يمكنهم تحقيق أهدافهم إلا بالقضاء -في نظرهم- على روح التعصب الديني، أي القضاء على الإسلام في النفوس، وهذا يعني حتمية القيام بعملين :

أولهما هدمي يتمثل في تدمير الإسلام في النفوس، والثاني بنشائي، وهو إحلال النصرانية محل الإسلام. ولكي يتلقى لهم خديعة الناس، فلا بد أن يتظاهر المبشرون بمظهر التدين ليزيل نظرة الناس إلى المبشر باعتباره كافرا، كما يجب التحلي بالتصير، والإتماع وسط السكان بواسطة لغتهم وعدم التعرض للنصرانية ابتداء حتى لا ينفر السكان<sup>(4)</sup>. وإقناع الأهالي بأن رجال الكهنوت «مرابطون» نصاري يهدفون فقط إلى فعل الخير لا إلى محاربة الإسلام وتقليد أهله<sup>(5)</sup>.

بهذه العقلية، وهذا التخطيط تمكن لاهجري من تأسيس المراكز التبشيرية الأولى ببلاد القبائل، ابتداء من أوائل سنة 1873م، وهي :

1 - François Charveriat, à travers la kabylie et les questions kabyliques, paris 1889, page 162

2 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 158.

3 - المرجع نفسه، ص 158.

4 - المرجع نفسه، ص 155.

5 - Georges Elie, la kabylie de djurjura et les pères blancs, paris, 1923, page 36

- 1 - مركز تعميرت عرووز في بني عيسى سنة 1873، وبه أربعة مشربين.
- 2 - مركز نوريت عند لفته في نبت وأصو سنة 1873م، وبه ثلاثة مشربين.
- 3 - مركز حراطة في بني إسماعيل سنة 1874م، وبه أربعة مشربين.
- 4 - مركز وهران في بني مقلات، سنة 1876م، وبه خمسة مشربين.
- 5 - مركز إيجل علي في بني عانس سنة 1879م، وبه خمسة مشربين أيضا<sup>(1)</sup>.

وكان موقف السكان من هذه المراكز وأعمالها هو الرقص والاشتمزاز.

وهنا نتساءل: هل كان يمكن للاحجري أن يقوم بكل هذا النشاط، لو لا ذلك التعاون المتين بين الكنيسة والإدارة الإستعمارية؟ ولكن لاغزو، هذا ربط للاحجري بالما بين التصير والإحتلال المهاني للحزائر<sup>(2)</sup>.

وهكذا أخذت هذه المراكز وغيرها في نشاط مركزرة على الأعمال الخيرية والتعليم الذي أوصى للاحجري بتكبير الجهود عليه باعتبار المدرسة تمنك تطفل وتتحكم في مستقبله<sup>(3)</sup>. ولهذا الغرض أسس المبشرون المدارس بكل مراكزهم، كما ركرو على التطيب لهتغار المنطقة لذلك<sup>(4)</sup>. وهذا يدعونا إلى تقييم أعمال للاحجري.

1 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 155، 156.

2 - الحبيب جناحي، حركة لتبشير، الملتقى 7، م3، ص 1066، 1067.

3 - مجلة الإرساليات في التبشيرية للأباء البيض، سبتمبر 1930، ص 123 عن بقطاش، المرجع السابق، ص 157.

4 - خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص 157.

## الفصل الرابع

### تقييم لاهجري (أثر مشروع التصير)

بعد لاهجري من كبار رجال الاستعمار. ومن كبار المعططين لسياسته، وقد تمكن بدهانه أن يقنع ناهليون III بسداه وجهة نظره، ضد خصومه معارضير لمنهجته في التصير، فمنحه الحرية المطلقة لتصير الجزائريين، فكانت بذلك سنة 1868 - سنة إنشاء الملاجئ وتطبيق منهجته في التصير - سنة الفاصلة بين مرحلتين :

- المرحلة الأولى : احتروز فيها الاستعمار في مصلحة شعور المسلمين الدينسي<sup>(1)</sup>. أي لم يعمل على التصير القصري.

- المرحلة الثانية : جاهر فيها الاستعمار بالعمل على التصير باعتباره ركنا أساسيا في البناء الاستعماري، وهو بينه لاهجري في خطاب حماسي أفاء بمناسبة تشيير المصلحة الدينية في جيش إفريقيا<sup>(2)</sup>. أرخ فيه للإحتلال الفرنسي للجزائر. وراه تطبيقا لإرادة الرب وعاليته، فخاطب فرنسا النصرانية قائلا :

« إن كنت وعدت باحترام هيكل الشعور في هذا الشعب، فليس لك الحق في في تقييد الحقيقة ومنع كتبنا من نشرها، ولا تخشي بعد ذلك إن كنت أطلب، لبعث الإيمان من جديد في هذه الربوع، الأسلحة الدموية التي خلق بها قران ذلك الإيمان منذ قرون طويلة »<sup>(3)</sup>. وهذا يعني صراحة تبني العنف لإجبار الأهالي على تغيير دينهم والقضاء على الإسلام، وهو ما عبر عنه في افتتاح أول مجمع عقد في الجزائر مستعمرا عن مغزى احتلال فرنسا للجزائر<sup>(4)</sup>. قائلا : « هل قضت جيوش الصليب لأول مرة على الهلال عينا؟ » وتساءل: « ماهي قواعد العزم والإحسان والحذر... التي ينبغي أن نرضها على أنصنا لكي نحظى قبل كل شين بتقة هؤلاء للكفار وقلوبهم، وهم الذين يكادون يكونون جميعا أحفاد المسيحيين الذين وقوا قهرا تحت وطأه لقران؟ »<sup>(5)</sup>.

وهكذا انتقل اهتمام لاهجري من المناداة بحرية العمل، إلى البحث عن الوسائل الفعالة لتحقيق أغراضه بعد أن توفرت له تلك الحرية، وكان مما أنشأ تلك الملاجئ والقرى<sup>(6)</sup>. التي تحدثنا عنها قبلا

- 1 - لما جراتمه في تهديم المساجد وتعطيل القضاء الإسلامي وما إلى ذلك، فقد بنىاه قبلا.
- 2 - جيش إفريقيا هو اسم لجيش لذي استمر الجزائر، وتشين مصلحة دينية فيه من طرف لاهجري دليل على طابع التصيري للاستعمار.
- 3 - في الأثر المختارة ج1، ص 81.
- 4 - عبد المجيد شرقي، الحركة التبشيرية في القرن 19، ص 148.
- 5 - في الأثر، المختارة، ج1، ص 60.
- 6 - L'armée et la mission de la france en afrique.
- 7 - Ancienne et nouvelles Eglise d'afrique
- 8 - عبد المجيد شرقي، المرجع السابق، ص 149.

ولتي قال عنها أحد العسكريين الفرنسيين بأنها أفضل مشاريع هذا القرن<sup>(1)</sup>.

- نشاط لافيجري كان دينيا وسياسيا : بهدف إلى إقصاء على الإسلام والتأسيس للإستعمار الفرنسي بولهدا، فإضافة لما ذكرناه فعلا، فقد عينه فرنسا سنة 1857م رئيسا لبعثتها النصرانية المرافقة للجيش الذي أرسلته لإعانة تركيا في حرب قرم، فاعتتم الفرصة لإسترجاع ضريح العذراء ومولدها بلقدس، وعندما ذهب إلى الشام ليقيم شكر فرنسا وثالثا للأمير عبد القادر على حمايته لتصاري الشام، اقترح على بلاده احتلال الشام (سوريا) بدل المكسيك<sup>(2)</sup>، وكان على علاقة حميمة بقنصل بلده بتونس "رستال" Roustan . وكان يحدته في رسائله إليه عما سماه "انتصاب حملة فرنسا الدينية على تونس"<sup>(3)</sup>، وبوزير خارجية بلده جول فيري (Jules Ferry) ورئيس وزرائها فامبيطا (Gambetta). وهو الذي اقترح انتصاب الحملة الفرنسية على تونس، وكان دليل فامبيطا وجول فيري في ذلك<sup>(4)</sup>. كما أعد المبشرين الذين يصممون على تصدير تونس ابتداء من سنة 1875م، وألقى محاضرة في البيت المربع بالجزائر بحرضهم بالإقتضاض عليها، ومما قاله في ذلك: "لو حوا بتزكم إلى جهة الشرق، وانظر إلى هذه السهول الممتدة في تونس، موطن النصرانية سابقا ومهد الصليب..."<sup>(5)</sup>. وكان احتلالها مرتبطا في ذهنه ببعث مجد قرطاج الروماني، وبمنفعة أهداف حملة سان لويس الصليبية على تونس بولهدا الغرض، فقد عين أسقفا على الجزائر وتونس معا قبل الإحتلال الرسمي لتونس<sup>(6)</sup>. التي ما أن وصل إليها حتى أخذ يعمل على تصورها بمختلف الوسائل، كفتح المدارس وإنشاء المقابر وبناء الكنائس وتقوية نفوذ البعثات التبشيرية وما إلى ذلك<sup>(7)</sup>. وهذا ما جعل فامبيطا يعبر عن مكانة لافيجري في البناء الإستعماري الفرنسي من خلال نشاطه بتونس وحدها بقوله : « بضاهي نشاط جيش بأسره »<sup>(8)</sup>. فكلفته فرنسا باقتراحها على البابا تعيينه كاردينالا، وخير بين تنصيبه في روما أو في الجزائر مقر أسقفية، فأختار قرطاج قرب ضريح سان لوي، وحينئذ سافر إلى القدس ليؤسس بها معهدا يربط به نصاري الشرق بروما التي كانوا لا يعترفون بسلطة كنيسة عليهم، فتبنى المشروع رئيس

1 - عبد الجليل التميمي، من ملاحق التفكير التبشيري، ص 1004.

2 - المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي، الملتقى 7، م 3، ص 1344، 1345.

3 - Mgt, Baunard, le cardinal lavrerie, paris, 1896, tom 2, page 137 -

4 - عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص 1005.

5 - الأكلر المختارة، ص 259، 261.

6 - وقد مهدت فرنسا لذلك بأن فرضت قنصل فرنسا بتونس ماثيو دوليمبس (Mathieu de Lesseps) بمد أسابيع من إحتلال الجزائر على باي تونس معاهدة في 8 أوت 1830م، بنص فصل سري منها على التنازل الأيدي لفرنسا عن ربة بيرصا بقرطاج لإنشاء معبد تقيدا لذكرى سان لويس المتوفي في ذلك المكان أثناء حملته الصليبية على تونس. (الحبيب الجناحي، حركة التبشير والمباعدة الإستعمارية، الملتقى 7، م 3، ص 1067).

7 - ومن لرد التوسع في هذا المرجع إلى عصر الخري، التبشير وعلاقته باستعمار بلاد التونسية، ص 77.

8 - Piolet, père, J.B, les Missions Catholiques françaises au xixe siècle, paris, 1925, tom 5, page 67. -

- Abbe Kekou, la vigeria et ses oeuvres d'afrique, paris, 1897, page 238. أيضا :

الحكومة الفرنسية فاسيحا (البساري لالانكي) ووافق عليه البرلمان، وبنى المعهد، وكانت النواة الأولى من مسيرته وندرسه 12 فسمما من الآباء تبص المنحرجين من الجزائر<sup>(1)</sup>، وهذا بقودنا إلى النقطة الآتية :

- جعل الجزائر مركزا ومنطلقا للتبشير في إفريقيا وأسيا : لقد بينا في أوضاع الجزائر قبل الإستعمار مكانة الجزائر ونورها الإسلامي، كما بينا أهمية موقعها الجغرافي، ومن هنا قرر لافيجري أن يجعلها مركزا للتبشير العلم غير النصراني، وقد أوردنا فعلا النص الذي يقول فيه: « نوحوا بنظركم إلى جهة الشرق، وانظروا إلى هذه السهول الممتدة في تونس... إلى أن يقول: «... فطلى النصراني أن يجعلوا من أرض الجزائر مهدا ومنطلقا للنصرانية، وأرضا للتبشير متمثلين إلى إفريقيا الشمالية والوسطى». إلى أن يقول: «... إن المبشر الحقيقي والوحيد الذي نه جنوى في هذا الطرف، هو الذي يعمل على تغيير الوضعية السياسية لهذه البروج...» من عقيدة إسلامية، إلى نصرانية نورانية<sup>(2)</sup>. يضاف إلى هذا ما ذكرناه عن التمثال الذي وضع له بيسكرة مشيرا بحصى الأسقفية إلى جهة الصحراء، وجعله النواة الأولى لبعثة القدس لتبشيرية من الآباء تبص المنحرجين عن الجزائر.

مما سبق نتوصل إلى أنه قرر جعل الجزائر مهدا لتبشير إفريقيا وغيرها مما يعني محق الإسلام بها لمحقة في غيرها، واستخدام المساعدات والقهر وسيلة لذلك إلى حد تقريره أن المبشر الذي لا يعمل للتوطين للإستعمار ليس مبعوثا حقا، ومهما يكن من أمر، أمكنه مع فتح باب تبشير إفريقيا، فتح باب الإحتلال الفرنسي لكلي والجزني الذي مهد لتكوين إمبراطورية إفريقيا الفرنسية<sup>(3)</sup>.

- منهج لافيجري في التبشير منهج شمولي : فهو يقوم من جهة على التحطيم العسكري للمسلمين ويقوم من جهة أخرى على العمل بلا هوادة، وبكل الوسائل لتحطيم البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع، ويظهر هذا جليا في دعوته إلى منع تعليم القرآن واللغة العربية وتحطيم المدارس ومنع الحج وكل أركان الإسلام وتقليده.

ولتحقيق هذا الغرض فلا بد من عملية أخرى يتم فيها تحطيم البنية النفسية تماما بتحطيم ما بقي من قيم إسلامية تجعل الناس يفتخرون في معاصي الجوارح بتعاطي العادات الأوربية كشراب الخمر والزنا والقمار وما إلى ذلك، لأنهم إن انغمسوا في هذا زال الحاجز النفسي بينهم وبين المحتلين ويصبح لا فرق أخلاقي يفصلهم عنهم فيضحون بلا هوية، وهنا يمكن التسلل إلى ما بقي من آثار الماضي لمحوه نهائيا، فينغمسون في معاصي القلوب كتكره الناس في الخلافة العثمانية. وذلك ليولوا قبلتهم تجاه فرنسا والفايتكان، وهنا لا بهم تتصروا أم لم يتصروا، فالمهم أن لا يبقوا مسلمين.

وبهذا نستطيع القول بأن التبشير عند لافيجري يتم عبر مرحلتين متداخلتين، المرحلة الأولى هدمية، يتم فيها تحطيم البنية الحضارية للمجتمع، والمرحلة الثانية مرحلة إنشائية يتم فيها تشكيل الإنسان

1 - مهدي فوجبلي، أثر التبشير المسيحي، الفتى 7، م3، ص1345.

2 - الأثر لمختارة، ص259، 261.

3 - مهدي فوجبلي، أثر التبشير المسيحي، ص1347.

التمسك وفق ما يخدم مصلحة المحتشدين. وذلك بمنزلة شرعاً قدي أحدث بالأخلاق الغربية المناهضة للإسلام تمهيداً للتصوير قدي لا يشترط أن يتم إذ يكفي خلعة عبدة لئسبم وحظه بلا هوية وقد أثر لاهجوري بهذه الفكرة في المبشرين الذين أتوا بعده مثل شرل نوهوكو الذي كان يقول: « يجب أن ندخل العائلات والأمر الجزائرية، لاجعلها مسيحية وإنما لتحبونة سبها وسر الإسلام»<sup>(1)</sup>.

والهدف من كل هذا إبقاء الإحتلال إلى الأبد، وفي هذا السياق يمكن أن نفهم هجوم لاهجوري الشرس على الرق في الإسلام، فهو يقصد في تصورنا شينين جوهريين :

أحدهما : تكريه الأوربيين في الإسلام بإعتبار نظامه الاجتماعي يقوم على الرق، ولا سيما بعد الثورة الفرنسية، وذلك لغرضين، أحدهما، وضع حاجز نفسي بين العربيين والإسلام نصدهم عنه بعدما أخذوا يحتكون به مباشرة في المستعمرات. والأخر، جنب عطفهم ليعنفوا عليه الأموان.

لما السبب الثاني: فهو تكريه المسلمين في الإسلام بإعتبار نظامه الاجتماعي يقوم على العبودية ولا يدعو إلى التحرر، وخاصة لزواج الأفارقة حتى الوثنيين منهم بإعتبار الإسلام سبب محنهم مما يمهّد السبيل أمام الاستعمار، فيفتح الأهلي سطرياته اتقائمة على أساس أنه أتى لتحريرهم وتحضيرهم، وبذلك يقضي على الإسلام الحامي الوحيد لحصونهم، والعقبة الكؤود في وجوه الاستعمار. ولهذا الغرض فقد أصبح الرق في الإسلام قضية عامة تتولها المستشرقون والمبشرون على السواء للطعن في الإسلام والنيل منه<sup>(2)</sup>، ومنهم للتيسير زومير<sup>(3)</sup>، الذي يرى « أن المتاجرة بالرقائق والقسوة الملازمة لها من الأوصال الاجتماعية المنتشرة في البلاد العربية والإفريقية، حيث توجد أسواق لها تحميها الشرائع الإسلامية القرآنية بالرغم من الأوربيين »<sup>(4)</sup>.

والواقع أن الإسلام هو النظام الوحيد في الوجود الذي قرر تحرير الرقيق، وأغلق جميع منافذ الرق بإستثناء باب أسرى الحرب، لأنه يخرج عن نطاقه<sup>(5)</sup>. وهو ما جعل المجتمع الإسلامي المجتمع الوحيد في الوجود الذي أصبح فيه العبيد ملوكاً<sup>(6)</sup>.

1 - الشاذلي مكي، تعقب على محظرة التسمي (من ملاحظ للتفكير البشري)، المائقي 7، م3، ص1019.

2 - وقد تصدى كثير من المفكرين المسلمين قدامى ومحدثين للرد على تلك المطاعن، فمن القدامى أحمد زكي باشا الذي أشرنا إليه قبلاً ومن المحدثين محمد قطب في كتابه شبهات حول الإسلام ط15 دار الشروق بيروت، القاهرة، 1982، ص37-63.

3 - يد زومير (Werner) صموئيل (1867-1952) من نشط المبشرين وأخطرهم -أمريكي محور مجلة (عالم الإسلام) بالإنجليزية من كتبه يسوع في إحياء الخالي (المنجد، ص281).

4 - أبل شاتليه، الفارة على معالم الإسلام، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد الهالي، ط3، الدرا لسعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1980، ص150.

5 - ومن لاد معرفة كل ذلك بدقة وكيف أن تحرير العبيد من أعظم القربات إلى الله فيرجع إلى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكتب الفقه، وما كتبه المفكرون المسلمون في الرد على تلك المطاعن أمثال محمد قطب في كتابه شبهات حول الإسلام.

6 - ومن الأمثلة على ذلك لممالكه في مصر.

وغير متساؤل هنا، لماذا عصى لظرف لأهجري ومن يحا حواء عما فعله أبناء جلدتهم ملوكا ومفكرين، في ربوح إهريتها، وأهلي مستعمراتهم؟ فقد كان جون لوك<sup>(1)</sup>، على سبيل المثال -رغم كونه من كبر فلاسفة - يتاجر بالربوح والتهود الأحمر عندما كان عسوا في مستعمرة كارولينا الأمريكية وكان من فلاسفة المنطوق كنظام شرق. ومما فرره في شخص قدي يخطئ لصاحب الحق العكس به أو استعاده<sup>(2)</sup>. وأنه من حق الرجل أن يبيع نفسه فمصح منكا لتمشترى<sup>(3)</sup>. كما أن السيد له حق الحياة والموت التشريعية على عبده<sup>(4)</sup>. أي يستطيع قتلهم أو إيقاهم، أما أسرى الحرب فهم عبيد ولا يمكن اعتقارهم جزءا من المجتمع المدني<sup>(5)</sup>.

وإذا كان هذا موقف فلاسفتهم ومفكرتهم، فين مورد في كتاب المقدس يندي له الحيين، ونشر إلى نعالج منه لتظهر القضية جلية.

يقدر الكتاب المقدس أن العبد إذا حرر بقيت امرأته وأطفاله عبيدا للسيدة، فإن أرادها بقي عبدا إلى الأبد<sup>(6)</sup>. وهذا إن كان عبرانيا، أما إذا كان عبراني فحدث ولا حرج. وأنه يجوز للأب أن يبيع ابنته أمة، وبعد أن يبيع منها تمشترى بحق له أن يسلمها لابنه ليتمتع بها كذلك<sup>(7)</sup>.

وإذا ضرب إنسان عبده أو أمته بالعصا فمات من تلك الضرب لكن ليس في تلك اللحظة، فلا إثم عليه، لأنه ماله<sup>(8)</sup>.

ويقرر عدم مساواة العبيد لأسيادهم. الحق الحق أقول لكم، إنه أعيد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله<sup>(9)</sup>. وهكذا نجد إنجيل يوحنا يقر بالعبودية، ويقرر عدم المساواة بين العبيد وأسيادهم، لأهجري لا يجهل هذا. كما نعتقد أنه كان يعلم بأن أسباب نفور فريش من الإسلام يظهر في احتجاجهم على الرسول ﷺ كيف تسوي بيننا وبين عبيدنا؟! وهو يعلم جيدا أن هناك مدنا بكاملها في أوروبا النصرانية بنيت نتيجة للاتجار بالرقيق وبسوا ادهم، ومنها ليفربول الإنجليزية ومرسيليا وبوردو

1 - جون لوك (1632-1704م)، فيلسوف إنجليزي يعتبر بحق مؤسس المدرسة التجريبية الإنجليزية، وأول من أثار مشكلة المعرفة ووضع أسس علمها (Epistemology) الذي طبع الفلمفة الحديثة كلها بطابعه، تشتهر كذلك بفكره السياسي، ومن أهم مؤلفاته التي للحكم المدني (جون لوك، في الحكم المدني، ترجمة وتقديم ماجد فخري، ط، للجنة الدولية لترجمة لرواق، بيروت 1959، ص ج).

2 - جون لوك، في الحكم المدني، ص 151.

3 - لمرجع نفسه، ص 186.

4 - لمرجع نفسه، ص 187.

5 - لمرجع نفسه، ص 187.

6 - لكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح 21، لفرة 2-7.

7 - لكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح 21، فرة 8-11.

8 - لكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح 21، فرة 20-22.

9 - إنجيل يوحنا اصحاح 4، فرة 52.



الفرنسيين<sup>(1)</sup> كما كان يضم جبال البلاط القروي ثم يُغزل يوماً من العيد والإمام. وكان عالماً يقول بونس رسالته إلى أهل أفسس، أنها العيد لطيموا سائتكم بحوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما ترب،<sup>(2)</sup> كما يعتقد أنه كان يعرف جبال البلاط (Planianus) رئيس حرس الهرينوري (روما) أمر بإخفاء مائة غلام قديم هدية في سنة بمناسبة زواجها، ثم هذا بعد تنصر الرومان في القرن 3 م<sup>(3)</sup>، وهي بشاعة ما بعدها بشاعة ويعتقد بأنه كان يعرف جبال حول حاتم الأنبياء عليهم السلام منا من خصي أو اخصى<sup>(4)</sup>.

النتيجة التي نستخلصها مما سبق، أن القضية هي قضية حقد على الإسلام بعبء تحطيمه لفسح الطريق أمام الجيوش الفرنسية والتمكين لها، والعبء عندهم جميعاً تبرر الوسطة، إذ دينهم ذاته يمكن تغييره وتبديله ليحققوا أطماعهم الدنيوية، ويصدق عليهم قول الله عز وجل :

أفويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون<sup>(5)</sup>.

- فرقة الآباء البيض تعد أهم ما أنشأه لاهجري : وقد ذكرنا أنه أنشأها لتقوم بالنشاط الحيري الذي يحقق له أغراضه، لتأخذ على عاتقها مهمة التبشير والاستعمار في الجزائر ثم الإنطلاق منها إلى إفريقيا وبلدان العالم الأخرى، وأصبحت من الصخامة بما لا يتصوره العقل، وهي التي مكنت فرنسا من احتلال إفريقيا بما كانت تقوم به من عمل لبسط النفوذ الفرنسي قبل الشروع في الاستعمار سياسياً وعسكرياً، مما أذكى نار الصراع بينها وبلدها، وبين الطرق الصوفية الحامي للبلاد والعباد آنذاك كما بينا في الأوضاع الثقافية. ولولا هذه الفرقة ما كان للإمبراطورية الفرنسية أن تتحق في إفريقيا كما تحققت، ولذلك يمكن القول بأن إنطلاق هذه الفرقة في التبشير كان الذروة التي بلغها في الجزائر وإفريقيا ووصل حتى آسيا.

وما يجب الإشارة إليه أن بعض أفراد هذه الفرقة ساعدوا المجاهدين في ثورة 1954م، لحاجة في نفس يعقوب. في مناطق متعددة كالمندوكة وجبال زاوارة بالقبائل وغيرها، بالغذاء والدواء والعلاج والإيواء أحياناً وحتى في فرنسا ذاتها ساعدوهم بالمخيلين وتبليغ الرسائل وإخفاء المال الذي كانت تتبرع به الجالية الجزائرية، وهدفهم من هذه للمساعدات شينان :

- اكتساب السمعة الحسنة في نفس الجزائريين، فاعتقدون أن الفرنسيين لم يكونوا جميعاً ضدهم، بل كان بعضهم معهم.

1 - بشير بومعزة، مجازر 8 ماي 1945. (محاضرة أقيمت بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة 6 ماي 1997م، الثلاثاء من الساعة 15-1715).

2 - مصطفى محمود، حوار مع صديقي للمجد... ص 48.

3 - ول ديورانت، قصة الحضارة، العصر والمسيح، ج3، م3، (11) ص 406.

4 - رواد الطيراني عن ابن عباس.

5 - بقرة / 78.

- إبقاء مراكزهم ومراكزهم بالجزائر، ليسترجعوا بهنوء ما سموه اضطراباً، وهكذا تسنى لهم أن ينبتوا في وسط الشعب، وسمح لهم المجال إلى أمد بعيد، طبعوا نوراً خطيراً في بيت الفتنة في السنوات الأولى للإستقلال<sup>(1)</sup>. ويحتون أهم فرقة تمارس للتصوير حالياً في الجزائر، وهي منتشرة في جميع أنحاء العالم، ويتركز نشاطها على الخطبة الشريفة وصحة لاهجوري، كالتصاميم، والإحسان والتعليم<sup>(2)</sup>، وهذا يقودنا إلى تقييم للتعليم.

- التعليم : إذا كانت فرقة الأباء البيض، أهم ما أنشأه لاهجوري، فإن أهم وسيلة تستخدمها هذه الفرقة لتحقيق أغراضها، هي التعليم، وذلك لأن وسائل التصوير الأخرى كالنطبيب والإحسان وغيرها إن أثمرت، فإنما تكون ثمارها وقتية، وقاصرة على الذين استفادوا منها، أما التعليم، فإن ثماره تستمر عبر الأجيال. ولهذا فإن التعليم الذي أنشأه لاهجوري، وأنشأه الأباء البيض، لممارسته استمر في الجزائر إلى ما بعد الإستقلال بأكثر من عقد من الزمن، ولقد اعتبر رجال الكهنوت أن هذا التعليم للصغار، لم يكن ناجحاً فحسب بل هو مدرسة نرجلهم يجب عليهم جعله برنامج عمل لتحقيق أطماعهم، وهو ما قرره المؤتمر التبشيري الذي عقد بالقسن في نيسان 1935م<sup>(3)</sup>. كما أشاد المبشر جون موط ( Mott ) بما صنعه لاهجوري قائلًا: « يجب أن يؤكد في جميع ميادين التبشير جانب العمل بين الصغار، وللصغار... مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجته عمدة عملنا في البلاد الإسلامية. إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً، من أجل ذلك يجب أن نحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية. إن اختبار الإرساليات في الجزائر فيما يتعلق بهذا الأمر، وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمالي إفريقيا اختبار جديد ومقنع... وهكذا نجد أن وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين<sup>(4)</sup>. ويبدو لنا أن أسباب هذا النجاح نتيجة عن عدة معطيات، أهمها :

- للتخطيط الجيد للمدى القريب، والمتوسط، والبعيد.

- وحدة الهدف والغاية من التعليم عند كل من الإدارة الإستعمارية والإدارة الكنسية، ومن ثم كان التعاون القائم بين الإدارتين لإنجاحه، والدليل على وحدة الهدف والغاية عند كل من الإدارتين أن الإدارة الإستعمارية أخذت في تنفيذ أهداف التعليم عند لاهجوري قبل حلوله بالجزائر.

1 - مولود قاسم نائب بقاسم، تعقيب على محاضرة لكاماك التبشير والتخطيط التبشيري الملقى 7.م.3، ص 1240-1243، ونعتقد أن مولود قاسم يقصد بهذا حركة أبت أحمد التي ستحدث عنها .

2 - ليست فرقة الأباء البيض وحدها التي كانت تمارس التعليم، بل هناك فرق أخرى كانت تمارسه مثل جمعية الأباء اليسوعيين (الجزويت) وجمعية ميلد ماي (البروتستانتية الإنكليزية) وقد أعد محمد الطاهر وعلي رسالة ماجستير عنونها التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904 دراسة تاريخية تحليلية. فيها معلومات مهمة عن الموضوع. ولقد كتبنا نحن بالإشارة إلى الأباء البيض وباختصار وفقاً لما يقدمنا من البحث.

3 - صبر فروج، التبشير والإستعمار، ص 67.

4 - Mott , The Moslem World of To Day .p 371, 372.

وقد ذكرنا في « العلاقة بين التنشيط والإستعمار » أن كوريل أول من فكر في أخذ الأطفال الجزائريين إلى فرنسا لدرستهم وتصويرهم، كما أخذت الإدارة الإستعمارية في تأسيس المدارس الفرنسية في الجزائر ابتداء من سنة 1836م.

وكان إهتمام الإدارة الإستعمارية بالتعليم ناشئا من قناعها بحجز أسلوب القهر عن إخضاع البلاد، كما عبر عن ذلك ملكماهون (Mac Mahon) سنة 1869م بقوله: « إن البلاد قد قهرت، ولكنها ما دانت لنا البتة<sup>(1)</sup>. فكان لابد من المعظم لتحقيق ما فشل به الحسدي، لأن التعليم وسيلة فعالة لأضعاف نفوذ العلماء المسلمين الذين ظلوا بالمحصلة لرجال العزوة<sup>(2)</sup>.

ومن رجال الإدارة الإستعمارية الذين قرروا أهمية المدرسة لترسيخ الوجود الفرنسي في الجزائر: جاني دوساسي الذي قال: « إن المدرسة هي المسيل الوحيد لترسيخ الوجود الفرنسي بإفريقيا<sup>(3)</sup>.

ومن هنا فإن كل أهداف لاهيجري من التعليم سبقته إليها الإدارة الإستعمارية، وأتى هو لينظر لها وينشرها، ويضفي عليها طابع القداسة الدينية، ومن الأمثلة على هذا:

- سياسة التصير بغرض الإدماج واستمرار الإحتلال قررها لويس فيليب في مجلس وزارته عندما قال متحدثا عن الجزائر: « يجب أن يكون هناك حسن تدبير في العمل على تصير العرب الذين لا يمكن أن يكونوا فرنسيين إلا إذا تصيروا<sup>(4)</sup>.

- تعطيل المؤسسات الدينية ومنع التعليم وتدمير التراث الثقافي وما إلى ذلك نفذته الإدارة الإستعمارية كما مبينا في الأوضاع الثقافية، وفي العلاقة بين التنشيط والإستعمار، وأتى لاهيجري لينظر لذلك، ويجهز على ما بقي ويلضفي طابع القداسة الدينية على ما قام به الجيش من تدمير لتلك المؤسسات وتلك التراث، وأصبح التدخل الإستعماري في تسيير النزر البشير الذي بقي وتوجيهه لخدمته خاصة جوهرية ظلت إلى غاية الإستقلال.

وفي هذا السياق، فإن محاربة القرآن الكريم، والقضاء على التعليم الإسلامي ونهج سياسة الفرنسة والإدماج، وإتباع سياسة التجهيل إلخ. نفذته الإدارة الإستعمارية قبلا، وأتى لاهيجري لينظر له ويضفي عليه طابع الشرعية الدينية، فقد كتب فوفال (أحد رؤساء مكاتب الإدارة الإستعمارية) قائلا:

« إن العرب... كلما قلت دراستهم، كلما قل تعصبهم وسهلت قلوبهم... وربما كانت هذه النظرة غير أخلاقية، ولكنها مطابقة لمصلحتنا<sup>(5)</sup>. أما شارل رشار فقد كتب عام 1845م مبينا خطورة المؤسسات

1 - عبد الحكيم الأربيد، المعاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 1988، ع5، ص 368.

2 - المرجع نفسه، ص 369.

3 - Turin, Y, Affrontements Culturels dans L' Algérie Coloniale, Paris, 1971, Page 42.

4 - خديجة بقطاش، الحركة القومية الفرنسية في الجزائر، ص 40.

5 - Turin, Affrontements Culturels dans L' Algérie Coloniale, P 416.

الفرزوية تحريرية على الإحتلال قديماً، «... لاسرئ عاصمة هي أن تتهازل تلك المؤسسات -  
المدارس العربية- وفي أن يعود الشعب العربي إلى جاهلية المصون العائرة، عندئذ سيكون بإمكاننا  
تعليمه وجعله ينفذ إلينا عبر التربية»<sup>(1)</sup>.

كما أن الإدارة الإستعمارية هي التي وافقت موقفاً حارماً من فصبة اللغة، فرأت ضرورة  
تدريس اللغة الفرنسية وإعتمادها كوسيلة الوحيدة للوصول إلى مواطنيها<sup>(2)</sup>. وذلك لقناعة هذه  
الإدارة أن اللغة الفرنسية تفرد المرء من حيث لا يدري في أثر فرنسيين وانتخلق بأخلاقهم<sup>(3)</sup>، وهي  
التي تحول عقول الشباب المسلم فهدوب من حالها في حلال الفرنسيين وتقليدهم<sup>(4)</sup>. وليس بالضرورة  
حينئذ أن يتصر المسلم بل يكفي خلخلة إيمانه برعزعة ثقته بمدرسيه المسلمين وعلومهم وتاريخهم  
ودينهم<sup>(5)</sup>. فالتشك طريق للتصوير، وهو ما قررره لاهجري كما بينا قديماً.

أما بت النزعة العرقية وسط الممكن فكانت من أوائل ما نفذه رجال الإحتلال كما بينا قديماً،  
وأتي لاهجري لينظر لها، وأصبحت هذه النزعة مرتعاً لأسبابا لرجال التبشير والإستشراق والجيش  
والعلم، كل واحد ينظر لها من زاوية لينتج كل نكك ركبا جوهريا من أهم أركان الحركة البربرية،  
وهذا يجعلنا نتوصل إلى عدة نتائج، هي:

• استحالة الفصل بين ما هو استعماري وما هو ديني، فكلاهما هو الآخر.

• الأهداف التي قرررها لاهجري مثل محاربة القرآن الكريم واللغة العربية والفرنسية والإدماج  
وما إلى ذلك لم يتطلى عنها المبشرون أو بغيروها، بل استمرت هي هي، وإن تطورت الرسائل تبعاً  
لتطور العلم. ومن الأمثلة على صحة هذا ما قررره المؤتمر الأفخارستي الذي عقده فرنسا في الجزائر  
سنة 1936م، والذي قال فيه رئيس المؤتمر الكاردينال هرديني ما يأتي:

« إذا أردتم أن تدمجوا أفريقيا الشمالية في العائلة الفرنسية فما عليكم إلا أن تضربوا على أيدي  
اللغة العربية -بمعنى لغة القرآن- فإذا توصلتم إلى قتلها إلى الإدماج، ليس هذا فحسب وإنما أيضاً إلى  
للمسيح، لأن اللغة العربية هي ضامن الإسلام، وهي لغة القرآن، فمن حاربها حارب الإسلام وكان  
مبشراً»<sup>(6)</sup>.

هذا النص من ذهب لا يحتاج إلى تعليق، سوى بشيء واحد، وهو أن الحركة البربرية تقوم على  
هذه الدعامة، -دعامة محاربة اللغة العربية- وبهذا نستطيع القول: بأن حركة التبشير الحالية مرتبطة

- Lasnier, B. Le Siècle des Révolutions, Tunis, 1967, Page 343

- 1

- Turin, Ibid, Page, 41.

- 2

- Ibid, Page, 210

- 3

- Ibid, Page 25.

- 4

5 - عبد الحكيم الأريدي، محاولات الإستعمارية، ص 370.

6 - لثانلي مكي، تعقيب على محاضرة عبد الجليل قنيمي من ملامح التفكير التبشيري ضد المسؤولين الفرنسيين  
في القرن 19 في الجزائر، الملتقى 7، ص 3 من 1019.

بحركته في القرن 19، وهي تخضع لنفس الغطة، وتخدم نفس الأهداف. وإن تباينت الأساليب أحياناً، كما يبدو جلياً الترابط المتين بين السياسة الاستعمارية والكتيبة<sup>(1)</sup>. وإن أهداف التنميط هي أهداف التنصير.

هذه الأهداف، مثل محاربة اللغة العربية، والفرنسية والإنجليزية، والعزف على وتر العنصرية والعرقية، واستغلال التاريخ وتزييفه لتحقيق ذلك، هي قواعد جوهرية للحركة البربرية حالياً، وبهذا تعد الحركة البربرية أخطر عمل تنصيري حالي في الجزائر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## أتماط التعليم التمهيري في الجزائر

هناك نمطان : وقد أنشأهما لاهجري معاً، هما

1 - التعليم المهني (الحرفي)

2 - التعليم العام

### 1 - التعليم المهني (الحرفي) :

ويهدف إلى إكساب المتعلم بعض المهن التي تؤهله للحياة المستقلة، وينقسم إلى ثلاثة أنواع :

أ - التعليم المهني الموجه للذكور : وقد خص به لاهجري بنامي مسغبة 1867، ويطلب عليه الطابع الزراعي وما يتعلق به كالحدادة والبناء وتربية الحيوانات. أما مكان هذا التعليم فلم يكن قاصراً على الجزائر وحدها، بل أرسل لاهجري حوالي 550 بنما إلى فرنسا بين سنتي 1871 و 1878م لتعليم حرف مختلفة. ثم نظم التعليم الزراعي المحض في خراطة ابتداء من سنة 1896م.

ب - التعليم المهني الموجه للإناث : ويقوم على تعليم فنون للتدبير المنزلي كالخباطة والطبخ وكذا أشغال الصوف والصلال والقفص وصناعة الزرابي. وكانت هذه المدارس منتشرة في بلاد القبائل وبسكرة والأغواط والقلبية وغيرها وعلى ذكر الطبخ فإن الإناث كى يتعلمن تحضير الأطباق الفرنسية البسيطة بالمواد المفضلة لدى الأهالي، ويؤخذ بعين الاعتبار الأدوات التي يحتويها البيت القبائلي.

ج - تعليم الكبار : لم يقتصر الأباء البيض على تعليم الصغار، بل اهتموا كذلك بتعليم الكبار ولا سيما في بلاد القبائل، وذلك في الزراعة وغيرها، ويهدف التمهرون من هذا للتعليم المهني إلى عدة أهداف منها :

أنه لما كان هذا التعليم المهني موجهاً في أساسه إلى التيسار الذين يلتقطهم المنصرون في ملاحنهم، فإن هذا التعليم يؤدي بهم إلى الاستقلال المالي مما يبعدهم عن محيطهم الطبيعي الإسلامي الذي كانوا يعيشون فيه قبلاً فيبقوا على نصرانيتهم. كما تمكنهم تلك الحرف عن العمل في مزارع المعمرين والمبشرين مما يبعدهم كذلك عن نوبهم ودين أجدادهم، كما أنه لما أصبح المجتمع محروماً من التعليم فإن تعليم الحرف أصبح ميزة لأصحابها وسط المجتمع تؤهله للحياة مما يجعل الناس يتسابقون إلى رمي فلذات أكبادهم في هذه المراكز<sup>(1)</sup>.

## 2 - التعليم العام، أو تطور جهاز التعليم بعد لاهيجري

كانت النواة الأولى للتعليم التي أنشأها لاهيجري تركز على الكتب المقدس والعرسة، ثم تطور تطورا هائلا، ليصبح فلسفة متكاملة مترابطة، ونبدأ كلامنا عن ذلك بالحديث عن هندسة المدارس والأساتذة، ومواد التدريس، ومراحلها، ونحتم ذلك بالحديث عن أصناف التلاميذ والإشارة إلى آثار هذا التعليم :

### هندسة مدارس التبشير :

يلاحظ أن كثيرا من المدارس تحتوى على كنيسة، كان للطلاب يجيرون على دخولها، ثم أصبحوا يستخدمون أساليب الترغيب بدل الإيجاب<sup>(1)</sup>، ومن تلك الوسائل مدح الطلبة الذين يدخلونها أمام زملائهم، واعتبارهم ذوي أخلاق عالية، كما أن الأساتذ يعتمد استقبال الطلبة داخل الكنيسة للإجابة على استفساراتهم، ثم لا ننسى شكل الأستاذ الذي يقدم للطلبة أحسن الدروس وهو يرتدي لباس الكهنوت. وما أن ينهي درسه حتى يخرج أمامهم ليدخل الكنيسة، ولا سيما بعد أن يكون قد قدم لهم درسا مشوقا في أي فن من الفنون، فينتبغ في أنفسهم العلاقة بين شخصه وعلمه والكنيسة، فيكون ذلك من دواعي التنصير، وكذا تقديم مساعدات مالية للذين يدخلون الكنيسة دون غيرهم، ومن الأمثلة على هذه المدارس مدرسة تغمنت أعزوز بيني دولة، ولاية تيزي وزو.

وإذا كانت المدارس تحتوى على كنيسة، فقد أضيف -أيضا- إلى كثير منها شين بالغ الأهمية وهو احتواؤها على داخلات للتلاميذ والتلميذات كما هو الحال في مدينة تيزي وزو، وذلك ليكون التبشير أتم حيكما، وأشد وقعا، ذلك أنهم يجطون أبناء المسلمين وبناتهم يعيشون في جو مسيحي صرف، فتقوى صلتهم بهم حيث يراقبونهم طلبة أيام الأسبوع مزاهبة تامة، فيقدمون لهم التصور النصراني للحياة نظريا في المدرسة، وعمليا في الداخلية، كما يتمكنون بهذه الوسيلة الخطيرة من فصلهم عن أسرهم المسلمة وجعلهم تحت رعايتهم فيخرجون من هذه المدارس على أعينهم<sup>(2)</sup>.

### الأساتذة المدرسون :

الأستاذ الذي يدرس في مدارس الآباء البيض يجب أن يكون نصرانيا، منهم. متمرنا على التبشير، متمكنا من المادة التي يدرسها، فهم يختارون أحسن الأساتذة وذلك لكي لا يعرف الأجنبي عنهم ما يدور بمدارسهم بولضمان فعالية هذه المدارس ونجاحها<sup>(3)</sup>.

1 - عمر فروغ، مصطفى خادي، التبشير والإستعمار، ص 84.

2 - المرجع نفسه، ص 86، 87.

3 - المرجع نفسه، ص 69، 71.

أدرك الأبناء المبصر أن الانفصال على كتاب المقدس وقرسنة لا يكفي لتحقيق أغراضهم فأخذوا يدرسون العلوم الحديثة من رياضيات وكيمياء وبيولوجيا وغيرها، لما لها من فوائد عظيمة تستخدم لتحقيق أغراضهم، كما أخذوا يدرسون التاريخ والجغرافيا وما شئتكما من العلوم التي تحقق أهدافهم<sup>(1)</sup>. ويركزون كثيرا على التاريخ، فيدرسونه بطريقة معنوية تقوم أساسا على اعتبار البربر غير عرب غاليين استعمرهم العرب، فيقفون على تاريخ المنطقة قبل الإسلام ليميزوا مواجهة البربر للغزو العربي -في نظراهم- بطريقة تكره التبرير في العرب والإسلام على السواء. وهكذا... وهذا ما أثمر الحركة البربرية التي تعد أخطر معول بهدم الإسلام والوحدة الوطنية، ونكي بحقوقها أهدافهم، هجأوا إلى سياسة التبرير على الإسلام وتاريخه، وتشويه العرب الذين حملوا الواء، وذلك وفق خطة مذبذبة مما تقوم عليه تليف الكتب وتليفها في مدارسهم. ومما كان مقررا منها كتاب «البحث عن الدين الحقيقي» «Recherche de la Vraie Religion». وهو محاضرات في التعليم الديني، ألفه (المنمنبور كرلي) وسدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي بتربس، ونال رضا البابا ليون 13 سنة 1887م. هذا الكتاب مملوء حقا نعر العرب والمسلمين مستغزا لمشاعرهم أشد استفزازا. ومن الأمثلة على ذلك، ورد فيه ما يأتي : «الإسلام في القرآن 7م. برز في الشرق عدو جديد، ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أفكس قوانين الأخلاق ثم سمح لأبنائه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالإستمتاع الدائم بالمذات... وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهنة»<sup>(2)</sup>.

هذا نموذج من الكتب التي تدرس لأبناء المسلمين في هذه المدارس، وهي كتب مليئة بالتعصب وتشويه للحقائق وليقلد الأحقاد<sup>(3)</sup>، وتمزيق الوطن، وتكريه الناس في بعضهم بعضا.

أما كتاب القراءة المكتوب بالعامية -التي هي إحدى وسائلهم لتخطيم اللغة العربية- فمما ورد فيه أن محمدا عندما يقضي حاجته تتركه أمه دون أن تتطفه، بلوث يديه ببرازة مثل أمه ثم يتناول الطعام مباشرة دون غسل أيديهما، أما بيير فإنه عكس ذلك تتطفه أمه ويغسلان أيديهما قبل الأكل بمحمد قدر الثياب، بيير نظيف الثياب<sup>(4)</sup> فخ. ولنتصور كيف سيصير الطفل الذي يلقن هذه الأفكار الكاذبة عن محمد وبيير؟ كيف سيُنظر إلى الإسلام وإلى العرب؟. النتيجة واضحة. وإذا كانوا يدرسون العربية العامية<sup>(5)</sup>. فإنهم كانوا يدرسون لقبائلية في بلاد القبائل الكبرى بهدف إبعادهم عن القرآن ولغته، وتقسيم

1 - لمرجع نفسه، ص 71، 69.

2 - لمرجع نفسه، ص 73، 72.

3 - لمرجع نفسه، ص 703.

4 - ومنطل بعض ماورد في هذه الكتب أثناء حديثنا عن العربية العامية.

5 - محمد الطاهر وعلي، لمرجع لسابق، ص 139.



المجتمع وإذكاء نار الطقفة فيه. أما درس اللغة الفرنسية فيهم يقدمون للتلاميذ أحياناً نصاً من الكتاب المقدس فيشرح شرحاً دينياً، ومن خلال ذلك يتم مناقشة القضايا الدينية من الرأوية التبشيرية.

والواقع أن هذا ما قرره مؤتمر القدس المنعقد في سنة 1935م الذي نص على وجوب أن يستغل كل درس في سبيل توليد مسيحي لغزوع الطوم كالتاريخ وعلم النبات<sup>(1)</sup>. وملازم من أعراض التبشير خلخلة العقيدة الإسلامية فلا مانع عندهم من أن يقدموا الطلاب المسلم بصحة نظرية التطور وكل نظريات الإلحاد لتحقيق أهدافهم.

مراحل التدريس :

لقد ذكرنا أن الآباء البيض هم الذين كانوا يتولون التعليم بجميع أنواعه ومراحله ليكون فعالاً وهو يبدأ بـ :

- رياض الأطفال : وهي مهمة جداً، لأنها ذات تأثير كبير في عقول الناشئة، وعقول نوابغهم، فهي تؤثر في عقول الناشئة من حيث ما يقدم لهم من إحصان ولغة فرنسية، ومعلومات وأخلاق، وهي تؤثر في عقول نوابغهم من حيث ما ينطبع في مآذنتهم عن هؤلاء المحسنين الطيبين<sup>(2)</sup> ومن حيث كثرة اتصالهم بالمشرقيين على هذه المدارس فيكون ذلك فرصة لهم لبث سمومهم، ثم يأتي بعد رياض الأطفال :

- المدارس الابتدائية : وهي استمرارية في التأثير لمدارس رياض الأطفال، ووسيلة ثمينة للتبشير، لأنها تمكن الآباء البيض من تثبيت أقدامهم في القرى النائية التي لا يراهم فيها أحد، فيفردون بالأطفال الصغار، وبأهلبيهم الجهلة، فيصير الأطفال وأولياهم عجيبة لينة في أيديهم، يشكلونها كيفما يشاءون. ولا سيما أن عقول الناشئة لا تزال صفحة بيضاء، كما تحطهم على اتصال دائم بالمنطقة وأهلها مما يحقق أهدافهم<sup>(2)</sup>. وهذا ما جعل هذه المدارس مبنوثة في القرى والمدن، للنائية وغير النائية مثل قممت اعزو وأبني بني، مشيلي، مقل، تيزي وزو الخ.

- المدارس المتوسطة والثقوية : ومن الابتدائي ينتقل للتلاميذ إلى المتوسط ثم الثانوي، بعادة يكون نظام التعليم في هاتين المرحلتين داخلياً، فيستفرد الرهبان والرهبانيات بالتلاميذ فيوجهونهم كما يشاءون من خلال مواد التعليم، ومن خلال الحياة الاجتماعية في الداخلية التي يتحكمون فيها 24 ساعة/24 ساعة خلال الأسبوع بكامله. ولكي يحققوا هدفهم فيكون الإستيلاء كاملاً، أضافوا إلى هذه الحياة في الداخلية للنشاط الثقافي الإضافي الموجه كالمسرح والموسيقى والغناء وغير ذلك، أما للتلاميذ الذين لا يذهبون إلى نوابغهم في عطلة نهاية الأسبوع بسبب بعد المسافة أو لسبب آخر، فإنهم تنظم لهم رحلات بين الحين والآخر لزيارة مختلف الأماكن، كالمدارس الأخرى أو زيارة الآثار لفترة ما قبل الإسلام وتوجيههم من خلالها أو الذهاب إلى الشواطئ وما إلى ذلك. وكل هذا يتم وفق خطة دقيقة، كما لانفسي وجود الكنيسة بالمدرسة والتي لا يجد للتلميذ مفراً من دخولها أو حضور نشاط داخلها.

1 - صر فروخ، مصطفى خالدي، لمرجع لسابق، ص 105.

2 - لمرجع نفسه، ص 78، 79.

و عندما يتحصل التلميذ على شهادة البكالوريا يكون قد نطمئوا إليه تماماً<sup>(1)</sup>، فدخل الجامعة التي كانت تدرس كل شين باللغة الفرنسية فيجد فيها برنامجا - على الأقل فيما يتعلق بالإسلام - لا يقل خطورة عما تلقاه في المرحلة السابقة حيث يجد رجال الاستشراق في أنظاره لمسفه نهائيا، ولكي يضطر الأهلي إلى إدخال أبنائهم إلى مدارس الأبناء لئلا يضربوا من التطعيم الرسمي وحرمة عليهم رغم أنه لم يكن يقل خطورة عن تطعيم المبشرين، ولم يكن الإستعمار يسمح بالإنتماء إليه إلا لفئة قليلة من أبناء أعوانه ليواصل بهم الإستعمار. وبهذا كانت مدارس الأبناء لئلا يضربوا من التطعيم الرسمي وحرمة عليهم أن يعلم أبناء من الأهلي.

وهكذا نستطيع القول أن مدارس الأبناء أصبحت من الأهمية بمكان، وصار تطعيمها موحدا عبر القطر الجزائري بكامله وتطورت تطورا هائلا لتشمل جميع التخصصات العلمية بوصطادون لها التلاميذ من مختلف لغات الإجماعية، الفقراء والمعوزين وأبناء الذوات. ويقومون بغرس النزاعات العرقية في المناطق التي يتمركزون بها كبلاد القبائل، ويستغلون للتاريخ ويوجهونه لتحقيق ذلك ويحببون الناس في الإستعمار، ويسنون إلى الإسلام وإلى لغته أي يحققون ماكان يطمح إليه لاجري.

ولكي يكون منهج هذا التطعيم فعالا، فكان لا يتقيد بالبرنامج الرسمي للدولة بعد الاستقلال، وإن كان لا يفصل عنه فيما يتعلق بمواد الامتحان، ويقوم هذا المنهج على أساس الطفرات، وذلك عندما يكون التلاميذ كبار السن ورفضتهم المدارس الرسمية، أو لم يتمكنوا من التعليم صغارا بسبب الفقر أو غيره. فمثلا يدخل التلميذ إلى المرحلة الابتدائية ليتمكث بها سنتين أو ثلاثة بدل من 6 سنوات ليتلقى دروسا مكتفة، ومادام المعلمون جيدين، والبرنامج صارم، فإنه يستطيع اجتياز مرحلة الانتقال إلى المتوسط ليقيم باختصاره كما اختصر مرحلة التعليم الابتدائي، ليجد نفسه في المرحلة الثانوية التي يستطيع اختصارها كذلك فيتوصل إلى الجامعة<sup>(2)</sup>.

ونلاحظ أن هذا النظام للتعليم، ولاسيما بعد الاستقلال لم يعد يقوم مباشرة على تقديم الإنجيل بل يمكن أن يتخرج التلميذ ولا يسمع كلمة واحدة عنه<sup>(3)</sup>، ولكنه يتأثر بطرق غير مباشرة وكثيرة، فهو يتأثر لأنه كان جاهلا وأصبح يحمل شهادة عالية، ويتأثر بأخلاقهم ومعاملاتهم له، ومساعداتهم المادية

1 - لا نقصد بكلامنا هذا أن جميع الذين تعلموا في مدارس الأبناء البيض تصبروا أو خلقت عقبتهم، ولكن لتلميذ مهما كان فعندما يقضي تلك المدة الطويلة في أعضائهم فعليا ما يتأثر.

2 - ومن الذين درسوا بهذه الطريقة السيد هـ هـ، الذي يشغل حاليا وظيفة حسنة ويذكر أنه تقطع عن الدراسة لمجزه عن نوفمبر 10 نتائج بدفها للمدرسة. فخرج بأحد رجال الأبناء لبيض يبحث عنه ويستقر منه عن سبب إقطاعه عن الدراسة فأخبره أن ذلك راجع إلى الفقر، فأخذه من هناك إلى مدرسته وتكلف بنفق جميع مصاريف التعليم إلى أن تخرج وهذا الإنسان مع هذا لم يغير دينه ولكنه ليس جميع التلاميذ مثله.

3 - وهو ما أخبرني به السيد هـ هـ.

أحياناً، كما يتأثر من خلال تظاهرهم - من خلال هذا التنظيم - دراسة مشاكل نشأب المختلفة ليقنوا منها إلى نصيبه وتصيره<sup>(1)</sup>.

مما سبق نستطيع القول بأنه رغم المجهودات الحثيثة التي يبذلها المشركون في جميع مراحل التعليم أدركوا أنه من الصعوبة بمكان تغيير المضمون، فلماذا لم يخطوا الأراء النصرانية تقرب إلى المسلمين وإلى المتقين منهم خاصة لئلا يتسرب منهم بعد ذلك إلى المجتمع الإسلامي من ثغاف نفسها، فهذا أحد أهدافهم من التعليم عامة والتعليمي بصفة خاصة.

أما الهدف الثاني فهو أن يؤثروا في قادة الرأي في البلاد<sup>(2)</sup>. أي يكسبوا نخبة من المفكرين على أعينهم لمبوجهوا أفكارهم من خلالها، ولا أدل على هذا من دعاة الإدماج والتجنيس الذين سنتحدث عنهم وكذلك أن يؤثروا في الجيل الناشئ الذي سيؤد للبلاد مستقبلاً، أي صنع قيادات المسلمين الفكرية والسياسية على أعينهم لتحقيق أهدافهم، ولهذا الغرض كانوا يركزون على أبناء الأعيان الفرنسيين وتكريبهم في لغة القرآن، لأنهم كانوا يطمون أنهم هم الذين سيمسكهم الإستعمار مسؤولية البلاد مستقبلاً، أو يتسلمونها بأنفسهم، وذلك ليدافعوا عن التبشير ويستمر الإستعمار بأنواعه من خلالها، وهو ما وقع بالفعل<sup>(3)</sup>. ولهذا الغرض ظم يكن بهمهم كما قلنا أن ينصروا المسلم، بل يكفي أن تتوش عقيدته ويصبح لا تكيافوهو الهدف ذاته الذي كانت تهدف إليه مدارس التعليم الرسمي التي كانت محرمة على الجزائريين باستثناء أبناء الأعيان لجعلهم على أعينهم قادة البلاد في المستقبل، وكانت جامعة الجزائر تجمع هؤلاء وأولئك، أي خريجي مدارس التبشير، ومدارس التعليم الرسمي، ولكي يكون التأثير كاملاً في المجتمع ضموا إليه تعليم البنات.

- تعليم البنات : ذلك أنهم أدركوا أهمية المرأة بالنسبة للأسرة والمجتمع فركزوا على تعليمها، لأنها ستصبح رسولهم إلى أسرها، وستصبح أما تعلم أبنائها ما تثقته من توجيهاتهم الخطيرة، ويحبذون أن تكون البنات من عائلة ذات وجهة<sup>(4)</sup>، ليكون التأثير أئد، وهو نوعان، إما أن تتمكن من التأثير في أسرتها فتتصرها أو تفسخها، وإما أن لا تفلح في ذلك فينشأ الصراع الحاد داخل العائلة، فيتمزق الأسرة، وكلتا الحالتين نجاح للمبشرين، كما أنهم بهذه الوسيلة يستطيعون تزويج المتصربين بالمتصربات لتكوين أسر نصرانية خالصة من الأهلي، وهذا له خطورته على البلاد مستقبلاً، لأنه طريق الطائفية. أي منفذ الإستعمار الفعال لتخطيم المجتمعات الإسلامية، كما أنهم بتعليم البنات وتصيرها سرفعون معنويات المرتدين الذين يبندهم المجتمع لذلك فيجدون هاته الخريجات جاهزات للزواج، فيكون ذلك تشجيعاً لروة الطرفين. وما يدل على صحة وجهة نظرنا هذه أن عدد

1 - عمر فروخ، مصطفى خالدي، المرجع السابق، ص 46.

2 - المرجع نفسه، ص 79.

3 - محمد عزوي، تعقيب على محاضرة للمكاتب التبشيرية والتخطيط التبشيري، الملتقى 7، م 3، ص 1207.

4 - عمر فروخ ومصطفى خالدي، المرجع السابق، ص 86، 87.

التلميذات في مدارس الآباء النصارى في الجزائر وصل في سنة 1973م 32 ألف تلميذة<sup>(1)</sup>. وهذا عدد هائل له خطره فيما بعد .

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق :

- بلغ عدد الطلبة الذين يدرسون في مدارس الآباء النصارى في شهر ماي 1973م 49 ألف تلميذ، و 32 ألف تلميذة، بينما الذين كانوا يتعلمون في معاهد التعليم الأصلي لم يزد آنذاك على 20 ألفا<sup>(2)</sup>. وعندما نقوم بعملية حسابية لعند الذي تخرجوا من مدارس المبشرين منذ نشأتها إلى سنة 1976م نجد أنها خرجت أعدادا رهيبية، وقد نتج عن هذه المدارس نتائج خطيرة جدا، منها:

1 - التعليم في هذه المدارس أدى إلى التنقص في المجتمع بين أبناء البلد الواحد، وأثمر الحركة البربرية.

2 - الذين أصبح بيدهم الحل والعقد بعد الاستقلال تخرجوا من تلك المدارس ويطمون أبناءهم فيها<sup>(3)</sup>.

وهذا أدى إلى الانفصام بين الشعب المسلم والقيادة اللاتينية، كما أدى إلى الكراهية والصراع بين الذين تخرجوا منها من أبناء المسؤولين تكبار، وأبناء الطبقات الشعبية البسيطة التي لم تدخل هذه المدارس، فترى في نفسها طبقة دونية، وتبقى فيها هذه العفة دائما<sup>(4)</sup>، ولا سيما عندما ترى أولئك في المناصب العليا دونها.

3 - للتعليم في هذه المدارس أدى إلى هجرة الأدمغة، ذلك أن من وجدوه عبقريا أخذوا إلى بلدانهم لينتفعوا بعلمه، ومن وجدوه غيبيا تركوه لبيت سموهم.

مما سبق يمكن القول إن للمؤسسات التربوية التبشيرية أهداف، منها:

- **الهدف السياسي** : حيث تتكون فيها نخبة من أبناء المسلمين، ومن أبناء الطبقة المتقفة ورجال السياسة والعائلات الكبيرة، فتتولى هذه النخبة المناصب السياسية والاقتصادية القيادية، فتحتمي التبشير والمبشرين، وكذلك تقسيم المجتمع على أساس عرقي ليتصارع ويضعف وتضعف قيمه، وأحسن نموذج لهذا، هو الحركة البربرية التي أثمرتها جهود المبشرين التعليمية وغيرها.

1 - محمد عزوي، المرجع السابق، ص 1207.

2 - المرجع نفسه، ص 1207.

3 - ومن الأمثلة على هذا ما يذكره محمد عزوي عندما التقى بسفير جزائري في سنة 1972م: « كنا في بيته، وكنا نحن في مائدة ولولاده في مائدة، وكانت أعمارهم تتراوح بين 10 و 10 سنوات، وكانوا يتكلمون بالفرنسية، مائلته، أين كان أولئك يتعلمون؟ قال: في مدارس البعثات التبشيرية، فقلت له لماذا لا تتحدث معهم باللغة العربية في البيت؟ قال : خفت أن يشعروا بهركب لنقص ولن لا يتعلموا الفرنسية ولهذا أرغبتهم على الكلام بالفرنسية » (محمد عزوي المرجع السابق، ص 1208، 1209م). ونحن نساءل: كيف تكون أمة يفكر فيانوها بهذه الطريقة؟ وأي شخصية يبقون لها؟!.

4 - محمد شريف بلهاج، تعقيب على محاضرة المهدي البروجيني «تأثير التبشير المسيحي في الجزائر» الملقى 7، م 3،

- الهدف الدنيوي : وذلك بخلق ألفة بصرية في صميم مجتمع إسلامي كما عبر لافيجيري صراحة ببلدية الجزائر ويستعملون بالمعربين من نصارى المشرق للتدريس في مدارسهم<sup>(1)</sup>، وقد بدأت هذه الإستعانة منذ الحملة على الجزائر في سنة 1830 كما نينا في العلاقة بين التبشير والإستعمار حيث استقدم قسيس سوري لهذا الغرض.

- الهدف الثقافي : وذلك بإنشاء مؤسسات ثقافية وسط بلاد الإسلام تعمل ضد الإسلام وأهله وتنتج إنتاجا ثقافيا عن تاريخ الإسلام والقرآن والسنة وغير ذلك، ويصبح كل هذا مصدرا لأبناء المسلمين، ولا سيما الذين لا يعرفون العربية فلا يرجعون إلى المصادر الأساسية للإسلام، وهي مكتوبة باللغة العربية<sup>(2)</sup>، وبهذا يصبح بعض أبناء المسلمين يعرفون الإسلام من خلال النصارى أي كما يصوره للنصارى، ونحن نتساءل هنا: هل يسمح الغرب في بلدانه بأن يقوم المسلمون بما يقوم به هو للإسلام؟ وما يؤسف له هو سكوت السياسيين المسلمين عن أعمال المنصرين، مع أن التصير ذو طبيعة سياسية يدخل في صميم عملهم، ورغم كونه ظاهرة شديدة الخطورة يعمل بلا هراة على تفتيت المجتمع سياسيا وعقائديا وثقافيا كما بينا قبلا، فإنها لم تحرك ساكنا، مع أنها تتبع كل حركة إسلامية وتتهمها إن بحق وإن بباطل، وتسطلها، وتدمر مستقبلها وتترك الحرية لحركة التصير المدمرة للوحدة الإجتماعية والوحدة السياسية والعقائدية<sup>(3)</sup>، وهذا دليل على أنه قادة المسلمين تخرجوا من تلك المدارس أو تعلموا على خريجها أو المخططين للتحكم فيها مستقبلا<sup>(4)</sup>.

وأحسن تعبير عن حقيقة هذا التعليم -في نظرنا- ما أظنته صراحة الراهبة جوزيفين (Josephine)<sup>(4)</sup>، حين قالت: «ليس هناك طريقا أقصر إلى فهم حصر الإسلام من هذه المدرسة»<sup>(5)</sup>.

والخلاصة التي نتوصل إليها من هنا: أن حياتنا بمختلف مناحيها تعثرت، لأن مدارس المبشرين والمدارس الفرنسية فرقت بين أبناء الوطن الواحد، فتفتت أهدافهم، وباعدت بين الطرق إلى تلك الأهداف، ومن هنا فلا يجوز أن يكون التعليم في أيدي أجنبية تعبت به، وتستطه لمأربها<sup>(6)</sup>. وهذا ما جعل الجزائر تفكر بجدية في مواجهة هذا النظام التعليمي، وذلك بنظام التعليم الأصلي الذي كان يختار له أحسن الأساتذة من العالم الإسلامي، وأتى بثماره. لو لا أن الأيدي الأثيمة من المتشبعين بثقافة المستعمر وأداته.

بعد كل ما سبق، نتساءل: هل نجح لافيجيري في مشروعه السابق؟ ونجيب عن هذا التساؤل بما يأتي:

1 - عمار طالبي، تحقيق على محاضرة لكامك 'التبشير والتخطيط التبشيري'، الملتقى 7، م3، ص 1158.

2 - المرجع نفسه، ص 1157.

3 - المرجع نفسه، ص 1158.

4 - محمد عزوي، المرجع السابق، ص 1207.

5 - هي ميثرة فرنسية، عملت راهبة في مرسيو، ثم رجعت إلى تونس، وقد أرسلتها الليار إلى سوسة وأسندت لها مهمة لتصير في المدن لسلطوية، كرمها أحمد باي -باي تونس- بوسام لشرف (عمر محمد الغربي، التبشير وعلاقته باستعمار البلاد التونسية، ص 55)

6 - أ، د، ت، ملف 756، وثيقة رقم 14، صندوق 64 (هامش لغربي، المرجع السابق، ص 55).

1 - لم يفارق لافيجري الحياة حتى رأى عمله ثلاثين، فقد بلغه وهو على سرير الموت - حيث توفي بالجزائر العاصمة - في ديسمبر 1892م ونفوس بها - لن أكثر المتصيرين في إفريقيا اعتنقوا الإسلام والتحقوا بخلايا وزوايا السنوسية التي كانت تشتري العبيد وتعتهم ونوزعهم على زواياها بليبيا وعندما يتخرجون تشتط عليهم الرجوع إلى بلدانهم لنشر الإسلام ومن لم يبلغ منهم المستوى العلمي المطلوب للدعوة اشتط عليه إحياء الأرض للموت وعمرها. وهكذا لما أن رجع هؤلاء إلى بلدانهم ونفذوا خطة السنوسية حتى نبد السكان النصرانية ومطهرتها [ وهكذا انتهت السنوسية إلى أهمية العامل الإقتصادي الذي كان لافيجري ينصر الناس به فاستخدمته نهابتهم وإرجاعهم إلى الصواب ] فلم يسمع لافيجري إذ ذاك إلا إعطاء الأوامر لأعوانه بإحلاء عدة مراكز للتصير والإسحاب منها بعد أن أذهبت السنوسية عمله أتراج الرياح، ثم كتب إليها برسالة قال فيها :

« إن المسلمين بأوروبا وآسيا لازلوا في سباتهم العميق، أما في قارتنا الإفريقية - حسب القارة لنفسه وكأنها أصبحت ملكة - فإنهم استيقظوا، وأن الطبقة الصاعدة التي فيها الطبقات المتكونة في المدارس السنوسية<sup>(1)</sup> هي أقوى نشاطا وحرارة من الطبقات السابقة، وأن ممالك أوروبا لا تفهم ولا تعرف من هم العرب - الذاء الخطير -<sup>(2)</sup> إن هؤلاء المتحسين - السنوسية - أمكنهم أن يحدثوا خلايا سرية بجميع ممتلكاتنا، وإنني أرى من واجبي أن ألفت نظركم إلى هذا الخطر الذي غطت عنه أوروبا ففعلوا بخبرة ريان حنكته لتجارب، وله تربية بصخور وروابع بحار البربرية<sup>(3)</sup> أي الإسلام.

2 - مشروع لافيجري التصيري رغم فشل لافيجري في تحقيق أهدافه المرجوة منه إلا أنه كان قاعدة أساسية للمبشرين الذي أتوا بعده وكذا رجال الجيش والاستمراق والساسة الفرنسيين وبعد من أهم ما ترتكز عليه الحركة البربرية التي حققه المبشرون بها ما لم يكن يتوقعه أحد . وهو ما يعطينا فكرة عن منهجية التواصل التي يتبعها أعداء الإسلام مما يؤدي إلى نجاحهم. وهو ما نراه مبثوثا فيما نعالجه بعدا.

- 1 - هذا اعتراف بأن السنوسية أول من بدأ النهضة الحديثة وأنها بدأت في إفريقيا أي الجزائر قبل آسيا وأوروبا.
- 2 - ولهذا نجد الحركة البربرية التي تعرضت في بعض الأحيان لتعقد هذا لا مثيل له عن العرب كما سنعرف أثناء حديثنا عن موقفها من اللغة العربية الفصحى.
- 3 - المهدي البربري، آثار التبشير للمبشرين في الجزائر قبل الإحتلال الفرنسي وبعده، لملتقى 7 للتعرف على الفكر الإسلامي، م3 ص 1352.

## الكتاب الرابع

شارل دوفوكو (Charles De Foucauld) (1858-1916م) واللهاجة القبائلية

### الفصل الأول

حياته ومشربه (رجال فرنسا الذين تأثر بهم)

مقدمة :

بعد هلاك لافيجري في ديسمبر 1892 م استقطبت الاهتمام شخصية أخرى لها وزنها في تاريخ التبشير والكنيسة والتمكين للإستعمار، هي القسيس شارل دوفوكو المولود بفرنسا في 15 سبتمبر 1858 م<sup>(1)</sup>. بعد أكبر مستكشف تبني -نصراني- للصحراء ومن أخطر المبشرين. « وخطورته تكمن في أنه عقلية علمية من الدرجة الأولى، وفي أنه يحمل في نفسه شحنة متقدة من الإيمان - برسالة فرنسا الحضارية للتصيرية، ويجد لذته في المتاعب، وفي التضحية بالراحة ومتع الحياة »<sup>(2)</sup>.

وفي ما قام به من تطوير للحركة البربرية وإنتاج لقواعد كتابة الأمازيغية.

بدأ حياته في اللهو والمجون رغم وفاة والديه في صغره، درس في مدينة سان سير<sup>3</sup> وأنهى دراسته ليتخرج ككاتب للفرسان ولكنه طابع للكتابة غلب عليه فعاد إلى المجون من جديد، ولما أعيته المشكلات وفشل في مواجهتها استقال يوم 20 مارس 1881 م وانزوى في مدينة "إيفيان" حزيناً كئيماً، وفجأة يتحول الشاب دوفوكو إلى الأب دوفوكو، ليقترح أفريقيا بكل مناطقها المحرمة من المغرب الأقصى إلى صحراء الجزائر...

في 10 جوان 1883 م يتكر دوفوكو في هيئة حاخام شرقي برفقة الدليل -اليهودي- ماردوشي فيدخلان المغرب الأقصى لإكتشاف مدينتها وطرقها، ويستمر دوفوكو في رحلته لإكتشاف عمق الأطلس الأعلى، وذلك بعد أن التقى قبلا (في أكتوبر 1880 م) بالأب هوفلي ليقدر في كنيسة القديس أوغسطين بداية مهام التبشير.

وفي جانفي 1890 م وبعد رحلة إلى المشرق يصل إلى بني عباس والجنوب الوهراني في 28 أكتوبر 1901 مرتدياً قندورة بيضاء مسيحية يتصدرها قلب أحمر كبير مغروس بصليب، ويبنى ديرا لإكرام عابري السبيل متظاهرا في هيئة الأخ العلمي الكوني .

1 - المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، من 1359، 1360.

2 - إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، من 113.

باسم المسيح الذي يحمل صليبه لينبئ أحوه قلب المنفس<sup>(1)</sup>.

اختار واحة بنى عباس ليتخذ مستقراً في مرتفع صحري، وكان يفد إليه ما لا يقل عن 100 زائر من البؤساء يومياً.

قطع خمسة آلاف كلم راجلاً في قصحراء ليصل إلى تيفاز بعد 10 أشهر ويأخذ في تعليم اللهجة التارقية. بعد موافقة موسى أغا أمستان - رئيس تنوارق - على إقامة دوفوكو بينهم<sup>(2)</sup>. وفي سنة 1905 استقر دوفوكو بتامراست وظل بها إلى عام 1916. ذلك أنه في أول سبتمبر أيفظه طرق على الباب، وما أن فتحه حتى اقتحمه أحد السنوسيين<sup>(3)</sup>. التنوار المجاهدين ليتخذ دوفوكو رهينة تصلح للتفاوض مع زعيم الهفار موسى أغامستان<sup>(4)</sup>. ويوقف بول مبارك خدام دوفوكو الذي اعتقه<sup>(5)</sup> بونصره، ولكن القلعة حوصرت. وعلى حين غرة تصل مفرزة للمهارش هوقع الإشتباك، وبين حالة الفزع والذعر، يطلق حارس الرهينة الرصاص خطأ فيسقط فوكو بطلقة واحدة صريعاً دون صراخ<sup>(6)</sup>.

مشربه (رجال فرنسا الذين تأثر بهم) :

لقد تأثر دوفوكو بمجموعة من العلماء والمفكرين ورجال الإكليروس الفرنسيين، كانوا قاعدته وقوته، كما سبق وتعاون مع معاصريه منهم. نذكر منهم ما يأتي:

1 - أرمنت رينان : أرمنت رينان ( 1823-1892م) أشهر من نار على علم، كان أستاذاً في « الكوليج دي فرانس » عالماً بالمساميات ومؤرخ أدبي. من أهم ما أنتجه: بحثه حول ابن رشد والرشدية (1855م). وما يهمنا منه هنا هو المحاضرة التي ألقاها في السربون في: 29 آذار سنة

1 - عبد القادر رزيق المخلصي، الأب شارل دي فوكو لو تبي في الهفار، فسروق الثقافي، (مجلة فسروق العربي)، 26 ماي 1994م، ع 44، ص 24.

2 - ولم يكن بدري لمذاجته أن دوفوكو حل بمنطقته ليقمها على طبق من ذهب لفرنسا كما سنين.

3 - وهذا يتوافق مع ما ذكرناه قبلاً عن عطمة الحركة السنوسية وإدراكها لمخططات الإستعمار والتبشير، وقد ذكرنا قبلاً كيف أفضت مخططات لاهجري، وهامي تترك أغراض دوفوكو لتتصيرية الإستعمارية فتقوم بواجبها الديني في حماية البلاد والعباد ورد كيد المعتدين.

4 - وهذا يعني أن أغامستان كان في صراع مع السنوسيين الذين أذكروا خيانتهم لدينه ووطنه، وفي هذا تظهر قدرة دوفوكو العجيبة، لقد استطاع أن يحول الحرب من صراع بين المسلمين المستعمرين والصلبيين المستعمرين إلى حرب بين المسلمين أنفسهم، وما على الفرنسيين سوى إمداد أغا أمستان بالمال والسلاح، وهو يقوم بالمهمة نيابة عنهم.

5 - هذا الخادم نليل على تطبيق دوفوكو لفظة لاهجري فيما يتعلق بالعمل على تعطيم النظام الإجتماعي الإسلامي تحت ستر الرق.

6 - عبد القادر رزيق المخلصي، المرجع السابق، ص 24، ورواية موثقة هنا تختلف مع ما سنذكره من بعد.



1883م بعنوان «الإسلامية والعلم»<sup>(1)</sup>. وقد نشرت في اليوم التالي في «صحيفة المناقشات» فأدت إلى المناظرة الشهيرة بينه وبين جمال الدين الأفغاني (1839-1897م) الذي كان يقيم آنذاك بباريس<sup>(2)</sup>.

ما ورد فيها بين لنا التصور السائد عن الإسلام في الأوساط الحامية الفرنسية في عهد دوفوكو، وملخصها: أن الإسلام هو سبب انحطاط الحضارة الإسلامية وسقوط دولها، فلم يأت الإسلام إلا بالضرر للعقل البشري والكمال الفكري، وسيادة العقيدة الإسلامية هو السلسلة الأثقل التي لم تحمل البشرية مثلها من قبل، ومفهوم الإيمان الإسلامي يتناقض مع فبحث العقلاني مما جعل العقيدة الإسلامية أعجز من تمثل الحضارة، وهو ما جعل المسلم يمتاز بحفذه على العلم واقتناعه بأن البحث العلمي زندقة مما جعل الإسلامية تتناقض الروح الطمعية<sup>(3)</sup>.

هذا التصور السلبي للإسلام والمسلمين كان عقيدة سائدة لدى الغربيين المتخصصين بالمسائل الشرقية الإسلامية في أواخر القرن 19 ومطلع القرن 20.

«فكان للكتاب المشاهير، ورجال السياسة والدين والأدب يعتنقون بدون تحفظ هذه الطروحات، وسندا إلى المراجع ذات السمة العلمية من نوع محاضرة رينان، حاول بعض الكتاب أن يبرروا عقيدتهم السياسية أو الاجتماعية الثقافية ذات الميول الاستعمارية، فقرروا: انحطاط الشعوب المستعمرة خلقيا - أي دينيا - حتى أسموها أيضا: الأعراق الساقطة أو المتخلفة، وأعلنوا شرعية وضعها تحت الوصاية الأوروبية، وضرورة تخليص هذه الشعوب من ثقافتها وتراثها الموسوم بـ «البربرية» وتحريرها بالرحم عنها من معتقداتها الدينية - الإسلام - باعتبارها عامل تأخير وموت<sup>(4)</sup>. هذا ما تبنّاه دوفوكو متأثرا برينان، وبشخصية أخرى لها نفس التصور أثرت فيه كثيرا هي:

2 - لافيجري: تعد آراء لافيجري ومواقفه تجاه الإسلام قذوة لدى دوفوكو، -ولا سيما أنهما كان متعاصرين، وقد عمل دوفوكو تحت قيادة الكاردينال لافيجري في الجزائر - وقد ذكرنا قبلا أن ما أورده رينان، هو رأي المفكرين الغربيين ورجال دينهم ومنهم لافيجري الذي تحدثنا عنه قبلا، وبيننا تصوره للإسلام والمسلمين وأطماعه في أراضيهم وقد ذكرنا أنه يعتبر الإسلام ظلمات بربرية وموت.

1 - نص هذه المحاضرة ورد في الأصل لكاملة لأرنست رينان، طبعة نهائية نشرت عليها منبريت بيكاراي باريس، كالمان ليفي، 1947، مجلد 1، ص 944-960، وقد أورد علي مراد مقتطفات مهمة جدا من تلك المحاضرة في كتابه: شارل دي فوكو في نظر الإسلام، ص 72، 73، 74.

2 - وقد لوردت مجلة المنار رد الأفغاني على رينان، وبينت مدار تلك المناظرة، وقد نعتن جمال الدين من إلهام رينان حتى عبر قائلا بعد ذلك: اعتقدت أنني أسام ابن سينا أو ابن رشد، (مولد فاسم، لتلفزيون الجزائر، جون 1990).

3 - علي مراد، شارل دي فوكو في نظر الإسلام، ص 71-73.

4 - لمرجع نفسه، ص 74، 75.

مما يحتم محوه ومحو واقعه ونجح الجزائر وإفريقيا التدريجي بالتبشير وتربية أطفال المسلمين ليتوصلوا إلى طلب للتصير إراديا. وهذا ما يتناهى بوغران في منهجه التبشيري كما سنذكر .  
- ولتحقيق هذا الهدف، فلا بد من البطر والقمع<sup>(1)</sup>، أي التخصير القسري، كل هذا النشر الحضارة والخلق المسيحي، وهذه المهمة نذر دوفوكو نفسه لها<sup>(2)</sup>.

ولأهمية الشخصيتين في التبشير والإستعمار، فإن دوفوكو حظي بتكليف<sup>(3)</sup>، لا تقل عما حظى به لافجيري، وأصبحت شخصيته مرادفة لشخصية لافجيري، لا تذكر إحداهما دون الأخرى، ولا سيما عند الحديث عن الصحراء وجنوبها الإفريقي، بل كل من تحدث عن التبشير في الجزائر وتاريخه ولاسيما في الاحتفال المنوي إلا ويذكر هاتين الشخصيتين مشيدا بأثرهما، لافرق بين أصحاب اليمين واليسار، المتدينين منهم والملحد<sup>(4)</sup> (5).

3 - هنري دوفيري ( H. DUVEYRIER ) : ولد في باريس سنة 1840م، درس بفرنسا ثم ألمانيا التي تأثر بمستشرقها ومستكشفها ونظم منهم اللغة العربية.

وفي سنة 1857م قام برحلة تمهيدية إلى الجزائر، ووصل إلى الأغواط والهضاب العليا والأوراس، ولما رجع إلى بلده نشر دراسة - في<sup>مجلة</sup> الجمعية الشرقية ببرلين - عن القبائل البربرية، تحتوي على ترجمة لبعض مفرداتها كان لها أثرها فيما بعد على صديقه شارل دوفوكو ويبدو أن هذا هو أول اهتمام نو صبغة علمية لدراسة البربرية - بعد دراسة دي بارادي التي أشرنا إليها أثناء حديثنا عن لافجيري - .

وفي هذه السنة (1857م) قبل في لندن للمستكشف الألماني هنري بارت (h barth) بناء على توصية من المستشرق الألماني فلايشر (أستاذ في اللغة العربية) ليستمر ا معا عدة أشهر وبعد وفاة بارت حولت أسرته إلى دوفيري جزءا مهما من وثائقه فجعلها قاعدته في رحلته الثانية التي أعد لها بالإطلاع على كثير من الكتب واستشارة خبراء المتخصصين في شؤون الصحراء، ودراسة الطبوغرافيا

- 1 - ولد بينا أثناء حديثنا عن لافجيري كيف بنى العنف للتصير والإستعمار، ومن أراد التوسع فليرجع إلى كاريبال لافجيري الجيش (مهمة فرنسا)، ص 5-7، (منش على مراد، المرجع السابق، ص 79، 80).
- 2 - علي مراد، المرجع السابق، ص 75-80.
- 3 - منها الكتاب المهم:

-Rene Bazin (de l'Academie Française) Charles de Foucauld Explorateur du Maroc

-E R Mite du Sahara Librairie plon Paris

وكذلك كتاب علي مراد، شارل دي فوكو ونظر الإسلام.

4 - وهذا عكس الملاحظة عندنا، فمنحيل أن يحترفوا بفضل شخصية دينية مهما بلغت من الفضل.

5 - المهدي البرههلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ص 1351.

والجغولوجيا وعلم الطبيعة وزيارة المتاحف ثم انصل برينس ليمده بمعلومات عن الإيثولوجيا والسلاات الصحراوية<sup>(1)</sup>.

وصل إلى مدينة الجزائر في سنة 1859م ليتجول في ربوعها، فحصل إلى عوداية ثم للقبعة التي كان أول من وطنها من الأوربيين رغم بعدها بأكثر من ألف كم عن الجزائر العاصمة وقد سجل بأن أهلها طردوه منها ففادها ليلًا في ظروف مشيئة كما سجل قرار تشعبية بتبعه فيها<sup>(2)</sup>. فاتجه في رحلة أخرى إلى جنوب قسنطينة وتونس بتكليف رسمي، بل يتدخل نابليون الثالث شخصيا لمساندته ومساعدته<sup>(3)</sup>. وقد وصل في رحلته إلى طرابلس -ليبيا- فساعدته ولبيها التركي ثم عاد إلى غدامس ليجد رسالة موجهة إليه من بعض كبار المسؤولين الفرنسيين يطمونه بأنهمك الإمبراطور نابليون III في إعداد كتاب عن الصحراء في العهد الروماني وبطلبون منه توفير الوثائق المتعلقة بالصحراء في ذلك الوقت - وهذا العمل يهدف حسب تصورنا إلى شيئين أساسيين أحدهما معرفة ما يتعلق بالصحراء طبيعة وسكانها، والثانيها ما ذكرناه قبلًا وهو العمل على تقسيم المجتمع وإقناعهم بأصلهم الروماني الغلي. وهو ماجعل دوفيري يعمل بجد لتلبية طلب الإمبراطور، فنصه منحة حكومية سنة 1861م تقدر بـ 2000 فرنك لإتمام عمله ورحلته<sup>(4)</sup>.

وما نركز عليه هنا: رحلته إلى بلاد الطوارق، فكان يقوم بأبحاث مستبضة في كل مكان مر به عن السكان، ولتحديد موقعه الجغرافي وللتعرف على النباتات والمعادن التي تصادفه<sup>(5)</sup>.

وإذا كان بلرث قد وصل إلى طوارق أير والنجير (طوارق الجنوب) فإن دوفيري اتجه إلى طوارق الطاسيلي (طوارق الشمال) لتماعه شخصيتان كبيرتان من طوارقه، هما إمينوكال، إخنوكن والشيخ عثمان مما جعله يندمج في الطوارق ويفرض في أعماقهم فكان يحضر إجتماعاتهم، وتعلم لغة تهاشق وحروفها الهجائية (تيفناغ) التي كان يجهلها أغلب الطوارق - لأن اللغة العربية كانت هي المنتشرة وسطهم -.

وهنا نذكر بأن دوفيري كان صديقًا حميمًا لدوفوكو وهو الذي قدم إلى الجمعية الجغرافية ما توصل إليه دوفوكو من نتائج عن رحلته في صحراء المغرب الأقصى بل هو الذي وضع التقرير الذي منحت هذه الجمعية دوفوكو على أساسه ميدالية ذهبية، ونعتقد أنه هو الذي علم دوفوكو التيفيناغ مما جعله يواصل مشوار دوفيري ويؤلف المؤلفات التي سنذكرها. ولا أدل على صحة هذا من أنهما عندما

1 - وهو الذي تدخل شخصيا لأعطائه من التجنيد في سنة 1871م، وهذا دليل على أهمية رجال الاستكشاف بالنسبة للإستعمار، وعلى التعاون بين المستشرقين والمستكشفين ورجال الدولة لتحقيق نفس الغرض (إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 82...97).

2 - هذا الموقف من دوفيري هو موقف سكان الصحراء من كثير من الرحالة الغربيين لأنهم تركوا هدفهم التبشيري الإستعماري.

3 - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 84، 85.

4 - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 85، 86.

5 - المرجع نفسه، ص 85، 86.

كان) يجتمعان فإن الحديث بينهما لم يكن يدور إلا على الطوارق، وعلى تحديد نور كل منهما في استكشاف صحرائهم<sup>(1)</sup>.

- كان دوفيري بلازم لقبيلة التي أوتته في تغلها وترحلتها ويدون ملاحظته فأقام سنة كاملة بين طوارق الطاسيلي وذلك ليتمكن من دراستهم ودراسة منطقتهم دراسة دقيقة بعيد بنده. وقد تمكن من ذلك، فظهرت دراسته للطوارق طاسيليهم وهفاريهم في كتابه المهم 'les Touarg du Nord' الذي أصبح من الوثائق الأساسية في دراستهم. فهو عبارة عن دراسة شاملة لمنطقة الطوارق الشمالية وتتضمن الجغرافيا الطبيعية وطبقات الأرض والأحواض الجوية وموارد المياه، كما تشمل ملاحظات تتعلق بالحيوانات والنباتات وأحوال المعيشة والطقوس الدينية وأخلاق الطوارق وعاداتهم وتقاليدهم وأصلهم، وكل ذلك بتفصيل ودقة، والمعلومات التي قدمها لا تتناول طوارق الشمال فقط، بل أيضا طوارق الجنوب مثل الهقار<sup>(2)</sup>.

وقد ألف كتابا آخر ضخما عن الطرق الصوفية، وهو يستفيد منه أيضا دوفوكو، وذلك قبل أن يموت منتحرا في سنة 1892 م نتيجة لإتهام عصبي<sup>(3)</sup>.

وخلاصة حديثنا عن دوفيري، أن دوفوكو كان يهندي بمعلم الاستكشاف التي وضعها دوفيري، وأنه أصبح مرشدا للرحلة الغربيين من بعده، وأنه كان ذا علاقة حميمة بـ :  
- لليهود المحليين وهم الذين سهلوا عائق الإتصال بينه وبين السكان بسبب الاختلاف اللغوي، ولإمداده وإمداد غيره من النصارى بالمعلومات الدقيقة عن المسلمين الذين يمشون معهم، ولا أدل على هذا من أن الليل الذي اتخذه دوفيري هو نفسه الذي إتخذه دوفوكو ليلته. وهو لليهودي مرانشي.

- للمستكشفون السابقون، ومنهم الألماني بارث.

- القساوسة ومنهم لافيجري.

- المستشرقون، ومن أهمهم رينان.

- والواقع أن هذه الأصناف تعطينا فكرة عن الأخطبوط الذي كانت له أذرع كثيرة تلتوي حول الجسم الجزائري كل ذراع يمزق طرفا، وكل الأذرع تتطلق من جسم واحد هو فرنسا لتمزق جسما آخر هو الجزائر.

4 - لويس ماسينيون (L. Massignon) : ولد بشمالي باريس في 1883/07/25 م من أب

نحات، درس الثانوية في ثانوية لويس الأكبر (Louis le Grand) في باريس، أبدى منذ صغره اهتماما كبيرا بالشرق ولغاته، وبعد الثانوية درس الأدب الفرنسي والتاريخ وعلم الآثار وتعلم اللغة المنسكربتية، وبعد حصوله على الليسانس في سنة 1902 م تطوع في الخدمة العسكرية وسكن

1 - المرجع نفسه، ص 113.

2 - المرجع نفسه، ص 87، 86.

3 - المرجع نفسه، ص 89، 88.

في حجرة واحدة مع اليهودي المنحتمس جان ريتشارد بلوك (Jean Richard Bloek) ثم سافر في أفريل 1904 م إلى المغرب ثم واصل الدراسات العليا ليدرس التاريخ والجغرافيا المعاربية والنصوق الإسلامي ويتجول في أقطار العالم الإسلامي ويدرس علم الاجتماع الإسلامي واللغة العربية الفصحى واللهجات العامية، ويتعرف على كبار المستشرقين مثل اليهودي المحري جونز ريهير (1850-1921 م) ويتأثر به، كما تعرف على الأب لويس شيخو اللبناني<sup>(1)</sup>، كما ربطته في مس تشرف صداقة صديقة دوفوكو<sup>(2)</sup>. وقد أرسل له نسخة من كتابه «ليون الإفريقي وجغرافية المغرب» أي إلى صديقه الحميم هذا -دوفوكو- وذلك بعد أن تم تعيينه في أكتوبر 1906م عضواً في معهد الآثار الشرقية في القاهرة، فوعد دوفوكو، ماسينيون، بأنه سيصلي من أجله قائلاً: «إبني أقدم إلى الله نيابة عنك بصلواتي أهي المتواضعة للثقافة سانلا إياه أن يباركك ويبارك لك في عملك وفي حياتك جميعها..» ويعترف ماسينيون بأنه سارع إلى قبول هذه الصلاة من ناسك منقطع يعيش في فقر مدقع<sup>(3)</sup>.

ويهمنا هنا شئ مهم ذكره ماسينيون خلفاً لتعليقه على صلاة دوفوكو له وهو بمصر، حيث يقول: «... ففي مصر كان مفترضاً أن تكون مهمتي الأساسية هي التنقيب عن الآثار غير أنني كنت كثيراً ما ارتدي ملابس الفلاحين وألقي بنفسي في خصم حياتهم... هؤلاء الناس الذين لا شريعة أو قانون لهم...» (يعني همج) ثم يذكر ما هو أهم من هذا فيقول: «... كم كانت تصلوني رغبة ملحة في أن أفهم الإسلام وأن أفهمه<sup>(4)</sup>، مهما كان الثمن<sup>(5)</sup>. وهذا ما تمثله بنصه شارل دوفوكو كما سنرى.

ونضيف إلى هذا قضية أخرى في منتهى الخطورة تبناها ماسينيون وسخر دوفوكو جزءاً كبيراً جداً من حياته لها، هي القضية البربرية، وقد عمل على استئراج مالك بن نبي ليسخره لخدمتها، ولما رفض وقلوب أصدر ماسينيون تعليمات إلى حاكم تبسة بطرد والد مالك بن نبي من وظيفته وأشعروه أن ابنه هو الوحيد الذي يمكنه إرجاع الوالد إلى الوظيفة إذا طلب من ماسينيون ذلك. وبعد اتصال مالك بن نبي به عرض عليه الأمر من جديد مقابل إرجاع الوالد إلى الوظيفة فكان الرفض، وكان الطرد النهائي للأب<sup>(6)</sup>. ونشير إلى قضية أخرى نختم بها حديثنا عن ماسينيون هي أنه كان ضابطاً مستشاراً بوزارة الخارجية الفرنسية يخطط لبلده لنتمكن من استئمارنا، حيث ألحق بوزارة الخارجية الفرنسية كضابط

1 - يوليو باسيتي ساني، لويس ماسينيون المدارس المسيحية للإسلام، ترجمة سحران السويح، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، 1987م، ع 4، ص 440-442.

2 - أليكسي جورالسكي، الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد، مراجعة وتقديم محمود حمدي زقزوق سلسلة عالم المعرفة، 215 بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1996، ص 118.

3 - يوليو باسيتي ساني، المرجع السابق، ص 440-442.

4 - إنه الحدف للفن على الإسلام، أي طينا، ونحن نتعامل هنا: لأن هي الموضوعية والزمالة لطمية التي يشهدون بها؟ إنه يتصرف مع الإسلام والمسلمين وفقاً لأنكاره المسبقة، فالكيسة هي التي تحدد أهدافه وتحركه وترسم له المستقبل وتخطط له.

5 - يوليو باسيتي ساني، المرجع السابق، ص 442، 443.

6 - وسنعود لهذه القضية أثناء حديثنا عن نشأة القضية البربرية.

مساعد في المفوضية الفرنسية العليا في سوريا وفضطين وجرهما في الفترة 1917-1919م. ورفى إلى رتبة نقيب ودعى للمساهمة في المهمة الفرنسية البريطانية، مهمة سافيرس بيكر<sup>(1)</sup>. وهو في هذا يشترك مع دوفوكو الذي كان كذلك صانعا عسكريا كما سنذكر. وقد طُل في خدمة الاستعمار والتصوير إلى وفاته في سنة 1962م.

## الفصل الثاني

### الأدوار التي قام بها دوفوكو

لقد قام بعدة أدوار متكاملة تتمثل فيما يأتي:

لولا : الإشتغال بالجوسسة والإستكشاف للتمكن للإستعمار (رحلاته):

- رحلته إلى المغرب وعودته إلى الجزائر :

ما أن وصل دوفوكو إلى الجزائر العاصمة حتى اتصل بمحافظ المكتبة الوطنية المستشرق الشهير ماك كارتي (Mac Carty) ليفيده في المشروع الذي كلف به، وهو الذهاب إلى المغرب بغرض الجوسسة وتصوير خريطة جديدة للمنطقة لأن الخريطة التي رسمها الجغرافيون قبله لم تتجاوز 689 كلم<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن ماك كارتي كلف دوفوكو بهذه المهمة بعد أن أدرك شغفه بهذا العمل، ذلك أن دوفوكو أدرك ميكرارغبة فرنسا في احتلال المغرب فأخذ يصور الشمال الإفريقي بصورة طائر، جذعه الجزائر، وجناحه الأيمن في تونس والأيسر في المغرب، وظل يلح في احتلالهما قائلا: « لا يمكن للطير الفرنسي أن يبقى بدون جناحيه فقرر البدء بالمغرب وأخذ يبحث عن الوسائل التي تمكن من احتلاله<sup>(3)</sup>. مما جعله يمكث حولا كاملا بمدينة الجزائر من آذار 1882م إلى حزيران 1883م ليعود لرحلته الطويلة إلى مراکش، ومن وسائل الإعداد، دراسته للغة العربية واليهودية<sup>(4)</sup> بالمكتبة الوطنية بالجزائر، وبعبارة أخرى ظل حولا كاملا يتردد على المكتبة الوطنية للدراسة والتخطيط مع المستشرق ماك كارتي الذي اختار له التقمص باليهودية فكلف الرببي حاييم مردوخاي أبي سرور Haim Mardokhai Sourour ليهوده ففعل ففعل به على اللباس واللهجة والعادات ورافقه إلى المغرب ليليا، وقد ذكرنا قبل أن هذا اليهودي (أبي سرور) هو نفسه الذي اتخذ دوفوكو يبي ليليه.

1- أليكسي جورا فسكي الإسلام والمسيحية، ترجمة خلف محمد الجراد. هامش ص 122 (لمترجم).

2- لمهدي لبوعبدلي، آثار التنشيط المسيحي في الجزائر، ص 1359، 1360.

3- هلال قفاسي، نشاط التبشير ودوره الإستعماري الفخري بالأمس واليوم وما يجب القيام به ليزاء هذا العمل لملط، الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي. تري وزو، 1973م، ص 3، 1104.

4 - علي مراد، المرجع السابق، ص 68.

ولما كان دوفوريبي صديقاً لدوفوكو من تطبيعي أن يكون هو الذي أشار على ملك كارتي ودوفوكو معا باختبار هذا اللبيل الذي نعلم بدوفوكو حولا كاملا في المغرب، من سنة 1883 إلى 1884 م. تمكن خلالها أن يصور 2250 كلم. وسبب تنكره في زي يهودي أن المغرب لم يكن بها يومذاك سوى للمسلمين واليهود المغاربة<sup>(1)</sup>، ومسلموه لم يكونوا يطمئنون لمن دخل في الإسلام حديثا من النصراري، ثم إنه لما كان اليهود يمانون هناك معاملة حسنة فقد احتار دوفوكو أن يتدثر بدثارهم التقليدية ولا سيما أنهم إضافة لما سبق كانوا يعرفون أوضاع قبلاذ السياسية والاجتماعية والثقافية، بل وحتى نفسية السكان معرفة جيدة مما جعل مساعدتهم له في فهم الطبيعة الجغرافية والفلكية ونفسيات السكان والعوامل التي تتحكم فيهم ذات أهمية قصوى بالنسبة إلى عمله. كما أن الجلباب الذي يرتديه اليهودي في الصلاة يمكن من إخفاء الآلات الهندسية التي كان دوفوكو يحملها<sup>(2)</sup>. وهي الآلات لمعرفة الطريق والتقويم (بوصلة، ساعة، باروميتر جيب دفتر تسجيل، وبداخله لفة فيلم)<sup>(3)</sup>.

وفي المساء كان دوفوكو يقوم بالملاحظات الفلكية، وفي الليل يتم ما حصل عليه في النهار من معلومات، وقد كشف دوفوكو طريقة عمله في الجمعية الجغرافية بباريس<sup>(4)</sup>، سنة 1887 م فقال: « إنني أتجول معظم أوقاتي في بلاد المسيية، فقد ظهرت منذ خروجي من طنجة بمظهر لليهودي، فلباسي لباس اليهود المغاربة، وديانتني ديانتهم، منسما باسم الرابي يوسف، أصلي وأغني في البيعة، فإذا سئلت عن مولدي أجبت تارة ببيت المقدس، وأخرى في موسكو، وأحيانا في الجزائر، وإن سألتني عن سبب سفري أجبت المسلمين بأنني ربي سائح يسعى من مدينة إلى أخرى، أما اليهود فأجيبهم بأنني مؤمن صادق اخترت مشقة السفر إلى هذه الجهات للبحث عن حالة إخواني في الدين، أما الآلات التي كنت أحملها فهي: البوصلة، وساعة، وباروميتر جيب لمعرفة الطريق، وآلات أخرى أستعملها في الملاحظات والتقويمات. ومعني أثناء السير دائما دفتر لا يتجاوز خمسة سنتيمترات مربعة في داخله قلم من سنتيمترين أكتب ما تقدمه إلي الطريق مما يستحق التسجيل، وهكذا أكتب تقريبا حالة الطرق، وكل الأرتاب في الناحية الغربية، وقد رافقتي الرببي مردوخ اليهودي الحقيقي الذي يبقى مشغولا في درج منزلي في المدن التي أسكن بها أحيانا لمنع كل من يريد الوصول إلي<sup>(5)</sup>. وهكذا كان الرببي اليهودي دليله في كل تنقلاته، وحاجبه يكف الناس عنه<sup>(6)</sup>.

1 - لمهدي ابو عبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر، ص 1351.

2 - علك الفارسي، المرجع السابق، ص 1104.

3 - بلقاسم الحناشي، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى، ص 86.

4 - وقد اعتبرت الجمعية الجغرافية بباريس أن أعمال دوفوكو من أجل الخدمات، (بلقاسم الحناشي، المرجع السابق، ص 86).

5 - علك الفارسي، المرجع السابق، ص 1104، 1105.

6 - بلقاسم الحناشي، المرجع السابق، ص 86.

بالوسائل التقنية المسبقة والتمسك في زي يهودي متحول ومعونة الربى المغربي مردوخ وبتوصيات من أكابر اليهود الذين كانوا يعرفون مراده ويتألمون معه وإعانة بعض شيوخ الطرق الصوفية الخونة، أو الغفلة بعصلاء الإستعمار تمكن دوفوكو من تحقيق أهدافه المتمثلة في تخطيط طرق الصحراء والمغرب، وتعيين مراكزه الهامة ومواقعه الإستراتيجية.

وبعد إكمال مهمته في المغرب رجع<sup>(1)</sup>، ليكرمه للمعهد الجغرافي بباريس<sup>(2)</sup> بعد أن تمكن من رسم دليل 12,200 كلم منذ بدأ رحلته في 20 جوان 1883 م. هذه الرحلة التي بدأ بها الرحالة السابقين بما ذكرناه قبلاً، وبما سجله من ملاحظات مهمة تتعلق بالسكان من بربر وزنوج وصحراويين ناطقين بالبربرية.

وقد دخل أرض الجزائر في 31 ماي 1884 م. بعد أن شق المغرب من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي فال جزاء لذلك وسام التقدير الأكبر<sup>(3)</sup>. وبعد أن بلغ كل، ما توصل إليه لمخبرات بلاده<sup>(4)</sup>، أمضى صيف 1884م بباريس<sup>(5)</sup> ليدون مذكراته عن هذه الرحلة، التي كان ما جمعه فيها من معلومات دقيقة وكثيرة دليلاً فيما ومونوقا به للجيش الفرنسي<sup>(6)</sup>. الذي اعتمدها في إغتراق الصحراء الجزائرية وغزو المغرب في سنة 1911م<sup>(7)</sup>.

#### منهجه في الرحلة :

لخص دوفوكو في تصدير كتابه (Reconnaissance au Maroc) منهجه في رحلته لاكتشاف المغرب

فيما يأتي:

- 1 - الاهتمام بالمناطق المجهولة التي لم يدخلها أسلافه، وهو ما بين التكامل بين رواد الإستكشاف.
- 2 - التكرار استجابة لتجارب السابقين، وذلك لأن أغلب رواد الإستكشاف فشلوا بسبب إدراك السكان لأغراضهم الإستعمارية.

1 - علال الفاسي، المرجع السابق، ص 1105.

2 - لمهدي فبرعيلي، آثار لتبشير المسيحي في الجزائر، ص 1351.

3 - Rapport fait à la Société de Géographie de Paris dans la Séance Générale du 24 Avril 1885, par M. Henri Duveyrier sur le Voyage de M le Vicomte Charles de Foucauld du Maroc.

والترتيب منشور في :

-Reconnaissance au Maroc (1883-1884) par le Vicomte ch de Foucauld Challamet et cie Librairie Coloniale, Paris 1888.

نقلا عن : الحاشي المرجع السابق، ص 92.

4 - بلقاسم الحاشي، المرجع السابق، ص 86.

5 - علي مراد، المرجع السابق، ص 68.

6 - إسماعيل العربي، صحراء الكبرى وشواطئها، ص 112.

7 - حمسي شرايطية، شلول دي فوكو، وجهان لسلة ولعدة، الشرق الثقافي، (مجلة الشرق العربي)، الجزائر، 26

ماي 1994، ص 44، ص 5.



3 - اليهود والتظاهر بالشيخوخة إلى حد تقمص شخصية يهودي المنسول، وذلك لأن اليهود كان الناس معتادين رؤيتهم ولأنهم كانوا محظوظين إجتماعيا بسبب حملة الإسلام لهم، ولأنهم كانوا يعرفون جيدا الأوضاع الثقافية والاجتماعية للبلاد ويعرفون جغرافيتها ومناخها، ولما كان اليهود أشد عداوة للإسلام فإنهم عاونوا الفصاري في الاستعمار والتعسير وبذلك فإن اليهودية التي تحرم على أتباعها النظر في الصليب ولو مصورا أيدت تصوير المسلمين.

4 - الإعتماد على مساعدة اليهودي أبي سرور، وهو ما يصنف ضمن مآثر أفا.

5 - ملازمة العزلة، وإن تعذرت افتعل خرافات خالية -الكذب- أوقام معرض آلات الخ.

6 - الإطمئنان لأهل المخزن وتجنب أهل السببة بسبب نكرانهم للغربيين.

وفي إطار تحديد المنهج حدد دوفوكو نوابه وكشفها في مقدمة مؤلفه السابق نكرة قائلا :

« المسافر <sup>الغربي</sup> لا يمكن أن يكون إلا عينا ليتعرف إلى بلادهم، وبدراسة المحيط يهين الغزو

فهو جاسوس... وخشية الغازي أشد من كراهية المسيحي »<sup>(1)</sup>.

وهكذا اعترف هذا القسيس بأنه كذاب، وبأنه جاسوس، وبأنه يهين المنطقة للإستعمار وللسنا

ندري لماذا نسي أن لله محبة، وأن النصرانية دين السلم لا دين الحرب.

وهكذا تعرف على مراكش، ثم عاد لينطلق في رحلة أخرى طويلة لإكتشاف العلم

العربي، كانت هذه الرحلة عبر الجزائر وتونس من طياراة إلى قصبة (أيلول 1885 - كانون ثاني

1886) ومن شباط 1886 إلى كانون الأول 1888م إقامته في باريس ورحلات إلى الريف<sup>(2)</sup>.

وكحاج إلى الأراضي المقدسة (القدس) (1888-1889م) وسوريا (1890-1896) وفي

الناصره وفي القدس (1897-1900) وأخيرا في الصحراء الجزائرية (1901-1916م) تعرف خلال

هذه الرحلة على كل هذه المناطق. وعرف الإسلام. كما عرف مظاهر التقوى الجماعية فيه المتمثلة في

الصلاة الجماعية في العراء. فتأثر بذلك حسب شهادة إميل فليكس غوتية الذي عرفه في بني

عباس، وكذلك صديقه الجنرال نيجر الذي ذكر عنه في محاضرة ما يأتي :

« مما لا شك فيه، هو أن حياة فوكو عند عودته من مراكش قد اختلفت عن حياته التي عاشها

كضابط شاب، إن الأشهر الطويلة من العزلة الأخلاقية بين المسلمين التي كانت تصرفاتهم مستسلمة

لإرادة الله ومشيئته أرجسته إلى فكرة المطلق، إلى الصوفية الدينية، إن هذه النقطة لم تعد مما يشك به

اليوم »<sup>(3)</sup>.

1 - بلقاسم الضائش، المرجع السابق، ص 86، 93. أيضا: لمهدي أبو عيسى، أثر التبشير المسيحي في

الجزائر ص 1360.

2 - علي مراد، المرجع السابق، ص 68.

3 - هذه الفترة مقطوعة من محاضر الجنرال بنحر، نشرت في مجلة البناء (Construire)، باريس جـ

13 ص 185، 186، عن علي مراد. المرجع السابق ص 66.

وقد أوشك دوفوكو أن يعتنق الإسلام بسبب شدة تأثره به، وذلك منذ : جوعه من إفريقيا الشمالية (1886-1888م)، ولكن الأب هوَ مَنْ تمكن أن يرد دوفوكو عن ذلك، ويجعل منه راهبا بسرعة<sup>(1)</sup>.

ونحن نعتقد غير هذا، ذلك أنه منذ استقراره بلبن عباس، ثم وصوله إلى تلمسان وهو يفهم أساسا بالجوهرية والاتصال بالعائلات والزوايا ومعرفة الذين هم مستعدون للتعاون مع فرنسا لإستعمار المنطقة، أي البحث عن نوي الإستعدادات النفسية للعماله لفرنسا<sup>(2)</sup>.

1 - بيل فليكس غوتية "جزائريان" (المعلم الإلهي بيل موباس والأب- دي فوكو) لي: Pevue de Paris

للأول تشرين الأول 1919، ص 291 من طي مراد المرجع السابق، ص 66.

2 - بوضران الشيخ من حول معه في فندق باتوراميك، بقسنطينة بحضور عبد اللطيف عبادة وبشير كرونوسي ومغلي

بشير 93/04/27. من الساعة 10-11.30.

## ثانيا : دوره العسكري :

ذكرنا قبل أن دوفوكو بدأ حياته العملية صابطا، ويذكر هنا أنه أعيد تجديده ليلتحق برفاقه التقدمي بفرقة القنصاة العربية بالجنوب الوهراسي لمواجهة تشيخ بوعمامة<sup>(1)</sup>، ابتداء من أيار 1881م ليستمر في قتل الجزائريين 8 أشهر كاملة، أي طينة المدة التي استمر فيها الحملة<sup>(2)</sup>. وبعد طول ترحال عاد إلى الجزائر ليقتضي الخمسة عشر سنة الأخيرة من حياته في صحرائها مهمة نثر نفسه لها تتخلص في: التنصير والإستعمار.

وفيما يتعلق بالإستعمار فإن أهم ما كل يسمى إليه دوفوكو هو إكمال السيطرة الإستعمارية الفرنسية على الجزائر<sup>(3)</sup>. مما جعله يتصرف في كثير من المناسبات كصابط فرنسي مسؤول على مصلحة فرنسا ولكن تحقيق هذه المصلحة بفضل دوفوكو أن تكون في صورة تحييب للناس في النصرانية لأن ذلك أكثر جدوى حيث يؤدي إلى فائدة مزدوجة نقل الأهالي للإستعمار طواعية بترسيخ النصرانية. وقد وجد هذا مجسدا في رفيقه القديم في القنصاة الإفريقية الجنرال هنري لابرين، القائد الأعلى للوحدات الصحراوية منذ حزيران 1901م. وهو ما بينه بارون (Bazin) في رسالة كل من لابرين وفوكو كانت واحدة... فكلاهما من نفس النوع، فرنسية جدا ومسيحية جدا<sup>(4)</sup>.

والواقع أن دوفوكو إضافة لعلاقته الحميمة بلابرين وتعاونهما معا فإنه كان ذا علاقات حميمة أيضا مع غيره من المسؤولين العسكريين بل كان له الدور الأكبر في إكمال الإحتلال للمناطق الواسعة بين شمال إفريقيا والمناطق المتاخمة للصحراء. فسقطت فيما بين 1902 و 1914م ثلاثة مناطق بين يدي لابرين من أصل 6 مناطق طوارقية وهي (الطينوق "أخنة" منتصف 1902م و عفار (أدرار الشرق) كانوا أول 1903م والحجر (الهلقال) كانون الثاني 1904م وكان هذا التقسم أهم الأقسام وأشدها في الحرب<sup>(5)</sup>.

1 - ولد الشيخ بوعمامة في لفضيغ داخل الحدود المغربية من عائلة أولاد سيدي تشيخ - الجزائرية - وأعد ليكون مرابطا وكان، وأصل الجهاد الذي أعلنه أولاد سيدي تشيخ منذ 1864م بقيادة المرابطين القديريين سي سليمان وعمه سي الأعلى. بدأ بمهاجمة المرکز الفرنسية وفي 19 أبريل 1881م تمكن من هزيمة وقتل القائد الفرنسي ويشير بنز فأوقد نجاحه نار الأمل في تحرير الجزائر، فاستكت ثورته إلى وهران ومنطقة الصحراء والهلقال أحرز نجاحا باهرا. واستمرت ثورته وحده أكثر من 20 سنة (1881-1904م) أي أطول مدة في تاريخ الثورات الجزائرية مما جعل بعض لكاتب يسميه عبد القادر الثاني واستمرت بذلك ثورة أولاد سيدي تشيخ من عام 1864م إلى 1904م وقد ناضل وجاهد الشيخ بوعمامة أثناء كل هذا العهد الطويل بشجاعة وحسنة وثبات، توفي في 7 أكتوبر 1908م في دائرة واحدة، (أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1900-1930م. ط3ش. مونت. الجزائر، 1983م، ج 2، ص55-57 و هلمش ص57).

2 - علي مراد، المرجع السابق، ص63.

3 - علي شريطية، المرجع السابق، ص5.

4 - Rene Bazin Charles de Foucauld Explorateur du Maroc... p84.

5 - علي مراد، المرجع السابق، ص85.

كل هذا بفضل دوفوكو، فهو الذي اكتشف الطرق الموصلة إلى المنطقة، وهو الذي اكتشف طبيعة السكان، وهو الذي كان يرشد لابرين ويوجهه ويعمل على محو آثار البطش والتنمير الذي يرتكبه وقد بين في كتاباته الروحية ومراسلاته شدة شغفه بالمساهمة لإحلال السلم -الاستسلام- فيما استعمر حديثاً لتمهيد السبيل فيها لنشر الحضارة الفرنسية<sup>(1)</sup>.

أي أن الجيش يدمر ويهلك الحرث والنمل ولما يتمكن يأتي دوفوكو الذي هو نفسه قد قدم مخططات التدمير والاستيلاء ليذرف دموع التماسيح أمام الأهالي فيمحو آثار ذلك بتحبيب الأهالي في الاستعمار وتبويض وجهه وتخدير الأهالي مما يضمن عدم ثورتهم في المستقبل وبذلك يوفر الأمن والاستقرار للظلم، أي بدل أن يدعو إلى رفع الظلم وإنصاف المظلوم وهو الذي يزعم أن يسوع أتى لمحاربة الظلم والقضاء عليه فإنه يعمل بلاهوادة على إقناع المظلوم بأن ما حل به عدل وحضارة، وأن ذلك لصالحه. ويظهر هنا تأثيره بلافيجيري كما ذكرنا قبلاً.

والواقع أن هذه المهمة من أخطر ما يكون لأنها هي التي تضمن لفرنسا عدم انتفاضة الأهالي وبقائها إلى الأبد، ولقد استطاع دوفوكو بدهانه وخبثه ومكره أن يقنع زعيم الطوارق أغالمستان بالاستسلام لفرنسا مما جعل جيش الإحتلال كما سنشير يأخذ أراضي واسعة في الهقار وتمنراست دون أن يخسر جندياً واحداً، حيث سلمها له أغالمستان على طبق من ذهب. وهكذا يظهر بجلاء الدرر العسكري لدوفوكو، هذا الدرر الذي جعله كثير التقل، ولكنه كان يبدي أن تلك لأغراض دينية مخفياً أغراضه العسكرية فيقول: « عندي ديران، يبعد أحدهما عن الآخر 1500 كلم، إني أمضي 3 أشهر في دير الشمال و6 أشهر في دير الجنوب وأمضي 3 أشهر في الطريق ذاهباً أيما كل سنة »<sup>(2)</sup>.

ولقد كان تنقله يتم أحياناً برفقة طوابير عسكرية كما كان على إتصال مستمر بالقيادة العسكرية في الصحراء سواء مباشرة أو مراسلة، وكان يطلع بانتظام على سير الأحداث على التخوم الجزائرية الليبية (1915-1916م) ليخبر بها في لحظتها الجنرال لابرين، ولا أدل على هذا من أنه أرسل له 41 رسالة خلال سنتين يخبره فيها بأحداث الصحراء. فكان يقوم بمهمة الإستطلاع<sup>(3)</sup>، (الجوسسة) ولا سيما بعد تراجع الإيطاليين إلى الداخل في طرابلس الغرب خلال الحرب العالمية الأولى فاستغل السنوسيون تلك الفرصة لمواصلة الجهاد ضد المحتلين الذين من بينهم الفرنسيون المستقرون في بلاد الطوارق المجاورة لطرابلس.

حينئذ خرج دوفوكو جهاراً نهاراً من جلده الروحاني الذي كان يتقنع به ليصبح الجاسوس الذي يلتقط الأخبار وينقلها للمخابرات الفرنسية وإزاء ذلك هجم المجاهدون واعتقلوه وبعد نهاية معركة بينهم وبين الضباط الفرنسيين أطلق طرفي رصاصة في رأس دوفوكو فقتل<sup>(4)</sup>. وذلك بتمنراست في أول

1 - المرجع نفسه، ص 85.

2 - كتابات روحانية، ص 258 عن علي مراد، المرجع السابق، ص 93.

3 - علي مراد، المرجع السابق، ص 93.

4 - حلال القاسي، نشاط التبشير ونوره الإستعماري، ص 1105.

كانون الأول 1916م، وعندما قتل اكتشف مستودع للأسلحة في بيته، وهنا تطرح السؤال الآتي:  
ماذا يفعل بمستودع للأسلحة في بيته وهو يزعم له رجل دين لا حرب، وأن الله محبة، وأن  
النصرانية دين المحبة لا السيف؟ وهل قتل لما ذكرناه قبلاً؟

لقد اختلفت الروايات في سبب وجود المخزن وفي سبب قتله، فطبي مراد مثلاً برر وجود  
المخزن بأنه من أجل الدفاع عن بيته المحصنة التي أتم بناءها في تشرين الأول 1916م وأن قتله  
لصوص رغبوا في الحصول على الأموال التي كانت عنده، ويستدل بأن التقرير الرسمي (في 11 الأول  
1917م) الذي قدمه النقيب دي بوميه أشار إلى الجائبة التي أحدثها وجود مستودع الأسلحة والخزائن  
عند دوفوكو. مما جعله يطرح السؤال:  
<<هل كان أغتيل لو لم يكن لديه أي سلاح >> (1).

ولكن تبرير علي مراد لم يقنعنا، والجواب في محتواه، فهو يذكر أن البيعة محصنة، فلماذا  
تحتاج إلى السلاح لحمايتها؟  
ولو فرضنا احتياج حمايتها إلى السلاح فإنه يكفي اتخاذ بندقية أو اثنتين للحراسة لا أن يتخذ  
مخزناً كاملاً يتكون من عدد كبير من البنادق والمدافع والقنابل والذخيرة اللازمة إلخ.

والواقع أن السلاح لم يكن لحماية بيته وأن قتله ليس بسبب ذلك السلاح، وإلا كان يمكن سرقة  
السلاح دون قتله، وإنما قتل لأنه ضابط في الجيش، وجاسوس، وأحد المنظرين للإستعمار، عمل ما  
عمل للتمكين له من جهة، وتصوير المنطقة من جهة أخرى، وهنا نميل إلى أن الطوارق السنوسيين  
أدركوا ما عمل، وما يخطط له فقتلوه، وهذا يتفق تماماً مع ما ذكرناه في الأوضاع الثقافية عن الحركة  
السنوسية وكذا أثناء حديثنا عن لافيغري بأنها كانت حركة بقضة أدركت ما يخطط له الغرب، وقامت  
بواجبها الحضاري، بل وحتى الغريزي في مواجهة ذلك، وقد أدركت ما يقوم به دوفوكو من تدميرها  
وتكريس الهيمنة الصليبية على بلدان المسلمين، فقامت بحق دفاع شرعي يتمثل في إراحة الصحراء  
الجزائرية منه.

وخلاصة حديثنا عن دوره العسكري نقول: إنه كان يتدخل في الشؤون الإدارية ويقوم بمراقبة  
المناطق الصحراوية كما لو كان يحس أنه مسؤول شخصياً عن كل ما يجري فيها باسم فرنسا، وعمل  
بلا هوادة لتلطيف نظام الاستيلاء في الأراضي المحكومة عسكرياً.

وكان شديد الحرص على تدعيم السيطرة الفرنسية في كل الشمال الغربي الإفريقي، وكان يسر  
حين يرى صديقه لابرين يمارس منهجا في الحكم يتميز « بخليط من القوة المستخدمة بعدالة  
وبإخلاص دائم، وبلطف كبير » (2).

وكان لعمله اللطيف في الوسط الاستعماري ثماره، فإضافة للإيرين الذي كان يأخذ بنصائحه وتوجيهاته كان كثير من الضباط الفرنسيين في الصحراء يأخذون أيضا بنصائحه وتوجيهاته أمثال النقيب زينيولت، دي سان ليجي<sup>(1)</sup>.

لقد تبني دوفوكو سياسة اللطف النسبي بدل على سياسة القهر التي كان الفرنسيون يتبعونها، وقد أثر ذلك في سكان الصحراء مما جعل أرسنت بيسكاري يقول: «أجهل عدد المسلمين الذي حولهم عن دينهم الأب... دي فوكو في الصحراء الشمالية ولكني متأكد أنه عمل من أجل تثبيت سيطرتنا في هذا البلد أكثر من كل الإداريين والعسكريين»<sup>(2)</sup>.

وهو الرأي ذاته الذي أبداه النقيب دينو، رئيس ملحق عين صالح في تقرير له إلى الحاكم العام: «إن شهرة قداسة الأب، والنتائج التي توصل إليها في شفاء المرضى، تعمل من أجل توسيع تأثيرنا والانضمام إلى أفكارنا أكثر مما يعمل الاحتلال الدائم للبلاد»<sup>(3)</sup>.

وبهذا كانت أعمال دوفوكو الزمنية متناغمة مع الخط العام للسياسة الفرنسية الرسمية، وظل هذا الضابط القديم حتى النهاية نصيرا للتوسع الفرنسي في إفريقيا<sup>(4)</sup>. وقد ذكرنا أنه كان على اتصال دائم بالقيادة العسكرية الصحراوية بالجزائر، ويرى أن الاستعمار هو «عمل لتحرير الإنسانية وتمدينها»<sup>(5)</sup>.

ونختم حديثنا عن مكانته في السلم الاستعماري بشهادة أحد أقطاب الاستعمار الفرنسي الكبار، هو الحاكم الفرنسي العام للجزائر نيجلان (Naegelen)<sup>(6)</sup>. وذلك في خطابه الرسمي<sup>(7)</sup>، فقال مشيدا بأعمال المبشرين في الصحراء:

«إن الضباط بالصحراء هم مريدٌ ورجال لازالت أسماؤهم لامعة، منهم الجنرال لايرين (G Laperrine) قائد المنطقة الصحراوية وصديق المارشال ليوطي ودوفوكو) والأب دوفوكو الرجل الصالح، ففي الهقار والقليلة انحنيت أمام قبريهما بخشوع، أي قبر دوفوكو ولايرين متدبرا الدروس التي أعطوها للإنسانية في العمل المثمر ونكران الذات»<sup>(8)</sup>. وشهادة نيجلان عن دوفوكو لها أهميتها ووزنها.

1 - لمرجع نفسه، ص 95.

2 - لمرجع نفسه، ص 96.

3 - لمرجع نفسه، ص 96.

4 - لمرجع نفسه، ص 108.

5 - بلقاسم الحناشي، لمرجع السابق، ص 137.

6 - كان حاكما عاما للجزائر، بشاري الإتجاه، عين بعد مغادرته الجزائر عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية بباريس (L'Académie des Sciences Coloniale) وذلك في ديسمبر 1952م (المهدي لبوعبدلي آثار لتبشير المسيحي في الجزائر، ص 1351).

7 / 8 - وقد نشرت هذا الخطاب أكاديمية العلوم الاستعمارية بباريس، عدد 12، سنة 1952م (المهدي لبوعبدلي، لمرجع نفسه، ص 1351).

### ثالثاً : دوره التنصيري ومنهجيته واستراتيجيته في ذلك :

عندما عاد دوفوكو إلى الجزائر أظهر التمسك والتشبير وبذل جهوداً جبارة في التشبير والعمل على تنصير المسلمين،

فاستقر في بني عباس بعد أن بنى بها ديراً<sup>(1)</sup>، وذلك لأهميتها الاستراتيجية، إذ هي عبارة عن واحة تمتد في جنوب وهران وتابعة لها إدارياً، ولقد عبر دوفوكو عن أهميتها الاستراتيجية بقوله: « ومن هذه الواحة يشرف الناظر على صحراء حمادة الواسعة، ويمتد بصره في سماء صافية لانهاية لها، وتذكرنا بذات الإله الأعظم »<sup>(2)</sup>.

ولقد حاول في بني عباس تنصير الكبار ففشل فاتجه إلى الصغار ففشل أيضاً<sup>(3)</sup>، فاتجه صوب الطوارق واستقر في الهقار بتمنراست حيث أنه في سنة 1903م التقى بزميله في مدرسة سانسير الجنرال لابرين (La Perrine) فأقنعه بالانتقال إلى الهقار ليمهد لإحتلالها، كما أقنعه سنة 1905 بمرافقته في رحلة إستطلاعية عبر قبائل الطوارق والمناطق المجاورة للهقار التي استعمرها الفرنسيون منذ 1903م.

ورغم الطابع السياسي والإداري لهذه الجولة، فإنه استغلها في دراسة نفسيات السكان وطبائعهم، كما استغلها في الدراسة العلمية للصحراء مثمماً صنع أثناء رحلته في صحراء المغرب التي توجها بكتابه << la Reconnaissance au Maroc >> فدرس في هذه الرحلة مستعيناً بـ لابرين ورجال الجيش الجيولوجيا والطبوغرافيا والجغرافيا وأحوال الطقس، والحقل المغناطيسي كما قاموا بيمض الأرصاد الجوية. كل هذا تحت حماية الجنرال لابرين الذي نسق مع دوفوكو على تحطيم البنية الثقافية والاجتماعية للطوارق، ذلك بالسلاح والإرهاب، وهذا بتبويض وجه الأول ومحو آثار بطشه.

وفي سنة 1905م اشترك دوفوكو في بعثة ثانية أرسلته إلى تمنراست في بني ديرا، ثم إتجه إلى أعلى قمة بالهقار (اسكريم) التي يبلغ إرتفاعها 2700م ليبني بها سكنه الخاص زاعماً أنه فعل ذلك ليعزل بها ويتأمل<sup>(4)</sup>.

وعندما نعلم أن الهقار تعد المعقل الذي استعصى على النفوذ الأجنبي من جميع الأنواع، وفي جميع الأوقات أدركنا السر الذي جعله يتخذ قمتها مقراً لسكانه، فالمسبب في نظرتنا هو دراسة نفسيات السكان ومعرفة طبائعهم وطبائع بلادهم وظروفهم لتركيبتهم إرانياً، أي تهينتهم نفسياً لقبول الإستعمار طواعية وضمنان عدم ثورتهم عليه، وقد تم بالفعل للتحكم فيهم بعد أن إستعمرت بلادهم منذ سنة 1903م

1 - علاء لفاي، نشاط التشبير ودوره الإستعماري، ص 1105.

2 - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 113.

3 - علاء لفاي، حديث عن التشبير وبعض الوثائق الطائفية لهندية، سلسلة الجهاد الأكبر، لرباط 1974م، ص 4 (مأس الحناشي، الحركات التنصيرية في المغرب الأقصى، ص 86).

4 - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 113، 183، 175.

وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن ماهية قناعة دوفوكو وإستراتيجيته ومنهجيته لتحقيق ما بصير إليه، أي الاستعمار والتبشير.

### قناعة دوفوكو وإستراتيجيته :

تبين لنا مما سبق أن دوفوكو بدأ حياته عسكرياً ثم اتجه إلى الرحلات مهتماً بمعالم الإنكشاف التي وضعها سلفه وصديقه دوفيربي، فأخذ يقوم بالتخطيطات الطبوغرافية واكتشاف الطرقات التي توصل جيش الاحتلال إلى استعمار ما كشفه، ومعرفة طبائع السكان واستمالتهم إلى فرنسا كما سنذكر « وعاش يهودياً في صورته، ولكنه يقوم مقام طابور عسكري بحله، ومقام مرابط منسى، ومستشار فني، وجاسوس لا يشق له غبار للحكام الفرنسيين في المناطق المختلفة »<sup>(1)</sup>.

وقد اعتبر واقتنع وبذل جهده لإقناع حكومة بلاده أن التصير المسلمين هو الوسيلة الوحيدة لتعبدهم لفرنسا بصفة دائمة، يدل على ذلك ماكتبه في مذكرته بتاريخ 16 يوليو 1916م أي قبل قتله بقليل، قائلاً: « أعتقد أنه إذا لم يتم تصير السكان المسلمين في مستعمراتنا شمال إفريقيا، فإن حركة وطنية ستقوم على غرار ما حدث بتركيا، وأن نخبة من المثقفين ستكون بالمدن الكبرى متأثرة بالفكر الفرنسي دون أن يكون لها إحساس الفرنسيين ولا طبيوبتهم، وأن هذه النخبة ستحتفظ بمظاهر الإسلام رغم ضياع روحه لتؤثر بها على الجماهير، ومن جهة أخرى فإن جمهور الشعب من البدو الرحل سيبقى جاهلاً عديم الصلة بنا، متمسكاً بإسلامه، حاقداً على الفرنسيين محترقاً لهم بدافع من وازعه الديني وأشياخه -رجال الطرق الصوفية- ومعاملة الفرنسيين من رجال السلطة ومعمرين وتجار ممن لا يلمس فيهم دافعا على محبتنا، ولهذا فإن الروح الوطنية ستشب في نفس النخبة التي عندما تتاح لها الفرصة (بسبب صعوبات داخلية أو خارجية تحدث لفرنسا) فإنها ستسخر الإسلام لتحرير الشعب الجاهل على الثورة<sup>(2)</sup>. وتحاول خلق إمبراطورية إفريقية مستقلة إسلامية، إن 30 مليوناً من البشر يسكنون في مستعمراتنا بشمال إفريقيا بما فيها الجزائر والمغرب وتونس وإفريقيا الغربية، وأن هذا العدد سيتضاعف بعد 50 سنة... وتصبح هذه البلدان غنية مزدهرة، وقد تعود مكانها على استعمال أسلحتنا وتكونت منهم نخبة بمدارسنا، وأتينا إذا لم نجعل منهم رعايا فرنسيين فإنهم سيطرودوننا، وأن الوسيلة ليصبحوا فرنسيين هي أن يصيروا نصارى »<sup>(3)</sup>.

إذن التصير هو الوسيلة الوحيدة لتثبيت الاستعمار، هذه هي قناعة دوفوكو، ولكن كيف يتم تحقيق هذا الهدف؟ هذا يدفعنا إلى الحديث عن منهجية دوفوكو وخطته لتحقيق ذلك.

1 - علال الفاسي، نشاط التبشير ودوره الاستعماري، ص 1105.

2 - هذا اعتراف بأن الإسلام دين تحرر.

3 - النص لورده علال الفاسي في نشاط التبشير ودوره الاستعماري، ص 1105، 1106 عن عز الدين العراقي، مجلة ليبيا، ديسمبر، 1962، (العدد 1، ع 8، ص 65، 66 تحت عنوان تشارل دوفوكو وهب حياته للتصير المغرب العربي خدمة للإستعمار).



## منهج دوفوكو وخطته :

يقوم منهج دوفوكو وخطته على مجموعة من المحطات المترابطة المتسلسلة يمكن تلخيصها

فيما يأتي :

1 - تحطيم البنية الثقافية والاجتماعية والنفوس منها : تقوم خطة دوفوكو التصديرية الإستعمارية أساسا على فهم الأوضاع الثقافية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية لسكان الصحراء والإطلاق منها في التصدير والجوسسة والتمهيد للإستعمار الخ. على ضونها. وهكذا فقد ركز دوفوكو كثيرا على العلاقات الإنسانية في نشر أفكاره بين الطوارق، وذلك بعد أن درس جيدا الأوضاع الاجتماعية والثقافية للمنطقة<sup>(1)</sup>. وقد ذكرنا في تحليلنا للأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية أن التصوف هو الذي كان يشكلها ويستحوذ عليها، وذكرنا أن سيطرة الفكر الصوفي على المجتمع آنذاك كانت له مظاهر إيجابية وأخرى سلبية، كما ذكرنا أن الإستعمار الفرنسي عمل على النفوذ إلى تحطيم هذه البيئة للمجتمع من خلال التصوف ذاته، كما هو الحال مثلا بالنسبة للطريقة للتيجانية.

وما هو دوفوكو بدرس جيدا تلك البنية للمجتمع الصحراوي ويعمل على التفاضل من خلالها، وذلك باستغلال الجانب السلبي لبعض التصوف وطرفهم من جهة والتظاهر بالمتصوف الحقيقي من جهة أخرى، ومحاربة رجال الطرق الصوفية الصحيحة ليخلو له الجو من جهة ثالثة.

وهكذا فبعد تحليله للأوضاع الثقافية والاجتماعية وجد أن المنطقة الصحراوية مطبوعة بالطابع للطرفي مما جعل الناس يخضعون لشيوخ طرفهم خضوعا أعشى فقام بتحليل نفسي اجتماعي لتلك الطريقة فوجد أن العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين شيوخ الطرق ومريديهم تتميز بميزات منها :

التزام المرید تجاه شيخه بمجموعة من الواجبات تعد مقننة بينهما ومرتبطة بالقوى، والإخلال بها يعد خيانة، مما يجعل المرید أمام شيخه كالصبي أمام ماضيه، بل فكما ازداد خضوعا ازداد تقوى، ومن عصى شيخه لعنه، وكان هذا يدعم بالقصص الذي يروي ما حل من عقاب بمن عصى شيخه، كالمنسوخ قرود وخنازير وما إلى ذلك، وكانت عقلية العامة -بل وحتى بعض الخاصة- تصدق هذا مما جعل شيوخ الطرق يتبوأون مكانة عالية. بين أتباعهم، وهو ما يرغب في التقرب منهم وجلب رضاهم. أدرك دوفوكو كل هذا وأدرك -وهو ما يهمنا كثيرا هنا-

أن العلاقة بين الشيخ والمرید إنما كانت علاقة بين سيد (روحي) لا يقوم بأي عمل بدوي، وبين خادم (مرید) يقوم بجميع الأعمال البدوية والشاقة ويفتخر بأنه خادم للشيخ (المرابط). أدرك دوفوكو هذا فقرر استغلاله أشنع استغلال، بحيث يتبوأ مكانة السيد الروحي (المرابط) وأخلاق المرید<sup>(2)</sup>. وذلك لكي يعطي صورة جديدة للناس عن المرابط الحقيقي (النصراني) مما يؤدي بالناس إلى الزهد في مرابطتهم ليحتقروا فيه المرابطية، أي تحويل المرید من تقديس المرابط الجزائري -المسلم- إلى تقديس دوفوكو النصراني ويؤمنذ يكون قد حقق كل ما يريد.

1 - علي مراد المرجع السابق، ص 30.

2 - المرجع نفسه، ص 30 - 35.

ولتحقيق هذا الغرض، فقد قرر أن يتظاهر :

بإزهد والتواضع والتشرف وخدمة الفقراء والتصدق عليهم<sup>(1)</sup>، وانتظار المبلغ فيه بالقوى إلى حد الثورة عندما تمس المبادئ الأخلاقية ولو من خلال التكت<sup>(2)</sup>، وذلك ليخدع الصحراويين الذين اعتادوا على شظف العيش وصعوبة الطبيعة فيحتدون أن المشيرين اسلخوا بالفعل عن حياة الترف الغربية ليمشوا زاهدين إرضاء ليموع حسب زعمهم مما يمكنهم من الاستحواذ على نفوسهم فيغيرون نظرتهم إلى المستعمر بعدما رأوا جيوشه تدمر كل شيء<sup>(3)</sup>. فيقول مينا هذا : « إنني أفتش دوما عن آخر الأماكن وأوضعها لكي أكون حقيرا كسيدي، ولكي أكون معه وأمشي وراءه خطوة خطوة، كخادم أمين وتلميذ مخلص »<sup>(4)</sup>، أي عكس رجال الطرق الذين كانوا يتصدرون الناس والناس وراءهم بإضافة لهذا، فلما كان رجال الطرق حسب زعمه يعيشون من تعب الآخرين فقد قرر بفرح « العمل اليدوي والفقير المقدس »<sup>(5)</sup>.

والحقيقة أنه لا يمشي وراء الناس زهدا وتواضعا بالفعل، بل ليخدعهم ويجعلهم جميعا له خدم، كما أنه لا عمل يدي ولا فقر مقدس بالفعل، لأن فرنسا وجيشها كلها وراءه كما مر سابقا، فلن يستطيع خداعنا نحن حتى وإن تمكن من خداع بعض الطوارق، ولقد بين دوفوكو هدفه من هذا بجلاء وهو تكسير المرابطين الذين وقفوا في سبيله حجرة كزود بسبب إسلامهم، فقرر إزالتهم من طريقه بأي ثمن وإلا استحال عليه تنفيذ مشروعه المتمثل في التصيير وإستكمال الإحتلال. وهكذا أدرك دوفوكو شيئين أساسيين في سكان الصحراء :

أحدهما أن المرابطين هم الخطر الأكبر على دعوته وأهدافه، وثانيهما أن أغلب الصحراويين مرابطون، وقد بين هذا بقوله: « إن هؤلاء التجار هم جميعا تقريبا مرابطون، إنهم جميعا ينتسبون إلى قبيلة مرابطية من تيديكلت وأهل العزة، وبفضلهم تم حتما دخول دلق جديد من الحماس الإسلامي، إن هؤلاء الرجال جميعا ذوي السبحات المصلين الصائمين المسادين جهارا بأنهم مرابطون لكي يلاقوا الإستقبال الحسن، سوف يكون لهم تأثير سيء »<sup>(6)</sup>. ولذلك قرر:

1 - أن يحاربهم، لأنهم خطر على دعوته.

2 - أن يتمربط ليحتل موقعهم، وذلك باستغلال سلبياتهم التي أدركها بعد دراسة معمقة مستفيدا من تجارب سابقه وذلك ليبنى عليها خطته التصيرية والإستعمارية. بحيث يصبح في أعين الصحراويين مثالا يقتدون به عوضا عن مرابطيهم وهو ما جعله يعمل على أن يقوي في نفوسهم الإحساس بأهمية العمل لليدوي وقداسته لأنه رأى - حسب الزعمه - أغلب المرابطين يناون بأنفسهم عنه

1 - دي فوكو، كتابات روحانية، ص 210، عن علي مراد، المرجع السابق، ص 25.

2 - علي مراد، المرجع السابق، ص 46.

3 - المرجع نفسه، ص 29، 30.

4 / 5 - دي فوكو، كتابات روحانية، ص 56. عن علي مراد، المطبع السابق، ص 36.

6 - المصدر نفسه، ص 253، فامش علي مراد، المرجع السابق، ص 36.

متذرعين بحجة سيادتهم الدينية التي تخول لهم كل الحقوق على مرديهم كالسحرات المتنوعة سواء في الزراعة أو غيرها، والذنور والمطايا « فعمل دوفوكو على تحطيم هذه التقاليد لينتج رسالته كمرابط خادم، وهي صورة تتعارض تماما مع الصورة لتقليدية للمرابط الذي ينظر إلى المؤمنين كأتباع، وكان من قراراته (1902 في بني عباس): رفض الخلام وأن يُخدم لأن يُخدم<sup>(1)</sup>، إلى حد رفض جندي من تكتة بني عباس وضع في خدمته<sup>(2)</sup>. وبهذا جعل دوفوكو نفسه خالما للخدم ليخدم كما ذكرنا مفهوما جديدا للمرابط يحطم به الصورة الموجودة -في الواقع وفي أذهان الناس- عن المرابط المسلم.

والحقيقة أن، ما يذكره دوفوكو ويقرره هنا من احتقار المرابطين للعمل اليدوي إنما هو محض افتراء لا علاقة له بالواقع في شيء، ولا أدل على هذا مما ذكرناه قبلا في الحركة السنوسية من اهتمامها بالعمل اليدوي، بولنا بأن الشيخ الأكبر للطريقة كان يشارك تلاميذه فيما يقومون به من أعمال، وما نجده عند بعض المرابطين من عدم قيامهم بأنفسهم بالأعمال اليدوية وتفويض ذلك إلى غيرهم ليس راجعا لاحتقارهم العمل اليدوي وإلا ما كانوا مرابطين، بل هو راجع لأنشغالهم بالتربية والتعليم وفض الخصومات وإصلاح ذات البين إلخ. وهو ما يعجز عن القيام به غيرهم، ومن هنا فإن دوفوكو قدم هذه الصورة القائمة عن هؤلاء الرجال لحاجة في نفس يعقوب، فقرر التفرغ لخدمة الناس والتفاني في ذلك، وإتخاذ سبيل الزهد والتواضع للوصول إلى قلوبهم وأمنلاكها ليسخرها لخدمة بلاده وهو ما جعله يتظاهر بالتفاني في خدمة الصحراويين الجزائريين الذين قضى بينهم 15 سنة كاملة فاختلط بهم واختلطوا به عبر الواحات والقصور، « فاهتم بالبيضاء والمرضى وتوزيع الأغذية، وتقديم الخدمات والأدوية إلى حد أن قرر في بني عباس سنة 1902م غسل ثياب الفقراء وتنظيف منازلهم باستمرار، وأن يقدم لهم بنفسه كل الخدمات في البيت، كالطبخ وحمل ماء الشرب والطعام<sup>(3)</sup>».

2 - استخدام الأطفال للوصول إلى قلوبهم : لما زك دوفوكو حذر سكان الصحراء منه قرر الوصول إليهم بواسطة أطفالهم لتحببهم فيه ولمعرفة ما يفكرون به تجاه الاستعمار. أي استخدام الأطفال بغرض التصير والاستعمار وذلك لأنه ربط مصير النصرانية في الجزائر بمصير الاستعمار لقناعته بالاستحالة تثبت أحدهما دون الآخر. والنص الآتي يوضح لنا منهجه العملي في التبشير ويعطينا فكرة دقيقة عن أهداف نشاطه فيقول: « كنت أحاول أثناء جولتي دائما أن اقترب من المخيمات السكنية، وأن أدخل في علاقات مع الأطفال الصغار، وذلك بأن أقدم لهم السكر. ولكني لم أسجل نجاحا<sup>(4)</sup>، في هذه

1 - المصدر نفسه ص 213، هامش علي مراد . ص 38.

2 - المصدر نفسه ص 262-264 . . . . . ص 39.

3 - كتابات روحانية لدوفوكو، ص 210، 211، هامش علي مراد، المرجع السابق، ص 39.

4 - وقد قر دوفوكو بنفسه في التصير كبارا أو صغارا قائلا: « هذا تمر عشر سنوات منذ بدأت بالقداس بتامرانت ولم أتوصل إلى تصير شخص واحد،

المساعي، فقد كان مرأي عندهم أشبه شيء بمراي الشيطان نفسه، - وهذا دليل على قوة الإسلام في نفوسهم ووعيمهم بما يدبر لهم من مكائد- فكانوا يطلقون سيقانهم هاربين صارخين قبل أن يختفوا في الخيمة.

قد يبدو من الغريب أن ألح على موقف أطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم ما بين الخامسة والثانية عشر، ولكن الأطفال في عملية الاتصال بالمكان هم أشبه شيء بمراة تعكس تفكير أبائهم، وهؤلاء قد يضعون أقنعة على عواطفهم الحقيقية، ويخضعون ويتنزلون أمام القوة بحكم الضرورة، وذلك في الوقت الذي يكتمون فيه غضبهم على مختص، ويسترون بعضهم البعض، والحقد الذي يعتلج في صدورهم نحو الأجنبي الذي لا ينتظرون سوى الفرصة الأولى التي تتاح لهم للتخلص من ريقته.

وأما الأطفال، فهم أقل حيلة ومكرا، فهم يصغون إلى ما يتحدث به أبائهم تحت الخيمة، وعندما يرون الأجنبي يطلقون سيقانهم للزبح ويعولون، وهذا معناه أن الرأي العام ضدنا<sup>(1)</sup>. ولكنه يمكننا بواسطة الأطفال أن ندخل إلى نفوس الآباء ونهدي من روعهم، وأنا قمت بتجربة هذه الطريقة عدة مرات. إنها لفرة لقتريب المترددين منا، وفرصة في الدخول مع المنظرهين<sup>(2)</sup>. الذين يعضوننا، وهؤلاء في العادة يمتازون بقوة الشخصية، إنه لمن الصعب على رئيس سياسي أو ضابط أن يخطف الخطوة الأولى نحو الأهالي الساخطين والذين يلزمون موقف العزلة ولا يبدون سوى مظاهر اللياقة، وعلى العكس من ذلك. فإنه لمن المسلي، ومما لا يحط من قدرنا أن نحاول بث الثقة فينا في نفوس الأطفال، ونوجه إليهم أسئلة ونقدم إليهم هدايا بسيطة<sup>(3)</sup>، والأمهات يتابعن هذه المحاولات بكل اهتمام، وإذا مررت أمام الخيمة يتسمن لك ويوجهن إليك عبارة طيبة، والأب سويحيك، وذلك قبل أن يطلب مقابلتك ذات يوم ليشاركك على طيبة قلبك، وبهذا تتحطم الحواجز التي تفصل بيننا وبين الأهالي، والطفل هو المستقبل، والقرية التي يحب فيها الأطفال لضباط ويعتبرونهم آباء يملونهم بشعر بسعادة عندما يخيم للجيش في أرضها.

وبعد عشر سنوات سيكبر أطفال القبيلة وينمو معهم الولاء لأفكارنا، إن هذه القبيلة قد انحازت إلى صفنا<sup>(4)</sup>.

- 1 - وهذا يعنى بوضوح أنه يستخدم الأطفال جواسيس من حيث لا يشعرون على أبائهم، فأى دين هذا الذي يستخدم الأطفال جواسيس على أوليائهم ليمكن للإستعمار، أي للقهر، هل هذا هو "الله محبة" و"المسيح أتى بالمسلم لا بالحرب" ١٣.
- 2 - الذي يحافظ على دينه ووطنه بعد متطرفا في اعتقاده، والذي يعمل على تعطيل دينه وإستعمار بلاده لا بعد متطرفا، هذه هي عقلية الإستعمار. وهكذا جعل معيار لتطرف وللانطرف بغض فرنسا أو حياها.
- 3 - وهو ما بينه عمر فروخ ومصطفى خالدي، حيث إن ما يقدم في الغالب لايسمن ولا بغض من جوع ويتناقص تدريجيا بقر خضوع الإنسان لهم. (عمر فروخ ومصطفى خالدي، القشير ..... ص 285).
- 4 - إسماعيل قسري، المرجع السابق، ص 114، 115 ولم يذكر المصدر الذي أخذ منه النص.

وهذا يظهر بجلاء غرض دوفوكو من استخدام الأطفال، فهم وسيلة جوهرية للوصول إلى معرفة ما يفكر فيه الكبار أي جواسيس ممتازون وهم لا يشعرون، كما أنهم وسيلة جوهرية لتثيين قلوب أوليائهم وتحويلهم من كراهية مدمرهم إلى حبه، وأنهم عمدة المستقبل، فمن استولى على قلوبهم يكون قد ضمن ولاءهم وأرضهم. والغرض واضح هو التمكين للإستعمار والتصوير، وجعل أكبر قدر من الجزائريين خونة ضد وطنهم ومجاهديه، ومنحرفين فكريا شأنين خلقيا بجعلهم يحبون عدوهم ويكرهون أخاهم وهنا نتساءل :

ما مدى نجاح دوفوكو في هذه المنهجية؟ وبعبارة أخرى : ما موقف الصحراويين منه؟.

يمكن معرفة موقف الصحراويين منه مما يؤدي إلى الحكم على مدى نجاحه من خلال ثلاثة مصادر أساسية، هي :

- بعض رسائل زعيم الطوارق موسى أغا أمستان.

- وبعض مدونات شارل دوفوكو الشخصية.

- والشهادات المختلفة الصادرة عن بعض القادة الفرنسيين أمثال لابيرين ونيجر.

هذه المصادر تبين وتجمع على أنه استطاع كسب ثقة التوارق بسبب منهجيته السابق ذكرها إلى حد جعله حكما بينهم فيما يقع من مشكلات، وقد شهد البروتستانتى « الميجور، روبير هاريسون مشهدا من ذلك خلال 1909-1910م أصدر فيه دوفوكو حكما بين التوارق فصل فيه في قضية مرقة جمال<sup>(1)</sup>. ولقد عبر عن مدى تأثيره في التوارق عميل دوفوكو -المغفل- "موسى بن أمستان أمنوكال نهكار" أي زعيم التوارق في رسالته إلى العالم الفرنسي بازان (René Pazin) . فقد سمى نفسه في تلك الرسالة "خديم النولة الفرنسية الطيبة" وسمى دي فوكو بـ "الحبيب الكبير امتاع التوارق هقار"، وبين أن الناس كانوا يحبونه كثيرا في حياته، ويحبون قبره كأنه حي، ولا سيما النساء والصبيان والمساكين، وكل من جاء لزيارة قبره دعا له بالجنة، وأخبر أنه حضر في جنازة أم موسى بن أمستان، وهو متغير اللون على موتها، وصلى معهم عليها، ووقف على شط قبرها أثناء الدفن، وكانت هذه الأم تزور دوفوكو في بيته<sup>(2)</sup>.

ونحن نعتقد أن هذا مبالغ فيه، ولا سيما أن جميع المصادر التي كتبت عنه فرنسية، والدليل على ذلك اعترافه السابق بأنه بعد 10 سنوات كاملة بتمنراست لم يتمكن من تصوير مسلم واحد، وذلك لأن الطوارق أدركوا خطورته وهدفه -كما سنبين- رغم ما ذكرناه قبلا من العمل على كسب قلوبهم وجعل أبنائهم جواسيس عليهم، فظلوا ينظرون إليه بحذر، وهو ما جعل شغله الشاغل يظل :

-René Bazin, Charles de Foucauld. Explorateur du Maroc P 381

- 1

2 - هذه الرسالة جواب لبازان عن دوفوكو، مؤرخة في 5 شعبان 1331هـ. ومن أراد الإطلاع عليها الرجوع إلى

-René Pazin . Ibid . Page 403

« كيف يمكن تحويل الحذر الغريزي لدى الصحراويين إلى مظاهر حماس للنظام العسكري الفرنسي وللأصول الإدارية والثقافية التي عمل هذا النظام على إقامتها »<sup>(1)</sup>. ومع هذا لم يتمكن من استئصال إلا بعض الشخصيات القليلة التي آخته ووثقت به، ولكنها بسبب وزنها كانت للكلثة كما سنذكر، وتوضيح ذلك أن دوفوكو كان يعمل على جميع المستويات، العامة والخاصة، ولما أدرك صعوبة تصوير العامة واستمالتهم نحو بلده اتجه إلى الخاصة. أي أدرك أهمية الرأس في قيادة القطيع، وهي الطريقة ذاتها التي تتبعها دول الاستكبار العالمي للتحكم في الدول الإسلامية، بعد أن فشلت في استيلاء شعوبها، فظلت هذه الشعوب ضدها، ولكن حكامها أصبحوا تحتها.

ومن أهم الذين تمكن دوفوكو من خداعهم واستمالتهم زعيم التوارق أغا أمستان.  
تري، من هو أغا أمستان؟!

ولد حوالي 1867 م، أصبح زعيما للتوارق في تمراست، وصفه دوفوكو في رسالته إلى "المونسنيور" ليفنهاك (26 تشرين أول 1905 م) « بأنه رجل ذكي جدا، تحدوه نوايا طيبة، ويسعى فقط لخير المسلمين والتوارق، فكر شامل، كرّس حياته لسيادة السلام بين التوارق، وحماية الضعفاء ضد عنف الأقوياء »<sup>(1)</sup>. وللحصول من وراء ذلك ومن وراء كرمه وتقواه ولطفه وشجاعته على الإحترام الشامل في عين صالح وفي تومبوكتو... »<sup>(2)</sup>. وكان دوفوكو حذرا منه مفكرا في كيفية استغلاله وتحويل ما بداخله من حقد على النصاري إلى خادم لهم بحب وإخلاص.

أما في قرارة نفسه فكان دوفوكو يكرهه أشد الكراهة بسبب تنظيمه للشرطة والعدالة، خصوصا ثم لجهوده لنشر التعاليم القرآنية بواسطة زاوية ومسجد بتمراست<sup>(3)</sup>، وذلك لأن هذا يؤدي إلى تجديد الإيمان والثقافة الإسلامية في أوساط التوارق، كما يؤدي إلى خضوع مجموعة من القبائل المشهورة بعصيانها تحت سلطة مسلمة قوية وواعية، فقرر دوفوكو العمل على احتوائه واحتلال بلاد التوارق من خلاله<sup>(4)</sup>. وقد حقق دوفوكو هذا الغرض، بحيث خضع للفرنسيين سنة 1904 م مما جعله يعبر عن امتنانه بذلك قائلا: « إن فرنسا مدينة له عندما احتلت الأحجار "الهقار" »<sup>(5)</sup>. فكان ذلك عربون إخلاصه وأيضا نتيج عن إخلاصه إتباعه للفرنسيين<sup>(6)</sup>.

والمهم جدا هنا: أن دوفوكو هو الذي أثار بنصائح الغدر في أغا أمستان فهبأه ليقبل بخضوع منطقته كلها للفرنسيين<sup>(7)</sup>، ويقدمها لهم على طبق من ذهب. وبهذا فإن المحتل الحقيقي للمنطقة كلها،

1 - الصفات التي تظاهر بها دوفوكو لتحقيق لطماعه هي نفسها الموجودة عند زعيم التوارق ولكن الفرق بينهما أنها عند دوفوكو مفتعلة وعند أغا أمستان أصيلة. وبهذا لم يأت دوفوكو بجديد على المجتمع الصحراوي.

2 - Rene Bazin Charles de Foucauld Explorateur du Maroc page 49.

- 2

3 - يظهر هنا تأثير دوفوكو لوضع بلاهجري.

4 - علي مراد، المرجع السابق، ص 49.

5 - المرجع نفسه، ص 50.

6 - المرجع نفسه، ص 51.

7 - المرجع نفسه، ص 52.

جامعة الأمير  
عبد القادر للعالم الإسلامي

ولكن كيف يمكن تحقيق هذا؟ والجواب: أنه يتم بالتصوير، وهكذا يظهر لتصوير وسيلة وغاية  
كَمَا يظهر الاستعمار أيضا وسيلة وغاية، وبذلك تكون لعلاقة بينهما علاقة تلازم. وإنما كل سكان  
المستعمرات منتمون بالإسلام، والإسلام هو المعتقد الأكبر للإستعمار، فلي الإستعمار لا يمكن أن يتم إلا  
إذا هُين التورق لنقل كلام الإنجيل أي بمصرون. وحتى لو أنه فلا يمكن إستعمار له إلى الأبد ما لم  
ينصروا، وهو ما جعل نوبوكو يعمل بلا هوادة على تصويرهم معترفا بمهمته لتصويره قائلا:

« إن وجودي في بني علس على الحدود لتقبل على بني في قنشير. »<sup>(1)</sup>

ولكن كيف يمكن تصوير التورق؟ وهو أنه لن نلتك يتم على مراحل، وهذا يدعونا إلى الحديث  
عن مراحل القنشير هذه.

مراحل القنشير عند نوبوكو:

لما أترك نوبوكو استعارة لتصوير المباشر لتمكين الإسلام من نفوس الصحراويين قرر  
ممارسته عبر مراحل معينة، وهو ما بينه في مراسلاته لصديقه هنري دي كلستري:  
« إنها ليست لحظة بالمضي الصحيح. لست أهملها ليا، ولا أقرا عليها، ثم إن الساعة لم تكن بعد، إنه  
العمل التمهيدي للأجلة، إنها مرحلة كسب الثقة والصدقة.. »

وفي الشهر التالي عاد نوبوكو في رسالته إلى هذه القضية من جديد قائلا: « إن عملي  
المتواضع مستمر... عمل تمهيدي... إنني لا أزرع، بل أهد الأرض، وآخرون يحرثون، وآخرون  
يحصنون. »<sup>(2)</sup>

وبهذا فإن كسب قلوب التورق بالتظاهر بالمحبة والثقة والصدقة والتقوى والخدمات إلخ ليس  
لوجه الله بل ليكسب قلوبهم ثم كسب ضمائرهم بعد قلوبهم وزعزعة معتقداتهم بالانخراط كلياً أو جزئياً  
من الإيمان الإسلامي والتكبر لدينهم، لأن هذا التكبر له هو الذي يحطم كيانهم الداخلي<sup>(3)</sup>، ويمزق  
وجدانهم ليقعوا بين مخالفة الطويلة وأنبابه الفتاكة فريسة سهلة.

وبهذا تكون المرحلة الأولى في التصوير هي ما عبرنا عنه في الأوضاع الثقافية والاجتماعية  
بتعطيل البنية الثقافية للمجتمع وإحلال محتوى جديد بدل ذلك هو النصرانية والولاء لفرنسا وحبها.  
ولكي يحقق هذا الهدف فقد إنطلق كما ذكرنا قبل من فهمه لأوضاع المجتمع السابق ذكرها،  
ولما وجدته مجتمعاً مرابطاً ووجد أن من مصطلحات المرابطين مصطلح "الإخوان" أسس جمعية  
-متأثراً برجال الزوايا- سماها "الجمعية الإخوانية" لتصبح جمعية علمية مازالت موجودة إلى الآن<sup>(4)</sup>.

1 - بقلم الحناشي، المرجع السابق، ص 96.

2 - نوبوكو، الرسائل (مراجعة في 18 تموز 1904)، ويراجع في نفس سياق الأفكار كتابات روحانية،  
ص 237، 238، 250، 257، 263 / بع / عن علي مراد، المرجع السابق، ص 60، 59.

3 - علي مراد، المرجع السابق، ص 68-62.

4 - بوهيران الشيخ، من حول ميم، في القلق بالوطنية بالسنطينة.



ولما وجد أن من مميزات الطريقة المسيحية تربط واستخدام مسيحية أي أتى بالدين، وهو ما سماه "سبحة الصداقة" وهذا يبدو بجلاء انداعه في التصير لتعطلات الأتية :

- كسب ثقة التوارق بالنظائر أمامهم بالورع والتقوى والترهد ومساعدة القديس، وتقديم الخدمات إلخ.

- العمل بلاهوادة - دون أن يحس التوارق بذلك - على تعظيم المسيحية الثقافية والاجتماعية للمجتمع.

- الرغبة الأكيدة في العمل على زرع الاضطرابات في الأذهان، والإملاء تعني رغبة تعظيم للمسلمين مسيحية غريبة تماماً عن تراثهم الثقافي؟ وهكذا بعثت الاضطرابات في الأذهان لينتقل إلى الواقع، ولا سيما في مجتمع حظه من الطم زهيد هيبه بذلك أنسا بفلونه بشراء دمهم وسيتور ضدهم متكبنون فيشتد الاضطراب، وينقسم الناس إلى أحزاب وهذا ما يريد دوفوكو الذي كان <sup>يعمل</sup> بلا هوادة إلى زرع الشك في أذهان المسلمين لجعلهم يتخلون عن دينهم<sup>(1)</sup>.

ولكن بحقق ذلك الاضطراب، ويتمكن من فصل السكان لتوارق عن الإسلام ويقسم المجتمع فقد أضاف إلى خطته التنصيرية الإستعمارية عملاً آخر، لا يقل خطورة عن إحتلاله للفقار وتمنراست. وهو اتباع سياسة فرق تسد، أو السياسة التنصيرية، أو السياسة التبريرية.

## الفصل الثالث

### السياسة البربرية

إن عمل دوفوكو الأخطر في نظرنا ليس الجوسسة رغم خطورتها، ولا نقل الجزائرين - من رجل يزعم أنه يوحى إليه - رغم بشاعته وشناعته، ولا احتلاله للهقار وتمنراست وغيرهما دون أن نخسر بلاده أي شيء رغم فضاعته، ولكنه العمل على تقسيم السكان إلى عرب وبربر متصارعين متطاعنين، ثم التصير واستيلاب ما لم يكن من الطرفين، والتركيز على البربر باعتبارهم - كئيبا - أقرب الأوروبيين، وفي هذا المجال قام بعملية تعد رائدة بالنسبة للتصير والاستعمار هي إحياء التيفيناغ. وهذا بدعونا إلى الحديث عن ما قام به دوفوكو في هذا المجال.

#### - التيفيناغ

عمل دوفوكو على إحياء لهجة التوارق. وبكتابتها 'تيفيناغ' التي تحتوي على نسبة كبيرة من حروف اللغة الفينيقية وكتابتها<sup>(1)</sup>، وقد عمل في هذا الحقل عدة سنوات، مهتديا بما توصل إليه سلفه وصديقه دوفيريبي، وأهم المؤلفات التي ظهرت له في حياته في هذا الموضوع، هما: « نحو لغة تيفيناغ ». و « قاموس فرنسي توارقي »<sup>(2)</sup>. وبعد قتله في سنة 1916م عثر في منزله بتمنراست على مادة « موجز قاموس فرنسي » نشر في مجلدين، ويبلغ مجموع صفحاته 1450 ص. كما ترك نصوصا توارقية مترجمة إلى الفرنسية في مجلدين من الشعر والنثر التوارقي<sup>(3)</sup> (4).

وبعد عمله هذا - في نظرنا - أخطر عمل تصيري، إذ في حين لم يتمكن من تحويل التوارق إلى نصارى ولكنه بقاموسه وكتابه السابق، وعنايته بالتيفيناغ بعد المؤسس الحقيقي للحركة البربرية في الجزائر، وهي ضمن ما ينكره عمر فروخ ومصطفى خالدي<sup>(5)</sup>، من أهداف التبشير، وهو تقسيم المجتمع إلى قوميات. وإحياء النمرات القومية، وجعل الناس يعتزون بماضيهم ما قبل الإسلام على حساب الإسلام، بل وجعلهم يتكبرون للإسلام ولغته والمنتسبين إليه، ونشر الكراهية والحقد بين أفراد المجتمع الواحد وجعله يروج في فتن لا أول لها ولا آخر. وهو ما نلاحظه اليوم في بلادنا بجلاء بحيث تحول الصراع من طبعة الحقيقي بين مستعمر مظلوم ومستعمر ظالم إلى صراع وهمي داخل الذات ليمزقها خدمة لأعدائها، ونشير هنا إلى أن عمل دوفوكو هذا يعد تطبيقا عمليا لما دعا إليه قبلا كل من

1 - وستحدث عن هذه القضية خلال حديثنا عن الأمازيغية.

2 - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 115.

3 - المرجع نفسه، ص 116.

4 - ومن لاء فتوسع في هذا المرجع إلى:

Gorre (G) sur les Traces du père de Foucauld ed du vieux Colombier paris 1953. p.346.

5 - ومن لاء فتوسع المرجع إلى كتابهما التبشير والاستعمار ص 174-178.

الهجري وسلفه بورغاد، ولكنه في حين تقتصر كل من بورغاد ولا هيجري على الدعوة إلى النزعة البربرية والعمل على إحياء ماضي ما قبل الإسلام لاستخدامه ضده من أجل التصيير والاستعمار باعتبار أن التصيير هو إرجاع السكان إلى أصلهم وهو ما جعلهم يميزون بين العرب والبربر، أي بين نصارى الأصليين الذين استعمرهم العرب وأخرجوهم من النصرانية إلى الإسلام كرها، وهو ما يتواءم مع الزعم بأن الإسلام انتشر بالسيف مما يجب العمل على إعادتهم إلى النصرانية ولذا فهم أقرب إلى الفرنسيين، والعرب المستعمرين الذين يجب تحطيمهم وتدميرهم. وهو ما جعل لاهيجري بركز في تصيره على بلاد القبائل.

فأى دوفوكو لايكورمزاعم لاهيجري وبورغاد فحسب، بل ليبيني على ما توصلنا إليه، وينتج لغة هي لغة تيفيناغ<sup>(1)</sup> لتكون بديلا عن لغة القرآن الكريم، وظهر هذا جليا في كنهه للثلاثة السابقة نحو تيفيناغ<sup>(2)</sup> و « موجز قاموس فرنسي توارفي » و « قاموس فرنسي توارفي ».

وهنا نتساءل من جديد: ما أهمية هذا الدين الذي أتى ليمزق لا يوحد، وينشر الحقد لا المحبة ثم يدعي أصحابه كذبا أن الله محبة، ولكن الغاية عند النصارى تبرؤ الوساطة، وها هو دوفوكو يواصل مشروع لاهيجري في تقسيم المجتمع إلى عرب وبربر فيردد ما رددته سلفه، وما رددته أيضا رجال الجيش والمثقفون له، فيقرر العمل أيضا على تقسيم السكان في الواقع على أسس عنصري إلى عرب وبربر، فيقول: « إن سكان إمبراطوريتنا الإفريقية على أنواع مختلفة، فمنهم البربر وهم أقرب الناس إلينا، ومنهم العرب، وهم أقل استعدادا للتقدم »، ويقول مطلقا على تأسيس مدرسة: « لا شك أن هذه المدرسة إن دخلها إلا عدد قليل من الأطفال العرب، لكن الأطفال البربر الذين ينحدرون من سلالة طيبة، هي على كامل الاستعداد للتأثر بالفكرة اللاتينية<sup>(3)</sup>، التي عرفتها من قبل سيدخلونها كلهم<sup>(4)</sup> ».

ولكن ذلك لا يتم إلا بواسطة الفرنسية، أي البربرية بواسطة<sup>(5)</sup> الفرنسية والفرنسية بغرض لتصيير وبهذا يضم دوفوكو صوته إلى المفكرين الفرنسيين السابقين الذين ذكرناهم قبلا والذين يزعمون بالأصل اللاتيني للبربر، ولكن الفرق بين دوفوكو ومن سبقه من مفكرين وإكليروس فيما يتعلق بالقضية البربرية، أنهم أثاروها وعملوا على إقناع الناطقين بالبربرية بذلك.

أما دوفوكو فقد أضاف لها الأداة التي تكرسها وتنزلها إلى مجال الواقع لتصبح قناعة لدى من تصنعهم فرنسا للمناداة بها، هذه الأداة هي تيفيناغ<sup>(6)</sup>. ولكي تتجح خطة دوفوكو المتمثلة في السياسة البربرية التي خطط لها بدقة هو، ومريدو مدرسته من المستعمرين فلا بد أن تقوم على الفرنسية عن طريق التصيير، ولهذا الغرض فلا بد من تحقيق ثلاث شمسب، تعمل متواصلة فيما بينها لغرض واحد، هي:

- 1 - أي أن أصل البربر لاتيني نصرتي، فلا بد أن يعودوا إلى أصلهم.
- 2 - خلال قانس، نشاط الكهنة وبنوهم الثوريين بالأمس واليوم، من 1107.
- 3 - ويلاحظ يوم التطبيق الحرفي لهذه الفكرة البربرية بواسطة الفرنسية أفني تدريس ما سموه « الأمازيغية » حيث تدرس بواسطة الفرنسية كتابة وطقا والواحد كما سبق في ذلك في حينه.

## 1 - مقاومة المحاكم الشرعية وإحياء ما يدعو منه من أعراف قهلية كيما كان أمرها :

لأن ذلك وحده الكفيل بجمل الناس بقانون قانونا مدينا متطورا نحو القانون الفرنسي. بسبب عجز الأعراف الجاهلية عن الحياة والاستمرارية مما يجعلها مظطرة تبحث عن الأفضل فإذا لم تجد شريعة القرآن اضطرت إلى القانون الفرنسي بدلا عنها وعن شريعة القرآن لأنها لا تجد غيره، وبذلك أصبح قانون الجزائر مستمدا تاريخيا من الأعراف غير المدونة، ولكنه من الناحية العملية يصبح مستمدا من قانون فرنسا والعلم اللاتيني<sup>(1)</sup>. أي تحويل الناس فهرا من التحاكم إلى الإسلام وشريعته إلى تحاكم بشرائع النصارى - وقد أجبر الناس في بلاد القبائل الجزائرية في إطار هذه المقاومة للمحاكم الشرعية على عدم التحاكم إلى شريعة القرآن وأجبروا على التحاكم إلى العرف القلي، وهذا هو أساس منع المرأة من الميراث نهائيا في بلاد القبائل طيلة ما سبق وما لحق بعد دوفوكو من العهد الإستعماري إلى الإستقلال، بحيث لو أراد شخص توريث المرأة فإن المحكمة ترفض ذلك حتى لو كان ذلك عن طريق الوصية، والغرض من هذا واضح، وهو إبعاد الإسلام من تنظيم شؤون الناس وإبعاد الناس عنه وإجبارهم جبرا إلى القانون الفرنسي. بعبارة أخرى إبعاد الإسلام من الحياة نهائيا، ذلك أن التحاكم بالقانون الفرنسي إضافة لنتائجه السابق ذكرها فإنه سيؤدي أيضا إلى نتائج وخيمة على المجتمع حيث ينتج عند اتجاه الناس نحو العادات والتقاليد والأخلاق الفرنسية المتوافقة مع ذلك القانون المتنافضة مع الإسلام، ومن الأمثلة على ذلك الخمر والزنا والقمار فبها في الشريعة الإسلامية جرائم كبرى لا يجوز التفريط بها، والأولى أن فيهما حدود شرعية صارمة، بينما هي في القانون الفرنسي لا تعد جرائم أصلا وبذلك يلقى الإسلام من سلوك الناس ليرتموا عبيدا في أحضان الذين استعمروا بلادهم ويريدون أن يبذلوا لهم دينهم وهذا ما جعل دوفوكو يعمل بلا هوادة للحيلولة دون فتح المحاكم الشرعية في التوارق وتوكلت وتوات<sup>(2)</sup>.

وإلغاء المحاكم الشرعية يعني ببساطة إجبار الناس على اعتناق اللانكية، وقد بينا قبلا أن هذا العمل بدأت به فرنسا لحظة احتلالها مدينة الجزائر في سنة 1830م عندما ألغت المحكمة الحنفية ونكلت بالعلماء بإغواء بهذا بعد دوفوكو من الذين أجبروا الجزائريين على اللانكية، بغرض التصدير والإستعمار، وهو ما بينه بدقة لوسيان سان حين قال: « إن عرس قانون في البلاد المحمية والمستعمرة هو إحدى وسائل سيطرتنا الدائمة »<sup>(3)</sup>.

## 2 - القضاء على اللغة العربية وإتباع سياسة الفرنسية : وذلك بثلاثة وسائل :

1 - المنع المباشر لتعلم اللغة العربية. وقد ذكرنا قبلا كراهة دوفوكو لزعيم التوارق بسبب فتحه لمدرسة في تمنراست. وهذه القضية هي قاسم مشترك بين جميع الفرنسيين إكليروس وساسة وعسكريين، وسنوضحها أثناء حديثنا عن أركان الحركة البربرية (التبشير من خلال الحركة البربرية).

1 - المرجع نفسه، ص 1108.

2 - المرجع نفسه، ص 1107.

3 - المرجع نفسه، ص 1108.

2 - خلق صيرة للغة العربية، وهي المدرسة البربرية التي يتم لتعليم فيها بالفرنسية وبعدها يمنع تلاميذها من الكلام بالعربية وحمل اللهجات البربرية تكتب بالحروف اللاتينية<sup>(1)</sup>. ولكن أيضا لغراد اللغة الفرنسية، بل بهذه اللغة قلبا وقلبا وهذا ما رأينا رأي العين في المطبوعات التي تدرس منها القبائلية في جامعة تيزي وزو. وهذه فرنسة حقيقية، لأن الطفل قبل أن يتعلم القبائلية يجب أن يتعلم الفرنسية أولا ليدرس بها القبائلية.

3 - سياسة الفرنسية المباشرة: بغرض التصير والتمكين للإستعمار. وقد ظهرت سياسة الفرنسية في أشكال مختلفة في كل من تونس والجزائر والمغرب وهي الأماكن التي تجول فيها دوفوكو ودرسها، ومن ضمن سياسة الفرنسية :

أ - سياسة التجنيس: ظهرت هذه السياسة أيضا بتخطيط من دوفوكو في تونس التي أخضع متجنسوها للقضاء الفرنسي حتى فيما يتعلق بالأحوال الشخصية، وقد خطط دوفوكو لهذه السياسة لعلمه أن المسلم المتجنس بعد مرتدا ومتى حكم عليه بالردة سهل تصيره، أي تبعيته للديانة التي تنتمي إليها جنسيته الجديدة<sup>(2)</sup>.

أما الجزائر فقد ظهرت فيها نزعة بكاملها لها رجالها ومطالبها أصحابها هم دعاة الاندماج والتجنيس الذين سنتحدث عنهم خلال حديثنا عن الحركة البربرية والأركان التي تقوم عليها، وما يهمنا هنا هو تأثير هذه الفكرة الخطيرة للمنموية لدوفوكو.

وهو أن الدعوة إلى التجنيس والاندماج لم تعد قاصرة على الفرنسيين بل أصبح الفرنسيون يرفضون والمسلمون الجزائريون هم الذين صاروا يطالبون بما رآه قبلا شارل دوفوكو، وقسم من هؤلاء المطالبين - كما سنذكر - كانوا مستعدين للتخلي عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي مقابل الاندماج والتجنيس، وهو تعبير صادق عن مدى نجاح سياسة الفرنسية.

والخلاصة هنا أن سياسة التجنيس إنما هي شكل من أشكال الفرنسية، وكان صاحب هاتين السياستين دوفوكو، الفرنسية سبقاء بالدعوة إليها بوغارد ولافيجيري، وأما التجنيس فقد انفرد به دونهما<sup>(3)</sup>.

ومن أهدافه من سياسة التجنيس إخضاع المتجنسين للتبعية الفرنسية وخلق ظروف تجزئة وانقسامات جماهيرية<sup>(4)</sup>. أي تحويل الصراع من مجراه الطبيعي بين مستعمر دخيل ومستعمر مظلوم بدافع عن حقه إلى صراع داخلي بين الفئلت والاتجاهات وما على الاستعمار بعد ذلك إلا أن يعيش في أمن ويدير حلبة الصراع بثقتان.

1 - المرجع نفسه، ص 1107.

2 - بقاسم لحطاي، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى، ص 87.

3 - المرجع نفسه، ص 87.

ب - سياسة السيطرة على الفكر الأهالي، أو ما يسمى سياسة التحضير والتثقيف : ينطلق دوفوكو في هذه تسمية من أن غاية الوجود الفرنسي لا تقتصر على مجرد السيطرة السياسية المرتكزة على الخبة العسكرية، بل لا بد من السيطرة على الأفكار وعلى المدى البعيد، لتأليف القلوب والسير بها نحو النصرانية، ولتحقيق هذه السيطرة فلا بد أن يشترك في العمل على تحقيقها كل الجهاز الاستعماري من جنود وإكثروس ولا تكيين وغيرهم كلهم يتعاونون من أجل تمدين وتحضير الشعوب المستعمرة، هذا العمل التحضيري ضروري من وجهة النظر الاستعمارية ومن وجهة النظر النصرانية -التنصيرية- . ولكي يتحقق هذا التحضير يشترط دوفوكو وجود حكم صالح، ونتيجة هذا الحكم الصالح كما كتب دوفوكو في سنة 1912: «لوتيسر الحكم الصالح إنن لأصبحت هذه الإمبراطورية الواسعة خلال 50 عاما امتدادا لفرنسا، أما إذا حكمت حكما سيئا. وللأسف، أي إن استثمرت بدل أن تحضر أو تتعلم أو تدرس، فإن هذه الإمبراطورية الجميلة سوف تغت من أيدينا بأكملها»<sup>(1)</sup>.

ومن هنا فإن الحضارة والثقافة الفرنسيان ضروريان لنجاح التبشير، وبدونهما فإن التبشير لمحض لا مفعول له على الشعوب الإسلامية، ولقد أثبت الواقع صحة خطة دوفوكو الجهنمية، فإن الذي حطم المجتمعات الإسلامية ليس التنصير المحض، بل التثقيف ونشر الحضارة الفرنسية.

ومن هنا نتساءل: كيف يتم تحقيق نشر الثقافة والحضارة الفرنسيان؟ ويجب دوفوكو بأنه يتم بما يأتي :  
- الاختلاط الكلي للفرنسيين بمختلف فئاتهم واتجاهاتهم بالجزائريين للتأثير في عقولهم وعاداتهم، كل ذلك يتم بلطف وهدوء، وبتفقيهم ثم تنصيرهم، وهنا يتساءل المرء: أيهما أسبق: التثقيف والتحضير أم التنصير؟ والجواب كما أجاب به هو بنصه: « إن السبيل الوحيد الممكن هو السبيل الآخر، الأطول كثيرا: التثقيف والتحضير أولا، ثم فيما بعد تغيير الدين ». دوفوكو بين هذا بدقة في رسالة إلى صديق له في 4 حزيران 1908 م قائلا: «من الواجب أن ينطلي البلد كله برجال الدين والنساء وبالنصارى الصالحين فيما يشون هؤلاء المسلمين البؤساء ويختلطون بهم لتقريبهم بلطف ولتثقيفهم وتحضيرهم، وأخيرا عندما يصبحون رجالا، لنجعل منهم نصارى، المسلمون لا ينصرون أولا ثم يتم تحضيرهم فيما بعد، إن السبيل الوحيد الممكن هو السبيل الآخر الأطول كثيرا، التثقيف والتحضير أولا، ثم فيما بعد تغيير الدين»<sup>(2)</sup>.

ولكن ماهي الوسائل العملية لتحقيق الغاية السابقة؟

لقد صاغ دوفوكو توجيهات دقيقة فيما يخص الأساليب العملية للوصول إلى هذه الغاية البعيدة،

وفي تحديد الوسائل المؤدية إليها، وهي :

1 - دوفوكو، نصوص غير منشورة، ص 181. وقد عبر عن نفس الرأي تقريبا في أيلول 1912م « إذالم تحسن فرنسا إدراكها لأهل البلاد الأصليين في مستعمراتها عما هي عليه الآن، فإنها سوف تخسرهما » (كتابات روحانية، ص

243 ) عن طي مراد، المرجع السابق، ص 86، 87.

2 - طي مراد، المرجع السابق، ص 87.

« لرفع المعنوي والفكري للمسلمين من أجل تأمين عبورهم إلى الإنجيل » الوسائل كل لوستل<sup>1</sup> « لتقرب إليهم، معاشرتهم، مصداقتهم، ثم إزالة تحفظاتهم ضدنا عن طريق العلاقات اليومية لوفرة، ثم تغيير أفكارهم بالحديث، وبنمط حياتنا، تأمين التعليم، تأمين التنظيم الحق: وأخيرا القيام بتعريف هذه النفوس تنقيها تماما، تطعيمهم عن طريق المدارس والكلية ما يعلم فيها، تطعيمهم عن طريق التواصل اليومي الحميم ما يتم تعليمه داخل العائلة، أن نكون نحن عائلتهم...»<sup>(1)</sup>.

وقد علق علي مراد على هذا قائلا: « إن ماسبق برنامج تربية استعمارية خطيرة، ولكن ما نلاحظه أن التنظيم والتنقيف للذين دعا إليهما دي فوكو لتحضير الأهالي بغية تصديرهم كان يتناقض مع كبار رجال الاستعمار الفرنسي الذين كانوا يرون في ذلك خطرا على الإستعمار، لأن النخبة التي ستكون مستطاب بالتححرر من الإستعمار.

بينما شارل دوفوكو يرى أن هذا التطور الأيدي والفكري هو الذي يحول هذه الشعوب تحويلا يمكنها من « التعرف على بهتان دينها، وحقيقة وصحة ديننا »<sup>(2)</sup>. وذلك شريطة توجيه الثقافة بحيث تصبح كافية لإبعاد المسلمين عن عقيدتهم، لأن الإسلام في زعمه لا يتحمل مظاهر الثقافة كالتاريخ والفلسفة.

ومن هنا فإن الطبقة المحرومة التي كان يتقرب إليها من الأهالي يريد أن يجعلها تتصور كقرب زوالها<sup>3</sup> إن واصلت نهج الإسلام، وفي الوقت ذاته، فإنه من خلال تلك الثقافة الموجهة يضخم دور مكثة فرنسا الجبارة ويرى أنه لا يمكن التصدي لها لما لها من الإمكانيات العسكرية والاقتصادية والإعلامية<sup>(4)</sup>، وبهذا يبدو جليا دوره الإستعماري وأن التصدير والإستعمار لاغنى لأحدهما عن الآخر.

### 3 - الحيلولة دون اتصال سكان الجبال والمناطق النائية بالفقهاء وحلظ القرآن والقضاء على الكتابيب القرآنية :

والإكثار من الكنائس ومراكز التبشير حتى يحل الراهب محل المرابط . ولتحقيق هذا فلا بد من منع الأشراف ورجال الطرق الصوفية حتى ولو كانوا من أصدقاء فرنسا من التجول في تلك المناطق المحروسة لتصبح حمى لفرنسا والنصرانية<sup>(4)</sup>، وهنا يبدو جليا تأثيره بلافيجيري، ونشير هنا بأن هذه السياسة طبقتها فرنسا بالفعل في بلاد القبائل وقد عننت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من هذه السياسة المجحفة ما يشيب له للولدان.

كما طبقت فرنسا هذه السياسة ذاتها في تونس والمغرب مع بعض الفوارق التي يقتضيها المكان<sup>(5)</sup>.

1 - دوفوكو، كتابات روحانية، ص 257، عن علي مراد، المرجع السابق، ص 89.

2 - المصدر نفسه، ص 256، عن علي مراد. المرجع السابق، ص 91.

3 - بلقاسم لطفي، حركات التبشيرية في المغرب... ص 137.

4 - وهذا ما فعله الإنجليز على سبيل المثال في جنوب السودان مما جعله يعاني إلى يومنا هذا.

5 - حلال للنسي، المرجع السابق، ص 1108.

ما سبق تنتج عنه نتائج خطيرة تتمثل في تحطيم البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع، حيث سينجر عنه:

أ - إدماج البربر بالفرنسية والفرنسية بإعتبار أصلهم النصراني اللاتوني المزعوم.

ب - استبعاد العرب من التمدن بإعتبارهم غير قابلين للتحضّر.

هذا التقسيم يولد الزعامات البربرية - المصنوعة - وهو الذي نشاهده اليوم عيالا - وإيراز لتأهضت لحدا - المصطنعة أيضا - التي تؤدي إلى صراع مستمر بين البربر والعرب اللذين يزلغان مجتمعا واحدا في اللغة والعادات والطبايع والحضارة وحتى العرق .

ولقد اعتقد الفرنسيون بالجزائر أن سياسة التصيير متمكنهم من البقاء إلى الأبد، وهو ما كان يؤمن به دوفوكو وذلك بتأمين الإنسان الأوربي ليكون المقاتل والمزارع والفلاح والعامل والمبشر والمستوطن الذي تستوعب بواسطته كل ثمار الإستعمار. ولما كان الإسلام هو العائق الوحيد فقد خلقت لسياسة البربرية لمقاومته لأنه مصدر العقيدة والشريعة. ولا أدل على هذا من أن جميع دعاة الحركة البربرية اليوم يطالبون بإلغاء قانون الأسرة الإسلامي. بل بلغ بهم الأمر التثديد ببناء مسجد في تيزي وزو كما سنبين أثناء حديثنا على نتائج أحداث تيزي وزو الثانية. ولهذا الغرض، فقد قرر دوفوكو ولساقه من إكليروساسة وعسكريين وجوب استيعاب البربر بإحياء قوانينهم العرقية وإذابتها في القانون الفرنسي حتى يتحكم البربري والعربي على السواء في نهاية المطاف إلى قانون فرنسا بدل شريعة قران مما يذنبهم معا في المجتمع الفرنسي النصراني، بعد أن يمسحوا حضاريا، ولجعل هذا المخطط الجهني ينطلي على البربر فقد أشاع بعض الفرنسيين. « أن البربر كانوا ومازوا مسيحيين، وأن المبشرين الذين بنتهم فرنسا بين القبائل البربرية، إنما هم وعاظ يذكرون إخوانهم يدينهم القديم لادعاء إلى دين جديد أو معتقدات غريبة » (1).

ومن هذا المنطلق، جعلت الأولوية في قائمة الاهتمامات الإستعمارية الاعتناء بالرواد والمبشرين وذلك للحيلولة دون تعاضم الشعور الذيني الإسلامي في نفوس الأهالي، وقد « عمل دوفوكو على نشر النفوذ الفرنسي وإدماج المكان في الحضارة الفرنسية وتصييرهم. والتصيير هو المقصود الأساسي في إعتقاد دوفوكو، والتمعير - أي الإستعمار - وسيلة لتحقيقه » (2). « وموافق دوفوكو يتميز بالعمل على طمس أساس قضية الاحتلال الظاهري. لتنفيذ مخططات التبشير حتى لا تتبلور السياسة العسكرية المعادية التي تسود كل غزو عسكري، أي تحبيب الإستعمار للناس وتزيينه في نفوسهم » (3). « وبهذا كانت أعمال دوفوكو الزمنية متناغمة مع الخط العام للسياسة الفرنسية الرسمية، وظل هذا الضابط القديم حتى النهاية نصيرا للتوسع الفرنسي في إفريقيا، متضامنا عمليا مع النظام الإستعماري » (4).

1 - بقلم فحلثي، الحركات التبشيرية، ص 88.

2 - بوسران الشيخ شارل دوفوكو في مذكرات، المجلة التاريخية المغربية، جاني، 1980، ع 17، ص 18، ص 141، 142.

3 - بقلم فحلثي، المرجع السابق، ص 88، 89.

4 - طي مراد المرجع السابق، ص 108.



ركلت أصله تقوم على ثلاث ركائز أساسية، هي :

أ - الإستطلاع والإستكشاف والجريسة.

ب - التتمير العسكري والمشاركة فيه والعمل على مسح آثاره.

ج - التصير.

والهدف من كل هذا شينان: التصير وتثبيت الإستعمار وإستكمال السيطرة على الجزائر كلها. ويمكننا القول بأنه من خلال ما سبق، يتبين أن ما قام به دوفوكو لم يكن عملا فرديا قام به فسيم، أو ضابط قديم، أو مستكشف، بل هو عمل جماعي شارك فيه المستشرقون وعلى رأسهم رينان وماسينيون، ورواد الإستكشاف، وعلى رأسهم لوفيريبي، والإكليروس وعلى رأسهم لافيجري، ورجال الجيش، وعلى رأسهم الجنرال لابرين. كل هذا تحت إشراف الدولة الفرنسية وهذا ما يتوافق تماما مع تعريفنا للتبشير الذي توصلنا إليه في تحديد المفاهيم من أنه: « العمل التعاوني المنظم لإحلال الحضارة الغربية المسيحية محل غيرها من الحضارات عامة والإسلامية خاصة، مع الحرص على عدم المساواة بينها وبين تلك الحضارات، بحيث تكون الحضارة الغربية مستعبدة، وما عداها مستعبد » ولقد صنف على مراد عندما قال عن دوفوكو: « لم يستطع إلا أن يسلك في حدود السنوات 1900-1915 مثلا مسلك « الحليف الموضوع للنظام الإمبريالي »<sup>(1)</sup>.

ولأهميته فقد أصبحت شخصيته ومسيرته عبر الصحراء الجزائرية وكذا كتاباته ومراسلاته موضع اهتمام كثير من المفكرين والتماسة بل وحتى الأوساط الفنية حيث قامت السينما الإستعمارية (الكولونيالية) في الثلاثينات والأربعينيات بإنتاج فيلمين تخليدا له، كلاهما من إخراج ليون ورايي.

الفيلم الأول «تداء الصمت» أخرج سنة 1936 م، وبمجرد ظهوره أحيطت به دعابة كبيرة في الأوساط الاستعمارية لكونه - حسب تلك الدعابة - تناول شخصية «رجل عظيم». أما شعاره الأساسي فكان: «هذا الفيلم تم إنتاجه بمشاركة 100 ألف فرنسي تخليدا لذكري وحياة شارل دي فوكو»<sup>(2)</sup>.

ومن الذين شاهدوا هذا الفيلم الأب: ميشال ليون سنة 1942م وقد قال عنه بعد مشاهدته الفيلم :

« اكتشفت رجلا ترك كل شيء ليتبع المسيح ويحمي الإنجيل بالصدقة الأخوية مع المغاربة »<sup>(3)</sup>.

في هذا الفيلم يحاول ليون ورايي تتبع مسيرة دي فوكو في المغرب والصحراء الجزائرية يقدمها على أنها حياة هادئة فيها دعوة إلى تعاليم «يسوع» بعيدا عن حب الحياة ومضاهرها وخدمة البسطاء في أرض بعيدة مقتديا في ذلك بشخصية «يسوع» ويظهره على أن مهمته

1 - المرجع نفسه، ص 109.

2 - ش. هيسي، شارل دوفوكو في السنما الكولونيالية لشرق لتقالي (مجلة لشرق العربي) الجزائر، 26 ماي 1994، ع 44، ص 6

3 - على مراد، المرجع لسابق، المقدمة (وقد كتبها الأب ميشال ليون)، ص 11.

لسمي إلى أهداف سامية، وليس فيه أية إشارة إلى الجوسسة والتدمير العسكري، والعمل بلا هوادة لإكمال السيطرة الفرنسية على الصحراء الجزائرية<sup>(1)</sup>.

أما الفيلم الثاني فجعل عنوانه "الطريق المجهول" أخرج في سنة 1946 م. ومضمون هذا الفيلم أن الطريق الذي سار عليه دوفوكو لم يكن من ورائه أي رغبة في بلوغ هدف معين محدود يعنى تجريد مسيرة دوفوكو من أهدافها الزمية - الغرض الإستعماري -

والفيلمان يدخلان ضمن الإنتاج الذي يركز على تصوير الحياة اليومية للمعمر وإشارة بالجندي الغازي وتجنيل دعوات المبشرين<sup>(2)</sup>.

هذان الفيلمان عن دوفوكو أنتجتهم فرنسا اللانكية فهل اقتدى بها لاتكيبو الجزائر.

الجمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4 - م. حسي، المرجع السابق، ص 6.

2 - المرجع نفسه، ص 6.

## القسم الثاني

الحركة البربرية

### الباب الأول

نشأة الحركة البربرية وتطورها

### الفصل الأول

#### ظهور الحركة البربرية

معنى كلمة بربر :

- كلمة "بربر" عربية أصيلة تدل على الأصل العربي لأصحابها، حيث نجدها في قواميس اللغة العربية بأنها تكرارا لكلمة "بر" العربية، وقد وردت في القرآن الكريم بعدة معاني منها :
- إسما من أسماء الله الحسنى ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم ﴾ (1).
  - صفة من صفات الأنبياء الخلقية ﴿ وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا ﴾ (2).
  - ضد البحر ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ (3).

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن أصل التسمية يعود إلى إنتساب قبائل من البربر إلى بر بن قيس غيلان، وهو من أجداد العرب كما بين صاحب "لسان العرب" وغيره وبهذا يكون لهم شرف الإنتساب إلى النبي ﷺ لأن مرضعته حليلة السعدية رضي الله عنها يرجع نسبها إلى قيس غيلان، مما جعل البربر أو عرب الجبال في الحقيقة أحوال الرسول ﷺ من الرضاع.

ويذهب مؤرخون آخرون إلى أن التسمية جاءت من معنى أصل الكلمة "بربر" في العربية التي تعني إختلاط الأصوات من "بربرة الأسد" إذا زمجر، وجاء في "لسان العرب" أن "البربرة" : كثرة الكلام والجبلة باللسان وقيل الصياح، ورجل "بربار" إذا كان كذلك.

وقيل أن كلمة "البر" التي هي ضد البحر هي أصل التسمية ، ذلك أنه عندما كان اليونانيون والرومان يهاجمون عرب شمال إفريقيا من السواحل كان الأهالي يتنادون باللجوء إلى البر جبالا وأودية فينادي بعضهم بعضا : " البر ... البر" ثم يتخذون من هذه البراري جبالها وأوديتها وكهوفها... جبهة للمقاومة الشعبية ضد الإستعمار الذي يحتل سواحلهم وعندما سمع اليونانيون والرومان تلك النداءات " البربر" ورأوا آثار هجوماتهم المباغثة تدك معانقهم أطلقوا عليهم اسم " البربر" ثم إستعمل اليونانيون هذه اللفظة دلالة على الوحشية والهمجية وتنقيسا عن حقدهم الدفين تجاه عرب الجبال الذين لم يمكنوهم من رقابهم، يدل على ذلك معاني الكلمة في قواميس اللغات اللاتينية بدون إستثناء، ومنها :

Barbarie : فظ، همجية

Barbarian : متوحش

(1) الطور / 78

(2) مريم / 36

(3) الإسراء / 67

## متوحش : Barbarous

## وحشية : Barbarism

والنتيجة أن كل ما سبق له دخل في التسمية، فكلمة " بربر " عربية أصيلة وكثير من البربر ينتسبون إلى بربر بن قيس غيلان، وقد أطلق هذا المصطلح على عرب شمال إفريقيا اليونان والرومان للأسباب التي ذكرناها، فأخذوا اللفظة من اللغة العربية وأطلقوها على كل من لم يتكلم لغتهم أو غير خاضع لهم، ثم أطلقوها على غيرهم إحتقارا وإستصغاراً<sup>(1)</sup>. وجعلوها ذات مدلول ثقافي بحيث تشمل كل الذين لم يساهموا في الثقافة الإغريقية الرومانية للحط من قيمتهم بإعتبارهم يقاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة وأعشاب المروج على طريقة المواشي<sup>(2)</sup>. قاصدين بهم مستعمرهم بالشرق الأدنى وشمال إفريقيا وحتى أوروبا.

ثم أقام بعض المؤرخين الأوروبيين فرقا في الكتابة بين مصطلح " البربر " العربي الأصيل والتسمية الرومانية لهم، وذلك بإستبدال حرف (A) في كلمة (Barbare) بحرف (E) في كلمة (Berbere) بهدف فصل البربر عن العرب في المغرب العربي، وبهذا فإن كلمة " بربر " لا تتضمن أي مضمون عرقي وإلا لكان البربر إحتفظوا به بعد الإسلام مثلما إحتفظ الأفغان والأكراد والفرس وغيرهم بمضامنتهم ومميزاتهم العرقية اللغوية إلى الآن، ومما يؤكد عدم أصالة تسمية " البربر " عرقيا هو تسميات فئات البربر المتعددة المنتشرة من صحراء مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي بحيث لسو سألت أي فرد منها " هل أنت بربري " لما فهم قولك، لأن تسميات هذه الفئات إتخذت صفات جغرافية أو مهنية وهي أبعد ما تكون جميعها عن المضامين العرقية، ومنها :

- **الشواوية** : نسبة إلى الشاه، وهي عشائر تربي الشاه وتنتشر بالشرق الجزائري، ويوجد في بادية الشام - الصحراء المشتركة بين سوريا والعراق - مناطق يسمى سكانها (شواوية) وهم يربون الشاه أيضا.

- **الطوارق** : وهم موجودون بالهقار وبأقصى جنوب الجزائر، وهي تسمية عربية من طروق باب الصحراء، يطرقه، فهو طارق، وهو مصطلح قرآني ﴿ والسما والطارق ﴾<sup>(3)</sup> فهم طوارق أو أطراق.

- **الميزابية** : يستقرون بغرداية، وأخذت تسميتهم من وادي ميزاب الذي يقيمون به.

- **القبائل** : جمع قبيلة، وهي تسمية عربية، وتطلق وتكتب الهمزة ياء وهذا عربي أيضا ويسمى "التسهيل".

(1) عبد الكريم مطيع، حرب و بربر: مؤامرة لتصفير المغرب وإحتلاله، سلسلة : نحو دلائل إسلامية نشر الشبهة الإسلامية المغربية ص 1-30 ( الكتاب، مطبوع 14 محل بيانته غير كاملة، وقام حمير بن فينة بتلقيه بمرحلة الشعب، الأحد 29 أبريل 1990 م ، ع 8241 ).

(2) هشام الصفاوي، نحو وحى أفضل لتاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، ع 8 ، ص 171 .

(3) الطارق / 1

وهكذا فلو كان البربر غير (1) عرب لإحتفظوا بتسميتهم و غرسوها في نفوس أبنائهم كما فعل الفرس والأفغان وغيرهم رغم قربهم جغرافيا من شبه الجزيرة العربية عكس البربر، ولا أدل على هذا من أنه لا أحد من سكان شمال إفريقيا يعرف معنى كلمة "بربر" ومدلولها إلا من تعلمها (2).

### معنى النزعة البربرية :

وأما النزعة البربرية " فهي التيار الذي أوجده الفرنسيون بالجزائر من أجل تفكيك الوحدة الوطنية فيها، لقد عمل الفرنسيون قبل إستقلال بلدان المغرب العربي على عزل أقلية الجماعات الناطقة بالبربرية عن غالبية السكان العرب، ونشر التعليم الفرنسي والمبشرين بمناطقهم وبث فكرة : " أنهم هم أصحاب البلاد الأصليون، وأن العرب مستعمرون، وأن اللغة العربية دخيلة، وأنه لا بد من التكتل للتخلص من الوجود العربي، وأنهم أي البربر لا علاقة لهم بالعرب ولا بالساميين، وأن أصلهم أوروبي، وأن مجئ فرنسا لشمال إفريقيا هو لمساعدتهم على العودة إلى أمهم أوروبا" (3)، وهو ما بينه بوضوح فيكتور بيكي (Victor Piquet) المختص بهذه المسألة مستشهدا برأي مختص آخر قائلا : "إن العالم المختص في أمور البربر المسيودوتيه (Douté) الذي جال بين قبائل البربر نوه بحاسن سجايا هذا الشعب البربري وقال : إن به مناط الأمل في إفريقيا... إنه شعب يظهر عليه الميل من نفسه إلى المدنية الفرنسية، لذلك يجب علينا قبل كل شيء أن لا نعربه أكثر مما هو، ولأجل بلوغ هذه الغاية يجب أن يحمل البربر على الثقافة الفرنسية أو أن يتكلموا بالفرنساوي قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي إليهم، وعلى هذا الشكل يتحقق بلا ريب - أكثر مما هو مطنون - خيالنا العظيم بمراكش فرنسية ... وفي النية تأسيس مكاتب فرنسية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد البربر وهذا تصور حسن جدا ... فإذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها إلا بعض أقوام من البربر، فإن قسما عظيما من المغرب الأقصى لا يعرفون العربية أو يتكلمون اللغتين البربرية والعربية، وليس لنا أدنى مصلحة أن ننشر بينهم اللغة العربية، لغة الجامعة الإسلامية، بل بالعكس (4).

(1) لم نتطرق إلى أصل البربر هل هم عرب أم ليسوا عربا إلا عرضا لأننا نؤمن بأصلهم العربي الذي شهد المؤرخون الفرنسيون المفروضون في إنكارهم له. وخطوا في أصولهم بحط عشواء. ولأن الذي يهنا لهم مسلون عنهم القرآن الكريم، ولأن الأصل العرقي اليوم لا وزن له في عالم يقوم على العلم والفكر، فالذي يعنى قيمة للإنسان ليس كونه قباليا أو تركيا بل ما عنده من أفكار تحمل مشكل الإنسان، ولأن التشبث بالأعراف اليوم إما هو ميزة للتخلفين حضاريا المستنيرين ثقافيا ولا يدل على هذا من الولايات المتحدة التي يوجد بها أكثر خليط من الأعراف ومع ذلك فإن القضية غير مطروحة، فكلهم منصفون في ثقافة واحدة هي اللغة الإنجليزية. كما أن القول المتقدمة اليوم تنحى إلى تجاوز الأعراف والإجماع نحو التكتل الأكبر كما هو حال الإتحاد الأوروبي، ومن أراد التوسع في معرفة الأصل العربي للبربر فليرجع إلى مقالة ابن خلدون، وكنا عثمان سعدي، الأمازيغ "البربر" حرب عاربة، وثمان سعدي أمازيغي شاي، وقد أقر بنسبه إلى العرب ولا أحد يستطيع أن يظن في نسبه.

(2) عثمان سعدي، الأمازيغ "البربر" حرب عاربة، ص 30.

(3) المرجع نفسه، ص 30.

(4) victor piquet. Le maroc. Paris, 1918. P302 عن شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج 1، ص 87.

وقصة الظهير البربري<sup>(1)</sup> أشهر من أن تفصل القول فيها بالإضافة إلى مئات الكتب بالبربرية بجميع لهجاتها، ولقد بينا قبلا ما فعله أقطاب التبشير الثلاثة كما بينا العلاقة بين "دوفوكو وماسينيون" ونذكر هنا في هذا السياق أن ماسينيون نفسه ألقى محاضرة في سنة 1927م بمعهد كوليج دي فرانس تحت عنوان "الوحدة البربرية"<sup>(2)</sup>، كما أسس الفرنسيون بالمغرب الأقصى "معهد البحوث العليا المغربية للدراسات البربرية" وأنشأوا لذلك مجلة "هيبريس" والواقع أن هذه المحاولات لتمزيق الشعب الواحد شملت المغرب والجزائر وتونس. وطرابلس من طرف إيطاليا.

وإكتست المحاولات طابعا علميا في ظاهرها، ففي تونس قام طبيبان بتأليف كتاب ضخيم في مقاييس جماجم البربر وأوصافهم وسماتهم العضوية العرقية، مع مقارنة بسمات ومقاييس جماجم الغالبيين<sup>(3)</sup>، وفرض الإستعمار على أبناء المدارس المسلمين الجزائريين أن ينشدوا: "كان أجدادنا من الغالبيين وكانت بلادنا في القديم تسمى غالبا". وأن يتشرفوا بالإنسحاب إليهم والغرض من هذه المحاولات إنما هو الإدماج<sup>(4)</sup>. يهدف التنصير والإستعمار.

وهكذا نشأت الحركة البربرية، أنشأها الإستعمار الفرنسي بكل فنائه وأقطابه، بورغاد ولافيجري دعيا ونظرا، ولوفيري ودوفوكو أنشأ التيفيناغ، وماسينيون إضافة إلى الدعوى أنشأ الرجال الجزائريين الذين يتفنون الخطة بإحكام.

وهكذا فإذا كانت الظاهرة قد وجدت عند الفرنسيين منذ دي بارادي على الأقل الذي ألف أول معجم بالعربية والقبائلية والفرنسية في سنة 1788م، فإننا نجد بعض الجزائريين قد أخذوا يجاهرون بها في أحضان ماسينيون ويتوجبه أهداف إستعمارية ودينية، ولقد ذكرنا قبلا علاقته الحميمة بدوفوكو وتعاونية معه كما ذكرنا أنه ألقى محاضرة بعنوان "الوحدة البربرية" في سنة 1927م، وهكذا فإن الذي كرس مصطلح "البربر" للدلالة على العرق هم الفرنسيون وعلى رأسهم ماسينيون ولقد بين بدقة هذه الحقيقة وعلاقة ذلك بالتنصير والإستعمار ومفهوم النزعة البربرية الشيخ الإبراهيمي قائلا: "لا يجد الباحث عناء في العثور على مصداق ما قلناه من تمكن النزعة الصليبية في هؤلاء القوم، فهذه باريس... تضم فيما تتضمن عليه بنية "صناعية" لصنع العقول، يديرها رجل دين، ويديرها مستشرق شهير، وتنف جهودها ونشاطها على تغذية النزعة البربرية، في نفوس أبناء الجزائر والمغرب، من التلامذة الدارسين للعلم، أو العوام العاملين للقوت، وتغريهم بالتكبر للإسلام لأنه دين العرب، وبالتصل من العربية لأنها جنسية طارئة غريبة، وتحاول إقناعهم بأن هذا الوطن بربري، وأن العقليّة البربرية أقرب إلى اللاتينية منها إلى العربية، بسبب قرب الجوار وصلة البحر المتوسط المتقارب الشاطئين،

(1) صدر في 16 مايو سنة 1930م.

(2) عثمان الكمامك، الربور، تونس، 1956، ص124.

(3) المرجع نفسه، ص134.

(4) عمار طاهي، ابن باديس حياته وآثاره، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1، ص50، 51.

وبما تركه الإستعمار اللاتيني القديم فيها من آثار وتلاقيح، ولم يظلم المارشال " ليوتي" من نسب إليه وضع الحجر الأول لبناء هذه المدرسة .....<sup>(1)</sup>.  
وهذا يدعونا إلى الحديث عن ظهور النزعة البربرية على المستوى الجزائري بعد أن بيننا ظهورها على المستوى الفرنسي وأهداف فرنسا من نشأتها.

### ظهور الحركة - النزعة - البربرية على المستوى الجزائري:

ونقصد بهذا المرحلة التي ظهر فيها من الجزائريين من يتبناها ويدعو إليها، وسنجد أنها تسير بدقة في نفس الخط الذي وضعت في إطاره، وقد نشأت وترعرعت في هذا المستوى في أحضان ماسينيون ورئيس بلدية باريس والمخابرات الفرنسية، ظهرت في الحي اللاتيني بباريس في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من هذا القرن<sup>(2)</sup>، بإشراف ماسينيون الذي ذكرنا قبلا علاقته بدوفوكو ومحاضرتة في سنة 1927 بعنوان " الوحدة البربرية"، وكذا رئيس بلدية باريس ورجال التبشير والمخابرات، ولقد برزت إلى العلن لتحطم الإتجاه الوحدوي عند طلبة شمال إفريقيا في الحي اللاتيني الذين إنضم إليهم مالك بن نبي. ذلك أن هؤلاء الطلبة أخذوا يعملون لتوحيد الصف بين طلبة الشمال الإفريقي المسلمين فأسسوا بذلك أول مركز يحمل هذا العنوان بشارع " لدرو رولان"، وكانت الإدارة الإستعمارية بالمرصاد تعمل لإخفاق المشروع وتسخر من أجل ذلك الإنفصاليين من الطلبة الجزائريين المتمسكين بالبربرية وبعضهم بنصرانية جوفاء إنقادوا إليها بغية الدنيا بدوافع إنتهازية صرفة<sup>(3)</sup>، وهذا يعني بوضوح أن الحركة البربرية نشأت ضد الإستقلال وخدمة لفرنسا.

حيث كان الصراع الطلابي بين " الوحدويين" والمنشقين الذين كان أغلبهم من الجزائريين المنضمين لوحدة إقليمية جزائرية تضم أيضا أبناء مستعمري الجزائر وهو ما يبين بوضوح العلاقة بين الحركة البربرية والمعمرين.

وكان علي رأس المنشقين عمار نارون<sup>(4)</sup>، يعمل بإيعاز الإدارة تحت إشراف رئيس المجلس البلدي لمدينة باريس السيد كولين الذي كان على إتصال بالأوساط الإستعمارية العليا المستعدة لتحقيق رغبات أي منشق، وقد إتخذ مالك بن نبي منذ البداية موقفا ضد الإنفصاليين منضمنا إلى الوحدويين مما إنعكس ذلك على أبيه بالجزائر فطرد من الوظيفة<sup>(5)</sup> كما سنذكر.

(1) محمد البشير الإبراهيمي: القضية ذات الذنب... الطويل، البصار، 1951م، ع175.

(2) وذلك لأن المحاضرة الأولى التي ألقاها مالك بن نبي ضد دعوات هذه الحركة والتي فصل والده بسببها من الوظيفة ضغطا عليه كي يركع وينظم إلى دعوات هذه الحركة إما كانت في ديسمبر 1931م (مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، الطالب، ط1، دار الفكر، بيروت، 1970م، ص312).

(3) المصدر نفسه، ص41.

(4) كان مرتقا معصرا (عبد الله حمادي)، الحركة الطلابية الجزائرية، 1871 - 1962 (مشاورب ثقافية وإيثولوجية، مط. الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين، سبتمبر 1994،

ص56.

(5) مالك بن نبي، الطالب، ص42.

وفي ربيع 1931 م أقيم في باريس معرض المستعمرات، فخصص به جناح للأباء البيض كان يوزع كتاباً صدر في تلك الفترة بعنوان "الرسائل الجزائرية" (Lettres Algerienne)، ألّفه المحامي الجزائري لدى محاكم باريس "حسني الأحمق"<sup>(1)</sup>، والكتاب عبارة عن مرافعة ضد الإسلام وضد العادات والتقاليد الإسلامية حيث صب عليه جام غضبه تشويهاً وتشنيعاً زلّفى من الأباء البيض لينال على أيديهم الزبائن الذين لم يكسبهم لمجرد موهبته لأنه لم تكن له أي موهبة في الفصاحة والبيان. ويندرج الكتاب في تلك الملابس التي كانت فيها الإدارة الإستعمارية تهين "الظهير البربري" كخطوة أولى لتتصير مراكش<sup>(2)</sup>، كما دعا في هذا الكتاب أيضاً إلى الاندماج مع فرنسا، وقد كتب مقدمة للكتاب الإستعماري الكبير موريس فيوليت<sup>(3)</sup>. ومع عودة السنة الدراسية إحتد الصراع أكثر في الحي اللاتيني بين الطلبة الوجوديين الذين دعموا بحمودة بن الساعي بعد وصوله إلى باريس مباشرة، وبين المنشقين الذين نشطت الإدارة الإستعمارية في الحي اللاتيني في إلقاء شباكها لتضطاد من الطلبة الجزائريين من تدعمهم بهم فدعمتهم بكسوس بعد وصوله مباشرة، هذا الذي كان على ما يعتقد ابن نبي يتطلع إلى منصب سياسي فأراد أن يكون لمناسبة وصوله صدى فالتقى محاضرة بنادي الطلبة المغاربة، ولكن نتيجتها كانت عكسية حيث كشفت الأفتعة وعرف كل فريق بسيماهم.

فريق "الواقعيين" مثل عمار نارون، المرتد المتصّر، الذي كان على رأس المنشقين.

وفريق "المثاليين" مثل ابن نبي وابن الساعي.

والمقصود "بالواقعي" هنا هو الطالب المستعد إلى كل التواطؤات مع الإدارة الإستعمارية حسب تعبير ابن نبي.

و"المثالي" هو المستعد إلى رفض كل تواطء<sup>(4)</sup>.

بعد المحاضرة تقدم مالك بن نبي بعد نظرة تبادلها مع حمودة بن الساعي بالإعلان عن عنوان محاضرة سيلقيها في المرة المقبلة، وكان الموقف كان يفترض رد الفعل، فجعل عنوانها "لماذا نحن مسلمون"، وذلك في أواخر ديسمبر 1931م، فتناول الموضوع مستنداً على تاريخ الشمال الإفريقي فأبهر الحاضرين، وما كان فريق الواقعيين "ليترك فرصة كهذه تمر دون رد فعل، فما أن أنهى مالك محاضرتة حتى صدر صوت يقول: لماذا نلتفت للماضي في الوقت الذي يهنا فيه المستقبل، فكان الرد أكثر إفحاماً من المحاضرة، ولقد ظل طيلة المحاضرة عمار نارون وكسوس يتبادلان نظر

(1) ذكر عبد الله حمادي أن اسمه "حنفي لحمك" (Hanafi Lahmek) عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 56.

(2) مالك بن نبي، الطالب، ص 44، 47-49.

(3) وقد نشر بباريس سنة 1931م وقد تعرض إلى ردود شديدة من طرف جمعية العلماء، ومن أهم ذلك الرد المشهور في جريدة الإندام "الأمن العمودي"، عدد 10 . 15-

09-1931. (عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 56-57).

(4) مالك بن نبي، الطالب ص 56، 57.



المتواطئين بينهما، ويقول ابن نبي مينا وقع هذه المحاضرة والتعقيب عليها في نفوس الواقعيين" ولم يكونوا عندما خرجنا من المحاضرة ليجرؤوا على مبادلتنا النظر"<sup>(1)</sup>.  
وهو ما جعل محمد الفاسي يطلق على مالك بن نبي "زعيم الوحدة المغربية".  
ولكن :

### ماذا نتج عن هذه المحاضرة ؟ :

أتى البوليس لمالك بن نبي وإسنطقه، وكان آخر سؤال: من ينفق عليك؟ والجواب: أبي، وبعد بضعة أيام دعي مالك من طرف لويس ماسينيون بواسطة طالب جزائري بلغه الدعوى بواسطة حمودة بن الساعي، وربما سبب ذلك أن هذا الطالب لا يريد أن يعرفه مالك بن نبي حتى لا يعرف عمالته لماسينيون ولكن مالك لم يلب الدعوة، وبعد لأي أخبره والده من تبسة أن رئيسه حاكم المدينة أمر بنقله إلى مكان آخر ويسأله: هل يستطيع ماسينيون التدخل لتصليح وضعه في الإدارة؟ وكيف لا يستطيع - يقول مالك بن نبي - وهو المستشار الخبير للحكومة الفرنسية في الشؤون الإسلامية ! .

فإضطر مالك بن نبي ليطلب موعدا من ماسينيون لزيارته وذهب، فاستقبله ولكنه ما جلس إلا قليلا حتى رن جرس الباب فقام ماسينيون ليتعقب هنيهة ثم يعود مستأذنا مالك بن نبي قائلا :  
إنه السيد حسني الأحمق، هل ترى مانعا إذا أدخلته للمكتب معنا؟، يقول مالك : تذكرت صاحب كتاب "الرسائل الجزائرية" فقلت بصراحة ومن دون تلطف : لا ياسيد لا أريد أن أراه"<sup>(2)</sup>، لم يبدو على وجه ماسينيون أي تغير واستمر في حديثه كأن شيئا لم يكن... لم أكن أشعر ذلك اليوم أن في تلك اللحظة كانت تنطلق الموجة الأولى من العاصفة الهوجاء التي ستجتاح مصير أسرتي ومصيري... فتحطمت رخوة لينة بفتور على شفتي ماسينيون الذي إصطحبني إلى الباب يودعني بكلمات لطيفة، ونقل والسدي من منصبه إلى غيره حيث لا تستطيع والدتي المريضة أن تلحق به، وكان الأمر مبيتا على ذلك من طرف رئيسه، بحيث إضطر والدي إلى طلب إجازة سبقي فيها إلى يومنا هذا، وهو عجز تجاوز الثمانين من العمر ضاعت كل حقوقه كموظف"<sup>(3)</sup>.

وهكذا نجد أن الحركة البربرية نشأت في أحضان ماسينيون الذي أنشأها لتحطيم الإتجاه الوحدوي لطلبة شمال إفريقيا الذي كان إتجاها أصيلا معاديا للإستعمار، فهو الذي كان يوجه عمار نارون وحسني الأحمق وكسوس وأتباعهم، ولما قوى الإتجاه الوحدوي لم يتردد ماسينيون في الضغط على مالك بن نبي لتركيعة بأن إتصل بحاكم تبسة أمرا له بما فعل بوالد مالك بن نبي بعد أن أخبره

(1) المصدر نفسه، ص 58.

(2) وقد حلق مالك بن نبي عن مولفه هذا قائلا: "لقد فلتني أن مولفي كان في منتهى عدم النور واللباقة بالإضافة إلى كونه عملا سياسيا (مالك بن نبي، الطالب، ص 62).

(3) المصدر نفسه، ص 61، 62.

الإين أن والده هو الذي ينفق عليه وهو نفسه الذي طلب من حاكم تبسة أن يخبر والد مالك بن نبي أن ماسينيون وحده القادر على حل مشكلته، إن إتصل الإين به.

وذلك مقابل إنضمامه للجنح البربري أو على الأقل إنفصاله عن الوجوديين " المثاليين " كما أن ماسينيون هو الذي أصدر أمرا إلى جهاز الأمن الفرنسي بإستئطاق مالك بن نبي هذا المستشرق الذي كانت الإدارة الفرنسية نفسها مسخرة له، وقد ذكرنا قبلا علاقته الحميمة بدوفوكو وتعاونهما كما نشأت هذه الحركة أيضا في أحضان رئيس بلدية باريس الذي كان في علاقة متينة بالسلطات العليا للإستعمار.

كما نشأت أيضا في أحضان الكنيسة، وقد بينا قبلا ما فعله أقطاب التبشير الثلاثة، كما ذكرنا أيضا أنها نشأت بالخصوص في أحضان الأباء البيض الذين عرضوا كتاب حسني الأحقق في جناحهما الخاص في معرض المستعمرات.

ولكن الإدارة الفرنسية بإكليروسها وماسينيونها وأمنها وجيشها وإدارتها أدركت خلال تطور الأحداث أن الصراع الموازي لا يؤدي إلا إلى نفور الناس منها، وقد رأيت كيف عصف مالك بن نبي وأصحابه الوجوديين بإتجاهها، وذلك لأن الإتجاه العميل مهما بلغت قوته فإنه يظل من الناحية النفسية والسوسيولوجية دليلا خانعا فاقدا لمبرارته، قد يظهر إعلاميا، وقد يضخم ويفخم، وقد يفرض على المجتمع بالقوة، ولكنه لا يستطيع أن يتغلغل في نفوس المجتمع ولا أن يحوز إحترام الناس، ولا يستطيع أن يثبت أمام الحجة لأن أصحابه أنفسهم يحسون داخليا بأنهم أذئاب عملاء، وهو ما أدركته فرنسا ولا سيما بعد رؤيتها للحركة الوطنية وهي تزدهر، فغيرت الخطة وأخذت تعمل على إختراق الحركة الوطنية من الداخل، وهذا يتمثل في مرحلة جديدة، هي ما سمي بحزب الشعب البربري، وقبل الحديث عن هذه القضية الخطيرة نشير إلى قضيتين أخريين نعتبرهما من الأهمية بمكان، هما :

1- في الوقت الذي كان ماسينيون ومن ذكر قبلا يذكون النزعة البربرية، كان كتاب صويلح ولد معمر " التدريس المتوسط للوارد المتبسط..." الكتاب الرسمي الذي يدرس لأبناء الأهالي في جميع المدارس يفعل فعله الشنيع في تقسيم المجتمع إلى عرب وبربر وإدكاء نار العداوة بينهما. وفي الوقت ذاته كانت مدارس الأباء البيض تقوم بنفس الدور، وهكذا تكاثفت جميع هذه العوامل فنتج عنها ما يسمى " حزب الشعب البربري" ولا أدل على صحة هذا من أن رموز تلك المؤامرة داخل حزب الشعب إنما هم خريجو المدرسة الفرنسية التي كان كتاب ولد معمر هو الكتاب الرسمي المدرس بها وهم أيضا زعماء هذه الحركة إلى اليوم.

2- كانت جمعية العلماء هي السبابة بعد مالك بن نبي وقبل حزب الشعب في إدراك هذه القضية الخطيرة وأخذت في علاجها، نستشف هذا من الخطبة القيمة التي ألقاها الشيخ يحي حمودي - من جمعية العلماء - بالقبائلية ليلة مأدبة النادي لجمعية العلماء في شوال 1354 هـ / جانفي 1936م فإهتز لها الحفل ودوت القاعة بالهتاف والتصفيق، وقد أعجب بها ابن باديس كثيرا فختمها بهذه

الكلمة تحت عنوان : " ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان"<sup>(1)</sup>، قائلا : " إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تُمزج ما بينهم في الشسدة والرشاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتبت أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات إتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمانهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسألوا من محابرههم في مجالس الدرس لخدمة العلم.

فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لو لا الظنون الكواذب، والأمانى الخوادع يا عجباً! لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم الأقوى كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في إتحادهم وقوة لرابطتهم (ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم)، والإسلام له حارس والله عليه وكيل، نعم إننا نتحد لننفع أنفسنا، وننفع إذا إستطعنا غيرنا، ومعاذ الله والإسلام أن نتحد على أحد أو ننشق على باطل، أو نتعاون على إثم أو عدوان ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا... تعملون ﴾<sup>(2)</sup>. (3).

ونعقد أن جميعة العلماء أخذت مبكرا في علاج هذه المشكلة التي ظهرت على مستوى حزب الشعب الجزائري أول ما ظهرت منذ 1936م في الجالية الجزائرية بفرنسا خلال الصراعات التي تواجه فيها مصالي مع أحد مساعديه هو عمار إيماش، فأدى الصراع إلى إعادة التجمع على أساس إقليمي، وقف وراء إماش جزائريون من منطقة القبائل وحدها، بينما تضامن مع مصالي مناضلون من كل الأقاليم الجزائرية، وكان أساس الصراع والخلاف: هل الجزائر بلد عربي - إسلامي؟ هل علينا أن نحددها باللغة العربية والدين الإسلام؟، وكان موقف مصالي: الجواب بنعم، عكس عمار إماش وأتباعه<sup>(4)</sup>.

ومن هنا ندرك أن جواب مصالي الحاج ينسجم تماما مع أرضية المؤتمر الإسلامي الذي عقد سنة 1936م بينما جواب إماش ومناصريه يتناقض كليا مع تلك الأرضية التي هي العروبة والإسلام، أي التمسك بالأحوال الشخصية الإسلامية ورفض فكرة التجنيس، وبهذا نجد الإنسجام والتوافق بين جميعة العلماء وحزب الشعب في طروحاتها حول هذه القضية، ونجد النشاز في موقف الإتجاه البربري الذي كانت وراءه فرنسا.

(1) الشيطان هنا هو فرنسا، وبذلك حدد ابن باديس بدقة منشأ المشكلة.

(2) المائدة / 8.

(3) عبد الحميد بن باديس، الشهاب، غرة ذي القعدة - فيري 1936، ج11، ص605. وقد نشرت هذه الكلمة عنها في البصائر، السنة 1، ع3، ص2، بتاريخ الجمعة 22 دوال 1354هـ/17 جانفي 1936م عن عمار طلي، ابن باديس حياته وآثاره، ج3، ص483، 484.

(4) محمد حري، جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، ترجمة كميل قيصر داغر، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، ش.م.م. بيروت. دار الكلمة للنشر، ش.م.م. بيروت 1983،

وبهذا كان إمامش وأصحابه يبادق فرنسا لتحطيم الإتجاه الإسلامي الوطني وتحطيم المؤتمر الإسلامي الذي كانت فرنسا تدرك جيدا أن نتائجها، بل حتى مجرد عقده ليس لصالحها، وقد تمكنت من تحطيمه بقتلها لمفتيها، مفتي الجزائر الشيخ كحول<sup>(1)</sup>.

ومن هنا فقد أدركت، جمعية العلماء خطورة القضية ليس على المؤتمر الإسلامي الذي إقترحتة جمعية العلماء وأعدت له فحسب، بل على مستقبل الجزائر كلها، فهرعت لمعالجة المشكلة وكان خطاب الشيخ يحي حمودي ومقال ابن باديس في تلخيصه والإشادة به يدخلان في هذا السياق وتتوصل من خلال ما سبق وما سيلحق إلى أن القضية البربرية سوف تظل ورقة رابحة في يد فرنسا إلى يومنا هذا تشهرها متى أحست بأن شيئا في الجزائر ينظم لصالح الجزائر.

وهذا يدعوننا إلى الحديث عن حزب الشعب البربري.

### حزب الشعب البربري، أو مؤامرة النزعة البربرية في الأربعينيات

هذه المؤامرة إستمرار لما سبق ولكنها أخطر، وكان مهندسها الحاكم العام الفرنسي في الجزائر شاتينيون الذي أدرك قوة الحركة الوطنية فأوعز إلى عملاء المخابرات الفرنسية أن يحركوا هذه النزعة داخل حزب الشعب الجزائري، عرفت هذه المؤامرة بالنزعة البربرية أو حزب الشعب البربري المدعومة من الحزب الشيوعي الجزائري<sup>(2)</sup>، وذلك لأنه يعترف بالفراة البربرية ويضعها على قدم المساواة مع فراة الأقلية الأوروبية، ولما كان حزب الشعب يقوم على توجه كان الإسلام والعروبة يقومان فيه مقام برنامج، كان الشيوعيون ضد هذا داعين إلى الإعتراف بالفراة البربرية والأقلية الأوروبية<sup>(3)</sup>.

وكان المؤسسون للتيار البربري داخل حزب الشعب هم :

علي لعمش وحسين آيت أحمد الطالب بالثانوية، وعمار ولد حمودة وعمر أو صديق الطالبان بمعهد المعلمين ببوزريعة، وعلي بناي.

ولقد ذكرنا قبلا قضية، هل الجزائر بلد عربي إسلامي هل يمكننا أن نحددها باللغة العربية والدين الإسلامي؟ طرحت في الحركة المصالية منذ 1936م وكان جواب مصالي : نعم، بينما كان

(1) أقتيل في لوانل أوت 1936 في رابعة النهار وذلك في الوقت الذي احتشدت فيه عشرات الآلاف من الجزائريين لاستقبال وفد المؤتمر الإسلامي العائد من فرنسا المبلغ لها مطالب الجزائريين، وقد ألقى الشيخ العتي في هذا الحشد خطبة رائعة. وكان غرض فرنسا من اغتيالها للمعني لمزيق اتجاهات الوفد وقد حققت هذه الغاية بجعل اللاتكين دعاء الإندماج والتجسس بتهمون الجمعية باغتيالها، وقد مهدت فرنسا لاغتيالها لتحقيق هدفها بأن جعلته في حركة المعارضة للوند الإسلامي الجزائري ومطالبه، وكتب تلقافا أمثله عليه فرنسا أو هي كتبه وهو وقع بترأ فيه من الوفد بنوعيه السياسي والديني، وما حققت فرنسا هدفها من مزيق الوفد وجعل اللاتكين يساندون فرنسا في الهام الجمعية بقتله أطلقت صراح الشيخ العتي المتهم بقتله بعد الحكم عليه بالبراءة وبعد 6 أيام من الاستيطان رغليان صحف فرنسا حقا على الجمعية، وذلك بعد أن اعترف القاتل عكاشة ذو السوابق بأنه لا علاقة له بالشيخ العتي وبالجمعية، (محمد البشم الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشم الإبراهيمي، ش.و.ن. ت. الجزائر، ط1، 1978، ج1، ص189-205.

(جريدة البصائر الجمعة 10 جمادى الثانية 1355هـ / 28 أوت 1936م، السنة 1ع32).

(2) عثمان سعدي، الأمازيغ، ص32، 33.

(3) محمد حري، جهة تحرير الأسطورة والواقع، ص61، 62.

جواب مساعده عمار إيماش: لا . وذكرنا أنه تضامن مع مصالي مناضلون من كل الأقاليم، بينما وقف وراء إيماش جزائريون من منطقة القبائل وحدها، وذكرنا علاقة ذلك بالمؤتمر الإسلامي، ولكن المضمون اللغوي والثقافي للحركة البربرية ظهر جليا بعد 1945 م حسب ما ذكره محمد حربي<sup>(1)</sup>، ومما ذكره بهذا الصدد ملخصا نشأة هذه الحركة أنه:

بعد 1945م استندت الحركة البربرية إلى ثلاثة معطيات أساسية، محتوى ونتائج الصراعات بين مصالي ومنافسيه القبائليين منذ 1936م، والتوسع السريع للنزعة الوطنية في القبائل وفي فرنسا، والأخطاء التكتيكية لقيادة حزب الشعب الجزائري بصدد مسألة الثورة، وقد التحم العاميون بعد الحرب العالمية الثانية، بمجموعة من المنقذين، فأعطوا المشكلة البربرية مضمونا لغويا وثقافيا وأخذ دعاة هذا الإتجاه يجاهرون بإنتمائهم الإقليمي.

عام 1945 م طالب بناي وعلي في لجنة تنظيم ح.ش.ج بتوحيد كل المنطقة التي تتكلم لغة البربر في إقليم واحد، ودعم إقتراحه بالإشارة إلى الروابط البشرية واللغوية القائمة بين السكان من جانبي جرجوة إلا أن القيادة رفضت وبدأ الكلام عن الإقليمية القبائلية، أي أنه كان يطالب بفصل بلاد القبائل كلها عن الوطن الجزائري<sup>(2)</sup>.

وفي سنة 1946م أسس حسين أيت أحمد وولد حمودة وعمر أوصديق وبناي نواة للمجموعة البربرية وكانوا جميعا أعضاء في اللجنة المركزية لحزب الشعب الجزائري - حركة أنصار الحريات الديمقراطية-. وكانوا جميعا متأثرين بالماركسية رافضين العروبة والإسلام اللتين يعتبرهما حزب الشعب ثابتين من الثوابت الوطنية<sup>(3)</sup>.

أخذ أنصار القضية البربرية بالجزائر التجنيد في الأوساط الطلابية بالعاصمة ومنطقة القبائل وأخذوا على المستوى القاعدي يقدحون في القيادة بغرض هدم سلطتها والتشكيك في النهج العربي الإسلامي الخاص بالحزب مع أن أفكارهم كانت ترفض أثناء المناقشات من الأغلبية الساحقة من مناضلي الحزب لإدراكهم خطورة مذهبهم الذي يقسم الحزب والشعب<sup>(4)</sup>.

ولكنهم وجدوا ميدانا خصبا بفرنسا في أوساط المغتربين وذلك بواسطة الطالب محند علي يحيي المعروف برشيد الذي تمكن من الحصول على بعثة من الحزب إلى فرنسا في ربيع 1948م فأخذ ينشؤ

(1) ولد في 16 حزيران 1933م، انضم إلى حزب الشعب -حركة انتصار الحريات الديمقراطية في الخامسة عشر من عمره وفي عام 1945 أصبح أمينا عاما لرابطة طلاب شمال إفريقيا، ومن عام 1957 أصبح عضوا في قيادة فيدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا، ثم مديرا لكتاب وزير القوات المسلحة (59-60)، وسفيرا في غينيا (1961) وسفيرا في غابات انبهان الأول (أيار 61) وسكرتيرا عاما لوزارة الخارجية (61-62)، ومستشارا لرئيس الجمهورية الجزائري (63-65) ومديرا لصحيفة الثورة الإفريقية (63-64)، اعتزل بعد 19 حزيران 65 ثم استقر بفرنسا منذ 1973، له مؤلفات منها: "وثائق الثورة الجزائرية" و"جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع" (محمد حربي، جبهة التحرير الوطني، ظهر النلاف الأسير).

(2) محمد حربي، المصطلح نفسه، ص 62، 63، 66.

(3) عثمان سمني، الأمل، ص 32، 33.

(4) أحمد بن نسان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص 120.

أفكارهم لكسب مناصلي الحزب، وقد ذكرنا قبلا الأرضية التي كان ماسينيون وأبناء ملته قد هياؤها هناك لهذه الحركة.

وكيفية بعثته إلى فرنسا أنه في ربيع 1948م التقى بناي بأحمد بودة رئيس المنظمة الوطنية لـ (ح.ش.ج / حركة إ.ح.د) فأخبره بأن الطائب محند علي يحيي مطلوب من طرف الشرطة ويرغب في الالتجاء إلى فرنسا لمتابعة الدراسة مما يجعله في أمس الحاجة إلى توصية إلى قيادة الفيدرالية هناك، وبحسن نية وافق بودة بناي المناضل في الحزب والذي كان يخفي نزاعه البربرية وبهذه الطريقة وصل محند علي يحيي الملقب برشيد إلى فرنسا ليدرج في المنظمة وسوف يكتشف بصفته محرصا للقضية البربرية، وقد ساعد على نجاحه إتمامه بالنشاط والجرأة مما جعله يرتقي إلى أعلى مراتب المسؤولية حتى أصبح عضوا قياديا في اللجنة المديرة لفيدرالية فرنسا لـ ح.ش.ج / ح.إ.ح.د. (1) حيث إنتخبه مؤتمر نوفمبر 1948م في اللجنة الفيدرالية وكان يدعمه بناي وعلي وعمار ولد حمودة، فخلقوا حركة شبيبة بربرية (ح.ش.ب) (2).

وعند انفجار الأزمة البربرية في ربيع 1949م تمكن محند علي يحيي (رشيد) من جعل اللجنة المديرة لنشاط الحزب بفرنسا تصدر لائحة تدين فيها "خرافة الجزائر العربية المسلمة" (3) حيث أنه من أصل 32 عضوا في اللجنة المديرة لفيدرالية فرنسا رفض 28 منهم أية فكرة عن جزائر عربية وإسلامية، وأيدوا أطروحة "الجزائر جزائرية" - وهو الشعار ذاته الذي ظهر من جديد في أحداث أكتوبر 1988م - وازدادت الأزمة إتساعا حين فتح حزب الشعب الجزائري اكتتابا من أجل فلسطين، فقد إعترض على ذلك محند علي يحيي (رشيد).

ومن الدفاع عن الفرادة البربرية، سرعان ما جرى الإنزلاق إلى العداة لكل ما هو عربي (4). وهكذا إستولى الجناح البربري على فيدرالية فرنسا، ولكن القاعدة تمردت - عليه - وأخبرت القيادة بالجزائر للإحتجاج ضد من يصفونهم بالعناصر "الملحدة" التي تحارب الإسلام، وكان أول من دق جرس الإنذار - أحمد بودة، عضو اللجنة المركزية أثناء الإجتماع في ديسمبر 1948م الذي بلغ عن النزعة البربرية التي تعدت الأفكار إلى الأعمال وحاولت التهيكل داخل الحزب نفسه... (5) وهو ما إعترف به مصالي الذي بين أن الحركة البربرية تشكلت ككتل داخل الحزب لتطور فيه سياسة متفقا عليها على كل المستويات، حيث أصبح ذوو النزعة البربرية يدخلون كبارا وصغارا إلى جسم الحزب، إلى كل المواقع فيه تقريبا، كجرثومة - حسب تعبير مصالي - تدخل جسما قد ضعف، تنقلوا بسهولة وذهبوا هكذا يزرعون الجرثومة في كل فرنسا... كانوا لفترة من الزمن سادة الحزب (6).

(1) Ben Youcef Ben Khedda. Les origines du 1er Novembre 1954. Editions. DAHLAB. 1989. Pages : 172-173.

(2) محمد حري، المصدر السابق، ص 64.

(3) Ben Youcef Ben Khedda. Les origines ..... Pages 175 :

(4) محمد حري، المصدر السابق، ص 64، 65.

(5) Ben Youcef Ben Khedda. Les origines ..... Pages : 172.

(6) محمد حري، المصدر السابق، ص 64.

## حل الأزمة :

وهكذا إستولى الجناح البربري على فيدرالية فرنسا، وهنا نشير بناء على ما ذكره لنا المرحوم الطاهر قيقة أنه لم يتكون حزب شعب بربري، ولكنه في وقت قصير ثارت نزعة بربرية في قلب حزب الشعب الجزائري وتغلّبت بانتخابات وسط خلايا حزب الشعب على جامعة فرنسا (فيدرالية ح.ش. ج. في فرنسا) لمدة قصيرة لا تزيد على 3 أو 4 أشهر فقط، وقد عدل الموقف من طرف إخوان قبائل أنت دعوتهم من الجزائر للقيام برحلة داخل فرنسا لتعطيل الوضع، لأنه أصبح غير طبيعي، بمساعدة الأخوين : شوقي مصطفى وهو طبيب عيون من برج بوعريريج (قبائلي مستعرب)، وضابط قبائلي آخر كان ضابطا في الجيش الفرنسي ثم إلتحق بالحركة الوطنية قبل الثورة. وكان من النواة الأولى المختفية النشطة لصالح الوطن<sup>(1)</sup>. فقام هذان الأخوان بجولة في فرنسا<sup>(2)</sup> وانضم إليهما في باريس كما يذكر ابن خدة محمد خيضر وبلقاسم راجف، ومنع الأربعة مسن دخول قاعدة الحزب من طرف عناصر الحركة البربرية المسيطرين بحيث قدرت نسبة الوحدات المنظمة التابعة لرشيد بـ 80%.

وبفضل البشير بومعزة قاومت القاعدة هذه العناصر وحدث الإشتباك العنيف بعد أن ردت قيادة الحزب في أبريل 1949م بحل فدرالية فرنسا وكلفت بذلك بلقاسم راجف والقيب سعدي الصادق - وكلهم من القبائل- بالسيطرة على الوضع، وقد بدأت المواجهات مع محاولة الموالين إحتلال مقرات الحزب التي كانت موجودة في 13 شارع بيسون الدائرة 20 في باريس، وكانت عنيفة بشكل خاص في روان، حيث جرى ضرب محمد خيضر، النائب والعضو في المكتب السياسي، ونقل عشرة مناضلين إلى المستشفى<sup>(3)</sup> - وهذا يبين بجلاء أن العنف من صميم الحركة البربرية ومميزاتها منذ نشأتها إلى اليوم- وبعد معركة عنيفة تمكن مندوبو القيادة من إرجاع الأمور إلى نصابها وإسترجاع مكاتب الحزب من برائن هذه الحركة<sup>(4)</sup>. وذلك بعد إعادة الإنتخاب من جديد في فيدرالية فرنسا بفضل بلقاسم راجف وغيره وقام المناضلون بتطهير مقرات الحزب في مختلف نواحي باريس وفرتسا من العناصر البربرية وإستغرق ذلك 18 شهرا من العمل الدؤوب، وطرد من الحزب محند علي يحي وأنصاره كما تقرر غلق صحيفة " النجم الجزائري" الصادرة بفرنسا والتي كانت حال لسان الفيدرالية هناك<sup>(5)</sup>، هذا بفرنسا.

(1) وذكر المرحوم الطاهر قيقة قائلا: نسبت اسمه وأسأل عنه في الجزائر فإلم يعرفونه، والواقع أنه القيب الصادق سعدي لأنه هو الذي ذكره بن خدة مع شوقي مصطفى الذي كان عضو المكتب السياسي، كما ذكره حري أيضا باسم القيب سعدي صادق (محمد حري، المصدر السابق، ص65). وهذا يعطينا دلالة صادقة عن الفرق بين القبائلي والبربري.

(2) أخذنا هذه المعلومات مشاهة من المرحوم الطاهر قيقة أثناء مقابلة معه بتونس سنشر إليها من بعد.

(3) محمد حري، المصدر السابق، ص 65.

(4)(5) : 174 - 173 P..... Ben Youcef Ben Khedda. Les origines ..... أيضا أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص123.

أما في الجزائر فلم يتمكنوا من إحراز أي تقدم يذكر في بلاد القبائل ذاتها التي قاومتهم ببسالة وطهرت منهم 11 قسمة للحزب، لم تشذ سوى قسمة واحدة هي عين الحمام، وبلغت مقاومة بلاد القبائل للتيار البربرية حداً تبودلة فيه الرصاص، حيث جرح أحد دعاة بتيزي وزو، وهو علي فرحات.

وقبل أن نشير إلى أيديولوجية دعاة هذه الحركة يقدم لنا محمد حربي ملاحظة مهمة جداً هي أن إنغراس التيار البربري في فرنسا يعطينا فكرة عن المناطق الجزائرية الأكثر تقبلاً لمسألة الهوية البربرية، وتمثل هذا التيار بقوة في المنطقة الباريسية وفي كل المناطق التي كان المهاجرون إليها وافدين من فورت ناسيونال وعين الحمام (ميشيلي) فقلع التيار البربري كانت: سان دونيز - وسان - اوان ، وبوتو، ونانتير وكوريفوا، والدائرة 18 من باريس.

وكان التيار المذكور متوسط الإنغراس في الدائرتين 4 و 5 من باريس، وحيث يأتي المهاجرون من تازمالت والقرقور ( لاسيما في الدائرتين 19 و 20 من باريس) لم يكن يتوصل إلى مد جذوره عميقاً.

وكان تأثير التيار البربري معدوماً في جنوبي فرنسا وفي مورت - أي - موزيل وفي الشمال، وهي مناطق كان يقودها بشير بومعزة وبورزاح، والإثنان ينحدران من القبائل الصغرى، بإختصار كانت الحركة تستمد كل قوتها من القبائل الكبرى<sup>(1)</sup>.

### السياسة الحكيمة لقيادة الحزب في علاج المعضلة:

هنا نقدم ملاحظة مهمة تتمثل في أن القيادة كانت على علم بما يبثه دعاة الحركة البربرية من سموم وتمزيق، ولكنها لم تقدم على إتخاذ أي قرار حتى وقعت يدها على دليل مادي للمؤامرة، هو رسالة مرسلة من السجن المدني بالجزائر من عمر أوصديق إلى بناي<sup>(2)</sup>، وبذلك إكتشفت وجود "حزب الشعب القبائلي" الذي يتهيكل داخل ( ح.ش.ج - ح.إ.ح.د) وقد كشف التحقيق الذي أجرته القيادة زعماء هذا العمل التقسيمي مثل بناي واعلي وعمر أوصديق وعمار ولد حمودة وصادق هجرس، فعوقبوا، ليس على أفكارهم ولكن على مؤامراتهم التجزئية. فسالتحق معظم المطرودين بالحزب الشيوعي الجزائري - المشارك في المؤامرة، منهم صادق هجرس الذي أصبح أحد قادته<sup>(3)</sup> بل ورئيسه في السرية بعد الإستقلال وظل حتى بعد التعددية يخلفه الهاشمي الشريف.

(1) محمد حربي، المصدر السابق، ص 65.

(2) ويذكر حربي لها وثائق وقعت في يد الشرطة كانت مع بناي واعلي حين أولف في وهران وهو على وشك السفر إلى فرنسا من دون علم الحزب. تشكل دلائل على وجود ككل، وقد جرى إيصال هذه الوثائق إلى المحامين أثناء التحقيق (محمد حربي، المصدر السابق، ص 64 و هامش رقم 8، ص 336).

(3) : Ben Youcef Ben Khedda. Les origines ..... P 174 - 175 . أيضاً أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة للترزية في الجزائر، ص 124.



وأما حسين آيت أحمد فقد إشتهر فيه بكونه الرأس المدبر لدعاة الحركة البربرية، ولكي تختبر نواياه أوفدت له القيادة شخصين من أعضاء الحزب، هما أحمد بودة وحاج محمد شرشالي فاجتمعا به، فرد عليهما بما يأتي :

هذه مناورة من طرف القيادة ضد مسؤولي القبائل، ووجد نفسه أمام موقف حرج، مع أو ضد أنصار الحركة البربرية. فطلب مدة للتفكير ليحقق في القضية، وتوجه لذلك إلى منطقة القبائل، ولما عاد صرح لنفس المندوبين : " ما أكنتما لي صحيح، ولذا سأفصل عن هذه العناصر (أي دعاة الحركة البربرية)".

ورغم انكاره ظل محل شك، وكان آنذاك المسؤول الوطني للمنظمة السرية، والمكتب السياسي، فكان لا بد من عدم إيقانه في منصب حساس، ولما كان من العناصر المطلوبة عند الشرطة فإنه حفاظا على أمنه بالجزائر أرسلته القيادة إلى القاهرة حيث انضم إلى مندوبي الحزب بها : الشاذلي مكي ومحمد خيضر، ويضيف بن خدة " ولقد أكدت أحداث ما بعد الإستقلال بوضوح... سلامة وحكمة موقف القيادة من إبعاد السيد آيت أحمد وشبهات القيادة تجاهه، وذلك من خلال كتابه " مذكرات مكافح" ( صدر بفرنسا سنة 1983م) حيث كتب قائلا : ما نصه " إلى الشباب المبتدئ في المطالبة اللغوية للبربرية الذين يلوموننا على عدم تمكننا وعدم معرفة طرح المشكل اللغوي بهذا المؤتمر ( مؤتمر ح.ش.ج / ح . ا. ح . د) ليفري 1947 م، ولقد أوضحت بأننا لم نتهاون في القيام بذلك، لكن البربرية نعيشها، ولو كان للحزب سلطة ملموسة لطلبنا بحق كتابة وتدریس اللغة البربرية... ولو وجد مجال لمناقشة هذا المشكل داخل الحزب في ذلك العهد لأدى الأمر حتما إلى رد فعل عنيف من طرف الأغلبية المعربة المتطرفة... "(1).

وهذا يدعو إلى الإشارة إلى :

### إيديولوجية الحركة :

كان يطبع هؤلاء حقدهم الشديد على كل ما هو عربي وعلى الإسلام ولغته، وذلك لأنهم نتاج مدارس الإرساليات التنصيرية في بلاد القبائل والتعليم الفرنسي الرسمي، فتأسست نخبة مفرنسة تؤمن بالزعم بالآصول الرومانية والأرية وتعتبر نفسها أقرب إلى الفرنسيين وأكثر استعدادا للإندماج فيهم(2). وهي نفس الطروحات التي كان يبثها المفكرون الفرنسيون أمثال فيكتور بيكي ودوتيه وغيرهم كما ذكرنا، وهي نفس طروحات أقطاب التبشير الثلاثة، وهذا دليل قاطع على أثر هؤلاء في دعاة الحركة، وهو ما بينه حربي بتعبير آخر حين حدد الأوساط التي ظهرت فيها إيديولوجيو الحركة البربرية، فبين

(1) : Ben Youcef Ben Khedda. Les origines ..... Pages 176 - 177 . أيضا أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة العربية في

الجزائر، ص 126، 127.

(2) Ben Youcef Ben Khedda. Ibid p 171

أن البعض منهم كولد حمودة وعمر أوصديق هم نتاج دار المعلمين ببوزريعة تأثروا كثيرا بتعليم هذه المدرسة، نخويون وبيجاهرون بعلمانية عدوانية.

وأخرون كعلي يحي (رشيد) ينحدرون من عائلات يطبق فيها النظام القانوني الفرنسي - أي لا يخضعون للشريعة الإسلامية في أحوالهم الشخصية - فأصبحوا يشعرون أن المجتمع معاد لكل ما يتعلق بالمثل الأعلى الخاص بالجماعة، لأنه يخلط بين الهوية الوطنية والدين، وكان رد فعلهم على ذلك متفاوتا، بأن إلتجأ البعض إلى الورع الديني، وهاجم آخرون الإسلام بشكل مكشوف<sup>(1)</sup>، وكانت العناصر الدعائية التي إعتدتها دعاة هذه الحركة تقوم على ما يأتي:

### الحجة الأولى :

نحن الجزائر، هي الجزائر ونحن متمسكون بالإنتماء إلى الوطن الجزائري، ولا نريد أن يتحدث عن العروبة وما يتبعها، العرب فتحوا الجزائر مثل الأمم الأخرى، فالعرب فتحوا الجزائر مثلما فتحها الرومان والوندال وغيرهما<sup>(2)</sup>، وفي هذا السياق تفتقت عبقريتهم عن شعار "الجزائر جزائرية" التي لا يعني محتواها أي شيء سوى أنه محاولة لإزالة الشخصية العربية الإسلامية للأمة الجزائرية، وإإفهل دعا مثلا الفرنسيون إلى فرنسا الفرنسية "والألمان إلى ألمانيا الألمانية"<sup>(3)</sup>، ولقد أعلن هؤلاء ما سبق دون خجل.

### الحجة الثانية :

الدخول في سلك القومية العربية ربما يبعدنا عن قضيتنا الأساسية وهي تحرير الجزائر، وينسينا شخصيتنا الجزائرية بالذوبان في شخصية أوسع<sup>(4)</sup>، ولكن الغريب أنهم لا يقولون هذا الكلام عن الفرنسية وفرنسا.

وهكذا فإن أصحاب هذا الإتجاه وكان بعضهم على مستوى معتبر في سلم قيادة الحزب كانوا يخفون إيديولوجية مغايرة لإيديولوجية ومبادئ الحركة الوطنية في الصميم، حيث كانت هذه النواة المزروعة داخل الحزب تطالب بالبربرية للجزائر مع رفض الإنتماء العربي الإسلامي للشعب الجزائري متأثرين بما لقنوه في المدرسة الفرنسية من طروحات إستعمارية وأيضاً بالإيديولوجية الشيوعية التي كانت في أوج عصرها الذهبي وكانت متغلغة في أوساط الطلبة المفرنسين.

(1) محمد حرب، المصدر السابق، ص 65.

(2) الطاهر قبة، مقابلة (مصدر سابق).

(3) أحمد تيمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 125.

(4) الطاهر قبة، المصدر السابق.

ولما كان الحزب الشيوعي الجزائري ابن الحزب الشيوعي الفرنسي؛ فإنه كان يعارض حتى مفهوم الأمة الجزائرية الموجودة والمكونة قبل وجود الأمة الفرنسية ذاتها، ليدافع عن شعار " الأمة الجزائرية في طور التكوين" ابتداءً من التعايش على نفس الإقليم الجزائري مع مختلف الجاليات كاليهودية والإيطالية والقبائلية والميزابية... إلخ، رافضا الثوابت الأساسية التي أقرتها الحركة الوطنية بالإجماع كمبادئ مقدسة جندت الشعب الجزائري حولها خلال سنوات الجهاد ضد الاستعمار في كامل أرجاء الوطن وهما: العروبة والإسلام.

ولما كان الحزب الشيوعي الجزائري قويا لدعمه المباشر من ولي نعمته الحزب الشيوعي الفرنسي فأصبح له هيئتان صار لمبادئه وأيديته الممجنة لإنصاف الروس على النازية رواج في أوساط الشباب المفرنس والمنتمي جغرافيا إلى بلاد القبائل<sup>(1)</sup>، وهو ما بينه ابن خدة بقول: "... ولهذا ولع الشباب البربري بالماركسية وكذا بدستور الإتحاد السوفياتي الذي مجد نظام الجمهوريات الإسلامية... حيث كانت تؤكد أن كل شعب وكل عرق كان يتمتع بلغته الخاصة وثقافته الخاصة ويستفيد من "الاستقلالية" في تسيير شؤونه، وكنا نجد هذه الحجة غالبا عند الأشخاص الذين تحولوا إلى أنصار القضية البربرية"<sup>(2)</sup> (3).

وخلاصة هذه الإيديولوجية: العرب المسلمون استعمروا الجزائر كغيرهم من المستعمرين السابقين، ويجب رفض العروبة والإسلام لأنهما دخيلان مستعمران ولا بد من قبول التعايش مع المعمرين الأوروبيين بمختلف جالياتهم من يهود وإيطاليين وفرنسيين، ووصلت عبقرية الحزب الشيوعي الجزائري إلى طرح مشكل الإستعمار الفرنسي في الجزائر على أساس طبقي، بمعنى يجب أن تتحد البروليتاريا في الجزائر من جزائريين وفرنسيين ضد الطبقة الرأسمالية من جزائريين وفرنسيين، وعندما تتمكن البروليتاريا المشتركة من القضاء على الطبقة الرأسمالية المشتركة يكون مشكل الجزائر قد حل إلى الأبد.

وهنا نعود إلى الحديث عن السياسة الحكيمة لقيادة الحزب في علاج المشكلة، فנסجل بأن الطاهر قيقه قام بدور معتبر في إقناع أصحاب هذا الإتجاه بالتخلي عن فكرتهم، كما قام غيره من المناضلين بذلك، وكانت حجج الأخوين مصطفى وسعيد اللذين قاما بالإتصال في صلب حزب الشعب وساعدا قيقه وغيره من المناضلين، قالوا بالنسبة لنا نحن وطنيون جزائريون، والجزائر وطننا، وقضية العروبة، نحن ننتمي إلى ثقافة عربية، إلى حضارة عربية، ولا يعني أننا عرب، ديننا الإسلام، نجل اللغة العربية لأنها لغة القرآن، والإسلام ألف بين شعوب كثيرة، ولم نقل لكم إننا عرب عرقيا،

(1) أحمد نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 118، 119.

(2) : Ben Youcef Ben Khedda. Les origines ..... P 171 . ترجمة أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص 119.

(3) كان هذا نظريا، أما الواقع فقد همنت فيه القومية واللغة الروسية والإتحاد والنصرانية كما أن فكرة القومية دائما تتناقض مع الماركسية لأن الأولى محلية تقوم على الخصوصية والثانية عالمية تلغي جميع الخصوصيات لصالح العامل الاقتصادي وحده.

فليس جميع الناطقين بالعربية عرب، نحن جزائريون، ثم ذكروا بشيء وهو : أن الحركة الوطنية انطلقت بمفهوم مغربي أي المغرب وتونس والجزائر فلماذا تدعون إلى التفوق والإنزواء، فلا بد إذن من الشعور بالانتماء للمغرب العربي حضارة وثقافة لا عرقاً، فحسرة أن تتوقعوا على أنفسكم. ثم من وراء المغرب العربي الأمة العربية الإسلامية التي تكون بينها وبين الجزائر علاقات ليس فيها ذوبان الشخصية الجزائرية، وإنما أخوة وتقارب، ومن وراء ذلك الأمم الإسلامية من علاقات بحيث القضية فيها تدرج الأقربون ثم الأبعد فالأبعد<sup>(1)</sup>، وقد أعيدت الأمور إلى نصابها كما بين لنا قيقة قبلاً، وذلك بتقرير:

1- تنفيذ بدون لبس للدعامة العرقية للحركة البربرية أو " الأرية" بدون إعادة النظر في المحتوى الثقافي البربري.

2- النداء إلى الضمير الوطني لمعارضة هذا الإتجاه الهدام بتحقيق الإنسجام والالتزام بالوحدة الوطنية، ذلك أنه بوجود نزاع مثل هذا فإن الحركة البربرية ستشرخ الحركة الوطنية، والمستفيد الوحيد من ذلك هو الإستعمار الفرنسي<sup>(2)</sup>.

وهل يحتاج إلى دليل على صحة هذا بعد أن ذكرنا علاقة هذه الحركة بحاكم الجزائر العام

الفرنسي؟ ! ولقد بين هذه القضية بوضوح عثمان سعدي وبين خلفيتها بقوله :

" لقد تعلم أتباع النزعة البربرية ... على أيدي فرنسيين وعلى أيدي الأباء البيض، فغرسوا في نفوسهم كرههم لكل ما هو عربي، وعلموهم بالفرنسية أن العرب غزاة وأن العربية لغة غريبة، وأن البربر جرمان هاجروا من أوروبا ليجروا (فرنسة الجزائر وفرنسيتها) قبل 1962م.

وقد بلغت هذه الحملة المسمومة أوجها سنة 1948م عندما إكتشف الوالي الفرنسي الأسبق بالجزائر (شاتينيون) أن قوة حزب الشعب الجزائري خطر على فرنسة الجزائر، فقرر تدميره من الداخل، وذلك ببيت النزعة البربرية في صفوفه بواسطة عملائه، وبرز بالفعل تنظيم داخل حزب الشعب تحت إسم (حزب الشعب البربري) لكن قادة الحزب من القبائل قاموا بتصفية العملاء جسدياً خلال أشهر قليلة، وكنا مناضلين في صفوف حزب الشعب فصدرت لنا التوجيهات بمحاربة هذه الفكرة الشريفة<sup>(3)</sup>، وهو ما قرره المؤرخ الجزائري ناصر الدين سعيدوني، ومما ذكره " كانت الخطة الفرنسية تهدف إلى تيار جزائري في مظهره وأصوله، فرنسي في قناعاته وتوجهاته... لا يسلم بفكرة الجزائر العربية الإسلامية

(1) هذه المعلومات المهمة أدلى بها لنا الأستاذ الفاضل المناضل الطاهر قيقة أثناء مقابلة تمت بالمطارين بالربوينة في دكان حديقته الحاج عبد الكريم، وذلك يوم الأربعاء 18/03/1992م من الساعة 10.30 - 11.40، ولد في 1922م تخرج من جامعة الجزائر، أصبح أستاذ في الأدب العربي والفرنسي درس لمدة عشرة سنوات ثم انتقل إلى وزارة التربية ما بين 1958 و 1963. وما بين 1963 و 1965 إلتحق بالبحوث بالعاصمة لمدة سنتين كمستشار لوزارة التربية الجزائرية بطلب من الجزائر، وكان مسع اليونسكو كبير عملائها ثم إلتحق لمدة سنة مع اليونسكو في باريس سنة 1966، ثم مديراً للتعليم الثانوي والتفني بتونس إبتداءاً من 1968 إلى 1978 وكان في وزارة الثقافة التونسية مدير للفنون والأدب. وأهم حياته العملية كمدير عام مساعد للإيسكو. شارك في الحركة الوطنية الجزائرية قبل الثورة وأثناءها. هذه المعلومات سجلناها بنصها عند مشافهة مباشرة أثناء مقابلتنا له في 18 / 03 / 1972م.

(2) أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 123.

(3) عثمان سعدي، جريدة الشعب، 08/05/1989. من أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 129، 130.

باعتبارها لا تعبر عن طموحهم ولا تتماشى مع إبتمائاتهم وقناعتهم، وقد إستطاع هذا التيار الذي ظهر ناطقون بإسمه في الجزائر أن يستقطب في منطقة بلاد القبائل بالخصوص جماعات من الشباب نشأت في أحضان المدارس الفرنسية ذات التوجهات اللاتينية وترعرعت بتوجيه من القائمين على الإدارة الفرنسية، وقد إستطاع بعض الأفراد من هذه الجماعات أن يتسرب إلى الساحة الجزائرية وأن تخترق الجناح الإستقلالي للحركة الوطنية التي كان يمثلها آنذاك حزب الشعب الجزائري.

وقد تسبب ذلك فيما يعرف بالأزمة البربرية لحزب الشعب سنة 1949م، هذا وكما هو معروف أن هذه الأزمة التي تعكس توجهات السياسة الفرنسية في المجال السياسي...<sup>(1)</sup>.

وقد بين خطورة هذه الحركة على الجزائر التقرير العام للجنة المركزية في المؤتمر الوطني الثاني لحركة إنتصار الحريات الديمقراطية المنعقد في الجزائر في 4 - 6 أفريل 1953م، ونصه: " أن الحزب إصطدم بمعضلة داخلية خطيرة وهي البربرية التي هي إنحراف تعصبي ملون بالصيغة العنصرية والنزعة الشيوعية، وعمل طائفي يرمي للتخريب والتمرد المكشوف على الحزب... والبربرية يمكن أن تبقى سلاحا في يد الإستعمار مادام الإستعمار قائما".<sup>(2)</sup>

ولخطورة هذه القضية فقد تدخلت جمعية العلماء التي كانت أول من أدركها في الثلاثينيات بعد مالك ابن نبي وحاربت الظاهرة البربرية، وقد كتب في ذلك الشيخ الإبراهيمي عدة مقالات رائعة يبين فيها خطورة الظاهرة وعلاقتها بالتنشيط والإستعمار، وها هي بعض عناوينها وتواريخها.

اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرة" - البصائر - 1948 م . ع 41  
موجة جديدة - البصائر 1948 م . ع 42

عروبة الشمال الإفريقي - البصائر 1951 م . ع 150

القضية ذات الذنب الطويل - البصائر 1951 م . ع 175

ومما قاله في مقاله الرائع " عروبة الشمال الإفريقي" من أباطيل الإستعمار أنه يسمي السوداني المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه أو لساعته فرنسيا ويلحقه بنسبه، ثم ينكر على البربري - مثلاً - أن يكون عربيا بعدما مرت عليه في الإستعراب 13 قرنا وزيادة وبعد أن درج أكثر من 30 جيلا من أجداده على الإستعراب، لا يعرفون إلا العربية لغة يتكلمون بها ويتأدبون ويتعبدون، فليت شعري أيهما أقرب إلى الواقع: البربري المستعرب أم السوداني المتفرنس؟ وأيهما أنفذ أحكم الله أم حكم الإستعمار، وهكذا فقد نسب الشيخ الإبراهيمي القضية كلها إلى الإستعمار وهو محق في ذلك، وقد بين " أن كل ما يحتج به القادحون في عروبة الشمال الإفريقي هو حجة عليهم، فالدول التي قامت فيه - كالمتونية والرسومية والموحدية والصنهاجية والمرينية والزيانية - ليس لها من البربرية إلا النسبة العرفية، وهي فيما عدا ذلك عربية صميمية :

(1) ناصر الدين سميون، حطوط المد الشعوي في الجزائر، جريدة الشعب، 1990/02/29م.

(2) ناصر الدين سميون، المرجع نفسه.

عربية في الضروريات المقومة للدولة، كوظائف العلم من إدارية ومالية، ووظائف القضاء من عقود وتسجيلات، وعربية في الكماليات التي تقتضيها الحضارة والترف والموسيقى والشعر، فما علمنا أن شعراء البلاطات في تلك الدول تقربوا إلى الملوك بالشعر البربري، إلا أن يكون في النادر القليل، وفي حال الإصطباغ بالبداهة الأولى" ثم بين هدف الإستعمار وعمله في هذا وهو " ينكر الإستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول، ويعمل لمحوها بالفعل، وهو في جميع أعماله يرمي إلى توهين العربية بالبربرية، وقتل الموجود بالمعوم، ليتم له ما يريد من محو وإستئصال لهما معا، وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم، وأدبها، ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاء والخلود، وكل ذلك مما يقض مضجعه، ويطيير منامه، ويصخ مسمعه، ويقصر مقامه... كل ذلك الجهد ومثله معه مصروف إلى غاية واحدة، وهي محو العربية وقتل العروبة، وكل ذلك الجهد مردف بجهد آخر في إحياء المعاني الميتة التي قتلها الإسلام من بدع وضلالات"<sup>(1)</sup>.

#### والنتائج التي نتوصل إليها مما سبق :

- القضية فرنسية محضة شاركت فيها كل فئات فرنسا من سياسيين بما فيهم الحاكم العالم للجزائر ومستشرقين وعلى رأسهم ماسينيون الذي هيا أرضيتها بفرنسا ومبشرين ومخابرات... إلخ.
- العلاقة بين اللانكية والحركة البربرية، فالتعليم اللانكي أدى إليها وساعدها، والعلاقة بينهما علاقة تلازم قديما في النشأة، وحاليا في الدعوى والواقع، ونوع اللانكية المرتبطة بها إلحادي متطرف.
- العلاقة بين الحركة البربرية والشيوعية، فالعلاقة بينهما علاقة تداخل وتشابك، ومن الأمثلة على هذا فإن الصادق هجرس<sup>(2)</sup> الذي هو أحد أقطاب الحركة البربرية كان زعيما أيضا للحركة الطلابية الجزائرية البربرية، حيث شكلت في عام 1949م في مكتب مشترك مع الحزب الشيوعي الفرنسي (P.C.A) و (U.D.M.A) والصادق هجرس هو أول رئيس للباكس بعد أخذ الإعتقاد بعد التعددية الحالية في الجزائر، وهنا ندرك التداخل والتزاوج بين الحركة البربرية والشيوعية، بل إستخدمت الشيوعية بعد الإستقلال غطاء للبربرية، وكلاهما إنتاج فرنسي محض، وهنا ندرك لماذا وقف الشيوعيون ضد الثورة سنة 1954م، بل وقفوا ضد الحركة الوطنية قبل ذلك كما بينا مساهمتهم في أزمة حزب الشعب ومن الأمثلة على ذلك الوقوف، ما ذكره الطاهر قتيقة من ذكرياته التي عاشها عن هذا الحزب الشيوعي، وهاهو نصه:

<sup>(1)</sup> محمد البشو الإبراهيمي، حربة الشمال الإفريقي، البصار، 1951م، ع150، عن آثار محمد البشو الإبراهيمي، ج2، ص478-480.

<sup>(2)</sup> طيب اظم لل الحزب الشيوعي الجزائري بعد عام 1949م ولقاه مع كميل لاربير وبشو الحاج علي خلال الحرب، أول أمين عام لحزب الطلبة الاشتراكية (ح.ط.ا).

(محمد حري، للرحم قسانق، هانس رقم 6، ص336).

كنت طالبا في الجزائر عام 1945م وشاركنا في مظاهرة أول ماي 45 التي سبقت مظاهرات 8ماي، إنطلقت من القصبة وباكور وساحة الشهداء. فشاركنا (من ضمن المشاركين طلبة تونسيين وجزائريين ومغاربة وكانوا جميعا يدرسون بجامعة الجزائر) أطلقوا علينا الرصاص، قتلوا وجرحوا، بعد إنتهاء المظاهرة أتذكر. فطلبنا من طلبة الطب تونسيين ومغاربة وجزائريين أن يذهبوا إلى مستشفى مصطفى باشا لعلاج الجرحى، لأن الفرنسيين لا يعالجونهم جيدا، فكنا ننتظر أن الفرنسيين يكون إنتقامهم من الطلبة ( عدد الطلبة حوالي 150 طالبا من الأقطار الثلاثة) وكان شوقي مصطفى من ضمننا، فطلب حزب الشعب منا أن نتهيا للخروج للجبال حتى لا تقتلنا فرنسا، فهبنا أنفسنا وحضرنا الخبز وغيره للخروج من الجزائر العاصمة فلم يأت الأمر بخروجنا، ووقعت مجزرة 8 ماي فنتذكر أن جريدة الحزب الشيوعي الجزائري "الجزائر الجمهورية" كانت عاملة قوائم بأسماء مناضلين بالإسم فلان وفلان ضد فرنسا أي كتبوا أسماء الأشخاص الوطنيين الذين هم ضد فرنسا على صفحات جريدة الجزائر الجمهورية أي قام الحزب الشيوعي الجزائري من خلال جريدته بوشاية لفرنسا<sup>(1)</sup>.

- الحركة البربرية كانت خطرا على فكرة الإستقلال وخطرا على التيار الوطني ذاته، إذ في الوقت الذي كان يجب أن تتجه السهام إلى فرنسا، وجهتها الحركة البربرية إلى الذات لتمزيقها وخدمة عدوها، كما كانت تهدف أيضا إلى توجيه الأنظار عن القضية الأساسية وهي الإستعمار الفرنسي إلى جوانب هامشية بل مضررة وهي تمزيق المجتمع وخدمة الإستعمار.

ونتوصل من خلال ما سبق إلى العلاقة بين كل تلك الإتجاهات: البربرية والشيوعية واللائكية، وخيانة الوطن، ولا غرو فإنها كلها من صنع فرنسا.

وها هو أحد جنرالات فرنسا (ب.ج أندريه P.J. ANDRE)<sup>(2)</sup>، يبين أن فرنسا هي التي أنشأت الحركة البربرية وسمي حزب الشعب البربري، وبين هدف فرنسا من ذلك، وكشف جانباً من خططها المستقبلية في المراهنة على هذه القضية فيقول: "إن سياسة الفرنسيين واضحة، فقد أوجدوا من العدم النزعة البربرية، وإستعملوا ورقتها لضرب حزب الشعب الجزائري، أمل الثورة المسلحة بالأربعينيات، لكنهم بدأوا يطورون إستعمالهم لورقة النزعة البربرية منذ منتصف الخمسينيات... إن المسألة البربرية بالجزائر هي في الحقيقة مسألة قبائلية... فمنطقة القبائل هي أكثر إنفتاحا على الحركات الخارجية من منطقة الأوراس... هل من الضروري أن يكون هناك عامل أجنبي خارجي لدفع البربريزم؟... فالحكومة الفرنسية إتخذت موقفا صارما مناهضا لتأسيس دولة عربية بالجزائر... لا بد من التفكير في حلول للمشكل الجزائري على أساس إتفاق مع الجماعات الجزائرية، وبخاصة مع البربر - القبائل : العنصر الأصيل والصلب والمتفهم لنا، لأن القبائل رغم إسلامهم العميق، فهم أقرب

(1) طاهر قبلة للقبائل السابقة.

(2) هو عضو أكاديمية العلوم الاستعمارية وقد بين ما ذكره في كتابه "مساهمة في دراسة الروايات الطرقية" الصادر في سنة 1956م، وقد كتب مقدمته حاك سوستل (J.

Soustelle) في الولاية العام الفرنسي في الجزائر. (عثمان سعدي، الأمازيغ، ص35).

نفسانيا إلى الشعب الفرنسي الميثروبوليتان... وفي النهاية ينبغي علينا أن نفهم عقلية السيربر - القبائل التي تستتبع تاريخيا وعقائيا التوصل إلى شراكة فرنسية - قبائلية... إن القبائل محتاجون لفرنسا... إننا نتمنى أن تصير الشراكة الفرنسية - القبائلية حقيقة وسرعة... (1).

وهكذا فإن النزعة البربرية عملية فرنسية محضة لتمزيق الوطن بجعل أبنائه فريقين متصارعين عربا وبربرا لتكريس الإستعمار وسيادة لغته وتغلغله النصراني وبذلك فـ" البربرية" مطيعة لنشر الفرنسية والتنصير وعبء أمام الثقافة العربية الإسلامية وهو ما بينه أحد الضباط الفرنسيين منذ يونيو 1921 قائلا: " إنه يتحتم علينا ان ننقل مباشرة من البربرية إلى الفرنسية فالعربية تعتبر أهم العوامل لمعرفة الإسلام، لأنها لغة القرآن" (2). ولإنجاح هذه السياسة البربرية تقرر إبعاد التأثير العربي الإسلامي، وهو ما بينه ( دي كايكس) من أن تدريس اللغة العربية يعني تدريس الإسلام، التعريب هو الأسلمة بالذات، وهذا يعني تعميق نفوذ ديانة من أهم أركانها الجهاد المقدس، ونشر لغة بإمكانها أن تصبح وسيلة لنشر أفكار معادية (3).

وقد توصل عبد الكريم مطيع إلى القول بأنه: " يتضح لنا أن الهدف الحقيقي للفرنسيين كان هو تحويل سكان المغرب إلى نصاري دينا وفرنسيين لغة وثقافة وضم المغرب إلى الوطن والنفوذ الفرنسيين، ولا يكون ذلك في مواجهة السكان إلا بفضل التيار (البربري) لأنه الأقدر على العمل لتنصير المغرب وربطه بالغرب والمسيحية والإستعمار" (4).

ولأهمية هذا العمل الخطير فإن فرنسا حركت أقطابها على جميع الجبهات، فلم تكف بإذنايبها داخل حزب الشعب، بل وجهت صحفها لتحقيق الغرض ذاته. هذه الصحف قدمت القضية البربرية على أنها حقيقة بديهية وأن هناك صراع أبدي في الجزائر، بين العرب المستعمرين والبربر المستعمرين موجهة أيضا سهامها للنيل من رموز الأمة - وجمعية العلماء - وعلى رأسهم الفضيل الورتيلاني (5)، وفي هذا السياق فقد شنت به جريدة (Le monde) الفرنسية مبينة بأنه قبائلي، والقبائل أعداء ألداء للعرب ومع ذلك فإنه لا يخدم القضية البربرية، بل يخدم الوطن الجزائري خاصة والمغرب العربي عامة، مما يعني أنه ظاهرة غير طبيعية ومنحرف. وقد بعث بالمقال مراسل جريدة الأهرام المصرية بباريس يوم 17 - 09 - 1946، أي أثناء بداية الأزمة في حزب الشعب.

(1) (Général) P. J. Andre (C.R) de l'Académie des Sciences Coloniales contribution à l'étude des confreries religieuses musulmanes, Alger 1956. P351-356. عن عثمان سعدي، الأمازيغ، ص 35، 36.

(2) عبد الكريم مطيع، المرجع السابق، ص 18، 19، 22، 30.

(3) ولد يوم 1900/02/06 في بن وريلان (سليط)، قبائلي ينتمي نسبه ل آل آيت درس على والده وغوه وفي 1930م التحق بفلسطينية لإتمام تعليمه بمدرسة ابن باديس، وفي 1933م أصبح مدرسا مساعدا لابن باديس، وفي 1936م انتقله الجمعية عملا في فرنسا وفي 1940 التحق بالأزهر فحصل على العالمية من كلية أصول الدين وفي سنة 1949م أسس مكنيا للجمعية بالقاهرة لشرح القضية الجزائرية وأسس العديد من الجمعيات واللجان في المشرق واتصل بالعديد من الملوك والرؤساء والأسرار في العالم وكتب في أغلب الصحف والمجلات العربية، كل هذا لشرح القضية الجزائرية، تولى بأثارة يوم 12 مارس 1959م. الفضيل الورتيلاني، الجزائر النائرة، دط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 1992، ص 109 (الغلاف الأسمر).



كما نشر الخبر مختلف الجرائد المصرية ( الكتلة، والمصري، والندير). والمقال كتبه موريس فيرو<sup>(1)</sup> وعنوانه " في أروقة الجامعة العربية " يشنع فيه على جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية<sup>(2)</sup>. وما يهمننا في المقال قول موريس فيرو : " إن الفضيل الورثيلاني السكرتير العام ليس عربيا، بل هو من أبناء القبائل التي تعارض سيطرة العنصر العربي بكل قواها، وقد عهد إليه بهذا المنصب لإظهار تضامن إفريقيا الشمالية بمظهر أتم إتجاهها لمقاومة الإستعمار"<sup>(3)</sup>.

ومما علق به الورثيلاني على المقال (Le Monde) السابق قوله : " إنما تريد أن توهم العالم أن في هذه البلاد عنصرين متنافرين : أحدهما عربي قاهر، والآخر اسمه القبائل مقهور، وتريد أن تفهم الناس أن المقصود ( بالقبائل) هم البربر، وأن العداوة والبغضاء قائمان على قدم وساق بينهما من قديم الزمان لشعوب البربر، بأن العرب قوم طارئون مغتصبون مسيطرون، ويجب مقاومتهم ثم طردهم من البلاد"<sup>(4)</sup> وأن الحرب سجال بين العرب والبربر لا يخبو لها أوار، " ويعلم الله ويعلم الفرنسيون وتعلم جريدة (لوموند) المفترية لسان حال المستعمرين المضللين أن كل ذلك بهتان مبین لا وجود له حتى في مخيلة المستعمرين. أما الحقيقة التي ظلت وستظل قائمة إن شاء الله إلى يوم الدين فهي أن 30 مليونا من سكان المغرب اليوم كلهم مسلمون على قلب رجل واحد، في شعورهم الديني وعواطفهم التقليدية، وليس من بينهم نفران إثنان يشعر أحدهما بالسيادة والغلبة نحو الآخر، والجميع يشعرون أنهم عرب سواء أكان ذلك بالأصالة أم بفعل الإستعراب... ونحن إذ نقول هذا نتحدى الفرنسيين أن يجروا إستنقاء في هذه البلاد عما إذا كان واحد في المائة من سكانها يرغب في بقائهم أو كان واحد في المائة يرغب في أن تكون دولة غير مسلمة أو غير عربية"<sup>(5)</sup>. وقد بين الورثيلاني أن الغرض أيضا هو فوق تسد. فغرض فرنسا وصاحب مقال ( لوموند) هو تفريق سكان إفريقيا وتوهين قواهم وتفريقهم على الأقاليم، ثم تفريقهم على الهيئات ثم تفريقهم على المعسكرات في داخل الهيئات - يفعلون ذلك لأنه هو السلاح الوحيد الذي يمكنهم من حفظ سيادتهم مع تمكينهم من رقاب عبيدهم-<sup>(6)</sup>.

ونشير هنا بأنه إضافة إلى المقالات الصحفية المتزامنة مع ظهور الأزمة داخل حزب الشعب أنشأت فرنسا عملا آخر قد يكون أخطر جميع أعمالها، هو تأسيسها للإذاعة القبائلية في نفس فترة أزمة حزب الشعب، وهكذا يبدو عمل الإستعمار متكاملا، وهو ما سنبحثه بعد الإشارة إلى نتائج أزمة 1949م.

(1) صهوي من الطبقة الأولى (الفضيل الورثيلان، المصدر نفسه، ص259.

(2) هي جبهة مشكلة من الحزب الدستوري التونسي، وحزب الشعب الجزائري وحزب الاستقلال المغربي (المصدر نفسه، ص258).

(3) المصدر نفسه، ص258.

(4) أي بدل مقاومة الفرنسيين وطردهم من البلاد.

(5) المصدر نفسه، ص 261، 262.

(6) المصدر نفسه، ص260.

## نتائج أزمة 1949 م :

بعد أن بينا أن الحركة البربرية فرنسية محضة وبيننا علاقتها بالشيوعية ورفض العروبة والإسلام نكمل حديثنا عنها بالإشارة إلى نتائج الأزمة على مستوى حزب الشعب ومن خلاله على مستوى مستقبل الحركة الوطنية.

- إن أزمة مارس 1949<sup>(1)</sup> أثرت بعمق على المهاجرين ولكنها لم تحقق أهداف قادة الحركة البربرية بينما كانت محدودة النتائج في الجزائر بحيث لم تؤثر إلا على بعض قادة الحزب والأوساط الطلابية أي أثرت فقط على رواد المدرسة الفرنسية. ولما أدركوا فشلهم غيروا الخطة لينصبوا أنفسهم محامين عن اللائكية ضد الإسلام إخفاء لأغراضهم الحقيقية من جهة، وتحطيمًا للدين السياج الواقعي من الإستعمار من جهة أخرى، وهو ما بين حربي قائلا : " فتحت غطاء لجنة معارضة لحزب الشعب الجزائري، عبر جماعة الجزائريين الجزائرية عن أنفسهم سرا ( بمقابل الجزائريين العربية الإسلامية) لم يدافع أحد فيها علنا عن أطروحات علي يحي رشيد. كان الدفاع عن العلمانية يستند إلى ضرورة إستقلال الدولة عن الدين"<sup>(2)</sup>، وهنا يدرك المرء بوضوح تمييع هؤلاء للقضية الوطنية، إذ كيف تناقض قضية فصل الدولة عن الدين والدولة غير موجودة أصلا؟! فكان يجب العمل على إيجاد الدولة الجزائرية أولا ثم يناقشون هل تفصل عن الدين أم لا ؟ ، وهنا نجد أن هذا المطلب يتقاربون فيه مع دعاة الاندماج والتجنيس المتطرفين ولكنهم كانوا أكثر تطرفا منهم، لأن دعاة الاندماج لم يذهبوا إلى حد وضع الإسلام موضع الإتهام<sup>(3)</sup>.

- من نتائج أزمة 1949م أنه خرج من اللجنة المركزية لحزب الشعب كل من بناي واعلي وولد حمودة وأوصديق وآيت أحمد. وحلت فروع المنظمة الخاصة في القبائل التي كان يقودها ولد حمودة، وحل ابن بلا محل آيت أحمد في قيادة المنظمة الخاصة، ورفض مصالي أن يأخذ بالإعتبار المسألة الإقليمية في القبائل، وأكد في تقريره إلى مؤتمر هورنو : " لا أزال أعتقد أن البربرية كانت من إصطناع الإستعمار بهدف تدمير النزعة العربية كقوة مقاومة وكفاح دائم"<sup>(4)</sup>.

## - نشأت التيار البربري :

حيث ذهب بناي واعلي إلى فرنسا ليتصل بالحزب الشيوعي الفرنسي طالبا منه دون جدوى مساعدته في تأسيس حزب قومي تقدمي<sup>(5)</sup> كما انضم قسم من زعماء هذه الحركة البربرية إلى الحزب الشيوعي الفرنسي أو إلى الحزب الشيوعي الجزائري. ولم يبق منهم في حزب الشعب سوى آيت أحمد، ورغم بقائه إلا أنه لم يتم بعد ذلك إلا بأدوار ثانوية لصالح القضية البربرية، وأخذ دعاة الحركة

(1) لقد بدأت الأزمة بالفعل في فرنسا في شهر جانفي وانتهت في الجزائر في شهر مارس من نفس السنة أي 1949 (محمد حري، للمصدر السابق، ص66).

(2) المصدر نفسه، ص65، 66.

(3) المصدر نفسه، ص66.

(4) المصدر نفسه، هامش رقم 11، ص336.

(5) وقد تمت المقابلة مع تالين مسزول القسم الإستعماري في الحزب الشيوعي الفرنسي والمصدر نفسه، هامش رقم 12، ص336.

البربرية المطالبون بالديمقراطية وبالثورة المسلحة ينضمون إلى أحزاب لا تتسجم مع هذه ولا مع تلك، إذ كانوا يسعون فيها بوضوح للاعتراف بالفرازة البربرية وباللانكية. ولكن مسارهم وهجومهم على الإسلام جعلهم ينسجمون مع الحزب الشيوعي الجزائري.

- وأخيرا فإن أزمة 1949م ألغت الآمال - حسب حربي - " برؤية نزعة قومية جذرية تتمو بالاستقلال عن الإيمان الديني، إن مغامرة بناي وأعلي وعلي يحي رشيد قد أدخلت النضال من أجل ديمقراطية حزب الشعب... في مازق، مذاك أمحي التأمل العقلاني والعلماني مع المشكلة السياسية لصالح المقاربة الصوفية"<sup>(1)</sup>.

- وبتعبيرنا نحن، فإن هذه الأزمة بينت بوضوح طريق الحركة الوطنية وإتجاهها السليم، العروبية والإسلام، لا جهوية عرقية ولا لانكية، وهو ما أدى إلى الاستقلال.

- وفي ختام حديثنا عن أزمة 1949م يجب أن نذكر بأنه في الوقت الذي كان فيه نقطباء الفكر الثوري الإنبساطي من خريجي المدرسة الفرنسية والتبشيرية على قدم وساق لتمزيق حزب الشعب وتمزيق الشعب الجزائري برفضهم للعروبية والإسلام رافضين شعار " الجزائر جزائرية" بسدل الجزائر عريية إسلامية مطالبين بفصل الدولة عن الدين. هرع سكان ازواوة الكبرى بأعيانها وعلمائها وزواياها وسكانها يكتبون لائحة يمضون فيها معلنيين إسلامهم وعروبتهم مطالبين بإرجاعهم إلى التقاضي بالإسلام، وهذا بعد حوالي قرن من إجبار فرنسا لهم بالرجوع إلى عاداتهم البربرية الجاهلية فيما يتعلق بالأحوال الشخصية، وهذه أكبر ضربة لدعاة الحركة البربرية في عز قوتهم ولأسيادهم الفرنسيين، وهي تعبر عن التيار القبائلي الأصيل، وهو الذي لم تمسخه لا المدرسة الفرنسية ولا مبشروا فرنسا، وهو الأكثرية الساحقة من القبائل.

## الفصل الثاني

### إنشاء فرنسا إذاعة القبائلية بالجزائر

الإستعمار عندما يقوم بعمل ينفذه من جميع الجوانب الممكنة ويوفر جميع الظروف والفرص لنجاحه، وذلك بعد دراسة دقيقة وشاملة. مبنية على تخطيط مسبق، مترابطة زمكانيا، وهذا ينطبق تماما على القضية البربرية، إذ ظهر ما سمي " حزب الشعب البربري" لتخطيم حزب الشعب من الداخل في فترة زمنية محسوبة بدقة، هي حوادث 8 ماي 1945. فنعتقد أن لها علاقة وثيقة بها، ذلك أن تلك الحوادث أيقظت الشعور الوطني الجمعي من جديد بقوة هائلة، قرأى الإستعمار أن يعمل على تحطيم الشعب الجزائري في قياداته الوطنية لإستفاد قواه وتحويل غضبه إلى الذات بنشب مخالبا فيها لتمزيقها بدل العمل على تمزيق الإستعمار الغاشم، فحرك صناعه داخل حزب الشعب ليحطمه من الداخل مما يحطم الثورة الهانجة في نفوس الشعب الجزائري التي زاد أوار إشتعالها كلها حوادث 8 ماي 1949م.

ولكي يقوم الإستعمار بحبك القضية كما ينبغي، -إضافة إلى ما ذكرناه قبلا مما فعله ماسينيون وحاكم الجزائر العام... وتوجيه الصحافة الفرنسية لنفس الغرض - أنشأ الإذاعة الناطقة بالقبائلية - لا بالأمازيغية - في نفس فترة الأزمة داخل حزب الشعب، ويبدو حسب ما فهمنا مما كتبه الشيخ الإبراهيمي أن إنشاء الإذاعة مر بمرحلتين توسطهما عمل من جنس الظاهرة هما :

#### المرحلة الأولى :

الابتداء بإذاعة الأغاني القبائلية والأخبار. وتم هذا قبل 1948م قد يكون في سنة 1945 أو 1946م، أي في نفس فترة بداية أزمة حزب الشعب السابق ذكرها. وفي سنة 1948م إرتفعت نغمة في قاعة المجلس الجزائري بلزوم مترجم للقبائلية في مقابلة مترجم للعربية<sup>(1)</sup>، أي أن هذه المطالبة بلزوم مترجم للقبائلية تمت أيضا في أوج الأزمة داخل حزب الشعب الجزائري، وذلك لهدف واحد هو تعضيدتها وتقويتها، والدعوة للقضية البربرية من مختلف المنابر وفي جميع الإتجاهات. وهذا له أثره الكبير من الناحية النفسية؛ لأنه يوحى للإنسان الجزائري بأن هذه القضية طبيعية وضرورية ولازمة، بل هي مطلب جماهيري وطني. ونقدم هنا ملاحظة عابرة لها أهميتها في نظرنا، لأنها تبين إستمرار التسلسل التاريخي. وربط القضية البربرية الحالية بالماضية ليثبت أن المحرك والمخطط والمنفذ واحد، قديما وحديثا هو فرنسا. هي مطالبة الحركة البربرية حاليا بأن تكون المرافعات في القضاء بالقبائلية كما سنذكر.

(1) محمد البشير الإبراهيمي، اللغة العربية في الجزائر عقلة حرة ليس لها طرفة، جريدة البصائر، 1948. ع 41.

ولقد علق الشيخ الإبراهيمي على إذاعة الأخبار والأغاني بالقبائلية وعلى طلب مترجم في المجلس الجزائري بالقبائلية قائلا : " أكل هذا إنصاف للقبائلية وإكرام لأهلها وإعتراف بحقها في الحياة وبأصالتها في الوطن؟ كلا، إنه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة، ومكر إستعماري بطائفة أخرى، وتفارقة شنيعة بينهما، وسخرية عميقة بهما" (1) .

والهدف من هذا هو " إسكات نغمة ... تتطرق بالحق وتقول : إن هذا الوطن عربي فيجب أن تكون لغته العربية رسمية فجاءت تلك النغمات الشاذة ردا على هذه النغمة المطردة ونقضا لها وتشويشا عليها، ولتلفي في الأذهان أن هذا الوطن مجموع أجناس ولغات لا ترجح إحداهن على الأخرى فلا تستحق إحداهن أن تكون رسمية" (2).

ولا أدل على صحة هذا من أنه لا يوجد في الحواضر قبائلي يجهل الفرنسية، ولا يكاد يوجد في قرى القبائل وهم السواد الأعظم ممن لا يحسن إلا القبائلية، هذا السواد الأعظم لا يملك جهاز راديو واحد، لأنهم محرومون من النور الكهربائي كما هم محرومون من نور العلم، وكل ذلك من فضل الإستعمار عليهم " فما معنى التدجيل على القبائل بلغتهم؟"، ولا يوجد عضو قبائلي في المجلس الجزائري إلا وهو يحسن الفرنسية، فما معنى إقتراح مترجم للقبائلية؟ يقول الإبراهيمي " أما نحن فقد فهمنا المعنى، وأما الحقيقة فهي أن الوطن عربي، وأن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرءونه بالعربية ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا، ولكن الظالمين لا يعقلون" (3) .

### المرحلة الثانية :

وتتمثل في تخصيص قناة للقبائلية كاملة الأدوات ببرنامجها ومحاضريها، ومخبريها وموسيقاها وقرائها، أي إنشاء إذاعة متكاملة بالقبائلية، وقد أعلن هذا في أصل الإذاعة بالقبائلية الذي ذكرناه قبلا، والذي كان يذيع الأغاني والأخبار بالقبائلية، وكان ممن سمع ذلك الإعلان الشيخ الإبراهيمي، وقد نتج عن ذلك الإعلان الذي تم في الإذاعة القبائلية موجة جديدة من الإستهاء غمرت العقلاء العارفين بما وراء الأكمة، لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن الحماسة تبلغ بالإستعمار إلى هذا الحد وما كانوا يظنون أن هناك دركة أخرى من السماجة أحط مما ظهر به الإستعمار في أصل الإذاعة بالقبائلية حتى فجئ الجميع بالإعلان عن إذاعة كاملة متكاملة بالقبائلية.

ومما علق به الإبراهيمي على إنشاء هذه الإذاعة المتكاملة قوله الرائع : " ولا ندرى هل القرآن الذي يُتلون، يتلونه باللغة العربية أو باللغة القبائلية؟ ولا نستغرب أن يتهور هذا (الراديو) يوما

ما في ضلالة جديدة فيتلو للقبائل قرانا جديدا بالقبائلية<sup>(1)</sup> إذا لم يبق من جانب الحكومة إلا هذا النوع من أنواع السفه العقلي. ولو فهل لما عدم من يفتيه ويزين له.

وإنما المشكلة في من يضع هذا القرآن أو يترجمه بالقبائلية، وإذاعة القرآن في الموجة القبائلية هدم للعرض الإستعماري الخبيث ونقض له من أساسه وصفحة ينفقها قفا الإستعمار من كف الإستعمار، وإن الهوى ليعمي ويصم<sup>(2)</sup>.

ولقد بين الإبراهيمي خطورة إنشاء هذه الإذاعة قائلا: "ولعل القراء يعجبون لإعادتنا الحديث في هذه المسألة إذ يتوهمون أنها ليست بهذه المكانة من الأهمية؛ وإن أثر هذه المسألة لأعظم مما يتوهمون، إنها فرع من شجرة خبيثة غرسها الإستعمار بيده وتعهدها بالعناية والتربية وإسمها الحقيقي "التفريق بين الأخوين العرب والبربر".

ومن فروع هذه الشجرة الخبيثة الظهير البربري المشهور. ومن فروعها ما سارت عليه حكومة الجزائر منذ قرن في وطن زاوية من تخصيص بقوانين وأحكام إدارية وقضائية وتقوية النظام العشائري فيه، وإبعاده بالتدرج عن القضاء الإسلامي.

ومن فروعها تكثير مراكز التبشير بالقصرانية في الوطن القبائلي.

ومن فروعها راديو الجزائر للغة القبائلية<sup>(3)</sup>.

وبهذا بين الإبراهيمي ترابط المنهج الإستعماري وتكامله فظهرت العلاقة بين :

الإستعمار والتبشير، والقضية البربرية والتبشير والإستعمار، واللانكية والتبشير وضرب الإسلام، والحركة البربرية وتمزيق الوطن لخلق نار العداوة والبغضاء بين أبنائه. ولهذا فإن الغرض من الإذاعة القبائلية ليس حبا للقبائل وتشريفا للقبائلية؛ لأن فرنسا تعلم أن 95 % منهم يسكنون في قمم الجبال لا يعرفون الراديو والخمسة % من سكان الحواضر والقرى الإستعمارية يتكلمون العربية والفرنسية ويستطيعون الإذاعة العربية ويطلبون للموسيقى العربية لأنهم عرب مسلمون. وهكذا بين الإبراهيمي عروبة البربر.

وإذا كان ما سبق هو أغراض فرنسا من إنشاء هذه الإذاعة، فإنه من أغراضها أيضا أن تظهر للعالم الخارجي الذي لا يعرف الجزائر أنه توجد في الجزائر لغة أخرى غير العربية، وأن فرنسا رحمة بأهلها خصصت لهم إذاعة. والواقع أن الإذاعة القبائلية سلاح جديد ابتكرته فرنسا لحرب لغة القرآن والتقليل من أهميتها، وحجة مصنوعة لإسكات المطالبين بحقها في وطنها، ويختتم الإبراهيمي تعليقه عن إنشاء هذه الإذاعة مقائلًا : ما معنى إذاعة بالقبائلية علما أن اللهجات البربرية بالجزائر

(1) ونحن نطلق على لقب الإبراهيمي فنقول: ولا نستغرب أن يهور هذا الراديو يوما ما في ضلالة جديدة، فيقرأ الكتاب المقدس بدل القرآن الكريم، ولنا تنوي هل يعدل الكتاب المقدس للبروتستانت أم الكتاب المقدس للكاتوليك، غير أن ولاء الحركة البربرية لفرنسا يجعلنا نرجح الاحتمال الثاني، ولا نستغرب أن ينفقوا هنا تحت غطاء ما يحكوه مؤمرا من هطرح الحرية في لمدد الطائفت واللغات.

(2) محمد الطاهر الإبراهيمي، موجة جديدة، الجزائر، 1948، ع 42 (عن آثار محمد الطاهر الإبراهيمي، ج 2، ص 445).

متعددة متباينة؛ بحيث لا يفهم أهلها بعضهم عن بعض من ميزابية وشاوية. فهل تخصص لكل واحدة إذاعة؟ والهدف النهائي واضح : ضرب العربية والإسلام<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن نلخص الأهداف من هذه الإذاعة التي كانت تبث برامجها سائر اليوم وطائفة من الليل<sup>(2)</sup>:

- التفرقة بين أبناء الدين الواحد والوطن الواحد، أي بث النزعة العنصرية والطائفية وتقسيم الأمة وتفريقها ومحاربة لغة القرآن<sup>(3)</sup>.
- جعل القبائل على المدى المتوسط والبعيد ( سوبرمان s uppère main الجزائر ) دون بقية البربر
- إمتصاص غضب الجزائريين بعد أحداث 8 ماي 1945م بتوجيه سهامهم إلى نحورهم بغرض الفناء الذاتي والضعف الإرادي بدل توجيه جميع قواهم للعنو الحقيقي فرنسا.
- جواب لجمعية العلماء بالخصوص والحركة الوطنية بالعموم التي كان شعارها الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا، وذلك بتكوين جزائريين يرفضون هذا الشعار المحدد للثوابت الوطنية، بل ويميعونه بأن تكون القبائلية لغة رسمية وهو رد فعل صريح على مطالب جمعية العلماء والحركة الوطنية بجعل اللغة العربية لغة رسمية لأنها كانت تعتبر لغة أجنبية في الجزائر كما سنبين. ويزيد هذا تأكيدا ما نراه عندما نتحدث على أسباب أحداث تيزي وزو في أفريل 1980م التي جاءت رد فعل مباشر على الإضراب العام للطلبة المطالب بالتعريب والذي إستجاب له الدولة، وهذا ما بين الشيخ الإبراهيمي بوضوح في النص السابق ذكره وهو ما يبينه أيضا الشيخ عبد اللطيف سلطاني كما ذكرنا، فالغرض واضح هو :
- محاربة لغة القرآن.
- إبعاد البربر عن سماع الإذاعة العربية التي يمكنها أن تساهم في تعريب الألسن.
- العمل على تحطيم الإسلام العقبة الكؤود في وجهة الإستعمار وذلك من خلال تحطيم لغته.
- هيمنة اللغة الفرنسية على الجميع وذلك إستبدالاً للغة العربية التي كانت هي القاسم المشترك بين جميع اللهجات البربرية، وذلك لأنه لما كان لا العربية ولا القبائلية يمكنها أن تكون رسمية لأن الوطن حسب زعم فرنسا مجموعة أجناس ولغات لا ترجح إحداهن على الأخرى فلا تستحق إحداهن أن تكون رسمية، والهدف الكلي من كل ما سبق، التنصير والإستعمار.

(1) المصدر نفسه، عن تاريخ... ج2، ص445-447

(2) وهي الآن تبث برمجتها في فترة أطول من ذلك.

(3) عبد اللطيف بن علي السلطان، المردكية هي أصل الإهتراكية، ط1، دار الكتاب، الدار البيضاء المغرب، 1974م، ص81.

## الفصل الثالث

### تأسيس الحبهة الشعبية للقوات الاشتراكية (FFS) سنة 1963م

#### ظروف تأسيسه :

يذكر بورقعة<sup>(1)</sup> أنه نتيجة للصراع الذي نشب بين ابن بلة وبومدين من جهة، وبورقعة وغيره من جهة أخرى جعل بورقعة، وأبو بكر بلقايد عضو حزب الثورة الاشتراكية (PR S) المنفصل عنه، والدكتور هرموش رمضان، وعلي عبد النور يتصلون بأيت أحمد الذي كان يربط في قرية بجبال جرجرة، وتم ذلك في سبتمبر 1963م، اجتمعوا به وبدأوا الاجتماع بتوضيح أسباب إختيارهم له لقيادة الحزب الجديد (FFS)، وهي حسب بورقعة " نظرا لما يتمتع به<sup>من</sup> ماضٍ محترم قبل الثورة وأثناءها وعدم تكلته في أية جهة بعد إسترجاع السيادة"<sup>(2)</sup> وإقترح على أيت أحمد إنضمام كريم بلقاسم المقيم بفرنسا لكفأته وصلاته، فأعترض، وأقنع فوافق مشرطا أن ينظم أيضا كل أعضاء منظمة بوضياف (PRS) وبهذا الإتفاق تم ميلاد FFS .

وبعد أسبوع اجتمعوا ثانية وقد تخلف عنهم بوعلام بن حمودة الناطق الرسمي للولاية الرابعة آنذاك، وفضل أن يعلم رئيسه ابن بلة بإسم المنظمة وأعضائها وبجميع أسرارها التي يعرفها عنها قبل ظهورها إلى الوجود، وقد تمت الموافقة النهائية في هذا الاجتماع على القائمة النهائية للمؤسسين لجبهة القوى الاشتراكية (FFS)، وكان عددهم 16 عضوا، وبمجرد ظهور FFS إنتهى عمليا دور منظمة بوضياف (PRS) وقد حددوا أهداف FFS كما يأتي :

- 1- تحذير المواطن من الإستغلال السياسي.
- 2- وضع حد لفوضى الحكم والإرتجال الذي يمارسه رئيس الجمهورية.
- 3- تطهير الجيش من المدسوسين وعملاء فرنسا.
- 4- وقف أعمال زوار الفجر ( المخابرات).
- 5- إرساء قواعد ديمقراطية صريحة.
- 6- إطلاق سراح جميع المعتقلين<sup>(3)</sup>.

(1) هو خضر بورقعة، التحق بالثورة سنة 1956، قاد بالولاية الرابعة كتبية الزيرية الباسية، كان برتبة رائد، عين فيل الاستقلال في مجلس قيادة الولاية الرابعة، ثم عضوا بالمجلس الوطني للثورة، وبعد الاستقلال شارك في المجلس الوطني الأول، ثم في اللجنة المركزية للمؤتمر الأول سنة 1964. معروف بشدة معارضة لميثاق الحدود وبومدين، ومن المؤسسين الأوائل للأناضل، ساند الطاهر الزبيري في محاولة الانقلاب النافذة سنة 1967 كما ساند كريم بلقاسم، حكم عليه بـ 20 سنة سجنًا لمشاركته في تمرد 11 ديسمبر 1967 مع الزبيري و10 سنوات أخرى بتورطه في عطف كريم بلقاسم واتصافه بحركته. وبورقعة يذكر أن مشاركته في محاولة الانقلاب لم يكن يقصدها ولكنه ساعد الزبيري في الإسطفاء بعد الفشل ولما لقاه بكريم بلقاسم للدم لم يكن له لى حركته، أطلق صراحه سنة 1976م (سي لخضر بورقعة شاهد على اغتيال الثورة، ط1، دار الحكمة، الجزائر، 1990، ص2 من الغلاف الخارجي، ص1 من تقديم سعد الدين الشاذلي، ص188 وغيرها).

(2) يقول أن بورقعة لم يعرف أن أيت أحمد كان عضوا قياديا في حزب الشعب الزبيري في الأربعينات الذي عمل على تحطيم الحركة الوطنية من الداخل بحدمة لفرنسا.

(3) لخضر بورقعة، المصدر نفسه، ص120، 121.



هذه هي الأهداف التي حددوها حسب رواية بورقعة، ونحن عندما نتفحصها لانجد لها طابعا إيديولوجيا، بل نجدها في مجملها مطالب سياسية، ويبدو لنا أن الهدف واضح، وهو العمل على جلب أكبر عدد من المجاهدين والعسكريين إلى الأفافاس وإظهاره على أنه المخلص الوحيد للشعب الجزائري، وإلا كيف يمكن ليساريين متطرفين وهم جماع (PRS) أن يطالبوا بإرساء قواعد ديمقراطية صريحة وهم يكفرون أصلا بالديمقراطية ويؤمنون بالثورة المستمرة.

ويزيد قناعتنا وضوحا إستدراج الأفافاس لمحمد ولحاج قائد الولاية الثالثة كي ينضم إليه، وقد إنضم دون رغبة منه مشترطا لإنضمامه أن يكون مقرونا بدخول كريم بلقاسم، وأن يكون دور " كريم بلقاسم" في مستوى دور آيت أحمد، وافقوا على شرطيه وعقد أول إجتماع موسع حضره جميع الأعضاء، وهنا ننتقل إلى :

### الـ FFS والعنف :

قلنا بأنه بعد إنضمام لحمد ولحاج عقد أول إجتماع موسع حضره جميع الأعضاء، كما جاء بعض الضباط إلى ذلك الإجتماع بأسلحة وذخيرة قدموها لرئيس FFS آيت أحمد، وتم الإتفاق على تسليم كميات الأسلحة إلى النقيب موسى الضابط في الجيش الوطني الشعبي للتمويه والذي كان على إتصال سري ودائم بآيت أحمد، يقول بورقعة : " ... بإشرنا نشاطنا كمجموعة صغيرة، بأحلام وطموح كبيرين نواجه نظاما له جيش ودرك وشرطة وسجون ومعتقلات وإمكانيات معتبرة ... لم تكن نخشى هؤلاء وقد تحملنا مسؤولياتنا التاريخية بمعارضتهم والتصدي لهم... " (1).

وأصبح الأفافاسيون يتجولون في الأماكن العمومية بزيهم العسكري وشعارهم المميز (FFS)، وقد نشبت بينهم وبين الجيش النظامي معارك، ويتهم بورقعة النظام ( ابن بلة ويومدين) بأنه هو الذي كان يعطي الأوامر السرية إلى بعض الجنود بإفتعال معارك هامشية لجر الـ FFS إلى حرب أهلية (2)، ولنا تدروي لماذا إنن تسلحوا وأنشأوا جيش FFS الذي أصبح يتجول في الأماكن العمومية بزيه المميز؟ فهل يوجد نظام حكم في العالم يسمح بأن تؤسس مجموعة حزبا دون إعتداد، ويسلح أفراد، ويتركزون في مناطق عمومية ويتجولون بزيهم العسكري المميز في الساحات العمومية؟ ! إن هذا شيء عجاب، وهذا يقودنا إلى موقف النظام من FFS.

(1) المصدر نفسه، ص 121.

(2) المصدر نفسه، ص 123.

## موقف النظام من جماعة FFS :

يذكر بورقعة - ونحن نخالفة فيما يذكر - أن النظام عمد إلى تقزيم دورهم وتشويهه، فإتهمهم بأنهم جماعات بربرية تهدف إلى فصل منطقة القبائل عن باقي الوطن، وأنهم منظمة إرهابية وعنصرية تعمل على إثارة النعرات القبلية الضيقة، وقدمهم إلى الرأي العام العربي والدولي على أنهم عناصر مشاغبة ومضادة للثورة في عنصريتها وإنفصاليتها مما جعل صحيفة عربية أسبوعية تتهمهم بالعمالة للكيان الصهيوني، وقد دعمت رأيها بصورة مزيفة. كما اتهمهم بأنهم يدعمون المخططات الإمبريالية في المنطقة<sup>(1)</sup>، وأن وزراء فرنسا وأعلامها وقفوا ضدهم.

وقبل مواصلة حديثنا نعلق على ما ذكره بورقعة هنا فنجدته متهافتا، ذلك أنه يعيب على النظام تشويههم ولا يعيبون على أنفسهم الخروج على النظام، كما أنه تنقصه المنهجية العلمية فيما يتعلق بالتوثيق، فهو لم يذكر لنا اسم تلك الصحيفة ولا عددها ولا مكان صدورها، كما أنه لم يذكر لنا أسماء الوزراء الفرنسيين الذي تهجموا عليهم ولا نوع تصريحاتهم ومكانها ولا أسماء الصحف الفرنسية المتهممة. وكيف تكون فرنسا ضدهم وهم قد أسسوا بها فيدرالية كاملة لحزبهم بمساعدتها وتوجيهها؟.

أما محتوى تهمة النظام للأفاس فإنها صحيحة برمتها، وقد بين هذه الصحة تطور الأحداث، بل وما سبقها أيضا. ومن أقوى الأدلة على هذا هو سلوك FFS وزعيمه بعد أخذ الحزب الإعتقاد الرسمي فإنه يبين صحة التهم التي وجهها النظام إليهم، وأن الأفاس هو الذي يحافظ على مصالح الغرب لا غيره، ونكتفي بمثال واحد، وهو تصريح آيت أحمد نفسه في منتدى المسار الديمقراطي الجزائري بمدريد الذي عقد في شهر أفريل 1992م، حيث أفتتح كلامه : " بأن الجزائر ظلت منذ 1955م وهي تغذي ثقافة معاداة الغرب وثقافته - (مما يعني أنه كان يجب على المجاهدين في الثورة التحريرية أن يقولوا للشعب الجزائري يجب عليكم أن تحبوا فرنسا التي تقتلكم...) - إلى أن أوصلت الشعب إلى قناعة بأن حلوله تكمن في معاداة الغرب، وهو الشيء الذي ولد جبهة الإنقاذ من صلب جبهة التحرير، وجبهة القوى الاشتراكية قامت لتحارب هذه الثقافة وتحارب أعداء الغرب... وبالتالي، فعلى الغرب إذا أراد أن يحتفظ بالجزائر في فلكه أن يساعد حزبه للقضاء على الكتل المتصارعة في السلطة"<sup>(2)</sup>.

وهل هناك دحض لمزاعم بورقعة أكبر من هذا التصريح لزعيم الأفاس، وهل هناك دليل أكبر من هذا على عمالة هذا الحزب للغرب وخيانتته لمتل ومبادئ ثورة نوفمبر التي كان آيت أحمد نفسه من مفجريها؟! .

(1) المصدر نفسه، ص 122.

(2) نفس المصدر نفسه، منتدى المسار الديمقراطي الجزائري بمدريد، جريدة النساء، الجزائر، 14-04-1992. ص الأعمدة.

مورغم هذا فإن النظام حاورهم وعمل على حل المشكلة سلمياً، فتم أول اتصال مباشر مع مبعوثي بومدين ببلدة (جامع السريح) شرق مدينة تيزي وزو ولكن مطالبهم كانت تعجيزية، من بينها أن يجعلوا الطاهر الزبيري على رأس القيادة العامة للجيش لا بومدين<sup>(1)</sup>، ففشل الحوار أو المفاوضات فوقع إتصال آخر في مدينة تيزي وزو فشلت المفاوضات، ووصلت البلاد بتمرد الأفافاس إلى حالة من الخطورة عبر عنها رئيس الجمهورية أحمد بن بلة قائلاً: "إن الوضع في البلاد على وشك الإنهيار، وأن الإنقسام حاصل لا محالة، وأن الثورة في خطر..."<sup>(2)</sup>، ولقد زاد البلاد خطورة عدوان ملك الرباط الحسن الثاني على الجزائر مستغلاً ظروفها الصعبة الناتجة عن تمرد الأفافاس.

### الأفافاس وعدوان ملك الرباط على الجزائر:

إستغل ملك الرباط الوضع المتردي في الجزائر بسبب تمرد الأفافاس فهاجم جيشه على الحدود الغربية للجزائر، وذلك يوم 9 أكتوبر 1963م وإحتل جزءاً منها، فوقع يوم 19 أكتوبر 1963 إتصال جديد بين الأفافاس بعد أن نسق مع فيداليتيه بفرنسا والرئيس أحمد بن بلة فوقع الإتفاق على لقاء مع الرئيس أحمد بن بلة للإتفاق معه على برنامج عمل لإنهاء الخلاف، فوقع اللقاء مع الرئيس بعد أن رتب الأفافاس ظروفًا أمنية مشددة ووزع جنوده على بعض ضواحي العاصمة وأماكنها الإستراتيجية<sup>(3)</sup>، ولاسيما قرب "الفيلا الجميلة" مكان الإجتماع. وقبل الوصول إلى الرئيس توقف بورقعة مع زمرة بضاحية الأبيار بالقرب من منزل آيت أحمد منتظرين مصطفى فتال مدير الأمن ليصحبهم إلى مقر عقد الإجتماع، وكان ببيت آيت أحمد، محمد خيضر صهر آيت أحمد ومؤيد حزبه (FFS). بعد الدخول على الرئيس فمما قاله عندما سأله آيت أحمد عن الأسباب الحقيقية لعدوان ملك الرباط ومن هو المتسبب الرئيسي في ذلك؟ "كان الأولى بك أن تسألني قبل كل شيء عما يحصل في ساحة القتال من تطورات، وأين وصل الجنود المغاربة... منتهزين هذه الفرصة لمحاربتنا كما إنتهزتم أنتم في داخل البلاد نفس الفرص لمحاربتنا... إذ لا فرق بينكما في هذا الموقف"<sup>(4)</sup> فأجابه آيت أحمد عن إستعداد الأفافاس للدفاع عن الجزائر ضد عدوان ملك الرباط، ووضع شروطاً لذلك منها: إبعاد بومدين وضباطه المعروفين عن الجيش وتوزيع الأراضي على المجاهدين وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين وأن يعلن آين بلة محتوى الإتفاق فوراً للجماهير. ولكن آين بلة لم يعلن ذلك، فخرج آيت أحمد برأسه ينشد الأمان في قريته لأنه تأكد لهم حسب بورقعة أن الرئيس خاضع لبومدين

(1) نعتقد أن رفضهم بومدين كان لسبب واضح هو قوة شخصيته وحكمته مما جعلهم عاجزين عن العبث معه وإلا كيف يقترح الطاهر الزبيري قائلاً عاماً للجيش وبورقعة نفسه يعترف بعدم كفايته أثناء حديثه عن الإنقلاب الفاشل الذي أقامه على الرئيس الراحل مولري بومدين؟ .

(2) بورقعة، المصدر نفسه، ص124.

(3) هذا كلام لخضر بورقعة، وكان الأمان هو البتولة، والدولة هي المعارضة.

(4) المصدر نفسه، ص127-131. وكلام آين بلة هنا مهم جداً، لأنه بين بقله أن جيش آيت أحمد هو الذي بدأ بالعدوان عكس ما ذكره بورقعة قبلاً، ويؤيده تأكيداً أن آيت أحمد لم ينكر في رده، وهو ما بينه بورقعة نفسه.

الذي استطاع رغم تواجده في قلب الأحداث بشار حيث كان القائد العام للجيش الجزائري في دفاعه عن الوطن أن يوجه ضربات خفية إلى FFS فصب جام غضبه على آيت أحمد وألجأه وبورقعة وغيرهم " وإدعى - وهو محق في هذا الإدعاء - أنه لولا إنفصال FFS وإضعافها الصف في الداخل ما كان لملك الرباط أن يستهين بقواتنا ويغزو حدودنا الغربية...<sup>(1)</sup> وبذلك بين بومدين - وهو محق - أن FFS هو قضية إنفصالية وتمرد على الشرعية وإخلال بالتوازن العام مع العدو<sup>(2)</sup>.

والواقع أن هذا الموقف لبومدين صحيح وإذن فإن الأفافاس كان من أسباب غزو ملك الرباط للجزائر. وبعد وقف القتال بين الجزائر والمغرب بعد موافقة ملك الرباط على قرار وقف القتال تحسنت ضربات قوات بومدين<sup>(3)</sup> ورجوع قوات البلدين إلى حدودها، تمكن النظام من إلقاء القبض على آيت أحمد وحكم عليه بالسجن بدل الإعدام نتيجة للتدخلات، وبذلك تمكنت الدولة الجزائرية من القضاء على تمرد الأفافاس.

هذه هي رواية لخضر بورقعة مع بعض تعليقاتنا عليها، وقد حاول أن يبين فيها أن FFS هو يسوع المخلص، وأن مصيبة الجزائر ومحطمها هو بومدين، وأن كل عناصر FFS شاركوا في رد عدوان ملك الرباط بإستثناء آيت أحمد.

والواقع أن هناك رواية أخرى نراها أقرب إلى الصواب فيما يتعلق بعنف الأفافاس وتمرده وسبب ذلك: أدلى لنا بها أحد المجاهدين الذين شاركوا في إلقاء القبض على آيت أحمد وكان حاضرا أثناء إلقاء القبض عليه، وهاهو ملخصها:

خرج آيت أحمد من سجن فرنسا سنة 1962 م، وكان في السجن مختلفا مع الجماعة ( ابن بلة) وقبيل إستثناء 1962م لتقرير المصير أنشئت جمعية تأسيسية فيها بعض النواب الأوروبيين<sup>(4)</sup> والبقية جزائريون، مهمتها تسيير البلاد حتى تتكون الحكومة الجزائرية وفقا لإتفاقيات إيفيان، فنشأ مواز لها مكتب سياسي تابع لجبهة التحرير الوطني ( وكان للقيادة العسكرية نفوذ على القيادة المدنية) مباشرة بعد إعلان ديجول إستقلال الجزائر، وكان آيت أحمد أحد أعضاء المكتب السياسي، وعندما عين هذا المكتب أحمد بن بلة رئيسا للجزائر انفصل آيت أحمد من المكتب السياسي وذهب إلى بلاد القبائل ومعه كريم بلقاسم ومحمد ولحاج رحمهما الله، وأعلنوا قيادة في بلاد القبائل وأعلنوا أن بلاد القبائل منطقة محررة، وهذا ما دفع بالرئيس ابن بلة إلى إرسال وحدات من الجيش في شهر سبتمبر 1963م، وعندما وصلت هذه الوحدات إلى بلاد القبائل تمكنت من إسترجاع جميع مراكز آيت أحمد ومحمد ولحاج

(1)(2) المصدر نفسه، ص132.

(3) ونشر هنا بأن من باب الإنصاف أن نقول: أن كثيرا أو بعضا على حسب الروايات - من رجال الأفافاس وعلى رأسهم محمد ولحاج أخذوا أسلحتهم وشاركواهم أيضا في رد عدوان ملك الرباط، ويرى بورقعة أنه بعد الإجماع بالرئيس أحمد بن بلة والإتفاق على ما سبق ذكره ذهب بورقعة إلى أماكن مركز قوات FFS المسلحة بكل من الشلف واللمبة وتلملاط والساحل لإعطاء الأوامر بالتحرك إلى الجهة، وقام كذلك محمد ولحاج بدوره بنفس المهمة لقراته في تيزي وزو، وهذا بقول بورقعة "يكون انتهى دور الأفافاس عمليا" (المصدر نفسه، ص131).

(4) ومن أراء التوسع في معرفة هذه الجمعية للرجوع إلى بورقعة، المصدر السابق، ص112.....

وكريم بلقاسم، وأسرت ما يقارب 60 % من جنودهم، هذه المراكز هي : العرازقة، فورناسيونال، ميشلي، مأكلة ، جامع الصهاريج، برج منايل، منطقة دلس، وبدأت الثورة سنة 1963م، أي بعد إحتلال مراكزهم إتجهوا نحو الجبال وبقوا ثائريين إلى ماي 1965م، وعند هجوم ملك المغرب الحسن الثاني على الجزائر سنة 1963م إنضم محمد ولحاج<sup>(1)</sup> ومعه جماعة قليلة من الجيش الذي كان معه في الجبال إلى الناحية العسكرية الأولى في تيزي وزو، يعني رجعوا للنظام دفاعا عن الوطن ورد إعتداء ملك المغرب.

أما كريم بلقاسم فتمكن من الخروج من الجزائر، وأما آيت أحمد فبقي مع أنصاره حتى تمكن أحد الفيالق<sup>(2)</sup> من إلقاء القبض عليه في مأكلة في مركز لأباء البيض يقوم بصناعة الفخار والتعليم التبشيري، ومن ضمن ما كانوا يعلمونه لأطفال المسلمين من خلال ما وجدته الجيش هناك من كتبهم الناطقة بالعربية العامية : أن محمدا ليس نظيفا، وأن أمه تمسح برأزه ثم تعجن العجين دون أن تغسل، ويوجد في ذلك المركز عدد كبير من الكتب المكتوبة بالعربية العامية.

أما كيفية إلقاء القبض على آيت أحمد، فإن الجيش ألقى القبض على أحد الفرنسيين، وهو الذي أعطاهم معلومات عنه فأنتت الكتيبة رقم ... من الفيالق ... التي كانت تحاصر منطقة الأباء البيض لمدة شهر أو يزيد، وكانت الأوامر التي أعطيت لها : أن لا تسمح لأي واحد من الأباء البيض بالخروج من المركز أو الدخول إليه، ولكن دون استعمال العنف، والذي يتصل بالأباء البيض هو القيادة العسكرية فقط، وعندما ألقى القبض على ذلك الفرنسي أنتت القيادة العسكرية ودخلت مركز الأباء البيض، فوجدوا آيت أحمد هناك مقنعا بلحية مستعارة ولباس الإكليروس من الجبة السوداء الطويلة والقفاز والطاقيّة، ومعه مبلغ من المال قدره 245 مليون سنتيم جزائري، والغريب أن الدينار الجزائري طبع فقط في تلك الأيام، فتقدم إليه السيد / ..... (وكان آنذاك نقيبا) وأزال لحيته المستعارة فعرفه الجنود جميعا، لأنه كان قد زارهم بعد خروجه من سجن فرنسا، خاصة جنود الحدود الشرقية للوطن، فنقل مباشرة إلى الجزائر وحكمت عليه المحكمة العسكرية بالجزائر بالإعدام، بعد حوالي 4 أيام فقط من إعتقاله<sup>(3)</sup>، وقد حول الحكم من الإعدام إلى السجن المؤبد.

(1) ومن باب الإنصاف نقول بأن انضمام محمد ولحاج إلى الجيش الجزائري في هذه المرحلة وذهابه إلى جبهة الدفاع عن الوطن دليل على نداء النيات والتفاني في حب الوطن وكرم طرح وعظمه.

(2) وعندنا رقم الفيالق ورقم الكتيبة، ولكننا لم نتمكن لأسباب موضوعية في نظرنا.

(3) وقد علم صاحبنا لالا والغريب أن المحكمة التي حكمت على العقيد شعبان بالإعدام هي التي حكمت على آيت أحمد بالحكم نفسه. والهامي الذي دافع عن شعبان وهو سوسري الجنسية هو الذي دافع عن آيت أحمد، وقد طلب العفو من رئيس الجمهورية أحمد بن بلة عن شعبان فرفض ونفذ الحكم في مدة 24 ساعة . وطلب العفو من الرئيس عن آيت أحمد فبقي عند ما جعل الحكم يحول من الإعدام إلى المؤبد. والسؤال الغريب الذي لم يجد جوابا إل الآن ، هو : لماذا عفى عن آيت أحمد ولم يعفى عن شعبان ؟.

وهكذا استمرت ثورة أيت أحمد (FFS) من 1963م إلى 1965م وكلفت ضحايا كثيرين من الطرفين، وكان له علم ذو لون أصفر، وفيه حبة زيتون وحبة تين<sup>(1)</sup>.

### نتائج وملاحظات :

نستطيع مما سبق أن نستخلص مجموعة من النتائج والملاحظات، منها :

- المبررات التي قدمها بورقعة - رغم إحترامنا له - لتمردهم لا يقبلها العقل، وإلا فإن كل من لم يعجبه شخص في الدولة يسلمح عصابة أو جهة، يتجول أفرادها في الساحات العمومية بلباسهم المميز وأسلحتهم، ويعلن تمرده على الدولة إلى أن تستجيب لشروطه المستحيلة ولا سيما أن تطور الأحداث بين أن بومدين هو الأصلح ليس لقيادة الجيش فحسب بل لقيادة الدولة، ومنطقهم يجعل الدولة لا يمكن أن تقوم لها قائمة إلى الأبد لأن كل يوم يتمرد فيه مجموعة جديدة لأنه لم يعجبها الشخص الذي إقترحته المجموعة السابقة.

وعلى ذكر بومدين الذي صب عليه بورقعة جام غضبية فإنه كان له شرف قيادة جيش رد عدوان ملك الرباط وقد رده بالفعل، وكان له الفضل في توحيد البلاد وتوفير الأمن والاستقرار والعدالة الإجتماعية وبناء قاعدة صناعية هائلة ... وهذا راجع في نظرنا إلى وطنيته وقوة شخصيته وحكته وذكائه وإستراتيجيته، وهذا ما جعل دعاة الحركة البربرية يكرهونه ويحتدون عليه<sup>(2)</sup>، وكذلك فرنسا، حيث كان تأسيسها للاكاديمية البربرية من أهم أسبابها الضغط عليه وتركيعه ولكنه ثبت ولم يركع.

- قيام الأفافاس على العنف والإرهاب إبتداءا، دون مراعاة ظروف البلاد آنذاك، بل مستغلا الصراع الذي نشب بين الولايات التاريخية، وذلك للإجهاز على السلطة، وظاهرة العنف والإرهاب هذه ستظل ملازمة للحركة البربرية إلى الآن، فهي لها كالماء للسماك، وذلك لإفتقارها إلى قوة الفكر التي تنفع بها الآخرين، فهي تقوم من جهة على العنف والإرهاب، ومن جهة أخرى على أحادية الفكر بمنع الفكر المغاير من التسرب إلى أتباعها بل وإلى غير أتباعها. وبهذا فإن الحركة البربرية تقوم على دعامتين أساسيتين : الإرهاب والديكتاتورية.

- نشأة الأفافاس الأولى كانت في ظاهرها ذات طابع سياسي أكثر مما هي ذات طابع عرقي إيديولوجي، ولاسيما عند بعض المؤسسين كبورقعة ومحمد ولحاج، وقد تكون لنا هذا التصور من خلال ما كتبه بورقعة، ومع هذا فإننا نقر تصور الرئيس الراحل هواري بومدين من أنها قضية إنصالية ذات طابع بربري عرقي<sup>(3)</sup>... وهذا لمجموعة من المعطيات الموضوعية، منها :

(1) هذه المعلومات كلها لول ما السيد / ..... يوم الجمعة الساعة 6:20 مساء، 10 جانفي 1992م في أحد أحياء قسنطينة. وكان أثناء القبض على أيت أحمد عريف أول. وقد أعطانا أسماء الضباط الذين قفروا القبض عليه، ولكننا لم نذكر أسماءهم لأسباب موضوعية، وهذا إننا على استعداد لرفض بعض هذه المعلومات أو كلها إن ثبت لنا ما ثبتت لها.

(2) ولازلت أذكر كيف سكر بعض دعاة الحركة البربرية يوم وفاته ابتهاجا وسرورا بظك الرفقة.

(3) وقد فهم هذه الحقيقة في تلك الأيام جميع الناس بما في ذلك المواطنين البسطاء وكذلك الجنود الذين شاركوا في إخماد تلك الفتنة ووضوا حدا لتلك الإرهاب.

- تموقعها الجغرافي، فهو في بلاد القبائل أساساً، والمجننون فيها كانوا كذلك، وأيت أحمد نفسه تموقع و التجأ إلى جبال القبائل، وهو ما أقر به بورقعة كما ذكرنا قبلاً.
- تطور الأحداث بين الطابع البربري الجهوي لأيت أحمد كما بينا، وقبله ذكرنا مساهمته الفعالة في ما سمي " حزب الشعب البربري" في الأربعينيات، ولا يقبل عقلنا الإدعاء بأنه كان في الأربعينيات ذا نزعة بربرية ومن العناصر الفعالة في " حزب الشعب البربري" ثم تاب سنة 1963م وتخلي عن تلك النزعة تماماً، ثم عاد إليها من جديد، وما هي الآن صيحته تملأ الدنيا بالتعددية اللغوية والثقافية وجعل القبائلية لغة رسمية ووطنية ومحاربة العربية الفصحى والدعوة إلى الفرنسية والعامية الخ، مما يجعلنا نعتقد أن بورقعة كان تنقصه الدراية بما يجري في الأفافاس رغم أنه يزعم بأنه من مؤسسيه.
- عدم مشاركة أيت أحمد في صد عدوان ملك الرباط على الجزائر رغم مشاركة بعض أصحابه ليس له في نظرنا سوى تفسير واحد، هو تغليب المصلحة الشخصية على حب الوطن، وإلا لماذا لم يلتحق بالجبهة كما التحق بها محمد ولحاج وغيره، ولو التحق بها لكان دعماً معنوياً للجيش له وزنه.
- إلقاء القبض على أيت أحمد ومحاكمته وفراره من السجن يعد مرحلة فاصلة للأفافاس بين عهدين. عهد التأسيس الذي ذكرنا ملاحظتنا عنه<sup>(1)</sup>.
- والعهد الجديد الذي ظهر فيه الأفافاس كحزب سري يساري بربري فرنكفوني لانكي تبشيري، وهو العهد الذي إرتبط بالأباء البيض ورجال الكنيسة، ومن الأمثلة على هذا، فإن :
- علي مسلي المساعد السابق لحسين أيت أحمد كان نصرانياً<sup>(2)</sup>، وكان مستشاره الخاص، وهو في حقيقته " أندري" وليس " علياً".
- كما أن أمين مال حركة أيت أحمد في وقت ما، كان من رجال الدين النصراني، وهو الأب دي فالكو، وبهذا نكتشف سر عدائها للثقافة العربية والعروبة - والإسلام - ودفاعها المستميت عن الفرنسية والفرنسة في الوقت نفسه، هذا العداء نتج عن تأثر الحركة البربرية بأفكار الأبياء البيض وبعض العناصر المتحصرة في صفوفها<sup>(3)</sup>.
- كما أنه العهد الذي إرتبط فيه أكثر بالغرب عامة، وباليهودية خاصة، ومن الأمثلة على هذا فلين الأفافاس عضو في الأممية الإشتراكية، وهي منظمة دولية - يسيطر عليها اليهود - تتكون من الأحزاب اليسارية سواء كانت معارضة أو حكما، والحزب الذي يريد الإنخراط فيها يجب أن يكون يسارياً، مقترحاً من بعض أحزابها مزكى من الحزب العضو من نفس البلاد، وأن توافق على إنضمامه

(1) ولد أوردنا علاقة أيت أحمد بالأبء البيض الذين كان علياً عندهم.

(2) محمد بوضياف، جريدة العهد (نصف شهرية)، لتستين 30 جانفي 1992م العدد 2، ص 8.

(3) عبد الله ركي، الفرنكفونية، ص 193.

جميع الأحزاب المنخرطة فيها، وقد تحصلت الأفافاس على العضوية الكاملة فيها في سبتمبر سنة 1997م بعد أن كانت عضوا ملاحظا ثم عضوا إستشاريا، ولأيت أحمد علاقة حميمة مع رئيس الأمانة الإستراكية الحالي (جوان 1998)<sup>(1)</sup>، ونشير هنا إلى أن الأمانة الإستراكية كانت هي المكان الذي يلتقي فيه زعماء العرب مع قيادة الكيان الصهيوني عندما كانت العلاقات الدبلوماسية غير موجودة بين الأنظمة العربية والكيان الصهيوني.

ونختم حديثنا هنا عن FFS بالإشارة إلى أنه خرج من السرية إلى العلنية بعد أحداث أكتوبر 1988م، حيث أخذ الإعتماد كحزب رسمي من وزارة الداخلية تحت عنوان " جبهة القوى الإستراكية"، حيث أودع ملف إعتماده لدى وزارة الداخلية في نوفمبر 1989م<sup>(3)</sup>، وأصبح يمارس نشاطه علنا ويعمل على تحقيق أهدافه ومبادئه التي سنتحدث عنها في موضعها، والتي هي أهداف الحركات التبشيرية والإستعمار أساسا، وهذا يدعونا وفقا للتسلسل التاريخي أن نتحدث عن إنشاء الأكاديمية البربرية بباريس.

(1) رامي. ع. مصدر من الأمانة الإستراكية يكشف خطيات رغبة الأرسيدى للإنتظام إلى الأمانة الإستراكية، جريدة العلم السياسي، الجزائر، الإثنين 8 جوان 1998م، ع 562، ص 1، 3.

(2) ولقد تقدم أيضا RCD بطلب الإنتضمام إلى الأمانة الإستراكية ولكن طلبه رفض لأنه لم يبل موافقة أحزابها ولا سيما FFS بسبب تمسكه عليه ولأنه يعد بجيبنا راحليا وهو ما يتناقض مع مبادئ الأمانة الإستراكية لأن هي الإنتماء لليسار الإستراكي والديمقراطي الإجتماعي (المرجع نفسه، ص 1، 3).

(3) الجريدة الرسمية، الجزائر، 29 نوفمبر 1989، ع 50، ص 1349.



## الفصل الرابع

### إنشاء الأكاديمية البربرية بباريس سنة 1967م

يدخل إنشاء الأكاديمية البربرية بباريس ضمن المخطط الفرنسي السابق وإسنتكماله وفقا لتطورات الأحداث، وقد أسستها فرنسا سنة 1967م في جامعة باريس 8 فانسين<sup>(1)</sup>، بهدف الإبقاء على الجزائر المستقلة في الفلك الفرنسي، وقد بدأت هذه الخطة تنفذ منذ مجيء ديغول إلى الحكم سنة 1958م الذي قرر العمل على إبقاء الجزائر في الفلك الفرنسي بعد تأكده من أنها مستقلة لا محالة، وفي هذا الصدد فقد أعطى تعليماته بتوسيع ما يسمى ( برومسيون لاقوست) لأنه لا شيء يجعل الجزائر تدور في الفلك الفرنسي أكثر من هيمنة اللغة الفرنسية على حياتها، وهو ما جعل ديغول يقدم في إتفاقيات إيفيان كما سنذكر مشروعا للإستقلال يقوم على أساس تقسيم الجزائر إلى مقاطعات عرقية، ورغم رفض المفاوضين الجزائريين لمشروعه ولم يرضوا إلا بالإستقلال الكامل فإن فرنسا الصليبية رغم رحيلها بقيت أطماعها في السيطرة على الجزائر بأي شكل وهذا ما حملها على تأسيس الأكاديمية البربرية في فرنسا دفعا للنزعة البربرية الصليبية التي أنشأها رجال إكليروسها ومستشرفيها وسياسيها وعسكريها إلى آخر ما ذكرنا قبلا. وجمعت في هذه الأكاديمية التي ظهرها العلم، وباطنها تمزيق أمة وتضليل شعب : نقطاء الفكر من تلاميذ المبشرين والمفرنسين المتطرفين والعملاء والحاquدين على الحضارة العربية الإسلامية من جزائريين وغيرهم، والناقمين على إستقلال الجزائر والعنصريين والمغامرين السياسيين الفاشلين سياسيا ووطنيا يتقدمهم قداماء النزعة البربرية الصليبية، جمعت فرنسا كل هؤلاء لبعث الحياة في النزعة البربرية الصليبية بأسلوب جديد ليغلط الشباب الجاهل بأهداف الحركة البربرية الصليبية المبتعثة من هذه الأكاديمية ومن أهم الأهداف منها زعزعة الوحدة الوطنية الجزائرية، ولذلك فإنهم لكي يغالطوا الشباب ويموهوا على الكبار غيروا تسمية " البربرية" إلى " الأمازيغية" وركزوا على الثقافة واللغة الأمازيغية لتعمية الأبصار عن التبشير الذي يقوم به دعاة هذه الحركة، وإقناع السامعين أعدوا جملة من المغالطات هي نفس الطروحات التي رأيناها عند دعاة الحركة البربرية في نشأتها، وهي طروحات فرنسية محضة كما بيناها عند أقطابها ومبتكريها الفرنسيين، من هذه الطروحات : العرب إستعمروا الجزائر مثلما إستعمرتها فرنسا، اللغة العربية هي التي قهرت اللغة الأمازيغية، اللغة الأمازيغية يجب أن تكتب وتدرس بالفرنسية لتفتح على الحضارة الغربية وتنقل الثقافة الأمازيغية إلى العالم المتحضر - ولنا ندرى ماذا سينقلون - الإرتباط بفرنسا ضرورة تملئها ظروف الجزائر الاقتصادية والإجتماعية والثقافية إلخ من الأضاليل<sup>(2)</sup>.

(1) عثمان سحدي، الأمازيغ، ص36.

(2) أكلي بلعاس، الأمازيغية والفرنكفونية، جريدة الشعب، الجزائر، الثلاثاء 31 ديسمبر 1991م، ص2.

وإستمرت الأكاديمية البربرية في باريس تعمل تحت رعاية المخابرات الفرنسية وسخرت لها أموالاً ضخمة، وهدفها البعيد ليس خدمة البربر ولا البربرية بل إبقاء هيمنة اللغة الفرنسية بالجزائر وبالمغرب العربي، وذلك لأن تاريخ الإستعمار في إفريقيا وفي غيرها يبين أن أول ما بدأ به هو القضاء على ثقافات الشعوب المستعمرة ونشر ثقافته، ولما تحقق له ما أراد أخذ في إحياء بعض تلك الثقافات من وجهة ما تخدمه في تقسيم السكان وإثارة الصراع بينهم وتكريس هيمنته ليقبى متحكماً فيهم إلى الأبد.

وفي هذا السياق، يرى إستراتيجيو الإستعمار الفرنسي الجديد، أن الشعب الجزائري لا بد من تقسيمه إلى شعبين - على الأقل في المرحلة الأولى - أحدهما يتكلم البربرية والأخر العربية، لضمان بقاء اللغة الفرنسية لغة مشتركة ومهيمنة على كليهما إلى الأبد وتدمير الإسلام لصالح النصرانية. ولما كانت الجزائر هي التي تملك خلفية ثورة أول نوفمبر، وجمعية العلماء ومالك بن نبي وجبهة التحرير الوطني فإن التعريب فيها يشكل خطراً على إستمرار تلك الهيمنة. ولهذا الغرض، فقد كونت هذه الأكاديمية منذ تأسيسها سنة 1967 مجموعة من الجزائريين، وعلى رأسهم سالم شاكر، وتاسعيت ياسين، فجنستهم بالجنسية الفرنسية ودكرتهم في الدراسات البربرية وسخرتهم لإدارة عملائها بالجزائر، وأصبح سالم شاكر يقوم بجولات في العالم على نفقة الأجهزة الفرنسية الخاصة يحاضر فيها للجزائريين المقيمين بأوروبا وأمريكا حول القضية البربرية من وجهة نظر فرنسا<sup>(1)</sup>. وهكذا أنشئت الأكاديمية البربرية بباريس سنة 1967، أنشأتها فرنسا بواسطة مجموعة من الجزائريين ذوي إتجاهات مختلفة هم :

السيد : رحمانني ، ضابط سابق في الجيش الفرنسي، ثم إلتحق بجبهة التحرير الوطني إبان الثورة.

السيد: حنوز، صيدلي ثري، تكفل بتمويل المشروع.

السيد: سليمان عازم، مغني قبائلي قديم

السيد: حميسي، منشط سابق لحصمة " القبائل بلدي الجميل" بالإذاعة والتلفزيون الفرنسية. وكل هؤلاء الأربعة متجنسون بالجنسية الفرنسية.

ثم إلتحق بهم جزائري " أصيل" هو الرائد محند بسعود الذي كان عضواً في " الولاية الثالثة" تحت قيادة العقيد عميروش، ثم لجأ إلى الحدود وثار سنة 1958م على الزعيمين البطالين، الرئيس الراحل هواري بومدين، وبو الصوف، متهما إياهما بالإستبداد وجعل ذلك ذريعة للثورة عليهما، مما يعني أن ثورته كانت ضد الثورة ذاتها. ثم نشر فيما بعد كتاباً جعل عنوانه " سعاد هم الشهداء الذين لم يروا شيئاً"، وصار من المناضلين الأوائل في (FFS) سنة 1963م ولم يلبث أن انسحب منها بحجة ماركسيته المتطرفة ونشر في ذلك كتاباً عنوانه " جبهة القوى الإشتراكية : أمل وخيانة" وبهمنا كثيراً

(1) عثمان سعدي، الأمازيغ، ص38.

هنا أن نذكر أن الرائد بسعود أعاد تنظيم الأكاديمية بنشر حروف تيفيناغ القديمة، ونشر المناشير وتنظيم المحاضرات حول الحضارة البربرية وقدم دروسا مسائية، وبالمراسلة. ولكن الأكاديمية ما لبثت أن نشب فيها صراع بين بسعود وزمرته مع الشباب الذين أنشأوا سنة 1973م مجموعة دراسية منافسة بمدينة فانسان، فإتهمهم بسعود بالولاء إلى الصين وإتهموه وزمرته بالولاء المطلق للفرنكفونية، فإبكرت الأكاديمية وتآكلت من الداخل إلى أن وصل صايبي سنة 1975م، ومما قرره إجبار التجار القبائل على دفع الاشتراكات لتمويل الأكاديمية، وما أن وصلت نهاية سنة 1975م حتى تعقدت الأمور: حيث إتهم مولود كعوان (مسؤول منظمة جنود المعارضة الجزائرية) الأكاديمية بتمويلها عملية تفجير مقر جريدة "المجاهد" في الجزائر العاصمة فنصب أحد المشتركين المتطوعين كميناً لبسعود.

وفي 24 مارس 1978م كان السيد أوقاسي في إنتظار بسعود في إحدى وكالاته السرية الثلاث بشارع "دوراناتو" ليسلم له مبلغا كبيرا كان قد وعده به. ولكن ما أن وصل بسعود رفاة صايبي حتى نشب شجار بينهم، فتدخل شرطيان من الشرطة القضائية فإكتشفا أنهم يحملون أسلحة غير مرخصة فإعتقل الجميع، وقد تبين أن صايبي هو الذي زين لبسعود حمل السلاح، ونشير هنا إلى أن بسعود كان قد أفضى منذ أمد بعيد لأحد أصدقائه بعلاقته بـ "جاك بينات" (رئيس بلدية بوسك) الخبير والشغوف بالتاريخ البربري الذي درسه في الجامعة، وذلك منذ إلتحاقه بـ "FFS" (1) وذلك بواسطة السعيد رحال (2) الذي عرفه به وعرض عليه أيضا بعض الأسلحة.

ولما إعتقل بسعود فإن جاك بينات إقترح عليه إثر زيارة له في سجن "فران" أن يكلم وزير العدل الفرنسي "ألان بيرفيت" ليطلق سراحه، وقد توسط بالفعل وإستجاب الوزير لطلبه فقي 26 سبتمبر 1978م خرج كل من بسعود وصايبي من السجن بطريقة غريبة، لأنهما لم يتحصلا، لا على حرية مؤقتة من المحكمة، ولا على قرار منع المحاكمة. ولا مثلا في جلسة نوفمبر 1979م أمام المحكمة.

وبعد التأجيل أدين بسعود بسنتين سجنا وصايبي بـ 18 شهرا في فبراير 1980م، ولكنه لم يلق عليهما القبض، وطعنا في الحكم من جديد فحوكما من جديد وتغيبا من جديد. وفي أبريل 1980م وأثناء أحداث تيزي وزو الأولى تحصل صايبي على قانون "لاجئ سياسي" دون بسعود الذي رفض طلبه (3).

ونتوصل مما سبق إلى ما يأتي :

- دور الأكاديمية البربرية الواضح في الأحداث الإرهابية التي وقعت سنة 1975م إبتداء من تفجير مقر جريدة المجاهد، والتخطيط والتهيئة لأعمال إجرامية أخرى لولا إكتشاف جهاز الأمن

(1) وهنا بين بوضوح العلاقة الحميمة لـ (FFS) بجاك بينات.

(2) هو (مليار دين) البربري تورط أخوه فيما بعد في أعمال إرهابية ضد الدولة الجزائرية، (أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص165).

(3) المرجع نفسه، ص164-166.

- الجزائري للمجرمين وإلقاء القبض على المتورطين داخل الجزائر، وكذلك في الأعمال الإرهابية التي إستهدفت رموز الجزائر في أوروبا.
- إمتلاك أفراد الأكاديمية لأسلحة غير مرخصة لإستخدامها بما يخدم أغراض فرنسا، أي تدمير الجزائر.
- تورط الحكومة الفرنسية للفاضح في العدوان على الجزائر ومما يتمثل في هذا، تدخل وزير العدل الفرنسي لإطلاق سراح بسعود وصايبي رغم إدانتها قضائيا.
- علاقة فرنسا بالربيع الأمازيغي الذي كان من تخطيطها وتنفيذ عملاتها، وإلا كيف تعطي صايبي لاجئ سياسي وهو المخالف لقانونها بحمله أسلحة غير مرخصة، والمدان قضائيا؟ !
- وهذا يقودنا إلى الحديث عن علاقة فرنسا بحكومتها ومخابراتها بالحركة البربرية في الجزائر وأكاديميتها بفرنسا.

### علاقة الحكومة الفرنسية ومخابراتها بالأكاديمية والحركة البربرية في الجزائر والتدخل في الشؤون

#### الداخلية للجزائر

نستطيع معرفة كل هذا - أي علاقة رجال الحكومة الفرنسية والمخابرات الفرنسية بالأكاديمية والحركة البربرية - من خلال مجموعة من الوثائق الرسمية والتعليق الصحفية عليها، وهي منشورة ضمن ملف خاص إنفردت به مجلة " ليبراسيون" الفرنسية في عددها الصادر يوم 1980/07/08 فسي الركن السياسي، وقد ترجمها أحمد بن نعمان، وهي كما يأتي :

فقد ورد العنوان الأول كما يأتي :

#### " بيرفيت " المخابرات ومنطقة القبائل

وقد تحدثت الوثيقة عن عفو وزير العدل " ألان بيرفيت" عن محند بسعود، الذي تحدثنا عنه سابقا، والغاية من ذلك وعلاقة الأكاديمية البربرية بكل هذا، فورد ما يأتي :

" بمناسبة إنعكاسات قضائية لقضية قديمة، ومناورات مؤسسة ( الأكاديمية البربرية)، نلاحظ تسرب شبخ المخابرات الفرنسية... وضمن هذا الديكور فوجئنا بتوقيع ألان بيرفيت حافظ الأختام نفسه على وثيقة أقل ما يقال عنها، أنها عبارة عن تدخل خطير في شؤون القضاء في فرنسا من جهة، والشؤون الداخلية للجزائر من جهة أخرى، وهذا يؤكد حتما، أن الإهتمام بالحركة البربرية والهوية الثقافية القبائلية كبير في أوساط الحكومة الفرنسية. ما سر هذا الإهتمام من ..... وزير العدل والمخابرات الفرنسية ... بالحركة البربرية ... وننشر هذه المرة وثيقة يتهم من خلالها وزير العدل بالتدخل الواضح في الشؤون الداخلية الجزائرية، إذ أن الأمر يتعلق لا أكثر ولا أقل بالإستغلال الأمثل للخصوصية

البربرية لخدمة مصالح باريس، وينوي وزير العدل في الأخير التدخل في ملف جنائي يوجد في مرحلة التحقيق<sup>(1)</sup>.

وهامى الوثيقة

باريس في 31 ماي 1978م

من حافظ الأختام

وزير العدل

أ.ج/د.د.

سيدي المحترم:

لقد إهتمت كثيرا بمذكراتكم حول أهمية الظاهرة البربرية في المغرب، والمنفعة التي تستطيع بلادنا أن تستخرجها إذا عرفت كيف تلعب بالخصوصية البربرية، أنتم فعلا على حق، وأنا متيقن من ذلك، وبإستطاعتنا أن نأخذ بعين الإعتبار هذه الخصوصية، خاصة فوق التراب الوطني (الفرنسي)، سأبعث بنسخة من مذكرتكم هذه إلى كل من وزير الداخلية ووزير الشؤون الخارجية. وفيما يتعلق بوضعية السيد محند بسعود، سأطلع على الملف وسأرى فيما إذا أمكن إعادة النظر فيها.

تقبلوا سيدي أسمي عبارات مشاعري

المرسى إليه : السيد : " جاك بينات" رئيس بلدية بوسك - لو- هارد"

25 شارع فافان، 75006 باريس

إمضاء آلان بيرفيت وزير العدل<sup>(2)</sup>

هذه الوثيقة المهمة تبين تورط الحكومة الفرنسية كلها في القضية من وزير العدل إلى الداخلية إلى الخارجية، كما تبين دور جاك بينات، والأهمية التي توليها فرنسا للقضية البربرية لا لخدمة البربر، بل لخدمة فرنسا.

وقد علقت " ليبراسيون" في نفس الملف على هذه المراسلة.

تعليق جريدة ليبراسيون على مراسلة وزير العدل الفرنسي إلى جاك بينات

لقد علقت جريدة "ليبراسيون" في نفس الملف على تلك المراسلة من وزير العدل إلى جاك

بينات تحت عنوان:

(1) المرجع نفسه، ص 158.

(2) المرجع نفسه، ص 158.

" جنح تدخل في شؤون الغير، وجنح أفضلية من إمضاء الآن بيرفيت"، ومما ورد في ذلك التعليق فقلا  
عن أحمد بن نعمان :

- صحة الوثيقة أعلاه، وأنها صدرت فعلا من وزير العدل، وأن جاك بينات إعترف بذلك، كما  
إعترف بأنه سلم نسخة منها إلى السيد بسعود.

- جاك بينات - كما يعلم وزير العدل - أنهم سنة 1976م من طرف الصحافة والعدل الجزائريين  
بإثمنانه إلى المخابرات الفرنسية، وذلك لأنه - أي جاك بينات - قد كلف من طرف " السداك"  
(المخابرات الفرنسية) ابتداء من سنة 1973م بتوظيف عناصر تائهة للعمل تحت إشراف مولود كعوان  
(معارض للدولة الجزائرية، تحركه المخابرات الفرنسية وجاك بينات المختص بالشؤون الجزائرية تم  
التبليغ عنه (أي عن مولود كعوان) كعميل مكلف بالتجنيد من طرف المتسببين في الانفجار الذي هز  
مقر القنصلية الجزائرية بمرسيليا في 29 ديسمبر 1973م والذي أسفر عن 5 قتلى.

وفي 3 جانفي 1976م على الساعة 9,45 دقيقة تم الكشف عن محاولة إعتداء بالقرب من ورشات  
"المجاهد" اليومي بالجزائر العاصمة، وأكد مرتكب هذه الجريمة المدعو روسو أنه كان بمثابة منفذ فقط  
لأوامر جاك بينات، ضابط في المخابرات ويعمل تحت غطاء مديرية التخطيط ثم وزارة التعاون.

- وزير العدل يؤيد التحاليل التي يراها أحد أعضاء المخابرات الفرنسية فيما يتعلق باستخدام  
الخصوصية البربرية فوق التراب الوطني الفرنسي.

- مولود كعوان قائد منظمة "جنود المعارضة الجزائرية" كله ولاء لجاك بينات، أشرف على تدبير  
سلسلة من الإعتداءات ضد الممثلات القنصلية الجزائرية في عدة بلدان أوروبية.

- فيما يتعلق بقضية السيد : محند بسعود، فإن وزير العدل أعاد فيها النظر، فبعد إعتقاله في 24  
مارس 1978، أفرج عنه بعد تلك الرسالة - إلى جاك بينات - بقليل أي في 26 سبتمبر من نفس  
السنة، وقد حكم على السيد بسعود بالسجن القطعي (الحبس) في شهر فبراير 1980.

وفي شهر جويلية من نفس العام يستفيد مرة أخرى بحكم العدالة، وهكذا فإن وزير العدل يعرف كيف  
يحمي المتعاملين معه من أجل المصالح الفرنسية".

الآن دوفران وفريدريك لوران<sup>(1)</sup>.

وتحت عنوان :

" مناورات قضية الأكاديمية البربرية"

فما ورد فيه :

إن رسالة " الآن بيرفيت" تجعلنا نحلم، إذ أننا نشعر وكأننا عدنا إلى سنة 1830م المرسل إليه - جاك  
بينات - الذي أكد لنا صحتها طلب منا أن لا ننشرها، إلا أننا لما علمنا - أنه رئيس بلدية نورماندية

(1) المرجع نفسه ص: 159، 160. وهذا لا يجد أي فائدة يجيها البربر من القضية البربرية، بل كل الفائدة لفرنسا.

صغيرة على مقربة من التقاعد، هو في الحقيقة عضو في " السداك" ( المخابرات) الذي نددت الجزائر بتورطه في إعتداء جنود المعارضة الجزائرية ضد جريدة المجاهد في ديسمبر 1976م، راجعنا موقفنا من هذا الأمر، ذلك أن رأي الجالية المناضلة القبائلية بباريس، كان أهم في نظرنا، ذلك أنها كانت على علم بوجود هذه الوثيقة منذ شهور، وكانت تخشى من أن تنشر؛ لأن نشرها يدعم أطروحة " المؤامرة الدولية" التي كانت وراء أحداث منطقة القبائل - هذا إعتراف بأن أحداث تيزي وزو مؤامرة دولية فعلا مثلما طرحتها الدولة الجزائرية آنذاك-.

وقد نظمت مظاهرة تضامنية مع طلبة مدينة تيزي وزو في 7 أبريل 1980 أمام مقر السفارة الجزائرية، وقد حرض بعض المتدخلين على إحتلال العمارة ( مقر السفارة) بالقوة، وأعيدت التعبئة النفسية بمناسبة الحفل الغنائي للمطرب " إيدير" بقاعة " الأولامبيا" وقرئت برقية على المتفرجين، هذا نصها :

" إخواني القبائل، كونوا بأعداد غفيرة في الموعد يوم الثلاثاء 8 جويلية على الساعة الواحدة والنصف زوالا أمام الغرفة 11 لمجلس قضاء باريس أين سيحاكم أبواكم بنذالة وإلتزاموا بالإنضباط" مانوع المحاكمة التي ستفتح؟ إنها محاكمة أربعة مسؤولين عن الأكاديمية البربرية هم : الرائد بسعود الملقب بمجدد اعراب وسليفي، والهواري ... والمدعو صايبي والتهمة الموجهة إليهم هي: إخلاس أموال التجار القبائل للعاصمة الفرنسية<sup>(1)</sup> وتحت عنوان :

" باريس : بامنطقة القبائل / أنت محل إهتمامي "

فما ورد فيه، أنه في عهد جيسكار ديستان تميزت مرحلته بالمناورات المدسوسة والمؤامرات الخبيثة وأحيانا قاتلة، مثل الإعتداء بالمتفجرات ضد القنصلية الجزائرية بمرسيليا في 29 ديسمبر 1973 الذي خلف 5 قتلى و 10 جرحى. كانت هذه نقطة الإنطلاق لسلسلة من الجرائم التي تعرضت لها الممتلكات الجزائرية في أوروبا والمحلات التابعة للودادية في باريس والمقاطعات الأخرى. وأكد إعتقال مديري العدوان على المجاهد في الجزائر شيئا، وهو أن فرنسا كانت تسلح وتنظم الجنود حتى " ميشال بونيا توفسكي" ذاته دخل الحلبة بنقمصه دور " ماكيافيل" المخطط للإستراتيجية التوتير هذه ... فإن الأصالة القبائلية والمطالبة بالخصوصية البربرية هي وسيلة تفرقة في أيدي المستعمر، ولازالت تجلب إهتمام ما يسمى " بالأوساط الفرنسية". إن السلطات في باريس استطاعت في وقت ما، مساعدة وحماية ظهور مطالب بربرية... كما تبين الوثيقة التي ننشرها اليوم، فإن النوايا الفرنسية ونوايا حافظ الأختام سنة 1978 لم تتغير، وهكذا فإن الإنتفاضة الديمقراطية لتيزي وزو ... كانت في الحقيقة

حركة حرة وأكثر شمولية. إن الحملة الإعلامية المغالطة تهدف اليوم إلى ترجيح النزعة البربرية كوسيلة بإخفائها الأسباب التي أدت إلى أحداث ربيع منطقة القبائل<sup>(1)</sup> وهماي طروحات الأكاديمية البربرية من خلال وثائقها.

### طروحات الأكاديمية البربرية

لقد أصدرت هذه الأكاديمية مجموعة من الوثائق، والمنشورات تهدف في مجملها إلى خلق تيار معارض للتعريب ودعمه بالدعوة إلى القبائلية، وإيقاد نار الفتنة العرقية بين الجزائريين. ولقد قام أحمد بن نعمان بتلخيص ترجمة خمسة وثائق ومنشور سري واحد عن الحركة البربرية ونحن نلخصها منه وهي :

#### الوثيقة رقم 1 : ومما ورد فيها :

" ... إنه لمن المؤسف -حقا- أن اللغة البربرية مهددة من جميع النواحي ( الكلام موجه من الأكاديمية البربرية إلى بعض أفراد المجتمع الجزائري ) ثورة بسياسة التعريب التي تهدف إلى إسئصال البربرية من جذورها<sup>(2)</sup>... وثارة بإهمال البربر للغتهم... فتعليمها - أي البربرية- منعدم تماما في الابتدائي والثانوي. وفي جامعة الجزائر تدرس - مع الأسف- على نحو شبيه بطرق التدريس في الزوايا. فضلا عن أن الطلبة في آخر السنة الدراسية لا يجتازون الإمتحان لنيل اية شهادة في اللغة البربرية، وذلك خلافا لموسكو وفيلاديلفيا ولندن وباريس... إن تاريخ شمال إفريقيا كما يدرس الآن كله تزييف وتحريف<sup>(3)</sup> ويجب على البربر أن يتَّجَدُّوا ضد جريمة نكراء إسمها العروبة. وبالنسبة لنا جميعا هي مسألة شرف وكرامة.

وعليه فإن الأكاديمية تطبع نشرة شهرية تتناول فيها مسائل النحو والتاريخ والحضارة البربرية تتخذها كوسيلة موجهة للتحرر الثقافي للشعب البربري... إننا نعتد على تفهمكم ومساهمتم لتتحقيق هذا الهدف حتى تتمكن من أن نحتفظ للبربر بترائهم الثقافي، تحيا اللغة البربرية.

الأكاديمية البربرية، باريس في 25 / 01 / 1973 .

#### الوثيقة رقم 2 :

وهي منشور سري بعنوان " أيها البربر إستيقظوا" ومما ورد فيها :

" أفيقوا من نومكم العميق الذي ظللتم تغطون فيه لقرون عديدة دون أن تشعروا بأن هناك من يتربص بكم، لقتلكم شر قتل، دون أن تأخذوا حيظنكم... حان الوقت لكي تفتحوا أعينكم قبل أن تقوتكم الفرصة - أي قبل تحقيق التعريب الشامل- ولا تتفعمم الندامة حينئذ.

(1) المرجع نفسه، ص 161، 162.

(2) لو كان هذا الإدعاء صحيحا لما ظل البربر يبروا مع 14 قرنا من الإسلام والتعريب.

(3) ويبدو لنا أن هذا المصوم على تعريب التاريخ ناتج من أنه لم يبد يدرس له أن أصلنا هم الغالبون.



لقد زيفوا - أي العرب المسلمون - تاريخكم وخدروكم دون أن تبدوا أية مقاومة ... تفرض عليكم عقائد - أي الإسلام - ومبادئ تتعارض مع تقاليدكم وحضارتكم العريقة. يحاولون أن يطفنوا نوركم ويحرقنوكم بعقار يتلفكم، لأنه سيحولكم إلى أناس لا ذاكرة لهم ولا إبتماء ولا إرتباط.

أليس الكثير منكم أصبح الآن لا يلتفت إلى الوراثة إلى ماضيهم الذي يستحيون منه ؟ وكأنه ليس من دواعي الفخر والإعتزاز أن يكون الفرد بربريا ! ! .

لقد أرقنا دماءنا من أجل قضايا لا تخصنا. كفى. لقد ظللنا مجرد مرتزقة في خدمة مختلف الأقوام<sup>(1)</sup> الذين إحتلوا أرضنا - فالإسلام إذن إحتلال - لقد غزونا إيطاليا لحساب أمجاد جنبل<sup>(2)</sup>، وفتحنا أسبانيا وجنوب فرنسا لحساب العرب الذين ما تزال ترتبط بهم.

يجب علينا أن نضع حدا لهذا اللبس - أي عدم التفريق بين العرب والبربر في الجزائر لأن العرب المسلمين إستعمار - .

قاموا. عارضوا عملية التعريب الجارية قبل فوات الأوان. ذلك أن اليوم الذي يمر يقربنا - أكثر - من الإضمحلال والزوال.

الأكاديمية البربرية باريس 1973<sup>(3)</sup>

### الوثيقة رقم 3: أبجدية البربرية

" إذا كان العرب يدينون (في وضع حروفهم الهجائية) بالفضل للأراميين<sup>(4)</sup>، والأوروبيون يدينون للفينيقيين... فإن البربر لا يدينون لأحد في وضع الحروف الهجائية للغتهم... أي أنهم قد إخترعوا - إذن - هذه الحروف التي ترجع إلى عهد ضارب في القدم (3000 سنة) والتي حافظ لنا عليها إخواننا التوارق في الصحراء<sup>(5)</sup>.

### الوثيقة رقم 5<sup>(6)</sup> : وتعلق بـ العروبة والإسلام

ومما ورد فيها :

(1) ركاهم بالقضية البربرية لن يكونوا مرتزقة لفرنسا.

(2) جنبل بربري، والرومان كانوا مستعمرين للبربر، فهل عملية للمستعمر يجعل البربر مرتزقة؟

(3) المرجع نفسه، ص 135-138.

(4) هذا الإدعاء غير صحيح.

(5) ليس التوارق هم الذين حافظوا عليها، بل انحلقها شارل دوفوكو، وتحدى دعاة هذه الحركة استعمال هذه الحروف اليوم.

(6) الوثيقة في تعلق بالحساب البربرية، وقد أهدانا طلبا للإحصار

" إن سيطرة الدين الإسلامي واللغة العربية التي هي وسيلة<sup>(1)</sup> نقله، جعلت الأوروبيين يظنون وخاصة بعد دخولهم الجزائر أن شمال إفريقيا يقطنها العرب لوحدهم<sup>(2)</sup> ... ولكن في الأخير إتضح أن شمال إفريقيا هي بربرية حقيقية حيث فئة ضئيلة عربية تهيمن على أغلبية محلية لم تتغير كثيرا".

أوجان قيروني، البربرية الإسلام وفرنسا

' يبدو لدى الكثير ان شمال إفريقيا ماهو في الحقيقة إلا امتداد أو فرع من الجزيرة العربية. ولا يهمهم إذا كان في جزئه الأكبر يقع غرب خط الزوال لباريس، لماذا؟ من أجل الإسلام؟ ألم تأتي المسيحية من<sup>(3)</sup> المشرق أيضا؟ لماذا لا نعتبر أيضا الفرنسيين والإنجليز مشاركة؟

حسين متوقي ( نظرة عامة من التاريخ البربري ص 19 )

"... لقد أعطى البربر لروما أباطرة كانوا في الريادة ضباطاً عظماء وكان لديهم رجال ممتازون : ماسينيوس، أبولي، يوبا الثاني، القديس أوغسطين... "

جيرار بريموزن (بربر وعرب)

" إن عبقرية البربر هي التي وضعت ولأول مرة قاعدة العقلانية ( القديس أوغسطين ) وهي أول من طالب بحرية الفكر ( ابن رشد)<sup>(4)</sup> ( أوجان قيروني )

" إن البربر لا يقيدون لاعتن طريق الخوف ولا عن طريق الإحسان"

(سالوستر - مؤرخ لاتيني)<sup>(5)</sup>

#### الوثيقة رقم 6 : نداء إلى طلبة الثانويات<sup>(6)</sup>

" إن يوم 20 أبريل 1980 والأحداث الدامية التي إتسم بها، تبقى راسخة إلى الأبد في ذاكرة كل الجزائريين التقدميين، لأنها تمثل منعطفاً تاريخياً في التاريخ السياسي والثقافي للبلاد. في الواقع، هذه هي المرة الأولى التي تتجرأ فيها الجماهير الشعبية بعد إنتظار طويل، لتسعى إلى تحريرها من نظام تافه يدعي مؤيدوه بأنهم يدافعون عن مصلحة الشعب، ومن خلال خطبهم الديماغوجية لا يتوقفون عن تأكيد عروبة الجزائر، وهذا يمكن دحضه. لأنه لا يستند على أسس تاريخية صحيحة من الناحية الأنتروبولوجية أو اللغوية..."

نعم للإشتراكية العلمية، نعم للوحدة الوطنية لا للسيطرة العربية الإسلامية نعم لحرية التعبير<sup>(7)</sup>

(1) كونها وسيلة نقله هو سبب كراهتها والحقد عليها من طرفهم، ويظهر من خلال هذه الوثيقة وغيرها الفاعل الإخادي المحض لدعاة هذه الحركة وأكادمتها.

(2) وهذه حقيقة لأهم لم يخلوا أي نزعة عرقية. بل كان الجميع إنعوة أفضلهم أنفاهم . ثم صنع المستعمرون العرقية صنعا.

(3) ها هو الطابع التصوري لهذه الأكاديمية وحركتها.

(4) وقد علق أحمد بن نسلان على إدراج ابن رشد هنا قائلاً: "من أصبح ابن رشد من أعلام الأكاديمية "البربرية" ؟ (المرجع نفسه، هامش من 142).

(5) المرجع نفسه، ص 138، 140، 141.

(6) النداء عبارة عن منشور (سري) للحركة البربرية موجه إلى الطلبة في ذكرى مظاهرات 1980، وهو مكتوب بالفرنسية وحدها (المرجع نفسه، هامش من 142) والإنسان

يهدى من سكوت السلطات الجزائرية آنذاك عن فرنسا، لأنه بعد تدخلها مباشرة ساعرا في شؤون الجزائر الداخلية.

(7) المرجع نفسه، ص 141، 142.

### والنتائج التي تتوصل إليها مما سبق:

- القضية البربرية فرنسية محضة تديرها وتخطيطا وتنفيذا تعاون في ذلك كل فئاتها من رجال الدولة والإكليريوس والمخابرات والمستشرقون وغيرهم. وهكذا نلاحظ استمرار القضية البربرية منذ النشأة في أحضان هؤلاء. منذ نشأتها في أذهان أصحابها إلى عهد مالك ابن نبي الذي رأينا كيف أعطى ماسينيون أوامره للأمن الفرنسي بإستتطاقه وكيف أعطى أوامره بطرد والده من الوظيفة ضغطا عليه، إلى أزمة حزب الشعب في الأربعينيات إلى إنشاء الإذاعة القبائلية.

وها هي الحركة البربرية الحالية وأكاديميتها الباريسية نشأت في أحضان فرنسا مخابرات ووزراء العدل والداخلية والخارجية إلخ، وقد إعتمدت فرنسا على الخونة الجزائريين الذين صنعتهم على عينيها في تنفيذ مخططاتها كما إعتمد قبلا ماسينيون ورجال بلده على نفس النوع لتحقيق المشروع ذاته.

- يلاحظ تطور المشروع من مرحلة إلى أخرى، وكل مرحلة أخطر من السابقة ومبنية عليها، وأن فرنسا ترعى كل هذا بعناية فائقة.

- إستخدام العنف والإرهاب من طرف دعاة الحركة البربرية تحت إشراف فرنسا بغرض تحطيم الدولة الجزائرية وإضعافها وإسقاط هيبتها وتمزيقها، وقد إستخدم الإرهاب ضد المصالح الجزائرية كما ذكرنا قبلا في الخارج وفي الداخل، وقد بين تتبع الظاهرة منذ نشأتها إلى الآن أن الإرهاب ميزة من ميزات لا ينفك عنها ولا تتفك عنه - وهو ما سنكمل تبينه من بعد -.

وهكذا فإن الأكاديمية البربرية لم تكتف بما سبق، بل أضافت إليه النشاط الإرهابي ويتجسد من خلال وضعها العديد من القنابل في عدد من المؤسسات الوطنية، وضعت إحداها - وكما ذكرنا قبلا - في جريدة المجاهد وإنفجرت بينما تم تفكيك البقية في الوقت المناسب، وذلك في سنة 1975م<sup>(1)</sup>

- طروحات الحركة البربرية وأكاديميتها الباريسية تتلخص فيما يأتي :

تحطيم الإسلام والعروبة. تكريه البربر في العرب والعكس. تمزيق الجزائر إلى جهات عرقية متصارعة. الفرنسية. الإلحاح التنصير. الرجوع إلى تاريخ ما قبل الإسلام من وجهة نظر فرنسا ولخدمتها.

ولتحقيق هذه الطروحات كأهداف فقد أنتجت الأكاديمية خطابا عنصريا تطوره بإستمرار نحو عنصرية أشد فجعلت القضية البربرية مطروحة من خلاله على شكل تعارض بين ثقافتين وبين جنسين، ولهذا فإن هذه الأكاديمية تمارس سياسة مكشوفة ضد العروبة التي تدفعها حتى أقصى حد وسياسة مفضوحة ضد الإسلام الذي تريد قلعه من التراب الجزائري - وهو ما جعل الحركة البربرية

(1) د. صالح، من الأكاديمية البربرية إلى الأوسدي، جريدة الأصل، تلمسان، 4 أكتوبر، 1994، ع 62، ص 2.

- إبتها- متوقعة على الذات متبينة منطقا إقصائيا وإستتصاليا<sup>(1)</sup> مما جعلها محصورة في تيزي وزو وبجاية على الخصوص.

وايديولوجيا هذه الأكاديمية إنتاج نخبة جزائرية متفرنسة وغير وطنية، هدفها معارضة كل إرادة ثورية يمكنها أن تمس المصالح الإستعمارية الفرنسية في الجزائر، ولقد تأسست هذه الأكاديمية في سنة 1967م أي فترة حكم الرجل القوي والوطني المخلص للجزائر، الرئيس هواري بومدين وبعد القضاء على تمرد آيت أحمد سنة 1965م. وقد برر تأسيسها في هذه المرحلة كما برر روحها العنصرية العدوانية أحد المغنيين بأنه بعد إنقلاب 1965 " حلت حالة رعب سياسية شديدة، لا يمكن من جرائها إلا لخطاب متطرف للأكاديمية البربرية تحريك وإيقاظ الضمانر" وقد أقر هذا المعنى بغنجهية سادية قائلا: " شخصيا ألتزم بخطاب الأكاديمية البربرية في الوقت الذي اتخذ<sup>(2)</sup> " وهكذا شهد شاهد من أهلها على أن الحركة البربرية بنت فرنسا وتسير وفقا لإشارتها.

أما سعيد سعدي فقد برر عدوانية وعنصرية خطاب الأكاديمية بأنه " نتيجة مباشرة لخطاب رسمي شمولي رجعي وإقصائي"<sup>(3)</sup> - وكان ديكتاتورية حاكم مبرر لخيانة الوطن وبيعه-.

- الأكاديمية البربرية هذه هي التي أعطت شهادة الميلاد للحركة البربرية الحالية. وبذلك فإن هذه الحركة إنما نبعث من منبع إستعماري وهو ما جعل أصحابها يختارون - الفرنسية- لكتابتها. هذه الكتابة ذاتها هي من إنتاج الأكاديمية، أي السربون والمعهد الفرنسي، وبذلك فإن المنطلقات الفاشية والعنصرية لهذه الأكاديمية تشكل أرضية لما أخذ إسم " الحركة الثقافية البربرية" الذي أنتج فيما بعد RCD . وقد برر مولود معمري المبادئ العنصرية العدوانية لهذه الأكاديمية على أنها جواب عاطفي على تجاهل السلطة التام التي صادرت حرية التعبير<sup>(4)</sup>، ويفهم من كلامه أن كل من إختلف مع نظام حكم بلده باع بلده بلا ثمن.

- وأخيرا، فإن إسمي بالربيع الأمازيغي إنما هو تدبير وتخطيط وتوجيه فرنسي محض، وكذلك تحديد أهدافه ونتائجه. ويظهر هذا جليا في ملف " ليبراسيون" السابق ذكره، ولا سيما ما ورد تحت عنوان "يا منطقة القبائل : أنت محل إهتمامي" والوثيقة رقم 6 التي عنوانها " نداء إلى طلبة الثانويات". وقد ذكرنا بأنه عبارة عن منشور سري للحركة البربرية من الأكاديمية البربرية في ذكرى مظاهرات 1980م. وهذا يقودنا إلى الحديث عن أحداث تيزي وزو الأولى في 1980 م.

(1) ويستثنى من هذا المنطق الإستصصال، الأكلان صالحا الذي أصبح يتبن في خطابه منطق المصالحة الوطنية وعدم الإقصاء.

(2)(3) للرجوع نفسه، ص 2.

(4) المرجع نفسه، ص 2.

## الفصل الخامس

### أحداث تيزي وزو الأولى 1980م ، أو الربيع الأمازيغي

أسبابها :

قرر المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني - الحاكم - سياسة التعريب الشاملة، فأصدرت لجنته المركزية قرارا في ديسمبر 1979م عرب بموجبه تعريبا شاملا للتعليم العام وكتليات العلوم الإنسانية وأخذ في تعريب الكليات العلمية، كما كونت اللجنة المركزية للحزب لجنة عليا لإعداد مشروع قرار خاص بتعريب الإدارة<sup>(1)</sup>.

فساند هذه القرارات إضراب الطلبة الجزائريين في القطر الجزائري مطالبين بالتعريب الشامل، هذا الإضراب الذي إنطلق من كلية الحقوق بإبن عكنون فما أن حدث حتى لقي إستجابة مطلقة من مختلف جامعات القطر ليصل إلى الثانوي والمتوسط وحتى الابتدائي، ولم يعد الطلبة إلى المدرجات إلا بعد أن أعلن الرئيس الشاذلي بن جديد الإستجابة لمطالبهم.

ولما كانت فرنسا تعتبر الجزائر أكبر معقل للفرنسية بإفريقيا وبالعالم إن سقط إنسهار مركزها العالمي، ولما كانت تعارض بشدة تعريب العلوم والتكنولوجيا والإدارة، فقد حركت عملاءها بالجزائر لتحطيم هذا المشروع الحضاري الهائل الذي قرره حزب جبهة التحرير الوطني، وكان صنيعتها مولود معمري هو الذي شرفته بتنفيذ مهمتها الإستعمارية.

والواقع أننا لا نستغرب من مولود معمري القيام بهذه المهمة، فهو خريج المدرسة التبشيرية وزميل أركون في مدرستها بتورينت ميمون، ويعد حسب مسعود مداد "من أعمدة الإستعمار الفرنسي، كان عضوا في هيئة تحرير مجلة ( أمل الجزائر Espoir -- Algeria ) مع بوله غرينجو وموريس بوران ... وهنري ديشندال، وكانت هذه المجلة منبرا للإندماجين الداعين للذوبان في الثقافة الفرنسية والشخصية الفرنسية"<sup>(2)</sup> ولا أدل على أنه صنيعه من أنه ظل منذ الأربعينيات يكتب بالفرنسية ولم يثر النزعة البربرية على الإطلاق، لكن ما أن إستقلت الجزائر حتى تحول إلى محرك رئيسي لهذه النزعة، يعمل ضمن حركة إنفاصلية تدار من فرنسا مباشرة<sup>(3)</sup>، كما بينا أثناء حديثنا عن الأكاديمية البربرية بل ويذكر بعض المطلعين أن ملف القضية البربرية سلم إليه جاهزا كاملا من طرف الأباء البيض مما يعني أن كل ما قام به وما كتبه عن القضية البربرية ولغتها المعجزة حسب زعمه التي حافظت على قواعدها سليمة عشرات القرون مع أنها ظلت لغة شفوية لا ناقة له فيه ولا جمل. بل سلم إليه وهو عمل على التنفيذ.

(1) عثمان سعدي، الأمازيغي ص38.

(2) Messaoud Meddad, Guerre d'Algérie. Alger 1992 عن عثمان سعدي، المرجع نفسه ص39.

(3) المرجع نفسه، ص39.

وكانت المروحة هذه المرة قيامه سنة 1980م، بعد تلقيه الأوامر مباشرة، بمحاولة لإلقاء محاضرة بالقبائلية بالمركز الجامعي لتيزي وزو لإحداث قلق ببلاد القبائل للوقوف في وجه سياسة التعريب الشاملة فأدرك والي تيزي وزو محمد الشريف خروبي خطورة الموقف، وأن تلك المحاضرة هي المروحة الجديدة فإتخذ قرارا بمنع المحاضر من إلقاء محاضراته، وما أن منع مولود معمر من إلقاء محاضراته حتى تحركت آلة الإستعمار الفرنسي الحديث بالجزائر - مما يدل على أن كل شيء كان جاهزا قبل إلقاء المحاضرة، وأن المحاضرة كانت بالفعل المروحة الجديدة - بواسطة عملائها فحدث ما يسمونه " الربيع الأمازيغي" الذي أصبح التلفزيون الجزائري يشيد به في ذكراه، فتحركت المظاهرات بولاية تيزي وزو في 20 أفريل 1980 فجعلت المرافق العمومية قاعا صفصفا في مدينة تيزي وزو وبعض دوائرها، وأشعلت الحرائق ودنس أضرحة الشهداء ومزق العلم الوطني وأحرق المصحف الشريف، ومنع الطلبة في الحي الجامعي من الصلاة في مسجد الحي، وإنطلقت الصحف الفرنسية من باريس تؤيد وتساند<sup>(1)</sup> وتهاجم قوات الأمن التي لولا تدخلها لوقع مالم يكن في الحسبان، ولقد إكتشفت هذه القوات مخزنا للأسلحة في منزل مولود معمر، كما وقع تزويد المتظاهرين بالأسلحة بواسطة طائرة مغربية أنزلت أسلحتها من الجو في كاب سيغلي<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت وسائل الإعلام الفرنسية قد ساندت تلك الحركة مساندة جنونية، فلأن الأكاديمية البربرية من باريس هي التي خططت لتلك الحوادث ووجهتها ووصل بها ذلك إلى حد تنظيم مظاهرة تضامنية مع طلبة مدينة تيزي وزو، وهي المظاهرة التي نظمت أمام مقر السفارة الجزائرية بباريس في أفريل 1980، وحرص أثناء الخطب المتظاهرون على إحتلال العمارة ( مقر السفارة) بالقوة<sup>(3)</sup> وهنا ننتقل إلى الحديث عن أهداف أحداث تيزي وزو هذه.

## أهدافها :

نستطيع معرفة أهدافها من خلال ملتقى إيعكورن الذي إنعقد من 1 إلى 31 أوت 1980م والذي كان نتوجا لأحداث تيزي وزو. وها هو ملخص، من ملخص التقرير الذي إستقاه أحمد بن نعمان من محاضر الملتقى الأصلية، ويتعلق بالملف الثقافي، وها هو ملخص التقرير.

(1) المراجع نفسه، ص 39، 40، وبعض المعلومات الواردة أعلاه من ذاكرتنا.

(2) دعاة الحركة البربرية ينكرون وجود عزن الأسلحة وكذلك قضية كاب سيغلي، ويرعمون أنهما من انحلال أجهزة المخابرات الجزائرية، ونحن نرى ما ذكرناه أعلاه لأن الذي يمزق العلم الوطني ويدنس للمصحف ويحطم كل ما يحبه أمامه من مرافق عمومية ويهاجم قوات الأمن التي لم تمسه بسوء ما الذي يمنعه من استعمال السلاح ولا سيما أنه تبين لنا قبل أن الصنف والإرهاب من مستلزمات الحركة البربرية.

(3) أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص 163.

### ملخص التقرير

" إن حركة تيزي وزو في ربيع 1980 التي كان لها أثر عميق في كل أرجاء الوطن أثارَت مشكلة في غاية الأهمية، تعود أسبابها إلى ما يأتي :

- البحث عن هوية جزائرية حقيقية .
- العمل على ترقية لغتي الوطن ( الأمازيغية والعربية الجزائرية).
- الثقافة.
- حق التعبير الحر عن الرأي.

هدف هذا الملحق يتمثل في طرح مشكلة الثقافة في الجزائر مرة أخرى وبصورة أوضح ندحض الإدعاءات الكاذبة التي نشرتها مؤخرا الصحافة الوطنية والتي كادت أن تؤدي إلى مالا تحمد عقباه.

إن محاولة تحريف المشكل ونسبه إلى جهة معينة من الوطن في حين يعتبر مشكل الشعب الجزائري بأسره<sup>(1)</sup>، وإن كانت جهة ما تعاني من هذا المشكل أكثر من الجهات الأخرى قد كشفت عن العواقب الخطيرة الناجمة عن إحتكار الإعلام من طرف اللامسؤولية والطائفية والتعسفية. إن ملتقى ياكورن يهدف إلى خلق الحوار ورفع الحظر المفروض على النقاش الوطني للمسألة الثقافية، ونأمل أن مناقشة الملف الثقافي التي وعد بها رئيس الجمهورية ستكون مناقشة شعبية<sup>(2)</sup>، وأن السلطات المعنية ستأخذ بعين الإعتبار رأي المواطنين في ذلك.

### مشكل الثقافة في الجزائر يرتبط بثلاثة محاور رئيسية :

- مشكلة الهوية الحقيقية للشعب الجزائري والإعتراف الرسمي بلغتيه الأمازيغية والعربية الجزائرية (العامية).
- مشكلة حرية التعبير.
- مشكلة الثقافة في تنمية المجتمع.

### 1- مشكلة الهوية الثقافية للشعب الجزائري :

من المؤكد أن التعريف الرسمي لهوية الشعب الجزائري لا يتضمن الحقيقة الأمازيغية. والسبب في إبعاد الأمازيغية عن هذا التعريف يعود إلى الحركة الوطنية الجزائرية التي تميزت بسيطرة الإيديولوجية العربية الإسلامية على حساب كل بعد أمازيغي للأمة.

(1) هذا كذب، فالهوية هوية محنة، بل لرسمية محنة كما ذكرنا وكما سنرى.

(2) يتغنون بالديمقراطية وهم أكثر الناس ديكتاتورية، فقد كانوا لا يسمحون لنا أن نتحدث أبدا في التجمعات التي كانوا يقيمونها.

إمتدت - حسب زعمهم - هذه السيطرة إلى ما بعد الإستقلال لتصبح المنطلق لكل محاولة لتعريف بالشخصية الجزائرية، والخلط بين ARABITÉ والذي يعتبر إحدى الحقائق الثقافية للوطن، والعروبة ARABISME الإيديولوجية العربية ككل: سيطر هذا التصور على الحياة السياسية الوطنية، فنتج عن ذلك عواقب هي :

أ- عدم الاعتراف بلغتي الشعب الجزائري الأمازيغية والعربية الجزائرية : بحجة أن هاتين اللغتين غير قادرتين على خلق " ثقافة كبيرة" يحاولون البرهنة على قدرة القبائلية والعامية أن تصبحا قويتين، ويبنون البرهنة على ثلاثة أسس:

- 1- الوسائل المتوفرة للنهوض بهما.
- 2- الإرادة السياسية للدولة للنهوض باللغة أو قمعها.(1)
- 3- إذا أردنا ضمان تعليم سليم لأطفالنا، فإن الطفل يجب أن يبدأ دراسته بلغته " الأم" حتى لا يتعرض إلى مشاكل تعرقل نموه، ثم يصبون جام غضبهم على المدرسة الأساسية التي لم تخصص أي جزء للقبائلية خاصة، والعامية عامة، فهل تبقى لغات الشعب مهمشة؟

ب- تحريف تاريخ الجزائر بسبب سيطرة الإيديولوجية العربية الإسلامية : مما جعل هذه النظرة نقيضا للأمة الجزائرية نفسها .

ج- إبعاد أغلبية الشعب الجزائري من الثقافة التي تعتبر حكرا على نخبة تتقن الفرنسية أو العربية الفصحى: وإذا دام الحال هكذا، فإن الشعب يكون غائبا عن الثقافة الرسمية... ديمقراطية الثقافة، مآدام الحال هكذا تبقى مجرد شعار(2).

2- مشكلة حريات التعبير الثقافية : غياب حرية التعبير الثقافية أدى إلى خنق ثقافة الشعب الجزائري العامية والأمازيغية بسبب سيطرة مفهوم ثقافة وطنية عربي إسلامي على أساس العصر الذهبي للإسلام أدى إلى ما يتخبط فيه المسرح من مشاكل وكذا السينما وإستحالة نشر أي شيء بالأمازيغية أو العربية الجزائرية، هذه كلها تعتبر مؤشرات تهدف إلى كسر كل المبادرات الثقافية للشعب.

(1) ن. سين برونون هنا بالنسبة للقبائلية والعامية يتكرانه بالنسبة للفصحى.

(2) أحمد بن نصر الله، للمصنف نفسه، ص 168 - 170.



- 3- الثقافة في سياسة التنمية : إن السياسة الثقافية في الجزائر المتركزة على التعريف العربي الإسلامي والمتجاهلة للتعبير الأمازيغي، تترجم في الميدان بالتعريب. وأقل ما يمكن أن نقوله، هو أن هذه السياسة:
- تؤدي إلى الفصل بين المثقف الجزائري وشعبه؛ لأن العربية الفصحى ليست اللغة ( الأم ) لكل جزائري، ولهذا فلن المدرسة عوض أن تكون امتدادا ... للوسط العائلي ومحيط الطفولة الجزائرية، أصبحت إطارا للإنقطاع والصراع.
  - تبقى التبعية التكنولوجية للبلاد بالنسبة للشركات متعددة الجنسيات.
  - تعتمد على إيديولوجية لا تتفق مع مصالحنا المتعلقة بالديمقراطية والإستراتيجية وقيمتنا الخاصة.
  - ويتفاقم المشكل مع غياب حريات التعبير وتتشكل جماعات ضاغطة مأجورة من الخارج حول المفهوم العربي الإسلامي مع التجاهل التام للأمة الجزائرية وإملاء على البلاد سياسة ثقافية نتائجها مفاجئة منذ الآن<sup>(1)</sup>.
  - إن فشل سياسة التعريب، إنتاج التبعية الثقافية على جميع المستويات ... فالإحتجاج الشعبي يبين ضرورة إعادة تحديد السياسة الثقافية بالجزائر تبعا لإنشغالات الشعب الجزائري، وتدخل الإقتراحات التي تفرضا للمناقشة في هذا الإطار<sup>(2)</sup>.

### ملخص الإقتراحات والمطالب

#### " لجنة حريات التعبير والثقافة "

#### نظام الإعلام :

- إستعمال لغات الشعب الجزائري ( العربية الجزائرية والأمازيغية ) في منظومة الإعلام على الأقل في الراديو والتلفزة أولا وفي الصحافة المكتوبة...
- السينما والمسرح: يجب تشجيع الخلق والإبداع باللغات الشعبية العربية الجزائرية والأمازيغية
- الإبداع الأدبي: تشجيع الإنتاج الأدبي باللغات الشعبية وترجمة الكتب إلى الأمازيغية والعربية الجزائرية...
- ميدان الموسيقى: حق وجود الفرق الموسيقية وإلغاء الرقابة على الأغاني الملتزمة وحرية إستعمال اللغات الشعبية.
- الراديو والتلفزة :
- الراديو :

(1) كل ذلك جنوب اللغة العربية والإسلام حسب زعمهم، نهل القبائلية والعمامة لخلصنا من هذه النوب، ومن التبعية التكنولوجية، إن هذا الشيء عجاب

(2) أحمد بن نسلته للمصنفه، ص 171، 172.

## - القناة الأولى:

- يعني محق العربية الفصحى  
 وفتح باب هذه القناة لكل من هب ودب.

- البث بالعربية الشعبية الجزائرية .
- الأخبار بالعربية الشعبية الجزائرية
- دور رئيسي للثقافة الشعبية
- ديمقراطية الإلتحاق بالقناة

## - القناة الثانية :

- حجم الساعات وقوة البث يجب أن تكون متساوية مع القناة الأولى.

- بث برامج لكل الجهات البربرية في الجزائر ( شاوية ، توارق، شعوي، مزاب ، القبائل)
- ديمقراطية الإلتحاق بالقناة .

والواقع أنه مما يعني ما سبق. السماح لكل من أراد سب الإسلام والعروبة والوطنية في أغانيه، ومحق العربية الفصحى من الوجود وفتح باب الفئتين الأولى والثانية لكل من هب ودب. وهنا نقدم ملاحظة نعتبرها مهمة، تتمثل في الإشارة للقناة الثالثة الفرنسية، وهذا ليس عبثاً. مما يعني أنها القناة الوطنية الوحيدة، وما عداها يجب أن يعاد فيه النظر .

## - التلفزة :

- استعمال نظامي للغات الشعبية الجزائرية
- إلغاء البرامج الأجنبية الرجعية
- إعطاء مكانة رئيسية للثقافة الشعبية الجزائرية
- إنشاء قناة ثانية للثقافات الجزائرية مع استعمال اللغات الشعبية فقط<sup>(1)</sup>

الثقافة وتنمية المجتمعمحو الأمية في اللغات الشعبية :

- يجب إنشاء مطابع جهوية وتكوين إطارات مؤهلة، وتحقيق التعليم بالمراسلة ونشر برامج تعليمية بواسطة وسائل الإعلام.
- يجب استعمال لغات الشعب في كل المجالات :
- في التدريس والبحث والتكوين المهني
- يجب البدء في إحصاء عدد المعلمين الذين يحسنون اللغات الشعبية

(1) المصدر نفسه، ص 172-175.

- يجب إنشاء لجنة لغوية وطنية تتكون من باحثين وأساتذة في مختلف الإضصاصات ويجب أن تكون هيكله هذه اللجنة كما يلي :
- مدير مكلف بالتنسيق
- لجان فرعية، كل واحدة تتكلف بلغة معينة
- مراسلين جهويين

### إستعمال اللغات الوطنية في الإدارة<sup>(1)</sup>:

إن تطوير اللغات الشعبية إلى لغات رسمية يعتبر شرطا من شروط التقدم<sup>(2)</sup> الإجتماعي، ولكن حتى يتحقق ذلك يحق لكل مواطن لا يعرف اللغة الرسمية الحالية أن يتقدم عند الحاجة إلى مسؤول أو عون إداري بلغته الأصلية، ويحق له أن يحصل على رد باللغة التي يحسنها<sup>(3)</sup>، ويمكن للمواطن عند الحاجة أن يطلب ترجمة للنص المتعامل به، كما يجب توفير قواميس للغات الشعبية حتى يسهل إنتشارها.

كتابة الوثائق الرسمية باللغة الرسمية وبلغة أخرى حسب الجهة وفي ميدان القضاء يجب حضور مترجمين للغات الشعبية

يجب كتابة كل المغلفات والملصقات والشعارات وغيرها بالإضافة إلى اللغة الرسمية بلغة الجهة الموجودة فيها مع الرجوع إلى استعمال الأسماء الأصلية للمنطقة<sup>(4)</sup>،<sup>(5)</sup>.

### تعليقنا على الملتقى

هذا هو ملخص تقرير الملف الثقافي لملتقى إيكورن (1-31 أوت 1980م) بولاية تيزي وزو الذي كان نتوجا لأحداث تيزي وزو الأولى التي وقعت إبتداء من 20 أفريل 1980م أي من نفس السنة.

- وأول تعليق لنا على هذا الملتقى الذي دام شهرا كاملا أن كل نصوص ومحاضره كانت باللغة الفرنسية<sup>(6)</sup>، وقد قام بترجمتها إلى العربية أحمد بن نعمان. وهو ما يبين الهدف الحقيقي من أحداث تيزي وزو الأولى ومن ملتقى إيكورن، وهو الفرنسية. وليس القبايلية أو العامية. وقد عبر عن هذه الحقيقة أحد أقطاب هذه الحركة وهو معطوب الوناس الذي صرح يوم 20 أفريل 1995م حينما وقف

(1) عماريون إدخال الفصحى للإدارة ومطالبون بإدخال العامية والقبايلية.

(2) لهذا لا يتبادون بفرنسا التي لها حصر لمحات أساسية ولكنها لا تعد إلا باللغة الفرنسية، فهل هي غير متقدمة اجتماعيا، فهم من هنا أن الفرنسية تعوق التقدم الإجتماعي.

(3) وبهذا سوف تصبح الإدارة الجزائرية فوضى لا تطور لها، بل سوف تنحل تماما، لأنه لا يعقل أن تعمل إدارة واحدة عادية بثمانية أو تسع لغات في وقت واحد.

(4) أحمد بن نعمان، المصدر نفسه، ص 174-175.

(5) أي الرجوع إلى للعامية الأول.

(6) أحمد بن نعمان، المصدر نفسه، ص 167.

خطيباً أمام الجماهير ببجاية في مسيرة نظمت بمناسبة ذكرى ما يسمى ( الربيع الأمازيغي) وبجانبه زوجة سعيد سعدي الذي كان أحد منظمي أحداث تيزي وزو: "لوقيت اللغة الفرنسية رسمية بالجزائر بعد الاستقلال مثلما كانت قبله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه"<sup>(1)</sup>. ولقد ردد نفس الكلام نفس المطرب في الندوة الصحفية التي نظمها ببجاية على هامش الحفل الفني الذي شارك في تنظيمه إحياء لنفس الذكرى: " لو اعتمدت اللغة الفرنسية منذ الاستقلال كلغة رسمية لما وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم..."<sup>(2)</sup>. وهنا نطرح هذه الإشكالية:

ملتقى إيكورن الذي يدعو إلى القبائلية والعامية ويحارب الإسلام والعربية الفصحى كانت كل محاضراته ومدخلاته ومحاضره بالفرنسية، كيف يفسر إذن هذا التناقض بين محتوى المحاضر وبين لغة المحاضرات والمدخلات والمحاضر؟، إن ما سبق يعني بوضوح " أن قضية اللغة البربرية تثار من أجل هدف واحد هو خدمة اللغة الفرنسية حتى تبقى هذه اللغة هي المشتركة بين العرب والبربر"<sup>(3)</sup>. - محاربة الإسلام ولغته، ومحققهما من الخريطة الجزائرية، وهو ما يظهر جلياً من الملخص السابق للتقرير، وقد رأينا تحت عنوان مشكلة الهوية الثقافية للشعب الجزائري. التنديد بالحركة الوطنية التي تميزت بسيطرة الإيديولوجية العربية الإسلامية على حساب البعد الأمازيغي إلخ. مما يجعل الحل يكمن في التخلص من العروبة والإسلام. ولكي يكون العمل متكاملًا لاحظنا تحت عنوان الثقافة في سياسة التنمية، الهجوم الشرس على المشرق العربي، وكأنه هو الذي كان يحتل الجزائر وليس فرنسا. في حين لا نجد أي إشارة واحدة لدور فرنسا العدواني وهيمنة ثقافتها وإستيلاها للجزائريين. وهو دعوة صريحة إلى فك الارتباط مع المشرق العربي والإرتقاء في أحضان فرنسا الإستعمارية تحت غطاء ما يسمى ثقافة البحر المتوسط. ولقد عبر أصدق تعبير عن مدى الحقد الدفين على لغة القرآن ابن العقيد عميروش ( برلماني من RCD) لعثمان سعدي عندما قال له :

" إننا كقبائل نكافح لهدف واحد وهو محاربة هيمنة اللغة العربية"<sup>(4)</sup>، ولقد بلغت كراحتهم للغة القرآن في هذا التقرير حدا لا يمكن التعبير عنه لشدة حقدته إلى حد المطالبة بمنعها من جميع وسائل الإعلام من إذاعة وتلفزة وسينما ومسرح وجراند إلخ، والبديل هو القبائلية والعامية. ولكن كشعارات. أما الحقيقة فهي الفرنسية وحدها إلى حد أننا لم نجد أية إشارة للقناة الثالثة الناطقة بالفرنسية، وذلك لأنها في نظرهم هي الأصل الطبيعي. ومن هنا فإن معارضتهم للتعريب أقوى من إصرارهم على القبائلية وتتميتها وإعتمادها كلغة رسمية. فهي لا تعتبر المطلب الرئيسي الحقيقي، ولكنهم لا يستطيعون الجهر

(1) عثمان سعدي، الأمازيغي، ص 41.

(2) جريدة الحرة الجزائرية، 23-04-1995، ع 1361، ص 3.

(3) عثمان سعدي، المرجع نفسه، ص 41.

(4) تأجابه عثمان سعدي على الفور: "استطيع الإجابة على السؤال التالي: ماهي اللغة التي صدرت لها الأوامر لقتل والدك الشهيد؟ فأجوبهم ولم يجب على السؤال ( عثمان

سعدي، البربر والوحدة البربرية، صحيفة النصر، تستطبة 19 ديسمبر 1991، ع 5623، ص 7).

على الأقل في تلك المرحلة بالدعوة العلنية المباشرة للفرنسة حتى لا يفقدوا تأييد البربر. فهم يتشبهون بكل ما من شأنه تعطيل مسيرة التعريب على أمل وقفها تماما، ووقف التعريب <sup>لشعب</sup> هو إرتباط اللغة العربية بالقرآن. وهكذا يظهر بجلاء آثار المبشرين في هذه الحركة<sup>(1)</sup>.

- ورد في التقرير السابق ما يربط بين أحداث تيزي وزو 1980 وأحداث أكتوبر 1988م مما يعطينا فكرة عن أسباب أحداث أكتوبر التي اختلفت حولها التأويلات. وذلك أن رئيس الجمهورية بعد أحداث تيزي وزو الأولى وطرح دعاة الحركة البربرية للملف الثقافي، وعد بطرح الملف الثقافي للمناقشة الشعبية والتزام الدولة بما يقرره المواطنون، وقد وفى رئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد بوعده بطرح الملف الثقافي للمناقشة الشعبية كما وفى أيضا بإعتماد ما يقرره المواطنون. فعرض الملف الثقافي للمناقشات الواسعة النطاق في كل ولايات القطر وفي جميع المستويات. وكانت زبدة تلك المناقشات "منظومة تربية إسلامية الروح، عربية اللسان، علمية المنهج" وهذا لم يرضى دعاة الحركة البربرية حيث صفعهم الشعب في مختلف الولايات، وكان على رئيس الجمهورية أن ينفذ إرادة شعبية لا إرادة صنيعة فرنسا وإكليسوسها ومشترقيها وساساتها إلخ. فكانت أحداث أكتوبر كرد فعل على تلك الصفعة لإزالة الطابع الجهوي عن دعاة الحركة البربرية كما سنبين أثناء تحليلنا لتلك الأحداث.

- ما يتعلق بقضية الهوية الثقافية للشعب الجزائري. نلاحظ أن أحداث تيزي وزو مرتبطة إرتباطا وثيقا بما سمي " حزب الشعب البربري" الذي تحدثنا عنه قبلا، بل وأيضا بما ظهر في المجلس الجزائري من المطالبة بمترجم للقبائلية كما بينا. وذلك لأن الطروحات هي ذاتها رفض العروبة والإسلام والإرتباط بفرنسا، وليس من باب المصادفة أن تقوم قيادة حزب الشعب بحل فدالية فرنسا البربرية في شهر أفريل، ويختار لأحداث تيزي وزو نفس الشهر أي شهر أفريل.

وإذا كانت استمرارا لحزب الشعب البربري فإنها أيضا تنفيذ لطرورات وأوامر الأكاديمية البربرية بباريس، ولسنا في حاجة إلى أدلة بعد الذي بيناه قبلا من البيان الموجه إلى الطلبة بمناسبة ذكرى الربيع الامازيغي وغيره. وهكذا تظل فرنسا دائما هي المفكر والمخطط والمنفذ بواسطة صناعاتها. وهنا نجد أنفسنا مضطرين لتقديم بعض الملاحظات المقننة للإدعاءات السابقة.

أ- البعد العربي الإسلامي للحركة الوطنية ليس نتيجة سيطرة الإيديولوجية الإسلامية العربية الراهنة، بل هو وليد الذات؛ لأن الشعب الجزائري عبر التاريخ لم يحدد هويته بالأمازيغية، بل بالإسلام والعروبة، ولا يهمننا هنا عروبة العرق - مع أن العرق العربي هو أنظف الأعراق وأنقاها لأنه سلالة نبوة عن نبوة من محمد إلى إسماعيل إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليهم الصلاة والسلام فمن هو الذي عرقه أحسن من هذا؟

(1) حسان سدي، الامازيغي، ص 218، 219.

ورغم هذا النقاء العرقي، فإن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه - بل عروبة القران مما يجعل بلالا الحبشي أفضل عندنا من أبي لهب الهاشمي - وذلك أن العرب بإسنتاء عصر الولاة الذي إنتهى سنة 144 هـ لم يحكموا قط بلاد المغرب<sup>(1)</sup>، وأول من عرب الإدارة بهذه البلاد هي الدولة الرسومية، وإستمر ذلك بعدهم عند جميع البربر الذين حكموا البلاد من زناتيين أصحاب دولة زناتة الإسلامية ثم بعدها حكمت البلاد قبيلة كتامة بإسم الفاطميين ثم دولة " بنوزيري " الصنهاجيين ثم بنو عبد الواد الزيانيين... إلى أن جاء العثمانيون. وعليه فكل عملية صهرنا في بوتقة الحضارة العربية الإسلامية هي من إختيار أسلافنا - الأمازيغ - بكل حرية ودون إرغام من أحد. وظلت الإدارة معربة والمجتمع كذلك إلى أن جاء الفرنسيون ففرنسوننا وعجمونا<sup>(2)</sup>. وهكذا فجميع الدول التي قامت بالجزائر والمغرب الإسلامي بعد الفتح ليس لها من البربرية إلا النسبة العرفية وهي فيما عدا ذلك عربية صميمة في الضروريات المقومة للدولة كوظائف العلم من إدارية ومالية، ووظائف القضاء من عقود وتسجيلات، وعربية في الكماليات التي تقتضيها الحضارة والترف والموسيقى والشعر، فما علمنا أن شعراء البلاطات في تلك الدول تقربوا إلى الملوك بالشعر البربري إلا أن يكون في النادر القليل وفي حال الإصطباغ بالبداوة الأولى<sup>(3)</sup>.

ب - جميع الثورات التي إنطلقت من بلاد القبائل ضد الإستعمار الفرنسي - وما أكثرها - والتي قادها قبائل لم تعتمد البعد الأمازيغي، ولم تعرفه، ولم تجعله إذن جزءا من هويتها. بل إنطلقت فقط من البعد العربي الإسلامي متخذة الجهاد فريضة لتحرير البلاد. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، سي عزيز بن الشيخ الحداد، الزعيم الروحي لثورة المقراني، فيسمى سكان الجزائر عربا وعندما يتكلم على أصله فيذكر أن مسقط رأسه الأصلي وبلاده هي قرية "صندوق" الفوقانية. أما قبيلته القديمة فهي "بني منصور" جيران "بني وغيليس" ويسمي كل سكان الجزائر عربا، ويرى أن الإنسان بمجرد إسلامه يصبح عربيا، فيقول: "... وفي الحقيقة كل من يؤمن به - أي بمحمد ﷺ ويتبع الشريعة التي تركها والتي ... التي تعرف بالقرآن ويصبح مسلما ويسمى عربيا ويرثي<sup>(4)</sup> أصله إلى رسول الله ﷺ وهذا في الحقيقة يجعلنا نحن كأننا من سلالته، لأن الذي يؤمن به مثلما قلنا ويشهد به، يصبح عضوا في عائلته، وحتى ولو كان الأبوان حيين وكافرين<sup>(5)</sup>" وكفى بإبن الشيخ الحداد دليلا.

وبهذا فإن الحركة الوطنية عندما تبنت الإسلام والعروبة إنما لأنها سارت في الإتجاه الحقيقي الصحيح السليم، والذي يستغرب لو لم تتبناهما وتبنت الأمازيغية. وكيف يمكن تبني فكرة إستعمارية

(1) كلامنا هنا لا يتناقض مع فتاوى بالأصل العربي للبربر.

(2) الطاهر من عيشة، أسئلة مطلة لل دعاة "البعث البربري" الشرفوق النفال، الجزائر، 7 أبريل 1994، ع 37، ص 7.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، عروبة الشمال الإفريقي، البساتر، 1951، ع 150.

(4) كلمة برثي أصلها، كما دلالتها.

(5) الشيخ الحداد، وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزوز، ترجمة وتعليق وتقديم يحي بوعزيز، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص 140، 144، 145.

لتحرير البلاد من ذلك الإستعمار؟! إن الإستعمار إختراع تلك الخرافة ليبقى بها لا ليُطرد. ومن هنا فمن جاء على أصله فلا سؤال عليه.

- العمل على الفصل بين الجزائر والوطن العربي أو فصل الجزائر عن الوطن العربي، وهذا من أخطر ما يكون ذلك أننا في عصر التكتلات، إذ في حين تبحث الأمم المتقدمة عن ما يوحد بينها يبحث دعاة الحركة البربرية عما يمزق الوطن الجزائري من الوطن العربي والإسلامي أي يفصله عن إمتداده الطبيعي وعمقه الإستراتيجي. وكذا ما يمزق الوطن الجزائري ذاته. وهذا يدخل ضمن إستراتيجية المبشرين والمستعمرين على السواء "فرق تسد"

- التركيز الكبير على الأمازيغية والعامية يجعل دعاة الحركة البربرية متأخرين جدا عن ظهور الأفكار التي يدعون إليها، بل وبعد وفاتها. إذ في حين مثلا كانت الدعوات إلى العامية قد ظهرت في الربع الأخير من القرن 19 وطبقتها فرنسا خلال إستعمارها لنا برزت هذه الفكرة في أيكورن في 1980. مما يجعل الحركة البربرية دعوة رجعية تجاوزها الزمن. ولا سيما أننا في عصر تجاوز فيه القومية.

- ثم هناك شيء غريب يلاحظ عليهم هو :

إذا كانوا بربرا ويطالبون بالأمازيغية فما دخلهم في العرب؟! فإذا كان من حقهم أن يطالبوا بالقبائلية فمن حق العرب أن يختاروا لغتهم الفصحى أو العامية. أما أن ينصبوا أنفسهم أوصياء عن العرب يختارون لهم لغة بدلا عنهم ويجبرونهم عليها فهذا عين الإرهاب والقمع. وهي عقلية الإستعمار الذي يجبر مستعمره على ما لا يرضون. وإلا فمن من العرب حول لهم الإختيار بدله؟ بل ومن من القبائل البربرية الأخرى التي تشكل الأغلبية من شاوية وميزابية إلخ حول لهم الإختيار بدله سواء فيما يتعلق بالقبائلية أو الأمازيغية أو العامية؟! بل من من القبائل أنفسهم حول لهم الإختيار بدله؟!.

- قضية لغة الأم التي تيناها التقرير ودعا إليها وأصبحت تدعو إليها قريفاوا إحدى صنائعهم زاعمة بالأسباب العلمية هو زعم متهافت. ولكن لنمش فيه مع دعائه، فهم يقولون بأنه لا بد من تدريس الطفل بلغة الأم حتى لا يتعرض إلى مشاكل تعرفل نموه. هذا يعني أن كل دعاة الحركة البربرية بما فيهم قريفو يعانون من مشاكل عرقلت نموهم؛ أي معقدون نفسيا، مما يجعل دعوتهم ذاتها شذوذا وإنحرافا ومرضا نفسيا خطيرا نشأ عن عقدة نفسية خطيرة؛ لأنهم جميعا لم يتعلموا بلغة الأم. اللهم إلا إذا كان المقصود بالأم هنا، ليست الأم البيولوجيا، بل فرنسا. مما يجعل جميع الأمريكان والألمان وغيرهم تعرضوا جميعا لمشاكل عرقلت نموهم لأنهم لم يتعلموا بلغة الأم فرنسا.

والدليل على هذا أنهم قديما خريجوا المدرسة الفرنسية والمدرسة التبشيرية. وهي تعلم فقط باللغة الفرنسية، وهم الآن يعلمون القبائلية بالفرنسية، وقد أطلعنا على بعض المطبوعات التي يدرسون منها القبائلية في جامعة تيزي وزو فرأينا الكتابة والشرح والقواعد وكل شيء بالفرنسية. مما يعني أن الطفل يجب أن يتعلم الفرنسية قبل القبائلية. والغرض واضح هو الفرنسية لا القبائلية. وإلا فهل

الفرنسية هي لغة الأم القبائلية؟ إن الأم القبائلية الأمية تعرف العربية العامية، والعربية العامية أساسها الفصحى. ومن هنا فعندما يعلم الطفل بالعربية الفصحى يكون قد تعلم بلغة الأم. ولكن المقصود بالأم كما ذكرنا هو فرنسا وليست الأم البيولوجيا، فمن ينكر بعد اليوم قدرة هؤلاء على الإبداع والابتكار؟! .

- ما يتعلق بتاريخ الجزائر نجد أن أول من اهتم به حتى ما قبل الإسلام هم الإتجاه الوطني الإسلامي الذين صب عليهم تقرير ايكورن جام غضبه، ومن الأمثلة على هذا فقد ألف توفيق المدني كتابه الشهير "حتبعل". كما ألف الشيخ الميلي كتابه " تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، وقد قرضه ابن ساديس وإعتبر الميلي بهذا الكتاب قد أحيا أمة. فماذا فعل دعاة الحركة البربرية لإحياء التاريخ؟. وهكذا ففي حين كان الإتجاه الإسلامي الوطني من مالك بن نبي<sup>(1)</sup>، وجمعية العلماء والحركة الوطنية يعمل على إحياء تاريخ البلاد ويبرز شخصيتها حتى ما قبل الإسلام، كان دعاة الحركة البربرية يرددون " كان أجدادنا من الغانيين"، وكانوا يطالبون بمحو الشخصية الجزائرية والذوبان في الأم فرنسا.

- وأما ما يتعلق بالهجوم الشرس على اللغة العربية إلى حد إتهامها بأنها هي سبب التبعية الجزائرية للغرب. فهل القبائلية والعامية هما اللتان تخلصانا من التبعية؟!، وكيف تكون اللغة العربية التي تربطنا بالقرآن عامل تبعية للغرب الذي يحارب القرآن؟، وكيف تكون اللغة العربية التي تربطنا بالقرآن عامل تبعية للغرب الذي يحارب القرآن؟. وستبين أن الدعوة إلى العامية فكرة إستشراقية نصرانية محضة نفذتها فرنسا في الجزائر كما سنبين أثناء حديثنا عن العامية، أماتها الثورة الجزائرية. وهكذا فهم يحيون ما أوجده الإستعمار ويميتون ما أحيته الثورة.

- لاحظنا كما أشرنا قبلا الهجوم الشرس على المشرق العربي بينما لم نجد أي إشارة لدور فرنسا الثقافي وهيمنتها وإستيلابها لنا والسبب واضح. هو أنها هي التي حضرت لأحداث تيزي وزو وملتقى إيكورن، وهي التي صاغت تقريره النهائي. فسماتها فيه بارزة بإكليروسها و علمائها وساساتها، وإلا فإن المشرق العربي لم يشكل يوما ما جماعات ضاغطة على الجزائر، بل الضغط يأتي دائما من فرنسا خاصة والغرب عامة. وكان المنطق يقتضي الإتجاه إلى موطن الداء لا إلى موطن الدواء؛ لأن المشرق كان ملاذنا كلما حل بنا مكروه غربي. ويمكن أن نخلص سبب الهجوم على المشرق العربي في عامل جوهرى ترجع إليه جميع العوامل، هو " إن المشرق هو مكة المكرمة قبلتنا".

- ومن أغرب ما نجده في التقرير السابق " محو الأمية في اللغات الشعبية" مما يعني أنه بدل أن ننشر العلم والمعرفة وسط الأبين فنخرج البلاد من ظلمات الجهل إلى لنور العلم والحضارة، ومن التخلف إلى الرقي، نعلمهم " كرازاتو الطونوبيل"، و" دحساتوا الماشينا" إلخ أي ننشر الجهل والتخلف.

(1) ولقد أشرنا قبلا إلى المحاضرة التي ألقاها مالك بن نبي عن " تاريخ الشمال الإفريقي" التي نسمت ظهر الإنصاليين.



- التقرير يحتوي على كثير من الأكاذيب والقضايا المخالفة للواقع. ومن الأمثلة على هذا فإن المسرح والسينما والغناء لا يستعمل الفصحى إلا نادرا. بل الذي طغى على كل هذا هو العامية والفرنسية. وهكذا يظهر لنا بجلاء أن أحداث تيزي وزو الأولى لبنة جديدة في بناء المسرح الإستعماري الفرنسي، وهي تكملة لما أنجز قبلا وإستمرارية له منذ العشرينيات. وأن أهدافها هي :

قتل الإسلام وإبادة لغته، تمزيق الوطن وتقسيمه، تكريس هيمنة اللغة الفرنسية وخدمة مصالح فرنسا الإستعمارية، إحلال النصرانية محل الإسلام أو إرجاع إليها ما أخذ منها الإسلام. كل هذا بتخطيط وتوجيه من الأكاديمية البربرية وسياسي فرنسا ورجال إكليروسها، وها هو معطوب الوناس يلخص كل هذا عندما حدد بدقة كيفية إدراكه لشخصيته، وذلك في الحوار الذي أجرته معه أقتاة الفرنسية (TF1)<sup>(1)</sup> ، عندما سألته عن القساوسة الأربعة الذين أختلوا في تيزي وزو في 31 / 12 / 1994م فقال : " هم علموني كيف أكون أمازيغيا، وكيف أحب أمازيغيتي، وكيف أستमित في الدفاع عنها ... هم من علموني ذلك ... " <sup>(2)</sup> بل ركز على الأب شارل ديكيرس (C h . Deckers) قائلا عنه : " هو الذي علمني هويتي البربرية"<sup>(3)</sup> . وهل يبقى دليل بعد هذا على أن الحركة البربرية حركة تنصيرية؟ ولنزيد هذا توضيحا بتعريف هذا الراهب الذي علم معطوب هويته البربرية:

شارل ديكيرس بلجيكي الجنسية، ويحمل الجنسية الجزائرية أيضا، كان مستشارا في التكوين المهني بوزارة العمل الجزائرية التي كان يسيطر عليها الشيوعيون، وكان يعمل مبشرا ببلاد القبائل، ويعرف القبائلية ضبطه مفتش شرطة قبائلي بمدينة تيزي وزو في سنة 1976م وهو يجمع في بيته مراهقين ومراهقات ويمرنهم على ممارسة الجنس تحت ستار التربية الجنسية فقامت السلطات بطرده مع عدد من رفاقه المبشرين المورطين، وذلك في عهد الرئيس الراحل هواري بومدين، ولكنه في إحدى زيارات الرئيس السابق الشاذلي بن جديد إلى بلجيكا توسط ملكها لديه بإرجاع الراهب المذكور فسمح له بالعودة إلى الجزائر، فظل بها إلى إغتياله مع رفاقه الثلاثة<sup>(4)</sup>.

هذه هي النصرانية، تستخدم الرذيلة لتحطيم الشباب بغية إصطيادهم وهؤلاء هم أساتذة الحركة البربرية، ونكتفي بهذا تعليقا على أحداث تيزي وزو الأولى وملفتي إيكورن الذي تمخض عنها، لننتقل إلى الإشارة لنتائجها.

### نتائج أحداث تيزي وزو الأولى 1980 م:

لقد تمخض عن أحداث تيزي وزو 1980 م تأسيس دعاة الحركة البربرية لـ حركة الثقافة البربرية (MCB) أنشأها المغني وسعيد سعدي وذلك في سنة 1981م وقد رسمت خطوط سيرها

(1) وذلك في برنامجها "سمة على سمة" الذي أذيع يوم 8 جانفي 1995م (عثمان سعدي، الأمازيغ، ص40).

(2) معطوب الوناس يكلف من علمه، جريدة الحياة الأسبوعية (28 جانفي - 3 فيفري) 1995م، ص169.

(3) عثمان سعدي، المرجع السابق، ص40.

الأكاديمية البربرية، ونشير في هذا السياق إلى أن أول حزب بربري غير شرعي هو (F F S) الذي أسسه آيت أحمد سنة 1963م كما ذكرنا قبلا.

وكان ينضوي تحته الإتجاه البربري برمته ولا سيما أن آيت أحمد له تاريخ طويل في هذا المضمار، حيث أنه من مؤسسي ما يسمي<sup>(1)</sup> حزب الشعب البربري في الأربعينيات كما بينا . وفي سنة 1978م يبدو أن FFS كان يريد أن ينصب نفسه كمفاوض بالمطالب الأمازيغية ضد النظام الجزائري، غير أنه في شهري مارس و أبريل 1980م عندما تسارعت الأحداث حدث الإنشقاق بينه وبين المحركين الرئيسيين لتلك الأحداث متهمين إياه بالليوننة تجاه السلطة، فخرجوا منه وأعلنوا ميلاد MCB عام 1981م، بل وأعلن سعدي بعد أحداث 1980م: " أن الحفاظ على الحركة تحت شعار (FFS) يضر بصورة رئيسية بنشاطنا. حان الوقت لإتخاذ إتفاقيات 1978م". وقد أيد هذا الموقف مسؤولو الحركة الذين إعتبروا أن التزاوج مع F F S كان لمصلحته على حساب الحركة، لأنه بدل تجديد الحركة بتنظيماتها، فإن FFS هو الذي كان يستحوذ على الحركة.

وكانت الإختلافات أو التعارض بين نشاط MCB الذين درسوا في الأكاديمية البربرية والعناصر المتساهلة - حسب زعمهم - في FFS السبب الرئيسي في تطرف كل منهما.

وواصلت MCB مسارها تحت حلم أن تتحول من حركة مطلبية إلى حركة تقدم الإقتراحات. وفي عام 1989م، -بعد أحداث أكتوبر - مع الدستور الجديد أعطت MCB شهادة ميلاد RCD وتولى سعدي الموقع الأول فيه وتم تقاسم الأدوار والتكامل بينها.

الشق السياسي يرتكز على المنطقة الجغرافيا لمتاهضة السلطة الجزائرية والشق الثقافي يعمل على إستغلال المنطقة ذاتها للنضال وسط يوميات جزائرية كابوسية. ولقد وضع كل من MCB و RCD حدودها الإقليمية، فمن بين 48 ولاية إستجابت إثنان وبعض من الثالثة للشعارات الخادعة المعدة في باريس، المستهدفة جعل الفيتو القبائلي قاعدة لإعادة المفروض الإستعماري<sup>(1)</sup>.

هذه هي MCB بنت تأسيسها على حقد لا يتصور على الإسلام وعلى كل ما هو عربي، تأسست على محاربة إتنماي الجزائر العربي الإسلامي، والعمل من أجل بربرة الجزائر وربطها بفرنسا، وقطع كل علاقة لها بالوطن العربي وبالعالم الإسلامي، وهو ما قررتنه الأكاديمية البربرية بباريس.

وزعماء الحركة البربرية لا ينكرون هذا، ولا ينكرون أن الذي أنشأ حركتهم هم المبشرون الذين كرسوا حياتهم لخدمة أهداف الإستعمار الفرنسي الجديد. وقد ذكرنا قبلا تصريح معطوب إلى (TF1) قائلا: " إن الذي علمني هويتي البربرية هو الأب شارل ديكيرس<sup>(2)</sup> والقساوسة الثلاثة

(1) المرجع نفسه، ص2.

(2) المرجع نفسه، ص40.

الأخرون الذين إغتيلوا معه قائلا : " هم علموني كيف أكون أمازيغيا، وكيف أحب أمازيغيتي وكيف استميت في الدفاع عنها... هم من علموني ذلك"<sup>(1)</sup>.

كما تأسست على حقد لا يتصور على اللغة العربية وحب لا يتصور للفرنسية والفرنسيين مما يجعل الدعوة للقبائلية مجرد غطاء وهو ما بينه معطوب صراحة يوم 20 أبريل 1995 بجاية كما ذكرنا قبلا<sup>(2)</sup>.

وهكذا أسست هذه الحركة على العداة السافر للإسلام ولغته والإنحياز للغة الفرنسية إلى حد أن جعلوا الأمازيغية تكتب بحروفها<sup>(3)</sup> وتخضع لقواعدها. وحصل الحقد على لغة القرائنية أن جعلوا حتى جنازهم مناسبة للتدبير بها والخروج في مظاهرات صاخبة في ولايتي بجاية وتيزي وزو يحطمون، يقتلون، يجعلون ما يجنونه في طريقهم من مرافق عامة حصيدا كأن لم يكن بالأمس أرسيدهم وأفافاسهم وأمسيهم، معلنين أنهم لن يتوقفوا حتى توقف الدولة قانون تعميم استعمال اللغة العربية وكأنها هي التي قتلت معطوب. ولقد وصل ذلك الحقد على لغة القرآن بالسيد جراعي الأمين العام لـ F F S بالنيابة أن يعلن في المسيرة غير القانونية التي نظمها في الجزائر العاصمة يوم 5 جويلية للمطالبة بتجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية متحديا الدولة ودستورها الذي بموجبه كان أمينا عاما لأفافاس، وذلك يوم 5 جويلية 1998م، أي يوم رفع الحجر عن اللغة العربية، أن يعلن قائلا: " ها أني أخطب بالفرنسية، وهذا أكبر دليل على عدم تطبيق قانون اللغة. وهنا نشير إلى شينين، أحدهما أن هذا تحدي سافر للدولة وكل مؤسساتها. والدولة لم تحرك ساكنا. بل رئيس الجمهورية إستقبلهم وقدموا له مطالبهم وصدر بيان مشترك. ويتساءل : لو أن أحد الزعماء الإسلاميين أقام مسيرة غير مرخص لها وأعلن أمام الملأ في تلك المسيرة أنه لا يلتزم بقوانين الجمهورية وأنه يتحداها، فماذا سيكون موقف الدولة منه ومن حركته؟ وماذا سيكون موقف صحافتها والصحافة المسماة " معارضة"؟ لن نجيب نحن على هذا التساؤل.

وثانيهما أنه لم يقل : ها أني أخطب بالأمازيغية، وإنما قال : بالفرنسية، لأن الأمازيغية مجرد غطاء للفرنسية.

وعلى إثر رفع الحجر عن قانون تعميم استعمال اللغة العربية ابتداء من 5 جويلية 1998م فإن الأرسيدي هو أيضا نضم مسيرة بالجزائر العاصمة غير مرخص لها ووقع إشتباك الأرسيديين مع رجال الأمن مما جرح بعض رجال الأمن<sup>(4)</sup>.

وهنا نتوصل إلى السؤال الآتي : هو، كيف يبلغ هذا الحقد الدفين وينشر وسط الناس؟

(1) جريدة الحياة الأسبوعية، 28 جانفي - 3 نبري 1995م

(2) جريدة الخبر اليومية، 23-04-1995م، ص3.

(3) أكلي بلناس، الأمازيغية والفرنكفونية.

(4) ومن أراد التوسع في هذا فليراجع للصحف اليومية والأسبوعية ابتداء من تاريخ اغتيال معطوب الرناس.

والجواب: أن من أهم وسائل ذلك: الغناء، وهو ما جعل محضر إيكورن يطالب بمنع الرقابة عن ما سموه " الغناء الملتزم " ويقصدون به الغناء الذي يفوح حقدا وكرها لكل ما هو عربي وإسلامي وَوَهْطَنِي، وأحسن مقال على هذا " قسما المعطوبية " التي نكتفي بها دليلا وشاهدا.

وهنا نتساءل : كيف توصل دعاة الحركة البربرية إلى هذه القوة بحيث أصبحوا في هذه الفترة كأنهم هم الدولة؟ ولمعرفة هذه الحقيقة يجب التطرق إلى أحداث أكتوبر 1988م .

الإلعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفصل السادس

### أحداث أكتوبر 1988

يقول محمد العربي الزبيري " إن ما حدث في أكتوبر 1988م مؤامرة كبرى حيكت خيوطها بذكاء شيطاني لتسهيل الردة في جميع المجالات وللتمكن من شل كل القوى الوطنية التي قد تتصدى للخيانة، ولقد حرص مدبروها على إحاطتها بكثير من السرية حتى تبقى الحقيقة غائبة عن الشعب ... ولم تسوى مختلف القضايا التي أثارها، بدءا من التحقيق الذي كلفت لجنة وطنية بإجرائه والذي لن ينجز أبدا، وإنهاء بالإصلاح المتعدد الأوجه، والحالات التي أعلن عنها والتي لن يكتب لها النجاح، مروراً، طبعاً، بالإسقاطات وما سوف ينجر عنها، وبالظواهر الغربية التي بدأت تنتشر والتي لن تتوقف عند الوفضى والعصيان. لكنها ستنتقل إلى ما من شأنه أن ينخر بالتدرج جسم المجتمع الجزائري الذي أرسى قواعده ثورة نوفمبر المباركة<sup>(1)</sup> ونحن نوافق في كل هذا. ولنبدأ حديثنا عن هذه الأحداث بملخص لما سبقها تحت عنوان :

#### ما قبل المؤامرة

ونحمله كما يأتي :

**أولاً :** اشتداد الصراع بين الإتجاه الإسلامي<sup>(2)</sup> الوطني والإتجاه الفرنكفوني التغريبي، ويمكن أن نذكر إنجازات كل منهما فيما يأتي :

**الإتجاه الإسلامي الوطني :** إتجاه الإسلام دين الدولة والجزائر مسلمة عربية حقق ما يأتي :

- إعادة بعث الدولة الجزائرية من جديد وإسترجاع السيادة الوطنية بعد ثورة 1954 المباركة.
- قرار التعريب الشامل وديمقراطية التعليم
- فتح معهد العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر
- فتح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.
- قانون الأسرة الإسلامية.
- قرار الوحدة مع ليبيا.
- فتح المجال أمام الدعاة من خارج الجزائر وداخلها، وإستقدام الشيخ محمد الغزالي وجعله أستاذا للجزائر كلها.

(1) محمد العربي الزبيري، المؤامرة الكبرى أو أجهاز ثورة، ط2، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1990، ص14، 15.

(2) نحن لا نفرق في هذه الدراسة بين جبهة التحرير الوطني والحركة الإسلامية، ونعتبرهما وحدة في الجوهر وهو ما يتوافق مع تحديدنا لمفهوم "النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر" ولقد أدرك هذه الوحدة أنصار المشروع التغريبي لما جعل رئيس الياكس الماهي الشريف يطلق عليهما "الكوليرا والاطاعون" وجعل محمد بوضياف يظن يصب قبل وصوله إلى الجزائر حام فضبه عليهما. مما ويحذر أن جبهة التحرير الوطني انتهت سنة 1962م.

- إعادة النظر في المنظومة التربوية وفقا لما وعد به الرئيس دعاة الحركة البربرية بعد أحداث تيزي وزو، وبديمقراطية شاملة، وكانت خلاصتها: مدرسة جزائرية إسلامية الروح عربية اللسان علمية المنهج.
- قطع أشواط كبيرة في مجال التصنيع والبناء والتشييد والعدالة الإجتماعية ورفع مستوى المعيشة<sup>(1)</sup> إلخ.

### الاتجاه الفرنكفوني التفريبي : حقق ما يأتي :

- البدء في تحويل البلاد من الاتجاه الاشتراكي إلى الليبرالية المتوحشة، وبمفهوم الإسلام تحويل أموال الدولة من كونها قسما مشتركا بين جميع المواطنين إلى جعلها دولة بين الأغنياء. والأخذ في إفلاس البلاد إقتصاديا وتحطيم صناعاتها، وذلك بحكم تغلغله في المراكز الحساسة في الدولة والإدارات والشركات.
- إنتاج "رياض الفتح" حيث يعد أكبر إنتاج حققته الفئات الحاكمة على الثورة، فاستطاع بسرعة فائقة بمساعدة المصالح الفرنسية المختصة أن يصبح قلعة للثورة المضادة لنشر مختلف الأمراض الإجتماعية في أوساط الشباب، وتحويل تدريجيا إلى مؤسسة مستقلة تسييرا وإيديولوجيا دون الخضوع لرقابة الوزارات المعنية، وأصبحت الدولة تتفق عليه الأموال الباهضة بالدينار والعملية الصعبة، وهذا في الوقت الذي ألغت الحكومة دعم الكتاب وخفضت حقوق الكاتب، ومن الأمثلة على دوره الخطير في تحطيم قيم الثورة ومبادئها:
- أنه فيه ولد الفن المتعفن "الراي" - رغم تنبيه كبار الفنانين الملتزمين وعلى رأسهم الملحن الجزائري معطي بشير إلى خطورته - وفيه وجدت وسائل الإستيلا والمخدرات والخمور عشا متعفنا، وفي سهراته الماجنة للجنسين وما يتخللها من خمور ومخدرات بجميع أنواعها نشأ الشباب الذي أشعل أحداث أكتوبر.
- تنظيم المحاضرات بغرض تشويه الثورة ودعوة الصهاينة إليها مثل الملتقى الدولي الذي نظم عن (افرانز فانون)، فكان جل المدعويين إليه من خارج الجزائر صهاينة فأهانوا الثورة وقزموها وإعتبروه منظرها الأوحده<sup>(2)</sup>.
- زيادة نشاط المراكز الثقافية الفرنسية والمراكز التبشيرية التنصيرية المكثف، وعملها الدؤوب على تحطيم الشباب بالتنصير والإباحية وتسخيره لخدمة أغراض فرنسا، ومن ذلك ما كشفه أمين محافظة الحزب بقسنطينة في نهاية ربيع ما قبل أحداث أكتوبر أن بعض المناضلين أخبروه بأن المركز الثقافي الفرنسي إستدعاهم بصفتهم باعة متجولين وعرض عليهم مرتب 300 ف فرنسي مقابل عملهم يوميا على نشر عبارات فرنسية في شوارع قسنطينة. وهذا يجعلنا نعتقد أن

(1) هذه المعلومات استقناها من خلال مشاهدتنا للواقع ومعاينتنا له.

(2) عهد العربي الزهري، المرجع السابق، ص 40-43.

المخابرات الفرنسية تحت غطاء هذا المركز إنما لجأت إلى تلك الحيلة للنفوذ في أوساط الشباب  
البيعة قصد إختبار العناصر الضعيفة التي يمكنها أن تسخرها لخدمتها.

- إنشاء لجنة الصداقة الجزائرية الفرنسية، وحيث لهذا الغرض بالسيدة : خليدة خالي رئيسة جمعية  
النساء الفرنسيات المسلمات والعاملة كإطار بديوان جاك شيراك. فقامت بنشاط مكثف خلال  
السداسي الأول من سنة 1988م بين باريس ومختلف الولايات الجزائرية والإطارات السامية في  
الدولة الجزائرية.

- القناة الثالثة (الفرنسية) أصبحت نسخة للإذاعات الفرنسية تنشر الثقافة الفرنسية وتشيح في الناس الميوعة  
والإنحلال<sup>(1)</sup>، بل أصبحت تمارس التصوير جهارا نهارا، ومن ذلك أنها تقوم -إلى ملايين المستمعين-  
بنقل مباشر للقداس الديني من إحدى كنائس العاصمة بمناسبة رأس السنة<sup>(2)</sup>.

- التلفزة ودور السينما أصبحت تتفنن في عرض كل ما من شأنه أن يفرنس المجتمع ويبعده عن أصلاته التي  
حمته من أعدائه، ونشر الميوعة والإنحلال، ومن الأمثلة على هذا فإن التلفزيون لا يقدم خلال أسبوع  
كامل سوى فيلم عربي واحد وفي أحيان كثيرة بلغي. وكل الأفلام فرنسية .

- تعيين الإطارات المناهضة للحزب على رأس المناصب الأساسية في مجالات الإقتصاد والإعلام والثقافة  
والتعليم إلخ وثبتت العناصر اللوطنية التي أنتجتها المدرسة الفرنسية على رأس المناصب الإدارية  
الأساسية.

- وهو ما أدى إلى تهميش الحزب إلى غاية مؤتمره المنعقد في 19 - 22 ديسمبر 1983م فعمل على  
تصحيح الأوضاع، ولكن نتائجه ضرب بها عرض الحائط، ودفع حزب فرنسا الأمين العام للحزب بعد  
1984م إلى خوض معركة إثراء الميثاق الوطني بغرض تحويل مسار البلاد نهائيا، فيكونسون قد  
أحدثوا الانقلاب في إطار سلمي وشرعي، ولكن نتيجة الإثراء خيبت آمالهم فشرعوا في الإعداد  
للمخطط الشامل " أسبوع الإجهاض" الذي سبقته حملات متتالية للإنتقام من أمناء المحافظات وأعضاء  
الأمانة الدائمة للجنة المركزية الذين قاموا بأدوار أساسية أثناء عملية الإثراء فعزلوا، وأحيل العديد من  
الإطارات المهمة الشابة نسبيا والمتقفة في الحزب والجيش على التقاعد المبكر، وحلت شعارات جديدة  
محل القديمة التي غيبت خاصة منذ 1986م، أي بعد المؤتمر الإستثنائي للحزب: ترفض الإستراتيجية  
وتهزأ من الإسلام وتدعو إلى التحالف مع الإمبريالية والإستعمار، والتنكر لحركات التحرر والقضايا  
العادلة في العالم. وفي ظل هذا التفلسف تم إحياء فكرة ربط الجزائر حضاريا وثقافيا ببلدان حوض  
البحر المتوسط، وهذا أحد أسس الحركة البربرية كما سنبين، مما يعطينا فكرة عن دور هذه الحركة  
في أحداث أكتوبر.

- ضرب حركة الدعوة الإسلامية وذلك بإعتقال معظم دعااتها في سنة 1982م .

- إلغاء التعليم الأصلي.

(1) المرجع نفسه، ص 133، 134، 43، 45.

(2) الشاذلي. زه الحطر القادم، جريدة العصر، 10 جانفي 1991م، ص 12.

## موقف الإتحاد الإسلامي الوطني من النفوذ الفرنكفوني ومخططاته الجهنمية.

أدرك هذا الإتحاد أن الثورة مهددة بالإجهاض، ولكنه كان بعيدا عن مصدر القرار وكانت آخر محاولة منه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه:

تعبيل الإتحاد مع ليبيا، وتجسيد الجانب الروحي في أيديولوجية الحزب، وتفاعل المجتمع مع هذا، ولكن حزب فرنسا عمل على تحطيم هذا بدفع الأمين العام للحزب إلى الإستجابة الظاهرة المتمثلة في عقد ندوة وطنية حول الإتحاد مع ليبيا، وفي الوقت نفسه إبعاد الإطارات المحركة للفكرة والمنظمة للندوة كي تظل نتائجها حبرا على ورق، وتسقوا في الوقت ذاته مع الحملات المشوهة ضد الرئيس معمر القذافي وشعبه التي نظمها الإعلام الفرنسي بواسطة الصحافة والإذاعة والتلفزيون الفرنسية، وإرسال عدد من الصحافيين والصحافيات إلى الجزائر للإتصال بالخبذة مباشرة لإقناعها - أو توجيهها- بعدم جدوى الوحدة مع ليبيا، ولما فشلوا في كل هذا لم يبق أمامهم سوى العنف والإرهاب، أي تنظيم أسبوع الإجهاض الذي كان من ضمن نتائجه دفن مشروع الوحدة مع ليبيا بمباركة المخابرات الأجنبية التي ساهمت في إعداد الخطة وتنفيذها<sup>(1)</sup>.

### ثانيا : الإشاعات :

لقد انتشرت إشاعات خطيرة في صائفة 1998م بهدف تسميم الحياة الإجتماعية وتمهيدا لما سيقع لإشعال نار الفتنة، منها إختلاس مبلغ معتبر من أحد فروع البنك الجزائري، وإن كان الإختلاس قد وقع بتواطء بعض المسؤولين إلا أن الإشاعة أصرت كذبا على إدراج ابن الرئيس الشاذلي بن جديد من ضمن المشاركين في عملية الإختلاس، كما أشيع أيضا أن الرئيس ترك البلاد وذهب لممارسة هوايته المحببة : الصيد البحري في أعالي البحار. وفي ظل هذه الظروف كانت المواد الأساسية ولا سيما الدقيق مفقودة من الأسواق أو تكاد، مما جعل المواطن البسيط يجد صعوبة في الحصول عليها بينما يوجد آخرون تصل إلى منازلهم دون ان يكلفوا أنفسهم عناء البحث عنها، وهو ما أدى إلى إنتشار ظاهرة السوق السوداء والتحايل والتأمر على كيان الدولة.

كما إنتشر قبل حوالي شهر من وقوع الأحداث في جميع الأوساط أخبار تنبئ بها وتضبط التاريخ المحدد لها والمدن التي ستشملها، النظام بجميع أجهزته كان يعرف هذا - وهو ما إعترف به اللواء خالد نزار الذي قاد الجيش الذي أرجع الأوضاع إلى نصابها في تلك الأحداث. والسؤال المحير هو : لماذا لم تقم الدولة بأي إجراء وقائي لتجنب الوقوع في الأحداث<sup>(2)</sup> ولا سيما أنها كانت أحداث مماثلة قد وقعت في بعض المدن الجزائرية سنة 1986م، ولماذا لم يقم الجيش وقوات الأمن بالتدخل مباشرة بعد بداية الأحداث؟. إن الجواب على هذين السؤالين مازال لغزين محيرين رغم تبرير اللواء خالد نزار عدم تدخل الجيش في بداية الأحداث، إنما كان بسبب بعده عن العاصمة.

(1) عمدة المرين الزبيري، المرجع السابق، ص 52، 53، 65، 67، 67.

(2) المرجع نفسه، ص 38.



### محتوى الأحداث

انفجر الشارع في مظاهرات عارمة لم يسبق لها مثيل، فانتشرت الفوضى والحرائق في كثير من مؤسسات الدولة، وسقط كثير من الشباب تحت رصاص الأمن<sup>(1)</sup>، وقد مرت الأحداث بمرحلتين: المرحلة الأولى من 5 إلى 12 أكتوبر تاريخ إنهاء الحصار العسكري، تميزت بالعنف الشديد من جانب السلطة، والسيطرة المطلقة على مسار الانتفاضة من المتظاهرين.

### المرحلة الثانية:

هي - ما سميت - بمرحلة النضال من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان التي تميزت بدخول العنصر المتغف قائدا ابتداء من 17 أكتوبر.

وقد بدأت الأحداث يوم الثلاثاء 4 أكتوبر في باب الواد عندما خرج أطفال المدارس والثانويات في مظاهرات محتجين على ندرة المواد الغذائية الأساسية، وتطورت صبيحة الأربعاء 5 أكتوبر<sup>(2)</sup>، حيث شملت المظاهرات كافة أنحاء العاصمة فهبوا المؤسسات الوطنية وحرقوا ممتلكات الدولة ابتداء من السيارات العمومية إلى حرق مقرات الحزب والبلديات وبعض الوزارات ولا سيما وزارتي الشباب والتربية، وظل هذا اليوم كله نارا ودخانا وسرقة ونهب، مما جعل المواطنين النزهاء يصابون بحيرة أمام سلبية السلطات بكل أنواعها خوفا على مقومات الدولة من الزوال لو استمر الوضع على ما هو عليه. واستمر الوضع نفسه يوم الخميس الذي حدثت فيه أشياء جديدة، من أهمها إتخاذ إجراءات إدارية يكتنفها كثير من الغموض ونذكر منها: أن قيادة الأركان أعلنت عن حالة الحصار ابتداء من منتصف نهار الخميس لكن الجيش لم يتدخل إلا في السادسة مساء. فلماذا كل هذا التأخر؟ لماذا تركت العاصمة وما جاورها فريسة للنهب والحرق لساعات كاملة بعد إعلان حالة الحصار رغم خطورة الموقف؟! وقد أشيع في هذه الساعات الست في مختلف جهات الوطن أن قسما من الجيش تمرد، وأن إنقلابا عسكريا قد يقع قبل إنتهاء يوم الخميس. فمن كان وراء هذه الإشاعات؟ وما هي الفائدة من نشرها، في حالة الشعور تلك؟ والإجابة عن هذين السؤالين لا يعرفها سوى المخططين الحقيقيين لأسبوع الإجهاض<sup>(3)</sup>.

وفي صبيحة الجمعة - وكان الجيش قد تدخل - أخذت وقت الضحى التجمعات تظهر في كل من باب الوادي وباش جراح، وأشيع أن علي بلحاج<sup>(4)</sup> سينظم مظاهرة كبرى من كل من سيدي محمد، وباب الواد اللذين يفصل بينهما حوالي 3 كلم. وهو ما قد وقع بالفعل. فقد أعلن علي بلحاج أنه سينظم

(1) عبد الله ركي، الفرنكفونية مشرقا ومغربا، ص 173.

(2) عروس الزهور، الدين والسياسة في الجزائر: انتفاضة أكتوبر 1988 نموذجاً، الدين في المجتمع العربي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 494.

(3) محمد العربي الزهري، المرجع السابق، ص 138، 139.

(4) ذكر محمد العربي الزهري أن الناس أسلموا بتأثير أن "الإجماع الإسلامي" ينظم مظاهرة كبرى بقيادة علي بلحاج. والواقع أن المظاهرة دعا إليها علي بلحاج وحده رغم

نصح شيوخ الإجماع الإسلامي له بعدم المشاركة كما سنشر.

مسيرة شعبية ضخمة تعبيراً عن إدانة النظام الذي أفلس سياسياً وإقتصادية وثقافياً وإجتماعياً. وسيكون ذلك أول موقف شعبي ينطلق من فكر، ويرفع شعارات سياسية. وكانت هذه المظاهرة هي المظاهرة الشعبية الوحيدة؛ لأن جميع المظاهرات الأخرى إنما قام بها شباب ما بين 10 و 20 سنة ومعظمهم من أطفال المدارس والثانويات<sup>(1)</sup>.

بدأت المسيرة بعد صلاة العصر من يوم الجمعة 7 أكتوبر، وكانت رهيبية من حيث الكثرة والتنظيم المحكم والإضباط الرفيع منذ الإنطلاق، بل وحتى عندما تعرضت للإستفزاز الذي أدى إلى مقتل 36 شخصاً كما جاء ذلك في البيان الرسمي<sup>(2)</sup>، ولقد أكد المنظمون للمسيرة أن أهدافهم منذ البداية كانت سلمية، وأنهم حددوا لأنفسهم مقصداً واحداً هو إشعار القيادة السياسية بخطورة الوضع الذي تجتازه البلاد. وكان يمكن لهذه المظاهرة التي إندست في صفوفها عناصر مجهولة قصد تفجيرها من الداخل قد تمكنت من التواصل في هدوء، وكانت روافدها تتكاثر عند اجتياز مختلف الأحياء حتى وصلت إلى مدخل باب الوادي وكان يمكن أن تنتهي بسلام وتحقق كل أهدافها لو لم تتدخل عناصر مجهولة إندست وسط المتظاهرين بإطلاق الرصاص من وسط المتظاهرين الذي تسبب في رد فعل عناصر الجيش الذي كان بعيداً عن السيطرة على الأعصاب اللازمة في مثل هذه الحالات. فقتل ما ذكرنا وجرحت أعداد كبيرة من الشباب الوطني المخلص. ونشير هنا إلى أن إراقة الدماء وما تبع ذلك من عنف لم يفقد منظمي المسيرة صوابهم. بل إنهم تمكنوا بكل شجاعة من التغلب على الذعر والفوضى وجنبوا البلاد كارثة كان يمكن أن تكون هي بداية الحرب الأهلية التي كان أعداء الجزائر يبذلون كل ما في وسعهم لإشعالها<sup>(3)</sup> وهنا نتساءل: من هم أولئك المندسون<sup>(4)</sup>؟.

وقبل مواصلة حديثنا نعلق على هذه المشاركة فنرى بأن أحداث أكتوبر لم يشارك فيها الإتجاه الوطني<sup>(5)</sup>، وقد مزق بعد أحداث أكتوبر شر ممزق. ولم يشارك فيها الإتجاه الإسلامي بإستثناء علي بلحاج. ومشاركة علي بلحاج لم تكن في اليوم الأول، بل يوم الجمعة 8 أكتوبر. ومشاركته في نظرنا كانت خطأ فادحاً يدل على ضيق الأفق والتهور وإندام البعد الإستراتيجي؛ لأنه كيف يدعوا الناس للمشاركة في مظاهرات وأحداث لا هو دعا إليها ولا خطط لها، مما يجعله لا يتحكم في نتائجها ولا يستفيد منها. وهو ما أتركه جميع الدعاة الآخرين وعلى رأسهم العلامة أحمد سحنون الذين رفضوا المقامرة وإقحام الشعب في فتنة وفوضى لا يعلم مداها إلا الله. وهو ما بينه تطور الأحداث. وقد نصح

(1) وهنا نسأل: كيف يمكن تفسير عدم إنضمام الرافدين للمظاهرات الأطفال والراشدين؟ هل هؤلاء أقل وعياً من الأطفال؟ وإذا كان ذلك كذلك، فمن أين جاء ذلك

الوحي للأطفال؟ (محمد العربي الزبوي، المرجع السابق، ص 135).

(2) ولكن الناس يعتقدون عند الفشل في هذه المسيرة أنك من هنا بكم.

(3) محمد العربي الزبوي، المرجع السابق، ص 134، 139-141، 145، 146.

(4) وبذكر بعض الظن أنه ضبط في أحداث أكتوبر بعض اليهود المندسين.

(5) لميزنا هنا بين الإتجاه الوطني والإسلامي على أسس سياسي لا حضاري.

أولئك الدعاة على بلحاج بعدم الزج بالناس في أحداث مجهولة المخططين والأهداف، وتقوم على التدمير. وهو ما أقر به علي بلحاج نفسه في شريط جمعة آنذاك، ومما قاله "شاورناهم وخالفناهم والإختلاف لا يذهب للمود قضية"<sup>(1)</sup>

وهكذا لم يأخذ بنصائحهم فنتج عن ذلك مجزرة هائلة ذهب ضحيتها 36 حسب البيان الرسمي وأكثر من 50 قتيلا حسب شهادات المواطنين.

ولنعد إلى مسلسل الأحداث فنذكر أن ابتداء من يوم الجمعة هذا 7 أكتوبر تدخل الإعلام الفرنسي بخيله ورجاله، صحافة وإذاعة وتلفزيونا بحماس لا نظير له، مبينا أن ما يقع إنما هو إنتفاضة شعبية يختلفون الأبناء والأكاذيب مزفين بشري إنقلاب في الجزائر، وقد صوبوا جام غضبهم على جبهة التحرير والجيش. ومن الأكاذيب التي نشرتها صحافتهم وبتتها القناة الخامسة التلفزيونية قتل العميد عطايية قائد الناحية العسكرية الأولى من قبل نقيب رفض تنفيذ الأوامر بإطلاق النار على المتظاهرين، وفرار محمد الشريف مساعدي إلى خارج الوطن<sup>(2)</sup>.

وفي يوم السبت 8 أكتوبر رغم إلتحاق الموظفين والعمال بمناصب شغلهم إلا أن المظاهرات تجددت وسقط ضحايا جدد، وأعلن في نهاية الأمر أن رئيس الجمهورية سيوجه خطاباته إلى الأمة عشية الإثنين 10 أكتوبر، وتسربت إشاعة تفيد أن الرئيس سيعلن إنسحابه.

وفي يوم الأحد 9 أكتوبر تأسست مجموعة من اللجان مكونة من المثقفين والمجاهدين تهدف لمحاربة القمع ومساعدة ضحايا المقتولين والمعطلين، وتحركت رابطة الدفاع عن حقوق الإنسان<sup>(3)</sup> لإحتواء الحركات الجديدة، بتسيق كلي مع مصالح الأمن والرئاسة. وإخفاء اللعبة أطلق سراح عدد من المسجونين ونشرت بيانات رسمية منددة بالأعمال اللاقانونية داعية إلى إتخاذ الإجراءات الصارمة ضد مرتكبيها على جميع الأصعدة وفي سائر المستويات، وفي هذا اليوم نفسه (الأحد) شهدت مختلف المدن الجزائرية دون العاصمة مظاهرات مضادة نظمها الحزب شارك فيها مئات الآلاف. ولكن الرئاسة أصدرت تعليماتها لوسائل الإعلام كي تؤكد على طابعها العفوي، ولما بينت الصور التلفزيونية المنقولة مباشرة من سائر أنحاء الوطن أن الحزب هو المنظم لكل هذه المسيرات أصدرت الرئاسة أمرا بالتوقف عن نشر تلك الصور الخاصة بتلك المظاهرات، والسبب واضح هو أن تلك المظاهرات تدعيم للحزب وهو ما يتعارض مع مخططات المؤامرة الكبرى<sup>(4)</sup>.

وفي مساء الإثنين ألقى رئيس الجمهورية خطابا حول مفهومه للأحداث، ووجه نداءه لملازمة الهدوء. واعد أنه سيشرع قريبا في إجراء مجموعة من الإصلاحات التي ستكون متضمنة لمطالب

(1) وقد سمعنا هذا من الشريط مباشرة في ذلك الفترة، ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى عروس الزهور، المرجع السابق ص 502.

(2) محمد العربي الزبوي، المرجع السابق، ص 141، 142.

(3) يذكر محمد العربي الزبوي أن هذه الرابطة أسسها النظام سنة 1987 لهدفين أحدهما الحد من نشاط منظمة علي يحي عبد النور للتحرف ما عاليا من قبل الرابطة الدولية

لحقوق الإنسان، وثانيهما إرضاء الغرب، الذي يريد لها يرى العالم حلي شاكته (المرجع السابق، ص 146، 147).

المتظاهرين. ولقد كان خطابا الرئيس الشاذلي بلسما وضع حدا لتلك الفوضى<sup>(1)</sup> التي أدت إلى إنتهاك لحقوق الإنسان وخسائر بلغت 159 قتيلا حسب الإحصاءات الرسمية ، وأكثر من 500 قتيلا حسب غيرها، أما المدن التي شملتها الأحداث فقد بلغت 10 مدن سوى الجزائر العاصمة<sup>(2)</sup>، منها وهران وسيدي بلعباس والبليدة وعنابة<sup>(3)</sup> .

هذا ملخص محتوى الأحداث، ومنه ننتقل إلى:

### ملاحظات وتساؤلات عن أحداث أكتوبر:

خلفنا أسبوع الإجهاض خسائر مادية من الصعب جدا حصر قيمتها الحقيقية، وحصدمات الأرواح البرينة التي لا يدري كثير من أصحابها كيف داهمهم الموت ولماذا؟ وخسائر معنوية تتمثل في إصابة سمعة الثورة في الداخل والخارج، وكان أكبر الملوث لهذه السمعة والمستفيد منها فرنسا وإعلامها.

ماسر عدم تدخل الجيش في الوقت المناسب؟ وهل كان تدخله هو الحل الوحيد، لقد ذكرنا قبلا أن الأحداث بدأت بباب الوادي يوم الثلاثاء 4 أكتوبر، ولكن حالة الحصار لم تعلن إلا في منتصف نهار الخميس 6 أكتوبر، ومع ذلك فإن التدخل تم بعد 6 ساعات كاملة من إعلان حالة الحصار. فلماذا كل هذا التأخر والعاصمة وضواحيها تحترق وتتهب وتدمر على مرأى من الجيش والرئاسة؟ فهل هذا ناتج عن إختلاف وسط القيادة السياسية كما أشيع؟ وهل كان تدخل الجيش هو الحل؟ يرى المحللون أنه كان يمكن جدا حل الأزمة دون تدخل الجيش، وذكروا عدة حلول منها :

أن يخطب رئيس الجمهورية في اليوم الأول من بداية الأحداث، ويعلن عن إتخاذ إجراءات حاسمة كحل الحكومة، والوعد بمعاوية الذين تسببوا في حالة التذمر التي آل إليها الوضع. كما كان يجب استعمال وسائل تفريق المتظاهرين السلمية قبل البدء في استعمال الرصاص كإنابيب المياه والرصاص المطاطي<sup>(4)</sup> وهلم جرا. ونحن نعتقد أن الرئيس الذي لا نشك في وطنيته وإخلاصه لم يلجأ إلى هذه الحلول لسببين.

أ- تورط أناس في هرم السلطة في الأحداث تخطيطا وتسييرا لا يريدون إيقاف الأحداث؛ لأن وقفها لا يحقق أهدافهم التي رسموها بدقة، ومن هنا فلا بد من تعفن الوضع أكثر وإشاعة التخريب والدمار ثم تدخل الجيش بقوة ليظهروا للعالم أن ما حدث إنتفاضة، وليكروهوا الجزائري في جيشه. بعبارة أخرى، رأوا: بأنه لا بد من هزة قوية جدا ليقع النكوص عن مبادئ الثورة ومطامح

(1) المرجع نفسه، ص141، 142، 146، 147، 148.

(2) عروس الزبون، المرجع السابق، ص494.

(3) محمد العربي الزبوي، المرجع السابق، ص146.

(4) المرجع نفسه، ص149.

الجماهير، وجعل هذه الجماهير التعيسة هي أداة تحطيم ذاتها ومستقبلها، وهذا هو الذي حصل بالفعل، فقد وقعت بعد أكتوبر ردة لا مثيل لها عن كل ما هو جميل.

ب- نشوب صراع حاد داخل هرم السلطة حول كيفية التحكم في الوضع والإجراءات اللازمة إتخاذها، ولما لم تحسم هذه القضية في الهرم ظل التدمير؛ لأنه لم يستطع الرئيس أن يتخذ أي قرار بسبب صراع مراكز القوى<sup>(1)</sup>.

التخريب والتدمير والحرق مس ما يهم المواطن البسيط كأسواق الفلاح والأروقة وحافلات النقل والبلديات إلخ، ولكنه لم يمس ما كان يبث السموم في شرايين الأمة وينشر الخلاعة ويحطم القيم وسائر أنواع الشرف، كالتلفزيون والإذاعة ودور السينما. كما أن معظم المحرضين على النهب والتخريب كانوا من السكارى والمنافقين وخريجي السجون مما يجعل أهدافها ليس كما زعم الذين في قلوبهم مرض أو الحمقى والمغفلون من أنها إنتفاضة ضد مصادر الظلم والإستبداد والتعسف؛ لأن كل ما دمر لا يتضرر منه إلا المواطن البسيط<sup>(2)</sup>. وهنا نتساءل: ما هي الأهداف الحقيقية لأحداث أكتوبر؟ وجوابنا: تدمير عناصر الشخصية الوطنية: الإسلام والعروبة والوطن الجزائري بالتمزيق والإقليمية كما سنبيين.

وبمناسبة ذكرنا للمحرضين فقد ذكرت الصحافة العربية أنه كان هناك منظمين لكنهم كانوا يتحركون بحذر كبير، ثم لا يلبث الواحد منهم أن يختفي ليظهر بعد ساعات ليوجه المتظاهرين ويوزع عليهم الأوامر والتعليمات<sup>(3)</sup>. وقد علق محمد العربي الزبيري على هذا قائلاً: " هذا الخبر صحيح فسي اساسه، لكنه لا يمكن أن يكون دليلاً على وجود قوات سياسية وراء العملية، لكنه يدعم أقوالنا التي مفادها أن المؤامرة مدبرة بواسطة عناصر مسؤولة في بعض أجهزة السلطة"<sup>(4)</sup>.

رغم ما وقع في أحداث أكتوبر من تدمير إلا أن الذين ألقى عليهم القبض متلبسين بالجريمة لم يعرضوا على محاكم ابتدائية أو خاصة للنظر في أمرهم. بل أطلق سراحهم. فهل سبب ذلك: إعتبار ما ارتكبه ليس جرائم أم أنهم كانوا يعملون لحساب جهات معينة هي التي تدخلت لإطلاق سراحهم دون محاكمة بل وكأنهم أبطال رجعوا من المعركة منتصرين. بل سخرت كل وسائل الإعلام لتصويرهم وإستجوابهم وهم يتخطون أبواب السجون. ولقد قال بعضهم: انهم أدوا مهمتهم وحققوا للشعب الحرية والديمقراطية؟.

ويلاحظ أن كل من أطلق سراحهم في إطار خرق القانون بإسم حقوق الإنسان لم يكن من بينهم متقف أو سياسي معروف، وهو ما يدعو مرة أخرى إلى التساؤل عن أصل الجهات التي نظمت

(1) وهذا يذكرنا ببيع بيكين حيث أوشك أن يقع للصين ما وقع للجزائر، ولكن الخناج الأصلي في الصين قلب على الجراح العميل فتدخل الجيش لصالح الوطن وأنتقد البلاد.

(2) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 138، 139.

(3) ويذكر بعض الثقات أنه ضبط في أحداث أكتوبر بعد اليهود محرضين.

(4) محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص 135.

الأحداث؟ ولا سيما أن العنق الذي صدر لم يشمل جماعة مصطفى بويعلی الذين لا يزالون حتى اليوم (1990) في سجن البرواقية<sup>(1)</sup>.

من بين الشعارات التي رفعت في أحداث أكتوبر شعار "الجزائر جزائرية" ولقد ذكرنا قبلا ان النظام الإستعماري كان طارحا شعار "الجزائر فرنسية" فواجهه الجزائريون بشعار "الجزائر عربية مسلمة"<sup>(2)</sup> أي :

شعب الجزائر مسلم \* وإلى العروبة ينتسب

ولقد بينا قبلا أثناء حديثنا عن أزمة حزب الشعب في الأربعينيات أن شعار "الجزائر جزائرية" رفعه دعاة الحركة البربرية آنذاك في مقابل شعار "الجزائر عربية إسلامية" الذي كان يتنصاه جمعية العلماء وحزب الشعب. ومن هنا ندرك خيطا بين أحداث أكتوبر وأحداث تيزي وزو الأولى 1980 وأحداث 1949م.

أسبوع الإجهاض أعد له ليكون فاصلا بين عهد الثورة والمجد والبناء والتشييد. والعهد الجديد الذي هو عهد التيه والإنيطاح والنوضى والإضطراب<sup>(3)</sup>.

#### أسبابها وأهدافها

إنه لمن الأهمية بمكان البحث عن الأسباب الحقيقية لأحداث أكتوبر. ذلك أن المشاع أن الأسباب الاقتصادية هي التي حركت ذلك الشباب الهائج لإحداث ذلك التدمير، ويبررون ذلك بفقدان المواد الاستهلاكية الأساسية من السوق ولا سيما الدقيق وما يتبعه، وانتشار ظاهرة السوق السوداء، وهلم جرا، ولكن الإحصائيات تثبت أن الجزائر أنتجت سنة 1988م 30 مليون قنطار من القمح و 10 ملايين قنطارا من الشعير وإستوردت 12 مليون قنطار من الدقيق. فإذن لا مجاعة. وهنا نطرح السؤال الموضوعي الذي لم نجد له جوابا، هو : ماهي أسباب إختفاء الدقيق؟<sup>(4)</sup> ولو كانت الأسباب الاقتصادية هي الدافع الحقيقي لتلك الأحداث، فلماذا لم تتكرر تلك الأحداث رغم أن اليأس الاقتصادي إزداد سوءا وتجاوز ما كان عليه قبلا بكثير؟. وهنا، فإنه في نظرنا لكي نعرف أسباب هذه الأحداث لابد أن ننظر إلى نتائجها التي تعد هي أهدافها. وبعبارة أخرى فإنه عندما توجد ظاهرة ما لا نعرف من أنشأها ننظر إلى المستفيد منها، ونعرفه من خلال نتائجها، ونربط تلك النتائج بتصوره الإيديولوجي

(1) المرجع نفسه، ص 127، 128.

(2) م. دين، 13 أكتوبر... البلور والأشواك، جريدة المساء، 26 ديسمبر 1991، ع 1938، الحلقة 6، ص 4.

(3) محمد العربي الزوي، المرجع السابق، ص 137.

(4) المرجع نفسه، ص 33-36.

والسلوكي، ثم ننظر إلى محتوى الأحداث ونفحص العلاقة بين طبيعته وطبيعتها. فإن وجدنا تلازما بين الطبيعتين نيقنا بأنه هو. وإلا فلا.

وعندما نفحص ما حدث بعد أكتوبر نجد أنه وقعت عملية خلط كبيرة " وصلت إلى حد التشكيك في الثوابت وإفترال التناقضات والعمل المريب لكي توضع مرحلة النضال الوطني بشقيها السياسي والعسكري بين قوسين، ولعل أوضح الامثلة على هذا، كان الإصرار على تقديم المشاعر الدينية كتنقيض للروح القومية، وعلى تصوير الممارسة الديمقراطية كتناقض مع الشريعة الإسلامية. وهذا كله بهدف لم يكن واضحا بما فيه الكفاية في بداية الأمر، وهو تقديم التيار الثوري الوطني بكل ما يحتويه بشريا وما يعنيه سياسيا واقتصاديا كتنقيض للتيار الإسلامي بكل ما يجسده تاريخيا وحضاريا وإجتماعيا. والواقع أن كل تاريخ المقاومة الوطنية من الأمير عبد القادر، إلى ثورة بوعامة إلى ما بعدها هي تجسيد للشعار " الإسلام دين و دولة" وفي كل مراحل الإستعمار الفرنسي كانت اللغة الوطنية والدين الإسلامي هدفا ثابتا لتخريب إستعماري"<sup>(1)</sup> وهذا يدعونا إلى الحديث عن نتائجها.

### نتائج أحداث أكتوبر 1988

لقد تمخضت أحداث أكتوبر عن نتائج خطيرة تبين لنا هوية الذين أحدثوها، أهمها ما يأتي:

#### تحطيم حزب جبهة التحرير الوطني :

لقد ورد في بيان رئاسة الجمهورية خلال أحداث أكتوبر: تحييد حزب جبهة التحرير الوطني والجيش الوطني الشعبي. فكان هذا إنقلابا عبر عن فصل واضح بين أيديولوجية قائمة وأخرى لاحقة، فاعتبرت فئة حزب فرنسا<sup>(2)</sup> أن هذا البيان يمكن إستخدامه للقضاء على مكتسبات الثورة والإنتقام من جبهة التحرير الوطني التي ظهرت البلاد من الإستعمار الفرنسي، وذلك خدمة لفرنسا التي لا يمكنها ان تتسى الثورة الجزائرية مما يجعلها في حرب مستمرة ضد جبهة التحرير. وكان هذا الحزب أول خاسر بعد أحداث أكتوبر، وهو حزب رغم ظروفه. فإنه كان رمزا للوحدة الوطنية وللتاريخ الجزائري الناصع البياض. فهو الذي قاد الشعب الجزائري لإخراج فرنسا من البلاد وقد تمكن من ذلك.

ومن هنا فإن تحطيمه يعد حلما فرنسيا وهدفا إستعماريا، وقد مزق بعد أحداث أكتوبر شر ممزق وأصبح حزبا من الأحزاب المغضوب عليها إلى حد وصول ملفه إلى درج رئيس المجلس الأعلى للدولة محمد بوضياف، هذا الرئيس الذي أعلن أثناء ركوبه الطائرة التي نقلته من المغرب إلى الجزائر التي فرض عليها رئيسا : أن حزب جبهة التحرير الوطني يجب أن يدخل المتحف، فهو إنتهى سنة 1962م. وهكذا فإنه كان من أولى نتائج أحداث أكتوبر تحطيم حزب جبهة التحرير الوطني الذي كان تحطيمه حلما فرنسيا، فلم يحققه رصاص فرنسا ولكن عملاءها حققوه بعد خروجها.

(1) م. دهن، 5 أكتوبر.... الدور والأشواك، جريدة المساء، 30 دسمبر 1991، ع 1941. المجلد 7، ص4.

(2) المفرد بحزب فرنسا هم القند التي كوناها وحول عندما وصل للتحكم مباشرة لقومية الثورة وإجهاضها (محمد العربي الزبوي، المرجع السابق، ص164).

## ظهور التعددية الحزبية :

إذا كان من نتائج أحداث أكتوبر تحطيم حزب جبهة التحرير الوطني؛ فإنه من نتائجها ظهور التعددية الحزبية<sup>(1)</sup>، وهي في تصورنا لا لصالح الوطن ولا لصالح دعاة النهضة الحضارية المعاصرة، وذلك لأنها بالكيفية التي ظهرت بها تدخل ضمن تمزيق النخبة، وتمزيق الوطن، وتحطيم الإسلام. وقد نبئت هذه الأحزاب بعد أحداث أكتوبر كما ينبت البقل، وكثير منها من صنع فرنسا، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار إلى العنصريين. ويكفي أن نعرف أن خمسة أحزاب كاملة أيدت في اجتماع دار الثقافة بتيزي وزو سنة 1989 إنسلاخ البربر حضاريا عن العرب والإسلام.

وعلى ذكر الأحزاب البربرية وجمعياتها الثقافية فإنها بنت فرنسا كما بينا أثناء حديثنا عن نشأة الحركة البربرية، وهي تهدف أساسا إلى تكوين دولة مسيحية في بلاد القبائل وذلك تطبيقا لخطة لتصير عالمية تقوم على زرع دويلات دينية لا إسلامية في العالم الإسلامي وذلك تمهيدا للقضاء عليه نهائيا. كما تقوم هذه الخطة على إيصال هذا النوع من الأشخاص إلى قيادات الدول الإسلامية لتحقيق المشروع الاستعماري التصيري، ومن الأمثلة على هذا:

الكيان الصهيوني في فلسطين، حركة جون غرنق في جنوب السودان، كما تقوم هذه الخطة على حكم الأكثرية المسلمة بالأقلية النصرانية أو اللاتينية، ومن الأمثلة على هذا إيرتيريا، شعبها أغلبه مسلم ورئيس دولتها ووزارتها الأساسية كالتربية والخارجية وغيرها نصارى، وكذا اثيوبيا وأوغاندا وغيرها.

وهكذا فإن الغرض الظاهر من هذه التعددية التي أغلبها علماني بربري تمزيق الوطن وتحطيم الوحدة الوطنية والعروبة والإسلام، إلى حد أن وجدنا أن بعض هذه الأحزاب ظهرت تدافع عن الزانيات في مظاهرات 8 مارس 1989م.

وإذا كان هذا حال الأحزاب فإن كثيرا من الجمعيات رجالية ونسائية ظهرت لنفس الغرض، وكثير من الجمعيات النسائية التي نبئت بعد أحداث أكتوبر أصبحت تحارب الإسلام والعروبة جهارا نهارا.

## - تحطيم الاتجاه الاشتراكي<sup>(2)</sup> وظهور الرأسمالية المتوشحة:

لقد وقع التراجع بعد أحداث أكتوبر عن الاتجاه الاشتراكي الذي كان مقرا من قبل عمليا وفي مختلف المواقف والدساتير، ووقع التراجع كليا عن مبادئ الثورة التي من ضمنها مساعدة حركات التحرر والنضال ضد الإمبريالية، وكانت زاوية الإنحراف 180 ° فاصبح عدوان أمريكا على المستضعفين مثلا أعلى للنظام الجزائري إلى حد إشادة الجزائر بضرب أمريكا للسودان، وبذلك تخلى

(1) حمد لله وكفى، الترنكونية، ص 173.

(2) حمد لله وكفى، المرجع السابق، ص 185.



النظام الجزائري مثل الأنظمة العربية الأخرى على جميع تقاليد الجزائر التاريخية العريقة، كل هذا بفضل أكتوبر 1988 ليرتمي في أحضان الرأسمالية، وفتح الباب أمام الخصومة الأخلاقية التي أصبحت تستورد وتصنع المواد الفاسدة التي تقتل الكثير من المواطنين الذين كانت ثورة نوفمبر قد أحييتهم، ومن الأمثلة على هذا قضية (الكاشير) المصنوع من مواد فاسدة فآدى إلى وفاة 20 شخصا وإصابة 220 آخرين بمرض البوليتميزم<sup>(1)</sup> وذلك في صيف 1998، والأمثلة كثيرة، وأصبحت الجزائر سوقا لكل البضائع الرديئة المصنوعة في أسوأ الدول في العالم وأقلها تقدما، كل هذا بهدف الربح السريع الناتج عن سيطرة النزعة المادية وهبوط القيم<sup>(2)</sup> وهكذا استسلمت الجزائر لكامب ديفيد وتكسرت لإلتزاماتها مع حركات التحرر ومناهضة الإمبريالية والإستعمار ومحاربة الرأسمالية والإستبداد والتميز العنصري<sup>(3)</sup>.

#### - إلغاء مشروع الوحدة مع ليبيا :

لقد تبخرت آمال الوحدة بين الجزائر وليبيا، وإختفى مشروع الدستور الوحدوي الذي أنزلته الثورتان إلى الجماهير الشعبية للمناقشة والإثراء بتاريخ 20 سبتمبر 1988م، والذي كان من المفروض أن يقود إلى تكوين نواة صلبة تتشكل حولها وحدة المغرب العربي كخطوة أساسية في طريق الوحدة العربية الشاملة<sup>(4)</sup>، ولو نفذ المشروع لكان النجاح حليفه. وذلك لأنه لأول مرة تقرر الوحدة بين ليبيا ودولة أخرى ليس على مستوى الحكومات فحسب، بل على أساس إستفتاء شعبي مما يعني أن القاعدة كان سيكون لها كلمتها، وكان المشروع سيفيد الدولتين ماديا وحضاريا مما يؤثر إيجابا في حل الأزمة الاقتصادية في الجزائر بسبب إنخفاض أسعار النفط. كما يؤثر إيجابا من الناحية الحضارية لأنه يعني إتجاه الجزائر إلى المشرق، أي إلى إمتدادها الطبيعي وغذائها الروحي بدل الإتجاه إلى شمال المتوسط، أي إلى العدو الطبيعي للجزائر، ولقد ذكرنا قبلا حرس فرنسا على عدم إتمام هذا المشروع، وبينا مساعيها لإيقافه. ومن هنا فإن المستفيد الأول من إغائه هو فرنسا، وبهذا يظهر الهدف الصليبي من إغائه، ولاسيما أن الأمر لم يقتصر على هذا فحسب، بل تجاوزه إلى الدعوة إلى الإرتباط بما يسمى حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط التي سنتحدث عنها في حينها، وفي المقابل أخذ دعاة "الجزائر جزائرية" يكرسونه وهدفهم تخريب الهوية الجزائرية من الداخل، وإبعاد الجزائر عن مجالها الطبيعي كجزء من الوطن العربي ومن الأمة الإسلامية وعزلها عن محيطها

(1) وقد حكمت محكمة الجنابات بسطيف على صاحب مصنع (الكاشير) بالإعدام لاستعماله مواد فاسدة في صنعه لاد لل ما ذكرنا (الفلظيون الجزائري، نشرة الأخبار ،

الطبعة 30 أكتوبر 1999 ، الساعة 8 مساء).

(2) عهد لظ الركبي، التكنولوجيا، ص174.

(3) محمد العربي الزويوي، المرجع السابق، ص188، 189.

(4) المرجع نفسه، ص188.

جامعة الأمير  
عبد القادر للعالم الإسلامي

مثل FFS و RCD والذي خلاصته اليوم التعددية الثقافية واللغوية، ووصل الأمر إلى تجميد قانون اللغة العربية، وهو ما سنشير إليه اثناء حديثنا عن مكاسب الحركة البربرية بعد أحداث أكتوبر.

### - إزدهار الكنيسة:

لقد ازدهرت الكنيسة إزدهارا لم يسبق له مثيل بعد الإستقلال وأصبحت تدعم من RCD وغيره وتقيم الحركة البربرية معارض الإنجيل كالمعرض الذي أقامته بدار الشباب في إحدى بلديات ولاية تيزي وزو، قدمت فيه للزائرين نسخا مجانية من الإنجيل، وتقوم القناة الثالثة بنقل مباشر للقداس الديني من إحدى كنائس العاصمة بمناسبة رأس السنة<sup>(1)</sup>، ويصرح أقطاب الحركة البربرية بفضل رجال التبشير عليهم، وأصبحت الكنيسة تنصر المسلمين وتعمل بنشاط دون رقيب أو عتيد.

### - تحقيق العهد الذهبي للفرنكفونية والبربرية:

لقد كشر الفرنكفونيون والبربريون عن أنيابهم وحققوا ما لم يكونوا يحلمون به صحافة ومالا ونفودا إلى حد تجميدهم قانون اللغة العربية، وأصبحوا يجهرون بما كانوا عاجزين عن الجهر به أيام الثورة وبعد الإستقلال، كالجبهة وتمزيق الوطن واللائكية، ومهاجمة الإسلام والعروبة. ونلاحظ هنا ان أحداث أكتوبر أحييت ما كان ميتا من فساد، فالجبهة العنصرية واللائكية والفرنسة إنما كانت قبل الثورة، ولكن الإتجاه الثوري أزاحها من طريقه فاختلفت أثناء الثورة وبعد الإستقلال، وهاهي اليوم الموازين تنقلب، فالمسلم يسمى أصوليا، والوطني متطرفا، والمعرب بعثيا، والبربري عصرانيا. وفي هذا السياق فقد ظهرت الأحزاب البربرية إلى العلن.

والواقع أننا إذا أردنا أن نلخص كل ما أفرزته أحداث أكتوبر، قلنا بأنها : أفرزت العهد الذهبي للفرنكفونية وهيمنتها على البلاد وتحكمها في رقاب العباد، ومما ساعدها في ذلك تغير معطيات كثيرة في العالم. فأعلنت علنا تشبثها المطلق بالغرب - عامة وفرنسا خاصة - فكرا وثقافة وحضرة - لكن لا كسادة بل كعبيد - وشنوا الهجمات الشرسة على كل من يدافع عن المبادئ والثوابت، وذلك خوفا من الإتجاه الأصيل على مشروعهم التغريبي التصويري العميل<sup>(2)</sup>. ومن غرائبهم أنهم كانوا قبل أحداث أكتوبر يتهمون الإسلاميين بالعمالة لأمريكا والدول الإمبريالية عامة، وبعد أحداث أكتوبر تبين بجلاء أنهم هم عملاء الإمبريالية، ولقد أفصحوا عن عمالتهم دون خجل إلى حد أن أصبح معيار صدق القضايا ومثابقتها هو رضا أمريكا وفرنسا عنها أو تبنيها، ولما صار إتهام الإسلاميين بالعمالة لأمريكا وفرنسا غير مجدي، لأنها أصبحت في تصورهم حكرا عليهم وإمتيازاً، أخذوا يتهمون الإسلاميين

(1) الشاذلي، ز. الخطر القادم، جريدة النصر، مرجع سابق، ص 12.

(2) المرجع نفسه، ص 178، 179.

بالعمالة لإيران والسودان. وهل يمكن لدولة مثل السودان المقصودة من أطرافها أن تمول الإسلاميين في الجزائر وتوجههم؟ وهي عاجزة عن تحرير جنوبها من مشروع عربي يهدف إلى إقامة دولة نصرانية فيه؟! ولكي لا يدرك الناس أهدافهم ويفضحوا نواياهم أضافوا إلى قاموسهم العملي: " ما أريكم إلا ما أرى".

- تدمير الإتجاه الإسلامي وتمزيقه شر ممزق: وهكذا ضرب دعاة النهضة الحضارية ( جبهة التحرير والإتجاه الإسلامي).

### محرکوها

لقد بات واضحا من خلال نتائج أحداث أكتوبر محرکوها ليس بالأسماء ولكن بالإتجاه الإيديولوجي، ولقد توصلنا إلى معرفتهم من خلال معرفة الذين جنوا ثمارها، ونجد أن الخاسر الوحيد هم دعاة النهضة الحضارية، والمستفيد الأكبر فرنسا وأذناياها في الجزائر الذين إستخدمتهم في تفجير الأوضاع في أكتوبر. وهو ما يراه محمد شعبان الذي بين أن مفجري أحداث أكتوبر 1988 هو اليسار الفرنكفوني -وزيدته دعاة الحركة البربرية- وذلك أثناء حديثه عن علي بلحاج وأنصاره الذين حسب تعبيره أغلبهم من الأميين وأنصاف المتفنين فإنقدهم وابتقدهم بسبب " سار بعضهم عن جهل في خطط اليسار الفرنكفوني في أحداث 5 أكتوبر 1988"<sup>(1)</sup>.

والواقع أننا نتبنى نفس الرأي والموقف، فهي في نظرنا تطویر لأحداث تيزي وزو وإستفادة من نتائجها، ذلك ان أحداث تيزي وزو فهمت مباشرة على حقيقتها من جهوية وإحياء مقولة الجزائر فرنسية مما يجعل الممتفيد الأول منها هو فرنسا، ولقد تعرضنا قبلا إلى ما حققه كل من دعاة النهضة الحضارية والإتجاه الفرنكفوني التغريبي قبلها، والممهدات التي مهدت لها، فذكرنا ما فعله المركز الثقافي الفرنسي مع الباعة المتجولين وما فعلته فرنسا لإبطال مشروع الوحدة مع ليبيا، وما فعله إعلامها أثناء الأحداث، وما نتج بعد ذلك من فكرة رباط حضارة البحر المتوسط. أي الارتباط بفرنسا خاصة وبالإستعمار الغربي عامة بدل رابطة المشرق العربي الإسلامي وإزدهار الإتجاه الفرنكفوني بعدها إلى حد " التغول" وهيمنة فرنسا على الجزائر بعد الأحداث إلخ. أدركنا أن فرنسا هي التي فجرت هذه الأحداث بواسطة عملائها من اليسار الفرنكفوني البربري، وهذا لتحقيق مقولة الجزائر فرنسية، ليس بمقاييس رجال الجيش بل بمقاييس رجال الفكر ( أي المشروع الديغولي) لتبقى باريس كما يقول م . دين هي مركز القرار السياسي، وأن تبقى البلاد سوقا لمنتجاتها، وتلغيم المستقبل الجزائري، وضمنان هيمنة الفكر الفرنسي بعيدا عن مظاهر الإحتلال العسكري السافر. الهدف الإستراتيجي هو إبعاد الجزائر عن محيطها العربي الإسلامي كجزء من الوطن العربي والعالم

(1) محمد شعبان، رد على صلاح الدين المورشي: الإتجاه الإسلامي في الجزائر قبل وبعد 5 أكتوبر 1988. مجلة الحوار، شباط، فبراير، 1989، ع20، ص20.

الإسلامي تؤثر فيه وتتأثر به، وتحطيم تتميتها الوطنية وتحويلها تدريجيا إلى دولة تابعة بشرط أن يبدو ذلك كتعبير عن إرادة الشعب الجزائري نفسه دون تدخل خارجي يفسد اللعبة كلها<sup>(1)</sup>، وبهذا نستطيع تقرير ما ذكرناه قبلا من أن مفجر أحداث أكتوبر هو اليسار الفرنكفوني البربري بأمر من فرنسا وتوجيهها لتحقيق مقولة الجزائر فرنسية، وما هي مقارنة بسيطة بين ما فعلته فرنسا بعد الإحتلال في 1830م وما فعلته أحداث أكتوبر 1988م تبين صحة ما ذكرناه بوضوح "تحقيق مقولة الجزائر فرنسية".

### مقارنة بين ما بعد 1830 م وما بعد أكتوبر 1988م

- تدمير وتمزيق تيار النزعة الحضارية ( الإتحاد الإسلامي الوطني) تدميرا هائلا على جميع المستويات:

لقد رأينا ما فعله كلوزيل ودوروفيق وغيرهما من إبادة أثناء حديثنا عن أوضاع الجزائر، ورأينا كيف هتمت المساجد وحولت إلى كنائس وإصطبلات وما إلى ذلك، وكيف نكل بالعلماء. وهو ما وقع بطريق أخرى بعد 1988م. فلقد بلغ مئات الآلاف من الإسلاميين بين قتيل ومفقود وسجين وفار، وما هو عيد الحميد مهري ( الأمين العام لحزب جبهة التحرير الوطني سابقا) يذكر لنا ما نصه:

"فضحايا الأزمة بحسب التقديرات لا تقل عن مائة ألف، والغريب أنه لا يوجد إحصاء رسمي، أو لا يوجد إحصاء معروف لعدد الضحايا. ولنتصور عدد الأرامل والأيتام في هذه الحالة، وهناك مفقودون<sup>(2)</sup> لا نعرف مصيرهم، وهناك مهجرون خارج الوطن يعدون بمئات الآلاف، ومهجرون داخل الوطن هاربون من مناطق القتال يقدرون بمئات الآلاف، وهناك معتقلون عديدون بسبب آرائهم فقط، وهناك دمار في المنشآت القاعدية، وهناك تعطيل للإنتاج وهناك الكلفة لهذه الحرب وهي كبيرة، وقد تبلغ بحسب التقديرات حوالي 5% من الناتج القومي. كل هذه الحصيلة، وكل هذه الخسائر، التي ستبقى دينا على كاهل الأجيال المقبلة، زاد عليها في المدة الأخيرة تطورات خطيرة تمثلت في مذابح المدنيين التي بدأت في المناطق النائية ثم وصلت إلى مشارف العاصمة والوحشية التي إكتستها هذه المذابح يعرفها الجميع، لكن الخطير في الأمر أن بعض هذه المذابح يقابل بالصمت من طرف السلطة ومن وسائل الإعلام المحلية، وبعض هذه المذابح يقع قريبا جدا من مراكز الأمن وتكتات الجيش..."<sup>(3)</sup>.

وحل أكبر حزب إسلامي، وأوشك حزب جبهة التحرير الوطني أن يحل في عهد بوضياف، وأما المساجد فقد وصلت إلى حالة يرثى لها، فكثير منها هدم في مختلف الولايات، وبعضها غلق، وبعضها

(1) م. دين، أحداث أكتوبر "البلور والأشواك"، جريدة المساء، الجزائر، 23 ديسمبر 1991، ع 1935، ص 4.

(2) وقد جاء في تقرير اللجنة الألمية في زارت الجزائر في الفترة (22 جويلية - 4 أوت 1998) حسب ما قدم إليها من معلومات أنه يوجد ما بين 2000 و 20000 مفقود احتفوا في ظروف غامضة (ص. د. ملف المفقودين بين استفالة الرئيس وتقرير اللجنة الألمية هل ينحو رضا مالك؟ رسالة الأطلس، 28 ستمبر - 4 أكتوبر 1998، ص 3.

(3) عبد الحميد مهري، الأزمة الجزائرية: الواقع والأمل، للمستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، 1997/12، ع 226، ص 8.

الآخر حول إلى متاجر أو بنيت على أنقاضه مباني للقطاع الخاص<sup>(1)</sup>، وعطلت الدعوة في المساجد التي أصبحت كثير من خطب جمعها لا يختلف عن نشرات الأخبار الرسمية، وصارت المساجد تفتح قبيل الصلاة بنصف ساعة وتغلق بعد الصلاة مباشرة، كما أصبح مثلما كان عليه الحال في العهد الإستعماري لا تدريس في المساجد (إلا برخصة. هذا في الوقت الذي أعطيت فيه الحرية المطلقة لحزب فرنسا ليصول ويجول لتصل به الجراة أن يعترض على بناء مسجد في تيزي وزو ويطالب بتحويله إلى مرقص، ويعترض أيضا على بناء مركز ثقافي إسلامي<sup>(2)</sup>).

ويكفي أن نعرف بأن الجزائر رغم قيامها على التعددية إلا أنه بعد دستور 1996 منع حتى مجرد ذكر كلمة "إسلام" في اسم أي حزب، وأجبرت الأحزاب الموجودة التي كان بها اسم "إسلام" على حذفه وتغيير برنامجها بجعله مانعا لا رائحة للإسلام فيه، كل هذا في الوقت الذي هاج وماج دعاة البربرية الطائفية وحققوا لفرنسا مالم تكن تحلم به.

ومن الناحية الاقتصادية فلقد بينا قبلا أن فرنسا حولت الجزائريين من ملاك إلى خماسين، ومن أغنياء إلى فقراء، ومن مصدريين إلى مستوردين، وغيرت نظام الإستهلاك ونظام الزراعة، فاستبدلت كسروم الخمور بالحبوب، ولما استقلت الجزائر عكست كل هذا وأرجعت الأمور إلى نصابها ما استطاعت، وفي سنة 1971م عندما أممت البترول ورفضت فرنسا شراؤه وشراء الخمر الجزائري وخسرت الجزائري الخمور أكثر من 70 مليار فرنك قديم استبدلت الخمور بالحبوب والفواكه، أي أزلت قسما هائلا من تلك الكروم الخمرية وعوضتها بزراعة الفواكه والحبوب.

وبعد 1988م عادت زراعة الكروم الخمرية من جديد بدل الحبوب بإشراف الدولة ومساعدتها، ومن الناحية الاقتصادية كذلك التي قال عنها يومها (1988) المحللون بأن أسباب الأحداث البؤس الاقتصادي وأنها حدثت لإزالتها؛ فإنه حصل بعدها بؤس لم يسبق له مثيل إلا في العهد الإستعماري، وذلك بعد أن ازدهر الإقتصاد الجزائري وارتفع مستوى المعيشة خلال السبعينيات والنصف الأول من الثمانينيات، وبعد 1988م أصبح مفهوم الإصلاح الاقتصادي يعني: المزيد من المديونية والمزيد من طرد العمال، والمزيد من رفع الأسعار، وتحويل القطاع العام إلى الخواص بثمن بخس وبدون مبررات موضوعية في أغلب الظروف. فأصبح ملايين الجزائريين بلا عمل. بلا خبز. فقراء. لا يجدون ما يقتاتون به ولا ما به يعالجون وكأنه لم يمت من أبا نهم مليون ونصف ليعيش هؤلاء سعداء.

ومما يؤسف له فيما يتعلق بالساس بالإسلام وبحقوق المستضعفين أنه حتى ما بقي من أوقاف بعد الإحتلال في 1830م أخذت مأساته تتكرر هو الآخر بعد أكتوبر 1988. فأخذت الأملاك الوقفية تتعرض لمؤامرة كبيرة على المستوى الوطني، ويتضح هذا من اللائحة التي أصدرها وزير الشؤون

(1) وكانت تهر ذلك لما نصليات وليست مساجد.

(2) وسنشر لى هذا لاحقا.

الدينية في 1998 - معالي السيد غلام الله- يدعو فيها إلى وقف الإعتداءات على أملاك الأوقاف<sup>(1)</sup>، ومن الأمثلة على هذه الإعتداءات، ما أقدم عليه والي سطيف من إقتطاع جزء من أراضي مسجد أبي عبيدة عامر بن الجراح يقدر بـ 300 م<sup>2</sup> بدعوة تخصيصها لتعاونية عقارية فازت بالصفقة بفضل خرق القوانين والتحايل عليها حتى من طرف المحكمة الإدارية ذاتها<sup>(2)</sup>.

ويظهر هذا الإعتداء كذلك من الإعتراض الذي نشرته مديرية الأوقاف عن بيع قطعة أرض في مرتفعات بوزريعة، ونصه: " تبعا للإعلان الصادر بجريدة الخبر بتاريخ 18 جويلية 1998 والمتعلق ببيع قطعة أرض بمساحة 5400 م<sup>2</sup> في مرتفعات بوزريعة، فإن مديرية الأوقاف بوزارة الشؤون الدينية تعترض على كل عملية بيع تقع على هذه العقارات"<sup>(3)</sup>.

ولقد بينا قبلا العلاقة بين الفقر والتبشير وقلنا بأن الفقر أرض خصبة لنشاط المبشرين، وقد رأينا ما فعله لافيغري بمجاعة 1867م وهكذا أعاد التاريخ نفسه مع إختلاف عاملي الزمان والإنسان. ذلك أن ما تم في 1830 إنما تم بأيد فرنسية، وما يتم بعد 1988 إنما يتم بأيد جزائرية، ولكنه يدخل ضمن نفس المشروع " الجزائر فرنسية".

ومن الناحية الإجتماعية إضطرب الأمن وكثرت الموبقات من معاقرة الخمر والمخدرات التي أصبحت تستهلك جهازا من الصغار والكبار، وإنتشر الزنا، والفساد الهابط بتشجيع ومباركة من الدولة، ولقد رأينا في العلاقة بين التبشير والإستعمار أن جيش الإحتلال لم ينسى أن يأتي بالبغايا في سنة 1830 من فرنسا لتشر الرذيلة وسط المسلمين.

وهكذا تمكن التيار الإستعماري وعلى رأسه RCD والتحالف الوطني الجمهوري (رضا مالك) و(الباكس) من إضعاف التيار الوطني الإسلامي بإستخدام أخص وسائل الدولة وأجهزتها المختلفة في ضربه وتدمير الهياكل الأساسية للإقتصاد الوطني وتفقير المجتمع إلى أقصى درجات الفقر من خلال تدمير المؤسسات العمومية - والجدولة التي نفذها رضا مالك- في إطار الخوصصة وإلقاء مئات الآلاف من العمال إلى مخالب البطالة والفقر، وبيع الديون الخارجية إلى فرنسا وبناء مؤسسات ديمقراطية كاذبة معرضة للإهيار مع أول هبة ربح. وذلك بحكم كونها جاءت نتيجة إنتخابات مشكوك في نزاهتها<sup>(4)</sup>، وهذا يدعونا إلى الحديث عن مكاسب الحركة البربرية بعد أحداث أكتوبر 1988م.

(1) ومباجها: "معتبراً لما بصلنا من شكوى وما نسجله من تعديات على الأملاك الوقفية العامة والخاصة من خلال محاولات البعض من الإستيلاء عليها بأستعمال طرف أو آخر" ونص الوزير واضح هو أن الإستيلاء عليها إما هو نتيجة استغلال الظروف التي نعيشها، ونشر لئ أن هذه اللاتحة نصفت في جدران المساجد تحت عنوان "بلاغ" ولعلنا نر مساجد لسطنة يوم 25 أوت 1998، ونملك نسخة منها.

(2) رسالة الأطلس بانه 31 أوت - 6 سبتمبر 1998، ع 204 ص2.

(3) جريدة الخبر، الجزائر، الأربعاء 19 أوت 1998، ص الإشهار (ص22).

(4) ص.د. حل مشكلة لجنة لإصلاح الجزائر من قرار زروال؟ رسالة الأطلس، بانه، 12 - 18 أكتوبر 1998، ع 210، ص3.

### مكاسب الحركة البربرية بعد أحداث أكتوبر 1988م

لقد كانت الحركة البربرية المستفيد الأكبر من أحداث أكتوبر، وحققت مكاسب لم تكن تحلم بها،

من أهمها:

#### - تدريس القبائلية :

أصبحت القبائلية تدرس بعد أن كان ذلك ممنوعا، وتدرس باللغة الفرنسية، وقد بدئ بتدريسها في جامعة تيزي وزو من مطبوعات أعدت خصيصا في الأكاديمية البربرية بفرنسا. وتدريسها بالفرنسية يعني أن الطفل قبل أن يتعلم لغة الأم التي يتشددون بها- يجب أن يتعلم لغة فرنسا. أي يتعلم لغة فرنسا أولا ليتعلم بها لغة أمه القبائلية. هذا التدريس إعترفت به الدولة وأقرته، وأصبح بعد ذلك يتم إعداد المعلمين في فترات تربصية لتدريس القبائلية.

#### - إنشاء الأحزاب البربرية الرسمية :

وأهمها FFS و الباكس اللذين ظهرا إلى العلن وإعتما و RCD الذي سنفرده بحدث خاص بعد إكمالنا لأحداث أكتوبر وكذا الجمعيات الثقافية وأهمها MCB.

#### - منع وجود الأحزاب ذات التوجه العربي الإسلامي:

وذلك بعد دستور الرئيس زروال (1996م) الذي قرر منع الأحزاب ذات التوجه العربي الإسلامي من التواجد وكذا قانون الأحزاب الصادر على إثره. وقد مهد لهذا بحل أكبر حزب إسلامي وأكبر الأحزاب على الساحة الوطنية، وهو الجبهة الإسلامية للإنقاذ. وكل الجزائريين يذكرون ما شاهدوه بعد نجاح هذا الحزب في الانتخابات البلدية والولائية من المناظرة بين رئيسه عباسي منفي ورئيس RCD سعيد سعدي عندما قال سعيد سعدي لعباسي منفي : "مانخلوكمش توصلو".

وبعد الدستور الجديد اضطرت الأحزاب الإسلامية المعتمدة إلى تتقيح أسمائها لتخذف منها كلمة "إسلام" وتمييع برنامجها ليتعد عن الإسلام حتى كمرجعية. وهذا يعني أن بلد المليون ونصف المليون شهيد تنكرت لكل أولئك الشهداء، بل تنكرت لـ 14 قرنا من الإسلام والجهاد، وصار كل لقطاء الفكر من جهويين وفرنكونيين يساريين أو رأسماليين يعلنون عن أفكارهم ويدعون إليها وينشرونها بوسائل الدولة. أما المسلم فإنه مطهد في بلده لا يحق له أن يؤسس حزبا يقوم على الإسلام، فاللائكي يحق له أن يؤسس حزبا على اللائكية، والعنصري يحق له أن يؤسس حزبا على العنصرية والمسلم لا يحق له أن يؤسس حزبا يدعو إلى الفضيلة. فهل يستطيع أحد أن ينكر أن هذا هو مخطط رجال التبشير والإستعمار؟ ولقد عبر عن هذه المأساة أصدق تعبير عبد الحميد مهري<sup>(1)</sup> الذي بين

(1) برهان السائل بجهة التحرير الوطني والأمن العام للمؤتمر القومي العربي حاليا (ديسمبر 1997م).



سياسة الإقصاء والإستئصال المتبعة التي إستهدفت القوى الوطنية وجبهة التحرير الوطني بقوله : " ... وتطور هذا الإقصاء المادي إلى إقصاء فكري مقنن بحيث أصبح الدستور المعدل وقانون الأحزاب يرمي إلى تكريس هذا الإقصاء بمنع الأحزاب من تبني أي توجه عربي أو إسلامي وطلب من الأحزاب شطب كل ما يرد في أدبياتها أو في برامجها من ذكر للإسلام أو العربية، حتى أن الحركة من أجل الديمقراطية، التي هي حزب الأخ أحمد بن بلة، صدر حكم قضائي بحلها لأنها رفضت أن تحذف من قانونها الأساسي فكرة تنص على تعلقها بالقيم العربية والإسلامية. ومازال هذا الطرح مستمرا في بلد إمتحن إمتحانا قاسيا من طرف الإستعمار في عروبوته وإسلامه"<sup>(1)</sup>.

ولقد أجبر حزب " حركة النهضة الإسلامية" أن يحذف كلمة " الإسلامية" من تسمية الحزب، وأجبر حزب " حركة المجتمع الإسلامي" ( حماس) أن يحذف كلمة " الإسلامي"، كما راجع كل منهما برنامجيه فحذف منه كل ما له صلة بالعروبة والإسلام، أي ميع برنامج كل منهما الذي كان في أصله إسلاميا.

**تقوية إذاعة القبائلية:** وذلك بعد لقاء الجمعية الثقافية البربرية : MCB برئيس الحكومة السابق أحمد غزالي يوم السبت 1991/11/23م، وطلبوا منه ثلاثة أشياء جوهرية، هي :

1- تقوية إذاعة القبائلية.

2- إدخال القبائلية في المرافعات القضائية.

3- مساعدة الدولة لهم لإقامة المؤتمر الأمازيغي الثالث.

وقد وعدهم بتلبية النقطة الأولى، أما الثانية والثالثة فلم تبيين المذيعة " خديجة بن قنة" هل وافق أم رفض. وقد نشر لقاء غزالي بـ MCB بالخبر والصورة في نشرة التلفزيون الجزائري يوم السبت 1991/11/23م في الساعة 8 مساء<sup>(2)</sup>.

وإذا كانت الإذاعة القبائلية من إنشاء فرنسا، - وقد علقنا عليها أثناء حديثنا عن إنشائها - فإن تقويتها في ظل MCB بعد تكملا للمشروع الفرنسي السابق.

وأما قضية إدخال القبائلية في المرافعات القضائية، فهي سيناريو تكرر. فقد ذكرنا أثناء حديثنا عن حزب الشعب البربري في الأربعينيات أنه في تلك الفترة أوعزت فرنسا إلى عملائها في المجلس الجزائري بإقتراح أن يكون مترجم للقبائلية مثل المترجم إلى العربية. وقد بينا تعليق الشيخ الإبراهيمي على هذا الأمر. وها هو السيناريو يعاد طرحه من جديد في سنة 1991م، والغرض هو هو. وهذا يعني إستمرار القضية في سياق الطرح الفرنسي لها، لنفس الأهداف. والواقع أن هذه القضية من أخطر ما يكون، فهي إضافة إلى أغراضها التتصيرية والإستعمارية، فإنها ستفرض إجباريا على القضاة. وإذا كان المدعي أو المدعى عليه أو كلاهما قبايليا فإنه يتحتم على القاضي أن يحضر مترجما بين القبائلية

(1) عبد الحميد مهري، الأزمة الجزائرية : الواقع والأوان، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ديسمبر 1997م، ص 226، ص 7.

(2) قوله ربيها فذلك بالأساس.

والعربية. وهذه القضية من الخطورة بمكان، ومن أوضح ما تعنيه أن الناطق بالقبائلية والناطق بالعربية لا ينتميان إلى وطن واحد، بل إلى دولتين، لأن طبيعة الترجمة لا تكون بين المواطنين الذين يسكنون في بلدة واحدة ويصلون إلى قبلة واحدة، ويسمون بأسماء واحدة، ويتزوجون بأختين ولكن أحد هؤلاء المواطنين يعرف القبائلية والآخر مجهلها وكلاهما يعرف العربية، وتتساءل: هل الذي يستزوج بقبائلية يجب أن يحضر لها مترجما أثناء الغشيان ليترجم لها ما يدور عادة بين الزوجين من عبارات جميلة أثناءه أم أننا نمنع زواج القبائلية بالعربي والعربية بالقبائلي؟ وهذا ما لم يفعله أجداننا؟ وهل يشتكى أحد من المواطنين إلى MCB؟ أبداً. ولكنها تسير بوحى فرنسا. إن هذه القضية إن هي إلا تمهيد لتزعة الانفصال التي سنشير إليها أثناء حديثنا عن أحداث تيزي وزو الثانية.

### نشرة التلفزيون بالقبائلية :

قررت الحكومة الجزائرية برئاسة سيد أحمد غزالي يوم 15 ديسمبر 1991م إنشاء ثلاث نشرات إخبارية يوميا باللجة القبائلية عبر شاشة التلفزة الوطنية، وقد نشرت أجهزة الإعلام بما فيها التلفزة في هذا اليوم (15 ديسمبر 1991) هذا القرار الخطير تحت عنوان " الأمازيغية" مع العلم أنه لا توجد لغة إسمها الأمازيغية ونعني بها لغة مشتركة بين كل الناطقين بالبربرية، وإنما المتداول في سوق ما يسمى ( الأمازيغية) هو اللجة القبائلية المشوهة من الأكاديمية البربرية في باريس، فيها أي قبائلية الأكاديمية البربرية المكتوبة بالفرنسية تصدر الصحف وتبث برامج وأغاني عبر التلفزة، وبها تعمل الإذاعة القبائلية، ومن أجلها نشأت أحزاب مشكوك في وطنيتها، لكن الغريب أن كل ذلك يتم تحت غطاء " الأمازيغية" التي لا وجود لها كلغة مركزية تجمع بين سائر الناطقين بالبربرية بل نجد أن القبائل أنفسهم لا يفهمون هذه اللغة المزعومة، ولا أدل على صحة رأينا من أنه صدرت بها صحف بالإسم FFS و RCD ثم توقف صدورهما، بسبب مقاطعة القبائل أنفسهم لها، لعدم فهم ما يكتب بها - ولقناعتهم تفاهته ونفاهته العمالية كلها - حيث إكتشف القبائل أن هذه ليست لغتهم فقاطعوها، كما قاطعوا المدارس التي تعلمها في ولايتي بجاية وتيزي وزو بأموال المبشرين<sup>(1)</sup>.

ورغم هذا فإن نشرات الأخبار التلفزيونية بالقبائلية دخلت حيز التنفيذ ابتداء من يوم الثلاثاء 24 ديسمبر 1991م، أي بعد 8 أيام فقط من قرار رئيس الحكومة سيد أحمد غزالي السابق ذكره بهذا الشأن.

### ردود الفعل حول هذا القرار :

أثار هذا القرار الخطير ردود فعل عديدة في مراتب الشاوية الذين لم يهضموا هذا القرار وإفراد القبائلية بالمواعيز دون غيرها من اللهجات البربرية الأخرى.

(1) مقال سمدي، رسالة إلى رئيس الحكومة : مولف الشاوية من فرار النشرة الإخبارية بالقبائلية جريدة النصر 22 ديسمبر 1991، ع 5625

وقد قام مراسلوا جريدة النصر باستجواب كثير من المواطنين في مراحع الشاوية، فوجدوا إجماعا على إستتكار إحداه نشرات القبائلية في التلفزيون وإعتبروا أن ذلك يهدف إلى تقسيم الوطن، وضرب الوحدة الوطنية إلى آخر ما سنشير إليه بإيجاز. ونشر إلى بعض هذه المواقف في مختلف مناطق الشاوية لتظهر لنا أصالتهم وإدراكهم لهويتهم من جهة ومخططات فرنسا من جهة أخرى، ومن تلك المواقف:

- موقف عثمان سعدي - الشاوي - رئيس جمعية الدفاع عن اللغة العربية سابقا الذي ألقى محاضرة في تبسة عنواها " موقف الشاوية من موجز الأمازيغية" أشار فيها إلى إمتعاض الشاوية من قرار رئيس الحكومة الذي دعاه عثمان سعدي في بيان بإسم الشاوية إلى العدول عن قراره أو إدراج اللهجة الشاوية في التلفزيون بإعتبارها أصل اللهجات الأمازيغية<sup>(1)</sup>.

وإذا كان مواطنوا تبسة قد إستتقروا قرار رئيس الحكومة السابق فإن أم البواقي إستتكرت كلها كذلك مضمون وهدف قراره حيث صرح عدد من المواطنين لممثّل جريدة " النصر" أنهم غير راضين، ويفهمون جيدا أن أبعاد هذا القرار الذي يهدف حسب بعض الذين تم إستجوابهم إلى ضرب وحدة البلاد وإستقرارها السياسي، وقد عبر بعض هؤلاء المستجوبين أنه لم يفهم من مواجيز النشرة القبائلية سوى بعض أسماء ورموز البلاد. ثم بأي حق يعطي الإمتياز لأقلية محدودة من السكان، وتتاسى أكثرية الشاوية الذين إمتزجت دماؤهم بالعروبة والإسلام، وإعتبر البعض أن ذلك مؤامرة خبيثة يدبرها عملاء ومقاولو مشروع الأكاديمية البربرية بفرنسا التي جندت موظفين وخدام لضرب الثقافة العربية الإسلامية في هذه الربوع المقدسة، وتعجب نفس المواطن من قرار سخيف كهذا هدفه التطاول على مقدسات الأمة وثوابتها الوطنية بهدف تأخير الجزائر حضاريا وتكنولوجيا، وإستغرب بشدة لتلك المؤامرة المحاكمة ضد قانون تعميم إستعمال اللغة العربية ودور عملاء الأكاديمية الفرنسية وكذا الطابور الخامس في ذلك.

- وتساءل مواطن آخر : بأي حق تستفيد أقلية في هذا الظرف بالذات بهذا الإمتياز التقسيمي؟<sup>(2)</sup>.

- أما خنشلة الشاوية الأصل وقلعة الكاهنة فقد إعتبر أبناءها أن الهدف من تلك النشرة أولا وأخيرا هو خدمة أذئاب فرنسا في الجزائر، كما صرح الكثير من الخنشليين بأنهم لم يفهموا محتوى تلك المواجيز التي هي نشرة قبائلية مفرنسة و 60% من المتحدثين بالأمازيغية هم من سكان الأوراس محرومون من ذلك، فكيف تحتكر 20% من الناطقين بالأمازيغية وسائل الإعلام الوطنية ... والسؤال المطروح هو : من يتحكم الآن في وسائل الإعلام الوطنية فرنسا أم الجزائر ؟

(1) مواجيز الأمازيغية استفزاز للشاوية... أم ضرب للعرية؟ جريدة النصر، 26 ديسمبر 1991، ع5629.

(2) المصدر نفسه.

- أما مواطن خنشلي آخر، فقد إعتبر تلك النشرة عديمة الفائدة، هدفها تفكيك لغزة الإسلام، وهي ممزوجة بلغة المستعمر وليست تكنولوجية... فأنا لا أفهم ما يقوله هؤلاء الأمازيغ وأتساءل: لماذا لا يتعلمون هم العربية؟، ويلاحظ أن مثل هذه التصرفات تزرع بذور الفتنة والتفرقة.

- وأما بئر العائر ( إحدى دوائر ولاية تبسة) فقد إستاءت هي أيضا من نشرة القبائلية، والعينة التي إستجوبها مراسل جريدة النصر أجمعت على عدم فهمها، وعلى أن الأمر مدير من أكاديمية بيلريس البربرية، وذهب البعض منهم إلى القول بأن بث هذه النشرة يدخل في سياق " الشائعة" التي روجت من قبل، ومفادها أن الحكومة الحالية ( آنذاك) تحالفت مع RCD<sup>(1)</sup>، وقد أجمع شباب بئر العائر على أنه ضد هذه النشرة 100%. لأنه يرى فيها ظواهر الطائفية والتقسيم<sup>(2)</sup>.

وأما ياتنة فقد حاولت الأكاديمية البربرية إرسال وكيلها إلى ياتنة سنة 1991 فتوجه على رأس مجموعة من شباب تيزي وزو المغرر بهم في عشرات الحافلات، فمنعهم أبطال الأوراس من دخول مدينتهم وتلطيفها بعنصريتهم، فشتتوا جمعهم على أطراف المدينة وردوهم على أعقابهم خاسئين فحاولوا في سنة 1991م عقد مؤتمر دولي ياتنة فتصدى لهم مجاهدوها ومنعهم<sup>(3)</sup>.

وهنا نسجل ملاحظة، هي أنه لما إحتجت الفئات الأمازيغية الأخرى أصبحت تلك النشرات تبث بالشاوية والميزابية إضافة إلى القبائلية، ثم أصبح يخصص لها نصف ساعة كاملة يوميا، من الساعة 6 إلى السادسة والنصف مساء. وحتى أخذ هاتين اللهجتين بعين الإعتبار بعد الإحتجاج فإن ذلك لا يخرج عن خدمة النزعة البربرية الموجهة من الأكاديمية البربرية ورجال الأكليروس والإستعمار.

<sup>(1)</sup> هي حقيقة وليست شائعة، وقد انتشرت في نوفمبر 1991 مفادها أن رئيس الحكومة غزالي يقبل جهودا لإعداد حو ملانم لانتخابه رئيسا للجمهورية وقد أقتعه مستشاروه بأن ذلك لا يتحقق له إلا إذا اتكأ التركيبون (الغلاة) مع الحركة البربرية ودعموه. وقيل إن حلفا قد أبرم بين هذين التيارين بقيادة غزالي يوم 23 نوفمبر 1991. وهو اليوم الذي استقل فيه مبنى MCB حيث اشترطوا عليه للتخالف معه سياسيا: "ترسيم القبائلية تحت غطاء الأمازيغية في الحياة الجزائرية، والبدء فوراً في تطبيق ذلك في القطاعات الثلاث (التفوزة والعدالة والتعليم) ويقال أنه واتفق على شروطهم. كل هذا من أجل تنفيذ طموح شخصي هو أن يصبح رئيسا للجمهورية حتى ولو كان ذلك على حساب الوحدة الوطنية وإتحام الجزائريين في حرب أهلية وتهدد الطريق لعودة الإستعمار الفرنسي الجديد للجزائر بعد تحويلها إلى دويلات وطوائف<sup>1</sup> وقد وقع التخالف بالفعل بين غزالي و RCD وقد اعترف بذلك الرجل الثاني في RCD تالا مفران آيت العربي حيث اعترف بأنه في شهري جويلية و أوت 1991م لم يعد مسؤولو RCD البالغ السن يسندون لها أمور المستعملين. وبعد ذلك وسلوا الخراب بصرف الملايين، ووجدوا علاقة للأمين العام مع غزالي رئيس الحكومة، من ذلك تأييد سعيد سعدي لسياسة غزالي القرولية في تجمع بلمسان، كما أن سعدي لم يبتعد بقص الأستغناء. وهذه إشارات عن وجود تحالف. وقد ندد بهذا التحالف مفران آيت العربي وكان من المفروض - حسب آيت العربي- أنه يكذب سعدي هنا التخالف، لكنه لم يفعل... وبالتالي " فالتخالف لم يعد إشاعت بل حقيقة"<sup>(2)</sup>.

ويعا يؤكد هذا التحالف أن بث النشرات التلفزيونية بالقبائلية بدأ يوم 24 ديسمبر 1991 أي قبل الإنتخابات البرلمانية بيومين فقط، وذلك ليضمن غزالي ولاء دعاة العريسة البربرية ضد الحبهتين الإسلامية والتحرير الوطني. وقد علقنا نحن آنذاك على هذا قائلا: " إنه لغريب سقا أن يتخذ غزالي قرارا كهذا ويفعله فهو قرار لا يحاذله إلا قرار فرنسا بإتشاء الإذاعة القبائلية أيام الإحتلال، وقد وقعت منها جميع العلماء ذلك الموقف الذي يدل على تنهها لكيد فرنسا، وما هي فرنسا تعود اليوم وللأسف عبر الحكومة الجزائرية... إن هذه العملية تشر بلغة الجزائر وأكثفكتها، أي تكوين موارنة جدد في الجزائر، وسيسجل التاريخ هذا. إن فتح هذه القضية هو فتح نخرة كبيرة في الوحدة الوطنية، مستمع مع الأمام".

وقد كتبنا رسالة إلى السيد رئيس الحكومة غزالي نطلب فيها منه التراجع عن قراره ذلك. وبيننا عطفورة العملية تحت عنوان " رسالة شهر حيادية إل رجل يفترض حياده". وقد نشرت بجمهورية النصر، الثلاثاء 7 جانفي 1992، ع 5639 ص 7، وقد أكتنتها في الملاحق. [1] عثمان سعدي يوجه رسالة إلى رئيس الحكومة: موقف الشاوية من كسوار النشرة الإخبارية بالقبائلية، جريدة النصر، 22 ديسمبر 1991، ع 5625. (2) آيت العربي يتحدث عن: التزيم... إعراف سعدي... والتخالف السري مع غزالي. جريدة النصر، 22 ديسمبر 1991، ع 5625.

<sup>(2)</sup> مواهب الأمازيغية استفزاز للشاوية... أم ضرب للعربية؟ جريدة النصر، 26 ديسمبر 1991، ع 5629.

<sup>(3)</sup> عثمان سعدي، الأمازيغ، ص 174، 175.

والدليل على هذا أن البرنامج السياسي لحزب أيت أحمد يقوم على تقسيم الجزائر إلى خمس جهات أو خمس دويلات<sup>(1)</sup>، وقد ظهرت هذه القضية بوضوح بعد أحداث تيزي وزو الثاني وكما سنشير.

### تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية:

أصدرت الدولة الجزائرية قرار تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية. وذلك بعد الإضراب المفتوح الذي شنته الحركة البربرية في بداية السنة الدراسية (1994 م - 1995 م) مستغلة الوضع المتدهور بالبلاد الناتج عن إلغاء إنتخابات 26 ديسمبر 1991 التشريعية - التي كانوا هم الطرف الفعال في إلغائها- وذلك في مدارس وجامعتي تيزي وزو وبجاية مطالبين بإعتراف الدولة بالأمازيغية (القبائلية) كلفة وطنية ورسمية وتدرسيها. وكان مخطط الحركة أن يعم الإضراب سائر الولايات التي يتواجد بها الناطقون بالبربرية. لكن جميع فئات البربر الأخرى أفضلت هذه الخطة بعدم إستجابتها للإضراب فجاء بسبب ذلك مقزما من بدايته، وكشف من جديد أن التيار البربري محصور في فئة بعض القبائل<sup>(2)</sup>، حيث يرفض أكثر القبائل الحركة وأهدافها ومطالبها الانفصالية، ولكنهم لم يتمكنوا من التعبير عن إرادتهم بسبب الإرهاب الذي تفرضه الحركة البربرية على بلاد القبائل - ولا سيما بعد أن تسلح دعائها وأتباعها تحت غطاء الدفاع الذاتي ومكافحة الإرهاب- ونشيد هنا برئيس الحكومة السابق بلعيد عبد السلام - القبائلي - الذي وقف أثناء رئاسته للحكومة موقفا يدل على وطنيته وعرويته وإسلامه، وذلك أنه أجرت معه صحيفة الحركة البربرية حديثا طلبت فيه منه أن يصدر قرارا يعتمد فيه البربرية لغة وطنية ورسمية، فأجاب قائلا : " أرفض أن يكون للجزائر لغتان وطنيتان رسميتان، لأن ذلك معناه أن أمتين تعيشان على أرض الجزائر، وأنا لا أؤمن إلا بأمة واحدة، ثم إنه لا توجد لغة بربرية مركزية، بل لا توجد قبائلية مركزية، بل توجد عدة لهجات قبائلية، ولهجات بربرية "، وعندما قيل له : " لكن أنت لست عربيا إنك قبائلي " أجابهم بقوله : " أنا عربي لأني قبائلي " <sup>(3)</sup>.

إنتهى الإضراب بإصدار الدولة قرار تأسيس " المحافظة السامية للأمازيغية" تختار الحركة أعضائها وتقوم بإعداد اللغة التي ستدرس، ولم توافق الدولة على مطلبين للحركة، وهما : إعتبار الأمازيغية لغة الجزائر واعتمادها لغة رسمية لتصبح لغة التعليم والإرادة. وأما التلاميذ والطلبة فقد خسروا فيها سنة دراسية كاملة ضاعت من أعمارهم في ولايتي تيزي وزو وبجاية لأن سنة الإضراب إعتبرت بيضاء<sup>(4)</sup>.

ونقدم هنا ملاحظة مهمة في نظرنا، هي أنه رغم إستمرار الإضراب سنة دراسية كاملة إلا أن الدولة لم تتخذ أي إجراء يمكنه أن يجعل المعلمين والأساتذة يعودون إلى التدريس عكس ما فعلته مع

(1) عثمان سعدي، مواقف الشاوية من قرار النشرة الإخبارية، جريدة النصر 22 ديسمبر 1991، ع 5625.

(2) وهو ما ظهر أيضا بجلاء في جميع الإنتخابات التي أجريت بعد التعددية، بلدية وبلدية ورئاسة.

(3) عثمان سعدي، الأملوع، ص 41، 42.

مضربين آخرين، وهذا في نظرنا راجع إلى تواطؤ أناس مع الحركة البربرية يوجدون في مراكز القرار ولا سيما أن الإضراب كان فاشلا، ولو لا لم تستجب لهم الدولة - وفي ظروف غامضة - لما أمكنهم مواصلة الإضراب في السنة المقبلة 95-1996م لأن قلوب التلاميذ وأولياءهم بلغت الحناجر. ولكنه بين عشية وضحاها إستجابت لهم الدولة وقررت تأسيس المحافظة السامية للأمازيغية، هذه المحافظة قررت من ضمن ما قررته تدريس الأمازيغية بالحروف اللاتينية<sup>(1)</sup> - أي بالفرنسية - والسبب معروف. وهو فك الارتباط مع المشرق العربي الإسلامي والإرتقاء في أحضان فرنسا، ومن هنا فخطورة هذه المحافظة، فقد إعتبر عثمان سعدي - البربري - أن الرئيس اليمين زروال أصدر أخطر قرار في تاريخ الجزائر لم يصدر مثله أي حاكم جزائري طوال 14 قرنا، وهو تأسيس هذه المحافظة التي يأمل " البربريست" أن يحققوا بها تدمير الوحدة الوطنية، ويقولون الآن أن هذه المحافظة تقر بأن اللهجة القبائلية المكتوبة بالفرنسية في نفس حجم العربية عندما يفسرون عبارة " الهوية الجزائرية تتكون من الإسلام ومن الأمازيغية ومن العربية" ويواصل عثمان سعدي قائلا، بأن الشعب ينتظر من رئيسه المنتخب ( زروال) أن يحترم إرادته، فيعود إلى إستشارته بإستفتاء في المسألة الأمازيغية، وفي عبارة " تتكون الهوية الجزائرية من الإسلام والأمازيغية والعربية"<sup>(2)</sup> وهذا يدفعنا إلى الإشارة إلى مكسب آخر للحركة البربرية، هو :

### ثالثية الهوية الوطنية الجديد

بعد أن كان مفهوم الهوية الذي حدده أصحاب النزعة الحضارية الذين حرروا الجزائر من الإستعمار الفرنسي يتمثل في " الإسلام ديننا العربية لغتنا الجزائر وطننا"، كان مفهوم الهوية ثنائيا يحتل موقعا جغرافيا يعد ملكه، أصبح من ضمن تعديلات الدستور المقترحة في مذكرة رئاسة الجمهورية والتي رسمت بعد ذلك فعلا في دستور زروال (1996م) ثالثية الهوية الوطنية " الإسلام، العربية، الأمازيغية".

وهي بدعة خطيرة في تاريخ الجزائر والحركة الوطنية؛ لأن هوية الجزائر الوطنية منذ ظهر كيان الدولة الجزائرية الحديثة إعتبرت ثنائية تتمثل في الإسلام والعربية، بل ومنذ ترسخ الإسلام في المغرب العربي نبتت، وظلت الهوية ثنائية في جميع الأسر الأمازيغية التي حكمت البلاد منذ الإستقلال عن الخلافتين الأموية ثم العباسية إلى العهد العثماني إلى مجئ الإستعمار الفرنسي بل وأثناءه. ولما كانت فرنسا المنبث الوحيد للنزعة البربرية كما ذكرنا سابقا، ومع وجود الإستعمار الفرنسي فقد بنى بيان أول نوفمبر على تراث الأجداد، فحدد الهوية الجزائرية تحديد ثلاثي مفهومه العربية والإسلام،

(1) فلفزيون الجزائري، 5 ماي 1998م، نشرة الثانية مساء.

(2) عثمان سعدي، الأمازيغ، ص 171، 180.

وهو ما قررته جميع موثيق الجزائر قبل الإستقلال وبعده كميثاق طرابلس، وميثاق الجزائر، والميثاق الوطني وداستير الجزائر الثلاثة<sup>(1)</sup> السابقة على دستور زروال ولقد أشرنا قبلا إلى الصراع الذي نشب بين مصالي الحاج ومساعدته عمار إيماش حول هذا التحديد للهوية، كما بينا مناورات الإستعمار الفرنسي بهذا الشأن، وقد تمكنت الحركة الوطنية من تحرير البلاد بهذا المفهوم الثاني.

ولكن الجزائر التي حققت أهدافها الجوهرية بهذا المفهوم تركته وراءها ظهريا وأصبحت من دون جميع الدول العربية ثلوثية الهوية، ويفسر بعض دعاة الحركة البربرية عناصر ذلك الثالوث بأنها متساوية وهو ما أوردته جرية (Liberté)<sup>(2)</sup> فاعتبرت أن عناصرها الثلاثة في مستوى واحد من القوق، أي أن اللهجة القبائلية في مستوى واحد مع اللغة العربية، بل ومع الإسلام أيضا، فهي إذن تساوي الإسلام. وهذا يجعلنا أمام معادلة شاذة وغريبة وخاطئة حتى من الناحية الرياضية؛ لأنها تسوي ما ليس واحدا بالتوابع، ولا حتى بالجنس حتى ولو كان بعيدا. إذ كيف تسوي بين طرفين أحدهما دين والأخرى قومية؟! ومع ذلك فإن هذه الثلاثية فرضها دعاة الحركة البربرية الأقلية على أغلبية الشعب الجزائري كرها وجبرا وقمعا. ورغم هذا فإن هذه الثلوثية هي ما يصرح به دعاة الحركة البربرية من FFS و RCD و MCB ويذهبون بناء عليها إلى أبعد منها، وهو تكريس القبائلية في الدستور ككلمة وطنية ورسمية، وهو ما صرح به الناطق الرسمي للمحافظة السامية للأمازيغية<sup>(3)</sup>. ونحن لا نستبعد أن يكرس الدستور هذا في يوما ما؛ لأنه ما دام الدستور المعدل أقر بالثالوث، فما الذي يمنعه أن يرسم بعد لأي من الزمن القبائلية كلفة وطنية ورسمية، بل وحتى الفرنسية هدفهم الحقيقي.

ولقد حمل عثمان سعدي مسؤولية هذا الثالوث للرئيس زروال وطلب منه أثناء رئاسته للجمهورية إحترام إدارة الشعب بالعودة، إلى إستشارته بإستفتاء في المسألة الأمازيغية، وفي عبارة "تتكون الهوية الجزائرية من الإسلام والأمازيغية والعربية"، والتي تجعل للجهة الأمازيغية (القبائلية) بالحرف اللاتيني (الفرنسي) في مستوى واحد مع اللغة العربية تلك العبارة (الثالوث الجديد) التي صارت كأنها أية قرآنية تردد على كل لسان<sup>(4)</sup>.

ونحن هنا نتساءل بإندهاش وإستغراب: كيف وعلى أي أساس يكون الحرف اللاتيني (الفرنسي) جزءا من الهوية الجزائرية؟ هذا لا يكون إلا في حالة واحدة تتمثل في إتصال جنسي شاذ حصل بين الجزائريين واللاتين و(الفرنسيين) فأنتج ذلك الشذوذ الجنسي إنسانا شاذا يجمع في شخصيته بين الإسلام والعروبة من جهة و"الغالية" من جهة أخرى، والعنصران الأوليان لا يمكن إجتماعهما مع العنصر اللاتيني؛ لأن روح اللاتينية النصرانية والكتابة من اليسار إلى اليمين، وروح الجزائريين

(1) المراجع نفسه، ص 171، 180.

(2)

(3) من عثمان سعدي، الأمازيغ، ص 180.

(4) عثمان سعدي، الأمازيغ، ص 171.

الإسلام والكتابة من اليمين إلى اليسار، فكيف يمكن الجمع في أن واحد بين متجهين متعاكسين أحدهما نحو اليمين والآخر نحو اليسار؟ إن الجمع بينها في الوسط يعني إيفاق كل منهما عن مسيره الطبيعي وصيرورته مما يعني الجمود والركود، مما يعني الفناء. وهو ما تريده فرنسا ويريدته للجزائر عملاؤها.

والواقع أن ثالث الهوية خطر كبير على الوحدة الوطنية ذاتها "إذ لا وحدة وطنية بلا وحدة لغوية"<sup>(1)</sup> وها هو وزير الثقافة الفرنسي يتكلم عن مفهوم الثقافة في بلاده في حديث أدلى به لقناة التلفزة الفرنسية الأولى (TF1) يوم 1995/11/05م فقال: "إن فرنسا ترفض تعدد الثقافات بها، لأن ذلك يعتبر خطأ على وحدة الأمة الفرنسية"<sup>(2)</sup>. فهذه فرنسا مثلهم الأعلى لا يعتدون بها في تفكيرها فيما يتعلق بذاتها، وينادون من كل حذب وصوب بلزوم التعددية اللغوية والثقافية، وفي جميع المنابر، ويتبنونه في جميع البرامج الحزبية والانتخابية وهلم جرا. وغرضهم واضح، تمزيق البلاد وتحطيمها خدمة للإستعمار والتبشير.

إن ثالث الهوية بعد بدعا من دون الناس جميعا الذين يحترمون أنفسهم ويعملون على تطوير بلدانهم وحمايتهم، وقد ذكرنا أننا فرنسا. وها هي مصر على سبيل المثال، فإن المصريين لم يفكروا في العودة إلى اللغة الفرعونية رغم كونها مسجلة على آثار أعظم حضارة عرفتها البشرية في قاراتها الخمس، ولم يتبنوا ثالث الهوية، عبارة "تتكون الهوية المصرية من الإسلام والعروبة والفرعونية" بلى سماوا دولتهم ذاتها جمهورية مصر العربية، ولم يسموها جمهورية مصر المصرية أو الفرعونية، رغم أن كلمة مصر، ومصرية عمرها 7 آلاف سنة، وما يقال عن مصر يقال عن المغرب الذي يوجد به أكبر تجمع بربري فإنه لم يغير محتوى هويته المتمثل في العروبة والإسلام وهكذا فإنه لا مصراة أضافت البعد الفرعوني ولا المغرب أضافت البعد الأمازيغي لهويتها، وكذلك سوريا ولبنان لم يضيفا البعد الفينيقي رغم أن الفينيقية أصل حروف الأمازيغية وكثير من كلماتها، ولم يضيف العراق البعد الآشوري البابلي<sup>(3)</sup>.

وهكذا شد دعاة البربرية عن كل هؤلاء وغيرهم. وسبحان من ينكر قدرة الجزائري الموحى إليهم من فرنسا على الخلق والإبداع.

وعلى إثر الحديث عن ثالث الهوية نتساءل: هل يؤمن دعاة الحركة البربرية بالفعل بثالث الهوية؟ والجواب أن ذلك الإدعاء إن هو إلا مغالطة للتضليل، ذلك أن الذي يدعون إليه عنصر واحد فقط من الثالث هو القبائلية كغطاء للفرنسة، أما الإسلام والعروبة فهما العدوان اللدودان في تصورهم، ولقد أشرنا قبلا إلى ما ذكره ابن العقيد عميروش عن اللغة العربية، وأما الإسلام فهو عدوهم الأكبر

(1) المصدر نفسه، ص172.

(2) المصدر نفسه، ص172، 180.



الذي يسببه جعلوا اللغة العربية عدواً، فهو الذي يعملون على تدميره ليل نهار بشتى الوسائل إلى حد منع بناء المساجد، بل وتدمير ما كان منها مبنياً كما بينا في المقارنة بين 1830م و 1988م، وهو ما سيظهر لنا بجلاء أثناء الحديث عن أحداث تيزي وزو والثانية، هذا على مستوى العمل. أما على مستوى الفكر، فقد أصبحوا يصرحون بأن الجزائر لم تعد عربية، بل أمازيغية عربية، بل وصل الأمر بصحافتهم أن تحتج على تصريح وزير خارجية الجزائر السابق صالح دميري عندما قال بأن الجزائر عربية ومما تمثل فيه إحتجاجهم المطالبة بنصب تمثال للكهنة في ساحة الشهداء بالعاصمة. الكاهنة الوثنية التي كانت تعبد صنماً<sup>(1)</sup> وتدين بالديانة اليهودية<sup>(2)</sup>، لا شيء سوى لأنها حاربت الفاتحين. وإلا لماذا لم يطالبوا بنصب تمثال " لالا فاطمة نسومر"<sup>3</sup>! والجواب واضح ههنا أنها مسلمة مجاهدة حاربت الإستعمار الفرنسي الذي يدينون بوحية.

ويمكننا أن ندرك خطورة الإقتراح عندما نتصور نصب تمثال لأبي لهب في الساحة الرئيسية لمدينة الرياض ويطالب الناصبون بإلغاء سورة المسد.

وإضافة لما سبق فإنهم لتثبيت البعد الأمازيغي في الثالوث أخذوا يطالبون بإعتماد ما يسمى برأس السنة البربرية الذي إختلفه الأباة البيض لوازولها به السنة الهجرية، وصار التلفزيون الجزائري ينقل إلى المشاهدين الإحتفالات التي تقام بمناسبة كما طالبوا بجعل ذكرى أحداث تيزي وزو الأولى<sup>(3)</sup> عيداً وطنياً وقد أصبح كذلك، لكن في ولايتي تيزي وزو وبجاية، وأصبح التلفزيون الجزائري يحتفل به أيضاً.

وزادت عداوتهم للشقين الأولين من الثالوث فأخذوا يفسرون الثالوث الجديد للهوية تفسيراً عنصرياً عرقياً، ومن الأمثلة على هذا فقد كتب عز الدين الزعلاني عضواً لمحافظة السامية للأمازيغية مقالة مطولاً في صحيفة Le matin، عددي 2 / 3 / 10 / 1996م، قال فيه: " إن الأمازيغية بالنسبة لشعبنا وجود ( Etre ) والعربية والإسلام والفرنسية مكاسب، أي عناصر مقبولة منا، فهويتنا أحادية<sup>(4)</sup>، ولا بد أن تكون أحادية، أي أمازيغية فقط، والعربية والإسلام مكملان لها". ومعنا هذا الكلام أن العربية والإسلام عنصران مقبولان يمكن إستبدالها أو التخلي عنهما في أي وقت<sup>(5)</sup>، بل هما مثل الفرنسية.

(1) المصدر نفسه، ص ج.

(2) الكاهنة كانت تدين بالديانة اليهودية، قارمت الفاضل مقاومة عنيفة ولكنها نهضت ابنها بالدخول في الإسلام فدعلا، وأصبحتا ذا مكانة في جيش حسان بن المنان رضي الله عنه حيث عين أحدهما حاكماً مديناً والأخر عسكرياً، وكان لهما بلاء حسن في الفتوحات (الشيخ حسين الزاهري، التلفزيون الجزائري، حصة صباحيات، الأحد 14/04/1996، الساعة 9:5 صباحاً).

(3) ذكر عثمان سعدي أن مهرجان إيكورن هو الذي يطالبون به عيداً وطنياً، وأنه وقع في 20 أبريل 1980، والواقع أن مهرجان إيكورن عقد في أوت 1980 كما ذكرنا أثناء حديثنا عنه والذي وقع في 20 أبريل هو أحداث تيزي وزو الأولى التي توجت بمؤتمر إيكورن.

(4) والسؤال الذي من أين له أن يشتم البربري لبح، وأن يهزم أن العبر ليسوا عرباً وقد أجمع على عربيتهم زعمائهم!

(5) عثمان سعدي، الأمل، ص ج، ج.

والواقع أنهم يعملون بلا هوادة لطمس كل ما له علاقة بالإسلام والعروبة والرجوع إلى الجاهلية الأولى ليوقعوا بالشعب في أحضان النصرانية والإستعمار الجديد، وذلك وفق مخطط بورغاد وأمثاله، ولقد ذكرنا أثناء حديثنا عنه أنه قال لبلاده، إذا إستطعتم إقناع الأهالي بالرجوع إلى تاريخهم لما قبل الإسلام تكونون قد ثبتتم أنفسكم في بلادهم إلى الأبد وها هم خريجو مدرسته يواصلون تنفيذ المشروع.

### موقف الفئات البربرية الأخرى من الثالوث والقضية البربرية

ولكي يحققونه أهدافهم فإنهم يعملون بلا هوادة لجر الفئات البربرية الأخرى في باقي القطر لتبني طروحاتهم الفرنسية، ولقد أشرنا قبلا إلى ما قام به سعيد سعدي سنة 1991م من محاولة إختراق مدينة باتنة بعشرات الحافلات، وهو يقول: "لقد قررت فتح الأوراس للبربرية" ولكن شباب الأوراس رجموه مع أتباعه بالحجارة فرجع على أذباره خاسئا وهو حسير.

وإذا كانت الشاوية هنا قد برهنوا على عروبتهم وإسلامهم فإنهم قد برهنوا أيضا على هذا الإتجاه مع مختلف الفئات البربرية الأخرى وبنوا رفضهم عمليا للنزعة البربرية الهدامة عندما رفضوا الإنسياق في عملية إضراب المدارس السابق ذكرها في السنة الدراسية (1994م - 1995م) مما فصح العملية وبين أن هذه النزعة مسألة قبائلية محضة<sup>(1)</sup>، بل تخص بعضا فقط من القبائل.

ولما فشل ذلك الإضراب في جر باقي الفئات البربرية قرروا تركيع الشاوية بعقد مؤتمر دولي للأمازيغية بباتنة، هذا الملتقى الذي قرر عقده في باتنة كانت لجنة التحضير له تتعقد في مدينة البويرة، وهو من أعرب ما يقع، وبدل دلالة قاطعة على براءة الشاوية منه بل على أنه مكيدة بهم، وقد فضحهم هذا وبين أنه لا وجود لاهم بباتنة، ولقد تحرك بهذا الشأن مجاهدوا الأوراس فأصدروا لانحتهم الأولى في 31 مارس 1996م رفضوا فيها عقد هذا المؤتمر بباتنة، وحددوا فيها - وهذا هو المهم جدا ونحن ننتبه - مفهوم الأمازيغية وطنيا الذي يتعامل معها كلهجات روافد للعربية الأم لا فرق بينها وبين لهجات العربية العامية وكعنصر من تاريخنا - لا من هويتنا - مثل القرونية بمصر، والفينيقية بسوريا... التي تعد كلها روافد للحضارة العربية القديمة.

ووجد عرب الجزائر ضالته في اللاتحة فراحوا يساندونها ويساندون من خلالها مفهوم الأمازيغية الوطني عند أمازيغ الشاوية الذين يمثلون أكبر تجمع بربري بالجزائر.

واصدرت الولايات التاريخية للثورة، السادسة، والخامسة، والقاعدة الشرقية بيانات تؤيد فيها موقف الشاوية.

كما أصدر أحمد بن بلة - الأمازيغي - رئيس الجمهورية الأسبق ورئيس المنظمة الخاصة للثورة بياناً أيد فيه لائحة الولاية الأولى، وثمن فيه موقف الشاوية " الذين لم تشوشهم دسائس الإستعمار في المسألة الأمازيغية، وهكذا يعيد التاريخ نفسه فيقوم الأوراس بإنقاذ دولة أول نوفمبر من مؤامرة البربريزم صنيعة الإستعمار الفرنسي الجديد، مثلما أنقذ الجزائر بتفجيره للثورة سنة 1954م من الإستعمار الفرنسي القديم" (1).

ومع كل هذا فقد أصدر دعاة الحركة البربرية على عقد مؤتمرهم بباتنة في شهر أوغسطس 1996 - وهو الشهر الذي عقدوا فيه مهرجان إيكورن سنة 1980م - فأصدرت الولاية الأولى التاريخية أوراس النمامشة لائحة رفض ثانية بتاريخ 17 يوليو 1996م وهبت الشخصيات والأحزاب الوطنية تدعم هذه اللائحة، فصدرت التعليمات العليا إلى المحافظة السامية للأمازيغية بإلغاء المؤتمر المذكور الذي أرادت منه هذه الأخيرة " إخراج المسألة الأمازيغية من الفيتو G lletto القبائلي" كما جاء في جريدة النزعة البربرية الأولى Liberte عدد 3 / 8 / 1996 (2).

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق، أن دعاة الحركة البربرية يعملون بلا هوادة لتغيير الهوية كليا، وذلك بإخضاع الطابع البربري الملبوس بالنصرانية على الجزائر ثم باقي المغرب العربي، إلى أن يصلوا إلى مصر، وقد تمكنوا من تثبيت الثالث الجديد في دستور زروال وهي قضية في منتهى الخطورة، ويجب العمل بلا هوادة لإزالة البعد القبائلي من مفهوم الهوية المقرر في الدستور.

ولما كان هدفهم الوصول إلى مصر، فلتحقيق هذا الغرض وتسهيل عملية الإلتقاء قبل الوصول، فقد أسست جامعة الإسكندرية الفرنسية بالتعاون والتسيق بين فرنسا والصليبي بطرس غالي، وهذا بهدف محق العروبة والإسلام من هذه الأقطار، وإرجاع مجد النصرانية بها السابق عن الإسلام، أي إرجاع الإسلام على أعقابه وحشره في جزيرة العرب تمهيدا لدفعه في رمالها.

ولما كانت هذه هي الغاية، فلم تكف فرنسا خاصة والغرب عامة بتشجيع وتوجيه هذه النزعة التي هي بنت فرنسا كما ذكرنا كنيسة وإستشراقا وسامكا وجيشا، بل نجد دورا معتبرا للصهيونية في توجيه هذه الحركة، وذلك خدمة للكيان الصهيوني المستعمر لفلسطين، وتقوم هذه الخطة كما أشرنا قبلا على خلق دويلات عرقية ودينية غير إسلامية ولائكية بالوطن العربي لتزيقه وتوجيهه وإذكاء نار العداوة بين تلك الدويلات لإضعافها جميعا، وهو ما يريده اليهود والنصارى معا، ومن بين هذه الدويلات، الدويلة البربرية. وهو ما يؤكد يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة خلال الثورة الجزائرية، الذي صرح لأسبوعية الحرية الجزائرية في عددها 83 بتاريخ 05/08/1996م قائلا : " يوجد أكثر من تقارب بين

(1) المصدر نفسه، ص 3

(2) ورد في النص "مع سفر إسرائيل" ونحن لا نستطيع استعمال إسرائيل هنا انطلاقا من ديننا وحققنا أن أرضنا إذ لا يمكن رغم ضعفنا الشديد أن نحرق بمفكرة أرضنا لمن ليست فيه ومن يدري ماذا تفعله الأيام.

البربريين وبين اليهود، وهذا ما يجعل شخصا مثل سعيد سعدي لا يتردد في التباهي بعلاقاته مع مسفير الكيان الصهيوني في باريس بمقتضى هذه المفاهيم والأطروحات المشتركة<sup>(1)</sup>.

وبناء على ما سبق نستطيع القول، بأن ثلوث الهوية يساوي محاربة الإسلام والعروبة، وهو ما أصبح مطبقا في الميدان، بحيث لم يعد الخطاب السياسي يجرؤ على القول بأننا عرب كما كان يقول من قبل، وكما تعلمنا من الأناشيد الوطنية بل يجبر على ترديد ذلك الثالوث المفكك لوحدّة البلاد، بحيث منع رفع شعار العروبة والإسلام سياسيا، ولكنه لم يمنع رفع شعار الأمازيغية. ويبدو أن الدولة تنبّهت إلى المضاعفات العكسية لتفتيت الهوية الوطنية فأصدرت قانونا يمنع استعمال مكونات الهوية الوطنية. ولكن هذا القانون لم يطبق إلا على الرافعين لشعار العروبة والإسلام فأجبروا كما قلنا على تغيير أسماء أحزابهم ومحتوى برامجهم، في حين لم يمس ذلك الأحزاب ذات التوجه البربري وظلت رافعة شعار الأمازيغية، فلم تغير لأسماء أحزابها ولا محتوى برامجها، ولا سكنت عن المساومة بالأمازيغية سرا وجهرا، سلما وعفوا، والأسوأ من هذا أن الدولة بدل أن لا تمس الأحزاب ذات التوجه العربي الإسلامي وذلك على الأقل لتحقيق التوازن سياسيا بل ومساعدتها هي ذاتها لتحقيق الاستقرار والمحافظة على الوحدة الوطنية، نجدها تكرر هذه النزعة في الجمعيات الرياضية بحيث لم تمنع تسمية الفرق الرياضية بأسماء القبائل والشعوب مثل شبيبة القبائل وإتحاد الشاوية وشباب أو لا نايل. والكل يعمل ما للرياضة من تأثير في عقول الشباب، وتتمية رفع التعصب والجهوية من خلال تلك المسميات. وخلاصة القول في هذا المجال:

أن هناك صعوبة كبيرة في التعامل مع الهوية الوطنية، ويرجع ذلك إلى أن السلطة سلكت سياسة (سياسوية) مع التيار الشعبي وهو ما يضرب الوحدة الوطنية في العمق<sup>(2)</sup>، وهنا ننقل إلى الحديث عن :

### العلاقة بين أحداث تيزي وزو الأولى وأحداث أكتوبر.

بناء على ما سبق، فإن المرء لا يجد صعوبة في إدراك العلاقة الوثيقة بين الحدثين، فلقد حققت أحداث أكتوبر مطالب أحداث تيزي وزو وزيادة، ومن الأمثلة على هذا ما ذكرناه قبلا في مكاسب الحركة البربرية بعد أحداث أكتوبر كتجميد قانون اللغة العربية في عهد بوضياف، والإعتراف بالقبائلية وثلوث الهوية وتأسيس المحافظة السامية للأمازيغية إلخ.

إزدهار التكنولوجيا إزدهارا لم يسبق له مثيل حتى في العهد الإستعماري.

(1) عن عثمان سعدي، الأمازيغ، ص 4

(2) ابن قريفة، هل تكرر غورباتشوف في الجزائر؟ العلم السياسي، 22 أوت 1998. ع 623، ص 4.

كلاهما إسم بالعنف والعدوانية والإرهاب، شوهد فيهما العلم الوطني يداس بالأرجل ويحسرق على مرأى من الناس دون أن يترنفع أصوات الإستكار ودون أن يتحرك الهمم، وقد اعتدى على المساجد ورموز السيادة الوطنية دون أن يلقي رد فعلي جماعي<sup>(1)</sup>، وقد حرق المصحف ومزق في أحداث تيزي وزو، وإن كان هذا لم يقع حسب علمنا في أحداث أكتوبر إلا أن ما أعقبها مزق فيه الدين الإسلامي من أساسه.

- تحقيق كثير من مطالب إيكورن، ومنها تقوية الإذاعة القبائلية ونشرة التلفزيون بالقبائلية وإنتاج أفلام ناطقة بالقبائلية، والمسرح القبائلي إلخ.

- قضية المنظومة التربوية فهي رباط واضح بين أحداث تيزي وزو وأحداث أكتوبر، ذلك أنه كان من مطالب منظمي أحداث تيزي وزو إعادة النظر في المنظومة التربوية بحجة أنها رجعية ولا تأخذ بعين الإعتبار القبائلية والعربية العامية إلى آخر ما ذكرنا في مطالب لقاء إيكورن، وقلنا بأن رئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد، وعد آنذاك بإعادة النظر في المنظومة التربوية. ولكن إعادة النظر فيها تم على عكس ما يريدون. فجاءت أحداث أكتوبر لتحطيم تلك المنظومة. مما يجعلنا نعتقد أن أحداث أكتوبر هي نتائج لأحداث تيزي وزو وأن مفجرهما واحد. ولا أدل على صحة هذا مما ذكره وزير التربية السابق علي بن محمد أنه: "منذ عام 1988 والحديث لا يكاد ينقطع عن الإصلاح التربوي وضرورته المستعجلة، وكان حوادث أكتوبر لم تقع إلا من أجل إدانة المدرسة والحكم بإعدامها، وقد رسخت في الأذهان هذه المعاني حملة إعلامية مستمرة منذ ذلك الوقت، تجعل المنظومة التعليمية مسؤولة عن كل ذنب يرتكب في هذه البلاد، وكل جريمة تقترف، وكل عيب أو نقیصة تلاحظ في أي قطاع. حتى الذين يغتالون العزل الأمنيين في دواويرهم ومشائهم، هم منتوج المدرسة " الأئمة". أما الذين يطاردونهم ممن هم في سنهم من أسلاك الأمن والجيش فليست أدري في أي مدرسة تعلموا. ومن أي نظام تربوي خرجوا أو تخرجوا!... إن المنتبع لما يكتب في الصحافة المهيمنة - وهي الآن أهم ما في الساحة الإعلامية - يفهم من تلك المطالب الملحة في إصلاح المنظومة التربوية - حسب زعمهم - أن الغاية المنشودة من ذلك، هي جعل المدرسة نفسها أداة منجزة لفكر الأقلية وإستخدامها وتوظيفها مباشرة في مهمة ممسخ الأمة وتشويهها بما يجعلها - الأمة - تتكيف مع فكرة الأقلية المهيمنة ومرجعيتها التغريبية.

وهكذا يبدو الوضع الشاذ على النحو التالي :

الأكثرية المسحوفة هي التي ينبغي أن تغير جلستها وتكيف أحوالها لتدخل في القالب الذي أعدته لها الأقلية الساخفة، والمدرسة في كل ذلك ينبغي أن تغدو مصنعا لتصنيع الأجيال المشوهة وتنشئة أجيال كاملة من المناهضين لذاتهم المعقدين نحو ثراتهم، المستلبين فكريا، الراضين لأهم القيم التي حمت

(1) عهد المرز الربري، للرجع السابق، ص 162.

الامة من الإنقراض، والمجتمع من الإندثار خلال الليل الإستعماري الرهيب، وأتاحت لفتاح نوفمبير أن يكون<sup>(1)</sup>.

وهكذا توافقت تصورات منظمي الحدثين مما يدل على أنهما واحد، أدار الحدثين.

### علاقة ما سبق بالتبشير

لا يحتاج المرء لبحث طويل كي يكتشف علاقة أحداث أكتوبر بالتبشير، ذلك أن كل نتائجها من أغراضهم وتخطيطهم ولقد رأينا أثناء حديثنا عن افطار التبشير محاربهم للقرآن الكريم ولغته، والعمل على إرجاع الناس إلى الجاهلية الأولى والبحث عن أصولها لما قبل الإسلام للإرتباط بها بدل الإرتباط به، والدعوى إلى الفرنسية وتقسيم المجتمع إلى ملل ونحل، وهذا ما تحقق بعد أحداث أكتوبر، ناهيك عن المقارنة التي عقدناها بين 1830م و 1988م التي بينا فيها عودة أوضاع الجزائر إلى أيام الإحتلال الأولى التي أحدثها رجال الأكليروس والإستعمار، كما أشرنا إلى إزدهار الكنيسة بعد أحداث أكتوبر إزدهارا لم يسبق له مثيل بعد الإستقلال في بلد كان فيه التبشير ممنوعا بقوة القانون، وقد أصبحت الكنيسة تدعم من طرف RCD وغيره وبقيم دعاة الحركة البربرية معارض الإنجيل كما أشرنا، ويوزعون ويعرضون الأفلام التنصيرية المصنوعة في فرنسا، والناطقة بالقبائلية في الأحياء الجامعية والبيوت وغير ذلك دون حياء أو خجل، وتوزع مئات الآلاف من نسخ الأناجيل بالعامة والقبائلية على أطفال المدارس الصغار والكبار مجانا، وتقدم الكنائس وجبات الغذاء في رمضان للمنتسهيكين حرمتهم وتنظم رحلات للمنصرين وأشباههم إلى فرنسا، وتقوم بعقد الزواج بين المنتصرين والمنتصرات، كل هذا وغيره كثيره أصبحت الكنائس تنصر الجزائريين وتمارس ما تريد من نشاط دون رقيب أو عتيد، كل هذا والنظام لا يحرك ساكنا. وهكذا صارت الكنائس تنشط دون رقابة عكس المساجد التي ما لم يهدم، منها ضرب بينه وبين الدعاة جدار من حديد، ومن حاول الإقتراب منها ناله الويل والثبور مما يجعلنا نعتقد بوجود إتفاقات سرية بين فرنسا، وبين النظام أو على الأقل بينها وبين بعض أجنحته المسيطرة.

وهكذا تحققت مخططات المبشرين وزيادة، من محاربة القرآن، ولغته ومساجده وتفجير البلاد لتصبح تربة خصبة لهم يرتاعون فيها، وإحياء النعرات العرقية بل وخلقها وتفجير الحروب الداخلية بين الأهالي، ومناصرة اللاتكية ومحاربة المتدينين مما جعل الإسلام بالجزائر يهربا وأصحابه غرباء.

(1) علي بن محمد (وزير التربية سابقا) تساؤلات وملاحظات حول خطبات الإصلاح التربوي، جريدة الطور الجزائر، الأرباء 8 جويلية 1998م، ع 2312، ص 21.

## الفصل السابع

### تأسيس حزب "التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية R.C.D

بعد تأسيس RCD كنتيجة من نتائج أحداث أكتوبر، واستشير إلى ظروف تأسيسه ومؤتمره الأول ومرجعياته وإيديولوجيته<sup>(1)</sup>، مناقشين من كل هذا ما نراه يحتاج إلى مناقشة ولتبدأ بـ :

ظروف تأسيسه : يذكر سعيد سعدي سمينا السند التاريخي لحركته وهو ما يبين صحة تصورنا للحركة البربرية - أن قضية الثقافة الأمازيغية طرحت في أوائل القرن العشرين ثم أجلت بحجة تحرير الجزائر، وأجلت أثناء الثورة بحجة إعطاء الأولوية للإستقلال، وفي سنة 1962م طرحت وأجلت بحجة البناء والتشييد، مما جعل بعض الشباب في أواخر الستينات ( الأكاديمية البربرية) يأخذون على عاتقهم إحياء التراث الأمازيغي واللغة الأمازيغية، ولقد تفجر هذا في أحداث تيزي وزو الأولى 1980 وأصبحت المطالب واضحة وهي :

- إعتبار الثقافة الأمازيغية ثقافة وطنية.

- إعتبار الأمازيغية لغة وطنية.

- الديمقراطية .

ومنذ أحداث تيزي وزو إلى أحداث أكتوبر ظل دعاة الحركة البربرية يطالبون بما سبق فأسسوا سنة 1985م رابطة لحقوق الإنسان وبعض الجمعيات لأبناء الشهداء فألقى القبض آنذاك على بعض من دعاة الحركة وأبناء الشهداء وأعضاء من الرابطة الجزائرية لحقوق الإنسان، وبعد الإفراج عن المعتقلين ومنهم سعيد سعدي، أخذ سعدي مع رفاقه في الإتصال بجميع المهتمين بالثقافة واللغة الأمازيغية، إلى أن جاءت أحداث أكتوبر فلم ينتظروا مشروع الدستور، وأخذوا ينشطون لإنشاء حزب فوجه أربعة منسطين من الحركة الثقافية نداء لعقد ملتقى وطني للحركة الثقافية الأمازيغية، وتم عقد هذا الملتقى في دار الثقافة تيزي وزو يومي 9 و 10 فيفري 1989م، وتم الإعلان عن ميلاد التجمع<sup>(2)</sup> من أجل الثقافة والديمقراطية RCD ومن هنا تنتقل إلى الحديث عن :

### المؤتمر الأول لـRCD ( 16 و 17 ديسمبر 1989م)

يقوم RCD على ثلاث التجمع، الثقافة، الديمقراطية كشعار، ويذكر في برنامجها وتصريح قائده ثالوثا آخر هو الأمازيغية، العروبة، الإسلام، وعقد مؤتمره الأول تحت شعار يتضمن ثالوثا آخر هو : الصراحة، الوفاق، التفتح، ولكن أعمال المؤتمر وما تلاها بين ثالوثا جديدا هو الحقيقي، الفرنسية، اللائكية، الدكتاتورية، وبهذا ينعدم أي ربط بين كل هذه الثالوثات. فلقد جاء هذا المؤتمر الأول المنعقد

<sup>(1)</sup>الكتابي هنا بالإشارة إلى إيديولوجية الحزب لأنها منفصلتها أثناء حديثنا عن التبعير من خلال الحركة البربرية

الجمعية سعدي، (حوار أمل به سعيد سعدي لـ " جريدة الشعب يوم 1989/03/19 م عن أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 207-208 .

بنادي الصنوبر يومي 16 و 17 ديسمبر 1989م ليس خاليا من العروبة والإسلام فحسب بل جاء ثالوث الممارسة السابق ذكره معاكسا لهما تماما وبعنوانية لا تتصور وذلك:

- من خلال "إعادة الاعتبار للفرنسية" التي كانت سيدة الموقف بلا منازع على كل من العربية الفصحى، والعامية والأمازيغية من الأخرين اللتين جعلهما منقضى إيكورن السابق ذكره بديلا عن لغة القرآن كما ذكرنا ثمربها لتكريس الفرنسية.

ومن خلال "اللائكية" التي جاءت "حامية للدين" عند RCD.

وسنلتصر الحديث عن الفرنسية كممارسة التي تولدت عن التفتح كشعار، وعن الدكتاتوريات التي ولدت من صلب "الصراحة والديمقراطية" وعن "اللائكية الإسلامية".

أ- الفرنسية : لقد كانت الفرنسية لغة التخاطب والحوار بين الأغلبية الساحقة من المؤتمرين الذين طالب مندوبوهم بإعادة الاعتبار لها لأسباب فنية وعلمية معتبرين أن التفتح على العالم لا يمكنه أن يتعم إلا من خلال كوة الفرنكفونية. بل إن العالم هو فرنسا والدويلات الضعيفة السائرة في فلكها، ورأوا أن التعريب خطرا على الجزائر وأنه سبب هجرة الأدمغة الجزائرية. وإذن فلا بد من التخلي عن التعريب وإعادة الاعتبار للفرنسية<sup>(1)</sup>. ولقد بلغت كراهة التجمع للعروبة وحفده الدفين على العرب إلى تقرير "فلا شيء يربط التجمع بالعالم العربي" وأن "الشعب الجزائري ليس عربيا بالضرورة شئنا أم أيننا". و"أن جامعة الدول العربية مجرد خرافة لأنها تريد أن تجمع دولا ليس كل شعوبها عربا، وهي مبنية على أساس عنصري"<sup>(2)</sup>، و"أن التجمع وإن كان يساند الشعب الفلسطيني، فإنه لا يسانده لأنه شعب عربي كما يقول البعض، ولا لأن إسرائيل شعب يهودي، وإنما المسألة تتعلق بشعب يبحث عن مكانة تحت الشمس"<sup>(3)</sup>، ونحن لا نستغرب هذا من سعيد سعدي الذي بيننا قبلا علاقته وصداقته مع سفير الكيان الصهيوني بباريس.

#### ب- الدكتاتورية :

- لقد اشترط في المناقشة العامة أن لا يخالف المتدخلون رأي المؤسسين لـ RCD فإن قال المؤسسون "الأمازيغية لغة وطنية دستورا" حرم على كل متدخل مخالفة ذلك حتى ولو كان لا يعرف الأمازيغية أصلا. وإذا قالوا "اللائكية" تحتم على الجميع ترديد ذلك حتى ولو كان أغلبهم لا يدرك معناها.

- منع مندوبو RCD من الحديث إلى رجال الإعلام، وتأكد أن عددا منهم لم يكن يعرف حتى أنه ينتمي إلى حزب على الإطلاق، وجاء إلى العاصمة باحثا عن تاريخ الأجداد الأمازيغ.

- الفصل من الحزب يتم دون المرور عن لجنة إنضباط أو لجنة إثبات العضوية للمؤتمر، بل ودون الاستماع إلى رأي المفصول فيما ينسب إليه من خصمه.

ج- اللائكية : ديمقراطية RCD لا تتحمل حتى رائحة الشك في ثوابته فبمجرد تساؤل مندوب في "المناقشة العامة" : ألا يشكل إعتناق العلمانية خطرا على الإسلام الذي هو دين الأغلبية العظمى لشعبنا؟

<sup>(1)</sup>شير حمادي، جريدة الشعب، 1989/12/26، عن أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 331 - 333 .

<sup>(2)</sup>نعمان الناقص، أن يزعم هنا عن جامعة الدول العربية ويقوم RCD نفسه على التصريح القاتلة .

<sup>(3)</sup>المرجع السابق، ص 333 - 334 .



ناطحه رئيس المؤتمر بقوله : "إن ثوابت RCD هي الأمازيغية والعلمانية، ولا شيء غيرهما؛ لأنه قام لأجلهما ولأجلهما فقط . وبدونهما فإن RCD يعتبر معوقا وبدون رجلين، وبالتالي فإنه لا يتحرك، ولن يذهب بعيدا، ومن يعارض أحد هذين الثابتين فما عليه إلا الإنسحاب... ويظهر أن بعض الإخوة أخطأوا الباب، وما عليهم إلا طرق أبواب أخرى غير باب R.C.D".

وهكذا لم يتم RCD لا من أجل الثقافة ولا الديمقراطية بل من أجل الأمازيغية واللانكية ولأجلهما فقط<sup>(1)</sup>. ويزيد هذا تأكيدا ما أجاب به سعيد سعدي أثناء هذا المؤتمر الصحافة الوطنية عندما سألته عن المادة 2 في الدستور التي تنص على أن "دين الدولة الإسلام". فقال: هذه المادة لم تعرف إلا بعد سنة 1962م. بمعنى أن الجزائر كانت قبل هذا التاريخ دولة لانكية فارتدت عن المسار الصحيح فأصبحت بعد الإستقلال تنص في قوانينها على الإسلام - وكان الجزائر كانت دولة مستقلة، ولكنه يفتني أثر مثله الأعلى وملهمه فرنسا- ولقد تناسى أن الثورة الجزائرية قامت بإسم الجهاد فجرها مسلمون أمثال العقيد عميروش الذي إستشهد وفي جيبه المصحف الشريف والعربي بن مهدي وغيرهما. هؤلاء العظماء الذين صاغوا توجهه ثورتهم، في بيان أول نوفمبر 1954 الخالد، والذي جاء فيه بالخصوص إقامة حكومة جزائرية .. داخل إطار المبادئ الإسلامية وتحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطار العروبة والإسلام. ثم إن المادة 2 التي تضمنها دستور 1989 صادق عليها الشعب في إستفتاء نوفمبر 1988م.

ولسنا ندري كيف يهتف بأن السيادة تعود للشعب وحده من جهة، ثم يستهزئ بمشاعر هذا الشعب من جهة أخرى؟!.

وأما عندما سئل عن "اللانكية" فأجاب: بأن شيخ الجامع أو شيخ الدشرة يجب أن يبقى في دائرته أي في "المسجد" كما كان ذلك في السابق ولا يتدخل في الشؤون السياسية والإقتصادية للبلاد ... وهذا يعني بوضوح أن التدين بالإسلام يفقد صاحبه حقوقه المدنية؛ لأنه لا يمنع من التدخل في الشؤون السياسية إلا من كان محروما من الحقوق المدنية نتيجة ارتكاب جريمة سجن بسببها، مما يعني أن التدين جريمة من الجرائم الكبرى التي تسقط لمقترفيها حقوقه المدنية.

والواقع أن الشيخ الجامع لم يكن في السابق محصورا في جامع، إلى حد أن هناك بعض القرى "تودرين" من القبائل الكبرى إلى يومنا هذا مازال شيخ الجامع هو الذي يترأس الجمعية العامة للقبيلة المسماة بـ "تجمعيت" وهو الذي ترجع له الكلمة الأخيرة وفي الفصل بين المنازعات الواقعة في حدود قبيلته<sup>(2)</sup>.

ونذيل حديثنا عن هذا المؤتمر الأول بالإشارة إلى :

تدخل ممثل الحزب الإشتراكي الفرنسي في هذا المؤتمر، وأشاد بأعمال RCD وعبر عن مساندة حزبه الكاملة له وقال بالحرف الواحد : " إستمروا في عملكم، فإننا معكم"، كما أشادت الوكالة الفرنسية للأتباء بلائكيته وأمازيغيته وإعادة الإعتبار للغة الفرنسية<sup>(3)</sup>.

(1) المرجع السابق، ص 334 - 335 .

(2) لوطان ص. ب . ذراع بن عفة، جريدة الشعب 1989/12/21 م، عن أحمد بن نعمان، المرجع السابق . ص 335-336 .

(3) همد سليمان بوكراع، لا علاقة بين حزب علمان والإماضية، جريدة الشعب، الجزائر، 1990/01/30 م. عن أحمد بن نعمان، المرجع السابق ، ص 341 .

## المرجعيات الأساسية لـ RCD

لقد نكرنا أن المؤتمر الأول لـ RCD حدد فيه وبين أنه قام من أجل الأمازيغية واللاكنية ولأجلها فقط، وإذا أردنا الدقة أكثر قلنا: إنه قام من أجل الفرنسية واللاكنية، وهنا نساءل: عن المرجعيات الأساسية لـ RCD في هذا؟ ويجيبنا سعيد سعدي بأن مرجعياته الأساسية أربعة، هي:

- ميثاق الثورة .

- الدولة الديمقراطية.

- الحداثة .

- المجتمع وتحولاته من خلال الثقافة والأمال.

هذه المرجعيات كلها تصب في الوثيقة السابقة: الفرنسية واللاكنية كما نلاحظ. ولنقدم ما سمعناه من سعيد سعدي نفسه من خلال حصة "الجلس" (1)، وملتزم نفس الترتيب الذي ورد في الحصة رغم الخلط والتكوار وذلك ليعطينا فكرة عن قدرة سعيد الفكرية وحججه.

### المرجعية الأولى: ميثاق الثورة

- بيان أول نوفمبر: قال: دولة ديمقراطية في إطار مبادئ إسلامية ولم يقولوا قوانين إسلامية. إذن بيان أول نوفمبر قرر اللاكنية.

- أرضية مؤتمر الصومام: الثورة الجزائرية ضد النظام الاستعماري، وليست حرباً دينية، هي إقامة دولة جمهورية لا ملكية ولا ثيوقراطية. - وقد رجعنا نحن إلى ميثاق الصومام فوجدناه ينص في صفحته الرابعة كما يأتي: ".... إنها معركة وطنية تسعى لهدم النظام الفوضوي الذي ينتهجه الاستعمار، وليست حرباً دينية، إنها مسيرة إلى الأمام في الاتجاه التاريخي للإنسانية، وليست عودة إلى الإقطاع (2) وهي أخيراً معركة لإحياء (3) دولة جزائرية تحت كل جمهورية ديمقراطية وإجتماعية، وليست إقامة نظام ملكي أو توفراطي مندثر - (4)".

- فصل الدين عن السياسة: هي واقع، في القرية شيخ الجامع مهمته في الجامع، وهناك شخص آخر يسير أمور الدنيا. فإذن هذه التقاليد قائمة، ونحن فقط قررناها كما هي في الواقع. لا نقبل أن يأتي رئيس حزب ديني ويقول: أطبق برنامج حزبي ديني على الجميع (5).  
برنامج طرابلس: لم ينص على إقامة دولة إسلامية.

(1) وهي الحصة المقدمة في التلفزيون الجزائري بتاريخ 27 أبريل 1998 م الساعة 45 : 10 ليلا، تقديم ومحاورة فضيل بومالة.

(2) يبدو أن هذا مغالطة للإمام السوفيني آنذاك .

(3) كلمة إحياء لها معنيها، ذلك أن النص لم يقل إقامة، بل إحياء، مما يعني الوضع في السبيل التاريخي للدولة الجزائرية المسلمة، فهو إحياء لها واستمرار، وهذا فإنه يكون لا علاقة للنس باللاكنية.

(4) جهالة مؤلف الصومام ، ص 4 .

(5) ولكن لماذا يبره سعيد أن يفرض برنامج اللاكني الفرنسيون على الجميع؟ .

## المرجعية الثانية: الدولة الديمقراطية

ما المقصود بها؟ الرجوع إلى مبادئ نوفمبر - وهذا لم يستعمل قوانين بل مبادئ وهو تناقض - وطرابلس والصومام. لكن ما المقصود بالديمقراطية في بيان أول نوفمبر؟

أ- السيادة الوطنية.

ب- مراقبة الشعب على السلطة.

ج- العدالة الاجتماعية<sup>(1)</sup>.

ولتحقيق الديمقراطية لابد من تغيير المدرسة الجزائرية<sup>(2)</sup>. ويتبع هذا قائلا: "لم أفهم معنى إتجاه إسلامي أو حزب إسلامي في بلد مسلم - ونحن نتساءل هنا: كيف نفهم معنى إتجاه مسيحي أو حزب مسيحي في بلد مسيحي؟ وإتجاه أمازيغي أو حزب أمازيغي في بلد أمازيغي؟! وسعيد سعدي القائل "من ليس بربريا ليس جزائريا"<sup>(7)</sup>.

## المرجعية الثالثة: الحداثة والعصرنة:

أي تحديث المجتمع، ماذا تقصد بها؟ والسؤال لبومالة. يجيب: الإسلام ضد حرية المرأة والديمقراطية. العصرنة مرتبطة بمبدأين:

أ- **الهوية**: جميع العناصر الموجودة في التاريخ الجزائري.

ب- **اللائكية**: عدم الخلط بين الدين والسياسة. والله العظيم إلى الآن ما نعرف التجربة الفرنسية في مجال اللائكية بدقة، ولكن وجدنا في القرية شيخ الجامع وحده وشيخ الجماعة وحده. إعترض بومالسة قائلا: لكن هل هذا صحيح؟ كثير من التقاليد غير صحيحة. أجاب: هذه التقاليد موجودة منذ 14 قرنا من أجدادنا. فهو إذن صحيح. شيخ القرية عندما يقع مشكل في القرية مثلا "أيعقبوا الطريق أو الماء" وشيخ الجامع له دور آخر في المسجد. إعترض عليه بومالسة قائلا: هل يمكنك بناء دولة عصرية بمؤسساتها سنة 2000 بهذا التفكير التقليدي البسيط؟ هل يمكن لمياسة من دون دين أن تسير الشعب الجزائري؟ فأجاب: بأن الدين له دور. ولكن الحياة السياسية اليومية لا يتدخل فيها الدين.

الخلاصة: لازم الدولة رسمية تسير بمؤسساتها بعيدا عن الدين كما وقع منذ 14 قرنا وأن الدين الإسلامي نأخذه فقط من التجربة الجزائرية وحدها -إسلام جزائري- إذن الفصل بين الدين والسياسة. إذن شيخ الجامع مهمته داخل الجامع، وشيخ الجماعة مهمته خارج الجامع، إذن لماذا نضع تقاليد مثل هذه<sup>(4)</sup>؟ إعترض عليه بومالسة قائلا: هل يمكن تكوين دولة حديثة في سنة 2000 بهذه التقاليد؟. أجاب: هذه التقاليد يمكن للمختصين دراستها، ولكنها لا يمكن أن "نطيشها". إعترض عليه بومالسة قائلا: تقول: لا

<sup>(1)</sup> كيف يرمع المادة بالعدالة الاجتماعية وهو أول من طالب بالعدالة كما إحترف هو بنفسه قائلا: " طلبنا نحن قبلا بالعدالة (مسعيد سعدي) التلفزيون الجزائري، يوم 1995/10/23، الساعة 40: 19".

<sup>(2)</sup> والسبب إما حسب زعمهم انتحت الأصولية، ولذا فلا بد من تغييرها لتصبح اللائكية وكان أتباعه لم يتخرجوا منها، إذن هذه المدرسة يجب أن تغير لأن النظام التبروي أدى حسب زعمه إلى التحلل (المرجع السابق).

<sup>(7)</sup> عثمان سعدي، الأمازيغ، ص 190.

<sup>(4)</sup> يعني ترك القرآن والسنة والتاريخ الإسلام والمسلمين وتبع التقاليد، وهذا على فرض أنها موجودة بالفعل.

يدخل الدين في السياسة، لكن إذا عزل عنها هل تصلح من الناحية الأخلاقية؟ هل يمكن للشعب الجزائري أن يخضع لسياسة غير متدنية؟. أجاب : "دور الدين خاص، هو الذي يقوم به شيخ الجامع في القرية، المسؤول الديني يجب أن لا يدخل في الحياة اليومية".

والواقع في نظرنا أن هذه الفقرة الأخيرة، هي خلاصة الخلاصة. ولكنها ناقصة. ولكي تصبح متكاملة يضاف إليها : " وأن اللا ديني هو الذي يسير شيخ الجامع في الجامع ذاته ويحدد مهامه ودوره داخله".  
المرجعية الرابعة : المجتمع وتحولاته من خلال الثقافة والآمال<sup>(1)</sup> : وهذه لم يشرحها سعدي ولذلك لن نتعرض إليها.

#### تقييم مرجعيات سعيد سعدي

نبدأ بتقييمنا لمرجعيات سعدي بالمرجعية الأولى " بيان أول نوفمبر" الذي قال : في إطار " مبادئ إسلامية" ولم يقولوا : "قوانين إسلامية" مما جعله يتوصل إلى أن بيان أول نوفمبر قرر اللانكيسة. فنجد أن هذه المغالطة تدل على جهل أو تجاهل صاحبها بمصطلحات المعارف والعلوم، وهو ما يجعلنا نضبط مفهومي " المبادئ والقوانين" لتتضح لنا مغالطته.

فـ"المبادئ" جمع مبدأ، وهو الأصل والبدائية والإبتداء<sup>(2)</sup>، و"يقال لكل ما يكون قد استتم له وجود في نفسه. إما عن ذاته وإما عن غيره، ثم يحصل عنه وجود شيء آخر ويقوم به"<sup>(3)</sup>، ومبادئ العلوم هي مسائلها الرئيسية<sup>(4)</sup>، وهي المقدمات التي تنتهي الأدلة والحجج إليها من الضروريات والمسلمات. وهي بخلاف المسائل لا تحتاج إلى البرهان في حين تثبت المسائل بالبرهان القاطع<sup>(5)</sup>. ومن معانيها أنها "تطلق على ما يعتقد المرء من المبادئ التي توجه عمله، كمبادئ السياسة ومبادئ الأخلاق... فهي قواعد ومعايير عملية تبنى عليها قيم الأعمال"<sup>(6)</sup>.

ومما سبق نتوصل إلى أن مبادئ الإسلام هي قواعد ومعايير وأركانه التي تبنى عليها الحياة من أصغر صغيرها ككيفية الأكل إلى أعقد كبيرها كالحروب والسلام والمعاهدات الدولية في شؤون الإقتصاد والسياسة، وتنظيم شؤون الدولة ونظام الحكم، إلخ وخلاصة ما سبق أن "مبادئ الإسلام هي قواعد الأساسية التي يقوم عليها"<sup>(7)</sup>.

وأما القوانين : فإنها "جمع قانون"، وهو كلمة سريانية بمعنى المسطرة، ثم نقل إلى القضية الكلية من حيث يستخرج بها أحكام جزئيات المحكوم عليه فيها. وتسمى تلك القضية أصلاً وقاعدة<sup>(8)</sup>، وقيل : " هو أمر

(1) سعيد سعدي، حصة المجلس، المرجع السابق .

(2) عبد النعم الحفني، المعجم الفلسفي، ط 1، دار ابن زيدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة ، 1992 ، ص 247

(3) ابن سينا الحسين أبو علي، النخبة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، ط2، مطبعة السعادة ، مصر، 1938 م، ص 343 - 344 .

(4) عبد النعم الحفني، المعجم الفلسفي ، ص 247 .

(5) البرحاني علي بن حمد، التبرهات ، ط1، دار التونسية للنشر، تونس، 1971 ، ص 105 .

(6) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973 م، ص 321 - 322 .

(7) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي، لاروس، 1989 ، ص 136 .

(8) عبد النعم الحفني، المعجم الفلسفي، ص 204 .

كلى منطق على جميع جزئياته التي تتعرف أحكامها منه...<sup>(1)</sup>. ويدل مصطلح قانون أساسا على معيار مادي يقاس عليه أو يعمل به، ثم أطلق على كل ما يقدر به فكريا أو روحيا<sup>(2)</sup>، وهو بوجه عام : قاعدة يعمل بها ويسار عليها، ومصدرها العرف والمجتمع أو الشرع وأوامر الله. وتسمى الأولى وضعية والثانية إلهية؛ لأنها عن إرادة الله<sup>(3)</sup>.

ومن خلال ما سبق يتبين أن القانون مرادف للمعيار والقاعدة<sup>(4)</sup>، وهو بهذا المعنى يتوافق تماما مع المعنى العملي الذي يدل عليه مصطلح مبدأ، مما يجعل سعيد سعدي يتخبط ضابط عشواء؛ لأن التعبير بمبادئ الإسلام يدل قوانين الإسلام لا يعني اللاتكيفية بحال من الأحوال. بل نجد - إذا دققنا التمهيص - أن كلمة مبادئ أدق وأشمل من كلمة قانون، ولا سيما أن المبادئ تمتاز بالثبات وأنها أساس لكل ما ينبني عليها. بينما القانون يمكن أن يتسم بالتغيير. وهكذا كان سعدي يهرف بما لا يعرف. ولا أدل على هذا أن بيان أول نوفمبر لم ينص على "في إطار الأمازيغية"، فلماذا إذن خالف سعدي هذا البند الأساسي من بيان أول نوفمبر؟ وهنا نغتم بعض الملاحظات تكملة لما ذكرناه، هي :

- لو فرضنا أن ميثاق الثورة قررت اللاتكيفية مثل مؤتمر الصومال وبرنامج طرابلس - وهذا غير صحيح كما سنبين - فإن مؤتمر الصومال وبرنامج طرابلس هما وجهة نظر زعماء لا إرادة شعب. لكن مؤتمر طرابلس قرر الاشتراكية. فلماذا يخالفه سعدي وينادي بالرأسمالية. بل يعد أول من نساد بالجدولة بإعترافه هو<sup>(5)</sup> !؟.

- مؤتمر طرابلس قرر مبدأ الحزب الواحد. فلماذا ينادي هو بالتعددية؟ إذا طبقنا منهج سعدي عليه قلنا: هو يعتبرهم أخطأوا في البندين الأخيرين - الاشتراكية ومبدأ الحزب الواحد - ونحن نعتبرهم أخطأوا فيما زعم أنه مرجعية فيه.

- بيان أول نوفمبر نص على عروبة الشمال الإفريقي، فلماذا يكفر سعدي بالعروبة؟  
- مادامت ميثاق الثورة مرجعية فمن أين أتى بالأمازيغية؟ لأنه لا واحد من ميثاق الثورة إعتددها أو أشار إليها مجرد إشارة. وإذن فإنها أنت من الجهة المعاكسة للثورة وميثاقها.

- عدم إشارة جميع ميثاق الثورة إلى البعد الأمازيغي دليل واضح على أن الذين فجروا الثورة وشاركوا فيها قيادة وتسييرا وممارسة لم يكن هذا البعد موجودا في أذهانهم. وهم لا أحد يشك في إخلاصهم ووطنيتهم. بل إلى حد أننا مدينون لهم. فإن الأمازيغية فكرة مخربة لا علاقة لها بالوطنية، بل بضدها. وإلا لتبناها رجال الثورة في ميثاق الثورة الأساسية الثلاثة، - وقد بينا قبلا وجود الفكرة قبل الثورة - ولكن الذي تبناها بل وأنشأها أعداء أولئك الرجال وهي فرنسا، بل الذي تبناه أولئك الرجال: العروبة والإسلام. وقد نص برنامج طرابلس صراحة على أن الإستعمار الفرنسي في سنة

(1) المرحان علي بن محمد، الثورات، ص 91 .

(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983 م، ص 144 .

(3) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، ص 144 - 145 .

(4) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، ص 179 .

(5) وقد صرح علما في الملتقى الجزائري يوم 23 / 10 / 1995 م، في الساعة 40 : 19 نالا : " طلبنا نحن قبلا بالجدولة ".

1830م إنما كان لإحلال الشعب الفرنسي بدل الشعب الجزائري بعد إبادته، وأن فرنسا قررت الفعل بنا مثلما فعل بالهنود الحمر.

- والإسلام والعروبة هما اللذان مكنا الشعب الجزائري من الصمود في الأربعين سنة الأولى للإحتلال التي كان مقررا فيها إبادة الشعب الجزائري ففوتت الفرصة على فرنسا، وظل الإسلام والعروبة أساس الثورات والوطنية إلى أن استقلت الجزائر<sup>(1)</sup>.

- ونعود إلى الحديث عن مواطن إستدلال سعدي من :

#### مؤثر الصومام

فدري بأن نص هذا المؤتمر على أن : حرب الجزائر ليست حربا دينية لا علاقة له باللائكية البتة، ذلك أن الحرب الدينية لا وجود لها في الإسلام؛ لأنها هي ما يقع بين فرق الدين الواحد لأغراض دينية كما هو الحال في الصراعات التي نشبت داخل الفرق النصرانية وهو ما أشرنا إلى بعض منه قبلا، وكما هو الحال في الصراع الحالي بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية. وهو ما يجعل مفهوم الحرب الدينية مصطلحا نصرانيا محضاً.

أما الإسلام فإن فيه الجهاد لإعلاء كلمة الله وحماية بيضة المسلمين، وهو ليس موجها ضد أي دين من الأديان. بل موجه ضد ظلم أهل أي دين للمسلمين. فهو يقاوم الظالمين منهم دون غيرهم. ولا أدل على هذا من أن الإسلام يحرم على المسلمين أثناء حروبهم ضد أعدائهم المساس ببيع وكنائس أهل الكتاب وصددهم عن دينهم وإجبارهم على إعتناق الإسلام، كما يحرم مس رجال دينهم وأطفالهم ونسائهم ورجالهم الذين لم يشاركوا في ظلم المسلمين، وكذا المساس بأملأهم. فالإسلام شرعا يوفر لكل هؤلاء الحرية الدينية التامة، بل الأكثر من هذا يضمن لهم حرية التقاضي أمام محاكمهم الخاصة وفقا لشريعتهم، وهذا يعد جزءا أساسيا من الشريعة الإسلامية التي أجبرتنا فرنسا الكاثوليكية على التخلي عنها. ويعمل سعدي سعدي بلا هوادة لإجبارنا على التخلي عنها. وقد قال ما سبق ليقنعنا بأن نصوص الثورة الجزائرية هي التي قررت اللائكية.

ويخلص ما ذكرناه سابقا. وهو ما وقع في التاريخ الإسلامي. قول الله عز وجل ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون(2) ﴾ .

ومن هنا فإن الذين حرروا وثيقة الصومام أدركوا هذه الحقيقة، وقرروا وفقا لما يقرره الإسلام: أن الثورة الجزائرية إنما هي موجهة فقط ضد الذين إستعمرونا وخرّبوا بلادنا، وذلك بهدف تحريرنا منهم.

(1) توماس طرابلس، ص 12 .

(2) المصحف / 9.8 .

والنتيجة التي نتوصل إليها أن حرب الجزائر إنما كانت جهادا ضد -فقط- الذين إستعمرونا وظلمونا. ولا أدل على صحة هذا من أن مؤتمر الصومام إحتوى على فصل موجه لليهود المقيمين بالجزائر، وفصل آخر موجه للنصارى المقيمين بالجزائر، وهو ما ينسجم تماما مع الآية السابقة.

ولما المغالطة الأخرى التي أوردها سعدي فهي ماورد في مؤتمر الصومام من أنه يهدف إلى تكوين دولة ليست تيوقراطية: فنتساءل: كيف يستدل على رفض مؤتمر الصومام للنظام التيوقراطي على لائكية الثورة ووثائقها؟ إن النظام التيوقراطي لا علاقة له بمفهوم الدولة في الإسلام. ونتحدى أي إنسان بما في ذلك سعدي أن يأتينا بورود هذا المصطلح في التاريخ الإسلامي كله، أو في كتب الفقه أو السياسة الشرعية. وإنما هو مصطلح كنسي ذو علاقة بمفهوم الدولة وفقا لتصور الكنيسة. وأما الإسلام فإن الدولة فيه تسمى إسلامية. حاكمها مدني؛ أي ليس معصوما، بل يخضع كما تخضع جميع الرعية للشرعية الإسلامية. ومن هنا فلو نص مؤتمر الصومام على إقامة دولة تيوقراطية لكان ذلك مهزلة ما بعدها مهزلة.

نضيف إلى ما سبق أن مؤتمر الصومام ذو طابع إستراتيجي، ويظهر هذا جليا من بنوده. ففيه جوانب موجهة إلى الشعب الجزائري بمختلف إتجاهاته الفكرية والسياسية، وجانب موجه إلى الأوروبيين المقيمين بالجزائر وهم نصارى، وجانب موجه إلى اليهود المقيمين بالجزائر، وجانب موجه إلى فرنسا الإستعمارية، وجانب موجه إلى ما يسمى اليوم الشرعية الدولية. فهل يقل أن يقول مؤتمر الصومام لليهود والنصارى: ساعدونا لإقامة دولة تيوقراطية؟ إن خطاب مؤتمر الصومام يحمل طابع الإستراتيجية التي يبحث أصحابها عن كسب أنصار لا فقدان أصدقاء.

#### برنامج طرابلس

ما قرره برنامج طرابلس شينان جوهريان يعمل سعدي ضدهما بينان تهافت إدعائه بكون برنامج طرابلس من مرجعيته في اللائكية. أحدهما يتعلق باللغة العربية والثاني باللائكية.

ما يتعلق باللغة العربية: قرر برنامج طرابلس أن الثقافة الجزائرية أساسها اللغة العربية وحدها، فتحت عنوان: " من أجل تحديد جديد للثقافة ... إن الثقافة الجزائرية ستكون قومية ثورية وعلمية " وورد: " إن دررها كثافة قومية يتمثل بالدرجة الأولى في أن تعيد للغة العربية التي هي: التعبير الكامل عن القيم الثقافية لبلادنا وكرامتها وفعاليتها كلفة حضارية، من أجل هذا سنعمل على بعث وتقييم ورفع مكانة تراثنا الثقافي وأدابه الإنسانية القديمة والحديثة والتعريف بها من أجل إعادة دمجها في الحياة الثقافية وفي تربية الإحساس الشعبي، وسنحارب تلك النزعة الثقافية التي تنتسب إلى عالمية بورجوازية مشوهة ومطبوعة بالطابع الغربي والتي ساهمت في جعل كثير من الجزائريين يحتقرون لغتهم وقيمهم القومية ... " (1).

ولما ما يتعلق باللائكية، فقد قرر برنامج طرابلس رفض لائكية سعدي المتمثلة في حصر الإسلام داخل المسجد، أو شيخ الجامع وشيخ القرية، وقد نص حرفيا على ما يأتي: " ... حقا نحن ننتسب للحضارة

الإسلامية التي طبعت تاريخ الإنسانية بشكل عميق ثابت. ولكن مما يضر بهذه الحضارة نفسها أن نعتقد بأن بعضها متوقف على بعض الصيغ الذاتية البسيطة في السلوك العام وفي ممارسة الشعائر الدينية - وهذه هي صلاحيات شيخ الجامع حسب سعدي - إن هذا يعني الجهل بأن الحضارة الإسلامية كبناء عملي للمجتمع قد بدأت وتواصلت زمنا طويلا، بمجهود إيجابي شاق على الصعيدين المزدوج للعمل والفكر والإقتصاد والثقافة، وفوق هذا فإن روح الاستكشاف التي كانت تحركها وإفئادها العقلي على العلم والثقافة الأجنبية والروح العالمية السائدة في ذلك العصر. قد خلقت تبادلات مثمرا بينها وبين الحضارات الأخرى، وقد كانت هذه المقاييس للخلق والتنظيم الفعال الناجع للقيم والمكاسب هي التي جعلت الحضارة الإسلامية تساهم مساهمة واسعة في التقدم الإنساني في الماضي. ومن هنا يجب أن يبدأ كل إنبعث حقيقي... إن الإسلام في نظرنا بعد تخليصه من البدع والخرافات التي خنقته وغطت جوهره طويلا يجب أن يتجسد بجانب الناحية الدينية ذاتها في عاملين أساسيين : الثقافة والشخصية<sup>(1)</sup>.

وهكذا يقرر برنامج طرابلس أن الإسلام نظام حياة، لأن الثقافة بالمفهوم الأنثروبولوجي تشمل كل ظاهرة من ظواهر المجتمع، ناهيك عن الشخصية إذا تجسد فيها الإسلام. فإنه يصبح ملهما في كل صغيرة وكبيرة.

### تفصيل

وهكذا يقرر برنامج طرابلس أن الإسلام ليس محصورا داخل الجامع وحده. وهذا يدعونا إلى تفهيم مزايم سعيد سعدي فيما يتعلق بشيخ الجامع وشيخ القرية.

### فضة شيخ الجامع وشيخ القرية:

يلاحظ بأن أغلب جهات الوطن الجزائري لم تكن فيها الثنائية بين شيخ الجامع وشيخ القرية، ومنطقة القبائل - لو فرضنا وجود الثنائية بها وفقا لما زعمه سعدي - فإنها ليست حجة. ومع ذلك فإنه في كثير من الأحيان كان شيخ الجامع، يجمع السلطتين ولقد ذكرنا قبلا أن بعض القرى من القبائل الكبرى مازال إلى يومنا هذا شيخ الجامع هو الذي يرأس الجمعية العامة لها، وهو الذي ترجع إليه الكلمة الأخيرة في الفصل في المنازعات الواقعة في حدود قريته. وحتى وجود الثنائية فإن المعروف في بلاد القبائل أن السلطة العليا لا لشيخ الجامع ولا لشيخ القرية؛ بل للطريقة الصوفية، ومن أهم تلك الطرق. الطريقة الرحمانية التي لا نظن أن سعدي يجهلها وبهذا فإن كلا من شيخ القرية وشيخ الجامع يخضعان معا للسلطة الروحية المتمثلة في الطريقة الصوفية، والطريقة الصوفية كانت تشمل الجانبين الدنيوي والديني، وقد بينا في أوضاع الجزائر الثقافية والاجتماعية أن بنية المجتمع الجزائري برمتها إنما كانت تقوم على التصوف. فهو الذي يضبط ويتحكم في البنية الاجتماعية للمجتمع، وهكذا يتهاوت ما يزعمه سعدي. ويزيدنا يقينا : رفض القبائل الكبرى التي ينتمي إليها سعدي للانكبة، ولقد أشرنا قبلا إلى العريضة التي تقدم بها رجال زواوة الكبرى بعلمائها وأعيانها أي بشيوخ جوامعها وشيوخ قراها معبرين عن مطالبهم ومطالب عامتهم بإرجاع الشريعة الإسلامية إلى ربوعهم ولا سيما قانون الأسرة الذي يبذل سعدي النفس والنفس لإلغائه. وإذا كان هذا حال القبائل الكبرى فإن ارتباط الفئات البربرية الأخرى بالشريعة الإسلامية لا يقل عنهم.



ومن هذه الفئات الإباضية الذين هم أمازيغ يرفضون اللائكية وقد بين أحدهم هذا - هو محمد سليمان بوكراع من معهد الحقوق بجامعة الجزائر<sup>(1)</sup> - بحق، مينا تهافت دعوى RCD بعلاقته بهم. وما ورد في مقالة أن الإباضيين جماعة مسلمة أسوا أول دولة جمهورية طبقت الشريعة الإسلامية في الجزائر، وهي الدولة الرستمية التي بلغت ذروة التطور في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية، ولا زالت الإباضية إلى اليوم جماعة إسلامية متمسكة أكثر من غيرها بالشريعة الإسلامية قولا وعملا، وتطبقها في حياتها اليومية سواء فيما يتعلق بالأسرة أو بالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية. وهم يدعون إلى التمسك بالقرآن والسنة وإتباع شريعة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ومن المبادئ الأساسية في حياتهم العامة هو نظام الولاية والبراءة عملا بقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾<sup>(2)</sup>. ولهذه الآية أبعاد دينية واجتماعية وسياسية. وتتوصل من هذا إلى أن ولاء الإباضية عامة هو ولاء للإسلام<sup>(3)</sup>. وهم إلى الآن إنما يسوسهم فيما تسمح به الدولة أعلمهم بالسالدين وأتقاهم، وبلغه سعيد سعدي، بسوسهم شيخ الجامع لا شيخ القرية.

عندما يقول سعدي بأن اللائكية موجودة عندنا منذ 14 قرنا، فهذا يعني أن الرسول ﷺ أول من أتى باللائكية، فيكون أول لائكي في التاريخ. وهذا كفر بواح، ولا يقول به حتى المجانين، وهنا إذا كان ذلك كذلك فلماذا لم يجعلوا سعدي قذوته؟ وما يؤسف له أن سعدي يكذب. فيدعي أن الفصل بين الدين والدولة حدث في الجزائر منذ 14 قرنا، مما يعني أن كل الدول التي تأسست في بلادنا خلال كل هذه الفترة كان حكامها لائكيين، وأن دايات الجزائر كانوا لائكيين، وأن الأمير عبد القادر كان لائكيا، وأن لالا فاطمة نسومر كانت لائكية. فهل كل هؤلاء وغيرهم يمثلون شيخ القرية أم شيخ الجامع؟!.

إن ما يستغرب له أن ينتقل سعدي فجأة من متخصص في الأمراض النفسية، إلى محلل كبير للتاريخ، لتاريخ لم يدرسه ولم يعرفه. وأنى له ذلك، وهو التاريخ الإسلامي الذي يزعم أنه رجع إليه فوجده لائكيا وهو يجهل أداة فهمه وهي اللغة العربية؟ كيف فهمه دون أن يفهم أداة فهمه وهي اللغة؟ ورغم هذا يزعم أن كل حكامه كانوا لائكيين. وهو كما قلنا يجهل اللغة التي كتب بها ذلك التاريخ والدين الذي صنع ذلك التاريخ. ويكفي تنفيذا لمزعم سعدي أن اركون قرر أنه لم يحدث فصل في التاريخ الإسلامي بين الدين والدولة كما وقع في الغرب<sup>(4)</sup>.

وأول فصل وقع في الجزائر بين الدين والدولة إنما تم في سنة 1907م، من طرف فرنسا، وقد طبق بمفهومين أحدهما عدم التدخل في شؤون الدين أي حرية الدين، وطبق هذا على النصرانية واليهودية. وثانيهما التحكم في الدين وتوجيهه لخدمة أهداف الإستعمار. وطبق هذا على الإسلام، وهو ما جعل جمعية العلماء تحارب هذا المفهوم، وهو المفهوم ذاته الذي يريد سعدي تطبيقه على الإسلام.

<sup>(1)</sup> وذلك في مقال له بحريفة كسب في 1990/01/30 م تحت عنوان "لا علاقة بين حزب علمان والإباضية" عن أحمد بن تسان، المربع السابق، ص 334-339.

<sup>(2)</sup> المصحف / 4 .

<sup>(3)</sup> محمد سليمان بوكراع، المربع السابق، عن أحمد بن تسان، المربع السابق، ص 339 - 342 .

<sup>(4)</sup> أحمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد وإحسان، ص 138 .

- سعدي متناقض، فهو من جهة يجعل مرجعيته الحداثته، ومن جهة أخرى التقليد الأعمى للأجداد، حيث يقول : منذ 14 قرنا شيخ الجامع في الجامع وشيخ القرية له مجال آخر... ونحن لسنا أحسن من أجدادنا، ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾<sup>(1)</sup>

ثم كيف يمكن التوفيق بين الحداثة والأمازيغية؟ ثم ما هي الحداثة؟ ولا سيما أن الغرب حرم ويحرم علينا الجانب الإيجابي منها أعني التكنولوجيا. والدليل على هذا : العراق. فما هي إذن الحداثة، التي يريدونها سعدي؟ هل إباحة تعدد الأزواج أم الإجهاض أم ماذا؟! إن مفهوم الحداثة عنده ينحصر في:

إمراة في ارض الإسلام تتكلم عن الحرية، رجل دين يتكلم عن الديمقراطية، ديمقراطي يتكلم عن الدين ولكن يرفض الأصولية، وهذه حداثة<sup>(2)</sup>. ببساطة : الحداثة تساوي رفض الإسلام بأصوله وفروعه والإرتماء بالخصوص في أحضان فرنسا كعبيد عملاء لا كسادة مساوين، وكيف يسوي بين التابع والمتبوع؟! فمن ينكر بعد اليوم قدرة سعدي على الخلق والإبداع؟!

والواقع أن اللاتكية في الجزائر والعالم الإسلامي هي أحد أكبر معوقات الحداثة؛ لأنه بدل أن يتجه المجتمع إلى إكتساب التكنولوجيا ليتحرر ويحرر، نجده يوجه من طرف أمثال سعدي ليغرق في حرية المرأة والمساواة وإباحة الإجهاض وتقنين الزنا وإجبار المرأة على كشف جسدها<sup>(3)</sup> إلخ.

وما يؤسف له، أنه في الوقت الذي تقرر فيه الأمم المتحدة للإنسان، أي إنسان، بأن من حقوقه الحق في السياسة، نجد سعدي ينكر هذا الحق بدكتاتورية عمياء على شيخ الجامع ويحرمه منه لا لشيء سوى لأنه متدين، بمعنى أن المتدين لا تتوفر فيه شروط المواطنة، ولا خصائص الإنسان.

بل يصبح التدين بهذا المفهوم مرادفا للإجرام لأن الشخص الذي لا يحق له الإستغلال بالسياسة هو الذي حكم علي و أدين فحرم من حقوقه المديونة.

هذا هو الإستعمار الذي يحرم الشعوب من حقها في حكم نفسها وفقا لتصورها. ولكن هذا الشيخ للجمع إذا كان يخدم هوى سعدي فإنه لا يحرم من هذا الحق. وهذا ما يصدق على إمام مسجد مرسيليا المتخرج من معهد أصول الدين بالجزائر العاصمة والمنخرط في RCD. وهذا يعني بوضوح أن شيخ الجامع إذا كان يدعو إلى الإسلام الصحيح فهذا يجب أن يدمر بحرمانه قهرا من هذا الحق والواجب الشرعي، وإن كان منحرفا يدعو إلى اللاتكية، فهذا يجب ان توفر له الحرية المطلقة ليهدم الدين والقيم.

وهكذا فإن حرمان شيخ الجامع الحقيقي من حق ممارسة السياسة إنما هو تبرير للدكتاتورية ضد الإسلام مما يجعل اللاتكية عند العرب والمسلمين وسيلة لقهر شعوبهم وإستعبادها وحكمها بالحديد والنار، وهي تدخل ضمن المخطط العالمي لتحريف المسلمين قهرا بدليل أن مصدر لاتكية أتاتورك وسعدي فرنسا، ومصدر لاتكية علي عبد الرازق بريطانيا الغير لاتكية وهذا عجب عجاب.

(1) الأعراف / 22 .

(2) سعدي سعدي، حصة الخليلي، الرشح السابق.

(3) ومن الأمثلة على هذا ما يجري في تركيا هذه الأيام (أفريل أو ماي 1999) من قرار الجيش التركي بمنع إمراة مسلمة متحجة لبحث في الإنتخابات البرلمانية من دخول البرلمان إلا بعد كشف شعرها بحجة مخالفة غطاء شعرها للاتكية. هذا في الوقت الذي تحدد اليونان مصاغ الأستراتيجية في بحر إيجه. أي بدل أن يتجه الجيش إلى حماية مصالح بلده يتجه إلى إظهار إمراة ناضجة ظاهرا على كشف شعرها. هذه هي الحداثة السطحية والتركبة على السواء. ولكن لا عجب فمصدرها واحد هو فرنسا.

والواقع أن اللائكية فكرة أجنبية ليست وطنية ولا أصيلة، بل هي إستعمارية، مما يجعل اللائكية في بلاد المسلمين مجرد محاكين ومقلدين للغرب، وهذه رجعية ولا حداثة؛ لأن التطور إنما يقوم على الإبداع لا على التقليد والمحاكاة. وما يؤسف له أن اللائكية في بلاد المسلمين لا يقتادون بأسياهم الفرنسيين حتى في موقفهم من الدين، ذلك أن اللائكيين الفرنسيين يسمون رجال دينهم بالقدسيين (Saint) بل يطلقون هذا اللقب الديني حتى على عظمائهم من غير رجال الدين تيمنا بالدين وتقديسا له. بينما اللائكيون العرب ومنهم سعدي لاهم لهم سوى محاربة الدين الإسلامي ورجالها. وإذا كان أولئك يسمون رجال دينهم وعظمائهم بالقدسيين، فإن هؤلاء يسمون رجال دينهم بالمتطرفين والأصوليين والظلاميين والإسلاميين وما إلى ذلك من النعوت القبيحة. وإحتقار هؤلاء إنما هو ناتج عن إحتقارهم للإسلام وعدم الإيمان به أصلا، وإلا كيف يحصر الإسلام في شيخ الجامع. فمتى كان شيخ الجامع هو مصدر الإسلام؟ إن الإسلام ليس هو شيخ الجامع ولا شيخ القرية، بل هو القرآن الكريم والسنة النبوية، هو سيرة خاتم الأنبياء. فهل وصل بسعدي إحتقار الإسلام إلى حصره في شيخ الجامع الذي هو في أساسه معلم صبيان، وكان أحيانا لا يكاد يفقه من الدين شيئا؟.

إن الذي يمثل الإسلام إنما هو محمد رسول الله ﷺ، فهل كان نشاطه ﷺ محصورا داخل المسجد وكنان معه شيخ الجماعة ينظم ويسير الأمور خارج المسجد؟ فهل نترك الرسول ﷺ ونتبع نظام القرية التي ولد بها سعيد سعدي وتخضع جميع المسلمين في جميع بقاع الأرض كرها إلى نظامها ونسير منذنا الكبرى ودولنا به؟ وهو نظام كما بينا، ليس كما زعم سعدي. بل شيخ القرية نفسه كان يخضع لسلطة أكبر هي الطريقة الصوفية وهذا ما لم ينتبه إليه - أو لم يرد أن ينتبه إليه - سعدي.

ونقول لسعدي هنا على سبيل المداعبة - وقد كان واقعا بالفعل - أن من مهام شيخ الجامع مثلا أنه كان يخطط البرانس، فهل خياطة البرانس إذن تعد جزءا من السلطة الدينية؟ وهل قانون الأسرة كان يرجع فيه إلى الشيخ الجامع أم إلى الشيخ القرية؟ والجواب بيقين أنه كان يرجع فيه إلى شيخ الجامع. فكيف إذن يخالف سعدي تقاليد الأجداد منذ 14 قرنا وهو ليس شيخ جامع، - بل يمثل حسب فلسفته شيخ القرية - لينزع من شيخ الجامع شيئا يعد من صميم دائرة إختصاصه. فلماذا يحارب سعدي إذن قانون الأسرة؟ وهكذا نجد سعدي لا ينسجم مع مزاعمه.

ونتساءل أيضا: هل الأمير عبد القادر الذي تسلم الراية من العثمانيين يمثل شيخ الجامع أم شيخ القرية؟ وهل لالا فاطمة نسومر تمثل شيخ الجامع أم شيخ القرية؟ ونحن نعرف الجواب، وسعدي يعرفه. ولكن الغاية عنده تبرر الوساطة، مما جعل ذهنه يتفتق بوحى من فرنسا لإحياء فكرة من أفكارها مكلمة لفكرة شيخ القرية وشيخ الجامع، هي مناداته بإسلام جزائري، يعني فصله عن محمد ﷺ وعن جميع المسلمين الذين يعدون الإمتداد الطبيعي والإستراتيجي للجزائر بغية إضعاف الجزائريين من جميع الجوانب ليقعوا فريسة سهلة لملمهته فرنسا، وإلا لماذا لم ينادي الفرنسيون مثلا بنصرانية فرنسية؟ لماذا لا يقتدي بهم وهم قنوته ومثله الأعلى؟!.

والواقع أن "إسلام جزائري" إنما هو فكرة فرنسية محضة نادت بها فرنسا أيام إستعمارها المباشر للجزائر، وهو ما بينه محمد البشير الإبراهيمي قائلا: "الإسلام الجزائري هو غاية كان يعمل لها الإستعمار الفرنسي، بجميع الوسائل ليفصل على مر الزمن بين مسلمي الجزائر وبين بقية المسلمين ولكن الله خيب أمله"<sup>(1)</sup>

وما هي تحاول من جديد إحياءها بواسطة سعدي. وما الذي يمنع سعدي من ذلك، وكل ما يتبناه من أمازيغية ولانكية وفرنسية إنما هو فرنسي محض كما ذكرنا قبلا. وما هي فرنسا تثير للجزائر مشكلة أخرى في السياق نفسه لتحقيق مخططاتها بواسطة عملائها. وهذا يدعونا إلى الحديث عن أحداث تيزي وزو الثانية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) محمد البشير الإبراهيمي، آثار...، ج2، هامش، ص 43.

## الفصل الثامن

### أحداث تيزي وزو الثانية 1998

**سببها المباشر:** هو اغتيال المغني القبائلي معطوب الوناس<sup>(1)</sup>، وذلك يوم الخميس في الساعة (4: 13)، 25 جوان 1998، في الطريق الرابط بين بني دواله وتيزي وزو بتالة بهنان أثناء رجوعه إلى بيته بتوريرت موسى، دائرة بني دواله<sup>(2)</sup>.

وهنا نطرح السؤال الآتي: من قتله؟ وبعبارة أوضح من له مصلحة في قتله؟

والجواب في نظرنا، - وهو جواب تحليلي لا قضائي - أنه لا الإسلاميون لهم مصلحة في قتله ولا النظام، وذلك لأن الوقت الذي أُغتيل فيه لا يخدم أيا منهما. ذلك أن الذي اغتاله إنما اختار له وقتا حساسا ودقيقا، هو وقت تطبيق قانون استعمال اللغة العربية، والمعارض الجوهرى لهذا القانون، هم دعاة الحركة البربرية من R.C.D و F.F.S و M.C.B.

ولقد أخذ هؤلاء قبل اغتياله في إصدار البيانات المعارضة لتطبيق قانون التعريب وكتابة المقالات في ذلك.

ولما كانت أكبر جهة معارضة له هي تيزي وزو وبجاية، فكان لابد من تحريك بلاد القبائل الكبرى لتوقف تطبيق هذا القانون، ولكي تقف وقفة رجل واحد، كان لابد من حدث كبير يهزها هزا، أي كان لابد من أحداث الصدمة المطلوبة التي من شأنها تجنيد أكبر عدد من الناس حول مطلب إلغاء قانون التعريب<sup>(3)</sup>. وكان هذا الحدث الكبير هو اغتيال معطوب الوناس. وهو ما يجعلنا نعتقد أحد مغتاليه هم دعاة الحركة البربرية أنفسهم ليحققوا هدفهم في إلغاء قانون التعريب، والتاريخ مليء بالأحداث المشابهة التي تبين أنه ضحي بشخص أو أشخاص لتحقيق أهداف أكبر، وهل هناك أكبر بالنسبة للحركة البربرية من منع اللغة العربية الفصحى من الوجود؟. ويؤكد تصورنا هذا أنه سبق أن اختطف معطوب في سبتمبر 1994. واتهمت آنذاك الحركة الإسلامية المسلحة باختطافه. ولكنه بعد مدة من إطلاق سراحه كشف بعض رموز اللجان الوطنية لـ M.C.B ومنهم جمال زناتي، أن عملية الإختطاف كانت مجرد سيناريو

(1) ولد سنة 1956م بتوريرت بمون، مقيم تأثر برواد الأغنية القبائلية كالحسناري وسليمان عازم، ثم بالغناء الشعبي والموسيقى الأندلسية وفي التسعينيات تحول إلى فنان وحسودى بين مؤسسات الغنية نتيجة نشله في حياته الزوجية، يطلب على أغانيه الطابع السياسي والدعوة إلى الثورة ومهاجمة النظام الحاكم، شارك في أحداث تيزي وزو الأول، وقدم في عمله أغنية فريدة لتاريخ الثورة، حيث تحدث عن الإختلالات التي حدثت خلالها للقبائليين - دون غمهم - ظل يهاجم النظام الحاكم في أغانيه، وفي سنة 1994م غنى في اليوم بعنوان "كوة" من "العائلة التي تقدم" مهاجما الإسلاميين، محاولا تلخيص المواقف التي حالت دون قيام لعب لانيكي (1) - كان الناطق الرسمي لدعاة الجرار اللاتينية الديمقراطية المتصعدة للثورة (2) ولقد كرمته فرنسا بجائزة "الذاكرة" سلمتها له السيدة دانيال ميتران زوجة الرئيس الفرنسي يوم 6 ديسمبر 1994م، في السربون بباريس (3) - وكان آخر اليوم له "نسمة الخفيفة" وهي أغنية يحسبها الشهيد الوطني قسما ولكنها سب للمجاهدين والإسلام والعروبة - ومن المفارقات أنه دفن وحمل في وسط علم الجزائر وهو نفس العلم الذي قطعه وحمله زملاؤه في حوار تيزي وزو (4) (1) حميد عبد القادر، فنان في مصاف المثقفين الملتزمين، جريدة الخبر، الجزائر، 27 جوان 1998، ع 2303، ص 4. (2) (4) فرانسوا لوبيرات، القبائل ضد الإسلاميين، ضد حكومة الجزائر، فهار وماغازين، جويلية 1998، عن رسالة الأطلس، باتنة، 13-19 جويلية 1998، ع 197، ص 4. (3) جريدة للسان، الجزائر 27 أكتوبر 1994م، ع 2788، ص 1، والجريدة ذكرت أن المجازة ستسلم له يوم 6 ديسمبر المقبل، لأن 27 أكتوبر قبل 6 ديسمبر بثمانية.

(2) ب. سهيل، بعد أربعة أعوام من حادثة إختطافه، معطوب الوناس يتكلم في كمين قرب بني دواله، جريدة الخبر، الجزائر 27 جوان 1998، ع 2303، ص 4.

(3) س. ترقية في الصحيفي أحداثه منظمة القبائل، رسالة الأطلس، 6-12 جويلية 1998، ع 196، ص 4.

قام به R.C.D لإضعاف F.F.S وأخذ منطقة القبائل منه بعد تعبئتها بقوة لإطلاق سراحه، لأنه لو وقع حادثة بين أيدي "الجيا" فمن المستحيل إطلاق سراحه وعودته سالماً<sup>(1)</sup>.

وعندما نعلم أن F.F.S كان مطلعاً على سر عملية اختطاف معطوب سنة 1994 ونعلم اقتناعه بضموع R.C.D في اغتياله<sup>(2)</sup> يزداد يقيننا بأن أصحابه جعلوه كبش فداء لضرب قانون التعريب. ولا سيما أن المنطقة التي أعتيل بها كل أهلها مسلحون ضد الإسلاميين، فمن ذا الذي يجروء على الذهاب إلى ذلك المكان وبذلك العدد (8 أشخاص حسب شهادة زوجة معطوب التي كانت معه في السيارة) وينفذ عملية الإعتيال ثم يفر، فإلى أين الفرار وكل أهل المنطقة مسلحون؟.

ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه، تبادل التهم بين R.C.D و FFS و MCB حول اغتياله، وحول سيران أحداث العنف. ففي الوقت الذي يتهم فيه سعدي الإسلاميين بقتله (جماعة حسان خطاب)<sup>(3)</sup> أثبتت شائعة يمكن أن يكون RCD وراءها تتهم FFS بأن المجموعة التي اغتالت معطوب أويبت عند عائلة ينتمي أحد أفرادها إلى FFS كما أشيع أيضاً أن FFS سرب مناضليه وسط المتظاهرين للتحريض على أحداث العنف، وهو ما جعل الأمين العام بالنيابة لـ FFS أحمد جداعي يعبر عن إندهاشه من هاتين الشائعتين<sup>(4)</sup>.

وأخيراً - وهو من الأهمية بمكان - موقف RCD من لقاء FFS بالرئيس زروال، فقد أعلن RCD أن لقاء FFS بالرئيس زروال أجهض أكبر مشروع ديمقراطي. وأكبر مشروع لا يمكن أن يكون قد أُعد بعد الإعتيال، وإذن لماذا لا يكون الإعتيال هو اللبنة الأولى في ذلك المشروع، فأفسده FFS بعودة المنطقة إلى الهدوء بعد لقائه بالرئيس زروال؟

والواقع أن المراقبين يرون بأن قيام RCD أو جناح منه أو عناصر فيه بتخطيط وتنفيذ عملية إعتيال معطوب أمر وارد جداً، وذلك بحكم تكون RCD من جمعيات ومنظمات متطرفة إرهابية، لا تعترف بغير العنف وسيلة لتحقيق أهدافها، ويستولون على ذلك أيضاً بعملية اختطاف معطوب السابق ذكرها، والتي زعم RCD يومها أنها من تدبير الجماعات الإسلامية المسلحة، ولكنه اتضح فيما بعد وبشهادة FFS أنها كانت عملية مفبركة فيما بين المخطوف نفسه و RCD وحركة الثقافة البربرية التابعة له، وذلك لأغراض معينة.

ومن هنا فإن اتهام سعدي لـ FFS بالمشاركة في الاغتيال عن طريق أحد مناضليه الذي التحق بجماعة حسان خطاب بنفس المنطقة التي يسكنها معطوب، وبعد أقل من يومين من هذا الإتهام ظهر في لندن بيان بإسم خطاب هذا يتبنى عملية الإعتيال:

(1) رسالة الأطلس، 10-16 أوت 1998م، ع 201، ص 2.

(2) شكوك معينة حول إعتيال الوتراس، (بعون توثيق رسالة الأطلس، 12-18 أكتوبر 1998، ع 210، ص 2).

(3) وقد صدر بيان من لندن، بتوقيع حسان خطاب باعتباره أمر " المنطقة الثانية للحيا" تني فيه الإعتيال (جمال الدين حرير، أحداث وأحداث: وقائع صيف لم ينته ... جريسة الحمر، السبت 4 جويلية 1998، ع 2309، ص 2). ولكن البيان في ظل هذه الظروف مشكوك فيه، إذ يستطيع أي إنسان كتابة بيان، وبوقته بإسم مسن برينسد، وبوسيلة إلى الصحافة.

(4) أحمد خطاب، جريسة الحمر، السبت 4 جويلية 1998، ع 2309، ص 2.

حمل كثيرين على الاعتقاد بأن هذا البيان من فبركة RCD لا غير، وهو ما جعل FFS يطالب<sup>(1)</sup> بلجنة تحقيق دولية لكشف الحقائق وأبعاد هذا الإغتيال<sup>(2)</sup>.

والنتيجة مما سبق، أن معطوب جعل كبش فداء لتحقيق أهداف معينة، وهذا يدعونا إلى الحديث عن السبب الحقيقي لأحداث تيزي وزو الثانية.

السبب الحقيقي لأحداث تيزي وزو (وبجاية) الثانية: السبب الحقيقي لها هو منع تطبيق قانون التعريب الذي كان سيرفع عنه الحظر والتجميد ابتداء من 5 جويلية 1998م، ذلك أن رئيس الجمهورية اليمين زروال وقع على الأمر 30-96 المؤرخ في 21 ديسمبر 1996 الذي حدد تاريخ 5 جويلية 1998 كأخر أجل لدخول قانون تعميم استعمال اللغة العربية حيز التطبيق، وحدد سنة 2000 كأخر أجل لاستكمال تعريب مختلف فروع التعليم الجامعي. هذا القانون بدئ النقاش حوله في المجلس الشعبي الوطني في عهد الحزب الواحد وتوج النقاش بالمصادقة عليه وصدر القانون في الجريدة الرسمية بتوقيع الرئيس الشاذلي بن جديد، لكن تطور الأوضاع السياسية وسيطرة الجناح الإستتصالي - جعل حزب فرنسا يتمكن من إصدار مرسوم تشريعي يجمد قانون التعريب، وذلك في عهد رئيس المجلس الأعلى للدولة محمد بوضياف، الذي اغتيل يوم 29 جوان 1992، فوقع المرسوم خلفه علي كافي بتاريخ 4 جويلية 1992م. ولما قرب تاريخ رفع الحظر عنه والتجميد أثار أعداء العروبة والإسلام ضجة ضده كانت تزداد حدة كلما قرب الموعد، أي قبيل اغتيال معطوب بقليل. وقد قاد هذه الحملة ضد اللغة العربية كل من RCD و FFS<sup>(3)</sup>.

ويزداد يقيننا بأن السبب الحقيقي لأحداث تيزي وزو (وبجاية) الثانية هو إلغاء قانون التعريب، وأن معطوب كان كبش فداء كما ذكرنا قبلا، أن هذه الأحداث على ضخامتها وعنفا وإرهابها تتوسى فيها معطوب من طرف مؤيرها وتصدرها المطالبة بإلغاء قانون التعريب، وكأنه هو الذي إغتال معطوب. وهذا يدعون إلى الحديث عن محتوى هذه الأحداث.

#### محتوى الأحداث

على إثر اغتيال معطوب احتتم ببجاية مسؤولو الحركة الثقافية البربرية وقرروا اتخاذ عدة إجراءات بالتنسيق مع طلبة الحي الجامعي، منها تنظيم تجمع شعبي أمام مقر الولاية، وإضراب عام عبر كامل تراب الولاية للتنديد بعملية الإغتيال<sup>(4)</sup>.

وأما تيزي وزو فقد عادت بعد اغتيال معطوب مباشرة، أي يوم الخميس 25 جوان 1998 إلى أجواء

(1) م. د. لراة في تفاصيل أحداث منطقة القبائل، فمجلس معطوب تونس بين الأرسيدى والأطلس، رسالة الأطلس، 6-12 جويلية 1998، ع 196، ص 4.

(2) أحمد جناحي، حوار مع رسالة الأطلس، حواره م. بوسلي، 6-12 جويلية 1998، ع 196، ص 5.

(3) أ. وليلة بعد سبع سنوات من التجميد قانون تعميم العربية يعمل مرحلته الخامسة، جريدة الخبر، الإثنين 6 جويلية 1998، ع 2310، ص 2.

(4) ع. رمضان، بجاية مع صاحب الصديق أفرق المدينة في حزن، جريدة الخبر، 27 جوان 1998، ع 2033، ص 4.

أحداثها سنة 1980م، وخريف 1985<sup>(1)</sup> حين اعتقلت أغلب رموز الحركة الثقافية البربرية. وقد تميزت هذه الأحداث بكل ما يتصور من إرهاب ووحشية من:

إتلاف وتكسير بنايات عمومية وسرقة ونهب وحرق وقتل : وهاهو ملخص الأحداث :

بعد انتشار خبر الإغتيال مباشرة زحف سكان الولاية نحو مدينة تيزي وزو وحولوها إلى مدينة مينة، فأغلقت محلاتها بنسبة 100% ولم يبق منذ الساعة 14 من زوال الخميس سوى شوارع المتطاهرين الذين صبوا جام غضبهم على النظام، وألقوا بكامل حجارتهم على المقرات العمومية من وكالات الخطوط الجوية الجزائرية، وصندوق الضمان الإجتماعي، و"سونالغاز"، والوكالات البنكية، ومحافظة الغابات، والأروقة الجزائرية... كما تعرضت هذه المحلات للحرق والإتلاف وسرقة كل التجهيزات المتواجدة بها. كما أتلفت حجارة المتظاهرين وقضبانهم الحديدية اشارات المرور ولافتات المحلات التجارية- المغربية دون المغربية ودون المخمرات- والأعمدة المحيطة بمبنى دار العدالة بوسط المدينة وحديقة الساحة المركزية للمدينة ومقر منظمة أبناء الشهداء الذي حطمت نوافذه.

أما دائرة بني دوال فقد تعرضت هي أيضا إلى ما تعرضت إليه تيزي وزو من أحداث كسر وإتلاف طيلة أسبوع الخميس. وعلى إثر هذا فقد أوقفت قوات الأمن 4 أشخاص في تيزي وزو و 15 في بني دوال ولكنه أطلق سراح الجميع في اليوم نفسه.

والشيء نفسه شهدته دائرة الأربعاء ناث ايراثل، حيث نظمت بها مسيرة استمرت إلى غاية منتصف ليلة الخميس- وكان البلاد لا يحكمها قانون الطوارئ- وبعد طلوع الفجر اتجه متظاهروها إلى تيزي وزو. استمرت أحداث العنف والمظاهرات إلى منتصف نهار الجمعة، تدخلت قوات الأمن لتغلق مداخل الشوارع الرئيسي لمدينة تيزي وزو.

وفي صبيحة يوم السبت (27 جوان 1998) تجددت المظاهرات وأحداث العنف وذلك استجابة لنداء الإضراب العام الذي دعت إليه اللجان الوطنية للحركة الثقافية البربرية وكذلك فيدرالية FFS بتيزي وزو التي شهد مقرها توافد عدد من مناضليه يتقدمهم النائب مصطفى بوهاندف، وكان من ضمن ما صرح به: "انتفاضة سكان القبائل مشروعة وأحث عليها"، لكنه دعا السكان إلى "التزام الحذر والتعبير السلمي عن غضبهم وتضامنهم مع عائلة معطوب"<sup>(2)</sup>. كما صدر بيان لـ FFS وقعه أحمد جداعي الأمين العام للحزب بالنيابة، دعا فيه المواطنين إلى التعبير عن غضبهم بالطرق السلمية والتزام الحذر وإفشال كل المحاولات والإستقزازات الرامية إلى زعزعة المنطقة. وهو نفس ما أصدرته فيدرالية FFS ببيجاية. كما دعت MCB ببيجاية إلى تنظيم إضراب عام في هذا اليوم<sup>(3)</sup> (السبت 27 جوان 1998).

(1) أحداث العنف في خريف 1985م حملها طلبا للإحصار.

(2) 1. مباشرة بعد إغتيال تيزي وزو تسترجع أسماء أربع 80، جريدة الخبر، 27 جوان 1998م، ع2303، ص5.

(3) د. رهاوي، إسهام وإستكثار للحركة، جريدة الخبر، 27 جوان 1998م، ص4.



أما قيادة RCD فقد دعت أيضا رفقة تسيقية MCB إلى إضراب عام يوم الأحد 28 جوان. ودعا أيضا لتنظيم احتجاج المواطنين المشروع والذي لا يمكن حرمانهم منه<sup>(1)</sup>.

وعلى إثر كل هذا تجددت المظاهرات والعنف يوم السبت. قُتل شاب ذو 18 سنة برصاصة مجهولة في الساعة 13:30 قرب المحطة البرية لتيزي وزو، كما بين بيان وزارة الداخلية وشهد به المتظاهرون المتواجدون في عين المكان، وذلك لأن قوات الأمن المتواجدة هناك لم تستعمل السلاح منذ يوم الخميس 25 جوان رغم المساس بالأماكن العمومية حيث تحلت بالحكمة والترثيث لكن -يضيف بيان وزارة الداخلية- ينبغي أن لا يغفل أحد من تواجد المجموعات الإرهابية التي اغتالت الفقيه معطوب الوناس لتحقيق هدف جلي والتي تعد كل الحسابات للمساس بأمن المواطنين<sup>(2)</sup>. -وما يستغرب له أن بيان وزارة الداخلية يدل أن يذكر المتظاهرين بحالة الطوارئ ذهب يتوعد إليهم ويحذرهم من الإرهابيين، وكان تحطيم أملاك عمومية وقتل شاب ليس إرهابيا-.

وقتل شاب آخر بسيدي عيش حسب بيان وزارة الداخلية، كما قُتل ثالث بتازمالت. حيث توفي يوم الأحد 28 جوان 1998 في الساعة 11 صباحا. وذلك أثناء قيام مجموعة من الشباب بأعمال التخريب. وبذلك بلغ عدد القتلى ثلاثة<sup>(3)</sup>.

ويجب الإشارة هنا إلى أن FFS اتهم إسماعيل ميرة (ابن الشهيد عبد الرحمان ميرة) رئيس بلدية تازمالت (RCD) وزعيم المقاومة في بجاية. حيث اتهمه أحمد جداعي صراحة في ندوة صحفية بقتل الشاب واعلي الذي توفي في تازمالت -كما ذكرنا- وقد كذب ميرة اتهام FFS له<sup>(4)</sup>.

وعلى كل فقد ظلت أعمال التدمير والعنف إلى أن دفن معطوب يوم الأحد. واختير لدفنه مكان قرب قصره بين شجرة تين وشجرة كرز. وكان آلاف المواطنين والمواطنات اللواتي ارتدين الزي القبائلي الملون بالأصفر والأزرق والأخضر قد أحاطوا بمنزله مردين مقاطع من نشيده -الأوطني المناقض للنشيد الوطني الرسمي-<sup>(5)</sup>.

وفي هذا اليوم -الأحد- وجه رئيس الحكومة أحمد أويحي نداء إلى سكان ولايتي بجاية وتيزي وزو يدعوهم فيه إلى إيقاف أحداث الشغب والعنف. وهذا يجعلنا نشير إلى موقف الحكومة مما وقع.

#### موقف الحكومة من الإغتيال وأحداث الشغب

يترجمها دعوة أويحي السابق ذكرها إلى سكان بجاية وتيزي وزو إلى التعقل والرزانة معترفا بما وقع من أحداث عنف دعا إلى تركها. وذلك صباح الأحد 28 جوان 1998. أي يوم دفن معطوب، وذلك بمناسبة افتتاحه أشغال الندوة الوطنية للتربية بقصر الأمم بنادي الصنوبر، ومما قاله: "إننا وأمام هذه

<sup>(1)</sup> هـ. المرجع نفسه، ص 5.

<sup>(2)</sup> جريدة النصر، الأحد 28 جوان 1998، ص 389، ص 1-2.

<sup>(3)</sup> جريدة النصر، الإثنين 29 جوان 1998، ص 390، ص الأسماء.

<sup>(4)</sup> ج. رضوان، جريدة النصر، السبت 4 جويلية 1998، ص 4.

<sup>(5)</sup> جريدة النصر، 29 جوان 1998، ص 1.

الأوضاع نتساءل كجزائريين ونسأل اخواننا سكان ولايتي تيزي وزو وبجاية في صالح من هذا التكسير وتحطيم مرافق اجتماعية واقتصادية التي تخدم المواطن؟. في صالح من خلق أوضاع الفوضى وإعطاء فرص لإغتيالات مواطن سقط بالأمس رحمه الله على مستوى المحطة في تيزي وزو برمي مجهول حتى عند المواطنين الذين حملوا جثمان الضحية؟ في صالح من خلق الفوضى والمساس بالمؤسسات مثل الأمن في محكمة سيدي عيش وجعل الظروف تؤدي إلى إسقاط أرواح عن طريق الحوادث مثل الشباب الذي سقط كذلك في سيدي عيش..."، إلى أن يقول: ".. أمام هذه الأوضاع أتوجه باسم الحكومة كطاقم مسؤول وكجزائريين قبل كل شيء إلى اخواننا وأخواتنا سكان ولايتي تيزي وبجاية بنداء للتعقل، نداء باسم الجزائر وفي فائدة الجزائر، أتوجه إليهم بنداء للرزنة ونداء في صالح الجزائر والجزائر فقط... فهذا النداء موجه إلى الشباب إلى المنتخبين إلى العقلاء إلى رجال القوى السياسية على مستوى هاتين الولايتين للقيام بالواجب، وهو نداء في التحكم في الأوضاع والتعقل والإبتعاد عن تدمير ممتلكات الجزائر والإبتعاد بالرزنة والوعي عن إعطاء الفرص لأعداء الجزائر حفاظا على أرواح أبناء هذا الشعب الكريم..." إلى أن يقول: "... وكان تعبير استياء وحزن واستنكار مواطني سكان ولاية تيزي وزو وولاية بجاية أمرا تهمته السلطات العمومية وأوضاعا حرصت على مطالبتها بالتحكم عن طريق التعليمات والأوامر التي أعطيت لجميع أسلاك الأمن.

لكن خطوة بعد خطوة ومع الأسف إنتقل التعبير عن الغضب والإستنكار إلى تدمير ممتلكات عمومية وإلى خلق أوضاع تتميز بالفوضى، أوضاع تفتح المجال أمام كل المناورات وأمام كل الحسابات للمجرمين المعروفين وكل القوى التي تحاول ضرب استقرار الجزائر، والجزائر فقط<sup>(1)</sup>.

بعد استعراضنا لموقف الحكومة نعود إلى جريان الأحداث، فنجد أن بجاية بلغت في يوم الأحد هذا أعمال الشغب والتخريب النروية في كثير من مدن الولاية ومنها أقبو (أكبر بلدية في الولاية) فقد صورها بعض العائدين منها بحال بيروت عام 1982 كما شهد وسط بجاية، و اغزر أمقران وكازمالت وسيدي عيش والقصر وأميزور نفس المشهد الدراماتي. وأما تيزي وزو فقد ظلت آثار التخريب تشهد على حدة التدمير الذي اجتاحت المدينة يوم السبت إلى يوم الإثنين. وهوامس كثيرا من مدن الولاية كفريجة وغيرها.

وأما البويرة ففي قرية غافور بدائرة مشدالة وقعت مشادات بين المتظاهرين ورجال الأمن أصيب خلالها 13 مواطنا بجروح<sup>(2)</sup>. وأما مدينة البويرة فقد وقعت بها محاولات تخريب، ولكنها فشلت لأنها لم تلق استجابة من المواطنين، وهذا عكس ما رجته بعض الصحف مثل جريدة الخبر التي ذكرت أن مدينة البويرة عرفت مظاهرات تحولت إلى أعمال تخريبية إلخ. وبهذا بلغ حسب الصحف 3 قتلى و 13 جريحا في هذه الأحداث.

(1) جريدة النهار، 29 جوان 1998، ص3، وقد قدم الخطاب كاملا في التلفزيون الجزائري في اليوم نفسه الذي ألقى فيه (الأحد) بعد نشرة الساعة مساء.

(2) جريدة الخبر، 29 جوان 1998، ص3.

وتشير هنا إلى أن هذا العنف لم يسلم منه حتى بعض رؤساء الأحزاب الذين ذهبوا لحضور مراسم الدفن يوم الأحد<sup>(1)</sup>.

وإذا كان سعيد سعدي قد وجد صعوبة في إلقاء كلمته وسط صفارات الجمع الحاشد، فإن الشخصيات السياسية الأخرى التي حضرت مراسم الدفن قوبلت بالرفض والعنف، فرضا مالك رئيس حزب التحالف "جمهوري (لائكي متطرف) ضرب بحجرة في رأسه، ونور الدين بوكروح رئيس حزب التجديد الجزائري اضطر حرسه الخاص لإطلاق النار قصد إبعاد الحشود التي حاولت محاصرته. وقد أدت هذه المشادات إلى جرح مواطنين نقلوا فوراً إلى المستشفى<sup>(2)</sup>.

ومن الأماكن التي تعرضت للإعتداء والكسر والحرق خلال هذه الأحداث المساجد، ومنها مسجد أوقاس بولاية بجاية الذي اعتدى عليه بعض المتظاهرين فمزقوا مصاحفه وحرقوها وسجاده ونواقذه وأبوابه، وتذكر مصادر موثوقة أنه قبل اغتيال معطوب بأسبوع وصلت باخرة من فرنسا إلى ميناء بجاية، فأهدى إلى جميع ركابها بفرنسا أناجيل وأشرطة تنصيرية.

وفي خضم هذه الأحداث، يصرح سعدي بأن أحداث العنف التي أعقبت مقتل معطوب شرعية: ومما قاله: "إن ثورة وهيجان الشباب المتظاهرين شرعية، إنه في الوقت الذي كان ينهار فيه الوطن قام الوناس، وفي الوقت الذي تفقد فيه الجزائر مصداقيتها على الساحة الدولية أعاد لها صورتها - ولسنا ندري كيف وماذا؟! - من خلال اغتيالهم لمعطوب أراد الإسلاميون ضرب الضمائر بتصفية رمز الحرية"<sup>(3)</sup>.

وما يستغرب له أن سعدي يعتبر أحداث العنف تلك شرعية، ومن جهة أخرى يتهم FFS بالتصعيد<sup>(4)</sup>، فأي تناقض هذا؟! والأغرب من هذا أن RCD بهذه المناسبة، مناسبة اغتيال معطوب:

بطلب رخصة لتنظيم مسيرة ضد قانون التعريب: وهكذا تحولت جنازة معطوب من التتديد بالإرهاب إلى التعبير عن رفض قانون التعريب والمطالبة بجعل القبائلية (تحت غطاء الأمازيغية) لغة وطنية، ولهذا الغرض تقدم RCD بطلب رخصة تنظيم مسيرة يوم الخميس 02 جويلية 1998 بالجزائر العاصمة: "من أجل التتديد باحتقار السلطة لحداد الشعب أمام اغتيال معطوب وإلغاء قانون التعريب". ولكن الجهات المعنية رفضت منح الرخصة بسبب المسلك المختار والمؤدي إلى رئاسة الجمهورية، ومع ذلك تجمع عشرات الأرسديين لهذا الغرض ففرقتهم قوات الأمن ليتوجهوا إلى مقر حزب سعيد سعدي<sup>(5)</sup>، وقد أدى هذا التفريق إلى مواجهة الأرسديين لقوات الأمن، فرشقوها بالحجارة دون أن ترد عليهم بشيء، ولكنها

(1) واسم نوري لذا احتج يوم الأحد للدفن، وقد ذكر لنا أحد المواطنين المهم كانوا ينتظرون حضور رئيس فرنسا جاك شيراك، ولا يتسوا إنتظروا وزيره الأول ولكن لم يهضر أحد، كما لم يأتوا لأنه لم يسلم ولم يكن ولم يصل عليه، وقد أظهر التلفزيون الجزائري مراسم الدفن فلم يرى الكفن، كما أنه لم يدفن في المقبرة بل في حديقة فمسرة بتاوريرت موسى بن شعرة بين وشعرة كوز.

(2) الخبر، الإثنين، 29 جوان 1998، ص3.

(3) سعيد سعدي، جريدة الخبر، السبت 4 جويلية 1998، ع2309، ص2.

(4) جمال الدين حريرا، أحداث وأحداث: ولاتج صيف لم ينته الخبر، السبت 4 جويلية 1998، ع2309، ص2.

(5) المرجع نفسه، ص2، ومرسل، سعيد في مسرة تحولت إلى مجمع، جريدة الخبر، العدد السابق، ص4.

أجرتهم على التراجع الذي جرح خلاله شخصان بجروح خفيفة. ولقد لخص بيان محافظة الجزائر تكبرى المسيرة وسبب منعها ونتائجها فيما يأتي: "إن مسيرة تم تنظيمها من طرف RCD يوم الخميس 02 جويلية 1998 بالعاصمة، وكان الترخيص لهذه المسيرة مرتبطا بتغيير اتجاهها، لكن لم يستجب المنظمون لهذا الشرط مما أوجب منعها وفقا للقانون، وخلال تجمع المتظاهرين البالغ عددهم حوالي 300 شخص. ثلاثة عناصر من الشرطة جرحوا بفعل رمي الحجارة، كما تعرض زجاج سيارات الشرطة للكرس<sup>(1)</sup>. خلال هذه المسيرة ندد بالتعريب وبأيت أحمد باعتباره حليفا للإسلاميين، وبالإسلاميين. كما أطلق سعدي في هذا التجمع سهامه على النحاح معلنا في ختام حديثه عن "مبادرات لمواجهة مرسوم تعميم استعمال اللغة العربية"<sup>(2)</sup>. وفي هذا اليوم (02 جويلية 1998) أعلنت الحركة البربرية المسلحة عن وجودها في بيان أصدرته وتوعدت فيه بالانتقام لموت معطوب ومحاكمة الذين يطبقون قانون التعريب<sup>(3)</sup>. وعلى كل، فإنه بعد عودة الهدوء إلى ولايتي بجاية وتيزي وزو. عادت أحداث العنف من جديد إلى مدينة بجاية، وذلك يوم الأحد 5 جويلية 1998. ف وقعت مشادات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الأمن استمرت عدة ساعات ببعض الأحياء، وقد انطلقت أحداث العنف من دار الثقافة حيث نظم "منتدى"<sup>(4)</sup> الثائرين من أجل الحريات" بالتنسيق مع MCB تجمعا كبيرا لمناضلي الحركة الثقافية البربرية.

(والمهم) خلال هذا التجمع أنه أعلن زعيم جناح التنسيق في MCB مجيد أمقران عن استقالته من RCD رفقة عدد من المناضلين معتبرا "المسألة الأمازيغية ضحية الصراع العقيم بين RCD والـ FFS اللذين يستعملان الأمازيغية حصان طروادة لتحقيق مآرب سياسية ضيقة على حساب هذه القضية والجزائر كوطن، ويضيف مجيد أمقران أن استقالته من RCD تعود إلى غياب الأمازيغية عن المدونة السياسية لهذا الحزب - وهو ما يبين ما ذكرناه قبلا من أن القضية في أساسها قضية قرنسة لا غير، وشهادة مجيد أمقران هنا لها وزنها الذي لا يضاهي -.

حاولت قوات الأمن منع المتظاهرين من التوجه إلى وسط المدينة فأمرت بوابل من الحجارة، وفي نهاية المطاف سمحت لهم بمواصلة المسيرة - الغير مرخص لها - شريطة توقيف العنف والتخريب وعدم ذكر رئيس الجمهورية أثناء المسيرات. و ليرفعوا ما يشاعون بعد ذلك من شعارات.

<sup>(1)</sup> جريدة الخبر، السبت 4 جويلية 1998، ع2309، ص4.

<sup>(2)</sup> س.ل، سعدي في مسودة لمحولت إلى تجمع، نطالب زروال بالتصرف كرئيس دولة، جريدة الخبر، العدد السابق، ص4.

<sup>(3)</sup> ط.ب، بعد أسبوعين من المظاهرات وأعمال الشغب بتيزي وزو، عودة الهدوء والشروع في نحو آثار العنف، الأصل، فلسطين، الخميس 9 جويلية 1998، ص2، أيضا: س.ل، طلب إسقاطه من طرف زروال... جريدة الخبر، فلتا، 7 جويلية 1998، ص3، أيضا: أبو، زروال يؤكد في لقائه... المرجع نفسه، ص3.

<sup>(4)</sup> أنه بسبب من المناضلين في الحركة الثقافية البربرية المنشدون عن كل من FFS و RCD إضافة إلى إمارات نقابية وأعضاء من الحركة العمومية، وهو إطار سياسي مستقل أطلقا عليه تسمية "منتدى الثائرين من أجل الحريات (ع.رضوان، جريدة الخبر، السبت 4 جويلية 1998، ص4، وكلمة "الثائرين" لما دلالتها العنيفة.

وأما تيزي وزو فإنه استجابة لنداء طلبة جامعة مولود معمري بها وقعت مظاهرات سلمية مرددين شعارات ضد اللغة العربية معتبرين قانون تعميمها تعسفا مطالبين بإعادة الاعتبار للأمازيغية بإدماجها في التعليم المدرسي<sup>(1)</sup>.

وفي هذا اليوم نفسه - 5 جويلية -، قرر FFS تنظيم مسيرة بالجزائر العاصمة ضد قانون التعريب، ولكن مصالح محافظة الجزائر الكبرى رفضت الترخيص لها بسبب تاريخ 5 جويلية. وقد حاول FFS إقامة هذه المسيرة بالفعل، ولكنه لم يأت إلا عدد قليل من المشاركين، ولما شرعوا في المسيرة قال الصديق دبيلي عضو القيادة الوطنية لـ FFS لرجال الصحافة ووسط الهتافات المتعالية: "هذا يؤكد ما تحدثنا عنه عندما أثرنا مسألة تقرير المصير. نحن نطالب بإعادة استقلالنا الذي استحوذ عليه". وقبل مواصلة الحديث نعلق على هذا بشيئين، أحدهما المطالبة بإعادة الاستقلال تعني أنهم مستعمرون، ونسنا ندرى من استعمرهم - وإلا، لا معنى لتقرير المصير والاستقلال، وثانيهما لماذا اختاروا تنظيم المسيرة يوم 5 جويلية؟ ونرى أن هذا التوقيت نفسه خطير وهو ما تنبته له السلطات؛ لأنه مسيرة ضد اللغة العربية في ذكرى يوم الإستقلال مما يعني العمل على زوال ذلك الإستقلال لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه أيام الاحتلال.

المهم، الشرطة منعتهم من مواصلة المسيرة، ولكنها سمحت لهم بدخول ساحة أول ماي. فصعد أحمد جداعي الأمين العام بالنيابة للأفاناس فوق مخدع هاتفى وارتجل خطابا بالفرنسية متحديا، ومما قاله عن قانون التعريب: "ها أنذا أتحدث باللغة الفرنسية لأقول إننا لن نطبق القانون... ويريد تامازيغت لغة وطنية رسمية" - وهكذا يتحدى القانون، قانون التعريب، وقانون الطوارئ. ولم <sup>يقبل</sup> أتحدث بالقبائلية، بل بالفرنسية، وهكذا يظهر بجلاء أن القبائلية إن هي إلا غطاء للفرنسية. وعلى كل فإنه في المساء نظم FFS ندوة صحفية بمقره أعلن فيها عن تنظيم مسيرة الخميس المقبل 9 جويلية 1998 من ساحة 11 ديسمبر 1960م، بيلكور إلى ساحة الشهداء<sup>(2)</sup>.

وهكذا نظم كل من RCD و FFS خلال هذه الأحداث الإرهابية مسيرات غير مرخص لها ضد قانون التعريب. ونحن نتساءل هنا: لماذا لم يعاقبهم القانون وهم الذين إنتهكوه بتنظيم مسيرات غير مرخص لها ونحن تحت رحمة قانون الطوارئ؟ وكيف لا تحل أحزابهم وهم الذين يعلنون أمام الملأ عدم إلتزامهم بقوانين الجمهورية، بل وإنتهاكهم لها تحديا؟!

وفي يوم الإثنين 6 جويلية 1998 اندلعت بمدينة بجاية من جديد مواجهات عنيفة بين مجموعات من مناضلي RCD وقوات الأمن، وذلك بعد التجمع الذي نظمه RCD أمام مقر الولاية. فرشق "الأرسديون" قوات الأمن بالحجارة، محاولين جرها إلى استخدام القوة، وحطموا جميع الأعمدة الكهربائية المنتصبة على طول الشارع المؤدي من حي الناصرية إلى دار الثقافة... وفي شارع جيش

(1) ع ر ا ع، م، منسق الأمازيغي، مستقبل من حرب سعد معدي وبعهم: الأمازيغية ضحية الصراع بين الأرسدي والأتالاس، جريدة الخبر، الإثنين 6 جويلية 1998، ع 2310، ص 3.

(2) ص، ل، بعد مسيرة أمس المنوطة الأتالاس يقرر تنظيم مسيرة أخرى الخميس المقبل، جريدة الخبر، الإثنين، 6 جويلية 1998م، ع 2310، ص 3، أيضا: ج. ح. أحداث وأحداث، الحرية أسرة صراعات والهمة الأمانة عمل تساوات: الخبر، السبت 11 جويلية 1998، ص 2.

تحرير صبب المشاغبون جام غضبهم على فندق المالية، فكسروا واجهته المبنية بالزجاج، وأحدثوا بها خائر كبيرة. ولما تدخلت قوات الأمن لتفريقهم بالقنابل المسيلة للدموع غيروا مسيرتهم نحو دار الثقافة، فذبوا في طريقهم جميع المرافق العمومية، كما حاولوا الدخول من جديد في مشادات مع قوات الأمن في حي أحداتن - مما يعني أن قوات الأمن تتمتع وهم يهاجمونها وقد تمكنت في النهاية من تفريقهم<sup>(1)</sup>.

وفي اليوم نفسه (الإثنين 6 جويلية 1998) استقبل الرئيس زروال الأافاس بناء على طلبه لخطورة توضع حسب جداعي، ومن أهم مطالب الأافاس في هذه المقابلة مع الرئيس:

إنهاء تطبيق قانون التعريب، ومن مبررات ذلك إقصاء للأمازيغية والفرنسية وإطارات البلاد. والإعتراف بالأمازيغية لغة وطنية ورسمية.

وكان موقف الرئيس زروال : إعطاء الأافاس التزاما بالتطبيق التدريجي لقانون التعريب، وأنه ليس الغرض منه إقصاء لغات أخرى، بل ترقية اللغة العربية، وأنه سيتم إنشاء مجلس أعلى للغة العربية برئاسة الرئيس يتولى إعداد مخطط لتطبيق قانون التعريب. كما تعهد الرئيس زروال بترقية الأمازيغية. أما جعلها لغة وطنية ورسمية فإن التدابير الدستورية الحالية لا تسمح بذلك. وكان تعليق جداعي: "لكننا ملنا ولا نقبل بهذا الموقف، وسواصل المطالبة بالإعتراف بالأمازيغية لغة وطنية ورسمية، وفي نظرنا يجب ترسيخ أسس الهوية الجزائرية التي هي العروبة، الأمازيغية، الإسلام ترسيخا دستوريا وسياسيا... وأضاف جداعي خلال حديثه مع الصحافة أساسا رابعا لأسس الهوية، هو العصرية.

ولسنا ندري ما علاقة كل هذا باغتيال معطوب الذي نساء الأرسيديون والأافاسيون على السواء. وكان قانون التعريب هو الذي اغتاله.

رعى كل فإن جداعي قد تبرأ من الحركة البربرية المسلحة إن وجدت. وهي التي كانت قد أعلنت عن وجودها يوم 2 جويلية كما ذكرنا قبلا في بيان أصدرته<sup>(2)</sup> وتوعدت بالانتقام لموت معطوب ومحاربة الذين يطبقون قانون التعريب<sup>(3)</sup>.

ونشير هنا إلى قضية مهمة، هي أن الرئيس زروال تأسف لكون الأحزاب السياسية والمؤسسات المحلية المنتخبة لم تؤدي دورها في تهدئة الأوضاع التي تطورت إلى مظاهرات تميزت بأعمال الشغب والتخريب -ولسنا ندري كيف يؤدون دورهم في التهدئة وهم المثيرون للأوضاع- كما بين فيما يتعلق بالأمازيغية ما حققته، ومن ضمن ذلك تأسيس المحافظة السياسية للأمازيغية، وفتح أقسام نموذجية لتأسيس الأمازيغية في المؤسسات التعليمية.

وأما مسؤولو FFS فقد جددوا عزمهم على تنظيم مسيرة في العاصمة من ساحة أول مساي إلى ساحة الشهداء. وقد رخصت لهم وزارة الداخلية بذلك<sup>(4)</sup>.

(1) ع. رضوان، أ.م.ع، مع استمرار الهدوء في تيزي وزو، عودة إلى تحريم المرافق في بجاية، الخبر، الثلاثاء 7 جويلية 1998، ص 2311، ص 3.

(2) (4) ص.ل. عقب إسطاله من طرف زروال، وقد من الألفاس بمرح : الرئيس وعدنا بتطبيق تدريجي لقانون تميم العربية وتولية الأمازيغية، عودة الخبر، الثلاثاء 7 جويلية 1998، ص 3، أيضا : أ.و. زروال يؤكد في لقاءه وفد الألفاس، التصري لكل محاولة لرضي مشروع سياسي بالتحف، الخبر، 7 جويلية 1998، ص 3.

(3) ط.س.و. بعد أسبوعين من المظاهرات وأعمال الشغب بتيزي وزو، عودة للهدوء والشروع في عو آثار العنف، الأصيل، الخميس 9 جويلية 1998، ص 2.

كل هذا من أجل إلغاء قانون التعريب لا من أجل معطوب. ونسأل: ما هو سر كل هذا الحقد على لغة القرآن الكريم؟

والجواب: أنه كما نقدها نحن لسبب ديني فإنهم يكرهونها تلك الكراهة كذلك لسبب ديني، وقد ذكرنا قبلاً أن الرجل الثاني في FFS إلى حين موته كان نصرانياً هو علي مسلي وكذلك أمين المال، كان قسيساً. ولقد بين أن هذه الكراهة إنما هي لسبب ديني تقرير MCB إلى البعثة الأممية كما سنذكر. وهكذا ظهرت جميع الأوراق الخفية.

ولقد عبر عن هذه الكراهة الأفافاس في رده على بيان الرئاسة بعد لقائه بالرئيس زروال الذي وعدهم بالتطبيق التدريجي لقانون التعريب أن مطالب الأفافاس في لقائه مع زروال تتلخص في نقطتين هما:

تجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية وجعل الأمازيغية لغة وطنية<sup>(1)</sup>.

موقف الأرسدي من لقاء الأفافاس بالرئيس زروال:

قام RCD برد فعل شنيع على لقاء FFS بالرئيس، فعقد نوابه بيجاية ندوة صحفية نددوا فيها باللقاء واتهموا FFS "بمحاولة تحقيق سبق سياسي على حساب مصير أمة"، وأنه "أجهض أكبر مشروع أعده القطب الديمقراطي بإقدامه على مناقشة مكاسب الحركة البربرية مع السلطة"<sup>(2)</sup>، وأنه خدع الحركة الشعبية لمنطقة القبائل، والهدف الوحيد من ذلك اللقاء حسب زعمهم هو تكسير المسيرة التاريخية للتجمع الأمازيغي. وبذلك سارع الأفافاس إلى إنقاذ النظام المعطل، وهنا يبدو واضحاً تبني RCD للعنف رغم تنديد نوابه في هذه الندوة بالحركة البربرية المسلحة<sup>(3)</sup>.

تنديد RCD بـ FFS السابق جعل FFS يرد على RCD مبيناً أن كلامه شتائم وتدخل في شؤون الحزب، وأنه حزب مستقل يلتقي مع من يحب ومتى يحب... وعلى الشعب أن يحكم<sup>(4)</sup>.

وقبل مواصلة الحديث نسجل ملاحظة تتمثل في أن الحركة البربرية هي التي اغتالت معطوب كما ذكرنا قبلاً، وأن RCD مورط في ذلك، والدليل: هو قول RCD أن لقاء FFS بالرئاسة أجهض أكبر مشروع ديمقراطي؛ لأننا نتساءل: متى أقيم هذا المشروع الأكبر هل بعد اغتيال معطوب أم قبله؟ لأن أكبر مشروع لا يتحقق بين عشية وضحاها. وإلا ما كان أكبر مشروع حيث يحتاج إلى وقت وتخطيط وتنسيق إلخ. مما يجعلنا نتوصل إلى أن هذا المشروع الأكبر أعد له من قبل، وكانت لبنته الأولى كما ذكرنا قبلاً اغتيال معطوب. فالإغتيال هو الخطوة الأولى فيه. أما خطوته الأخيرة فهي إعلان الجزائر فرنسية. وهذا ما نستشفه من التصريح المهم للسيدة لويزة حنون الناطق الرسمي لحزب العمال، حيث اعتبرت في تصريح لـ (و.ا.ف) أن اغتيال معطوب الوناس هو بمثابة استفزاز سياسي يرجى منه بصفة خاصة

<sup>(1)</sup> ق.و. الأناطلي برد على بيان الرئاسة، مطالباً لم تذكر بوضوح، الخبر، الأربعاء 8 جويلية 1998، ص.3.

<sup>(2)</sup> فلسفة قسماية تتحرك بعد لقاء زروال بوفد الأفافاس (دون إضمار) الخبر، المهدد نفسه، ص.3.

<sup>(3)</sup> ن.ج. نواب الأرسدي بعبادة الأفافاس أجهض أكبر مشروع ديمقراطي، جريدة الخبر، الأربعاء 8 جويلية 1998، ص.3.

<sup>(4)</sup> ص.ط. حشبة المسورة لهادي من FFS يصرح: نحن حزب مستقل ونلتقي مع من نشاء، الخبر، الخميس 9 جويلية 1998، ص.3.

ترجيه التركيبية بالآمازيغية ضد التركيبية المعربة في الوقت الذي سيتم فيه تنفيذ وتطبيق قانون تعميم استعمال اللغة العربية<sup>(1)</sup>. وهذا يتوافق مع ما ذكرناه في تحديد هوية مغتاليه.

ونستنتج كذلك من جريان الأحداث أن FFS لم يشارك في هذا المشروع. كما نستنتج قناعته النسبية بالتخلي عن العنف، وهو ما جعله يلتقي بالرئيس زروال، ولا أدل على هذا من أن أحداث العنف والغليان في تيزي وزو وبجاية قد خفت حدتها بعد لقائه بالرئاسة، مما يجعلنا ندرك وزنه في تلك المناطق على حساب حزب RCD مما جعله يحتفظ ويصعب على FFS جام غضبه إلى حد نشر بيان صحفي يتهمه فيه بما دون ذكر اسمه أنه وراء ما وقع من عنف وشغب في أحداث بلاد القبائل، وكان FFS قد اتهم RCD بالتهمة نفسها. وهكذا<sup>(2)</sup>.

نعود إلى الحديث عن الأفااس لنذكر أنه في يوم الخميس الموعد (9 جويلية 1998م) نظم مسيرته بالعاصمة، وقد شارك فيها ثلاثة آلاف. ولم تختلف هذه المسيرة الأفااسية عن الأرسيدية في شعاراتها. حيث كانوا يرددون شعارات:

"لسنا عربا" و "لا للعربية" و "اليوم وغدا الحرب تكون تكون" وقد طالبوا بالتجميد الفوري لقانون التعريب والإعتراف بالآمازيغية لغة وطنية<sup>(3)</sup>.

أما رسيوهم فقد صبوا في خطبهم جام غضبهم على RCD الذي قالوا انه كان ينظم في نفس وقت المسيرة مهرجانات وتجمعات موازية في تيزي وزو وبجاية والبويرة، ومن أولئك الرسميين جمال زناتي منسق لجان MCB الذي قال للصحافة: "التقينا رئيس الجمهورية علنا، وأمام الكاميرات. ومختلف وسائل الإعلام تناقلت هذا اللقاء عكس الذين يعتقدون الاجتماعات مع الجنرالات في الخفاء"<sup>(4)</sup>.

ونلاحظ بأنه في الوقت الذي نظم FFS مسيرته بالعاصمة، أي يوم الخميس 9 جويلية 1998 كانت MCB قد دعت إلى مسيرات في دوائر تيزي وزو ولكنها كانت فاشلة حسب مصادر من المنظمين من MCB حيث لم يستجب لها إلا في دائرتي بوزقان وذراع الميزان. رغم أن النداء للمسيرة وقعت به ثلاثة أجنحة من الحركة الثقافية البربرية هي: التنسيقية الوطنية لـ MCB المقربة من RCD والتجمع الوطني للأسيبي (فرحات مهني) المنشق عن التنسيقية الوطنية، وكذا الجناح المنشق عن اللجان الوطنية للأسيبي المقربة من FFS<sup>(5)</sup>.

وفي نفس اليوم، أي الخميس 9 جويلية 1998م نظم "منتدى الثائرين من أجل الحريات"، وهو مقرب من RCD - مسيرة احتجاجية بمدينة بجاية، ومن بين ما أعلنه المنظمون رفضهم لمواقف الحركة الثقافية البربرية التي تريد احتواء حركتهم. كما انتقدوا FFS بسبب لقائه مع الرئيس زروال، وبسبب اتهامه

(1) أن، رياض، إسبانيا، وإستكار للحرية، المحرر، 27 جوان 1998، ع 2303، ص 4.

(2) ليو. أحداث منطقة القبائل : الأرسيدية يتروا ويتهم فرجه الأفااس، جريدة النصر، الخميس 9 جويلية 1998، ص 3.

(3) مسيرة مسيرة الأفااس بالعاصمة، فطرات المنظمين في واد... وعنايات المشاة في واد آحر، النصر، الجمعة - السبت 10 - 11 جويلية 1998، ص 2.

(4) جويو، مسيرتهم من مسيرة الأفااس، حياضي في ندوة صحفية، رفض للإصماء ومصادرة المهرات، المحرر، السبت 11 جويلية 1998، ص 4. ومن أراد التوسع في معرفة الصياح

والإتجاهات المتكادمة بين RCD و FFS للرجوع إلى جريدة المحرر 11 جويلية، ص 4.

(5) أم. ج. استجابة مسيرة الحركات الأسيبي في تيزي وزو، المحرر، السبت 11 جويلية 1998، ص 4.



الشباب الغاضب والحزين وبعثهم بالمشاغبين والمخربين والتبرؤ منهم. وجدد هذا المنتدى في البيان الذي أصدره مطالبه في اعتماد الأمازيغية لغة وطنية ورسمية، وتجميد قانون تعميم استعمال اللغة العربية<sup>(1)</sup>. ومن خلال ما سبق نتوصل إلى ما يأتي :

- الصراع الحاد بين دعاة الحركة البربرية. أجنحة
- غياب معطوب، والمذهب الوحدوي الذي أجمع عليه جميع دعاة الحركة البربرية هو اللغة العربية. وهو ما بينه بدقة وزير الإتصال حمراوي حبيب شوقي حيث بين أن ما وقع في بلاد القبائل لم يكن لأجل معطوب، وإنما كان بهدف موقف من قانون تعميم العربية<sup>(2)</sup>.
- لقاء جداعي بالرئيس زروال خفف من حدة الوضع وأخذت مدينة تيزي وزو تستعيد هدوؤها بعد أسبوعين من الغليان، شهدت خلالها كل أنواع الشغب والتخريب. وقد قدرت الخسائر التي تسبب فيها المتظاهرون من حرق وتكسير وتهديم حوالي 300 مليار سنتيم حسب ما تداولته الألسنة في بعض الإدارات، في حين تشير مصادر أخرى غير رسمية إلى أن قيمة الخسائر تجاوزت 60 مليار سنتيم<sup>(3)</sup>. وهذا يدعونا إلى تقديم ملاحظات حول هذه الأحداث.

#### ملاحظات حول أحداث تيزي وزو (وبحاجة) الثانية :

- لقد جعل اغتيال معطوب شرارة أشعلت فتيل الحركة الإحتجاجية ضد التعريب. وكان معطوب اغتيل ليقع الإحتجاج ضد التعريب - وقد لاحظ المتابعون كيف تحول الإحتجاج والمظاهرات والمسيرات والتدمير من موضوع الإغتيال إلى المطالبة بإلغاء قانون التعريب، بل حتى الشعارات واللافتات المرفوعة والهتافات كانت تركز على هذا، لا على الإغتيال، وكان التعريب هو الذي قتل معطوب<sup>(4)</sup>، ولقد وصل الأمر إلى حد المطالبة بترسيم اللغة الفرنسية في الجزائر. ولقد عبر عن هذه الحقيقة أبو جرة سلطاني وزير الصناعات الخفيفة والمتوسطة قائلا: "إن بعض الأطراف أرادت تحويل قضية مقتل معطوب الوناس إلى قضية دفن اللغة العربية، وكان من المفروض أن تنتهي مسألة مقتل معطوب الوناس مهما كانت مكانته وثقافته عند حدود المقبرة"<sup>(5)</sup>.
- الإعلان الصريح بأن الفرنسية جزء لا يتجزأ من تراثنا ورفض العربية لأن تعميمها إقصاء للفرنسية والأمازيغية معا، وهو ما أعلنه FFS. ولأننا لسنا عربا عند RCD<sup>(6)</sup>. وهو ما كان يرنده المتظاهرون : سقوط اللغة العربية وإحلال الفرنسية محلها استعمالا وترسيما. ولأن العربية هي المستهدفة لا بقاء معطوب، فإن كل اللافتات والإشارات المختلفة المكتوبة بالعربية دمرت وحطمت، بل إن مؤسسات

(1) ع.ر. منتدى الحريات بنوا من الحركة النضالية العربية، الخبر، 11 جويلية 1998، ص.4.

(2) ط.ب.ر. عودة المنهدة والشروع في عو آثار العنف، الأصل، الخميس 9 جويلية 1998، ع.349، ص.2.

(3) المرجع نفسه، ص.2.

(4) أ.وليد، يوم قبل دخول قانون تعميم استعمال اللغة العربية حيز التنفيذ، مناهضوا التعريب بحرحون آخر أورائهم الخبر، السبت 4 جويلية 1998، ص.5.

(5) أ. رحمان، محتاج وأبو جرة سلطان في ندوة صحفية، مقتل معطوب أريد تحويله إلى دافع التعريب، الخبر، الثلاثاء، 7 جويلية 1998، ص.3.

(6) بشير عصفور، القبلة العربية المولودة، قباه السلطوي، الحث الفرنسي، والرؤية الإسلامية، رسالة الأطلس، 12 جويلية 1998، ع.196، ص.3.

بأكملها دمرت وأشعلت فيها النيران، لأنها تحمل كتابات بالعربية على واجهتها. ولم يمس ما كتب بالفرنسية بسوء<sup>(1)</sup>.

والواقع أن موقف كل دعاة الحركة البربرية من اللغة العربية إنما سببه الوحيد ارتباطها بالإسلام لا لكونها لغة العرب، وهاهو كاتب ياسين يصرح في "راديو بور": "يجب أن لا نخشى، فالعربية ليست هي العدو، العدو هو الإسلام، فهو الذي أخذ منا اسمنا، نحن لا ندعى جزائريين وإنما أمازيغ".

وهاهي جريدة (ليبرتي Liberté) الناطقة غير الرسمية باسم RCD تكتب في عدد 23-24/09/1994: "إن مطلبنا عادل، يستمد عدالته من معركة آلاف السنين لشعب فخور، غير خاضع، ضد حقرة بنسي هلال، وظلامية المشعوذين الأنجلويستيين، الذين يغرفون مباشرة من المستقعات الماشستية للعرابية والإنهزامية وإسلام العصور الوسطى. لقد كونت في لغة قيل عنها استعمارية، وأكون بلغة أخرى يقولون لي عنها إنها وطنية... وأسأل: ماذا لي أن أرث عن عقبة والدمويين الآخرين. إن لغتي مغتصبة تموت في مغازلة عربي لا يقل استعماراً عن اللاتيني بيجار"<sup>(2)</sup>.

وهاهي MCB تصرح جهاراً نهاراً لأول مرة في علمنا بأنها ترفض اللغة العربية بسبب ارتباطها بالإسلام، وذلك في التقرير الذي قدمته إلى البعثة الأممية كما سنذكر.

هاهو سعيد سعدي يصرح بأن مقتل معطوب سيزيد حجم المشاكل المتوقعة بعد 5 جويلية؛ لأن تطبيق قانون التعريب سيكون حرباً على الشعب. ودعااته يضرّبون الوحدة الوطنية ويستغلّونه للبقاء في الحكم. ويريدون من خلاله تغيير الوجه الثقافي للجزائر في يوم واحد<sup>(3)</sup>. ويقضي على جزء من المجتمع الجزائري، وهو الجزء الذي يبني البلاد - أي الإطارات المفرنسة التي تحكم الجزائر بنار وحديد اللغة الفرنسية -، وهكذا يعترف بأن المفرنسين هم الذين حكموا الجزائر اقتصادياً وإدارياً وثقافياً منذ الاستقلال إلى الآن<sup>(4)</sup>. مما يعني الاعتراف بأنهم فشلوا في جميع الميادين، وأنهم هم الذين أوصلوا البلاد إلى الهاوية.

ومهما يكن من أمر فإن السعار ضد اللغة العربية لإرتباطها بالإسلام هو الذي جعل أيضا FFS يعجز من خلال نائبه في البرلمان مصطفى بوهادف أن انتفاضة سكان القبائل مشروعة ويحدث عليها وجداعي يعتبرها: استعادة السكان لحقوقهم وتقرير مصيرهم من الأقلية العسكرية الحاكمة، ويخلص أحمد جداعي في حوار مع رسالة الأطلس القضية كلها فيما يأتي:

نرفض دولة بوليسية، ودولة أصولية أي رفض الدولة الإسلامية، وإيقاف اضطرابات تيزي وزو كان على الرئيس زروال أن يقوم بإجراءات تهدئة على المستوى السياسي تتمثل في الاعتراف بالأمازيغية لغة وطنية ورسمية وإيقاف قانون التعريب أولاً ثم تغييره ثانياً، وفتح حوار حقيقي شامل وشفاف مع كل الذين

(1) ل.ع.ب. بلرهم من مرور موعد 5 جويلية، المؤامرة مستمرة بنجاح، رسالة الأطلس، 13-19 جويلية، ع 197، ص 2.

(2) بشور مصفور، المزمع السابق، ص 3.

(3) ج.ع. ماوراء الشبابة رسالة الأطلس، باتة، 6-12 جويلية 1998، ع 196، ص 4.

(4) تحت نار الخلد... سعيد سعدي يقول كل شيء (د. توليم) رسالة الأطلس، العدد السابق، ص 2.

بنددون بالعنف والإرهاب، واستئناف المسار الديمقراطي<sup>(1)</sup> والسلم. وأما الفرنسية فإنها حقيقة موجودة في الجزائر. وهي جزء من تراثنا التاريخي، وتحت هذا العنوان ليس لنا الحق في رفضها، وهي اليوم لغزة افتتحت على الغرب، وأداة للبحث العلمي وعلاقات العمل. لا يجب أن تكون لنا رؤية متطرفة للوطنية<sup>(2)</sup>.

- السعار ضد الإسلام والعروبة هما سببا تلك الأحداث إذن، وإلا فإن إغتيال معطوب بالنسبة للظروف التي تعيشها الجزائر يعد حادثاً ذلك أن الجزائريين على اختلاف مشاربهم الإيديولوجية يقتلون يومياً منذ 1992 إلى الآن (1999) وبكثرة إلى حد أنه لا تكاد توجد عائلة تخلو من مقتول أو مفقود أو مسجون أو مطارذ إلخ، بمن في ذلك عائلات أرسيديّة ومع ذلك لم يحدث شيء، ومن هنا فإن ما حدث كشف من جديد عن تعصب عرقي خطير، مبني على إيديولوجية معاداة العروبة والإسلام، وإلا فكيف يمكن معطوب رفضاً للعروبة والإسلام كما صرح هو نفسه مراراً، متصوفاً بحب رجال الكنيسة، هل كانت تقوم كل تلك الضجة؟!

- أحداث تيزي وزو الثانية رغم أنها أحدثت ما أحدثت إلا أنها بينت أن الحركة البربرية ما زالت محصورة في إطارها الجغرافي، بل وحتى تيزي وزو وبجاية لم يشهدا المشاركة الشعبية واسعة في المظاهرات الأرسيدية والتجار الذين غلقوا محلاتهم إنما غلقوها فقط خوفاً من تخريبها<sup>(3)</sup>. وهكذا فإنه لا أثر لأي شيء سوى في تيزي وزو وبجاية وبعض بلديات البويرة دون المدينة مما يدل دلالة قاطعة على أن الحركة البربرية لا زالت تراوح مكانها في موطنها ولا أثر لها لا عند الشاوية ولا التوارق ولا ميزاب ولا غيرهم، وسبب نجاحها النسبي في تيزي وزو وبجاية راجع إلى ثلاث عوامل حالية هي:

أ- استغلال الأوضاع الراهنة بمنع الدعاة من ممارسة الدعوة هناك. ولقد حدث تغيير كبير في تينك الولاياتين في الثمانينيات أثناء الحرية، لصالح العروبة والإسلام، ولكن الوضع الراهن منع الدعوة فأصبحت الساحة حكراً عليهم.

ب- عدم قيام الدولة بأي عمل جاد لإيقاف ممارساتهم واستحوادهم على عقول الشباب.

ج- الإرهاب الذي يمارسه دعاة الحركة البربرية على المعارضين لهم، ولا سيما بعد توزيع السلاح عليهم.

- الصراع الحاد الذي تحدثنا عنه بين أجنحة الحركة البربرية أثناء هذه الأحداث يدل دلالة عميقة على مدى الاختلاف الموجود بينهم، وهو ليس صراعاً أنياً، بل رأياً في فرنسا أثناء نشأة الأكاديمية البربرية. وهو يدل على أن الذين وراء هذه الحركة من الفرنسيين هم الذين يوجهونهم هذا التوجه؛ لأنه بواسطة التصارع الذاتي بين الأجنحة يتم إدارة الصراع والتحكم التام وذلك حتى لا يخرج أحد عن النطاق الذي ضرب حوله، والهدف الذي حدد له.

(1) لاحظ النقاش في موقف جنامي، فهو من جهة يرفض دولة إسلامية ومن جهة أخرى يطالب باستئناف المسار الديمقراطي، فكيف تكسبون ديمقراطية دون إعطاء الحرية للجميع؟!

(2) أحمد جنامي، حاوره م. يوسف، السكرتير الأول لجبهة القوى الإشتراكية، أحمد جنامي لرسالة الأطلس، نطالب زورال أن يوقف العمل بقانون تعميم استعمال اللغة العربية، رسالة الأطلس، مادة، 6-12 جويلية 1998، ع196، ص5.

(3) ب.ع. لية مكشوفة... ويد لرسالة الأمازيغية ملقولة - رسالة الأطلس، 6-12 جويلية 1998، ص3.

- الغريب أن العنف والتخريب الذي كان مفروضاً لدى أقطاب الإنسغال (السياسوي) للهوية القبلية من دعاة الفرنسة المحاربين للغة القرآن أصبح أثناء هذه الأحداث مسيرراً ومشروعاً ومستساغاً. فالمصحف الفرنسية كلها تقريباً ظلت مستبشرة فرحة بحالة العصيان والشغب الصيباني التي اجتاحت الولاياتين سابقتي الذكر. وذلك أن الذين شاركوا في عمليات التخريب كانوا جميعاً تقريباً في سن العشرين، وهسو ما ينكرنا بأحداث أكتوبر، وهكذا: مجموعة من الشباب والصيبان يجتاحون الشوارع مدمرين كل شيء في طريقهم ولا سيما المؤسسات العمومية، وسياسيون يقبعون في الصالونات يبنون الأعمال ويشجعون على مواصلة التمرد، ويمارسون كل طقوس صب الزيت على النار ويعرضون أكثر مطالبهم (السياسوية) تطرفاً، وصحافة فرنسية تزيد النار اشتعالاً<sup>(1)</sup>.

#### الحركة البربرية والعنف والإرهاب

بينت أحداث تيزي وزو وبجاية الثانية ملازمة العنف والإرهاب للحركة البربرية، فهو الأكسجين الذي تستشقّه، وبدونه تموت، وهذه هي طبيعة الحركات التي تقتدر إلى قوة الحجة ومنطق الإقناع، ولقد أشرنا قبلاً إلى استخدام هذه الحركة للعنف أثناء نشأة ما يُسمّى حزب الشعب البربري، سواء على مستوى فيديرالية فرنسا أو على مستوى الوطن المحتمل آنذاك، كما أشرنا قبلاً إلى ما حدث سنة 1963 وما أحدثته هذه الحركة في 1980م وأحداث أكتوبر 1988. وهاهي تتخذ قتل معطوب ذريعة لتتهلك الحرث والنسل. لم يسلم من عنفها وإرهابها الأعمى حتى الشباب المغرر بهم الذين اتخذتهم مطية لتحقيق أغراضها بعد أن شنجتهم وهيجتهم. ولا أدل على هذا ما فعله رئيس بلدية تازمالت (RCD) بإطلاقه النار على المنظاهرين فتسبب في إصابة 3 أشخاص بجروح خطيرة ومقتل الشاب حمزة واعلي يوم 1998/06/28م أمام مرأى مئات المواطنين حسب ما ذكره جداعي. وهو معروف كقائد للمليشيات قبل أن يكون رئيس بلدية<sup>(2)</sup>.

وعلى ذكر المليشيات فإن RCD له مليشياته، منها مليشيات إسماعيل ميرة<sup>(3)</sup> يضاف إلى هذا السفينة التي رست بيميناء بجاية مع بداية الأحداث ورفض (قبطانها) الخضوع لعميات التفتيش الروتينية والقانون، وتمكنت من الفرار إلى أعالي البحار يتواطؤ من جهات ما دون أن يتمكن حراس الشواطئ من إيقافها والإطلاع على حمولتها. فهي لا بد وأنها كانت كما يشير البعض محملة بالأسلحة الموجهة إلى دعاة الحركة البربرية المتطرفين الذين بدأوا في الأيام الأخيرة يتحدثون علانية ويلحون في الحديث عن تقرير

<sup>(1)</sup> بلور مصور، المرجع السابق، ص 3.

<sup>(2)</sup> ولد إعرف إسماعيل ميرة في كتر من الجزائر الوطنية بأنه أطلق النار، ولكن لأن الشباب المتظاهر حاول مهاجمة النصب التذكاري لوالده عبد الرحمن ميرة وأن أولئك الشباب كانوا سيجرلون المصحف اللاتني ومركز الصحة، وقد بين جنائي أن هذه أكاذيب، لأن الشباب لم يحاولوا مهاجمة النصب التذكاري لأن عبد الرحمن ميرة عزيز في الذاكرة، وأما المصحف اللاتني ومركز الصحة إلاهما يمدان عن مكان الحادث بحوالي 300 متر، وعليه طلب FFS من العائلة إيقاف إسماعيل ميرة وطالب العائلة بتسليط الضرر، حول هذا العمل الإجرامي حسب جنائي، لأن عدم توليف رئيس البلدية إسماعيل ميرة سابقة مطورة بالنسبة للعائلة في هذا البلد وعمل مؤسساته، (أحمد جداعي، في حوار له مع رسالة الأطلس، المرجع السابق، ص 3).

<sup>(3)</sup> أحمد جداعي، المصدر نفسه، ص 3.

المصير. وقد لا يتأخرون من أجل ذلك في طلب حماية فرنسا وتدخلها المباشر على غرار ما وقع في شمال العراق في حرب الخليج<sup>(1)</sup>.

وعندما نعلم أن التقرير الذي قدمته الحركة البربرية إلى لجنة النقصي الأسمية التي زارت الجزائر في الفترة (22 جويلية - 4 أوت 1998) صرحوا فيه بأنهم أقلية<sup>(2)</sup> وعلى الأمم المتحدة حمايتهم. وعندما نعلم أن فرنسا هي التي قدمت إلى مجلس الأمن أثناء حرب الخليج بند حماية الأقليات، وعلاقة فرنسا بالحركة البربرية: ندرك خطورة مستقبل الوضع في الجزائر.

ومما سبق، نعتقد أن الحركة البربرية المسلحة التي أعلنت عن نفسها في خضم الأحداث حقيقة، زارها آيت أحمد وضوحا عندما كشف في حديث صحفي لصحيفة الحياة اللندنية يوم 10 جويلية 1998 عما بلغه عن هذه الحركة، فذكر أنه عرف نشوء هذه الحركة المسلحة الجديدة من طرف الأمين الوطني المكلف بالإعلام في حزبه سمير بوعكوير الذي تلقى مكالمة هاتفية قال له المتحدث فيها بلغة فرنسية ممتازة: "لماذا ذهبتم لرؤية زروال -رئيس الجمهورية-؟ فأجاب، من أنت؟ فرد: بأنه ممثل الحركة البربرية المسلحة، ونحن نعد للقيام بعمل ما". وعن سؤال حول من يقف وراء هذه الحركة، أجاب آيت أحمد: لا نعرف... وهو ما جعل آيت أحمد يعرب عن تخوفه الكبير من أن تتحول "الحركة البربرية المسلحة" إلى استعمال العنف والإرهاب والاضغاثالات وتغذي الاتجاه الجديد (العربي) في هذه الحرب الأهلية<sup>(3)</sup>.

وفي هذا السياق نشير إلى الدور الذي لعبه سعيد سعدي في اضطرابات تيزي وزو و بجاية السابق ذكرها. فقد عمل بلا هوادة على إبقاء التوتر قائما في كامل منطقة القبائل، وممارسة الضغوط على التجار والعمال للتوقف عن النشاط. بعد أن شلت معظم مرافق الخدمات العمومية نتيجة التدمير والحرق من أجل خلق الظروف الملائمة وخاصة خلق الندرة في المواد الغذائية والأدوية وغيرها لإعلان المنطقة مفتوحة على التدخل من أجل المساعدات الإنسانية. وهو ما أخذ يجري الإعداد له في باريس حسب بعض الأخبار غير المؤكدة بين وزير الصحة الفرنسي روبرت كوشنير المعروف بتنظيم مثل هذه التدخلات وبين ممثلين عن الحركة البربرية في باريس<sup>(4)</sup>. وهو ما جعل سعدي يصيب جام غضبه على FFS الذي ضيع عليه هذه الفرصة بذهابه إلى الرئاسة وإصداره بيانا تضمن الدعوة إلى تهدئة الأوضاع، فأصيب سعدي بهستيريا جعلته يصرح دون خجل بأن FFS أفسد عليه مشروعه وأجهض أكبر مشروع ديمقراطي. وماذا يكون هذا المشروع الأكبر غير الاستجداد بفرنسا، وهو ما جعل سعدي يصاب بذعر وهستيريا من جراء الأحداث عندما تجاوزته فأصبح يدلي بالأقاويل والتصريحات المتناقضة التي تورطه أكثر مما تبرئه في قضية الاغتيال وبقية الأحداث<sup>(5)</sup>.

(1) س.د. قراءة في تفاصيل أحداث منطقة القبائل، رسالة الأطلس، 6-12 جويلية 1998، ع196، ص4.

(2) ت.رياض، الأسمى في تقرير وجهه لأعضاء اللجنة الاستعلامية، جريدة الخبر، الأربعاء 19 أوت 1998، ص3.

(3) آيت أحمد يكشف معطيات جديدة عن الوضع الأمني: الحركة البربرية المسلحة أعلنت عن نفسها بفرنسية ممتازة، (د. توفيق) رسالة الأطلس، 27 جويلية 2 أوت 1998م، ع199، ص2.

(4) س.د. قراءة في تفاصيل أحداث منطقة القبائل، رسالة الأطلس، 6-12 جويلية 1998، ع196، ص4.

(5) المرجع نفسه، ص4.

وفي خضم الأحداث التي حلت بالولايتين كان من أهم ما كشفتته تلك الأحداث من احتدام الصراع بين RCD و FFS هو وجود تنظيم قبائلي مسلح كما ذكرنا تحت اسم "المنظمة القبائلية المسلحة" أماط اللثام عنه FFS خلال لقاء قيادته لرئيس الجمهورية واتهم غريمه RCD بالوقوف وراءه.

وكاعتراف من RCD بالتهمة الموجهة إليه فقد أثار نوابه في بجاية أن FFS خان الحركة الشعبية لمنطقة القبائل وسعى إلى تدمير مصير أمة بأكملها -ومما يعنيه هذا التصريح أنهم يشكلون كيانا متميزاً مستقلاً- وإلى تكسير الزحف الأمازيغي ونددوا بلقاء FFS بالرئيس مثلما فعل الأفااس بما أسموه البيان المجهول الذي يعلن عن قيام الحركة البربرية المسلحة. مع أن نفس المكان الذي اجتمع فيه نواب RCD ونددوا من هو الذي شهد في 1 أو 2 جويلية اجتماعاً وصف بالسهام بين مسؤولين من RCD و MCB ومجموعة من المسؤولين التقابليين. وفيه تمت الإشارة ضمناً إلى ضرورة قيام العمل المسلح من أجل القضية البربرية.

وتصريح سعدي بأن منطقة القبائل ليست للبيع وأن شهدائها ومعركتها لا يمكن أن تكون في خدمة المفاوضات المشبوهة -تهجماً مع لقاء FFS بالرئيس- دليل آخر على أن هذه الحركة البربرية المسلحة قد خرجت مباشرة من رحم RCD والأجنحة المتطرفة في الحركة الثقافية البربرية. وهي ليست وليدة الأحداث الأخيرة، بل هي تنظيم قديم أبرزها إلى الوجود الصراع الداخلي بين الأجنحة خلال هذه الأحداث<sup>(1)</sup>. وقد أكد هذه الحقيقة جداعي في حوار رسالة الأطلس له أثناء حديثه عن إسماعيل ميرة الذي قتل شاباً وجرح ثلاثة آخرين. فذكر وجود ميليشيات، وأن الإنزلاقات الأمنية موجودة، حدثت من قبل وليس الآن فقط. والأمثلة لها كثيرة، لكن لا يتكلمون عنها، ولو تعطى الفرصة للمواطنين والضمانات للحديث سيبتين أن الأمر مهول<sup>(2)</sup>.

هذه الأحداث بينت أن هناك أحزاباً فوق الجميع. فإذا كان كل من RCD و FFS لم يعمل على إيقاف الإضرابات بل شجعها وسارا فيها دون اعتبار لقانون الطوارئ. ودون اعتبار لما يجب على الأحزاب من العمل على حماية المؤسسات والأفراد فإن RCD طرد فرقة التلفزيون الجزائري ومنعها من تغطية الندوة الصحفية التي عقدها إثر الأحداث التي وقعت في تيزي وزو وبجاية. والأغرب والأعجب من هذا -وهو يدل على نفوذ الحزب وتمرده على الدولة- أن وزير الإتصال نفسه حمراوي حبيب شوقي لم يتجرأ رغم ما سبق أن يذكر اسم هذا الحزب، بل اكتفى بالقول بأنه سيوجه رسالة إلى رئيس حزب سياسي يدعوها إليها إلى الإمتثال لقيم الديمقراطية والشفافية والتعامل مع الصحافة الوطنية بوصفها عائلة واحدة.

تري: لو كان صا حب هذه الفعلة حزب إسلامي، فهل كان سيتخذ نفس الموقف؟! .  
وأما الأفااس، فقد تمرد هو أيضاً على القانون وسيادة الدولة الجزائرية، ليس في تنظيم مسيرات غير مرخص لها وتزكية أحداث العنف والتدمير فحسب، بل من خلال تحديه في المسيرة، الغير مرخص لها

(1) لد.ع.ب. بالرغم من مرور موعده 5 جويلية، المأمرة مستمرة بنجاح، رسالة الأطلس 13-19 جويلية 1998، ع 197، ص 2.

(2) أحمد جلعلي حول مع رسالة الأطلس، المرجع السابق، ص 5.



موقف رئيس جمعية التضامن العربي الفرنسي لوسيان بيترلين: أعرب عن حزنه العميق على اغتيال معطوب وقال: "إن الجمعية تحي وطنية وشجاعة! الذين يكافحون في الجزائر العنيفة المتطرف للدفاع عن الحريات، نحن نعرب عن تمسكنا وتضامننا التام مع كل الجزائريين الذين لا زالوا رغم الاستفزازات الإجرامية العديدة صامدين أمام جنون الجماعات الإسلامية".

موقف رئيس بلدية بونتان<sup>(1)</sup> (رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي) جاك آزابي: ندد هو أيضا باغتيال معطوب، موضحا أن دعاة الشمولية لا يطيقون تحمل أصوات الشعراء<sup>(2)</sup> والمثقفين والديمقراطيين.

موقف أسقف الجزائر: قال أسقف الجزائر مونسينيور هنري تيسيبي بأنه يعتبر اغتيال معطوب الوناس انتصارا على السلام وعلى العودة إلى بناء المجتمع التي تمنيناها بشدة<sup>(3)</sup> وقال: "إنني مصدوم باغتيال معطوب الوناس... وأنا أفهم أن معطوب الوناس كان إنا لهذه الأرض التي غنى لها وتغنى بها، وخاصة في لغة منطقته، فهو يريد بكل وسيلة البقاء على ارتباط ببلده، وهذا أمر مفهوم، لكن ما لا أفهمه هو وجود أشخاص لا يترددون في إقتراح اغتالات شنيعة للتعبير عن اختياراتهم السياسية"<sup>(4)</sup>.

حضور شخصيات فرنسية مهمة في تجمعي MCB بباريس ترحما على روح معطوب:

أقام MCB تجمعين بباريس يوم الأحد 28 جوان 1998 ترحما على روح معطوب. وقد أقيم التجمع الأول في ساحة الجمهورية بباريس حضره الكاتبان الفرنسيان: برنار هنري ليفي وأندري غلوكسمان. وأما التجمع الثاني فقد أقيم في ساحة حقوق الإنسان في: الترو كاديرو بباريس، وكان من بين الحاضرين جاك لانغ وزير الثقافة الفرنسي السابق، ورئيس لجنة الشؤون الخارجية بالجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان)، والمطرب غي بيار، وجاك هيجكين ومسؤولين من جمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان<sup>(5)</sup>.

موقف الصحافة الفرنسية الفرنسية: ونكتفي بالإشارة إلى ما ذكره وزير الإتصال والثقافة الناطق باسم الحكومة الجزائرية حمراوي حبيب شوقي من تضلع فرنسا في أحداث تيزي وزو وبجاية الثانية. أنه أثناء الأحداث كانت تصب الزيت في النار البرقيات الفرنسية التي كانت تتحدث عن معطوب في سطر وقانون تعميم استعمال اللغة العربية ومنطقة القبائل في فقرات عديدة<sup>(6)</sup>. لأن فرنسا -حسب تصريحه- كانت لها أحلام لم تستطع تحقيقها مع الإرهاب فاستفاقت على حلم آخر لضرب الوحدة الوطنية وسيادة الدولة الجزائرية، وبين بأن الحملة الإعلامية الفرنسية كانت موجهة ومنسقة إلى درجة القول بأنها كانت جاهزة تنتظر أحداثا مثل تلك التي وقعت. لأن ردود الأفعال كانت منسقة جدا إلى درجة تبحث على الإعتقاد بأن

(1) أهال فرق باريس، (جريدة النصر، الأحد 28 جوان 1998، ع389، ص2).

(2) نلاحظ أن رئيس الحزب الشيوعي بنده بالشمولية مما يعني أنه لا ينطلق من الشيوعية لأنها شمولية، بل من النصرانية، وهذا فرق جوهرى بين شيوعي الغرب وشيوعي الجزائر والعرب، وأما كون معطوب شاعرا فلنستأمر من أصبح!.

(3) لا شك في أن الجمع الذي يربد الأسقف العودة إليه بشدة هو المجتمع النصراني لما قبل الإسلام، وهو ما يفهم من تعبيره بـ "العودة" وهذا يدل على مكانة معطوب عند رجال الإكلوس والأمال التي بنوها عليه.

(4) جريدة النصر، الأحد 28 جوان 1998، ع389، ص2.

(5) جريدة النصر، الأحد 28 جوان 1998، ع390، ص الأعمدة.

(6) بين أنها كانت توجه الأحداث وساهمت مساهمة فعالة في تحويل غضب المظاهرين من البكاء على معطوب إلى دفن قانون التعريب.



كل شيء كان جاهزا<sup>(1)</sup>. وقد بين حمراي أن أطراف تلك الحملة تريد بناء الديمقراطية في بلادها، ولكنها تريد للجزائر أن تكون مكونة من أعراش ودواوير<sup>(2)</sup>. والواقع أن الأشياء من معانها لا تستغرب-أليست فرنسا هي صانعة الحركة البربرية؟.

و الواقع أن الموقف الفرنسي السابق من رئيس الجمهورية إلى الإكليروس والصحافة إلى أخره يجعلنا نقول بأن أولئك يمثلون كل أدوات الإستعمار السابقة مما يدل على استمراريتها، فلقد بينا قديلا أن الحركة البربرية هي من صنع فرنسا بسياسيتها واكليروسها وجيشها ومستشرفيها إلخ. ، وهاهي هذه العناصر كلها نجدها متجسدة في تصريحات هؤلاء السابقين حول اغتيال معطوب، وما تتضمنه تلك التصريحات من تدخل سافر في الشؤون الداخلية للجزائر. إذ لا يعقل أن يكون رئيس دولة في زيارة لدولة أخرى وبعث منها على موت مغني ينتمي إلى دولة أخرى، ولا سيما إذا علمنا أن ما لا يحصى من مواطني تلك الدولة التي ينتمي إليها المغني قتلوا واغتيلوا وفيهم عدد لا يحصى أفضل منه حتى بالنسبة إلى دعاة الحركة البربرية أنفسهم ومنهم على سبيل المثال اسطنبولي الذي ينتمي إلى RCD وكان يعد منظرا لهذا الحزب، ومع ذلك لم يصدر رئيس الجمهورية الفرنسية بيانا بشأنهم! لماذا؟ ولماذا لم يصدر رئيس أمريكا أو ملكة بريطانيا أو وزيرها الأول بيانا بشأن معطوب؟

والجواب على هذا أن المستشف من وراء هذه التصريحات، أن فرنسا الرسمية على الأقل لا زالت تعتقد بوجود من يمثلها في الجزائر... فوراء الإهتمام الفرنسي بالمسألة الأمازيغية-التي هي من إنتاجها- هناك السعي إلى استمرار الفرنسية ولو في كيس أمازيغي. إن منطقة القبائل هي موطن القدم الثابت الذي تنطلق منه كل الدعوات التي تصدر على اعتبار الفرنسية غنيمة حرب أو تراث يجب المحافظة عليه<sup>(3)</sup>. ووراء الفرنسية التصير والإستعباد.

ولكن إذا كان ما سبق موقف فرنسا، فما هو موقف الحكومة الجزائرية؟

### موقف الحكومة الجزائرية :

إن نتعرض إلا إلى شيتين نعتبرهما أساسيين، أحدهما سلوك الحكومة تجاه الأحداث وثانيهما موقفها الرسمي من الأحداث من خلال تعبير ناطقها الرسمي وزير الإتصال والثقافة. فما يتعلق بسلوك الحكومة تجاه الأحداث فإن المرء يتعجب كيف لم تتعامل مع مثيري الشغب والتدمير بالحزم الذي يجب أن تسلكه كدولة مسؤولة في مثل هذه الظروف؟. كيف تترك المراهقين ومحرصيهم يعبثون بولايتين كاملتين لمدة أسبوعين كاملين دون أن تتخذ موقفا حازما لإعادة المياه إلى مجاريها، ولتثبت وجودها كدولة لها هيبتها مهما كانت العبررات؟. وما يؤسف له أننا وجدنا تراخي من طرفها لا مثيل له في الدول الحديثة، وقد رأينا نداء رئيس الحكومة إلى مثيري الشغب، فكان أشبه بالإستجداء

<sup>(1)</sup> ونحن نتفق مع هذا التصور ورؤى بأن فرنسا لم تكن تنتظر أحداثا لحسب بل صنعت أحداثا، وهو ما يجعلنا نتجدد أن هذا التخطيط الفرنسي هو الذي سماه RCD أكبر مشروع مغربي، ولكن FFS أسسه بلقاسم بالمرس زروال وهو عمل لغوي قام به FFS في نظرنا.

<sup>(2)</sup> جريدة النصر، الإثنين 28 جوان 1998، ع390، ص5، أيضا جريدة الأصل، قسنطينة 9 جويلية 1998، ص3.

<sup>(3)</sup> ج.ع. ما وراء الشغب؟ رسالة الأطلس، 6-12 جويلية 1998، ع196، ص4.

والإلتماس، هذا السلوك في نظرنا يعد أهم عامل لتكرار تلك الأحداث، ولقد تعود دعاة الحركة البربرية على السلوك يثيرون الشغب والعنف والإرهاب، والدولة تستجيب لهم، وبعد لأي يطالبون بمطالب جديدة ويتبعون نفس السلوك، ودائما حليلة في عاداتها القديمة. ونتساءل: لو وقعت هذه الظاهرة في مقاطعة "لابروغان" بفرنسا، هل كانت فرنسا تسلك نفس السلوك؟ وهل كان رئيس الجمهورية الجزائري ورئيس الحكومة ووزير الداخلية ووزير الخارجية وهم جرا يصرحون نفس التصريحات التي صرح بها رئيس فرنسا ومرؤوسوه بخصوص معطوب؟.

وأما ما يتعلق بالموقف الرسمي للحكومة الجزائرية من الأحداث فهو دليل صدق على ما ذكرناه أنفأ، وهو يجمع بين الثناء على المعتال وبين الشكوى من أصحابه، وهو تناقض لا يغتفر، لأنه إما أن يكون صالحا كاتباعه وإما أن يكون طالحا مثلهم. ويتمثل هذا الموقف فيما يلي:

لقد عبر وزير الإتصال والثقافة الناطق الرسمي للحكومة حمراوي حبيب شوقي وكاتبة الدولة للثقافة زهية بن عروس عن استنكارهما وتنديدهما... ليصلا إلى أن "استهداف رموز الفن والثقافة هي محاولة مكشوفة ومفضوحة لإعادة بسط الرعب والخوف والانتقام من أولئك الذين كانت أصواتهم دائما مع أصوات الوطنيين الغيورين والحريصين على بناء دولة المؤسسات والقيم الدستورية"<sup>(1)</sup>. ونحن لسنا ندري متى كان معطوب وطنيا غيورا حريصا على بناء دولة المؤسسات والقيم الدستورية، وربما "قسما" الجديد الذي سبب فيه الجهاد والمجاهدين والإسلام والعرب هو دليل المواطنة الحريصة على بناء دولة المؤسسات والقيم الدستورية، ولكن بتحطيم قيمها الدستورية ومؤسساتها ومقدساتها، وفي مقدمتها النشيد الوطني. ولا سيما إذا كان ذلك النشيد فريدا من نوعه في العالم، لأنه النشيد الوطني الوحيد في حدود علمنا الذي كتبه مؤلفه بدمائه على جدران الزنزانة التي كان يعذب فيها بسبب حبه لوطنه ودفاعه عنه. وهنا إما أن يكون مفدي زكريا هو المواطن الحريص وإما أن يكون معطوب الذي أتى بنشيد على موسيقى قسما مناقض للنشيد الوطني، والمتناقضان لا يجتمعان ولا يرتفعان كما يقول المناطقة.

والواقع أن وزير الاتصال يناقض نفسه وذلك فيما بينه أثناء لقائه الأسبوعي مع الصحافة، حيث بين عدة أشياء هي من الأهمية بمكان تتعلق بأحداث تيزي وزو الثانية يهمننا منها:

- أن RCD منع التلفزيون من تغطية ندوته الصحفية إثر الأحداث التي وقعت بولايتي تيزي وزو ورجاية، فتأسف على هذا المنع، وذكر أنه سيوجه لهذا الحزب رسالة بهذا الخصوص ولكنه لم يتجرأ حتى على ذكر اسم RCD.

- فرقة التلفزيون منعت من تغطية جنازة معطوب، وشتمت وأحرقت سيارتها، وكان تلك المنطقة خارج التراب الوطني.

- التلفزيون لم يظهر صوراً في أحداث تيزي وزو ورجاية الثانية حتى لا يكشف أصحابها ويفضح حقائقهم، حيث قال الوزير حرفياً: "لو كنا من الذين يناورون بالصور التلفزيونية لأمكننا كمشاهدين رؤية شعارات ووجوه سياسية تعاملت في هذه الأحداث بأشياء أقل ما يمكن وصفها به هو أنها بعيدة كبل البعد

(1) د. رابح، إسبانيا واستنكار للحرية، الجزء 27 جوان 1998، ع 2303، ص 4.

عن المعاملات السياسية... لا يمكننا الرد بنفس الشعارات ولا بنفس الأسلوب<sup>(1)</sup>. ونحن نتساءل قبل مرادفة تبيان ما جاء في توضيحه للصحافة: أين حق المواطن في إعلام نزيه ونظيف؟ أين تبيان الحقائق؟ وهل الذين رفعوا تلك الشعارات وتلك الوجوه السياسية التي رفعتها وتصرفت تصرفات مشينة لم تخجل منها. ووزير الإتصال يخل من كشفها للمواطن الجزائري الذي ظل ولا يزال يطالب بإعلام نظيف ونزيه يكشف الحقائق. ولما لم يجده ينس، فأتجه إلى القنوات الأجنبية ليأخذ منها ما يتعلق بوطنه؟ لماذا لم يتعامل التلفزيون مع هذه الأحداث ورافعي تلك الشعارات، وتلك الوجوه السياسية الغارقة في التوريط كما يتعامل مع القضايا التي تتعلق بالإسلام والإسلاميين؟ إن التلفزيون الجزائري عندما يتعلق الأمر بالإسلاميين يتفنن في تشويههم وتغيير الناس منهم ظلما وعدوانا، ولكن عندما تعلق الأمر بالمعادين للإسلام والعروبة فإن وزير الإتصال يصرح بأنه ليس من الذين يناورون بالصور التلفزيونية. والواقع أنه نسي نفسه في هذه اللحظة كوزير للاتصال والثقافة وكناطق رسمي للحكومة. وأخذ يتحدث دون شعور ودون قصد كمشارك في تلك الأحداث، لأنه بنص القانون الجزائري، الذي يغطي على مجرم يكون مشاركا له في الإجرام.

بعد هذا الإستطراد نعود إلى ما ورد في لقاء وزير الإتصال مع الصحافة فذكر:

- أن الحكومة تعبيراً عن انشغالها بحادث اغتيال معطوب "انندبت وزيرين اثنين إلى المنطقة ولكنهما ثوبلا بالشتائم حتى لا نقول أكثر من هذا. - ولسنا ندري لماذا لا يقول أكثر من هذا؟ ويسبوا أنه نسي حادثة المروحة. ذلك أنه في العرف الدولي يمكن أن تقوم حرب بين دولتين إذا سب وزير دولة من طرف مسؤول رسمي في دولة أخرى، ونحن لا نريد الحرب في الجزائر، ولكن نريد أن تكون الدولة قوية بالحزم والعدل".-

- الإنحرافات والإنزلاقات التي وقعت في بعض المدن تميزت بتكسير وتحطيم رموز الدولة وحتى رموز التاريخ الجزائري.

- تطلع فرنسا في تلك الأحداث، وقد أشرنا إلى هذا أثناء حديثنا عن موقف فرنسا من تلك الأحداث<sup>(2)</sup>.

- ما حدث في بلاد القبائل لم يكن لأجل معطوب، وإنما كان بهدف التعبير عن موقف من قانون التعريب، وأن الأطراف الخفية - التي لم يسمها - بعد خسارتها لرهانها على الإرهاب ورؤسائه حاولت استغلال مشاعر الحساسية التي أفرزها اغتيال معطوب لضرب استقرار وسيادة الجزائر وتشجيع العروضية... وأن الخسائر التي ألحقتها هذه الأحداث لا تقدر بثمن، وأن عدة شعارات وهتافات رفعت وأطلقت خلال الأحداث تتنافى مع القانون<sup>(3)</sup>، - لكن ما محتواها؟ - !.

(1) ع. كرم، بنية دعوته للإمتثال للقيم الديمقراطية والشفافية ووزير الإتصال والثقافة بوجه رسالة لحزب سياسي، الحبر، الخميس 9 جويلية 1998، ص.5.

(2) ع. كرم، المرجع السابق، ص.5، أيضا: الأصل، 9 جويلية 1998، ص.3.

(3) ل.و. الناطق الرسمي للحكومة، حلفاء الإرهاب وراء أحداث القبائل - النصر، الخميس 9 جويلية 1998، ص.398، ص.1.

- قال عن معطوب: "إن الجزائر فقدت في شخص معطوب أحد أبنائها الذين أبدعوا في ميدان الفن... سقطوا أمام الإرهاب من أجل الوطن وقيم الشعب..."<sup>(1)</sup>. ونحن نتساءل بإندهاش: هل سقط معطوب من أجل الوطن وقيم الشعب فعلا؟ هل الذي يمس مقدسات الأمة ويلوثها، ويعاكس تشييدها الوطني بسبب الإسلام والعروبة والجهاد والمجاهدين إلخ هل هذا سقط من أجل قيم الوطن؟ وهكذا يقع التشابه الكبير بين تصريحات الفرنسيين السابق الإشارة إليها وتصريح وزير الإتصال والثقافة الناطق الرسمي للحكومة الجزائرية!!

وهذا ما بدعونا إلى الحديث عن نتائج أحداث تيزي وزو (وبجاية) الثانية.

#### نتائج الأحداث

قد تمخضت أحداث تيزي وزو وبجاية الثانية على نتائج خطيرة، أهمها ما يأتي:

التطبيق التدريجي لقانون التعريب بدل التطبيق الشمولي: وذلك أنه بعد إثارة تلك الأحداث والتخريب الذي رافقها والمسيرات التي نظمها دعاة الحركة البربرية ضد قانون التعريب فإن الرئيس زروال وعد قيادي FFS بعد استقباله لهم بأن قانون التعريب سيطبق تدريجيا، وهذا يعد مكسبا كبيرا لدعاة الحركة البربرية الذين بدل أن يدانوا ويحاكموا على ما اقترفوه وجدنا رئيس الجمهورية يوعدهم بالتطبيق التدريجي لقانون التعريب ويعطيهم التزاما بذلك<sup>(2)</sup> مما يعني عدم تطبيقه أصلا.

الدعوة الصريحة إلى ترسيم اللغة الفرنسية: ظهرت جرأة دعاة الحركة البربرية أكثر من ذي قبل لإحساسهم بالقوة من جهة وضعف الدولة وتحكمهم فيها من جهة أخرى. ولهذا فبالإضافة إلى المناورات السابقة في طرح ما يسمى بالأمازيغية للتعمية والتغليب، طرحت للمرة الأولى مسألة ترسيم اللغة الفرنسية نهائيا، وقد غلف هذا الطرح بإدعاء ضبابي يتمثل في تعدد اللغات في الجزائر<sup>(3)</sup>. وقد رأينا ما صرح به جداعي من أن اللغة الفرنسية جزء من تراثنا التاريخي وليس لنا الحق في رفضها<sup>(4)</sup>...

الإعلان الصريح برفض اللغة العربية الفصحى بسبب ارتباطها بالإسلام: لقد صرح دعاة الحركة البربرية لأول مرة جارا بأنهم يرفضون اللغة العربية الفصحى ليس لأنها لغة العرب وأهم عامل بعد الإسلام لتوحيد صفوفهم، بل لأنها مرتبطة بالإسلام. ولقد أشرنا قبلا في ملاحظتنا حول هذه الأحداث ما ذكره كاتب ياسين "يجب أن لا نخطئ، فالعربية ليست هي العدو، العدو هو الإسلام". ولقد تبينت هذه الحقيقة بوضوح في الوثيقة التي قدمتها MCB إلى أعضاء البعثة الأممية الإعلامية أثناء زيارتها للجزائر في الفترة 22 جويلية - 4 أوت 1998م. وقد جعلت عنوانها "ملخص عن الإنتهاكات لحقوق الهوية الثقافية واللغوية للأمازيغيين الجزائريين". ومن أهم ما ورد في هذه الوثيقة:

(1) نصوص، الناطق الرسمي باسم الحكومة... لقد استغلوا إختلال معطوب لشن حرب على قانون التعريب وضد الجزائر، النصر، 9 جويلية 1998، ص3.

(2) ص.ل. عقب استقباله من طرف زروال، وقد من الأمللس بصرح: الرئيس وحدنا تطبيق تدريجي لقانون تعميم العربية وترقية الأمازيغية، المرجع السابق، ص3.

(3) رأي تحليلي في السلوك الفرنسي، رسالة الأطلس، 7-13 سبتمبر 1998م، ع205، ص25.

(4) ولكن حفصي قال أيضا قبل هذا السياق "نحن نعلم أنها لا يمكن أن تكون لغة وطنية ولا رسمية في الجزائر، ولكنها حقيقة موجودة في الجزائر وهي جزء من تراثنا الحضاري..." (بعد حفصي، حوار رسالة الأطلس، مصدر سابق، ص5).

- جعل الأمازيغية (القبائلية) لغة ثانية وطنية ورسمية في الجزائر. وإدراجها في مختلف القطاعات والمؤسسات الاقتصادية على الأقل في بلاد القبائل.

- ترقية العربية العامية في الجزائر بدل اللغة العربية الفصحى والمقصود بالترقية هو الفرنسية - ونلاحظ أن هذين المطالبين قديمان وقد توسع فيهما كثيرا ملتقى إيكورن.

- الإعلان عن المساواة بين اللغات والثقافات الجزائرية أمام القانون - وهو ما يعني تكريس الفرنسية ومساواة النصرانية واليهودية بالإسلام -.

- وهذا بيت القصيد - إلغاء قانون تعميم استعمال اللغة العربية بسبب ارتباطها بالإسلام" لأنها إنحرفت عن وظيفتها للإتصال لتصبح مجرد وسيلة رهينة بالإسلام" (1).

والواقع أن هذه أول مرة يصرح فيها دعاة الحركة البربرية بأن رفضهم للعربية إنما هو ناتج بسبب ارتباطها بالإسلام، فلو لم تكن مرتبطة بالإسلام ما رفضت، وهذا جديد نتج عن أحداث تيزي وزو الثانية. ذلك أنهم كانوا في أغلب الأحيان يصرحون بأنهم مسلمون ولكنهم ليسوا عرباء، بل "قبائل" وهذا هل يبقى شك في أن الحركة البربرية حركة تنصيرية وأن رجال الإكليروس هم مسيروها. ذلك أن التصريح بأنهم يرفضون اللغة العربية لأنهم يرفضون الإسلام، ولو نزل الإسلام باللغة الفرنسية لرفضوها لأنهم يرفضونه، حيث ما دام مرفوضا فكل ما يؤدي إليه مرفوض. ويجب أن نشير هنا إلى أنهم في الوقت الذي يفصحون فيه عن حقدهم الدفين تجاه القرآن الكريم ولغته نجدهم يمجدون الإكليروس الفرنسي ولغته، ولقد ذكرنا هذا قبلا وأشرنا إلى حديث معطوب في تعليقه على المساواة الأربعة الهالكين. وهكذا يظهر أن اتهام دعاة التعريب بالبعثية ما هو إلا مجرد غطاء يتذرعون به لرفض لغة تكلم بها الله عز وجل.

التصريح الضمني بأنهم أقلية ودعوة الأمم المتحدة للتدخل لحمايتهم: لقد أشار الملخص أيضا إلى جملة من المبادئ الأممية التي تدعو إلى حماية الأقليات اللغوية والعرقية، والتي تكون قد دفعت أصحاب التقرير إلى لفت انتباه الوفد الأممي إلى بعث مبادئ الأمم المتحدة (2).

وعندما نعلم أن واحدة من أعضاء الوفد الأممي كانت فرنسية. وكانت تذهب باستمرار إلى باريس وتعود خلال فترة التحقيق أو التقصي. وعندما نعلم أن فرنسا هي صاحبة بند حماية الأقليات في مجلس الأمن. وعندما نعلم أن الحركة البربرية إنما هي فرنسية شكلا مضمونا: أدركنا خطورة الوضع في المستقبل. ومن أهم ما نستنتجه من هذا التصريح الضمني إضافة لما ذكرناه أن الإدعاء بالأمازيغية والسكان الأصليين ما هي إلا غطاء للقبائلية وإلا فكيف يكونون أقلية! هل هم أقلية بالنسبة إلى القبائل الأمازيغية الأخرى أم بالنسبة إلى العرب أم بالنسبة إلى جميع السكان؟

إنهم عبروا عن حقيقتهم فهم أقلية بالنسبة إلى جميع السكان بما في ذلك الأكثرية الساحقة من "القبائل" أنفسهم الذين يعتقدون الإسلام ويتبنون لغته.

(1) ن. رياض، الأممي في تلميز وجهه لأعضاء اللجنة الإسلامية، المطالبة بإلغاء قانون التعريب وترقية الأمازيغية، جريدة الحبر، الأربعاء 19 لوت 1998م، ع 2347، ص 3.

(2) المرجع نفسه، ص 3.

وهكذا يدعو دعاة الحركة البربرية الغرب للتدخل المباشر في الجزائر لحمايتهم. ويعد هذا من أهم نتائج هذه الأحداث.

### تقسيم الجزائر:

أعدت أحداث تيزي وزو الثانية من جديد طرح ما سموه بـ "إعادة هيكلة الجزائر" وفق أسس عرقية وجاهوية<sup>(1)</sup>. ولقد صرح منسق الحركة الثقافية البربرية المقربة من RCD من "منتدى الثائرين" مجيد أمقران في تجمع أقيم بعد مقتل معطوب في أوائل شهر جويلية 1998 داعيا إلى "الشروع في التفكير للمطالبة بفصل منطقة القبائل عن الجزائر، ومع أن أصحابه أبعده لذلك عن منتداهم حسب جريدة الخبر<sup>(2)</sup>. غير أننا نرى أن ذلك الإبعاد إنما هو لذر الرماد في العيون، وهو ما كشفته جريدة (لوماتان L.C. (Matin) الصادرة يوم 25 أوت 1998 حيث ذكرت أن ممثلا عن MCB قد استقبل من طرف أعضاء من الأمم المتحدة. وطرح عليه أسئلة محددة ودقيقة تتعلق بتاريخ الحركة الثقافية البربرية والمطالب المتعلقة بالهوية الأمازيغية وحقائق أحداث بلاد القبائل الثانية واغتيال معطوب. وقد حمل ممثل MCB في هذا اللقاء الذي يكون قد رتب بمساعدة ممثل فرنسا في الأمم المتحدة: مشروعا لتقسيم الجزائر، يسميه دعاة الحركة البربرية "مشروع إعادة هيكلة الجزائر"<sup>(3)</sup>. وهو المشروع الذي سلمه دعاة الحركة البربرية إلى البعثة الأممية الإستعلامية التي زارت الجزائر في الفترة 22 جويلية - 4 أوت 1998، وهو ما بينه دعاة الحركة البربرية أنفسهم حيث أكدت الحركة الثقافية البربرية في بيان لها بعد مغادرة البعثة الأممية للجزائر مباشرة بأن وفدا عن هذه الحركة الثقافية البربرية قد استقبل من طرف وفد تابع للأمم المتحدة وطرح عليه وجهة نظره تجاه أزمة الجزائر وتصوراتها لحلها من خلال التقسيم المتضمن في المشروع القبائلي المسمى "مشروع إعادة هيكلة الجزائر"<sup>(4)</sup>.

صاحب هذا المشروع RCD و MCB وهو معد ضمن مسلسل مدروس بدقة. فبعد الحديث عن العودة إلى نظام الولايات الذي كان قائما أثناء الثورة بحيث تأخذ دولة القبائل الولايات الثالثة والرابعة وجزءا من الثانية، وبعد الحديث عن الدولة الممتدة من مغنية إلى القالة... إلخ. تصرح خليدة مسعودي نائبة RCD في البرلمان بأن الحل الوحيد لأزمة الجزائر هو إعادة التشكيل الوطني أو إعادة هيكلة الجزائر، على الأسس العرقية والجاهوية والثقافية بما يمكن الديمقراطيين - اللاتكنيين - من الظهور والسيطرة. وهو إحياء لمشروع نيجول في اتفاقيات إيفيان الذي يقوم على تقسيم الجزائر إلى 6 دويلات والذي رفضه المفاوض الجزائري آنذاك.

(1) طاهر حليس، الأزمة الجزائرية، النتائج والحلول، رسالة الأطلس 7-13 سبتمبر 1998، ع 205، ص 13.

(2) ع.ر. "منتدى الثائرين" يترا من الحركة الثقافية البربرية، إهاد محمد أمقران بسبب تصريحاته الخطيرة، جريدة الخبر السبت 11 جويلية 1998م، ص 4.

(3) مشروع تقسيم الجزائر من الأمم المتحدة، رسالة الأطلس، 31 أوت - 6 سبتمبر 1998، ع 204، ص 2.

(4) ص.ه. لوانة في تقرير البعثة الأممية للجزائر، إستراتيجية للتدخل الأجنبي، المزمع، رسالة الأطلس، 28 سبتمبر - 4 أكتوبر 1998م، ع 208، ص 3.

يرجب أن نشير بأن أبناء القبائل أنفسهم يرفضون هذا المشروع الجهنمي الهدام الخطير. وقد تحدوا خليفة مسعودي ومنعوا من الحديث عنه في تازمالت، رغم الإرهاب الجهنمي الذي يمارسه عليهم كل من MCB و RCD<sup>(1)</sup>.

ومع هذا فإن هناك من يطالب بنظام، فيدرالي و هناك من يرسم معالم تقسيم الجزائر إلى مجموعات ذات شخصية دولية، ووصل الأمر إلى تدخل رئيس الجمهورية -زرورال- ليهدد كل من تسول له نفسه المساس بالوحدة الوطنية<sup>(2)</sup>. ورغم هذا فإن المؤامرة مستمرة وهو ما بينته رئيسة حزب العمال النائبة في البرلمان لويزة حنون في ندوة صحفية نظمتها عما يمكن اعتباره الخطر الأول والأكبر المهدد لمستقبل الجزائر، فقد تكلمت عن النقاش المفتوح في الصحافة حول طبيعة الدولة، حيث يطرح النظام الفيدرالي حلاً. كما بينت بأن هناك من يسعى لإنشاء رابطة وطنية لاستقلال الجنوب (التوارق).

نستشف من هذا الكلام أن هناك قوى تعمل في الظلام بلا هوادة لتمزيق الجزائر إلى دويلات طائفية مستقلة سياسياً ذات حدود دولية معترف بها.

وإن المرء ليستغرب كيف تسنى لموضوع خطير كهذا أن يصل إلى صفحات الجرائد ويتحول إلى قضية معروضة أمام الرأي العام الوطني والدولي. فهل الدولة عاجزة عن مواجهة دعاة التمزيق؟

إن التمزيق أخذت ناره في الإشتعال عندما اعترفت الدولة بما يسمى "المطلب الأمازيغي" وغضت الطرف عن أنشطة أحزاب عرقية ذات مطالب ثقافية في الظاهر سياسية في الباطن. ذلك أن التعددية اللغوية والعرقية تكون دائماً ممهدة للكليات المتعددة.

وعندما تتمرّد منطقة ما على قرارات الدولة الخاصة بتعميم استعمال اللغة العربية، وتذهب بعيداً في تعنتها ولا تتخذ الجهات الرسمية إجراءات قانونية ردعية ندرك خطورة الموقف، ونتوجس خيفة من المستقبل؛ لأنه لا يعقل أن يتصرف الأفراد أو الجماعات أو المناطق بمحض إرادتهم متجاوزين سيادة الدولة التي ينتمون إليها<sup>(3)</sup>. ولا ننسى جولات سعدي و FFS بين التوارق وبنو ميزاب والشاوية لتحقيق الأغراض السابقة، والهدف من هذا التقسيم هو العودة بالجزائر إلى ما قبل العهد العثماني عندما كانت مقسمة إلى 20 دولة ضعيفة متصارعة. ولقمة صائغة في يد الصليبيين، فلما وحدها الإخوة هروج أصبحت أقوى بحرية في العالم، وهكذا فقوة الجزائر في وحدتها، وضعفها في تفرقها، ومن هنا فإن العمل على إعادتها إلى ما قبل الإخوة هروج يبدأ بالإنقسام على أساس عرقي، ثم يتفرع لتتشكّل الجزائر وتتلشبى ثورة 1954م.

(1) لقيال با سليمة لن يسمعوها بللك، رسالة الأملس، 24-29 أوت 1998، ع203، ص2.

(2) ابن الربيد، هل تنكور "الغورباتشولية" في الجزائر، العالم السياسي، الجزائر، 22 أوت 1998، ع623، ص4.

(3) ع.ج. لا... للعادة اللغوية، رسالة الأملس، 7-13 سبتمبر 1998، ع205، ص3.

### التنديد المباشر بالإسلام والإعتراض على بناء المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية:

ومن ذلك، فما أن حصل رئيس الحزب الشيوعي الجزائري الهاشمي الشريف على الاعتماد لحزبه الجديد "الديمقراطية الإجتماعية" حتى أكد أن الإسلام هو سبب المشاكل، وأن استراتيجية حزبه الجديد مبنية على رفض كل مسار انتخابي تشارك فيه أية حركة إسلامية، وإن كان هذا ليس جديداً، لكن الجديد أنه ما كاد ينتهي من كلامه حتى انسجم معه بعض الإستصاليين حيث تم:

**تنديد جمعيتي معلمي الأمازيغية وراشدة برئاسة خليدة مسعودي بمشروع بناء مركز إسلامي بتيزي وزو:**

نددت جمعيتنا معلمي الأمازيغية، وراشدة برئاسة خليدة مسعودي في بيان لهما بمشروع بناء مركز إسلامي بتيزي وزو بكلفة مليارين وإعتبرناه غير مقبول وليس من الأولويات ولا يستجيب لحاجيات وطبيعة المنطقة، -وكان حاجيات وطبيعة المنطقة تتمثل في بناء كنيسة!-

ولقد تصدى FFS لهذا التنديد -موقف إيجابي- عندما قال رئيس المجلس الشعبي الولائي: "إن أولئك الذين يثيرون مثل هذه القضايا هم في بطلالة سياسية، وأن مثل هذه المواقف لا تنتج إلا عن أولئك الذين هم ضد الدين الإسلامي<sup>(1)</sup>". وهكذا بين FFS أن RCD وجمعية معلمي الأمازيغية هم ضد الدين الإسلامي، وهل ينكر أحد بعد هذا أن الأمازيغية معارضة للإسلام؟.

### تنديد بعض الجمعيات النسائية ببناء مسجد في تيزي وزو:

عارضت هذه الجمعيات النسائية -التي نصبت نفسها متحدثة باسم الشعب- عملية بناء مسجد في تيزي وزو مقترحة تحويله إلى مرقص أو مسرح<sup>(2)</sup>. والأمر لا يحتاج إلى تعليق.

### تهريب بعض الجمعيات النسائية للأطفال إلى فرنسا وبلجيكا لأغراض تنصيرية:

أدلت الحكومة الجزائرية في بداية صيف 1998م على اتخاذ إجراء وقائي يتمثل في منع أكثر من ألف طفل جزائري من السفر إلى فرنسا بدعوى قضاء العطلة الصيفية تحت إشراف عدد من الجمعيات النسائية. وقد تكفلت وزارة التضامن بتطبيق قرار الحكومة، فتضمر لهذا المنع عدد من الجمعيات النسائية المشبوهة المنظمة لعملية تهريب الأطفال الجزائريين والمستفيدة من العملية اجتماعيا وسياسيا وماديا. مثل جمعية: "الرافدة" و"نساء في خطر" و"لالا نسومر" و"الجزائر في القلب" إلخ.

الحكومة لم تبين أسباب الإجراء الذي اتخذته سوى ما صرح به الناطق الرسمي باسم الحكومة و يتمثل فيما يأتي:

<sup>(1)</sup> رسالة الأطلس، 17-23 لوت 1998، ع 202، ص 5.

<sup>(2)</sup> إن شاء الله، قد يكون الأبناء هم وانضموا هنا بناء، رسالة الأطلس، 17-23 لوت 1998، ع 202، ص 24.



المنع تم بناء على تقييم السفريات السابقة، ومن ذلك أن بعض عمليات "التهريب" تمت خسارج ضمانات الهيئات الدبلوماسية الجزائرية، ولم يتم أي تنسيق بين الجمعيات المسفرة للأطفال والهيئات الدبلوماسية الجزائرية في الخارج<sup>(1)</sup>. ولقد كشفت تقارير هيئات الدبلوماسية وشكاوى بعض الآباء أن بعض الأطفال ظلوا ثلاثة أيام كاملة دون أكل، وأن هؤلاء الأطفال يدعون إلى ممارسة بعض النشاطات مثل الرسوم، ثم تجمع في كتابات وتشر حول الجزائر، وأحيانا تطرح عليهم أسئلة: من يقتل من في الجزائر؟.

وأما الجمعيات التي تنفذ هذه السفريات فقد قال عنها الناطق الرسمي للحكومة إن بعض الدول حكر على عدد من الجمعيات، وبعض الجمعيات لها الأسبقية في الحصول على التأشيرات. ولقد كانت هذه الجمعيات النسائية ترسل هؤلاء الأطفال إلى فرنسا تحت غطاء أبناء ضحايا الإرهاب ولكن رئيس الحكومة أصدر تعليمة في 17 فيفري 1997 يمنع سفر أطفال عائلات ضحايا الإرهاب إلى الخارج<sup>(2)</sup>. فردت تلك الجمعيات النسوية بأن الأطفال المسفرين هذه السنة (1998) ليسوا من أبناء ضحايا الإرهاب، بل هم من أبناء العائلات الفقيرة - وهذا لب التصيير - ولكن ما يثير الدهشة في هذا الموضوع، أن بعض أولياء هؤلاء الأطفال أعلنوا بأنهم هم الذين اشتروا لأبناءهم تذاكر السفر بل وحتى بعض حاجياتهم. وهنا تتساءل: كيف يكون هؤلاء الأطفال أبناء فقراء ويتمكن هؤلاء الفقراء من شراء تذاكر السفر لأبناءهم إلى فرنسا رغم سعر التذكرة الباهض؟.

إن الناطق الرسمي للحكومة كشف بعض ما هو سري عن أسباب اهتمام فرنسا بأطفال الجزائر ولا سيما الأطفال الذين أمت بهم الفواجع، فهم كائنات مخبرية لمستقبلهم، يرسم رد فعلها من خلال الرسم التعبيري لمعرفة ما يحدث في الجزائر. وإلا فما معنى أن تجمع رسوماتهم في كتاب يطبع ويبيع ويخضع للتحليل والدراسة؟ وما معنى أن يجيبوا على أسئلة تعني الإجابة عنها ما تعني سياسيا وأخلاقيا؟. وإذا كانت القضية قضية سياحة فلماذا يظلون دون أكل ثلاثة أيام كاملة؟ ولماذا تكون فرنسا بالذات هي الوجهة المختارة، -أو بلجيكا- دون غيرها من البلدان<sup>(3)</sup>؟.

والذي يزيد هذا التهريب خطورة أنه يتم بالتنسيق مع جهات فرنسية يسارية وغير يسارية. وقد تنبتهت الحكومة إلى خطورة الأمر بعد أن أصبحت العملية تجري سنويا، وفي سرية تامة بهدف إخضاع هؤلاء الأطفال سنويا في فرنسا إلى عمليات غسل مخ لاستخلاف دفعة لأكوست. "لذلك يكون هؤلاء الأطفال قد سجلوا مسبقا في مدارس فرنسية خاصة، وأعطيت لهم الجنسية الفرنسية من حيث لا يدرون، وبحيث يمكن لفرنسا أن تطالب بهم في أي وقت"<sup>(4)</sup>.

وندرک الغرض الحقيقي من العملية وكذلك أهداف الجمعيات المسفرة لهم عندما نعلم أيضا أن الجهات المستقبلية في فرنسا، أي التي تتكفل بهؤلاء الأطفال إنما هي جهات ذات طابع تنصيري. كما تستقبلهم

<sup>(1)</sup> إشغال محاولة تهريب ألف طفل جزائري إلى فرنسا، (د. توليم) رسالة الأطلس، 27 جويلية - 2 أوت 1998، ع 199، ص 2.

<sup>(2)</sup> وما يحدث إلى هذه الجمعيات النسوية من تسفيرهم إلتاع هؤلاء الأطفال بأن الإسلام قتل آباؤهم والنصرانية الفرنسية تحميهم وتساعدهم، وهذا هو التصير.

<sup>(3)</sup> ج. ع. أطفالنا إن المراد، رسالة الأطلس، 27 جويلية - 2 أوت 1998، ص 3.

<sup>(4)</sup> إشغال محاولة تهريب ألف طفل جزائري إلى فرنسا، المرجع السابق، ص 2.

عائلات نصرانية. فيلقنون من طرف مستقبلهم فيما وسلوكات مخالفة تماما لقيمنا وسلوكاتنا، أي ينصرون أو تشوش عقيدتهم كما يتأثرون بما يشاهدونه من فرق بين مجتمعهم الأصلي وفرنسا، فيغزو حبيها قلوبهم بمقدار كراحتهم لمجتمعهم الأصلي. ولا أدل على هذا من أن أحد الأطفال المستقبلين من هذه العائلات النصرانية، صاح بأعلى صوته عندما سأله صحفي عن شعوره وهو يصل إلى فرنسا: تحيا فرنسا<sup>(1)</sup>. ولهذا فإنه لما أفضلت الحكومة محاولة تهريب ألف طفل إلى فرنسا حاولت هذه الجمعيات مخالفة التعليمات الحكومية رقم 3 المؤرخة في 19 ديسمبر 1997م بتنظيم رحلة لـ 500 طفل من أطفال ضحايا الإرهاب<sup>(2)</sup>.

وهكذا صارت هذه الجمعيات النسائية ذات المكانة المرموقة عند بعض الحكومات الغربية سمسارا يتاجر ويتأمر على الجزائر مقابل ثمن نجهله<sup>(3)</sup>. ومهمتها بتصوير الأطفال الجزائريين المعدمين أو أبناء ضحايا الإرهاب هؤلاء الذين تعتقد هذه الجمعيات أن غزوهم وتصيرهم عملية سهلة إذ يكفي أن يلقنوا إفا أن الإسلام هو الذي قُتل آباءهم.

ولكي ندرك خطورة هذه العملية وأهميتها بالنسبة لفرنسا، وعمالة تلك الجمعيات السنوية لها، نشير إلى موقف فرنسا حكومة وأحزابا وجمعيات من قرار الحكومة الجزائرية بمنع هؤلاء الأطفال من السفر إليها. فلقد أرسل الحزب الشيوعي الفرنسي رسالة إلى وزارة الخارجية الجزائرية يستفسر فيها عن أسباب المنع. وامتعض الوفد البرلماني الفرنسي الذي زار الجزائر في تلك الفترة من ذلك المنع. وأبدت جمعية "النجدة الشعبية الفرنسية" و "الجمعية الدولية للمعوقين" تأثرهما لعدم السماح للأطفال المعنيين بالسفر إلى فرنسا وبلجيكا<sup>(4)</sup>.

ولا يخفى على أحد أن كل هذه الجمعيات إنما هي جمعيات ذات طابع تبشيري.

ونختم حديثنا بالإشارة إلى قضية أخرى لها أهمية كبيرة تبين دور هذه الجمعيات النسوية التبشيري هي "كتيب" أنجزته الجمعية الجزائرية لترقية صحة الطفل الذي اعتبرته السلطات العمومية "كتيب العار" الذي ينقل صورة كاذبة ومناقية للواقع الذي تعيشه الطفولة الجزائرية... مثل صورة الممرضة التي تحمل على رأسها قبعة رسم عليها الصليب. أو صورة المعلمة المتحجبة التي تضرب تلميذها<sup>(5)</sup>.

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن التبشير من خلال الحركة البربرية.

(1) العالم السياسي، الجزائر، المجلس 30 جويلية 1998م.

(2) ع. ح. للجزائريين فقط، رسالة الأطلن، 10 - 16 لوت 1998، ص. 3.

(3) ع. ح. أطفالنا في الأزمان، المرجع السابق، ص. 3.

(4) ع. ح. للجزائريين فقط، المرجع السابق، ص. 3.

(5) المرجع نفسه، ص. 3.

## الباب الثاني

### التبشير من خلال الحركة البربرية

وسنكتفي فيه بتحليل ثلاثة أركان من أركان الحركة البربرية لخطورتها، حيث يتم العمل من خلالها على قلع الإسلام من الجذور، وقد جعلناها فصولا مقسمة إلى مباحث، هي:

**الفصل الأول: العلمانية ( اللاتكية)**

**الفصل الثاني: الفرنكفونية**

**الفصل الثالث: تغيير الإنتماء الحضاري وإحلال رباط ما يسمى حضارة**

البحر الأبيض المتوسط محل رباط العروبة والإسلام.

عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفصل الأول

### العلمانية ( اللاهوتية )

#### المبحث الأول

#### تحديد المفهوم

العلمانية لفظ معرب وليس عربيا أصيلا، أخذ عن لفظ : Secularisme - الإنجليزي - المأخوذ من اللفظ اللاتيني " Saeculum " الذي يعني العصر مما يجعل المصطلح ينتمي إلى الحضارة الغربية<sup>(1)</sup>. وهي إذن ترجمة لكلمة " Secularism " الإنجليزية و " Secularite " أو " Laïque " الفرنسية، وبذلك فهي ترجمة مضللة وخاطئة لإيهامها العلاقة بالعلم بينما هي في لغاتها الأصلية لا علاقة لها به<sup>(2)</sup> أو بمشكلاته؛ لأنه يعبر عنه في الإنجليزية والفرنسية بكلمة " Science "، والمذهب العلمي يعبر عنه بكلمة " Scientism " والنسبة إلى العلم هي " Scientific " في الإنجليزية " Scientifique " في الفرنسية<sup>(3)</sup>.

والمقصود بها في تلك اللغات الأصلية إنما هو الفصل الكلي المطلق بين الدين والحياة، وتوضح الترجمة الصحيحة لها من التعريف الذي تورده لها المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية. فدائرة المعارف البريطانية تعرف كلمة " Secularism " بأنها " حركة إجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الإهتمام بالأخرة إلى الإهتمام بالحياة الدنيا وحدها... وظل هذا الإتجاه إلى " Secularism " يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله بإعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية<sup>(4)</sup>.

وقاموس " العالم الجديد "، لويستر" يرى بأنها نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة، وهي أيضا الإعتقاد بأن الدين والشؤون الكنيسية لا دخل لها في شؤون الدولة وخاصة التربية العامة.

والمعجم الدولي الثالث الجديد يرى بأنها نظام إجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على إعتبرات الحياة المعاصرة والتضامن الإجتماعي دون النظر إلى الدين وهي إتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين ... يجب ان لا يتدخل في الحكومة " السياسة اللادينية البحتة في الحكومة"<sup>(5)</sup>.

وبهذا يتضح أنه لا علاقة للكلمة " علمانية " بالعلم. لأن علاقتها قائمة بالدين، ولكن على أساس سلبي،

(1) حسن حنفي، حول المشرق والمغرب، تقدم حلول فيصل، ط1، اليوم السابع، دار توفيق للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990 م، ص 42.

(2) من محمد لطيف، ملهيب لكوبة، معاصرة، ط3، Encyc - Britanica , V . IX P 19 - دار الشروق، القاهرة، بروسته، 1988، ص 445.

(3) يوسف الرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهها الوجه، رد علمي على > . نواد زكريا وجماعة العلمانيين، ط2، مكتبة رحاب، الجزائر، 1409 هـ - 1989 م، ص 48 - 49.

(4) من محمد لطيف، المرجع السابق، ص 445.

(5) سفر الحوالي، وباء العلمانية وهل له مرور في العالم الإسلامي، ط1، دار ابن تيمية، البليدة، الجزائر، 1409 هـ، ص 12، 13.

أي على أساس نفى الدين والقيم الدينية عن الحياة<sup>(1)</sup>. والترجمة الصحيحة لها هي "اللا دينية" أو "الدينوية" لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص، وهو ما لاصلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.

ولما كانت العلاقة بين الدين والعلم في مفهوم الإنسان الغربي علاقة تضاد، فما يكون دينيا لا يكون علميا، وما يكون علميا لا يكون دينيا، حيث العلم والعقل يقابلان الدين، والعلمانية والعقلانية تضاده. ترجم المترجمون كلمة Secularism أو Secularite أو Laique بالعلمانية.

وبعض هؤلاء ينطقها بفتح العين نسبة إلى "العالم" وهو ما شاع في عدد من المعاجم حيث أخذ بعضها عن بعض، وهو خطأ. وإلا قيل "العالمانية"، وبعضهم بكسر عينها نسبة إلى العلم، وهو خطأ - أيضا كما بينا - من المترجمين. وهي مكسورة العين أو مفتوحتها ترجمة خاطئة ومضلة كما قلنا عن اللغات الأوروبية، والأصح أن تترجم بلفظة "لا دينية"؛ لأن معنى الكلمة الأجنبية ما ليس بديني، وكل ما ليس بديني، هو لا ديني، وقد إختاروا كلمة "علماني" أو "مدني" لأنها أقل إثارة من كلمة "لا ديني"، ويصبح "العلماني" ما ليس بديني، ومقابلة الديني<sup>(2)</sup>.

وبهذا فإن الترجمة الدقيقة لكلمة "Secularism" هي "اللا دينية"، ونبذ الدين وإقصاءه عن الحياة العملية، سياسية واقتصادية وإجتماعية وفكرية... إلخ هو لب العلمانية<sup>(3)</sup>. ويصبح مصطلح العلمانية نسبة - غير قياسية - إلى العالم أو إلى العالمية. والعلمانية Secular هو الذي يتبناها سواء كان فردا أو جماعة، أو مجتمعا أو دولة<sup>(4)</sup>. وهو خلاف الديني أو الكهنوتي وهذه تفرقة نصرانية لا وجود لها في الإسلام، وأساسها وجود سلطة روحية هي سلطة الكنيسة وأخرى مدنية هي سلطة الحكام الزمانيين<sup>(5)</sup>. وذلك لأنها نشأت وصيغت كمقابل للمقدس بمعناه الكنسي اللاهوتي الكاثوليكي. وكمقابل لخارق الطبيعة والتقليدي الجامد المنكر للتجديد... فهي المقابل لما هو "ديني وكهنوتي" كما عرفته أوروبا الكاثوليكية في عصورها الوسطى والمظلمة<sup>(6)</sup>. ولذلك فإن العلمانيين لا يتقيدون بنصوص أو طقوس دينية. وتعد الثورة الفرنسية من أكبر الحركات العلمانية<sup>(7)</sup>. حيث ظهر الطابع العلماني بعد قيامها سنة 1789م ليكون بديلا عن الطابع النصراني في المجتمع الأوروبي<sup>(8)</sup>. وهكذا فإن العلمانيين بسبب تبلور العلمانية في المجتمع الأوروبي النصراني يضعون العلم نقيضا للدين ومقابلا له بسبب الصراع المرير الذي شهدته أوروبا بين الدين كما قدمه اللاهوت الكنيسي الكاثوليكي وبين العلم الذي بنيت على قواعده النهضة الأوروبية الحديثة. وبهذا فإن

(1) محمد لطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص 445، 446.

(2) يوسف القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهها لوجه، ص 51، هامش ص 48.

(3) محمد لطب، المرجع السابق، ص 445 - 446.

(4) محمد عسرة، العلمانية وخصتها الحديثة، ط2، دار الشروق، القاهرة، بيروت، 1986، ص 47.

(5) لفحة من الأسئلة المصيرية والعرب التخصصية، مجمع العلوم الإجتماعية، تصدر إبراهيم مذكور، ط1، مجمع اللغة العربية بالتعاون مع مركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة ومع اليونسكو (أ.م.)، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ص 425.

(6) محمد عسرة، المرجع نفسه، ص 47.

(7) لفحة من الأسئلة، مجمع العلوم الإجتماعية، ص 425.

(8) يوسف كمال موسى، مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام، ط1، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1974، ص 10.

عداء الدين للعلم والصراع بينها إنما هو خاصية كاثوليكية أوروبية، ولا وجه للشبه بين المقدمات والملايسات التي أثار ذلك العداء والصراع هناك. وبين واقع الإسلام وموقفه من العلم<sup>(1)</sup>. وهو ما يجعل اللاتينية جسماً غريباً في جسم المجتمع الإسلامي يجب زواله ليتمايل الجسم للشفاء كما سنذكر.

وهنا ننتقل إلى الحديث عن نشأة العلمانية في أوروبا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) محمد حمارة، التراث في ضوء العقل، ط1، دار الوجدان، بيروت، 1980، ص182، 183.

## المبحث الثاني

### نشأة العلمانية في أوروبا

#### كيفية النشأة :

لم تنشأ العلمانية في أوروبا - كما قد يعتقد - بعد النهضة، بل منذ إعتناق أوروبا للنصرانية، حيث تلقنتها مجرد عقيدة لا شريعة، ومجرد دين لا دولة. فإقتصرت تحكيمها في أحوال الناس الشخصية دون السياسية والإقتصادية والإجتماعية<sup>(1)</sup>. ذلك أن النصرانية التي تلقنتها أوروبا إنما هي نصرانية بولس الذي حطم شريع التوراة وعلم الناس أن النجاة إنما تتم فقط بمجرد الإعتقاد بألوهية يسوع وتخليصه للبشر من الذنوب. لا بالأعمال والتشريعات. ووصل به الأمر إلى تكريس ما وجده من تشريعات الرومان، بل أضفى عليه طابع القداسة. وهو ما بيناه مفصلاً أثناء حديثنا عن بولس. ولهذا إنتشرت النصرانية بين الرومان الذين تمسكوا بنشر تشريعاتهم وقوانينهم الوثنية إلى حد تأثيرهم على الأحوال الشخصية النصرانية ذاتها، وهو ما أشرنا إليه أثناء حديثنا عن قضية تعدد الزوجات. فأخذوا من النصرانية ما أرادوه بولس، وهو الجانب الروحي - الموثن - فأصبحت ديناً لا دولة، بمعنى أن المرء لا يجد فيها نظاماً سياسياً أو إقتصادية أو تربوياً أو إجتماعياً ولا حتى منظومة فكرية. فكانت النتيجة هي إما أن يلقي الناس بأنفسهم في براثن الفوضى عمداً أو يتخذون شرعة سياسية إلى جانب العقيدة الدينية<sup>(2)</sup>. ولكن الكنيسة حاربت كل نزعة تحريرية عن سلطاتها المطلق وتعدت حدودها وأعطت لرجالها حقوقاً ما أنزل الله بها من سلطان، وأصبح الباب خليفة المسيح في الأرض، له وأتباعه السلطة المطلقة على الناس، هو ومن يوليهم مقدسون معصومون حسب زعمهم كما ذكرنا، لهم وحدهم حق تفسير الكتاب المقدس. يشكلون حكومة إلهية، ويبددهم مغفرة الذنوب وبيع الجنة لمن يريدون، وإصدار صكوك الغفران، ومراسيم الحرمان من الجنة<sup>(3)</sup>... إلخ ويمكن أن نبلور طغيان رجال الكنيسة وجبروتها فيما يأتي:

- 1- **طغيان الإكليروس على الملوك:** لقد خول رجال الإكليروس لأنفسهم سلطات مطلقة جعلوها فوق سلطة الحكام المدنيين فتدخلوا في شؤون الحكم. فأصبحوا هم الذين يعينون الملوك، وهم الذين يخلعونهم، وإذا غضب البابا على ملك فيذع شعبه وتمرد عليه<sup>(4)</sup>. ومن أوضح الأمثلة على هذا :
  - ما وقع للإمبراطور الألماني هنري الرابع (1050 - 1106م) مع البابا جريجوري السابع (تولى البابوية في الفترة 1073 - 1085م) حيث نشب بينها خلاف حاد حول ما يسمى بـ "التقليد العلماني" - حق تعيين الأساقفة على إقطاعاتهم - فحاول الإمبراطور خلع البابا، فرد عليه البابا بخلعه

(1) أحمد قطب، المرجع السابق، ص 447 .

(2) سعد الدين السيد صالح، انحدرت الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ط2، مكتبة رحاب، الجزائر 1990، ص 179 .

(3) المرجع نفسه، ص 180 ، 181 .

(4) أحمد قطب، المرجع السابق، ص 448، أيضاً: سعد الدين السيد صالح، المرجع السابق، ص 180 .

وأصدر قرار حرمانه وإحلال اتباعه وأمره مملكته من ولائهم له وتأليبهم عليه، فلبى الأمراء أمر البابا وعقدوا مجمعا قرروا فيه إلزام الإمبراطور، بحصوله على المغفرة قبل وصول البابا إلى ألمانيا والإقْدَع عرشه إلى الأبد.

فأضطر الإمبراطور لإسترضاء البابا، ولم يستطع الإنتظار حتى يصل البابا إلى ألمانيا، بل سافر إليه في "كانوسا" وظل في فناء القلعة ثلاثة أيام في لباس الرهبان، متدثرا بالخيش، واقفا في الثلج حافي القدمين عاري الرأس، وبعد ثلاثة أيام عطف عليه البابا فمنحه مغفرته.

- وفي بريطانيا وقع نزاع بين الملك "هنري II (1123 - 1189م)" وبين رئيس أساقفة كَنْتْرِبْرِي (1) (canterbury) "توماس بكت<sup>(2)</sup>" (Thomas Becket) بسبب دستور قرره الملك يقضي على كثير مما يتمتع به رجال الإكليروس من نفوذ، ثم إغتيال رئيس الأساقفة. فثارَت النصرانية على هنري II ثورة عنيفة فأضطر إلى الإعتزال في غرفته ثلاثة أيام دون أن يذوق فيها طعاما، ثم أصدر أمرا بإلقاء القبض على القتل وأعلن للبابا براءته من حادثة الإغتيال وألغى الدستور ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملكها. ورغم هذا لم يحصل على المغفرة. فأضطر للمجيئ إلى كَنْتْرِبْرِي حاجبا مظهرا نممه وسار الأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق على الحجر الصوان حافي القدمين حتى دميت قدماه، ثم إستلقى على الأرض أمام قبر رئيس الأساقفة المقتول، وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط، وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات من أجل إسترضاء البابا وأتباعه<sup>(3)</sup>.

ولقد تسبب تدخل القسس والبابوات في شؤون الحكم في تدمير الأباطرة مما جعلهم ينكرون السمو البابوي المطلق ويزعمون أن للإمبراطورية سلطانا مطلقا موروثا ولا يفتخ، ولا يحق للكنيسة التدخل فيه. فأشعل ذلك نار الحرب بين الكنيسة والدولة فرونا طويلة، وقد أشرنا إلى جوانب من ذلك أثناء حديثنا عن الإختلاف والعنف في النصرانية - كانت الغلبة فيها أحيانا كثيرة للكنيسة التي جعلت نفسها حكومة إلهية مدسة تباشر سلطتها على أفراد المجتمع أكثر مما تباشر الحكومة السياسية سلطتها عليهم فكانت تفرض الضرائب وتمتلك الإقطاعات الكبيرة وهلم جرا. فحدثت ثنائية متصارعة : سلطة رجال الدولة الحكام المدنيين، وسلطة رجال الإكليروس الحكام المقدسين<sup>(4)</sup>.

ولقد ولد هذا الصراع في مجمع نيقية الأول سنة 325م حيث ظهر فيه ما يسمى "التقليد العلماني" المتمثل في خضوع الإكليروس للإمبراطور - كما بينا أثناء حديثنا عن ذلك المجمع - ولكن ذلك لم يرضي الإكليروس، فظل الصراع محتدا بين رجال الإكليروس فيما بينهم من جهة وبين الأباطرة من جهة أخرى، وظلت الكنيسة هي صاحبة السلطان طوال القرون الوسطى في أوروبا، وإلى عصر النهضة . ولم يكن هذا يرضي الأباطرة الذين وجدوا أنفسهم تحت قيود البابوية والإكليروس. فكان كل من يستطيع منهم

(1) كَنْتْرِبْرِي (Canterbury) مدينة بريطانية جنوب شرقي لندن، مقر أساقفة الإنجليكان (المسجد، ص 469).

(2) توماس بكت (1118 - 1170م)، قسيس إنجليزي صديق هنري II ووزيره، أسقف كَنْتْرِبْرِي، ناصر الإكليروس ضد الملك قتل (المسجد، ص 184).

(3) أول دورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ج 15، ص 194 - 197 .

(4) أحمد الدين السيد صالح، المرجع السابق، ص 180 .



التمرد على البابوية تمرد. وقام برد فعل معاكس. وقد ذكرنا قبلاً كيف أن إمبراطور فرنسا سجن البابا في مدينة ولم يسمح له بمغادرتها .

وظل الصراع محتداً بين السلطة الدينية الروحية متمثلة في البابا والإكليروس، والسلطة الزمنية متمثلة في الحكام. وكان لا بد من حل لهذه المشكلة. وتمثل ذلك الحل في الفصل بين السلطتين حيث أصبح لكل من الطرفين مجاله الخاص المستقل عن الآخر. وإنتهى الأمر بحصر البابوية في الفاتيكان، ولكن دون أن تفسد صلاحياتها الدينية، وأن تصبح هي نفسها دولة قائمة بذاتها، لها تشييدها الخاص وعلمها وسفراؤها. والنتيجة التي نتوصل إليها من هذا أن الصراع الذي أدى إلى نشوء العلمانية في أوروبا كنظرية قائمة لتكوين الدولة الحديثة، لم يكن سببه وجود الدين أو القيم الفكرية المستمدة منه، بل تسلط الكنيسة والسلطة البابوية على شؤون الدولة والسياسة وحرمانها المجتمع من تأسيس نفسه سياسياً. وكان الهدف السياسي للعلمانية، تحرير الدولة والسياسة من تسلط الكنيسة<sup>(1)</sup>.

2- طغيان الإكليروس ونفوذهم على عامة الناس: ومما يتضمنه هذا أنهم لا يصبحون نصارى إلا بتعميد الكاهن لهم، ولا تصح صلاتهم إلا بحضوره أمامهم وفي مكان محدد هو الكنيسة، ولا يموتون موتاً صحيحاً إلا بإقامة قداس الجنازة لهم على يده، ولا يعتقدون إلا ما يلقنوه من رجال الدين من شؤون العقيدة والعلم، ولا يفكرون إلا فيما يسمحون لهم بالتفكير فيه وعلى النحو الذي يريدون. ولرجال الإكليروس فوق ذلك: نفوذ على أموالهم وأجسادهم وأرواحهم. ولقد كان هذا الدين يحجر على الفكر، ويفصل بين الدنيا والآخرة. فيدعو إلى إهمال الدنيا من أجل الخلاص في الآخرة، ويحتقر الجسد ويعذبه من أجل خلاص الروح.

ويبيح في الوقت نفسه للإقطاعيين امتصاص دماء الفلاحين وإكنتاز الأموال والترف وتقاسم ذلك معهم. وعندما يتزوج الفلاح تبيع الكنيسة للإقطاعي أن يكون أول من يعاشرها وبعد أن يشبع منها تذهب إلى الفلاح. كما كان هذا الدين يخذل الفلاحين عن الثورة على الظلم المسلط عليهم، بحجة الحصول على الرضوان في الآخرة إن رَضُوا بالمدلة والظلم في الدنيا. فأصبحت أوروبا تجمع بين القهر الشديد والجهل الأكيد<sup>(2)</sup>. وفي فترة إتصال أوروبا بالعالم الإسلامي قامت النهضة فيها على أسس معادية للدين من أول لحظة "أشتقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس".

3- طغيان الإكليروس على العلماء واضطهادهم لهم: لقد نشب صراع حاد بين الكنيسة والعلماء بسبب طغيان الكنيسة وتعديها حدودها، حيث ألف رجالها في العلوم المختلفة ووضعوا نظريات إدعوا علميتها وعدوها من تعاليم الدين النصراني وأصوله التي يجب الإعتقاد فيها وتبذ كل ما يعارضها. وكلما وصل العلماء إلى نظرية جديدة وجدوا الكنيسة تعارضها بنظرية مقدسة تحرم الخروج عليها حتى ولو أثبت الواقع المحس بطلانها. ولما انفجر بركان العلم في أوروبا وحطم علماء الطبيعة نظريات الكنيسة وأعلنوا إكتشافاتهم العلمية التي أثبتتها التجربة قامت قياصة الإكليروس، فكفروا

(1) برهان غليون، نقد السياسة للدولة والدين، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991م، ص 281 - 284.

(2) محمد قطب، المرجع السابق، ص 448، 449، 452.

العلماء، وحرّموا نظرياتهم، وصادروا وحرّقوا كتبهم، وإستحووا دماءهم، وأنشأوا محاكم التفتيش التي أحصت على الناس أنفاسهم وإرتكبت من الجرائم ما يشيب له الولدان كما ذكرنا قبلاً. وكان من ضحاياها العالم الطبيعي " برونو" (Bruno) الذي حكمت عليه الكنيسة بالقتل حرقاً فأُخرق سنة 1548م وجاليليو الذي حكم عليه بالقتل<sup>(1)</sup>. وقام البابا غريغوري الكبير بنفي جميع المشتغلين بالعلم من روما وحرّق مكتبة "بلاطين"، وأصبح شعار الإكليروس المثل القائل "الجهل أهور الخلاص لله".

ولكن محاكم التفتيش وموقف الكنيسة السلبي من العلم والعلماء لم يوقف مسيرة العلم. بل ألحق العلماء بالكنيسة وعقائدها من الهزائم ما زرع الفكر الديني في أوروبا، وصار الاعتقاد بأن الفكر الديني والعلمي متناقضان، الإيمان بأحدهما يستلزم حتمية الكفر بالآخر<sup>(2)</sup>. وبعبارة أخرى فإن الفكر الديني كان يسير في خط معاكس لخط العلم، سواء فيما يتعلق بعقائده وتصوراته الذهنية، أو فيما يتعلق بالنظر إلى السلوك والحياة<sup>(3)</sup>. وقد أنتج هذا الصراع الإتجاه التجريبي المادي وما صاحبه من فهم للدين على أنه خرافة وأساطير وظهر المذهب الوضعي الذي يعتبر الطبيعة هي المصدر الوحيد للمعرفة، بل هي الموجود الوحيد وما وراءها وهم وخيال. هذا الموقف الراض للدين والغيب هو الذي أدى إلى ظهور رواد المدنية الأوروبية المعاصرة مثل دارون (ت.سنة 1882م) وماركس (ت.سنة 1883م) وفرويد (ت. سنة 1939م). وكل واحد فسر الوجود والحياة والحضارة من خلال تصور لا علاقة له بالله<sup>(4)</sup>.

وقد إنتهى الصراع بين الطرفين بصيغة إتفاق تحدد فيها الإختصاصات كما يأتي :

- تختص الدولة بشؤون السياسة والإقتصاد والتعليم والتشريع.
- وتختص الكنيسة بشؤون الأسرة<sup>(5)</sup> وطقوس العبادات.

وبهذا يدير رجال الدولة والعلم شؤون الحياة بالأسلوب الذي يناسبهم بغض النظر عن موافقته أو عدم موافقته لمبادئ الدين، ويكون لرجال الدين السلطة على الأرواح، أي أن مهمتهم تصبح داخل الكنيسة لا خارجها، وهكذا نشأت قضية فصل الدين عن الدولة<sup>(6)</sup>. أي الفصل بين مجالين في حياة الإنسان، مجال الدنيا وزينتها، ومجال الصلة الخاصة بين الإنسان والله<sup>(7)</sup>.

ويمكننا أن نلخص الأطوار التي مرت بها الدولة في أوروبا بثلاثة مراحل :

- **المرحلة الأولى** : كان الأمر في الشعوب الغربية قبل دخول النصرانية روما إلى الجيش والقانون.
- **المرحلة الثانية** : بعد دخول النصرانية تحول الأمر بالتدريج إلى أن أصبح كله للأكليروس وإدارة الكنيسة.

<sup>(1)</sup>ومن أراد التوسع في هذا الترمج إلى ما ذكرناه في موقف النصرانية من العلم أثناء تعيدنا لفهمة حرق عمرو بن العاص رضي الله عنه - مكة الإسكندرية.

<sup>(2)</sup>محمد الدين السيد صالح، المرجع السابق، ص 180 - 182 .

<sup>(3)</sup>محمد سعيد رمضان البوطي، العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، دة، مطبعة عائد بن الوليد - دمشق 1988م، ص 247 ، 248 .

<sup>(4)</sup>يوسف كمال موسى، المرجع السابق، ص 15 .

<sup>(5)</sup>رحمن خورن الأسرة لم تصح اليوم محاللة للكنيسة .

<sup>(6)</sup>محمد الدين السيد صالح، المرجع السابق، ص 182 .

<sup>(7)</sup>محمد البيه، العلمانية وظيفتها في الإسلام، مجلة الأمة الفطرية، محرم 1401هـ، نوفمبر 1980م، ص 1 ، ع 1، ص 38 .

- المرحلة الثالثة : وتتمثل في الوضع الحاضر الذي أعقب المرحلة الثانية، ويتمثل في الفصل بين الإثنيين الدين والدولة...

فالصراع كان بين طبقة وطبقة، وسلطة وسلطة، وعلى أساس من "الفصل" بين الكنيسة والحكومة حدد الغربيون :

- معنى " الدين" فأرادوا به التوجيه الروحي للأفراد. كما حددوا معنى " الدولة" و" الحكومة" فقصدوا بها تنظيم العلاقات بين الأفراد، وإستعانوا في هذا التحديد بموقف المسيح في قومه وبطابع رسالته إلى شعب إسرائيل<sup>(1)</sup>.

وهنا نتوصل إلى السؤال الآتي :

هل تتضرر النصرانية كدين من اللائكية ؟ والجواب أنه لا ضرر عليها لما يأتي :

أ- قولها قسمة الحياة بين الله وبين قيصر : وتحتوي من النصوص ما يؤكد العلمانية أي الفصل بين الدين والدولة. وهذا راجع لإنحراف عقيدة النصرانية في تصور الألوهية.

ب- النصرانية ليس فيها تشريع لشؤون الحياة : فهي عكس الإسلام لا تملك تشريعاً مفصلاً لشؤون الحياة يضبط معاملاتها، وينظم علاقاتها. وبذلك فإن النصرانية إذا حكمه قانون وضعي لا يعطل قانوناً فرضه عليه دينه، ولا يشعر بالتناقض بين عقيدته وواقعه. عكس المسلم الذي يخسر كل شيء، بل إن النصراني يستحيل عليه العيش بدون القوانين الوضعية، وإلا تعطلت حياته كلياً؛ لأنه لا يجد في دينه ما ينظمها به.

ج- إحتواء النصرانية على سلطة دينية بابوية : وهذا عكس الإسلام، وبذلك فإن اللائكية إذا فصلت دين النصرانية عن دولته أو دولته عن دينه لم يضع دينه ولا سلطانه؛ لأن دينه لديه سلطة قائمة بالفعل. لها قوتها وخطرها ومالها ورجالها. ويوجد في النصرانية سلطتان حقيقتان قائمتان.

السلطة الدينية ويمثلها البابا والإكليروس، والسلطة الزمنية ويمثلها الملك أو رئيس الجمهورية ورجال حكومته. فإذا انفصلت الدولة عن الدين، بقي الدين قائماً في ظل سلطته القوية الغنية. وظلت جيوشها من الرهبان والراهبات والمبشرين والمبشرات تعمل في مجالاتها المختلفة دون أن يكون للدولة عليهم سلطان، بخلاف ما لو فعلت ذلك دولة إسلامية. فإن النتيجة أن يبقى الدين بغير سلطان يؤيده، ولا قسوة تسنده، حيث لا بابوية له ولا كهنوت ولا إكليروس<sup>(2)</sup>.

د- اللائكية ساهمت في تحديد حدة الحروب الدينية بين الطوائف النصرانية : وهذا ما يبرر ظهورها في فرنسا على الخصوص. فقد ظهرت بسبب الحروب الدينية التي كانت بين الكاثوليك وهم الأثرية، والبروتستانت وهم أقلية - وقد اشرنا إلى هذه الحروب أثناء حديثنا عن العنف في النصرانية- واليهود وهم أقل منهم. ومعناها آنذاك. أن كل واحد من هذه المذاهب يحترم المذاهب الأخرى، وقد واقفت هذه المذاهب كلها في فرنسا على هذا. وقد تبلور هذا بعد الثورة الفرنسية وأصبحت اللائكية عندهم بالنسبة إلى

(1) محمد الهيبي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط1، مكتبة وهبة - القاهرة، 1985م، ص197.

(2) يوسف القرعناوي، الإسلام والعلمانية وجهان لوجه، ص54 - 57.

هذه المذاهب، تعني إحترام الأديان وعدم المساس بها أو تجريحها، قبل ان تتحول اليوم لتصبح تعني الإلحاد<sup>(1)</sup>. وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى تطور مفهوم اللانكية في أوروبا.

تطور مفهوم اللانكية في أوروبا: عندما نتتبع النشأة الأوروبية للعلمانية ومدلولاتها وتطوراتها نلاحظ تفاوتاً في مفاهيمها لدى معتقيها، ويمكن أن نحدد طورين مرتبهما العلمانية في الفكر الأوروبي هما:

الطور الأول: كانت العلمانية فيه تعني عزل الدين والكنيسة عن شؤون المجتمع وسياسته ومؤسساته لحساب بناء الدولة البورجوازية ودعمها. والعمل على تنقية اللاهوت الكاثوليكي مما هو غير عقلائي، كأسرار عقيدة التثايت والطبيعة الإلهية للمسيح، ورفع وصاية الكنيسة عن التعليم تمكيناً للفطرة الإنسانية من الإختيار. وقد عرفت أوروبا العلمانية بهذا المعنى في طورها الأول عند فلاسفة ومفكرين أمثال هوبز (Hobbes) (1588 - 1679م) ولوك (Locke) (1632 - 1716م) وليبنيز (Leibniz) (1646 - 1716م) وروسو (Rousseau) (1712 - 1778م) وليسنج (Lessine) (1729 - 1871م) إلخ<sup>(2)</sup>.

الطور الثاني: ويمثل مرحلة "العلمانية الثورية" التي مثلها فلاسفة ثوريون من أمثال:

فيورباخ (Feuerback) (1804 - 1872م) وماركس (Marx) (1818 - 1883م) ولينين (1870 - 1924م) وهي المرحلة التي إستهدفت فيها هذه "العلمانية الثورية": هدم الدين وتخليص الاشتراكية ومجتمعها من تأثيره لحساب العدل الإجتماعي - الاشتراكية فالشيوعية - حسب زعمهم، ثم السعي إلى مجتمع يزول منه الدين تماماً وتزول منه مؤسساته. ومن هنا فإن هدف العلمانية الثورية ليس مجرد عزل الدين عن المجتمع والفصل بينه وبين الدولة، بل السعي مستقبلاً إلى تخليص "الفرد" من الدين وتحريره من مؤسساته<sup>(3)</sup>. وهذا المفهوم هو الذي يعتقه اللانكيون العرب عامة، ودعاة الحركة البربرية في الجزائر خاصة. ويجب أن نشير هنا بأن ما ذكر إنما يبين نشأة العلمانية وتطورها في أوروبا كفكر، دون الجانب العملي؛ لأنها لم توضع كاملة للإتطبيق. بحيث لا نزال نرى الدول الإستعمارية "العلمانية"، تنظر إلى الإسلام وعالمه وأهله بذات الروح الدينية المتعصبة أيام الصليبيين، وتغدق الأموال الطائلة على المؤسسات الدينية الكنيسية، وتتفق على التبشير الديني متخذة إياه سبيلاً للسيطرة الإستعمارية<sup>(4)</sup>. وقصد حدث هذا، ليس من الآن، بل منذ ما قبل الثورة الفرنسية نفسها، وبعدها. إذ في الوقت الذي تعلن فيه العلمانية رسمياً في فرنسا ويشرع في تنفيذها. نجد فرنسا العلمانية تشجع المبشرين في الجزائر تشجيعاً لم يسبق له مثيل، وتعطي الحرية للدين اليهودي والنصراني تطبيقاً للعلمانية. بينما تبيض الدولة بيد من حديد على الدين الإسلامي وتعمل بشتى الوسائل على تخريبه<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> أبو صرمان الشيخ، العلمانية، محاضرة ألقاها، بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، يوم 26/04/1993م. ونلاحظ أن مفهوم اللانكية بمعنى الإلحاد هو ما يأخذ به اللانكيون العرب، ومنهم الجزائريون، وهو ما يته رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة في حملته الإنتخابية التي حوت في شهر أفريل 1999.

<sup>(2)</sup> أحمد عمارة، العلمانية وعضوا الحديث، ص 12، 13.

<sup>(3)</sup> المرجع نفسه، ص 13، 14.

<sup>(4)</sup> المرجع نفسه، ص 13، 14.

<sup>(5)</sup> رابع لوكي، العلم الثوري، ص

ونشاهد رأي العين التنسيق الإمبريالي البابوي وتراجع العلمانية الثوري عن كثير من أهدافها في الصراع ضد الدين النصراني، بل نشاهد إختفاء هذا النوع من العلمانية في المواطن التي نشأت بها إختفاء كليا لمصالح التعصب الديني الممقوت. كما نشاهد الأحزاب النصرانية ذات الصلة الوثيقة بالكنيسة تقبض على زمام الحكم والدولة في كثير من ربوع الغرب العلماني<sup>(1)</sup>.

ونختم حديثنا عن نشأة العلمانية في أوروبا بالإشارة إلى أن عدم الفصل عمليا والتنسيق بين اللاهوتيين والعلمانيين ليس وليد اللحظة، ذلك أنه بعد إنتصار الملوك على البابوات تم استخدام الكنيسة لتحقيق مصالح الدولة - واستخدام الدولة لتحقيق مصالح الكنيسة - فكانت الكنيسة مقدمة للإستعمار وتالفة له، وإرتبط الإستعمار بالتبشير والتبشير بالإستعمار. حيث كان يتم إستئناس الشعوب للأوروبيين أولا عن طريق تحويلهم من الديانات الوطنية المحلية إلى النصرانية الغربية، وبالتالي زرع الولاء للغرب في نفوسهم بعد نزعهم عن الأوطان. ويتحول الإيمان بالدين الغربي إلى ولاء للغرب السياسي، كما أيد الإستعمار أيضا حركات التبشير بالعون المادي والعسكري؛ لأن التبشير ممد له، ولاتفاق المصالح بينهما<sup>(2)</sup>.

وهنا نتساءل : هل علاقة العلمانيين العرب بالدين الإسلامي كعلاقة العلمانيين الأوروبيين بالدين النصراني؟ هذا يدعون إلى الحديث عن اللانكية في العالم العربي والإسلامي.

القادر للعلوم الإسلامية

(1) محمد حمادة، المربع السابق، ص 13، 14 .  
(2) حسن علي، سوار المشرق والمغرب، ص 42 ، 43 .

## المبحث الثالث

### ظهور اللائكية في العالم العربي والإسلامي

أول ما رفع شعار العلمانية في المشرق العربي إنما كان في لبنان فسي منتصف القرن 19 م بهدف الانفصال عن الخلافة العثمانية<sup>(1)</sup>. وكان جميع الذين رفعوه من النصاري، متبنيين المفهوم الثوري للعلمانية، أي إبعاد الإسلام نهائياً من الحياة اليومية للفرد والمجتمع على السواء. فلا دين رسمي للدولة، ولا دين لرئيس الدولة كأحد شروط الرئاسة<sup>(2)</sup>. ولا قانون إسلامي ينظم العلاقة بين الأفراد كالأحوال الشخصية والجنائية ولا تعليم ديني في المدارس<sup>(3)</sup>. ولا دعوة دينية في وسائل الإعلام.

ومن أبرز دعاة العلمانية الأوائل شبلي شميل (1860 - 1917م) ويعقوب صروف (1852 - 1927م) وفرح أنطون (1874 - 1922م) ونقولا حداد (1878 - 1954م) وسلامة موسى (1887 - 1958م) وولي الدين يكن ولوس عوض وغيرهم.

وقد كان جميع هؤلاء نصاري، وغالبيتهم شوام لا ينتسبون إلى الإسلام ديناً أو حضارة، تربوا في المدارس الأجنبية وفي إرساليات التبشير. فكان ولاهم الحضاري للغرب. -وهو ما يبين صلة العلمانية بالاستعمار والتبشير-.

وقد تبع هؤلاء بعض المسلمين المنبهرين بالغرب مثل قاسم أمين (1865 - 1908م) في دعوته إلى تحرير المرأة وعلي عبد الرازق (1887 - 1966م) في "الإسلام وأصول الحكم"، وخالد محمد خالد في بداياته الأولى في "من هنا نعلم" وغيره قبل أن يعود إلى الإسلام الصافي من جديد في الثمانينيات في "الدين والدولة"، وإسماعيل مظهر في دعوته إلى الداروينية قبل أن يعود إلى الإسلام أبداً في الستينيات. وزكي نجيب محمود قبل أن يتحول في السبعينيات منذ "تجديد الفكر العربي" رغم عدم نقاء فكرة. وفؤاد زكريا ومعظم الماركسيين آخذين بعبارة ماركس "الدين أفيون الشعوب". وكل هذا على مستوى التنظير. ويظهر فيه علاقة العلمانية بالتغريب بما يتضمن ذلك من إستعمار وتبشير<sup>(4)</sup>.

أما على مستوى التطبيق فإن الإستعمار هو الذي أدخل العلمانية إلى العالم العربي والإسلامي وفرضها بالقهر والقمع.

وأول دخولها أراضي الخلافة الإسلامية العثمانية -إنما كان في الجزائر- ثم مصر. فبالنسبة لمصر كان أول دخولها في عهد الخديوي إسماعيل<sup>(5)</sup>. حيث تعلمن "القضاء الأجنبي" ممثلاً في المحاكم القنصلية فالمختلطة وذلك بواسطة القهر الأجنبي الأوروبي، ولتنشر بإيجاز شديد إلى هذه المحاكم.

(1) محمد عابد الجاربي، حوار المشرق والمغرب، ص 46.

(2) ما ذهب إليه أن النصاري في لبنان بدأوا المطالبة بالعلمانية (الإسلام) من شروط الرئاسة ليتمسكوا بل إرثهم أن يكونوا الرئيس نصارياً، وهكذا يظهر بجلاء الغرض من اللائكية.

(3) ن حين يقول نصاري ذلك، منهم عرعي الكنائس، ويعلمون أنهاهم جميعاً في الكنائس وهكذا يظهر التناقض بين القول والفعل، ويظهر الهدف واضحاً هو إفساد المسلمين بعبادتهم عن الإسلام.

(4) حسن حنفي، حوار المشرق والمغرب، ص 42، 43.

(5) حكم مصر 16 عاماً من 1863م إلى 1879م (محمد عبادة العلمانية وعصفتها الحديثة، ص 136).

**المحاكم القنصلية** : هي اسم على مسمى. مقرها قنصليات الدول الأجنبية. وقضاتها هم القناصل الأجانب، وقد نشأت نتيجة لتعاظم النفوذ الأجنبي في عهد الخديوي إسماعيل. هذا النفوذ الذي نشر فوضى التعدد في القضاء بالدعاوى التي كان الأجانب والخاضعون "لحمايتهم" طرفا فيها. أصبحت هذه المحاكم تحكم للأجانب على الحكومة المصرية نفسها. وكانت كل محكمة قنصلية تحكم وفق قانون بلدها، وكان عددها 17 محكمة وفقا لعدد الدول المتمتعة بهذا الإمتياز. وكانت أحكامها الابتدائية تستأنف في البلاد التابعة لها، فأحدثت بهذه المحاكم فوضى لا مثيل لها. وتنظيما لهذه الفوضى القانونية والقضائية أنشئت :

**المحاكم المختلطة** : في مصر، وذلك في سنة 1875م وهي محاكم ذات أغلبية أجنبية، وللأجانب رئاسة جلساتها، وينفرد القاضي الأجنبي بالحكم في دائرتها الجزئية ذات القاضي الواحد، وكذلك في دائرة الأمور المستعجلة والأمور الوقتية ودائرة البيوع ونزع الملكية العقارية إلخ. وكان عمدة هذه المحاكم قنصلون نابليون. فكانت أول إختراق أجنبي منظم للقضاء الإسلامي في مصر. ولكنها كانت قاصرة على منازعات الأجانب، أو التي يكون الأجانب طرفا فيها.

ولما احتلت بريطانيا مصر في سبتمبر 1882م قام الإستعمار الإنجليزي ممثلا في اللورد كرومر (1841 - 1917م) بتوسيع ثغرة العلمانية التي أحدثت في عهد الخديوي إسماعيل بتعميم قانون نابليون على المحاكم الأهلية المصرية كلها في كل أنواع المنازعات بإستثناء الأحوال الشخصية، وذلك ابتداء من سنة 1300 هـ / 2 مايو 1883م<sup>(2)</sup> (3). ولما كان الإستعمار يتخذ جميع الأسباب للتمكين والبقاء؛ فإنه بعد أن فرض اللاتكفية بقوة السلاح قرر إستخدام الفكر لتبيض وجهها وتحسين صورتها. وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى :

إيجاد السند الفكري للعلمانية في مصر : أو دور مدرسة المقطم في تثبيت العلمانية في مصر : أدرك الإستعمار أن الواقع العلماني الذي زرع في المجتمع المصري لا يمكنه أن يستمر ويتغلغل في أعماق النفوس ما لم يوجد له سند من الفكر يبيض وجهه ويحسن صورته ويعمل على تعميمه في مختلف الميادين الثقافية والتعليمية والقيمية، بجانب الجانب العملي التطبيقي. وقد أسند هذا النور الخطير في الحيلة الفكرية في مصر إلى "مدرسة المقطم"، فهذه "المدرسة" التي بدأت بأصحاف "المقتطف" (1876 - 1952م) و"المقطم" (1889 - 1952م) قد تكونت نواتها من : يعقوب صروف (1852 - 1927) وفارس نمر (1856 - 1951م) وشاهين مكاريوس (1853 - 1910م). وإلتف حول هذه النواة غيرهم كتبوا في "المقطم" أو "المقتطف" أو غيرهما من المنابر الصحفية، من أمثال شبلي شميل (1860 - 1917م) ونقولا حداد (1878 - 1954م) وجرجي زيدان (1861 - 1914م) وفرح أنطون (1874 - 1922م) .

(2) محمد صمار، المرجع نفسه، ص145، 146، 153، 154.

(3) بلاط السرعة للشرطة بين الإعمار وتطبيق العلمانية، فالإستعمار لم ي في سنة 1882م والعلمانية فرضت نهرا في سنة 1883م، وهو نفس ما نجده في الجزائر، بحيث يستدعي في فرض العلمانية بعد الإحتلال مباشرة.

ولقد تفردت هذه المدرسة بالدعوة إلى العلمانية في العقود الأولى من احتلال بريطانيا لمصر، ولا يستغرب توجيهها هذا، ذلك أنها تكونت من النصارى الشوام الذين هاجروا إلى مصر، المكنون عداء شديدا للرابطة العثمانية، ساعين إلى نزع الصبغة الإسلامية عن الحياة الشرقية. كما أنهم أقلية دينية لا يسمح لها وزنها أن تطرح أيديولوجيتها كبديل للإسلام.

كما أن دينهم النصراني لا يقدم للدولة نظاما مدنيا. فوجدوا في التغريب وفي فكرية الحضارة الغربية البديل الذي يبشرون به لمحور الإسلام الحضاري والسياسي. وكانت العلمانية هي السبيل الذي يحقق لهم ذلك. فأخذوا على عاتقهم الدعوة إلى ترسيخ الواقع العلماني الذي فرضته بريطانيا بمصر سنة 1883م وتعميمه في مختلف مناحي الفكر والحياة. ولقد جمع أعلام هذه المدرسة رابطة الولاء للغرب بالمعنى السياسي عند الذين جعلوا الاستعمار الغربي إنجليزيا كان أو فرنسيا وليا ونصبوا، أنفسهم عملاء وأتباعه. والولاء بالمعنى الفكري والحضاري عند الذين أصبحت رسالتهم: التبشير بفكرية الغرب وإيديولوجية حضارته بهدف إحلالها محل حضارة الإسلام<sup>(1)</sup>.

وقد اتسع نطاق هذه المدرسة ليضم كتابا ومفكرين مصريين آخرين متميزي الدوافع والمنطلقات في تبني العلمانية، ويمكن تصنيفهم إلى قسمين:

**القسم الأول:** وهو الذي توحدت منطلقاته مع مدرسة "المقطم" وتتمثل في: تغريب الدولة والمجتمع بهدف طمس إسلامها. وكان سلامة موسى (1888 - 1958م) أبرز أعلام هذا القسم، ويمثله حاليا لويس عوض.

**القسم الثاني:** ويمثله المتأثرون بمنهج الإستشراق المنبهرون بحضارة الغرب، فخيّل إليهم أن التغريب هو السبيل إلى النهضة. وبدأ هذا القسم بلطفي السيد باشا (1872 - 1963م) وحزب "الأمة". ثم استمر في صورة حزب "الأحرار الدستوريين" ولكن أصحاب هذا الإتجاه رجع أغلبهم إلى الإسلام بعد تضوؤهم ورجوعهم المباشر إلى التراث الإسلامي دون وساطة المستشرقين<sup>(2)</sup>.

ونكتفي بالإشارة من القسم الأول، إلى موقف سلامة موسى<sup>(3)</sup>. فيقول: "إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لأنها تقوم على أصل كاذب فإن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر أن نعتمد على الدين<sup>(4)</sup> جامعة تربطنا ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعدها ما تكون عن الأديان... وحكومة ديمقراطية برلمانية كما هي في أوروبا<sup>(5)</sup>. وأن يعاقب<sup>(6)</sup> كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو

(1) محمد عمارة، المرجع نفسه، ص 155، 156.

(2) المرجع نفسه، ص 156، 157.

(3) ينشر هنا أن نشور هنا إلى أن التيار النصراني الذي يدعو إلى اللاتينية هو ذاته الذي يدعو إلى إحلال العلمانية محل الفصحى وكتابتها بالحرف اللاتيني، وذلك لأن العلمانيين متكاملان للإحجاز على الإسلام حاليا.

(4) في الوقت الذي يقول فيه هذا الكلام نجد أن ولاه فنزب هو نفسه إما هو بسبب الدين النصراني الذي يجمع بينهما، وما هي أوروبا اليوم (1999م) لاتزال رافضة إضمام تركيا للجمهورية الإتحاد الأوروبي، وقد بينت أوروبا نفسها أن هذا الرفض إما هو بسبب اختلاف الدين، وهكذا يشيرون وسط المسلمين أنكارا هم أنفسهم ما الرضون.

(5) نلاحظ بأنه في الوقت الذي كتب فيه سلامة موسى هذا الكلام كانت كثير من الأنظمة الأوروبية ديمقراطية مستبدة.

(6) نلاحظ بأنه بالرغم من كل من يخالف تصوره وهذا هو الاستعمار والديكتاتورية التي يتظاهر بمحاربتها.



المأمون<sup>(1)</sup>. أو توقراطية دينية... وكلما ازدادت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضني... يجب علينا أن نخرج من آسيا<sup>(2)</sup> وأن نلتحق بأوروبا<sup>(3)</sup>. فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني<sup>(4)</sup>. وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها<sup>(5)</sup>. وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرا وجهرا. فأنا كافر بالشرق<sup>(6)</sup>. مؤمن بالغرب<sup>(7)</sup>. (8) ."

أما القسم الثاني فنكتفي بالإشارة منه إلى موقف الشيخ علي عبد الرازق (1887 - 1966م) لأنه أهم من يمثل في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" الذي صدر في أبريل 1925م وتبنى فيه اللانكية. فلقد كان هذا الكتاب أخطر وأكبر عمل فكري يمهّد الطريق للانكية؛ لأن دعائها قبله إنما كانوا إما من مدرسة المقطم المعروفة بعدائها للإسلام واتجاهها النصراني، أو من المتغربين الذين يعرف الناس خلفياتهم واتجاهاتهم. أما علي عبد الرازق فكان أول عالم من علماء الأزهر والإسلام يقول للمسلمين بأن الإسلام ليس فيه نظام سياسي ولا اجتماعي ولا تشريعي. فقلب بذلك الموازين؛ لأن العلمانية قبله إنما كانت تطرح باعتبارها فكرا مستوردا يتلاءم مع النصرانية التي انعقد الإجماع على أنها دين لا دولة. مما جعل العلمانية رد فعل ضد طغيان الكنيسة والإكليروس ومحاربة العلم والتقدم. ولكنها غير طبيعية مع الإسلام الذي يختلف عن ذلك، وله مبادئه المنظمة لمختلف جوانب الحياة. لكن - كما يقول محمد عمارة - "كتاب الإسلام وأصول الحكم" جاء ليلغي خصوصية الإسلام كفكر في هذه القضية، ويلغي خصوصية التطور التاريخي للحضارة العربية الإسلامية في هذه القضية أيضا، ليتوصل إلى أن فصل الدين عن الدولة هو الحل الطبيعي بالنسبة لنا تماما كما كان الحل الطبيعي في الحضارة الغربية... فإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية في الغرب قد أضفت قداسة الدين على صاحب السلطة الزمنية فجعلت رأس الدولة حاكما "بالحق الإلهي"، فإنه صور نظام الخلافة الإسلامية تاريخياً على نفس الصورة. فقال بأنه ليس من الإسلام في شيء، وأنه جعل الخليفة حاكما مطلقا يستمد سلطانه من الله وأن ولايته على دين الناس ودنياهم عامة ومطلقة كولاية الله ورسوله.

وهكذا جاء كتاب علي عبد الرازق ليقول للناس على لسان أحد علماء الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية: إن الإسلام دين لا دولة، ورسالة روحية لا علاقة له بالسياسة وتنظيم المجتمعات، وأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم يؤسس دولة، ولم يرأس حكومة، ولم يؤسس مجتمعا... ولم يدع إلى شيء من ذلك. بل

(1) لأن عصرهما من أزهى العصور الإسلامية، ونلاحظ بأنه لا بأن بأي مقال من التاريخ النصراني رغم بشاعته كما بينا قبلا، وذلك بسبب تمسكه بالنصرانية.

(2) لأنها بلد الرحي ونزول القرآن الكريم وإلا فهي بلد اليابان.

(3) لأنها بلد النصرانية الإحصارية.

(4) وهذا يؤكد ما ذكرناه من أهم لا يشعرون بالإنتماء للشرق بسبب اختلاف دينهم عن الإسلام، فهو يمس بالفرية لأنه نصراني.

(5) وذلك بسبب الإقبال في الدين فهو يمس بولائه لها وإرتباطه بها، وإلا لماذا لم يشد باليابان؟

(6) أي بالإسلام.

(7) أي بالنصرانية.

(8) سلامة محمد، الدولة والفكر، القاهرة، 1927م. عن محمد عمارة، المرجع السابق، ص 158.

كان رسولا ما عليه إلا البلاغ دون التنفيذ... الأمر الذي يجعل الإسلام كالمسيحية تطلب من أتباعها أن يدعون ما تقتصر لقيصر وما لله<sup>(1)</sup>.

وهكذا فعند علي عبد الرازق " أن محمدا ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة. وأنه لم يكن للنبي ﷺ ملك ولا حكومة، وأنه لم يقم بتأسيس محكمة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ولا داعيا إلى ملك"<sup>(2)</sup>. ولقد وصلت به الوقاحة إلى تشبيهه خاتم الأنبياء بعيسى<sup>(3)</sup>. بل جعل عنوان الباب الثالث التي ينضوي ما سبق تحته كالآتي " رسالة لا حكم، ودين لا دولة" بل وصلت به الوقاحة إلى اعتبار أن كل ما قام به النبي ﷺ من بعثته إلى وفاته مجرد تجربة شخصية يسميها تجربة مكة والمدينة، وهكذا فحتى حروب النبي ﷺ لا علاقة لها بالدين - ولنا ندري كيف يفسر وجود آلاف الآيات القرآنية التي تبين الطابع الديني لتلك الحروب، وتبين أهميتها وأهدافها، وتتوعد المتقاعسين عنها البلخ-.

وإذا كان علي عبد الرازق لم يستخدم كلمة علمانية، فإنه استخدم مصطلحا مرادفا شديد الدقة في التعبير عن معناه في الحضارة الغربية، وذلك عندما وصف حكومة أبي بكر - رضي الله عنه - بكل وقاحة وقلّة أدب، فقال إنها حكومة لا دينية<sup>(4)</sup>. فزعامة أبي بكر وكذا الخلفاء الراشدين لا علاقة لها بالرسالة ولا قائمة على الدين، فهي " إذن نوع لا ديني. وإذا كانت الزعامة لا دينية فهي ليست شيئا أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية. زعامة الحكومة والسلطان، لا زعامة الدين. وهذا الذي قد كان"<sup>(5)</sup>. وختم كتابه السابق بما يأتي: " والحق أن الدين الإسلامي برئي من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون. وبري من كل ما هيأوا<sup>حرفها</sup> الخطوه من رغبة ورهبة، ومن عز وقوة. والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية. كلا. ولا القضاء، ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة، وإنما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها. فهو لم يعرفها ولم ينكرها، ولا أمر بها ولا نهى عنها وإنما تركها لنا لثرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة... "<sup>(6)</sup>.

ولقد أثار هذا الكتاب أكبر وأخطر معركة فكرية في تاريخ الإسلام الحديث - رغم ضحالة تفكيره وضعف بنيته المنطقية والفكرية والإستدلالية - وأحدث ارتياحا لا يضاهاى في صفوف العلمانيين<sup>(7)</sup> والملاحدة<sup>(8)</sup>.

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص 160-162.

(2) علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، ط 1، نوفم للنشر - الجزائر 1988، ص 79، 80.

(3) المصدر نفسه، ص 80.

(4) محمد عمارة، المرجع السابق، ص 164.

(5) علي عبد الرازق، المصدر السابق، ص 110.

(6) المصدر نفسه، ص 123، 124.

(7) ولقد رأينا رأي أمين كريف ولهم هذا الكتاب إلهاما في الجامعات التونسية، على سبيل المثال، كما أنه مقرر كلفه ضمن برنامج التربية الإسلامية في التعليم الثانوي التونسي يدرسه الطلبة خلال سنتين.

(8) وسعود للحدوث من علي عبد الرازق وكتابه أثناء حديثنا عن أركون الذي جعل كتاب علي عبد الرازق من أهم مصادره.

والواقع أننا عندما أطلعنا على حياة المؤلف لم نجد نستغرب صدور هذا الكتاب منه وتلك الآراء التي نرفعها جملة وتفصيلا لقناعتنا بخطئها. بل ولقناعتنا باعتقاد صاحبها خطأها. ولا أدل على ذلك من تراجعها عنها، حيث صرح لجماعة من العلماء بذلك التراجع. وقد نشرته صحيفة السياسة اليومية المصرية. وفيه قال: "إن الإسلام دين تشريعي، وأنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه، وحدوده، وأن الله خاطبهم جميعا بذلك". كما اعترف أيضا بأن الخلافة موجودة في الإسلام، وأنها منصب ديني واجبة طاعتها فيما لا يخالف الدين، كما امتنع بإعادة طبع كتابه رغم نفاذه السريع. كما روى ابنه الأكبر محمد، لمحمد عمارة سنة 1971م بأنه شرع في كتابة صفحات يسجل فيها تراجعها، لكن الأجل وافاه قبل إتمام تلك الصفحات<sup>(1)</sup>. وهكذا خسرت العلمانية الورقة الإسلامية الوحيدة التي كتبها واحد من علماء المسلمين.

ومهما يكن من أمر فإننا عندما نطلع على حياة المؤلف قد لا نستغرب صدور كتابه السابق الذكر. فهو ولد سنة 1888م، وبعد حصوله على العالمية من الأزهر سنة 1911م، سافر إلى بريطانيا في سنة 1912م قضى بها سنة لدراسة اللغة الإنجليزية ثم التحق بجامعة أكسفورد سنة 1913م لتحضير رسالة في الاقتصاد والعلوم السياسية. ثم عاد إلى مصر سنة 1914م بسبب الحرب العالمية الأولى. فعيّن قاضيا بإحدى المحاكم الشرعية بالإسكندرية ثم الأقاليم، وقد توفي سنة 1966م<sup>(2)</sup>.

ومن هذا يتبين لنا أنه في تلك الفترة القصيرة التي قضاها ببريطانيا جعلت له عملية غسل المخ في طرف المستشرقين، ولا سيما أن كتابه لا يعدو أن يكون ترجمة لما كتبه أحدهم. ثم أرسل إلى مصر ووظف رأسا في إحدى المحاكم الشرعية، وقد ذكرنا قبلا أن القضاء كان قد علمن. وإذن فمن الطبيعي أن لا يعين قاضيا إلا بعد اطمئنان الاستعمار الإنجليزي إليه. والذي يؤكد تصورنا هذا هو تزامن تأليف الكتاب مع إلغاء الخلافة العثمانية. فالخلافة ألغيت سنة 1924م والكتاب ألف في مصر بالعربية للعرب سنة 1925م، وذلك ليحدث نقاشا وصراعا فكريا - وقد حدث ذلك بالفعل - يدل أن يفكر المسلمون في الثورة لإرجاع المياه إلى مجاريها ولا سيما في مصر التي لها وزنها في العالم العربي. وإضافة لهذه الخدمة الكبيرة للإستعمار، فإنه يقدم له خدمة لا تقل عنها بل أخطر، وهي أنه عندما يقتنع المسلمون بأن الإسلام الذي يقوم على الجهاد لحماية أرضه ومواطنيه ليس فيه نظام سياسي وليست فيه دولة سيصبح المسلمون كسلغنم بلا راعي، فتزول السلطة السياسية الإسلامية التي تحارب الإستعمار من نفوس المسلمين بعد أن أزالها الإستعمار من واقعهم مما يمكن للإستعمار إلى الأبد. كما أن اللاتكينة تؤدي إلى ياس المسلمين، فيستسلمون للظاهرة الإستعمارية التي عمت آنذاك أقطارا كثيرة من بلدان المسلمين، وكانت الاقطار المتبقية في طريق الإستعمار.

ومما يؤكد كلامنا السابق بوضع كتاب علي عبد الرازق، في إطار خدمة الظاهرة الإستعمارية أن مصر كانت أول دولة إسلامية بعد الجزائر تتحلل قهرا من أحكام الشريعة الإسلامية، ويفرض عليها الإستعمار القوانين الوضعية. وحينما طالب المصريون في مؤتمر جنيف سنة 1937م بأن تكون الشريعة الإسلامية

(1) محمد عمارة، المرجع السابق، ص 164، 165.

(2) علي عبد الرازق، المصدر السابق، تقدم عروس الزهور، ص IX.

مصدرا للتشريع، رفض أعداء الإسلام وإشترطوا لإلغاء الإمتيازات الأجنبية في مصر أن تستمر القوانين الوضعية وتظل الشريعة الإسلامية بعيدة عن التطبيق<sup>(1)</sup>.  
كل هذا في مصر، فماذا عن مركز الخلافة الإسلامية آنذاك؟

### إلغاء الخلافة الإسلامية سنة 1924 م وعلمنة الدولة قهرا

بعد الجزائر ومصر جاء دور تركيا التي أجبرها النصارى بعد الحرب العالمية الأولى على الخضوع لشروط كرزون التي جعلت أول شرط لإستقلالها، هو إلغاء الشريعة الإسلامية في نظام الحكم والقضاء والإقتصاد. وقد تم هذا رغم معارضة الشعب ونوابه. وكان المنفذ لذلك كمال أتاتورك بالقمع والقتل والإرهاب لكل معارض.

وكانت خطوته الأولى في هذا المجال، فصل الخلافة عن السلطة، ليجعل مجالها مقصورا على مسائل العبادة المحضة. أي حول الخليفة قهرا من رجل سياسي يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية وفقا لما يقرره الإسلام إلى مجرد زعيم روحي لا حول له ولا قوة، وكرس أتاتورك جهوده لتحويل الخلافة إلى فاتيكان. ولكن الخليفة رفض هذا الوضع غير الطبيعي مما دفع أتاتورك إلى إلغاء الخلافة نهائيا. وهذا يعني بوضوح أن الغربيين وأنابهم لما لم يجدوا في الإسلام كهنوتا وإكليروسا وفاتيكانا مثلما هو حال النصرانية، عملوا على صنعه في الإسلام لتحويله إلى كهنوت، وإبعاده عن قيادة الحياة نهائيا ومساواته بالنصرانية. وهكذا ألغى أتاتورك الخلافة وفصل بين الإسلام والسياسة، وقرر أن الدين قضية شخصية. فلكل فرد أن يختار له دينا يدين به. وأبعد الإسلام عن الإدارة والحكم وألغى المحاكم الشرعية، وقوانين الشريعة الإسلامية. وقرر العمل بالقانون المدني السويسري، والقانون الجنائي الإيطالي، والقانون التجلري الألماني. ومنع التعليم الديني وعطل مراكزه. ومنع الحجاب وقرر السفور والتعليم المختلط. ومنع الطربوش وقرر بدله البرنيطة وألغى الحروف العربية وبدلها باللاتينية، وجعل الأذان بالتركية. وبعبارة وجيزة: قضى على الإسلام في تركيا<sup>(2)</sup>. ولذلك فإنه رغم ما ذكرناه عن مصر إلا أن تركيا تعد أبرز بلد إسلامي حكّمته العلمانية ولا تزال، وأصبحت هي الدين الجديد بدل الإسلام، ونفذت فيه خططها، وضربت بيد من حديد كل من يقاومها، وخاضت في ذلك بحرا من الدم.

وأجبر أتاتورك بلده على الخضوع للنمط الغربي في الحياة كلها - عدا الجانب التكنولوجي - في السياسة والإقتصاد والإجتماع والتعليم والثقافة، وسلخه من تراثه وقيمه وتقاليده كما تسلخ الشاة من جدها، وأقام دستوراً لا دينيا يعزل الإسلام عن الحياة عزلا كليا بما في ذلك شؤون الأسرة والأحوال الشخصية<sup>(3)</sup>.

(1) سعد الدين السيد صالح، إحتدوا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ص 187.

(2) المرجع نفسه، ص 188.

(3) بما يدل على الإنفصام بين القيادة العلمانية والقاعدة المؤنسة أن الناس لم يزل الدول اللاتكية ولا سيما فيما يتعلق بالأحوال الشخصية ظلوا يحتكون إلى الشريعة، وما عضوهم للقانون اللاتكي إلا كإجراء شكلي لتسوية وضعهم إزاء السلطة الدكتاتورية التي تجبرهم على اللاتكية وتقرهم.

وأصبح الإسلام عرضة للقمع، ولم يسلم من ذلك حتى المدارس القرآنية والزوايا، فأعتبرت غير شرعية ابتداء من عام 1925م على اعتبار أنها مراكز للتخلف والتأمر الرجعي<sup>(1)</sup>.

والسؤال المطروح هنا، هو :

كيف تطورت الأحداث لتصل إلى إلغاء الخلافة الإسلامية؟.

والجواب عن ذلك يتمثل فيما يأتي:

يعد السلطان عبد المجيد أول سلطان عثماني أضفى على حركة تغريب الدولة العثمانية طابع الرسمية حيث أمر بتبني الدولة لذلك بإصدار فرماني التنظيمات عامي 1854 و 1856م وبهما بدأ فسي الدولة العثمانية ما يسمى بعهد التنظيمات. وهو إصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي ، وبهذين فرمانين بدأت الدولة في إبعاد الشريعة الإسلامية واستلهاهم الروح الغربية في الحياة والفكر الغربي فسي التقنين وإقامة المؤسسات. وذلك بسبب وقوعه تحت تأثير وزيره رشيد باشا: الذي وجد في الغرب مثله، وفي الماسونية فلسفته. وهو الذي أعد الجيل التالي له من رجال الدولة الذين بمساعدته أسهموا في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو والتي كان إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني أحد مقتضياتها.

ولقد أتت حركة التنظيمات بنظام الباب العالي بديلا عن نظام الديوان كجهاز لإدارة الدولة، وهو يشبه مجلس الوزراء، وكان فيه الصدر الأعظم والوزراء يقاسمون السلطان السلطة. كما دفعت هذه الحركة مشيخة الإسلام إلى الدرجة الثانية ثم تثل عملها. وكان في نظام الديوان يستند الحكم إلى ثلاثة ركائز رئيسية هي :

- السلطنة - الخلافة - مشيخة الإسلام.

وكان الديوان يأتمر بأوامر السلطان الخليفة وتقوم مشيخة الإسلام بدور الثورة له، وكان الديوان مساعدا للخليفة السلطان في تسيير وإدارة أمور الدولة.

ولما تولى السلطان عبد الحميد<sup>(2)</sup> الخلافة عام 1876م وجد أطماع الدول الغربية في الدولة العثمانية قد بلغ أوجه. فعمل على تجميع القوى الإسلامية المبعثرة في العالم لمواجهة أطماع الغرب. وكان عليه أن يواجه في الداخل كلا من :

أ- نفوذ الباب العالي بصدوره العظام الذين سيطروا قبلا على كل من والده عبد المجيد وعمه عبد العزيز.

ب- جماعة تركيا الفتاة. وهنا نتساءل :

من هي جماعة تركيا الفتاة؟

هي جماعة تغريبية منبهرة بالغرب وعاملة لصالحه، أخذت تتشكل عام 1860م في سرية تامة وتعمل في الخفاء. أصبح لأعضائها النفوذ والغلبة في تركيا، إلى حد أنهم هم الذين عزلوا السلطان عبد العزيز وأتوا بالسلطان مراد الخامس بدله الذي كان ماسونيا وذا علاقة حميمة بالدوائر الحاكمة في أوروبا، ثم عزلوه.

(1) بروس ألفر شاوي، الإسلام والعلمانية وسها لوجه، ص 60 ، 61.

(2) هو ابن السلطان عبد الحميد، ولد عام 1842م ( السلطان عبد الحميد، مذكرات - السلطان عبد الحميد - تقديم محمد حرب عبد الحميد، ط1، دار الأنصار، القاهرة، 1978م،

فتولى السلطان عبد الحميد العرش من بعده فدخلوا معه في صراع عنيف. فهربوا إلى أوروبا بغية إسقاطه، ثم دخلوا الحرب العالمية I ، فأضاعوا الإمبراطورية العثمانية بسبب مؤازرتهم للدول الكبرى الراغبة في تمزيق أوصال الخلافة العثمانية، وكانوا أمل الدول الكبرى في ذلك. لأنهم أدركوا رغبة الدول الكبرى من إنجليز وفرنسيين وروس وألمان ونمساويين، - رغم الصراع المرير فيما بينهم - التي كان قادتها متفقين ومتحالفين في قتال العثمانيين وتمزيق الخلافة رغم اختلافهم في نصيب كل منهم منها. ومع ذلك فإن جماعة تركيا الفتاة كانت مؤازرة لهذه الدول في تحقيق هذا الغرض<sup>(1)</sup> يقول عن هذه الجماعة السلطان عبد الحميد: هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم - تركيا الفتاة - كانوا في الأصل ثلاثة أشخاص أو خمسة، وهؤلاء عملوا ضدي عدة سنوات في أوروبا. تكلموا، خطبوا، كتبوا. كل ذلك قبل أن يفكروا أن العمل ضدي معناه أيضا: العمل ضد الوطن، كانت صحفهم التي يصدرونها تأتي خفية إلى البلاد عن طريق البريد الأجنبي وتوزع بواسطة الأجانب<sup>(2)</sup>.

وكانت ثقافة رجال هذه الجمعية بسيطة، فهم رغم الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر بمختلف أسمائها ورجال الجمعية الموجودين بتركيا إلا أنهم لم يؤلفوا كتابا واحدا جادا. ولكن محافل الماسونية رغم تعقب السلطان عبد الحميد لها جعلت من هؤلاء المتسكعين أعلاما عندما حركوا الضباط من أعضاء الإتحاد والترقي، وهاهي - كما يقول السلطان عبد الحميد - ذي قصة تركيا الفتاة وجمعية الإتحاد والترقي: أصبح جزء من الجيش تابعا لهم. سيطر الإنجليز على تشكيل تركيا الفتاة في مناستر، وسيطر الألمان عليها في سالونيك. وكلاهما عن طريق المحافل الماسونية. كان الإنجليز يثيرون على السلطان عبد الحميد إتحادي مناستر، والألمان يثيرون عليه إتحادي سالونيك. كانوا - جميعا - يعملون على قيام إنقلاب للإستيلاء على الدولة من الداخل. كل هذا بواسطة المحافل الماسونية، وكانت النتيجة كما يقول السلطان عبد الحميد: " أسقطني إتحاديو سلانيك عن العرش. وتوصلوا إلى إتفاقية مع الإنجليز ودخلوا الحرب كحليف مع دولة تسود البحار وكان المسألة حلم"<sup>(3)</sup>.

وقضية إسقاطهم له أنه أدرك أهدافهم وخطرهم على الدولة فدخل معهم -توازهم الدول الكبرى السابق ذكرها- في صراع عنيف، أحدها وقع في 13 أبريل 1909م وقد عرف بإسم حادث 31 مارس ويتمثل في حدوث اضطراب كبير في عاصمة الدولة نتيجة تدبير أوروبي مع رجال الإتحاد والترقي تحرك على إثره عسكر الإتحاد من سلانيك ودخل إستانبول، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثلثي من كل سلطاته الدينية والمدنية. ثم وجهت إليه جمعية الإتحاد والترقي زورا وبهتانا مجموعة من التهم، منها: إحراق المصاحف! ، والظلم وسفك الدماء. فنفاه الجيش على إثر هذا إلى سلانيك؛ لأنها كانت تعج بأنصار الإتحاد والترقي ثم نقلوه أثناء الحرب العالمية الأولى إلى إستانبول معتقلا في قصر بيلربي.

(1) السلطان عبد الحميد، مذكرات، ص 4، 57، 58.

(2) المصدر نفسه، ص 58.

(3) المصدر نفسه، ص 57، 60، 69، 70. ومن أراد التوسع في هذا وليعرف ما فعلوه للإطاحة بالسلطان عبد الحميد، وكيف لهم دكتورهم لا يؤمنون بالحرية إلا لأنفسهم،

للمرجع إلى مذكرات السلطان عبد الحميد.

والحقيقة أن السلطان عبد الحميد لم يكن له أي علم، بحادث 31 مارس - لأنهم هم الذين دبروه، ويستحيل حرقه للمصاحف - ومتى كانوا يدافعون عن الصحف؟! - فهو معروف بتقواه وتسامحه. ولم يعرف عنه ترك الصلاة أو إهماله في التعمير. وهو غير مسرف، مما جعله يزيح عن كاهل الدولة أعباء مالية كثيرة من ماله الخاص. ولم يعرف عنه أنه قتل أو أمر بقتل أحد من المسلمين. وما اختلاقهم لأكذوبة حرقه للمصاحف إلا الإثارة العامة عليه وحتى الخاصة الذين لم يكونوا يعرفون نواياهم لأدراكهم قوة العاطفة الدينية الإسلامية للشعب التركي، وليظهروا أنفسهم أمام الملأ أنهم متحمسون في الدفاع عن الإسلام.

ومهما يكن من أمر فإنه بتكليف من الإتحاد والترقي تكونت لجنة لإبلاغ الخليفة سلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني بقرار خلع، وكانت هذه اللجنة تتكون من :

1- إيمانويل قراصو: وهو محامي، يهودي أندلسي الأصل، ومن مؤسسي حركة "تركيا الفتاة" السابق ذكرها، كلفته جمعية الإتحاد والترقي بإثارة الشغب ضد السلطان عبد الحميد، وبتأمين التخابير بين سلانيك وإستانبول فيما يتعلق بإتصالات الحركة. كما عينه جمعية الإتحاد والترقي في المجلس النيابي نائباً عن سلانيك، ثم إستانبول. وقد لعب دوراً هاماً في إحتلال إيطاليا لليبيا مقابل رشوة إيطالية. وقد هرب نتيجة هذه الخيانة إلى إيطاليا لتمنحه حق المواطنة الإيطالية. وقد كان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا ريزولتا الماسوني. توفي عام 1934م.

2- آرام: أرمني -والأرمن من أشد الناس عداوة للإسلام- وعضو في مجلس الأعيان العثماني.

3- أسعد طوبطاني: الباني، ونائب في مجلس "المبعوثان" عن منطقة دراج.

4- عارف حكمت : وهو فريق بحري وعضو مجلس الأعيان. وهو كرجي العرق<sup>(1)</sup>.

وهنا نشير إلى جميعة الإتحاد والترقي:

### جمعية الإتحاد والترقي:

هذه الجمعية ينتمي إليها كمال أتاتورك. إتبعت سياسة التتريك ولو بالقوة الغاشمة والدعوة إلى القومية التركية المتعصبة واللائكية -وذلك لتكسير الخلافة التي كانت تقوم على وحدة المسلمين دون تعصب لجنس والإسلام بدل اللائكية- وتتسم هذه الجمعية بصفتين جوهريتين هما :

أ- قادة هذه الجمعية وزعمائها كانوا جميعاً ماسونيين.

ب- يهود سالونيك (الدونمة)<sup>(2)</sup> كانوا جزءاً لا يتجزأ من هذه الجمعية.

ويلاحظ على جميعة الإتحاد والترقي أنها أصلاً غير تركية، وغير إسلامية؛ لأنه منذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها واحد من أصل تركي صافي. ومع ذلك تدعو إلى القومية التركية وتتعصب لها مثلما دعا ميشال عفلق إلى القومية العربية مع أنه من أصل يهودي يوناني. ومن الأمتلأ على هذا فإن:

(1) السلطان عبد الحميد، مذكرات، تقدم محمد حرب عبد الحميد، ص 5-7.

(2) كان يهود سالونيك، ويعرفون "بالدومة" أي المرتدون شركاء الثورة التركية الحقيقيون، وهم من العرق اليهودي، ولكن معتقدتهم قد لا يكون يهودية أصلاً، والاعتقاد الشائع بينهم أنهم مسلمون بالأسم، أما الفعل لهم من أبح توراة موسى، وفي تلك الفترة لم يعرف أحد من الناس شيئاً عنهم سوى قلة من العلماء المختصين بدراسة الشرق الأدنى، وهذه اللغة اليهودية المعروفة بالدومة ليست دوراً رئيسياً (تصحيح كمال أتاتورك حاكماً للترك. (بومف القرصاوي، الحلول المستوردة وكيف حدثت على أثناء ط 12، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987، ج 1، ص 152، 153).

**أنور باشا** : ابن رجل بولندي مرتد، **جاويد** ، من يهود الدونمة، **كراصو** : من يهود الأندلس المقيمين في سالونيك ( يهود الدونمة) **طنعت باشا** : من أصل عجري اعتنق الإسلام ظاهراً، **أحمد رضا** : أحد زعمائهم في تلك الفترة: كان نصفه شركسيا والنصف الآخر مجريا، كما كان من أتباع مدرسة كونت الفلسفية. وكان جميع أعضاء جمعية الإتحاد والترقي من الماسونيين<sup>(1)</sup>، كما كانت عقول هذه الجمعية يهودا أو مسلمين من أصل يهودي، أما العون المالي فكان يأتيهم عن طريق الدونمة ويهود سالونيك الأثرياء. كما كانت تأتيهم المعونات المالية أيضا من الرأسمالية الدولية من فينا وبودابست وبرلين وباريس ولندن إلخ. والنتيجة من كل هذا : أنه كانت هناك مؤامرة دولية صليبية صهيونية ماسونية تعمل بتخطيط وإحكام لتدمير الدولة الإسلامية وتفتيتها وتقسيمها وتقاسمها والإجهاز على الرجل المريض ليقسم الورثة غير الشرعيين المتريصون تركته<sup>(2)</sup>.

وكان المنفذ لكل هذا هو: كمال أتاتورك. فمن هو ؟ وما هي أعماله في هذا؟

### كمال أتاتورك أو الرجل الصنم<sup>(3)</sup>

ولد مصطفى كمال أتاتورك في سالونيك عام 1880 م<sup>(4)</sup> من امرأة تسمى زبيدة، لها زوج يسمى علي رضا أفندي ويقدم على أنه أب مصطفى أتاتورك. غير أن أتاتورك لما عرضت عليه صورة هذا الرجل أنكر أن يكون أباه. ومعلوم أن أباه مجهول، وأن علي رضا أفندي هو زوج أمه وليس أباه<sup>(5)</sup>. وعلى هذا فإن ما اعتيد تقديمه بأن أصل أسرته من قرية بالأناضول يجعلنا لا نقبله. ويمكن أن نحوره ليصبح أن أصل أمه من قرية بالأناضول. التحق بمدرسة ابتدائية تسيير على النهج الأوروبي الحديث ثم المدرسة الحربية بإستنبول ليتخرج منها ضابطا<sup>(6)</sup>. كما ذهب إلى مدينة تولوز الفرنسية للدراسة في أكاديميتها العسكرية فكانت فرحته بإكتشاف أوروبا تختلط بالنقمة الخرساء على المصير التاريخي الذي لا يستحقه، فجعلته تلك الدراسة في فرنسا يعيش صدمة فكرية لما لاحظته من تخلف في بلاده وتقدم في الغرب، فأحدث ذلك لديه وعيا سادجا جعله يعتقد بساذجة مفرطة - أو بتبعية مفرطة - أنه يكفي أن ينقل إلى تركيا "الوصفات" الجاهزة التي أدت إلى نجاح الغرب وتفوقه. كان العلمنة إحدى هذه الوصفات الفعالة بالنسبة لمجمعات يمثل فيها الدين دور القائد والمهيمن على كل حركات الحياة اليومية وسكناتها كما يقول أركون. وهذا دون أن يمتلك أتاتورك أو متفوقا عصره الثقافة التاريخية الضرورية لتبيين المنشأ الإيدولوجي

(1) يوسف الغضائري، المرجع نفسه، ص 151 - 153.

(2) المرجع نفسه، ص 153.

(3) الرجل الصنم هو لقب أطلقه عليه أحد الضباط الأتراك السابقين، حيث جعله عنوانا لكتاب مهم حال فيه شخصيته وبين فيه لصلاته وخطورته، وكيف أصبح بعد في تركيا لاثونيا، إذ لا اليوم فإن سبه يلحق بصاحبه ألسن المقوبات، ولم يصبح هذا الضابط عن نفسه خوفا من العقاب، ولقد درسنا نحن هذا الكتاب أيام الشباب، وسجلنا ما ننته هنا من معلومات فيه ولكننا لم نستطع التوثيق لأن الكتاب ليس موجودا بأيدينا الآن، ومن أراد التثبت من صحة ما نذكره، فعا عليه إلا الرجوع إلى كتاب " الرجل الصنم".

(4) ذكر أبو الحسن الندوي أنه ولد في سنة 1881م ( أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، في الإكطار الإسلامية، ط5، دار القلم، الكويت 1985م، ص 47).

(5) الرجل الصنم.

(6) أبو الحسن الندوي، المرجع نفسه، ص 47 ، 48.



للعلمنة في الغرب ووظائفها الإجتماعية والسياسية وحدودها الفلسفية. ولا أدل على صحة هذا مما كتبه المثقف التركي عبد الله سيفيت مدير الجريدة التركية "إجتهد" بكل سذاجة عشية الثورة الكمالية :  
 " لا توجد حضارة ثانية، توجد حضارة واحدة، فكلما حضارة تعني الحضارة الأوروبية وينبغي إستيرادها وفرضها كما هي بزهرها وشوكها"<sup>(1)</sup>.

وهكذا رجع أتاتورك من فرنسا مصبوغا باللائكية، متحلا من كل قيم بلاده. وهو ما جعله بمجرد رجوعه يدخل في مؤامرات ضد السلطان عبد الحميد الثاني. فيقبض عليه وينفى إلى دمشق ويفر منها إلى سلانك، فالتحق بجمعية "الإتحاد والترقي" والتحق بالجيش. شارك في الحرب العالمية الأولى وذاع صيته في معركة نابولي سنة 1915 م، وبعد هزيمة ألمانيا وتركيا في الحرب العالمية الأولى سنة 1918م إحتلت إنجلترا وحلفاءها إستببول واضطرب الأمن في بلاد الأناضول فإختير ليقوم بحفظ النظام سنة 1919م. أعلن الحرب على اليونان الذين إستولوا على أزمير وانتصر عليهم سنة 1921 م في معركة سقاية ولقب بالغازي، فأقام في أنقرة حكومة مستقلة وألغى الخلافة وسلطنة آل عثمان وأقام جمهورية لائكية، كان أول رئيس لها سنة 1924م، وظل حتى وفاته سنة 1934م<sup>(21)</sup>.

وبذلك تحولت تركيا المفصولة عن جميع أطرافها إلى دولة لائكية متطرفة مستغربة دكتاتورية عسكرية إلى الآن.

ولكي نفهم سر هذا التحول، يحسن بنا أن نشير إلى جوانب من شخصية أتاتورك معتمدين على كتاب عرفان أروكا "أتاتورك" الذي ألفه عن إخلاص وإعجاب بشخصيته مما جعله يصوره تصويرا لا تشويه فيه ولا مبالغة، ومما ذكره عنه:

أنه كان شديد الغرام بالإناث يجذبه (Sex) كالمغناطيس، يتسلى بالخمير ويشغل بها نفسه لأنه لا يجد ما يسلي به نفسه وروحه كالإيمان بالله واليوم الآخر. لأنه كان لا يؤمن بهما. كان مفضورا على حب التغلب على الآخرين وإخضاعهم لإرادته ويرى أنه لا أحد يوازيه... إقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجه ضد الإسلام وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله وأن الإسلام ظل عاملا هداما في الماضي وأنه جنى على تركيا خيانة كبيرة... وكان مصمما على سن القانون لتحريم الدين الإسلامي في تركيا، ولو إحتاج ذلك إلى إستخدام القوة والخداع والتضليل. ويرى أن الإله الجديد هو الحضارة الغربية. يبغض الإسلام والعقيدة الصحيحة ويزعم أنه سبب تخلف الأتراك. ولم يكن سرا أنه لا يدين بدين... وقد فزع الناس حين شاع أنه رمى المصحف على رأس شيخ الإسلام الذي كان من كبار علماء الإسلام وشخصية محترمة... كان يعبد هذا الإله الجديد "الحضارة الغربية" بحماس ولهفة وكان يقول لشعبه : يجب علينا أن نلبس ملابس الشعوب المتحضرة الراقية، وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس وألزم لبس القبعة لكي ينصبع الشعب التركي بصبغة الأمم الغربية بأسرع ما يمكن وينوب فيها كليا فلا يبقى ما يمتاز به عنها. إستعمل القسوة النادرة والعنف البالغ في تحقيق هذا الغرض وكان سعادة الشعب كانت تتوقف في ذلك، وكأنه الشرط

(1) محمد أركون، الفكر الإسلامي لقد وإحدها، ترجمة وتعليق هاجم صالح، ط1، دار الساقي، لندن، 1990، ص 69، 70.

(21) أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص 47، 48.

الأساسي لمجد تركيا وكرامتها. وأن حرب القبعة الدموية تحولت إلى حروب صليبية حيث حدثت ثورات وإضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا... وأقيمت المحاكم في كل مكان... إن هذه المحاكم أهاجت الثوار أكثر من ذي قبل، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا في قلوب الناس روح المقاومة والحماس الديني القوي... وكان الناس يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام... كان يعشق الخمر والنساء والموسيقى<sup>(1)</sup>.

ويذكر صاحب كتاب الرجل الصنم مبينا مدى حقه على الإسلام وكرامته لخاتم الأنبياء ﷺ أنه كان جالسا مع جماعة، وإذا به يسمع صوت المؤذن من مسجد قريب، فقال لجلسائه: إنظروا إلى هذا الرجل: محمد، كيف استطاع أن يجعل اسمه خالدا على مر الأزمان في كل مكان، هدموا المذننة، وهدمت فعلا، وظلت مهدمة إلى حين تأليف كتاب الرجل الصنم، وهو الذي حول مسجد "أيا صوفيا" الرائع إلى متحف<sup>(2)</sup>. وهنا نتصل إلى الإشارة إلى ما يسمى :

### إصلاحات أتاتورك وخطواته الثورية :

- تحويل الإمبراطورية إلى مجرد قطر: لقد حول الإمبراطورية التي كانت مترامية الأطراف ولا تكاد تغيب عنها الشمس إلى مجرد قطر مقصوص الأطراف، منخور الجذع. حول الخلافة إلى مجرد دويلة جمهورية دكتاتورية! وحطم الأساس الديني لبلاده وغير وجهة نظر الشعب التركي وحكومته من الإسلام إلى العلمانية. ولقد بين هذه الحقيقة ومدى حقد أتاتورك على الإسلام عرفان أروكا بعد تقديم خلاصة المحاضرة التي ألقاها أتاتورك في البرلمان عندما قدم إليه مشروع تحويل الدولة من إسلامية إلى علمانية، فيقول :

" قدم مصطفى كمال في 3 مارس 1924 م مشروعا تحولت به الدولة التركية دولة علمانية، وألغى منصب الخليفة. وقد كان مصطفى كمال صريحا وجريئا في حديثه عن هذا الموضوع، فقال :

" إن الإمبراطورية العثمانية قامت على أسس الإسلام، وأن الإسلام بطبيعته ووضع عربي وتصوراته عربية وهو ينظم الحياة - من ولادة الإنسان إلى وفاته - ويصوغها صياغة خاصة، ويخلق الطموح في نفوس أتباعه، ويثبث فيهم روح المغامرة والإقتحام. والدولة لا تزال في خطر مادام الإسلام دينها الرسمي"<sup>(3)</sup>. ثم ألغى التعليم الديني وعلمن التعليم كله وألغيت وزارة الشريعة والأوقاف، واستعيض عنها بتأسيس إدارة الشؤون الدينية وأختير لها أسوأ الموظفين.

- استبدال الحروف العربية باللاتينية: وهذا من الخطورة بمكان، وهدفه إنشاء جيل منقطع الصلة كليا عن حضارته وثقافته الماضية. والهدف هو صياغة الشعب التركي بقوة وسرعة في الحضارة الغربية. وقد أغناه تحويل حروف الهجاء عن إحراق الكتب، وبذلك أصبحت النخائر الكلاسيكية للكتب الفارسية والعربية والتركية أجنبية عن الشعب التركي، لا نتناولها يديه ولا تبلغها مداركه، والهدف من كل هذا

(1) أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص 48-54.

(2) الرجل الصنم.

(3) أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص 54، 55.

إقصاء العنصر الإسلامي والعربي من الحياة التركية نهائيا. وبذلك أصبح الإنسان التركي عاجزا عن فهم تراث أجداده، فلا يعرف كيف كانوا يفكرون ولا ماذا كانوا يفعلون، بل نجد هذا الإنفصام حصل حتى داخل الأسرة الواحدة بين الأباء الذين يكتبون ويقرؤون تراثهم بالحرف العربي والأبتساء الذين يجهلونه تماما لأنهم يكتبون بالحروف اللاتينية. وبعد هذا من أكبر نجاحات أتاتورك<sup>(1)</sup>. إن كان هذا يسمى نجاحا.

- إلغاء الخلافة الإسلامية سنة 1924 م وإلغاء الشريعة الإسلامية : وقد أشرنا إلى هذا قبلا، ولكن أتاتورك مهد لكل هذا بإعلانه الحرب على الخلافة بعد رجوعه من فرنسا. كما ذكرنا ودخل في مؤامرات ضد الخليفة. وأعلن جهارا نهارا كفره بالإسلام والإساءة إلى نبيه وتاريخه ورجاله. مما جعل المفتي يصدر في سنة 1920م فتوى بتكفير أتاتورك وأنصاره، فأجاب أتاتورك بأن جعل المجلس الوطني الكبير يصدر قرارا بحظر الإشتغال بالسياسة على رجال الدين المسلمين. وفي الفترة 1924 - 1928 م أصدر قرارات إعتبرت هامة في نظر الغرب لتحقيق السياسة العلمانية:

تطبيق القانون المدني في الأحوال الشخصية مستعينا بالقانون السويسري، والغريب أن القانون السويسري كان غامضا وقاصرا في جوانب كبيرة. وكانت له شروح وحواشي، فلما أخذ أتاتورك، أخذه دون تلك الشروح والحواشي، ولكنه لم يكن يهمنه سوى إلغاء الشريعة الإسلامية. أما تحقيق العدالة فشيء لم يكن يفكر فيه أصلا.

- منع تعليم الدين في المدارس : وقصره على كلية إسلامية ضيق عليها الخناق ثم أفلها في سنة 1933 م وعلمن التعليم كله، وغلق المؤسسات التعليمية الدينية الأخرى كالزوايا والمدارس القرآنية وغيرها.

- مصادرة الأوقاف المخصصة للمؤسسات الدينية وتحويلها إلى ملكية الدولة. ومن هنا صار الأمر على أن دين الدولة هو الإسلام غير منطقي. فعدل الدستور وحذفت مادته الثانية التي تنص على أن الإسلام دين الدولة. وذلك في سنة 1928م وتكونت لجنة من كبار الملاحدة لتطويع الإسلام بما يلائم التطور.

- استخدام المؤشرات الموسيقية في الصلاة.  
- لبس الأحذية - النظيفة - في المساجد وذلك في نظرنا تشبيها للمسجد بالكنيسة.  
- استخدام اللغة التركية في العبادات ولا سيما الأذان بإعتباره شعارا عاما ظاهرا، مما يدل على صلة اللاتنية بالمبدأ القومي التركي في تركيا الحديثة.

- منع الطربوش ووجوب لبس البرنيطة

- منع الحجاب ووجوب السفور

ولقد بلغ به إنبهاره بالغرب أنه دعا الأتراك إلى ترك زوجاتهم يعاشرن الغربيين ليحسنوا نسلهم<sup>(2)</sup>.

(1) المرجع نفسه، ص 56، 57.

(2) الرجل المنم.

## تقييم الرجل الصنم

- لقد فرض أتاتورك التغريب الكامل على الشعب التركي بقوة الحديد و النار بحجة العصرنة. ولكن تركيا الكمالية، لا إلى مستوى الغرب التكنولوجي وصلت ولا مجتمعاً قويا متماسكا أنتجت. وهكذا خسرت نفسها ولم تكتسب مقومات أعضائها. ومن هنا فإن حركة أتاتورك تعد حركة فاشلة، وفي الوقت ذاته ضالة منحرفة. سواء قسناها بمقياس الدين أو بمقياس الوطنية والقومية أو بمقياس الديمقراطية والحرية أو بمقياس الفكر والحضارة.

فهي بمقياس الإسلام حركة ردة صريحة تنكرت لعقيدة الأمة وشرعتها وأنكرت حتى الأحكام القطعية الضرورية.

وهي بمقياس الوطنية والقومية - حركة إنسلاخ من كل مقومات الأمة الدينية والثقافية والتاريخية والاجتماعية لتتوب في أمم أخرى مخالفة ومعادية لها، بعد خيانة محكمة دبرتها القوى المعادية للإسلام من يهودية وصليبية للإجهاز على الرجل المريض الذين كانوا يخشون شفااه يوما ما، فيعود إلى الحياة من جديد لإنصاف المظلومين وتحرير المقهورين -، وهي حركة تقزيمية تفنيتية للأمة التي كانت رفعتها بالإسلام لا تكاد تغيب عنها الشمس وصارت باللائكية يكاد المرء في الجنوب يسمع من ينادي من الشمال، وفي الشرق من ينادي من الغرب -.

وهي بمقياس الديمقراطية والحرية حركة ديكتاتورية مستبدة تحكم الشعب رغم أنه بالحديد والنار، وتقوده بغير إرادته. بل صارت سيف أعضائه مسلطا على رقبته رغم مقاوماته الشديدة، وتقديمه الضحايا والشهداء دفاعا عن عقيدته وتراثه، ولكنه أجبر على الإستسلام إلى حين.

وهي بمقياس الفكر والحضارة : حركة ذيلية هدامة ألغت الكثير ولم تقدم شيئا إيجابيا ذا بال، بل هي حركة تقليد أعمى للغرب، وشتان بين التقليد والإبداع<sup>(1)</sup>.

- دعوة أتاتورك وحركته مرتبطة إرتباطا كليا باليهود والصليبيين، وهي تدخل ضمن الإجهاز الكلي على الإسلام بتحتطيم قيادته الروحية وهي الخلافة الإسلامية التي كانت رغم ضعفها تمثل أو ترمز لوحدة المسلمين الروحية والدينية. والدليل على هذا أن الكماليين ومن قبلهم حزب الإتحاد والترقي وجماعة تركيا الفتاة إنما نرعرعوا في أحضان اليهودية والماسونية. ولقد ذكرنا قبلا أسماء اللجنة التي خلعت السلطان عبد الحميد وذكرنا أنه لا أحد منهم مسلم حقيقي أو تركي حقيقي. وهو ما يصدق على جميع قادة جمعية الإتحاد والترقي وزعمائها الذين كانوا ماسونيين، وكان يهود سالونيك (الدونمة) جزءا لا يتجزأ من هذه الجمعية التي كان روحها هو "جماعة تركيا الفتاة". وهو ما بينه آنذاك شيخ الإسلام في تركيا مصطفى صبري من أن جمعية الإتحاد والترقي كانت معقد إجتماعاتها في بيوت اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية والجمعيات الماسونية الإيطالية، وكان وزير مالية الإتحاديين يهوديا. كما كانت وزيرة المعارف في عهد الكماليين وهي خالدة أديب من أصل يهودي. كما بين شيخ الإسلام تواتر

(1) يوسف الفرضاوي، الملل للسوردا وكبد حنت على امتاء ص 131 - 133 .

الإنكليز مع أتاتورك فعملوا على جعله بطلا لأنهم لم يجدوا مثله من يهدم من الإسلام في يوم ما لا يهدمه الإنجليز في سنة<sup>(1)</sup>.

- ولكي يتم التغريب الشامل للشعب التركي قام الملاحدة الروس وغيرهم ببحث مقومات ومشخصات تركية أو تورانية يستبدونها بالإسلام حتى عبارة الذئب الأبيض الذي عبده سلفهم من ههج الوثنيين - وهو ما يقوم به دعاة الحركة البربرية اليوم في الجزائر - فإحتاروا التشبه بالغربيين ولا سيما أفسدهم ديننا وخلقنا كالكلايين بحجة الحضارة والتطور والعصرنة. ولقد وصل بالأتراك العلمانيين أصحاب أتاتورك من الإنبهار بالغربيين أن أصبحوا يستحسنون إستبضاع نساتهم من الإفتراف سفاحا لإدخال دمهم (الشريف المدني) في دم الشعب التركي (الفاسد) لإصلاحه<sup>(2)</sup> وتحسين نسلهم إستجابة لدعوة أتاتورك.

- ومما يندى له الجبين أن المجد العسكري الذي صار إليه أتاتورك بسبب إنتصاره على اليونان حتى لقب على إثر ذلك بالغازي إنما كان الدين وحده فيه هو الذي ألهب حماس الجيش المنتصر، ولا أدل على هذا مما ذكرناه في الأوضاع الثقافية من أن الحركة السنوسية وعلى رأسها الشيخ السنوسي نفسه شاركت في تلك الحرب اليونانية وقامت بدور جبار في التعبئة والنصر. ويزيد الأمر يقينا ما ذكره صاحب " الرجل الصنم" أن أتاتورك في الأيام الأولى من حرب الإستقلال، كان الشعار الذي إتخذه والمحاربون معه: " أن الكفار قادمون وسيجبرونكم على لبس القبعة وسيدوسون على القرآن وسيعدون على أعراض زوجاتكم وأمهاتكم وبناتكم"، ولكن أتاتورك لم يأت إلى قيادة الحركة إلا لتطبيق هذه الأهداف<sup>(3)</sup>.

والواقع أن المنطق يقتضي: لا تهديم عوامل النصر وأسسها بل تعميقها لإعطاء الدفع الحضاري من جديد للأمة. ولكنه لما كان الغرض هو الزعامة والتهديم وتزيم أمة يكاملها من إمبراطورية شاسعة الأطراف تغلغت في قلب أوروبا إلى دويلة متفوقة يتخطفها الطير، فقد فعل أتاتورك ما ذكرنا. ويصدق هنا تحليل توينبي ونقده لمتل هذه الحركات الرجعية فيقول: " على أن كل هذه البلاد التي نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الغرب السياسية قد إستغللت حريتها على نحو غير متوقع على الإطلاق. فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شديد ضد السيطرة السياسية للغرب فنجحت. ولقد كان من المتوقع بعد أن تمكنت من أن تتحرر سياسيا من الغرب أن تستخدم هذه الحرية الجديدة التي إكتسبتها في النضال ضد المدنية الغربية بوجه عام ... ولكن الذي حدث في جميع الحالات تقريبا، كما نعلم، هو أن البلاد التي تحررت حديثا قد إستخدمت حريتها للغرض العكسي تماما .... وقد فعلت ذلك بحماسة، وبلغت حماستها هذه حدا لم يكن الحكام الغربيون السابقون يجرؤون على أن يفرضوا به المدنية الغربية عليهم"<sup>(4)</sup>.

- علمت تركيا بحجة التطور ولكن الذي حدث هو العكس كما ذكرنا قبلا. فكل ما تحقق هو تقليد تركيا للمظاهر السطحية للحضارة الغربية الذي لا يقدم ولا يؤخر، والتعمق في أخذ سلبيات تلك

(1) مصطفى صري، الفكر على منكري النعمة، همامس ص 174 ، 176 ، 178 - عن يوسف الرضائي، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، همامس ص 132 ، 133 .

(2) المرجع نفسه، ص 134 .

(3) الرجل الصنم.

(4) محاضرات لرنولد توينبي (36) عن يوسف الرضائي، المرجع السابق، ص 137 ، 138 .

الحضارة. ففصلت تركيا عن ماضيها القريب وراثتها العلمي الزاخر الذي أنتجته الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة، وفصلت تركيا قائدة العالم الإسلامي بالأمس عن العالم الإسلامي. وأحدثت فجوة وإنفصالاً بين رجال الحكم والتوجيه وبين الشعب المسلم القوي الذي كُهِلَ قلوب العالم مهابة وإجلالاً، وإستطاع أن يقف في وجه أوروبا وغاراتها الساحقة ومؤامراتها المستمرة التي لم تنقطع يوماً واحداً، والتي لا قبل لأمة عادية بها. فأحدثت اللاتكزية إضطراباً في المجتمع وقتوراً في تجاوب الشعب مع القادة وظلت الحكومات المختلفة تعمل بلا هوادة على كبت الشعور الديني وتحويل الأمة إلى المادية - بل إلى الجوع - والقومية والتفريب. ولما لم يستجيب الشعب سلطت عليه الوحشية والقسوة والقمع والتكبل والتقتيل، ذهب ضحيتها رجال عظام، منهم عدنان مندريس - الذي أعاد الأذان باللغة العربية-<sup>(1)</sup>.

زعيم الحزب الديمقراطي الذي حكم تركيا، وأزيل بتدخل الجيش<sup>(2)</sup> سنة 1960م، وشنق عدنان مندريس سنة 1961م لا لذنوب سوى أنه يقول "ربي الله"، وظل الصراع إلى اليوم بين شعب مسلم وقادة لاتكزية<sup>(3)</sup>. بل نجد أن اللاتكزية في تركيا كان من نتائجها الطائفية والعرقية وعدم الإستقرار، وها هي تركيا تعاني مشكلة الأكراد وأعمال العنف المستمرة؛ لأنه عندما كانت مسلمة كانت جميع الأعراف تعيش متحابّة متجانسة، فلما أصبحت قومية صار من حق جميع القوميات عدم الخضوع للقومية التورانية. وهكذا أصبح الغرب يلعب بالجميع ويتحكم في الجميع ليضرب الجميع.

وهذا يوصلنا إلى نتيجة مهمة تعد إحدى نتائج العثمانية. هي تحويل نظرة الشعوب الإسلامية من التفكير في مواجهة العدو الخارجي المتربص بها إلى الصراع الداخلي المستمر الذي ينقل كاهل الأمة والدولة ويعوقها عن أي تقدم منشود، كما يحولها من النظرة الحضارية الشمولية إلى النظرة الطائفية العنصرية الضيقة مما يمزق الأمة ويفتتها بإستمرار. وهو إتجاه عكس الحضارة التي تعمل على ضم آخرين إليها وإحتواءهم فيها لا على فقدان رعاياها وتمزيقهم بالصراعات والحروب.

وخلاصة هذا أنه أينما حلت اللاتكزية أنتجت الطائفية والعرقية وعدم الإستقرار والقمع، وإذن فهناك علاقة تلازم بين اللاتكزية والطائفية، وبين اللاتكزية والدكتاتورية. ولا أدل على هذا من أن جميع الأقطار الإسلامية التي فرضت عليها اللاتكزية إنما فرضت بالحديد والنار ولا تزال. مما يبين التناقض التام بين اللاتكزية والديمقراطية. كما أن إستخدام أتاتورك الجيش لمحاربة الإسلام وفرض اللاتكزية بالقوة الغاشمة سيظل سمة متبعة عند جميع الأنظمة اللاتكزية في العالم الإسلامي والعربي مما جعلها هي في واد وشعوبها في واد آخر. مما يعني أن اللاتكزية تنتج الإنفصام بين الحكام المستبدين اللاتكزيين وشعوبهم الإسلامية المقهورة، مما يعني إستعمارهم لشعوبهم وسياساتهم بأبشع مما كان يسوسهم الإستعمار.

<sup>(1)</sup> وذكر أستاذنا التركي فكري طونا أن الناس عندما سمعوا الأذان لأول مرة باللغة العربية توقفوا لحناً في الشوارع والمعرات تنهمر من عيونهم دموعاً وأحزاناً، وهو مما يدل على قسوة

الإسلام في نفوس الأتراك رغم ما تعرضوا له وبمعرضه من لعن وإرهاب من طرف الجيش التركي.

<sup>(2)</sup> ويبدو أن جنرالات تركيا لا شغل لهم سوى تحطيم الإسلام وقمع المسلمين، ومن فضائحهم في سنة 1999 أنهم منعوا مسلمة تركية متحجة من دخول البرلمان بعد إباحتها في الإبتخابات البرلمانية، واشترطوا عليها أن ترفع حمارها ولا ترضت سحرها منها الجنسية التركية، وهذا في الوقت الذي كان اليونان يهدد في تركيا ومضامنها في بحر إيجه، وكان هذا ليس من مهمات الجيش.

<sup>(3)</sup> أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص 43، وهاشم ص 43.

- اللانكيون الأتراك إقتصر دورهم في إقتباس الحضارة الغربية على التقليد الأعمى الخالي من الأصالة والإبتكاء ومن كل إنتاج محترم، فكان دورهم مجرد نور الإستيراد والإستعارة، ولم ينبغ منهم في هذه الفترة نابغة في العلوم التكنولوجية ولا في العلوم والآداب ولا ظهر مؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة مما جعل تركيا تظل شعبا متوسطيا يعيش على هامش الشعوب الأوروبية بعد أن كان زعيما للمسلمين أجمعين<sup>(1)</sup>.

- حطموا الإسلام، بحجة تجاوز العصر له، ولكن ليقبموا دينا جديدا بدله. حيث أبعدوا الناس عن عبادة الله ليحولهم إلى عبادة أتاتورك. ولا زال إلى الآن القانون التركي يعاقب أشد العقوبات كل من يسب كمال أتاتورك أو يتهم به، بل أصبحت العلمانية هي دين تركيا الجديد. ولا أدلى على هذا مما هو منصوص في دستور تركيا. وبناء عليه ما تم في شهر جانفي 1998م من حل حزب الرفساء الإسلامي، وكانت حيثيات الحكم أنه يتناقض مع اللائكية.

ويمكن أن نلخص الوضعية التي تبوأها تركيا باللائكية فيما يأتي:

- لقد أصبحت تركيا باللائكية : مطارات وقواعد عسكرية أمريكية ويهودية لضرب المسلمين، وسوقا أوروبا وأتركا مستعبدين رغما عنهم لأرباب المال والسلطة، وأنه بعد أن كان الأتراك قادة العالم تأتيهم الخبرات من كل فج عميق أصبحوا متوقعين جانعين داخل حدود ضيقة يتخطفهم الطير من كل حدب وصوب. وهكذا إنضم أحفاد أتاتورك إلى الحلف الأطلسي الذي رغم ذلك الإنضمام رفض الوقوف معهم في حربهم ضد اليونان. ويتبنون النظام الرأسمالي في الإقتصاد والديكتاتوري في السياسة ويؤيدون فرنسا في إستعمارها للجزائر أثناء حرب التحرير 1954 ولم يتراجعوا إلا بعد زيارة رئيسهم لليبيا أثناء الحكومة المؤقتة الجزائرية ولا يجد أي مستقبل له في شوارع ليبيا من الليبية ويستفسر عن ذلك فيجاب بأن ذلك إنما هو بسبب موقف تركيا من الإستعمار الفرنسي في الجزائر<sup>(2)</sup>. وهذا في حين ظلت دولة الخلافة ثلاثة قرون وربع في دفاع مشترك مع الجزائر على بيضة العروبة والإسلام.

- أحفاد أتاتورك اليوم ضد العروبة والإسلام وضد العرب وضد القضية الفلسطينية ومعترفون بالكيبان الصهيوني، ويتعاملون معها ولهم إتفاقيات عسكرية معها تبيح لهم تركيا بموجبها إستعمال مطاراتها وأراضيها لضرب المسلمين والعرب، ولا سيما إيران والعراق وسوريا، وأصبحت تركيا تهديدا مباشرا لهذه الدول وتعتدي عليهم عسكريا بين الفينة والأخرى، كما إستعمل ويستعمل أراضيها ومطاراتها أمريكيا والحلف الأطلسي واليهود لضرب إيران والعراق وتهديد سوريا. هؤلاء اليهود الذين رفض خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله أن يسلم لهم فلسطين ليتخذوها وطنا قوميا لهم رغم محاولات الإغراء الكثيرة والأموال الباهضة التي قرروا تقديمها له في حالة الموافقة. بل كان يرى ضرورة عدم توطين مهاجرين يهود في فلسطين حتى يبقى العنصر العربي المسلم محافظا على ثقوه الطبيعي. وأدرك أنه لو سمح لليهود بالإستيطان في فلسطين فإنهم يستطيعون في وقت قصير جدا أن يجمعوا في أيديهم

(1) أبو الحسن الندوي، المرجع السابق، ص 43، 44.

(2) أحمد بولوق اللحية، مجلة الأسملة، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، العدد الخامس والذكرى العاشرة لإستقلال الجزائر.

وسائل القوة ويكونون دولة يهودية، وفي هذه الحالة - يقول السلطان عبد الحميد - : " نكون قُبد وقعننا فرارا بالموت على إخواننا في الدين " ويقصد الفلسطينيين. وقال هرتزل : إنه يفقد الأمل في تحقيق آمالي اليهود في فلسطين وأنهم لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة طالما أن السلطان عبد الحميد قائما في الحكم مستمرا فيه. أما السلطان عبد الحميد فقد قال عن هرتزل وزمرته من اليهود الذين حاولوا إغراءه بإعطائهم فلسطين: "إنهم لسذج إذا تصوروا أنني سأقبل محاولاتهم هذه... إن هرتزل يريد أرضا لإخوانه في دينه، لكن الذكاء ليس كافيا لحل كل شيء" وقال أيضا عن القدس : " لماذا نترك القدس؟... إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية، لابد أن تظل القدس لنا"<sup>(1)</sup>.

وهكذا يظهر الفرق واضحاً بين اللاتكية والإسلام. وكيف أن اللاتكية إحدى أخطر أسلحة التبشير والإستعمار لتحتطيم المسلمين وأخذ أراضيهم وثرواتهم ومسجدهم حضارياً ليصبحوا موجوداً بدون كيان. وهكذا نتج عن العلمانية فقدان تركيا لهويتها وطابعها إلى اليوم، فلا هي بالشرقية ولا هي بالغربية يجعلها الغرب غريبة في اللحظة التي يريد أن يحرضها على الإمعان في البعد عن الإسلام والجماعات الإسلامية وفي مقدمتها الشعوب العربية؛ لأنه نزل بلغتها القرآن - ولأنها تمثل عمق الإسلام وروحه، إذ فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة ورمز وحدة المسلمين الذين يتجهون إلى الكعبة في جميع صلواتهم ويشدون إليها الرحال في حجهم وإعتماهم وزيارة قبر نبيهم وموطن أول دولة إسلامية أقامها لهم - ويجعلها شرقية يوم يتحدث عن حضارتها المعاصرة بأنها حضارة مستعارة من الغرب ليس فيها سوى التقليد الأعمى.

وهكذا نجد أن تركيا الحديثة مظهر تجديدها، إلغاء الدين الإسلامي وفقدان شخصيتها وتبعيتها تبعية مطلقة في السياسة والتوجيه والاقتصاد للغرب الصليبي<sup>(2)</sup>. الذي لا زال يعبت بها دون أن يعطيها شيئاً، ولا أدل على هذا من أنه قبلها في الحلف الأطلسي ليستخدم أرضها وجيشها في ضرب العرب والمسلمين دون الدفاع عن أراضيها بدليل أنها عندما دخلت في حرب ضد اليونان وطابت المساعدة من الحلف رفض مع أنها تنتمي إليه.

ولكنه رفضها في الإتحاد الأوروبي، وقد برر الغرب رفضه لها بوضوح تام : هو أن قيمها تختلف عن قيم الدول الأوروبية. أي أنها مسلمة وأوروبا نصرانية. هذه هي العلمانية وهذه نتائجها. والنتيجة التي نتوصل إليها من كل ما سبق من خلال دراستنا للاتكية في مصر وتركيا أنها فرضت على كل منهما بالقوة، ومن طرف الإستعمار الغربي، وإن كان تأثيرها في تركيا أشد فتكا من مصر. والسبب نظرنا هو وجود الأزهر واللغة العربية. والهدف الأساسي منها مسخ الشعوب الإسلامية وإفقادها لهويتها. وهذا هو الإستعمار الجديد.

إذا كان ما سبق هو ما حدث في كل من مصر وتركيا، فكيف دخلت العلمانية إلى الجزائر؟

(1) السلطان عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد، وتقدم محمد حرب عبد الحميد، ص 11، 12 .

(2) محمد بهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي، ص 393.



## المبحث الرابع

### ظهور العلمانية في الجزائر

لقد رأينا فيما سبق أن اللاتكنية فرضت على الشعوب العربية و الإسلامية بالقوة سواء في مصر أو في تركيا. والذي فرضها دائما إنما هو الإستعمار، سواء في مصر بعد إحتلالها من طرف الإنجليز أو في تركيا بعد المؤامرات التي أوصلت أتاتورك صنيعة الغرب الصليبي اليهودي إلى سدة الحكم.

ولقد ساعد في تغلغل اللاتكنية بعض أبناء البلاد في كلا القطرين سواء من الذين مسخهم الإستعمار الغربي في مدارسه ونواديه أو كانوا من النصاري الذين يحسون بإنتمائهم الحضاري للغرب النصراني لا للشرق المسلم.

أما الجزائر فتختلف عن هذين القطرين في أنها كانت أول بلد إسلامي في التاريخ أجبر على اللاتكنية وإبعاد الإسلام عن قيادة الحياة بالقسر الإستعماري المحض، بحيث لم نجد أي واحد من أبناء البلد دعا إليها أو أشار إليها حتى مجرد إشارة في كتاباته أو خطبه، بل الذي نجده هو مقاومة أهل البلاد للاتكنية حيث ادركوا من أول وهلة خطرها فسي تمسيخهم وتدجينهم والقضاء على مميزات شخصيتهم وخصوصيتها، ولم يظهر منهم من يدعو إليها إلا بعد أن بدأت المدارس الفرنسية تخرج منتوجاتها ، فظهر ما يسمى بالنخبة التي صار قسم منها يدعون إلى الذوبان والثلاشي في فرنسا والإنسلاخ الكلي عن الشخصية الوطنية، وهم دعاة الإندماج والتجنيس.

وإذا كانت الجزائر تمتاز عن مصر وتركيا بما سبق، فإنها أيضا أول بلد إسلامي فرضت عليه اللاتكنية زمنيا. حيث تم ذلك في سنة 1830م بينما تم في مصر في سنة 1883م، وفي تركيا في سنة 1924م كما ذكرنا. وهذا يدعونا إلى الحديث عن كيفية إجبار الجزائريين على اللاتكنية.

## المطلب الأول

### كفية إخبار الجزائريين على اللائكية

لقد ذكرنا في العلاقة بين التبشير والاستعمار أن أول عمل قامت به إدارة الإحتلال بعد إحتلالها للجزائر العاصمة إنما هو الأخذ في تحطيم البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وذلك بعد تحطيمها للبنية السياسية مباشرة، وذكرنا أنها حصلت القسيس كومان ليكون رئيسا للمرشدين العسكريين وقائدا روحيا للحملة إضافة إلى 15 قسيسا أحدهم سوريا الجنسية. وكانت أعمالهم بعد الإحتفال الديني الضخم الذي أقاموه في القصبه إحتفالا بعودة النصرانية إلى ديارها حسب زعمهم تتمثل فيما ذكرناه، ومنه :

- تدمير العمران أو محو الطابع الإسلامي المميز لمدينة الجزائر  
- تدمير المؤسسات الدينية وتحويل بعضها إلى كنائس وثكنات وأغراض أخرى ومن تلك المؤسسات كمل  
ذكرنا في العلاقة بين التبشير والاستعمار:

- المساجد والزوايا والمدارس والمكتبات وإتلاف المخطوطات  
- مصادرة الأوقاف والأموال الأخرى وتحويلها نهائيا عن أغراضها الإسلامية لصالح الاستعمار.  
فحطموا بذلك البنية الاقتصادية الإسلامية، وحولوا الإقتصاد من الحبوب والغلال إلى الخمر، وحولوا السكان من ملاك أغنياء إلى أجراء فقراء. وذكرنا أن القضاء على الإقتصاد يعني القضاء على الأساس المادي للإسلام وإضعافه في النفوس، وذلك في الوقت الذي كانت تقوى فيه الكنيسة بتحويل ما تربيده من هذه المؤسسات إلى منكنيتها.

- القضاء على التعليم الإسلامي العربي وإنتهاج سياسة الفرنسية والتجهيل، وهو ما سوف نبيّنه .  
- التتكيل بالعلماء من أئمة وقضاة ومفتين، وقد ذكرنا ما وقع لابن العنابي الذي نكل به الجنرال كلوزيل وأهينت أسرته، بجميع الإهانات، بحجة أنها كانت تدبر مؤامرة وكان النساء والأطفال قادرين على ذلك<sup>(1)</sup>.

- ومعنى هذا أن المؤسسات الدينية وعلماء الإسلام جردت من وظائفها الدينية وعطلت مما أخلت الساحة للقوانين الوضعية الفرنسية.

- ولكي يكون العمل متكاملا، فإن سلطان الإحتلال بعد تحطيمها للمؤسسات الدينية الإسلامية والتتكيل بمغالبها إنتقلت إلى المرحلة الموالية لذلك، وهي:

إزالة القضاء الإسلامي وتعويضه بالفرنسي: وأول من أخذ في تنفيذ هذا، هو الجنرال كلوزيل الذي عين قائدا للحملة بدل المارشال بورمون، فكان أول عمل قام به في الجزائر، هو :

إلغاء المحكمة الحنفية بالجزائر: وذلك في الوقت الذي أقر فيه محكمة اليهود. مع أن إلغاءها منافع لثرتيات القوانين التي كان معمولا بها في الجزائر، ومنافع لمبادئ معاهدة الإستسلام. فالغيت هذه المحكمة بقرار أصدره في 22 أكتوبر 1830م تنص المادة الأولى منه على أن جميع دعاوى المسلمين

في الميدان الجنائي والمدني ترفع إلى القاضي العربي المالكي فيها وفقا للتشريعة التي كان معمولا بها. وعندما يكون محتاجا إلى المفتي أو القاضي الحنفي فإن هذا الأخير لا يكون له إلا صوت استشاري؛ لأن القرار من إختصاص القاضي العربي وحده.

أما المادة الثانية منه فإنها تقرر أن جميع دعاوى اليهود في الميدانين الجنائي والمدني ترفع إلى محكمة تتكون من ثلاثة ربابنة ينظر فيها بكل حرية وفقا للعرف والتقاليد اليهودية<sup>(1)</sup>.

ومن أعراض إلغاء المحكمة الحنفية : تضيق طرق الوقف والحبوس. ذلك أن الفقه الحنفي يوسع طرقه بينما يضيقها الفقه المالكي في بعض الحالات. ومن الأمثلة على هذا فإن الوقف أو الهبة حسب الفقه المالكي يجب أن تكون في حينها وبدون أي تعييد، ومن ذلك فالذي يهب ملكا لمسجد أو غيره ويشترط أن يكون ذلك بعد وفاته فإن الفقه المالكي لا يقبل هذا النوع، بينما القضاء الحنفي يقبله. بحيث يتمتع المسالك بملكه طيلة حياته، وبعد وفاته يصبح ذلك الملك وقفا. ولهذا فإن المالكيين أنفسهم عندما كانوا يهبون مثل هذه الأنواع كانوا يتجهون إلى القضاء الحنفي لكي يكون إنتفاع الفقراء أكبر.

وهذا هو السبب الذي أدى إلى ضرورة إبقاء محكمتين وقاضيين. فعندما ألغيت المحكمة الحنفية فإن كثيرا من طرفه الوقف التي يجيزها الفقه الحنفي دون المالكي توقفت مما جعل الفقراء يتضررون كثيرا. وعلى ذكر الوقف فإن فرنسا إضافة إلى إلغائها المحكمة الحنفية فإنها أيضا غيرت قوانين وشروط الوقف التي من بينها أن وكيل أو مدير المؤسسات الخيرية يجب أن يكون مسلما، ويعينه الحاكم الذي يجب أن يكون مسلما، ويساعد هذا الوكيل جماعة من الجباة والموتقين بجميع حقوق الإنتفاع وتوزيعها وفقا للترتيب القانونية. فعمدت فرنسا إلى تغيير قوانين الوقف وطرق توزيع نتائجها ثم مصادرتها. وكلوزيل هو الذي ألغى الأوقاف بعد مصادرتها لها<sup>(2)</sup>. وذلك بقرار أصدره بتاريخ 1830/12/07م يقضي بالإستيلاء على أوقاف المسلمين في الجزائر لفائدة المعمرين الأجانب الراغبين في الإستيطان. ولقد بلغت هذه الأوقاف قبل الإحتلال مليونين من الهكتارات من أحسن الأراضي<sup>(3)</sup>.

وكان من أعراض الأوقاف : تخفيف آلام الفقراء ومساعدتهم، والحد من ظاهرة الإجرام الناتج عن الفاقة. وكان من أعراض فرنسا في إبتلاع الأوقاف:

زيادة الآلام وزيادة الإجرام<sup>(4)</sup>. وليصبح الشعب الجزائري تربة خصبة للمبشرين.

وكانت الخطوة الموالية :

**علمنة البربر قسرا:** وذلك في إطار سياسة فرق تسد. وقد ذكرنا في العلاقة بين التبشير والإستعمار أن الإستعمار عمل على بث النزعة العنصرية وسط السكان. وأشرنا إلى البيانات التي وزعتها فرنسا لهذا الغرض، كما بينا أثناء حديثنا عن لافيغري كيف ركز على بلاد القبائل وعمل على تنصيرهم. وكان ذلك

(1) المصدر نفسه، ص 241 - 243.

(2) المصدر نفسه، ص 269 - 274.

(3) عهد الصغر بملام، المسلك الدين في الجزائر خلال عشر سنوات، وأبحاث وحقوق، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ع 8، ص 243 ، 244.

(4) حديث عروبة المرأة، ص 274 .

من أهلك أسباب ثورة المقرانيين. وقد تعاون في هذه السياسة رجال الجيش والإستشراق والتبشير، وعمل الفرنسيون بمختلف أطرافهم وأجهزتهم على فصل المناطق التي تتحدث بالقبائلية عن بقية السكان بدعوى أن الجزائر مكونة من عنصرين مختلفين هما العرب والبربر، وزعموا أن البربر ليسوا عربا، وأن الإسلام لم يبلغ إلى قلوبهم، وأن معرفتهم به سطحية<sup>(1)</sup>. بل ذهبوا إلى أبعد من هذا لزرع الخلاف بين العرب والبربر، فزعموا أن أصل البربر من سلالة أوروبية وأن لغتهم غير عربية، بل ذهب فيكتور بيكه Victor Piqued في كتابه "مراكش" "Le Maroc" الذي ظهر في سنة 1818م<sup>(2)</sup> إلى "أن البربر كان منهم مجوس ووثيون ويهود. وفي صدر النصرانية قبلوا الدين المسيحي لكنهم نسوه عندما تمكنوا من الإستقلال<sup>(3)</sup>. ثم دانوا بالإسلام الذي ببساطة قواعد يستميل العقل ويرسخ في جميع الأمم التي تدين به" ثم قال: "إن البربر أسلموا إسلاما لا يزال مشوبا بأحوال وأوضاع خاصة بهم" ثم قال: "إن العالم الإختصاصي في أمور البربر المسبو "دوته" الذي جال بين قبائل البربر نوه بمحاسن وسجايا هذا الشعب البربري، وقال: إن به مناط الأمال في شمال إفريقيا"، ثم قال: "إنه شعب يظهر عليه الميل من نفسه إلى المدنية الفرنسية"<sup>(4)</sup>.

هذه الإقتراءات كلها وغيرها غرضها الوصول إلى الإدعاء بأنهم أميل إلى التحاكم إلى أعرافهم الخاصة التي يفضلونها على التحاكم إلى الشريعة الإسلامية في أمور الزواج والطلاق والميراث<sup>(5)</sup>. (الأحوال الشخصية). وهنا نشير إلى أن قضية تخلي الجزائريين عن الأحوال الشخصية الإسلامية إنما هو قضية فرنسية محضة. ظلت مطروحة ومفروضة بالقهر كما سنشير ثم تلقفها من الإستعمار دعاة الإندماج والتجنيس، وتبناها اليوم الحركة البربرية.

ولكي تحقق فرنسا هدفها بمحو قانون الشخصية الإسلامي من القطر كله، بدأت بالبربر للمبررات المختلفة السابقة. فأصدرت فرنسا في 21 ديسمبر 1859م قانونا يخرج بربر بلاد القبائل من أحكام الشريعة الإسلامية، بحجة كاذبة مفادها أنهم يريدون التفاضل إلى أعرافهم الجاهلية التي ينفذها رجال الجماعة وحدهم<sup>(6)</sup>. والهدف من ذلك هو تنصير البربر وزرع الشقاق بينهم وبين بقية السكان وإبعاد الإسلام من الحياة نهائيا وجعلهم زناة وأبناءهم لقطاء قسرا. ذلك أن أي علاقة جنسية بين المسلم والمسلمة لا يتم في إطار أحكام الشريعة الإسلامية بعد زنا. وهو ما جعل سكان هذه المناطق يظلون ملتزمين بالشريعة الإسلامية، حيث كان يقوم بإجراءات الزواج والطلاق والميراث شيخ الجامع رغم أنف فرنسا، ومهما يكن فإنه بموجب هذا القانون ألغيت المحاكم الشرعية الإسلامية في بلاد القبائل واستبدلت بمحاكم عرفية

(1) وابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط3، ص. و. ن. ت، الجزائر، 1985، ص 45.

(2) وهذا بين بوضوح كيف كانت فرنسا تحط للقبية البربرية قبل احتلالها لأنظار المغرب العربي.

(3) وهذا يعني بوضوح أن النصرانية دين إستعماري مما جعل السكان يتسلخون منها لحظة إنسلاخهم من الإستعمار، وهكذا شهد شاهد من أهلها.

(4) هكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلام (الجزائر وقبائل البربر)، ص 2، ص 180.

(5) وابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 45.

(6) أحمد توفيق الدين، كتاب الجزائر، ط 2 (ط 1، 1931م)، دار الكتاب، البلدة، 1963م، ص 320، 321.

وثنية<sup>(1)</sup>. بدعوى أن البربر يريدون الإحتكام إلى العرف أي إلى قوانينهم العرقية التقليدية لا إلى القرآن الكريم. وهي دعوى باطلة كان أهل جرجرة وغيرهم من القبائل الكبرى أول من فندها ونقم عليها<sup>(2)</sup>. وقد بعث أعيان زواوة وعلماؤها برسالة إحتجاج على هذا، وطالبوا بالرجوع إلى الشريعة الإسلامية<sup>(3)</sup>.

والواقع أن البربر من أحسن الناس إسلاما وأقواهم إيمانا. وكانوا منذ الفتح الإسلامي حتى تلك السنة المظلمة يتقاضون إلى قاضيهم الإسلامي ولا يجدون في أنفسهم جرحا مما قضى، وإن كانت بعض الشواذ منهم، وقليل ما هم. لا تورث المرأة أصلا وإن كانت تعترف لها بذلك الحق<sup>(4)</sup>. وقد تمكن الورثيلاني (ت1193 هـ / 1779م) من إقناع أولئك بإرجاع هذا الحق للمرأة وقد أرجعوه لها بالفعل<sup>(5)</sup>.

ولا أدل على شدة تمسك البربر بقانون الأحوال الشخصية الإسلامي من أن القانون السابق ذكره كان من أهم أسباب ثورة المقراني في سنة 1871م. وبعد تمكن فرنسا من إخضاع هذه الثورة بقتل ما يزيد على 60 ألف جزائري ألغت فرنسا المحاكم العرقية البربرية<sup>(6)</sup>. أي تزعت القضاء من الجماعة وجعلته بين قضاة الصلح الفرنسيين وحدهم، ودعمت كل واحد منهم بموظف مسلم سمته "القاضي الموثق" وهو لا يحكم. ولكنه فقط يسجل الوثائق العامة في المعاملات إلى جانب شهودها الفرنسيين (النوثيرات). وبذلك إنتقلت فرنسا إلى المرحلة التي كانت تخطط لها. فأحلت محل تلك المحاكم العرقية محاكم فرنسية خاصة تحكم فيما يتعلق بالأحوال الشخصية بين سكان هذه المناطق المسلمين حسب القانون المدني الفرنسي، وذلك طبقا لقرار 29 ديسمبر 1874م الذي ألغت بموجبه كل القضاة المسلمين الذين عينتهم قبلا في بلاد القبائل، فأزالت بذلك القضاة الإسلامي نهائيا. ولم يبق بها من المسلمين سوى القاضي الموثق الذي تتحصر مهمته كما قلنا في تنفيذ الأحكام التي تصدرها المحاكم الفرنسية وتحرير العقود بين المسلمين وتوزيع التركات على مستحقيها.

ولكي تستوي الطبخة تماما فقد أكملت في 18 أبريل 1882م بصدر قانون نزع السلطة التنفيذية من مجالس الجماعة وإسنادها إلى القضاة الموثقين الذين إتخذت فرنسا لكل واحد منهم نائبا<sup>(7)</sup>. وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى خطة القاضي الموثق التي أنشأتها فرنسا في بلاد القبائل لمحو شريعة القرآن نهائيا وإحلال شريعة الإستعمار.

**القاضي الموثق:** وهو قاضي لا يحكم بين الناس. وإنما يسجل فقط الوثائق العامة المختصة بالمعاملات. فهو عبارة عن عدل لا غير. ثم هو يقوم بتنفيذ الأحكام التي تصدرها المحاكم الفرنسية<sup>(8)</sup>. وأصبحت

(1) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 46.

(2) أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، ص 85، 86.

(3) راجد لادبا، نسخة مصورة من رسالة الإحتجاج التي بعثوا بها.

(4) أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، ص 85، 86.

(5) فورثيلان الحسين بن محمد، الرحلة الورثيلانية، ص \*\*\*\*\*

(6) فكيب أرسلان، المرجع السابق، ص 180، أيضا رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 47.

(7) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 320، 321.

(8) أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، ص 85، 86.

المدارس الإسلامية الفرنسية الثلاث التي أسستها فرنسا والتي سوف نتحدث عنها أثناء حديثنا عن الفرنسية، تخرج هذا النوع من العدول.

وبذلك اكتملت العملية. وهنا نلاحظ شيئا مهما، هو أن الإستعمار لا يركز على الجانب التنظيري وحده أو التسييري وحده، بل يسن القانون وينشئ له من يطبقه ويوفر له ظروف التطبيق. وهذا أحد أسباب تمكن الإستعمار من تحقيق أطماعه وأهدافه القريبة والبعيد. ويبين هذا بدقة الشروط التي أوجبت فرنسا توفرها في القاضي الموثق. فمنها وفقا لقرار أول ماي 1926م:

1- أن يكون متحصلا على الإجازة العليا من المدرسة الثعالبية.

2- أن يكون متحصلا على إجازة اللغة البربرية، أو <sup>أو</sup> <sup>يُمكن</sup> <sup>قَبْل</sup> <sup>تعيينه</sup> فيها .

هذا القاضي الموثق يقوم بكل أعمال القضاة ولكنه ليس له الحق في الحكم الذي هو من إختصاص قضاة الصلح الفرنسيين.

والوالي العام هو الذي يعين القضاة الموثقين، كما أنه هو الذي يعين نائب القاضي الموثق الذي من الشروط الواجب توفرها فيه :

1- يجب أن يكون حاصلا على الشهادة الابتدائية من المدرسة الفرنسية.

2- يجب أن يكون حاصلا على شهادة تعلم اللغة البربرية.

ومع هذه الشروط فإن القاضي الموثق كما ذكرنا ليس له أي نفوذ حكمي، بل ليس له أي حكم، فضلا عن نائبه. ولكي تجعل فرنسا القاضي الموثق في غاية الفساد، فإنها لم تخصص له مرتبا حكوميا رغم أن الوالي العام هو الذي يعينه. بل جعلته يأخذ أجرته من الزبائن حسب تعريفه خاصة<sup>(1)</sup>.

وهنا نقدم ملاحظة مهمة تتمثل في ربط الإستعمار بين القاضي الموثق ونائبه وبين الفرادة البربرية لإنشائها وتكريسها وإظهار التمايز بين العرب والبربر، رغم أن بعض المناطق التي اخضعت لنظام القاضي الموثق لا يوجد بها بربر كعين بسام مثلا.

ولكي يتم لفرنسا تحقيق هذا فقد دعمته بوسائل أخرى تتمثل في محاربة اللغة العربية في هذه المناطق بكل قوة للحيلولة بينهم وبين القرآن الكريم. وقررت سياسة خاصة بها، ومنعت التكلم فيها بغير الفرنسية والقبائلية. وحظرت على العلماء المسلمين إرتياد هذه المناطق - وهو ما فعلته بريطانيا في جنوب السودان- لتعليم أهلها القرآن والإسلام، وذلك لقطع صلتهم بالعربية وكل ما يتصل بها حتى القرآن الكريم<sup>(2)</sup>. كما نشط رجال التبشير في إقامة المدارس والمستشفيات ومراكز التبشير. ومن خلال كل هذا كانوا يبثون وسط السكان فكرة عدم صلاحية الشريعة الإسلامية وضرورة إستبدالها بالقانون المدني الفرنسي.

ومهما يكن من أمر، فإنه بعد تأسيس " القاضي الموثق " أصبحت مراكز قضاة التوثيق كما يأتي :

1- في دائرة الجزائر: بويرة، باليسترو (الأخضرية)، عين بسام.

(1) أحمد توبين المدين، كتاب الجزائر، ص 322.

(2) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 47، أيضا : شكيب كرسلان، المرجع السابق، ص 180.

2- في دائرة تيزي وزو : تيزي وزو، برج منايل، ذراع الميزان، فورناسيونال، ميشلي، العزازقة، أرفون، نلس .

3- في دائرة سطيف: عين الكبيرة ، المنصورة

4- في دائرة بجاية : بجاية ، اقبو، جيجل ، القصر ، لافايت ( قرقور )، خراطمة، سيدي عيش، أبنى واغليس الطاهير .

ونلاحظ أن الناطقين بالعربية في بعض هذه المناطق كالأخضرية أكثر من الناطقين بالقبائلية وفي بعضها الآخر عرب صرف كعين بسام ومع ذلك إعتبرت بربرية لتجبر على التخلي عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي- ولما إحتج السكان العرب على ذلك قيل لهم بأن جدكم الأعلى أوصى بأن المرأة لا تورث، فالميراث من الشاشية إلى الشاشية وإن عدت الشاشية إلى الدولة، والهدف من هذا ضرب القضاء الإسلامي<sup>(1)</sup>. بهدف الإستعمار والتبشير.

موقف القبائل من علمنتهم : وهنا نقدم ملاحظة مهمة جدا في نظرنا، هي أنه رغم إجبار القبائل على عدم التقاضي بالشريعة الإسلامية وإجبارهم على قانون نابليون فإنهم ظلوا متمسكين بها، مطالبين بالتقاضي لها طيلة العهد الإستعماري الذي حرمهم منها. ومن أكبر الأدلة على هذا فإنهم ظلوا متمسكين بها منفيين لها مستبدلين القضاء الفرنسي بالتقاضي إلى شيوخ الزوايا والعلماء والأئمة وفقا لشريعة الإسلامية. وهو ما جعل أنسابهم تظل نقية وفقا لمراد الإسلام. فلا تدنس بسفاح. وظل هذا الإلتزام عند الجميع بما في ذلك بعض الناس الذين يشعوب سلوكهم بعض الإتحراف، وهي التي جعلت الحفاظ على العرض عند القبائلي بحق من أقدس المقدمات. وهو ما تقوم بتكسيه اليوم الحركة البربرية.

ومن أكبر الأدلة أيضا على تمسكهم بشريعة القرآن العريضة التي قدمتها زواوة الكبرى ونشرها العلامة محمد البشير الإبراهيمي بعد أن أرسلها إليه أصحابها في ديسمبر 1948م. فنشر نصها وإمضاءات أصحابها كاملة من رجال زواوة الكبرى يطلبون فيها من الحكومة الفرنسية إلغاء القوانين الخاصة بزواوة في الأحوال الشخصية. تلك القوانين التي تستند على العوائد والأعراف لا على شريعة القرآن. ويطلبون الرجوع إلى الأصل وهو إحكام الشرع الإسلامي في النكاح والطلاق وما يتفرع عنهما، وفي الميراث والوصية والحجر الخ . وهذا بعد أن إعتقد الإستعمار أن النفوس اطمأنت إلى قوانينه. فجاءت هذه العريضة بعد ما يقارب القرن من إجبارهم على ترك الشريعة مجتثة لما غرس الإستعمار من أصله، وأقامت الدليل على أن زواوة معقل من معقل الإسلام والعروية، كانت وما زالت كذلك<sup>(2)</sup>.

والواقع أن ما سبق إنما هو المرحلة الأولى من علمنة المجتمع قسرا. وأما المرحلة الموالية، فهي تعميم للقانون الفرنسي على القطر الجزائري بكامله، فأصبح النظام القضائي كله فرنسيا. فلا يحكم قاضي المسلمين بقطر الجزائر إلا في الأمور المتعلقة بالحالة الشخصية بين المسلمين من قضايا الزواج والطلاق

(1) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 321، أيضا أحمد توفيق المدني: جغرافية النظر الجزائري، ص 85 ، 86.

(2) ولد علي الشيخ الإبراهيمي على هذا بقوله : " جاءت قضية الظهور الجوري بالمغرب الأقصى في وقت إستيقظ فيه الشعور الإسلامي فأقام العالم الإسلامي وأصديه، ولم يسر إلا قليل من الناس أن لذلك الظهور أصلا، وهو "قوانين زواوة البرية" محمد البشير الإبراهيمي، زواوة الكبرية تستمسك بعروة الإسلام الوثني وتطلب الرجوع إلى الأصل، حريصة أصلا، 6 ديسمبر 1948، ص 59.

والنفقة والحضانة والمواريث إلخ أي إن بلاد القبائل أصبح قانونيا لا أثر فيها للأحوال الشخصية الإسلامية، وبأقي الوطن ظلت موجودة بها، ولكن محكمة القاضي هي التي تكتب بها وجوبا سائر العقود الشرعية المتعلقة بتلك المسائل. وتلك المحكمة هي التي تقوم بتنفيذ الأحكام التي تصدرها المحاكم الفرنسية فيما يتعلق بالمسائل المدنية<sup>(1)</sup>. وهذا يعني أن المحكمة الفرنسية تظلم والقاضي المسلم هو الذي ينفذ الظلم. وقد ضم إلى هذا في ذلك القاضي المسلم كل الصفات القبيحة من الظلم والرشوة والإنحراف<sup>(2)</sup>.

وهكذا أصبح القضاء الإسلامي في القطر الجزائري المنكود لا يتجاوز الأنكحة والمواريث وتنفيذ أحكام قضاة الصلح الفرنسيين الذين تمتد أيديهم حتى للبتية الباقية من قضايا الأنكحة والمواريث التي كانت من إختصاص القضاة المسلمين. هذا في الأرض المدنية.

وأما في أراضي الجنوب التي ظلت تن تحت الحكم العسكري، فإنها رغم أنها في ظاهرها أوسع نفوذا في قضائها الإسلامي من الشمال لعدم وجود قاضي الصلح الفرنسي، إلا أنها في واقعها أسوأ مما في الشمال. وذلك لكون القاضي المسلم دائما تحت رحمة الحكم العسكري الذي يتدخل ضباطه الذين هم بجوار القاضي ملازمين له كالتراجم ورؤساء الملحقات في كل صغيرة وكبيرة إلى حد إجباره ليس على الخروج على أحكام الشريعة فحسب، بل حتى في إصدار الحكم في مصلحة أحد الخصمين. وإن لم يخضع تربصوا به الدوائر ولفقوا عليه التقارير فيعزل ويساء إليه.

وقد إزداد هذا القضاء سواها، بل نستطيع القول بأنه تلاشى تماما كواقع، بعد صدور قرار نوفمبر 1944م<sup>(3)</sup> الذي أباح للمحاكم الفرنسية مزاحمة المحاكم الإسلامية في دائرة نفوذها الذي هو أضيق من سم الخياط. وبمقتضى هذا القرار أصبح الناس مخيرين في رفع قضاياهم المتعلقة بالأحوال الشخصية إلى المحاكم الفرنسية أو المحاكم الإسلامية. أما مسائل المعاملات فضلا عن الجنايات فهي من إختصاص المحاكم الفرنسية وحدها، وبهذا لم يبقى للقضاء الإسلامي أي نفوذ. -ناهيك عن الإستئناف الذي لا يتسم إلا في المحاكم الفرنسية- وبهذا أصبحت الديانة الإسلامية كلها تحت رحمة الحكومة؛ لأن شعب الديانة الإسلامية ترجع إلى شعبتين شعبة العبادات وشعبة المعاملات. فالمسلمون لا يصلون وراء من يحبون ولا يحجون كما يريدون، وفي المعاملات لا يتقاضون بالإسلام<sup>(4)</sup>.

ولكي تحقق فرنسا هدفها كاملا، فإنها لم تقتصر على فرض قوانينها بالقوة وحدها، بل لجأت إلى الترغيب بجانب الترهيب، ومن ذلك ما يتمثل في باب:

**التجنيس بالجنسية الفرنسية:** الذي أقرته بقانون أصدرته في سنة 1834م الذي يجعل الجزائري المتجنس بالجنسية الفرنسية مساويا للفرنسي في الحقوق. ولكنهم إشتروا التنازل عن الأحوال الشخصية الإسلامية والخضوع للقانون الفرنسي فيما يتعلق بها. وهنا نشير إلى نقطتين جوهريتين:

(1) أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 84 ، 85.

(2) ويذكر مالك بن نبي مثلا على هذا وهو قاضي الطلمة " القلالي" الذي إشتري أراضي شاسعة بقالة من الرشاوى، ومع ذلك فقد كرم بوسام تقديرا لمجهوداته العظيمة وبزاعته،

ويوم تكريمه سكر حق غلاب عن حسه نحمل إلى سريره بقالة (مالك بن نبي، الطغل، ص \*\*\*\*)

(3) هذا القرار صدر أثناء الحرب العالمية الثانية وفرنسا منهزمة منكسرة، ومع ذلك فإن حقدنا الذين جعلنا تصدر هذا القرار ضد الجزائريين الذين كانوا يملكون عن أراضيها.

(4) جريدة بركوشة، القضاء الإسلامي بالجزائر، جريدة البصائر، 25 جويلية 1947م، ج 1، السلسلة 2، ص 4 ، 5.



**الأولى :** موقف الجزائريين من قانون التجنيس، فقد اعتبروه - وهم محقون - ردة فلم تغرهم مزايا وحقوق المواطنة، ولم يتجنس منذ صدور القانون في سنة 1834م إلى سنة 1865م سوى 2500 شخص، أي بمعدل 36 شخص في السنة<sup>(1)</sup>. وسبب من فرنسا لهذا القانون إعتقادها أن الوسيلة الوحيدة لنزعه فكوة الإستقلال وإماتة روح المقاومة من نفوس الأهالي: القضاء على التعليم الإسلامي وطمس معالم الشريعة الإسلامية التي كانوا يعتقدون بأنها هي وحدها المحرك للأهالي للتخلص من السيطرة الإستعمارية - وهي كذلك بكل فخر - ولهذا كان التحامل عليها وعلى أهلها، إلى حد أن الفرنسيين متعوا، ليس الفرنسي فحسب، بل الإيطالي والإسباني واليهودي والمالطي وغيرهم بحقوق حرما منها المسلمين الجزائريين وجعلوهم في الطبقة السفلى في السياسة والإدارة والإقتصاد. وفي كل شيء وإشترطوا على من أراد منهم نيل تلك الحقوق التي يتمتع بها غيره، التجنس بالجنسية الفرنسية والتخلي عن الشريعة الإسلامية.

وبعبارة موجزة، على الجزائري الذي يريد نيل تلك الحقوق أن يرتد عن الإسلام. ولقد بدأت الدعوة الفرنسية إلى هذا منذ عهد الجمهورية التي تزعم أن الأديان عندها سواء وجددت الفكرة بعد الحرب العالمية الأولى<sup>(2)</sup>.

ويجب أن نشير هنا إلى أن فرض اللائكية قسرا على الجزائريين لم تكن قضية سياسية فكر فيها وتفدها رجال الدولة الفرنسية وحدهم، بل كانت قضية حضارية دينية تنصيرية. ساهم فيها إضافة إلى السياسيين ورجال الجيش الذين ينتمي أغلبهم إلى المذهب الكاثوليكي<sup>(3)</sup> رجال الإستشراق والتبشير. ولقد بينا قبلا كيف أقترح لافيجري على بلاده منع بناء المساجد والتعليم العربي الإسلامي والإجتماعات الدينية كالصلوات الخمس والأعياد والجنائز، ومنع أداء فريضة الحج. بل وصل به الحقد الدفين إلى حد إقتراح منع تعليم القرآن الكريم. وهل هناك لائكية قاهرة كهذه التي تصل إلى حد منع الإنسان من قراءة القرآن الكريم وتدرسه ودراسته؟!.

وقد دعا إلى سياسة الإدماج بل الذوبان، وكان أكبر عائق أمام هذا إنما هو قانون الأحوال الشخصية الإسلامي بما نه من قداسة وتأثير في نفسية الإنسان المسلم.

وأما فرنسوا بورغاد فحدث عنه ولا جرح. فقد رأينا أنه عمل بالدرجة الأولى على تحطيم القرآن الكريم في النفوس، وثالثه خير دليل على هذا، كما رأينا المجهود الفكري الجبار الذي بذلته لتحطيم الشريعة الإسلامية برمتها سواء فيما يتعلق بالأحوال الشخصية أو بالقانون الجنائي والمعاملات والعبادات، والدعوة إلى الفرنسة والإندماج والذوبان في الحياة الغربية، بخرها وزناها ولحم خنزيرها. وهل هناك لائكية أخطر من هذه والتي يمكن أن نسميها من عندنا " اللائكية التنصيرية".

(1) عبد الحكيم الأند، المحاولات الإستعمارية لتفويض الإسلام في الجزائر، ص 376.

(2) شكيب أرسلان، حاضر عالم الإسلام، (الجزائر ولبال فور)، ص 2، ص 179.

(3) المرجع نفسه، ص 179.

وأما شارل دوفوكو فقد رأينا ما فعله لتحطيم الإسلام من الداخل ومن الخارج، ومن ذلك سعيه الذؤوب على إلغاء المحاكم الشرعية التي كانت موجودة ببلاد التوارق ومحاربة الزوايا الصحيحة والتعليم الإسلامي والقرآن الكريم ... إلخ ولما أعياه ذلك وصف التوارق بأنهم كفار وثيون برابرة. وهنا نتساءل: إذا لم تكن هذه هي اللاتكفية، فما هي اللاتكفية إذن؟!

وهكذا تظافرت جهود الجميع لمحو الإسلام من الجزائر وتحويل المجتمع من مسلم إلى لانكي تهينة له لقبول التصير والخنوع للاستعمار إلى الأبد. وهنا ننتقل إلى الإشارة للنقطة الثانية، وهي ذات صلة وثيقة بالأولى.

**النقطة الثانية** وتتمثل في أن فرنسا ظلت وراء الجزائريين محاولة إبعادهم عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي منذ بداية الاحتلال إلى يومنا هذا. ومن الأمثلة على صحة هذا.

- أن وفد المؤتمر الإسلامي عندما ذهب إلى باريس لمطالبة حكومتها بإعطاء حقوق الجزائريين كان من ضمن إهتمامات اللجنة البرلمانية التي قابلت وفد المؤتمر بزعامة الشيخ ابن باديس هو موقف الجمعية بدقة من قانون الأحوال الشخصية. ومما ذكر بالضبط قضية تعدد الزوجات، وتزويج البكر. وقد اشترطت فرنسا لقبولها تلبية بعض المطالب، التخلي عن الأحوال الشخصية الإسلامية.

- أثناء زيارة جاك لاند رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالجمعية الوطنية الفرنسية إلى الجزائر عبر يوم 15 فيفري 1998م لرئيس كتلة "حمس" في البرلمان عن إنشغالاته تجاه قانون الأسرة الجزائري، وكذا إيدولوجية "حمس" الإسلامية. وقد أجابه رئيس الكتلة جوابا محزنا في تصورنا يتمثل فيما يأتي:

إيدولوجية "حمس" هي المقومات الأساسية للشعب الجزائري وأما قانون الأسرة فهو إسلامي حتى أثناء العهد الاستعماري ولكنه يخضع لتعديلات في بعض جوانبه مثل قضية بيت الزوجية<sup>(1)</sup>.

وكان الجوانب المنطقي في نظرنا هو: ما دخل فرنسا النصرانية الكاثوليكية في الجزائر المسلمة؟، إن قانون الأسرة قضية وطنية داخلية تهم الجزائريين وحدهم. وكان على ممثل "حمس" أن يجيبه معبرا له عن إنشغالات حزبه إزاء قانون الأسرة الفرنسي ( القانون المدني) الذي يجعل المرأة مرحاضا عموميا يبول فيه من شاء، متى شاء ما لم يكن ذلك إكراها لها، وهو القانون الذي جعل ملايين الأشخاص في فرنسا يعيشون حياة جنسية وينجبون منها أطفالا دون عقد زواج ليسهل لهم الإقتراق متى شاءوا؛ لأن قانون الأسرة الفرنسي يعقد لهم ذلك. وهكذا ندرك أن فرنسا كانت ولا تزال وراعنا. ولكي تحقق أهدافها كاملة، فإنها لم تقصر عملها على إزالة القضاء الإسلامي فحسب وإلا كان ذلك لانكية ناقصة. بل قررت مصادرة الدين الإسلامي كله. وهذا يدعونا إلى الإشارة إليه.

#### **مصادرة الدين الإسلامي كله:**

لقد قررت فرنسا مصادرة الدين الإسلامي كله بغية إزالته نهائيا من الوجود. فأصبح وحده في الجزائر دون النصرانية واليهودية يخضع لسيطرة الإدارة الإستعمارية في كل اموره حتى سنة 1962م. حيث تحرر من الاحتلال الفرنسي كما تحررت الجزائر من الاحتلال. وكان الوالي العام الفرنسي في الجزائر

(1) استعجاب مع رئيس كتلة "حمس" في المجلس الشعبي الوطني، الإذاعة الجزائرية، القناة 1، نشرة أخبار الواحد لمارا، 15 فيفري 1998م.

هو الرئيس الأعلى للمسلمين في الأمور الدينية، إلى حد أنه هو الذي يعين الأئمة في المساجد والمفاتي والقضاة ويعزلهم . وهو الذي يقرر مواعيد الأعياد الإسلامية، وغير ذلك مما يتصل بأمور الدين الإسلامي . وكل هذا إمعانا في إذلال المسلمين والعمل على تنصيرهم قسرا<sup>(1)</sup> وجعلهم لاثنين دون إرادتهم . أي إستغلال الدين الإسلامي ومؤسساته لتحقيق أهداف فرنسا المتمثلة في الإستعمار والتتصير . وهو ما لا يتحقق إلا بتدمير الإسلام . ولا أدل على هذا من أنه بعد الثورة الفرنسية وقع الفصل نظريا بين الدين والدولة في فرنسا ليتحرر كل منهما من سيطرة الآخر، ويرجع التأثير في هذا إلى الجمهورية الثالثة في سنة 1871م . ولكن الفصل النهائي تم في فرنسا في سنة 1905م، وقد قال مقرر مشروع الفصل كلمته السياسية البليغة "الحكومة الفرنسية ليست ضد الدين ولكنها لا دينية"<sup>(2)</sup> أما في الجزائر فقد قرر الفصل بين الدين والدولة في سنة 1907م . ولكن هذا الفصل وقع فيما يتعلق بالنصرانية واليهودية دون الإسلام . وهكذا أصبح الإسلام وأركانه ومؤسساته وسيلة في يد فرنسا تعيث بها كما تعيث بالمسلمين . وهنا نتساءل: ما هو موقف الجزائريين من مصادرة فرنسا لدينهم؟

(1) راجع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 47.

(2) والنص الأصلي للجملة :

« A l'état Français n'est pas antireligieux, il est a religieux » عند البشير الإبراهيمي، أثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 171.

أيضا: راجع تركي، التصلب القومي، ص 111.

## المطلب الثاني

### موقف الجزائريين من مصادرة فرنسا لدينهم

لقد استماتت الجزائريون في الدفاع عن دينهم ولقد تجشم آتاعاب هذا الدفاع وتحمل مسؤوليته التاريخية في إفشال المشروع الفرنسي في إماتة الدين الإسلامي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تحملت في سبيل ذلك ما يشيب له الولدان. وقد بين الشيخ الإبراهيمي هيمنة فرنسا المطلقة على الإسلام مخاطباً لها بقوله: "ذهبتنا وإياك فريقين، فريق أخضع الدين للسياسة ظالماً وفريق أدخل السياسة في الدين متظلماً، فهل يستويان؟ إننا إذا حكمتناك إلى الحق غلبناك، وإذا حاكمتنا إلى القوة غلبتنا... وما جاء هذا البلاء إلا من الوضعية الشاذة التي بنى عليها نظام الحكم الإستعماري على المسلمين في الجزائر بحكومة "اللائكية" في الظاهر. مسيحية في الواقع. جمهورية على الورق، فردية في الحقيقة تجمع يديها على دين المسلمين وديانهم، وتتدخل حتى في كيفية دفن موتاهم"<sup>(1)</sup>. ولقد عبر أيضاً عن هذه الحقيقة المرة بدقة متناهية قائلاً: هلم إلى الدين، تجد الإستعمار الذي كفر بالإديان يقول لك بصريح القول و العمل أنا أحق منك بالتصرف في دينك، فلا تدخل المسجد إلا بإذني، ولا تصل إلا من وراء إمامي، ولا تحج إلى برخصتي، ولا تصم، إلا على رؤيتي ولا ترك إلا بعد إستشارتي، ولا تضع زكائك إلا حيث أريد، لا حيث تريد. ومعنى هذا كله نسخ آية من القرآن بأية من وحي الشيطان، ولم يبق إلا أن تتلوها كما يريد قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للإستعمار "وكذب الشيطان الرجيم وأفك الإستعمار الذميمة"<sup>(2)</sup>.

ونشر على سبيل الإيجاز إلى المجهودات التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين لتخليص الإسلام ولا سيما العبادات من براثن فرنسا. ولقد تبلورت تلك المجهودات، في المقالات الكثيرة التي كتبها الشيخ الإبراهيم في جريدة البصائر تحت عنوان " فصل الحكومة عن الدين" وقبل التعرض لمحتوى تلك المقالات نتساءل : هل فصل الحكومة عن الدين أم فصل الدين عن الحكومة؟

#### مفهوم فصل الحكومة عن الدين أو الدين عن الحكومة :

قبل أن نشير إلى هذه القضية نبين ما يأتي بناء على ما سبق :

- اللائكية تعني بوضوح "اللا دينية" لا فصل الدين عن الدولة، بل فصل الدين عن الدولة هو إحدى نتائجها، بل فصل الدين عن الدولة يعد في نظرنا إلحاداً محضاً وذلك لأن الدولة قانونياً تقوم على ثلاثة أركان، هي السلطة والإقليم والشعب. وعندما نقول فصل الدين عن الدولة يعني إبعاده كلياً عن السلطة فتصبح لا دين لها والإقليم فيصبح لا دين له والشعب فيصبح لا دين له، وهل الإلحاد شيء آخر غير هذا؟

- هذه اللائكية التي أصبحت مطبقة في فرنسا وفقاً لمرسوم 1905 م في السنة نفسها وفي الجزائر في عام 1907م لم تكن معادية للدين النصراني أو اليهودي، بل نتج عن تطبيقها إستقلالها التام في جميع المجالات. ووضوح الرؤيا فيما يحدد العلاقة بينهما. والإستقلال عن بعضهما أدى إلى تعاون تام في

(1) محمد البشير الإبراهيمي، آثار ... ج2، ص 39.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، حدثونا عن العبد فانتا سيده، البصائر، 1950، ع 119 ( آثار ... ج4، ص 403).

السيطرة على الدين الإسلامي ومؤسساته ورجاله لأغراض إستعمارية وتبصيرية. ورأينا كيف تعاون رجال الإكليروس ورجال الإستعمار في محاربة قانون الأسرة الإسلامي والقرآن الكريم وغير ذلك مما جعلنا نصل إلى نتيجة غريبة لا يقبلها العقل لولا وجودها في الواقع رأي العين. وهي أن الكنيسة ساهمت مساهمة فعالة في إخضاع الجزائريين للقسري للأنكية.

- هذا المفهوم للأنكية إذا كان بالنسبة للنصرانية واليهودية إستقلالا لكليهما وتحررا من سلطة الدولة<sup>(1)</sup>. فإنه كان بالنسبة للإسلام إحتواءا وتحطيما، فأصبح مفهوم اللانكية بالنسبة إلى هذا الدين: خضوعه المطلق للوالي العام النصراني يستخدمه كيفما شاء لتحقيق أهداف الإستعمار والتبشير. نتج عن هذا مقاومة المسلمين الجزائريين لهذا المفهوم وهذا التسلط. فطالبت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفصل الحكومة عن الدين، وهي في -إعتقادنا- الجمعية الوحيدة التي بذلت النفس والنفس لتحقيق هذا الفصل الذي يعني بوضوح: تحرير الإسلام ورجاله ومؤسساته من هيمنة الإستعمار الفرنسي. وهنا نتساءل:

ما هو مفهوم الفصل؟ مفهومه حدده الشيخ الإبراهيمي بوضوح تام لا لبس فيه، ويتمثل فيما يأتي : يتساءل : هل فصل الدين عن الحكومة أم فصل الحكومة عن الدين؟ ويجيب فصل الحكومة عن الدين. ويبين الفرق بين المصطلحين ومبررات ذلك فيقول: "... فدين الإسلام في منزلته من النفوس، وفي منزلته من المعابد، وفي مظهره من الأشخاص والمعاني ثابت أصيل لم يرد على شيء حتى يفصل عنه، وإنما وردت عليه هذه الحكومة ورود الغاصب الذي يحتل بالقوة لا بالحق، أو ورود الواغل الذي لا يحترم نفسه. فكأنه يقول للناس لا تحترموني، أو ورود الدخيل الذي يندس ويتدسس، وأحد سلاحه الحيلة منه وثانيهما الغفلة عنه. فإذا إنكشفت الحيلة وإنقشعت الغفلة أخرج مذموما وعتل ملوما..."<sup>(2)</sup>

وبهذا يتضح بجلاء الفرق بين فصل الحكومة عن الدين وفصل الدين عن الحكومة، والمقصود بفصل الحكومة عن الدين أنها جسم غريب عنه يجب أن تبتز ليعود الوضع إلى طبيعته وأصله المتمثل في قيادة الإسلام للحياة الفردية والجماعية والدولية ليصبح وحده المرأة التي يرى منها كل شيء في الإجتماع والسياسة والاقتصاد والثقافة والتربية إلخ. وهنا نعود من جديد إلى الحديث عن المطالب التي ركزت

(1) والواقع أن هذا لا يعد لأنكية بالمعنى الدقيق، وقد بين هنا الشيخ الإبراهيمي، في تعليقه على خطبة حاكم الجزائر العام (م. بجلان) في عين صالح التي أتى فيها على الجندي والعلم والطبيب والراهب، ومعنى خطبه : تعاون هؤلاء الأربعة في التمكن للإستعمار، وأن فرنسا حاربت الجزائر بأربعة من الأسلحة الشرية:

- "حامت إلى الجزائر بالراهب" الإستعماري" لتفسد به على المسلمين دينهم وتشكك بتقليد في توحيدهم... أمدهم بالعون وضمت له الحرية، وكفرت به هناك لتؤمّن به هنا... ونظر الناس بعد مرور 120 سنة على هذه الرحمت الثلاث (الراهب والعلم والطبيب) المرسله إلى الجزائر من سماء فرنسا:

99% أميرون فقدوا قديهم بركة الإستعمار لم يجدوا الجديد، الطب الإستعماري قضى على الصحة ولم يقض على المرضى. 400 ألف من السلولون والباقرن معلولون وعشوات الأروقة من الأجد تسقط لفقد العنابة، ومثلها من العيالة بموت لسوء التغذية، ومنها من الأحدث بقتل عوده لفقد وسائل التمية.

- الراهب البشر ذك فلاة، يترجم إليهم لينصر الأبناء، والهاحات ليفن الآباء... الراهب الذي جاتنا به فرنسا جاء ليبارك على القائل وبدن الصيد من الخائل، ويطرد الممو على إنطلاق الأروخيد والحاكم على إنتهالك العرضة وإذ جاء ليفخر للذين يسفكون دماء الأبرياء ما إنفروه من ذنوب وآثام...

... ولبل وبعد - فهل حكومة فرنسا بعد إندمادها للرهبان وإعتمادها على الرهبان، دولة لا يكيك؟ ( محمد البشير الإبراهيمي، هل فرنسا دولة لا يكيك ( تعليق على كلمات في خطبة م. بجلان) الوزير الوالي العام للجزائر في عين صالح البصاره، 1950، ع 103. )

(2) محمد البشير الإبراهيمي، ونعود إلى فصل الحكومة عن الدين (6)، البصاره، السلسلة 2، 1950، ع 104.

جمعية العلماء على تحريرها من الإستعمار ويتضح أن أكثرها من قسم العبادات مما يبين وحشية الإستعمار وبشاعته وصلبيته.

### فصل الحكومة عن الدين

لقد ناضلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبذلت النفس والنفيس لتخليص الإسلام ومؤسساته ورجاله من هيمنة الحكومة الفرنسية الإستعمارية، بمعنى إبعاد الحكومة نهائياً. ولقد ركزت في نضالها على ما يأتي:

- 1- تحرير الأوقاف الإسلامية بإرجاعها إلى المسلمين.
- 2- تحرير القضاء الإسلامي بإرجاعه إلى المسلمين ورفع يد الحكومة عنه.
- 3- تحرير التعليم العربي من الحكومة.
- 4- تحرير رجال الدين الإسلامي من الحكومة.
- 5- تحرير المساجد برفع يد الحكومة عنها.
- 6- تحرير الحج بعدم تدخل الحكومة في أي شأن من شؤونه.
- 7- تحرير الصوم والأعياد الدينية بإبعاد الحكومة عن جميع شؤونها.

#### 1- تحرير الأوقاف الإسلامية بإرجاعها إلى المسلمين (فصلها عن الحكومة):

لقد أخذت فرنسا الأوقاف كرها لتجر معها المساجد، وأخذت المساجد لتجر معها الأئمة، وأخذت الأئمة ليجروا معهم الأمة. ويمكن أن نلخص ما صدر في حقها من قرارات في بداية الإحتلال لتبتلعها فرنسا كاملة ابتداء بقرار 7 ديسمبر 1830 م فنجد :

المادة 3 تنص على " أن القائمين بأملك الأوقاف ملزمون بأن يقدموا في ظرف 3 أيام من تاريخ القرار تصريحاً يبين صفة ووضع وحالة عقارات الأوقاف التي يستغلونها بالكراء أو غيره، ومحصول الكراء أو الغلة وتاريخ الدخل".

المادة 4 : "يجب على القضاة والمفتين والعلماء وغيرهم من القائمين على إدارة الأوقاف تسليم العقود والكتب والسجلات والسندات المتعلقة بتدبير شؤون تلك الأملك وقائمة أسماء المكترين مع بيان مبلغ الأكرية السنوية وزمن الأداء الأخير. يسلمون كل ذلك إلى مدير الأملك".

المادة 6 : " إن كل شخص خاضع للتصريح المذكور في المادة 3 من هذا القرار ولا ينلي بما عنده يحكم عليه بغرامة لا تقل عن المدخول السنوي للعقار الذي لم يسجله".

المادة 7 : " تقرير مكافاة لكل من يكشف عن عقار غير مسجل".

وبعد 13 سنة فقط نجد قرارا من وزير الحربية مؤرخا في 23 مارس 1843 م ينص على " أن مصاريف ومداخل المؤسسات الدينية تضم إلى ميزانية الإستعمار"<sup>(1)</sup>. ولقد أشرنا قبلا إلى قرار كلوزيل المؤرخ في 7 ديسمبر 1830م القاضي بإلغاء الأوقاف بعد مصادرتها لها. وحل هذه المشكلة يكون بإرجاع الأوقاف إلى أصحابها ورفع يد الحكومة عنها. ولكن فرنسا رفضت وظلت لها مالكا إلى حين طردها من الجزائر سنة 1962.

## 2- تحرير القضاء الإسلامي بإرجاعه إلى المسلمين ورفع يد الحكومة عنه:

لقد ذكرنا قبلا ما فعلته فرنسا بالقضاء الإسلامي، فألغت المحكمة الحنفية ثم ألغت القضاء الإسلامي نهائيا من بلاد القبائل لتجبرهم على التحاكم إلى الأعراف الوثنية التي تخلوا عنها يوم اعتناقهم الإسلام أيام الفتح الإسلامي ثم تجبرهم على التقاضي حتى في الأحوال الشخصية أمام القانون الفرنسي. كما عمدت إلى المناطق الأخرى فلم تبق بها سوى قانون الأسرة، وحتى هذا لم يبقه على حاله بل اختارت له أسوء القضاء من السكاري وأكلي الرشا. ثم جاء قرار 1944 م الذي يخير الجزائريين بين التقاضي أمام قاضيهما السابقة أو صافه أو القضاء الفرنسي، وقد ذكرنا أن الإستئناف لا يتم إلا أمام القضاء الفرنسي. وقد أضافت إلى كل ما سبق وسائل الترغيب فيه بأن جعلت حق تمتعهم بحقوق المواطنة الفرنسية مشروطا بتخليهم عن قانون الأسرة الإسلامي.

ولكن الجزائريين لم يدجنوا فظلوا يطالبون بالرجوع إلى التقاضي بالقضاء الإسلامي، وقد ذكرنا عريضة زاوية الكبرى في هذا الشأن. ولكن فرنسا ظلت تعمل على تحقيق أهدافها المتمثلة في علمنة المجتمع قسرا تمهيدا لتنصيره طوعا وكرها. وذلك منذ دخولها إلى يوم خروجها، بل وإلى الآن كما أشرنا قبلا. ولتحقيق هذا فقد أثيرت قضية القضاء الإسلامي في المجلس الجزائري سنة 1950م لمناقشتها بوجي من فرنسا، ونية الحكومة هي إلغاء القضاء الإسلامي نهائيا بالتدريج وذلك بإسم الإصلاح حتى يحدث وكأنه أمر طبيعي، وذلك تحت غطاء " تنظيم القضاء الإسلامي" ومن ضمنه:

تعقيد الإجراءات القضائية وتكثير اللوائح والبلاغات فيها، والبطء الممل في سير النوازل، والتعاضد عن جرائم القضاة الأخلاقية المخلة بشرف القضاء، وإبعاد مراكز القضاء عن المتقاضين، وفتح باب التخصيص للمتقاضين بين القاضي المسلم<sup>(2)</sup> والقاضي النصراني. كل ذلك وغيره يهدف إلى تغيير المسلم من القضاء الإسلامي وقضائه وإختباره للقضاء الفرنسي.

ويضاف إلى ما سبق: تطفيف المنفعة المادية للقضاة والتضييق لدائرة نفوذهم والتقليل للتردد عليهم<sup>(3)</sup> إلخ. والواقع أن الحكومة الفرنسية منذ الإحتلال كما ذكرنا بترت القضاء الإسلامي فلم تبق له سوى أحكام النكاح والطلاق والمواريث، وحتى هذه لم تبق لها حقيقة. ثم إحتكرت تعليمه ووظائفه لمن يتخرجون على

(1) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين (14 البصائر، 1951، ع140، وقضية فصل الدين: غيات تاريخية (17)، 1951م، ع106.

(2) المثلث يقتضي أيضا أن نحو الفرنسي في القاضي بين القاضي المسلم والقاضي النصراني، ولكن هذا لم يحدث.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين، (9)، البصائر، 1950، ع108.

يدها ويتعاليمها وجعلت نقض أحكامهم وتعقبها بيد القضاة الفرنسيين وأصبح القضاء الإسلامي حتى في ذلك القدر الضئيل خاضعا للقانون الفرنسي. وأصبح القضاء بحكم الضرورة لا يرجعون في أحكامهم إلى النصوص الفقهية الإسلامية وإنما إلى اللوائح التي يضعها وكلاء الحق العام الفرنسيون. والهدف من كل هذا إزالة القضاء الإسلامي نهائيا ولكن بطريق التدرج (1).

ولكي تحقق فرنسا هذا الهدف، فإنها استخدمت بعض القضاة أنفسهم وسخرتهم للرد على الجزائريين المطالبين بفصل القضاء الإسلامي عن الحكومة، كما استخدمت أعضاء المجلس الجزائري ليعتقدوا ويقولوا إن القضاء ليس من الدين. وهي كلمة قالها حاكم مسؤول في سنة 1943م، وهدفه إثبات عدم (دينية القضاء) لبيور للحكومة بقاء يدها مبسوطه عليه تبدل وتغير بالمنطق الإستعماري العنصري وهو ما جعل جمعية العلماء المسلمين توضح هذه المسألة مطالبة بإرجاع الأمور إلى نصابها، وذلك في التقرير الذي قدمته للحكومة في رمضان 1363 هـ ونص ما ذكره الإبراهيمي في ذلك التقرير:

"القضاء بين المسلمين في أحوالهم الشخصية والمالية والجنائية جزء لا يتجزأ من دينهم، لأن الحكم بينهم فيها حكم من الله، ولأن أصول تلك الأحكام منصوصة في الكتاب والسنة، وكل ما فيها فهو دين. ولأنهم ما خضعوا لتلك الأحكام إلا بصفة كونهم مسلمين" والدولة الفرنسية نفسها تعترف بهذه الحقيقة إعترافا صريحا، فقد كانت إلى العهد القريب (2) تعارض مطالبة الجزائريين بحقوقهم السياسية لتمسكهم بالقانون الإسلامي في الأحوال الشخصية (3) والواقع أن القضية من صميم الدين. فكان الواجب أن يرجع فيها إلى أهل الدين وهم المسلمون وحدهم لا إلى اللاتكيين والمدجنين، وأن يستشار فيها أهل العلم بالدين لأنهم انرى بالخلل إن وجد، وبوجوه إصلاحه.

ويتوصل الإبراهيمي إلى أن غرض تحطيم القضاء الإسلامي إنما هو لأهمية قانون الأسرة في الإسلام: "إن أحكام النكاح وتوابعه تعد من مفاخر التشريع الإسلامي المستند على الوحي الإلهي، ولا يوجد دين من الأديان السماوية أو الوضعية، - ولا أستثنى - اعتنى بهذه الأحكام وفصل القول فيها، وبنى أصولها على النظرة وما تحتمل وما لا تحتمل: إلا دين الإسلام؛ وحكمة ذلك كله أن هذه الأبواب هي التي تبنى عليها الأسرة التي هي نواة الأمة. وأن صلاح الأمة وفسادها تابعان لصلاح الأسرة وفسادها، فعناية الإسلام بهذه الأبواب أكبر برهان على عنايته بإصلاح الأمة وإسعادها (4)".

(1) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين (10)، البصائر، 1950، ع 109.

(2) أي الربوب من سنة 1950 وهي السنة التي كتب فيها الشيخ الإبراهيمي مقاله.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين (10)، 1950، ع 109.

(4) المصدر نفسه، فصل الحكومة عن الدين (9)، 1950، ع 108.



### 3- تحرير التعليم العربي من الحكومة

تعد اللغة العربية قضية دينية في أساسها، وعلى هذا الأساس حاربتها وتجاربها فرنسا وأذيالها. ومن هنا فلما كانت قضية فصل الحكومة عن الدين ذات مكانة سامية في القضية الوطنية لأهميتها في ذاتها ولأثرها البالغ في نفسية الأمة شاركتها في كل ذلك قضية التعليم العربي لتلازم القضيتين وعدم انفصال أي منهما عن الأخرى. ولا تتم حياة الأمة الجزائرية إلى بهما.

فالإسلام والعروبة هما الدعامتان اللتان تحفظان الجزائر من الزوال، وفي فصل الإسلام عن الحكومة تثبيت للدعامة الأولى وفي التعليم العربي تمكين للجنسية العربية، ولا يقدر قيمة هاتين الدعامتين إلا من يعلم أن الإستعمار جاء إلى الجزائر بثلاثة أشياء ليمحو بها ثلاثة أشياء.

"جاء باللاتينية ليغمر بها العروبة، وجاء بالفرنسية ليقضي بها على اللغة العربية، وجاء بالمسيحية لينسخ بها الإسلام... وما عمله في إحياء النزعات البربرية إلا مثال من المبدأ الأول، وما ضغطه على التعليم العربي إلا مثال من القاعدة الثانية، وما تشجيعه للضلالات والبدع وتلكؤه في فصل الإسلام عن الحكومة ومشروع الإسلام الجزائري إلا أمثلة من المبدأ الثالث. وما مشروع الإدماج الذي جاء بالخيبة والبسوار، ولقب "مسلم فرنساوي" الذي عرفنا به وغيرهما من مبتكراته - إلا عناوين على كتاب طويل عريض، مقدمته "مسلم فرنساوي" وخاتمته "فرنساوي مسيحي".

أما الكلمة العبقرية التي إختارها الله لنا، فهي "مسلم عربي جزائري"<sup>(1)</sup>. وهنا يتوصل الإبراهيمي إلى تبين علاقة العروبة والإسلام بالوطنية، فيرى أن العروبة والإسلام قضيتان متلازمتان وهما أساس متين من أسس الوطنية... فإن الوطن مسلم عريق في الإسلام، عربي أصيل في العروبة. وعلى كل وطني مخلص في وطنه أن يكون هذا منطلقه وإلا كان مغمورا في وطنيته: إما مدسوس فيها أو متاجر بها أو مخدوع عنها. أما الوطني الصميم فهو المدافع عن دين وطنه ولغة قومه حتى يثبت أن هناك وطنا يشرف الإنتساب إليه وقومية يحسن الإعتراز بها. وكل ما بذله الإستعمار من مجهودات في حرب الإسلام والعروبة في الجزائر إنما ليجردها من إسم "الوطن" ويجرد أهلها من صفة "الوطنيين" لأن الوطن إذا جود من هذين صار مجرد "قطعة أرض موأث" يملكها من طلب أو غلب. ولا أدل على صحة هذا من أن فرنسا -على جمهوريتها ولانكيتها- تعتبر المبشرين من أكبر الوطنيين، وتعتبر الناشرين للفرنسية خارج فرنسا في طليعة الخادمين لوطنهم "لعلمها أن الوطن كل، أثنى أجزاءه اللغة والدين، فكيف بمن يخدم دينه في وطنه ويزرع لغته في أرضها"<sup>(2)</sup>.

### 4- تحرير رجال الدين الإسلامي من الحكومة :

أصبح رجال الدين الإسلامي جزءا مكملا للجهاز الحكومي كالجند والبوليس، فالإمام والضابط والمفتي ومحافظ الشرطة (والبراج) والمؤذن والبواب والحزاب وغيرهم كل هؤلاء موظف عند الحكومة يلتزم بأوامرها لا بأوامر الله، وكلهم تجري عليه التحريات البوليسية قبل تعيينه.

(1) محمد البشير الإبراهيمي، قضية فصل الدين : نظرنا إليها (16)، البصار، 1951، ع 154.

(2) المصدر نفسه، 1951، ع 154.

ويمتاز الموظف الديني عن غيره بقابلية التسخير والتبعية لكل ذي سلطة حكومية لأنه ليس له مرجع ديني معين يرجع إليه، بل مرجعه الديني هو الحكومة النصرانية مما جعله مرؤوسا لجماعة من البوليس إلى شيخ المدينة إلى المتصرف إلى قاضي الصلح، إلى أصغر كاتب في إدارة<sup>(1)</sup>. فأصبح رجال الدين الإسلامي جزءا أصيلا من الأدوات الحكومية، لا فرق بينهم وبين غيرهم من الموظفين حتى في التبديل والنقل الذي يفهم الغرض منه في غير الوظائف الدينية. وأما الوظائف الدينية فإن أصحابها إن أخطأوا ديناً عزلوا. بل حتى النياشين التي أصبحت الحكومة تتعم بها على الأئمة والمفتين، التي هي في أصلها تشریفات ومكافآت من الحكومة لرجالها العسكريين والإداريين. مما يعني أن منحها للأئمة إنما هي مكافآت لهم على أعمال غير الدين هم لها عاملون<sup>(2)</sup>. ولا عجب فقد حدث أن المدير كان إذا أراد مكافأة أحد فراشيه عينه إماماً أو مفتياً<sup>(3)</sup>.

وهكذا تمكنت فرنسا من إنشاء طائفة ممن تسميهم رجال الدين الإسلامي تتشبه على عينيها، حتى ينسوا أنفسهم وعلاقتهم بالدين وصلتهم بالأمة. وتمتحنهم في مهن أخرى غير الدين حتى يرسخ في نفوسهم أنهم يؤدون عملاً للحكومة ورجالها لا لله ودينه، وأنهم يصلون الركعة لمائة فرك لا للواجب الديني. وأنهم يقرءون الحزب (للبايلك) لا للتعبد بالتلاوة، وقد نجحت في ذلك أيما نجاح<sup>(4)</sup>. ولنتطرق إلى ما فعلته بالأئمة والمفتين.

### تحرير الأئمة والمفتين

صار الأئمة لعبة<sup>(5)</sup> في يد فرنسا تسخرهم لخدمة أغراضها، ويلاحظ تسخيرها لهم مما يأتي :

- **المرتب** : حيث تشتري به همتهم وذمتهم وجعلتهم به سلاحها ضد العلماء الأحرار وصيرتهم به منها خائفين ولها خاضعين، وكان لزاماً عليهم أن يجردوا الحكومة من سلاحها الذي هو هم باستقالة جماعية فيغمد في وجوه العلماء الأحرار ويتحرر الإسلام من الإستعباد الذين هم أكثر أسبابه.

- **ارتباطهم برجال النظام الفرنسيين** ومن الأمثلة على ذلك :

- **علاقتهم بالحاكم في تلمسان** : فهم يتهافتون على إدارته بالغدو والأصايل. والسؤال المطروح: ما

علاقة رجال الدين الإسلامي بالحاكم النصراني ليترددوا عليه كل ذلك التردد؟ هل لياخذوا عنه أحكام

الصلاة؟!

- **علاقتهم بمدير الإستعلامات بقسنطينة** : يتهافتون كذلك على مكتب مدير الإستعلامات (رئيس

المكتب الثاني) بقسنطينة ويرجعون إليه حتى في فتح المسجد وإغلاقه. ويتقربون إليه بما هو من جنس

(1) محمد البشو الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين (6)، آثار ... ج 2، ص 115.

(2) محمد البشو الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين، (7)، البصائر، 1950، ع 105.

(3) محمد البشو الإبراهيمي، آثار ... ج 4، ص 402، 403.

(4) للصغر نفسه، مقال رقم 7.

(5) لا نلصق هنا أن جميع الأئمة الموظفين عند فرنسا كانوا لعبة في يدها، ولكن أغلبهم كان كذلك بالفعل.

- صنعته (مخبرون وجواسيس). والسؤال المطروح: ما هي علاقة رجال الدين الإسلامي بإدارة الإستعلامات، فإن كان فيها سر ديني إلهي، فلماذا لا يتردد عليها رجال الدين المسيحي واليهودي (1)!
- تبعيتهم لمديرية الشؤون الأهلية بالولاية العامة بالجزائر العاصمة : لقد كان الأئمة تابعين لمديرية الشؤون الأهلية بالولاية العامة بالجزائر. وهي معروفة في تاريخ الإستعمار بأقطابها:
- لوسيماني وميراننت، وميو وبيرك، وما منهم كما يقول الإبراهيمي إلا له فيها مقام معلوم وتصرف مضموم. وله من تمكين أوضاعنا جزء مقسوم.... وهذه الإدارة هي مرجع رجال الدين في التولية والعزل والتيسير والتوجيه، ومنها يتنزل الرضى والسخط عليهم (2).
- وسائل أخرى للتحكم في الدين أكثر: لقد إستعملت فرنسا وسائل أخرى للتحكم في الأئمة والمفتين وباقي رجال الدين الإسلامي بالجزائر، ومنها :

### عقد مؤتمر الأئمة ومؤتمر رجال الزوايا

لقد عقد مؤتمر الأئمة في جانفي 1948 م بالجزائر العاصمة بأمر من فرنسا، حضره الأئمة وحواشيهم العليا والسفلى، وظاهره النظر في مصالحهم الخاصة وفي الوسائل التي يحفظون بها تلك المصالح. وأسفر الإجتماع عن إنشاء نقابة خاصة بهم، كما قرروا إنشاء مجلة أيضا يعبرون بها عن مكنوناتهم.

أ- النقابة : أو " السانديكة" سموها " جمعية رجال الدين" ومهمتها الحقيقية : منع العلماء الأحرار من أداء مهامهم الإسلامية المتمثلة في تحرير الإسلام ورجاله من قبضة الحكومة النصرانية الإستعمارية. والدليل على هذا ما أقر به تقرير هذه النقابة الأول، وكذلك مذكرتها الأخيرة ( في سنة 1948م) من جهة. ولأن هذه النقابة لم تكف رجالها مؤونة التردد على الإدارات السابق ذكرها أو تكفهم عنها. بل لم تتمكن حتى من الوقوف مع أحد أعضائها عندما يقع عليه ظلم، والواقع أن العمال وبعض طبقات الموظفين الدنيويين لأشرف قصدا وأعلى همة وأنبل غاية من هؤلاء. لأن أولئك إن ظلم أحدهم وقفوا معه إضرابا وإحتجاجا حتى يأخذ حقه. أما هؤلاء فإن زارة واحدة من مدير الإستعلامات تكفي لإنخذالهم وإنخلاع قلوبهم.

ب- المجلة : وأما المجلة التي قرر مؤتمر الأئمة تأسيسها، فقد سموها " صوت المسجد" ومؤسسها " الحاج محمد العاصمي" الذي عينته فرنسا مفتيا وسمته المفتي الحنفي (3). وأرسلته أميرا للحج في إحدى الحجج (4). ودرجته العلمية معلم صبيان، وكاتب عند قاضي. ومهمتها أيضا : مهاجمة ومحاربة العلماء الأحرار، وتكريس المركوبية كما بين الشيخ الإبراهيمي (5).

(1) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين (15)، الصائر، 1951م، ع142 (.... آثار ... ج2، ص 160 ، 161)

(2) محمد البشير الإبراهيمي، آثار ... ج 2، ص 208 ، 209.

(3) والتهرب أنه لا يوجد أحناف بالجزائر، كل ما يوجد هو المسجد الحنفي ولكن المصلين فيه مالكية (محمد البشير الإبراهيمي، آثار ... ج2، ص 72 ، 73).

(4) المصدر نفسه، ص 150

(5) المصدر نفسه، ص 70، 71. وكان مفتيا في سنة 1948م، أما تاريخ توليه الافتاء فلم نطلع عليه.

وأما مؤتمر رجال الزوايا فقد عقد في 15 مارس 1948م، وفي المكان نفسه الذي عقد فيه مؤتمر الأئمة وهو مقبرة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الجرجري. ومما يلاحظ على هذين المؤتمرين ما يأتي:

- الهدف الحقيقي من عقدهما محاربة جميعة العلماء. وقد صرح بهذا أحد الطلبة في مؤتمر الزوايا.
- الحاضرون في المؤتمرين ظلوا كما كانوا بحيث لم تؤثر فيهم أحداث الزمن منذ 1937م. ظلوا آلات صماء في يد الإستعمار يصرفها متى شاء لما شاء، ولم يتأثروا بما حل بالأمة من محن ومصائب من أهمها مجازر ماي 1945 - وإملاآت السجون والمعتقلات وهم أمنون مطمئنون. وجاعت الأمة وهم متخمون، يقول الإبراهيمي " وإن الصحف لمنشورة بين أيدينا بما أخذوا من المؤمن بإسم الزوايا وبما باعوا منها في السوق السوداء..." فرنسا حركت هؤلاء وأعدتهم للمعارضة والتشغيب على طلاب الحقوق الدينية، كما أعدت طائفة أخرى إنتخبها هي لا الأمة للتشغيب على طلاب الحقوق السياسية. ولقد كشفت الإنتخابات التي حدثت بعد المؤتمرين السابقين أنهما والمجلس الجزائري نريسة بعضها من بعض وكلها من صنع يد الحكومة، ويتوصل الإبراهيمي بعد تحليل دقيق إلى أن من أهداف الحكومة من هذين المؤتمرين، أنها لا تريد أن تتفرض يدها من المساجد وأوقافها ورجالها، والعمل لذلك يتمثل في جمع ذلك الجند من المفتين والأئمة والمؤذنين ورجال الزوايا وإعدادهم لوقت الحاجة. فإما أن يبقى ما كان على ما كان وإما أن تسلم المساجد والأوقاف لهم، لأن هذا أيضا لا يخرج عن إبقاء ما كان على ما كان. وما يقال عن هؤلاء يقال كذلك عن الإنتخابات<sup>(1)</sup> ومرض فرنسا كذلك بهذين المؤتمرين فتح واجهة جديدة للنزاع، وأن تغري بين رجال الدين كما أغرت بين رجال السياسة، فتشغل البعض بالبعض وتستريح.

وهنا نقدم ملاحظة لها أهميتها تتمثل في أن المؤتمرين السابقين عقدا أيام الحملة الكبرى لجمعية العلماء على الحكومة وكتابة تلك السلسلة الوثيقة من المقالات في قضية فصل الحكومة عن الدين. فكشف هؤلاء عن حقيقتهم ووقفوا في صف الحكومة مؤيدين لها وتسلموا بإملاء منها للدفاع عنها، فكونوا تلك الجمعية وأنشأوا تلك المجلة وجهزوا كتبية من الكتاب. ولما إشتد الصراع ولم يرجعوا عن غيرهم يقول الإبراهيمي "... فكشفنا عن بعض الحقائق المستورة... فلما عتوا عن أمر ربهم رميناهم بالأبدة... وهي أن الصلاة خلفهم باطلة ... لأن إمامتهم باطلة .... لأنهم جواسيس"<sup>(2)</sup>. وليسوا أئمة، لأن شروط الإمامة غير متوفرة فيهم سواء الشروط الجزئية (الشخصية) التي يذكرها الفقهاء أو الكليات التي تفهم من فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعمله ومن مقاصد الشريعة العامة ومن الحكم المنضوية في تلك المقاصد. ويتوصل بعد تحليل فقهي "... ولو كانت شرائط الإمامة -حتى التي يذكرها الفقهاء- متوفرة فيهم، لما أسخطوا الله بإرضاء الإستعمار،... وليكذبونا بموقف واحد أرضوا به ربهم وأسخطوا الحكومة ... إن تولية حكومة غير مسلمة لأئمة المسلمين إفساد للدين، وإبطال للعبادات، لأنها نسخ لأحكام القرآن وتعطيل

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 435، 438، 441.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 206.

لحكمته... أنصفونا ولو مرة واحدة، أ يكون شقيقا للمسلمين عند ربهم من يصلي للبايلك - الحكومة -  
ويقرأ الحزب للبايلك ويتردد على أبواب الحكام...<sup>(1)</sup>.

- وكيف يجوز لشخص إمامة المسلمين وهو منصب جاسوسا عليهم بل أصبحت الوظيفة الدينية  
الإسلامية عند الحكومة - بتهافت القوم عليها - مشروطة بالجوسسة. والقوم أصبحوا بها جواسيس  
على الأمة على حساب دينها إلا القليل<sup>(2)</sup>. وهو ما كشفه بيرك.

### شهادة أوغستان بيرك على رجال الدين الإسلامي:

لقد كشفت تلك الحقيقة المرة، وهي كونهم جواسيس أوغستان بيرك مدير الشؤون الأهلية بالولاية العامة  
بالجزائر، سنة 1946م حيث كتب مقالا بعنوان " العلماء والمرابطون"<sup>(3)</sup> ولقد شهد بيرك المتخصص في  
شؤون الأئمة بحقيقتهم ووصفهم بصفات أهونها: الجوسسة، وشهادته لها وزنها، ذلك أنه شاب قرناه في  
الوظائف الإدارية الخاصة بالمسلمين، وكانت خاتمتها: إدارة الشؤون الأهلية، وهي الإدارة التي كانوا  
تابعين لها كما ذكرنا قبلا فيبيرك كان رئيسهم وموجههم، ومما ذكره عنهم في مقاله السابق الذي كتبه في  
أخبارات أيامه ذاما لهم بما كان يمدحهم عليه: " إن خطانا الفاحش في سياستنا الدينية منذ 20 سنة هو أننا  
سأملنا في وجود موظفين دينيين في المساجد، يسطير عليهم الجهل المركب والطمع وعدم التسهيب، ولا  
حد لرغباتهم في أن يحمدا بما لم يفعلوا. فعدم الكفاءة والخضوع والإنقياد هي الشهادات الوحيدة التي  
يمكن لهم أن يعقبوا بها. لقد رأينا مفتيا يستفتي الطبيب العقبي في موضوع صبياني حكم فيه علماء الدين  
أكثر من مائة مرة. لكن المفتي كان جاسوسا مخيرا للبوليس، كما سمعنا أحد الموظفين الدينيين في  
مؤتمر عام يظهر فكرا من الأفكار البالية التي يمجها الذوق حتى انفجر زملاؤه التونسيون والمغاربة  
ضحكا... لكن هذا الموظف الديني ممن لا يكادون يفارقون مكاتب البوليس، ورأينا أحد الحزبيين لم  
تمكنه معلوماته القرآنية التافية من إنقاء أغلاط في الحفظ والتجويد لا تصدر على أقل المسلمين علما. لكن  
هذا الحزاب كان عوننا مأجورا للإنتخابات". وهكذا ظهر في "الإسلام الجزائري" مراوون لاهم لهم سوى  
الإمتثال إلى الظاهر من الأوامر وزنادقة (يدافعون عما إحتكروه من إمتيازات، ولا يقيمون لكبريات  
المشاكل وزنا)، فأغلبيتهم مارقون من الدين جهلا أو قلة إدراك. وهكذا شاركنا في إنحطاط "هينتنا الدينية  
الإسلامية" معجلين بإذلالها"<sup>(4)</sup> وهذه شهادة من أهلها.

ويضيف الإبراهيمي معلقا عليه "ويالته زاد في التمثيل للوقائع الشخصية سرقة أكفان الموتى يوم كان  
أكفان مقسطة" فقد سرق إمام قماش الأكفان، فلما تحققت التهمة رفعته الحكومة من منصب إمام إلى  
منصب مفت...

ويلاحظ الإبراهيمي على بيرك ومقاله ما يأتي :

(1) المصدر نفسه، ص 202 - 205 ، أيضا : كلمتنا عن الأمة، الصادر، 1951، ع 153.

(2) المصدر نفسه، ص 207 ، 208.

(3) ولد نشرته مجلة البحر المتوسط الفرنسية التي تصدر بالجزائر، ج 11، جويلية، أوت 1951م، (المصدر نفسه ، ص 209 ، 210).

(4) المصدر نفسه، ص 211 ، 212.

- المقال نشر بعد موت بيرك. ولقد قابله الإبراهيمي أثناء إدارته الشؤون الأهلية بالولاية العامة، وتفاوض معه، وكان مدافعا عن الإستعمار مما يجعل مقاله السابق حجة قاطعة على أن فرنسا كانت تعمل بالفعل على إفساد الإسلام بإفساد رجاله.

- تصريحه بالإسلام الجزائري : *l'islam algerien* ونسبته الهيئة الدينية الإسلامية إليه وإلى حكومته في قوله : *Notre clergé Musulman* وهو يبين أن إتهام جمعية العلماء لفرنسا بهاتين التهمتين كان صوابا.

- الأئمة والمفتون الذين ثاروا على الإبراهيمي وعلى جمعية العلماء عندما وصفهم بما سبق، لم ينسوا ببنت شفة أمام مقال بيرك. وبذلك كان حجة قاطعة على أن ما قاله فيهم حق، وأنهم جواسيس وأن الصلاة خلفهم باطلة<sup>(1)</sup>.

ونختم حديثنا عن تسخير الأئمة لأهدافها ومطالبة جمعية العلماء بتحريرهم من سلطانها أنه من أغرب ما وقع في مقاييس توظيف رجال الدين الإسلامي، أنه بعد الحرب العالمي الأولى (1914 - 1918م) قامت فرنسا بإسناد بعض الوظائف الدينية لبعض الجنود المحاربين مكافأة لهم على تفانيهم في خدمتها<sup>(2)</sup>. وهكذا عمدت فرنسا إلى توظيف عدد من عملائها في المساجد، وهم لا يمتون إلى الدين بصلة في الغالب مكافأة لهم.

ولقد كان هؤلاء وغيرهم في عهد الإحتلال يلقون بالحرف الواحد نص الخطبة الذي كان يأتيهم من أسيادهم أمثال (الحاكم العام للجزائر) وكان هذا النص موجها بالدرجة الأولى إلى قتل روح المقاومة، وتخدير أبناء الشعب وتضليلهم، بل كان في بعض الأحيان دعوة صريحة إلى الإستسلام والروضوخ للأمر الواقع، وهكذا كان أئمة المساجد التابعة للإدارة الفرنسية. فكانوا أبوابا للإستعمار وضائعه، وكانوا يقومون في اغلب الأحيان بالجوسسة لحسابه<sup>(3)</sup>. ومن طالب بجعل بيوت الله لكلام الله اتهم بإدخال السياسة إلى المسجد وخطب السياسة بالدين.

#### 5- تحرير المساجد يرفع يد الحكومة عنها

لقد بينا قبلا ما وقع للمساجد منذ الأيام الأولى للإحتلال. وما بقي منها وضعت فرنسا أغلبه تحبب يدها بتعيين القائمين عليها الذين تحدثنا عنهم قبلا. ظل الحال هكذا إلى أن أتت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأخذت تطالب بفصل الحكومة عن الدين ومن ضمن ذلك تحرير المساجد. ومما فعلته الجمعية:

أنها طالبت من أعضاء المجلس الجزائري المسلمين أن يطلبوا إدخال الدينين النصراني واليهودي بكنائس الأول وبيع الثاني وأموالها ورجالها تحت سلطة الحكومة دخولا عمليا فتصرف في الأموال وتولي وتغزل. وذلك وفقا لعمل الحكومة في الدين الإسلامي، فإن رفضت الحكومة محتجة بأنها لا تكيه، فليحتج

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 211 ، 212.

<sup>(2)</sup> من التقرير الذي قدمه مجلس إدارة جمعية العلماء لل الحكومة الجزائرية (الفرنسية) بعد إجتماعه المنعقد في 5 أوت 1944، في المسائل الدينية فئات "المساجد" التعليم، القضاء،

ومن ربيع ترمي، التعليم القومي، ص 362.

<sup>(3)</sup> محمد الصغير بلعالم، المسلك الديني في الجزائر، ص 245.

النواب على جعلها الإسلام في قبضتها وهيمنتها حتى على عباداته. وبطالبون بتحريره؛ لأنه من العدل ما دام الإسلام في قبضتها (مستعمرا) فليكن الدين الأخران في قبضتها أيضا<sup>(1)</sup>. ولكن فرنسا لا يمكنها أن تترط في المساجد، فإن من تقاليدنا التمسك الشديد بالسلطة المطلقة على مساجد المسلمين وأوقافهم لما ذكرناه قبلا. "ولا عجب من حكومة كاثوليكية لا يكية أن تضيف لهما تقريبا ثالثا، وهو (التمسك بالإسلام)"<sup>(2)</sup>. وقد واجهت جمعية العلماء بالمنهجية الآتية:

#### منهجية فرنسا في مواجهة الجمعية

لقد ذكرنا أن الشيخ الإبراهيمي طالب من أعضاء المجلس الجزائري المسلمين أن يطالبوا بما ذكرناه فإتخذت فرنسا المنهجية ذاتها، فطالبت. ولكن ليس من كل أعضاء المجلس الجزائري، بل من بعض أعضائه دون البعض الآخر معاكسة مطالب الجمعية لإبقاء ما كان على ما كان، وذلك بواسطة مفتيها بالعاصمة محمد العاصمي المفتي الحنفي - أي مفتي الجامع الحنفي الذي ليس به أضاف - حيث كتبت تقريرا مطولا ولكن الذي وقع هو العاصمي بناء على أمرها. وقد رفع المفتي الحنفي هذا التقرير المطول بإسمه إلى المجلس الجزائري مقدم إلى بعض أعضائه دون بعض.

ومما يبين أن الأمر كان مديرا قبلا أن التقرير مؤرخ بيوم 21 مارس 1948م بينما المجلس الجزائري لم ينتخب أعضاؤه إلا يوم 4 أبريل 1948م.

ولقد درس الإبراهيمي التقرير دراسة دقيقة، فقال بعد تلك الدراسة معلقا: "فوالذي خلق العاصمي وقدر أن يكون مفتيا في العاصمة - ما وجدنا فيه من العاصمي إلا إسمه وختمه، أما ماعدا الإسم والختم. فهو من وضع إدارة غير إدارة الفتيا، ورجال غير (رجال الدين)"<sup>(3)</sup>. والتقرير محبوب الأضراف حكا استعماريًا، يبدأ من الحكومة وينتهي إليها. يستخدم الأسلوب المغالطي ويدور على أصل واحد، ولكنه أصل فاسد. هو أن: أولى الناس بالتصرف في المساجد هم الموظفون الرسميون ويسمى بهم "رجال الدين"<sup>(4)</sup> ويستشهد على ذلك بأن الحالة كانت على هذا في العهد العثماني وهي عليه أيضا في الأقطار الإسلامية. ويستنتج التقرير من هذا أن المسألة كانت إدارية ويجب أن تبقى إدارية. وهذا هو بيت القصيد الذي يريده التقرير.

ولما كانت جميعة العلماء قد طالبت بانتخاب الجمعيات الدينية في تكوينها، وانتخابها هي للمجلس الإسلامي الأعلى الذي أجمع عليه كل المطالبين وأهل الرأي. فإن التقرير إعتبر أن انتخاب 9 ملايين هو الفوضى بعينها، ويزيد الأمر تهويلا بذكره أن الانتخابات مدخل من مداخل السياسة إلى المساجد. كما

(1) مفهوم النظام الفرنسي للامكية لا يضر الدين النصراني واليهودي بل يحميها بإعطائهما الحرية التامة. ويصر فقط بالدين الإسلامي لأنه يقوضه من أساسه، وهو المفهوم ذاته الذي من طرف دعاة الحركة البربرية الذين يشجعون الكنائس في الجزائر ويحاربون المساجد.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الدين عن الحكومة، طابع ومقدمات، البصائر، 1948، السنة 2، ع 57 (أثر، ج 2، ص 67 - 70) انظر أيضا: محمد البشير الإبراهيمي، آثار... ج 1، ص 71.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، آثار... ج 2، ص 71.

(4) ولعلنا الإبراهيمي على كلمة "رجال الدين" قائلا: كان الأمة كلها نساء الدين، وليس من رجاله إلا العاصمي وآله وصحبه (محمد البشير الإبراهيمي، فصل الدين عن الحكومة: تقرير الحكومة العاصمي، البصائر، 1948م، ع 58، (الإبراهيمي، آثار... ج 2، ص 72، 73).

يُقدح في الجمعيات والهيئات المطالبة بحقوق الأمة في دينها: بأن وراء كل واحدة منها حزب سياسي يبيدها إلخ.

رما رد به الإبراهيمي على هذه التراجمات الفرنسية أن الإسلام دين (ديمقراطي) سمح وليس فيه نظام "إكليبريجي" متسلط كبقية الأديان . تقوم بمصالحه المادية الخلافة. فإن لم توجد فحكومة المسلمين القائمة فإن لم توجد فجماعة المسلمين. ومن يسميهم التقرير "رجال الدين" إنما يعينهم في غير الجزائر الحكومات الإسلامية أو جماعة المسلمين وهؤلاء لا يكيدون لدينهم بل يختارون لوظائفه أفضل الكفاءات دينا وعلما وخلقا. وأما رجال الدين عندنا فقد إختارتهم حكومة لا يكية متسلطة، بعد ان وزنتهم بميزانها النصراني لا بميزان الإسلام وراعت فيهم شروطها لا شروطه، ولا تراعي في توظيفهم إلا شيئا واحدا، هو ما يشهد به "الدوسين". وهي لا تدفع لهم المرتبات على الصلاة والأذان والفتيا، فسواء صلى المسلمون أم لم يصلوا. وإنما تدفعها لغايات ومقاصد أخرى ومن هنا:

أليس تسليم الحكومة المساجد إلى هؤلاء الموظفين تسليما من الحكومة إلى الحكومة؟ وهل يستطيع واحد من هؤلاء أن يعصي لها أمرا ولو كان فيه خراب الكعبة!؟

وأما ما يغالط به التقرير من إنتخابات تجر السياسة إلى المساجد وأن وراء جمعية العلماء في المطالبة برفع سلطة الحكومة على الدين أحزاب سياسية فهو كلام متهافت. يقول الإبراهيمي "... ونحن نرد عليها هذه التهمة بالحقيقة، وهي أن تسلطها على مساجدنا وأوقافنا - وهي لا يكية - هو عين السياسة. وإسنادها الوظائف الدينية إلى من تختاره وترتضيه هو رأي السياسة. ووضع هذا التقرير بإسم العاصمي هو ذنب سياسية. ولولا السياسة ما كان للمفتي الحنفي وجود، ولولاها ما تيسرت حاجته المتعددة، ولا قضيت حاجته المتجددة. وإذا كان غير العاصمي منسوبا إلى السياسة أو متهما بها... فالعاصمي عين السياسة لصلبها ورحمها، ولكنه ولد من غير السبيل المعتاد"<sup>(1)</sup>.

ومما ورد في تقرير العاصمي مبررا إستعباد فرنسا للمساجد ورجالها بأن الحكومة إستعملت المساجد (ورجالها) يوم إستلمتها من يد المفتين الحنفي والمالكي<sup>(2)</sup>. فمن العدل أن ترجعها إلى المفتين (الحاليين) أو (يعني مفتيا واحدا من الحاليين هو العاصمي). والواقع أن هذا هو رأي الحكومة دعا إليه العاصمي منذ سنين.

ومما رد به الإبراهيمي على هذه المغالطة مخاطبا العاصمي: بأن المفتين الذين سلموا المساجد لعلما قهرا ما لا يمكن فعلهما ليس بحجة علينا، كما أنهما فعلا تلك الفعلة الشنعاء إستسلاما للجبن والطمع، وفعل المستسلم ليس بحجة علينا، وإستلامكما لها لا يقل شناعة ولا يختلف مقاصد وأغراضا عن تسليمهما، ثم إننا لا نأمن أن تسلماها فيأتي مفتيان آخران فيسلماها ما دامت حجتك دائرة على :

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 73 - 76 أيضا : محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين: التقرير الحكومي العاصمي، البصائر، 1949، السلسلة 2، ع 75 ( ... آثار ... ج 2، ص 89 ، 90).

<sup>(2)</sup> لقد بين لنا هؤلاء أن هذا لم يقع إطلاقا، بل وجدنا التكميل بالفتي ابن العنابي وطرده بعد أن جرد من جميع أملاكه، ووجدنا إبطال المحكمة الحنفية والإستيلاء القصري على المساجد والأوقاف، إل غير ذلك، ومن هنا فإن ما ورد في التقرير الحكومي العاصمي من أن المفتين المالكي والحنفي سلموا المساجد إلى فرنسا لا أساس له من الصحة.



مفت يسلم. ومفت يستلم. وكلا عليهما غير مشروع، فالمفتي الأول لا حق له في التسليم. والمفتي الأخير لا حق له في الإستلام. والأول مبطل في العطاء والأخير مبطل في الأخذ، وكلاهما موظف مأجور. أقل ما يقال فيه أنه متهم، ولو كان المفتيان اللذان سلما المساجد والأوقاف إلى فرنسا مسلمين يخافان الله لما أقدموا على ذلك ولا أثر الموت شتقا على ارتكابه، وسلما الوظيفة لا المساجد.

هل تظن أن عملكما في الإستلام تكفير عن إجرامهما في التسليم أم تظن أن عمل الحكومة في التسليم كما يعد توبة لها من الغصب؟ أنتما موظفان لا تملكان لأنفسكما حرية. فكيف تحرران المساجد والأوقاف؟... إن تسليم الحكومة شيئا لموظفيها لا يكون معناه البديهي إلا تسليم الحكومة لنفسها، ومن القواعد المقررة في الفقه: العبد وما ملك لسيده، ولا يتم تحرير المساجد إلا على أيدي الأحرار<sup>(1)</sup>.

والحقيقة أن فرنسا إستعبدت المساجد ورجالها وإستغلتها أبشع إستغلال لتثبيت أركانها وتحقيق مطامعها، فسخرت رجال الإسلام الضعفاء لمصالحها، وجعلت من المساجد ميادين لإحتفالاتها بالنصر، ومن أئمتسه أسنن<sup>(2)</sup> تجهر بالدعاء لها<sup>(3)</sup>.

وما بين أهمية المساجد والخطورة على الأمة الناتجة عن إستيلاء فرنسا عليها بتسخيرها لخدمتها الإستعمارية النصرانية انه - كما ذكر مالك بن نبي - لما كانت حرب الريف على أشدها في المغرب وبلغت أوجها في الصحافة في الجزائر وفي النفوس وكانت الإدارة الفرنسية تستمر في التجنيد، وبلغ بها الأمر أنها كانت تستنفر منابر الجوامع للنداء للحرب... فنودي للحرب - أي لحرب المسلمين المغاربة لصالح النصاري الفرنسيين - من المنبر في جامع نيسة في نهاية شهر أغسطس من سنة 1925<sup>(4)</sup>. يقول مالك بن نبي: لم نعد نستطيع مع ذلك الوضع صبرا، وقد عزمنا على الرد في جلسة سرية ليلية (هو جماعة من أصحابه) فكلفوا مالك بن نبي أن يكتب نداء علق على باب الجامع ليلة الغد حوالي الساعة 12.30 ليلًا، وكانت نتيجته: إنفجرت الورقة (النداء) في ضمير الإدارة الفرنسية أكثر مما إنفجرت في ضمير المواطنين، فدر أن شرطة نيسة كانت غير كافية للتحقيق والتحرير، فأوتي بلواء قامة. ولكنهم لم يكتشفوا الفاعلين الحقيقيين، وبعد إستجواب طلبة العلم والعلماء وأنصاف العلماء جميعا في المدينة، أُلصقت التهمة بشخص صار إمام المدينة ودليل الشرطة - جاسوسا - بعد حوالي 20 سنة<sup>(4)</sup>. ولكن لم يكن له بعد من وريقات حكومية تصونه وتنفعه يوم الكريهة فضرب بالسوط ضربا مبرحا<sup>(5)</sup>.

والواقع أن فرنسا فعلت كل هذا بالمساجد ورجالها وأوقافها، لأنها أدركت "... أن كل ما يؤدي المسجد - في حكمته الإسلامية" فهو إقامة لدولة القرآن، وتشييد لمدرسة القرآن، ورفع لمنارة القرآن، وكل مختلف إلى المسجد مقيم لحقه وحق الله فيه، فهو "خريج" مدرسة القرآن، و"خريج" هذه المدرسة هم الذين قوموا

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 90، 91.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 89.

<sup>(3)</sup> وفي هذه الفترة بالذات كان كتاب صوبلح ولد معمر في العامة يقوم بنفس الدور داخل المدرسة حيث يحتوي على فصل خاص بهذه الحرب يدعو الناس أن يحتفوا تحت لسواء فرنسا فحوضها لصالحها ضد الإعتوة العارفة.

<sup>(4)</sup> وهذا تأكيد لما أورده الإبراهيمي من أن هذا النوع من الأئمة كانوا جواسيس.

<sup>(5)</sup> مالك بن نبي، الظلال، ترجمة مروان القنوان، ط 1، دار الفكر، بيروت، 1969م، ص 277، 280.

عرج الكون، وعدلوا ميل الزمان، وكانوا في هذه الدنيا نورا ورحمة. وأن المسجد لا يؤدي وظيفته ولا يكون مدرسة للقرآن إلا إذا شاده أهل القرآن وعمروه على مناهج القرآن، وزادوا عنه كل عادية. وما جعل القرآن المساجد لله إلا لتكون منبعا لهديته، وما وصف الذين يعمرن مساجد الله بأنهم لا يخشون إلا الله - إلا ليقيم الحجة على ضعفاء الإيمان ويعزلهم عن هذه المرتبة...<sup>(1)</sup>.

#### 6- تحرير الحج بعدم تدخل الحكومة في أي شأن من شؤونه

تحكمت الحكومة الفرنسية النصرانية في عبادات المسلمين ومناسكهم تحكما كليا، ومن ذلك الحج الذي تحكمت فيه بما يأتي:

- ترسل كل سنة مجموعة من الجواسيس في بعثة الحج ليوافوها بالأخبار والتقارير عن الحجاج، وبذلك تتحكم فيهم. إذ عندما يعرفون مراقبتها لهم هناك سيصبحون يخافون من ظلمهم، فلا يتصلون بإخوانهم من مسلمي العالم، فلا يعرفون مشكلات إخوانهم المسلمين ولا يستطيعون أن يعرفوهم بمشكلاتهم من الإستعمار الفرنسي.

- تشترط للأداء فريضة الحج شروطا قاسية ما أنزل الله بها من سلطان، وأول شروطها في ذلك: البراءة من التهم والإجراءات المدنية والسياسية، ومن الإجرام المدني السرقة وشهادة الزور إلخ أما الزنا وشرب الخمر والقمار، فهي في نظر فرنسا من الحلال الطيب ومن موارد الإستغلال لا تقدر في سيرة ولا منصب حتى في المناصب الإسلامية الدينية الشريفة كالقضاء والإمامة. والواقع أن شرط البراءة من التهم السابقة هو في حد ذاته يتناقض مع أهداف الحج الذي يعد من أهم الأعمال المكفرة لتلك الذنوب. وأما الإجرام السياسي فهو في نظرها: حب الوطن والعمل على نفع أبنائه، وبغض الإستعمار والعمل على مقاومته.

- حرمان المرأة من الحج بحيث لا يسمح به إلا لعدد قليل جدا من النساء.  
- حشر الحجاج في ميناء الجزائر بعد إتمام جميع الإجراءات ولكنه لا احد منهم متيقن من السماح له بالحج، وذلك في آخر ليلة قبل السفر. مما جعل من له واسطة يتشفع بها لدى فرنسا لتسمح له بالحج، وتكرر هذه المأساة كل عام.

وحل هذه المأساة يتمثل في رفع فرنسا يدها عن شؤون الدين الإسلامي<sup>(2)</sup>

#### 7- تحرير الصوم والأعياد الدينية بإبعاد الحكومة عن جميع شؤونهما

##### أو فصل رمضان والأعياد عن قاضي الجزائر

قررت فرنسا أن تلحق الصوم والأعياد الدينية الإسلامية بالمساجد والحج حتى يعمها الإستعمار ويشملها الإحتكار، فأنشأت لجنة أطلقت عليها:

لجنة الأهل والأعياد الإسلامية: وقد أسستها في سنة 1948م. وعمدت إلى قاض من أذنايبها فنصبتة رئيسا لتلك اللجنة التي اختارت فرنسا أيضا أعضائها من أذنايبها لتعمل ما تريد بأسمائهم وألقابهم، وأكملت

(1) محمد البشير الإبراهيمي، كلمتا من الأمة، البصار، 1951م، ع 153.

(2) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين، البصار، 1947م، ع 11.

ذلك بإستصدار قانون يجعل الأعياد الإسلامية رسمية تعطل فيها الأعمال والمصالح الحكومية لتضمن إبتاع العمال والموظفين لها في الصوم والإفطار، أي لما تعلقه لجنة الأهلة. فَتُصَوِّمُهُمْ فِي شَعْبَانٍ وَتَقْطُرُهُمْ فِي رَمَضَانَ.

وهكذا عَطَلَتْ فرنسا إستعبادها المساجد بإسم المفتي العاصمي. وتغطي إستعبادها للصيام والأعياد بإسم القاضي. ولا أدل على هذا من أن هذه اللجنة أصبحت عمدا تحكم بالصوم في شوال والفطر في رمضان مما يبين أنه لا مفتي ولا قاضٍ. وإنما هي الحكومة مُسْتَرْتَةٌ بهذه الأسماء.

ومن الأمثلة على هذا فإنه في عام 1949م لم تهتم لجنة الأهلة بالهلال ليلة 30 شعبان عكس جمعية العلماء، وأوعزت إلى الإذاعة من أول الليل بأن الصوم ثبت عندها ثبوتا شرعيا ولم تبين هل بالهلال أم بحساب المرصد.

وجاء العيد فوقعَت الواقعة ودبر الأمر بليل بين الحكومة ولجنتها (لجنة الأهلة) قبل ذلك على جعل العيد يوم الأربعاء. وكان التبرير: أن مرصد بوزريعة قرر ذلك وقذف إلى الإذاعة في هذا الأمر ببلاغ محضّر أعلن فيه الرأي المدير من فرنسا وهو أن العيد يوم الأربعاء، لأن مرصد بوزريعة قال: "إن الهلال لا يرى". ولكن جمعية العلماء التي أعلنت حالة الطوارئ في صفوفها بالإتصال، بجميع جهات الفطر وانتظرت إلى الساعة الثالثة صباحا، وكانت النتيجة أن الهلال رُوي بالشهادة العادلة في بلدان متعددة داخل الجزائر، فنشرت الجمعية بناء على ثبوت الرويا أن العيد يوم الثلاثاء. وبلغت القطر بجامعه، فأصبح الناس مفطرين معيدين رغم أنف فرنسا والقاضي ولجنة الأهلة. وهذا بعد الإتصال بالقاضي لإخباره. ولكنه يقول الإبراهيمي: "وذهبت أنا والأستاذ الطيب العقبي وجماعة كبيرة من العقلاء. فبدأنا برئيس اللجنة وتقدم من العقلاء من طرق الباب وأفهم القضية من وراء حجاب، فتواري ولم يرد الجواب. فتقدم الشيخ العقبي بنفسه وخاطبه بالصوت الذي يعرف. ففعل مثل ذلك. ففهم من لم يكن يفهم... حقيقة هذه اللجنة، وأنها أداة إفساد للدين وتفریق لأهله"<sup>(1)</sup>. وعينت جمعية العلماء خطباء صلاة العيد في العاصمة في أربعة أماكن فكان يوما مشهودا. ولكن "فأصبحت المساجد محاطة بشرانم من البوليس تحمي بيوت الله من عباد الله. وكانت هذه الفعلة أكبر سينات اللجنة البغيضة. ثم كانت خاتمة الفضائح ماكتبه رئيس اللجنة في ذلك اليوم في جريدة "آخر ساعة"... وقد تناولته الجرائد الفرنسية وأفاضت فيه. وقد إترف القاضي بأن المرصد قرر أن هلال شوال يولد ليلة الثلاثاء، ويبقى 18 دقيقة... ولكنه قد لا يرى لعوامل جوية، وسخر الله صاحب الجريدة لنصرة الحق، فأستخرج من شهادة المرصد أن الهلال يبقى أكثر من 50 دقيقة. وقرأ الذين سمعوا بلاغ الإذاعة هذا التناقض فقالوا: سبحان من يطبع على القلوب ليجعل للحق أنصارا من خصومه وأعدائه"<sup>(2)</sup>.

ومن الأمثلة أيضا فإن رمضان 1951م جاء يوم الثلاثاء بحيث ثبتت الروية في الإفطار الإسلامية وفي مناطق كثيرة من التراب الجزائري، ولكن اللجنة الموقرة إعتبرته يوم الأربعاء فتسببت لطائفة من

(1) محمد البصر الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين، فصل رمضان والأعياد عن قاضي الجزائر، البصائر، ص 2، 1949م، ع 89.

(2) الفصل نفسه، ع 89.

المسلمين في إنتهاك حرمة رمضان بالإفطار في يوم من أيامه الثابتة بعذر أقيح من الذنب، وهو أن الرؤية خارجية، ثم ثبت الرؤية الداخلية فلم تخبر الناس بها ليمسكوا، ورضيت لهم التمادي في الإفطار لئلا يتابعهم أجمعين<sup>(1)</sup>.

وأخبر م. نايجلان ذات يوم عن عيد إسلامي قبل دخول شهره. وقد علق الإبراهيمي على هذا قائلاً: "ومن يستطيع أن يخبر بأسماء النواب قبل يوم الإنتخاب لا يبعد عليه أن يخبر بيوم عيد يتوقف على الهلال قبل ظهور هلاله"<sup>(2)</sup>.

وهكذا كونت فرنسا "لجنة الأهلة" للتحكم في هلال رمضان فنتبته وهي في جحورها أو تخفيه وهو في كبد السماء وفقاً لرغبة فرنسا، ثم أمدت تلك اللجنة بسلاح من القانون، وهو إعتبار الأعياد الإسلامية رسمية تعطل فيها الأعمال الحكومية والمهنية والصناعية لإجبار الموظفين والعمال المسلمين على إتباع رأي لجنتها في الصوم والإفطار إذا اختلفت الآراء. وتفصل الجزائر عن الأقطار الإسلامية، وتتوصل بذلك إلى بسط نفوذها على هذا الركن. وتحاول من جديد تكوين "إسلام جزائري" وذلك بقطع العلاقة بين الجزائريين وبين العلم الإسلامي<sup>(3)</sup>. وقد علق الإبراهيمي على لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية قائلاً: " ... وهكذا تقوم الشواهد كل يوم على أنه لا ثقة بهذه المصالح والهيئات التي لا تتحرك ولا تسكن إلا بالوحي والإيعاز، ومنها مرصد (بوزريعة) الذي يعتمد عليه الشيخ القاضي، ويقول عنه لسان حاله، أنه حيث لا هلال في المرصد فلا هلال في السماء، ونحن لا نثق ببوزريعة ولا بمكبراته. ومتى كان ببوزريعة مصدر شريعة؟ ومتى كان مصدر وحي بالصوم والإفطار؟

إن الرصد علم لم يبلغ بنا الجمود أن ن فكره، ولكن الإستعمار يفسد العلم بإفساد العلماء، ويوم يجمع علماء الإسلام على الرجوع في الصوم إلى الحساب والترصيد يكون لهم في علماء الفلك منهم مندوحة عن مرصد الإستعمار التي يشيدها ويقيدها، وعن علمائها الذين لا يسميهم حتى يسممهم"<sup>(4)</sup>.

ويرى - وهو محق في ذلك - "أن حكومة الجزائر ليست مسلمة حتى يكون حكمها في شؤون الدين مقبولاً فضلاً عن أن يكون مطاعاً، وأن جميع تصرفاتها فيما يتعلق بالدين باطلة، وأن قضائتها الذين نصبتهم موظفون قانونيون لا دينيون، بدليل أن أحكامهم تستند في أكثرها على القانون لا على الدين. ولو كان للأمة رأي في توليتهم لما كان لهم سلطة على دينها. لأن أحكامهم لا تتناول العبادات، فكيف بهم والأمة لا بد لها في ولايتهم ولا رقابة على تصرفاتهم"<sup>(5)</sup>.

من كل ما سبق نتوصل إلى تلخيص الأدوار التي مر بها فرض القواعد اللائكية على الشعب الجزائري من طرف الإستعمار الفرنسي.

<sup>(1)</sup> محمد البشير الإبراهيمي، آثار ... ج3، ص 311، 312.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 304.

<sup>(3)</sup> محمد البشير الإبراهيمي، قضية فصل الدين، ومن فروعها حرم رمضان (18)، البصائر، 1951، ج157.

<sup>(4)</sup> محمد البشير الإبراهيمي، آثار ... ج3، ص 100.

<sup>(5)</sup> محمد البشير الإبراهيمي، وحدة الصوم والإفطار، البصائر، 20 جوان 1949، ص2، ع84 ( ... آثار، ج3، ص 171، 172).

### ملخص أدوار فرض اللائكية على الشعب الجزائري :

لقد مر إستعباد فرنسا للإسلام في الجزائر بعبادته ومؤسساته ورجالها ونظمه بالأدوار الآتية:  
**الدور الأول :** في بداية الإحتلال وضعت فرنسا يدها على المساجد والأوقاف وأخضعت رجال الدين الإسلامي كرها ثم ترغيبا وترهيبا، وحطمت المؤسسات الإسلامية وكذلك النظم التي وجدتها. وقد زينست ذلك للناس بعهود كتابية ووعود شفاهية صدرت عن بعض رجالها العسكريين والمدنيين مضمونها أنها تحترم الإسلام ومعابده وشعائره.

**الدور الثاني :** ويبدأ من مجئ الجمهورية الثالثة التي قررت اللائكية أي الفصل بين الدين والدولة، ولكن هذا الفصل طبق على النصرانية واليهودية، أما الإسلام فقد زادت أحواله سوءاً، بإزدياد إستعباد فرنسا له وتسخير رجاله ومؤسساته لخدمة أطماعها النصرانية الإستعمارية.

**الدور الثالث :** ويبدأ من قانون 27 سبتمبر 1907م الذي ينص بوضوح على فصل الدين عن الحكومة في الجزائر وإعطاء الناس حرياتهم كاملة في كل ما يتعلق بدياناتهم، وفهم الناس جميعاً أن ذلك إنما يعني المسلمين دون غيرهم، لأنهم هم الذين <sup>كانوا</sup> محرومين من تلك الحرية، ولكن هذا القانون لم ينفذ منه ولا حرف واحد فيما يتعلق بالدين الإسلامي، وبقيت الإدارة الإستعمارية تتصرف في المساجد وأوقافها وموظفيها، وتقبض بيد من حديد على الوظائف الدينية وتتصرفها حسب شهواتها وأهوائها. وقد أدت هذه السياسة التي يراد منها هدم الإسلام في دياره المظلومة إلى سخط عام ملأ جوانح المسلمين وأثار غضب العلماء الأحرار فرفعوا أصواتهم بطلب بعض الحق في أين ورفق، فإتهموا وعوقبوا بالمنع من تعليم دين الله في بيوت الله. وجرت بعد الحرب العالمية الأولى حوادث في تاريخ الوظائف الدينية ظهر فيها عامل جديد يتمثل في إستناد بعض الوظائف لبعض الجنود المحاربين. لا لخصوصية سوى أنهم جنود كما ذكرنا. وبدل أن تطبق الحكومة قانون 27 سبتمبر 1907م لحل المشكلة لجأت إلى التحكم أكثر في هذا الدين، وهو ما يناقض هذا القانون (قانون الفصل) - وذلك بتكثيلها لبعض هيئات دينية لايد للأمة في إختيار أفرادها وقد أسندت رئاستها في بعض الأوقات إلى النصارى. وإن هذا لمن أقيح ما وقع في هذه القضية منذ نشأتها إلى ذلك الوقت.

**الدور الرابع :** ويتمثل في تصريح الجنرال كاترو الوالي العام على الجزائر المنشور في الجرائد يوم 04 أوت 1944م<sup>(1)</sup> الذي كان صريحاً في إرجاع القضية إلى قانون 27 سبتمبر 1907م تحقيقاً لأصل فصل الدين عن الحكومة فتشوقت الأمة إلى تطبيق قانون 1907م تطبيقاً كاملاً. ولكنه ساءها وهي في حسارة الإنتظار - أن تعين الحكومة مفتي الجزائر تعيناً على النمط القديم، وفي ذلك مخالفة بينة لما فهمته الأمة من قرار الجنرال كاترو.

وكل ما سبق جعل جمية العلماء تلخص مطالبها بإسم الإسلام وبإسم الامة فيما يأتي :  
 "نحن الآن بإسم الدين وبإسم الأمة نتمسك بعبارة فصل (الدين الإسلامي عن الحكومة الجزائرية) ونريد تطبيقها على الكيفية الآتية:

<sup>(1)</sup> يظهر أن هذا التصريح لم يكن سوى معارضة للحزبين الذين كانوا ينادون من فرنسا. وهي منبهة أمام الألمان هزيمة نكراء.

أولاً : فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الجزائرية فصلاً حقيقياً بحيث لا تتدخل في شيء من شؤونه لا ظاهراً ولا باطناً، لا في أصوله ولا في فروعها.

ثانياً : تسليم ذلك كله إلى أيدي الأمة الإسلامية صاحبة الحق المطلق فيه، وتقرير سلطتهم على أمور دينهم تقريراً فعلياً خالصاً لا إلتواء فيه" وقد ذيل هذا بإقتراح الوسائل المحققة لذلك<sup>(1)</sup>.

ولكن شيئاً لم يتحقق من كل هذا. وظلت الأحوال تزداد سوءاً على مر الأيام إلى أن أخرجت فرنسا من الجزائر، فتحرر منها الإسلام كما تحرر منها أبناؤه.

هذا ما فعلته فرنسا. لكن ما ذا فعل خريجون مدارسها التبشيرية الرسمية؟ نبأ الحديث عنهم، ابتداء بدعاة الإنماج والتجنيس.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) ومن التقرير الذي قدمه مجلس إدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للحكومة الجزائرية (الفرنسية) بعد اجتماعه المنعقد في 5 أوت 1944م في المسائل الدينية الثلاث: "المساجد - التعليم - القضاء". وقد نشره واهب تركي، ملحق رقم 1 في التعليم القومي، ص 357 - 369، فمن أراد معرفة الوسائل المحققة لذلك في تصور جمعية العلماء فليرجع

## المطلب الثالث

### دعاة الإدماج والتجنيس

هم إحدى نتائج سياسة الفرنسية التي إتبعتها فرنسا لسلخ الجزائريين من دينهم ولغتهم وعروبتهم لبقائهم في الجزائر إلى الأبد. ولما كان الإستعمار يستعمل جميع الوسائل: العنف والإقناع، فإنه فرض اللاتكسية على الجزائريين قهرا كما ذكرنا، ورأى أنه لا بد من العمل على سياسة الإقناع، إقناع الجزائريين باللاتكسية لتخطيم الحاجز الطبيعي بينه وبينهم فيذوبون فيه ويفلاشون، ورأى أن أحسن من يقوم بهذا الدور هم الأهالي أنفسهم، وهي السياسة ذاتها التي إتبعها الإنجليز في مصر كما بينا أثناء حديثنا عنه إيجابا المصريين على اللاتكسية. ولكي تحقق فرنسا هذا لجأت إلى :

**فرض سياسة التجنيس:** فرضت فرنسا على الجزائريين سياسة التجنيس بمقتضى القانون الإمبراطوري الصادر في 14 جويلية 1865 م الذي نص في أحد فصوله على ان الأهلي الجزائري (فرنسي) ونص في فصل آخر على انه لا ينال الحقوق السياسية التي يتمتع بها الفرنسي الأصلي إلا إذا تجنس بالجنسية الفرنسية. وبين القانون ان المسلم الجزائري (الفرنسي) غير المتجنس تسري عليه أحكام الشريعة الإسلامية وان الجزائري المتجنس يخضع للقانون المدني الفرنسي في أحواله الشخصية. وفي عام 1919 صدر قانون آخر أبقى المسلم الجزائري مخيلا بين أمرين :

- إما أن يكون فرنسيا بلا حقوق.

- وإما ان يتجنس بالجنسية الفرنسية - التي هي جنسيته الرسمية رغم أنه - وينسلخ عن الذاتية الإسلامية لينال<sup>(1)</sup> الحقوق الفرنسية. أي إن الجزائري إذا أدار أن ينال الحقوق الفرنسية فما عليه إلا أن يندمج في الذاتية الفرنسية وذلك بتجنسه بالجنسية الفرنسية التي يتنازل بموجبها عن الأحوال الشخصية الإسلامية ويعلن خضوعه لقانون نابولين<sup>(2)</sup>. وهكذا أصبح بموجب قوانين فيفري 1919م من حق المسلم بمجرد إلتزامه بالخروج عن أحكام الشرع الإسلامي ولا سيما في الزواج والطلاق والميراث الحق في طلب الإحراز على الحقوق الفرنسية التي كان من أهمها الحصول على الثلث الإستعماري المحروم منه الجزائري غير المتجنس، وذلك إن كان المتجنس موظفا. مساواة له بالموظف الأوروبي الذي كان يأخذ علاوة تعادل ثلث مرتبه مقابل عمله في المستعمرة<sup>(3)</sup>.

**إشداد دعوة التجنيس:** اشتدت الدعوة إلى التجنيس بالجنسية الفرنسية والتخلي عن أحكام، الشريعة الإسلامية بعد مرور قرن على الإحتلال بعد الإحتفال المئوي، وذلك في عام 1930م حيث أصبح للتجنيس دعاة متحمسون من بعض الجزائريين الذين كانوا قد تجنسوا وأرادوا تكثير عددهم، فأسسوا لذلك

<sup>(1)</sup> انظر جريدة البصائر، 5 جوان 1936 م، ص 1، ع 22.

<sup>(2)</sup> راجع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 71، 72.

<sup>(3)</sup> أحمد توفيق المنق، كتاب الجزائر، ص 327.

بعض الجرائد الداعية لمبدئهم المتمثل في الحصول على الجنسية الفرنسية مقابل التخلي عن مقومات الشخصية الجزائرية: العروبة والإسلام<sup>(1)</sup>. وهنا ننتقل إلى الحديث عن هذه الجماعة المسماة:

### دعاة الإدماج والتجنيس أو جماعة النخبة:

هم دعاة تغريب كما ذكرنا قبلا في تحديد مفهوم النهضة برؤى إلى الوجود في الفترة التي ظهر فيها الإتجاه الإصلاحى، أي قبيل الحرب العالمية الأولى، وسموا أنفسهم بـ"النخبة" التي عرفها أحد أعضائها بأنها: تريات الشبان المتخرجين من الجامعات الفرنسية، القادرين بأعمالهم أن يصعدوا فوق الجماهير، وأن يضعوا أنفسهم في مصاف ناشري الحضارة الحقيقيين<sup>(2)</sup>، وقلنا في تحديد مفهوم النهضة بأن هذه النخبة رغم قلة عددها الذي لم يزد على 450 فردا في سنة 1907 م فإنهم "كانوا يعتبرون أنفسهم أقلية ممتازة منفصلة عن أغلبية ناقصة تتكون من فلاحين جهلة ومرابطين خرافيين و علماء رجعيين..."<sup>(3)</sup>

وقد تبنت هذه النخبة أفكار الفرنسيين وطريقة عيشهم وأخذوا يعملون على تغريب المجتمع ومحسوه من الوجود، وأضحوا يشعرون بسبب تعليمهم الفرنسي بأنهم قطعوا من بقية المجتمع الذي كان غريبا عنهم، ففقدوا لغتهم وإنتماهم الحضاري وإتجهوا نحو -أمهم غير الشرعية- فرنسا فتزوج كثيرهم بناتنها- لأن الجزائريات في نظرهم أدنى منهم مرتبة وأحط قيمة- وتكلموا لغتها و علموا أبناءهم في مدارسها، فضاخوا وضيعوا، وتعتقدوا بإحساسهم بأنهم فوق الجزائريين وتحت الفرنسيين<sup>(4)</sup> وإنتهى بهم الأمر إلى الدعوة للإدماج والتجنيس.

وبهذا نستطيع القول بأن سياسة الفرنسية أفلحت في تكوين هذه المجموعة القليلة من الجزائريين الذين عرفوا أنفسهم -كما ذكرنا- بالنخبة وهو المصطلح الذي أطلقته عليهم فرنسا تشجيعا لهم على مواصلة السير في طريق محاولة إدماج الجزائريين في فرنسا ودعوتهم إلى التجنيس بجنسيتها. فهم إذن جماعة تفتت بالتقافة الفرنسية فإنبهروا بمظاهر الحضارة والتقاليد الفرنسية فصاروا دعاة متحمسين للإدماج الجزائر في فرنسا والتجنيس بجنسيتها<sup>(5)</sup>. ويجب أن نذكر هنا ان مفهوم الإدماج هذا هو الخضوع والعبودية وطمس الشخصية الأبدى من عروبة وإسلام ووطنية جزائرية وأصبح الإستعمار يعتمد في تحقيق جزء كبير من سياسته الرامية إلى محو الشخصية الجزائرية على هؤلاء الذين صاروا معول هدم لشخصية بلادهم ومستقبلها السياسي وحققها في الحرية والإستقلال<sup>(6)</sup>. ولقد أعدت فرنسا هذه الجماعة إعدادا خاصا لتلعب دور الوسيط لتقريب الشقة بين من تسميهم فرنسا بـ"الجهلة والبرابرة" من الأهالي وبين الإستعمار، أي ليكونوا همزة وصل بين الإستعمار الفرنسي والأهالي الراضين لوجوده أي جعل

(1) رابع تركمي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 71 ، 72 .

(2) أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص 167 ، 168.

(3) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى أبي القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ص 167 - 170.

(4) رابع تركمي، التعليم القومي، ص 118.

(5) للمرجع نفسه، ص 118 ، 119.



مهمتهم ترويض أبناء جلدتهم وإزالة كراهيتهم لعدوهم -فرنسا- الذي سحقهم. أي جعل المجلود يذوب هياما في جلاده، وكان أمل فرنسا في هذه النخبة المسماة في الوثائق الفرنسية بإسم "انتلجنسيا" المسلمة الفرنكوفونية التي أوجدتها كبديل يعوض خدام "فرنسا الأوفياء" المعروفين بإسم العمائم القديمة (Vieux turban) وقد حدد هذا الهدف الحاكم العام الفرنسي للجزائر جول كامبو (Gules Cambon) (1891 - 1897م) -أي قبل وجود هذه النخبة- بقوله: "إنهم بمثابة هيئة أركان... مهمتهم لعب دور الوسيط بين السياسة الكولونيالية الفرنسية والأهالي الجزائريين، وقد أكد على هذا الهدف صحيفة (Le temps) فيما بعد عام 1904م ثم الحاكم العام الفرنسي جونار (jonnart) عام 1908 بقوله "إن من مصلحتنا العمل على خلق نخبة مثقفة من الأهالي، القادرة على الإستجابة لأفكارنا التقدمية والعادلة...إننا في حاجة إلى بورجوازية محافظة تساعدنا وتسهل لنا تنفيذ مخططاتنا"، وهو الذي أكده الحاكم العام موريس فيوليت (mauris violette) في عام 1932م معتبرا الطلبة الجزائريين الفرنكوفونيين خير وسيلة للقيام بدور التأثير في محيطهم الأصلي"<sup>(1)</sup> هذه النخبة هي التي توصلت في النهاية إلى فكرة الاندماج مع فرنسا، وهكذا فإن هذا التيار الذي ظهر على مسرح الأحداث قبل الحرب العالمي الأولى تبلور بعد ذلك في بعض المنظمات السياسية ابتداء من عام 1930م.

وكانت له جراندته بالفرنسية ودعائه في المحافل السياسية<sup>(2)</sup> داخل الجزائر وخارجها. وأنصار هذا التيار هم الذين أفلح الاستعمار الفرنسي سواء عن طريق الثقافة الفرنسية ووسائلها أو عن طريق العمل في إدارة الإحتلال أو بواسطة التجنيد في الجيش الفرنسي في صبغهم بالصبغة الفرنسية بحيث أصبحوا أداة في أيدي لمحاربة مقومات الشخصية الجزائرية وأهمها اللغة والثقافة، وكانت المنظمات اليسارية في فرنسا تبارك إتجاهاتهم السياسية والثقافية وتطلق عليهم اسم "النخبة" تشجيعا لهم على مواصلة السير في هذا الإتجاه المعادي للثقافة العربية القومية في الجزائر وللشخصية الوطنية الجزائرية<sup>(3)</sup>. وهنا نتساءل ما هي تشكيلة دعاة الاندماج والتجنيس؟.

**تشكيلة دعاة الاندماج والتجنيس:** هم بعض النواب المحليين، وبعض الأعيان ومن كبار الموظفين بالجزائر قالوا: "إن الأمة الجزائرية مجمعة"<sup>(4)</sup> على إعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة، لا وطن لها إلا الوطن الفرنسي، ولا غاية لها إلا الاندماج الفعلي التام في فرنسا. ولا أمل لها في تحقيق هذه الرغبة إلا بأن تمد فرنسا يدها بكل سرعة، فتلغي ما يحول دون تحقيق هذا الاندماج التام بل لقد قال أحد النواب النابيين أنه فئس عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها من أثر، وفئس عنها في الحالة الحاضرة فلم

<sup>(1)</sup> عبد الله حمادي، الحركة الطلابية الجزائرية، 1871 - 1962 (مشارب ثقافية وإيدولوجية)، ط1، الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين، قسنطينة، الجزائر، سبتمبر 1994م، ص 43 - 56.

<sup>(2)</sup> مثل هذا التيار جماعة "اتحاد المنتخمين الجزائريين" التي تدعو إلى دمج الجزائر في فرنسا (وايح تركي، التعليم القومي، هامش ص97).

<sup>(3)</sup> وايح تركي، المرجع نفسه، ص 96، 97.

<sup>(4)</sup> تلاحظ هنا البهاسة والتبجح، والتحويل من عظمتهم، وهو نفس الأسلوب الذي يتحدثون به اليوم.

يعثر لها على خبر، وأخيرا أشرقت عليه أنوار التجلي فإذا به يصيح : فرنسا هي انا! حقا إن كل شيء يرتقي في هذا العالم ويتطور حتى التصوف، فبالأمس كان يقول أحد كبار المتصوفين.

فتشت عليك يا الله \* وجدت روعي أنا الله

واليوم يقول المتصوف في السياسة:

فتشت عليك يا فرنسا \* وجدت روعي أنا فرنسا

فمن ذا الذي يستطيع بعد اليوم أن ينكر قدرة الجزائري العصري على التطور والإختراع<sup>(1)</sup>. وهنا يجب أن نذكر أنه :

عندما هاجم إبن باديس دعاة الاندماج والتجنيس في "كلمة صريحة" وبين أن "الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد ان تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة، والذي يشرف على إدارته العليا السيد الوالي العام المعين من قبل الدولة الفرنسية"<sup>(2)</sup>. أحدثت تلك الكلمة الصريحة نوباً عظيماً، فكتب إبن باديس مقالا آخر عنوانه "حول كلمتنا الصريحة" بين ذلك الدوي العظيم. وما يهمنا هنا ما ذكره عن فرحات عباس، يقول إبن باديس: "إن كلمتنا الصريحة قد وضعت الكثير من الرجال على المحك فمنهم من ظهرت نفسه من در مكنون، ومنهم من انطوت جوانبه على حما مسنون.

وإنا لنشهد أن من أكمل الرجال الذين رأينا فيهم بهذه المناسبة، الهمة العالية، وشرف النفس، وطهارة الضمير، الأستاذ فرحات عباس الصيدلي والعضو البلدي والعمالي بسطيف.

كان هذا الرجل الأبي من أهدافنا في مقالنا ( كلمة صريحة) وهو الذي أخذناه عن مقاله (فرنسا هي أنا) قلنا له ولمن معه إنكم عندما تسمعون لسياسة الاندماج، وتحبذون التجنيس، وترضون ضياع حقوقنا الإسلامية مقابل حق الانتخاب، وتريدون -خلاقا للطبيعة - أن يصير جمهور المسلمين بهذه البلاد جمهورا فرنسيا بحتا لا يختلف عن الجماهير الفرنسية في شيء، إنكم عندما تسمعون وتحبذون هذا لا تمثلوننا ولا تتكلمون باسمنا، وإنكم في واد والأمة في واد آخر. فالسيد فرحات عباس لم يتألم ولم يتكدر وسلك مسلك كبار رجال السياسة الذين يحبذون النقد وينصاعون لكلمة الحق، فزار إدارة الشهاب، وأكد لها تقديره لجهودها، وجرت له مع صاحب الشهاب محادثة دلت على سمو أدبه وعلو كعبه في عالم السياسة والتفكير. ثم نشر مقالا في جريدة (لاديفانس)<sup>(3)</sup> الصانقة الثابتة، الجسورة، يبين فيه نظريته ويشرح فيه فكرته الإجتماعية التي بنى عليها سلوكه السياسي..."<sup>(4)</sup>.

(1) عبد الحميد ابن باديس، كلمة صريحة، طر، قسنطينة غرة عرم 1355هـ - أبريل 1936م، ج1، م12، ص 45، 46.

(2) المصدر نفسه، ص 45 - 50.

(3) La defense : الداع يصدرها المرحوم الأمين العمودي .

(4) عبد الحميد ابن باديس حول كلمتنا الصريحة، طر، غرة ربيع الأول 1355هـ، جوان 1936، ج3، م12، ص 141، 142.

وإذا كان هذا موقف ابن باديس، وجمعية العلماء من "فرنسا هي أنا"، ومن صاحبها فرحات عباس ومن دعاة الإدماج، فإن هناك موقفاً آخر منهما لا يقل أهمية عن موقف ابن باديس، هو :

### موقف مالك بن نبي من دعاة الإدماج والتجنيس، أو "مالك وفرحات":

يقول بن نبي بأنه عندما قرأ عنوان مقال فرحات عباس "أنا فرنسا" إهتز هزاً عنيفاً وصدمه صدمة لم يسبق لها مثيل، وكانت الصدمة كذلك كبيرة في الوطن حسب الأنباء التي تواردت إلى باريس من الجزائر ولكن رد ابن باديس (رغم قوته) لم يشف غليل مالك بن نبي ولم يسكن ثورة علي بن أحمد فانفق السراي أثناء ندوة خاصة إنعقدت ببيت مالك بن نبي على أن يحرر مالك بن نبي بالفرنسية رداً في جريدة الأمين العمودي "الدفاع" فولد عقله ليكتب مقالا قويا جداً يرد به على فرحات عباس جعل عنوانه "متقفون أم مثقفون" وذلك لأنه كان على وعي تام مع حمودة بن الساعي بالمهزلة التي بدأت في الجزائر، ومن الإختلاس الكبير الذي بدأت خيوطه تظهر على مسرحنا السياسي منذ ظهرت عليه "إتحادية النواب" كما كان يدرك مالك ان الصراع لم يكن صراع أفكار، وإنما صراع مصالح تشرف عليه السلطات العليا، متظاهرة بمقاوته أحيانا عندما تعلن غضبها على هذا "العدو لفرنسا" أو ذلك، حتى يرى الشعب المغرور في تلك "العداوات" بطولات توجب عليه السمع والطاعة لأصحابها، يقول مالك عن المقال "لازلت أتذكر إلى اليوم، أنني صبيت في سطورهِ الجحيم الذي كان بين جنبي، فأخذ منه حمودة نسخة نسخها بيده ليقرأها على الطلبة بالحي اللاتيني، خصوصا منهم الذين على مشرب فرحات عباس، ثم أرسلت نسخة إلى الأمين العمودي للنشر في جريدته، ولكن الأمين العمودي لم ينشره، ولما ذهب وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس بعد إنعقاد المؤتمر الذي وحد جميع الجزائريين ذهب مالك بن نبي لزيارة الوفد مع حمودة بن الساعي وأخيه صالح بن الساعي وعلي بن أحمد وطالب في الطب ابن الشيخ صالح بن العابد. فسأل مالك الشيخ العمودي.

فيه ياسي العمودي ... إنك لم تنشر مقالي عن " المثقفين"؟

نعم إنني لم أنشره عن روية... حتى لا أحطم مستقبل فرحات عباس في الحلبة السياسية...

وقد علق مالك بن نبي على هذا " إن ثلث قرن قد مر على ذلك الحين، وقد تصفحت أكثر من مرة ذكريات ذلك العهد، ورأيت عن كثب النتائج السلبية لهذا التفكير الذي واجهني به ذلك اليوم على عتبة "جراند هوتيل" وعن حسن نية مدير جريدة الدفاع، إنه لم يتصور مسؤوليته في عدم نشر مقالي إلا في مستوى من ليس له أي خبرة في مجال الصراع الفكري، إذ أنه لم ير أن مقالي قد وصل على أية حال إلى علم الإستعمار وأفاده في زيادة خبرته في شؤوننا دون أن يؤدي أي دور في توعية الشعب الجزائري،

وما كانت نتيجته بالتالي إلا وبالا على صاحبه<sup>(1)</sup>. دون أي فائدة للوطن... لقد رشقت فعلا حربتي في الضباب"<sup>(2)</sup>.

ويضيف لنا مالك شينين مهمين عن هذا الزعيم فرحات عباس:

- أحدهما يتعلق بموقفه من جمعية العلماء وإعلانه قطع صلته بها وذلك بعد المؤتمر الإسلامي - مباشرة- والسبب المباشر لهذا هو اغتيال مفتي الجزائر الشيخ بن كحول. يقول مالك بعد المؤتمر وإذا بالصحافة تنقل نبأ مقتل مفتي الجزائر الشيخ بن كحول وتعزيه إلى جمعية العلماء... وإذا بالصحافة تنقل في نفس الأسبوع أن زعيم حركة "إتحادية النواب" الذي كان على رأس الوفد الجزائري عاد إلى فرنسا في زيارة خاطفة، وأنه عند نزوله من الباخرة بميناء مرسيليا قد استتظفته الصحافة :

ماهي علاقتكم بجمعية العلماء ؟

فهم الزعيم بالضبط معنى السؤال الخبيث في ذلك الجو حيث لا زالت جثة مفتي الجزائر تستلقي كل الأحاديث السياسية، فقال ردا على السؤال :

"إلا علاقة لنا مع من أيديهم مخضبة بالدم".

وقد علق مالك على هذا قائلا : " لم تكن هذه الكلمات طعنة من الخلف موجهة ضد الحركة الإصلاحية، ولكن الظرف كان يضيف عليها معنى الطعنة في صدر المؤتمر بالذات. الطعنة التي ألقته قتيلا في مهده... بعد شهر فقط من ولادته... وتبخرت في لحظة تلك الوحدة المقدسة التي ضمت في صف واحد كل القوى الشعبية بعد ربع قرن من سير حديث موفق نحوها... " ومن هنا ينطلق مالك إلى نقد العلماء في ترأسهم فرحات عباس عليهم فيقول : "والآن بعد ثلاث قرن لم يتغير حكمي في القضية: إن الظروف السانحة وضعت العلماء أمناء على مصلحة الشعب فسلموا الأمانة لغيرهم، لأنهم لم يكونوا في مستواها العلي وسلموها لمن يضعها تحت أقدامه كسلم يصعد عليه للمناصب السياسية"<sup>(3)</sup>.

ويواصل مالك بن نبي كلامه في السياق ذاته فيذكر أنه لقيه بعد سنة، أي في سنة 1937م في تبسة فيذكر : "توليت وحدي المرافعة ضد الزعيم الذي تبرأ منذ سنة في صحيفة فرنسية من جمعية العلماء التي نصبته على رأس المؤتمر الجزائري، فكان الشيخ رحمه الله - أي الشيخ التبسي - يقوم بدور المحامي عنه بدعوى أنه الرجل الأوحده، بينما كان هذا الرجل يقوم علانية بدور من ينقض الغزل كما غزله الشعب منذ ربع قرن. فيرفض كرئيس للمؤتمر، فكرة دعوته لسنته الثانية رفضا كان بمثابة إلغاء للمبدأ نفسه في فترة لم يكن العالم فيها قد عرف بعد حق "الفيثو" فانتصر الإستعمار في هذه المعركة من دون أي بذل ولا تضحية، ثم انتصر في معركة أخرى على أرض الإصلاح بالذات، يوم قرر "الرجل الأوحده" وزملاؤه من

<sup>(1)</sup> ولد سبب ذلك المقال لصاحبه حسب ما استنتجناه من خلال ما ذكره الإقصاء من النجاح في الإمتحان النهائي ليصبح مهندسا في الميكانيك والكهرباء، وذلك بعد وصول المقال إلى الجهات الاستعمارية وأهمها لويس ماسبيرون الذي كان واضعا مالك بن نبي تحت رقابته، ( مالك بن نبي، العلب، ص 231 ... )

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 231 ...

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص 222 ، 223 ، 230 ، 232 ، 233.

"إتحادية النواب" أن تقام بمدينة قسنطينة "زردة" بعد أن قضى الإصلاح على مثل هذه العادات التي كانت تشوه الدين<sup>(1)</sup>.

والواقع أنه في حين تنصبه جمعية العلماء رئيساً للمؤتمر ويرفض الأمين العمودي نشر مقال مالك بن نبي حفاظاً على مستقبله كزعيم أي حتى لا يفضحه ويحطمه نجده يجازي جمعية العلماء جزاء سمنار، فيسير في فلك الإستعمار فيتهمها بقتل الشيخ كحول إرضاء لفرنسا، ويعلن في صحيفة فرنسية تنكّره للجمعية، ويستعمل حق "الفيديو" في عدم عقد المؤتمر الإسلامي من جديد. إن مواقف جمعية العلماء منه وموقفه منها إنما يعطينا فكرة دقيقة مازالت صالحة إلى اليوم عن تربي في أحضان المسجد ومن نشأ في (وحل السياسة)، فالأول يعمل للحفاظ على الثاني، بينما الثاني يعمل على تحطيم الأول ويصعد فوق جمجمته وأشلانه لتحقيق أهدافه.

- وأما الشيء الثاني الذي بينه مالك بن نبي عن رئيس إتحادية النواب فهو دعوته الجزائريين إلى التجنيد لصالح فرنسا ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، ذلك أنه بعد إحتلال إيطاليا لألبانيا في الحرب العالمية الثانية سنة 1939م كانت "إتحادية النواب" أول من أسرع لتنظيم "يوم ألبانيا" تحت غطاء الدفاع عن الديمقراطية المتمثلة في شخص الملك أحمد زوغو، وتقرر أن يكون الإحتجاج بالمقابر الإسلامية، ووزعت في الوطن منشورات تدعو وتحث على ذلك. يقول مالك: " فبدأت لي منذ اللحظة الأولى هذه الفكرة، بما تتضمن من إثارة للعاطفة الدينية - غريبة عن تلك الرؤوس الفارغة التي لم تنتج يوماً من الأيلم فكرة محكمة واحدة للوصول في الميدان السياسي لأهداف مهمة بوسائل بسيطة، ولم يبق عليّ إذن إلا أن أفسرها في نطاق المخطط الذي وضعته السلطات الإستعمارية العليا لمواجهة الموقف الدولي الجديد... ولم أكن فيما اعتقد وحدي. غير أن الصف الإصلاحية كان ممزقاً بين مخافة القمع العنيف المحتمل من طرف الحكومة وبين عاطفتهم الوطنية"<sup>(2)</sup>.

وهنا نتساءل عن هذه الحركة التي يرأسها فرحات عباس، وهي : حركة إتحاد المنتخبين المسلمين أو إتحادية النواب : كانت هذه الحركة من الداعين إلى الإندماج، وقد نشأت في عام 1930 عن طريق تجمع بين النواب الجزائريين في المجالس العمالية الثلاث. وقد أعادوا تكوين هذه الهيئة في عام 1930م - أي بعد الإحتفال المنوي مما نعتقد أنها نتيجة له - التي كان الأمير خالد قد أسسها بعد الحرب العالمية الأولى<sup>(3)</sup>. وقد بحت أصوات هؤلاء النواب في المناداة بوجوب التآخي والتضامن مع الفرنسيين لأجل الإحراز على نفس الحقوق بواسطة فرنسا وحدها ولو بتضحيتهم بالشخصية الإسلامية... وفي أقوالهم أمام وزير الداخلية وكتاباتهم كلها على هذا المنوال<sup>(4)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 257، 258.

(2) المصدر نفسه، ص 306، 307.

(3) ولكن الأمر عائد طالب بالمساواة لا بالإندماج، وطالب بالحفاظ على الشخصية الإسلامية (رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 57).

(4) عبد الحميد بن باديس، سياسة وعز الدهايس، ط، غرة ذي الحجة 1354 هـ / مارس 1936، ج 12، ص 11، ج 11، ص 680 - 686. عن عمار طلي، ابن باديس حياته وآثاره، ج 3، ص 301.

وكان من زعمائها الدكتور محمود بن جلول والصيدلي فرحات عباس - كما مر - والدكتور الأخضرى والدكتور ربيع الزناتي وغيرهم<sup>(1)</sup>.

وكانت جل مطالب هؤلاء النواب الذين تجمع بينهم الثقافة الفرنسية العالية تنصب في المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين في الحقوق السياسية والاجتماعية والثقافية، أي تحقيق الإدماج. وبعبارة أخرى الحصول التدريجي على الحقوق الفرنسية للجزائريين عن طريق الإدماج في فرنسا. وهم قسمان:

أحدهما: " يطالب بالإندماج مع الحفاظ على الشخصية الإسلامية المتمثلة في قانون الأحوال الشخصية الإسلامي<sup>(2)</sup> (قانون الأسرة). ونلاحظ نحن أن هذا القانون كان محورا جوهريا تدور عليه الأحداث ويخطط وينفذ الإستعمار لتدميره منذ الإحتلال إلى خروجه، وتبناه أتباعه بعد الإستقلال، وما زال محورا إلى اليوم، ويرى أصحاب هذا الإتجاه أن الإدماج هو الخطوة الأولى للوصول إلى مرحلة تقرير المصير كما يرى فرحات عباس<sup>(3)</sup>. وهيئة المنتخبين تتبنى برنامج " موريس فيوليت" وزير الدولة في حكومة الجبهة الشعبية سنة 1936 الذي ينادي بإعطاء الجنسية الفرنسية لعدد محدود من الجزائريين بدون التزامهم بالتخلي عن قانون الأسرة الإسلامي<sup>(4)</sup>. وهذا يعني إعطاء هذا الإمتياز للنخبة دون العامة. وهو ما يتوافق مع ما ذكرناه قبلا من جعلهم واسطة بينهم وبين الأهالي المسحوقين وتحبيب فرنسا، وهو ما قرره قبلا رجال التبشير والإستعمار وقد ذكرنا أن تحبيب الاهالي في الإستعمار هدف من أهداف المبشرين. ومع كل هذا فإن هذا النوع حسب أحمد بن نعمان، بقي مرتبطا بواقعه الإجتماعي محافظا على وطنيته وعقيدته الدينية مع الإمام بالمستوى المتاح له من اللغة العربية، وقد إتخذ هؤلاء من اللغة الفرنسية وسيلة وليس غاية في ذاتها ( وهي حسبه أيضا تجربة صعبة لا تتجح إلا مع الأقلية من أصحاب الوعي العالي) وخرج من بين هذا النوع عدد معتبر من الزعماء الوطنيين والكتاب الذين خاطبوا الإستعمار بلغته وكافحوه في المجال السياسي والفكري والعسكري منطلقين من المبادئ الوطنية والقومية التي كان يتمسك بها المجتمع الجزائري طيلة عهد الإحتلال<sup>(5)</sup>.

ونحن نرى أن هذا القسم ينقسم إلى نوعين، أحدهما هذا الذي ذكر ومنه في نظرنا فرحات عباس. وثانيهما أنه أثناء الكفاح التحريري كان ظاهره ما سبق، ولكنه بعد ذلك أو حتى أثناءه إرتد على أعقابيه متأثرا بالموروث الثقافي الذي تشبع به من الإستعمار، زاده ذلك تطرفا الزواج بالفرنسيات إلى حد ذهاب بعضهم إلى القول بأن الطفل الجزائري عندما يخرج من بطن أمه يجب ان تلقنه أمه بالفرنسية بحجة أن العربية

(1) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص 64.

(2) المرجع نفسه، ص 65.

(3) فرحات عباس، ليل الإستعمار، ص 154 ، 156.

(4) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص 65.

(5) أحمد بن نعمان، التعريب، ص 187.

سيتعلمها في الشارع. ولسنا ندرى كيف يبقى شارع يتكلم العربية إذا طبقنا هذه الفلسفة التي تجعل جميع الأمهات يلقن أبناءهن بالفرنسية بمجرد خروج أطفالهن من بطونهن<sup>(1)</sup>.  
وثانيهما : يتكون من جماعة صغيرة من إتحاد النواب، وعلى رأسها الدكتور زناتي صاحب جريدة "سرت الأمل" التي كانت تصدر في قسنطينة بالفرنسية. وعمر قندوز صاحب جريدة "سرت المتواضعين" التي كانت تصدر في العاصمة بالفرنسية.

تطرف هؤلاء - في حب فرنسا - فأصبحوا ينادون بالتجنيس الكامل للجزائريين بحيث يصبحون فرنسيين في كل شيء بما في ذلك التنازل عن الشخصية الجزائرية وقانون الأسرة الإسلامي<sup>(2)</sup> وبهذا كانت هذه الطائفة تطبق عليها جميع الصفات والأحكام التي أطلقت عليها. فقد تفرست وحرابت لغتها القومية وإحتقرت أبناء وطنها وإنجذبت كلية نحو الثقافة والحضارة الأوروبية، وكادت تدوب في المجتمع الفرنسي على الرغم من أن الأوروبيين المستعمرين في الجزائر كانوا ينظرون بعين الإحتقار إلى كل جزائري مهما قلدهم، ومهما أظهر ولاء لهم ومهما تبرأ من أصله. في الوقت الذي كان ينظر هؤلاء المتفرنسون بنفس النظرة إلى أبناء وطنهم باعتبارهم محافظين متخلفين همجيين<sup>(3)</sup>. وهذا في نظرنا نجاح باهر حققه الإستعمار بسياسة الفرنسية ومحاربة لغة القرآن. إذ كان الإستعمار هو الذي يطالب بالتجنيس والإندماج إلى حد إصدار قانون سنة 1865م وقانون 1919م والجزائريون يرفضون، فأصبح الجزائريون أنفسهم يطالبون بما كان يطلبه الإستعمار ويريدوه والمعمرين يرفضون.

وكانت هذه الجماعة تتادي لفكرتها عن طريق الصحافة المفرنسة التي كان بعض أفرادها يصدرونها كما ذكرنا قبلا ، كما كانت تطالب بتحقيق الإندماج في المجالس العمالية التي كان أفرادها أعضاء فيها<sup>(4)</sup>.  
وخلاصة هذه الطائفة من دعاة الإندماج والتجنيس المطالبة بالمساواة مع الفرنسيين مقابل السكوت التام عن الدين واللغة<sup>(5)</sup> أي التفریط في الأحوال الشخصية الإسلامية واللغة العربية والدين الإسلامي ككل.  
**سبب انحراف هذه النخبة أو الطائفة:** هو نقصان الوعي الوطني والإستجابة لعاطفة اللذة والسعي وراء الكسب المادي على حساب المبادئ القومية مما جعل ابن باديس يحذر منها

(1) وقد صرح مصطفى الأشرف بهذا جهارا نهارا ووقعت بينه وبين عبد الله شريط مساحلات، الأول يكتب في جريدة الجهاد بالفرنسية والثاني يرد عليه في جريدة الشعب بالعربية وذلك في سنة (1978)، ومصطفى الأشرف متزوج بأحنية مولودة بالأرجنتين هي : ماد زوريدة المولودة في 28 غشت 1942م ببيونس ايرس (الأرجنتين)، وقد أعطيت الجنسية الجزائرية بقرارات 2 أبريل 1968. (الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، 17 ماي 1968م، ع 40. (السنة 5، ج 1، 1968، ص 705).

(2) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص 64.

(3) أحمد بن نعمان، التعريب، ص 187.

(4) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص 65.

(5) عبد الحميد ابن باديس، المرمر الجزائري الإسلامي العام بمحقق مبادئ الشهاب، غرة ربيع II 1355هـ - جويلية 1936م، ج 4، م 12، ص 214، ونسجل هنا أن ابن باديس لم يصنف في مقاله هذا دعاة الإندماج والتجنيس ويضع هؤلاء في الطائفة الثانية، ونحن الذين أدرجنا كلامه هنا لأنه ينطبق على هذه الطائفة أكثر من إنطباقه على الطائفة الأولى، وإن كانت الطائفة الأولى قد يوجد في أفرادها من يتبنى هذا الموقف.

- ويبين حقيقة نفسها- بقوله: "الخطر كل الخطر الذي يواجه الشعب الجزائري من هضم هذه الطبقة لحقوق لغة البلاد، ولعل السبب في هذه النزعة المرتكزة على غير العقل والوعي الصحيح هو إخفاق هذه الطبقة في مساعيها، حيث أنها لم تجد أية ثمرة مادية من اللغة العربية، فشاءت من ثمة أن يقتصر الأبناء على تعلم اللغة الضامنة للعيش واليسر"<sup>(1)</sup>. وكلام ابن باديس هنا يشمل الطائفتين.

ولخطورة هذه الطائفة يجدر بنا أن نشير إلى موقف الجزائريين منها عامة وسكان بلاد القبائل خاصة ثم موقف الفرنسيين شعبا وإدارة، ونختتم ذلك بموقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

موقف الجزائريين من التجنيس: لقد لقيت طائفة المتجنسين معارضة شديدة من الجزائريين، لأنهم اعتبروها مقدمة لسلخ الأمة من مقوماتها الأساسية وهي: العروبة والإسلام والوطن، فنجد كل الفئات الإسلامية تنفر من التجنس وتعتبر المتجنس الذي أطلقوا عليه مصطلح "أمطورني" مرتدا.

موقف سكان بلاد القبائل من التجنيس والمتجنسين: هو الموقف نفسه الذي وقفه إخوانهم الآخرون في مختلف جهات الوطن غير أنهم إمتازوا عنهم بالجانب العملي مما يدل على قوة إيمانهم وشدة تمسكهم بالإسلام. ويتمثل الجانب العملي في وقوع حوادث شهيرة في بلاد القبائل منها:

- إمتنع الطلبة من تلاوة القرآن الكريم وأداء صلاة الجنازة على الأموات المتجنسين، وهو ما أورده العلامة الزواوي الشهير الشيخ السعيد أبو يعلى.

- لقد رأى أحمد توفيق المدني رأي العين في العاصمة بعض العائلات الكبرى المرتبطة مع بعضها البعض برباط المصاهرة والقرابة منذ القدم: ترفض أن تزوج بناتها من أبناء الذين تجنسوا منها<sup>(2)</sup>.

موقف الفرنسيين شعبا وإدارة من المتجنسين: لقد ظل المتجنسون كغيرهم ممن لم يتجنسوا محتقرين ولا يتمتعون من الحقوق الفرنسية إلا بأقلها، ومن ذلك منعهم من المشاركة في شراء أرض الإستعمار فإنها لا تحق إلا للفرنسي الأوروبي فقط. كما منعوا من نيل كثير من الإمتيازات الأخرى التي كانت مخصصة للفرنسي الأوروبي خاصة دون الجزائري المتجنس. وهكذا أصبح المتجنسون طبقة ثالثة في الجزائر، فلا ظلوا جزائريين ولا صاروا فرنسيين. فالجزائريون يزدادونهم ولكنهم في مقابل ذلك لم يسمح لهم بأن يصيروا فرنسيين، فأصبحوا لا جزائريين ولا فرنسيين، وأصبحت الجزائر تتكون من طبقة الفرنسيين في قمة السلم، تليها طبقة المتجنسين ثم طبقة الأهالي.

ولكن الضربة القاسية التي نالها التجنس كانت إثر حوادث إنتخابات المتلع، وهي مدينة صغيرة في بلاد

(1) عبد الحميد ابن باديس، مستقبل اللغة العربية في الجزائر، مجلة الشهاب، 5 / 12 / 1929م، عن أحمد بن نعمان، التعريب، ص 187.

(2) أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 328.



القبائل أكثر أهلها متجنسون، فلما وقعت الانتخابات الأخيرة<sup>(1)</sup> تقدم الأهالي بقائمة خاصة بهم وتقدم المتجنسون بقائمة فرنسية. وبعد نتائج الانتخابات أصبح المجلس البلدي بمقتضاها مكونا من أقلية فرنسية أوروبية وأكثرية قبايلية بين أهالي ومتجنسين. فحال الأمر الإدارة الإستعمارية وقدمت القضية إلى مجلس العمالة في مدينة الجزائر. فلم يكتف هذا المجلس بإلغاء الانتخابات فحسب، بل قرر إلغاء المجلس البلدي نفسه في المقلع وعلل قراره بأن وجود أغلبية إسلامية بالمجلس البلدي حتى ولو كانت متجنسة يضر المصلحة الفرنسية ويقضي على سياسة التفوق<sup>(2)</sup>. هذا هو موقف فرنسا من المتجنسين الذين أسسوا جمعية لتكثير عددهم والمطالبة بحقوقهم، ولكنه كما يقول المثل الجزائري " العربي عربي ولو كان الكولونيل بن داود".

و الآن نتوصل إلى موقف جمعية العلماء من دعاة الإدماج والتجنيس.

**موقف جمعية العلماء من سياسة الإدماج والتجنيس وكيفية مقاومتها لدعاة تلك السياسة:**

تعد جمعية العلماء أهم من قاوم سياسة الإدماج والتجنيس وأرجعت كثيرا من أصحاب هذه الدعوة بشقيها ولا سيما ابن باديس. فجمعية العلماء هي المنظمة الوطنية التي يعود إليها الفضل الأكبر في تجنيب الجزائر من مخاطر سياسة الإدماج والفرنسة التي كان يدعو إليها من سبق ذكرهم وغيرهم فسي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين ويعمل الإستعمار من ناحيته على فرضها على الجزائريين بكل الوسائل وفقا لما يخدم مصلحته لا مصلحة الجزائريين فحال أمرهم جمعية العلماء بعد تكوينها في 1931م<sup>(3)</sup> فشنت على التجنيس ودعااته حملة قوية بواسطة الخطابة والندوات والدروس العامة، ثم بواسطة جريدتها البصائر التي أصدرتها في عام 1935م ومن ذلك فقد كتب رئيس تحريرها الطيب العقبي إفتتاحية قوية بعنوان " مكنم الصرعية في التجنس والمتجنسين" ورد فيها " التجنس - بمعناه المعروف في شمال إفريقيا - حرام، والإقدام عليه غير جائز بأي وجه من الوجوه، ومن إستحل إستبدال حكم واحد من أوضاع البشر وقوانينهم بحكم من أحكام الشرع الإسلامي فهو كافر مرتد عن دينه بإجماع المسلمين. لا يرجع إلى دائرة الإسلام وحظيرة الشرع الشريف حتى يرفض رفضا باتا كل حكم وكل شريعة تخالف حكم الله وشرعه المستبين"<sup>(4)</sup>.

كما كتب الشيخ العربي التبسي رئيس لجنة الإفتاء بالجمعية إفتتاحية في البصائر تحت عنوان " التجنس كفر وإرتداء" ورد فيها ما يأتي: "... فهؤلاء المبتدعون للتجنس على لرك الحقيقة الإجتماعية الدينية " من كثر سواد قوم فهو منهم" فيكون التجنيس غزوا للعقائد الإسلامية ومحاولة لتكفير المتجنس بطريقة تستهوي الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، وأنا أتحقق كما يتحقق كل عاقل أن هذه المكفرات لا يفعلها من ربي في أحضان الإسلام... التجنس أي صيرورة المسلم من جنس غير المسلمين برفضه لأحكام الإسلام

<sup>(1)</sup> هذه الانتخابات وقعت في حدود الفترة 1929م و 1930م، وذلك لأن كتاب توفيق المدني الذي أورد الحديث عنها فيه طبع في سنة 1931م.

<sup>(2)</sup> أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 328 ، 329.

<sup>(3)</sup> وذلك لأنهم ظهروا بقوة بعد الاحتفال المفري كما ذكرنا قبلا.

<sup>(4)</sup> الطيب العقبي، البصائر، ع77، من رابع تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص 72.

الإلهية وإيثاره لأحكام وضعية بشرية، حتى أنه يصير من يوم إمضائه للعقد القاضي بارتحاله من أسرة الإسلام إلى أسرة غيره - لا حق له في الإسلام وتشريع... لأنه تركها مختاراً راغباً في سواها كارهها لها، وأين ذلك من قوله عز وجل في كتابه المحكم " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً"<sup>(1)</sup>. فهل ينطبق هذا الحكم على المتجنس؟ اللهم لا<sup>(2)</sup>.

ولقد أشرنا قبلاً إلى موقف ابن باديس.

وقد ختمت جمعية العلماء حملتها ضد التجنيس والمتجنسين بإصدارها فتوى دينية بتكفير كل من يتجنس بالجنسية الفرنسية ويتخلى عن أحكام الشريعة الإسلامية. وقد أصدرها رئيس الجمعية ابن باديس وصادقت عليها لجنة الإفتاء بالجمعية ونشرتها جريدة البصائر لسان حالها. فأحدثت هذه الفتوى صدى كبيراً في كل من تونس والجزائر والمغرب، وكانت ضربة قاضية على التجنيس والمتجنسين في أقطار المغرب العربي كله.

### نص الفتوى

"التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة، ومن رفض حكماً واحداً من أحكام الإسلام عد مرتداً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع، والمتجنس - بحكم القانون الفرنسي - يجري تجنسه على نسله فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من أشد الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجاً عن شريعة الإسلام بسبب جنائته، فإذا أراد المتجنس أن يتوب فلا بد لتوبته من إقلاع كما هو الشرط اللازم بالإجماع في كل توبة، وإقلاعه لا يكون إلا برجوعه للشريعة الإسلامية، ورفضه لغيرها، ولما كان القانون الفرنسي يبقى جارياً عليه. رغم ما يقول هو من رجوعه، وإقلاعه لا يتحقق عندنا في ظاهر حاله - وهو الذي تجري عليه الأحكام بحسبه - إلا إذا فارق البلاد التي يأخذه فيها ذلك القانون إلى بلاد تجري فيها الشريعة الإسلامية. قد يكون صادقاً في ندمه فيما بينه وبين الله، ولكننا نحن في الظاهر الذي أمرنا بإعتباره في إجراء الأحكام لا يمكننا أن نصدق أنه ما يزال ملبساً لما ارتد من أجله من أحكام تلك الجنسية، ولهذا لا نقبل توبته ولا تجري عليه أحكام المسلمين"<sup>(3)</sup>.

وبعد صدور هذه الفتوى وانتشارها بين الناس فزع المتجنسون والاستعمار فزعاً كبيراً لأنها كانت بمثابة المعول الذي حطم كل آمال المتجنسين، وكذلك سياسة الاستعمار في العمل على حمل الجزائريين على التجنس بالجنسية الفرنسية والتخلي عن الإسلام. ومن هنا تتجلى براعة جمعية العلماء في محاربة سياسة التجنيس ثم القضاء عليها في نهاية المطاف.

وقد إتبع الجمعية في محاربة تلك السياسة سبيلين هما :

(1) النساء / 65.

(2) العربي التبسي، البصائر، 14 جانفي 1938م، السنة 3، ع 95، ص1، عن رابع تركي، الشيخ ابن باديس، ص 72 ، 73.

(3) عبد الحميد ابن باديس، البصائر، 12 ذو القعدة 1356هـ - 14 يناير 1938، ص3، عدد 95، ص2.

1- أنها أصدرت فتوى دينية شرعية بتكفير كل من يتجنس بالفرنسية ويتخلى عن أحكام الشريعة الإسلامية، وبالتالي حرمانه من الصلاة عليه عند وفاته ومن دفنه في مقابر المسلمين، وهي الفتوى السابق ذكرها.

2- الوسيلة الثانية لمحاربة المتجنسين هي العمل على نشر الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر وبعث روح الاعتزاز بالتراث العربي الإسلامي في نفوس الجزائريين مما يجعلهم يتجهون حضارياً إلى المشرق لا إلى فرنسا<sup>(1)</sup>.

وهكذا استطاعت جمعية العلماء إفشال سياسة الإدماج والتجنيس، وهنا لا نهضم دور الحركة الوطنية ككل التي كانت تبث في أذهان الجزائريين فكرة الإستقلال مما جعل فكري الإدماج والتجنيس ينتهي دورهما والدعوة إليهما في الجزائر ببداية الحرب العالمية الثانية حيث اجتازت الحركة الوطنية أنصاف الحلول وأنصاف المطالب لتقريب -ولو ظاهرياً- من برنامج حزب الشعب الجزائري الذي يقادي بالإستقلال<sup>(2)</sup>.

وهنا نقدم ملاحظات هي :

1- لقد شغلت الفكرة الجزائرية فترة من الزمن، وكان يجب أن تستغل هذه الفترة في محاربة الإستعمار الفرنسي لا في الدعاية لمشروعه، ورغم أن الفكرة فشلت كمشروع بديل عما كانت تطرحه الحركة الوطنية بشقيها الإصلاحي والسياسي (جمعية العلماء ومالك بن نبي وحزب الشعب) وهو الإستقلال القام إلا أنها اختفت في الظاهر لتستمر في الخفاء لتتسلل إلى مراكز القرار إن على مستوى الثورة أو على مستوى الدولة، وظلت هذه العناصر ومن تربى على شاكلتها يحاربون اللغة العربية ويكرسون الفرنسية، ويعملون بلا هوادة على إلغاء قانون الأسرة الإسلامي وإنتهاء الجزائر الحضاري والمصيري إلى الأمة العربية والعالم الإسلامي<sup>(3)</sup>. وهذا يعني بوضوح أن ما كانت تطالب به فرنسا والجزائريون يرفضونه عبر فترة الإحتلال أصبح بعض الجزائريين أنفسهم متصوفين فيه، وهم من يسمى اليوم بالإستتصاليين، ويختلف هنا مع رابح تركي الذي ذكر بأنه من الأدلة على الفشل للذريع الذي لفته فكرة التجنيس أنه منذ الحرب العالمية الأولى حتى عام 1936م، لم يتجنس سوى 6 آلاف فقط<sup>(4)</sup>. ونحن نرى أن هذا العدد كبير جداً مما يدل على نجاح سياسة الفرنسية، لأن العدد لا يحسب لوقته وذاته، بل أيضاً لما سينتج من أجيال بالتوالد وما ينشر من أفكار في وسطه الإجتماعي. وهذه هي السياسة التي يعمل لها المبشرون والمستعمرون. فهم ينظرون إلى المستقبل البعيد وليس بالضرورة أن يجنو ثمره في التو. ولقد أشرنا قبلاً إلى ما بينه دوفوكو من أنه لا يهدف إلى الأنجلة مباشرة لأنها غير ممكنة، ولكنه يهيئ الأجيال لها.

(1) رابح تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص 74 ، 75.

(2) رابح تركي، التعليم القومي، ص 118، 119.

(3) المرجع نفسه، ص 118، 119.

(4) رابح تركي، الشيخ عبد الحميد ابن باديس، ص 65.

4- فكرة الإندماج والتجنيس فرنسية محضة منشأ ورعاية وتوجيها، أنتجها الفرنسية والمبشرون على السواء، ومن الأدلة على هذا أنه أثناء مقابلة وفد المؤتمر الإسلامي العام الجزائري في سنة 1936م و16 أبريل 1937م لرجال الحكومة الفرنسية ولجنة البحث البرلمانية الفرنسية كانت الأسئلة التي طرأها مختلف رجال الحكومة ولجنة البحث البرلمانية على أعضاء الوفد تتمحور حول رفض الجزائريين للإندماج وتمسكهم بقانون الأسرة، ولما كنا قد اشرنا قبلا إلى ما يتعلق بما طرح على هيئة من جمعية العلماء المكونة من ابن باديس والإبراهيمي وغيرهما مما يتعلق بقانون الأسرة الإسلامي، فإننا نشير هنا إلى أنه من الأسئلة التي طرحها رئيس لجنة البحث البرلمانية الفرنسية التي شكلتها فرنسا لدراسة مطالب المؤتمر الإسلامي على الهيئة السابق ذكرها من جمعية العلماء يوم 16 أفريل 1937م: سؤال عن مقاومة الجمعية للإندماج، وكان جواب ابن باديس كما يأتي :

'... أقول لكم كما أصرح دائما - : إننا عرب مائة في المائة ومسلمون مائة في المائة، لا نتنازل عن شيء من ذلك... '(1). وهذا الجواب ضرب لفكرة الفرنسية والإندماج والتجنيس واللائكية ودعاة الحركة البربرية. ويزيد دور فرنسا وضوحا في القضية أن موقفها من المطالبة بالحفاظ على الشخصية الإسلامية كان دائما الرفض والتمجيع(2). ومما يؤكد هذا ما حدث بين وفد المؤتمر الإسلامي السابق ذكره وأعضاء الحكومة الفرنسية، فإن وزير الحربية على سبيل المثال (م. دالديه) وهو من يمين الراديكال قال لأعضاء الوفد " بأنه لا يمكن أن يوافق على إعطاء النيابة بالبرلمان ما دمننا - الجزائريين - محافظين على الشريعة الإسلامية في حقوقنا الشخصية، وصرح بأنه يكون من المعارضين إذا عرضت المسألة في البرلمان"(3)(4).

ونختم هذا بالإشارة إلى أن (م. فيوليت) صرح لوفد المؤتمر أثناء مقابله لهم بأن فرنسا تحارب اللغة العربية لأنها تعرقل الإندماج التدريجي(4).

وخلاصة هذه الحركة (الإندماج والتجنيس) أنها حركة فرنسية محضة تقوم على ثلاث دعائم:

أ- اللائكية (رفض قانون الأسرة) لإزالة الحاجز الطبيعي الحامي للسكان من التلاشي، أي عامل المقاومة الطبيعي.

ب- الفرنسية : أي محاربة اللغة العربية لإرتباطها بالقرآن مما يجعلها عائقا أمام التلاشي.

ج- الإستعمار الأبدي: بالتخلي عن فكرة الوطن الجزائري والذوبان في فرنسا الإستعمارية كخدم.

(1) عبد الحميد ابن باديس، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أمام لجنة البحث البرلمانية، البصائر، 7 ماي 1937م، ص2، ع66، ص2.

(2) المصدر نفسه، ص1، 2.

(3)(4) المصدر نفسه، ص1، 2.

## المطلب الرابع

### اللائكية عند دعاة الحركة البربرية

لقد تطرقنا أثناء حديثنا عن أيديولوجية ما سمي بحزب الشعب البربري إلى أيديولوجية الحركة البربرية فذكرنا أن عمودها الفقري، رفض الإسلام وعروبه وإعتبارهما دخيلين إستعماريين يجب محقهما وإزالتها، وقد بينا علاقة هذه الحركة بالمنصرين من جهة والإستعمار الفرنسي من جهة أخرى، ومن النتائج التي توصلنا إليها هناك: علاقة التلازم بينها وبين اللائكية الملحدة فيما يخص الإسلام، وقد ظلت هذه الإيديولوجية هي المستحوذة على دعاة هذه الحركة بل وتزداد إستفحالا وتطرفا مع الأيام، وهو ما رأيناه أثناء حديثنا عن إنشاء الأكاديمية البربرية بباريس. ولقد أصبحت تقدم المخططات المضبوطة الدقيقة لتحطيم الإسلام ولغته نهائيا وهو ما رأيناه في محاضر ملتقى إيكورن، ولقد توصل دعاة هذه الحركة إلى مرحلة من التمكين والتمكن جعلتهم يمنعون بقوة القانون وجود الأحزاب الإسلامية في الجزائر كما بينا أثناء حديثنا عن مكاسب الحركة البربرية بعد أحداث أكتوبر 1988م، وبهذا فإن اللائكية تعد إحدى خواص الحركة البربرية التي يمكن تقسيم دعوتهم إلى اللائكية إلى قسمين:

أحدهما: عملي، وتقوم به الأحزاب البربرية كلها، وأهما FFS و RCD. والآخر تنظيري وهو الذي يفتنه للحركة البربرية خاصة ولللائكي الجزائري والعرب عامة المتبنون للإستشراق الكنسي، وذروة سنامهم أركون، وستعرض إلى الإتجاهين، موجزين للأول ومركزين على الثاني، وذلك لأن الإتجاه الأول في نظرنا ليست له أي دعامة شعبية أو فكرية قوية نابعة من ذاته سوى الإقليمية العنصرية المترعة في أحضان المبشرين من جهة وفرنسا الإستعمارية من جهة أخرى.

أما الإتجاه الثاني فإنه يحاول ان يجعل تصوره مقبولا من الناحية العلمية، مقتديا بأثار المستشوقين ورجال الإكليروس. ونعتقد أنه يحتوي على جديد من حيث الطرح والتصور، ذلك أنه لا يحاول تقديم اللائكية كنظام حدائي فحسب، بل يعمل على إقناع المسلمين بعدم صحة القرآن. أي يريد تحقيق اللائكية ليس بالدعوة إليها مجردة مباشرة، بل بالعمل على تحطيم الظاهرة القرآنية بإقناع المسلمين بعدم أصلها الإلهي، وبأن قرآن محمد - صلى الله عليه وسلم - قد ضاع كله وأعاد المسلمون كتابة قرآن جديد أثناء الصراعات السياسية بينهم وفقا لما يخدم مصالحهم السياسية فتشكلت بذلك الظاهرة القرآنية مثل الإنجيل تماما خلال 4 قرون الأولى للإسلام.

## الاتجاه الأول

ونشير فيه إلى ثلاث قضايا أساسية هي: 1- منع قيام الدولة الإسلامية. 2- إقامة الدولة اللائكية. 3- إلغاء قانون الأسرة الإسلامي.

### 1- منع قيام الدولة الإسلامية :

يتفق دعاة الحركة البربرية على منع الدولة الإسلامية من أن تقوم بجميع الوسائل السلمية والعنفية، بما في ذلك التدخل الأجنبي الغربي النصراني، لا يخفون هذه الحقيقة بل يصرحون بها في الجرائد والقنوات التلفزيونية المختلفة و المنتديات. وفي حملاتهم الانتخابية، ومن الأمثلة على هذا، فقد صرح سعيد خليل<sup>(1)</sup> -ممثل FFS ومرشحه في مدينة تيزي وزو للانتخابات البرلمانية لسنة 1991م- في التلفزيون الجزائري في إطار الحملة الانتخابية يوم السبت 07/12/1991م قائلاً بالحرف الواحد مينا برنامج حزبه: " لا للجمهورية الدينية المتطرفة". كما أن FFS يعد أول من نظم مسيرة ضد إقامة الدولة الإسلامية في الجزائر، بعد نجاح الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الانتخابات البرلمانية لسنة 1991م وهي المسيرة التي نظمت يوم 2 جانفي 1992م ابتداء من الساعة الواحدة زوالاً، انطلاقاً من شارع جيش التحرير إلى ساحة الشهداء بالجزائر العاصمة. وقد دعا إلى هذه المسيرة آيت أحمد نفسه ونشر نداء آيت أحمد في صفحات كاملة لجرائد وطنية، منها جريدة المساء في عددها 1944، وقد تضمن نداؤه ما يلتي: "إني أخاطب فيكم ضمائركم، وذكاءكم وقلوبكم من أجل رفض حتمية الدولة الأصولية بعد رفضكم للدولة البوليسية وقطع الطريق أمام كل القوى التسلطية"<sup>(2)</sup>.

وهذا رغم علمه وقناعته بأن الذين رفضوا الدولة البوليسية في زعمه لم يعطوا أصواتهم له، بل كانت أكثر من مليون ونصف من الأصوات لصالح الحزب الذي كان يحكم تلك الدولة البوليسية -حسب زعمه- وهو ما يدل على أنها لم تكن دولة بوليسية، بل وطنية شعبية. ولقد وصل به الأمر إلى تحريض الأوروبيين لمنع الدولة الإسلامية من أن تقوم في الجزائر، بل وإزالة النظام الحاكم في الجزائر -ولو بالتدخل العسكري المباشر مساندة له- وذلك لإبتلاع الغرب للجزائر حضارياً وثقافياً وإقتصادياً وسياسياً إلخ. وهذا في منتدى المسار الديمقراطي الجزائري بمدريد الذي حضره عن الجانب الأوروبي الإسبان والإيطاليون، وعن الجانب الجزائري آيت أحمد وعلي يحي عبد النور وسعيد سعدي والياكس. وننقل ما أورده صحيفه المساء على لسانه: " ... افتتح - آيت أحمد - كلامه بأن الجزائر ظلت منذ 1955م وهي تغذي ثقافة معاداة الغرب وثقافته إلى ان أوصلت الشعب إلى قناعة بأن حلوله تكمن في معاداة الغرب. وهو الشيء الذي ولد جبهة الإنقاذ من صلب جبهة التحرير. وجبهة القوى الاشتراكية قامت لتحارب هذه

(1) هو أستاذ جامعي، ومن الذين قادوا مظاهرات 1980م التعميرية في تيزي وزو، ومن 24 الذين سجنوا في سجن البرواقية.  
(2) جريدة المساء، الأربعاء 6 جنة جانفي 1992م، ع 1944.

الثقافة وتحارب أعداء الغرب وأعداء التعددية اللغوية... فعلى الغرب إذا أراد أن يحتفظ بالجزائر في ملكه أن يساعد حزبه - أي FFS - للقضاء على الكتل الموجودة في السلطة وإعتلاء سدنها<sup>(1)</sup>.

الواقع ان هذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق سوى القول بأنه يبين بصدق أن هدفه هو نفس ما ظل المبشرون والإستعمار يعملون لتحقيقه طيلة عهد الإحتلال وبعده، وهو ترويض الأهالي للإستعمار وجعلهم له مطية وذيولا وعبيدا. لأنه يعني بوضوح أنه يجب على السلطة في الجزائر أن تقول للجزائريين أحببوا فرنسا التي دمرتكم وفرقتكم، ذوبوا هياما في حبها وعشقها، أي في حب الذين أفقروكم وأمروضوكم وجهلوكم، وقتلوا الملايين منكم ولا يزالون. يجب على السلطة في الجزائر أن تربي الجزائريين على هذا الحب لفرنسا خاصة وللغرب عامة. وتتساءل: هل قال حزب فرنسي ما من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار للفرنسيين أحبوا الجزائريين الذين ظلمتهم فرنسا وفعلت بهم الأفاعيل؟!.

لماذا كل هذا الحقد على جبهة التحرير الوطني؟ والسبب في نظرنا:

لأنها هي التي قادت الشعب في معركة التحرير حيث أفهمته عدوه الحقيقي فنجى نفسه منه، وقادت الشعب في معركة البناء والتشييد، وكانت وستظل رمزا لوحدة الوطنية السياسية واللغوية والدينية والحضارية والثقافية، ضد الذين كانوا ولا يزالون يعملون على تمزيقه وتجزئته، بل وحذفه من الخريطة النفسية للعالم، ابتداء مما قبل الثورة إلى 1963 إلى ما سمي بالربيع الأمازيغي 1980 إلى أحداث أكتوبر 1988م إلى ما بعد ذلك.

وأما هيامه بالتعددية اللغوية فيقصد بها الفرنسية. وهي قناعتها الخاصة تصب في نفس المصيب الأول هو التصوف في حب فرنسا خاصة والغرب النصراني عامة؛ لأن التعددية اللغوية تصور غربي يهدف إلى تحطيم بلدان العالم الثالث ثقافيا وحضاريا وسياسيا، وإلا فلو كانت خيرا فلماذا لم تتبناها فرنسا في فرنسا وهي ذات 5 لهجات كاملة. وهكذا يعلن آيت أحمد صراحة أن هدفه تحبيب الأهالي في فرنسا ومحاربة الذين لا يحبون أن يظلوا فريسة لها.

أما الحزب الآخر RCD فقد أعلن بعد نتائج أول إنتخابات بلدية تعددية في الحصة التلفزيونية "الحدث" التي كان يقدمها مدني عامر في المناظرة التي جمعه فيها مع عباسي مدني، قائلا له: "مانخلوكمش توصلوا للسلطة" وهذا بعد ان مسح به عباسي الأرض فكريا، وهكذا قرر سعدي منع الإسلاميين من الوصول إلى السلطة بجميع الوسائل، بما في ذلك العنف، وقد شاهد ملايين الجزائريين تلك الحصة وسمعوا منه ما قال وأردكوا ضحالتة الفكرية وضعف منطقته وعقدة لسانه.

وقد أعلن أيضا بعد نتائج الإنتخابات البرلمانية الملعغة التي جرت في ديسمبر 1991 بأنه سيعمل بكل الوسائل على منع قيام الدولة الأصولية، وذلك في الندوة الصحفية التي عقدها بنزل السفير يوم الثلاثاء 31 ديسمبر 1991م فدعا من سماهم "القوى الديمقراطية" للتحرك لمنع إجراء الدور الثاني من الإنتخابات التشريعية التي كانت مقررة يوم 16 جانفي 1992م - وهو ما حصل بالفعل وكان نتيجته ما حل بالجزائر - وقد بدا في هذه الندوة ثائرا على تفرق " التيار الديمقراطي" - الذي لم يمنع إختيار الشعب -

<sup>(1)</sup>حريرة المساء، 14 / 04 / 1992 . ص الأعمرة .

وتواطؤ الحكم مع التيار الأصولي. وقال بأن كل واحد مدعو لتحمل مسؤولياته لـ " إيقاف المهزلة" حتى لا يتحصل التيار الأصولي على الأغلبية، ودعا إلى النزول إلى الشوارع والساحات العمومية والتظاهر وشل الإقتصاد، ولا سيما القطاعات الحساسة بالإضراب. ودعا إلى إضراب سياسي عام<sup>(1)</sup>. بل وصل به الأمر إلى الدعوة الصريحة للعصيان المدني من أجل شل الحركة في الجزائر، وهذا بعد أن رفضه الشعب في هذه الانتخابات البرلمانية التعددية الأولى، بل حتى قرينته رفضته ولم يحصل على أي مقعد في الدور الأول، وهو الذي بلغ به الغرور قبل ذلك ان يطلب من النظام الحاكم "بأن يعيد له الجزائر"، فرد عليه الشعب الجزائري يوم 26 ديسمبر 1991م بالرفض التام، فدعا إلى عصيان مدني. هذه هي الديمقراطية التي يتشددون بها<sup>(2)</sup>.

وأما منتدى المسار الديمقراطي الذي عقد بمدريد- وقد أشرنا إليه قبلا- فقد تفتقت عبقرية سعيد سعدي فيه بالدعوة والتحريض إلى استعمال العنف لمنع الإسلاميين من الوصول إلى السلطة وحل أحزابهم وقال معلقا عن "الفييس": "وجعل من المساجد أماكن لتجمعات الحمير"<sup>(3)</sup>. وهكذا جعل المصلين في المساجد حمير، ولسنا ندري هل يوجد إلحاد أكبر من هذا!.

وإذا كان آيت أحمد يحقد على جبهة التحرير الوطني كما ذكرنا. فإن سعدي سعدي لا يقل حقا عليها ومن شدة حقه عليها فإنه ما فتئ يطالب ويحث كل من يلتقي به للإمتناع عن تدريس تاريخ ثورة نوفمبر<sup>(4)</sup> المجيدة، ونحن لا نرى سببا لهذا الحقد سوى لأنها أيقظت الشعب الجزائري من سبات عميق وقادته نحو الإستقلال، وبهذا فإن التحرر من فرنسا في نظر سعدي يعد جريمة لا تغتفر.

ونختم حديثنا هذا عن رفض التيار البربري للدولة الإسلامية باليمين الذي أفسمته النائبة في البرلمان عن RCD خليفة مسعودي في بريطانيا أثناء زيارة وفد من البرلمانيات الجزائريات إليها، قائلة ردا على احد الإسلاميين الذي قال لها: "ستقوم الدولة الإسلامية في الجزائر": " والله ما تقوم" كررت هذا اليمين عدة مرات، وقد قدم هذا التلفزيون الجزائري في حصة "القواعد الخلفية للإرهاب: بريطانيا"<sup>(5)</sup> ولقد وصل الحقد على الإسلام بسعيد سعدي أن قرر أن شيخ الجامع لا يجوز له الإشتغال بالسياسة ومنع الأحزاب الإسلامية من التواجد كما ذكرنا، والواقع أن رفضهم لإقامة الدولة الإسلامية في الجزائر سببه أن فرنسا ترفض إقامتها. وهو ما صرح به بعض وزرائها في أحداث أكتوبر 1988م، من أنها لن تقف مكتوفة الأيدي من الأصوليين في الجزائر.

<sup>(1)</sup> جريدة النصر، الأربعاء 1 جانفي 1992م، ع 5634.

<sup>(2)</sup> جريدة الشعب، الأربعاء 1 جانفي 1992، ع 8751.

<sup>(3)</sup> جريدة النصر، ع 5634.

<sup>(4)</sup> جريدة الشعب، ع 8751.

<sup>(5)</sup> ذلك يوم الجمعة 17 أبريل 1998م، الساعة 9 مساء.



## 2- إقامة الدولة اللاتكنية:

الدولة اللاتكنية هي مطلب كل دعاة الحركة البربرية، فهي من مبادئ FFS ومن مبادئ RCD ونكتفي بالإشارة هنا إلى بعض ما أورده سعيد سعدي في هذا السياق. فلقد قرر أن فلسفة حزبه مبنية على مبدأ الفصل بين الدين والدولة وهذا لا يعني في زعمه أنهم ينادون بالإلحاد، وإنما يدعون إلى اللاتكنية، أي حرية العبادة. يكفي الإسلام أنه أسمى من أن يكون ديناً للدولة أو برنامجاً سياسياً لفئة معينة ويقرر أن ديباجة الدستور مرفوضة جملة وتفصيلاً، فالدستور والديباجة التي جاء بها والتي تجعل من الجزائر أرضاً إسلامية وجزءاً لا يتجزأ من المغرب العربي وأرضاً عربية لا يوافق عليها ويقرر بأنه سيعمل في إطار حزبه من أجل تغيير ما لا يتفق مع مبادئ RCD فالجزائر جزائرية والإسلام دين الشعب وليس دين الدولة<sup>(1)</sup>.

والواقع أن سعدي هنا يهرف بما لا يعرف، ومن ذلك مثلاً إذا كان الإسلام أسمى من أن يكون ديناً للدولة فلماذا لا يكون اسمياً أيضاً من أن يكون ديناً للشعب وللأفراد؟ . وهنا ماذا يبقى من الإسلام وللإسلام؟. أيعقل أن يكون الإسلام دين الشعب وليس دين الدولة، والشعب أحد أركان الدولة ذاتها؟ هذا لن يكون إلا في حالة واحدة فقط وهي: عندما يكون النظام الحاكم إستعمارياً كما كان عليه الحال أثناء الإستعمار الفرنسي. فقد كان الشعب يدين بالإسلام والنظام الحاكم يدين بالنصرانية، وهذا ما جعل جمعية العلماء المسلمين تطالب بتحرير الإسلام من الحكومة النصرانية.

والواقع أن الإسلام قبل الإحتلال الفرنسي ومنذ الإستقلال وهو دين الدولة والدليل على ذلك أن حكام هذه الدولة هم الذين قرروا ديباجة الدساتير ونصوا فيها على أن الإسلام دين الدولة، وهو الشيء المنطقي، وهكذا فإن حكام الجزائر منذ الإستقلال إلى الآن هم الذين قرروا -وهو الشيء المنطقي- أن الإسلام دين الدولة.

ولما كانت عناصر الدولة هي السلطة والشعب والإقليم؛ فإن ذلك يعني أن الإسلام هو دين السلطة ودين الشعب ودين الجغرافيا الجزائرية.

ومهما يكن من أمر فإن سعدي أضاف معلناً رفض حزبه لقانون الأسرة المستمد من الشريعة الإسلامية<sup>(2)</sup>. والمطالبة بحذف مادة التربية الإسلامية من جميع برامج التعليم<sup>(3)</sup>. ونختم حديثنا عن RCD<sup>(4)</sup> هنا بموقفه من سلمان رشدي.

<sup>(1)</sup>أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص 212، 213، 216، 217 .

<sup>(2)</sup>المرجع نفسه، ص 242، 243 .

<sup>(3)</sup>المرجع نفسه، ص 313 .

<sup>(4)</sup>كثيراً ما أنه بعد ميلاد RCD احتفل أصحابه بالخمر ولحم الخنازير والنساء وحضور رجال الكنيسة وما إلى ذلك، ولكن سعدي كذب هذا (أحمد بن

نعمان، المرجع نفسه، ص 217 )

### موقف RCD من سلمان رشدي :

مما يدل على الحقد الشديد لدعاة الحركة البربرية على الإسلام إرسالهم رسالة رسمية بإسم RCD إلى دور النشر الفرنسية يحییهم فيها على تحدي الضمير الإسلامي العالمي والفرنسي بنشرها لكتاب المرتد سلمان رشدي باللغة الفرنسية. ونترك التعليق للصحفي مكتشف الوثيقة (الفضيحة) التي نشرها مع صورة طبق الأصل لرسالة الحزب باللغة الفرنسية في جريدة المساء يوم 26 / 10 / 1989 فيقول الصحفي معلقا "حدث" مضت عليه أزيد من ثلاثة أشهر، دون أن يصلنا عنه خبر واحد... إنه حدث "وطني" وقع من وراء البحار، وبالضبط في العاصمة الفرنسية باريس... كان ذلك يوم 19 جويلية 1989 تاريخ صدور بيان رسمي عن حزب "التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية" يحي فيه "حدث" نشر كتاب سلمان رشدي "آيات شيطانية" (الذي أثار ضجة إستتكار إسلامية وعالمية) في فرنسا، معتبرا ذلك "الحدث" -على حد تعبير البيان الذي هو أمامكم- "إنتصارا لحرية الإبداع والنشر الرمزي على الرقابة والإرهاب".

كما يحرص حزب RCD - نص البيان - على "أن يلتزم المسلمون في فرنسا بممارسة شعائر عديدهم في إطار إحترام القوانين والمؤسسات اللائكية -العلمانية- للجمهورية الفرنسية...". هذا ما عثرنا عليه أخيرا في "حولية الضفتين" (كرونيك دي دوريف) الناطقة بإسم RCD في فرنسا والتي عبر فيها بيان هذا الأخير عن موقفه الحقيقي "والرسمي" من قضية سلمان رشدي الذي إنتهك برفاحة منقطعة النظير مقدسات المسلمين ومشاعرهم بما فيها الطعن في سلوك وأخلاق النبي - صلى الله عليه وسلم- و زوجاته الطاهرات. يأتي هذا الموقف الرسمي من حزب RCD في الوقت الذي صدر فيه بيان إستتكاري رسمي من وزارة الخارجية الجزائرية التي إعتبرت الكتاب مسا صارخا لمشاعر المسلمين ومكانة رموزهم ومقدساتهم. هذا بالإضافة إلى السخط الذي عم عدة أوساط سياسية وإعلامية غير إسلامية... وللتذكير فإن مثل هذا الموقف الرسمي من حزب يحظى بشرعية العمل السياسي الديمقراطي في الجزائر، جاء إحياء لروح الذكرى المائتين للثورة الفرنسية<sup>(1)</sup>.

### 3- إلغاء قانون الأسرة الإسلامي :

يتفق دعاة الحركة البربرية وأغلب المنظمات النسائية المجهريّة<sup>(2)</sup>. على رفض قانون الأسرة الإسلامي برمته، ويعملون بلا هوادة على إغائه وإحلال قانون نابليون بدله. يتفق في هذا FFS و RCD وغيرهما، وهو ما جعلنا نشير إلى موقف الرافضين على سبيل الإجمال مكتفين بأراء بعض الأطراف نيابة عن غيرهم.

ومن تلك الأطراف ما بينه سعيد سعدي نفسه في تلخيصه لبرنامج حزبه الذي من ضمنه:

(1) أحمد بن نعمان، المرجع نفسه، ص 319 - 321 .

(2) وما يستثنى من هذه المنظمات المجهريّة الإتحاد الوطني للنساء الجزائريات، فهو تنظيم وطني وليس مجرّبا ولا رافضا لقانون الأسرة الإسلامي.

**المساواة بين الرجل والمرأة :** وتتجسد هذه المساواة في رفض قانون الأسرة<sup>(1)</sup> الإسلامي الذي يجعل المرأة شبه مواطنة لأنه لا مساواة فيه بينها وبين الرجل. وعندما إعترض عليه محاوره بأن هذا القانون مستمد من الشريعة الإسلامية، أجابه سعدي بأن حزبه يناادي بفصل الدين عن الدولة. ولما كان الدستور الحالي لا يقر هذا الفصل، فإننا سنعمل على تغيير ما لا يتفق في الدستور ومبادئ حزبنا<sup>(2)</sup>. ولقد أصيب سعدي بهستيريا من هذا القانون إلى حد أن صار يصرح برفضه بمناسبة أو بدون مناسبة، ومن ذلك تصريحه في التلفزيون الجزائري يوم 1995/10/23 في الساعة 19.40 قائلا : "قانون الأسرة هو الذي حطم العائلة". أما ممثلة سعدي في البرلمان خديدة مسعودي فقد عبرت بكل بجاجة وتهجم وشراسة قائلة: "الحقيقة أن قانون الأسرة الذي ابتدعه المجلس الشعبي الوطني أيام الاطلاق هو قانون للصعاليك لا حرمة فيه ولا تقاليد ولا أصالة"<sup>(3)</sup>. وأخذت في التهجم على الدولة الجزائرية التي تحفظت في توقيع تعهد كوبنهاجن رغم أن تجمعات نسوية عديدة طالبت رئيس الجمهورية - زروال - برفع تلك التحفظات. وسبب تلك التحفظات في نظر خديدة مسعودي هو مناقضة وثيقة كوبنهاجن لقانون الاسرة الجزائري من حيث ما تتضمن تلك الوثيقة من حقوق أساسية للمرأة. أما التحفظ الثاني الذي وضعتة الحكومة الجزائرية حول وثيقة كوبنهاجن فيتعلق بقانون الجنسية. وتعلق خديدة على هذا قائلة: " وهذه أمور مبدئية لا مساومة فيها لدينا. وفق القانون لا تمنح المرأة جنسيتها لأولادها عكس الرجل الذي يصبح وفقا لذلك أكثر جزائرية من المرأة. هذا أمر يخالف ابسط الحقوق"<sup>(4)</sup>.

هذا الموقف يحتاج إلى تعليق. فنرى أن الدولة الجزائرية فعلت صوابا عندما تحفظت عن تينك القضيتين، وتحفظها موضوعي حتى بمنظور الدول الغربية ذاتها إلى تينك القضيتين، ذلك أنه فيما يتعلق بقانون الاسرة لا نجد قانونا موحدا في الغرب، بل كل دولة لها قانونها الخاص المستمد من أعرافها ودينها وفكر علمائها. ومن هذا المنظور فمن حق الجزائر أن يكون لها قانونها الخاص بها المستمد من شخصيتها.

وأما ما يتعلق بقانون الجنسية فإن الغرض منه واضح هو أن يصبح دفتر العائلة بإسم الأم ويحمل الأطفال لقبها بدل الأب، وحتى تستطيع الزواج بمخالفتي دينها من يهود ونصارى وتعطي لهم الجنسية الجزائرية. وهذا ذو طابع تنصيري يهدف إلى تكوين أسر نصرانية ذات جنسية جزائرية وذلك بسبب صعوبة إيجاد هذه الأسر من الأصل الجزائري بهدف خلق أقلية نصرانية يمكن تحريكها عند اللزوم كما هو الحال اليوم ( أوت 1999م) في اندونيسيا. كما ان المرأة بذلك تستطيع مسافحة من تشاء وتسجل الأطفال بإسمها وتمنحهم لقبها وتتوجهم بالجنسية الجزائرية. والهدف أيضا خلق فئة لا رابطة قلبية لها

<sup>(1)</sup>المفصود به هو قانون الأسرة، أي قانون رقم 84 / 11 ، المورخ في 9 رمضان 1404 هـ الموافق 9 يونيو 1984م، الذي أقره المجلس الشعبي الوطني آنذاك، وهو إسلامي في شكله ومضمونه، ويعد من مفاخر حزب جبهة التحرير الوطني، وسبب إسلامه برفضه اللاتكون.

<sup>(2)</sup>من تصريح سعيد سعدي لجزيرة الشعب، الجزائر، 19/03/1989م.

<sup>(3)</sup>عليلة مسعودي، من حوار أجراه معها عمر شابي، جريدة النصر، الأحد 4 فيفري 1996م، ع 6840 ، ص 4.

<sup>(4)</sup>المصدر نفسه، ع 6840 ، ص 4 .

بحب الوطن؛ لأنه من أين "للقاوري" ولقيطه من الجزائرية حب الجزائر؟ من أين يأتيه؟ أمن أمه المتصوفة بحب فرنسا أم من أبيه الفاجر أو الكافر؟! وإلا فإن قانون الجنسية يختلف من بلد إلى بلد. ليس في العالم العربي فحسب، بل في العالم الغربي كله أيضا. وكل دولة تنظمه وفقا لتاريخها وفكرها ودينها وحضارتها وتصوراتها للمستقبل وإستراتيجيتها في ذلك.

وإذا كانت فرنسا تعطي الجنسية للطفل إذا كانت أمه فرنسية. فلأن فرنسا لها ظروفها الخاصة وقد أشرنا إليها أثناء ردنا على بورغاد فيما يتعلق بقانون الأسرة، وذكرنا أن فرنسا شغوفة بالأطفال بسبب إفتقارها إلى عنصر الشباب مما جعلها تكافئ البيغي التي تنجب عددا معتبرا من الزنا، وقد بينا سبب ذلك. والحقيقة أن هذا الإتجاه يسير فيما ظهر بعد أحداث أكتوبر 1988م فيما عرف بخليعة الست وخمسين امرأة " التي إجتمعت الداعيات إليها في إجتماع فاشل بملحقة بوزريعة التابعة لجامعة الجزائر وكان من مطالبها:

- تعدد الأزواج للمرأة الواحدة.

- جعل العصمة بيد المرأة.

- المساواة في الميراث بين الجنسين.

وقد أشاد بهذا الصحف الناطقة باللغة الفرنسية في الجزائر. بينما رد عليهن ردا عنيفا الصحف الوطنية الجزائرية العربية، وكذا الجامعات والمساجد<sup>(1)</sup> والمجتمع ككل.

ونشير هنا إلى أن هذه المطالب قدمت قبلا في سنة 1980م حين خرجت حوالي 40 امرأة في مظاهرة بالبريد المركزي بالجزائر العاصمة مطالبات بهذه المطالب مضاف إليها كون دفتر العائلة بإسمها لا بإسم الرجل.

وكانت هذه المطالب قد برزت إلى الوجود علنا في سنة 1973م حين خرج بعض طالبات كلية الحقوق بآبن عكنون ينادين بضرورة السماح بتعدد الأزواج مساواة لهن بالرجال. ونشرت من تسمى زبيدة بيطاري الجزائرية كتابا بعنوان " ألا أبكين يا أخواتي المسلمات" داعية فيه إلى الإنسلاخ من الإسلام بإباحة التجربة الجنسية قبل الزواج وإباحة التبني وزواج المسلمة بغير المسلم ومنع التعدد والطلاق ورفض قوامة الرجل<sup>(2)</sup>.

كل ما سبق أصبح من مطالب أغلب الجمعيات النسائية المجهريية يساندها في ذلك دعاة الحركة البربرية. ونذكر هنا أن ظاهرة تعدد الأزواج للمرأة الواحد أصبحت موجوة في مجال الواقع<sup>(3)</sup> ولا ينقصها سوى التفتين وهو ما جعلهم يطالبون بها.

(1) محمد شعبان، رد على صلاح الدين الجورشي، الإنجاء الإسلامي في الجزائر قبل وبعد 5 أكتوبر 1988، مجلة الحوار شباط، فبراير 1989م، ع 20، ص 18.

(2) أعلى بن مبارك، المرأة المسلمة بين الأصالة وعقدة الشعور بالنقص، مجلة التذكرة، مسجد الطلبة جامعة الجزائر، أبريل 1982م، السنة 1، ع 4، ص 44، 45.

(3) وقد أحررت جريدة الشروق العربي الأسبوعية حوارا مع بعض النساء المتزوجات بأكثر من رجل.

ولقد بلغت البجاجة والفجور ببعض النساء الجزائريات أن طلبن "وساطة الوزير الفرنسي ليتدخل لدى المسؤولين الجزائريين ليسمحوا لهن ببناء مصنع حبوب منع الحمل ويوضع قانون يسمح لهن بالزواج بأربعة رجال"<sup>(1)</sup>.

ولقد تجدد طلب إلغاء قانون الأسرة الجزائري أثناء زيارة الوفد الأممي للجزائر ( وفد التقصي - 22 جويلية، 4 أوت 1998 ) ذلك أن بعض الجمعيات النسائية أخبرت تلك اللجنة الأممية أن مشكل الجزائر يكمن في قانون الأسرة، طالبات من سواريس ورفاقه التدخل لوقف شريعة القرآن مطالبات بما يأتي :

- منع الزواج بصداق، منع الطلاق، منع تعدد الزوجات، رفض نظام الميراث الإسلامي، وذلك بحجة أن هذه الأمور لا تطاق وقد تجاوزها الزمن، وهي سبب أزمة الجزائر.

- المطالبة بوقف قانون التعريب باعتبار العربية غريبة عن الجزائر. وهنا ندرك العلاقة بين الموقف من العربية والموقف من قانون الأسرة عند جميع اللانكيين، مما يعني بوضوح أن رفضهم للتعريب سببه ديني محض.

- الإعتراض على بناء مسجد في تيزي وزو مقترحات تحويله إلى مرقص أو مسرح .  
والأعجب من كل هذا أن هذه المطالب قدمتها بإسم الشعب<sup>(2)</sup>.

والجدير بالإشارة أن الوفد الأممي إستجاب لهذه المطالب، وهو ما ظهر في تقريره النهائي حيث طالب بإلغاء قانون الأسرة الإسلامي. حيث قرر أن الطريقة التي تعالج بها قضية القوانين والإسلام المعقدة هي التي تهدد مصير الوحدة الوطنية لمجتمع شديد التنوع -أي اللاتجانس بين أفراد- وإختصر الوفد الأممي الخلافات الإجتماعية في ظل الأزمة في قانون الأسرة الذي قال بأنه يساهم في تعميق الهوة داخل المجتمع الجزائري<sup>(3)</sup>. وهكذا يظهر الطابع التصيري للأمم المتحدة.

وعلى إثر ذكر المطالب السابقة لدعاة الحركة البربرية وتلك الجمعيات النسائية نقدم ملاحظة مهمة، هي أنه في الوقت الذي يطالب فيه هؤلاء بإلغاء قانون الأسرة الإسلامي نجد نساء بعض الطوائف المسيحية في مصر كما ذكرنا قبلا يطالبن بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الحضانة. وقد سبق إلى هذا الطلب نساء الأقباط الأرثوذكس لتلتحق بهن نساء ينتمين إلى طوائف الروم والسريان والكاثوليك والبروتستانت، فلجوء المسيحيات في مصر إلى أحكام الشريعة الإسلامية يعني أنهن وجدن فيها ما يستجيب لفطرتهن كأمهات، ويؤكد حقهن الطبيعي في رعاية أبنائهن في حالة الطلاق، ورحمة الإسلام في شرائعه هي التي دعت النصارى قبلا إلى إباحة الطلاق رغم تحريمه في دينهم<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> (المهعدة الكبيرة) فلة حاج محفوظ أكتوف، من حوار أجرته معها صليحة جعيان وزهراء بوعزة، الجزائر اليوم، الثلاثاء 6 جويلية 1993، ص.5.

<sup>(2)</sup>م. بن عطا الله، قد يكون الأعداء هم واضعوا هذا الداء، رسالة الأطلس، 17 - 23 أوت 1998 . ع 202 ، ص 24 .

<sup>(3)</sup>س.ن. قراية في تقرير البعثة الأممية للجزائر ... رسالة الأطلس، ع 208، ص.3.

<sup>(4)</sup> أبو أمين، صورة مستوية وأخرى مقلوبة، رسالة الأطلس، ع 202، ص 24 .

ولقد جعلت هذه المطالب الأتيا شئونة يكتب رسالة إلى المحكمة الدستورية المصرية قال فيها: "إنه لا مانع من تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية الخاصة بحضانة الأطفال، لأن الشريعة المسيحية لم تنص على شيء من هذا الشأن"<sup>(1)</sup> وذلك قصد مساعدة امرأة قبطية رفعت قضيتها إلى المحكمة الدستورية. وبهذا أصبحت الشريعة الإسلامية تطبق على نساء الأقباط الأرثوذكس مما شجع المسيحيات من الكاثوليك والبروتستانت على المطالبة من المحكمة الدستورية المصرية بمساواتهن بالأرثوذكسيات في تطبيق الشريعة الإسلامي عليهن في مسألة الحضانة.

ومع هذا لازالت، الحركة البربرية وأغلب الجمعيات النسائية المجهرية الشاذة يطالبن بإلغاء قانون الأسرة الإسلامي. ولكن الأشياء من معادنها لا تستغرب. فإن أعضاء هذه الجمعيات النسائية تكن عداوة شديدة للإسلام ولغته، أغلبهن غير متزوجات، يتمرغن في أحضان الزنيلة. معقدات من وجود أسر ملتزمة لأن في ذلك نجاح لاحظ لهن فيه<sup>(2)</sup>... وهذا يدعونا إلى الإشار إلى قضية المرأة الجزائرية، وذلك للعلاقة الوطيدة بينها وبين قانون الأسرة.

**قضية المرأة الجزائرية :** القضية فرنسية في شكلها ومضمونها وقد رأينا قبلا إتهامات بورغاد للإسلام في هذه القضية، وقد ردنا عليه بما فيه الكفاية، ونضيف إلى موقف بورغاد- وهو مما يبين العلاقة بين التبشير والإستعمار- بعض ما قررته الحكومة الفرنسية أثناء إستعمارها للجزائر، فمن ذلك أنها أوجت إلى المجلس الجزائري بإثارة قضية إعطاء المرأة الجزائرية حق الإنتخاب، وهذا في الوقت الذي كان الإستعمار حارما لهذه المرأة من حق التوظيف وحق التعليم. وهو ما جعل الإبراهيمي يتعجب فيعلق قائلا: "ككيف تقوم حكومة الجزائر ومجلسها على هذه الطفرة بالمرأة العربية المسلمة... وهي مازالت في الدرك الأسفل من الإنحطاط، وهلا فكروا في تقوية عقلها بالعلم، وفي تقوية جسمها بالغذاء، وفي حفظ صحتها العلاج، وفي حفظ نسلها بالرعاية، وفي تخفيف ويلاتها بالإهتمام، ... المرأة الجزائرية تنتحب والحكومة تريد لها ان تنتخب"<sup>(3)</sup> والحقيقة كما يبين الإبراهيمي أنه إلى ذلك اليوم، فإن الرجل الجزائري لم يكن يملك حق الإنتخاب، وكل ما حصل عليه أنه يسجل إسمه في قوائم الإنتخابات، ويجبر على الإنتخاب يوم إجرائه بعضا البوليس. أما نتائج الإنتخابات فكانت تعلن قبل إجرائه<sup>(4)</sup>.

ولا أدل على نية فرنسا الخبيثة في قضية المرأة هو التناقض في مواقفها من المرأة. إذ في الوقت الذي توعز فيه إلى المجلس الجزائري بإصدار قانون حق المرأة الجزائرية في الإنتخابات تعلن حربا شعواء على تعليم البنات العربية المسلمة في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت أول من فتح باب التعليم للمرأة المسلمة. وليس الإستعمار الفرنسي، ولا اللاثكيون.

(1) لقيه، (بدون توقيع) رسالة الأطلس، 17-23 أوت 1998، ع 202، ص 5.

(2) م. بن عطية الله، المرجع السابق، ص 24.

(3) محمد البشير الإبراهيمي، فصل الدين عن الحكومة (9)، قضية حرية المرأة ودور فرنسا فيها، البصائر، 1950، ع 108، عن (محمد البشير الإبراهيمي، آثار...، ج 2، ص 125، 127).

(4) المصدر نفسه، ص 127.

ومن تلك الحرب إحياء فرنسا لأعوانها في الجزائر وتونس بمهاجمة تعليم البنات المسلمة في مدارس الجمعية وإعتبار ذلك خطرا على عفتها. وذلك لإدارته أهمية تعليم البنات المسلمة وفائدة ذلك لمستقبل الجزائر الحضاري. مما جعل الإستعمار يريد للمرأة المسلمة أن تظل جاهلة وتصبح فاجرة مستترقة في بيوت اليهود والنصارى لينتهك عرضها وتضيع رسالتها<sup>(1)</sup>.

وإذا كانت جمعية العلماء أول من أخرج المرأة الجزائرية في العهد الإستعماري من سجن الجهل إلى فضاء العلم في دائرة التربية الإسلامية<sup>(2)</sup>. فإنها أيضا أول من فكر في إرسال بعثة من الفتيات إلى الخارج الجزائر للتربية والتعليم، حيث قررت إرسال بعثة منهن إلى سوريا للدراسة في المدرسة الخاصة بالبنات التي فتحتها حفيظة الأمير عبد القادر<sup>(3)</sup>. فيقع بذلك الإتصال الروحي بين الأمير عبد القادر وابن باديس.

وهكذا يثبت التاريخ أن أول من فتح أبواب التعليم على مصراعيه للمرأة الجزائرية إنما هو التيار الإسلامي الوطني أي دعاة النهضة الحضارية المعاصرة. لا الفرنسيون ولا اللاتكيون. بل نجد أن هذا تم في الوقت الذي كان فيه دعاة الإندماج والتجنيس، أي اللاتكيون، يحتقرونها. فيرفضون الزواج منها بحجة جهلها وتخلفها، متزوجين بفرنسيات.

وبهذا نتوصل إلى أن فكرة حرية المرأة الجزائرية ليست وليدة اليوم، بل ظهرت أيام الإستعمار الفرنسي أظهرها الإستعمار، وهي من المفارقات التي لا تفهم إلا بفهم الظاهرة الإستعمارية ذاتها، ذلك أنه كيف يمكن للرجل الجزائري أن يمنح المرأة الجزائية الحرية وهو لا يملكها لنفسه؟! إنه كان عبدا للإستعمار طوعا أو كرها. فكيف يمكنه أن يحرر غيره؟ إن الغرض واضح هو إلهاء الجزائريين والجزائريات وبيت الصراع بينهم ليبقى الإستعمار أمنا مطمئنا.

وما يقال عن العهد الإستعماري يقال اليوم عن الإنسان المسلم. إذ أغلب البلدان الإسلامية تعيش تحت قمع أنظمة دكتاتورية ويطالبونه بتحرير المرأة، فكيف يعطي الحرية من لا يملكها؟! . وهنا نتوصل إلى موقفنا من دعوة إلغاء قانون الأسرة.

### موقفنا من دعوة إلغاء قانون الأسرة:

نحن لا نعلق كثيرا على رفض الرافضين ممن سبق ذكرهم لقانون الأسرة الإسلامي وزعمهم العمل على تحرير المرأة والمساواة بينها وبين الرجال، لأننا أشبعنا هذه القضية بحثا أثناء ردتنا على بورغاد. ولكننا نقدم بعض الملاحظات المهمة في نظرنا حول هذه القضية تتمثل فيما يأتي:

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 424 ... 429 .

<sup>(2)</sup> محمد البشر الإبراهيمي، مذكرة إيضاحية، جانفي 1953، (... آثار ... ج4، ص239).

<sup>(3)</sup> وقد إقتدت جميع الإجراءات الخاصة بذلك منها تمينة الإقامة في دمشق بكل جوانبها ولكن قيام الحرب العالمية الثانية حال دون ذلك لأن الطريق إلى هناك أصبحت غير آمنة، ومازالت حفيظة الأمير عبد القادر تحتفظ إلى اليوم برسالة ابن باديس إليها بهذا الشأن وقد أظهر التلفزيون الجزائري تلك الرسالة في حصة موافق التي قدمها حمراوي حبيب شوقي في "حصة موافق" كما عبرت حفيظة الأمير عما ذكرناه في الحصة ذاتها، كما يملك أستاذنا عمار طاهي رسالة خطية من ابن باديس إلى حفيظة الأمير بهذا الشأن .

**أولاً : الدعوة إلى رفض قانون الأسرة الإسلامي قضية فرنسية محضّة، وليست وليدة اللحظة، بل هي وليدة 1830 م.** وقد بينا قبلاً ما فعله الإستعمار بكل فئاته كل في مجاله قهراً وتحريضاً لإبعاد الجزائريين عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي، ابتداءً من إلغاء المحكمة الحنفية إلى اشتراط التخلي عن هذا القانون لمن أراد المساواة بالفرنسيين. وظلت فرنسا تعمل للغرض ذاته إلى حد الساعة بإعلامها وإكثرونها ورجالها الرسميين حتى في المقابلات الرسمية، مما يعني التدخل المباشر في شؤون الجزائر الداخلية. والبرهنة على هذا فإننا إضافة لما ذكرناه قبلاً نشير إلى بعض الأدلة على أن القضية فرنسية محضّة في شكلها وضمونها، سخرت دعاء الحركة البربرية وغيرهم من أجل مواصلة العمل الإستعماري بالوسائل الجديدة.

**الدليل الأول:** في 1936 أثناء مقابلة وقد المؤتمر الإسلامي العام الجزائري لوزير الحريية الفرنسي (م. دالاديه) وهو من يمين الراديكالي، صرح الوفد "بأنه لا يمكن ان يوافق على إعطاء النيابة بالبرلمان مادام الجزائريون محافظين على الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية، وصرح بأنه يكون مع المعارضين إذا عرضت المسألة في البرلمان... ورأيه هذا هو رأي الراديكاليين إلا القليل"<sup>(1)</sup>. ولما قابلت لجنة البحث البرلمانية هيئة من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر العاصمة وهم: ابن باديس والمبارك الميلي والإبراهيمي والعربي التبسي والأمين العمودي، وذلك مساء الخميس 5 صفر 1356هـ الموافق 16 أبريل 1937 م كان من ضمن الاسئلة التي طرحتها اللجنة البرلمانية على هذه الهيئة من العلماء:

ما رأي الجمعية في إلزام الحكومة المسلمين برفض الأحكام الشرعية؟ يقول ابن باديس: "سألنا الرئيس عن رأينا لو أن فرنسا أصدرت أمراً بطرح المسلمين الأحكام الشرعية لتعطيمهم الحقوق الفرنسية، فإنهم فهموا من بعض الناس أن المسلمين يصبرون لذلك كما صبروا لقانون إلزامهم بالعسكرية"<sup>(2)</sup> ولما حذره ابن باديس من مغبة ذلك، وأنه الكارثة التي تؤدي إلى اضطراب أعظم لا تدرى عاقبته. سأل رئيس اللجنة العلماء "ماذا تقولون لو صدر الأمر بمنع تعدد الزوجات خاصة، أي تجزئة الأحكام الشرعية والبدء بإلغائها تدريجياً؟ فأجبتة - والكلام لابن باديس - بأن الشريعة كل لا يجوز للمسلم تجزئته، فتقبل كلها أو ترد كلها..."<sup>(3)</sup>.

وكان موقف فرنسا من المطالبة بالحفاظ على الشخصية الإسلامية الرفيض والتمييع، وصرح بعض النواب الفرنسيين من الجزائر: أن المحافظة على الشخصية الإسلامية إنما هي من وضع العلماء، وتطرفت صحيفة إستعمارية كبيرة فجعلته من تعصب ابن باديس، لكنه ما كادت الأمة تسمع بالمساومة

<sup>(1)</sup>عبد الحميد ابن باديس، مع الوفد الإسلامي الجزائري مشاهدات وملاحظات، ش. غمرة رجب 1355 هـ - أكتوبر 1936، ج7، م12، ص307، 308، ونسجل هنا أن وفد المؤتمر الإسلامي لما قابل (م. فيوليط) عبر لهم قائلاً: إن اللغة العربية تعرف الاندماج التدريجي (المصدر نفسه، ص307) وهكذا فإن الهدف من محاربة اللغة العربية وقانون الأسرة هو القضاء على شيء يسمى الجزائر المسلمة العربية.

<sup>(2)</sup>هنا يعني بوضوح أن فرنسا تدرك أن الشعب الجزائري كله يرفض التنازل عن الأحوال الشخصية الإسلامية مهما كان الثمن.

<sup>(3)</sup>عبد الحميد ابن باديس، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أمام لجنة البحث البرلمانية، البصار، 7 ماي 1937م، ص2، ع66، ص1، 2.



على شخصيتها حتى قامت من جميع نواحي الوطن بالإعتراض والإستتكار، وقررت الرفض التام ولو أدى ذلك إلى الحرمان من كل حق. فكانت هذه كلمة الأمة الحازمة الحاسمة<sup>(1)</sup>.

**الدليل الثاني:** ثورة أسقف وهران الحالي (1995 م) الأب كلافري على ما أورده جماعة العقد الوطني أثناء إجتماعهم في روما. حيث يحتوي البند السابع من أرضية العقد الوطني على تقرير إعطاء الأولوية للقانون الشرعي، أي الإحتكام إلى الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالاحوال الشخصية. فهاج الأسقف من هذا البند وماج، وأرغى وأزبد، وقام ولم يقعد. إن غبطته يرفض أن يحتكم المسلمون إلى شريعتهم في دولتهم المستقلة رغم أنه مجرد ضيف ثقيل عليهم. وكأنه لا يعرف ما تعنيه الشريعة بالنسبة إلى كتاب سماوي. الواقع أنه يعرف ما تعنيه الشريعة أكثر من غيره بحكم وظيفته<sup>(2)</sup>. ولكن الذي ينسب إلى الله الولد فلا يستغرب منه ذلك والذي يبيح للرجل أن يتزوج الرجل ويقوم بتوقيع عقد الزواج بذلك رغم منع دينه للشذوذ لا يستغرب منه محاربة شريعة القرآن "ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق"<sup>(3)</sup>، "ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم"<sup>(4)</sup>.

**الدليل الثالث:** ولقد أشرنا إليه قبلا، ومحتواه أنه في يوم 15 فيفري 1998 زار الجزائر جاك لاند رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالجمعية الوطنية الفرنسية وقابل رؤساء الكتل البرلمانية الممثلين لكل من حماس وجبهة التحرير الوطني وFFG وRCD وRND. وأثناء مقابله لرئيس كتلة حماس كانت القضايا التي طرحها عليه هي: إديولوجية حزبه، وقانون الأسرة. وقد عبر جاك لاند -حسب الإذاعة الوطنية القناة الأولى- عن إنشغالاته تجاه هذا القانون. فعبّر له ممثل حماس بأن قانون الأسرة إسلامي حتى أثناء العهد الإستعماري كان إسلاميا، ولكنه سيخضع لتعديلات في بعض مواد مثل قضية بيت الزوجية<sup>(5)</sup>. ونحن نتساءل: ما دخله في قانون الأسرة الجزائري؟ أليس هذا تدخلا في الشؤون الداخلية لبلد مستقل؟ أليست هي الوصاية مازالت مفروضة علينا؟ وتمنيانا كما قلنا سابقا لو أن ممثل حماس طرح عليه هو أيضا إنشغالاته عن قانون الأسرة الفرنسي التي يجعل المرأة مرحاضا عموميا يبول فيه من شاء متى شاء شريطة إنعدام الإكراه، وعن ملايين الأخدان الذين يعيشون بدون عقد زواج ويتناسلون ويفترقون متى شاءوا دون أي إلتزام لأحدهما تجاه الآخر. ما هو خطر هذا وأثره على العفاف وعلى الصحة والأنساب والأطفال وعلى بنية المجتمع النفسية، بل على مستقبل الأسرة الفرنسية نفسها، وذلك بدل الأجوبة الإنهزامية التبريرية؟!.

<sup>(1)</sup>عبد الحميد ابن باديس، الجزائر المسلمة تهرن في أرحح مراقفها على تماسكها بشخصيتها: بإسلامها وعربيتها، الشهاب، غرة ذي الحجة 1356هـ / فيفري 1938م، ج12، م13، ص510،509.

<sup>(2)</sup>عيسى حرادي... غبطة الأسقف "كلافري" جريدة الليل، 5-12 جوان 1995، ع109، ص5.

<sup>(3)</sup>البقرة / 109 .

<sup>(4)</sup>البقرة / 105 .

<sup>(5)</sup>الإذاعة الوطنية، القناة الأولى، نشرة أخبار الساعة الواحدة زوالا، 15 فيفري 1998م، والكلام ليس للمذيع بل لرئيس كتلة حماس من خلال استحواب الإذاعة له.

والملاحظة التي نتوصل إليها من خلال هذه الأدلة الثلاثة هو طابع الوصاية الفرنسية وإستمراره. ذلك أن الدليل الأول كان من العهد الإستعماري والأخيرين من عهد الإستقلال ولكن طابع الوصاية ظل هو هو، وطابع الفئات التي ذكرناها قبلا ظل كما هو. رجال السياسة ورجال الإكليروس كل يحطم من جهته، والواجهة هم دعاة الحركة البربرية وبعض الجمعيات النسوية المجهرية.

### ثانيا : القضايا المعترض بها على قانون الأسرة قضايا مفتعلة على حساب القضايا الجوهرية التي تهدد الأسرة بقلعها من الحذور :

ومن تلك الإعتراضات زعمهم بأنه أدى إلى زيادة حالات الطلاق إلخ، ولقد ناقشنا كل هذا وغيره أثناء ردنا على بورغاد في إتهامه الإسلام بما بيناه في مكانه.

والواقع أن قانون الأسرة فيما يتعلّق بالطلاق حل مشكلات كانت معقدة، وسهل على طرفي النزاع، إذا كانت قضايا الطلاق تظل معلقة السنين الطوال يظل فيها الطرفان منفصلين مما يضر بهما معا؛ لأنه عندما تصبح العشرة بين الزوجين مستحيلة فإن جبر القانون لهما على الزوجية لا يحل مشكلتهما بذلك الجبر بل يزيدهما تعقيدا .

ومن هنا فإن كثرة الطلاق التي يزعمونها ليست راجعة إلى قانون الأسرة بل إلى عوامل أخرى متعددة كانهطاط القيم وفساد الظروف المحيطة بالزوجين وهلم جرا. ومع هذا فإنه لا يمكن مقارنة كثرة الطلاق عندنا بما هو واقع في الغرب؛ لأن ظاهرة الطلاق منتشرة هناك إنتشارا كبيرا حتى يبين نجومه اللامعة وقاداته السياسيين الكبار، ناهيك عن الدهماء من الناس، ومن الأمثلة على هذا :

- طلاق من سمي زواجهما بزواج القرن، وهو الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا من زوجته الاميرة ديانا.

- طلاق لاعب كرة القدم الألماني الشهير ثم المدرب الوطني لفريق كرة القدم الألماني فرانس بيكنباور من زوجته بريجيت، وذلك بعد أن وصل إلى 43 من عمره وبلغت هي الأربعين ليتزوج أخرى في الأربعين .

- طلاق الممثلة الشهيرة ماريا مشيل في 63 من عمرها من زوجها المخرج المسرحي الذي بلغ 62 سنة، وذلك في سنة 1989 بعد ان أغرم بفتاة عمرها 33 سنة وقررا أن يتزوجا. وهذا بعد 22 سنة من الزواج.

- الممثلة الألمانية بياترس رشت طلبت وهي في سن الأربعين الطلاق من زوجها الطبيب المشهور في ألمانيا وبررت ذلك للقاضي بأنه يضربها ويمزق ملابسها ويحاول خنقها ليلا.

- بطل أفلام رامبو سلفستر ستالون طلق زوجته المغنية بريجيت نيلسون.

- الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغن طلق زوجته الأولى قبل أن يصبح رئيسا وتزوج بمطلقة... إلخ والواقع ان الطلاق يرتفع في أوروبا بصورة مذهلة ويزداد يوميا مما جعله يثير علماء التربية والإجتماع.

ومن الأمثلة على هذا فإنه خلال الأشهر الستة الأولى من سنة 1988 م تم تسجيل 220 ألف حالة طلاق

في ألمانية الغربية وازداد هذا الرقم بنسبة 13 % في النصف الثاني من السنة ذاتها<sup>(1)</sup>. وهذا إضافة إلى ما يقع من إنفصال بين ملايين الأشخاص الذين يعيشون أذكانا لأنهم غير داخلين في هذه الإحصائية. ونشير هنا إلى قضية لها أهميتها القصوى تبين صحة موقفنا. هي:

### إعتراف مؤتمر جلين آيري التبشيري بوضع المرأة الأوروبية المزري:

لقد اعترف المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978 بأن وضع المرأة في أوروبا أصبح مزرياً، ولم يعد مغرباً للمسلمين ليقبلوا به وها هو النص من محاضرة فاليري هوفمان:

" اعتبر كثير من الإنجلييين أن تفوق النصرانية أمر يمكن ملاحظته بوضوح، خاصة في عالم الأخلاق والقيم، وقارن هؤلاء إستغلال المرأة المسلمة من خلال الوضع المتفوق للمرأة في المجتمع النصراني، ونتيجة لذلك شمل جزء كبير من العمل التبشيري إنشاء المدارس وتعليم الرجال والنساء وفق النموذج الغربي.

أما في الوقت الحاضر وفيما لا يزال معظم الناس في جميع أنحاء العالم يقرون التفوق التقني للحاضرة العربية. فإن هذا التفوق على المستوى الأخلاقي مشكوك فيه ومحل تساؤل، واليوم وعلى ضوء الواقع الحالي في تفكك الأسرة في مجتمعنا الغربي وارتفاع معدلات الجرائم وحالات الطلاق والزيادة المستمرة في الإنحرافات الجنسية لم يبق لنا إلا القليل الذي نفخر به، وعلينا أن نعيد تقييم موقعنا من المجتمع المسلم وعلاقة الكتاب المقدس بالمرأة المسلمة والأسرة<sup>(2)</sup>. ومن الأمثلة على مدى ما وصلت إليه الأسرة الغربية من انحلال:

- أن كل رؤساء الولايات المتحدة من جورج واشنطن إلى بيل كلينتون لهم عشيقات وفضيحة، مونیکا لوينسكي أشهر من نار على علم.
- رئيس فرنسا السابق فرانسوا ميتران كانت له ابنة غير شرعية من عشيقته وتعيش معه في القصر الرئاسي وشاركت في تشجيع جنازته مع زوجته جنباً إلى جنب، وكانت زوجته عالمة بذلك راضية وكذلك الفرنسيون .
- رئيس فرنسا الحالي جاك شيراك يقال: إن ابنته لها ابن مجهول الأب . والفرنسيون راضون عن هذا.
- يجوز للرجلين في كل من بريطانيا وأمريكا أن يتزوجا ببعضهما وتعد الكنيسة هذا الزواج<sup>(3)</sup>.
- الوزير الدنماركي للصحة السابق ورأس قائمة الحزب الاجتماعي الديمقراطي الحاكم حالياً (14 مارس 1999 م) تورين لاند تزوج بكوبنهاغن يوم 13 مارس 1999 وهو في سن 49 من صديقه كلوس

<sup>(1)</sup> جريدة المساء، الأحد 30 جويلية 1989م، ص 5 .

<sup>(2)</sup> للوي هوفمان، المناخيل النصرانية للمرأة المسلمة وأسرهما "التصوير : خطة لغزو العالم الإسلامي"، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978م، ونشرته دار MARC للنشر بعنوان

"The Gospel and Islam A 1978 Compendium" ص 867. وكانت تعليقات المشاركين في المؤتمر على هذه المحاضرة بالإستحسان.

<sup>(3)</sup> "الرأي والرأي الآخر"، قناة الجزيرة التلفزيونية القطرية، 30 جانفي 1998، الساعة 8.30 مساء بتوقيت الجزائر.

لوتروب (28 سنة) بحضور حشد كبير من المدعويين من الجنسين وقد وقفا أمام عدسات الكاميرات وآلات التصوير لأخذ صورة تذكارية وبنويان السفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لقضاء شهر العسل. وقد وقف أصدقاؤها أما دار البلدية ومن بينهم وزير العدل الدنماركي لإلقاء العنب فوق رؤسهما وتورين لاند يحمل في يده مظروفا به عقد زواجهما. ويعد الدانمارك البلد الأول في العالم الذي أقر في عام 1989م حق الزواج المدني بين الشواذ جنسيا من نفس الجنس<sup>(1)</sup>.

وهكذا صدقت فاليري هوفمان، وهذه هي نتائج قانون الأسرة الغربي الذي شغف اللانكيين حيا. فهل يريدون أن يصير مجتمعنا إلى هذا ؟.

وإذا كان ما سبق في الغرب، فإن المشكلة عندنا ليست في قانون الأسرة الإسلامي الذي يعد مكسبا للشعب الجزائري لا يضاهاه، حرمت منه بعض الشعوب العربية والإسلامية فال مصير أسرها إلى الدمار، وإنما المشكلة فيما يناقض ما ورد فيه مما يجعل دعاة إلغاء قانون الأسرة يعالجون مشكلات لا وجود لها ويتركون المشكلات الحقيقية التي تخرب الأسرة والمجتمع، وأكبر مشكلة في نظرنا، هي ما يسمى تعضية وتضليلا.

### الأمهات العازبات (2):

هذه الظاهرة هي من الخطورة بمكان، وتعد في نظرنا أخطر ما يهدد الأسرة بالتدمير، والمجتمع بالتحلل والإنحلال، مما يعني أن مستقبل البلاد كله في خطر، وقد بلغ عدد الأمهات العازبات في منطقة الجزائر العاصمة وحدها سنة 1985 م 455 امرأة. ليرتفع في سنة 1987م إلى 800. وقد بلغ عددهن الإجمالي سنة 1987م : 33500 امرأة، علما أن هذا العدد المهول لا يشمل سوى الحالات المصرح بها، والتي إكتشفتها مصالح الشرطة. كما أنه فقط ما وقع فيه خطأ في الإحتياطات مما يدل على أن عدد حالات الزنا مهول. وقد علفت صاحبة المقال على هذا قائلة: "ومهما يكن الأمر ورغم غياب إحصائيات رسمية في هذا المجال فإن الشيء المؤكد هو أن مثل هذه الحالات ستزيد مؤسساتنا وبرامج تنظيم النسل حملا تقيلا"<sup>(3)</sup>.

وقد بينت صاحبة المقال أن تعدد أسباب إنتشار هذه الظاهرة وإختلافها من فئة إلى أخرى جعل عملية السيطرة عليها صعبة إن لم نقل مستحيلة. ومهما كانت الاسباب المؤدية إلى هذه الظاهرة، فالمجتمع يحمل الأم العازب مسؤولية الخطأ. وكم تعرضت فتيات للتعذيب والقتل والتشرد بسبب حمل غير شرعي، وكم من أسرة تشتتت وتهدمت أركانها لأن إبنتها أنجبت مولودا غير شرعي. وفي كل هذه الظروف يلتزم الطرف الآخر (المساهم في الخطأ) دور المتفرج على السيناريو الذي وضعه، وغالبا ما يرفض الإعتراف بظفله رغم كل البراهين التي تقدمها الأم.

(1) جريدة النصر، 14 مارس 1999م، ع 598، ص 11.

(2) الأمهات العازبات مصطلح لا يعبر عن الحقيقة ويحمل في ذاته التقليل من خطورة الظاهرة، بينما التعبير الحقيقي هو الزانيات الحاملات من السفاح.

(3) حدة حرام، الأمهات العازبات بين الخطأ وزيادة النمو الديمغرافي، جريدة المساء، 23 جانفي 1989، ص 7.

ولتجنب المخاطر التي قد تتعرض لها الأم العازب في الشهور الأخيرة من الحمل عند بدء التغيرات المرفولوجية وبروز البطن والتي قد تدفعها إلى محاولات الإجهاض أو الإنتحار أو تعرضها هي نفسها للقتل من طرف أحد أفراد أسرتها، نصت المادتان 243 و 244 من قانون الصحة الصادر في سنة 1977م على وجوب إستقبال عيادات الولادة الموجودة على مستوى القطر للأمهات العازبات ابتداء من الشهر 6 حيث توفر لهن إقامة مجانية. وتقدم لهن المساعدات الضرورية لإجتياز الأزمات النفسية والصحية التي ترافق فترة الحمل. كما تقوم المصلحة الإجتماعية الموجودة بالعيادات بتحسيس هذه الأمهات بفداحة المشكل حتى تجنبهن تكرار الخطأ. كما تتكفل هذه المصلحة بمصير الطفل في حالة تخلي الأم عنه، وذلك لتسلمه لعائلة ما بغرض التبني أو لتقله إلى دار الرعاية<sup>(1)</sup>.

والواقع أن هذه المشكلة التي يسكت عنها اللانكيون رجالهم ونساؤهم هي أخطر ما يهدد الأسرة في كيانها، والدولة في مستقبلها، وهي ذوات أبعاد متعددة، منها :

- **البعد الإقتصادي**، ويتمثل في إتقال كاهل الدولة بنفقات باهضة لرعاية كل هذا العدد الذي بلغ سنة 1987م / 33500 رسميا وما لم يعرف منه الله أعلم بعدده. وهو يتضاعف باستمرار بسبب ضعف الوازع الديني والفقر وغير ذلك من الأسباب.

- **البعد الإجتماعي والنفسي** : ويتمثل في إيجاد أعداد هائلة من اللقطاء الذين ينشأون حاقدين على المجتمع بإعتبارهم ضحاياهم معقدين نفسيا في أغلبهم بسبب نظرة الناس المزرية إليهم، وبسبب ظروفهم المعقدة إجتماعيا. حيث لا سكن ولا عائلة، وبأصلهم الغير مسؤولين عنه والمتحملين وحدهم لتابعاته إلخ، ولقد بينت دراسات الإجرام أن أكبر المجرمين من هذا النوع، مما يجعلهم يشكلون خطورة كبيرة على المجتمع.

كل هذا لا ينبس تجاهه بينت شفة أولئك الذي يطالبون بإلغاء قانون الأسرة، بل وصلت الجسارة بوحدة منهن أثناء حديثها عن هؤلاء اللقطاء في التلفزيون الجزائري : ان قالت : " لا نسال من أي أتوا ولكن نسال كيف نساعدهم".

**البعد الحضاري والمستقبلي للدولة** : بمرور الزمن سوف يشكل هؤلاء عددا معتبرا من أفراد المجتمع يساهمون هم أنفسهم في الإنتقام منه بإنتهاك أعراض نسانه والإفساد في الأرض وعدم القيام بأي عمل مثر في البناء الحضاري المنشود. وكيف يقومون بذلك وهم دائما ينظر إليهم على أنهم أبناء الجريمة، ولا سيما بعد أن يجدوا أنفسهم مرميين على قارعة الطريق بعد خروجهم من الأماكن المخصصة لهم، فتندفع الفتيات إلى الإنحراف الذي تساعدن عليه كل الظروف، ويندفع الشاب إلى الإجرام، ومن كان مستقيما واجهته الصعوبات الجمة من الحصول على اللقب إلى السكن إلى الوظيفة وهلم جرا<sup>(2)</sup>.

إن المرء يتساءل أخلاقيا: ما ذنب هؤلاء لينشأوا لقطاء؟ أليس من حقهم أن ينشأوا بين أحضان والديهم؟ إن الذي حرّمهم من ذلك الحنان ودفء العائلة إنما هي الأخلاق الغريبة الغريبة عن قيمنا

(1) المرجع نفسه، ص7.

(2) ومن أراد معرفة بعض المعاناة التي يتعرض لها هؤلاء المظلومون، فليتابع حصة " وكل شيء ممكن" في التلفزيون الجزائري.

وتقاليدنا، والأغرب: ان المطالبين بإلغاء قانون الأسرة لا يطالبون بوضع حد لهذه المشكلة، وذلك بإرجاع الناس إلى الدين الصحيح. وإنما يطالبون بالتبني. وهذه جريمة أخرى؛ لأن التبني لا يحل المشكلة، بل يزيدا تعقيدا ولا سيما عندما يعلم الطفل أنه ابن الخطيئة. ولا نقصد بالتبني هنا الإيواء والتربية والرعاية والتكفل فإن هذا واجب شرعا، ولكننا نقصد به ما يريده اللاكيون وهو تنزيل المتبني منزلة الإبن من الصلب " ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم"<sup>(1)</sup>.

والنتائج التي نتوصل إليها مما سبق ، هي :

- الهجوم على قانون الأسرة ليس وليد فكر دعاة الحركة البربرية، بل هو وليد الإستعمار الفرنسي وقد رأينا إتهامات بورغاد، وأفاعيل فرنسا إلى الآن، ومن هنا فإن الهجوم عليه يصنف ضمن مواصلة أعمال المبشرين وإستمرارية الإستعمار لتحطيم أساس المجتمع وهو الأسرة والمرأة.

- قانون الأسرة الإسلامي هو الذي كانت تخضع له الأم الجزائرية التي أنجبت جيل 1954 الذي جعل فرنسا تنقياً في سبع سنوات ما إتهمته في قرن وثلث. ويكفي ان نعرف أن ديغول أعطى 13 دولة إفريقية استقلالها في يوم واحد ليتفرغ لابناء نوفمبر. ولكن ذلك لم يجده نفعا ، فخرج من الجزائر خاسئا وهو حسير. ولما كان هذا القانون هو الذي أنجب ذلك الجيل فإن هذا هو السر الذي جعل - كما ذكرنا- جاك لاند رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالجمعية الوطنية الفرنسية يوم 15 فيفري 1998م يعبر عن إنشغالاته تجاه هذا القانون، وجعل فرنسا وراءه، وجعل دعاة الحركة البربرية وراء فرنسا يطالبون بإحلال قانونها محله. أي إباحة تعدد الخيلات وتحريم تعدد الزوجات، وتحديد نسل الزواج الشرعي، أما النسل الناتج عن السفاح، فلا نسال من أين أتى ولكن نسال كيف نساعد حسب تعبير المذبة السابق ذكرها.

- الغرض من الهجوم على قانون الأسرة، تحطيم المجتمع الإسلامي ككل، وذلك لأن المجتمع الإسلامي كما يقول أبو زهرة، يمتاز عن كل مجتمعات الدنيا بأنه مجتمع رباني، كل أسسه حددها الشرع... ومن عناصر المجتمع الإسلامي الأسرة: " فقد نظمت النصوص الإسلامية -من قرآن وسنة- تجمع الأسرة من حيث العلاقة بين الزوجين وعلاقة الآباء بأولادهم وربطت ما بين الأقارب، وفصلت الحقوق والواجبات لكل واحد قبل أقاربه الأقربين وغيرهم، وتعرضت للواجبات الأدبية والحقوق المادية، فنظمت التوارث وتصدى لبيانه بالتفصيل القران، ونظمت العلاقة بين الغني والفقير في الأسرة، فأوجبت على الغني النفقة على الفقير. وجعلت أساس الحقوق والواجبات في الاسرة المودة والرحمة والتواصل، وبينت أنها إذا فقدت الرحمة أو المودة تقطعت أوصالها، وقد نظمت الأسرة وحددت العلاقة بين الأسر والخلطاء وجعلت التعاون أساس الروابط بين هذه الفئات ونظمت كل شيء بدقة في المجتمع، وجعلت الأسرة مركز المجتمع"<sup>(2)</sup>. وبذلك فإن الأسرة في الإسلام نظام فريد يختلف عن جميع أسر الدنيا، وهي المنبت الحقيقي لبناء الإنسان.

<sup>(1)</sup>الأحزاب / 5.

<sup>(2)</sup>محمد أبو زهرة تنظيم الإسلام للمجتمع، ص 62.

ومن هنا فإن تهديم الأسرة يعني القضاء على المنبت الطبيعي للإنسان السوي مما يهدد البلاد ويجعلها فريسة لأعدائها.

والحقيقة أنه لم توجد أسرة في الدنيا تعرضت لهجمات شرسة مثل الأسرة المسلمة، ويدخل الهجوم عليها ضمن إستراتيجية السيطرة على المسلمين والقضاء عليهم نهائيا، وهو مما كانت ولا تزال "صالونات" أوروبا تعج للتخطيط لذلك وتنفيذه، وقد قسمت أراضي الإسلام إلى مناطق إستعمارية بين الغربيين قديما، ومناطق نفوذ وتبعية حاليا، وسلسلة المؤامرات تتواصل، وتعد المرأة أحد أخطر حلقاتها لأنها تتناول وجود العائلة الإسلامية نفسها التي إستطاعت في أسوأ الأحوال أن تمتص الصدمات التي تعرض لها الإسلام من الخارج وتدفعها ميتة عند جدران البيت الإسلامي. ولا أدل على صحة هذا من أن المرأة الجزائرية قامت بالثورة على قدم وساق مع أخيها الرجل دون أن تكون لها منظمات نسائية خاصة بها. وذلك لأن الأسرة هي التي صنعتها ذلك الصنع الحضاري المتين.

ويزيدنا يقينا بأهمية قانون الأسرة الإسلامي ما نراه من النتائج التي آل إليها المجتمع الإسلامي بعد تأثره بمفهوم المرأة الغربي وقانون أسرتها ومن تلك النتائج.

- فساد الأسرة وإنهزام العائلة وتفشي الطلاق، لإستغناء كل من الزوجين عن الآخر، كما ضعفت رابطة الأبوة والبنوة، فأصبح الأبناء يرمون آباءهم وأمهاتهم في دور الشيخوخة التي أصبح يوجد منسها بالقطر الجزائري 20 مركزا بها 2300 مسن، تكلف ميزانية الدولة 20 مليار سنتيم سنويا<sup>(1)</sup>. وهو مبلغ كان يمكن إنفاقه في غير هذا، وقد أصبح هؤلاء الشيوخ واللقطاء من أهم مراتع المبشرين يأوونهم في مراكزهم التي من أهمها مركز عناية ليميتو الشيوخ كفاروا ويجعلون الأطفال من جنودهم المستقبلية لتخريب البلاد والعباد.

- شيوع الفواحش وسيطرة الشهوات، وذلك لازدياد عدد البغايا ورواج تجارة الغرائز والرقيق الأبيض الجديد في الحانات والمراقص والفنادق الفخمة والأحياء الجامعية للبنات، وحل الزنا محل الزواج الشرعي لأن البضاعة معروضة عرضا رائعا وسهلة التناول ورخيصة الثمن ولا وازع من الدين يحمي الجنسين ويضع حدا لكل هذا.

- تحطيم العائلة وشيوع التبذير، إذ ما ينفقه المنحرف على بغي في مرقص مثلا خلال ساعات، قد لا ينفقه على عياله في سنوات.

- كثرة اللقطاء مما يؤدي إلى ما ذكرناه قبلا عودة المرأة إلى عهد الرق، بدليل أنها أصبحت عند دعاة تحريرها من ضمن الخدمات التي تقدم للزبائن في الفنادق الفخمة والمطاعم الكبرى إلخ.

- إنتشار الإجهاض وإزدياده المهول، وذلك لأن الإبن غير الشرعي يعد جريمة حتى في نظر أمه مما يدفعها إلى التخلص منه قبل الميلاد.

- ظلم الأطفال بسبب نقص الحنان والعناية.

- انتشار العادات السيئة كالواط والسحاق ولا سيما وسط المراهقين والمراهقات الذين يردون ولا يستطيعون الشرب بسبب ما يعرض أمامهم من أجسام وأشكال وأفلام... إلخ.

- شقاء الرجل والمرأة على السواء بسبب إنعدام الثقة والصدق والإخلاص، بحيث لا يصبح البيت مأوى للراحة.

- إنتشار الأمراض الخبيثة .

والخاسر الأكبر هو المرأة، لأنها تجد نفسها بضاعة، تؤكل ثمرة وترمى قشرة.

والنتيجة النهائية هي : الإنهيار الخلقي الشامل وفشل الأسرة في أداء رسالتها التاريخية الحضارية، والسبب في هذا. هو الخطأ في الإعتقاد بأن حل مشكلة المرأة الجزائرية يتم بمساواتها بالمرأة الغربية في كل شيء، ذلك أن نفسية كل منهما مختلفة ومجتمع كل منهما مختلف مما يحتم أن نتوصل إلى أن مشكلتهما مختلفة. ولكن اللاتكبيين أقحموا المرأة المسلمة في المرأة الغربية. ولا أدل على هذا من أننا إذا نظرنا إلى المشكلات التي تطرحها المرأة المسلمة اليوم في المنظمات النسائية نجدها هي بالضبط ما تصوره المرأة الغربية كمحاربة التعدد والدعوة إلى التنبني إلخ. مما يعني أن اللاتكبيين يتركون مشكلات المرأة المسلمة جانبا ويعالجون مشكلات غير موجودة عندها، ويكفي دليلا على صحة رأينا هذا إحتجاج خليفة مسعودي على تحفظات الجزائر حول وثيقة كوينهاجن.

### علاقة قضية المرأة بالإستعمار والتبشير :

مما سبق يتبين بوضوح أن ما يسمى بمشكلة المرأة إنما هو قضية فرنسية محضة أنشأها رجال الإستعمار والتبشير، وذلك إبتداء من إلغاء المحكمة الحنفية إلى جعل الأحوال الشخصية الإسلامية تحت إشراف القانون النابليوني، إلى تصريح جاك لاند يوم 15 فيفري 1998 إلى ... كما رأينا ما فعله بورغاد في هذه القضية بالخصوص، وسعي دوفوكو لإلغاء المحاكم الشرعية في الجنوب الجزائري، ويكفي دليلا على علاقة قضية المرأة بالتبشير محاضرة فاليري هوفمان في مؤتمر جلين أيري التبشيري السابق ذكره، وثورة أسقف وهران في 1995م على قانون الاسرة الجزائري كما بيناه في حينه.



## المبحث الخامس

### التنظير للعلمانية

#### أركان نموذجنا

يعد أركون كما ذكرنا قبلا ذروة سنام الإتجاه التنظيري للعلمانية للحركة البربرية خاصة، وللانكي الجزائر والعرب والمسلمين عامة.

وينظر للعلمانية عند المسلمين أو في المجتمع الإسلامي من خلال العناوين الآتية:

- 1- إحدى مشاكل " الإسلاميات التطبيقية"
- 2- مثال مزدوج للعلمنة ، تركيا ولبنان
- 3- الخلافة: الأصل التاريخي وعملية التسويغ أو التبرير
- 4- النظرية الشيعية للسلطة
- 5- النص القرآني كيفية جمعه وإعادة قراءته
- 6- إنبثاق العلمنة وإحاحها. أي أنها ضرورة حتمية للمجتمعات الإسلامية
- 7- نحو ممارسة علمانية للإسلام
- 8- خاتمة : قوة الظاهرة القرآنية

ولنتعرض إلى دراسة هذه العناوين مستخدمين في دراستنا لها المنهج الأركوني ذاته فيما يتعلق بجانبه العلمي دون المغالطي إضافة إلى المنهج الجدلي والمنهج التحليلي النقدي.

#### 1- الإسلاميات التطبيقية

ينطلق أركون من توضيح مصطلح الإسلاميات التطبيقية، فهو من جهة مفهوم جدلي يناقض الإسلاميات الكلاسيكية ( للإستشراق) الذي ولد في القرن 19 في فرنسا خاصة بسبب لا حيادية رجاله مما جعل المسلمين ينفرون منهم، ولكنه من جهة أخرى لا يشترط أن يكون الباحث في هذا المجال مسلما، " إن هذا خطأ يجب أن يدان فوراً"<sup>(1)</sup>،<sup>(2)</sup>. وكل ما في الأمر يجب على الباحث في المجتمعات الإسلامية أن يبحثها من داخلها لا من خارجها لكي يفهم روح المجتمع.

ثم يبين أركون قضية خطيرة يكشف بها عن نفسه ويبين من خلالها هدف بحثه هذا تتمثل في عمله الذروب على توجيه المجتمعات الإسلامية التي نالت إستقلالها حديثا. يتمثل هذا التوجيه حسب ما نتوصل إليه في تحطيم القيم التي إستعملتها هذه الشعوب في التحرر من الإستعمار وأهمها: القرآن الكريم، وما يحتويه من جهاد وأخلاق وتشريع إلخ فيقول "... هذا ما نشاهد حدوثه اليوم في المجتمعات الإسلامية التي نالت إستقلالها، والتي يترتب علينا مهمة طرح مشاكلها ومحاولة حلها، لكي نجيب على الأسئلة

<sup>(1)</sup> محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، ط1، مركز الإنماء العربي، بيروت، 1986، ص275.

<sup>(2)</sup> ونحن نتساءل هنا : هل يقل رجال الإكلروس بحثا لاهوتيا يتعلق بالنصرانية قام به مسلم حقيقي؟

جامعة الأمير  
عبد القادر للعالم الإسلامي

المنحة التي تطرح عليها، نشاهد هذه المجتمعات تحول نظرها نحو ماضيها<sup>(1)</sup> فتصطدم بكتابات المستشرقين فتحصل المواجهة التي لا يمكن لأي مجتمع إسلامي أن يتجنبها، ولكن التقادم العلمي في الغرب يجعل المجتمعات الإسلامية تجد نفسها دائما تحت الهيمنة المنهجية والإستمولوجية للعالم الغربي، ومن هنا فإن الإسلاميات التطبيقية تقوم بمهمتين:

- إنتاج الدراسات الموثقة والمحققة كما كان الإستشراق قد فعل سابقا.

- طرح المشاكل الفعلية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية ثم محاولة حلها والسيطرة عليها من قبل المسار العلمي والمنهجية العلمية. أي أنها من جهة تريد أن تتوضع داخل هذه المجتمعات الإسلامية لكي تعرف على مشاكلها القديمة والحديثة، ومن جهة أخرى تساهم في إغناء البحث العلمي كما هو ممارس اليوم في شتى الينات الثقافية مع تحقيقها لكل شروطه ومتطلباته النظرية. إن الباحث المتخصص في مجلد الإسلاميات التطبيقية ينبغي عليه أن يبقى مشدودا "إلى" ومنخرطا تماما في الحقيقة الواقعية المعاشة للمجتمعات الإسلامية لكي يستطيع أن يتحدث عنها ويدعي مسؤولية فهمها<sup>(2)</sup>.

وتحقيق غرضه السابق فإنه من ضمن من صب عليه جام غضبه "سورة التوبة" بسبب دعوتها إلى جهاد المعتدين، فأصيب بسببها بهم وغم، وحزن وألم، ولا سيما من قوله تعالى: "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم"<sup>(3)</sup>. هذه الآية جعلته يكاد يحن كمد أو غما وحقدا وبغضا، فيعمل على توجيه الشعوب الإسلامية من خلالها بفصلها عما قبلها وما بعدها، محاولا بشتى الأساليب إقناع المسلمين بمنافاتها لحقوق الإنسان والحرية الدينية والحرية الشخصية وحرية الفكر. لأنها حسب زعمه داعية إلى العنف الذي يكرسه مبدأ الجهاد<sup>(4)</sup>. هذا المبدأ الذي لولاه ما خرج الإستعمار الغربي من بلدان المسلمين ولذلك يحاربه أركون، ولما كان مصدره القرآن فإن أركون يعمل على تحطيم الظاهرة القرآنية ذاتها كما سنبين.

يتساءل أركون : لماذا نولي - داخل هذه الإسلاميات التطبيقية - أهمية قصوى لموضوع حاسم كـ "الإسلام والعلمنة"<sup>5</sup>. ويجب أن أهمية هذا الموضوع علمية ونظرية من جهة وحياتية ومعاشية من جهة أخرى، ولكي تحل هذه المشكلة في الإسلام ينبغي القيام بإعادة نقد لمفهوم العلمنة نقدا فلسفيا كما كانت قد استخدمت وطبقت في فرنسا. وذلك من أجل تشكيل الدولة بالمعنى الحديث<sup>(5)</sup>.

ونحن هنا نطرح سؤالا موضوعيا ومنطقيا في نظرنا، هو : لماذا فرنسا بالذات هي التي يجب أن نقلدها؟. وهل التقليد لفرنسا حادثة وليس جمودا؟! مع أن فرنسا نفسها مازالت اللاتينية مطروحة فيها للمناقشة إلى

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 276.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 276.

<sup>(3)</sup> التوبة / 5

<sup>(4)</sup> فضيلة أستاذنا عبد الرزاق قوم، مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر، تأملات في المنطق والمصيب، ط 1، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، 1997م، ص 187، 188.

<sup>(5)</sup> محمد أركون، المصدر نفسه، ص 276.

اليوم بإعترافه؟ أركون يطلب منا رفض تقليد أسلافنا في دراسة تراثنا، لأن ذلك جمود وتخلّف. ولكنه يجعل حل المشكلة يكمن في تقليد فرنسا. فهل تقليدها ليس جموداً؟ ولماذا هي بالذات؟ الواقع أن التجربة الفرنسية بالخصوص تعد نموذجاً معاكساً ومناقضاً لنا تماماً، لأنها مدينة للثورة الفرنسية اللاتينية التي حررتها نسبياً من الإكليروس، ونحن مدينون للإسلام الذي حررنا من فرنسا. ومن هنا فإنّه حتى من الناحية المنهجية البحتة، التجربة الفرنسية لا تصلح لنا قدوة، فهي تحررت من الدين ونحن تحررنا بلادين، ناهيك عن الاختلاف الجوهرى بين الدينين، نصرانيتها وإسلامنا. ثم لماذا التجربة الفرنسية بالخصوص لا الأمريكية مثلاً، علماً أن رجال الثورة الفرنسية أنفسهم تأثروا بالثورة الأمريكية التي شارك بعضهم فيها فرجع إلى فرنسا متشبعاً بمبادئها؟!

والجواب على هذا أن أركون تخرج من الكنيسة الكاثوليكية الإستعمارية في تورييرت ميمون وإذا كان دور كايم يقول : إذا تكلم الفرد فإن الضمير الجمعي هو الذي يتكلم، فإننا نقول : إذا تكلم أركون فإن الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية هي التي تتكلم. إنه لا يتكلم إلا من خلال طغيان الثقافة الفرنسية المسيحية على عقله<sup>(1)</sup>. وقد صرح كما ذكرنا قبلاً بأن بحثه هذا يدخل ضمن توجيه الشعوب الإسلامية التي إستقلت حديثاً، وكأنها لم تبلغ سن الرشد فاحتاجت إلى أركون لينظر لها. ويظهر بجلاء عمله الذؤوب في مواصلة المشروع الإستعماري، أي ربط المستعمرات السابقة المستقلة بمن إستعمروها، ونحن استعمرتنا فرنسا فيجب ان تكون هي قوتنا في كل شيء، ولما كان من طبايع الإستقلال تكوين دول حديثة غير موالية للمستعمرين فإنه ينظر لجعل هذه الدول لا تبذع، بل تقلد مستعمرها السابقين لتبقى تابعة لهم إلى الأبد.

ولما كان الدين الإسلامي هو أساس الشخصية فإن هذه الدول الإسلامية يجب أن تخرجه من حياتها، ولما كانت الدولة هي أساس التوجيه والتخطيط والقيادة في المجتمع، فإنها يجب أن تبعده تماماً من نظرها فيقول عن العلمنة " إنها كما نعلم جميعاً، مسألة لا تزال تطرح نفسها في فرنسا أيضاً<sup>(2)</sup>. لكنها بالطبع ملحة أكثر في أرض الإسلام وذلك من أجل تشكيل الدولة بالمعنى الحديث لكلمة دولة"<sup>(3)</sup>. ثم يعترف أركون " أن الإسلام لم يعرف أبداً في تاريخه تفكيراً فلسفياً يطرح مسألة العلمنة كما نفهمها اليوم"<sup>(4)</sup> وسيفيدنا هذا الإعتراف كثيراً من بعد.

## 2- مثال مزدوج للعلمنة: تركيا ولبنان :

إن العلمنة في نظر أركون يجب ان تبنى أساساً على تحطيم القرآن الكريم في نفوس المسلمين وإلا لا تتجح ويستدل على هذا بتجربتي تركيا ولبنان.

**تركيا :** يذكر أركون أن كمال أتاتورك راح بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى ينجز ثورة علمانية حقيقية في بلد كان ولا يزال متشدداً في إسلامه. كان أتاتورك قائداً عسكرياً سبق أن درس في فرنسا وعاد منها

<sup>(1)</sup> عبد الرزاق قسوم، المرجع نفسه، ص 183 .

<sup>(2)</sup> أي يجب أن نكون ملكيين أكثر من الملك، وإلا يجب أن ينتظر أركون حتى تحسم القضية في فرنسا لصالح اللاتينية ثمنا ثم يطلب منا تقليدها لأنه متعلقاً لدى تحسم لصالح الكنيسة، فهل في هذه الحالة يظل يدعونا إلى اللاتينية أم يطلب منا الإقتداء بفرنسا في الدين ذاته أي التصير؟.

<sup>(3)</sup> محمد أركون، المصدر السابق، ص 276 ، 277.

ممتلئاً بالحماس للأفكار الفرنسية ومنتشعاً برؤيا علمانية نضالية، ثم أراد تطبيق كل هذا على تركيا الخارجة مهزومة من الحرب. لتحقيق ذلك أصدر مجموعة من القوانين الصارخة كالغاء السلطنة التي كانت تمثل نوعاً من الشرعية الإسلامية المستمدة من الخلافة، شكل هذا القرار ضربة قاسية للأمة الإسلامية. ثم خلق جمهورية تركية على غرار النموذج الغربي، وألغى التقويم الإسلامي الهجري، ثم ألغى الحروف العربية في الكتابة مما نال من المناخ السيمائي - التصوري - لشعب بأسره، ثم حل وزارة الشؤون الدينية وكل الجمعيات الدينية وألغى تدريس الدين في كل المدارس، وأخيراً فرض القبعة الأوروبية بديلاً عن الطربوش .... إلخ.

هكذا ذهبت هذه التجربة بعيداً في جرأتها، لكنها لم تكن في الواقع إلا "كاركاتيرا" للعلمنة رافقتها بعض التطرفات كما حدث ذلك في فرنسا سابقاً، لكن الشعب التركي لم يستجب لهذه التجربة التي دوختها، مما يفسر العودة الدينية العنيفة بدءاً من عام 1940، راح التيار الإسلامي يسترجع مواقعه بقوة بدءاً من هذا التاريخ<sup>(1)</sup>. ونلاحظ أمام أعيننا أن الأمور قد وصلت ... إلى مرحلة من التطرف الديني تمثل رد الفعل على الفاصل العلماني القصير الذي أدخله أتاتورك بعنف<sup>(2)</sup>.

والواقع أن أركان يتناقض في تقييمه لأتاتورك . فهو من جهة يعتبره قد نجح في زرع العلمنة زرعاً عميقاً في المجتمع التركي<sup>(3)</sup> . ومن جهة أخرى يعتبر علمانيته كاركاتيرا وأنه كان ساذجاً في أخذها من فرنسا<sup>(4)</sup>. ولذلك فشلت. وسبب الفشل أنه كان يجب أن يعمل على تحطيم القرآن الكريم لأن بدون تحطيمه لن تنجح أي محاولة لعلمنة المجتمع الإسلامي .

أما لبنان فيبين أركان أن لبنان تشهد فيه ظواهر التطرف تبلغ مداها وهي موجودة أيضاً في البلدان المسيحية الأخرى دون المغربية بسبب وجود طوائف مسيحية ضخمة. نجد في لبنان التوترات والمشاعر الهائجة تبلغ أقصاها لدرجة أن العلمنة تبدو فعلاً وكأنها الحل الوحيد له. إن الذين يطرحونها اليوم في لبنان هم خصوصاً المسيحيون. لماذا؟ في نظره بسبب الصراع الطائفي بينهم وبين المسلمين حيث أدى إلى إنغلاق كل طرف على نفسه وراحت كل جماعة ترسخ قيمها الخاصة بنوع من العصبية والإنغلاق. هذا التأكيد للذات ولقيمها ولتفوقها على الآخر (الفئة المقابلة) لم تجده جلياً في نظام التعليم والتثقيف الممارس في كلا الجهتين بدءاً من المرحلة الابتدائية (الطفولة) إلى الجامعة.

بعبارة أخرى أركان يشير هنا إلى قضية مهمة في نظرنا تبين أن النضالي جداليا يزعمون العلمنة ولكنهم في الواقع العملي نجد التعليم عندهم إكليريكي. ولما كانت العلمنة مطروحة من طرفهم دون المسلمين فإن الغرض واضح هو تحطيم الإسلام كنظام حياة، لأنه إذا كانت العلمنة هي الحل لمماذا لا

<sup>(1)</sup> والشعب التركي اليوم مفروضة عليه العلمنة بالحديد والنار وإلا لا أزالها بين عشية وضحاها، وسيأتي اليوم الذي يزيلها فيه - إن شاء الله -

<sup>(2)</sup> أركان، المصدر نفسه، ص 277 ، 278 .

<sup>(3)</sup> محمد أركان، الفكر الإسلامي نقد وإحترام، ص 48 ، 276 عن عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص 194 .

<sup>(4)</sup> محمد أركان، الفكر الإسلامي نقد وإحترام، ص 69 ، 70 .

يكرسونها في نظام التعليم ويجعلونه إكليروسياً؟ ثم إنهم عندما يدعون إليها لا يخسرون شيئاً عكس المسلمين الذين يخسرون دينهم كله.

إذن النصارى الموارنة هم الذين يطرحون قضية الإسلام والعلمنة في لبنان من أجل أهداف جدالية ومحاكات ومن أجل ممارسة إستراتيجية القوة والسيطرة على المسلمين. ذلك أن الذين يدعون للعلمنة من أجل تجاوز الروح الطائفية والصراعات الناتجة عنها هم خصوصاً المسيحيون الموارنة<sup>(1)</sup>. ودعوة كهذه تبدو مشكوكاً فيها قليلاً خصوصاً إذا علمنا أن الموارنة يحتلون موقعا في المجتمع اللبناني متفوقا من الناحية الاقتصادية والثقافية على المسلمين.

ومن هنا يتوصل أركون حسب زعمه إلى تصحيح طرح العلمانية بحيث تطرح المشكلة في مكانها المناسب، أي ضمن إطار الصراع الإجتماعي - السياسي الناشب في كل المجتمعات الإسلامية بين "المحافظين" و "التقدميين" حيث تلاحظ الهوة عميقة بين الجناح الناهض الذي يقبل كل الإصلاحات الجذرية - ولسنا ندري ما هي هذه الإصلاحات؟ لأن سبب الأزمة عندنا ليس هو الدين مثلما كان حال المجتمعات النصرانية، بل البعد عن الدين - وجناح آخر يقف في وجه كل تغيير ويرفضه محتجا بأسباب موصوفة بأنها دينية. هكذا نجد أنفسنا في مواجهة إشكالية عامة لا يمكن للإسلام بعد اليوم أن يتجاهلها أو يخفيها إذا ما أراد أن يستمر في الوجود في مجتمعات دخلت مرحلة التحديث والتغيير<sup>(2)</sup>. والواقع أن هذا الطرح هو نفسه طرح نصراني للمشكلة لإخفاء الطابع التصيري.

### 3- الخلافة : الأصل التاريخي وعملية التسويغ أو التبرير

يقول أركون لكي نغني إشكالية العلمنة لابد من طرح مسألة الخلافة، فهي تحيلنا إلى مسألة أصل السلطة وتنظيم الدولة الإسلامية، وهو يكره مصطلح الدولة الإسلامي لأنه يتضمن سقفا موقفا سلبيا من العلمنة (يعني يجب ان نحطم كل شيء من أجل سواد عيون العلمنة) ويشيد بعلي عبد الرزاق وكتابه ويدعو إلى مواصلة عمل علي عبد الرزاق من جديد على ضوء الإنتربولوجيا السياسية التي إفتتحها جورج بالاندييه<sup>(3)</sup>. ويبدأ أركون في فحص ثلاث مصطلحات هي الخليفة والإمام والسلطان، ويرى أن المصطلحين الأوليين يتضمنان مسؤوليات روحية وزمنية في حين أن مصطلح السلطان يعني فقط ممارسة السلطة المكتسبة عن طريق القوة والتي تستمر بفضل القوة، وبهذا التمييز بين المصطلحين الأوليين والثالث يزعم أركون أنه حقق التمييز ما بين الخلافة والسلطنة اللتين كثيرا ما يخلط بينهما وذلك بسبب أن السلاطين الأتراك كانوا قد إدعوا ميراث الخلافة.

ونحن قبل أن نواصل حديثنا نتساءل، من أين له بهذا التقريقر وهو يصرح أن السلاطين العثمانيين لم يكن عندهم عمليا هذا التمييز؟. كما أن التاريخ الإسلامي كله إلى ان دخل الإستعمار الغربي لم يكن

<sup>(1)</sup> والواقع أن الذي ينتج عن العلمنة كما يذكر برهان غليون هو العكس، فالعلمنة تنتج الطائفية وتدري إليها لأنها تمزق المجتمع إلى علمانيين ومثبيين الخ ...

<sup>(2)</sup> محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، ص 278 ، 279 .

<sup>(3)</sup> Georges Balandier : Anthropologie politique, P.U.F 6d 1969 عن محمد أركون، المصدر السابق، هامش ص 280 .

موجودا فيه أي فصل ما بين الروحي والزماني نظريا وواقعا، ومن هنا فإن أركان يخرع أو هامما ثم يطلب منا أن نتبناها لنقتنع بما يبني عليها من نتائج خطيرة.

- يريد أركون أن يوهمنا بان الإسلام كالنصرانية والقرآن كالإنجيل، وإذن فلا ملاذ عن العلمنة في الإسلام كما في الغرب. ويظهر هذا في جملة من المزاعم والأكاذيب، منها :

زعمه ان الإمام هو الذي يحدد القبلة وذلك ليوهم الناس أن الإسلام كهنوت كالنصرانية. وهذه أكذوبة. ذلك أن أركون نفسه يعرف أن الارض كلها مسجد وطهور في الإسلام، وأي ما رجل أدركته الصلاة فليصلي، أما الذي حدد القبلة فهو الله عز وجل: ﴿فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام... تهتتون﴾<sup>(1)</sup>.

وأما تحديد إتجاه مكة فهو لكل مسلم أدركته الصلاة في أي عراء في الارض، وأما المساجد فإن إتجاه مكة محدد بمحاربها التي لا تحتاج إلى الإمام لمعرفةها. وإذا كانت الصلاة تصح بدون إمام بل هناك صلوات لا تصح إلا فذا مثل السنن الراتبة، فكيف يقال بأن الإمام هو الذي يحدد إتجاه مكة؟! والغرض واضح هو إيهام الناس بأن الصلاة في الإسلام كالصلاة في الكنيسة النصرانية.

- زعمه أن النص القرآني تشكل خلال الأربعة قرون الأولى. وهذه أكذوبة لا تغتفر؛ لأن النص القرآني لم يتشكل، وإنما نزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ولم يتبدل أو يختفي حتى يقال بأنه تشكل. ومتى؟ خلال أربعة قرون كاملة؟! . ومعنى هذا أن المسلمين ظلوا بدون قرآن متكامل خلال 4 قرون كاملة كما ظل النصراني أربعة قرون كاملة دون كتاب مقدس متكامل. لأن أقدم مخطوط له كما ذكرنا قبلا كتب في القرن 4 م وهو غير كامل وفيه ما ذكرناه قبلا.

وهذه الأكذوبة الغرض منها جعل الناس يعتقدون أنه وقع للقرآن الكريم ما وقع للإنجيل التي ذكرنا قبلا ان أقدم مخطوط للكتاب المقدس كتب في القرن 4م أي بعد 4 قرون من غياب المسيح -عليه السلام-. والغريب أنه يناقض نفسه هنا فهو يعلن أن القرآن الكريم تشكل في الأربعة قرون الأولى، ومن جهة أخرى يذكر أنه تشكل في مصحف عثمان بعد 25 سنة من وفاة محمد -صلى الله عليه وسلم-. ولكنه لا يهمه التناقض بل يهمه الهدف.

- تصريحه بأن القرآن مثل الإنجيل توجيهات عالية وغرضه من هذا الرفع من الإنجيل والخط من القرآن الكريم.

ومهما يكن من أمر فإن أركون بعد أن حدد مصطلحي الخليفة والإمام وميز بينهما وبين مصطلح السلطان الذي هو سلطة زمنية فقط حسب زعمه اعتقد أن ما ذكره بديهية لا تقبل الجدل، فإنتقل منها مجردا للمستشرقين والمسلمين على السواء وكذا الجمهور الغربي ككل الذين يعتقدون أن الإسلام لم يعرف أبدا في تاريخه التفريق ما بين الزماني والروحي " فهذا خطأ شائع ومنتشر جدا. وهو فكرة ثابتة مغرسة في نفوس المستشرقين وعند الجمهور الغربي ككل - فيقول مهيدا - إذا لم نتخلص فورا من هذه

النظرية فإنني أقول لكم بصراحة أن لقاءنا هذا لن يكون له أي معنى<sup>(1)</sup>. ويظهر من هذا النص بجلاء أن كلامه هذا ذكره في محاضرة في لقاء مع المستشرقين.

ويزعم أنه وجدت سابقا في المجتمعات "المدعوة إسلامية" تجارب معمقة علمانية لكنها لم تكن ناضجة ولم ينظر لها. ولكي يبرهن على هذا يدعونا إلى العودة إلى التاريخ، إلى ما حدث تاريخيا بالفعل والذي أدى إلى ولادة الخلافة. ويمكننا نحن أن نصيغ هذا في سؤال هو :

**كيف ولدت الخلافة؟.**

ويجيب بأن محمدا -صلى الله عليه وسلم- مات عام 632 م بعد أن عاش 20 سنة مع من حواليه تجريبية فريدة كان فيها القائد والموجه يسميها أركون متأثرا بعلي عبد الرازق بـ "تجربة مكة والمدينة" إنطوت على معطيات من نوع ديني ومعطيات من نوع دنيوي خاصة بأعمال قائد لجماعة محددة في مجتمع محدد. ويقول أركون: إننا نستخدم قصدا كلمة "تجربة" ذلك أن الأمر يتعلق فعلا بمجموعة من المواقف العملية المحسوسة المعاشة من قبل رجل قائد ضمن جماعة بشرية، هذه المواقف العملية والتصرفات الشخصية القيادية، وسوف نتخذ فيما بعد قيمة مثالية نموذجية، وسوف يؤثر ذلك على كل الأحداث القادمة<sup>(2)</sup>.

وقبل أن نواصل تحليله نعلق على هذا الكلام بما يأتي :

كلامه هذا مرفوض ومغالطي، إذ كيف سولت له نفسه إعتبار كل ما فعله النبي -صلى الله عليه وسلم- سوى تجربة شخصية وخاصة بجماعة محددة في مجتمع محدد. كيف تكون المرحلتان المكية والمدنية ليست سوى تجربة لمحمد وهو الذي كان القرآن الكريم ينزل ليوجهه ويبين له السبيل الذي يجب أن يتبعه، بل كانت بعض القضايا تظل مثارة مدة من الزمن ورغم خطورتها إلا أنه لم يكن يجزؤ أن يصدر فيها حكما إلا بعد أن ينزل الوحي بالحكم، ومن ذلك حادثة الإفك. بل هناك قضايا تمسه هو نفسه كشخص، وكان مقتضى المنطق أن يبين ما يسوغ عمله، ولكنه كان يبين أن ما فعله لم يكن هو الأفضل مثل حادثة الأعمى وأسرى بدر إلخ. ومن هنا فإن القول بتجربة محمد التي يركز ويؤكد عليها أركون إنما هو إنكار لنبوته ورسالته وجعله مجرد قائد بشري أو زعيم زمني. والصواب في نظرنا أن حياة محمد وحكمه وكل تصرفاته في المرحلتين المكية والمدنية خلال 23 سنة- وليس 20 سنة كما يزعم أركون ليس جسيما بل إنقاصا من عمر محمد -صلى الله عليه وسلم- وأن 3 سنوات في حياة النبي لها أهميتها- إنما هي تطبيق للقرآن الكريم، ومن يراجع القرآن الكريم لا يجد أية صعوبة في إدراك هذه الحقيقة.

ونحن نتحدى أركون أن يبين لنا ماهي المعطيات من النوع الدنيوي التي أنطوت عليها تجربة مكة والمدينة؟. هل يقصد بها البيع والتجارة أم الربا أم الحروب والمعاهدات الدولية أم السرقة والزنا وشرب الخمر إلخ؟. نتحدها أن يبين لنا ماهو الفرق بين الديني والدنيوي؟. وهل حادثة الإفك من النوع الديني أم الدنيوي؟ وهل تجهيز الجيوش من النوع الديني أم الدنيوي؟. وهل سورة التوبة مثلا التي صب عليها جام

(1) المصدر نفسه، ص 280 .

(2) المصدر نفسه ، ص 280 .



غضبه من النوع الديني أم الدنيوي؟ إلخ. إن القول بتجربة مكة و المدينة يعني فيها الصواب وفيها الخطأ كتجربة أي زعيم. كما يعني أنها خاصة بذلك الزمان والمكان. أما الآن فقد تجاوزتها الأحداث ولم تعد صالحة، كما تعني أننا لسنا ملزمين باتباعها. ونحن نقول: هات لنا شيئاً واحداً من تلك التجربة لا يصلح الآن؟. ورغم هذا ينطلق أركون حسب زعمه من تجربة مكة و المدينة الشخصية لمحمد صلى الله عليه وسلم. وبعد وفاته سنة 632 م كان لابد لمسألة إستمرارية التجربة من أن تطرح نفسها: مَن الذي يستطيع مواصلة التجربة دون نقص أو خور؟ وقد نتج عن ذلك صراعات دموية دون إنقطاع منذ سنة 632 م إلى إلغاء الخلافة ثم السلطنة من قبل أتاتورك عام 1922 م فيرى أن الإشكال النظري الذي طرحته مسألة إعادة النموذج (إنتاج التجربة: تجربة مكة و المدينة) لم يحل أبداً في التاريخ الإسلامي بالشكل المشروع ومن وجهة نظر تيولوجية. ويتوصل من هذا إلى التأكيد بأن السلطة على مدار التاريخ الإسلامي كله كانت سلطة زمنية مضبوطة (أو موجهة) من قبل السيادة الدينية. ويتساءل أركون: ما الذي حدث بالضبط حتى وصلنا إلى هنا؟<sup>(1)</sup>

وقبل الجواب نلاحظ أن الصراع على السلطة في الإسلام لم يبدأ كما زعم سنة 632 م أي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. وإنما بدأ بعد مقتل سيدنا عثمان أي سنة 656م وهذا له دلالاته لأنه يحطم ما يبني عليه أركون أو هامه.

وأما قضية الصراع الدموي على السلطة فهو ليس بدعا عند المسلمين، وإنما هو ظاهرة عالمية كان كما بينا قبلاً في الأنظمة الإكليروسية وهو أيضاً ظاهرة عامة في الأنظمة اللاتينية الغربية بما في ذلك المثال الأعلى لأركون وهو فرنسا. وهو ظاهرة حتى بين رجال الثورة الفرنسية أنفسهم وبعدها وظل الصراع الدموي قائماً حتى في عهد ديغول وأركون يعرف الانقلاب الفاشل الذي قام به المعمرون على ديغول وكيف تخلص ديغول من الجنرالات المعارضين له. وعندما نقارن ما وقع في التاريخ الإسلامي مع ما وقع في الغرب لا نجد أية مقارنة ويصبح تاريخنا رغم ما فيه مثلاً أعلى.

وأما ما يؤكد عليه ويعتبر نفسه قد إكتشفه وهو معاكس للتصورات الكبرى التي رسخت في أذهلن الجماعات الإسلامية كلها وهي "السلطة على مدار التاريخ الإسلامي كله كانت سلطة زمنية مضبوطة (أو موجهة) من قبل السيادة الدينية"<sup>(2)</sup>. فلسنا ندري ماذا يقصد بها؟ فإذا كان يقصد أن الحاكم مدني ولكنه يطبق الوحي فهذا ما يقوله جميع المسلمين، لأن الحاكم عندنا أو الخليفة ليس معصوماً ولا يوحى إليه، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو فقط المعصوم. أما الحاكم فيصيب ويخطئ، ولكن معيار الصواب والخطأ إنما يكون للشرع. وهذه نقطة فاصلة بين الإسلام والنصرانية. فالنصرانية تقول بعصمة الإكليروس. أما الإسلام فليس فيه إكليروس ولا عصمة إلا للنبي صلى الله عليه وسلم.

أما الجماعات الإسلامية فلسنا ندري كذلك ما يقصده بها، هل يقصد الفرق الكلامية التي تجمع كلها على أن الخلافة جزء من العقيدة، أم الحركات الإسلامية المعاصرة وهي كذلك تجمع على ما ذكرناه؟

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 280، 281.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 281.

وفي هذه الحالة هل كل المسلمين يجمعون على شيء قدامى ومحدثين، وأركون وحده -المتمدرس عند الإكليريوس ذو الزوجة والجنسية الفرنسية- بدعا من دونهم جميعا يكتشف خطأهم، بل يضاف إليهم المستشرقون والجمهور الغربي؟! . يعني العالم كله من مسلمين ومستشرقين وجمهور غربي فسي جهة وأركون وحده في جهة أخرى.

وعلى كل فمما سبق يقول أركون : "ما الذي حدث بالضبط حتى وصلنا إلى هنا؟ أي ما الذي حدث بالضبط حتى تشكلت في الذاكرة الجماعية ( في الوعي الجماعي) هذه الصورة المثالية اللاتاريخية للتاريخ الإسلامي" (1) ويقصد بهذا عقيدة الخلافة.

يرى أنها من نسج خيال المؤرخين السابقين والفقهاء التيولوجيين فهم الذين نسجوا حكاية سلسلة للأحداث التي جرت منذ وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤكدين على شرعية الخليفة الذي كان عليه ان يتحمل مسؤوليات النبي. هذا هو الاعتقاد السائد الذي فرض نفسه، في حين أننا نجد تاريخيا أن الخلافة بعد 661 م كانت قد اكتسبت سلطتها فعليا وبالقوة على أرض الواقع وليس قانونيا أو شرعيا. فسلطة الخلفاء كان لها دائما من يناقضها ويحتج عليها، إنها إذن خلافة زمنية صرفة كما بين ذلك علي عبد الرازق في كتابه " الإسلام وأصول الحكم". كان هذا المؤلف قد استعرض عددا كبيرا من الوثائق التاريخية القديمة جدا.

وهنا نشير قبل مواصلة عرض آراء أركون إلى ما يأتي:

إن ما يؤمن به المؤرخون السابقون والفقهاء في قضية الخلافة ليس من نسج خيالهم ولم ينسجوا أي حكاية سلسلة للأحداث التي جرت منذ وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ليؤكدوا على شرعية الخليفة الذي يخلفه، وإنما هو الحقيقة التي وقعت بالفعل، والإستدلال بما ذكره علي عبد الرازق والزعيم باستناده إلى عدد كبير من الوثائق التاريخية القديمة جدا، إنما هو زعم آخر لا أساس له من الصحة. ذلك أننا رجعنا إلى كتاب علي عبد الرازق ولم نجده يستند إلى أي أساس علمي، بل على أوهمام إستشراقية وأباطيل نتجها خياله بعد تتلمذته في بريطانيا. وها هي بعض الأدلة إضافة لما ذكرناه قبلا على صحة وجهة نظرنا، ونبدأها بـ :

المصادر الهائلة التي إعتد عليها علي عبد الرازق: المصادر ليست هائلة، وها هي نظرة مختصرة جدا عنها.

- مصدره الأساسي هو المستشرق توماس أرنولد، وقد نص علي عبد الرازق على هذا صراحة، فيقول: " وإذا أردت مزيدا في هذا البحث فارجع إلى كتاب " الخلافة" للعلامة السير توماس أرنولد ففي الباب الثاني والثالث منه بيان ممتع مقنع" (2). وكل ما أتى به علي عبد الرازق بعد ذلك إنما تبرير لما في هذا الكتاب.

(1) المصدر نفسه، ص 281 .

(2) علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، ص 22، وكتاب توماس أرنولد حسب وروده في الكتاب هو :

The caliphate, by sir thomas W. Arnold, printed at the clarendon press oxford 1924 .

- كثير من المصادر التي استند إليها تقول بوجود الإمام، ولكنه بدل أن يعتمد عليها رد عليها موهما لنا تنفيذها. ومن تلك المصادر فصل ابن حزم والخلافة لرشيد رضا وبعض التفاسير. ووجه المغالطة هنا أن الذي يتفحص قائمة المصادر يعتقد أنه إعتدما للإثبات لا لنقدها.

- الآيات القرآنية التي اختارها للإستدلال لا علاقة لها بالحكم، بل بالدعوة مثل قوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾<sup>(1)</sup>. ولم يستند إلى أي آية تتعلق بالحكم والقضاء وسياسة الدنيا رغم وجود الآيات القرآنية التي تبين هذا ويكفيها هنا دليلاً سورة التوبة كاملة التي يمكن أن يحن أركان بسببها. ولو لا علاقتها بتنظيم شؤون الدنيا من خلال الدين ما أعارها أركان اهتماماً.

- من مصادره كذلك كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني<sup>(2)</sup>. فما علاقة كتاب الأغاني بالخلافة؟

إنه كتاب أدب وسمر وغناء وليس كتاب علم وتاريخ وفقه، ومع هذا فقد روى عن كثير من الرواة الكذابين كما روى أخباراً وحكايات تسيء إلى آل البيت النبوي الشريف وأخرى تسيء إلى الأمويين تنفيلاً عن حقه الدفين تجاه العرب رغم زعمه أنه أموي النسب، كما أورد أخباراً وحكايات أخرى تطعن في العقيدة الإسلامية والإستخفاف بها ولعن دين الإسلام وتفضيل الجاهلية عليه مع الكفر البواح والإستخفاف بالصلاة والحج ويوم القيامة، مع دفاع عن البرامكة وإشادة بالفرس وطعنون مختلفة بأعلام العرب والمسلمين والصحابه. ومن ذلك: تشبيه الخلفاء بالقوادين، بنت الخليفة تعطي ثوبها الداخلي لابن أبي ربيعة، مسابقات المغنين في الحج، الخليفة وحجاج بيت الله أو لاد زنا، تحسين الفرار، الطعن في أبي حنيفة رضي الله عنه، شيخ الإسلام يرقص، الطعن في أبي بكر وعلي رضي الله عنهما<sup>(3)</sup> ... الخ.

وقد كان الأصفهاني من الشعوبية، وطعن فيه كبار العلماء منهم الخطيب البغدادي الذي قال عنه: "كان أبو الفرج أكذب الناس، كان يشتري كثيراً من الصحف ثم تكون كل رواية منها"<sup>(4)</sup>. أما ابن الجوزي فقد قال عنه: "... ومثله لا يوثق بروايته، يصرح في كتبه مما يوجب عليه الفسق ويهون شرب الخمر... ومن تأمل كتاب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر"<sup>(5)</sup> فهل يعد -مع كل هذا وغيره- كتاب الأغاني مصدراً مهما ليؤخذ منه أن الإسلام ليس دولة؟ وهل على هذا يمدح علي عبد الرازق؟ إن هذا لشيء عجاب.

قيسه محمداً صلى الله عليه وسلم - على المسيح في أن رسالته دين لا دولة هو قياس ما أنزل الله به من سلطان، بسبب إختلاف طبيعة المسيحية في أصولها ومصادرها عن طبيعة الإسلام في أصوله

<sup>(1)</sup> بونس / 108.

<sup>(2)</sup> أبو علي بن الحسين ... بن مروان بن الحكم الأموي، المعروف بالأصفهاني، ولد في أصفهان سنة 284 هـ ونشأ في بغداد والكوفة، له تصانيف كثيرة، منها كتاب "الأغان"، و"أخبار الثقات والإمام الشعراء"، و"أخبار الطبليين والخمارين والخمارات"، و"مناجيب الحصيان". كان ذا حظوة عند البويهيين، شعوب الرعة، توفي سنة 356 هـ وقيل بعد ذلك، (وليد الأعظمي، السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني، ط، شركة الشهاب للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، "دار الوفاء، المنصورة، مصر"، ص 17 - 19، 59).

<sup>(3)(4)(5)</sup> المرجع نفسه، ص 11، 13، 60، الفهرس، 20، 21، 59، ومن أراد التوسع فيما ذكر فليرجع إلى وليد الأعظمي، المرجع نفسه ومن أرا

التحقق ١٤ ذكره فليرجع إلى كتاب "الأغان".

ومصدره. وأخطر من هذا - وهو من أسرار شغف أركون بعلي عبد الرازق مقول علي عبد الرازق " ولا نعرف في تاريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك إلا قليلا"<sup>(1)</sup>، وهذا يبين بوضوح الأثر اليهودي على علي عبد الرازق، وهو كفر بواح لأنه يتناقض مع عقيدة الإسلام ومع نصوص القرآن الكريم المبينة لأفضلية محمد -صلى الله عليه وسلم- على جميع الأنبياء، وهو ما بيناه أثناء حديثنا عن الأنبياء في الكتاب المقدس.

- عندما يزعم أن محمدا -صلى الله عليه وسلم- لم يكن حاكم دنيا، بل كانت رسالته قاصرة على السلطة الروحية وأن بعض أنبياء بني اسرائيل كانوا حكام دين ودنيا. فهو إضافة إلى أنه يجعلهم افضل منه وهو ما يتناقض مع كونه خاتم النبيين لأنه يعني بالضرورة حتمية تكلمة ما ينقص رسالته من عندهم وإذن فهم افضل منه لا العكس، وهو ما يتناقض أيضا مع كونه أفضل الأنبياء، ولا يقول هذا إلا كافر زنديق . إضافة لكل هذا نتساءل: ما هو مصدره في أن أولئك البعض كانوا حكام دين ودنيا عكسه؟ لماذا وكيف حكم بأن كل ما يتعلق بالدنيا هو تجربة شخصية لمحمد -صلى الله عليه وسلم- وما يتعلق بها بالنسبة إليهم هو دين؟ ما هو مصدره؟ هل كتابنا أم الكتاب المقدس؟ فإذا كان كتابنا، ألم تكفه الآيات القرآنية التلميحية الدلالة والآلاف الأحاديث الصحيحة ومجلدات السيرة النبوية الضخمة التي تدل دلالة قاطعة على أن رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت ديننا ودنيا، بل يكفيه دلالة على ذلك صورة التوبة وحدها. كل هذا لم يقنعه بأن محمدا -صلى الله عليه وسلم- كان أيضا ذا سلطة زمنية مكلفا بها من الله عز وجل، وإنتع ببعض الآيات القرآنية المتعلقة ببعض أنبياء بني اسرائيل ليقنعه بأنهم كانوا يجمعون بين السلطتين شرعا؟ لماذا لا تكون سلطتهم أيضا عبارة عن تجربة شخصية؟. إن هذا لا نجد له إلا تفسيراً واحداً هو قوله تعالى: ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾<sup>(2)</sup>.

وأما إذا كان مستنده الكتاب المقدس، فقد رأينا أثناء حديثنا عن النبوة أن جميع الأنبياء وفقا لما أورده الكتاب المقدس كانوا غارقين في الرذيلة والكذب والغدر الخ وهو ما يعني -ما داموا حكام دنيا بأمر الله - أن كل تلك الموبقات إنما هي وحي. وإذا رفض أن تكون وحيا فإنه سيقول بأنها تجربة شخصية. ولما كانت كل حياتهم وفقه رذيلة فهل يعقل ان الله بعثهم بالرذيلة؟. إن كتبهم تبين أن سلطتهم الزمنية لا ترقى إلى مستوى التجربة الشخصية. لأن التجربة الشخصية فيها الصواب والخطأ بينما ما يذكره عنهم الكتاب المقدس يجعلنا لا نكاد نجد في حياتهم أي جانب إيجابي، ومع كل هذا يصر علي عبد الرازق أنهم جمعوا بين السلطتين عكس محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي إقتصرت رسالته على السلطة الروحية وحدها، وهكذا يظهر بجلاء الأثر اليهودي الصليبي في تفكير علي عبد الرازق، وهو ما جعل أركون يشغف به حبا ويذوب فيه هيما.

- وأما الزعم بأن الخلافة بعد 661 م كانت قد إكتسبت سلطتها فعليا وبالقوة الخ مما يجعل الخلافة سلطة زمنية فقط. فإن جميع المسلمين يرون بحق أن ذلك إنحراف، ولا يمكن الإستدلال بانحراف أشخاص

<sup>(1)</sup> علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، ص

<sup>(2)</sup> لا إله إلا الله / 121 .

أو حكام على فساد مبدأ من المبادئ. والحقيقة أنه لا التاريخ الإسلامي ولا الحكام المسلمون حجة على الإسلام. فالإسلام هو الحجة على الجميع، وبه يخطأ الناس أو يصوبوا، لا أن يستدل بإنحرافهم على انعدام المبدأ أو فسادها أو فساد تفسيره.

وأما قضية الخروج على الحكام فإنه لا أحد من المسلمين يقول بقداستهم، فهم بشر يصيبون ويخطئون. وهذا أحد أهم مبررات فساد اللاتكفية. لأنه مادام الحكام والمفكرون وجميع الناس بشرا، يصيبون ويخطئون فهم متساوون من هذه الناحية، فعلى أي أساس يشرع بعضهم لبعض؟ بعبارة أخرى، فعلى أي أساس تقوم إرادة بشرية بالتشريع لإرادة بشرية أخرى وإكراهها على تنفيذ تلك الإرادة التي لا تريدها؟ وما الضامن أن الإرادة المشرعة هنا حيادية ونزيهة ومصيبة؟. هنا يتحتم لتحقيق العدل والمصلحة العامة، خضوع جميع الإرادات البشرية لإرادة أعلى تلو على الجميع وتسمو ولا تخطئ، هي إرادة الله. ولا أدل على صحة هذا من أن المعارضة في الإسلام إنما كانت تنطلق من هذا المبدأ، وهو الثورة على إنحرافات الحكام المسلمين على الإرادة الإلهية. وهذا أحد أكبر الأدلة على وجود نظام الخلافة في الإسلام، ذلك أنه حتى أثناء الثورات على الحكام، فإننا نجد، لا الثائرين، ولا المثار عليهم أنكر نظام الخلافة وإعتبر الساطة مجرد سلطة زمنية، بل كان الثائرون يعتبرون الحاكم قد انحرف عن نظام الخلافة، والحاكم يعتبرهم خارجين عن الخليفة الشرعي، وإذن كان هناك مبدأ الخلافة متفقا عليه من طرف الجميع، السلطة والمعارضة. وهذا يبين بجلاء تهافت أركون ويحطم مزاعمه. بعبارة أخرى الخارجون على السلطة الحاكمة كانوا يبررون خروجهم عليها، ليس بترك الحكام للصلاوات الخمس أو الصيام مثلا، وإنما بعدم تحكيمهم الدين في الدنيا كالأموال وغيرها، وكان الحكام يبررون ضربهم للخارجين عليهم بعدم سماح الدين بذلك الخروج.

ثم كيف يمكن القول بفصل السلطتين الروحية والزمنية، ولا شيء زمني غير خاضع للشرع؟.

نواصل كلام أركون فنجده : يتسامل :

"ماهي إذن الحقيقة التاريخية بخصوص هذا الموضوع ضمن حدود إمكانية الوصول إليها؟ إنها تتركز في أن النبي قد عرف أربعة خلفاء حكموا في المدينة من سنة 632 م إلى سنة 661 م هم أبو بكر (632 - 634م) وعمر (634 - 644 م) وعثمان (644 - 656م) وعلي (656 - 661 م) ثلاثة منهم ماتوا قتلا. إن القتل في نظر عالم الاجتماع هو فعل ذو دلالة بالغة عكس التبولوجي الذي إعتبره حدثا عابرا قام به اشرار، وكل الكتابات الأرثوذكسية تعطي صورة نموذجية ومثالية عن الخلفاء الأربعة الأول، إنها لا تقدم إطلاقا أي تحليل سوسبولوجي - تاريخي للأحداث<sup>(1)</sup>.

نعلق عليه فنقول:

- لم يحكم جميعهم في المدينة، ذلك ان عليا رضي الله عنه - جعل عاصمته الكوفة.

- موت ثلاث خلفاء مقتولين في نظرنا هو ما يراه مؤرخونا أنه عمل قام به اشرار. أما التحليل السوسبولوجي له فإن أولئك الخلفاء الأربعة كانوا يعيشون حياة عادية وسط جميع الناس ومن جميع الملل

(1) محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، ص 282 .

والنحل، لم يتخذ أحدهم حرسا خاصا لحراسة شخصه من الإغتيال، وإن الذي يدعو إلى التساهل والإستغراب ليس هو لماذا ماتوا قتلا، بل كيف إستمروا كل تلك المدة دون أن يقتلوا؟! . ذلك أن الحووب ظلت مستمرة بينهم وبين اعدائهم من الفرس و أعدائهم من أسلاف أركون ومع ذلك ظلوا بلا حراسة، في حين كان جميع حكام عصرهم من الفرس والروم لا يتحركون إلا في جيش من الحراسة، ولا ينامون إلا تحت حراسة جيش من الحراس، ومع ذلك كانت الإغتيالات والمؤامرات تجري فيهم على قدم وساق، ونقول لأركون اليوم:

اطلب من رئيس فرنسا مثلك الأعلى أن يلغي نظام حراسته الشخصية ويخرج إلى الشوارع والقرى والمدن والأسواق والبراري وحده بدون حراسة. بل يسافر من بلد إلى آخر كما فعل عمر بن الخطاب عندما سافر من المدينة المنورة إلى فلسطين مع خادمه وحدهما. وأنظر ماذا يحدث له في فرنسا اللاتينية النصرانية الديمقراطية علما أن أعداء رئيس فرنسا هم الآن أقل بكثير جدا من أعداء خلفائنا الثلاثة الذين ماتوا قتلا؟! .

وما قلناه عن رئيس فرنسا نقوله على جميع حكام العالم، ويوجد نموذج يعد أحسن دلالة على صحة ما ذكرناه، وهو أولف بالمى رئيس وزراء السويد السابق الذي ذهب إلى قاعة السينما بدون حراسة، وأركون يعرف نتيجة ذلك.

ونسأله ماذا يقول التحليل السوسولوجي عن رؤساء أمريكا قمة الغرب، من جنون كندي إلى بيل كلينتون، فأغلبهم إما اغتيل أو تعرض لإغتيال أو زور الإنتخابات أو فشل في الفترة الثانية للإنتخابات.

ثم على أي أساس يصفنا بالأرثوذكس وهو الذي يزعم التحليل العلمي الموضوعي التزيه<sup>14</sup> . إن المصطلحات في العلوم الإنسانية مرتبطة بالجغرافيا والتاريخ والواقع الفكري للمجتمعات، ومن هنا فإن ظهور مصطلح في مكان وفي حضارة لا يمكن إسقاطه على حضارة أخرى، لا سيما إذا كانت تلك الحضارة تختلف إختلافا جذريا في الجغرافيا والتاريخ والواقع الفكري والديني، وحتى مع هذا فإن هذا المصطلح بالنسبة إلى أصحابه هو مدح لهم وليس ذم، ولكنه يسقطه علينا بالمعنى الأخرس، وهو التطرف والإنغلاق، أي التمسك الشديد بالإسلام، أي التقوى والإستقامة<sup>(1)</sup>. أي التمسك الشديد بالسنة، وهو يعيب علينا أو على أسلافنا الصورة النموجية والمثالية التي يعطونها عن الخلفاء الأربعة الأولين، إنه يريد منهم أن يكذبوا ويضيفوا الحقائق، ذلك أن تلك الصورة التي يعطونها إنما هي الصورة الحقيقية لأولئك الخلفاء، ولأنستغرب ذلك عندما نؤمن أن الرسول صلى الله عليه وسلم - هو الذي رباهم. وتاريخ إسلامهم واحدا واحدا يبين ذلك، اللهم إلا إذا كان أركون يرى أن السيرة النبوية هي أيضا مزيفة.

ولما كانت في أساسها مصدرها القرآن، فإن الطعن فيهم هو طعن فيه كذلك، وإلا كيف -على سبيل المثال- أن نطعن في أبي بكر والله يقول فيه: ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون... (المحسنين)<sup>(2)</sup>. ﴾ إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده

<sup>(1)</sup> استاذنا عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص 183 .

<sup>(2)</sup> الزمر / 33 ، 34 .

بجنود لم تزوها وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى وكلمة الله هي العليا<sup>(1)</sup> . والأحاديث الكثيرة التي قُلت في تبيان عظمتهم وصدقهم ومثاليتهم المطلقة لا تعد ولا تحصى، كيف نطعن مثلا كذلك في علي والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول فيه: "لأعطين الراية غدا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار"<sup>(2)</sup>.

وأخيرا إذا كان أركون لا يؤمن بهذه الصورة المثالية لأولئك الخلفاء الأربعة فليأتنا بالصورة الحقيقية المزعومة لهم، ولیدلنا على المصادر التي أخذها منها.

### كيفية وصول الخلفاء الأربعة إلى السلطة :

يشكك أركون في الطريقة المعروفة -وهي البيعة المباشرة من الصحابة- التي وصل بها الخلفاء الأربعة إلى السلطة، ليقرر ويتبنى وجهة نظر إستقراوية تتمثل في أن آليات الوصول إلى السلطة في المجتمع العربي للقرن 7 م كان يقوم على مسألة العصبية القبلية التي لعبت دورا كبيرا في الوصول إلى السلطة وممارستها.

النبي نفسه ينتمي إلى عائلة محددة هي بنو هاشم أحد أفخاذ قبيلة قريش ونحن نعلم أن دعوته وتبشيره كانا قد لقيتا معارضة العائلة المنافسة وهي بنو سفيان التي كانت تمارس السلطة آنذاك في مكة، وعندما طرحت مسألة الخلافة بعد وفاة النبي كان كل من الفخزين موجودا على الساحة ومستعدا لخوض الصراع، ظلت هذه السمة للصراع بين الفخزين إلى يومنا هذا بين السنة والشيعة، وقد تعقدت الصورة أكثر بدخول عامل ثالث في الصراع هو الأنصار الذين ينتمون إلى قبيلة أخرى ولهم طموحاتهم السلطوية أيضا. طرحت مسألة الخلافة في هذا المسرح المعقد وحلت (كمحصلة) للقوى المتصارعة) عبر كل هذه الصراعات أخذت فكرة ضرورة وجود القائد الملهم الذي يقف فوق كل الصراعات القبلية تفرض نفسها أيضا، لكن في الوقت الذي كانت تشق فيه طريقها، كان عليها أن تتعامل مع مختلف أطراف الصراع، أي مختلف القوى الإجتماعية - القبيلة الموجودة على الساحة. خلال 30 عاما حدثت صراعات ترجمت أحيانا على صورة القتل (من عام 632 - 661 م) .

لكن كل هذا لم يمنع الفكرة الإسلامية من أن تشق طريقها وتفرض نفسها مستندة بشكل أو بآخر على الظاهرة القرآنية - (كيف لم يقع الانحراف رغم هذه الصراعات كما وقع في النصرانية) -. إزدادت حدة الصراع وتمكن علي أساس قبلي معاوية من حذف علي من السلطة ونقل مركز السلطة من المدينة إلى دمشق ويرى أركون أن هذا العمل يعد ذا دلالة بالغة كما لو أن البابا مثلا نقل البابوية من روما إلى تورين. هكذا وصلت السلالة الأموية إلى السلطة واستمرت فيها قرابة قرن، أي حتى عام 750م. كل هذه الأحداث السياسية ليست إلا عملا واقعا لا علاقة له بأي شرعية غير شرعية القوة. هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي تصعب معرفتها بدقة، لأن ما حدث كتب بعد عهد طويل من جريان الأحداث ضمن منظور التبشير أو التسويغ ضمن إيديولوجية كاملة كبرى للتبرير والتسويغ وضع دعائمها الأمويون ثم

(1) التوبة / 40.

(2) رواه مسلم .

العباسيون على الخط نفسه، وقد خضع الوعي الإسلامي لهذه الإيديولوجيا التبريرية الكبرى وإنغمس بها كليا عبر الأجيال<sup>(1)</sup>.

**تقييم** : يجب أن تشير إلى مغالطات كبيرة يستخدمها أركون لا نعتقد أنه يجهل مغالطتها، بل لأنه يسير في سياق الإستشراق الكنسي، وهي :

- القول بمجتمع عربي في القرن 7 م لا نوافق عليه؛ لأن كثيرا من الأعاجم كانوا منضوين تحته وإنما الصواب مجتمع عربي مسلم على أساس أن الإسلام صهر الجميع في بوتقته والعربية أصبحت لغة الألسن المختلفة للجميع، وأركون يستخدم مصطلح عربي مجردا من الإسلام لعدم إيمانه بالإسلام أصلا.

- إتهام النبي -صلى الله عليه وسلم- بقيام دعوته على العصبية وأن معارضة بني أمية لدعوته بتبشيريه كان على أساس قبلي ... إلخ . إنما هو خرافة يكذبها الإسلام نفسه، ويكذبها التاريخ الواقعي الذي لا يستطيع أحد أن ينكره، إذ لا أحد ينكر أن أبا بكر هو أول خليفة، وهو لا من بني هاشم ولا بني أمية. ثم عمر ثلثي خليفة وهو لا من بني هاشم ولا من بني أمية، ولنبدا تحليلنا لتبيان تهافت إدعاءات أركون بما يأتي :

- دعوة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم تقم في محتواها وشكلها على أساس قبلي، فهي ليست خاصة لا ببني هاشم ولا بقريش وهدما؛ بل للعالمين. والرسول -صلى الله عليه وسلم- حارب الدعوة إلى القبلية في أقواله وأفعاله<sup>(2)</sup>. ولو اعتمد على أساس قبلي لكان أسهل لدعوته أن تنتشر وسط العرب؛ لأن المجتمع العربي كان مجتمعا قبليا، ولكنه إتبع الطريق الصعب، وهو الدعوة إلى العالمية في مجتمع يؤمن بالقبلية. والسبب أن ذلك ليس من عنده. بل الله هو الذي كان يأمره، وهو ينفذ إرادة الله عز وجل ونتحدى أركون أو غيره أن يأتينا بدليل واحد من نصوص الإسلام يبين عكس ما ذكرنا.

- السابقون إلى الإسلام لم يكونوا من بني هاشم وهدم، بل كان بعضهم من بني هاشم ولكن آخرين من بني هاشم من أقرب الناس إلى محمد لم يعارضوه فحسب، بل حاربوه، ونزل قرآن في حقهم يبين دخولهم النار، بينما لم ينزل قرآن في حق واحد من بني أمية بعينه. وسورة المسد شاهدة على هذا. وكان من السابقين إلى الإسلام بعض بني أمية ومنهم عثمان بن عفان، بل وبنت أبي سفيان حبيبة التي يعتبرها جميع المسلمين أما لهم بنص القرآن الكريم الذي نزل على محمد الهاشي « وأزواجه أمهاتهم »<sup>(3)</sup>.

وهكذا فإن السابقين إلى الإسلام كانوا من مختلف الأقباض والصادون عن الإسلام كانوا من مختلف الأقباض كذلك.

وبعبارة أخصر نقول : الذي عارض محمدا -صلى الله عليه وسلم- ليس كل عائلة أبي سفيان ولا آمن به كل بني هاشم، فبنت أبي سفيان كانت زوجة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبعض الأمويين كانوا من السابقين كعثمان وبعض بني هاشم لم يسلموا أصلا بزعامة أبي لهب، بل حتى عم النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يسلم. فإذن بطل الزعم بأن دعوة النبي وتبشيريه كانا قد لقيتا معارضة العائلة المنافسة. لأن هذه

<sup>(1)</sup> محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، ص 282 ، 283 .

<sup>(2)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى تفسير "سورة المنافقون" وكذا إلى السيرة النبوية.

<sup>(3)</sup> الأعراب / 6 .



المعارضة كانت أيضا من عائلة النبي ﷺ فأين الأساس القبلي هذا؟ بل نجد أنه أثناء الحصار الإقتصادي الذي ضرب على النبي ﷺ ومن آمن معه في شعب مكة إنما كان ضمنه من أسلم من بني أمية. وكان خارجه من لم يسلم من بني هاشم كابي لهب، ويضاف إلى هذا أن عثمان رضي الله عنه - أسلم قبل حمزة - رضي الله عنه - عم النبي ﷺ.

وإذا كان السابقون إلى الإسلام من بعض بني أمية وبعض بني هاشم فإن ألد أعداء محمد ﷺ كانوا أيضا منهما معا.

- القيادة لأعداء الإسلام لم تكن لبني أمية ابتداء، بل كانت لأبي جهل، وهو ليس من بني أمية، ولم تنتقل إلى أبي سفيان إلا بعد قتل أبي جهل في غزوة بدر، أي في السنة 2 هـ، أي بعد 15 سنة من البعثة النبوية الشريفة. وانتقالها إليه لم يكن بسبب قبيلته بل لحنكته. وهكذا فإن أبا سفيان لم يترأس قريشا سوى 6 سنوات فقط لأنه تسلمها سنة 2 هـ وأسلم في فتح مكة سنة 8 هـ، ومن الأدلة على أن أبا سفيان لم يكن هو رئيس قريش أنه ليس هو الذي قرر الحرب في بدر بل عارضها بسبب نجاة القافلة وأبو جهل هو الذي قررها وقادها. كما أن العرب لم تكن معنادة أن تبعث رؤساء قبائلها لقيادة قوافلها التجارية.

- الخلفاء الأربعة لم يتم إختيارهم على الأساس الذي ذكره أركون وهو الصراع بين بني هاشم وبنبي أمية ثم الأنصار، ذلك أن:

- الخليفة الأول أبو بكر الصديق لا من بني هاشم ولا من بني أمية فلو كانت قضية الخلافة كلها مبنية على الصراع بين القبيلتين السالفتي الذكر لما سمح له بتولي الخلافة .

- الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ليس من الفخذين السالفي الذكر، بل ان قبيلته كانت أضعف القبائل إن كان لها وجود حتى، ومع ذلك كان الخليفة الثاني لمدة 10 سنوات كاملة، ولم يعترض عليه أو يثور عليه أحد من القبيلين، واغتياله لم يقترفه مسلم بل مجوسي.

- ترشيح عثمان للخلافة لم يكن من بني أمية، بل من عمر نفسه. وكذلك علي ليس بنو هاشم هم الذين نصبوه خليفة. هذا كله لا يخضع للصبغة القبلية التي زعمها أركون.

- الأنصار، من منهم إستعمل العنف من أجل الخلافة أو ثار على أحد الخلفاء على أساس قبلي؟ نتحدى أركون أن يأتينا بمثال واحد فقط.

إن ما ذكره أركون في قضية العصبية إن هي إلا مغالطات إستشراقية كنسية، لا أساس لها من الصحة حتى في ذهن صاحبها.

- إعتبار نقل معاوية للعاصمة من المدينة إلى دمشق ذا دلالة بالغة يماثل تماما لو أن البابا مثلا قد نقل البابوية من روما إلى تورين. يجعل أركون متناقضا مع نفسه، فهو من جهة يعتبر معاوية ذا سلطة زمنية محضة متفنيا أثر علي عبد الرازق، ومن جهة أخرى يقارنه بالبابا مما يجعل سلطة معاوية دينية أساسا. فهل أركون يجهل هذا؟ ويزيد القضية وضوحا عندما نعلم أن البابوية نقلت فعلا من روما إلى تورين وظلت بها مدة كما ذكرنا قبلا أثناء حديثنا عن الصراع بين البابوات.

- وأما ما يتعلق بخضوعنا المطلق عبر التاريخ الإسلامي ، إلى الآن للإيديولوجية التبرير والتسوية التي أنشأها الأمويون و العباسيون ، فتساءل بإندهاش معرفي :

كيف إذن نفسر فقداننا للأمويين لو كنا واقعيين بالفعل تحت تأثير إيديولوجية التبرير والتسوية التي أنشأوها؟ إن فقداننا لهم دليل على عدم خضوعنا لذلك، وعلى ذكر هذه الإيديولوجية، فهل الدول الحديثة بما في ذلك مثله الأعلى فرنسا لا توجد فيها هذه الإيديولوجية؟ وأركون نفسه ألا يخضع لهذه الإيديولوجية؟ وإلا كيف نفسر خروجه عن إجماع البشرية في قضية الخلافة كما يتر هو ليقنعنا بلاتكفية المجتمع الإسلامي؟ ألا يعد عمله هذا كله ضمن هذه الإيديولوجية التبريرية التسوية؟ أليس بحثه هذا ذاته يعد ضمن هذه الإيديولوجية التسوية التبريرية؟ الفرق بين حكامنا القدامى وأركون أنهم حكمونا وحافظوا على ديننا بكل الوسائل. أما هو فيريد أن يحطم هذا الدين كما سنذكر بكل الوسائل بما في ذلك التسوية والتبرير. كنا نتمنى أن ينصب على كتاب علي عبد الرزاق فيطبق عليه المنهج الفيلولوجي الذي يتبجح به باستمرار وينقده نقد الفيلسوف المفكر. لكنه انصب وانكب عليه انكباب الصم العميان، وكأنه قرآن جديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. تراجع الرجل عن أفكاره كما ذكرنا، ولم يتراجع أركون عن التمسك بما نبت من طرف كاتبه. وهكذا نجد أركون في حين يصب جام غضبه على الأمويين والعباسيين الذين اخترعوا فلسفة التبرير والتسوية فيما يتعلق بقضية الخلافة حسب زعمه فنجده يمدح علي عبد الرزاق بسبب كتابه المعروف، في حين أن هذا الكتاب ذاته كتب بالفعل في إطار فلسفة التبرير والتسوية، ولكن لا للإسلام بل للإستعمار الإنجليزي خاصة والغربي عامة. ذلك أن من أسباب رفض المسلمين للإستعمار الغربي أنه حطم الدولة الإسلامية لصالح النصرانية، فعندما يقتنع المسلمون بعدم وجود دولة أصلا في الإسلام فعلى ماذا سيثورون ومن ماذا يتحررون؟ ومن هنا فإن تحطيم مفهوم الدولة في الإسلام يعني تحطيم سياج الإسلام وأهله الذي يحميه ويحميهم من الفوضى الداخلية ومن العدوان الخارجي النصراني واليهودي، وهذا هو غرض الإكليروس والإستعمار الغربي من علمنة المسلمين.

وتدركز أركون كثيرا على هذه القضية، أي قضية الصراع بين المسلمين والغرب، وكان الإسلام دائما هو الملجأ بإعتراف أركون، ولا أدل على صحة وجهة نظرنا هنا أن المرحلة التي كتبها فيها ذلك الكتاب إنما هي مرحلة إلغاء الخلافة الإسلامية بتركيا كما بينا ذلك في حينه، وهذا يعني بوضوح أن الغرب لما حطم خلافة المسلمين في تركيا التي رغم ضعفها إلا أنها كانت رمزا لوحدة المسلمين الروحية، إنتقل إلى مصر التي كانت تعد ثاني ثقل المسلمين بعد الأستانة ليحطمها لا في الواقع، لأنها كانت مستعمرة بالفعل، ولكن ليحطمها في الفكر ليقضي على أية فكرة إسلامية تدعو المسلمين إلى التحرر والتحرير، وإعادة بعث دولة الإسلام من جديد. وكان الذي عهد له للقيام بهذه المهمة علي عبد الرزاق بعد عملية غسل دماغ أجريت له في بريطانيا. ولهذا السبب نجد أركون في حين يمدح علي عبد الرزاق ويقدمه يصب جام غضبه على إدوارد سعيد. لا شيء سوى أنه أدرك خفايا المستشرقين ولا سيما الفرنسيين منهم وخباياهم ومكرهم وكيدهم ولا نزاهتهم، فضحهم بتحليل الرجل المفكر المتعمق الموضوعي النزاهة. فاتهم - وهو المسيحي - بدفاعه عن الإسلام وهجومه العنيف على الغرب، بينما لم يكن هدفه سوى البحث العلمي

النزبه. وهو ما بين إدوارد سعيد في مقدمة الترجمة العربية لكتابه " الثقافة والإمبريالية": " صدر الإستشراق في ترجمة عربية لافتة... ليعزز مقام هذا الكتاب بوصفه إما دفاعا عن الإسلام أو هجوما مقدما عنيفا ضد الغرب، وكلا الأمرين لا يمتُّ بصلة إلى ما كنت قد إنتويته أصلا من تأليف هذا الكتاب"<sup>(1)</sup>. بينما علي عبد الرازق راح يردد كالإبغاء افتراءات المستشرقين على الإسلام وإتهاماتهم له. والواقع أن الفرق بينهما كالفرق بين الثرى والثرية. فعندما نقرأ ما كتبه سعيد نحس تعمقه وقوته الفكرية وبعد نظره، وعندما نقرأ ما كتبه علي عبد الرازق نحس بضحالة فكره وسطحيته. ولو لا كتابه المشؤوم ما سمع به أحد. وكانت شهرته فقط: لأنه أزهرى أنكر الخلافة. والخلاصة أن المذموم لأنه كاشف لخبايا الإستشراق ومخبوءاته، والممدوح لأنه تابع لهم وخادم. أهذا هو المنهج الفيلولوجي الأركوني؟!.

ومهما يكن من أمر. فإنه إذا كان بنو أمية وبنو العباس أنشأوا إيديولوجية التسويغ والتبرير وإستخدموا العنف فإنهم ليسوا حجة على الإسلام. بل الإسلام هو الحجة عليهم. وحتى ما يتعلق بالعنف، فإن الموضوعية تقتضي مقارنتهم بالعنف الذي إستخدمه ملوك فرنسا وقادة ثورتها وجمهورياتها.

#### 4- النظرية الشيعية للسلطة :

قبل حديثه عن مصطلح " الإمام" يقدم أركون بعض الإيضاحات. هي في واقعها تناقضات وقع فيها، ذلك أنه يذكر بأنه في النقاش الذي دار حول خلافة النبي -صلى الله عليه وسلم- في السقيفة كان هناك طرف يمثل عائلة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا معينين بتلك العصبيية غير المشروطة التي تقتضي بأن ينصر الأخ أخاه ظالما أو مظلوما. وعلم البيكولوجيا التاريخية يعلمنا أن هناك تاريخا للوعي، وتشكلا تدريجيا له، ضمن هذا المنظور راحت الفكرة الإسلامية تتغرس في النفوس مستتدة في ذلك إلى الظاهرة القرآنية المعتبرة كظاهرة للوحي. وهنا يقدم أركون توضيحا فيقول: " نقول ذلك دون أن ندخل في مآهات التيولوجيا، ودون أن نعتبر القرآن كلاما آتيا من فوق، وإنما فقط كحدث واقعي تماما كوقائع الفرياء والبيولوجيا التي يتكلم عنها العلماء. إن القرآن ينجلي لنا كخطاب خاص له ماديته وبنيتة التي يمكن لباحث اللسانيات أن يكتشف فيها أسلوبا خاصا في تشكيل المعنى وإنتاجه ما ينبغي أن يشغلنا هنا هو :

هو معرفة كيفية تشكل هذه الآلية المنتجة للمعنى في القرآن وفي اللغة العربية. وكيفية إستغلالها وإغراسها في وعي الملايين لكي تنتج فيما بعد الفكرة الإسلامية (الإسلام)<sup>(2)</sup>. ثم يناقض نفسه في قضية عصبيية عائلة النبي -صلى الله عليه وسلم- فيذكر بأنه وجدت جماعة في المدينة تدافع عن مفهوم الخلافة الشرعية، أي الخلافة التي تتجاوز في أسسها الروابط الدموية وكل الروابط القبلية... خلافة متعالية تشير إلى الله الواحد الذي يشكل الخطاب القرآني كله وبكثافة هائلة، هذه الجماعة - وقد يبدو ذلك مستغربا أو متناقضا- هي عائلة النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه، وهذه الشرعية سوف تتمحور حول شخصية علي بن عم النبي ﷺ<sup>(3)</sup>.

(1) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، ط1، دار الآداب، بيروت، 1997 م، ص9

(2) محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، ص284.

(3) المصدر نفسه، ص284.

والواقع - قبل مواصلة حديثه- تقدم مجموعة ملاحظات هي :

- التناقض في كلامه، فهو مرة يتهم عائلة النبي ﷺ بالتعصب الأعمى للقبيلة ثم يناقض كلامه هذا بأن هذه العائلة كانت تدافع عن مفهوم الخلافة الشرعية المتعالية على الروابط الدموية وكل الروابط القبلية. مرتبطة بالله عز وجل.

- لو كانت عائلة النبي كما ذكر قبلا كيف رضيت بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وكيف كانت هذه العائلة من أقرب المقربين إلى هؤلاء الخلفاء؟ ثم لو كان الصراع في السقيفة مبنيا على فكرة العصبية القبلية لماذا لم يتمحور حول بني هاشم وبني أمية؟ لماذا رضي الطرفان على خلافة أبي بكر -رضي الله عنه- ؟

- إقراره الصريح بأنه لا يعتبر القرآن آتيا من عند الله، بل هو حدث واقعي تماما كوقائع الفيزياء والبيولوجيا، ومن هنا يجب البحث عن كيفية تشكله وإنغراسه في وعي الملايين فأنتج الفكرة الإسلامية فيما بعد. وكان محمدا صلى الله عليه وسلم - لم يأت بالإسلام وإنما ظهر بعد تشكل النص القرآني خلال الأحداث السياسية كما سيذكر . أي أن القرآن الحالي ليس هو الذي أتى به محمد، والذي أتى به محمد رغم ضياعه إلا أنه ليس من عند الله ، وإنما هو من عند محمد، وسيذكر هذا فيما بعد صراحة.

- الذي طالب بالخلافة الشرعية ليس عائلة النبي ﷺ وحدها بل جميع الصحابة. ومهما يكن من أمر فإن أركون يذكر أنه يصعب عليه أن يحدد تاريخيا اللحظة الزمنية التي إنبتقت فيها فكرة الدفاع عن مفهوم الخلافة الشرعية ذات الأصل الروحي أو الديني- وكان نبوة محمد ﷺ ليست دينية- . في النصف 2 من القرن 2 هـ ، راحت فكرة الشرعية تكتسب وجودها التنظيري وبلورتها العلمية تحت اسم النظرية الشيعية للخلافة، وسوف تترسخ هذه الفكرة ضد الإضطهاد الأموي للهاشميين. ثم يشير إلى الصراع بين الشيعة وأهل السنة والمجازر المرتكبة ضد الشيعة. كان من نتائج المجازر الكبيرة التي حلت بانصار علي القضاء على فكرة الإمامة- الإمام هو الوارث الروحي للنبي لو قبلنا بهذا يعني الإسلام ليس فيه لأنكبة لأنه كانت هناك نصوص تبين هذا ثم حذفت- وبالتالي الحذف الكامل لمجموعة من الشهادات ذات الأهمية القصوى، وخصوصا الشهادات المتعلقة بالفترة التأسيسية الأولى للإسلام أي لفترة العشرين عاما التي قضاه النبي في التبشير والدعوة والتعليم والسلوك. وهكذا فإن العقل التدبيري للدولة ( LA RAISON D'ETAT ) راح يحذف بضربة واحدة تجارب وشهادات روحية لا تقدر بثمن وراح يركب من عنده وحسب مصلحته شهادات أخرى تخص تشكيل القرآن مما أدى إلى نتائج خطيرة جدا. ذلك أن هذه العملية راحت تشكل البنى العقلية والتصورية التي ستسيطر على وعي ملايين البشر منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا. هذا هو الرهان الذي يحيط بقصة الخلافة<sup>(1)</sup>.

إن هذا الكلام يعني ببساطة: أن قرآن محمد كله ضاع والساسة لمصلحتهم الشخصية اخترعوا قرآنا جديدا وإقتنع الناس بأن هذا الأخير هو قرآن محمد.

والواقع أن هذا الكلام خطير، وقبل الإشارة إلى خطورته نذكر أن أهل السنة لا يرفضون الإمامة، بل يرفضون العصمة والتعيين وأن الشيعة لا يقولون بأن الخلافة في بني هاشم؛ بل في علي وبنيه. ولذلك فالقضية هنا لا علاقة لها بالعصبية القبلية، بل بميراث النبوة. وأما باقي كلامه عن القرآن الكريم فهو هلوسة نصرانية محضة مفاده أن ساستنا شكلوا القرآن وبدلوه وفقا لهواهم ومصالحتهم الخاصة. وهذا لا يقوله النصارى حتى على أنجيلهم المحرفة.

ثم لو كان ما ذكره أركون هنا صحيحا من أن الساسة حذفوا قرآن محمد وكتبوا قرآنا آخر بدله، لو كان هذا صحيحا لماذا لم تنتهم الفرق المعارضة للسلطة القائمة تلك السلطة بهذه التهمة؟ وهي لو كانت صحيحة تعطيم للسلطة القائمة؟ كيف لم يوجه الشيعة - وهم الذين ارتكبت المجازر ضدهم - هذه التهمة للذين ارتكبوا فيهم تلك المجازر؟ الشيعة هم ألد أعداء بني أمية، ولكنهم لم يوجهوا لهم هذه التهمة، فكيف تكون صحيحة ولا يستغلها الشيعة؟ فمن أين استقاها إذن أركون؟.

إن المنهج العلمي الذي يزعم أركون تبنيه في التحليل يقتضي أن يحيلنا إلى المصادر التي وجد فيها ذلك، ولكنه لم يفعل، بل الأكثر من هذا يذكر أن جميع المسلمين من سنة وشيعة وخوارج متفقون على أن القرآن الحالي هو قرآن محمد.

ثم إن الصراع على السلطة والمجازر التي يذكرها إنما نشأ بعد مصحف عثمان الذي يعترف أركون بأن جميع المسلمين تلقفوه بالقبول من سنة وشيعة وخوارج - وهذا يقلقه كثيرا - وبهذا فلم يضع أي شيء من القرآن الذي أتى به محمد.

وكان يمكن أن يكون كلام أركون قابلا للنظر لو أن المصحف تشكل بعد الصراع. والواقع أن أركون يريد أن يعمل بكل الوسائل لإقناعنا بأن ما وقع للأناجيل وقع للقرآن الكريم. ولكنه ناقض نفسه؛ لأنه لم يجد أي دليل يستند إليه سوى حقه على القرآن الكريم وعلى محمد ﷺ. ولما لم يجد أي دليل راح يتهم الساسة المسلمين جزافا بما ذكر قبلا.

ولكي يزيد أركون القضية غموضا يزعم أن كيفيةبيعة الخلفاء الأربعة غير معروفة لدينا، وهو يعلم أن هذه القضية من أكثر المواضيع وضوحا في المصادر التاريخية وأذهان المسلمين. ولكنه لما كان موجهها كلامه - في إعتقادنا - إلى أناس لا يعرفون الإسلام من مصادره الأساسية فإنه يريد أن يوههم ويشوش عقولهم ليقتنعهم بحتمية اللانكية، ليضيف إلى ما سبق الزعم بأن عدم الفصل منذ أبي بكر إلى الأتراك بين السلطتين الروحية والزمنية راجع إلى أن تاريخ الخلافة مندرج زمنيا في مناخ عقلي قروسطي حيث لم تكن الأطر الزمانية -المكانية للتصور والفهم والإدراك بقادرة على التمييز بينهما. ثم يقر أن التمييز بين الروحي والزمني لم يتحقق كليا إلى الآن حتى في بلد ذي تراث عريق كفرنسا - مما يعني أن تراث فرنسا أعرق وتراث الإسلام أخرق - ويتوصل إلى أن التكنولوجية في الإسلام لم تفعل إلا أنها أنجزت تصورا مسبقا للأمر. هنا في نظره يمكن الرهان الأساسي للموضوع (موضوع العلمنة). ولا بد من رفض كل التصورات التكنولوجية من أجل دراسة المسألة دراسة سوسيولوجية - تاريخية كما سيبين<sup>(1)</sup>.

والواقع أن ما يزعمه من أن تاريخ الخلافة كتب في مناخ القرون الوسطى الذي كان عاجزا عن التمييز بين الروحي والزمني يناقض فيه نفسه من جديد حين يعلن أن الفصل الكلي لم يتحقق حتى الآن حتى في فرنسا مثله الأعلى، وبناء على هذا فلماذا لا يلج على الفرنسيين بالفصل بين الروحي والزمني لتفتدي بهم نحن؟ ثم إن الإسلام القرون الوسطى هو إسلام اليوم لم يتغير، والقرون الوسطى هي عصور الظلام للغرب مثله الأعلى بينما نحن هي عصور إزدهارنا.

ثم بعد ذلك يعود إلى الفتنة الكبرى ويبين أنه نشأ عنها ثلاث اتجاهات أساسية

(أ) - الإسلام السنِّي: (وسمي بهذا الاسم لأنه يدعي إحتكاره "الأرثوذكسية" أي السنة التي تعني التراث "الحق" للنبي، وهو يمثل الأغلبية العظمى وتتطوي تسميتهم بتلك التسمية على تغليب السنة وتفضيلهم على غيرهم. ثم يكيل إلى أهل السنة التهم.

(ب) - ثم الشيعة: ويزعم أن أهل السنة يسمونهم "أهل الرفض" لرفضهم الإجماع، وينسب إليهم كذبا أنهم أي الشيعة تعني أولئك الذين يتلفظون بالكلام المعصوم وينتسبون إنتسابا خالصا لكلام الله وللعادل (أهل العصمة والعدل) لكن تسمية الشيعة بهذا الاسم محيت وجرت عليها الرقابة في كل العالم السنِّي، هذه الرقابة التي تستند على الإيديولوجيا الكبرى للتبرير التي إختراعها الأمويون.

والواقع أن أهل السنة لا يعتبرون جميع الشيعة رافضة بل بعض الشيعة. كما أن الشيعة لا يزعمون أنهم يتلفظون بالكلام المعصوم إلى آخر ما ذكر.

(ج) ثم الخوارج: التي أعطيت معنى الزندقة في نظر أهل السنة ويتهم المرابطين كذبا بأنهم خوارج، وهو يقصد الإباضية فيرى أن مجموع الجزائريين يعتبرونهم "هراطقة"، والواقع أن هذا غير صحيح، فلا أحد من الجزائريين يعتبرهم هراطقة بل نشهد أنهم من أهل السنة والجماعة.

يتوصل أركون من خلال هذا أن يقرر أشياء خاطئة يعتبرها حقائق وبديهيات ليبنى عليها ما يحلو له. فيقول بناء عليها: "تقدم لنا هذه الأمثلة السابقة نموذجا حيا وصارخا على ما كنا قد دعونا به بالمحاكمة الإيديولوجية أو إيديولوجية التبرير. هكذا يتبين لنا كيف أغلق الإسلام الرسمي نفسه في تحديدات دوغماتية قاسية لا تناقش وكيف أسبغ عليها صفة الحقائق التيولوجية الخالصة، في حين أن الأمر يتعلق كليا بصراعات وخلافات سوسيولوجية - ثقافية، ويتنافس على اقتناص السلطة وممارستها"<sup>(1)</sup>. ولسنا نسدري نحن ما هي هذه الثقافات المختلفة التي ينتمي إليها المتنافسون السابقون؟

يقول مواصلا كلامه: "ينبغي علينا أن نفكك الأرثوذكسية المغلقة من الداخل، ولن يتم ذلك إلا ببحث تاريخي محرر يمكن له وحده أن يوصلنا إلى أبواب العلمنة في الإسلام"<sup>(2)</sup>. ولكنه فيما سيذكره لا جديد يأتي به، يردد أن العباسيين أخذوا السلطة غصبا من الأمويين ثم ضعفت الخلافة العباسية إلى أن إفتتحها "المغول" سنة 1258 م بعد أن أصبحت خلافة وهمية وأصبحت السلطة تمارس فعليا من قبل أمراء متعددين وصلوا إليها فقط عن طريق القوة تماما كما حدث في السابق، ولم يكن لسلطتهم أية علاقة

(1) المصدر نفسه، ص 286.

(2) المصدر نفسه، ص 286.

بالإطار الإسلامي للسلطة أو بنظرية التبرير أو التسويغ- وهذا غير صحيح لأن الذين خرجوا على العباسيين وكونوا دولا إنما في إطار الصراع السابق أساسا بين الأمويين (الأندلس) والشيعة (الفاطميين)، مثلا وغيرهم- ويتوصل إلى أنه "هكذا كانت الحالة في مختلف بقاع العالم الإسلامي آنذاك، أي في المجتمعات التي يطبق فيها الدين الإسلامي، دين الأغلبية الساحقة، وهكذا يستمر الناس يرددون كالبغاوات أن الإسلام يخلط بين الروحي والزمني، أو أنه دين ودنيا إن هذا ليس صحيحا أبدا وليس مقبولا عمليا اللهم إلا إذا قبل المؤرخ الخضوع للروح التقليدية الإسلامية المهيمنة التي تغطي عليها الأدبيات والتصورات البدعية"<sup>(1)</sup>.

قبل أن نقول له: كيف تفسر الحدود والقصاص والدماء والحرب والسلام والعلاقات الدولية في حالتنا الحرب والسلام كيف تفسر المعاملات إلخ، يواصل كلامه ليناقض به ما ذكره قبلا. فيقول: "بعد المغول تأتي موجتان متعاقبتان من الأتراك، الموجة الأولى ترد من آسيا الوسطى في القرن 11م هم الأتراك السلجوقيون الذين وقفوا في وجه الحملات الصليبية الأولى، ثم ترد الموجة الثانية في القرن 16م، وهؤلاء هم الأتراك العثمانيون الذين وقفوا أيضا في وجه الهجمة المتزايدة للغرب في حوض البحر المتوسط وفي المغرب. عندها أخذت سلطة العثمانيين تمتد لكي تشمل كل إفريقيا الشمالية من مصر إلى المغرب بطريقة عسكرية وحسب الظروف"<sup>(2)</sup>.

وهنا يظهر التناقض جليا، فهو من جهة ينكر أن الإسلام دين ودينا معا، وأنه لا علاقة للسلطة بالدين أو الروحي. ومن جهة أخرى يعترف بوقوف الأتراك السلجوقيين في وجه الصليبيين. فعلى أي أساس إذن وقفوا في وجههم؟! كما يعترف بوقوف الأتراك العثمانية في وجه الهجمة المتزايدة للغرب في حوض المتوسط وفي المغرب، فعلى أي أساس وقفوا؟.

ثم ينكر أن سلطة العثمانيين شملت كل إفريقيا الشمالية بطريقة عسكرية، وهذا يخالف التاريخ لأن المغرب الأقصى لم يدخل تحت سلطتهم ولأن الجزائر هي التي استجذبت بهم. وأما تونس وليبيا فلم يأخذها العثمانيون من حكامها العرب المسلمين، بل إستردوها من الإسبان الغاصبين المعتدين.

وهنا نتساءل: على أي أساس إذا لم يكن عامل الدين هو الدافع لكل ذلك وهو ما يقر به أركون؟. وعلى ذكر المغرب، فإنه يحال السلالات التي حكمتها على أساس فكرة القوة وحدها، يعني أن الذي حكم التاريخ الإسلامي فقط هو فكرة القوة، فيرى أن هذه السلالات التي حكمت المغرب العربي وهي كثيرة راحت إما تنسب نفسها إلى الشرعية النبوية أو تنسب إلى القوى القبلية المحلية -البربر- ولكن كل هذه السلالات تدعي حماية الإسلام وتشير إليه من أجل تثبيت قواعد حكمها، ذلك أن الإسلام كان قد أصبح المرجع الذي لا بد منه من أجل كل تسويغ سياسي<sup>(3)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 287.

(2) المصدر نفسه، ص 287.

(3) المصدر نفسه، ص 287.

وهنا نتساءل: إذا كان للإسلام كل هذه الهيمنة إلى حد أن الحاكم لا يمكنه أن يصل إلى السلطة أو يمارسها إلا في ظلّه، كيف يمكن القول بأنه لا علاقة له بالسلطة الزمنية أو أنه لا علاقة له بالدنيا؟.

### 5- النص القرآني:

#### كيفية جمعه وإعادة قراءته

يرى أركنون أنه ينبغي العودة إلى هذه النقطة الأساسية التي أثرت بشكل حاسم على مسار الأحداث التي جاءت فيما بعد، حسب الرواية الرسمية لطريقة التشكيل (تشكل سور القرآن في مصحف) المعترف بها من قبل الجميع، السنة كما الشيعة والتي تهيمن بمصادقيتها على الكل. فالنبي كان قد تكلم عشرين عاما بطريقتين مختلفتين متميزتين: في الحالة الأولى كان يتكلم بصفته مبعوثا من قبل الله <sup>سبحانه</sup> ومتمكلا بمهمة عاجلة ونتج عن ذلك القرآن... عندما ينقل محمد سورة قرآنية فإنه عندئذ ليس إلا أداة بحثة للتوصيل والنقل دون أي تدخل شخصي، إنه فقط يتلفظ بكلام الله... كان هناك شهود وصحابة يحيطون به أثناء ذلك وقد حفظوا عن ظهر قلب السور واحدة بعد الأخرى.

يطيب للتراث المنقول أن يذكر أنه في حالات معينة فإن بعض<sup>(1)</sup> السور كان قد سجل كتابة فوراً على جلود الحيوانات وأوراق النخيل أو العظام المسطحة إلخ... واستمر هذا العمل 20 عاما.

وبعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- فكر الخليفة أبو بكر بتجميع أكبر عدد من السور وكتابتها من أجل حفظها - وكانها لم تكن محفوظة- وبذلك تم تشكيل أول مصحف (مصحف في حالته البدائية). وقد وضع هذا المصحف عند عائشة. هذه السور القرآنية سوف تستخدم مباشرة بصيغ جدالية هدفها الصراع على السلطة السياسية، هذا ما يمكن أن نستشفه مما تسرب من التراث المنقول على الرغم من الرقابة الصارمة التي أحيط بها هذا التراث. راح عثمان (أحد أعضاء العائلة المعادية لعائلة النبي) يتخذ قراراً نهائياً بتجميع مختلف الأجزاء المكتوبة سابقاً والشهادات الشفهية التي أمكن إنقاذها من أفواه الصحابة الأول. أدى هذا التجميع عام 656م إلى تشكيل نص متكامل فرض نهائياً بصفته المصحف الحقيقي لكلام الله كما كان قد أوحى إلى محمد. رفض الخلفاء اللاحقون كل الشهادات الأخرى التي تريد تأكيد مصداقيتها مما أدى إلى استحالة أي تعديل ممكن للنص المشكل في ظل عثمان.

هذه هي رواية التراث حسب أركنون، وهي تمثل الموقف الإسلامي العام والتي لها قوة المسلمة التي لا تتناقض ولا تمس، يقول أركنون: لنعد صياغة هذه الرواية مرة أخرى.

كل كلام الله الموحى به إلى محمد كان قد نقل بصدق وإخلاص كامل، ثم حفظ كتابة في المصحف المشكل زمن عثمان، أي خمسة وعشرين عاماً بعد وفاة النبي<sup>(2)</sup>.

ونحن قبل مواصلة حديثه نصحح أخطاء ومغالطات جوهرية تعمرها أركونه ليوصلنا إلى ما يريد، وهو التشكيك في القرآن الكريم. ونبدأ من إعادته لصياغة الرواية فنقول: بأنه أيضاً حفظ كتابة قبل مصحف عثمان، وكل ما فعله عثمان أنه نقل المصحف من كيفية الكتابة السابقة على الحجارة والجريد والعظام إلخ

<sup>(1)</sup> الخليفة أن كل السور وكل الآيات سجلت فوراً بعد نزولها وليس بعضها فقط، ولكنه حتى هذا البعض يتكره أركنون.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 288.



إلى مصحف من الرق لحفظه من التحريف وتيسير نقله ونشره. فالرواية التي يسميها أركون الرسمية تقول لنا هذا. وبذلك فإن القرآن الكريم من النبي ﷺ، إلى سيدنا عثمان -رضي الله عنه-، إلينا الآن: نقل كله مشافهة وكتابة. وقبل نقدنا لمزاعم أركون نصحح بعض ما ورد فيما زعمه الرواية الرسمية، فإن الرواية الرسمية والحقيقية تبين بجلاء أن جميع السور، بل الآيات ذاتها كانت تكتب فور نزولها. ولسنا بحاجة للرجوع إلى علوم القرآن لنعرف هذه الحقيقة، بل يكفي أن نرجع للسيرة النبوية فنعرف كيف طلب عمر بن الخطاب من أخته إعطاءه الصحيفة التي كانت بها سورة "طه".

والواقع أن القرآن الكريم كما ذكرنا في ردنا على بورغاد يبين أنه كان يكتب فعلا بمجرد نزوله، ولو لم يكن في الواقع كذلك لتحطمت دعوة محمد ﷺ؛ لأن الواقع كان سيكذبه. وأساس دعوة النبي ﷺ هو الصدق، (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا)<sup>(1)</sup>. كما يبين القرآن ذاته أن الله لم يتكفل بحفظ القرآن الكريم فقط من التحريف والضياع فحسب. (إنا نحن نزلنا الذكر وإنزاله لحافظون)<sup>(2)</sup>. بل تكفل أيضا بجمعه في صدر النبي ﷺ وفي حياته (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه... بيانه)<sup>(3)</sup>. بل يبين القرآن الكريم أنه لا أحد يستطيع تحريف القرآن الكريم وهذا أحد وجوه إعجازه (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته)<sup>(4)</sup>. هذه الآيات تدل دلالة قاطعة على جمع القرآن الكريم كله في حياة النبي ﷺ وعلم الناس بذلك. ولو لم يكن يجمع بالفعل لتعطلت رسالة محمد ﷺ كلها؛ لأن الكفار سيأتون إليه قائلين مَحْدِثِينَ هذه الآيات: أرنا يا محمد هذا القرآن المجموع؟.

وبهذا فإن الصحابة حفظوا على ظهر قلب السور واحدة بعد الأخرى، بل الآيات ذاتها واحدة بعد أخرى وكتبوا القرآن كله بإملاء النبي ﷺ وتصحيحه. وبهذا فإنه بعد وفاة النبي ﷺ كان القرآن الكريم كله محفوظا في الصدور ومكتوبا في السطور، وكانت صحفه كلها في بيت النبي ﷺ أي أن المصحف كله من الفاتحة إلى الناس كان في بيت خاتم الأنبياء ﷺ وهذا معروفا عند جميع الناس آنذاك سواء سكان المدينة أو غيرها. وبهذا فإن أول مصحف هو مصحف النبي ﷺ وكان القرآن الكريم كله مكتوبا في حياته فيه. وعندما توفي كان في بيته. هذا المصحف هو نفسه مصحف عثمان -رضي الله عنه-، وما فعله أبو بكر أنه نقل هذا المصحف إلى بيته بإعتباره خليفة للمسلمين.

أما قضية الرقابة الصارمة التي فرضت فهي سبب حفظه من الضياع، ولو لآها لآتهم الإسلام بأن القوآن ضاع لعدم وجود رقابة صارمة لحفظه، ولو لا تلك الرقابة لوقع له ما وقع للتوراة والإنجيل.

ولما كان مصحف عثمان هو مصحف النبي ﷺ فقد أجمعت عليه الأمة، والصحابة قبلهم. أي أفضل المسلمين وأصدقهم وأكثرهم تتوى وإخلاصا. فهل نترك أولئك ونتبع بعض ما يورده الزنادقة على

(1) القرآن/5.

(2) الحجر/9.

(3) الأنبياء/16-19.

(4) الكهف/27.

إفتراض وجموده مثل أركون الذين لا دين لهم ولا خلق ولا طهارة ضمير ولا نقساء سر ريرة؟! ونسأل أركون متحدّين له: هات لنا مصحفاً آخر كتبه مسلمون يخالف مصحفنا؟!.

ثم لماذا لم يشر إلى أن أغلب الصحابة كانوا حافظين للقرآن الكريم على ظهر قلب، وهو أساس العبادة اليومية ( الصلوات )، وقراءته عبادة. ويختتم في المساجد في كل رمضان وأن الصلاة به مشافهة لا قراءة. ثم من الصحابة<sup>من</sup> إعترض على مصحف عثمان؟. لا أحد.

وهكذا نقل من النبي ﷺ إلى الصحابة حفظاً وكتابة تواترا إلى يومنا هذا. ونتحدى أركون أن يثبت أن إنقطاعاً وقع في حفظ القرآن الكريم في أي مرحلة في التاريخ الإسلامي حتى في أحلك ظروفنا.

ثم كيف يرضى علي وهو الذي من بني هاشم المعادين حسب أركون أشد العداوة لبني أمية والمترابي في حجر النبي ﷺ بمصحف عثمان الذي من بني أمية، إنه كان يجد الفرصة مواتية للحط من عثمان وقبيلته، بل وتحطيمه وتحطيمها معه؟! ولا سيما أنه من منطلق أركون يبحث عن أدنى سبب للنيل من عثمان.

فكيف يرضى علي بمصحف عثمان المخالف لمصحف محمد ﷺ؟ إن رضاه دليل على أن مصحف عثمان هو مصحف محمد ﷺ ذاته شكلاً ومضموناً، بل هو ذاته في كل جزئياته مهما كانت ضئيلة في الصغر.

بعبارة أخرى، لماذا لم يعترض بنو هاشم على ذلك المصحف الذي كتبه عثمان الذي هو من قبيلة معادية لهم حسب أركون؟.

إن اتفاق القبيلتين المتصارعتين أشد الصراع والمتعاديتين أشد العداوة - حسب أركون - على مصحف عثمان دليل على صحته، وأنه هو ذاته مصحف محمد ﷺ؛ لأن المنطق يقتضي المعارضة لا الإتفاق. وهكذا نجد أركون ذاته ينبهنا إلى الأفكار القيمة التي نحطم بها مقولاته دون إرادة منه.

ونشير أخيراً إلى أن عثمان نصب خليفة بعد وفاة النبي ﷺ بـ 12 عاماً لا بعد 25 سنة. وغرضه من ذلك التهويل وإيهام غير المطلعين على الحقيقية بأنه وقع للقرآن ما وقع للأناجيل وأنه كتب بعد 25 سنة كاملة من وفاة محمد.

وبهذا نتوصل إلى أن القرآن الكريم لم يتشكل في عهد عثمان، إذ كيف يتشكل وهو موجود كتابة ومشافهة، بل هنا نرى أن كتابته في حد ذاتها معجزة، ذلك أن العرب كانت أمة شفوية، وإذا بها تتحول فجأة إلى أمة كاتبة، ليس كاتبة فحسب، بل حريصة بشكل لم يسبق له مثيل على سلامة ما تكتبه من أي خطأ مهما كان ضئيلاً.

يوصل أركون حديثه ليعطينا دليلاً آخر على صحة موقفنا وخطأ موقفه؟. فيذكر أن المقولة الرسمية السابقة - التي شوهاها - لا يسمح لأحد من البشر أن يوجه إليها أدنى ذرة من الشك. وليس المسلمون بحاجة إلى جهاز ديني أعلى ( إكليروس ) للحافظ على هذه المقولة، وإنما يكفي أن يتمثلها الوعي الجماعي الجبار ويكتفيها هذا الإجماع (إجماع الأمة) المتشكل خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام لكي تصبح حقيقة مطلقة، فهذا الإجماع - إجماع الأمة سنة وشيعة - قوي لدرجة أن من يتصدى له فسوف يعرض نفسه لعقاب الجسد الإجتماعي بأسره. هنا تكمن المشكلة القصوى ( في نظر أركون ) هنا الأمر المحير. إن

المسألة هي كفية إشتغال ألية مجتمع بأسره وحتى القادة السياسيون لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا على فرض أنهم يعون المسألة (ما هي المسألة؟ إثبات تحريف القرآن لإقناع المسلمين باللانكية) لأنهم إذا ما تعرضوا بالشك لهذه المقولات المطلقة فسوف ينالهم عقاب الجمهور مهما تكن رتبهم القيادية<sup>(1)</sup>.

وهنا نوجه بعض الملاحظات :

أركون يكذب ليوحد تشابها بين القرآن والانجيل، فكما أن أقدم نسخة للكتاب المقدس كما ذكرنا قبلا إنما كانت في القرن 4م يوهنا هنا بأن إجماع الأمة على مصحف عثمان إنما تشكل كذلك خلال القرون 4 الأولى للإسلام، وذلك ليوهم الغربيين وشباب الجامعات من المسلمين الذين لم يطلعوا على الإسلام من مصادره الأساسية أنه وقع للقرآن ما وقع للانجيل وانهما متشابهان. والدليل على هذا : أنه يعتبرهما كما سيذكر في نفس الدرجة وبفلس الكيفية.

والواقع ان إجماع الأمة على القرآن الموجود عندما اليوم إنما هو منذ زمن النبي ﷺ ولم يطرح أي إشكال في التاريخ الإسلامي كله حول أصالة النص القرآني.

وهنا نتساءل: كيف أجمع السنة والشيعة معا على صحة مصحف عثمان؟ إن إجماع السنة يمكن تفسيره حسب أركون وفقا لمنهج التبرير والتسوية، ولكن كيف يمكن تفسير موقف الشيعة من مصحف عثمان؟! كيف رضي الشيعة بمصحف عثمان وهم أعداؤه الالاء حتى أن بعضهم يكفروه؟ إن رضاهم بمصحفه ليس له في نظرنا سوى تفسير واحد، هو صحته المطلقة، وأنه هو ذاته مصحف محمد -صلى الله عليه وسلم-

وأما زعم متأثرا بدور كايم<sup>(2)</sup>. فيما يسمى الضمير الجمعي، وأن الإسلام لم يحتج إلى جهاز ديني أعلى للحفاظ على المقولة الرسمية السابقة وإنما إجماع الأمة وسلطة المجتمع هي التي فرضت تلك المقولة. فنقول له: لماذا لم يمنع إجماع الأمم النصرانية على النصرانية من إختلافهم في الأناجيل وصحتها؟ بل اضيف إلى ذلك الإجماع سلطة الإكليروس، ولم يجد ذلك نفعاً؟!.

الواقع أن هذا ليس له إلا تفسير واحد فقط، هو صحة النص القرآني، وأنه هو الذي أتى به الرسول ﷺ وأن سبب حفظه ليس تلك السلطة الجمعية بل الله عز وجل، وهو الذي سخر تلك السلطة الجمعية للحفاظ عليه. فانه عز وجل وحده الذي جعل المجتمع الإسلامي يتكلم خطايا واحدا محدد، ثم يضع الحدود التي لا يمكن لأحد من البشر ان يتجاوزها<sup>(3)</sup>. « إن علينا جمعه وقرآنه... بيانه »<sup>(4)</sup>. «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»<sup>(5)</sup>.

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 289 .

<sup>(2)</sup> دور كايم (إميل) (Durkheim) (1858 - 1917م) عالم اجتماع فرنسي - يهودي- له مواقف منها " في تقسيم العمل الاجتماعي " - و " قواعد المنهج في علم الاجتماع " (المنجد، ص 248).

<sup>(3)</sup> بما في ذلك : الاستعمار نفسه الذي عمل بكل الوسائل المادية والمعنوية وقد ذكرنا بمجودات لافيجري وبورغاد و دوفوكو، وهما هي مجهودات أركون. وكلها لم تجد نفعاً لأن الله أقوى من الكل.

<sup>(4)</sup> القيامة / 17 - 19 .

<sup>(5)</sup> الحجر / 9 .

ولكن أركون يصر على أن المجتمع هو الذي فرض على الجميع حتى الساسة سلطة مطلقة جعلت لا أحد يجرؤ على مخالفة مصحف عثمان.

وتحن نتساءل : من أين إستمد المجتمع هذه السلطة؟ هل من ساسة بني أمية؟ كيف إستطاعوا ذلك؟ هل سياسة التبرير والتسويغ التي ابتكروها لها علاقة بهذا؟ أركون لا يشير إلى ذلك وإنما الذي يفهم مما ذكره قبلا أنهم هم أنفسهم لا يستطيعون أن يخالفوا مصحف عثمان بسبب سلطة المجتمع التي لا يستطيعون مخالفتها.

هنا نتساءل: ما هو مصدر تلك السلطة الجمعية؟ هل العلماء؟ أركون يجيب بأنهم ليسوا هم بدليل أن إثنيون من القضاة في القرن 4 هـ إحتجا على بعض قراءات النص الرسمي المشكل ( بعض القراءات فقط) فأدانتهما السلطة العباسية، ورغم أنه لم يذكر المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة التي نشك في صحتها، إلا أنه يعطينا دليلا آخر على صحة وجهة نظرنا وتهافت وجهة نظره وهو يبين أن العلماء أنفسهم كانوا خاضعين خضوعا مطلقا لتلك السلطة الجمعية، وهنا لا يبقى لنا سوى العامة. فنسأل : هل يمكن للعامة أن يوجدوا تلك السلطة الجمعية التي تمارس ذلك الجبر وتلك الصرامة التي ذكرها أركون؟ والجواب في نظرنا أن العامة وحدها لا يمكنها أن تنتج تلك السلطة وتمارسها؛ لأنها لا تملك الوسائل المادية لتحقيقها، وأهم منه لا تملك الوعي الذي يؤهلها لذلك.

وبهذا نتوصل إلى النتيجة الآتية:

إن هناك سلطة جمعية تمارس رقابة صارمة ضد أي تحريف للنص القرآني، وأن هذه الرقابة شاملة فيها الجانب التلقائي وفيها الجانب الرسمي، يشترك فيها جميع فئات المجتمع - حتى بعض المنحرفين منهم سلوكيا- من علماء وساسة وعامة. ولكن مصدر هذا السلطة الجمعية ليس المجتمع، بل النص القرآني ذاته. فهو الذي أوجد هذه السلطة، وهو الذي يوجهها ويعطيها طابع القداسة. ولذلك فما أن يظهر خطأ في كتابة النص أو قراءته سواء كان عفويا أو قصديا حتى تنهض الأمة بكاملها، بجميع فئاتها للتصحيح وإزالة المحرف، والمخطئ ذاته لا يلبث إلا أن يتوب مما وقع منه من خطأ ويعود إلى الصواب ونرى هذا جليا في الصلوات مثلا عندما يخطئ الإمام في القراءة أو عندما يلقي مفكرا محاضرة ويخطئ في قراءة آية أو كتابتها أو عندما يظهر مصحف فيه خطأ. ونحن لا نجد أي تفسير منطقي لهذا سوى قول الله عز وجل

(إن علينا جمعه وقرآنه... بيانه) (1). وقوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (2).

وبهذا نجيب على ما إستشكل في ذهن أركون بقوله مذيلا كلامه السابق : " هنا نستطيع أن نفهم ما هو معنى كلمة مجتمع وما تمثله هذه الكلمة من قوة وجبروت. هذا المجتمع الذي يتكلم خطابا واحدا محسدا، وليس أي خطاب آخر، ثم يضع الحدود التي لا يمكن لأحد من البشر أن يتجاوزها" (3). ونحن نفتخر بما ذكره هنا، ولقد غاظه هذا لأنه لا يجد هذه الظاهرة في المجتمعات النصرانية فيما يتعلق بأنجيلها كما

(1) التوبة / 17- 19 .

(2) الحجر / 9.

(3) المصدر نفسه، ص 289.

ذكرنا قبلا اثناء حديثنا عن الأناجيل، بينما يجد جميع المسلمين في جميع الأقطار سواء في العالم الإسلامي أو في العالم الغربي متفقون على نفس المصحف.

ولكننا نتساءل هنا : ما دام أركون يقر بما سبق ويؤمن إلى حد الصوفية بالسلطة المجتمعية الراقية كيف استطاع هو أن يقول عن القرآن ما يقول، ويقر صراحة بأنه ليس من عند الله وأن مصحف عثمان ليس هو مصحف محمد ودون أن يستدل بمصدر واحد على ما يقول ولم يمسه أذى؟! .

أركون يتساءل : بعد استغرابه من تلك السلطة الجمعية التي لا يمكن لأحد من البشر ان يتجاوزها قائلا : " كيف يمكن تفسير هذه المسألة في الحالة الراهنة"<sup>(1)</sup>. ويفسرها بالصراع بين المسلمين والغرب. فالحالة الصعبة في نظره التي تعيشها المجتمعات الإسلامية في مواجهة الغرب منذ أكثر من قرن من الزمن فتحوّلت هذه الحالة إلى نوع من الحجة التسويغية والتبريرية. يمثل الإسلام في هذه الحالة نوعا من " الملجأ" والملاذ للمجتمعات الإسلامية التي تريد أن تحتفظ بهويتها في مواجهة الغرب الحديث. الجبار تكنولوجيا وحضاريا. إذا ما فقد المسلمون ملجأ كهذا، فلن يعود هناك أي عامل تحريضي مثير لحماس الجماهير والجسم الاجتماعي ككل ( LE CORPS SOCIAL ) لهذا السبب - يقول أركون- نجد المتقنين المسلمين يمارسون الرقابة على أنفسهم ويمتنعون عن الخوض في هذه المسائل الحساسة التي يعتبرونها سابقة لأوانها، إنهم يعتقدون أن معالجة تاريخية نقدية كالتي يقوم بها أركون تخلخل التضامن المجتمعي وتهزه، مما يؤدي إلى ردة فعل من قبل هذا المجتمع الذي سيرد بعنف على كل محاولة من هذا النوع"<sup>(2)</sup>. وهكذا يظهر بجلاء كيف يعمل أركون على تحطيم عامل الدفاع عن الذات فينا لنقع فريسة نهائية للغرب، وهو ما يجعله في مصاف الإستشراق الكنسي، وهو ما يناقض مازعه في بداية هذه الدراسة في توضيحه لمفهوم "الإسلاميات التطبيقية".

والحقيقة في نظرنا :

أن مشكلتنا ليست النص القرآني؛ لان صحته بديهية، فيجب علينا ان نهتم بكيفية إعادة بناء الإسلام الحضاري من جديد لنحمي أنفسنا ونحقق التقدم العلمي المنشود. فمشكلتنا ليست الشك في النص القرآني، بل التمكن من العلوم الحديثة وتقنياتها وحماية أنفسنا من الغرب النصراني المتهود.

واركون بإقتراحه السابق يريد أن يحول وجهة نظرنا من مشكلتنا الحقيقية إلى بحث لا مشكلة. فنحن لسنا كالنصارى الذين ما زالت ولا تزال مشكلات النص المقدس عندهم عالقة وهي محل اختلاف وصراع.

وبهذا نتوصل إلى ان أركون يضرب على الوتر الحساس لتحطيمنا من الداخل. فهو أدرك مثلما أدرك رجال الإستشراق والتصوير الذين يقتفي أثرهم ويسير على هديهم أن القرآن الكريم هو الحصن الذي حماة من الذوبان وحررنا من الإستعمار، فيريد ان يحطمه لكي لا يبقى لنا أي عامل مقاومة فننوب ونمسح ونمسخ ونصبح بذلك لا غرب ولا شرق كما حدث للذين نصرهم لافيجري. ولقد عبر أركون نفسه عن هذه الحقيقة وربما من حيث لا يشعر عندما ذكر في بداية بحثه " علمنة المجتمع الإسلامي" أن بحثه هذا

(1) المصدر نفسه، ص 289.

(2) المصدر نفسه، ص 289.

يدخل ضمن توجيه المجتمعات الإسلامية التي خرجت من الإستعمار الغربي. فهو إذن توجيهه لتكريس الإستعمار الجديد والتبعية الإرادية للغرب النصراني المتهود مواصلة للإستعمار القديم. وهو بهذا يدخل ضمن إستراتيجية التصير التي لا تقوم بالضرورة على تصير المسلم كما بين ذلك صراحة شارل دوفوكو، بل يكفي خلخلة إيمان المسلم. وهل هناك خلخلة أكبر من التشكيك في القرآن الكريم؟! وأركون أدرك سر القرآن الكريم في نفوس المسلمين. وكيف لا. وقد تربي في مدرسة تبشيرية وضع أسسها لافيغري. فيريد ان يخلخل إيمانهم بالتشكيك فيه لأنه ان نجح في ذلك يكون القضاء النهائي على الإسلام والمسلمين. وهكذا يشكك أركون في القرآن الكريم ليخلخل المجتمع الإسلامي لصالح الغرب، مواصلا بذلك رسالة لافيغري وبورغاد ودوفوكو التصيرية الإستعمارية.

بعد ذلك يعود أركون من جديد إلى التاريخ الإسلامي القديم فيذكر أن هناك معارضة داخلية في الإسلام وقعت كتلك التي حصلت في أوروبا بدءا من عصر النهضة في القرون الهجرية الأولى وصلت حتى إلى مسألة تشكل النص القرآني يقول: يمكن أن نضرب مثلا على ذلك: إثنين من القضاة اللذين أدانتهم السلطة العباسية في القرن 4 هـ " لأنهما إحتجا على بعض قراءات النص الرسمي المشكل ( بعض القراءات نقتطع! ) . ويقول: ينبغي أن نشير أيضا إلى كل تلك الحركة الفلسفية ذات النزعة النقدية، وكل الحركات الموصوفة، بالزندقة التي كانت السلطة الرسمية تراقبها بحذر وتصفيها جسديا إذا لزم الأمر كما كانت تفعل الكنيسة المسيحية فيما يخص معارضيتها في الفترة ذاتها<sup>(1)</sup>.

ونرى أن أركون هنا يهوف بما لا يعرف، فهو يذكر أن هناك معارضة وصلت إلى مسألة تشكل النص القرآني والمنهج العلمي الذي يتشدد به يقتضي أن يذكر لنا المعارضين ومواضيع معارضتهم والمصادر التي استقى منها ذلك ولكنه لم يفعل شيئا والدليل الوحيد الذي استند إليه هو القاضيان اللذان إعترضا على بعض القراءات فقط. والواقع أن القراءة شيء والقرآن وصحته شيء آخر، فالخطأ في بعض قراءات النص لا يطعن في صحة النص. وبذلك فلا علاقة هنا بين الدعوة التي هي معارضة مسألة تشكل النص، والبرهان على صحتها المتمثل في قاضيين إعترضا على صحة بعض قراءات النص.

وهذا حتى إن كان صحيحا ( أي قاضيان إعترضا على صحة بعض القراءات فأدينا) فإنه يبين تمسك المسلمين بالقرآن وشدة محافظتهم عليه ليس كنص فحسب، بل حتى على طريقة قراءته وصحتها. وهو دليل آخر ضد أركون: يبين ان المسلمين لم يحافظوا فقط على سلامة النص بل حافظوا أيضا حتى على قراءته قراءة صحيحة كما كان يقرأه صاحبه الرسول -صلى الله عليه وسلم- . وهذا في نظرنا لم يتمثل في أي نص في العالم. وهكذا حفظ القرآن الكريم، ونحن نتحدى من يثبت لنا ان نصا حفظ على قراءته كما كان صاحبه يقرأه عدا القرآن الكريم.

وأما الإحتجاج بحركة الزنادقة وفلسفاتهم فلا وزن له؛ لأن حركة الزندقة كما هو معروف كان لها طابع سياسي وهي في أساسها تريد الرجوع إلى أصولها القديمة من وثنيات. ورغم هذا نقول لأركون: هات لنا

قرآن الزنادقة الذي يخالف قرآنا، وهات لنا أدلتهم التي أثبتوا بها عدم صحة قرآنا. ونسأل أركون: هل حركة الزنادقة كانت متجهة إلى رفض القرآن أم إلى إثبات أن قرآن محمد غير قرآنا؟ والواقع أن حركة الزنادقة إنما تهدف إلى رفض الإيمان بالله أصلا وهذا شيء. والطعن في مصحف عثمان شيء آخر. ثم كيف يتهم حكام العباسيين مثلا باللائكية وفي الوقت ذاته يذكر أنهم هم الذين قمعوا الزنادقة، وقاموا بما كان يقوم به الإكليروس؟ وهكذا نرى أركون يتخبط خبط عشواء، وإلا كيف يقارن حركة الزنادقة التي وقعت في التاريخ الإسلامي بما كانت تفعله الكنيسة تجاه معارضيها وذلك لأن الكنيسة إنما كانت تقمع فرقا نصرانية أو رجال نصارى خالفوها في فهم النصوص أو في قبول بعضها، وتلك الإختلافات لم تنشأ في الطريق بل من البداية. أما في التاريخ الإسلام فلم يقمع أحد لفكره.

بعد هذا يذكر أركون أن حركة الاحتجاج هذه بدأت من القرن 12 م تخرقت تدريجيا في أرض الإسلام لكي تختلي نهائيا فيما بعد، ما هو السبب؟ يرى أركون أن الأسباب هي: بدءا من القرن 12 م، أشياء كثيرة بدأت في التغيير، هناك:

أولا: تحويل الخطوط التجارية والإقتصادية الكبرى عن منطقة الإسلام المتوسطي وذلك بسبب الحروب الصليبية، إزدادت هذه الحالة خطورة فيما بعد.

ثانيا: ظاهرة المغول والترك اللذان يمثلان إسلاما بدويا راح يضغط بشدة على إسلام مدني وصل إلى حد الارستقراطية، عندئذ اهتزت السلطة الخلفية، هكذا استيقظ فجأة العالم الريفي البدوي الذي كان مستعبدا ومتجاهلا، لكي يعود إلى قيمه العتيقة الحية دائما والسابقة زمنيا على الإسلام. كيف يمكن والحالة هذه أن تظهر الاحتجاجات ضد النص القرآني المشكل رسميا؟ وهكذا ابتداء الرجوع بدءا من القرن 12 م إلى الإسلام الريفي الذي لا يتيح طرح أية مشكلة من هذا النوع<sup>(1)</sup>.

وهكذا وجد أركون لكل مرحلة سببا لعدم شك المسلمين في قرآنهم، فالأولون، فسر ذلك بالقسر الجمعي، ثم الصراع الإسلامي الغربي، وبينهما الإسلام البدوي.

والواقع أن الشك في الرواية الرسمية لا يكون له وزن إلا إذا كان في عهد كتابة مصحف عثمان لأن وصول القرآن الكريم إلينا لم يتم بناء على مخطوطات إكتشفت ويمكن أن توجد مخطوطات أقدم منها أو أصح تجعلنا نعيد النظر في مصحف عثمان. وإنما كان مصحف محمد -صلى الله عليه وسلم- موجودا وهو ذاته مصحف عثمان. ومن هنا فإنه هو الحجة على المصاحف المخالفة له إن وجدت وليس العكس. ولنضرب مثلا بسيطا بأركون نفسه، فإذا قارنا كتابا له كتبه هو بنفسه أو أمر بعض تلاميذه النجباء بكتابتها ثم صححه هو بنفسه، بنفس كتاب أركون الذي كتبه أحد تلاميذه ولكن أركون لم يطلع عليه ولم يصححه، ووجدنا اختلافا بين النسختين: فأيهما تحكم في الأخرى نسخة أركون أم نسخة تلميذه؟ الجواب واضح.

يضاف إلى هذا أن القرآن الكريم وصلنا كذلك عن طريق الرواية الشفهية، بحيث حفظه أعداد هائلة بلغوها لأعداد هائلة من النبي إلينا الآن، ونتحدى أركون أن يثبت أن إنقطاعا وقع لهذه العملية. ومن هنا فإن كل ما يثيره أركون من إشكالات إنما هي موجودة في ذهنه وحده فقط ولا وجود لها أصلا في التاريخ

الإسلامي؛ لأن أي وثيقة أخرى مخالفة لمصحف عثمان يضرب بها عرض الحائط. لأن القرآن لم يغيب يوماً ما حتى يبحث عنه ويعاد تحقيقه وتصحيحه. فإذا وجدنا الآن مثلاً نسخة مخطوطة عمرها ألف سنة ووجدناها تخالف مصحفنا فهي التي تصحح لا مصحفنا، فإذن المشكلة غير مطروحة أصلاً.

تكون المشكلة مطروحة لو وقع انقطاع في الحفظ وغابت المصاحف كلها ثم اكتشفنا بعضها وكتبتنا القرآن من خلالها. هنا تكون القضية مطروحة للشك وقابلة للتصحيح كما هو الحال في منهج تحقيق المخطوطات.

أما قضية الإسلام المدني والإسلام البدوي الريفية فهو لا أصل له وإنما هي إبتكارات أركونية ليبرر بها تحليله اللاحيادي. وذلك لأن الإسلام واحد.

### إعادة طرح المسألة :

يذكر أركون أن هذه المشكلة لم تعد مطروحة منذ القرن 12 م، ولكنها ابتدأت تطرح نفسها بأهمية منذ فترة قريبة بسبب انتشار التعليم وذهاب آلاف الشباب إلى الجامعات، هؤلاء الشباب الذين يطرحون الأسئلة ويواجهون جميع المشاكل التي طرحت ( قضية القرآن لم تطرح) وعشت في القرون الهجرية الأربعة الأولى - إنها لم تطرح أصلاً لأنه لا مشكلة - لكنهم لا يجدون لها أجوبة ويضطرون إلى الرجوع إلى الكتب التي ألقت في القرن 8 و 9 م ( 4 و 5 هـ). وهنا لا بد من طرح المشكلة طرحاً جديداً وفقاً لمناخ الثقافة الحديثة ولكن بعد نقد شديد لمفهوم الحداثة. ذلك أن الحداثة تحمل في طياتها كل شيء، ولسنا ندري ما يقصده بهذه الجملة الأخيرة " الحداثة تحمل في طياتها كل شيء"، فهل يقصد أن الحداثة ذاتها يجب أن توجه وفقاً لهوام. بعد هذا مباشرة يبين هدفه من طرح هذه المسألة بدقة فيقول: " لنذكر الآن المهام العاجلة التي تتطلبها أية مراجعة نقدية للنص القرآني، ينبغي أولاً إعادة كتابة قصة تشكل هذا النص بشكل جديد كلياً، أي نقد القصة الرسمية للتشكيل التي رسخها التراث المنقول نقداً جذرياً"<sup>(1)</sup>. وهنا يظهر بجلاء هدف أركون وغرضه. وهو الطعن في صحة القرآن والتشكيك فيه لتصبح بدون هوية، ولقد ركز على الشباب الذين يمكن إيقاعهم في حباله وهم شباب الجامعات الذين لم يدرسوا التراث الإسلامي من مصادره الأساسية، ولسنا ندري بأي منهج عقلي يتكلم أركون؟ ذلك أن المعروف أكاديمياً أن دراسة أي شيء دراسة موضوعية تحتّم الرجوع إلى مصادره الأساسية بينما أركون هنا يرفض تلك المصادر ويوجهنا إلى ما لا نعرفه ولا نجده كما سينكر هو نفسه، ومن هنا فإن أركون يكتب ضمن أو يواصل مشوار المبشرين وعلى منوال لافيغري - وإلا فإن قضية النص القرآني لم تطرح أصلاً لا في القرون الهجرية الأربعة الأولى ولا بعدها، لأنه كما تبين لنا: لا مشكلة أصلاً فإذا كان لافيغري يرى أنه يجب منع المسلمين من القرآن بالقوة، لأنه مادام موجوداً بينهم فلن تتمكن فرنسا منهم، فإن أركون أتى ليغير الوسيلة ولكن لتحقيق نفس الهدف وهو العمل بهدوء لتشكيك المسلمين في الإسلام. ومن هنا فإن أركون يهدف بقصد وإصرار فيما يتعلق بالشباب إلى توجيههم نحو الذات بغية تحطيمها، وإلا فلو كان يحبهم فعلاً لوجههم إلى البحث عن السبل التي تحررهم وتحرر مجتمعاتهم من التبعية للغرب ومن التخلف. لا أن

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 290.



يوجههم إلى التشكيك في عامل حمايتهم من أعدائهم عبر التاريخ، لأن مشكلتهم النصرانية العدوانية لا القرآن الكريم. وإلا كيف يوجههم لبحث مشكلة لا وجود لها؟! بل مشكلتنا الأساسية هي كيف نطبق النص القرآني لا البحث عن مصادره، لأن مصدره معروف بدقة، هو محمد -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل عن الله عز وجل. ونحن متيقنون منها بشهادة أركون نفسه أكبر من تيقننا من كل ما في الوجود. لقد أثبت الواقع التاريخي بشهادة أركون أن القرآن كان هو الملجأ - وهذا تعبيره هو - لحمايتنا من عدوان الغرب وغيره وبه تحررنا، فهل من المعقول أن نبحث عن وسائل تحطيم العامل الوحيد لحمايتنا؟ إن من يعمل على تحطيمه إنما يهدف لجعلنا فريسة نهائية لأعدائنا. مشكلتنا نحن المسلمين ليست القرآن بل اللائكية، ولو كان أركون يحب أولئك الشباب لفكر في حمايتهم من اللائكية التي فرضت عليهم قهرا فحطمتهم وحطمت آمالهم وطموحهم.

ولكن أركون يواصل كلامه، فيبين لنا الطريقة المثلى لنقد القصة الرسمية لكتابة القرآن الكريم، وتتمثل فيما يأتي :

- الرجوع إلى كل الوثائق التاريخية التي أتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل شيعي أم خارجي أم سني، وذلك لتجنب كل حذف تيولوجي لطرف ضد آخر شريطة التأكد من صحة الوثائق المستخدمة.

- البحث عن وثائق أخرى ممكنة الوجود كوثائق البحر الميت المكتشفة مؤخرا.

- سير المكتبات الخاصة عند دروز سوريا أو إسماعيلية الهند، أو زيدية اليمن أو علوية المغرب، حيث يوجد بها وثائق مهمة مقل عليها ومحروسة جيدا<sup>(1)</sup>.

- البحث عن مخطوطات القرآن في أديرة النصارى الأنباط<sup>(2)</sup>.

وهكذا - يقول أركون - نجد أنفسنا أمام عمل ضخ من البحث وتحقيق النصوص الذي يتبعه فيما بعد - وكما حدث للأناجيل والتوراة- إعادة قراءة سيميائية أجنبية للنص القرآني، إن المنهج اللساني يمكنه ان يحررنا من تلك الحساسية التقليدية التي تسيطر على علاقتنا البسيكولوجية بتلك النصوص<sup>(3)</sup>.

وهنا نقدم مجموعة من الملاحظات هي :

- تناقض أركون مع نفسه. فهو من جهة يقر أن جميع المسلمين من سفة وشيعة وخوارج متفقون على مصحف عثمان، ومن جهة أخرى يطالبنا هنا لإعادة تشكيل النص القرآني لنقد الرواية الرسمية بالرجوع إلى وثائق الشيعة والخوارج وأهل السنة، فهو إعترف قبلا وهو محق في ذلك، بأنهم متفقون، ولكنه يطلب منا هنا الرجوع إلى وثائقهم لتجنب كل حذف تيولوجي لطرف ضد الآخر مما يعني أنهم غير متفقين.

- وثائق البحر الميت لا علاقة لها أصل بالقرآن والإسلام وقد أشرنا إليها قبلا أثناء حديثنا عن الأناجيل. وهكذا يريد أركون التهويل والإعتماد على جهل المخاطبين لتضليلهم، وهو أسلوب القساوسة والمستشرقين غير النزهاء، ذلك ان وثائق البحر الميت إنما تتعلق بالكتاب المقدس أي باليهودية والنصرانية لكن ما

(1) المصدر نفسه، ص 290 ، 291.

(2) محمد أركون، الإسلام والعلمانية، ص 35.

(3) محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، ص 291.

علاقتها بالإسلام؟ إذا كان أركون يجهل هذا فتلك كارثة، وإذا كان لا يجهله وهو ما نعتقده فذلك ظاهر .  
 ونسأل : هل حلت وثائق البحر الميت مشكلة الكتاب المقدس؟ بمعنى هل أخذها اليهود والنصارى بعين  
 الاعتبار وأعادوا صياغة الكتاب المقدس على هديها. والجواب لا. فإذا كان هؤلاء أم يفعلوا وهم القادة  
 والمثل الأعلى لأركون، لماذا يطالبنا هنا بعدم الإقتداء بهم بمطالبتنا بالبحث عن وثائق لإعادة صياغة  
 النص القرآني على هديها؟.

- وأما دعوته للمسلمين بالذهاب إلى أديرة النصارى الأنباط بحثا عن مخطوطات القرآن القديمة لعلمهم  
 يجدون فيها ما ضاع من القرآن الكريم، فهذا أغرب ما تفقت عن العبقريّة الأركونية لأنه يعني أن لا نشق  
 في سيدنا عثمان ونعتبره مزورا للقرآن، ونثق في النصارى الأعداء الألداء للقرآن عبر التاريخ والحاضر  
 والمستقبل؟ فهل يؤتمن هؤلاء على القرآن وقد رأينا موقف لافيحري وأسلافه وأخلافه منه؟ ولو وجدنا  
 عندهم بعض تلك المخطوطات فكيف لا يتهمون بأنهم هم الذين كتبوها محرفة كما حرفوا كتبهم؟! . إنهم  
 ألد أعدائنا فهل يحافظون على القرآن عدوهم الأول بإقرار لافيحري أحسن من المسلمين؟! . وهل حلفظوا  
 على كتابهم المقدس حتى يحافظون على القرآن الكريم؟! . إن النصارى إلى الآن مازالوا مختلفين إختلافا  
 بينا في أسفار كتابهم المقدس، فهم إذن لم يحلوا لا مشكل العهد القديم ولا الأناجيل رغم نياتهم في ظل ذلك  
 فهل يحلون مشكلة القرآن الكريم لو وجدت؟. فلو كانوا يحافظون على القرآن لحافظوا أو لا على كتابهم  
 المقدس الذي هم فيه مختلفون إلى الآن. ومن هنا فإن المنطق يقتضي بدل هذا الجنون أن يقول للنصارى  
 ابحثوا عن الأناجيل عند المسلمين لعلمكم تجدون عندهم الإنجيل الحقيقي، ولو فعل ذلك لأصابوا وجدوا.  
 لأنهم سيجدون القرآن الكريم الذي احتوى بدقة على ما احتواه الإنجيل وزيادة. وما يقال عن النصارى  
 يقال كذلك على اليهود.

وهكذا يسقط أركون في أيديولوجية التبرير والتسويع التي إتهم المسلمين بها. ولكن تبريره وتسويعه ليس  
 للقرآن بل لهيمنة الغرب وكنيستهم وبيعتهم.

وأما قضية مكتبة دروز سوريا وإسماعيلية الهند إلخ. فمن أدرك أركون أنه توجد بها مخطوطات مخالفة  
 للقرآن الكريم؟ وهل إذا وجدنا بها ذلك نرفض القرآن لنعتمد على وثائق كتبها أناس مجهولون؟ هل  
 نرفض ما أجمعت عليه الأمة لتتبع الهوى؟ ثم لو كانت وثائق موجودة فعلا تخالف القرآن لماذا لم  
 يستعملها أصحابها لتحطيم القرآن؟. ولماذا يضربون عليها كل تلك الحراسة؟ هل غرضهم إبقاء المسلمين  
 مجمعين على مصحف مزيف؟ وإذا كان هدفهم فكيف نثق بما عندهم؟ ثم هل نتهم عثمان الصحابي الجليل  
 من السابقين للإسلام وصهر النبي وخليفته إلخ ونثق في دروز سوريا أو اسماعيلية الهند؟ نترك مصحفا  
 أجمع عليه الصحابة لأننا وجدنا من خالفه من اسماعيلية كذا أو دروز كذا؟ من ذا الذي يبذ عثمان صهر  
 النبي المتزوج بابنتيه رقية وأم كلثوم وأحد السابقين للإسلام حتى نترك مصحف عثمان وتتبع خرافاته؟  
 فإذا كنا لا نتقف في عثمان فهل نثق مثلا في دروزي حالي أو اسماعيلي حالي؟. إن هذا لشيء عجاب.  
 أركون يهرف بما لا يعرف، المهم عنده أن يجد أي شيء يخالف القرآن مهما كان نوعه، ومهما كانت  
 دركته. وليعلم أركون أنه مهما وجد من مخطوطات -إن وجدت- فهي ليست حجة لأننا لا نترك مصحف

الرسول ﷺ وتتبع أو هام الشياطين. ولكن أركون يعتقد براءة كما بين هو في البداية أن القرآن ليس من عند الله وهذا إن كان يؤمن بوجود إله أصلا. وإذن فهو لا يؤمن بنبوة محمد ﷺ. وهذه قضية تخصه هو وحده، ولكنه يعمل بلا هوادة لاقتناعا بها. وهذا هو أثر المدرسة التبشيرية التي تخرج منها والتي ظل يسير في فلكها؟.

وأما ما يذكره من قضية تحقيق النصوص فقد ذكرنا قبالا أثناء حديثنا عن الأناجيل العمل الضخم الذي قام به المعهد الألماني، وكانت نتيجة مجهوداته أن القرآن واحد، هو هو . لم يتغير ولم يتبدل. وتتساءل بخصوص الأناجيل والتوراة هل تلك المنهجية التي اعتمدت في دراستها صحتها وبينت لنا الأناجيل والتوراة الصحيحة من المزيفة؟.

وأما قضية القراءة السيميائية فأذكر أن أركون قدم هذا المقترح في عدة ملتقيات للفكر الإسلامي التي كانت تعقد بالجزائر، منها الملتقى الذي عقد بالأوراسي سنة 1983 م وقد نقده كثير من العلماء الحاضرين وأقصوه ووصل به الأمر إلى البكاء وإعلان التوبة أمام الملأ. وكان منهم متخصصون في السيميائية واللسانيات وكان منهم سنة وشيعة، وأذكر أنه من الذين نقده د. عبد الفتاح إسماعيل ومما ذكره : كيف نحل كلمة "أمة" تحليلا سيميائيا وهي لها أكثر من 12 معنى في القرآن. فقد وردت بمعنى رجلا عظيما وبمعنى فترة من الزمن إلخ واركون لم يرد . والواقع أن أركون، كل ما يفعله أنه يدعونا ويحثنا على التحليل السيميائي واتباع المنهج الفيلولوجي<sup>(1)</sup>. ولكنه لم يبين لنا كيفية ذلك، بل كلامه نفسه نجده هو الكلام الذي نتكلمه فلماذا لم يحلله سيميائيا ولم يخضعه المنهج الفيلولوجي؟ أركون لم يجب على هذا. وهلى حلت القراءة السيميائية للكتاب المقدس مشكلته فأعيد صياغته وفقا لها؟. والجواب لا.

## 6- إشفاق العلمنة والحاحها

ينطلق أركون من توضيح معنى العلمنة فيورد لها معناها الدقيق الذي بيناه قبالا أثناء حديثنا عن تحديد مفهومها، فيذكر أنها حسب الإيتمولوجيا ( علم أصول الكلمات) فإن كلمة ( LAÏCOS ) اليونانية تعني الشعب ككل ماعدا رجال الدين أي بعيدا عن تدخلهم في حياته، في لاتينية القرن 13 نجد أن ( LAÏCUS ) تعني الحياة المدنية أو النظامية أي نفس المعنى اليوناني. وهكذا يحصل التمييز ما بين الشعب الذي يعيش حياته الخاصة بكل معطياتها وبين رجال الدين الذين يتدخلون في هذه الحياة من أجل ضبطها REGULER بطريقة ما<sup>(2)</sup>. وبهذا يظهر جليا أن اللانكية لا تعني الفصل بين الدين والدولة بل تعني إبعاد الدين نهائيا من الحياة، وأن بين المصطلحين (دين، علمنة) تضاد، وأن الصراع ما بين التيولوجيين الذين يدافعون عن الدين والتقديس من جهة ثم رجال العلم والعقلانيين أو المفكرين الأحرار الذين دافعوا عن إستقلالية العقل

(1) معنى الفيلولوجيا: "دراسة الآثار الفكرية والروحية دراسة تقوم على النصوص وتحقق الوثائق. ومعنى عام، علم الفيلولوجيا هو العلم الذي يبحث في التراث الفكري المكتوب الذي خلفته أمة من الأمم، والمنهج الفيلولوجي يقتضي لا أن يكتب المرء عن المذهب الذي يتبعه فحسب، بل وأن ينظر إلى المذاهب نظرة عامة، بمسبها صورة لتطور العقل الإنساني وللمحاولات التي قامت بها الروح الإنسانية من أجل الكشف عن الحقيقة وإيجاد نظرية في الوجود تستطيع أن تعيش عليها، وأن تسير في حياتها وفقها" (عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،

1984م، ج1، ص415).

(2) المصدر نفسه، ص291.

من جهة أخرى<sup>(1)</sup>. ولكي نفهم القضية أكثر يقول ينبغي تعميق التحليل - معتمدا على معطيات التحليل النفسي مضخما له إلى حد تأليهه - فيقول بأنه وحده يستطيع أن يحلل لنا القضية رغم تناقضات مدارسه واختلافها، وينطلق تحليله من أن في الإنسان وهذه خاصة انثروبولوجية - حاجات ودوافع مترامنة تتجسه عموما في اتجاهين أساسيين مترابطين :

توجد أو لا مرتبة الرغبة : L'INSTANCE DU DESIR مع كل القوى الملحقة بها، هذه الرغبة تتأرجح ما بين الرغبة في الله مع كل القوى التي أثارها على مر التاريخ وصولا إلى الرغبة البسيطة المتمثلة في الإنجاب أو الغنى.

أما المرتبة الثانية أو البعد الثاني الذي يمتاز به الإنسان - أي إنسان - فهو :

إلحاح الفهم والتعقل : ( L'EXIGENCE DE L'INTELLIGIBILITÉ ) هذا الإلحاح - الحاجة الكامنة في أعماق الإنسان لكن حدث تاريخيا ان إلحاح الفهم هذا كان تعرض للمقاومة وحرف عن دربه الصحيح أثناء إيديولوجيات التبرير والتسويف في الإسلام. الصراع بين مرتبة الرغبة، ومرتبة الفهم حاد، لأن الفهم والتعقل قمع، وضمن هذا يندرج النضال من أجل الفهم والتعقل أي العلمنة. ذلك ان إلحاح الفهم والرغبة في الكشف والتعقل يصطدم بكل تجليات الرغبة ( LE DESIR ) لأنها قابعة وهو مقموع ويحاول أن يحرر صاحبه منها.

بعبارة أخرى مرتبة الرغبة هي الوحي الذي ترسخ على هيئة نظام معرفي مهيمن تماما في الغرب وعين المسلمين على السواء تمثله أناس هضموا النظام المعرفي (التعقل) وتمثاوه وقاموا بتصفية إلحاح الفهم والتعقل، ويظهر هذا جليا في الإسلام الذي لا توجد فيه أي حرية ولو نسبية للفكر مما جعل النضال للحصول على تلك الحرية - ورغم رفضنا لهذه المقولات فيما يتعلق بالإسلام إلا انه يتبعها بنقد فهم للعلمنة فيقول : " العلمنة لا ينبغي لها هي الأخرى ان تصبح عقيدة إيديولوجية تضبط الأمور وتحدد من حرية التفكير كما فعلت الأديان سابقا. والعلمانية النضالية ( LE LAICISME ) المعادية للكهنوت في الغرب ربما كانت قد مشت في هذا الإتجاه. إننا ندين هذا الموقف كما أدنا الموقف المعاكس<sup>(2)</sup>. ثم يعود إلى توجيه سهامه المسمومة فيقول : " فالعلمنة كما نفهمها تتركز في مجابهة السلطات الدينية التي تخنق حريسة التفكير في الإنسان ووسائل تحقيق هذه الحرية، إننا نعلم جميعا أن ذلك حدث تاريخيا في أدياننا التي تقول : انظر، هذا مكتوب؟، من هنا نهض رجال بإسم حرية التفكير وإلحاح الفهم، هذا الإلحاح الذي يمثل طاقة حيوية في الإنسان لا تختلف في شيء عن طاقة الحياة وثبتها العميقة لكي يقولوا لا. هكذا تكلم ابن رشد ولوثر...<sup>(3)</sup>.

ثم يعود ليقدّم نقدا للعلمانية ينطبق تماما على تصورات دعاة الحركة البربرية فيقول : " لكنه لا يعني أبدا ان العلمنة ينبغي أن تصبح بدورها سلطة عليا تضبط الأمور وتحدد لنا ما ينبغي التفكير فيه وما لا ينبغي

(1) المصدر نفسه، ص 292.

(2) المصدر نفسه، ص 293، 294 .

(3) المصدر نفسه، ص 294.

التفكير فيه كما فعلت سلطة الفقهاء والإكليروس سابقا. إن العلمنة تتركز فقط في الإلحاح على حاجة الفهم والنقد داخل توتر عام في الإنسان، وبمواجهة "ضابط" ما موجود دائما وضروري أن يوجد سواء كنا نعيش في مجتمع الدولة - الكنيسة أم في مجتمع<sup>الدولة</sup> القومية الحديثة<sup>(1)</sup>.

وهنا يجب أن نقيم ما ذكره قبل الانتقال إلى ما بعده وفقا للخطة التي مشينا عليها في تقييمنا لأفكاره. ونبدأ ذلك بالإشارة إلى أن ما ذكره من صراع بين مرتبة الرغبة وبين مرتبة إلحاح الفهم والتعقل أو ما عبر عنه صراحة بقمع الوحي للعقل إنما هو إسقاط. ذلك أن هذه القضية إنما هي مطروحة في النصرانية التي لا تسمح للعقل بأن يتدخل فيما له علاقة بالدين. وقد أشرنا إلى هذا بتوسع أثناء حديثنا عن محاكم التفتيش.

أما الإسلام فلم يقع في تاريخه محاكم تفتيش، وقد بينا مكانة العقل فيه أثناء نقدنا ليورغاد. ومن هنا فإن ما قدمناه من نقد ليورغاد فيما يتعلق بالهجوم على القرآن الكريم، وبالصراع بين المسلمين إنما يصدق تماما على أركون. ونذكر هنا أن الإسلام لا وجود فيه للصراع بين العقل والوحي، بل نجد أن خطاب الوحي موجه إلى العقل ذاته، وأن من لا عقل راشد له غير مكلف بالدين أصولا وفروعا وأن أول كلمة نزلت في القرآن إنما هي كلمة "اقرأ" وأن الذي لم يقتنع بالإسلام لا يجبر على إعتاقه (لا إكراه في الدين)<sup>(2)</sup> إلخ. ثم نتساءل بإندهاش واستغراب: كيف يكون الوحي قامعا للعقل في الإسلام وهو أي الوحي أساس الحضارة العربية الإسلامية؟ فقبله كان العرب بدوا متخلفين وبه سادوا العالم وفرضوا فكرهم على الناس حتى على أركون نفسه. إن العقل ذاته أحد أسلحة الوحي وهو خطاب له عكس النصرانية التي قررت قمع العقل لصالح الكنيسة لا الوحي. وهنا نشير إلى إعتقاد أركون أن النصرانية الحالية تقوم على الوحي وأي وحي؟ وقد بينا هذا أثناء حديثنا عن الأنجيل والإكليروس.

ثم نتساءل مع أركون فلسفيا وفي الوقت ذاته إنطلاقا من علم النفس الذي يزعم أركون الإستناد إليه في تحليل هذه القضية (الصراع بين العقل والوحي):

كيف يمكن الفصل داخل الإنسان ذاته (الإنسان الواحد) بين مرتبتي الرغبة وإلحاح الفهم والتعقل؟ وأيهما يخضع للآخر؟ كيف نقيم مجتمعا وننظمه ونبني حضارة على أساس الحرية المطلقة للعقل والفهم وفقا للتحليل النفسي الذي يقرر ان الظاهرة النفسية هي أعقد ظاهرة على الإطلاق وأن عناصرها ووظائفها متشابهة، كل عنصر يؤثر على غيره ويتأثر؟ إن علم النفس يقرر بتفاوت العقول وإختلاف قدراتها. ثم تناقض العقول في الغرب وفي الشرق وتضارب المصالح، فهل يمكن للعقل أن يضبط ذاته؟ وحتى لو أمكن ذلك فإنه يضبط وفقا لمصلحة صاحبه ويكون ذلك على حساب مصالح الآخرين. ثم عندما تكون الحرية المطلقة لكل عقل، فبناء على ما سبق، فإن المجتمع نظريا يصبح فيه ما لا يعد من وجهات النظر المتناقضة في المسألة الواحدة. ترى : ماهي وجهة النظر التي يؤخذ بها؟ وعلى أي أساس؟ حتما هنا لا بد من سيطرة عقول عنفا على غيرها فتخضعها لإرادتها، وهنا يصبح المجتمع عبارة عن مسيطر

(1) المصدر نفسه، ص 294.

(2) البقرة / 256.

ومسيطر عليه، وهكذا يصبح المسيطر عليه مقموعا، أي أن مرتبة إبحاح الفهم والتعقل أصبحت خاضعة من جديد، ولكن بدل أن تخضع لسلطة أعلى من الجميع هي الوحي ويصبح الجميع تحتها متساويين أصبحت خاضعة لسلطة مثلها قد تكون أقل منها تعقلا وأكثر غباء.

وهذا هو الواقع في المجتمعات اللاتكنية. وهنا نتساءل:

بأي منطق تقوم إرادة بشرية بإكراه إرادة بشرية على تنفيذ ما تراه هي صوابا أو ما ترى فيه مصلحة لها؟

والإكيف يتم التوفيق بين الرغبة والعقل داخل الإنسان ذاته؟ وبين متطلبات الرغبة ومصلحة المجتمع؟

إن الوحي وحده هو الذي يصلح ويستطيع أن يحد من الرغبات ليسمو بها. والدليل على هذا أن جميع الأطباء مقتنعون بأضرار التدخين ولكن كثيرين منهم يدخنون وكذا الخمر والزنا إلخ، هنا كيف يتم التوفيق بين الرغبة والعقل داخل الإنسان ذاته؟ وكيف يتم التوفيق بين متطلبات الرغبة ومصلحة المجتمع؟ وكيف يتم التوفيق بين رغبات جميع أفراد المجتمع وعقولهم؟

والجواب في نظرنا أنه: لا حل للمشكلة سوى بالوحي.

إضافة لما سبق: فيما يتعلق بقضية التعارض بين الرغبة والإرادة العقلية: إذا قلنا مع أركون بأنه لا بد من الحرية العقلية المتحررة من الوحي فإن هذا يؤدي بالمجتمع إلى فوضى لا نهائية بسبب تفاوت العقول وتعطيل المجتمع وبالتالي فلا بد من تحديد تلك الحريات. وهنا:

إما أن نقبل بإرادة بشرية تعطى لها السلطات والصلاحيات لتحديد وتقييد إرادة بشرية أخرى، أي إرادة بشرية تحل محل الله في إخضاع البشرية<sup>إرادة</sup> أخرى قهرا وهذه هي اللاتكنية التي تجعل بذلك بعض البشر عبيدا لبعض البشر. وقد أنتج هذا حروبا مدمرة وإنقلابات عسكرية وقمع شعوب قتل منها الملايين. ولا أدل على هذا من الصراع الذي كان بين الشيوعية والرأسمالية فكلاهما يقمع الآخر ويقوم الانقلابات ضده ويضحي بالملايين إلى حد أن رجلا واحدا هو "بول بوت" في كامبوديا قتل مليونين من البشر ناهيك عما فعله (اسطالين) وغيره.

وإما أن نخضع جميع الإرادات لسلطة متعالية عليها جميعا، عادلة، فتعطيها الحرية بالتساوي. وهذه السلطة هي إرادة الله عز وجل.

وهنا فنحن مخيروا بين أمرين لا ثالث لهما: إما أن نسمح لبعضنا بعضا وفقا لهوانا أو نخضع جميعا لإرادة الله فننحرر من كل قيود البشر.

وأخيرا فإن أركون نسي نفسه هنا بأنه يتكلم على مجتمع وكيف تحدد معالمه الأساسية في الواقع. ومن هنا فإن ما أتى به من قضية الإشكال بين الرغبة والعقل لا علاقة له بالمشكلة.

أركون يسوي بين الإسلام والنصرانية تماما فيما يتعلق بتصفية إبحاح الفهم والتعقل فكلاهما قام بتصفيتهما. فبالنسبة للنصرانية نوافقه. أما ما يتعلق بالإسلام فإننا نطرح عليه السؤال الآتي: من الذي قام بهذه التصفية الحكام أم غيرهم؟ إن كان الحكام هم الذين قاموا بذلك فكيف يمكن نعتهم بالعلمانية وأن النظام الذي طبقوه هو نظام لاتكني وهم الذين اخترعوا إيديولوجية التبرير والسويغ؟. وإن كان الذي قام بتلك التصفية غير الحكام فمن الذي أمده أولئك الغير بسلطة القمع الفعلي؟. وأين كان أولئك الحكام اللاتكنيون؟.

ثم كيف يمكن إتهام دين بتصفية العقل وأنه لا حرية فيه البتة وهو الذي يطالب من الناس أن لا يتبعوه إلا بعد أن يقتنعوا به عقليا، وأن كثيرا من علمائنا رفضوا إيمان المقلد؟. وإذا أراد أركون المزيد من هذا فليرجع إلى كتب علم الكلام ليجد الحقيقة ناصعة البياض ويكتشف قيمة المعرفة العقلية في الإسلام.

والواقع أن أركون عندما يتكلم عن الحرية في الإسلام يعالج مشكلة لا وجود لها وكأنه لم يطلع على فكر المعتزلة وكيف إزدهروا في الخلافة العباسية، في عهد ثلاث خلفاء متتاليين هذه الدولة التي يتهمها بقمع الفكر مرة وباللائكية أخرى. إن المشكلة إذن لا وجود لها لأن الموجود هو عكسها وهو دائما ينسى نفسه فينظر إلى تاريخ أوروبا ويسقط علينا ذلك دون أن يدرس الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي من مصادره. هذه المصادر التي وصل به الأمر إلى حد التشكيك فيها لا لسبب إلا لأنه وجدها ناصعة البياض، هذا قديما.

أما حديثا، فإن مشكلة المسلمين ليست قمع الوحي للعقل، بل قمع اللائكية لكل فكر تحرري، في البلدان العربية الإسلامية يريد أن ينفذ غبار التخلف والجهل والتبعية العمياء للغرب. إن الدين هو المضطهد من اللائكية بل والعقل أيضا، ومن هنا فإن أركون يعالج مشكلة لا وجود لها سوى في ذهنه وبترك المشكلة الجوهرية وهي كيف يتحرر المسلمون والعرب من اللائكية التي جعلتهم مخدرين في سبات عميق، وكل من أراد أن ينهض الهمم ويوقظ النفوس تعرض للتكيل والتدهور.

وأما استدلاله بآبن رشد ولوثر فهو استدلال في غير محله وفلوثر تحدثنا عنه، وما فعله أنه رفض مذهباً نصرانياً لينشئ مذهباً نصرانياً آخر، فهل يفهم من هذا أن أركون يميل إلى البروتستانتية؟ لا نعتقد ذلك لتبعية بالفكر الكاثوليكي.

وأما آبن رشد، فإنه كذلك استدلال ليس في غير محله فحسب، بل يبين صحة وجهة نظرنا وتهافت ما أورده أركون قبلا فيما يتعلق بالتاريخ السياسي للمسلمين وما أورده الآن من تهمة قمع الوحي للعقل، فإذن هو ضد أركون. فأركون إما ان يلم بأن الرغبة أو الوحي قمعت العقل في الإسلام ولم يوجد فيه أية حرية نسبية للفكر وفي هذه الحالة فإن هذا المجتمع الإسلامي لم يعرف اللائكية وأن الحكام المسلمين لم يكونوا لائكيين أبدا طيلة التاريخ الإسلامي. وهذا إبطال لما زعمه أركون ويزعمه واستند فيه إلى علي عبد الرازق.

وإما أن يقر بحرية الفكر في الحضارة الإسلامية ونستدل نحن عليها بآبن رشد ذاته، ولكن لإثبات عكس ما يريده أركون. وهو إذا كانت الرغبة أو الوحي تقمع العقل في الإسلام، فكيف سمح لآبن رشد وهو أكبر فيلسوف عربي مسلم أن يترقى في الوظائف الحساسة في الدولة إلى أن يصبح قاضي القضاة، أي الحارس الأساسي على تطبيق الوحي (الشريعة) على الناس. وهكذا يظهر جليا تهافت أركون ودعاواه.

والواقع أن ما تعرض له آبن رشد عندما نفكك التاريخ وفقا لما يزعم أركون نجد أنه لا علاقة له بالوحي، بل بالسياسة. والدليل على هذا أنه أعيد له الاعتبار بعد ذلك. ولو كانت القضية دينية فعلا لما أعيد له الاعتبار. إضافة لهذا فإن محنته ليست موضع إفاق، ذلك أننا لم نجد لها في مصدر من المصادر التاريخية الأساسية.

وأخيراً كيف يسوي بين الفقهاء والإكليروس؟ كيف يسوي بين ما ليس واحداً بالنوع؟ كيف يسوي بين المتقين النزهاء الأصفياء وبين بانعي صكوك الغفران والسيمونية والفساد الذي لا مثيل له.

### 7- نحو ممارسة علمانية للإسلام:

يتوصل أركون هنا إلى أنه لا بد من مراجعة نقدية لتاريخ الإسلام وللتراث الإسلامي لنكتشف لانكية المجتمع الإسلامي عبر العصور، ويشيد بنزعة الشك المستمر التي يشاهدها حالياً وسط المسلمين ويتوصل إلى أن الإسلام كالمسيحية، كلاهما يشتغل بالطريقة نفسها<sup>(1)</sup>. فيوجد هنا ما ليس واحداً بالطبع، ذلك أن المجتمعات الإسلامية تتكون من مسلمين بدون إكليروس وهو إعترف قبلاً بهذا عندما تكلم على الجبرية الجمعية التي يقوم بها المجتمع بكامله ضد من يحاول التشكيك في القرآن يشارك فيها جميع أفراد المجتمع من عامة وخاصة وساسة وعلماء. بينما ما نجده في الغرب إكليروس من جهة، وعلماء معارضون له من جهة أخرى، وعامة تحت ضغط الغالب منهما. كذلك طبيعة الحضارتين مختلفة، فالحضارة الإسلامية أساسها الدين عكس الغربية التي حدثت بعد أن حددت سلطات الكنيسة. الإسلام يجعل العقل أساس الإيمان إلى حد رفض إيمان المقلد، والنصرانية تقوم على إبعاد العقل تماماً عن مجال الإيمان وقد بينا أثناء حديثنا عن الأناجيل والإكليروس قبلاً ما فيه الكفاية. وغرضه أن يغالط الشباب المسلم الذي يدرس العلوم الغربية وليس له أي إحاطة أو إطلاع على مقارنة الأديان والإسلام.

ومهما يكن من أمر، فإن أركون يستمر في غيه ليبرهن على لانكية المجتمع الإسلامي عبر العصور وتعتمد برهنته على نقطتين أساسيتين، وسنرى أن كليتهما متهاقتة، بل مضحكة ومخجلة لمفكر يزعم أنه يطبق المنهج الفيلولوجي ويفكك التاريخ ويعتمد على علم الاجتماع وعلم النفس والأسن. يضخم ليوهم هاتان النقطتان هما :

**النقطة الأولى :** تتعلق بالدولة الإسلامية : فيذكر أنها كانت في البداية تبحث عن تبرير أو تسويغ ديني لكنها في الواقع كانت في الأساس علمانية، واجهت مشكلة تنظيم المجتمع كإبنة دولة ناشئة<sup>(2)</sup>. وكان الدولة لكي تكون إسلامية لا بد أن ينزل جبريل في كل لحظة على مثلاً أبي جعفر المنصور أو هارون الرشيد ليوجهه ويبين له ماذا يجب أن يعمل، ولكن مع هذا ما هو الدليل على اللانكية الدولة الإسلامية؟. يجب أركون جواباً مضحكاً أن الدليل الدامغ هو الرسالة التي كتبها ابن المقفع عام 750م والمتعلقة بإنشاء الدولة وبنياتها، فهي صورة منسوخة عن بنية الدولة الساسانية والتي بنيت على أساسها الدولة العباسية فيما بعد وعنوانها "رسالة الصحابة" وقد ترجمها إلى الفرنسية شارل بلا. يتناول ابن المقفع في هذه الرسالة قضايا محسوسة ومادية تماماً من مثل أسلوب حكم سوريا والعراق وكيفية إعادة الأمن إليهما، وقد نتج عن ذلك قرارات تخص الجيش والشرطة والقضاء، كان ابن المقفع يشرح كل ذلك بكلمات وضعية تماماً ودون الاستعانة "بالفكرة الوهمية للقانون الديني الإسلامي"<sup>(3)</sup>. ويعلق أركون بانبهار على هذه

(1) المصدر نفسه، ص 295.

(2) المصدر نفسه، ص 295.

(3) المصدر نفسه، ص 295، 296.



الوثيقة قائلا: "إننا هنا بازاء وثيقة تاريخية لا تدحض تبيين لنا كيفية انبثاق الدولة الجديدة النبي واجهت مشاكل عديدة خاصة بأية دولة وليدة، حدث كل هذا ضمن منظور علماني بحث<sup>(1)</sup>. وقبل أن تنتقل إلى النقطة الثانية نقيم ما ورد هنا :

يلاحظ باستغراب: كيف يقبل أركون بدحض القرآن وينادي به ولا يقبل بدحض وثيقة ابن المقفع التي نشك نحن في صحتها، ولو فرضنا انها صحيحة لماذا لا تطبق عليها المنهج الذي يأمرنا أركون بتطبيقه على القرآن وتنظر هل تثبت أم نجدها لا وزن لها؟ ولكنه يقرر بكبرياء أنها وثيقة تاريخية لا تدحض، وبهذا فإننا عندما ننظر إلى الإطراء الذي من به أركون على ابن المقفع فإننا نجد لسان حاله يعتبره النبي الجديد، وإلا كيف يمكن إعتبار رسالته السابقة هي الحجة الدامغة على لانكية الدولة العباسية، هذه الدولة نفسها التي ذكر أركون قبلا أنها أدانت قاضيين لنقدتهما بعض القراءات وهو دليل أتى به ليدرهن على تطرفها الديني. هنا كيف تكون لانكية وهي تفعل هذا؟ ثم هنا يعتبرها لانكية والدليل على ذلك رسالة ابن المقفع، وبهذا فإن ابن المقفع كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وحتى لو فرضنا أن الدولة العباسية كانت لانكية - وهو إفتراض لا وجود له في الواقع - فإنها ليست حجة على الإسلام لأنها ليست هي الإسلام، بل الإسلام هو المعيار الذي نحكم عليها به. فالحجة هو القرآن والسنة وعهد الخلافة الراشدة، ثم لماذا لم يذكر أركون أن هذه الدولة العباسية التي يتهمها باللانكية بناء على الرسالة السابقة لابن المقفع هي التي قتلت ابن المقفع متهمة إياه بالزندقة؟ إن هذه القضية هي أهم مما ذكره أركون بل هي وحدها كافية لدحضه، وهنا نتوصل إلى السر الذي جعل أركون يمجّد ابن المقفع ويتمثل في أنه كان أحد أكبر منظمي المؤامرة الشعبية الكبرى للقضاء على الإسلام وكان أكبر أعداء الإسلام على الإطلاق، قضى معظم حياته في العهد الأموي وأكملها في العهد العباسي، كان زرادشتيا يقوم بكطقوس المجوس، وقيل إنه كان مزدكيا أو مانويا، ترجم كتاب مزدك المعروف باسم "ديستاو" لنشر المزدكية، فانتج ذلك فرقا مزدكية كثيرة في أوائل العصر العباسي. وهدفه نشر الإلحاد والتحلل من الإسلام<sup>(2)</sup>. وكلف من بعض الشعبيين بتأليف كتاب في معارضة القرآن يبدو أنه "الدرة اليتيمة" ولكنه فشل. إذ بعد 6 أشهر رؤي في غرفته وهي كلها أوراق مبعثرة قائلا: يستحيل معارضة هذا الكتاب ولو بأية واحدة من طرازه<sup>(3)</sup>. ولما فشل في ذلك لجأ إلى الدس فكان أهم كتاب له قام بترجمته هو كتاب كليلة ودمنة<sup>(4)</sup>. فأضاف إليه "باب برزويه" فاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين - وهو الحبل السري بينه وبين أركون - ويعد هذا الباب "برزويه" من أخطر الأبواب في نقد الأديان عامة، فيتكلم فيه عن تعارض الأديان وعن عدم التوصل إلى اليقين فيها، بينما يعتبر العقل وحده أعظم وسيلة وأفضلها للمعرفة<sup>(5)</sup>. فيقول: "عدت إلى البحث عن

(1) المصدر نفسه، ص 296.

(2) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 1، ص 204.

(3) وحيد الدين حان، الإسلام يتحدى، ص 125.

(4) إسم الكتاب الأصلي بنج تنتر، وقد تردد بين الفارسية والهندية ثم العربية والفارسية ومضى البيروني أن يترجمه ليفضح ابن المقفع في إضافته كتاب

"برزويه"، وكان ابن المقفع فارسيا واسم روزبه (علي سامي النشار، المرجع السابق، ص 204، 205).

(5) المرجع نفسه، ص 204.

الأديان والتماس العدل (العادل) منها، فلم أجد عند أحد ممن كلمته جواباً فيما سألته. ولم أر فيما كلموني به شيئاً يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه... وإقتصر على كل شيء تشهد به العقول وتتفق عليه أهل الأديان ويرى أنه صواب وحق...<sup>(1)</sup>. وقد تنبه إلى هذه الزيادة في الكتاب للغرض السابق البيروني (ت. سنة 1048م) وبين أنه كان يدعو إلى مذهب المانوية كما تنبه إلى ذلك القاسم ابن إبراهيم الزيدي (ت 246هـ) فوضع كتاب " الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع". وكان الخليفة المهدي قد تنبه إلى هذا أيضاً فقال: "ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع"<sup>(2)</sup>. ولكن أركون لا يشير إلى مثل هاته القضايا وإنما يأخذ فقط ما يخدم تصورات، وهذا مخالف للمنهج العلمي الذي يقتضي دراسة القضية كاملة من جميع جوانبها ثم الوصول إلى النتائج من كل ذلك. ولكن أركون لو أعلم قراءه بحقيقة ابن المقفع، وبأنه مات مقتولاً متهماً بالزندقة الثابتة لأدحضوا وثيقته التي لا تدحض. فهل هذا هو الذي يستشهد به أركون على لانكية الدولة العباسية التي كان إعدامها له دليلاً على نفي اللانكية عنها؟!.

وأما ما ذكره من إستفادة العباسيين من بعض الأنظمة الإيرانية فإن ذلك لا يطعن في كون الدولة إسلامية وإلا قلنا بأن نابليون إسلامي؛ لأنه استفاد كثيراً في القانون المعروف باسمه من الفقه المالكي. وإذن فإن تلك الإستفادة ليست دليلاً على لانكية العباسيين، لأن الإسلام لا يمنع المسلمين من الإستفادة من بعض الأنظمة والتجارب الموجودة عند الأمم الأخرى الغير متناقضة مع الإسلام، وذلك بدمجها في إطاره وهو يدخل ضمن " المصالح المرسله" كما يذكر علماء أصول الفقه، ذلك أن القضية لا تتعلق بالشكل، بل بالمحتوى. فمثلاً ما ذكره في قضية القضاء فالقضية أساساً ليست في إنشاء مثلاً منصب قاضي القضاء أو تنظيم القضاء بكيفية معينة، وإنما القضية أساساً تتمثل في: ما هو القانون الذي يطبقه القاضي على المتخاصمين؟. ما هي النصوص التي يعتمد عليها أو ماهي مرجعيته في القوانين؟. ونتحدى أركون أن يثبت لنا مرجعية أخرى للقضاء العباسي غير الإسلام. ثم مثلاً تنظيم الجيش، هل يريد أركون أن ينزل الله الوحي على هارون الرشيد ليبين له كيفية تنظيمه؟!. هذا من أهم الإختلافات بين الإسلام والنصرانية، فالإسلام لأنه جعل خالداً وللشريعة جمعاء يترك فضاء هاملاً للعقل عكس النصرانية. ونختتم حديثنا في هذه النقطة بما يمكن تسميته:

### نقد أركون لأركون في علمانية الدولة في الإسلام:

يقول أركون عن النبي -صلى الله عليه وسلم -:

"وقد كان محمد يجمع في شخصه هبة رسول الله الذي ينقل الوحي وسيادة القائد الذي يحسم المناقشات ويقود جماعة المؤمنين. ثم سلطة اتخاذ القرار في ما يخص الصراعات الناشئة واستراتيجيات الهيمنة الكائنة بين المؤمنين و" الكفار"<sup>(3)</sup>.

<sup>(1)</sup> عبد الله بن المقفع، كلبلة ودمنة، ط1، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، 1972م، ص 97، 100.

<sup>(2)</sup> علي سامي النشار، المرجع السابق، ص 204، 205.

<sup>(3)</sup> محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد وإحتواء، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، ط1، دار الساقي لندن، 1990، ص 138.

وعن : علمنة الدولة في التاريخ الإسلامي : يقول أركون : " وينبغي أن نسجل هنا الملاحظة الأساسية التالية : لم تحصل أبدا في تاريخ البلدان الإسلامية قطيعة تشبه تلك القطيعة التي أحدثتها الثورة الفرنسية بين عامي ( 1789 - 1792 م ) أقصد بذلك أنه لم يحصل فرض المتخيل العلماني والجمهوري بدلا من المتخيل الديني المسيحي الذي كان يتحكم حتى تلك اللحظة بذروة السيادة العليا والمشروعية<sup>(1)</sup> .  
ولسنا ندري أتأخذ بأراء أركون السابقة المتناقضة أم بهذين الرأيين المناقضين لما سبق، وهكذا نجد أركون ينقد أركون .

### النقطة الثانية تتعلق بما يسميه المسلمون : (2) الشريعة :

وهذه قد تكون أكثر أهمية فيما يخص علمنة الإسلام، وبعد أن يحدد مفهوم الشريعة ويبين شمولها لكل نواحي القانون من مدني ومؤسساتي وجنائي والمطبقة في مجتمع ما، يبين أن المسلمين كانوا قد تلقوا هذه القوانين وتمثلوها وعاشوها وكأنها ذات أصل إلهي<sup>(3)</sup> . ويرى أنها ليست ذات أصل إلهي، وأنها لم تطبق على كل البلدان الإسلامية وأن العالم الرعوي - الزراعي نجا منها باستمرار تقريبا، وأنها مرتبطة أصلا بالدولة المركزية، أي بسلطة الخليفة<sup>(3)</sup> . الذي يسمي ( قاضي القضاة )، وما لم يكن داخلا تحت سلطته لا تطبق فيه الشريعة. فمثلا في جزائر ما قبل الاستقلال، أي حتى عام 1962 م فإن قسما مسهما من هذه البلاد لم تطبق فيه الشريعة، وإنما كان يطبق فيه قانون محلي ( قانون العرف ) يرجع إلى ما قبل الإسلام. هذا هو الأمر في منطقة القبائل الكبرى مثلا، لكن بدءا من عام 1962 م وحده القضاء حسب الشريعة وأخذ تطبيقه يشمل كل البلاد<sup>(4)</sup> .

يسأل أركون كيف حصل أن اقتنع ملايين البشر أن الشريعة ذات أصل إلهي؟. يجيب أركون بأن الرواية الرسمية - وهو كاذب - تبين أن الشريعة تشكلت تدريجيا بفضل ممارسات القضاة الذين كان عليهم مواجهة حل مسائل المسلمين المتفرقة والعديدة وذلك باستنباط الحلول من القرآن، مجموع هذه الأحكام تجمعت لتعطي مجموعة كبيرة من الأحكام القضائية أثناء القرون الثلاثة الهجرية الأولى متمثلة في المذاهب الأربعة الأرثوذكسية يضاف إليها المدارس الشيعية.

هذه الرواية نقدها المستشرقون وأثبتوا أن هذه الرواية وهم، لأن الشريعة هي قانون داخل المجتمعات الإسلامية وبشكل وضعي كامل. ما هو تحليل أركون؟.

يرى - وهذا من أضر وأعجب ما ذكر - : أنه في خلال النصف الأول من القرن الهجري الأول كان القضاة يصدرن أحكامهم وفقا للأعراف المحلية السابقة على الإسلام والتي كانت تختلف حسب الأماكن وكان الرأي الشخصي للقضاة هو الذي يفصل في المسائل المطروحة في نهاية الأمر. وأما الرجوع إلى النص القرآني فكان نادر الوقوع، نتج عن هذا تبعثر القضاة واختلاف أحكامهم باختلاف الأقطار، فأدى

(1) المصدر نفسه، ص 140.

(2) هذا العنوان أركون محض، وكان واضع ليس مسلما، وإلا كان يقول : النقطة الثانية تتعلق بالشريعة.

(3) محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي، ص 296.

(3) ولسنا ندري كيف يسميه خليفة وهو يرغم بالاتكبة الدولة الإسلامية عبر العصور ؟ ! .

(4) المصدر نفسه، ص 296.

ذلك بالشافعي إلى كتابة رسالته المشهورة بين عامي 800 - 820 م التي يحدد فيها منهجية القانون وقواعده في أربعة هي: القرآن، الحديث، الإجماع، القياس. ويعلق أركون على القياس بعد نقده الإجماع " هذه هي الحيلة الكبرى التي أتاحت شيوع ذلك الوهم الكبير بأن الشريعة ذات أصل إلهي"<sup>(1)</sup>. ويعترف بأن القياس يتيح حل المشاكل الجديدة المطروحة في الحالات التي لم يتعرض لها القرآن والحديث، وبهذا الشكل يتم تقديس كل القانون المخترع. ولكن هذه المبادئ النظرية نشأت بعد تشكل القانون المدعو إسلاميا لا قبله ولكن هذه المبادئ الأربعة في نظره غير قابلة للتطبيق. لأن قراءة القرآن أثارت إختلافا تفسيريا كبيرا والأحاديث إختلاف مستمر، ثم الفرق بين أحاديث السنة وأحاديث الشيعة "ينتج عن ذلك أن (الشريعة) التي يتحدثون عنها بكل تيجح ليست واحدة في أصولها عند السنة والشيعة.

أما الإجماع فهو مبدأ نظري فقط ماعدا تشكل النص القرآني والصلاة والإحتفال بعيد ميلاد النبي. وهكذا تلاحظون مدى الخطورة الكبرى التي تنتج عن كل تلك القصة، قصة تشكل الشريعة، خصوصا إذا علمتم ان هذه الشريعة ينبغي ان تحكم حياة كل مسلم وتصرفاته وحتى تفكيره في كل لحظة تمر من لحظات حياته. هكذا حصل الخلط ما بين القانون الشرعي LEGAL والديني RELIGIEUX أو ما بين الزماني والروحي<sup>(2)</sup>. وأصبح موقف المسلمين من الشريعة يمثل نوعا من التقليد العبودي، السكولاستيكي الذي رُسِّخ عبر الأجيال بواسطة التعليم والتلقين. ورغم وجود مفكرين أحرار إلا أنهم كانوا دائما يدانون. فالإسلام الرسمي حال دون نهوض الفلسفة وكان الصراع دائما بين الفقهاء (حراس الدولة). الذين يبررون أعمالها -ولسنا ندرى كيف تكون لانكية والفقهاء حراسها ويضطهدون الفلاسفة؟-. وهكذا حدثت حالة الإقصاء المستمر للفلسفة في المناخ الإسلامي. ولكن أركون بعد هذا مباشرة ينصح لا شعوريا عن السبب الحقيقي الذي جعله يهاجم هذه الشريعة ويطالب بالعلمنة، ونقل نصه كاملا لأداء المعنى الكامل فيقول مبررا سبب لجوء المسلمين إلى الشريعة: " بدءا من القرن 12 م كانت هذه المجتمعات المهتدة من الداخل والخارج مجبرة دائما على أن تؤسس نظاما أمنيا خاصا، إن الفلسفة النقدية لا يمكن لها الإسهام في تشييد مثل هذا النظام، على العكس إنها تهدده بالأخطار. وحدها الشريعة الصارمة والفعالة في نفوس الجماهير يمكن لها أن تكون دعامة مثل هذا النظام، إنها هي التي وقفت في وجه الحركات "الفاشية" داخليا، وفي وجه الأخطار الخارجية المتمثلة في الغرب، ثم استمرت الحال هكذا حتى يومنا هذا. حتى في بلد نال استقلاله كالجزائر، والشريعة تمثل اللغة الوحيدة والنظام القيمي (من قيمة) الجاهز الذي يتيح تجييشا كبيرا وضروريا للجماهير في كل لحظات التغيير الكبرى. إنها الآن مستخدمة في خدمة إيديولوجية البناء الوطني، كما خدمت سابقا السلالات والسلطات المتتالية"<sup>(3)</sup>.

والواقع أن هذا هو السبب الحقيقي والوحيد الذي جعله يعمل على تحطيم هذه الشريعة بدءا من العمل على تحطيم القرآن حتى نفع فريسة سهلة لأعدائنا مهما كان نوعهم. وقد أشار أركون إلى هذه الحقيقة مذيلا

(1) المصدر نفسه، ص 296، 297.

(2) المصدر نفسه، ص 297، 298.

(3) المصدر نفسه، ص 298.

النص السابق بقوله : " ضمن هذه الشروط والأوضاع نجد مسألة العلمنة تطرح نفسها"<sup>(1)</sup>. يعني نعلمن لكي لا ننهض ولا نقاوم الأعداء.

**تقييم :** ما يتعلق بإنكاره الأصل الإلهي للشرعية فهذا أمر يخصه هو، وهو الذي طالب في مؤتمر عقد في الكويت في نهاية السبعينيات بإعادة النظر في قضية وجود الله<sup>(2)</sup>. وقد أثبتنا أثناء ردا على بورغاد ليس المصدر الإلهي للشرعية فحسب بل إعجازها، وأثبتنا أنها تشكلت متكاملة في 23 سنة الأخيرة من حياة صاحبها -صلى الله عليه وسلم-، أي أثناء نزول الوحي عليه، ومن هنا فلسنا في حاجة إلى تكرار ما ذكرناه في ردا على بورغاد لنرد به على أركون.

وأما الأصل الإلهي للشرعية فليس مصدره القياس بل القرآن الكريم نفسه، وأغرب ما أورده أركون زعمه بأنها تشكلت قبل البعثة حيث كان القضاء يطبقون بعد الإسلام أعرافهم الجاهلية، ولنا ندرى كيف يحطم محمد -صلى الله عليه وسلم- الجاهلية ويتقاضى بأعرافها. فهذا كله كذب هدفه تضليل القراء.

وأما ما زعمه بأنها لم تشمل كل المناطق الإسلامية، بل العالم الرعوي الزراعي نجا منها باستمرار وأنها مرتبطة بحدود سلطة الخليفة إلى آخره، وأن قسما من سكان الجزائر (بلاد القبائل) كانت تخضع للقانون العرفي لا إلى الشرعية حتى عام 1962 م، فإننا نرى ما يأتي :

لقد طبقت الشرعية الإسلامية على جميع المسلمين بدوهم وحضرهم، ولكن يجب ان نميز في الشرعية بين ما هو من اختصاص السلطة وما هو من اختصاص الجماعات والأفراد. فما هو من اختصاص الدولة كالحدود والقصاص إلخ. فهذا من الطبيعي أن لا يطبق إلا في ساحة نفوذ الدولة، لأنها هي المكلفة بتطبيقه، لا الأفراد. وأما ما كان من ضمن إختصاص الأفراد والجماعات، فإنه منذ زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ظل يطبق عبر كامل التاريخ الإسلامي وفي كل الجهات من الوطن الإسلامي بما في ذلك بلاد القبائل التي إستشهد بها أركون، ومن الأمثلة على هذا، هل كانت الصلاة تطبق فقط ضمن نفوذ الدولة وأن سكان بلاد القبائل لم يكونوا يؤدونها؟ هل كان سكان بلاد القبائل لا يصومون؟

وهل كانوا يأكلون الميتة ولحم الخنزير؟ وهل تركوا ختان أطفالهم؟ وهل كانوا لا يغسلون موتاهم ولا يكفونهم ولا يصلون عليهم؟ وهل تركوا الحج إلى مكة المكرمة؟ وهل تركوا الجهاد في سبيل الله؟ وهل كانوا يتزوجون وفقا للوثنيات ما قبل الإسلام؟ إلخ. نتحدى أركون أن يثبت لنا ان أهل مناطقه تخلوا عن هذا أو أن البدو المسلمين تخلوا عنه كذلك، بل نجده يناقض نفسه، فهو من جهة يعتبر البدو من مغول وأتراك هم الذين طبعوا الإسلام بالطابع البدوي، ومن ضمن ذلك الحفاظ على مصحف عثمان وعدم السماح للطعن فيه لأن إسلامهم البدوي جعلهم يرفضون التشكيك في مصحف عثمان. ومن جهة أخرى يتهمهم ببعدهم عن الشرعية. وهنا يبدو لنا ان أركون مازال لم يفهم بعد أن الشرعية لا تختص بالحدود والقصاص بل تشمل كل العبادات والمعاملات. ومن هذه الحيثية نتحداه أن يثبت لنا تخلي المسلمين عن الشرعية بالكيفية التي ذكرنا، حتى في أحلك أيامنا التي إستحوذ الغرب فيها على بلداننا. ثم لماذا نسي

(1) المصدر نفسه، ص 298.

(2) محمد سعيد رمضان البوطي، تعقيب على أركون في ملتقى الفكر الإسلامي بالأوراسي، الجزائر، 1983م.

أركون أن بلاد القبائل، فرنسا هي التي أجبرتهم على التخلي على قانون الميراث فيما يتعلق بالمرأة وأجبرتهم على الرجوع إلى ما قبل الإسلام. وأن سكان بلاد القبائل رفضوا ذلك. وقد بينا قبلاً موقف سكان بلاد زواوة ورفضهم التام لهذا. وهنا بدل أن يدين فرنسا نجده يتعرض بسكان منطقته. وكيف يدينها وقد نشأ في مدرستها التبشيرية - وتزوج بفرنسية عقد عليها في كنيسة فرنسية - وتجنس بالجنسية الفرنسية. ويكفيه أنه لا شارك في ثورة أهل مسقط رأسه على الإستعمار الفرنسي ولا أدان ذلك الإستعمار حتى بكلمة أو مقال<sup>(1)</sup>.

ومن جهة أخرى نجد أركون يتناقض تناقضات غريبة حتى في الصفحة الواحدة، فهو مرة يعتبر الحكام المسلمين من عباسيين وغيرهم - مستدلاً برسالة ابن المقفع - لانكبين، ومن جهة أخرى يعتبر هؤلاء الحكام هم الذين كانوا يطبقون الشريعة وحدهم إلى حد أنها لم تكن تطبق على غير الخاضعين لسلطانهم. وهل كان سكان بلاد القبائل مثلاً في الجزائر غير خاضعين للسلطة المركزية؟!. إننا نجد هؤلاء السكان حتى عندما حرموا بقوة القهر الإستعماري الفرنسي من تطبيق الشريعة واجبروا بالعودة إلى عاداتهم ما قبل الإسلام، نجد أنهم حتى في تطبيق تلك الأعراف إنما كانوا يجتمعون في المسجد للنظر في مشكلاتهم، وأنهم جعلوا أعرافهم متطابقة مع الشريعة الإسلامية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وأما زعمه بأن الجزائر عممت تطبيق الشريعة سنة 1962 م فلنا ندري ما يقصد بهذا؟. فإذا كان يقصد به نص أول دستور للجزائر بعد الإستقلال على أن الإسلام دين الدولة، فهذا نعم. أما إذا كان يقصد تطبيق الشريعة برمتها بالفعل فهذا نقول له أين هو؟ لا في الواقع ولا في التنظير حيث ظلت الجزائر حتى فيما يتعلق بقانون الأسرة ما يقارب العشرين سنة تتخبط خبط عشواء إلى أن صدر قانون الأسرة الإسلامي سنة 1984، الذي حل لها مشكلاتها في مجاله. أما القوانين الأخرى كالجنائي والمدني وغير ذلك فإننا نجد القانون المدني ينص صراحة على اللائكية دون حياء أو خجل، حيث جعل الشريعة الإسلامية لا يرجع إليها المشرع إلا عندما لا يجد الأحكام في القوانين الوضعية، فهل أركون يجهل هذا؟.

وأما ما زعمه بـ لا إلهية الشريعة عكس ما يعتقد المسلمون وحل التاريخ حسب زعمه ليكتشف الصواب وأتى بالرواية الرسمية ونقدها ليأتي برواية جديدة مما يجعله من الرواة، فإننا نرى أن ما سماه بالرواية الرسمية غير صحيح، وعندما يصل الأمر بمفكر أن يزور الأحداث والأفكار فهذا أمر خطير، ذلك أن المنهج العلمي يقتضي أن أذكر الأحداث كما وقعت بالفعل، ثم إذا كان فيها ما لا يعجبني فسأني أنقده نقداً علمياً موضوعياً. ولكن أركون غير هذا. ونحن لا نستغرب منه ذلك فهو خريج المدرسة التبشيرية التي تجعل الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة. ذلك أن الرواية الرسمية والواقعية أي المعبرة عن الواقع فعلاً تبين أن الشريعة الإسلامية في وجودها. تشكلت فقط خلال 23 سنة. لا خلال 3 قرون. وفي زمن خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - وقد بينا ذلك بالتفصيل أثناء ردنا على بروغاد. وقارنا بينها وبين قوانين الكون في عصرها، تلك القوانين التي تشكلت خلال أكثر من 13 قرناً شارك فيها أكبر الفلاسفة وأعظم الحكام وكبار الساسة، وقارنا بينها وبين قوانين الغرب الحالية. وتبين لنا تفوقها على

(1) عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص 200.

الكل، ولا أحد من المسلمين يخالف هذا. ولكن أركون يخطط عن قصد بين الشريعة المتكاملة خلال 23 سنة وبين المدارس الفقهية التي نشأت بعد ذلك. والواقع أن تلك المدارس إنما هي مرتبطة بتطور الحضارة والعلوم وانبثاق العبقورية الإسلامية. وأما اقتناع ملايين المسلمين بالأصل الإلهي للشريعة فإن هذا يخلق أركون لعدم وجوده عند غير المسلمين. ونسأله نحن: ما الذي جعلهم هكذا؟ ليس ما ذكره أركون لأنه عجب عجاب، ولكن لأن مصدرها إلهي بالفعل، والسبب الحقيقي لرفض أركون كونها من الله عز وجل، أنه يرفض الإلهية القرآن كما ذكر ذلك هو، فهل يؤمن بالإلهية شريعته؟!. وإذا كان النص القرآني حسب زعمه تشكل في 4 قرون الأولى فكيف تشكلت شريعته فقط في الثلاثة قرون الأولى؟!. لأن هذا يعني تشكل الشريعة قبل تشكل القرآن، يعني اكتمل الإبن وولد قبل ميلاد الأب. ولكن عقلياً الإلكيوس تقبل هذه المتناقضات.

ثم كيف يمكن قبول أن القضاة في القرن الأول كانوا يصدرون أحكامهم القضائية وفقاً لأعرافهم السابقة على الإسلام ووفقاً لهواهم؟ وهنا: من هؤلاء القضاة؟ أولهم محمد صلى الله عليه وسلم - لأنه كان هو القاضي بين المتخاصمين، ثم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من كبار الصحابة، وأنزله القضاة بعد ذلك. هل كان هؤلاء يحكمون بقوانين الجاهلية؟ وأنهم <sup>نادرًا</sup> ما كانوا يرجعون إلى النص القرآني؟ كلام غريب. ولكن لتتبع منهج أركون فنقوم بعملية تفكيك للتاريخ ونستعرض بعض الأحكام الشرعية كمنساذج ونقارنها بما كان في الجاهلية، فإن وجدنا اتفاقاً وافقنا أركون وإلا فلا.

ما هو حكم الأعراف القبلية في الزنا؟ والجواب كان العرب يعرفون نظام البغاء وكانوا يكرهون فتياتهم عليه، وكانوا يقومون بواد البنات.

ما هو حكم الشريعة في هذا؟ والجواب تحريم الزنا بأنواعه وعقوبة الزاني بين الجلد 100 والرجم، ووضع حد لواد البنات.

ما هو حكم الأعراف القبلية في شرب الخمر؟ والجواب: الإباحة. ما حكم شريعة الإسلام فيه؟ الجلد 80 جلدة.

ما حكم الربا في الجاهلية والسرقعة والبيوع والحرابة؟ ثم ما حكم ذلك في الإسلام؟ ما حكم أكل الميتة ولحم الخنزير في الجاهلية وفي الإسلام؟ وما يقال عن هذا يقال عن أسرى الحرب والعلاقات الدولية بين الدولة الإسلامية والدولة الكافرة في حالتها الحرب والسلام وفي حالتها المحبة والعداوة إلخ. نتحدى أركون أن يأتي بحكم واحد للشريعة في الإسلام يوافق ما كان عليه الحال في الجاهلية.

وبهذا فالزعم بأن الشريعة كانت قبل الإسلام أو أن القضاة كانوا يحكمون بأعراف ما قبل الإسلام، هراء. ذلك أن العرب والعالم كله كان يأكل الميتة وشريعة الإسلام تحرمها، الربا العالم كله بما في ذلك العرب كان يتعامل بها والشريعة تحرمها. الزنا والبغاء كانا مباحين في العالم أجمع والإسلام يحرم ذلك إلى آخره.

أما إتهام القضاة المسلمين بأنهم كانوا لا يرجعون إلى القرآن إلا نادراً فهذه أكبر من أختها، إذ كيف يكون هو أصل هذه الشريعة باتفاق المسلمين جميعاً وهو المصدر الأول من مصادر التشريع باتفاقهم جميعاً

واجماعهم ولا يرجع إليه إلا نادرا؟ كيف يعتبرهم أركاناً أو توكس من جهة ويتهمهم هنا بهذه التهمة؟! عندما تفكك التاريخ وفقا لمصطلح أركان نجد أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان لا يصدر أحكامه إلا بعد الوحي، وكان الوحي يصحح له المواقف التي اتخذ فيها مواقف هناك ما هو أفضل منها. ونشير منها مثلا إلى قضية الملاعة وكيف لم يستطع محمد أن يصدر فيها حكما إلا بعد نزول الوحي، بل نجد أن محمدا -صلى الله عليه وسلم- لم يستطع أن يبرئ زوجته عائشة من حادثة الإفك إلا بعد أن نزل عليه الوحي، والأمثلة لا تعد ولا تحصى، فليرجع إلى القرآن الكريم والسيرة النبوية لمعرفة المزيد. ويتوصل أركان إلى أن القياس هو الحيلة الكبرى التي أتاحت شيوع ذلك الوهم الكبير بأن الشريعة ذات أصل إلهي...

والواقع أنه يجب أن نفرق بين نشأة الشريعة متكاملة وبين المدارس الفقهية كما ذكرنا، وما ذكر هنا لا علاقة له البيئة بنشأة الشريعة وتكاملها، بل بنشأة المدارس الفقهية والعلوم المختلفة، وهذا ناتج عن تطور الحضارة الإسلامية، وأركان يتكلم هنا ربما دون أن يدري عن علم يعد فلسفة الإسلام الحقيقية، هو علم أصول الفقه، وهو فلسفة الشريعة، وهو أهم ميزة من مميزات الشريعة الإسلامية ببين استقلالها عن كل قوانين الدنيا الوضعية وغير الوضعية وسموها عليها. وأركان لكي يصدر أحكاماً على هذا العلم فلا بد له أن يدرسه دراسة متعمقة ثم يصدر أحكامه عليه بنزاهة. ذلك أن أركان يتهم الإسلام بالحجر على الفكر وقمع الحريات الفكرية وعندما وجد القياس هنا وهو من أعظم ما تفتقت فيه عبقرية الإنسان المسلم ويتوصل من خلاله إلى حل المشكلات الآتية اعتبر ذلك عيبا في الإسلام. يعني إذا وجد ما قد يستشف منه ضبط الفكر اتهم الإسلام بالديكتاتورية، وإذا وجد فيه ما يفسح فيه المجال للعقل اتهم الإسلام بنشر الأوهام. ولسنا ندري ماذا نفعل لكي يرضى علينا أركان، ولا نريد أن نرد عليه بقول القرآن ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾<sup>(1)</sup>. ذلك أنه مهما كانت أخطاؤه فإننا نعتبرها أخطاء مفكر لا يلبث أن يعود إلى الصواب.

وأما ما يتعلق بقضية الأحاديث النبوية الشريفة فقد ذكرنا قبلا أن الأحاديث الموضوعية عندنا هي أصح من الأناجيل، ولكن أركان يقول عن الأناجيل بأنها مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري<sup>(2)</sup>. فلسنا ندري لماذا لا يعتبر حتى الأحاديث الموضوعية عندنا مجازات عالية، فهي حتى في صياغتها اللغوية أفضل من الأناجيل الحالية، وعلماء الحديث حسموا المشكلة وبنوا المتواتر والأحاد ودرجات الأحاديث صحيحها من غيره. وأما ما أثاره من اختلاف السنة والشيعه في قضية الأحاديث فإننا للموضوعية نقول: بأنهم ليسوا مختلفين في كلها بل في بعضها، والشيعه يدرسون الصحاح ويستفيدون منها، والبخاري نفسه جعل من رواته من كان شيعيا، ونحن متفقون معهم في المعلوم من الدين بالضرورة، وقد بين أركان نفسه أننا سنة وشيعه وخوارج مجتمعون على القرآن الكريم وعلى أركان الإسلام، إلخ. ونختلف في بعض

(1) البقرة / 120.

(2) محمد أركان، تاريخية الفكر الإسلامي، ص 299.



القضايا التي يمكن حلها بالحوار النزيه الذي تمنينا لو أن أركون دعا إليه بدل أن يعمل على إذكاء نار  
التفرقة بيننا وبين الشيعة.

وأما تحقق الإجماع، فإن مواطنه لا تعد ولا تحصى، وليرجع أركون إلى كتب الفقه الإسلامي ليجد فيها  
ذلك.

ونختم تقييماً لهذه النقطة بالإشارة إلى أن الاحتفال بالمولد النبوي لا علاقة له بالشريعة ولا بالإجماع.

#### 8- خاتمة : قوة الظاهرة القرآنية :

يذكر أن القرآن كما الأناجيل ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري، هذه المجازات لا يمكنها  
أن تكون قانوناً واضحاً. وأما الوهم الكبير فهو إعتقاد الملايين من الناس بتحويل هذه التعبيرات المجازية  
إلى قانون شغال وفعال ومبادئ محددة تطبق على كل الحالات وفي كل الظروف، والمجتمع الإسلامي  
السابق إعتد الشريعة لأنه كان في حاجة إلى الضبط الذي بدونه تسود الفوضى، وقد تم هذا في مناخ  
أسطوري تمت فيه عملية المرور من مرحلة المجاز إلى مرحلة إنجاز القوانين الصارمة الواضحة التي  
هي الشريعة. المناخ الأسطوري قديماً هو الذي أتاح تشييد ذلك الوهم الكبير: إنشاء الشريعة من القرآن،  
ولكن مع كل هذا يقول أركون :

" بالرغم من كل هذه الإعتبارات والمراجعات النقدية فإننا لا نستطيع أن نتجاهل وجود قوة هائلة للظاهرة  
القرآنية تماماً كما للظاهرة الأنجيلية... كانت هذه القوة قد إتخذت لها شكلاً في القرن 7 م وفي اللغة  
العربية، كيف حصل ذلك؟ هذا هو السؤال الكبير، كيف أمكن لهذه القوة أن تنتج هذه الظاهرة المدهشة :  
القرآن، والتي إنفجرت هنا وليس في مكان آخر، هنا في الجزيرة العربية وباللغة العربية(1)؟".

كيف نجيب على هذا السؤال الجبار في نظر أركون ؟ بما يأتي:

- مقابلة آية معينة من القرآن بمقطع<sup>من</sup> الكتاب المقدس كما فعل المستشرقون.

- التفحص العميق لكل التاريخ الديني لمنطقة الشرق الأوسط(2).

ونتساءل نحن : هل بهذه الدراسة نكتشف مصدر القرآن الكريم؟ إننا هنا لا نعلق على تعجبنا من مساواته  
للقرآن بالأناجيل لأننا درسنا هذه القضية بالتفصيل أثناء ردنا على بورغاد، ولكن نقول لأركون بأن  
القرآن ليس تعبيرات مجازية، وإنما هو واقع عالج ويعالج مشكلات واقعية، وليرجع إلى أسباب النزول  
وإلى السيرة النبوية، وليقارن شريعة القرآن بقانون نابليون، وقد بينا هذا أثناء ردنا على بورغاد في اتهامه  
للشريعة الإسلامية.

وأما الجواب على السؤال الجبار فقد أجاب الله عز وجل عنه في آيات كثيرة منها صدر سورة القدر، كما  
أجاب عن هذا السؤال مناحي إعجاز القرآن الكريم التي نتحدى أركون أن يأتيها بمثلاً من الأناجيل.

وهكذا يقول لنا أركون بأنه لا شريعة، بل الوهم. وإذن فلا مناص من اللانكية.

وبهذا نتوصل من خلال هذه الدراسة إلى ما يأتي :

(1) المصدر نفسه، ص 299 .

(2) المصدر نفسه، ص 300 .

الغرض من اللاتكينة تحطيم الإسلام فهي يجب لكي تنجح أن تنطلق من إقناع المسلمين بعدم إلهية القرآن وأن ما زعمه محمد قرآنا ضاع كله، والغرض من تحطيم القرآن علمنة المسلمين، أي الغرض من العلمنة تحطيم القرآن، والغرض من تحطيم القرآن العلمنة. وهنا يظهر جليا الطابع التبشيري في اللاتكينة. فمن خلالها نتوصل إلى إقناع المسلمين بعدم صحة القرآن، ومن العمل على إثبات عدم صحة القرآن نتوصل إلى إقناع المسلمين باللاتكينة وعلمنتهم إلى الأبد. هذا ما يقوله أركون. ومن هذه الحيثية نرى أن أركون هو استمرار للإتجاه التبشيري الذي قام به لافيغري وبورغاد. وهكذا.

فلكي نقتع المسلمين باللاتكينة يجب أن نقتعهم بـ :

أ- القرآن ليس من عند الله، وأن قرآن محمد الذي ليس من عند الله ضاع كله.

ب- الشريعة التي يعتقد المسلمون أنها من عند الله إنما هي وضعية عرفية سابقة على الإسلام.

**النتيجة:** إذن لا قرآن ولا شريعة.

وإذن فإن اللاتكينة هي النظام الوحيد في التاريخ الإسلامي كله. وإذن فهي اليوم حتمية لا بد من تغييرها، فهي الحل الوحيد. هذا ما يقرره أركون رغم كل التناقضات والأخطاء التي وقع فيها والتي أشرنا إليها سابقا مما يجعل كل كلامه متهاافتا. فهل هذا هو المنهج الفيلولوجي والتحليل السيميائي؟!

وهكذا يظهر أركون المتخرج من مدرسة توريرت ميمون التبشيرية، المتزوج بفرنسية، العاقد عليها في الكنيسة الكاثوليكية، المتجنس بالجنسية الفرنسية. أنه وفي لتلك المدرسة يسير على خطى لافيغري وبورغاد. ومعنى هذا أنه استمرار لهم يسير في خطاهم لمواصلة مشوارهم وتكميله.

وإلا ما قيمة العلمنة بالنسبة للمجتمعات الإسلامية التي طبقت عليها؟ إن تركيا الكمالية النموذج لم تصل إلى الآن إلى أي تقدم يذكر، بل كانت بالإسلام ملكة الدنيا وصارت بالعلمانية محصورة بمضيق البوسفور. فهي لا قديما أبقت، ولا جديدا اكتسبت، بل رغم تنكيلها بالإسلام والمسلمين إلا أنها مازالت إلى يومنا هذا عالة على الإسلام، تعيش على أثاره الإسلامية من خلال ما تجلبه تلك الآثار من سياح أجانب ولكتها كما يقول المثل الشعبي الجزائري " تاكل في الغلة وتسب في الملة".

## المبحث السادس

### تقسيم عام

لقد تبين لنا مما سبق من حديث عن اللاتكزية في مصر وتركيا والجزائر أنها مخطط استعماري سيرى يهدف مما يهدف إلى تحطيم مفهوم الدولة في الإسلام، أي السباج الواقى للإسلام ليصبح سلمون كالسائمة بلا راعي، ولكي يسيطروا على كل جوانب الحياة الإسلامية بإبعاد الإسلام عن رجبها وحكمها، وذلك أنه إضافة إلى كونه ديناً، فإنه يتميز جذرياً عن جميع الأديان بكونه درعا ثقافية لوجود أمم وشعوب الشرق نفسه في مواجهة موجات العدوان المتلاحقة من أوروبا والغرب<sup>(1)</sup>. ولقد ظل الحامي الوحيد للمسلمين عبر تاريخهم كله من المؤامرات الداخلية والعدوان الخارجي بإعتراف أركون. ولهذا الغرض يعمل الغرب على تحطيمه لتخطيم عامل المقاومة الجبار، هذا العامل الذي صنعته الظاهرة القرآنية. ولهذا الغرض فقد رأينا أن اللاتكزية في كل من مصر وتركيا والجزائر إنما فرضت على هذه الشعوب بقوة الحديد والنار، وأن مرحلة التطبيق سبقت مرحلة التنظير التي كان أول من بدأ حملتها إنما هم النصارى وذلك للمساهمة في تحطيم الإسلام والخلافة العثمانية، وتبعهم في ذلك المنبهورون بالغرب والمتربون في أحضان مدارسه الاستعمارية والتبشيرية، وأن مخططها بدأ بتخطيم النظام السياسي الإسلامي كما هو الحال في الجزائر ومصر وإلغاء الخلافة كما هو الحال في تركيا ليردغه إزاحة الشريعة الإسلامية من الحياة، ويتطور هذا المخطط عند أركون ليعمل على تحطيم الظاهرة القرآنية ذاتها، أي إزالة القرآن الكريم من نفوس المسلمين، ولكن بواسطة الإقناع والتشكيك، وذلك بعد أن فشلت سياسة لايجري في إزالة الله من الوجود بالقوة والقهر. ولقد تبين لنا كذلك فيما يتعلق بالجزائر التي كانت أول بلد إسلامي تفرض عليه اللاتكزية في التاريخ، أنه رغم إستقلالها إلا أن فرنسا مازالت تمارس عليها أنواع الضغوط المختلفة، ويصرح مسؤولوها بذلك دون خجل، لتخطيم ما بقي فيها من جوانب في الحياة تتمتع بتطبيق الإسلام، ومن أهمها قانون الأسرة. ولقد بينا قبلاً كيف أنها هي التي أنشأت القضية البربرية ودعاتها وكيف أنهم لا يتحركون إلا بوحيتها وأوامرها، وهم يمثلون في الجزائر مجتمعين التيار اللاتكزي الأرحد الذي يعمل على تحطيم الإسلام ويشجع الكنيسة، ويدعو إلى الفرنسية ومحاربة اللغة العربية والدعوة إلى العامية، وتغيير الإنتماء الحضاري من الشرق إلى أوروبا، وتبين لنا أن قمة هذا التيار هو محمد أركون.

ومن هنا فإن الدعوة إلى لاتكزية المجتمع الجزائري، إنما يدخل ضمن إستراتيجية أوروبا النصرانية لإسترجاع ما أخذ منها الإسلام.

- الإسلام كل متكامل لا شيء فيه دنيوي مفصول عن الدين، وهو يشمل كل جوانب الحياة الدنيا وما قبلها وما بعدها، في مجال العقيدة والحكم والسياسة والتشريع إلخ. ونكتفي بالإشارة هنا إلى مجالي

<sup>(1)</sup>الأور عبد الملك، الفكر العربي في معركة النهضة، ترجمة وإعداد بدر الدين عمدوكي، ط3، دار الآداب، بيروت، 1981م، ص118.

الحكم والسياسة. فيقرر القرآن الكريم إلزام الحكم بما أنزل الله - لا بما يريد سعيد سعيدي - وعدم اتباع الهوى: ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ... لفاسقون ﴾<sup>(1)</sup>. والحكم بالهوى خصيصة من خصائص الجاهلية ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾<sup>(2)</sup>. وفي مجال السياسة الداخلية يأمر القرآن الكريم المؤمنين بالولاء لبعضهم البعض لتماسك الأمة ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... ﴾<sup>(3)</sup>، ويأمر بعدم الولاء لغير المؤمنين ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾<sup>(4)</sup>، ويأمر بعدم إتخاذ مستشارين وبطانة خاصة من غير المؤمنين ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ... محيط ﴾<sup>(5)</sup>، وفي مجال تكوين الرأي للمصلحة العامة وتقرير القضايا المصيرية وما دونها للأمة يأمر القرآن الكريم باتباع الشورى من جهة، ويجعلها صفة لازمة للإيمان من جهة أخرى، سواء لمن في الحكم أو المعارضة فتكون من صفات المؤمنين لا تفارقهم؛ فقال تعالى: ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ... وشاورهم في الأمر ﴾<sup>(6)</sup> وقال أيضا: ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ... وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾<sup>(7)</sup>. فوردت الشورى هنا مقرونة بإجتنب الكبائر الإثم والفواحش والعفو والإستجابة لله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ومعنى هذا أنها صفة أساسية وركيزة من ركائز الإيمان<sup>(8)</sup>. ويكفي دلالة على أهمية الشورى وضرورتها أن هناك سورة قرآنية كبيرة تسمى سورة "الشورى"، وهذا ما يجعل المجتمع الإسلامي بعيدا عن أي تصور للدكتاتورية، وفي مجال المال وفي مجال العمل في سبيل الرزق وفي مجال الأسرة والمجتمع، وفي مجال العبادات<sup>(9)</sup>. وفي مجال الجهاد والحدود، والقصاص، والعلاقات الدولية في حالتها الحرب والسلام بين الدولة الإسلامية والدول المعتدية، إلخ. ومعنى هذا أن الإسلام كما ورد في القرآن الكريم نظام شامل لحياة الإنسان ومترابط في مبادئه وفي تطبيقه لا يقبل التجزئة. وتطبيق جانب منه دون آخر إنما هو تعطيل لحكم الله، فسي ذلك الجانب وحكم بالهوى وكفر ببعض الكتاب وهو ما حذر القرآن الكريم منه ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع

(1) آية / 49 .

(2) آية / 50 .

(3) التوبة / 71 .

(4) آل عمران / 28 .

(5) آل عمران / 118 - 120 .

(6) آل عمران / 59 .

(7) الشورى / 37 ، 38 .

(8) محمد البهي، العلمانية وتطبيقها في الإسلام، ص 38 ، 39 .

(9) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى محمد البهي، المرجع نفسه، ص 39 .

أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك... ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون» (1)، (2).

ولا أدل على هذا من أن الإسلام لم ينسخ ما جاء به موسى وعيسى من الأصول للعقيدة، لأن العقيدة أمر مطلق لا يتغير باختلاف الزمان «وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون» (3). ولكن الإسلام نسخ الشريعتين اليهودية والنصرانية، أي أبطل العمل بأحكامهما الدنيوية لأنها تختلف باختلاف الزمان (4). فإذا عطلنا أحكام الإسلام الدنيوية - وهو ما يريد اللانكيون - نكون قد أبطلنا الحكمة والغاية من إرسال خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم - بالإسلام، ونكون قد عدنا من جديد (أوتوماتيكيا) إلى اليهودية والنصرانية من حيث نشعر أو لا نشعر، والله عز وجل يقول «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا» (5). ويقول «وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله... يوقنون» (6). ولقد بين أبو الأعلى المودودي هذه القضية بدقة مبرهنا عليها ببراهين لا يمكن الطعن فيها متبعا منهج التدرج من المحكمة غير المسلمة إلى الحكومة غير المسلمة كما يأتي :

**حكم المحكمة غير المسلمة :** المحكمة غير المسلمة هي التي تخلت عن الشريعة الإسلامية، وجعلت نفسها بدلا عن الله عز وجل بدون إجازته في فصل المنازعات وفك الخصومات، والإسلام لا يعترف بهذه المحاكم، ووضعها في نظر الإسلام يشبه تماما من وجهة نظر القانون الجزائري (7) وضع المحاكم التي تقام داخل حدود الجزائر بغير تصريح الحكومة الجزائرية. فكما أن قضاة هذه المحاكم - ومؤسسيها - ومحاميهاموظفيها ومنفذي أحكامها بغاة مجرمون في نظر القانون الجزائري يستحقون العقاب، كذلك كل نظام قضائي يقام في مملكة الله دون سلطان ويحكم بغير قوانينه. فهو باغ، مجرم، متمرد، بموظفيه وقضاة ومحاميه والمحتكمين إليه، وكافة أحكامه باطلة بطلانا قاطعا لأن حقيقته خطأ حيث البغي والتمرد والعصيان موجود في أصله حتى ولو كان القاضي مسلما. لأنه حين يفصل بالقانون الوضعي لا يكون مسلما بصفته قاضيا.

**حكم الحكومة غير المسلمة :** الحكومة غير المسلمة هي التي تخلت عن الشريعة الإسلامية، ومنهها تلك التي تقوم على أساس نظرية الحاكمية للشعب. ويصدق عليها الكلام السابق ذاته من أنها في وضع غير قانوني كالمحكمة السابقة، لأنها تعطي للشعب سلطة رفض قانون الله وممارسة التشريع بدلا عنه. ووضعها هو نفس وضع الرعية التي تتمرد على حاكمها وتعصيه وتقيم حكومة أخرى موازية له ضده.

(1) المادة / 49 ، 50 .

(2) محمد البهي، المرجع نفسه، ص 42 .

(3) الأنبياء / 25 .

(4) عمر فروخ، تجديد في المسلمين لا في الإسلام، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1981م، ص 180 .

(5) المادة / 48 .

(6) المادة / 48 - 50 .

(7) المودودي استخدم كلمة القانون الإنجليزي ونحن استبدلناها بالجزائري للمناسبة.

فكما أن قانون هذا الحاكم لا يعترف أبدا بشرعية مثل هذه الحكومة، كذلك قانون الله لا يعترف بهذا النوع من الحكومات مهما كانت طبيعتها، ولا بالمحاكم التي تقام في ظلها. وكل أحكامها وأقضيتها باطلة شرعا.

**الأدلة:** القرآن الكريم كله دليل، وها هي بعض آياته على سبيل الإيجاز.

- 1- الله في نظر القرآن الكريم هو مالك الملك وخلق الخلق ومن ثم فحق الحكم لا يكون إلا له. ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾<sup>(1)</sup>. ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾<sup>(2)</sup>. ﴿ ولا يشرك في حكمه أحدا ﴾<sup>(3)</sup>. ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ﴾<sup>(4)</sup>.
- 2- وبناء على هذا المبدأ الأساسي، فقد سلب الإنسان حق التشريع تماما لأنه مخلوق، عبد ومحكوم وعليه فقط إتباع القانون الذي شرعه مالك الملك. ومن تركه فردا أو هيئة ووضع قانونا أو اعترف بقانون آخر من صنع بشر وحكم به أو احتكم إليه أو نفذه عد متمردا باغيا وطاغوتا ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾<sup>(5)</sup>. ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾<sup>(6)</sup>. ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك... يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾<sup>(7)</sup>.
- 3- الحكومة الشرعية الصحيحة وكذلك المحكمة الشرعية الصحيحة على أرض الله هي فقط التي تقلم على أساس القانون الذي أرسله الله بواسطة أنبيائه، واسمها " الخلافة ". " وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بإذن الله " <sup>(8)</sup>. " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله " <sup>(9)</sup>.
- 4- كل حكومة أو محكمة تقوم على أساس غير القانون الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- فهي حكومة باغية مهما اختلف شكلها وتفاصيلها ولا أساس شرعي لحكمها؛ لأنه لا سلطان مفوضا لها من الحاكم الحقيقي أي الله عز وجل، وكل عمل تعمله يكون باطلا، ومثال ذلك إذا طلق رجل امرأته شرعا ولكن القاضي أجبره على إرجاعها، فإن حكم القاضي لا يجعلها زوجة شرعية، بل تبقى مطلقة في نظر الشرع. ومن هنا فلا يجوز الاعتراف بها وسيلة شرعية فسي الحكم أو في فض المنازعات والفصل في القضايا؛ لأنه لا يجوز طاعة المتمردين على حاكمهم الأصلي (الله عز وجل) ومن فعل ذلك فقد خرج من زمرة الرعايا الأوفياء (المؤمنين) ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾<sup>(10)</sup>. ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا

(1) آل عمران / 26 .

(2) غافر / 12 .

(3) النكهف / 26 .

(4) آل عمران / 154 .

(5) الأعراف / 3 .

(6) المائدة / 44 .

(7) النساء / 60 .

(8) النساء / 64 .

(9) النساء / 105 .

(10) النساء / 65 .

الى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً»<sup>(1)</sup>. «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً»<sup>(2)</sup>.

هذه هي محكمات القرآن الكريم ليس فيها متشابهات، وقد ذكرها القرآن الكريم بطريقة قطعية واضحة إلى حد لا يبقى معه أدنى مجال للشك فيها<sup>(3)</sup>. وقد أدرك أركون على سبيل المثال هذه القضية جيداً كما ذكرنا، فقرر بأنه يستحيل إقناع المسلمين باللائكية دون تشكيكهم في القرآن الكريم. ومن هنا فإن الهدف الأساسي من اللائكية إزالة القرآن الكريم من الوجود نصاً وحكماً.

- العلمانية لا مبرر لها عندنا بسبب إختلاف طبيعة الإسلام عن طبيعة النصرانية كما ذكرنا، فنظام الإسلام يعطي الريادة للعلم وأهله ويجعل من البحث العلمي أقدس عبادة يتقرب بها إلى الله. بينما النصرانية فعلت الأفاعيل بالعلم وأهله وليس فيها أي أحكام تتعلق بنظام الدولة أو سياساتها أو شيء من قوانينها ودساتيرها. مما يجعل إبعادها عن السياسة هو وضع لها في مكانها الطبيعي، بل بعد خدمة لها؛ لأنه يحل مشكلاتها بما يكمله من نقصها في مجال التشريع والسياسة والإقتصاد إلخ. وأما فصل الدولة عن الدين في الإسلام فإنه إبطال لكثير من مضمونه؛ لأنه شامل لكل جوانب الحياة كما ذكرنا آنفاً. وبذلك فإنه لا مبرر للعلمانية، سوى ضرب الإسلام وهدمه من الأساس<sup>(4)</sup>. ومن هنا يستحيل على المنهج اللائكي أن يحل مشكلاتنا لإختلافها عن مشكلات بينته الأصلية التي أتت لحلها، إذ في حين كانت مشكلة الغرب تتمثل في سيطرة الكنيسة وقمعها للفكر الحر والعلم والعلماء، نجد المشكلة عندنا ليست ناتجة عن سيطرة الدين أو رجاله على شؤون الحياة. وإنما هي راجعة للإستعمار الغربي الصليبي من جهة، وإبعاد الإسلام عن التحكم في الحياة من جهة أخرى، وسيطرة اللاتنيين على قيادة مجتمعاتنا من جهة ثالثة. ولما كان الإسلام قد تمكن من تحريرنا من الإستعمار الغربي بإعتراف أركون نفسه، فإن اللاتنيين ومن ورائهم الإستكبار العالمي يعملون بثتى الوسائل للحيلولة بينه وبين مختلف جوانب الحياة لتزداد مشكلاتنا تعقيداً ومجتمعاتنا تخلفاً. ولا أدل على إفتعال المشكلة من أنه لا لائكي جزائري رأيناه يدعو إلى إكتساب التكنولوجيا والعلوم الحديثة، ولا واحد منهم له إنتاج علمي معتبر في مجالها، بل كل همهم الدعوة إلى نبذ الإسلام ولغته. ومن أوضح الأمثلة على هذا، فهل ألف سعيد سعدي كتاباً في التكنولوجيا؟

وبعبارة أخرى نتساءل: هل وصلت بنا البلاهة إلى تبني حل لمشكلة غير موجودة وترك حلول المشكلات الموجودة؟ إن مشكلتنا ليست في الدين، بل في البعد عنه. مما يجعل إتجاهنا في حل مشاكلنا يجب أن يكون في إتجاه معاكس للتصور الغربي فيما يتعلق بالدين.

(1) النساء / 61 .

(2) النساء / 141 .

(3) أبو الأعلى المودودي، حقوق الزوجين، دراسة نقدية لفانون الأحوال الشخصية، دط، الدار السعودية للنشر، جدة، 1985م، ص 144 - 151 .

(4) محمد سعيد رمضان البوطي، المفيدة الإسلامية والفكر المعاصر، دط، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، 1988م، ص 247 - 250 .

إذ في حين كان تصور الغرب يكمن في إبعاد الدين من شؤون الحياة، نجد التصور الإسلامي للحل يكمن في هيمنة الدين على كل شؤون الحياة. وذلك بسبب إختلاف طبيعة الدينين، بل نجد أنه حتى من الناحية المنطقية فإن إختلاف المشكلة يؤدي إلى إختلاف الحل، كما أن إختلاف المرض يؤدي إلى إختلاف الدواء، إذ ليس من المعقول معالجة مرض السرطان بداء الزكام. يضاف إلى هذا أن أساس الحضارتين مختلف، إذ في حين لم تقم الحضارة الغربية على قديمها إلا بعد التحرر من سلطان النصرانية، نجد الحضارة الإسلامية لم توجد أصلاً إلا على أساس الدين، والدين وحده. وبهذا فإن اللاتكيسة لا تؤدي بمجتمعاتنا الإسلامية إلا إلى المزيد من التأخر، والواقع خير شاهد. وهو ما بينه بدقة محمد عابد الجابري متبنياً موقف برهان غليون فيقول: "... تبدو إشكالية فصل الدين عن الدولة عندنا مصطنعة منقولة عن الغرب، إن مشكلة الدولة في العالم التابع هي بالضبط أنها بلا دين ولا عقيدة"<sup>(1)</sup>.

- فصل الدين عن الدولة في العالم الإسلامي تم على يد الدولة ذاتها قبل أن تتبناه النخب، وهذا عكس ما وقع في أوروبا اللاتكيسة. ولهذا السبب ظهر الفصل" كاستمرار وتطوير لسياسة فصل الجمهور المتزايد عن السلطة وتحرير الدولة من سلطة الدين، آخر مرجع شعبي ووسيلة الضغط الوحيد..."<sup>(2)</sup>. وهكذا "فبينما كانت العلمانية الغربية فلسفة للثورة ضد الطبقة السائدة المتحالفة مع الكنيسة ووعاء لأفكار التحرر والمساواة والأخوة والعدالة والمواطنة والقومية، جاءت العلمانية العربية هنا كوسيلة لتقوية النظام السياسي القائم وتدعيم الطبقة المسيطرة... وسيلة لعزل الغالبية الشعبية عن السلطة والسياسة"<sup>(3)</sup>. ويتوصل برهان غليون إلى هذه النتيجة الرائعة " وهكذا تبدو العلمانية هنا التي تعاني من تشبث مرضي على مسألة الصراع بين الدين والدولة الموروثة عن القرون الوسطى الأوروبية، أيديولوجية تبرير ضرب حرية الإعتقاد الأساسية ( حرية الرأي والصحافة والتنظيم الحزبي...) ووسيلة للتغطية على إنعدام هذه الحرية في الواقع والممارسة"<sup>(4)</sup>. ويتوصل الجابري من كل ما سبق إلى القول بأن مشكلة فصل الدين عن الدولة " إشكالية مصطنعة منقولة عن الغرب، وإنما المشكلة أساساً هي مشكلة الديمقراطية"<sup>(5)</sup>.

#### - العلمانية والديمقراطية والدكتاتورية :

أ- العلمانية مناقضة للديمقراطية ومنافية لها نظرياً وعملياً، فمن الناحية النظرية تقوم الديمقراطية على تصور إيجابي للعلاقة بين الدين والدولة يتمثل في إنشاء فضاء الحرية السياسية الذي يتيح لجميع الإتجاهات الإيديولوجية المساهمة الفعالة في بناء السلطة. وذلك في مقابل التصور السلبي التقليدي

<sup>(1)</sup> برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص82، هامش 2. عن محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، ط3، دار الطليعة، بيروت، 1988، ص75.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص66، عن محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص75.

<sup>(3)</sup> المرجع نفسه، ص53، عن محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص75.

<sup>(4)(5)</sup> المرجع نفسه، ص11، 12، 82، هامش 2. عن محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص75، 77.



للعلمانية الذي يقوم على فكرة الفصل. وإستطاعت الديمقراطية بذلك أن توظف الإختلاف والتباين لإثراء الدولة وتجديد القيادة والسلطة.

ومن الناحية العملية أنشأت الديمقراطية النظام المؤسسي الذي يجعل من ممارسة الحرية من جهة وتحقيق المساواة القانونية والأخلاقية بين جميع الحساسيات قضية مرتبطة بالتوازنات العملية والإلتزامات القانونية، " أي أن الديمقراطية كإطار نظري وعملي لتحقيق قيم العقل والحرية والثورة السياسية عامة، قد جبت (حجبت) العلمانية كإشكالية مذهبية. والواقع أنه ليس من الممكن أن تكون الدولة ديمقراطية دون أن تضمن حرية الاعتقاد نينيا كان أم عقليا عامة"<sup>(1)</sup>.

ب- العلمانية والدكتاتورية: العلمانية التي ارتبطت عند دعائها بقيم الحرية والمساواة أصبحت تستخدم للتغطية على قيم الإستبداد والتمييز الإجتماعي والسياسي، ومثال ذلك الشيوعية التي تقوم على العلمانية المذهبية المتطرفة - كما ذكرنا قبلا - لم تحل بعلمانيتها أي شيء مما كانت العلمانية تزعم حله. بل أنتجت أكثر النظم استبدادا وتعصبا وضيقا مذهبيا، فلم تكفل حرية الاعتقاد ولا تضمنت الحريات الأساسية ولا حققت المساواة الفعلية بين المواطنين. وهو ما يقال أيضا على الأنظمة العربية والإسلامية التي لم تمنعها علمانيتها - وهو ما يجعل الغرب راض عنها - من ممارسة أقصى السياسات طائفية<sup>(2)</sup> ودكتاتورية. وهكذا فبقدر ما كانت العلمانية في مرحلتها الأولى في الغرب تعبيراً عن تحرر الوعي والمجتمع من سلطة كهنوتية جائرة أصبحت اليوم - عندنا - مجرد شعار خطير يشهره فريق خارجي أو داخلي ليميز نفسه عن الغالبية العظمى من السكان، أو ليبرر الحكم العسكري وإحتكار السلطة ومصادرة الحريات العامة، أو ليعطي على إخفاق السياسة في مختلف الميادين. وبقدر ما كانت تعبر عن تقدم نظري كبير أمام الإختلاط الفكري الذي كان يبثه الفكر اللاهوتي في العقل السياسي، أصبحت تمثل عائقاً أمام تطور الفكر الديني الشرع والمشروع نفسه وإستفادته من الأدوات السياسية والفكرية التي توصل إليها العقل العلمي للارتفاع بوسائل تنظيم الحياة الإجتماعية والبشرية<sup>(3)</sup>. وإضافة لهذا فإن الدولة عندما تتبنى العلمانية كعقيدة، كما هو حال تركيا، فإن ذلك يضعها من جهة في صراع مع عقائد المجتمع الأخرى فتغامر بذلك بأن تتحول هي نفسها إلى كنيسة وتطور في ذاتها وعيا كنيسيا وتوجه إلى تحقيق أهداف دينية تبشيرية بدل الأهداف السياسية كما كانت تفعل كنيسة القرون الوسطى الأوروبية<sup>(4)</sup>. وأوضح الأمثلة على هذا تركيا التي أصبحت اللانكية فيها عقيدة دينية كنسية إلى حد منع إمراة تركية من دخول البرلمان بالخمار، بحجة مناقضة الخمار لللانكية.

ومن هنا فإن اللانكية لم تصبح منهجا إجتماعيا أو سياسيا فحسب، بل دينا جديدا. وبذلك فلا فسرق بين الدولة اللانكية في العالم الإسلامي والدولة الكنسية في أوروبا القرون الوسطى. وهكذا فإن نتيجة فرض

<sup>(1)</sup> برهان غليون، نقد السياسة الدين والدولة، ص 402 ، 403.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 406 .

<sup>(3)</sup> المرجع نفسه، ص 406.

<sup>(4)</sup> المرجع نفسه، ص 408 ، 422 .

العقيدة اللائكية بالقوة لا تتميز عن فرض العقيدة الدينية بالقوة. فكلاهما يؤديان إلى تدمير روح الإيمان والمسؤولية، وتحويل النظام الاجتماعي كما هو اليوم إلى نظام قهري لا يستطيع أن يضمن بقاءه إلا بقمع ومعاونة الأجانب له. ويفشل في لم شمل القوى الاجتماعية التي تحتاج إليها مواجهة المشاكل المطروحة. وتتوصل مما سبق أن اللائكية هي قمة الدكتاتورية، لأنها تجعل أكثر من 99% من أفراد المجتمع خاضعا قهرا لأقل من 1%. ذلك أن كل - مثلا - الجزائريين مسلمون <sup>إلا</sup> من أبي، ومادام شيخ الجامع لا يحق له الاشتغال بالسياسة - إلا إذا كان أرسيديا - فإن جميع الجزائريين لا يحق لهم الاشتغال بالسياسة، لأنهم متدينون. يستثنى منهم أقلية RCD مثلا لأنهم غير متدينين. فيصبح لهم الحق وحدهم في ممارسة السياسة. وهكذا فإن عدم التدين والإنحلال الخلقي أصبح ميزة ترفع من شأن الإنسان عند دعاة اللائكية. وعلى ذكر RCD فإنه من اللائق أن نشير إلى :

علاقة العلمانية بالطائفية: يلاحظ أنه باسم علمانية الدولة يغطي على مراكز القوى الطائفية أو القبلية التي تمارس السلطة وتحتكرها دون غيرها. وتسخر كل وسائل الدولة لصالحها لا لصالح الوطن. وفي هذه الحالة نجد العلمانية تستخدم كغطاء شرعي للعبة الطائفية<sup>(1)</sup>. وهذا ما نلاحظه في الأنظمة العلمانية الحاكمة للعرب والمسلمين، ومن أوضح الأمثلة على هذا لبنان. فإنه من جهة يقوم على علمانية الدولة، ولكنه من جهة أخرى يشترط في رئيس الجمهورية أن يكون نصرانيا. وهو ما يصدق على RCD أيضا الذي يجعلها مبررا للوصول إلى السلطة بإقصائه القانوني للأغلبية العظمى من المواطنين الذين يرفضون الإلحاد والإباحية والكذب، ويكفي أن نعرف أن من مبررات إقصاء سعدي لشيخ الجامع من ممارسة السياسة، أن السياسة تعني الكذب والدين يحرم الكذب. ومن هنا نتوصل إلى أصل المشكلة في العلاقة بين الدين والدولة عندنا. فنجد أن أصل المشكلة عندنا - وهي حقيقية - لا يكمن في سيطرة الدين على الدولة وإعدائه عليها وعلى إختصاصاتها، وإنما ينبع بالعكس تماما من مصادرة الدولة للدين وسيطرتها عليه وإحتوائه وتوظيفه في إستراتيجيتها الخاصة، ورفضها السماح لغيرها بمثل هذه الممارسة - وهو ما طبقتة فرنسا على الجزائر في العهد الإستعماري كما بينا أثناء حديثنا عن مطالبة جمعية العلماء بتحرير الإسلام من الحكومة - ويتوصل برهان غليون بحق إلى أن المشاكل الناجمة عن سيطرة الدولة على الدين ليست أقل خطورة على الدين والسياسة من سيطرة الفكرة اللاهوتية ولكنها ليست نفسها. فالخطر الرئيسي الذي يحل بنموذج سيطرة الدولة على الدين يكمن أساسا في فساد الدولة ذاتها، والتاريخ العربي الإسلامي السياسي يدور كله حول الصراع من أجل فرض إلزام الدولة بالدين، أي بمبدأ ومثال وقيم أولى تمنع تحولها إلى أداة قهر واغتصاب، ومن هنا فبينما كانت مشكلة الشعوب الغربية تتمثل في توليد الدولة من الكنيسة وإنتزاع شرعية وجودها المستقيل عنها لتحويلها إلى مصدر للحرية والعقلانية، نجد أن مشكلة الشعوب العربية والإسلامية هي تأهيل وتقييد الدولة بالدين وفرض التراجع عليها لإيجاد حيز من الكرامة الذاتية يصبح للمجتمع فيه بفضل الدين مكانته المستقلة وحقيقته الإنسانية<sup>(2)</sup>. والواقع أن العلمنة نفسها لا

<sup>(1)</sup> المرجع نفسه، ص 412، وما ذكرناه عن الجزائر أوردناه من عندنا.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 322، 325، 327.

تفترض ولم تفترض في أي مكان فصل الدين عن السياسة أو المعارضة بين قيمهما. فقيم السياسة لا يمكن أن تصدر عن شيء آخر غير معتقدات المجتمع وإيمانه وإلا أصبحت السياسة نفيًا لهويته الوطنية، فكل ما في الأمر - في الغرب - إنهاء التمييز بين مهام رجال الدين ومهام رجال الدولة، وهم يخضعون من حيث المبدأ أو المفروض أنهم يخضعون في مجتمع سيد للقيم ذاتها، والأهداف والتربية والتكوين العام الجماعي والقومي ذاته<sup>(1)</sup>. ولكننا حين نجد هذا ممثلًا في الغرب. نجد اللاتنيين عندنا لا هم لهم سوى تحطيم قيم مجتمعاتهم، ولا علاقة لهم بقيمتها ومبادئها.

- من الواضح أن العلاقة بين الإنسان والله لا تتعدى أحد أمرين:

إما أن يكون الله هو خالق الإنسان وخالق الكون الذي يعيش فيه وسيدهما وحاكهما، وإما أن لا يكون الله كذلك. فإن لم يكن كذلك فلا داعي لأن تقوم أي علاقة خاصة معه. وإن كان الله هو الخالق السيد الحاكم للإنسان والكون فلا يعقل أن تقتصر أحكامه وتشريعاته على حياة الفرد الخاصة وتنتهي سلطته عندما تبدأ علاقة الفرد مع غيره في الحياة الاجتماعية. ومن هنا فإنه عندما يعد الإنسان السلطة الإلهية عن حياته الاجتماعية في الشؤون كلها، فإنه بذلك يكون قد أعلن عصيانه وتمرده على خالقه وسيد وحاكمه، "وليس هناك أسخف لدى العقول من أن يدعي كل إنسان بمفرده أنه عبد لله وخادم له ومتبع لدين حتى إذا اجتمع مع غيره من الأفراد وكونوا مجتمعًا وشكلوا دولة تكروا لعبوديتهم لله وإستبعدوا دينه عن حياتهم، إذ ليس من المعقول أن يدعن كل جزء من أجزاء المجموع على حدة العبودية لله فإذا تكونت من الأجزاء كلها وحدة مجتمعه أصبحت خارجة عن هذه العبودية، ولا يقول بهذا إلا من أصيب بالجنون. وإذا لم تكن هناك حاجة إلى الله وهدية في حياتنا العائلية ولا في شؤون بلدنا ولا في حفل المدرسة والكلية، ولا في السوق والمتجر، ولا في البرلمان ومقر الحكم، ولا في المحكمة ولا في الإدارة الحكومية ولا في المعسكر الحربي، ولا في مراكز الشرطة ولا في ميدان القتال، ولا في مؤتمر الصلح، إذا لم يكن هناك حاجة إلى الله وهدية في هذا كله وفي نظائره من شؤون الحياة، فأى معنى من معاني العبودية يبقى للإله المعبود؟ أي عقل يستسيغ آراء طقوس تعبدية لإله أبعد سلطانه عن الحياة كلها بتلك الصورة فلا ياخذ بيدنا في أي ناحية من نواحيها، وقد عطل عن خصائص ألوهيته"<sup>(2)</sup>.

يضاف إلى هذا أن ما يدعونه الحياة الفردية الخاصة ليس إلا مجرد وهم، لأن الإنسان كائن اجتماعي، وحياته في كافة مراحلها حياة اجتماعية. فهو يأتي إلى الوجود نتيجة لعلاقة اجتماعية بين الأبوين، ويعيش بين أفراد أسرته فيكتسب فيها أناه الجسماني وأناه النفساني وأناه الاجتماعي ويشب في مجتمع تتوثق علاقته فيه بأبناء بلده ومواطنيه وأمه وتتوثق بما يسود هذه الأمة من نظام ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسي. هذه العلاقات المتعددة التي تربطه بالأطراف السابقة وتربطهم به لا تحقق هدفها المنشود من سعادة الفرد والمجتمع إلا إذا كانت قائمة على أسس صحيحة. والله وحده هو الذي يعطي

(1) المرجع نفسه، ص 333.

(2) أبو الأعلى المودودي، الإسلام واندنية الحديثة، ط9، دار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1987م، ص 27، 28، 29.

الإنسان تلك الأسس الصحيحة العادلة النزيهة. وهكذا فإن ما يسمى بالحياة الفردية الخاصة إن هو إلا وهم لا وجود له في الواقع<sup>(1)</sup>.

- دعاة العلمانية عندنا اليوم هم خارجون عن التاريخ وتجاوزهم الزمن ويعدون مثالا للرجعية المتخلفة، ذلك أن الفكر الأوروبي اليوم تجاوز فكرة الفصل بين الدين والسياسة وأصبحا يسيران منسجمين متعاونين لتحقيق مصالحهم، ولا زال للكنيسة سلطان كبير في توجيه السياسة الداخلية والخارجية للمجتمعات الأوروبية الحديثة وفي علاقات شعوبهم ببعضها البعض، ولا توجد دولة أوروبية اليوم ليس فيها حزب أو أحزاب مسيحية، وفي كثير من هذه الدول هي التي تتبوأ السلطة كما كان الحال في ألمانيا وفي المجر بعد الشيوعية وإيطاليا وغيرها. وحزب مسيحي يعني له برنامج كنسي، ويتلقى التوجيه والمساعدة من الكنيسة والفرق الدينية والبعثات التبشيرية والجامعات المتخصصة إلخ. وفي نشاط الفاتيكان السياسي دليل مادي على أثر الدين في المجتمع الأوروبي الحديث، حيث أن له إذاعة وصحيفة رسمية وتمثيل دبلوماسي في معظم دول العالم. وهي كلها تقوم على توجيه المسيحية في جميع أنحاء العالم وتدلي برأيها في المسائل السياسية العالمية، مما جعل نفوذ الكنيسة هاما على البلاد المسيحية<sup>(2)</sup>. بل وعلى الشعوب الإسلامية أيضا. والواقع أن الدول الغربية حتى التي تنص في دساترها على اللاتكوية كفرنسا فإنها في حقيقتها دينية، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

- ما يسمى بالكيان الصهيوني دولة دينية محضة والدول الغربية كلها تساعد على أساس ديني إيمانا منها بأرض الميعاد وبالعهد القديم.

- موقف الدول الغربية جميعا من أنربيجان في حربها الدفاعية ضد الأرمن المعتدين بسبب إقليم ناغورني كاراباخ، وما يؤسف له أن "الباكس" أصدر بيانا نشرته جريدة المساء الجزائرية يوم 06 / 02 / 1990 يساند فيه تدخل الجيش الأحمر ضد المسلمين الأذربيجانيين. وذلك في نظرنا بسبب إرتباطه بالحركة البربرية وإرتباطها بالكنيسة.

- موقف الدول الغربية من مسلمي البوسنة والهرسك والكوسوفو و الشيشان.

- رفض الدول الغربية دخول تركيا إلى السوق الأوروبية المشتركة وإلى الإتحاد الأوروبي، وقد بررت تلك الدول رفضها صراحة بأن تركيا مسلمة، وهذا في حين أنهم يركبونها بجعل أرضها وجيشها تحت تصرفهم عسكريا لضرب الإسلام والمسلمين، وإعتداء تركيا على كل من العراق وإيران وتهديدها لسوريا وتحالفها مع الكيان الصهيوني لا يجهله أحد.

- الأسقف مكاريوس رئيس قبرص السابق المفروض من طرف اليونان والدول الغربية، فنجد أنه في حين ينصب مكاريوس الأسقف رئيسا لقبرص المسلمة أصلا<sup>(3)</sup>. ويظل رئيسا حتى الموت سنة 1977<sup>(4)</sup>.

<sup>(1)</sup> المرجع نفسه، ص 29.

<sup>(2)</sup> يوسف كمال موسى، مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام، ص 17 ، 18 .

<sup>(3)</sup> ودخلها اليونانيون عمالا ثم استولوا على قسم منها ويهدون أخذها كلها.

<sup>(4)</sup> مكاريوس (1913-1977م) أسقف أصبح رئيس جمهورية قبرص من سنة 1960 إلى 1977م (المتحد، ص 542).

ولا أحد من العرب إعترض على كونه رئيس دولة بسبب كونه أسقفاً في حين يعترضون أن يكون للإسلام دولة مع أنه في أصله دولة. فتظل تركيا مستديرة الإسلام لتتجنب لقطاع الفكسر وشذاذ الأفاق. وعندما يرفض شعبها هذا الخزي والعار تنصب عليه حمم الجنرالات الأتراك.

- دور النصرانية في قضية بولونيا وبلغاريا ورومانيا، ويكفي أن نعلم أن البابا الحالي بولوني، وأن ليش فاليسا رئيس نقابة "تضامن" التي أسقطت الشيوعية في بولونيا كان أول شخص هتف له بعد نجاحه في الانتخابات الرئاسية هو البابا، وأنه كان من مطالب نقابة "تضامن" إعطاء المزيد من الحرية لرجال الدين. وهذا يعني أنه في الوقت الذي يطالب فيه الغرب بإعطاء المزيد من الحرية لرجال الدين النصراني يطالب RCD بكبح رجل الدين المسلم ومنعه بقوة القانون من السياسة، وكأنه لا تتوفر فيه شروط المواطنة وكان التدين خسة والإلحاد رفعة.

- كل الدول الشيوعية سابقاً فيها أحزاب مسيحية، بل نجد أن حركة المقاومة، في دول البلطيق إنما نشأت في الكنائس، ونتج عنها استقلالها.

- غورباتشوف زعيم أكبر دولة شيوعية في العالم سابقاً يزور الفاتيكان ويقدم مراسيم الولاء والطاعة للبابا.

- ضرب أمريكا لليبيا إنما كان باسم المسيحية.

- حرب البوسنة والهرسك والكوسوفو والشيشان وغيرها.

- موقف فرنسا من الحرب اللبنانية ومن لبنان فهي التي أنشأت قبلاً نظام الطوائف في لبنان وجعلت الأفضلية والسيادة للنصارى. وهي التي صرح رئيسها السابق فرانسوا ميتران أثناء الحرب الأهلية اللبنانية بأن فرنسا يجب أن تساعد ميشال عون لأنه مسيحي.

والأمثلة كثيرة جداً، ولقد لخص برهان غليون هذا بقوله: "ولا يشعر أحد بأن وجود الأحزاب الديمقراطية المسيحية في كل الدول الأوروبية تقريباً، أو إنتماء بعض الرؤساء الأمريكيين إلى التجمعات والكنائس النشطة وإعتمادهم عليها في حملتهم الانتخابية يشكل خرقاً لأي مبدأ أخلاقي سياسي، ولم يفكر إنسان في أن يدين الحركة التحررية في بولونيا وسائر أوروبا الشرقية لأن الكنيسة وقفت بقوة وراءها وقادت معركتها في العديد من الحالات" ويضيف: "وليس من المؤكد اليوم أن هناك في أي مجتمع معاصر صراعاً حقيقياً بين الدين والدولة، بقدر ما أن هناك نزعة حقيقية للتعاون على تحقيق السلام الأهلي وتقديم قيم مشتركة ومتكاملة..."<sup>(1)</sup>. ويكفي أن نعرف أن فرنسا تعتبر نفسها حامية الكاثوليكية في العالم، وبريطانيا تعتبر نفسها حامية البروتستانتية في العالم<sup>(2)</sup>. وعلى ذكر فرنسا فإنه يحق فيها -كباقي الدول الأوروبية شرقية وغربية - لأي قسيس أو راهب أو حتى شماس، أن يؤسس حزبا دينيا أو غير ديني، ويتوصل للرئاسة إن نجح في الانتخابات وأن يقدم لترشحه برنامجا كنسياً، بينما الدستور الجزائري الحالي يمنع المتدين من تأسيس حزب إسلامي. وسعيد سعدي يقرر أن شيخ الجامع لا يحق له الإشتغال بالسياسة.

<sup>(1)</sup> برهان غليون، المرجع نفسه، ص 404، 405.

<sup>(2)</sup> محمد البهي، خمس رسائل إلى الشباب، ص 54، عن سعد الدين السيد صالح، احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، ص 188.

ينددون بالإسلام في الجزائر. هل يعقل أن كل هذه الأمور وقعت صدفة؟ إنها في نظرنا مخططة من الصليبية العالمية.

وتتوصل من كل ما سبق إلى النتائج التي يحررها بدقة وصدق (العلامة) يوسف القرضاوي هي أن:

العلمانية ضد الدين وضد الدستور وضد إرادة الشعب وضد مصلحة الأمة، وهي مبدأ مستورد<sup>(1)</sup>.

- فهي ضد الدين لأنه تبين لنا مفهومها، فهي لاهم لها، بل لا معنى لها إلى محو الأديان<sup>(2)</sup>. تريد أن تحصره داخل جدران المسجد، بل تتحكم فيه حتى داخل المسجد وتحول الإمام من مرشد روعي للمصلين إلى مخبر ضدهم. وهكذا فإنها لا تبقى من الإسلام شيئاً، وهو يقوم على شريعة تنظيماً بأحكامها الحياة الإسلامية كلها وتضبطها بما يتلاءم مع طبيعة الإنسان والمجتمع والدولة سواء فيما يتعلق بشؤون الأسرة أو المجتمع أو الدولة في علاقاتها الداخلية والخارجية في حالتي السلم والحرب. وهي ترفض كل هذا وتجبر المجتمع على الخضوع للقانون الفرنسي، أي العمل على استمرار الوضع التشريعي كما كان أيام الاستعمار. وإلا ما معنى الإستماتة في الدفاع عن إبقاء قوانين الاستعمار سارية المفعول بعد إخراجها، وهي قوانين لم تثبت بأرضنا ولا في ثقافتنا وتاريخنا إلخ.

ورأينا كيف يرفض اللانكيون مفهوم الدولة في الإسلام ويحجرون على المتدينين الإستغلال بالسياسة ومنعه بقوة القوانين التي وضعوها من تأسيس أحزاب إسلامية، ويعملون بلا هوادة على إلغاء قانون الأسرة الإسلامي ويحاربون لغة القرآن وينظمون ضدها المسيرات. وتتوصل إلى أن العلمانية بمعيار الدين مرفوضة، لأنها دعوة إلى حكم الجاهلية، لأنها ترفض الحكم بما أنزل وتفضل على حكم آراء البشر. فهي بهذا تقول لله عز وجل: نحن أعلم بما يصلح لنا منك، وقوانين فرنسا في العهد الإستعماري أهدي سبيلاً من أحكام شريعتك<sup>(3)</sup>. وأن ما يراه سعيد سعدي أفضل مما يراه خاتم الأنبياء -صلى الله عليه وسلم-.

- وهي ضد الدستور، لأنه ينص على أن الإسلام دين الدولة، وهي ترفض أن يكون للدولة دين، وهو يكفل الحرية الدينية والمسلم إذا فرضت عليه اللانكية يكون قد فرض عليه أن يتحلل من دينه. حيث يجبر على تعطيل ما فرض الله وإرتكاب ما حرم. فلا يستطيع إذا كان حاكماً الحكم بما أنزل الله كما أمره الله. وهذا تحدُّ لله عز وجل. وأما إذا كان محكوماً فإنه يمنع من الإحتكام إلى ما أنزل الله وهو فرض عليه لا خيار له فيه شرعاً. ولا يستطيع أن يعيش الحياة الإسلامية بحرية كافية، لأن القوانين الوضعية تكبله من كل جهة وتتحكم فيه حتى في دخول المسجد وخروجه منه. ومن هنا يحرم المسلم من الدين الحقيقي وهذا ضد الدستور نصاً وروحاً؛ لأنه يقرر أن يكفل الحريات وأولها الحرية الدينية. وأدنى دلائلها أن يعمل المرء بما يفرضه عليه دينه بلا ضغط ولا تنازلات<sup>(4)</sup>. والغريب والعجيب أن اللانكيين يشككون من المسلمين متحججين بذريعة إرادة إجبارهم على الإسلام، وهم يجبرون المسلمين على التخلي عن دينهم،

<sup>(1)</sup> هذه النتائج الخمس التي أخذناها عن الشيخ القرضاوي نقحناها بما يتوافق مع الوضع في الجزائر، ومن أراد التوسع فيها فليرجع إلى يوسف

القرضاوي، الإسلام والعلمانية وجهها لوجه، ص 82 - 98.

<sup>(2)</sup> محمد البشير الإبراهيمي، فصل الحكومة عن الدين، البصائر، 1950، السلسلة 2، ع 104.

<sup>(3)</sup> يوسف القرضاوي، المرجع السابق، ص 82، 83.

<sup>(4)</sup> المرجع نفسه، ص 84، 85.

إلى حد تقنيهم والتكثيف بهم وإطلاق أسوأ النعوت عليهم كالظالمين والإرهابيين والمتخلفين وما إلى ذلك. ولقد بلغت البجاجة بسعيد سعدي أنه بدل أن يعلن إلتزامه بالدستور، أعلن بأنهم سيعملون على تغيير مالا يتفق مع هواهم كما ذكرنا قبلاً.

- وهي ضد إراد الشعب، وبذلك فهي دكتاتورية لا ديمقراطية عكس ما يزعم دعاؤها؛ لأن الديمقراطية تعني النزول على إرادة الشعب. ولكنهم في قضية تحكيم الشعب يخونون مبدأهم الذي إتخذوه شعاراً لهم<sup>(1)</sup>. وقد بين الشعب إرادته في جميع الإنتخابات التي جرت في الجزائر بعد إعلان التعددية، وكان الشعب برمته ضد اللانكية. ولقد بينت العشر سنوات من التعددية أنهم لازالوا محصورين متوقعين في تيزي وزو وبجاية، ولم يجد سعدي ما يبهر به هزيمته النكراء التي لم يحصل فيها حتى على أصوات قريته في أول إنتخابات تعددية في الجزائر سوى القول بأن المدرسة الجزائرية هي التي أنتجت الإسلام ولذلك فلا بد من تغيير هذه المدرسة أي النظام التربوي ليصبح الشعب لانكياً، وكان أتباعه لم يتخرجوا من هذه المدرسة. إن المنطق يقتضي هنا أن يغير سعدي نفسه لينسجم مع المجتمع الذي يعيش فيه، فيتحدى بقيمه ومبادئه، ولكنه يريد أن يغير الشعب كله ل يبقى كما هو. وهو ما يبين اللاتجانس بين شعوبنا واللانكيين الذين يعيشون معها، فبينهما أفصام تام ولا تجانس كلي، وذلك بسبب عمالتهم لأعداء الشعب إن قصداً أو دون قصد. وهذا عكس ما عليه الحال في الغرب، ولقد بينا قبلاً أن كلا من لانكبيه ورجال دينه وشعوبه ينتمون إلى نفس القيم ويعملون معا من أجل تحقيق الإنسجام والتكامل لصالح شعوبهم ولدفعها إلى مزيد من الرقي والتقدم.

أما لانكيو العرب فإنهم يعملون بلا هوادة على تحطيم آخر من بقي من قيم مجتمعاتهم، هذه القيم التي كانت الحصن الحصين والمحرك الجبار لإخراج الإستعمار القديم من أراضيهم، وهكذا يعمل اللانكيون العرب بلا هوادة على تكسير أكسير حياتهم أو قنينة الدواء الوحيدة الصالحة لعلاج أمراضهم التي أعيت الحكماء.

لو كان اللانكيون ديمقراطيين بالفعل، فإن الديمقراطية تقتضي خضوع الأقلية لمبدأ الأغلبية، وأن الأمة التي تمثلها الأغلبية هي مصدر السلطات. كما أن الديمقراطية في العالم كله تحتكم إلى عدد الأصوات بغض النظر عن الكيف والنوع، ولم يقل يوماً ما حزب المحافظين، لحزب العمال في بريطانيا مثلاً أن الأغلبية التي معكم ليست في مستوى الأقلية التي معنا ثقافة ووعياً ونضجاً، كما يقوله اللانكيون العرب، رغم أن غير اللانكيين عندنا هم أحسن نخبة وأكبر حاملي شهادات كما وكيفاً. وهكذا نجد اللانكيين ينلدون بالديمقراطية ولكنهم هم أبعد الناس عنها وأول من بيندها<sup>(2)</sup>. ولا أدل على هذا من أنه لا وجود لها في أحزابهم، ولقد أشرنا قبلاً إلى مؤتمر حزب RCD وما وقع فيه، وها هو سليمان نايت جودي الرجل الثاني قبلاً في FFS ينشق ويتهم حزبه بالديكتاتورية، وهذا مفران آيت العربي الرجل الثاني قبلاً في RCD ينشق ويتهم حزبه بالديكتاتورية، وكلا الحزبين يتهم الآخر بالديكتاتورية وهلم جرا.

<sup>(1)</sup> المرجع نفسه، ص 86 ، 90 ، 91 .

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 86 ، 90 ، 91 .

- وهي ضد مصلحة الأمة، فقراءة التاريخ وإستقراء الواقع يؤكدان أن المحرك المفجر لطاقت الجزائريين الدفينة وجعلهم يقعون الجبال من أجل مصلحة الأمة، إنما هو الإسلام فهو الذي جعلهم يفتحون الأندلس، وهو الذي مكنتهم من الصمود في حروب الإسترداد، وهو الذي جعلهم يكونون دولة جعلت البحر المتوسط وغيره بجيرات إسلامية، وهو الذي مكنتهم من إمتصاص القمع الوحشي وحروب الإبادة في الأربعين سنة الأولى للإحتلال، فحطموا مشروع فرنسا الذي كان يهدف إلى إبادة الجزائريين كما أيد الهنود الحمر في أمريكا وإحلال الشعب الفرنسي في الجزائر بدل الشعب الجزائري كما بين ذلك وإعترف به برنامج طرابلس، كما بينا أثناء تقييمنا لمرجعيات سعيد سعدي. وهو وحده الذي جعل الجزائر تشتعل جهاداً ضد الفرنسيين من 1830 إلى الثورة المباركة الأخيرة. وهو الذي فجر طاقات الجزائريين في ثورة 1954 م فقدّموا أكثر من مليون ونصف مليون شهيد باسم الجهاد لا باسم الكفاح، وها هي أدلة ذلك ما زالت قائمة الآن، فعندنا وزارة قدماء المجاهدين لا قدماء المحاربين وصحيفة وجريدة المجاهد لا المحارب، وكانت كلمة السر لإطلاق الرصاص الأولى في غرة نوفمبر 1954 م هي "خالد- عقبة"، وكانت جميع الهجومات على العدو تنطلق باسم "الله أكبر" وكان شعار المجاهدين "النصر أو الشهادة". ومن أراد أن يعرف أثر الإسلام في تعبئة شعبنا وتحريكه وبعثه في أي معركة مصيرية يخوضها، فليدرس ثورة 1954 م فإن شعاره "الله أكبر" حين دوت صيححاته في الآفاق، لمس أوتار القلوب وأوقد جذوة الحماس في الصدور وحرك كوامن النفوس وأيقظ معاني البطولة المستكنة بين الضلوع، ووصل الحاضر بالماضي البعيد... وهكذا كان الإستقلال<sup>(1)</sup>. واللائيون يعرفون هذا جيداً، ولكنهم لما كانوا عملاء الإستعمار مرتبطين بكنائسه ورجال تبشيره فإنهم إخلاصاً له يعملون بلا هوادة على تكسير عامل المقاومة للإستعمار والحماية للذات وهو الإسلام. ولقد رأينا كيف عبر أركون عن هذا الهدف صراحة مما جعله يصب جام غضبه على مبدأ الجهاد، ويكاد يصاب بالجنون بسبب "سورة التوبة". ويكفي أن نعرف أن الذي حطم إقتصاد الجزائر هم اللائيون من شيوعيين وليبراليين، وأنهم الذين وقعوا على الجدولة التي تحول الجزائريون بمقتضاها من أسياد يعملون في القطاع العام إلى بطالين أو عبيد عند الذين نهبوا أموال الدولة وحولوها لأرصدتهم.

- وهي مبدأ مستورد من خارج أرضنا وضد أصالتنا، وهي تناسب الغرب لأنهم إحتاجوا إليها لظروف خاصة بهم، حيث كانت حلاً لمشكلاتهم مع كنيسهم، أما نحن فلا كنيسة لنا وهي لا تصادم عقيدتهم ولا شريعتهم ولا أحكاماً إلهية مفروضة عليهم من ربهم، ولكنها عندنا تصادم العقيدة التي من مقتضياتها النزول على حكم الله ورسوله، وتعارض الشريعة والتصور الإسلامي للحياة والوجود والمصير، وهي عندهم تهادن الكنيسة بل وتتعاون معها كما ذكرنا قبلاً، أما عندنا لا هم لها سوى هدم الدين<sup>(2)</sup>.

- وهي تبشيرية وقد رأينا ما فعله أقطاب التبشير الثلاثة ولا سيما بورغاد الذي لم يخرج عنه اللائيون الجزائريون قيد أنملة، فأعادوا متأثرين به وبأخلاقه إثارة كل ما أثاره من رفض للشريعة الإسلامية برمتها

(1) المرجع نفسه، ص 94 ، 95.

(2) المرجع نفسه، ص 98.



من قانون أسرة وقصاص ودماء ورفضه للعبادة بما فيها من صلاة وصيام وحج وغيره ورفضه للعقيدة وطعنه في القرآن الكريم وهو ما أعاد أركان إحياءه والإستمرار فيه من جديد.

- وهي إستعمارية؛ لأن فرنسا هي التي أتت بها إلى الجزائر وتحكمت بها في الإسلام والمسلمين وطبقتها على الجزائريين منذ 1830 م فكانت الجزائر أول بلد إسلامي (يُليَنك) قهرا.

والنتيجة من كل ما سبق: أن اللانكية فرنسية نشأة وتطورا وغاية، ودعاة اللانكية في الجزائر هم استمرار للمشروع الفرنسي التصويري أيام الإستعمار، ومفهومهم لها هو نفس مفهوم الإستعمار فيما يتعلق بالإسلام، وهو تحكم الملحد في الدين والمتدين، والسكير في الدين والمتدين، وتسخير الدين لخدمة أهداف الإستعمار الجديد بشقيه السياسي والتبشيري. وهكذا ظهر لنا بجلاء تام دور المبشرين، ودور الإستعمار الفرنسي، ودور فرنسا في اللانكية المطروحة اليوم في الجزائر. وهو دليل واضح على استمرار المخطط التبشيري الإستعماري.

ونختم تقييمنا العام للانكية والانكيين بما ذكره الشيخ الإبراهيمي " نحن سياسيون منذ خلقنا، لأننا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفتها أو لترجيح كفتها. فإذا نام النائمون منا حتى سلبت منهم القيادة، ثم نزعنا منهم السيادة، فنحن إن شاء الله كفارة الذنب وحبل الطنّب، نحن سياسيون طبعاً وجبلة... وكنا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها وهو الدين، لنبنى عليه كل ما يأتي بعده، فنسلم ونحن مسلمون، ونخاصم ونحن مسلمون، ونصادق أو نعادى ونحن مسلمون... فمن كان من أبنائنا في ريب من الحكمة في سلوكنا فلينظروا تشدد الإستعمار معنا. وشده (تمسكه) إنه لا يعادىكم فيسرف في العداوة ويظلمنا فيمعن في الظلم إلا لأنكم مسلمون، ولأن هذا الإسلام منبع قوة تقتل الضعف، ومبعث روحانية تقهر المادة، فهل لكم أن تقابلوا (تمسكه) بالمعنى الذي يريده بتمسك من جهتم بالمعنى الذي يريده الله؟.

نحن سياسيون، لأن ديننا يعد السياسة جزءاً من العقيدة، ولأن زمننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنها أية البطولة، ولأن وضعها يصير السياسة ألزم للحياة من الماء والهواء، ولأن السياسة نوع من الجهاد ونحن مجاهدون بالطبيعة، فنحن سياسيون بالطبيعة... " (1).

وليكن آخر كلامنا هنا جواب الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين عندما سئل عن اللانكية، وأن الإشتراكية لا تتحقق إلا بها: " لا يجب استخلاف الأنبياء بأنبياء جدد، الاختيار بين نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنبياء آخرين غير مطروح أبداً" (2).

(1) محمد البشير الإبراهيمي، في صميم القضية الدينية، بداية النهاية، آثار... ج4، ص277، 278، والمقال وجد بين أوراق الشيخ ويرجع أنه كسب في بداية الخمسينيات.

(2) هواري بومدين، حصة خاصة بحياة الرئيس الراحل المرحوم هواري بومدين، التلفزيون الجزائري، 1997/12/27م، الساعة 52: 10 ليلاً.

## الفصل الثاني

### الفرنكفونية

#### ظهور المصطلح ومفهومه:

ظهر مصطلح الفرنكفونية في أواخر القرن 19 م، وقد وضع مفهوم الفرنكفونية الجغرافي الفرنسي أونيسم ريكلوس ( Onésime Reclus ) ( 1837 م - 1916 م ) حيث توخى منها كما سجل في كتاباته سنة 1883 م تعبيراً عن " فكرة لسانية وعلاقة جغرافية" وأرادها أداة لتنحية اللغة العربية والديانة الإسلامية معاً.

- وهو ما يظهر طابعها التبشيري والاستعماري - ومنذ ذلك التاريخ عرفت الفرنكفونية تكيفات وتطورات<sup>(1)</sup>. ثم اختفت لتعود إلى الظهور في نوفمبر 1962م، والفترة التي توقفت فيها هي فترة الاستعمار الفرنسي الذي كانت اللغة الفرنسية فيه محمية بسياط القمع الاستعماري مما يجعلها غير محتاجة إلى الحماية الفكرية. ولكنه لما تحررت البلدان من الاستعمار اضطروا الفرنسيون من جديد لإحياء الفكرة في العقول والضمائر، وفي وسائل الإعلام والتعليم. يقول عبد الله ركيبي: " وأعتقد جازماً أن عودتها في التاريخ الذي استقلت فيه الجزائر (1962) هو العامل الرئيسي في إحيائها والاحتفاء بها، لأن هذا القطر - الذي اعتبر فيما مضى جزءاً من فرنسا - يمثل التجربة العميقة والضخمة في "فرنسة" شعب آخر بالقوة، وما دام قد ثار على كافة القيود التي قيدته من قبل ومنها اللغة، فإنه لا بد من البحث عن أسلوب جديد لإبقاء الفرنسية وتشجيعها ... وهكذا بدأ العمل بجديّة وتخطيط وتنفيذ من المحركين الأساسيين مع تغطية عملهم بوجوه كثيرة بعضها عربي والبعض الآخر إفريقي أو آسيوي أو غيرهم من أقطار وقارات أخرى... " (2).

ولا أدل على صحة رأي ركيبي من أنه في البدء أي في ظل الاستعمار الفرنسي المباشر، كانت الفرنسية (Francisation) هي المشروع الهادف إلى فرض اللغة الفرنسية كلغة أم على السنة المستعمرين إنطلاقاً من قناعات الإيديولوجية الاستعمارية المتمثلة في أن العرب غزاة متسلطون، وبلاد البربر جبلت على الخضوع والتبعية، فإذاً لا محيد عن الإحتلال الفرنسي ذي الرسالة الإنقاذية التثقيفية، وبالتالي لا محيد عن فرنسة المجتمع ومرافقه لتعويض ذاكرة أهله اللغوية الأصلية ثم لدمجهم باسم التحضر في المجتمع الفرنسي الكبير، ولو كمواطنين خصوصيين<sup>(3)(4)</sup>.

(1) سالم حميش، لماذا الفرنكفونية بضاعة غالية ومردودة؟ مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ماي 1992، ص 8، ع 92، ص 50. ومن أراد معرفة هذه التكيفات والتطورات فليرجع إلى المرجع المذكور، وإلى المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى مستغل الماضي وماضي المستقبل، ط 1، شركة الشهاب، الجزائر، 1991، ص 208 ...

(2) عبد الله ركيبي، الفرنكفونية مشرقاً ومغرباً ص 39.

(3) سالم حميش، المرجع نفسه، ص 51.

(4) وسنرى هنا يتوسع أثناء حديثنا عن الفرنسية التي هي أحد أركان الفرنكفونية.

يضاف إلى ما سبق فيما يتعلق بصحة رأي ركيبي، أن الجزائر هي القطر الوحيد من بين المستعمرات الفرنسية السابقة الذي يقف صراحة ضد سياسة الفرنكفونية بمؤسساتها ومؤتمراتها<sup>(1)</sup>. وذلك لأنهم أدركوا أن الفروق في آخر تحليل بين سياسة الفرنسية بالأمس، وسياسة الفرنكفونية اليوم لهي أو هي ممن خيط العنكبوت، لأنها ليست سوى فروق في الشكل والأسلوب، وأما هدف السياسيين في العمق فيبقى هو ذاته مما يجعل الفرنكفونية هي خلق شروط التبعية المعنوية والثقافية عبر قناة اللغة وإشعاعها في التعليم والإدارة والمصالح العمومية، وبالتالي في المجتمع ومجاله السمعي والبصري - وهذا ما هو مطبق فعلا بالجزائر - وقد عاد ذلك الهدف إلى السطح واضحا للعيان من خلال موقف التذمر الذي أبدته السلطات الفرنسية من مصادقة البرلمان الجزائري في ديسمبر 1990م على قانون تعميم استعمال اللغة العربية<sup>(2)</sup>.

ويبين الكاتب الفرنسي لويس جان كالفي (Luis Jean Calvet) أن مفهوم الفرنكفونية ذو أبعاد متنوعة ومتعددة، منها البعد اللساني والبعد الجغرافي والبعد العاطفي الروحي والمؤسساتي<sup>(3)</sup>. ويشير إلى البعدين الجغرافي والعاطفي الروحي فيرى أن مفهوم الفرنكفونية من حيث الجغرافيا هي المجموعة التي تتحدث اللغة الفرنسية كفرنسا وبلجيكا... وإفريقيا... وغيرها. ويميز في هذه المجموعة بين الشعوب التي لها لغات، فتكون الفرنسية فيها لغة اتصال وثقافة وحوار، والشعوب التي لها لهجات فقط، فتكون الفرنسية فيها لغة أساسية تعوض لغة الأم لتصبح هي اللسان الرسمي والعاطفي والثقافي للفرد.

وأما البعد العاطفي الروحي، فيقصد به أن الفرنكفونية تعد أيضا رابطة عاطفية روحية بين المتكلمين بها أفرادا وجماعات، فهم يتفقون في النظرة ويؤمنون بالقيم نفسها، فهي قاسم مشترك بين الجميع، الدخيل والأصيل.

هذا التحديد للمفهوم يعتقه أيضا ساسة فرنسا فيومبيدو أثناء رئاسته لفرنسا حددها بما سبق وأضاف إلى ذلك تحديد هدفها، وهو إنشاء تجمع للمصالح الاقتصادية والسياسية، ويربط بين الجميع رباط لغوي وثقافي وعاطفي أيضا. وهكذا أضاف بومبيدو إلى مفهومها البعدين الإقتصادي والسياسي إضافة إلى البعد الجغرافي والثقافي والروحي العاطفي. هذا التحديد والتأييد الذي يصدر عن الرجل الأول في فرنسا إنما هو بمثابة رد على الذين يقولون بأنها مجرد لغة أو ثقافة عالمية بلامصالح معينة<sup>(4)</sup> مثل سعيد سعدي الذي يدعي أنها غنيمة حرب .

أما فرانسوا ميتران فقد حدد الفرنكفونية هكذا: "إن الفرنكفونية ليست هي اللغة الفرنسية... إذا لم نتوصل إلى الإقتناع بأن الانتماء إلى العالم الفرنكفوني سياسيا وإقتصاديا وثقافيا يمثل إضافة فإننا نكون قد فشلنا في العمل الذي بدأناه منذ عدة سنوات"<sup>(5)</sup>. وقد علق المهدي المنجرة على هذا بقوله: "إن لكي تتجح الفرنكفونية ينبغي أولا أن لا تكون هي الفرنسية وحدها، وينبغي أن لا تكون فقط مجرد مشروع ثقافي، بل

<sup>(1)</sup> ومن أراد معرفة تلك المظاهرات فليرجع إلى المهدي المنجرة، المرجع السابق، ص 208 ...

<sup>(2)</sup> سالم حميش، المرجع السابق، ص 51 - 52 .

<sup>(3)</sup> عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 40.

<sup>(4)</sup> المرجع نفسه، ص 41 - 42 .

<sup>(5)</sup> المهدي المنجرة، المرجع السابق، ص 221 .

ينبغي أن تكون مشروعا سياسيا واقتصاديا... فالفرنكفونية إذن هي مشروع كلي سياسي اقتصادي (تصافي، ديني) إلخ... الذي يقول هذا ليس أنا، بل رئيس الجمهورية الفرنسية الذي صرح بذلك أثناء حفل الإستقبال الذي نظمه بالإليزي<sup>(1)</sup>. ولقد اتصل المنجرة بالطاهر بن جلون العضو الأساسي في المجلس الأعلى للفرنكفونية ليستفسر، هل قال هذا الرئيس الفرنسي؟ فقال له: "لقد قال ذلك، بل أكثر من ذلك"<sup>(2)</sup>.

وأما ما تبيته الفرنكفونية كما بين في مناظرة نظمها مجمع الجامعات المتكلمة جزئيا أو كليا بالفرنسية (Aupel), فكانت: الديمقراطية وحقوق الإنسان، العلمانية، النمو الموافق للحاجيات إلخ... والمبدأن الأوليان هما ما يتشدد به دعاة الحركة البربرية خاصة واللائكيون الجزائريون عامة إلى حد أن سمو أنفسهم "القطب الديمقراطي" وهم أشد الناس ديكتاتورية ودموية-.

وإذا كانت الفرنكفونية تقوم على الفرنسية واللاكنية و... فإنها تقوم كذلك على محاربة اللغة العربية والإسلام. وهو أساس مفهوم المصطنع في أصله كما ذكرنا. كما أنها تتصور اللغة العربية كلهجة مثل باقي اللهجات<sup>(3)</sup> أو كلغة ميتة، وهو ما يجعل من أهم أهداف الفرنكفونية العمل على إزالتها والحلول محلها وفقا لمفهوم الفرنكفونية الذي حدده قبلا لويس جان كالفلي.

ومهما يكن من أمر، فإن إختراع فكرة الفرنكفونية جاء كوسيلة إستعمارية ثقافية وإستغلال الدول التي كانت تحت الإستعمار الفرنسي كأسواق، وهو ما جعل المنجرة يعتبر الفرنكفونية تعبيراً للثقافة. وهي تقسم الناطقين بالفرنسية إلى فرنسيين، أي من أصل فرنسي، وفرنكفونيين، أي الناطقين بالفرنسية من غير الفرنسيين. وبهذا فإن الحركة الفرنكفونية حتى على مستوى الجامعات تقسم مستعملي اللغة الفرنسية إلى قسمين فرنسي وفرنكفوني، وهذا مهما بلغت مكانته فلن يرقى إلى مستوى كاتب فرنسي<sup>(4)</sup>.

والواقع أن هذه النظرة هي نفسها النظرة القديمة التي تجعل "الأهلي" أدنى قيمة من الفرنسي مهما بلغ من العلم أو خدمة فرنسا، وهو ما جعل النخبة معقدة بعقدة "تحت الفرنسيين وفوق الجزائريين"، وأصدق تعبير على هذا المثل الجزائري "العربي عربي ولو كان الكولونيل بن داود".

ولقد علق المنجرة على الفرنكفونية قائلا: "أنتقد مفهوما سياسيا يكتسي طابعا إستعماريا جديدا لا يقبل واقع تطور الأشياء، يستخدم اللغة وسيلة لإبقاء الوضع القائم على ما هو عليه وعدم التغيير، ومحاربة اللغات الوطنية واللغات الأم<sup>(5)</sup>. ولقد أنتج هذا أناسا يحرصون على الدفاع عن اللغة الفرنسية بفظق الذي لا يقبل شريكا: "الفرنكفونية أو لا شيء"<sup>(6)</sup>. بمفهوم أونيسم ريكلوس "أداة لتتحية اللغة العربية والديانة

(3) - سائر حبيش، المبرم السابق، ص 53

(1)(2) الملهدي المنجرة، المرجع السابق، ص 222.

(3) الملهدي المنجرة، المرجع السابق، ص 220 - 221 - 222.

لأرما فتحة الفرنكفونية أيضا :

- العمالة لفرنسا: ومن أدلته تعصب دعاة الحركة البربرية للفرنسية حتى على حساب الإنجليزية، ولم يعد سرا مساعدة فرنسا لهم مالا وتوجيهها ومن يشاهد سلوكهم يرى أن فرنسا هتفي قبضتهم، لأنها رأت فيهم حراس مصالحها ووجودها في الجزائر. لأنها بالتغلغل اللغوي والنفوذ الثقافي تكسب موارد بلادهم (1) وتخطئهم شخصيتهم بواسطةهم -

الإسلامية معاً. وهو ما تتبناه الحركة البربرية التي جعلت الفرنكفونية إحدى أهم دعائمها. وسيكون تحليلنا للموضوع وفق الخطة الآتية:

- 1- محاربة اللغة العربية بانتهاج سياسة الفرنسة.
  - 2- محاربة اللغة العربية بالدعوة لإحياء اللهجات العامية واستبدالها بها.
  - 3- محاربة اللغة العربية بالدعوة لإحياء اللهجة القبائلية المكتوبة بالفرنسية محل العربية الفصحى.
- وسيكون الحل حسب دعاء الحركة البربرية في الفرنكفونية أو الفرنسة.

- ثقافياً: تُردد التحانس المشهود داخل كل مجموعة ثقافية متأصلة لغوياً كالمجموعة العربية، وتبرمج الشقاق والصراع بين أفراد المجتمع الواحد مما يؤدي إلى إضعاف البلاد بالإنقسامات حتى داخل الدول المتقدمة نفسها مما يعني أن الفرنكفونية بطبيعتها أداة شقاق وإنقسام فأينما حلت حصل ذلك معها وأوضح الأنتلة عليه بلجيكا وكندا ناهيك عن الدول المختلفة.

- سياسياً وإقتصادياً: تروج نموذجاً لنمية التخلف في إفريقيا. إما تشجع على التسول وتمنح على الصدقة ملفوفة داخل عطاء مساعدة<sup>(2)</sup>، مقابل حومات البلاد التي ستجنيها فرنسا. فقد ثبت أن كل فرنك<sup>(3)</sup> تُفقده فرنسا مساعدة تأخذ بدله 6 فرنكات من التجارة<sup>(4)</sup>، وتعمل على إنقسام البلد الذي حلت به كما ذكرناه.

[1] سالم حميش المرجع السابق، ص 54، 55، وقد كتبنا ما ذكر وفقاً لموضوعنا، (2) المهدي المنجرة، المرجع السابق، ص 211. (3) وهو ما أعلنه السيد إيف بورتولو الفرنسي والرجل الثاني في مؤتمر الأمم المتحدة، كان مكلفاً بمركز الترفعات والتخطيط، ذكر ما سبق في تقرير له بشرة مركز الوثائق الفرنسي التابع لرئاسة الجمهورية الفرنسية، المهدي المنجرة، المرجع السابق، ص 266].

(6) سالم حميش، المرجع السابق، ص 217.

## المبحث الأول

### 1- محاربة اللغة العربية بانتهاج سياسة الفرنسية

#### المطلب الأول

#### الفرنسة من بداية الاحتلال إلى ثورة 1954م

**معنى الفرنسية** : هو إحلال اللغة الفرنسية وثقافتها محل اللغة العربية وثقافتها في الجزائر في إطار غزو ثقافي مركز وموجه نحو تحطيم مقومات شخصيتها العربية الإسلامية<sup>(1)</sup> بهدف الإستعمار والتنصير، ولذلك فإن سياسة الفرنسية كانت شاملة لكل مرافق الحياة ومجالاتها التعليمية والثقافية والاجتماعية والإدارية بهدف صيغ البلاد بصيغة فرنسية محضة وشاملة تقطع جميع روابط الجزائر بثقافتها ولغتها القومية وتاريخها الإسلامي وإبنائها الحضاري لكي تنشأ الأجيال الصاعدة ممسوخة في كل شيء ومقطوعة عن جذورها الأصلية<sup>(2)</sup>، ولتحطيم عامل مقاومة المستعمر (الجهاد). وهو ما بينه بدقة حاكم الجزائر العام الدوق دومال (Duc d'Aumale) بقوله : "فتح مدرسة فرنسية في أوساط الأهالي (Indigenes) تعادل معركة عسكرية من أجل إستتباب الأمن والإستقرار في الجزائر، كما أنه في وسعها تحقيق القناعة في أوساطهم بمشروعية الاحتلال وتعزيز سيادة المستعمر"<sup>(3)</sup>. ولتحقيق هذه الأغراض فإنه كان في الوقت الذي يجهل التلاميذ بتاريخ بلادهم العربي الإسلامي تجدهم يلмон إماما كبيرا بتفاصيل تاريخ فرنسا وثورتها وجغرافيتها من جميع النواحي وفي جميع العصور وبطريقة هادفة ومشوقة، ولتكميل عملية المسخ، فقد كانوا يلقنون في حصص التاريخ " كانت بلادنا تسمى قديما الغال (La Gaule) وأجدادنا يسمون الغالين (les Gaulois)<sup>(4)</sup> ، مثلما كان يدرس التلميذ في مقاطعة " نورماندي " . وذلك لينشأ أبناء الجزائر الدارسين في مدارس الاحتلال على هذه الصورة ممسوخين مشوهي تاريخ وطنهم بإعتقادهم منذ الصغر أن أصل أجدادهم ينحدر حقيقة من الغالين في جنوب فرنسا وليس من العرب في شبه الجزيرة العربية أو اليمن. فيصبحون بذلك أسهل انقيادا وأسرع استجابة لقبول سياسة الفرنسية والتنصير والإدماج في فرنسا، وهي السياسة التي تهدف إلى محو شخصية وطنهم القومية محوا كاملا<sup>(5)</sup>.

ولما كان للمحيط أثره في تكوين النفوس وتوجيهها، فقد فرضت الفرنسية في الإدارة والمحيط الإجتماعي وأجهزة الإعلام. فأصبحت الفرنسية هي اللغة الرسمية والوحيدة في الإدارة وفي كتابة أسماء المحلات

<sup>(1)</sup> رابع تركي، التعليم القومي، ص 104.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 105.

<sup>(3)</sup> عبد الله حمادي، الحركة الطلابية الجزائرية، ص 14 - 15 .

<sup>(4)</sup> رابع تركي الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 135.

<sup>(5)</sup> رابع تركي، التعليم القومي، ص 114 - 115 .

والشوارع والمدن وكل المرافق العامة والخاصة، واستبدلت بمعظم الأسماء العربية للشوارع والمدن أسماء لقادة الغزو العسكري والفكري والديني للجزائر، وذلك بغرض جعل البيئة الثقافية الجزائرية قطعة من البيئة الثقافية الفرنسية لتحقيق الفرنسية الكاملة للمجتمع. وهو ما بينه بدقة قرار فرنسا الإدارية الجزائرية الصادر في 1849 م<sup>(1)</sup> إن لغتنا هي اللغة الحاكمة، فإن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة يجب أن تصدر - بأعظم ما يمكن من السرعة - جميع البلاغات الرسمية، وبها يجب أن تكتب جميع العقود، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا. فإن أهم الأمور التي ينبغي أن يعتنى بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية درجة وعامة بين الجزائريين الذي عقدنا العزم على إستمالتهم إينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين<sup>(2)</sup>. ولقد أصبح بالفعل كل شيء مفرنسا حتى الإمضاء فلا يقبل إذا لم يكن بالفرنسية.

ولأهمية الفرنسية في تحقيق أهداف الإستعمار السياسية والدينية والحضارية، فقد شرعت فرنسا في تطبيقها منذ الأيام الأولى للإحتلال كما بينا في العلاقة بين التبشير والإستعمار، وبينما كيف فكر كلوزيل في إرسال 50 طفلا جزائريا إلى فرنسا ليتفرنسوا، يزيدهم ذلك وسط فرنسي محض يعيشون فيه بعينين عن بيتهم اللغوية والثقافية وعن كل ما من شأنه أن يعث في نفوسهم الروح الوطنية ويوعدهم ضد الإستعمار، فيعودون إلى بلادهم ممسوخين، ناشرين لغة العدو وثقافته بين أهاليهم بل ونشر القيم الفرنسية وتبني سياسة إعتبار الإستعمار تحضر<sup>(2)</sup>، ولا سيما أن فرنسا جربت قبلا سياسة الإبتعاث التي وردت عليها سن المشرق العربي ولا سيما من مصر، فرجع كثير من أولئك المبتعثين إلى مصر يعقول فرنسية، بل وحتى أبواب فرنسية. وإذا كان أولئك المبتعثون كبارا، فكيف يكون حال الأطفال الصغار الذين يقذف بهم في جحيم الثقافة الفرنسية والبيئة الفرنسية ولهيئتهما؟! .

ولكن كيف يمكن لفرنسا أن تحقق هذه السياسة، أي سياسة الفرنسية وقد وجدت أمامها عائقا أكبر تتحطم أمامه كل المحاولات وهو الإسلام ولغته؟.

لكي تقضي على هذا العائق رأت فرنسا أن تقوم سياستها المسخية على دعامين أساسيين إحداهما عملية هدم والأخرى عملية إنشاء، فعملية الهدم للثقافة العربية الإسلامية التي كانت مستحوذة على المجتمع والتي كانت درعة المتين، وأما عملية الإنشاء فتتمثل في إحتلال الفرنسية محل الثقافة العربية الإسلامية.

ولقد بينا في الأوضاع الثقافية، أن الثقافة العربية الإسلامية كانت تشرف عليها مؤسسات ثقافية هي: الأوقاف، وهي أكبر مؤسسة كانت تمول المؤسسات الثقافية، والمساجد والزوايا والرباطات والمدارس والمعاهد العليا والمكتبات والأندية المنزلية إلخ. وقلنا بأن الثقافة التي أنتجت هذه المؤسسات قبيل الإحتلال كانت قادرة من جهة على حماية الذات من الذوبان، ولكنها كانت قاصرة من ناحية أخرى. اهتمت بالأصالة وإن بطريقة مشوهة أحيانا، ولم تركز على مواجهة رغبة بعض العلماء كابن العنابي إلى

<sup>(1)</sup>سالم المصري، حوليات الثقافة العربية، دار الرياض للطباعة والنشر، 1951، 2م، ص473، عن أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص84.

<sup>(2)</sup>أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، ص83.

خطورة أعمال المعاصرة، مما جعل هذه الأصالة رغم نقائصها تمنع تصدع المجتمع ثقافياً أمام مخاطر الغزو والتبشير. ولا سيما في النصف الأول من مرحلة الإستعمار.

وما يهمنا هنا أن الإستعمار أدرك هذه الحصانة التي أنتجتها هذه المؤسسات. فكان أول عمل قام به في إطار محاربة اللغة العربية وثقافتها ونشر الفرنسية هو تخطيط هذه المؤسسات الثقافية وتمسيح ما بقي منها إلا قليلاً كما بينا قبلاً. ويكفي أن نعرف أنه بعد أن كان عدد المساجد بالعاصمة وحدها 122 مسجداً فإنه لم يبق بها في سنة 1899م سوى 5 مساجد. وأصبح عدد مساجد الجزائر كلها لا يزيد على 166 مسجداً، وهنا ننقل إلى الإشارة إلى عناصر الفرنسية الشاملة التي اتبعتها فرنسا.

عناصر الفرنسية الشاملة : أدرك رجال الاستعمار أن الفرنسية الشاملة لا تهدف إلى إحلال لغة محل أخرى فحسب، بل محق حضارة واستجداد شعب. وهو ما جعلهم يؤسسون المدارس الفرنسية، إلى حد معين وبلغون القضاء الإسلامي ويعوضونه بالفرنسي، ويؤسسون المكتبة الوطنية ليفهم رجال الإستعمار نسيات الأهالي بغرض التحكم فيهم وتوجيههم ويؤسسون صحافة مفرنسة ويستقدمون من فرنسا البغايا والفنانين. ولقد أدرك رجال الإستعمار لتحقيق محو حضارة واستعباد شعب أن الفرنسية الشاملة يجب أن تتم في إطار ثلاثة عناصر مترابطة متتاسفة متكاملة، هي :

1- الفرنسية كوسيلة وهدف، وهذه هي الإطار العام، ولذلك لن نتحدث عنها هنا.

2- التنصير كوسيلة وهدف.

3- الإدماج كهدف<sup>(1)</sup>.

ونبدأ شرح هذين العنصرين الأخيرين

2- التنصير كوسيلة وهدف : وقد تحدثنا على هذا في العلاقة بين التبشير والإستعمار، وقلنا بأن كليهما يعتمد على الآخر ويكمله، كما أن آباء التبشير الثلاثة كلهم ركزوا على الفرنسية بغرض التنصير والتمكين للإستعمار، كما ركز رجال فرنسا سياسيون وعسكريون على التنصير بغية الفرنسية والإدماج، والتمكين للإستعمار. ونكتفي هنا بالإشارة إلى ثلاثة أدلة على هذا، إثنين من بداية الإحتلال والثالث بعد 100 سنة منه .

ففي الدليل الأول - إضافة لما ذكرناه قبلاً - تجلت سياسة التنصير في تصريح فرنسا غداة الإحتلال بأن من جملة أهدافها الأساسية من غزو الجزائر: نشر النصرانية والقضاء على الإسلام، ولقد أعلن سكرتير الحاكم العام الفرنسي في الجزائر في عام 1832 م هذه السياسة رسمياً فقال : " إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال 20 عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد. أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً"<sup>(2)</sup> .

<sup>(1)</sup> رابح تركي، التعليم القومي، ص104.

<sup>(2)</sup> كوكليت وفرانسيس جاشون، الجزائر الثائرة، ترجمة علوي الشريف وآخرين، وزارة الإرشاد المصرية، القاهرة، 1957م، ص41 (عن رابح تركي، التعليم القومي، ص107، 108).



وأما الدليل الثاني فيتمثل في تصريح (لوفيو) سكرتير الماريشال بيجو حيث صرح في سنة 1838 م قائلا: "إن العرب لا يقبلون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين"<sup>(1)</sup>.

ولقد بين - هكذا - كتاب فرنسا وخطابوها ورجالها المتنوعون عند تقرير السياسة التي يجب إتباعها في الجزائر عند بداية الإحتلال. فقروا أنها: التنصير والفرنسة، وبتعبير واضح ' العمل على إقامة ألديانة النصرانية محل الديانة الإسلامية وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية، وكانت هاتان النزعتان متأزمتين في أذهان الفرنسيين لأنهم كانوا يرون أن التنصير يساعد على الفرنسة، كما أن الفرنسة تسهل التنصير"<sup>(2)</sup>.

وأما الدليل الثالث فمن الإحتقال المنوي باحتلال الجزائر، حيث أعاد المحفلون تأكيد هذه السياسة وبينوا أن المغزى الحقيقي من إقامة هذه الإحتقالات إنما هو " تشييع جنازة الإسلام في الجزائر"<sup>(3)</sup>. كما أعلن ذلك صراحة رئيس جمهورية فرنسا. وما يزيد هذا تأكيدا أن كل مدارس المبشرين كانت تدرس بالفرنسية وتدعو إلى العامية والبربرية.

والواقع أن الهدف واضح وهو أن تسلط على الإسلام بعد جزءا أساسيا من العمل الإستعماري الذي بعد أن تسلط على الأبدان يريد إكمال عمله بالتسلط على الأديان - والأذهان - ليتم التسلط على الجانبين الروحي والمادي<sup>(4)</sup>. ولكي تحقق فرنسا هذا الهدف، فقد كثفت نشاط الإرساليات التبشيرية تحت مختلف الأشكال والأسماء من هيئات تعليمية وجمعيات خيرية... وأظهرت نشاطا في ميادين الخدمات الإجتماعية وتغلقت في المناطق الأكثر فقرا لإغراء الأهالي بالمساعدات المادية وإستدراجهم إلى النصرانية<sup>(5)</sup>. وقد رأينا ما فعله لافيجري، وكان تعليم هذه الإرساليات كله إنما يتم بالفرنسية. وقد ركزت كثيرا على بلاد القبائل كما ذكرنا، ومن مدارسهم نشأت الحركة البربرية. ولا أدل على هذا أن مولود معمري أحد الزعماء الروحيين للحركة البربرية، ومحمد أركون أكبر الزعماء الروحيين للانكية التي تعد إحدى دعائم الحركة البربرية والتنصيرية إنما تخرجا من مدرسة الآباء البيض في تويريرت ميمون ببني ينبي وظلا على اتصال بالمنصرين، مولود معمري إلى وفاته وأركون إلى الآن<sup>(6)</sup>.

ونختم هذه القضية بدليل رابع لا يتطرق إليه الشك أبدا، وهو ما بيناه قبالا أثناء حديثنا عن أقطاب التبشير الثلاثة، فرأيانهم جميعا يدعون إلى الفرنسية على أنها الطريق الطبيعي للتبشير ومنازية اللغة العربية لأن جعلها هو الطريق الطبيعي للبعد عن القرآن، ومن بعد عن القرآن سقط في مؤامرات المبشرين وسهل تنصيره.

<sup>(1)</sup> بونس درمونه، المغرب العربي في خطر، دار الطاعة الخديوية، 1956، ص 30 (عن أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 92).

<sup>(2)</sup> مناطق الحصار، حوليات الثقافة العربية، ص 571. (عن أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 50).

<sup>(3)</sup> محمد البشير الإبراهيمي، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1966، عدد 21، ص 147 (عن رايح تركي، التعليم القومي، ص 108).

<sup>(4)</sup> محمد البشير الإبراهيمي، فصل الدين عن الحكومة، كتاب عيون البصائر، ط. و. ن. ت. الجزائر، ص 86.

<sup>(5)</sup> أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 90.

<sup>(6)</sup> أبو عمران الشيخ، لقاء بانوراميك (مرجع سابق).

3- الإدماج كهدف : وقد ظهر هذا جليا كذلك في تصريحات أقطاب النشيط الثلاثة كما بينا قبلا وكذا رجال السياسة والإستعمار الفرنسيين، ونشير هنا إضافة إلى ما ذكرناه عن دعاة الإدماج، أن المقصود بالإدماج الذي كانت تريده فرنسا هو دمج أرض الجزائر في فرنسا لا التسوية بين الجزائريين و الفرنسيين في الحقوق والواجبات، ولذلك فهو إدماج بالنسبة للمستعمرين ولكنه إخضاع لسكان الأصليين (الجزائريين)<sup>(1)</sup>. ولا أدل على هذا من أن الجزائري ظل من حيث المعاملات الداخلية الفرنسية يقوم بالواجبات ولا يتمتع بالحقوق الفرنسية إلا إذا ارتد عن دينه ودخل تحت أقدام اقتانون المدني الفرنسي<sup>(2)</sup>. بل حتى في هذه الحالة فقد ظل دون مرتبة الفرنسيين، وظلوا ينظرون إليه بازدراء كما رأينا في الأيتام الذين نصرهم لافيغري وكذلك المتجنسون، ولما كان الجزائريون قد رفضوا التنازل عن أحكام الشريعة الإسلامية، أي رفضوا الردة عن دينهم، كما رفضوا سياسة الإدماج التي فرضها عليهم المرسوم الفرنسي الصادر في 14 يوليو 1865 م بإعتبارهم فرنسيين لأنها تتعارض مع مقومات شخصيتهم الوطنية<sup>(3)</sup>، فقد أوكلت هذه المهمة إلى المدرسة الفرنسية، وقد أفلحت هذه المدرسة بجعل الجزائريين الذين كانوا رافضين لها أن صار بعضهم يطالب بها فسموا بذلك دعاة الإدماج، الذين هم كما عرفهم عبد المجيد مزيان "جيل من أعيان الثقافة الغربية تتكرر كل التكرار للجماهير الشعبية وسفه علانية أحلام الأمة، وطعن في الثقافة العربية الإسلامية طعنا كان يمليه عليه الإستعمار بكيفية غير مباشرة، لأنه كان يلقي ذلك تلقينا في كل مرحلة من مراحل التعليم الفرنسي، وتكاثرت الحركات المبشرة باللائكية والعالمية (الشيوعية) التي يتستر من ورائها الحقد على الثقافة الإسلامية كقوة للصمود، وعلى اللغة العربية كمحور لوجود الأمة، وأعلن كثير من المثقفين الجزائريين إنسلاخهم الكلي عن العروبة والإسلام، وإنقادوا جهازا لحركة الإدماج. ولم يدركوا أن اعتناقهم هذا المذهب السياسي كان تنويجا للمخطط الثقافي الذي أخضعوا له وكيفوا بواسطته في مدارس الإستعمار... وتباعدت المسافة الإجتماعية والثقافية بين الجماهير وهؤلاء الأعيان، فكان شبه التقاطع يتبعه الصراع الطبقي بين النخب المتكئة المنفعة بامتيازات الإستعمار، والشعب الذي لا يزداد إلا فقرا وتشريدا وتوغلا في ظلام الأمية"<sup>(4)</sup>. ولقد بلغ التعصب للإستعمار عند بعض هؤلاء أنهم زوجوا بناتهم لفرنسيين نصارى. وغرض فرنسا من هذه السياسة شيئان جوهريان:

أحدهما سياسي إستعماري يتمثل في أن الإدماج يعد سدا منيعا أمام أية محاولة من طرف الجزائريين للمطالبة بالإستقلال. لأنهم سيصبحون بموجبه من حيث القانون الدولي فرنسيين وبلادهم الجزائر إقليما فرنسيا كباقي الأقاليم الفرنسية، وأكثر من هذا حبهم لفرنسا وتصوفهم بها حيث أصبحوا يحسون في قرارة أنفسهم أنهم صاروا فرنسيين بالفعل.

<sup>(1)</sup> من مذكرات لحزب الشعب الجزائري أصدرها بالقاهرة بتاريخ 22 يونيو 1954م، ص 87، عن رابع تركي، التعليم القومي، ص 112.

<sup>(2)</sup> أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 326، 327.

<sup>(3)</sup> رابع تركي، التعليم القومي، ص 113.

<sup>(4)</sup> عبد الحميد مزبان، مظاهر المقاومة في الثقافة الجزائرية، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ماي، جوان 1972، ع 8، ص 158.

وأما الشيء الذاتي فهو ديني ويتمثل في تخليهم عن الأحوال الشخصية الإسلامية وقبولهم للخضوع إلى القانون المدني الفرنسي، وهذا هو الشرط الذي ربطت به فرنسا منحهم بموجبه حقوق المواطنة الفرنسية. وذلك لإرغامهم عن الإرتداد عن دينهم تدريجياً. ولما كان الإسلام واللغة العربية هما العائق الأكبر أمام مخططات فرنسا، فقد تمحور حولهما كل النشاط الإستعماري، ورسمت من أجلهما المخططات، ووضعست السياسات الصريحة والملتوية منذ بداية الإحتلال<sup>(1)</sup> - ولا زالت فرنسا تخطط له إلى الآن وفقاً لتطورات الأوضاع - وهو الذي نظر له ونفذه وتعاون من أجله كل رجال فرنسا من إكسپيروس وجيش و سياسة ومفكرين.

وهكذا نتوصل إلى دائرة مغلقة هي : الغرض من الفرنسة والإدماج هو التنصير، والغرض من التنصير الفرنسة والإدماج، والغرض من الكل جعل الجزائر إقليمياً فرنسياً وزوال الإسلام ولغته منها إلى الأبد. وقد أتت هذه السياسة أكلها أي سياسة الفرنسة رغم أن مردودها لم يأت سريعاً، بدليل أن الجزائريين كما ذكرنا أثناء حديثنا في اللانكية عن دعاة الإندماج والتجنيس أصبحوا هم الذين يطالبون بالإدماج - فرنسا تتمتع.

وهكذا اتفق الكل على الفرنسة والتنصير والإدماج، ولن يتحقق هذا ما دامت اللغة العربية قائمة، ولما كانت اللغة العربية هي لغة القرآن فقد بدئ بمحاربتها كما ذكرنا بتحطيم مؤسساتها ومحاربة معلميه، وتطور المشروع إلى إعتبارها لهجة من لهجات إفريقيا الفلكلورية، وتطورت الفكرة عند الأبياء البيض والمستشرقين لتصبح دعوة إلى العامية بدل الفصحى، وإزدهرت الفكرة بعد الحرب العالمية الأولى لضرب الحركة الوطنية في الجزائر، وأصبحت عند دعاة الحركة البربرية قاعدة أساسية من قواعد حركتهم. ونشير هنا إلى أن محاربة اللغة العربية يعد قاعدة مشتركة بين جميع مبشري العالم ومستشركيه غير الحيايين وجميع المستعمرين.

وهنا ننقل إلى الحديث عن الخطة التي إتبعها فرنسا للفرنسة للقضاء على اللغة العربية لتحقيق أهدافها الثلاثة السابقة ذكرها: الفرنسة والتنصير والإدماج لأخذ الأرض الجزائرية وإستعباد أهلها إلى الأبد.

#### الخطة أو الخطوط العامة لسياسة الفرنسة:

تحطيم المؤسسات الثقافية العربية الإسلامية : وبالقضاء عليها قضت فرنسا على القاعدة الأساسية للتعليم العربي الإسلامي، وكذا على الوسائل التي كان يتحقق بها وهو ما يبناه في الأوضاع الثقافية.

نهج سياسة التجهيل: لقد كانت نسبة المتعلمين في الجزائر غداة الإحتلال أكبر من نسبة المتعلمين في فرنسا، وهو ما سجله الجنرال الفرنسي ( Daumes ) الذي أشرف بنفسه على عملية إحصاء نسبة إنتشار الثقافة في الجزائر، فوجد أن نسبة المتعلمين من الشباب الجزائري تزيد على 40 % من سكان الجزائر في بدايات الإحتلال، وبعد قرن من الإحتلال تقول بعض الدراسات الفرنسية الموضوعية أن نسبة الأمية بين الأهالي بلغت 90 % وذلك في حدود 1948 م، وبينت إحصائيات عام 1954 م أنه من بين 13.7 %

من الجزائريين المتعلمين أي الذين يحسنون الكتابة والقراءة يوجد 75% مفرس و 25% معرب<sup>(1)</sup> هم خريجو المدارس القرآنية وجمعية العلماء، وهذا نتيجة لسياسة التجهيل التي إتبعها فرنسا تجاه الأهالي ومحاصرتهم في الأحرش والفيافي بعد أن خربت مؤسسات التعليم ونهبت تراث الشعب الثقافي<sup>(2)</sup>. ونسجل هنا بأنه رغم أهمية المدرسة الفرنسية في التمكين للإستعمار إلا أن سياسة فرنسا التعليمية ظلت تتأرجح منذ 1830 م إلى ما بعد 1908 بين فكرتين متعارضتين: التعليم بواسطة الفرنسية والدمج، والحرمان من أي تعليم<sup>(3)</sup>. وكانت حجة المعارضين من المعمرين - وغيرهم - خوفهم من فقدان اليتيم العاملة وإنتشار الروح الوطنية<sup>(4)</sup>. حتى ولو كان هذا التعليم على شكل إمتياز، وقط لمن ترضى عنهم الإدارة الفرنسية<sup>(5)</sup>. وهو ما ظهر في الوثيقة التي تبناها مؤتمر المستعمرين (المعمرين) في الجزائر في سنة 1908م وتضمن ما يأتي: "اعتقادنا منا بأن تعليم الوطنيين إنما ينطوي على محاذير حقيقية سواء في المضمار الاقتصادي أو بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين الفرنسيين فإن المؤتمر قد أعرب عن رغبته في إلغاء التعليم الابتدائي لهؤلاء الوطنيين إلغاء نهائيا<sup>(6)</sup>. ولقد اشتد الصراع بين الفرنسيين حول الفرنسية الأهالي أو تركهم أميين مع إتفاقهم جميعا على محاربة لغة القرآن، ولكن قرارات الحاكم العام الفرنسي بالجزائر جيرمان (Jirman) والتي كانت تنص على أن كراهية الأهالي للوجود الفرنسي بالجزائر تقاس حدتها بمدى مستوى تعلم الأهالي في المدارس الفرنسية، فإذا كانوا أميين فإن كراهيتهم للوجود الفرنسي تكون أعنف عكس من تعلموا في المدارس الفرنسية فإن كراهيتهم له تكون ألطف<sup>(7)</sup>، كما صرح رجال الإستعمار أنفسهم بأن التعليم الفرنسي يزودهم بوسيلة مهمة لإضعاف نفوذ رجال الدين ورجال التعليم العربي وباعة التمانم الذين لا ينفكون يناصبون العداء للتيار الفرنسي، وليس لفرنسا من وسائل أكثر فعالية من التعليم الابتدائي<sup>(8)</sup>. كل هذا جعل فرنسا لا تلغي التعليم الابتدائي وتجعل التعليم يحقق أهدافها لا أهداف من تعلموا.

وإذا كانت فرنسا قد توصلت إلى هذا فإنها ظلت تحارب التعليم العربي الإسلامي الحقيقي بالجزائر. ولكي تحقق أهدافها فإنها أصدرت ما يأتي:

(1) عبد الله حمادي المرجع السابق، ص 13 - 33.

(2) محمد العربي ولد خليفة، ملاحظات أولية حول تأثير المدرسين التقليدي والإستعمارية في نظامنا التعليمي الراهن، مجلة سيرتا، معهد العلوم الإجتماعية، جامعة قسنطينة، قسنطينة، نوفمبر 1979، السنة 1، ع 2، ص 98.

(3) رايح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 114.

(4) عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 17.

(5) إسام العسلي، الله أكبر وانطلقت ثورة الجزائر، ص 43.

(6) المرجع نفسه، ص 43.

(7) عبد الله حمادي المرجع السابق، ص 16.

- **منحق مؤرخ في 17 ماي 1851** م يمنع على الجزائريين تعليم أي شيء في المساجد له علاقة بالعلوم العصرية الدنيوية<sup>(1)</sup>. ولهذا القرار أهميته الفصوى. ذلك أن رجال الإستعمار أدركوا أن إستعمارهم للجزائر إنما حصل بسبب تفوقهم العلمي، ولذلك إعتقدوا أنه مادام الجزائريون متأخرين علمياً فإن الإحتلال لن يزول، فعملوا بشتى الوسائل لمنع الجزائريين الأصلاء من إكتساب ما يسمى اليوم بالتكنولوجيا<sup>(2)</sup>. ولقد أدرك الجزائريون هذا التوجه الإستعماري الراسي إلى إبادة الشخصية الجزائرية وتكريس الإحتلال، فواجهوه بفكرة الرفض الذي ظل إلى انكسار ثورة المقراني عام 1871 م، ولكن كثرة الضغوط والتأثير جعل هذا الرفض يتضائل تدريجياً وأخذ الناس يدخلون أبناءهم المدارس الفرنسية، ولكي تستغل فرنسا هذا التساهل أصدرت ما يأتي :

- **قانون جول فيري ( Jules Ferry ) الشهير<sup>(3)</sup>** . الذي صدر في 13 فبراير سنة 1883 م حيث كان جول فيري آنذاك (1883م) وزير التربية والتعليم، وأدرك أهمية المدرسة في التغلب على الروح الوطنية الجزائرية التي أدت إلى إشعال الثورات المتتالية في وجه الإستعمار الفرنسي في الجزائر وجعلت الجزائر جحيماً لا يطاق بالنسبة له، ولذلك أصدر قانون 13 فبراير 1883م<sup>(4)</sup>. وينص هذا القانون على مجانية التعليم وتعميمه بين الأهالي<sup>(5)</sup>. وفتح بعض المدارس من أجل تحقيق الأهداف السابقة. ويلاحظ أن هذا القانون إقتصر فقط على الذكور ولم يشمل البنات<sup>(6)</sup> <sup>(7)</sup>. وإذا كان قانون جول فيري ينص على مجانية تعليم الجزائريين وتعميمه، فإنه ينص كذلك على وجوب تعليم أبناء الأهالي<sup>(8)</sup>. ولكن يجب أن نشير إلى أن هذا الإيجاب الذي نص عليه هذا القانون إنما هو إيجاب على تعلم اللغة الفرنسية لا العربية، لأنها هي وحدها لغة التعليم في هذه المرحلة. ويدخل تحت قانون الإيجاب، كل من بلغ ست سنوات من عمره ويستمر إلى بلوغه 4 سنة، حيث تبتدى كاترة العراقيين توضح أمامه ليقطع عن التعليم ولا سيما ان بدت عليه ملامح النجاسة والذكاء. والسبب في ذلك أن فترة القانون الإيجابي كافية لزرع أخلاق الفرنسيين ودينهم وطباعهم في نفوس الأبناء الجزائريين<sup>(9)</sup>. ولا أصدق دلالة على هذا من أن التعليم كان في هذه المدارس كله فرنسياً محضاً بهدف تقريب الأطفال المسلمين من فرنسا بواسطة لغتها حتى يتأتى ابتلاعهم وإدماجهم<sup>(10)</sup>. وهنا ندرك

<sup>(1)</sup>عبد الحميد بن باديس، البصائر، قسنطينة 10 جوان 1938م، ص 1-2، والكلام للدكتور ابن خليل من خلال رده على (ريبي) قسنطينة، سبسطة بالفرنسية في جريدة جمعية النواب (الانطوان) ونشرته البصائر معرباً.

<sup>(2)</sup>وهو ما يطلقه الغرب اليوم على العراق، ويحطم تقدمه التكنولوجي، بالقنبلة والحصار والمراقبة.

<sup>(3)</sup>عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 17.

<sup>(4)</sup>رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 135.

<sup>(5)</sup>محمد العربي ولد خليفة، المرجع السابق، ص 98.

<sup>(6)</sup>رابح تركي، المرجع نفسه، ص 135، 140.

<sup>(7)</sup> والواقع أن أول من فتح باب المدرسة للبنات هو جمعية العلماء وليست المدرسة الفرنسية بشقيها الرسمية والتبصيرية.

<sup>(8)</sup>عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 17.

<sup>(9)</sup>محمد بن عبد الكريم الجزائري، الثقافة ومآسي رجالها، ص 180.

<sup>(10)</sup>محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والمغرب، ص 262.

خطورة ما أصدره جول فيري. ولكننا لا نستغرب منه ذلك، فهو الذي استقدم بورغاد إلى تونس كمنسنا  
ذكرنا أثناء حديثنا عن حياة بورغاد وبيننا أهمية الفرنسية عند بورغاد في التصدير والتمكين للاستعمار.  
وهكذا فإن ما يلاحظ على هذا التعليم:

- قصور التعليم على الابتدائي : كان تعليم الأهالي قاصرا إذن على التعليم الابتدائي ولا يتجاوز الإلحاق  
قليلة جدا من أبناء العائلات الكبيرة كالباشاوغوات وغيرهم. ومع أن تعليم الأهالي كان قاصرا على  
الابتدائي، إلا أن هذا الابتدائي خاص<sup>(1)</sup>. ذلك أنه من عام 1883 م إلى عام 1947 م كان تعليم  
الجزائريين مفصولا عن تعليم الأوربيين<sup>(2)</sup>. حيث جعلت نوعين من التعليم أحدهما راق من الدرجة  
الأولى، يتطور باستمرار وفقا لأحدث ما يظهر من نظريات في إصلاح برامج التعليم وطرق التربية  
على ضوء ما يدعو إليه علم النفس وتطور الحياة الاجتماعية في الأمم والشعوب، ويسمى "التعليم  
الأوروبي"، وهذا خاص بابناء المستوطنين الأوربيين، ويمتاز كذلك بتأطيره بأحسن المعلمين والأبنية  
والتجهيزات<sup>(3)</sup>. وكانت هذه المدرسة تابعة في مقرراتها إلى نظام التعليم المقرر بفرنسا<sup>(4)</sup>.

أما التعليم الخاص بالجزائريين فكان يتم في مدارس خاصة بهم، التعليم بها أخط في المستوى من ناحية  
المعلمين والتجهيزات المدرسية والوسائل التعليمية والبرامج الدراسية والأبنية والإكتظاظ داخل الأقسام  
وغيرها ويسمى "التعليم الأهلي"، وهو ما جعل التعليم الأول أي : التعليم الأوروبي يعد أكفأ لمباشرة  
الأعمال في مختلف ميادين الحياة، وتعد المدرسة الأهلية أعوانا لهم وخداما وحشما<sup>(5)</sup>. هذا التمييز بين  
التعليمين نجده يمس حتى مدارس ترشيح المعلمين. وهكذا نجد الاختلاف بين المدرستين في محتوى  
البرامج والتأطير والأهداف. وما يهمنا هنا أكثر أن النوع الثاني كان يجبر تلاميذه على استزادة سنة كاملة  
قأهيلية من أجل التلقين المكثف للغة الفرنسية لأبناء الاهالي<sup>(6)</sup>، رغم أن هذه المدرسة كانت مفرنسة  
100%. ظل هذا النظام للتعليم إلى غاية 1947 م حيث تقرر إلغاؤه ودمج التعليمين في تعليم واحد، وذلك  
لأول مرة في تاريخ الاحتلال، والسبب الظاهري هو صدور قانون 20 سبتمبر 1947 م الذي قرر  
المساواة بين الجزائريين والأوربيين وطبق الإدماج على الجزائريين مما جعل تعليمهم يدمج مع تعليم  
الأوربيين<sup>(7)</sup>. ونحن نعتقد أن هذا الدمج إنما اضطرت إليه فرنسا بسبب ازدهار مدارس جمعية العلماء  
فلم يعد أمامها خيار فرأت أن الفرنسية والنسخ لم يعد لهما سبيل في ميدان التعليم ما لم ترغب الأهالي في  
اللجوء إلى مدارسها وإلا عزف الناس عنها جميعا.

(1) عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 28.

(2) رايح تركي، التعليم القومي، ص 158.

(3) المرجع نفسه، ص 159 - 160.

(4) عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 28 - 29.

(5) رايح تركي، التعليم القومي، ص 159 - 160.

(6) عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 28 - 29.

(7) رايح تركي، التعليم القومي، ص 159 ، 160.

ونفذ قرار الدمج من طرف الحاكم العام الفرنسي مارسيل آدموند ناسجين ( Marcel edmond Neugefen) الوزير السابق للتربية الوطنية الفرنسية، ومع هذا الدمج النظري فإنه من الناحية العملية ظل طريق التعليم أمام الأهالي يدور في أفق المدرسة الابتدائية أو مدرسة ترشيح المعلمين<sup>(1)</sup>. ويجب أن نشير هنا إلى أن الذين كانوا يختارون للتعليم من الأهالي كانوا يكونون تكويننا لا تكيا<sup>(2)</sup> فيما يسمى بالمدارس العربية الإسلامية، وظلت المدارس الأوروبية هي الموصول الحقيقي والوحيد إلى أبواب المعاهد والثانويات والجامعات والمعاهد العليا<sup>(3)</sup>. وهذا يعني وبوضوح أن هدف تعليم الأهالي جعلهم يدوبون إراديا في المجتمع والثقافة الفرنسية ثم تسهيل مهمة الإستعمار والمستوطنين الفرنسيين في المعاملات وتنفيذ الأوامر حيث تصدر إليهم بالفرنسية وكذا يستخدمون في المزارع والمنازل الخ، فلا بد أن يعرفوا لغة المستعمر حتى يستخدمهم<sup>(4)</sup>. وفي الوقت ذاته سلخهم من تراثهم ومقومات شخصيتهم ومنعهم من إستيعاب التراث العلمي الفرنسي في الوقت ذاته، ولا أدل على هذا من أنه بعد 100 سنة من الإحتلال لم يتكون أي جزائري في العلوم التطبيقية (Science Appliquées). و 32 طبيبا. و 505 معلما، وهؤلاء تكونوا غالبا بوسائلهم الخاصة في فرنسا أو في غيرها<sup>(5)</sup> لأنها لم تكن تقدم سوى معلومات سطحية تفيد التلميذ في أداء الخدمات للمعمرين والتخلي بالطاعة والإستجابة لما يؤمرون به من طرف (الكولون) وغيرهم<sup>(6)</sup>.

قانون 1892 م : الذي يمنع الأهالي من تأسيس أي مدرسة خاصة ولا مكتبا حرا<sup>(7)</sup> لتدريس الدين واللغة العربية ولو بأموالهم الخاصة. وطبق هذا بالفعل، وإذا سمح بذلك فإنه يكون قاصرا على حفظ القرآن الكريم دون تفسير ولا جغرافية ولا تاريخ ولا رياضيات الخ. وتظل الرقابة مستمرة على هذه المدارس. فإذا رأيت فيها بعض النجاح أغلقتها. وظلت تبتكر أساليب محاربة اللغة العربية<sup>(8)</sup> التي ستشير إليها.

ولكي يتأتى لفرنسا التحكم الكلي فإنها قيدت هذا السماح الإستثنائي بقانون آخر، هو قانون الرخص: قانون حظر فتح المدارس إلا برخصة: ففي 24 ديسمبر 1904 م صدر قانون فرنسي في الجزائر يحظر على أي جزائري أن يفتح أو يتولى إدارة مدرسة عربية أو كتاب لتعليم القرآن الكريم إلا بترخيص من عامل العمالة (المحافظ) في المناطق الشمالية التي تخضع للحكم المدني، أو الحاكم العسكري في المناطق الجنوبية الصحراوية التي تخضع للحكم العسكري. وينص القانون على معاقبة كل فرد أو جماعة تقوم بفتح مدرسة عربية بدون ترخيص مسبق من إدارة الإحتلال إما بالحبس أو بالغرامة أو بالعقوبتين معا،

<sup>(1)</sup>عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 29.

<sup>(2)</sup>مالك بن نبي، الطفل، ص 79 ، 78.

<sup>(3)</sup>عبد الله حمادي ، المرجع السابق، ص 29.

<sup>(4)</sup>أحمد العربي ولد خليفة، المرجع السابق، ص 98.

<sup>(5)</sup>المرجع نفسه، ص 98.

<sup>(6)</sup>عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 26.

<sup>(7)</sup>عبد الحميد بن باديس، البصائر، 10 جوان 1938م، ص 1 ، 2.

<sup>(8)</sup>محمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق ( في الجزائر والعالم العربي )، دط، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981م، ص 166 ، 167 .

- كما ينص على أنه يجوز (من حق) لنفس السلطة سحب الرخصة مؤقتا أو نهائيا، و غلق أبواب تلك الكتابات أو المدارس العربية. وعندما تمنح الرخصة يشترطها عدة شروط منها :
- اقتصار التعليم على حفظ القرآن الكريم وحده.
  - عدم تفسير أي آية ولا سيما ما يتعلق بآيات الجهاد والظلم والإستبداد .
  - عدم تدريس تاريخ الجزائر خاصة و التاريخ العربي و الإسلامي عامة، وكذا جغرافية الجزائر و البلاد العربية<sup>(1)</sup>.
  - عدم تدريس الأدب العربي بجميع فنونه.
  - عدم تدريس المواد الرياضية و العلمية<sup>(2)</sup>. كل المواد المحرمة السابقة إذا أراد أحد أن يتعلمها فليتعلمها بلغة فرنسا و وفقا لوجهة نظرها<sup>(3)</sup>.
  - لا يجوز لهذه الكتابات أو المدارس أن تفتح أبوابها للأولاد الذين هم في سن التعليم أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية، وذلك في القرى التي تبعد 3 كلم عن المدارس الفرنسية. أما إذا كانت القرية لا تبعد 3 كلم عن المدارس الفرنسية فإن الرخصة لا تمنح أبدا حتى لا يترك الأطفال المدرسة الفرنسية و يلتحقون بالمدرسة العربية<sup>(4)</sup>-<sup>(5)</sup>. أما أوقات التدريس المسموح بها فكانت محددة من طلوع الفجر إلى الساعة 8 صباحا، ومن الساعة 4 مساء إلى صلاة العشاء، بحجة أن الأوقات التي ما بين الساعة 8 صباحا و 4 مساء كلها من حظ اللغة الفرنسية<sup>(6)</sup>. و الواقع أن الغرض التربوي و اوضح من هذا التحديد و لا سيما بالنسبة للأطفال الصغار فهذا التوقيت غير ملائم لهم إطلاقا، إذ كيف يطلب من طفل في السادسة النهوض قبيل صلاة الفجر ليصل إلى الكتاب أو المدرسة و يبدأ الدراسة بعد صلاة الفجر مباشرة، فمتى ينظف نفسه و يتناول فطوره و هو بحكم سنه في حاجة ماسة إلى الفطور، و متى يصل إلى المدرسة التي عادة ما تكون بعيدة عن السكن؟! و إذا كان وقت الصباح لا يساعده فإن وقت المساء كذلك لا يساعده لاسيما إن كان صغيرا، و كيف يطلب من طفل النهوض قبيل الفجر و عدم النوم إلا بعد صلاة العشاء؟! . يعني أوقات الدراسة الصباحية و المسائية كلها تصادف التلميذ و هو في حالة نوم لأنه لا يستطيع القيلولة وسط النهار بسبب إشتغال الأسرة بالفلاحة و غيرها أي خارج البيت رجالا و نساء و خاصة في القرى و الارياف، و كلنا يعلم أن أغلب الجزائريين - إن لم يكونوا جميعا- كانوا فلاحين و خماسين. مما ينشأ عنه كراهة الدراسة و التسرب المدرسي و عدم التحصيل

<sup>(1)</sup> أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية دراسة و تاريخ، دار العلم للملايين، بيروت 1958م، ص 129، 130.

<sup>(2)</sup> رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 154، 155.

<sup>(3)</sup> أحمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، ص 263.

<sup>(4)</sup> و الواقع أن أغلب الأهالي كانوا يمتنعون أبناءهم من المدرسة الفرنسية رغم يقينهم بأن الفرنسية هي لغة المعيشة، و كانوا يمتنعون بأنفسهم إلى الكتابات رغم يقينهم بأنه لا مستقبل لأبنائهم بها، و لقد عايشت هذه الظاهرة في السنوات الأخيرة للإحتلال عندما قررت فرنسا شيرع التعليم الإبتدائي الفرنسي بين الجزائريين.

<sup>(5)</sup> رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 154، 155.

<sup>(6)</sup> محمد بن عبد الكريم الجزائري، الثقافة و مآسي رحلتها، ص 181.



العلمي الجيد الخ، وإذا كان هذا التوقيت لا يساعد التلميذ فإنه لا يساعد المعلم كذلك مما يؤدي إلى زهد الناس في التعليم.

وقد أصبح هذا القانون سلاحا رهيبا في يد فرنسا ضد كل من ترى فيه غيرة على العربية والإسلام فإسارعون إلى إغلاق المدرسة وتغريم معلميها والزج بهم في سجون يسجون فيها مع اللصوص والمجرمين ويقدمون للمحاكمة بتهمة تعليم اللغة العربية بدون ترخيص، أو بطريقة لا ترضي سياسة الإستعمار<sup>(1)</sup>.

ولكي يجهز الإستعمار على اللغة العربية تماما أضاف إليها :

حظر استعمال اللغة العربية في المجال الرسمي حظرا مطلقا : فكل الوثائق والمستندات لا تقبل في الإدارة إلا إذا كانت بالفرنسية، وكذا كل عناوين الرسائل وأسماء الشوارع والمحلات والأماكن العامة وإشارات المرور، حتى التوقيع على الوثائق لا يقبل إلا بالفرنسية مما جعل المتعلم بالعربية والأمي في درجة واحدة أمام الإدارة<sup>(2)</sup>.

فرض حصار محكم على المجتمع الجزائري وغلق جميع النواقد (المشرفية) : التي يمكن أن يتسال منها شعاع المعرفة والوعي القومي والفكر الإسلامي النقي واللغة العربية، وكما حاولت الإدارة الإستعمارية أن تفرق بين العرب والبربر، - وهو ما اشترك في التخطيط له كل رجال الإستعمار من إكليروس وإستشراق وجيش ودولة-، أي بين الناطقين بالعربية والناطقين بالبربرية محليا من أبناء الشعب الواحد داخل القطر الواحد، إنتهجت نفس الطريقة للفصل بين المجتمع الجزائري وبقية المجتمعات في البلدان العربية والإسلامية الشقيقة<sup>(3)</sup>. بل فرضت حصارا محكما حتى على موكب الحجيج في طريقة، وحتى وهو بالبقاع المقدسة، بما كانت تبثه فيه من عيونها<sup>(4)</sup>. وهكذا كان الجزائريون يعاملون بقوانين مخصوصة غاية في الشدة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الإجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الكتب والجراند، أي لا يصل شيء من المشرق إلينا من الجرائد والكتب العربية. وعندما طلبت حكومة مصر في سنة 1952 من فرنسا السماح لها بإنشاء معهد ثقافي في الجزائر باسم "معهد فاروق للدراسات العربية" رفضت فرنسا رفضا قاطعا مع أن لفرنسا عشرات المعاهد المماثلة في مصر وغيرها من البلدان العربية<sup>(5)</sup>. وهنا نشير إلى :

موقف السلطات الفرنسية العليا من قضية اللغة: وقفت السلطات الفرنسية موقفا حازما من قضية لغتها، فرأت ضرورة تدريسها لإشعار الأهالي أنها السبيل الوحيد للترقي الوظيفي ولأن " لتعليم اللغة قيمة نفعية، مع أنها أكثر من ذلك، فهي التي تقود المرء دون أن يدري إلى أثر الفرنسيين ولكي يسير على منوالهم"<sup>(6)</sup>.

<sup>(1)</sup> رايح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 155.

<sup>(2)</sup> أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق، ص 166.

<sup>(3)</sup> المرجع نفسه، ص 171.

<sup>(4)</sup> ولقد أشرنا إلى هذا أثناء حديثنا عن طلب جمعية العلماء بتحرير الحج من قبضة فرنسا

<sup>(5)</sup> أحمد بن نعمان، التعريب، ص 171 ، 172.

وإن التحول في عقول الشباب المسلم لن يتم إلا بواسطة اللغة الفرنسية التي تعلمها عادات الفرنسيين وتقاليدهم ومؤسساتهم<sup>(1)</sup>. وهو ما بين أيضا الحاكم العام الفرنسي في الجزائر ناجيلان NAEGELIN في سنة 1949 م قائلا: "إن مستقبل الجزائر المسلمة الفرنسية يحضر الآن في المدارس الفرنسية".<sup>(2)</sup> والواقع أن الذي دفع فرنسا إلى تغيير سياستها في هذا المجال، أي توسيع نطاق المدرسة الفرنسية أنه عندما ازدهر تعليم جمعية العلماء شعرت فرنسا بخطورة الموقف، فأخذت منذ 1944 م ببذل مجهودات جديدة باستعادة المبادرة والقضاء على المدارس الجزائرية الحرة ولا سيما مدارس جمعية العلماء. وذلك بفتح أبواب المدارس للتعليم الابتدائي في المدارس الرسمية الفرنسية فزاد عدد الطلاب في هذه المدارس. غير أن الذين لم تتسع لهم بقوا كثيرا، لأن فرنسا لم تبني مدارس جديدة، بل اخترعت نظام المدارس التي تعمل بنصف دوام الذي يحقق هدفا مزدوجا.

- تخفيض مستوى التعليم أو تعميم الجهل بالتعليم.

- استيعاب أكبر عدد ممكن من التلاميذ - بمسحهم لمقاومة جهد المدارس الإسلامية الخاصة وحرمانها من التطور<sup>(3)</sup>. ومع هذا فقد كان التركيز على منطقة القبائل الكبرى.

**التركيز على فرنسة وتعليم منطقة القبائل الكبرى:** إذا كانت التصريحات السابقة تبين أهمية الفرنسية في مسخ الجزائريين وجعلهم يذوبون في العمالة لها من حيث لا يشعرون، فإن فرنسة منطقة القبائل الكبرى كانت أكثر أهمية، إلى حد أن كتب السيد برنارد BERNARD مدير مدرسة المعلمين في الجزائر يرد على قرارات مؤتمر المستوطنين الأوربيين السابق الذكر الذي إنعقد بالجزائر في 29 مارس 1908 والتي نادوا فيها بضرورة إلغاء التعليم الابتدائي الخاص بالجزائريين، كتب قائلا يشرح أهداف فرنسا من نشر التعليم الفرنسي الخاص بالأهالي: "ليس من الكرم أو الجود في شيء أن ننشر الجامعة العلم في القبائل ( الأمازيغ) بل دعونا نقولها كلمة صريحة مدوية: إن ذلك في مصلحة فرنسا وحدها. وهو ما ننضغه نصب أعيننا، وقد يضيفي على تعليمنا طابعا خاصا ويساعد مدرسينا على تطبيق طرقهم ووسائلهم الخاصة، كما يضيفي في الوقت نفسه على برامجنا طابعها الخاص. إنه لمن الأهمية بمكان أن نثبت في أذهان الأهالي فكرة ريفية ونقية عن وطننا بتأقنين تلامذتنا دروسا تتناسب مع أعمارهم، وتتفق مع درجة ثقافتهم عن عظمة فرنسا وجيشها وثروتها<sup>(4)</sup>، وليس من شك في أن مركزنا سيكون أقوى تدعيمًا لو استعظنا أن ندع الأهالي يفكرون من تلقاء أنفسهم وبمحض إرادتهم ويقولون فيما بينهم: "ألا ما أقوس وأكرم هؤلاء الفرنسيين<sup>(5)</sup>". إنهم أحسن ما نود أن يكون عليه أساتذتنا. إن المدرسة الأهلية في شكلها

<sup>(1)</sup> عبد الحكيم الأربد، المحاولات الإستعمارية لتفويض الإسلام في الجزائر، ص 368، 369، 370.

<sup>(2)</sup> عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 17.

<sup>(3)</sup> بسام العسلي، المرجع السابق، ص 43، 44.

<sup>(4)</sup> أي تكويين أحيال منهزمة نفسها مما يربيهما على الذل والخروج والخضوع.

<sup>(5)</sup> ولقد أصبح بعض الجزائريين فعلا يقولون ذلك.

الزاهن و عملها الخيري المزدوج ليست أداة تجديد خلقي فحسب، بل هي على وجه الخصوص أداة سلطة وسلطان، ووسيلة نفوذ وسيطرة، وسنخلق من رعايانا عضدا مفيدا جدا وساعدا قويا فرنسا<sup>(1)</sup>.

والواقع أن ليس من العيب أن يشجع هذا التصريح مع ما قرره قبلا أقطاب التيسير، وقد بينا ما فعله لافيجري ببلاد القبائل إلى حد أن ثورة المقراني كان أحد أسبابها نشاط المبشرين ببلاد القبائل.

ولا أدل على أهمية فرنسا البربر بالنسبة للإستعمار من أنه حتى سياسة فرنسا لم تكن موزعة توزيعا جغرافيا عادلا، فبعض المناطق حظيت بعدد معتبر من المدارس الفرنسية عكس مناطق أخرى، فمنطقة القبائل كانت من المحظيات حيث أن مقاطعة بني يني حظيت بالقسط الأوفر، فكانت في تلك المناطق ما معدله مدرسة في كل قرية منذ عام 1924<sup>(2)</sup>، ومن بني يني في توريك ميمون تخرج من عند الأباء البيض مولود معمري ميجي البربرية - ومحمد أركون<sup>(3)</sup> - أكبر منظر جزائري للناكبة. وهذا في حين كانت لا توجد مدرسة واحدة بسكيكدة على سبيل المثال<sup>(4)</sup>. وهنا نتساءل :

ما هي مراحل التعليم التي كان يسمح بها للجزائريين الوصول إليها؟ والجواب: أن التعليم في أساسه كان قاصرا على الابتدائي ولكنه مع ذلك ولتكميل المشروع الإستعماري فقد أسست فرنسا ما سمي بالمدارس الإسلامية الثلاث:

تأسيس المدارس الإسلامية الثلاث : FRANCO MUSULMAN : بعد قضاء فرنسا على مراكز التعليم الإسلامي وجدت نفسها في حاجة إلى أبواب تصنعهم على عينيها من مفتين وقضاة في القضاء الإسلامي وأئمة ومترجمين في الإدارات الحكومية إلخ، فأصدرت مرسوم 30 سبتمبر 1850 م الذي نص على تأسيس ثلاث مدارس للتعليم الإسلامي تشتمل على المرحلتين الثانوية والعالية . فتأسست هذه المدارس في كل من المنية ثم إنتقلت إلى البليدة ثم إستقرت بالعاصمة، وثلسمان، وقسنطينة. وقد أعيد تنظيم هذه المدارس عدة مرات<sup>(5)</sup>. وقد أسستها فرنسا تحت شعار ترقية المسلمين بالإصلاحات التي أدخلتها على المدارس الحكومية وفقا لمرسوم 23 يوليو 1893 م. فأخذت تقوض المدارس القديمة لتستبدلها ببنائات جديدة فاخرة مما جعلها تبني المدارس الثلاث على نمط يشبه النمط المغربي المحلي. ونلاحظ أن مرسوم انشاء هذه المدارس صدر في عام 1850 م ولكن التنفيذ لم يتم إلا ما بين 1898 م و 1901 م ، أي بعد مرسوم ما يسمى بترقية المسلمين<sup>(6)</sup>. ومن أغراضها في بناء هذه المدارس إضافة إلى تكوين ما تحتاجه

<sup>(1)</sup> أحمد الخطيب : الثورة الجزائرية، دراسة وتاريخ ، ص 133.. عن تركي راجح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 134.

<sup>(2)</sup> عبد الله حمادي ، المرجع السابق، ص 24.

<sup>(3)</sup> بو عمران الشيخ، عاورة في فندق بانوراميك ( مرجع سابق).

<sup>(4)</sup> عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 24.

<sup>(5)</sup> راجح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 150.

<sup>(6)</sup> سعد الدين بن أبي شنب، النهضة العربية في الجزائر في النصف الأول من القرن 14 هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، 1964م، السنة 1، ع 1،

من أوق، إخفاء مظالمها الاستعمارية ومظالمها<sup>(1)</sup>. ولا أقل على هذا أن مجموع المتخرجين من تلك المدارس كان آنذاك لا يبلغ عدد الأصابع<sup>(2)</sup>.

ومكذا أصبحت هذه المدارس الثلاث تباشر التعليم بالفعل، واشترط لمن يريد الالتحاق بها من اندالنية أن يكون حاصلا على الشهادة الابتدائية بالفرنسية<sup>(3)</sup>. وأن يجتاز مسابقة النحول إليها، لتنتقي منهج فرنسا من تراه صالحا ليكون بوقا لها. ولذلك كانت فرنسا تخصص بعض المنح السنوية لبعض الطلبة<sup>(4)</sup>. وأما الوظائف المخصصة لهم بعد التخرج، فهي: وظيفة عدل، باش عدل، قاضي، معلم، إمام، كساتب عند المتصرف<sup>(5)</sup>. أي كاتب في المكاتب العربية ومعلم في التعليم الأهلي، وقاضي في القضاء الإسلامي وإمام، ومفتي<sup>(6)</sup>. وبهذه الأصناف تمكنت فرنسا من تدمير المؤسسات الإسلامية وإخراجها من طابعها الإسلامي إلى خدمة الاستعمار الفرنسي، وهو ما جعل جمعية العلماء المسلمين تطالب بتحرير المؤسسات التي كان يديرها هؤلاء الخريجون من الحكومة الفرنسية.

ولأهمية دورها الاستعماري فقد مدحها صوالح محمد ولد معمر وبين أفضليتها على الزوايا، فيذكر مرغيا في الإنخراط فيها ومشنعا على الزوايا قائلا: "لكن شيوخ المدارس - أي هذه المدارس الثلاث - معلمين على شيوخ الزوايات. وبالزيادة في المدارس يقرأوا الفرنسية"<sup>(7)</sup>. والسبب في ذم الزوايا واضح، فهي أنها كانت تمثل مكان الحصانة الأمين. وخالصة هذه المدارس كما بين رابح تركي أنه نظرا لأهمية اللغة القومية في بناء الشخصية فقد أطلق الاستعمار في وجهها جميع أبواب معاهد التعليم التي أنشأها لتعليم الأهالي ما عدا المدارس الثلاث فقط التي أنشأها بغرض تكوين مجموعة من الموظفين لتقلد الوظائف النيدية والأهلية الخاصة بالجزائريين، ومع ذلك فإن هذه المدارس كان الابتدائي فيها مفرنا 100 %، والعالي لمن وصل: الخيار بين العامية والفصحى، يعني الفرنسية أيضا، وكان لهذه المدارس وظيفة أخرى هي مفاضة الزوايا التي كانت تقاوم السياسة الاستعمارية وتعمل على نشر اللغة العربية والثقافية الإسلامية للجزائريين والمحافظة عليهما، ولتحقيق هذا الغرض، فقد سمح الاستعمار بتدريس نصيب من العربية<sup>(8)</sup> - مزيف - وهو ما جعل صوالح يمدحها ويذكر أن معلمها أفضل من معلمي الزوايا لتزويد الناس في الزوايا لقبولوا على هذه المدارس التي من حسناتها الإضافية حسبه تدريس الفرنسية.

<sup>(1)</sup> وبذلك المظاهر الكاذبة التي كانت تدل على الرأي العام في العالم الإسلامي طن بها محمد عبده ثانيا حسنا وإطمأن بانه إلى مواعيدها المفسرة وإقنع في حديثه، إلى الجزائريين أثناء زيارته للجزائر في سنة 1903م بالمسائل الدينية والأدبية ولا سيما أن زيارته هذه تمت بعد فتح هذه المدارس الثلاث بستين (سعد الدين بن أبي شيبه المرجع السابق، ص 44).

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 43.

<sup>(3)</sup> رابح تركي، للشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 150.

<sup>(4)</sup> صوالح محمد ولد معمر، التدريس المتوسط للوارد المتوسط في استعمال العربية الجارية عند مسلمين الجزائر، دط، مطبعة كاربونيل، الجزائر، 1923م، ص 112، ويذكر صوالح أن هذه المنح كانت مخصصة للطلبة الفقراء - وهل كان جزائريون أغنياء - مما بين الطابع التنصيري لهذه المنح؟!

<sup>(5)</sup> المرجع نفسه، ص 112.

<sup>(6)</sup> رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 149.

<sup>(7)</sup> صوالح محمد ولد معمر، المصدر السابق، ص 112.

<sup>(8)</sup> رابح تركي، التعليم القومي، ص 124.

وفي هذه المدارس كانت فرنسا تهيب من الأهالي التابعين لسيستها من يقوم بالخدمات التي خان (الكولون) في حاجة إليها كالمترجمين، حيث كانت تشكل الإطار القانوني والثقافي الحكومي الذي يسمح فيه بالتدريس النسبي للغة العربية وكذلك الخدمات التي كانت الإدارة الإستعمارية ذاتها في حاجة إليها بما يمكن للإستعمار و التنصير، ويتمثل هذا في قضاة المحاكم الأهلية والمفتيين والأئمة<sup>(1)</sup>. وهذا يدعونا إلى الإشارة إلى :

المناهج وطرق التدريس في هذه المدارس الثلاث المسماة " المدارس الإسلامية الفرنسية " FRANCO MUSULMAN: رغم إطلاق هذا الاسم على هذه المدارس، إلا أنها فرنسية 100 %، لأن التعليم فيها لا عربي ولا إسلامي بل هو فرنسي في المناهج والتوجيه والأهداف لوأد اللغة العربية وفرنسة الجزائريين لسانا وفكرا تمهيدا لتنصيرهم عقيدة وإمماجهم سياسيا في الكيان الفرنسي<sup>(2)</sup>. ولا أدل على هذا من أن التعليم الابتدائي كان مفرنسا كما ذكرنا 100 % ، أما الثانوي فقد جعلت فيه اللغة العربية إختيارية كسائر اللغات الأجنبية أي أن الفرنسية إجبارية والعربية إختيارية مع لغة أوروبية أخرى، وكان الطلبة يوجهون بوسائل مباشرة وغير مباشرة إلى إختيار لغة أوروبية، ثم العربية مقسمة إلى قسمين عامية حديثة (مودرن) وعربية فصحة قديمة (كلاسيك) وعلى الطالب أن يختار أيضا واحدة منهما<sup>(3)</sup>. ومع هذا فقد جعل الوقت المخصص لتدريسها ضئيلا جدا، وكان التلميذ في الغالب يختار لغة أوروبية، لأنه موجه من الإبتدائي على كراهة العرب ولغتهم، وعلى الحظ من قيمة أبناء ملته كما بينا أثناء حديثنا عن دعاء الاندماج والتجنيس.

مواد الدراسة في المرحلة الأولى، أو القسم الأول : كان الطلاب يدرسون المواد الآتية :

1- اللغة الفرنسية وأدابها 2- الجغرافيا والتاريخ 3- القوانين والأنظمة الإدارية 4- الحساب ومبادئ الهندسة 5- العلوم الطبيعية ومبادئ الصحة العامة. كل هذه المواد تدرس بالفرنسية. ثم اللغة العربية وأدابها، التوحيد والفقهاء. وهذه المواد تدرس لتقريب الخريجين من الأهالي وممارسة وظائفهم السابقة الذكر. مما يعني أن القسم الأول من المواد ( المفرنس) للمسوخ والقسم الثاني (المعرب) للتمسيخ أي تنجين الأهالي وتخريب عقولهم، ويظهر هذا جليا من معاملات هؤلاء الخريجين للأهالي من رشوة ومحسوبية وظلم وتبويض وجه الاستدمار الفرنسي.

ومدة الدراسة في هذه المرحلة أربع سنوات، ومن كان محظوظا - وما أقل المحظوظين بسبب كثرة العراقيل التي توضع أمام التلاميذ كتصعيب الإمتحانات ووضع شروط قاسية لها وغير ذلك مما لا يكاد ينتهي -<sup>(4)</sup> نجح لينتقل إلى القسم الثاني ( القسم العالي) ويوجد فقط في المدرسة الثعالبية بالعاصمة ليدررس سنتين آخرين. وكان هذا القسم يضم فرعين للعلوم الشرعية والقانون المدني، ومواد الدراسة: الفقه

<sup>(1)</sup> عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 24.

<sup>(2)</sup> رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 148.

<sup>(3)</sup> رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 149.

<sup>(4)</sup> ومن أراد التوسع في معرفة هذه العراقيل فليرجع إلى رابع تركي، التعليم القومي، إبتداء من ص 161.

والتفسير والأدب العربي وتاريخ الحضارة الفرنسية ومبادئ القانون الفرنسي والنظام الإداري الجزائري دون أن ننسى اللغة الفرنسية وأدبها. أما المدرسون في هذه المدارس فكانوا يعينون من بين خريجيها أو خريجي قسم اللغات الشرقية بجامعة باريس أو من جامع الزيتونة. وكان التعليم بهذه المدارس الخاصة بالجزائريين هو أدنى مستوى من التعليم<sup>(1)</sup>. وزاده تردنيا إلى أدنى مستوى تربوي الفصل المفتعل والمغرض بين ما سماه : العربية القديمة (CLASSIQUE) والعربية الدارجة (DIELECTAL) وصنفت الكتب السطحية لتعلم القراءة باللغات المنتشرة في الجزائر، وبذلك فقد المتخرج من هذه المدارس هويته تماما ولم يكن له أي أساس تربوي يجعله في مستوى المدرسة الفرنسية الخاصة بالفرنسيين في الجزائر<sup>(2)</sup>. بل نجد أن هذه الكتب الدراسية المصنفة سواء في الفصحى أو العامية كانت مزوجة الشرح والتحليل باللغة الفرنسية وعهد بتدريسها إلى من لا معرفة لهم بالعربية وأدبها وقواعدها أو كانوا مغرضين. فآلفوا في العامية كتباً ممتلئة بالحكايات النافهة تقرأ للتسلية ومحاربة الفصحى، كما ألفوا في الفصحى كتباً على نفس المنوال من مزج الشرح باللغة الفرنسية فابتكروا نكل منهما أساليب خاصة ونحوها خاصة لا علاقة له بالعربية في شيء مما جعل التلاميذ يستغلون حصتها في أعمال أخرى<sup>(3)</sup>. ولما كانت العربية تُشرح بالفرنسية فإنها تعد استمراراً لسياسة الفرنسة وخدمة لها، ويجب أن نشير هنا إلى أن هذه المدارس كانت تعد المعلمين إعداداً لأنكيا صرفاً مما كان له أثره بعد ذلك في إيجاد دعاة الاندماج والتجنس، وها هو أحد خريجي هذه المدارس وهو مالك بن نبي يكشف لنا عن هذه الحقيقة، فيقول عن مدرسة قسنطينة الموجودة بسيدي الجليلس والتي كانت تعد المعلمين والمساعدين الطبيعيين ومساعدتي القضاة، وهي إحدى المدارس الإسلامية الفرنسية الثلاث، فيقول: "فقد كان المعلمون المقبولون لدى مارتن (أستاذ بها) منقطعين لذلك الفكر العلماني الذي طبع حركتهم من بعد عندما أسس "طهرات" مجلة " صوت الوجود" التي تكلموا فيها عن فولتير وفضائل ثورة 1789 م، زد على ذلك أنهم أفرغوا فكرهم وروحهم ومفرداتهم في تكوين عشيرة أخرى، عشيرة بضعة أطفال أهليين كانوا يستطيعون - وقد إمتازوا بثروة أبيهم أو بوضعه الإداري - أن يدرسوا في مدرسة ثانوية كعباس فرحات، بعض هؤلاء زوجوا بناتهم ضباطاً فرنسيين"<sup>(4)</sup>. وهو ما يدل على الإنسلاخ التام الكلي.

ونختتم حديثنا عن هذه المدارس الثلاث بالإشارة إلى أنها أضيفت لها مدرسة أخرى بالجزائر العاصمة للبنات، وعدل اسم هذه المدارس ليصبح ثانويات (FRANCO MUSULMAN مسلمة) وتصب هذه الثانويات كما خطط لها فيما سيعرف فيما بعد بمعهد الدراسات العليا الإسلامية الذي أنشئ بجامعة الجزائر عام 1946 م، وهو معهد شبيه بالإستشراق ولكن أغلب منشطيه جزائريون مزدوجو اللغة<sup>(5)</sup>.

(1) رايح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 150 ، 152.

(2) محمد العربي ولد خليفة، المرجع السابق، ص 99 ، 100.

(3) رايح تركي التعليم القومي، ص 137.

(4) مالك بن نبي، الطفل، ص 79 ، 78.

(5) عبد الله حمادي، المرجع السابق، ص 33.

والنتيجة التي نتوصل إليها أن فرنسا أنشأت هذه المدارس في إطار محاربة العروبة والإسلام والتمكين للإستعمار الفرنسي. وظلت تحارب التعليم العربي والإسلامي الحقيقي بالجزائر منذ دخولها إلى بعد خروجها، بل وإلى الآن. ولقد أدرك الجزائريون كل هذا، لذلك واجهوا الموقف الفرنسي بما يستطيعون، فاجأت فرنسا كعادتها إلى تحطيم مواجعتهم بالقمع من جهة، وبالقوانين من جهة أخرى.

- فما يتعلق بالقمع، فلا أدل عليه من أن الصادق (عباس) بن حمادة والحاج بكير العنق أرادا أن يفتحا معهدا إسلاميا في تبسة ففتحا وجلبا له 40 أستاذا من جامع الزيتونة بتونس، فبعثت فرنسا من يضرب بفأس ويشق دماغ الصادق بن حمادة فيقتله، لا لشيء إلا لأنه فتح معهدا إسلاميا بالجزائر - وشق رأسه عمل رمزي، يرمز إلى القضاء على أي مخ يفكر في البعث العربي الإسلامي ومكافحة الجهل - ففر الحاج بكير العنق إلى مجاهيل الصحراء<sup>(1)</sup>. ويجب أن ننوه هنا بهذا الرجل عباس بن حمادة أو<sup>(2)</sup> الصادق بن حمادة. فمن مناقبه أنه أول جزائري سعى لإحياء اللغة العربية، فأسس من أجل ذلك بتبسة أول مدرسة عرفتها الجزائر، وذلك قبل الحرب العالمية الأولى، أي قبل 1914م، كما يعد من رواد الفكرة الوطنية في شرق القطر مع رائد آخر في غربه هو سي بن رحال، وقد تعارف الرجلان وكونا معا أول وفد جزائري إنطلق في ذلك العهد - قبل الحرب العالمية الأولى - إلى باريس للمطالبة بحقوق الشعب لسدى الحكومة الفرنسية. وكان في تبسة على رأس صف الأحرار في الانتخابات البلدية ضد الصف الإداري حيث كانوا يتصارعان على مقاعد البلدية، وقد قتلته فرنسا - كما ذكرنا - في تبسة قبيل الحرب العالمية الأولى أي قبيل 14 يوليو 1914م<sup>(3)</sup>.

وأما ما يتعلق بالقوانين: فقد أصدرت فرنسا عدة قوانين وقرارات لتكريس الفرنسية ومحاربة لغة القوان، منها:

قانون اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر: قبل صدور قانون اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر سبقته ثلاثة أحداث مهمة، اثنان سلبيان، وواحد إيجابي هي على الترتيب:

1- احتفال فرنسا بمرور 100 عام على احتلال الجزائر: أقامت فرنسا بهذه المناسبة إحتفالات ضخمة استمرت 6 أشهر في أنحاء الجزائر، ابتداء من شهر جانفي 1930م إلى 5 جويلية وهو يوم إحتلال الجزائر العاصمة. دعت فرنسا الدنيا كلها للمشاركة في هذه الإحتفالات وعمدت أثناء إستعراض فرق جيوشها في الإحتفالات إلى جعلها على نمط فرق جيشها الأولى التي احتلت الجزائر منذ قرن من حيث الملابس والأسلحة<sup>(4)</sup> والتنظيم والموسيقى والأناشيد ووسائل النقل إلخ. وذلك بهدف إذلال الأهالي وتحطيم معنوياتهم بتذكيرهم بما أحله ذلك الجيش من هزائم بأجدادهم حتى لا يفكروا في

<sup>(1)</sup> الشيخ سليمان داود بن يوسف، تعقيب على محاضرة الكماك، المنعقد 7 للتعرف على الفكر الإسلامي، م، 3، ص 1211 (مرجع سابق).

<sup>(2)</sup> نلاحظ أن الشيخ سليمان داود ذكر أن اسمه الصادق بن حمادة، ومالك بن نبي ذكر أنه عباس بن حمادة. ويعتقد أنه كان له اسمين كحال كثير من الجزائريين، اسم عربي وأخر رسمي، وذلك لاتفاق ما أورده مالك بن نبي مع ما أورده الشيخ سليمان داود من تأسيس المدرسة وقتله من طرف فرنسا.

<sup>(3)</sup> مالك بن نبي، الطفل، ص 30 - 33.

<sup>(4)</sup> فرحات عباس، ليل الإستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، الرباط، دت، ص 148، 149.

الثورة يومًا ما، ولقد كانت هذه الاحتفالات وما جرى خلالها من تصريحات وخطب أبصرت معظمنا على إهانة الإسلام<sup>(1)</sup>. وتطرق كذلك إلى الميدان العملي المتمثل في النشاط التحيثي لمنع تدريس الإسلام ولغته في المساجد، وقمع الذين يخالفون ذلك، وهو ما نفذته سلطات الاحتلال. ومن الأمثلة عليه فإن (بريفي) عمالة الجزائر منع التعليم الديني أي اللغة العربية والقرآن الكريم في المساجد في عمالة الجزائر، وذلك في شهر مارس أو أبريل 1933 م، ووجه الأمر للسيد محمد بن صيام باعتباره رئيس الجمعية الدينية، وذلك ليكون القرار من الجمعية. وهذه طريقة خبيثة من (البريفي) ولكن السيد محمد بن صيام المسلم الحقيقي توقف عن عملية التنفيذ نحو شهر ورفض الإمتثال لقرار (البريفي) حتى لا يعطل المساجد من الذكر ويحرم الناس من العلم والتربية الدينين، فأعيد عليه الطلب والإلحاح، فأبته ديانتته وهمتته... أن يعطل المساجد من ذكر الله ويحرم الناس من العلم والتربية دينين... ولما لم يستجب السيد محمد بن صيام أصدر (البريفي) قرارًا بحل الجمعية الدينية التي تشرف على المساجد والتي كان يرأسها ابن صيام. وقد سعى جماعة من النواب والأعيان لدى (البريفي) ليتراجع عن قراره فرفض، ثم حل الجمعية الدينية التي تشرف على المساجد والتي كان يرأسها ابن صيام الذي يعد من المسلمين الحقيقيين<sup>(2)</sup> وما عمله (بريفي) عمالة الجزائر مع مساجد عملته عمله (بريفي) قسنطينة الذي منع تدريس اللغة العربية والإسلام بمسجد بباتنة الوحيد، حيث أيزق بكتاب يحمل رقم 297 63 ومؤرخ بـ 16 ديسمبر 1935 م إلى رئيس الجمعية الدينية الإسلامية بباتنة يخبره أن لا حق لهذه الجمعية في ممارسة أي تعليم كان ويجب عليها أن تنترم العمل بمقتضى مرسوم 1892 م -السابق ذكره- وهو المرسوم الذي يمنع الأهالي من تأسيس أي مدرسة خاصة أو مكتب حر. وهذا بعد أن ظلت هذه الجمعية الدينية تمارس التعليم بمسجد بباتنة الوحيد لمدة عشر سنوات، وهي الجمعية التي كان يرأسها الدكتور بن خليل النائب البلدي بباتنة ورئيس الجمعية الدينية بها وأحد الأعضاء البارزين في جمعية النواب لعمالة قسنطينة، وهو من المؤمنين الحقيقيين<sup>(3)</sup>. علما أنه كان بباتنة الدين الإسلامي والدين الكاثوليكي واليهودي والبروتستانتية وكان لكل دين جمعياته الدينية الخاصة به باستثناء الكاثوليك الذين لم يكونوا يؤسسون الجمعيات. كل هذه الجمعيات باستثناء الإسلامية لم تمس، بل نجد أن معلمي اللغات والأديان والمبشرين يدعمون باستمرار في كل مكان<sup>(4)</sup>.

2- تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ماي 1931م: وهي تعد هنا رد فعل حضاري لتحطيم مقولات المحتفلين بانتهاء الإسلام ولغته من الجزائر، وكانت في مستوى التحدي، ويعود إليها الفضل الأكبر في بقاء الإسلام ولغته في الجزائر رغم ما حل بأصحابها في سبيل ذلك من ويلات

(1) رايح تركي، التعليم الفرنسي، ص 63، 64.

(2) عبد الحميد بن باديس، منع التعليم الديني بالمساجد، طر، غرة ذي القعدة 1351 هـ. ماي 1933م، ج 4، ص 188، 189.

(3) عبد الحميد بن باديس، البصائر، قسنطينة، الجمعة 11 ربيع الثاني 1357 هـ / 10 جوان 1938م، ص 1، 2، والكلام للدكتور ابن خليل من خلال

رده على (بريفي) قسنطينة، نشره بالفرنسية في جريدة جمعية النواب (الانطانت) ونشرته البصائر مغربا.

(4) عبد الحميد بن باديس، البصائر، قسنطينة، 7 محرم 1357 هـ / 8 أبريل 1938م، ص 1، 2.



ونكبات. ونستطيع القول بأن ما قامت به في سبيل الحفاظ على الشخصية الوطنية لم تقم به أية حركة إسلامية أخرى في العالم الإسلامي كله آنذاك، وذلك بالنسبة إلى ظروف الجزائر .

3- انعقاد المؤتمر الإفخارستي ( أفكاريستيك) في الجزائر في سنة 1936 م: عقدت فرنسا هذا المؤتمر وجندت له الكاثوليكية العالمية، وجعلت رمز هذا المؤتمر الأفخارستي الكاثوليكي: صليباً يعلو نجمة وهلالاً معكوسين إلى أسفل، وأنشئت الجموع الكاثوليكية في مسجد كتشاوة التي كان الإستعمار قد حوله إلى كاتدرائية كما ذكرنا قبلاً، ثلاثة أنثيد هي :

1- أفريقيًا تنادي يسوع .

2- يسوع يستجيب لأفريقيًا.

3- أفريقيًا ستكون مسيحية سنة 1936 م.

وفي نفس الوقت ( وهذا ما يهتما كثيرا) يقول الكاردينال (فيرديبي) رئيس هذا المؤتمر :

" إذا أردتم أن تدمجوا إفريقيا الشمالية في العائلة الفرنسية فما عليكم إلا أن تضربوا على أيدي اللغة العربية، - يعني لغة القرآن - فإذا توصلتم إلى قتلها توصلتم إلى الإدماج، ليس هذا فحسب، وإنما أيضا إلى التمسح لأن اللغة العربية وهي ضمان الإسلام، وهي لغة القرآن. فمن حاربها حارب الإسلام وكنسان مبشرا<sup>(1)</sup>. هذه جملة من ذهب تبين أن سعدي مبشر وكذا كل دعاة محاربة اللغة العربية، وتدل على قضية مهمة وهي أن فرنسا هي التي كانت وراء الإدماج والتجسس وكذلك تبين أن محاربة اللغة العربية إنما هو بهدف الإدماج والتتصير كما ذكرنا سابقاً.

وقد ذكرنا قبلاً أثناء تقييمنا للافجيري أن هذا النص من ذهب لا يحتاج إلى تعنيق سوى بشيء واحد، وهو أن الحركة البربرية تقوم على هذه الدعامة - دعامة محاربة اللغة العربية- وبهذا نستطيع القول : إن حركة التبشير الحالية مرتبطة بحركته في القرن 19، وهي تخضع لنفس الخطة، وتخدم نفس الأهداف، وإن تباينت الأساليب أحيانا<sup>(2)</sup>.

إن في هذه الظروف التي اعتقدت فرنسا أنها أخذت الجزائر إلى الأبد، وفي مرحلة من الزهو الاستعماري والجبروت صدر قانون 8 مارس 1938 م .

قانون 8 مارس 1938 م أو قانون اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر : بلغت محاربة اللغة العربية والتعليم العربي الحر ذروتها بالقرار الذي أصدره ( شوطان CHAUTAN) وزير داخلية فرنسا في 8 مارس 1938 م باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ولا يجوز تعليمها في معاهد التعليم سواء كانت حكومية فرنسية أو شعبية حرة كمعاهد التعليم العربي الحر إلا على هذا الأساس ( أي على أنها أجنبية) ويترخص خاص من إدارة الاحتلال. كما اعتبر القرار المذكور عملية تعليم اللغة العربية لأبنساء الجزائر ونشرها بينهم "محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصيغة العربية"<sup>(3)</sup>. ومن هنا ظلت العربية في

(1) الكاشاني مكّي، تعقيب على محاضرة عبد الملل التميمي، الملتقى 7، تيزي وزو، 1973م، ص 1019.

(2) الحبيب المنحان، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19، ص 1068.

(3) رابع تركي، التعليم القومي، ص 128، أيضا رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 157.

الإبتدائي معدومة، وفي الثانوي أجنبية بل أقل قيمة من جميع اللغات الأجنبية الإختيارية التي كانت تُدرس في المرحلة الثانوية، وتعامل دون سائر المواد التعليمية واللغات الأخرى<sup>(1)</sup>.

وهكذا اشتُرطت فرنسا وجوب حصول المعلمين وهيئات التعليم العربي على رخصة التعليم من الإدارة الفرنسية، ووضعت لذلك شروطاً منها معرفة المعلم للغة الفرنسية ولم تكن الرخصة تعطي في الغالب إلا بعد التأكد من شخصية المعلم ومن ولائه لفرنسا. وينص القانون كذلك على إمكانية سحب الرخصة مؤقتاً أو نهائياً، وكانت هذه الرخصة من أقوى المبررات التي سوغت لفرنسا إغلاق المدارس الأهلية، ساجحة. ويلاحظ أن هذه الرخصة لم تشترط لا للمدارس اليهودية الأهلية ولا للمدارس التصيرية<sup>(2)</sup>، كما يلاحظ أن هذه الرخصة كانت فرنسا قد اشتراطتها بقانون 24 ديسمبر 1904 الذي يمنع الجزائريين من التعليم أوفتح المدارس بدون رخصة كما ذكرنا سابقاً، ولكن الرخصة في هذه المرة لم تشترط إلا بعد ان نشطت الحركة التعليمية الحرة التي هي نشأتها جمعية العلماء<sup>(3)</sup>. ولذلك أتعبت كثيراً رجال الجمعية وأخذوا كل من يعلم بدون رخصة يغرم ثم يسجن ليهدموا الشخصية الإسلامية من أصلها وليقتضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها. والغريب أن هذا القرار صدر في الوقت الذي كان الشعب الجزائري ينتظر من فرنسا أن تمنحه حق التصويت البرلماني مع بقائه على شخصيته الإسلامية. ويلاحظ أن هذا القرار لم يصدر إلا بعد أن سحبت رخص كثيرة من معلمين كانت ممنوحة لهم وغرموا وسجنوا، وهدد الذين لم يستجيبوا وتوعدوا، وظلت الإساءة لتتوج بقانون 8 مارس، وهو خاص فقط بالمسلمين<sup>(4)</sup> كما ذكرنا. ونشير إلى أنه من المدارس الكثيرة التي أغلقتها فرنسا بقرار 8 مارس 1938 مدرسة دار الحديث بتمسان، ومدرسة القلعة. والمسلمون في بجاية ظلوا يعاقبون بالتخريم ويساقون إلى المحاكم كمجرمين - جريمتهم تدريس لغتهم ودينهم -، وطلبات الرخص ظلت تقابل بالرفض أو بالسكوت. وهكذا كان قرار 8 مارس يهدف إلى منع تعلم الإسلام واللغة العربية<sup>(5)</sup>. ولا أدل على صحة هذا من التنكيل الذي حل بالعلماء المدرسين لهما. ومن العلماء الكبار الذين سجنوا لا لذنوب سوى أنهم علموا المسلمين دينهم ولغتهم أربعاً من علماء الجمعية، وهم : الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي، والشيخ عبد القادر الباجوري والشيخ علي بن سعد والشيخ محمد الكامل، الذين أُلقي بهم في سجن الكدية بقسنطينة، دون جرم سوى أنهم قاموا بواجبهم الديني في بلادهم " سوف" وقراها ينشرون الإسلام ولغته فأحبهم الناس وتأثروا بهم. سبق هؤلاء الشيوخ بتهمة الستامر على أمن الدولة أو الثورة على النظام أو الاتصال بالأعداء إلخ . وهم لا ذنب لهم سوى تعليم

(1) أحمد بن نعمان، التعريب، ص 168، 169.

(2) المرجع نفسه، ص 166، 167.

(3) المرجع نفسه، ص 166، 167.

(4) عبد الحميد بن باديس، البصائر، قسنطينة الجمعة 7 محرم، 1357هـ / 8 أبريل 1938، ص 1 والعمود 1 من ص 2.

(5) الشيخ عبد الحميد بن باديس، البصائر، قسنطينة، الجمعة 25 رمضان 1357هـ / 18 نوفمبر 1938م، ص 3، ع 140، ص 1.

الدين ولغته- ويوم كتابة المقال كانت قد مرت على سجنهم سنة وأربعة أشهر مع المجرمين دون جرم معلوم، ودون أن يقدموا للمحاكمة-(1).

وفي غرداية وقع اعتداء فضيع على بني ميزاب بإعتقال سيدين منهم في السجن، وهما الأستاذ صالح بابكر رئيس جمعية الإصلاح ومدير مدرستها بغرداية، والسيد بغياغة أحمد بن حم نائب الرئيس والعضو العامل بجماعة الضمان. وبتفريم سنة من أعضاء جماعة الضمان في وقت أدائهم لواجب ديني محض من قراءة القرآن. كما صدر قرار من إدارة غرداية في 17 ماي 1937 -قبل قرار 8 مارس- وصادقت عليه الولاية العامة في 11 جوان 1937 يمنع أي اجتماع ماعدا موكب الجنائز<sup>(2)</sup>. (ويبدو أنه إستجابة لما اقترحه قبلا لأفيجيري وهذا يبين العلاقة بين التبشير والإستعمار).

كما انتهك الجندرية وأعاون الحكومة حرمة مسجد قنزات<sup>(3)</sup>. وذلك يوم الجمعة 22 أكتوبر 1937 م حيث كان الشاب الشيخ الفضيل الورثيلاني يلقي درسا في التفسير فهاجم عليه هو والمصلين رجال الجندرية وأعاون السلطة. اقتحموا المسجد بأحدوتهم وأسمعوا الشيخ الورثيلاني ما شاءوا من بدؤ القول<sup>(4)</sup>.

ومن الذين سئلوا عن الرخصة ابن باديس، وذلك بعد 20 سنة من التعليم. وكان قد أخذ الرخصة من يد (م. أريب) الكاتب العام للأمر الوطنية بدار العمالة، وبعد 20 سنة استدعي مساء الخميس 7 رجب 1352 هـ الموافق 26 أكتوبر 1933 م إلى دار العمالة ليعرفه الكاتب العام بكتاب جاءه من الولاية العامة سألوه فيه عن ابن باديس الذي يقرئ متطوعا بالجامع الأخضر بدون رخصة والقانون يمنع من التعليم بدون رخصة<sup>(5)</sup>.

واقدم شهدت المحاكم في الجزائر مناظر مخجلة يساق فيها معلم العربية في موكب اللصوص والقتلة والمجرمين لمحاكمتهم على صعيد واحد. وقد تنال رحمة القضاة الفرنسيين بعض الطلبة والمجرمين، ولكن ما جربت يوما أن تنال معلم اللغة العربية أبدا. وأصبح السماح بفتح مدرسة للعربية في الجزائر في نظر الفرنسيين أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة استعدادا للثورة<sup>(6)</sup>.

وما يجب الإشارة إليه أن قانون الرخصة هذا لم يكن خاصا بتعليم اللغة العربية فقط، بل طبق على كل شيء كالصحافة والمراسلات وغيرها، فكل جريدة تصدر بالعربية إذا سمح بصورتها إنما تخضع لقانون

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، حول مساجين العلماء، هل في سجن "الكعبة" ما يذكرنا به (الباستيل)؟... البصائر، قسنطينة الجمعة 24 جمادى الثانية 1358هـ / 11 أوت 1939م، ع178، ص1، 2، 3.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس، احتجاج جمعية العلماء على إنتهاك حرمة الدين بغرداية، البصائر، قسنطينة، الجمعة 26 جمادى 2 - 1356هـ / 3 سبتمبر 1937م، السنة 2، ع80، ص5.

(3) قرويات بلدة بين مدينة سطيف غربا ووج بوهريج شمال شرقها.

(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس، احتجاج رئيس جمعية العلماء على حادث مسجد قنزات، البصائر، قسنطينة، الجمعة 1 رمضان 1356هـ / 5 نوفمبر 1937، السنة 2، ع85، ص7.

(5) الشيخ عبد الحميد بن باديس، الصراط السوي، قسنطينة، الإثنين 11 رجب 1352هـ / 30 أكتوبر 1933م السنة 1، ع7، ص6.

(6) الفضيل الورثيلانيه لطرقات الثورة، دط، طار المدي، عين مليلة، الجزائر، دت، ص90.

الصحف الأجنبية، وإذا كتبت أنت إلى صديق لك رسالة في الجزائر وجعلت عنوانها بالعربية ترمسى في سلة المهملات.<sup>(1)</sup>

ويظهر جليا ان القرار السابق كان موجها -إضافة إلى الزهو والاعتقاد بتملك البلاد والعباد إلى الأبد - خصيصا ضد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ لأنها هي التي أحيت الإسلام والعربية وأصبحت تشكل خطرا على مشروعه الفرنسي التصيرى الإدماجي- وكان هذا القرار بمثابة الشرارة التي ألهبت الفتيل. حيث هبت الأمة كلها متحدية إياه ومصرة على تعلم لغتها ودينها مهما كانت التكاليف، وقد شن عليه ابن باديس حملة عنيفة في مجلة الشهاب وجرائد الجمعية وصمد رجال التعليم العربي الحر في وجه فرنسا - رغم كثرة الضحايا حتى تراجعت فرنسا عنه وأعلنت في 20 سبتمبر 1947 ترسيم اللغة العربية في التعليم بعد 117 عاما من اعتبارها أجنبية، ورغم أن هذا القرار الأخير بقي حبرا على ورق إلا أنه يعد انتصارا للإرادة الشعبية التي صممت على النضال في سبيل دينها ولغتها<sup>(2)</sup>. وهنا نقدم مجموعة من الملاحظات، هي أن :

- فرنسا لم تحارب اللغة العربية والثقافة الإسلامية في المدارس الرسمية التابعة لها فحسب، حيث كانت العربية معدومة في الابتدائي وتكاد في الثانوي، بل حاربتها أيضا في نطاق التعليم العربي الحر الذي ظل وحده يدرسها حتى تتلاشى تدريجيا وفقا لسياسة الفرنسية بفرض التصير والإدماج<sup>(3)</sup>. ورغم ما فعلته فإن جهود جمعية العلماء وبروز الحركة الوطنية في هذه الفترة بقوة جعلها تتاور، وتتمثل هذه المناورة في البيان الصادر عن ندوة مفتشي التعليم الابتدائي عام 1945 م الذي ينص صراحة على استبدال اللغة العربية الفصحى بالعامية. ولكن أحداث 8 ماي 1945 جعلت فرنسا تفتتح بأنها لا بد أن تتنازل للأهالي عن بعض المطالب ولو ظاهريا فأصدرت قرار اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الجزائر. ونقول مع رابح تركي بأن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعد أهم منظمة وطنية قادت حركة النضال من أجل حرية التعليم باللغة العربية - الفصحى - وجعل اللغة العربية لغة رسمية في الإدارة والتعليم وذلك في الفترة (1913 - 1956 م)<sup>(4)</sup>. ونختم حديثنا بالإشارة إلى أن فرنسا عملت على فرنسة التعليم العربي الحر وذلك بوسائل منها :

- اشتراط كون المعلم الذي تمنح له الرخصة يعرف اللغة الفرنسية كما ذكرنا قبلا .
- التفتير في منح رخص التعليم للمعلمين وهيئات التعليم ومصادرة الممنوح منها فعلا .
- اضطهاد المعلمين الأحرار في التعليم الحر وإغلاق المدارس الحرة.
- تعطيل النوادي الوطنية الحرة.

(1) المرجع نفسه، ص90.

(2) رابح تركي، الشيخ بن باديس، ص157.

(3) المرجع نفسه، ص154.

(4) رابح تركي، التعليم القومي، ص 131 ، رابح تركي ذكر الفترة ( 1931 - 1956 ) لأنها الفترة التي خصها بدراسته وهي الفترة التي تبدأ من تاريخ تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونحن أخذنا بعين الاعتبار بداية تدريس بن باديس وهي 1913م.

- منع العلماء المصلحين من التدريس في المساجد والجوامع<sup>(1)</sup>.

ونذيل ما سبق بالقول إن التعليم الفرنسي أنتج الفرنسية والتصير والاندماج، والتعليم العربي الحصر أنتج المقاومة والمحافظة على الذات، وكان تاجه ثورة 1954<sup>(2)</sup>، وهذا يدعونا إلى الحديث عن نتائج التعليم الفرنسي أو نتائج الفرنسية التي اتبعتها فرنسا من بداية الإحتلال إلى ثورة 1954 م.

### نتائج الفرنسية

لقد أنتجت الفرنسية نتائج وخيمة أهمها :

- دعاة الاندماج والتجنيس، وقد تحدثنا عنهم قبلا.

- اللانكبة : وقد تحدثنا عنها قبلا .

- تيار معاداة اللغة العربية الفصحى ومحاربتها؛ وذلك بعد فرنسا فئة من الجزائريين أصبحوا يشكلون طبقة مغلفة على نفسها تجاه المجتمع الجزائري متكررة لوطنها وتاريخها لتتشد التمثيل في المجتمع الفرنسي.

- انتشار ظاهرة التحدث باللغة الفرنسية بين الجزائريين: ولا سيما في المدن الكبرى بسبب فرضها لغة رسمية وعملية في جميع مجالات الحياة وبسبب احتكاك الجزائريين بالفرنسيين في مختلف مرافق الحياة كالإدارة والتشغيل والجيش والتي كان الجزائريون مجبرين فيها على التحدث بالفرنسية، وأصبح كثير من الجزائريين عاجزين على التعبير عن كثير من الأمور باللهجة العامية.

- تكوين فئة من متوسطي الثقافة والتعليم الفرنسيين: وتوظيفها كإطارات في مختلف المؤسسات الإدارية والإقتصادية والإعلامية كجزء من إستراتيجية محكمة أخذت الإدارة الإستعمارية في انشائها قبيل الإستقلال لمواصلة سياسة الفرنسية بعد الإستقلال وبذلك خلقت فرنسا نواة لسياسة التبعية اللغوية والثقافية لإلحاق الجزائر بما أصبح يسمى البلدان "الإفريقية الفرنكوفونية".

- ضعف اللغة العربية: بسبب المحاربة المستمرة لها كما ذكرنا في مختلف مرافق الحياة من إدارة وتعليم وإعلام ومحيط اجتماعي. فوصلت إلى الحضيض وامتألت حتى العامية والقبائيلية بالكلمات الفرنسية وكانت اللغة العربية وثقافتها تندثر من الجزائر بعد مرور 100 عام على الإحتلال، وبولا جمعية العلماء لكاتب في خبر كان.

- فساد اللهجة العامية : ولاسيما في المدن الكبرى لخلطها بالكلمات الفرنسية ضمن خطة مدروسة قامت بها سياسة الفرنسية<sup>(3)</sup>. ومن ذلك كتاب صوالح الذين سنحلله لاحقا. ويلاحظ أن الفساد العامية كان يتدرج خطورة وفقا لتقدم الإستعمار في المنطقة، فكانت عامية الجزائر العاصمة أكثر فسادا لأنها أقدم إستعمارا، ثم قسنطينة، أما تبسة فلأنها استعمرت بعد قسنطينة فقد ظلت لهجتها العامية حتى العشرينيات لم تلوث

(1)ومن أراد التوسع في هذا الموضوع إلى رابع تركي، التعليم القومي، ابتداء من ص 167.

(2)لا نقصد هنا أن جمعية العلماء هي التي أعلنت الثورة، ولكننا نقصد أن الثورة نتاج دعاة النهضة الحضارية بشقيها التربوي الثقافي والسياسي وفقا للمفهوم الذي حددناه قبلا.

(3)محمد بن عثمان، التعريب، ص 188 - 190.

بعد. أما أفلو فقد بقيت عربيتها فصحة صافية نافية، لأن الإستعمار لم يكن قد دنسها بمعمريه وإدارته. يقول مالك بن نبي: "كانت تبسة على علمي المدينة الوحيدة حيث كان انناس يتكلمون حينذاك لغت لا تزعم لنفسها بيانا أدبيا ولكنها كانت سليمة في المفردات وصافية في اللهجة<sup>(1)</sup>". أما أفلو التي لم يكن المعمرون وصلوا إليها "وكانوا يتكلمون بلسان عربي لا ريب أنهم لا يأخذون فيه الحالات النحوية بعين الإعتبار، ولكن لا مرأ أنه كان أفصح لسان في الجزائر"<sup>(2)</sup>.

- النزعة البربرية : خلق الإستعمار هذه النزعة بهدف تدمير الوحدة الوطنية وجعل الصراع بين الجزائريين شديدا لينشغلوا عنه كما بينا أثناء حديثنا عن هذه النزعة، وبعد الإستقلال أصبح الهدف تدمير الوحدة الوطنية وخلق دويلات عرقية وجعل الصراع بينها شديدا لمنع الجزائر من أي تقدم يذكر، وتأييد هيمنة اللغة الفرنسية وجعلها اللغة المشتركة بين شطري الشعب الجزائري الذي تقسمه هذه النزعة أساسا إلى بربر يتكلمون القبائلية وعرب<sup>(3)</sup>. والهدف النهائي إرجاع النصرانية إلى مستعمراتها القديمة أي ما قبل الإسلام، وتكريس الإستعمار الجديد. ويتعبّر آخر :

التفريق بين الأهالي في المناطق المختلفة أي نشر سياسة فرق تسد: ولا سيما بين المتحدثين بالعربية والمتحدثين بالقبائلية، وقد رأينا المجهودات التي بذلها أقطاب التبشير الثلاثة لإقناع القبائل بأنهم لاتينيون الأصل وأنهم أقرب إلى الفرنسيين من العرب، وهو ما جعل فرنسا تركز أكثر على بلاد القبائل كما ذكرنا فتكثر من نشر المدارس بها كما ركز عليها المبشرون أيضا بكنائسهم ومدارسهم وخدماتهم، وقد منعت عنهم فرنسا التعليم بغير الفرنسية أو القبائلية ومنعت الفقهاء من الإتصال بهم لقطع صلتهم باللغة العربية وكل ما يتصل بها. ولقد رأينا كيف اقترح لافيغري فرنستهم دون العرب الذين يجب طردهم إلى الصحاري. ولتحقيق هذه الغاية، فقد نشط علماء الأنثروبولوجيا الفرنسيون لمحاولة إثبات الفوارق العرقية والثقافية بين العرب والبربر<sup>(4)</sup>. وهكذا كانت سياسة الفرنسة تعمل على تقسيم الشعب الجزائري تحت شعار ما يسمى السياسة البربرية إلى مجموعتين متناحرتين متنافرتين إحداهما اعتبرتها مجموعة مستعمرة وهم العرب، والأخرى مستعمرة من الأولى وهم البربر، بمعنى أنهم مستعمرون من العرب لا من طرف فرنسا التي أتت لتحررهم وذلك لضرب إحداهما بالأخرى للقضاء على الكل لبقائها، وقد بدأت فرنسا هذه السياسة في الجزائر منذ بدايات الإحتلال كما بينا قبلا، ثم في المغرب الأقصى بعد إحتلاله عام 1912 م وتوجتها بإصدار الظهير البربري المشهور في عام 1930 م وهو الظهير الذي أثار ثائرة العالم الإسلامي العربي والذي قررت بمقتضاه سياسة تعليمية خاصة بالبربر، وحرمت عليهم تدريس اللغة العربية<sup>(5)</sup>. ولقد أدرك الجزائريون نوايا فرنسا من كل هذا فتأروا على ذلك. ومن ضمنه ما قام به علماء زواوة الكبرى

(1) مالك بن نبي، الطفل، ص 159، 160.

(2) المصدر نفسه، ص 217.

(3) أحمد بن نعمان، التعريب، ص 238.

(4) أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 85، 86.

(5) رابع تركي، التعليم القومي، ص 127.

ومتصوفوها وأعيانها، ومن ورائهم سكان المنطقة من تقديم عريضة جماعية على 1948م إلى حكومة الإحتلال يتبرأون من كل ذلك ويحتجون ويطالبون بالرجوع إلى شريعة القرآن وعدم فصل منطقتهم عن باقي الوطن ويعبرون بأنهم عرب ويرفضون التصيير. ومما جاء في تلك العريضة: " فالزواوة الكبرى أمة إسلامية عربية لا ترضى عن دينها وشرعها بديلا، وأنها تعتقد أنها جزء لا يمكن فصله عن الجسم العربي الجزائري، وأنها لا ترضى أن تكون نوعا جديدا على هامش العرب<sup>(1)</sup> ".

ورغم هذه المقاومة إلا أن فرنسا نجحت في زرع سياسة فرق تسد وأنشأت الحركة البربرية وأنشأت لها أصولها التي تقوم عليها. وهي التي نذرنا أنفسنا لدراستها والتي تعد الفرنكفونية إحدى تلك الأصول. وما هي الجزائر اليوم تعترف في دستورها بأن الأمازيغية<sup>ده</sup> : " أن أبعاد الشخصية الوطنية.

ونختم حديثنا عن هذه القضية بالقول بأن عقد الثلاثينيات كان مرحلة حبلية بالأحداث الجسام التي كان أغلبها سلبيا على المجتمع الجزائري، ففي سنة 1930م أقامت فرنسا الاحتفال المنوي على استعمارها لبلادنا، وفي هذه السنة نفسها أصدرت ما عرف بالظهير البربري في المغرب، وفي هذا العقد عقد المؤتمر الأفخارستي، وفيه ظهر دعاة الإندماج والتجنيس بلائكيتهم وفرنسيتهم، وفيه ظهرت الحركة البربرية واستوت على سوقها. هذه الأحداث مازالت آثارها إلى الآن، وهو ما يدل على نجاح سياسة التعليم الفرنسي في تحقيق أهداف الإستعمار.

ولكنه في هذا العقد أيضا ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وحزب الشعب الجزائري اللذان سيقودان الجهاد الوطني لتحرير البلاد ثقافة وسياسة. وكانت جهود هذا الإتجاه هي التي فجرت ثورة 1954م التي تعد أعظم ثورة خلال قرنين كاملين على الأقل: القرن 19 و 20 ضد عدو أجنبي. ولكن عين الإستعمار كانت تراقبها وتخطط لها، وهذا يقودنا إلى الحديث عن الفرنسية أثناء الثورة.

(1) محمد البخمر الإبراهيمي، البصار، 6 ديسمبر 1998م، السنة 2، السلسلة 2، ص7، من رابع تركي، التعليم القومي، ص 127.

## المطلب الثاني

### الفرنسة أثناء الثورة

فلما أنفا أن ثورة 1954 م تعد أعظم ثورة ضد عدو أجنبي خلال قرنين كاملين على الأقل القرن 19 والقرن 20، ولكن عين الإستعمار لم تكن نائمة، فزاد تكريسه للفرنسة باتباع سياسة جديدة تتمثل فيما يأتي:

- التحاق خريجي مدارس الفرنسة بالثورة.

- خطة الجنرال ديغول ( برومسيون لاكوست).

- إتفاقيات إيفيان.

وقبل شرح عناصر هذه الخطة نذكر بأن ما أنتجته هذه الخطة هو الذي قرر مصير لغة القرآن بعد الإستقلال إلى هذه اللحظة، رغم المجهودات الجبارة التي بذلها حزب جبهة التحرير الوطني على المستوى الرسمي لإرجاع القطار إلى السكة، ولكن كثيرا من مجهوداته ظلت حبرا على ورق لأن الإدارة المنفذة كانت ضد لغة القرآن، ولنبدأ شرح العناصر السابقة بالعنصر الأول، وهو:

- التفات خريجي المدرسة الفرنسية (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين) بالثورة: إنه لجدير

بالذكر أن نقول بأن ما أن اندلعت الثورة حتى أغلقت فرنسا مدارس جمعية العلماء والمدارس الحرة

وتعقت معلمها<sup>(1)</sup> وتلاميذها، فصعدوا إلى الجبال وكونوا مع الفلاحين النواة الأولى لجيش التحرير

الوطني وتحملوا معهم مسؤولية الثورة في سنواتها الثلاث الأولى الحاسمة لمصيرها قبل أن يلتحق

خريجو المدارس والجامعات الفرنسية عام 1956م<sup>(2)</sup>. وفي تلك السنوات الأولى نشورة أخذت جبهة

التحرير الوطني تعمل على إعادة الإعتبار للغة الوطنية وتعميم إستعمالها على سائر وحدات جيش

التحرير، وحتى على المعتقلين والسجناء إلى غاية 1957م فانت أكلها، ولكنها ابتداء من 1957 م وقع

الإنحراف عن هذا الخط<sup>(3)</sup>. وهو ما أطلق عليه عثمان سعدي "الردة عن التعريب الأولى" (1957 -

1962 م)، بتخلي المسؤولين عن الثورة عن اللغة العربية وتكريسهم للفرنسة وإسباغ الشرعية عليها.

وتم ذلك على يد الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي التحق أعضاءه بالثورة، وكان مقره

باريس وجل هؤلاء الطلبة هم أبناء الموظفين والمستخدمين في الإدارة الفرنسية والأثرياء؛ لأنه لا

يمكن لغير هؤلاء الوصول إلى الثانويات والجامعات كما ذكرنا قبلا. وكانت إيديولوجيتهم صورة عن

إيديولوجية دعاة الاندماج والتجنيس يذوبون في الفرنسية حبا كارهون للغة العربية، وقد التحق زعماء

هذا الإتحاد بمكاتب جبهة التحرير الوطني بالقاهرة وتونس والرباط وغيرها وهي المكاتب التي

<sup>(1)</sup>ومن رجال جمعية العلماء الذين قتلوا، الشيخ العربي التبسي الذي احتفظته السلطات الفرنسية من يده في سنة 1957م ولم يظهر له أي أثر بعد ذلك، ولا يعرف فوه إلى الآن.

<sup>(2)</sup>عثمان سعدي، التعريب في الجزائر، كفاح شعب ضد الهيمنة التكنولوجية، دة شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1993م، ص



تحولت فيما بعد إلى مكاتب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (1958م) ليحدثوا تغييرا في مسار الثورة التعريبي، فهم منشؤو الهياكل الإدارية لهذه الحكومة التي إنتقلت إلى الجزائر في سنة 1962 م لتؤطر إدارة الدولة الجزائرية المستقلة، فجذرت الفرنسية بعد الإستقلال وطابعها بالطابع الشرعي تحت ستار "الإدارة الجاهزة لبناء دولة في إطار السباق مع الزمن"، وقد ساعدتهم في فرنسة الجهاز الإداري للثورة قبل الاستقلال الزعماء التقليديون للأحزاب السياسية كحركة إنتصار الحريات الديمقراطية وحزب البيان لأنها هي في أصلها نشأت في فرنسا وكانت مفرنسة. كان هؤلاء لا يخفون إحتقارهم للغة العربية ولا أدل على ذلك أن بعضهم أقام بالبلدان العربية خمس سنوات ولم يفكر في تعلمها، بل وهم هناك تعلموا لغات أوروبية سواء كانوا ليراليين أو يساريين، ولقد تمكن هؤلاء من إزاحة البعثات الطلابية الأربع التي أرسلتها جمعية العلماء إلى كل من القاهرة ودمشق وبناداد وعمان والكويت وغيرهم من الطلبة الأحرار وإستولوا على الجهاز الإداري للثورة بالخارج منذ 1957م ثم للحكومة المؤقتة فيما بعد بالقاهرة، بل وتمكنوا من حل تنظيم أولئك الطلبة المعريين الذي كان بالمشرق وهو "رابطة الطلبة الجزائريين" وذوبوه في إتحادهم وأخذوا يعاملونهم كمواطنين من الدرجة الثانية، وهي عقدة "تحت الفرنسيين وفوق الجزائريين". ولقد وصل الأمر بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين أن رفض أعضاؤه الاستعراض بالعلم الوطني في فرسوفيا عاصمة بولونيا، أثناء مهرجان الشباب الذي شارك فيه وفد جبهة التحرير الوطني بـ 230 عضوا، ولكن الغلبة كانت للشيوعيين فرفض رئيس الوفد مصطفى كاتب الإستعراض به في مسيرة إفتتاح المهرجان وإستعرضوا براية حمراء كتب عليها بالفرنسية (الشبيبة الجزائرية). كما رفضوا توزيع المنشورات بحجة أنها غير لائقة، وقد حاولوا في خطبهم وإتصالاتهم وسلوكهم في هذا المهرجان، إقحام المشاركين فيه أن الثورة الجزائرية يقودها الحزب <sup>الشيوعي الجزائري</sup> الإتحادي العام. وما يهنا هنا أن هؤلاء الذين رفضوا الاستعراض بالعلم الوطني من شباب الاتحاد العام "عناصر من حركة إنتصار الحريات الديمقراطية" هم الذين تقلدوا المناصب العليا في إدارة الدولة الجزائرية المستقلة<sup>(1)</sup>.

- خطة الجنرال ديغول (بروموسيون لأكوست) (1958 - 1962م): من أهم أسباب اهتمام فرنسا بالجزائر وتركيزها عليها أن الواقع الجزائري يعد جزءا لا يتجزأ من الضمير الجماعي الفرنسي، إضافة إلى الأهمية السياسية الدولية التي تحتلها الجزائر في التفكير الفرنسي عامة والديجولي خاصة. وهو ما عبر عنه جون دي بروجلي وزير الدولة لشؤون الجزائر في تصريح رسمي يوم 4 نوفمبر 1964 م قائلا: "إن فرنسا وهي تواصل سياسة التعاون مع الجزائر إنما تعمل ... على حماية مصلح محددة... فالجزائر بصفة خاصة، هي: "الباب الضيق" أو عنق الزجاجة الذي يمكن لفرنسا أن تمر منه إلى العالم الثالث، إن أي خلاف بيننا وبين بلد آخر غير الجزائر من دول شمال إفريقيا، إنما يكون مجرد توتر في العلاقات الثنائية، أما الصدام بيننا وبين الجزائر فإن له أبعادا أخطر وأثارا أعمق،

ليس في نطاق العلاقات الفرنسية الجزائرية فحسب، وإنما على صعيد جهودنا الدبلوماسية في جميع أنحاء العالم<sup>(1)</sup>.

ولما كان الاستعمار الفرنسي أقوى أنواع الاستعمار الأوروبي، فهو دائما غزو ثقافي فسي المقام الأول، وهو ما جعل السياسة الفرنسية الاستعمارية تعمل على تصدير آلاف المدرسين الفرنسيين إلى المستعمرات من جهة وتقوم بتهيئة وتدريب الساسة الفرنسيين لنشر وتكريس الغزو الثقافي الذي من أهم أدواته اللغة الفرنسية، وذلك لاستمرار الوجود الفرنسي في تلك المستعمرات عامة، والجزائر خاصة<sup>(2)</sup>.

- **ديجول وهذه القضية :** عندما جاءت أحداث حرب الجزائر بديجول إلى الحكم سنة 1958 م إقنع بأن الجزائر مستقلة لا محالة فراح يكتف جهوده وجهود أجهزة الدولة الفرنسية لإبقاء الجزائر المستقلة مطبوعة بالثقافة الفرنسية لإبقاء هيمنة فرنسا عليها بعد الإستقلال. فكان أول عمل قام به إنما هو تأجيل المفاوضات حول الإستقلال لربح الوقت بينما يتم إعداد مخطط كامل لذلك الغرض بالإبقاء على هيمنة الثقافة الفرنسية على الجزائر وذلك بإبقاء مقاليد الأمور تحت سيطرة انجزائريين الفرنسيين ليسيروا الإدارة الجزائرية ويؤلفوا طبقة ذات إمتياز (اندماجيون جدد) سواء بالنسبة لطريقة تفكيرهم أو معيشتهم، مما يجعلها حتما تقف في وجه التعريب، لأنه يمثل في نظرها خطرا يهدد وجودها في قمة السلم الاجتماعي بالبلاد<sup>(3)</sup>. وهو ما تحقق بالفعل إلى حد أن هذه الطبقة لم تعد القضية بالنسبة إليها مجرد مصالح مادية، بل أصبحت قضية إيديولوجية بدليل أنها رفضت تعريب نفسها رغم صدور القوانين الملزمة لها بذلك.

منها أمر إجبارية معرفة اللغة العربية للموظفين الذي صدر في 2 يونيو 1966 م بإمضاء الرئيس هواري بومدين<sup>(4)</sup>.

وكان مخطط ديجول يتمثل في توسيع مراكز التدريب الإداري للشبان الجزائريين وتخريج الآلاف منها لإستلام الإدارة الجزائرية بعد الإستقلال وضمان استمرار الهيمنة الفرنسية من خلالها، وكانت هذه المراكز تسمى:

"برومسيون لاكوست" نسبة للوزير الفرنسي المقيم بالجزائر<sup>(5)</sup>. وهكذا إهتم ديجول بالتعليم كثيرا في الجزائر مما جعل عدد التلاميذ الجزائريين يرتفع من 438 995 إلى 735 475 في السنوات الأولى من حكمه كما تضاعف عدد تلاميذ الإعدادي والثانوي، ويظهر نجاح خطته أكثر في التعليم العالي حيث تضاعف عدد الطلبة الجزائريين في جامعة الجزائر 4 مرات خلال الثلاث سنوات الأولى من حكمه<sup>(6)</sup>.

(1) تازولي معروض، العلاقات الجزائرية بين الجزائر وفرنسا ( من إتفاقيات إيفيان، إلى تأميم البترول (رسالة دكتوراه) تقدم ببطرس غالي، دط، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1978، ص 13 ، 36.

(2) المرجع نفسه، ص 60 - 62.

(3) المرجع نفسه، ص 63.

(4) الجمهورية الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، السنة 5، ع 36.

(5) عثمان سعدي، التعريب في الجزائر، ص 42.

(6) تازولي معروض، المرجع السابق، ص 64 ، 65.

توافق عملية "برومسيون لاكوست" ومنهج إدارة الحكومة الجزائرية المؤقتة: مما يؤسف له أنه بدل أن تضع الحكومة الجزائرية المؤقتة خطة معاكسة لبرومسيون لاكوست، وضعت خطة مكملة لها. فتوافق سلوكها وسلوكه وساعد على ذلك كما بينا التحاق أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين مسن باريس بالمصالح الإدارية للحكومة المؤقتة الذين وجدوا أنفسهم بعد الاستقلال في نفس الخط مع خريجي برومسيون لاكوست، فإضطهدوا العربية والمعربين، ولا أدل على هذا من أنه تربح لمدة أكثر من 10 سنوات عبد الرحمن كيوان أحد صناديد حركة إنتصار الحريات الديمقراطية على عرش الوظيف العمومي الذي يعد غرفة العمليات للحرب الصليبية المشنة على اللغة العربية منذ 30 سنة، كما تربح أحد صناديد برومسيون لاكوست وهو ميسوم الصبيح المدير الأسبق للمدرسة الوطنية للإدارة التي هي المكان الوحيد لتخريج الإطارات العليا في الإدارة الذي سئل: لماذا لا تدخل التعريب لمدرستك؟ فأجاب: "المكان الوحيد الذي بقي طاهرا ويريدون تنجيسه"<sup>(1)</sup>. وهنا نتساءل: لو سئل مدير المدرسة الوطنية للإدارة بفرنسا هذا السؤال عن اللغة الفرنسية وأجاب بنفس الجواب، فماذا يكون موقف الحكومة الفرنسية منه والصحافة والرأي العام؟!

ولكن الرجلين كيوان وميسوم وضعا اليد في اليد لمدة 14 سنة لبناء إدارة مفرنسة وحرما على اللغة العربية دخول موقعيهما، وبذلك تم الحفاظ على الجزائر الفرنسية في مضمونها وإن تغير شكلها. والمسؤولية يتحملها أعضاء الحكومة المؤقتة حيث بلغ الإنحراف قمته عندهم في هذا المجال، مجال تعريب الإدارة وهو ما عبر عنه الأخضر بن طبال وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة الذي ألقى محاضرة في مارس 1960 م أمام مناضلي جبهة التحرير في المغرب الذي عندما سئل: "لماذا لم تحدد المؤسسات المؤقتة للدولة الجزائرية اللغة الوطنية التي سترسم بالجزائر بعد الإستقلال؟ فأجاب: "إنه عن عمد لم يتم تحديد اللغة الرسمية... لأن هذا المشكل<sup>ليس</sup> مستعجلا... وفي إنتظار أن تصير اللغة (العربية) مستعملة بسهولة لأبد علينا أن نعمل باللغة التي نملكها أفضل، حتى ولو كانت هذه اللغة هي الفرنسية". ولقد رأينا في التلفزة الجزائرية سنة 1992م أي بعد 30 سنة من الإستقلال، وهو لا يتكلم إلا بالفرنسية<sup>(2)</sup>.

ونجد الأسوأ من هذا تصريح سعد دحلب وزير الشؤون الخارجية في الحكومة المؤقتة للصحيفة التونسية إفريقيا العمل (AFFRIQUE ACTION) عدد 27 / 1-6 نوفمبر 1961م، وهو تصريح يعبر بكل وضوح عن رأي الحكومة المؤقتة فيما يتعلق بالمفاوضات الجزائرية الفرنسية التي تمخضت عنها إتفاقيات إيغيان، وما يهمنا منه هو ما يتعلق بالفرنسية فيقول:

" وهناك مجال لا يحتاج التعاون فيه إلى محادثات. إنه مجال الثقافة، إننا نريد الإحتفاظ بالثقافة الفرنسية، بل وتطويرها. وعلى هذا الصعيد أنتم مؤهلون أكثر من غيركم لمعرفة أن فرنسا في هذا المجال يمكنها أن تربح كل شيء دون أن تخسر أي شيء، وستحتفظ رغم أننا وأنفها هي ببعض النفوذ الثقافي الذي

(1) عثمان سعدي، التعريب، ص 43.

(2) المرجع نفسه، ص 43.

سيكون لصالحها<sup>(1)</sup>. هذا التصريح لو فرضنا فيه حسن النية فإنه يعد انبطاحا حرا، وإلا لماذا لم يتل الفيتناميون هذا الكلام عن لغتهم؟.

وهكذا اتفق في التخطيط للقضاء على اللغة العربية كل من ديغول والحكومة المؤقتة مما يعني إن فرضنا حسن النية فإن قيادة الثورة لم تفهم مخطط ديغول فتعد له خطة مضادة، بل أعدت مخططا مكمل له كما ذكرنا، وعندما تم الاستقلال وجد موظفوا إدارة الحكومة المؤقتة أنفسهم على صعيد واحد مع مخلفات الإدارة الإستعمارية المتمثلة في خريجي برومسيون لأكوست، لأن عامل صياغتهم واحد هو اللغة الفرنسية وثقافتها. وبذلك فإن مشروع مخطط ديغول أنتج الرجال الذين يكرسون الإستعمار الثقافي لإبقاء الجزائر تحت هيمنة فرنسا بعد إستقلالها، وأقامت الحكومة المؤقتة خطة مكمل لمشروعه، وكانت النتيجة وبالا وخرابا على العربية والإسلام والوطن في جميع الميادين. ولما كان الإستعمار يقوم بحسابات دقيقة، فإن ديغول لم يقم مشروعه على انتاج العملاء فحسب، بل عمل أيضا على تكييف الجزائر بالإتفاقيات لتكون النتائج مضمونة، ويتجلى هذا في إتفاقيات إيفيان.

**إتفاقيات إيفيان :** هي المحادثات التي أسفرت سنة 1962 م عن وقف القتال بين المجاهدين الجزائريين والاستعمار الفرنسي فأعلان إستقلال الجزائر.

وهي من حيث الشكل أبرمت باللغة الفرنسية وحدها وكانت أيضا هي وحدها لغة المفاوضات، فكانت اللغة الوحيدة التي مثلت الوفدين الجزائري والفرنسي معا. وهذا مخالف للإتفاقيات التي تعقد وبهذه الأهمية بين الأطراف المختلفة الألسن، ولا أدل على هذا من أن الفيتناميين الذين سبقوا الجزائريين 1954 م في محادثات جنيف بينهم وبين الفرنسيين التي أسفرت عن توقيع إتفاق الإستقلال إنما تم باللغتين الفيتنامية والفرنسية، والسبب في إمضاء إتفاقيات إيفيان باللغة الفرنسية وحدها أنها أمضاها عن الجانب الجزائري الأقلية المفرنسة المستلبة لغويا، أي التي هيأها الإستعمار الفرنسي بصياغة عقلية أفرادها في مدارسها في مرحلة ما قبل 1954 م وأثناءها وفي " برومسيون لأكوست"<sup>(2)</sup>. وأما من حيث المحتوى، فإنها تعد نتوجا للردة الأولى عن التعريب التي بدأت سنة 1957 م كما ذكرنا قبلا، لأنها كرست هيمنة الفرنسية والثقافة الفرنسية بما قدمت لها من ضمانات، فأعطتها مرتع إمتياز وفتحت أمامها آفاقا واسعة للإنتشار الأفقي والعمودي في أوساط المجتمع الجزائري<sup>(3)</sup>. ولقد رأينا تصريح سعد وحلب وهو أحد أقطاب تلك الإتفاقيات.

(1) بن يوسف بن عطية، نهاية حرب التحرير في الجزائر، إتفاقيات إيفيان، التعريب لحسن زغدار وكحل العين جباللي، مراجعة عبد الحكيم بن الشيخ الحسين، طبع ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1987م، ص 72، 78.

(2) عثمان سعدي، التعريب، ص 236، 237، 44، 45.

(3) محمد الصالح حدي (أستاذ بعلم النفس، جامعة الجزائر المنظومة التربوية الجزائرية النحرر والقوى، جريدة السلام، الجزائر، الإثنين 10 فيفري 1992، ص 2.

وقد كرسّت هذه الاتفاقيات التبعية الثقافية والهيمنة الفرنكفونية على الجزائر، ولقد ركزت تركيزاً دقيقاً وكثيفاً على أهمية الفرنسية وربط الجزائر بفرنسا ثقافياً وجعلها تابعة لها إلى الأبد. ونجد هذا ماثوئاً في مختلف مواضيع هذه الاتفاقيات إضافة إلى فصل خاص بالتعاون الثقافي، وما هي إشارات إلى هذا :

فتحت بند "حقوق وحرّيات وضمّانات الأفراد"، ورد فيما يتعلق بالفرنسيين الذين يفضلون الإقامة في الجزائر بأنهم "سيستخدمون اللغة الفرنسية في المجالس وفي علاقاتهم مع السلطات العامة كما يحتفظون بقانونهم الشخصي الذي ستحترمه وتطبقه محاكم جزائرية مكونة من قضاة يخضعون لنفس القانون. - وهذا يذكرنا بالقضاء الأجنبي في مصر الذي فرضه الإنجليز على المصريين أيام الإحتلال وكان قضائهم هم قنصلية الدولة الغربية- وستقوم محكمة للضمّانات وهيئة للقانون الداخلي الجزائري بالعمل على إحترام هذه القوانين"<sup>(1)</sup>.

وتحت عنوان "التعاون بين فرنسا والجزائر" ورد أنه في مقابل ضمان الجزائر مصالح فرنسا والحقوق المكتسبة... ستمنح فرنسا للجزائر مساعدتها الفنية والثقافية، وتتميّ كل من فرنسا والجزائر علاقاتهما الثقافية :

- يستطيع كل من البلدين إنشاء مكتب ثقافي وجامعي في البلد الآخر وستفتح أبواب هذه المنشآت أمام الجميع.

- ستقدم فرنسا مساعدتها لإعداد الفنيين الجزائريين .

- سيوضع تحت تصرف الحكومة الجزائرية موظفون فرنسيون وخاصة المدرسين والفنيين باتفاق بين البلدين<sup>(2)</sup>.

وفي الفصل الثاني من الجزء الثاني تحت عنوان "حماية حقوق وحرّيات المواطنين الجزائريين الذين يخضعون للقانون المدني العام" تحت بند 10 .

أ- تنشر النصوص الرسمية أو تبلّغ باللغة الفرنسية وباللغة الوطنية أيضاً وتستخدم اللغة الفرنسية في المعاملات بين المرافق العامة الجزائرية وبين الجزائريين الخاضعين للقانون المدني العام، ولهؤلاء الجزائريين الحق في استخدام اللغة الفرنسية، خاصة في الحياة السياسية والإدارية والقضائية .

ج- للجزائريين الخاضعين للقانون المدني العام، مثل غيرهم من الجزائريين الحرّية في إنشاء وإدارة المؤسسات التعليمية.

د- يستطيع الجزائريون الخاضعون للقانون المدني العام أن يلتحقوا بالأقسام الفرنسية التي ستتنظمها الجزائر في منشآتها التعليمية، طبقاً للنظم المنصوص عليها في إعلان المبادئ الخاصة بالتعاون الثقافي.

هـ- ( وهذه مهمة جداً تتعلق بالإعلام)- تخصص الإذاعة والتلفزيون جزءاً من إذاعتها باللغة الفرنسية يتناسب مع أهمية هذه اللغة في الجزائر<sup>(3)</sup> ( وهذا هو السر في فرنسة التلفزيون الجزائري).

<sup>(1)</sup> بن يوسف بن حداد، المصدر السابق، ص 90 ، 92.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 92 ، 93.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص 97 - 100.

وفي الجزء الثالث تحت عنوان " الفرنسيون المقيمون في الجزائر بصفة أجنبية " ورد ما يأتي:

ب- للفرنسيين الحق في إستعمار اللغة الفرنسية في جميع علاقاتهم مع القضاء والإدارات.

ج- يستطيع الفرنسيون فتح وإدارة منشآت خاصة للتعليم والأبحاث في الجزائر، طبقا للنظم التي نص عليها إعلان المبادئ الخاصة بالتعاون الثقافي.

د- تفتح الجزائر أبواب مؤسساتها التعليمية للفرنسيين .

- يخضع قانون الأحوال الشخصية بالنسبة للفرنسيين، بما في ذلك نظام الميراث للقانون الفرنسي<sup>(1)</sup> .

إعلان المبادئ الخاصة بالتعاون الثقافي :

ويتكون من ثلاثة أبواب في 12 مادة

الباب الأول : التعاون ، الباب الثاني التبادل الثقافي ، الباب الثالث حول كيفية تطبيق المساعدة.

الباب الأول : "التعاون". ويتكون من 8 مواد ومما ورد فيها :

فقد ورد في المادة الأولى ... تضع فرنسا تحت تصرف الجزائر هيئة التدريس والفنيين والمتخصصين والباحثين الذين تحتاج إليهم في التعليم والتفتيش وتنظيم الإمتحانات والمسابقات وسير المرافق الإدارية والأبحاث. تقدم لهذه الهيئة التسهيلات والضمانات اللازمة لاتمام رسالتها...

- وفي المادة 2 ورد :

لكل من البلدين حق إقامة منشآت تعليمية ومعاهد جامعية في البلد الآخر... ويكون لرعايا الشراطين حرية الإلتحاق بهذه المدارس والمعاهد، تحتفظ فرنسا في الجزائر بعدد من المنشآت التعليمية. تلحق المنشآت المقامة بكل بلد بمكتب ثقافي وجامعي.

وفي المادة 4 : تضع فرنسا تحت تصرف الجزائر الوسائل اللازمة لمساعدتها في تطوير التعليم العالي والبحث العلمي، ولجعل التعليم في هذه المجالات في مستوى التعليم بالجامعات الفرنسية، تتلخم الجزائر في جامعاتها، في حدود إمكاناتها دراسة ذات أسس مشتركة مع الجامعات الفرنسية من حيث البرامج والدراسة والإمتحانات.

المادة 5 : للدرجات والشهادات العلمية الصادرة في الجزائر وفرنسا والتي تخضع لنفس البرامج والدراسة والإمتحانات قيمتها في البلدين...

المادة 6 : في إستطاعة رعايا كل من البلدين سواء كانوا أشخاصا معنويين أو حقيقيين فتح منشآت تعليمية خاصة في البلد الآخر مع مراعاة القوانين والنظم الخاصة بالنظام العام.

مادة 7 : يسهل كل بلد لرعاياه البلد الآخر الإلتحاق بمنشآت التعليم والبحث التابعة لها. وذلك بتنظيم لتدريب وجميع الوسائل المناسبة كمنح للدراسات والأبحاث والإعارات التي تمنح لمستحقيها بواسطة سلطات بلادهم بعد أخذ رأي المسؤولين في كل من البلدين.

المادة 8 : يكفل كل من البلدين في أرضه لأعضاء هيئة التعليم العام والخاص للبلد الآخر الحريات التي تقتضيها التقاليد الجامعية<sup>(1)</sup>.

أما الباب الثاني : "التبادل الثقافي" فيتكون من المواد 9 و 10 و 11.

المادة 9 : يسهل كل من البلدين في أرضه دخول ونشر جميع وسائل التعبير عن الرأي الخاصة بالبلد الآخر.

المادة 10 : يشجع كل من البلدين في أرضه دراسة اللغة والتاريخ والحضارة الخاصة بالبلد الآخر ويسهل الدراسات التي تجري في هذه الميادين والمهرجانات الثقافية التي ينظمها البلد الآخر ( ويبدو أن الأكاديمية البربرية في هذه المادة).

المادة 11 : يحدد إتفاق مشترك فيما بعد كيفية المساعدة الفنية التي تقدمها فرنسا للجزائر في ميدان الإذاعة والتلفزيون والسينما.

أما الباب الثالث: فيتكون من المادة 12 ونصها :

تطبيق المساعدة المذكورة في باب التعاون الإقتصادي والمالي في المجالات المشار إليها في هذا التصريح<sup>(2)</sup>.

وأما إعلان المبادئ الخاصة بالتعاون الفني وهو يتكون من 7 مواد، فما ورد فيه :

المادة الأولى : تتعهد فرنسا بما يلي :

أ) تقديم مساعدتها الفنية، وتكفل للجزائر حصولها على المعلومات الخاصة بالدراسات والأبحاث والتجارب.

ج) فتح أبواب منشآت التعليم والدراسات العملية أمام المرشحين الذين تقدمهم السلطات الجزائرية وتوافق عليهم السلطات الفرنسية، كما تتعهد فرنسا بتنظيم أوقات التدريب ودورات الدراسة والإعداد. تعقد في المدارس العملية وفي المراكز الخاصة وفي الإدارات العامة.

د) وضع أعضاء فرنسيين تحت تصرف الجزائر... لتقديم المعونة في المجالين الإداري والفني<sup>(3)</sup>.

أما المادة الثانية فما ورد فيها :

ألا يستغني عن الموظفين الفرنسيين الذين كانوا يمارسون أعمالهم حتى يوم تقرير المصير إلا بعد أن تطلع الحكومة الفرنسية على قائمة بأسمائهم وبعد إخطار الذين يعينهم الأمر وذلك بشروط يحددها إتفاق خاص سابق.

أما المادة 6 : تمنح السلطات الجزائرية لجميع الموظفين الفرنسيين المساعدة والحماية التي تقدمها لموظفيها الجزائريين... ولا يمكن تعريضهم لأية عقوبة إدارية إلا بإعادتهم إلى حكومتهم ولا ينتقلون إلا

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 116 - 118.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 118.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص 119.

بعد أخذ موافقة كتابية منهم<sup>(1)</sup>.

نستنتج مما سبق :

استمرارية الوجود الثقافي الفرنسي في الجزائر : ذلك أن التعاون الثقافي الفرنسي هو أسلوب الحفاظ على النفوذ الإستعماري الفرنسي في الجزائر هذا التعاون الثقافي يستهدف أولا نشر اللغة الفرنسية وتوسيع نطاق نفوذ الثقافة الفرنسية وتكوين الكوادر العليا والوسطى اللازمة لدوران دولاب الحكم والإنتاج في الجزائر، ولتحقيق هذا فإضافة إلى الهيكل التعليمي المتكامل الأركان الذي أقامته فرنسا قبل الإستقلال جاءت إتفاقية إيفيان لتكرس النفوذ الثقافي الفرنسي في الجزائر وتقرر استمرار العلاقة الثقافية غير الحادية بين البلدين، وقد طبقت بالفعل مبادئ هذه الإتفاقية فيما يخص الثقافة. ففي 11 أوت 1962م أصدرت وزارة شؤون الجزائر ( في فرنسا ) لائحة إنشاء المكتب الثقافي والجامعي للجزائر لإدارة نحو 60 منشأة ثقافية فرنسية، منها 4 ثانويات إستقبلت حتى عام 1968م، 13500 طفل جزائري. هذا المكتب الثقافي نظم من حيث وضعه القانوني كفرع من فروع السفارة الفرنسية في الجزائر، وكجهاز أجنبي يتمتع بالكثير من مظاهر الإستقلال الذاتي عن الجزائر، ومعنى " البعثة الثقافية " هو وجود مجموعة من المؤسسات التعليمية والثقافية التي تملكها فرنسا ويديرها فرنسيون بنفس النظم المطبقة في فرنسا. وأقيم الأسلوب التنظيمي للمكتب الجامعي والثقافي الفرنسي بالجزائر على أساس مجلس إدارة يجمع بين ممثلين عن وزارة المالية والتربية والتعليم والثقافة والخارجية الفرنسية، وممثلين عن الحكومة الجزائرية، وممثلين عن المدرسين العاملين في نطاق المؤسسات التي يديرها ويشرف عليها المكتب. وقرارات هذا المجلس ينفذها مدير معين بلائحة صادرة من قبل كل الوزراء الفرنسيين المعنيين (شؤون ثقافية، خارجية، شؤون جزائرية، تربية وتعليم). هذا الوضع القانوني للبعثة الثقافية الفرنسية كان يهدف النظام التعليمي الوطني الجديد. ومبرر قبوله هو بقاء الفنيين الفرنسيين وأموال فرنسا التي كانت تساعد بها الجزائر<sup>(2)</sup>.

وهكذا إستمرت الإتفاقيات الثقافية المبرمة بين البلدين، وما يلاحظ عليها هو ظاهرة الثبات النسبي للمساعدات المالية للتعاون الثقافي وعدم تأثره بالتوترات السياسية والإقتصادية التي كانت تنشأ بين البلدين خلال تلك السنوات. وما هو جدول يبين أرقام هذه المساعدات في الفترة ما بين 1963 - 1970 م بملايين الفرنكات الفرنسية .

<sup>(1)</sup> المصدر السابق، ص 119 ، 120.

<sup>(2)</sup> ولعلنا أن فرنسا لم تكن تنفق من خزنتها شيئا، لأن ما كانت تنفقه هنا هو جزء بسيط جدا من ثروات الجزائر التي كانت آنذاك محنكة لها.



السنة	قيمة المساعدات بملايين الفرنكات
1963	مليون فرنك
1964	150 مليون فرنك
1965	154,5 مليون فرنك
1966	135 مليون فرنك
1967	114,3 مليون فرنك
1968	127 مليون فرنك
1969	141,3 مليون فرنك
1970	136 مليون فرنك

وهذا يدل على مدى الأهمية التي كان يحتلها باستمرار الوجود الثقافي والفني في الجزائر حتى أوائل أعوام السبعينات<sup>(1)</sup>.

أما عدد العاملين من الفرنسيين في المجال الثقافي فبلغ 5921 والتعاون الفني 1944 وهذا فسي ديسمبر 1970 م أما في قطاع التعليم فوصل عدد المعلمين الفرنسيين في أواخر عام 1969 م إلى 6200 ، منهم 400 أستاذ جامعي ، وضمت الثانويات الفرنسية بالجزائر العاصمة وعنابة وقسنطينة ووهران 12356 تلميذا، منهم 3529 جزائري وحصل 813 جزائري على البكالوريا الفرنسية في سنة 1970م. ونلاحظ بأنه رغم إلتجاء الجزائر في أكتوبر 1969م إلى جلب الخبرات من غير الفرنسيين إلا أن طلبات الجزائر من الفنيين والمعلمين الفرنسيين أصبحت أكثر من طاقة فرنسا، ومن الأمثلة على هذا فإن طلبات الجزائر في العام الدراسي 1971 / 1972م كانت:

8469 خبير فرنسي في التعليم، فلم تقدم فرنسا سوى 4322 خبيرا فقط، وفي سنة 1972 / 1973 م كانت الطلبات 10497 فقدمت 3676 ، وفي سنة 1973 / 1974 كانت الطلبات 12739 فقدت 3557 فقط<sup>(2)</sup>.

وتقييمنا نحن لهذه الإتفاقيات نكتفي فيه بتبني ما أورده برنامج طرابلس، ونصه :

" واتفاقيات إيفيان المبرمة في 18 مارس 1962 م قد أقرت الإعتراف بالسيادة الوطنية للجزائر ووحدة ترابها. ولكن هذه الاتفاقيات قد مضت في مقابل الإستقلال. على سياسة تعاون بين الجزائر وفرنسا، وهذا التعاون كما يبدو من اتفاقيات إيفيان يستلزم إبقاء قيود التبعية في الميدان الإقتصادي والثقافي ... ومن الواضح أن التعاون بهذا المفهوم يمثل أصدق تعبير على سياسة الإستعمار الجديد التي تتوخاها فرنسا، ويتصل بظاهرة تحويل الإستعمار القديم إلى إستعمار من نوع جديد... إن إتفاقية إيفيان تمثل قاعدة للإستعمار الجديد، تحاول فرنسا استعمالها لتمكين هيمنتها وتنظيمها في شكل جديد ..."<sup>(3)</sup>

<sup>(1)</sup> تازلي معروض أحمد، المرجع السابق، ص 194 - 200.

<sup>(2)</sup> المرجع السابق، ص 204 ، 205 ، 208.

<sup>(3)</sup> برنامج طرابلس، ص 3 ، 7.

## المطلب الثالث

## الفرنسة بعد الإستقلال

لقد استطاعت فرنسا أن تكرر وجودها الثقافي وهيمنتها اللغوية على الجزائر بعد إستقلالها فأبقت على وجودها المؤثر في هذا البلد بعد خروجها منه رغم الجهود الجبارة التي بذلتها دعاء النهضة الحضارية للتححرر الكلي منها، ونستطيع القول بأن استمرار تواجدنا إنما هو نتيجة لما أعدته لهذا التواجد قبل الثورة وأثناءها.

ويمكن تلخيصه فيما يأتي :

1- المدرسة : وتقتصد بها التعليم الفرنسي السابق الذكر المكرس للفرنسة المحارب للإسلام ولغته وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- المدرسة الفرنسية العادية: ابتداء من كلوزيل إلى الإستقلال وما بعد الإستقلال. لأن مدارس البعثة الفرنسية في الجزائر لم تلغ إلا في سنة 1988 م وقد ألغاهها متخرج من مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإدارته لخطورتها الثقافية والسياسية، لأن ظاهرها كان ثانويات خاصة بالفرنسيين وحققتها ثانويات أبناء الأكابر، ومن الأمثلة على هذا فإن ثانوية "ديكارت" بالجزائر العاصمة كان ينرس بها 1200 تلميذ جزائري، والذي ألغاه هو السيدة زهور ونيسي.

- مراكز 'بروموسيون لأكسوست': وهي التي كونت في خلال أربع سنوات ما لم يتكون في العهد الإستعماري كله<sup>(1)</sup>.

- مدارس الإرساليات التبشيرية الفرنسية : التي ظلت إلى عام 1976 م وقد تحدثنا عن هذه المدارس أثناء حديثنا عن لافييجري.

2- الاتفاقيات : التي قيدت بها الجزائر وكبلتها ووجهتها، وأهمها اتفاقيات إيفيان ولاسيما جانبها الثقافي، ولا أدل على هذا من أن بنود اتفاقيتها المختلفة قد نقضت سواء من طرف فرنسا التي كانت البادئ في ذلك، أو الجزائر ماعدا المتعلق منها بالتعاون الثقافي والفني<sup>(2)</sup>. وهي إحدى أهم العوامل التي كرسنت هيمنة فرنسا في التعليم والإدارة ومن أهم ما كرس الفرنسية بعد الإستقلال. وهي نتيجة لما أنتجته المدرسة الفرنسية مما يسمى بالنخبة. فهي التي أمضت اتفاقيات إيفيان، وقد رأينا تصريح سعد دحلب أحد مهندسي هذه الاتفاقيات عن الجانب الجزائري وما قاله عن الثقافة واللغة الفرنسية قبل توقيع الاتفاقيات ذاتها. فأنتجت تلك المدرسة المدجنين الذين تعصبوا لثقافتها ووجودها اللغوي في الجزائر، وهم المسؤولون عما حل بالجزائر من خراب ثقافي واقتصادي واجتماعي وسياسي اليوم، لأنهم هم الذين استولوا على مقاليد الأمور في الإدارة ومراكز صنع القرار. ولقد عبر عن هذه الحقيقة المرة رئيس الجمهورية الأسبق هواري بومدين في خطاب رسمي له قائلا : "الجيل الذي تكون باللغة العربية خلال حرب التحرير أو بعد

(1) عثمان سمني، التعريب، ص 53، 54.

(2) من أراد التوسع في هذا الموضوع إلى نازلي معرض أحد، المرجع السابق، ص 69 - 71 ، 202.

الإستقلال مباشرة لم تكن عنده الفرصة الكافية لكي يصل إلى مراكز معينة من مراكز السلطة سواء كانت هذه المراكز إدارية أو اجتماعية<sup>(1)</sup>.

وهذا ما جعل الفرنسية تزدهر أكثر بعد الاستقلال، ولقد بين هذا التكريس للفرنسية بعد الاستقلال الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلة في خطاب له يوم 5 أكتوبر 1962م. فبين بأنه ابتداء من سنة 1963م ستعلم اللغة العربية على قدم المساواة مع الفرنسية في المدارس الابتدائية، -على قدم المساواة في الجزائر لا في فرنسا- أما الثانوي والعالي والمتوسط فلا ذكر له. وذكر أنه سترفع العربية من ساعتين أو ثلاث إلى 10 ساعات في الأسبوع، ولكنه نص كذلك على عدم التهاون في اللغة الفرنسية باعتبارها أداة مستعملة وضرورية لتحصيل وفهم العلوم الحديثة<sup>(2)</sup>. وكان العلوم الحديثة لا يمكن أن تفهم إلا من خلال اللغة الفرنسية. ولقد ازدهر التعليم المفرنس بعد الإستقلال إزدهارا لم يسبق له مثيل في العهد الإستعماري. ومن الأمثلة على هذا فقد ازداد التعليم الفرنسي في الثانويات المفرنسة بنسبة 12% من 1963/64م إلى 1964/65م، وفي المدارس المتوسطة 22%. أما التعليم الثانوي فزادت النسبة بـ 17% من 1964/65م إلى 1965/66م، وفي المتوسط بـ 36% في نفس الفترة.

وفي نفس الوقت رفضت وزارة التربية غداة الإستقلال الإستجابة لطلب الدول العربية بفتح معاهد لإعداد المعلم المعرب بالجزائر تطبيقا لقرار صادر عن مؤتمر المعلمين العرب الذي عقد في بيررت عام 1962م بطلب من وفد جبهة التحرير الوطني في المؤتمر (قبيل إعلان الإستقلال) رغم أن هذا عنى نفقة الدول العربية، وسبب الرفض بحجة وحدة المدرسة الجزائرية. وكان الإبقاء على مدارس الإرساليات التبشيرية النصرانية الفرنسية بالجزائر إلى عام 1976م ومدارس البعثة الفرنسية إلى سنة 1988م لا يتناقض مع وحدة المدرسة الجزائرية<sup>(3)</sup> اللهم إلا إذا كان مفهوم المدرسة الجزائرية أنها فرنسية الشكل والروح. والسبب في ذلك هو سيطرة النخبة على مراكز القرار وهي النخبة الحاملة لعقلية التبعية تقف دائما وبالمرصاد ضد المقومات الأساسية للمجتمع الجزائري العربي المسلم<sup>(4)</sup>. وهي تحتقر دائما دعاة الوطنية، بل وصل بها الأمر إلى حد ممارسة الإرهاب الفكري والعملية ضد المعريين الذين قدموا صدورهم في الثورة فداء للجزائر، ولكن لما إستقلت لم يتمكنوا حتى من الحصول على مقر لنهاد يجمعهم<sup>(5)</sup>.

- يضاف إلى هذه النخبة وإلى الاتفاقيات والمدرسة: الرجال الفرنسيون أنفسهم الذين ظلوا بعد الإستقلال وفقا لاتفاقيات إيفيان في التعليم والإدارة والصناعة وغيرها. وقد كشف هذه الحقيقة المرة الرئيس الأسبق

(1) من الخطاب الإنشائي الذي ألقاه في الندوة الوطنية الأولى للتعريب في قصر الأمم جنادي الصنوبر بالجزائر، في 14 / 05 / 1975م، عن أحمد بن نعمان، التعريب، ص 200.

(2) الرئيس أحمد بن بلة يقول: (الخطبة التي ألقيت بين 28 سبتمبر و16 يونابر 63) المطبعة العامة لمنشورات الحزب، الجزائر، دت، ص 25.

(3) عثمان سعدي، التعريب، ص 52 - 54.

(4) محمد الصالح حدي، المرجع السابق، ص 2.

(5) من أرواد التوسع في هذا فلو جمع إلى عبد الله ركيبي، الفرنكفونية مشرقا ومغربا، ابتداء من ص 157، وهو شاهد عيان يحكي معاناته ومعاناة المحاضرين من أبناء وطنه بسبب جهم للجزائر العربية الملمعة.

أحمد بن بلة فيما يتعلق بالتعليم، وذلك في خطاب 12 ديسمبر 1962م. فكشفت أثناء حديثه عن المعلمين الفرنسيين الحقيقة المرة بما يأتي :

" أفواج من المعلمين الفرنسيين هم من الجيش الفرنسي"<sup>(1)</sup>. يعني تحولوا فجأة بفعل فاعل أو حتى بدون فعل فاعل من قتالين وسفاكين للشعب الجزائري إلى مربين له ومهذبين.

كما بين أيضا أن التعريب سيكون تدريجيا رغم إلحاح كثير من الإخوة على تحقيق التعريب بسرعة، وكلمة " كثير" لها مدلولها، فإن الأقلية هي التي قررت أن يكون تدريجيا لكي لا يتم أبدا، وهنا نحن الآن بعد ما يقارب 40 سنة وما زال لم يتم وهي التي نفذت قراراتها لما لها من وزن ونفوذ وسيطرة على مصدر القرار، ولو تم بسرعة وهو ما كانت تريده الأغلبية لما كان عندنا الآن مشكل الكنيسة ولا مشكل الحركة البربرية ولا مشكل الهوية ولا مشكل الإنهيار الإقتصادي والإجتماعي والسياسي الذي تعيشه الجزائر اليوم.

وعلى ذكر التعريب فإن الإتجاه الوطني ممثلا في حزب جبهة التحرير الوطني حقق في عقد الرئيس الراحل هواري بومدين إنجازات هائلة في مجال التعريب، كتعريب التعليم الابتدائي والمتوسط كليا والتعليم الأدبي في الثانوي والشروع في تعريب الأقسام العلمية في الثانوي وتعريب كثير من الفروع في الجامعة. وذلك وفقا لمضمون ميثاق التربية الذي نشر ضمن أمر رئاسي بالجريدة الرسمية في أبريل 1976م والذي أمر بأن لغة التعليم يجب أن تكون العربية في سائر مراحل التعليم وسائر المؤسسات، وأن الفرنسية وأي لغة أخرى يجب تدريسها كلغة فقط ولإعداد المعلمين لمادة تلك اللغة<sup>(2)</sup>.

وبهذا نستطيع القول بأن هذه العملية الرئاسية هي إيصال لقرار "شوطان" السابق ذكره الذي يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، ورد فعل منطقي عليه. ولكنه ما أن حلت السنة الدراسية 77 / 1978م حتى وقع تراجع كبير في الميدان عن هذه العملية بقيام وزير التعليم الابتدائي والثانوي مصطفى لشرف بفتح شعب أدبية مفرنسة في الثانوي وشعب مفرنسة بالمعاهد التكنولوجية وتقليص الشعب المعرّبة في العلوم والرياضيات بالثانوي تمهيدا لإلغائها كليا. وتم هذا بالتنسيق مع وزير التعليم العالي آنذاك عبد اللطيف رحال<sup>(3)</sup>. وكلا الرجلين متزوج بأجنبية، وقد أشرنا قبلا إلى زوجة مصطفى لشرف المولودة بالأرجنتين. وأما زوجة عبد اللطيف رحال، فهي بروشيت لياجان المولودة بفرنسا، وقد منحت الجنسية الجزائرية بمرسومي 26 فبراير 1983م وأصبحت تسمى بروشيت ليلي<sup>(4)</sup>.

بضائف إلى ما سبق إلغاء معهد بوزريعة الذي كان يعتبر أنجح تجربة في التعليم التربوي العالي المعرب، وإلغاء التعليم الأصلي.

(1) أحمد بن بلة، المصدر السابق، ص 79.

(2) عثمان سعدي، التعريب، ص 55، 56.

(3) المرجع نفسه، ص 55، 56.

(4) المصلحة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 26 فبراير 1983م، ع 9، ص 574 (السنة 20، ج 1، 1983م)

وفي الوقت ذاته وبالتسويق التام مع لشرف قام عبد اللطيف رحال في سنة 77 / 1978 م بمجرد استلامه لوزارة التعليم العالي بإلغاء الشعب المعربة في جامعة العلوم والتكنولوجيا بباب الزوار، وفي كلية العلوم بالجامعة الأخرى كما ألغيت الشعب المعربة للجنوع المشتركة. فأحدث ذلك عدم التكافؤ في الفرص بين حاملي البكالوريا المفرنسيين وبين المعربين، كما حول طلبة الشعب العلمية المعربة من جامعة باب الزوار بمن فيهم طلبة السداسي الأخير إلى المدرسة العليا للأساتذة بالقبة جبرا وفرض عليهم التعاقد معها ليصبحوا جبرا أيضا أساتذة التعليم الثانوي دون زملائهم المفرنسين. كما منعوا من مواصلة الدراسات العليا بعد حصولهم على الليسانس لمدة خمس سنوات، وذلك لحرمان الجزائر من الإطارات المعربة للتعليم الجامعي ولمنع أي إمكانية لتعريب التعليم الجامعي العلمي والتقني مستقبلا... وهو ما أثر سلبا على طلبة الثانوي لأنهم أفهموا ضمنا بأنه لا أمل في الوصول إلى الكليات العلمية والتكوين ما بعد التدرج إلا لمن كان مفرنسا. وهذا كله بهدف إيادة اللغة العربية نهائيا، ولما أصرب الطلبة المعربون المطرودون ظلما عدوانا من جامعة باب الزوار، طردوا بأمر من وزير التعليم العالي رحال بالكلاب البوليسية<sup>(1)</sup>. وأي نصر لفرنسا أكبر من أن يطرد الأهالي من جامعتهم بعد أن قدموا مليوناً ونصف مليون شهيد خلال سبع سنوات فقط لصالح لغة الاستعمار!

ونشير هنا بأنه في هذه الفترة كان وزير الإعلام والثقافة على هذه الشاكلة هو رضا مالك (لائكي متطرف وفرنكفوني متزمت) وقد ضرب حصارا إعلاميا في الصحافة لمنع صدور أي مقال ينتقد مصطفى لشرف الذي كتب ثلاث مقالات بين فيها تصوفه في الفرنسية وحقده على لغة القرآن، جعل عنوانها "مشاكل التعليم والتربية" ونشرها في جريدة المجاهد الناطقة بالفرنسية أيام 9 و 10 و 11 أغسطس 1977 م. فصادر رضا مالك أكثر من 60 مقالا ترد على لشرف لم يفلت منها سوى دراسة أستاذنا د. عبد الله شريط تحت عنوان "اللغة والمجتمع" الذي أشفى فيها غليل محبي لغة القرآن الكريم<sup>(2)</sup>. ولقد أطلق عثمان سعدي على ما فعله لشرف الردة الثانية عن التعريب 1975 - 1978 م.

وعلى ذكر لشرف فإننا نشير إلى أنه مما يبين العلاقة بين الفرنسية والتصيير والاستعمار أن لشرف حقود على اللغة العربية، من دعاة العامية والقبائلية، يعتبر الإسلام مرضا، وفي الوقت ذاته نجده يدافع عن اليهود ويعتبر فتح الأندلس استعمارا وإحتلالا لإسبانيا - التي لم تكن موجودة - ويدعو إلى إلغاء الوطنية بحجة العالمية ويدعو إلى الإباحية<sup>(3)</sup>. ولكن عندما نعلم أن أباه من طبقة انقياد والباشاغوات يزول عجبنا، ويمكن تصنيفه بسهولة ضمن الإندماجيين الجدد.

<sup>(1)</sup> عثمان سعدي، التعريب، ص 58، 59، 80. ولا زال مانلا أمام عيني منظر أولئك الطلبة المضربين وهم محاصرون بقوات مكانحة الشعب يدورعها وعصيها وكلاهما بالمدرسة العليا للأساتذة بالقبة أمام جناح (E) ولما شدد عليهم الحصار وأوشكت قوات الأمن أن تقض عليهم أخذوا يرددون "بمهما بومدين"، فتراجعت قوات الأمن واعتقد أهم لم يصابوا بأذى.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 75.

<sup>(3)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتاب مصطفى لشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ص 416 و 432 وغيرها، وعبد الله ركيبي، الفرنكفونية مشرقا ومغربا، ص 285 - 289.

وإذا كان لشرف ورحال ورضا مالك فعلوا ما سبق، فإن تراجيديا محاربة لغة القرآن بلغت أوجها في المرسوم ذي الطابع التشريعي الذي أصدره بوضياف رئيس المجلس الأعلى للدولة ونمسه: "بوجل دخول حيز التنفيذ القانون رقم 91 / 05 المؤرخ في 16 يناير سنة 1991م المذكور أعلاه لتاريخ لاحق حتى تتوفر الظروف الموضوعية لتطبيقه الفعلي" والمذكور أعلاه هو "تطبيق القانون رقم 91 / 05 المؤرخ في 16 يناير 1991 م المتضمن تعميم استعمال اللغة العربية"<sup>(1)</sup>.

ولقد أصدر بوضياف هذا المرسوم بعد رسالة من سيد أحمد غزالي رئيس الحكومة إلى بوضياف يطلب منه تجميد (تأجيل) قانون تعميم استعمال اللغة العربية لأنه حسب ما أورده غزالي يعرقل التنمية ويؤثر سلبا على علاقات الجزائر مع الخارج إلخ. فأجابه بوضياف بالموافقة فأصدر المرسوم التشريعي السابق ذكره، كما قام من جهة أخرى الأمين العام للحكومة محمد كمال العلمي بتوجيه رسالة إلى رئيس المجلس الاستشاري الوطني بتاريخ 15 جوان 1992 م يطلب منه دراسة تأجيل تطبيق بعض أحكام القانون المتعلق بتعميم استعمال اللغة العربية الذي تقدم به رئيس الحكومة ووافق رئيس المجلس على عرضه على المجلس الاستشاري. وتم عرضه على هذا المجلس بالفعل للاستشارة يوم 30 جوان، أي بعد يوم واحد من إغتيال بوضياف. ولم يتورع المجلس الاستشاري من مواصلة نقاشه في ذلك اليوم حتى النهاية. ولما كثرت ردود الأفعال ضد هذا الإغتيال للغة القرآن مطالبة من رئاسة المجلس الأعلى للدولة عدم التوقيع على مرسوم التأجيل وذلك من طرف كثير من المنظمات والفعاليات السياسية والهيئات الوطنية والجمعيات والأفراد. أصدر المجلس الاستشاري بيانا يتهم هؤلاء بضرب الوحدة الوطنية<sup>(2)</sup>.

والواقع أن هذا المرسوم إنما هو نفسه قانون إعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر الذي أصدره "سوطان" في 8 مارس 1938 م. وهكذا عادت الجزائر من جديد بعد 30 سنة من نيل استقلالها إلى 24 سنة قبل استقلالها. فمن ينكر مع هذا علاقة الفرنسية بالتبشير والاستعمار<sup>(3)</sup>؟!.

3- المراكز الثقافية الفرنسية: "تعد هذه المراكز من أهم وسائل التغريب والتبشير وتكريس الوجود الثقافي الفرنسي في الجزائر، وعددها خمسة في أنحاء الجزائر، في العاصمة وهران، وقسنطينة، وعبابة وتلمسان. وتدرك أهمية هذه المراكز في الجزائر عندما نعلم أن عدد المراكز الثقافية الفرنسية في إيطاليا أربعة فقط، بينما عدد سكان إيطاليا 5 أضعاف عدد سكان الجزائر، وكل مركز ثقافي يشتمل على مكتبة أدبية وعلمية وفنية ضخمة يسمح للجزائريين بالاستعارة منها بأبسط الإجراءات - كما يوجد بها أقسام لتعليم اللغة الفرنسية - كما ينظم كل مركز فيها العروض المسرحية الفرنسية وحفلات السينما والموسيقى والمعارض الفنية والمؤتمرات الأدبية- بل وأماكن دعوة السياسيين الجزائريين المتشبعين بالتغريب لاستمالتهم وتوجيههم- إن هذه المراكز نافذة مفتوحة لكل جزائري - ليتغرب سمها كانت ضاللة درجة

(1) عبد الحكيم أسابع، مجلة مضاعفات التطبيق، غزالي طلب من بوضياف تأجيل قانون العربية، جريدة النصر، 1992/07/20، ع 5805، ص 12.

(2) المرجع نفسه، ص 12، وستشر نص الرسالتين والمرسوم التشريعي في الملاحق.

(3) فمن لم تتعرض إلى كل ما لجزيرة حبهة التحرير الوطني في مجال التغريب ولا إلى كل مؤامرات أعداء العروبة والإسلام على اللغة العربية، لأن ذلك يخرج من نطاق بحثنا، ومن أراد التوسع في كل ذلك، فليرجع إلى أحمد بن نعمان، التغريب، وعثمان سعدي، التغريب.

تعلمه - وهي على إتصال وثيق ويتسبب تام مع مكنتبات الإرساليات التبشيرية. ومن الأدلة على هذا فإنه بعد غلق هذه المراكز بسبب أحداث العنف التي تعيشها الجزائر حول المترددون عليها إلى مكنتبات الإرساليات التبشيرية الفرنسية، وهي نفسها يوجد كثير من المبشرين ضمن إدارتها ومسيريها يختارون من المترددين عليهم من يرونه صالحا لتحقيق ما يريدون - وإلى جانب هذه المراكز يوجد 28 بيتا ثقافيا والتي ليس لإمتداد وإتساع نشاطها نظير في أي دولة أخرى في العالم، وهي تنتشر في المدن الجزائرية الصغيرة كما يوجد بعضها في أعماق الريف الجزائري وعلى حدود الصحراء الكبرى<sup>(1)</sup>.

وهكذا سيطرت فرنسا على التعليم والإدارة والنخبة المفرنسة والعامّة أيضا بالسينما والراكز الثقافية.

4- الإدارة بعد الإستقلال : نتج عما سبق من فرنسا أن أصبحت " تسيير أجهزة الدولة بأكملها في الجزائر المستقلة حسب نموذج الإدارة الإستعمارية: نفس التمرکز. نفس الدوائر الإدارية. نفس توزيع المهام بين مختلف قطاعات السلطة. كل الوجود الفرنسي كان يقوم على نفس المبدأ. تطبيق السياسة التي تتقرر في سرية لدى الحاكم العام من طرف الجماهير الفاقدة لكل مبادرة. وذلك من دون قيد ولا شرط. فالبرغم من التحولات التي أفرزها إستقلال الوطن، فإن الاحتفاظ بالنظام الإداري الفرنسي برمته يهدف إلى إعادة بعث نفس النظام من العلاقات بين الحاكم والمحكوم، فالتفكير السياسي محصور في القمة وحدها، ثم يحول للتطبيق إلى الدواوين والعمالات ورؤساء المندوبيات الخاصة (البلديات) ولكن للتمتع بكمليات " مثل هذه الدولة يجب أن تتوافر إطارات ذات تكوين وتربية عالية وليس للجزائر إلا النزر اليسير منهم، مما جعل الحكومة الجديدة - غداة الإستقلال - تتوجه إلى العشرات من قدامى موظفي الإستعمار " فالدم الجديد" - يعني موظفي الإستعمار - الذي جاءت به جبهة التحرير الوطني يفتقر إلى الغنى كي يمكنه توليد هذا العفن من جديد: الذين يقومون بتسيير شؤون الإدارة لم يكونوا أثناء حرب التحرير في مقدمة الكفاح... هذا أقل ما يقال! أما المناضلون الحقيقيون الأوفياء والأكفاء والذين ليس عددهم بقليل في الإدارة رغم كل شيء فقد أغرقوا في بحر من الإقطاعات المختلفة وثبتت عزائمهم تماما<sup>(2)</sup>. وهكذا أصبحت المسؤولية في الإدارة وغيرها حkra على المفرنسيين وحدهم، وأصبح من المستحيل على من لا يلوك الفرنسية ويعيشها كمحتوى حضاري أن يطمح إلى أي منصب من مناصب المسؤولية أو مناصب صنع القرار، وهو ما بينه الرئيس الراحل هواري بومدين كما ذكرنا قبلا. ولقد أشرنا كذلك كيف وضع عبد الرحمن كيوان أحد خريجي المدرسة الفرنسية قبل الإستقلال المتربع على عرش الوظيف العمومي بعد الإستقلال يده في يد ميسوم الصبيح أحد صناديد "بروموسيون لاقوست" لمحاربة اللغة العربية وحكر الإدارة على المفرنسين وحدهم لمدة 14 سنة لبناء إدارة مفرنسة شكلا وتغريبا وقد نجح في ذلك. وهنا نشير إلى قضية لها أهميتها أن هذه الإدارة ظلت تعامل المواطنين كـ"أهالي" لا كمستقلين ضحوا بمليون

<sup>(1)</sup> نازلي معوض أحمد، المرجع السابق، ص 209، 210.

<sup>(2)</sup> محمد بوضياف، الجزائر... إلى أين؟ ترجمة محمد بن زغبية وبجي الزغودي، مراجعة جمال الدين صالح، دط، مجموعة "حواركم" للصحافة والنشر والإشهار، الجزائر، 1992، ص 192، وقد نقلنا النص رغم طوله لأهميته بالنسبة إلى مكانة صاحبه في الثورة، ولاحظ فيه تحامله على جبهة التحرير.

ونصف مليون شهيد من أجل الإستقلال، أي بنفس الأسلوب الذي كانت تتعامل به الإدارة الإستعمارية معهم من مفاصلة وظلم ورشوة ومحسوبيّة وتعطيل قصدي لمصالحهم وهلم جرا. بمعنى آخر ظلت الإدارة تتعامل مع المواطنين بعلاقة مستعمر ومستعمر، ولقد نتج عن هذه المعاملة، وعن أصل وجودها المتمثل في الفرز الإجتماعي للوصول إلى مواقع صنع القرار الميني على اللغة الفرنسية دون غيرها، وضع اجتماعي رهيب عزل السلطة عن الجماهير الشعبية الواسعة وجعل هوة اجتماعية واقتصادية رهيبة بين الطرفين، "فالمفرنسون" هم المهيمون على مراكز صنع القرار المستحوذون على جميع الإمتيازات (الثروة والسلطة)، فهم القلة المعزولة عن الشعب التي تعيش أعلى مستويات الرفاه المادي والمعنوي وتفرض على الشعب بحكم المواقع التي تحتلها<sup>(1)</sup>. وأصبح الوصول إلى مراكز السيطرة مشروطا إلى حد ما بالتعريب المسبق للمرشحين إلى تلك المناصب. هذا النموذج من الشخصيات المتغربة المعادية لقضايا أمتها، الموالية لأعدائها هي التي استتفرتها "ألان دوكتور" وزير الفرنكفونية بفرنسا للدفاع عن اللغة الفرنسية في الجزائر، بعد مصادقة المجلس الشعبي الوطني على قانون إستعمال اللغة العربية في 26 / 12 / 1991 م مذكرا إياهم ان الفرنسية رأس مال لا ينبغي التفريط فيه. ناسيا أنها اللغة المسؤولة عن تدمير المجتمع الجزائري أخلاقيا واقتصاديا، علميا، فهي كما صرح رئيس البرلمان آنذاك عبد العزيز بلخادم " لا أصانة أبقت ولا تكنولوجيا أكسبت" فهي اللغة التي إحتكرت الإدارة والسلطة والتسيير بقيادة حاملي عقلية التبعية، وكانت دائما تتقلنا من أزمة إلى أزمة، ومن كارثة إلى كارثة أخرى. إنها أذقت الشعب الجزائري نار السعير<sup>(2)</sup>. إنه الولاء التام لفرنسا، ظهر مضمونه في الذين تجاهاروا دون حياء بعد أكتوبر 1988 م مباشرة بأن حكومتهم الميدانية لا تضم أي شخصية وزارية معربة.

وهكذا نجد الإستعمار قد تمكن في مرحلة الإستعمار بواسطة التربية من صياغة عقلية التبعية في النخبة وأنتج في المستعمرات من أبنائها أدوات إخضاع ذاتية، وهو ما لم تنتج به بالجهد العسكري ولعل الإنجازات الأولى لهذا هي التي رهنت الجزائر إقتصاديا وسياسيا وثقافيا. ورفعت نسبة إنتشار الفرنسية في جيل الإستقلال أكبر مما كانت عليه أيام الإحتلال . وكانت عقلية هذه الصياغة تتم داخل المدرسة الوطنية للإدارة .

5- المدرسة الوطنية للإدارة : هي المكان الوحيد على مستوى الجمهورية الذي يخرج الإطارات العليا في القضاء والإدارة والتخطيط والسلك الدبلوماسي. ظلت هذه المدرسة حكرا على الحاصلين على البكالوريا بالفرنسية مع إجراء مسابقة الدخول بالفرنسية مما يعني أنها حكر فقط على المفرنسين<sup>(4)</sup>. ولما

(1) محمد الصالح حدي، المرجع السابق، ص2.

(2) المرجع نفسه، ص2.

(3) المرجع نفسه، ص2.

(4) ظلت هذه المدرسة مفرنسة كليا إلى غاية 1974، حيث صدر مرسوم رئاسي يقضي بتعريب قسم ما لإستقبال الحاصلين على شهادة البكالوريا بسنة

العربية مع إجراء مسابقة الدخول يتضمنها إختيار إجباري باللغة الفرنسية. (أحمد بن نعمان، التعريب، هامش ص 201).

(4) أحمد بن نعمان، التعريب، ص201.



كانت هي وحدها التي تمون الدولة بالإطارات العليا في معظم المجالات الحيوية والمناصب الهامة في الدولة ندرك خطورتها على مستقبل التعريب<sup>(1)</sup>. ولقد عبر ببجاجة لا مثيل لها مدير هذه المدرسة السابق ميسوم الصبيح الذي سئل لماذا لا تدخل التعريب لمدرستك؟.

فأجاب كما بينا قبلا: "المكان الوحيد الذي بقي طاهرا ويريدون تتجيسه"<sup>(2)</sup>. ولا أدل على هذا من أن هذه المدرسة لم تكن تعلم اللغة العربية كلغة في السنوات الأولى للإستقلال إلا لطلبة السلك الدبلوماسي بمعدل 3 ساعات في الأسبوع مثل اللغات الأجنبية الأخرى التي كان الطلبة يدرسونها إجباريا بحكم وظيفتهم المستقبلية.

وخلاصة ما سبق أن فرنسا أنتجت جيلا على عينيها قبل الثورة وأثناءها سيطر على مرانز صنع القرار في الدولة الجزائرية الفتية، فواصل نشر الفرنسية في مختلف مجالات الحياة فتضاعف عدد المفرنسين بعد الإستقلال وأصبحوا يشكلون جيلا جديدا أضيف إلى الفئة الأم التي تركها في الإستعمار قائمة في الإدارة الجزائرية سنة 1962 م. فأصبح هؤلاء يشكلون الفئة المسيطرة في المجتمع ذات الصلاحيات الواسعة في مجالات التشريع والتنفيذ، وحازت على الثروة والسلطة، وأصبحت تمارس إلى اليوم ما أسماه فخامة رئيس الجمهورية الجزائرية عبد العزيز بوتفليقة "الإرهاب الإداري"؛ لأنها معزولة حضاريا ونفسيا عن الشعب الذي تتسلط عليه، ونظرتها إليه هي نفس نظرة دعاة الإندماج والتجنيس من التعللي والإحتقار والإزدراء، وهو ما يمكن تسميتهم بمصطلح "الاندماجيون الجدد" أو "الاستصاليون". وتكمل حديثنا هنا بما ذكره بورقعة ونجعل له عنوان.

6- ضباط فرنسا والجيش والإدارة : يذكر بورقعة أنه بعد أن تأكدت فرنسا أن الإستقلال أت لا محالة لجأت إلى تلغيم مستقبل الجزائر بدس عناصرها من الضباط والموالين في صفوف الجيش الوطني الشعبي والإدارة الجزائرية وهيات لهم ظروف الإستيلاء على المناصب القيادية بطريق المناورة والتنسيق المحكم مع الذين لهم أطماع الحكم والتسلط داخل الجيش. ويتهم الرئيس الراحل هواري بومدين بأنه "أدخل الحركة الجدد والعملاء المنسوسين في الجيش والانتهازيين، لأنه وجماعته أدركوا أن مخططاتهم للوصول إلى السلطة والإستفراد بها لن تتحقق إلا عبر هؤلاء المطيعين الذين لا تاريخ لهم ولا فضل على الثورة .... بحيث استغل بومدين ملفاتهم السوداء ليلتزمهم ويساوم معهم عليها، فكانوا له خير مطيع وأحسن عميل، كما كانوا من قبل لدى فرنسا"<sup>(3)</sup>. ونحن إن كنا نختلف معه في موقفه من الرئيس الراحل هواري بومدين إلا أن وجود ضباط فرنسا في الجيش الجزائري أصبح متداولاً عند الجميع.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق: أن فرنسا قبل أن تخرج كرها من الجزائر أحكمت قبضتها الحديدية على الشعب الجزائري بمن أنتجتهم في العهد الاستعماري وبما قيدت به الجزائر <sup>من</sup> على اتفاقيات إيفيان،

(1) أحمد بن نعمان، التعريب، ص201.

(2) عثمان سعدي، التعريب، ص43.

(3) (الرائد) لخضر بورقعة، شاهد على إختيال الثورة، ص112، 126. ولكننا بينا قبلا أن التسلل إلى الثورة بدأ منذ 1956م، مما يجعلنا لا نحمل الرئيس الراحل هواري بومدين المسؤولية وحده.

وبما واصله منتجوها في عهد الاستقلال. وذلك لأهداف إستعمارية وتبشيرية. وكان نتيجة كل هذا العشوية الإستصالية التي أصبحنا أملين أن تكون نهايتها على يد فخامة الرئيس الجديد عبد العزيز بوتفليقة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## المبحث الثاني

### 2- محاربة اللغة العربية بالدعوة لإحياء اللهجات العامية واستبدالها بها المطلب الأول

السبب، وصياغة التراث العربي الإسلامي صياغة نصرانية

#### 1- سبب محاربة اللغة العربية :

إضافة لما ذكرناه قبلاً، يقول جوليو باسيتي ساني (G.B. Sani)<sup>(1)</sup>، أن لويس ماسينيون يعترف " بأن العرب باعتبارهم وحدهم السلالة الباقية من إسماعيل لا يملكون طريقة أو وسيلة إلى معرفة الحقيقة الإلهية إلا من خلال لغتهم، ولهذا السبب، فإنهم يحبونها حباً جما"<sup>(2)</sup>. والحقيقة أن العالمين طرّاً لا يملكون طريقة أو وسيلة إلى معرفة الحقيقة الإلهية إلا من خلال اللغة العربية، والذي يهمنا هنا أن علماء الغرب ورجال إكليروسهم أدركوا الترابط الوثيق بين اللغة العربية والدين الإسلامي، فعرفوا أنه لا يفهم إلا بها، وأنها ركن جوهرى من القرآن الكريم<sup>(3)</sup>. ولا أدل على هذا من أن كل علومها نشأت بعد نزوله وللحفاظ عليه<sup>(4)</sup> - وأن قواعدها نشأت منه - كما أدركوا الصلة الوثيقة بينها وتاريخ الشعوب الإسلامية وعلومها وثقافتها وأنها من العوامل الكبرى في تمكين فكرة الوحدة الإسلامية. وأنها من أهم وشائج الأخوة الإسلامية. فقد كانت هي اللغة الرسمية السائدة في جميع بلدان العالم الإسلامي بين المحيط الأطلسي في الغرب والمحيط الهادي في الشرق، وعلى جميع سواحل المحيط الهندي، فهي لغة التخاطب والأدب والعلم والعبادة اليومية لكل المسلمين حيث يجب عليهم جميعاً أينما كانوا ومهما كانت لغاتهم وأجناسهم ومواطنهم أن يتكلموا اللغة العربية لأن عبادتهم من صلاة وتلاوة القرآن الكريم لا تتم إلا بها<sup>(5)</sup>. وهي اللغة التي اختارها الله لتكون لغة الوحي - القرآن الكريم - ولما كان القرآن الكريم هو مصدر قوتنا والمحافظة لنا من التشردم والضياع<sup>(6)</sup>، فإن القضاء عليها يعني القضاء عليه وهو ما بينه الكاردينال (فيرديبي) في المؤتمر الأفخارستي الذي عقد بالجزائر سنة 1936 م كما ذكرنا قبلاً، فمن حاربها كان مبشراً. والقضاء على القرآن الكريم هو الوسيلة الوحيدة لفتح الطريق أمام التنصاري للتمكن من المسلمين، وأمام الإستعمار لمواصلة قهرهم وإستعبادهم.

اللغة العربية هي اللغة الوحيدة القادرة على التعبير عن أعماقنا وشعورنا، ولا شعورنا، ولا أدل على هذا من أن أعظم القصائد الشعرية التي هزت وما زالت تهز كيان الإنسان الجزائري فتدمع عينيه تأثراً

<sup>(1)</sup> جوليو باسيتي ساني قسيس فرنسي، درس اللاهوت في مصر وفرنسا وكندا، وأستاذ زائر بجامعة نيويورك وأنديانا وأدنوا. (سعدون السويح، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1987م، ع4، هامش ص 440).

<sup>(2)</sup> جوليو باسيتي ساني، لويس ماسينيون ... الدارس المسيحي للإسلام، تعريب سعدون السويح، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، المرجع السابق، ص 445.

<sup>(3)</sup> عز الدين الخطيب التميمي، التأخر على اللغة العربية، مجلة الأمة، قطر، أغسطس، 1981م، ص1، ع10، ص90.

<sup>(4)</sup> عبد القادر الشيخ إدريس، ولغات مع اللغة والتربية، مجلة الأمة، قطر، سبتمبر، 1981م، ص1، ع11، ص6.

<sup>(5)</sup> عز الدين الخطيب، المرجع السابق، ص90.

<sup>(6)</sup> إسماعيل الكيلاني، العمرة والعربية، مجلة الأمة، قطر، أبريل، 1981م، ص1، ع6، ص96.

ويشعر لها بدنه لا إراديا إنما هي القوائد العربية الفصيحة والتي قيلت في الثورة، وسن ذا الذي لا يشعر بدنه عندما يسمع النشيد الوطني الجزائري "قسما". وهكذا فلا الشعر الملحون استطاع ان يهز أعماقنا، ولا الشعر الفرنسي إن وجد أدمع عيوننا ولا القبائلي. وهذا أكبر دليل على أنها وحدها القادرة على التأثير فينا، أي على التعبير عما في أعماقنا، والوصول إلى أغوار أنفسنا لأنها وحدها اللغة الفطرية في الوجود، وكيف لا تكون كذلك وهي اللغة التي إختارها الله لينزل بها وحيه الخاتم لتصبح لغة عالمية رغم أنف أعدائها. ولما كان الدين الصحيح فطريا كانت اللغة التي تعبر عنه وتبينه فطرية أيضا. ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(1)</sup>، وبناء على ما سبق، فإننا نسمُ غيرها من فرنسية وقبائلية وعربية عامية، بالقصور عن التعبير عن معاناة النفس الجزائرية. ولهذا الغرض، فإن اللغة العربية تحارب أينما ليصبح الإنسان الجزائري فاقدا للغة التي تهز أعماقه فيقع فريسة سهلة في أيدي أعدائه، لأنه يصاب بالعجز والخمول والقصور، وبذلك فإن اللغة العربية تمدنا بقوة الحياة والقدرة على الإستمرار<sup>(2)</sup>.

- عندما ننظر إلى نظم التربية الإسلامية، والعادات والتقاليد - خلال العصور الإسلامية نكتشف عظم رابطة اللغة العربية التي جعلت معارف الأقطار الإسلامية العربية تراثا متميز السمات والخصائص، كما أن هذه اللغة هي أداة الربط الجوهرية بين هذه الأقطار - وتجدد الشعور بالتماسك بين أبنائها، وهي أداة حفظ التراث العربي الإسلامي وأداة نشره ونقله من جيل إلى آخر "ولذلك كانت اللغة من أهم الوسائط لتعليم الثقافة المشتركة وصهر عناصر الأمة في بوتقة واحدة، وتوحيد مشاعرها وعواطفها وآمالها، وبوحدتها تكتمل الوحدة السياسية وتحفظ الأمة من التمزق، لأنها ليست مجرد ألفاظ وإلا ما حوربت، بل هي آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ولون من ألوان الشعور وفلسفة في الحياة"<sup>(3)</sup>. وأساس هذه اللغة هو القرآن الكريم الذي أكسبها شخصيتها العالمية. ولا أدل على هذا من أن أغلب الذين نظروا لها وأنشأوا نحوها وصرفها وبلاغتها وآدابها ليسوا عربا، بل مسلمون بل حتى الخط العربي لم يطوره العرب بل المسلمون الذين كان العرب قبلهم، كما اكتسبت هذه اللغة - انطلاقا من القرآن الكريم - شخصيتها العالمية ضمن الحضارة الإسلامية بقدرتها على استيعاب تراث الإغريق والفرس والصين والهند وغيره دون أن يقع فيها أي خلل<sup>(4)</sup>. إلى حد أن أوروبا لم تطلع على تراث اليونان التي هي جزء منها إلا من خلال اللغة العربية. وقد أثر الفلاسفة والعرب المسلمون في أوروبا باللغة العربية كما أشرنا قبلا أثناء حديثنا عن الإسلام والعلم، ولقد أبدع المسلمون حضارة ليس بغير لغتهم، ولكي تصل لغة ما إلى هذا المستوى يلزمها عدة قرون من التدرج والرقى ذلك أنها لم تكن تعبر إلى لحظة قبيل الرسالة المحمدية إلا عن ذكاء بدو الصحراء. ولكي تستطيع التعبير يلزمها أن تثري لكي تشبع رغبات عقل واجهته منذ لحظة نزول الوحي المشاكل الغيبية والشرعية والاجتماعية، بل والعلمية أيضا.

(1) الروم / 29 .

(2) إسماعيل الكيلان، المرجع السابق، ص 96.

(3) - (4) عبد القادر الشهبان إدريس، المرجع السابق، ص 6 ، 9 .

ولكن تطورها المذهل حدث طفرة كما قال مالك بن نبي " إن ظاهرة لغوية كهذه فريدة في تاريخ اللغات، إذ لم يحدث للغة العربية تطور تدريجي<sup>(1)</sup> بل بعض ما يشبه الانفجار الثوري المباغت، كما كانت الظاهرة القرآنية مباغتة. وبهذا تكون اللغة العربية قد مرت طفرة من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنيا لكي تنقل فكرة الثقافة الجديدة والحضارة الوليدة<sup>(2)</sup> .

ولأهمية هذه اللغة وعظمتها " يرى أكثر المهاجرين على إستعمار الشرق أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم ما دام هنالك "لغة واحدة" يتكلمها العرب ويعبرون بها - العرب والمسلمون - عن آرائهم، وما دام هنالك "حرف عربي" يربط حاضر المسلمين إلى تراثهم الماضي. فإذا حمل المبشرون والمستعمرون العرب، على الكتابة بالعامية أصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به، أو لغات متعددة، ثم إذا هم استطاعوا أن يحملوا المسلمين على التخلي عن الحرف العربي وإحلال الحرف اللاتيني مكانه انقطعت صلة العرب تماما بأديابهم القديم. وبالمؤلفات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والفكرية، حينئذ يصبح العرب "وحدات" لغوية فكرية غير متعارفة، ثم تتناثر هذه الوحدات مع الزمن، فيسهل إخضاعها بجهد أيسر من الجهد الذي تحتاج إليه هذه الغاية الآن"<sup>(3)</sup>.

نستطيع تلخيص كل ما سبق وبناء عليه أن الغرض من تحطيم اللغة العربية إنما هو تحطيم القرآن الحائل الطبيعي دون النيل من العرب والمسلمين كما سيظهر بوضوح عند دعاة العامية. ولذلك فإن الذي تزعم الدعوة إلى العامية هم رجال الإستعمار والإكليروس ونصارى المشرق العربي ودعاة الحركة البربرية في الجزائر وبعض اللاتكيين بها. وقبل أن نتحدث عن بعض أصحاب تلك الدعوات والبراهين التي استنادوا إليها - وهي كما سيظهر براهين متهاقنة في المشرق والجزائر لتبدوا المؤامرة العالمية الاستعمارية ضد اللغة العربية واضحة ومكشوفة وموحدة المنطلق<sup>(4)</sup> والأهداف - فإنه يجب أن نبين بأنه قبل أن تظهر فكرة الدعوة إلى العامية لمحاربة لغة القرآن الكريم سبقتها عملية أخرى، تتمثل في عمل النصارى العرب على إعادة صياغة التراث العربي الإسلامي من وجهة نظرهم، ومن ضمن ذلك إعادة صياغة اللغة العربية صياغة نصرانية، ولما فشلت الفكرة فكروا في عمل آخر هو تحطيمها بإحياء العامية. وتكون العملية أكثر فتكا قرروا كتابتها بالحروف اللاتينية. ونشر إلى المحاولة الأولى، ومنها تنتقل إلى فكرة إحلال العامية بدل الفصحى.

2- عمل النصارى العرب على إعادة صياغة التراث العربي الإسلامي من وجهة نظرهم، ومن ضمن

ذلك:

<sup>(1)</sup>الطور التدريجي وقع في نشأة علومها، أما نشأتها هي، فكما ذكر مالك بن نبي.

<sup>(2)</sup>مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص 231 - 233.

<sup>(3)</sup>مصطفى محالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص 224.

<sup>(4)</sup>ومن الأمثلة على هذا فإن ماسينيون دعا إلى العامية، في مصر وسوريا ولبنان خاصة والغرب - والجزائر - ( مصطفى محالدي وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 224)، كما أن كارل فولرس دعى إليها في كل من مصر والجزائر.

## إعادة صياغة اللغة العربية:

لن نتحدث هنا عن كل ما قاموا به فيما ذكرناه في العنوان، وإنما تقتصر على ما قام به أحد كبارهم في مجال اللغة العربية: النحو والصرف على النصوص وهو :

المطران جرمانوس فرحات : واسمه الحقيقي كما ورد في نهاية كتابه " بحث المطالب في علم العربية " ، هو "جبريل بن فرحات القس الراهب الحلبي الماروني"<sup>(1)</sup> - (2) - وذلك من خلال كتابه " كتاب بحث المطالب في علم العربية" ط11، مطبعة المرسلين اليسوعيين بيروت 1913 م والكتاب مطبوع مع حواشي عليه لمصححه المعلم سعيد الخوري الشرتوني اللبناني.

من خلال تفحصنا لهذا الكتاب " كتاب بحث المطالب في علم العربية " تبين لنا حقيقة مهمة، هي أن النصارى لم يكونوا فقط الذين أدخلوا اللاتينية إلى العالم العربي والإسلامي وطالبو بأن تحل اللسجات المحلية محل العربية الفصحى<sup>(3)</sup>. وأن تكتب باللاتينية وإبعاد الإسلام من الحياة نهائياً، بل حاولوا أيضاً استيعاب التراث العربي الإسلامي وإعادة صياغته صياغة نصرانية إستراتيجية تبثيرية وتحليله تحليلًا يتفق مع ذلك.

ومن ضمن ذلك هذا الكتاب<sup>(4)</sup> الذي ألفه المطران جرمانوس فرحات، وقد ألفه سنة 1708 م مما يعني أن هذه الفكرة ليست وليدة اليوم، وإنما أيام أن كانت الإسلام قوة، وذلك لتحطيمه من الداخل. ولما كان "كتاب بحث المطالب" هو وحده الذي عثرنا عليه من بين مؤلفاته، فقد جعلناه موضوع إستشهادنا ودراستنا. فدرسناه وتوصلنا فيه إلى النتائج التي سنذكرها بعداً، وقد قام بتصحيح الكتاب وتحسينه (وضع الحواشي عليه) سعيد بن عبد الله بن ميخائيل الخوري شاهين الرامي الشرتوني اللبناني الذي يعد من المساهمين في الثورة على اللغة العربية والمتأمرين عليها والمطالبيين بإحلال اللغات الأوروبية محلها، ومن دعاة العامية وجماعة "المقتطف". ومما كتبه فيها مقال بعنوان " البيان العربي والبيان الإفرنجي"<sup>(5)</sup>. ومن الطبيعي أن

(1) جرمانوس فرحات، كتاب بحث المطالب في علم العربية، ط11، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1913م، ص 357.

(2) وقد قال عن جرمانوس فرحات مصحح كتابه " كتاب بحث المطالب" ومحبته سعيد الخوري الشرتوني اللبناني: "قوة علماء زمانه ورحلة فضلاء أوانه، بل الجوهرة التي توجت بها هامة الأمة المسيحية، وتلألأ سناها في الأفاق العربية، السيد جرمانوس فرحات المتصدر في أندية الأدب، مطران الأمانة المارونية في مدينة حلب، ولد بحلب سنة 1670م، وترهب سنة 1694م في دير القديس اليشع النبي بناحية طرابلس الشام، وأقيم مطراناً على حلب سنة 1725م، ومات في 9 تموز 1732م، وقد ترك كتابين في العربية أحدهما " أحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب" مطبوع في سنة 1842م، والثاني " كتاب بحث المطالب في علم العربية" وقد انتهى من تأليفه في 01 كانون الثاني، افتتاح سنة 1708م، في دير القديس اليشع في سفح الوادي المقدس من جبل لبنان في جهات طرابلس سوريا، وكتابه ثالثاً استوفى فيه معنى التشبيه يسمى " المثلثات الدرية" ( جرمانوس فرحات، كتاب بحث المطالب في علم العربية تقديم وتحشية سعيد الخوري الشرتوني، ط11، مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، 1913م، ص3، وهامش ص3، من مقدمة سعيد الخوري للكتاب).

(3) يبدو أن فكرة إحلال العامية محل الفصحى أتت نتيجة لرفض المسلمين إعادة الصياغة النصرانية للغة العربية والدليل على هذا الرفض أن الكتب الأساسية التي بقيت تدرس في النحو والصرف والبلاغة، إلى يومنا هذا هي ما كتبه المسلمون لا ما كتبه النصارى. ولكن يبدو أن النصارى العرب يعلمون أناتهم اللغة العربية من خلال كتبهم لا من خلال كتب المسلمين والدليل على هذا. هذا الكتاب الذي ألف لهم.

(4) كتاب بحث المطالب في علم العربية، للمطران جرمانوس فرحات هو الوحيد الذي عثرنا عليه ولذلك كان اعتمادنا عليه وحده، أما كتابه الأخران " أحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب" و" المثلثات الدرية" فلم نثر عليهما.

(5) سعيد الخوري الشرتوني، البيان العربي والبيان الإفرنجي، المقتطف، القاهرة، أبريل، 1902م، ص27، ج4، ص370-374.

يبين امتياز البيان الإفرنجي عن العربي. وما يهمننا هنا أنه يقول في نهاية "كتاب بحث المطالب": "هذا هو القدر الذي أمرت بالوقوف عنده، والحد الذي حُظِرَ علي أن أتجاوز إلى ما بعده، من تجريد هذا المتن عمل لحقه من الخطأ بأقلام الناسخين، وتعليق حواشي عليه كافلة بسمه الفائدة للدارسين"<sup>(1)</sup>. وهذا يعني أن هناك أشياء في الأصل لم يسمح له بتثبيتها ولسنا ندري لماذا؟ وقد تكون سبباً وشتماً للقرآن الكريم ونبيه مما لا يسمح بنشر الكتاب حتى لا يجلب سخط المسلمين. كما يعني أن هناك لجنة كاملة قامت بالإشراف على العملية، وهي التي قررت ما ينشر وما لا ينشر، وهذه القضية من الأهمية بمكان.

وكان الفراغ من تصحيحه وتعليق حواشيه في منتصف أيار سنة 1882 م<sup>(2)</sup>. وهذه الفترة الزمنية هي التي جهر فيها بالدعوة إلى العامية، وذلك في سنة 1880 م من طرف ولهم سبيتا في مصر كما سنذكر، وبهذا فإن هذا التزامن لم يكن في نظرنا عبثاً، بل يدل على التنسيق الدقيق بين نصارى المشرق والمستشرقين ليقع الهجوم على لغة القرآن في وقت واحد من كل حدب وصوب. وقد قام المصحح الشرتوني بكتابة مقدمة نقد فيها كتب المتقدمين كآلفية ابن مالك (ت 672 هـ/1274م) ليبرر أهمية هذا الكتاب وليعطي قدر مؤلفه، كما بين أنه أدخل على الأصل تعديلات<sup>(3)</sup> لأن الكتاب كان مخطوطاً يتداوله الناس - أي النصارى - لأكثر من قرن ونصف مما جعل به أخطاء كثيرة لكثرة النساخ. فاضطر لإدخال تعديلات كثيرة عليه، ولكن يبدو لنا أن سبب تلك التعديلات إضافة لما ذكرناه أن المطران جبريل (جرمانوس) فرحات بالغ في الاستشهاد من الأناجيل فوق في أخطاء كثيرة لأن الكتاب المقدس أو الأناجيل لا تصلح للاستشهاد. إذ كيف تكون ترجمة من أصل غير عربي وتصلح دليلاً على صحة قساعة نحوية أو صرفية عربية؟! وذلك لأن الاستشهاد ليس لتوضيح القواعد فحسب، بل أيضاً - وهو الأصل - للدلالة على صحتها مما يجعل استحالة صلاحية الأناجيل لهذا الغرض. فقام سعيد الخوري بتقوية الكتاب من كثير من ذلك. والدليل على هذا أن سعيد الخوري في حاشيته على الكتاب - وهو ما يبين استحالة الانفكاك بين القرآن الكريم واللغة العربية - استشهد بالآيات القرآنية من جديد، كما هو الحال في المطلب الخامس، في دخول الفاء على جواب الشرط، مثل قوله تعالى: ﴿من يضل الله فلا هادي له ونذرهم﴾<sup>(4)</sup>. وقوله تعالى: ﴿وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء﴾<sup>(5)</sup>. بجزم يغفر. وقوله تعالى: ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾<sup>(6)</sup>. ولكنه مع هذا فإن الأمثلة التوضيحية لا الإستشهادية أتت بكثير منها من النصرانية. مثل: "والإنجيل إن تاب الإثم آخر العمل أنه

(1) سعيد الخوري الشرتوني، حاشية كتاب بحث المطالب، ص 357.

(2) المصدر نفسه، ص 357.

(3) المصدر نفسه، مقدمة سعيد الخوري الشرتوني، ص 4.

(4) الأعراف / 186.

(5) البقرة / 284.

(6) يوسف / 90.

(7) سعيد الخوري، حاشية على كتاب بحث المطالب، ص 304 ، 305.

يدخل الجنة<sup>(1)</sup>. ولكنه عندما يستشهد بالقرآن الكريم وهو كثير لا يذكر أنه قرآن وإنما يسورده على أنه مثال. فهو يقول قال تعالى - فقط - عندما يأتي بأمثلة من الكتاب المقدس وهذا في نظرنه مخالف للمنهج العلمي الذي يقتضي أن يبين القرآن عن غيره حتى إذا كان لا يؤمن بأنه من عند الله. كما أنه مخالف لطبائع الأشياء؛ لأن النصارى عندما يستشهدون بالكتاب المقدس لا يبدأون إستشهادهم بـ قال تعالى. وهذا ننقل إلى:

منهجية جرمانوس فرحات في كتابه : يبدو لنا أن من أسباب نقد سعيد الخوري لكتب المتقدمين كالفية ابن مالك إنما هو تبرير لأهمية الكتاب في نظره، وكذلك تبرير للمنهجية التي كتب بها جرمانوس فرحات كتابه المخالفة لمنهجية كتب المتقدمين، ومن ذلك فإن جرمانوس فرحات يبدأ كتابه بـ "لأشتم النحو، فيقسم الكتاب إلى قسمين الأول يتعلق بالصرف، ويحتوي على 133 ص والقسم الثاني يتعلق بالنحو، ويحتوي على 224 ص، وهذا لا عهد لي به من قبل في كتب النحو العربية التي تبدأ عادة بالنحو قبل الصرف وقد تخلط بعض أبواب الصرف بالنحو، ولكنها لا تبدأ بالصرف إطلاقاً. ومنهجية جرمانوس فرحات هذه تتوافق مع ما عند الفرنسيين أي مع اللغات الأوروبية التي تبدأ بالتصريف أولاً. مقصوده من تأليف الكتاب: بين المؤلف أن مقصوده من تأليف هذا الكتاب ثلاثة أمور:

- 1- إزالة تعقيدات العبارات المبهمة.
  - 2- ضم جميع ما تلمزنا معرفته من هذه الصناعة في مؤلف واحد بوجه الاختصار.
  - 3- وهو الذي يهمنا كثيراً جداً لأنه هو موضع استدلالنا - : "يراد شهادته ( الإستشهاد والأمثلة). من الكتب المقدسة حسب الإمكان، ثم يبين سبب تسمية الكتاب قائلاً : " وسميته بحث المطالب وحث الطالب، والمقصود منه نفع أولاد المسيحيين، لئلا يتعربوا فيتجربوا ولئلا يتعربوا فيتعب<sup>(2)</sup>. ويظهر لنا بجلاء أن إيراد أمثله من الكتاب المقدس إنما هو لسبب أساسي، وهو أن كتب النحو والصرف التي كانت موجودة آنذاك كل أمثلتها تقريباً ولا سيما الإستشهادية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر الجاهلي، وهذا يربط قارئ النحو بالقرآن والأحاديث النبوية فيتأثر بها، فالبديل في نظره:
- 1- تبديل تلك الاستشهادات باستشهادات من الكتاب المقدس، وذلك ليحقق للنصارى ما حققته كتب النحو للمسلمين، لأنها ألقت للحفاظ على القرآن الكريم.
  - 2- هو نوع من الصياغة الجديدة للتراث، أو نوع من التغريب من قلب اللغة العربية. وإلا ما قيمة استشهادات الكتاب المقدس وما علاقتها في الدلالة على اللغة العربية وهو لم يولف أصلاً بها؟ !. فالترجمة لا يستل بها.
  - 3- حفظ أولاد النصارى من أن يتأثروا بالإسلام من خلال استشهادات النحاة، وقد بين هذا صراحة. وهذه القضية نعتبرها في منتهى الأهمية بالنسبة لنا، ذلك أنه يجب أن نفكر نحن مثلهم في كيفية حفظ

(1) المصدر نفسه، هامش ص 304.

(2) جرمانوس فرحات، كتاب بحث الطالب، ص 6.



أبنائنا من التغريب النصراني، ولكننا للأسف هم يحفظون أبناءهم ويعملون على تغريب أبنائنا، ونحن نساعدهم في هذا.

وقد بين منهجه في هذا التأليف في المقدمة حيث جعل لها عنوانا هو "باسم الأب والإبن والروح القدس الإله الواحد أمين" وذلك بديلا لما كانت كتب النحو العربية تبدأ به آنذاك وهو البسمة والصلاة على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ولما كانت تلك الكتب تبدأ بعد ذلك بالحمد لله وتوحيده وتزيهه، فإن المطران جرمانوس فرحات ذكر في مقدسته كبديل: "... والسجود لابنه يسوع المسيح الوحيد المتجسد بأقدس حلة. الذي أرسله رحمة للعالمين، وخلصنا من الجريرة والزلة. والتقدس للروح القدس الذي يدبر الكائنات بأحسن حلة. والتعظيم للثالوث الأقدس رب الذات الواحدة، والسلطة المذلة"<sup>(1)</sup>.

ثم يبين لماذا ألف الكتاب: "أما بعد فيقول المفتخر إلى ربه ... جبرائيل ابن فرحات القس الراهب الحلبسي الماروني الحفير المنضوي تحت قانون الرهبان اللبنانيين المتوسحين بإسكيم القديس انطونيوس الكبير، لم رأيت إقبال المستفيدين من المسيحيين منصبا نحو معرفة القواعد العربية والأصول النحوية، لكن يدهم تنصر عن الوصول إلى غايتها لأسباب توجب الإضراب عن الإنصاف، وتقرن الأكفان بالإنكفاف، جذبتني عند ذلك يد الغيرة الأخوية .... فانقدت طائعا نحوها بعد أمر المطاع، وسؤال من يدق له مني الاتباع"<sup>(2)</sup>.

ويبين منهجه في تأليف الكتاب: "ونبذت عنا ما هو غريب منا، فهذا لا تصدقن المقرض الواقف على موضوعنا والمختبر مشروعا، بل قل له: "كل يفتات بما يكتفه وصاحب البيت أدري بالذي فيه"<sup>(3)</sup>، ومعروف الذي يقصده هنا، وهو نحن. ونختم حديثنا عن هذا الكتاب بإيراد أمثلة منه كنماذج، وذلك لأن الكتاب من بدايته إلى نهايته مملوء بالإستشهادات والأمثلة من الكتاب المقدس، ونحن نأتي ببعض النماذج فقط"<sup>(4)</sup>.

- في مرتبة المفعول به: وهو أنه بعد الفعل والفاعل نحو: أحيا يسوع لعازر.

في تقديم المفعول به على الفاعل: نحو أكل الخبز بطرس، وبطرس هو أحد رسلهم المسماء به الكنيسة الكاثوليكية.

النهى: يقول كقوله تعالى "لا تضطربن قلوبكم". هذا ليس قرآنا، بل من الكتاب المقدس وهو موضع الإستشهاد. ودائما عندما يأتي بالمثال من الكتاب المقدس يسبقه بـ "قال تعالى"، وذلك محاكاة للمسلمين في تسييقهم لـ "قال تعالى" قبل ذكر الآية القرآنية.

(1) المصدر نفسه، ص 5.

(2) المصدر نفسه، ص 5.

(3) المصدر نفسه، ص 6.

(4) من أراد معرفة كل ما ورد في الكتاب للرجوع إلى عن الكتاب.

- الاستفهام: كقوله تعالى "هل يجدن إثمًا" (1). أما المحشى فأتى بمثال هو "والإنجيل الكريم لا يفتح المداهن" و «ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحضرون» (2). وذلك ليبين أن التوكيد في جواب القسم إن كان منفيًا أو منفصلاً عنها إمتنع توكيده (3). ولكنه لم يذكر النص الأخير الذي استدل به آية من القرآن الكريم .
- في أفعال التفضيل " بطرس أكبر من بولس".
- في تَقْدِي اللازم ولزوم المتعدي " أكرمت بطرس وفرحته" (4).
- في الاسم المهموز : " وتحذف الهمزة وجوبا من البسمة الشريفة خاصة نحو باسم الأب والابن والروح القدس لكثرة الاستعمال ولا يجوز حذفها في غير البسمة مثل باسم يسوع" (5).
- وهو يكثر الأمثلة بمريم وبولس ويسوع والمسيح. فمثلا في أقسام المركب يقول : فأقسام المركب ثلاثه، إضافي كتلميذ المسيح، ومزجي كعليك وإسنادي كقام بطرس.
- تنوين العوض كقوله تعالى " وحينئذ تنظرون علامة ابن الإنسان أي حين إذ تكون الدينونة" (6)
- العلم : وهو قسمان علم شخصي كيسوع ومريم ويوسف فإنها أعلام دالة على أشخاص، وعلم جنسي كقيصر وكسرى وفرعون فإنها أعلام دالة على ملك من ملوك الروم والفرس والمصريين.
- جاء بطرس زين العابدين
- في أنواع الفاعل وعامله : عجبت من موت يسوع، أي من أن مات يسوع، ويسوع ظاهرة أمه (7).
- اسم الموصول "من" : كقوله تعالى " من يطلب يجد"
- اسم الموصول "ما" : كقوله تعالى " اعطو ما تقيصر لقيصر" (8).
- المضاف إلى واحد من المعارف قوله تعالى " إن جاءكم أحد باسم نفسه قبلتموه".
- إذا كان الأعجمي غير علم وجب صرفه مثل " أكرمت أسقفا وقسيسا" (9).
- في رتبة الفاعل والمفعول ومتى يعدل عن الأصل وهو تقديم الفاعل عن المفعول:
- أحيا المسيح العازر، بشر لوقا البشير مني الرسول، شفاني يسوع
- ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (10). وهذه أول مرة يستدل فيها المطران بآية قرآنية أي بعد 177 ص، لكن على أنها كلام، ثم يأتي أحيانا بعد ذلك ببعض الآيات ولكن لا يشير أنها قرآن.
- ما أثار البرية إلا الإنجيل.

(1) هرماتوس فرحات، المصدر نفسه، ص 39.

(2) آل عمران / 158.

(3) سعيد الخوري، المصدر السابق، ص 39.

(4) هرماتوس فرحات، المصدر نفسه، ص 48.

(5) المصدر نفسه، ص 131.

(6) المصدر نفسه، ص 137، 138.

(7) المصدر نفسه، ص 138، 176.

(8) المصدر نفسه، ص 148.

(9) المصدر نفسه، ص 153، 160.

(10) فاطر / 28.

- في تعريف المبتدأ والخبر وتكبيرهما، كقوله تعالى " هل شيطان يخرج شيطاناً"<sup>(1)</sup>.
- في رتبة المبتدأ والخبر " ما بطرس إلا رسول وإنما بطرس رئيس الرؤساء"<sup>(2)</sup>. وهذا تحريف لقوله تعالى: ( وما محمد إلا رسول... )<sup>(3)</sup> ولكن الفرق هنا في الاستدلاليين واضح، فالآية القرآنية استشهاد على صحة القاعدة، أما ما بطرس إلا رسول فهو مجرد مثال لتوضيح القاعدة لا دليلاً على صحتها.
- في حذف كل من المبتدأ والخبر:
- في حذف الخبر جوازاً كقوله تعالى " كم<sup>(4)</sup> عندكم من الخبز فقالوا سبعة أي سبعة عندنا".
- في حذف الخبر وجوباً نحو لولا يسوع ما خلصنا، أي لولا يسوع متجسد. وأكثر شربي الخمر ممزوجاً.
- في حروف الفصل ( الضمير الموجود بين المبتدأ والخبر ) كقول البشير: الله هو الكلمة. فالله مبتدأ والكلمة خبر و"هو" حرف فصل لا محل له من الإعراب، ولهذا لا يسمى ضميراً، ومن فوائده التخصيص والتأكيد<sup>(5)</sup>. نكتفي بهذا، ونشير إلى أنه ختم كتابه بإعراب البسمة النصرانية، ويهنا فيها كلمة الإله فيعربها على أنها بدل من الثالث<sup>(6)</sup>. بدل كل من كل، يتبعه في إعرابه مما يعني الثالث- تساوي واحداً، ويرى أن فيها خمس روايات من الإعراب.
- مما سبق يمكن أن نتوصل إلى ملاحظات هي:
- يمكننا أن نستفيد من هذا الكتاب ومنهجية في تحصين أبنائنا، فكما يفكر النصارى في تحصين أبنائهم يجب أن نفكر نحن في تحصين أبنائنا. ولكننا للأسف نجد العكس عندنا.
- الكتاب هذا رغم أنه من حيث محتواه لا يشكل أي خطر علينا، وأصحابه يدركون هذا ولذلك ظل مخطوطاً طوال حوالي قرنين كاملين، ولكنه مع ذلك يعد حلقة من حلقات استيعاب النصارى للتراث الإسلامي وإعادة صياغته من جديد، وإظهار ما يخدمهم في الوقت الملائم. وفي هذا الإطار فإن العهد الذي طبع فيه هذا الكتاب ونشر إنما هو عهد امتاز بتكالب الإستعمار بكل فئاته على اللغة العربية والعمل بلا هوادة على طمسها، بل محققاً. إذ في هذه الفترة ظهر من يوسم اللغة العربية بالجمود والتخلف بل يعتبرها أساس تخلف العرب والمسلمين وأنها إذا أردنا أن نواكب التقدم العلمي فلا بد من محققها وتبني اللغات الغربية مباشرة. وظهر آخرون ينادون بإحلال العامية محلها. فإذا لم نحل العامية محل الفصحى فلا أمل لنا في التقدم.

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 177 ، 182 .

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 188 .

<sup>(3)</sup> آل عمران / 144 .

<sup>(4)</sup> هنا من الأمثلة المضحكة حيث يجمع بين قوله تعالى، و" كم عندكم من الخبز".

<sup>(5)</sup> المصدر نفسه، ص 190 ، 191 .

<sup>(6)</sup> المصدر نفسه ص 357 .

وخلال كل هذا كانت معاول الإستعمار تدمر في اللغة العربية وأصحابها تدميراً، وبهذا تكاثرت المخالب التي تنهش بها لغة القرآن لكي يجعلون الخرق يتسع على الراقع، وفي هذا الإطار يمكن اعتبار نشر الكتاب في هذه المرحلة إنما ليكون رافداً جديداً تنهش من خلاله لغة القرآن.

وهنا نستطيع القول بأن هذا الكتاب يعد ضمن محاولات إقصاء العربية عن حياة المسلمين وقد ظهر في فترة كانت فيها محاولات إقصاء اللغة العربية عن حياة المسلمين وتدميرها نهائياً على قدم وساق، ففي تلك الفترة كان من ضمن تلك المحاولات:

1- الترويج لفكرة عجز اللغة العربية عن مسايرة التطور العلمي وعدم صلاحيتها لإستيعاب العلوم الحديثة، لتظل عالمة على مصطلحات الغرب في العلوم الحديثة مما يؤدي بنا إلى الشعور بالنقص، فنهمل لغتنا وتراثنا لنذوب في التراث الغربي، أي لننتهي.

2- فرض لغة المستعمر علينا، وذلك لصهرنا بلغاته وحضارته مما جعل لغات المستعمر هي اللغات الرسمية السائدة، وهي لغات التخاطب والتعليم والتعلم كما هو الأمر في الجزائر، وأصبحت الدوائر الحكومية لا تعين في داخلها إلا من يجيد لغة المستعمر مما أدى إلى إهمال اللغة العربية، وجعلها مثارا للسخرية، وأصبح التفسير منها ظاهرة بارزة في أغلب مجتمعات المسلمين.

3- الترويج للغة العامية واللهجات الإقليمية المحلية لتكون لغة التخاطب والكتابة والآداب والفنون والمعاملات<sup>(1)</sup>.

والغرض النهائي : تحطيم القرآن الكريم للتمكين للاستعمار والتصوير.

## المطلب الثاني

الدعوة إلى العامية في العالم العربي

مصر وبلاد الشام ( لبنان ) نموذجا

وسائل محاربة اللغة العربية متعددة ومتداخلة ومتعاونة ومتوازية إلى حد أنه لا يمكن الفصل بينها أو تمييز بعضها عن بعض، فكثيرا ما تكون الدعوة إليها جميعا في ضربة واحدة، فالذي يدعو إلى العامية يدعو في الوقت ذاته إلى الكتابة بالأحرف اللاتينية ويتحدث عن عجز الفصحى عن إستيعاب العلوم والتقنية العصرية، ثم يشكو من صعوبتها وينفر منها ويروج للغات الأوروبية<sup>(1)</sup>. وفي الوقت ذاته يدعو إلى اللاتينية كما هو حال سلامة موسى ودعاة الحركة البربرية وغيرهما.

هذه الدعوة إلى العامية ظهرت في مصر أولا ثم في مختلف أقطار العالم العربي. ونحن لن نتعرض إلا إلى قطرين من أقطار المشرق العربي هما: مصر ولبنان. وقد اخترنا مصر باعتبار النشأة ووحدة بعض الدعاة في كل منها والجزائر مثل لويس ماسينيون وكارل فولرس. وأما لبنان فقد اخترناها باعتبار التأثير الفرنسي مما يمكننا من ربط القضية بين الدعوة إليها في كل من مصر ولبنان وتسييقها قسي الجزائر والدعوة إليها أيضا، وذلك لتتوصل إلى إدراك مخطط عالمي إستعماري تصيري يهدف إلى تحطيم اللغة العربية لتحطيم الإسلام بغرض الإستعمار والتبشير. ولنبدا بمصر أولا ثم بلبنان.

أولا : الدعوة إلى العامية في مصر

أول من دعا إلى العامية في جميع بقاع العالم العربي والإسلامي إنما هم المستشرقون ورجال الإكليروس ثم تقلد مشعل الدعوة إليها النصارى ثم المتغربون، ولن نتعرض إلى كل ما كتب في الدعوة إليها في مصر، لأن غرضنا ليس عملا استقصائيا بقدر ما هو إظهار للفكرة. وإنما نكتفي بالإشارة إلى الرواد الأوائل من المستشرقين ونذيل ذلك بالإشارة إلى مساهمة نصراني مصري هو سلامة موسى الذي كنا قد أشرنا إليه قبلا في دعوته إلى اللاتينية، ونختتم ذلك بالإشارة إلى تطور الدعوة إلى العامية.

بداية الدعوة أو : (ولهم سبيتا): بدأ الدعوة إلى العامية بخطوة غزل رقيق لها الألماني الدكتور ولهم سبيتا الذي كان مديرا لدار الكتب المصرية خلال الثلث الأخير من القرن 19 . ذلك أنه ألف في سنة 1880 م كتابا بعنوان " قواعد العربية العامية في مصر" ويعد هذا الكتاب أول محاولة جديّة لدراسة لهجة من اللهجات العربية، وقد شبه فيه العربية الفصحى باللغة اللاتينية وتبأ لها بالموت مثلها، فإتهمها بالصعوبة والجمود -وكان الذي لغته صعبة يلغنها ويتبنى لغة أعدائه - وحملها مسؤولية إنتشار الأمية ثم إستند إلى هذا الزعم<sup>(2)</sup>. فدعا إلى إتخاذ العامية بدلا عنها وإقترح<sup>واقترح</sup> لتدعيم دعوته - أن يجمع الأدب العامي وينشر، وأن تؤلف لجنة من كبار العلماء لوضع قواعد للعامية لتصير صالحة للكتابة وأن تكتب بحروف لاتينية؛ لأن الحروف العربية حسب زعمه يقع عليها القسط الأكبر في صعوبة العربية<sup>(3)</sup>. ولكي

(1) عبد العظيم الديب، حسن المعارفي، العامية والفصحى، مجلة الأمة، قطر، فبراير 1982، م2، س2، ع16، ص 76.

(2) كما هو حال أغلب المستشرقين ينتقدون الأكاذيب ثم يستنون إليها كليل في تبرير دعوهم.

(3) عبد العظيم الديب، حسن المعارفي، ص 76 - 78، أيضا هو الدين الخطيب، المرجع السابق، ص 91.

يثير العرقية القبطية فيضرب عصفورين بحجر واحد، فقد أورد في هذا الكتاب نبذة عن فتح العرب لمصر سنة 19 هـ وانتشار لغتهم بين أهلها، وزعم أنها قضت على اللغة القبطية<sup>(1)</sup> لغة أهل البلاد الأصليين حسب زعمه، وذلك محاولة منه إثارة العنصرية العرقية القبطية ضد اللغة العربية<sup>(2)</sup>؛ ونشئ دعوة لإحيائها هي أيضا وهو ما يقوم به دعاة الحركة البربرية في الجزائر : العامية والقبائلية دون الفصحى. ولم يمض عام حتى تلقفت هذه الدعوة صحيفه "المقطف" المعروفة بولائها للاستعمار الإنجليزي<sup>(3)</sup>، وأصبحت مجالا خصبا لكل من يريد النيل من اللغة العربية من نصارى لبنان ومصر، ومضى المنهزمين نفسيا من المسلمين. وهكذا شاعت الدعوة إلى العامية وتناولها الكتاب بين سريد ومعارض، وكان من المؤيدين لدعوة (سبيتا) النصراني اللبناني شبلي شميل الذي تخرج من مدارس الإرساليات الأمريكية ببيروت وأخذ في نشرها هناك<sup>(4)</sup>.

وليم ولكوكس: وظيفته الرسمية مهندس إنجليزي يعمل في مجال الري المصري، حيث وفد إلى مصر سنة 1883م ولكنه كان في حقيقته من دهاقين الإستعمار ودهاة الغزو الفكري، لبس مسوح الإخاء والمحبة ورداء العلم، فتقرب لأهل الرأي والفكر وعلماء الدين حتى استطاع أن يتولى إصدار مجلة الأزهر لفترة من الزمن<sup>(5)</sup>، فإتخذها منبرا للدعوة إلى العامية، فأخذ ينشر بعض المقالات بها ويرصد المكافآت ويدعو إلى المبادرة في الكتابة بها للترويج للفكرة. وكان يركز بصفة أساسية على الزعم بعجز لغة القرآن عن إستيعاب العلوم. وكان مما نشره في "مجلة الأزهر" في شهر جانفي 1893م محاضرته التي ألقاها بنسادي الأريكية بعنوان "لَمْ تَمْ تَوْجِد قُوَّةَ الْإِخْتِرَاعِ لَدَى الْمَصْرِيِّينَ الْآنَ؟". وادعى أن أمم عائق هو أنهم يؤلفون ويكتبون بلغة القرآن التي لا تعين على إيجاد ملكة الابتكار وتتميتها<sup>(6)</sup>. وإذا أرادوا أن يتقدموا فما عليهم إلا استبدالها بالعامية إقتداءا بالأمم الأخرى ولا سيما الإنجليز الذين استفادوا كثيرا بإستبدال اللاتينية بالإنجليزية.

ولقد أثارَت المحاضرة ردود فعل كثيرة، والغريب أن جريدة الهلال ذاتها التي تبنت الدعوة إلى العامية ورد فيها مقال للرد عليه تحت عنوان "اللغة العربية الفصحى واللغة العامية"<sup>(7)</sup> وذلك تحت عنوان باب المقالات. والمقال بدون إمضاء، وملخصه:

- أخطأ وليم ولكوكس، لأن ما صدق على اللغة الإنجليزية لا يصدق على لغتنا لأسباب كثيرة منها :
- الإنجليز استبدلوا لغة أجنبية بلغة وطنية وليس الحال كذلك في اللغة العربية الحاضرة، فإن الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلم قد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الإنجليز ولغة عامتهم.

(1) وهو ما يزعمه دعاة الحركة البربرية في الجزائر من أن اللغة العربية قضت على القبطية .

(2) هو الدين الخطيب، المرجع السابق، ص 91.

(3) سماعيل الكيلاني، العربية والعبرية، ص 96.

(4) أحمد العظيم الديب، المرجع السابق، ص 78.

(5) كبريها لمدة شهر واحد ( هو الدين الخطيب التميمي، المرجع السابق، ص 91).

(6) أحمد العظيم الديب، المرجع السابق، ص 78.

(7) اللغة العربية الفصحى واللغة العامية، باب المقالات، الهلال لمؤرخي زمانه، فبراير 1893م، ص 1، ج 6، ص 256.

- العامية توقعنا في شر أعظم، لأن الناطقين بالعربية تختلف عاميتهم باختلاف الأصقاع، والفرق بين عامياتهم ليس بأقل من الفرق بين الفصحى والعامية، ثم إن أقطارنا مترابطة أدبيا ومدنينا وسياسيا، فاستبدال الفصحى بالعامية يمزقنا.

- العامية قاصرة لا يمكنها أن تستوعب العلوم، لأنه من أين لها أن تأتي بالألفاظ التي تعبر بها عن الإصطلاحات العلمية ولا سيما الحديثة منها، فإذا قيل ندخل إليها تلك الإصطلاحات، نقول: لا يمكن. لأنها ليست بالشيء القليل وإنما هي قسم عظيم من اللغة ولا سيما لغة العلم، وتعليم العامة ألفاظ اللغة الفصحى كما هي أسهل من تعليمهم الإصطلاحات العلمية وإدخالها إلى لغتهم، وهذا شأن اللغة في سائر العالم، والمستر ولكوكس يعلم أن الكتب العلمية العالية المكتوبة بالإنجليزية الآن لا يتسطيع العامة فهمها مهما بولغ في تبسيطها، وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجابا لو حاولنا حصره عادت الطبيعة فسدته.

- الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى، إذ لو لا القرآن والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعودتنا إليه في إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعب العربي وأصبحت لغة كل قطر مستقلة عن الآخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلما كما حصل للأمم التي كانت تتكلم اللاتينية فاصبح لكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الأمة الأخرى. والفضل الأكبر في حفظ الجامعة العربية إلى الآن القرآن الشريف والمحافظة عليه.

- اغفال الفصحى يستوجب إغفال كل ما كتب من العلوم على أنواعها منذ 1300 سنة وهي خسارة لا تعوض.

- اللغة في كل زمان ومكان تتبع عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطا، ولغة العامة منحطة بسبب انحطاط أفكار الناطقين بها، وليس لها أن تقوم مقام الفصحى التي هي أرقى لغات العالم، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله.

فيتضح مما سبق أن استبدال اللغة العربية الفصحى بالعامية رأي إغفال أولي بناء، ليس فقط لكونه عقيما، بل لأنه مضر باللغة والناطقين بها علميا ودينيا وأدبيا<sup>(1)</sup>.

سيلدون ولمور: كان قاضيا بمحكمة الاستئناف الأهلية بمصر، ألف في سنة 1902م كتابا بالإنجليزية سماه "لغة القاهرة" جمع فيه العامية في مصر ووضع لها قواعد وإقترح إتخاذها لغة للأدب والعلم، كما إقترح أيضا كتابتها بالحروف اللاتينية<sup>(2)</sup>. زاعما أن هدفه نشر العلوم والمعارف في العامية وتقريب منازلها على الأجانب، وأشار على الصحف العربية أن تتبنى رأيه فتبذ الفصحى وتأخذ بالعامية. ودعا الأنظمة الحاكمة إلى تطبيق هذا<sup>(3)</sup>. وذلك بعد أن أدرك تنبه الأمة لأغراضه الخسيسة. وهكذا نجد ولمور يلج على الصحافة لما لها من تأثير في أوساط الناس، ويرى بأن السلطة الحاكمة يجب أن تجبر الناس على

(1) المصدر نفسه، ص 257 ، 258.

(2) عهد العظيم العيب، المرجع السابق، ص 78.

(3) السيد فاخر، اللغة المكتوبة، واللغة المحكية، المنقطف، القاهرة، مارس 1902، م 27، ج 3، ص 257.

الكتابة بالعامية بدل الفصحى، أي أنه لما كانت الفكرة غير مقنعة عقليا إقترح تطبيقها بواسطة التمتع،  
ونص كلامه:

« A movement in favour of the vernacular would best be started by the press, but  
it would need to be strongly supported by men of influence ».

ولما كان ولمور قد اقترح كتابتها بالحروف الرومانية فإنه أضاف إليها بعض العلامات لتدل على  
الحروف العربية التي لا مثيل لها في اللغات الرومانية<sup>(1)</sup>.

وفي هذه المرحلة تلقت "المقتطف" الدعوة وروجت لها، وقد أحصينا سبع مواضيع كاملة نشرتها في  
الموضوع مساندة له وإثراء في السنة ذاتها التي طبع فيها كتاب ولمور، أي سنة 1902 م وماهي  
عناوينها :

- اللغة المكتوبة واللغة المحكية، وهو دفاع مستميت عن ولمور وإثراء لوجهة نظره كتبه أسعد داغر،  
ومنعود إليه بعد ذكر العناوين، نشرته "المقتطف" في مارس 1902م.

- البيان العربي والبيان الإفرنجي، أفريل 1902م. - انتقاء الألفاظ، يونيو 1902 م - إشارات  
الخطابة، يوليو 1902م.

- انتقاء الألفاظ، أغسطس 1902م - العربية والقبطية، ديسمبر 1902م. - العربية المحكية في مصر،  
ديسمبر 1902 م.

وأما مقال أسعد داغر " اللغة المكتوبة واللغة المحكية" فإنه رد على المعترضين على ولمور، وملخصه ما  
يأتي :

- تسفيه الذين تنبهوا للجانب الصليبي في عمل ولمور، فرد عليهم بحماس في راض قائلا: "... وزاد  
بعضهم هذه المرة نغمة جديدة في طنبور الدفاع، بلغ بها حد الإعجاز وغاية الإبداع، وهي أن حملة  
القاضي ولمور على اللغة المكتوبة مبطنة بحملة دينية يكر بها الصليب على الهلال، وما أعظم ما  
يبلغه السخافة من عقول بعض الرجال"<sup>(2)</sup>.

والواقع أننا عندما نحلل هذا النص تحليلا نفسيا نجد أن الذين أدركوا الدافع الصليبي أصابوا مقتلا من  
مقاتل صاحب المقال، أي نفذوا إلى أعوار نفسه فأدركوا خلفية عمله. فاهتز أسعد داغر؛ لأنه هو أيضا  
أصيب في مقتل من مقاتله، وسيظهر هذا الدافع بوضوح عند د. أنيس فريحة كما سنذكر.

- صعوبة تكلم اللغة العربية وعدم دقتها في التعبير والوصف، وعجزها عن استيعاب العلوم الحديثة  
عكس اللغات الأوروبية إلى حد أن أصغر اللغات الأوروبية شأنًا أكثر من اللغة العربية منفعلة<sup>(3)</sup>. - إنه

الحقد اللاموضوعي، وسيظل أعداد اللغة العربية يرددون هذا الزعم من ولهم "بيتا إلى سعيد سعدي".

- التهويل من غول العامية الذي سيطغى على الفصحى أي تحطيم نفسيات المدافعين عن الفصحى.

(1)المقتطف، العربية المحكية في مصر، فبراير 1902، م27، ج2، ص190.

(2)أسعد داغر، المرجع السابق، ص258.

(3)المرجع نفسه، ص258.



- اللغة العربية غير صالحة للكتابة وغير صالحة للتكلم عكس العامية التي هي أكثر إختصاراً، ودقة في التعبير<sup>(1)</sup>. والغريب أنه هو نفسه يكتب هذا الكلام باللغة العربية الفصحى التي يتهمها بأنها غير صالحة للكتابة مما يدل على فساد رأيه ولا نزاهته.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق، مساندة نصارى المشرق للمستشرقين، بحيث رأينا أن المستشرقين يبدون الأفكار ثم يأتي النصارى المحليون للدفاع عنها وإثرائها، ولهذا الغرض فقد تبنت "المقتطف" الدعوة وتبعها في ذلك مجلة "الهلال" التي أسسها جورجى زيدان. فتحت صفحاتها لمقالات "اسكندر المعلوف" ليدافع عن العامية، زاعماً أنه يشتغل بضبط أحوالها وتقيد شواردها لإستخدامها في كتابة العلوم، كما زعم أن تعلق المسلمين باللغة الفصحى لا مبرر له؛ لأن هناك مسلمين كثيرين لا يتحدثون بالعربية ولا يكتبون بها<sup>(2)</sup>.

وهكذا نجد القضية كلها مرتبطة بالإسلام. فالهدف من محاربة لغته إنما هو القضاء عليه، ونختتم حديثنا عن المستشرقين بالدكتور :

كارل فولرس (Vollers) (ت 1909م) : ويعد من المستشرقين الألمان الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية في البدايات. وهو ألماني، ألف كتاباً بالألمانية عن العامية المصرية، وترجم إلى الإنجليزية<sup>(3)</sup>. وما يهمننا هنا عن كارل فولرس<sup>(4)</sup> أنه حضر مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر بالجزائر العاصمة سنة 1905م ونشبت مجادلة حادة بينه وبين عبد العزيز جاويش<sup>(5)</sup> حين زعم وجود لغة عربية عامية في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وزعم أيضاً أن في بعض سور القرآن الكريم ألفاظ وجمل عامية. فقام عبد العزيز جاويش ورد عليه رداً مفحماً وأثبت أن العامية - يعني تلك اللهجة البعيدة عن الفصحى - تملسوءة لحناً- لم تكن إلا بعد ما استعمل العجم لغة العرب وحرفوها وأفسدوها لعجزهم عن النطق ببعض الأصوات، كما يجب أن تتطوق ولجهلهم بقواعد اللغة. ثم قام محمد بن أبي شنبه فعزز موقف الشيخ جاويش، فقال : "علي فرض أن القرآن يتضمن صيغاً مختلفة للنحو<sup>(6)</sup> أو جملاً غير مألوفة، فمثل ذلك موجود في كتب أئمة الأدب، فلا يسوغ لنا أن نقول : إن تلك المخالفات لقواعد النحو علي فرض وجودها لا تقبلها اللغة، وإنما هي صيغ غير موافقة لقواعد النحاة الموضوعية، فكثيراً ما تعب أهل الإعراب في الوقوف على العلة، وكثيراً ما تعبوا عن الإتيان بتعليل مقنع ( وعند الرجوع إلى الأدب الجاهلي نجد لها

(1) المرجع نفسه، ص 260 - 262.

(2) عبد العظيم الديب، المرجع السابق، ص 77.

(3) المقتطف، 1895م، ص 19، ص 450.

(4) ومن أراد التوسع فيه فليرجع إلى لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين، ص 81 (عن سعد الدين ابن أبي شنبه، النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة، هامش ص 45).

(5) عبد العزيز جاويش ولد بالإسكندرية 1284هـ وتوفي سنة 1347هـ (1867 - 1929م) ويعد فلتة من فلتات الرمان وأبطال الحركة الوطنية في مصر مع محمد فريد ومصطفى كامل، دافع طوال حياته عن الدين والعروبة والحرية، كان كاتباً قديراً وصحفياً مهيئاً وخطيباً بليغاً، عين أستاذاً بجامعة إسكندرية ثم أدار تحرير جريدة اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ( سعد الدين بن أبي شنبه، المرجع نفسه، هامش ص 45).

(6) ومن الذين تأثروا بهذا المستشرق على ما يبدو طه حسين الذي ألقي محاضرة في بريطانيا بأسكندرية أو كامبرج بعنوان " الأخطاء النحوية في القرآن"، وقد رأى عمار طاهي رسالة بين مستشرقين أحدهما من جامعة أكسفورد والآخر من كامبرج بمدته فيها عن هذه المحاضرة.

وجودا وهو دليل قاطع لا على أنها عامية، بل على فصاحتها)... فمن المعلوم أن النحاة في العالم بأسره وعند جميع الأمم ينكرون ما غفل عن تقييده في القديم أهل علمهم، واستشهد ابن أبي شنب بجواب الفرزدق لمن سأله عن رفعه كلمة في آخر بيت عوض فتحها، فقال الفرزدق: علي أن أقول، وعليكم أن تحجوا. وما هو إلا الاشتقاق الدائم بين الكتاب العبريين وبين الناقدين العاجزين عن إبراز أسرار الابتكار الفني<sup>(1)</sup>.

ونختم هذا الحديث عن كارل فولرس بتقديم ملاحظتين:

- 1- الدعوة إلى العامية فكرة استشرافية في أساسها، نشرها في المشرق ونفس الأشخاص أحيانا نشرها أيضا في الجزائر، والدليل على ذلك هذا المستشرق الذي نشر الفكرة في مصر ونقلها إلى الجزائر.
- 2- تأثير النصارى المشاركة بهؤلاء المستشرقين، ومن الأدلة على هذا فإن أفكار هذا المستشرق نجدها عند د. أنيس فريجة يردها بنصها، وبهذا تنتقل إلى دراسة ظهور الفكرة عند نصارى المشرق، ولتأخذ سلامة موسى نموذجا.

#### سلامة موسى :

سلامة موسى درس ما كتب من دعاة العامية، ليس في مصر وحدها، بل في لبنان أيضا. وهذا ليس غرنا على نصارى المشرق فإنهم دائما ينسجون فيما بينهم عندما تكون القضية مرتبطة بالروبة والإسلام، ومن اللبنانيين الذين تأثر بهم د. أنيس فريجة كما سنشير.

وسلامة موسى ليس من الذين يطالبون بالعامية مع مغالطة للفصحى، بل نجده قبل أن يبدأ الحديث عن موقفه، فإنه ينطلق من حقد دفين على لغة القرآن، صابا جاتم غضبه على أبنائها المدافعين عنها. فيقول: "وفي مصر طبقة من الكتاب حاولت ولا تزال استخدام اللغة العربية وسيلة من الوسائل الأدبية لاسترداد الأمس. بل عندنا من اللغويين من يتحدث عن اللغة العربية كما يتحدث المستشرقون الأوروبيون عن اللغة السنسكريتية. ولكن مع فرق أصيل. فإن هؤلاء لا يحاولون إحياء الميت من الكلمات السنسكريتية ولكن أولئك يحاولون هذا الإحياء للكلمات العربية حين كان يجب عليهم، لو كانوا على وجدان بالعصر الحديث أن يدفنوها"<sup>(2)</sup>. ثم يصب جام غضبه على عباس محمود العقاد بسبب نقده الاشتراكيين في مصر بسبب دعوتهم إلى العامية فيقول: "وقد حسب عليهم - أي العقاد - هذه الدعوة في قائمة رذائلهم، لأنه هو يعتز بفضيلة اللغة الفصحى ويولد عن خالد بن الوليد (ت سنة 21 هـ / 642 م) وحسان بن ثابت (ت سنة 674 م) ولكنه غفل عن التفسير لهذه الظاهرة الاجتماعية، وهي أن الإشتراكيين<sup>(3)</sup> شعبيون يمتازون بالروح الشعبي ويعملون لتكوينه. وهم لهذا السبب أيضا مستقبليون

(1) سعد الدين بن أبي شنب، المرجع السابق، ص 45، 46.

(2) سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، ط2، المطبعة العصرية، الفجالة، مصر، 1953م، ص أ.

(3) السبب الذي جعل الإشتراكيين يعمون في فتح النصارية القاضي بحجارية الفصحى إنما هو ارتباطها بالإسلام. إذ في حين نجدهم في مصر من دعاة العامية نجدهم عندنا من دعاة الفرنسية والقبالية والعامية، ومن المشاركة الذين تأثروا بهذه الدعوة إحسان عبد القدوس مما جعله يكتب حوار بعض رواياته بالعامية بحجة الواقعية مع أن رواياته هي من اختراع نفسه.

وليسوا سلفيين، ولذلك يحملهم احترامهم للشعب على إثبات لغته الحاضرة على لغة السلف، في حين هو سلفي الذهن في لغته وأسلوبه وتفكيره وسلوكه<sup>(1)</sup>. ثم يصب جام غضبه أيضا على خريجي دار العلوم، فيرى بأنهم جهلة ولذلك يعارضون إحلال العامية محل الفصحى<sup>(2)</sup>.

بعد هذا ينتقل سلامة موسى إلى الإفصاح عن وجهة نظره، فيحاول أن يدرس نشأة اللغة العربية من الناحية الأنثروبولوجية، فيأتي ببعض الكلمات ويبين كيف نحتت، ومن ذلك فإن الإنسان البدائي عرف الروح من الريح والنسمة من النسيم إلخ، ولكل كلمة معنى أنثروبولوجي يوضح لنا نشأة الأفكار والعقائد، وهذا لكي يبين أن اللغة العربية - التي استوعبت الوحي الإلهي وعبرت عنه بدقة - ليست دقيقة. فمعاجمنا في نظره ترى أن الأسود والأزرق والأخضر لون واحد<sup>(3)</sup>. ثم يتطرق إلى الفصحى والعامية فيرى أن المجتمع يجب أن لا تكون فيه لغتان إحداهما عامية والأخرى مكتوبة فصحي. لأن هذا يؤدي إلى أن اللغة المكتوبة تنفصل من المجتمع فتصبح كأنها لغة الكهان التي لا تتلى إلا في المعابد وينقطع الإتصال الفسيولوجي بينها وبين المجتمع فلا تتطور. والحل هو المزج بين الفصحى والعامية<sup>(4)</sup>. ولسنا ندري كيف يكون هذا المزج بسبب تعدد العاميات من قطر إلى آخر، بل حتى في تنطير الواحد، وكذا عدم انضباط العامية، ثم بلجيكا فيها لغتان مكتوبتان وهي من الدول السبع المتقدمة. وهو يعرف هذا جيدا، ولكن الغاية تبرر الوسطة.

بعد ذلك يعود من جديد، ولكن هذه المرة إلى الهجوم على اللغة العربية لا على أصحابها، فيرى بأنها خرساء. لأننا جعلناها مثل لغة الكهان - وهو يعرف أنه لا كهان عندنا، بل هم عندهم - جامدة. لا تتغير. وكان نتيجة هذا في نظره أنه يوجد في العالم نحو 120 علما وفنا لا تتطرق لغتنا العربية إلا بنحو 10 أو 20 منها، ولكنها خرساء في سائرها، هذه العلوم والفنون لا يمكن أن نعرفها في نظره إلا إذا تركنا لغتنا ونطقنا بلغة أخرى<sup>(4)</sup>. ولسنا ندري هنا، هل بإمكان العامية القيام بهذه

المهمة؟! سلامة موسى لم يطرح هذا السؤال، ولكنه واصل هجومه على اللغة العربية، ولكنه هذه المرة ليعيب عليها ميزة من ميزاتها العظيمة، - هي كثرة المترادفات - على أساس أنه من الغايات الشريفة لكل لغة: الاقتصاد في التعبير<sup>(1)</sup>. والواقع أن كثرة المترادفات دلالة على الدقة. ثم لو كانت فقيرة المترادفات لاتهمها بالتصور والفقر، فكثرة المترادفات دليل على غنى اللغة ووسعها ومرونتها. بعد هذا ينتقل إلى ما يسميه:

**التجديد في البلاغة:** يرى أن البلاغة بفنونها المختلفة كما هي الآن في اللغة العربية تخاطب العواطف دون العقل، وهذا في نظره ضرر عظيم، لأنها بلاغة الإنفعال والعاطفة فقط، والبل هو أن نجعل المنطق

(1) المصدر نفسه، ص 5.

(2) المصدر نفسه، ص 7.

(3) المصدر نفسه، ص 12.

(4) المصدر نفسه، ص 22، 23.

(5) المصدر نفسه، ص 2، 29.

أساس البلاغة، بل نجعل قواعد المنطق ونظريات أفليدس تعاليم الأولى للبلاغة، ويتوصل إلى أن اللغة العربية مريضة وتعالج بما يأتي :

1- جعل قواعد المنطق مقام قواعد البلاغة القديمة ( حتى تجهل أسرار القرآن الكريم وقيمته البيانية).

2- نقاطع الإقتباس في الإنشاء في المدارس الابتدائية والثانوية، ونجعل التفكير يقوم مقام الإقتباس (وذلك حتى يبقى التلاميذ جهلة باللغة العربية وحتى لا يصفق ذهن التلميذ وسمعه بالعبارات الشيقة التي تحببه في اللغة العربية).

3- توجيه التلاميذ والطلبة إلى عدم العناية بالأسلوب، أي عدم توجيههم إلى تعلم أساليب المتقدمين ومحاكاة أحسنه<sup>(1)</sup> ( رغم أن الغربيين يعتقدون في جميع لغاتهم بهذا، والسبب واضح هو تكوين جهلة باللغة العربية كارهين لها).

والواقع أننا عندما نقيم هذا التجديد في البلاغة الذي دعا إليه نجدده كلاما خطيرا، يدل إما على جهل صاحبه بأن المنطق ذاته يحتوي على باينين كبيرين هما: القياس الشعري، والقياس المنطقي أو الخطابي، والمنطق فيهما يعتمد على البلاغة، لا العكس. مما يعني أنه لكي تكون لنا قواعد منطقية يجب أن تكون لنا بلاغة أولا- وجهله بالمنطق أمر مستبعد- فيبقى مفرضا متحاملا. وهنا نقول : بأن كل اللغات الأوروبية ليست مبنية على قواعد المنطق، وقد بين بأنها استطاعت أن تعبر على أكثر من 120 علما وث<sup>(2)</sup>، وبين أن هذه اللغات قدوة لنا. ثم أن هذا المنطق اليوناني الذي يطلب منا أن نبني عليه بلاغتنا رفضه كبار العباقرة الغربيين من أساسه مثل ديكارت(ت سنة 1650 م) ، و بيكون (ت سنة 1626م) و هيجل (ت سنة 1831 م) و ماركس (ت سنة 1883م) إلخ.

ثم من جهة يرى في نقده للغة العربية بأن من عيوبها قدمها بحيث نشأت لتعبر عن حاجات غير حاجاتنا، ومن جهة أخرى يطلب بناءها على المنطق اليوناني الذي هو قديم قدمها، علما أنه نشأ - أكثر منها - لحاجات غير حاجاتنا. ثم كيف يزعم أنه يدعو إلى التيسير وهو يطلب إدخال المنطق للنحو، ذلك أن المنطق في حد ذاته أعقد من النحو، ثم بدل أن يدرسوا النحو وحده يضاف لهم المنطق مما يجعل الصعوبة مزدوجة.

سلامة موسى يضرب بكل هذا عرض الحائط، ويواصل برهنته على عدم صلاحية اللغة العربية الآن بما يأتي :

1- المجتمع العربي خاصة أيام العباسيين كان أرسنقراطيا فكان تراثه اللغوي أرسنقراطيا، ومجتمعنا الآن ديمقراطي ( كلام غريب واضح الهدف، لأن الكتاب طبع سنة 1945م أي أثناء الإستعمار الإنجليزي لمصر. وكان الإنجليز كانوا يطبقون الديمقراطية في مصر).

2- المجتمع العباسي كان مجتمعا حريبا، فالصراع بين الدولة الرومانية والدولة العربية أحال اللغة إلى خدمة العرب، بينما مجتمعنا الآن مجتمع سلمي يحتاج إلى كلمات السلم وليس إلى كلمات الحرب.

<sup>(1)</sup>المصدر نفسه، ص 33.

<sup>(2)</sup>ذكر ذلك تحت عنوان " اللغة والمجتمع"، (المصدر نفسه)، ص 23.

3- المجتمع العربي القديم كان يعيش في ظل حكومة استبدادية لم تعرف لا البرلمان ولا المجلس البلدي، فتأثرت لغته بهذا الوضع، بينما نحن الآن نحتاج إلى الكلمات التي تحمل معاني الديمقراطية الجديدة مثل البرلمان.

4- المجتمع العربي القديم كان يعيش على العقائد والغيبيات في أكثره، فتأثرت لغته بذلك، بينما نحن الآن في عصر العلم<sup>(1)</sup>.

ونحن عندما نقيم هذه العناصر الأربعة نجدها تحمل أهدافا متعددة كلها ضدنا. ويتضح هذا جيدا عندما نعلم أن الطبعة الأولى لكتابه هذا "البلاغة العصرية واللغة العربية" تمت في مارس 1945 م. ويومها ذلك كانت بلده مصر مستعمرة إنجليزية، وبهذا فإن البند الأول من براهينه على عدم صلاحية اللغة العربية هو مدح للاستعمار الإنجليزي باعتباره أحل الديمقراطية بمصر. وهو مصيب في أحد جوانبه، وهو ما يتعلق بالأقباط. أما المسلمون فقد عانوا الاستبداد الذي لم يعرفه أجدادهم.

والبند الثاني مرتبط بالأول، وهو دعوة العرب عامة والمصريين خاصة إلى مسالمة جلادهم وغاصب أرضهم، وهو ما عبرنا عنه قديما بـ"مسخ أثار الاستعمار وتحييب الأهالي فيه". وهذا من أهم أعراض المبشرين. وإلا فإن أساس اللغة العربية ليس هو العصر العباسي، بل القرآن الكريم، كما أن اللغة العربية مملوءة بكلمات السلم ولا نعتقد أن واحدا مثله لا يعرف ذلك.

وأما البند الثالث، فإن كل حكوماتنا السابقة أفضل من جميع حكومات ملته في عصرها وهو كذلك يعرف هذا جيدا. كما أن اللغة العربية لها مقاييسها المرنة التي تجعلها تحتوي على كل ما يتفق عن ذهن البشري في مختلف المجالات.

وأما البند الرابع الذي يزعم فيه تجاوز العقائد والغيبيات، فنقول له أين يوجد هذا المجتمع؟ إن أوروبا مازالت تعيش على غيبياتها وتناقضها، لماذا لم تقل هذا على لغاتها؟! هذا البند الرابع يظهر فيه الغرض التبشيري بقوة، وهو تحطيم العقيدة الإسلامية وجعل المسلم في فراغ، أي تشويش ذهنه ليصبح فريسة لأعدائه، أي خلخلة عقيدته. وهذا أحد أهداف المبشرين كما ذكرنا قديما.

وعلى كل فإن سلامة موسى يرى أن الداء الأصيل في اللغة العربية هو الكلاسيكية التقليدية، وهذا يمنع أن تكون لغة عصرية، والحل: إلغاء الإعراب (حتى تجهل القراءة والفهم) وتبسيط التعبير وإحلال العامية محل الفصحى وكتابتها بالخط اللاتيني<sup>(2)</sup>. ثم يعود إلى الحديث عن:

تغيير فن البلاغة في اللغة العربية: فينطلق مما يعتبره بديهية، وهو

ليس للحياة غاية سوى الحياة. وكل ما عدا الحياة فهو وسيلة لها بما في ذلك اللغة... والبلاغة. ومادامت الحياة متغيرة، فالبلاغة كذلك يجب أن تتغير لتخدم الحياة، وحياتنا العصرية تختلف عن الحياة العربية قبل ألف سنة، فإذا كنا نسلم بأن فن البلاغة يجب أن يكون في خدمة هذه الحياة العصرية، فإنه يجب أن

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 50 ، 51 .

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 54 ، 55 .

يتغير كي يخدمها... ويتوصل إلى أن للأمة العصرية حق تطوري في هذا التغيير، ويشرح غايته من البلاغة الجديدة.

1- فهي قبل كل شيء التفكير المنطقي السديد الذي يؤمن فيه الخطأ، ولذا يجب دراسة كتاب موجز في المنطق - وقد ذكرنا بأن هذا سيعقد المشكلة على الطلبة، ونضيف إلى هذا قائلين: كيف يشكو من صعوبة اللغة ويقترح إضافة المنطق إليها أي إضافة صعوبة أخرى مما سيعقد المشكلة على الطلبة؟-  
2- تحريك الذكاء وتدريبه<sup>(1)</sup> - وهل البلاغة العربية لا تقوم بهذه المهمة؟-

يضيف سلامة موسى إلى هذه المقترحات، مقترحات أخرى تتعلق باللغة ككل، وليس بالبلاغة وحدها، هي :

1- عدم تعريب الكلمات الجديدة، بل إدخالها إلى العربية كما هي : فالكلمات التي وردت في العلوم الغربية مثل برلمان وبسكليت إلخ يجب أن لا تترجم وإنما تنتقل إلى العربية كما هي، رذلك لتقريب المسافة بيننا وبين الغرب -أي الذويان فيه- ثم تبصرنا بالتاريخ والتطور الثقافي، فعنما نقول " برلمان" نحس من حروف هذه الكلمة تاريخا عاما للحكم النيابي في العالم وليس في مصر وحدها. ونعرف الأصل لهذا الحكم، وكذلك الحال في أتومبيل، وتلفون<sup>(2)</sup> إلخ. وهكذا فإنه يقر بأن الكلمات تعبر عن إحساسات أو ترافقها إحساسات، ومن هنا فإنه من جهة يهدف إلى تحوينا نحس مثل الغرب لا كما نحن، ومن جهة أخرى يقع في تناقض، إذ في حين يقر بأن الكلمات ترافقها إحساسات أو تعبر عن إحساسات يطلب منا أن نتخلي عن لغتنا الفصحى التي نجد كل كلماتها تعبر عن إحساسات أو ترافقها إحساسات. ونحن نضيف هنا بأن من أسباب تمسكنا بالفصحى أنها وحدها القادرة على التعبير عن إحساساتنا والوصول إلى أعماقنا، ولا أدل على هذا من شعر الثورة الجزائرية الكبرى فإنه لا الفرنسية ولا العامية ولا القبائلية استطاعت أن تهز كياننا الوجداني، اللغة العربية وحدها هي التي استطاعت ذلك .

وخلاصة ما سبق: يجب إحلال العامية محل الفصحى، وملؤها بالكلمات الغربية كما هي دون تعريب.

2- الكتابة بالحروف اللاتينية : بعد الدعوة إلى إلغاء الفصحى بنحوها وصرفيها وبلاغتها وأدائها والعمل على إحلال العامية محلها، هذه العامية يجب أن لا تبقى كما هي، بل تملأ أيضا بالكلمات الأوروبية كما هي دون إدخال تعديل عليها، تتفتح عبقريته عن عمل آخر مكمل لهذا هو: الكتابة بالحروف اللاتينية : ويبدأ حديثه عنها بالثناء والمدح على الذين سبقوه في الدعوة إلى هذا، ومنهم عبد العزيز فهمي باشا الذي سبقه في إقترح الكتابة بالحروف اللاتينية. وفاندتها عند سلامة موسى:

(1) المصدر نفسه، ص 72 ، 73 .

(2) المصدر نفسه، ص 81 - 83 .

- تضمنا إلى مجموعة الأمم المتقدمة وتكسبنا عقلية المتمدنين وتزرع منا تلك الخصومة التي تبعثها كأمنا شرق وغرب، وتجعلنا أقرب إلى العقلية الكوكبية واللغة الكوكبية<sup>(1)</sup>.

قبل أن يواصل حديثه بالتناء على الذين دعوا إلى ما يدعو إليه يتهم المعارضين له بأنهم جهلة وحمقى. أما التابهون فهم الذين يطالبون بما يدعو إليه<sup>(2)</sup>. ويرى أن الخط اللاتيني وثبة إلى المستقبل، ولو عجلنا به لاستطعنا نقل مصر إلى مقام تركيا التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها وفتح لها أبواب مستقبلها. ويرى أن اقتراح عبد العزيز فهمي يحتاج أولاً إلى العمل بإلغاء الإعراب... الذي يجعل النهج العربي في الخط اللاتيني سهلاً، ثم يغنينا عن وضع الحركات في أعالي وأسفل الكلمة، لأن الحركات تسي الخط اللاتيني حروف تدخل في صلب الكلمة، وها هي بعض مميزات الخط اللاتيني.

1- نقترب نحو التوحيد الشري، أي المتمدنين الذين يملكون الصناعة، أي العلم والقوة والمستقبل. وهذا الخط هو الذي تأخذ به الأمم التي ترغب في التجدد كما فعلت تركيا. ثم يستخدم التهويل فيزعم أنه من المرجح أن يعم هذا الخط العالم كله قريباً.

2- زوال الانفصال النفسي الذي أحدثته هاتان الكلمتان المشؤومتان "شرق وغرب"، هذا الخط يجعلنا عصريين ويجر وراءه كثيراً من ضروب الإصلاح الأخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين - يعني إلغاء الميراث- ومثل التفكير العلمي والنفسية العلمية إلخ .

3- يمتاز الأوروبيون بقدرتهم على إيجاد المعاني الجديدة بالصاق مقاطع مشتقة من اللغتين الإغريقية واللاتينية - يعني هم في لغاتهم الجديدة يستمدونها من لغاتهم القديمة، أما نحن فيجب أن ندمر لغتنا، فيخلقون المعنى الجديد من الكلمة القديمة ونحن في نظره لا يمكن أن نستعمل هذه المقاطع ما دام الخط بالحرف العربي.

4- سهولة استعمال الكلمات العلمية في الخط اللاتيني عكس العربي.

5- سهولة تعلم الخط اللاتيني وسهولة تعلم اللغات الأوروبية بتعلمه، فنتفتح لنا آفاق هي الآن مغلقة<sup>(3)</sup>.

ونحن نلاحظ على هذا ما يأتي :

- الغرض التصيري والاستعماري واضح فيما ذكر. فنحن في الجزائر مثلاً نفرنسنا فهل نقدمنا؟ وترتينا التي بشي عليها، ماذا حققت من إلغاء الخط العربي وإستخدام الخط اللاتيني بدله سوى فصل أجيالها المستقبلية عن ماضيها وإسلاخها عن تاريخها وهي اليوم عبارة عن مطار عسكري أمريكي كبير، وسوق أوروبي. أما شعبها، وحتى دولتها فما زالت رغم تتركها لماضيها تعيش على تراثه الإسلامي الأصيل من السياحة الأجنبية، وهي وقع لها كما يقول المثل الشعبي ما وقع للغراب الذي أراد أن يقلد أنحجلة في سيرتها، فلا سيرتها تعلم ولا سيرته حافظ عليها. فهي الآن دولة متخلفة لا فرق بينها وبين مصر التي

(1) معنى الكوكبية في نظره: أن كوكبنا يصور رويداً نمو التوحيد بسبب العلم الذي يحا المسافات حتى صار الانتقال من القاهرة إلى القطر الشمالي في 1944 يحتاج بالطائرة إلى وقت أقل مما كان يحتاج إليه الانتقال من القاهرة إلى طنطا قبل 100 سنة برسائل النقل القديمة (المصدر نفسه، ص 79).

(2) المصدر نفسه، ص 82 ، 99 .

(3) المصدر نفسه، ص 99 ، 100 .

حافظت على اللغة العربية. ثم كيف يطلب منا إزالة الخصومة التي تبعثها كلمتا شرق وغرب، ولسنا نحن الذين ابتدعنا هاتين الكلمتين، وكيف يطلب منا هذا وهو يعلم أن بلدنا فريسة للغرب، مستعمرة، منمورة. يطلب من المنبوح أن يحب الذباح ولا يطلب من الذباح إغماذ خنجره وإرجاع للمنبوح ما أخذ منه؟! . وهذه هي عقلية المستكبرين.

- أما قضية التوحيد البشري، فهناك فرق بين أن تدوب في الآخر، أو يدوب فيك الآخر، فاندوبان في الآخر لا يعني التقدم، لأن من متطلبات التقدم هو الحفاظ على الشخصية والدليل على هذا أن كثيرين من دول العالم الثالث عباقرة في الدول الغربية، فهل عبقريتهم جعلت دولهم الأصلية متقدمة؟. وكثيرون من الغربيين أغبياء مجرمين إلخ، فهل غباءهم وإجرامهم جعل دولهم متخلفة؟.

- وأما ما يتحدث عنه من زوال الانفصال النفسي فإن الأخرى به أن يقوله لمن استعمروا بلداننا ونهبوا أراضينا ودمرونا ومنعونا حتى من دراسة تاريخنا ولغتنا وديننا. وهنا أشار إلى قضية مهمة هي أثر الخط اللاتيني في التغريب، أي في تحطيم شخصيتنا. ولذلك فإنه كان يعرف ما يفعل. وقد ذكر هنا بجلاء ما سماه بالمساواة الاقتصادية بين الجنسين مما يعني المساواة في الميراث، وقد بينا هذه القضية مفصلة أثناء ردنا على بورغاد في زعمه أن الإسلام يظلم المرأة بإعطائها نصف ما يعطى للرجل. وسلامة موسى يعلم أنه في السنة التي طبع فيها كتابه هذا، أي سنة 1945 م كانت المرأة في جميع الدول الأوروبية تفقد أهليتها في التصرف في كل ما تملك بمجرد عقد الزواج. وهذا يظهر بجلاء ما تخفيه الدعوة لكتابة العربية العامية بالحرف اللاتيني، وما يؤسف له أن بعض الحمقى والمغفلين من المسلمين مشوا في الخطة. وبهذا فالحمقى والمغفلون ليسوا الذين عارضوا. بل الذين وافقوا.

- وأما قضية إحياء المعاني الجديدة من الإغريقية واللاتينية، فإن اللغة العربية لها طريقة لها الخاصة بها في ذلك، فليست جامدة، وقد إستوعبت كل علوم اليونان دون أن تخرج عن قواعدها، فلمأنا يجبرنا على اتباع نفس الطريق الغربي؟ أما إدعاؤه بأننا نتنفع نحن بتلك المقاطع، فهذا يعني لا تبذع وإنما نقلد. إذن أين هي تحقيق الغاية من الخط اللاتيني؟ هل هي إنشاء أمة مقلدة؟ . هل هذا هو التقدم والتطور والعصرنة؟!

### الخطة الجديدة لتدريس العربية في المدارس:

بعد ما سبق يتوصل إلى اقتراح خطة لتدريس اللغة العربية بحجة التسهيل على الطلبة، تتمثل فيما يأتي:

لما كانت القراءة أسهل بكثير من الكتابة وجب أن تكون الغاية الأولى من تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية هي القراءة دون الكتابة، أما الكتابة فلا نعلمها إلا للأقلية التي نحتاج إليها في المدارس الثانوية والجامعة - هل الغرب يتبع هذه الطريقة في تعليم لغاته لأبنائه - ويجب اسقاط الإعراب وتسكين الحرف الأخير من الكلمات.

أما في الثانوي فتعلمه أقل ما يستطاع من قواعد النحو دون مبالاة بالإعراب، فلا بأس من رفع المفعول ونصب الفاعل مع تسكين أواخر الكلمات، ونعلمه أكبر قدر من الكلمات التي ترد في الجريدة والمجلة -



يعني اللغة الهزيلة - والمتجر والمصنع والدكان والمنزل، مع الإبتعاد عن البلاغة تشيئة. يعني يساع سياسة التجهيل ولا سيما بالقرآن الكريم.

أما كتب المطالعة فلا تتناول الموضوعات الادبية وإنما موضوعات البيولوجيا والإجتماع... -هل الأوروبيون يبعدون الموضوعات الأدبية من كتب المطالعة؟! - وإبعاد نصوص الأدب الجاهلي والإسلامي - وهذا بيت القصيد- وأن يكون معلم اللغة العربية يتقن لغة أجنبية أو لغتين كي يقارن بينها وبين العربية ويجدد في العربية بمقدار إنتفاعه من الجديد في تلك اللغات، ويختم كلامه بتهكم قائلاً: " وإنه لزهو مضحك أن يعتد أحدا أن لغتنا تستطيع أن تعيش مستكفية لا تستمد التعبير الحسن من الإنجليزية أو الفرنسية... وهذا الإعتقاد من أكبر الأسباب للفاقة الثقافية التي نعانيها في وقتنا<sup>(1)</sup>. ونحن لا نستغرب منه هذا فهو يريد أن يهدم اللغة العربية ويمسحها من الوجود<sup>(2)</sup>. ويبدو أنه<sup>(3)</sup> هنا نسي أن العرب سموا غيرهم الأعاجم لأن اللغة العربية أحسن اللغات، يكفي أن خطها هو الخط الوحيد القادر على أن يكون فنا.

ونختم حديثنا هذا بتوضيح أن كل ما قاله سلامة موسى هنا إنما كان منطلقه الأساسي منطلقاً صنيبياً تنصيرياً، فهو ليس إشتراكياً ولا ديمقراطياً ولا مفكراً حراً، بل هو نصراني مبشر في لحمه ودمه، وهو ما عبر عنه بنفسه، وذلك أثناء حديثه عن المستشرق الفرنسي أرست رينان (1823 - 1892 م) فهو يعتبره أستاذه ويقر بتلمذته عليه (وليس بالضرورة أن تكون التلمذة مباشرة) ومع ذلك ينتقد أرست رينان فيقول: " وتحطم أرست رينان بسبب كتابه عن المسيح"<sup>(4)</sup>. ثم يقرض ذلك الكتاب فيقول: " هو جوهرة من جواهر الأدب الفرنسي، بل الأدب العالمي، ومع أنه قد جرد شخصيته من الغيبيات فإنه أبرز ميزات الأخلاقية ودعوته الإنسانية، بحيث إن القارئ للكتاب سواء أكان تقليدياً أم عصرياً ينتهي بالحب والإحترام، إذ يجد في المسيح جمالا وفتنة، كما يجد في دعوته تحدياً لكل رجل فم، شرفه وأسلوب حياته"<sup>(5)</sup>. وهذا لا يحتاج إلى تعليق سوى القول بأن سلامة موسى كان نصرانياً حتى النخاع وعميلاً للإنجليز حتى الثمالة.

تطور الدعوة إلى العامية:

لقد تطورت الدعوة إلى العامية فتنهاها بعض أعضاء المجمع العلمي اللغوي بالقاهرة وأبدى جلاله الملك رغبته فيما سمي بـ إصلاح الأبجدية العربية، أي كتابتها بحروف لاتينية وما إلى ذلك<sup>(6)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص 95 - 98 .

(2) عبد الحميد جيدة، الأصالة والحداثة، ص 161.

(3) نحن لم نتطرق إلى كل ما أتى به سلامة موسى وإنما إقتصرنا على ما رأيناه أهم ما أتى به، وهو يواصل حديثه بالمقارنة بين العربية والإنجليزية ليبين أفضلية الإنجليزية على العربية ويطالب بمحذف كثير من الكلمات العربية، كالتي تحمل شحنات عاطفية سيئة تؤدي إلى ارتكاب الجرائم مثل الدم والعرض يعني الزنا ليس جريمة والتعبير الأخلاقي من ذممة جريمة - أو تؤدي إلى كراهة بعضاً بعضاً مثل كافر، نجس - وهذا لماذا لا يقترحها على الأوروبيين؟ والكلمات الجنسية إلخ. ونحن نتساءل هل توجد هذه الكلمات في اللغات الأوروبية وهل طهروا لغاتهم منها؟!.

(4) سلامة موسى، هؤلاء علموني، سلسلة إقرأ، عدد 349، دط، دار المعارف، مصر 1972، ص 90، 91 .

(5) المصدر نفسه، ص 92.

(6) يوسف غصوب ( رئيس قلم الترجمة في المعوضية العليا، بيروت) إصلاح الأبجدية العربية، مجلة الهلال لجرحي زيلان، أبريل 1929، ص 37، ج 6، ص

ويجب أن نلاحظ بأنه لما فشلت فكرة الدعوة إلى العامية بدل الفصحى أو بالتوازى معها ظهرت فكره أخرى لا تقل عنها خطورة، تحدث شعار " تبسيط قواعد اللغة العربية " ومما كتب في هذا المجا<sup>١</sup> نال كتبه حسين الشريف بعنوان: " تبسيط قواعد اللغة العربية " وكتب قبل العنوان ما يلي " بحث في النحو والصرف مهدي إلى صاحبي المعالي وزير المعارف، ورئيس مجمع اللغة العربية". يبدأ الحديث بعاطفة جياشة ضد قواعد اللغة العربية ويضخم ويهول من صعوبتها ليصل إلى أن اللغة العربية " عسيرة بنحوها، عسيرة بصرفها، عسيرة برسماها، عسيرة بمتراذقاتها"<sup>(١)</sup>. - والغريب أن دعاة محاربتها من جهة يتهمونها بالتصور عن التعبير حتى عما بداخل الإنسان من أحاسيس أو عن وصفه لمظاهر الجمال، ومن جهة أخرى يتهمونها بكثرة المترادفات، وهو ما يدل على غناها وسعتها ووسعها-، وهذا في نظره عكس اللغات الأوروبية التي هي سهلة التناول ميسورة الدرس لا عسر فيها، وبلغت وقاحتها أنه عندما عهدت وزارة المعارف بمصر إلى لجنة من خيرة أدباء مصر أمر النظر في تيسير وسائل تعليم قواعد النحو على المدرسين والقلاميذ انتقد هذا، وقال: يجب تغيير قواعد النحو ذاتها، ومما تفتقت عنه عبقرته في هذا المجال على سبيل المثال لا الحصر:

- يجب حذف موانع الصرف بجرة قلم أو اقتطاع الصفحات الخاصة بها من كتب النحو، لأنه لا فائدة منها.

- حذف الاستثناء الخاص بعمل " إن " الشرطية التي تجزم نحلين.

- حذف الاستثناء المتعلق بعمل " أن " المخففة من " أن " الثقيلة. ويرى أن في كل هذا تبسيط وتيسير ولا ضرر فيه على اللغة.

- اقتراح تغيير في نائب الفاعل.

- جموع التكسير، يرى أنها كثيرة فأحدثت فوضى، ويقترح أن جميع الأسماء التي يجوز جمعها جمعاً مذكراً سالماً وجمع تكسير يكتفى فيها بصيغة جمع المذكر السالم وتلغى صيغ جميع جموع التكسير الأخرى. فنجمع "كافر" على " كافرون" وتلغى "كفار" و"كفرة" و"كوافر"<sup>(2)</sup>. والواقع أن هذا كلام خطير؛ لأنه يؤدي إلى إلغاء جموع وردت بنصها في القرآن الكريم، فـ"كفار" ورد في القرآن و"كفرة" ورد في القرآن، و"كوافر" ورد في القرآن. وصيغة الجمع ذاتها لها معنى خاص يميزها عن غيرها.

ويواصل حديثه فيبين أن الأسماء التي لا تجمع جمعاً سالماً فتبقى لها صيغة واحدة من صيغ جموع التكسير، فنجمع "زهرة" على "أزهار"، وتلغى "أزهر"، و"أزاهير" إلخ. ولا بأس من استبقاء هذه الصيغ المتعددة في المعاجم الكبرى ليتيسر للمتخصصين فهم الكتب القديمة والأدب القديم<sup>(3)</sup>.

أما المنادى والمستثنى فيقترح أن يلزم حالة واحدة من الحالات، فيكون منصوباً دائماً أو مرفوعاً دائماً.

(١) حسين الشريف، تبسيط قواعد اللغة العربية، مجلة الهلال لرحى زبدان، أغسطس 1938م، السنة 46، ج 10، ص 1108، 1109.

(2) المصدر نفسه، ص 1110، 1111 - 1114.

(3) المصدر نفسه، ص 1114.

والواقع أن هذا من الخطورة بمكان لأنه عمل على تحطيم القرآن، لأن النحو مربوط بصيغ القرآن الكريم ومنه اشتقت قواعده، وكذلك الصرف والبلاغة. فإذا التزمنا بما اقترح صاحب الشريف فكيف نعمل بإلانات الصيغ القرآنية التي تصبح مخالفة لاقتراحه؟ صاحب المقال أدرك هذا، ولكنه بدل أن يتراجع عن غيبه، فإنه أخذ يكيل التهم لأمثالي فيثمننا بالتزمت فيقول: "على أنني لا أرى لي مندوحة من أن أحتسب لإعتراضات سوف يواجهني بها بعض المتمزمتين، ولا بد لي من الرد عليها سلفاً..."<sup>(1)</sup>. ونحن رده فضحه وبين حقيقته، فيقول بأنهم سيستفسرونه - لو أخذوا برأيه - فتأين " فكيف يفرون أمر أن يعد ذلك، وهو كما تعلم أساس اللغة وأساس الدين فأقول: أولاً: إن التعديلات التي أقترحها لا تمس أحكام النحو الأساسية التي تتعذر بغير قراءة القرآن الكريم، فالغاء موانع الصرف وقولنا "مساجداً" بدلاً من "مساجد" لا يغير معنى الكلمة ولا يبعد القارئ عن مرماها"<sup>(2)</sup>. ونحن نقول له بناء على اقتراحه المذكور، كيف نقرأ قول الله عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾<sup>(3)</sup>. فإنها تصبح قراءتها وكتابتها هكذا "ومن أظلم ممن منع مساجداً الله أن يذكر فيها اسمه"، كيف يستقيم النص صياغة، ومعنى؟ إن هذا لحن خطير وتحريف كبير وهو يعلم جيداً أن هذا لو وافقنا عليه فإنه سيقع للقرآن ما وقع للإنجيل، ولو فرضنا أن هذا التعديل لا يؤثر - وهو فرض اعتباطي - فإن جمال اللغة يزول. لكي يخرج صاحب المقال من هذه المتاهة اقترح إقتراحاً آخر ألعن من هذا، وهو أن دراسة القرآن ونحوه وصرفه وأسلوبه إنما هي دراسة عالية لا تتلقاها إلا طبقة خاصة من المتعلمين لا يمكن لغيرها من طلاب المدارس الثانوية مثلاً أن يشاركوها فيها مشاركة تؤدي إلى فهم كتاب الله فهما صحيحاً، وذلك أنه كما للقرآن أسلوب خاص به فإن له نحو خاص به يسمو في كثير من المواضيع عن القواعد التي نقرأها في كتب النحو السأولة بين أيدي الطلاب. بعبارة أخرى لا بأس أن يكون للقرآن نحو خاص به. ولما كان القرآن في نظره - ليس في متناول رجل الشارع، ولا في متناول المتعلم العادي وأن دراسته ودراسة أسرار - بوه وتنب، على خاصة الخاصة من المتعلمين، فإن خاصة الخاصة هذه ستتعلم نحو القرآن والنحو المعدل<sup>(4)</sup>. ومعنى هذا تصعيب النحو لا تيسيره، لأن خاصة الخاصة بدل أن نتعلم نحو واحداً يكفيها، تصبح ملزمة بتعلم نحوين كامالين مختلفين، وأخطر من هذا فإن الرجل العادي وتلميذ الثانوي والجامعي يصبح لا يفهم القرآن ويلحن فيه، لأنه كيف نعلمه أن كلمة "مساجد" تجمع فقط "مساجداً" ثم يجدها في القرآن "مساجد"، فإما أن يخصي القرآن، وإما أن يحتار. لأنها مخالفة لقواعد ما تعلم.

ومهما يكن من أمر فإن النحو المعدل الذي اقترحه صاحب المقال يؤدي إلى إبعاد الناس عن فهم القرآن، ثم إن القرآن ليس لخاصة الخاصة وحدهم، بل القرآن للجميع، عامة وخاصة، ولا سيما أن خطابه للجميع. ونحن يجب علينا أن نعمل على رفع مستوى العامة إلى القرآن لا إبعاد الناس عنه، وصاحب المقال،

(1) المصدر نفسه، ص 1115.

(2) المصدر نفسه، ص 1116.

(3) البقرة / 113.

(4) المصدر السابق، ص 1116، 1117.

اقتراحه يؤدي إلى إبعاد الناس عن القرآن الكريم، ثم نسي صاحب المقال أن الندوة والعسرف والبلاغة وضعت خصيصاً لخدمة القرآن، فهي نشأت منه. فما الفائدة منها إذا جردت من هذه الغاية؟  
 وختاماً لما سبق نشير إلى أنه وقع خلط كبير حول الحروف التي يجب أن تكتب بها اللغة العربية، -يعني عربية تكتب بحروف غير عربية إذن فهي ليست عربية لأن الحرف جزء لا يتجزأ من اللغة- .  
 فهناك من أعلن بأنه يجب كتابتها بالحروف الفرنسية كما ذهب إلى ذلك إلياس بك عبده قدسي في "المقتطف"<sup>(1)</sup>. وهناك من رأى بأنه يجب أن تكتب بالحروف الإنجليزية ولا يهم لغة من تكتب بها الإيطالية أو الفرنسية أو الإنجليزية وحتى لو بحروف كل هذه اللغات، وهو ما ذهبت إليه "المقتطف" في مقال بعد مقال إلياس بك عبده قدسي تحت عنوان "طريقة جديدة لكتابة العربية بحروف أجنبية"<sup>(2)</sup>، ولكن بدون إمضاء صاحبه. وسبب هذا الاقتراح أنه واجهتهم مشكلة هي، على قواد أي لغة من لغات الفرنجة تكتب العربية، وذلك لأن لغات الفرنجة مختلفة نطقاً ومضموناً وقواعد، بل وحررفاً في كثير من الأحيان. فتمهم عندهم أن تتسلخ عن الخط العربي وليكن بعد ذلك الطوفان ولا أدل على هذا من أن بعض دعاة الكتابة بالخط الإفرنجي إنتهوا إلى خطوط مضحكة لكتابة اللغة العربية، ومن تلك الخطوط، المقترحات التي تفتت بها ذهنية زهاوي زاده جميل صدقي أفندي الذي كتب مقالا في "المقتطف" جعل عنوانه " الخط الجديد"<sup>(3)</sup>. وهي من الصعوبة بمكان، إذ هي عبارة عن طلاس لا يمكن حلها. والغرض من كل هذا هو لو كتبت العربية بهذه الحروف أصبح من المستحيل على أي إنسان النظر إليها أو تعلمها، وبذلك يصبح، يتجه تلقائياً إلى لغات الفرنجة، وكل هذه الاقتراحات إنما هي لكتابة العامية. أما الفصحى فإن هؤلاء يرون طمسها من الوجود إلى الأبد.

وإذا كانت "المقتطف" قد قدمت بعض ما ذكرناه، فإن "الهلال" كانت كذلك قائمة بواجبها على قدم وساق، وكانت تعمل حتى على التشكيك في الخط العربي بإعتباره عربياً، ومن ذلك المقال الذي ورد تحت عنوان "تحليل الألفاظ العربية"<sup>(4)</sup>. أعقب مباشرة بمقال آخر أدرج في باب المراسلات تحت عنوان " أصل الخط العربي"، والمقال عبارة عن جواب من مجلة "الهلال" يقع في 6 صفحات على رسالة وجهها إليهم في هذا الشأن أحمد نجيب من القاهرة، وهو مفتش عموم الآثار المصرية<sup>(5)</sup>. وظلت هذه القضية تشغل بال "الهلال"، بل تطورت القضية وتغلغل الدعاة إليها في مختلف المؤسسات المهمة. فقد رأينا ولیم ولكوكس في مجلة "الأزهر" يدعو من خلالها إلى إحلال العامية محل الفصحى وكتابتها باللاتينية، ووصلت القضية إلى المجلس العلمي اللغوي بالقاهرة وأصبح هناك من يدعو من خلاله إلى نفس الدعوة، ووصلت القضية إلى ملك مصر الذي أبدى رغبته في إصلاح الأبجدية العربية، وهو ما جعل يوسف غصوب رئيس قلم

(1) إلياس بك عبده قدسي، تصوير اللفظ العربي، بحروف فرنسية، المقتطف، يناير 1889، السنة 13، ج4، ص 241 - 244.

(2) طريقة جديدة لكتابة العربية بحروف أجنبية، المقتطف، يناير 1889، السنة 13، ج4، ص 245 - 248 .

(3) زهاوي زاده، جميل صدقي أفندي، الخط الجديد، المقتطف، أكتوبر 1896م، م 20، ج 10، ص 738 - 752 .

(4) تحليل الألفاظ العربية، مجلة الهلال لمرحى زيدان، فبراير 1895م، السنة 3، ج12، ص 447.

(5) أصل الخط العربي، مجلة الهلال لمرحى زيدان، فبراير 1895 م، السنة 3، ج12، ص 462 - 469.

الترجمة في المفوضية العليا ببيروت يقدم اقتراحاته في هذا الشأن على صفحات مجلة الهلال تحت عنوان "إصلاح الأبجدية العربية"<sup>(1)</sup>.

وتكن كل هذه المجالات ذهبت أدراج الرياح رغم استمرارها عدة عقود من 1880 م إلى الثلاثينيات من القرن العشرين، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)<sup>(2)</sup>. هنا في مصر. ومنها تنتقل إلى لبنان.

## ثانياً : الدعوة إلى العامية في بلاد الشام (لبنان)

### الدكتور أنيس فريحة نموذجاً

رغم ما ذكرناه عن المستشرقين السابقين فيما يتعلق بالدعوة إلى العامية وكتابتها بالحرف اللاتيني ومحاربة الفصحى إلا أن زعيم هذه الحركة بلا منازع الإستعماريون الفرنسيون، وعلى رأسهم (لويس ماسينيون) الذي بثها في كل من المغرب ومصر وسوريا، والجزائر ولبنان خاصة، ولقد ذكرنا علاقته بـ(شارل دوفوكو)، وخلقته للحركة البربرية وموقفه من مالك بن نبي والإتجاه الوجودي لسبب المغرب العربي. وقد سعى لهذه الغاية مبشرون وإستعماريون من أمم أخرى، ألما و إنجليز وغيرهم مثل سبيتا وكوكس وفولرس كما ذكرنا قبلاً .

وما يهمنا هنا أن جميع المحاولات الأولى في لبنان للتخلي عن الفصحى وإستبدالها بالعامية والحرف اللاتيني قد نبتت من المدارس الفرنسية وخرجت منها إلى اليسوعيين، ومنهم إلى الجامعة الأمريكية، ونقتصر بالإشارة إلى واحد فقط من هؤلاء<sup>(3)</sup> الداعين إليها هو الدكتور أنيس فريحة، أستاذ التاريخ واللغات السامية في الجامعة الأمريكية في بيروت<sup>(4)</sup>.

إهتم أنيس فريحة كثيراً بقضية العامية، وملخص آرائه: أنه إذا أردنا أن نتقدم يجب علينا أن نهمل العربية الفصحى ونستبدلها بالعامية المكتوبة بالحروف اللاتينية. وقد ألف مجموعة من الكتب كلها تتمحور حول هذه القضية، منها :

- محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها ، ط1 ، 1955 م - نحو عربية ميسرة ، ط1 ، 1955م.
- الخط العربي نشأته ومشكلته، ط1، 1961م. في اللغة العربية وبعض مشكلاتها ، ط1، 1966م .
- معجم الألفاظ العامية ، ط1، 1973م.

<sup>(1)</sup> يوسف غصوب إصلاح الأبجدية العربية ( تحت عنوان : موضوع للدرس والمناقشة)، مجلة الهلال لخرجي زيدان، أبريل 1929م، السنة 37، ج6، ص 731 ، 732 .

<sup>(2)</sup> الأفعال / 30.

<sup>(3)</sup> إضافة إلى الدعوة إلى العامية فإن نصارى لبنان - وكذا القوميين العرب- عملوا على فصل اللغة العربية عن المضمون الإسلامي، وقد سببوا على عملها لغة قومية بحتة، أي لا علاقة لها بالإسلام، وظهر هذا جلياً في المعاجم اللغوية التي ألفها غير المسلمين مثل المنجد في اللغة والإعلام، وأدخلوا فيها الكثير من التحريف والتشويه والتشويش على الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وملأها بالعامية وكذلك بالمصطلحات النصرانية والكفرية، مثل عيسى بن الله كما ورد في المنجد في اللغة والإعلام في حرف العين وكذا ملأه بالأعلام الكهنوتية. وظهرت هذه الروح كذلك في كتب النحو وقواعد اللغة التي ألفها غير المسلمين أيضاً (عز الدين الخطيب التميمي، المرجع السابق، ص 91).

<sup>(4)</sup> مصطفى حناي وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 224 ، 225.

وبهذه المؤلفات الخمس اكتملت فلسفته في إحلال العامية بالحرف اللاتيني بدل العربية الفصحى. وهنا نلاحظ كثيرا من التداخل بين هذه الكتب والتكرار، وتبدأ حديثنا عن معجم الألفاظ العامية.

- معجم الألفاظ العامية: يبدأ معجمه هذا بتمهيد يبرر فيه سبب نشره لهذا المعجم الذي قد يسؤل بأنه محاربة للفصحى وإحلال للعامية محلها، فيذكر أنه ليس من دعاة العامية، ولكنه يبحث عن التسيير<sup>(1)</sup>. ثم يبين أهمية دراسة اللهجات العربية الحية فيرى أنه لا العرب القدماء ولا الأحياء إهتموا بدراستها، وظلت حكرا على المستشرقين<sup>(2)</sup>. والسبب في نظره يعود إلى خرافة إحداد العامية من الفصحى، لأن العامية وجدت مع اللهجة الأدبية التي حفظها القرآن والشعر الجاهلي. والقول بتوحيد اللهجات في الجاهلية إنما هو حسب زعمه خرافة إسلامية، لأن طبيعة البدوي الجاهلي لا تقبل الاتفاق والتوحيد، كل ما في الأمر أن رجال الدين والشعراء كانوا يتخلون عن لهجاتهم ليعرضوا بلسانهم بالغة الأدبية التي كانت لغة أدباء الجزيرة وشعرائها قبل أن تكون لغة قریش بالذات، وكان على هذه اللغة الأدبية التي نزل بها القرآن أن تكافح اللهجات لتتنصر في عهد الحجاج وما بعده فتصبح لغة الحكومة الرسمية. ونلاحظ هنا تصوف أنيس فريحة بما زعمه فولرس الذي ذكرنا أنه هو الذي زعم في مؤتمر المستشرقين الذي عقد بالجزائر العاصمة سنة 1905 م أنه كانت توجد لغة عربية عامية في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد أبطل الشيخ جاويش والشيخ ابن أبي شنب مقولته تلك.

والواقع أن الزعم بأن طبيعة البدوي الجاهلي لا تقبل الاتفاق والتوحيد مقولة كذبا التاريخ والواقع، لأن أولئك هم الذين صنع منهم القرآن الكريم أفضل أمة، وأفضل تجمع بشري على الإطلاق منذ نشأة الحضارة إلى نهايتها «كنتم خير أمة أخرجت للناس»<sup>(3)</sup>.

كما أنه يناقض نفسه، فهو من جهة زعم ما سبق، ومن جهة أخرى يقر بأن السبب في عدم الإهتمام باللهجات العامية يعود إلى تقديس العرب للغتهم<sup>(4)</sup>. ومما يبين تهافت كلامه، هو الحديث النبوي الشريف إذ كيف يكون الرسول -صلى الله عليه وسلم- أميا ويكون لحديثه كل تلك البلاغة، وكذا كلام الصحابة الذين كان كثير منهم أميا وتحدي القرآن للعرب. فلو لم يكن بلغتهم، ولو لم يكونوا فصحاء بلغاء ما تحداهم، وما فهموا التحدي. والذي يبين تهافت ادعائه كذلك، أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يشرح كلامه للصحابة إلا عندما يأتي بمصطلحات تخالف مفهومها العرفي، مثل المغلس وشيره.

وأكبر دليل على تهافت ادعائه، القرآن الكريم ذاته الذي يبين أنه عربي، وأنه بلسان عربي مبين وأن العرب كانوا يفهمونه.

(1) أنيس فريحة، معجم الألفاظ العامية، ط 1، مكتبة لبنان، بيروت، 1973 م، ص 1.

(2) والمنطق يقتضي منه أن يتساءل: عن سبب اهتمام المستشرقين بدراسة لهجاتنا وعدم اهتمامهم بدراسة فصاحتنا.

(3) آل عمران / 110.

(4) أنيس فريحة، معجم الألفاظ العامية، الصفحات: أدب، ص 10، ح ط.

بعد ذلك ينتقل إلى بيان القيمة النفعية للعامية، فيبين أن كثيراً من مفرداتها سامية الأصل، والساميون عرب فيجب إحيائها، ثم يزعم بدقة العامية وإستعمالها التماس إلى أبعاد حد، وإيقاؤها سبباً للاشتقاق حياً<sup>(1)</sup>. وأما كتابه :

في اللغة العربية وبعض مشكلاتها : فإنه متكامل مع الكتاب السابق، وبعد أن يشيد باللغة العربية ويبين مميزاتها التي سبق أن ذكرها في كتابه " محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها"، يكتب : "وانا هو : أثر لغوي السريان في وضع قواعد الصرف والنحو العربيين"<sup>(2)</sup>. ويرى بكل وقاحة أن سريان العراق هم الذين أعانوا العرب في وضع أحكام لغتهم حسب النماذج السريانية، لأن السريان سبقوا العرب في وضع قواعد لغتهم على سنن الإغريق بشهادة لغوي السيران أنفسهم، والسوريان هم الأراميون من سكان سوريا والعراق. بعد أن تنصروا أصبحوا يسمون أنفسهم "السريان" أي سكان سوريا، ولغتهم السريانية<sup>(3)</sup>. - وهذا يستنتج منه كما أن النصاري هم الذين أعانوا المسلمين في وضع قواعد النحو والصرف فكذلك أثر من فريجة النصراني أستاذ التاريخ واللغات السامية بجامعة بيروت الأمريكية، أي الجامعة التي سبقت في طرح على العرب إماتة الفصحى وإحياء العامية. ويتوصل إلى أن اللغة العربية أخذت كثيراً من اللغة الأرامية وأن الخط العربي تأثر كثيراً بالخط السرياني، واللغة السريانية وضعت على أسس إغريقية مما يعني أن اللغة العربية متأثرة بالإغريقية، ونحن نتساءل: لماذا لم يكمل ويقول: بأن اليونان هم الذين وضعوا قواعد اللغة العربية؟!.

وفي الأخير يأتي بمقارنات بين العربية والسريانية، غير أن مقارناته في نظرنا إن دلت على بعض التشابه فليس دليلاً على تأثر العربية بالسريانية، إذ لماذا لا يكون العكس؟. ثم أين هي السريانية؟ فكيف يبقى المتأثر ويزول المؤثر؟.

ثم يعيد بعض ما كتبه "في محاضرات في اللهجات..."، ثم يتطرق إلى حل مشكلة تدريس القواعد العربية في نظره - وهو دائماً يستخدم منهج التهويل فينبه على الصعوبة الشديدة لهذه القواعد، فيقترح مخططاً لحل المشكلة، خلاصته: لا تفصيل، لا تحليل، لا فلسفة<sup>(4)</sup>. أي التجهيل والغموض... يتوصل إلى الخط، فيضع عنواناً هو: "في الخط العربي ومشكلته"<sup>(5)</sup>. ومن مشكلات الخط العربي الكثيرة في زعمه :

- خلوه من الأحرف المصوتة ( Vowels ) أو الحركات.
- تقارب أشكال الحروف وتغيرها عند الوصل .
- الطباعة ونفقتها<sup>(6)</sup>.

(1) المصدر نفسه، ص: ح، ط.

(2) أنيس فريجة، في اللغة العربية وبعض مشكلاتها، (ط1، 1966)، دار النهار للنشر، بيروت، 1980، ص 24.

(3) المصدر نفسه، ص 24.

(4) المصدر نفسه، ص 71.

(5) وهو تلخيص لكتاب له عنوانه " الخط العربي: نشأته ومشكلته، مطبعة فؤاد بيك، حوزة، 1961".

(6) أنيس فريجة، في اللغة العربية وبعض مشكلاتها، ص 165-179.

والحل : هو الحرف اللاتيني. إن إغناء الفصحى واعتماد العامية بالحرف اللاتيني. المشكلات إذ 'تة في نظره يضيف إليها أخرى أو بعيد تكرارها، وذلك في كتابه :  
"محاضرات في اللهجات وأسلوب دارستها" : ومن ذلك عجز اللغة

العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون<sup>(1)</sup>.

والواقع أننا عندما ننظر في إنتقاداته نجدها لا تعدو أن تكون مغالطات، فمثلا خلط الخط العربي من الأحرف المصوتة. هذا راجع إلى طبيعة اللغة العربية، فهي لا تحتاج تلك الحروف، وهنا نتساءل لماذا لم يلغى اليابانيون حروف لغتهم المعقدة بسبب تعقيدها؟

وأما عجز اللغة العربية لو فرضنا وجوده، فإنه راجع، ليس لها. بل لأهلها. وقد اعترف أنيس فريجة في كتابه "في اللغة العربية وبعض مشكلاتها"، بأنها تمتاز بما يأتي :

1- الذخيرة اللغوية ( كثرة الألفاظ والغنى بالمتراذفات). وهنا نلاحظ تناقضا بين أنيس فريجة وسلامة موسى، إذ في حين يعتبر أنيس فريجة هذا ميزة، يعتبرها سلامة موسى عيبا.

2- التصعيد: أو القدرة على التجريد، أي الصعود باللفظة من معناها الحسي إلى اللغوي، وهذه صفة كل لغة حية راقية. ولا نقل اللغة العربية في نظره عن سائر اللغات قابلية في التصعيد.

3- الإشتقاق : وهي صفة تعني اللغة كثيرا.

4- التوليد : ويعني به صوغ كلمات جديدة لا عهد للعربية بها من قبل، أو إسباغ معنى جديد على كلمة قديمة لم توضع لهذا المعنى، مثل القاطرة.

5- التعريب أي نطق كلمة أجنبية مثل اللامركزية على نهج العربية وأوزانها.

6- القياس : أي ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب، وهو على نقيض مبدأ السماح تذيي يقيد أخذ اللغة بالرواية والسماح<sup>(2)</sup>.

يعود أنيس فريجة من جديد إلى نقد اللغة العربية وخطها وهو ما يجعله متناقضا مع نفسه، فمن جهة يقول بتلك الميزات للفصحى، ومن جهة أخرى يعمل على قلعها من الجذور. ويقع في متناقضات عجيبة، فهو يعود إلى نغمته السابقة من أن اللهجة ليست إنحدارا للغة الفصحى بل قد تكون تطورا لغويا. ويتوصل إلى أنه لا فارق جوهري بين لهجة ولغة، وما إعتبر لهجة قد يكون أفضل مما إعتبر لغة - يعني لهجة "كرازاتوا الطونوبيل" أفضل من لغة القرآن - ولكن الأسباب الخارجية والظروف الخاصة هي التي تقرر، فتعتبر اللغة قومية رسمية وتلك لهجة ويستدل بأمثلة - وهي بيت التصيد في نقدنا له وهو مما يبرز تناقضه وأفكاره المسبقة - فيرى بأن الألمانية هي لهجة برلين لا لهجة هانوفر، وسبب اعتماد لهجة برلين هو أن التوراة ترجمت بها، كما يعترف بأن اللغة الفرنسية الحالية هي لهجة باريس بعد القرن 17، كما أن

<sup>(1)</sup> أنيس فريجة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دارستها، ط1، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، مطبعة الرسالة، القاهرة 1955 ،



الإنجليزية هي لهجة لندن والروسية هي لهجة موسكو<sup>(1)</sup>، وتساؤلنا هو : لماذا إذن لم يثر الألمان الآن على اللغة الألمانية باعتبارها لهجة برلين فقط ويطالبون بإنشاء لغة جديدة هم خليط من اللهجات، وأن يطلبوا كتابتها بالأحرف العربية مثلا أو الصينية أو الهندية إلخ، بينما أنت تشور على لهجة قريش بسبب تعميمها على القبائل وأنت تعرف أن ذلك تم لأن القرآن نزل بها؟. وما يقال عن الألمان يقال عن الفرنسيين فيطالبون برفض اللغة الفرنسية الرسمية وتغييرها وتكوين لغة جديدة من إحدى لهجاتهم أو من جميعها، وكذا الإنجليز والروس إلخ.

بواصل هجومه على الفصحى بتهويل وتضخيم، فيرى بأنها ذاهبة إلى الزوال؛ لأن اللغة تسير في جريانها من الصعب إلى السهل ولذا تنشأ على مر الأجيال لهجات مخالفة للأصل بسبب حاجة الناس إلى التعبير عن أفكارهم بسهولة وبساطة ووضوح- وهنا يناقض ما ذكره قبلا من أن العامية وجدت مع الفصحى من أول وهلة- وإقتصاد في الكلام، ومن هنا تظهر حتمية إسقاط الإعراب وإختصار الصرف والنحو والاستغناء عن المترادفات التي إعتبرها قبلا من مميزات اللغة. ولكن إسقاط الإعراب لم يكن من قبل ممكنا، والعائق في ذلك إنما هو القرآن الكريم، فأهميته في نفوس الناس هي التي جعلتهم يصرون على ضبط أحكام اللغة العربية ومحاربة اللحن<sup>(2)</sup>. وهنا يبدو جليا الغرض التبشيري، ولا غرو، فإن صاحب الكتاب أستاذ بالجامعة الأمريكية ببيروت، وهي جامعة تبشيرية، وذلك أنه يعلم جيدا أننا إذا أسقطنا الإعراب أضربنا بالقرآن الكريم، كما يعلم جيدا أن قواعد النحو والصرف وعلوم اللغة العربية إنما نشأت أصلا لحماية الألسنة من اللحن وتقويم اعوجاجها.

بواصل هجومه على الفصحى ويقدم إقتراحات إزالتها، فإضافة إلى إسقاط الإعراب يرى أن الزمن في اللغة العربية غير محدد تحديدا دقيقا عكس اللغات الأوروبية، فيرى أن فكرة الزمن ترتكز على "إنجاز الفعل أو إتمام الحدوث لا على فكرة الزمن ذاته". والواقع إن كان هذا هكذا فإن هذهيجابية لأنها تبين أن اللغة العربية عملية لا خيالية، لأن دراسة الزمن لذاته إنما يتم في فرع معرفي آخر هو الفلسفة. أما اللغة فوظيفتها معروفة في الميدان العملي. وينتقدها كذلك من حيث أن الفعل ماضي ومضارع وأمر، والعامية في نظره هي التي استطاعت أن تعبر عن الزمن وتحدده تحديدا دقيقا مثل اللغات الأوروبية تماما.

وينتقل إلى الضمائر في اللغة العربية فيرى بأن عددها 14 وفي العامية 8، لأن المثني سقط، والمثنى في نظره ظاهرة لغوية بدائية ترجع إلى أول عهد الإنسان بانعد<sup>(3)</sup>. وقد سقط المثني من أكثر اللغات الأوروبية، فكل ما زاد عن واحد فهو جمع. وأسقطوا جمع ضمير المؤنث. وهذا يؤدي إلى اقتصاد عظيم في تصريف الفعل، فعوضا عن تصريفه مع 14، نصرفه مع 8. وفي الأمر، عوضا عن 6 نكتفي بثلاثة فقول، قوم، قومي، قومي<sup>(4)</sup>. ونحن نقترح في نفس السياق إسقاط المذكر والمؤنث والجمع والمفرد

(1) أنيس فريجة، محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها، ص 41، 44، 45.

(2) المصدر نفسه، ص 51 - 58.

(3) المصدر نفسه، ص 59.

(4) المصدر نفسه، ص 59.

ونخاطب الجميع بضمير واحد؛ إذ المبرر الذي أسقمتنا به المثني والمؤنث نسقط به الجمع ولا يبقى شيء! الواقع أنه لا مجال لمقارنة اللغة العربية هنا باللغات الأوروبية، لأن كل لغة لها مميزات كما أن المقارنة هنا تفضي إلى نتيجة عكسية لما يريد الوصول إليه أنيس فريحة، لأنها تظهر فقر اللغات الأوروبية في قضية الضمائر، وبعدها عن الدقة. لأن الإيتين ليس كواحد، فديناران ليس كتلاثة ننانير، ثم يقع في تناقض عجيب، فهو من جهة ينادي بأن تصح الأفعال ستة في اللغة العربية وهذا تعقيد، ومن جهة أخرى يطالب بإسقاط الضمائر، الهدف واضح هو: كل ما عند الغرب جميل حتى يراهم، وكل ما عند العرب ذميم حتى غسلهم. ولكن إذا ظهر السبب انتهى العجب، فهو يهدف إلى تحطيم قواعد اللغة العربية لإحلال العامية محلها بقواعد النحو الغربي ولكن أي نحو؟! هل نحو فرنسا أم بريطانيا! يواصل حديثه مبررا عظمة العامية ومبرها في الوقت ذاته على فقرها في المترادفات<sup>(1)</sup>. وهذا أمر عجيب وغريب، ولكننا نعتقد أنه تهيئة لنفوس العرب بأنه لا فصحاها تصلح لغة عصر ولا عاميتهم، وإذن فلا بد من الفرنسية والفرنجة.

#### - نحو عربية ميسرة :

وأما كتاب أنيس فريحة "نحو عربية ميسرة"<sup>(2)</sup> فهو عبارة عما ورد في الكتاب السابق "محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها" ولكن بطريقة موسعة. بعبارة أخرى فإن كتابه "محاضرات في اللهجات..." ملخص كله من كتاب "نحو عربية ميسرة" وقد استوفى أنيس فريحة معظم آرائه في هذين الكتابين. ولقد رأينا في كتابه "محاضرات في اللهجات" حقه على القرآن وإعباراه عائفا أمام قضية إسقاط الإعراب، إلخ ما ذكرنا، وفي كتابه "نحو عربية ميسرة" نجده ينضح بالحقد على اللغة العربية الفصحى والبغض لأهلها وبإلتهام على تراثها والهزاء برجالها، وما هي فقرات من كتابه هذا تبين هذا<sup>(3)</sup>.

يقول: ولكن لا يصح اعتماد اللغة، كما تحدثت إلينا مدونة مصدرا لدراسة اللغة في عهودها السابقة، ذلك لأن الذين استنبطوا قواعدها وضبطوا أحكامها إعتمدوا الشعر الجاهلي أولا، ثم القرآن مادة لغوية<sup>(4)</sup>. ومتى كانت لغة الشعر والأدب والدين مرآة تعكس لغة الناس في معاشهم ومكاسبهم<sup>(5)</sup>. يواصل كلامه متهمًا "فإن علينا في مواقفنا الرسمية أن نتكلم بلغة الأجيال الغابرة، علينا أن نعبر عن أحاسيسنا ودواخلنا بلغة وقت في مجراها عند نقطة معينة في الزمان والمكان (يقصد ظهور الإسلام) عندما أحيطت بهالة من التقديس، وعندما سيح حولها بسياج من الأحكام، فوقفت في تطورها عند هذه النقطة من الزمان والمكان"<sup>(6)</sup>. ويقول: "نحن نعلم أن الفصحى بعد أن أصبحت لغة الدين واللغة الرسمية أخضعت للقيود،

(1) المصدر نفسه، ص 60.

(2) طبع في سنة 1955، ونحن أطلعنا على هذا الكتاب من خلال مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشر والإستعمار، ص 227 - 232. ولذلك فإن النصوص التي نقلناها منه إما نقلناها عنها كما وردت.

(3) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشر والإستعمار، ص 227.

(4) والواقع أن القرآن هو الأسس وليس الشعر الجاهلي، وهذا لا يخفى على أحد.

(5) أنيس فريحة، نحو عربية ميسرة، 1955، ص 21.

(6) المصدر نفسه، ص 18، 19.

القيود التي يفرضها الصرفيون والنحويون<sup>(1)</sup>. ويقول متهمًا بأصحاب القواميس الكبار ويعط من قدرهم وعملهم " ولكن تجدر بنا الإشارة أو لا إلى ان الجمع ( جمع الكلمات في القواميس) تناول لغات عربية كثيرة، وكان الحماس للجمع بالغاً مبلغه، فأقحموا هذه الكثرة دون روية في التحقيق... ولكن عمل المعاجم لا يتم بالطريقة الفردية، غير أن من يعرف لسان العرب أو التاج أو القاموس لا يستطيع إلا أن يرفع قبعته لجلالها لجامعيها"<sup>(2)</sup>.

" اللغة ... ظاهرة إنسانية لا علاقة لها بالآلهة ولم تهبط من عل، بل نشأت من أسفل"<sup>(3)</sup>. والإشارة هنا واضحة إلى القرآن الكريم.

ثم يتكلم عنه صراحة ووقاحة فيقول :

" غير أن القرآن الكريم نزل بلغة الأدب والشعر والدين لذلك العصر ... وقد تمد أن المجتمع الإسلامي الأول، نسبة لإعجابه بهذه اللغة ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم، جهدوا أن يجعلوا من هذه لغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية، بذلك على ذلك مبلغ الجهد الذي أنفق في سبيل ضبط أحكام هذه اللغة، وفي محاربة اللحن، وفي إصرار المقامات العليا - السلطة - على أن تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمنشئين. ووضع سياج حول اللغة للحفاظ على أمر طبيعي. لا، بل ضرورة لكل أمة ناشئة"<sup>(4)</sup>. ولكن الزمن تطور فيجب أن تطور اللغة لا أن تبقى على قيودها السابقة " أتول لنفسي إنه يجب أن تخضع العربية لي وأن تلين لفكري، لا أن يخضع فكري وعلمي لقوالب معينة تروق لأذواق جيل من الناس ماتوا منذ مئات السنين"<sup>(5)</sup>... "إننا نأقموه على القواعد... إن وضع الأحكام بقيد اللغة... إنه يقف في مجراها الطبيعي ويسد عليها الطريق كما حدث للغة العربية الفصحى، فإن وضع الأحكام لها أوقف عمل النواميس اللغوية عند نقطة معينة في الزمان والمكان"<sup>(6)</sup>. ثم يعيد الحديث من جديد إلى القرآن الكريم وهو ما يبين أن هدفه الأساسي العمل على تحطيمه، فيقول : " ولكن للناس أن يسألوا ماذا سيحل بالقرآن الكريم"<sup>(7)</sup>. وماذا سيحل بالأدب القديم؟ وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد، سيبقى على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب"<sup>(8)</sup>.

هذه الشواهد تبين أن الدافع الحقيقي لدعوته أن يهجر العرب لغتهم الفصحى المكتوبة بالحروف العربية إلى لهجة من لهجاتهم العامية المكتوبة بالحرف اللاتيني، ليس لتيسير العربية، ولكن لقطع العرب صلواتهم

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 22.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 13، وأيس فرجة يعرض هنا بالمعاجم العربية وواضعها : لسان العرب لابن منظور وتاج العروس للبرتضي الزبيدي، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ( مصطفىٰ علادي وعمر فروخ، المرجع السابق، هامش ص 227).

<sup>(3)</sup> أيس فرجة، نحو عربية ميسرة، ص 73.

<sup>(4)</sup> المصدر نفسه، ص 125 ، 126.

<sup>(5)</sup> المصدر نفسه، ص 141.

<sup>(6)</sup> المصدر نفسه، ص 228.

<sup>(7)</sup> تلاحظ وصف القرآن بـ "الكريم" باستمرار، وفي إجماع نفسي لخداع المغفلين من المسلمين.

<sup>(8)</sup> المصدر نفسه، ص 198.

بالقرآن الكريم، إلا أن يبقى ليقرأ في المساجد كما تقرأ اللاتينية في الكنائس الكاثوليكية<sup>(1)</sup>. ونحن نرى أنه حتى هذا لا يبقى لأن القرآن مكتوب بالخط العربي وأليس فريجة يدعوننا إلى نبذه إلى الخط اللاتيني مما يجعلنا أمام أحد أمرين أن نجعل القرآن وراعنا ظهريا بصفة نهائية، وهذا هو غرضه، أو أن نكتبه حتى هو بالعامية وبالخط اللاتيني، وهذا يقضي على كونه قرآنا، وهذا يحقق غرضه أيضا، وقد أشر إلى هذا من خلال قوله " كما بقيت كتب دينية عديدة رغم إنحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب". وهو يقصد بسلا شك كتابه المقدس.

والواقع أن هذه مغالطة، ذلك أن الكتاب المقدس الذي يتكلم عنه إنما هو ترجمة الكتاب المقدس. أما الكتاب المقدس الأصلي بلغته الأصلية فلا أثر له، وقد بينا أثناء حديثنا عن الأناجيل أن أقدم مخطوط للكتاب المقدس إنما هو مكتوب باللغة اليونانية في القرن 4 م. والكل متفق على أن الكتاب المقدس حتى الأناجيل ذاتها لم تكتب أصلا باللغة اليونانية، وحتى هذه الترجمة اليونانية فيها ما فيها كما ذكرنا قبلا. ومن هنا فإن النصراني عندما يقرأ كتابه المقدس بأي لغة فالقضية واحدة. فهو يقرأ الترجمة لا النص الأصلي.

أما المسلم فإن القرآن هو هو بلغته التي نزل بها، وفي عقيده إذا غير منه حرف لا يصبح قرآنا، وأن التعبد لا يصح إلا بالقرآن لا بترجمته، وإذا كتب بالعامية فإن ذلك يمكن إعتباره تفسيراً لا قرآنا، ولو حدث ذلك فإن القرآن سيق له ما وقع لكتب أبناء ملته وهو يريد أن يحقق هذه الغاية. وهنا يجب أن نذكر بأن غيرتهم من القرآن الكريم تقطع أحشاءهم لأنه بقي كما نزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- عكس ما وقع للكتاب المقدس ولذلك يريدون إنزال المسلمين إلى مستواهم فلا يبقى وحى صحيح أصلا.

إضافة لهذا وخدمة لهذه الغاية فإن أنيس فريجة يريد أن يقطع العرب صلتهم بالأدب القديم لأنه هو لا يستطيع أن يفهم الأدب الجاهلي أو رسالة الغفران ولا أن يجد قيمة لشعر المتنبي<sup>(2)</sup>. إننا نعلم جيدا من خلال كتبه التي درسناها وإكتشافنا لقدرته اللغوية نعرف<sup>أن</sup> أنيس فريجة عندما يقارن ما كتب في الأدب الجاهلي أو يقرأ رسالة الغفران أو شعر المتنبي ويقارنه بـ"شمونة"<sup>(3)</sup> مثلا أو ما كتبه أحسن شعراء الملحن فإنه سيجد متعة نفسية ولذة فيما كتب بالفصحى لا فيما كتب بالعامية، ولكن التعصب النصراني يجعل الإنسان ينطلق من حقه لا من منطق، ومن عاطفته لا من عقله، وهذا ما وقع لأنيس فريجة. إننا عندما ننظر إلى مقترحات أنيس فريجة فيما يتعلق بالدعوة إلى العامية وإلى الحرف اللاتيني، نجد أنه يؤدي إلى :

1- خلق مشكلة لا حل مشكلة .

2- قطع حاضر العرب ومستقبلهم بماضيهم.

<sup>(1)</sup> مصطفى خالدي وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 229.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 229.

<sup>(3)</sup> هي عبارة عن سلسلة رسائل كانت تكتبها جريدة الدُّبُور بين حادمة قروية لبنانية تشتغل في بيت بروني، وبين أمها في الجبل، وقد نشرت تباعا تحت عنوان "رسائل شمونة" أو "شمونة" وقد نشرت فيما بعد إدارة جريدة "الدُّبُور" هذه الرسائل معا بشكل قصة مكتوبة بلهجة لبنانية بحكة، أما جريدة الدُّبُور فلما كانت تصدر في بيروت بلغة هي أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى (التهجى فريجة)، محم الألفاظ العامية، ص: د ، هـ).

3- تنفيذ لمآرب تبشيرية إستعمارية، لأن الأمر بدأ كذلك، ولا يمكن أن يكون سبب هذه الدعوة الآن غير سببها بالأمس<sup>(1)</sup>. وفي هذا السياق تحطيم القرآن الكريم الذي وقف سدا منيعا لحماية الشرق من جيروت الغرب، ومحو حضارة تسمى حضارة الشرق لأنه عندما يعمم الخط اللاتيني يعني هيمنة الثقافة الغربية على العالم، هو ما يضمن للغرب الإستمرار لأنه يمنع من قيام البديل عن نموذجه الحضاري في أي رقعة من العالم.

4- كثير من كتب أنيس فريحة التي ذكرناها أو لم نذكرها لا صلة لها بتبسيط العربية على الإطلاق كما رأينا في قضية الأفعال الستة التي يقترح أن تصبح عليها اللغة العربية، وكجداول ضمائر الإسلرة التي يقترح فيها عددا أكبر مما هو في كتب النحو<sup>(2)</sup>. وغرضه التحويل من صعوبة النصحى وصعوبة خطها العربي.

ولو فرضنا جزافا صعوبتها، فإن الملاحظ أن الأمم لا تمزج عادة تراثها الروحي بالحياة الواقعية لأنها تستمد بقاءها منه، ومع هذا فإن الإملاء مثلا باللغة العربية أيسر بكثير من الإملاء باللغة الفرنسية والإنجليزية، فلماذا لا نجد دعوى لدى أدباء الفرنسيين والإنجليز يطالبون فيها بكتابة لغتيهما بالحروف العربية لتيسير إملائيها؟! .

إن اللغة العربية بالنسبة إلينا كما يقول صاحبها كتاب " التبشير والإستعمار " ليست واسطة للتفاهم بالنسبة إلينا وإلى قومنا فقط، بل هي رابطة قومية أيضا، وجامعة دينية وخرانة للثقافة الأدبية والروحية، فنحن العرب والمسلمين جميعا نحتمل قواعد النحو العربي والكتابة بالحرف العربي - حتى إن صح ان في النحو العربي والحرف العربي كل الصعوبات التي يدعي أنيس فريحة وجودها- في سبيل الحفاظ على عالمنا الذي بلغ ذروة تطوره عند نقطة في الزمان والمكان. وبعد، فنحن شاكرون لأسلافنا أنهم أقاموا سجا حول اللغة العربية، ذلك لأنهم أقاموا هذا السياج حولنا نحن<sup>(3)</sup>. وهنا نلاحظ :

- مشاكل اللغة العربية في النحو والخط ليست أكثر من مشاكل اللغة الإنجليزية، فلماذا لم يهاجمها؟ ولماذا لم يهاجم الإنجليز لغتهم؟! .

- يحمل على الخط العربي لأنه لا يثبت الحروف المصوتة ( الدالة على الحركات) - كما ذكرنا قبلا- في صلب الكلمات، ولكنه يعرف جيدا أن الساميين اختاروا أن تتألف الكلمات من الحروف الساكنة وأن تعين حركات تلك الحروف بكلمات تسمى " شكلا" فكتابة الحرف العربي مشكولا يسقط حجج أنيس فريحة كلها، إلا إذا ظل متمسكا بأن طبع الكتب والمجلات بالحرف العربي ليس مشروعا اقتصاديا، وأن الطبع بالحرف اللاتيني أكثر توفيرا للوقت والمال، ولكنه غاب عنه أن كل اللغات تصل إلينا بالرواية أكثر مما تصل بالكتابة، إن الطفل الفرنسي يلفظ العدد ( 2798 ) كما يتكلمه

<sup>(1)</sup>مصطفى خالدى وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 226.

<sup>(2)</sup>ومن أراد الإطلاع عليها فليرجع إلى : أنيس فريحة، تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي جديد، جريدة 1952، ص 33 ، 34 ، عن

مصطفى خالدى وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 226.

<sup>(3)</sup>مصطفى خالدى وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 226، 227.

بالرواية de mil sét sa' katr ve' diz uit لا كما يراه مكتوباً في كتب القراءة والنحو في لغواميس  
deux mille sept cent quatre vingt dix huit. ثم ما فائدة إثبات الأحرف المصوتة في الكلمات  
الإنجليزية مثلاً؟ إن الحرف «d» يلفظ في كل كلمة من الكلمات الإنجليزية ستالية لفظاً خاصاً، إن هذا الحرف  
«d» يقع 13 مرة في الكلمات الإحدى عشرة التالية، ويلفظ على 13 وجهاً:

B., Fun, Build, Four, Noun, Muse, Fur, Furniture, Furlough, Funk, Fruit.

إن أنيس فريحة أستاذ اللغات السامية لا يمكنه أن يجهل هذه الأشياء، ولكنه يروج غاية تلمبشرين أرادوا  
بها أن يكون لكل بقعة عربية لغتها المستقلة - المكتوبة باللاتينية - ولقد فضح نفسه عندما ألقى السؤا الذي  
يقع وراء دراساته وتعليقاته وإقتراحاته، ذلك السؤال الذي يفسر نغمته على اللغة الفصحى ويعلل حقه  
على الحرف العربي وعلى الأدب القديم.

وبعد أن دعا للهجات العامية وللحرف اللاتيني " في كتابه نحو عربية ميسرة"، قال: " ولكن للناس ( يقصد  
المسلمين) أن يسألوا: ماذا سيحل بالقرآن الكريم؟ ... وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد على ما هو  
عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب، ورغم انحراف لغة الناس  
عن لغة هذه الكتب فإن ( لغة هذه الكتب) حافظت على روعتها وجلالها ومقامها الديني، هاك لغة التوراة  
الإنجليزية المعروفة بترجمة الملك جايمس<sup>(1)</sup>. فإنها على قدمها تعتبر في الإنجليزية إلى جانب مقامها  
الديني، قطعة أدبية رائعة، ولكنها تخالف لغة الناس، وقل مثل هذا في لغة شكسبير فإنها حافظت على  
كيانها ومقامها... ولكنك إذا قست هذه اللغة بلغة جرائد لندن... وجدت فروقا شاسعة، وما هي الكنيسة  
الكاثوليكية، فإنها تعتبر الترجمة اللاتينية للتوراة لغة الكنيسة الرسمية، ولا يكون القداس إلا باللغة  
اللاتينية. وقل مثل هذا في الكنيسة الأرثوذكسية التي حافظت على اللغة اليونانية التقليدية - لأهداف وطنية  
قومية لأن المذهب الأرثوذكسي إنتشر في اليونان - والكنيسة المارونية التي احتفظت باللغة السريانية،  
والكنيسة المسيحية الحبشية التي احتفظت باللغة السامية القديمة المعروفة بنغة الجعر(عز) أن الفارق بين  
هذه الكنائس التي احتفظت بلغاتها القديمة وبين الإسلام عظيم جداً، ذلك لأن العامية المهذبة المحكية لا  
تختلف عن لغة القرآن الكريم اختلاف السريانية عن العربية أو الاغريقية عن العربية أو اللاتينية عن  
الفرنسية. فلن تكون لغة القرآن الكريم غريبة عن أفهام الناس، وسيظل الناس يتكلمونه ويحفظونه غيباً  
ويدرسون صرفه ونحوه وسحر بيانه كما يفعلون اليوم، وسيظلون يقرأونه ويستظهرونه تبركاً... هذا فيما  
يتعلق بالمستقبل القريب، ولكن ما سيحدث في المستقبل البعيد بعد مئات السنين؟ هنا ندخل في نطاق  
الحدس والتخمين، ولكن يتراءى لي أن في ذلك الزمن لن تكون الحياة الروحية وفقاً على الكلمة وشكل  
كتابة الكلمة... عندها يكون للناس الحرية أن ينظروا إلى الدين من خلال نظراتهم لا من خلال نظراتنا  
نحن... لا تحرص أن تفرض على ابنك عفاذك وعاداتك ومقاييسك وذوقك ونظرك إلى الحياة... قد  
يسارك ( ابنك) بعض الطريق، ولكنه في قرارة نفسه يضحك من حرصك هذا ويسير في طريقه

الخاص... (1). إنه في حين يقول هذا، نجده يدرس في جامعة تبشيرية ونصارى بلده عامة و علماء يدرسون أبناءهم في الكنائس. ولكنه مما يهدف إليه أن نضع نحن الخطرة الأولى لإبعاد الناس عن العلم بالقرآن بعد مئات السنين فيبحثون عنه فيجدونه قد وقع له ما وقع للعهديين القديم والجديد.

وهكذا نفهم بوضوح أن الحملة على اللغة العربية الفصحى، إنما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين العرب والمسلمين، وحملة على العروبة والإسلام (2) وعمل على تدمير القرآن ومسحه من الوجود، لأنه يريد أن نزيل القرآن بأيدينا لنبقى على ترجمته مثلما هو حال نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس، وهو يعلم أنه حتى نسخة الملك جيمس نقتت ونقحت، وبين الفينة والفينة يكتشف أهل الاختصاص أخطاءها كما بينا ذلك أثناء حديثنا عن الأناجيل، إنه يريد أن يصبح القرآن ترجمات ويصبح مثلاً للشيعنة قرآناً فارسياً، وللباكستانيين قرآناً أوردياً وللجزائريين قرآناً عامياً وقبائلياً وهكذا.

وهو لم يقترح هذا الاقتراح إلا بعد أن تأكد أن كل هذا ليس قرآناً، فهو يعرف أن القرآن فقط هو الذي ظل كما نزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- لم يتغير لا في شكله ولا في محتواه. وبهذا يتضح الهدف من محاربة اللغة العربية الفصحى، فهو هدف ديني في المقام الأول، سعى الإستعمار لتحقيقه، ثم عزل العرب وتفرقهم. كل في بيئته، ومن هنا تفهم أسباب استيقاظ الدعوات الإقليمية (3).

والواقع أن العمل على تدمير القرآن الكريم هو الضمان الوحيد لبقاء الإستعمار في أقطارنا، وهو الضمان الوحيد لتدمير ديننا، ولذلك فإن بقاءه هو الضمان الوحيد للحفاظ على لغتنا، ولا أدل على هذا من أن جميع اللغات التي كانت في عصر نزول القرآن الكريم أو بعد عصره أيضاً قد بادت وانقرض المتكلمون بها بأعداد كبيرة، بينما ظلت اللغة العربية باقية لأن القرآن ظل باقياً.

ولكن الله الذي جعل في القرآن من عناصر الخلود ما حفظه إلى اليوم سيجعله خالداً أبداً (4).

والواقع أن ما يرمي إليه أنيس فريجة بما سبق هو ما عمل لافيجري من أجله، وهو السذي قال لدولته الفرنسية : امنعوا القرآن عن الجزائريين تخلدوا في بلادهم وتمكونها إلى الأبد، ولكن ما دام القرآن بينهم فسيظلون يعتبروننا كلاباً يجب رمينا في البحر إلى آخر ما قال كما بينا أثناء حديثنا عنه - وهل هناك دليل أكبر من هذا على أن الدعوة إلى العامية إنما هي من صميم العمل التبشيري -. ولا نستغرب توافق أنيس فريجة مع لافيجري، فكلاهما نصراني، ولقد بينا أثناء حديثنا عن لافيجري أنه زار بلاد الشام واحتك بنصارها الذين كانوا قد احتكوا قبلاً بالفرنسيين أثناء الحروب الصليبية وبعد استعمار فرنسا للجزائر، وقد ذكرنا أيضاً أنه من ضمن القسس الذين رافقوا جيش الاحتلال في الحملة على الجزائر واستعمارها في سنة 1830 م قسيس سوري. ومن خلال كل هذا الاحتكاك تسرب الفكر الفرنسي للتبشيري الإستعماري إلى بلاد الشام فتأثر به نصاراها، ومن ضمن ما أخذوا عنه الدعوة إلى العامية.

(1) أنيس فريجة، نحو عربية ميسرة، ص 198 ، 199 .

(2) مصطفى خالدي وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 231.

(3) عيسى أمين صبري : العربية لغة الدنيا والدين، مجلة الأمة، قطر، يناير 1982م، 2م، 2، ص 2، ع 15، ص 96.

(4) مصطفى خالدي وعمر فروخ، المرجع السابق، ص 231.

وإذا كان ما سبق هو بعض ما فعله الإستعمار الفرنسي في بلاد الشام، ترى ماذا فعل في الجزائر في المجال نفسه، أي مجال الدعوة إلى العامية<sup>(1)</sup> بدل لغة القرآن الكريم؟.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

<sup>(1)</sup>اللا حظ بأن الدعوة إلى العامية وكتابتها باللاتينية ظلت مستمرة من 1880م إلى السبعينيات من هذا القرن، وكان من أهدافها إضافة لما ذكرناه قبلاً، لهم الإستعمار لفتية شعوبنا وسهولة تعامله معنا وتحكمه فينا، والدعوة أساسها نصراني تأثر بهم بعض المسلمين وتبناها بعض الإشتراكيين والقوميين العربيه وبعض الليبراليين والملاكيين، تصدى لهم تيار الأصالة فنشلت الفكرة في فلينان، فالتجأوا إلى الأفلام والمسلسلات فجعلوا أغلبها بالعامية.



## المطلب الثالث

### الدعوة إلى العامية في الجزائر

لقد ذكرنا أثناء حديثنا عن الفرنسية أن المدارس الثلاث كان التلميذ فيها يختار بين دراسة اللغة العربية الفصحى والعامية، وهذا بعد أن يقرر إختيار العربية على إحدى اللغات الأوروبية إن حصل، ولقد قررت العامية في الجزائر لتدرس بالفعل، في الوقت الذي كانت فيه حركة الدعوة إلى العامية في المشرق على أشدها، وهنا نقدم ملاحظات هي :

- الفرق الواضح بين طبيعتي العملية في كل من المشرق والجزائر، ففي المشرق الذي كانت فيه الدعوة إلى العامية إستشرافية في أساسها تبنها النصارى والممسخون حضاريا من المسلمين وأخذوا ينظرون لها في مصر وبلاد الشام والعراق ظلت فيه الدعوة مقتصرة على الجانب النظري الذي اشترك فيه عدد هائل من دعاة الثقافة تراجع بعد ذلك أكثرهم من المسلمين، ولم يتم التنفيذ الفعلي.

بينما نجد الدعوة إلى العامية في الجزائر امتازت بقلّة دعائها من الأهالي، بل وانعدام وجودهم في بداية الدعوة، فكان الداعي والمخطط والمنفذ هو الإستعمار، كما أن التنفيذ تم بالفعل، وفي مرحلة مبكرة من بداية القرن العشرين، وذلك بسبب إختلاف طبيعة الإستعمار الفرنسي للجزائر عن جميع أنواع الإستعمار الفرنسي لغيرها من البلدان، فلم يقتصر فيها على الجانب النظري والتطيري. بل فرضها فرضا وأجبر الجزائريين على دراستها بدل لغة القرآن الكريم ليزيدهم جهلا وليزيد ذنسه تمكينا.

وبعبارة أخرى نقول : بأنه من أهم الفروق بين الدعوة إلى العامية في المشرق والدعوة إليها في الجزائر أنها في المشرق إقتصرت على الجانب النظري والتطيري بدأها المستشرقون وأثراها النصارى المحليون وتبعهم بعض المنهزمين نفسيا من المسلمين، بينما في الجزائر نجد أن التطير إقتصرت في حدود علمنا نسي النشأة على رجال الإستعمار، ولكنها عكس المشرق طبقت فعلا في المدارس بمختلف مراحلها، وأنشئت لذلك مؤلفات خاصة بها، كانت تدرس وأصبح لكل مرحلة برنامجها الخاص، وكانت هذه البرامج متكاملة من حيث المحتوى، ومن حيث التنوع، بحيث تحتوي على القواعد والنصوص وما إلى ذلك، وكان ذلك يصيب في بوتقة خدمة الإستعمار والتتصير كما يظهر ذلك بوضوح في الكتاب الذي سنحلّله من تلك الكتب لمعرفة محتواها التبشيري الإستعماري، وهو كتاب كان يدرس في المدارس المتوسطة حيث كان هو البرنامج الرسمي.

- المستشرقون الذين روجوا للفكرة في المشرق العربي هم الذين روجوا لها في الجزائر أيضا، ومن هؤلاء لويس ماسينيون الذي روج لها في مصر وسوريا ولبنان والمغرب<sup>(1)</sup>. كما روج لها في الجزائر ولقد ذكرنا قبلا علاقته الحميمة بشارل دوفوكو، ففي الوقت الذي كان فيه دوفوكو ينظر ويخترع للحركة البربرية كان لويس ماسينيون يخلق دعائها وينظر للعامية ويدعو إليها، ولقد ذكرنا قبلا ما وقع بينه وبين مالك بن نبي، والغاية واحدة.

(1) حسن حسن سليمان، الشباب المسلم والحضارة الغربية، ط1، دار الشروق، جدة، 1985م، ص 52 ، 53 .

- مؤتمر المستشرقين الذي عقد بالجزائر في سنة 1905 م روج للدعوة إلى العامية ودعا إليها ومن الذين فعلوا ذلك كارل فولرس الذي كان قد روج لها في المشرق أيضا، ولقد ذكرنا قبلا ما وقع بينه وبين علماء العرب والجزائر الذين حضروا ذلك المؤتمر وعارضوا الدعوة. وخصصنا بالذكر إقحام الشيخ عبد العزيز جاويش المصري ومحمد بن أبي شنب الجزائر لكارل فولرس، كما أفحموا المستشرقين الداعين إلى العامية، ولكن منطق الإستعمار لا يقوم على قوة الحجة، بل إلى الغرض من الفكرة والتنفيذ بواسطة القوة.

### التنفيذ الفعلي للفكرة:

قلنا أنما إن منطق الإستعمار لا يقوم على قوة الحجة، بل إلى الغرض من الفكرة والتنفيذ بواسطة القوة، ولهذا الغرض فقد استدعت فرنسا بعض أعوان إدارتها الاستعمارية من الجزائريين مزدوجي اللغة، وعلى رأسهم - في حدود علمنا - صوالح محمد ولد معمر تحت إشراف المستشرق الفرنسي بسيريس ( . II Peres) وأخذوا في وضع كتب مدرسية باللهجة العامية الجزائرية التي هي خليط من القبائلية والتركية والفرنسية والعربية وسموها اللغة العربية الحية - وكلمة حية لها دلالتها فهي كالإنجليزية مثلا - على اعتبار أنها هي اللغة المتداولة بين الناس في تفشي الأمية والجهل وغياب لغة القرآن<sup>(1)</sup>. ويجب أن نشير هنا إلى أن إدارة التعليم الفرنسية بالجزائر لتنفيذ خطة فرنسا الإستعمارية في قتل اللغة العربية الفصحى عهدت إلى أبقاها تحت إشراف رجالها للتأليف في الفصحى أيضا الكتب التي تقررها على الطلبة الذين يختارون الفصحى، وبهذا فإن التعليم كان كله موجه لخدمة الإستعمار في كل شيء حتى في قواعد اللغة ونصوصها - فألفوا في الفصحى كتباً على طريقتهم المعروفة من مزج الشرح وتبيان باللغة الفرنسية كما ألفوا في العامية كتباً مختلفة ملئت بالحكايات التافهة - والمغرضة - نقرأ للتسليية ومحاربة لغة خاتم الأنبياء - صلى الله عليه وسلم، فابتكروا لكل من الفصحى والعامية أساليب خاصة، وأحدثوا لهما نحواً خاصاً لا يعتمد في التطبيق إلا على جمل ليست من العربية في شيء بل ركبت تركيباً على نحو يمجس الذوق السليم وتفر منه الفطرة السليمة<sup>(2)</sup>.

ولقد وصف أحد الكتاب الجزائريين مؤلفات العامية بقوله: "رطانة غريبة، وخليط من اللغة، لا هو عربي، ولا بربري ولا فرنسي، وإنما هو مزيج من اللغة العربية والبربرية والفرنسية، والعربية منه أقل الثلاثة مع ما هي عليه من التكسير والاختزال"<sup>(3)</sup>. ولما كانت اللهجات العامية في الجزائر تختلف في مفرداتها من جهة إلى أخرى فإن تلك الكتب الدراسية المؤلفة بالعامية كانت تحدث اضطراباً كبيراً للطلبة في الإمتحانات، ولقد اطلع أحمد بن نعمان على كثير من تلك المقررات الدراسية العامية متلباً فوجد أن مفرداتها وتراكيبها أقرب إلى الفرنسية منها إلى العربية، هذه هي اللغة العربية الحية التي كانت تدرس للطلبة الجزائريين تحت شعار "تدريس العربية" للإستعاضة بها عن لغة القرآن التي كان المجتمع وظل

<sup>(1)</sup> أحمد بن نعمان، التعريب، ص 169.

<sup>(2)</sup> رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 153.

<sup>(3)</sup> أحمد بن نعمان، التعريب، ص 169.

دائم المطالبة بتدريسها وإعطائها حقيها الكمي والكيفي في جميع مراحل التعليم وباستعمالها قسي الإدارة<sup>(1)</sup>. ونشير هنا إلى أنه حتى العامية الجزائرية لم تسلم من أذى الإستعمار الفرنسي بإبقائها كما هي، لأنها كانت عربية فصيحة في مجملها وإن كانت غير خاضعة نطقا للقواعد النحوية، ولا أدل على فساده لها من أننا نجد فسادهما يتناسب تناسباً طردياً مع قدم دخول الإستعمار إلى مختلف جهات الوطن كما ذكرنا قبلاً.

ومهما يكن من أمر فإن الجزائر أصبحت بحكم منطق الإستعمار تدرس فيها العامية بدل لغة القرآن، وهنا نطرح السؤال الآتي :

**متى بدأ بتدريس العامية؟** لم نطلع على التاريخ الذي فرض فيه الإستعمار الفرنسي العامية في الجزائر بدل العربية الفصحى، ولكننا نعتقد أنه بدأ من فترة مبكرة قد تكون قبل الحرب العالمية الأولى أو أثناءها، وسندنا في هذا كتاب صوالح محمد ولد معمر الذي سنحمله لنعرف محتواه كدليل على الغرض التبشيري الإستعماري من الدعوة إلى العامية، حيث كانت الطبعة الثانية لهذا الكتاب في سنة 1923 م وكان هو المقرر الرسمي على التلاميذ، وهكذا نجد أن فرنسا دعت إلى الفكرة، وفرضتها فرضاً وهيئات الوسائل المادية والبيداغوجية لتنفيذها، بل ليكون التنفيذ ناجحاً. ولما كان الإستعمار لا يتهاون ويتخذ جميع الوسائل الكفيلة لإنجاح مشاريعه، فإنه إضافة لما سبق أعد لنجاح الفكرة وإستمرارها الإطار القانوني اللازم لذلك، ومنه فقد دعم العمل السابق ببيان صادر عن ندوة مفتشي التعليم الإبتدائي في سنة 1945 م ينص على وجوب استبدال العامية باللغة العربية الفصحى، وبهذا القرار تم الحكم النهائي على لغة القرآن بأنها لغة ميتة<sup>(2)</sup>. أي إزالتها من الوجود الجزائري نهائياً، وكان هذا البيان مكملاً لقانون (شوطان) السابق ذكره الذي ينص على أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، والذي صدر في 8 مارس 1938 م، ونلاحظ أن هذا البيان صدر بعد أكثر من 30 سنة من التدريس الفعلي للعامية بدل الفصحى، كما أن الكتب الدراسية العامية كانت قد أعدت منذ أكثر من 30 سنة مما يبين أن الإستعمار لم يكن في مخططاته نظرياً فحسب كما هو حالنا نحن اليوم، بل كان عملياً أيضاً. ولكي يكرس الإستعمار قرار استبدال العامية بالفصحى قام بخطوة أخرى بعد أن تقرر تحت الضغط الشعبي وبفضل مجهودات جمعية العلماء : اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في التعليم بالجزائر كالفرنسية، وهو ما قرره قرار 20 سبتمبر 1947م مما يعني التراجع عن قرار (شوطان) 8 مارس 1938م، وتتمثل تلك الخطوة الإستعمارية في إقدام إدارة التعليم على تعيين 250 مدرساً لتعليم العامية، و100 مدرساً لتعليم العربية الفصحى في التعليم الثانوي، وأجلت فرنسا تنفيذ القرار بالنسبة للإبتدائي لأنه هو الأكثر أهمية بدعوى عدم وجود مدرسين باللغة العربية إلى حين توفرهم في المستقبل<sup>(3)</sup>. ولسان حالها : يا جزائريون، طلبتم تدريس اللغة العربية، ها هي العامية، وقد خصصت لها

(1) المرجع نفسه، ص 169 ، 170.

(2) المرجع نفسه، ص 31.

(3) رابع تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص 153.

250 مدرسا، وهو في الواقع 250 أمة، لأنه ماذا يدرس في العامية؟! . وإضافة لهذا فإن محتوى الكتب المدرسية العامية محتوى تنصيري إستعماري كما سنبين في تحليل كتاب صوالح ولد معمر.

**استمرار فكرة الدعوة إلى العامية إلى اليوم وتبني دعاة الحركة البربرية لها:**

استمرت فكرة الدعوة إلى العامية إلى اليوم في الجزائر، ولكن بعد أن كانت فرنسا هي المتبينة والمنظرة والمنفذة صار دعاة الحركة البربرية اليوم هم دعاة، أي أصحاب مواصلة المشروع الإستعماري أو ما يسمى " الإنلجنسيا" الجزائرية من ذوي الثقافة الفرنسية مما جعل الأمر بمثابة التواصل الأمين بين أجيال أشربت على حب هذه البدائل الشاذة، والتي دعمها وأيدتها كل القوانين الإستعمارية التي سبقت الإشارة إليها، وهذا رغم أن الدولة الجزائرية وضعت حدا لمهزلة العامية بعد الاستقلال<sup>(1)</sup>. وهي من أهم مطالب الحركة البربرية، ويكفينا دليلا على ذلك، محاضر ملتقى إيكورن الذي عقد في أوت 1980 م وهامو ملخص منه<sup>(2)</sup>.

- وجوب العمل على ترقية لغتي الوطن الأمازيغية والعربية الجزائرية (العامية).  
- وجوب الاعتراف الرسمي بلغتي الشعب الأمازيغية والعربية الجزائرية (العامية) أي جعلهما لغتين رسميتين ويجب على الدولة تقويتها والنهوض بهما بتوفير الوسائل.  
- يجب أن يبدأ الطفل دراسته بلغته الأم - وهو ما ستردده بعد ذلك قريفو وتدعو إليه - حتى لا يتعرض إلى مشاكل تعرقل نموه.

- صب جام غضبهم على المدرسة لأنها حسب رأيهم أهملت القبائلية والعامية فهشت لغات الشعب.  
- غياب حرية التعبير الثقافية أدى إلى خلق ثقافة الشعب القبائلية والعامية بسبب سيطرة مفهوم ثقافة عربي اسلامي ومنع نشر أي شيء بالقبائلية والعامية.  
- وجوب استعمال لغات الشعب القبائلية والعامية في منظومة الإعلام من راديو وتلفزة وصحافة مكتوبة والسينما والمسرح والإنتاج الأدبي وترجمة الكتب إلى القبائلية والعربية العامية، وفي ميدان الموسيقى، ومن مقترحاتهم إلغاء الفصحى نهائيا من القناة الأولى الإذاعية وإعطاء حصة الأسد للعامية والقبائلية في التلفزيون وإنشاء قناة تلفزيونية ثانية تبث فقط بالعامية والقبائلية.

- محو الأمية في اللغات الشعبية وإستعمالها في كل المجالات كاللترس والبحث العلمي والتكوين المهني.  
- استعمال العامية والقبائلية في الإدارة بدل العربية الفصحى وتطويرهما إلى لغات رسمية.  
وهكذا إلى آخر ما ورد في ملخص التقرير السابق ذكره في أحداث تيزي وزو الأولى. ورغم أن ما سبق يكفي إلا أننا نضيف إليه ما يأتي:

- أحداث تيزي وزو الثانية : لقد ذكرنا أنه كان من نتائجها تلك الوثيقة التي قدمتها MC إلى أعضاء البعثة الأممية الإستعلامية أثناء زيارتها للجزائر في الفترة 22 جويلية - 4 أوت 1998م. ومما ورد في تلك الوثيقة رفض الفصحى لإرتباطها بالإسلام، وترقية العربية العامية بديلا عنها.

<sup>(1)</sup> محمد الله حملي، المرجع السابق، ص 31.

<sup>(2)</sup> ومن أراد توسعا للمرجع إلى ملخص المحضر الذي ذكرناه أثناء حديثنا عن أحداث تيزي وزو الأولى 1980م.

- كتابة صفحات بالعامية في جرائد الأحزاب البربرية : ومن ذلك جريدة الحق El Haq الأسبوعية التابعة لـFFS، حيث كانت تخصص الصفحة الأخيرة للعربية العامية المكتوبة بحروف عربية، ومن النسخ التي إطلعنا عليها عدد 51، في الفترة 19 - 25 أبريل 1994م، وهي مخصصة للحديث عن أحداث تيزي وزو الأولى أو ما سموه عيد الربيع البربري المصادف لـ 20 أبريل ومن مطالب الحركة البربرية المتمثلة في ترسيم الأمازيغية<sup>(1)</sup>. وهذا تحت عنوانين، أحدهما في الهامش ونصه " حنا في حنا" والثاني أفقي وعنوانه " الحل اللي يجمع"، ولما كانت الكتابة بالعامية يمجها الذوق السليم، فقد فشلت لأنها لم تجد من يقرأها كما فشلت أيضا الجرائد المكتوبة بالقبائلية التي أنشأها RCD.

- كاتب ياسين<sup>(2)</sup> والعامية<sup>(3)</sup>: يعد كاتب ياسين من أشد الناس عداوة للإسلام وللغة العربية النصحى، ومن أكبر دعاة الحركة البربرية ومن دعاة العامية، من مؤلفاته : "محمد خذ حقيبتك" أي اخرج من الجزائر، ويقصد بمحمد خاتم الأنبياء -صلى الله عليه وسلم-، وهي مسرحية تحدد بدقة موقفه من الإسلام ومن اللغة العربية الفصحى، فهو في هذه المسرحية يعتبر الإسلام إستعمارا للجزائر، ولذلك يجب أن يخرج منها ليعود الناس إلى أصلهم البربري النصراني الوثني، وإذا كان الإسلام دخيلا فإن اللغة العربية هي أيضا دخيلة، لأنها ناتجة عنه ولقد ذكرنا قبلا بأنه قال : "يجب أن لا نخطئ، فالعربية ليست هي العدو، الإسلام هو العدو...." ومن هنا فإن حقه عليها إنما هو حقد بالتبعية، ولذلك فلا بد من إحياء اللهجة البربرية للناطقين بها، والعربية العامية للناطقين بها، وبذلك يزول الإسلام من الجزائر وتزول لغته. ولتكريس العامية فإن مسرحيته السالفة الذكر كانت بالعامية، يؤدي أوارها ممثلون يتقنون أوارهم، مليئة بالكفريات والكلام البذيء، خلاصتها عنوانها. أي أن الإسلام يجب أن يخرج من الجزائر، ولقد كانت هذه المسرحية تعرض بالإحياء الجامعية في نهاية السبعينيات، ولما أخذ نجم الشيوعيين يأفل في الأوساط الطلابية أخذ أصحابها يعرضونها في جامعة تيزي وزو بعد تأسيسها.

والواقع أن كاتب ياسين رغم تبنيه للعامية ودعوته إليها وإلى كتابتها باللاتينية نجد أن أفكاره ضحلة متضاربة، نابعة من حقد دفين على العروبة والإسلام، وبهذه المناسبة فإننا نشهد له بالشجاعة الأدبية، فهو لم يكن يخفي إتجاهه الإيديولوجي الماركسي ولا كفره بالإسلام ولغته، ولا تصوفه بالفرينكونية وكان يصرح بذلك بمناسبة أو بدون مناسبة، وفيما يتعلق بالعامية، ففي حوار له صدر في كتاب عام 1986 م مثل فيه عن إختياره للعامية بدل الفصحى فأجاب : " أنا لا أريد أن أعرف الكلاسيكية"<sup>(4)</sup> والكلاسيكية مصطلح فرنسي كما مر قبلا في تقسيمهم العربية إلى كلاسيكية وحديثة، ويقارن العربية الفصحى ليتوصل إلى أنها يجب أن تزول مثلها لصالح العامية لأنها عاجزة عن استيعاب العلوم الحديثة، وكان

(1) El Haq. 19 - 25 Avril 1994, N° 51.

(2) ولد في 6 آب 1929م في قرية " كوردي سمنا" أديب بالفرنسية وفنان مسرحي متأثر كثيرا بالمرح اليوناني وشاعر، له مؤلفات منها " نعمة" - ومسرحيات منها " محمد خذ حقيبتك" - (محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والمغرب، ص 278، 279).

(3) ومن دعاة العامية كذلك مصطفى لشرف وهو من دعاة البربرية، واللاتينية والكفر بالإسلام ولكننا نكتفي بكاتب ياسين لأنه لا جديد عند لشرف لما يتعلق بالعامية والقبائلية.

(4) كاتب ياسين، محادثة أجراها معه حفيظ لطاهي، دار لانوميك للنشر، الجزائر، 1986، ص 55 عن عبد الله ركي، الفرينكونية... ص 117.

العامية هي التي تستطبع ذلك وهو نفس ما رنده في المشرق سلامة موسى وأليس فريحة مما يدل على وحدة المنبع الذي استقى كل منهم بضاعته منه، وتكون إجابته عجيبة ومضطربة ومتضاربة عندما يسأل عن عدم إهتمامه بالعربية بينما إنصب كل إهتمامه على الفرنسية، فيجيب بأنه ارتبط بالفرنسية ثم انتقل إلى العامية فلماذا يرتبط بالعربية؟ وييدي موقفه العدواني سافرا حين يقر: "لأن العربية ليست لغتي أبدا، وهي هذه الحالة ينبغي أن تُعلم البربرية ولكن لا يوجد أدب بربري.."<sup>(1)</sup>، إن العامية هي اللغة الحقيقية كما صرح هو بنفسه أما الكتابة بالفصحى فإنها تجعل الأديب بعيدا عن الشعب حيث لا يقرأه كثيرون من الناس<sup>(2)</sup>. وإذا طبقنا هذا على ما كتبه هو نفسه بالفرنسية فهل يقرأه كثير من الناس؟ ومن هؤلاء الذين يقرأونه؟ إنه معقد اتجاه العربية والعروبة، وحين تستحکم "العقد" في شخص ما، فإنه لا يحاول أبدا أن يبحث عن الحل.

لأن ذلك يلغي اعتقادا ساد في فكره وأصبح قناعة يصعب التخلص منها، هذه العقدة جعلته يعتبر اللغة العربية لغة أجنبية ممتة كاللاتينية والإغريقية ولذلك فلا مانع أن يتعلمها الطلبة في الجامعة كما يتعلمون نيك اللغتين<sup>(3)</sup>. وهو ما يتوافق مع قرار (شوطان) الذي يعتبر اللغة العربية أجنبية في الجزائر ويجب أن لا تدرس إلا على هذا الأساس، ولكن كاتب ياسين ذهب إلى أبعد من ذلك، لأنه لم يعتبرها مثل الإنجليزية والألمانية، بل أجنبية مثل اللغات الممتة، ولما سئل عن فشل الدعوة إلى العامية في المشرق العربي فكيف لها أن تتجح في الجزائر، أجاب: "هذا لا يعني أن التجربة إذا لم تتجح هناك فإنها بالضرورة ستفشل في الجزائر، فإن كانوا هم ضعافا فهذه مشكلتهم"<sup>(4)</sup>. إنه لا يناقش التجربة في المشرق لأنه لا يعرف عنها ولا عن دعائها شيئا، بسبب جهله باللغة العربية، ولكنها أوحيت إليه وحيا من طرف الفرنسيين. والأمر نفسه حين يحكم على العربية الفصحى ويقارنها باللاتينية، إنه يتخذ هذه المواقف نتيجة أحكام مسبقة لا نتيجة دراسة وتحليل علمي موضوعي<sup>(5)</sup> مما يجعل مبرراته تافهة ومضحكة، ومن ذلك فإنه يبرر رفض العربية الفصحى لخطورتها، بحيث تدفع المتقنين نحو البورجوازية<sup>(6)</sup> وأما اللهجة العامية فمن مبررات تبنيه لها أنها هي التي تساعد الشعب على الثورة الثقافية<sup>(7)</sup> وكسان الفرنسية التي يتعصب لها هي التي تدفع المتقنين نحو الإشتراكية. وأما العامية فلسنا ندرى في التاريخ كله قديمه وحديثه أين قامت العامية بثورة ثقافية<sup>(8)</sup>.

والواقع أن كاتب ياسين يعد من الكتاب القلائل في الجزائر الذين يصرحون بموقفهم العدائي جهارا نهارا ضد العربية الفصحى، ويعتبرون العروبة خرافة ويدافع بإستماتة عن الفرنسية والعامية والبربرية، مما يجعله يمثل قيمة المد الفرنكفوني ليس على مستوى الجزائر فحسب بل على مستوى المغرب العربي ككل.

(1) المصدر نفسه، ص 56 - 57، عن عبد الله ركيوي، المرجع السابق، ص 118.

(2) مجلة أضواء الجزائر، 1983/12/01، عن عبد الله ركيوي، المرجع السابق، ص 119.

(3) عبد الله ركيوي، المرجع السابق، ص 119، 120.

(4) كتاب ياسين، محادثة مع قطامي، مرجع سابق، ص 59. عن عبد الله ركيوي، المرجع السابق، ص 120.

(5) عبد الله ركيوي، المرجع السابق، ص 120.

ويبدو أن هذا له علاقة بتكوين الإيديولوجي الماركسي إلى جانب عناصر أخرى خاصة<sup>(1)</sup>، قد تكون إحداهما زوجته اليهودية التي يبدو أنها كانت تلقنه الحقد على الإسلام ولغته في ثلثيا عبارات المغازلة التي كانت تقفها بها له<sup>(2)</sup>.

وإذا كان كاتب ياسين من دعاة الفرنسية ومحاربة اللغة العربية الفصحى والدعوة إلى العامية، فإنه يعد كذلك من أقطاب دعاة الحركة البربرية، ولقد أشرنا قبلا إلى مسرحيته " محمد خذ حقيقتك واخرج " حيث يعتبر في هذه المسرحية الإسلام إستعمارا دخيلا ولذلك يجب أن يخرج من الجزائر ليعود الناس إلى أصلهم البربري، وإذا كان الإسلام دخيلا فإن لغته أيضا دخيلة، ومن هنا فلا بد من إحياء اللهجة البربرية وجعلها لغة، وأما الناطقون بالعربية فلهم العامية، وبذلك يزول الإسلام من الجزائر وتزول لغته، ولقد نفاى في الدعوة إلى البربرية رغم أنه كان يجهلها لأنه ليس قبايلا، ولا زلت أذكر تجمعا حضرته له أمام مكتبة جامعة الجزائر ( الجامعة المركزية) في سنة 1981 م وكان عدد معتبر من دعاة الحركة البربرية حاضرين لإستماعه فكان يدعو إلى البربرية ويحرض عليها ويرطب حلقه بين الفينة والأخرى بجرعات من الخمر يتجرعها من زجاجة خمر كانت أمامه وبين الفينة والأخرى يحمس الطلبة بأن يقف ويردد شعار " إيمازيغن، إيمازيغن " فيردد معه جمع أتباعه، وكلما حاول واحد ممن ليس منهم أخذ الكلمة منعوه، وهو ما يبين روح الدكتاتورية في دعاة هذه النزعة.

ولو تسألنا عن السبب الحقيقي الذي جعله يدعو إلى الفرنسية ويحارب الفصحى ويدعو إلى العامية والقباييلية نجد أن سبب ذلك إنما هو كفره بالإسلام، ولقد ذكرنا قبلا أنه صرح قائلا: " يجب أن لا نخضى فالعربية ليست هي العدو الإسلام هو العدو " ولذلك فإنه كان يعلن كفره بالإسلام صراحة جهارا نهارا، ولقد أشرنا إلى هذا قبلا وقلنا بأنه يعد شجاعة أدبية عكس كثير من أمثاله الذين يظهرون مالا يبطنون، ولكن الذي يستغرب منه أنه رغم ماركسيته الملحدة هو عدم مساسه بالكنيسة أو الإساءة إليها. لأنه إذا كان يكفر بالدين لأنه دين، فليكن الكفر بجميع الأديان ولا سيما النصرانية، لأن الماركسية نبئت بأرضها وفي جوها لا في أرض الإسلام وجوه، أما أن يكفر بالإسلام وحده، فذاك لا تفسير له إلا بأنه تربي في أحضان الكنيسة وارتشف من سمومها زاده سما المستشرقون الفرنسيون الذين تبني طروحاتهم السابق ذكرها، ومن الأمثلة على كفره الصريح بالإسلام ولغته وعدم مساسه بالكنيسة، أنه كان يسمي المؤذنين " كلاب الدوار " وأما مآذن المساجد، فكان يتهم بها ويسميا تهكما " الصواريخ التي لا تتطلق " ومن ذلك المقال الذي كتبه في مجلة ( Actualité Algerienne ) بتاريخ 9 أفريل 1967م، عدد 77، وجعل عنوانه " Les chiens du douar " أي كلاب الدوار، ويقصد بهم المؤذنين الذين يرفعون أصواتهم من أعلى الصوامع عند دخول وقت كل صلاة يدعون المؤمنين إلى أداء فريضة الصلاة قائلا " الله أكبر ، الله أكبر... " والأذان علامة على إسلام البلدة، ولقد ضم كاتب ياسين إلى ذلك العنصوان الساخر في وجهه

(1) المرجع نفسه، ص 117.

(2) وقد استشفينا هذا من تصريح ابنة للفتاة الطفولية الثانية الفرنسية، وذلك يوم

فرنسية بسيطة، أي إعطائها الجنسية الفرنسية، وقد بررت ذلك بأن أباهما شيعي وأمه يهودية.

الصحيفة صورة كلب ينبح وصومعة وصاروخين لتطابق الصررة العنوان، وأحد الصاروخين انطلق في الفضاء والآخر أخذ في الإنطلاق، وإلى الجانب من صورة الصاروخين صورة صومعة مسجدة تشبه صوامع الحرم المكي أو الحرم المدني وهي ثابتة في مكانها، وكتب فوقها متسهما "الصاروخ الذي لا ينطلق" (Une fusé qui ne démarre pas...) (1) وكتب بعد ذلك متسهما أن المآذن هي مصانع المسلمين، ناسيا أن فرنسا لم تترك في بلادنا حتى المآذن، وأن المعابد في أوروبا وأسماء القديسين تملأ الشوارع في باريس في حين لا يوجد عندنا إلا ما شذ من شوارع تحمل أسماء رجال اندين - بل حتى أسماء المدن والشوارع عندنا أيام الإستعمار سماها بأسماء قديسيه ورجال دينه- ولقد علق أستاذنا عبد الله شريط بعد هذا قائلا: "إن الأمثلة على هذا الزيف في الروح العلمية في ثقافتنا الإجتماعية بكل شعبيها المختلفة لا تكاد تتحصر في عدد"(2).

والمرء يتساءل هنا :

لماذا لم يقل ما قاله عن المؤذن والصومعة في صوامع الكنائس النصرانية التي هي عنوان الإستعمار وأثره من آثاره التي تركها في البلاد، والتي تحمل أجراسا عظيمة تدق دقا مزعجا شديدا كلما دعت المناسبة إلى ذلك، وهو يسمع دقاتها ويشاهد بناءها عاليا في الفضاء؟ هل لأن المسجد في الإسلام هو بيت العبادة الوحيد الذي يعبد فيه الله الحقيقي، ووفقا لما أمر؟ هل لأن المسجد هو مركز التهذيب وبناء القيم؟ هل لأنه تخرج منه الأمير عبد القادر وابن باديس وغيرهم من العظماء الذين أناروا الطريق للسائرين في متاهات الحياة وأرشدهم لما فيه السلامة والنجاة؟ هل سمي المؤذنون كلاب الدوار لأن كلمة الله أكبر التي ينادون بها بأعلى صوتهم كان مجاهد جيش التحرير الوطني هي أول ما يزمجرون به قبل إمتطار عدوهم بوابل من الرصاص فكانت كلمة " الله أكبر" تقتل من أفراد العدو ما لا يقتله الرصاص؟(3).

إننا نستطيع القول : إن كاتب ياسين يعد أحد رباب الإستعمار الذين تغذوا بلبانه وتربوا في أحضانها، وأشربوا في قلوبهم حبه وحب أخلاقه، فذهب وتركهم في الجزائر يواصلون رسالته وهي محاولة القضاء على الإسلام. فهم على آثاره بهرعون وإلى مرضاته يسرعون، ومن أجل ذلك رأيناهم يمجدون آثار المستعمر كما رأيناهم يعظمون آثار أجدادهم الرومان ويحتقرون آثار المسلمين الذين أتوا إلى هذه البلاد بالرحمة والهداية(4) ولن نحتاج هنا إلى براهين لإيضاح هذه الحقيقة، فقد كان العمل الأول لجيش الاحتلال هو تهديم المساجد وتحويلها إلى كنائس، ورأينا ثورة لافيجرى على المساجد إلى حد طلبه من بلده منع المسلمين من الصلاة فيها وتهديمها، أليس هذا ما يدعو إليه كاتب ياسين من تسميته المؤذن كلب الدوار، وسخريته من المآذن؟

(1) عبد اللطيف بن علي السلطان، التردكية هي أصل الإشتراكية، ط1، مطابع دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1974م، ص 68، 69.

(2) عبد الله شريط، الحقيقة والزيف في مجتمعا العرب، مجلة الأصالة، ع 8 (ع. سابق) ص 188.

(3) عبد اللطيف بن علي السلطان، المرجع السابق، ص 71 K 72.

(4) المرجع نفسه، ص 71.



ولقد رأينا دعوة رجال الإستعمار والإكليروس على السواء إلى الفرنسية لتكريس الوجود الإستعماري في الجزائر وتنصير المسلمين، أليست الفرنسية هي ما كان كاتب ياسين متصوفاً بها؟ ورأينا أن الدعوة إلى العامية والبربرية إنما كانت من طرف رجال الإكليروس والإستشراق وعلى رأسهم دزفوكو وماسينيون، بهدف تحطيم اللغة العربية لتحطيم الإسلام؟ فماذا فعل كاتب ياسين؟ إن موقفه من اللغة العربية الفصحى التي حاربها الإستعمار، ودعوته إلى العامية والقبائلية إنما هو نفسه موقف الإستعمار، ومن يتبع تصريحاته ومواقفه لا يجد أية صعوبة في إدراك ما ذكرناه، فيجد أنه يقف ذلك الموقف العدائي الصريح للعروبة والإسلام وهو ما بينه بيار أبي صعب عن رفضه " الشرس والعنيف لأي شكل من أشكال الإنتماء إلى الهوية العربية... والإسلام - لست عربياً ولا مسلماً - كان يردد - أنا جزائري"<sup>(1)</sup>. والواقع أن هذا التصريح لا يحتاج إلى تعليق، لأنه هو ذاته يعلق عن نفسه ولسنا بحاجة إلى التذكير بمقولة " الجزائر جزائرية" بدل مقولة " الجزائر عربية مسلمة".

ونختم حديثنا عن كاتب ياسين بما ذكره عبد الله ركيبي، من أن موقفه إقليمي صرف، وربما نال جوائز فرنسية بسبب موقفه ضد العربية ودفاعه عن الفرنسية، وأراؤه عاطفية لا ترقى إلى مستوى الأفكار الصحيحة المقنعة، بل هي مجرد حشريات متشجعة، فهو من نوع الكتاب الذين يعادون العربية ويرفضون حتى مجرد تعلمها ويرفضون الإنتماء العربي، بل والإسلامي ويساندون النهجات المحلية عامية وبربرية ويدافعون بحماس عن الفرنسية ويتعاطفون مع فكرها وثقافتها وحضارتها، ويبدو تعصبهم - الذي لا نظير له وخاصة في الجزائر - في استماتتهم في التنويه بأدائها وعلومها متظاهرين بأن دفاعهم عنها هو دفاع عن التقدم والعصرنة<sup>(2)</sup>.

ومن أهم أغراض كاتب ياسين وأمثاله مما سبق، التمزق الوطني، لأنه كما يقول مالك حداد: " التجزئة تبدأ من اللغة لتصل إلى الثقافة وفي النهاية إلى السياسة. فالتمزق يبدأ من اللغة وينتهي إلى الهوية الفوحدة، فالترفة لا تنشأ وحدها، ولكن لعوامل كثيرة، مثلها مثل الوحدة تماماً"<sup>(3)</sup>.

والواقع أننا عندما ننظر إلى الآراء السابقة لكاتب ياسين لا نجدنا مبنية على أي أساس علمي أو منطقي أو منهجي أو موضوعي، بل تراها تولدت من حقد دفين وكره لا يتصور لكل ما يمت بصلة للعروبة والإسلام. وأجوبته كلها مضطربة متهافئة، ولكنه لا يبالي بذلك ولا يابيه له. فالقضية ليست قضية حجج، بل قضية ولاء فكري لمن دمر الجزائر وإستمر في تدميرها قرناً وثلاث قرناً، وإلا كيف يرفض العربية والإسلام بحجة أنهما دخيلان ويتبنى بل ويتصوف الفرنسية فهل هي أصيلة في الجزائر؟ إنها دخيلة، فلماذا التعصب لها ضد العربية؟.

علاقة الدعوة إلى العامية بالتهشير: يلاحظ أن كل دعاة العامية يجمعون بينها وبين اللانكبة ومحاربة الفصحى ويعلنون جهاراً نهاراً رفضهم للإسلام ودعوتهم إلى الفرنسية في الجزائر واللغات الأوروبية في

(1) بيار أبي صعب، مجلة الرواية الجزائرية، حاتفى 1990م، ص 141، عن عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 117.

(2) عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 121، 122.

(3) المرجع نفسه، ص 110.

المشرق، ورأينا كيف ركز سلامة موسى وأنتيس فريجة على القرآن بالخصوص، وكيف اقترح إلغاء جموع كثيرة وردت في القرآن الكريم، كما رأينا ما صُرح به فيما يتعلق بمحاربة اللغة العربية في المؤتمر الأبخارستي الذي عقد بالجزائر، قائلاً فمن حارب اللغة العربية كان مبشراً. كما أن هذه الدعوة تدخل ضمن أعمال المبشرين فيما يتعلق بتمزيقهم للشعوب وإثارة تنعرات والحروب خدمة للدول الإستعمارية، ولما تجهل لغة القرآن يصيح الناس بدون هوية لأنهم يصبحون لا يفهمون القرآن وساعتئذ يأتي نور القسوس لملء الفراغ<sup>(1)</sup>. وستنضح علاقة الدعوة إلى العامية بالإستعمار والتبشير فيما يأتي .

### تحليل نموذج من الكتب الدراسية العامية لتبيين أهداف الإستعمار والتبشير

الكتاب الذي اخترناه للدراسة هو كتاب " التدريس المتوسط للوارد المنبسط في استعمال العربية الجارية عند مسلمين الجزائرية" للشيخ صوالح<sup>(2)</sup> محمد ولد معمر، وقد طبع طبعة ثانية بمطبعة كاربونيل نبي الجزائر سنة 1923 م، وسبب اختيارنا له أنه هو البرنامج الرسمي المقرر على الطلبة الأهالي في المرحلة المتوسطة، وقد أهداه إلى (لوسيانني) مستشار الولي العام ومدير شؤون الأهالي، ولقد أشرنا إليه أثناء حديثنا عن تحرير الأئمة من الحكومة، وإهداؤه الكتاب إليه يبين التنسيق بينه وبين صوالح محمد ولد معمر لأن لوسيانني مدير شؤون الأهالي وصوالح ألف كل ما ذكرناه في انهامش خاصاً بالأهالي وهذا يعطينا فكرة قبل تحليل الكتاب عن الهدف من تأليفه وهو التبشير والإستعمار، وما هو رصف الكتاب وتحليل بعض ما ورد فيه مما له علاقة بموضوعنا.

#### وصف الكتاب وتحليل بعض ما جاء فيه

الكتاب أحد كتب المؤلف الكثيرة المكتوبة بالعامية، وتكمن أهميته في أن هذا الكتاب هو المقرر الرسمي على الطلبة وهو كما بين المؤلف مكمل لكتب أخرى في الموضوع ذاته مقررة على الطلبة في المرحلة الابتدائية، أما هذا الكتاب فهو بعد المرحلة الابتدائية، وتحتوي فهرسته على 155 موضوع في 178 ص من القطع المتوسط ومكتوبة بخط كبير، وتحتوي على مواضيع متعددة منها : مواضيع عن الصنائع والحرف والمهن والأسواق وأوصافها ومحتوياتها، والحيوانات والطيور، والفصول، والمحاكم، والشريعة الإسلامية، والشريعة الفرنسية إلخ، وهي في مجملها مواضيع قصيرة، ونحن لن نتعرض منها إلا ما له علاقة بموضوعنا.

ومن خلال هذا الكتاب تبدو صعوبة العامية أكثر من الفصحى بكثير، والدليل على ذلك هو كثرة شرح الألفاظ المستعملة، إذ أغلب الدروس تذييل بشرح الألفاظ قد يكون في حجم النص، وذلك بسبب إختلاف

<sup>(1)</sup>ومن أراد مزيداً فليقرأ بعناية ما كتبناه في الدعوة إلى العامية من بدايتها إلى هنا.

<sup>(2)</sup>هو دكتور في الأدب، ومدرس جامعي ومسؤول في الوظيفة العمومي وأستاذ ثانوية وبالمدرسة العليا للتجارة، وصلت مؤلفاته في سنة 1923م الخاصة بالتعليم الأهلي 20 كتاباً، أربعة في اللغة العربية الفصحى نصوص وقواعد إلخ، و11 في العامية ولحسة في الفرنسية، وكل هذه المؤلفات خاصة بالأهالي، وتغطي جميع برامج التعليم لمختلف المستويات.

المصطلحات من جهة إلى أخرى، وهذا عكس اللغة العربية التي ما إن يفهمها الطفل حتى تسهل عليه، ومصطلحاتها واحدة عند كل الناس في كل الجهات، وهذا يسقط الدعوى المتمثلة في سهولة العامية ويبين بأنها أذنبوبة.

التلميذ الذي يقرأ هذا الكتاب سيكره العربية والعرب ويحتقرهم لأنه يقرن تلقائيا هذا الكتاب بكتاب القراءة بالفرنسية، يقارن النصوص، ويقارن المواضيع مثلا : عادات العرب وأخلاقهم وطبيعتهم من هذا الكتاب وعادات وأخلاق وطبيعة الفرنسيين من كتاب القراءة بالفرنسية، يقارن لغة هذا العامية بلغة ذلك الفرنسية الفصيحة، فحتما سيحتقر العربية والعرب، ويحب الفرنسية والفرنسيين، وهذا ما يريد رجال اللاكليسروس وما تريد فرنسا. كما تبين لنا أن مما يهدف إليه الكتاب المساهمة في تفهيم الإستعمار نفسية الجزائريين ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم بغية التحكم فيهم، ولذلك تطرق إلى مختلف العادات الجزائرية وما يسمى بالأدب الشعبي بما في ذلك " الحجاية" و " زقوقو" والخط من كل ما هو إسلامي وعربي ورفع كل ما هو فرنسي بما في ذلك الخط من قيمة شيخ الزاوية وكفائه، ورفع مكانة معلم المدرسة الفرنسية والسبب واضح، هو دور الزاوية الإيجابي في الحصانة الذاتية، ولناخذ الآن في دراسة الكتاب مشيرين إلى ما يأتي:

### المقارنات

من بين ما يتعرض له الكتاب، القيام بمقارنات كثيرة بين ما عند النصاري، وحالهم، وما عند المسلمين وحالهم، والرواية جزائري يسمى بوزيان، فهو الذي يتجول من مكان إلى آخر، ويصف لنا ما شاهده ومن هذا القبيل نجد موضوعين : أحدهما عنوانه " زنقة في حومة النصاري"<sup>(1)</sup>. والآخر عنوانه " زنقة العرب"<sup>(2)</sup>، وأثناء المقارنات نجد دائما ما عند النصاري هو الأفضل، ولا يتكلم عنهم إلا بالإحترام والتقدير والإجلال، عكس حديثه عن العرب وما عندهم مما يؤثر في نفسية الناشئة الإسلامية تعريية ( الأهالي) تأثيرا سلبيا، فيشبون كارهين لأبائهم متمردين عليهم ومحتقرين لهم، محيين لعدوهم الذي يظهره المؤلف في متنهى التحضر والإنسانية والرحمة والشفقة والعدل عكس الأهالي، ولهذا الغرض، فإنه في "زنقة في حومة النصاري" نجد بوزيان يصفها لنا بعد أن وجد نفسه فيها صدفة بأنها منظمة الشارع حيث وضع لها رصيفان على حافتي الطريق مخصصان للمشاة وفي جهة كل رصيف من الناحية الأخرى توجد المحلات السكنية الراقية التي يتفرج فيها المشاة، أما وسط الطريق فقد خصص فقط للعربات والفرسان، وهي تسير متتابعة ومتعاقبة مما ينطبع في ذهن التلميذ منظرا جماليا رومانتيكيا، وإضافة لهذا تتواجد الشرطة لتوفير الأمن والحفاظ على حياة الأشخاص، وها هو طفل كان راكبا على دراجة أصابته عربة فسقط وجرح، هرعت إليه الشرطة وأخذته لبائع الدواء ليعالج، وكتب البوليس باسم سائق العربة وعنوانه<sup>(3)</sup>.

(1) الصوالح محمد ولد معمر، التدريس المترسط للوارد المتبسط في استعمال العربية الحاربة عند مسلمين الجزائرية، ص 4.

(2) المصدر نفسه، ص 7.

(3) المصدر نفسه، ص 4، 5.

ومن زنقة النصارى ينتقل بوزيان إلى " جنان البايك" فيصفه، ووجد فيه نصارى جالسين على كراسي يقرأون الجرائد، أو يتحدثون، ورأى الروميات جالسات في تجمعات بعضهن يتحدثن، وبعضهن الآخر يطرزن أو يخيطن، وأما أطفالهن فكانوا إما يجرون أو يلعبون باللعب، أو يفرجون في النافورة، أو يرمون لبابة الخبز للسكك، وهو منظر جمالي، أما العرب فلا وجود لهم في هذا المكان الحضاري سوى "القرصونات والرضاعات"<sup>(1)</sup>، وبهذا ينطبع في ذهن " الأنديجان" أن الفرنسيين متحضرون، أما العرب والعربيات فإنهم خدم، وخدامات، وعندما نعلم ما تثيره كلمة "قرصون" في ذهن الإنسان الجزائري من إشمئزاز ندرك خطورة هذا الكتاب، في إعادة صياغة أفكار الناشئة وتكريههم في أبنائهم وأمهاتهم، وهو ما أدى إلى إنشاء العقدة التي أصيبت بها النخبة المفرنسة المتمثلة في شعورهم بأنهم دون الفرنسيين وفوق الجزائريين.

ومن "جنان البايك" يصل بوزيان مباشرة إلى "زنقة العرب" فيجدها عكس "زنقة النصارى ضيقة" لدرابيز ديارها متلاقين فوق الرأس، <sup>عمر الشمس</sup> ما توصل لبعض سوابطها"<sup>(2)</sup>.

وهنا نلاحظ أن الحديث عن " زنقة النصارى" أتبع مباشرة بالحديث عن " جنان البايك" ثم " زنقة العرب" لينطبع في ذهن التلميذ بعد قراءة هذه المواضيع الثلاثة المترابطة احتقار أهله والانبهار بعوده وهو ما يريده النصارى، ثم هناك ملاحظة أخرى هي أنه لا يستخدم كلمة "الفرنسيين" وإنما يستخدم كلمة " النصارى" وهي مصطلح ديني، كما لا يستخدم كلمة " الجزائريين" وإنما يستخدم كلمة " المسلمين أو العرب" وكلمة عربي في ذهن الإنسان الجزائري آنذاك مرادفة لكلمة مسلم، وينتج عن هذا مباشرة تعظيم النصرانية واحتقار الإسلام.

ومن ضمن المقارنات :

**جزاء العرب وجزار النصارى:** جزار العرب لا يصف دكانه بأي وصف ولا يصف هندامه، والوصف الجيد الوحيد هو أن اللحم الذي يبيعه أحمر ونظيف<sup>(3)</sup>. أما جزار النصارى فيصفه بأنه : " يلبس فوطة بيضاء على صدره، حائونه نظيفة ومرخمة"<sup>(2)</sup>، ويذكر أن جزاري النصارى منهم من يبيع لحم الخنزير والظأن، ومنهم من يبيع لحم الخنزير. ثم يذكر ما يصنع من لحم " الحلوف" وشحمه بطريقة مشوقة فيقول " يباع لحم الحلوف يصنع منه جملة أنواع مثل العُصبان والمرقار ولحم محمر ومقدد ومملح إلى آخره، ويبيع كذلك شحمه وخبز محشي بلحمه، وفي صورة كل من يبيع لحم الخنوس (حلوف صغير) يتلقى سمين وكرشه غالبية عليه"<sup>(4)</sup>، ذكر هذا في الدرس 16 ثم عاد إليه في الدرس 84، وذلك بهدف التذكير والتشويق والتحريض على أكله، فيذكر أن النصارى يربون الخنازير ويأكلونها ولحمها سمين كثيرا، لكنه تقول في أكله، ويضر الناس الذين يسكنون في البلدان الحارة - وتقل هضمه هو ما أقر به بورغباد كما

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 6، 7 .

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 7.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص 11.

<sup>(4)</sup> المصدر نفسه، ص 14.

<sup>(5)</sup> المصدر نفسه، ص 14.

ذكرنا، وأما إضراره بالذين يسكنون في البلدان الحارة، فيعني أن الذين يسكنون في أوروبا لا يضرهم وهذا زعم إستشراقي في سبب تحريم محمد -صلى الله عليه وسلم-، فيذكرون أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يعيش في بيئة حارة، ولذلك حرمه.

ثم يذكر متهما أن المسلمين لا يأكلونه لأنه محرم عليهم ويقولون فيه قطعة لحم واحدة بدون غسل محرمة، ولكنها غير معروفة-- وهذا كذب وبهتان لأنه محرم بنص القرآن الكريم وكل المسلمين يعرفون هذا- ثم يذكر أن " جزار النصارى يبيع لحم الحلوف ويقطعه على طوابق، ويدير منه العصبان، والمعصوب، وهنا المهم: " لحم الحلوف يتملح ويتخلع خبز من لحم الغنمي"<sup>(1)</sup>. وهذه دعوة للمسلمين ولأطفال المسلمين إلى أكل لحم الخنزير، وإلا لماذا يقول هذا الكلام لأطفال المسلمين؟ ولقد رأينا قبلا كيف تجسراً بورغاد ودعا المسلمين إلى أكل لحم الخنزير، وها هو صوالح يكرر الدعوة ذاتها ولكن في إطار المؤسسة التربوية مستغلا ظروف الناشئة.

**فندق العرب وفندق النصارى** : يقارن بينهما كالعادة لبيان رداءة الأول وفخامة الثاني وبعد أن يتكلم على فندق المسلمين يعطي تمرينا، هو "فندق النصارى، صفته، واش "يؤاسو" فيه"<sup>(2)</sup>، والمقصود بالفندق هنا هو الإصطبل وليس النزل، وهذا يعني أنه يقارن بكل شيء حتى الإصطبل لم يسلم من مقارنته ليثبت تأخر المسلمين ورداءتهم في كل شيء وتقدم النصارى وحسنهم في كل شيء، وأما الغرض من وضع التمرين هنا، فهو تكريس الفكرة وتثبيتها في أذهان الناشئة.

**الانتقال مباشرة من الحديث عن "العربي وحمارة"<sup>(3)</sup>**، وهو كلام تافه إلى الحديث عن التقدم العلمي للنصارى المتمثل في الهاتف فيقول: " النصارى يقدروا يتحدثوا مع بعضهم بعض من بلاد لبلاد، ولو كان بيناتهم مشية شهر، يستعملوا آلة يقولوا لها تيليفون..."<sup>(4)</sup>، والغرض هو المقارنة بين المسلم الذي مازال مع حمارة خارجا عن عالم التكنولوجيا، والنصراني الذي توصل إلى إكتشافات الهاتف وصار يستعمله.

**زيتون الجزائر وزيتون فرنسا**: لم ينس حتى أن يذكر أن زيتون فرنسا أصغر حجما من زيتون الجزائر، ولكنه يلد أكثر من زيتون الجزائر بسبب كثرة الإستحقاق هناك<sup>(5)</sup>. والغرض من هذه المقارنة إحتقار البلاد وأهلها، وإلا كان كلامه لا معنى له، لأن كثيرا من حقول الزيتون كانت ملكا للمعمريين ولا يعقل الزعم بأن المعمريين في الجزائر كانوا أقل عناية بزيتونهم من الملاك الفرنسيين في فرنسا.

**ومن باب الحظ من الأهالي نجد على سبيل المثال موضوع :**

**الدخان والكيف** : فبعد أن يبين كيفية تناول كل منهما وذلك لتحريض الناشئة على تعاطيها يذكر أن المغاربة يشربون الحشيشة ويذكر كذلك أثر الحشيش في الحشاش ويرسم صورة حشيشي ولكن به بري

(1) المصدر نفسه، ص 70.

(2) المصدر نفسه، ص 15، 16.

(3) المصدر نفسه، ص 37.

(4) المصدر نفسه، ص 37، 38.

(5) المصدر نفسه، ص 61.

عربي، أي في صورة شيخ عربي دايع، وتحت الصورة كتب " الحشائشي يطير له عقله كالسكاربي" (1)،  
ونتساءل : لماذا لم يرسم صورة فرنسي.

مدح فرنسا وتحبيب الأهلالي فيها والعمل على إبطال مقاطعتهم لمؤسساتها: وهذا ما كان يقوم به رجال  
الإكايروس كما رأينا عند أقطاب التبشير الثلاثة، ومما يتجلى فيه هذا، موضوع جعل عنوانه : "ظن  
العربي في السيطار" : ويبدأ بالحديث عن حمدان الذي اضطر للذهاب إلى المستشفى بسبب المرض،  
وكان خائفاً منه بسبب إشاعة عند العرب مفادها " النصراري يرهجوا المريض اللسي ما يبراش في  
الساعة" (2)، ولكنه بعد دخوله المستشفى تأكد من كذب هذه الإشاعة، بل رأى بعينه أنهم " يشفقوا على  
المرضى أكثر من والديهم" (3) - يعني النصراري يشفقون على المرضى المسلمين أكثر من والديهم - وكذلك  
تأكد من كذب إشاعة أخرى هي أن النصراري " يوكلوا الحرام للمرضى" (4)، وذلك لأنه رأى رأي العين "   
طباخ مسلم يطيب لنا في مأكلة حلال" (5)، ويواصل المريض حمدان حديثه مع معينه الطيب فيسأله "   
ياخوي كيفاش تعلمت صنعتك ؟ قال المعين : البايك - الدولة - هو آلي دار فينا وفيكم مزينة كبيرة" ،  
وذلك أنه لما أكمل دراسة الفرنسية (6) - أما قارئ العربية فلا حظ له - اقترح عليه شيخه مهنة معين  
طبيب (ممرض) فرحب بها، فكون له ملفاً وكتب للحكام، فاجتاز مسابقة نجح فيها فاستقدم للجزائر  
العاصمة ليدرس مع الناجحين عند طبيبين لمدة سنتين، والدولة تعطيهم النفود ليقتفوا على أنفسهم، وبعد  
سنتين اجتاز الامتحان ونجح، فوظفته الدولة في ذلك المستشفى الذي يبالغ فيه حمدان، وهو يعيش من  
المرتب الذي تعطيه له الدولة في كل شهر، ويختتم النص بكلام خطير، نصه : " إذا أنت عاقل ميز ياخوي  
واش من خير دارت فيّ وفي بني عمي، الله يكثر خيرها" (7).

وهكذا عمل النص على إلغاء إشاعتين خطيرتين وقدم فرنسا لأبناء الأهلالي على أنها أحسن عليهم من  
والديهم وأكثر حبا لهم منهم، وقد إختتم النص بما ذكرناه وهو لا يحتاج إلى تعليق. وهذا مما عمل له  
أقطاب التبشير: تحبيب الشاة في الجزائر، إنه التخدير. وإلا لماذا لم يكن هذا الممرض طبيبا؟ والجواب أن  
فرنسا لا تسمح للأهلالي بذلك. هذه هي فرنسا الحقيقية لا ما ذكره صاحب النص.

صنع الخمر: يتكلم على الخمر في أربعة مواضع كاملة، ابتداء من تلقيطه عنبا إلى كيفية صنعه خمرا  
ولم ينس حتى السدادات التي تمد بها أفواه زجاجاته والتي تصنع من الفلين، وذلك بطريقة مشوقة إلى حد  
ذكر " صانع الشراب راه فرحان ويوجد السلل والبتاتي" (8) والسؤال المطروح، ما هي الفائدة من تدريس

(1) المصدر نفسه، ص 39.

(2) المصدر نفسه، ص 41، 42.

(3) المصدر نفسه ص 41، 42.

(4) المصدر نفسه، ص 41، 42.

(5) المصدر نفسه، ص 41، 42.

(6) أي أكمل المرحلة الابتدائية لأن الأهلالي كما ذكرنا قبلا لا يسمح لهم بتجاوزها.

(7) المصدر نفسه، ص 44.

(8) المصدر نفسه، ص 46، 47.

كل هذا لأطفال المسلمين؟ والجواب في نظرنا : هو ترغيبهم في شربه، وهو ما يتوافق مع دعوة بورغاد المسلمين إلى شرب الخمر كما ذكرنا قبلا وذلك لأنه كان من أكبر الحواجز التي عافت دون تصدير المسلمين الذين إستغربوا بعد الإحتلال أن رأوا رجال الدين النصارى يعاقرون الخمر عكس رجال الدين المسلمين الذين ينهذونهم، وإذا أصبح المسلمون يعاقرونه زال ذلك الحاجز فوقعوا فريسة في أحضان الإستعمار والتبشير.

كلب الراعي " متاع" النصارى: لم ينس حتى الحديث عن كلب الراعي النصراني لبيبي "سواع الكلاب، آخرها كلب التتبع الذي يتخذ النصارى للزينة<sup>(1)</sup>، ومن أهدافه نشر أخلاق وعادات الفرنسيين والدعوة إلى الإقتداء بهم، والحط من قيمة الأهالي. وإلا على أي أساس يكون كلب الراعي الفرنسي أحسن من كلب الراعي الجزائري؟.

**الحكام:** تحت هذا العنوان تدرج عناوين أخرى هي : الشكاية، البحث، الشرع، حكام العرب، المحكمة، الشرع متاع الفرنسيين، وتغطي من ص 88 إلى 94 ويهدف من كل هذا إلى :

- تبيان عدل الحكام النصارى والمحكمة الفرنسية في حق الجزائريين، ودقة التحري للوصول إلى العنق وعدم التهاون " يحكم على الظالم، يعطي الحق للمظلوم"<sup>(2)</sup>.

- الترهيب من مخالفة القوانين الفرنسية، ويتبين هذا بجلاء في قوله : "الشرع متاع الفرنسيين" ويقصد به الجزائريين الذين يطبق عليهم، فيبين أنه فيه أربع درجات، آخرها "الشرع الأحمر" اللي يبانهي بنفسه في بلاد بعيدة، اللي يحكموا عليه بالموت يقطعوا له رأسه في النفقة"<sup>(3)</sup>. أي الذي يحكم عليه في الشرع الأحمر نوعان ، أحدهما النفي إلى أماكن بعيدة، وجزيرة كاليدونيا الجديدة " كيان" مشهورة في نفي الجزائريين إليها، ومن نفي إليها لن يعود أبدا، ولا زالت بقايا الجزائريين هناك إلى اليوم. وأما النوع الثاني فهو الحكم بالموت بقطع الرأس بالمقصلة. هذه هي رحمة النصرانية وتسامحها.

**تهينة نفوس الجزائريين وتحريضهم للإخراط في الجيش الفرنسي كعاملين لمحاربة المغاربة المدافعين عن بلادهم :**

وذلك في موضوع " القوم" ومن وسائل الترغيب التي يطمعهم بها الإخبار بأن السلاح واللباس والأكل من عند الدولة يضاف إلى هذا 20 دورو عربون وريال في النهار من يوم "الخطرة" ومن مرض في الطريق أو بعد الوصول تداويه الدولة وترجعه مجانا، كما تتكفل الدولة بعائلة المنخرط أثناء غيابه، وإذا مات تعيين الدولة نفقة لأهله، وختم الموضوع بإدعاء مفضوح قائلا : " فرحوا الرجال وبغوا الكليل ينكتبوا، لكن الطبيب ما قبل غير الصحاح"<sup>(4)</sup>، ونشير بأنه في الوقت الذي كان كتاب صوالح هذا يدعو الجزائريين إلى

(1) المصدر نفسه، ص 71.

(2) المصدر نفسه، ص 92.

(3) المصدر نفسه، ص 93 ، 94.

(4) المصدر نفسه، ص 100 .

"المقاجبة" للذهاب إلى المغرب لمحاربة المغاربة وإجبارهم على الإستسلام افرنسا كان أئمة المساجد الرسمية يقومون بنفس الدور، وقد ذكرنا قبلا ما وقع في تبسة بسبب ذلك.

تقديم معلومات خاطئة عن الإسلام والتهم بأركانه ومبادئه وعباداته ورجع 4:

ومن الأمثلة على هذا :

- القرآن الكريم " يورد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أوحاه جبريل للنبي ﷺ (1)، وهذا تحريف خطير، لأن الذي أوحاه هو الله عز وجل بواسطة جبريل -عليه السلام-.

- رمضان : يتحدث عن رمضان على أساس أنه عادة عند المسلمين لا عبادة، ويبين ذلك ويقدم معلومات ناقصة ويتهم به بأبيات من الشعر الملحون (2)، مما يؤدي إلى تزويد التلاميذ في الصيام، وهذا يذكرنا بما فعله بورغاد من التهم بالصيام عند المسلمين ومقارنته بالصيام عند النصارى ودعوة المسلمين إلى عدم الصيام.

- العيد الكبير والحج: يبدأ الحديث عن عيد الأضحى بشراء كبش العيد وذبحه يوم العيد وسلخه " وخلاه بيات يحج" (3) هنا خلط الشرع بالكذب والخرافة، وكلامه هذا سيثير الضحك من التلاميذ والسخرية والتهم ومن كان ملتزما بالإسلام منهم سيشعر بإحباط، ويشرح معنى " بيات يحج" بقوله " يتربسوا بيات يحج على خاطر نيك الليلة عند الحجاج إحتفال عظيم في قرب مكة" (4)، والواقع أن الحجاج ليس لهم أي إحتفال تلك الليلة، وإنما عندهم في نهار العيد بداية رمي الحجار وطواف الإفاضة، وهو يقصد " منى" ولكن وجودهم في منى ليس إحتفالا كما ذكرنا، ولماذا لم يذكر كلمة منى؟ والجواب واضح لأن غرضه نشر الجهل لا العلم، وإلا بدل أن يقول قرب مكة يقول منى، فيعرفهم بمكان في الأراضي المقدسة.

- يبدأ بعد ذلك الحديث عن الحج يرسم خريطة جعل عنوانها : "تصويرة للحج" ، ولكن الخريطة لا تعبر عن العنوان، لأنها تبين طريق الذهاب إلى جدة، ومنها إلى مكة ومنها إلى المدينة المنورة، ومنها إلى ينبوع، ومنها إلى الجزائر، أما الحج فله مكان معين محدد.

ثم يبدأ الحديث عن الحج، فيحرفه عن معناه وأهدافه، ولا يبين أركانه ولا أهميته، فهو يتلخص في الإحرام، وهو عنده : " يلبسوا لباس مختص ويعبدوا" (5)، والإحرام في جدة - وهو خطأ- ويتجهون كالتوافل يطوفون في الجامع الكبير بالكعبة، يقبلون الحجر الأسود، يصلون صلاة العيد ويذبحون، يذهبون إلى المدينة الشريفة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم- ويعودون منها إلى الجزائر هذا هو الحج عنده، فلا طواف قدوم ولا إفاضة ولا سعي ولا وقوف بعرفة ليلة النحر ولا رمي الجمار بمنى، وأكمل

(1) المصدر نفسه، ص 107.

(2) المصدر نفسه، ص 110 ، 111.

(3) المصدر نفسه، ص 113.

(4) المصدر نفسه، ص 113.

(5) المصدر نفسه، ص 115.



حديثه عنه بشرح المصطلحات الواردة فيه، ومنها : يطوفوا ، يدوروا، الكعبة: بنيان معروف<sup>(1)</sup>، وهذا ليس شرحا للكعبة، ولسنا ندري أين هي أركان الحج وفرائضه ومبطلاته؟ أين النية والسعي والوقوف بعرفة ليلة النحر وطواف الإفاضة وطواف القدوم، ثم إن الحاج ليس مكلفا بالذبح مالم يترتب عليه دم. وهكذا كان العمل بلا هوادة لجعل الإسلام فلكلورا، بل فلكلورا مشوها.

الإساءة لإمام المسلمين وطلبة القرآن الكريم وحفظته ورجال الزوايا وتلاميذهم: برواية النكت عنهم<sup>(2)</sup> والتقليل من شأنهم والسخرية منهم. ولو كان جزائريا حقيقيا لنكت برجال الإنجليز بدل التنكيت بعلماء الإسلام، ولو فعل ذلك لكان مصيبا، ولكن أنى له ذلك وهم أسياده وهو خادمهم مما يجعل عمله هذا تنفيذا لتعليمات لافيجري فيما يتعلق بالقرآن الكريم لأن أولئك هم صانعوا الحصانة الذاتية. نشر مساوئ الأخلاق (مدح السرقة).

ويظهر هذا مثلا من خلال الحكاية التي جعل عنوانها " الولد الساجي " و" الساجي " يعني الصالح ولكن في ماذا يظهر صلاحه؟ كان أحد الرجال شجاعا فذهب للسرقة مع ابنه وأراد أن يختبر ابنه فوجدته شجاعا مثله<sup>(3)</sup>. والتعبير الذي استخدمه كلمة " ازكك " أي رجل شجاع وذو مروءة. فهل هذه صفات الخائن؟ ترى ماذا ينطبع في ذهن الناشئة عندما يقرأون هذا الكلام عن السراق.

### اعتبار الإستعمار حضارة وتحضرا:

ويظهر هذا جليا من حديثه عن إستعمار فرنسا للمغرب، فكتب تحت العنوان الآتي :

**الغرب : المروك :** فذكر أن المغرب مازال متأخرا جدا بسبب قلة الأمان في الطرق ولكنه " اليوم بلاد المروك دخلت تحت حماية الدولة الفرنسية، راهي بدأت تتمدن وتتعمر"<sup>(4)</sup>. إذن أتى الفرنسيون لتمديننا وتحضيرنا، إن الذي يتكلم هنا كأنه لافيجري أو دوفوكو أو بورغاد، أو ماسسينيون، أو الجنرال بيجو وغيرهم من رجال الإستعمار. ولكي يخدم الإستعمار الفرنسي أكثر ويحبب فيه الأهالي فإنه يسمى الضرائب الباهضة التي كان يفرضها على الأهالي في فصل الربيع وفي نهاية الصيف بالعشور والزكاة، فيسمى ما يدفع له من ضرائب في الربيع بـ"الزكاة"<sup>(5)</sup>، وما يأخذه من الأهالي من ضرائب في نهاية الصيف بـ"العشور" وهما مصطلحات دينيان إسلاميان، وبهذا فإن الإستعمار يدمر الأهالي بتفقييرهم ونسو يعمل على محو آثار ذلك التدمير، وبين الفقر والتبشير علاقة تلازم.

(1) المصدر نفسه، ص 114 ، 115.

(2) المصدر نفسه، ص 116 ، 117.

(3) المصدر نفسه، ص 136.

(4) المصدر نفسه ، ص 144.

(5) المصدر نفسه، ص 148.

التفرقة العنصرية أو تحسيس الأهالي بأصولهم المختلفة عن بعضهم وإشعال نار الكراهية بينهم: ركز الكاتب كثيرا جدا على هذه القضية وكتب مواضيع متعددة مبنوثة في ثنايا الكتاب وفصل بينها بمواضيع أخرى، وذلك حتى يذكر انطلبة بها باستمرار من بداية العام الدراسي إلى نهايته، ومن المواضيع التي تبين هذا موضوعات :

- المزابي : يبدأ بوصفه وصفا لا يليق به، قائلا : " في الجزائر الناس الكل يسموه الموتشو"<sup>(1)</sup>... وبعد أن يصف ما يبغضه المزابي، يقول : "العرب ما يحبوشي المزابي، على خاطر يقولوا ماشي مسلم حقيقي، لكن المزابي يحسب روجه مسلم خير من العرب"<sup>(2)</sup>، غرضه واضح وهو التفرقة العنصرية وتكريس فكرة هذا عربي وذلك مزابي وذلك قبائلي إلخ. وإثارة روح العداوة والبغضاء في نفوس الجميع، وفي هذا النص، نلاحظ :

- الوصف المزري للمزابي من طرف جميع الناس وهو تسميته بـ "الموتشو" .  
- الزعم بأن العرب يكرهون المزابي بسبب كونه غير مسلم، وهو الزعم ذاته الذي ردهه أركون كما بينا مما يدل على وحدة المشرب بينه وبين صوالح وهو الكنيسة والإستعمار.  
وهذه القضية خطيرة من شأنها أن تؤدي إلى رد فعل قوي من طرف المزابي الذي يتهم في دينه ظلما عدوانا، وصاحب النص لخبثه كرس كون المزابي غير مسلم بقوله : " لكن المزابي يحب روجه مسلم خير من العرب" ومعنى يحسب روجه أي في اعتقاده ولكن هذا الاعتقاد باطل من خلال النص، لأن كلمة "يحسب روجه" عند الناس تعني يتظاهر، أو يبدي ما ليس حقيقة، ولنتصور أن التلاميذ الذين يدرس لهم هذا النص فيهم العربي والمزابي، فما سيثيره في نفوس كل طرف منهما؟ أولا ستثار مناقشة حامية الوطيس في القسم يزيدا الأستاذ اشتعالا، ثم تصل منهم إلى أوليائهم، وكل واحد قد يلقيه أمله أشياء معينة، ثم يعودون إلى المدرسة فتثار القضية من جديد وستكون أكثر عنفا، لأن كل واحد أتى مسلحا بما يقوله من والديه وما على المعلم إلا أن يوجه هؤلاء إلى زيادة الشجاعة والكراهية والبغضاء.

وخوفا من أن ينسى التلاميذ هذه الحادثة، فإن المؤلف جعل الدرس الموالي مباشرة تحت عنوان :  
" العرب وبني مزاب" وها هو النص حرفيا : " رباعة بني مزاب كانوا خاطرين - مسافرين - لثوهم عرب وقالوا لهم " واش تكونوا، قالوا بني مزاب: أحنا عرب، قال لهم واحد العربي حرايمي قولوا الذيب، تكلموا قاع بني مزاب في خطرة وقالوا الذيب، عرفوهم العرب وأعطوهم طريجة وفكوا لهم السلعة وانزوايل"<sup>(3)</sup>.  
هذا النص واضح المغزى، فهو يبين أن بني مزاب لمجرد كونهم بني مزاب مجرمون، نهبهم ومسرقتهم حلال، وأنهم جبناء وأن العرب يحق لهم الاعتداء عليهم ضربا ونهبا بدون أي سبب سوى لكونهم بنسي مزاب.

(1) المصدر نفسه، ص 9.

(2) المصدر نفسه، ص 9.

(3) المصدر نفسه، ص 10.

والواقع أن هذا النص الذي يعج تفرقة وتمزيقا للشعب الجزائري بما يثيره من كراهية واحتقار لأبناء الوطن الواحد ضد ذاتهم يتناقض مع ما يجب أن يهدف إليه درس القراءة من غايات تربوية تهيئية، ولكن إذا ظهر السبب إنتفى العجب، فالنص يهدف إلى زرع النزعة العنصرية وتأصيلها مما جعل صاحبه يكمل به الدرس السابق.

**العرب والقبائل:** يخصص للحديث عنهم سنة مواضيع كاملة، ويبدأها في الحديث عن سوق المال - الغنم - والزوايل فيذكر أن " القبائل يقبلوا في البغال والحمير، والعرب يبيعوا في الإبل"<sup>(1)</sup>.

**الزواوي (القبائلي) والعربي:** يبدأ الحديث متهمًا بالقبائلي مبرزا غباؤه - الغير موجود - ليتوصل إلى تبيان عدالة الفرنسي وإنصافه من العربي المعتدي، فيقول: "عربي شاف زواوي، يبيع في الزيت، قال له: حل هذه القربة ندوق، حلها الزواوي، قال له الآخر، شدها بيدك اليسرى وحل الثانية، حلها الزواوي، قال له إفتح الثالثة دار كما قال له ذلك الساعة قال له العربي: شد الثانية بيدك اليمنى، والثالثة بشد اربك وأنا نحل الرابعة، دار الزواوي هذا الشيء، هرب العربي بالقربة الخامسة وخلي الزواوي حاصل"<sup>(2)</sup>. يظهر من هذه الرواية أن القبائلي غبي ومغل، وأن العربي سراق معتدي، مما يعني أن كل الجزائريين غير صالحين وإلا لماذا لم تكن العملية بين قبائلي وقبائلي، أو بين قبائلي ونصراني أو يهودي؟ ولكن هذا لا يحقق الهدف لأنها لو كانت بين قبائلي وقبائلي لا تؤدي الغرض العنصري، ولو كانت بين قبائلي ونصراني فإنها تبين جزءا من حقيقة الفرنسيين وهو السرقة والنصب والإحتيال والنهب والإعتداء، ولكنه يهدف إلى عكس ذلك تماما، وهو إظهار الفرنسيين بمظهر العادل الحريص على إرجاع الحق إلى أصحابه، ولذلك فإنه عندما دخل ذلك العربي المحتال راه شرطي فسأله من أين لك هذه التريسة، فدهش العربي وأسقط في يده فأخذه الشرطي إلى (الكوميسار) الذي أخذ في إستتطاقه وإذا بالقبائلي يدخل مشتكيا، فيجد العربي هناك، فيقبض عليه بقوة أمام (الكوميسار) مما يعني أن (الكوميسار) لا يخيف بسبب عدله وحرصه على الأمن، فيقص ما فعل به العربي، حينئذ يزج (الكوميسار) بالعربي في الحبس، ويرد الزيت للقبائلي<sup>(3)</sup>.

بعد هذا مباشرة يأتي موضوع آخر ، عنوانه .

"خدمة القبائل" ويهنا مطلعته وهو: "في الصيف القبائل، يجيوا يشولوا عند العرب والنصارى"<sup>(4)</sup>، مما يعني أنهم خدم عند الطرفين، وهنا نقدم ملاحظة هي أنه عندما يتكلم على النصارى لا يفرق بين فرنسي ويطلياني وإسباني، إلخ. وعندما يتكلم على المسلمين يفرق كما رأينا بين العربي والقبائلي وانزابي، والتركي والسبب واضح، هو فرق تسد، كما نقدم ملاحظة أخرى لها أهميتها هنا فيما يتعلق بالعامية، تتمثل في أن النصارى الذين كانوا بالجزائر جنسيات فيهم الفرنسي والإيطالي والإسباني وغيرهم، لماذا لم

(1) المصدر نفسه، ص 18.

(2) المصدر نفسه، ص 61 ، 62.

(3) المصدر نفسه، ص 61 - 63.

(4) المصدر نفسه، ص 63.

يكن يدرس لكل جنسية لغتها الخاصة؟ كما أن فرنسا نفسها بها خمس لهجات، لماذا لم يكن يدرس لسبل أهل لهجة لهجتها وجعلت فرنسا هذا خاصا بالجزائريين الذين أجبرتهم دون غيرهم في الوجود أنذاك على دراسة العامية بدل الفصحى؟.

بعد هذا يأتي موضوع<sup>(1)</sup> آخر هو :

العربي وزقوقو : والهدف منه الحط من قيمة العرب وإظهارهم بمظهر التخلف الشديد، وملخص الحكاية أن عربيا كان عسаса بالليل، وكانت الريح شديدة، وكان في (فلمونه) زجاجة بدون سدادة وكانت تصفر من شدة الريح فاعتقد أن ذلك الصوت هو صوت زقوقو فخاف من ذلك حتى أصيب بالجنون، وقد شرح الكاتب زقوقو بأنها باعثة كترقو يخاف منها العرب<sup>(2)</sup>، وهنا نقدم الملاحظات الآتية:

النص يجب أن يكون له دور تربيوي، ومن هذه الحيثية كان يجب أن يبين أن زقوقو، خرافة لا وجود لها، ويبين سبب وجود هذه الظاهرة ويدعو إلى عدم الإيمان بها، ولكنه بدل هذا يعمد إلى الإستهزاء بالعرب، وظهر هذا جليا في شرحه لكلمة زقوقو ولسنا ندري هل يقصد بالعرب المسلمين أم يقصد أن القبائل لا يخافون من زقوقو؟

- يجب أن نتصور ما تثيره هذه القضية في نفوس التلاميذ الأهالي على أساس أنهم عرب، إنها ستثير مناقشات وتساؤلات، ومن خلالها يوصل التلاميذ إلى الاعتقاد بتخلف أبائهم وهذه هي المنهجية التي إتبعها الإستعمار الفرنسي في تكوين النخبة المستقبلية كي تتشأ محتقرة لأهلها وأصلها.

- التهم ليس بالعرب فقط، ولكنه كذلك بالقبائل، والهدف إشعار التلاميذ عرب وقبائل بأن أصلهم منحط يجب أن يدوسوا عليه ويصبح مثلهم الأعلى الفرنسيون، والدليل على هذا أنه بعد العربي وزقوقوا يأتي مباشرة درس آخر عنوانه :

القبائل إلى صابوا عربي مقتول : ومخلصه أن ثلاث قبائل سافروا في بلاد العرب- يعني أن بلاد القبائل وحدها وبلاد العرب وحدها - <sup>ولا يعرفون</sup> ~~لا يعرفون~~ من العربية سوى ثلاث كلمات، ولكن لا يفهمون معناها، فوجدوا عربيا مقتولا في الطريق، وعندما سئلوا عن القاتل أجابوا بتلك الكلمات التي تبين أنهم هم القتل حيث أخذوا إلى القايد فحطهم في الحبس<sup>(3)</sup>. وهنا نلاحظ ما يأتي :

- لماذا لم يكن المقتول فرنسا مثلا ؟

- إظهار أن بلاد القبائل مستقلة عن بلاد العرب مع أن كليهما تحت نير الإستعمار الفرنسي.

- إظهار أن القبائل لا يعرفون العربية وإذن فلا بد من أن ترسم لغتهم.

- الحط من قيمة القبائل، وإلا كيف يورطون أنفسهم وهم أبرياء؟

<sup>(1)</sup> لا نعلم هنا أن هذه المواضيع مرتبة تسلييا، لأنه تحتلها مواضيع أخرى كما أشرنا قلا.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 102 ، 103.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص 103 ، 104.

- يحط صاحب النص من قيمة كل من العربي والقبائلي على السواء في أنه عندما يتكلم على أحدهما لا يقول له "السيد" أما عندما يتكلم على فرنسي فإنه يبدأ الحديث قبل ذكر اسمه بـ السيد<sup>(1)</sup> فلان .  
 -- نتصور ما يثيره النص الأول المتعلق بالعربي من إنطباع في نفسية التلاميذ القبائل ونتصور ما يثيره هذا النص من إنطباع في نفسية التلاميذ العرب، وهكذا يولد الصراع والعداوة بين أبناء الوطن الواحد.  
 - المبالغة في الحط من قيمة الإنسان القبائلي صراحة، وبألفاظ نابية بذينة، ومن ذلك الموضوع الذي جعل عنوانه :

قراءة : الزواوي ورمضان : يبدأ مباشرة بقوله : : زواوي مغندف لقي رجل في جبل...<sup>(2)</sup> وكلمة "مغندف" تعني كل الصفات القبيحة من بلاهة وبلادة وغباء وتخلف... ولكي يبرهن على هذه البلاهة والبلاهة في القبائلي يذكر أن هذا القبائلي لقي رجلا في جبل فسلم عليه الرجل ولكن القبائلي لم يرد السلام بل سأله عن اسمه فأخبره بأن اسمه رمضان، فغضب القبائلي وشمته قائلا : " أنت هو يا "سنعول الي تجي كل عام تقتلنا بالجوع والعطش وطول النهار وأنت تعذب فينا، وأخذ عصا وقتله بها، ثم مشى لأبناء عمه قائلا لهم " إفرحوا يا اخوتي لأن رمضان لن يأتيكم أبدا، لأنني قتلته وأنقذتكم منه، وأخبرهم بمكان قتله، فذهبوا ليجدوا الرجل مقتولا، فأخذوه للحاكم فحبسه<sup>(3)</sup>، وهنا نلاحظ.

- الحط من منزلة القبائلي واحتقاره وإظهاره بالبلاهة والغباء مما يثير إحتقار العربي له، وكذلك بالمقاسيل إحتقار القبائلي للعربي وقد ذكرنا ذلك قبلا، ولا سيما أن القسم الدراسي الذي يدرس هذا النص وغيره فيه تلاميذ عرب وقبائل، وستثار خصومة بينهما حين قراءة هذا النص، فيكرهون بعضهم بعضا وينتقل ذلك منهم إلى أوليائهم.

- التزهيد في الصوم واحتقاره ولكي يحقق هذا الغرض، فقد قسم موضوع قراءة الزواوي ورمضان إلى قسمين فصل بينهما بموضوع آخر جعل عنوانه " رمضان" وتحدث فيه بما يبين أنه عادة لا شرع<sup>(4)</sup>.  
 ومما وجدناه أيضا موضوعان عنوان أحدهما :

"الخل عند القبائل" : يبين فيه كيف يصنع الخل<sup>(5)</sup>، وعنوانه الموضوع الثاني : "الحياء عند العرب" : يبين فيه الآداب التي يلتزم بها الطفل الشريف أمام والدته وعمه وخاله وإخوته الكبار<sup>(6)</sup>. فهل يفهم من هذين الدرسين أن العربي لا يعرف الخل وأن القبائلي لا يعرف الحياء. وإلا لماذا أفرد لكل منهما عنوانا بتلك الكيفية؟.

ومن مواضيع التفرقة العنصرية موضوع جعل عنوانه :

(1) المصدر نفسه، ص 149.

(2) المصدر نفسه، ص 109.

(3) المصدر نفسه، ص 109 - 111.

(4) المصدر نفسه، ص 109 - 111.

(5) المصدر نفسه، ص 139 ، 140.

(6) المصدر نفسه، ص 143.

التركي والعربي : النص هذا في ثلاثة أسطر ، ولكنه عبارة عن شتم وحم كل منهما للأخر: " تركسي قال لعربي أنتما العرب عمارة القفار ورحمة البهارع، واجب العربي وقال للتركي أنتما ما تعطوشي ضيف ربي وما تعمروش بلاد الخُرْفَة"<sup>(1)</sup>، أي أن التركي شتم العربي قائلا : أنتم بدو تعيشون مع الحيوانات؛ فود عليه العربي قائلا : أنتم أشحاء بجلاء لا تكرمون الضيوف الأجانب، والسؤال هنا : ما هي الحكمة من هذا النص القصير؟ لماذا لم يكن بين فرنسي وإيطالي أو بين إسباني ومثلا، وكل هؤلاء كانوا يعيشون في الجزائر؟ إننا لا نجد جوابا لهذا السؤال سوى أنه يدخل ضمن إستراتيجية البيان الذي أصدرته فرنسا غداة الإحتلال بتحريض الأهالي ضد الأتراك، أي تكريه المسلمين في بعضهم البعض لصالح العدو المحتل.

ومن المواضيع التي تصب في نفس البوتقة، موضوع آخر يعد من الأهمية بمكان، جعل عنوانه :  
سكان وطن الجزائر: فذكر أن سكان وطن الجزائر ينقسمون إلى ثلاثة " النصارى واليهود والمسلمون"<sup>(2)</sup>، يبدأ بالنصارى أولا ويجعل المسلمين في الأخير، وكان النصارى واليهود هم السكان الأصليين والمسلمون طرأوا عليهم، ثم يبين وظائف النصارى، فيذكر أن أكثرهم فلاحه، وأصحاب الوظائف، وكلمة فلاحه مغرضة هنا، لأن كلمة فلاح في ذهن الجزائري محببة إلى حد الاعتقاد بأن دعوة الفلاح مستجابة، بينما المصطلح الذي يصدق على النصارى هو المعمرون أو المستعمرون ولكنه لما كان هذا المصطلح يبينهم على حقيقتهم فإنه إستخدم بدله ما يقربهم إلى النفوس وهو مصطلح " فلاح"، ثم يبين أن النصارى فرنسيون وأسيان وطلليان ومالطية وألمان وإنجليز إلخ ثم يذكر وظائف اليهود بإختصار لينتقل إلى تحديث عن المسلمين بعد أن وسط موضوع "الخل عند القبائل" فيذكر أنهم يتكونون من جنسين .

أ- برابر وهم الذين تتاسلوا من سكان الأصل، وهم أصناف: قبائل وشاوية وبني مزاب، وتوارق، والبرابر خدامون يتعبون من أجل الربح إلى حد الخروج من بلادهم.  
ب- أما العرب فإنهم حسب زعمه جاءوا من جزيرة العرب في القرن 7 و 12 م، وهم أقل عددا من البربر بكثير، يسكنون المدن، وبعضهم خارجها للفلاحة، وبعضهم بدو رحالة، لا يتعبون كثيرا كالبربر .

ج- المواطنون الآخرون منهم :

1- الحضر: ويتكونون من عدة أجناس، يسكنون الساحل ويشغلون بالتجارة في الدكاكين يتسمون بالرزانة.

2- الكراغلة، أغلبهم في تلمسان.

3- العبيد ( الوصفان) أتى بهم من السودان وحررهم الفرنسيون.

4- المغاربة : وهؤلاء يقيمون بصفة مؤقتة للإشتغال خدامة وحصادة وشوالة وقطاعين الحافة<sup>(3)</sup>.

<sup>(1)</sup>المصدر نفسه، ص 25.

<sup>(2)</sup>المصدر نفسه، ص 139.

<sup>(3)</sup>المصدر نفسه، ص 140 ، 141.

وهنا نلاحظ عدة ملاحظات هي :

- اعتبار النصارى واليهود هم السكان الأصليين وذكرهم بكل ما يحبيهم إلى النفوس ويغطي على ضيعهم الإستعماري.
- بث التفرقة العنصرية بين فكرة السكان الأصليين ( البرابري ) والعرب الطارئين وتقديم معلومات خاطئة في الزعم بقلة العنصر العربي عكس البربري.
- الزعم بأن الفرنسيين هم الذين حرروا العبيد، وهو ما ينسجم مع ما كان يبثه لافيغري من اعتبار أن الإسلام هو أساس الرق، وأن النصرانية هي التي حررتهم وهو ما كان يزعمه بورغاد ودوفوكو ورجال الإستعمار والواقع يكذب هنا، إذ لو كان النصارى الفرنسيون هم الذين حرروا أولئك العبيد لتنصروا، لأنه لا يعقل أن يخرجهم النصارى من الرق الذي وضعهم فيه الإسلام، ومع ذلك يبقوا متمسكين بالإسلام ولا يعتقدون النصرانية التي حررتهم من العبودية، ثم كيف يزعم أن الفرنسيين حرروا العبيد وهو يراهم مستعبدين الجزائر كلها عبادها وأرضها وباطن أرضها، بل حتى هوائها وسمائها، بدليل أن الإنسان الجزائري كان مجبرا على دفع ضريبة تسمى ضريبة الهواء الذي يتنفسه.
- هذا الموضوع ينسجم تمام الإنسجام مع مشروع ديغول الذي اقترحه في سنة 1959 م لحل مشكل الجزائر، وذلك في إطار المفاوضات التي كانت جارية بينه وبين الحكومة الجزائرية المؤقتة، حيث كان مشروعه يقوم على رفض الإستقلال والقبول بالحكم الذاتي الذي يقوم على تجزئة الجزائر لإضعافها إلى مناطق ذات حكم ذاتي مجزأة على أساس مجموعات عرقية مبنية على نظام فيدرالي كما يقول ديغول، نفسه " تجد هذه المجموعات المختلفة؛ الفرنسية<sup>(1)</sup>، والعربية والقبائلية و الميزابية إلخ التي تتعايش في هذا البلد ضمانات تتعلق بحياتها الخاصة وإطارا للتعاون فيما بينها" هذا هو النظام الفيدرالي الذي اقترحه ديغول ويهدف إلى تجزئة الجزائر<sup>(2)</sup>.
- وبعد عدة مواضيع يثير قضية أخرى مرتبطة بما سبق، عنوانها :
- "في النطق متاع سكان الجزائر": ويبين هنا أن السكان الناطقين بالعربية ليس لهم نطق واحد، ويبين الفروق بين نطق بني مزاب والقبائل والمغاربة والحضر والعرب في مختلف مناطق القطر، ولا يقصد الفرق بين القبائلية والعربية مثلا، وإنما يقصد اللهجة العربية فقط عند هؤلاء ويبين كثرة الاختلاف<sup>(3)</sup>، ولكنه من ناحية أخرى رغم ذكره أن النصارى جنسيات مختلفة إلا أنه لم يشر إلى اختلاف منطقتهم أو لغاتهم أو لهجاتهم وهو يعرف أنه حتى الفرنسية ذاتها لها لغة رسمية ولها خمس لهجات خاصة بها، ومن أهدافه في هذا :
- إظهار المسلمين في صورة من التمزق والنصارى في صورة من الكمال، وحتما سيطرح أحد التلاميذ بإيحاء من الأستاذ أو الأستاذ نفسه السؤال الآتي : لماذا نجد للفرنسيين لغة واحدة ونجد للعرب بل ولسكان

(1) تقابل النصارى عند صوالح .

(2) بن يوسف بن حدة، لمحة حرب التحرير في الجزائر، انمايات إيفان، ص 17.

(3) صوالح ولد معمر، لمصدر نفسه، ص 145 ، 146.

الجزائر كل هذا الإختلاف في الألسن؟ ويكون الجواب : أن وحدة لغتهم أساس تقدمهم وإختلاف ألسنتنا أساس تخلفنا، ويوصل الأستاذ التلاميذ في نهاية المناقشة إلى النتيجة الآتية :

إذا أردنا أن نتقدم لأبد أن نتفرنس لساننا وأخلاقنا، وأنه لا حل لنا سوى الفرنسة، فهي و...ها الفادرة على توحيدنا.

والواقع أن هذا الموضوع يدخل ضمن ما يسمى بالعلوم الإستعمارية التي تهدف إلى معرفة عادات السكان المستعمرين ولهجاتهم وتقاليدهم لفهم نفسياتهم بغرض التحكم المطلق فيهم.

خاتمة الكتاب : ما سبق مجمل ما توصلنا إليه في هذا الكتاب، وقد ختمته صاحبه بمجموعة من الأسئلة خاصة بالإمتحانات وردت في إمتحانات رسمية سابقة، وهي كذلك مغرضة مثل الكتاب، وممسا ورد فيه من أسئلة :

مات وخلي ولد وزوج بنات، قوموا له تريكته 35082 فرنك، أش ناب لكل واحد من الورثة إذا الرجل يدي قسمة والمرأة نصف قسمة الرجل؟<sup>(1)</sup>.

الهدف من هذا السؤال واضح، هو إثارة قضية عدم مساواة المرأة للرجل في الميراث ليتوصل إلى أن الإسلام ظلمها وهذا في الوقت الذي كانت فيه المرأة الفرنسية إذا تزوجت فقدت كل ما تملك كما بينا، وهذه الشبهة رأيناها بوضوح عند بورغاد مما يدل على الطابع التبشيري لهذا السؤال.

- لبسة العربية<sup>(2)</sup>، لبسة العربي<sup>(3)</sup>، أش تخدم المرأة عند العرب<sup>(4)</sup>، وأش تعمل المرأة الرومية في دارها<sup>(5)</sup> إلخ، نلاحظ أن هذه الأسئلة فيها جانب كبير من المقارنات بين العربي والعربية من جهة، والنصراني والنصرانية من جهة أخرى، والهدف واضح التقليل من مكانة العربي والعربية والرفع من منزلة النصراني والنصرانية.

هذا ما يتعلق بالدعوة إلى العامية في العالم العربي والجزائر، وبه نتوصل إلى موقفنا من هذه الدعوة.

### موقفنا من الدعوة إلى العامية

إضافة لما أوردناه من ردود على دعاة العامية في ثنايا حديثنا عنها وتحليلنا لما ورد فيها نجمل الردود على دعائها فيما يأتي :

- الزعم بصعوبة اللغة العربية انفصحي أكذوبة لا تاريخ لها، وحتى لو فرض صحة الإدعاء، فإن العامية أصعب، والدليل على ذلك أن كتاب صوالح الذي حللناه كنا نجد فيه أحيانا أن حجم شرح الكلمات الصعبة للنص أكبر حجما من النص ذاته، يضاف إلى ذلك أن الذي تكون لغته صعبة لا يقتلها، بل يفكر في أحسن

<sup>(1)</sup> المصدر نفسه، ص 167.

<sup>(2)</sup> المصدر نفسه، ص 162.

<sup>(3)</sup> المصدر نفسه، ص 164.

<sup>(4)</sup> المصدر نفسه، ص 167.

<sup>(5)</sup> المصدر نفسه، ص 171.



الطرق البيداغوجية التي تسهلها مع المحافظة عليها والفكرة كما مر إستراتيجية إكليروسية، ومن أهم أغراضها الأساسية:

1- القضاء على الدين الإسلامي، لأن القضاء عليها يعني القضاء عليه، حيث سيؤدي إلى إستحالة فهم القرآن الكريم، بل وحتى مجرد قراءته، وبذلك يعزل الناس عنه كلياً، وقد رأينا هذا الغرض بوضوح عند سلامة موسى وأنيس فريحة من نصارى المشاركة، كما رأينا بوضوح عند دعاة الحركة البربرية في الجزائر الذين أعلنوا صراحة أن رفضهم للغة العربية الفصحى إنما هو بسبب إرتباطها بالإسلام، وذلك في التقرير الذي قدمته MCB للجنة الأممية كما بينا في نتائج أحداث تيزي وزو الثانية وكما يستشف من محاضر ملتقى إيكورن.

2- فهم عادات الشعوب المستعمرة وأخلاقها وقيمها مما يمكن المستعمرين من التمسك فيها والإستيلاء على أوطانها وأفكارها بسهولة، وتوجيهها بعد ذلك لتحقيق أهداف الإستعمار، ولتحقيق هذه الغاية فإن الضباط الفرنسيين لازالوا إلى اليوم يدرسون أكثر من 60 ساعة عربية عامية<sup>(1)</sup>.

3- تشتيت الأمة العربية المسلمة وتمزيق الوحدة الإسلامية<sup>(2)</sup>، والتمزق الوطني لأنه كما يقول مالك حداد كما ذكرنا قبلاً "التجزئة تبدأ من اللغة لتصل إلى الثقافة وفي النهاية إلى السياسة فالتمزق يبدأ من اللغة وينتهي إلى الهوية فالوحدة، فالفرقة لا تنشأ وحدها، ولكن لعوامل كثيرة مثلها مثل الوحدة تماماً"<sup>(3)</sup>، وما يميز العالم العربي والإسلامي والوطن الجزائري مثل بقية الأمم والشعوب هو كثرة اللهجات العامية وإختلافها من قطر إلى آخر، بل في البلد الواحد، بل في القرية الواحدة. فعندما يصبح لكل قطر عاميته يعني تمزيق الوحدة اللغوية للعرب والمسلمين التي تعتبر مكسباً لا نظير له، وجعل كل قطر يجهل لغة القطر الآخر فيتحطم العمق الإستراتيجي والبعد الحضاري نجميسع، بل يصل الأمر أن القرية الواحدة يصبح لكل قسم منها لغته الخاصة لأننا نجد إختلاف اللهجة حتى في القرية الواحدة، مما يجعلنا في حاجة إلى تخصيص مدرسين ومعلمين لكل جزء من القرية ليعلموا أطفالها لغة أمهاتهم، ومثال ذلك فإن القرية التي ولدت بها رغم تناهياها في الصغر وأن جميع سكانها من عائلة واحدة ويحملون نفس اللقب إلا أن هناك بعض الفروق في لهجتها، قسم منها يسمى أخ الأب، "عمي"، والقسم الآخر يسميه "دادة" وبالإعتبار السابق "لغة الأم" فإن قسماً من قريتنا يحتاج إلى معلم يعلمه أن أخ الأب هو "دادة" لأنه لو علم الجميع بأن أخ الأب هو العم فإن قسم "دادة" سينشأ معقداً، ولو علم الجميع أن أخ الأب هو "دادة" فإن قسم "العم" سينشأ معقداً، فمن ذا الذي ينكر بعد اليوم فترة قريفوا ودعاة الحركة البربرية على الخلق والإبداع؟ إن هذا لشيء عجاب.

(1) عبد الله بوعلمال، مقابلة في جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 05 أبريل، 1994.

(2) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 142 ، 143.

(3) عبد الله ركي، المرجع السابق، ص 190.

وفي هذه الأحوال ستفقد الأمة عاملاً من أهم عوامل إرتباطها ومسهل لتفاهمها إذ باللغة الفصحى لا يجد أي واحد صعوبة في فهم الآخر وتفهيمة من المحيط إلى الخليج بل وما وراءها من أخصار المسلمين، وذلك عكس ما إذا أصبحت العاميات لغات<sup>(1)</sup>.

4- التأخر العلمي الذي ليس له نظير، بسبب فقر اللهجات العامية وعجزها عن أداء مهمتها من حيث الدقة والتعبير عن مختلف المعاني بأساليب مناسبة حيث لا بلاغة لها ولا استعارة، ولا كتابة ولا إشتقاق ولا نحو ولا صرف إلخ. فإذا كان دعاة العامية يتهمون الفصحى بالتقصير وهي ما هي، فهل تستطيع العاميات مواكبة العصر والتقدم العلمي؟.

5- ضياع تاريخنا وأدينا وديننا وثقافتنا وجميع تراثنا المدون في أمهات الكتب منذ 14 قرناً، لأن استبدال العامية بالفصحى يتمخض عنه أن يصبح كل التراث المكتوب بالفصحى نسياً منسياً<sup>(2)</sup>، وينقطع الاتصال والتواصل بين الناشئة وأبائها فيصبحون بلا تاريخ، بلا ماضي، بلا هوية، كما وقع للأتراك، وساعتئذ يصبحون أرضاً خصبة للمبشرين.

6- الدعوة إلى كتابة العامية باللاتينية، إضافة إلى استعالة ملاءة ذلك لعدم وجود أي شبيه بين مقاطع العامية القابلة للإستعراب، وبين الحروف اللاتينية الغارقة في الإستعجاب بالنسبة إلى تلك المقاطع، سواء من حيث المبنى المنطوق أو المعنى المقصود، فإنه توجد حروف عربية بالعامية لا مثيل لها في اللاتينية كالعين والحاء، وغيرهما، كما أن رسم العامية باللاتينية يصعب قراءتها ويذهب بروحها الكامنة في صيغها ومقاطعها المستعربة مما يفقد المتكلم سر التعبير عن أفكاره وعواطفه. كما أن الحروف العربية وضعت مباشرة وفق النبرات الصوتية المسموعة من العرب بالأصالة عكس اللاتينية<sup>(3)</sup>.

والغرض من هذه الدعوة هو أن يجعلوا بين العرب وتراثهم الإسلامي العربي حجاباً مستوراً لأنه عندما تفرنج اللغة يجعل من المستحيل على الأجيال اللاحقة أن تفهم دينها وتراثها المكتوب بالحرف العربي المقدس كما وقع في تركيا فأصبح إنسانها الذي لازال يقنات على ما تدره الآثار الإسلامية من السياحة للآثار الإسلامية عاجزاً عن قراءة تراثه العظيم فجعله ذلك يتنكر للخلافة العثمانية التي جعلت بلادها ذات يوم الدولة الأولى في العالم، وقد بين هذه الحقيقة المستشرق الإنجليزي مايكل ماكديونالد<sup>(4)</sup>، بقوله: "إن كتابة العربية بالحروف اللاتينية يفقدها خصائصها ويحد من مرونتها وسهولة إستيعابها، إلى جانب أن عملاً مثل هذا سوف يقطع الصلة بين المسلمين وتراثهم كما حصل في تركيا مثلاً، فعندما تغير الحرف

(1) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 145 ، 146.

(2) المرجع نفسه، ص 150 ، 151.

(3) المرجع نفسه، ص 150 ، 155.

(4) هو مستشرق إنجليزي من أصل إسكتلندي، ولد بمدينة "ليدز" الإنجليزية عام 1937م، حصل على شهادة البكالوريوس في الأديان العربي والفارسي من جامعة كامبرج عام 1961م، والدكتوراه عام 1966م، من الجامعة ذاتها، يعمل محاضراً بقسم الدراسات العربية والإسلامية منذ عام 1964م، ومديراً للمراجع الدراسية بالقسم نفسه، يبيد مجموعة من اللغات كالعربية والفارسية وله دراسات في الأدب العربي (المستشرق ماكديونالد للأمة حوار أجراه معه عمود الحان، مجلة الأمة، قطر، أكتوبر 1982م، ص 2، س 2، ع 24، ص 34).

العربي إلى الحرف اللاتيني أصبح المسلم التركي يقف أمام تراث أبائه وأجداده حائرا دون أن يستطيع الاستفادة منه ولا فهم شيء مما ورد فيه، والتراث الإسلامي تراث إنساني فلا حاجة للتفريط فيه<sup>(1)</sup>، ولهذا السبب فإن الغربيين الذين طوروا لهجاتهم إلى لغات فإنهم أخذوا شيئين أساسيين في الاعتبار:

أ- الحفاظ على روحها اللاتينية.

ب- الإبقاء على الخط اللاتيني.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق:

- أن الهدف هو هيمنة الحرف اللاتيني لأن هيمنته تعني هيمنة الحضارة الغربية وروحها: نصرانية على جميع الأمم والشعوب ولا سيما العرب المسلمين، ومن هنا فإن الهدف من كتابة العامية العربية بالخط اللاتيني هو محو الحضارة العربية الإسلامية لأن الخط العربي من أهم مميزاتها، ومن الأدلة على هذا فإن اليهود عندما أحيوا لغتهم العبرية الميته لم يطالبوا كتابتها بالخط اللاتيني ولا بتحويل اتجاه كتابتها الذي هو كالعربية من اليمين إلى اليسار، لأن ذلك يعني التناقض بين السابق واللاحق والحضارات لا تبني بذلك، بل بالتواصل بين أجيالها وتراثها لأن من لا ماضي له لا حاضر ولا مستقبل له، وبهذا فإن تغيير الحرف من العربي إلى الفرنسي أو اللاتيني يعني تغيير الإنتماء الحضاري والإقرار بالتبعية للفرنسيين أو اللاتينيين، وهو ما يتناقض مع أصل الدعوة الزاعمة بأنها الرجوع إلى الأصالة والعودة إلى الذات.

- بقدر تنكرهم للحرف العربي تعصبهم للفرنسة، وهذا يتناقض مع فكرة الأصالة أو العودة إلى الأصل، لأن الذي يعود إلى أصله لا يرتمي في أحضان أعدائه التاريخيين ليتقمص شخصيتهم فيتحلل ولا ينحل.

- التنكر للحرف العربي والرجوع للفرنسة يعني الانتقال من مرحلة انحرية إلى مرحلة العبودية والسرقة الجديد والتبعية والتقليد الأعمى. وهذا يتناقض مع إبداع الحضارات، لأن التحضر لا يبني على التقليد والتبعية، بل على الإنطلاق من الذات.

- يلاحظ التناقض الصارخ في موقف نصارى العرب القوميين، فهم من جهة ينادون بالقومية العربية، ومن جهة أخرى يعملون بلا هوادة على تحطيم اللغة العربية التي هي من أهم أسس فكرة القومية العربية عندهم، وذلك بالدعوة إلى العامية والحرف اللاتيني بدل العربي.

- في الموقف الذي يعمل فيه الغرب بلا هوادة، ومباشرة وبواسطة ذبوله لإماتة اللغة العربية بحجة تخلفها وأنها سبب تخلف أصحابها، يعمل بلا هوادة بمستشركيه وإكليروسه وأذنايه في اتجاه موارد على إحياء اللهجات المحلية لكل منطقة، فهل تلك اللهجات هي التي تجعل أهلها متقدمين؟ إنه العجب العجيب.

- عندما يحلون الدارجة محل الفصحى ما هي المرجعية الفكرية والثقافية التي يستندون إليها في ذلك، بعبارة أخرى، ما هي المراجع والكتب التي سيرجع إليها الطلبة مثلا، والتي تكون رصيدهم العلمي؟ وكذا التي يدرس منها الأساتذة؟ الجواب لا وجود لأي كتاب محترم، إن هل نترجم؟ وإذا كنا نترجم فما هي الكتب التي نترجمها الفرنسية أم العربية؟ وإذا نترجم العربية فلماذا لا ندرسها هي؟ بل إننا نؤخر أسسنا

<sup>(1)</sup> المستشرق ماكرونالد للأمة، المرجع نفسه، ص 33.

فرونا لا نهائية لتعلم الخطأ. ثم ما هي الحروف الجزائرية التي نكتب بها العامية؟ هل نكتبها بالفرنسية؟ ثم إن العامية محرفة عن العربية فلماذا بدل أن نعلم الإنحراف والمعوج وهذا مرفوض تربويا نقوم لسان التلميذ بتعليم الكلمة العربية الصحيحة.

وما يقال عن العامية يقال عن القبايلية.

إن الغرض واضح من هذه الدعوة، هو تحطيم القرآن الكريم بتحطيم لعنه.

ونختم حديثنا عن العامية بالإشارة إلى أن الدعوة إليها فشلت في المشرق العربي، وهي فاشلة في مغربه، ولكننا هنا نشير إلى أنه لما فشلت الفكرة اتجه أصحابها إلى الميدان الفني فكرسوا فيه العامية في الميادين الآتية:

- ميدان السينما جزائرية وعربية وهي لها تأثير كبير، وكل واحد يدرك مثلا كيف أصبح الجزائريون يعرفون العامية المصرية من خلال المسلسلات أولا ثم الأفلام.

-ميدان المسرح: وهو كذلك كرس في العامية .

ونتصور لو أن المسلسلات والأفلام والمسرحيات كانت ناطقة بالفصحى فأي أثر إيجابي تحدثه، ولكنها حوربت فيها الفصحى وكرس فيها العامية في كل أقطار العالم العربي إلى ما ندر. وحجة هؤلاء صعبة الفصحى وعدم فهمها عكس العامية، والإنسان يستغرب ويتساءل هل الفصحى أصعب على فهم الإنسان الجزائري من العامية العراقية أو السورية؟ أو الخليجية؟ إن الإنسان الجزائري أقدر على فهم الفصحى حتى من عاميته، وقد رأينا أثر الفصحى من خلال بعض الأفلام والمسلسلات الدينية الناطقة بالعربية الفصحى كيف كان الإنسان الجزائري يتفاعل معها ويتأثر ويتشوق لعدم نهاية الفيلم أو المسلسل وكذا بعض المسلسلات ذات الطابع العربي مثل مسلسل " الشنفرة".

فقد ظهر أثر فهم الناس له حتى الصبيان من خلال سلوكهم وتقمصهم لشخصية الشنفرة في مشية وسلوكه وكلامه.

- ميدان الغناء : وهو كذلك ميدان مؤثر جدا كرس فيه العامية وحوربت الفصحى، ويذكر الموسيقار الجزائري معطي بشير في سياق محاربة اللغة العربية الفصحى على مستوى الغناء أنه وقعت مشكلة كبيرة في السبعينيات في استديو التلفزيون الجزائري أثناء تسجيل أغنية للمطربة الجزائرية صليحة الصغيرة لأن كلمات الأغنية كانت بالفصحى، وحجة الذين عملوا على منع تسجيلها أن الأغنية يجب أن تكون بالعامية، وبعد عراق كبير سجلت الأغنية بالفصحى وكان لها صدى واسع في الجزائر والعالم العربي، ومن الذين أعجبوا بتلك الأغنية كثيرا عبد القوي مكاوي<sup>(1)</sup>.

(1) معطي بشير، حصة قدمها التلفزيون الجزائري عبارة عن مقابلة مع نجمة الصغرة، في سهرة يوم 23 جانفي 1996 في الساعة العاشرة ليلا.

### المبحث الثالث

#### 3- محاربة اللغة العربية بالندوة لإحياء اللهجة القبائلية

##### المكتوبة بالفرنسية محل العربية الفصحى

لقد تبين لنا قبلا ما فعله دعاة الحركة البربرية من عنف وتدمير ونشاط لتعطيم لغة الأقران الكريم والدعوة لإحياء العامية محلها وكذا اللهجة القبائلية تحت غطاء " الأمازيغية " ، وذكرنا كذلك أن الهدف من كل هذا لا العامية ولا الأمازيغية ولا القبائلية، بل الفرنسية، وهو ما يجعلنا نختصر الحديث عن إحلال القبائلية محل الفصحى ولنحلل ذلك بإيجاز.

يرى دعاة الحركة البربرية أن اللغة البربرية - القبائلية - هي لغة سكان إفريقيا الشمالية الأصليين وما عداها من اللغات باستثناء الفرنسية، فهو دخیل يجب زواله<sup>(1)</sup>، ويقصدون بذلك اللغة العربية الفصحى، ولقد بينا قبلا ما فعلوه بها وما يريدون لها من إماتة أبدية، ولقد عبر عن هذا الحقد الدفين تجاهها ابن العقيد عميروش بقوله : " إننا كقبائل تكافح لهدف واحد، وهو محاربة هيمنة العربية"<sup>(2)</sup>. ولما كانت القبائلية برموز التيفيناغ غير وافية بمقتضى حياة العصر قرروا أن يخترعوا لها رموزا إصطناعية لتقصها مبنى ومعنى<sup>(3)</sup>، وهذا قبل أن يقرروا كتابتها باللاتينية أي بالفرنسية، وهو ما قرره المحافظ السامية للأمازيغية في شهر ماي 1998 م<sup>(4)</sup>. وقبل مواصلة حديثنا عن هذه اللهجة نشير إلى أكلوبة أصل السكان.

**أكلوبة أصل السكان:** أقوال المؤرخين متضاربة في شأنهم، فالمؤرخون غير الفرنسيين يعتبرونهم من أصل عربي، وردوا من المشرق في القديم من أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، وهاجر بعدهم أقوام متعددة في أوقات مختلفة منها قبائل فلسطينية وعرب يمانيون جاءوا مع "أفريقيش" أحد ملوك اليمن التابعة في غزوة لليبيا، وأعجبتهم البلاد فاستوطنوها فكان منهم قبيلتنا كرامة وصنهاجة على قول الدبري وغيره من النسابين<sup>(5)</sup>. ويؤكد وجهة النظر هذه أن رموز تيفيناغ التي وضعها شارل دوفوكو من خلال ما وجدته من حفريات في طاسيلي، وتمنراست هي نفسها رأيناها منقوشة في آثار سد مارب في شريط تافزيوني بعنوان " الأرض المجهولة"<sup>(6)</sup>. وزاد هذا تأكيدا ما أورده التلفزيون الجزائري أيضا أثناء حديثه عن اكتشافات أثرية هامة في اليمن قام بها علماء فرنسيون وإيطاليون، عن حضارة أو مملكة سبأ التي غرقت في البحر: رسوم هي نفسها التيفيناغ تقريبا<sup>(7)</sup>.

(1) محمد بن عبد الكريم، الثقافة وماسى رجالها، ص 155.

(2) عثمان سعدي، البربر والوعرة البربرية، جريدة النصر، 19 ديسمبر 1991، ع 5623، ص 7.

(3) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 155.

(4) التلفزيون الجزائري، نشرة الأخبار، 5 ماي 1998، الساعة 8 مساء.

(5) محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخراس، ص 31.

(6) قمر الصغدي وهشام هندي، " الأرض المجهولة " ترجمة ليلي الصغدي، التلفزيون الجزائري الإثنين 11 / 7 / 1994 الساعة 12 لحرا.

(7) التلفزيون الجزائري، نشرة الأخبار، 06 فيفري 1998، الساعة 8 مساء.

وهذا ليس له إلا التفسير الآتي في نظرنا : إما أن أصل سكان الجزائر أي البربر أصلهم عرب أتوا من اليمن، أو أن أصل سكان اليمن من الجزائر، أي هاجروا من الجزائر واستوطنوا هناك، وهم الذين بنوا سد مأرب. ولما لم يقل أحد من المؤرخين بهذا القول الأخير يبقى الرأي الأول هو الصواب، وهو أن أصل سكان الجزائر عرب يمانيون.

ويؤكد وجهة نظرنا هذه الحصار المضروب من المفكرين الفرنسيين على هذه القضية ومن الأمثلة عليه، الحادثة الآتية .

في سنة 1978 ذهب طالبان جزائري ويمني إلى جامعة مونيوليبي 3 "Poul Valery" قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا واتصلاً برئيسه جون سيرفي Jean Servier بغية تسجيل رسالة في الدراسات العليا "Maitrise" في موضوع مشترك، عن "أفخاض القبائل التي هاجرت إلى المغرب العربي من اليمن قبل الإسلام، فرفض جون سيرفي رئيس القسم الموضوع، وحاول إجراء تحقيق مع الطالبين حول سبب اختيار الموضوع، وأخبرهما بأنه متخصص في منطقة بلاد القبائل واقترح على الطالب الجزائري تسجيل موضوع معه حولها. أما الطالب اليمني فقد أصر على نفس الموضوع فسجله معه، وظل معه 3 سنوات كاملة دون أن يتمه لكثرة ما أثره له من عراقيل ومشكلات، فاضطر إلى تحويل الجامعة نفسها. وقد تبين للطالب الجزائري أن الأستاذ جون سيرفي كان يعمل في الجيش الفرنسي، وكان مساعدا كبيرا للعقيد موريس بيجار (M.Bigeard) المشهور، وهو الذي اقترح على وزارة الدفاع الفرنسية قبل العقيد بيجار فكرة إنشاء "الحركة" في الجزائر لتقويض الثورة الجزائرية، أي إشراك الأهالي في التصدي للثورة. هذا ما بينه أحد الطلبة الجزائريين الدارسين في تلك الجامعة عن حقيقة الأستاذ جون سيرفي. وقد تبين أنه يشرف على مجموعة من الطلبة القبائل، وكلهم متجنسون بالجنسية الفرنسية، وكلهم بإشرافه يخدمون القضية البربرية الانفصالية، وهو على اتصال معهم بالأكاديمية البربرية، وعندما تقاعد خلفه على رئاسة القسم تلميذه القبائلي المتجنس بالفرنسية السيد خليل محند<sup>(1)</sup>.

ونضيف إلى هذا أن مصطلح الشريف أو الأشراف المنتشرة في بلاد القبائل تعني أنه أو أنهم من آل البيت<sup>(2)</sup>، ومنها المنطقة المسماة بـ "الشرفة" بولاية بجاية، مما يعني أن أصل سكان الشرفة آل البيت لا يوغورطا ولا ماسينيسا، وهذه مهمة جدا في نسب البربر.

ونضيف إلى هذا أن من جرائم فرنسا في الجزائر تغييرها أسماء القبائل التي ترجع إلى الأصل العربي بأسماء أخرى، ومن ذلك أنها غيرت اسم قبيلة "بني هذيل" الموجودة بنتمسان إلى اسم "عين الغرب" وقبيلة "بني هذيل" قبيلة عربية مضرية تتحدر من هذيل بن مدركة بن إلياس، هاجرت من الحجاز،

(1) استحواب مع د / ..... بحضور الأستاذ يوسف عابد، معهد الحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الثلاثاء 23 رجب

1415 هـ / 1994/12/27 م، الساعة 12 زوالا.

(2) الفرد بال، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 422، 423.

ورافقت بني هلال في القرن 5 هـ / 11م، واختلطت بالبربر وامتزجت بهم وامتزجوا بها<sup>(1)</sup>، وذلك بهدف طمس جانب العروبة خدمة للقضية البربرية.

يضاف إلى ما سبق، التوافق التام بين العرب والبربر فيما يأتي وغيره.

- طبيعة الجغرافيا الجزائرية هي نفسها طبيعة جغرافية شبه الجزيرة العربية، مثلاً: الصحراء هنا وهناك، الجبل هنا وهناك، بشرة السكان وسماتهم هي هي، المزاج هو هو، العادات والتقاليد هي هي.

بينما طبيعة جغرافية أوروبا تختلف عن طبيعة جغرافية الجزائر فلا صحراء هناك ولا جبل، وبشرة السكان والمزاج والعادات والتقاليد وطريقة التفكير كل هذا مختلف.

وخلاصة هذا أننا لو وضعنا قبائلياً وسط عرب ما ميزناه منهم ولو وضعنا عربياً وسط قبائل ما ميزناه منهم، ولو وضعنا قبائلياً وسط مليون فرنسي ما جهلناه، بل لأدركناه لأول وهلة، ولو وضعنا فرنسياً وسط مليون قبائلي لأدركناه لأول وهلة.

بعد هذا نتساءل :

هل البربرية هي أول ما تكلم به سكان شمال إفريقيا؟ والجواب أن علماء التاريخ لم يثبتوا أنها أول ما تكلم به سكان شمال إفريقيا، وأقصى ما أثبتوه أن المنطقة سكنتها عدة أجناس منها قبائل البربر الذين سبقهم إلى المنطقة العنصر الزنجي النازح من وسط الصحراء كما بين هيرودوتس<sup>(2)</sup>، يضاف إلى ما ذكرناه قبلاً من أن كلمة بربر ذاتها عربية الأصل.

والذي يهمنا نحن ليس هل هم السكان الأصليون أم لا، وهل هم من أصل عربي أم لاتيني؟ الذي يهمنا أنهم أسلموا جميعاً وتعرب لسانهم بالإسلام فأصبحوا مسلمين عربياً بهذا التصور. وأن الجزائر من بلدان العالم الإسلامي القليلة التي لم يكن بها قبل الاستعمار الفرنسي أي نصراني من أصل جزائري، وأن فرنسا عملت على إرجاعهم إلى النصرانية فأرجعوا عن الجزائر وتمسكوا بدينهم وبلدتهم العربية، وليسو كان العرب مستعمرين والإسلام استعماراً لارتد البربر على أديارهم بمجرد وطء أقدام الفرنسيين تراب الجزائر في سنة 1830م.

ومن هنا نعود إلى الحديث عن البربرية :

اللغة البربرية : يذكر بعض المؤرخين أنه كان للبربر لغة مشتقة من الليبية وقريبة من المصرية، تفرعت إلى لهجات مختلفة بعضها عن بعض أهمها الزناتية والصنهاجية تسمى "تمازيغت"، أي لغة الأمازيغ، وهي بسيطة جداً بسبب بساطة حياة البربر مما جعلهم يعمدون إلى الاقتباس من لغات الشعوب التي اتصلوا بها لتعويض ما يوجد بلغتهم من عجز فتأثرت "تمازيغت" كثيراً بلغات أثينيين والإغريق والرومان والوندال والمصريين. ورغم هذا التأثر، فقد ظلت البربرية فقيرة معنوية ومبتنىة، فلا تتسع

(1) المرجع نفسه، ص 434.

(2) بعد من أشهر رحلات اليونان وأكبر مؤرخيهم، بلقب أبي التاريخ، "له كتاب التاريخ" الذي يعد من أهم المراجع القديمة لمعرفة أحوال البشر الأقدمين دون فيه أخبار الأمم السابقة وأساطيرها، ولد سنة 484، وتوفي سنة 425 ق.م، (محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، هامش رقم 1، ص

للمعاني التجريدية ولا للتأليف، فظلت دون مستوى اللغة الراقية لذلك العهد، مما اضطر المتقنين البربر إلى الالتجاء للغات الأجنبية آنذاك<sup>(1)</sup>.

وكان للبربرية خط لا يزيد على 10 حروف اقتبسوها من المصريين، فقام ماسينيما في القرن 3 ق.م وأضاف له حروفا أخرى على نمط الحروف الفينيقية فأصبحت حروف البربرية 23 حرفا، وبذلك يعد ماسينيما مخترع الخط البربري، متأثرا بوالده "غولا" لاسيد نوميديا الذي كان معجبا بالحضارة الفينيقية فأرسل ماسينيما إلى قرطاجنة ليتعلم، فأدرك ماسينيما أن تفوق قرطاجنة الحضاري والاقتصادي ناتج عن تطورهما الثقافي، فأراد أن يجعل نوميديا مضاهية لها، فاخترع الخط لأنه عماد الثقافة، كما أرسل البعثات العلمية بعد ذلك إلى قرطاجنة ليعودوا ينشرون العلم والثقافة.

وهنا نقدم ملاحظة مهمة هي أن ماسينيما تعلم اللغة الفينيقية في قرطاجنة وكذا البعثات التي أرسلها، ولكن الفينيقيين نتيجة لاختلاطهم بالبربر تطعمت لغتهم بكثير من الكلمات البربرية واهجتها، فصارت الفينيقية تسمى لهذا السبب "اللغة البونيقية"؛ لأنها مزيج من اللغتين، ولما رجعت بعثات ماسينيما أخذت تنشر تعلم باللغة البونيقية التي أصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة، وبها قدم ماسينيما تحياته إلى الآلهة مقدسة، بجزيرة مالطة، وبها كتب اسمه على النقود. وبهذا نجد "أن ماسينيما رغم تحالفه مع روما، لم ينشر اللغة اللاتينية في بلاده- وهذا مهم جدا لأنه ضد دعاة الحركة البربرية اليوم لأنهم قرروا كتابة القبائلية باللاتينية- بل نشر اللغة البونيقية وتبنى الحضارة الفينيقية- لا الحضارة اللاتينية- أما كنافذة على الخارج فقد إختار اليونانية، وكان هو شخصيا يتجاوز بنظراته آفاق روما ليرتد إلى الشرق إلى تاني ويستفيد من تجارب أولئك الملوك اليونان الذين لم تكن روما قد سيطرت عليهم بعد<sup>(2)</sup>. ونستنتج من هذا النص شيئين أساسيين لا يخدمان الحركة البربرية رغم ادعاء أصحابها الانتماء إلى ماسينيما، هما :

1- ماسينيما كان ضد اللاتينية، فلم يتبناها، بل حاربها. وهذا عكس دعاة الحركة البربرية وعلى رأسهم المحافظة السامية للأمازيغية التي قررت كما ذكرنا استخدام الخط اللاتيني، الذي جعلوه غطاء للفرنسية؛ لأنهم يدرسونها ويكتبونها ويقرأونها بالفرنسية، وقد اطلعنا على هذا من خلال بعض المطبوعات التي يدرسون منها القبائلية بجامعة تيزي وزو.

2- ماسينيما لم يستخدم الأمازيغية ولم ينشرها، بل استخدم البونيقية وولّى وجهته للشرق لا إلى الغرب. فهل دعاة الحركة البربرية اليوم أكثر وطنية وأصالة من ماسينيما!.

وإذا كان ماسينيما قد أخذ اللغة البونيقية فإن الأمراء والأعيان لم يأخذوها فحسب، بل تعاطوا أيضا الأدب القرطاجي وأتقنوه، وهو ما جعل البونيقية تنتشر إلى حد أن الرومان كانوا يلجئون إلى مترجم يعرف البونيقية عندما يضطرون لمخاطبة البربر، بل نجد القديس أوغسطين ذاته عندما كان أسقف هيبون قد

(1) كان ماسينيما وكذا البربر- وثنين في بملهم- ودعا قومه أن يعبدوا آلهة قرطاجنة وأثينا وروما، وبقي البربر وثنين إلى أن جاء الإسلام (محمد

الطمار، المرجع السابق، ص 39 - 42).

(2) مولود فاسم يتبنى هذا الرأي وقد أخذه كما بين من كتاب



اتخذ أساقفة يتقنون اليونانية لينشر بها النصرانية، والذي يدعم هذا التشابه الكبير بين حروف الخطين اليوناني والبربري، ولقد عثر الباحثون على 500 كتابة في مختلف مناطق الجزائر، فوجدوا أن ذلك الخط مازال موجودا في المناطق الصحراوية عند التوارق ويسمى "تيفيناغ"، غير أن هذا الخط يستحيل تدوين الكتب به على قول فوكولد "Foucould".

ويلاحظ أن الأدب البربري لم يدون أي شيء منه<sup>(1)</sup>، "فإن قلة حظ الكتابة عندهم وانحلال اللغات لم يعيننا أدبهم على البقاء والوصول إليها، فأدبهم -إن كان موجودا- كان أدب المناسبات ولا يعتمد إلا على الحفظ، فمن البديهي أن يزول ويذهب بذهاب المناسبات"<sup>(2)</sup>. وبهذا فإن الأمازيغية الصرفة لم يكتب نسبا للوجود أصلا كلغة للكتابة والتواصل، وكل ما كان منشرا هو اللغة اليونانية التي كانت أيضا لغة شفاهية أكثر منها لغة كتابة، ولا أدل على هذا أن كبار المتقنين لم يكونوا يكتبون بها، فقد ذكرنا أن أوغسطين لم يكن يستعملها، وإنما اتخذ ترجمة لينشر فقط النصرانية من خلالها. كما أن يوبا الثاني<sup>(3)</sup> الذي كان يحسن اليونانية التي كانت منتشرة في الشواطئ والداخل وضع تأليفه كتبها بالإغريقية، بل لم يكتب حتى اسمه على نقوده باليونانية، بل باللاتينية.

وخلاصة القول: أن اليونانية انتشرت في الوسط الجزائري وظلت به أكثر من 6 قرون بعد سقوط قرطاجة، بل إلى أن جاءت اللغة العربية<sup>(4)</sup>، ولذلك يكره دعاة الحركة البربرية اللغة العربية، وكان المنطق يقتضي أن يكرهوا اللغة الفرنسية أيضا لأنها دخيلة، ولكنهم لا يكرهونها لأنهم نشأوا في أحضان فرنسا فنشأتهم على الحقد على كل ما هو عربي وإسلامي. وهنا نلاحظ ملاحظة هامة جدا، هي أن البربرية ليست لغة السكان الأصليين، لأن البربرية هي الفينيقية المطعمة بالكلمات البربرية، ومعنى هذا أن التيفيناغ الحالية ليست هي لغة السكان الأصليين. فلماذا إذن يحاربون العربية بحجة أنها دخيلة ولا يحاربون التيفيناغ أو البربرية مع أنها دخيلة كذلك؟. ويمدنا محمد الطمار بملاحظة أخرى لا تقل في نظرنا أهمية عن ملاحظتنا السالف ذكرها، وهي أن البربر الذين كانوا يعيشون في المدن جنبا إلى جنب مع الرومان اضطروا إلى تعلم اللاتينية لأنها لغة التخاطب في الأسواق والمحاكم والإدارات والمدارس، ولكن الشعب في البوادي والجبال ظل بعيدا عنها، والذين تعلموا اللاتينية من غير المدرسة تعلموا اللاتينية

(1) عمد الطمار، المرجع السابق، ص 33، 34، 39-41.

(2) المرجع نفسه، ص 33، 34، 39-41.

(3) هو ابن يوبا الأول، ولد سنة 50 ق.م، وفي سنة 46 ق.م، توفي والده، فأخذه "بوليوس قيصر" وتبناه، وسماه يوبا إحياء لاسم أبيه، فنشأ نشأة رومانية فترقى على حب العلم، واصف شخصيته الحربية حتى لا يفكر في الثورة على الرومان، نشع بالثقافتين واللغتين الإغريقية واللاتينية، جلس على عرش أبيه ووضع تأليف شتى في مختلف العلوم كلها بالإغريقية، ورغم ثقافته الراضة إلا أن الرومان حققوا فيه هدفهم ومشروعهم الاستعماري، وذلك بجعله لا يبالي بما يعانيه شعبه الجزائري آنذاك من بطش الاستعمار الروماني الذي كان رازحا تحت، فكان المعمرون الرومان يسحرونه في مزارعهم ومعاملهم ويمتصون دماؤه، وهكذا أهل يوبا II رعيته ورمائها في حمأة العبودية من جهة، ومن جهة أخرى أراد أن يثبت فيها حب الثقافة والثقافة تتنازل والعبودية، وبذلك كان يوبا II متقفا ثقافة واسعة ولكنها غير واعية فكانت ثقافة سلبية لأنه لم يدرك قيمة الشخصية الإنسانية، وإلا لأدرك قيمة بلاده وقيمة رعيته، فلا يسعى في تخدير عقولها، ومن ثم لا يكون ضدها وضد كتابها فيعمل على تحرير الشعب من عبودية الرومان، (محمد الطمار، المرجع السابق، ص 59).

(4) المرجع نفسه، ص 52، 53.

الدارجة- فهل مقصد دعاة الحركة البربرية اليوم من كتابتها باللاتينية هو الرجوع إلى هذه المرحلة من الإستعمار؟ وعلى كل حال - وهذا هو المهم في الملاحظة - أن الرومان لم يؤثرُوا على البربر في اللغة تأثير القرطاجيين مع أن اللغة اللاتينية أوسع، والسر في ذلك أن البربر لم يروا في القرطاجيين مطامع إستعمارية فأقبلوا عليهم وأن الرومان احتلوا أرضهم ليستغلّوهم ويستعيدوهم فنقروا منهم<sup>(1)</sup>. وإذا كانت هذه نظرة البربر إلى القرطاجيين، وكانت علاقة البربرية بالفينيقية ما ذكر، فما هي علاقة البربرية بالنسبة العربية؟

علاقة البربرية باللغة العربية: يذهب محمد بن عبد الكريم الجزائري إلى أن أصل ( اللغة ) البربرية عربي، تبرر بسبب كثرة اختلاط سكان شمال إفريقيا مع مختلف الأجناس المتوالية على إحتلال بلادهم، ولقد أتى هو وغيره ببراہين على عروبة سكان الشمال الإفريقي لغة وجنسا، منها :

1- تلت مفردات البربرية عربي النزعة<sup>(2)</sup> وذهب عثمان سعدي وهو الشاوي الفح أن الكلمات البربرية الصريحة تمثل نسبة 90 % من قاموس البربرية، وقد أتى بنماذج لكلمات بربرية ذات صلة بالعربية من لسان العرب لابن منظور<sup>(3)</sup>.

2- عدم وجود ما يقابل المفردات العربية الموجودة في البربرية إن أريد حذفها وتعويضها بالبربرية، ومن ذلك أسماء الأسبوع بالبربرية، فهي عربية ولا وجود لما يقابلها بالبربرية<sup>(4)</sup>، وكذلك الأعداد فهي عربية ولا وجود بالقبائلية سوى " يونّ"، أي واحد، و"سين"، أي إثنين، ويبدو أن لفظة " سين" محولة عن لفظة "اثنين" وهذا لا يدل إلا على عروبة البربر بالأصالة، ولقد أشرنا إلى العلاقة بين التيفيناغ وما يوجد من نقوش في آثار سد مارب، إذ لا يمكن لأي جنس من البشر أن يستبدل لغة أجنبية بلغته الأصلية دون أن يبقى ما يقابل المستبدل في المستبدل به لفظا ومعنى، وهذا هو الموجود في جميع اللغات الحية الحديثة المتفرعة عن اللغات الأصلية القديمة. ويبدو ذلك جليا في اللغات الأوروبية الحديثة المتفرعة عن اللاتينية واليونانية القديمتين، فإنهما كما يقول محمد بن عبد الكريم مازالتا محتفظتين بأصل الاشتقاق ومعناه.

هذا ولقد أثبت علماء أصول اللغات الصلة الوثيقة بين البربرية واللغات السامية والحامية. ذلك أنه يوجد تشابه كبير بين السامية والحامية من حيث الشكل وحركات الإعراب يجعل من المتعذر على بعض علماء الأجناس والمؤرخين الأجانب الذين يحاولون لأغراض إستعمارية ربط البربر بأصل أوروبي أن ينكروا علاقة البربر باللغات المذكورة، حتى لغة الطوارق التي يزعم بعض هؤلاء أنها أقل اللهجات البربرية تأثرا بالعربية؛ لأنها وجدت بها أصول عربية ترجع إلى 200 سنة ق.م، أي قبل دخول المسلمين إلى الجزائر بثمانية قرون كاملة، فالكتابة البربرية المنقوشة في بلاد الطوارق في هذا العهد تماثل ما وجد

(1) المرجع نفسه، ص 53.

(2) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 158، 159.

(3) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى عثمان سعدي، التعريب، ص 202، 203.

(4) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 158، 159.

منقوشا على الأحجار في حدود الصحراء العربية. كما وجدت عدة أثار للخطوط الحميرية بالشمال الإفريقي، منها العثور على قبر مكتوب فوقه بالحميرية في " قرطاجنة" منذ عدة قرون، كما اكتشفت نقوش حميرية في بعض قرى تونس وغيرها<sup>(1)</sup>.

3- وجود حروف في البربرية لا وجود لها سوى في اللغة العربية، وكل حروف كل منهما سهل النطق بها في الأخرى، مثل الضاد والعين والغين والطاء والحاء وجميع الحروف التي تكررت بها اللغة العربية، ومخارج الحروف في البربرية إنما هي عربية صرفة حتى أنك لا تجد فيها حرفا غير عربي، بل نجد أن البربرية هي لغة الضاد كالعربية، فيفرق البربر بين الضاد والطاء. فكلمة " الشظاظ" غير كلمة " أضرار" في النطق، ونسبة الكلمات العربية الصريحة تصل على حد قول عثمان سعدي إلى 90% من قاموس البربرية. وكلامه يعتد به؛ لأنه شاهد من أهلها<sup>(2)</sup>.

4- بنية الجملة البربرية كالعربية فعلية، أي تبدأ بالفعل، وتتوافق معها في سمات لا تعد ولا تحصى، منها التوافق في تاء التأنيث، واستعمال النون للربط، والضمائر المتصلة، والمشتقات التي تبدأ بالميم، وحروف "أبيت" وهمزة الوصل الخ. ونجد نحو البربرية وصرقها متطابقان مع نحر العربية وصرقها، ونجد بعض الأساليب النحوية السامية، أي العربية القديمة كالأرامية والفينيقية والكنعانية وغيرها مازالت تستعمل إلى اليوم في البربرية كحرف الإضافة "السين". ووزن " أفعال" متميز وكثير الاستعمال في البربرية، مثل (أغروم) و(أكسوم)، وهو لا يوجد إلا في لهجة حمير جنوب اليمن، ولقد أشرنا قبلا إلى الحفريات التي وجدت بشمال إفريقيا مكتوبة باللغة الحميرية - وهو ما يؤكد وجهة نظر المؤرخين المتمثلة في اعتبار البربرية من أصل عربي حميري<sup>(3)</sup>.

ومن هنا فالتعمق في البربرية والعربية يجد أن البربرية ليست سوى لهجة من اللهجات المنحدرة من العربية منذ القدم مثلها في ذلك كمثل الأكدية والبابلية والفينيقية والأشورية وغيرها من اللهجات السامية المشتقة من العربية القديمة<sup>(4)</sup>.

5- سرعة انتشار اللغة العربية وسط البربر بمجرد إمتزاجهم بالمسلمين الفاتحين لبلادهم عكس موقفهم من لغات الأجناس الكثيرة التي احتلت بلادهم، حيث أصبحت اللغة العربية عنوان شرفهم وشعار عربيتهم. ولا يمكن في نظر محمد بن عبد الكريم الادعاء بأن سبب ذلك هو اعتناقهم الإسلام؛ لأن سكان شمال إفريقيا اعتنقوا قبل الإسلام أديانا كثيرة ومع ذلك لم يتأثروا بلغات تلك الأديان التي دانوا بها قرونا عديدة، كما أن هناك شعوبا كثيرة في العالم اعتنقت الإسلام وليس يوجد في لغاتهم مفردات عربية بمقدار

(1) إبراهيم حر كات، المغرب عبر التاريخ، ج1، ص 27 - 29، عن محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 159، 160.

(2) وقد أورد عثمان سعدي كثيرا جدا من المفردات اللغوية التي هي هي، في العربية والبربرية، في كتابه " الأمازيغ البربر" في 16 صفحة كاملة، ابتداء من ص 75.

(3) ومن هؤلاء المؤرخين القاضي إسماعيل بن علي الأكوغ اليمني الذي نشر مقالا بمجلة المجمع العلمي السوري أبريل 1986م بعنوان " الأفعال وما جاء على وزنه في اليمن"، عثمان سعدي، التعريب، ص 203.

(4) ولقد قام عثمان سعدي بدراسة قيمة في إثبات العلاقة بين حروف التيفيناغ واللغات السامية والحامية، وأورد جداول مقارنة تبين أثر اللغات السامية والحامية في التيفيناغ (عثمان سعدي، الأمازيغ البربر، ص 75-76).

ما هو موجود في اللغة البربرية مما يدل على أصلها العربي<sup>(1)</sup>. ونحن إن كنا نتفق معه في أصل البربر العربي وهو ما سهل تعريبهم في الفتح الإسلامي، إلا أننا نعتقد أن اعتنائهم الإسلام عن بكرة أبيهم هو الذي حمسهم لمعرفة لغته والتباهي بها، بدليل أن دعاة الحركة البربرية اليوم يحاربون اللغة العربية.

6- وجود أسماء وألقاب عربية تسمى وتلقب بها البربر قبل الإسلام منها الكامن المشد بور موسى بن صالح، من "بني يفرن" وهو قبل الإسلام بكثير<sup>(2)</sup>، والكاينة التي يقدها دعاة الحركة البربرية بسبب حربها للمسلمين، فإن اسمها عربي، وكذلك اسم ابنها كسيلة. فلو لم يكن البربر عربا ما سموا أبناءهم بهذه الأسماء العربية التي منها أيضا زياد والد طارق بن زياد فاتح الأندلس<sup>(3)</sup>.

وتوصل مما سبق إلى أن البربر عرب، والبربرية لهجة من اللهجات العربية القديمة التي ظلت مستعملة بشمال إفريقيا ومصر وحضرموت إلى الآن، وهو ما أكدته:

- أندريه باسيه (A. Basset) الباحث الفرنسي المتخصص في البربرية " إن عدد اللهجات البربرية خمسة آلاف لهجة تقريبا، وكلها مضروبة (Frappés) بالطابع العربي"<sup>(4)</sup>.

- محرروا مادة (بربر) في الموسوعة الفرنسية (Universalis): " إن اللغة البربرية في استعمالها الحالي هي امتداد لصيغ اللغة العربية... و أن الآداب البربرية الهزيلة شفهوية البحتة تتكون من أساطير من الحيوانات، ومن قصص خرافية وأغاني تقليدية أو مرتجلة، والواضح فيها كلها أنها مستمدة من المشرق العربي"<sup>(5)</sup>.

- العالم الأمريكي ( غرينبرغ ) بين كثيرا من الصفات المشتركة بين العربية والبربرية في البنية اللغوية في كتابه " لغات إفريقيا". بل نجد أنه حتى كلمة "أمازيغية"، فهي عربية موجودة في لسان العرب، حيث ورد أن معنى الأمازيغ: الأقوياء الأشداء القلوب<sup>(6)</sup>.

وعلى ذكر الأمازيغية، فإن مصطلح "لغة أمازيغية"، يعد من المصطلحات الجديدة، لأن ما هو موجود في القواميس والكتب قديما وحديثا إنما هو البربر والبربرية مع الاختلاف في أصل بربر أعرب أم عجم<sup>(7)</sup>. وكلمة أمازيغية تشير إلى أنه سمي " بالأمازيغ الأحرار" نسبة إلى الجد الأول فيما يبدو، ودعاة الحركة البربرية هم الذين أطلقوا تمويهها اسمه على اللغة ونسبوا إليها، وسبب ذلك هو تشجيع الاستعمار الفرنسي للقبائلية لأغراض معينة<sup>(8)</sup>. ولما كان مصطلح القبائلية يجعل العملية مكشوفة من البداية، فقد جعلت الأمازيغية غطاء للقبائلية، والقبائلية غطاء للفرنسية، وهنا تتساءل:

(1) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 160، 161.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، م، ص 588، عن محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 162.

(3) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 162.

(4) عثمان سعدي، التعريب، ص 202.

(5) المرجع نفسه، ص 202.

(7) ولما كانت القضية موضع اختلاف إلى الآن فليس من المنطقي أن يزعم الإنسان الانتساب إلى عرق معين ويتعصب له والقضية لم تقسم بعد، إذ قد يكون أصله من العرق الذي يتعصب ضده، ولكن من ذا الذي ينكر نجاح المبشرين في هذه القضية؟

(8) عبد الله ركيحي، الفرنكفونية، ص 189.

هل توجد لغة أمازيغية؟ : جوابنا على هذا السؤال هو : لا توجد لغة بربرية أي أمازيغية، لأن اللغة هي الأداة المشتركة بين لهجاتها، أي لغة أم تتفرع عنها لهجاتها" وتكون وحدة متكاملة في اللفظ والمعنى والتركيب والنطق، وتكون لها قواعد وضوابط تحكمها يلتزم بها الجميع، وهذا لا يجوز لنا فيما يسمى الأمازيغية، وإنما الذي يوجد هو خمسة آلاف لهجة كما ذكرنا قبلا تختلف من جهة إلى أخرى اختلافًا واضحًا نطقًا وقواعد، ومثال ذلك فإن الشاوي إذا تحدث مع القبائلي كل بلهجة اضطررا إلى مترجم. ذلك على سبيل المثال أن القبائلي يعبر عن " اعطه" بـ " افكاس" و الشاوي بـ " أو شاش" والقبائلي يسمي "الطفل والطفلة" بـ " أفشيش وثاقشيشت" و الشاوي يسميها بـ " اشنتي وناشنتيت" القبائلي يسمي " الأسد والنمر" بـ " اغيلاس وإيزم" و الشاوي يسميها بـ " أر وأكسل". كما نجد عند القبائلي أداة النفي في آخر الكلمة هي " آرا"، وفي أوراس النمامشة هي " اش"، ومثال ذلك بالقبائلية " يوسيد، يوسيدارا"، أي جاء، لم يأت. وبالشاوية " يوسيد، يوسيداش" إلى غير ذلك من الخلاقات الموجودة والتي تصل إلى 60% من الكلمات، مما يجعل الاختلاف بين القبائلية والشاوية أكبر وأكثر من الاختلاف بين العربية وبين كل منهما، مما يصعب عملية التفاهم بين القبائلي والشاوي، ناهيك عن الاختلافات الموجودة بين كل من هاتين اللهجتين وبين اللهجات البربرية التي يوجد منها سبع كبرى بالجزائر هي: القبائلية والشاوية، والشنوية والميزابية والزناقية والتارقية والغربية (غرب البلاد)، وكل لهجة من هذه اللهجات تتفرع إلى عشرات اللهجات<sup>(1)</sup>. وقد اعترف بهذه الحقيقة وهي عدم وجود لغة أمازيغية، رئيس المحافظة السامية للأمازيغية لجريدة الوطن (El Watan) في شهر سبتمبر 1996م. وطالب " بضرورة توحيد اللهجات الأمازيغية" وخلق لغة منها، أي خلق ضرة للعربية من عدم خدمة للفرنسية. ولا أدل على عدم وجود هذه اللغة وأن الذي يوجد هو اللهجات المتفرعة إلى لهجات أخرى، ما ورد في أحدث قاموس للقبائلية، وهو قاموس داليه (Dallet) الصادر في باريس 1982م حيث ورد في مقدمته " أن القبائلية تضم العديد من اللهجات بحيث يتعذر تأليف قاموس للغة قبائلية مركزية، ولهذا فإن القاموس المذكور، هو قاموس فقط للهجة من هذه اللهجات. وهي لهجة قبيلة "آيت مقلات"<sup>(2)</sup>.

والواقع أن كل الجزائريين يعلمون أن الأمازيغية ما هي إلا تغليف للقبائلية، وأن القبائلية ما هي إلا تغليف للفرنسية ووسيلة ضغط لتكريسها، بل وهناك من ذهب إلى أن الأمازيغية لغة لا وجود لها خُلق القبائلية مبرهنا على صحة وجهة نظرنا، ولكي يبرهن على ذلك فقد طلب ابن الرشيد من أحد دعاة الحركة البربرية الغلاة أن يترجم له جملة من العربية إلى القبائلية فترجمها، ثم طلب منه أن يعيد ترجمة نفس الجملة إلى الأمازيغية فعجز، فأجاب سائله " راك تتمسخر، كيف كيف". فقال له ابن الرشيد: لمذا لا تطالبون بالقبائلية لغة وطنية ورسمية، فأجاب : هذه سياسة. وبالفعل، فإن السياسة المغشوشة تطلب استجد القبائلية بالشاوية والميزابية تحت شعار الأمازيغية مع أن هاتين اللهجتين ليستا مطلبًا سياسيًا

(1) عثمان سعدي، الأمازيغ البربر، ص: ٥، ث، أيضا محمد الصغير زمالي، الحر حر ولو مسه الضر، جريدة الشعب 03/04/1990م، عن أحمد بن

نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 144.

(2) عثمان سعدي، التعريب، ص 195، 196.

لأهلها<sup>(1)</sup>. ولقد بين هذه الحقيقة ووضع النقاط على الحروف رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة في تيزي وزو في حملة الإنتخابية حول مسعى الوثام الوطني في شهر سبتمبر 1999م. فتحدى دعاء الحركة البربرية بأن يثبتوا أن الأمازيغية ليست غطاء للقبائلية، بل أعلن أمامهم بأن هدفهم هو القبائلية وأن الأمازيغية مجرد شطاء<sup>(2)</sup>.

ولما كان لا يوجد لغة أمازيغية بل ولا لهجة قبائلية واحدة، وإنما توجد لهجات قبائلية كثيرة، فإن فرنسا تعمل بلا هوادة على خلق لغة قبائلية مركزية، ومن أهم وسائلها في ذلك الأكاديمية البربرية بباريس. مجهودات الأكاديمية البربرية في باريس لخلق لغة قبائلية مركزية تحمل اسم الأمازيغية:

لقد أشارت مقدمة قاموس : Dallet إلى المحاولات المفتعلة لخلق لغة قبائلية مركزية تحت غطاء الأمازيغية بنحت كلمات توضع بدل الكلمات العربية الموجودة في القبائلية، كما أشارت إلى عدم اقتناع محققي وناشري القاموس المذكور بنجاح هذه المحاولات لتناقضها مع الأسس العلمية للغات، ولكنه لما كانت الغاية تبرر الوسيلة عند الإستعمار، فلا يهتم الجانب العلمي، بل الغاية من هذه العملية التي أخذتها الأكاديمية البربرية على عاتقها<sup>(3)</sup>. ومما أنتجتته هذه الأكاديمية.

- استبدال التحية " سلام ربي فلاون " : أي السلام عليكم، وهي التحية التي يحي بها البربر قاطبة بعضهم وغيرهم بـ " أزول فلاون" بهدف محو كلمة السلام الذي هو أحد أسماء الله الحسنى، أي لتضمنه معنى إسلاميا خالصا، علما أن كلمة " أزول" لا وجود لها في البربرية، وأقرب معنى منها كلمة "أزو" الذي هو نبات شوكي أو كلمة " يتازال" المستمدة من جذر "زول" أي الزوال والعدم، ليصبح معنى " أزول فلاون" إما الشوك عليكم أو العدم عليكم<sup>(4)</sup>. ويذكرنا هذا بما كان اليهود يحيون به النبي -صلى الله عليه وسلم- " السام عليكم" أي الموت. ويذكر فيلالي مختار<sup>(5)</sup>، قائلا : إننا بحثنا عن هذه الكلمة في كل اللهجات الأمازيغية فلم نعثر لها على أثر، وقد تبين لنا بأنها كلمة عبرية، وهي عيب<sup>(6)</sup>. وهنا نقدم ملاحظة مهمة في نظرنا أوردها عثمان سعدي في رسالته إلى رئيس الحكومة السابق سيد أحمد غزالي وهي أن أتباع النزعة البربرية في بلادنا أقسى على الإسلام والعربية من اليهود الذين احتفظوا بكلمة "سلام" في تحيتهم<sup>(7)</sup>.

(1) ابن الرشيد هل تتكرر الغريراتشوفية في الجزائر؟ العالم السياسي، 22 أوت 1998، ع 623، ص 4.

(2) الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، رئيس الجمهورية في تيزي وزو، التلفزيون الجزائري، 2 سبتمبر 1999م، بعد الساعة 9 ليلا.

(3) وليست وحدها التي تقوم بهذا العمل، بل هناك هيئات أخرى ومؤسسات ومستشرقون ولقد أشرنا قبلا إلى الأستاذ جون سيرفي.

(4) عثمان سعدي، التعريب، ص 195، 196.

(5) هو معاهد وباحث في التراث الجزائري، شاولي مهتم بالتراث الأمازيغي.

(6) فيلالي مختار، جواب على سائل، الملتقى الوطني الأول حول أثر المفسرين الجزائريين في بعث الروح الوطنية

والإصلاح الاجتماعي، نظارة الشؤون الدينية لولاية قسنطينة بالتنسيق مع مديرية ومنظمة المجاهدين، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، أيام 19-21 ماي 1998م.

(7) عثمان سعدي بوجه رسالة إلى رئيس الحكومة : موقف الشاوية من قرار النشرة الأخبارية بالقبائلية، جريدة النصر، 22 ديسمبر 1991م، ع 5625،

الله سبحانه وتعالى : هذه الكلمة العظيمة "لفظ الجلالة" حذفها الأكاديمية البربرية من القبايلية وجعلت بدلها كلمة " يَلُو "، وهذه الكلمة لا وجود لها في أي لهجة من اللهجات البربرية. وقد عرّض التلفزيون الجزائري فيلما أمريكيا يوجد به كلب اسمه " يَلُو " (1).

الشهيد : أزالوا هذا المصطلح الإسلامي العظيم، وجعلوا بدله كلمة "أمدغاس"، أي أزالوا مصطلحا تراثيا عظيما في نفوس الجزائريين ومقدسا، ووضعوا محله كلمة " أمدغاس". والغرض في نظرنا نزع طابع القداسة عن الجزائري الذي يموت فداء لوطنه، وهذه الكلمة خطيرة، لأن الفرنسيين أدركوا ما للجهاد والشهادة من أثر في نفوس الجزائريين واستماتتهم في الدفاع عن بلادهم طيلة 132 عاما ضد الفرنسيين وحدهم ففكروا في إزالة هذا المصطلح (الشهيد) لحذف أثره في النفس، أي لتعطيم النفوس من الداخل وتكوين روح الانهزامية مما يحطم فكرة التضحية من أجل الوطن من أساسها، ولكي يكون العمل متكاملا، فقد رأينا موقف أركون من الجهاد ومن سورة "التوبة"، بالخصوص. وبعبارة أخرى، فإن هذا يدخل ضمن إستراتيجية تغيير ثقافة المجتمع بسبب وقوفها سدا منيعا في وجه المعتدين وإنشاء ثقافة المركوبية، أي شعب بلا روح، وبلا هوية.

يوم الجمعة : أزالوا لفظ "الجمعة" الذي هو مصطلح قرآني يحرم فيه العمل إذا نودي فيه لصلاة الجمعة، وهو اليوم الذي تصلى فيه صلاة خاصة، تسمى صلاة الجمعة بكيفية المعروفة، وجعلوا بدلها كلمة "سام". وكلمة "سام" تعني أمريكا؛ لأنه لقب يطلق عليها (2). كما أن كلمة "السام" هي التي كان اليهود يحيون بها خاتم الأنبياء -صلى الله عليه وسلم- بدل كلمة "السلام عليكم"، ومعناها الموت والهلاك كما هو معروف.

هذه نماذج مما تقوم الأكاديمية البربرية من نحتة لتكوين لغة قبايلية تعمم على جميع اللهجات، وقد يجبر الناس ذات يوم عليها؛ لأننا لسنا ندرى ماذا يخبئه المستقبل. وإذا استمرت الظروف على هذا المنوال فلا نستبعد ذلك بل وأكثر منه.

وما يجب الإشارة إليه أن دعاء الحركة البربرية يتلقفون تلك الكلمات ويهرعون إلى بيوت الأهالي طسالبين منهم استخدامها بدل ما كان عندهم، ويساهم التلفزيون الجزائري مساهمة فعالة في هذا المجال من خلال نشرة القبايلية التي يقدمها شريف معمري الذي يبدو أنه يتلقى باستمرار ما تنحته الأكاديمية فيسريه في النشرة بتقديم الكلمة الجديدة وشرحها بالفرنسية، عكس سليمان خاطر مقدم نشرة الشاوية الذي يقدمها صافية ناوية كما ينطقها الشاوية دون حذف الكلمات العربية المسلمة منها (3). وإذا كان التلفزيون الجزائري يساهم بما سبق. فإنه يساهم مساهمة أخرى تتمثل في فتح باب على مصراعيه لدعاة الحركة البربرية، حيث تحول إلى منبر لهم لنشر نزعاتهم الهدامة، بينما نجده يمنع على البربر الوطنيين - أعداء

(1) عرضه التلفزيون الجزائري يوم 1998/12/28م في الساعة 9 مساء، والفيلم من إنتاج "Sentury Fox" أنتج سنة 1994م، وهو يعني أن الأمريكيان معنادون على تسمية كلامهم بهذا الاسم.

(2) فيلال مختار، المرجع نفسه.

(3) عثمان سعدي، الأمازيغ البربر، ص 42، 43.

هذه النزعة - أن يظهروا فيه لشرح وجهة نظرهم لمشاهدي التلفزيون، ويبنوا المضمون الوطني الحقيقي للمسألة البربرية. ولقد عبر عثمان سعدي على سبيل المثال مرارا للمسؤولين على التلفزة عن رغبته فسي التحدث إلى مشاهدي التلفزيون عن هذه القضية فرفضوا. بينما نجد هذا التلفزيون يقدم عشرات، بل مئات المرات سمثلي هذه النزعة العنصرية لطرح وجهة نظرهم العميلة للاستعمارين القديم والجديد، والمنافضة مع أبسط المقاييس العلمية على حد تعبير عثمان سعدي، ومع تاريخ البربر، ومع التراث البربري الأصيل<sup>(1)</sup>.

وهكذا فإنه لا توجد لغة أمازيغية أي لغة أما، أي مشتركة بين كل الناطقين بالبربرية، وإنما الموجود هو القبائلية الممسوخة من الأكاديمية البربرية بباريس، المرتدية القبعية اللاتينية الفرنسية، أي المكتوبة بالفرنسية وبها تصدر صحفهم وتبث برامجهم وأغانيتهم في التلفزة والإذاعة، وبها تعمل القناة القبائلية بالإذاعة ومن أجلها - كغطاء - نشأت أحزاب مشكوك في وطنيتها. كل هذا تحت غطاء الأمازيغية التي لا وجود لها كلفة أم لجميع البربر، بل - كما ذهب عثمان سعدي في رسالته إلى رئيس الحكومة<sup>(2)</sup> بهذا الخصوص - أن القبائل أنفسهم لا يفهمونها بدليل أن أصحابها أصدروا بها صحفا باسم RCD و FFS ثم أوقفوا صدورهما بسبب مقاطعة القبائل أنفسهم لها، لأنهم وجدوها غريبة عنهم فلم يفهموا ما يكتب بها كما قاطعوا أيضا المدارس التي تعلمها في ولايتي تيزي وزو وبجاية بتمويل المبشرين، ولم يعد يتردد عليها سوى حفنة من الأشخاص تعد على الأصابع<sup>(3)</sup>.

والنتيجة التي نتوصل إليها أنه لا توجد لغة أمازيغية مركزية، وأن ما يسمى أمازيغية هو ما تنشره الأكاديمية البربرية بباريس، وهو القبائلية التي تعمل بلا هوادة على تفتيتها من الكلمات العربية والإسلامية، ووضع بدلها كلمات خطيرة، ويقوم دعاة الحركة البربرية مباشرة بنشرها وسط السكان. ولما كانت قضية اللغة مرتبطة بالحروف الأبجدية التي تكتب بها، بحيث لا يمكن الانفكاك بين اللغة وأبجديتها، نتساءل: هل للقبائلية أو الأمازيغية حروف أبجدية خاصة بها؟ وإن كانت موجودة، فلماذا لا تكتب بها وما سر اختيار الحروف اللاتينية، والفرنسية بالخصوص بدلها؟ وماذا يريد دعاة الحركة البربرية أو من وراءهم الوصول إليه من خلال هذه العملية؟

الأبجدية البربرية:

لم يجزم علماء التاريخ والآثار بوجود "أبجدية" بربرية نزعة ووضعها، وعجزوا عن حل رموز ما اكتشفوه مؤخرا في شمال إفريقيا وهو كتابة ليبية فينيقية الأصل بطل استعمالها على رأي بعد الفتح

(1) عثمان سعدي، التعريب، ص 199.

(2) رئيس الحكومة هو سيد أحمد غزالي الذي اتخذت حكومته قرارا يوم 15 ديسمبر 1991م بث ثلاث نشرات أخبارية يوميا بالقبائلية في التلفزيون، وذلك بعد تحالف أرمه مع MCB و RCD بقضي بتسيب القبائلية تحت عنوان "الأمازيغية" في الحياة الجزائرية والبدء فورا في تطبيق ذلك في القطاعات الثلاث: التلفزة، العدالة، التعليم، وذلك مقابل مساندته في الترشح للرئاسة ليصبح رئيسا للجمهورية، وقد اعترف مقران آيت العربي الرجل الثاني في RCD آنذاك بهذا التحالف مع RCD (آيت العربي يتحدث عن التزعم... انفراد سعدي... والتحالف السري مع غزالي، جريدة النصر،

22 ديسمبر 1991م، ع 5625، ص 4)، أيضا عثمان سعدي بوجه رسالة إلى رئيس الحكومة، جريدة النصر، المرجع السابق، ص 7

(3) عثمان سعدي، بوجه رسالة إلى رئيس الحكومة، جريدة النصر (مرجع سابق) ص 1، 7.



الإسلامي، ونعتقد أنه بطل قبل ذلك بكثير بسبب الاستعمار البيزنطي الذي لم يبق ولم يذر، ولم يبق لها إلا أثر ضئيل في كتابة " الطوارق" المسماة "تيفيناغ" أي الحروف المنزلة، ولم تزد أصولها على 14 حرفاً ولها حركات خاصة تسمى "تستياكين"، أي الدليل على العمل والتوسع. ولقد ذكرنا قبلاً دور دوفوكو في إكتشافها، وذكرنا المؤلفات التي ألفها فيها. وهذه الحروف ليست بربرية الأصل كما ذكرنا قبلاً عكس ما زعمه بعض المعاصرين من الإفرنج ومقلديهم من العرب<sup>(1)</sup>. ومع ذلك فهي أساس القبائلية التي أنشأتها الأكاديمية البربرية بباريس معتمدة في اشتقاقها على رموز لهجة شتوارق بأهتقار تامنست السابق ذكرها. وقررت هذه الأكاديمية كتابتها من اليسار إلى اليمين حتى لا تكون لها أية صلصلة بالعربية<sup>(2)</sup>، ونيقنوا الناطقين بها بالأصل اللاتيني، وليفصلوهم عن حضارتهم المشرقية، ولقد بينا أن المكتشف والمخترع هو دوفوكو. ولسنا ندري كيف يمكن أن تكون اللغة مكتوبة من 14 حرفاً.

والحقيقة أن البربرية ليست لغة كتابة ولا قراءة بسبب انعدام حروفها قديماً وحديثاً، وسبب ذلك أن صيغ مفرداتها لم تكن بربرية بالأصالة من حيث الوضع، بل كانت عربية في جوهرها ثم تبررت من جراء اختلاطها بثتى اللغات التي جاءت بها أجناس عديدة إلى بلادهم في العصور القديمة. ومن أراد التأكد من صحة هذا فلينظر ما وقع للعامية العربية الجزائرية من تفرنس بعد الاحتلال الفرنسي وكذلك القبائلية .

والدليل أيضاً على عدم وجود حروف بربرية، أنها لو كانت موجودة لما التجأ بعض علماء البربر بعد مجيء المسلمين إلى كتابة لغتهم بالحروف العربية<sup>(3)</sup> ذلك أن المؤلفات التي تركها بعض العلماء البربر في كل من الجزائر وتونس والمغرب كلها مكتوبة بالأبجدية العربية فلو كانت توجد أبجدية أمازيغية قديمة لاستعملها هؤلاء العلماء<sup>(4)</sup>.

وأقوى من هذا الدليل أن كبار المفكرين البربر عبر التاريخ قبل الإسلام لم يكتبوا بالبربرية، ومذهبهم على سبيل المثال :

1- يوبا الثاني الذي أشرنا إليه قبلاً .

2- أبوليوس ( ولد بين 123 و 125 م) المداوروشي النوميدي الإفلاطوني النزعة الدارس في قرطاجنة وأثينا وروما، الذي نبغ في علوم عصره وأصبح الكاهن الأعظم لعبادة أوزيريس، صاحب المؤلفات المهمة التي تعد إلى الآن من أمهات المصادر اللاتينية في الجامعات الأوروبية مثل " الدفاع" و"مذهب افلاطون"، و"الحمار الذهبي" الذي يصف فيه مجتمع قرطاجنة والذي قال عنه القديس أوغسطين "هو

<sup>(1)</sup> ولقد جمع خطوط هذه الحروف والكتابات إضافة إلى دوفوكو زمرة من الباحثين منهم : فيد هيرب Faïd Herbe سنة 1870م بعنوان :

« Collection complete des inscriptions numidiques » و.ج. هاليفي (J.Halivy) سنة 1879م بعنوان « Essai d'epigraphie :

Lybique » ( محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 164).

<sup>(2)</sup> محمد الصغير زمالي ( الأوراسي)، الحر حر ... جريدة الشعب 1990/04/03م عن أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 148.

<sup>(3)</sup> ومن ذلك فقد كتبت رسائل محمد توهوت الفقهية بلهجة شلمية وحروف عربية، ومن أراد التوسع في معرفة العلماء الذين ألفوا بالبربرية بالحروف

العربية فليرجع إلى محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 164، 165.

<sup>(4)</sup> محمد الصغير زمالي، المرجع السابق، عن أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 145، 146.

الرجل الإفريقي الوحيد الذي يتمتع بالحظوة الواسعة لدينا نحن الأفارقة. نشر مؤلفاته باليونانية واللاتينية ولم يكتب باليونانية أي البربرية.

3- فلوروس أنيوس: كان معاصرا لأبولوس، ألف باللاتينية ولم يكتب بالبربرية.

4- فرنتوس المولود بفسنطينة (ت 175 م)، تعلم اللاتينية وبرع في الرياضيات، وأصبح أستاذا في البلاط الروماني، تولى خطة الجبايات ونظارة الأبنية والملاعب، كان محاميا وعاشوا في مجلس الشيوخ. لم يكتب بالبربرية.

5- القديس أوغسطين: وهو من هو في النصرانية، وهو من هو عند دعاة الحركة البربرية وقد تحدثنا عنه قبلا. وما يهمنا هنا أنه لم يكتب بالبربرية<sup>(1)</sup>.

وهكذا فالأمازيغية "ليست موجودة كتابة ونطقا كلغة أم، وهو ما ينفي بعض المزاعم القائلة بوجود لغة أمازيغية قديما وكذلك ديوان حضاري لها رغم ما بذله بعض المتحمسين من محاولات البحث حتى في متاحف روما القديمة فلم يقلح، بل اصطدم بعكس ما كان يتمنى، وهو أن هناك بعض الكتابات - كما بينا - أنفا- لبعض زعماء الأمازيغ، لكنها كلها بلغة المحنلين وبخاصة الرومان والبيزنطيين<sup>(2)</sup>.

والنتيجة التي نتوصل إليها مما سبق، أن الأمازيغية (البربرية) لم تكن لغة علم وأدب، ولم يكتب بها عبر العصور منذ إختراع حروفها إلى خروج الاستعمار الفرنسي من الجزائر في سنة 1962م، وهذا يدل على إدراك أهلها بعجزها عن التعبير ليس عن العلوم فحسب، بل حتى عن المشاعر والأحاسيس التي يشعر بها الإنسان البربري مما جعله يعبر عن ذلك كله بلغات أخرى، ولا أدل على هذا من مقدي زكريا البربري الذي تفتقت شاعريته عن أعظم الملاحم الشعرية ليس على مستوى الشعر العربي فحسب بل على المستوى العالمي، ولكن باللغة العربية لا بالبربرية. وذلك لأن هذه اللغة (البربرية) كما يقول عبد المالك مرتاض " عبارة عن لهجة بدائية إلى حد بعيد لم تنشئ حضارات ولم ينطق بها كتاب دين مسن الأديان السماوية، فلم يتح لها أن تقدم منفعة حضارية ذات بال إلى الإنسانية<sup>(3)</sup>. ويقرب من هذا ما ذكره عمار بوحوش رئيس المجلس العلمي لمعهد العلوم السياسية بالجزائر، من أنها أي الأمازيغية ليست لها قواعد لكتابتها والتعبير بها بدقة عن مشاعر الأفراد والاعتماد عليها لتلقين الأفراد وتعليمهم بها، وكلماتها متداخلة ومشتقة في معظمها مع اللغة العربية التي هي لغة جميع المسلمين المتواجدين في شمال إفريقيا<sup>(4)</sup>. ثم بين عمار بوحوش سبب الدعوة إلى الأمازيغية، وها هو نص كلامه لأهميته: " غير أن الأمازيغية في وقتنا الحالي أصبحت تستعمل كورقة سياسية وضرة للغة العربية التي انتشرت وأربكت اللهجات المحلية في عقر دارها . وعليه، فهناك نظرة إلى العربية أنها لغة أهل الجزيرة العربية، ولغة سكان شمال إفريقيا

(1) محمد الطمار، المرجع السابق، ص 60 - 68.

(2) محمد الصغير زمامي، المرجع السابق، عن أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 144.

(3) عبد الملك مرتاض، أصالة الشعبوية الجزائرية، مجلة الأصالة، مرجع سابق، ع 8، ص 219، 220.

(4) رؤساء المجلس العلمي في الجامعات الجزائرية حق أربد به باطل، عمار بوحوش، الغرض من الطرح الاثني في أحضان أوروبا، الشروط الثقافي

الأصلية هي اللغة الأمازيغية. ويبدو أن النغاية من هذه التأويلات هي الابتعاد عن الدول العربية والتقرب من الدول الأوروبية التي يؤكد مؤرخوها باستمرار أن سكان شمال إفريقيا ليسوا عربا وإنما هم من أصل أوروبي<sup>(1)</sup>.

ولقد عبر عن القسم الأول من كلام عمار بوحوش، عبد رزيق المخادمي بقولنه: "إن نظرة بسيطة ومجردة من أي خلفية يلقبها الباحث على الأبجدية العربية القديمة أبجدية الخط المسند وفروعه تأير مسألة تقارب شكله للحروف وتطابق لفظتها"<sup>(2)</sup>. ولنا بحاجة إلى إعادة ما قلناه قبلا من التطابق بين ما رأيناه في آثار سد مارب، والتيفيناغ، وهذا يدعونا إلى الحديث عن الحظ الذي قرر دعاة الحركة البربرية كتابتها به، وهو الحظ اللاتيني (الفرنسي).

البربرية والخط اللاتيني (الفرنسي): قرر دعاة الحركة البربرية، وفي مقدمتهم المحافظون السامية للأمازيغية كتابة القبائلية (الأمازيغية) بالخط اللاتيني (الفرنسي) رغم عدم مناسبة الحروف اللاتينية لكتابتها. وعدم كتابتها بالعربية مع أن الأبجدية العربية هي الأقرب لها والأصح، بينما الأبجدية اللاتينية الفرنسية دخيلة وغريبة عن تركيبها، والدليل على ذلك :

- بقاء الأبجدية العربية في كتابة الأمازيغية عند الشاوية بالأوراس، وهي المنطقة التي أنجبت كافة زعماء الأمازيغ وملوكهم وأمرائهم، وهذا يعني من جهة أنه لا زعيم أمازيغي من بلاد القبائل قبل الإسلام. وبذلك فقد أصبح القبائل عظماء بالإسلام حيث أنجبوا فيه عددا لا يحصى كثرة من الزعماء والعظماء. أما قبله فقد كانوا نسيا منسيا، ومع ذلك يعمل دعاة الحركة البربرية بلا هوادة لتدميره، ومن ذلك كتابة الأمازيغية بالفرنسية. ومن جهة أخرى فلو اعتمد أولئك الأمراء والملوك أبجدية أمازيغية لوجدت باقية في أوراس النمامشة مهد الأمازيغ. وسبب بقاء الأبجدية العربية عندهم هي المعتمدة في كتابة الأمازيغية أنها هي الأنسب، لأن بها جميع الحروف المنطوقة بالقبائلية كالعين والضاد والحاء والهاء إلخ. مما لا وجود له في الفرنسية، ولذلك فإن العربية هي القريبة جدا لفظا وتركيبا ونطقا للأمازيغية الأصلية أي أمازيغية الكاهنة التي أراد دعاة الحركة البربرية بناء تمثال لها في ساحة الشهداء نكاية في الإسلام بسبب حربها له، ونكتفي بالإشارة إلى دليل واحد على سبيل المثال، يبين التقارب الكلي بين العربية والأمازيغية وهو حروف "ض" خاصة، والذي تنفرد به اللغة العربية عما سواها من اللغات، -وقد ذكرنا هذا قبلا- ومثال ذلك هذه الجملة " اسليث هو سيد اضلي" فإنها كما يشاهد القارئ بالأبجدية العربية سنيمة كتابة ونطقا، ومعناها بالعربية: " العروس جاءت البارحة" وأما كتابة الجملة ذاتها بالأبجدية اللاتينية فهي " Asslith Houssid Idhalli" وهي كما يشاهد القارئ مشوهة كتابة ونطقا، ونلاحظ هنا عجز الأبجدية الفرنسية على النقل السليم للجملة لفقها من حرفين أصليين في الأمازيغية وهما "ث" و"ض" إلا إذا إتجاننا إلى الإضافة الرمزية، حيث نرسم لـ"ث" بط Th وهي حروف غير أصلية في الفرنسية، وفي الحالين يكون النطق مشوها مخرجا ومعنى، بالإضافة إلى سهولة التلفظ حيث نلاحظ ألف المد "أ" في كلمة " اسليث" نكرة

(1) المرجع نفسه، ص 4.

(2) عبد رزيق المخادمي، الأمازيغ والعرب، الحقيقة الأخرى، الشروق الثقافي، ع 37، ص 24.

تقابلها في الفرنسية " A Asslith " وهو ما يجعل منها جملة أعجمية لا أمازيغية<sup>(1)</sup>. وهنا نتساءل عن السر في كتابتها بالفرنسية، وهو في نظرنا يتمثل فيما يأتي :

- القضية ليست بأيدي دعاة الحركة البربرية فهم مأمورون، وما عليهم إلا السمع والطاعة. ذلك أن القضية في أساسها ناتجة عن إichاعات وتوجيهات وأوامر أجنبية سياسية استعمارية تخريبية<sup>(2)</sup>، وقد بيننا قبلا أن القضية كلها نتاج المدرسة التبشيرية والاستعمارية، ذلك أن نشأة الحركة البربرية ارتبطت بالفرنسيين مستشرقين وإكليروس وساسة للإبقاء على لغتهم سيده الموقف في الجزائر ولتمزيق الوحدة الوطنية، ولذلك فإن القضية توضع في إطار الإيديولوجية الاستعمارية المبنية على معانطة كبرى تتمثل في أن سكان البلاد منقسمون إلى قسمين عرب وبربر، وبين الطائفتين صراع لا ينتهي<sup>(3)</sup>. بل واحد القسمين على حد زعمهم ينتمي إلى المشرق العربي والآخر إلى اللاتين. ولا أدل على هذا من أن الصراع حول الهوية في الجزائر إنما تطرحه " طائفة من البربر المتصربين أو المتفرنسين كلياً أو جزئياً، ثم إن هذه القضية موجهة للمستعمرات السابقة أساساً، وهي ثقافة تستهدف ضرب مقومات الوحدة الوطنية والثقافية للشعوب المستعمرة ومنها الشعب الجزائري"<sup>(4)</sup>. ولقد ذكرنا قبلاً أن أمين مال حركة أيت أحمد في وقت ما كان من رجال الدين المسيحيين وهو الأب دي فالكو، وأن مستشاره الخاص علي مسلي هو في حقيقته أندري وليس علياً<sup>(5)</sup>.

ولقد لخص بريفوس بارادول ( Prévost paradol ) في كتابه فرنسا الجديدة ( La France Nouvelle ) كيفية جعل الجزائر إقليمًا فرنسيًا صرفًا، فقال: وجدنا أمامنا عائقين عرقلًا استعمارنا في الجزائر. العائق الأول، وهو الذي يهنا هنا، هو وجود الجنس العربي الذي يصعب علينا إدماجه أو إبادة<sup>(6)</sup>. ومن هنا فإن كتابة القبائلية بالفرنسية يدخل في إطار تحطيم الجنس العربي ولغة القرآن الكريم ليزول العائق الأول أمام استعباد فرنسا للجزائر، ومن هنا فإن دعاة الحركة البربرية عندما قرروا كتابة القبائلية بالفرنسية زاعمين أن هذا يقربهم من العصر وحضارته ومنهم أيت أحمد الذي يرى أن الحرف اللاتيني أنسب لأنه يضمن لهم الانفتاح على العالم؛ إنما هم يدافعون عن أقلية محظوظة مهيمنة تسعى لربط مصيرها ومصير الجزائر بالمجال الفرنكفوني اللاتيني، واختيار الحركة البربرية للحروف اللاتينية يعني باختصار وضع

(1) ومن أراد المزيد من الأمثلة التي تبين تشويه الأجدية الفرنسية للأمازيغية وتعريفها عكس الأجدية العربية، فليرجع إلى محمد الصغير زمالي، المرجع السابق، عن أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 145، 146.

(2) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 165، 166.

(3) ( أنظر محمد عباس سلسلة المقالات في السلام ابتداء من 14 ماي 1990م، ومقالة آخر له في الجريدة نفسها بتاريخ 28 أكتوبر 1991م، بعنوان " اجتهد وطني في المسألة الأمازيغية" عن عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 192.

(4) المرجع نفسه، ص 192.

(5) عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 192.

واقع عمره 14 قرنا بين قوسين، وهذا ما حاول فلاسفة الاستعمار فعله عبثا طوال 130 سنة من الاحتلال<sup>(1)</sup>.

والذي يهمننا أنهم قرروا كتابة ما يسمى الأمازيغية بالحروف اللاتينية، ويجب أن نذكر هنا بأن أول من دعا إلى هذا ونفذه إنما هم جل المستشرقين وعمامة الميشرين والأكاديمية البربرية حاليا، وغرضهم واضح، وقد اقتفى أثرهم صنائعهم، مثل بلقاسم بن سديرة وسعيد بوليفا ومولود معمري، هذا الأخير يقال بأن المبشرين هم الذين أعطوه ملف القضية البربرية كاملا وكل ما نشره عنها ليس له فيه سوى اسمه المكتوب عليه. وقد حاول هؤلاء أن يجعلوا للقبائلية قواعد نحوية وصرفية بعد أن أوصلوا أبجديتها إلى 32 حرفا كلها من أصل لاتيني مبني وصيغة، ولكن عملهم من الناحية الأكاديمية لم يلق أي نجاح لأنهم حملوا البربرية ما لا طاقة لها به ووضعوا كما يقول محمد بن عبد الكريم الحروف اللاتينية في غير ما وضعت له بالأصالة، فوقع التنافر بين الدال والمدلول<sup>(2)</sup>. ولقد أدرك دعاة الحركة البربرية هذا التنافر ومع ذلك فإنهم يعملون بلا هوادة لتحقيق أهدافهم بتوجيه مباشر من فرنسا على مرأى ومسمع من الدولة الجزائرية، والذي ينفذ ذلك هو الأحزاب والجمعيات البربرية وأهمها MCB و RCD و FFS ومن مطالب هذه الأحزاب:

- 1- اعتبار القبائلية المكتوبة بالفرنسية لغة، وجعلها وطنية ورسمية تحت اسم الأمازيغية.
  - 2- إجبارية تعليمها على كل الجزائريين بما فيهم الناطقون بالعربية الذين يمثلون 80%.
  - 3- تقسيم الجزائر إلى كونفدرالية تضم خمس دويلات مثلما طالب حسين آيت أحمد. وهو المشروع الذي ينسجم تماما مع مخطط ديغول الذي رفضه المفاوض الجزائري في اتفاقيات إيفيان السابق ذكرها.
- وطلبهم هذا يمثل المرحلة الأولى مما هو مسطر لهم من الأكاديمية البربرية في فرنسا ومن السلطات الفرنسية العليا. أما المرحلة الثانية التي ستعقب تحقيق المرحلة الأولى فتتمثل في المطالبة بإلغاء اللغة العربية من الإستعمال، ونحن الآن في هذه المرحلة مما يعني تدخل المرحلتين في بعضهما، ثم طرد كل جزائري ناطق بالعربية من الجزائر وإعادته إلى موطنه الأصلي حسب زعمهم بالجزيرة العربية<sup>(3)</sup>.
- وهنا نتساءل: ما هي الأهداف من كتابتها بالفرنسية؟

**أهداف كتابة القبائلية بالفرنسية: بناء على ما سبق يمكن أن نحدد أهداف فرنسا من العملية بما يأتي :**

- 1- هدف ديني : ويتمثل في تنصير البربر ثم إدماعهم في جماعات النصارى بصفة غير مباشرة وبطريقة بسبولوجية، ولكن كخدم وعبيد لا كسادة متساوين مع الفرنسيين. ذلك أنه ما من لغة إلا ولها مظاهر تتبلور فيها، وأبرز مظاهرها الأساسية حروفها التي تكتب بها، وكل من أراد تعلم لغة عمد أولا إلى تعلم حروفها، وجعل القبائلية باللاتينية يفضي بالبربر إلى معرفة أصل اشتقاقها وجنس البشر الذي تنسب إليه، فإذا عرفوا أن حروف لغتهم البربرية لاتينية النسبة تيقنوا أن لغتهم القبائلية

(1) محمد عباس، جريدة السلام، 28/05/1990م. عن عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 193، 194.

(2) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 167، 168.

(3) عثمان سعدي، التعريب، ص 199، 200.

لاتينية المنزع؛ لأن ارتباط اللغات بحروفها بمثابة ارتباط الروح بالجسد ومن ذلك تبنوا أن أصلهم لاتيني لا عربي. ولما كان أصلهم لاتيني وجب عودتهم إليه، ولا تمكن العودة بدون تصدير، أو على الأقل خلخلة العقيدة الإسلامية، وهذا هو السر في محاربة كتابتها بالحرف العربي؛ لأنه يعني بقاء الانتماء إلى نفس الحضارة كما هو حال الفارسية والأردية. وفرنسا تريد تغيير الانتماء الحضاري، ومن أهم محققاته: الخط واللغة.

2- هدف سياسي: ويتمثل في عزل الشخص البربري اللسان عن أخيه العربي، بأن "فرق تسد"<sup>(1)</sup> وربط الجزائر ثقافياً بفرنسا لإبقائها تسير في فلكها، ولا سيما أن الجزائر هو البلد الوحيد في شمال إفريقيا الذي لم ينتم إلى الفرنكفونية. وبعبارة وجيزة: تكريس الاستعمار الجديد بجميع أشكاله.

3- هدف حضاري: ويتمثل في العمل على هيمنة الحضارة الغربية- الفرنسية- على كل الحضارات ومحوها، ومنع أي حضارة أخرى من منافستها. فلا يكون هناك أي بديل عنها مما يكسر وجودها وهيمنتها إلى الأبد. ولما كانت طبيعة الحضارات أنه ما أن تسقط حضارة في مكان حتى تقوم حضارة أخرى في مكان آخر من العالم، بميزات وروح جديدة. فإنه عندما تهيمن حضارة على العالم أجمع. فذاك يعني ضمان عدم قيام أي حضارة أخرى بديلة. ولما كانت حضارة الإسلام تقوم على الفضيلة وحضارة الغرب تقوم على الرذيلة، وكان أساس الحضارة الإسلامية الإسلام الذي نشر فيها الفضيلة، وكانت النصرانية أساس الرذيلة في المجتمع الغربي كما بيناه في موضعه، وكانت الحضارتان متصارعتين، فإن هيمنة الحرف اللاتيني على العالم أجمع يعني ضمان هيمنة الحضارة الغربية رغم فساد قيمها مما يمنع قيام دولة الإسلام وعودة حضارته إلى الإنسانية من جديد وجعل أتباعه عبيداً مستلبين للغرب عامة وفرنسا خاصة. وقد برهننا على هذا بترابط مقولات دعاة الحركة البربرية، حيث نجدهم من جهة يحاربون اللغة العربية ويدعون إلى العامية والقبائلية المكتوبتين بالفرنسية بديلاً عنها، ويدعون إلى البربرية غطاءً للفرنسية، ويدعون إلى الفرنسية صراحة. ومن جهة أخرى يقيمون حركتهم على لانكية متطرفة ملحدة، وعلى محاربة الإسلام حتى كدين مجرد. ومن جهة ثالثة أصبحوا هم يمارسون التصدير والتبشير. وفي هذا السياق، فإن من أهدافهم من كتابتها باللاتينية هو أن يجعلوا بين الناشئة وتاريخها المكتوب بالعربية حجاباً مستوراً، وهو ما فعله أتاتورك بتركيا. فينشأ جيل ممسوخ حضارياً فلا هو شرقي حافظ على شرفيته، ولا هو غربي اكتسب حضارة الغرب وتراثه. وكيف يكتسب تراثاً ليس له؟. وهذا يدعونا إلى تقييم كتابة القبائلية بالحرف اللاتيني.

تقييم عملية كتابة القبائلية بالحرف اللاتيني (الفرنسي): تقييم العملية بما يأتي :

الموقف العلمي من كتابة القبائلية بالفرنسية: يقول علماء اللغات بأن أحسن طريقة لتعلم لغة ما هو أن تدرسها بتلك اللغة ذاتها لا بلغة أخرى، ومثال ذلك: اللغة الفرنسية تدرس بالفرنسية، واللغة العربية تدرس باللغة العربية وهلم جرا. ولكن دعاة الحركة البربرية خالفوا هذا الموقف العلمي لأنهم يدرسون القبائلية باللغة الفرنسية، وهذا خطأ تربوي فادح لمخالفته الطريقة التربوية العلمية في تدريس اللغات رغم تشدد

(1) محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 165.

دعاة الحركة البربرية بالحدثة والعصرية. والغرض من ذلك واضح، ويتمثل في أن الطفل قبل أن يتعلم القبائلية يجب أن يتعلم الفرنسية أولاً لكي يدرس بها القبائلية. وهنا نكتشف الحيلة والهدف، وهو تكريس الاستعمار الثقافي الفرنسي لإحياء القبائلية، لأنها حية لم تمت ولم يحاربها أحد سوى الاستعمار الفرنسي من خلال الأكاديمية البربرية التي عملت على استبدال حروفها وخطها فرنسية لائينية رغماً عنها وهي ليست كذلك. ومن هنا فإن الشيء المنطقي لو كان دعاة الحركة البربرية يعترفون بقبائليتهم أن يحاربوا دخول الحرف اللاتيني إليها؛ لأنه دخیل مهدم لها، محول لوجهتها الحضارية ولشرفيتها، لا أن يحاربوا لغة القرآن التي لولاها ما حافظوا على شخصيتهم، ولما ظهر فيهم الزعماء والعظماء. ولكنهم رغم هذا ينطلقون من أنهم هم السكان الأصليون والعرب استعمار، ولذا فالقبائلية المكتوبة بالفرنسية هي البديل في نظرهم عن لغة القرآن، وليست بديلاً عن الفرنسية؛ لأنها تدرس بها. فالطفل يتعلم الفرنسية أولاً ثم القبائلية، وبهذا يظهر أن الزعم بوجوب التدريس بلغة الأم حتى لا يتعد الطفل إن هي إلا خدعة لذر الرماد في العيون؛ لأن الفرنسية لم تكن في يوم ما لغة الأم القبائلية، اللهم إلا إذا كانوا يقصدون بالأم "فرنسا" فهذا لا نفهمه في مجال العلوم.

والقضية من الخطورة بمكان، لأنها تهدد الإسلام ولغته بالزوال من الجزائر، فمن ينكر بعد هذا ارتباط القضية بالاستعمار والتبشير؟! .

إنشاء الأكاديمية البربرية بباريس ونحتها لكلمات القبائلية أي خلقها لغة قبائلية جديدة مكتوبة بالفرنسية، ليس بدعاً عند الاستعمار فهو دأبه وديانته، ولا أدل على هذا من أن إفريقيا كانت أغلبها تكتب لهجاتها ولغاتها بحروف عربية، وكان بها ثلاث لغات أساسية إضافة إلى اللغة العربية، هي اللغة السواحلية واللغة الفولانية ولغة الهوسا. وكانت كلها تكتب بالحروف العربية، كما كان محتواها إسلامياً عربياً إلى حد أن شعراء هذه اللغات استلهموا حتى ألف ليلة وليلة، بل نجد أن هذه اللغات كانت نسبة الكلمات العربية تشكل أكثر من 40% (1) من محتواها، وظلوا إلى غاية الحرب العالمية الثانية يتفاهمون فيما بينهم باللغة العربية. ولكن ماذا عمل الاستعمار لإفريقيا التي كانت ثقافتها إسلامية عربية؟. نجد أنه في مدة 50 سنة بعد دخوله إلى إفريقيا غير ثقافتها كلياً، فأما ثقافتها الحقيقية وجعل لغاتها الرسمية أوروبية ونصّر قسماً معتبراً من أهلها، بعد أن كان أغلبهم مسلمين أو وثنيين وإحيائيين، ثم عمد إلى لغاتها الأصيلة فأعاد إحياءها بعد أن غير محتواها وحروفها إلى محتوى ما يحقق أطماعه ويربطها بـ ربط العبد بالسيد، وجعلها تكتب بحروف لغاته وأنشأ خطة جهنمية لتتصيرها جعلها مستمرة إلى اليوم. وهذا من الخطورة بمكان، لأنه أدى إلى تغير المنطقة ثقافياً لصالح الاستعمار والنصرانية، وصار مستقبل إفريقيا في خطر مادام المسلمين في سبات عميق. وهذا ما يؤكد العلاقة بين التبشير والاستعمار فكلاهما خادم للأخر.

(1) ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى " أثر الثقافة العربية في أدب المرصاة، الصورة والأفكار"، و" الأثر العربي في قصص افوسا" رواية القصة"، وهما محاضراتان لمصطفى حمجازي السيد حمجازي من معهد البحوث والدراسات الإفريقية بالقاهرة، وقد قدمهما في ملفي "الدراسات الإسلامية في إفريقيا" الذي نظمته جامعة الأميرة عبد القادر بالتعاون مع جمعية الدراسات والأبحاث التاريخية لولاية أدرار وذلك بأدرار في الفترة 27-30 جانفي 1988م.

و خلاصة هذه القضية أن الاستعمار عمل أولاً على إماتة الثقافات الإفريقية وأصبح أهلها بنموذجه الثقافي التمسحي لا الأصل، فلما تمكنت منهم لغته وتمسيخه أخذ يعمل على إحياء تلك سفافات بما يخدم مصلحته هو. وفي هذا السياق أوجد الاستعمار الفرنسي الحركة البربرية، وهو الذي جعل تلك الكلمات، أي محتوى اللغة، خادماً لمصلحته لا لمصلحتها. وقد رأينا شيئاً على هذا كلمات: "الله عز وجل" و"الشهيد" و"الجمعة" و"التحية" كيف غير محتواها إلى محتوى ما يخدم مصلحته ويمسخ الناطقين بها، وهو الذي قرر كتابتها باللاتينية، أي بالفرنسية، ليربطهم به ويفصلهم عن أصلهم وعمقهم الطبيعي، أي المشرق العربي الإسلامي. "و(شارل دوفوكو) هو أول من مزج في معجمه بين البربرية والفرنسية"<sup>(1)</sup>. ولما كان دعاة الحركة البربرية مستلبيين ثقافياً وحضارياً جعلوا منفذين لمشروع الاستعمار الفرنسي، وإلا لماذا لم يقتنوا به؟! ذلك أنه يوجد في فرنسا إلى جانب اللغة الرسمية الفرنسية لغات أخرى ذات أدب ولها صحف وملايين من الناس يتكلمونها ولا سيما بالآلزاس وبلجيكا وبروتانيا التي قام أهلها في الثلاثينيات بحملة تكاد تكون ثورية لإجبار الحكومة على تعليم لغتهم بالمدارس، وبيبلاد البروفانس وضواحي مرسيليا وجزيرة كورسيكا<sup>(2)</sup>. ولكن فرنسا لا زالت إلى الآن جاعلة اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية الوحيدة، وهكذا فمع أنه في فرنسا يوجد ملايين البروتون وملايين الإلزابيين اللورانيين لكنه لم يحدث أبداً أن طالب إلزاسي أو بروتاني يفرض لغته على الطفل البازيبي أو الليوني أو المارسيبي، ومع أن البروتانية تدرس كلغة جهوية محلية في بروتانيا إلا أن البروتانيين يسلمون بأن الفرنسية هي اللغة الوطنية والرسمية الوحيدة لكل الأمة الفرنسية، ولا نشاهد نشرة أخبار بالبروتانية أو بالإلزابية أو غيرهما في قنوات التلفزة الفرنسية. ولم نسمع أن الزعيم الفرنسي اليميني (لوبان) البروتاني ألقى خطاباً أو تصريحاً بالبروتانية، بل نراه لا يستعمل إلا الفرنسية وحدها<sup>(3)</sup>.

وبهذا فإن لوبان الفرنسي لا يستعمل إلا الفرنسية وأحمد جداعي (FJS) الجزائري القبائلي يتحدى بأنه لا يستعمل إلا الفرنسية. وفي الوقت ذاته نجد دعاة الحركة البربرية يطالبون بتعميم القبائلية المنتجة في مختبرات الأكاديمية البربرية بباريس المكتوبة بالفرنسية على كل الجزائريين بمن فيهم الناظرين بالعربية الذين يكونون أكثر من 80% من الشعب الجزائري<sup>(4)</sup>. فمن ينكر بعد هذا أن القضية كلها فرنسية محضة لتكريس تواجد الدين الاستعماري في الجزائر؟.

- يلاحظ التناقض الصارخ بين الزعم من جهة بإحياء الثقافة واللغة الأمازيغية واسترجاع الشخصية، وبين كتابتها بالفرنسية من جهة أخرى. ذلك أنه ثقافياً وحضارياً تغيير الحرف الأبجدي يعني تغيير الانتماء الحضاري، لأنه لا يمكن الفصل بين اللغة والحرف الذي تكتب به، فكلاهما معبر عن الآخر وجزء جوهري منه ومكمل له، فهم من جهة يزعمون بعظمتها وأنها ظلت محافظة على نحوها وصرفها

(1) بوهران الشيخ، ندوة أثر الإسلام واللغة العربية في المجتمع الإفريقي، الملتقى الثقافي الثالث للتعريف بتاريخ منطقة توات: الدراسات الإسلامية والعربية في إفريقيا، أدرار، الجزائر، 27-30/01/1988م.

(2) عبد الحميد بن باديس، حول كلمتنا الصريحة، الشهاب، غرة ربيع الأول 1355هـ/ جوان 1936م، ج3، م12، ص145.

(3) عثمان سعدي، الأمازيغ البربر، ص: ت، ث.



عبر عشرات القرون، ومن جهة أخرى يُقرون بنفسها وعجزها والاعتراف بأن حرفها الأمازيغي الأصلي أكل عليه الدهر وشرب، ولم يعد صالحا لمواكبة العصر. فإذن، لماذا يحيون ما ليس قابلا للحياة؟!، وهنا تطرح إشكالية كبرى وخطيرة هي :

كيف تكون لغة ما عظيمة وهي فاقدة حتى للحرف الذي تكتب به؟، أي هراء هذا؟! ولكن الذي يقبل عقله أن الثلاثة تساوي واحدا وأن الواحد يساوي ثلاثة لا يصعب عليه قبول كتابة القبائلية بالفرنسية. ويمكن صياغة ما سبق كما يأتي :

إننا نسأل باندھاش واستغراب عن سبب كتابة القبائلية بالحرف اللاتيني؟ لماذا؟! لأنها عاجزة بحروفها الأصلية إن وجدت عن مواكبة عصرها، وإذن فهي لغة غير صالحة لهذا العصر، وهو اعتراف من أصحابها بقصورها. وهنا كيف يعملون على إحياء لهجة هم متأكدون من عجزها وقصورها وعدم صلاحيتها لهذا العصر، ويعملون بلا هوادة على إماتة لغة - لغة القرآن - هم متأكدون من جدارتها وصلاحيتها ليس لهذا العصر فحسب، بل إلى يوم الدين؟ وإذن ما الحاجة لإحياء القبائلية إذا كانت غير صالحة لمواكبة العصر؟ ونعتقد أن دعائها لو وجدوها بحروفها مواكبة للعصر لما كتبوها بحروف حضارة أخرى لا علاقة لها بها، ثم كيف يمكن الفصل بين اللغة وحروفها الأصلية التي تكتب بها؟. إنسه، كما اللغة جزء من الشخصية كذلك حروفها جزء من الشخصية ذاتها، والتخلي عن حروف اللغة يعني التخلي عن جزء جوهري من الشخصية ومن اللغة ذاتها المدعى إحيائها. وهنا أي تناقض خطير هذا الذي يقوم أصحابه على إحياء الشخصية - حسب زعمهم - من جهة، وعلى إماتتها من جهة أخرى؟، وهل هناك إماتة للغة أكبر من الإقرار بعدم صلاحية حروفها للكتابة؟. وإلا لماذا لم يكتب اليهود العبرية بالحرف اللاتيني؟ ثم لماذا الحرف الفرنسي بالخصوص؟. والغرض في تصورنا واضح، هو قتل الشخصية البربرية ذاتها، وربط أصحابها بجلاذيتهم من الفرنسيين، لأنه عبر التاريخ ظل جنوب المتوسط فريسة لشماله، وأول مرة وقع فيها التوازن بين الشمال والجنوب، إنما حدث بعد مجيء الإسلام، ومن هنا فإن عدم كتابة القبائلية بحروفها الأصلية أو بالحرف العربي هو مواصلة - والعودة إلى - تكريس كون الجنوب فريسة للشمال حتى لا تقوم للجنوب قائمة.

وخلاصة هذه العملية : يجب إحياء اللغة الأمازيغية، ولكن حروف هذه اللغة غير صالحة، وإذن فلا بد من كتابتها بالفرنسية، هذا ما يتعلق بالحروف.

وأما المحتوى: فإن أغلب محتوى الأمازيغية عربي، وإذن فلا بد من اعتماد ما تختلقه الأكاديمية البربرية بباريس من كلمات جديدة مثل التي ذكرناها قبلا، وهنا نجد أنفسنا قد بعدنا عن الأمازيغية محتوى وأبجدية بُعد الأرض عن السماء، وأمتاها كليا عكس دعاوينا بإحيائها، لأن الأمازيغية الحق لا صلة لها إطلاقا بهذه الأمازيغية الفرنسية حروفاً وألفاظاً ومحتوى. ودعاة الحركة البربرية يطالبون بهذه الجديدة لا الأصلية الأصلية مما يجعلهم أكبر المحطمين للغة والثقافة الأمازيغية.

وهنا تطرح إشكالية أخرى، لا تقل شناعة وفضاعة عن السابقة. تتمثل في ذلك التناقض الصارخ المتمثل لهما يأتي :

فهم من جهة يزعمون أنهم يحيون الثقافة واللغة الأمازيغية، ومن جهة أخرى يوكلون إلى فرنسا إحياء هذه الثقافة عن طريق الأكاديمية البربرية بباريس وغيرها. فهل يعقل أن دولة تعمل على إحياء ثقافة دولة أخرى؟ ولا سيما فرنسا بالخصوص التي رفضت حتى أن تسلم للجزائر أرشيفها الذي نهبت أيام الاستعمار المباشر، فهل يعقل أن تبخل فرنسا على تسليم الجزائر أرشيفها وتتكرم لوجه الله بإحياء ثقافتها؟! إن هذا لشيء عجائب.

ثم مادامت الأمازيغية عاجزة عن التعبير على أبسط الأشياء مثل السلام عليكم والجمعة والشهيد إلخ، فكيف تكون لغة وثقافة؟ إن ما تحتاجه لغة ما هو مصطلحات التكنولوجيا الجديدة. وهذه يمكن نحتها وإضافتها إلى لغة ما، أما الحياة اليومية العادية البسيطة فهي لا تحتاج إلى نحت مصطلحات جديدة. فإذا احتاجت إلى ذلك كان ذلك دليلا على انعدام اللغة أصلا. وبهذا فيستحيل أن تكون الأمازيغية لغة. وعلى ذكر الثقافة الأمازيغية، فإنه كما لا توجد لغة تسمى الأمازيغية كما ذكرنا، فإنه لا توجد أيضا ثقافة تسمى الأمازيغية. ونتحدى دعاة الحركة البربرية أن يبينوا لنا محتوى هذه الثقافة المزعومة؛ لأنه لكي تكون ثقافة ما، فلا بد لها من محتوى يحدد معالمها، ويبين خصوصياتها وعمومياتها ومميزاتها وقدرتها على حل مشكل الإنسان وتحديد نظرته للحياة والوجود والكون، وأن تمدد بالأنظمة اللازمة الخاصة بها لتغطية كل جوانب الحياة ماديا ومعنويا. وهذا لا وجود له في هذه الثقافة المزعومة. بعبارة أخرى، فإن ما يسمى بالثقافة الأمازيغية لا شيء لأنه :

ليست لها حروف وكلمات خاصة بها، بدليل ما ذكرنا من أن حروفها المكتوبة بيا اليوم فرنسية، وكلماتها المنحوتة حديثا فرنسية.

وليس لها قانون أسرة خاص بها، فقانون أسرتها المتبنى من طرف دعائها فرنسي، بل لو رجعنا إلى الثقافة الأمازيغية نجد عادات وتقاليد وعرف القبائل فيما قبل الإسلام تمنع المرأة من الميراث أصلا. وهذا في الوقت الذي يتباكون فيه على ظلم الإسلام للمرأة حسب زعمهم.

وليس لها نظام سياسي مستمد من محتواها، فنظامها السياسي غربي. وليس لها نظام اقتصادي مستمد من محتواها، مما جعل دعائها مشتتين بين ماركسيين واشتراكيين ورأسماليين.

وليس لها نظام اجتماعي، ولا نظام تربوي. مثلا: كيف أحدد العلاقات الاجتماعية وفقا للثقافة الأمازيغية؟ وكيف أتزوج؟ وما هي العلاقات بين الآباء والأبناء، والأسرة والجيران؟ إلخ... وعندما يموت لي ميت ماذا أفعل له؟ وعندما يولد لي مولود كيف أسميه وماذا ألقنه وكيف أربيه وأعدده للحياة وفقا للثقافة الأمازيغية؟

وليس لها نظام أو بُعد ميتا فيزيقي، فلا تجيب الإنسان عن الأسئلة الميتافيزيقية الأساسية المطروحة في جميع الفلسفات الكبرى والأديان: من أين أتى الإنسان؟ ولماذا؟ وأين سيذهب؟ أو ما أصل الإنسان؟ وما مصيره بعد الموت؟ وما رسالته بينهما، أي في الحياة؟

وليس لها نظام أخلاقي، سواء ما يتعلق بالأخلاق النظرية أو بالأخلاق العملية. وتتحدى دعاء الحركة البربرية أن يأتون بهذه الأنظمة كلها أو بعضها حتى، من الثقافة الأمازيغية. والواقع أن كل هذه الأنظمة إن هي إلا مستمدة كلها من الغرب. ونسألك هنا: أين هي إذن الثقافة الأمازيغية المزعومة؟ النهم إلا إذا كانوا يقصدون بها الوشم ولبس البرنوس. وحتى الوشم ولبس البرنوس فإنهم يشتركون فيه مع العرب. وبهذا فإنه يستحيل أن تكون الأمازيغية ثقافة بالمعنى العلمي للثقافة. وتتوصل مما سبق إلى ما يأتي:

الدعوة لإحياء القبائلية يعد من تعظيم آثار المشركين، وهي بمنظور الإسلام دعوة جاهلية عنصرية يمتقتها الإسلام، لأنها تدعو الأمة إلى الانقسام والتفرق زيادة عن كونها تحارب نعمة القرآن الكريم<sup>(1)</sup>، لأنها أداة فهمه. ولقد ذكرنا قبلا ما أورده MCB في تقريره إلى اللجنة الأممية من أنهم يرفضون اللغة العربية الفصحى بسبب ارتباطها بالإسلام. ومن هنا فإن كتابة القبائلية بالفرنسية، إنما يهدف إلى تغيير الوجهة الحضارية للسكان، أي فصلهم عن عمقهم وامتدادهم الطبيعي الذي هو المشرق العربي، وربطهم بمستعمري الجزائر عبر العصور وهم اللاتين. وفي هذا الإطار قطع الاتصال والتواصل بين الناشئة وتاريخها كما وقع بتركيا التي نشأ بها جيل بدون هوية، فلا هو شرقي حافظ على تراثه ولا استطاع اكتساب الروح العلمية الغربية.

وإذا كان المستعمرون الفرنسيون هم الذين أسسوا النظام الطائفي في لبنان بالأربعينيات ففجر لبنان ودمره ولا زال يعاني منه إلى اليوم. فإنهم هم الذين يريدون توجيه الجزائر المستقلة إلى نظام شبيه بنظام لبنان مبني على الطائفية البربرية، أي على التناقض العرقي الذي سيؤدي حتماً إن لم تعالج المشكلة إلى حرب أهلية مدمرة بالجزائر لا تبقى ولا تذر<sup>(2)</sup>. ولقد أخذت ثمار هذه الطائفية تظهر من خلال الدعوات الصريحة لدعاة الحركة البربرية إلى تقسيم الجزائر تارة، وإلى دولة كونفدرالية تضم دويلات عرقية تارة أخرى كما بينا في نتائج أحداث تيزي وزو الثانية، وقد أخذ هذا يتبلور على أرض الواقع، حيث أصبح دعاة الحركة البربرية وأتباعهم يعملون ما يشاءون وكأن الدولة لا وجود<sup>(3)</sup> لها. وقد بينا قبلا أن الحركة البربرية فرنسية محضة، ومن أهم أهدافها تدمير الإسلام وضرب اللغة العربية، لأنها هي القادرة على مواجهة الثقافة الفرنسية. والدليل على ذلك، أنهم لم يطالبوا بتدريس القبائلية فقط، بل يطالبون أيضا بتدريس العربية العامية كما ذكرنا. وهذا يعني بوضوح: يا قبائل، أنتم لكم القبائلية، ويا عرب، أنتم لكم العربية العامية. أما لغة القرآن فيجب أن تجعل نسيا منسيا، وعندما تجهل لغة القرآن سيجهل القرآن والإسلام، لأنها أداة فهمها. وهنا ستحل النصرانية محله، ولا سيما أن دعاة الحركة البربرية يعملون بلا

(1) عبد اللطيف بن علي السلطان، نازكية هي أصل الاشتراكية، ص 81.

(2) محمد الصغير زمالي، المرجع السابق، عن أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، ص 154.

(3) وقد أخذت هذه الدولة تسترحج مكائنها بعد تولي رئاستها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، وقد حسم مطلبهم بجعل القبائلية لغة وطنية ورسمية بالما لان تكون رسمية ولا وطنية، وبين أن الأمازيغية غطاء للقبائلية وذلك في مجمع تيزي وزو أمام دعاة هذه الحركة الذين طلبوا منه أن يعلن قبل مغادرة القاعة بأنه سيحملها لغة رسمية وطنية وذلك في حملته الانتخابية لصالح الرئاسات الوطني وهي الخطبة التي قدمها التلفزيون الجزائري، في 02 سبتمبر 1999 م، في الساعة 11.50 ليل، وهذا بعد أول رئيس جزائري بعد ظهور هذه الحركة وضع النقاط على الحروف وحسم القضية.

هوادة لتشرها بمختلف الوسائل من أشرطة صوتية وأشرطة فيديو ورحلات ونشاط متعدد في مختلف الكنائس الموجودة ببلاد القبائل. ولسنا بحاجة إلى القول هنا بأن محاربة اللغة العربية يعد من صميم العمل التبشيري، ولا أن نذكر بما قاله القسس في المؤتمر الأفخاريستي السابق ذكره بأن كل من حارب اللغة العربية كان مبشرا، ويزداد المرء يقينا من صحة ما ذكرنا عندما يتتبع مطالب دعاة الحركة البربرية فيجدهم ينشطون في إطار نسق متكامل يتكون من فرنسة ومحاربة الفصحى ودعوة إلى انعامية وثنائلية، وتبني اللانكية المتطرفة الملحدة وانحلال كلي من القيم والأصالة. ولقد أصبح بعض دعاة هذه الحركة وأتباعهم يصرحون جهارا نهارا: لسنا عربا ولا مسلمين<sup>(1)</sup>. ومما سنتنتج هذه الدعوة: تقسيم المجتمع إلى طوائف تقتل بعضها بعضا يصبح فيها العربي يشعر أنه عدو القبائلي والقبائلي يشعر أنه عدو العربي، وأن العربي استعمره، وستلبن الجزائر، لأن التاريخ أثبت أن الشعب الواحد هو الذي يتكلم لغة واحدة، وإذا تعددت اللغات تعددت معها الشعوب، وساعتذ يصعب على السياسيين المخلصين توحيدها، وسيصبح القاسم المشترك هو الفرنسية، وهنا نتوصل إلى الأهداف الحقيقية للحركة البربرية من كل ما سبق، وهي :

1- القضاء على العربية الإسلامية والقبائلية معا وإحلال الفرنسية محلها: بدليل أن مؤتمراتهم وخطبهم وتصريحاتهم وصحفهم ومسيراتهم وعنفهم كل هذا بالفرنسية ومن أجلها. وحتى اللافتات التي يكتبونها، فما معنى أدعي إحياء القبائلية التي هي جزء من شخصيتي، ولكني أخجل من الحديث بها؟ إنه احتقار ما بعده احتقار لها. وإذن فالغرض الحقيقي هو الفرنسية وما الأمازيغية إلا تغليف لها<sup>(2)</sup>.

2- نشر النصرانية وتكوين دولة نصرانية على الأقل في منطقة القبائل كخطوة أولى : وبذلك ستعود فرنسا من جديد من الباب الواسع، ولا أدل على هذا مما ذكرناه قبلا من تغلغل رجال الإكليروس في حركة آيت أحمد إلى حد أن أمين المال كان قسيسا، وتصريحات معطوب التونس عن القساوسة الذين اغتيلوا وكيف بين فضلهم عليه وأنه مدين لهم؛ لأنهم هم الذين جعلوه يكتشف شخصيته، وأن دعاة الحركة البربرية هم الذين ينشرون مختلف وسائل التنصير من أفلام وأشرطة ونشریات، ويقومون بدورات تكوينية في فرنسا، كما أن رجال الإكليروس الآن في بلاد القبائل حيلهم على غاربهم، يبشرون بأموال دعاة الحركة البربرية. وقد ذكرنا كيف دعم RCD كنيسة تيزي وزو في سنة 1991 م بم 20 مليون سنتيم<sup>(3)</sup>، وكيف لا يحدث هذا وغيره والقضية كلها بنت الكنيسة الفرنسية وفرنسا الاستعمارية.

ونتيجة كل ما سبق: عودة فرنسا إلى الجزائر لتقبض عليها بيد من حديد، ولكن من خلال أيد تسمى جزائرية.

(1) ابن الرشيد، المرجع السابق، ص 14.

(2) ابن الرشيد، المرجع السابق، ص 4.

(3) الكنيسة والظهور البربري الجديد، سيدة النور، قسنطينة، 18 نوفمبر 1991م، ع 33.

ولكي تكتمل الخطة ويقع الذوبان والتلاشي، فإنهم يكملون ما سبق بما يسمى "حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

### الفصل الثالث

## تغيير الانتماء الحضاري وإحلال رباط ما يسمى حضارة البحر المتوسط محل رباط العروبة والإسلام

وسنعالج الموضوع وفقا للخطة الآتية :

فكرة حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط.

مفهوم الفكرة.

وسائل نشر الفكرة:

1- نشر الفكرة تحت ستار الجانب العلمي.

أ- الملتقيات العلمية.

ب- فكرة حضارة البحر المتوسط والمستشرقون.

2- الاحتفال بالآثار الرومانية.

3- الجهود السياسية.

4- نشر الفكرة بواسطة التوجيه غير المباشر.

نتائج الفكرة وتقييمها.

فكرة حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط :

ظاهر هذه الفكرة البحث عن التقدم، فيزعم دعاؤها أنه لا يتحقق في بلدان المشرق ومنها الجزائر، إلا بالانتماء إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط وإلى الغرب، - بل وإلى فرنسا بالخصوص باعتبارها وريثة الاستعمار الروماني في أقطار المغرب العربي - حيث يندمج سكان هذه الأقطار في تينيك الثقافة والحضارة، ولكي يتحقق هذا التقدم المنشود، فلا بد أيضا من قطع الصلة بالحضارة العربية الإسلامية باعتبارها تخلفا واستعمارا، ومن هذا المنطلق يرى أصحاب هذه الدعوى بوجوب تغيير الانتماء لا إلى الحضارة الغربية فحسب بل إلى البحر المتوسط، بل إلى فرنسا بالخصوص. ويتبنى هذا الاتجاه كل الفرنكوفونيين، ومن ممثليهم في المشرق طه حسين الذي يؤمن بأن الانتماء الحقيقي إلى التاريخ التميم إنما يكون للفرعونية، ويركز على علاقة مصر بالعصر اليوناني قديما، وبالبحر المتوسط حديثا<sup>(1)</sup> وهي النظرة ذاتها التي نجدها عند دعاة الحركة البربرية، فهم يزعمون بالانتماء الحقيقي إلى تاريخ الجزائر القديم، إلى أمجادهم وأسلافهم البربر وكذا اللاتين المستعمرين، ومن جهة أخرى يكفرون بالانتماء إلى التاريخ العربي

<sup>(1)</sup> ومن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مكتبة المعارف، مصر، 1938، وأيضا عبد الله ركيبي، المرحع السابق، ص

الإسلامي، بل يصرحون بأن العرب استعمار حل ببلادهم ويجب طردهم، ومن جهة أخرى فإنهم يعلنون انتماءهم ليس إلى الحضارة الغربية فحسب، بل إلى البحر المتوسط، بل إلى فرنسا بالخصوص، بدليل تبني لغتها هي وحدها دون باقي اللغات الأوروبية حتى المتوسطية منها كالإيطالية والإسبانية التي يقتضي منطق دعوى التقدم التفتح عليها وعلى باقي لغات العالم المتطور لا غلق جميع منافذها للإبقاء فقط، وعلى الفرنسية والفرنسية وحدهما، وهكذا نجد دعاة الحركة البربرية يلحون على الصلة القديمة بأوروبا وباللاتين إلى حد تقرير كتابة القبائلية باللاتينية الفرنسية، وبالبحر المتوسط وفرنسا بالخصوص، وهم في هذا متأثرون بالمستشرقين والإكليروس ودهاقين الاستعمار الفرنسي الذين اخترعوا ربط شمال إفريقيا بالرومان وبالفرنسيين. وفي هذا الإطار يدخل الاهتمام بالآثار الرومانية وإحيائها، وإقامة الأسبوع الثقافي السنوي بتميقاد. والقصد هو إبراز الشخصية الإقليمية<sup>(1)</sup>، وقطع الصلة بالمشرق العربي والتاريخ العربي الإسلامي والذوبان في فرنسا خدمة لها في مواصلة الاستعمار الجديد.

### مفهوم الفكرة

الفكرة فرنسية محضة، وحقيقتها ما بيته سليم قلالة بقوله: "إن فكرة حضارة البحر المتوسط هي مشروع لاحتواء الجزء الجنوبي من المتوسط في دائرة جديدة مرتبطة بواقع السياسة المتوسطية لفرنسا"<sup>(2)</sup>، ويرى دعائها أن البحر المتوسط هو العنصر الأساسي في تاريخ الجزائر فلا تستقيم حياتها إلا إذا كانت على صلة به وقد أخذوا هذه الفكرة عن أساتذتهم الفرنسيين أثناء تلمذتهم في جامعات ومعاهد فرنسا، وعن المبشرين الذين كانوا ولا يزالون يوجهونهم، وعن السياسيين الفرنسيين المرتبطين بهم. لأن الفرنسيين أكثر علماء الغرب تركيزا على هذه الفكرة كما بين عبد الرحمن البزاز بقوله: "هم أسبق الدعاة لفكرة حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يثبطوا عزائم عرب شمال إفريقيا والجزائر خاصة، ويشعرونها بأنهم والفرنسيون سواء في كونهم ورثة حضارة ما أسموها "حضارة البحر الأبيض المتوسط" (أخذوا ميراث الرومان) وهم يريدون أن يصرفوا أنظارهم عن أبناء الأمة العربية في المشرق العربي، ويضعفوا بذلك روح المقاومة فيهم ويمهدوا آخر الأمر لعملية التمثيل والانصهار في الكيان الفرنسي تحت غطاء حضارة البحر الأبيض المتوسط"<sup>(3)</sup>. ولا زالت هذه الفكرة تسيطر على المثقفين والسياسة الفرنكفونيين مشرقا ومغربا، نابعة من روح الإقليمية الضيقة التي بثها فيهم الاستعمار، والتي تفصل كل قطر من أقطارهم عن الأمة العربية الإسلامية ولتتضوي تحت تلك الدعوى بغرض إدماج بلدانهم في حضارة الغرب - وفرنسا بالخصوص - سواء باسم التاريخ القديم المشترك أو الجغرافيا أو الثقافة أو غير ذلك من الشعارات التي تتضمن روح السيطرة من ناحية، وتهدف إلى فصل هذه الأقطار عن المجال الحيوي والقومي والحضاري للسكان، وبالتالي تمزيق الأمة العربية إلى أمم

(1) عبد الله ركيحي، المرجع السابق، ص 219.

(2) محمد سليم قلالة، التفرغ في الفكر والسياسة والاقتصاد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1988، ص 10، 9.

(3) عبد الرحمن البراز، هذه قوميتنا، دار القلم، القاهرة 1964، ص 151، عن عبد الله ركيحي، المرجع السابق، ص 219، 220.

ومناطق متضاربة متنافرة تحقق في الأخير أعراض الفرنسيين بخاصة، والغرب بعامة كما يقول عبد الله ركيبي<sup>(1)</sup>.

ولخطورة هذه النظرة أو الفكرة، فقد جعلها أنور الجندي بحق من دعوات التجزئة والتغريب معاً، وهي كما بين دعوة فرنسية تحاول ربط العالم العربي: المغرب العربي ومصر ولبنان وأوروبا بدلاً من ارتباطها بالأمة العربية، وهي إحدى نظريات التجزئة الثقافية، وهي دعوة القول: بأن لحوض البحر المتوسط وحدة جغرافية وتجارية واجتماعية وفكرية، قوامها: الفكر اليوناني والنظام الروماني والدين الإسلامي<sup>(2)</sup>. ولا يقصدون به الإسلام- وإذا كان الاستعمار الفرنسي ومفكروه قد نشروا الفكرة في كل من المغرب العربي ومصر بواسطة فرنكفونيين وبرابرتهم، فإن الاستعمار الفرنسي نشرها أيضاً في لبنان وذلك لسأخ كل هذه الأقطار عن عقيم وامتدادهم الطبيعي وربطهم به، وذلك تحت غطاء الفيتقية. فرغم الاستعمار الفرنسي أن اللبنانيين ليسوا عرباً بل فينقيين وأن الفينقيين هم أصحاب الفضل في استتباط الحروف الهجائية من نماذج مصرية ويونانية ورومانية. وأن حضارتهم هي حضارة البحر المتوسط، وحمل الاستعمار الفرنسي لواء الدعوة إلى بعث أمجاد الفينقيين عن طريق الشعر العربي مثل: "قدموس" لسعيد عقل، ودعمت الدعوة بمحاولة إلغاء العربية الفصحى واستبدالها بالعامية، وقد اكتملت الدعوة في أوائل الستينيات عندما كتب سعيد عقل ديوانه "بارا" بالعامية وبالحرف اللاتيني ليقطع الصلة نهائياً بالثقافة العربية الإسلامية واللغة العربية<sup>(3)</sup>.

وإذا كان هذا حال الدعوة في لبنان، فإنها في الجزائر أيضاً مرتبطة بالدعوة إلى استخدام العامية العربية والتبائلية بدل لغة القرآن الكريم كما بينا ذلك في حينه، والعمل بلا هوادة على تكريس الفرنسية. ويمتاز الدعاة إلى هذه النظرية من أبناء جلدتنا - وهو نتيجة منطقية وطبيعية لهذه النظرية - بما يأتي:

1- الارتباط بالغرب السياسي والثقافي والاجتماعي، بل الارتباط بفرنسا بالخصوص والتصوف في حبها والحقد على كل ما هو عربي وإسلامي.

2- الموقف السلبي من التراث والوحدة، والدعوة إلى التمزيق المستمر.

3- النقيض أو الضد الدائم للأكثرية العربية الإسلامية في البلاد العربية<sup>(4)</sup>.

وإذا كانت الفكرة المتوسطة كما بينا ذات علاقة جوهرية بالاستعمار، فإنها أيضاً ذات علاقة أساسية بالتبشير، ذلك أنه يرتكز على السياسة الاستعمارية التي ترمي إلى فصل بلاد المغرب وإدماجها ثقافياً واقتصادياً في أوروبا<sup>(5)</sup>. ولسنا بحاجة إلى التذكير بما قام به المبشرون في إيجاد الحركة البربرية.

ونعتقد أن فكرة حضارة البحر المتوسط إنما هي تطوير لما كان يسمى بفرنسا أيام استعمارها للجزائر ب:

(1) عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 220.

(2) أنور الجندي، الفكر العربي المعاصر، ص 241، عن عبد الحميد جيدة، الأصالة والحداثة في تكوين الفكر العربي النقدي الحديث، ص 39.

(3) عبد الحميد جيدة، المرجع نفسه، ص 39.

(4) المرجع نفسه، ص 41، 40.

(5) البودالي بن يحيى، تعقيب على محاضرة التميمي، الملتقى 7، تيزي وزو، ص 3، ص 1046.



"لجنة البحر المتوسط": وهي التي تجمع نواب الوزارات ورجال الحكم في مستعمرات فرنسا وبلاد الحماية والانتداب، ومهمتها النظر في المشاكل المشتركة التي تهم سياسة فرنسا الاستعمارية لكي تتوحد تلك السياسة وتسير في خطة مماثلة بكل الأقطار المستعمرة<sup>(1)</sup>. وكانت تسمى أيضا:

"اللجنة العليا للبحر المتوسط": وكانت تجتمع بناء على استدعاء رئيس الحكومة الفرنسية بها<sup>(2)</sup>.

## وسائل نشر الفكرة

كثيرة جدا منها<sup>(3)</sup>

### 1- نشر الفكرة تحت ستار الجانب العلمي:

أ- الملتقيات العلمية: من وسائل نشر فكرة حضارة حوض البحر المتوسط عقد الملتقيات العلمية الدولية، ومن أغراض هذه الملتقيات تسريب الفكرة إلى النخبة خاصة أثناء مشاركتها في هذه الملتقيات، وإلى المثقفين عامة من خلال ما تنشره الصحافة ولاسيما المتخصصة عما دار فيها، كما أنها وسيلة خطط لها بذكاء لنشر الحركة البربرية عندما كان النظام الجزائري في عهد الرئيس الأراحل هواري بومدين يقوم على قاعدة الوحدة الوطنية ورفض التجزئة، وهي كذلك وسيلة فعالة لنشر الحركة البربرية وسط الطلاب ولاسيما الفرنكفونيين، ولا أدل على هذا من أن الذي نشر أعمال المؤتمر الذي سنذكره الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائرية، سنة 1973، مع أن الملتقى عقد بمالطة، إذ لماذا لم تنشره تونس أو المغرب مثلا وكلاهما شاركتا في هذا المؤتمر؟ أو حتى ليبيا التي شاركت هي أيضا. وما يؤكد وجهة نظرنا أن أعمال هذا الملتقى نشرت خلال سنة واحدة بالشركة المذكورة، في حين نجد كتبًا لباحثين جزائريين ظلت سنين طويلة في أدراج هذه الشركة تنتظر رؤية نور النشر. ومن ضمن هذه الملتقيات "المؤتمر الأول لدراسات ثقافات البحر الأبيض المتوسط المتأثرة بالفكر العربي البربري

بالفكر العربي البربري  
« A etes du premier congrés  
d'influence Arabo-Berbère »<sup>(4)</sup> d'études méditerranéennes  
عقد هذا المؤتمر بجزيرة  
مالطة من 3-6 أبريل 1972 م وشارك في أعماله قرب 100 باحث وفدوا من 17 بلدا<sup>(5)</sup>. وقد قدم  
ملخصا لما جرى في هذا الملتقى الباحث التونسي الشاذلي بن يحيى<sup>(6)</sup> مبينا سبب هذا المؤتمر "لمقابلة

<sup>(1)</sup> عبد الحميد بن باديس، سيامة وحر الدبابيس، الشهاب، غرة ذي الحجة 1354 هـ، مارس 1936، ج12، م11، ص684.

<sup>(2)</sup> عبد الحميد بن باديس، البصائر، الجمعة 5 ذي الحجة 1354 هـ / 28 فيفري 1936، س1، ع9، ص5.

<sup>(3)</sup> ومن هذه الوسائل الجانب الرياضي حيث أصبحت ما يسمى بالعباب البحر الأبيض المتوسط تجري كل أربع سنوات ومن أغراضها في نظرنا استيلاء الشمال للحروب.

<sup>(4)</sup> نشر ميشلين فلاني (Micheline Galley) بمساعدة دافيد مرشال (David Marshall) ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر (561ص)، (

الشاذلي بن يحيى، حوليات الجامعة التونسية، 1975م، ع12، هامش ص259).

<sup>(5)</sup> هي الجزائر وألمانيا وبلجيكا وكندا وأسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا وإنكلترا والمجر وإيطاليا وليبيا ومالطة والمغرب وهولندا وبولونيا وسويسرة

وتونس، (المراجع نفسه، هامش ص259).

<sup>(6)</sup> وقد اعتدنا نحن على هذا الملخص لأنه يفي بماحتنا.

أبحاثهم في العلوم اللغوية والتاريخية والإنسانية قصد سبر العلاقات الحضارية بين شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط والوقوف على ما كان لهذه العلاقات من نتائج عميقة مختلفة مدى العصور، فالرسوم شاهدة إلى الآن ناطقة: حضور فينيقي بونيقي منذ القديم، ثم يوناني في بعض <sup>أصقاف</sup> أقطار المنطقة، فإمبراطورية رومانية: وإذا بضرب من التشابه والتجانس ينتشر في تلك الربوع ( يعني احتواء المنطقة من طرف الإستعمار)، ثم يمتد السلطان الإسلامي إلى الأندلس وصقلية ومالطة فيعم التأثير العربي البربري كافة البلاد، وفي ذلك كله عامل أساسي من عوامل وحدة عمران البحر الأبيض المتوسط وثقافته، فكان من الضروري ألا يهمل المؤتمر الدراسات التي تستتطق اللغات القديمة والحفريات والخط للوقوف على ما لا يفنى بإبرازه علم التاريخ وحده<sup>(1)</sup>. هذا الكلام يعني ببساطة إحياء مجد أوروبا في بلداننا وتمجيده لا إحياء مجدنا في أوروبا، وهو ما يكمله ما سنذكره من إحياء الآثار الرومانية، كما أن هذا العمل يفيد أوروبا ويضرنا، فهو يضرنا لأنه ينقب عن مواطن الاختلاف والتمايز بين المواطنين، فيميز بين البربري والعربي، وجعلهم يرتبطون باللاتين. أما الغرب، فهو إحياء لمجد روما فلا يضرهم، بل هو عامل وحدة بالنسبة للدول الأوروبية مجتمعة. فهو يدل على وحدة الثقافة عندهم، كما أن لغاتهم لا تتأثر بإحياء اللاتينية، بينما نحن نتضرر بإحياء القبايلية على حساب اللغة العربية، وقد ظهر لنا هذا الهدف جليا من عدة معطيات، منها:

التركيز في هذا المؤتمر على التمييز بين العرب والبربر حتى في حالة التفاهم فيذكر المحاضرون الأجانب من إيطاليا وفرنسا والمجر وغيرها دائما كلمة التأثير العربي البربري، أو الحضارة العربية البربرية، والازدواجية<sup>هنا</sup> مغرضة. والدليل على ذلك أنهم عندما يتحدثون عن تأثير الفكر العربي الإسلامي في أوروبا لا يقولون الحضارة العربية الأوروبية. بل ذهب بهم التعصب إلى تغيير بعض أسماء المفكرين المسلمين الذين أثروا في الغرب لكي لا يعرف الغربي أنهم عرب. فابن سينا حول إلى أفيسان وابن رشد حول إلى أفيروس وهلم جرا، ثم لماذا لا يقولون عن الحضارة الأمريكية الحضارة الإفريقية الأمريكية بسبب وجود ملايين الأفارقة الذين ساهموا فيها سواء من الزنوج أو العباقرة الموجودين هناك، بل عندما ننظر إلى فرنسا التي حضر في هذا المؤتمر عدد كبير من علمائها ليحاضروا عن البربر ويبرزوا تمايزهم عن العرب، نجد أن ما حققه الجيش الفرنسي من نجاح في مختلف مناطق العالم بعد استعمار فرنسا للعرب إنما كان للعرب الدور الفعال في تلك الانتصارات سواء في الحرب العالمية الأولى أم الثانية أم في المستعمرات، ويذكر لنا كثير من الجزائريين الذين شاركوا في تلك الحروب أن الخطوط الأولى للجيش الفرنسي إنما كانت تتشكل أساسا من الجزائريين والمغاربة والتونسيين، أما الفرنسيون فكانوا يوضعون في الخطوط الخلفية حماية لهم، لأن العرب وقود ولا يقود. فلماذا لم يسموا الجيش الفرنسي بالجيش العربي الفرنسي؟. إن الحضارة تنسب إلى الفكرة واللغة التي انتشرت بها، لا إلى عرق بعض الذين ساهموا فيها، لأنهم بانتمايتهم إلى تلك الحضارة يكونون قد انتموا إلى كائن أكبر وأعظم من العرق إنه الإسلام ولغته، وهكذا نرى بجلاء أغراض عقد مثل هذه المؤتمرات.

وهنا نشير إلى بعض المحاضرين الذين حضروا عن البربر لتدرك العلاقة بين فكرة «سوح البحر المتوسط والهدف البربري، أو بعبارة أخرى، إنشاء الحركة البربرية. من المحاضرين الذين كرسوا هذا: - المستشرق البولوني ت. ليفيكي (T.Lewicki). وكان موضوع محاضرتة من ضمن اختصاصه، وهو «العالم البربري في نظر المؤلفين العرب في القرون الوسطى». والغرض منها في نظرنا تنبيه المستشرقين ودعاة البربرية إلى ما يمكن أن يجنوه مما يحقق أهدافهم لتمزيقنا كما يفعلون في مختلف الدراسات الإسلامية، ويظهر هذا جلياً في الختام الذي أنهى به محاضرتة، حيث يرى أن المعلومات التي تزخر بها المصادر العربية القديمة جديرة بأن يعتني بها العلماء من زوايا مختلفة، إذ هي تفيد تاريخ البربر وثقافتهم ولغتهم، فلا مناص إذن من تظافر جهود علماء أخصائيين في مختلف هذه النواحي متضلعين من العربية والبربرية معا حتى يكتمل على أيديهم تاريخ شمال إفريقيا القديم الذي وضعه ستيفان قرزال (StephaneGsell)<sup>(1)</sup>.

- الأنسة جرمان تيلون (Germaine Tillon). وفدت من فرنسا، كانت محاضرتها حول ما أسمته: "سغحي النسب البربري"، أي هيكل الأسرة في المجموعة البربرية القاطنة بشمال إفريقيا من ناحية، ومجموعة التوارق في جنوب الصحراء من ناحية أخرى<sup>(2)</sup>.

- الأستاذ شارل كاملييري (Charles Camillieri). من جامعة مالطة، موضوعه: "انتباه شعوب أقطار البحر الأبيض المتوسط شيئاً فشيئاً إلى وحدة موسيقاهم بسبب التأثير العربي البربري". وعنوان البحث جذاب ومؤثر عاطفياً. وقد بين في هذه المحاضرة أن العرب كونوا موسيقاهم منذ بداية حضارتهم نقلاً عن أمم سامية قديمة مع تفتح كبير لتأثير موسيقى الروم. هذا بالنسبة للموسيقى العربية عامة، وأما الموسيقى الأندلسية في أقطار المغرب العربي فقد تأثرت بالثقافة الأسبانية<sup>(3)</sup>. والنتيجة المنطقية لهذا، أن العرب سواء في المشرق أو المغرب لا موسيقى لهم. فالموسيقى الشرقية أصلها رومي، والموسيقى المغاربية أصلها أسباني. وهو ما ذكره فعلاً، لكن بطريقة ملتوية، حيث ذكر أن هذا هو أساس ما نلاحظه في موسيقى أقطار البحر الأبيض من تشابه<sup>(4)</sup>.

- الأستاذ دافيد كوهين (David Cohen). الملحق بالمركز القومي للبحث العلمي C.N.R.S. وبالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا E.P.I.E. بباريس. فقد نادى إلى ضرورة رسم أطلس لغوي، ولغوي اجتماعي للغة العربية ولهجاتها. وهذا الموضوع له علاقة بالقضية البربرية، ومما ذكره أن خصائص النطق بها عند البربر يختلف عن غيرهم<sup>(5)</sup>.

(1) المرجع نفسه، ص 262، 263.

(2) المرجع نفسه، ص 263.

(3) المرجع نفسه، ص 264، 265.

(4) المرجع نفسه، ص 265.

(5) المرجع نفسه، ص 265.

ويقول الشاذلي بن يحيى " وقد استأثر بشغفنا جملة من الدراسات يمكن لنا تبويبها في أربعة ميادين عامة، هي: الميدان العربي، والميدان البربري، والميدان العربي البربري والميدان الهلطي، علاوة على الأسس الجذرية العامة الراجعة إلى الفينيقية والبونيقية والسامية، وعلى العنصرين المعروفين: اليوناني واللاتيني" (الفينيقية هي أيضا تقدم في لبنان بديلا عن العربية).

نواصل استعراض بعض عناوين المحاضرات لتبين لنا قضية أخرى إضافة إلى البربرية، هي الدعوة إلى العامية العربية. وهي :

- " النبرة في اللغة العربية والهيكل اللفظي في اللهجات العربية العصرية". قدمه جيرارد جانسنس (Gérard Janssens) من بلجيكا. وفي الميدان البربري إضافة إلى ما ذكرناه قبلا :

- " لغة البحر في البربرية" « le vocabulaire berbère de la Mer ». قدمه لويديجي سيرانزا (Luigi Serra) من إيطاليا.

- "البربر بالأندلس" « the berbers in Al – Andalus ». قدمه نيفل بربور ( Nevill Barbour ) من انكلترا.

- "استعمال الأمر البربري كعامل سياسي في الجزائر المستعمرة". قدمه محفوظ قداش من الجزائر. ويبدو لنا أن هذه المحاضرة إيجابية الاتجاه.

- "التقليد والتجديد في الآداب البربرية" « Tradition et Modernisme dans les littératures berbères ». قدمه بولات فالان برني ( Poulette Galand Pernet ) من فرنسا.

- "نسب وبلد : الأمر البربري في المغرب" « Ethnie et région : le « phénomène » berbère ». قدمه بيارمارتولو ( Pierre Marthelot ) من فرنسا.

- "في سبيل دائرة معارف بربرية" « Pour une encyclopédie berbère ». قدمه قابرييل كلميس (Gabriel Camps) من فرنسا.

نلاحظ أن هذه المحاضرات الخطيرة الثلاث ولا سيما الأولى منها "التقليد والتجديد... " والثالثة " في سبيل... " إنما هي من طرف فرنسيين.

- " زندقة وتقف وقومية عند بربر برغواطة". قدمه محمد الطالبي من تونس.

- " الفلكلور الغنائي عند شاوية مقاطعة قسنطينة". قدمه حسين معمري من الجزائر.

- " صلات بين الثقافة البربرية والثقافة العربية في الجنوب التونسي". « Contacts entre culture berbère et culture Arabe dans le Sud Tunisien » . قدمه الأب أندري لويس (André Louis) من تونس - يعني فرنسي - .... إلخ<sup>(1)</sup>.

والنتيجة التي نستخلصها من هذا، تأكيد ما ذكرناه قبلا من العمل بلا هوادة على التمييز والتقسيم بين العرب والبربر، وإظهار كل طرف منهما منفصلا عن الآخر. البربر هم الأصل والعرب استعمروهم. هذا العمل الجاد والمتنوع والمثري من شأنه أن يوجد الحركة البربرية، وقد أوجدها فعلا. وبهذا فالحركة البربرية التي ظهرت في الثمانينيات على مسرح الأحداث بقوة إنما كان العمل يجري على قدم وساق لإنشائها وتمزيق الجزائر بها من طرف رجال الفكر في فرنسا بصفة خاصة كما يظهر جليا من عناوين محاضراتهم، والغربيون بصفة عامة، دون أن ننسى رجال الإكليروس والسياسيين، وهو ما ينسجم تماما مع الانسجام مع تعريف التبشير الذي حددناه به من أنه عمل تعاوني تشارك فيه جميع الأطراف لإحلال حضارة محل أخرى.

ولقد وصل الأمر برجال هذا المؤتمر أن عرضوا شريطا سينمائيا يصور الفن المعماري البربري في قرية بربرية بالجنوب التونسي. وهذا يعني ببساطة أن الفن المعماري البربري شيء والفن المعماري العربي شيء آخر. إذن لا تجانس بين العرب والبربر. وما يعطي أهمية لهذا الشريط أن الذي أعده من رجال الإكليروس، وهو الأب أندري لويس، وعنوان الشريط: « Village berbère du Sud de la Tunisie » .

وينتهي الكتاب - الذي نشرت فيه أعمال المؤتمر في (561 ص) والذي طبعته ش.و.ن.ت الجزائر سنة 1973 كما ذكرنا قبلا- بخاتمة عامة لخصت فيها السيدة ميشلين فُلاي (Micheline Galley) كاتبة المؤتمر العامة جميع الدراسات التي قدمها المشاركون وأخرجت منها زبدتها في حوصلة هي الصورة الصادقة للمؤتمر. ومما قالت: "فهذا البحر المسمى بحق "المتوسط" لم يفصل بين الأمم، بل جمع بينها منذ غابر الزمان كما جمع في هذا المؤتمر وجزيرة توسطته توسطًا تامًا خبراء بعلم مختلفة أمنوا بضرورة الالتقاء وجدوا لمحاولة الوقوف على عناصر عمران حوض هذا البحر وطرق تنقائها ونتائج تلاقحها، فالتقوا وقارنوا بين ثمرات أبحاثهم، فتلاقحت الأفكار والنظريات والآراء وشعت الأنوار، وغنموا وغنم معهم العلم، ثم افترقوا على وعد اللقاء. ولا ريب أن نشر هذا السفر الجامع لأعمال المؤتمر سيمكنهم من التأمل فيها حتى تزداد الأفكار عندهم نضجا وتتضح أمامهم السبل إلى آفاق أكثر اتساعا تمهيدا للملتقى المقبل"<sup>(1)</sup>.

ب- فكرة حضارة البحر المتوسط والمستشرقون:

نجد من المنظرين لهذه الفكرة المستشرق الفرنسي جاك بيرك الذي زار الجزائر وألقى محاضرة مسلة 17 نوفمبر 1987 بقصر الثقافة بالجزائر العاصمة، تحت عنوان :

"الإسلام والبحر الأبيض المتوسط"

تبحث

يقول بيرك: "إن البحر المتوسط هو أحد فضاءات الذاكرة التي تبحث فيها الهوية الإنسانية عن تحولاتها، هذه الفضاءات أصبحت ضرورية يوما بعد يوم في عالم الآلية والعوالمية (كوسموبوليتيك) والاستهلاك. وإن الانطواء الساذج المحتمل للمسلمين) يعني في حالة نجاح الإسلاميين وتكوين دولة إسلامية في

<sup>(1)</sup> المرجع نفسه، ص 269، 270، 271.

الجزائر)، والرفض الدائم للغرب للاعتراف بحقوق الشعوب في نظام دولي جديد، سيؤدي إلى تقدم سطحي وتطور لا إنساني. ورغم أن البحر هو حقيقة جغرافية وتاريخية ولم يعد للروم وحدهم، نذ أن جلاء الإسلام - هو يريد إذن أن يعود إليهم وحدهم - ووصلت فتوحاته إلى "بواتيه"، فإن العرب أداروا ظهورهم، ولم يتغنوا به واستمروا في الهيام بجنوبهم وبالصحراء والرمال... وحتى في بلد جهاد بحري كالجزائر لم نجد (الباذة) أو (أوديسة) عن البحر<sup>(1)</sup>.

وبعد ذلك شرع في الأهم ليقول: "لقد أنجب هذا البحر بالرغم من ذلك من دعا إلى وحدته ووحدة ثقافته والحضارة به، ولم ينجب فقط من دعا إلى التمايز الثقافي والحضاري بين شماله وجنوبه". وأتى بيرك بثلاث أمثلة للبرهنة على هذا، هي:

البيركامو، وطه حسين الذي قال: إن الثقافة العربية أوروبية لا شرقية، وأن السلطة لا تأتي من السماء ولكن من الأرض.

وكازانساليس اليوناني (1938) الذي كتب أوديسة عن الترابط القائم بين شمال وجنوب المتوسط، كما يبين أنه في الجنوب توسع للغات الأوروبية وفي الشمال مهاجرون عرب (لماذا لا يكون في الشمال تتوسع للغات الإفريقية كذلك؟). (هذا يعني عدم التكافؤ في العلاقة. هذه هي فكرة حضارة حوض البحر المتوسط)، ورغم هذا هناك رفض للتفتح والحوار بين الحضارات والثقافات بين الشمال والجنوب<sup>(2)</sup> (هو يريد إذن الذوبان وفقدان الشخصية ونسخها لا التكافؤ).

ثم يقدم دليلاً جديداً غريباً (كاذباً) للارتباط بين الغرب والشرق، ولكن ليبين أخذ الشرق من الغرب وليقنع المستمعين أن الغرب هو كل شيء وأن الشرق لا شيء. ومن القرآن، وعلى شاكلة الآباء البيض. إنه عقد القرآن بين الغرب والإسلام بدليل القرآن. أو قل تأثر محمد بأحد المفكرين اليونان ونقله منه.

"كان هناك يوناني اسمه (بارمينيد) عاش ما بين 515 و 440 ق.م، ذكر نفس ما جاء به القرآن، بل حتى الصور والدلالات، فهو يتحدث عن (هو) وتعلمون من (هو) الذي لا يولد ولا يلد... والتصمد، نعم لقد جاء بالكلمة اللاتينية الوحيدة التي تقابل الصمد... التي معناها ضد الأجوف، وذكر الأثير والأديم وقابل الشمس والقمر والسموات والأرض" وقرأ "خلق السموات والأرض بالحق... تاكلون" (التحلل/16) والآيات 3، 4 من سورة الأنعام، وآيات أخرى. يقابل في كل مرة ما يقابلها عند (بارمينيد) ويتعجب من هذا التطابق وهذا الأصل في الغرب والشرق، وهذه الوحدة الغربية<sup>(3)</sup>.

مناقشة آراء بيرك :

جاء بيرك ليقول لنا :

(1) محمد سليم فلاحة، المرجع السابق، ص 9-12.

(2) المرجع نفسه، ص 14، 15.

(3) المرجع نفسه، ص 14، 15.

(4) ورهعت الجلسة مباشرة دون مناقشة، وهنا نساءل: لم رفعت الجلسة؟ (المرجع نفسه ص 14، 15).

1- ليس هناك صراع حضاري بين الشرق المسلم والغرب النصراني، بل هناك وحدة حضارية وإخاء بين الأديان.

2- الغرب هو مركز الحضارة بالأمس واليوم وغدا، وحتى القرآن المصدر الأول لحضارة المسلمين موجودة معانيه في مؤلفات الغرب السابقة لنزوله، بدليل ما كتبه (إلمينيد).

3- البديل- هو ما يسمى بحضارة البحر المتوسط التي يدوب فيها الشرق المسلم في الغرب النصراني- إن بيرك يغالطنا ليمرر فكرته وهي ذوباننا وفتاونا وانتصارهم<sup>(1)</sup>.

وقبل أن نفحص آراءه السابقة بدقة نريد أن نعرف، من هو جاك بيرك؟: هو جزء من الظاهرة الاستعمارية يخشى أن تتكرر التجربة الإسلامية، ولقد عاش الظاهرة الاستعمارية من الداخل وكان أحد أدواتها. فقد وأد بالجزائر من أب يعمل في الإدارة الاستعمارية، ثم عمل هو بنفسه في إدارة الاستعمار بالمغرب والجزائر، وقدم أفكاره للمستعمر يوم كان أبناؤنا يقتلون من طرفه، وشبابنا يمسخون. قدم أفكاره لدولته فرنسا في شكل نصائح للبقاء أطول، وما زال يقدمها إلى اليوم، وفي كل مرة في ثوب بالغ الأناقة، ودوما من أجل إبقاء السيطرة على الشرق. والجزائر جزء من الشرق، وليس من أجل التآخي والتسامح والمساواة كما يحاول إيهامنا.

إنه في سنة 1946 كان جزءا من الإدارة الاستعمارية قدم تقريرا بعنوان " من أجل سياسة جديدة لفرنسا في المغرب" أكد فيه " أنه لن يستتب النظام في المغرب إلا بغيابنا عنه"<sup>(2)</sup>. وهذا يعني أن بيرك من الأوتل الذين وجهوا السلطة الاستعمارية نحو ما نعرفه اليوم بالاستعمار الجديد، الغياب بالجيش والبقاء بدون جيش. هذه فكرة بيرك الرئيسية، وقد طبقت اليوم بحذقها، لقد استخدم بيرك معرفته بطبيعة الشرق - نحن- من أجل الهيمنة عليه من جديد وبأسلوب جديد. إنه يدعو الاستعمار إلى تغيير أساليبه ليس بهدف إلغائه كظاهرة، إنما بهدف إلغاء أسباب الثورة الكبيرة التي تقلقه - ولذا يعمل على إقناع الشعوب المستعمرة- بأن الخلاص الوحيدة لها هو أن تتطابق والنموذج الحضاري الغربي مع إهمال هويتها بوصفها (بدائية) أو بوصفها (رجعية).

إن بيرك يرى أن الحل الذي ينفذ الغرب من الكارثة المقبلة ( استيقاظ المسلمين) قائم على احتواء الشرق ضمن الغرب وإبقاء الهيمنة عليه، وذلك ليس بالإلغاء المباشر لدور الشرق الحضاري ولدور الدين الإسلامي والبنى الثقافية والاجتماعية في المجتمعات الشرقية؛ لأن في ذلك تفجيراً مباشراً لوعي الشرق ومقدراته، إنما بالتغلغل داخل الشرق بطريقة لا تقلقه ولا تستفز، وتبقيه نائما إلى أن يجهز عليه ببطء وبهدوء، أو على الأقل يهجن بطريقة التزاوج التدريجي والبطيء.

إن منهج بيرك عدم التصادم العسكري هنا، لأن ذلك يؤدي إلى رد فعل قوي، وإنما تدجين الإسلام، فهو لا يقول الإسلام لا شيء والعربية لا شيء والجزائر لا شيء، وإنما يقول: نعم الإسلام في جانب، وفي

(1) المرجع نفسه، ص 18.

(2) محمد وقيدى، العلوم الإنسانية والإيدولوجية، ط1، دار الطليعة، 1983، ص 162، 164. عن محمد سليم قلاله، المرجع السابق، ص 24، 25.

جوانب أخرى العلمانية، نعم العربية في الشارع، والفرنسية في تعلم والتكنولوجيا، نعم الجزائر شخصية ولكن في ترابطها مع فرنسا إلخ .

إن نفي بيرك للصراع الحضاري بين الشرق والغرب له غاية أساسية هي إعداد العدة تقضاء على الشوق وهو ساكن (نائم) وإن دعوته الحالية ليست سوى مرحلة لتهدئة (الثور) الهائج قبل إحكام ربطه للإجهاز عليه بلا شفقة ولا رحمة، لأن لحمه مباح<sup>(1)</sup> وإلا فإن الواقع التاريخي والأني يكذب بيرك ويبيّن أن ما يسمى بحضارة البحر المتوسط وإنسان البحر المتوسط خرافة، لأن الصراع عبر التاريخ ولا زال بين الشمال المتوسط وجنوبه، فالعلاقة بين الشمال والجنوب هي علاقة ظالم بمظلوم، قاهر بمقهور، ولأول مرة يقع التوازن في القوة فيحس الجنوب بوجوده وشخصيته بعد مجيء الإسلام، ولذلك يعملون على طمس هذه الحقائق.

لقد أدرك علماء الغرب ومنهم بيرك أن وعي المسلمين اليوم بحقيقة دينهم وقرانهم انتقل من دائرة الأفراد المعدودين - بعض العلماء والدعاة - إلى دائرة الوعي الجماعي الذي يمس غالبية الناس، وفي ذلك خطر على وجودهم كحضارة وكشعوب وكمسيطرين على العالم، فاتخذ الغرب سياسة ذات اتجاهين متكاملين:

- اتجاه القمع الوحشي المباشر، وتمثله أمريكا.

- اتجاه الوسائل السلمية السرية وتمثله الدول الاستعمارية الأخرى كفرنسا وبريطانيا إلخ مستخدمة كل أساليب التشكيك وزرع الطائفية وإحياء النزعات القبلية وافتعال المشكلات الهامشية إلخ - دون أن تتخلى عن القمع الوحشي عندما ترى ذلك وسيلة لتحقيق أطماعها -.

وبيرك من الاتجاه الثاني الذي يعد كالسم ذي المفعول البطيء، السم المركب من مواد التشكيك والفتنة والتغريب وحاول هذه المرة في الجزائر أن يضع سمّه على (مصدر) هذه القوة التي نملكها، فقال: إن (بارمينيد) جاء قبل القرآن بمعاني القرآن. وسيقول غدا إن لم نفضحه (جاء بكل القرآن)، وغايته من ذلك، عدة أشياء منها:

1- التشكيك في أنه وحى منزل من السماء، وهو من وضع البشر ومن ثم صرف المجتمعات عنه.

2- تبليان أن الغرب هو مصدر كل شيء، العلم والدين. وأن الشرق ناقل لا غير. وإذا كان كل ما لدى الشرق اليوم من أدوات ومصنوعات هو من نتاج الغرب، عليه أن يفهم أنه حتى (القرآن) الذي ما فتئ يعتز به سبقه الغرب إليه، ونتحدى بيرك إن كان هذا الكتاب موجودا أن يقوم بنشره .

بيرك هنا يتناقض مع أطروحته الأولى الداعية إلى الوحدة والمساواة. إذ كيف يدعو إلى المساواة الحضارية من جهة، ويعتبر الغرب هو مركز كل شيء بما في ذلك القرآن؟ أليس هذا هو الاحتواء بعينه وروح السيطرة والهيمنة؟ إنه يتناقض مع أطروحته التقليدية القائلة بثنائية الوجود الحضاري بين الشرق والغرب ويستمر في طرح أحادية هذا الوجود وحتمية سيانته على العالم مستدلا بكبار المفكرين الذين نهجوا هذا المنهج وعلى رأسهم طه حسين.

<sup>(1)</sup> محمد سليم قلاله، المرجع السابق، ص 24 ... 26.



لقد أتى بيرك ليهدم ويمرر مشروعه الهادف إلى الهيمنة على عقولنا وثرواتنا المتماشي مع سياسة بلادته التي لا يمكن أن تكون إلا متوسيطية، والمتطابق مع تصريحات زعمانه السياسيين الذين يرون الخطر كل الخطر في أن تغفلت بلداننا من قبضة أيديهم إذا ما تنامي فيها الوعي إلى حد الثورة ضد الغرب، والتوجه أكثر نحو الجنوب والشرق (امتدادها الطبيعي)<sup>(1)</sup> بدل الشمال الذي يريدنا (بيرك) أن نتطلع نحوه أكثر. إننا نعيش هجمة شرسة مصدرها الغرب، تركز على مقومات ثلاثة أساسية لدى أمتنا:

الدين والتاريخ واللغة، ومع ذلك نجد من يشجعها في عقر دارنا (بل وينادي بها)، وفي وسائل إعلامنا التي نشرت ملخصا مما قاله بيرك بدون أي نقد، بل المحاضرة نفسها لم يسمح بمناقشتها. وكأنه أتى ليلقي علينا أوامرا، ونحن لا نملك إلا التنفيذ<sup>(2)</sup> (إذ كيف يسمح للأندجينا بمناقشة؟).

## 2- الاحتفال بالآثار الرومانية :

من مميزات دعاة الحركة البربرية خاصة والفرنكفونيين عامة تمجيد الآثار الرومانية -لا الإسلامية- الموجودة في القطر الجزائري وتعظيمها، فأصبح بعد الاستقلال من يحن إلى عهد القهر والظلم والعبودية والاستعمار الروماني، عهد الرومان المشركين. فأخذوا يعملون بلا هوادة على ترضية الاستعمار الفرنسي المطرود بإقامة حفلات سنوية فنية : غناء ورقص بين أطلال تيمقاد التي بناها الرومان بولاية باتنة. وسط الأحجار المنحوتة والهيكل الرومانية والأصنام الوثنية، وينفقون من أجل ذلك من أموال الدولة مبالغ طائلة احتفاء بالرومان والعهد الروماني. رغم أن البلاد في أمس الحاجة إلى تلك الأموال التي لو أنفقت على البحث العلمي في مجالي التاريخ والآثار لكانت قد أنفقت في وجهها الصحيح. تقام تلك الحفلات بين بقايا آثار الرومان بتمقاد أمام التماثيل والأحجار والأقواس، تماما كما يفعل عباد الأوثان بأوثانهم في أعيادهم لألهتهم، يجتمعون فيها للرقص والغناء والطرب إلخ. ويدعى إليها حفدة الرومان من أوروبا- ومن البلدان العربية فيختلطون بالشباب والشابات الجزائريين المانحين، لأنه لا يدعى إلى الاحتفال رجال الفكر الذين يمكنهم مناظرة القادمين من أوروبا الذين هم على مستوى عال من الثقافة ومتخصصون، وبعضهم من رجال التبشير المتسترين تحت دثار الفن، فيختلطون مثلا بالشبابية يمينة وفلة عباسية وشباب الراي، ناهيك عن اختلاطهم بالمتفرجين والمتفرجات الذين هم أيضا على هذه الشاكلة. فيتأثر بعض هؤلاء بأولئك خلال أسبوع كامل يمر وهم كذلك تحت عنوان "أسبوع الثقافة" أو "المهرجان الثقافي" أو "المحافظة على الآثار الرومانية". ولكي يحدث المهرجان أثره المقصود فإنه حتى (ديكور) فقد عيد به إلى عهد الرومان، حيث شاهدنا في التلفزيون الجزائري في احتفالات 1998 و 1999 م كيف صنف الرجال والنساء في أعلى مدرجات المسرح باللباس الروماني وتصفيقة الشعر الرومانية من أقصى يمين المسرح إلى أقصى يساره، وكيف يخرج المغنون والمغنيات والراقصون والراقصات وهم محاطون كذلك بديكور روماني لباسا وتصفيقات شعر، بل وحتى الألوان والأضواء لإضفاء طابع رومانيكي على الجو،

<sup>(1)</sup> والدليل على هذا أننا عندما نقارن الإنسان الجزائري بأي إنسان آخر على حدودنا الشرقية أو الغربية أو الجنوبية لا نجد أي فرق بينه وبين إنسان

تلك البلد، أما إذا قارناه مع إنسان شمال المتوسط فلا نجد أي تشابه بينهما.

<sup>(2)</sup> المرجع نفسه، ص 30... 36.

فيجعل الإنسان يحس بأنه أصبح بالفعل في العهد الروماني، وهكذا. ناهيك عن المدرجات الممتلئة بالشبان والشابات وهم يهيجون فيها ويموجون هزا للنهود والبطون تعبق منهم روائح العطور المختلفة المختلطة بالعرق مما يجعل رائحتها مقززة، يزيد لها سماجة رائحة الخمر المنبعثة من أفواه السكران، ناهيك عما يحدث بعد ذلك، أي بعد الانفضاض في ليل داس، وظلام حالك، وعقول مخدرة، وغرائز هانجة، وعواطف جامحة، وقلوب فارغة من الإيمان. كل هذا تعظيم لما تركه الرومان من آثار استعبادهم للبلاد وأهلها، وترضية لحفدة الرومان<sup>(1)</sup>. والواقع أن ما سبق لا يستغرب، وقد بينا قبلا كيف سيطر حزب فرنس على الإدارة الجزائرية وورثها، وهو ما اعترف به رئيس المجلس الأعلى محمد بوضياف، وكيف سيطر هذا الاتجاه على المراكز الحساسة في الدولة وعلى مختلف مرافق الحياة. ولا أدل على هذا أننا لم نشاهددهم يحتفلون بالآثار الإسلامية رغم كثرتها، فما الذي دفعهم إلى الاحتفال بالآثار الرومانية<sup>(2)</sup>. وقد أضافوا إليها مؤخرا الاحتفال بالآثار البربرية، ولقد أشرنا قبلا إلى عزم دعاة الحركة البربرية على إقامة تمثال للكاهنة بساحة الشهداء بالجزائر العاصمة تمجيدا لها لمحاربتها الإسلام والمسلمين. وما يؤسف له أننا في الوقت الذي نجد فيه الاعتناء الشديد بالآثار الرومانية- التي أضيف إليها الآثار البربرية - في مختلف بقاع الجزائر من ترميم وإشهار، وإقامة الفنادق الضخمة بها كما هو الحال في تيمقاد، والمرشدين السياحيين الذين يتقنون مختلف اللغات والذين يستقبلون الأوروبيين الذين يأتون لزيارة ما تركه أجدادهم فيشرون لهم بلغاتهم عظمة أجدادهم. وفي المقابل نجد الآثار الإسلامية في حالة يرثى لها، تزداد سوءا يوما بعد يوم. ولا أدل على ذلك من الحالة السيئة لقصبة قسنطينة وسوقتها التي تهدمت كثير من مبانيها وصارت مهددة بالزوال، وكذا قصبة الجزائر رغم أن اليونيسكو اعتبرتها من ضمن التراث الإنساني الذي يجب المحافظة عليه، بل نجد تصريحات المسؤولين في بلادنا بأنهم وضعوا مشاريع للمحافظة عليها وتجديدها بما يتوافق مع المحافظة عليها، ولكن تلك المشاريع ظلت في أدراج المكاتب، في حين نجد أن الاحتفال بآثار ما قبل الإسلام انتعش أيما انتعاش وأصبحت الدولة نفسها هي التي تشرف وتمول وتدعو وتعلن.

والواقع أن هذا ينسجم تماما الانسجام مع ما دعا إليه بورغاد كما بينا قبلا من ضرورة إعادة إحياء تراث ما قبل الإسلام وإقناع الأهالي بانتمائهم إليه، فإذا تحققت هذه الغاية سهل تنصيرهم أو مسخهم ثقافيا مما يمكن للاستعمار الفرنسي من البقاء في هذه البلدان إلى الأبد. وبهذا ندرك الدافع التبشيري الخفي في الاحتفال بالآثار الرومانية وغيرها مما سبق الإسلام في أرضنا، وهو ما دعا إليه لافيغري ودوفوكو وكل أقطاب التبشير والمستشرقين ورجال الجيش والدولة الفرنسيين وغيرهم. وذلك لسلخ السكان من انتمائهم المشرقي وتحويل انتمائهم إلى أوروبا، إلى الحضارة اللاتينية. وفي هذا السياق يصنف إحياء البربرية وكتابتها بالخط اللاتيني. ولما كانت فرنسا هي وريثة الاستعمار الروماني كما عبر عن ذلك رجالها أثناء الحملة على الجزائر وبعدها، فإن الغرض من الاحتفال بهذه الآثار وإحيائها، إنما هو تحويل قبلة السكان

(1) عبد اللطيف بن علي السلطان، المزدكية هي أصل الاثرائية، ص76، 77، وقد أضفنا إليه ما انطبع في أذهاننا من خلال معاينتنا وقناعتنا.

(2) المرجع نفسه، ص 77.

إلى فرنسا بدل مكة المكرمة، لأنه لما زعمت أنها وريثة الاحتلال الروماني النصراني فقد أصبح لها في زعمها الحق التاريخي في البلاد، لأن الرومان سبقوا الإسلام إليها. وهذا ما جعل الأسقف "ديبش" ينقل جثمان "أوغسطين" من مدينة "باقي" بإيطاليا إلى مدينة عنابة بمساعدة السلطات الفرنسية وفي احتفال رسمي مهيب كما ذكرنا قبلا. وهذا إيذان في تصورهم برجوع النصرانية إلى البلاد بعد أن طردها الإسلام منها.

وعلى ذكر أوغسطين فإنه هو أيضا أصبح الترويج له واعتباره زعيما وطنيا في وسائل الإعلام الجزائرية، ومن ذلك: فقد قدمت حصة في التلفزيون الجزائري<sup>(1)</sup> ذات طابع ثقافي عن سوق أهراس، ومما ذكره المحقق:

- سوق أهراس ليس بها آثار إسلامية. وقد نسي أن كل سكانها مسلمون.

- قال عن (أوغسطين) بعد أن مدحه ومجده: بأنه مات وهو يدافع عن الجزائر ضد البرابرة، يقصد "الوندال".

والواقع أن هذا الكلام عن (أوغسطين) إنما هو تزييف للحقائق، إن بقصد إن بجهل، لجعل الناس يعتزون به ويرتبطون، وهو ما ينسجم مع ما يدعو إليه المبشرون من تعظيمه. ويبدو أن صاحبه أخذ ذلك عن يوسف كرم المعروف بنصرانيته وتعصبه. وإلا فحتى لو فرضنا أنه مات بالفعل وهو يدافع عن الجزائر ضد البرابرة، فإنه كان يدافع عن الاستعمار الروماني ضد الغزاة الجدد الذين أرادوا طردهم من الجزائر لأخذها. وبمنطق اعتبار (أوغسطين) بطلا وطنيا لأنه مات مدافعا عن الجزائر، فإنه يجب كذلك اعتبار الجزائريين الذين انخرطوا في الجيش الفرنسي تطوعا في الحربين العالميتين الأولى والثانية ضد الألمان وماتوا: شهداء وأبطالا وطنيين. وهذا لا يقوله عاقل، لأنهم ماتوا دفاعا عن فرنسا الاستعمارية وإبقاء للاستعمار الفرنسي لا دفاعا عن وطنهم وشعبهم. وبذلك نرى بأن (أوغسطين) لو مات وهو يدافع عن الرومان فإن ذلك وصمة عار في جبينه تضاف إلى سيئاته الأخرى؛ لأنه بدل أن يدافع عن أبناء جلدته ليحررهم من الرومان، حارب ومات لإبقاء الرومان مستعبدين لهم. ولكن كيف يكون كذلك وهو الذي كان يحتقر حتى لغتهم فلم يكتب بها ولا تكملها، بل اتخذ مترجمين ليتعاملوا مع أبناء جلدته. ومع كل هذا فإننا لا نفهم كيف مات في الجزائر وفرنسا نقلت جثمانه من إيطاليا إلى عنابة كما ذكرنا قبلا.

إن الغاية من الاحتفال بهذه الآثار واضحة، وتتمثل فيما يأتي:

- جعل الناس يعتزون بما قبل الإسلام لنسيان الإسلام وآثاره.

- جعل الناس يرتبطون نفسيا باللاتين تحت غطاء ما يسمى "حضارة البحر المتوسط" بدل الارتباط بمكة المكرمة. مما يعني تحويل انتماء الناس، وذلك خدمة للنصرانية والاستعمار معا.

ولما كان هذا الاتجاه اليوم سائدا على مستوى الأحزاب البربرية وعلى مستوى بعض الناس في السلطة من الفرنكفونيين، فقد أعيد الاحتفال إلى تيمقاد بأسبوع من الغناء سنة 1997 م بعد أن تعطل 10 سنوات كاملة، وأعلن المسؤولون عن إعادة الاحتفال بأن هذا الاحتفال السنوي لن ينقطع بعد هذه السنة التي كان

<sup>(1)</sup> وما أكثر المحمص التلفازية التي تحدث عن الآثار الرومانية وتشيدها.

فيها محليا، ولكنه في السنة القادمة أي 1998 م سيكون عالميا (1)، وقد صدقوا فيما وعدوا به. وكل ذلك يدخل في إطار تحطيم ما يسمونه "الظاهرة الإسلامية في الجزائر". وهو ما ينسجم ويتكامل مع الفرنكفونية، حيث يمثل هذا الاحتفال أحد أبعادها الثقافية، ولنا بحاجة إلى التذكير بأن مصطفى لشرف أحد أقطار الفرنكفونية يعتبر الإسلام مرضا، مما يجعل هذا الاحتفال في اعتقادهم أحد أنواع العلاج. ومن أهداف الفرنكفونية في ذلك أيضا جعل فكرة الانتماء تتسرب إلى العامة ولا سيما وسط الشباب الضائع الذي يذهب للتمتع بهذا المهرجان فيلقتي بمتخصصين في التغريب والتنصير وامتسخ الحضاري من أحفاد الرومان الذين يأتون للمشاركة في هذا المهرجان وأذنانهم الذين مسخوا في مخابرة. وهنا تنتقل إلى موقف الشريعة الإسلامية من تعظيم المشركين وآثارهم.

موقف الشريعة الإسلامية من تعظيم المشركين وآثارهم: يعد الاحتفال السابق ذكره بالكيفية السالف ذكرها - من الناحية الشرعية - تعظيما للشرك والمشركين، فلقد نهى الله عز وجل عن الافتخار بالمشركين وأعمالهم وآثارهم حتى ولو كانوا آباء أو أجداناً أو أخوة، وقطع جميع الصلات بين المسلمين وبين المشركين السابقين منهم واللاحقين " فيحرم على المسلم أن يفتخر أو يفاخر أو يعظم المشركين ومعبوداتهم وآثارهم. لأن الفخر بهم إقرار لهم على شركهم ورضى بكفرهم. ولا يصدر هذا وأمثاله ممن آمن بربه، ودرى أن الشرك باطل وظلم عظيم ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (2)، وأن المشركين كانوا على ضلال مبين" (3). ولذلك نهى الرسول -صلى الله عليه وسلم- من أمن عن الافتخار بأبائهم لأنهم كانوا مشركين، والمشرك لا يستحق التعظيم والفخر به والانتساب إليه: " يا معشر قريش... إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالأباء، الناس من آدم وادم من تراب، ثم تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الناس إننا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (4) (5). وقال -صلى الله عليه وسلم-: " إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبثة (6) الجاهلية وفخرها بالأباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وادم من تراب، ليدعن رجالاً فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان (7) التي تدفع بأنفها النتن (8)".

(1) التلفزيون الجزائري، أوت 1997م، مهرجان تيمقاد الدولي بعد نشرة 8 مساء.

(2) لقمان/12.

(3) عبد اللطيف بن علي السلطان، المرجع السابق، ص 78.

(4) الحجرات/13.

(5) ابن هشام، السيرة النبوية، م2، ص 412.

(6) عبثة بضم العين وكسر الباء وفتح العين المشددين هي التعاطف والتفاخر (عبد اللطيف السلطان، المرجع السابق، هامش ص 78).

(7) الجعلان بكسر الجيم وسكون العين، جمع جعل بضم الجيم وفتح العين: درية صغيرة مثل الخنساء تجعل من العذرة كرة - لتتمش منها - ثم تدفعها بأنفها ولا تمش إلا من الأوساخ والتجاسات، ويقال إنها تموت من رائحة الورد وكل رائحة طيبة، (المرجع نفسه، هامش ص 79).

(8) المرجع أبو داود في سننه في كتاب الآداب تحت عنوان " التفاخر بالأنساب"، بسنده إلى أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى

وإذا كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يحذر المسلمين من الانتساب إلى أجدادهم المشركين بقصد الافتحار والاعتزاز بهم، " فالاعتزاز بالرومان ... أو البربر المشركين الكافرين يشمل هذا النوع، وهذا الوعيد الشديد. إذ لا عزة إلا بالتوحيد وطاعة الله وتقواه كما بين الله عز وجل في قوله: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (1) وبهذا فإن المفارقة بآثار الرومان أو البربر والاحتفال بها إنما هي تكدير بالشرك والمشركين (2)، ولهذا الغرض يحتفل بها لتحطيم النسبة إلى الإسلام وتحويلها إلى ما قبله من البربر والرومان. ولما كان الفرنسيون يزعمون أن البربر ليسوا من أصل عربي بل لاتيني، بل من الغالين، فإن الاحتفال بالآثار الرومانية والبربرية يعد ضمن مخطط ما يسمى "حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط"، والهدف واضح، هو تحويل انتماء السكان من مكة إلى باريس والفاتيكان، وبزيادة اقتناعا ببشاعة بقاء تلك الآثار والافتخار بها أنها كانت مراكز لتعذيب الجزائريين والتكبير بهم وقتلهم واستعبادهم، والمسرح الذي تكلم فيه تلك الاحتفالات، في الآثار الرومانية توجد فيه حجرات الأسود التي كانت تطلق على الجزائريين بعد أن تجوع لتقتلهم، والرومان المستعمرون يصفقون ويبتهجون بذلك المنظر الخلاب. ولنا ندرى كيف تسول لإنسان نفسه أن يفتخر بمن جعل آباءه وأجداده عبيدا ويعتز بعبوديته له؟ أي بمن استعمر أرضه وأذاق أسلافه الهوان؟.

ونختم الحديث هنا بأن نذكر أننا لا نقصد بموقفنا مما ذكر الجانب العلمي فسي هذه الآثار، فزيارتها ودراستها لأهداف علمية مطلوب لمعرفة سير الماضيين وأسباب نشأة الحضارات وسقوطها والمقارنة بين الاستعمار القديم والحديث، ومعرفة عوامل الخلود والفناء والاعتزاز من كل ذلك، وكل ما له علاقة بالجانب العلمي المعرفي يعد في نظرنا مطلوباً.

### 3- الجهود السياسية:

لم تقتصر وسائل نشر الفكرة على ما سبق، بل أضيف لها الجانب السياسي أو الغطاء السياسي، وذلك لما للنسبة في العالم العربي من أثر فعال في توجيه الجماهير طوعاً أو كرهاً إلى ما يريدون. وقد زادت جهود فرنسا الحديثة في الدعوة إلى فكرة حضارة حوض البحر المتوسط بعد قضاء دول التحالف على العراق سنة 1992م، حيث وزعت تلك الدول الاستعمارية مناطق نفوذها من جديد على العالم، وكان من ضمن نصيب فرنسا إفريقيا الفرنكفونية ودول المغرب العربي، وأظهرت فرنسا هذا تحت شعار "التعاون وتعزيز العلاقات لتنمية دول المغرب العربي"، وتحرك فرنسا يتم "في إطار مخطط شامل بين السوق الأوروبية المشتركة والعالم العربي عامة، والمغرب العربي خاصة في إطار ما يسمى بالسياسة المتوسطية ذات الأبعاد الاستعمارية" (3).

(1) الحمرات / 13.

(2) عبد اللطيف السلطان، المرجع السابق، ص 80، 79، ويرى الشيخ عبد اللطيف السلطان بحق أن الدعوة للغة البربرية والاعتزاز بها لتكون عوضاً عن اللغة العربية هو من تعظيم آثار المشركين (المرجع نفسه، ص 81).

(3) للهدى لشجرة، المرجع السابق، ص 155، 156، وأصبح هذا يتم اليوم بين فرنسا والاتحاد الأوروبي الذي حل محل السوق الأوروبية المشتركة.

وقد بين المهدي المنجرة إضافة لما سبق، تخطيط فرنسا الحديث، فأخذت تفكر في عقد مؤتمر أخصر بين أوروبا ودول المغرب العربي، وخطره واضح وقد سماه المنجرة بـ "الخطر المتوسطي" الذي يضاف إلى خطر "الفرنكفونية"<sup>(1)</sup>. ولكي تحقق فرنسا أهدافها، ويكون التخطيط مبنياً على أسس موضوعية حتى لا تخطئ، فقد أنشأت في جانفي 1991 "معهد المغرب العربي"، وقد فصح هذه الحقيقة من حيث لا يشعر مجلة "أفريك بلوس" التي تصدر عن مجموعة صحفية غير حيادية وغير نزيهة، فغيرت عنوانها، إلى "مغرب بلوس"، وأوردت في افتتاحية هذه الأخيرة أن هذا العدد تم تحضيره في جانفي 1991، أي نفس الشهر الذي تم فيه فتح معهد "المغرب العربي". وأهم مقال في المجلة عنوانه: "تشخيص ولادة رأي عام بالمغرب العربي". وقد كتبه مدير المعهد (بنجامين ستورا) والمقال خطير، والمدير من مواليد وهران ومتخصص في "المقاومة الجزائرية"<sup>(2)</sup> - مما يعني عزم فرنسا على تتبع وتوجيه كل ما يجري في الجزائر لصالحها، ومنها الحركة البربرية- هذا المخطط يتم عن إعداد لمؤتمرات مقبلة متوسطة، أو بين فرنسا ودول المغرب العربي. ومما يدل على هذا: كثرة الوفود الفرنسية حزبية وبرلمانية وحكومية إلى المغرب العربي إضافة إلى رجال الأعمال الفرنسيين للاستثمار - والقروض الفرنسية - وكذا الحملة الإعلامية الفرنسية الواسعة عن المغرب العربي لما بعد حرب الخليج وافتعالها الواضح للتخوف من عالمية الحركة الإسلامية ووضعها لتقابلات بالية بين الديمقراطيين (اللانكيين) وترجعيين مقابل أصحاب الحداثة وأصحاب التأخر والتخلف كما هو واضح في العدد الأخير لمجلة "مغرب بلوس" في مقال (بنجامين ستورا) مدير "معهد المغرب العربي"<sup>(3)</sup>. وقد كثرت الملتقيات المتوسطة بالفعل والتي تناقش فيها قضايا الدول العربية المتوسطة ولا سيما الجزائر. وكل هذا لتحويل وجهة الدول العربية من التراب فيما بينها إلى فك الارتباط لتتجه نحون شمال المتوسط الاستعماري، والدليل على هذا أن العلاقات بين الدول العربية كل دولة على حدة بالدول الأوروبية المتوسطة أكبر وأقوى بكثير من علاقات هذه الدول ببعضها البعض ولا تزيد الأيام إلا تفككا، عكس علاقاتها بفرنسا خاصة والدول الاستعمارية المتوسطة الأخرى عامة، إلى حد أننا نجد تدخلات مباشرة مستمرة في الشؤون الداخلية لهذه الدول ولا تحرك لذلك ساكدا. بينما تقيم الدنيا ولا تقعدنا من قضايا مفتعلة فيما يتعلق بعلاقات هذه الدول العربية فيما بينها.

#### 4- نشر الفكرة بواسطة التوجيه غير المباشر:

وذلك بواسطة أتباعهم من الأهالي بينما يبقوا هم من وراء ستار لتبدو الفكرة وكأنها من إبداع هؤلاء الأتباع، فيغفونها بحجج العصرية والعلمنة والتقدم وما إلى ذلك، ولقد ظهرت هذه الفكرة على المستوى الطلابي في أحضان: جمعية الطلبة المسلمين بالجزائر، ثم على مستوى بعض الأحزاب السياسية بعد أحداث أكتوبر 1988 م.

(1) المرجع نفسه، ص 156.

(2) المرجع نفسه، ص 156.

(3) المرجع نفسه، ص 156.

فما يتعلق بجمعية الطلبة المسلمين الجزائريين نلاحظ أنه كان منخرطاً فيها بعض الطلبة الجزائريين المرتدين والمنتجسين الذين كانوا أعضاء قياديين في هذه الجمعية وأعضاء أيضاً في الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين بحكم جنسيتهم الفرنسية، ومن هؤلاء عمار نارون الطالب الجزائري المرتد الذي انتخب نائباً لرئيس جمعية الطلبة المسلمين بالجزائر (A.F.M.A) ليصبح رئيسها بعد سنة، وقد فضحت هذه الجمعية نفسها حين انتخبت حاكم الجزائر الفرنسي العام موريس فيوليت (Maurice Violette) رئيساً شرفياً لها، وذلك في سنة 1933 م، وقد توسعت هذه الجمعية لينخرط فيها الطلبة الفرنسيون المقيمون بالجزائر وتتحول بعد ذلك إلى "الجمعية الفرنسية لطلاب شمال إفريقيا" Association Française des étudiants Nord Africains لتصبح مفتوحة لجميع الطلبة بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية والإيديولوجية والجنسية والدينية " وقد وافقت هذه الجمعية على المشاركة بباريس في إنشاء ما سيعرف باسم : " نادي أنتلجنسيا البحر الأبيض المتوسط " « Cercle Intellectuel de la Médi Terranéc » ، حيث خصص هذا الأخير لاستقبال كل الطلبة الوافدين من شمال إفريقيا، إنه باختصار نادي الاندماجية الثقافية في إطار اللغة الفرنسية والثقافة والحضارة الفرنسية، ولعل كلمات فرحات عباس تكون معبرة خير تعبير على التوجه الطلابي الجزائري الاندماجي، حيث يقول وهو أحد المساهمين في هذا الإنجاز: " نعمل في إطار القانون وتحت إشراف فرنسا العظمى لكي نرفع من مستوى مجتمعنا"<sup>(1)</sup>.

وإذا كان هذا قديماً، فإن الأحزاب البربرية والفرنكفونية اللاتينية وعلى رأسها RCD و FFS أصبحت تتادي جهازاً نهاراً بالانتماء إلى ما يسمى "حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط"، وذلك بعد أحداث أكتوبر 1988م وتشكيل هذه الأحزاب الرسمي تحت غطاء المبررات السابقة التي ذكرناها، وقد تظاهر هذا جلياً في تصريحات رؤساء هذه الأحزاب وفي اتصالاتها وتنسيقها مع دول شمال المتوسط عامة وفرنسا بصفة أخص، وهنا نتوصل إلى نتائج الفكرة :

### نتائج الفكرة وتقييمها :

- أ- نتائج الفكرة : لا يحتاج المرء إلى تمحيص ليدرك :
- ارتباط فكرة حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط بالإقليسية والدعوة إلى العاميات والقبائلية والحرف اللاتينية ومحاربة اللغة العربية الفصحى.
- تجزئة الأوطان العربية وتحويل رباطها الحضاري من مكة إلى فرنسا والفاتيكان، وتمزيقها بإشعال نار الفتن الداخلية والطائفية والحروب الجهوية، وجعلها تفقد هويتها الثقافية والحضارية لتسهيل استيادتها الكلي، وإرجاع مجد النصرانية إلى ما كان عليه قبل الإسلام من استعمار هذه الأقطار وتدميرها.
- وما يتعلق بالجزائر، فمن الأهداف إضافة لهذا :
- فصلها عن عمقها الاستراتيجي وامتدادها الطبيعي، وهو العالم العربي الإسلامي الذي ظل يمددها بما تربى عندما نزلهم عليها الخطوب، وتجزئتها إلى كيانات عرقية متصارعة لإرجاعها إلى ما كانت عليه قبل

<sup>(1)</sup> محمد طه حمادي، المرجع السابق، ص 56، 57.

العهد العثماني انبثق فريسة لفرنسا إلى الأبد. ولما كان العائق الأكبر أمام تحقيق هذه الأطماع الدين الإسلامي واللغة العربية كما صرح بذلك دهاقنة الاستعمار الفرنسي، فإننا نجد الفكرة مرتبطة مع غيرها، فالذي يدعو إلى القبائلية هو نفسه الذي يدعو إلى اللانكية، هو نفسه الذي يدعو إلى العامية، هو نفسه الذي يدعو إلى إلغاء قانون الأسرة الإسلامي وإحلال قانون نابوليون محله، هو نفسه الذي يدعو إلى الفرنسية والفرنكفونية، هو نفسه الذي يدعو إلى دولة كونفدرالية، هو نفسه الذي يدعو إلى تغيير الانتماء الحضاري، هو نفسه الذي يبشر بالنصرانية وينشر وسائل ذلك من أشرطة فيديو وأفلام وأشرطة سمعية... هو نفسه الذي ينفق على الكنيسة في الجزائر، هو نفسه الذي يحارب الإسلام ولغته بلا هوادة... وكل هذه الدعوات انطلقت من فرنسا بتخطيطها وتوجيهها وإشرافها، بل وإنتاج الرجال الذين يعملون على تنفيذ كل ما سبق. وهنا نتوصل إلى تقييم فكرة حضارة حوض البحر المتوسط.

ب- **تقييم الفكرة** : نتفق تماما مع عبد الرحمن اليزاز في موقفه من الفكرة فيقول : " دعونا نفكر بعمق وبموضوعية وتجرد، ودعونا نسائل أنفسنا: ما الذي يجمع بين [الجزائري] والإيطالي راليوناني" مثلا على الرغم من سكانهم جميعا حول سواحل البحر الأبيض المتوسط، ما الذي يجمع حقيقة بينهم .... ؟ أهى اللغة الواحدة؟ أم هو التاريخ والتراث الفكرى الواحد؟ أو لا هذا ولا ذاك وإنما هى الآداب المشتركة؟ أهى التقاليد والعادات الواحدة أم العقيدة الدينية أو المذهبية الواحدة ...؟ فإذا كان هناك ما يفرق بين سكان حوض البحر الأبيض المتوسط من الأوروبيين، فماذا يجمع [الجزائري] هؤلاء وهى تختلف عنهم من وجوه كثيرة<sup>(1)</sup> ... " فتصبح رابطة " الماء " أقوى من رابطة اللغة والثقافة وتمحى الجغرافيا لتكون [الجزائري] " جزءا من أوروبا"<sup>(2)</sup>.

والواقع كما سبق أن فكرة جنس البحر المتوسط أكذوبة لا تاريخ لها؛ لأن إنسان شماله يختلف عن إنسان جنوبه فى شكله ولباسه، ومورفولوجيته وطريقة نطقه وحركاته وسكناته ومعاشه ومناخه وتاريخه وبنيتة النفسية وعقيدته الدينية. ولازال الحال على حاله إلى يومنا هذا، باستثناء ما أحدثه الاستعمار من استيلاء، وهنا نتوصل إلى أن هذه النظرية:

مبنية على مغالطة كبرى؛ لأنه لم يقع فى التاريخ انسجام وتكامل بين شمال المتوسط وجنوبه، لأن البحر المتوسط عبر التاريخ كان الصراع والحروب وظل على أشده بين شماله وجنوبه، أى بين شمال ظالم معتد أثيم، وجنوب مظلوم مستعمر، ولأول مرة فى التاريخ ينصف الجنوب من ظلم الشمال ويحدث التوازن بين الضفتين إنما كان بمجيء الإسلام، فأعيد لسكان الجنوب اعتبارهم وحريتهم وكرامتهم فأسسوا حضارة من أعظم الحضارات هى حضارة الأندلس. كل هذا بفضل الفتح الإسلامى الذى جعل المنطقة الجنوبية للمتوسط تتحرر لأول مرة فى حياتها وتاريخها تحررا كليا، وهذا ما جعل أبناء المنطقة يواصلون الفتوحات الإسلامية، فيفتح طارق بن زياد البربري الجزائري الأندلس. ولو كان المسلمون استعمارا مؤسسا

<sup>(1)</sup> عبد الرحمن اليزاز، هذه قوميتنا، ص 146، 147، عن عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 222، وقد وضعنا "الجزائري" بدل "مصر" التى استعملها

المؤلف، للمناسبة.

<sup>(2)</sup> عبد الله ركيبي، المرجع السابق، ص 222.



أبناء الشمال لحاربهم البربر واتجهوا نحو المشرق لتدمير عاصمة الخلافة الإسلامية لا أن يتجهوا نحو الغرب لفتح الأندلس ومواصلة نشر رسالة الإسلام. وعلى ذكر طارق بن زياد يجب أن نذكر بأن دور الجزائر في حماية الجنوب كان كبيراً وهائلاً، ولا سيما خلال العهد العثماني. فمنها قبلهم انطلق المسلمون لفتح الأندلس، وإيها التجأ الأندلسيون فراراً من محاكم التفتيش أثناء ما سمي بحروب الإسترداد، وهي التي أوقفت الزحف الإسباني والبرتغالي على العالم العربي خاصة والإسلامي عامة، وهي التي جعلت البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية آمن أهلها إلا من ظلم خلال أكثر من 3 قرون، وبانكسارها سنة 1830 م عاد اضطهاد الشمال للجنوب، وكان عنصر المقاومة والحماية هو الإسلام الذي تمكن من تحرير البلاد من جديد بعد قرن وثلاث من الجهاد. وبذلك فإن هذه الفكرة تدخل ضمن تحطيم عامل المقاومة هذا - الإسلام - لبقاء السيطرة للشمال على جنوبه، ولكنه بدلا من العنف الذي أثبت فشله في استيلاء الأرواح رغم قهر الأبدان، يكون بالسلم حتى تنتشر الفكرة في هدوء.

والهدف النهائي من كل ما سبق، أي من 1830 م إلى الدعوة لتغيير الانتماء الحضاري: تحطيم الإسلام نهائياً، أي تحطيم عامل مقاومة ظلم الغرب للشرق، أو ظلم شمال المتوسط لجنوبه، بغرض الاستعمار والتنصير. ولكنه الاستعمار الجديد، وهنا نتوصل إلى خاتمة البحث.

## الخاتمة (1)

في أعقاب رحلة شاقة عبر جوانب هذا البحث ومعاناة يصعب تصورها يجد الباحث نفسه يواجه من جديد سؤالاً محيراً وملحاً " ... هل نجح المبشرون أم فشلوا ... وهل أهم وسائلهم الحركة البربرية ... حققت أهدافها ؟ " .

لقد كان البحث عن إيجاد جواب لهذا السؤال الكلي هو هدف كل سطر في هذه الرسالة، ولم يكن استعراض مختلف جوانب البحث بدءاً بأوضاع الجزائر وتبيين العلاقة بين التبشير والاستعمار في الجزائر وتحديد المفاهيم إلى تشرح أفكار بورغاد وتقييمه وعرض آراء لافيغري ودوفوكو ونشاطهما وهو ما تمثله القسم الأول من البحث إلا محاولة للوصول إلى هذا الجواب الذي يمثل نصف الجواب على السؤال الكلي المطروح المتمثل في شطري الإشكالية.

وإذن فقد كان لابد للعثور على جواب هام للسؤال المطروح في الشطر الأول من الإشكالية من القيام بدراسة عامة للفكر الديني النصراني، ليس من خلال المبشرين الثلاثة فحسب، بل من خلال النصرانية ذاتها وبدراسة عامة للفكر الديني الإسلامي. ولعل هذه هي أولى النتائج التي حققتها هذه الرسالة، إذ أنها عملت على دراسة كل من الفكر الديني الإسلامي، والفكر الديني النصراني ودراسة مجتمع كل منهما ومقارنة كل ذلك. تم هذا من خلال المناهج التي أشرنا إليها في المقدمة، وكل ذلك من خلال تصور فلسفي وإيماني ينشد الحقيقة لذاتها، مما جعلنا نعمن في التحليل والنقد ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ولقد توصلنا إلى جواب خطير من خلال كل ما سبق عن الشطر الأول من الإشكالية، يتمثل في أن المبشرين نجحوا في التبشير غير المباشر نجاحاً منقطع النظير عكس التبشير المباشر، مما جعلنا ندق ناقوس الخطر. ولم يكن إتيان هذا المنهج بالأمر السهل، ذلك أن النتائج المترتبة على مقدماته كانت تتطلب دراسة كل ما كتبه المبشرون الثلاثة وما كتب عنهم وذلك للوصول إلى أعماق ما كانوا يهدفون إليه، مما يمكن من وضع المخطط للدفاع عن الذات الإسلامية وتحسينها، وهو ما جعلنا نركز على بورغاد الذي يختلف عن صاحبيه بأنه رغم خطورته لم يدرس - حسب علمنا - دراسة جامعية متعمقة، وأنه جمع بين مناهج المبشرين ومناهج المستشرقين وأن كل أفكاره هي المعين الذي لا ينضب للحركة البربرية التي نعدها أهم ثمار المبشرين والتي جعلنا القسم الثاني من رسالتنا محاولة للجواب على الشطر الثاني من الإشكالية المتعلقة بها.

وكان للعثور على جواب هام لهذا الشطر (الثاني) من السؤال الكلي القيام بدراسة عامة للحركة البربرية منذ نشأتها إلى وقتنا الحالي بمختلف المناهج التي أشرنا إليها في المقدمة. فنتبعنا نشأتها ابتداءً من التفكير الفرنسي في إنشائها إلى إنشاء رجال الإكليروس والاستعمار لها إلى تبنيها من طرف بعض

(1) - استفدنا كثيراً في صياغة هذه الخاتمة من محاضرة أستاذنا د/عبد الرزاق قسوم في رسالته " مفهوم الزمان في فلسفة أبي الوليد بن رشد . دط . م . و . ك .

الجزائريين إلى أحداث تيزي وزو الثانية، وقد حاولنا النفاذ إلى أعماقها من خلال التركيز على التبشير من خلالها أي على أركانها: اللاتكبية والفرنكفونية وتغيير الانتماء الحضاري، مبرزين العلاقة بين هذه المفاهيم والتبشير من جهة، وبينها وبين الاستعمار من جهة أخرى.

ولقد توصلنا من خلال كل ما سبق في تحليل الشطر الثاني من الإشكالية إلى جواب خطير يتمثل في أن دعاة الحركة البربرية حققوا نجاحا منقطع النظير لم يكونوا يحلمون به أو يتصورون تحقيقه، مما جعل المبشرين يحققون من خلال هذه الحركة النجاح الباهر المتمثل في تحطيم البنية الحضارية ودعاتها، مما جعل رسالتنا جوابا عن عنوان البحث " التنصير وموقفه من النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر " .

ويمكن ذكر بعض (1) النتائج التي توصلنا إليها فيما يأتي :

- لقد ذكرنا قبلا أن الأوضاع الثقافية للجزائر كانت متشعبة بالأصالة رغم بعض النقائص، ولكنها كانت تنقصها المعاصرة، ولقد تمكن الاستعمار من تحطيم النظام السياسي للجزائر في سنة 1830م بعد ثلاث سنوات من الحصار، فحاول الجزائريون إعادة هذا النظام مع الأمير عبد القادر وأحمد باي والمقراني وبوعمامة وغيرهم. ولقد تمكنوا بالفعل من إقامته في سنة 1958م، وتمثل ذلك في تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة ليتم استرجاع الدولة الجزائرية فعليا في سنة 1962م. والذي يمكنهم من ذلك هو سلامة بنيتهم الثقافية والاجتماعية في أساسها، ذلك أن منطلق جميع الثورات إنما هو الإسلام والجهاد، أي أن البنية الثقافية للمجتمع هي التي أرجعت بنيته السياسية بعد أن أزالها الاستعمار. وهذا يبين أهمية البنية الثقافية للمجتمع وخطورتها، وهو ما أدركه الاستعمار. وكان الذي أوكلت له تدمير هذه البنية المبشرون والمستشرقون والساسة والجيش والمتفقون الفرنسيون. فتعاون كل هؤلاء لتخريب هذه البنية، ولقوتها فإن التأثير الاستعماري كان بطيئا، ولكنه أتى بعد ذلك بأشواكه وسمومه، وكانت أركان تخريب هذه البنية هي مختلف وسائل التبشير التي ذكرناها والتي لم نذكرها، ليزول أكبر عائق أمام الاستعمار قديمه وجديده وهو الإسلام، ذلك أن أكبر عائق لاقتراس فرنسا للجزائر - كما ذكرنا قبلا - ليس البحر، بل الإسلام.

ولما كانت البنية الثقافية متشابكة مع البنية الاجتماعية للمجتمع، وكانت البنية الاجتماعية مبنية على أساس القبيلة، وكانت رغم بعض جوانبها السلبية ذات تأثير إيجابي جدا في الحماية من التنصير، فلبن الاستعمار أدرك هذا، فأخذ يخطط بخيله ورجله لينسل من خلال هذه البنية إلى تحطيم المجتمع بتوجيهها لصالحه وذلك بتغيير محتواها الثقافي (2) ، أي تغيير البنية الثقافية للمجتمع ليتم توجيه البنية الاجتماعية لصالح الاستعمار. ولقد تمكن بالفعل رغم بطئ النتائج، وهاهي الحركة البربرية التي هي دعوة جهوية قبلية عرقية عنصرية تنخر جسم المجتمع الجزائري ويتم من خلالها العمل الرهيب على تنصيره.

(1) - بعض الاتجاهات العلمية فيما يتعلق بنتائج البحث لا تقوم بمحصرتها وترك للقارئ استنباطها ، وبعضها الآخر يقوم بذكرها، ونحن المحدثا مرفقا

وسطا فاكفينا بالإشارة إلى بعض نتائج البحث دون بعضها الآخر .

(2) - ونعتقد أن هذا هو السر الذي جعل سعيد سعدي يسمي حزبه "الحزب من أجل الثقافة والديمقراطية" إذ لا نفهم ليراده كلمة "الثقافة" سوى ما ذكرناه.

ومن هنا يجب العمل بلا هوادة لإعادة البنية الثقافية الإسلامية للمجتمع، وتكميلها بما كان ينقصها وهو التقدم التكنولوجي، هذه التكنولوجيا التي أصبح الغرب اليوم يستعمل قواته العسكرية لمنع العرب والمسلمين من امتلاكها وما يفعله بالعراق خير شاهد على هذا.

والغريب أن دعاة الحركة البربرية المبتئين لقيم الاستعمار يتهمون الإسلام وأصحابه بالتخلف، ولكننا لم نجد أي واحد منهم في الجزائر ألف كتابا تكنولوجيا يحتوي على إبداع، ولا قام باختراع. كل ما يفعلونه: ترديد مقولات الاستعمار بمبشرية ومستشرقية وسياسية، من اتهام الإسلام بظلم المرأة، ومعاداة العلم إلى آخر ما ذكرنا. ولا يكفون عن الإشادة بالثورة الفرنسية... إلى حد جعل الإشادة بها ديننا جديدا نبينا عن الإشادة بالإسلام ومضادا له. رافعين شعار الحداثة والعصرية رغم كونهما مفهوما أدبيين تجاوزهما الفكر الغربي ذاته، ورغم أن الدعاة إليهما لم يتمكنوا إلى الآن من إعطاء مفهوم دقيق وواضح لهما. ولكن أنى لهم ذلك وهم يتحركون بإشارة من الاستعمار الفرنسي ويتوقفون بهمة منه.

- لقد ظهر لنا بوضوح صحة تعريف التنصير ( التبشير ) الذي أوردناه من أنه " العمل التعاوني المنظم.....". ذلك أنه ما من قضية مما درسناه مهما كان طابعها إلا ووجدنا فيها تعاوننا وتنسيقا وتكاملا بين رجال التبشير من جهة ورجال الاستشراق من جهة أخرى، ورجال الجيش والسياسيين من جهة ثالثة، وهذا أحد أهم عوامل نجاح الظاهرة الإستعمارية، ونجاح المبشرين على حد سواء، ونتوصل منه إلى نتيجة مهمة، هي أنه :  
لا تبشير مستقل عن الاستعمار، ولا استعمار مستقل عن التبشير، وأن كل تبشير استعمار وكل استعمار تبشير.

وإذا كانت هذه هي العلاقة بين رجال الدين ورجال الدولة عند الفرنسيين، فإننا نجد عكسها حاليا بين علماء المسلمين وساساتهم، كما سنشير، وهذا أحد عوامل نجاح الاستعمار وإخفاق المسلمين.  
- التعاون السابق ذكره بين مختلف أقطاب الاستعمار إن لم يفلح في التبشير المباشر بالنسبة إلى الجهود المبدولة، فإنه حقق نجاحا باهرا في التبشير غير المباشر.

وقد ظهر ثمره في العشرينيات من القرن 20 في إيجاد الحركة البربرية وإخراجها إلى حيز الواقع، وقد استغلها أبشع استغلال لتحطيم الحركة الوطنية، وتحليل ذلك أنه كان يمكن لهذه الحركة أن تؤسس حزبا مستقلا ينشط نشاطا عاديا مثل بقية الأحزاب الأخرى، ولكن الاستعمار لم يرد ذلك لأنه لا يحقق له أغراضه آنذاك، بل بث عناصرها داخل الحركة الوطنية (حزب الشعب) لتمزيقها من الداخل وجعل بأسها بينها شديدا، ولكن قوة الحركة الوطنية وتماسكها أفضل المخطط سنة 1949م ولكنه لم يقضي عليه بحيث تكيف عناصر تلك الحركة مع الوضع الجديد، وأخذوا ينخرون جسم الحركة الوطنية من الداخل ببطء، فعادت إلى الظهور من جديد سنة 1963 فشلت وظلت تعاود الكرة بعد الأخرى بالدعم والتخطيط الفرنسيين المباشرين إلى أن استحل أمرها وأصبح بعض قادتها الأمر الناهي، فاستطاعوا تمزيق دعاة النهضة الحضارية شر ممزق. فلقد رأينا قبلا أن جمعية العلماء أول من نبه إلى خطرهم، لتقوم بعد ذلك الحركة الوطنية بمجهود جبار في تطهير صفوفها منهم كما رأينا ما فعله مالك بن نبي قبل الجميع، وما

وحل به من طرف ما سينيون، ومعنى هذا أن جميع دعاة النهضة الحضارية كانوا يشكلون نسقا واحدا متكاملًا. ولكنه بعد الاستقلال ظهرت الشحنة -ولاسيما بعد التعددية الحزبية الرسمية في الجزائر- بين دعاة النهضة الحضارية مع ذاتهم، أي بين من أصبح يسمى الاتجاه الإسلامي، والاتجاه الوطني، رغم أن العدو ظل يعتبرهما شيئا واحدا : " الكوليرا والطاعون "، وذلك بفعل تغلغل الاتجاه المعادي لهما معا داخل الحركة الوطنية وإعطاء صورة سيئة عن الاتجاه الوطني، ولكن الاتجاه الإسلامي أو بعضا منه على الأقل لم يدرك هذا بعمق فصب جام غضبه على الاتجاه الوطني ليتحقق النصر الرهيب للاتجاه المعادي لهما معا، مما أدى إلى عشر سنوات كاملة سيطر فيها الاستنصاليون على مقاليد الأمور فأهلكت الحرث والنسل. وبهذا نستطيع القول بأن ما يعانيه دعاة النهضة الحضارية اليوم من مشكلات، بل وما تعانيه البلاد كلها إنما هو ناتج عن المخطط التبشيري وجهود المبشرين في القرن 19. ولقد توصل نتائجهم (دعاة الحركة البربرية) إلى درجة من التمكين والتمكن أن منعوا وجود الأحزاب الإسلامية في الجزائر المسلمة كما بينا أثناء حديثنا عن مكاسب الحركة البربرية بعد أحداث أكتوبر 1988 رغم مليون ونصف مليون شهيد ورغم أن كل سكان الجزائر مسلمون، وهو ناتج عن حقد دفين تجاه العروبة والإسلام وعن دكتاتوريات لم يوجد لها مثيل، وهذا في الوقت الذي يعتنون فيه أنفسهم بأنهم وحدهم ديمقراطيون ويسمون اتجاههم الاستنصالي " القطب الديمقراطي ".

وهنا نتوصل إلى جواب عن عنوان الرسالة كلها المتمثل في موقف التصيير من النهضة الحضارية المعاصرة في الجزائر، فيتمثل هذا الموقف في مدى التحطيم والدمار الذي حل بدعاة النهضة الحضارية والإسلام والبلاد عامة، سواء فيما يتعلق بالجانب الأمني والإرهاب بمختلف أشكاله أو فيما يتعلق بتحطيم الاقتصاد والثقافة والتعليم، أو في يتعلق بالمؤسسة الدينية وأصحابها أو فيما يتعلق بالإسلام كدين، أو فيما يتعلق بهيبة الدولة ومكانتها بين الدول وما إلى ذلك.

هذا التحطيم الكلي كان صنيعة الجناح الاستنصالي، مما يعني انتصار جماعة حزب الشعب البربري على دعاة النهضة الحضارية، أي انتصار المبشرين. ولقد وصل الأمر إلى حد المنع من ممارسة النشاط السياسي باسم الإسلام كما ذكرنا آنفا، فأجبرت الأحزاب الإسلامية بقوة القانون على تمبيع برامجها والتكر لمرجعيتها، وحذف حتى كلمة "إسلام" من اسم الحزب، كل هذا في الوقت الذي نجد فيه الأحزاب الاستنصالية تصول وتجول وتحقق كل يوم مكسبا استعماريًا جديدًا وتزداد تغلغلا داخل أجهزة الدولة لتخرها من الداخل باستمرار وتجعلها تتلاشى نهائيا في هدوء، وهذا ما خطط له المبشرون ودولهم على السواء، كل هذا يتم في وقت نجد فيه الأحزاب المسيحية تملأ البلاد النصرانية كلها وتمارس الحكم فعليًا في كثير منها.

وفيما يتعلق بموقف التصيير ( التبشير ) من النهضة الحضارية فإنه تمكن حتى من تحطيم مقولاتها المثلة : الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا. فالدين الإسلامي يحطم باللانكية التي أصبحت دينًا جديدًا بدله، والعربية لغتنا تحطم بالفرنكفونية والجزائر وطننا تحطم بالدعوة إلى العرقية والجهوية المنتجة إن عاجلا أو آجلا للانفصال والحروب الأهلية الضروس، وقد استطاع المبشرون بواسطة صنائعهم أن

يفرضوا رسمياً البعد الأمازيغي كبعد رابع محطمت لثوابت الحركة الوطنية (دعاة النهضة الحضارية) الذين لخصناهم في جمعية العلماء ومالك بن نبي وجبهة التحرير الوطني وبعض الزوايا الصالحة، وهذا من الخطورة بمكان.

- وعلى ذكر التعاون بين رجال فرنسا، فإننا نجد - بفعل تأثير المبشرين ودولهم - العكس تماماً في العالم العربي والإسلامي، إذ في حين رأينا خلال دراستنا التعاون والتكامل بين رجال الدين ورجال الدولة الفرنسيين نجد التناقض والصراع بين علماء الدين ورجال الدولة في العالم العربي، وهو ما يؤدي باستمرار إلى إبعاد جانب مهم وفعال عن التأثير في نوايب الحياة، له وزنه التيميمي والتخطيطي وهم العلماء الذين لا يعني إقصاؤهم سوى البؤس وعدم الاستقرار، لأن إقصاءهم يعني إقصاء القيم وإفساح المجال للحكم بالهوى والتشهي - وهذا ما يريده المبشرون والإستكبار العالمي على حد سواء، وهو الهدف من إقصاء شيخ الجامع من ممارسة السياسة - ولما كانت الأمة الإسلامية عبر التاريخ تنفق في قيادتها الروحانيين ( العلماء ) وتقتدي بهم، فإن إقصائهم والتكليف بهم - وهو ما فعله الاستعمار الفرنسي - ينزع ثقة الأمة من قيادتها السياسية فيقع الانفصام بين الحكام والمحكومين مما يشكل أحد أكبر عوامل عدم الاستقرار وأكبر مستفيد من ذلك المبشرون وأذنابهم، ومن ورائهم دولهم، لأن توجه الدولة إلى الأمن والمشاكل الداخلية يجعلها في لهو عن تأمرهم ومؤامرتهم وهو ما وقع في الجزائر خلال العشرية الإستصصالية. ناهيك عن الضغوط التي تمارسها دولهم التي تلعب بالجميع حيث تساند أنظمة حكم هذه الدول وتساند معارضتها في أن واحد. لأن هدف تلك الدول ومبشرها واحد :

إزالة الإسلام من الوجود واستعباد أهله وإرجاع مجد النصرانية إلى سابق عهد ما قبل الإسلام وتكريس الاستعمار الجديد.

وبسبب التعاون والتكامل بين رجال الدولة ورجال الدين الفرنسيين فإننا نسجل النجاح المذهل الذي حققه المبشرون في الجزائر ولاسيما في العقدين الأخيرين بحيث أن ما حققوه من نجاح فيهما يفوق ما حققوه منذ الاحتلال إلى 1980 م. وقد تركز هذا النجاح أكثر في بلاد القبائل بفضل الحركة البربرية التي أنتجوها. ويكفي دليلاً على هذا النجاح المذهل في هذه المنطقة أنهم جعلوا أبناء بعض كبار المجاهدين الشهداء خدماً لتحقيق أهدافهم وأطماعهم. مما يعني أن فرنسا حولتهم إلى محطمين للمبادئ التي قتلت من أجلها آبائهم. هذا النجاح للمبشرين يجعل الجزائر مهددة بالانقسام والضياع، ورغم كل هذا نجد السكوت التام عن كل ذلك من قبل السلطات وإن لم يتدارك أولوا الأمر القضية فإن مستقبل الإسلام والجزائر القريب في خطر شديد.

- تبين لنا من خلال حديثنا عن أقطاب التبشير الثلاثة صحة ما ذكره عمر فروخ ومصطفى خالدي من أن المبشرين هم أصابع أمهم وعيون بلادهم -جواسيس- يحاولون دائماً أن يثيروا الفتن والقتال في البلاد العربية والإسلامية حتى تتمكن أمهم من السيطرة علينا سياسياً واقتصادياً، وأن جميع المبشرين يتسمون بعداوة شديدة وحقد دفين نحو الإسلام ونيبه وقرآنه، ونحو العرب والمسلمين - وهو ما ورثوه لدعاة الحركة البربرية - ونخالفهما في الاعتقاد بأن مرد هذه العداوة الشديدة لنا يرجع إلى الحروب الصليبية

وهي الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو التبشير كلهم حسبهما،<sup>(1)</sup> وإن كنا لا نهمل دور الحروب الصليبية في إنشاء ذلك الحقد الدفين والعداوة الشديدة إلا أننا نرى بأنه ناتج أساسا عن طبيعة النصرانية ذاتها التي أنشأت رجالها على تلك الشاكلة وهو ما يفسر لنا أيضا العداوة الشديدة بين الفرق النصرانية ذاتها، بل بين الحواريين والرسول أنفسهم كما بيناه في موضعه، وهو ما يتقافى مع طبيعة الدين وطبيعة رجل الدين، وهو عكس طبيعة الإسلام ورجاله الذي وصل إلى قمة التسامح والحب مما لم يبلغه غيره، فجعل من مبادئه "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" (1).

- تبين لنا فيما يتعلق بالنصرانية، أنه لا أنجيل صحيحة ولا عقيدة صحيحة ولا عبادة صحيحة ولا شريعة صحيحة ولا رجال دين نزهاء ولا تاريخ نظيف، وأن الاختلافات والصراعات والحروب بين أتباعها لم توجد عند غيرهم من البشر وأنها لا تقوم إلا على العنف والدماء ومحاربة العلم والعلماء، وأن ما يقوله الكتاب المقدس عن أنبياء النصارى لا يتجرأ على قوله سفهاء المسلمين. وأن كل طعون المبشرين والمستشرقين في النبي (ص) مجتمعة لا تساوي طعنا واحدا من طعونهم في أنبيائهم مما يعني اعترافهم - حتى وإن كان لا شعوريا ولا إراديا - بنبوة رسالة نبينا (ص) وبأفضليته على جميع الأنبياء. وأن كل طعونهم فيه رغم كثرتها حتى لو فرضت صحتها لا تشكل طعنا، لا في نبوته ولا في رسالته، عكس طعنهم وطعون كتابهم المقدس في أنبيائهم. وأن طعونهم فيه إن هي إلا أوهام لا وجود لها حتى في قناعة مثيرها. كما تبين لنا أن الكتاب المقدس ونظام الرهينة أنتجا فسادا لا نظير له وسط رجال الكنيسة ونسائها شذوذا وسفاحا من جهة، ووسط المجتمع الغربي من جهة أخرى. وهو ماجعلنا نتوصل إلى نتيجة خطيرة تمثل في أن الكتاب المقدس أساس الرهينة في المجتمع، ويبدو لنا أن هذا هو السر الذي جعل المبشرين يجعلون تعاطي الجنس من وسائل اصطيادهم للمخدوعين. ولقد توصلنا من خلال دراستنا للكتاب المقدس ودراستنا للقرآن الكريم، أن القرآن الكريم وحده هو اليوم وحي الله، ووحية الكامل الموجود بين البشر مما يجعل المسلمين وحدهم يملكون الحقيقة الإلهية والدين الصحيح، من كتاب دين صحيح وعقيدة صحيحة وتصور النبوة صحيح وعبادة صحيحة وشريعة صحيحة،

وأن كتابهم معجز للبشر، وأن جوانب إعجازه متعددة ومتجددة إلى أبد الأبد، وأن الأديان الأخرى بما نسي ذلك المسيحية والمسيح لا يمكن معرفتها إلا من خلال القرآن الكريم وحده، وأن جميع أهل الملل والنحل بما في ذلك النصارى يجب أن ينضوا تحته لكي يكون دينهم صحيحا ومقبولا، وإلا ضل سعيهم في الحياة الدنيا حتى وإن كان بعضهم يعتقد أنه يحسن صنعا.

ما سبق فيما يتعلق بالكتاب المقدس والعقيدة النصرانية وشريعتها وعبادتها وقولها في أنبيائها وعنفها وصراعاتها واضطهادها للعلماء، ورفضها للعلم الخ ... يجب أن يبين للناشئة والمتقنين وهدى ماجعلنا نفيض في الحديث فيه، لأنه يعد في تصورتنا من أكبر عوامل تحصين الذات الإسلامية من سموم المبشرين كما أنه به يدرك السر الذي جعل المبشرين يوجهون تعليمات صارمة إلى مخدوعيهم برنض

(1) - مصطفى عاصي وحسن فرخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص 22، 23، 36.

الحوار، والعمل ما أمكن على أن يكون موضوعه الإسلام لا النصرانية مزودين بما تلقوه من شبهات واتهامات وهو ما يجب أن ينتبه إليه المتحاور معهم فلا يتمكنون من خداعه. وبه أيضا يفهم السر في تركيزهم في التبشير على الخدمات والبحث عن أصول الشعوب وأعرافها للنفاذ من خلال ذلك بدل التركيز المباشر على عقيدتهم وكتابهم المقدس، لأنهم يدركون جيدا حقيقة بضاعتهم، وهو ما جعلهم أيضا يلجأون إلى أكثر الأساليب لتحطيم الشباب وجلبهم إليهم بما في ذلك استدراجهم بأواية الجنسية وتوفير مناخها كما بينا أثناء حديثنا عن القسيس المغتال لذي أشاد به معطوب.

- الحركة البربرية هي بنت الحركة التبشيرية في القرن 19 وبدايات القرن 20، لم تتعد عنها قيد أنملة، نفس المقولات والأفكار والطوروحات، لم تخرج قيد أنملة عن أفكار ومقولات وطوروحات أقطاب التبشير الثلاثة مما يجعل مشروعها كله مجرد صدئ وترديد لما أوردوه.

- لا يوجد شيء يسمى ثقافة أمازيغية أو ثقافة قبائلية إذا قصدنا المعنى العلمي لمفهوم الثقافة، لأنه لا تُميّز بينها وبين غيرها من جهات الوطن الأخرى حتى وإن كان النطق قبائليا، لأن محتوى ذلك النطق إسلامي وطني مما يجعله جزءا يندرج في إطار الكل وهو ينوعه ولا يضاده. وإلا فكيف يمكن إدعاء ثقافة قبائلية وهي لا يوجد بها نظام سياسي ولا يوجد بها نظام اقتصادي ولا يوجد بها نظام تربوي ولا اجتماعي، ولا يوجد بها نظام ميتافيزيقي... إلخ، ولنسأل دعاء هذه الثقافة مثلا: كيف أسمى ابني وكيف أتزوج وماذا أفعل بالميت عندما يموت وكيف أحدد علاقاتي بغيري وكيف أحدد كيفية الميراث ونظام العمل والعلاقات الدولية في الحرب والسلم... إلخ. وفقا للثقافة الأمازيغية: أما أن يدعي المرء وجود ثقافة ولغة قبائلية وفي الوقت ذاته يستورد حروف هذه اللغة وكلماتها من فرنسا وفي الوقت ذاته يستورد أيضا قانون الأسرة، من فرنسا، والنظام الاقتصادي من بريطانيا والنظام السياسي من أمريكا، فأي ثقافة هذه وأية لغة؟! إن دعاء هذه الحركة هم الذين يقتلون الثقافة الأمازيغية باستبدال حروفها إلى الفرنسية لأن الحرف جزء لا يتجزأ من اللغة والاستبدال إما لعدم وجود حروف لها مما يعني أنها ليست لغة لأنه لا وجود للغة بلا حروف، وإما الاعتراف بعجز حروفها عن مواكبة العصر وهذا طعن في هذه اللغة ذاتها. وكما استبدلوا حروفها فإنهم يستبدلون كلماتها بما تتحتته الأكاديمية البربرية بباريس، فماذا يبقى من هذه اللغة وهذه الثقافة؟! وهكذا فإن دعاء الحركة البربرية يعملون على إماتة ما يزرعون، إحياءه خدمة للكنيسة والاستعمار الفرنسي على السواء، وهو ما يجعلنا نتوصل من خلال البحث إلى أن:

الفرنسة والمركسة والأمزغة إن هي إلا مترادفات ذات محتوى واحد لكتاب ديني استعماري فرنسي طويل، بدايته لسنا عربا، ونهايته لنا مسلمين، وإلا فما علاقة الدعوة إلى القبائلية بإلغاء قانون الأسرة الإسلامي ومنع شيخ الجامع من ممارسة السياسة؟! إن الذي يدعو إلى القبائلية هو نفسه الذي يدعو إلى العامية بدل الفصحى هو نفسه الذي يتهم اللغة العربية بالقصور هو نفسه الذي يدعو إلى اللاتينية هو نفسه الذي يدعو إلى تغيير الانتماء الحضاري هو نفسه الذي يدعو إلى الفرنسية هو نفسه الذي يشجع الكنيسة والتبشير والمبشرين ويعلن حربا شعواء على الإسلام تحت غطاء محاربة الأصولية - وكان الحركة البربرية ليست أصولية - وإذا لم يكن هذا هو التبشير (التصير) فماذا يكون إذن؟



- القضية البربرية دعوة قومية. والقومية نشأت في العالم الإسلامي والعربي أساساً لمحاربة الاستعمار وأوضح مثال لهذا تركيا، والقومية العربية في البلاد العربية، ولكنها اليوم تجاوزها الزمن، وقد أصحبه إلى الوراء ليزدادوا تخلفاً مع مر الأيام. ولتصدمهم بما يزعمون من دعوة إلى انصرفة والحداثة، ذلك من المجتمعات التكنولوجية اليوم تجاوزتها، ولا أدل على هذا من الاتحاد الأوروبي. بل إن الدول المتقدمة تريد من خلال العالمية أن تتوسع فكراً في الآخرين وتستوعبهم لتستحوذ عليهم وتستخرجهم وهو ما تمارسه فرنسا بالفعل مع دعاة الحركة البربرية- لا أن تتفوق في ذاتها وتمزق نفسها لتزداد ضعفاً مع مر الأيام، بل لتقضي على قوميتها فتزيل بنفسها شخصيتها نهائياً لأنه لا أحد يجهل أن القبائلية إن هي إلا تغليف للفرنسة.

وإذا كانت طروحاتهم فيما يتعلق بالقومية تخلفاً ورجوعاً إلى الوراء عكس ما يتجه إليه العلم فإن طروحاتهم الأخرى لا تقل تخلفاً عن هذا، ومن ذلك الدعوة إلى العامية التي فشلت منذ الثلاثينيات من القرن العشرين في كل من مصر وبلاد الشام وغيرها فتخلى عنها دعاؤها. ولكن الحركة البربرية جاءت لتتباها بعد مرور خمسين سنة على فشلها، مما يجعلها في تصورنا مولعة بتبني الفشل، مما يبين بجلاء أن القضية لا علاقة لها، لا بتطور ولا بحداتها، ولكن بتنفيذ أوامر الاستكبار العالمي المتمثل في فرنسا وكنيستها بهدف تحطيم الإسلام ولغته لصالح الكنيسة والاستعمار على حد سواء.

وعلى ذكر الدعوة إلى العامية فإننا نلاحظ الدكتاتورية المفرطة وعقلية الاستعمار في معاملة مستعمره، وهذا بفعل تأثير عقدة " فوق الجزائريين وتحت الفرنسيين " والإفاداً اختاروا لأنفسهم استبدال القبائلية بلغة القرآن، فما الذي حول لهم أن يقرروا بدلاً عن العرب استبدال العامية بلغة القرآن، بل من الذي حول لهم من القبائل ما يزعمون.

قضية لغة الأم المزعومة لا علاقة لها بالجانب العلمي، بل بضرب اللغة العربية مباشرة، لأنها تعني أن الطفل الناطقة أمه بالقبائلية يجب أن يتعلم بالقبائلية، والناطق أمه بالشاوية يجب أن يتعلم بالشاوية، والناطق أمه بالميزابية يجب أن يتعلم بالميزابية، والناطق أمه بالبربرية يجب أن يتعلم بالبربرية. وهكذا يصبح لا مكان للغة القرآن. ولا أدل على صحة موقفنا، من التناقض بين الدعوة المزعومة "وجوب التدريس بلغة الأم حتى لا ينشأ الطفل معقداً"، ومحتوى التنفيذ. ذلك أنه من جهة يدعون ما سبق، ومن جهة أخرى يدعون (بل وينفذون أيضاً) إلى كتابة كل لغات الأم السابق ذكرها باللاتينية (الفرنسية) وهو يعني بوضوح أن الطفل قبل أن يتعلم لغة أمه يجب أن يتعلم اللغة الفرنسية حتى يتأتى له كتابة لغة أمه بها. وهذا التنفيذ يسقط الدعوة من أساسها ويبين تهافتها وأنها لا علاقة لها بالجانب العلمي، بل هي ذات صلة وثيقة بسياسة الفرنسة وتحطيم لغة القرآن؛ لأن ما سبق يعني تعميم الفرنسية على الجميع لأنها وحدها وسيلة الكتابة. وهكذا يظهر الغرض واضحاً من الدعوة المزعومة السابق ذكرها: تحطيم لغة القرآن وتحطيم جميع الألسن الجزائرية لتصبح اللغة الفرنسية لغة الجميع.

-إذا كانت الدعوة إلى القومية والعامية تجاوزها الزمن فإن اللاتينية أيضاً تجاوزها الزمن في الغرب، بحيث ولدت المصالحة بين الدولة والكنيسة. ومن الأدلة على هذا، ليس الأحزاب المسيحية الحاكمة في

كثير من الدول الغربية فحسب بل روسيا البلشفية التي تحولت بين عشية وضحاها من إمبراطورية الإلحاد إلى التطرف الديني الأورثوذكسي حتى على المستوى الرسمي والبوسنة والكوسوفو خير شاهد على صحة هذا. ومع ذلك فإن الحركة البربرية والكنيسة في الجزائر يدعو إلى اللاتينية كما يناه في موضعه وذلك بهدف عزل الإسلام كلياً عن الحياة وإماتته خدمة للكنيسة والاستعمار الجديد.

الدفاع عن اللغة العربية الفصحى عبادة والموت من أجلها شهادة. واللغة التي استوعبت النوحى الإلهي كله لا يمكنها أن تعجز عن استيعاب "x" و "y". وكل هجوم عليها إنما هو يستهدف القرآن الكريم الذي لو لم ينزل بما لما هاجمها أحد، ولذلك فإن الهجوم عليها عقيدة، والدفاع عنها عقيدة، الأولى أساسها الإكايروس كما يبناء في موضعه، والثانية أساسها الله عز وجل، وإلا فما الذي يدعو إلى جعل القبائلية لغة وإماتة لغة القرآن، فإذا كانت لغة القرآن تجاوزها العصر فهل القبائلية أقدر منها على استيعابه؟

- الغرض من كتابة القبائلية بالفرنسية ليس تطويرها كما يمزعون، بل لأنهم يريدون أن يضعوا بين الناشئة وثراتها - كما فعل أتاتورك - حجاباً مستوراً وتغريبها تقريباً سريعاً، فلا يحتاجون بعد ذلك أن يفعلوا ما فعله الأسبان بمكتبة غرناطة أو كلوزيل بالقيصرية.

- الفرنكفونية إنما حلت حل معها التقسيم والنزاع العراقي حتى في الدول المتقدمة، مما يعني أنها هي في ذاتها عاملاً من عوامل تقسيم الشعوب الموحدة وتمزيقها. والدليل على ذلك بلجيكا وكندا. وهذا من أسرار الدعوة إليها في الجزائر.

-- مشروع التبشير ومشروع الحركة البربرية لا يمكن مواجهته بمجهودات فردية، بل لابد أن تتبنى الدولة مشروع الدفاع وتفسح المجال للدعاة، وتواجه فرنسا مباشرة بمشروعات مماثلة لمشروعاتها، ومن ذلك فإنه كان من المنطقي بعد أن أسست فرنسا الأكاديمية البربرية، أن تؤسس الجزائر الأكاديمية البربرية أو الإلتراسية. وأن تعمل على إنشاء اتجاه عرقي في فرنسا مثلما فعلت ذلك، فرنسا في الجزائر هكذا. ويجب أن يشارك في مشروع المواجهة والدفاع عن الذات جميع فئات المجتمع من سياسة وعلماء وقادة وجيش ومتقنين، وأن تتحول العلاقة بين العلماء والسياسة إلى تعاون وتكامل بدل الصراع والتطاحن، وبهذا يمكن مواجهة العدو بمثل المشروع الذي يحطمانا به، بل لابد أن يشارك في الدفاع عن الذات جميع الدول العربية والإسلامية لأن الدول الغربية النصرانية لا تواجهنا منفردة رغم قوتها، مما يحتم علينا أن ندافع مجتمعين ولا سيما مع ضعفنا. ومما يؤسف له أنه في الوقت الذي يوجد مجلس الكنائس العالمي الذي يضم جميع المذاهب النصرانية المتناحرة ليخطط لتدميرنا، لا نجد مجلساً للدعوة الإسلامية حتى في القطر الواحد من بلدان المسلمين.

- أن تؤسس مراكز البحث الخاصة بالقضية لإيجاد أفضل السبل للتصدي والمواجهة وحماية الذات، وأن يشارك في تأسيسها والإشراف عليها الدولة والمؤسسات والخواص والمفكرون ومختلف الشرائح الاجتماعية النعالة.

- العمل على إقامة الدولة الإسلامية المبتنية للإسلام الصحيح؛ لأنه في ظلها وحدها تعالج جميع المشكلات علاجاً صحيحاً.

- مستقبل الجزائر القريب في خطر شديد، ومستقبل الإسلام في خطر أشد، ونتمنى أن يكون بحثنا هذا مساهمة في إنارة عقول من بيدهم مقاليد الأمور من جهة، والمخدوعين من الذين غرر بهم المبشرون وأذئابهم من جهة أخرى، وإن توفرت النيات الحسنة والمساعي الحميدة فإن كل الأمور تعود إلى نصابها، لأننا نملك أسلحة لا تقهر، هي : أصل الناس الإسلامي ومعدنهم الطيب وقطرهم وعقولهم.

والله ولي التوفيق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## ملحق رقم (1). رسالة البابا بيوس التاسع الى لا فيجيريه

رسالة من البابا بيوس التاسع الى المطران لا فيجيريه

من البابا بيوس التاسع ، الى أخيف ، نصح شديد ، مطرون الجزائر ، حين  
الرجل ، تحية وبركة روحية عليكم .  
أذا أنشأ بلدة نيجة للكرور المنعدة التي أصابت لفتيكم ، وأذا تحضر  
أن إليه شعبي . ومن العناء والتعب التي تحملونها ، فإننا نحس من جهة أخرى  
نساءة حفيفة ، عندما ترى وسط هذا القصد الكبير من المراقيل والبلاد ، نساء  
نور وفضيلة الإحسان السبحي ، ونقف على الأعمال الخيرية العترة السابعة من  
الدين والفتح ، بواسطة تفانيكم الرسولي ، وكرمكم وشجعانكم .  
أب ، بدون شك ، حسب الحكم الإلهي المنطلق ، يجب أن يتقن الانجسار  
لشعبكم ، مثل جميع الشعوب ، ولكن تبقى عاداته وديانته وشوراته ضد أممكم  
عقبة ضد التعمير ، لا يمكن تجاوزها .  
ولإزالة هذه العقبة ، فإن إله الرحمن ، أراد أن ينجد العرب الذين أنت بهم  
الناسي ، بواسطة الأعمال الخيرية السبحة للفرنسيين ، ما كلف لهم قتالاً وبيانة  
الغية ، جعلتهم يجربونها قبل أن يعرفوها .  
لا نستطيعون أن نتخيموا بشكل جيد وبنمالية أكثر للقصد الصادر عن  
الغاية الإلهية ، إلا بأن تكونوا في كل مكان ، وباستمرار حيث شاهديكم الجماعة  
والنور ، بحضور ماعديكم ، من أجل العمل على فتح ملاحي ، للعجزة الموقنين ،  
ولالأزامل والأطفال المهملين .

لا يمكن إذا ، أن نتم في الكور ، وطينا أن تقسم لكم ، من أجل هذه  
الخدمات الجليلة ، الشكرات التي أنتم وقناوسة ومسدرو وأخوات لفتيكم ، أهلاً  
فنا ، هؤلاء الذين يظهرونكم تفانيكم ، لم يدخروا أي جهد من أجل  
راحة الفقراء وشهداء الإحسان ولم يترددوا في التضحية بأنفسهم من  
أجل أن يتقدوا أخواتهم .  
يتحيل على هذا الشعب الذي يرحم به على قانون الخير الذي نلت لنا  
السيح ، أن لا يفهم بأنكم حقا خادموه ، وأنكم عمدة أيام الذي هو في السماء .

خدمة عنهم لغيره فلهذا الأمة الكثرة بواسطة الفساحة المؤكدة ، وبثرة أكثر مما  
يمكن أن تقوموا به بواسطة الكلام .

من بابلية للأطفال الذين اتزعتمهم من عائل الموت والذين تطمبونهم  
وكسوتهم ، وتطوبهم العادات الصالحة والتمدالة والميل في الحصول ، فكيف لا  
يجنون الأمة والديانة اللذين هم مسدون لها في كل شيء حتى في وجودهم نفسه ؟  
كيف وهم الذين أصبحوا بواسطة العمل يتكثرون بمئاتهم ، لا يستطيعون أن  
يقربوا بحضورهم وخسائهم وأحاديثهم ذهنيات أهاليهم من الديانة والشعب اللذين  
قدوا في هذا العدد الكبير من القتال :

لا يتلق الأمر إذا بالديانة فقط ، ولكن بنزنا التي خدمونها أنتم وأبائكم ،  
بواسطة خدمات الإحسان السبحة المؤثرة ، فتم بلا شك ، يجذب النفوس إليها ،  
الأمر الذي لا يمكن القيام به بواسطة وديان من السماء ، وبصارييف جاعظة ،  
ووجه سنين عديدة من العمل .

واصلوا بقية مهامكم ، ولكن المراقيل حافزاً يزيد من شجاعتم ، لأن  
وسط المراقيل ، تستمر خدمات الله في السر وأكباب القرة ، بمساعدة الله سوف  
أن يتشبعم وتباعكم العفو والقوة والوسائل المادية لطوع أهدانكم . تبقى لكم كل  
هذه الأشياء من صميم القلب ، ونعمة الله وعظمتنا الخاص ، نقدم لكم البركة  
الرسولية ، أيا الأخ الموقر ، ونحجج من ياتند خدماتكم الجليلة ، ولكل لفتيكم .  
التوقيع : البابا بيوس التاسع

مفسر :

LAVIGERIE (Cardinal), Notice sur la Société des Missionnaires d'Alrique, Jite Pères  
Blancs. Maison Carrée (ALGER), sans date

نقلنا عن محمد الطاهر وعلي ، التعليم التبشيري في الجزائر

A notre vénérable frère Charles, archevêque d'Alger, pie IX, pape.

Vénérable frère, salut et bénédiction apostolique. Si nous sommes profondément affligés des fléaux multipliés qui frappent votre diocèse, et si nous gémissons du sort de votre peuple, des peines et des fatigues que vous devez supporter, nous éprouvons aussi une véritable consolation, lorsque nous voyons, au milieu de tant d'adversités, briller d'une manière admirable la lumière et la vertu de la charité chrétienne lorsque nous voyons tout le bien fait considérablement préparé par la religion et la société elle-même par votre générosité et votre courage.

Sans doute, d'après le précepte formel du seigneur l'évangile doit être prêché à votre peuple comme à tous les autres, mais ses moeurs, sa religion, ses luttes fréquentes contre votre nation opposaient à l'apostolat un obstacle presque insurmontable.

Pour renverser cet obstacle, le dieu des miséricordes a voulu qu'après tous les malheurs qui ont frappé les Arabes, ils fussent secourus par la charité chrétienne des Français et, éprouvant ainsi par eux les bienfaits d'une religion divine, ils apprirent à l'aimer avant même de la connaître.

Vous ne pouviez ni mieux, ni plus efficacement répondre à ce dessin providentiel, qu'en vous prodigant partout, constamment à la lamane, la maladie, la mort réclamaient votre sollicitude et celle de vos auxiliaires, qu'en ouvrant généreusement des asiles aux vieillards infirmes, aux veuves délaissées, aux enfants abandonnés et en leur procurant tous les secours d'une charité paternelle.

Vous ne pouvons donc garder le silence, et nous voulons vous décerner pour des oeuvres éclatantes, les louanges que vous méritez, vous les prêtres, les religieux, les secourus de votre diocèse, qui, secondant votre zèle, n'ont rien omis pour soulager tous les infortunés, et martyrs de la charité, n'ont pas hésité à accepter la mort elle-même pour secourir leurs frères.

Il est impossible que ce peuple auquel vous avez si clairement prouvé la loi de la charité que le christ nous a légué, ils est impossible que ce peuple ne comprenne pas désormais que vous êtes vraiment ses disciples et ainsi pendant que vous avez rendu gloire à votre père qui est dans les cieux, vous avez prêché son évangile à cette nation infidèle, avec plus d'éloquence certainement et avec plus de puissance que vous n'auriez pu le faire, par vos paroles.

Quant aux enfants que vous avez arrachés des bras de la mort, que vous nourrissez, que vous vêtissez, que vous formez à la pureté des moeurs, par un patient et ardu travail, certainement la charité

ils pas désormais, la nation et la foi auxquelles ils devront tout et leur existence elle-même? Comment devenus par le travail les soutiens de leurs familles et retournés au milieu d'elles, ne pourront-ils pas incliner, par leur présence, leurs oeuvres, leurs paroles, l'espérance des leurs vers la religion, vers le peuple dont ils ont reçu tant de bienfaits.

Ce n'est donc pas seulement de la religion, mais encore de la France, que vous et les vôtres, bien mérité, lorsque, par les oeuvres touchantes de la charité chrétienne, vous avez certainement plus fait pour lui attirer les cœurs, qu'on ne pu le faire par des torrents de sang, des dépenses énormes et des travaux d'un grand nombre d'années.

Perseverez donc avec confiance dans votre entreprise, et que les obstacles ne fassent qu'augmenter votre courage, car c'est au milieu des obstacles que les oeuvres de dieu ont continué de marcher et de se fortifier.

Avec l'appui de dieu, ni la force, ni les moyens matériels nécessaires pour achever votre oeuvre ne manqueront ni à vous, ni aux vôtres.

Nous vous souhaitons ces choses, de tout coeur, et comme gage de la faveur divine et ne notre bienveillance particulière, nous donnons avec tendresse, notre bénédiction apostolique à vous, vénérables frère, à tous ceux qui soutiennent votre très excellente oeuvre et à tout votre diocèse.

pie IX PAPE

Source : Le cardinal Lavignerie, notice sur la société des missionnaires d'Afrique des pères blancs maison-courtes-s-d.

ملحق رقم (2) : شجرة نسب المسيح ، وهي من تناقضات الاناجيل التي يستحيل حلها

1163

نسب المسيح - قبل داود

حسب الإنجيل متى

حسب الإنجيل لوقا

- ١ آدم
- ٢ شيث
- ٣ ألدش
- ٤ قينان
- ٥ مهليل
- ٦ يارد
- ٧ أنوخ
- ٨ متوشالغ
- ٩ لامك
- ١٠ نوح
- ١١ سام
- ١٢ أرفخشاد
- ١٣ قينان
- ١٤ شالغ
- ١٥ عابر
- ١٦ فالج
- ١٧ زاعو
- ١٨ سروج

متى لا يذكر آدم  
متى لا يذكر إبراهيم .

- ١ إبراهيم
- ٢ إسحق
- ٣ يعقوب
- ٤ يهوذا
- ٥ فارص
- ٦ حصرون
- ٧ أرم
- ٨ عمينا داب
- ٩ نغشون
- ١٠ سلبان
- ١١ بوغر
- ١٢ عبيد
- ١٣ يسي
- ١٤ داود
- ١٥ سلبان
- ١٦ رجيم
- ١٧ أليا
- ١٨ ألسا
- ١٩ يوشافط

نسب المسيح بعد داود

- ١٩ ناهور
- ٢٠ تارح
- ٢١ إبراهيم
- ٢٢ إسحاق
- ٢٣ يعقوب
- ٢٤ يهوذا
- ٢٥ فارص
- ٢٦ حصرون
- ٢٧ عرفى
- ٢٨ آدمى
- ٢٩ عمينا داب
- ٣٠ نغشون
- ٣١ شالغ
- ٣٢ بوغر
- ٣٣٠ عبيد
- ٣٤ يسي
- ٣٥ داود
- ٣٦ تانان
- ٣٧ سفا
- ٣٨ سفا
- ٣٩ مليا
- ٤٠ أليقيم

## حسب إنجيل متى

٢٠ بورام	٤١ يونان	٦٤ مات
٢١ عزيا	٤٢ يوسف	٦٥ نجاي
٢٢ يوتام	٤٣ يهوذا	٦٦ حسلي
٢٣ أجاز	٤٤ شمعون	٦٧ نا-روم
٢٤ حرقيا	٤٥ لاوي	٦٨ عاموس
٢٥ منسى	٤٦ متات	٦٩ متتيا
٢٦ أمون	٤٧ يوروم	٧٠ يوسف
٢٧ يوشيا	٤٨ عازر	٧١ ينا
٢٨ يكنيا	٤٩ يوسى	٧٢ ملاكى
الذنى إلى بابل	٥٠ عبر	٧٣ لاوي
٢٩ شالثيل	٥١ المودام	٧٤ متات
٣٠ زربابل	٥٢ قوسام	٧٥ على
٣١ أبيهود	٥٣ آدى	٧٦ يوسف
٣٢ ألياقم	٥٤ ملاكى	٧٧ عيسى
٣٣ عازور	٥٥ نيرى	
٣٤ صادق	٥٦ شالثيل	
٣٥ أكيم	٥٧ زربابل	
٣٦ اليهود	٥٨ ريسا	
٣٧ العازار	٥٩ يوحنا	
٣٨ متان	٦٠ يهوذا	
٣٩ يعقوب	٦١ يوسف	
٤٠ يوسف	٦٢ شمعى	
٤١ عيسى	٦٣ متتيا	



ملحق رقم 3 : موقف كاتب ياسين من الإسلام - 1969

kateb yacine : les chiens du douar

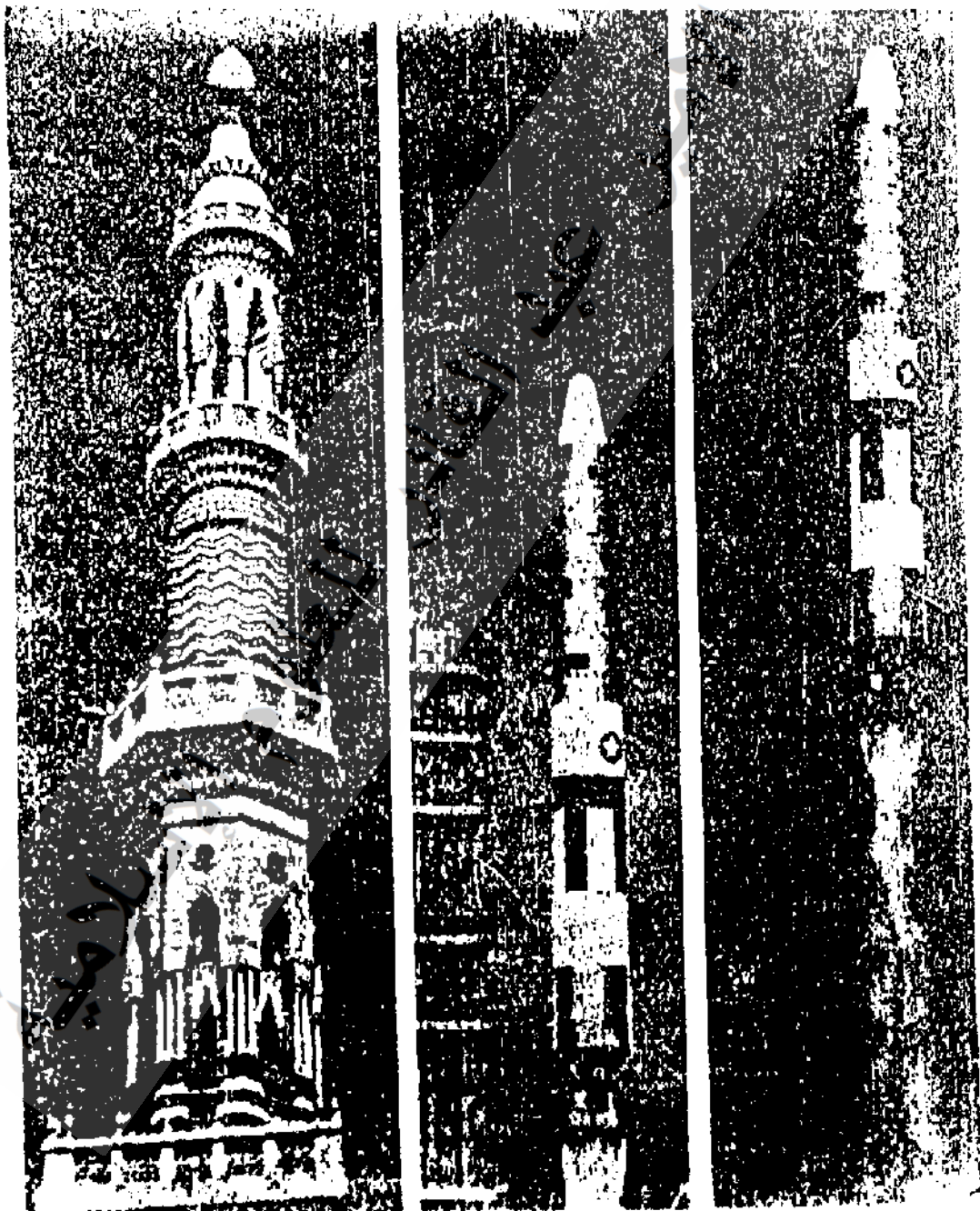
# ACTUALITE

ALGERIE

• 1969 • 11 77 • DIMANCHE 3 AVRIL 1967 • MAGHREB 0,50 DA • FRANCE 0,50 F.

كاتب ياسين يقول في المؤذنين : كلاب الدوار

## une fusée qui ne démarre pas...



ويقول في الصومعة : الصاروخ الذي لا ينطلق

نقلنا عن عبد اللطيف اسلطاني، المزدكية هي أصل الاشتراكية، ص 80، 69



1966 - ملحق رقم (4) : مرسوم التجديد لقانون تفسير استعمال اللغة العربية

وتم في الملحق على :

نص رسالة رئيس الحكومة السيد غزالي الى رئيس المجلس الوطني للدولة السيد محمد بن بوضياف يطلب منه التجديد ، مؤرخة في 08/06/1991م .

ولتمة رئاسة الحكومة الى المجلس الاستشاري مؤرخة في 15/06/1991م .  
وقر عرصة تم المجلس الاستشاري بالفعل يوم 30/06/1991م .  
مرسوم التجديد ، ولما تم بوضياف قد اعيد يوم 29/06/1991م فقد انضاه خلفه .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

الاستشارة

الاعانة العامة للمكونة

الادارة العامة

الجزائر 15 جوان 1992

الرقم 003-144

15 JUN 1992

003-144

الى السيد رئيس المجلس الاستشاري الوطني

الموضوع : القانون رقم 01 - 05 المؤرخ في 10 يناير سنة 1991 المتضمن تنظيم استعمال اللغة العربية .

بمراعي ان الطلب منكم بواسطة ناهيل تطبيق بعض أحكام القانون رقم 05/91 المؤرخ في 10 يناير 1991 والمتعلق بتنظيم استعمال اللغة العربية الذي تقدم به رئيس الحكومة والى رئيس المجلس الأعلى لشؤون علي عرصة من سبلتكم الموقرة .

وتقبلوا التحيات والتقدير

السيد محمد بن بوضياف



ولتمة رئاسة الحكومة الى المجلس الاستشاري

السيد رئيس المجلس الأعلى للدولة

السيد الرئيس  
بمراعي من سبلتكم علما بالمشاكل التي تنتج فوراً عن تطبيق القانون رقم 05/91 المؤرخ في 10 يناير 1991 المتعلق بتنظيم استعمال اللغة العربية ، الذي نشر عدته رقم 34 من جريدة موندية تحمل جنز التفسير مباشرة بعد نشره في الج 1 بعد في 3 جوان سنة 1992 .  
1 - لقد تمس القانون على توفير الشروط من أجل تكون جميع المواطنين ، وخاصة منهم المتخصصين الاقتصاديين ، من وضع أنفسهم عند الإستعمال الوحيد ، لغة العربية ، من طريق بوضع القانون والحسين المستوى العالي  
لكن ضمن الواقع بوضيافية بقر في الأمر ، كما لم يجرى في حد اليوم ، أي 10 جوان بعد نشر القانون المذكور في الجريدة الرسمية ، المستوي المطلوب من التخلي في هذه العملية ، التي يصبح بإمكانها بتطبيقها المتوقعة  
2 - ومن جهة أخرى ، فإن كل ما تقتضيه المواد الإلزامية  
المادة 11 : تكون الأختام الرسمية ، والعلامات المميزة للسلطات والإدارات العمومية والهيئات والإؤسسات فيما تكن طبيعتها تقتضيه العربية وحدها  
المادة 12 : يكون تعامل جميع الإدارات والهيئات والإؤسسات والتجمعات مع الخارج باللغة العربية  
المادة 13 : تعد الوثائق الرسمية الصادرة بغير اللغة العربية بصفة  
لتحليل الجهة التي أصدرتها أو صقلت عليها مسؤولية المنتج اللغوية عليها  
يكون كل هذا من شأنه ان يبرهن التمسك بالوحدة الوطنية مع الحفاظ على التنوع  
وفي نفس السياق ، أتم ان الفصل الرابع للقانون لا يتضمنه المقتضى من 29 ان  
35 المتعلق بالأختام الرسمية ، وبخاصة عدته رقم 35 الذي لم يجرى في سببها  
عربية او عمومية في تطبيق هذا القانون ان يتكلم على الهيئات الإدارية او برفع دعوى قضائية  
عند أي تصرف متعلق بالأختام هذا القانون . يخضع المتعاملين الجزائريين إلى نظام الحكم عليهم  
عند أداء مسؤولهم  
زيادة على ذلك ، لابد من الإشارة إلى ان القانون المذكور يطرح مشا بالآلية الإيضاح على المتعاملين مع المؤسسات ، الحكومة بغير اللغة العربية ، حتى ولو كانت وتلك أهمية كبيرة مسبوقة باللغة الرسمية للتطبيق .  
ومن شأن ذلك كل ان نشهد التزامي  
3 - بناء على الإجراءات المسبقة بالمر من المجلس الأعلى للدولة للتطبيق لبعض القوانين رقم 01/91 .  
وتقبلوا تحياتي السيد الرئيس معي تود عظيم والإستمرار

هذا نصي الرسالة التي بعثت بها رئيس الحكومة المستقيل غزالي / الى رئيس المجلس الاعلى كما جاء في الجرائد اليوم .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
مرسوم تم تخيير تقريبي يتعلق بتطبيق القانون رقم 05-01 المؤرخ في 10 يناير سنة 1991 المتضمن تنظيم استعمال اللغة العربية .  
ان رئيس المجلس الاعلى للدولة  
بناء على الدستور - لا سيما المادان 74 - 8 و 111 - 1 سنة  
وبناء على توجيه المجلس الدستوري المؤرخ في 0 رجب عام 1412 الموافق لـ 11 ابريل سنة 1992 .  
وبناء على الاضاح المؤرخ في 0 رجب عام 1412 الموافق لـ 14 يناير سنة 1992 والمتضمن إلتزام المجلس الاعلى للدولة  
وبناء على المذكرة رقم 02 - م 1 ، المؤرخة في 15 افريل عام 1412 الموافق لـ 14 ابريل سنة 1992 المتعلقة بالمرسوم المذكور المتعلق بتطبيق القانون رقم 05-01 المؤرخ في 30 جويلية 1412 الموافق لـ 29 جويلية سنة 1991 والمتضمن تنظيم استعمال اللغة العربية .  
وبعد مشاورته مع المجلس الاعلى للدولة  
بمقتضى المرسوم المذكور المتعلق بتطبيق القانون رقم 05-01 المؤرخ في 10 يناير سنة 1992  
الذي اثر في ارجح تعديل جنز التفسير القانون رقم 05-01 المؤرخ في 10 يناير سنة 1992 المتضمن تنظيم استعمال اللغة العربية ، حتى تكفل الظروف الموضوعية لتطبيقه الوطني  
المادة 1 : ينشر هذا المرسوم في الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .  
هذا المرسوم في  
تتمتع بغيره في  
محمد بوضياف

المرسوم التقريبي المتضمن ناهيل تطبيق قانون اللغة العربية - حسب الجرائد اليوم

المرجع : جريدة النصر قسنينة . 20/08/1992 م . ع 5805

بالتاريخ رقم (5) رسالة الى رئيس الشكاوى تارالي ما اليه من التماسه الرابع عشر قرار  
شركة الاسفالت بالشارع الكليزويه الجزائر رقم 1092/01/08

# رسالة فخر حيالية الى رجل يقرض حياؤه

الرجاء التفضل  
استاذة مديرة جامعة الجزائر 1  
الشارع الكليزويه

بسم الله الرحمن الرحيم  
رسالة فخرية الموجهة للمفخرة السيد خيراتي السلام عليكم وبعد  
في هذا التاريخ الجزائري يوم الثلاثاء 1991/12/24 بقرارة بومردان الاخير بالجمعية الخيرية  
الجزيرية بجزائركم في اننا اعلمنا ذلك لايسر ان يكون معنا من الوجوه التي يعد بها المسؤولين الذين لا يفتقدون  
الصفات والقيم تلك كالتواضع بكل شئ من غير ان يفتخر في جمع الامور على الغير وفي ذلك  
كان يوم حاد لنا ذلك رأينا العظمى بصفحة صغيرة من العطر من حياض بلقيز التي يتركها في  
فسيحنا واستغربنا عن السر في ذلك والسكينة بينه وبوثيقه كل الاحتياطات التي لا يتردد لها ان يقرض  
لسياحكم هذه الرسالة علينا ليجب اننا ماثقة بفضلكم ونفسيه تفريق التواضع وما هو يحسون بهه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم  
رسالة فخرية الموجهة للمفخرة السيد خيراتي السلام عليكم وبعد  
في هذا التاريخ الجزائري يوم الثلاثاء 1991/12/24 بقرارة بومردان الاخير بالجمعية الخيرية  
الجزيرية بجزائركم في اننا اعلمنا ذلك لايسر ان يكون معنا من الوجوه التي يعد بها المسؤولين الذين لا يفتقدون  
الصفات والقيم تلك كالتواضع بكل شئ من غير ان يفتخر في جمع الامور على الغير وفي ذلك  
كان يوم حاد لنا ذلك رأينا العظمى بصفحة صغيرة من العطر من حياض بلقيز التي يتركها في  
فسيحنا واستغربنا عن السر في ذلك والسكينة بينه وبوثيقه كل الاحتياطات التي لا يتردد لها ان يقرض  
لسياحكم هذه الرسالة علينا ليجب اننا ماثقة بفضلكم ونفسيه تفريق التواضع وما هو يحسون بهه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم  
رسالة فخرية الموجهة للمفخرة السيد خيراتي السلام عليكم وبعد  
في هذا التاريخ الجزائري يوم الثلاثاء 1991/12/24 بقرارة بومردان الاخير بالجمعية الخيرية  
الجزيرية بجزائركم في اننا اعلمنا ذلك لايسر ان يكون معنا من الوجوه التي يعد بها المسؤولين الذين لا يفتقدون  
الصفات والقيم تلك كالتواضع بكل شئ من غير ان يفتخر في جمع الامور على الغير وفي ذلك  
كان يوم حاد لنا ذلك رأينا العظمى بصفحة صغيرة من العطر من حياض بلقيز التي يتركها في  
فسيحنا واستغربنا عن السر في ذلك والسكينة بينه وبوثيقه كل الاحتياطات التي لا يتردد لها ان يقرض  
لسياحكم هذه الرسالة علينا ليجب اننا ماثقة بفضلكم ونفسيه تفريق التواضع وما هو يحسون بهه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم  
رسالة فخرية الموجهة للمفخرة السيد خيراتي السلام عليكم وبعد  
في هذا التاريخ الجزائري يوم الثلاثاء 1991/12/24 بقرارة بومردان الاخير بالجمعية الخيرية  
الجزيرية بجزائركم في اننا اعلمنا ذلك لايسر ان يكون معنا من الوجوه التي يعد بها المسؤولين الذين لا يفتقدون  
الصفات والقيم تلك كالتواضع بكل شئ من غير ان يفتخر في جمع الامور على الغير وفي ذلك  
كان يوم حاد لنا ذلك رأينا العظمى بصفحة صغيرة من العطر من حياض بلقيز التي يتركها في  
فسيحنا واستغربنا عن السر في ذلك والسكينة بينه وبوثيقه كل الاحتياطات التي لا يتردد لها ان يقرض  
لسياحكم هذه الرسالة علينا ليجب اننا ماثقة بفضلكم ونفسيه تفريق التواضع وما هو يحسون بهه الرسالة



## فهرست الآيات

رقم الآيات	السورة	الآيات	رقم الصفحة
1، 2	البقرة	﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾	307
23، 24	البقرة	﴿ وإن كنتم في ريب مما نطق به صادقين ..... للكافرين ﴾	534، 535، 540
30	البقرة	﴿ وإذ قال ربك ..... خليفة ﴾	377
34-36	البقرة	﴿ وقلنا يا آدم ..... الرحيم ﴾	159
37	البقرة	﴿ فلتلقى آدم ..... الرحيم ﴾	377
79	البقرة	﴿ فويل للذين ..... يكسبون ﴾	304، 389، 510، 582، 587
95، 96	البقرة	﴿ وإن يتمنوه ..... أن يعمر ﴾	576
102	البقرة	﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾	412، 580
105	البقرة	﴿ ما يود ..... من ربكم ﴾	917
109	البقرة	﴿ ود كثير ..... حسدا ..... أحق ﴾	227، 463، 575، 917
113	البقرة	﴿ ومن أظلم ..... اسمه ﴾	1063
120	البقرة	﴿ ولن ترضى عنك ..... الهدى ﴾	121، 188، 522، 972
121	البقرة	﴿ الذين اتيناهم الكتاب ..... يؤمنون به ﴾	578، 579
125	البقرة	﴿ وإذ جعلنا البيت ..... مصلى ﴾	214
130	البقرة	﴿ ولقد اصطفيناك ..... الصالحين ﴾	382
132	البقرة	﴿ وأوصى بها إبراهيم ..... مسنون ﴾	389
133	البقرة	﴿ ألم كنتم شهادا ..... مسنون ﴾	389، 517
140	البقرة	﴿ ألم يقولون إن إبراهيم ..... عما تعمنون ﴾	580
142	البقرة	﴿ سبقون السفهاء ..... والمغرب ﴾	221، 222، 223
143	البقرة	﴿ وكذلك جعلناكم أمة ..... شهيدا ﴾	223
143	البقرة	﴿ لتكونوا شهداء ..... شهيدا ﴾	221
143	البقرة	﴿ وما جعلنا القبلة ..... عبيبه ﴾	224
143	البقرة	﴿ وإن كانت ..... هدى الله ﴾	224
144	البقرة	﴿ قد نرى نقلب ..... شطرد ﴾	226
144-150	البقرة	﴿ فننوليك قبلة ترضاها ..... تهتدون ﴾	931
144	البقرة	﴿ قول وجهك ..... شطرد ﴾	214
145، 146	البقرة	﴿ ولن أتيت ..... بظنون ﴾	226
146	البقرة	﴿ يعرفونه ..... بظنون ﴾	518، 520، 578
149	البقرة	﴿ وفيه للحق من ربك ﴾	227
150	البقرة	﴿ فلا تخشواهم ..... تهتدون ﴾	227
150	البقرة	﴿ ولأم نعمني عليكم ﴾	225
179	البقرة	﴿ ولكم في القصص ..... لأباب ﴾	232، 235
183	البقرة	﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ..... تنقون ﴾	206، 210
185	البقرة	﴿ شهر رمضان ..... تشكرون ﴾	205
227	البقرة	﴿ أطبق مرتان ..... يلحمن ﴾	175
228	البقرة	﴿ ولهن مثل ..... درجة ﴾	158، 160، 185

رقم الآيات	السورة	الآيات	رقم الصفحة
251	البقرة	﴿ ولتأد الله... يشاء ﴾	400
256	البقرة	﴿ لا إكراه في الدين ﴾	241, 96
279-275	البقرة	﴿ وأحل الله البيع... ولا تظلمون ﴾	592
282, 281	البقرة	﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم... عظيم ﴾	596
284	البقرة	﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم... لمن يشاء ﴾	1043
26	آل عمران	﴿ قل اللهم مالك الملك... ممن يشاء ﴾	978
28	آل عمران	﴿ لا يتخذ المؤمنون... المؤمنين ﴾	976
33	آل عمران	﴿ إن الله اصطفى... العالمين ﴾	425
37	آل عمران	﴿ وكفلها زكرياء ﴾	292
42	آل عمران	﴿ ولما قالت الملائكة... العالمين ﴾	420, 152
44	آل عمران	﴿ ذلك من أنباء الغيب... يختصمون ﴾	585
61-59	آل عمران	﴿ إن مثل عيسى... الكاذبين ﴾	322, 120
63-61	آل عمران	﴿ فمن حاجك... الكاذبين... المفسدين ﴾	578, 576
62	آل عمران	﴿ إن هذا... الحكيم ﴾	586, 400
64	آل عمران	﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا... من بون الله ﴾	581
66, 65	آل عمران	﴿ يا أهل الكتاب ثم نحاجون... لا تعلمون ﴾	580
68, 67	آل عمران	﴿ ما كان يبرأ فيهم... والذين آمنوا ﴾	219
71	آل عمران	﴿ يا أهل الكتاب ثم تلبسون... تعلمون ﴾	582
78	آل عمران	﴿ يلبون ألسنتهم... يعلمون ﴾	582
95-93	آل عمران	﴿ كل الطعام... قل صدق الله ﴾	580
93	آل عمران	﴿ قل فاتوا بالتوراة... صادقين ﴾	582, 575, 570, 521
97, 96	آل عمران	﴿ إن أول بيت... الذي بيك... للعالمين... مقام إبراهيم ﴾	280, 225, 221, 214
104	آل عمران	﴿ ولتكن منكم... المنكر ﴾	... 239
110	آل عمران	﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾	1066
112	آل عمران	﴿ ضربت عليهم الذلة... من الناس ﴾	552
120-118	آل عمران	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة... محيط ﴾	976
118	آل عمران	﴿ قد بدت فيضاء... أكبر ﴾	575, 184
144	آل عمران	﴿ وما محمد إلا رسول... ﴾	1047
154	آل عمران	﴿ يقولون هل لنا... كله لله ﴾	978
158	آل عمران	﴿ ولئن متم... تحشرون ﴾	1046
159	آل عمران	﴿ فيما رحمة... في الأمر ﴾	976, 438
161	آل عمران	﴿ وما كان لتبوء أن يقل ﴾	426
181	آل عمران	﴿ لقد سمع الله... أغنياء ﴾	580
190	آل عمران	﴿ إن في خلق السموات... الأكباب ﴾	491
195	آل عمران	﴿ فاستجاب... من بعض ﴾	161
1	النساء	﴿ يا أيها النساء... ونساء... رقيقا ﴾	164, 160
3	النساء	﴿ فإن خفتن... فواحدة ﴾	194
4	النساء	﴿ فإن طين... مرينا ﴾	164
11	النساء	﴿ يوصيكم الله... الأكثين ﴾	168
11	النساء	﴿ ولا يبريه لكل واحد منهما سندس... ولد ﴾	187
12	النساء	﴿ وإن كان رجل يورث ثلاثة... في الثلث ﴾	187

رقم الآيات	السورة	الآيات	رقم الصفحة
19	النساء	﴿ وعاشروهن بالمعروف ..... كثيرا ﴾	173
21	النساء	﴿ وكيف تأخذونه ..... غليظا ﴾	173
25	النساء	﴿ فإذا أحصن ..... العذاب ﴾	590
28	النساء	﴿ وإن أمر أذ ..... خير ﴾	174
32	النساء	﴿ ولا تتمنوا ..... بعض ﴾	185
34	النساء	﴿ الرجال قوامون ..... لهمو الهمة ﴾	182-143
34	النساء	﴿ فالصالحات ..... الله ﴾	189
34	النساء	﴿ واللاتي تخافون ..... واضربوهن ﴾	190، 189، 143
34	النساء	﴿ فإن أطعتم ..... كبير ﴾	191
35	النساء	﴿ وإن خفتن ..... خبير ﴾	174
60	النساء	﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون ..... أن يكفروا به ﴾	978
61	النساء	﴿ وإذا قيل لهم تعالوا ..... صدودا ﴾	978، 979
64	النساء	﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾	978
65	النساء	﴿ فلا وربك ..... تسليما ﴾	978، 902
78	النساء	﴿ أينما تكونوا يبرككم الموت ﴾	554
105	النساء	﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب ..... الله ﴾	978
110	النساء	﴿ ومن يحمل سوءا ..... رحيم ﴾	372، 371
112	النساء	﴿ ومن يكسب ..... مينا ﴾	372
129	النساء	﴿ وإن يتفرقا ..... سعة ﴾	176
135	النساء	﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا ..... خير ﴾	439
141	النساء	﴿ ولن يجعل ..... سيلا ﴾	979
153	النساء	﴿ يسألك أهل الكتاب ..... البيئات ﴾	574
161-155	النساء	﴿ فيما نقضهم ..... بالباطل ﴾	581
157	النساء	﴿ وما قتلوه وما صلبوه ..... يقينا ﴾	376
171	المائدة	﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خبير ..... إنما الله واحد ﴾	151
3	المائدة	﴿ حرمت عليكم الميثة ..... ﴾	557
3	المائدة	﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ..... ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾	595، 548، 528
5	المائدة	﴿ وطعام الذين ..... حل لكم ﴾	152
6	المائدة	﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتن ..... طيبا ﴾	171
8	المائدة	﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ..... تعملون ﴾	695
8	المائدة	﴿ ولا يجر منكم ..... للتقوى ﴾	439
13	المائدة	﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾	582
14	المائدة	﴿ ومن الذين ..... يصنعون ﴾	567، 461
15	المائدة	﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا ..... الكتاب	582، 511، 510
		... مبين ﴾	
17	المائدة	﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾	565
18، 72	المائدة	﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله ..... ثلاث	581
73		ثلاثة ﴾	
20	المائدة	﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبوه ﴾	322
42	المائدة	﴿ سمعون للكتاب كالون للسحت ﴾	209
44	المائدة	﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكفرون ﴾	978
50-48	المائدة	﴿ وأنزلنا إليك ..... يوقنون ﴾	977

رقم الآيات	السورة	الآيات	لم الصفحة
48	المائدة	﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾	97
49	المائدة	﴿ وأن أحكم بينهم بما أنزل الله.....لفاسقون ﴾	97
50 ، 49	المائدة	﴿ وأن أحكم الجاهلية بينون.....يوقنون ﴾	977 ، 970
50	المائدة	﴿ أحكم الجاهلية بينون.....يوقنون ﴾	976 ، 590
64	المائدة	﴿ وقالت اليهود.....يما قالوا ﴾	58
67	المائدة	﴿ يا أيها الرسول بلغ.....من الناس ﴾	54
73	المائدة	﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾	15 ، 333 ، 566
82	المائدة	﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾	42
84	المائدة	﴿ الذين قالوا إنا نصارى ﴾	11
92	المائدة	﴿ فاجتنبوه ﴾	595 ، 59
97	المائدة	﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ﴾	21
20	الأنعام	﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.....لا يؤمنون ﴾	521
38	الأنعام	﴿ وما من دابة.....أمثالكم ﴾	556
90	الأنعام	﴿ أولئك الذين.....اقتده ﴾	427
91	الأنعام	﴿ قل من أنزل الكتاب.....كثيرا ﴾	582
91	الأنعام	﴿ تجعلونه قرطيس.....كثيرا ﴾	570
99	الأنعام	﴿ انظروا إلى ثمرة.....يؤمنون ﴾	160
117	الأنعام	﴿ ما قلتم لهم إلا.....وربكم ﴾	363
121	الأنعام	﴿ وإن الشياطين.....لمشركون ﴾	936
124	الأنعام	﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾	466
164	الأنعام	﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾	160
3	الأعراف	﴿ اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم.....أولياء ﴾	978
24-18	الأعراف	﴿ ويا آدم اسكن.....أخرجون ﴾	159
38	الأعراف	﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾	458
82	الأعراف	﴿ أخرجوهم.....يتظهرون ﴾	391
138	الأعراف	﴿ اجعل لنا إلهًا.....تجهلون ﴾	393
150	الأعراف	﴿ ولما رجع موسى.....الظالمين ﴾	393
156	الأعراف	﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾	210
157	الأعراف	﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي.....المفلحون ﴾	568 ، 520
167	الأعراف	﴿ وإذا تأذن ربك.....سوء العذاب ﴾	552
168	الأعراف	﴿ وقطعناهم في الأرض أمما.....دون ذلك ﴾	552
186	الأعراف	﴿ من يضل الله فلا هادي له ونذرهم ﴾	1043
30	الأنفال	﴿ ويمكرون.....فماكرين ﴾	1065
31	الأنفال	﴿ قد سمعوا نداء..... ﴾	535
3	التوبة	﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب اليم ﴾	113
5	التوبة	﴿ فإذا مسلخ.....رحيم ﴾	927
21	التوبة	﴿ يبشروهم.....مقبحا ﴾	113
30	التوبة	﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت لنصرى لمسيح ابن الله ﴾	581
30	التوبة	﴿ يضاهون.....يؤفكون ﴾	343
33 ، 32	التوبة	﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.... مشركون ﴾	549

رقم الآيات	السورة	الآيات	الصفحة
34	التوبة	﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرًا من...	
40	التوبة	﴿ إذ هما في الغار... العجايب ﴾	928
60	التوبة	﴿ والغارمين ﴾	592
71	التوبة	﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض... ﴾	976
16	يونس	﴿ قل لو شاء الله... ﴾	426
61	يونس	﴿ وما تكون في شأن... ﴾	378
108	يونس	﴿ قل يا أيها الناس... ﴾	935
14-13	هود	﴿ أم يقولون افتراء... ﴾	535
49	هود	﴿ تلك من انباء الغيب... ﴾	585
3	يوسف	﴿ نحن نقص عليك احسن القصص... ﴾	585, 428, 427
33	يوسف	﴿ قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه ﴾	390
38	يوسف	﴿ واتبع منه ايامي ابراهيم... ﴾	390, 389
90	يوسف	﴿ انه من يتق... ﴾	1043
102	يوسف	﴿ ذلك من انباء الغيب... ﴾	585
17	الرعد	﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل... ﴾	547
43	الرعد	﴿ قل كفى بالله... ﴾	581
74	ابراهيم	﴿ ألم تر كيف ضرب الله... ﴾	547
9	الحجر	﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له حافظون ﴾	952, 951, 949, 547, 314
22	الحجر	﴿ وارسلنا الراح نوحي ﴾	557
50, 49	الحجر	﴿ نبي عبادي... ﴾	542
64, 63	النحل	﴿ تالله لقد ارسلنا... ﴾	582
69, 68	النحل	﴿ واوحى ربك الى النحل... ﴾	556
72	النحل	﴿ والله جعل لکم من انفسکم ازواجاً... ﴾	173
97	النحل	﴿ من عمل صالحاً... ﴾	164
103	النحل	﴿ لسان الذي يلحدون اليه اعجمي... ﴾	563
122-120	النحل	﴿ ان ابراهيم كان امة... ﴾	382
1	الاسراء	﴿ سيحان الذي اسرى بعبد له ليلاً... ﴾	530, 526
8-4	الاسراء	﴿ وقضينا الي بني اسرائيل في الكتاب... ﴾	552
32	الاسراء	﴿ انه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾	235
36	الاسراء	﴿ ولا تقف... ﴾	209
47	الاسراء	﴿ نحن اعلم... ﴾	537
47	الاسراء	﴿ ان تتبعون... ﴾	537
60	الاسراء	﴿ وما جعلنا لرويا... ﴾	526
67	الاسراء	﴿ فلما نجاتكم في اثير اعرضتم ﴾	687
70	الاسراء	﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾	377
82	الاسراء	﴿ ونزل... ﴾	88
85	الاسراء	﴿ رسالونك عن الروح... ﴾	554
88	الاسراء	﴿ قل لنن اجتمع... ﴾	540, 536
5	الكهف	﴿ عبرت كلمت... ﴾	473, 407, 392, 245
27	الكهف	﴿ وقال ما اوحى اليك... ﴾	949
29	الكهف	﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾	594
109	الكهف	﴿ قل لو كان لغير مدنا... ﴾	489



رقم الآيات	السورة	الآيات	رقم الصفحة
13	مريم	﴿ ويرا بوالديه ..... ﴾	687
21-16	مريم	﴿ واذكر في الكتاب مريم ..... ﴾	292
23-22	مريم	﴿ فحملته ..... ﴾	419
31-27	مريم	﴿ فأتت به قومها ..... ﴾	292, 291
31-30	مريم	﴿ إني عبد الله أتاني الكتاب ..... ﴾	419
31	مريم	﴿ ويرا بوالديه ..... ﴾	420
41	مريم	﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إله كان صديقاً نبياً ﴾	426
58	مريم	﴿ أولئك الذين آتاهم الله عليهم ..... ﴾	427
69-66	مريم	﴿ ويقول الإنسان ..... ﴾	542
96-94	مريم	﴿ إن كل من في السموات ..... ﴾	588
97	مريم	﴿ وتندبر به قوماً نداً ﴾	536
15-14	طه	﴿ إني أنا الله ..... ﴾	542
39	طه	﴿ والقيت عليك محبة مني ولتصنع علي عيني ﴾	425
41-40	طه	﴿ فليثب ..... ﴾	427, 426
88-87	طه	﴿ فكذلك ألقى السامري ..... ﴾	390
91-90	طه	﴿ ولقد قال لهم هارون ..... ﴾	393
123-115	طه	﴿ ولقد عهدنا ..... ﴾	377, 159
122	طه	﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾	377
25	الأنبياء	﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ..... ﴾	977
30	الأنبياء	﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾	556
35	الأنبياء	﴿ كل نفس ذائقة الموت ..... ﴾	554
44	الأنبياء	﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾	556
72	الأنبياء	﴿ وجعلناهم أمة ..... ﴾	427
90	الأنبياء	﴿ أنهم كانوا يسمعون في الخيرات ..... ﴾	427
5	الحج	﴿ فإنا خلقناكم من تراب ..... ﴾	556
75	الحج	﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾	425
78	الحج	﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ..... ﴾	434
		هذا... ﴾	
78	الحج	﴿ مئة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾	218
47	المؤمنون	﴿ وقومهما لنا عابدون ﴾	325
30	النور	﴿ قال للمؤمنين بغضوا من أبصارهم ..... ﴾	209
32	النور	﴿ وأنكحوا الأياسى منكم ..... ﴾	180
55	النور	﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ..... ﴾	548
1	الفرقان	﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾	536
5	الفرقان	﴿ وقالوا أساطير ..... ﴾	949, 569, 308
74	الفرقان	﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا ..... ﴾	197
74	الفرقان	﴿ ربنا هب لنا ..... ﴾	406
169	الشعراء	﴿ وإله لفي زير الأولين ﴾	579
64	النمل	﴿ أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾	329
64	النمل	﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾	492

رقم الآيات	السورة	الآيات	رقم الصفحة
77، 76	النمل	﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ..... للمؤمنين ﴾	582، 575، 571
94	النمل	﴿ وأن اتلوا القرآن ﴾	88
7	القصص	﴿ إن فرعون وشامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾	165
38	القصص	﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ..... الكاذبين ﴾	543
46-44	القصص	﴿ وما كنت بجانب الغربي ..... يتذكرون ﴾	585
57	القصص	﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾	139
77	القصص	﴿ وأبغ فيما أتاك الله ..... الدنيا ﴾	491
13، 12	العنكبوت	﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ..... يفترون ﴾	372
14	العنكبوت	﴿ قلبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾	381
48	العنكبوت	﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه ..... الميطلون ﴾	568
51، 50	العنكبوت	﴿ وقاتوا لولا نزل عليه ..... يؤمنون ﴾	535
5-1	الروم	﴿ لم غلبت الروم ..... العزيز الرحيم ﴾	550
6	الروم	﴿ وعد الله ..... لا يعظمون ﴾	551
21	الروم	﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ..... رحمة ﴾	189، 161، 160
29	الروم	﴿ فاقم وجهك للدين حنيفا ..... لا يعظمون ﴾	1040
48	الروم	﴿ الله الذي يرسل الرياح ..... من خلاله ﴾	556
12	لقمان	﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾	1145
27	لقمان	﴿ ولو اتما في الأرض ..... كلمات الله ﴾	489
4	الأحزاب	﴿ ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه ﴾	144
5	الأحزاب	﴿ ادعوهم لأبائهم ..... رحيم ﴾	922، 411
6	الأحزاب	﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾	940
37	الأحزاب	﴿ وإذا نقول للذي نعلم الله عليه ..... مفعولا ﴾	149
38، 37	الأحزاب	﴿ فلما قضى زيد منها وطرا ..... فرض الله ﴾	409
40	الأحزاب	﴿ ما كان محمد ابنا أحد من رجالكم ..... وخاتم النبيين ﴾	193
46	الأحزاب	﴿ يا أيها النبيء أنا أرسلناك شاهدا ..... منيرا ﴾	113
52، 50	الأحزاب	﴿ يا أيها النبيء أنا أحللتنا لك أزواجك ..... المؤمنين ..... رقبيا ﴾	407، 147
52	الأحزاب	﴿ لا يحل لك النساء ..... حسنهون ﴾	147
53	الأحزاب	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا ..... عظيما ﴾	147
56	الأحزاب	﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ..... تسليما ﴾	147
10	سبا	﴿ ولقد أتينا داود منا فضلا ..... الحديد ﴾	400
11	فاطر	﴿ والله خلقكم ..... يسير ﴾	589، 588
28	فاطر	﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾	1046، 489
45	فاطر	﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء ..... قديرا ﴾	544
36	يس	﴿ سبحان الذي خلق ..... لا يعظمون ﴾	557
68	يس	﴿ ومن نصره ..... أقلا تعقلون ﴾	554
69	يس	﴿ وما علمناه شعر وما ينبغى له ﴾	571
83-78	يس	﴿ وضرب لنا مثلا ..... ترجعون ﴾	542
36	الصافات	﴿ وقالوا إنما لتركوا ألهتنا لشاعر مجنون ﴾	537

رقم الآيات	السورة	الآيات	رقم الصفحة
107-101	الاصافات	﴿ فبشر نادر بسلام حليم.....وفديناه بذبح عظيم﴾	218، 112
7	ص	﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الاخره﴾	581
25	ص	﴿ وان نه عننا.....مأب﴾	400
30	ص	﴿ ووهبنا لداوود سليمان.....أواب﴾	412، 40
40 - 36	ص	﴿ فسخرنا له الريح.....مأب﴾	41
3	الزمر	﴿ ما نعبدهم.....زلقى﴾	212
5	الزمر	﴿ يكور.....على النيل﴾	556
6	الزمر	﴿ يخلقكم في بطون امهاتكم.....ثلاث﴾	556
9	الزمر	﴿ قل هل يستوي.....لا يعطون﴾	489
34، 33	الزمر	﴿ و الذي جاء بالصدق و صدق به.....المحسنين﴾	938
12	غافر	﴿ فالحكم لله العلي الكبير﴾	978
36-1	فصلت	﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم.....﴾	538
10	فصلت	﴿... و جعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها.....﴾	160
53	فصلت	﴿ سنريهم آياتنا.....الحق﴾	559، 490
15	الشورى	﴿ و امرت لا اعدل بينكم﴾	439
38، 37	الشورى	﴿ و الذين يجتنبون.....ينفقون﴾	976
38	الشورى	﴿ و امرهم شورى بينهم﴾	438
22	الزخرف	﴿ انا وجدنا اباءنا.....مقتدون﴾	798
30	الزخرف	﴿ و لما جاءهم الحق.....تافرون﴾	537
31	الزخرف	﴿ و قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾	537
57	الزخرف	﴿ و لما ضرب ابن مريم مثالا.....ام هو﴾	581
70	الزخرف	﴿ اخلوا الجنة.....تخبرون﴾	173
2، 1	الجاثية	﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾	307
4	مجادل	﴿ حتى اذا اختلفتموهم.....أوزارها﴾	589
2، 1	الفتح	﴿ انا فتحنا لك.....و ما تاخر﴾	148
10	الفتح	﴿ ان الذين يباعدونك.....عظيما﴾	436
27	الفتح	﴿ لقد صدق الله رسوله.....فتحا قريبا﴾	549
28	الفتح	﴿ هو الذي ارسل رسوله بالهدى.....شهيدا﴾	578
13	الحجرات	﴿ يا ايها الناس انا خلقناكم.....اتفاكم خبير﴾	587، 1145، 1146
9	ق	﴿ و نزلنا من السماء.....الحصيد﴾	160
16	ق	﴿ و لقد خلقنا الانسان.....أوريد﴾	542، 378
38	ق	﴿ و ما مسنا من لغوب﴾	580
45 - 43	ق	﴿ انا نحن نحي و نميت.....و عهد﴾	542
34، 33	الطور	﴿ أم يقولون تقوله.....صادقين﴾	535
48	الطور	﴿ و نصبر لحكم ربك فانك باعيننا﴾	427
78	الطور	﴿ انا كنا من قبل.....الرحيم﴾	687
4، 3	النجم	﴿ و ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى﴾	510
4	النجم	﴿ ان هو الا وحي يوحى﴾	572
17	النجم	..... 1176 1176 1176	526
18	النجم	.....الكبرى﴾	530
4 - 1	المجادلة	﴿ قد سمع الله.....اليم﴾	160

رقم الآيات	السورة	الآيات	رقم الصفحة
11	المجادلة	﴿ يرفع الله درجات ﴾	507، 166
7	الحشر	﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾	592
4	المتحنة	﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة بالله وحده ﴾	797
8، 9	المتحنة	﴿ لا ينهاكم الله عن الظالمين ﴾	794
12	المتحنة	﴿ يا أيها النبي إذا جاءك غفور رحيم ﴾	437، 436، 166
6	الصف	﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم ﴾	513
6	الصف	﴿ أنتي رسول الله ﴾	322
2	الجمعة	﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ﴾	568
11	التغابن	﴿ والله بكل شيء عليم ﴾	544
6	الطلاق	﴿ فإن أرضعن لكم فانهن أجورهن ﴾	174
1	التحريم	﴿ يا أيها النبي لم تحرم ﴾	406، 169
11	التحريم	﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا ﴾	164، 152
1	القلم	﴿ إن والقلم وما يسطرون ﴾	489
5-9	نوح	﴿ قال رب اني اسرارا ﴾	381
5	المدثر	﴿ وارجز فاهجر ﴾	148
12-28	المدثر	﴿ نرني ﴾	553
16-19	القيامة	﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾	952، 951، 949، 314
8	الإنسان	﴿ ويطعمون طعاما ﴾	589
24	النازعات	﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾	325
11-16	عبس	﴿ كلا إنها تكذرة ﴾	307
24	الانشقاق	﴿ نبشركم بعباب اليم ﴾	112
16	البروج	﴿ فعال لما يريد ﴾	363
1	الطارق	﴿ والسما والطارق ﴾	688
6، 7	الطارق	﴿ خلق من ماء دافق ﴾	556
17-20	الغاشية	﴿ أفلا ينظرون ﴾	490
11-13	البند	﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾	589
1-3	الشرح	﴿ أم نشرح لك صدرك ﴾	148
1-5	العلق	﴿ اقرأ باسم ربك ﴾	489
2	البينة	﴿ رسول من الله يتنوا ﴾	308، 307
1-5	المسد	﴿ تبت يدا ﴾	553
1-4	الإخلاص	﴿ قل هو الله أحد ﴾	565، 356
3، 4	الإخلاص	﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾	526

## فهرست الأحاديث و تخریجها

الصفحة	الراوي	الحديث
88	البيهقي في الشعب والقرطبي في التذكار	﴿ إن هذه القلوب تصدأ .....
144	الطبراني عن ابن عباس	﴿ تطلقا فبشرا و لا تنفرا .....
112	الشيخان	﴿ فأبوا ديهوداته و ينصر آتاه و يمجساته .....
167	البخاري في باب العظم	﴿ ثلاثة لهم أجران .....
167	البخاري في باب العظم	﴿ نعم النساء نساء الأنصار .....
171	مسلم عن أبي هريرة	﴿ كيف تعرف ما لم يأتي .....
171	مسلم عن أبي هريرة	﴿ إذا توضأ العبد .....
171	أبو داود	﴿ بركة الطعام الوضوء قبله .....
171	الطبراني	﴿ تخللوا فإنه نظافة .....
172	الترمذي	﴿ إن الله تعالى طيب .....
173	ابن ماجه وفيه ضعف	﴿ من أراد أن يلقي الله طاهرا .....
173	أبو داود والحاكم و صححه	﴿ أبغض الحلال إلى الله الطلاق .....
189	ابن جرير و البيهقي	﴿ خير النساء التي .....
189	الشيخان	﴿ لا يجلد أحدكم امرأته .....
207	ابن خزيمة في صحيحه	﴿ كل عمل ابن آدم .....
208, 207	الترمذي وحسنه و أحمد و ابن ماجه و ابن خزيمة و ابن حبان في صحيحهما	﴿ ثلاثة لا ترد دعوتهم .....
208	الترمذي وحسنه و ابن ماجه ينفذ مقارب و ابن حبان في صحيحهما	﴿ ما ملأ ابن آدم و عاء شرا من بطنه .....
208	الطبراني بإسناد رواه ثقات و ابن السنني و أبو نعيم في الطب عن أبي هريرة و أنشأ في الجامع الصحيح إلى حسنه	﴿ صوموا تصحوا ﴾
208	أحمد و ابن حبان في صحيحه و البيهقي و البزار و رجاله رجال الصحيح	﴿ لكل شيء زكاة .....
209	متفق عليه	﴿ إنما الصوم جنة .....
209	متفق عليه	﴿ إذا كان يوم صوم أحدكم .....
209	حديث غريب	﴿ المغتاب و المستمع شركان في الإثم ﴾
209	النسائي و ابن ماجه	﴿ كم من صائم .....
213	الشيخان	﴿ أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي .....
214	الشيخان و أبو داود و الترمذي و النسائي و أحمد و غيرهم من عدة طرق	﴿ فما والله لي لأعلم أنك حجر .....
229	أبو داود عن أنس	﴿ قدم رسول الله للمدينة ولهم يومان .....
229	الترمذي و ابن ماجه و أحمد عن بريدة	﴿ كان النبي (ص) لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل .....
229	متفق عليه عن أم عطية	﴿ أمرنا أن نخرج العرائق .....
229	أبو داود و ابن ماجه و الحاكم و في إسناده مجهول	﴿ فمهم أصابهم مطر .....
305	أبو داود و الترمذي	﴿ يقل لقرئ القرآن بقرأ و لرق .....
432	مسلم	﴿ إن الله اسطفي كنانة .....
436	البخاري عن عبادة بن الصامت	﴿ بلعولي على أن لا تشركوا بالله شيئا .....

الصفحة	الراوي	الحديث
439	الحاكم في المستدرک في كتاب الأحكام مع بعض التغيير و قال بأنه حديث صحيح الإسناد	﴿ من ولي من أمر امتي شئنا ..... ﴾
439	الحاكم في المستدرک .... صحيح الإسناد	﴿ من استعمل رجلا على عصابة ..... ﴾
490	البخاري في باب العلم	﴿ طلب العلم فريضة على كل مسلم ﴾
533	مسلم والنسائي و رواه البخاري بلفظ مقارب جدا	﴿ ما من الأبياء نبي إلا ..... ﴾
548	الترمذي و الحاكم عن عائشة، والطبراني عن أبي سعيد الخدري	﴿ كان النبي (ص) يحرس بالليل ..... ﴾
576	البخاري و الترمذي و النسائي و أحمد بطرق مختلفة و الفاظ متقاربة	﴿ والذي نفسي بيده ..... ﴾
637	الطبراني عن ابن عباس	﴿ ليس منا من خصى أو اختصى ..... ﴾
939	مسلم	﴿ لأعطين الراية غدا ..... ﴾
1145	أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الآداب تحت عنوان التفأخر بالأسياب	﴿ إن الله عز وجل قد لأهب عنكم ..... ﴾

عبد القادر للعلوم الإسلامية

# فهرست الأعلام

## أ

- آدم عليه السلام 158 - 160، 168، 218، 255، 279، 291 - 293، 297، 316، 317، 347، 357،  
 366، 367، 370، 377 - 379، 405، 426، 427، 434، 435، 493، 501، 583 . آدي 295 .  
 آرام 851 . آريوس 268، 329، 330، 449، 461، 505 . آروالد سوارز 202 . آلان بترفيت  
 727، 730 . آلان دوفراك 730 . آلان دوكو 1036 . أمية بنت وهب 433، 434 . آمون -  
 رع 325 . آيت أحمد 696، 697، 701، 710، 716 - 724، 736، 750، 777، 808، 817، 906 -  
 908، 908، 1120، 1121، 1128 . إبراهيم عليه السلام . 147، 211، 212، 215، 216 - 219، 222،  
 225، 227، 254، 270، 279، 291، 294، 296، 317، 357، 366، 367، 379، 381-384، 389،  
 390، 420، 422، 423، 426، 429، 434، 436، 517، 518، 563 . إبراهيم باشا 81 .  
 إبراهيم بن بوعزيز الحناشي 38 . إبراهيم سعيد 277 . إبراهيمي محمد البشير د . 690،  
 705، 712، 715، 773، 800، 867، 872، 873، 876، 877، 879، 884، 887، 888، 904، 914 .  
 916، 985، 989 . - إبراهيم 169، أبرهة الأشجر 211، 212، 216، 481، 525، 564 . -  
 أبشالوم 397 - 399، 467، 468 . إبليس ( الشيطان ) 158، 159، 161، 162، 218،  
 222، 319، 322 . ابن أبي داود 56 . ابن أبي ربيعة 935 . ابن إسحاق 528 . - ابن باديس عبد  
 الحميد 20، 22، 81، 82، 87، 131، 132، 133، 169، 194، 270، 274، 276، 277، 331 . ابن بلا أحمد 710،  
 915، 916، 1015، 1016، 1084 . - ابن البطريق 274، 276، 277، 331 . ابن بلا أحمد 710،  
 716، 718، 720، 773، 783، 995، 1031، 1032 . ابن تيمية 175، ابن الجوزي 935 .  
 - ابن الحداد، الشيخ الحداد 68، 69 . ابن حزم . 935 ابن خلدون 532 - ابن رشد 494، 496 -  
 499، 652، 734، 960، 963، 1135 . ابن الرشيد . 1113 . ابن سينا 497، 498، 1135 . ابن  
 عباس 114، 526، 551 . - ابن عربي 85 . ابن العسال 569 . ابن علي الشيرازي 56 . ابن العنابي .  
 96.99، 103، 862 . ابن عورة المختار 71 . ابن قمينة 166 . ابن القيم 175 . ابن كاتبة 628 . -  
 ابن كثير 528 . ابن مالك 1043، 1044 . ابن مريم 44 . ابن منظور 1110 . ابن ناصر بن شهرة 79  
 ابن يوسف بن حدة 699، 701، 703، 783 . أبو الأعلى المودودي 977 - أبو بكر الصديق 149 -  
 309، 313، 438 - 440 . 528، 591، 846، 935، 937، 938، 940، 941، 944، 945، 948،  
 949، 971 . - أبو جرة سلطاني 813 . أبو جعفر المنصور 964 . أبو جهل 564، 941 . -  
 أبو حنيفة 935 . أبو خزيمة الأنصاري 311 . أبو داود 166 . - أبو دجاجة 446 . أبو زيد  
 عبد الرحمن الحامصي 60، 65، 96 . أبو سعيد الخدري 548 . أبو سفيان 434 . 940، 941 .

- أبو طالب 560 . أبو العباس أحمد ابن إدريس 71 . أبو العباس حميد 36 . أبو عبد الله المقري 45، 58 .  
 - أبو عبيدة بن الجراح 576، 577 . أبو الفرج 503، 504 . أبو الفرج الأصبهاني 935 . أبو  
 القاسم بوجليل 56 . أبو هب 553، 554 . 746، 771، 781، 941 . - أبولي 734 . أبوليوس المداوروشي  
 1117، 1118 . أبو مدين الغوث 44، 64 . - أبو معشر 497 . أبو هريرة 229 . أيبا 295 .  
 آيس 334 . أيشج الشوغية 399، 405 . . أيمالك 381، 382، 383 . أيهود 295 . أ. تريكو 281  
 أهنس 169 . أهنس 355 . أجاز 295 . (الإمام) أحمد 167 . أحمد أويحي 805 - أحمد بن أي 144،  
 145 . أحمد بن تونس 138 . أحمد بن إدريس 43 . أحمد بن سالم 90 . أحمد بن نعمان 728 - 730 .  
 732، 738، 743، 898، 1078 . أحمد بن يوسف 56 . أحمد بودة 698، 701 - أحمد التجاني 41، 84 -  
 89، 91، 92، 98 . أحمد توفيق المدني 22، 38، 748، 900 . أحمد جداعي 751، 802، 804، 805، 809،  
 810، 813، 814، 816، 824، 1124 . أحمد خوجة 23، 39 . أحمد ديدات 415، 518 . أحمد رضا  
 852 . أحمد زوغو 897 . أحمد سخنون 758 . أحمد الشريف ( السنوسي ) 76، 78-80، 82، 83،  
 857 . أحمد شفيق باشا 610 . أحمد نجيب 1066 . - أخاذيام 296 . الأخضر بن طوبال 1023 .  
 الأخضرى 898 . إدريس بن المهدي ( السنوسي ) 80، 172 . إدوارد سعيد 942، 943 . أدونيس بن  
 ميرة 355 - أرسلو 493، 497، 498، 587، 589 . أرنست بسكاري 666 . - أرنست رينان 652،  
 653، 655، 656، 685، 1061 . (الجنرال) أرنو 488 . أرباط 313، (البابا) أريان الثاني 481، ( )  
 أريان (البابا) السادس 456 . - أريستا رخوس الساموثراقي 502 . أرينوس 267، 274، 281 . -  
 الأزهري 56 . أسا 295 . إسحاق عليه السلام 317، 318، 382-384، 389، 390، 422، 423،  
 516، 517 . - إسرائيل 321، 360، 383، 384، 388، 392 . إسطنبولي 821 - أسعد داغر 1025،  
 أسعد طوبطاني 851 . (الأسقف) أسكندر 329، 330 - (البابا) الاسكندر الثالث 455، (البابا) الاسكندر  
 الخامس 457 . اسكندر المقدوني 326، 343، 345 . اسكندر المعلوف 1053، أسماء بنت يزيد الأنصارية  
 166 . 168 - اسماعيل عليه السلام 216، 218، 225، 389، 422، 423، 431-434، 516، 517، 563،  
 564، 1093 . اسماعيل مطهر 842، اسماعيل ميرة 805، 816، 818، أشعيا النبي 519 . أشوكا  
 343، 345، 346 . الأعشى 751 أغسطس 326، إفريقيش 1105 إقليدس 1056، أكسيمناس 506  
 أ.كلمان 261، 273، 275، 279، 281-284، 286 . أكيم 295، إلبا 367، 519، 520 . إلياس بك عبده  
 قدسي 1064 . إلياس بن مضر 431 . أماسيا 296 . إمام الحرمين 296، 297 . - أسبروزو 161 . أم حبيبة  
 193، 940 . أم سلمة 193، أم عطية 229، أم عمارة 165، أم هاني 527، أمية بن أبي السلت 571، 572 .  
 أمون 397، 399 . أمون 295 ، أمونوس ساكاس 351، إميل فليكس غوتية 661 . إميلي دوفيلار 107،  
 134، 135، 136، أميمة بنت عبد المطلب 409، الأمين العمودي 895، 897، 916 .



أميتوكال اختوتن 655. أنطوني 169. أنتيجونوس 344. أندري باسه 1112 أندري غلوكسيمان 820.  
 أندري لويس 1137، 1138، أنس بن مالك 311، أنسلم 491، أنطيوخس 558 - أنطيوخس الثاني 325،  
 343، أنطيوخس الرابع 325، أنطونيوس الكبير 1045 - أنوبيس 338، (البابا) أنوثان الثالث 474، أنور  
 باشا 852. - أنور الجندي 116، 1133، أنيس فرنجية 1052، 1054، 1065، 1068، 1070، 1072 -  
 1075، 1082، 1086، 1101، أهولسة 415، 584 - أهولبية 415، 584. أوجان قيربي 734، أوجين  
 دي لاكروا 109 - أورليان 503، 504، أوردوسيوم 503، أوردب الحثي 394، 396، 398، 400، 409،  
 أوزن حسن 37، أوزيريس 256، 327، 338، 334، 347، 354، 1117. أوغستان بيرك 879، 881،  
 882، (القديس) أوغسطين 102، 161، 354، 424، 471، 473، 651، 734، 1108، 1109. أوغسطين  
 دوڤيالار 107، أوقاسي 727، أولف بالملي 938. - أولميا 326، أونيسم ريكلوس 990، 992، إيديسر  
 731 - إيزيس 327، 338، 339، 344، 345، 347، 355. إيمانويل قراصو 851، 852 (البابا)،  
 إينوصان الثالث 482.

## ب

- البابا ، 454 - 458، 460، 461، 463، 481، 483، 493، 494، 493، 493، 835، 739، 651، 633، 611، 608، 607، 599  
 599، 607، 608، 611، 633، 651، 739، 835، 839، 939، 941، 985. بارسارميند 1139، 1141،  
 بارون دوڤينوسيك 106 - بازان 469، 663، 673. باسيليدس 348. بافساندر 337. - بافي 136،  
 137، 141، 199، 600، 625. بانلوطي 611. بيانس 267. - البتاني 497. بتشع بنت ألعام 394 -  
 396، 396، 400، 431. ب. ج. أندريه 707. بحسيرا (الراهب) 560، 561، البخاري 310، 311،  
 972 - مختصر 553. براهما 339. بربرين قيس غيلان 687، 688. برتشارد 74. برتولون 617.  
 برجيس 135. برناتا 251، 252، 262، 263، 286، 446، 448، 450. برنار 1006 برناردوس 424 -  
 بولار هنري ليفي 820. بوهان غليون 980، 982، 985، 985 مكرر. - برومير 108. بروسو 506،  
 838. بريجيت 918. بريجيت نيلسون 918. بريدة 229. بريفوس بارادول 1120. بسمارك 168 -  
 البشير بومعزة 699، 700. بطرس 252، 263، 267، 269، 271، 274، 277، 283، 443، 445 - 448،  
 450، 453، 454، 458، 1045 - 1047. بطرسبرج 569. بطرس غالي 783. بطرس الناسك 482،  
 483. بطليموس الأول 501. بطليموس التاسع 502. بطليموس الثامن 502. - بطليموس الثاني  
 501. بطليموس الثاني عشر 325. بطليموس السابع 502. بطليموس فيلا ديلفوس 343. بغيغة  
 أحمد 1015 بقار خزلاجي 39. - بكير العنق 1011 بلاج 493 بلال (الصحفي) 588، 746  
 (الجنرال) بلالجي 105. - بلسس 117. بلعام بن بعور 466. بلعيد عبد السلام 777.

بلقاسم بن سديرة 1121 . بلقاسم راجف 699 . بلهه 388 . بنجامين ستورا 1147 . بن خليل  
 1012 . (الباب) بندلت 458/13 . بن عمي 390 . بنساي و علي 697، 698، 700، 710، 711 .  
 بنيامين 389 . بوتان 101، 484 . بوجولا 102 . بوذا 341، 342، 355 . بورام 295، 296 - بورزاج  
 700 بورغساد : ت، د، ف، ر، ز، م، 101، 133 - 142، 144-149، 151، 153-158، 162، 163،  
 166، 168-170، 172، 175، 176، 178، 181-188، 191-193، 196-200، 202-206، 209،  
 210، 213، 215-217، 219، 223، 226، 227، 233، 235، 236، 239، 241، 243-245، 249، 289،  
 290، 291، 303-305، 315، 323، 328، 335، 336، 348، 368، 370، 372، 392، 405-409، 412،  
 417، 419، 422، 423، 425، 428-431، 433، 436، 440، 441، 443، 446، 447، 449، 452-454،  
 457، 460-463، 464، 473، 474، 477، 479، 481، 488، 489، 491، 498، 500، 501، 504-507،  
 508، 511، 513، 518، 521، 524، 526، 528-532، 547، 549، 556، 558، 560، 565، 566، 580،  
 581، 584، 592، 603، 651، 690، 782، 869، 912، 914، 915، 918، 922، 924، 949، 954، 961،  
 969، 973، 974، 988، 1002، 1060، 1088، 1089، 1091، 1093، 1099، 1100، 1143 بورقــــعة  
 716-720، 722، 723، 1037، (المارشال) بورمون 102، 108، 507، 862، بوزيان 71، 1087، بوسي  
 295 بوست 276، 277، 510، بوسوي 476 . بوسيسنوس فلافيوس 502، بوشافاط 295، بوشناق  
 25، 28، . بوالصوف 276، بوعلام بن حمودة 716، بوعمامة 663، 763 . بولات قالان برني 1137 بول  
 962، بول روبين 194 . بولسي 231، 238، 248-260، 262-264، 267-269، 274، 276، 277،  
 280، 282، 288، 302، 303، 315، 322، 324، 325، 327، 328، 330، 336، 348، 349، 356، 362،  
 367، 446-450، 469، 470، 477، 486، 487، 489، 529، 535، 1046، بولس أرووز 503 . بول مبارك  
 652، بول غرينجو 737، بوليكارب 281، بوسار 289 . بوسالسة 791، بوسبي 345، بومبيدو 991،  
 بوتايوت (نابليون) 3، 13، 19، 20، 21، 40، 101، 126، 127، 148، 231، 249، 476، 477، 479،  
 484، 487، 843، 867، 891، 910، 966، 973، 1149 . بيتر من رشت 918، بيسار أبي صعب 1085،  
 يارمارتولو 1137 . بيجار 814، 1106، (المارشال) بيجو 106، 107، 135، 997، 1093 . (الجنرال)  
 بيدو 105، بيرس 1078، البير كامو 1139، البيروني 966، بيشو 103، 105، بيكون 1056، بيلاطس  
 النبطي 374، 515، بيل كلينتون 919، 938، بينوا 285، البيهقي 189، 528، (الباب) بيوس التاسع 606،  
 608 (الباب) بيوس الثامن 100، 484، بيزر دوكليني 124، بيزر لارميت 481.

## ب

- ناسديت ياسين 726، تايلور 567، الترمذي 548، 551 . تيان أسعد (تبع) 211 . ثوقس II 325،  
 ترائي مومتام 162 . - ترنوليان 161، 355، 617، (الأمير) تشارلز 918 ت . ليفيكسي 1136 - توريسن  
 لاند 919، 920، توطليا أوكاكايا 345، توما الأكويني 161، 496، 497، توماس أرنولد 934.

توماس بكت 836، توينبي 857، تيمون 277، تبطس 262، تيموثاوس 253، 286، تيموثوس 344،  
نيودورا 451، 452.

## ث

- ثامار 294، ثاوفيلس 271، 278، 280، الثوري 551، ثرفاننيس 17، ثمار (بنت داود) 397-399،  
ثمار (زوجة عير بن يهوذا) 387، 388، 393، 394، 416، 430، ثناسيوس 268، 330، ثيموثاوس  
332، ثيودوسيوس 332، 338، 449، 503، ثيوفيلوم 338، 345، 503، 504.

## ج

- الجاحظ 542، جاك (أخ المسيح) 248، 302، جاك أزابي 820، جاك بيرك 1138-1142، جاك  
ينات 727، 729، 730، جاك شيرك 755، 819، 919، جاك لاند 820، 870، 917، 922، 924،  
جاك هيحكين 820، جاليو 838، جانتي دوييسي 104، جانتي دوساسي 639، جان ريتشارد بلوك  
657، جانين 627، جاويد 852، جبريل عليه السلام 148، 305، 309، 463، 518، 528، 530،  
551، 957، 964، 1092، جيون 504، جدعون 469، جراف 569، جرجس زوين 282، جرجسي  
زيدان 843، 1053، جرمان تيون 1136، جرمانوس فرحات (جبريل بن فرحات) 1042 - 1045 -  
(البابا) جريجوري التاسع 445، 459، 498، (البابا) جريجوري الحادي عشر 456، 457، البابا  
جريجوري السابع 835، البابا جريجوري الكبير 838، جعفر الصادق 85 ج. لانكستر هاردنج 264.  
- (سيدي) المجلس 45، جمال الدين (الأفغاني) 130، 653، جمال زناني 801، 811، الجمال الحنفي  
73، جميل صليبا 353، جورج بالانديا، 930، جورج مارتون 338، 503، 504، جورج قسواني  
368، جورج واشنطن 919، جورديان 350، جوزيف بن عبد الله 606، جوستيان 184، 198، 451،  
587، جوسفين 649، جولدزبهر 657، جول فيري 69، 609، 633، 1001، 1002، جول كامبون  
609، 893، جوليو باسيقي ساني 1039، جونار 893، جون بيار شوفنمان 819، جون دي بروجلي  
1021، جون سيرفي 1106، جون قرنق 985 مكرر، جون كندي 938، جون موط 638، جويبرية  
بنت الحارث المصطلقية 193، جويكشيچار ديني 455، جيراربريمون 734، جيرارد جانسنس 1137،  
جرمان 1000، جيروم 161، 275، 424، جيروم البراغي 458، 459، جيسكار دهبستان 731،  
(الملك) جيمس 337، 289، 299، 1074، 1075، - جيمي سو غارت 399، 401، 415.

## ح

- حاج محمد شوشالي 707. حاطب بن أبي بدعة 525. حام 380، 1105 حيون دوقرفي 497.  
 حنيسوت 325. الحجاج 1066. - حذيفة بن اليمان 311. حزقيا 295. حزقيلل 367، 370، 380.  
 415. حسان بن ثابت 1054. (الداي) حسن أتما 14 حسلي 295. الحسن بن علي 64، 67، 71.  
 الحسن بن الهيثم 497. الحسن الثاني 719، 721. حسن الوراكلي 118. حسني الأحق 692.  
 694. (الداي) حسين باشا 32، 38، 47، 100، 484. (الحاج) حسين باشا ميزومورتو . ب. حسين  
 الشريف 1062، 1063. حسين متوفي 734. حسين معمري 1137. الحسين الورثيلاني 42، 44، 45،  
 97، 865. حفصــــــــــــــــة (أم المؤمنين) 167، 168، 193، 311 الحكم 548. حليلة السعدية  
 687. حمدان 1090 - حمدان خوجة 22، 31، 96، 486. حمراوي حبيب شوقي 813، 818، 820.  
 822. حمزة (بن عبد المطلب) 941. حمودة بن الساعي 692، 693، 895. حمودة المقعادي  
 76. حمور الحوي 387. (الريس) حميدو 10، 11. حميسي 726، حناهي 457-459، 461.  
 حناوكلف 457، 459، 461. حنبل 733، 748. حنوز 726. - حواء عليها السلام 158، 159،  
 160، 168، 218، 316، 377. - حورس 338، 339، 347.

## خ

- (الأمير) خالد 897. خالد بن سنان 97. خالد بن الوليد 988، 1054. خالدة أديب 856 خالد  
 محمد خالد 842. خالد نزار 756. - خديجة بنت خويلد 193، 405، 562، 563. الخديوي إسماعيل  
 842، 843. الخرشبي 95. خزيمية بن مدركة 431. الخطيب البغدادي 935. خليدة خالي 755. خليدة  
 مسعودي 826، 827، 828، 908، 911، 924. خليل 95. خليل محمد 1106. الخوارزمي 497.  
 خيرالدين (باشا) 5.

## د

- داخوس 342. دافيد كوهين 1136. دانتون 476. دانيلو 348. داود عليه السلام 198، 225،  
 270، 279، 292، 294، 296، 357، 388، 391، 400، 403 - 405، 409، 416، 430، 431، 467،  
 469، 517، 523، 546، 549. دارن 342. ديشس 135، 136، 600، 1144. درلــــــــــــــــون 107. دلقو  
 135. دلبلة (عشيقه شمشون) 412، 413، 584. دوبر رمــــــــــــــــون 103، 106، 107. دوبي 689، 701،  
 864. دور كايم 928، 951. - دورو فيقو 103، 232، 486، 769. دوغرامون 16. دوغيدون  
 628-630. دونال 100. 484. دوفالكو 627، 723، 1120. دوفولكس 55. دوقا 624.

دوكيز 474، 475 - دولارو شمونتيكس 617، دولنجو 460 (الجزال) دوماس 623، 999، دوملل  
 9، 105، 994، دومنيك 455، دومنيك جند يسالفي 496، دونات 471، دوني كاييه (الأميرة)  
 ديانا 918، دي بوميده 665، ديجول 720، 725، 826، 922، 933، 1020، 1021، 1022، 1024،  
 1099، 1121، دي سان ليجي 666 - ديشامبور 610، ديفاكي 340، ديكارت 424، 1056، دي  
 كايكس 708، ديمولان 476، ديمتريوس الفاليري 344، 501، 502، - دينة 386، 387، ديونييس  
 355، ديونييسيس 354.

## ر

- رابح تركي 1008، 1016، راحيل 386، 388، 389، راسين 476، راعوث أم عبيد 391، 393،  
 416، راموس 475، رابون بن يعقوب 387، 388، - ربيع الزناني 898، 899، رجاء غارودي 500،  
 رجحام 295، - رجحام بن سليمان 391، 393، 416، رحمان 726، رحمة الله الهنددي 337، 366،  
 388، 392، 398، 404، رسا 295، رسطان 633، - رشيد باشا 849، رضا مالك 771، 807،  
 1033، 1034، رفقة 382، 384، رفيق بك العظم 504، 505، رقية رضي الله عنها 958، روبيرت  
 كوشنير 817، روبر عبد القادر 606، روبر هاريسون 673، روبيل بن يعقوب 398، روجر بيكون  
 497، - روجي 247، 248، 275، 279، 281، 302، - روح القدس 147، 153، 252، 261، 297،  
 299، 331، 338، 340، 342، 347، 353، 354، 361، 363، 365، 368، 369، 371، 372، 429،  
 442، 444، 446، 448، 453، 478، 508، 512، 520، 1045، 1046، - رودى بانث 117، 118،  
 رولاند دي فو 264، ريتشارد قلب الأسد 482، 483، ريحانة بنت زيد رضي الله عنها 193،  
 ريشيليو 457، ريموند 496، رمون دي بليك 675، - رمون (رامون) لول 124، 495، رينان 136،  
 (النقيب) رينو 666، - رينار 17.

## ز

- زبيدة (أم أتاتورك) 852، زبيدة بيطاري 912، زربابل 295، - الزرقاني 95، (الرئيس) زروال اليمين  
 772، 778، 779، 783، 802، 803، 810، 814، 817، 824، 827، 911، الزهري 528، زفنجيل 474، -  
 زكوا عليه السلام 292، زكي لحيب محمود 842، زنيولت 666، زهاوي زادة جميل صدقي أفندي 1064،  
 زهرة بن كلاب 433، - زهور ونيسي 1030، زهية بن عروس 822، زويغر 116، 620، 635، زيد بن  
 ثابت 310، 311، زيد بن حارثة 147، 408، 411 - زينب بنت جحش 147، 193، 407-409، زينب  
 بنت جزيمة 193، زينو دو توسي الألفيسي 501، 502، زيوس 344، زيوس أمون 344، زيوس سارابيس  
 344.

## س

- سارايس 327، 338، 344، 345، 347، 355، سارة 317، 381، 429-431. - سالتيل 295. سنم  
 شاكر 726. سالوستر 734. - سالومة 375، سام 380، سان برنار 481. سانت موليكت 602، 606. -  
 (سان) سيربان 102، 471، 600، 606، 616، 617، سينسر 18. - سبينوزا 304، 323. (الاب) ستيف  
 627. ستيفان قرال 1136. - سرافقة بن جشمع 525، السادي 551، السعيد أبو يعلي 900. - التسعيد  
 رحال 727 سطلين 962، سعد دحلب 1023، 1024، 1030. سعيد بن العاص 311. سعيد بوليفسا  
 1121. سعيد خليل 906. - سعيد الخوري الشرتوي 1024، 1044، سعيد سعدي 736، 744، 749،  
 750، 772، 782، 787، 789، 790، 793، 800، 802، 807، 808، 817، 827، 906-911، 979،  
 982، 985، 988، 991، 992، 1025. سعيد قدورة 54. - سعيد عقل 1133، سعدي الصادق 699،  
 703، سقراط 425. - سكييو 326، سنفستر ستالون 918. سلامة موسى 126، 127، 128، 842،  
 844، 1049، 1054-1058، 1060، 1061، 1068، 1082، 1101. سلمان رشدي  
 909، 910، سليم قلالة 1132. - سليمان عليك السلام 193، 198، 222، 225، 295، 388، 391،  
 393، 395، 399، 400، 401، 403، 406، 409، 412، 416، 417، 430، 431، 514، 517، 584،  
 سليمان الخرايري 139، سليمان خاطر 1115. - سليمان عازم 726. - سليمان ثابت جودي 987،  
 سليم التومي 5. سلفيني 731، سنيوكس نيكاتور 145. - سمعان 292. - سمير بوغكوير 817. - سمية رحبي  
 الله عنها 165، السنوسي (محمد بن يوسف) 60. - سوارس 913، سوتار 137، سوطة بنت زمعة  
 193. سولون 587. - سيالة 327 سي بن رحال 1011، سجر دوبرايانت 497. - سيد أحمد غزالي  
 773، 774، 1034، 1114، سيف 339، سيف بن ذي يزن 213، سي عزيز بن الشيخ الحداد 746،  
 سيلدون ولور 1051، 1052.

## ش

شائينون 704، شارفوريات 630، شارل بلا 964، شارل 475/9، شارل جنبر 287،  
 شارلندوفوكو/جس، ذ، ز، س، 101، 110، 111، 133، 138، 635، 651، 671، 673-686، 690،  
 691، 694، 870، 903، 924، 954، 1065، 1077، 1085، 1099، 1105، 1109، 1117، شارل  
 ديكريم 749، 750، شارل رشار 639، شارل 13/10، 101 100، 478، 484. - شارل عمر بن  
 سعيد 602، 603، شارل كامليري 1136، شارللكان 617. - شاتر 617، شاندر جوتا 345. - شاهين  
 مكاريموس 483. - شاول (بولس) 249، 250، 251، 257، شبلي أفندي النعماني 504، شبلي  
 شهيل 126، 842، 843، 1050. - شاديانق 569. - شارلمان 198. - شريف معمري 1115.

( الرئيس ) الشاذلي بن جديد 737، 745، 749، 756، 760، 785، 785، 803، الشاذلي بن يحيى  
 1134، 1137، الشاذلي مكي 701، (الإمام) الشافعي 85، 167، 968، الشرفي (عبد الحميد) 154،  
 الشريف بن حبلس 69، الشريف محمد بن عبد الله 79، الشفاء العدوية 167، الشنفرة 1104،  
 الشيخ عثمان 655، شكبير 1074، شكيب أرسلان 74، 81، شكيم بن حمور الحموي 387،  
 شمس الدين العدواني الثاني 95، شمشون الرسول 412، 414، 469، 484، شمعون 295، شمعون بن  
 يعقوب 387، 388، شمسي 295 (الأبنا) شنودة 176، 914، شوطان 1013، 1032، 1034،  
 1079، 1082، شوقي أبو خليل 116 شوقي مصطفى 699، 703، 707، شيث 297، شيشرون  
 326.

## ش

- صادق 295، صالح بابكر 1015، صالح (باي) بن مصطفى 52، 54، 59، 69 - صالح  
 بن الساعي 895، صالح دنبري 781، صالح العابد 895، صايبي 727، 728، 731 الصادق (عباس) بن  
 حمزة 1011، الصادق هجرس 700، 706، الصديق بن عراب 67، الصديق دبايلي 809، عفية بنت  
 حبي رضي الله عنها 193، صلاح الدين (الأبوي) 482، صليحة الصغيرة 1104، صموئيل 469،  
 صوالح محمد ولد معمر 694، 1008، 1017، 1087، 1080، 1086، 1089، 1091، 1094، 1100.

## ط

- طاهر الدغماوي 76، طارق بن زياد 1112، 1149، 1150، طراد العنابي 45 - الطاهر بن جلون  
 992، الطاهر الزبيري 719، الطاهر فيقة 699، 703، 704، 706، الطبراني 114، 548، 551،  
 الطبري 1105، الطيب العقبي 881، 887، 901 - طلعت باشا 852، طه حسين 126، 1130، 1139،  
 1141 -، طهرات 1010، طيطس 286

## ع

- عائذ بن عمران 433، عائشة رضي الله عنها 167، 193، 411، 526، 528، 548، 948، 972،  
 عائشة بنت محمد 107 (شيخ الإسلام) عارف حكمت 19، 851 - العازار 295، 524، عازر  
 295، عازور 295، العاقب عبد المسيح 577 - عالي 295، عاموس 295، عباس بن ميداس 93،  
 عباس محمود العقاد 354، 357، 428، 542، 1054، عباسي مدني 772، 907 (السلطان) عبد الحميد  
 849-851، 853، 856، 859، 860، عبد الحميد الكاتب 542، عبد الحميد مهري 769، 772،  
 عبد الدار بن قصي 434 - عبد الرحمن الأخضر 44، 60، 93، 94، 97، عبد الرحمن السباز 1132،  
 1149 - عبد الرحمن بن الحارث بن هشام 311، عبد الرحمن البيلوي 56.

الطوطي 71، عبد الرحمن عمر الماحي /ع. - عبد الرحمان كيوان 1023، 1035. عبد الرحمن ميرة 805.  
- عبد الرزاق بن حمادوش /ا. ب. 94، 69. عبد رزيق المخادمي 1119. عبد العزيز بن  
عثمان 434. (السلطان) عبد العزيز 849. عبد العزيز بلخادم 1036. عبد العزيز بن  
المهاشمي 1014. (الربيعي) عبد العزيز بن تفلينة 1037، 1038، 1114 - عبد العزيز جساويش  
1053، 1066، 1078. عبد العزيز فهسي باشا 1058، 1059. عبد الفتاح التماصيل 959 -  
(الأمير) عبد القادر 18، 19، 20، 22، 53، 59، 65، 66، 67، 71، 83، 90، 91، 136، 153، 154،  
172، 486، 598، 599، 633، 763، 797، 799، 915، 1084. عبد القادر الباجوري 1014. عبد  
القادر بن الشريف الدرقاوي 39، 40، 70. عبد القادر بن عبد الله المشرقي 59. عبد القادر الجيلاني  
64، 65، 85. عبد القوي مكاوي 1104. عبد الكريم الفكون 93، 94، 97. عبد الكريم مطيع 708.  
عبد اللطيف بركات 36. عبد اللطيف رحمان 1032، 1033، 1034. عبد اللطيف سلطاني 715.  
(الباي) عبد الله 40. - عبد الله بن حميد الشرقي 73. عبد الله بن الزبير 311. عبد الله بن سلام  
579. - عبد الله بن عبد المطلب 431، 433، 434. عبد الله بن المقفع 964 - 966، 970. عبد  
الله بوكلب 46. عبد الله سيفيت 853. عبد الله شريط 1033، 1084. عبد المالك مرتاض 1118.  
(السلطان) عبد المجيد 19، 849. - عبد المجيد مزبجان 998. عبد المطلب 213، 216، 431.  
عبد مناف بن قصي 431. عبد الوهاب النجاشي 513. عتبة بن ربيعة 538. عثمان  
ببائي (وهران) 39. - عثمان بن الخويرث 213، 227. عثمان بن عبد الدار 434. عثمان  
(بن عفان) 168، 309، 311-313، 438، 440، 933، 937، 940، 941، 944، 945، 948، 949 -  
953، 955-958، 969-971. عثمان سعدي 704، 744، 775 - 779، 1020، 1033، 1110،  
1111، 1114، 1116. عدنان (جد النبي (ص)) 431. عدنان مندريس 858. العربي بن مهدي  
789. العربي التيسي 896، 901، 916. عرفان أروكا 854. عرفان عبد الحميد فتاح 117. عروج  
5، 827. عروة 528. عز الدين الزعلاني 181. عزيا 195. عزيز 573. عشورة 403. العصد الأبيي  
555. - عطائلية 759. عقبة (بن نافع) 814، 988. عساني بلحاج 757، 759، 768. - علي (بن  
أبي طالب) 114، 446، 462، 525، 935، 937، 939، 911، 943، 945، 950، 971. علي بن أحمد  
895. علي بن سعد 1014. علي ابن عباس الهادي 497. - علي بن محمد 785. علي ببائي  
696-698. علي رضا أفندي 852. علي سامي النشار 266. الشيخ عايش 72. (السدائي) علي  
شاونس 8. - علي فرحات 700. علي عبد الرزاق 798، 842، 845، 846، 930، 932، 934-936،  
941-943، 963. علي عبد الواحد والي 163. علي كافي 803. علي لعمش 696. علي مراد  
665، 683، 685. علي (أندري) مسلي 723، 811، 1120. علي يحيي عبد النور 716، 906.



عمر 89. عمران بن مخزوم 433. عمر اوصديق 696، 697، 700، 702، 710. - عمر بن الخطاب  
 146، 167، 173، 214، 215، 228، 307، 310، 311، 338، 439، 437، 438، 940، 941، 944.  
 949، 971. - عمر بن سعيد بن عثمان الغوني 92. عمر بن عائد 433. عمر فروخ 678. - عمرو  
 قندوز 899. - عمرو بن العاص 149، 189، 501، 504، 505. - عمر الوزان 93. عمار إيماش  
 695، 697، 779. عمار يوحوش 1118، 1119. عمار نسرون 691، 692، 1148. عمار ولد جمودة  
 696، 698، 700، 702، 710. (العقيد) عمرووش 726، 744، 780، 789، 1105. غير 295. غير  
 بن يهوذا 387. العياشي 42، 62، 93، 94، 95، 97، 98. - عيسى عليه السلام (المسيح، يسوع،  
 الكلمة، الابن) ج. 102، 118، 119، 137، 140، 147، 149، 150، 153، 158، 159، 161،  
 168، 169، 170، 172، 177، 178، 180، 204، 205، 217، 219، 230، 231، 244، 246-248،  
 251-256، 258، 259، 261-268، 270، 272، 274، 275، 278، 279-288، 290-305،  
 309، 315، 309، 319-324، 326-342، 347-351، 353، 358، 360-376، 377، 379، 388،  
 391، 393، 395، 405، 407، 416، 417، 420، 423، 424، 429-431، 433-435، 440، 442،  
 453، 455، 457، 458، 461، 463، 468، 470، 477، 478، 480، 487، 490، 508-516، 519،  
 520، 522-524، 528-531، 533، 545، 546، 549، 558، 577، 578، 584، 652، 664، 670،  
 685، 720، 835، 840، 846، 931، 935، 947، 996، 1045، 1047، 1061. - عيسى البطروى  
 44. عيسى السكتاني 58. عيسو 228، 383، 385، 388. (الطقنة) عيشوشة 627.

## غ

- غالب بن فهر 431. غالبيه 493، 506. (البابا) غريغوار 15، 125. - (البابا) غريغوري الكبير  
 838. غرينبرغ 1112. - الغزالي 64، 497، 498، 569، 570. غلام الله 771. غوينو 617. غوثسها  
 341. - غورباتشوف 985. غولا 1108. غولد سيهر 565.

## فا

- فؤاد زكريا 842. الفارابي 497، 498. فارس نمر 843. - فارص بن يهوذا 294، 388، 393، 394،  
 416، 430. - الفار قليط (البارقليط) 150، 151، 301، 357، 508-514، 520.  
 - الفاروس بيلاجيوس 424. فاستس 284. فاسكو دي غاما 123. - فاطمة (الزهراء) رضي الله عنها  
 590. فاطمة بنت عمر 433. (لالا) فاطمة نسومر 33، 67، 166، 168، 781، 797، 799. فالتين  
 348. (المارشال) فالي 135. - فاليري هولمان 914، 920، 924. فرانثيسكو خيمينيث دي ثيرون  
 14. فرانز لانون 754. فرانسوا غريغوار 493. - فرانسوا ميتيران 919، 985، 991. فرحات عبسان  
 894-898، 1010، 1148. فرحات مهنى 812. فرح أنطون 842، 843، فرديريك 482/1.

فريدريك «483»، 496. فريدريك لوران 730. فرناندو 14. الفروزديق 1054، فرعون 165، 325، 381، 393، 543، 1046. فرنطوس 1118. فرويد 256، 250. فنسو 339، 340. الفضيل الورتيلاني 708، 709، 1015. الفكون (عبد الكريم) 36، 41، 47. (البابا) فلنكس الخامس 458 - افلاطون 351، 587، 589، 1117. فلايشر 654. فلورس أنيسوس 1118 - افلوطين 348، 350 - 354. فنحاس بن العازار 466. - فهر بن مالك 431. فوط 380. فوفال 639. فولتير 1010. - فوليك 482. فونتسير دي بارادي/ب. 48، 623، 654، 690. - فيرديني 641، 1013، 1039. فيرو 53. فيكتور بيكي 689، 701، 864. فيكونت كوليفي 628. فيلاي مختار 1114. فيلمون 286. - فيليب أوغيست 482. فيور باخ 840.

## ق

- قابريال كاميس 1137. قاسم أمين 842. القاسم بن إبراهيم الزيدي 966. قاسم بن أم هانئ 41. قامبيط 633، 634. القرشاني 497. قريشو 717، 1080، 1101. (الأمبراطور) قسطنطين 120، 267، 268، 330، 331، 336، 410، 424، 449، 451، 452، 469، 472، 479، 529. قصي بنن 431، 434. قوسام 295. قبدون 613. - قيزو 135. قيس غيلان 687، 688. قيصر 846، 1046.

## ك

- كاتب ياسين/ج. 814، 824، 1081-1085، (الجنرال) كاتور 889-كازل فولرس 1049، 1053، 1054، 1065، 1066، 1078. - كارولونينو 513، كازانسالين 1139، (البابا) كاميل كالونا 14. - كانيجسر 248، 271، 276، 302، الكاهنة 775، 781، 1112، 1119، 1143، (الشيخ) كحول 696، كرشنة 339، 340، كروزا 625، 626، 627، (اللورد) كرومر 200، 843، كريستين دي بيزان 161. - كريم بلقاسم 716، 717، 720، 721، كسرى 213، 525، 549، 551، 1096 كسوس 692، كسيطة 1112، كعب بن لؤي 431، كلاب بن مرة 431، 433، كلافري 917، كلفان 474 (البابا) كلمنت 456/7. - (الجنرال) كلوزيل 25، 62، 104-108، 232، 485، 507، 603، 639، 769، 862، 875، 995، 1030، كلوس لوتروب 919. - كليمن 101، كمال أتاتورك 798، 928، 929، 933، 1122. - كموش 403، كنانة بن خزاعة 431، 432، كنعان 380، كوش 380. - كولان 101، 485، 862، كولوميس 122، كولي 644. - كولين 691، كوليفي 475، كوت 852.

## ل

لابان بن ناحور 386، لابلان 475، لاروس مونيكسس 617، لافارون 475، لافرتين 476،  
 لافيـجـري أ، ت، ذ، ز، س، 3، 77، 91، 101، 133، 138، 162، 219، 462، 486، 589، 598-  
 616، 618-621، 626-643، 646، 649-651، 653، 654، 656، 664، 665، 679-685، 690،  
 771، 863، 869، 953، 954، 956، 958، 974، 975، 997، 998، 1007، 1013، 1015، 1018،  
 1030، 1075، 1084، 1093، 1099، 1143، - لاكوسـت 725، 829، 1020-1024، 1030، 1035،  
 لامانس 568- لاوي 295، 387، 388، لوي بن غالب 431، لـيرـة بن عبد العزى 434، لطفـي  
 السيد 126، 844، لـعـزار 368، 524، 1045، 1046، - لوبان 1124، لوتر 128، لوتروب  
 ستودارت 74، 76، لوسيان بيتولين 820، لوسيان سان 680، لوسيانى 879، 1086، - لوط عليه  
 السلام 390 - 393، 416، 422، 430، 584، - لوفاشي / اب . لوفيو 106، 997، لوقـد 247، 251،  
 254، 267، 270، 271، 275 - 280، 283، 285، 290 - 294، 296 - 298، 300-303، 333،  
 355، 366، 430، 431، 434، 446، 468، 546، 1046، لوك 840، لوكيوس 276، (الحاج) لونيس  
 نايت علي عمر 625، 626، لويد جي سيرا 1137، لوزة حنون 811، 827، - لويس الأكبر 656،  
 لويس برتراند 605، لويس 9 (سان لويس) 101، 123، 124، 136، 483، 488، 633، لويس  
 478/18، لويس جان كالفي 991، 992، لويس 13/14، 110، 476، 479، لويس 481/7، لويس  
 13/16، لويس شيخو 657، لويس عوض 842، 844، لويس غردية 368، - لويس فيليب 100، 107،  
 484، 639، لويس ماسينيون 656، 657، 685، 690، 691، 693، 694، 698، 706-712، 735،  
 1039، 1049، 1065، 1077/ ليثة 386 - 389، لينتر 840، ليسنج 840، - ليش فالسا 985،  
 ليفهاك 674، ليكورغ 587، لينين 840، - لوبولد (دوق النمسا) 842، (المارشال) ليوطي 666،  
 691، - ليونال جوسبان 819، (البابا) ليون 13/644، ليون روش 80، 91، - (البابا) ليون 10/454،  
 ليون وراي 685.

## م

- مآت 259. ماتيو دي ليسبس 136. ماجلان 123. مارارويسير 1010. - ( الكولونيل ) مارتان 625.  
 ( الاستاذ ) مارتن 1010. مارتينا 551. مارثن لوثر كنغ 168، 456، 459، 474، 506، 963، 960.  
 ماردوشي ( حاييم، مردوخاي، أبي سرو، مردوخ ) 651، 656، 658-661. ماركس 840، 842،  
 1056. ماريا ميشل 918. ماري أوغستان 503. م. أريب 1015. مارية القبطية 193. ماري مونتاجو  
 500. مارينو 135. - المازني 542، مازيغ بن كنعان 1105، ماسينيسا 734، 1106، 1108-  
 - ماك كارتي 658، 659. ( المارشال ) ماكما هون 599، 605، 606، 626، 627، 639. ماكيا فيل  
 731. مالك بن لبي 43، 132، 657، 691-694، 705، 726، 735، 748، 885، 895-897، 1010.  
 1018. 1039. 1065. 1077. مالك بن النضر 431. مالك حداد 1085. 1101. المأمون 845.  
 مانيتون 344. ( العذراء ) مايا 342. ماكل ماكدونالد 1102. المبارك الميلي 748، 916. منات  
 295. متانا 295. متان 295. متى 119، 247، 262، 270-273، 277، 279، 280، 281، 283-285،  
 290، 292، 294، 296-298، 300-303، 375، 430، 431، 434، 445، 545، 546، 1046. متيا  
 295. متيا 295. مترا 355. المتبي 1072. مجيد امقران 808، 826. محسن العابد / خ. ص. محفوظ  
 قداش 1137.

- محمد ( صلى الله عليه و سلم ) خاتم النبيين ، رسول الله ، الرسول ، النبي صلى الله عليه و سلم ا. ر. س. ص. 19، 75، 84، 86، 87، 88، 89، 102، 113، 120، 122، 144، 147-151، 153-155، 157-169، 171، 173، 181، 189، 192، 193، 208، 209، 213-217، 219، 221، 222، 224-229، 231، 239، 291، 305، 313، 315، 322، 326، 356، 357، 372، 400، 405-412، 417، 419، 420، 423، 425، 427، 428-444، 446، 452، 462، 463، 468، 469، 477، 479، 481، 487، 490، 509، 521-535، 537-541، 544، 545، 547، 548، 553-555، 557-559، 581، 583، 591، 593، 595، 597، 628، 636، 637، 644، 687، 746، 797، 799، 845، 846، 854، 880، 905، 910، 931-941، 943-946، 948-951، 953-959، 966، 969-972، 974، 977، 978، 986، 988، 989، 1045، 1053، 1066، 1072، 1075، 1078، 1081، 1083، 1089، 1092، 1114، 1115، 1139، 1145، 1146 - محمد أبو راس العسكري 45، محمد أبو زهرة 303، 304، 922 - محمد أركون 737، 797، 852، 905، 925، 927-934، 936-946، 948-959، 961-975، 979، 988، 989، 997، 1007، 1094، 1115، محمد أسد 81، 82 - محمد إلياس 5. محمد الباقر 85، (الداي) محمد بقطاش 53، 37 محمد بن أبي شنب 1053، 1054، 1066، 1078، محمد بن الأحروش 40، 70، محمد بن إسماعيل 95، 62، محمد بن سليمان 44، محمد بن صيام 1012، محمد بن عبد الرحمن الجرجوري الزواوي الأزهوي 67، 880، محمد بن عبد الكريم الجزائري 1110، 1111، 1121. محمد بن عبد الكريم الفكون 94، محمد بن عبد الكريم المقيلي 65 - محمد بن عبد الله الجلالي 84، 85، محمد بن عبد الله السني 76 (الباي) محمد بن عثمان الفاتح 52، 59، محمد بن علي 34، محمد بن علي الخروبي 93، محمد بن علي السنوسي 59، 71، 73، 74، 75، 78-81، محمد بن علي عبد الرزاق 847 - محمد بن مصباح 34، محمد بن نعمون 36، 76، محمد بوضياف 716، 763، 769، 784، 803، 1034، 1143، محمد التجاني 90، 91، محمد الجلالي 52، محمد حوري 697، 700، 701، 710، 711، محمد حسين علي الصغير 118، محمد خيضر 699، 701، 719 - محمد رضا رشيد 163، 190، 199، 225، 935، محمد ساسي البوني 45 - محمد السعدي 56، محمد سعيد رمضان البوطي 411، محمد سليمان بوكراع 797 - محمد الشريف خروبي 738، محمد الشيف مساعدي 759، محمد شعبان 768 - محمد عابد الجابري 980، محمد العاصمي 879، 883، 884، محمد عبد الله دراز 568، محمد عبده 130، 131، (الداي) محمد عثمان باشا 12، محمد العربي الدرقاوي 39، 70، محمد العربي الزبيري 753، 761، محمد علي 79، محمد عمارة 845-847 - محمد تاغزالي 309، 310، 753، (السلطان) محمد الفاتح 11، محمد الفاسي 693، (الباي) محمد الفرير 56، محمد قبطان 12، محمد الصغير الأخضر 93.

محمد الطالبي 1137، محمد الطهارة 1109، محمد الكامل 1014، محمد كمال القلمي 1034، محمد  
 المصطفى الرماحي 59، 60، 95، محمد ولجاج 717، 720-723، محمد بن جلول 898، (السلطان)  
 محمود الثاني 8، محمد علي يحيى (رشيد) 697-699، 702، 710، 711، (الرائد) محمد مسعود (محمد  
 اعراب) 726-731، محي الدين 59، 65، مخزوم بن بقطعة 433، م، د الاديه 904، 916، مدني علمر  
 907، م. دين 768، (السلطان) مراد الخامس 849، مرة بن كعب 431، 433، مرقس 247، 249،  
 260، 267، 270، 271، 273-280، 283-285، 290، 298، 300-302، 319، 320، 371، 375،  
 546، مرقيون 348، مرمول 17-، مريم عليها السلام، العذراء 147، 152، 161، 291، 292، 297،  
 298، 334، 335، 338، 342، 355، 358، 366، 369، 419، 420، 424، 425، 429، 435، 450،  
 451، 470، 546، 633، 1046، مريم (أم يعقوب) 375، مريم المجدلية 301، 362، 375، 376،  
 مزدك 965، مسعود مداد 737، مسلم (بن الحجاج) 411، 432، -، مسيلمة الكذاب 166، 539،  
 مصالي الحجاج 695، 696، 698، 710، 779، -، مصراع 380، مصطفى إلياس 73، (انداي) مصطفى  
 باشا 21، 25، 28، 39، 40، -، مصطفى بن المختار 59، مصطفى بوهادف 804، 814، مصطفى بويعلبي  
 762، -، مصطفى خالدي 678، مصطفى صبري 856، مصطفى الغربي 65، -، مصطفى فتال 719،  
 مصطفى كاتب 1012، مصطفى كمال اتاتورك 848، 851، 853-857، 859، 861، مصطفى لشرف  
 1032، 1033، 1034، 1145، مصطفى محمود 190، مصعب بن عمير 166، مضر بن نزار 431،  
 معاذ 114، معاوية 939، 941، معد بن عدنان 431، 432، معطي بشير 754، 110، معطوب التونس  
 743، 749، 751، 801-805، 807، 810، 811، 813-816، 819-826، 1128، (الرئيس) معمر  
 القذافي 756، مفدي زكريا 822، 1118، -، مقدونيوس الأريوسي 332، مقران ايت العسري 987،  
 المقراني 67، 69، 628، 629، 746، 864، 865، 1001، 1007، (الاسقف) مكاريوم 984، -  
 ملكوم 403، ملكي 295، ملكي صادق 366، 367، 435، مليا 259، -، مناف بن زهرة  
 433، م. نابيلان 666، 888، منحوتب الثالث 314، -، منسي 295، (سيدي) منصور 56،  
 (الخليفة) المهدي 966، -، المهدي (السنوسي) 74-78، المهدي المنجرة 991، 992، 1147، مواب  
 390، 393، -، المودام 295، موريس بوران 737، موريس بيكاي 270، 276، 286، 293، 296،  
 301، 303، 559، موريس فيوليت 692، 893، 898، 904، 1148، -، موريس فيرو 709، -، موسى  
 عليه السلام 177، 205، 217، 219، 230، 253، 255، 257، 321، 325، 367، 382، 386-392،  
 393، 403، 425، 447، 464، 466، 467، 469، 514-520، 523، 524، 532، 533، 543، 544،  
 562، 582، 977، -، (القيب) موسى 717، موسى اغا امستان 652، 664، 673، 674، موسى بن  
 صالح 1112، موسى الدرقاوي 77، مولك 403، المولود بن الموهوب 69، مولود قاسم 22.

- مولود كعوان 727، 730. مولود معمري 736، 738، 809، 997، 1007، 1121. مونيكاً لوينسكي  
919. ميثرا 327. ميجاشيس 345. ميرانت 879. - ميسرة 562. ميسوم الصبيح 1023، 1035،  
1037. ميشال بونيا توفسكي 731. ميشال عفلق 851. ميشال عون 985، 985. مكرر . - ميشال  
لينون 685. ميشيل 460. ميشلين فلاي 1138. ميكائيل غولد 327. ميمونة بنت الحارث الهلالية 193.  
ميو 879.

## ن

- ناهليون 3/ 606، 626، 627، 632، 655، ننان 295، 396، 398. - ناحوم 295. ناصرالدين سعيدوني  
704. نافر 475. ( الغداء ) نانا 355. - نجاي 295. نزار بن معد 431. نسطور 450. نسيبة بنت كعب  
الانصارية 166. ( السيدة ) نفيسة 167. نثولا 812، 813. - نقيب الاشراف 22، 39. - نيزيوس  
351. النجاشي 211، 212. - النجاش 818. - النضر بن كنانة 431. - نوح عليه السلام 316،  
317، 379، 380، 422، 426، 427، 493، 665، 1105. - نورالدين بوكروح 807. - نومينيوس 351.  
( الجنرال ) نيجو 661، 673. - نيرون 553. نيري 295. نيفل بريور 1137. ( البايا ) نيقولاوس 453.  
- ( البايا ) نيقولاوس 2 / 455. ( المارشال ) نيل 606. نيوتن 555.

## هـ

- ( آمنة ) هاجر 217، 218، 382، 422، 423، 429، 431. ( سيدي ) الهادي 43.  
- هاروبوكراتيس 338. - هارون عليه السلام 392، 393. هارون الرشيد 844، 964، 966. هاشم بن  
عبد مناف 431، 432. الهاشمي لشريف 700، 828. هانوتو 126، 627. هايدو 17. - هتير 553. هذيل  
بن مدركة 1106. هرتزل 860. هرقل 120، 424، 470، 481، 551. هرموش رمضان 716. هنري  
بارت 654، 655، 656. هنري تيسي 820. - هنري 3 / 475. هنري 168، 474. هنري 2/ 836. هنري  
دوفيري 110. 654-656، 658، 659، 668، 678، 685. هنري ديشندال 737. هنري دي كامتري  
676. هنري 4 / 835. هنري ( الجنرال ) هنري لابرين 663-667، 673، 675، 685. هورات  
568. الطواري 731. ( الرئيس ) هواري بومدين 716، 717، 719، 720، 722، 726، 736، 749،  
989، 1022، 1030، 1032، 1035، 1037، 1134. هوبز 840. هوفلن 662. هولوكو 506. -  
هيرودوس 298، 342، 374، 1107. هيلانة 452-477.

## و

- واري 624، 625، ورقة بن نوفل 165، 562، ول ديورانت 256، 304، 375، 442، 462، وللم سبيتا  
1043، 1049، 1050، 1052، 1065. - وليام تندال 289، الوليد بن المغيرة 537، 538، 553. وليم  
ولكوكس 1050، 1051، 1064، 1065، ولي الدين يكون 842، وهب بن عبد مناف 433، وهرز  
213.

## ي

- (سيدنا) ياسر 165، يافث 380، الياقم 295، 296، يحي عليه السلام 530. - يحي آغا 10، يحي حمودي  
694، 696، اليسع 367، اليسع 524، يشوع 467. - يعقوب عليه السلام 228، 295، 379، 383،  
385-389، 393، 398، 412، 417، 454، 517، 544، 546، 549، 583. - يعقوب (أخ المسيح) 262،  
292، يعقوب (الإنجيلي) 269، 329، 446، 448، 450. - يعقوب البرادعي 451. يعقوب شبرنجر 161،  
يعقوب صروف 842، 843. - يفتاح 469، يكتيا 295، 296، يننا 295. - يهوذا 269، 292، 294، 295. -  
يهوذا الإسخريوطي 283، 301-303، 369، 443، 446. - يهوذا بن يعقوب 387، 388، 394، 416.  
يوآب 395، 398، 467، يوارس 296. - يوبا 2 / 734، 1109، 1117. يوتام 295. (البابا) يوجنيوس  
4 / 458. - يوحنا 119، 247، 261، 262، 269، 276، 280-283، 285، 290، 299، 300-303،  
319، 320، 323، 327، 348، 354، 363، 365، 429، 568، 510، 512، 513، 519. يوحنا (جد  
المسيح) 295. يوحنا الأكبر 267. - (البابا) يوحنا 457/23، 458. يوحنا الدمشقي 328، 337، 410،  
471. - يوحنا الزبيدي الصياد 281. يوحنا مارون 452. يوحنا مرقس 274. - يوحنا المعمدان 266،  
514، 519، 520، 523. يوحنا هرقانوس 265، 266. - يوري سيمونوف 16. يوربوم 295. يوستينوس  
354. - يوسف عليه السلام 295، 296، 386، 389، 390، 417، 421. - (الربّي) يوسف 659.  
يوسف الديرس الخوري 282. يوسف غضوب 1064. - يوسف القرضاوي 986. يوسف كرم 349،  
354، 474، 496-498، 1144. - يوسف النجار 291، 292، 296، 297، 342، 366، 416، 434، 584. -  
يوسف بن امون 404. يوسي 292. يوشيا 295، 296. يوغرطا 1106. - (البابا) يوليوس 2 / 4، يوليوس  
قيصر 502، 504. اليوناردو البيشي 195. يومينيوس 2 / 325. يوناداب بن شمعي 397. يونان 295،  
373، 546. - يونس عليه السلام 275، 373. - يونس بن قرة 555.



## فهرست المصادر والمراجع

### الكتب العربية

- آدم عبد الله الألوري ، الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا . ط 1 ، مصطفى البابي الحلبي ، مصر 1974 م .
- الإبراهيمي محمد الشير ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي جمع وترتيب أحمد طالب الإبراهيمي ط 1 . سن ، و ، ن ، ت . الجزائر ، 1978 م ، ج 1 ، 2 ، 3 ، 4 .
- ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، د ط ، دار العودة ، بيروت ، د ت .
- ابن خلكان أحمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، د ط ، دار مبادر ، دار الثقافة ، بيروت ، د ت ، ج 3 .
- ابن سينا أبو علي حسين ، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية . ط 2 ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1938 م .
- ابن عطاء الله السكندري ، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخته أبي الحسن الشاذلي ، ط الأخيرة ، مكتبة القاهرة ، 1979 م .
- ابن القيم الجوزي ، زاد المعاد في هدى خير العباد ، د ط ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د ت م 1 ، ج 1 ، 2 .
- ابن كثير إسماعيل ، تفسير القرآن الكريم العظيم ، د ط ، دار الفكر ، د م ن ، د ت ، ج 1 ، 3 ، 4 .
- ابن مريم محمد بن أحمد ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 م .
- ابن منظور جمال الدين ، لسان العرب ، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين ، د ط ، دار المعارف ، مصر ، د ت ، ج 1 .
- ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط 2 ، البابي الحلبي ، مصر . 1955 م ، 1 ، 2 .
- أبو الأعلى المودودي ، الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ، تعريب خليل أحمد الحامدي ، ط 4 دار القلم ، الكويت 1980 م .
- أبو الأعلى المودودي ، الإسلام والمدنية الحديثة ، ط 9 ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، 1987 م .
- أبو الأعلى المودودي ، الحجاب ، د ط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، د ت .

- أبو الأعلى المودودي، حركة تجديد النسل، د ط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1975م.
- أبو الأعلى المودودي، حقوق الزوجين دراسة نقدية لقانون الأحوال الشخصية، تعريب أحمد إدريس، د ط  
، ائدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1987 .
- أبو الأعلى المودودي، نحن و الحضارة الغربية، د ط، دار الفكر، د م ن، د ت.
- أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ط5، دار الشروق، جدة 1983م.
- أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، ط5، دار القلم،  
الكويت 1985م.
- أبو الحسن الندوي، ماذا يحسر العالم بانحطاط المسلمين، ط8، دار الكتاب العربي، بيروت، 1984م.
- أبو الحسن الندوي، وأذن في الناس بالحج، د ط، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1387هـ —
- أبو سالم العياشي، (رحلة العياشي المسماة) ماء الموائد، طبعة حجرية، دار الطباعة، قــــــــــــــــــــاس ،  
1316هـ - ج 1، 2.
- أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة،  
تونس، 1982م، ق 2.
- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط2، ش، و، ن، ت، الجزائر 1981م، ق 1.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1. ش، و، ن، ت. الجزائر 1981م ج 1.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 2، م، و، ك. الجزائر، 1985م، ج 2.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية 1900-1930م، ط3، ش، و، ن، ت، الجزائر، 1983م، ج 2.
- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ط 1، م، و، ك، الجزائر، 1992م، ج 1، ق 1.
- أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط1، دار المغرب الإسلامي،  
بيروت، 1986م.
- أبو الولاء الغنيمي، ابن عطاء الله السكندري وتصوله، ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1969م.
- أبو الولاء الغنيمي التتزازي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، ط3، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة،  
1988م.
- أحمد بابا الشبكي، نيل الابتهاج بنظر الدهاج. ط 1 كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا . 1989.
- إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس وعهد الأمان تحقيق لجنة من كبار كتابسة الدولة للشؤون  
التحالفــــــــــــــــــــة و الأخبار. د. ط كتابة الدولة للشؤون الثقافية و الأخبار. تونس. 1963م. ج 2 .

- (الرئيس) أحمد بن بللة، الرئيس أحمد بن بللة يقول ( الخطب ..... التي ألقيت بين 28 سبتمبر و16 يناير 1963 م ) المطبعة العامة لمشورات الحزب، الجزائر، د.ت.
- أحمد بن نعمان، التعريب بين المبدأ والتطبيق ( في الجزائر والعالم العربي ) د ط، ش. و. ن. ت. الجزائر 1981 م .
- أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر ( الخلفيات ، الأهداف ، الوسائل ، البدائل ) د ط. مطبعة دحلب، الجزائر، 1991 م.
- أحمد التجاني الشنقيطي، الفتوحات الرومانية في الطريقة الأحمديّة التجانية د ط. دار الكتاب المغرب د.ت.
- أحمد توفيق المدني، جغرافية القطر الجزائري، ط 1. مطبعة الشريف، تونس 1948.
- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ( 1492 - 1772 ). د ط، ش. و. ن. ت. الجزائر، د.ت .
- أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر ط2 دار الكتاب البلدية 1963 م.
- أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر ( 1766 - 177 م ) د ط . م. و. ل. الجزائر 1986 م.
- أحمد حجازي السقا، تعليق على شفاء الغليل في بيان ما وقع في الثورة و الإنجيل من التبديل للحوييني. ط1 مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1978 م.
- أحمد حجازي السقا، مقدمة المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان بين الشيخ ديدات والقسيس سوجارت د ط. مكتبة زهران، القاهرة 1989 م .
- أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية دراسة وتاريخ ، دار العلم للملايين بيروت . 1958 م .
- أحمد ديدات، ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم. د ط ، دار الهدى عين مليلة الجزائر. د.ت .
- أحمد ديدات، المسلم في الصلاة ، مقارنة بين صلاة المسلمين وصلاة أهل الكتاب ترجمة علي عثمان د ط. دار الهدى عين مليلة الجزائر 1991 م .
- أحمد ديدات، المسيح في الإسلام ترجمة وتعليق محمد مختار . د ط. دار الهدى عين مليلة الجزائر 1991 م .
- أحمد ديدات، مناظرة القسيس سوجارت بعنوان المناظرة الحديثة في علم مقارنة الأديان ، جمع وترتيب أحمد حجازي السقا ، تقديم محمد الغزالي مكتبة زهران القاهرة 1988 م.
- أحمد ديدات، هل المسيح هو الله وجواب الإنجيل عن ذلك ترجمة محمد مختار ط1 . دار الهدى عين مليلة الجزائر 1991 م .

- أحمد الشريف الزهار (نقيب الأشراف)، مذكرات ، تحقيق أحمد توفيق السيدني ط2 . ش . و . ن . ت . الجزائر 1980 م .
- أحمد محمد سليمان، القرآن والعلم . ط . 5 . دار العودة بيروت 1981 م .
- إدريس الحضر وآخرون، الجغرافيا د ط . الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية وزارة التربية الوطنية الجزائرية 1991 م .
- إدوارد جيون، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ترجمة محمد علي أبو درة . د ط . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر . بيروت 1969 م . ج 2 .
- إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية ترجمة كمال أبو ديب ط 1 . دار الآداب بيروت 1997 م .
- أدولف هتلمر، كفاحي، دم . د ط . دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت . د ت .
- (الحبر الأعظم)، اسرائيل بين شونيل الأوروثليمي ، الرسالة السبعية بإبطال الديانة اليهودية تقديم وتعليق عبد الوهاب طويلة ط 1 . دار القلم بيروت . 1989 م .
- إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين . د ط ، وكالة المعارف، إستانبول 1955م، ج 2 .
- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، د ط ، م . و . ك . الجزائر، 1983م .
- أ. ل . شاتليه ، الفارة على العالم الإسلامي، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد الياسفي، ط 3 ، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1980 م .
- ألفرد بال، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، د ط ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي 1969 م .
- أليكسي جورافسكي ، الإسلام والمعرفة، ترجمة خلف محمد الجراد، مراجعة وتقديم محمود هدي زقزوق . (سلسلة عالم المعرفة 215) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت نوفمبر 1996 م .
- أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، ط 2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة . 1968 م .
- أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب مزالي سلامة، الدار التونسية للنشر تونس 1969 م .
- أنور الجندي، التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة، د ط ، دار الأنصار . القاهرة د ت .
- أنور عبد الملك، الفكر العربي في معركة النهضة، ترجمة وإعداد بدر الدين عردوكسي ، ط 3، دار الآداب، بيروت . 1981 م .
- أنيس لويحة ، في اللغة وبعض مشكلاتها ، ط 1، دار النهار للنشر . بيروت 1986 م .

- أنيس فريجة ، محاضرات في الملهجات وأسلوب دراستها. ط 1، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، مطبعة الرسالة القاهرة 1955م.
- أنيس فريجة ، معجم الألفاظ العامية، د ط ، مكتبة لبنان بيروت 1973م.
- باروخ سينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ترجمة وتقديم حسن حنفي، ط2، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت 1981م.
- الباقلافي أبو بكر، إعجاز القرآن (المطبوع في أسفل الإتيقان للسيوطي)، د ط ، دار المعرفة، بيروت، د ت ، ج 1.
- برتدرااند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1957م.
- برتدرااند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية (الفلسفة الحديثة) ترجمة محمد فتحي الشيطي، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1977 م.
- برهان غليون، نقد السياسة، الدين والدولة، ط 1. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1991 م .
- بسام العسلي ، الله أكبر وانطلقت ثورة الجزائر، ط 2 . دار النفايس، بيروت، 1986 م .
- بسام العسلي ، محمد المقراني وثورة 1871 م الجزائرية، ط2 دار النفايس، بيروت 1986 م.
- بشير التركي، لله العلم، ط 1 ، د ، د ، د ، تونس 1979 م .
- بطرس البستاني، دائرة المعارف، د ط، دار المعرفة، بيروت. د ت م 10 .
- بلقاسم الحناشي ، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 19 تقديم عبد الجليل التميمي. د ط. مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والثوثيق والمعلومات. زغوان . تونس 1989.
- بن يوسف بن خدة ، نهاية حرب التحرير في الجزائر . اتفاقيات ايفيان، تعريب لحسن زغدار وكحل العين جمالي بمراجعة عبد الحكيم بن الشيخ الحسين، د ط . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1987 م ..
- التهانوي المولوي محمد بن علي، كشاف اصطلاحات الفنون د ط. مطبعة خياط، بيروت، د ت ج 4 ، 5.
- الجرجاني علي بن محمد، التعريفات. د ط . الدار التونسية للنشر ، تونس 1971 .
- جرمانوس فرحات، كتاب بحث المطالب في علم العربية ط11، مطبعة المرسلين ، اليسوعيين، بيروت. 1913 م .
- جمال الدين بوقلي حسن، الإمام بن يوسف السنوسي وعلم التوحيد، د ط ، م ، و، ك الجزائر 1985م.
- جمال صليبا، المعجم الفلسفي، ط 1، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، 1971م، ج 1، 1973م، ج 2 .

- جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة أليف من العلماء بإشراف لجنة مؤلفة من إبراهيم بيومي مذكور، ولططين زريق ومحمد مصطفى زيادة ومحمد مرسي أحمد، ط، دار المعارف، مصر، 1970م، ج4، 1971م، ج5 .
- جون لوك، في الحكم المدني، ترجمة وتقديم ماجد فخري، ط، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت 1959م .
- الجويني إمام الحرمين عبد الملك، شفاء الغليل في بيان ما وقع في الثورة والإنجيل من التبديل، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد حجازي السقا، ط1، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة 1978م .
- (الشيخ) الحداد، وصايا الشيخ الحداد ومذكرات ابنه سي عزيز ترجمة يحيى بوعزيز، ط، م، و، ك الجزائر 1989م .
- حسن سليمان، الشباب المسلم والحضارة الغربية، ط1، دار الشروق جدة، 1985م .
- حسن حنفي ومحمد عابد الجابري، حوار المشرق والمغرب تقديم جنول فيصل، ط1، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب 1990م .
- حمدان بن عثمان الخوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العسري الزبيدي، ط2، ش، و، ن، ت الجزائر 1982م .
- خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830-1871م) ط1، مطبعة دحلب الجزائر 1992م .
- رابح توكي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ط. ش. و. ن. الجزائر 1395 هـ - 1975 م .
- رابح توكي، الشيخ عبد الحميد بن باديس راند الإصلاح والتربية في الجزائر، ط3. ش. و. ن. ت الجزائر 1985 م
- رؤوف شلبي، آلهة في الأسواق (دراسة في النحل والأهواء القديمة في الشرق) ط3. الدار الإسلامية للطباعة والنشر. المنصورة. مصر 1984 م .
- رحمة الله خليل الرحمن الهندي، إظهار الحق . ط1 مكتبة الثقافة الدينية القاهرة 1986 م . ج1. 2.
- رشدي محمد عليان قحطان عبد الرحمن الدوري، أصول الدين الإسلامي. ط4. وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة بغداد 1990 م .
- رليق بك العظم، كتاب أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة ط6 دار الرائد العربي بيروت 1983 م. ج3.

- رودي بارث، الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ترجمة مصطفى ماهر د ط. القاهرة 1967.
- الزركلي خير الدين، الإعلام. ط2 م 4 . 7 .
- زكي شنودة ، موسوعة تاريخ الأقباط ط2 مطابع البلاغ القاهرة 1968 م. ج 1 .
- زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ترجمة وتحقيق وتعليق فؤاد حسين علي د ط . مكتبة رحاب الجزائر 1986 م.
- زينات بيطار، الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي ( سلسلة عالم المعرفة 157 ) د ط المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت 1992 م .
- ساذرن، نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة علي فهمي حشيم و صلاح الدين حسني . د ط مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا ، 1975 م .
- السيد سابق، العقائد الإسلامية، ط3 . مطبعة حسان، القاهرة . 1976 م .
- السيد سابق، فقه السنة . د ط . دار الكتاب العربي . د ت . بيروت . م 1 .
- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، د ط دار المعرفة . بيروت . د ت ج 1 .
- سعد الدين السيد صالح، إحدروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام . د ط . مكتبة رحاب الجزائر . 1990 م .
- سعيد الخوري الشرتوني حاشية على كتاب بحث المطالب ( مطبوع مع كتاب بحث الطالب ) ط 11، مطبعة لرسلين اليسوعيين . بيروت 1913 م .
- سفر الحوالي ، وباء العلمانية و هل له مبرر في العالم الإسلامي، ط 1 . دار ابن تيمية البليدة، الجزائر 1409 هـ .
- سلامة موسى، البلاغة العصرية و اللغة العربية، ط2 . المطبعة العصرية، الفجالة. مصر 1953 م .
- سلامة موسى، هاهي النهضة و مختارات أخرى، تقديم مصطفى ماضي، ط2 . موفم للنشر، الجزائر . 1990 م .
- سلامة موسى، هؤلاء علموني ، ( سلسلة اقرأ، ع 349 ) د ط. دار المعارف، مصر . 1972 م .
- سيجموند فرويد، النبي موسى و رسالة التوحيد، ترجمة و دراسة عبد المنعم الحفني . ط 1 . دار الرشاد . القاهرة 1991 م .
- سي حفتر بورقعة ، شاهد على اغتيال الثورة، ط 1 . دار الحكمة ، الجزائر 1990 .

- سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام. ط 5 دار الشروق. بيروت. القاهرة 1978 م .
- سيد قطب، في ظلال القرآن ، ط 12 . دار الشروق ، القاهرة ، 1986 م ، 1، 5 .
- الشعراي عبد الوهاب، الطبقات الكبرى ، د ط . مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، د ت . ج 1 .
- الشهر ستاق، المثل و النحل، تحقيق محمد سيد كيلاي، ط 2 . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت، 1975 م . ج 1 .
- شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي . د ط . الباني الحلبي، القاهرة، 1352 هـ . م 1، 2 .
- شكيب أرسلان، لماذا تقدم المسلمون و لماذا تأخر غيرهم، د ط . مكتبة رحاب الجزائر 1989 م
- شوقي أبو خليل، آراء يهدمها الإسلام، ط 2 . دار الفكر دمشق . 1980 م .
- شوقي أبو خليل، لبح الأندلس بقيادة طارق بن زياد . ط 3 . دار الفكر . دمشق . 1980 م .
- صوالح محمد ولد معمور، التدريس المتوسط لحوارد المتوسط في استعمال العربية الجزائرية عند مسلمين الجزائرية . ط 2 مطبعة كاربونيل، الجزائر 1923 م .
- ضابط شرطي سابق، الرجل الضم .
- المهدي البوعبدلي، مرآة الإسلام ( المجموعة الكاملة، إسلاميات ) د ط . دار الكتاب اللبناني و مكتبة المدرسة، بيروت . 1982 م .
- طه الدسوقي، نظرية النبوة في الإسلام، د ط . دار الهدى للطباعة، القاهرة 1981 م .
- عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطي )، القرآن و قضايا الإنسان . ط 3 . دار العلم للنلايين . بيروت . 1978 م .
- عادل تويهض، معجم أعلام الجزائر، ط 2 . مؤسسة تويهض الثقافية . بيروت . 1980 .
- عبد الباقي رمضون، خطر التبرج و الاحتياط، ط 1 . مؤسسة الرسالة . بيروت . 1974 م
- عبد الجليل التميمي، بحوث و وثائق في التاريخ المغربي ( 1816 - 1871 م ) . الدار التونسية للنشر، تونس . 1972 م .
- عبد الجليل التميمي ، بحوث و وثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر و تونس و ليبيا 1816 - 1871 م ط 2 مركز الدراسات و البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني . زغوان، تونس . 1985 م .
- عبد الحليم محمود، الغزو الفكري و أثره في المجتمع الإسلامي المعاصر . ط 1 . دار البحوث العلمية . الكويت . 1979 م .



- (السلطان) عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم محمد حرب عبد الحميد . د ط . دار الأنصار ، القاهرة . 1978 م .
- عبد الحميد جيدة، الأسئلة و الحداثة في تكوين الفكر العربي النقدي الحديث . د ط . دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع . طرابلس . لبنان . 1985 م .
- عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ط3. وكالة المطبوعات . الكويت . دار القلم . بيروت . 1979 م .
- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ط1 المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت 1984 جـ 1 .
- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط1 . الطبعة العربية، الجزائر، 1955 م جـ 2 .
- الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل، ط1 . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1992 م .
- عبد الرزاق بن حمادوش، رحلة ابن حمادوش المسماة " لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال " تحقيق أبي القاسم سعد الله . د ط . ش.و.ن.ت. الجزائر، 1983 م .
- عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمن المتعالي والتصوف، ط1، ش.و.ن.ت. الجزائر، 1978 م .
- عبد الرزاق قسوم، مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر، تأملات في المنطلق و المصعب، ط1 دار عالم الكتب للطباعة والنشر و التوزيع . الرياض ، 1997 م .
- عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ط6 . مؤسسة الرسالة، بيروت . 1985 م . جـ 1 .
- عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية . تحقيق أبي القاسم سعد الله . ط1 دار الغرب الإسلامي . بيروت . 1987 م .
- عبد الكريم مطيع، عرب و بربر : مؤامرة لتنصير المغرب و احتلاله . سلسلة نحو بدائل إسلامية نشر الشبيبة الإسلامية المغربية .
- عبد اللطيف بن علي السلطاني، المزدكية هي أصل الاشتراكية، ط1 . دار الكتاب . الدار البيضاء . المغرب 1974 م .
- عبد الله الأمين، دراسات في الفرق و المذاهب القديمة المعاصرة، ط2 . دار الحقيقة بيروت . 1991 م .
- عبد الله بن المقفع، كلية و دمنة، د ط . دار مكتبة الحياة . بيروت . 1972 م .
- عبد الله حمادي، الحركة الطلابية الجزائرية 1871م - 1962 م (مشارب ثقافية و إيديولوجية) ط1 . الرابطة الوطنية للطلبة الجزائريين . الجزائر . 1994 م .

- عبد الله ركيبي: الفرانكفونية مشرقا و مغربا، د ط. شركة دار الأمة للطباعة والترجمة و النشر و التوزيع، الجزائر 1993 م .
- عبد الله عبد الرزاق قسوم، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، د ط. مكتبة مديولي . القاهرة 1989 م .
- عبد المنعم الحفني، المعجم الفلسفي، ط 1 . دار ابن زيدون . بيروت . مكتبة مديولي القاهرة . 1992 م .
- عبد المنعم الحفني، موسوعة فلاسفة و متصوفة اليهودية . د ط . مكتبة مديولي القاهرة . د ت .
- عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية . ط 1 . دار ابن زيدون . مكتبة مديولي . القاهرة . د ت .
- عبد الوهاب خلافت، علم أصول الفقه، ط 8 . دار القلم . د.م.ن . د ت .
- عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء . ط 3 مكتبة القدسي . مكتبة النهضة العربية . د.م.ن . د ت
- عثمان سعدي، الأمازيغ " البربر " عرب عاربة و عروبة الشمال الإفريقي عبر التاريخ ، د ط، د.ن، د.م.ن . 1996 م .
- عثمان سعدي، العرب في الجزائر . كفاح شعب ضد الهيمنة الفرانكفونية . د ط، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع . الجزائر . 1993 م .
- عرفان عبد المجيد فتاح، دراسات في الفكر العربي الإسلامي . ط 1 . دار الجيل، بيروت . 1991 م .
- عروس الزبير، الدين و السياسة في الجزائر، انفاضة أكتوبر 1988 نموذج . الدين في المجتمع العربي، ط 1 مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . 1990 م .
- عطاء الله دهينة وآخرون، الجزائر في التاريخ ( العهد الإسلامي ) د ط. م و ك . الجزائر . 1985 م .
- العقاد عباس محمود، الإسلام في القرن العشرين حاضرة و مستقبله . ط 2 . دار الكتاب العربي . بيروت . 1969 م .
- العقاد عباس محمود، المجموعة الكاملة، الإسلاميات (1) . م 5 " حقائق الإسلام و أبنائهم خصومه " و " التفكير فريضة إسلامية " . ط 1 . دار الكتاب اللبناني . بيروت 1974 م .
- العقاد عباس محمود، المجموعة الكاملة الإسلاميات (2) . م 6 " الإسلام دعوة عالمية " ط 1 دار الكتاب اللبناني . بيروت 1974 م .
- العقاد عباس محمود، المجموعة الكاملة الإسلاميات (3) . م 7 " مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية " ط 1 . دار الكتاب اللبناني . بيروت . 1974 م .
- العقاد عباس محمود، المجموعة الكاملة، الإسلاميات (4) . م 8 " المرأة في القرآن " و الإسلام و الحضارة الإسلامية " ط 1 . دار الكتاب اللبناني . بيروت . 1975 م .

- العقاد عباس محمود، المجموعة الكاملة... الفلسفة الإسلامية م 9. " الله " ط 1. دار الكتاب اللبناني بيروت 1978 م.
- العقاد عباس محمود، المجموعة الكاملة، العقائد و المذاهب. م 11. " حياة المسيح " . ط 1 دار الكتنب اللبناني، بيروت 1978 م.
- علال الفاسي، حديث عن التبشير و بعض الوثنيات الطائفية الهندية، سلسلة الجهاد الأكبر، الرباط . 1974 م.
- علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، ط 6. دار المثلث العربي، القاهرة 1982 م.
- علي سالم عمار، أبو الحسن الشاذلي . ط 1. دار التأليف - مصر . 1951 م.
- علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . ط 8. دار المعارف . مصر 1981 م ج 1.
- علي عبد الرازق، الإسلام و أصول الحكم، د ط . موقع للنشر، الجزائر. 1988 م.
- علي عبد الفتاح المغربي، الفرق الكلامية الإسلامية . ط 1 . مكتبة وهبة . القاهرة . 1986 م.
- علي عبد الواحد وافي، الأسرة و المجتمع . ط 6 مكتبة هضة مصر . القاهرة . 1966 م.
- علي عبد الواحد وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام . ط 1 . مكتبة هضة مصر القاهرة . 1964 م.
- علي مراد، شارل دي فوكو في نظر الإسلام . ترجمة علي مقلد . د ط . المطبعة البولسية . جوانية 1980 م.
- عمر فروخ، تجديد في المسلمين لا في الإسلام . ط 1 . دار الكتاب العربي . بيروت . 1981 م.
- عمر محمد الحزبي ، التبشير و علاقته باستعمار البلاد التونسية ( 1830 - 1881 م ) الكلية الزيتونية للشرعية و أصول الدين ( رسالة جامعية غير منشورة ) .
- عمار طالبي، ابن باديس حياته و آثاره . ط 2 . دار المغرب الإسلامي . بيروت . 1983 م ج 1، 3 .
- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين . ط 1 . دار الفكر . دم ن . 1975 م . م 1 - ج 3 .
- فؤاد زكريا، اسبينوزا . ط 2 . دار التنوير للطباعة و النشر . بيروت . 1981 م .
- فؤاد محمد شبل، الفكر السياسي دراسات مقارنة للمذاهب السياسية و الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1974 م . ج 1 .
- فاليري هولمان، المداخل النصرانية للمرأة المسلمة و أسرها (التصوير خطة لغزو العالم الإسلامي )، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين آيري بولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية

سنة 1978 م و نشرته دار MARC للنشر بعنوان THE GOSPEL AND ISLAM A 1978 COMPENDIUM

- فرانسوا بورغناد، مساهمة فرطاجنة بمبادئ بين مفاتيح و فاجن و راهيب نصراني . ترجمة فرانسوا بورغناد ( المؤلف ) و سليمان الحريري . المطبعة حجرية . تونس . 1850 م . ج 1 ، 2 .
- فرانسوا غريغوار، المشكلات الميتافيزيقية الكبرى، ترجمة فناد رضا د ط . مكتبة الحياة . بيروت . د ت .
- فرج محمد فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و 19 . د ط . م و ك . الجزائر . 1971 م .
- فرحات عباس، ليل الاستعمار ترجمة أبو بكر رحال الرباط . د ت .
- الفضيل الورتيلاني، الجزائر الثائرة، د ط . دار الهدى . عين مليلة . الجزائر . 1992 م .
- أفلوطين، اتساعية الرابعة لأفلوطين في النفس . دراسة و ترجمة فؤاد زكريا مراجعة محمد سليم سالم . د ط . دار الثقافة المصرية . الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون و الآداب و العلوم الاجتماعية القاهرة . 1970 م .
- الكتاب المقدس، ( العهد القديم و العهد الجديد ) جمعيات الكتاب المقدس المتحدة جامعة كامبرج . بريطانيا 1971 م .
- الكتاني محمد، فهرس الفهارس . د ط . المطبعة الجديدة . الطابغة ، المغرب . 1347 هـ ج 2 .
- كيرلس الطوني، عصر الجامع، ط 1 . المطبعة التجارية الحديثة . السكاكيني . 1962 م .
- لجنة التاريخ القبلي، تاريخ الأمة القبطية ط 2 . المطبعة الحديثة القاهرة . 1932 م . ج 2 .
- لجنة من العلماء و الأكاديميين السوفياتيين بإشراف م . روزنتال و ب . يودين الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم . ط 4 . دار الطليعة . بيروت 1981 م .
- لواء أحمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس و تطورات هامة في المسيحية . ط 1 . مكتبة وهبة . القاهرة . 1987 م .
- لوثروب ستودارت، حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عادل هو نويهض . تعليق و إضافات شكيب أرسلان . ط عيسى البابي الحلبي . القاهرة . 1352 هـ م 1 ، 2 .
- لويس غردية ج . قنواي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام و المسيحية . ترجمة صبحي الصالح و فريد جبو، ط 2 . دار العلم للملايين . بيروت . 1979 م . ج 2 .
- لويس معروف و آخرون، المنجد في اللغة و الأعلام . ط 26 . دار المشرق . بيروت . 1986 م .
- مالك بن نبي، شروط النهضة . ترجمة عمر كامل مسقاوي و عبد الصبور شاهي، ط 3 . دار الفكر . بيروت . 1969 م .

- مالك بن نبي، المظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، د ط . دار الفكر . بيروت . د ت .
- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، الطفل . ترجمة مروان القنواحي، ط 1 . دار الفكر . بيروت . 1969 م .
- مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن الطالب . ط 1 . دار الفكر . بيروت . 1970 م .
- مبارك الميلي، رسالة الشرك و مظاهره . ط 3 . دار البعث . فسنطينة . 1982 م .
- م ب تشارلزوت ، الإمبراطورية الرومانية . ترجمة رمزي عبده جرجس . مراجعة محمد عفر خفاجة . د ط  
دار الفكر العربي . بيروت 1961 م .
- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي . د ط . الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية . القاهرة . 1983 م .
- مجمع اللغة العربية ومركز تبادل القيم الثقافية بالقاهرة واليونيسكو، معجم العلوم الاجتماعية د ط  
الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . 1975 م .
- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد و تاريخ المذاهب الفقهية . د ط دار الفكر  
العربي . القاهرة . د ت .
- محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع . د ط . دار الفكر العربي . القاهرة . 1961 م .
- محمد أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي . العقوبة . د ط . دار الفكر العربي . القاهرة .  
1365 هـ / 1946 م .
- محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية . ط 3 . دار الفكر العربي القاهرة . 1966 م .
- محمد أبو زهرة، مقارنات الأديان، الديانات القديمة . د ط . دار الفكر العربي . القاهرة . د ت .
- محمد أركون، تاريخية الفكر الإسلامي . ط 1 ترجمة هاشم صالح . مركز الإنماء العربي بيروت 1886 م  
- محمد أركون، العلمانية .
- محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد و اجتهاد، ترجمة و تعليق هاشم صالح ، ط 1 . دار الساقى لندن .  
1990 م .
- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة عمر لروخ . ط 8 . دار العلم للملايين . بيروت . 1974 م
- محمد أسد، الطريق إلى الإسلام . ترجمة عفيف البعلبكي . ط 6 . دار العلم للملايين . بيروت 1980 م .
- محمد الأنور حامد عيسى، قضايا عقدية . ط 1 . شركة الصفا للطباعة و النشر، القاهرة . 1988 م .
- محمد الأنور حامد عيسى و أحمد أحمد أبو السعادات، في رياض العقيدة الإسلامية د ط . دار التوفيقية  
للطبعة . الأزهر . القاهرة د ت .

- محمد باقر الصدر، اقتصادنا د. ط. دار الكتاب اللبناني . بيروت . دار الكتاب المصري . القاهرة . 1977 م .
- محمد بحر عبد المجيد، اليهودية . د ط . مكتبة سعيد رافت . القاهرة . 1978 م .
- محمد بن الأمير عبد القادر، ثقافة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، شرح و تعليق ممدوح حقي . ط 2 . دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر . بيروت . 1964 م . ج 2 .
- محمد بت الحبيب الدرقاوي، ديوان بهية المرينيين الناشرين و ثقافة السالكين العارفين د ط . د . د . ن . المغرب . 1368 هـ .
- محمد بن عبد الكريم، الثقافة و مآسي رجالها، د ط . شركة الدهاب، الجزائر . د ت .
- محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأشقياء و أجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية . د ط . ش . و . ن . ت . الجزائر . 1974 م .
- محمد بن عبد الله التجاني، الفتح الرباني فيما يحتاج إليه المرشد التجاني . د ط . دار الكتاب . المغرب . د . ت .
- محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . ط 1 . دار الكتاب العربي . بيروت 1349 هـ ، ج 1 .
- محمد بن محمد المراكشي، الجبل المتين على نظم المرشد المعين على الضروري من علوم الدين في مذاهب الإمام مالك . د ط . د . د . ن . د . م . ن . 1343 هـ .
- محمد بن ميمون، التحفة المرضية . تقديم محمد بن عبد الكريم . ط 2 . ش . و . ن . ت . الجزائر 1981 م .
- محمد بن يوسف السنوسي، شرح السنوسية الكبرى . المسمى عمدة أهل التوفيق و التسديد تحقيق عبد الفتاح عبد الله بركة . ط 1 . دار القلم . الكويت . 1982 م . ك . .
- محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث و صلاته بالاستعمار الغربي . ط 11 . مكتبة وهبة . القاهرة . 1985 م .
- محمد بوضياف، الجزائر إلى أين ؟ ترجمة محمد بن زعينة و يحيى الزعودي مراجعة جمال الدين صالح . د ط . مجموعة " حواركم " للصحافة و النشر و الإشهار الجزائر 1992 م .
- محمد حرزي، جبهة التحرير الوطني الأسطورة و الواقع . ترجمة كميل قيصر داغر . ط 1 مؤسسة الأبحاث العربية ش . م ، م دار الكلمة للنشر ش . م ، م بيروت 1983 م .
- محمد حسين علي الصغير، المستشرقون و الدراسات القرآنية . ط 2 . المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع . بيروت . 1986 م .

- محمد حسين هيكل، حياة محمد . ط 13 . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . 1968 م .
- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد التتويي والخلافة الراشدة . ط 5 . دار النضال . بيروت . 1985 م .
- محمد دريدار، مقدمة في الاقتصاد السياسي د ط المكتب المصري الحديث الإسكندرية 1972 م .
- محمد رجب شتيوي، انجماع المسيحية وأثرها في النصرانية . د ط . مطبعة التقدم القاهرة . 1987 م .
- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار . ط 2 . دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت . 1973 م 1، 2، 3، 4، 5 .
- محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، د ط، دار الثقافة، الجزائر، د ت .
- محمد السعدي، حول موثولية الأناجيل . ط 1 . منشورات رسالة الجهاد . طرابلس . ليبيا . 1985 م .
- محمد سعيد رمضان البوطي، العقيدة الإسلامية و الفكر المعاصر . د ط . مطبعة خالدة بن الوليد دمشق . 1988 م .
- محمد سعيد رمضان البوطي، على طريق العودة إلى الإسلام رسم لناهج و حل لمشكلات ط 2 . مؤسسة رسالة . بيروت . مكتبة الفارابي . دمشق 1982 م .
- محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة . ط 8 . دار الشهاب . باتنة . الجزائر . 1985 م .
- محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية . وجود الخالق و وظيفة المخلوق . ط 5 . دار الفكر 1397 هـ .
- محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن . ط 5 . مكتبة الفارابي . دمشق . 1977 م .
- محمد سليم فلالة، التعريب في الفكر و السياسة والاقتصاد . ط 1 . دار الفكر . دمشق . 1988 .
- محمد الطاهر وعلي، التعليم التبشيري في الجزائر من 1839 م إلى 1904 دراسة تاريخية تحليلية . د ط . نشرات دحلب . الجزائر . 1997 م .
- محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخرج . د ط . ش.و.ن.ت. الجزائر 1983 م .
- محمد عايد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية . ط 3 . دار الطليعة . بيروت 1988 م .
- محمد عبد الرحمن عوض، أخطار التبشير في ديار المسلمين، د ط . دار الأنصار . القاهرة . د ت .
- محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي و تحليل مقارن . ترجمة محمد عبد العظيم علي، راجع السيد محمد بدوي، د ط . دار القلم . الكويت . د ت .
- محمد عبد الله دراز، التبا العظيم . نظرات جديدة في القرآن . د ط . دار القلم . الكويت . 1984 م .

- محمد عبد الله الشرفاوي، في مقارنة الأديان ( بحوث و دراسات ) ط 1 . دار الهداية . مصر . 1986 م .
- محمد عبده، الإسلام والنصرانية بين العلم و المدنية . د ط . موفهم للنشر . الجزائر . 1987 م .
- محمد عبده، رسالة التوحيد . ط 2 . دار إحياء العلوم . بيروت . 1977 م .
- محمد العربي الزبيري، المفامرة الكبرى أو إجهاض ثورة . ط 2 . المؤسسة الجزائرية للطباعة الجزائر 1990 .
- محمد علوان الجوسقي، النبعة القدسية في السيرة الأحمديّة التجانية، د ط دار الكتاب، المغرب، د ت .
- محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ط 2 دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت، 1973 م .
- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير . ط 4 . دار القرآن الكريم . بيروت . 1981 م 2، 3 .
- محمد عمارة، الإسلام والمستقبل . ط 2 . دار الشروق . القاهرة . بيروت . 1986 م .
- محمد عمارة، التراث في ضوء العقل . ط 1 . دار الوحدة . بيروت . 1980 م .
- محمد عمارة، العلمانية و هضتنا الحديثة ط 2 . دار الشروق القاهرة — بيروت . 1986 م .
- محمد الغزالي، الحق المر . د ط . مكتبة التراث الإسلامي . القاهرة . دار الشهاب . باتنة الجزائر 1987 م .
- محمد الغزالي، خلق المسلم . د ط . دار الشهاب . باتنة . الجزائر . 1985 م .
- محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل النقة و أهل الحديث . ط 5 . دار الشروق القاهرة . بيروت 1989 م .
- محمد الغزالي، صيحة تحذير من دعاة التصير . ط 1 . دار الانتفاضة للنشر و التوزيع الجزائر . 1992 م .
- محمد الغزالي، ظلام من الغرب . ط 3 . دار الاعتصام . القاهرة . 1979 م .
- محمد الغزالي، فقه السيرة . د ط . دار الشهاب . باتنة . الجزائر . د ت .
- محمد الغزالي، قذائف الحق . د ط . شركة الشهاب . . الجزائر . د ت .
- محمد الغزالي، قضايا المرأة بين الفاليد الراكدة و الوافدة . ط 4 . دار الشروق . القاهرة . بيروت . 1992 م .
- محمد الغزالي، كفاح دين . ط 6 . مكتبة رحاب الجزائر . 1988 م .
- محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية ( كتاب الأمة ) ط 2 .
- آلة المحاكم الشرعية و الشئون الدينية . قطر . 1402 هـ .
- محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم . ط 1 . دار الشروق . القاهرة . بيروت .
- 1990 م الأجزاء العشرة الأولى .
- محمد الغزالي، نظرات في القرآن . ط 6 . دار الشهاب . باتنة . الج .



- دائرة معارف القرن العشرين . د ط . دار الفكر . بيروت . د ت . م 2 .
- محمد قطب، شهاب حول الإسلام . ط 15 . دار الشروق . القاهرة ، بيروت 1982 م .
- محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة . ط 3 . دار الشروق القاهرة ، بيروت . 1988 م .
- محمد قطب، واقعتنا المعاصر المعراج . تقديم أحمد فراج . د ط . دار الشروق القاهرة بيروت . 1981 م .
- محمد كامل عياد، تأثير ابن رشد على مر العصور ، مؤتمر ابن رشد . د ط . سن. و. ن. ت . الجزائر . 1983 م . ج 2 .
- محمد متولي الشعراوي، الإسراء والمعراج . تقديم أحمد فراج . د ط . دار الشروق القاهرة، بيروت . 1981 م .
- محمد متولي الشعراوي، كيف نفهم الإسلام د ط . دار العودة . بيروت . 1982 م .
- محمد متولي الشعراوي، معجزات الرسول (ص) إعداد و تقديم أحمد فراج . د ط . دار الشروق . القاهرة . بيروت . 1981 م .
- محمد محمود الصواق، الصيام في الإسلام د ط . سلسلة د ط رسائل الفكرة الإسلامية . دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع . تونس . 1981 م .
- محمد الهواري، الختان في اليهودية والمسيحية والإسلام . ط 1 . دار الهباني للطباعة والنشر . القاهرة 1987 م .
- محمد وقيدى، العلوم الإنسانية والأيديولوجية . ط 1 . دار الطليعة . 1983 م .
- محمود جهدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري . ط 2 سلسلة كتاب الأمة . رئاسة المحاكم الشرعية . قطر . 1404 هـ .
- محمود قاسم، نظرية المعرلة عند ابن رشد و تأويلها لدى طوماس الإكوييني د ط . مكتبة الأنجلو المصرية . د ت
- مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية . د ط . المكتبة المصرية . صيدا . بيروت . 1986 م .
- مصطفى لشرف، الجزائر الأمة والمجتمع . ترجمة حنفي بن عيسى . د ط . م. و. ك . الجزائر . 1983 م .
- مصطفى محمود، حوار مع صديقي الملحد . ط 1 . دار العودة . بيروت . 1974 م .
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي لاروس . أليسكو . 1989 م .
- المهدي البوعبدلي ، ناصر الدين سعيدوني، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني . د ط . وزارة الثقافة والسياسة م. و. ك . الجزائر . 1984 م .

- المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى مستقبل الماضي و ماضي المستقبل، ط 1 . شركة الشهاب .  
فرنس 1991 م .
- موريس بيكاي، القرآن الكريم و التوراة والإنجيل و العلم . د ط . دار المعارف . مصر . 1982 م .
- موريس بيكاي، ما أصل الإنسان ؟ إجابات العلم و الكتب المقدسة . ترجمة مكتب التربية العربي لـ  
البحوث . ط 1 . مكتب التربية العربي لدول الخليج . الرياض . 1985 م .
- مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية و هيتها العالمية قبل 1830 م . ط 1 . دار البعث . قسنطينة . الجزائر  
1985 م . ج 1، 2 .
- نازلي معوض، العلاقات الجزائرية بين الجزائر و فرنسا من اتفاقيات إيفيان إلى تأميم البترول، تقديم بطرس  
غالي . د ط . مركز الدراسات السياسية و الاستراتيجية بالأهرام بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة  
للكتاب 1978 م .
- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ( 1800 - 1830 م ) د ط . ش.و.ن.ت .  
الجزائر . 1979 م .
- نقولا إمبرازي باتينا، كثر النفائس في اتحاد الكتانس . تعريب الحوزي يوحنا حربون . د ط . مطبعة جمعية  
التوثيق المركزية . القاهرة 1904 م .
- نوال الصراف الصانع، المرجع في الفكر الفلسفي . د ط . دار الفكر العربي . القاهرة 1983 م .
- وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى . تعريب ظفر الإسلام خان . مراجعة و تحقيق عبد الصبور شاهين . ط 2  
دم.ن.ت .
- الورثياني الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار المشهورة بالرحلة الورثيانية  
ط 1 . المطبعة العالية و المكتبة الأدبية رودسي قدور بن مراد التركي . مطبعة بئر فونتانا الشرقية . الجزائر .  
1326 هـ / 1908 م .
- ول ديورانت، قصة الحضارة ترجمة محمد بدران . د ط . دار الجيل .. بيروت . المنظمة العربية  
للتربية و الثقافة و العلوم . تونس . 1988 م . ج 1 - ج 3 . ج 3 ( 11 ) م 3 - ج 3 ( 12 ) م 6  
ج 3 ( 24 ) م 6 - ج 6 ( 27 ) .
- وليد الأعظمي، السيف اليماني في بحر الأصهباني صاحب الأغصاني . د ط . دار شركة الشهاب  
للشعر و التوزيع . الجزائر . دار الولاء المنصورة . مصر د ت .
- رهيش نظمي، ملامح من الفكر العربي في عصر النهضة و علاقته بفكرة القومية العربية : دراسات في القومية  
العربية و الوحدة، ط 1 . مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1984 م .

- يحي بوغوزيز، ثورة الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين . ط 1 . دار اليعت . قسنطينة . الجزائر 1980 م .
- يوسف إبان سركيس، معجم المطبوعات العربية والمغربية . د ط مطبعة سركيس . مصر . 1928 م . ج 1 .
- يوسف القرضاوي، الإسلام و العلمانية وجهها لوجه . ط 2 . مكتبة رحاب الجزائر . 1989 م . .
- يوسف القرضاوي، بينات الحل الإسلامي و شبهات العلمانيين و المغربين . ط 2 . مكتبة رحاب الجزائر . 1980 م .
- يوسف القرضاوي، الحلول المستوردة و كيف جنت على أمتنا . ط 12 . مؤسسة الرسالة . بيروت . 1987 م .
- يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام . ط 10 . مؤسسة الرسالة . بيروت . 1983 م .
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط . د ط . دار القلم . بيروت . 1979 م .
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية . د ط . دار القلم . بيروت . د ت .
- يوسف كرم و مراد وهبة يوسف شلالة، المعجم الفلسفي . ط 2 . دار الثقافة الجديدة . القاهرة 1971 م .
- يوسف كمال موسى، مستقبل الحضارة بين العلمانية و الشيوعية و الإسلام . ط 1 . المختار الإسلامي لطباعة والنشر و التوزيع، القاهرة 1974 م .

## المخطوطات

- أحمد بن داود، العقد الجوهري في تعريف الشيخ عبد الرحمن الشيبير بالأخضري مخ . دار الكتب الوطنية ، تونس رقم 8481 .
- عبد الرحمن الأخضري ، شرح السلم المروني في المنطق . فتح المكتبة الوطنية ، الجزائر رقم 144 .
- عبد الرحمن الأخضري ، القدسية . مخ المكتبة الوطنية ، الجزائر رقم 946 .
- محمد بن عبد الكريم المغيلي ، فيما يجب على الأمير من حسن النية للإمارة . مخ ————— أدرار ( لدينا صورة منه ) - محمد بن عمر الملاي ، المواهب القدسية في المناقب السنوسية . مخ دار الكتب الوطنية ، تونس رقم 6253 .

مكتبة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الدوريات

- الإبراهيمي محمد البشير ، زاوية الكبرى تستسك بعروة الإسلام الوثقى و تطلب الرجوع إلى الأصل .  
جريدة البصائر . 1948 م . ع 59 .
- الإبراهيمي محمد البشير ، عروبة الشمال الإفريقي جريدة البصائر . 1951 م . ع 150 .
- الإبراهيمي محمد البشير ، ( سلسلة مقالات ) فصل الحكومة عن الدين، جريدة البصائر : 1947م
11. 1948 م . 57 . 58 . 1949 م . ع 75 . 89 . 1950 م . ع 103 . 104 . 105 . 108 . 109 . 1951 م . 106 . 140 . 142 . 154 . 157 . 175 .
- الإبراهيمي محمد البشير ، كلمتنا عن الأمة جريدة البصائر 1951 . ع 153 .
- الإبراهيمي محمد البشير ، اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها حصرة ، جريدة البصائر، 1948 م . ع 41 .
- ابن باديس عبد الحميد ، الجزائر المسلمة المعاصرة تيرهن في أخرج مواقفها عن تماسكها بشخصيتها :  
سلامها وعريتها ، الشهاب غرة ذي الحجة 1356هـ / فيفري 1938 م . ج 12 م 13 .
- ابن باديس عبد الحميد ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أمام لجنة البحث البرلمانية  
بشائر 7 ماي 1937 م .
- ابن باديس عبد الحميد ، احتجاج رئيس جمعية العلماء علم حادث مسجد قزات البصائر غرة رمضان  
1356هـ / 5 نوفمبر 1937 م . ع 85 .
- ابن باديس عبد الحميد ، حول احتجاج جمعية العلماء على انتهاك حرمة الدين بغرداية البصائر 26  
ذي الثانية 1356 هـ / 3 سبتمبر 1937 م . ع 80 .
- ابن باديس عبد الحميد ، حول كلمتا الصريحة الشهاب غرة ربيع الأول 1355 هـ / جوان 1936 ج 3  
12 .
- ابن باديس عبد الحميد ، حول مساجين العلماء هل في سجن (( الكدية )) ما يذكرنا بـ (الباستيل) ؟  
الصائر 24 جمادي الثانية 1358هـ / 11 أوت 1939 م . ع 178 .
- ابن باديس عبد الحميد ، سيامة وخنز الدبايس ، الشهاب غرة ذي الحجة 1354 هـ / مارس 1936 م .  
11 م 11 .
- ابن باديس عبد الحميد ، كلمة صريحة الشهاب غرة محرم 1355 هـ / أبريل 1936 م . ج 1 م 12 .

- ابن باديس عبد الحميد ، المؤتمر الجزائري الإسلامي العام يعقق مبادئ الشهاب . الشهاب غرة ربيع الثاني 1355هـ / جويلية 1936 م . ج 4 . م 12 .
- ابن باديس عبد الحميد ، مع الوفد الإسلامي الجزائري مشاهدات و ملاحظات ، الشهاب غرة رجب 1355هـ / أكتوبر 1936 م . ج 7 . م 12 .
- ابن باديس عبد الحميد ، منع التعليم الديني بالمساجد الشهاب غرة ذي القعدة 1351 هـ / ماي 1933 . ج 4 . م 9 .
- ابن الرشيد، هل تتكرر الغورباتشوفية في الجزائر ، العالم الإسلامي 22 أوت 1998 م . ع 623 .
- أبو العيد دودو، الحياة الاجتماعية في مدينة الجزائر إبان الاحتلال، مجلة الأصالة ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر ماي ، جوان 1972 م . ع 8 .
- أحمد بن أبي زيد، قضية بن ناصر بن شهرة أحد أبطال ثورة 1871 م ، مجلة الأصالة وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر جانفي 1972 م . ع 6 .
- أحمد توفيق المدني، مجلة الأصالة وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية . الجزائر . 1972 م . ع عدد خاص بالذكرى العاشرة للاستقلال .
- أحمد جداعي، جريدة الخبر 1908/8/4 .
- أحمد جداعي ، حوار مع رسالة الأطلس ، رسالة الأطلس ، باتنة ، الجزائر 6-12/8/1998 . ع 169 .
- أسعد داغر ، اللغة المكتوبة واللغة المحكية ، المقطف ، القاهرة مارس 1902 م . م 27 . ج 3 .
- إسماعيل إبراهيم كروما، التنصير في سيراليون خلال القرنين 18 و 19 مجلة كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ، ليبيا 1992 م . ع 9 .
- إسماعيل الفاروقي، النهضة الإسلامية في المجتمع المعاصر مجلة المسلم المعاصر . أكتوبر ، ديسمبر 1991 م . ع 28 .
- إسماعيل الكيلاني ، العبرية والعربية مجلة الأمة قطر أبريل 1981 م من 1 ، م 1 ، ع 6 .
- أصل الخط العربي، مجلة الهلال لجرجي زيدان ، فبراير 1895 م ، من 3 ، ج 12 .
- إيفال محولة قريب ألف طفل جزائري إلى فرنسا، رسالة الأطلس 7/27-2/8/1998 م ع 199 .
- أكلي بلعباس ، الامازيغية والفرنكفونية، جريدة الشعب الجزائر 1991/12/31 م .
- إلياس بك عبده القدسي، تصوير اللفظ العربي بحروف فرنسية ، المقطف ، القاهرة ، يناير 1889 م ، ج 13 ، ج 4 .

م. ع. استجابة ضعيفة لمسيرة الأمسي ، الخبر ، الجزائر 1998/7/11 م .

- نيل دوغوايه جي ، مكانة المرأة في الإسلام: (سلسلة الدراسات الإسلامية 10) أشغال الملتقى "واقع برامج وتعدبات العصر" الجامعة التونسية ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، 12-16 نوفمبر 1984 م.

- زوليد، يوم قبل دخول قانون تعميم استعمال اللغة العربية. الخبر، 1998/7/4 م

- زوليد، بعد سبع سنوات من التجميد، قانون تعميم العربية يدخل مرحلته الخامسة، الخبر 1998/8/6 م

- زين العربي، يتحدث عن التزعم.... انحراف سعدي.... والتحالف السري مع غزالي ، جريدة النصر، 22/12/1991 م

برنامج طرابلس

- بشر بوعزة ، مجازر ماي 1945 محاضرة ألقاها بجامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 1997/5/6 م،

- بشر عصفور، القبلة البربرية الموقوتة ، رسالة الأطلس، باتنة 6-12/7/1998 م، ع 196

- بوعمران الشيخ، شارل دوفوكو في تلمذات ، المجلة التاريخية المغربية ، جانفي 1980 م ، ع 17.

- بوعمران الشيخ، العلمانية ، محاضرة ألقاها بجامعة الأمير عبد القادر قسنطينة 1993/4/26 م

- تحليل الألفاظ العربية ، مجلة الهلال لجرجي زيدان ، فبراير 1895 م ، ص 3، ج 12.

- نصريح البابا بعدم إلقاءه الإيطالية، صحيفة الأهرام، القاهرة 1978/10/17 م . ع 33548.

- نصريح سعيد سعدي، جريدة الشعب ، الجزائر 1989/03/19 م.

- ترفيل محمد شاهين، هدي الرسول (ﷺ) في تكوين الأسرة، الملتقى 16 للتعرف على الفكر الإسلامي،

تساق وزارة الشؤون الدينية، الجزائر 1982 م.

- المجردة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، 17 ماي 1968 م، ع 40، 26 فبراير

1983 م، ع 9، و 29 نوفمبر 1989 م، ع 50.

- جمال الدين حوز، أحداث وأحاديث.... الخبر 1998/7/4 م و 1998/7/11 م .

- جرج قواني، مؤلفات ابن رشد، مؤتمر ابن رشد نادي الصنوبر، الجزائر العاصمة 4-9/11/1978 م.

- جوليو باسقي ساني، لويس ما سينيون الدارس المسيحي للإسلام. ترجمة سعدون السويح ، مجلة كلية

العلوم الإسلامية، ليبيا 1987 م . ع 4.

- جون هيلك، أسطورة تجسيد الإله في المسيح، تعريب و عرض نبيل صبيح الطويل، مجلس الأمة

قطر، ربيع الثاني 1401 هـ / فبراير 1981 م . ص 1. م 1. ع 4.

- حدة حزام، الأمهات العازيات بين الخطأ وزيادة التصور الجغرافي، جريدة المساء الجزائر 23/01/1989م.
- حسن الشريف، تبسيط قواعد اللغة العربية، مجلة الهلال لجرحي زيدان أوت 1938م ص 46. ج 10.
- حسن الوراكلي، الإسلام والغرب، من كتاب واقع الإسلام وتحديات العصر مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية، تونس 1986م.
- حسين مصدق، منتدى المسار الديمقراطي الجزائري بمدريد، المساء، الجزائر 14/4/1992م.
- حمزة بركوشة، القضاء الإسلامي بالجزائر، البصائر 25/7/1947م. ع 1.
- حمدي عبد القادر، فنان في مصاف المثقفين المستزمين، الخبر 27/6/1998م.
- ح ي، بعد يوم من مسيرة الأفافاس.....الخبر 11/7/1998م.
- خلدوة مسعود، من حوار أجراه معها عمر شابي، النصر، قسنطينة 4/2/1996م.
- لؤمة مركز أبحاث العربي، رحلة كريستوف كولومبس بداية الحلم....أم فروة المأساة، مجلة العربي، الكويت مارس 1992م. ع 400.
- دن كيت، أسطورة تجسد الإله في المسيح، مجلة الأمة، قطر. ربيع الثاني 1401 هـ / فبراير 1981م.
- راجح بونار، مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية، مجلة الأصالة وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر ماي، جوان 1972م. ع 8.
- رامي، ع، مصدر من الأهمية الاشتراكية....جريدة العالم السياسي، الجزائر 8 جوان 1998م. ع 562.
- ز ع، لواب الأرسيدى بيجاية.....الأفافاس أجهض أكبر مشروع ديمقراطي، الخبر 8/7/1998.
- زهاوي زادة هليل صدقي أفندي، الخط الجديد المقتطف، القاهرة أكتوبر 1896م. ج 10.
- سالم حميش، لماذا الفرل كفونية بضاعة غائبة ومردودة، مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط 1992م. ص 8. ع 92.
- سعد الدين بن أبي شنب، النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن 14 هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر 1964م. ص 1. ع 1.
- سعد غراب، الإسلام والنصرانية من الصدام إلى الحوار، من كتاب واقع الإسلام وتحديات العصر. ط. الجامعة التونسية، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1986م.
- سعيد الحوري الشرتوني، البيان العربي والبيان الإفريقي، المقتطف، القاهرة، أبريل 1902م. ص 27 ج 4.
- سعيد سعدي، جريدة الخبر 4/7/1998م.



- عبد سعدي، ( حوار أجرتة مع، جريدة الشعب ) جريدة الشعب 19 /3/1989م.
- س.ل، بعد مسيرة أمس المتنوعة....الخبر 1998/7/6م.
- س.ل، عشية المسيرة قبادي من الألفاف من يصرح ....الخبر 9 /7/1998م.
- س.ل، عقب استقبال، من طرف زروال....الخبر 1998/7/7م.
- س.ل، قراءة في تفاصيل أحداث منطقة القبائل، رسالة الأطلس باتنة 6 -12/7/1998م.
- س.ل، قراءة في تقرير البعثة الأهمية للجزائر، رسالة الأطلس، باتنة 9/28-4/10/1998م.
- س.ل، ملف المفقودين.....رسالة الأطلس، باتنة 9/28-4/10/1998م.
- س.ل، هل تشكل لجنة.....رسالة الأطلس، باتنة 12-18/10/1998م.
- نشاذلي، ز، الخطر القادم، النصر 10/1/1991م.
- شرابطة عيسى، شارل دي فوكو، وجهان لعملة واحدة، الشروق الثقافي، مجلة الشروق العربي الجزائر 1994م.
- ش.عيسى، شارل دي فوكو في السينما الكولونيالية، الشروق الثقافي، مجلة الشروق الثقافي، الجزائر 26 ي 1994م.
- نكوك جديدة حول اغتيال الوناس، رسالة الأطلس، باتنة 12-8/10/1998م. ع 210.
- لوفي أبو خليل، بين داع ومبشر، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا 1987م. ع 4.
- ط.ب.و، بعد أسبوعين من المظاهرات.....الأصيل، قسنطينة، الجزائر 1998/7/9م.
- طريقة جديدة لكتابة العربية بحروف أفريقية، المقطف، القاهرة، يناير 1889، ص 13، ج 4.
- الطاهر بن عيشة، أسئلة معلقة إلى دعاة البعث البربري، الشروق الثقافي، الجزائر 7/4/1994م. ع 37.
- الطاهر حليسي، الأزمة الجزائرية، رسالة الأطلس، باتنة 7-13/9/1998م. ع 205.
- عبد الجواد الطيب، تشريع الميراث في الإسلام، مجلة منار الإسلام، الإمارات العربية المتحدة سبتمبر 1989م. ع 2.
- عبد الحكيم الأربد، محاولات الاستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر مجلة كلية الدعوة، ليبيا 198م. ع 5.
- عبد الحكيم أسابع، بحجة مضاعفة التطبيق، غزالي يطلب من بوضيف تأجيل قانون العربية، النصر 1992/7/21.

- عبد الحميد بن أشتهو، الدور الذي لعبته الجزائر القرن 16 بالبحر الأبيض المتوسط، مجلة الأصالة،  
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- عبد الحميد مهري، الأزمة الجزائرية: الواقع والأفاق، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة  
العلمية، 1997/12 م. ع 226.
- عبد الرحمن الجيلالي، الجامع الكبير معماريا وتاريخيا مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون  
العلمية، الجزائر، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- عبد العظيم ديب، فضيحة جهل ما يجري، مجلس الأمة، قطر، أكتوبر 1982 م. ص 2. م 2، ع 24.
- عبد العظيم الديب وحسن المعايير، العمامة والفصحى، مجلة الأمة، قطر، فبراير 1982 م.  
ص 2. م 2، ع 16.
- عبد القادر رزيق المنخادمي، الأب شارل دي فوكو أو (بي) في الهقار. الشروق الثقافي، مجلة  
الشروق العربي 26 ماي 1994 م. ع 44.
- عبد القادر الشيخ ادريس، وقفات مع اللغة العربية، مجلة الأمة، قطر، سبتمبر 1981 م.  
ص 11. م 1، ع 11.
- عبد الله شريط، الحقيقة والزيغ في مجتمعنا العربي، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي  
العلمي، الجزائر، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- عبد المجيد الشرفي، الحركة التبشيرية في تونس في القرن 19. حوليات الجامعة التونسية  
سنة 1971 م. ع 8.
- عبد المجيد مزبان، مظاهر المقاومة في الثقافة الجزائرية مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون  
العلمية، الجزائر، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- عبد الملك مرتاض، أصالة الشخصية الجزائرية مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون  
العلمية، الجزائر، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- عبد النعم النمر، هذا ما فعلوه فماذا فعلنا، مجلة الأمة، قطراوت 1981 م. ص 1. م 1، ع 10.
- عثمان سعدي، البربر والزرعة البربرية، النصر 1991/12/19 م.
- عثمان سعدي، رسالة إلى رئيس الحكومة: موقف الشاوية من قرار النشرة الإخبارية بالقبائلية،  
النصر 1991/12/22 م.

- عنان الكعك، أصالة الثقافة الجزائرية في القديم والحاضر والمستقبل ومدى انتشارها وتأثيرها في العالم  
درجي، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- بوع، للجزائريين فقط، رسالة الأطلس، باتنة، 10-16/ 8/ 1998 م.
- تربية اغكية في مصر، المقتطف القاهرة، فبراير 1902. م 27. ج 2.
- بوعرضوان، أ. م. ع، مع استمرار الهدوء..... الخبر 7/ 7/ 1998 م.
- بوعرضوان، بحاية بحر صعب التصديق.... الخبر 6/ 27/ 1998 م.
- بوعرضوان، أ. م، منسق الأمسي يستقبل.... الخبر 6/ 7/ 1998 م.
- بوعرضوان، "منتدى الثائرين" يتبرأ..... الخبر 11/ 7/ 1998 م.
- عز الدين الخطيب التميمي، التأمير على اللغة العربية، مجلة الأمة، قطر، أغسطس 1981 م، ص 1،  
ع 10.
- علي بن مبارك، المرأة المسلمة بين الأصالة وعقدة الشعور بالنقص، مجلة التذكير، مسجد الطلبة جامعة  
بئر العاتق، 1982 م ص 1، ع 4.
- علي بن محمد، تساؤلات وملاحظات حول خلفيات الإصلاح التربوي الخبر 8/ 7/ 1998 م.
- علي عبد الواحد الوافي، المرأة والأسرة في الإسلام، مجلة الأصالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر،  
يناير 1977.
- عمار طاهي، أثر الفكر الإسلامي في الفكر العربي مجلة العلوم الإسلامية جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة  
أبريل 1986 م. ع 1.
- عيسى أمين صوري، العربية لغة الدين والدنيا، مجلة الأمة قطر، يناير 1982 م. ص 2. م 2. ع 15.
- عيسى جوادي،... غبطة الأسقف (كلافرني)، جريدة السيل، 5-12/ 6/ 1995 م. ع 109.
- الفلاح محفوظ أكتوف، حوار مع صليحة جعيداني وزهراء بوعزة، الجزائر اليوم، 6/ 7/ 1993 م.
- لولابي مختار (رد على رسائل)، الملتقى الوطني الأول حول أثر المفسرين الجزائريين في بعث الروح الوطنية  
الإصلاح الاجتماعي، نظارة الشؤون الدينية، قسنطينة مع مديرية ومنظمة المجاهدين، جامعة الأمير عبد القادر  
قسنطينة 19-21/ 5/ 1998 م.
- القبائل يا خليفة لن يسمحوا بذلك، رسالة الأطلس، باتنة، 24 - 29/ 8/ 1998 م. ع 203.
- ل. ع. ب، بالرغم من مرور موعد 5 جويلية..... رسالة الأطلس، باتنة 13-19/ 7/ 1998 م. ع 197.
- ل. ع. ب، أحداث منطقة القبائل.... النصر 9/ 7/ 1998 م.

- ق. و، الألفاس يود على بيان الرناسة... الخبر 1998/7/8 م.

- ق. و، الناطق الرسمي للحكومة... النصر 1998/7/9 م.

- الكنية والظهير البربري، جريدة النور، قسنطينة، 18/11/1991 م. ع 33.

- اللغة العربية الفصحى واللغة العامية، باب المقالات، مجلة الهلال لجرجسي زيدان فبراير

1801 م. ص 1. ج 6.

- (المتشرق) ماكدونالد، حوار مع محمود الخاني، مجلة الأمة، قطر، أكتوبر 1982 م. ص 2. ع 24.

- م، أ مباشرة بعد إيداع خبر اغتيال ..... تيزي وزو تسترجع أجواء ربيع 1980. الخبر 1998/6/27 م.

- م، بن عطاء الله، قد يكون الأعداء... رسالة الأطلس 17-23/8/1998 م. ع 202.

- محمد أبو زهرة، شريعة القرآن، (سلسلة الثقافة الإسلامية 31)، دار الثقافة العربية للكتاب

ناهرة، سبتمبر 1961 م. يوليو 1962 م. المجموعة الرابعة.

- محمد البهي، العلمانية وتطبيقها في الإسلام، مجلة الأمة، قطر، نوفمبر 1980 م. ص 1. ع 1.

- محمد بوضياف، حوار مع جريدة العهد، جريدة العهد. قسنطينة 30/1/1992 م. ع 2.

- محمد توفيق صدقي، بشائر عيسى ومحمد في العهدين العتيق والجديد، مجلة المنار ط 1. مطبعة

المنار، مصر القديمة 1912 م. ج 8. م 15. ج 10. م 15.

- محمد حميد الله، التاريخ المقارن للقرآن الكريم والصحف السنوية الأخرى، مجلة الأمة، قطر رمضان

1402 هـ. ص 2، ع 2، ع 21.

- محمد رشيد رضا، العنف في الكتاب المقدس، مجلة المنار، ط 1، مطبعة المنار، مصر القديمة، 1330 هـ،

ج 1، م 15.

- محمد سعيد رمضان البوطي، تعقيب على أركون ملتقى الفكر الإسلامي الأوراسي، الجزائر، 1983 م.

- محمد سعيد رمضان البوطي، المظاهر الجديدة في لإعجاز القرآن الكريم (محاضرة ألقاها بقاعة

السوقار، وأكملها بمسجد ابن باديس بالجزائر العاصمة. يوم 22/5/1984 م.

- محمد شعبان، رد على صلاح الدين الجورشي : الاتجاه الإسلامي في الجزائر قبل وبعد 5/10/1988 م مجلة

الحوار، شباط، فبراير، 1989 م. ع 20.

- محمد الصالح جدي، المنظومة التروبية الجزائرية، البحور والقوة، جريدة السلام 10/2/1992 م.

- محمد السعيد بلعلام، السلك الديني في الجزائر... مجلة الأحصالة، وزارة الشؤون الدينية والتنظيم الأجنبي، الجزائر، جوان، 1972 م. ع 8.
- محمد العربي ولد خليفة، ملاحظات أولية حول تأثير المدرستين التقليدية والاستعمارية في نظامنا التعليمي زمن، مجلة سيرتا، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، نوفمبر 1979 م. ص 1. ع 2.
- محمد فتح الله الريادي، فلسفة العقوبة في الإسلام، مجلة الإسلام، كلية الدعوة الإسلامية، الجزائر، 1992 م. ع 9.
- محمد الهادي الحسني، شهر الجهاد والانتصارات، جريدة الشعب الجزائر 16 رمضان 1403هـ / 28 جوان 1983 م.
- ب. دين، 5 أكتوبر اليذور والأشواك. جريدة المساء 1991/12/23، 1991/12/26 م. ح 6.
- 1991/12/30 م. ح 7.
- المرأة في المغرب... مجلة الاثنين والدينا، القاهرة 1943/4/12 م. ع 461.
- شروع تقسيم الجزائر في الأمم المتحدة، رسالة الأطلس، باتنة 1998/9/6-8/31 م.
- مصطفى حجازي السيد حجازي، أثر الثقافة العربية في آداب الهوسا، الصور والأفكار، ملتقى الدراسات الإسلامية العربية في إفريقيا، جامعة الأمير عبد القادر بالتعاون مع جمعية الدراسات والأبحاث لولاية لولاية أدرار 1988/1/30-27 م.
- مصطفى حجازي السيد حجازي، الأثر العربي في فصوص الهوسا رواية القصة، نفس الملتقى.
- مطرب الوناس يكشف عن علمه، جريدة الحياة الأسبوعية، قسنطينة 1995/2/3-1/28 م. ع 169.
- الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي، تيزي وزو 10 جمادى الثانية 1393هـ / 10-22 يوليو 1973 م وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر. م 3. وقد استنادنا منه بما يأتي مرتبا حسب وروده في الملتقى.
- عبد الجليل التميمي، من ملامح التفكير التبشيري عند المسؤولين الفرنسيين في القرن 19 في الجزائر.
- الساللي مكي، تعقيب على محاضرة التميمي.
- البردالي بن يحيى، تعقيب على محاضرة التميمي.
- الحبيب الجنحاني، حركة التبشير والسياسة الاستعمارية في المغرب العربي في القرن 19.
- غلال الفاسي، نشاط التبشير ودوره الاستعماري التخريبي بالأمس واليوم وما يجب القيام به إزاء هذا الخطر.

- عثمان الكعاك، التبشير والتخطيط التبشيري.
- عمار طالبي، تعقيب على محاضرة الكعاك.
- مولود قاسم، تعقيب على محاضرة الكعاك.
- إبراهيم محمود جوب، تعقيب على محاضرة الكعاك.
- محمد معروزي، تعقيب على محاضرة الكعاك.
- سليمان داود بن يوسف، تعقيب على محاضرة الكعاك.
- عثمان الكعاك، رد على العقيبين.
- عثمان الكعاك، رد على أسئلة الطلبة.
- معروف الدواليبي، تعقيب على محاضرة الكعاك.
- المهدي البوعبدلي، آثار التبشير المسيحي في الجزائر قبل الاستقلال وبعده.
- محمد شرفي بنحاج، تعقيب على محاضرة المهدي البوعبدلي.
- المهدي البوعبدلي، الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي. مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- المهدي البوعبدلي، عبد الرحمن الاخضري وأملوار المسافرة في الجزائر، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، جانفي 1978 م. ع 53.
- مواجيز الأمازيغية استفوازل للشاوية، أم حنرب للعربيان، الناصر 1991/12/26 م.
- مولاي بلحميسي، مدينة الجزائر من خلال النصوص العربية والأجنبية مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ماي، جوان 1972 م. ع 8.
- مولود قاسم نايت بلقاسم، بحاية الإسلام لفتت أوروبا الرياضيات بلغة العروبية، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، سياحة، الجزائر، سبتمبر، أكتوبر 1985 م. ص 15. ع 89.
- بيان مؤتمر الصومام، 1956 م.
- ميكاليل غولدر، أسطورة تجسد الإله في المسيح مجلة الأمة قطر، فبراير 1981 م. ص 1. ع 4.
- ناصر الدين سعيدوني، الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة، مجلة الأصالة وزارة الشؤون الدينية الجزائر، أوت، سبتمبر 1978 م. ع 61/60.
- ناصر الدين سعيدوني، جذور المد الشعبي في الجزائر، الشعب 1990/2/29 م.
- نبيل صبيح الطويل، أسطورة تجسد الإله في المسيح. مجلة الأمة، قطر، فبراير 1981 م. ص 1. ع 4.

- د. رياض، استياء وامتنكار للجرمنة، الخبر 1998/6/27م.

- ن. رياض، الأمسي في تقرير....الخبر 1998/8/19م.

- نصر، مسيرة الألفاس في العاصمة....النصر 1998/7/11-10م.

- تتولا زيادة، الحكم السلوقي في بلاد الشام، أمسا، وأساليبه، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية والفكر العربي ( معهد الإنماء العربي، بيروت، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس، ليبيا، سبتمبر، أكتوبر 1981 م. ص 3. ع 22).

- هشام الصقدي، نحو وعي أفضل لتاريخ الجزائر، مجلة الاصاله، وزارة التعليم الأصلي والشمسون الدينية، الجزائر ماي، جوان 1972 م. ع 8.

- و. صالح، من الأكاديمية البربرية إلى الأرسيدى، الأصل، قسنطينة 1994/10/4م.

- وليم ورد، الفكر السياسي القديم، النظرية السياسية وتطبيقها في مصر القديمة، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية ( الفكر العربي ) معهد الإنماء العربي بيروت، الهيئة القومية للبحث العلمي طرابلس، ليبيا، سبتمبر، أكتوبر 1981 م. ص 3. ع 22.

- يوسف غصوب، إصلاح الأندلس العربية، مجلة الهلال لخرجي زبدان، أبريل 1929 م. ص 27. ج 6.

## الحصص و الأحاديث التلفزيونية و الإذاعية

- بنك المعلومات، حضارة شعب المايا. إنتاج المركز العربي للخدمات السمعية البصرية، توزيع الوكالة لأدلية للتوزيع بالتعاون مع E. T. B. NEAR. S.A تعليق، أسماء الجراح، إنتاج بسام حجازي، إخراج بركاتي. التلفزيون الجزائري 1007/0/13 م. الساعة 12.45 زوالا.
- التلفزيون الجزائري 5 ماي 1998 م. نشرة الثامنة مساء .
- حصة الرأي والرأي الآخر. قناة الجزيرة التلفزيونية، قطر 1998/1/30 م الساعة 8.30 مساء
- حصة وكل شيء ممكن ، التلفزيون الجزائري 1998/3/31 م الساعة 9 ليلا.
- سعيد سعدي تصريح التلفزيون الجزائري 1995/10/23 م الساعة 19.40.
- سعيد سعدي ، حوار مع بومالة. المجلس، التلفزيون الجزائري 1998/4/27 م الساعة 10.45 ليلا.
- طه حسين، الوعد الحق، مسلسل تلفزيوني الحلقة 6 .
- (الرئيس) عبد العزيز بوتفليقة (رئيس الجمهورية في قبزي وزو) ، التلفزيون الجزائري 1999/9/2 م بعد الساعة التاسعة ليلا.
- لمر الصفدي وهشام هندي، الأرض المجهولة ، ترجمة ليلي الصفدي ، التلفزيون الجزائري 1994/7/11 م الساعة 12 زوالا.
- معطي بشير، التلفزيون الجزائري 1996/01/23 م الساعة 10 ليلا.
- (الرئيس) هواري بومدين (حصة خاصة بعبارة الرئيس هواري بومدين) التلفزيون الجزائري 1997/12/2 م الساعة 10.52 ليلا.
- استجواب مع رئيس كتلة خمس في المجلس الشعبي الوطني، الإذاعة الجزائرية، القناة الأولى ، نشرة أخبار الساعة الواحدة بعد الزوال 1998/2/15 م .



## المراجع الأجنبية

- Agons Mgr, Nouvelle Eglise d'Afrique, Tunis 1930.
- Ageron (Charles Robert) ,les Algériens musulmans et la France, Paris, 1968, tome 1.
  
- Ben youcef Benkhedda, les origines du 1er Novembre 1954, Edition Dahlab, Alger, 1989.
- Belhamissi Moulay, Histoire de la Marine Algérienne (1516/1830). E.N.A.L.,ALGER,1983.
- Benachanhou (A.), l'état Algérien, 1830, ALGER,S.N.E.D.
- Boyer( P.), le problème kouloughli dans la régence d'ALGER, revue d'occident musulman et mediteraneen,N° spécial 1970.
- Bazin René, Charles de foucauld explorateur du MAROC ermite au Sahara, librairie Plon, PARIS.
- Baudicour (L), la colonisation de l'ALGERIE, J. le coffre, PARIS,1856.
- Bourgade .F.(abbé), association de Saint Louis, PARIS.
- Bourgade.F.(abbé),toison d'or de la langue phénicienne,TUNIS,1866.
- Bourgade.F.(abbé),lettre à M.E. Renan à l'occasion de son ouvrage intitulé "Vie et Jésus",PARIS,1864.
- Bourgade.F.(abbé),la clef du Coran,PARIS,1852.
- Baunard.Mgr,le cardinal lavigerie,PARIS,1896. tome 1et 2.
  
- Cour d'appel d'ALGER, chambres des mises en accusation: 29 Août 1872, le procureur général contre Abderrahmane Ben Messaoud et 96 autres affaires de l'Alma et Palestro,ALGER,1872.
- CHarverait (Français) , à travers la Kabylie et les questions Kabyles, PARIS, 1889.
  
- De Haedo (Fray Diego), histoire des rois d'ALGER,epitome de Los Rayes de Argel,vu et annotée, H.D. de Glammont. A . Jourdan, ALGER,1881.
- De paradis de venture, ALGER du XVIIIe siècle, édité par Mr E . Fagnon, ALGER,1868.
- Duverjnier (H), la confrérie musulmane de sidi Mohamed ben Ali Essenoussi, PARIS,1886.
- D'Alverny (Mme ), deux traductions latines du Coran au moyen-âge, archives, d'Hist,Lat, Doct et Lett. du moyen-âge, année 1947- 1948.
- Dominique (L.C.), un gouverneur général de l'ALGERIE, l'Amiral de gueydon,ALGER, 1908.
- D'estailleur chanteraine (Philippe), Abdelkader, l'Europe et l'Islam au XIXe siècle.
- De colleville(le viconte),les grands hommes de l'Eglise au 19e siècle
- De Grammont(H.D.),histoire d'ALGER sous la domination TURQUE,1515-1830,E.Leroux,PARIS,1887.

- Esquer Gabriel, la prise d'ALGER, Larousse, PARIS, 1921.
- Esquer Gabriel, correspondance du duc de provigo, 1831, 1833, ALGER. 1920, tome 2.
- Elie George, la Kabylie de Djurjura et les pères blancs, PARIS, 1923.
- El-Haq, 19-25 Avril, 1994, N.51.
- Einsenbth, (M), les juifs en ALGERIE et TUNISIE à l'époque TURQUE (1516-1830) revue AFRICAINE, 96, 1952.
- El-Akhdari, (Abderrahmane), le soullam, traduit de l'Arabe par J.D. Luciani, ancienne maison Bastide JOURDAN, 1921.
  
- Ferhat Abbas, la nuit coloniale, René Julliard, PARIS, 1962.
- Fautier, l'autonomie Algérienne, la republique et fédérale, Constantine, MARL, 1871.
  
- Garrot (Henri), histoire générale de l'ALGERIE, ALGER, 1910.
- Grussenmeyer (Mgr), vingt cinq années d'episcopat en FRANCE et en Afrique, ALGER, 1882, tome 1.
- Garnier (jean), Charles x le roi le proscrit, PARIS, 1967.
- Gabeut (p.), un oubire l'abbe bougarde, AUCH, 1905.
- Goyou (G.R), lavigerie Echos et ses leçons, ALGER, 1927.
- Goyou (G.R), vision d'Afrique, PARIS, 1890.
- Guerin (v), la FRANCE catholique en TUNISIE, PARIS, 1890.
- Gorre (G), Sur les traces du père de Foucoud, éd. du vieux colombier, PARIS, 1953.
  
- Habart (Michel), histoire d'un parfure, PARIS, 1960
  
- Irwin (Roger): the diplomatic relations of the united states with the Bordway pu (1776/1816) the univ. of North Carolina (U.S.A) 1937.
  
- Janin (J.B.), collection d'études historiques ,roue de fortune, Janin éditeur, PARIS, 1947.
  
- Kuran (E), (la lettre du dernier Dey d'ALGER au grand vizir de l'empire ottoman), revue Afriquaine, 1952.
- Kelein Felix (abbé), cardinal lavigerie et ses oeuvres d'Afrique, PARIS, 1897.
  
- Le saint Coran, traduction intégrale et notes, par Muhamed Hamidullah, BEYROUT, 1973. PLX III.
- L'asiner (B), le siècle des révolutions, TUNIS, 1967.
- Lavigerie (cardinal), Ecrits d'Afrique, recueillis et présentés par A. Hamman, PARIS, 1966.
- Lavigerie, oeuvres choisies de sonimunence, PARIS, 1884.
- Lamy (A.T), recherche des causes de l'insurrection indigène en

1871,ALGER,1871.

- Masqueray (E.), notes concernant les aoulad daoud du mont Aurès, ALGER,A.JOURDAN,1879.
- Masqueray (E.), voyage dans l'Aurès,études historiques in bulletin de la société de géographie,Juillet 1876.
- Merris (J.T.), Anecdotes historiques et politiques pour servir à l'histoire de conquête d'ALGER en 1830,PARIS,1831.
- Oussedik(Tahar), LLa Fat'ma n'soumeur,Enaf,ALGER,1986.
- Picquet(Victor), les civilisations de l'Afrique du Nord, A.Colin, PARIS,1909.
- Picquet (Victor), l'Algérie Française, un siècle de colonisation,1830-1930,CONSTANTINE,1930.
- Pons (Mgr), la nouvelle église d'ALGERIE, D'Afrique, TUNIS,1930.
- Rénné (L.), le royaume d'ALGER sous le dernier Dey, revue Africaine, 1897.
- Rinn (Louis), histoire de l'insurrection en ALGERIE de 1871, ALGER,1891.
- Reig (Daniel),Larousse assabil, librairie Larousse,PARIS, 1986
- Serres (J),la politique Turque en Afrique du Nord sous la monarchie de Juillet,Goutherer, PARIS, 1925.
- Shaw (D) voyage dans la régence d'ALGER ou description géographique de carthy (C.MAC),PARIS,1830.
- Shaler,(w), esquisse de l'état d'ALGER, tra. de l'Anglais et enrichi de notes par Bianchir(x),ladrocat,PARIS, 1830.
- Simian(Marcel),les confreries Islamiques en ALGERIE,Rahmania, Tidjania, ALGER,1910.
- Shaler, (w) aperçu historique statistique et topographique sur l'état d'ALGER,PARIS,1830.
- St. Maria, revue Africaine, vision intellectuelle,TUNIS,1954.
- Turin,(y), affrontements culturels dans l'ALGERIE coloniale,PARIS,1971.

## Dictionnaires et Encyclopédies

- Dictionnaire du Judaïsme, édition Française refondue et augmentée sous la direction de sylire Anne Goldberg, les éditions du cerf 1993.
- Dictionnaire Quillet de la langue Française, librairie Aristide de Quillet, PARIS,1957,tome D-J-P-E.
- Dictionnaire encyclopédique Quillet, librairie Aristide Quillet,PARIS,1977

- Dictionnaire pratique Quillet, librairie Aristide Quillet ,PARIS,1974.
- Dictionnaire de théologie catholique,X,2ème partie (Mess,Mys),A. Vacant, E. Mangeot et E. Ammon.
- Hachette,le dictionnaire Français, édition Algérienne,1991.
- Larousse universel en deux volumes, tome second, PARIS, librairie Larousse,1923.
- Petit Larousse illustré, Larousse,PARIS,1991.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية